الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١ — رواية عن الأرض المقدسة

كتبت في حوالي عام ١٣٥٠م

٢ — وصف جون بولونير

للأرض المقدسة(١٤٢١م).

٣ — جولات الراهب

فيلكس فابري ورحلاته.

حوالي

(١٤٨٠ — ١٤٨٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن والثلاثون

(١)

دمشق ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م



بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

لقد لاحظنا فيما تقدم أن أحداث الحروب الصليبية قد تفجرت في ذروة العصور الوسطى في أوربا، وبعد توطد أركان النظم الاقطاعية، وكان للحروب الصليبية آثارها العظيمة على عقلية الانسان الأوربي حيث أخرجته من العزلة الاقطاعية إلى الانفتاح المحلي، فالأوربي فالعالمي، ومنذ ما قبل الحروب الصليبية قدم بعض الحجاج الأوربيين إلى فلسطين، لكن بعدما تأسس الفرنجة في القدس وفي دويلاتهم الأخرى ازداد تدفق الحجاج من أوربا، ولحسن الحظ أن عدداً لابأس به من هؤلاء الحجاج قد تركوا لنا أوصاف مشاهداتهم مع المعلومات التوراتية والانجيلية الجغرافية والتاريخية، وهذا أمر مفهوم الخلفيات، أوضحه عدد من الرحالة، وبينوا أن الهدف الأساسي لهم كان المطابقة بين مشاهداتهم وبين المعلومات الدينية المتوارثة، وأن هذه المطابقة تساعد على فهم النصوص الدينية وتمكن الأوربي الذي لم يزر الأرض المقدسة من تخيلها وتصور أماكن الزيارة فيها.

وارتبط النظام الاقطاعي في أوربا مع نظم الفروسية، وكان الملوك هم الذين ينعمون برتبة الفروسية على أتباعهم الاقطاعيين، لكن مع انحدار العصور الوسطى في أوربا، وسيرها نحو الانغلاق بقيام عصور النهضة، راج بين الأسر الاقطاعية الأوربية، أن الفروسية الحقة هي التي يتم نيلها في كنيسة القيامة على مقربة من الضريح المقدس داخل هذه الكنيسة.

هذا ورأينا من المجلدات الأخيرة التي حوت بعض المواد التي كتبت في القرن الرابع عشر بعد تحرير عكا، أن الحج إلى الأرض المقدسة لم

ينقطع، واعتمد على النقل البحري، الذي تولته البحرية التابعة لدولة البندقية، وقد تساهل المسلمون كثيراً بالسماح للحجاج بالقدوم إلى القدس وسواها، وقدمت الديرة في القدس الخدمات للحجاج، وكانت هناك ترتيبات مرعية بين السلطات الاسلامية والقائمين على الديرة، وعلى العموم توفر الأمن، ولم يهدد أحد سلامة الحجاج، لانعدام التعصب بين صفوف المسلمين.

وكنت فيما تقدم قدمت جل الرحلات الأوربية المعروفة، ونصوص هذه الرحلات بالغة الأهمية وأقوم الآن بتقديم آخر ما توفر لدي من كتب الرحالة، فسأقدم في هذا المجلد، وفي مجلدات ثلاثة تالية له رحلتين قصيرتين من القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وبعد ذلك رحلة فيلكس فابري، التي هي أوسع كتب الرحلات الأوربية قاطبة، جاءت في أربعة مجلدات، فكانت بذلك أشبه بالعمل الموسوعي.

وكان فيلكس فابري راهباً ألمانياً، معتداً بألمانيته، ومتعصباً لها، أكثر من اعتداده بالانتماء إلى رهبنة الدومينيكان، وقد قام برحلتين إلى فلسطين، كانت أولاهما قصيرة جرت في عام ١٤٨٠م، وكانت الثانية طويلة استغرقت عام ١٤٨٣، وقد أودع فابري في كتابه مشاهداته، مع ما قرأه وسمعه، ورحلة فابري هامة جداً، حيث أنها جاءت قبل اكتشاف أمريكا،وانتهاء العصور الوسطى في أوربا بعقد من الزمن، وتمت في أواخر العصر المملوكي، وقبيل استيلاء العثمانيين على بلاد الشام ومصر بحوالي الربع قرن من الزمن.

ومع الفراغ من مجلدات هذه الرحلة، أكون قد قدمت خمسة مجلدات متتابعة كل موادها رحلات، وسأمتلك بعد ذلك الفرصة لتقديم تاريخ متى الباريسي الذي هو آخر النصوص التاريخية اللاتينية الأصل لدي، وهو من أهمها على الاطلاق، وكتاب متى الباريسي نادر الوجود، عانيت كثيراً حتى حصلت على نسخة منه، وهو كبير جداً، ربما سألحق به

واحداً من أصوله الذي اسمه«ورود التاريخ».

وحين أفرغ من العمل بتاريخ متى الباريسي، تكون موسوعتنا هذه قد حققت الشطر الأعظم من أغراضها، وأكثره صعوبة لأن ما لدي من مصادر عربية، جلها — على كثرتها — جاهز للطباعة.

الله تعالى أسأل العون والسداد، وأن تكون موسوعتنا هذه فيها الفوائد المرجوة للقارىء والباحث، وفيها برهان على أن الأمة العربية، وإن تمزقت سياسياً، مابرحت تعطي حضارياً وثقافياً، وأن سورية الصمود، مايزال القلم فيها معانقاً للسيف، فهكذا كانت أرض الشام دوماً، وستظل هي أرض الحضارات والعطاء الذي لاينضب، والجهاد الصحيح الطاهر النقي.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق ٦ — ذي القعدة ١٤٢٠ هـ / ٩ شباط ٢٠٠٠م.

(١)

رواية عن الأرض المقدسة كتبت في حوالي عام ١٣٥٠م

١ — على الذين يرغبون بمعرفة كيفية الحج إلى مدينة القدس المقدسة والمجيدة، وكذلك بقية الأرض المقدسة — كما أرى — السفر إلى الناصرة أولاً، لأن من المناسب أن نبدأ حجنا من هناك، أي من حيث كانت بداية خلاصنا.

٢ — وتقع مدينة الناصرة على بعد أربعة عشر ميلاً إلى الشرق من عكا، والأصح أن نسميها مدينة المخلص، لأن الحمل به كان بها، ، وبها نشأ وتربى، وهناك فيها عاشت العذراء مريم بعدما اقترنت بيوسف، وإليها أرسل الملاك جبرائيل من قبل الرب، ليحمل إليها بشائر خلاصنا.

وهذه هي المدينة المقدسة، والعزيزة على الرب، ففيها تحولت الكلمة إلى جسد، وأينعت الزهرة، التي هي أفضل من جميع الزهور، في رحم العذراء، ولهذا كان من الموائم ترجمة كلمة ناصرة إلى وردة، وهي تتفاخر بهذا الامتياز الخاص على جميع المدن الأخرى، ففيها أعدّ الرب بداية خلاصنا، وفيها تفضل وتنازل لأن ينشأ بها، وأن يكون خاضعاً لوالديه، وهو الذي أخضع له الأب كل شيء هو في السماء وفي الأرض.

٣ — ويوجد هناك عمود رخامي صغير، احتضنته العذراء، خشية منها من الرؤيا المفاجئة، وإلى جانب العمود هناك الموضع الذي وقف فيه الملاك جبرائيل وقال:«حييت، أيتها المليئة بالنعمة، الرب معك»الخ، وهناك خلاص من الألم والذنب.

٤ — وينبع في الناصرة هناك نبع صغير، اعتاد الفتى يسوع أن ينضح الماء منه، ومنه كان يزود أمه.

٥ — وعلى بعد ميل إلى الجنوب من الناصرة مكان اسمه«جبل قفزة»، وذلك حيث رغب اليهود برمي يسوع منه نحو الأسفل، وكذلك حسداً من والديه له على حكمته، وهناك اختفى من أمام

أنظارهم في لحظة.

٦ — وعلى بعد أربعة أميال من الناصرة توجد مدينة اسمها الصفورية، منها جاءت حنة، أم العذراء مريم، أم المسيح، ويوجد بينها وبين الناصرة نبع دائم التدفق بمياه وافرة، وهو يعرف باسم نبع الصفورية، الخ.

٧ — وعلى بعد ميلين من الصفورية، توجد قانا الجليل، التي حول الرب يسوع الماء فيها إلى خمرة، ومنها جاء سمعان القاني، وناتانئيل.

٨ — وعلى بعد ميل واحد إلى الجنوب من الناصرة، توجد يافا، وهي قرية فيها ولد جيمس ويوحنا ولدا زبدي.

٩ — وعلى بعد ستة أميال إلى الشرق من الناصرة، يوجد جبل الطور، وهو جبل عظيم الارتفاع، فعليه تغيرت هيئة الرب، وكان موسى وإيليا حضوراً، وكان ذلك أمام بطرس، وجيمس، ويوحنا، والياس، وبذلك أظهر مجد قيامته المستقبلية.

١٠ — وهناك جاء صوت من السماء قائلاً:«هذا هو ابني المحبوب، الذي أنا عنه راض، استمعوا إليه».

١١ — وفي سبيل تشريف هذا المكان، وتقديم الاحترام اللائق به، بنى المسيحيون في العصور الخالية، ديراً هناك.

١٢ — وهو الذي هدم مؤخراً كلياً من قبل المسلمين، ويوجد هناك إعفاء كامل من الألم والذنب.

١٣ — وعند سفح هذا الجبل التقى مليكصادق إبراهيم، وهو عائد من قتل أمالك، وقدم إليه هدية خبز ونبيذ، مما رمز إلى مذبح المسيح تحت توزيع النعمة.

١٤ — وعلى بعد ميلين من الطور، توجد مدينة نين، وهي قائمة

عند سفح جبل عين دور باتجاه الجنوب، وعند بابها رد يسوع إلى الحياة ابن المرأة الأرملة.

١٥ — وعلى بعد ثمانية وثلاثين ميلاً إلى الجنوب من الناصرة، توجد سبسطية، التي كان اسمها من قبل السامرة، فهناك جرى دفن جسد يوحنا المعمدان، بين النبيين إيليا وعوبيدا، وذلك بعد نقله من مكور فيما وراء الأردن، حيث هو مدفون من دون رأس.

١٦ — وعلى بعد عشرة أميال عن سبسطية تقوم مدينة نابلس، التي كانت تعرف من قبل باسم شكيم، اشتقاقاً من اسم شكيم بن أمور، أو باسم شيكار، وذلك حسبما ورد اسمها في الانجيل، وذلك حيث دفنت عظام يوسف بن يعقوب بعدما جلبوها من مصر، وهناك أيضاً على بعد ميل واحد نحو الجنوب، خارج المدينة، يوجد جب يعقوب الذي جلس يسوع إلى جانبه، وهو متعب من سفره، وذلك عندما طلب الماء من المرأة السامرية، وهناك أيضاً الرابيتين أو الأكمتين، أي: دان وبيت إيل، حيث وضع يربعام العجلين الذهبيين، وأمر بعبادتهما قائلاً:«إن هذين هما إلهيكما يا بني إسرائيل، وهما اللذان أخرجاكم من مصر».

١٧ — والمسافة من نابلس إلى القدس هي خمسة وثلاثين ميلاً.

١٨ — والقدس هي المدينة الأقدس بين المدن المقدسة، وهي سيدة الأمم، والرئيسة على المقاطعات، واسمها مدينة الملك العظيم، وهي قائمة في وسط الأرض، وهي مركز العالم، لذلك من الممكن لجميع الأمم أن تتدفق عليها، وهي مقر البطارقة، وخاصة الأنبياء، ومعلمة الرسل، ومقر خلاصنا، وبلاد الرب، وأم الايمان، مثلما روما أم الصدق، اختارها الرب وقدسها، والمكان الذي وقف عليه الرب بقدميه، والمشرفة من قبل الملائكة، والتي تزورها كل أمة من الأمم تحت قبة السماء.

وقـد بنيت فـوق جبل مـرتفع، مـع تلال على كل جـانب، وذلك في الجزء من سوريـة الذي اسمه اليهودية وفلسطين، حيـث تتدفق الأرض بالحليب والعسل، وفيهـا وفـرة من القمح، والخمـرة، والزيت، وجميع البضائع الدنيوية، لكن هذه البلاد مفتقرة إلى الأنهار، لأنه لايوجد فيها سـوى نبع واحـد اسمه سلوان، ينبع تحت جبل صهيـون، خـلال وسط وادي شعفـاط ، وهو الذي يقدم أحيـاناً كميـات وافرة من الميـاه، لكن بشكل عام قليـلاً من الماء أو لاشيء، ويوجد في داخل المدينة وخـارجها عدد كبير من البرك من أجل جمع ميـاه الأمطار، ومياه هذه البرك كـافية للناس وللبهائم للشرب وللأغراض الأخرى الضرورية.

١٩ — وهناك قناة جر مياه رائعة جداً، قادمة من مدينة اسمها مدينة القـديس إبراهيم(الخليل)، قـائمة في وادي حبرون، وتبعـد عن القـدس أربعة وعشرين ميلاً باتجاه الجنوب.

٢٠ — ولهذه المدينة أسماء كثيرة ومتنوعـة صـدرت عن أحـداث تاريخهـا، وأطلقت عليها من قبل أمم مختلفـة بلغات أيضـاً مختلفة، فقـد عـرفت أولاً باسم يبـوس، ثـم سـالم ، ومن مـزج هذين الاسمين جـاء اسمها الثالث وهو أورشليم، وعرفت أيضاً باسم هيروسوليما، وسوليما، ولوز ، وبيت إيل، كما عـرفت أيضاً باسـم إيلياء، اشتقـاقاً من إيليـوس الحاكم الرومـاني، الذي أعاد عمارتها في المكان القـائمـة فيه الآن، وكـان ذلك بعد تدميرها من قبل تيتوس وفاسبسيان.

هذا ومدينة القدس، هي المدينة التي عـرض الرب فيها وهو متجسد أسرار خلاصنا، ولهذا هي متفوقـة على جميع الأماكن الأخرى والمدن في امتيـازات قداستهـا، وعلو مجدها، ولهذا تجتذب كثيراً من رجـال الدين إليهـا ذاتها، وذلـك «بشم رائحـة الحقل كلـه الذي بـاركـه الرب»،[التكوين:٢٧/ ٢٧]، ويوجـد على جهـة اليمين منهـا صهيـون، حيث هناك القلعة،وهـي التي عرفت باسم مـدينة داوود، ويقوم جبل

الزيتون على الجهة الشرقية منها.

٢١ — **الحج داخل كنيسة الضريح المقدس وخارجها**

٢٢ — عندما تدخل الكنيسة أولاً، سوف تجد حجرة من الرخام الأسود، عليها غسل يوسف الرامي ونيكوديموس جسد المسيح، ورشوا عليه الحنوط، وكان ذلك عندما أنزلوه من على الصليب، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

٢٣ — وتذهب من هناك إلى جبل أكرا(الجمجمة) حيث جرى صلب المسيح، وحيث تصبب الدم من جنبه، فخرق الصخر الصلب ومر خلاله، وترك لون الدم الذي مازال موجوداً حتى الآن، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

٢٤ — ذلك أن الدم ذهب إلى تحت جبل أكرا ، وكان ذلك إلى الجزء المعروف باسم الجلجلة، حيث تمّ العثور على رأس آدم، الانسان الأول، وقد نزل الدم إلى الرأس المتقدم الذكر، أثناء خرقه لتلك الصخرة ومروره بها، وهناك غفران لمدة سبع سنوات،ولسبعة مواسم صوم كبير.

٢٥ — ومن هناك سوف تأتي إلى الضريح المجيد للرب، الذي ظل حتى أيام الامبراطور إيليوس هدريان من دون باب، وقد وسع هذا الامبراطور المدينة كثيراً إلى حد أنه أدخل مكان ضريح الرب، في داخل محيط الأسوار، وفي هذا المكان، بنى المسيحيون فيما بعد — صدوراً عن الاحترام الذي كان لديهم نحو ضريح الرب — كنيسة قيامة الرب الرائعة في داخل المدينة، وكان ذلك وفق عمل محكم ووضع موائم، وشكل مستدير، مع نافذة واحدة مفتوحة في السقف، وتضم هذه بشكل لائق المكان الرئيسي بين المواضع المقدسة والتي لها ذكرها، ففي هذا المكان جرى دفن الجسد الثمين للرب بشكل محترم مع الحنوط،

وهنا استراح حتى اليوم الثالث، ذلك أنه قام في اليوم الثالث، وفقاً لما قال:« في اليوم الثالث سوف أقوم ثانية»، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٦ — ثم إنك تأتي إلى المكان، الذي عندما كان ربنا يقوم من الموت، ظهر أولاً إلى مريم المجدلية، عندما خيل إليها أنه البستاني فقالت له:«يا سيد إن كنت أنت قد حملته فقل لي أين وضعته»،الخ[يوحنا:٢/ ١٥]، وقد بني في ذلك المكان مذبح مقدس تشريفاً لذلك الظهور، وهو القائم أمام باب بيعة العذراء المباركة، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٧ — ومن هناك سوف تدخل بيعة مريم المباركة، وهناك سوف تجد جزء من العمود الذي ربط يسوع إليه، وطول هذا الجزء أربعة أقدام، فهناك جرى جلده، وهو موضوع كما كان في جزء الجدار على جهة اليمين وأنت داخل إلى البيعة، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٨ — وأيضاً يوجد في البيعة نفسها، المكان القائم أمام المذبح، الذي بعث فيه الرجل إلى الحياة بفضل الصليب المقدس، وكان ذلك إثر اكتشافه الرائع، وبحضور حنة(هيلانة) أم الامبراطور قسطنطين، وهناك غفران لسبع سنوات، وسبعة مواسم صوم كبير.

٢٩ — وهناك أيضاً قرب المذبح الموضع الذي وقف فيه الصليب المقدس لوقت طويل، حيث كان يعبد بتقوى عظيمة جداً من قبل المؤمنين المسيحيين، وهناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٠ — ومن هناك سوف تصل إلى المكان الذي سجن فيه المسيح، وربط، وضرب، فهناك يوجد الآن بيعة صغيرة، وهناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٣١ — وعندما تذهب خارجاً من باب تلك البيعة، من أمام مذبح هناك، سوف تجد حجرة إليها ربط يسوع بالأغلال، بينما كان صليبه يجري إعداده، وهناك يوجد غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٢ — وسوف تذهب من هناك إلى المكان الذي تراهن فيه العساكر حول ملابس المسيح، حسبما كُتب:«ومن أجل قميصي تراهنوا»، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٣ — وسوف تذهب من هناك إلى مكان حيث تنزل إلى بيعة بنيت على عمق ثمانية وعشرين درجة فهناك جرى دفن جسدي: مريم أم جيمس، ومريم سالومي، تحت مذبح هناك، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٤ — ويوجد قرب هذا المذبح، على الجانب الأيمن كرسي حجري، عليه جلست القديسة هيلانةعندما دفعت نحو البحث عن صليب الرب المقدس، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٥ — وهناك أيضاً نافذة في الجدار عند الباب الشمالي، من خلالها يتم سماع — كما قيل — صراخ الأرواح في أثناء تطهيرها بعد الموت.

٣٦ — ويوجد أيضاً في البيعة نفسها أربعة أعمدة حجرية، قيل بأنها تتعرق بماء عذب ليلاً ونهاراً بسبب آلام المسيح.

٣٧ — وسوف تنزل من هناك أيضاً اثنتي عشرة درجة إلى بيعة أخرى منخفضة،وهي التي عثر فيها في مكان عميق جداً، على الصليب المقدس، والمكان الذي كان فيه صليب الرب ممدداً، مايزال مرئياً، وهناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٣٨ — ومن هنـاك تصعـــد إلى البـــاب الأول، الذي دخلـت منه، ولسوف تجد على جانبك الأيسر عموداً رخامياً تحت أحد المذابح، حيث قيل أنه على مقربـة منه جرى تتويج يسـوع بتاج من شـوك، قبل وضعه على الصليب، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٩ — وتصل من هنـاك إلى الجلجلة، التي تعــرف باسم البــلاط، وذلك حيث جلس بيـلايطس قبل المحـاكمـة، وعندما اقتـاد يسـوع إلى خــارج المدينة، وحسب رواية يوحنـا[٩/ ١٤] كـان اليــوم يوم عيــد الفصح، في حوالي السـاعة السـادسة منه، والجلجلة مكان مـوجود تحت جبل الجمجمـة، وكان مقعـراً، وهنـاك مـايزال الدم مرئيـاً، حسبما تحدثنا من قبل.

٤٠ — ثم إنك تصل إلى بـاب، حيث هناك في وسط السـدة يـوجـد المكان الذي يسمى بمركـز العالم، فهناك مدّ الرب يسـوع المسيح إصبعه قـائلاً:« هذا هو مـركز العـالم»، ويوجد هناك غفـران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

وينبغي أن يكون معلوماً أنه يوجد عند المذبح الكبير غفران لمدة سبع سنوات،ولسبعة مواسم صـوم كبير، وأن جميع المذابح قد بنيت في داخل الكنيسة.

٤١ — وتصل من هناك إلى عمـود مـوجـود قـرب حجـرة الضريح المقـدس، قد رسـم فوقـه صـورة القديس بـانتاليـون Pantaleon ، وعند هذه الصورة، قيل بأن المعجـزة التالية قد حـدثت فيما مضى: فقد دخل أحد المسلمين إلى كنيسـة الضريح المقدس، ونظر من حـوله، فرأى الصـورة المتقدمـة الذكـر مـرسومـة فـوق العمود، وعنـدما انتـزع عيني الصورة، ما كان من عينيه إلا أن سقطتا فوراً على الأرض.

٤٢ — وتصل من هناك إلى الباب الذي لم تكن مريم المصرية المباركة قادرة على الدخول منه، مع أن المسيحيين الآخرين قد دخلوا، وعندما وعدت بأنها سوف تتوب، سمعت صوتاً يقول لها:«إذا عبرت نهرالأردن سوف تكونين صحيحة بريئة»، وهذا الباب موجود على الجانب الشمالي للضريح المقدس في مكان سري، وتوجد هناك بيعة القديسة مريم المصرية، المتقدمة الذكر ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٣ — ومن هناك سوف تخرج من كنيسة الضريح المقدس، ولسوف تجد على يسارك بيعة صغيرة، هي بيعة العذراء المباركة مريم، وذلك تحت جبل الجمجمة، حيث وقفت تحدق بابنها وهو معلق فوق الصليب، وهناك يتولى النوبيون أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٤ — ومن هناك سوف تأتي إلى بيعة القديس يوحنا الانجيلي، وهي ملتصقة ببيعة مريم المباركة، حيث أوصى مخلصنا بالأم العذراء إليه، والتي كانت فعلاً عذراء، ويتولى هناك اليعاقبة أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٥ — وتصل من هناك إلى بيعة ملاصقة، بنيت تشريفاً للقديس يوحنا العمدان، والغفران هنا لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٦ — وسوف تجد في مواجهتك بيعة بنيت تشريفاً للقديسة مريم المجدلية، حيث بكت هناك وناحت، مع نسوة أخر، على الرب وهو معلق فوق الصليب، ويتولى هناك المسيحيون المطوقون(الكرج) أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٧ — وتأتي من هناك إلى صخرة موجودة أمام أبواب الكنيسة، عليها ارتاح المسيح عندما جاء وهو يحمل صليبه إلى جبل الجمجمة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٨ — وجميع الأماكن الفائقة القداسة، المتقدمة الذكر موجودة داخل، أوملاصق الكنيسة المقدسة لآلام الرب، ولضريحه المقدس.

مايتعلق بالحج فوق جبل صهيون المبارك

٤٩ — ونذهب من هناك إلى جبل صهيون، وعلى الطريق سوف تجد كنيسة جيمس المبارك ابن زبدي، وهي المكان الذي وضع فيه فيما مضى رأس جيمس هذا عندما جلب على أيدي الملائكة من يافا، فهناك جرى إعدامه بقطع رأسه، كما يقول بعضهم، بيد أن آخرين يقولون، بأنه أعدم في القدس، في المكان الذي توجد فيه كنيسته، وهذا ما أعتقد أنه أكثر صحة.

٥٠ — ومعروض هناك للمشاهدة عظام جيمس هذا الأعظم مباركة، وكذلك عظام جرجس المبارك والشهيد، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير، والموجود هناك هم رهبان أرمن.

٥١ — وسوف تذهب من هناك إلى كنيسة القديس المخلص في جبل صهيون، حيث المكان كان من قبل بيت كيفاس، الذي إليه جلب يسوع أولاً بعد اعتقاله، وجلد هناك بقسوة، ويوجد هناك خارج باب الكنيسة، جزء من العمود الذي ربط إليه، وذلك في داخل الجدار هناك، وفي المكان نفسه أنكر بطرس المسيح للمرة الأولى«قبل صياح الديك»، وعندما كان جالساً هناك في القاعة مع الخدم قام بتدفئة نفسه على«نار الفحم، لأنها كانت باردة»[يوحنا:١٨/١٨]، وهناك أيضاً السجن الذي ألقي فيه يسوع، وأبقي فيه حتى الصباح، لكن عندما جاء الصباح

أرسلوه مغلولاً إلى بيـلايطس، وموجـود هناك حجرة كبيرة مـوضوعـة فوق المذبح، وقـد قيل بأنها كانت الحجـرة التي ألقيت أولاً فوق ضريح الرب،[وهناك قالت النسوة] — تبعاً لرواية مرقص — :«من سيدحرج هذه الصخرة من على باب الضريح»، الخ، ويوجـد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٥٢ — ومن هناك تأتي إلى المكان الذي كـان فيما مضى قـلاية مـريم المباركة، حيث أقـامت فيها لمدة أربعة عشر عامـاً، بعد صعود الرب إلى السماء، ومن هناك انتقلـت إلى الرب، من هذا العـالم الشرير، ويوجـد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٥٣ — ومن هناك تنتقل إلى مكـان مـلاصق، حيث كـان فيما مضى الكنيسة التي احتفل فيهـا المبارك يوحنا الانجيلي بقداس بحضـور مريم العـذراء المباركـة، واستمـر ذلك طوال بقاء مـريم المبـاركة حيّـة في هذا العـالم، ويوجـد هناك غفران لمدة سبـع سنوات، ولسبعة مـواسم صـوم كبير.

٥٤ — ومن هناك تنتقـل إلى المكان الذي انتخب فيــه الـرسل متى المبارك رسولاً، وكان ذلك في غـرفة يهوذا الخائن، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٥ — وهناك أيضــاً المكـان الذي انتخب فيـــه الـرسل السبعـــة شمامسة:ستيفن، وفيليب، ونيكابور، وأتباعهم للتبشير بكلمة الرب.

٥٦ — وهناك مكان آخــر، فيــه انتخب الرسل المبــارك جيمس، ليكون الأسقف الأول للقدس، وهو الذي استشهـد فيما بعد بضربة من عصا القصار، وغادر إلى المسيح.

٥٧ — ثم إنك تأتي إلى صـومعة مـريم العذراء المباركـة، وذلك على مقربة من أبواب الكنيسة، فهناك اعتادت أن تصلي بعد صعود الرب إلى

السماء، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٨ — ويوجد أيضاً على الجانب الآخر من أبواب الكنيسة، صخرة حمراء، كانت تستخدم بمثابة مذبح، وعلى هذه الصخرة احتفل المبارك يوحنا الانجيلي، بقداس بحضور مريم العذراء المباركة، وقد نقلت من جبل صهيون على أيدي الملائكة، بناء على صلوات المبارك توما الرسول، لدى عودته من الهند، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٩ — ثم إنك سوف تدخل إلى الكنيسة، ويوجد قرب المذبح الكبير، في جهة الجنوب، المكان الذي تعشى فيه الرب يسوع مع حوارييه، واتصل بهم قائلاً:«خذوا، كلوا، هذا هو جسدي الذي أعطي لكم، وافعلوا هذا تذكراً لي»، ويوجد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب، وقد غسل في المكان نفسه أقدام حوارييه.

٦٠ — ثم إنك تخرج من الكنيسة، وتأتي إلى حاجز، على مقربة منه المكان الذي قال فيه الرب يسوع لحوارييه، عندما جاء«والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط، وقال سلام عليكم، ثم قال لتوما: هات اصبعك إلى هنا وأبصر يدي،وهات يدك، وضعها في جنبي، ولاتكن غير مؤمن بل مؤمناً»[يوحنا:٢/ ٢٦ — ٢٨]، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦١ — ثم إنك تصعد فوق الكنيسة بدرجات، حيث هناك المكان الذي سكن فيه الرسل، بعد صعود الرب، وذلك حتى يوم عيد الحصاد، وكانوا ينتظرون الروح القدس بالصوم وبالصلوات،وفي يوم عيد الحصاد تلقوا الروح القدس، على شكل نار، من أجل تقويتهم، وتلقوا معها معرفة جميع اللغات، وجاء صوت من السماء بشكل

مفاجىء، ودوى فوق المكان، ولحق ذلك تـدفق حشد من اليهود، إليهم شرح بطرس المبـارك نبوءة يوئيـل، وحول عـدداً كبيراً منهم إلى الايمان، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

٦٢ — ثم إنك تنزل من هنـاك إلى المقبرة، ويوجـد هناك على مقـربة من الكنيسة على الجهة الشمالية، صخرة، عليها وقف يسوع عندما وعظ الحشد، ويـوجد هناك غفران لمدة سبـع سنوات، ولسبعة مواسـم صوم كبير.

٦٣ — ثم تذهـب من هناك إلى تحت الكنيسـة،حيث هناك يوجـد ضريح الملـك داوود وابنه سليمان، فهنـاك جـــرى دفن جميـع ملوك القدس، وعلى مقـربة من هناك نظم داوود سبعة مـزامير، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٤ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي جـرت تدفئة الماء فيـه، من أجل غسل أقدام الحواريين، وقت العشاء الرباني.

٦٥ — ثم إنك تـأتي إلى ضريح اسطفـان المبـارك، الذي كـان أول شهيـد، وهناك دفن جسـده بعـد اكتشـافـه لكنه الآن في رومـا، وفي الناووس نفسه مع جسد لورانس المبارك، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٦ — ولدى نزولك من جبل صهيـون، تجد المكان الذي — عندما كان الحواريـون ينقلون جسد العذراء المبـاركة للدفـن في وادي شعفاط — وضعـوا عليـه النعش، وكـان اليهـود الـذين يعيشـون في القـرية المجـاورة، قـد تجمعـوا في تلـك البقعـة، حتى يمكنهم خطـف الجسـد لاحـراقه، ثـم قام رئيس كهنة اليهـود،وكـان أكثـر جرأة، ووقـاحـة من البقية، فـوضع يديه على النعش، وإثر ذلك تيبست يداه مبـاشرة، ثم إنه التمس من بطرس المبارك، أن يدعو له، ليعيد يديه إليه، فقال له بطرس

المبارك: «إذا ما آمنت أن هذه هي أم المسيح، وكنت مستعداً للتعميد، فإنك ستجعل سليماً»، فآمن، وعاد إلى سالف صحته، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٧ — ثم إنك تأتي إلى مكان، كان فيما مضى كنيسة، تعرف بشكل عام باسم كنيسة «صياح الديك»، حيث كان فيها كهف عميق، فهناك تاب بطرس عندما أنكر المسيح، وبكى بكاء مراً.

٦٨ — ثم يوجد على بعد ثلاثة فرلنغ طويلة (ثلاثة أثمان الميل) إلى الجنوب من هناك، الحقل الذي شري مقابل الثلاثين قطعة فضية التي جرى بيع ربنا بها، وهو الذي يعرف بالعبرية باسم أكلداما، أي حقل الدم، حتى هذا اليوم.

٦٩ — ثم إنك تأتي إلى الحقل المقدس، حيث سكن الحواريون مراراً، قبل آلام المسيح، ومايزال مكان سكناهم مرئياً، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٠ — ثم إنك تأتي إلى بركة سلوان، حيث أعطى الرب البصر إلى رجل ولد أعمى.

٧١ — ثم إنك تأتي إلى مكان مجاور، فيه جرى قطع النبي إشعيا إلى قسمين بوساطة منشار خشب، وذلك من قبل منشا ملك القدس، وهو هناك راقد حيث هو مدفون تحت بلوطة روجل.

٧٢ — ثم إنك تأتي إلى نبع مريم المباركة، حيث غسلت الملابس الصغيرة لابنها المبارك، وهناك يغتسل الآن كل من المسلمين والمسيحيين، وغالباً مايتعافون بذلك من عجزهم، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٣ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي اعتاد أن يعيش فيه جيمس

الأصغر، وهناك جرى دفنه بعدما ألقي به من أعلى الهيكل من قبل اليهود،ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

مايتعلق بالحج فوق جبل الزيتون

٧٤ — يبعد جبل الزيتون ميلاً واحداً إلى الشرق من القدس، وهو جبل خصب، وجبل الزيتون جدير بكل احترام، فعلى هذا الجبل المقدس، والجدير كثيراً بالاحترام، اعتاد الرب أن يجلس، مقابل الهيكل، عندما ينتظر حواريوه منه رؤية الشارات عند قدومه للحكم، وحول نهاية الحياة، وعلى هذا الجبل غالباً ما اعتاد أن يذهب مع حوارييه من أجل الصلاة، وخاصة عندما كانت آلامه قد اقترب موعدها، ويشاهد هناك في هذه الكنيسة المكان الذي صعد منه ربنا إلى السماء بشكل مجيد وبحضور حوارييه، وماتزال الصخرة التي كانت تحت قدميه تحتفظ بطبيعتها، وهذا مرئي حتى هذا اليوم، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

٧٥ — ثم إنك تأتي إلى بيعة موجودة هناك على الجبل المتقدم الذكر، فيها تابت بلجيا الأنطاكية، وفيها دفنت أيضاً، ويوجد حجرة فوق ضريحها لايمكن لانسان أن يمر من قربها، أويدور من حولها مالم يقم بالاعتراف الكامل، ويقال بأن مريم المصرية المباركة قد دفنت هناك حتى أيام استيلاء اللاتين على الأرض المقدسة، ذلك أنهم نقلوا جسدها من هناك إلى ماوراء البحر، إلى بلدة اسمها بليوس Blois في مملكة فرنسا، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٦ — ثم تأتي إلى المكان الذي صاغ فيه الرسل مثال العقيدة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٧ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة فيها علّم يسوع حوارييه أن يصلوا، قائلاً:«هكذا سوف تصلون» وقال:«أبانا الذي في السماء»الخ، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٨ — ثم إنك تأتي إلى منحدر جبل الزيتون، إلى ثمني ميل باتجاه الشرق، حيث بيت فاجي، التي ترجمة اسمها هو«بيت الفك»، فهناك أرسل ربنااثنين من حوارييه هما:بطرس وفيليب ليجلبا له أتاناً مع فلوها من أجل أحد السعف وقال لهما:«إذهبا إلى القرية التي أمامكما فللوقت تجدان أتاناً مربوطة وجحشاً معها فحلاهما واتياني بهما»[متى:٢١/ ٢]، ومن هناك من ذلك المكان ذهب على ظهر الأتان إلى القدس وسط التراتيل وأناشيد الحمد، وقد استقبل بالتشريف من أبناء العبرانيين، وهم يحملون سعف النخيل، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٩ — ثم إنك تأتي إلى مكان، فيه تسلمت مريم المباركة سعفة النخيل من الملاك، كمؤشر لمغادرتها لهذا العالم وذهابها إلى بيتها المتشوقة إليه،ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٠ — والجبل المجاور لجبل الزيتون على الجانب الشمالي هو جبل العدوان، وهما منفصلان عن بعضهما بوساطة الطريق الذي يذهب من وادي شعفاط إلى بيت عنيا، وقد عرف باسم جبل العدوان لأن الملك سليمان أقام هناك صنم مولوك، وتعبده.[الملوك الأول:١١/ ٧]، ويعرف هذا المكان باسم الجليل، فهناك ظهر ربنا لحوارييه عندما قام من الموت، وذلك وفقاً لكلمة الملاك الذي قال:«واذهبا سريعاً قولا لتلاميذه، ولبطرس.... ها هو يسبقكم إلى الجليل»، [متى :٢٨/ ٧] وقد كان هنا من قبل كنيسة، غير أنها دمرت من قبل المسلمين، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨١ — ثم إنك تأتي إلى سفح الجبل، إلى صخرة، وقف عليها يسوع، ووعظ الحشود، وذلك حيث أشار إلى مدينة القدس، وبكى عليها قائلاً:«إنك لو علمت أنت أيضاً حتى في يومك هذا ما هو لسلامك، ولكن الآن قد أخفي عن عينيك، فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة، ويهدمونك وبنيك فيك حجراً على حجر»الخ[لوقا:١٩/ ٤٢ — ٤٤]، وقد تحقق هذا في ظل تيتوس وفاسبسيان، امبراطوري الرومان، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٢ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي رمت فيه مريم المباركة حزامها إلى الرسول توما المبارك، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٣ — ثم إنك تأتي إلى حديقة جيسماني، تحت سفح جبل الزيتون، في وادي شعفاط، حيث سيحكم ربنا على الأحياء والأموات.

٨٤ — وهناك يوجد المكان الذي اعتقل فيه الرب يسوع من قبل اليهود، وذلك حيث قبله يهوذا الاسخريوطي قائلاً:«حييت يا معلم»، وهناك قام اليهود الذين كانوا أمامه«فرجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض»، وكان ذلك لدى سماعهم صوت المسيح، عندما قال:«أنا هو»، وهذا كله حسب رواية يوحنا(١٨/ ٦)، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٥ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي انسحب فيه الرب يسوع من بين حوارييه، «وانفصل عنهم نحو رمية حجر»، وصلى إلى الآب قائلاً:«يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك»، وفي المكان نفسه:«ظهر له ملاك من السماء يقويه»[لوقا:٢٢/ ٤١ — ٤٤]، وبدأ«عرقه كقطرات دم نازلة على

الأرض»[لوقا:٢٢/ ٤٥].

٨٦ — وهناك أيضاً، الصخرة التي أمسك بها ربنا، وهو يتحرق بسبب آلامه، وطبعات أصابعه عليها ماتزال ظاهرة،ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٧ — ثم إنك تأتي إلى المكان من حيث «أخذ معه بطرس وابن زبدي وابتدأ يحزن ويكتئب» وهو يقول:«نفسي حزينة جداً حتى الموت»، وعاد حيث وجد الحواريين الآخرين نياماً، فقال لهم:«أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة»، [متى:٢٦/ ٣٩ — ٤١] ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٨ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة في وادي شعفاط، حيث يوجد ضريح العذراء المجيدة، في مكان عميق جداً، ينزل الانسان إليه بثمان وأربعين درجة، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

وينبغي أن نتنبه إلى أن وادي شعفاط قد نال اسمه من واحد من ملوك القدس، كان اسمه شعفاط، وقد دفن هناك، وقد بني قبره بشكل محكم، وهو مايزال مرئياً هناك.

٨٩ — وسوف تعبر من هناك وادي قدرون، حيث بقيت شارة صليب الرب ممددة هناك لسنين طويلة، وعندما كانت سيبل Sibyl قادمة إلى القدس لسماع حكمة سليمان، رفضت عبور هذا الوادي.

٩٠ — ولسوف تأتي إلى المكان الذي ربط فيه المبارك اسطفان، عندما جرى رجمه من قبل اليهود، ووقتها كان قد ركع فوق الأرض،وأخذ يصلي من أجل الذين كانوا يرجمونه، وهو يقول:«يارب لاتقم لهم هذه الخطية»[أعمال الرسل:٧/ ٦٠]الخ، ويوجد هناك غفران لمدة سبعة أعوام، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٩١ — ثم تأتي إلى البوابات الذهبيـة، التي دخل منها الرب يسوع في يوم أحـد السعف، وكـان جـالسـاً على ظهـر أتان، وذلك حسب رواية الانجيل،ويوجد هناك غفـران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مـواسم صوم كبير.

٩٢ — ثم تجد على بعــد رميـة سهـم هيكل الرب، الذي له أربعــة مداخل، واثني عشر باباً.

ولايجوز المرور بهيكل الرب المقـدس الذي بني من قبل سليمان فـوق جبل موريا، على أرض بيدر أورنان اليبوسي، بين الأماكن المقدسة دون إيلائـه ما يستحقـه من احترام، وكـان في الحقيقة قـد هدم أولاً من قبل البابليين، ثم بعد ذلك من قبل الـرومان، ثم إنه أعيدت عمارته في المكان نفسه، على شكل مستدير،وعلى شكل لائق، ورائع، من قبل عمال أذكياء وبارعين، ومـؤمنين، ورجال ربانيين، ويـوجد في هذا الهيكل الصخـرة، التي وقف عليهـا الملاك المدمـر، وظهــر لداوود، وهذا الملاك هو الذي قتل آلافــاً لاتحصى من الناس، بسبب الذنب الـذي اقترفـه داوود، أي بإحصــاء الناس وتعـدادهم بناء على أمــر داوود، وفي الحقيقـة يـدعـو المسلمـون حتى هذا اليـوم هيكل الرب بـاسم الصخـرة، وهي مـوضع احترام عظيم لديهم، إلى حد أن مـا من أحد منه يتجـرأ على تلويثها بأية قذارة، مثلما يلوثون الأماكن المقدسـة الأخرى، وهـم يقدمون من مناطق نائيـة للتعبـد هناك، ويفعلون ذلك منـذ أيام سليمان حتى الوقت الحالي، ومنذ أن استعـاد المسلمون ملكيـة مدينـة القدس المقـدسة، لايسمحـون لأي مسيجي بدخـول الهيكل، ومايزال بعضهم يعتقـد حتى هذه الأيام، بأن تابوت عهد الرب، موجود في داخل الصخرة المذكورة، ومقفل عليه فيهـا، وذلك أن يوشع، ملك إسرائيل، تنبأ بما سيلحق المدينة من دمـار، فأمر بوضع التابوت في قدس أقداس الهيكل، وتخبئته فيها هناك.

٩٣ — وفي هذا المكان المقدس المحترم، عنـدما أنهى سليمان العمل،

وكـان يقدم أضحيـة إلى الرب، مـلأت غمامة البيت، وظهـر مجد الرب، و«نزلت نار من السماء، وأكلت تقـدمـة الحرق، والأضـاحي»، ومـلأت جـلالة الرب بيت الرب، و«رأى بنو إسرائيـل جميعـاً النار وهي نازلة، ومجد الرب فـوق البيت» وعندما كـان سليمان جـاثياً على ركبتيـه ويداه مبسوطتـان نحو السماء»، دعا بأن تتم الاستجـابة لتوسل كل من يدخل الهيكل طلبـاً للمنفعـة من الرب، وظهـر الـرب له قـائـلاً:«قـد سمعت صلاتك وتضرعك الذي تضرعت به أمـامي: قدست هذا البيت الذي بنيتــه من أجل وضع اسمي فيــه»[الملوك الأول:٩/ ٣]، و«الآن عيناي تكونان مفتــوحتين وأذناي مصغيتين إلى صـلاة هذا المكـان. والآن قـد اخترت وقـدست هذا البيت ليكون اسمي فيـه إلى الأبد»[أخبـار الأيام الثاني:٧/ ١٥ — ١٦].

٩٤ — وعاشت مـريم العذراء المباركـة في هذا الهيكل،حتى اقترنت بيوسف، ولقـد قيل بأنها كانت تصلي هناك مع العـذراوات الأخريات، وكـانت تعمـل على إعـداد أواني الهيكل، وكـذلك مــلابس الكهنة، كما كانت تتعلم الأحرف المقدسـة، وتعيش بعقلانية وتواضع، حيث كانت تصوم، وتتأمل، وتصلي،وتدرس الكتابات المقدسة، وعندما كانت طفلة رضيعـة جلبها والداها لتقـديمهـا إلى الهيكل، ومن أجل تقـديمها أمـام الرب، وهنا — كما يقال — صعدت بنفسهـا جميع الدرجات المؤدية إلى الهيكل من دون أية مصاعب، وهو أمـر بدا مدهشاً في أعين الجميع، ولم يسمع بمثله من قبل عن طفل صغير، وفي هذا الهيكل عندما كـان زكريا المقدس يقدم البخورإلى الرب، ظهر الملاك جبرائيل له، وبشره بأن الرب قد استجاب لأدعيته.

٩٥ — وجرى أيضاً في هذا الهيكل تقديم الطفل يسوع، حيث جرى حمله على ذراعي سمعان العـدل، وعندها عرف سمعـان بوساطة الروح القدس مخلصه، فقال له:«الآن تطلق عبدك»الخ[لوقا:٢/ ٢٩].

٩٦ — وأيضاً في المعبد نفسه أنقذ يسوع المرأة الزانية من أيدي اليهود،[يوحنا: ٨/ ٣] وهناك أيضاً عمل يسوع«سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل، الغنم والبقر، وكب دراهم الصيارف، وقلب موائدهم»، [يوحنا:٢/ ١٥]، وهو يقول:«مكتوب بيتي بيت الصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص»[متى:٢١/ ١٣].

٩٧ — وهناك أيضاً بالقرب هيكل سليمان، لكن المسيحيين لايدخلون إليه، خوفاً من المسلمين.

٩٨ — كذلك يوجد فيما بين هيكل الرب والباب الذهبي الأشجار التي قطع منها الأولاد الأغصان، عندما جاء الرب إلى القدس، راكباً على أتان، وعلى مقربة من هناك، بجوار هيكل سليمان، في زاوية من زوايا المدينة يوجد — كما قيل — غرفة نوم المسيح، وحمّامه، وفراش أمه، ويوجد هناك أيضاً ضريح القديس سمعان.

٩٩ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة حنة المباركة، التي هي أم العذراء مريم، وهي قريبة من الباب الذي تذهب من خلاله إلى وادي شعفاط، وذلك في جهة الشمال، فهنا يوجد القبو الذي ولدت فيه العذراء مريم، فهو قد كان من قبل بيت يواكيم، وحنة المباركة، زوجته.

١٠٠ — ولايدخل المسيحيون إلى هذا المكان،لأن المسلمين قد بنوا هناك مسجدهم، أي كنيستهم.

١٠١ — ثم إنك تأتي إلى البركة المجاورة لسوق الضأن، التي إليها كان ملاك الرب«ينزل أحياناً في البركة ويحرك الماء، فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ مِن أي مرض اعتراه»[يوحنا: ٥/ ٤]، ولقد قيل بأنه استقرت في تلك البركة لزمن طويل، خشبة الصليب، وكذلك شفى ربنا في تلك البركة الرجل المقعد منذ ثمان وثلاثين سنة، والمتمدد فوق فراشه، وقال له:«احمل فراشك وامش»[يوحنا:٥/ ٨]،ويوجد هناك

غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١٠٢ — ثم إنه على مقـربة من هنـاك، تأتي إلى بيت الرجل الثـري الذي رفض إعطاء فتات الخبز إلى العازر.

١٠٣ — ثـم إنـك تـأتي إلى بيـت عنـاس، الكـاهـن الأعلى، وختـن كيفاس، الذي جلب إليه يسوع أولاً.

١٠٤ — ثم إنك تأتي إلي بيت بيـلايطس، حيث جرى جلد يسـوع، والسخـرية منه من قبل الجند، والبصاق عليـه وضربه بالعصا، وتتـويجه بتاج من شوك، وأخيراً الحكم عليه بالاعـدام، ويوجد هناك طريق يقود إلى هيكل الرب، جـاء اليهـود عبره وهـم يصرخـون قـائلين:«اصلبـوه، اصلبوه».

١٠٥ — ثم إنك تأتي إلى البيت الذي كـانت مريم العـذراء المباركـة فيـه في المدرسة، وعلى مقـربة منه يوجد البيت الذي تشـاور فيه اليهـود لاعتقال يسوع خيانة، ومن ثم قتله.

١٠٦ — ثم تأتي إلى جـوار ذلك، إلى الكنيسـة التي تعـرف باسم كنيسة إغماء القـديسة مريم، حيث أغمي عليها بسبب آلام ابنهـا، عندما شـاهدته وهو يحمل صليبـه، ويوجد هنـاك حجران أبيضـان عظيمان في القـوس، عليهما استراح ربنا، عندمـا كـان يحمل صليبـه، ثم التفت إلى الناس وقـال:«يـا بنات أورشليم لاتبكين عليّ بـل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن»[لوقا:٢٣/٢٨].

١٠٧ — ويقال بأنه كان على مقـربة من الكتيسة قصر الملك هيرود، وعلى مقـربة من هناك كـان بيت يهوذا الخائن، حيث عـاش مع زوجتـه وأولاده.

١٠٨ — ويوجـد هناك أيضـاً الطريق الذي يقـود إلى باب القـديس

اسطفان، حيث رجم في خارجه، وعبر هذا الطريق اقتاد اليهود يسوعاً، و«وجدوا إنساناً قيروانياً اسمه سمعان كان آتياً من الحقل، فسخروه ليحمل صليب يسوع»[متى: ٢٧/ ٣٢/، لوقا :٢٣/ ٢٦] وحمله إلى الجمجمة حيث جرى صلب يسوع.

١٠٩ — ثم إنك تأتي إلى برج داوود، الذي كان قد هدم، لكن الآن أعيدت عمارته، في المكان نفسه، كقلعة للسلطان.

١١٠ — وهناك جرى سجن يوسف الرامي لمدة أربعين سنة، بعد آلام المسيح، أي حتى قدوم تيتوس وفاسبسيان، امبراطورا روما.

١١١ — ويوجد هناك باب اسمه باب داوود، في خارجه شنق يهوذا نفسه على شجرة جميز.

١١٢ — ثم إنك تصل على بعد رمية سهم إلى كهف الأُسد، حيث تولوا دفن أحد عشر ألف شهيد، قتلوا جميعاً بسبب اسم المسيح من قبل كسرى ملك الفرس.

١١٣ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي قطعت منه خشبة الصليب، فهناك بنيت كنيسة جميلة جداً، ويبعد المكان ميلاً واحداً عن القدس، ويطلق عليه بالعربية اسم[دير] المصلب، أي«أم الصليب».

١١٤ — ثم هناك على بعد ميلين جدول الماء الجاري الذي عمّد فيه فيليب المبارك الخصي الأثيوبي وهو عائد من القدس، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١١٥ — ثم إنك تأتي على بعد ميل إلى المكان الذي ولد فيه يوحنا المعمدان مع أبيه زكريا، وتوجد هناك كنيسة تبعد أربعة أميال عن القدس، وإلى هناك حدث أن مريم«ذهبت بسرعة إلى الجبال إلى مدينة يهوذا» وسلمت على إيزابل،«وصرخت إيزابل بصوت عظيم وقالت

مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك فمن أين لي هذا أن تأتي أم ربيّ إليّ، فهوذا حين صار صوت سلامك في أذنيّ ارتكض الجنين بابتهاج في بطني»، ثم قالت مريم المباركة:«تعظم نفسي الرب»الخ[لوقا:١/ ٣٩ — ٤٦]، وهناك تنبأ زكريا وقال:«مبارك الرب»الخ، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١١٦ — ومن هناك يذهب الانسان إلى نبع زكريا،[عين كارم] الذي يبعد حوالي رميتي سهم عن الكنيسة المذكورة أعلاه.

ما يتعلق بالحج في بيت لحم وحبرون

١١٧ — على ميلين من القدس، باتجاه بيت لحم، هناك كنيسة، قائمة فوق الموضع الذي تاب فيه إيليا واعتكف.

١١٨ — ثم إنك تأتي إلى مكان على الطريق، حيث ظهر النجم ثانية للرجال الحكماء، ذلك أنه كان قد اختفى عندما كانوا في حضرة هيرود.

١١٩ — ثم إنك تأتي إلى البئر الذي وضع إخوان يوسف، يوسف فيه.

١٢٠ — ثم إنك تأتي إلى قبر راحيل، زوجة يعقوب، التي ماتت بعد ولادتها لبنيامين، وهو يبعد حوالي ثمن ميل عن الطريق القادم.

١٢١ — ثم إنك تقدم إلى حقل البيقية الحجرية، الذي يبعد ميلاً عن بيت لحم، لأنه عندما كان الرب يسوع يعبره، رأى رجلاً يبذر بيقية، وعندما سأله الرب عن الذي يبذره، أجابه«حجارة» فقال الرب له:«لتكن حجارة»، وعلى الفور تحولت تلك البيقية إلى حجارة، وحتى الآن يتم العثور على حجارة بيقية هناك. ·

١٢٢ — ثم إنك تأتي إلى مدينة بيت لحم، التي معنى اسمها«بيت

الخبـز»، التي ولد فيهـا الخبـز الحقيقي الذي نزل من السماء، ويوجـد في هذه المدينة المقدسة والمبجلة، كنيسـة فائقة الجمال، بنيت على شرف مريم العـذراء المباركـة، وفيهـا بيعـة، ولد فيها يسـوع المسيح، مخلص العـالم، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٢٣ — ويوجـد هناك المكان الذي كـان فيه المعلف الذي أكل فيـه الثـور والأتان، فهناك مددته مـريم العـذراء المباركـة، بسبب أنه لم تكن هناك غـرفـة في النزل»، وقـد قيل بأن المعلف مع التبن الذي تمدد عليـه الطفل يسوع موجود في روما في كنيسة القديسة مريم العظيمة.

١٢٤ — وإلى تلك البيعـــة جـاء ثلاثة ملـوك من الشرق: مليكور، وبلشـاسـار، ويسبر، ليقومـوا بعبـادة ابن الرب، وقـد قدمـوا له:«ذهبـاً، وبخوراً،ومرّاً».

١٢٥ — ويوجد أيضـاً في الكنيسة المتقدمة الـذكر، العائدة للقـديسة مـريم، على الجانب الأيسر، المكان الموضـوع فيـه بعض آثار طفـولة ربنا وختـانه، حيث يقـال بأنهم الآن في رومـا في كنيسـة القـديس يوحنا في اللاتيران.

١٢٦ — ويوجد أيضـاً على جهة اليمين المكان الذي جـرى فيه دفن الأبرياء المقـدسين، ويوجـد هناك مـذبح،ويوجـد هناك إعفـاء من الألم والذنب.

١٢٧ — ثم إنك تـأتي إلى باب، حيث هناك الكهـف الذي اعتكف فيه القديس جيروم، وهناك صنف توراته وكتبا أخرى كثيرة.

١٢٨ — ثم مـلاصق ذلك تأتي إلى كنيســة تلك العقيلة النبيلة، أي باولا المبـاركـة، مع ابنتهـا العـذراء يوستـوخيـوم، فهناك قـامـا بالتـوبة والاعتكاف.

١٢٩ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة نيقولا المبارك، وهي ملاصقة لها، وفيها قبو عميق، وهناك يوجد بيعة، يقال بأن مريم العذراء المباركة قد عاشت فيها مرة مع ابنها الوحيد، ويقال بأنها عصرت مراراً هناك فوق الصخرة صدرها الذي تدفق بالحليب، ولهذا السبب أصبحت الصخرة بيضاء مثل الحليب، وهو ما هو مرئي حتى هذا اليوم، ولقد قيل بأن أية امرأة فقدت لسبب ما حليبها، وأخذت قطعة صغيرة من تلك الصخرة، ومزجتها بالماء، وشربتها على شرف العذراء المباركة، سوف يعود حليبها مباشرة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات،الخ.

١٣٠ — ثم إنك تأتي إلى بيعة قرب بيت لحم، حيث ظهر ملاك الرب للرعيان، في صباح ميلاد الرب قائلاً:«لقد أحضرت لكم بشائر ذات بهجة عظيمة، وهي سوف تكون لجميع الناس، ذلك أنه ولد في بيت لحم في هذا اليوم، في مدينة داوود، مخلص العالم».

١٣١ — وعلى بعد اثني عشر ميلاً عن بيت لحم، توجد مدينة حبرون، التي هي مدينة قديمة جداً، وهي حاضرة الفلسطينيين، ومكان سكنى العمالقة، وفي ديار سبط يهوذا،وحبرون قائمة في سهل دمشق، وفي الحقل الذي صاغ فيه الخلاق العظيم للمرة الأولى أبانا آدم«على شكله»، ويوجد في هذه المدينة هيكل له جمال فائق، ويوجد فيه الكهف المزدوج، الذي دفن فيه الرجال الأربعة المحترمين، وهم:آدم، وإبراهيم، واسحق، ويعقوب، مع زوجاتهم، حواء، وسارة ، ورفقة، وليا.

١٣٢ — ولايدخل المسيحيون إلى هذا الهيكل خوفاً من المسلمين، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٣٣ — ثم إنه على مقربة من المدينة، وعلى بعد حوالي رميتي سهم، سوف تصل إلى كهف أو قبو، فيه اعتكف آدم وزوجته لمدة مائة سنة، بعد وفاة ابنهما هابيل، ثم إنه أنذر من قبل ملاك من الملائكة، فعرف

زوجته، فحملت بشيث، الذي من سبطه ولد يسوع المسيح، ابن الرب.

١٣٤ — وأيضاً على مقربة من حبرون يقع جبل ممرا، الذي عند سفحه توجد البطمة، التي تعرف باسم البلوطة، أو السنديانة، فتحتها عندما كان إبراهيم جالساً رأى ثلاثة ملائكة قادمين نحوه، وقد تعبد واحداً منهم.

١٣٥ — وهذه البلوطة جافة الآن، ومع ذلك تبرهن أنها ذات خواص دوائية مؤثرة، لأنه قد قيل إذا ما أخذ أي إنسان قطعة منها وهو راكب، فإن مطيته لن تكبو قط.

١٣٦ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي اعتكف فيه يوحنا المعمدان.

١٣٧ — وإلى حبرون قدم أيضاً الاثنا عشر جاسوساً، كالب، ويوشع ورفاقهما، حيث دخلوا للمرة الأولى إلى أرض الميعاد.

١٣٨ — وفي حبرون أيضاً حكم داوود لمدة سبع سنوات ونصف السنة، وكان ذلك قبل أن يحكم في القدس.

١٣٩ — وعلى بعد ميلين من حبرون، باتجاه بيت لحم، يوجد كوخ صغير فيه سكن النبي يونه بعد قدومه من مدينة نينوى، وهناك مات، ومدد في قبره.

١٤٠ — ويوجد أيضاً في مقابل جبل صهيون، جبل عليه الآن كنيسة القديس سيبريان Cyprian.

مايتعلق بحج بيت عنيا ونهر الأردن

١٤١ — بيت عنيا هي بلدة مريم ومرثا وأخيهما العازر، وهي تبعد حوالي الميلين عن القدس، وواقعة وراء جبل الزيتون، وكان هناك من قبل بيت سمعان المجذوم، وفي هذا البيت جلس الرب يسوع لتناول الطعام مع حوارييه، وإلى هناك جاءت المجدلية، لدى سماعها بأن يسوعاً

قد جاء إلى هناك، ووقفت خلفه:«وابتدأت تبل قدميه بالدموع وكانت تمسحهما بشعر رأسها»[لوقا:٧/ ٣٨]، وهناك أيضاً سمعت ما كانت تستحقه عن جدارة الكلمات الحلوة والمجيدة في قوله:«مغفورة لك خطاياك...اذهبي بسلام».[لوقا:٧/ ٤٨ — ٥٠].

١٤٢ — وكانت بالعادة هناك كنيسة كبيرة، لكنها دمرت من قبل المسلمين.

١٤٣ — وهناك أيضاً، الكهف الذي دفن فيه العازر، عندما أقامه الرب من الموت، حيث توجد هناك بيعة الآن، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٤٤ — ثم إنك تأتي على بعد رميتي سهم إلى المكان الذي كان فيه بيت مرثا، والذي بني في موضعه فيما بعد كنيسة، ففي هذا البيت جلس ربنا لتناول الطعام مع حوارييه، عندما قالت مرثا له:«يارب أما تبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي، فقل لها أن تعينني»الخ[لوقا:١/ ٤].

١٤٥ — ثم إنك تأتي على بعد رميتي سهم من هناك إلى الصخرة التي ارتاح عليها يسوع، عندما التقت به مريم ومرثا وهما تبكيان وتقولان:«يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخانا»الخ[يوحنا:١١/ ٢١].

١٤٦ — ومن هناك سوف تسير مسافة ثمانية عشر ميلاً عبر طريق مستقيم إلى نهر الأردن.

١٤٧ — وتشكل نهر الأردن تحت جبال جلبوع من جدولين هما:«الأر»و«دان»، اللذان ينبعان عند سفح جبل لبنان، على مقربة من قيسارية فيليب، ويشتق اسمه وأصله من هذين النبعين، وينحدر إلى بحيرة جنسارث، ومن هناك يخرج نهراً واحداً، يروي المنطقة المجاورة له لمسافة تقارب المائة ميل، ويأخذ طريقه من خلال الوادي الشهير، الذي اسمه وادي الملح، إلى البحر الميت، ولايعاود الظهور ثانية، بل يبتلع هنا

في الأعماق.

١٤٨ — واعتاد الحجاج والسكان المحليون على غسل أنفسهم وغسل ملابسهم في مياه نهر الأردن مع شيء كبير من التقوى، لأنه في نهر الأردن جرى تعميد مخلصنا من قبل يوحنا المبارك.

١٤٩ — وهناك انفتحت السموات، وهناك ظهرت الروح القدس على شكل حمامة، وهناك سمع الآب وهو يقول: «هذا هو ابني المحبوب، الذي أنا عنه راض تماماً».

١٥٠ — وفي هذا النهر برأ نعمان السوري من جذامه، و«عادت بشرته من جديد مثل بشرة طفل صغير».

١٥١ — وشطر إيليا وتلميذه اليشع مياه نهر الأردن إلى شطرين بضربها بردائه، ومن ثم عبرا فوق أرض يابسة، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٥٢ — ثم إنك تأتي على بعد ميل واحد، إلى دير[قصر اليهود] بني على شرف المبارك يوحنا المعمدان وهناك معروض اليد اليسرى للقديس يوحنا نفسه.

١٥٣ — وكان هناك راعي الدير المبارك زوسيماس Zosimas، فهناك عاش حياته كلها في تبتل واستغفار عظيم، وقد وجد مريم المصرية المباركة عبر نهر الأردن، التي سكنت هناك لمدة ثمانية وثلاثين عاماً غير معروفة من قبل أحد من الناس.

١٥٤ — ثم إنك تصل إلى أريحا، التي تبعد أربعة أميال عن نهر الأردن، وهي التي كانت من قبل مدينة عظيمة، وقد استولى عليها يوشع، قائد شعب إسرائيل، وكان ذلك عندما دخل أرض الميعاد، وبناء على دعواته انهارت أسوار المدينة، وكانت هناك امرأة من أهل المدينة

اسمها راحاب، وكانت عاهرة، استقبلت جواسيس بني إسائيل في بيتها، ولهذ السبب جرى إنقاذها مع جميع بيتها، وكان من بين سكانها رجل آخر اسمه زكّا«كان رئيساً للعشارين»، وقد رغب في رؤية يسوع عندما قدم إلى أريحا،«ولم يقدر من الجميع لأنه كان قصير القامة»[لوقا:١٩/ ٢ — ٣].

١٥٥ — وعلى بعد ميلين من أريحا يوجد القرنطل، وهو جبل مرتفع جداً، ورائع، يوجد في منتصف الطريق إلى أعلاه بيعة جميلة جداً قائمة فوق صخرة، ويمتلكها بعض الاغريق، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٥٦ — وفوق ذلك الجبل صام المسيح لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة، وجاع بعد ذلك، وأغواه هناك الشيطان وامتحنه، أولاً بالنسبة لشهيته للطعام حيث قال:«لئن كنت ابن الرب، فأمر هذه الحجارة لتكون خبزاً»، وأغواه في المرة الثانية فوق جبل آخر، ليس بعيداً عن هذا الجبل، بشهوة شريرة حين أراه جميع ممالك الدنيا قائلاً:«جميع هؤلاء سوف أعطيك، إذا قبلت بالسجود إليّ وعبادتي»، وأغواه في المرة الثالثة بمجد عابث، وكان ذلك عندما«جلس له على رأس الهيكل»، وقال له:«إذا كنت ابن الرب، فارم بنفسك نحو الأسفل».

١٥٧ — وتحت القرنطل يوجد النبع الذي حول النبي اليشع ماءه من مالح إلى عذب صالح للشراب.

١٥٨ — وعلى بعد ميلين من أريحا، وفي جهة الشمال الشرقي، تقع بحيرة اسفلت، التي اسمها أيضاً البحر الميت، وفي الحقيقة مناسب تسميتها بالبحر الميت، لأنها لاتستقبل شيئاً حياً، كما لايمكن لشيء حي العيش فيها، وهنا سقطت المدن الأربعة السيئة السمعة وهي: سدوم، وعاموره، ودومة، وزيبويم، فلإصرارها على اللواطة أحرقت بالنار،

وبالكبريت، وغرقت في البحيرة.

١٥٩ — وتوجد ساعور على شاطىء البحر الميت، وهي تعرف أيضاً باسم بلكوروستا Belcorosta ، وهي المدينة الخامسة بين المدن، وهي التي أنقـذت من قلب عاليهـا سافلها بصلوات لـوط وهي تعرف الآن بين شعب المنطقة باسم بلدة النخيل.

١٦٠ — وأيضاً يوجد بعـد هذه البحيرة أو البحر الميت، وأنت نازل نحـو العربيـة، كـرنئيم(الكرك) وهو كهف في جبـال المآبيين، إليه اقتيـد بلعام ليلعن شعب اسرائيل، وذلك عندما ركب على الأتان التي كلمته.

١٦١ — ويفصل البحر الميت هذا بين اليهودية والعربية.

١٦٢ — والعـربيـة في أيام بني إسرائيل، كـانت هي الصحـراء التي أبقـاهم الرب فيهـا لمدة أربعين سنة، حيـث كـان يمطر المن عليهم لكي يأكلوا.

١٦٣ — وفي العـربيـة أيضاً يوجـد وادي مـوسى، الذي فيـه ضرب موسى الصخرة مرتين، وبناء عليه تدفق جدولان من الماء لسقاية شعب الرب، وبهذين الجدولين تسقى الآن جميع المنطقة.

١٦٤ — ويوجد في العربية أيضاً جبل سيناء، حيث جرى نقل جسد كاترين العذراء المباركة، على أيدي الملائكة، وجاء النقل من الاسكندرية حيث تلقت ضربة الشهادة.

١٦٥ — وعلى ميلين من أريحا تقع الجلجال، وذلك حيث ولد النبي اليشع، حواري النبي إيليا.

١٦٦ — ويوجد أيضاً بين أريحا والقدس المكان الذي فيه«كان أعمى جـالسـاً على الطريـق يستعطي» وهو الذي عندمـا سمع بأن «يسـوع الناصري مجتـاز، فصرخ قـائلاً: يا يسـوع ابن داوود ارحمني... وقـال له

يسوع أبصر إيمانك قد شفاك»[لوقا:١٨/ ٣٥ — ٤٢].

١٦٧— وأيضاً المسافة من القـدس إلى عمواس أقل من ثمانية أميال، وهناك ظهر يسوع إلى الحواريين اللذان كانا ذاهبين إلى عمواس، وعندما فتح الكتاب المقدس قال:«أيها الأحمقين والبطيئين بالايمان بقلبيكما» وقد «عرفاه من كسر الخبز».. وهذه البلدة قـريبة من مودين، مدينة المكابيين، ومدينة الجبعونيين.

١٦٨ — وسوف تذهب من هناك مسافـة أربعين ميلاً إلى غزة، على مقـربة من البحر، وغـزة إحـدى مدن الفلسطينيين الخمسـة، وهي التي حمل أبوابها شمشـوم إلى قمـة الجبـل[القضـاة:١٥/ ٣]، ويمضي الطريق باتجاه الغرب.

١٦٩ — ثم إنك تأتي بعـد خمسـة أميـال إلى قـرية كـرمـوث -Car mus (الدارون)، وهناك يصنعـون خمرة جيـدة جـداً، وهناك يعيش المسيحيـون المطوقـون، وكان هناك فيها مضـى مشفى لفرسـان القـديس يوحنا في القدس، لكن جرى تدميره تماماً من قبل المسلمين.

١٧٠ — ثم إنك تأتي بعـد سفـر ستـة أيام إلى مكان فيـه نبع مـاء، يدعى نبع مـريم المباركـة، ذلك أن يوسف تلقى إنذاراً في المنام من قبل الملاك بأن عليـه أن يأخذ الطفل وأمـه، ويفـر إلى مصر، وقد جـاءوا إلى هذا المكان، ولم يكن بإمكان العـذراء المباركة متـابعة السفـر لمعاناتها من عطش لايحتمل، ولم يكـن لديها مـا تشربه، وبالنظر لآلامهـا المبرحـة وضعت الطفل الرضيـع على الأرض، وضرب الطفل الأرض بضربات لطيفة صدرت عن قدميه، فتفجـر نبع ماء طيب على الفور، وقد شربت واستردت قـواها، ويسقـي هذا النبع حـدائق البلسم حتـى هذا اليـوم، ويعــــرف المكان بـاسـم«المطريـة» ويستحم هنـاك كل مـن المسلمين والمسيحيين سواء.

١٧١ — ثم تأتي بعد خمسة أميـال إلى المدينة الجليلة والغنية والشهيرة التي اسمهـا القاهرة، التي بها أنها البلـدة الرئيسية، يسكن فيهـا السلطان الكبير، الذي هو سيد سـورية ومصر، والعربية، وعلى مقـربة منها يجري النهر، الذي يأتي من الجنة، ويسقي بلاد مصر كلها.

١٧٢ — ثم بعد ميـل تأتي إلى المدينة التي اسمها بابليـون، التي منها جاء دانيـال(كذا) الذي ألقي به في عرين الأسـود، وهناك سكنت مريم المبـاركة في أحـد الأماكن، وفي هذا المكـان توجد الآن كنيسـة القديسـة مريم دي لا سكالا Scala ، ويوجد هناك مكان سري آخر سكنت فيه مريم المبـاركة، ويعرف باسم القديسة مـريم دي لا كافا Cava ، وهناك كنيسـة جميلـة جـداً، وهناك أيضـاً يـرقـد جسـد بربـارا العـذراء المباركة.

١٧٣ — وفي مقـابل القـاهرة، على الطـرف الآخـر من النهـر، باتجاه الغرب، توجد أهراءات فرعون، الذي كان فيما مضى ملك مصر، وهي التي بنيت بناء على نصيحة يوسف بن يعقوب، الذي بيع في مصر.

١٧٤ — ثم إنك بعد سفـرك مائتي ميل تأتي إلى الاسكندرية، وذلك حيث استشهـدت كاتـرين المباركـة، وهي التي نقل جسـدها على أيدي الملائكة إلى جبـل سيناء من أجل دفنـه، وقصرها مـايـزال مـرئيـاً في الاسكندريـة، الذي لايمكـن لمسلم أن يسكـن فيــه بـأية وسيلـة من الوسائل.

١٧٥ — ويوجـد أيضـاً على بعـد ميلين إلى الشرق من الاسكندرية، كنيسة هي حيث استشهـد القديس مرقص الانجيلي، وكـان ذلك عندما كـان يقيم قـداساً في أحـد الأيام، فجـاء واحـد من غير المؤمنين ووضع حبلاً حول عنقه وقال:«خذ الوعل إلى مكان الوعول»، وقد نقل جسده فيما بعـد بشكل سري إلى البندقية، حيث هو مـوجود هناك الآن، فبعـد

نقله إلى هنا، يرقد بشكل مجيد.

١٧٦ — ثم تأتي بعد سفر يومين آخرين إلى دمياط، المدينة التي توفي فيها إرميا النبي المبارك، برجمه بالحجارة.

١٧٧ — ثم تأتي بعد هذا إلى يافا، التي هي الميناء العام للمسيحيين.

١٧٨ — ثم توجد على بعد عشرة أميال الرملة، التي عنها قيل:«صوت سُمع في الرامة، نوح وبكاء وعويل كثير، راحيل تبكي على أولادها ولاتريد أن تتعزى لأنهم ليسوا بموجودين»[متى:٢/ ١٧ — ١٨].

١٧٩ — ثم هناك على بعد ميل واحد اللد، حيث استشهد جرجس المبارك، وفي اللد هذه شفى بطرس المبارك رجلاً أعرجاً كان اسمه انيس Eneas.

١٨٠ — ثم إنك تقدم إلى قيسارية الفلسطينيين، التي جاء منها كورنيليوس قائد المائة، الذي عمده بطرس المبارك، ومن قيسارية هذه جاء المبارك فيليب، الذي كان واحداً من الشمامسة العشرة الذين اختيروا من قبل الرسل.

١٨١ — ثم إنك تأتي إلى أرسوف. التي كانت تعرف من قبل باسم أنتيباتر، وهي التي قامت فيما مضى على البحر بين قيسارية ويافا.

١٨٢ — ثم هناك أيضاً على بعد سبعة أميال من قيسارية، ميناء الحجاج (عثليت) الذي كان يعرف من قبل باسم بترا إنشيسا، التي كانت فيما مضى ميناء مشهوراً على ساحل البحر، وقد جرى نقل جسد يوفيميا المباركة، والعذراء الشهيدة من خلقدونيا، التي هي مدينة في بلاد الاغريق، إلى هنا بشكل إعجازي، حيث هي محاطة باحترام عظيم حتى هذا اليوم.

١٨٣ — ثم إنك تقدم إلى عكا، التي كانت فيما مضى مدينة مشهورة، حيث كان اسمها من قبل بطولميس، وهي تبعد ثمانية أميال عن كيفاس(حيفا)، وفي حيفا الموجودة تحت جبل الكرمل، يوجد البيت الرئيسي للرهبان الكرمليين، وعندما تنزل من الجبل سوف تصل إلى المكان الذي كان فيما مضى بيت النبي إيليا.

١٨٤ — وعلى بعد ثلاثة أميال عن جبل الكرمل يوجد جبل قيمون، الذي عند سفحه قتل لامخ قابيل بسهم، وكان ذلك خطأ منه حيث ظن أنه وعل.

ما يتعلق بالحج في طبرية والمناطق المجاورة لها

١٨٥ — نالت مدينة طبرية اسمها من تايبيريوس قيصر، وهي قائمة على شاطىء بحر الجليل، وقد اعتاد يسوع أثناء شبابه على زيارتها.

١٨٦ — وحدث هناك أن الصبي يسوع كان متأخراً، لكونه مع يهودي كان قريباً له، وغضب اليهودي، فما كان منه إلاّ أن التقط مشعلاً مشتعلاً، ورمى به نحو الطفل يسوع، راغباً بإصابته به، لكن المشعل ضرب الأرض، ونما على الفور شجرة ضخمة، ماتزال حتى هذا اليوم تزهر وتثمر.

١٨٧ — وأيضاً يوجد على مقربة من هذه المدينة ينابيع تتدفق بشكل دائم بالمياه الحارة.

١٨٨ — وأيضاً على بعد ميل عن طبرية توجد بلدة المجدل، التي منها تلقت مريم المجدلية اسمها.

١٨٩ — وعلى بعد أربعة أميال عن طبرية توجد بيت أوليا، وهي مدينة يودث، التي قتلت هولوفيرنس.

١٩٠ — وبحر الجليل هو بحيرة قائمة على حدود الجليل،

مياهها عذبة جداً وطيبة ولذيذة، وهي ذات حجم كبير بالطول وبالعرض، وعلى مقربة منها مدينة بطرس وأندرو،وهي التي اسمها بيت صيدا، وعليها ألقى الرب النوربحضوره.

١٩١ — ويطلق على هذه البحيرة أحياناً اسم جنسارث، لأن منها يتولد الهواء ويتجمع ليكون ريحاً قوية، بها تضطرب المياه، وتهب العاصفة، مما يسبب في الغالب غرق المراكب.

١٩٢ — وعلى هذه البحيرة مشى الرب جاف القدمين، عندما قال لبطرس — حين رغب في أن يقدم إليه، لكنه بدأ يغرق ويصرخ«يارب أنقذني» — :«آه منك يا قليل الايمان، لماذا شككت»؟، وفي مرة أخرى كان الحواريون في حالة رعب، فجعل مياه هذا البحر تهدأ، ويوجد على الرأس الأيسر من هذا البحر، في فجوة في الجبل، جنسارث، وهي المكان الذي يتولد فيه الهواء، وهو مايزال يشعر به الناس الذين يكونون في تلك البقعة.

١٩٣ — ويبدأ بحر الجليل فيما بين بيت صيدا، وكفر ناحوم.

١٩٤ — وتوجد كورزيم على بعد أربعة أميال عن بيت صيدا، وفي كورزيم سوف ينشأ المسيح الدجال، الذي هو مضل العالم، وعن هاتين المدينتين قال يسوع:«الويل لك بيت صيدا، والويل لك كورزيم».

١٩٥ — وعلى بعد خمسة أميال عن كورزيم تقع قيدار، وهي مدينة رائعة جداً، وعنها كتب في المزامير قوله:«أنا سكنت في خيام قيدار»[المزمور:١٢٠/ ٥].

١٩٦ — وكفرناحوم هي مدينة قائد المائة، وهي قائمة على الشاطىء الأيمن من رأس البحيرة، وفي هذه المدينة عمل يسوع كثيراً من المعجزات.

١٩٧ — وعلى ميلين من كفرناحوم تنزل من الجبل إلى المكان الذي وعظ فيه الرب الجمهور من الناس، وأعطى تعليمات إلى حوارييه، وعلمهم، وهناك شفى المجذوم.

١٩٨ — وعلى بعد ميلين من ذلك المنحدر يوجد المكان الذي أطعم فيه يسوع خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة وسمكتين، وجرى تخليف اثنتي عشرة سلة من الفتات، ويوجد هناك مكان اسمه المنعشة، أي مكان الانعاش، كما أنه فعل كثيراً من المعجزات بين الناس خاصة بين المصابين بمختلف الأمراض.

١٩٩ — وأظهر يسوع نفسه على مقربة من هذا المكان لحوارييه بعد قيامته حيث أكل:«جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من شهد العسل»[لوقا:٢٤/ ٤٢]، وذلك حسب رواية يوحنا.

٢٠٠ — وكان في الأجزاء العلوية من الجليل هذه العشرين مدينة، اللائي أعطاهن الملك سليمان إلى صديقه حيرام ملك صور.

٢٠١ — ومنطقة جليل الأمم هذه كلها واقعة في ديار سبطي زوبلون ونفتالي.

مايتعلق بحج دمشق وحدودها

٢٠٢ — وتلتقي حدود العربية وأدوم عند بصرى، وأدوم هي أرض دمشق، فالعزير خادم إبراهيم هو الذي بنى دمشق، وذلك كما يقول بعضهم، ولكن آخرون يقولون بأنها بنيت من قبل انسان اسمه«دمشق» في الحقل الذي قتل فيه قابيل هابيل، وقد سكن عيسو في دمشق، وهو أيضاً يعرف باسم سعير أو أدوم، ذلك أن كلمة سعير تعني الكثيف الشعر، وكلمة أدوم الأحمر، ولهذا السبب نالت البلاد اسم أدوم، هذا وجزء من تلك البلاد اسمه «عوز»، حيث منها أيوب المبارك، الذي وُجد صابراً وكاملاً وسط محنه، ويوجد في أدوم جبل سعير الذي تقوم

دمشق تحته.

٢٠٣ — وعلى بعد ثمانية أميـال عن دمشق، وعلى الطريق الذي يقود إلى صيدنايا[داريا]، هناك المكـان الذي ظهر فيه الرب يسـوع إلى شاول، وهو يقول:«شاول، شاول، لماذا تضطهدني»[أعمال الرسل:٩/ ٤]«صعب عليك أن ترفس مناخس»[٩/ ٦].

٢٠٤ — ويوجـد في دمشق كنيسـة، فيها تولى حنانيـا في أحـد الأيام تعميد شاول في جرن المعمودية وسماه بولص، وبذلك حول الذئب إلى حمل، وهناك يتولى المسيحيون المطوقون أعمال القداسات.

٢٠٥ — ويقال أيضـاً إنه يوجد في المدينة كهف كبير، يوجـد به كنز لاحدود له، وإذا ما مدّ إنسـان يده ليأخذ أي جزء من هذا الكنز، تندفع على الفور نار وتتـولى تدمير كل ما لمسـه، ولقد قيل بأن الاغـريق عندما كـانوا يتملكون هذه المدينة، بعـد الاستيـلاء عليهـا من قبل الامبراطور قسطنطين، بسبب حشـود المسلمين التي هاجمتهـم، وضعـوا كنوزهـم في هذا الكهف، وجعلوا كنوزهـم بوساطة فن السحر من غير الممكن نقلها حتى نهاية الزمان.

٢٠٦ — وعلى بعـد عشرة أميال عن دمشـق توجدمـدينة صيـدنايا، التي يوجد فيها الصـورة المبجلة لمريم العذراء المجيدة، والتي جلبت من القدس، وقـد تحولت هذه الصورة كلياً إلى تكـوين جسدي، لذلك هي لاتتـوقف لاليـلاً ولانهاراً عن إعطاء زيت مقـدس، وهـو الزيت الذي يحمل منه الحجـاج، الذين يـأتون إلى هناك من كل جـزء من العـالم، قـوارير صغيرة مـن زجـاج، وليس بإمكان أي مسلـم العيش في هذه المدينة، فهم دوماً يموتون في غضون سنة.

٢٠٧ — وعنـد سفـح لبنـان، بـاتجاه الشرق، ينبـع النهـــــــران المشهوران:أبانا، الذي يصل نفسـه بالبحر،في الشواطىء، إلتي فقـد فيها

يوستاس Eustace زوجته، ومن ثم لدى تخلي أولاده عنه رجع وحيداً، ويجري نهر فرفر(العاصي) خلال سورية إلى أنطاكية، ويتابع جريانه متجاوزاً أسوارها، وعلى بعد عشرة أميال عن أنطاكية يدخل إلى البحر، عند ميناء القديس سمعان(السويدية).

٢٠٨ — وفي أنطاكية تتوجت مرغريت العذراء الثمينة، بتاج الشهادة المجيد، وكان ذلك تحت إدارة المشرف على المدينة أولبريوس Olibrius (٢٥٨م)، وفي أنطاكية شغل بطرس المبارك كرسيه لمدة سبع سنوات، وهو متزين بأثواب الحبرية.

٢٠٩ — وأصل صور مدفون وسط الغموض، ويوجد أمام صور صخرة ليس حجمها صغيراً، عليها وقف يسوع عندما قال:«بل طوبى للذين يسمعون كلام الرب»الخ[لوقا: ٢٨/١١].

٢١٠ — وعلى بعد ثمانية أميال إلى الشمال من صور، يوجد على شاطىء البحر الصرفند، التي اسمها صرفند الصيداويين، التي سكن فيها فيما مضى النبي إيليا، عندما أقام من الموت ابن المرأة الأرملة.

٢١١ — وعلى بعد ستة أميال من الصرفند تقوم مدينة صيدا المشهورة، التي في خارج أسوارها شفى الرب الفتاة التي تلبسها الشيطان، وهي التي قالت أمها ليسوع:«والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها»[متى:٢٧/١٥]، ومن هذه المدينة كانت الملكة ديدو التي أسست قرطاج في أفريقيا.

٢١٢ — وعند سفح لبنان، وعلى بعد ميلين من صور، يوجد بئر نبع ماء، لكن نبع الحدائق يبعد ستة أميال عن مدينة طرابلس، عند سفح لبنان، باتجاه الغرب، وطرابلس مدينة مشهورة جداً في سورية، مليئة بكثير من المبهجات، وهي قائمة على البحر.

٢١٣ — وعلى بعد أربعة وعشرين ميلاً عن طرابلس توجد مدينة

أنطرسوس، وهي التي تعرف بشكل عام باسم طرطوس، ويوجد في هذه المدينة بيعة لها حجم كنيسة كبيرة، وقد قيل بأنها بنيت من قبل بطرس ويوحنا، حواريي الرب، وذلك تشريفاً لمريم العذراء المباركة، ولها احترام عظيم حتى هذا اليوم، لأنه يوجد فيها منافع كثيرة، تقدم بفضل تدخل العذراء المجيدة.

٢١٤ — وعلى بعد ستة أميال عن صيدا توجد بيروت، وهي مدينة ثرية جداً، كان فيها تمثال لمخلصنا، وقد صلب هذا التمثال بعد وقت قصير من آلامه، وجاء صلبه على يد اليهود سخرية منهم به، فتدفق دماً وماء، وبناء عليه فإن هؤلاء الذين صلبوه، آمنوا عندما رأوا المعجزة، وكل الذين حملوا مشاعر تقوى صحيحة وكاملة تجاه هذا التمثال، برئوا من كل مرض كانوا مصابين به، وجرى فيما بعد حمل هذا التمثال إلى روما.

٢١٥ — ووضع في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران، حيث هو محاط باحترام وتقوى من قبل الشعب المسيحي.

٢١٦ — وعلى بعد ميل واحد عن بيروت يوجد المكان الذي قتل فيه القديس جرجس — بفضل الصليب المقدس — التنين،وأنقذ عذراء من موت مشين، وأعادها سليمة وبحالة جيدة إلى أبيها، الذي كان ملك تلك البلاد.

— ٢ —

وصف جون بولونير للأرض المقدسة

(١٤٢١م)



تمهيد:

قال الدكتور توبلر Tobler لحسن الحظ أننا نعرف اسم صاحب هذا العمل، ثم تابع يحاجج بأن بولونير كان ألمانيا، وفي المقابل رأى الكونت ب. رينات Riantبأنه كان بولندياً، والبراهين التي أقـام الدكتور توبلر نظريته عليها هي أن المؤلف استخـدم كلمة كلافتيرن Klaftern ، لدى قياسه بالميل الألماني، مع إيضاحه لقرائه كم من الأميال الايطالية تساوي ميلاً ألمانيـاً واحداً، يضاف إلى هذا قـوله بأن فلسطين كانت مقـاطعة في الأرض المقدسـة، مثلما سكسوني واللورين' مقاطعتـان ألمانيتان، أو مثلهما توسكانيا ولومبارديا مقاطعتان من إيطاليا.

وأمكننا معـرفة تاريخ رحلتـه، لأنه هو نفسـه أخبرنا عن ليلة مرعبـة أمضـاها في ميناء بيروت وفي عشيـة عيـد القـديس تومـا سنة ١٤٢٢م، وحـدثنا أيضاً كيف كـان المسلمـون يحصدون على جبل الزيتـون،في يوم عيد القديس جـرجس(٢٣ — نيسان) ١٤٢١م، وبناء عليه من المحتمل أنه ذهب في طريق عودته إلى بيروت، ويتـوافق شرحه من حيث الجوهر — لاغـالبـا — بالكلمات نفسهـا مع كلمات بـوركـارد راهب جبل صهيـون، مع أنها تختلف عنهـا بالترتيب، ولقـد لاحظت وجـود توافق مستمـر بين الأمـاكن التي أريت لبـولنير، وتلك التي أريت لفـابري وغالباً ما جرى وصف هذه الأماكن بالكلمات نفسها، وهنا لانعرف فيما إذا كان فابري قد نقل عن متقدمـه، أو فيما إذا كانا قد كتبا القصة نفسها التي أخبرهم بها الحرس، والقندلفتية.

وترسو أهمية بولونير ومكانته في أنه أول حاج — بقدر ما نعرف — رسم خـريطة للأرض المقدسـة، مع أن خريطتـه لسوء الحظ قـد تلفت، ومع ذلك تمكن الدكتور توبلر من إعـادة رسمها بشكل موفق، واعتماداً

على الاشـارات التي وردت في النص إليهـا، وعلى الخريطة التي نشرها مارينوسانوتو، وليس من السهل في البداية، أبداً، فهم ترتيبات الخريطة، فهي مقسمة بوساطة خطوط، تشبه خطوط العرض والطول، الموجودة على الخرائط الحديثـة، لكـن يلاحظ أن الخطوط التـي تشبـه خطوط العرض فوق مسـاحة الخريطة عددها ثلاثة وثمانين خطاً، عبرها بالطول ثمانيـة وعشرون خطاً،وأخبرنا الدكتور توبلر بأن ترتيب المربعـات هذه، قـد استخدم من قبل مـوريس البـاريسي، الذي فقدت خـريطته أيضـاً، وقاس بولونير بالمسافـات بين الخطوط، وليس بالخطوط نفسها ، وأطلق على هذه المسافـات اسم المربعات بالنسبـة للعرض، والفراغـات بالنسبة للطول، وهذا يعنـي أن القـارىء لدى عثـوره على مكـان«تحت»كـذا وكـذا«مـربع»، من المتوقع هنـا منه أن يتولى تعـداد المربعـات على طول الحافـة الأطول للخريطة حتى يصل إلى المربع المذكـور، ثم بنظرته تحت أسفل العمود من هناك، سوف يجد المكان، وإذا كـان المذكور موجود في كذا وكذا«مربع»، يتوجب عليه تعداد المربعات على طول نهاية الخريطة، وينظـر على طول الخط، وليـس من السهـل شرح هـذا النظام مـن دون رسم بيـاني، لكن ربما سيكون هذا تكلفاً مـرهقـاً، نرى فيه مـؤلفنا فهيماً تمامـاً وبارعـاً باستخـدام الخريطة الحديثـة، وأخبرنا الدكتـور توبلر بأن موريس الباريسي قد عمل خريطة وفق هذه الطريقة، لكنها فقدت.

ومن الصعب أن نعتقـد أننا نمتلك هنـا رحلة بولونير كلهـا، ومن الصعب جداً أن نقبل بإمكانيـة أن حاجاً حـريصاً مثله، وكاتبـاً تقياً على غـراره، وصف حجـه إلى الأرض المقـدسـة، ومع ذلك لم يقـدم وصفـاً لكنيسة الضريح المقدس، التي كـانت الهدف الرئيسي لرحلته، فضلاً عن ذلك لدى قراءتنا لمطلع كتابه نشعر أننا نتعامل مع قطعة، هذا وليس من الواضح من أي مكـان من نصـه الحالي جـرى فقـدان وصف الضريح المقـدس، مـا لم نفترض أنه كـان في النص فصل مستقل أوقف على هذا

الموضوع، ثم إنه لم يعطنا أية حقائق جديدة مرتبطة بالجغرافية القديمة، ولابد من أن نقنع أنفسنا باستخراج بعض الاشارات التي فيها بعض معلومات مفيدة حول أوضاع كنائس وبيع في الأرض المقدسة والقدس، وقبيل النهاية كرر نفسه، وأعطانا القائمة المعروفة بالأسماء التي نجدها لدى جميع كتاب رحلات الحج الذين استخدموا «الخلاصة الوافية»، وراجع في هذا المقام رحلتي ثيودورك وفيتلوس، اللتان تقدمتا من قبل، وهنا يتضح أنه على الرغم من أن بولونير قد زار الأرض المقدسة في وقت متأخر كثيراً بعد هذين الكاتبين، نجده يقلد عرضهما تقليداً قريباً، وقد نقل المزيج نفسه من سوء الفهم الجغرافي، من المصادر نفسها، أو مصادر مماثلة.

وصف جون بولونير للأرض المقدسة

أبواب مدينة القدس

فيما يلي وصف الأبواب التي كانت موجودة في سور مدينة القدس، والتي ورد ذكرها في نص الكتابات المقدسة، وكان اسم أول الأبواب«باب داوود»، وهو الباب الأعلى للمدينة في الزاوية الغربية، وقد عرف بهذا الاسم لأن برج داوود مطل عليه، وقد عرف أيضاً باسم«باب السمك»، لأن من خلاله يمر الطريق من يافا واللد وساحل البحر، ومن خلاله أيضاً يأتي التجار، جالبين مختلف السلع من أثيوبيا ومصر، وهذا الباب قائم في السور القديم، وهو ملتصق في هذه الأيام بسور الجزء الذي بني من أجل الاحاطة بضريح الرب، ويقود الطريق من هذا الباب إلى ثلاثة اتجاهات: الأول عبر حقل القصار، والثاني وهو الذي كان موجوداً على جهة اليسار، ويقود إلى بيت لحم وحبرون، والثالث هو الذي ينزل نحو جهة اليمين من خلال وادي رفئيم، وذلك تحت قلعة بيت سورا، التي تبعد خمس غلوات عن القدس.

أما الباب الثاني فهو الذي كان اسمه الباب القديم، وكان إلى الشمال من الباب الأول في السور القديم، وهو موجود منذ أيام اليبوسيين، وهو أيضاً يعرف بباب القضاء، لأن محاكم العدالة كانت تعقد هناك، وكل ما كان يقرر بحكم من القضاة، كان هناك يجري تنفيذه.

أما الباب الثالث فهو باب إفرايم، في الجزء العلوي(من المدينة) باتجاه الشمال، ويمر من خلال هذا الباب طريق يقود إلى جبل إفرايم والسامرة، ومن هنا يأتي السور الذي كان قد بني من برج داوود صعوداً إلى هذا الباب من أجل الاحاطة بضريح الرب، وللالتقاء بالسور القديم، ويعرف هذا الباب الآن باسم باب القديس اسطفان، لأن

القديس اسطفان قد رجم خارجه.

وكـان الباب الرابـع هو باب الزاوية، وكان مـوجـوداً عند الرأس في الطرف الشرقي، وذلك عنـد زاوية السـور فـوق وادي قـدرون، ولهذا نحن نقرأ في سفر الملوك[الثـاني:١٤/ ١٢، أخبار الأيام الثاني:٢٥/ ٢٣]، بأن يوشع ملك إسرائيل قـد خرق سور القـدس من باب إفرايم حتى باب الزاوية، وذلك لمسافـة أربعمائة ذراع، وكان أيضـاً يعرف باسم باب بنيـامين، لأن هذا الباب يقـود إلى عناتا وإلى المدن الأخـرى التابعـة لهذا السبط.

وكـان الباب الخامـس هو باب القاذورات، فمن خـلال هذا البـاب، تنساق جميع قـاذورات المدينة في أثناء الأمطار، لتصب في وادي قدرون، ويقود الطريق مـن خلال هذا الباب إلى القفـار القائمـة فيما بين القدس وأريحا، وهي الفيافي التي تعرف الآن باسم فيافي القرنطل.

وكـان البـاب السـادس هوبـاب الوادي، وكـان يعـرف باسم باب القطيع، لأن من خـلاله كـانت قطعـان الأغنام تسـاق للتضحيـة بها في الهيكل، وعلى مقربة منه — وعليهـا كان يعتمد — كـانت بركة الضأن، حيث كان يجري غسل الضحـايا، ومجاور إلى هذا الباب كـان يقوم برج حننئيل، وهو الذي عـرف أيضاً باسم برج السحـاب، كما ورد في النص قوله:«ها أيام تأتي، يقـول الرب، وتبنى المدينة للرب من برج حننئيل إلى باب الزاويـة»[إرميـا:٣١/ ٣٨]، وهو الذي كـان يعـرف بـاسم باب بنيـامين، وكـان هيرود الكبير هو الذي أقـام هذا البرج وسماه برج أنطونيا، وكان ذلك تشريفاً لأنطونيوس، ويقود الباب إلى جبل الزيتون، وبيت عنيا، والأردن.

وكان الباب السابع هو الباب الذهبي، ولايقود هذا الباب مباشرة إلى المدينة، بل إلى الهيكل من خـلال تقـاطع قصير من جبل الزيتـون، فـوق

قوس قائم في وسط شعفاط.

وكـان الباب الثـامن هو باب الماء، وقـد عـرف بهذا الاسم، لأن من خلاله كـان الماء ينقل من بركة سلوان، وكان هذا البـاب قائماً في الزاوية التي يلتقي فيهـا جبل صهيـون بجبل مـوريـا. أو جبل الحشيش، عند زاوية السـوريـن: أي سـور جبل صهيـون، والسـور الذي يحيط ببيت الملك، ويقـود(هذا البـاب) إلى نبع سلوان، ووادي أبنـاء عنون، ونبع روجل، وحقل الدم.

ولاأعتقـد أن المدينة تمتلك أبواباً أخرى أكثـر من هذه الأبواب، لأنه بسبب وضعهـا، لم تتـوفـر حـاجـة إلى المزيـد من ،الأبواب، وبين هذه الأبواب ثلاثة هي الأكثر شهرة من البقيـة، وهي: الباب الأول، والباب الثالث، والباب الرابع بين الأبواب الثمانية التي تقدم ذكرها أعلاه، ومن جهـة الجنوب وجهـة الشمال تطل حـافـة جبل صهيـون فـوق المدينة، ومعروف أن ذلك الجزء من الأسوار، مع الأبراج ليس فيه أبواب.

ها هي مـدينة الملك العظيم، التـي لم تستطع جميع كنائس العـالم أن تقدم شبيهـاً لها، وهي التي كان فيما مضى قائماً من حـول أسوارها ثلاثة وثمانون برجـاً، وسبـع قـلاع حماية، التي خـرائبهـا من الممكن رؤيتهـا بوضوح كامل في هذه الأيام في الجانب الشمالي ، وفيمايلي:

ترتيب نظام الحج خلال مدينة القدس والأماكن الأخرى التي من حولها

يوجـد في الساحة، خـارج كنيسة الضريح المقـدس، أربع بيع، الأولى بينها مـوجودة على جهـة اليسار، للخارج، وهي بيعـة العذراء المبـاركة، ويوحنا الانجيلي، لأنه ها هنا وقفـا في أثناء الصلب، والبيعة الثـانية هي الأقـرب إلى هذه الأولى،وقـد بنيت في الزاويـة، وهي مكرسـة لجميع الملائكة، والبيعـة الثالثـة قائمـة على الطرف نفسـه، وهي بيعة القـديس

يوحنا المعمدان، والبيعـة الرابعة قـائمة على جهـة طرف اليمين للخارج من الكنيسـة، وذلك على مقربة من برج النـاقوس، وهي بيعـة القديسـة مريم المجـدلية، والبيعة الأولى هي بأيدي الهنود، أما الثـانية فهي بأيدي اليعاقبة، والثالثة بأيدي الجورجيين، والرابعة بأيدي الاغريق.

وفي منتصف الطريق بين هذه البيع الأربع هناك إحـدى عشرة خطوة تبعـد عن الدرج إلى الجمجمة، وهنـاك يوجد مكان عليـه عـلامة فـوق البلاط، هو حيث استراح الرب يسوع، عندما جلب من بيت بيلايطس، وقد استراح فيه ومعه صليبه، بينما وقف الحرس من حوله.

وعلى مقربة من السـاحة المفتوحة أمام الكنيسـة يوجد السجن لمقترفي الشرور، وبابه متجه نحو باب الكنيسـة، وذلك على بعد عشرين خطوة، ويذهب الانسـان من هناك باتجاه الشرق من خـلال شـوارع المدينة إلى قـاعـة محكمـة بيـلايطس، وينبغي أن نعـرف أن المسـافـة من مـوضع الجمجمة، إلى قاعـة القضاء المتقدمة الذكـر هي أربعمائة وخمسين خطوة، ذلك أنني قستها بنفسي بكل عناية ممكنه، لأن المسـافة هي مائتين وخمس وسبعين خطوة إلى بيت الرجل الغني الذي رفض أن يعطي الفتـات إلى العازر عنـدما كان مـريضاً، ومن هناك إلى اليسـار خمس وسبعين خطوة إضافيـة حيث المكان الذي تلتقي فيه الطـرقات الثلاثة مـع بعضها،ليس بعيداً عن البـاب الذي يقود إلى السامرة، وكفـرناحوم، وجمالا، وفي هذا المكان نفسـه أرغم سمعـــان القيرواني على حمل صليب المسيح، وفي هذا المكان نفسـه قـــال الرب للنسـاء النائحـات:«لاتبكين يـا بنات القـدس عليّ»الخ، وبعـــد أربعين خطوة أخـرى نحـــو اليمين، وعلى مقـــربة من الطريق، يوجد المكان الذي وقفت فيه العـذراء مريم، وهي راغبة برؤية ولدها المحبـوب، الذي جلب مع حشد عظيم من بيت بيـلايطس، وهو مثقل كثيراً بحمل الصليب، وكان ذاهباً للصلب عندما رأته يبصق وهو مغطى بالدم، وقد نسيت جميع مواساتها المتقدمة، وفقدت وعيها وذهبت

في غيبوبة، وسقطت شبه ميتة، وظلت مرمية حتى تمّ رفعها وحملها بعيداً من قبل النساء الأخريات، ويوجد في هذا المكان نفسه كنيسة بنيت على شرفها، وقد جرى تدميرها من قبل الخونة المسلمين، ومن الممكن رؤية خرائبها في هذه الأيام، وكان اسمها القديسة مريم المغمى عليها.

وعلى بعد ست وخمسين خطوة أخرى، يرى الانسان القوس المقنطر الذي يعبر الطريق، فهنا يوجد مكان البلاط، الذي اسمه جباتا، وفوقه من الممكن رؤية صخرتين بيضاويتين، عليهما وقف الرب يسوع في محكمة بيلايطس، عندما أجاب على أسئلة ذلك القاضي، وهناك يوجد المكان الذي رفع عليه علم الجنود، وتحت القنطرة المتقدمة الذكر من الممكن رؤية مكان مدرسة العذراء المباركة، حيث تعلمت أثناء طفولتها الكتابة، وعلى بعد خمس وعشرين خطوة عن هذه القنطرة توجد قاعة المحاكمة، وهناك يوجد الباب الذي دخل منه، كما يوجد باب آخر خرج منه بعد صدور الحكم عليه، وهذان البابان كلاهما مغلقان، ومبنيان بالحجارة، وماتزال الأساسات القديمة موجودة، وهذا البيت مزين بالفسيفساء،ومنحوت على شكل حلقات الاسطرلاب، وهو نحت لايمكن رؤيته تماماً، وعلى بعد قليل خلف قاعة القضاء يوجد بيت بيلايطس، هذا ويقوم الآن أمام قاعة القضاء هناك بيت، هو في هذه الأيام بيت المحكمة لقاضي المدينة.

وعلى بعد ثلاث وثمانين خطوة إضافية على طول الشارع نفسه، وإلى الشرق من قاعة القضاء المتقدمة الذكر،وعلى جهة يدك اليمنى، يوجد الباب الأول الذي يقود إلى شارع هيكل سليمان، ويوجد ثلاثة من هذه الأبواب في هذا الشارع، موجودة على جهة الشمال، والباب الجميل هو الأقرب إلى الهيكل، وذلك نحو الغرب منه، وعلى مقربة من مشفى الدمشقيين، وليس بعيداً باتجاه جنوب هيكل سليمان[قبة الصخرة]، وفي

داخل الاطار نفسه من الأسوار، يوجد هيكل الرب(الأقصى) الذي كان فيه يجري تقديم أول الأولاد الذكور ولادة، وهناك جرى تقديم يسوع أيضاً، وقد حمله سمعان بين ذراعيه، وله سقف رصاصي، وسدة وفق طرائق المسلمين، متجهة نحو الجنوب، وعشرين نافذة على كل جانب، وهوقائم في الزاوية القصوى للمدينة باتجاه وادي سلوان، ثم ينزل الانسان من شارع قاعة القضاء، ويسير مسافة جيدة إلى اليسار، وهناك ربما يمكن رؤية بيت سمعان الفريسي، فهناك جرى إعفاء المجدلية من ذنوبها.

ثم إذا ما استدار الانسان نحو الخلف ثانية في شارع القضاء، يجد بيت يواكيم، وذلك حيث ولدت العذراء مريم، ويوجد في هذا المكان كنيسة، هي الآن في أيدي المسلمين، وهي تبعد مسافة ثمان وستين خطوة من أول باب من أبواب هيكل سليمان، زيادة على هذا إنه على بعد أربعين خطوة طويلة بشكل مستقيم من بيت يواكيم، يوجد باب القطعان أو الوادي، وفي هذا الطريق توجد بركة الضأن، وهي قائمة على جهة اليمين نحو هيكل سليمان.

والمسافة من هذا الباب نفسه إلى القوس المقنطر فوق قدرون مائة وثلاث وستين خطوة طويلة، وعبر قدرون، كان ممدد فيما مضى شجرة، وهي الشجرة التي تألم المسيح عليها، وقد عرضت هذه الشجرة على ملكة سبأ، التي كانت ملكة الجنوب، وهي التي جاءت من أقصى أجزاء الأرض لتسمع حكمة سليمان(متى:١٢/ ٤٢)، وحول هذا الموضوع يقرأ الانسان في سفر الملوك[الأول:١٠/ ١ — ٢]:«وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة»، وتحت صورة هذه الملكة يوجد نموذجاً رائداً للكنيسة، جاء من عند الأمم.

وأخيراً هناك، عبر البركة، على جهة اليسار، ونزولاً ثمان وعشرين خطوة تحت وادي شعفاط، ونزولاً أيضاً ثمان وأربعين درجة، توجد كنيسة جميلة، فيها ضريح مريم العذراء المجيدة، بطول ذراعين ممدودين وثلاثة من الأصابع الوسطى متصلة، وفيها ثمانية مصابيح مشتعلة باستمرار، والمذبح الأول، القائم إلى جانب الضريح، هو بأيدي الأرمن، والثاني، الموجود تحت القنطرة المظلمة، هو بأيدي الجورجيين، والثالث، الموجود تحت نافذة في النهاية الشرقية، هو بأيدي الاغريق، والرابع موجود في جهة الشمال، وهو بأيدي الرهبان الفرنسيسكان، والخامس موجود على جهة اليسار للدرجة الأولى للسلم، وهو بأيدي اليعاقبة، وينبغي أن نعرف أنه في الجهة نفسها للسلم، هناك مذبح هو بأيدي الهنود، وترقد في هذا المكان نفسه الملكة ميليساند، وهي التي أمرت ببناء هذه الكنيسة.

وعلى بعد أربع عشرة خطوة باتجاه الشرق من الباب، يوجد المدخل إلى الكهف الموجود تحت الصخور عند سفح جبل الزيتون، فهناك تعرق الرب يسوع، وهو يتألم، نقاطاً من دم، وكان ذلك لدى صلاته ثلاث مرات،وعلى مقربة من الصخرة الكبيرة، على طرف الجبل، وعلى رمية حجر قوية نحو الجنوب من مكان الأسى هذا، جلس الحواريون الثلاثة الذين وجدهم نائمين، وعلى مقربة من هذا المكان، وعلى بعد ثمان خطوات، توجد الحديقة التي اسمها حديقة الورود، وهي متجهة نحوالبركة، وقائمة أمام الباب الذهبي تماماً، ففي هذه الحديقة جرى اعتقال المسيح، وهناك ضرب بطرس خادم الأمير، لأنه غالباً ما التقى بحوارييه هناك، فضلاً عن هذا لقد قيل بأن هذا هو الباب الذي عنه قال حزقيال:«هذا هو باب المقدس الخارجي المتجه للشرق، وهو مغلق، فهو قد دخل من خلاله، ولايدخل منه إنسان لأن الرب دخل منه»[حزقيال:٤٤/ ١ — ٢].

وتوجد جيسماني، حيث أقام الحواريون الثمانية الآخرون، وهي منخفضة نزولاً نحو الجنوب وعلى بعد رمية سهم عن الحديقة، وعلى بعد خمس وأربعين خطوة صعوداً من الحديقة هناك علامة الموضع الذي صعدت منه العذراء المباركة إلى السماء، تاركة حزامها للقديس توما الذي لم يكن مع رفاقه الحواريين، عندما جرى حمل جسد العذراء المجيدة إلى السماء.

ونصعد الآن إلى جبل الزيتون بوساطة طريق وعر يقود إلى باب القطيع، فوق الوادي وعبره، فهناك المكان الذي بكى المسيح فيه عندما رأى مدينة القدس، وذلك حسبما نقرأ في حكاية الانجيل، ويبعد هذا المكان نفسه مائتي خطوة وعشر خطوات عن المكان المتقدم الذكر، وهذا الطريق هو الذي سار الرب عليه راكباً في يوم أحد السعف، وهو الذي يفصل جبل الزيتون عن جبل الجليل، ويسير الانسان من مكان النحيب مائة خطوة وخمس وتسعين خطوة زيادة إلى المكان الذي جلب إليه الملاك جبرائيل سعفة النخيل إلى العذراء المجيدة، وأخبرها سلفاً بمغادرتها لهذا العالم.

ومن هناك يترك الانسان الطريق، ويمضي صعوداً مائة خطوة وعشرين خطوة إلى اليسار صعوداً لجبل الجليل، حيث فوق ذلك الموضع ظهر المسيح للمرة الخامسة والأخيرة لحوارييه، وذلك حسبما وعد، ويوجد هناك موضع بني فوقه بشكل جيد، حيث توفر غفران وتوبة، وقد أعطى هذا الآن إلى المدينة المقدسة، حيث يوجد هناك بيعة مستديرة، مساحتها من المحيط الخارجي ست عشر خطوة، وفي داخل هذه البيعة يمكن للانسان رؤية علامة قدم المسيح اليسرى، التي طبعها على الصخرة عندما صعد إلى السماء، ومساحتها بالطول شبر، واصبعتين ملتصقتين من الاصبع الوسطى، ويقدم المسلمون في هذه الكنيسة صلوات تقوية، ولديهم صخرة مماثلة، فضلاً عن هذا لقد كتبوا فوق

باب البيعـة نفسها بخط أحمر وبأبجـديتهم:«أنا باب الرحمة»، وعلى بعـد خطوة واحـدة مـن تلك البيعـة، وعلى مقـربـة من باب مغلق في الجدار الشرقي هناك ترقـد صخـرة لايمكن تحريكهـا، عليهـا جلس المسيح في صعـوده، ووعظ حوارييـه، وعلمهم مـايتعلق بالأشكال السبعـة للروح القدس.

وكـذلك من الجانب الجنوبي لهذه الكنيسة، وفي الخارج يوجـد طريق نازل طوله ثماني عشرة خطـوة إلى بيعـة، فيهـا تابت القـديسة بلجيـا واعتكفت، وفيهـا ترقد مـدفـونة، مع صخـرة عظيمة مـوضـوعة فـوق ضريحها المرتفع.

فضـلاً عن هذا، على بعـد خمسـة أثمان الميل عن جبل الزيتـون، باتجاه الأردن، أو باتجاه الشرق، من الممكن رؤية مكان منعـزل، قـرب الوادي الذي اسمـه بيت فـاجي(بيـت الفك)، فمن هذا المكـان بعث المسيح جيمس ويوحنـا ليجلبـا له أتانـا وفلوها، وهذا المكان مـوجـود على منتصف الطريق من جبل الزيتون إلى بيت عنيا، وإذا ما استدار الانسان نحو الخلف إلى جبل الزيتـون، فإنه يسير على طول الطريق الذي يفصل ذلك الجبل عن جبـل العـدوان، القـائم على جهـة اليسـار نحـو وادي جيحون، ففوق هذا الجبل نصب سليمان صنم مولوك وتعبده.

وعلى بعـد عشرين خطوة من بيعـة القديسـة بلجيـا المتقدمـة الذكـر، يوجـد المكان الذي وضع فيـه الحواريون معـاً واحـداً تلو الآخـر بنود العقيـدة الاثني عشر، وفي هذا المكان مـن الممكن رؤية خـرائب كنيسـة القديس مـرقص، وعلى بعد عشر خطوات أكثـر نحو المدينة، هناك ممدد فوق الأرض صخرة كبيرة، عليها وعظ المسيـح حوارييه وعلمهم حول السعادات القصوى الثمانية، وأيضاً على بعد اثنتين وعشرين خطوة نزولاً يوجد المكان المحدد، الذي علـم عليه الرب يسـوع حوارييه الصلاة، كما نقـرأ في متى:٦، وانتبـه إلى الحجر المحفـور عليـه بأحـرف عبرية، الذي

وضعـه المسلمـون على عتبـة البـاب، وإذا مـا نزل الانسـان اثنتي عشرة خطوة أخـرى، يأتي إلى المكان الذي غـالبـاً مـا أراحت مـريم العـذراء المباركة نفسهـا فوقه، عندما كانت تشعـر بالتعب أثناء زياراتها التعبدية اليومية.

وينزل الانسان بعد هذا إلى اليسار، نحو وادي سلوان، فيرى الكنيسة الصغيرة العائدة للصليب المقدس، التي فيها ثلاثة مذابح، وعلى مقربة منهـا، وعلى بعـد ست عشرة خطوة باتجاه الجنوب، يوجـد مقـر سكنى يهوذا الاسخـريوطي، والمكان الـذي شنق نفسـه فيـه، وتحت الصخـور قرب المدينة، وعل بعد رمية سهم عن الكنيسـة الصغيرة المتقدمة الذكر، يوجد ضريح زكريا، الذي قتل فيما بين الهيكل والمذبح، وملاصق لذلك المكان توجد بيعـة يوجد فيها كـوة في الجدار لها شكل تنور، فيها أخفى جيمس الأصغر نفسه لخوفه أثناء آلام المسيح وموته، وقد ظل فيها حتى ظهر الرب له.

ومن هذه البيعة هناك طريق إلى نوع من المساكن منحوت في الصخرة التي فوقه، حيث قيل هنا كان بيت الحواريين المباركين:فيليب وجيمس، وعلى بعد خطـوتين إضافيتين، فوق في مـواجهة زاوية سـور المدينة، من الممكن أن نرى بناء مـدهشاً حقـاً، بدون باب، على شكل بيعـة مربعـة، وقـد قـال بعضهم عن هذا البناء بأنـه قبر الملك شعفـاط، الذي منه نال الوادي اسمه، وأعلن بعضهم الآخر بأنه ضريح ابنة فـرعون التي أحبها سليمان بوله، وذكر بعضهم أيضاً بأنه قبر أبسالوم بن داوود.

واعرف أنـه من القنطرة الثانيـة للجسور القـائمة فـوق وادي قدرون عند هذا المكان، يوجد ستمائـة خطوة طويلة وخمس عشر خطوة طويلة، إلى الدرجـة الأولى للسلـم الذي يقـود صعـوداً إلى الكنيســة على جبل الزيتـون، وعـدد درجـات هذا السلم عشرين درجـة، وقـد أضفت هذا حتى يمكنني إظهـار الجبل المتقـدم الـذكـر، وفي هذا المكان نفسـه تحت

الصخور عند سفح جبل الزيتون يسكن هناك فلاحون ورعاة.

ثم ينزل الانسان بعد هذا إلى قعر مجرى الماء المتجه جنوباً إلى البئر الذي يقال بأن مريم العذراء المباركة قد استحمت بمياهه وغسلت قطع قماش القماط العائدة للرب الرضيع، ويفصل هذا النبع وادي شعفاط عن وادي سلوان، فعلى بعد مائتين وخمس وخمسين خطوة إلى الجنوب من هذا النبع، وعند سفح جبل صهيون، يوجد نبع سلوان، الذي منه تتجمع المياه في البركة السفلى، التي تعرف باسم بركة سلوان للاغتسال، التي عندها جرى شفاء الرجل الذي ولد أعمى، وذلك حسب رواية يوحنا، وعلى بعد رميتي حجر من هذا الجبل نفسه، يمكن للانسان أن يرى كومة من الحجارة، ففي ذلك المكان جرى دفن إشعيا، وهناك أيضاً جرى قتله.

ثم يصعد الانسان إلى جبل مرتفع باتجاه الجنوب، حيث يوجد على جانبه كثيراً من الكهوف والأقبية، فيها أخفى الحواريون أنفسهم في أيام آلام المسيح، وهي التي اعتاد فيها بعد أن يسكن فيها النساك المسيحيون، وعلى بعد ثلاثين خطوة فوق هذه الكهوف يوجد الحقل الذي اسمه أكلداماك(حقل الدم)، الذي شري مقابل الثلاثين قطعة فضية، وله تسع فتحات من خلالها يجري رمي جثث الموتى.

ويوجد فيما بين بركة سلوان وحقل الدم، جدول قدرون الذي يستجر مياهه من الأجزاء العليا للمدينة ومن الجبال، وفي الحقيقة هناك قرب راما وعناتا طريق طويل من ضريح العذراء المباركة، يمكن للانسان أن يسمع نواحها تحت الأرض، ويمضي الانسان نزولاً تحت جبل العدوان إلى وادي جيحون أو توفت، حيث يوجد فيه صخرة زوحل، وبئر روجل، وذلك حيث ضحى أدوناي بقرابينه، ويوجد في هذا المكان حقول خصبة، لأن هذه المياه تمر خلالهم، وعندما يكون الانسان قد رأى هذه الأشياء كلها، لابد من عودته نحو المدينة عبر

الطريق نفسه الذي جئنا عليه، وذلك حتى بيعة القديس جيمس الأصغر، التي هي إلى جانب القوس المقنطر فوق قدرون، الذي أتينا على ذكره من قبل، عندما كنا قادمين نزولاً من جبل الزيتون.

والآن يوجد من هذا القوس إلى بيت كيفاس، الموجود على قمة جبل صهيون، سبعمائة وثلاثين خطوة، وفي الصعود إلى أعلى، يمكن للانسان أن يأتي أولاً إلى مكان من الممكن أن يشاهد فيه باب مغلق، منه مرت العذراء المباركة عندما قدمت يسوعاً في الهيكل، ولدى الذهاب صعوداً من هناك، باتجاه الغرب، يصل الانسان إلى المكان الذي اسمه«صياح الديك»، حيث بكى بطرس، وهو يبعد مائة وسبع وثمانين خطوة من بيت كيفاس، ويمضي الانسان صعوداً من المكان المتقدم الذكر، ويسير ثمانين خطوة باتجاه الغرب، وعلى مقربة من باب شارع اليهود، وهو الباب الذي يتطلع إلى خارج المدينة باتجاه الغرب، هناك مكان معلوم، عنده احتشد اليهود وتآمروا ليقوموا بخرق حرمة جسد العذراء المجيدة، عندما كانت محمولة من قبل الحواريين من أجل الدفن.

ويوجد على بعد ست وسبعين خطوة من الباب المتقدم الذكر شارع كنيس اليهود، وهو يمتد لمسافة مائتين وسبع وثلاثين خطوة، أي حتى المدخل إلى الشوارع المسقوفة، ومن هذا المدخل هناك ثلاث وتسعين خطوة حتى برج داوود، ومع أنه كان فيما مضى حي اليهود فإن أعداد كبيرة من المسلمين هي التي تسكن هناك، وفي الشارع التالي لهذا الشارع، يوجد البيت الذي ربط فيه القديس بطرس بالسلاسل، ومكان سجنه هو الآن فرن خباز، وفي هذا الشارع نفسه هناك باب صغير متجه نحو الجنوب، اسمه بلغتهم خرم الابرة، وبناء عليه قال الرب:«إنه أسهل للجمل أن يدخل من خرم الإبرة»الخ، ومن المكان المتقدم الذكر الذي جرت فيه محاولة السرقة العنيفة(لجسد العذراء) إلى المكان الذي توفيت فيه مائة وثلاثين خطوة، حيث توليت تعدادها بقدر ما استطعت

من دقـة، وعلى كل حـال، أول مـا يراه الانسـان هو بيت عناس، الذي كـان الكاهن الأعلى، حيـث توجـد كنيسـة جميلة بها فيـه الكفـاية هي للأرمن، وهي مـزينة بأضواء ومصابيح، وفيهـا أربعة أعمـدة مستديرة، وعلى بعد رميتي حجـر نحو الأعلى يوجد بيت كيفـاس، وهو قائم على قمـة الجبل، وكما تقـدم الذكـر، فيـه الآن كنيسـة صغيرة اسمهـا بيعـة القديس المخلص، وهي جديرة بهذه التسميـة، لأنه قد وضع فوق مذبح هذه البيعـة الصخـرة الكبيرة، التي كـان فـم ضريح المسيح مغطى بها، فضلاً عن هذا، يوجد خلف المذبح وفوقه، صورة تمثل تغيير الهيئة، وفي هذا المكان نفسه، على مقـربة من المذبح، وعلى جهة اليـد اليمنى، يوجد سجن المسيـح، الذي حبس فيــه حتى اجتمع اليهــود، وتشــاوروا، وأسمعـوه الادعـاء ضـده، وهـذه البيعـة هي أيضـاً بأيدي المسيحيين الأرمن.

ويوجـد أيضاً على الجبل نفسـه نحـو شارع(؟) المكان الذي دفن فيـه القديس اسطفان للمرة الثانية، وأيضاً على بعد اثنتين وعشرين خطوة إلى الجنوب خلف سـدة(كنيسـة جبل صهيـون) مكان المطبخ، حيث جـرى إعـداد خروف العشـاء الأخير للأكل، وحيث أيضاً جـرى تسخين الماء من أجل غسل أقدام الحواريين، وأيضاً إلى المكان نفسه، الذي هو الآن بيت للسكن، أرسلت روح القدس وأنزلت على الحواريين، وهناك أيضاً جـرى دفن داوود وسليمان وعدد كبير آخـر من ملوك القدس، ويوجـد أيضاً في أرض مقبرة هذه الكنيسـة نفسها، مكان معلم، هو المكان الذي وعظ فيه الرب يسوع نفسه في يوم صعوده ووجه اللوم لحماقة حوارييه، وأرسلهم إلى جميـع أنحـاء العــالم، غير أنه ذهب معهـم أولاً إلى جبل الزيتون وبعدما منحهم مباركته صعد إلى السماء.

وعلى بعـد اثني عشر قدمـاً من هذه الصخـرة المكتوب عليهـا، هناك صخرة أخـرى مثبته في الأرض، فوق المكان الذي جلست فيـه العذراء

مـريم، وأصغت إلى مـوعظة ابنها، وأيضـاً على بعـد خمس خطوات من هناك يوجـد المكان الذي قـام فيه بيتهـا، الذي سكنت فيـه بعد صعـود ابنهـا، وأيضـاً على بعـد ثلاث عشرة خطوة عـن هناك، وفي هذا المكان الذي انتخب فيـه القـديس متى من قبل جميع الحواريين، وكـان ذلك في اليوم التالي للصعـود، وفي المكان نفسه جرى انتخـاب السبعة الشمامسة، الذين جـرى بحق تعيينهم لخدمـة الأرامل، وبين هؤلاء الشمامسـة كـان اسطفان هو الأول، وفي هذا المكان نفسه جرى انتخاب القديس جيمس الأصغر من قبل الحواريين ليكون أول أسقف للقـدس، وعلى بعد عشر خطوات أكثر هناك مكان التعبـد، وذلك حيث غادرت العـذراء المجيدة من هذا العالم، وعلى بعد ثمان خطوات أكثـر باتجاه بيت كيفاس، يوجد مكان فيه بيعة.

ومعنى اسم جبل صهيـون هو«برج المراقبـة»، ولاحظ أن البتراء التي هي في الصحـراء، أي في العـربيـة، يمكن مـراقبتهـا ورؤيتهـا من ذلك الجبل، فقـد رأيت من هناك نهر الأردن يـدخل إلى البحـر الميت، لكن ذلك كان في الصبـاح الباكر، لأنه عندما تصعـد الشمس إلى قبة السماء، يبـات من غير الممكن رؤية مجراه، والآن في كنيسة جبل صهيـون، حيث يقف النجم العـالي، في هذا المكان بـالذات تعشى المسيح مع حـوارييـه، وأعطاهم جسده ودمـه، ولهذا السبب أطلق عليها من قبل المسيح، اسم قاعـة العشاء الكبير، وأيضاً هناك مـذبح آخر قـائم في الزاوية على جهة اليمين، في المكان الذي غسل فيه أقدام حـوارييه في الليلة نفسها، وأيضاً يوجد خلف المذبح العالي، في الجهة الخارجية فوق، المكان الذي أرسلت إليـه الروح القـدس،المطمنة، وكـان ذلـك في يوم عيـد الحصـاد، وذلك حسبما تقـدم الوعد للحـواريين، ومباشرة تحت هذا البناء، في قبـو طوله سبع خطوات، وله نافـذتين صغيرتين في الجهة الشرقيـة، مدفـون داوود وابنه سليمان، ومثل هذا هناك في الطابق السفلي للدير، بيعـة قائمـة فوق

المكان الذي أدخل فيه القديس توما يده في جنب المسيح، وكان ذلك بهدف تقوية إيمانه وتمتينه.

واقتيد حجنا من هذا المكان باتجاه برج داوود، الذي يبعد ثلاثمائة وثمانين خطوة عن قبره، إنما ونحن على طريقنا وصلنا أولاً إلى كنيسة الأرمن، وهذه الكنيسة مستديرة، ولها أسوار قوية، وأقبية على درجة عالية من الحصانة، ولها أربعة أعمدة مربعة في الوسط، وليس فيها نوافذ، سوى نافذة واحدة مزججة في الذروة، غير أن فيها ثلاثمائة مصباح أو أكثر، وفي الحقيقة كان في أيامي مائة وعشرين مصباحاً مشتعلة بالعادة، وموجودة في شمعدان واحد، وأنا لم أشاهد قط ولم أسمع بمثل هذه التقوى العظيمة بين الناس.

ويوجد على جهة اليسار من المدخل المكان الذي جرى إعدام القديس جيمس الأكبر فيه، فهذا المكان من الممكن رؤيته، وهو يبعد مائتين واثنتين وعشرين خطوة عن المكان الذي أقام فيه أخوه يوحنا قداساً، وأيضاً في حدود رمية حجر عن البرج المتقدم الذكر، يوجد المكان الذي قابلت فيه مريم المجدلية، العذراء، وأعطتها بشائر بأن ابنها حي، وقد قام من الموت، وهنا أيضاً ظهر المسيح إلى المريمات الثلاث قائلاً:«التحية لكن جميعاً».

ويوجد في شارع أسقف القدس، بيت القديس زكريا، الذي هو بأيدي الجورجيين، وفي الداخل هناك بيعة جميلة مكرسة للقديس يوحنا المعمدان، وقبل المدخل إلى البيت هناك قبو من الحجر القاتم، وهو بناء قديم جداً في منتصف الطريق، على طول الشارع القائم فيما بين الضريح المقدس وبين برج داوود، ثم يلي ذلك البيت الذي جرى فيه إكرام الملوك الثلاثة، وانتبه إلى الباب، فهو الذي لم تستطع القديسة مريم المصرية الدخول منه، عندما كانت مثقلة بحمل ذنوبها، وهو الباب الذي من الممكن رؤيته في الشارع الذي يقود إلى عمواس، وفيما يلي:

الحج من مدينة القدس نحو الشرق إلى بيت عنيا

أما وقد فرغنا من رؤية الأماكن القريبة، علينا الآن أن نعبر إلى الأماكن التي هي أبعد، فبذلك سوف تتضاعف مشاعرنا التقوية، وأول شيء يعبر الانسان إليه هو إلى بيت عنيا، التي تبعد عن القدس مسافة نصف ميل ألماني — أي حوالي الخمسة عشر فرلنغ(يوحنا:١١/١٨) — حيث من الممكن أن يشاهد تحت القلعة ضريح ألعازر، الذي أقيم من الموت من قبل المسيح، وقد كان هنا فيما مضى كنيسة كبيرة، من الممكن رؤية أعمدتها قائمة حتى هذا اليوم، وتحت قبو مظلم، على بعد عشر خطوات عن ذلك الضريح، يوجد المذبح، فهنا في هذا المكان وقف المسيح عندما دعاه للخروج من القبر، وأيضاً في الخارج، قرب هذا المكان، لكن أعلى، يوجد بيت سمعان المجذوم، الذي فيه صهريجين، فهناك صبت المجدلية الدهن العطري على رأس المسيح، وهو جالس لتناول الطعام، وهو الأمر الذي أغضب يهوذا، وقبل ستة أيام من عيد الفصح تعشى يسوع في بيت عنيا، حيث تولت مرثا خدمته، في حين كانت أمها واحدة من الذين جلسوا إلى المائدة، ولهذا جاء حشد كبير من الرعاع اليهود إلى هناك، راغبين بقتل العازر أيضاً[يوحنا:١٢/٩ — ١٠].

وعلى ست رميات سهم من بيت عنيا، من الممكن أن يشاهد في حقل هناك صخرة عظيمة، عليها كان الرب جالساً عندما قابلته مرثا وقالت له:«ياسيد لو كنت هنا»الخ، وعلى بعد رمية حجر من تلك الصخرة، وعلى رمية سهم من هناك، على جهة اليمين، عند انحدار الهضبة، وباتجاه نحو الجنوب،كان هناك بيت المجدلية، الذي تقوم فوق موقعه كنيسة مهدمة، تحولت الآن إلى حظيرة للماعز، وغالباً ما جرت استضافة الرب يسوع وإطعامه في هذين البيتين، ويوجد على الطرفين واد منحدر، وهو على الجهة اليسرى أكثر الجانبين عمقاً، وفيه يوجد الطريق الذي

عبره الرب، عندما قدم من أريحا صاعداً في طريقه إلى القدس، ويأتي فيمايلي:

الحج من القدس إلى بيت لحم

أول ما يراه الانسان هو بيت سمعان، قرب القدس، على جهة اليمين، بين الكروم، فيما وراء الطريق إلى عين كارم، ويوجد إلى اليسار، على رابية قرب جبل صهيون، بناء على شكل قلعة، يعرف باسم بيت الاجتماع الشيطاني، فإلى هذا الاجتماع ذهب يهوذا ليقترف خيانته، وليصنع اتفاقاً من أجل تسليم المسيح، وكان يوجد في هذا المكان كنيسة جميلة مكرسة للقديس سبيريان، وبعد مسافة لابأس بها خلف هذا المكان، يصل الانسان إلى بئر، ففي هذا المكان أشع النجم الضائع مرة ثانية على الملوك الثلاثة، وعلى شرفه قامت فيما مضى هناك كنيسة جميلة، مايزال بلاطها موجوداً ويمكن الوصول إليه، وبعيداً عن الطريق، وفوق رابية موجودة على جهة اليمين، توجد كنيسة القديس جرجس، وبعد هذا يوجد على جهة اليسار، وليس بعيداً عن الطريق، بناء طويل، وكنيسة جميلة، هي ملك للاغريق، ويوجد بئر قرب جدارها الجنوبي.

وولد في هذا البناء الياس، وسكن فيه أثناء حياته، وهو قائم في منتصف الطريق، على طول الطريق فيما بين المدينتين المتقدمتي الذكر، وذلك على بعد ميل ألماني واحد عن كل منهما، وفي أيام إلياس انغلقت السموات لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر، وفيما بين القدس، وبيت لحم — أو إفراتا — يوجد جبل قابيل الذي عليه مسح قابيل وتوج، وفوقه بنيت كنيسة القديس سبيريان، كما تقدم الذكر، وبعد ذلك، على مقربة من الطريق هناك آثار برج عظيم، وذلك حيث تصارع يعقوب مع الملاك(التكوين:٣٢)، وبعد هذا، يوجد على جهة اليمين، على مقربة من الطريق الذي يقود إلى حبرون، قبر زوجته راحيل، وهو قد بني

مؤخراً من قبل المسلمين، وهو متجه نحو الجنوب، حيث هناك مقبرة، ويعرف هذا المكان باسم قبة راحيل، وليس بعيداً عن ها هنا يأتي الانسان إلى الحقل الذي تحول بذار الفول أو البيقية فيه إلى حجارة بإرادة من الرب، وهذه الحجارة بحجم وتعداد الفول.

وكان في بيت لحم، على الجانب الغربي كنيسة القديسين كوزماس ودامين، ويوجد على جهة يمين الداخل إلى الكنيسة الكبرى على مقربة من السدة، مذبح هو بمثابة علامة على المكان الذي قتل فيه عدد كبير من الأبرياء، وفي هذا المكان نفسه جرى ختن الرب يسوع، وقرب بئر موجود على الجانب الأيسر هناك، يوجد مذبح، وهو حيث المكان الذي أعد فيه الحكماء أنفسهم بشكل رائع،من أجل تقديم الهدايا إلى الملك الحديث الولادة، ويقال بأن النجم اختفى في ذلك البئر.

ثم ينزل الانسان ست عشرة درجة إلى بيعة تحت السدة، فهناك المكان الذي ولد فيه مخلص العالم، ويوجد في هذا المكان نفسه، على يسار الداخل، هناك مذبح، وعلى بعد سبعة أقدام وثلاث خطوات من هذا المذبح، تحت الصخرة، يوجد المكان الذي مدد فيه الطفل الوليد في المعلف، وقد عبد هناك من قبل الرعيان، واعرف بأن طول هذه الكنيسة هي ست وثلاثين خطوة في الداخل، وعرضها ثمان عشر خطوة، وفيها أربعة صفوف من الأعمدة الرخامية، وفي كل واحد من هذه الصفوف اثني عشر عموداً، بين الواحد والآخر سبعة أقدام، وهي ممتدة حتى السدة، وهي مزدحمة بكل نوع من أنواع الزينة على كل من البلاط والجدران، وهي مغطاة بسقف رصاصي، وفيها نسب المسيح مطبوع بالفسيفساء في الأعلى، على الجانب الأيمن للداخل إليها، وبابها المزدوج هو من خشب السرو، وهو محفور بمختلف الأشكال، وكانت أطراف جدرانها مغطاة بألواح الرخام، وقد انتزعت وأخذت من قبل المسلمين الخونة،وحدث في هذه الكنيسة معجزة جديرة بالتسجيل، حيث قيل بأن

واحـداً من السـلاطين، عندمـا رأى كسـوتها الـرائعـة، فكر بانتـزاعهـا وأخذها، ليكسو بها أو يزين قصره في القـاهرة، وهكذا عندما حل اليوم الذي حـدده مع الحجـارين والنحـاتين، قـاصـداً إلى نزع تلك الحجـارة الجميلة، ظهـر فجأة ثعبـان له حجم مخيف، وخـرج يزحف من خـلال الألواح الحجـرية، وعبر من خـلال وسط هذه الألـواح، ومن الممكن رؤية آثار زحفـه على الجدار حتى هذا اليوم، فهـذا ما رأيتـه بنفسي، فقد وصل ذلك حتى مـذبح الملوك الثـلاثة الموجـود قـرب الجدار المتقـدم الذكـر، وعندما رأى السلطان هذا، امتـلأ رعباً، وغادر ذاهبـاً في سبيله، ومن الصحن الداخلي لهذا الدير في الجهـة الشمالية، ينزل الانسـان تسع عشرة درجة، إلى البيعـة التي اسمها مقر دراسـة القديس جيروم، حيث عمل لمدة خمس وخمسين سنة وستـة أشهر في ترجمة النصـوص المقدسـة، وفي ذلك الجوار، على بعد ثلاث خطـوات، وفي خلال الجدار، في داخل زاوية مظلمـة قـرب المذبح، تحت المعلف، يوجـد القبر الـذي دفن فيـه أولاً، لكن عندما انتقلت البلاد إلى أيدي الخونة، ولم تعـد القدس تعرف من يدافع عنهـا، نقلت عظامـه المقـدسـة وعظام عـدد كبير آخـر من القـديسين إلى رومـا، فضـلاً عن هذا يوجـد على جهـة اليسـار كهـوف متجـاورة تحت صخـور مطلة، فيهـا جـرى رمي عـدد كبير من أجسـاد الأبرياء، وأخفيت فيها.

وطول الطريق من القـدس إلى بيت لحم هو فرسخين، أي مـا يعادل ميـلاً ألمانيـاً واحداً، وعلى طول هذا الطريـق حدثت أحـداث إعجـازية كثيرة، من ذلك: أن إبراهيم وزوجته عبرا معـاً هذا الطريق عندما قـدما من بلاد الكلدان، ومشى لوط وزوجته على هذا الطريق عندما قدما من بلدان مـا وراء الجبال، وغالبـاً ما عبر عليـه البطريرك يعقـوب وزوجته راحيل، وذهبت مريم العـذراء المباركة عنـدما كانت حـاملاً، إلى هناك، وعادت عبر هذا الطريق، وعليـه استراحت عندما كانت متعبـة، وأيضاً

سار الملوك الثلاثة على هذا الطريق نفسه، عندما استهدفوا الوصول إلى الطفل يسوع، وكذلك فعل اليشع وإيليا وعدد كبير آخر من الأنبياء عندما ذهبوا إلى المدينة المقدسة، فهم جميعاً ساروا عبر هذا الطريق، وكذلك فإن العذراء المباركة في رحلتها إلى مصر ثم عودتها من هناك، قد سارت على هذا الطريق مع يوسف.

وعلى رمية حجر من بيت لحم، وذلك باتجاه الشمال، كانت هناك كنيسة، فيها جرى دفن باولا ويوستوخيوم، واسم هذه الكنيسة، كنيسة القديس نيقولا، وأقامت هناك مريم مع الطفل ويوسف في أول ليلة من ليالي الهروب إلى مصر، وانتبه إلى الحليب الذي انصب هناك، ويحتاج الآن الطريق فيما بين بيت لحم والقدس إلى ثلاث ساعات لعبوره، وأيضاً على بعد ربع ميل من بيت لحم، نزولاً إلى الوادي الذي يقود إلى البحر الميت، كان هناك فيما مضى بناء جميلاً مع كنيسة، كان اسمها كنيسة الرعاة، لأنه إلى ذلك المكان جلب الملاك إلى الرعاة بشائر لها بهجة عظيمة، وطلب منهم الذهاب إلى بيت لحم، حيث نظر كل واحد منهم إلى ظهر الآخر، وقال كل واحد منهم للآخر بأن صوت الملاك كان مجرد وهم وضياع، وبدأوا يعودون إلى قطيعهم، ثم جاء الملاك إليهم مرة ثانية، وأرغمهم على إكمال الرحلة التي بدأوها، ويقوم في هذا المكان نفسه كنيسة فيها مذبح واحد، ويقول بعضهم بأن العذراء المباركة قد توقفت خارج الطريق الذي يقود إلى مصر، ولكن الرواية الأولى تتماشى أكثر مع الحقيقة، فضلاً عن هذا، يوجد على بعد فرسخين إلى الجنوب من بيت لحم، قبوراً لاثني عشر نبياً. ويلي هذا:

الحج من بيت لحم إلى وادي حبرون

يشاهد على الطريق من بيت لحم إلى وادي حبرون، المكان الذي رأى فيه إبراهيم الملائكة الثلاثة، وعبد واحداً منهم هو(الرب)، ويرى الانسان في الكنيسة في حبرون كثيراً من الفتحات المزدوجة في الصخر،

وتعــرف إحــدى هذه الفتحــات باسم الكهف المزدوج، فيــه جــرى دفن:آدم، وإبراهيم، واسحـق، ويعقـوب، وزوجـاتهم:حــواء، وسـارة، ورفقة، وليا، وليس بعيداً عن المدينة يوجد حقل دمشق، الذي منه خُلق آدم وحواء، ويلي هذا:

الحج من حبرون إلى القدس

يذهب الانســان من حبرون إلى القـدس من خـلال المنطقــة التليـة لليهـودية، حيـث من الممكن له أن يرى بيت زكـريـا، الذي فيـه زارت العـذراء المباركـة إيزابل، ويوجـد في هذا المكان كنيستين بنيت إحـداهما فوق الأخرى، غير أن الكنيسة العليـا قد جرى تدميرها، ويرى الانسان في الكنيسـة التحتـا فجوة في الصخـر، وذلك على جهـة اليمين للداخل إليهـا، فهـذا هو المكان الذي أخفي فيـه الطفل يوحنا خـوفـاً من الملك هيرود عندما كان يقتل الأطفال، وعندمـا ينزل الانسان قليلاً من هناك، يشـاهد النبع الذي تفجر على مقـربة من الطريق على جهة اليـد اليمنى، فإلى جانب هناك جلست العـذراء مريم وأراحت نفسهـا، لكونها كانت متعبـة من رحلتهـا وكـان ذلك عندمـا ذهبت لزيارة قـريبتهـا، التي من المعتقـد أنها التقت بها في هذا المكان وقـالت:«من أين لي هذا أن تأتي أم ربيّ إليّ»[لوقـا:١/ ٤٣]، وهنا أيضـاً عملت أم الرب أغنيـة«تعظم نفسي الرب»[لوقا:١/ ٤٧]الخ.

وبعد هذا ينعطف الانسان خارجاً عن الطريق إلى جهة اليد اليسرى، إلى رابية، كان عليهـا فيما مضى كنيسة جميلة، هي الآن ملوثة بالفضلات ومليئة بروث البغال، ولايستطيع أحد من الحجـاج دخول هذه الكنيسة دون دفع للمال، فهـا هنا كـان يوحنا المعمدان ابن زكـريا قـد ولد، وهو الذي قـال:«تبـارك الله ربي»الخ، ومن هناك يذهب الانســان إلى كنيسـة أخـرى جيدة التـزيين، هي ملك للجورجيين، واسمهـا كنيسة القـديس الصليب، لأن شجرة صليب المسيح، قـامت هناك ونمت، والحفرة التي

فيها قامت من الممكن مشـاهدتها في هذه الأيام تحت المذبح، وبعد هذا، وعلى مقربة من الطريق الذي يقـود إلى غزة، من الممكن رؤية الماء الذي جرى به تعميد الخصي فيليب(أعمال:٨).

تقسيمات الأرض المقدسة

قسمت البـلاد التي عرفت باسم الأرض المقـدسة كلهـا حصصاً بين أسبـاط بني إسرائيل الاثني عشر، وبالنسبـة للجـزء الذي عـرف باسم مملكة يهوذا، كـان هو أرض سبطي: يهوذا وبنيامين، أمـا بالنسبة للجـزء الآخـر فقد عـرف باسم مملكة السـامـرة، التي كـانت عاصمتهـا مـدينة السـامرة، التي تعـرف أيضـاً باسم سبسطية،وكـانت عـاصمة الأسبـاط الآخـــرين العشرة، وهـو الجزء الذي عـــرف باسم اسرائيـل، وهاتين المملكتين معا مع بلاد الفلسطينيين، قـد عرفت باسم فلسطين، التي هي مجرد جـزء من[الأرض المقدسـة]، مثلما سكسوني واللورين جـزئين من ألمانيا، ولومبارديا وتوسكانيا جزئين من إيطاليا، واعرف أن هناك ثلاث فلسطينيـات، ففي فلسطين الأولى العـاصمـة هي القـدس، وهي تشمل جميع المنطقـة التليـة حتى البحـــر الميت، وإلى قـادش القفـار، وفلسطين الثانيـة هي التي عـاصمتها مدينـة قيسارية القـائمة على شاطـىء البحر، وفيها جميـع أراضي الفلسطينيين شروعاً من بترا انشيسا، وامتـداداً حتى غزة، فهي الأرض المقـدسة المتجهة نحو الجنوب، وفلسطين الثـالثة هي التي عاصمنتها بيسان، القـائمة عند جبل جلبوع، وهذه هي المدينة التي عـرفت من قبل باسم سقيثـوبولس، وهي المكان الذي جـرى فيـه شنق أجساد جنود شاؤول.

والأصح أن تدعى فلسطين هذه باسم الجليل، ويوجد فيهـا مرج ابن عـامـر، الذي يبـدأ عند نهر الأردن الأصغـــر، وهو الذي تمتـد حـدوده الجنوبيـة حتى جينين، وهي بلدة مهدمـة، مـوجودة في المربع ٣٧، فـوق رابيـة، وقـد رسمتهـا على هذه الخريطة بـاللون الأخضر، وهي عـائـدة

للسامرة، وتبدأ السامرة عند جينين المتقدمة الذكر، وتمتد حتى نهر الأردن، وإلى مخمش Michmash في المربع ٥٣، المتصل باليهودية، وقد رسمت اليهودية ومنطقتها التلية باللون الأصفر، وتبدأ جليل الأمم المتقدمة الذكر عند الأردن الأصغر، وتمتد شمالاً حتى جبل لبنان، ثم هناك المدن العشرة، التي حدودها في الشرق بحر الجليل، وصيداً في الغرب، ودمشق في الشمال، وفي داخل هذه الحدود هناك عشرة مدن، وصدوراً عن هذا الواقع عرفت هذه المنطقة باسم المدن العشرة، وهذه المدن هي:طبرية، وبيسان، وقناتا، وصفد، وقادش نفتليم، وأرسوف، وقيسارية فيليب(بانياس) وكفرناحوم، وبيت صيدا، وكورزيم، وهناك على كل حال مدناً أكثر في هذه المنطقة، حسبما عرضناهن أعلاه، وقد تجول الرب يسوع خلال جميع هذه المدن والقلاع، يعلم في كنسها«ويكرز ببشارة الملكوت»[متى:٤/ ٢٣].

وطول أرض الميعاد الممتدة من دان الموجودة عند سفح جبل لبنان في الشمال، إلى بير السبع في الجنوب قرب قفار مصر، هي اثنين وأربعين ميلاً ألمانيا، أو مائتين وعشرة أميال إيطالية، في حين أن عرضها من البحر في الغرب، إلى أطراف جبال العربية هي أربعة عشر ميلاً كبيراً، أو سبعين ميلاً إيطالياً، وعلى هذا الأساس، جميع الأرض المقدسة مقسمة إلى ثمانية وعشرين فراغاً عرضانيا، وذلك بمدّ خطوط عبرها، أي فوق الخطوط من الغرب إلى الشرق، والآن يوجد في الفراغ الثاني، والمربع الثاني عشر بصرى، في بلاد بوسترون، التي ورد ذكرها في إشعيا ٦٢(كذا)، ويقود الطريق من خلال مدينة جدر، في المربع ٢٣، إلى آرام، وبلاد الرافدين، وهمّام Hammam (همدان)،وهيركانيا Hyrcania وبحر الخزر، وعبر هذا الطريق، إعتادت هذه الشعوب على الاجتماع في كل سنة على سهل نبع فيالي Phiale ، حيث كانوا يعقدون سوقاً طوال شهر أيار، وينصبون خياماً ذوات ألوان متعددة في مدينة جدر،

فـوق الجبل، مما يجعل المشهـد جميلاً، وجـاء ذكـر هؤلاء في نشيد انشـاد سليمان قوله:«كخيـام قيدار» [نشيد الانشـاد:١/ ٥]، وأطلق يوسفيوس على هذه المدينة اسم جمالا، لأن الجبل القائمة عليه له شكل الجمل.

وفي المربع٢٤(٥٣) في الجبـال القـائمـة نحـو الشرق توجـد ايريوبولسAreopolis [الصفورية؟] التي عـرفت فيها مضى باسم أرورAror(Aroer)، وكانـت عاصمـة العربية الثـانية، حيـث أنها تبتعد رحلة أربعـة أيام عن البتراء في الصحـراء، وفي البتراء هـذه قـال اشعيـا:«أرسل يـارب الحمل مـن البتراء في القفـار إلى جبل ابنـة صهيـون»(إشعيـا:١٦/ ١)، فعلى هـذا الجبل رأى يـوحنا الخروف واقفـاً[رؤيا يوحنا:١٤/ ١]، وفي البتراء هذه جـرى بناء قلعـة حصينة لاترام، وكـان اسمهـا الكرك، فيهـا يودع السلطان كنوز شبـه جـزيرة العـرب ومصر، وفي منتصف الطـريق بين البتراء وايريوبولـس يوجـد جدول سـورقSorec ، وجبل عبريم حيث جـرى دفن مـوسى من قبل الملائكة.

وعلى بعد سفر ثلاثة أيام نحو الجنوب من البتراء، يوجد جبل سعير، الذي حدوده مـوجودة على قفار فـاران، التي تعرف باسم بلاد العـربية حتى البحـر الأحمر، واعـرف انه عنـد طرف جبـال العـربيـة الأولى، في أحـواز جبل سنير، تبـدأ بلاد عـوز، التي تعـرف أيضـاً باسم منطقـة الطرخونية، وتمتد حتى جـدر وبحر الجليل، لأنها مشكلة جزئياً من قبل منطقة المدن العشرة، ومثل هذا كانت مملكة عـوج ملك بيسان، تمتد من طرف جبال العـربية الثانية حتى الأردن، ووقعت هذه المنطقـة في حصة سبط جـاد امتداداًحتى جـدول يبوق، وقـد رسمت هذه المملكة باللون الأصفر حتى أميزها عن الممالك الأخـرى، وكل البلدان القريبة من هذه المملكة جعلتهـا باللون الأبيض، وهـي تعـرف باسم بيت عنيـا، وذلك حيث تعمد يوحنا، وهي قـد كانت مملكة سيحون، ملك حشبـون، وقد

كانت في حصة سبط اسكار، ويوجد فيها بين جدول عرنون وسورق، سهل منطقة مآب، وهناك من الممكن رؤية المكان الذي تحادث فيه بلعام مع أتانه، وهناك جرى تصنيف سفر الثنية، هذا وإن المنطقة الواقعة خلف جدول سورق نحو الجنوب، هي التي تعرف باسم بلاد مآب وعمون حسبما تقدم الذكر.

واعرف أن هناك ثلاثة مدن إلتجاء فيها وراء الأردن، أولاها تحت المربع ٢٣، قرب المنطقة التليةالتابعة للعربية والتي اسمها الجولان، والثانية تحت المربع ٣٧، واسمها راموث جلعاد، والثالثة تحت المربع ٣٣، واسمها أفرايم، حيث أقام المسيح مع حوارييه، وهناك ثلاثة مدن التجاء باتجاه البحر الغربي، وأولاها هي حبرون تحت المربع ٦٩، والثانية هي سبسطية تحت المربع ٤٣، والأخيرة قائمة إلى جانب بحيرة ميروم، واسمها قادش نفتالي، في وادي سنين، وهي التي كانت مدينة بلك، وهذه المدن الستة مرسومة على الخريطة، ومعلم عليها بهذه العلامة**، وجرى وضع علامة ٨ تحت المربع ١٩، فهذا هو المكان الذي أشبع فيه الرب أربعة آلاف من الناس بسبعة أرغفة، وتحت المربع ١٩، وعلى مقربة من هذا العلامة ٧ المكان الذي أطعم فيه الرب خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة، وذلك حسبما ورد مكتوبا في يوحنا ٦، وتحت المربع ١٩، قرب العلامة C ، عمل قائد المائة، توسلاً من أجل خادمه، وفي المكان نفسه أبرأ الرب المجذوم قرب بحر الجليل، وعلى مقربة من كفرنا حوم أطلق على: متى: وأندرو، وبطرس، وجيمس، ويوحنا، اسم الحواريين، وتحت المربع٢١، جاء بطرس، وأندرو، وفيليب، من بيت صيدا (يوحنا: ١/ ١٢)، وتحت المربع ٣٦ توجد مكور Machaerunta حيث جرى اعدام يوحنا المعمدان وقطع رأسه.

وفي أيام الصيف تجف معظم أجزاء بحيرة ميروم، ولهذا تتكاثر هناك

الأشجار والنباتات الكثيفة، التي فيها تعيش الأسود والحيوانات الأخرى، وتتوفر هناك أجواء ممتعة للصيد، وعلى بعد قليل نحو الشمال رسم بعلامة سيف المكان الذي حارب فيه يوشع ضد ملك أرسوف مع أربعة وعشرين ملكاً آخر، طاردهم جميعاً حتى صيدا، فآنذاك تضاعف النهار وتوقفت الشمس في مكانها ولم تتحرك، ولهذا أعطي له «مجد لبنان، وبهاء الكرمل وشارون» (اشعيا: ٣٥)، وإلى الشمال من صيدا، وعلى بعد سفر يومين خلف الأرض المقدسة، يوجد ميناء دمشق،متمثلاً بمدينة بيروت القديمة والجليلة، مع أن مرساها مرسى مرعباً، فقد أرغمتنا الرياح الشمالية على الدخول إليه في عشية يوم عيد القديس توما، ففي عشية عيد الميلاد ارتحلنا راجعين إلى الأنهار الكبرى، وأرغمنا عند فجر اليوم الثاني للعيد بوساطة عاصفة على الرسو في ذلك الميناء للمرة الثانية، حيث ألقينا المراسي، ومكثنا في هذه الحالة المحزنة حتى عيد الختان (أول كانون ثاني)، وعلى بعد مائتين وتسعين خطوة من خارج الباب الشرقي لهذا البلد، يمكن رؤية المكان الذي قتل فيه القديس جرجس التنين.

وتحت المربع ٣١ يوجد نبع اسرائيل، الذي نقرأ عنه في سفر صموئيل الأول (١ـــ صموئيل: ١٩/١) وذلك حيث نصب الفلسطينيون معسكرهم، وذلك عندما كان شاؤول في جلبوع، ويوجد فيما بين جبل جلبوع وجبل حرمون واد عرضه فرسخين، وطوله تسعة فراسخ، وذلك نزولاً إلى الأردن حيث جرى القتال في عدة معارك، من ذلك: جدعون ضد مدين، واحاب ضد الآشوريين، وفي الزمن الحالي أيضاً التتار ضد المسلمين، وقد رسمت هذا المكان وعلمته بعلامة سيف، ويوجد تحت المربع ١٩ بيت القديس جرجس، وهو المكان المعتقد أن القديس متى قد ولد فيه، وهو قائم بين جبال في واد غني وخصب يصل حتى بحر الجليل، وبسبب جماله قد قيل حقاً عنه: «أشير خبزه

سمين وهو يعطي لذات ملوك» (تكوين: ٤٩/ ٢٠)، وهذا ما تحقق في حصة سبط آشر.

وفي الفراغ ١٦ والمربع ٢٢، توجد نفتالي، التي جاء منها طوبياس، وهي قائمة في مكان حصين، لا يمكن الوصول اليه إلاّ من فسحة صغيرة موجودة على جهة الشرق، وتبعاً ليوسفيوس كانت تعرف باسم يوتابه في أيام دمار اليهود، وهناك جرى حصار يوسفيوس من قبل الرومان وأخذه أسيراً، واسمها الآن سيران Siran.

وتحت المربع ٢٤ توجد قرية عين دور، التي عنها يقول المزمور: «بادوا في عين دور» [مزامير: ٨٣/ ١٠]، وتحت المربع ٥٥ توجد بيت ايل في ديار سبط بنيامين، وذلك حيث أقام يعقوب الصخرة ونصبها لتكون عمودا، وكان ذلك عندما نام هناك، أيام كان فاراً من أخيه عيسو،وقد رأى السلم، الخ، وقد أطلق على المكان اسم بيت إيل، وإلى الشرق من بيت إيل توجد مدينة عاي، التي نقرأ عنها في يشوع٨.

وتوجد تحت المربع ٦٩ ممرا، حيث سكن ابراهيم لوقت طويل، وهناك عندما كان جالساً عند باب خيمته، تحت بلوطة ممرا، رأى ثلاثة قادمين على طول الطريق، الخ، (التكوين: ١٨)، وما تزال هذه البلوطة مرئية حتى الآن عند باب الخيمة، وكانت البلوطة القديمة قد جفت، لكن نمت واحدة جديدة إثر أخرى من جذرها، ويوجد في الفراغ ٢٠ سوكوه التي ليهوذا على مقربة من وادي البطم، حيث قتل داوود جالوت من جت [١صموئيل: ١٨/ ١—٢]، وتقوم سثيم Sethim على رابية تحت المربع ٥٦.

وهنا بداية أرض الفلسطينيين، وعلى هذه الرابية نفسها بنى فولك، الملك الصليبي للقدس، حصنا اسمه ابلين (يبنا)، ليضبط اعتداءات أهل عسقلان، وكانت عسقلان مدينة من مدن الفلسطينيين، وهي قائمة على

شاطىء البحر، وقد بنيت على شكل نصف دائرة، ويمكن للانسان أن يقول عنها بأنها مدينة مجمع قوى المسلمين كلها في تلك البلاد، وتحت المربع ٢٢، وعلى شاطىء البحر، توجد عكا، وقد كانت إحدى مدن الفلسطينيين، واسمها (الآن) بطولميس، وتوجد قيسارية O-C في المربع ٤٠ وفي الفراغ ٢٨، وذلك على شاطىء البحر، وهي قيسارية البحرية، التي وسعها هيرود صاحب عسقلان تشريفاً لأغسطس، وقد كانت عاصمة الشاطىء الفلسطيني، وقد كتب يوسفيوس عنها كثيراً، وتمتلك هذه المدينة باتجاه الشرق منها بحيرة واسعة وعميقة ذات مياه عذبة، فيها يوجد كثيراً من التماسيح، والمدينة نفسها مهدمة تماماً، وفيها عمّد الحواري بطرس كورنليوس، وبقي بولس في السجن هناك لمدة طويلة، وكان ذلك عندما كان في طريقه إلى روما، ولها ميناء غير موائم، لكنها تمتلك كثيراً من الحدائق والمروج، وجداول جارية حتى إلى اللد، وإلى بلاد يافا، وقد رسمت اللد وعلمتها بعلامة قوس، حيث يمكنك أن ترى في المكان الذي وقفت فيه، كنيسة القديس جرجس الذي قتل هناك، وأرسوف قائمة على شاطىء البحر، واسمها القديم هو أنتبارتس، وكانت من أملاك رهبان مشفى القديس يوحنا المعطاء.

وليس لمدينة يافا ميناء، وفيها سكنت تابيثا Tabitha وصيفة الرسل، ومن هناك ذهب يوانس على ظهر سفينة عندما أراد الفرار إلى طرسوس، ولم أر في هذه المدينة أي انسان حي، وفي الحقيقة جرى تدمير الكثير من مدن الساحل من قبل السلطان، عندما سمع بأن مدينة عكا المتقدمة الذكر قد جرى الاستيلاء عليها من قبل ملكي فرنسا وانكلترا.

وصيدا هي احدى مدن فينيقيا، وفي خرائبها الموجودة هذه الأيام شهادة على عظمتها، وكانت قد بنيت بشكل مستطيل، فوق سهل يمتد من الشمال إلى الجنوب، عند سفح جبل لبنان،وجرى بناء مدينة أخرى

خـارج خـرائبهـا، صحيح أنها صغيرة، غير أنها محصنة، لكن ليس فيهـا رجـال للدفاع عنهـا، ويقوم طرف منهـا على شاطىء البحـر مع قلعتين جيـدتا التحصين، واحـدة منهما على كل جـانب فـالأولى التي هي في الجانب الشمالي، هي التي بنيـت منذ زمن طويل مضى من قبـل حجـاج من ألمانيا، وهي قائمـة على صخرة بجوار البحر، أما الثـانية الموجودة في الجنوب، فهي قائمة فوق رابية، وفيما مضى امتلك فرسان الداوية هاتين القلعتين مع المدينة أيضـاً، وهناك يوجـد قصب السكـر، وكـروم عنب ممتازة جداً، وعلى بعد فرسخين من هناك توجد الصرفند، التي فيها مجرد عـدة بيوت فقط، مع أن خـرائبهـا تشير إلى أنها كانت مـدينة جليلة فيما مضى.

وصور مـوجودة في ديار سبط آشر، ومع ذلـك لم يتملكها الآشريون قط، وخلفها توجد آبار ميـاه للحياة. وتحت المربع ٤٣، توجد سبسطية، التي اسمها السـامرة أيضاً، وهي مدمـرة كلياً باستثناء كنيستين، أولاهما مكرسـة ليوحنـا المعمدان، حيث ضريحه فيهـا مصنوع من الرخـام، على شكل ضريح الرب، فهناك دفن فيها بين اليسع وعوبيدا، وفي الحقيقة قام هناك فيما مضى كنيسة كاتدرائيـة على طرف الجبل، لكن المسلمون تولوا هدمهـا، وأمـا الكنيسـة الثـانيـة فهي الآن قـائمـة على قلة الجبل، وهي مسكونة من قبل رهبـان اغريق، هـم الذين يعرضـون في الداخل المكان الذي قد سجن فيه، لكنني عددت هذا شيئاً لاقيمة له، ذلك أنه كان قد أعـدم في مكور، تحت المربع ٣٦. وتوجـد شكيم تحت المربع ٤٥، وهي التي يطلق الاغريق عليها اسم نابلس، وهي قائمة على بعد رميتي قوس عن جب يعقـوب، هذا وإن عظام يوسف مـدفـونة في شكيم، ويطلق اليهود عليها اسم شوكيم، ويسمون صهيون هرؤن Haraon

المدن والأماكن في الأرض المقدسة

ومـدينة عكا، التي هي موجـودة في منطقة فينيقيـا، هي مدينة جيـدة

التحصين بالأسوار والأبراج، وهي لها شكل ترس، طرفان منه يمتدان خارجاً إلى البحر، وأما الطرف الثالث فهو مطل على اليابسة، ومن حيث الطول فان مساحة إطارها هو ميلين، أي أن تقول ستين فرلنغ، وهي تمتلك حقولاً مثمرة وحدائق، وهي لم تكن قط جزئاً من الأرض المقدسة، ولا ملكاً لبني اسرائيل، ومع هذا فإنها قد منحت إلى سبط آشر عندما جرى توزيع الأرض المقدسة فيما بين الأسباط، وقد كانت إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة القائمة على ساحل البحر، وعلى مقربة منها حدث أن ملاك الرب التقى بحبقوق وهو يحمل إلى الحصادين طعامهم، فحمله إلى بابل، وذلك حسبما نقرأ في سفر دانيال ١٤، وكان يوجد في المكان الذي حمل منه من قبل الملاك بيعة جميلة.

وعلى بعد ثمانية فراسخ إلى الشمال من مدينة عكا هذه، من الممكن مشاهدة البئر الرائع لمياه الحياة، الموجود قرب صور، حيث بني بشكل عالي النفقات، ومع أنه يدعى باسم بئر، بالمفرد، إنه ليس بئراً واحداً، بل هناك ثلاثة ينابيع، لها الشكل نفسه والوضع، مع أنها لاتعطي الكمية نفسها من الماء، والبئر الرئيسي فيها عمقه حوالي أربعة وثلاثين ذراعاً، وعمق الآخرين حوالي اثنين وعشرين ذراعاً، وهم محاطون بجدران مربعة متينة، مبنية من صخور قوية، وتتفجر المياه وتندفع من داخلها بمقدار رمية رمح بالعرض، وتتدفق بشكل تملأ فيه جميع مجاري المياه، حيث تنتشر فوق سهل صور كله، ومنها تشرب الحدائق، والكروم، وبساتين التين، وحقول الزيتون، وقصب السكر، الذي ينمو هناك، ذلك أن هذه الينابيع تبعد مقدار رمية سهم عن البحر.

وعلى بعد فرسخ واحد عن هناك توجد مدينة صور، التي هي قائمة إلى الشمال من عكا، وقد كتب مديحها من قبل بعض الأنبياء، وهي واقفة على شاطىء البحر مع أسوار واسعة تحيط بها، وهذه الأسوار تلامس مياه البحر من جميع الجهات، باستثناء الجهة الشرقية، حيث تولى

نبوخذ نصر أولا، ثم الاسكندر فيما بعد، وصلها باليابسة، وذلك لمسافة مقـدارها حـوالي الرميـة حجـر، وهي محاطة من هذا الجانب بسـور مضـاعف ثلاث مـرات وهو عـالي الارتفـاع وله أبراج حصينة وقـوية، وفيها جـرى دفن أورجين، وقد بقي فيها حتى اليـوم كثيراً من آثار عدد كبير من القديسين، كانوا قد هلكوا هناك باسم المسيح، وعلى بعد رميتي سهم نحـو جنوب البـاب، يوجـد المكان الذي فيـه تولى المسيح الوعظ، وهو معلم بوساطة صخرة وقف عليها، حيث بني فوقها كنيسة كرست للمخلص، وهناك أيضـاً المكان الذي قالت له فيـه المرأة «بورك الرحم» الخ، وذلك بعـدما أنهى الوعـظ، وهذا المكان لم يغطه الرمل قط، مع أن الرمل هنـاك خفيف ويتطاير هنـاك، مثلما يتطاير الثلج في بـلادنا في أيام البرد الشـديد، ويتوزع فـوق الأمـاكن بوسـاطة الريح، لكن هذا المكان يبقى على الدوام أخضر في وسط الرمـال وعلى بعـد أربعـة فـراسخ عن صـور توجـد الصرفند، وقبل باب هذه المدينة مـن الممكن رؤية المكان الذي ذهب إليه إيليا إلى المرأة الصرفندية، وليـس بعيداً عن هناك توجد بيعة فوق المكان الذي أقام فيه ابنها من الموت.

وعلى بعـد ميلين عن الصرفند توجـد صيـدا، التي كـانت فيما مضى مـدينة عظيمـة، حيث من الممكن رؤيـة حجمهـا من خـلال خـرائب الأسـوار، وكلها تقـريبـاً قائم في قلب البحـر، ولها على كل من طرفيهـا قلعتـان، بنيت الأولى منهما فوق رابيـة قرب السهل، وأمـا الثانيـة فبنيت فوق صخـرة مجاورة للبحر، وجرى بنـاء هاتين القلعتين من قبل حجاج ألمان منذ زمن طويـل مضى، وعلى بعـد نصف فـرسخ آخـر عن هذه المدينة يوجد جبل لبنان، حيث تنمو كروم فائقة الجودة، ولهذا قال النبي عنهـا: «تكون رائحتهم كخمـر لبنان» [هوشع: ١٤/ ٣]، وعبر صيـدا، وأمام بابها شفى الرب ابنة المرأة الكنعانية.

وخارج الأرض المقـدسة، وعلى بعـد عشرين ميلاً إيطـالياً إلى الشمال

من صيدا، توجد بيروت، وهي مدينة قديمة، لها ميناء بغيض، فيه أمضيت ليلة، لكن ليس من دون خوف، وكان ذلك عشية عيد القديس توماس الرسول في سنة ١٤٢٢، وفي قاعة تحت الأرض في هذه المدينة، معروض فيها للمشاهدة صورة رسمت للمخلص بعد وقت قصير من آلامه، جاء رسمها سخرية واستهزاء، وقد لوثت واعتدي عليها بضربها من قبل الكفار، وظلوا يضربونها حتى خرج منها دم وماء، ونتيجة لهذا اهتدى بعضهم وتحول إلى المسيحية، وجاء نصب هذه الصورة للسخرية وكذلك رسمها، وذلك مثلما حدث في بيت بيلايطس، عندما توجوه بتاج من شوك، وبجّل بمثابة ملك، وقد جرى بناء بيعة هناك فيها مذبح واحد، وإليها ينزل الانسان ثماني عشرة درجة.

ويلي بيروت في الشمال جبيل، التي هي أول مدينة تابعة لبطريركية أنطاكية، وقد ورد حديث عن هذا المكان في حزقيال ٢٧، وذلك خلال اطراء لمدينة صور، وكذلك في الملوك الأول، حيث قيل بأن عمال سليمان قد جاءوا من جبيل(بيبلوس)، وتعرف هذه المدينة في هذه الأيام باسم جبيل، وهي صغيرة بها فيه الكفاية، وعلى بعد ثلاثة فراسخ عن جبيل توجد Botrys (البترون) التي كانت فيها مضى مدينة ثرية، لكنها الآن مدمرة كلياً، وبعد هذا على مسافة ثلاثة فراسخ أخرى تقوم قلعة وقرية نفين(أنفة)، وهي قائمة تقريباً فوق شاطىء البحر، ومحصنة بشكل جيد.

وعلى بعد فرسخين من هناك توجد مدينة طرابلس، وهي مدينة معروفة كثيراً على شاطىء البحر، وهناك يسكن فيها: إغريق، ولاتين، وموارنة، ونساطرةو(أناس) من أمم كثيرة، ويعمل فيها الكثير من المنسوجات الحريرية، وقد سمعت قولاً صحيحاً أنه يوجد فيها اثني عشر ألف حائك للحرير ولوبر الجمل.

وينتهي جبل لبنان على بعد ثلاثة فراسخ خلف طرابلس، وعند

سفحه ينبع نبع الحدائق، وهو النهر الذي يجري سريعاً وهو نازل من جبل لبنان، ويسقي جميع الحدائق والسهل الموجود حول طرابلس، ويوجد على ضفتيه عدداً كبيراً من البيوت الدينية التي بنيت هناك، وكثيراً من الكنائس الاغريقية والأرمنية، وفي الحقيقة إن الذي ورد عن هذا النبع في سفر استير صحيح وهو:«من نبع صغير جرى صنع فيض عظيم، لابل كثيراً من الماء»، وعلى بعد فرسخين عن طرابلس يوجد جبل الفهود، الذي له منظر دائري، وهو مرتفع، ويوجد عند سفحه، في الجهة الشمالية كهف فيه ضريح طوله عشرين قدماً، وهذا الضريح يزوره المسلمون بكل تقوى، حيث يقولون بأنه قبر يوشع، وأنا لاأعتقد بصحة ذلك، لأن النص يقول بأنه دفن على طرف جبل إفرايم، تحت المربع ٤٦، والذي أرجحه وأراه هو أن هذا الضريح هو لواحد من أولاد نوح، أو لشخص ما مثلهم، من الذين يمكن أن نبرهن على أنهم سكنوا في تلك الأجزاء.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ أخرى من الممكن رؤية قلعة عرقة، التي بناها عرقايوس بن كنعان، وهي قد بنيت بعد الطوفان، حسبما جاء في شروح سفري التكوين، وأخبار الأيام الأول، وعبر السهل، وعلى بعد ثمانية فراسخ، يصل الانسان إلى انطرطوس، أو(أمام أرواد) وهذه هي جزيرة تبعد مسافة نصف فرسخ عن اليابسة، وفي أنطرطوس وعظ القديس بطرس لمدة طويلة، عندما كان في طريقه إلى أنطاكية، وذلك حسبما قرأنا في رحلة كليمنت، ووجد كليمنت أمه هناك، وهناك أيضاً دفع القديس بطرس إلى تأسيس وبناء أول كنيسة هناك، كرست على اسم القديسة مريم، وعلى بعد ستة فراسخ عبر أنطرطوس توجد قلعة المرقب، التي كانت ملكاً لرهبان القديس يوحنا(الاسبتارية)، وهي محصنة بشكل جيد، وقائمة فوق جبل مرتفع، وتبعد فرسخاً واحداً عن البحر، وذلك على مقربة من مدينة بانياس، وكان قصر الأسقف قائماً في هذه المدينة،

ولكن بسبب إهانات المسلمين انتقل إلى القلعة.

وتنتهي مملكة القدس مع مدينة بانياس، ومع النهر الذي يحمل الاسم نفسه ويجري من خلالها، وبذلك تبدأ بطركية أنطاكية، ويبعد هذا المكان سفر ثمانية أيام عن عكا، وهناك سفر أربعة أيام منه إلى أنطاكية، وتقوم أنطاكية في سورية المجوفة، التي تبدأ عند نهر الفرات، وتنتهي عند نهر بانياس، الذي ينبع تحت قلعة المرقب، ويصب في البحر الكبير قرب بلدة بانياس، التي كانت — كما قلنا من قبل — مقر قصر الأسقف، ويوجد في المقاطعة نفسها: اللاذقية — وأفاميا — وبلدات أصغر.

وسورية الفينيقية، منطقة مختلفة، وهي تبدأ عند النهر المتقدم الذكر، أي نهر بانياس في الشمال وتصل في الجنوب حتى البترا انشيسا تحت جبل الكرمل، وذلك عند القلعة التي اسمها في هذه الأيام قلعة الحجاج(عثليت)، ويوجد في سورية هذه، المدن التالية:المرقب، وطرطوس، وطرابلس ، وبيروت، وصيدا، وصور ، وعكا، وكفر ناحوم.

وهناك مقاطعة أخرى من مقاطعات سورية، هي مقاطعة دمشق، أو لبنان، وحاضرة هذه المنطقة هي مدينة دمشق، ولجبل لبنان شهرة في داخلها، هذا وتعرف البلاد كلها الممتدة من نهر الدجلة حتى مصر باسم سورية بشكل كامل، وأول جزء منها هو الواقع فيما بين نهري الفرات والدجلة، وهو يمتد طويلاً من الشمال إلى الجنوب، أي أن تقول من جبل طوروس إلى البحر الأحمر، وهو يعرف باسم سورية الجزرية، لأنه قائم في وسط المياه، وهو يحتوي على شعوب كثيرة منها: الفرثيين، والميديين، الذين يحدهم في الجنوب بلاد الكلدان.

ثم يذهب الانسان بعد هذا إلى أنطاكية، التي فيها عرف جميع المؤمنين

الذيـن كـــان اسمهم من قبـل الجليليين باسم المسيحيين، وهـم في هذه الأيام يدعــون من قبل المسلمين باسم النصـــارى، وفيهـاكـــان كـرسي بطرس، وفيهـا ولد جـالينوس، الـذي علم الطب لابن أخيــه(أختـه) القديس لوقا الانجيلي، وكان اسم هذه المدينة ربلة(كذا) حتى أيام الملك أنطيخـوس، وفي بداية سـورية المجـوفـة، وباتجاه الغـرب توجـد مـدينة طرسوس، التي جاء منها القديس بولس.

ويوجد أيضاًعلى بعد خمسة أميـال إلى الشرق من عكا المتقدمة الذكر، قرية اسمهـا القديس جـرجس(اللد)وقد أخبرنا أنه في هـذا المكان كان القـديس جيروم(جــرجس) قـد ولد، وإلى الجنوب منهـا تقــوم مـدينة نعســون Naason ، التي قـرأنا عنهـا في سفــر توبيت، وعلى بعـــد فرسخين عـن هناك توجد دوثيم عند سفح جبل بيت أوليـا، وهي التي أراد هولوفرنس الاستيلاء عليها عنوة.

وعلى بعد فرسخين إلى الشرق من نعسون، وثلاثة فراسخ من دوثيم توجـد نفتليم، التي هي مدينة تـوبت، والتي هي مبنية على شكل قـرية، وعلى بعد أربعة فـراسخ إلى الشرق من نفتليم، وإلى جانب بحر الجليل، توجد بيت صيدا، التي هي مدينة أندرو، وبطرس، وعلى بعد فرسخين عن هذا المكان توجــد قلعـة المجـدل، قـرب بحـــر الجليل، التي منهـا أخذت المجدل اسمها.

وعلى بعـد فـرسخ واحـد إلى الشرق من بيت صيـدا، يوجـد المكان الذي وقف عليـــه المسيح على شـــاطىء البحـــر، وقـــال لسبعـــة من الحواريين:«هل لديكـم، أيها الأولاد، أي طعـــام»؟، ومن الممكـن رؤية طبعة قدمه فوق صخرة هناك،وإلى الشرق توجد كفرناحوم، التي عمل فيهـا المسيح كثيراً من المعجـزات(متى:١١)، وعلى فـرسخين بعـد ذلك بـاتجاه الشرق يجري نهر الأردن إلى داخل بحــــــر الجليـل، وعلى الجزء الأعلى من شاطئه من الممكن رؤية كـورزيم، وفي هذا المكان يبدأ صعود

جبل سعير، وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من كورزيم توجد جدر، التي كـانت فيها مضى مـدينة محصنـة بشكل جيـد، ولهذا كتب:«إنني سكنت معهم في جدر».

وعلى بعد أربعة فـراسخ إلى الشرق من عكا توجد قانا الجليل، فهناك حـول المسيح الماء إلى خمرة، ومكان الاحتفال بـالعرس هو كهف محفـور في الصخـر، ويمكنه أن يستـوعب عـدة أشخـاص، ومن الممكن رؤية الأمـاكن التي وضعت فيهـا أواني المياه، والمقـاعـد والمكان الذي نصبت عليه المائـدة، وهذه الأماكن موجـودة تحت الأرض، مثلها في ذلك مثل كثير من الأمـاكن الأخرى المقـدسـة، من ذلك مـوضع البشارة والمهـد، وعلى بعد فـرسخين إلى الجنوب من قانا الجليل توجد مـدينة الصفورية، ويوجـد عبرهـا باتجاه طبرية، وذلك فـوق دوثيم، جبـل بيت أوليـا، كما تقدم القول.

وعلى بعد سبعـة فراسخ من بيـت أوليا، وعلى شاطىء بحـر الجليل، توجد طبرية، وقد أطلق عليهـا اسم طبرية عندما كان هيرود الطيطراخ، ويوجد في ذلك المكان حمامات طبية قائمة على شاطىء البحر.

وإلى الجنوب من عكا، إنما مع الانحـراف قليـلاً نحو الشرق، توجـد الناصرة، المدينة المحبـوبة، حيث أينعـت الورود التي نبعت مـن أصل يسي، وهي على بعد سبعـة فراسخ عن عكا،وهذه هي مـدينة المخلص، وأطلق على يسـوع اسم الناصري، لأنه نشأ فيهـا، وهنا تتدفق ميـاه نبع صغير، منه اعتاد الصبي يسوع أن ينضح الماء ويجلبـه إلى أمه، وعلى بعد ثلاثة فـراسخ إلى الشرق من الناصرة يوجـد جبل الطور، الذي عليـه تغيرت هيئة المسيح، ويمكن لـلانسـان أن يبحث هنـاك عن مكان خيم العهـد الثـلاث، ويوجـد في هذا الجبل أمـاكن عميقـة مع كهـوف تحت خـرائب أبنيـة رائعة، فيهـا الآن مخابىء للأسـود وللحيـوانات الضـارية الأخرى، وعندمـا يبدأ الانسان بالنزول من الجبل هناك بيعة قـائمة على

الجهـة الغربيـة، وذلك عند المكان الذي قـال فيه الرب:«لاتخبروا أحـداً بالذي رأيتموه».

وعبر وادي هذا الجبل، بين الجنوب والشرق، توجـد رابيـة حـرمـون الصغير، الذي ورد ذكـرها في المزامير، وعلى بعـد أربعـة فـراسخ من الناصرة، وفـرسخ واحد من جبل الطور، يـوجد جبل حـرمون الآخـر، الذي تقعٌ مـدينة نين على جـانبـه الشمالي، وذلك حيث أقـام الرب ابن الأرملة من الموت،ويمتـد هذا الجبل نحـو الشرق لمقـدار حـوالي خمسـة فراسخ، باتجاه بحـر الجليل، ويتموقع جبلا جلبوع وحـرمون بشكل أن جبل حـرمـون واقع في الشمال، وجبل جلبـوع واقع في الجنوب، وفيما بينهما سهل عـرضـه فـرسخين، وأربعـة فـراسخ طوله، وكـان هناك فيما مضى من أيام حـروباً عظيمـة ومعـارك فـوق هـذا السهل، فهنا هزم جدعـون المدينيين، وهنا لحقت الهزيمة بشـاؤول على أيدي الفلسطينيين، الذي علقوا رأسه فوق أسوار بيسان، القائمة فيما بين الأردن وجلبوع.

والجليل كلها تقـريباً منبسطة وبلاداً سهليـة، وهي تتصل من الجانب الأول بالأرض المقـدسـة، وذلك حيث تقـوم بلـدة بيت صيـدا، وعلى الجانب الآخـر بالسـامرة التي هي منطقـة جبليـة، وفي السـامرة توجـد سبسطية التي كـانت فيما مضى مدينة جليلة لملـوك اسرائيل، لكنها الآن مهـدمـة كليـاً، ومهجـورة باستثنـاء وجـود كنيستين فقط، الأولى بينهما مـوجودة على قمـة الجبل، حيث قـام فيما مضى القصر الملكي، والثانيـة مكرسـة ليوحنا المعمدان، المدفـون هناك فيما بين اليشع وعوبيـدا، حيث من المعتقد أنـه قد جلب إلى هنا من بلدة مكور، القـائمة فيما بين الأردن وسبسطية.

وعلى بعد فـرسخين إلى الجنوب من سبسطية يوجـد جبل بيت إيل، وعلى بعـد فرسـخ آخر يوجـد جبل دان المشرف على مـدينة شكيم على جهة اليسـار، وعلى هذين الجبلين أقام يربعـام العجلين الذهبيين،وجعل

إسرائيل تذنب، وتقوم مدينة شكيم بين هذين الجبلين، التي تعرف أيضاً باسم نابلس، التي هي مليئة بأماكن جميلة جداً، لكنها غير محصنة، ولايمكن تحصينها، فإذا ما قدم العدو من الشمال، وكان سكان المدينة قليلاً عددهم، لايمكنهم أن يفعلوا شيئاً سوى الفرار إلى الجنوب، وإلى شكيم كانت عظام يوسف قد حملت من مصر، ودفنت، وفي الجوار يوجد حقل قطعة الأرض التي أعطاها يعقوب إلى ابن يوسف، وليس بعيداً عن باب المدينة يوجد جب يعقوب، الذي جلس الرب إلى جانبه، والتمس الماء من المرأة السامرية، وفي هذا المكان كانت هناك كنيسة.

وعلى جهة اليمين من شكيم يوجد جبل جرزيم، وفوق هذا الجبل من الممكن أن يرى حتى هذا اليوم معبد يهوه القديم، مع مشفى للغرباء ونزل لهم، وهذا هو الجبل، الذي قيل لنا بأن المرأة قد عنته عندما قالت:«تعبد آباؤنا في هذا الجبل»وعلى بعد فرسخ واحد من شكيم توجد مدينة اسمها لوز، فيها سكن إبراهيم، ويقال بأن يعقوباً قد نام في هذا المكان، ورأى السلم، وذلك عندما قال:«كم هو مرعب هذا المكان»، وأطلق على المكان اسم بيت إيل، علماً بأنه كان يعرف من قبل باسم لوز، ومعنى ذلك وترجمته:«الرب يرى»، لكن بعضهم يقول بأن ذلك كان فوق جبل أكرا، حيث كنت أنا جون بولونير آخر من رأى قصة التضحية مرسومة بأعمال الفسيفساء، في المكان الذي جرى تقديم المسيح فيه، وكذلك يقول بعضهم بأن المكان الذي نام فيه يعقوب ورأى السلم هو جبل موريا، أو الجبل المعشوشب(جبل إبراهيم)، الذي فوقه بنى سليمان فيما بعد هيكل الرب.

ويطلق على السهل القائم فيما بين نهر الأردن وأريحا اسم جلجالا Gilgala ، (الجلجال)، وعلى بعد نصف فرسخ عن هناك يوجد جبل القرنطل، وذلك حيث صام الرب لمدة أربعين يوماً، وهناك أغوي من قبل الشيطان، ويقول آخرون بأن ذلك كان على جبل مرتفع قريباً

جداً من بحر الجليل، وذلك على بعد فرسخين عن الجبل المتقدم الذكر، والذي يوجد على قمته بيعة، فقد أراه هنا جميع ممالك الدنيا، وعند سفح هذا الجبل ينبع نبع اليشع وتجري مياهه، وهو الذي حوله من المرارة إلى العذوبة، وجعله ماء سائغاً للشراب.

وعلى بعد ميل واحد عن الجلجال توجد أريحا، التي كانت فيها مضى مدينة جليلة، لكنها انحدرت إلى حد أنه لم يبق أي أثر يدلك على أنها كانت مدينة، وكان زكّا من هذا المكان، وعندما ينزل الانسان من القدس إلى أريحا، وعند نهاية الجبل، وقبل بداية السهل، يمكنه أن يرى على جانب الطريق المكان الذي جلس عليه الأعمى وهو يستعطي، وهنا كان فيها مضى كنيسة، وعلى الطريق الذي يقود إلى القدس، على بعد أربعة فراسخ عن أريحا، وفي قرية قائمة على جهة اليد اليسرى لبرية القرنطل، يوجد المكان الذي وقع فيه الرجل بين اللصوص.

وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من أريحا، يوجد دير القديس جيروم، في برية واسعة، تتعرض لأشعة الشمس الحارقة، لذلك لم يبق هناك أي شيء أخضر، وكان قد سكن هناك لمدة أربع سنوات، ومن أريحا هناك فرسخان إلى نهر الأردن، حيث من الممكن أن نرى هناك بيعة مكرسة للقديس يوحنا المعمدان، وقد مشى بنو إسرائيل فوق الأردن بأقدام جافة، ونال نعمان المجذوم البراءة في الأردن، كما وتعمد المسيح في الأردن. وعلى بعد ثلاثة فراسخ، أو ستة أميال، من أريحا، تقوم ساعور في العربية، حيث يوجد تمثال من ملح، إليه تحولت زوجة لوط، الذي هو خطر للذهاب لرؤيته، بسبب المدينيين الذين يسكنون هناك، ويفيض البحر في بعض الأحيان، وترتفع مياهه إلى حد أنها تغطي التمثال كله، ثم يتناقص حتى يبات من الممكن رؤية التمثال، وأحياناً رؤيته حتى الصدر، وأحياناً أخرى حتى الركبتين، لأن هذا التمثال واقف فيما بين ساعور والبحر الميت، وعرض هذا البحر ستة

فـراسخ، وبسبب استمـرار تصـاعــد الأبخـرة منه، ورائحـة النتن، فإن الوادي الذي عـرف فيما مضى باسـم الرائع، قـد صـار أرضـاً جـرداء، لمســافـة سفــر عشرة أيام، فطوال ذلك لاتحمل الأرض أية أعشــاب، ولاينمو عليهـا أي شيء، فضلاً عن هذا جميـع الجبال، على اليمين وعلى اليســار جرداء لمسـافـة ستة فـراسخ، وفـوق هذا المكان، وأنت نازل إلى العربية يوجد كرنيم، وهو برج مـراقبة للمآبيين، وإليه جلب بلعام ليتولى اللعنة، حيث كلمتــه الأتان، التي كـان راكبـاً لها، ويفصـل هذا البحـر اليهودية عن العربية.

وفي أيام بني إسرائيل كـانت العـربيـة فيـافي، ومكاناً معـزولاً، حيث أبقـاهم الرب هناك لمدة أربعين سنـة، يمطر عليهم المن من السماء، وهنا ســار أمـامهم عمـود من نار أثنـاء الليل، وأظلتهم السحـابة في النهـار، وهناك كـانت المحطات الأربعين لبني إسرائيل(الخروج، والعـدد ٣٣)، واعرف أن العـربية متصلة بأدوم الموجـودة في جوار بصرى، وأدوم هي بلاد دمشق، ودمشـق هي عــاصمـة ســورية، ويفصـل لبنان أدوم عن فينيقيا، وفي فينيقيا توجد مدينة صـور، وفي العربية يوجد وادي موسى، فهناك ضرب الصخـرة، فنبع الماء منهـا، وفي العربيـة أيضـاً جبل سيناء، فهناك أعطيت الشريعة إلى موسى، وكذلك يوجد في العربية الجبل الذي دفن عليـه هرون، وفي العـربيـة جبل عبريم، حيث دفن الرب مـوسى، الذي لم يشاهد قبره في أي مكان، وفي العـربية يوجـد المكان الذي اسمه بتراء في الفيـافي، أو الشـوبك(الملوك الثـاني:١٤/ ٧)، وفي مكان مـرتفع وراء الأردن، وعلى مقـربة من مـدينة Rabath التي هي ملك لأبناء عمون، وذلك عنـد نهاية الأرض المقدسة، هنـاك كانت قلعة، هـي قلعة بتراء في الفيـافي(الكرك والشوبك)، وكـانت قوية بما فيـه الكفاية، وقـد بناها بلـدوين، الملك اللاتيني الأول في القــدس، بقصــد الدفــاع عن المملكة.

- ٤٣١٦ -

حول أرض مصر

مصر أرض مستوية ودافئة، ونادراً ما تمطر هناك، لكن البلاد تسقى من قبل نهر جيحون، الذي يعرف باسم النيل، ولهذا النهر سبعة فروع تجري في مختلف المناطق، وفي النيل تنشأ الخيول البرية والتماسيح بأعداد لاتحصى، ويشبه التمساح العظاءة، حيث يمتلك أربعة أقدام، وأرجل قصيرة وغليظة، وفكين حادين مثل فكي الدب، ورأس مثل رأس العظاءة، وعندما يخرجون من الماء ويسيرون فوق اليابسة يقتلون أي إنسان أو حيوان قدروا عليه، وخروف أو جدي لايكاد يكفي أحدهم لوجبة واحدة. ويبدأ النيل بالفيضان في عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ويستمر حتى عيد تمجيد الصليب المقدس، ومن ثم يبدأ بالتناقص حتى عيد الغطاس، عندما تبدأ الأرض الجافة بالظهور، ويزرع الفلاح بذاره، ويكون الحصاد في آذار، ويجري جني مختلف أنواع الخضار ابتداءا من عيد القديس مارتن حتى أوائل شهر آذار، والشيء نفسه يحدث بالنسبة لفواكه الحدائق، وتحمل الأغنام والماعز وتلد مرتين في السنة.

وعليك أن تعرف أن هناك ثلاثة مدن اسمها بابل، أولاها قائمة على نهر الدجلة، فهناك كان نبوخذ نصر ملكاً، والثانية موجودة في مصر، وفيها كان يحكم فرعون، وهاتين المدينتين مدمرتين، والمدينة الثالثة، التي نتعامل الآن معها، موجودة أيضاً في مصر، ومتصلة بالمدينة التي اسمها القاهرة، التي يوجد فيها قصر السلطان الملكي، وهي مدينة بابل الجديدة نفسها، ويوجد في هذه المدينة خمسة شعوب هم: الرومان، والاغريق، واليعاقبة المسيحيين، والمسلمين، واليهود، ويوجد هناك كنيسة بطريرك لليعاقبة اسمها كنيسة سيدتنا سيدة لازا Laza، وهي ذات جمال عجيب، وهي كنيسة بطريرك اليعاقبة، ويوجد فيها عمود، منه صدر صوت يقول:«اذهب وابحث عني.... هذا الرجل ينقل الجبال»،

ويوجد هناك أيضاً كنيسة مكرسة للقديسة بربارا، ويوجد الآن فيما بين بابليون والقاهرة خمس عشرة كنيسة مسيحية، الأولى بينهن هي الأكثر قداسة بين الجميع، ففي هذه الكنيسة بيعة موجودة تحت الأرض، فهناك يوجد المكان الذي سكنت فيه العذراء المباركة مع ابنها يسوع، ويوسف، وكان ذلك عندما هربت من أرض اسرائيل، ويوجد هناك صليب صنع بمثابة علامة للتدليل على المكان الذي اعتاد الطفل أن ينام فيه، وعلى هذا، هذه هي الكنيسة الأكثر قداسة بين الجميع، وهي أسمى مكانة من الكنائس الأخرى، واسمها كنيسة سيدتنا سيدة قانا في بابليون.

وكان يوجد في القاهرة شجرة نخيل معرقة بالقدم، وهي التي حنت نفسها، ونزلت إلى الأسفل إلى العذراء المقدسة، حتى تتمكن من جمع التمر وقطافه منها، ثم نهضت بعد ذلك، ووقفت كما كانت من قبل، ولقد قرأنا بأن برج بابل كانت مساحة إطاره الخارجي من طرف إلى الطرف الآخر ألفاً واحداً وعشرين خطوة، وأن سماكة سوره كانت ثلاثمائة خطوة، لأنهم قصدوا أن يبنوه حتى يحاذي القمر.

وتبعد غزة — أو غزرة — سفر ثلاثة أيام عن القدس، وهي إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة، وقد انتزع شمشوم أبوابها، وحملهم حتى ذروة رابية. وعلى بعد ثلاثة أيام عن غزة توجد مدينة دمياط، وهي مدينة مصرية، فهناك فيها رجم إرميا، والمدينة الثانية هي مدينة عكا، ذلك أنها تعدّ إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي تبعد عشرة فراسخ عن عسقلان وذلك باتجاه يافا، ليس بعيداً عن البحر، وتقع بير السبع بين المنطقة التلية وبين مدينة غزة. وكانت غاث أيضاً واحدة من مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي قائمة ليس بعيداً عن اللد والرملة، ومن خرائبها جرى بناء قلعة ابلين(يبنا)، وكان ذلك فوق التلة نفسها، وبلدة يبنا هذه وقلعة يبنا(كذا) هي التي كان اسمها في القديم بير

السبع، وقـد بنيت قلعة تل الصـافيـة لتوقف أذى العسقـلانيين، والملك هيرود، الذي في أيامـه ولد المسيح، كـان من أهالي عسقلان، وعلى بعـد ثلاثة أميال عن عسقـلان تقوم قلعة تل الصافيـة، وعلى شاطىء البحر، ليس بعيداً عن عكا، تقوم يافا التي أقـام فيها القديس بطرس تابيثا -Ta bitha من الموت.

(٣)

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته
حوالي
(١٤٨٠ —١٤٨٣م)
القسم الأول

كتاب جولات الراهب فيلكس فابري ورحلاته

مدخل ·

وصف الراهب فيلكس فابري في إهدائه التكريسي الذي تاريخه ١٤٨٤، بعد عودته للمرة الثانية من الأرض المقدسة، كيف أنه سافر إلى هناك مرتين، وكيف سعى جاهداً أثناء ترحاله للوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه لإخوانه الرهبان، في دير أولم Ulm الدومينيكاني بأن يحتفظ بسجل تام ودقيق حول كل ما رآه، وما نزل به أثناء رحلته،وأضاف أنه «إلى جانب ذلك، بذلت في بعض الحالات جهداً كبيراً، لكي أكتب وصفاً دقيقاً وتاماً حول بعض الأماكن المقدسة التي لم أذهب قط إليها، لكنني لم أفعل ذلك دون أن أضيف:أنا لم أذهب إلى هذا المكان، بل سمعت حوله أو قرأت».

وتحدث عن نفسه في توطئة كتابه هذا، على أنه إنسان قد زار ثلاثة أرباع العالم المعروف آنذاك، وحيث أنه كتب قبل عشر سنوات من اكتشاف أمريكا، من المفيد أن نقرأ إشاراته إلى جزر التوابل، وإلى شهرة سيبانجو Cipango التي كان الوصول إليها عبر طريق قصير هو الهدف الأساسي لرحلة كولومبوس، وقد اعتذر أيضاً عن أسلوبه اللاتيني، الذي وصفه الأستاذ س.د.هاسلر Hassler الألماني الذي حقق كتاب رحلته، بأنه أسلوب سخيف الأساس في الـ"Epistolae abscurorum Virorum» ، وقال:كان من المتوجب وقوع كتابه في أيدي الكهنة الذين يهملون الانجيل والأنبياء ليفرغوا لقراءة فرجيل والشعراء اللاتين والخطباء، فوقتها ما كان لينجو من سخريتهم ونقدهم الشديد،لأن هؤلاء الناس يحبون روما الوثنية أكثر من القدس المسيحية، على الرغم من قول بعضهم:«إذا ما نسيتك ياقدس، لينشق

لساني في سقف حلقي»الخ.

ووصف مطولاً رغبته في رؤية الأرض المقدسة، ونقل عن توطئة القديس جيروم لسفر أخبار الأيام، أن الذي يبحر من طروادة إلى صقلية، سيكون بإمكانه أن يفهم بشكل أحسن القسم الثالث من كتاب الإنياد لفرجيل، وعلى هذا الأساس: إن الذي سوف يتمكن من رؤية اليهودية بعينيه، سوف يتملك رؤية أوضح ونفاذاً لما جاء في الكتابات المقدسة، واستطرد القديس جيروم يقول:«ولهذا تحملت أعباء الترحال خلال جميع أرجاء هذه المنطقة، بصحبة أفضل المتعلمين العبرانيين»، وهنا استطرد فابري يقول:«إذا كان القديس جيروم العظيم، الذي كان إنساناً عالي الفهم، ومثقفاً، رأى أن عليه زيارة الأماكن المقدسة، حتى يتمكن بصورة أفضل من فهم الكتابات المقدسة، ولاعجب على هذا إذا ما حاولت أنا ومن هو مثلي، بليد بطيء في الفهم، ببعض الوسائل الحصول على بعض من المعلومات الضئيلة عن الكتابات المقدسة، في الحقيقة إننا نرى في أيامنا هذه مجرد بعض الناس العلمانيين، الذين لايمتلكون معرفة عن الكتابات المقدسة، أنهم بعدما أدوا الحج إلى الأماكن المقدسة، وعادوا من هناك، صاروا قادرين على المناقشة حول الانجيل وحول الأنبياء والتحدث حول مواضيع لاهوتية، ويتغلبون أحياناً على بعض رجال الدين المتعلمين في تفسيرهم لبعض النصوص الصعبة في الكتابات المقدسة،لأنه ما من كاثوليكي قد عاد من هناك من دون أن يصبح متعلماً أكثر وبما أنه على هذا يعود الرجال العلمانيين من الأماكن المقدسة لاهوتيين، لايوجد شك أن رجال الدين من بعض الطوائف ورجال يمتلكون معارف قليلة، سوف يعودون متعلمين بدرجات ليست صغيرة، ولهذا السبب، ولأسباب أخرى كثيرة، شرحتها في مجريات إطرائي للأرض المقدسة، ولأسباب أخرى ليس من الضروري بالنسبة لي ذكرها، عزمت على التوجه إلى القدس، وثبتّ

وجهي نحوها، مثلما قيل عن الرب يسوع في لوقا:٩/ ١٥، وبقدر ما هو مسمـــوح لراهب أن يفعل، وربطـت نفسي بيمين أن أقــوم بالـرحلة، ويشهـد الرب أنني كنت لسنوات متحـرقـاً بلهفـة للقيـام بحجي، وهو الموضـوع الذي كنت أفكر به دون سـواه سـواء أكنت مستيقظاً أو نائماً، وأقـول صادقـاً أنني وأنا منشغل بهذه الأفكار، بقيت مستيقظاً أكثـر من ألف ساعة من ساعات الليل ووقت الراحة.

فضـلاً عن هذا، لم يكن من السهل بـالنسبـة لي أن أطلب إذناً لرحلة طويلة جـداً، وجـولات غير اعتيـادية، وبدا لي أنه من المستحيل تقـريبـاً الحصول على هذا الاذن، كما أنه لم تكن لدي أيـة فكرة عن الطريقة التي يمكنني فيهـــا تـأمين المال للانفـــاق على مثل هذه الـرحلة العظيمـــة التكاليف، ومع هذا لم أبـق بلا حـراك، وسألت نصيحـة عـدد كبير من الناس، ولم أجد سبيلاً لتجنب الاقامة في الوطن، وعلى كل حال، حملت نفسي أخيراً إلى الأمير المشهـور، كـــونت إبرهارد Eberhard الأكبر أوف وورتمبورغ Wurtemburg، الذي كـان موجـوداً في الأراضي المقدسة منذ وقت طويل، والذي هو مرتبط بعهود الفروسية، حيث كان قـد تسلم شـــارة الفـروسيـة في كنيسـة الضريح المقــدس، التي هي في القدس.

وطلبت الحصـول على نصيحتـه الفخمة، حـول كيف يمكنني القيـام بالحج، الأمر الذي تعهدت القيام به، لأنني كنت خائفاً، وشاعراً بالخطر على حيـاتي، كما أنني ارتعبت من البحـــر، الذي لم أره قط بعـد، والذي سمعت عنه الكثير، كما وكنت مـرعـوباً من مخاطر الحج الأخـرى، التي قـــرأت عنهـا كثيراً جـــداً، ولهذا سعيت إلى هنا وهناك للحصـــول على النصيحـة ، وبعدمـا استمع الكونت إليّ أجابني بشكل اعتيـادي قائـلاً: هناك ثلاثة أعمال في حيـــاة الانســان، لايجوز لأحـد أن ينصـح آخـر أن يفعلهـا أو لايفعلهــا، أولها هو إبرام عقـد زواج، وثانيهـــا الذهاب إلى

الحرب، وثالثها أن يقوم بزيارة الضريح المقدس، وأنا أقول بأن هذه الأعمال الثلاثة جيدة في ذاتها، لكن من السهل تحولها إلى سيئة، وعندما يحدث ذلك، فإن الذي أعطى النصيحة يمكن أن يصبح بسهولة ملوماً وكأنه هو السبب في تحولها إلى سيئة، وهنا استطرد الكونت العاقل يقول بأن الحج الذي أسأل نصيحته حوله هو عمل يمكن أن تكون له فضائله، وهو مقدس، وعمل محمود، ومفيد جداً، إنما فقط للذين يقومون به لحمد الرب وشكره، وهو في الحقيقة مليء بالمخاطر بالنسبة للذين يقومون به عبثاً أو غواية، حيث يكون هدفهم التفاخر في هذا العالم، أو أي أمور فارغة وزائلة أخرى.

وزرت أيضاً نبيلاً آخر كان فارساً حسناً، كان أيضاً قد تلقى شارة الفروسية منذ سنوات طويلة مضت في الضريح المقدس، وسألته ما الذي يمكن أن يشير به عليّ بالنسبة لهذه المسألة، فأجابني من صميم قلبه مباشرة وهو منفعل قائلاً:كن متأكداً ياأخي، لولا أنني معاق بتقدم السن، ما من شيء يمكنه أن يمسكني ويحول بيني وبين العودة للقيام بحج آخر، لأنني لم أتلق النعمة من الرب بمثل القدر الواسع الذي تلقيته في الأماكن التي صُنع بها خلاصنا، لأنني كنت حيثما أخذت نفسي للصلاة ، وأدرت تفكيري، كنت أرى السموات مفتوحة، والعذوبة الربانية والسلوى منصبة على روحي، وهو أمر لانظير له في مكان آخر.

ومضيت بعد هذا إلى واحد من ديرة الراهبات، والتمست الحصول على إذن راعية الدير حتى أتحدث مع فتاة من الراهبات معروفة بتقواها، وتمتعت — كما اعتقد كثيرون — بقداسة استثنائية، وكنت قد تحدثت معها مراراً من قبل حول تنويري وتثقيفي، غير أنني لم أر وجهها من قبل، وأبحت لهذه الفتاة خطتي، فأجابت بسرور غير متوقع قائلة:«أسرع، أسرع في إنجاز رحلتك التي تنوي القيام بها، ولاتقم هنا

أية مـدة أطول، وليكن الرب رفيقك على طريقك»،وتلقيت كلمات هذه الفتـــاة، وكأنهن جئن من السماء،وبدأت على الفـــور بالاعـــداد لجولاتي ورحلاتي، وكان في تلك الآونة في الدير التابع لطائفتنا في روما، والقائم فوق معبد مينيرفا راهب من بلادنا، وهو صديق لي ولي به معرفة جيدة، وله كتبت مخبراً عن نيتـي، والتمست أن يحصل لي على إجـــازة من أبينا الأعظم قـداسة، البابـا سكتوس Sixtus الرابع، ومن القـائد العـــام لطائفتنا المحترم الأب ليـــونارد دي مـــانســـوتي Mansuetis أوف بيرسيوم Perusium ، الذي بدون الحصول على إذنـــه أولاً، ما من أحد في بلادي سيمنحنـي إجازة بالارتحال، وقام هذا الراهـب، كصديق جيـد، دونما إبطاء، وبسرعـــة، بالحصـول على الذي طلبتـه، وبعث إلي برسالة إجـازة موثقة من القـائد العام لطـائفتنا، حيث حذر جميع الناس أن مـا من واحد أدنى منه مـرتبـة يحق له التدخل لإعـاقتي، ومنعي من القيام بهذا الحج.

ولدى تسلمي لهذه الرســالة، بعثت بنسخـــة عنهـا إلى الأب المحترم لمنطقتنا الاقليميـــة، وإلى الحكيـم اللاهوتي لـودويغ فـــوشي Ludwig Fuchs ، راعي دير أولم، وأريتهما إجـازتي التـي حصلت عليهـا من السيـد البـابا، ومن مقدم طائفتنـا، ورجوتهما أن يقـومـا مثلهما بالتفضل بإعطائي مـوافقتهما، ولدى رؤيتهما رغبتي الشـديدة بالذهاب، لم يكتفيـا بإعطائي موافقتهما، بل منحاني مـالاً ومساعدة من أجل الرحلة، وهكذا حدث أن أصبحت خـلال عدة أيام قليلة وبتّ مـزوداً بشكل رائع بكل مـا هو مطلوب لمثل هذه الرحلة العظيمـة، وعندما بلغ هذا إلى مسـامع أحد النبـلاء والفرسان الشجعـــان، اللورد أبولينارس فون ستين Apol-linaris Von Stein ،الذي كان آنذاك حاكـم بافاريا العليا، ومقيماً في بلدة غندلفنجن Gundelfingen ، أمـر بإحضـاري إليه، وعهـد إليّ بالعناية بابنه السيد جـورج فون ستين، الذي قرر إرسـاله إلى القدس

ليتلقى شارة الفـروسية هناك، ووعدني بالتعـويض عن جميع نفقاتي، مع أعطيات فوقهن، ورعايته المستقبلية، إذا ما وافقت على أخذ ابنه كمرافق لي في رحلتي.

وقـدمت موافقتي عن طواعيـة لهذا السيد النبيل، واتفقت مع السيـد جـورج على يوم حـددناه، حيـث يمكنه أن يجدني فيـه في بلدة ميمنجن Memmingen ، فمن ذلك المكان، وفي ذلك اليـوم يمكننا أن نبـدأ رحلتنا، وبعدما قمت بهذه الترتيبات عدت إلى أولم».

وصف موجز لرحلة الراهب فيلكس فابري الأولى إلى الأرض المقدسة

في أيام الاحتفال بعيد الفصح، في سنة ١٤٨٠ لتجسيد ربنا، وفي اليوم التاسع من شهر نيسان، الذي كان يوم أحد، وهو اليوم الثامن بعد عيد الفصح، وهو الذي فيه يغنى« Quasi modo » الخ في الكنائس، والذي يحتفل فيه أيضاً بعيد تكريس كنيسة الدومينيكان في أولم، في ذلك اليوم نفسه، بعد الغداء، وحسبما جرت العادة، صعدت المنبر، ووعظت الناس الذين كانوا موجودين بأعداد كبيرة، لسماع القداس وللحصول على الغفران، وبعدما أنهيت قداسي، وقبل الاعتراف العام الذي يقوم به الناس في مثل هذه المناسبات، أخبرتهم جميعاً عن الحج الذي كنت على وشك الشروع به، وسألتهم جميعاً، والتمست أن يطلبوا من الرب في صلواتهم لي عوداً سليماً، وأن يغنوا معي في ذلك الوقت بسرور مزمور قيامة الرب، الذي اعتاد الناس على غنائه مع بعضهم، مع مزمور الحجاج بالبحر، وبعدما قلت هذا، شرعت أُنشد بصوت مرتفع«قام المسيح»الخ، وعندما انتهت هذه الترنيمة، غنيت مجدداً:

، In gottes Nahmen Fahren wir, Seiner gnaden

وغنى جميع الناس الترنيمة ورائي، وهي التي شرعت بها، غنوها بأصوات مرتفعة وجميلة، وكرروا ما غنوه مراراً وتكراراً، كما أنهم لم يضبطوا أنفسهم عن البكاء، وانفجر بعضهم بالبكاء بصوت مرتفع بدلاً من الغناء، لأنه كان هناك عدد كبير من الأشخاص من كلا الجنسين قلقين ومتوترين، وخائفين، مثلما كنت أنا نفسي خائفاً من الهلاك وسط هذا القدر من المخاطر المرعبة، وعندما انتهى الغناء أودعتهم لعناية

الرب، بأن أضفيت عليهم غفراناً عاماً، وقويت عزائمهم بشارة الصليب، وودعتهم، ونزلت من على المنبر.

وبعدما تلقيت في الصباح الباكر من اليوم الرابع عشر من نيسان المباركة التي تعطى إلى الذين على نية السفر، وبعدما قبلت إخواني وعانقتهم، ركبنا على خيولنا، أنا والمقدم المحترم لودويغ، مع خادم من مدينة أولم، حيث التقيت وفقاً لموعدي مع السيد أبوليناريس فون ستين، وبصحبته ابنه جورج، وعدداً كبيراً من الجنود المسلحين، وعلى الفور أجرينا في اليوم التالي الاستعدادات للمغادرة، وودع الشاب النبيل أباه، وجميع أقربائه وحاشيته، وركب فرسه دونما وجل أو أسى، واندفعت أنا أيضاً إلى بين ذراعي أبي الروحي اللطيف جداً والمحبوب، أطلب منه الوداع، والمباركة الأبدية، إنما ليس من دون حزن وأسى، ظهر منا كلانا بوساطة كثير من الدموع والتنهدات، ولم يكن هناك شيئاً عجيباً حول هذا، لأن الفراق الاجباري للابن عن أبيه وللرجل الصادق عن أصدقائه المخلصين، من الطبيعي هو محزن.

وفي أثناء عناقي وتنهداتي سمعت آخر كلمات أبي المحبوب جداً ونصائحه، بأن لا أنساه في الأرض المقدسة، وأنه إذا ما توفر رسول، بأن أرسل له رسالة من البحر، أخبره فيها عن أحوالي، لكي يتأكد من عودتي سريعاً، وهكذا تركني وهو آسف جداً، وعاد مع خادمه إلى أولم، إلى أبنائه الذين هم أخواني، وبعد مغادرة أبي، استولى عليّ إغواء لايمكن مقاومته، بدلاً عن رغبتي الجامحة لرؤية القدس، والأماكن المقدسة، التي كانت تتوهج في داخلي حتى ذلك الحين، فقد ماتت كلياً في داخلي، وشعرت بأنني أكره السفر والترحال، والحج، فالذي بدا لي حلواً وفضيلاً، ظهر الآن أنه مرهق، ومؤلم، وبلا فائدة، وفارغ وأثيم، وكنت غاضباً من نفسي لإقدامي على الترحال، ونظرت إلى جميع الذين حاولوا ثنيي عن القيام بالرحلة، بأنهم أحكم المستشارين، وأوثق

الأصـدقـاء، وفي الوقت نفسـه عـددت الذين شجعـوني أعـداء حيـاتي، وصرت أرى أنني سأتمتع أكثـر برؤية سـوابيـا من رؤية بـلاد كنعـان، وبدت أولم إليّ أكثر جمالاً من القـدس، فضلاً عن هذا ازداد الخوف من البحـر في داخلي وتضـاعف، وشعـرت بكثير مـن مشـاعـر المعـارضـة والرفض لذلك الحج، إلى حـد أنه لـولا الخجل، لركضت خلف المقـدم لودويغ، وعـاودت الدخـول إلى أولم معـه، وكنت سأشعـر بالسرور الأعظم لفعل ذلك.

وبقي هذا الاغـواء اللعين معي مـوجوداً طوال الرحلـة كلها، وكـان مـزعجـاً جـداً لي، لأنه ذهب بكل السرور، والمتعـة، والرغبـة، فبـذلك يدعم الحاج جهـوده، وذلك يحثـه على الاستمـرار بعمله، وقـد جعلني باهتـاً وبليـداً في كل من مشـاهـدة الأمـاكن الجديرة بالاهتمام في البحـر والبر، وفي كتـابة رواية عنهم، وكان الذي كتبتـه هو ضد مـزاجي، لكن نجحت أحياناً في التغلب على سئمي بالعمل المرهق.

وعلى هذا انطلقت أنا والشـاب السيـد جـورج، وخـادم اختـاره من حاشيـة أبيه، وأقلعنا من ميمنجن، وفي خـلال عدة سـاعات بدأ يصبح صديقاً لي، وعـارفاً بي، وصرت أيضاً أنا صديقاً وعـارفاً به، وقد توافقنا بطباعنا المتنوعـة معاً بشكل جيد، وهذا أمـر مريح جداً للذين يقـومون بالحج مع بعضهم، لأنه إذا مـا كـان مع الانسـان رفيق على غير وفـاق معه، سيلفهما الأسى والويل طوال حجهما.

وهكذا دخلنـا إلى الألب مبتهجين حتـى انسبروك Innspruck ، وبعد مغـادرتنا لذلك المكان، ركبنا وتقدمنا مسرعين، من أجل أن نصل في أقرب وقت إلى البندقيـة، وعندما كنا في الجبال، حـدث حادث معنا أرغب في إخبـاركم عنه، فعندمـا وصلنا إلى قرية اسمهـا أدسكالام Ad Scalam، شردنا هناك وابتعـدنا عن طريقنا الصحيـح، الذي هو الطريق الملكي العام، لأنه كان مـن المتوجب علينا تسلق الجبل، والعبور

من قـرب القلعة القائمـة على قمته، وعلى كل حـال نحن لم نفعل ذلك، بل خلفنا الجبل والقلعة على جـانبنا الأيسر، ونزلنا إلى وادي، من خلال طريق طويل، وممهـد بشكـل جيـد، وعندمـا تملكنا أخيراً إمكانيـة رؤية السهل القائم تحت الجبل، رأينا أمامنا بلدة ذات حجم جيد، الأمر الذي أدهشنا، لأننـا لم نكن نعلم بـأننا سنصل إلى أي بلـدة في ذلك اليـــوم، وعندما وصلنا إلى تلك البلدة وجدنا أنها كانت باسانو Bassano ، وأدركنا بأننـا شردنا عن طريقنـا، وبقينا على كل حـــال هناك لمدة ليلة، وشربنا نبيذاً أحمر، هو الانتـاج الخاص لذلك المكان، وظللنا نفعل ذلك حتى غلبنا النعاس، وكنا على كل حال غير مرتاحين مطلقاً، لأنه لم يكن هناك في النزل أحـداً يمكنه التحـدث بالألمانيـة معنا، وبما أننا كنا نجهل الايطالية، توجب علينا أن نسأل عن كل شيء بالاشارة.

وركبنا في اليـوم التـالي إلى قلعـة فـرانكـو، ومن هناك مـررنا خـلال تريفيسو Treviso ، حيث بعنا خيولنا، وتابعنا السفر على البغال إلى مرغيروم Margerum ، وفي مرغيروم قلنا لليـابسة وداعاً، وسـافرنا بالبحر في بارجة، حيث أبحرنا حتى البندقية ثم إلى فونداكو دي تديتشي Fondaco de Tedeschi ، وسألنـا في فـــونـداكـــو عـن نزل للفرسـان والحجاج، وأُخذنا من قبل واحـد من الألمان إلى نزل القديس جورج، الـذي كان نزلاً واسعاً ومحترمـاً، ووجدنا هناك عـدداً كبيراً من النبـلاء من مختلف البلدان، كلهم قـد ربطوا أنفسهم بالتعهدات نفسهـا مثلما فعلنا نحن شخصيـاً، وكـانوا ينـوون عبـور البحـر، وزيارة ضريح الرب يسوع الذي هو أعظم الأضرحة قـداسة، وكان هناك أيضاً بالنزل الأخـــرى كثير من الحجـــاج من كل مـن الكهنة والرهبـــان والرجـــال العلمانيين، والأعيان والعـاديين، من ألمانيا،وغاليـا وفرنسـا، وكان هناك بشكل خاص أسقفان، وهما مـولاي أسقف أورلين، ومولاي أسقف لى — مـانس، مع حـاشيـة كبيرة من التـابعين والخدم، ولقـد كـانوا هناك

ينتظرون إبحـار إحـدى السفن، وفضـلاً عن هذ كـان هناك معنا بعض النسوة المتقـدمات بالسن، وكن عقيلات ثريـات، عددهن ست، يرغبن بعبـور البحر إلى الأمـاكن المقدسـة، وكنت مندهشـاً تجاه شجاعـة تلك النسـاء العجائـز، اللائي كن بسبب تقدمهن بالسن بالكاد قـادرات على القيـــام بأود أنفسهن ومع ذلـك نسين ضعفهن، والتحقن من خـــلال حبهن للأرض المقدسة بفرسان شبـاب، وتحملن أعباء ومتاعب الرجال الأقوياء.

وعلى كل حال لم يكن النبـلاء المتكبرين راضين عن هذا، ورأوا عدم النزول في السفينة التي سـوف تسـافر بها هؤلاء السيـدات، عـادين أنها إهانة بالنسبة لهم السفر وتلقي شارة شرف الفروسية برفقة نساء عجائز، وحاول أصحـاب هذه الأرواح المتشامخة إقناعنا بعـدم العبور في السفينة التي عزمت النسـاء العجائز على الابحـار فيها، لكن الفرسـان الآخرين من ذوي الضمائـر عارضـوا هؤلاء الرجال المتشـامخين، وكانوا سعيـدين بحضور أولئك النسوة الصبورات، وكانوا يأملون أن قداستهن سوف تجعل رحلتنا آمنة أكثـر، وعلى هذا الأساس تفجر نـزاع لايمكن فضه بين هؤلاء النبلاء، وقد استمر حتى نقل الرب أولئك الرجال المتشامخين من بيننا، وعلى كل حال هؤلاء النسـوة التقيات بقين برفقتنا في كل من أثناء الذهاب إلى هناك، ثم في أثناء العودة.

وكان الآن السيد أوغسطين كـونتاريني Contarini ، الذي معنى اسمه هو«كونت الراين»، وهو نبيل بندقي، كـان ذاهباً ليأخذ شحنة من الحجـاج، واتفقنا معـه حـول الايجار، واكترينا غليـونه، وتسلمنا منه قمـرات وأغطيـة، أي أمـاكن لكل واحـد منا للنوم في الغليـون، وأملنا بعبور سريع، ذلك أننا انتظرنا أيامـاً كثيرة، كان الغليون خـلالها يعدّ من أجل البحر، لكن عندما كان كل شيء جاهزاً، ولم يبق شيء لعمله سوى الاقـلاع، الذي تشـوقنا كثيراً إليـه وللقيـام بـه، وصلت سفينة، حملت

أخبـاراً سيئة، بأن امبراطور الأتـراك محمـداً الكبير كـان يتـولى حصـار جزيرة رودس بحـراً، بأسطول كبير في البحر، وبجيش شـاكي السلاح من الفرسان والرجّالة براً، وأن بحار: الإيجي، والكارباثيان -Carpath ian ، والماليـان Malean كـانت تعج بـالأتراك، وأنه على ذلك من غير الممكن القيـام خـلال هذا العـام بعبـور الحجـاج إلى الأرض المقدسـة، ولن يكون سهلاً بالنسبـة لي الحديث بأي أسف تلقى الحجاج هذا الخبر وسمعوه، وسيكون مـرهقاً بالنسبـة لي الحديث عن الفوضى، والخلافات والنزاعـات التي تفجرت بين صفـوف الحجاج، وقمت على كل حـال في عمل آخـر، بوصف جميع المصـاعب التـي كـابـدناها في البندقيـة، وكيف انفصـل الفـرنسيـون عنا، مع أنهم كـانوا ينتمـون إلى غليـوننا، واجتمعنا الآن نحن الحجاج الألمان، مع بعضنا، وقـابلنا رئيس مجلس شيـوخ البندقيـة، مع التماس بأن يتكرم اللـوردات هناك بحماية غليوننا مع إعطائه أمـاناً بالمرور، حتى لايؤخذ من قبل الأتراك، ونؤخذ نحن معـه أسرى، وتلقينـا لالتماسنا جـواباً، بأن الغليـون بذاته يمتلك الحرية بـالجواز بين الأسطول التركي، ويمكنه القيـام بـذلك، دون أن يتعـرض للاستيلاء عليـه بفضل المعاهدة بين الأتراك والبنادقـة، غير أن اللوردات كـانوا على غير استعداد لإعطائنا أية ضمانة، فيما يتعلق بحـرية الحجـاج، ولم ينصحـوا بمحاولة العبـور هذا العـام، لكن إذا كنا جميعـاً مصرين على الذهاب، يمكننا الابحار حتى جزيرة كـورفو، حيث يرسو قائـد البحر مع أسطول البنادقـة، ويمكننا هناك أن نتبع بأمـان نصيحته، لأنه يعـرف جميع أعمال الأتراك، وعندمـا وافقنا على فعل هذا، أعطونا رسـائل توصيـة إلى القائـد المتقـدم الذكـر، وأذنوا لنا بالذهاب، وزودوا قبطان سفينتنا بإذن لأن يأخـذنا إلى البحـر، مع أنهم من قبل كـانوا قـد منعوه من أخذنا إلى أي مكان.

وبناء عليـه صعـدنا جميعـاً من حجاج وسـواهم على ظهـر الغليـون،

وكان عدد الحجاج مائة وعشرة، وكان تعداد الناس جميعاً الذين أقلعوا بالغليون ثلاثمائة وثلاثين، ورفعنا مراسينا، ونشرنا أشرعتنا، وأقلعنا باسم الرب، وأبحرنا أمام الريح، التي كانت لطيفة بها فيه الكفاية، وهكذا سرنا في خلال ساعتين مسافة جيدة حيث ابتعدنا عن اليابسة، وصرنا في أعالي البحار، وعلى كل حال لم تستمر ريحنا الطيبة طويلاً، ورسونا في اليوم الثالث في بارنشيا Parentia (Parenzo)

الموجودة في منطقة استريا Istyria التي هي جزء من مملكة دلماشيا.

وأخافنا الناس هناك. بإخبارنا حكايات مرعبة عن الأتراك، ولهذا مكثنا هناك لعدة أيام، لأنهم أخبرونا أننا لن نستطيع الوصول إلى جزيرة كورفو دون التعرض للأذى،لأن الأتراك قد نشروا أسطولهم فوق جميع البحر الأدرياتيكي، واصطادوا واستلبوا جميع الذين قابلوهم، وعلى كل حال غادرنا ذلك الميناء، ووصلنا بعد إبحار بطيء لعدة أيام إلى زارا، ورسونا فيها، وهي مدينة في دلماشيا، إنها لدى سماعنا بأن الطاعون كان متفشياً هناك، ابتعدنا بسرعة عن تلك المدينة، وبعد رحلة بطيئة ومملة وصلنا إلى مدينة ليسينا Lesina ، وعندما كنا على وشك الدخول إلى الميناء، هبت ريح طيبة، لها نشرنا أشرعتنا، وغادرنا ليسينا، وتابعنا الابحار بشجاعة لمدة عدة ساعات، وهبت بعد ذلك ريح هادئة، كانت غير مفيدة بالنسبة لنا، فأردنا التوقف، فأتينا إلى جزء وعر ومهجور من شاطىء كراوشيا Croatia ، وأرغمنا على التوجه نحو ميناء مهجور، و لأن نطوي أشرعتنا في وسط جبال وعرة عالية، ولكي نبدل الأجواء على أنفسنا، ذهبنا إلى الشاطىء بقوارب صغيرة، وفوجئنا بأن رأينا هناك فوق الرمال جسداً قد قذف به البحر، وهو مشوه ومتعفن، وبما أن البحارة كانوا من ذوي الوهم، فقد خافوا إلى حد الموت من هذا الاكتشاف، وبدأوا يتوقعون وقوع الشرور بالنسبة لنا، وأبعدونا عن

الجسـد، ولذلك لم يكن هناك أي واحـد بيننا من امتلك شفقه نحـوه أو تولى دفنه.

* * * * *

هذا وتهب رياح هذه البـلاد أعلى فأعلى، ولقـد بقينـا لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليـالي واقفين راقـدين بين هذه الصخـور، وكنا كلما حـاولنا الانطلاق، كنا نساق إلى الوراء عـائديـن بقـوة الريح، مما كـان يسبب إزعاجـاً عظيماً لنا جميعاً، وعلى كل حـال لقد أنقذنـا هذا الازعاج، لأنه بعد ثلاثة أيـام هبت ريح لطيفة خارج ذلك المكان، وأخـذنا طريقنا إلى أعـالي البحـار، حيث التقينا بغليـون حـربي بندقي، وعندمـا مـرّ بنا هذا الغليـون، سأل قادتنا عما إذا «حـدث لنا أي شيء في البحـر البارحـة أو قبل البارحة»، وعندما أجبناهم: «لاشيء سوى رياح خبيثة أرغمتنا على اتخاد ملجأ تحت الجبال» فأجابونا: «بوركت هذه الرياح التي دفعتكم إلى أمـاكن للاختبـاء، لأنكم لو كنتم البـارحـة في عـرض البحـر المفتـوح، لوقعتم في أيدي الاسطول المسلح للأتراك، الذي كان مبحراً نحو أبوليا لينهب المسيحيين هناك»، ولـدى سماعنا بهذا حمدنا الرب الـذي أنقـذنا حتى الآن من أيدي الأتراك.

ومضينا على طريقنـا، ووصلنا بعـد عـدة أيام إلى كـورزولا Cur-zola في إيليريا Illyria ودخلنا إلى ميناءمـدينـة كـورزولا في الصبـاح البـاكر، وسمعنا قـداسـاً هناك، وكـورزولا التي هي مـدينة في إيليريا لها اسم آخـر هو «بريبو في ألتـو Prepo in alto» ، وهي مبنية فوق جبل مرتفع، وهي صغيرة، ومع ذلك مكتظة بالسكان، وهي تحت حكم البندقيـة، كما أنها جيـدة التحصين بالأسـوار والأبراج، وهي مقر أسقف.

وكان السكان جميعاً في حالة رعب عظيمة، من الأتراك الذين رأوهم

يومياً يجوبون البحر بحثاً عما يمكن نهبه، فهم قد ينقضون عليهم، وتساءلوا مندهشين كيف يمكن لنا أن نغامر بالإبحار فوق بحر مرعب وخطير إلى هذا الحد، ونصحنا الأكثر حكمة بينهم بالعودة، غير أننا لم نصغ إليهم، وعاودنا الاقلاع، بعدما اشترينا من هذه المدينة الخمرة، والخبز، وأشياء ضرورية أخرى، وحدث أنهم عندما كانوا يحركون قلع السارية ويرفعونه بدون انتباه من قبل واحد من البحارة، سقط ثانية، فأصاب بحاراً آخر، فقتله في مكانه، وكان مولاي أسقف مانس واقفاً إلى جانب هذا القلع الخطير الذي سقط هناك، وكنت أنا إلى جانبه مع آخرين كثر، وكنا جميعاً على وشك أن نصاب به وأن نقتل، وأما بالنسبة للرجل القتيل فقد لفوه بكفن، وربطوا حقيبة مليئة بالحجارة إلى قدميه، ورموه إلى البحر.

وأبحرنا مسرعين من كورزولا، ووصلنا في حوالي منتصف الليل إلى ايبيداروس Epidaurus ، التي اسمها الحديث هو راغوثا Ra-gusa، وتوقفنا في راغوثا، وألقينا بمراسينا، وأوقفنا سفينتنا ونمنا حتى شروق الشمس، ودخلنا المدينة بعد ذلك، غير أننا لم نجد فيها نزلاً مثلما الحال في بلادنا، وبناء عليه ذهبت أنا مع السيد جورج ستين، وبعض النبلاء الآخرين إلى دير تابع لطائفة الدومينيكان، وسألناهم إعطاءنا شيئاً لنأكله مقابل مال ندفعه، وقد جلبوا لنا ميرة جيدة مع دن خمرة سكلافونية Sclavonian كبير، وعاملونا بشكل لطيف.

وجاء رئيس الدير على الفور، جالباً معه اثنين من الرهبان، هما الراهب فرانسيس دي كاتورو Catoro، والراهب دومونيك، وقد عهد بهما إليّ، وأعطاني إياها ليكونا رفيقي في رحلتي، وذلك لأنهما رغبا بالذهاب إلى القدس برفقتنا، ولقد سررت نحو هذا بشكل خاص، لأنني حتى ذلك الوقت كنت بلا واحد من رهبان طائفتنا، وكانت رفقتهما بالنسبة لي مرغوبة أكثر من الذهب الجيد، وبعدما فرغنا من

تناول طعامنا، ورأينا الدير، تمشينـا في أرجاء المدينة ورأيناها، ومثل هذا فعل بقية الحجاج، ولقـد رأينا بأن تلك المدينة كانت محصنة بشكل رائع بأبراج وبخنادق عميقـة جداً، كان الناس يحفـرونها آنذاك، وعجبنا لهذا، وسألناهم عما إذا كـانوا هم أيضـاً يخشون من التركي، مع أنهم يدفعـون الجزية إليـه، فأجابوني قـائلين: «نحن نخاف منه دومـا، ونقوم بتحصين أنفسنا ضـده، لأنه وإن كان صـديقنا اليوم، سـوف يكون عدونا غـداً»، وقد وجهـوا اللوم إلى تشوقنا للمغامرة فـوق البحر في مثل ذلك الوقت المرعب، وذلك في وقت لم يتجـرأوا فيـه على اظهـار أنفسهـم في البحـر، وحـاولوا إقناعنا بالبقاء هنـاك حتى تأتي أخبار أفضل، ولسـوف أصف هذه المدينة والأماكن الاخرى في روايتي لدى عودتي من حجي الثاني.

وعلى كل حال عندما تأخر النهـار، صعدنا إلى ظهر غليوننا، وشرعنا منطلقين من ميناء راغـوثا في ذلك المساء مع ريح طيبـة، وقطعنا مسافـة طويلة تلك الليلة، وعند بزوغ الفجر هبت ريح معاكسة قوية، أخرجتنا عن مســارنا الصحيح، ودفعتنا نحـو أبـوليـا، التي رأيناها أمــامنا، ولم يستطع بحـارتنـا ببراعـة ضبط مسـار سفينتنا لكي نصـل إلى الشـاطىء عليها، وهكذا وصلنا بعد ابحـار طويل إلى جزر نموزا بولس Gqzap-olis، وهناك لم يكن لدينا ريح، كما أننا لم نتحرك، إلاّ بواسطة العمل الكسول للمجـاذيف بواسطة البحـارة، والمهم أننا تابعنا الزحف ببطىء والتقدم نحو الأمام.

وهكذا وصلنا إلى مكان حيث توجـد مدينة فوق جبـل، وهي مشرفة على البحـر، وكانـت مسورة بشكل جيـد، لكنهـا كانـت مهجورة تمامـا بسبب تنفس تنين، وذلك حسبما سأصـف ذلك فيها بعـد، ووصلنا بعـد هذا، بعد رحلة مربكة بين جبال عالية، إلى جزء من البحر، بقي الغليون فيـه مثبتاً فـوق سطح الماء، ولم يكن بالإمكان تحريكه بالمجـاذيف لا إلى اليمين ولا إلى الشمال، بل بقي— كما قلت— ســاكناً بلا حـــراك، لأنه

كـان تحتـه وهدة، يسمونها «متـاهه»، أو فتحـه في الأرض، كـانت تبتلع شطراً كبيراً من البحـر، وحيث كـان الماء يجري نحـو الأسفل في داخل هذه المتـاهة، لهذا وقف الماء فـوقهـا، منتظراً سقـوطه إلى داخل المتـاهة، وعندمـا لايكون في ذلك البحـر مـاءً كثيراً، يدور الماء، وكل من يحاول السبـاحـة فـوقـه هو معـرض لخطر الغـرق، وفي الحقيقـة كـانت السفن معـرضـة للابتـلاع هناك، لولا أن الذين يحركـونها تجنبـوا ذلك، وهكذا وقفنا بلا حراك في ذلك المكان، وبذل بحارتنا جهدهم بأصوات مرتفعة مع كثير من العمل لإخراج الغليـون من هذه الوهدة، غير أن جهودهم تبددت عبثاً.

وعلى كل حال، عندما رأى أهل كوركيرا Corcyra هذا— حيث كنا في مـدى الرؤية لجزيرة ومـدينة كـوركيرا— قـدمـوا لمسـاعـدتنا من كوركيرا، أو كـورفو بغليـونين صغيرين، وقد ربطوا حبـالاً إلى غليوننا، ومدوهم إلى غليونيهما، وتمكنوا بالتجـديف بغليونيهما، وبقوة عظيمة من سحب غليـوننا من بين فكي الوهدة، وذلك خشيـة أن تبتلعنا الأعماق، وبعدما جرى انقاذنا على هذه الصورة، تابعنا سيرنا إلى جزيرة كوركيرا، ودخلنا إلى ميناء المدينة بعـد غيـاب الشمس، الذي كـان مليئاً بالسفن الحربية، لأن— كما تقدم للوردات مجلس شيـوخ البندقية أن أخبرونا— قـائـد البحـر كـان هناك، مع اسطول مسلح للحفـاظ على السـلام في البحـر،وهكذا نمنا حتـى الصبـاح، وعند ظهـور الصبـاح ذهبنا إلى الشـاطىء ومـن ثم إلى المدينة في قـوراب صغيرة، ووجـدنا المدينة تعج بالناس، حيث كان بينهم كثير من الأتراك يسيرون هناك بين المسيحيين، وبعد سماعنا لقـداس هناك، قمنا نحن الحجاج السـوابيون والبـافاريون باستئجار بيت صغير في الضاحية وهناك طبخنا، وأكلنا، وشربنا، ونمنا.

وكـان ذلك البيت صغيراً، مبني مـن جـذوع أشجـار قـديمـة جـداً، وجافـة كثيراً، وهكذا حدث أنه نتيجة للنار العظيمـة التي أوقدناها من

أجل الطبخ هناك، أن المكان التهب مرة تلو أخـرى، ولقد استطعنا دوما اطفـاء تلك النار، ولذلك لم نواجـه أيـة اضطرابات بشأنها، ولكن لدى حدوث ذلك للمـرة الثانية، شـاهد الجيران النار وقد أمسكت بالسقف، فـركضـوا وهـم يصرخـون ويندبون، وفي الوقت نفسـه صعـدنا فـوق السقف، بواسطة سلالم، وانتزعنا الأطعمة من وسط اللهب.

وكنا في تلك المناسبة في خطر عظيـم، لأن النار لو جمعت قوتها لكان المكان كله قـد احترق، ووقتهـا كـان السكان الإغـريق في كـوركيرا قـد ضحوا بحيـاتنا انتقامـاً لأنفسهم لفقدانهم بيـوتهم، وخسارتهم لها، ذلك أنهم كـانوا في الحقيقـة عـدوانيين جـداً نحـو الألمان، ومن السهل كثيراً إثارتهم لمقاتلتهم.

وبعـدمـا تناولنا الطعـام، قـدمنا باحترام الرسـالـة التي تسلمناها من شيوخ البندقية، إلى قائد البحر،ورجـوناه أن يقدم لنا نصيحته ومساعدته للاستمـرار برحلة حجنا، ونصحنـا، بعـدمـا قـرأ الرسـالة، بالعـودة إلى البندقية، ولكنه عندما أدرك أن هذه النصيحـة كانت مفجعة بالنسبة لنا، قـال وهو مغضب: «أية حماقـة تملكتكم، حتى أنكم تريدون تعـريض أنفسكم لمثل هذه المخـاطر، تعـريض كل من أجسـادكم وأرواحكم، وتعـريض حياتكم وممتلكاتكم؟، انظروا إلى البحـر، إنه مغطى بالأتراك المتـوحشين، حيث لاتوجد فـرصـة لنجاتكم من بين أيديهم، عـودوا إلى البندقيـة، أو أقيمـوا في واحـد من المراسي البحـرية حتى تـأتي أخبـاراً أفضل، وإذا مـا كنتم مصرين تمام الاصرار على الـذهاب إلى الشرق، عليكم أن تتـدبروا بـأنفسكم عبـوراً لأنفسكم، ذلك أنني لن أسمح للغليـون الذي قدمتم به بالابحـار إلى هناك، لأنه من ممتلكات القـديس مرقص».

وعندمـا سمعنا منه هذا كنـا منزعجين جـداً، وانصرفنا من حضرته، وطلبنا منه منحنا بعض الـوقت للتشـاور، وبناء عليـه انعقـدت عقـول

كثيرين، ولاسيما الأسقفين، وأخذا بكلام القائد، وهكذا قررا العودة إلى البندقية مع جميع حاشيتهما، وكان حتى بعض من فرساننا مرعوبين، وكانوا جاهزين للعودة، لكن آخرين كانوا شجعانا فلم يتزحزحوا، والتحقت شخصياً بالمجموعة الأخيرة، وعملت بقدر ما أستطيع على تشجيع وتحميس الأفراد المترددين، بوعظهم وباقتباس بعض النصوص من الكتابات المقدسة بهدف بعث الأمل فيهم بنيل الحماية الربانية.

وحدث في بعض الأيام، عندما كنت غائباً، أن قام السادة الفرسان في جماعاتنا وأخذوا يتحدثون عن مخاوف حجنا، وكان بعضهم ماضياً بالحديث، بينما كان آخرون مترددون ووقفوا صامتين، وقد قال أحدهم:« عليكم عدم الاصغاء مطلقاً إلى كلمات التشجيع التي يقولها الراهب فيلكس لكم، فما الحياة أو الموت بالنسبة له؟ فهو راهب محترف، ليس لديه ممتلكات، ولا أصدقاء، ولا مركز في الحياة، ولا شيء آخر في العالم، مثلما حالنا نحن، وأسهل بالنسبة له أن يموت سريعاً بسيف الأتراك أو المسلمين، من أن يصبح مسناً في ديره، حيث يموت يومياً»، وقد قال أكثر من هذا بكثير محاولة منه لمنع السادة من الاصغاء لي.

وقد أخبرت بهذا كله، فقمت بعد ذلك بتحويل مجرى الحديث، في أن أضع بعض الشجاعة في الفارس نفسه لكي لايمكن اقناعه بالعودة، وأبقانا القائد في كوركيرا لمدة ثمانية أيام، وقد أخبرنا في كل يوم أخباراً أكثر إرعاباً، وكنا نحن الألمان قد اتفقنا جميعاً بوجوب عدم العودة، بل أن نذهب باسم الرب إلى القدس، وأخيراً عندما رأى القائد أننا كنا قد عقدنا العزم على الذهاب وعلى تنفيذ نوايانا، عندها أقلع عن التدخل بحجنا، وبتنا جاهزين للانطلاق، حيث نقلنا أنفسنا إلى غليون آخر، كنا قد قمنا بشرائه.

وعندما بات جميع الذين رغبوا بالقيام بالرحلة مع بعضهم على ظهر

هذا الغليـون، وفي أثناء تحدث أحدنـا إلى الآخر بسرور وبهجـة، ونحن واقفـون على الدكـة إلى جـانب السـارية، طلب واحـد من الشيـوخ منا الصمت، وشرع يخاطبنا قـائـلاً:« سـادتي وأخواني الحجـاج، نحن نقـوم بعمل عظيم، وصعب، ومرهق، بتنفيذ هذا الحج بوساطة البحر، وأقول لكم الصـدق، وأتحدث مـن الجانب الانسـاني باننـا نعمل بشكل أحمق بتعريض أنفسنا لخطر عظيم، ضد نصيحة وقناعة قائد البحر، وضد كل واحد آخـر، ولهذا رأينا السيدين الأسقفين، وغالبية النبـلاء، والأقوياء ، والأعيـان، وربما الأكثـر حكمـة في جماعتنا، قـد تخلوا عن الرحلة، وهم الآن على طريق العودة إلى بلادهم، آخذين بالنصيحة، التي أعطيت لهم، في حين نقف في الاتجاه المعـاكس، والآن، ولكي لاتكـون رحلتنا مجرد حماقة آثمـة، لابد أننا نحتاج إلى إصلاح حياتنا على ظهـر هذا الغليون، وعلينا دوماً أن نطلب حماية الرب القدير وقديسيه، حتى نكون قادرين على أخذ طريقنا بين أعدائنا وبين أسطولهم».

ولدى سماعنـا لهذه الكلمات قـررنا بـالاجماع التـوقف عـن اللعب بالورق أو بالنرد، على ظهـر الغليـون، وعن الخصومـات، وعن الأيمان، وعن التقـاذف بكلمات التكفير، وعـدم السماح بذلك كله، وأن يضيف رجـال الديـن والكهنة صلوات ليليـة لصلواتهم النهـارية المعتـادة، وفي الحقيقـة، نشبت خـلافـات عظيمـة حـول هـذه المسـائل، قبل اتخاذ هذا القرار،لأن الناس كانوا يقامرون صباحاً، وظهراً، وليلاً، وبشكل خاص أسقف أورلين مع حـاشيتـه، وفي أثناء ممارسـة ذلك كـانـوا يقسمـون ويجدفـون بشكل مرعب، ويتخـاصمـون يومياً، لأن الفـرنسيين والألمان كانوا دوماً على خلاف وشجار.

وهكذا حـدث أن واحداً من أتبـاع أسقف أورلين ضرب كاهناً تقيـاً من جماعتنا، فاستحق على ذلك الحرمان الكنسي، وبما أن الفرنسيين قوماً متشامخين، ورجـالاً انفعاليين، لهذا اعتقـدوا أنه كان عمـلاً مصدره الهام

رباني وحكمـة، أن انفصلوا عنا، وتخلصت عيـونـنا منهم، لأنه كـان من شبه المستحيل الوصول إلى القدس برفقتهم من دون إراقة للدماء ومقتل لبعضنا.

وقـد أمضينا ليلة واحـدة في كـوركيرا، ونمنا على ظهـر السفينة، وفي تلك الليلة أصـابنا رعب عظيم، لأنه في آخـر النهـار، وعندما أخـذت الدنيـا تزداد إظلامـاً، وفي الوقـت الذي كنا مـا نزال فيـه واقفين حـول السـارية نتبـادل الأحـاديث، اكتشفنا وجـود قـارب غـريب، واقفـاً إلى جانبنا، والذين كانوا فيه هم أتراك، وجواسيس، كانوا يحاولون الاصغاء إلى ما كنا نقـوله، وعلى الفور فـزعنا بأنفسنا إلى الحجارة ، وقمنـا برميها عليهم، وخلفهم عندمـا شرعـوا يجذفـون مبتعـدين عنا، وتمكن على كل حال، القارب من الافلات نحو البحر، والنجاة .

وفي الصباح التالي زعقت الأبواق لدينا، للاعلان أننا كنا على وشك الاقـلاع، ورمينا بـأربطة الغليـون، وأدرنا ظهـورنـا للميناء ونحن نغني ببهجـة، أمـا الحجـاج الذين بقيـوا بعـدنا، فقـد وقفـوا على الرصيف يضحكون علينا، وقـالوا بـأننا كنا رجـالاً يائسين — Waghels ، وكانوا يتحدثون بشكل عـام في كوركيرا، أننا لابد من أن نقع بالأسر قبل أن نصل إلى مودون Modon ، وهكذا ابتعدنا عن كوركيرا ومضينا نتابع سفرنا بمزيج من البهجة والخوف.

وعاد الأربعون حاجـاً الذين خلفناهم في كوركيرا في سفينة مستأجرة إلى البندقيـة، وعندمـا وصلوا إلى هناك، قـالوا إنه لمن المؤكـد أننا اعتقلنا من قبل الأتراك،وتحدثوا بـالقصـة نفسهـا في مـدن أخـرى في إيطاليـا، وفرنسا، وألمانيا، وفعلوا هذا رغبة منهم لتسويغ جبنهم، وذلك بالاشارة إلى سـوء حظنا، ونتيجة لهذا، عقـدت قداسـات كثيرة لفائـدة روحي في عـدة أمـاكن من سـوابيـا، لأن الحجـاج نشروا هذه الأكـاذيب في جميع

أرجاء سوابيا وبافاريا.

وتقدمنا بالوقت نفسه تقدماً حثيثاً، وعبرنا بشكل مريح إلى مودون، ولم نشهد خلال الطريق ولاحتى قارباً فوق سطح البحر، الأمر الذي اندهش نحوه أهل مودون، لأن جميع العاملين بالبحر كانوا خائفين كثيراً، وحاول الألمان الذين كانوا يسكنون هناك، بإخلاص عظيم، ثنينا عن محاولة الذهاب مسافة أبعد، وحدثونا بحكايات كثيرة مرعبة، لكن بالنسبة إلينا، كنا كما كنا من قبل، فنحن الآن غير خائفين من الاقدام على إنجاز رحلتنا، ومتابعة السير على طريقنا، وبتوجيه من الرب وإرشاد، وصلنا إلى كريت بسلام، ودخلنا بسرور إلى مرسى مدينة الخندق.

ولدى وصولنا إلى هناك يمكن للانسان أن يقول بأن أهل المدينة كلها قد خرجوا لاستقبالنا،لأنه كان أمراً عجباً، لابل إعجازاً، أن يتمكن غليون مسيحي من النجاة من الأتراك المتوحشين، الذين رأوهم يومياً يتجولون في البحر في غلايين مسلحة ذوات ثلاثة صفوف من المجذفين،وذلك بحثاً عما ينهبوه، ولقد دخلنا إلى بيت واحد من الألمان، الذي كان لديه بيت سيء السمعة، ومع هذا عندما وصلنا قام بتنظيف مسكنه، وأبعد العاهرات اللائي كن لديه، ذلك أنه لم يكن هناك نزل آخر للحجاج، وفي مقابل هذا البيت كان هناك بيت آخر، كان نزلاً لتجار أتراك، وكان به بالفعل كثير من التجار الأتراك الأثرياء، من القسطنطينية، وقد قال هؤلاء — كما أخبرنا — لنا:«هؤلاء الرجال سيضيعون إذا ما حاولوا المضي أبعد»، وأكثر من هذا جاء بعض هؤلاء الأتراك إلى بيتنا، ونصحونا بعدم الابحار في الوقت الحاضر، لأننا من المؤكد سنقع بالأسر، فضلاً عن هذا حاول دوق الخندق ومستشاروه أن يصنعوا معنا معروفاً، فأرسلوا بخطيب من عندهم لنا، حاول بكلام لاتيني منمق، أن يوجه حجاجنا، وأن يحثهم بكثير من الحجج، على أن

يكونوا ضد متابعة السفر، وأوضح أن المخاطر خلف هذا المكان سوف تكون أعظم من المخاطر التي واجهناها خلال سفرنا إلى ها هنا، لأنه يوجد ما بين كريت وقبرص، جزيرة رودس، التي كانت في تلك الآونة محاصرة من قبل الأتراك، ولا يمكننا في أثناء عبورنا أن نتجنب مواجهة القرصان الأتراك.

وقد بقينا هناك لمدة خمسة أيام، وسمعنا أخباراً أسوأ كل يوم، وعلى الرغم من هذا علونا ظهر غليوننا، وعملنا الاستعدادات للشروع، وأقلعنا مبحرين ونحن خائفين من أن تثور زوبعة، وتحمل الغليون وتضعه بين الأسطول والجيش التركي الذي كان يقوم بأعمال الحصار، وعلى كل حال، ما أن غادرنا الميناء حتى كنا في البحر المفتوح، ورأينا ريحاً قوية جداً قد هبت، إنما موافقة جداً لنا، حملتنا بعيداً عن الجزيرة التي اسمها سيكلادس Cyclades ، حيث ابتعدنا أولاً عن رودس، ودفعنا على المتابعة بقوة مع ريح طيبة، التي ازدادت بشكل مستمر، وزمجر البحر، وهاجت الأمواج، وتبع ذلك عاصفة هوجاء، وغطت المياه جميع الجزء الأعلى من السفينة، ومع ذلك كانت هذه العاصفة مفيدة جداً لنا، لأنها حملتنا نحو الميناء الذي نريد، ولأنها جعلتنا ناجين من المهاجمة من قبل الأتراك، ذلك أنه بات من غير الممكن بالنسبة لسفينتنا أن تقع بالأسر، وهي مبحرة بهذه الدرجة من السرعة.

وقمنا بإزاحة جميع مظاهر الحرب لدينا، من مدافع، ورماح، وحراب، وترسة، وواقيات، وقسي عادية، وقسي زيارة، وحجارة، وسهام، التي كنا قد جهزنا بها أنفسنا في كيركورا، من أجل صد هجمات الأتراك، لأننا رأينا أننا الآن قد نجونا من أعداء صليب المسيح هؤلاء، ووصلنا في اليوم التالي إلى قبرص، ودخلنا إلى ميناء ليماسول، لأن ريحاً مضادة أرغمتنا على التوجه نحو الميناء، وعندما همدت الريح، أبحرنا من هناك إلى ميناء لارنكا، عازمين على البقاء هناك لعدة أيام،

لأن قبطان سفينتنا كان له أخ في نيقـوسيا في خدمـة ملكة قبرص، وكان لديه بعض الأعمال ليبحثهـا معـه، وطلب منـا الانتظار حتى تنتهي هذه الأعمال.

وعندمـــا انتهـت أعماله وســويت، رفعنا مـــراسينـا، وبتنا راغبين ومتشوقين للوصـول إلى الميناء الآخر، لأنه لم يكن هناك مكـان للوقوف فيـه، ونحن على مسـافـة قصيرة من الأرض المقـدسـة، وأبحـرنا بشكل مستقيم، فرأينا الأرض المقدسة في اليوم الثالث، وصدوراً عن البهجة في قلوبنا غنينا: « Tedeum Laudamus »بأصــوات مــرتفعــة، ووجهنا سفينتنا نحو جوبا Joppa ، التي تعرف بشكل عام باسم يافـا، وألقينا مراسينا إلى جـوار صخرة أندروميـدا Andromeda ، ومن هنا بعث قبطان السفينـة واحـداً من العبيـد إلى القـدس ليعلن إلى الأب مـــدير ديـر جبل صهيـــون، لكي يقـــدم مع رهبـــانه ومع حميره وسائقيهم لحملنا إلى القدس، وبناء على ذلك مكثنا في غليوننا لمدة سبعة أيام ننتظر وصـول أدلائنا، ونزلنا بعد هذا في قـوارب صغيرة، وأقمنا في غرف مقببة قديمة جـداً، وكانت مدمرة وذوات روائح نتنة،حيث مكثنا هناك لمدة ليلة واحـدة فقط، وركبنـا بعـد هذا الحمير التي أحضرت من أجلنا، وعلى هذا جـرت مرافقتنا وحـراستنا من قبل مسلمين، وغـادرنا البحـر وقـــدمنا إلى بلدة الرملة، حيث أقمنا لبضعـــة أيام، ثم دخلنا إلى القـدس، حيث لم نؤخـذ إلى مشفى (نـزل ضيـافـة) بل إلى بيت في ميلو Millo حيث أكلنا، ونمنا وهكذا.

ولم نمض أكثر من تسعـة أيام في الأرض المقدسـة، حيث قمنا بجولة على الأماكن المقـدسة المعهـودة، بسرعة عظيمـة، وكنا نعمل ليلاً ونهاراً لإنجـاز حجنا، وهكذا نادراً مـا أعطينـا وقتـاً للراحـة، وبعـدمـا أكملنا بسرعة زيارة الأماكن المقـدسة، وبعدما تسلم مـولاي جورج فون ستين مع النبلاء الآخرين الفروسيـة في كنيسة الضريح المقدس، أخذنا أدلاؤنا

من المدينة المقـدسـة عبر الطريق حيـث نزلنا إلى البحـر، إلى المكان الذي كان غليوننا راسياً فيه.

ولم يبق أحـد من الحجاج في القـدس، إلاّ اثنان من الانكليـز، اللذان رغبا في عبـور الصحراء إلى القـديسة كـاترين (دير جبل سيناء)، وكنت راغبا بالبقـاء معهما، لو أنهما عرفـا اللغة الألمانيـة أو اللاتينية، وبما أنني كنت غير قادر على الحديث معهما، وكنت سأتحمل الحاجة إلى لغة عامة مع الصبر،ولولا أنني عـزمت على العــودة ثانيـة إلى القـدس، لأنه منذ حلول ساعة مغادرتنا للمدينة المقدسة، قررت، وقطعت عهداً على نفسي بأنني ســوف أعـود بأسرع مـا يمكن، وعــددت هذا الحج مجرد توطئة للحج الذي أنوي القيام به.

وكـان حـالي هنا حـال تلميــذ أراد حفظ بعض النصـوص وخـزنها بالذاكـرة، حيث كـان يقـوم أولاً بالقــراءة دونما عناية، ثم يقـوم ثانيـة بالقـراءة ببطىء وتؤدة، ويأخذ من الـوقت ما فيـه الكفاية لإبقـاء النص وحفظه بالـذاكـرة، وهكذا كنـت بالنسبــة لما قـررته، ذلـك أنني لم أكن مقتنعاً بما شاهدته، ثم أنني لم أودع مـا رأيته في الذاكرة، بل تركت ذلك لحج مستقبلي.

وعندما وصلنا إلى البحر، كنا جميعاً ضعفاء بسبب ما بذلناه من جهد، وكنا قـد أصبنا بالإنهاك بسبب الحرارة، وسهـر الليالي، والمصـاعب التي تحملناها، وكما كنا مرضى وضعنا على ظهر غليوننا، الذي صار مليئاً إلى حد بعيد بأفراد تعساء، وبعد مضي كثير من الأيام عدنا إلى قبرص، وإثر رحلة طيبــة وصلنا إلى ميناء اسمـه ســالينا Salina، وقمنا من هنا برحلة حج اسبـوعيـة إلى قـرية مجاورة ولكن الأثرياء منا قـامـوا باكتراء خيـول وركبوا مع بعضهـم برفقة قبطان السفينة إلى نيقـوسيـا، التي هي حاضرة قبرص والمقر الملكي، وهي تبعد ستة أميال ألمانية عن البحر.

وهناك عـادة قـديمـة قضت بأن الذين عملوا فـرسـانا في الضريح المقـدس، عليهم أن يقـدمـوا أنفسهـم إلى ملك قبرص، وعقـد نوع من أنواع معـاهدات الولاء معـه، وهو سيدعـوهم باسم إخـوانه وسيـدرج أسماءهم في كتـابه، ويعطي كل واحـد منهم خنجـراً فضيـاً وغمـده مع حـزام، ويكون معلقـاً في نهاية الخنجر وردة مصنوعـة من الفضـة، تمثل اللون الأرجواني الذي هو شعار الطائفة.

وبناء على هذا ركب مولاي جـورج فون ستين، الذي لم أفـارقه أبداً، في نيقوسيا معي، ومع النبـلاء الآخرين، ذلك أننا مكثنا هناك لمدة ثلاثة أيام، وبما أنـه لم يكن هنـاك ملك في قبرص، سأل النبـــلاء الملكـة بأن تسمح لهم بالانتماء إلى طائفـة ملـوك قبرص، وقـد دعتهم للحضـور إلى القـاعـة الكبرى، وهناك صفتهم أمـامهـا، وأوصلت إليهم من خـلال مترجـم قـوانين هـذه الطائفـة، التي قضت أنه يتـوجب عليهم في وقت الحاجة النضـال للدفاع عن مملكة قبرص، مقدرين ومـدركين أنها واقعة بين المسلمين، والترك، والتتـار، وبعـدمـا أقسمـوا يمين الولاء إلى الملكة بأيديهم، أعطتهم خناجرهم، وسمحت لهم بالمغادرة.

وركبنا بعد هـذا عائدين ثانيـة إلى البحر، ولدى مـرورنا بسفح جبل مرتفع جداً، توجد على قمتـه بيعة، أخبرونا أن فيها صليب اللص الجيد معلق بشكل رائـع، وكنت أتمنى رؤيتــه، لكن لم يتـوفـر لـدي الوقت، ولذلك أجلت هـذا إلى حجي الثـاني، وعنـدمـا وصلنا إلى البحـر وإلى غليوننا، وجـدنا أن اثنين من الحجاج قد ماتا، وكـان واحد منهما راهب من طائفـة الـفرنسيسكان، وكان رجـلاً شجـاعاً ومثقفـاً، وكان الآخـر خياطاً من بيكاردي picardy ، وكان رجـلاً أميناً وجيــداً، وكان عــدد آخـر في سكرات الموت، ونحن أيضاً الذيـن قدمنا من نيقـوسيـا، رمينا أنفسنا على فرشنا مرضى كثيراً، وصار رقم المرضى كبيراً جداً، إلى حـد أنه لم يعد هناك من يتـولى خـدمتهم وتزويدهم بالضروريات وعلى

كل حـال نظرت العقائل المسنات إلينا وإلى تعـاستنا، فتحـركن بعاطفـة ورحمة، وتولين العناية بنا، لأنه لم يكن بيننـا من ليس مريضـاً، وهنا قـام الرب، بوسـاطة قوة هؤلاء العجائز، بالتقليل من شأن شجـاعة أولئك الفرسان الذين عاملوهن باستخفاف، وكانوا لايرغبون بالابحار معهن، فقـد تنقلن مـن مكان إلى آخـر في جميع أرجـاء الغليـون، أي بين رجل مـريض وآخــر، وخـدمن الذين سخـروا منهـن واستخفـوا بهن، وهم ممددون فوق فـرشهم لايملكون حراكـاً، فضلاً عن هذا استـولى علينا، بالاضـافـة الى مـرضنا وعـذابنـا، الخوف مجدداً من الأتراك، وبدأنا الآن نخاف حتى منهم أكثـر مما فعلنا من قبل، وفي الوقت نفسـه رفع رجال الغليون أربطة الغليـون ومكنوه من الابحار، وعندمـا صرنا في البحر لم نجـد ريحاً تساعـدنا، بل بقينا نسيرببطىء شـديد أمام سـواحل قبرص، ولهذا عـدنـا ثانيـة إلى قبرص، ورسينا في ميناء ليماسـول غير المسكون، حيث انتظرنا بفارغ الصبر هبوب ريـح طيبة، وبعد انتظار يومين انطلقنا مجدداً نحـو البحـر، إنما هبت الآن ريح قـذرة، حيث جـرفتنا إلى داخل البحز، بعيداً عن اليابسـة، وخارج مسارنا، وبقينا ندور لعدة أيام كثيرة، حتى بدأنا نعـاني من نقص في الميرة وفي الحاجـات الضرورية، وفي تلك الأثناء أنهى واحد من الفرسان أيامه بشكل مؤلم جداً، فلففناه بقطعة من القماش، وربطنا جسده بأحجار، ورميناه بالبحر ونحن نبكي عليه.

وفي اليـوم الثالث بعـد هذا، مـات فارس آخـر، بعـد ما فقـد عقله، وعـانى مـن آلام عظيمـة، وكـان يصرخ بشكل مخيـف، وقـد حملناه إلى الشاطـىء في قاربنا الصغير للدفن هناك، لأننا كنا آنذاك على مقـربة من شـواطىء قبرص قـرب بافـوس، وكنا في تلك الأثناء غير قـادرين على التحرك بأي اتجاه، وكنا بحـاجة إلى الماء والخبز، وأشيـاء أخرى، وحملتنا الريح الخبيثـــة بعيـــداً عن قبرص، ولمدة ثلاثة أيام وثـلاث ليـال لم نر اليـابسـة، ثم كـان بعـد هذا أن حملنا عـائـدين إلى ميناء بافـوس، الذي

جــرت الاشــارة إليــه في الاصحــاح الثــالث عشر مــن أعمال الرسل، واشترينا في ذلك الميناء ما نحتاجه من مؤن، وغادرناه مسرعين، وأبحرنا مسايرين شواطىء قبرص دون أن نحرز أي تقدم في سفرنا، وإلى جانب هذه التعاسـات نزلت تعاسة أخرى عظيمـة، في تلك الليلة نفسها، ففي الوقت الذي كان فيه ملاحـو الغليون يتعاملون مع الأشرعة، ويحاولون تحريك الغليـون، حـدثت مفـاجأة، فقـد سقطت قطعـة كبيرة من رأس السارية بشكل مفـاجىء، وأصابت وقتلت أفضل الملاحين لـدينا، وكان رجلاً يطيعه البحـارة بأبسط إشارة تصدر عنه، فقد كـان مطاعاً من قبل جميع الملاحين ومن قبل عبيد الغليون.

وقـد كـان هناك حـزن عظيم ونحيب في الغليـون بسبب مـوت هذا الرجل، حيـث لم يكن هناك على ظهـر الغليـون من يماثلـه ليحل محله، وأبحرنـا بشكل بطيء لمدة أيام كثيرة، وكنا حذرين، نأمل بالوصـول إلى واحـد من الموانىء في كـريت، وأن نمـر دونما إعاقـة من أمـام رودس، لكننا كنا غير قادرين على فعل ذلك، ورأينا في أحـد الأيام، على مسافة بعيدة عنا غليوناً حربياً،قـادماً بسرعة خلفنا، فكنا خائفين بشكل مرعب جداً، لأننا اعتقـدنا أنه كان تركيـاً، وأن الأتراك كانوا قـادمين فيه، لكنه عندمـا اقترب منا عرفنا بأنه كـان غليوناً بندقيـاً، وكنا وقتها قـابعين إلى جـانب أسلحتنا ، التي أمـر قبطاننا بإخـراجها للدفـاع عن أنفسنا ضـد الأتراك، وانتظرنا وصول الغليون حتى يمكن أن نسمع أخباره، وعندما اقترب هذا الغليـون منـا علمنا بأن الأ تراك قـد هزمــوا، وأنهم رفعـوا الحصار عن رودس، وأنهم تراجعـوا باضطراب وفوضى، ولدى سماعنا هذه الأخبـار امتـلأنا بغبطة لايمكن التعبير عنهـا، وغيرنا اتجاه غليـوننا وتركنا مسـارنا المتقـدم، واتجهنا نحو جـزيرة رودس، وعلى كل حـال لم نتمكن من الوصول إليها خلال كثير من الأيام، ذلك أننا أعقنا وتأخرنا بسبب رياح معـاكســة، فضـلاً عن هذا كنا قــد حملنا إلى بلاد الأتراك،

وعبرنا من خــلال قناة حيث كـانت هناك أراضي تركيــة وجبال على طرفينا، وهنا تجددت مخاوفنا، وكنا نخشى إذا مـا رآنا الأ تراك، سـوف ينزلون انتقـامهم بنا، بسبب هزيمتهم في رودس، ولم نمتلك ريحاً أيضـاً، وعبرنا البــلاد التركية بطريقــة بطيئة جـداً، بوســاطة العمل البطىء للمجــاذيف، وأخيراً هبت ريح حملتنـا بلا معيقــات من هذه الأرض، وجلبت الغليون بشكل مفـاجىء إلى جزيرة رودس، غير أننا وصلنا إلى محاذاة سـاحل جبلي بعيـداً جـداً عن مـدينة كـولوسـا Colossae، ووصلنا على كل حال إلى نبع ماء للحياة يتدفق عند سفح أحد الجبال، إليه ذهب البحارة في قارب وجذفوا ومعهم براميل، وجلبوا مياه جديدة إلى ظهر غليوننا، وعندما عادوا إلى ظهـر الغليون، خـرج جميع الركاب يركضــون من حجــرهم وفــرشهم، يحملون الصحــون، والجرار، والأحـواض الصغيرة، والأباريق، والكؤوس، والزجـاجات، يلتمسـون الماء من البحارة ومن رجال القارب.

وكـان هناك صراع وتدافع للحصول على الماء أكثـر مما شهـدته قط، من أجل الخمـرة أو الخبـز، وعن رغبة وطواعيـة وسرور ناول أحـدهم بعض الماء إلى الآخــر، وبتــذوق ذلك الماء الجديـد انتعشنا مجدداً، وبدا وكأننا قـد عـدنا للحياة مـن جديد، مثل المزرو عـات والأشجـار التي عطشت وجفت بسبب حــرارة الشمس، فعــادت خضراء من جــديد عندما تبللت بقطرات المطر أو الندى، وانتعش الغليون كله بتذوق هذا الماء، والذين كانـوا من قبل غير قادرين على التنفس إلا بصعـوبة بالغة، بدأوا الآن بالغنـاء، لأن شرب الماء بعــد عطش طويـل يجعل الانســان مسروراً ولطيفاً مثل المتناول لقطرات من الخمرة.

فأية تعـاسات ومصاعب قـد عانينا منهـا منذ أن غادرنا ميناء يـافا في الأرض المقـدسـة حتـى وصلنا إلى هذا المكان، هذا مـا أنا عــاجـز عن التحـدث عنه، وكنت خلال أيـام المعاناة هذه غـالبـاً ما أتسـاءل، كيف

يمكن لأي إنسان يتساهل بازعاج نفسه بالقيام بالتفكير بصوم أربعين يوماً خلال السنة، وهي أيام الصوم الكبير، وأن لايصوم عن الخبز والماء في يوم الجمع الحزينة للرب، لو أنه عانى مثلنا يوماً واحداً من الأيام التي عانينا منها، وأنا لاأقول بأن أجر الصوم الكبير كبير، لابل ليس مثل الأجر المعطى يوم صوم الجمعة الحزينة وزناً وحجماً، ولهذا علينا عن طواعية أن نصوم يوم الجمعة الحزينة، لأن الذين يصومون يوم الجمعة الحزينة يتلقون خبزاً جيداً وجديداً، وماء نقياً، وبارداً، وعذباً، وطيب المذاق، وإذا ما حصلنا على مثل هذا، لابد من أن نشعر بأنفسنا بأننا سعداء، متذكرين أن الذي نلناه على ظهر الغليون، كان ماء قذراً، وآسناً، ولو أن أياً من البحارة كانت لديه مياه غير آسنة، لأقدم الحجاج على شرائها بأسعار أعلى من أسعار الخمرة، وعلى كل حال لقد كان ماءً مليئاً بالديدان، وأبيض ومتغير اللون.

وفوق هذا كله، وما قد يكون غريباً إلى الذين لم يعانوا من مثل هذه الرحلة، ومؤلماً أكثر للذين عانوها، هو أننا كنا في حالة من الحاجة والتعاسة، حتى أن ما كان لدينا من مياه عفنة آسنة عدت ثمينة إلى حد أن قبطان السفينة وملاحيها كانوا في قلق عظيم خشية أن نخسر حتى هذه المياه، ولهذا أعطى القبطان أوامر إلى ساسة الخيول بعدم إعطاء ماء من هذا النوع إلى الحيوانات التي جرى الاحتفاظ بها على ظهر الغليون من أجل ذبحها للأكل، بل ينبغي الاحتفاظ بها من أجل الاستعمالات الانسانية لأنه كان أكثر وحشية أن نموت نحن من العطش وليس البهائم، وعلى هذا بقيت هناك الأغنام والماعز والبغال والخنازير لمدة عدة أيام بلا ماء، وكانت تعاني من الهلاك من العطش، وغالباً ما رأيت في هذه الأيام هذه المخلوقات وهي تلحس ألواح الخشب والحبال، وتمتص ما تجمع عليها من ندى في أثناء الليل.

ومع أنه توفرت لدينا مياه لاحدود لها من حولنا، إن مياه البحر غير

قابلة للشرب بالنسبة للانسان والحيوان سواء، وكان معنى شرب تلك المياه قتل الانسان أو الحيوان بدلاً من إنعاشه، هذا ولم أحدثكم عن الخبز الفاسد، وعن البقسماط الملىء بالديدان، وعن اللحوم المنتنة، والطبخ المقيت، وهو ما توجب علينا القبول به، لو أننا امتلكنا ماء نقياً بكميات جيدة كافية، إن لم يكن للناس الأصحاء، فعلى الأقل للمرضى التعساء.

وعانيت في غالب الأحيان من عطش مرعب، وكان بي شوق لايوصف إلى ماء بارد، حتى أنني قلت في نفسي إنني عندما أعود إلى أولم سوف أذهب مباشرة إلى بلوبيرن Blauburen ، وأجلس إلى جانب البحيرة التي تنبع هناك من الأعماق حتى أشبع رغباتي، هذا ولم يكن هناك نقص بالخمرة في الغليون — وفي الحقيقة كان بإمكان الانسان بسهولة الحصول عليها بكميات كبيرة وجيدة — غير أننا لم نتمتع بها من دون مزجها مع الماء، وذلك بسبب قوتها وحرارتها، وهذا يكفي بالنسبة لهذه القضية.

وحدث الآن أن حملتنا بشكل مفاجىء ريح طيبة من المكان الذي شربنا فيه الماء إلى ميناء كلوسوس Clossus ، القائم أمام مدينة رودس، وكان الوقت ليلاً، وكانت الساعة تقارب الساعة التاسعة في المساء، وكنا لانستطيع أن نرى إلى أين نحن ذاهبون بشكل واضح، لولا فضل نور القمر، وعندما كنا نحاول الدخول إلى الميناء، وكان بحارتنا — حسب ما اعتادوا عليه — يعملون بصوت مرتفع لانزال الأشرعة، أشعل الناس الذين كانوا على الشاطىء المشاعل فوق أبراجهم، وأحدثوا ضجة عظيمة، وأخذوا يركضون ذهاباً وإياباً فوق الأسوار، حيث خيل إليهم أننا أعداءهم الأتراك، وأنذرونا بإطلاق نيران مدفع كبير نحونا، وقمنا نحن وسط رعب عظيم بإضاءة عدد كبير من المصابيح، ووقفنا على ظهر الغليون نرجوهم عدم إيذائنا، حيث كنا

نحمل علامـات الصليب، كما كنا أصدقاء للذي صلب، ونعـرف جيداً بأن أعـداءه قد تعـرضـوا قبل وقت قليل للمهـانة والمذلة في هذا المكان نفسه.

وعندمـا سمع حـراس الميناء هـذا، أبعـدوا مجانيقهم التي كـانوا قـد أعدوها لرمي حجـارة ضخمة علينا، وحلوا أوتار قسيهم، وأعقب هذا سعي الناس مـع بعضهم من جميع أجـزاء المدينة إلى أعلى السـور وهم يحملون المصابيح والمشاعل، متشـوقين لرؤية غرباء مسيحيين، لأنهم منذ أن صدوا الأسطول التركي لم يروا مسيحياً.

وقـام الآن حـارس من على أحـد الأبراج بالترحيب بنا، سـائـلاً من نحن، ومن أين جئنا، وقـام أحـد البحـارة بإجـابتـه دونما تفكير:«نحن بنادقة، والغليـون ملك للقديس مرقص»،لكن القبطان أمـر بصفعه على فمه، وأمر بحاراً آخراً بأن يصرخ قائلاً:«جاء هذا الغليون من يافا، وفيه فرسان وحجـاج من القدس، ونحن عازمون على الإبحـار إلى إيطاليا»، ذلك أن القبطان كان يخشى أن يكون البنادقة غير مرحب بهم كضيوف، بما أن أهل رودس لايحبون البنادقة، بسبب تحالفهم مع الأتراك.

وعندمـا أخبر الحراس الذين كـانوا فـوق الأبراج الشعـب بأننا كنا حجاجاً، رحبـوا بنا بمثابة أصدقاء، وسمحـوا لنا بإرساء سفينتنا خارج الميناء، غير أنهم لم يأذنوا لنا بـالدخـول إلى الميناء خـوفـاً من خيـانة مـا، وبناءاً عليـه عندما ألقت السفينة مـراسيها، نزلنا إلى أمـاكن نومنا، ونمنا حتى الصباح.

وفي اليوم التالي، وقبل استيقاظنا، قدم بعـض الساد ة من رودس إلينا ليقومـوا بفحص الغليون وليروا الحجاج، وقـد جذفنا داخلين إلى المدينة معهم، وقد مررنا من بين أجساد الموتى الأتراك الذين كانوا مرميين على جانب البحر، حيث كـان الشاطىء مغطى بهم، وعندما دخلنا إلى المدينة

وجدناها مهدمة بشكل مـريع، مليئة بطلقات المدافع الصخرية من كبيرة وصغيرة، وهي التي أطلقها الأتراك عليهـا، حيث كان هناك منهـا ثمانية آلاف طلقـة وطلقـة مـوزعة على الشـوارع والأزقـة، وكـانت الأسـوار والأبراج مهدمـة بشكل محزن، وقد رأينا أشيـاء أخرى عنهـا سأحدثكم عندما أجيء إلى هذا المكان ثانية في حجي الثاني.

ولقـد مكثنـا في رودوس لمدة أربعـة أيام، وأنفقنا كميـات كبيرة من المال، لأن كل شيء كان باهظ الثمن لأن الأتراك نهبوا البلاد وهدموها، وقـد شريت طائـرين لمولاي جـورج للعلاج، لأنـه كان بحـالة صحيـة سيئة، وكنت أنا مثله، ذلك أننـي كنت آنذاك أعـاني من إسهـال، وكنت تقريباً يائساً من حياتي.

وعندمـا حان الموعـد الذي كان علينا به مغـادرة رودس، سافـر معنا على ظهـر غليوننا عـدد من فـرسان القـديس يوحنا، وبعض ممن كـانوا أسرى لزمن طـويل بين الأتراك، وكـانوا ممـن بعث بهم إلى رودس مع الجيش التركي، وقـد تخلوا عنه وهربوا إلى تلك المدينة في أثناء الحصـار، وحملنا معنا بعضـاً من اليهـود الذين قـاتلوا بشجاعـة في أثناء الحصـار، وكـان من بين الذين نجـو من الأسر من بين الأتراك نبيل نمسـاوي، وكان في حـالة بائسة، وقـد أخذه مـولاي جورج ووضعـه تحت حمايته، وأعاده إلى ألمانيا.

وبصعـود هذه الأعداد الكبيرة على ظهـر غليـوننا، غدا هذا الغليـون مـزدحماً وغير مـريح، وفي أثناء الـرحلة جـرفنا إلى هنـا وهناك من قبل الرياح المعاكسة، وعـانينا كثيراً من النقص بالحاجيات حتى دخلنا مدينة الخندق، حاضرة كريت، ومكثنا هناك لعـدة أيام، صعدنا بعدها إلى ظهر الغليون في أحد الأيام في آخر النهار عند حلول المساء، وجلبنا مشترياتنا معنا، وكنا عـازمين على الإبحـار في الليلة نفسهـا، لكن عندمـا جـاء الصباح، وأطلق الغليـون مما كان مـربوطاً به، أخذنا بعنف نوجـه رأسه

نحو الرياح، وآنذاك اصطدمت عصا التوجيه بالصخور، وتحطمت تحت الماء، وكانت السفينة على وشك أن يصطدم رأسها فوق الصخور الناتئة خارج الشاطىء، وفي تلك الحالة كان الغليون سيتحطم كلياً، وكنا سنغرق، ولهذا صدر صوت مرتفع، وتراكض الناس من المدينة لمساعدتنا، وبما أن عصا التوجيه قد تحطمت، لم يعد بإمكاننا الإبحار، وأرجعنا غليوننا إلى الميناء، إلى المكان الذي كان راسياً به من قبل.

وهنا جاء عامل بحري وقام بالإعداد لاصلاح عصاتنا، وقد نفذ ذلك كما يلي ونحن واقفون ننظر إليه: فقد تعرى حتى سراويله، ثم أخذ معه مطرقة ومسامير، وكماشة، ثم ألقى بنفسه ونزل في البحر، وغطس إلى حيث كانت العصا مكسورة، وعمل تحت الماء، فاقتلع مسامير، وثبت آخرين، وبعد وقت طويل، عندما أصلح كل شيء، ظهر مجدداً من تحت الأعماق، وتسلق صاعداً إلى طرف الغليون إلى حيث وقفنا، ولقد رأينا هذا، إنما كيف كان بإمكان هذا العامل أن يتنفس تحت الماء، وكيف كان يمكنه أن يضرب بمطرقته هناك، وكيف استطاع البقاء مثل هذه المدة الطويلة في الماء المالح، هذا ما لم أستطع فهمه، والذي أعرفه هو أن العقل البشري له سلطة على النار وعلى الماء، حتى مثلما للنجوم سلطة على العقل الإنساني.

وعندما اكتمل اصلاح العصا، وفكرنا بالإنطلاق والسفر، هبت ريح معاكسة، ولذلك لم يستطع الغليون الابتعاد عن الميناء، وقد عدنا إلى مكان رسونا ومن ثم إلى إقامتنا في المدينة، نأكل ونشرب هناك.

وهذا الميناء من أفضل موانىء البحر وأغناها، ومليء بجميع أنواع الأشياء الجيدة، خاصة الأشياء المحلية، لاسيما الخمرة، التي ندعوها باسم مالفويسي Malvoisie ، وهي خمرة مشهورة في جميع أنحاء العالم، هذا وكل شيء رخيص هناك، ولذلك لم نبال بمدة إقامتنا، بل تمتعنا بها، وفي حوالي وقت العشاء استدعينا جميعاً إلى ظهر الغليون،

وجـاء بعضهم على الفــور، وجـاء بعضهم الآخـر متأخــراً، وكنت أنا شخصياً واحداً ممن صعد أولاً إلى السطح، ووقفت على مدخل الغليون لأنظر فيما إذا كان قد قدم غرباء، إلى جانب الذين التحقوا بنا في قبرص أو رودس، ويريدون الصعـود إلى ظهـر الغليـون، وقـد جـاء أسقفـان إغريقيان، مع آخرين كثر، وبالنسبة لأشياء أخرى أنا رأيتها، أنا لن أقوم بتـدوينهـا، إذا مـا أردت أن لاتكون« الرحــلات والجولات» قصــة مأساوية، لكنني كما وعـدت إخواني في تمهيدي التكريسي غالبـاً ماقمت بمـزج الأمور المضحكة والمسليـة مع المسـائل الجدية، وعلى هذا عندمـا كنت واقفاً هناك أراقب أولئك القـوم الذين صعدوا إلى ظهـر الغليون، رأيت كثيراً من حجاجنا واقفين على جانب البحـر، فوق حافة الرصيف وهم سكارى يخشون من النزول إلى القوارب، لأن الخمرة الكريتية التي هي حلوة وممتع شربها، تجعل الإنسان فـاقداً للوعي عندمـا يشرب منها كميات كبيرة.

وكانـت هناك درجات حجريـة على الشاطىء تقود إلى سـور المدينة، وينزل على هذه الدرجات من يريد الصعود على ظهر الغليون ويماشيهم قليلاً، ومن ثـم يحصل في داخل قارب صغير، يحمله إلى الغليـون، وبعد ذلك يغـادر الإنســان القـارب، ويتسلق بعض الدرجــات ليـدخل إلى الغليـون، وفي ذلك المسـاء وجـد عـدد كبير منهم أنه من الصعب كثيراً عليهم القيام بذلك، أي أنه توجب حملهم من الدرجـات الموجودة تحت سور المدينة إلى القـارب، ومن القارب إلى الغليـون، ومن ثم مباشرة إلى حجر نومهم، وجاء بين البقية حاج كـان خادماً لواحد من سادة المدينة، وكـان هذا الرجل يحمل حقـائب سيده، مع بعـض دنان الخمر وحقيبـة مليئة بالخبـز الجديد، وقد كـان منحنياً نحـو الأسفل بسبب الوزن الذي كـان يحمله، يضـاف إلى هذا كـان مخمــوراً تمامـاً، وعندمـا صـار فـوق الدرجــات، وبـدأ يمشي نازلاً عليهم نحــو طـرف الماء حتى يصل إلى

القارب هناك، وقع فجأة في داخل البحر العميق، مع كل ماكان يحمله، ولدى صدور صوت عن الواقفين هناك، جذف البحارة مباشرة، وساقوا قاربهم إلى المكان الذي سقط فيه، ولدى خروجه من الماء، سحبوه منه، وطافت أرغفة الخبز وكل ماكان يحمله فوقه، وقد تلفوا جميعاً.

وكان هناك حاج آخر، كان كاهناً دلماشياً، وكنت أعرفه معرفة جيدة، وكان قد شرب كثيراً من الخمرة الحلوة، ولذلك عانى من اضطرابات كثيرة حتى يصعد على ظهر الغليون، ويصل إلى موضع السارية، حيث وقف هناك يتحادث مع دلماشي آخر حتى حلول الظلام، وقد وقف على مقربة من البويب الجانبي الذي لايذهب الناس إلى تحته أثناء الليل، بل يفعلون ذلك فقط أثناء النهار، وذلك من أجل أنه عندما يحل الظلام ينزل على السلم الذي يأخذه نحو الأسفل، وبذلك لن ينزعج الذين كانوا نائمين على ذلك الجانب من السفينة بقدوم الناس وذهابهم، وهكذا عندما أكمل هذا الحاج كلامه، وكنا وقتها فوق سطح الغليون الأسفل، متمددين جميعاً في فرشنا ونحن نتبادل الأحاديث، وقد أراد الذهاب إلى مكان نومه من خلال أقرب بويب جانبي، وبما أنه لم يكن متوازناً على رجليه، فقد سقط نحو الأسفل من خلال البويب الجانبي إلى السطح الأسفل محدثاً صدمة كبيرة إلى حد أن الغليون كله قد اهتز، لأنه كان رجلاً كبيراً وسميناً،وتمددنا جميعاً صامتين وخائفين، وانتظرنا لنسمع من الذي كان قد وقع، وقد قام على الفور دون أن يصاب بأذى، وشرع يصرخ مزمجراً قائلاً:« انظروا الآن، لقد وضعت السلم تحت قدمي، ونزلت ثلاث درجات، عندما قام أحدهم بسحبه من تحت قدمي، فسقطت»، وقد أجابه أحدهم قائلاً بأن السلم قد أنزل من قبل منذ ساعة مضت، غير أنه أجاب« هذا غير صحيح، لأنني نزلت ثلاث درجات، وعندما كنت واقفاً على الدرجة الثالثة سحب من تحتي»،

ولدى سماعنا هذا انفجرنا ضاحكين لمعرفتنا بأن السلم قد أنزل من قبل منذ مضي ساعة، وكنت مسروراً بأن رفيقي لم يتعرض للأذى بسبب هذا السقوط الخطير من مكان مرتفع، وضحكت بشكل غير معقول، وعندما رآني أضحك غضب غضباً شديداً مني، وقال:« على هذا إنني أرى بوضوح ياراهب فيلكس من الذي سحب السلم من تحتي، ومن المؤكد أنك لن تغادر هذا الغليون قبل أن أنتقم منك»، وعندما حاولت أن أبرىء نفسي، أصبح أكثر غضباً فأكثر، ولعنني، وأقسم أنه في اليوم التالي سوف ينتقم مني، وعلى كل حال شفا النوم جميع هؤلاء المرضى والرجال السكارى، الذين كانوا هم الأسوأ بسبب الخمرة الكريتية، وقد نسوا في اليوم التالي كل ماتعلق بهذا الموضوع، لكن لو أن ذلك الحاج قد سقط غير سكران، بل صاحياً تماماً، لكان من المتوقع انكسار رجليه، أو اندقاق رقبته، لأنه غالباً مايحدث بشكل عام أنه في الحالات الخطرة يكون السكارى من الناس أحسن — بدون تعليل من الآخرين....

وبعد الليلة التي حدث هذا فيها، أطلقنا غليوننا من الأربطة، وحملتنا الريح إلى خارج الميناء، إنما بعدما مضينا قليلاً في طريقنا هبت ريح معاكسة، وبقينا نتأرجح فوق الأمواج دون أن نتمكن من التقدم، ولهذا حاول البحارة العودة إلى ميناء كريت، ولكن بما أن الريح كانت قذرة، لم يستطيعوا ذلك، فضلاً عن هذا صار البحر فيما بيننا وبين مدينة الخندق هائجاً، وغدت الأمواج عالية ، ورأى الملاحون، أنه سيكون تهوراً تعريض سفينة محملة بهذا القدر إلى قوة الرياح الكاملة والأمواج، ولذلك سعوا جاهدين للوصول إلى اليابسة، بالابحار خلف الريح، وهكذا وصلنا بعد بذل جهود عظيمة إلى الجزء الجبلي من كريت، وكان ذلك على بعد حوالي الميلين عن البلدة، وهناك ألقينا مراسينا في منطقة جرداء مهجورة، وقمنا في الليلة التالية برفع أشرعتنا والانطلاق، فوجدنا أمامنا ريحاً قوية في البحر، وكانت ريحاً قذرة، وواجهنا في تلك

الليلة وفي اليـوم التـالي عاصفـة ثقيلة، وكـانت الرياح في الليلة التـاليـة هائجـة بشكل مخيف، وقـد وافقت تلـك الليلة عيـد القـديس ميكائيل، وكان هيجـان البحر أعظم مما شهـدناه خلال رحلتنا كلهـا، وتعهد أثناء هذه العاصفة كثيرون أمام الرب بأمور كثيرة، من ذلك على سبيل المثال، تعهد الذين أمضوا أمسية قـداس عيد القديس ميكائيل وهم يعانون من آلام معـوية، بأنهم سـوف يصـومون بقيـة أيام حيـاتهم، وانصبت ميـاه الأمواج على السفينة وفوقنا، وسببت لنـا كثيراً من الازعاج، وكنا جميعاً مـرضى، وعانينا من الصـداع ومن الغثيـان، أثناء تحرك السفينة وبسبب ذلك.

وفي أثناء العـاصفـة، غدت الـرياح التي كانـت قذرة، رياحـاً لطيفـة بالنسبة لنا، ولذلك أبحرنا بسُرعـة كبيرة، واجتزنا أماكن كثيرة، ووصلنا إلى مقـربة من مـودون، غير أننا لم نتمكـن من الدخـول إلى الميناء هناك، وخوفاً من أن نساق إلى الخلف ثانية بقوة الريح، دخلنا إلى ميناء مهجور بين جدران من الصخر، وكنا في هذا المكان على بعد قرابة ميل ألماني عن مودون، وحملنا نحـن الحجاج حقائبنا إلى الشـاطىء، وأخذنا طـريقاً إلى مودون براً، وهناك انتظرنا وصـول الغليون، وغـادرنا من هناك مودون، فـوصلنا إلى كوركيرا، بعـد عبـور سريع، أي إلى المكان الذي تركنا فيـه الحجاج الآخـرون، وأبحرنا في مساء اليـوم نفسه من كـوركيرا إلى جزر غوزابولس Gozapolis.

وبينما نحن لانزال في الظلام، وما من نجم من النجـوم يمكن رؤيته، وفيما نحن نتجـه مع الريح، هبت هناك عـاصفة مـرعبـة جداً، وحـدث هياج مخيف في البحـر وفي الهواء، وكانت الرياح عاصفـة دفعت بنا نحو الأعلى، وكان هناك برق، ورعد يزمجر بشكل مخيـف، زيادة على هذا كان هناك من حـولنا سقـوط لبروق وصواعـق مخيفة، حتى ظهـرت أمـاكن كثيرة من البحـر، وكأنها اشتعلت بالنيران، وتسـاقطت الأمطار بشكل

مخيف، وصـار الحال كـأن مطر الغيـوم قـد تجمع كله، وتـدفق علينا، واستمرت التيارات العنيفة تضرب الغليـون، حيث غطته بالمياه، وكانت تدق على الجوانب بشدة مثل حجارة أرسلت من فوق جبال عالية حيث كانت تتطاير على الجنبات.

وغالباً مـاتساءلت عندما كنت في البحر في أوقـات العواصف، كيف يمكن للماء ، الذي هو رقيـق وناعم، وضعيف البنيـة ، أن يسـدد مثل هذه الضربات ضد كل مـايواجهه، لأنه تصـدر عنه زمجرة عندما يسعى ضـد السفينة، وكأن أحجـار طاحـون قـد تطايـرت ضـدها، ولايمكن للانسـان أن يعجب لتحطيمهـا السفينة حتـى وإن كـانت قـد بنيت من حديـد، وأمواج البحر هـي أكثر ارهاقاً، وأكثـر ضجة، وأكثـر إثارة من أمـواج المياه الأخـرى، وكنت أتمتع كثيراً بالجلوس فـوق الطابق العلوي أثناء العـاصفـة، وأراقب الأمـواج المتـواليـة من الضيـوف المرعبين من الريح، والإندفـاع المخيف للميـاه، ومـن الممكن تحمل العـواصف أثناء النهـــار، لكنهم في الليـل أدوات رعب، لاسيما عندمـــا تكـون هذه العـواصـف عنيفـة، مثل العــاصفـة التي أتحدث الآن عنهــا، ذلك أن العاصفـة كانت عاصفـة عنيفة جداً، وكـان الظلام كثيفاً، ولم يكن هناك أي ضوء، سوى الضوء المتتابع الذي ينبعث من البرق.

واستمرت هذه الريح العنيفـة في هز الغليون ونقله صعـوداً وهبوطاً، وإدارته من الجانب إلى الجانب، وهزه حول نفسه خلال ذلك، إلى درجة أن مـامن انسان استطاع أن يتمـدد في مخدعـه، لابل لم يستطع الجلوس، ومطلقـاً لم يستطع الوقـوف، وكنا مـرغمين على التعلق بالأعمـدة التي وقفت في وسط القمـرة، وكـانت تدعم الأعمال الموجـودة فـوق، أو أن نستند على ركبنا المنحنيـة إلى جانب الصنـاديق، حيث احتضناهم بأيدينا وبأذرعتنا، وبذلك حافظنا على ثباتنا، وكان يحدث أحياناً انقلاب لبعض من الصناديـق الثقيلة والكبيرة مع الرجـال الذين كـانوا متعلقين بهم،

ذلك أن الغليون كان يتحرك بعنف وباتجاهات مختلفة مما كان يؤدي إلى قلب كل شيء واقف عليه، والشيء الذي بدا اعجازيا، لكنه صحيح تماماً، هو أنه حتى الأشياء التي كانت معلقة بكلاليب في مقابل الرؤوس الكتلوية، كانت تخرج من أماكن تعليقها وتسقط نحو الأسفل، ومع أن السفينة كانت مغطاة من كل جانب بالزفت وبأشياء أخرى تستخدم لمنع تسرب المياه، وحفظ الداخل من المياه، مع هذا دخلت المياه خلال هذه العاصفة من خلال أماكن غير متوقعة في كل مكان، ولهذا لم يكن هناك شيء في السفينة كلها لم يكن مبللاً، فقد كانت فرشنا غارقة، وتلف خبزنا وبقسماطنا بمياه البحر، وكان في الطابق السفلي رعب وضجيج، وكان على الطابق العلوي تعب واضطراب، ومزقت الريح شراعنا الرئيسي إلى مزق، ولذلك أنزل البحارة نحو الأسفل العارضة التي استند عليها، وربطوه بشراع آخر لاستخدامه في العواصف التي يسمونها Papafigo إنما بعد مارفع البحارة العارضة وأداروها لفوا الشراع معها، وعندما كان البحارة يمدّون العارضة لوحدها ويدعون الأربطة تذهب، نزل الشراع نحو الأسفل، وكان البحارة ممسكين بأيديهم بالحبل الذي ربطت به الزوايا السفلى من الشراع، وقتها اندفعت الريح نحو الشراع، وملأته بقوة عظيمة جعلت قماشه يتمزق بين أيدي الملاحين، وأطاحت به وبالشراع نفسه فوق رأس السارية وفوق القبة Keba أو الرأس، عالياً بالهواء، ورمت به بقوة وعنف في الريح حتى أن العارضة انحنت مثل قوس، والسارية نفسها، مع أنها كانت ضخمة وقوية مصنوعة من عدد من جذوع الأشجار المحزومة مع بعضها، صدر عنها صوت مرتفع وكأنها قد تمزقت وتحطمت.

وكنا في ذلك الوقت في أعظم المخاطر، لأنه لو تحطمت السارية في مثل هذه العاصفة، لتغلب علينا البحر وقهرنا نحن والغليون جميعاً،

فكما أن الطير لايستطيع الطيران من دون ريشــه وجناحيــه، كــذلك السفينة من ذوات الحمل الثقيل، لايمكنهــا التحـرك من دون أشرعـة، التي هي بمثـابة أجنحتهـا وريشهـا، ولهذا عندمـا تحدث الشعـراء عن الخيـول المجنحـة، كان الذي عنـوه هو السفن فقط، من ذلك على سبيل المثال جاء بيرسوس Perseus من بلاد الإغريق على فرس مجنح وأنقـذ أندروميـدا Andromeda من الصخـور عند يافـا، الخ، وبناء عليـه عملت ساريتنا كثيراً من الأصـوات العالية المرعبـة، وفعلت العارضة مثل ذلك، وبدا كل شيء في الغليون كله آيل لأن يصبح قطعاً، ومـا مـن شيء أرعبني قط في العـواصف بقــدر الأنين المرتفع للسفينة، الذي كان كثيفاً جداً إلى حد يدفع الإنسان إلى الإعتقاد بأن السفينة لابد أنها محطمـة في واحـد من الجوانب، كما لايمكـن للانسـان أن يتمنع من الصراخ بصـوت مـرتفع بسبب أصــوات الأنين هذه المرعبـة المفـاجئة، وهكذا وقفنا ننظر إلى مشهد محزن، وفي وضع خطير كثيراً.

ولدى تطاير الشراع في الهواء على هذه الصورة، ركض عبيـد الغليون والبحـارة إلى الأمـام وإلى الخلف، وهم يصرخـون بقدر مـاستطاعـوا، وبذلك كـانت الضجـة عظيمـة، وكـانوا كمن يركضـون بين السيـوف، وتسلق بعضهم فـوق الغطاء الموجـود على العارضـة، وحـاولوا سحب الشراع نحـوهم، وكان بعضهم الآخـر على سطح الغليـون في الأسفل، يركضون هناك وهم يحاولون الإمسـاك بقماش القلع ثانية، وقام بعضهم بإدخال حبـال من خلال بعض الأثقال، ووضعـوا أربطة حول الشراع، وفي الوقت نفسـه قـام الحجـاج والذين كــانوا بلافـائـدة في هذا العمل بالصـلاة إلى الـرب، وتوجهـوا بالدعـاء إلى القــديسين، وعمل بعضهم اعترافاتهم وكأنهم باتوا على حافة الموت نفسها، وعمل بعضهم تعهدات عظيمـة بأنهم سوف يسـافـرون من هنا إلى روما، وإلى القـديس جيمس (في كومبوستالا)، أو إلى بيت العذراء المباركة(في لوريتو Loretto)،

لو أنهم فقط نجو من هذا الموت، لأنه فقط عندما يكون الموت حاضراً أمام أعيننا نخاف منه، ولقد تذكرت الأقوال المأثورة للفيلسوف آنا كاريسيس Anacharsis الذي قال بأن الذين يكونون في البحر، لايمكن عدّهم لابين الأحياء ولا بين الأموات، فضلاً عن هذا لقد قال بأنهم أبعدوا عن الموت بمساحة أربعة أصابع، والأربعة أصابع هي سماكة جوانب السفينة، وأيضاً عندما سئل: أي السفن هي الأسلم؟ أجاب:« السفن الموضوعة فوق أرض يابسة، وليست في البحر»، وبهذا أعلن أنه لايوجد أمن في البحر، بسبب مخاوفه الكثيرة والمفاجئة، وحدث أثناء هذه العاصفة المخيفة مفاجأة، فبدون توقع جاءت استجابة للمساعدة من السماء، ففي وسط أضواء البرق ظهر ضوء مثبت في الأعلى في الهواء فوق قوس السفينة لبعض الوقت، ومن ثم تحرك ببطىء خلال الغليون بطوله حتى مقدمته ثم اختفى، وكان هذا الضوء هو شعاع نار عرضها حوالي الغلوة، وحالما رأى قباطنة الغليون وعبيده، والملاحون الآخرون، وكذلك بعض الحجاج الذين كانوا فوق ظهر الغليون، حالما رأى هؤلاء هذا الضوء حتى توقفوا عن العمل، وأوقفوا صراخهم وضجيجهم وركعوا نحو الأسفل رافعين أيديهم نحو السماء، ورددوا بصوت منخفض لاشيء سوى «قدوس، قدوس، قدوس»، ولم نعرف نحن الذين كنا بالأسفل مالذي كان يحدث، فارتعبنا لدى هذا الهدوء المفاجيء والصمت، والصلاة غير المعتادة، وتصورنا أنهم تخلوا عن العمل بعدما قنطوا، ولهذا كانوا يصرخون «قدوس»، لأنهم كانوا على حافة الموت، ووقفنا مندهشين ننتظر ما الذي سوف تكون عليه نهاية هذا، وهكذا فتح أحدهم الباب الذي يغطي البويب الرئيسي للغليون، الذي من خلاله يأتي الناس من ظهر الغليون إلى القمرة، وكلمنا بالإيطالية بما معناه:«أيها الحجاج، سادتي، لاتخافوا لأننا في هذه الليلة وفي هذه العاصفة لن نعاني من الشر، لأننا تلقينا عوناً من السماء»، وبعد هذا وبما أن العاصفة استمرت، عاد عبيد الغليون إلى أعمالهم

المعتـــادة، ولم يعــودوا الآن يصرخـــون كما كـــانوا من قبـل، بل عملوا بصرخات بهيجة، لأنهم لايعملون قط بدون صراخ.

وينبغي ألا يفترض أي إنسان أن الذي تحدثت عنـه بشأن الضوء هو مـزيف، لأنه صـادق بقـدر كل مـا هو ممكن، ويمكنني أن أبرهن عليـه بأيمان أكثر من مـائتي شاهد، هم أحيـاء في هذه الأيام، لأن ذراع الرب ليست قصيرة حتى تكون غير قـادرة على إنقـاذ، أولئك الذين كـانوا في وضع بائس.

وفي أثناء هذه العـاصفـة قطعنا مسـافة جيـدة على مسـارنا الصحيح، وأخيراً رأينا الريح قد قذفت بنا نحـو الميناء الذي تشوقنا للوصول إليه، واقتضى ذلك جميع تلك الليلة واليوم التالي، وعندما أشرق اليوم التالي، وبما أن العـاصفة كـانت مستمـرة، بقينا هادئين، وتحملنا أحـوالنا بصبر، ذلك أننا كنا بلا مـاء ولاطعـام، ذلـك أنه لم تكن هناك نار في الغليـون، وكـــان المطبخ على السطح ملىء بالماء، بالإضـــافـــة إلى ذلك كنا جميعـــاً مصـابين بدوار البحـر، وأنفسنا عـائفـة لجميع الأطعمـة والأشربة، لأن معدة كل واحد منا كانت مضطربة غير مستقرة، وفي الحقيقة ما من أحد منا أكل شيئاً في أثناء استمرار تلك العاصفة، وتمكن من إبقاء الطعام في جوفه، بل تقيأه ورماه ثانية، ومـا من شيء أفضل من إبقاء المعدة خاوية أثناء العواصف، فضـلاً عن هذا كان الخبز كله قد فسـد، ولم يكن قابلاً للأكل بالماء المالح، ولهذا كنا مرغمين على الصيام.

وتابعنا الإبحـار في اليـوم التـالي، وقـد خلفنا مـدينة راغـوســـا Ra-gusaعلى يميننا، وكورزولا على يســـارنا، ووصلنا إلى مدينة ليسينا، حيث نزلناها، فأنعشنا أنفسنـا، وتخلصنا مما كنا نعانيـه من دوار البحـر، وقد بقينا في ليسينا لمدة ثلاثة أيام، لأن الرياح في البحر كانت قوية جداً، مع أنه كـان هواءً لطيفـاً بالنسبة لنا، وانتظرنـا أيضاً حتى تسترد السيـدة الحامل قـواهـا، ذلك أنها عـانت كثيراً، وغـدت ضعيفـــة جـداً في أثناء

العاصفـة، وفي الحقيقة كـان أمراً عجباً أنها لم تهلك مـع حملها أثناء ذلك الوقت العصيب، وبعد هذا أبحرنا من ليسينا بريح طيبة.

لكن مع حلول المساء ازدادت الرياح قوة، ورمت بنا جانباً بين أماكن وعـرة، مليئة بالعشب والصخـور، حيث كـان من غير الممكن الابحـار أثناء الليـل، والتجأنا إلى سفـح جبل وعـــر، وألقينا بالـدليل، محاولين العثـور على قعـر يمكن أن نلقي المرسـاة فـوقـه، لأن الظلام حلّ علينا بشكل مفــاجىء، حتى أننـا لم نستطع الوصـــول إلى ميناء، كما لم يعــد بإمكاننا متابعة السير، وفي هذه الأثناء، عنـدما كنا قريبين من الجبل وكنا نحاول إدارة رأس الغليون نحو الريح، تعـرض لضربة قاسية من الريح والأمـواج، وكانت من العنف بمكان أنه لم يعـد من الممكن التحكم به، وبات مهـدداً بأن يمضي قـوسه نحـو الشـاطىء فوق الصخـور الحادة، وكان معنى ذلك تحطم الغليون، وعنـدما رأى رفيق الغليون أن المركب يتأرجح، وصل صراخهم نحـو السماء، وبدأوا يركضون إلى هذا الإتجاه وذاك، واستعدوا للقيام بالنجاة بأنفسهم.

وفي تلك الأثناء كنـا نحن مع الأسقفين جميعــاً في الأسفـل، عندمــا ركض خدم الأسقفين نحو البويب الذي كـان فوقنا، وصرخوا بصوت مخيف ومرعب قائلين:« سادتنا تعـالوا إلى الظهر، المركب قد تحطم وهو يغـرق»، ولدى سماع هذا الصراخ قفـز الأسقفـان وأتبـاعهما، وركضـوا نحو ظهـر المركب في فوضى عظيمة، وذلك مثلما فعل الآخـرون، وكان هناك تصادم على الســلالم المرافقة، واندفـاع سريع نحو مـؤخرة المركب، للحصول في داخل القـوارب التي كانت قـد أقلعت، فقد كان مـلاحوا السفينة مع عبيدها قـد استلوا سيوفهم وقطعـوا بها الحبال التي أمسكت القــوارب، وهكـذا سقطت القــوارب في البحـــر في سبيل أن يتمكن القبطان نفسه مع أخيه وزوجة أخيه وأتباعه، من النجاة أولاً.

وعلى كل حال لم ينزل أحـد إلى القوارب، ولو أن رجـلاً واحداً نزل

إليها لكان هناك مشهداً مرعباً من الفوضى، حيث كان هناك عدداً كبيراً ممن سيحاول القفز إلى القوارب، وبذلك يؤذي الآخرين الذين على ظهر القوارب، وسيقوم هؤلاء برميهم في البحر، وسيستل الذين يكونون في القوارب سيوفهم وخناجرهم ويمنعون الآخرين من الدخول عليهم، لأنه في مثل هذه الأوقات من الرعب، غالباً ماتحمل القوارب أكثر من وزنها وتغرق، ويقوم الرجال الفقراء بمحاولة إنقاذ حياتهم، فيندفعون قبل الآخرين، وبذلك يتعرضون للقتل بسيوف النبلاء وسيوف خدمهم، فضلاً عن هذا فإن الذين يرون المخاطر التي يحياها الذين هم في القوارب، يقومون بسيوفهم فيقطعون أصابع وأيادي الرجال المتعلقين بالمجاذيف وبجانب السفينة لدى عملهم للحصول بالقوارب، وبذلك يسقطون في البحر، ولقد سمعت حكايات مرعبة عن جنوح سفن وتعرضها للغرق، من الذين كانوا في مثل هذه المخاطر، التي بدا أننا كنا على وشك المعاناة منها.

وحدث أيضاً على كل حال أن الرب أنقذنا، فقد هدأت الفوضى، وربطت السفينة إلى الصخور، وطويت الأشرعة، وألقيت المراسي، وبناء عليه، بما أن عبيد الغليون، وصلنا بسبب إهمالهم وعدم اكتراثهم إلى هذه الحالة من الخوف، فقد جرت عقوبتهم بضربهم بشدة، غير أننا نحن الحجاج توسطنا من أجلهم، بعد ماتلقينا الرحمة الربانية التي أنقذتنا، وذلك احتذاء بمثلها، مع أننا لم نكن جديرين بالإنقاذ من الموت، وتابعنا في اليوم التالي السفر على طريقنا، وغادرنا يادرا ladera، وهي إحدى مدن دالماشيا، وقد خلفناها على يسارنا(كذا)، وتابعنا جرينا أمام الريح، لكن مع حلول المساء، شرعت ريح قوية جداً بالهبوب، ومع ازديادها فيما بعد، أصبح البحر هائجاً، وقد دفعنا إلى خارج مسارنا إلى أماكن جبلية، ومع ذلك لم نتجرأ على الإقتراب من الشاطىء، خشية من أن نصطدم بصخرة سيلا Scylla أو كاريبدس Charybdis،

ووصلنا إلى مجرى هوائي، حيث كانت الريح فيه ثقيلة جداً، ومع هذا حاولنا أن نلقي مراسينا في وسط هذا المجرى، وبناء عليه رمينا بدليلنا، فوجدنا العمق كان هائلاً، ولهذا أبحرنا لمسافة أوسع، ولكن لدى غياب الشمس وحلول الظلام، لم يعد بإمكاننا المسير مسافة أبعد من دون مخاطر عظيمة، وأجرينا عملية القياس مجدداً، ووجدنا القعر، لكنه كان عميقاً جداً، ومع هذا رمينا مرساتنا الكبيرة، لإمساك الغليون، لكن عندما وصلت المرساة إلى القعر لم تجد لاصخور ولاحجارة ولارمال يمكن أن تلتصق بها شعابها، بل جرت وراء الغليون فوق قعر الماء، وذلك أثناء متابعة الغليون لإبحاره، مما أقلقنا كثيراً، وبعد هذا، وإثر بذل جهد عظيم انتشلت المرساة، وألقي بها في مكان آخر، ومجدداً جرت المرساة وراء الغليون، مثلما يجري المحراث وراء الحصان، ثم رفعت مجدداً، ورمينا بها في مكان ثالث، حيث أمسكت بصخرة، ولكن عندما توقف الغليون، كانت عصا التوجيه تتحرك من مكان إلى آخر، مما أدى إلى انزلاق شعبة المرساة من على هذه الصخرة، وبدأ الغليون بجر المرساة مجدداً، لكن حدث فجأة أن وصلت المرساة إلى صخرة أخرى، حيث التصقت بها بشدة، وهكذا بقينا واقفين طوال الليل.

وحملنا نحن الحجاج أنفسنا إلى فرشنا، لكن القبطان بقي مع جميع الملاحين وعبيد الغليون بدون نوم طوال الليل، متوقعين موتهم وموتنا في كل لحظة، لأن الريح هبت بشكل عنيف، وتأرجح الغليون كثيراً، لأننا رسونا خارج ميناء، يحمينا من قوة الريح، وكان الملاحون— لهذا السبب— يخشون انزلاق المرساة وخروجها من الصخرة، أو أن ينقطع الحبل، ففي حال حدوث أي من الأمرين سوف نهلك بدون شك، ذلك أننا كنا في قوارنيرو Quarnero ، الذي كان أخطر خليج في البحر ، وذلك في مقابل ميناء أنكونا Ancona ، حيث كان البحر عالياً جداً وقوياً في سرعته.

ولهذا، وتقديراً من القبطان للمخاطر التي كنا فيها، نذر أنه ما أن يصل إلى ميناء بارنزو Parenzo سوف يبحر مع جميع الحجاج مباشرة إلى جزيرة القديس نيقولا، ليستمع هناك لقداسات تقال وتنشد للشكر على خلاصنا، وهذا مافعلناه، لأننا قمنا بالصباح برفع المرساة، وأبحرنا مروراً بعدد من مدن دالماشيا، ووصلنا إلى بارونزو في استريا، وذهبنا في اليوم التالي مع القبطان، ونفذنا نذرنا، ومكثنا في بارنزو لمدة خمسة أيام، ثم وصلنا إلى ميناء البندقية بعد إبحار يوم واحد، وأخيراً وصلنا إلى البندقية، وتفرق جمعنا، ومضى كل رجل منا إلى موطنه.

وأصبحت في الوقت نفسه مريضاً، لكن ليس إلى حد أن أكون طريح الفراش، ومع ذلك كنت مريضاً جداً إلى حد منعي من المشي، أو ركوب حصان، حتى استرديت عافيتي، ولذلك ذهب مولاي جورج مع النبلاء الآخرين إلى الوطن، غير أنني بقيت في البندقية بين أيدي الأطباء لمدة حوالي خمسة عشر يوماً، حيث عوفيت بعدها واستردبت صحتي، فانطلقت من البندقية برفقة تاجر، واشتريت حصاناً من تريفيسو Treviso وسافرت مع رفيقي حتى ترنت Trent ، وسافرت من ترنت وحيداً حتى وصلت إلى الناصرية Nassereit ، وقد وصلت هناك بعد الظهر، فوجدت بالنزل، أربعة من أخواني الحجاج من الأرض المقدسة، وكانوا من الإنكليز، وقد حيينا بعضنا بعضاً بسرور وبهجة، وكانوا يقومون بالإستعداد للسفر، ويأملون بعبور الجبل الذي اسمه سيريسيوس Sericius في ذلك اليوم نفسه، غير أنني رجوتهم الانتظار حتى الغد، حتى يمكننا السفر إلى أولم مع بعضنا، وقد طلبوا مني أن أركب معهم، لكنني رجوتهم بالبقاء معي باسم حق الرفقة والصداقة، ولكنهم رفضوا، لأنهم— كما أخبروني— قد سمعوا بشكل مؤكد، أنه سوف تصل في ذلك اليوم بالذات مجموعة كبيرة من الفرسان المسلحين، التابعين لبلاط دوق النمسا، إلى تلك القرية والنزل،

وهم يرغبون بتجنبهم، لأنه لم يكن سليما العيش بين رجال مسلحين.

وهكذا افترقنا، وابتعدنا عن بعضنا بعضاً ثانية، فقد ذهبوا، وبقيت أنا خلفهم، وجاء في المساء إلى النزل عدد كبير من النبلاء المسلحين مع أتباعهم، وكانوا مرسلين من قبل دوق النمسا للدفاع عن قلعة كريجين Kregen التي كان ايبرهارد Eberhard الأكبر صاحب وورتمبورغ Wurtemburg محاصراً لها، ويحاول تدميرها، وعلى هذا كان النزل مليئاً برجال مسلحين أشداء، لكنهم عندما عرفوا بأنني قادم من الأرض المقدسة عاملوني باحترام ككاهن وراهب، وكذلك كجندي من جنود الأرض المقدسة والضريح المقدس، ودعوني لعمل قداس لهم في اليوم التالي، ومن ثم بالسفر معهم، وقمت في اليوم التالي بعمل قداس لهم، وتناولت طعام الإفطار معهم، وعندما انطلقنا لنسافر سددوا الحساب عني، وأخذوني معهم وسط قوتهم بسرور ومتعة وراحة، وعندما وصلنا إلى كمبتن Kempten ، وجدت هناك في نزل التاج الملكي، الحجاج الانكليز الأربعة المتقدمي الذكر، وقد جرحوا، وضربوا وسلبوا كل مقتنياتهم، وكانوا في حالة محزنة جداً، ومخجلة وتعيسة.

فقد انقض عليهم في الغابة على مقربة من كمبتن لصوص، أنزلوهم من على خيولهم مرغمين بالسيوف، وعندما حاولوا صد القوة بالقوة، والدفاع عن أنفسهم، أصابتهم الجراحات بضربات سيوفهم، وقاموا بشد وثاقهم، وجروهم بعيداً عن الطريق العام إلى داخل الجزء الداخلي من الغابة، إلى حقل معزول منفرد، وقاموا هناك بسلبهم وسط إهانات كثيرة، وفتشوا في جيوبهم، وأفرغوا محافظ نقودهم وجعبهم، وعروهم من ملابسهم تماماً، وبحثوا في ملابسهم بكل عناية ليعرفوا فيها إذا كانوا قد خاطوا على شيء من المال فيهم، وأعطوهم أخيراً بعضاً من الملابس السيئة بدلاً عن ملابسهم، وأرغموهم على أن يقسموا يميناً أنهم في

مجال ثلاثة أيام لن يخبروا أحداً بما حدث لهم.

ولقــد أسفت كثيراً من أجل إخــواني، إنما هنأت نفسي لأنني لم أبق بصحبتهم، لأنني لـو بقيت لوقعت مثلهم في أيـدي هؤلاء اللصــوص، ووصلت في اليوم التالي إلى ميمنجن مع هؤلاء الفرسان، وأمضيت ذلك النهار معهم، وفي اليوم التالي الذي كـان يوم عيد القديس أو ثمار -Oth mar[٢٥— تشرين أول]، سـافـرت من ميمنجن إلى أولم بصحبــة كاهن.

ولدى دخولي إلى ديري، استقلبت بسرور ولطف، ومن ثم ذهبت إلى قـلايتي وإلى عملي المعتـاد فيها، ويمكنني القول صـادقـاً، إن هذا الحج الأول الذي قمت به، يعادل مائـة ضعف من حيث المتاعب والمآسي، أو أكثـر، من حجي الثـاني، وهو أعظـم خطراً في كل من البحـر والبر، وكانت جماعتنا في الحج أثناء حجي الأول أكثر فـوضوية، لأنه كان فيها كثيراً من الرجـال الانفعاليين، ولهذا كانـت هناك خصومات يـومية، كما كـان هناك بعض السرقـات الخاصة، وكـان بعضهم دومـاً مريضـاً، وفي الحقيقــة، كـانت رحلتي الاولى هذه في كثير مـن الجوانب أكثـر حــزناً وتعاسة، في حين كانت رحلتي الثانية أكثـر اتعاباً، وأبعد مسافة، وأعظم انفاقـاً، وأشد خطراً، ومع ذلـك تحملت أكثر فأكثـر المخاطر اليـومية في رحلتي الثانية.

وبهذا يمكن لجميع الناس أن يروا بـوضـوح، كيف أنه غير صحيح، ماهو رائج بين الناس في قولهم بأن الحج بالبحر من البندقية إلى الأرض المقــدســة، هو مجرد رحلـة ممتعـة مع مخاطـر قليلة، أو بدون مخاطر على الإطلاق، فيـا إلهي أية رحلة متعبـة وصعبة كـانت رحلتنا، وكم كـانت المعـاناة التي كـابدناها كبيرة ومـزعجة، فلقـد رأيت خـلال هذه الرحلة كثيراً من الشبــاب النبـــلاء النشطاء يهلكون، من الـذين تصــوروا في أذهانهم أن بإمكانهم أن يتحكمـوا بأمـواج البحـر، وأن يرفعـوا الجبـال

العـاليـة ويزنوها، لكن الذي مـات بالأخير مـات بقضـاء الله العـادل، وهلك بفعل المصاعب، وكان أمره محزناً في روحه.

أرجـو الرب أن يعطي الذين قـالـوا بأن هذا الحج كـان رحلة سهلة، القدرة على الشعور بالأسفِ وأن يتعلموا امتلاك الرحمة نحو الحجاج إلى الأرض المقدسة، وذلك حسب مايستحقـونه، فمحاولة هذا الحج تحتاج إلى الشجـاعـة والقـدرة على التحمل، ذلك أن كثيرين يقـدمـون عليهـا ويندفعون نحـوها بتسرع غير مغفور، وبلا شك بفضـول بليد، ذلك أن الوصـول إلى الأمـاكن المقـدسة، ومن ثـم أن يعود الإنسـان إلى مـوطنه نشيطاً ومعافى، هو منحة خاصة من الرب.

هنا نهاية أولى جـولات الراهب فيلكس فـابري ورحـلاته إلى الأرض المقدسة.

الطريقة التي استعد بها الراهب فيلكس فابري لجولته الثانية أو حجه إلى الأرض المقدسة، والقدس، وصهيون، وجبل سيناء

بعد إكمالي لجولتي الأولى، حسبما شرحتها جزئياً، عدت إلى أولم، معافى في بدني، وبدوت سعيداً متحمساً، لكن كنت في قلبي وروحي حزيناً، وغير مستقر، بسبب القلق الذي شعرت به، لأنه كان عليّ تحمل حجاً آخر، وعودة إلى الأرض المقدسة، وعلى كل حال لم أخبر أحداً بهذا القرار، ذلك أنني لم أكن قانعاً بأي حال من الأحوال بحجي الأول، لأنه كان قصيراً إلى أبعد الحدود وسريعاً، وقد ركضنا حول الأماكن المقدسة دون أن نفهم أو نشعر ماذا كانوا، يضاف إلى هذا لم يكن قد سمح لنا بزيارة بعض الأماكن المقدسة في كل من داخل القدس، وفي خارجها، كما أنه لم يسمح لنا بالسير فوق جبل الزيتون، وفي أماكنه المقدسة أكثر من مرة، وقد زرنا بيت لحم وبيت عنيا مرة واحدة فقط، وكان ذلك في الظلام.

ولهذا حدث بعد عودتي إلى أولم، وشروعي بالتفكر حول الضريح الأكثر قداسة لربنا، والمعلف الذي تمدد فيه، ومدينة القدس المقدسة، والجبال التي هناك من حولها، ومظهر وشكل وأوضاع هذه الجبال والأماكن المقدسة الأخرى، ذلك أنها ضاعت من ذاكرتي، حتى بدت لي الأرض المقدسة، والقدس مع أماكنها المقدسة وكأنها مغلفة بالضباب الكثيف، وكأنني قد رأيتهم في المنام، وبدوت شخصياً بالنسبة لنفسي وكأنني أعرف أقل حول الأماكن المقدسة، مما كنت أعرفه قبل أن أزورهم، ولهذا حدث أنني عندما سئلت عن الأماكن المقدسة، لم يكن بإمكاني إعطاء أجوبة دقيقة واضحة، كما لم يكن بإمكاني كتابة وصف واضح لرحلتي، ولهذا السبب كنت حزيناً إلى أبعد الحدود، ولكوني عانيت ما عانيته من متاعب،وشقاء، ومخاوف، وأنفقت مبلغاً كبيراً من المال، وكثيراً من الوقت، دون أن أتلقى أية ثمار، أو مواساة، أو معرفة.

وفي غالب الأحيان عندما كنت أحاول حصر نفسي وتوجيه أفكاري نحوالقدس والأماكن المقدسة، كنت قادراً فقط على تجميع صورة غير واضحة حولهم، ولهذا قلت وأنا مغضب لنفسي:«أرجوك، توقفي عن التفكير حول هذه الأماكن، ذلك أنك كنت هناك بالتوهم والخيال فقط»، ومن هذه الساعة اعتدت على امتلاك رغبة ملحة جداً بالعودة، وبرهنت على صحة هذا غير أن هذا أوجد أسفاً جديداً بالنسبة إليّ وفيّ،لأنني لم أستطع رؤية أي سبيل للرجوع إلى هناك، كما أنني لم أتصور أن ذلك العود ممكناً.

وهكذا بقيت مرهقاً فكرياً، ولم أتجرأ على الحديث حول هذا الموضوع مع أي إنسان، وكنت خائفاً من ذكر هذا الموضوع إلى الأب المحترم السيد لودويغ فوكس، مع أنه كان صديقاً مقرباً مني، وشريكاً لي في جميع أسراري، حيث ما كنت أتردد في إخباره بجميع الأشياء السرية التي كنت أشعر بها بقرارة نفسي، ومع هذا لم أتجرأ على البوح بذلك لأبي بالرب، ولم أذكر له خطتي بالعودة إلى القدس، خشية من إثارته وإزعاجه، وخشية أنه وغيره عندما يسمعون بذلك سيظنون ظن السوء بي، ويحكمون بأنني صاحب عقل خفيف، ومتضايق من العزلة الانفرادية الهادئة، أوربما أعاني من إغواء الشيطان، أو مدان بذنب الفضول المرفوض، أو مصاب بدوافع طائشة ملتهبة جامحة، ولذلك بقيت بلا قرار، ولم أظهر إشارة بما شعرت به سوى أنني عندما سئلت عن القدس وعن الأرض المقدسة، لم يكن بإمكاني الكلام بدون تنهد، أو القول أحياناً:لست أدري فيما إذا كنت قد رأيت القدس حقيقة أم لا، وعندما سألوني، فيما إذا كنت أرغب بالعودة إلى هناك ثانية، أجبت بكل بساطة، نعم أنا أرغب بذلك، وفي الوقت نفسه ألقتني رغبتي في العودة في قلق محموم، ولذلك لم تقدم لي الدراسة، ولا الكتابة أية بهجة أو متعة، إلاّ الحكايات التي وردت في التوراة وفي أماكن أخرى فيها

إشارات وذكر للقدس، ولهذا قرأت بعناية كل شيء تعلق بهذا الموضوع، ووصل إلى يديّ، فضلاً عن هذا جمعت كل حكايات حجاج الحروب الصليبية، والرحلات التي كتبت من قبل حجاج، وكذلك أوصاف الأرض المقدسة، وقرأتهم بعناية، وكنت كلما قرأت أكثر كلما ازداد اضطرابي، لأنني بقراءتي لروايات الآخرين، علمت كم كان حجي، ناقصاً، ومصطنعاً، وغير نظامي، ومضطرباً متداخلاً.

وأمضيت في أعمال القراءات والكتابات هذه سنة واحدة، لكن بعد مضي سنة عدم الاستقرار هذه، قدم إلى منطقتنا القائد العام لطائفتنا كلها، أي طائفة الرهبان المبشرين، وهو سالفوس دي كاسيتا، Salvus de Casseta أوف بالرمو(بلرم)،وقد جاء مرسلاً من قبل الأب المقدس البابا سكتوس الرابع، للتصدي للسيد أندرو، رئيس أساقفة كارنيولا Carniola ، الذي تحرك لاأدري بأية روح، وكان يحاول عقد مجمع عام في بازل، وكان يسكن هناك تحت حماية الامبراطور فردريك الثالث، ومن أجل أن يتمكن رئيس طائفة الرهبان المبشرين المتقدم الذكر، من العمل بشكل فعال أكثر، استدعى أفضل الوعاظ في منطقتنا للاجتماع به في دير كولمار Colmar ، وقد بعثت بين هؤلاء، وقدمت إلى الدير المتقدم الذكر، لكي أسمع أوامره وأطيعها، وهكذا عندما كنت بحضرة رئيس الطائفة، كان بين الأشياء التي قلتها لذلك الأب، وتحدثت بها إليه، أن أخبرت فخامته وحدثته عن رغبتي بالعودة إلى الأرض المقدسة وفلسطين، فما كان منه إلاّ أذن لي بالذهاب مباشرة وبدون عمل أية مصاعب، وأعطاني رسالة سماح مختومة بختم الطائفة، فيها حظّر على كل واحد من المراتب الأدنى منه عمل أية عوائق في طريق إنجاز ذلك الحج.

ولدى حصولي على هذا السماح عدت مسروراً إلى أولم، وأبقيت رسالة الرئيس مكتومة، وانتظرت متشوقاً لفرصة مناسبة حتى أعلن

عنها، وليس بعد مضي أيام كثيرة على هذا، حتى قدم إلى أولم مولانا المحترم في المسيح أودالريكوس غيسلينوس Udalricus Gislinus أسقف أدراميتوم adramyttium ، ونائب أسقف لمولاي أسقف أوغسبورغ Augsburg ، الذي كان صديقاً لي، وقد شملني بمعروفه، وجاء معه حكيم باللاهوت، وكان راهباً من طائفة الفرنسيسكان، وكان راغباً بالذهاب إلى روما ليتسلم ترسيمه أسقفاً، لأن السيد أسقف فريزيا قد جعل منه مساعد أسقف له، وقد زرت هؤلاء السادة، ورجوت الحكيم المتقدم الذكر أن يتفضل عليّ فيحصل لي من الأب المقدس البابا، على إجازة لي لزيارة الأماكن المقدسة فيما وراء البحر، وهو ما رجاه أيضاً الأب المحترم المتقدم الذكر أودالريكوس أن يفعله إكراماً لخاطره، وهكذا وعدني بأن يفعل ذلك، وقد حافظ على وعده وبعث لي رسالة تحتوي على الاذن بالسفر، وعندما حصلت على هذه الرسالة حافظت على الصمت فقد كنت آمل بتوفر فرصة موائمة أكثر، وكنت أرجو أن الفرصة المرغوبة هي ستقدم نفسها، وتلبي رغبتي وتشوقي من دون أن أطلبها، وهذا ما حدث بالفعل.

وكان في ذلك الوقت في أولم رجل اسمه كونراد لوخرLocher ، وكان إنساناً محترماً يشغل وظيفة النائب العام للامبراطورية الرومانية المقدسة في ذلك المكان، وكان معروفاً بشكل جيد من قبل عدد كبير من النبلاء، وقد نظر إليّ نظرة تقدير وأولاني عناية خاصة، وله — بحكم كونه صديق موثوق — فتحت أولاً قلبي، وأبحت له خبر رغبتي، والاجازتين التي حصلت عليهما، ورجوته إذاكان يعرف أي شخص من نبلاء المنطقة، يرغب بالقيام بالحج إلى الضريح المقدس في القدس، وهو بحاجة إلى خادم وشماس، فيوصي بي إلى مثل هذا الشخص، على أنني إنسان صاحب تجربة،ومعين في مثل هذا الحج في كل من القضايا

الروحية والدنيوية.

وبناء عليه نظر الرجل المتقدم الذكر في لائحة نبلاء المنطقة، فوجد السيد ذي الأصل النبيل جون تروخسيس فون وولدبورغ John Tru- chesess Von Woldpurg ، كان يعدّ العدة للقيام بحج إلى ما وراء البحار مع عدد آخر من البارونات والنبلاء، وقد زار هؤلاء النبلاء، وقام بإخلاص عظيم بالتوصية بي لهم، كما برهنت الأحداث.

لأنه مباشرة بعد هذا، وكان ذلك في سنة ١٤٨٣، وفي يوم عيد القديسة العذراء جيرترود Gertrude ، قام النبيل المتقدم الذكر، أي تروخسيس فون وولدبورغ، بالقدوم إلى أولم مع عدد كبير آخر من النبلاء، ومن أصدقائه، وأرسل على الفور رسولاً إليّ واستدعاني من الدير، وعندما قدمت إليه إلى النزل الذي كان نازلاً به، وبدأ يسألني، وكأنه يطلب مشورتي حول كيف يمكن للذين يرغبون بعبور البحر والقيام بالحج إلى القدس، أن يفعلوا ذلك، وما الذي عليهم القيام به بشأن هذه القضية، وقال:«لقد سمعت بأنك كنت في تلك المناطق فيما وراء البحار، أرجوك، أشر عليّ، ما الذي ينبغي أن أفعله من أجل أن أعود إلى الوطن سالماً»؟ ثم استطرد يقول:«إنني أنوي زيارة الأرض المقدسة، ومدينة القدس المشهورة، ومعلف الرب، الذي هو الأكثر عذوبة، وضريح الرب الأكثر تمجيداً»، وقال:أخبرني، «أرجوك بحرارة، ما هي المصاعب في طريقي،وكيف يمكن تجاوزها»؟، وعندما كنت أجيبه على أسئلته،كان ينظر إليّ بإخلاص عظيم، ومع أنه توقف عن سؤالي مثلما فعل في البداية، لكنه استوضح عما إذا مازلت أمتلك أيةرغبة في العودة إلى القدس، فأجبته أنه لايوجد شيء في العالم أنا متشوق إليه بشدة، في الوقت الحالي، أعظم من رؤية ثانية لهذه الأماكن المقدسة، وبعدما علم هكذا رغبتي بالذهاب، جعلني هذا النبيل أعود إلى ديري، مؤكداً لي، أنه ينبغي أن أذهب إلى القدس برفقته ورفقة

أصدقائه.

وكان النبلاء التالية أسماؤهم قد تعهدوا مقسمين على القيام بالحج مع بعضهم، وهم: السيد جون وورنهير Wornher ، بارون فون كيمبيرن Cymbern ، والسيد هنري بارون فون ستوفل -Stoe fel ، والسيد أورسوس Ursus فون ريخبيرغ Rechberg فون هوهنريخبيرغ Hohenrechberg، والسيد المتقدم الذكر تروخسيس فون وولدبورغ، الذي كان والد جميع المتقدمي الذكر، ومنه تلقوا التحريض والدافع الذي جعلهم يقررون القيام بحجهم.

ومباشرة في الساعة نفسها التي عدت بها إلى ديري، أرسل النبيل المتقدم الذكر رجلاً محترماً مرافقاً بحاشيته الخاصة، ليلقي كلمة يرجو بها السيد المحترم رئيس الدير، باسم البارونات النبلاء الذين تقدم ذكرهم، بأن يتكرم ويحسن بمنح الراهب الذي كان في بلدان ما وراء البحر، والذي وقع اختيارهم عليه بالاجماع لأن يكون شماسهم والقس الذي يعترفون إليه، إجازة بالمغادرة، وإذناً بالسفر من البلاد معهم، ولهذا الغرض أضفت بأن السيد جون تروخسيس قد قدم الآن مع رفاقه والنبلاء الآخرين إلى هذه المدينة.

وعندما سمح رئيس الدير هذا افتعل كثيراً من المصاعب، وأخذ وقتاً لتقدير الجواب الذي ينبغي أن يعطيه، وعندما رأى السيد جون هذا، وخشية منه أن ينتهي النقاش في شيء يضاد رغباته، قام مباشرة في اليوم التالي، وجلب معه جميع النبلاء وأصدقائه، وكذلك النبيل كونت فون كيرخبيرغ Kyrchberg الذي جاء أيضاً معه، ولقد اصطحب هؤلاء جميعاً وذهب إلى مقر محكمة العدالة المدنية، حيث كان جميع أعيان مدينة أولم مجتمعين، وترجاهم لكي يستمعوا له، وعندما جرت الاستجابة لهذا الطلب، توسل إلى القناصل لكي يستخدموا نفوذهم لدى رئيس دير الدومينيكان لكي يدع الراهب فيلكس، الذي اختاره

هو ورفاقه ليكون شماسهم أثناء الحج فيما وراء البحار، يدعه يغادر بدون عوائق، ولاسيما أنهم يعرفون بشكل خاص أنه راغب بالذهاب، وبناء عليه دخل عمدة المدينة مع عدد من القضاة إلى الدير ليلتمسوا من الأب، الموافقة على التماس النبلاء، من أجل خاطر أعيان المدينة، وعندما قال بأنه لايمتلك السلطة ليمنحني إجازة للارتحال إلى القدس، لأن ذلك العمل هو في يدي أبينا المقدس، البابا، وكذلك هو من شأن القائد العام للطائفة، قمت على الفور بتقديم الرسالتين، اللتين هما من البابا، ومن القائد العام للطائفة، وعندما رآهما أعطى على الفور موافقته باسم الرب.

وبناء عليه التقيت بالسيد جون تروخسيس، وتباحثت معه حول المكان وحول اليوم الذي سألتقي به فيه مع سادتي الثلاثة الآخرين، وقام بتحديد يوم خاص، أما بالنسبة للمكان فقد كان بلدة إنسبروك Innspruck حيث مقر دوق النمسا، وبعد إعداد هذا، ذهب سيادته إلى موطنه مع جماعته، واعتباراً من هذا اليوم أطلقت لحيتي، وزينت قبعتي وردائي بصليبين حمراوين، وجرت خياطة هذين الصليبين على ثيابي من قبل عذراوات، مكرسات للرب، اقترن بالذي صلب، وعملت جميع الشارات الأخرى لذلك الحج المقدس، كما ينبغي أن أفعل بشكل صحيح، حيث هناك أربطة خمسة خارجية للحاج هي: أولها صليب أحمر فوق رداء رمادي طويل، مع قلنسوة راهب مخاطة إلى القميص، ما لم يكن الحاج منتمياً إلى إحدى الطوائف التي لاتسمح له بارتداء رداء رمادي، وثانيها قبعة سوداء أو رمادية، عليها في الواجهة صليب أحمر، وثالثها لحية طويلة نامية من وجه حاد وممتقع اللون بسبب متاعبه والمخاطر، ذلك أنه في كل بلد من البلدان، حتى في البلدان الكافرة، يطلق الناس لحاهم ويدعون شعورهم تطول أثناء سفرهم، وإلى أن يعودوا إلى وطنهم، ويقولون إن أول من فعل ذلك هو أوزوريس،

وكان ملكاً قديماً لمصر، وكان مقدساً إلى درجة عدّه رباً، وكان قد ارتحل خلال العالم كله، والرابع هو مخلاة تعلق على الكتفين فيها طعامه القليل مع زجاجة، وهي كافية ليس لرغد العيش، بل لمجرد ضرورات الحياة، والخامس، وهو مايحصل عليه فقط في الأرض المقدسة، وهو أتان، مع سائق مسلم، عوضاً عن عصاه.

وهكذا تطلعت بشوق عظيم إلى يوم مغادرتي، وبصمت وهدوء جهزت نفسي من أجل حجي المقدس، وذلك بسبب المشاكل التي أثارها الذين كانوا قلقين على سلامتي، والذين دأبوا على إزعاجي.

هنا بداية الرحلة الثانية للراهب فيلكس فابري إلى الأرض المقدسة والقدس

الجزء الرئيسي الثاني من الكتاب كله.

سوف أبدأ الآن جولاتي حول حجي الأكثر رغبة فيه والذي كان الأعظم إشراقاً وسروراً، وهو الحج الذي عزمت على وصفه في اثني عشر فصلاً، تبعاً للاثني عشر شهراً — أكثر أوأقل — التي استغرقها الحج، وقد قسمت كل فصل إلى كثير من العناوين، مثلما هناك أيام في الشهر، وبناء عليه سوف يكون كل شهر في فصل، وكل يوم تحت عنوان.

ولسوف أبدأ بيوم مغادرتي، وأنتهي بيوم عودتي، وسآتي بشكل صادق وأمين على ذكر جميع الأماكن التي رأيناها شهراً تلو شهر، ويوماً تلو يوم، وسأتحدث بصدق عن كل ما نزل بنا في كل شهر، وفي كل يوم، مضيفاً أوصاف جميع الأماكن المقدسة وغيرها من الأماكن، لكي أحسّن روايتي وأشرحها، لأنني لم أر يوماً واحداً، أثناء رحلاتي، دون أن أكتب بعض المذكرات، حتى عندما كنت في البحر، وفي العواصف، أو في البلاد المقدسة، وغالباً ما كنت في الصحراء وأنا راكب على ظهر أتان، أو جمل، أو في الليل عندما يكون الآخرون نياماً، حيث كنت أجلس وأدون كتابة ما كنت قد رأيته.

والآن عندما اقترب موعد المغادرة، وبات عليّ السفر، ترقبت يوماً مناسباً يمكنني أن أغادر فيه أولم، من دون أن ألاحظ، ومن دون تجمع حشد كبير من الناس، لأن رفاقي وذوي النوايا الطيبة نحوي قد انزعجوا كثيراً، وكانوا غير سعداء إلى أبعد الحدود بسبب مغادرتي، وقدأزعجوني كثيراً بنصائحهم التي وجهوها إليّ بالبقاء في الوطن،

وبسبب مخاوفهم الحمقاء، وقد بدا نحيبهم بالنسبة لي مزعجاً جداً، لأنني أحب البهجة ولاأخاف، لأنني كنت ذاهباً لتلبية دعوة إلى الاحتفال مع أعز أصدقائي.

وبناء عليه في الثالث عشر من نيسان، الذي كان يوم أحد ويعرف باسم Misericor dia Domini وذلك في سنة ١٤٨٣، ومع حلول الظلام، جاء إليّ رسول أرسله النبيل السيد فيليب كونت كيرخبيرغ، يطلب مني القدوم في الصباح التالي بدون تأخير لزيارة الكونت والقيام ببعض الأعمال معه، وكنت في وضع الرئيس لجميع أسرتي،لأن جميع آل بيتي اعتادوا على الاعتراف إليّ، من كل من الكونتات والكونتسات، وعندما تتوفر أية مصاعب، يمكنني أن أتعامل معها، كانوا دوماً يكتبون رسالة إليّ، أو يبعثون إليّ للقدوم إليهم، وبناء عليه رتبت مع الخادم بأنني سوف أقدم عليه بصحبته في الغد.

وفي الرابع عشر، الذي كان يوم عيد تيبورتيوس Tiburtius وفالنتاين، وبعد قراءة القداس وتناول طعام الافطار دعوت للاجتماع بي جميع الرهبان، وقلت لهم أنني الآن أرغب في مغادرتهم والسفر، ورجوت بنيل مباركة الحج من أبينا المحترم المقدس لودويغ Ludwig، وقد اقتادني إلى السدة حيث رافقني كل رهبان الدير، وجثوت في وسط السدة بوجود القربان المقدس، وتلقيت المباركة من المذبح، وسط بكاء مرّ ونحيب من رئيس الدير وجميع الرهبان، وبعدما تلقيت مباركتي جعلني بكائي ودموعي غير قادر على القول وداعاً لإخواني الرهبان بالكلمات، لكن دموعي، ووجهي الحزين، وتنهداتي تكلمت عني.

وبناء عليه عانقت وقبلت كل واحد من إخواني، ورجوتهم أن يتذكروني في صلواتهم، غير أنني لم أستطع إلاّ بصعوبة بالغة إقناع الأب المحترم لودويغ بالبقاء مرتاحاً في البيت،لأنه أراد أن يراني سليماً حتى ميمنجن، كما فعل من قبل، لكنني رفضت كلياً أن أسمح له، حتى

لايعـاني من ألم جـديد واضطراب عنـدمـا نفترق، وعلى كل حـال كنت لدى انطلاقي لهذا الحج مسروراً ومنتشيـاً، وروحي مبتهجـة، ومع ذلك عندمـا تركت الأب، الذي هو صـديق مخلص جـداً، وغادرت إخـواني المحبـوبين إليّ كثيراً، الذين كـانوا حـزينين كثيراً ومحبطين، لم أستطع أن أمنع نفسي من ذرف دموعي.

وبعدما جـرى جمع الحقائب التي نويت حملها معي، وبعـدما وضعتها على ظهـر الحصان الذي كنت قـد اشتريته، امتطيت حصـاني، وبت على نيـة السير والابتعـاد برفقـة خـادم الكونـت، لكن حـدث لدى امتطائي لحصاني أن تحلق جميع إخـواني الرهبان من حولي، ورجـوني أن أتنبه وأن أعتني بكتـابة مذكـرات عن جميع الأمـاكن المقدسـة التي سأراها، وأن أكتب رواية عنهـــا وأجلبهـــا معي إليهم، وذلك مـن أجل أن يتمكنوا أيضـاً بأفكارهم — طالما لم يستطيعـوا بأجسادهم — من الحصـول على متعة زيارة الأماكن المقدسة، وقـد وعدت إخواني بفعل ذلك، وخرجت برفقـة خادم الكونت وقتهـا من الدير، وسرنا بدون جلبـة وكأننا مخفين لأنفسنا، وخرجنا من المدينة، وعبرنا نهر الدانوب عبر الباب الذي يقود إلى جسر الضأن، وصـدف أن هذا الحج قد توافق مع الحج الآخـر، فيما يتعلق باليـوم الذي بدأ به، ذلـك أنني كنت قـد بدأت حجي المتقـدم في يوم عيد القديسين تيبورتيوس وفالنتاين.

وفي الحقيقـة بدأت بعـد مضي عـامين رحلتي الثانيـة في اليـوم نفسـه والساعة نفسها، مثل الرحلة الأولى، وسرت أنا وخادم الكونت فوصلنا بسرعة إلى قرية ديسين Dissen ، وصعدنا بعـــد ذلك إلى القلعة القائمة فوقها، التي سكن فيها مولاي الكونت، وكان السبب في إرساله خلفي هو مايلي: كـان يوجد في قـرية جيدينشيم Jedensheim أو إيهديمشيم Iheidemsheim ، القائمة عند سفح الرابية التي قامت فوقهـا القلعة، كان يوجـد هناك فتاة قد فقـدت عقلها، التي من الممكن

تبيـان أنها متلبسـة من الشيطان، وقـد أراني الفتاة وعـرضهـا عليّ لأنظر إليها وأتفحصها، حتى يمكنني تقرير ما الذي يمكن العمل معها، وكان قراري أنها كـانت فاقـدة لعقلها، ولهذا كـان الأجدى العهـدة بها لعناية أطباء وليس لعناية لاهوتيين.

ومع انتهـاء هذا العمل أخبرت مـولاي الكونت، بأنني قـد بدأت رحلتي، ورجـوتـه أن يبعث معي بخـادم يرافقني حتـى سفح جبـال الألب، لأنه بالنسبة للطريق خـلال تلك المسافة غالبـاً ما يكون خطيراً، وقـد خفت من السير وحيداً، وبناء عليـه غادرت ثيسـا Thyssa في ذلك اليوم نفسه مع الخادم الذي عين لي، وسـافرنا حتى ميمنجن حيث أمضينا الليل.

وسافـرنا في اليوم الخامس عشر مسرعين من ميمنجن حتـى كامبتن Kampten، وهناك تناولنا طعام الغـداء معاً، وبعـد الغداء صرفت الخادم وطلبت منه العـودة إلى سيـده، ذلك أنني خشيت من احتمال أن يغادر مـولاي انسبروك Innspruck قبل وصولي إلى هناك، ولذلك سافرت حتى قرية ريوتي Reutte القائمة على ضفتي نهر ليكوس Licus، وهو الذي يعرف بشكل عـام باسم ليخ Lech، حيث أمضيت الليل هناك.

وغادرت في يوم السادس عشر ريوتي وحيداً، وكان ذلك في الصباح الباكر، وشرعت في تسلق ألب ريهتك Rhaetic، في مكان يقوم فيه المدخل إلى ريهتك الألب، وذلك فوق طريق منحـدر، يكون في أوقات الأمطار سيئاً جـداً للسفـر عليـه، لأنـه عميق ومـوحل، وقـد وجـدت الطريق سيئاً جـداً، لأنه كـانت هناك أمطار في اليـوم المتقدم، وتسـاقط الثلج في الليلة التـاليـة فوق الوحـول، ولهذا لم أستطع رؤية التجمعـات المائية والحفر العميقة، وعلى هذا غرق حصاني الذي قدته طوال الطريق صعوداً حتى بطنه أثناء كل خطوة، وغـرقت أنا مثله حتى ركبتي، فضلاً

عن هذا غرقنا معاً في حفر عميقـة، ومهما يكن من أمر لقد عبرت حتى حدود الريهتك ألب Rhaetic Alps ، التي هي موجودة عند مكان اسمه ايهرنستين Ehrenstein ، ووصلت إلى حيث يقود الطريق صعوداً فـوق مونـز فيريشيوس Mons Fericius، وعندما وصلت إلى قمة هذا المكان ونزلت إلى الجانب الآخر، وجـدت أنه مايزال أمامي جزء من النهار، ولهذا عبرت خلال قـرية الناصرية، وتسلقت ثانية جبلاً عاليـاً جداً ووصلت إلى قـرية Schneckenhusen ، حيث قررت إمضاء الليل.

وجلس في النزل بعـض عمال المناجم من منـاجم الفضـــة، وكـــانوا يقمـرون،ويشربون ويمتعـــون أنفسهم، وقـد نظرت إليهـم نظرة ريبـة، وكنت حذراً في كلامي معهم، ووضعني صاحب النزل في غرفة صغيرة لوحدي، حيث قمت بإغلاق الباب بكل اتقان وحذر، ورحت نائماً.

وفي الصبـاح الباكـر من اليـوم السابـع عشر، عندما استيقظنا جميعـاً، كـانـت هناك ضجـة كبيرة في دار النزل، لأن اثنين من الحمالين كـــانا يشتكيان بأنهما فقـدا نقودهما مع أموالهما كلها، لأنهما عندمـا كانا نائمين، دخل عمال المناجم إلى غـــرفتهما، وسحبـــا حـــافظتي نقـــودهما من تحت وسادتيهما، وأفـرغاهن ورموهن في الحديقة المجـاورة لدار النزل، ونجوا مع المال، بينما كان كل إنسان نائم.

وعندما أشرقـت الشمس غادرت ذلك المكان، ومضيت مسـافراً على طريقي تخالجني المخـاوف مـن أن يكون أولئك اللصـوص قـد جلسـوا كامنين لي على الطريق، وعلى كل حال لم يلحقني أي ضرر، ووصلت في منتصف النهـار إلى بلدة إينسبروك Innspruck حيث أملت بلقـــاء مـولاي، لكن خـاب أملي، ويطلق على إينسبروك اسم بونتينا Pontina في اللاتينية، وذلـك اشتقاقاً من عبـارة بونز إن Pons Ini ، ذلك أن الجسر القـــائم على نهر إن Inn ، هو المعنـي بالألمانيـة بـــاسم

إينسبروك، ولدى اقترابي مـن جسر البلدة، وعندمـــا كنـت على وشك الدخول إليه، قابلت خمسة رجال مسلحين، كانوا من أتباع موالي، حيث كانوا قد صرفوهم عائدين إلى موطنهم، عندما كانوا أنفسهم قد انطلقوا من اينسبروك في ذلك اليـوم نفسه، وكـانوا يعملون في بلاط الدوق منذ أيام طويلة، وكـانوا متعبين من ذلك، ولذلك مـا أن أنهوا أعمالهم هناك، حتى استأذنوا بالانصراف، قبل يوم واحـد قبل الموعد الذي كـان السيد جـون التروخسيس قـد حـدده للقـاء معي، وكـانت الأعمال التي كـان عليهم تصريفهـا مع الدوق هي أنه عهـد إليهم بالمسـؤوليـة عن كل مـا خلفـــه وراءه هـو ومن معـــه، أي:أزواجهم، وأولادهـم، وأراضيهم، وقراهم، وبلداتهم، وقـلاعهم، وكونتياتهم وإقطاعيـاتهم، فضلاً عن هذا كانوا قـد تسلموا من الدوق رسـائل توصية مـوجهة إلى أعيـان وشيوخ البندقية، وكانوا عندما أكملوا هذا كانوا قد شرعوا بالانصراف.

وبما أنني لم أجد موالي في البلدة، عبرت مـن خلالها مسرعاً، من أجل اللحاق بهم، وتسلقت الجبال، وبعد عبـوري الكثير من الممرات الملتوية بين الجبـال، وصلت إلى واد كبير اسمـــه مـاتري Matrae وأمضيت الليل هناك.

وفي يوم الثـامن عشر تسلقت جبـالاً أكثر علواً، وعبرت الممـر الذي اسمه برينير Brenner ، حيث عانيت من البرد القارص، لأنه يوجد هناك دومـاً حتى في الصيف جليـــد، وبخـار على شكل صقيع، وذهبت من ذلك الشرف نزولاً إلى الطرف الآخـر عبر طريق طويل سرت عليـه حتى وصلت إلى بلدة ستيرتزنغ Stertzing حيث وجـدت مـوالي في النزل مع نبلاء آخرين وأتباعهم، والذين وجدتهم هناك كانوا : السيد هينريخ Heinrich فون ستوفل، والسيد جون التروخسيس، والسيد أوسـوس فـون ريخبيرغ، غير أن العضـو الرابع من جماعتنا، وهو السيـد جون ويرنر Werner ، بارون فـون سيمبيرن، كان قـد مضى في

مقدمتهم وسبقهم، من أجل أن يحضر مكان إقامة موائم في البندقية من أجل السادة جميعاً، ومن هم في جماعتنا.

وفي يوم التاسع عشر من نيسان غادرنا ذلك المكان بعد الغداء، ولدى مرورنا بدير نيوستفت Neustift ، العائد إلى طائفة كهنة نظاميين، على مقربة من بركسن Brixen ، خرج راعي الدير لاستقبالنا وأخذنا جميعاً إلى الدير برفقته، وقد فعل ذلك صدوراً عن احترامه للسيد جون التروخسيس، الذي عدّه حاميه، لأنه جاء من وولسي Walsee ، مقر السيد جون التروخسيس، وبفضله جرى تعيينه راعياً لذلك الدير، ولم يرغب راعي الدير المتقدم ذكره بأن يدعنا نذهب، بل أجبرنا على البقاء هناك، وعاملنا باحترام عظيم، ذلك أن الدير كان عظيماً جداً وثرياً، ونادراً ما رأيت في أي مكان آخر مثل الكثرة التي رأيتها هناك من صحون الذهب والفضة في قاعة طعام راعي الدير، ويمتلك هذا الدير كنيسة كبيرة، مزينة بشكل ثري، كما يحتوي على مكتبة جيدة، والرجال هناك متزمتين ومحترمين، ويرعون إقامة القداسات الربانية، ولاأعتقد أنني سمعت في أي مكان آخر مثل صحة غناء الجوقة وجودته في هذا الدير.

وفي يوم العشرين، الذي كان يوم أحد عرف باسم«اليوبيل» بقينا لسماع القداس الرباني، ومن أجل الغداء في نيوستفت، ثم غادرنا الدير، ومررنا مسرعين من خلال بلدة بركسن، لأن السادة قد علموا بأن الطاعون كان منتشراً هناك، وفي مرات مقبلة عندما مررت من هناك أمضيت الليل فيها، ويوجد فيها أسقفية غنية، وكان غالباً ما تنشب إثر وفاة الأسقف هناك صراعات بين النبلاء، حول الأسقفية، وهذه المنطقة كلها مشحونة بالخلافات والصراعات اللاهوتية، وكانت المنطقة كلها محرومة لاهوتياً، ويمكنني أن أتذكر الوقت الذي وضع فيه دوق النمسا الحالي سيغسموند Sigismund ، والمنطقة كلها تحت حرمان واضح

دقيق، وكانوا جميعاً محرومين كنسياً بسبب ما كان يتفجر من خلافات حول الأسقفية، وبناء عليه فإن كل إنسان عبر خلال تلك المنطقة، سواء أكان عارفاً أم جاهلاً، أصبح محروماً.

ويوجد هناك كنيسة كاتدرائية جميلة، فيها وقفت مرة مع واحد من إخواني الرهبان من طائفتي ورددنا الساعات القانونية في تلك الكنيسة، وبناء عليه قام مولاي رئيس تلك الكنيسة والقانوني الكبير فيها، فبعث شماسه إلينا، وسأل عما إذا كنا رهباناً متسولين، وعندما عرف صدق ذلك منحنا صدقات جيدة وسخية، ويمكن لدير لرهبان جيدين أن يكون مفيداً جداً هناك، لأنه لايوجد في الأسقفية كلها دير للرهبان المتسولين، فالرهبان القانونيين هناك متزمتين ومحترمين، ولذلك ليس هناك أي راهب سوى الذين هم في ريكوليت Recollets في نيوستفت، والدير في نيوستفت هو من ممتلكات هؤلاء الرهبان القانونيين، وليس قبل وقت طويل جداً كانت الكنيسة في نيوستفت كنيسة كاتدرائية، لكن عندما نقلت إلى البلدة، جرى وضع الكهنة النظاميين هناك.

وغادرنا بركسن وخلفناها وراءنا، فوصلنا إلى كونترسويغ Kun-tersweg ، حيث تابعنا سيرنا من جانبها بسهولة، لأن دوق النمسا قد حصنها بقوة، ويذهب الآن إلى أعلاها وأسفلها بعربات ذوات دواليب، وقد تخلو عن ممرات الخيول القديمة، وكان الدوق المتقدم الذكر يبني لهذا بناءً عالياً بنفقات عظيمة، ليكون بمثابة بيت طويل، وقبل أقل من سنتين مضيتا كان هذا الطريق على درجة كبيرة من السوء، وخطيراً إلى حد أن الانسان يستطيع عبوره وسط أعظم المخاطر، وهو يقود فرسه خلفه، وأنا أعرف درجة المخاوف والمخاطر عبر هذا الطريق عندما مررت به أثناء سفري في حجي الأول، لأنه يوجد على جهة اليمين وديان عميقة جداً، وكان الطريق شديد الضيق،

لوجـود شعاب جبليـة عـالية على يسـاره، ونظراً لأن هذا الطريق كـان ضيقـاً وخطيراً كان الأدلاء الشعبيـون يغنون حـوله، لكن الآن — كما قلت — بذل الدوق جهوداً فنية لكي ينسف الصخور بوساطة البارود، حتى يقطع واجهـات الشعاب الجبليـة، ويجرف بعيداً كميـات كبيرة من الصخور، وجعل بالانفاق العظيم من الأماكن الوعرة أماكن سهلة، ولم يقتصر هذا على هذه المنطقـة فقط، بل شمل منـاطق كثيرة من Rhae-tia التي هي خاضعة لحكمه.

وكـان طول الطريق المتقـدم الـذكـر ميلين ألمانيين، وعندمـا عبرناهما وصلنا إلى بلدة بوتزن Botzen، التي وجـدناهـا لسـوء حظهـا قـد تعـرضت مؤخـراً للحـريق كلياً تقـريبـاً، وفي الحقيقة لم تكن النيران قـد زالت كليـاً، بل إننا رأينا اللهب، وشممنا الدخـان وكان مـايزال ينبعث من بين أكـوام الخرائب، وكـانـت الديرة والكنائس قـد بقيت دون أن تتعرض للنار،وكان دير طائفتنا للرهبـان المبشرين قد تعرض للنار، لكن بفضل جهـود الرهبان الغيـورة، الذين عملوا من فوق الأسطحـة أمكن إطفـاء اللهـب، ومع ذلك تمكنت النيران من الانتشـار بقـوة، حتى أن ديرنا، لم يكن بالامكان إنقاذه إلاّ بأكثـر من العون البشري، لأنه عندما التهب سقف المهجع — كما أخبرني عدد من الشهـود الصادقين — قام رئيس الدير المحترم، الأب نيقـولا مـونخبيرغـر Munchberger، بالركوع على ركبتيه تحت اللهب، ودعا طالباً العون من العذراء المباركة، وهو ما تلقاه.

وكـان قـد حـدث قبل سنين كثيرة مضت، أن جـاءت النار إلى باب المدينة على مـرأى من جميع الناس، وانتشرت خـلال جميع الشـوارع، وأحرقت البلدة كلهـا، ومثلما ساد اعتقاد بأن النار المتقدمـة كانت بكل وضوح قد جـاءت انتقاماً من السماء، كذلك هو الاعتقـاد نفسه بالنسبة لهذه النار الأخيرة، لأن الناس هنـاك آثمين جـداً، سلمـوا أنفسهم إلى

السكر، وإلى المتعة والتكبر بلا حدود ولاقياس.

وفي الحقيقة كل شيء هناك رخيص جداً، وهناك وفرة عظيمة بالأشياء الجيدة، والخمرة هي بشكل خاص جيدة، وجميع الفواكه حلوة، لكن الهواء غير صحي، لأنه قد قيل بأنه يوجد من الجانب الذي من الممكن أن تهب منه رياح جديدة جبال عالية جداً، وقد دلني عليها إخواني الرهبان، وفي الوقت نفسه يوجد في الجزء الذي تتلقى منه البلدة الرياح، مستنقعات آسنة جداً، ونتيجة لهذا كله، هناك دوماً كثيراً من الأشخاص يعانون من أعراض الحمى، ومن الدارج كثيراً المعاناة من الحمى، لأنهم لايعدون الحمى مرضاً.

وعندما يلتقي واحد منهم بصديق، ويراه ممتقع اللون، ووجهه متغير يقول له:«ياصديقي، ما القضية أراك ممتقع اللون ومتغيراً»؟ يجيبه: في الحقيقة ياصديقي، إنني أشكر الرب لأنني غير مريض، لكن الحمى غيرت مظهري»، وهكذا حدث عندما كنت أزور بوتزن في إحدى المرات بصحبة صديق علماني نظر إلى البلدة وقال لي:«انظر إلى هناك يا أخي، أنا لاأعتقد أن هناك بلدة في العالم هي أبرد من هذه البلدة» واندهشت لقوله، فقلت له:«ليس الأمر كذلك، أعتقد أنها من أكثر البلدان دفئاً»، فأجابني:«إنني لم أقدم قط إلى هذه البلدة، حتى في أكثر الأيام حرارة، في أيام الصيف، دون أن أرى دوماً كثيراً من الناس جالسين هناك في فرائهم الشتوية، وهم ممتقعي اللون من البرد، وأسنانهم تصطك»، وقد قال هذا على سبيل المزاح، مشيراً بذلك إلى المعاناة من الحمى، ويعتقد كثير من الناس أن الشعب لايصاب بالحمى بسبب الهواء السيء، بل بسبب الخمرة الجيدة، والطبخ الجيد الذي يلتهمونه بأنفسهم فيصبحون مرضى.

وكانت هذه البلدة قبل سنين قليلة بلدة إيطالية، واللغة الايطالية كانت هي اللغة الرائجة فيها، بين الناس، وفي الحقيقة إنني أعرف كاهناً

إيطالياً، لايمكنه التفوه بكلمة ألمانية، وقد كان في شبابه ساعياً وواعظاً في الدير في بوتزن، لكن مع مرور الأيام، مع ازدياد تعداد الألمان، غدت البلدة بلدة ألمانية، والدير الذي كان من قبل من أملاك منطقة القديس دومينيك Dominic ، قد ألحق الآن بمقاطعتنا.

وقد أمضينا الليل في هذه البلدة، ورأينا كثيراً من الشقاء والتعاسة، لأن كثيراً من الناس كانوا يعيشون بين خرائب بيوتهم بدون أية أسقف، أو مكان للإيواء، وكان عدد كبير منهم يغادرون البلدة كمتسولين، مع أنهم كانوا حتى وقت قريب أناساً أثرياء، والآن يجري إعادة بناء البلدة، والأبنية التي يقيمونها الآن في تكاليفها أعلى من الأبنية التي كانت موجودة قبل النار.

وفي الحادي والعشرين من نيسان غادرنا ذلك المكان بعد سماعنا القداس وتناولنا الغداء في دير طائفتنا، وقد جعلنا على جهة اليمين نهر أثيسيس Athesis أو لافيسيوس Lavisius(أدجي Adige) ، وهو الذي يعرف بشكل عام باسم ايتسخ Etsch ، ورأينا عبر أدجي منطقة هضبية خصبة جداً، مليئة بالقلاع وبالقرى، القرية الرئيسية بينها اسمها ترامينجم Tramingum التي هي قرية واسعة، وعلى مقربة منها هناك كروم تنتج خمرة ممتازة تصدر إلى سوابيا حيث هي معروفة هناك باسم ترامينجر Tramminger اشتقاقاً من اسم القرية.

وكان بيننا وبين أدجي، باتجاه بلدة ميران Meran مستنقعات عميقة، ويوجد خلف هذه المستنقعات في مقابل بلدة ترنت Trent تلال منخفضة، يقوم على قرنتها قلعة قديمة اسمها فيرميانوم Fir-mianum ، منها جاءت وصدرت أصول الأسرة النبيلة للوردات فيرميانوم، الذين رأيت بعضهم، وهذه القلعة مملوكة الآن من سيغسموند دوق النمسا، الذي يعيد الآن عمارتها على مستوى أوسع،

مع أسوار سميكة جداً، محيطاً إياها بأبراج كبيرة وعالية، وقد بلغت سماكة السور عشرين قدماً متعلاً، وتحتوي في زواياها الأربعة على أماكن إقامة واسعة وقد بنيت بقوة حيث واحدها منفصل عن الآخر بأسوار معترضة وبأبراج، ولكل مكان إقامة وسكن ساحة خاصة، واسطبلات للخيول خاصة، وبناء على ذلك يمكن لأربعة من الأمراء أن يقيموا هناك بأمان، وقد دخلت إلى القلعة، وكنت بها ورأيت كل ما فيها، وليس فيها ماء إلاّ ما ينضحونه بالدولاب من نهر أدجي، الذي يجري عبر الصخرة التي تقف عليها القلعة.

وكان هذا المكان سيء السمعة وممجوجاً كسكن بسبب النتانة الصادرة عن المستنقع، مما كان يسبب بسرعة موت السكان، وبناء عليه ولإزالة هذا كله، قام الدوق بالأمر بحفر مجاري في المستنقع، وذلك من نهر أدجي حتى الجبال، ولذلك يوجد الآن مروجاً جميلة، حيث كان من قبل مستنقع ناعم موبوء، والأقنية أنفسها مليئة بالماء المجرور من المستنقع إلى حد أن الناس يعبرونها صعوداً ونزولاً بالقوارب.

وأمر الدوق بزرع كروم طويلة جداً على ضفاف الأقنية من كلا الجانبين، حيث يجمع منها في موسم الجني حمولة ما يزيد على عشرين عربة من العنب الممتاز، ومع هذا، وعلى الرغم من زوال نتن المستنقع، لقد قيل ليس بمقدور أي إنسان أن يعيش في القلعة أطول من ذي قبل، وسبب هذا كما حدثني مؤخراً حاكم القلعة، هو أنها عالية شامخة، وفيها هواء صحي قوي، يجعل الناس الذين يعيشون هناك يشعرون دوماً بالجوع والعطش، وشهيتهم مثارة بشكل عظيم، حيث لو حاول إنسان أن يشبع فوق حده، يدمر نفسه، لأنه لايوجد خدم هناك، بل المائدة دوماً ممدودة وجاهزة عليها انتشرت الأطعمة، والخمور ليست مخبأة أو مقفول عليها، وتجعل هذه الوفرة المكان ليس عزيزاً على النفس.

وسألت حاكم القلعة عن الغاية التي جعلت الدوق يتكلف هذه

النفقات العظيمة في مثل هذه القلعة المحصنة بشكل غريب، في وقت نجد فيه أن المنطقة هناك من حولها ملك لكونتية تيروك Tyrok ، فأجابني بأنه فعل ذلك، من أجل أنه إذا ما حاول عامة الناس طرد رئيسهم، وتحرير أنفسهم من التابعية الاقطاعية له، مثلما فعل الـ Hel-vetions ، أو السويسريون، فوقتها يمكن للدوق أن يلتجىء إلى تلك القلعة، وبذلك يمتنع من الذين سيرغموه على القبول والرضوخ، لأن القلعة — حسبما يمكن للانسان أن يقول — لاترام، وقائمة في حلقوم ذلك الوادي.

وتابعنا سفرنا، ووصلنا إلى نيومارك Neumark ، التي هي قرية كبيرة واسعة، حيث توقفنا لمدة ساعة في نزل حتى نعلف لخيولنا ونريحها، وجاء في ذلك الحين رجل خادم إليّ، من البيت القائم في مقابلة النزل، وقال بأنه أرسل من قبل واحد من رهبان طائفة الرهبان المبشرين، ليسألني من أنا ومن أين قدمت، فأجبته إذا ما أراد ذلك الراهب أن يعرف من أنا، ومن أين قدمت، يمكنه أن يأتي إليّ، ولسوف أعطيه جواباً أدبياً، ثم قلت:«ذلك لأنني لن أعطي أي جواب لخادم»، وقد قلت هذا له على هذه الصورة لأنني شككت به أن يكون واحداً من الرهبان المتجولين التابعين لطائفتنا، الذين يتجولون حول تلك المنطقة التلية، لأن رهباناً غير راضين وهاربين من طائفتنا والطوائف الأخرى، قد حملوا أنفسهم إلى هذه المناطق وإلى المنطقة التلية، حيث يمكنهم العثور على أفضل أماكن الاختباء سلامة، ولأن كل شيء هناك رخيص ويمكنهم العيش حياة هانئة، وهم يزورون الناس في المنطقة، ويخبرونهم عن قيمة القداسات العالية، ولهذا يشتري الذين يستمعون إليهم القداسات منهم لهم ولأقربائهم الموتى، غير عارفين بأن إثم السيمونية يقترف بمثل هذا العمل، وبناء عليه يعطون هؤلاء الرجال المال حتى يقرأوا عليهم القداسات، ويكون الأفضل منحهم المال بمثابة

هدية وكـرم منهم، لأنهم لايقتربون مطلقاً من المذبح لتقـديم أي احترام للرب، ولقد رأيت هناك أناسـاً تعساء من كل طائفة دينيـة يتجولون في هذه الجبال، ولاحظت أنهم يعـاملون بالفعل بشيء من التغاضي من قبل الأساقفة والكهنة.

وسرنا من نيـومارك خـلال الوادي الذي يقـود إلى ترنت Trent ، ويردد العامـةقولاً متـوارثاً بأنه خلال هذا الوادي أو القناة تـدفق البحر حتى ميران Meran، وأن نهر أدجي جـرى نزولاً من الجبـال فـوق ميران، وصب بالبحر هناك، وفي برهان على صحـة هذا، أنه يتم العثور حتى الآن في صخور الجبـال على حلقات حديدية، كـان من المعتاد ربط السفن بها، وعلى هذا فإن المنطقة كلها التي يجري فيها نهر أدجي ليصب في البحـر المتـوسط، كـانت فيما مضى بحـراً، بسبب أن البحـر كـان في العصور القديمة أعلى مما هو عليه الآن.

ووصلنا إلى قرية اسمها نوفا Nova حيث يجري هناك جدول جبلي سريع، يشكل الحدود مـا بين إيطاليا وألمانيـا، ويقوم فـوق الجدول من جهتنا بيعة، جـرى فيها دفن ما في جـوف القديس أودالريخ Udal-rich أسقف أوغـزبورغ Augsburg ، وتذهب الحكاية إلى القول بأن القديس المتقدم الذكـر كان في روما، وعلى طريقه إلى الوطن، مـرض مـرضـاً شـديداً، لذلك توسـل إلى الرب أن يسمح له بالموت في ألمانيا، وليـس في إيطاليا، وهذا مـا حدث وكان، لأنـه ما أن عبر الجسر المقـام على هذا الجدول مات، ولـذلك جرى دفن أحشـائـه هناك، لكن جسده جرى حمله إلى أوغزبورغ.

وسافرنا من هذا المكان إلى مدينة ترنت، وأمضينا الليل هناك، وترنت واحـدة من المدن القـديمـة جـداً، التي تأسست في هذه الجبـال من قبل تراجـان الذي جـاء إلى هناك بصحبـة أنتينور Antenor ويجري نهر أدجي عـابراً أسـوارها، وهي مقامـة في وضع هو الأكثـر جمالاً، وهواء،

وصحة، وهي تتألف — كما يمكن القول — من مدينتين، المدينة العليا، والمدينة التحتـــا، بسبب الجنسين البشريين اللذان يسكناهـا، ففي المدينة العليا يسكن الطليـان، ويسكن في المدينة التحتا الألمان، وهـذان الشعبان مختلفـان باللغـة، وبعـادات الحيـاة، ونادراً مـا كـان أحـدهما بسـلام مع الآخـر، وفي الحقيقة، غـالبـاً ما جـرى تهديم المدينة قبل أيامنا، وجـرى تهديمهـا أيضاً من قبل الطليـان صـدوراً عن كراهيتهم للألمان، وأحيـاناً من قبل الألمان أيضاً صدوراً عن كراهيتهم للطليان، وقبل سنوات قليلة مضت، كـــان الألمان مجرد قلـة من الغــرباء في تلـك المدينة، وهم الآن بيرجوازية المدينة وحكامهـا، وسيأتي اليوم قريبـاً — لابل إنه جاء وحلّ بالفعل — عندما سيقوم فيه دوق أثيسيس Athesis(كذا) صاحب إينسبروك بضمهـا كلهـا إلى ممتلكاته ومن ثم إلى ألمانيـا، مثلما حـدث في بوتزن، لأن تعـــداد الألمان يزداد هناك يوميـاً، ولكن مـــا هو سبب هذا التزايد، ولماذا يتـوجب على شعبنا الانتشار في بلدان الشعـوب الأخرى، بدلاً من انتشارهم في بلداننا؟ هذا ما لم أتفهمه، ما لم نكن قد اخترنا — كما يقـال — عدم التعلق ببـلادنا، بسبب فقرها وجـدبها، ولذلك دفعنا إلى بلدان أخـرى، أو بسبب حـدة طبـــاع الألمان، الذين لايمكن لشعب آخر أن يتحمل البقاء إلى جوارهم، بل يتهربون من أمامهم، ويفسحون لهم المجـال ولايواجهـون غضبهـم، غضبهم الذي لايمكن لانسـان أن يقاومه.

وأقـام عبر المدينة وفي مـواجهتهـا، فـوق ضفتي نهر أدجي، الرهبـان المبشرون ديراً جميلاً حقـاً، من حوله أجمل الحدائق، واسمـه دير القديس لورانس، وكـــان هذا الدير قـــد بني من قبل القـديس جـــوردان Jor-danes الخليفـة المباشر لأبينا القـديس دومينيك، في رئاســة طائفتنا، لكن لايوجد فيـه قداسات أو نظام للحياة، والذي هو مـوجود فيه مجرد عدد من الرهبان، يسكنون هناك من دون هدف، وفي هذه المدينة جرى

استشهاد الطفل المقدس سمعان في سنة ١٤٧٥، على أيدي اليهود، بعدما عذبوه كثيراً، ولهذا حكم على اليهود بالشنق بعد تعرضهم لعذاب عظيم، وأنا شخصياً كنت قد رأيت أجسادهم الملعونة معلقةعلى المشانق عندما ذهبت في السنة التالية إلى روما، وعندما تم العثور على جسد الطفل المقدس، صار مشهوراً بسبب المعجزات التي صنعها، وهو مايزال مشهوراً، ولهذا يأتي الناس من أجزاء نائية من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا حاجين إلى هناك، ويجلبون معهم تقدمات من الشمع، والأقمشة، وصحون الذهب والفضة، والمال، وكل ذلك بكميات مدهشة عندما تنظر إليها.

ونتيجة لهذا هدموا كنيسة القديس بطرس القديمة، التي من المعتاد حفظ الجسد فيها، وبنوا كنيسة أوسع فوق الموقع نفسه، وأنفقوا عليها من خلال هذه التقدمات، فضلاً عن هذا قاموا بتنظيف بيت الشهيد، وكرسوه كنيسة[من أجل رواية عن استشهاد هذا الطفل انظر ملحق أخبار الأيام — السفر ١٥ص ١٧٧]، وهكذا عندما خلعنا نحن الحجاج ملابس سفرنا، ذهبنا إلى الكنيسة للحصول على غفران، ورأينا في كنيسة القديس بطرس جسد الطفل المقدس، والمكان الذي استشهد فيه، والكنيسة الكاتدرائية القديمة، والبيع الأخرى والكنائس،لأن هذا ما يتم صنيعه من قبل الحجاج المحترمين الذاهبين إلى القدس، أي يتوجب عليهم عندما يتوقفون في أية بلدة على طريقهم، فيسألون عن الكنائس، وعن آثار القديسين ويقومون بزيارتهم، وهذا ما فعله موالي، وفعلت ذلك معهم، حسبما سأتحدث عن ذلك فيما بعد.

وعندما كان الوقت متأخراً، وكنا جميعاً جالسين نتناول العشاء، جاء زمّار، أو بهلواني، ومعه زوجته، وكان يحمل مزماراً، وقد غنت زوجته لحناً جيداً، فيما كان هو يلعب بمزماره، وكان هذا الرجل عاقلاً بما فيه الكفاية، ومع ذلك عمل أثناء لعبه أعمالاً بليدة، وكشر وكأنه كان أحمقاً،

وجعلتنا حماقاته هذه نضحك من صميم قلوبنا، وذلك بالاضافة إلى متعتنا لدى سماع الموسيقى، وعندما فرغ من لعبه تشاور سادتي البارونات، كما جرت العادة، واحدهم مع الآخر، حول ما الذي سوف يدفعونه إلى البهلوان، وعلى كل حال قال واحد من النبلاء إنه لن يدفع، وأوضح بأن الكاهن في أسقفيته، غالباً ما قال في قداساته بأن إعطاء المال أو تسلمه في مثل هذه الحالات هو ذنب مدان، وإثم عظيم، وقال:«وبما أنني الآن في حج مقدس، إنني أكره أن أتلوث بصرف المال بشكل آثم، وإنني سوف أدفع المال إلى الفقراء»، وبناء عليه تفجر نقاش عظيم بين النبلاء،وتناقشوا مطولاً وهم في حالة غضب.

وسألوني أخيراً القيام بفض هذه القضية، وقالوا بأنهم سوف يلتزمون بقراري وحكمي، وبناء عليه أعلنت وقررت بدون خوف وجوب إعطاء المال إلى البهلوان، وبناء عليه أعطوا هدايا إلى لاعب المزمار وإلى زوجته، وبعد عودتي إلى البيت بحثت في كتابات المفتين من العلماء فيما إذا كنت قد قررت بشكل صحيح، وقد وجدت القرار الذي اتخذته مرتين لدى غيرسون Gerson (١) وفي مكانين، عندما عالج الشرور في قضية سبعة ذنوب مهلكة، وفي معارضة المذنبين، أوضح أن اللعب بالمزامير، والاضحاك وأعمال البهلوان لاتستحق الادانة، وأن مثل هذه الأشياء يمكن أن تقال وأن تمارس، دون اقتراف لإثم كبير، ومع أن الكلمات التي قد تقال هي عبثية، وفيها مزاح، وأحياناً فيها أخطاء، لكن طالما أنه ليس فيها ما هو مخجل قولاً، وطالما أنها تعمل لمجرد التسلية، فصحيح ممارستها، إذا كان ذلك للتسلية والربح، ومن أجل تأمين انفراج لدى الأمراء والنبلاء، وعندما يكونون تحت ضغط المسؤولية، وقد اكتشفنا أن هذا هو الحال مع هذا البهلوان، الذي كان حرفياً مقيماً في ترنت، والذي كان لايمارس اللعب بشكل دائم، بل فقط

١ — جون غيرسون، قنصل باريس، كتب في اللاهوت وفي مواضيع أخرى، توفي حوالي ١٤٢٩.

لدى وصـول أمراء ونبلاء، وذلك أنـه عندما كان يعلـم أنهم حجاج إلى الأرض المقدسة، كـان يلعب من أجل تسليتهم، ومن أجل فائدته، ومن أجل أن نضع حزننا وقلقنا جانباً لوقت قصير.

وسمعنا في الثاني والعشرين قداساً عند مذبح سمعان الطفل المقدس، وبعـد تناولنا لطعـام الغـداء في النزل، أسرجنا على خيـولنـا، وغـادرنا المدينة، وخارج باب المدينة مباشرة صعدنا إلى هضبة شـديدة الانحدار، وتخلينا عن الطريق المنخفـض الذي يسـاير وادي أدجي إلى فيرونا Ve-rona، وإلى جانب كون هذه الهضبـة منحدرة، هي مكونة من قطعة واحـدة من الرخـام الأحمر القاسي، ولهذا فإن جميع أسـوار مـدينة ترنت وأبنيتهـا معمـولة من رخـام ثمين وجميل، مع أنه غير مصقـول، وبعـد تسلق طويل، نـزلنا عبر الجانب الآخـر مـن الرابيـة، ووصلنا إلى قـرية فيرسا Persa .

وفيرسا قـرية واسعة، ويقوم على الصخـرة فوق القرية قلعـة عظيمة، كأنها مدينة، ولها أبراج عالية، وسور عظيم يحيط بها، ويتفق معي بالرأي عـدد كبير من الناس، ويرون أنه من اسم هذه القلعـة يمكن أن نعـرف أنها بنيت من قبل فيرسوس Perseus ، أبو النبلاء الاغريق، وهي تعرف في هذه الأيام بـاسم فيرسا صدوراً عن اسمـه، ومثل ذلك مملكة فـارس، وهو اسم اشتق من الاغـريقيـة، ومن استيلاء الاغـريق عليهـا عرفت باسم فارس، ويحتفظ دوق النمسـا دوماً بعدد كبير من الجنود في هذه القلعة، يتولون حراسة كل من القلعة والمقاطعة.

ومـررنا عبر هذه القلعة واجتـزناها، ووصلنا إلى بحيرة، يتدفق منهـا نهر اسمـه برنتـا، وهـو يجري من هناك إلى بادوا، ويصب بعـد هذا في البحر على مقربة من البندقيـة، وعبر هذا وصلنا إلى واد طويل وعريض وخصب، ثم وصلنا إلى بلدة اسمهـا بالعـاميـة الدارجة فـالسيـان Val-scian، حيث توقفنا مـن أجل استراحـة قصيرة، ويـلاحظ أن هذه

البلدة، والمنطقة كلها امتداداً حتى البحر، تتكلم الايطالية، وعلى كل حال كانت غالبية السكان تعرف كل من الألمانية والايطالية، وقد سألت أحدهم عن معنى اسم فالسيان، ولماذا أطلق هذا الاسم على البلدة ، وقد أجابني بأن معنى فالسيان هو«الوادي الجاف»، وقد نال هذا الاسم،لأنه في العصور القديمة جداً، وقبل أن ينزل البحر إلى مستواه الحالي، كان البحر ممتداً حتى هذا الوادي، وكان الوادي بأكمله مليئاً بالماء، ولهذا من الممكن أن نرى على جنبات الجبال، التي تطل على الوادي، من كل جانب حلقات حديدية كانت، لربط السفن حتى يمكن بقاءها مثبتة إلى الصخور، وعندما تراجع البحر، أصبح الوادي جافاً، وهكذا حافظ على اسمه فالسيان.

ومن هذه القصة كنت قادراً على إدراك أن جميع الوديان في هذه الجبال، التي هي متجهة نحو البحر، كانت فيها مضى مليئة بالماء، وكانت هي أقنية تقود إلى البحر المتوسط، مثلما يحدث الآن في أراض مجاورة للبحر، كما قلت من قبل، ويطلق الألمان على فالسيان اسم إن در بورغ In der burg ، لأنه يوجد هناك قلعتان تطلان على البلدة، والبلدة قائمة بين سور القلعة، وتابعنا من فالسيان سفرنا، وسرنا متقدمين، ووصلنا في وقت متأخر في الليل إلى قرية اسمها سبتلي Spiteli ، أي«مشفى صغير» حيث توقفنا لإمضاء الليل.

وفي يوم الثالث والعشرين، كان عيد القديس جرجس، الفارس والشهيد، وسألني السادة في الصباح بأن نحتفل بعمل قداس القديس جرجس لهم، ولجميع النبلاء، الذين ينظرون إلى القديس جرجس بتبجيل خاص، وكانت هناك بيعة واحدة في القرية، بدون كاهن، وواجهت مصاعب جمة للحصول على أدوات القداس العائدة للكنيسة، ولفتح هذه البيعة، والحصول على الأشياء الضرورية لإقامة القداس، وبعدما ارتديت ثيابي الكهنوتية، واجتمع سادتي النبلاء وأهل القرية مع

بعضهم، بوساطة صوت الناقوس، وكما جرت العادة أردت إعداد الخميرة قبل صلاة الاعتراف، فلم أجد لاخبزاً ولارقاقة عجين في الصندوق في الخزانة، كما لم يتوفر شيء من هذا القبيل في القرية كلها، لذلك التفت بذاتي نحو الناس وأخبرتهم بعدم وجود خبز القربان، ولكي لانذهب جميعاً فارغين، قرأت من المذبح القداس لوحده، وجميع أدعية القداس، وتركت ما بعد صلاة التقدمة لوحده، مثلما يفعل تماماً في السفن في البحر، ويطلق على هذه القداسات اسم القداسات«الحارة» أو «الخام» أو «الجافة» أو «الفارغة».

وبعد أداء هذا القداس التفت نحو الناس وقدمت عرضاً قصيراً عن القديس جرجس وكان عرضاً مشجعاً، وعندما كنت أفعل ذلك، وقف أهل القرية ونظروا إليّ بدهشة، لأنهم كانوا طليان، ولعلهم لم يسمعوا قط قداساً يتلى في كنيستهم بالألمانية إلاّ من قبلي، وبعد الفراغ من هذا رجعنا إلى نزلنا لتناول طعام الافطار، وبعد الانتهاء من الطعام، بدأت تمطر، ومع هذا امتطينا خيولنا وغادرنا القرية، وازداد المطر ثقلاً وكثافة، وتبللنا حتى الجسد، وكنا مبللين جداً عندما وصلنا إلى مدينة فلتر Fel- tre ، وبما أنها كانت تمطر بكثافة، دخلنا إلى نزل هناك، وبنيتنا البقاء هناك لمدة ساعة أو ساعتين، ومن ثم نغادر عندما يتوقف المطر، وعلى كل حال ازداد المطر سوءاً فسوءاً، وبذلك كنا مرغمين على البقاء هناك لمدة يوم، كان غير مريحاً، لأن النزل كان صغيراً، وكان مليئاً بإيطاليين من أهل المنطقة، وتحدث صاحب النزل، وصاحبته، وجميع العاملين فيه بالايطالية فقط ،فضلاً عن هذا لم يكونوا معتادين على خدمة النبلاء، ولم تكن لديهم المواد اللازمة لخدمتهم بشكل لائق واحترام،وكانوا على كل حال جيدين، وأناساً بسطاء، وقد فعلوا كل مايستطيعون، الأمر الذي قدرته، لكن خدم النبلاء كانوا غير راضين عنهم.

وفي يوم الرابع والعشرين استمرت تمطر بدون توقف، مثلما فعلت في

اليوم المتقدم وفي الليلة السالفة، وسبب هذا تدفق المياه، وقاد إلى جريان السيول الجبلية، وعلى كل حال، وعلى الرغم من المطر، ذهبنا إلى الكنيسة التي تقوم فوق البلدة، وبعد سماعنا للقداس شاهدنا البلدة نفسها، وكانت إحدى البلدات التي بنيت من قبل أنتينور، من أجل الدفاع عن المنطقة الجبلية، وهي بلدة قديمة جداً، كما تبرهن أبنيتها على ذلك، وهي بلدة طويلة جداً، تمتد على طول جرف جبلي، ولها أسقف وفيها بعض الديرة القائمة عند سفح الرابية التي تقوم عليها المدينة، وعدنا إلى نزلنا، وتناولنا طعامنا، وعندما كنا جالسين إلى المائدة توقف المطر، وهكذا أسرجنا على خيولنا وغادرنا فلتر، وأخذنا طريقنا وسط خطر عظيم، بسبب ارتفاع المياه، لأن أصغر المجاري تضخمت وصارت أنهاراً سريعة، وكانت مجاري الوديان الجافة تفيض بالمياه.

وعلى كل حال صارت أحوال المناخ طيبة، وأخذت المياه تتناقص بشكل تدريجي، وكنا قد غادرنا فلتر قبيل حلول المساء، وقد وصلنا إلى نهر عظيم، عبرنا ضفتيه بوساطة بيت حراسة بندقي، ومن هناك وصلنا إلى بلدة اسمها أوور Ower، حيث أمضينا الليل، وكان نزلنا الآن مثل بقية القرية، قائماً على سفح رابية جميلة مليئة بالأعشاب، وفي الوقت الذي كان يجري فيه إعداد طعام عشائنا، خرجت مع موالي إلى ساحة البيت، وكنا ننظر فيما حولنا عندما قلت:«انظروا لو أن إنساناً كان على قمة تلك الهضبة، لكان بإمكانه رؤية البحر المتوسط»، وعندما سمع موالي هذا قالوا:«دعونا نصعد إلى هناك، لنرى البحر، الذي ربما سيكون قبرنا»، ومباشرة تسلق ثلاثة من موالي مع اثنين من خدمهما وأنا، تلك الرابية، التي كانت أعلى بكثير مما تصورناه، وألقينا بأبصارنا باتجاه الجنوب، فرأينا وراء الجبال سهل إيطاليا، وخلف السهل منطقة البحر المتوسط، ولدى رؤيتنا له، وقف موالي، الذين كانوا شباباً ذوي نشأة رفاهية، وقفة فيها شيء من التفكر، مما عكس الشعور بالمخاطر التي

ننظرهم في البحر، وكنت بهدوء قد مددت بصري نحوه، لأنني كنت قد ذقت مرارته، لأنه كما بدا من هذه التلال، كان له مظهراً مرعباً، وبدا قريباً جداً، وتسلطت أشعة الشمس على الجزء الذي كان هو الأقرب منا، وبقية البحر التي لم يكن بإمكان أحد رؤيتها، بدت عالية، وغيوماً سميكة سوداء، على شكل ولون الهواء المظلم.

وبعدما شبعنا بما رأيناه منه، تحولنا بعيداً لننظر إلى الجبال التي قامت من حولنا، وقد شاهدنا عدداً كبيراً من القلاع القديمة المهدمة، وعلى الجبل نفسه الذي وقفنا عليه هناك، كان يوجد تحت أقدامنا خرائب أسوار ضخمة وخندق يطوق شطراً من الجبل، وصهريج جميل مايزال يحتوي على الماء، ورابية لرعاية القطعان، قائمة في الأعلى داخل الأسوار، ومن المعتقد أن هذه القلاع كلها قد بنيت من قبل أنتينور، أو تراجان، الذي بعدما بنى مدينة بادوا في السهل، صعد إلى المنطقة التلية، وبنى البلدات والقلاع للدفاع ضد الشعب الذي كان موجوداً وراء الألب، حيث كان في ذلك الحين مايزال متوحشاً، يعيش في الغابات، مثل الحيوانات الضارية، وعندما كنت أنا وموالي وقوفاً نتحدث فوق الجبل، غابت الشمس، وبدأنا نحن بالنزول، وعندما وصلنا إلى النزل صارت الدنيا أكثر ظلاماً، وتناولنا عشاءنا على ضوء الشموع، ثم أوينا إلى الفراش.

وكان يوم الخامس والعشرين هو يوم عيد القديس مرقص، وتمنينا لو كنا في البندقية، لأنه يحتفل بالعيد هناك، بشكل محكم ورائع الشكل، وسمعنا — على كل حال — القداس من أجل عيد القديس مرقص في القرية، وتناولنا بعد ذلك طعامنا، ومن ثم انطلقنا مسافرين على طريقنا، ويقود الطريق من تلك القرية نزولاً إلى سفوح الجبال، ثم يخلفهم بالوراء، وهكذا وصلنا إلى منطقة منبسطة، وخصبة جداً، ومليئة بالحبوب، وبأشجار الفواكه، والكروم، التي ارتحلنا خلالها حتى وصلنا

إلى قرية تـريفيسو Treviso ، حيث عزمنا على البقـــاء لعدة أيام، وذلك حتى نستطيـع بيع خيـولنـا، ذلك أننا لم نعــد الآن بحـاجــة إلى الخيول،لأننا صرنا مجاورين للبحر.

وكـان يوم السادس والعشرين يوم عيـد القديس ديسيــديروس De-sidrius، الذي هو مـدفون في كـاتدرائية تريفيســو، واحتفل سكان المدينة بالعيـد بشكل فخم بوساطة مسيرة مهيبـة خلال المدينة، وعندمـا اجتمع عامـة الناس في ساحة السوق الأكبر، مثلوا لعبـة المعجزة، حيث ظهر القديس في الحكاية، من خلال الممثلين المدربين لهذه الغاية، بمظهر فخم جداً، نظرنا نحن الحجاج نحوه بإعجاب، ولست أدري فيما إذا كنا قد فعلنا ذلك بتقوى أيضاً.

وجـاء بعـد الغـداء عـدد كبير من الايطـاليين إلى نزلنا، طلبـوا رؤية خيـولنا لابتياعهم، وأثناء بيعنا لهم اختلف الايطاليـون فيما بينهم بشكل مثير، حيث ركضوا نحونا، محاولاً كل واحد منهم إبعاد الآخر، وتدخل كل واحـد منهم بشراء الآخـر، وصب كـل واحـد منهم الاهانات على الآخــر، وكـانوا كلهم ســواء، حتى الشيــوخ، والأغنيـاء، والرجــال المحترمين، حيث كـان كل واحد منهم يتقـاتل مع الآخر مثل الأطفـال، ويعـرض كـل واحـد منهم سعــراً أكبر مما تسـاويـه الخيـول مــراغمـة للآخرين، وكل منهم يعرض عن تعمـد سعراً أكبر من أسعار الآخرين، وبينما كان هذا الشجـار مستمراً وقفنا نحن بدون حـراك، وحافظنا على صمتنا، وبعنا خيولنا بشكل جيد، وهكذا مضى النهار.

ولابدمن أن نلاحظ بأنني وصفت الأمـاكن مـا بين فلتر وإنسبروك، لأننا عندمــا عـدنـا إلى الوطن ثانيـة، لم أسـافـر عبر ذلك الطريق إلى إنسبروك، بل جئـت عبر طريق آخــــر، وذلك حسبما سـأتحدث عنه في مكانه الصحيح، وبعــد هذا المكان لن أقـوم بوصـف أي مكان خـلال رحلتنا كلهــا، بلْ سـأتولى وصف جميع الأمــاكن التـي مكثت بها أثناء

رحلتنا عائدين إلى الوطن، ولهذا سوف أحتفظ بوصفي لتريفيسو والمدن الأخرى، حتى يحل موعد عودتي، لأنني الآن متعجل للوصول إلى القدس، التي وجهت نحوها وجهي بشكل ثابت ولن أصرفه وأستريح حتى أرى تلك المدينة الأعظم شهرة، والمرغوبة أكثر من سواها.

وفي يوم السابع والعشرين، الذي كان يوم أحد، واسمه Can-tate، سمعنا قداساً في تريفيسو وتناولنا الطعام، وبعد تناول الطعام اكترينا بعض الخيول التي يدعونها باسم Martyrs، لتحملنا نحن أنفسنا وحقائبنا إلى البحر، وانطلقنا نحو شاطىء البحر، ووصلنا إلى بلدة ميستري Mestre، وكنا راغبين بالمتابعة حتى ملغيرا Mal-ghera التي هي قائمة على شاطىء البحر المتوسط، والتقينا على كل حال في البلدة المتقدمة الذكر بألماني، سأل عما إذا كنا جماعة اللورد بارون فون سيمبيرن Cymbern، وعندما سمع بأننا كنا نحن هم، أخذنا إلى نزل، وأرانا مائدة ممدودة بالأطعمة والأشربة، وأخبرنا بأن اللورد جون فون سيمبيرن قد أمر بهذا لنا، وأخذنا أيضاً إلى حديقة البيت، وأرانا مركباً ضخماً في النهر الذي يجري هناك نزولاً من الجبال ليصب في البحر، وأن القارب قد أرسل من البندقية إلى ميستري من قبل اللورد بارون فون سيمبيرن، حتى يمكن لنا الابحار إلى هناك عبر النهر، ولدى رؤيتنا لهذا سررنا وتحمسنا بأرواحنا،وجلسنا وأكلنا وشربنا الذي أعد لنا سلفاً، وبعد هذا حملنا جميع حقائب اللوردات إلى ظهر المركب، ثم صعدنا جميعاً على ظهره، فصارت الحمولة ثقيلة إلى حد كبير، لأنه كان هناك عدد كبير منا، وكانت حقائب اللوردات وخدمهم كبيرة الحجم، وإثر هذا قلنا وداعاً لليابسة، وعهدنا بأنفسنا إلى المياه، وكان ذلك بعد إقلاعنا، حيث أبحرنا نزولاً مع النهر حوالي الميل نحو البحر، وعندما وصلنا إلى المكان الذي ينزلق فيه النهر إلى بين فكي البحر المتوسط، عند حافة البحر وحدوده، وأبحرنا داخل البحر المالح المياه، وقتها بدأنا نغني

بصـوت مـرتفع وبنغمات فـرحـة، مـزمـور الحجـاج، وهو الذي اعتـاد المسـافرون إلى الضريـح المقدس لربنا على غنائـه مـردين:"In gottes Namen Fahren wir, Seiner genaden begehren wir: Nurhelff uns die Gottiche Kraft, und das heylige grab: Kyrie eleyson » والـذي معناه مترجماً عـن اللغـــة اللاتينيـــة كمايلي: «باسم الرب نحن الآن مبحـرون، نحن نحتـاج إلى نعمتـه، فلعل قـدرتـه تحمينا، والضريح المقـدس يقينا:« Kyrie elee-son».

وبينما كنا في الوقت نفسـه نقترب من قلعـة ملغيرا Malghera ، ونعبر البرج الذي اسمه«بـرج ملغيرا» التقينا بقارب كان يجذف بـه عدد من الشباب الأقوياء، ويدفعونـه بعنف شديد نحو مارغيروم -Marger um ،وقـد اصطدم بقـاربنا، وبذلـك ارتطم قـوسـا قـاربينا ببعضهما بعضاً، واندفع قـاربنا إلى أحد الجوانب بالصدمة، واصطدم بعمـود كان قائماً في وسط الماء، مما هدد بانقلابه، ففي الحقيقة كاد أن ينقلب مع جميع الناس الذين فيـه والأشياء، وكـان ذلك مـرعباً ومـؤلماً، وتبادل بحـارة القاربين الشتـائم فيما بينهم، وهكذا تابعنا السير على طريقنا، وبعد وقت قصير التقينا بقارب آخر على ظهره مجموعة من الناس، سألنا أحدهم:في أي النزل ننوي النزول في البنـدقيـة؟ وعندمـا أخبرناه في نـزل القـديس جـورج، حيث كان اللـورد فون سيمبيرن قـد حجـز غرفـاً لنا فيـه، بدأ يشتم ذلك النزل ويشتم صاحبـه، ووقف على قوس قاربه، محاولاً منعنا من الذهاب إلى هناك، ومشيراً إلى نزل آخر لنذهب إليه، وفيما هو واقف هناك وهو يصرخ محاولاً إقناعنا، أصيب فجأة بحـادث، وسقط من على قوس قـاربه إلى البحر، الذي سحـب منه بوساطة رفـاقه بعد مصـاعب جمة، وبذلك أنقذ من الموت، ومـا لبث أن ارتدى ثياباً حـريرية جديدة، تلقت التعميد معه، مما سبب ضحكاً كثيراً على ظهر قاربنا.

وبعدما سرنا مسافة صغيرة نحو الأمام، وجدنا أمام أعيننا، مدينة البندقية الجليلة، والشهيرة والعظيمة، والغنية، سيدة البحر المتوسط، وهي قائمة بشكل رائع في وسط المياه، بأبراجها العالية، وكنائسها العظيمة، وبيوتها وقصورها الرائعة، ودهشنا لدى رؤيتنا مثل تلك الأبنية المرتفعة والعالية والتي تقوم أساساتها في الماء، وأبحرنا فوراً إلى داخل المدينة، وسرنا عبر القناة العظمى حتى ريالتو Rialto ، حيث رأينا على الجانبين أبنية لها جمال رائع وارتفاع مدهش، وتحت ريالتو خرجنا من القناة العظمى، ودخلنا إلى قناة أخرى، يقوم على ضفتها اليمنى فونداكو دي تديستشي Fondaco de Tedeschi ، من حيث تابعنا سيرنا بين البيوت حتى وصلنا إلى باب نزلنا، الذي يعرف باسم نزل القديس جورج، ويعرف بالألمانية بشكل عام باسم Zu der Fleuten ، ونزلنا هناك، وصعدنا حوالي الستين درجة حجرية من البحر إلى الغرف التي كانت معدة لنا، وقد حملنا جميع حاجياتنا إليها.

واستقبلنا هناك السيد جون، وصاحب النزل، والسيدة مرغريت صاحبة النزل، استقبلونا بسرور وحرارة، وحيوني بعبارات صديقة خاصة، لأنني كنت الوحيد بين فريقنا الذي عرفوه من خلال حجي السالف، حيث كنت ضيفاً في بيتهم لأيام كثيرة، واستقبلنا بقية العاملين، وحيونا وأبدوا تشوقهم للقيام بخدمتنا، وكان جميع العاملين بالنزل بما فيهم صاحبه وصاحبته، وكل الخدم من الرجال، وجميع الوصيفات، من الشعب الألماني ويتكلمون الألمانية، ولم نسمع كلمة إيطالية في النزل، مما سبب راحة كبيرة لنا، لأنه مزعج جداً أن تعيش بين قوم دون أن تستطيع التحدث معهم، وأخيراً جاء بعد الجميع، عندما دخلنا، الكلب الذي يحرس النزل، جاء لتحيتنا، وكان كلباً أسود كبيراً، وقد عبر عن سروره الكبير بتحريك ذنبه، وقفز علينا مثلما اعتادت الكلاب أن تفعل مع الذين تعرفهم، وكان هذا الكلب يستقبل

جميع الألمان بالسرور نفسه، وذلك سواء من أي جهة من ألمانيا قد قدموا، لكن عندما يدخل إلى النزل إيطاليون، أو لومبارديون، أو غاليون، أوفرنسيون، أو سلافيون، أو إغريقيون، أو أي أناس من أي بلد غير ألمانيا، يصبح غاضباً جداً، إلى حد أنك تظن بأنه صار مجنوناً، ويركض نحوهم، وهو ينبح بصوت مرتفع، ويقفز بحدة عليهم، ولا يتوقف عن إزعاجهم حتى يقوم أحد الناس بتهدئته.

ولم يتعود بعد حتى على الايطاليين، الذين يسكنون في البيوت المجاورة، بل تراه ثائراً ضدهم، وكأنهم غرباء، وثابر على عداوته لهم، فضلاً عن هذا ما كان ليسمح بأي شكل من الأشكال لكلابهم بالدخول إلى النزل، لكنه كان لايعترض على الكلاب الألمانية، وكان لايهاجم المتسولين الألمان الذين يقدمون يسألون الصدقات، بل كان ينقض على المساكين الايطاليين، الذين يودون الدخول للتسول والحصول على الصدقة، ويطردهم بعيداً، وغالباً ما أنقذت رجالاً فقراء من بين أسنان هذا الكلب، ويقول الألمان بأن هذا الكلب برهان على أنه طالما هو عدو غير متهاون مع الايطاليين، كذلك الألمان لايمكن أن يتوافقوا مع الايطاليين من صميم قلوبهم، وكذلك الطليان معنا، لأن كل أمة لديها كراهية متجذرة في طبيعتها تجاه الأمة الأخرى، وبما أن الحيوان غير عاقل، وتتحكم فيه انفعالاته فقط، فإنه يتخاصم مع الايطاليين لأن طبيعته تأمره أن يفعل ذلك، ولكن بما أن الانسان قادر على التحكم بمشاعره بمعونة عقله، فهو يستطيع إخفاء مشاعر الكراهية المزيجة بطبيعته.

ووجدنا في النزل عدداً كبيراً من النبلاء من مختلف أجزاءألمانيا، مع بعض من هنغاريا، كانوا جميعاً قد ارتبطوا بالعهد نفسه، مثلما فعلنا نحن أنفسنا، وكانو عازمين على عبور البحر إلى أقدس الأضرحة العائد إلى ربنا يسوع في القدس، وكان في النزل الأخرى المزيد من الألمان، وكلهم

قد شكلوا أنفسهم في مجموعات كان بعضها كبيراً، وبعضها الآخر صغيراً، وكان الآن في مجموعتنا اثني عشر حاجاً، كلهم مع بعضهم من نبلاء وخدم أسماؤهم هي كمايلي:

اللورد جون ويرنهر، بارون فون سيمبيرن، وكان رجلاً وسيماً، وعاقلاً، ومتميزاً بأخلاقه الرفيعة، وكان يعرف اللغة اللاتينية.

اللورد هنري فون ستوفل، بارون الامبراطورية المقدسة، وكان رجلاً قوياً، وفعالاً، تمتع بسمات الرجولة، مثلما يكون الرجل السوابي النبيل الحقيقي.

اللورد جون تروخسيس فون وولدبورغ، وكان رجلاً نبيلاً، طويل البنية، وكان رجلاً محترماً له أخلاق رفيعة، وجدياً، وكان مهتماً بعمق حول إنقاذ روحه.

اللورد بير Ber (أورسوس) فون ريخبيرغ، وكان رجلاً نبيلاً من أسرة هوهنريخبيرغ، وكان أصغرهم سناً، وأكثرهم حيوية، وشجاعة، وطولاً، وأعظمهم سروراً،والأكثر لطفاً وكرماً في المجموعة.

وكان هؤلاء النبلاء الأربعة معهم رجال حاشيتهم للقيام بخدمتهم، وفيمايلي أسماؤهم مع وظائفهم مرتبة كالتالي:

بالثازار بوخلر Balthazar Buchler ، وكان رجلاً عاقلاً، صاحب خبرة عظيمة، اقتاد بنصيحته جميع اللوردات وتحكم بهم، ذلك أنهم عدّوه بمثابة أب لهم.

آرتوس Artus ، حلاق اللوردات، وكان رجلاً بإمكانه أن يلعب ببراعة وجودة على جميع الآلات الموسيقية، إلى حد أن الانسان لايعتقد أنه من الممكن العثور على مثله في أي مكان.

جون الذي كنيته شمدهانز Shmidhans ، وكان جندياً، قاتل

في معارك كثيرة، وقد جاء في هذا الحج بمثابة خادم للوردات.

كونراد بيك Beck ، وكان رجلاً محترما وعاقلاً، وقد كان من أهل مدينة ميرينجن Merengen، وكان المسؤول عن مؤن اللوردات، كما كان حاجبهم.

بطرس، وكان إنساناً بسيطاً، صبوراً تحت الشدائد قدم من بلدة وولدسي Waldsee ، وقد عمل طباخاً للنبلاء وللجماعة كلها.

أولرك فون رافنزبورغ Ulric von Rafenburg ، وكان رجلاً عمل فيما مضى في البحر بمثابة عبد غليون، وقد عانى كثيراً من المآسي، وكان من حيث اختصاص العمل تاجراً، أما وظيفته فكان ترجمان اللوردات.

جون، وكان مسالماً، متشوقاً لخدمة اللوردات، وكان من قبل معلم أولاد، ورئيس مدرسة في بابنهوزن Babenhusen .

الراهب فيلكس فابري، كاهن من طائفة الرهبان المبشرين في أولم، حاج للمرة الثانية إلى الأرض المقدسة، شماس للوردات ولجميع الذين تقدم ذكرهم.

واجتمع هؤلاء الاثني عشر مع بعضهم منفردين، وعاشوا على الحساب العام للوردات الأربعة المتقدم ذكرهم، وبناء عليه استدعى اللوردات الأربعة صاحب النزل إليهم، وعملوا معه الترتيبات من أجل إقامتهم، ومائدتهم، وجميع الأشياء الأخرى العائدة له، والتي سوف يستخدمونها، وعندما عملت هذه الترتيبات أمامنا جميعاً، فكرت بخطة أخرى من أجلي شخصياً، وبدون معرفة موالي اللوردات، ذهبت بقارب إلى ديرالقديس دومينيك، وسألت رئيس الدير أن يستقبلني بمثابة ضيف حتى يحين موعد مغادرة غليون الحجاج الميناء، الأمر الذي تمكنت بعد معالجات كثيرة، من إقناعه بعمله، ذلك أنني وجدت أنه من

غير اللائق بالنسبة لي، ومناقض لتفكيري، أن أعيش كلياً بين أشخاص علمانيين، وبناء عليه عدت إلى نزلي، وحزمت أمتعتي، ثم زرت موالي، وأخبرتهم بها نويته، ولم يرضهم هذا الاقتراح، وفي الحقيقة أزعجهم كثيراً، ولم يوافقوا على تركي لهم بأي حال من الأحوال، ومن أجل إمكانية بقائي معهم برضاي، عملوا ترتيبات مع صاحب النزل، فأعطاني غرفة خاصة بي، حيث يمكنني أن أجلس بهدوء لوحدي، ويمكنني أن أنام، وأن أصلي، وأن أقرأ وأكتب، وأن أنجو من ضجيج النزل كله، بحيث أكون كما لو أنني في قلايتي في أولم، وعلى هذا بقيت مع بقية جماعتنا الوقت كله الذي مكثناه في البندقية، لكن غالباً — في الحقيقة مرة كل يوم — ما اعتدت على زيارة دير رهبان طائفتنا.

وخرجنا في الثامن والعشرين من نزلنا في الصباح، وسرنا خلال شوارع التجار، وذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص لحضور القداس هناك، وبعد انتهاء القداس سرنا حول الساحة المفتوحة أمام قصر الدوج، وقام في هذه الساحة، أمام الباب الكبير لكنيسة القديس مرقص، علمان ثمينان جداً، وقد نشرا عالياً فوق رمحين طويلين، وكان لونهما أبيض، ورسمت عليهما علامة صليب أحمر، فقد كانا علما الحج إلى الأرض المقدسة، وأدركنا من هذين العلمين بأنه جرى إعداد غليونين وتعيينهما لنقل الحجاج، ذلك أن سادة البندقية عرفوا عدد الحجاج الذين تدفقوا إلى هناك واحتشدوا مع بعضهم، ولذلك وقع اختيارهم على اثنين من النبلاء من بين شيوخهم، وعهدوا إليهما بالعناية بالحجاج.

وكان اسم الأول من هذين الشيخين:المعلم بطرس دي لاندو Lando ، واسم الثاني المعلم أوغسطين كونتاريني Contarini ، ووقف خدم هذين النبيلين إلى جانب العلمين، ودعا كل واحد منهم الحجاج للابحار مع معلمهم، وبذلوا جهودهم لاقتياد الحجاج

وجـذبهم: فئة أولى إلى أوغسطين والفئة الثـانيـة إلى غليـون بطرس، وأطرت الفئة الأولى وكـالت المديح لغليون أوغسطين، وشتمت غليـون بطرس، وفعلت الفئـة الثـانيـة عكس ذلك، ونتيجـة لهذا غـدا هذان السيدان: أوغسطين وبطرس عدوان أحـدهما للآخر حتى الموت، وشتم أحدهما الآخر، وشهّر به أمام اللوردات والحجاج، وحاول كل منهما أن يجعل من الآخر مكروهاً من قبل الحجاج، وطلب من الناس فعل ذلك.

وبدأ ينشأ عن هذا شر آخـر، هـو أن الحجـاج أنفسهم تحزبوا ووقف كل فـريق منهم مع إحـدى جماعتي هـذين القبطانين، وبات كل واحـد متعصباً لقبطانه وقـائده، واحتار موالي ولم يعرفـوا بعد إلى أي من هذين القبطانيين الأفضل أن يعهدوا بأنفسهم، وسبب ذلك لما سمعوه من آراء مختلفة بشأن كل واحـد منهما، أما أنا شخصيـاً، فقد وافقت على القبطان أوغسطين كونتاريني، الذي عـرفت أنه رجل عاقل، ويمكن الوثوق به، لأنني عبرت البحـر في حجي المتقدم على ظهـر سفينته، لكن الآخـرين شتموه وامتدحوا الآخر، ولذلك ومن أجل خاطر السلام، لم أتدخل في هذه القضيـة، وأعلنـت أن كليهما كـانا قبطانيين جيـديـن، إذا مـا حملانا بسرعـة إلى الميناء الذي نقصده، وأضفت أننـي لو عرفت أي واحـد من الاثنين سوف يكون الأسرع، والمستعد حالاً لـلابحار، فهو الذي سوف أوصي الحجـاج باختيـاره، وعلى كل حـال، وعـد كـلاهما، أنهما سـوف يشرعان برحلتهما فوراً، الأمر الذي عرفت أنه كذب.

وفي يوم التـاسـع والعشرين، الذي كـان يوم عيـد القـديس بطرس الشهيد، لدى طائفة الرهبان المبشرين، أخـذت سادتي إلى كنيسة القديس يوحنا والقديس بولس، حيث كان هناك ديراً في غـاية الفخامة والعظمة للر هبـان المبشرين، واستمعنا هنـاك للقـداس، الذي نفـذ بشكل مهيب جـداً، وكـان هناك اندفـاع كبير للنـاس في هذا اليـوم إلى كنيسـة هؤلاء الرهبان، لوجود عيد هناك، وقـد احتشد الناس ووصلوا بتزاحمهم حتى

أطراف المذبح، فقــد تقــاطر الناس إلى هناك مـن المدينة كلهــا لسماع القــداس، ولتقبيل آثار الشهيـد المقدس، ولشرب مـاء القـديس بطرس، هذه المياه التي بعـد مبـاركتهـا باسم الرب، وبعـد لمسهـا بآثار الشهيـد المقدس، يعتقـد أنها ثمينة ومفيدة للجسـد وكذلك للروح، ولهذا يـأخذ المؤمنون من معظم أجـزاء العـالم مـاء القـديس بطـرس هذا، ويعطونه للنساء في أثناء خوفهن لشربه، حيث ينقذهن من خوفهن، ومثل هذا إنه يعطى للمـرضى من الحمى، فبـوسـاطتـه يمكن أن يصبحـوا أصحـاء، ويحمله الملاحون أيضـاً في سفنهم، ويصبون قليـلاً منه في الأوعية حيث يجري حفظ الماء، وبفضله تبقـى الميــاه الأخــرى وتحفـظ من أن تصبح آسنة، ومهما كـانت المياه قـديمة، فإنها لاتفسـد أو تتغير رائحتها، إذا مـا صب فوقها بعضاً من هذا الماء، وقد عرف البحارة أن هذا صحيحاً من خلال الممارسات اليومية.

وهكذا بعـدمـا سمعنا القـداس، وقبلنا آثار هذا القــديس، وتذوقنا بعض نقـاط من هذا الماء المانح للحيـاة، عـدنا إلى نزلنا لتناول الطعـام، وبعد تناولنا للطعام، أخذنا مركباً وجذفنا في خلال شوارع البلدة حتى القـديس مـرقص، ومن هنـاك ركبنا إلى قصر دوج البندقيـة، على القناة العظمى، حيث رسـا غليونا القبطانين، بغـرض أن نراهما معا، وجـذفنا أولاً نحو غليـون المعلم بطرس دي لاندو، وصعدنا من قـاربنا إلى ظهر الغليـون، ومن إلقاء النظرة الأولى كـان كل من السـادة وأنا راضين عن مظهـر المركب، لأنه كـان غليـوناً له ثلاثة صفـوف من المجـذفين، وهو واسع وعـريض، وبالاضافـة إلى ذلك كـان جديداً ونظيفـاً، وفي الوقت الذي كنا نسير فيـه هناك، جـاء معلم الغليـون بطرس لاندو، الذي هو القبطان، على ظهـر قارب، ورحب بنا باحترام كبير، ومـدّ مـائدة طعـام على مــؤخــرة المركب، حيث قــدم لنا بعض الخمــرة والمربيــات من الاسكندرية، وعـاملنا بكل احترام، وذلك كإنســان يود أن يأخذنا معـه

كركاب.

واقتادنا بعد هذا نحو الأسفل، عبر بعض الدرجات، إلى القمرة، ثم إلى المكان الذي يجلس فيه الحجاج، ووضع تحت تصرفنا مساحة كبيرة من القمرة، حيث يمكننا اختيار اثني عشر فراشاً لاثني عشر شخصاً على أي طرف نرغب فيه، وبعدما تفحصنا هذا الغليون، أخبرنا القبطان بأننا سوف نعلمه بالغد فيما إذا كنا قد نوينا الابحار معه أو مع انسان آخر، وهكذا عدنا إلى قاربنا ثانية، وجذفنا نحو الغليون الآخر، أي غليون المعلم أوغسطين كونتاريتي، الذي وجدناه جالساً على ظهره، وقد استقبلنا بتواضع كبير، وقادنا حول غليونه، وأعطانا الخيار لانتقاء مكان لاثني عشر شخصاً، وقدم إلينا بعض الخمرة واللحم الحلو، وأكد لنا أنه سوف يتعامل معنا باخلاص، وقد عرفني بشكل جيد، وأشار إليّ كشاهد على صدقه وأمانته قائلاً: «ها هو الراهب فيلكس، شماسكم، الذي يعرف كيف أتعامل مع الحجاج، وأنا أرجوه أن يقول الحق، ولسوف تقررون البقاء معي»، وقد نظرنا جميعاً خلال الغليون، فلم يرضنا مثلما أرضانا الآخر، لأنه كان يحتوي فقط على صفين من المجذفين، ومساحته أقل، ومظهره قديم ورائحته كريهة، وأنا أعرف ذلك شخصياً، وكنت قد عانيت من كثير من المتاعب فيه، وبعد تفحصنا لهذا الغليون عدنا بالقارب إلى نزلنا.

وفي يوم الثلاثين من نيسان، الذي هو اليوم الأخير من الشهر، استمعنا إلى قداس في نزلنا، بسبب وجود لورد كبير من النمسا كان مقيماً هناك، مع أنه لم يكن حاجاً، وبعدما تلا شماسه القداس في البيت، اجتمعنا نحن الاثني عشر مع بعضنا لنتباحث حول مع أي من صاحبي الغليونين سوف نبحر، وأية شروط سوف نعمل معهما، وقرر موالي وجوب ذهابهم مع المعلم بطرس لاندو، في غليونه ذي الصفوف الثلاثة، ومن جهتي أنا، كنت أفضل الذهاب مع القبطان الآخر، وهو

أوغسطين، لكنني نفرت من غليـونه ذي الصفين، وذلك بسبب المتاعب العظيمـة التي عـانيت منهـا على متنه، ولهذا قـررنا الـذهاب مع المعلم بطرس، فضلاً عن هـذا وضعنا عشرين شرطاً، حددنا فيهـا إطار عقدنا معه، وأوضحنا أن القبطان ملزم بتنفيذ ذلك لنا.

وكان الشرط **الأول**: إن على القبطان أن يأخذنا حجـاجاً من البندقية إلى يافـا، وهو ميناء في الأرض المقـدسة، وأن يعيـدنا ثانيـة من هناك إلى البندقية، ولهذا الغرض عليه أن يكون جـاهزاً خلال أربعة عشر يوماً في الخارج، أي أن عليه عدم الإقامة هنا أكثـر من أربعة عشر يوماً بعد هذا اليوم.

والثـاني: هو أن يجهـز الغليـون بشكـل لائق ببحـارة ذوي خبرة، من الذين يفهمـون فن الملاحـة مع أي نـوع من الريح يمكن أن تهب، وأن يكون معـه على ظهر الغليـون ما يكفي من سـلاح للدفاع عن الغليـون ضد هجمات القراصنة، إذا ما حدث شيء من هذا القبيل.

والثالث: على القبطان أن يكون متيقظاً، فـلا يتوقف في أي ميناء غير اعتيـادي أو غريب على طـريقه، بل عليـه أن يتـوقف فقط عند الموانىء التي اعتـاد أن يحصل منهم على الميرة لغليـونه، وأن يأتي توقفـه عبـوراً، ذلك أن عليـه أن يتجنب التـوقف في أي ميناء، بل أن يتـابع المضي على طريقه، ومرغوب منه بشكل خـاص تجنب مملكة قبرص، وعدم التوقف هناك، وإذا ما فعل ذلـك، عليه عدم البقـاء في الميناء لمدة تزيد على ثلاثة أيام، لأن لدينا اعتقـاد متـوارث بأن هواء قبرص غير صحـي بالنسبـة للألمان، وعلى كل حـال، إذا مـا رغـب واحـد من جماعتنا أن يقـدم التحيـات لملكة قبرص ومن ثم خـدمتهـا في نيقوسيـا، وأن يتسلم منهـا شـارة طائفتها، على القبطان القيـام بانتظاره حتى عـودته، ذلك أن هذه عادة قديمة بين النبلاء ما دام هناك ملك في تلك المملكة.

والرابع: هو إن على القبطان تقديم وجبتين من الطعام والشراب، إلى الحجاج كل يوم بدون انقطاع، وإذا ما حدث لأي سبب أن واحداً منا لم يرغب بالجلوس إلى مائدة القبطان، أو أن يحضر طعام العشاء في المساء، أو اننا جميعا اخترنا البقاء في مخادعنا، على القبطان إرسال الطعام والشراب إلينا من دون إثارة أية خلافات.

والخامس: ويتوجب على القبطان أن يزود الحجاج، أثناء رحلتهم من البندقية إلى الأرض المقدسة، ومن هناك عائدين إلى البندقية، بما يكفي من الخبز الجيد، والبقسماط، والخمرة الجيدة، والماء العذب، الذي وضع حديثاً على ظهر المركب، وباللحم، والبيض، وجميع الأطعمة من النوع نفسه.

والسادس: هو إن عليه في كل صباح، قبل أن نتناول طعامنا، أن يعطي كل واحد منا قدحاً صغيراً من الخمرة المالوفيه Malovoisie، حسبما جرت العادة على ظهر السفن.

والسابع: إذا ما طلب الحجاج انزالهم إلى الشاطىء قرب أي ميناء، توقف الغليون على مقربة منه، دون رغبة في الدخول إليه، أو لأي سبب معقول آخر، مثل الحصول على الماء أو الدواء، أو حاجيات ضرورية أخرى، وقتها القبطان ملزم باعطائنا قارب، وطاقم قارب ليتولى نقلنا إلى ذلك الميناء.

والثامن: إذا ما قام القبطان بالتوقف على مقربة من أحد الموانىء غير المسكونة، حيث لن يستطيع الحجاج الحصول على الضروريات لأنفسهم، هو وقتها ملزم بأن يزودهم بالطعام وكأنهم ليسوا في ميناء، ومن جهة أخرى إذا ما توقف في ميناء جيد، هم ملزمون وقتها بالتزود بما يحتاجونه لطعامهم.

والتاسع: القبطان ملزم بحماية الحجاج، في كل من داخل الغليون

وخارجه، من الاعتداء عليهم، ومن سوء سلوك عبيد الغليون، وذلك إذا ما رغب الحجاج بالجلوس مع العبيد، وهو أيضاً ملزم بمنع العبيد من السخرية بهم فوق اليابسة، وذلك بقدر ما يستطيع، وعليه عدم وضع أية شيء في مخادع الحجاج.

والعاشر: ينبغي على القبطان أن يترك الحجاج يبقون في الأرض المقدسة طوال المدة المستحقة ولن يستعجلهم كثيراً جداً، وعليه قيادتهم إلى الأماكن المعروفة، وأن يصاحبهم شخصياً، ونحن نرغب بشكل خاص أن لايثير أي اعتراض في قيادتهم إلى نهر الأردن، وهو الأمر الذي يجد الحجاج دوما صعوبة في تحقيقه والقيام به، وهو سوف يجنبهم وينقذهم من جميع المشاكل مع الكفار.

والحادي عشر: جميع المكوس، وجميع الأموال من أجل المرور الآمن، ومن أجل الحمير والنفقات الأخرى، مهما كان اسم المطالبة بها، أو أية مدفوعات في أي مكان يتوجب دفعها، هذا كله على القبطان القيام بدفعه من قبله وحده لصالح جميع الحجاج، الذين ينبغي أن لايدفعوا شيئاً أو أن يطالبوا بأية مدفوعات، ومثل هذا عليه أن يدفع الايجارات الكبيرة، وأما الايجارات الصغيرة فنحن سوف نتدبر شأنها بأنفسنا.

الثاني عشر: وفي مقابل جميع هذه النفقات، ومقابل جميع ما سيتحمله القبطان، يتوجب على كل حاج أن يدفع إليه أربعين دوقية ducats من النوع الذي اسمه de zecha، أي المسكوكة حديثاً، على شرط، أن يدفع الحاج نصف هذا المبلغ في البندقية، والمتبقي في يافا.

الثالث عشر: وإذا ما حدث وتوفي أحد الحجاج، لن يتدخل القبطان بأي حال من الأحوال في أشيائه التي يخلفها بل عليه ترك هذه الأشياء دون أن يلمسها في حوزة الشخص أو الأشخاص الذين ترك الميت لهم وصيته.

الرابع عشر: وإذا ما مات أحد الحجاج قبل الوصول إلى الأرض المقدسة، القبطان ملزم بإعادة نصف مبلغ المال الذي تسلمه من قبل، حتى يتصرف به الأوصياء وفقاً لتعليمات المتوفى.

الخامس عشر: وإذا حدث ومات واحد من الحجاج على ظهر الغليون، لن يقوم القبطان مباشرة بالأمر برمي جسده في البحر، بل عليه أن يتدبر أمر أخذه إلى الشاطيء ودفنه في احدى المدافن، وإذا كان الغليون— على كل حال— بعيداً عن اليابسة، سوف يتم الاحتفاظ بجسد الميت حتى تتاح الفرصة للوصول إلى أحد الموانىء، أو أن يوافق رفاق الميت على رمي جسده في البحر.

السادس عشر: إذا ما رغب أحد الحجاج بالذهاب إلى القديسة كاترين في جبل سيناء، يتوجب على القبطان أن يدفع لكل شخص عبّر عن مثل هذه الرغبة عشر دوقيات من المبلغ الذي دفع إليه من قبل.

السابع عشر: قبل أن يغادر القبطان القدس مع الحجاج، عليه باخلاص مساعدة الحجاج الذين سوف يسافرون إلى القديسة كاترين، بأن ينظم اتفاقية صداقة فيما بينهم وبين دليلهم.

الثامن عشر: يتوجب على القبطان أن يعين للحجاج مكانا موائماً على ظهر الغليون، ليحتفظوا فيه ببعض الفراخ والطيور، وأن يسمح طباخيه لطباخ الحجاج باستخدام نارهم ليطبخ للحجاج عندما يرغبون بذلك.

التاسع عشر: إذا ما وقع أحد الحجاج مريضاً وهو على ظهر الغليون، ولم يعد قادراً على البقاء في مخدعه وتحمل روائح النتن، وقتها يتوجب على القبطان أن يعطي مثل هذا الانسان مكانا ليرتاح عليه في الطبقة العليا، أو في القمرة، أو على المؤخرة، أو أن يعطيه واحداً من مقاعد المجذفين.

العشرون: إذا ما ترك شيء وأغفل ولم يرد ذكره في اتفاق التعليمات

هذا، أو وجد أمر لم يوف حقـه بالتعبير عنه، أو لم يشرح بها فيه الكفاية، إنها هو بحكم القانون والعـادة من واجبات القبطان وعليـه فعله، وقتها يعدّ هذا وكأنه قـد ورد ذكره في هذه التعليمات، وسيعـدّ وكأنه قد كتب بينهما.

وبعـدمـا وضعنا هذه الشروط وكتبناهـا، بعثنا بها إلى المعلم بطرس، وهو القبطان الذي كـان يتولى انتظارنا في النزل، وقـد قرأ هذه الشروط حسبما وضعناها، وأخبرنـاه إنه إذا كـان راضيـاً بالتعـامل معنا وفقـاً لروحهـا، وعلى استعـداد لأن يقسم يمينا بأن يفعـل ذلك، نحن على استعـداد لعقد عقـد معه واتفـاق كما تقدم القـول، ولدى سماع القبطان بهذا، أخـذ قـائمة الشروط، وقـرأها واحـداً واحـداً بعناية كبيرة، وأمـا بالنسبـة للشرط الأول، فقد قـال: إنه بالنسبة للفقـرة الأولى من الشرط الأول، هو على استعداد لقبـولها، ولسوف يأخذنا إلى يافا ويعيـدنا ثانية، أما بالنسبة للفقـرة الثانية من الشرط فهو لايمكنه الموافقـة عليها وتعلل بعدة أسباب، على أسـاسها كان من غير الممكن له الابحـار خلال شهر أيار، وبناء عليـه هو لايمكنه الاقـلاع بنا خـلال أربعـة عشر يومـاً، ولاحتى خـلال ستـة وعشرين يومـاً، إنما عندمـا تنقضي الأيام الستـة والعشرين، هو سيشرع في أي سـاعة تتـوفـر فيهـا ريح طيبة، وبالنسبـة للشرط الثاني عشر، أعلن أنه لن يأخذ أقل من خمس وأربعين دوقية من كل واحـد من الحجـاج، وتعلـل لهذا بأسبـاب كثيرة، وبالنسبـة للشرط الخامس عشر، قال بأنه سوف يبقي جثة الرجل الميت على ظهر السفينة، غير أنه أوضح أن البحـر لن يسمح بـذلك، وأن ذلك سـوف يعيق رحلتنا، ويمكن للقـارىء أن يرى مـدى الصـدق في هـذا في الصفحـة ١٩٨ المقبلة، أمـا بالنسبـة للشروط الاخـرى فقـد أعلن عن رضـاه بها، وبناء عليه وبعد أحاديث طويلة عقدنا اتفاقاً معه.

وبعدمـا عقدنا اتفـاقنا، أخذنا جميعـا إلى القديس مـرقص حيث قصر

الدوج، وأحضرنا أمام شهود عـدل المدينة، الذين عندما سمعوا السبب الذي حضرنا من أجله أمـامهـم، كتبـوا اسماءنا وأوضـاعنا الحيـاتيـة في كتاب كبير، وكـان اسمي قد كتب فيه مـن قبل، عندما ذهبت في حجي المتقدم، وبذلك تأكد اتفاقنا وتأصل، وبعد الفراغ من هذا كله، ذهبنا في قـارب مع القبطان إلى الغليون، واخترنا مكاناً لاثني عشر شخصـاً على جـانب اليـد اليسرى، وقـام القبطان بتقسيم ذلك الفـراغ إلى اثني عشر مخدعـاً، أو سرير، وكتب اسم كل انسـان على مخدعـه بالحكك،من أجل أن لايأخـذ انسـانا آخـر هذه الأمـاكن، وبالنسبـة لي وافقني حظ طيب، فحصلت على أفضل مخدع، أو سريـر بين جماعتنا، والمخــدع أو السرير، هو مكان لإنسـان واحـد، يمتـد طوله من رأسـه حتى قـدميـه، يعين له للمنامة، والجلوس، والعيش فيه، سواء أكان مريضاً أو معافى.

وبعدما فرغنا من هذه الإعدادات، جذفنا عائدين الى مقرنا في النزل، ونحن راضين تماماً بكل شيء، إلاّ بأننا كنا مـرغمين على البقاء مثل هذه الأيام الزائدة في البندقية، وهذا كان محزن جداً بالنسبة لنا.

هنا نهاية الفصل الأول .

الفصل الثاني
ويحتوي على أعمال الحجاج خلال شهر أيار

وفر لنا شهر أيار السار والبهيج وقتاً للتعبد التقوي في يومه الأول في عيد القديسين الرسولين: فيليب وجيمس، وبناء عليه في الصباح الباكر، عندما استيقظ موالي وبقية جماعتنا أعدوا أنفسهم للذهاب إلى الكنيسة والاستماع للقداس، وسألوني: في أي الكنائس يتوجب علينا سماع القداس في هذا اليوم؟ فأجبتهم: «أيها السادة، خذوا بعين التقدير، أننا أقلعنا بقصد الحج باسم الرب، وليس من اللائق بالنسبة للحاج الوقوف من دون نشاط، وطالما نحن محاطون بالماء من كل جانب، لايمكننا حبس أنفسنا وتمضية الوقت بزيارة حدائق الورود، أو السهول المشرقة، أو الغابات الظليلة، أو المروج الخضراء، أو الحقول البهيجة، أو الأشجار، والورود، والزهور والليلك، كما لايمكننا التسلي بالصيد، وفي الوقت نفسه ليس من اللائق بنا حضور المبارزات أو احتفالات الرقص، وبناء عليه إن نصيحتي، هي: أننا مادمنا هنا، علينا أن نحج كل يوم إلى احدى الكنائس، ونزور أجساد وآثار القديسين، حيث يوجد حشد عظيم منهم في هذه المدينة، وبذلك يمكننا خلال شهر أيار أن نقطف، ورود وزهور وليلك الفضائل، والنعمة، والغفران»، وعندما سمعوا هذا، وافق الجميع على نصيحتي، وجاءت الموافقة بالاجماع بأن علينا أن نركب في القارب أو أن نسير على الأقدام في كل يوم إلى احدى الكنائس، وإذا لم نذهب نحن جميعا، ينبغي على الأقل أن يذهب بعض جماعتنا، وأن يفعلوا ذلك، حتى يمكنهم فيما بعد اخبار البقية بما رأوه.

وبناء عليه قمنا في اليوم الأول من شهر أيار باستئجار قارب، ذهبنا به إلى كنيسة الرسولين المقدسين: القديس فيليب، والقديس جيمس،

وحضرنا القداس هناك، وبعد القداس صعدنا إلى المذبح وقبلنا الرأس المقدس للقديس فيليب، الذي كان محفوظاً هناك، والذراع المقدس للقديس جيمس، وكان هناك اندفاع عظيم وضغط شديد بين الناس لرؤية الآثار المقدسة وتقبيلها، وعندما انتهى القداس ذهب الناس، لكننا بقينا نحن حتى يمكننا أن نحصل على مشهد أفضل للآثار دون التعرض للدفع والضغط، ويمكننا أن نلمسهم بمجوهراتنا، لأن الحجاج إلى الأرض المقدسة قد اعتادوا أن يحملوا معهم إلى الأماكن المقدسة خواتم منتقاة من الذهب أو الفضة، أو بعض الحبوب من الحجارة الكريمة من أجل أن يعمل منها رقى أو سبحات، أو يكون المحمول سبحاتهم المصنعة، أو بعض الصلبان الصغيرة من الذهب أو الفضة، أو أي شيء مماثل هو ثمين، وسهل حمله من الحلي، التي عهد بها إليهم من قبل آبائهم أو أصدقائهم، أو أشياء اشتروها في البندقية أو من أي مكان من بلدان ما وراء البحر لتكون هدايا للأشخاص العزيزين عليهم، وكانوا كلما التقوا بأية آثار مقدسة، أو وصلوا إلى أي مكان مقدس، كانوا يأخذون هذه المجوهرات، ويلمسون بها الآثار أو الأماكن المقدسة، علهم يحصلون بذلك على بعض القداسة من عملية اللمس، وبذلك يعودون إلى أصدقاء الحجاج أثمن وأكثر قيمة من ذي قبل.

وكنت أنا شخصياً الأقل بين الجميع، وأفقر واحد في جماعتنا، ومع هذا كان معي كثيراً من الجواهر الثمينة أعيرت إليّ من قبل أصدقائي، أو نصرائي أو نصيراتي، من أجل أن ألمس بهن الآثار والأماكن المقدسة التي سأزورها، ثم سأعيدهن إليهم، وأتسلم جائزة لقيامي بذلك، وكان بين هؤلاء من آخرين صاحب السيادة السيد جون اخنغر Echinger، وكان في تلك الأثناء عمدة أولم، فقد عهد إلي بخاتم ثمين جداً وعزيز لأنه كان خاتم والده جيمس اخنغر، فقد كان قد سحبه من اصبعه في

ساعاته الأخيرة وأعطاه إلى ابنه، مثلما تسلمه من أبيه من قبله، وأعتقد مؤكداً أنه يساوي بالنسبة إليه أكثر من مائة دوقية، وأنه يقدره الآن بأكثر من مائتي دوقية.

وهكذا بعدما انسحب الناس، اقتربنا— كما تحدثت— أكثر، ولمست آثار الرسولين المقدسين، وكان واجبي أن أحمل جميع المجوهرات العائدة إلى الحجاج العلمانيين في الأماكن المقدسة، أو في الأماكن التي كانت الآثار محفوظة فيها، وبيدي لمست الأشياء المقدسة، بكل قطعة من المجوهرات، ثم أعدتهم جميعاً إلى أصحابهم، لكن بعض النبلاء أبقوا مجوهراتهم في يدي طوال الحج، وفعلنا هذا في جميع الأماكن المقدسة، ومع جميع الآثار التي وجدناها خلال حجنا كله، شروعاً من سمعان الطفل المقدس في ترنت، وبناء عليه عندما فرغنا من هذا كله عدنا إلى النزل لتناول طعام الغداء.

وفي اليوم الثاني من أيار ذهبنا في الصباح إلى القديس مرقص، وحضرنا القداسات في الكنيسة الكبرى للقديس مرقص، وعندما انتهت القداسات ذهبنا إلى قصر دوج البندقية، حتى نقابله شخصيا لنقدم إليه الرسالة التي بعثها صاحب السمو العظيم سيغسموند، رئيس دوقات النمسا، والتي عهد بها إلى موالي لتقديمها إليه، وذلك حسبما قلنا في الصفحة ١٥٣، لدى الحديث عن اليوم السابع عشر، وهكذا صعدنا على السلم الحجري من ساحة القصر إلى الرواق المعمد، ووقفنا خارج قاعة القضاء، وطلبنا أن يسمح لنا بالدخول إلى الشيخ Senate، وسمح لنا على الفور بالدخول إلى مكان القناصل، ثم وضعنا في حضره الدوج والشيخ، وقام اللورد جون، بارون فون سيمبيرن وهو حامل الرسالة عالياً، أي رسالة رئيس دوقات النمسا، ومشى نحو الأمام بطريقة جريئة حتى وصل إلى وسط القاعة، ثم توجه نحو الدوج، وقدم الرسالة إليه باحترام وأدب، ثم عاد.

ونظر الدوج إلى الختم، ولدى تعرفه عليه، قبل الرسالة، ثم ناولها إلى الشيوخ الذين جلسوا معه، حتى يقوموا أيضاً بتقبيلها، ثم أمر بقراءة الرسالة على مسامع جميع الحضور، وعندما استمع إليها وقف الدوج، وعرض— من خلال ترجمان— خدماته على الحجاج، ودعا إليه كل واحد منهم على التوالي، وقدم يده لكل رجل منهم، ثم سحبه إليه وقبله وفق الطريقة الايطالية، والتمس بعد هذا موالي منه رسائل توصية إلى قائد البحر العام، وإلى حكام الجزر، من أجل أنه إذا توفرت الحاجة أن يحصلوا على حماية هؤلاء الأشخاص الذين تقدم ذكرهم، وتمت الاستجابة لهذا الطلب مباشرة، وكتبت الرسائل وسلمت إلينا.

وفي اليوم الثالث، الذي كان يوم عيد اكتشاف الصليب، ذهبنا بالقارب إلى كنيسة القديس الصليب، وبعد سماعنا للقداس هناك، رأينا وقبلنا جسد القديس أثناسيوس، الذي هو راقد هناك، ولمسناه بمجوهراتنا، حسب الوصف الذي قدمناه عن اليوم المتقدم، وكان هذا القديس من أعظم أبطال الدفاع عن الايمان وأقدرهم، وقد كتب ضد الهراطقة وليوقع الاضطراب بينهم عقيدة: «من الذي سوف يتم إنقاذه» الخ، وعدنا بعد هذا إلى نزلنا لتناول الغداء.

وبعد الغداء ذهبنا عبر الماء إلى أعظم ديرة الفرنسيسكان، وشاهدنا البناء، الذي كان كبيراً جداً، وفي بيعة مرتبطة بالكنيسة، هناك حصان قد بني بطريقة فنية رائعة، ذلك أن البنادقة يقلدون عادات الأمم الكافرة، وعلى هذا الأساس قرروا مكافأة واحداً من قادتهم البحريين، كان قد قاتل بشجاعة في سبيل الجمهورية، وربح بشجاعته كثيراً من المناطق الجديدة لصالحها، مكافأته بإقامة نصب تذكاري دائم له، فنصبوا تمثالاً من البرونز للحصان ولراكبه في واحد من شوارع المدينة أو ساحاتها، ومن أجل أن يجري تنفيذ ذلك بأروع ما يمكن، أرسلوا وراء النحاتين الموجودين في بلادهم، وأمروا كل واحد منهم أن يصنع حصاماً من أية

مادة يختارها، وقالوا بأنهم سوف يختارون واحداً من الثلاثة الأفضل من بين الخيول، ومن ثم يأمرون بصب حصان من النحاس حسب النموذج الذي اختاروه، وإلى جانب ثمن هذا التمثال، اقترحوا إضفاء تشريف خاص على الفنان الذي صنع شكل حصان.

وبناء عليه اجتمع النحاتون مع بعضهم في البندقية، وصنع واحد منهم حصاناً من خشب، غطاه بجلد أسود، وهو الحصان القائم في البيعة المتقدمة الذكر، وجاء هذا التمثال مشابها جداً لحصان حي، لكن مع فارق هو أنه جاء بحجم غير معتاد، ولايمكنه التحرك، لأنه حصان مصنوع بشكل فني، وصنع فنان آخر حصاناً من الطين، وشواه في الفرن، وقد جاء بشكل يجذب الاعجاب ولونه أحمر، وصنع الثالث حصاناً مدهشاً بشكله من الشمع، واختار البنادقة هذا النموذج الأخير، لأنه صنع ببراعة أعظم من الجميع، وأجازوا الفنان، لكن كيف سيصبونه، لم أسمع عن ذلك، ولعلهم تخلوا عن المشروع، وبناء عليه، بعد ما رأينا هذا الدير، والأشياء المتقدمة الذكر، عدنا إلى مكان إقامتنا.

وفي اليوم الرابع، الذي كان يوم أحد اسمه Vocem Jucunditatis ، وكان ذلك عيد العذراء الأكثر قداسة، أي القديسة كاترين المدفونة في جبل سيناء، وقد عبرنا من مكان الاعتكاف والتوبة للقديس دومينيك إلى كنيسة القديس يوحنا والقديس بولص، ورأينا هناك مسيرة مهيبة، وحضرنا قداساً، وكانت الكنيسة كلها محتشدة بالناس، وكان هناك عدد كبير من النساء قد لبسن مثل الـ Beguines، وعندما انتهى القداس، ذهبت إلى دير الرهبان، ووجدت هناك راهباً من طائفتي، مقيماً هناك وهو مسافر على طريقه، وكان يحمل شارات حاج إلى الأرض المقدسة، وقد جاء من بلاد فرنسا، ومن دير تابع لطائفتنا موجود في جزيرة فرنسا، وكان ينوي الإبحار معنا، ولهذا تعرفت عليه، واتفقنا على أن يتحمل أحدنا صحبة الآخر، وعلى كل حال، هو لم

يسافر على غليوننا نفسه، بل على الغليون الآخر، ومع هذا كان يزورني دوما في القدس، وغالباً مازرته أنا هناك، وقد تحملنا صحبة أحدنا الآخر.

وبعد تناول طعام الغداء ذهبت وحيداً في قارب إلى دير القديس دومينيك، لرؤية كهنة الدير هناك، وقد أروني ذراعاً كاملاً للعذراء كاترين المباركة جداً والمدفونة في جبل سيناء، وكان ذراعاً كبيراً جداً، وجميلاً، وفيه جلده كله وعظامه، وقد قبلت هذا الذراع مرات كثيرة، ووجدت في الدير نفسه راهباً آخر من رهبان طائفتي، قدم من نابل، وكان يحمل شارات الحج، وهو أيضاً لم يبحر في غليوني، وعدت بعد هذا بالقارب إلى النزل.

وذهبنا في اليوم الخامس بالماء إلى جزيرة الامبراطورة القديسة هيلانة، وهناك قرأت قداساً لموالي، وبعد القداس فتح الرهبان قبر القديسة هيلانة من أجلنا، ورأينا جسدها كله، مع آثار أخرى كثيرة، وبعد تقبيلهم ولمسهم بمجوهراتنا، عدنا إلى النزل، وبعد الغداء، ذهبنا في قارب إلى الغليون الذي استأجرناه، ورأينا القبطان قد أمر بوضع ألواح فوق الجزء المنخفض من مخادعنا، وقد اصطدم بعضهم بأقدامنا وكان في المكان الذي أردنا أن نضع فيه أحذيتنا وصندوق آنيتنا، ولهذا أخبرنا الرجال الذي كانوا مسؤولين عن الغليون، أنه ما لم يقم في الغد بنزع هذه الألواح، سنعدّ اتفاقنا ملغى، ذلك أننا رأينا في عملهم هذا مخالفة للشرط التاسع، وبناء على ذلك نشب خلاف فيما بين الحجاج وبين القبطان، وقررنا على كل حال أنه إذا أراد الحفاظ علينا، يتوجب عليه تدمير العمل الذي أقامه، وبعدما فرغنا من تنظيم مخادعنا على هذه الصورة، عدنا إلى نزلنا.

وذهبنا في اليوم السادس في قارب إلى القديسة لوسيا Lucia، وبعدما سمعنا هناك قداساً شاهدنا جسد تلك العذراء وقبلناه، ذلك أنه محفوظ

هناك في ضريح وسط تكريم عظيم، وذهبنا في ذلك اليوم نفسه إلى السوق، واشترينا كل ما يمكن أن نحتاجه في غليوننا من أجل الرحلة، من وسائد وفرش، ومخاد، وشراشف، وأغطية، وحصر، وجرار، وما تبقى من أشياء لكل مخدع، وسألتهم أن يشتروا لي فراشاً محشياً بشعر البقر، وكنت قد جلبت أغطية صوفية معي من أولم، من أجل أن أنام على ظهر الغليون مثلما أنام في قلايتي، لأنني رأيت أنه لايصح بالنسبة لي أن أنام على مكان أنعم فوق ظهر الغليون مما أفعل في قلايتي.

وفي اليوم السابع، الذي يوم عيد انتقال القديس بطرس الشهيد، ذهبنا في قارب إلى خارج البندقية، إلى جزيرة مورانو، واستمعنا إلى قداس دومينيكاني في كنيسة القديس بطرس الشهيد هناك، ثم ذهبنا إلى الكنيسة الأبرشية، وهناك عرض علينا كهنة الأبرشية، الأجساد الكاملة لعدد كبير من الأبرياء المقدسين، وكانوا جميعا ممددين في قبر واحد، حيث قبلناهم، ثم قصدنا إلى أفران صنع الزجاج، حيث يجري هناك صنع آنية من الزجاج بفن عالي الجودة والرقي، ذلك أنه لايوجد مثل أعمال الزجاج هذه في أي مكان آخر في العالم، وهم يصنعون آنية غالية السعر من الكرستال، وأشياء أخرى كثيرة رائعة من الممكن مشاهدتها هناك، وبعدما شاهدنا هذا كله عدنا في قاربنا إلى نزلنا في البندقية.

وفي اليوم الثامن، الذي كان يوم عيد صعود ربنا، ذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص، من أجل حضور القداس هناك، وللتمتع بالمشهد العظيم، ذلك أن أعداداً لاتحصى من الناس تتدفق على هناك وتحتشد في ذلك اليوم، وعندما احتشد الجميع واجتمعوا، سار البطريرك مع إكليروسه ورجال الدين من جميع الديرة، والدوج والشيوخ ونقباء الحرف، ساروا جميعا بعدما وقف كل فريق منهم في مكانه المحدد، وقد لبس كل منهم لباسه الخاص مع شعاراته، وأعلامه، ومشاعله، وذخائره، ومشوا في مسيرة من كنيسة القديس مرقص إلى البحر، وهناك

صعدوا على ظهر سفن أعدت خصيصاً لهم، وأقلعوا بها، وصعد البطريرك مع الدوج والشيوخ على ظهر الـ Bucentaur (في اللاتينية Bucephalus ، وسميت هكذا على اسم حصان الاسكندر الكبير) التي كانت سفينة عظيمة تشبه خيمة العهد، وكانت مطلية، ومغطاة بالذهب وبشقق الحرير المعلقة، وأخذ هذا مكانا وسط احتفال فخم، وقرع لجميع نواقيس المدينة، وزعق الأبواق، وغناء مختلف أنواع التراتيل من قبل رجال الدين، وعندما ابتعدت الـ Bucentaur من الشاطىء بضربات مجاذيفها، التي كان تعدادها أكثر من ثلاثمائة، صاحبها ما يزيد على خمسة آلاف مركب، وقد أبحروا حتى القلاع التي تشكل ميناء البندقية، وعندما عبرت السفن جميعها وصارت خارج الميناء في البحر، بارك البطريرك البحر، حسبما جرت العادة بمباركة المياه في مثل هذا اليوم.

ولدى الفراغ من احتفال المباركة، انتزع الدوج خاتماً ذهبياً من اصبعه ورماه في البحر، وبذلك اقترنت البندقية بالبحر، وبعد احتفال الخاتم، خلع كثيرون ثيابهم وغطسوا نحو الأعماق بحثا عن الخاتم، وكان الذي يعثر عليه، يحتفظ به لنفسه، وفوق ذلك يسكن طوال ذلك العام في المدينة وهو معفى من الأعباء التي يخضع لها سكان تلك الجمهورية، وفي أثناء القيام بهذا كله تتجمع السفن كلها حول Bucentaur، وهي تضغط بشدة وتتأرجح، وتصدر أصواتاً باطلاق المدافع، والنفخ بالأبواق وقرع الطبول، وبالصراخ والغناء، إلى حد بدا فيه البحر وهو يهتز، وكنا حضوراً أثناء هذا العرض، في مركبنا المستأجر.

وبعد الفراغ من المباركة، وعملية الاقتران بالبحر، جذفوا بالـ Bu-centaur نحو دير القديس نيقولا على الليدو Lido، ولدى الوصول إلى الشاطىء هناك، نزلوا جميعاً من جميع السفن، ودخلوا إلى الكنيسة، التي لم يستطع جزء من مائة من الناس الدخول إليها، مع أنها كانت

كنيسة عظيمة، ولم يكن بين ذلك الجمهور العظيم ولا امرأة واحدة، ذلك أن الذين نفذوا الاحتفال كانوا من الرجال فقط، وعندما يكون البطريرك سائراً نحو الكنيسة، وهو مرتدياً لثيابه الحبرية، ومعه الدوج الذي برفقته حاشيته كلها، يأتي راعي الدير، وعلى رأسه قلنسوته الحبرية، وبرفقته جميع الرهبان بأرديتهم المقدسة، نحو الخارج لاستقبال الجمهور، ولاصطحاب البطريرك والدوج بيده ولأخذهما نحو سدة الكنيسة حيث يعقدون القداس لذلك اليوم، وسط مهابة عظيمة، ويعودون بعد هذا إلى سفنهم، ويتوجه كل انسان نحو بيته لتناول طعام الغداء.

ولقد رأيت في بعض الأحيان مثل هذه المشاهد في أماكن أخرى، وبالنسبة لذلك انظر الصفحة ٢١٠، في القسم الثاني، وفي خلال الاسبوع الذي يلي يوم الصعود، ينعقد هناك سوق تتوفر فيه مشاهد رائعة.

وذهبنا في اليوم التاسع بالمركب إلى دير اسمه دير الرهبان العكاكزة، وبعد سماعنا للقداس هناك أرونا جسد القديسة بربارة مع كثير من الآثار الأخرى، التي قبلناها باحترام، ثم عدنا إلى نزلنا، وذهبنا في اليوم نفسه إلى بيت، كان موجوداً فيه فيل، الذي هو حيوان ضخم ومخيف، وقد رأيناه، واندهشنا لدى رؤيتنا لمخلوق بمثل هذا الحجم غير الاعتيادي، وقد تلقى تدريبات عظيمة، ذلك أنه كان يقوم بأعمال رائعة، فعلها أمام أعيننا، بإشارة من سائسه، وقد اشترى هذا الرجل هذا الحيوان مقابل خمسة آلاف دوقية، وأخذه من البندقية إلى ألمانيا، وكسب من ورائه مالاً كثيراً، لأنهُ لم يدع انساناً يراه، دون أن يدفع لذلك، وأخذه بعد ذلك إلى بريطانيا، وهناك رماه البحارة فوق ظهر السفينة أثناء احدى العواصف فهلك.

وفي اليوم العاشر، الذي كان يوم سبت، ذهبنا بالقارب إلى كنيسة

اسمها كنيسة القديسة مريم ذات النعمة، وسمعنا قداساً، وذهبنا من هناك بالقارب إلى كنيسة القديسة مريم صاحبة المعجزات، فهناك قد بنوا كنيسة ذات جمال رائع مع دير جميل جداً، وفي أثناء حجي الأول كان الناس قد بدأوا يتدفقون على ذلك المكان، حيث لم تكن آنذاك بيعة هناك، بل مجرد صورة للعذراء المباركة فوق رافعة مثبته إلى جدار، وقد قيل بأن معجزات قد صنعت هناك، ولذلك أخذت جماعات من الناس تأتي إلى هنا، وتوفرت تقديمات كثيرة، مما أدى إلى بناء كنيسة بنفقات عالية، وهي الكنيسة القائمة الآن هناك في ذلك الموضع، والتي أطلق عليها اسم كنيسة القديسة مريم صاحبة المعجزات، ولسوف أذكر المزيد عنها في القسم الثاني — الصفحة ٢٠٨.

وفي اليوم الحادي عشر، وكان يوم أحد ضمن الأسبوع التالي ليوم الصعود، استمعنا إلى قداس في أقرب الكنائس منا، وكانت واقعة في مقابل النزل الذي نحن فيه، وذهبنا بعد الغداء بالقارب إلى الكنيسة التي اسمها كنيسة القلعة، حيث يسكن بطريرك البندقية، وحيث يتم الحصول في كل يوم على توبة وغفران، وشاهدنا المكان، وكانت الكنيسة واسعة وقديمة، وقد وجدنا هناك واحداً من رهبان طائفة المبشرين، وهو الذي كان يتولى الوعظ، مع أننا لم نفهم ما قاله في القداس، لكن بعد انتهاء القداس رجعنا إلى النزل.

وفي اليوم الثاني عشر، الذي كان يوم عيد الشهداء نيروس Nereus وآخيليس Achilles وبنكرايتوس Pancratius ، ذهبنا عبر الماء إلى كنيسة القديس زكريا، وحضرنا قداساً هناك، وبعثنا بعد القداس برسالة إلى راعية الدير المرتبط بالكنيسة سألناها فيها السماح لنا برؤية الآثار، وهؤلاء الراهبات ثريات ونبيلات، وهن متساهلات جداً بنظامهن، الذي هو نظام القديس بينيت، وقد فتحن لنا الضريح الذي فيه أجساد الشهداء الثلاثة، الذين كنا نحتفل بعيدهم، أي: القديس نيروس،

والقديس آخيليس، والقديس بنكرايتوس، ورأينا في ضريح آخر مصنوع من الفضة الجسد الكامل للقديس زكريا، والد يوحنا المعمدان، وفمه مفتوح، وإلى جانبه جسد القديس غريغوري نازيانزن Nazianzen ، وجسد القديس ثيودور المعترف، وجسد القديسة سابينا، العذراء الشهيدة، ودهشت إزاء ثراء هذه الكنيسة بالآثار، وقد أخبرت بأن ابنة أحد الأباطرة، كانت مرة راعية للدير هناك، وأن الامبراطور، حباً لابنته، جلب هذه الأجساد إلى هناك،وهكذا بعدما رأينا هذه الآثار وقبلناها، عدنا إلى مكان إقامتنا.

وفي اليوم الثالث عشر، ذهبنا إلى الكنيسة الكاريثية Carthusian العائدة للقديس أندرو، حيث يوجد هناك دير عظيم وكبير جداً، وعلى جزيرة خاصة به، مع أربعة أروقة وقلايات جميلة وواسعة، ورأينا هناك كثيراً من الآثار، من ذلك إصبع القديس أندرو الرسول، وذراع القديس لورانس الشهيد، وهكذا كثير، وعدنا بعد هذا إلى مكان اقامتنا.

وذهبنا عبر الماء في صباح اليوم الرابع عشر إلى دير القديس جرجس، القائم في مقابل قصر القديس مرقص، وذلك عبر القناة العظمى، وجعلنا رهبان ذلك الدير يغنون لنا قداساً عن القديس جرجس، وبعد القداس أرونا الآثار المقدسة التي لديهم، وهي: رأس القديس جرجس، وذراعه الأيسر ويده، وكذلك رأس الرسول القديس جيمس الأصغر، والجسد الكامل للقديس بولص، دوق القسطنطينية، وقطعة من الليفة التي منحت لربنا، وأشياء أخرى كثيرة، وعندما فرغنا من رؤية هذه الأشياء، عدنا إلى مقر إقامتنا.

وفي يوم الخامس عشر الذي كان نهاية الاسبوع التي أعقب الصعود، وعدّ مقدساً مثل اليوم الأول من الصعود، ذهبنا باكراً إلى القديس مرقص، وبعدما استمعنا إلى القداس، أمكننا رؤية كنز القديس مرقص، الذي لايمكن تقدير قيمته لا بالذهب ولا بالفضة ولا بالحجارة

الكريمـة، فقـد رأينا هناك ضريح وجسـد القـديس ايزيدور Isidore، وأمـا جسد القـديس مـرقص، الذي جلبـه البنادقـة من الاسكندرية إلى مـدينتهم، فلم نره، لأنه قـد قيل بأن راهبـاً قد استـولى عليـه، وحمله إلى ألمانيا إلى أويا Owia ميجر، وحول هذه المسائل سوف تتوفر رواية أكثر كمالاً، في ص ٢٠٦ من القسم الثاني.

ومن الكنيسـة ذهبنا إلى قصر الدوج، حيث تولى واحـد مـن رجـال بلاط الدوج ارشـادنا والطواف معنا حـول الغـرف الـداخليـة للدوج، وشمل ذلك أيضا خزانة الدوج، التي رأيناها، وكـان هذا اليوم يوم عيد خاص للنسـاء، وقد شاهدنا عـرضاً للنساء المزينات بزينة دنيـوية كانت ثمينة جداً، وكان رائعاً مشاهدتهن.

وفي اليـوم السـادس عشر، وبينما نحن في فـرشنا، سمعنا أسرة النزل يبكون وينتحبـون، لأن صـاحب نزلنا المعلم جـون، قـد توفي في الليل، وكـانوا يتجهـزون لدفنه، وبناء عليـه، اعتقـد بعـض منا، أنه ربما هناك طاعون قد نزل هناك، لذلك استأجروا قوارب وأبحروا إلى بادوا، حيث أقـاموا لعـدة أيام، أمـا أنا والذين بقيـوا، فقد ذهبنا عبر الماء إلى كنيسـة القديس روخ Roch ، في مدينة البندقية، وطلبنا عون القديس المتقدم الذكر، الذي هو معين خاص للذين يخافون من الوباء، وذلك خشية أن نصاب بالعدوى.

وفي يوم السابع عشر، الذي كـان عشية عيد الحصـاد، ذهبنا بالقارب إلى دير القـديس يوحنا، العـائد لطائفـة الرهبـان البيض، وهناك حضرنا قـداساً، وقبلنا الآثار، وذهبنا بعـد الغداء إلى مخزن سـلاح المدينة، الذي يسمـونه آرسنال (دار الصناعـة)، ورجـونـاهم السماح لنا بالدخـول، وعندمـا سمح لنا، شـاهدنا كميـات رائعـة من آلات الحرب، مع مخازن تابعـة للدولة لتـزويد الرجـال للقتـال في البحر، أو خيـالة، أو رجـالة، وذلك حسبما سيأتي وصف ذلـك في الصفحـة ٢٠٥ من القسم الثـاني،

ومثل ذلك، ذهبنا بعد هذا إلى بيت الخبازين، الذين يتولون خبز البقسماط للاستخدام في البحر، ودهشنا لدى رؤيتنا الأفران الكبيرة، والنيران، والأعمال والعاملين، وقفلنا بعد هذا كله عائدين إلى النزل.

وفي يوم الثامن عشر، الذي كان يوم أحد، ويوم عيد الحصاد،ذهبنا في الصباح إلى كنيسة القديس بارثلميو الرسول، التي هي الكنيسة الأبرشية لنزلنا، واستمعت هناك إلى اعترافات بعض الحجاج، وبعد الحصول على أذن المغادرة من الكاهن الأبرشي للكنيسة المتقدمة الذكر، توليت إدارة قداس القربان من أجلهم، وبقينا في الكنيسة خلال جميع وقت القداس، وذهبنا بعد الغداء عبر الماء إلى كنيسة الروح القدس، التي تدفق عليها جمهور كبير للحصول على الغفران، ولمشاهدة مسيرة مهيبة للنقابات التي يسمونها مدارس.

وذهبنا في اليوم التاسع عشر بالماء إلى الكنيسة التي اسمها القديسة مريم ذات الشفقة، التي هي فائقة الجمال، وهي أيضاً الأغنى والأكثر قدماً من أية كنيسة أخرى في المدينة، وحضرنا هناك قداساً، وعجبنا لرؤية الرسوم والمنحوتات التي زينت بهم، ولدى عودتنا إلى نزلنا زرنا كثيراً من الكنائس الأخرى، حصلنا فيها على الغفران، وسيكون مرهقاً لي تولي كتابة أسمائهم جميعاً.

وذهبنا في اليوم العشرين في الصباح الباكر، وقبل أن ترتفع حرارة الشمس، إلى كنيسة القديسة مريم الجميلة، وكانت الكنيسة في الحقيقة واسعة وجميلة: وهكذا استمعنا هناك قداساً، وقفلنا بعد ذلك عائدين إلى نزلنا، ولم نتجرأ خلال بقية ذلك النهار على الخروج، بسبب الحرارة العالية جداً، لأن الحر كان أعظم مما عرفته البندقية قط من قبل، وبسبب هذه الحرارة جفت الآبار، وصار الماء العذب عزيزاً جداً، ذلك أنه لم يعد ماء الشرب متوفراً هناك، إلا الماء الذي جلبته السفن من نهر برنتا Brenta وقد بيع هذا الماء بثمن مرتفع جداً، وجرى صبه من حول

الآبار، على أمل أن يتصفى خلال الأرض، وينفذ إلى الآبار.

وذهبنا في اليوم الحادي والعشرين بالقارب إلى دير القديس أنطوني، وكان على مقربة من دير القديس دومينيك، وحضرنا هناك قداساً، وخرجنا بعد ذلك نتجول هناك، وشاهدنا الأبنية العملاقة التي كان سادة البندقية يقيمونها هناك في ذلك المكان، واستولى علينا العجب تجاه النفقات الكبيرة لمثل هذه الأعمال، لأنهم كانوا يقيمون جدراناً ضخمة في ماء البحر بالذات، وكان مكلفاً جداً عمل الأساسات هناك، وبسبب هذا المبنى كان الدوج مع أعيان البندقية الآخرين، غاضبين جداً من أخواني رهبان القديس دومينيك، لأنهم طلبوا من الرهبان منحهم نصف أرض حديقة ديرنا، من أجل توسعة دير القديس أنطوني، لكن إخواني الر هبان لم يوافقوا، ووقفوا في وجه الدوج والشيوخ وقفة جريئة مما أثار غضباً كبيراً ضدهم.

ولكي يحصلوا على موافقة الرهبان، عرضوا منحهم المساحة التي أرادوا من الأرض في البحر، باتجاه الشرق، وحسب اختيارهم وقبولهم، وأن يقوموا بارساء الأساسات على حساب الدولة، لكن رئيس الدير، وكان جريئاً، رفض مطلقاً إعطاء الموافقة، وكان سادة البندقية يتولون عمارة هذا البناء بهذه الروعة، مع بيوت جميلة وكثير من الغرف، من أجل استقبال الحجاج الذاهبين إلى القدس، وإقامتهم فيها، لأنهم أدركوا أنه من غير اللائق، أن يقيم الحجاج في نزل عامة، مع أنهم عازمون على القيام بالحج المقدس، وأنه في مثل هذه المدينة العظيمة ليس لديهم من مكان يأوون إليه إلاّ الحانات العامة، لأن سمعة النزل العامة، كانت فيما بينهم سيئة وغير محمودة، ولذلك عندما كانت تزورهم بعض الشخصيات الكبيرة، كانوا يعينون لها بعض البيوت الخاصة، ليحولوا دون نزولها وإقامتها في النزل، فضلاً عن هذا، كانوا غير راضين، أن تذهب وجبات الأطعمة التي كانوا يرسلونها إلى الغرباء المهمين على

الحساب العام، وتؤخذ إلى النزل، وكان إذا ما أرسل شيء إلى أحد النزل، كان كمية صغيرة ورديئة.

وعندما تسلم موالي وجبة أهديت إليهم من قبل الدولة، أخبروهم أنهم لو كانوا مقيمين في أي مكان غير النزل العام، لبعث إليهم أعيان البندقية بالوجبات بشكل متواصل، ولتعاملوا معهم بكرم أعظم، ولهذا السبب كانوا يتولون عمارة هذا البيت بنفقات عظيمة إلى هذه الدرجة، من أجل أن يتمكن الحجاج ذوي المكانة من الإقامة هناك، ولكي ينالوا التكريم على أيديهم، وذهبنا من هناك بوساطة القارب إلى غليوننا، ووجدنا عدداً كبيراً من الرجال يعملون عليه، في تثبيت مقاعد المجذفين، والمجاذيف، والسواري، والأشياء الأخرى المحتاجة، وكانوا يثقلونه ويوازنونه بالرمل، وعندما رأينا هذا ابتهجنا، آملين بالإقلاع في القريب العاجل.

وفي اليوم الثاني والعشرين، ذهبنا عبر الماء إلى الكنيسة التي اسمها كنيسة الرسل، وحضرنا القداس هناك، وبعد القداس أرونا جسد القديسة مريم العذراء، التي يوجد حولها رواية رائعة في القسم الأول من كتاب«حياة الآباء»(ص٤٩)، وبعد الغداء ذهبنا ثانية إلى الغليون، وأخذنا بعض الصناديق والخزائن لوضعها في مخادعنا، وذهبنا في القارب أيضاً إلى المكان الذي ترسو فيه السفن ذات الحجم الأعظم، وصعدنا إلى ظهور هذه السفن، وتملكتنا الدهشة تجاه ما رأيناه، وتساءلنا كيف يمكن تحمل مثل هذه العمائر الضخمة، وهذا الوزن العظيم.

وذهبنا في اليوم الثالث والعشرين عبر الماء إلى كنيسة القديس إرميا، حيث أرينا بعد القداس جسد القديس الأسقف مغنوس Magnus الذي كان أول أسقف لمدينة البندقية، ومضينا من هناك إلى كنيسة القديسة مريم، التي اسمها القديسة مريم صاحبة العذراوات، ورأينا كثيراً من آثار القديسين هناك، وزرنا بيعاً أخرى كثيرة في ذلك اليوم،

نسيت أسماءها.

وفي اليوم الرابع والعشرين الذي هو يوم انتقال القديس دومينيك، ذهبنا عبر الماء إلى كنيسة القديسة آن Anne ، التي هي بالجوار، حيث شاهدنا كثيراً من الآثار، وفي طريق عودتنا إلى مقر إقامتنا، ذهبنا إلى كنيسة القديسة مريم صاحبة الكرمة، فهناك يمتلك الرهبان الفرنسيسكان ديراً جميلاً جداً، هو الذي يعملونه يومياً أكثر نفاسة، وقمنا هناك بتوجيه التحية إلى العذراء المجيدة، وعدنا إلى مقر إقامتنا.

وفي اليوم الخامس والعشرين، الذي كان يوم أحد، وكان أيضاً يوم عيد الثالوث المبارك، نهضنا باكراً، وعبرنا القناة العظيمة إلى كنيسة الثالوث المقدس، حيث يوجد هناك البيت العائد للرهبان الألمان النظاميين، وهناك حضرنا مسيرة وقداساً، ودعينا إلى الغداء من قبل السادة هناك، وكان في هذا اليوم حشداً عظيماً من الناس هناك، وكانت القناة طوال اليوم مليئة بالقوارب فيها أناس قادمون، وأناس ذاهبون، وعندما عدنا إلى نزلنا علمنا بأن السادة قناصل البندقية قد أصدروا أوامر إلى كل من القبطانين بالاقلاع مع حجاجهم في ذلك الأسبوع، وعدم الانتظار مدة أطول، ولدى سماعنا بهذا ابتهجنا، لأننا كنا قد بدأنا نملّ كثيراً من الاقامة في البندقية.

وعبرنا القناة في اليوم السادس والعشرين إلى كنيسة القديس اسطفان، حيث يوجد دير القديس أوغسطين، وسمعنا قداساً هناك، وبعد القداس أرانا الرهبان بعض الحجارة التي من المعتقد أن القديس إسطفان قد رجم بها في القدس، وفي ذلك اليوم أصدر قبطاننا الأوامر بوجوب إحضار جميع خزائننا وحقائبنا ووضعهم على ظهر الغليون، الأمر الذي نفذناه مباشرة وسط سرور عظيم،لأننا كنا نتطلع بشوق عظيم لموعد مغادرتنا.

وذهبنا في اليوم السابع والعشرين إلى كنيسة القديس كارتيانوس CARTIANUS، حيث كانت الكنيسة كنيسة أبرشية، فيها سمعنا قداساً، وبعد القداس أرانا رجال الدين جسد الأسقف القديس مكسيموس، المحفوظ بعناية داخل غلاف فضي، وذهبنا أيضاً إلى كنيسة فيها يرقد جسد راعي الدير، القديس سابا، وبعدما قبلنا هذه الآثار، عدنا إلى نزلنا، وعملنا في ذلك اليوم بنشاط كبير، في إعداد أمورنا على ظهر الغليون، وبدا لنا أن الأيام التي بقيت لنا لنقيم بها في البندقية تكاد لاتكفي لإكمال استعداداتنا.

وفي اليوم الثامن والعشرين ذهبنا باكراً عبر الماء إلى كنيسة القديسة مريم الكرملية، وذلك حيث يمتلك الرهبان الكرمليون ديراً، وبعد سماعنا قداساً عدنا إلى نزلنا بسرعة أكبر مما اعتدنا عليه، ذلك أن موالي قد عينوا موعداً مع طبيب كان سيتناول طعام الغداء معنا،وتسلموا منه أحكاماً مكتوبة ينبغي اتباعها في البحر، وذلك كل رجل حسب أوضاعه الجسدية، وأعطاهم وصفات أدوية، وأخذ كثير منا منه أشربة مطهرة، لأن من الضروري بالنسبة للمسافرين عبر البحر تناول الشراب المطهر قبل السفر.

وفي اليوم التاسع والعشرين الذي كان عيد«جسد المسيح» الأكثر قداسة، ذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص، وحضرنا مسيرة مهيبة هناك، فنحن لم نر قط مثل الفخامة التي رأيناها في ذلك اليوم في البندقية، وكانت المسيرة رائعة، وقد حوت حشداً عظيماً من الرهبان ورجال الدين التابعين لجميع الطوائف، وكانوا جميعاً يرتدون أرديتهم المقدسة، ويحملون آثاراً ثمينة جداً من كل نوع، ومشوا وفق نظام محدد حول الساحة الكبيرة للقديس مرقص، التي كانت مغطاة بأقمشة كتانيةمن جميع جوانب الدائرة التي تحركت فوقها المسيرة من الباب الأول لكنيسة القديس مرقص حتى الباب الآخر، وحمل البطريرك خبز القربان،

ومشى إلى جانبه الدوج، وهو واضع قبعة الدوقية الثمينة جداً، وجاء من بعدهما رعاة الديرة، وهم يرتدون قلنسواتهم، ثم شيوخ البندقية جميعاً، وإلى جانب العرض اللاهوتي، الذي كان رائعاً جداً، كان هاماً رؤية مهابة السادة الشيوخ، وثيابهم الجميلة وغير الاعتيادية، وقد جاء من بعدهم كثير من الأصناف، ثم العامة من الناس، وقد مشى رجال الدين والرهبان من نظاميين وعلمانيين في الطليعة، وسط الغناء وعزف آلات الموسيقى والألحان والمشاهد العرضية من كل نوع، وفي هذه المسيرة ما من دير، أو نقابة ظهروا من دون عرض خاص بهم وأبهة ذاتية لنيل الاعجاب، ولإدخال السرور إلى قلوب المشاهدين، وزين الرهبان المبشرون التابعون للقديس يوحنا والقديس بولص المسيرة بوساطة عروضهم المضحكة وتمثيلياتهم الجميلة، ولقد رأينا هناك كثيراً من الذهب والفضة، وكميات كبيرة من الأحجار الكريمة، والملابس الثمينة، مما لايمكن لانسان أن يقدر أثمانها، والذي كان هناك هو حشود متداخلة تركض وتتدافع في فوضى.

ومضينا بعد الغداء عبر الماء إلى دير جسد المسيح، حيث تقيم سيدات نبيلات وغنيات من البندقية، هن راهبات في طائفة القديس دومينيك، وفي الحقيقة، جاءت المدينة كلها تقريباً، بعد الغداء، عبر الماء إلى تلك الكنيسة، وكان هناك حشد عظيم وضغط شديد من أجل مشاهدة المسيرة، لأن الرهبان التابعين لثلاثة أديرة، هي: دير القديس يوحنا، والقديس بولص، ودير القديس دومينيك، ودير القديس بطرس الشهيد، قدموا جميعاً إلى هناك، وعملوا مسيرة فائقة الجمال مع جسد المسيح، وكانت مسيرتهم طويلة جداً فوق القناة العظمى، وقدموا كثيراً من العروض، ولايمكن لانسان أن يتخيل كم من العروض العبثية قد عرضت وسط هذه المباريات المقدسة، وكم من الملابس العظيمة البذخ التي ارتدتها النساء، وكم من التصرفات غير اللائقة التي صدرت عن

رجـال الدين، والأعمال غير النظـاميـة التي مـارسهـا رجـال الدين النظاميون وغير النظـاميون، هذا كله لايمكن لانسـان أن يتصوره، وأن يتصـور العـدد الهائل من الجمهـور الذي احتشـد هناك، وفيما إذا كـان التشريف المضفـى على القـداس الأعظم مكانة، قـد دنـس على هذه الصورة؟ الرب وحده الذي يعرف الأشياء كلها، يمكنه أن يقول ويخبر، وبعدما انتهى هذا كله، عدنا إلى مقر إقامتنا لتناول طعام العشاء.

وذهبنا في اليـوم الثلاثين إلى القـديس دانيـال، وسمعنا قداسـاً هناك، وأرونا بعد القـداس الجسد الكامل لشهيد اسمـه القديس يوحنا، وقبلنا هذه الآثار، وعـدنا إلى مقـر إقامتنـا، وفي ذلك اليوم بالـذات، قام عـدد كبير من الحجـاج، بعـد تناول طعـام الغـداء بحـزم أمتعتهم، وذهبـوا بوسـاطة القـارب إلى الغليـون، حيث صعـدوا إلى ظهـره، ومن هناك لم يعودوا ثانية إلى المدينة، بل مكثوا على ظهر الغليون حتى أقلع بنا جميعاً.

وفي اليـوم الحادي والثـلاثين الذي كـان اليـوم الأخير في شهـر أيار، نهضنا باكراً، وذهبنا لسماع قـداسات في كنيسـة القديس المخلص، حيث يوجد هناك رهبان نظاميون يتولون مراعاة الأعمال التعبدية بشكل دائم، واستأجرنا بعد هذا مـركباً، وتدبرنا أمر الذهاب إلى الكنائس التي حماتها من القديسين يقدمون خدمات خاصة إلى الذين على نية السفر إلى الحج، لأن موعـد مغادرتنا بات قـريباً، وكنا نرغب بـالتوجه بالـدعاء إلى جميع القديسين من أجل الحصول على عونهم، وبناء عليه ذهبنا أولاً إلى كنيسة القـديس رافـائيل، الذي هو رئيس للمـلائكة، حيث صلينا للرب حتى يرسل إلينا رئيس الملائكة المقدس لديه، ليتـولى قيادتنا مثلما فعل لطوبيا، ومن هناك ذهبنا بالقارب إلى كنيسـة القديس ميكائيل الذي كـان رئيساً للمـلائكمـة، ورجـوناه أن يحطم تحت قـدميـه كل شيء شرير يمكن أن يهاجمنا، سـواء أكان من الأعـداء المرئية أو غير المرئيـة، وذهبنا من هناك إلى كنيسـة القديـس كريستـوفـر ورجوناه أن يحملنـا سالمين عبر البحـر

الكبير، ذلك أنه يوجد فيما بين البندقية وجزيرة مورانو جزيرة ، عليها تقوم كنيسة جميلة وجديدة هي كنيسة القديس كريستوفر، وذلك مع دير للرهبان البيض، وفي تلك الكنيسة هناك لوحة قد رسمت عليها خريطة جميلة جداً للعالم.

وذهبنا بالقارب من تلك الجزيرة إلى كنيسة القديسة مرثا، السيدة التي أكرمت الرب يسوع وخدمته، ورجوناها أن تهتم بنا وتزودنا بنزل جيدة ومحترمة، أو في جميع الحالات أن تزودنا بالصبر حتى نتحمل نواقص النزل التي سوف نسكن بها خلال رحلتنا الطويلة، ويسكن من حول تلك الكنيسة راهبات يرتدين أردية بيضاء، وانظروا كيف أننا عندما كنا نقيم في المدينة، لم نستطع منع أنفسنا عن القيام بالحج، ولقد دونت فقط المشاهد الرائعة والمحترمة والجولات التي قمنا بها في مدينة البندقية، وكل ما قمنا به بدافع الفضول، أو استحق المشاهدة، تجاوزت ذكره، مع أننا فعلنا ذلك أيضاً.

وهنا تنتهي جولاتنا في البندقية، وكنا طوال ذلك اليوم مشغولين في إعداد أنفسنا للذهاب والصعود على ظهر السفينة غداً، وعملنا تسوية مع طبيبنا، ودفعنا ما علينا من استحقاقات للسيدة مرغريت، صاحبة نزلنا، وعهدنا بالأشياء التي لافائدة منها في البحر، إلى السيد نيقولا فرج Frig وكان ألمانيا، وكان هو وكيل المؤونة في النزل، وانتظرنا قدوم الغد.

وفيما يلي بعض الأشياء، التي من الضروروي تبيانها من أجل فهم جولاتنا ورحلاتنا فوق البحر. وقبل الشروع في تدوين أخبار جولاتنا ورحلاتنا في البحر، رأيت من الضروري التمهيد لذلك ببعض الايضاحات الضرورية، لتبيان كثيراً من المصاعب التي لابد من أن تقوم أثناء الحج في البحر، لأن الحج إلى الأرض المقدسة، ينفذ جله عبر البحر، ويتم تمضية الجزء الأكبر من الوقت في الرحلة البحرية، ولذلك عزمت على كتابة ثلاثة تماهيد لذلك.

والتمهيد الأول: حول أنواع البحار الكثيرة، وطبيعتهم، والمخاوف فيهم.

والتمهيد الثاني: حول الغليون ذي الصفوف الثلاثة للمجذفين، وتراتيبه.

والتمهيد الثالث: حول النظام وطبيعة الحياة على ظهر الغليون، ونصيحة إلى الذين يبحرون في غليون.

وعندما يجري فهم هذه التماهيد بشكل صحيح، فإن الانسان الذي لم ير البحر قط، يمكنه أن يرتاح راضياً، [أي أنه سوف يفهم حكايتي].

حول أنواع البحار الثلاثة

يتألف البحر بطبيعته من ثلاثة أنواع هي: البحر الكبير، والبحر الأكبر، والبحر الأعظم، والبحر الكبير هو البحر المتوسط، الذي يطلق عليه اسم بحرنا، والبحر الأكبر هو بحر بنطش، والبحر الأعظم هو المحيط الذي يمتد حول العالم، وسوف نقوم أولاً باستعراض موجز للمحيط، وبعد ذلك للبحرين الآخرين، والمحيط، أو البحر المحيط الأعظم، هو الذي يحيط بالعالم كله ويغلفه، ويلتف حوله مثل الخاتم، وهو يسمى بالمحيط من قبل كل من الإغريق واللاتين، لأنه يجري حول العالم، وجاء ذلك إما بسبب سرعته، لأن معنى محيط هو يجري Ocius، أي يسرع، أو بسبب ضم عبارة Ce مع Coelum التي تعني السماء، لأن هذا البحر فيه شبه للسماء باللون، ومهما كان لون السماء، سيكون المحيط له اللون نفسه، وينشأ المحيط وينمو من العالم، وجذوره وبداياته في العالم، فضلاً عن ذلك فإن بداية الأول هي عند نهاية الآخر، ومثل هذا فإنه أصل جميع المياه في العالم، فمنه تتدفق وإليه تعود، وبناء عليه أطلق على المحيط اسم بيت الأنهار، ونبع الأمطار، ومع ذلك هو لايزداد بتدفق نهر من الأنهار، ولاينقص بعدم تدفق نهر آخر، لأنه يعيد

من المياه بقـدر الكميات التي يتلقاها، ومـع هذا إنه ليبدو أمرا مـدهشاً، أن نرى مثـل هذا العـــدد الكبير من الأنهار تصب في المحيـط، وبشكل متواصل، وتتدفق بكميات غير محدودة من المياه، ومع ذلك لايغدو هذا المحيط أكبر بسبب ذلـك وليس أقل عجبــاً أنـه مع أن كثيراً من الأنهار تنبع من قاعه، وأن النجـوم تسحب شطراً كبيراً من مياهه، لأن الشمس والنجوم الأخـرى تتولى بقوتها النارية الحادة سحب كميـات عظيمة من المياه، وتصبها حـول جميع النجوم لتلطف الجزء الناري منهـم، ومع ذلك إن هذه المياه التي تأخذها النجـوم من المحيط لاتنقصه، لأنه كما قلنا من قبل، يسترجع ثانيـة بقدر مـا يفقـده من هذه المياه التي تشربها النجـوم، وكيف حصل هذا وانتظم، الله وحده هو العليم بذلك، لأن العالم صنع يديه، وهو وحده يعلم جميع أجزائـه، ويتبع هذا البحر، دون سواه مسار القمر، ولهذا فإن الـدوامة التي تبتلع الميـاه والسفن، وتقذف بهم مجدداً، وهي تبتلع مياههـا ثم تقذفها بقـوة تيار أعظم، عندمـا يكون هناك قمر جـديد، ويطلق على هذه الدوامـة اسم المهواة العظيمـة، وهكذا نقـرأ في سفر التكويـن: ٧/ ١١ «انفجرت كل ينابيع الغمر العظيـم»، ويوجد في مقابل هذا أغـواراً عظيمة، وكهوفـاً مفتوحة وواسعـة، فيها تنشأ الرياح وتهب من خـلال تنفس الميـاه، ويمكن تشبيـه هذه الكهـوف والأغـوار بفتحتي أنف العالم، واسم التنفس في الكتابات المقـدسة، روح العاصفة، وتقـوم الرياح بتحـركها في داخل هذه الكهـوف المفتـوحـة بسوق ميـاه البحر نحـو المهاوي العميقـة، وترغمهم على الاندفـاع ثانية بقـوة أكثر، وبتيـار أشـد عنفـاً، وقـد نوقشت هذه المسـائل بتـوسع من قبل -Vin centius في كتـــاب «Speculum Naturae»، ومياه هذا البحر مالحة، مثل ميـاه البحار الأخرى، وهو ما سـوف نشرحه فيما بعد، وفيما يتعلق بحجم هذا المحيط واتساعـه لايمكن لشيء أن يقـارن به، ويبلغ عرضـه مقداراً عظيماً بحيث لايمكن عبوره، ولايوجـد خلفه بلاد، بل إن ذلك البحـر محاط فقط بغيــوم وبهواء كثيف يشكل حـدوده، وهناك

على كل حـال أرض تحتـه، فتبعـاً للنظام الطبيعي للخليقـة، كـان وجـه الأرض كلها ستغطيه الميـاه، غير أن الله برحمته اللامحدوده تفضل بإبقاء جـزء من الأرض جافـاً لسكنى البشر والحيـوانات، وذلك عندما قـال: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحـد ولتظهر اليـابسة» [التكوين: ١/ ٩]، وهذا الجزء القائم فوق الماء، هو الذي عني عندما قيل عن العالم نفسه بأنه «قد أقـامه فوق البحار» (المزامير: ٢١/ ٢)، وعليـه كانت المياه ستغمر الأرض، لـولا أن الأمواج قد صـدت بقوة الخالق، ولذلـك قال في المزمـور: «أنت وضعت لها تخماً لاتتعـداه، لاترجع لتغطي الأرض» [١٠٤/ ٩]، وقال أيضاً في أيوب [٣٨/ ٨]: «من حجـز البحر بمصاريع حين اندفـق فخـرج»، وكل مـن يرغب أن يمتلك فهما واضحـاً لهذه الأشياء، عليـه أن يقرأ شروح بولس أوف بـورغوس Burgos، على الـ Postilla لدي ليرا Lyra حـول مـا وقع في اليـوم الثـالث من أعمال حيث قـرأنا: «لتجتمع الميـاه تحت السماء إلى مكان واحـد»، ومن هذا البحـر وإليه وفيـه تصب مياه البحـار الأخرى: البحـر المتوسط، وبحـر بنطش، والبحر الأحمر، وهي بذلك تشبه أغصان جذع واحد.

ويطلق على بحـر بنطش اسم البحر الأكبر، لا لأنه في الحقيقـة أوسع من بحـرنا، بل لأنه غير مقسم بوسـاطة أية جـزر، أو لأنه لاجـزر فيـه تقريبـاً، واسمه بحر بنطش، لأن جميع تلـك المياه التي فيه تتـدفق خلال قناة ضيقــة، عبرها اكسرسيس بوســاطة جسر (Pons) مصنوع من السفن، ولهذا السبب أطلـق على هذا المضيق اسم هيلـوسبـونت -Hel lespont أو من الممكـن تسميتــه ببحـــر بنطش، لأنــه بدون جسر، ولايمكن عبوره بوساطة جسر، وكذلك من الممكن تسميته ببحر بنطش من كلمــــة «نقطـة Point »، لأنه كما قيل هو مستدير مثل نقطة أو بقعة، وأيضاً من الممكن تسميتـه ببحر بنطش بسبب قصره، ويعرف هذا البحر بشكل عام باسم بنطش يوكسينوس Pontus Euxinus، وذلك

بسبب طباع سكانه، وذلك حسب رواية ايذيدور، لأنه تبعاً لبطليموس امتلك شعب يوكسين Euxine أسوأ طباع ممكن توقعها من الجانب الأخلاقي، ولهذا ما من أحد يمكنه التمازج معهم، ولقد كان أشبه بملجأ إليه يفر الناس من البلدان الأخرى بغرض اللجوء، وفضلاً عن هذا فان نهر اكسوس Euxes ، الذي ينبع من جبل القوقاز، يصب في هذا البحر، وبالتالي أعطاه اسمه، أو ربما نال النهر اسمه من البحر، ويوجد خلف بحر بنطش مستنقعات واسعة جداً، هي التي تتلقى مياه نهر تانيس Tanais، الذي يشكل الحدود فيما بين أوربا وآسيا، وهو ينبع من جبال ريفائين Rhiphaeon ، وبحر بنطش يوكسينوس هذا مياهه أقل ملوحة من مياه البحار الأخرى، وذلك بسبب عدد أنهار المياه العذبة التي تصب به، وفي الحقيقة نجد أن نهرنا الدانوب، الذي ترفده مياه ستة أنهار كبيرة، يصب لمدة سبعة أشهر في بحر يوكسين.

والبحر الكبير هو الذي نسميه «بحرنا»، و«البحر المتوسط»، ومقصدي الحديث عن هذا البحر أكثر من الحديث عن سواه، ومن حيث البداية أطلق عليه اسم «البحر الكبير»، لأنه بالمقارنة معه نجد البحار الأخرى والبحيرات أصغر منه، وثانيا، أطلق عليه اسم «بحرنا» لأنه معروف من قبلنا، وقريب منا، ويستخدم من قبلنا، وثالثا، أطلق عليه اسم «المتوسط» لأنه قائم في وسط الأرض، فمن الغرب حتى الشرق، نراه قائماً بين الأجزاء الرئيسية للعالم، أي بين أوربا، وآسيا، وأفريقيا، ويفصل فيما بينهن ويرسم الحدود فيما بين كل واحدة منهن بنفسه وبفروعه، ففي الغرب والشمال منه هناك أوربا، وفي شرقيه آسيا، وعلى جنوبه أفريقيا، ولهذا فإن الحاج الذي يذهب إلى القديسة كاترين، سوف يلامس البحر عند كل واحد من هذه الأجزاء الثلاثة للعالم، ذلك أنه يبدأ رحلته من أوربا، ويصل عبر كريت ورودس وقبرص إلى آسيا، وعندما يصل إلى الاسكندرية في مصر سوف يكون في أفريقيا، لأن نهر

النيل يفصل فيما بين آسيا وأفـريقيا، وهناك على الجانب الأفـريقي توجد الاسكندرية، ويتصل بحرنا بالبحرين المتقدمي الذكر، ومياه بحر بنطش والبحر المتوسط هي نفسها، وتتدفق هذه المياه — كما نرى — من مملكة إسبـانيا وتمر بغـاليـا، وإيطاليـا، وصقلية، وكـريت وصـولاً حتى مصر، ويطلق بشكل صحيح على الفرع الذي يصل المحيط قـرب اسبانيا، اسم مضيق المغــرب، فهـو يفصـل فيما بين مملكة المغـرب — الموجــودة في أفـريقيـا — وإسبـانيـا، وفيما بين هاتين المنطقتين يتلقى البحـر المتـوسط ميـاهه من المحيـط من خـلال المضيق المتقـدم الذكـر، الذي لايتجـاوز عـرضه ربع ميل، ذلـك أن النساء الغسـالات في اسبـانيا قـد يقفن على أحد الشواطىء، وتقف في مقابلتهن النساء الكافرات في المغرب، وتشتم كل فئة منهن الفئة الأخرى، وهناك تنفصل أفريقيا عن أوربا.

ويصلها ذراعها الآخر الذي اسمه الهيلوسبونت — أو ذراع القديس جرجس — ببحر بنطش، ويفصل هذا الذراع أوربا عن آسيا الصغرى، التي يطلق عليهـا الآن اسم تركيا، لأن الأتراك قـد استولوا على المنطقـة كلها، وفي الدارجـة يطلق على هذا الذراع اسم خليج القسطنطينية، لأن مدينة القسطنطينيـة قائمة على شاطئه الأوربي، ويقـال بأن مدينة طروادة القديمـة والقوية، قـد قامت عند المكان الذي يبـدأ فيه هذا الذراع بترك البحـر المتوسط، وذلك على سـاحل آسيا الصغـرى، ولم يتبرهن — على كل حال — بتأكيـد كامل بأن مدينة طروادة قـد قامت هناك، وعلى كل حـال إن تسمية بحـرنا بالبحر المتـوسط، تسمية صحيحـة، لأنه واقع في وسط البـلاد، ويحتل المكان الوسط فيما بين البحرين الآخـرين، وتصب جميع الأنهار المعـروفة من قبلنا في هذه البحـور الثلاثة، فنهـرنا الدانوب يحمل نفسه ويتجه نحو الشرق ليصب في بحر بنطش، الذي عرف أيضاً باسم يـوكسين، وجميع الأنهار التي تنبع من جبـــال الرايتك Raetic ، فنهـر الرايـن ينبع من جبـال يوكسين، ثم يجري بـاتجاه الغـرب، ويحمل

عدداً لايحصى معه من الأنهار إلى البحـر المحيط، ونهر الرون الذي نبعه قـريب من نبـع الراين، يجري باتجاه الجنوب، ويحمـل معــه المتبقي من الأنهار إلى البحر التيراني Tyrrhenian ، وكذلك أنهار الأدجي، وبرنتا، فهي تنبع من جبال الألب، وتصب في البحر المتوسط.

وهناك بحـار أخـرى معروفـة بشكل جيـد بالنسبـة إلينا من خـلال الكتابات المقدسة، وهي مرتبطة بواحـد من البحار المتقدمة الذكر، بأقنية نحن لانستطيع رؤيتهـا، أو كما هو معتقـد بوسـاطة أنهار تحت الأرض: من ذلك على سبيـل المثـــال، يوجـد في الشرق بحـــر الخزر، الذي هو منعـزل، وليس له اتصال ظاهر مـع أي من البحار الأخـرى، ومع ذلك قــد قيل بأنه يتــدفـق بشكل سري من تحت الأرض ويصب في بحـــر بنطش، فضـلاً عن هذا لقد قيل بأن بحـر الجليل، والبحر الميت يصبـان بوساطة قناة خفية في البحر الأحمر، الذي يتلقى المياه من المحيط، وهناك لسان من المحيط حيث حدود كل من بلاد فـارس وشبه جزيرة العرب، ومنه يبحر الناس إلى الهند، فهـذا ما حكاه جيروم في رسالته إلى فـابيولا Fabiola .

فضلاً عن هذا، ينبغي أن نعرف أن البحـر المتوسط هذا، مع أنه بحر واحد، له مع ذلك أسماء مختلفة تبعاً للبلدان المتنوعة التي تشاطئه، وهذا مثل الأرض، مع أنها واحـــدة، لها أسماء متنوعـة، فهـو يستعير أحيــاناً أسماءه من البلـدان، من ذلك على سبيـل المثــــال، إنه يسمى البحـــــر الآسيوي، والبحـر الشامي، والبحـر الايبيري، وينال الأسماء أحياناً من الجزر، فيسمى البحر البيلياركي Balearic والبحر الصقلي، والبحر الكريتي، أو البحـر القبرصي، وأحياناً من قنن الجبـال مثل البحر الايجي أو البحـر المالي Malean وأحيــاناً من أسماء الشعـوب، مثل البحــــر الألماني، والبحر الغـالي، والبحر الايطالي، والبحـر الدلماشي، وأحياناً من المدن المجــاورة، مثل البحـــر الأدرياتيكي، والبحـــر التيراني، والبحـــر

اليافاوي، والبحر الاسكندراني، أو البحر البندقي، وبناء عليه عندما تقرأ في جولاتي عن بحار مختلفة، ينبغي أن تعرف أن المعني هو بحر واحد، لكن له أسماء مختلفة.

وهذا البحر مثله مثل المحيط والبحار التي تصدر عنه، يحتوي على مياه مالحة، ومرة، وغير سائغة وغير صحية، وهي بشكل عام غير صالحة للشرب، وملفوظة أكثر من البول، من قبل الانسان والحيوان، وسبب هذه الملوحة هو سر عظيم غامض، وذلك استناداً — فيما أعرفه — إلى أن الفلاسفة القدماء بذلوا جهوداً كبيرة وشاقة في سبيل معرفة سبب ذلك، ويبدو أنهم أخطأوا وابتعدوا كثيراً عن الحقيقة في تحديدهم لأسباب ذلك، وذلك مثلما أخطأوا في مسألة النيل، ومكان ينابيعه،كما سنرى في الصفحة ١١٩ من القسم الثاني، وقد وقعوا بحماقات أكبر عندما بحثوا في أسباب ملوحة البحر، ذلك أن علماء الأصول القدماء جداً لم يتمكنوا من الارتقاء فوق الأفكار الحسية، حيث ذكروا في أسطورة مخترعة أن الكائن الأول الذي هو أبو الأشياء كلها، قد انتزع كتلة نارية كبيرة من جبل Acroceraunus وبعدما ضغطها مع بعضها وصنع منها كرة صلبة، أسقطها ست مرات في المحيط، ونتيجة لذلك الانغمار، بدأت المياه كلها بالغليان، وصارت حارة، ولولا أنه سحب تلك الكرة مباشرة وأخرجها، لصارت مجموعة المياه الهائلة كلها، وتحولت إلى ملح يابس، وبما أنه رغب ببقاء البحر بقيت المياه مياهاً، لكن مالحة.

فضلاً عن هذا نجد لدى أرسطو في كتابه الثاني حول الأنواء نقاشاً حول أسباب ملوحة البحر، وبالاضافة إلى ما قاله أرسطو نفسه، أوضح بعضهم، أنه عندما تصير الأرض دافئة بوساطة الشمس تتعرق وتصدر ما فيها من رطوبة، وبناء عليه تشكل البحر باجتماع هذا التعرق، وبما أن العرق مالح، كذلك صار البحر مالحاً، ذلك أن عرق الأرض مالح،

وبناء عليـه يقـول هؤلاء الناس بأن البحـر ليس إلاّ مجرد العـرق الذي يتـدفق دوماً من على سطح الأرض، ويقـول بعضهم بها أن البحر قـائم فـوق الاقليم الحار للأرض، صـار سميكـاً بسبب حـرارته، وذلك مثلما تصير المياه مـالحة من خلال الحرارة، وكذلك يقـول آخرون، بأن بعض أجزاء الأرض مالحة، وعندما امتزج البحـر معها صار مالحاً بسبب هذه الأرض، وذلك على سبيل المثال مثل المياه التي تجري تصفيتها من خلال الرماد تصبح مـالحة، ويقول آخرون بأن الملوحة تنتج من خـلال امتزاج التبخر الدافىء مع جزئيات الماء، لأن العرق والبول يتفاعلان فوق النار، ويصبحان ملحاً، ويقـول آخرون بأن مياه البحر قـد جفت بفعل حرارة الشمس، لأن الشمس تجفف وتشرب كل شيء، وهكذا يتـداخل الطعم المالح وينتشر في البحر،لأنه مفتـوح بشكل واسع لتلقي حرارته، وهكذا فإن المياه بعدما تغلي بحـرارة الشمس والنجوم، تصبح مالحة، والانسان الذي يشرب خمرة حلوة ومـاء عـذباً يخرج منه بول مـالح، بسبب أن الحرارة تنتج ملوحة، ويقـول آخرون بأن الشمس تمتص جميع الحلاوات والجزيئات الرقيقـة، التي من السهل جذبها بـوساطة قـوة النار، وبذلك فإن الجزيئات الخشنة والأسمك تبقـى متخلفـة، ولهذا فإن وجـه البحـر حلو كثيراً، وقعـره عظيم المرارة، والآن إن القمـر يتغذى بالميـاه العـذبة لكن الشمس تتغـذى بالميـاه المالحة، والمياه المالحة لاتتجمـد بسرعـة مثل الميـاه العـذبة، لكنهـا تصبح حـارة بشكل أسرع، ولهذا فإن الحلاوة والملوحة قـد امتزجتا في البحـر، ويمكن البرهنة على ذلك فيمايلي: إذا ما جرى صنع وعـاء من الشمع، وأغلق من جميع الجهات، بحيث لايمكن للميـاه أن تدخل إليـه، ثم جـرى وضع هذا الوعـاء في البحـر، عندها تأخذ ميـاه البحر بالتسرب إليـه من جميع الجوانب، ووقتها يصبـح مافي داخله عذبـاً وسائغاً للشرب، وجميع الجزيئات المالحة سـوف تزول منه، وكأن ذلك حـدث بوساطة مصفـاة، فضلاً عن هذا إذا مـا حفر إنسـان حفرة على الشاطىء قرب البحر، فإن الماء الذي يتسرب إليها من البحر،

يصبح عذباً بسبب مروره من خلال الرمال، وسائغاً للشرب.

ويعـزو آخرون ملوحـة البحر إلى سبب لاهوتي: ولهذا إنه لائق أكثـر أن نقول بأن البحـر قد خلق مـالحاً من قبل الرب، وأنه مثلما كل عنصر من العناصر الأخرى له طبيعته الخاصة، كذلك ملوحة البحر لها طبيعتها الخاصـة، لأنها مالم تكن ممـزوجة بالملح، لصـارت آسنة مثل بقيـة أنواع الميـاه الراكـدة النتنـة، وبعض البحيرات القـذرة: ولهذا السبب قُضي من قبل الرب بقاء البحر بحركة دائمة، فبتلك الحركة يمكن لعناصره البقاء بدون فسـاد، لأنه بوسـاطة الحركة الدائمـة يتصفى ويحفظ من الفسـاد، ولقـد قضي من قبـل الحكمـة الإلهيـة بهذه الملوحـــة من أجل أن تتمكن السفن من الابحار فـوق مياه البحـر بسهولة أكبر، لأن الماء المالح أغلظ وأكثر وزناً من الماء العذب، لأن الماء العـذب مصفى ومنقى، وبناء عليه فإن الماء المالـح أفضل لحمـل السفن، ذلـك أن السفن التـي لايمكن أن تغـرق في الميـاه المالحة تغـرق في الغـالب في الميـاه العـذبة، وهذا يمكن البرهنة عليه، بسبب أن البيضة تغرق بالماء العذب، لكنها تطوف في الماء المالح، فضـلاً عن هذا، إن في ملوحـة البحـر خـدمات عظيمـة لصحـة الانسان، لأنه لو كانت مياه البحـر قابلة للشرب، لايمكن للناس عبوره أحيـاء إلاّ بصعوبة بـالغة، لأنه من خـلال حـرارة الشمس، والتعب في البحر، تجد البحارة دوماً على درجـة عالية من العطش، ولوكانت لديهم مياه عذبة للشرب بقـدر ما يريدون، فإنهم يدمرون أنفسهم، ولذلك إنه مفيد مـن أجل الحفاظ على حياة الـذين يبحرون فوق سطـح البحر، أن تكون مياه البحر مالحة.

ومياه البحر غليظة وممجوجة، ولهذا عندما تنضح من البحر، وتُصب فـوق صخـور، تتغطى هذه الصخـور على الفـور بالملح بسبب حـرارة الشمس، ومن طبيعة ملوحة البحر هذه اشتق اسمه، وصار يدعى باسم البحر (Mare) ، وذلك بسبب مرارته (Amaritudo) ، وقد ورد ذكر

هذا البحـر في سفر عامـوس:٥/ ٨، «اطلبه ... الـذي يدعو ميـاه البحر ويصبها على وجه الأرض، الرب هو اسمه»، وقد علق جيروم (الكتاب السـادس ص٣) كمايلي:« يدعو الرب ميـاه البحـر، عندمـا يرفعها نحـو الأعلى، كما هي مـالحة، لكـن من خـلال حـرارة الهواء وبوسـاطة ذلك تتصفى وتصبح نقيـة وعـذبة من خـلال ميـاه المطر»، وبالنسبـة للملوحـة البحـر انظر «Speculum Naturae »— الكتـاب السـادس، الفصل التاسع، وتمتلك مياه البحر سمات متباينة، قامت وتكونت وفق مايلي: بما أن الأرض فيهـا تجاويف، وبما أن الماء سائل، فإنه يجري نحـو الأسفل، ويمـر خـلال مجار للميـاه، حيث يتصفى ويصبح أكثـر رقـة، ومن ثم يمتلك سمات متبـاينة من خـلال طبيعـة الأرض، لأنه يمـر من خـلال أرض رمليـة وأخـرى صخـرية، فيحصل من هناك على طعم العـذوبة، ويصبح نقيـاً، ومتماسكا وباردا، وإذا مـا مـرت المياه من خـلال أرض ملحيـة، أو من خلال أرض مـوحلة، تصبح ذات طعم مقيت، وإذا مـا مرت من خلال أماكن كبريتيـة، أو كلسية، أو نحاسية، تصبح مرة، وإذا ما مرت من بؤر مليئة بالشب والكبريت، تكسب عناصر منهما، فتصبح حـارة وذات روائح كـريهة، وعلى هذا تملك سمات متبـاينة تبعـاً لتبـاين أنواع الأرض، التي تنبع منهـا، كما أن ألوانها تتغير تبعـا لتبـاين أنواع الرياح، فتجـدها في وقت من الأوقات صفـراء، وفي وقت آخر بيضـاء، ثم في وقت بعـد ذلك سوداء، وسـاعـة موحلة، وسـاعة أخـرى داكنة، وساعـة صافيـة، ومرة أخـرى سميكة غير صافية، وأحيـاناً لونها ذهبي، وفي حين آخـر لونها مـائل إلى الاحمرار، فـأي لون من الممكن رؤيتـه في السماء يمكن رؤيتـه في البحـر أيضاً، وعلى كـل حال تبـدو بعض الميـاه للذي ينظر إلى نوعين من المياه مع بعضهما ويقـارن بينهما أنهما في الغالب مختلفين، وفي كثير من الأحيان قد تبدو السماء صاحية ومشرقة ومع هذا يبـدو منظر المياه أسـود مثل الفحم، ويحدث هذا لأن الميـاه تأخـذ لونها أحيانا من الرياح الهابة، وأحيانا من أشعة قبة السماء.

المخاطر المتنوعة التي تواجه الذين يرتحلون بوساطة البحر

تخضع الرحلة بوساطة البحر إلى كثير من المصاعب، والبحر نفسه عظيم الإيذاء إلى الذين لم يعتادوا عليه، وهو خطير جدا في كثير من الجوانب، من ذلك إنه يلقي الرعب في النفس، ويسبب الصداع، ويثير الغثيان وعدم استقرار المعدة والدوار ويدمر القابلية للطعام والشراب، ويعمل بشكل مرهق على جسد الإنسان، ويثير الانفعالات، وينتج كثيرا من الشرور الغريبة، وهو يسبب كثيرا من المخاوف القاتلة، وغالبا مايقود الناس إلى حالات موت مرعبة، وأعظم مخاطره ارعابا هي أن العاقل يكون أكثر الناس خوفا منه، في حين ينظر الأحمق إليه نظرة استخفاف، وبناء عليه عندما كان الفيلسوف العظيم أرسطيبوز Aris-tippus في عاصفة في البحر، يعاني من الدوار، وغثيان في المعدة، وأثقل بالصداع، بات خائفا من أجل حياته، وعندما عاد الهدوء، ورجعت الأمور طيبة كما كانت من قبل، جاء انسان ثرثار، وقال للفيلسوف:« ماهو السبب في أننا نحن الأناس العاديون شجعان، وأنتم الفلاسفة مرعوبون»؟ فأجابه:«لأننا لانمتلك نوع الحياة نفسها حتى نعتني بها، وسيكون أمرا استثنائيا بالنسبة لك أن تهتم أو تعتني بحياة واحد بلاشعور أو اهتمام مثلك، لكن عندما أكون أنا في خطر، تجدني محقا حين أخاف على الفيلسوف من الموت، لأن الرجل الغني يخاف من اللصوص أكثر من المعدم، ذلك أنني أحمل في ذاتي روحا مليئة بالفضائل، ولهذا إنه مسوغ بالنسبة لي في أن أخاف من أكثر اللصوص براعة، ومن أعظم قطاع الطرق والسارقين خطورة ووحشية، وهو البحر».

ولايمكن البرهنة على هذه المخاطر البحرية المتقدمة الذكر من قبل انسان عرفها من خلال القراءة في الكتب، أو من خلال الاصغاء إلى الرحالة، مثلما يفعل ذلك انسان عرفها من خلال المشاعر التي كسبها

بخبرته، وانظر في الالهيات، الاصحاح:٣/ ٥/ ٢٦(٢٤) قوله:« الذين يبحرون على ظهر البحر يتحدثون عن المخاطر فيه، وعندما نسمع ذلك بآذاننا يتولانا العجب نحو ذلك»، وكقاعدة يعاني الذين يعبرون البحر من مخاطر، سببها إما البحر، أو الرياح، أو السفينة، وهناك على كل حال مخاطر خاصة لايمكن تعدادها، تتأتى اما من وضع الإنسان الخاص، أو من رفقة السوء، أو من الحاجة إلى الشراب، أو من رجال القيادة السيئين، أو من الحرارة الزائدة جدا، أو من البرد القارص، أو من سوء التجهيزات وما شابه ذلك، وفي الحقيقة هناك مخاطر لو أردت ذكرها جميعا، وحاولت ذلك، لأعوزتني الكلمات ولعجزت عن ذلك نحوها جميعا، ولهذا سوف أتحدث بعض الشيء حول المخاطر العامة للبحر، أما المخاطر الخاصة فسوف أتحدث عنها خلال مجرى حديثي، وقد وصفت بعض هذه المخاطر إلى حد ما في الرواية التي قدمتها عن حجي الأول.

ويصدر الخطر الأول الذي يقع فيه البحارة عن البحر، لأن البحر إذا كان غليظا مليئا بالصخور والنتوءات، كما هو الحال بين الجزر التي اسمها سيكلاد Cyclades وفي بحر أثينا، وخارج ساحل إيليريا Il-lyria ودلماشيا، فهو في مثل هذه الحال لايمكن عبوره من دون رعب، ففي تلك الأجزاء من غير الممكن الإبحار في الليل بسبب الصخور والرؤوس والنتوءات، وخاف من هذا الخطر البحارة الذين حملوا القديس بولص، وذلك حسبما نقرأ في أعمال الرسل:٢٧/ ٢٩، وغالبا ما وجدت أنا شخصيا في هذا الخطر، أو ثانية إذا كان قعر البحر ليس مستوياً، بل هو مرتفع في أحد الأماكن بأكوام من الرمل، أو هو عميق جداً مثل الهاوية في مكان آخر، أوهو في جميع الأحوال غير مستوي، فيه حفر عميقة ووديان، ففي مثل هذه الأماكن من الصعب بالنسبة للسفن العبور، لأنه مع أن البحر يبدو مستوياً في كل مكان (حيث يسمى في بعض الأحيان باللاتينية aequos) عندما تصل السفينة إلى مكان غير

مستو، تتوقف قليلاً، ومالم تكن هناك ريح لتدفعها كي تتابع سيرها، سيكون من الصعب تحريكها ونقلها من هناك، وقد تعلمت هذا بالتجربة والخبرة كما وضح في ص١١٦.

وثانيا: إنهم يعانون من رعب الريح، ذلك أن أي ريح لطيفة تحول البحر إلى بحر غير هادىء، وعاصف، وقاس، يفور ويمور، ولهذا السبب، غالبا ماأطلق على البحر اسم Fretuem باللاتينية، وخطير أن يقلع الإنسان في بحر عاصف، وغائم، ورطب، ومظلم الأنواء، خاصة عندما توضع السفينة في خطر، والخطر (لا) يمكن رؤيته، والذي هو أكثر ارعابا وخطرا هو الريح العنيفة جدا، ولاسيما عندما تكون الرياح مضادة، وتهب بشكل مفاجىء، فعندها يصبح جنوح السفينة وغرقها مرعب حقا، وهذا الخطر عام، ووقعت فيه شخصيا مرارا.

وينشأ الخطر الثالث عن ضعف السفينة نفسها، وعدم كفايتها، لأنه ليس من الأمان أن يعهد الإنسان بنفسه إلى سفينة صغيرة جدا، أو هي ضعيفة، أو محطمة أو قديمة، لأن مثل هذا النوع من المراكب ليس أميناً أثناء حركة العاصفة، لأنها أما أن يتم قهرها بالأمواج بسبب صغر حجمها، فتنقلب، أو أنها تتحطم بسبب ضعفها، ويكون ذلك بقوة الرياح والأمواج، وفي بعض الأحيان يحدث من خلال الحاجة إلى قائد بارع أن المركب يستهلك وقتا أكثر مما ينبغي حتى يصل إلى المرفأ المنشود، وعلى هذا من الممكن إضافة عامل رعب رابع عام إلى اللائحة، وهو الرعب الذي ينشأ عن جهل، أو كسل، أو إهمال، أو نوم قباطنة السفن، وهذا أيضا قد جربته.

وإنه لمرعب رؤية المخاطر وأنت هناك تنتقل من الغليون إلى قارب صغير وقت هبوبها، أو وقد انتقلت من الغليون إلى قارب صغير، ووقتها على الإنسان أن يعمل خطوة واحدة أو أن يقفز قفزة، وإذا حدث ولم تصل قدم الإنسان إلى الغليون أو القارب، فلابد من أن

يسقط في البحر، ويهلك دون أمل بالحصول على عون، انظر ص٢٨١ .

زد على هذا هناك خطر آخر، لايخطر على بال غير المجرب أبدا، كما أنه غير موجود في كتب الكتّاب الذين تحدثوا عن مخاطر البحر، وهذا الخطر مزعج جدا، مع أنه لايسبب الرعب، فعندما تكون الرياح جميعها هادئة، والبحر صامت ساكن، والهدوء موجود في كل مكان، أصرح قائلاً: الحقيقة أن هذا النوع من هدوء البحر وسكون الريح هو أكثر ازعاجاً للمسافرين في البحر من المخاوف المتقدمة الذكر، وذلك باستثناء غرق السفينة الفعلي، لأنه عندما لاتهب الرياح، ويكون البحر بلاحركة، والسفينة واقفة ثابتة في مكانها، وقتها يكون كل شيء على ظهر السفينة قد صار عفنا، ونتناً، ومتجمدا، وتبدأ المياه بالتحول إلى آسنة، وتغدو الخمرة غير قابلة للشرب، وتصبح اللحوم، حتى وان كانت جافة ومدخنة، مليئة بالدود، التي تغدو كلها حية بشكل مفاجىء، ويصير هناك أعداد لاتحصى من الذباب، والبعوض، والقمل، والبراغيث، والديدان، والفئران، والجرادين، فضلا عن هذا يصير الناس جميعا على ظهر السفينة كسالى، نائمين، ومنزعجين من الحرارة، ويشعرون بالنكد من المعاناة الشريرة بالمينالوخيا، والغضب، والاثارة والاضطراب مع الآخرين كمن فقد السيطرة على نفسه، ولقد رأيت قليلاً من الناس يموتون على ظهر السفينة أثناء العواصف، غير أنني رأيت عدداً أكبر يمرضون ويموتون في أوقات السكون المتقدمة الذكر، وهذا كله سوف يرد ذكره في سياق قصتي.

وهناك مخاوف في البحر تعرف باسم الانحلال من عنف الأمواج، أو باسم Syrtis أو Charybdis، والانحلال يكون عندما يندفع بحران مع بعضهما، فذلك الاندفاع يعرض السفينة للخطر، و Syrtis هو اسم مكان توجد فيه أكوام من الرمال، وحيث يكون قاع البحر غير مستو، فبذلك يكون الماء في مكان عميقاً، ومجاوراً لما هو غير عميق، أو تتوفر

هناك بعض الصخـــور الخفيــة التي من الممكن أن تـرتطم السفينة بها، وكانت Charybdis تبعاً لحكايات الشعـراء امرأة عجــوزا جشعة، ولأنها سرقت ثور هرقل رماها جوف Jove بصاعقة، وألقى بها في البحـر، وهي حتى هذا اليـوم تطوف خلسـة حـول قاع البحـر جـاهدة لسحب السفن العابرة إليها نحـو الأسفل، حتى يمكنها سرقتها، حسبما اعتادت فيما مضى، ولهذا السبب فإن الأماكـن التي غرقت فيها السفن، وحيث هناك متـاهات أعماق خفيـة، مثل الأمـاكن الموجـودة بين جـزر غوزابولس Gozapolis، التي ورد ذكرها في ص١١٤، قد أطلق عليها اسم Charybdises، ويدعـى الخطر نفســه بـاسم Charybdis ، نسبـة إلى المرأة القـديمـة Charybdis، التي يعتقـد القـدمـــاء بأنها أغرقت سفناً في أماكن مثل هذه.

وهناك مصـدر رعب آخـر، يسميـه بعضهم خليج، وهو مـايواجهـه البحارة عندمـا تهب الرياح مندفعة من كهوف وسط الجبـال بقوة ترمي بالسفن وتقلبهـا على جنبها، وهناك مصـدر رعب آخر اسمـه Grupp، وهذا يحدث عندمـا تحارب الرياح بعضهـا ضـد بعض، وتتلقى السفينة فيما بينهم الضربات من الجهات المتعاكسة، وهناك خطر آخر من الممكن مـواجهته، يطلق عليـه اسم Troyp اشتقـاقـاً من اسم سمكة Troys، التي عندمـا تعـرف بوجـود سفينة، تنطلق نحـوها من الأعماق، وتخرق السفينة بأنيـابها، لأن لها أنيـاب مثل مثقب النجار بشكلهـا، ومـالم تطرد ويتم ابعادها، يمكنهـا خرقها، والنفـاذ فيها، ومن غير الممكن طرد هذه السمكة وإبعادها عن السفينة إلا بوسـاطة نظرة انسان لاتعرف الخوف، وبناء على ذلك على الانســان الانحناء من فـوق السفينة والنظـر بعـدم خوف في عيني السمكة، حيث تنظر السمكـة إليه في الوقت ذاته وتحدق به بشكل مرعب، وإذا ما ظهـرت ملامح الخوف على الرجل الذي ينظر إلى السمكة ويدأ يشيـح بناظريه، تقفــز السمكـة على الفـور، وتلتقطه

مباشرة، وتأخذه إلى تحت الماء وتلتهمه، وليكن في هذا كفاية حول المخاوف في البحر.

حول السفينة التي عبر الحجاج البحر بها، والتي اسمها غليون، وكم كان حجمها كبيراً، ومن أي الأنواع هي

يمتلك البحر أنواعاً من السفن مختلفة، منها ماهو كبير الحجم، ومنها ماهو متوسط الحجم، ومنها ماهو صغير، وفي البداية لم تكن هناك سوى السفن الصغيرة في البحر، واستمر ذلك حتى أيام ياسون Jason الذي بنى له أرغوس Argus سفينة كبيرة، حيث أبحر هو ورفاقه الأرغونيون Argonauts إلى كولخيس Colchis ، وبنى بعد ذلك أمينودس Aminodes سفناً ذوات ثلاثة مجاذيف من أجل أن يستخدمها الكورنثيون ضد كورسيرا Corcyra، ويحكى أن أول من اخترع السفن هو أثلس Athlas في ليبيا، وهو الذي أبحر في البحر.

وأنوي — على كل حال — أن اتحدث هنا عن نوع السفن التي اعتاد الحجاج على عبور البحر بها إلى الأرض المقدسة، وهو النوع الذي اسمه غليون، وهو اسم أطلق على هذا النوع من المراكب حتى في كتب الشريعة من الكتابات المقدسة، كما أنه موجود في روايات اليهود والمسلمين، والغليون هو نوع من المراكب المتوسطة الحجم العاملة في البحر، وهو ليس النوع الأكبر، وبالوقت نفسه ليس النوع الأصغر، واسم هذا المركب باللاتينية Bireme أو Trireme، وأطلق ايزودورس في كتابه التاسع عشر حول أصول الكلمات Etymologies على هذه السفينة اسم درمون Dorma ، وعلى كل حال أطلق عامة الناس سواء من الألمان أو الطليان عليها اسم غليون، ومنحت هذه السفينة هذا الاسم لأن مقدمتها لها شكل الخوذة (gALEA)، وذلك عندما ينظر إليها من الأمام، ولأنها تواجه الأمواج مثل رجل مسلح، والغليون هو مركب مستطيل الشكل يتحرك بكل من المجاذيف

والأشرعة، والغلايين متشابهة، أو شبه متشابهة بالشكل، غير أنها تختلف من حيث الحجم، لأن بعض الغلايين كبيرة، ويطلق عليها اسم Tri-remes، وبعضها صغير اسمه Biremes كما أن هناك فوارق أكبر، ذلك أن بعض الغلايين هي سفن حرب، وبعضها الآخر سفن حمولة، وذهبت في حجي الأول عبر البحر في Bireme ، وفي حجي الثاني في Trireme، والـ Bireme هي سفينة تتحرك بواسطة زوجين وزوجين من المجاذيف، ولكن الـ Trireme هي السفينة التي تتحرك بوساطة ثلاثة وثلاثة من المجاذيف، وبالقدر نفسه المحتاج من المجذفين، ويمتلك الغليون الذي عبرت على ظهره في المرة الثانية، ستين مقعداً متصالباً، حيث جلس على كل مقعد ثلاثة من المجذفين مع مجاذيفهم، ولو أن هذا الغليون كان مجهزاً على أن يكون حربياً، يكون فيه أحد الرماة مع قوسة فوق كل مقعد، وذلك مع المجذفين.

وكان طول الغليون ثلاثة وثلاثين ذراعاً، على أساس أن الذراع يساوي مقدار امتداد ذراعي أحد الرجال، وهذا الطول هو مقياس مابين المقدمة والمؤخرة، وعرض الغليون هو سبعة أذرع، وهو المقياس عبر السفينة حيث توجد السارية، هذا وإذا ماأردنا قياس العرض كله، بإزاحة المجاذيف ووضعهم جانباً على كلا الجانبين، فوقتها يكون هذا العرض ثلاثة عشر ذراعاً، أما بالنسبة للارتفاع فإذا قسناه من البئر إلى القبة الموجودة فوق السارية، في القمة المستديرة، فإنه يساوي أكثر من ثمانية عشر ذراعاً.

هذا وإن الغلايين ذات الحجم الواحد متشابهة كثيراً من جميع الجوانب، إلى حد أن انساناً إذا ماانتقل من غليونه إلى ظهر غليون آخر، سيكون من الصعب كثيراً عليه أن يلاحظ أنه صار على ظهر غليون آخر، باستثناء تمييز القباطنة والملاحين الموجودين فوق الغليون، لأنهم مختلفون عن أولئك في غليونه، ذلك أن الغلايين العائدة للبنادقة يشبه

أحدها الآخر مثل تشابه أعشـاش السنونو، وقد بنيت هذه الغلايين من أمتن الأخشاب، التي ربطت مع بعضها بعـدد كبير من المسامير الملولبة، والسـلاسل، والحديد، والجزء الأول والمتقدم مـن الغليون، الذي اسمـه القيـدوم، هو حـاد حيث يواجـه البحر، ولـه منقار قـوي، صنع شبيهـا برأس التنين إلى حد ما، ذلك أن له فم مفتوح، وكله مصنوع من الحديد، وبه من الممكن ضرب أي سفينة قد يواجهها، ويوجد على جانبي المنقار فتحتين، في خـلالهما يمكن لانسـان أن يضـع رأسـه، فمنهما تمر حبـال المراسي، ومن خلالهما يمكن سحب المراسي ورفعها، ولايمكن للبحر أن يمر من خلال هاتين الفتحتين إلاّ أثناء العواصف العظيمة، ويمتد منقار القيـدوم عـاليـاً، ومنه يبدأ جـوف السفينة بالامتـداد والاستـدارة أمـام البحر، وللقيدوم شراع خاص به اسمه dalum وعليه يطلق بشكل عام اسـم trinketum ، ويوجد تحته حجرة صغيرة، فيها يجري خزن الحبال والأشرعـة، وفيها ينام قبطان القيدوم، الذي له مـلاحين خاصين به، وهو يسكن هناك وليس في أي مكان آخـر، ويقـوم ملاحـوه بأعمال ووظائف ذلك الجزء من السفينـة، وهذا الجزء أيضـاً هو مكان الفقـراء التعسـاء الذيـن يلتقطهم عبيـد القيـدوم، ومعلق على جـانبي القيـدوم مرساتين حديديتين عظيمتين، تلقيان نحو قاع البحر في الوقت المناسب، والمؤخرة الموجودة في النهاية القصوى الأخرى للغليون، ليست حادة في المكان الذي تواجـه به البحـر، أي ليست مثل القيـدوم، كما أنه ليس لها منقار، بل هي عريضـة، وهي تنحني من الأعلى نحو الأسفل حتى الماء، وهي أعلى بكثير من القيـدوم، ويوجـد فـوقهـا بناء يطلقـون عليـه اسم القلعـة، ومعلق منهـا هناك نحـو البحر الدفـة، أو عمـود الدفـة، حيث يوجد فوقها حجرة شبكية، هي للموجه الذي يمسك بيديه ذراع الدفة، وتتألف القلعـة من ثلاثـة طوابق، يجلس في الأول منهـا الموجـه للدفـة، والمسـؤول عن البـوصلة، وهو الذي يخبر الموجـه للدفـة عن مـؤشرات البوصلة، وهناك أيضـاً الذين يتولون مراقبـة النجوم والرياح، ويشيرون

إلى الطريق عبر البحـر، والطـابق الوسط هو الذي فيـه قمـرة صـاحب السفينة وقبطانها، ومعه رفـاقه النبلاء، وخـدم المائدة، والطابق المنخفض هو المكان الـذي تقيم فيـه السيـدات النبيـلات في الليل، وفيـه يضع القبطان أمواله وثروته، ولاتتلقى هذه الحجـرة النور إلاّ من خلال فتحة باب جـانبي موجود في السطـح فوقه، ويجري على طرفي المؤخـرة تعليق القاربين، اللذين أحـدهما كبير، وثانيهما صغير، ويجري انزالهما في الموانيء إلى سطح البحر، لاستخـدامها في انزال الناس إلى اليابسـة، ويوجد على الجهـة اليمنى السلالم، التي تستخـدم للنزول عليهـا إلى القاربين عندمـا يكونا على سطـح البحـر، أو يتم الصعـود عليهـم إلى ظهـر المركب، وللمؤخرة شراعهـا الخاص، وهو أكبر من شراع القيدوم، وهم يطلقون عليـه اسم Mezavala أي الشراع الأوسط، واسـم هذا الشراع بالـلاتينيـة epidromus ، ويرفع العلم دوما على المؤخرة، لإظهار الاتجاهات التي تهب فيهـا الريح، وهناك مقعـديـن خلف البيت على المؤخـرة، وذلك على الجهـة اليمنـى، فهناك مكان المطبـخ، وهو غير مغطى، ويوجـد تحت المطبخ مخزن الأطعمـة، ويوجـد أيضـاً إلى جـانب المطبخ الاصطبل المعمـول من أجل حيـوانات الذبح، وعليـه يوجد فيـه أغنام، ومـاعـز، وعجـول، وثيران، وأبقـار، وخنازير كلهـا واقفـة مع بعضهـا، وبعيد ذلك، يوجـد على الجانب نفسه مقـاعد متصـالبة عليهـا مجاذيف وهي ممتـدة حتى القيـدوم، ويوجد على الجانـب الأيسر مقاعـد مجذفين، وذلك طوال الطريق مـن المؤخـرة حتى القيـدوم، وهناك فـوق كل مقعد ثلاثة مجذفين مع رامي للقوس، ومعلق بين مقعدين على حافة السفينة على كل طـرف من الطرفين bombarda بوصلة حـديدية متحركة، كما ويوجد على كلا الطرفين bombardana ، منها يجري في أوقات الضرورة رمي الحجارة.

وتقف في وسط السفينة السارية، التي هي طويلة، وسميكة، وشجرة

قـوية معمـولة من عـدد من الجذوع، مـربوطة مع بعضهـا، وهي تدعم العارضة بالـ accaton أو بالشراع الرئيسي، ويوجد على رأس السارية حجــرة يطلق عليهــا الألمان اسم «السلة»، والطليــان «القبــة»، وهي باللاتينية carceria، وعلى ظهر المركب، هناك إلى جانب السارية مكان مكشوف، يجتمع الناس فيه للتحادث، مثل ساحة سوق عائدة للغليون، ويتألف الشراع الرئيسي من ثلاث وخمسين قطعة قماش، طول كل قطعة أكثر من ذراع، ومن أجل مواجهة مختلف أنواع الأنواء يجري رفع أنواع متعددة من الأشرعة، إنها ليست بسعة الـ occaton، ويسكن فوق ظهر الغليون ضبـاط الغليون، وعبيـد الغليون، حيث يجلس كل انســان فوق مقعده، وهناك ينامون، ويأكلون ويعملون، ويوجـد بين المقاعد على كل طرف من الطرفين فسحـة واسعة إلى حـدما، يقوم عليهـا صناديق كبيرة مليئة بالسلع والبضـائع، ويوجد فوق هذه الصناديق طـريق يصل مابين القيـدوم والمؤخــرة، يسعى عليـه الضبـاط صعــوداً ونزولاً أثناء عمل المجاذيف، وبجوار السارية توجـد الفتحة الرئيسية للباب نحو الأسفل، حيث ينزل الإنســان سبع درجـات إلى القمـرة، التـي هي المكان الذي يعيش فيـه الحجـاج، أو حيث توضع حمولات وبضائـع الغليون، وتمتـد هذه القمـرة طوليـا من غـرفـة المخزن في المؤخـرة إلى الحجـرة الصغيرة الموجـودة في القيدوم، وأمـا من حيث العـرض فهـو من الطرف الأول للسفينة إلى الطرف الثـاني، وبذلك تشكل المسـاحة مكـاناً كبيراً وغرفـة واسعـــة، وهي لاتتلقى إنارة إلاّ مــا يأتي من خــلال فتحــات النزول الأربعة، ويمتلك كل حاج في هذه القمرة مخدعه الخاص أو مكان نومه، وجـرى ترتيب المخـادع بحيث غطـت كل السفينة، أو بالحري القمـرة، وكل مخدع هو ملاصق للآخـر من دون أية فسحة فيما بينهما، ويضطجع كل حـاج إلى جانب الآخر، على طـرفي السفينة، وقدما كـل واحد منهما ممتـدة نحو قـدمي الآخر، وفي المكان الـذي تكون القمرة فيـه عريضـة، وضعت صناديق الحجـاج وحقـائبهم فيما بين المخـادع، وهي ممتـدة من

غرفة المخزن حتى الحجرة الموجودة في القيدوم، وفيها يحفظ الحجاج حاجياتهم الخاصة، وتمتد أقدام النائمين من على الجانبين حتى هذه الصناديق، ويوجد تحت الحجاج فسحة واسعة، تصل حتى قعر الغليون، ويطلق على هذه الفسحة اسم معدة الغليون، لأن قعر الغليون ليس مستوياً، مثل السفن الأخرى، لكنه حاد من الدفة حتى المؤخرة، وبناء عليه ينتهي الغليون بالأسفل بقدم حادة، وهي حادة إلى حد أنه عندما يكون الغليون خارج الماء، لايمكنه الوقوف قائماً فوق الأرض، بل لابد من أن يميل على أحد جانبيه، ويجري تعبئة هذا الفراغ الحاد بالرمل، حتى دعامات ظهر السفينة، ويدفنون في الرمال الزجاجات التي يحفظون فيها الخمرة، والبيض والأشياء الأخرى التي تحتاج إلى البقاء باردة، ويوجد في الأسفل حيث يعيش الحجاج بئر من أجل الماء الآسن، وهو موجود إلى جانب وسط السارية، ولايحتوي هذا البئر على القاذورات البشرية، بل يحتوي على جميع المياه المرئية وغير المرئية التي تدخل الى الغليون وتتسرب إليه، وتتجمع بعد ذلك في ذلك البئر، وهي ذات رائحة مقيتة، وهذه الرائحة الصادرة عنها أبشع من أية روائح صادرة عن الغائط البشري، ويتوجب نضح مياه هذا البئر كل يوم، ولكن في الأنواء القاسية يجري تصريف المياه منه بدون توقف، ويوجد على طرفي الغليون أماكن أعدت للمقاصد الضرورية.

والغليون كله مغطى من الداخل ومن الخارج ومطلي بأشد أنواع الاسفلت سواداً، ويفعل مثل ذلك بالحبال لابل حتى بالألواح الخشبية، وبكل شيء آخر، من أجل الحيلولة دون الاهتراء بالماء، وتحتل الحبال التي هي من أجل عمل الأشرعة والمراسي حيّزاً كبيراً في الغليون، وذلك لكثرتهم، ولطولهم، وغلظتهم، ولكثرة أنواعهم، ومن المثير للدهشة النظر إلى حشد الحبال وربطاتهم، ولفهم من حول المركب، ويشبه الغليون الدير، لأن مكان الصلاة موجود على الظهر إلى جانب

السارية، وذلك حيث يوجد مكان السوق، ويشغل المكان الوسط من المؤخرة مكان المائدة العامة، ومقاعد عبيد الغليون، ومخادع الحجاج مكان مهجع النوم، ومكان القداس موجود أمام المطبخ، والسجون موجودة تحت المقدمة والمؤخرة، والمخزن، والمطبخ، والاسطبل كلها أماكن مفتوحة نحو السماء، وذلك فوق ظهر المركب، وهكذا بمرورنا بأشياء كثيرة، تملكنا صورة للغليون.

وقارن القديس جيروم في رسالته إلى الرجل المريض العالم بالبحر، والدير بالسفينة، وكذلك الأوضاع الأخلاقية والخلقية هناك، وقد أوضح كيف أن البحر يشبه العالم، لأنه بطبيعته غير مستقر، وهو صاخب من دون ريح، ثائر حتى في وقت الهدوء، حاد وفيه أمواج مرعبة، وهو حتى عندما لايؤذي الذين لايعومون فوقه، فإن سعته، حتى عندما لايؤذي، تقذف الرعب في القلب، ويعاني الذين يبحرون فوقه دوما من الرعب، ومن تضارب الأمواج وهياجها، ومع ذلك قد ينشر الموجه للسفينة بعد هياجها جميع الأشرعة من دون خوف، وفي العالم مثلما هي الحال في البحر، الإزدهار نادر، والفوضى عامة، وكلاهما مليئين بالمنغصات وبالرعب، والانزعاج أيضاً، ليس معدوماً، والملجأ الأمين الوحيد هو الموت.

النظام الذي يدار الغليون به

جرى إعداد نظام السفينة بدقة متناهية مثل بقية الأنظمة، ولهذا السبب استقى أرسطو مع الكتاب الآخرين حول السياسة أمثلتهم من أنظمة الملاحة، واستقوا شواهد منها، كما هو في بداية الكتاب الأول من كتاب «الأخلاق»، لأنه في السفينة أكثر من أي مكان آخر يوجد في مكان الجماعة العام الموضع الذي يضم جميع الشعوب الأخرى، لأنه بدونه من غير الممكن وجود أي مملكة، أو مدينة، أو قرية، وهو الأول بين الجميع، هذا ويضم البيت الكامل ثلاث جماعات هي: الزوج

والزوجـة، أو السيـد والخادم، أو الأب والابن، ولايحتـوي البيت في السفينة على الجماعة الأولى من هؤلاء، والجماعة الثانية موجودة فيه بالتمام والكمال، وهو يحتوي على بعض الشبه مع الثالث، حيث يوجد فيه السيد والقبطان، مع كثير من الخدم، والسيد هو مثل الأب، وهو الحامي للحجاج، الذين هم بمثابة أولاده، وحدد أرسطو في الكتاب الأول من كتاب «السياسة» الأشكال الثلاثة من أحكام هذه البيوت، ففي البيت الأول الحكم للزوج على زوجته، وهذا ثانية موجود في السفينة، الذي معناه أنه بالوسائل العامة يمكن لجماعة البيت الاستمرار، لكن ما من أحد يحاول الإبقاء على جماعة السفينة، بل يسعى إلى فضها في لحظة الوصول إلى المرفأ المرغوب، والثاني هو نظام أحكام الأبوة، أي حيث يحكم الأب أولاده، وهذه الصلة قائمة فيما بين القبطان والحجاج، بقدر ماتقتضي الطاعة، حيث يرى الحجاج أن من واجبهم إطاعة القبطان، والثالث هو نظام التسلط الطغياني، حيث القبطان الذي هو المحرك الأول والمعلم، يتولى تعيين الوظائف والأوامر بالنسبة للآخرين، ويحدد لهم درجات السلطة لأحدهم فوق الآخر، ويبقى هو ثابتاً لايتحرك مثل الملك أو الحاكم، الذي تنفذ السفينة أوامره مهما كانت، وهو لايتدخل بفن الملاحة، كما أنه لايفهم هذا الفن، بل الذي يقوم به هو مجرد إعطاء الأوامر إلى السفينة لتبحر إلى هنا أو إلى هناك، ويقف جميع الذين في السفينة مرعوبين منه، ويحال كل خصام شديد بين الحجاج أو بين طاقم الملاحين إليه، ومامن أحد يجري تعيينه قبطانا لغليون، خاصة الغليون الذي يحمل فرساناً حجاجاً، مالم يكن نبيلاً، وقوياً، وغنياً، وحكيماً، وشريفاً، وعندما يجري تعيينه، يصطحب معه بعض الأصدقاء، الحكماء، والمجربين، حيث معهم يتشاور، وإليهم يبوح بأسرار أفكاره، فضلاً عن ذلك، كان يتولى اختيار واستئجار أحد الرجال الشجعان ممن لديه امكانات قتالية، وله خبرة في الحروب البحرية، فيعينه قائداً حربياً، أو كما يقولون «معلما للسلاح»، ويزود

الغليـون بالمدافع، والمجـانيق، والقسي، والرمـاح، والعصي، والسيـوف، والدروع، والترسة، ولدى القبطان أيضاً حـاجب، يتولى توفير كل شيء له علاقة بالأطعمـة، وهـم يطلقون عليه اسم Schalk، وهو يتولى إدارة مخزن الأطعمة والمطبخ، ويراقب أمور الخبـز والخمرة، والحيوانات المعدة للذبح، ويصدر كل يوم الأوامر إلى الطهاة، وإلى صاحب مخزن الأطعمة بأن يقومـا بكذا وكذا من الترتيبـات المتعلقة بالطعـام والشراب، وإذا ما حـدث نقص بالطعام أو الشراب، فتلك لـن تكون سوى غلطتـه، وهو وحـده يتحمل المسؤوليـة عن ذلك، ولهذا السبب نجـد أن الـ Schalk مكروهين بالعادة على ظهر السفينة، فضلاً عن هذا للقبطان موظف آخر قوي، يسمـونه الخليفة، فهو الذي يتـولى حكم الغليون، والنظر في جميع أجـزائه، فيرى هل هناك أي شيء غلط، أو أي جـزء منه محطم، أو أي شيء يعيق إبحاره، فهـو الذي يتولى ترتيب البضائع، ويتـولى اصلاح أو ترميم مافسد، ويرعى شـؤون الغليون من بئره إلى رأس ساريته، وذلك من قيـدومه حتى مـؤخرته، وهناك مـوظف قوي آخـر للسفينة يسمى القرصان Pirate، ونفترض نحن الألمان أن اسمه يعنـي المرشد Pilot، فهو يعـرف أكثر الدروب سـلامة وأقصرها عبر البحـر، وتأخذ السفينة طريقهـا وتتوجه وفقـاً لأوامره أو نصـائحه، وإذا مـاوصل إلى مكان في البحر غير عـارف به، يأمرهـم بالرسـو في أقرب ميناء، وهناك يتخلى عن عمله، في حين يقوم القبطان باستئجار مرشد آخر، يعرف ممرات البحر، وذلك خشيـة أن تتـواجـه السفينة من خـلال الجهل مع charYbdi أو syrtis أو Bythalassium.

ويكون مع المرشـــد نفســـه، بعض الرجـال البـــارعين، والفلكيين، والمنجمين، الذين يتولون مراقبة علامات النجوم والسماء، ويقررون أي نوع من الرياح سوف تهب، ويقدمون المشورة إلى المرشد نفسه، وهؤلاء الرجـــال كلهـم مثل بعضهم على دراية واسعـــة بفنهم، إلى حـــد أنهم

بنظرتهم إلى السماء يمكنهم أن يخبروا سلفاً هل ستكون هناك عاصفة أم هدوء، ذلك أنهم يستطيعون قراءة الشارات في لون البحر، وفي تجمع الدلافين مع بعضها مع حركتها وكذلك الأسماك الطائرة، وفي دخان النار، وفي رائحة الماء الآسن، وفي بريق الحبال والكابلات في الليل، وفي لمعان المجاذيف لدى غطسها في البحر، ويعرفون في الليل جميع الساعات بالنظر إلى النجوم، ولديهم إلى جانب السارية بوصلة، وبوصلة أخرى في الحجرة العليا للقلعة، وإلى جانبها مصباح مشتعل بشكل دائم طوال الليل، وهم لايزيحون أعينهم عن المصباح لدى إبحارهم أثناء الليل، بل يتوجب على أحدهم التحديق بالبوصلة بشكل دائم، والغناء بنوع من الأغنيات الحلوة، تظهر أن كل شيء يسير على مايرام، ويغني باللحن نفسه إلى الذي يمسك بعصا الدفة، موضحاً إلى أي اتجاه ينبغي للدفة أن تتحرك، ولايتجرأ الممسك بالعصا والموجه للسفينة على تحريك الدفة مطلقاً إلاّ بناء على أوامر الذي يراقب البوصلة، فهو الذي يرى فيما إذا كانت السفينة تسير بشكل مستقيم، أو متخبط، أو جانبي، وانظر حول هذا الموضوع فيما يلي، ولديهم أيضاً أدوات أخرى، يمكنهم بوساطتها معرفة مسارات النجوم، وهبات الرياح والممرات في البحر، من ذلك على سبيل المثال لديهم خريطة، طولها ذراع، وعرضها أيضاً ذراع، عليها جرى رسم البحر كله بآلاف وآلاف الخطوط، ورسمت البلدان وعلمت بنقاط، أما الأميال فبالأرقام، ومن خلال هذه الخارطة يمكنهم معرفة أين هم، حتى عندما لايمكنهم رؤية أية أرض يابسة، والنجوم أنفسها مغطاة بالسحب، ويمكنهم اكتشاف ذلك بمدّ خط منحني من خط إلى آخر، ومن نقطة إلى أخرى ببذل جهد رائع، ولديهم أيضاً أدوات أخرى كثيرة بوساطتها يجدون طريقهم فوق البحر، وهم يجلسون كل يوم يتباحثون حول ذلك.

ويأتي بعد هذا الموظف الرئيسي للغليون، والذي يتولى القيام بالعمل

الفعلي، والذي يتلقى أولاً أوامر الابحار ويتسلمها، موظف آخر اسمه cometa وهو وكيل ربّان الغليون، ومكانه هو تحت القلعة فيما بين مقاعد المجذفين والطابق الأعلى، وإليه يبوح القبطان برغباته، وبناء على ذلك يقوم هو بتحريك طاقم الملاحين، وهو قد علق حول رقبته صفارة فضية، بوساطتها يعطي الاشارة للبحارة ليقوموا بالأعمال المتوجب تنفيذها، ويتم سماع هذه الصافرة في كل وقت من النهار والليل، ويستجيب لها على الفور جميع الرجال باصدار صفير جواباً له، ويأمرهم هذا الموظف بالرسو في أحد الموانىء أو بالخروج منه، أو بانزال المراسي أو سحبها، أو بنشر الأشرعة أو طويها، أو بالعمل بوساطة المجاذيف أو بالتوقف عن العمل، أو بتحريك السفينة للوقوف عند الشاطىء في الصباح، أو بانطلاقها، ويخاف الموظفون الذين دونه منه مثلما يخافون من الشيطان، لأنه يضرب بالعصي، ويعاقب كل من أراد بقبضتيه أو بأطراف الحبال، ولايتجرأ أحد بالتمتمة ضده، لأن الجميع سوف ينهضون ويهاجمون المتمتم عندما تعطى الاشارة اليهم، ولقد رأيت ممارسة أعظم الأعمال الوحشية من قبل هؤلاء والوكلاء على عبيد الغليون المساكين.

ويوجد تحته موظف آخر اسمه البارون، أو عريف الملاحين في الغليون، وهو الذي يُحرك ويتحرك بوساطة أوامر الوكيل، ويعيش بشكل دائم في وسط الغليون قرب السارية، وهو أيضاً يحمل صافرة علقها حول رقبته لاصدار الأوامر بها، وحيث لايوجد وكيل للربان يركض عريف الملاحين وهو يصفر، ويصرخ، ويشجع الرجال على العمل، ومسؤوليته الخاصة هي عن الحبال، والأشرعة، والمراسي، بأن يكونوا دوماً موائمين، وجاهزين للاستخدام، وله امتيازات خاصة وحقوق على ظهر السفينة، ويوجد تحته موظف آخر يعرف باسم «تحت البارون sub parono »، وهو يتلقى أوامره، ويعطيها إلى الآخرين.

ويأتي بعـــد هذيـن بعض الرجـــال الذيـن اسمهم companí، أي الرفـاق، وعـددهم حـوالي التسعـة، وبعض هؤلاء يرأسـون آخـرين في العمل، وهؤلاء الرجـال هم الذين يعـرفـون كيف يعتنون بالحبـال مثل السنانير، وهم الذيـن يتسلقـون على القلع بسرعـة كبيرة وصـولاً حتى الرأس، ويركضون على طول عارضة الشراع، ويقفون منتصبين حتى في أشد العواصف، وهم الذين يرفعـون المراسي، ويغطسون عميقاً في الماء، إذا مـاالتصقت المراسي ولم تتحـرك، وهم الذيـن يتـولون القيـام بأخطر الأعمال على ظهر السفينة، وهم بشكل عـام شباب على درجة عـالية من النشاط، وهم لايعرفون السكون في حياتهم، وهم أيضاً شجعان وأقوياء في الغليـون مثـل أتبـاع البـارون المسلحين، ومجدداً يوجـد تحت هؤلاء آخرين يسمـون الملاحين، وهم يغنون أثناء القيام بالعمل، ويكون الغناء بقيـام واحـد بالغنـاء بالأوامـر الصـادرة، ويردد العمال خلفـه مغنين متجـاوبين معه، ويقف هؤلاء الناس إلى جـانب الذين يعملون، ويغنون لهم، ويشجعـونهم، ويهددونهم بتـوجيـه الضربات لهم، وبهذه الواسطة يجري سحب أوزان كبيرة، وهؤلاء بـالعـادة رجـال متقـدمين بالسن ومحترمين، ودون الجميع في الغليـون العبيـد من الطبقـة الأولى والطبقـة الثانية، وهم الذين نسميهم باللاتينية remiges ، أو المجذفين، وهم الذين يجلسـون على المقاعد المتصـالبة للعمل بـالمجاذيف، ويوجـد عدد كبير منهم، وهم جميعا رجال لهم أحجام كبيرة، ذلك أن عملهم مناسب فقط للحمير، وهم يحرضـون على تنفيـذ أعمالهم، بالصراخ، والضربات، والشتائم، مثل حال بعض الخيول وهي تتولى جرّ عربات مثقلة بالأحمال صعـوداً فـوق طريق منحـدر، وكلما جـروا أكثـر وأثقـل، كلما جـرى تحريضهم أكثر ودفعهم، ولدى قيام هؤلاء التعساء بالجر أكثر يتعرضون للضرب ليجروا بشـدة أعظم، ولقد أعيتني الكتـابة، وإنني لأرتجف وأنا أفكر بعـذاب وعقـوبات هـؤلاء الناس، ذلك أنني لم أرقط حيـوانات تحميل ضربـت بمثل هـذه الوحشيـــة التـي ضرب هؤلاء بها، وكثيراً

مـاأرغموا على ترك قمصـانهم ومـآذرهم معلقة من أوسـاطهم، والعمل بظهـور عـارية وأذرعـة وأكتـاف، وذلـك من أجل أن تصل الأسـواط والمقارع إليهم.

والشطر الأعظم من عبيد الغليون هؤلاء، قـد شريوا بمثابة رقيق من قبل القبطان، أو أنهم أناس مـن سـوية متـدنيــة، أو سجناء، أو رجـال فـــارين، أو مطرودين مـن ديارهـم، أو منفيين، أو تعســـاء، لايمكنهم العيش أو كسب مـورد للعيش على اليـابسـة، وكلما توفـرت خشيـة من فـرارهم كـانوا يربطون إلى مقـاعـدهم بالأغـلال، وبشكل عـام هم من مقدونية، أو رجال من ألبانيـا، أو آخيا، أو إليريا أو سكلافونيا، ويكون في بعض الأحيـان بينهم أتراك ومسلمين، يخفـون — على كل حـال — دينهم.

وأنا لم أرقط عبـد غليـــون ألماني، لأن مـامـن ألماني يمكنه أن يعيش ويبقى حياً وسط هذه التعاسة، فعبيـد الغليون قد اعتادوا على تعاستهم، إلى حـد أنهم يعملون بضعف شـديـد وبدون قصـد، مـالم يقف انسـان فـوقهم، ويقـوم بضربهم مثل الحمير، ويلعنهم، وهم يطعمـون بتعاسـة متناهية، وتراهم دوماً نائمين على مقاعد تجذيفهم، وهم دوما في كل من الليل والنهار جـاهزين في العراء للعمـل، وعندما تكون هناك عـاصفة، يقفـون في وسط الأمواج، وهم بشكل عـام لصوص، ولايوفـرون شيئاً يجدونه، مع أنهم يتعـرضـون مقابل كـل جريمـة إلى التعـذيب الوحشي الذي لاحدود له، وعندما يكونون بدون عمل يجلسون ويلعبون بالورق والنرد من أجل الذهب والفضـة، مع أيمان لاتحتمل وتجديفـات، وأنا لم أسمع قط مثـل هذه الأيمان المرعبـة التي سمعتهـا على ظهـر المركبين المتقدمي الذكر، لأنهم لايفعلون شيئاً سواء أكان بادرة خير أو أمانة، من دون تجديف قـذر جداً، وشتم للرب وللقـديسين، ويكون بينهم أحيـاناً بعض التجـار المحترمين، الذي أخضعـوا أنفسهم لمثل هذه العبـودية

القاسية جداً، من أجل إمكانية الترويج لتجاراتهم في الموانىء، وبعضهم ذوي اختصاصات فنية، مثل الخياطة أو صناعة الأحذية، حيث يمكنهم في أوقات الهدوء صناعة أحذية ومآزر، وقمصان على ظهر السفينة، وبعضهم عمال غسيل، يتولون غسل القمصان على ظهر المركب، مقابل أجر.

وفي الحقيقة، بالنسبة لهذا المجال، جميع عبيد الغليون كلهم سواء، فهم جميعا تجاراً، وكل واحد منهم لديه شيء ماللبيع موجود تحت مقعده، وهو يعرضه للبيع عندما يكون في أحد الموانىء، والتجارة قائمة يومياً فيما بينهم، فضلاً عن هذا، هم بشكل عام، يعرفون على الأقل ثلاث لغات هي: السكلافونية، والاغريقية، والايطالية، ويعرف الشطر الأعظم منهم التركية أيضاً، ويوجد حتى بين عبيد الغليون أنظمة ودرجات، ذلك أن بعضهم لديهم سلطة كلفوا بها فوق آخرين، والذين هم محل أعظم ثقة بينهم يوضعون حراساً حول ممرات ومجازات الغليون، ويطلق عليهم اسم «الحراس»، ويتولى بعضهم العمل في قيادة القيدوم، وبعضهم على جهة اليمين، والآخرين على جهة اليسار، ويخدم بعضهم في دفة القيادة، ويعامل هؤلاء بشكل أفضل، ويوجد أيضاً في أغلب الغلايين ثلاثة أو أربعة شباب أقوياء قد تعلموا الركض فوق الحبال، وقد دربوا أنفسهم على الأعمال الأخرى التي تحتاج شجاعة، وإلى جانب عبيد الغليون هناك بعض اختصاصيي المدفعية، وبعض الذين ينفخون بالأبواق، فهؤلاء يزعقون بأبواقهم في الصباح وفي المساء، وقبل الغداء، وبعد الغداء، وفي جميع الموانىء، ويجري استخدام بعضهم في تنظيف الغليون وتزيينه، ويوجد على ظهر الغليون حلاقين على الأقل، هما بالوقت نفسه طبيبان وجرائحيان، وإلى جانب ذلك هناك معذبون أشرار، هم مثل الذين يفسحون الطريق أمام الحكام، يلقون على الشاطىء ويعذبون كل من يأمرهم القبطان بتعذيبه، وهناك

موظف آخر صاحب سلطات عظيمة في الغليون، يطلقون عليه اسم «الكاتب» أو «المحاسب»، وهو الذي لديه أسماء جميع الأشخاص الذين على ظهر الغليون، قد دونت في كتبه، ويأخذ أسماء الذين يصعدون إلى ظهر الغليون وأسماء الذين يغادرونه في كل ميناء من الموانىء، وهو الذي يتولى فض جميع الخلافات التي تثور حول أماكن النوم، ويجعل الناس يدفعون أجور عبورهم، وعليه واجبات كثيرة، وهو —كقاعدة — مكروه من كل انسان سواء، وأكثر بكثير من جميع موظفي الغليون.

حول العدالة والقضاء ورعايتها بكل دقة على ظهر الغليون

ومن أجل الحفاظ على السلام بين مثل هذا الحشد من الناس، جرى إفراد مكان خاص من أجل العدالة، ويجري تطبيق عدالة دقيقة فوق الغليون، حيث يوجد على ظهر الغليون قضاة يجلسون في كل يوم — إذا قضت الحاجة — لممارسة أعمال القضاء، حيث يستمعون إلى الطرفين المتخاصمين، ويقررون الأسباب، والإجراءات القضائية دقيقة جداً على ظهر المركب، فضلاً عن هذا إذا ما اختلف بعض الأشخاص حول أي شيء وقع في الغليون، إنهم إذا لم يقوموا بفضه بوساطة قضاء المحكمة البحرية، غير مسموح لهم بالشكوى ضد بعضهم بعضاً في أية محكمة لاتعقد في البحر، كما أنه مامن انسان مجبر على الالتزام بأي عقد أبرم مع آخر، بعد مغادرته السفينة، كما لايجوز لأي قاض يعمل على اليابسة التدخل بعقود أبرمت في البحر، وإذا ما أقرض انسان رجلاً آخر عشر دوقيات في البحر، وقال الرجل الآخر بعد الذهاب إلى اليابسة بأنه لم يستلمهم مامن قاض يمكنه أن يرغمه على إعادة الدفع، كما لايمكن الاستماع إلى أي شاهد ضده، وهكذا يقول الملاحون: سواء أكانت الحقيقة هكذا، أو بالفعل كان الأمر كذلك، كل واحد يمكن أن يقرر ذلك حسب هواه، ولهذا السبب روعيت الإجراءات القضائية بدقة، وكانت تتم عقوبة اللصوص، لكن بشكل خفيف، ولايدان أحد

بالإعدام، بل كـانت أقسى العقوبات التي تصدر على ظهـر السفينة ضد أي واحد اقترف جـريمة كبيرة، هي أن يجلد حتى يفقـد وعيه، ويضرب على قـدميـه، وبعد إنزال هـذه العقوبة به كـان يلقى به على اليـابسـة في أقـرب مكان، ويترك يذهب في سبيلـه، حيث تبحـر السفينة مخلفـة إياه، ولقد رأيتهم يتعاملون على هذه الصورة مع لوطي، ويكفى ماقلناه حول هذا الموضوع، ونتابع الآن الحديث عن:

الخدمات الدينية وعن كيفية اقامة القداسات على ظهر الغليون

علينا عـدم حذف معـرفة كيف يتصرف الذين يذهبـون بالبحر نحـو الرب، في تأديتهم للقداسـات، لأن عليهم في الحقيقة أن لايكونوا ناسين للرب، في وسط مثل هذه المخـاطر والمخاوف، وتجري عبـاده الرب على ظهر السفينة ثلاث مـرات في اليوم، أولاً في الصباح البـاكر، عند اشراق الشمس، عندما يقـوم واحد من خـدم القبطان، يكون واقفاً عاليـاً فوق رأس القلعة، فيأمـر بالصمت بوساطة صـافرته، ويرفع بعـد ذلك لوحاً من الخشب، مـرسوم عليـه صورة العـذراء المبـاركة، وهي تحمل طفـلاً بذراعيهـا، ولدى رؤيتها يقـوم الجميع بالركوع وقـول الـ AVE MA-RIA وقـــول صلوات أخـرى حسب الاختيـــار، ومـا أن يقـــوم بنقل الصـورة وإبعادها حتى يبـدأ البواقـون بالنفخ بأبواقهم، وعندها يمضي كل انسان إلى عمله.

والمرة الثانيـة هي في حوالي الساعة الثـامنة قبل منتصف النهار، حيث تعطى شارة الصلاة ثانية، ويجري تغطيـة صندوق قائم على ظهر المركب قـرب السارية، بغطاء قماشي جيـد، ويتم هناك وضع شمعـدانيين، وبين الشمعدانيين تمثال للصليب، وكتاب للقداس، وكأن القداس على وشك القيام به، ويأتي جميع الحجاج إلى ظهر السفينة ويتحلقون حول السارية، ثم يقـدم راهب واضعـاً بطرشيل حول عنقـه، ويبـدأ بالـ Confiteor، ومنه يقـرأ القـداس التالي، ويدع القـانون دون أن يقـرأه، لأنه لايكمل،

وبذلـك يؤدي القــداس مـن دون تضحيــة، منهيــاً إياه بما جــاء في الانجيل:«في البـدء كـانت الكلمـة»، ويطلق على هذه القـداسـات اسم «الجافـة» أو «الحارة»، وأنـا لا أتذكـر أنني قــرأت في أي مكان، فيما إذا كانت هذه الطريقـة بقراءة القداس قـد تأسست على الشريعة القـانونية، والذي أعــرفـه أن بعض العلماء غير راضيين عن ذلك، ويقــولون بأن قراءة ذلك الجزء من القداس، الذي يجري الغناء به بشكل مكشوف من قبل فـريق الأداء هو عمل غير معترض عليه، لكن أن تقـرأ ذلك الجزء وأنت لابس البطرشيل مع كل توابعـه، وبمهابة كهنوتيـة، فهذا خـداع، وهم ينشـدون مثل هذه القـداسات، مثـل قداسـات أيام الأعيـاد، لكن تقدمة القربان لم تكمل قط على ظهر السفينة.

وقبل أن أقـوم بتفحص هـذه القضيـة بشكل دقيق، غـالبـاً مـاكنت أصاب بالدهشة تجاه ذلك، وعـزوتها إلى إهمال أساقفتنا، الذين كما يبدو لي، أبدوا قليلاً مـن الاهتمام تجاه خلاص أبناء الكنيسة، وكـان ذلك أقل ماينبغي ومماهو صحيح، خاصة عندما نقـرأ أنهم أقاموا قداسات في أيام القديس غريغـوري على ظهر السفن، حسبما يمكن رؤية ذلك في حواره الثــالث، حيث نقــرأ أن بعض الناس الـذين كــانوا في خطر بالبحــر الأدرياتيكي شـاركـوا جـزئياً بجسـد الرب ودمـه، وانظر أيضـاً حكاية القـديس لويس، ملك فـرنسـا، ويبدو في الحقيقـة الأمـر بالنسبـة لي أنه يحتـوي على شطر كبير من الاهمال من جـانب الكنيسـة، حيث لم تتخـذ إجـراءات منذ زمن طويل مضى بالعهـدة بإدارة القـداسـات إلى رجـال يكونون في وسط مثل هذه المخـاوف، وبشكل خاص للحجـاج، الذين يتحملون هذه المخـاوف من أجل محبة الرب وتشريفـه، وبعدمـا قدرت هذه المسألـة بكل عناية، وفكرت بشكـل منطقي حــولها، وجــدت أن كنيستنا الأم المقـدسة والحكيمـة لم ترغب بكمال قداس القـربان الأعظم قداسة، وبعدم مراعاته تمامـاً على ظهر السفينة، وكان هذا لعدة أسباب،

أولها: أن هذا القداس ليس قداساً ضرورياً، بل فيه كفاية الخلاص لانسان امتلك النية بالمشاركة بذلك في وقت مناسب ومكان موائم، هذا ولايوجد على ظهر السفينة مكان مناسب، كما سنرى ذلك فيما بعد، لابل حتى وإن توفر وقت (٤٩ب) الوقت أيضاً في كل حين غير موائم، وثانيا: لأنه لايوجد على ظهر السفينة كاهن مناسب تكون وظيفته الخاصة وواجبه الاحتفال بقداس العشاء الرباني المقدس، وذلك حسب توجيهات القانون، لأن مامن أحد يعرف إلى أي الأبرشيات تنتمي السفينة، لذلك جرى حذف ذلك، وثالثا: من غير الممكن الحفاظ بشكل جيد على خبز القربان هناك، لأنه الأرغفة المخبوزة بشكل جيد لاتعيش طويلاً على ظهر السفينة، بل تصبح بعد مضي عدة أيام مليئة بالماء ومتفتتة مثل التراب، وبناء عليه كم أقل وقتئذ سيبقى هناك الخبز من النوع الأرقى والذي غير مخبوز بشكل جيد؟ ولايمكن لخبز القربان أن يبقى في الأنواء الرطبة أكثر من ثلاث ساعات، يذوب بعدها ويصبح عجينا مائعاً، ويحدث الشيء نفسه للرقائق التي هي غير مناسبة للاستخدام في الأنواء الرطبة، ورابعاً، من المفترض الاحتفاظ بخبز القربان في الكنيسة وفي مكان مقدس، ومعلوم أن السفينة ليست كنيسة، وليست مكانا مكرساً، كما أنها ليست مكانا للاقامة الدائمة، وخامساً، ينبغي أن نبقي إلى جانب قداس القربان مصباحاً مشتعلاً بشكل دائم، وهذا أمر غير ممكن على ظهر الغليون، لأنه بقوة الرياح، واندفاع الأمواج، غالباً مايكون الغليون مغطى بالماء، ولايمكن الحفاظ على ضوء مشتعل سواء في مشعل أو مصباح، وسادساً ينبغي عدم إقامة القداس على ظهر الغلايين مع عدم الاحتفاظ بخبز القربان هناك، بسبب عدم التأكد من المخاطر التي من الممكن أن تحل بهم، لأنه فجأة وبغمضة عين يمكن للعاصفة أن تثور، حيث تسبب تأرجح السفينة بعنف لدى قدومها، حتى أن الكاهن إذا ماكان واقفاً قرب المذبح، لايمكنه المحافظة بالوقوف على قدميه، ولا الكأس أو الصليب، كما أن

المنضـده لايمكن أن تظل في مكانها، بل في لحظة ينقلب كل شيء عاليه سافله، وسابعاً إنه بسبب عنف الرياح، نجـد أنها عندما تهب، لايمكن للضوء أن يبقى مشتعلاً، ولالغطاء المذبح والأغطية الأخرى البقاء، بل سيتم رميها من على المذبح، وثامنا بسبب عدم التيقن من حركة الماء التي تجري الآن إلى هنا ثم بعد ذلك إلى هناك، حتى عندما يكون هناك قليل من الريح، وعندما لايكون أحداً متوقعاً حركة المياه أو خائفاً منها، نجدها تغطي فجأة الغليون بكميات كبيرة، فتفسد كل شيء تلمسه، وتاسعاً، بسبب الحاجة إلى وقار حقيقي، ذلك أنه لايوجد على ظهر السفينة مكان لايعرف الإثارة والاندفاع في بعض الأوقات، فالبحارة في أثناء سعيهم وراء أعمالهم المطلوبة، من غير الممكن ابداء الاحترام إلى الراهب وهو يقوم بأداء القداس، أو إلى القداس نفسه، بل إنه سيقلب كل شيء، ويزيح الكاهن والمذبح، والقربان كلهم سواء، لأن العمل في البحر ينبغي القيام به فجأة، وبسرعة مثل البرق، وهو ضاغط ولايمكن تأجيله، فضلاً عن هذا، الناس نيام في كل جزء من الغليون، وهم تجدهم يأكلون ويشربون، ويتسامرون ويكذبون ويحلفون ايمانا كاذبة، وكل هذا مدمر للوقار الجدير بالقداس، وعاشراً، لاينبغي الاحتفال بالقداس على ظهر السفينة، بسبب وجود أناس غير أهل بالاحترام، لأنه غالباً مايكون هناك على ظهر السفينة: يهود، وأتراك، ومسلمين، ومنشقين، وهراطقة، وخارجين على القانون والقضاء، ومحرومين كنسياً، وإذا لم يجتمع هؤلاء الناس غير الجديرين بالاحترام مع بعضهم، ولم يكونوا موجودين جميعاً لابد من وجود بعضهم هناك، حيث بحضورهم لايجوز الاحتفال بالقداس، وأحد عشر بسبب الذنوب الكبيرة الهائلة التي تقترف على ظهر السفينة، لأن الرجال يلعبون هناك يوميا بالورق والنرد، ويشتمون الرب بشكل مرعب وكذلك القديسين، ويحنثون بأيمانهم، ويكذبون، وينشلون، ويسرقون، ويأكلون بنهم، ويحشون أنفسهم، ويسكرون، هذا ولقد سمعت مراراً — وأصلي للرب

أن لايكون ذلك صحيحا — أن رقيق الغليون الشرقيين، يقترفون الاثم العظيم الذي لايمكن الحديث عنه، وهو اللواطة، على ظهـور الغلايين، وبناء عليه ان المكان الذي تقترف فيه مثل هذه الآثام وتمارس غير جدير بأن يؤدى عليه مثل هذه التقـدمات والقداسـات، وثاني عشر، إن رائحة التتن وقذارة كل من الغليون والرجال الذين على ظهره تجعل المكان غير مناسب، وثالث عشر، ينبغي عـدم الاحتفـال بالقـداس بسبب سخـرية الكفار، وعـار حضورهم، لأنهم إذا ماسمعوا بأن ربنا كـان حاضراً على ظهـر السفينة في القربان، حسبما نعتقـد في ديانتنا، ومع هذا رأونا ونحن نعيش مـذنبين، أو متخـاصمين، فهـذا لاشك سيجلب عـاراً فظيعـاً، ولسـوف يسخـرون من القـربان الأعظـم قـداسـة، ورابع عشر، بسبب الحمقى من المسيحيين والسيئين منهم، لأنه إذا ماكـان القداس قائماً على ظهـر الغليـون، وهبت عـاصفـة في البحـر، وأصبحت السفينة في حـالة خطر، ولم يأت الفرج أو العون على الفـور، سيتحول هؤلاء الحمقى من المسيحيين فوراً إلى أعمال النقـد ضد القـربان المقدس، ولسـوف يقولون بقلوبهم، إن لم يكـن بشفـاههم:«إذا كنت أنت المسيـح أنقـذ نفسك وأنقـذنا»، ولقـد رأيت حـالة من هذا النوع بعيني، ففي إحـدى المرات عندما استمرت العاصفة طويلاً وكانت تزداد عنفاً، قمت أنا وأشخاص من الطوائف المقـدسـة، وكهنة بالتـوجـه بأنفسنا نحـو الرب، وغنينا ابتهـالات، والتمسنا العـون من قـديسي الرب، لأن العـاصفـة كـانت خطيرة، وبينما هي في ذروتها، قال بعض النبلاء الذين تلقوا الفروسية في القـدس، لكنهـم كـانوا بلا إيمان، بوجـوب توقفنا عن الـدعـاء، لأنهم اعتقدوا أن العاصفة كانت تزداد شدة وحدة بسبب أدعيتنا، وقالوا لدى إيقـافهم لغنائنا للمزامير والابتهـالات:«لو أن أدعيتكم لاقت أي قبـول من الرب، لتم انقـاذنا منذ زمن طويل من هذا الخطر»، وبناء عليـه، إنه بدون شك لو أن القـداس جرى الاحتفال بـه على ظهر السفينة، لحدث الشيء نفسـه، لأن الجهلة وغير المؤمنين من الناس العلمانيين، يخيل إليهم

أنه عندما يكون القربان موجوداً بينهم، مامن شر يمكن أن يلحق بهم، وإذا مالحق بهم أي شيء من هذا القبيل سوف يعزونه لحضوره.

فهكذا فعل بنو اسرائيل، عندما أخذوا تابوه الرب وحملوه إلى المعركة معهم، معتقدين أنهم بذلك لن يلحقهم أي شر أو أذى على أيدي أعدائهم، لكن على الرغم من ذلك، تعرضوا للهزيمة، وسلب تابوه الرب وذلك حسبما ورد الخبر في الاصحاح الرابع من سفر الملوك الأول، لأن التعامل بدون احترام أو وقار وحمل الأشياء المقدسة يثير غضب الرب، أكثر من التعامل معهم بتواضع وأدب، ومثل هذا نجد بعض الفلاحين يجعلون مساعدي الخوارنة لديهم يحملون القربان إلى حقولهم وخلالها، من أجل أن لايجري تدمير محاصيلهم بهطولات البرد، وإذا ماجاءت المحاصيل جيدة تراهم غير شاكرين، لكن إذا جاءت سيئة تراهم ناكرين، ويتمتمون ضد الرب.

والسبب الخامس عشر الذي يدعو إلى عدم القيام بالقداس على ظهر السفينة، هو بسبب سهولة تقيؤ الناس هناك وحدوث ذلك بشكل مفاجيء، لأنه لو ثارت عاصفة مباشرة بعد انتهاء الكاهن من الاحتفال بالقداس، سيكون مرغماً بفعل قوة الطبيعة على التقيؤ بالقربان، حيث لايمكنه الاحتفاظ به، وهذا أمر من المرعب الحديث عنه، وبناء عليه، ينبغي التوقف عن أداء هذا القداس في البحر، لأنه يتعارض مع التقوى.

والمرة الثالثة التي يحمد الناس فيها الرب على ظهر الغليون، هي عند غياب الشمس، فوقتها يجتمعون كلهم حول السارية الرئيسية، حيث مكان الاجتماع على ظهر الغليون، فهناك يجثون على ركبهم ويغنون Salve, Regina، ويقدمون لذلك بابتهالات، عندما يكونون في أوضاع صعبة جداً، وبعد الـ Salve يطلق حاجب القبطان دعوة بصافرته، ويقف على الفور على القيدوم، ويتمنى لكل واحد ليلة سعيدة

باسم سيده، ويقوم ثانية كما في الصباح بعرض صورة العذراء المباركة، التي لدى رؤيتها يغني الجميع Ave maria ويرددون ذلك ثلاث مرات، كما جرت العادة بفعل ذلك على الشاطىء بناء على صوت الناقوس، وبعد الفراغ من هذا ينزل الحجاج إلى القمرة إلى أماكن نومهم.

وبعد نزول الحجاج إلى الأسفل، يقف محاسب الغليون على القلعة، ويبدأ ترنيمة طويلة باللغة الايطالية الجارية، ثم يصلها بابتهال، يرددها معه جميع رفيق الغليون وموظفيه، وهم جاثين على ركبهم، وهم يستخدمون كلمات كثيرة، وتأخذ صلاتهم هذه حوالي الربع ساعة، وغالباً ماكنت حاضراً أثناء هذه الصلاة، وكان في النهاية يرجو كل واحد ليقول pater, Noster وكذلك Ave maria من أجل روحي والدي القديس يوليان، وهم يفعلون ذلك كل ليلة، ولم يتخلوا عنه قط، فضلاً عن هذا تقصيت لماذا توجب القيام بالصلاة من أجل روحي والدي القديس يوليان، لأن هذه الصلاة تقدم كل مساء على ظهر السفينة، وتلقيت لهذا السؤال جواباً مزدوجاً، فأخبرني بعضهم بأن هذه الصلاة كانت تقدم مديحاً لسمعان المجذوم وشكراً له، فهو قد كان اسمه أولاً يوليان، وهو قد تلقى بأريحية ربنا، ولقد قيل إنه من أجل وساطته حتى يصل الملاحون إلى ميناء جيد، وأن يستقبلوا بأريحية، يفعلون ذلك، وأجبت على هذا بأن الصلاة لم تصنع لشكر هذا القديس، بل من أجل روحي والدي القديس يوليان وتساءلت: ولو أنهم توجهوا بالصلاة من أجل الاستقبال بأريحية، لماذا بالحري لم يتوجهوا بالصلاة إلى مرثا المباركة التي استقبلت ربنا بأريحية خاصة؟ ولم يمكنهم الاجابة على هذا، وقال آخرون بأنهم عملوا هذه الصلاة من أجل والدي القديس يوليان، الذي عنه نقرأ في «Speculum Nat-crae of vincentius» الجزء الثاني — الكتاب العاشر، الفصل

١٥— الذي عندما كـان شـاباً، وفي حـالة الجَهـالـة قتل أباه وأمـه في فراشهما، حيث تصـور بأن أمه كانت زوجتـه، وأن أباه كان يمارس الزنا معهـا، فهذا مـانقرأه هناك، لكن كيف تأسست هذه العـادة مامن أحـد يعرف، وعلى هذا كـان ماتقدم هو المتعلق باستخـدام القداس الديني في البحر، إنما بالإضافة إلى ذلك، هناك كثيراً من الأدعية يتلوها الحجاج في الليل والنهار.

ومـاأن يصلوا إلى أي ميناء حتى تراهـم يركضـون جميعـاً إلى الكنيسـة بتقوى متناهية لسماع القداس، أما مايتعلق بالاحتفال بأيام الآحاد، وأيام القديسين في البحر، فإنهم يراعون ذلك بشكل مخجل جداً، وأنا لاأشك بأن الشيطان يبـذل جهوداً مضنية بـالقاء المعيقات في سبيـل الحفاظ على أيام الأعيـاد المقـدسـة، ولقد لاحظت مـراراً، أنه في أيام العيـد المهيبـة، يكون هناك دوماً فوضى واضطراب على ظهر السفينة، أكثر من أي يوم معتاد، وفي بعض الأحيـان، عندما نكون قـد توقفنا في أحد الموانىء لمدة أربعـة أيام أو خمسة، مـاأن يحل مساء يوم السبت حتى نصبح جـاهزين للاقـلاع، ولإبحـارنا ليـلاً، يبات من غير الممكـن إقامـة قـداس في يوم الأحد، ولقد حدث هذا على ظهر السفينة التي أبحرت بها مراراً، وكأنه صنع عن قصد، وفي الحقيقـة، كلما كان اليوم أكثر قـداسة، يكون العمل في البحر أشـد قسوة، وهذا مايمكن رؤيته في سيـاق حكايتي، وكان من عادتي على ظهـر السفينة الوعظ بقداس في الأيام المقدسـة، لكنني سوف أتحدث باختصار عما وقع لي في هذا العمل التقوي.

ففي أثناء حجي الأول، وعندمـا كنت أقـوم بالوعظ، قام واحـد من أبناء الشيطان بمقاطعة كلمة الرب عدة مرات يضحكه، ولم يمكن ابقائه هادئاً لا بالكلام الحسن ولا بالضرب، لابل ازداد ضحكاً، ومـاكان مني إلا أن حافظت على هدوئي، ولم أقم بعـد هذا بالوعظ بكلمة الرب، مع أن كثيرين رجـوني فعل ذلك، لأن الرجل العاقل قـد قال في الإلهيـات:

٦/٣٢:«لاتتفوه بالكلام حيث ليس هناك من يسمع»، وقال ربنا في متى: ٧/ ٦:«لاتعطوا القدس للكلاب، ولاتطرحوا درركم قدام الخنازير»، وكان —على كل حال— في حجي الثاني على ظهر السفينة رجال أكثر نبالة واحتراما، وكانوا رفقة جيدين، وقد اعتادوا على الطلب مني الوعظ بكلمة الرب لهم، الأمر الذي قمت به في جميع الأيام المقدسة، ومع هذا نلت بوعظي عدم رضا كثير من النبلاء، الذين اعتقدوا بأنني قد وصمتهم واتخذتهم أثناء وعظي أمثلة لاقتراف بعض الآثام، ذلك أنه مثلما يفعل الخنوع فيعطي بعض الأصدقاء، كذلك تفعل الحقيقة فتجني الكراهية.

ودفن الموتى هو أيضاً جزء من الخدمات الدينية، وكان يمارس على ظهر الغليون وفق الطريقة التالية: عندما كان أي انسان يقع مريضاً، كان يعترف لأي كاهن يختاره، لأنه في مثل هذه الحالة، تسود حالة الضرورة، التي فيها أي كاهن هو قادر على اعطاء الغفران، وعندما كان يقترب من الموت كان رفاقه يتولون خدمته والسهر عليه، لأنه — كما سلف وقلت — لايوجد قربان هناك، كما لايوجد مسح بالزيت، لأن الاستعدادات لم تتخذ لمثل هذا أيضاً، مع أن هذا الطقس من الممكن مراعاته، بما أن الزيت ليس هو المقصود، بل الاستخدام الذي صنع من أجله، والذي يتضمنه القداس، وعلى هذا يموت الرجل المريض بعد الاعتراف فقط، وعندما يصبح ميتاً، يلف بكفنه، ثم يضعونه في قارب، وينقلونه إلى أقرب شاطىء، إذا كانوا على مقربة من اليابسة، وهناك يقومون بدفنه بالمقبرة، إذا وجدت كنيسة هناك، وإذا لم يوجد يودعونه في الأرض في أي مكان كان، وإذا ماكانوا على مقربة من اليابسة، لكن البلاد هي من بلاد الكفار،لايأخذونه إلى الشاطىء، بل يلقون بجسده في البحر، وإذا ماكانوا بعيدين عن اليابسة، يأخذون الكفن، ويجلبون رملاً من قعر السفينة، ويصبون الرمل فوق الكفن، فيمددون الجسد

على الرمل، ويلفونه، ويربطون حقيبة مليئة بالحجارة إلى قدميه، ثم يقوم الكاهن بحضـور كل الذين في السفينة ويغني libramе Domine، ثم يأخـذ عبيـد الغليـون الجسـد، ويدعـونـه يسقط في البحـر باسم الرب، ومباشرة يغرق الجسد، وقـد أثقلته الحجارة، في الأعماق، وتصعد الروح إلى السماء، وغـالبـاً مـارأيت طريقـه الـدفن هذه، غير أنني لم أر طريقـة الدفن الأخـرى، التي يقول بعضهم بأنهم رأوها، حيث فيهـا يجري لف الجسـد بكفنه، ثم يربط إلى لوح، ومـن ثم يلقى به في البحـر مع اللوح، وهنا صحيح أنه عنـدمـا يكون الميت بـدون رفـاق، يفعلون مـــايريدون بجسده، ويلقـونه بالبحر إما بدون حجـارة أو مع حجارة، أو مع لوح، وعندما يجري تمديد الجسد، يقوم محاسـب الغليون فيعمل لائحة مكتوبة بكل الممتلكات التي خلفها الميـت، ويقدمها إلى القبطان، ويقـوم بسداد ديون الميت، إذا لم يكن له رفـاق، أمـا إذا كـان له أصـدقـاء، فهم الذين يتدبرون هذا له، ويتولون دفنه في المرسى التالي الذي يصلون إليه، ومالم يكن الحجاج قـد عقدوا سلفاً إتفـاقاً مع القبطان، كما فعلنا نحن أنفسنا، يتسلم القبطان الفراش وجهاز النوم، والملابس العـائدة للميت، ويعتقد كثيرون أن هذه أفضل طريقـة للدفن، وهي مفضله على أن يهرس بوزن الأرض، وبناء على هذا يقـوم الأثيوبيون في الوقت الحالي بـرمي أمواتهم في نهر النيل — وذلك حسبما أخبرنا ديودور — لأنهم يـرون بأن النهـر أفضل من كـل ضريح آخـر، فســـواء أجـرى أكل الجســـد من قبل الحيوانات، أو أنه اهترأ هنـاك، فهو لن يلوث لاالهواء ولا الأرض، وإذا مـامـات واحـد من أعيـان البنادقـة في البحـر، يدفنون جسـده بالرمـال الموجـودة في داخل السفينة، ويحضرونه إلى البندقية، فهـذا قد رأيتـه، كما سأتحدث عنه في الصفحة ١٦٥ من القسم الثاني.

كيف يمضي الناس وقتهم على ظهر الغليون

يختلف أسلوب الحياة بين الحجاج على ظهر الغليون تبعاً لأوضاعهم

المتنوعة، فهم يشغلـون أنفسهم بمشاغل متنوعة في سبيـل تمضية الوقت أثناء ابحارهم، ومالم يعرف الانسان كيف يتخلص من الوقت على ظهر الغليـون فلسـوف يجد الساعـات طويلة جـداً، ومتعبـة كثيراً، ولهذا فإن بعضهم مـاأن يغـادر المائـدة، حتى يبدأ بالتجـوال حـول الغليـون وهو يبحث عن مكان لبيع أفضل الخمـرة، فيجلس هناك ويمضي النهـار كله وهو يشرب الخمرة، وهذا يعمل بالعادة من قبل السكسون، والفلمنك، وأناس آخرون من الطبقة الدنيا، ويلعب بعضهم من أجل المال، ويلعب بعضهم بـاللوح والنـرد، وآخـــرون بـالنرد فقـط، وبعضهم بـالورق، وآخـرون بالشطرنج، ويمكن للانسان أن يقـول بأن معظمهم ينشغل في هذا النوع من تمضية الوقت، ويغني بعضهم بعض الأغـاني، أو يمضون وقتهم مع العـود، والمزمـار، ومزمـار القـربة، وآلات وترية، والقـانون، وآلات موسيقية أخرى.

ويتولى بعضهم مناقشـة قضايا دنيـوية، ويقرأ بعضهم الكتب، ويصلي بعضهم مع الخبـز، ويجلس بعضهـم يتأملون بدون حـــركـــة، ويصرخ بعضهم بصـوت مرتفع وبسرور صـادر عن القلب، ويضحك بعضهم، وبعضهم يصفـــر، ويعمل بعضهم بأيديهم، وينام بعضهم صـــدوراً عن الكسل، ويمضي بعضهم الـوقت كله تقـــريبـــاً وهم نيـــام في مخادعهم، ويركض بعضهم فوق حبال الأشرعة، ويقفز بعضهم، ويعرض بعضهم قـوته برفع بعض الأوزان الثقيلة، أو تنفيـذ بعض البراعـات الأخـرى، ويرافق بعضهم هؤلاء جميعـاً، ينظر إلى الأول قليـلاً، ثم يقف فينظر إلى الآخـر، ويجلس بعضهم فينظر إلى البحـــر وإلى اليـابسـة التي يعبرونها، ويكتب عن ذلك، ويعمل كتب رحـلات، وهذا مـاكنت أفعله واشتغل به يومياً، وذلـك خارج الساعـات الدينية المتقـدمة الذكـر، لأن الرجال المنشغلين لايملون من الحياة حتى على ظهـر السفينة، ولقد كتب جيروم رسائل جميلة جداً إلى آسيلا Asella حول الأصدقاء المزيفين عندما كان

على ظهر السفينة، وذلك لدى عودته من روما إلى القدس.

وأخيراً هناك شغل آخر بين جميع ركـاب البحر، شغل مع أنه مقيت، هو عام جـداً يومياً، وضروري، وأعنى بذلك اصطيـاد وامساك القمل، والهوام، وإذا لم يمض الانسان عدة سـاعات في هذا العمل عندما يكون حـاجـاً، فإنه لن ينام نومـاً هـادئـاً، ونقـرأ في «حيـاة الفـلاسفـة» عن الفيلســوف هوميروس، بأنه كـان في أحـد الأيام يمشي على شـاطىء البحر، وإذا بسفينة تتوقف هناك، على ظهـرها جلس رجال يبحثون عن القمل ويضحكون، وعندمـا سألهم الفيلسـوف، لماذا يضحكون، أجـابه أحـدهم قائـلاً:«نحن نضحك لأن كل الذي أمسكناه، لم نحصل عليـه، والذين لم نمسكهم نحتفـظ بهم»، ووقتهـا صرف هوميروس تفكيره إلى اصطيـاد السمك، ولم يستطع فهم هذا اللغز، ولهذا أصبح متألماً جـداً في قرارة نفسه، وصار مجنونا، وقتل نفسه بالشنق.

ويتم الانشغـال بهذه الأعمال والاهتمام بها تبعاً لأحـوال الأنواء، لأن أوضاع الناس تتباين بشكلٍ مدهش في البحر، أكثر مما يكون عليه الحال فـوق اليـابسة، وذلـك تبعاً لتأثير الأجسـام السماوية، ولفعـاليـة الهواء، وحـركــة البحـر، وغـالبـاً مــارأيت أيامـاً، كنا فيهــا جميعـاً مبتهجين، ومسرورين، ورفقة جيدين، فما من أحد نائـم، بل كل واحد فرحان من قلبـه، وبالمقابـل رأيت أياما، كـان فيهـا صمت عميق، وسكون رهيب، حيث من غير الممكن سماع صــوت انســان، والجميع إمـا قــد غلبهم النعاس، أو جلسـوا وهم يشعرون بالحزن، وغـالبـاً مارأيت الحجـاج قد اتحدوا مع بعضهم في حـالة سـلام عظيم ووئام، وكـأنهم جميعاً أخـوان، وأبناء أم واحـدة، كما أننـي بالمقـابل رأيت في بعـض الأحيـان كثيراً من المشاحنـات، وتفجر للخـلافات من أسبـاب لاقيمة لها مطلقـاً، إلى حد يغدو الغليون فيـه مثل الجحيم بشتائمهم ولعناتهم، ولقد كتبت هذا من أجل تبيان حقيقـة أن حركة الانفعالات الانسـانية، هي أكثر عنفـاً فوق

الماء منهـا في أي مكان آخر، وهكذا رأينا كيف يمضـون الساعـات على ظهر السفينة، وبالنسبة لي كان اليوم دوما ينقضي قبل أن أنهي عملي.

كيف يأكل الحجاج على ظهر الغليون

عندما تقترب سـاعة الغداء أو العشـاء من الحلول، ينهض أربعة ممن ينفخ بالأبواق، ويصـوتون بأبواقهم دعـوة إلى المائـدة، ولدى سماع هذه الدعـوة يركض جميع الذين كـانوا جـالسين إلى مـائـدة القبطان، بأقصى سرعــة نحـو القيــدوم، ويفعلون ذلك كي يحصلـوا على مكان مناسب يجلسـون فيه بشكـل مريح، ويوجـد هناك ثلاث مـوائـد نصبت بشكل نظامي فوق القيـدوم، والذي يمكنه الجلوس إليهم سوف يكـون بحالة مرضيــة، لكن الذي يأتي متأخراً يتوجب عليه الجلوس خـارج القيدوم، على مقاعد عبيد الغليون، وذلك بشكل غير مريح في الشمس، أو المطر، أو الريح، وفي الجلوس إلى المائــدة لايوجـد ترتيـب، بل الذي يأتي أولاً يجلس حيث يريد، ولايقوم الرجل الفقير بافساح الطريق إلى الغني، ولا الفـلاح إلى الغني، ولا العــامل للكاهن، ولا الرجـل العـادي للحكيم المتعلم، أو الخادم للراهب، وذلك مـالم يظهـر أحدهم تقـديرا واحترامـاً لآخر من باب الصداقة الخاصـة، وسبب الحاجة إلى النظام والتقدير فيما أتصور، هو أنهم جميعاً يدفعـون المال نفسه إلى القبطان، العظيم والصغير في ذلك سواء.

وأعتقد تماماً لو أن الشخصيـات من المراتب العليا دفع أحدهـم ستين دوقية ودفع الانسـان العادي البسيط عشرين، أوقام القبطان فأخـذ مالاً من كل انسان حسب مكانته، وقتها من الممكن اظهار التقدير والاحترام من الصغير إلى الكبير، ولهذا السبب يأكل النبـلاء الذين لديهم خـدمهم معهم، دوماً على مقـربة من السارية (على ظهـر السفينة)، أوفي مخادعهم (تحت) مع استخـدام الاضاءة، حتى في منتصف النهـار، لأن الجو هناك مظلم، وقبل بداية الوجبة يقدم دومـاً لكل واحد خمرة حلوة، أما الطعام

الذي يلي ذلك، والذي يقدم إلى جميع الضيوف، فقد أعدّ وفق الطريقة الايطالية، حيث هناك سلطة خس أولاً مع الزيت، وإذا توفرت توابل خضراء تقدم أيضاً، وفي وجبة الغداء هناك قطعة من اللحم مع معجنات، أو صحن من الخبيص، أو طحين قمح أوشعير مطبوخ، أو ثريد مع جبنة رقيقة، وفي أيام الصوم، عندما لايؤكل اللحم، يجري تقديم نوع من السمك الصغير الذي اسمه Zebilini، وهو مملح، ويكون معه زيت وخل، أو معجنة مصنوعة من البيض، وكذلك حلوى، ويجري تقديم خبز طازج عندما تكون السفينة على مقربة من أحد الموانىء، لأنه من غير الممكن الحفاظ على الخبز طازجاً على ظهر الغليون، بعد اليوم الخامس، ولدى عدم توفر الخبز الطازج، يقدمون كعكاً خبز مرتين، وهم يدعون هذا النوع باسم البقسماط، والذي يبلغ من القسوة حداً أنه مثل الحجارة، لكنه يصبح على الفور ليناً، إذا جرى صب الماء و النبيذ عليه، ويعطى لكل واحد من الخمرة بقدر مايستطيع أن يشرب، وأحياناً تكون الخمرة سميكة، وأحياناً رقيقة لكنها دوماً جيدة المزج والخلط بالماء، ويجري تقديم وجبة الغداء بسرعة، ويتم جلب كل شيء إلى الحجاج بسرعة، ولدى الفراغ من تناول طعام الغداء، ينفخ حملة الأبواق بأبواقهم، وبعد إزالة أغطية الموائد، يجري ثانية وضع الأطعمة عليها بشكل مهيب للقبطان ولأركانه، ومائدته اقتصادية أكثر من مائدة الحجاج، لكن طعامه يجلب إليه في صحون فضية، ويجري تذوق مشروبه قبل ان يقدم إليه، مثلما يفعل للأمراء في بلادنا.

ولا تأتي النساء من الحجاج إلى المائدة العامة، بل يبقين في مخادعهن، ويأكلن هناك وينمن، هذا وامتلك موالي طباخهم الخاص، ومكان خاص بهم للأكل، ويأكل عبيد الغليون بشكل جماعي كل ثلاثة منهم مع بعضهم، على مقاعد تجذيفهم وهم يقومون بتحضير طعامهم، وغالباً

مـارأيتهم يأكلون لحماً مـايزال لـونه أحمر بدمـه، وإذا مـارغب الحجـاج بالحصول على شيء خـاص من المطبخ، يتوجب اظهـار المال للطباخين، لأن هناك ثلاثـة أو أربعـة من الطبـاخين سريعي الغضـب، وليس من الممكن تهدئتهم إلا باعطاء المال لهم، ولايهتمـون مطلقاً بالوعـود بالمال، هذا وليس عجباً أن يكون الطباخين سريعي الغضب إلى هذا الحد، حين نرى أن المطبخ ضيقـاً، وهناك أوعيـة وآنيـة كثيرة، وكثيراً مـن الأشيـاء المتنوعـة التي ينبغي طهيهـا، والنـار صغيرة، وكثير من الصراخ يدوي خارج المطبخ، وعدد كبير من الناس يطلبون صنع أشياء لهم، يضاف إلى هذا إن عمل الطبـاخين يثير دومـاً شفقـة الانسـان، ويرفـض النبـلاء والفرسـان دوماً الطعام الذي يقدمـه القبطان، وتراهم يعطون الطباخين مبالغ كبيرة من المال، للحصـول على وجبات خاصة من الطعـام أعدت لهم، ويقومـون بالوقت نفسه بإعطاء طعام القبطان إلى الفقـراء من عبيد الغليـون، واللحم الذي يقـدمـه القبطان مقـرف بشكل خـاص، لأنهم يذبحـون الحيـوانات التي يرون أنها لـن تبقى حيـة، وكـذلك الأغنام المريضـة، وهم في الحقيقة يذبحـون الحيـوانات التي يرون أنها مريضـة، وسوف تموت ذاتياً، وباستثناء ساعـة الغداء مامن خمرة تقدم إلى الحجاج من مخزن القبطان، لكن عبيـد الغليـون أنفسهم كـانوا قـد اشتروا خمرة ممتـازة، يقومـون ببيعها إلى الحجـاج، وفي الأنواء العاصفـة يجري الأكل والتقيؤ في الوقت نفسه.

كيف أن نوم الحجاج على ظهر السفينة غير هادىء

يجلس الحجـاج بعـد العشاء، ويتحـدث أحـدهم مع الآخـر، ويكون ذلك على الطابق العلوي من السفينة وعلى مقربة من السـارية الرئيسية، ولايذهبـون إلى الفـراش إلاّ ومعهم مصـابيـح، وعندمـا يذهبـون نحـو الأسفل مـن أجل الاستراحـــة، سيكون هنـاك اضطراب هائـل، أثناء اعدادهم لفـرشهم، فالغبـار يثور، وتتفجـر خلافات عظيمـة بين الذين

يتمـددون بجـوار بعضهم، خصـوصـاً في البـداية، قبل أن يعتـادوا على ذلك، ذلك أن كل واحـد يلوم جاره لتجـاوزه على مخدعـه مع فراشـه، وينكر الآخـر ذلك، ويصر الأول على أنه فعل ذلك، ثم يستـدعي كل واحد رفاقه للمساعدة، ويحدث أحيـاناً أن جماعات الحجاج كلها تتقاتل مع بعضهـا بعضـاً، ولقـد رأيت أثناء هذه الخصـومـات بعض الحجـاج ينقض أحـدهم على الآخـر بسيوف مجردة، وخناجـر، وهـم يصرخـون، محدثين فـوضى مـرعبـة، ووقتهـا لو تدخل محاسـب الغليـون —الذي وظيفته هي توزيع المخادع بشكل متساوي — لجرى تمزيقه إلى قطع من قبل الحجاج، ولدى انتهاء هذا الخصام، أوالافتراض أنه لن ينفجر ثانية، يأتي بعضهم إلى فـراشـه متأخـراً، ويجعلون أنفسهـم غير متـوافقين مع الآخرين بمصابيحهم المضاءة، وأحاديثهم العالية الصوت والطويلة.

ولقد رأيت بعض الحجـاج الحادي الطباع يلقـون بمبولة الغـرفة على المصـابيح المشتعلة، وعندها يتفجر للمـرة الثانيـة خصام عظيم، ويقـوم بعضهم بعد اطفاء الأنوار بتسويـة مشاكل العالم مع جيرانهم ويستمرون أحيـانا بالحديث حتى منتصف الليل، وإذا ماقـام أي واحد بتـوبيخهم، وطلب منهم السكوت سوف يصرخون أكثر، ويبـدأون خصاماً جديداً، وعلى هذا إن لم يكـن هناك بعض ذوي الفضـائل ورجـال مـن أهل الاحترام، يتولون تسـوية هذه الخصومات، لن تمر الليلة بسلام، خـاصة عندما يكون هناك فلمنكيين سكارى.

هذا وهناك معيقات كثيرة للنـوم إلى جانب ماتقـدم ذكره، فـالرهبان الذين اعتادوا على النوم لوحدهم في قلاياتهم، يجدون من الصعب النوم على ظهـر السفينة، بسبب عـدم استقـرارهم، أو بسبب شخير جيرانهم، فخـلال عدد كبير من الليـالي لم أغمض عينيي أبداً، وعـلاوة على ذلك، ان ضيق المكان من أجل فراش الانسان الواحد، وقسوة الوسائد، تجعل الانسان غير مستقر، حيث من الصعب أن يتحرك أحد الحجاج دون أن

يلمس جـــاره، فضـــلاً عن هذا،المكان مغلـق، وعظيم الحرارة، وملىء بالروائح القذرة المتنوعة، حيث لابد للانسان من أن يتعرق طوال الليل، ممايفسد راحـة الانسان بشكل عظيم، والقمـل والبعوض والهوام تسرح هناك بأعـداد لاتحصى، وهناك أيضـاً فئران وجـرذان، ويمكنني القـول أنني غالباً ماقمت بهدوء كل ليلة، وصعدت نحو الهواء الطلق، فشعرت وكأنني تخلصت من سم قذر.

وتعاق الراحة أيضاً من قبل أنـاس لايعرفون الاستقرار أثناء نومهم، ثم إنهم يشخـرون ويتكلمون وهم نيـام، ويئنون وهم مرضى، وكـذلك بسبب سعالهم ولعناتهم،وكنت في إحدى المرات لبعض الوقت على ظهر غليـون، حيث وقفت الخيـول والبغـال على الظهـر فـوقنا، وقـد تابعـوا أحداث الضجـة المستمرة بحـوافرهم على الألواح طوال الليـل والنهار، ونضيف إلى هذا ركض البحـــارة هنا وهناك فـــوق رؤوسنا، وصـــوت البحر، وأشيـاء أخرى كثيرة، تذهب براحـة الحجاج، هذا وهناك الكثير للقول حول هذا الموضوع.

*** ***

وبالإضـافة إلى هـذا كله، هناك الحر الصادر عن الشمـس فوق ظهـر المركب، والظـلام في القمـــرة، والاكتظاظ، والحرارة القـــذرة، والهواء الملوث الثقيل، ومع أن هبوب الريح أسـاس للذين يبحرون في السفينة، هو مع ذلك غير مـريح كثيراً، لأنه عندما تبـدأ السفينة بالتأرجح بسبب الريح، يصير الحجـاج سكارى ومـرضى، وكل واحـد منهم يرتجف إلى حـد أنه يتقيـأ كل مـافي معـدتـه، وتصبح أحشـاؤهم كلهـا تعـاني من الجيشـان، كما أنه لن يكون من الممكن البقـاء على ظهـر المركب، بسبب قـوة الريـح، وبسبب الميـاه التي تنقـذف فــوق السفينة، وعمل، وسعي الملاحين إلى هنا وهنـاك، كما أنه من غير الممكن للحجـــاج البقـــاء في مخادعهم، إذا مارفع الشراع فوق المكان الذي فيه مخادعهم، حيث عليهم

وقتها العبور إلى الجانب الآخر، وعلى الانسان إدارة فراشه، بأن يضع القدمين في المحل الذي كان الرأس فيه، والرأس أيضاً محل القدمين، وذلك بسبب ميلان السفينة إلى جانب واحد، من خلال قوة الأشرعة، علاوة على ذلك يملأ الدخان الصادر عن المطبخ السفينة أثناء هبوب الرياح، وفي بعض الأحيان يضايق الحجاج كثيراً.

وفي أثناء العاصفة يصير الأصحاء من الرجال مرضى، ويزداد المرضى ضعفاً، يضاف إلى هذا أن استمرار نضح المياه القذرة مثير للحجاج بسبب الرائحة النتنة الصادرة عنها، ولأنهم وقتها يمنعون من الصعود إلى ظهر السفينة، أو النزول من الظهر، طالما النضح مستمر، والذباب أيضاً الذي يملأ السفينة، هو مصدر اضطراب عظيم، وكذلك القمل والبعوض، وكذلك التعاسة الصادرة عن التعرق تجلب من الضيق إلى الانسان أكثر من الهوام الحية.

ومع مرور الأيام تتوالد الفئران والجرذان في السفينة بأعداد هائلة، وتراهم يسعون طوال الليل، ينقبون أوعية الانسان الخاصة، ويشقون طريقهم إلى داخلهم، فيلوثون الطعام، ويتلفون الوسائد والأحذية، ويفعلون هذا كله أو بعضه في أوقات مختلفة، لأنهم لايظهرون دوماً على ظهر السفينة، بل فقط في موسمهم الخاص، فعندما تهب رياح محددة تختفي جميع المخلوقات الحية الموجودة على ظهر السفينة أو تهلك، وذلك من أمثال الذبان والقمل والفئران، وماشابه ذلك، ولاتعود موجودة، لكن عندما تختفي هذه الريح أو تتغير، تتوالد ثانية، ويزعج البعوض في موسمه الحجاج كثيراً بأصواته ولسعه، فضلاً عن هذا يلد من الرطوبة على ظهر السفينة علق أبيض سمين يدب في كل مكان، ويأتي خلسة فوق أرجل الرجال ووجوههم، وعندما يعي الانسان وجودهم، ويضع اصبعه عليهم، ظاناً أنهم ذباب، يتفجرون ويلوثون المكان الذي يكونون متعلقين به، بالدم، ومع هذا كله هناك هوام قذرة كثيرة تتولد من

العفـونة على ظهـر الغليون، لكن مـامن شيء سـام يمكنه أن يتـوالد أو يعيش هناك، حيث لاوجـود هناك للعقارب أو للأفـاعي، أو للعلجوم، أو الثعابين السامـة، أوالعناكب، لأن مياه البحر تطرد السم، وتشفي من لسع العقارب، ومن عضـات الأفاعي والثعـابين، وهي عدو للزواحف من كل نوع، ولولا أن الحكمة الالهية قد أمرت بذلك، مامن انسان كان بامكانه أن يعيش على ظهر سفينة قديمة واسعة.

وهناك أمر مـزعج آخر للحجاج هو مدّ فـرشهم في المساء، ولفّهم في الصبـاح حيث يتوجب في الصبـاح على كل انسـان، لف فراشـه وربطه بحبل، وذلك مع الأغطيـة، والوسـائـد، والبيـاضـات، وتعليقهم على مسامير جرى تثبيتها على جانب السفينة، فوق رأسه، ويكون ذلك حتى نهاية النهار، والغرض من ذلك توفير ممرات بلا عوائق (خلال القمرة)، ويأخـذ الحاج في المســاء فـراشـه وينزله، ويحله، ويـرتبـه، ويسبب هذا متاعب كثيرة.

وأخيراً إن انعـدام الثقـة بعبيـد الغليـون وسرقـاتهم، يزعج الحجـاج كثيراً، لأنه لايمكن تأمينهم على أي شيء، لأن عبـد الغليـون يسرق كل مـاتطاله يـده أو يضعهـا عليــه، ولهذا محظور على الملاحين النزول إلى الأسفل حيث مخادع نوم الحجـاج، هذا ولايتجرأ أي منهم على الإقـدام على ذلك، وهـم لايتجرأون حتى عندما يدعوهم الحجاج، ولاينزلون إلى الأسفل.

تحذيرات من الأشياء التي ينبغي على الحاج أن يكون محترزاً منها عندما يكون في رحلة بحرية

على الحاج إلى الأرض المقـدسـة أن لايكون محترزاً فقط من أن يذنب في عقله، وأن يجلب الخوف إلى نفسه، بل أن يحترز ضـد الاهمال، خشية أن يتلقى جـرحـاً لجسـده ولحيـاته، ولهذا أريد في هذا الموضع أن أدون

التحـذيرات التي يحتـاجهـا الحاج عندمـا يعبر البحـر، ولا أريد تقـديم النصيحـة التي هـي من اختصــاص الطبيب، حيث هـو الذي يتــولى تقـديمهـا، بل تحذيرات صـديـق مع الذي تعلمتـه بالخبرة، لأن الطبيب يحذر بشكل عـام الحجاج بأن يكونـوا منتبهين من الفواكـه، ومن شرب الماء، ومن هواء البحـر، ومن السمـك، ويقـدم الطبيب النصيحـة ضـد الحر، وينصح طبيب آخــر ضـد البرد، أمـا ضــد العطش، والامســاك، والاسهال المفرط، فيقدمون كثيراً من العلاجات، وطرق الخلاص، وأما بالنسبة لفقدان الوعي، ولتشجيع شهية الطعام، وللتخلص من السموم، فإنهم يقـدمـون كثيراً آخـر من طرائق الخلاص، كما يقـدمـون كثيراً من النصائح الأخرى إلى الذين يسافرون بالبحر، وهي أشياء من المؤكد أنها مفيـدة وجيـدة، وبالنسبـة لهذه القضـايـا، من المنطقي اتبـاع توجيهـات الأطبـاء دون ســواها، ومع ذلك أعترف بأن مــايلي هو مـاقــد رأيتـه شخصياً: فلقـد عرفت حجـاجاً كـانوا حريصين ومنضبطين تمامـا باتباع نصائـح أطبائهم، إلى حد أنهم كـانوا لايتجرأون على ابتـلاع أو فعل أي شيء مـالم يكونوا قـد أوصـوهم به، ومع ذلك يصبح بعضهم مـرضى، وضعفاء أثناء حجهم، وبعضهم يموت.

وبالمقابل، رأيت أناساً يأكلـون ويشربون، ويفعلون كل مايرغبون به، وفي البحـر وعلى اليـابسـة، ولايحافظون على نظام، أو قـواعـد للطعـام، وتراهم في الغالب يتطرفـون ويبالغون ومع ذلك لم يذهبـوا إلى فراشهم، وهم دومــا مبتهجين، وسعـداء، وأنا حين أكتب هذا ليس لـدي رغبـة للإيحاء إلى أن المتقــدمي الذكــر يمـوتون بسبب شــدة عنايتهم بأخــذ الأدوية، وأن الأواخـر يبقون أحيـاء بسبب إهمالهم، بل إظهار أن مـامن شيء هو مــؤكـد حــول الحظ، ولندع الحاج يدع نفســه أولاً إلى عناية الرب، وبعـد ذلـك إلى عناية أطبـائــه إنما بدرجـة معتـدلـة، وعليـه في المجـالات الأخرى أن يـراعي التحذيرات التـاليـة: على الحاج أن يكون

حذراً تجاه السباحة في البحر العميق من أجل الاغتسال، لتوفر مخاطر مضاعفة حتى بالنسبة للذين يعرفون السباحة بشكل جيد، وليكن متيقظاً تجاه كل شيء، عندما يكون على ظهر السفينة، عندما يعبر من مقعد متصالب إلى مقعد آخر، خشية أن يسقط، لأن السقوط في أي مكان على ظهر السفينة خطر، وعليه دوماً أن يصعد من، أوأن ينزل إلى المكان الذي فيه المخادع أو أماكن النوم بالتيقظ الموجب، فأنا شخصياً قد وقعت مرتين على هذه السلالم نفسها، وإنه لعجب أنني لم أتمزق إلى قطع، وبعد هاتين الوقعتين صرت أصعد وأنزل وأنا حذر ومتيقظ، ولقد رأيت بعض الناس يسقطون ويكادون يقتلون أنفسهم، وليكن حذراً جداً لدى الذهاب إلى موضع الخلاء، لأن طريق النزول إلى هناك خطر، وعليه عندما يكون سائراً على جانب السفينة، أن لايثق بأي من الحبال، مالم يقم بشده بيده، والتأكدمن أنه ممدود بشكل ثابت وقوي، لأن الحبل إذا انفلت لدى محاولته الامساك به، سوف يجعله يسقط في البحر، وليحذر الحاج من إهانة أو اغضاب عبيد الغليون التعساء، لأنه قد يحدث أن يكونوا ذوي فائدة عظيمة له، أو أنهم قد يؤذونه ايذاء كبيراً ويجرحونه، وعليه أن يحسن التعامل مع بقية رجال السفينة، وأن لايثير الكراهية ضد نفسه، ذلك أنه أمر مدمر بالنسبة إلى أي انسان أن يكون له أعداء على ظهر السفينة، فلقد رأيت حاجاً متكبراً أهان فأغضب عدداً كبيراً من الناس، ثم آل الحال بهذا الرجل نفسه إلى وضع تعيس على ظهر السفينة، فقد أرغم على التماس العون من الذين أهانهم، حتى أن بعض الناس الأكثر تقوى عندما قدموا بعض المساعدات له، تشكك بأنهم يحتقرونه، لأنه عرف بأنه يستحق الاحتقار.

وعلى الحاج الحذر من احتلال مكان سواء على الظهر أوفي الأسفل عائد لانسان آخر، إلاّ إذا حدث ذلك بموافقة ذلك الانسان التامة، وله في النهار الحق بالوقوف على مقربة من السارية، فذلك المكان عائد إلى

الجميع، لكن في الليل لاحق له بأي مكان، إلاّ بمخدعه، لأنه إذا ماقام انسان بالتردد ليلاً على مكان إلى جانب مخدعه، يعدّه الذين لايعرفونه لصاً، وعلى كل حال، إنه إذا لم يستطع —لسبب ما— الجلوس بهدوء في مخدعه، يمكنه الصعود إلى الظهر، وأن يجلس على بعض المصنوعات الخشبية على جوانب السفينة، وأن يدع قدميه تتأرجحان نحو البحر، وأن يمسك بالحبل الذي يدعم السارية، ولسوف تعلم التجربة الانسان كثيراً حول هذه القضايا، التي قد يجد من الصعب تصديقها عندما يخبر بها للمرة الأولى.

وعلى الحاج أن يكون متيقظاً عندما يجلس على سطح المركب، حتى لايجلس على أي من الحبال، خشية أن تتغير الريح فجأة، فيقذف به فوق السطح، أويجرح بوساطة الحبال، وعليه أن لايلمس الحبال، بأي حال من الأحوال، لدى شدهم لها، حتى لاتتمزق يده، أو تنفصم اصبعه بسبب العنف، لأنهم يشدونها بعنف عظيم، ويحركون بذلك أوزاناً هائلة.

وعلى الحاج عدم الجلوس في أي مكان تعلق فيه البكرات فوقه، حيث يمكن في وقت طيران السهم أن يصاب بجراحة بليغة أوأن يقتل فوراً، كما حدث لموجه الغليون الذي أتيت على ذكره في ص١١٨، وعليه أن يكون حذراً من الحصول في طريق الملاحين عندما يكونوا على وشك الانطلاق نحو أعمالهم، لأنه مهما كان عالي المقام، لابل حتى لوكان أسقفاً، هم سيدفعونه، ويلقونه أرضاً، ويدوسونه، لأن العمل في البحر ينبغي أن ينجز بسرعة مثل البرق، ولايقبل أي تأخير، كما أن عليه عدم المشاركة في أعمالهم، لأن هذا يزعجهم، وفوق كل شيء عليه عدم البقاء معهم على السطح أثناء الليل أثناء العاصفة، وعليه أن يكون متيقظاً ومتنبهاً إلى المكان الذي سيجلس عليه، خشية أن يلتصق بمقعده، لأن كل مكان مغطى بالزفت، الذي يصبح ليناً بسبب حرارة

الشمس، وكل من يجلس فوقه يرجع بثيابه وقد اتسخت.

وعليه أيضاً أن يكون متيقظاً، عندما يجلس مريحاً نفسه على جانب الغليون، وأن لايمسك بيده أي شيء ثمين، حتى لايسقط في البحر، فأحد النبلاء كان جالساً مرة إلى جانبي سقطت من يده سبحة ذات أحجار ثمينة، وكانت لديه غالية جداً، وكان على غير استعداد للتخلي عنها مقابل عدد كبير من الدوقيات،وقد ضاعت منه دون أمل باستردادها، وحدث أنني عندما كنت جالساً هناك أقرأ قداسا مسائياً من أجل الميت، سقط الكتاب من يدي في البحر وتلف، وسقطت أشياء كثيرة وفق هذه الطريقة من أيدي الناس بسبب قلة الانتباه، ولاسيما القبعات، حيث كانت تطير من فوق الرؤوس عندما تكون هناك ريح قوية.

وعلى الحاج عدم حمل مصباح على السطح أثناء الليل، لأن البحارة لايحبون هذه الأعمال الغريبة، وليس بإمكانهم تحمل الضوء أثناء عملهم، ولهذا السبب يطفئون المصابيح كلها أثناء العواصف أو يغطونها بالمكاييل، حتى في داخل القمرة، وعلى الحاج أن يحرس بعناية مقتنياته، وأن لايتركهم بدون حراسة، حتى بين أصدقائه، لأنه ماأن يدير وجهه حتى تكون قد ذهبت، وعليه أن لايترك ماله في صندوق في مخدعه، بل عليه حمل هذا المال معه دوماً، موضوعاً حول جسده، وأن لايعهد به لا إلى خدمه أو رفاقه، لأن الناس ميالين بشكل غريب إلى ممارسة دور اللص على ظهر السفينة، مع أنهم قد يمقتون اللصوصية عندما لايكونون في البحر، وأكثر مايكون عرضة للسرقة الأشياء الشخصية مثل المناديل، والأحزمة، والقمصان، وماشابه ذلك، لأنه حتى بين الرفاق يسرق أحدهم مثل هذه الأشياء من الآخر، لأن الانسان غالباً مايحتاج إلى أشياء على ظهر السفينة ولايمكنه العيش بدونها، فيحصل عليها بأية طريقة، سواء أكانت صحيحة، أم خاطئة، ويزود نفسه بها.

وعلى سبيل المثـال، في أثناء قيـامك بـالكتـابـة، إذا وضعت قلمك، والتفت بوجهك، فـإن قلمك سـوف يضيـع، حتى وان كنت بين أناس أنت تعرفهم، وإذا مافقدت قلمك سوف تواجه متاعب عظيمة في سبيل الحصول على قلم آخـر، وهذه هي الحال مع أشياء أخـرى كثيرة، ويبدو أن القانون البحري مايزال يحتفظ بالشريعة المصرية القديمة جداً، التي لم تحرم اللصـوصيـة، بل أمرت كل الذيـن رغبوا في أن يكونوا لصـوصـاً، بتـدوين أسمائهم في بيت الكاهن الرئيسي، وأن يحملوا إلى هناك مبـاشرة كل شيء سرقوه، وبالطريقة نفسها طلب من الذين سُرق منهم أي شيء أن يكتبـوا رواية عن ذلك يذكرون فيهـا الوقت، واليـوم والساعـة التي فقــدوا بها مقتنيـاتهم، وبهذه الـوسيلة كـان ممكنا بسهـولـة البحث عن اللص، وترد الحاجـة المسروقـة، باستثناء ربعهـا، الـذي كـان يعطى إلى اللص، فبما أنه كان من غير الممكن منع اللصـوصية، رأى المشرع أنه من الأفضل أن يعـاني الانســان من خسـارة شطر من حـاجيـاته بدلاً من فقـدانها كلهـا، ومن الممكن قـراءة هـذا في الكتـاب الثـاني من التـاريخ القديم لـديودور — الفصل الثالث، ومثل هذا جـاء في الأمثال: ٦/ ٣٠ قـوله:«ليـس هناك ذنب عظيم في السرقـة»، وفي الحقيقــة، في الشريعـة القـديمـة لم يكن اللصـوص يعـاقبـون بالموت، كما هو واضح من سفـر الخروج:٢٢/ ١، بل كانوا يغرمـون بالتعويض عن ذلك، وعلى كل حال إنه إذا كانت الشريعة كاملة، ينبغي اعدام اللصوص في المجتمع الانساني العـادي، لكن على ظهر السفينة يبـدو أن الأمـر مختلف، لوجود الرغبـة بالسرقة، خاصة السرقات الصغيرة، وهذا يزداد بين الرجال أثناء السفر.

وفي الموانيء على الحاج أن يكون حـذراً فـلا يغـادر غليـونه، فيضل سبيله هنا وهناك، لاسيما في الأماكن المنعـزلة قرب الشـاطيء، خشية أن يقع فجأة بأيدي القرصـان، فيجعلون منه عبداً في منتهى التعـاسة طوال حياته كلها، وهذا أمر غالباً مـاوقع لكثير من الرجال، فأنا أعرف فارساً

أمسك وحيداً على مقربة من البحر، تحت أسوار المدينة، وسلبت منه أمواله والأشياء الثمينة التي كانت معه من قبل السكان هناك.

وعليه أن يكون حذراً فلايدخل أي بيت لدى إغرائه من قبل النساء، لأن في ذلك خطر عظيم إذا فعل ذلك، وليس ذلك متعلقاً بشرفه وحاجياته، لابل حتى بحياته، وعلى كل من يسعى وراء الاستقامة والشرف، ويريد الحفاظ على حجه المقدس دون تلويث، عندما يكون في الموانيء، السير في الخارج في النهار، لكن عند اقتراب المساء، عليه العودة إلى غليونه، والنوم هناك سليماً في مخدعه، لأن النزل على جزر البحر، هي بيوت سيئة السمعة، كما وضح مماجاء في ص١٢٧، ومامن أحد يستقبل حجاجاً ألمان في بيته، إلاّ أصحاب البيوت السيئة السمعة، ومعظم هؤلاء من الألمان، الذين يسكنون هناك مع عاهرات، مع أنهم يبعدوهن عندما يدخل الحجاج إلى بيوتهم، وبناء عليه يمكن للحاج الجيد والتقي الإقامة في بيت من البيوت خلال النهار مع رفاقه، لكن لايجوز له النوم هناك مطلقاً، والتجربة سوف تعلم الانسان أشياء أخرى عليه تجنبها والابتعاد عنها. ويتوجب عليّ الآن العودة إلى سياق خبر أدائي لجولاتي ورحلاتي.

هنا نهاية الفصل الثاني.

الفصل الثالث

ويحتوي على وصف لأعمال الحجاج إلى الأرض المقدسة خلال شهر حزيران، الذي وصلوا فيه إلى حدود الأرض المقدسة

في اليوم الأول من شهر حزيران بدأنا رحلتنا البحرية، وكان هذا اليوم هو يوم الأحد الأول بعد عيد الثالوث المبارك، فقد نهضنا في ذلك الصباح باكراً قبل شروق الشمس، وحملنا جميع حاجياتنا في قارب كبير اكتريناه وقد وقف على باب نزلنا، وبعدما قلنا وداعاً لكل واحد في النزل، أقلعنا وعبرنا من خلال القناة الكبيرة إلى خلف المدينة، وتابعنا سيرنا إلى القديس نيقولا في الليدو، وتركنا هنا واحداً يتولى حراسة أغراضنا في القارب، ودخلنا إلى الكنيسة، وكانت كنيسة كبيرة، مع دير للبندكتيين ملاصق لها، وبحثت عن المسؤول عن القداسات، وطلبت منه رقائق الخبز التي كان قد وعدنا بها، وطلبت منه تزويدنا بزجاجة من الخمرة الجيدة، وذلك بالإضافة إلى نبيذ القداسات، وأن يضعها على المذبح، وعندها وضعت عليّ ألبستي المقدسة، وذهبت إلى المذبح، حيث عملت قداساً أعددته ليوم الأحد، وكان ذلك بحضور الحجاج، وبعد القداس توليت مباركة الخمرة التي جلبت إلينا في الزجاجة بمباركة القديس يوحنا الانجيلي، وأعطيتها إلى موالي الحجاج ليشربوها محبة للقديس يوحنا، حتى تكون رحلتنا سعيدة وناجحة، وبعد إنجاز هذا بكل تقوى صعدنا ثانية إلى قاربنا، وأبحرنا حتى ميناء البندقية، القائم بين قلعتين، كانتا تتوليان حراسة مدخل ذلك الميناء، ذلك أن غليوننا كان راسياً في البحر على بعد حوالي الميل خلف الميناء، وفيما نحن في طريقنا هبت ريح قذرة، فأعاقتنا، حتى أننا احتجنا إلى ساعتين للوصول إلى الغليون، وكان ذلك مع صعوبة كبيرة، وعندما وصلنا

أخيراً إلى هناك، وجدنا الغليون مليئاً بالناس، ورفاقنا الذين بعثنا بهم مقدماً إلى هناك قبل أربعة أيام، ضعفاء كثيراً، بسبب السفينة، التي كانت تتأرجح وهي راسية، إلى مختلف الاتجاهات، وكان ذلك بسبب قوة الرياح، وقد جعلهم ذلك مرضى، وعلى كل حال، عندما رأونا ابتهجوا، وبدأوا يتحسنون، وقد حدثوا سادتهم عن المصاعب المريرة للبحر، التي تذوقوا قليلاً منها فقط، وفي ذلك اليوم نفسه التمس مني أحد الفرسان أن أعود معه في القارب إلى المدينة لاحضار صندوق كان قد أمر بصنعه لنفسه، ليكون مخدعاً له، ولكي ينام عليه في الليل، لأنه كان متكبراً جداً، وأبت نفسه النوم على الأرض، وقد كان موضع نومه واسعاً إلى حد يمكنه أن يضع فيه الصندوق، وبناء عليه دخلنا معاً إلى المركب ورجعنا إلى البندقية، وبعدما تسلمنا الصندوق عدنا به إلى الغليون، إنما بعد صعوبات، لأن الرياح كانت ضدنا، وكان الوقت متأخراً مساء عندما أنزلنا الصندوق إلى القمرة، ووضعه الفارس في مكان نومه وهو مبتهج، وهو يأمل أن ينام عليه بشكل جيد، لكنه لو أنه عرف المستقبل، لما كان مسروراً بأي حال من الأحوال، ولقام برميه، ولرفض عدّه مريحاً، لأنه على ذلك الصندوق بالذات مات ذلك الفارس ميتة وحشية وبشعة، وعلى كل حال، هو لم يكن منتمياً إلى جماعتي، بل إلى جماعة أخرى، وقمنا الآن بترتيب أماكن نومنا وفرشنا لننام فيها، وكان ذلك مع كثير من الفوضى والجهد، والخلاف، لأننا لم نكن قد اعتدنا على ذلك بعد، وعندما باتت الدنيا مظلمة، وبعدما أطفئت جميع المصابيح، وصار كل شيء هادئاً، فجأة هبت ريح عنيفة جداً، جعلت السفينة تتأرجح، فصرنا خائفين، وبوضع غير مريح، وقد بقينا متمددين بهدوء وسكون، ونائمين في الظلام والرعب، وحدث فجأة أن واحداً من النبلاء، وكان مرعوباً من منام مخيف، بدأ يصرخ بصوت مرتفع بشكل مزعج جداً، وكأنه يركض هناك بسيف، وأفاق كل انسان على ظهر السفينة بسبب صراخه، ولأنهم كانوا نياماً في

الظلام، أصيبوا بفوضى، وافترضوا ان هذا الفارس قد طعن من قبل واحد من اللصوص، وأفاق النبلاء وحاولوا العثور على سيوفهم في الظلام، وحاول آخرون تدبر أمر نجاتهم، خشية منهم أن شراً ماقد أعد للحجاج، وحدث اضطراب خطير في داخل القمرة الرئيسية للغليون، لكن الرجل الذي كان متمدداً إلى جوار الذي صرخ، قد أدرك الذي حصل وفهمه، فصرخ بصوت مرتفع وطلب من كل انسان العودة إلى مكانه والتمدد فيه، وهكذا مضت تلك الليلة مع فوضاها، ولم يكن القبطان قد جاء بعد، ولم يصعد إلى ظهر الغليون.

وفي اليوم الثاني من حزيران، جاء القبطان قبل اشراق الشمس، مع خدمه وآل بيته جميعاً، وجلب معه أيضاً بعض الحجاج الذين تلقاهم مؤخراً، ليكونوا ركاباً على ظهر السفينة، وكان بين هؤلاء رجلاً فلمنكيا مع زوجته، وعندما وصلت هذه المرأة إلى ظهر السفينة، غضب عدد كبير من الناس لذلك، لأنها كانت المرأة الوحيدة على ظهر السفينة، لأنه قبل وصولها لم يكن بيننا ولا امرأة، ذلك أن المعلم أوغسطين، قبطان الغليون الآخر، كان قد جمع كل النساء على ظهر مركبه، ولم يكن هناك واحد على ظهر غليوننا لم يكن مزعوجاً من قدوم هذه المرأة العجوز، ومن التفكير بوجود امرأة واحدة سوف تعيش بين مثل هذا العدد من النبلاء، لاسيما عندما بدت —لدى إلقاء النظرة الأولى عليها— أنها لاتعرف الاستقرار، وفضولية، كما تبرهن أن ذلك كان حقيقة، لأنه صدقاً، كانت النسوة السبعة اللائي رافقننا في الرحلة الأولى التي قمنا بها، حسبما رأيت في ص١١٧، المتقدمة، كن أقل ضجيجا من هذه العجوز الشمطاء، فقد سعت مابين هنا وهناك حول السفينة بشكل غير ضروري، وكانت مليئة بالفضول، راغبة في سماع كل شيء ورؤيته، فجعلت بذلك نفسها مكروهة إلى أبعد الحدود، وقد بدا زوجها أنه كان رجلاً عاقلاً، ومن أجله أمسك كثيرون عن الكلام، ولولا وجوده هناك

لسارت الأمور معها بشكل صعب، فلقد كانت هذه المرأة شوكة في أعيننا جميعاً.

وعندما أصبحنا جميعاً على ظهر الغليون، وأضحى النهار، صدرت الأوامر إلى بعض الملاحين بتزيين الغليون، فقاموا بتعليق سبعة من الأعلام الحريرية الواسعة، وذلك امتداداً من القلعة إلى القيدوم، ومن القمة أيضاً، وزينوا القمة نفسها بقطعة من السجاد بأن لفوها من حولها، وكان أكبر الأعلام وأولها هو علم السادة الحجاج إلى الضريح المقدس، وكان أبيض اللون، عليه صليب أحمر ممتداً من أول طرف حتى الطرف الآخر، وكان العلم الثاني هو علم سادة البندقية، أي علم القديس مرقص، وكان أبيض اللون أيضاً، عليه أسد أحمر، كان تحت قدميه الأوليين البحر، وتحت قدميه الخلفيين اليابسة، وكان العلم الثالث هو علم مولانا البابا سكتوس الرابع، وكان لونه لون الهواء، عليه شجرة بلوط خضراء تحمل جوزات بلوط ذهبية، ومفتاحي الرسولين، وكان العلم الرابع هو علم القبطان، وكان مكوناً من أنواع مختلفة جميلة، وعرض الخامس أذرع البندقية مع ذراعي القبطان مع بعضهم، وكان هناك علمين آخرين، كلاهما متشابهين، على كل واحد منهما أسد أسود وأبيض.

وبعد الفراغ من تزيين الغليون، بدأوا بالاستعداد للانطلاق، لأنه كان لدينا رياح لطيفة، كانت تحرك الأعلام في الأعالي، وبدأ الملاحون بصوت مرتفع يرفعون المرساتين ووضعهما على السطح، وبرفع عارضة الشراع نحو الأعلى مع الشراع الرئيسي accaton يخفق فوقها، وجرى أيضا رفع قاربي الغليون واخراجهما من البحر، وجرى انجاز هذا كله بعد جهد كبير وصرخات عالية، واستمر ذلك حتى أطلق الغليون من رباطاته، فأقلع بسرعة وهو ممتلىء بالريح، وأبحرنا وسط بهجة عظيمة وابتعدنا عن اليابسة، لأن البواقين زعقوا بأبواقهم وكأننا كنا على وشك

الالتحـــام بالقتــال، وصرخ عبيـــد الغليـــون، وغنى جميع الحجـــاج مع بعضهـم:« In Gottes Nahmen Fahren Wir » حسبما يمكـن القراءة عن ذلك في ص٣٤٣.

وفي الوقت نفسه مخر الغليون بقوة خلال البحر، وابتعدنا بسرعة عن مـدينة البندقيـة، وخلفنا مـرسـاها الذي انطلقنا منه بعيـداً وراءنا، وكنا مسرورين كثيراً لمغادرتها، وكأننا قد أطلق سراحنا من السجن، ذلك أننا رغبنا باصرار بالـوصـول إلى القـــدس، وسيقت السفينة بسرعـــة كبيرة بفضل قـوة الريح الطيبــة، إلى حـد أننا لم نعـد قـادرين على رؤية أياً من الجبال، أو أي جزء من الأرض، أو أي ساحـل أو أي جزء من اليابسة، بل كـان أمـام أعيننا السماء فقط والماء، ذلك أننا قطعنا مسـافـة كبيرة في ذلك الوقـت القصير وصرنا في أعـــالي البحـار، وصرنـا أعلى فأعلى من أعالي جبال الألب، ولم نعـد قادرين على رؤيتهم، لأنهم صاروا الآن — كما هو الحال — منخفضين مع الانحناء الاعتراضي للبحر بينهم وبيننا.

وأمـا وقـد غدونا الآن بعيـدين عن رؤية العـالم، أنزل البحـارة جميع التزيينات التي زينت بها سفينتنا، وكانوا يلقون نظرة عليها في كل يوم، جـاعلين إيـاها جـاهزة للعمل، وبعـــد منتصف النهـار، عندمـــا تناولنا الطعام، رأينا على يسـارنا، باتجاه الشمال جبال ايستريا، وهـي منطقة من مناطق مقـاطعـة دلماشيـا، ورغبنا بالـوقـوف هناك في ميناء بارينزو Pa-renzo ، لأن ريحنا الطيبـــة توقفـت عن الهبـــوب، وعلى كل حـــال لم نتمكن من الوصول إلى بارينزو، بل تجاوزناها، ومع ذلك لم نقطع مسافة جيدة، لأنه مع انتهـاء النهار، انتهت الريح أيضـاً، ومكثنا الليل كله من دون التقدم نحو الأمام بل كنا نراقب بدون راحة، ونتأرجح هناك.

وهبت في اليوم الثـالث من حزيران، عند الصباح، ريح كـانت قذرة تماماً، وأُرغمنا على العودة نحو جبال ايستريا، وبعد جهود عظيمة نجونا من الريح المعـاكسة، واقتربنا من الجبـال، وجلبنا سفينتنا إلى ميناء روبينا

Rubina (Rovigno) وذلك على مسافـة ميلين خلف بارينزو، حيث كـان القبطان الآخر مـع حجاجـه، وميناء مـدينة روبينا هذا، ليس ميناء مطروقاً، لكنه آمن وغني، وفي هذا الميناء تفضل علينا القبطان، بتنشيطنا وانعاشنا بغداء لأننا دخلنا إليه في وقت الغـداء، وهو أمر متوجب عليه فعله، لرؤيته أننـا كنا في ميناء جيد، حيث يمكننا التـزود لأنفسنا، وبعد الغداء نزلنا من الغليون إلى القـارب، وذهبنا به إلى المدينة، حيث صعدنا إلى الكنيسـة الكاتدرائيـة وصلينا هناك للرب وللقـديسـة يوفيميـا -Eu phemia العذراء، التي جسـدها كله ممدد هناك وملفوف في ضريح من الرخـام كبير، وهذا الضريح المتفـوق التابع للكاتدرائيـة، فتح لنا، وقـد أرونا الجسد المقـدس، ولسوف أتحدث لكم وأنا عائد، عن كيفيـة انتقال جسـد القـديسة يوفيميـا الخلقيـدونيـة إلى هاهنا، وسأصف لكم مـدينة روبينا، كما سأتحدث عن مـرساها، وقـد مكثنا في هذه المدينة حتى وقت العشـاء، وتعشينا على حسـابنا في إحـدى الحانات، وكان عشـاء جيـداً، عدنا بعـده إلى غليوننا، آملين أن نتمكن خـلال الليل من الابحار، لكن تلك الريح القـذرة —ولا أجـرؤ على تسميتهـا شريرة — هبت طوال الليل، جـاعلة تلـك الليلة ليلة غير مستقـرة تمامـاً بالنسبـة لنا، ومع أن سفينتنا كـانت مـربوطة بالمرسـاتين والأربطة الأخرى العـائـدة للميناء، أرجحتهـا الريح وهزتها بكل عنف، وجعلتنا نصـاب بدوار البحـر بكل شدة.

وفي اليوم الرابع لم تكن الريح لطيفة، ولهذا نزلنا من الغليون وغادرنا حيث ذهبنا إلى كنيسـة القـديسـة يوفيميـا حيث قـرأنا واستمعنا إلى قداسـات، وتغدينا بعـد القداس مع مضيفنا، وكـانت حانتنـا مجرد كوخ صغير، استأجـرناه من رجل فقير، حيـث قـام طبـاخ مـولاي فأعـد لنا الطعام الذي جلبناه له، وكانت هناك أشياء كثيرة يمكن الحصول عليها، لكن لم يكن في تلك البلاد حـانات كما هو موجـود في بلادنا، وأية حانة

هناك كـانت تعيسـة جـداً، ليس فيهـا لاقـدور، ولا أوعيـة قلي أوغلي، ولاأيضاً مايكفي من صحون أو ملاعق، وعلى هذا وجد الحجاج النبلاء أنفسهم مع أنهم في بلـدة جليلة واسعــة، مــرغمين على الـدخــول إلى البيـوت العـامـة السيئة السمعـة، حيث كـان من الممكن الحصـول على الضروريات، وذلـك حسبما قلت من قبل في ص٢٥٨، وقــد عــانى الحجـاج من مصـاعب كثيرة، بسبب الحاجـة إلى نزل، وعـانى بشكل خاص الذين ليس لديهم تجهيـزات خاصة بهم للطبخ بها، وبعـد الغداء ذهبنا بالقـارب إلى جزيرة صغيرة، وإلى كنيسـة القـديس أندرو القائمـة هناك، وكـان على مقـربة مـن الكنيسـة دير صغير، كـان فيـه فيما مضى رهبـان من طائفة القـديس بندكت، وعندمـا تخلى هؤلاء عن هذا المكان أخـذه الـرهبـان الفـرنسيسكان، وتملكوه، وبنوا ديراً جميـلاً هناك وفق طرائق طائفتهم، فضـلاً عن هذا قامـوا بزراعة الجزيرة الصغيرة نفسهـا، وجعلوها وكأنها جنة من الجنات، ومن هناك يمكن للانسـان أن يحصل على الأخشاب وأشياء أخرى لها حـاجة، ذلك أن تربة الجزيرة هذه غنية وخصبة، كما أن الأراضي في الجزر القريبة كلها متشابهة، وخصبة.

***　　***

وبعد ماتمشينا لسـاعات حول الجزيرة المتقدمة الذكـر بقيادة الرهبان، عـدنا إلى الدير، حيث احتفي بنا بلطف بتقـديم وجبـة لنا، الأمـر الذي عوضهم عليه اللورد جـون التروخسيس بكرم، عندما غادرنا، وفي أثناء تناول الطعـام انتبهت لوجـود واحد مـن الرهبان، كنت قـد رأيتـه أثناء حجي الأول فــوق جبل صهيـون، حيـث كـان نائـب الوصي في الدير هناك، وهو أيضاً قـد تذكرني، وقد حيـاني بلطـف، وقد تلقيت منه بعض النصـائح، وعندمـا انتهينا مـن الطعـام، صعـدنا إلى قـاربنا، ووصلنا إلى روبينا مع صعوبات كبيرة، لأن الريح كانت معاكسة، وتناولنا العشاء في البلدة، وعـزمنا على البقاء بعيـداً عن الغليـون طوال الليل، وآثرنا النوم

على المقـاعد على أن نكـون على ظهر السفينة، لأننا أمضينـا ليالي تعيسـة على ظهـر الغليون عندمـا كان راسيـاً، يتأرجح بقـوة الريح، لكن الذي حدث، هو أننا ماأن فرغنا من تناول العشـاء، حتى كان القبطان قد أمر بالنفخ ببـوقه (Buccina)، وكان ذلك شـــارة للجميع حتى يعودوا إلى ظهر الغليون.

وفي ذلك المساء، وقبل غياب الشمس، قـام الملاحون برفع المرساتين، وبحل أربطة الغليـون واطلاقه، وأبحـرنا خـارجين من الميناء، مع أنه لم تتـوفـر ريح لطيفـة في البحـر، ذلك أنهم رأوا عـن بعـد أوغسطين مع غليـونه، وخشيـــوا من أن يحصل على الأولويـة علينا، ولهذا قمنا بهذه المحاولة المخفقة، لأننا ماأن صرنا خـارج الميناء، حتى دفعنا مسافة بعيدة في البحـــر بريح معـــاكسـة، وهكذا أمضينـا تلك الليلة نتأرجح فـــوق الأمواج، وكنا غير مرتاحين بمافيه الكفاية.

وفي اليـوم الخامس، استمـرت الريـح نفسهـا، فكان أن حملنا خـلال الأمـواج إلى أسوأ جـزء من ذلك البحر، الذي كـان اسمه كـورنيروس (Quarnero) Cornerus فهناك الذيـن يبحـــرون يكونـون دومـــاً في خطر، لأن البحـر يتـدفق من هناك بتيـار سريع جـداً نحـو أنكونا -An cona، ويتوجب على البحارة المحافظة على السفينة بعناية كبيرة، وجهد عظيم لمنعها من مسـايرة تيار البحر، الذي كـان في بعض الأحيان يدفع السفن بعنـف ويلقي بهم إلى داخـل ميناء أنكـونا، وذلـك وسط رعـب عظيم ومخاطر للسفن وللذين على ظهرهـم، وعندما كنا في ذلك الخليج رأينا الجبال التي تفصل دلماشيا وكرواتيـا عن مملكة هنغاريا والهنغاريين، الذين يحجون إلى سيـدتنا صاحبـة لوريتو Loretto، يأخذون سفينة من هناك ويبحرون إلى مكان العذراء المقدسة.

وقطعنا في ذلك اليـوم مسـافــة قصيرة، ومع ذلك استمـرت السفينة طوال الوقت وسط حركـة عنيفة، وإنه لأمر مـدهش للانسان الذي هو

غير معتـاد على البحـر، أن يرى السفينة وهي تجري بسرعـة كبيرة، لكن دون أن تتمكن من قطع أي مسافة على مسارها، الأمر الذي هو في غاية السوء، وعند حلول المسـاء، أصبحت الريح القذرة أشـد، ولقد أمضينا ليلة غير هادئـة تماما، حيث أصبـح معظم الحجاج مـرضى كثيراً، لأنهم باتوا يعـانون من دوار في رؤوسهم ومن معـدة مضطربة، وكان الغثيـان العنيف والشـديد نصيب الجميع، علماً بـأن بعضهم صـاروا أضعف من آخـرين لتلك الأسباب، وعندمـا صـارت العاصفـة أشد، أراد البحـارة تحويل اتجاه الشراع الرئيسي، وكـانت عـارضـة الشراع قـد رفعت نحـو الأعلى إلى مافـوق رأس السارية، مع الشراع الرئيسي accaton منشور من حولها، لكن عندما تركوا عـارضة الشراع تطير حول الطرف الآخر، انفلت الشراع ونزل على المجـاذيف على ذلـك الجانب، وعندمـا مـلأت الريح الآن الشراع بشكل مفـاجيء، وأخـذت برفعـه بقـوة كبيرة، تعلق بين المجاذيف، ومـالت السفينة كثيراً نحو ذلك الاتجاه حتى أن عـارضة الشراع نفسهـا لامست الماء، وباتت السـارية، لابل في الحقيقـة الغليـون نفسه مهدداً بالانقـلاب إلى ذلك الجانب، ولهذا كان هناك ركض إلى هنا وهناك، وصراخ على السطح الأعلى، أما نحن تحت في مخادعنا فقد قذفنا نحو الجانب الآخـر، واستعد القبطان في القيدوم لانقاذ نفســه، فقد أمر بقطع الحبال التي تمسك القـارب الصغير، حتى يسقط في الماء، حتى إذا ماغرقت السفينة، يمكنه أن يقفز إليه، ولم يعرف الحجاج الذين كانوا في الأسفل بهذا، ولو عـرفوا به لحدث اضطراب عظيم، وفـوضى مرعبـة، من التسارع الذي كـانوا سيقومون به في ركضهم نحـو السطح، وبعون الرب، انتهى هذا الأمـر على كل حـال، ووصل إلى نهاية سليمـة، حيث رفعت الريح الشراع خـالصاً مـن بين المجاذيف، وبدأت السفينة تبحـر متقـدمـة كما كـانت من قبل، ولـو أن السفينة جنحت وانقلبت إلى ذلك الجانب، كما كانت على حافة وقـوع ذلك، مامن أحد من الحجاج الذين كانوا في القمرة الرئيسية، كان سينجو من الموت.

واستمرت الريح في اليوم السادس قذرة، وقد أسفنا لمغادرتنا ميناء روبينا، ووجهنا السفينة مجدداً نحو الجبال، علنا نستطيع دخول أحد الموانىء التي هناك،والانتظار هناك هبوب ريح لطيفة، وتقوم فوق الجبال القريبة من البحر شارات من خلالها يعرف البحارة مكان وجود ميناء آمن، وأين يمكنهم الاقتراب من اليابسة، ومالم يروا هذه الشارات، لايتجرأون على جلب هذه السفن الكبيرة وتقريبها من اليابسة، وبعد رؤية واحدة من هذه العلامات، ومن ثم التأكد من وجود ميناء، مع امكانية القدرة على الوصول إلى اليابسة، وجهنا رأس غليوننا نحو الجبال، فوصلنا إلى مابين جدارين من الصخر، وجلبنا المركب إلى وادي حيث وجدنا ميناء آمناً، وبناء عليه القينا المرساة، وربطنا السفينة بالصخور، وثبتنا وقفتها، ولم يكن الميناء أكثر من مكان بين تلال وجبال، فيه يمكن للسفينة الوقوف دون التعرض لتهديد الرياح، ومع هذا لايكفي أن يكون موقع الميناء آمنا، بل هناك مطلب آخر، هو أن يكون البحر هناك عميقاً، وأن تقيم ميناء هناك، لم تكن هناك حاجة لوجود سكان قاطنين على مقربة منه، بل كان يكفي أن تكون السفينة قادرة على الوقوف هناك، وهي آمنة من الرياح العنيفة، سواء أكان المكان مسكونا أم لا.

وكان هذا الميناء في بقعة مهجورة، على إحدى الجزر التي اسمها أسارو Assaro ، وكان محاطاً من كل الجوانب بشعاب وجبال وعرة، وبعدما تناولنا طعام الغداء على سطح الغليون طلبنا إنزال القارب إلى البحر، وذهبنا به نحو الشاطىء، وقد تمشينا فوق الجزيرة لتمضية الوقت، وكان نامياً هناك أعشاب ذات رائحة جميلة، وكثيراً من نبات القصعين الصغير بلاحدود، وكف مريم agnus costus وبعدما اجتزنا بعض التلال، وصلنا إلى حقول شعير، وكنا بذلك مسرورين، على أمل أننا كنا على مقربة من احدى المزارع، حيث يمكننا الحصول

على خبز طازج وبيض للبيع، وبعدما مشينا بعض الشيء على الطريق وصلنا إلى كوخ تعيس، كان يسكن فيه بعض الفقراء المعدمين من السكلافونيين، الذين لم يكن لديهم أي شيء على الاطلاق في بيتهم، سوى بعض الجذور، كانوا يجففونها في الشمس، وعندما تصبح يابسة كانوا يطحنونها، ويتخذون منها طحينا، يتخذون منه خبزاً، وقد أعطونا بعضاً من هذا الخبز، لكنه كان أسود جداً وبلا طعم، ولم يكن هناك بيت آخر غير هذا على الجزيرة، وبعدما رأينا هذا كله، عدنا إلى الشاطىء، إلى مقابل المكان الذي رست فيه سفينتنا، ورأى كثيرون أن الشاطىء أكثر كآبة من السفينة، فعاد هؤلاء إلى ظهر السفينة مجدداً، وبقيت أنا مع عدد من النبلاء على الشاطىء، ساعياً لإعطاء رفاقي الراحة، وقمت بتسلق أحد الجبال وحيداً لأنظر من حولي، وهنا رأيت ليس بعيداً، انسانا يلبس ملابس الرهبان المبشرين،يركض نحوي، ولذلك ركضت نحوه، للقائه، وحييته، وسألته من أين جاء، وإلى أين هو ذاهب، لكن هذا الراهب المسكين، لم يعرف لغة يحادثني بها، فهو لم يعرف لا اللاتينية، ولا الايطالية، ولا الألمانية، لأنه كان إما دالماشي، أوسكلافوني، فقد كان على طريقه نحو الغليون للتسول.

*** ***

وذهبت بعد هذا إلى شاطىء البحر، حيث وجدت واحداً من الملاحين، يقتلع عشباً كان ناميا بين صدوع الصخور، قال بأن له نكهة عظيمة في السلطة، وقال بأن اسم هذه العشبة كان Porcella، وكانت طيبة الطعمة، ومالحة، ونكهتها حادة (occtosa) وهي مثل الكبوسين، لكن أثخن وحجمها أكبر، وتساءلت كيف أمكن لعشبة جيدة أن تنمو بين الصخور وان يكون طعمها مالحاً، ولعل ذلك بسبب أن الملح منتشر على الشاطىء، أو بسبب أنه في أثناء العواصف تضرب المياه المالحة الصخور وتغطيها، حيث تشرق الشمس بعد ذلك وتضرب بأشعتها

ذلك الماء فتجففه وتجعل منه ملحاً، وطبيعة الملح تجعل الأرض جرداء، ومع ذلك نمت هذه العشبة في الملح، على الرغم من طبيعة جميع النباتات، ووجدت أيضاً أغصاناً من أفضل أنواع نبات كف مريم فأخذتها، علني أطرد بها روائح نتن السفينة من مخدعي، وحول هذا النبات، انظر عرضاً مطولاً في القسم الثاني ص١٨٩.

وحدثنا النباتيون، ولاسيما ألبرتوس ماغنوس Albertus Mgnus في De veget tractatus,i,c,5 بأن هذه العشبة قد عرفت باسم كف مريم agnues castus، بسبب عصارتها، وزهورها، وأوراقها، التي هي مفيدة من أجل التحريض على فعل الخير، فبوساطة حرارتها يجف الأساس المنوي البشري، والريح التي تمدد الأجهزة المولدة، ولهذا السبب قام الحكماء الاغريق برسم هذا النبات على أرضيات منازلهم، حتى تزدهر الفضيلة بين عقيلاتهم، وقد قيل أيضاً بأن هذا كان عقيدة الفيثاغورسيين، لأن هذا النبات كان يحوّل الانسان إلى مخلوق هادىء ولطيف مثل الحمل، ولهذا السبب أقدم كهنة الشمس والعذراءات المكرسات لخدمة الربة فيستا Vesta، والذين تحتضن ديانتهم القسم بالطهارة، على نشر أوراق كف مريم على أسرة نومهم وفي بيوتهم، وأنا أعرف هذا النبات منذ أيام طفولتي، ذلك أنني عرفته في بازل Basle، حيث كان ينمو في حديقة ديرنا، وكان قد زرع من قبل رجل جاء من البحر في أيام مجمع بازل.

وقد قيل بأن هذا النبات لايمكن نقله وزرعه في مكان آخر، بل ينمو فقط حيث زرعه الرجل، لكن هذا غير صحيح، لأنه في الوقت الذي كنت فيه هناك باقامة عابرة، اقتلعت غصناً مع الجذور وزرعته في حديقة مأوى العجزة، فهناك نما وصار شجرة كبيرة، ولهذا النبات أوراق فيها بعض الشبه بأوراق الجوز، إنما أنعم وأقل قسوة، وزهورها مثل زهور الأقحوان، ولهذا يطلق عليها اسم جوز البحر، ولها رائحة

جميلة وحـادة ومفيـدة، وبعضهم على كل حـال يمقتـون رائحتهـا، ولايستطيعون تحمل شمها.

وهكذا عدت إلى ظهـر الغليون، آخذاً معي حـزمة من الـ Porcella من أجـل السلطة، وكف مـريم من أجل الـرائحـة ومن أجـل تزيين مخدعي، وبعـد عـودتي لم أشـارك أصحـابي بالعشـاء، بل صنعت سلطة تعشيتهـا، وكنت راضيـاً بها، ومع حلول المسـاء ازدادت قـوة الريح المعـاكسـة، وهبـت بشـدة جعلتنا نخـاف مع أننا كنـا مـانزال في الميناء، وأرغم البحارون على الحصول على مـزيد من الحبال لربط المركب، لأن التيارات انجـرفت وتحركت عبر البحر المفتوح، واندفعت ضـد الشعاب الصخرية ومن حولنا، ووصلت حتى إلى المكان الذي وقفنا فيه، وثارت في حوالي منتصف الليل عاصفـة مرعبة جداً رافقتهـا رياح عنيفة، ورعد وبرق، وأمطار ثقيلة، إلى حد أن مياه المطر جرت إلى داخل حجر نومنا، لذلك لم نعرف الـراحة في تلك الليلة،وكان هناك خـوف عظيم، مع أننا كنا في ميناء، لأن الماء ضرب بعنف شـديد جـوانب الغليون، حتى كـان عجباً كيف أمكن لأي خشب تحمل مثل هذه الضربات.

وفي اليوم السابع لم تكن الأنواء مناسبة لرحلة جيدة، ولهذا قمت بعد الغداء ثانية بالذهاب إلى الشـاطيء، وكان ذلك في القارب، كما فعلنا في اليـوم المتقـدم، ولم نذهب جميعـاً، بل ذهـب بعضنا فقط، وكنت أنا بين الذاهبين، وبصعوبة وخطر أمكننا الخروج من الغليـون إلى القارب، لأن البحـر كان هائجـاً، وهز كلا من القـارب والغليون وأرجحهما صعـوداً وهبـوطاً، ولهذا لم يتجرأ قـائد القـارب على تقديمـه إلى جوار الغليـون، خشيـة منه أن تحمله الريح فيضرب جـانب الغليـون، فيتحطم إلى قطع، لأنه ارتفع عـاليـاً بوسـاطة الأمـواج، فكان أعلى من الغليـون، ثم هبط عميقـاً إلى حـد أننا الذين كنـا على سطح الغليـون لم نعـد قـادرين على رؤيتـه، بسبب الأمـواج التي كـانت فيما بيننا، وفي مثل هذه الأنواء على

كل من يرغب بالخروج من الغليون والحصول في القارب، الوقوف على سلم الغليون، والانتظار بحذر اقتراب القارب من الغليون، حتى يمكنه الوصول إليه قفزاً، لأن الناس لـن يسمحوا للقارب بالاقتراب أكثر من هذا، ويتوجب عليك القفز في اللحظـة التي يقترب فيها القارب، لأنك مـالم تقفز، سـوف يبتعد عن الغليـون بقوة الأمـواج، ولدى قفزه نحـو القـارب، لايمكنه أن يصون نفسـه من الوقوع في الأمـام أو في الخلف، على وجهه أو على قفاه، ويقوم الذين على ظهر القارب بايقافه.

وكـانت هذه أعظم اللحظات ذات الخطر العام، التي كـان يخضع لها الحجاج، إنما وإن بدت صعبة في البداية، كان ماأن يعتاد الانسان عليها، حتى تصبح مسألة روتينية عـادية، بعدما كـانت من قبل لايجرؤ الانسان على التفكير بها، أو تجربتهـا بسبب الرعب، ولقـد رأيت نســاء كن في البداية مليئات بالرعب، لم يتجـرأن على النظر إلى البحر، لكن بعد ذلك أصبحن جريئات — بسبب الممارسة — إلى حد أنهن كن يغامرن بالقفز من الغليـون إلى القارب، وقـد يعتقـد الانسان في البـداية أن الأفضل له البقـاء على سطح الغليـون، وتحمل شقـاء البقـاء هناك، على أن يغـامـر بالقفـز، ومن ثـم الحصـول في ميناء جيـد ومنعش، ولكن بعــدمـا يجد الانسان نفسه قد تعرض للقـذف بالعواصف وبالمصاعب، وجاع بسبب العـوز إلى الطعام على ظهـر السفينة، تراه يقـدم لدى الوصـول إلى ميناء جيد، ويتجـرأ على القفز خمس قفـزات خطيرة، مفضلاً ذلـك على البقاء على ظهر السفينة، وهناك أيضاً المصاعب نفسها عندما يصل القارب إلى الشاطىء، لأنه إذا كـان الشاطىء صخريا ومنحدراً، لايتجـرأ الملاحون على الاقتراب منه، إذا كان البحـر هائجاً، ولذلك يتـوجب على الانسان أن يقفـز ثانية، إمـا على الصخـور أو في البحر، وفي جميع الأحـوال على الانسان أن يكون متنبها وحذراً تماماً تجاه عمق البحر، لأنه عندما يكون البحـر هائجاً قـد يغطي الصخـور العـالية، ولهذا يوجـد بشكل عـام في

الموانىء رجال للخدمة، الذين عندما تتراجع مياه البحر، يسرعون إلى القارب، ويحملون كل واحد من الذين سوف يعطيهم بنساً، وكل من يعبر البحر، يرى هذه الأشياء، وأشياء أخرى كثيرة من هذا النوع.

ودعوني الآن أعود إلى سياق حكايتي، فقد وصلت إلى الشاطىءمع بعض الحجاج والبحارة، وعملنا ناراً على الشاطىء، ومشينا حول التلال، وبذلك أمضينا الوقت حتى المساء، وكان الوقت متأخراً عندما عدنا لتناول عشائنا على ظهر الغليون، وقد تغلبنا على مخاوف القفز من القارب إلى الغليون.

وفي اليوم الثامن، الذي كان الأحد الثاني بعد الثليث، استمر الجو مظلما، والهواء معاكساً، وفي حوالي مابعد الغداء ذهبنا جميعاً تقريباً إلى الشاطىء بالقارب، وهناك ركض بعضهم حول الهضاب التي بلاممرات، بينما جلس بعضهم الآخر بلا حراك يتحدثون، وقد تمتعنا بيوم بهيج، من ثم كانت الأوضاع على ظهر ذلك الغليون رائعة إلى أبعد الحدود، وكان هناك سلام ووئام، وصداقة، ووحدة بين جميع الحجاج، وكان الوضع هو المعاكس على ظهر غليون حجي الأول، حيث كان هناك، غضب، ونزاع، وخلاف، وكثيراً من الشتائم بقدر مايمكن رؤيته في ص١١٠—١١١، وعليه عندما كانت الشمس على وشك الغياب، عدنا إلى ظهر الغليون، من أجل تناول طعام العشاء، ولم نتحرك في تلك الليلة، ذلك أن قوة الريح بدأت تتلاشى.

وفي اليوم التاسع جلب الرب كنوز خيراته وقدمها لنا، فقد توفرت رياح طيبة، كنا مسرورين لها كثيراً، فرفعنا المرساتين، وحللنا حبال الربط، ونشرنا الأشرعة، فامتلأوا بالهواء، ولم يمض سوى وقت قصير حتى غادرنا الميناء، ومن ثم صرنا في أعالي البحار، وقبل الظهر وصلنا إلى ميناء في دالماشيا اسمه يادرا (زارا)، وهنا طوى القبطان الأشرعة، وأنزل مرساة واحدة، وأنزل القارب، وأرسل بعض البحارة إلى المدينة

مع أوعيـة لجلب الماء، لأن الماء الذي جلبنـاه معنا من روبينا، كـان قـد نفد، ولم يكن على جـزر أسارو، ولاقطرة مـاء للشرب، ولم يدع القبطان ولاواحـداً من الحجـاج يغـادر السفينة، لأنه عـزم على الاقـلاع ثانيـة مبـاشرة، ويـا للعجب عندمـا كنـا راسين هناك، وصل المعلم أوغسطين أيضـاً مع غليـونه وتجاوزنا، ولمدة طويلة كـان بـامكاننا رؤية غليـونه في البحـر، مبحـراً أمـام ريح طيبـة، وأمام هذا المشهـد كـان قـادة غليـوننا غاضبين جداً، لأنهم عزموا، واستخدموا كل جهد في سبيل ابقاء غليوننا أمـام غليونـه حتى الأرض المقدسـة، ولكن مشروعهم حقق الإخفـاق، وعندمـا أحضرت المياه إلى الغليـون، لحقنا مباشرة بأوغسطين، وأبحـرنا على طول مسار جيد جداً، حيث كـان على جانبينا قرى، وقلاع، وأرض مزروعة، ووصلنا إلى يادرا القديمـة، ورأينا خرائبها العظيمة، واستطعنا بعون الريح انجاز رحلة جيدة طويلة في ذلك اليوم.

وعلى كل حال توقفت ريحنا الطيبـة عند غياب الشمس، وهبت ريح قذرة، تراجعنـا أمامها ووجهنا سفينتنـا نحو الجبال، خشيـة أن تدفع بنا بعيـداً عن مسـارنا، وعندمـا أصبحنا بين الجبـال، ربطنا سفينتنا في ميناء مهجـور، وأمضينا ليلة مليئـة بالعـاصفـة والرعب بسبـب سـوء الأنواء والبرق والرعـد، وعليـه كـان الجو مليئاً بأشيـاء غير مـوافقـة للناس في البحـر، أكثـر من الذين سكنـوا فـوق اليـابسـة، وكـان اسم ذلك الميناء أونيوم Oneum، وهو في كراواشيا Crawacia، التي هي مقاطعة في دالماشيا.

ولم تكن هناك ريح في اليـوم العاشر، سوى الريـح القذرة، وذلك في الصباح البـاكر عند شروق الشمس، ويئسنا من مغـادرة أونيوم في ذلك اليوم، لكن على كـل حال، تغير الهواء بعد مضي سـاعتين، فحلوا أربطة الغليون، وساقوه خارج الميناء بوساطة المجاذيف، ووجدنا في الخارج في البحـــر ريحاً جـــانبيـة، لم تكـن نافعـــة كثيرة لنا، وقـــد حملتنا على طول

الأطراف حتى وقت الغداء، وبعد انتهاء وقت الغداء هبت ريح مواتية وقوية وسعيدة، دفعت السفينة بشكل مفاجيء وبقوة على امتداد طريقها الحقيقي فوق البحر، ولكي تمضي أسرع رفع البحارة الشراع الأمامي (Trin Ketum) فوق القمة الأساسية، وعلقوه حتى عنق القمة الأساسية، وذلك فوق العارضة الرئيسية للشراع، فضلاً عن هذا لقد أخرجوا الظلة، أو غطاء السفينة، الذي يغطى به أحيانا الغليون كله من البداية حتى النهاية، ليحمي الغليون من الشمس والمطر، وجرى مدّه بشكل منحرف عبر الغليون حيث تقوم السارية، وذلك تحت قلع الشراع الأساسي، وقد وصل من طرف إلى طرف، وأمسك الريح كلها من الخلف حتى يساعدنا ذلك على طريقنا، ولذلك مضينا في طريقنا مسرعين جداً، وتجاوزنا مدينة ليسينا، ثم مدينة كورزولا، وكذلك مدناً أخرى كثيرة، سوف أتحدث لكم عنهن — بعون الرب — أثناء عودتي، واستمرت هذه الريح السعيدة والمبهجة ذلك النهار كله، والليلة التالية، التي نمنا خلالها بعمق، ونحن نسير بسرعة وعذوبة، لأن طريق الغليون لم يكن على الجانب، بل كان مستقيما نحو الأمام، جعلنا ميالين إلى الهدوء، لأنه عندما تكون الريح هادئة ولطيفة، وليست قوية جداً، لن تكون هناك أية حركات يشعر بها الذين في القمرة نظراً لسير السفينة بهدوء، وبدون ضجيج، وينام كل من الحجاج تحت، وعبيد الغليون على السطح بهدوء، ويكون كل شيء ساكناً، باستثناء الذين يراقبون البوصلات، والذي يمسك عصا الدفة، لأن هؤلاء يقومون عن طريق التناوب والترداد بتقديم الشكر من أجل رحلتنا السعيدة، والحظ الجيد، ودوما يحمدون النسيم، ويشكرون الرب، والعذراء المباركة، والقديسين، ويرد أحدهم على الآخر، ولايلتزمون الصمت مادامت الريح طيبة، وكل واحد على ظهر المركب يسمع هذا الغناء الصادر عنهم، سوف ينام حتى وإن كان بالعادة لاينام، مثله في ذلك مثل الطفل الذي لايعرف الاستقرار والدائم الصراخ، فتقوم أمه فتهدئه عن طريق أغانيها الشجية،

لكن عندما يكون كل شيء هادئاً تراه يصرخ، لأنه مع الأغنية يغطّ في نوم عميق لأن الأغنية تؤكد له حضور أمه، ذلك أن تأثير الحضور أعظم من حلاوة الغناء، ومثل هذا كان الحجاج أكثر هدوءاً، لأنهم بهذا الغناء كانوا يدركون ويتأكدون أن السفينة مبحرة نحو الأمام باستقامة، وأن كل شيء على مايرام، وهذا أكثر أهمية من الأغنية نفسها، وكانوا يتناوبون النداء، مثلما فعل حراس مدينة أولم، عندما كانوا ينادون بساعات الليل، ولايعيق هذا النداء أي انسان ويمنعه من النوم، بل يرسل القلقين من الناس إلى النوم.

وفي أثناء العواصف، عندما تكون الريح معتدلة وقوية، تركض السفينة بعنف مع تأرجح واهتزاز صعب، ويكون ذلك وهي على مسارها بسرعة فائقة العظمة، سرعة لايمكن أن يجاريها سهم أطلق من قوس زيار أوقوس عادي، وغالباً مابرهن الملاحون على صحة ذلك، بالوقوف في المؤخرة مع قوس وارسال سهم باتجاه القيدوم، وهنا لايلحق السهم السفينة، حيث تتغلب عليه بسرعتها، وتدفع الريح السفينة، تدفعها نحو الأمام بوساطة أشرعتها، بقوة تبدو معها مياه البحر وكأنها تسعى لمواجهة القيدوم، ويبدو منقار القيدوم أيضاً وكأنه يشق مياه جدول أو نهر بكل عنف، ولذلك تعلو المياه أحيانا فوق قرني القيدوم، ولأن الماء يندفع بعنف كبير ضد المؤخرة، غالباً مايقفز حتى إلى حجرة القبطان الخاصة، وطالما أن الريح مالىء للأشرعة ويدفعهم بقوة متناهية، يبدو الماء وكأنه يجري بالاتجاه المعاكس والمضاد للمؤخرة، بسرعة عظيمة، هذا ومن الصعب لنظر الانسان أن يتابع فيه سرعة البحر.

ويبدو — على الأقل بالنسبة لي — أن السهم عندما يطلق من القوس لايمكن أن يسير بسرعة تساوي جريان الغليون، ذلك أن للغليون سرعة أعظم بعشر مرات من سرعة البحر، حيث أن السفن

تسير بسرعة من الصعب تصـديقها، عندمـا يكون الريح والبحر في هذه الوضعية، وأنا أعتقـد أن الابحار خلال يـوم وليلة مع ريح طيبة، تقطع السفينة خلالها مسافة تساوي مـابين كولون والبندقية، لأنه عندما تكون السفينة، تتقدم نحـو الأمام ببطء، ويعـدّ تقدمهـا كأنه لاشيء، تراها مع ذلك لايستطيع حصـان أن يعدو بسرعـة تعـادل حركتهـا البطيئة تلك، وعندما نقـول بأن سرعتها متلاشية، مـامن سباق يمكنه أن يجاريها حتى وإن كـانت تزحف زحفاً، وعلى كل حـال يصدف أن لاتتحـرك السفينة مطلقاً، أو تقف كليـة، وسوف يكون ذلك مـزعجاً جـدا للذين هم على ظهرها، وبناء عليـه تقدمنا تقـدماً عظيماً على طريقنا، في تلك الليلة ذات السرعـة الكبيرة، والأنواء اللطيفـة، ومـات في تلك الأثناء فـارس نبيل هولندي، حيث جرت عمليـة دفنه حسبما أوضحنا فيما تقدم في الصفحة ٢٥٤، وقد دفناه في أعماق البحر.

وفي اليوم الحادي عشر، الذي كـان يوم عيد القديـس برنابا الرسول، تابعنا الابحـار والتقـدم بنجـاح، واجتـزنا مـــدينة راغـوثا، وهي المدينة الرئيسية في دالماشيا كلها مع سكلافونيـا، التي سوف أحدثكم عنها أثناء عـودتي، ورأينا في ذلك اليوم حـدود الممالك، وهو المكان الذي تتصل به إمـارات دالماشيـــا، وإليريا، ودوقيـة ألبـــانيـا، والمورة أو آخيـــا، ومملكة هنغـاريا، ومملكة البوسنة، ومقـدونيا، تتصل به مع بلاد الاغـريق، ذلك أن هذه الممالك تمتد حتى شـاطىء البحر، وتشكل حدود المسيحيـة نحو الشمال، لأن آخيا، وألبـانيا، والبوسنة، ومقدونيـة تابعة للأتراك، وهكذا أمضينا يومـاً ممتعاً، مـع ريح طيبة، ومناظر جميلة مـن كل جانب، وقـام البحـــارة في هذا اليـوم باصطيـــاد السمك، لأنهم رأوا حشـوداً لاتعـــد ولاتحصى من السمك الكبير، ولم يكن لديهم وسيلة للصيـد سوى رمح حـاد جـــداً برأس له ثلاث شعب، وقـد وقفـــوا على أطراف الغليـون، وعندما كانوا يرون سمكة كانوا بسرعة يصيبونها ويجلبونها، وفي الحقيقية

لقد جـرحوا كثيراً، لكن الذي أمسكوه كـان قليلاً، ونحـو حلول المساء ضعفت ريحنا الطيبة، إنما بعـد غياب الشمس عادت قـوية كما كانت من قبل، واستمرت طوال الليل جيدة، ولهذا قطعنا مسافة طويلة.

وفي اليوم الثاني عشر تابعنا الابحار بـريح طيبة، وكنا في أعالي البحر، بعيدين عن اليابسة، ورأينا مدينة سكودروم Scodrum التي يسمونها سكوتاروم Scutarum، وهي التي أعطاها البنادقة في السنة الماضية إلى الأتراك حتى يتخلصوا من متاعبهـم، ثم اجتزنا دوراسيوم Duracium (دورازو)، التي هي الآن مـدينة كبيرة عـائـدة للأتراك، وهي التي كـان قسطنطين قـد قـرر فيها مضى إقـامـة القسطنطينيـة في مـوقعهـا، وهذا مـاسوف أخبركم به أثناء عـودتي، واجتـزنا أيضاً مـدينة لافيلون Lav-ilone، التي إلى جانبهـا يوجد نهر يجري في أراضي الأتراك، ويعبرها إلى البحـر، ويبحـر الأتراك من وسط بلادهـم على هذا النهـر، من أجل اصطيـاد المسيحيين، وأطلقنا طوال ذلك اليـوم جميع الشراع على أمل أن يتمكن من إمسـاك الريح، وذلـك حسبما قلناه من قبل وفعلناه في اليـوم السابع، ومع غياب الشمس ازدادت ريحنا الجيدة قوة، وأنزلنا بعضاً من شراعنا خشيـة أن نسير مسرعين كثيراً في الظلام، وفي ذلك المسـاء كنا جميعـاً مسرورين، ومبتهجين، وظـل المزمـار يلعب حتى غـدت الدنيـا مظلمة، وامتلكنا طوال الليل ريحاً طيبة.

وفي اليـوم الثـالث عشر، ازدادت الريـح في المسـاء المبكر قـوة، ثم انتقلت إلى مكان آخر، ولهذا قـام القادة بنقل الأشرعـة، وعندما أديرت عـارضـة الشراع، انعطفت السفينة بشكل مفـاجىء ومـالت على طرف واحد، وجـرى من ثم قذف جميع الحجاج الذين كـانوا مايزالون نائمين من فرشهم، وكان هناك ذعـر عظيم في القمرة، لكن على السطح لم يكن هناك سبب للخوف، وعنـدما أشرقت الشمس رأينا على يسارنـا جزيرة كورزيري Gorziri، التي يسمونها كورفو Corphu والتي هي أول بلاد

الاغـريق، واجتزنا هذه الجزيرة بسرعـة، لأن الطاعون كـان منتشراً بها، ولدى متـابعـة إبحـارنا على طريقنـا دخلنا إلى بحـر ايبروس Epirus، وبذلك غـدت أبوليا وصقليـة على يميننا، وبتوفيق عبرنا في ذلك اليـوم عـدداً كبيراً من الجزر التركيـة، وخلفناهن وراءنـا، لكن عندمـا غـابت الشمس ضعفت ريحنا الطيبـة، ولم نقطع في تلك الليلة أية مسـافـة أبداً، الأمـر الذي أغضبنـا كثيراً، لأن يوم الأحـد بات قـريبـاً، وكنا نأمل أن نكون في ذلك اليـوم في ميتونا Metona (Modon) وأن نسمع قـداساً هناك، لكن الشيطان لم يكن راضياً بأن نفعل ذلك.

وتابعنا في اليـوم الرابع عشر سيرنـا على طريقنا، ورأينا جبـال آخيـا، قريبة من مـدينة باتراس، حيث جرى صلب القديس اندرو، وهنا وقفنا عند اشراق الشمس بلاحراك، لأننا لم نمتلك ريحا تساعدنا، وبعد تناول طعام الغداء هبت ريح ضعيفة، جعلت الغليون يحبو ببطىء باتجاه مدينة ميتـونا، التي يسمـونا مـودون، فإلى هناك رغبنـا بالذهاب، ومع اقتراب المسـاء انبعثت ريح قـوية طيبـة، حملتنا بعيـداً عن جـزر سامـافـرا -Sa mafra، وأخذتنـا نحو جبال المورة، وإلى مقـاطعة كـارنزا Carenza، ووصلنا بعدها إلى بلفنتور Belventor.

وعندمـا تأخـر الوقت رأينا على يسـارنا بلاد آخيـا، التي هي ملك للأتراك، ورأينا على يسارنا جـزيرة من دون جبـال، يسمـونها ستيرفيل Stirvale (Stamphane)، ويسكن فـوق هذه الجزيرة رهبـان اغريق تابعين لطـريقة القديس باسيل، وهـؤلاء لم يستطع الأتراك مطلقاً طردهم من هناك، مع أنهم خاضوا ضدهم عدداً كبيراً من المعارك، لأنه ماأن يأتي الأتراك، حتى يندفع الرهبان بأسلحتهم، ويرغمون على الفرار كل من يقـابلهم، وقد فعلوا هذا مـراراً، لذلك لم يعد الأتراك يتجـرأون على الذهاب إلى هناك لمحاربتهم، وقد أبحرنا نحو هذه الجزيرة، وعندما عبرناها تركناها على يسـارنا، وعندمـا جاء الليل تراجعت ريحنا الطيبـة،

وقطعنا مسافة قصيرة جداً في تلك الليلة.

وفي الخامس عشر، الذي كان الأحد الثالث بعد التثليث، وهو يوم عيد القديس فيتوس Vitus والقديس موديستوس Modestus، وعند اشراق الشمس، بدأ عبيد الغليون بتحريك الغليون بوساطة مجاذيفهم، لأن الريح لم تكن طيبة، وكنا قاصدين ميناء ميتونا، الذي لم نكن بعيدين عنه أكثر من مسافة ميل ألماني، وبعد بذل جهد كبير دخلنا إليه، وكان ذلك في حوالي الساعة الثامنة قبل الظهر، ونزلنا مباشرة إلى القارب، وجذفنا إلى المدينة، حيث وجدنا الحجاج الذين أبحروا مع المعلم أوغسطين، وقد أخذت موالي وبعض الحجاج الآخرين إلى كنيسة الرهبان المبشرين، واستمعنا هناك إلى قداس رفيع.

وكان رئيس الدير في هذا المكان والرهبان الآخرين يعرفونني معرفة جيدة من رحلة حجي الأولى، وبعد انتهاء القداس ذهبنا إلى بيت الخباز، حيث يجري خبز البقسماط من أجل السفر البحري، وكان يسكن هناك عجوز ألماني، وقد تولى طبخ غداءنا، وتغدينا، ومضى بقية الحجاج إلى بيت السادة التيوتون، وأعدوا هناك طعاماً لأنفسهم، وذهبنا بعد تناول الغداء وصعدنا إلى أسوار البلدة، ومشينا من حولهم ونحن فوقهم، وأعجبنا بالدفاعات التي لاترام، ولم يكن الموضع جزيرة، بل جزئاً من اليابسة، وكان الجميع من ممتلكات الترك، وفي طريق عودتي سوف أحدثكم أكثر حول هذا، وفي هذا المرفأ كان غليون المعلم أوغسطين راسياً أيضاً، وكان جميع الحجاج بالمدينة، ولذلك كونّا صداقة سعيدة وبهيجة معهم، مع أن ذلك لم يفرح القبطانيين، اللذان رأيا أنه بسبب خصامهما، ولأنهما كانا متعاديين أحدهما ضد الآخر، علينا نحن أن نصاب بالداء نفسه، وبناء عليه يتوجب علينا تجنب صداقة ورفقة بعضنا بعضاً، المهم أننا جلبنا الحجاج الآخرين إلى ظهر غليوننا وأريناهم إياه، وهم بدورهم أخذونا إلى غليونهم لرؤيته، وهكذا أمضينا

النهار معا حتى حلول وقت العشاء، ونحن مسرورين مع بعضنا بعضاً، كونا التقينا في وسط البحر، لأنه قد قيل بأن مدينة مودون قائمة في وسط الطريق فيما بين البندقية وبين القدس، وفي حوالي وقت العشاء زعقت أبواق القبطانيين تدعو الحجاج إلى السفينتين، وعندما سمعنا هذه الشارة صعدنا إلى ظهري الغليونيين، وفي ذلك المساء نفسه غادر أوغسطين وحجاجه الميناء، لكننا بقينا نحن هناك حتى الصباح. ولسوف أصف هذه المدينة أثناء عودتي.

وفي اليوم السادس عشر، وقبل أن يضيء الصباح، قام العبيد بالتجذيف بالغليون وأخرجوه من الميناء، فأوصلوه حتى زاوية الجبل، حيث أودعناه بيد الريح، ودخلنا بحر ماليان، واجتزنا مدينة كورونا، القائمة فوق صخرة عالية، وهبت هناك بعد منتصف النهار، ريح قوية، وقد أبحرنا مسرعين نحو جذور (كذا) ماليا Malea، من دون توقف أو عائق، وضاعفنا الرأس هناك من دون متاعب، الأمر الذي يحدث دوما: لأن الانسان يواجه في ذلك المكان المخاطر دوماً والمصاعب، وأبحرنا الليل كله بتلك الريح، واجتزنا عدداً كبيراً من الشعاب والصخور بحظ جيد، لأن ذلك البحر، من الصعب جداً الملاحة فيه من دون حظ جيد صادر عن ريح طيبة.

رأينا في اليوم السابع عشر جزيرة كريت، والخندق أو «سنتابولس Centapolis»، وفي بعد ظهر هذا اليوم تراجعت قوة الريح وصارت ضعيفة، ودفعتنا الأمواج إلى هنا وهناك دون أن نتقدم إلى الأمام، ولم نستطع الوصول إلى كريت في ذلك اليوم، وتجنب القبطان الآخر، أعني أوغسطين جزيرة كريت وأبحر من ماليا إلى جزر سيكلادس Cy-clades ، لكن قبطاننا لم ير تجاوز كريت، ذلك أنه رغب بزيارة السيد بطريرك القسطنطينية، الذي شغل منصب رئيس أساقفة كريت، وكان هذا البطريرك نفسه من أهل البندقية، وكان والد قبطاننا، ولهذا

السبب قرر التـوقف في تلك الجزيرة، لكن خشية منه أن يتخـذ الحجاج هذه المسألة أساساً للشكوى ضـده، جلب في ذلك اليوم إليهم قطعة من القماش الحريري، اسمه أطلس atles ، تساوي قيمتها عشر دوقيات، ليلعبـوا عليهـا الورق متراهنين، وقـد ربح هذه القطعـة اللورد بيرفـون هوهن ريخبيرغ، وكان واحداً من موالي، وكان هناك كميات ضخمة من الأرباح المالية تمت على ظهـر الغليون في مختلف الألعـاب، لأن كل يوم من المقـامـرة العميقة والآثمـة، تبـدد بين النبـلاء وذلك بالورق والنرد، وكان أحـدهم الرابح، وآخر الخاسر، وكـان في كل يوم هناك إنغماس في الملذات الحسيـة، إنما بدون خـلافـات، وإنني أعـرف بعض الفـرسـان الشبان، والرجال النبلاء قد جلبوا معهم مبالغ كبيرة من المال، لأنه كان بنيتهم الذهاب إلى القـديسة كـاترين، وكان لديهم مـايكفي لذلك، لكن بوسائط هذه المقامـرة الملعونة أصبحوا في حالة عـوز وفقر، إلى حد أنهم باتوا غير قـادرين على تحمل الانفاق بالارتحال حتى القـدس، ولولا أن رفـاقهم ساعـدوهم، لعادوا إلى الوطن دون تسلم فـروسيتهم، وفي أيام الأعيـاد، عندمـا كنت أعظ بكلمـة الرب، على ظهـر الغليـون، وجهت اللائمة إلى هؤلاء المقامرين طويـلاً وبحدة، لكن الذين انتقدتهم تصلبوا أكثـر في مواقفهم، وكـانوا يجلسـون في كل يوم من الصباح حتى المسـاء يقـامـــرون بخمسين أو ستين، أو مـائـة أومـــائتي دوقيـة، منحنيين على المنضدة مثل وتد وذلك من أجل لعبـة واحدة، وعلى ذلك توفر في ذلك اليـوم سرور عظيم، مثل سرور الحمقى، لأن جماعتنـا ربحت قطعـة من قماش الحرير.

وكان لدينا في اليوم الثـامن عشر، بعد شروق الشمس، ريحاً ضعيفة، حـركت سفينتنا ببطء نحـو كـريـت، وفي حـوالي الظهـر رأينا غليـونا مسلحاً يتحرك تحركـاً قرصانياً ليـس بعيداً عنها، وقد استـدعاه المسؤول العسكري لدينا بالطريقـة التاليـة: فقد أطلق طلقـة مدفع نحـوه، ولدى

سماعهم الصوت، قام الذين يوجهون الغليون بعطف قيدومه نحونا، وجلبوه بالتجذيف إلى جوارنا، ثم انهم أنزلوا قاربا وجاء به القبطان والمسؤول الحربي، وصعدا إلى ظهر مركبنا، وتكلما لبعض الوقت مع قبطاننا ورجال التوجيه لدينا، لأن ذلك الغليون كان ملكاً للبندقية مثلما كان غليوننا أيضاً، وكانت هذه هي العادة في البحر، عندما يرى غليونان أو أكثر أحدهما الآخر، يقوم الذي يعدّ نفسه أعلى من الآخر، باستدعائه وفق الطريقة المتقدمة الوصف، وإذا كان الغليون بندقيا، يستدعى الأكبر الأدنى، وينبغي على الأدنى أن يقدم إلى حضرته، لكن إذا لم يكن الغليون بندقيا، مع ذلك إنه إذا قدم عندما دعي فذلك خير، لكن إذا لم يقدم،، عندها يقوم على الفور الذي استدعى بالإسراع نحوه بقدر ما يستطيع ويشتبك بالقتال معه، حيث يكون قد جهز مدافعه، وقسيه، ونشابه، ومجانيقه، وعندما يرى المركب الآخر هذا، يقوم، إذا كان خائفاً، بانزال شراعه، كشارة على الخضوع والصداقة، وإذا لم ينزل شراعه، فذلك يعني المقاومة والقتال، ويستعد المركبان للحرب.

ومع حلول المساء وصلنا إلى كريت، وبحثنا عن حانة يمكننا أن نتعشى فيها، غير أننا لم نجد حانة سوى واحدة أستحي أن أتكلم عنها، فقد كانت بيتاً سيء السمعة، تتولى إدارته امرأة ألمانية، وقامت السيدة، التي اقتدنا إليها، عندما رأت أننا مكونين من نبلاء وكهنة، أو رهبان، بتنظيف بيتها، ووضعت هذا البيت بجميع غرفه تحت خدمتنا، وكانت سيدة أديبة، ومحترمة، وامرأة عاقلة، وحصلت على كل ماحتجناه بكميات كبيرة، وحصلنا على عشاء فاخر، مع خمرة كريتية، وهي التي نسميها مالفوسيه Malvoisie، ووجدنا في ذلك اليوم عنباً ناضجاً، من النوعين الأسود والأبيض بكميات كبيرة، لكن بما أن الريح كانت طيبة، أخبرونا بوجوب الاقلاع في تلك الليلة، وبناء عليه عندما انتهى عشاءنا عدنا إلى غليوننا وأمضينا الليل هناك.

وفي اليوم التاسع عشر، الذي كان يوم عيد القديس جيرفياس Ger-vais والقديس بروتياس Protais، عندما استيقظنا في الصباح، ونحن آملين بالاقلاع، رأينا عبيد الغليون يحملون سلعهم إلى خارج الغليون، لأخذها إلى السوق لعرضها للبيع، وعندما رأينا هذا عرفنا بأن الغليون لن يقلع، ولذلك نزلنا مباشرة إلى القارب، ودخلنا إلى المدينة، حيث سمعنا قداساً في كنيسة من كنائس الرهبان المبشرين، وذهبنا بعد القداس إلى حانتنا، وحصلنا على غداء جيد، وبعد ما تغدينا قمنا بزيارة جميع الكنائس والديرة في المدينة، ولسوف أتحدث عن هؤلاء بشكل كامل أثناء عودتي، ومع حلول المساء، استدعينا جميعاً إلى الغليون بوساطة أصوات الأبواق، وما أن أصبحنا على ظهر الغليون حتى همدت الريح الطيبة التي هبت طوال النهار، ولهذا بقينا في الميناء طوال الليل حيث كنا، مع كثير من الارهاق، والشكوى، وقلة الصبر.

وفي اليوم العشرين، وقبل اشراق الصباح، أخرجوا الغليون من ميناء كريت بالتجذيف وذلك بعد بذل جهد كبير، وأبحرنا مع ريح ضعيفة نحو جزيرة ستانديا Standia، وجزيرة ستانديا تواجه جزيرة كريت، وقد وقفنا فيما بينهما دون أن نتقدم، وعلى كل حال، قدمت في حوالي الظهر رياح طيبة وجديدة، أخرجتنا من بحر كريت إلى البحر الإيجي، وإلى جزر السيكلاد Cyclades ، حيث أبحرنا من خلالهن طوال هذا اليوم، وطوال الليلة التالية.

وفي اليوم الحادي والعشرين كنا في وسط السيكلاد، نبذل جهدنا للوصول إلى جزيرة رودس التي هي أول جزر السيكلاد والرئيسية بينهن، وواقعة على الجهة الشرقية منهن، وخرجنا في حوالي الظهيرة من دائرة السيكلاد، إلى منطقة اسمها نابوليا، وهذه المنطقة هي الأولى التي هاجمها الأتراك فبعدما جالوا حول العالم لمدة طويلة، قدموا إلى هذه المنطقة، فقتلوا واستعبدوا الذين سكنوا فيها، وبدأوا حكمهم هناك،

وعندما انطلقوا من هذه المنطقة، استولوا على آسيا الصغرى كلها، وانتزعوها من المسيحيين، وجعلوها خاضعة لهم.

وتراجعت قوة الرياح بعد منتصف النهار لمدة تقارب الساعة، غير أنها هبت بعد ذلك بقوة أعظم ودفعت بنا فخرجنا من نابوليا نحو رودس، وبسرعة وصلنا إلى جبال رودس، ونحو مدينة كولوسوس Colossus ، التي هي المدينة الرئيسية في تلك الجزيرة، وفي الوقت ذاته، غابت الشمس، وحل الليل علينا قبل أن نتمكن من الدخول إلى ميناء كولوسوس، وتمكنا —على كل حال— بعون ضوء القمر من الابحار إلى داخل الميناء، حيث ربطنا السفينة، ونمنا تلك الليلة، ووجدنا في الميناء غليون المعلم أوغسطين، الذي كان مع حجاجه قد نزلوا إلى شاطىء المدينة.

وكان اليوم الثاني والعشرين هو الأحد الرابع بعد التثليث، وكان يوم عيد العشرة آلاف شهيد، وبعدما حصلنا على إذن من المقدم الأعلى لفرسان القدس— الذي من دون إبداء موافقته مامن أحد يسمح له بالدخول إلى المدينة — غادرنا غليوننا، ودخلنا إلى مدينة كولوسوس، التي يسمونها رودس، وهنا ذهبنا إلى قلعة الفرسان وصعدنا إلى كنيسة القديس يوحنا، حيث سمعنا قداساً عالياً، وبعد القداس جاء بعض فرسان القديس يوحنا— وكانوا من النبلاء الألمان — إلى موالي، حيث قدموا التحية لهم باحترام كبير وسرور، وأروهم آثارهم المقدسة، وحضروا بعد ذلك لهم غداء فاخراً في بيت محترم، وهناك تناولنا غداءنا، وبعد الغداء، غادر المعلم أوغسطين وحجاجه، وعندما رأى قبطاننا بيرو لاندو هذا، نفخ في بوقه، واستدعانا إلى ظهر السفينة، ولذلك أسرعنا نحو ظهر غليوننا، وعلى كل حال، خلفنا وراءنا في تلك المدينة عدداً من الفرسان الجيدين والشرفاء، كانوا مريضين جداً، غير قادرين على متابعة السفر، وكان بينهم جيروثيوس فون راتزنهوزن -Je

rotheus Von Ratzenhusen، وعدداً من فرسان القديس يوحنا، الذين جاءوا من البندقية معنا، وقد حزنا جميعاً لفقدانهم، لأننا عقدنا على ظهر السفينة صداقة على درجة عالية من الجودة والتعايش، ومثلما يحدث في أماكن الدراسة، والأماكن المائية، يكون الفراق الذي يحل محزناً، وبقي هناك خلفنا المرأة الوحيدة التي كانت معنا، بسبب أنها ضاعت بذهابها إلى احدى الكنائس خارج البلدة، غير مفترضة بأن الغليون سوف يبحر في ذلك اليوم، وباستثناء زوجها، مامن أحد كان آسفا لغياب هذه المرأة، لأنها جعلت من نفسها ثقيلة الظل بدون حدود، بسبب كلامها السخيف، وفضولها حيث كانت تصطاد في القضايا الخاسرة.

وكان هناك أيضاً رجلاً فقيراً، أخذه القبطان معنا محبة للرب، لكنه ماكان يرغب بأخذه مسافة أبعد، ووقف هذا الرجل على الشاطىء وهو يبكي وينوح، لأنه سيكون غير قادر على الذهاب إلى القدس، وعطف عليه موالي، وأحضروه إلى ظهر السفينة، وقدموا النفقات من أجل رحلته ووضعوا تحت حمايتهم رجلاً آخر من بلادنا، كان غير قادر على متابعة السفر، وسددوا عنه النفقات كذلك، وبناء عليه أقلعنا في ذلك المساء.

وفي اليوم الثالث والعشرين، وفي عشية عيد القديس يوحنا المعمدان، أبحرنا أمام ريح قوية جداً، وكنا قد أبحرنا في الليلة المتقدمة وسرنا بسرعة كبيرة جداً، إلى حد أننا لم نر في الصباح يابسة، بل فقط البحر الأدرياتيكي (الايجي؟) والكاربائي، وعند غياب الشمس ولدى ازدياد الظلام، استعد بحارتنا لعمل نار القديس يوحنا على ظهر الغليون، وقد عملوها كمايلي: لقد أخذوا أكثر من أربعين مصباحاً مصنوعين من الخشب ومن قرن شفاف، وعلقوهم واحداً فوق الآخر فوق حبل طويل، ثم عندما أشعلت المصابيح، رفعوهم إلى الأعلى إلى مافوق القمة

الرئيسية، وذلك بشكل أن المصابيح المشتعلة تعلقت نزولاً من القمة الرئيسية حتى مقاعد التجذيف، وبذلك أضاءت الغليون كله، ومن أجل هذا المشهد جاء جميع الناس إلى السطح، من القمرة، والقيدوم، ومن الغرف الداخلية للغليون، ووقفوا حولها، وهناك بدأ البوقية ينفخون بأبواقهم، وغنى عبيد الغليون مع البحارة الآخرين، وطربوا، وابتهجوا، ورقصوا، وصفقوا بأيديهم، وتفاعل الذين وقفوا هناك مع صيحات السرور، والتصفيق بالأيدي، وابتهجوا للاحترام الذي أعطي للرائد المبارك جداً لربنا.

وقبل هذا لم أر ممارسة التصفيق بالأيدي للفرح، الذي تمت الاشارة إليه في المزمور السادس والأربعين، الذي جاء فيه قوله: «ياجميع الأمم صفقوا بالأيادي، اهتفوا للرب بصوت النصر»، كما أنني لم أكن أعتقد أن التصفيق العام لعدد كبير من الرجال بأيديهم في وقت واحد، عندما يكون صادراً عن السرور، سيكون له تأثير عظيم بأن يحرك عقل الانسان نحو السرور، وهكذا ابتهجنا كثيراً على ظهر الغليون حتى حوالي منتصف الليل، بينما كنا مبحرين أثناء ذلك كله بسرعة وهدوء ونحن على طريقنا، وتمددنا بعد هذا وأسلمنا أنفسنا للنوم، نحن الحجاج والبحارة معاً، وتركنا السفينة مندفعة أمام الريح، لكن الريح ينبغي عدم الوثوق بها لوحدها، من دون عمل الانسان، والمراقبة أيضاً، لأنها قد تتغير في لحظة واحدة، كما سيتضح في حكايتي.

وفي اليوم الرابع والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس يوحنا المعمدان، رأينا قبرص في الصباح الباكر، ولدى رؤية الملاحين في غليوننا لها، غضبوا غضباً عظيماً، لأنهم رأوا أنفسهم أنهم قد تاهوا، وابتعدوا عن الطريق الصحيح فوق البحر، وضيعوا طريقهم عندما كانوا نائمين، لأن الغليون انحرف بعيداً جداً نحو اليسار، ولولا أن موجه الغليون قد نام تلك الليلة، لكان الغليون في هذا الصباح في

واحد من مراسي قبرص المرغوب بها، ولهذا تفجر خلاف ونزاع فيما بين القبطان، ورجال القيادة، وتنازع المرشدون فيما بينهم أنفسهم، ووجهوا اللوم إلى الملاحين، ولذلك عطفوا الغليون نحو اليمين، بعيداً عن المنحى الذي كان يسير عليه، وعدنا في حوالي ساعة العشاء إلى مسارنا الصحيح، لكن ماأن أصبحنا على مسارنا الصحيح، حتى نامت الريح، وهكذا لم نتقدم في تلك الليلة مطلقاً.

وفي اليوم الخامس والعشرين وصلنا إلى مقابل أقدم موانىء قبرص، الذي اسمه بافوس، وهو الذي ورد ذكره في أعمال الرسل الاصحاح ١٣/٦ و ١٣، ورأينا على مقربة من هناك جبل فينوس الذي سوف أحدثكم عنه في طريق عودتي، وسرنا ببطىء شديد حتى الظهيرة، وعند الظهيرة هبت ريح طيبة، حملتنا بسرعة من هناك، وبسرعة أبحرنا على طول ساحل مملكة قبرص واجتزنا مينائي بيسكوبي Piscopi، وليماسول، وفي حوالي ساعة العشاء أبحرنا إلى داخل ميناء سالينا -sal inae وجعلنا سفينتنا تتوقف بثبات بالمرساتين وبحبال الأربطة، وعلى الفور غادر القبطان وخدمه إلى الشاطىء، حيث استأجر خيولاً، وذهب إلى مدينة نيقوسيا، وهي المدينة الرئيسية في قبرص، فقد ذهب إلى بلاط المملكة، لرؤية زوجته، التي كانت السيدة المسؤولة عن غرفة نوم الملكة التي أتيت على ذكرها في ص١١٦، ولسوف أقدم وصفاً لذلك في ص١٤٣من القسم الثاني.

وعندما تركنا القبطان، وقفنا نحن الحجاج على سطح الغليون، ننظر نحو الشاطىء، وقد وقفت معهم، أحدث الذين كانوا على مقربة مني عن جفاف هذا الميناء، وعن طبيعة البلاد، لأنني أمضيت هناك أياماً كثيرة خلال حجي الأول، وبينت لموالي الحجاج الأماكن التي أعرفها على الشاطىء، وبين أشياء أريتهم جبل الصليب المقدس، وهو أعلى جبل في مملكة قبرص، الذي توجد على قمته كنيسة معلق فيها صليب

اللص الذي صلب على الجانب الأيمن للمسيح، وحدثت هؤلاء السادة بقصة ذلك الصليب كلها، كما سترون فيما بعد، وفيما وقف موالي والحجاج الآخرون هناك، يتساءلون حول ذلك الصليب، وينظرون نحو الجبل، الذي كان يبعد عنا مسافة خمسة أميال ألمانية، قلت لهم: «انتبهوا يا إخوتي الأعزاء إلى أن قبطاننا قد ذهب إلى نيقوسيا، ومن الصعب أن يعود في الغد، وسيكون لدينا في الغد يوماً طويلاً ومتعباً، والآن، وبناء عليه، على الذي يرغب باتباعي إلى الجبل المقدس، أن يأتي إلى مؤخرة الغليون، ولسوف نزور الصليب المبارك، ولسوف نعود في الغد في وقت مناسب.

وماإن قلت هذا، حتى ذهبت إلى المؤخرة، وتبعني إلى هناك عدد كبير من النبلاء، ظانين أنني قلت ذلك وفعلته مزاحاً، وقمت وأنا واقف عند القيدوم فاكتريت خادماً يعرف الطريق إلى الصليب المقدس ووعدته بأنه سوف يتسلم قطعة نقود marcella من كل واحد من رفاقي، واكتريت أيضاً قارباً وقائداً له ليأخذنا إلى الشاطىء، وعندما رأى النبلاء أنني كنت جاداً، تبددوا وتركوني، وبقي معي على كل حال، هؤلاء الحجاج:

— اللورد هنري أوف سكومبيرغ Schomberg وكان فارساً نبيلاً، ورجلاً شجاعاً.

— المعلم جون، وكان كاهنا، وشماسا رئيسا من ترانسلفانيا -Ttan sylvania، وكان رجلاً تقيا وعالماً.

— المعلم كاسبارسيكولي Caspar siculi، وكان فارساً، وشاباً قوياً وشجاعاً.

— المعلم بوركارد نوسدورفير Burchard Nusdorfer، وكان فارساً، ورجلاً جيداً ومرحاً.

— رجل اسمه رودلف Rudolph ، وكان سويسريا من ثورغو

thurgau، وكان رجلاً طويلاً وأميناً.

— رجل اسمه جون، وكان تاجراً من فلاندرز، وكان رجلاً متشوقاً كثيراً.

— وأنا الراهب فيلكس، المحرك الروحي لهؤلاء جميعاً، والخادم الذي أكتريته، وكان اسمه اندرو.

وذهبنا نحن الثمانية، ونزلنا من الغليون إلى القارب، وعندما صرنا على الشاطىء، بدأنا نبحث كيف يمكننا تدبر حجنا، لأن الساعة كانت متأخرة، وكانت الشمس قد غابت، وبدأت الدنيا تصبح مظلمة، وأخذنا دليلنا وخادمنا في الظلام إلى قرية اسمها أورنيكا Ornyca، على بعد ميل واحد عن البحر، حيث أيقظ رجلاً من الريف كان يعرفه، وقدم هذا الريفي لنا الخمرة، والخبز، والجبن، وقد أكلنا وشربنا، واستأجرنا أيضاً ثمانية بغال من القرية، التي ركبناها، وانطلقنا مسرورين، وكان القمر في الوقت نفسه قد أشرق، والسرور ملأ قلوبنا، مثلما طرد النور الظلام، ذلك أننا كنا نحن الثمانية، رفقة مختارين، وكان المناخ حسناً، والمنطقة جميلة، والطريق جيداً، وبالإضافة إلى هذا كله كانت نباتات تلك الأرض تصدر روائح طيبة جداً، لأن أعشاب تلك الجزيرة كلها تقريباً كانت توابل من مختلف الأنواع، تعطي أطيب الروائح في أوقات الليل، وذلك عندما يكونوا مبللين بالندى، وتابعنا رحلتنا حتى إشراق نجمة الصبح — الزهرة — التي تتقدم على إشراق الشمس، وكان ذلك عندما وصلنا إلى قرية اسمها القديس الصليب، حيث ربطنا حيواناتنا، وأشعلنا ناراً، وكان رفاقي قد سكروا، غير أنني تماسكت، لأنني كنت أنوي الاحتفال بقداس فوق الجبل المقدس، وقد تمددنا واسترحنا لبعض الوقت، وقد نمت حتى عم الضياء، وكنا مضطجعين على الأرض إلى جانب حيواناتنا.

وفي اليوم السادس والعشرين، الذي كان عيد الشهيدين المقدسين: يوحنا وبولص، عندما استيقظنا طلبنا من الاغريق الذين استرحنا أمام بيتهم إعداد وجبة غداء جيدة لنا، لأننا عزمنا على العودة إليه من الجبل، من دون أن نكون قد تناولنا طعام الافطار، وهكذا امتطينا ظهور دوابنا وانطلقنا، حيث كان الجبل المقدس أمامنا، يرتعد في أعاليه، ووصلنا عند سفح الجبل إلى واد شهي، كان يجري في وسطه جدول ماء عذب ونقي، كان شاطئيه مليئين بأكثر الزهور جمالاً، وهي زهور لم أعرف أسماءها، وكانت هناك نباتات ذوات روائح حلوة، كما كانت هناك أشجار محملة بقرون الخروب، التي يسميها العلمانيون «خبز القديس يوحنا»،، واتخذنا من هذا الوادي طريقنا صعوداً إلى الجبل وتحت ظل بارد جداً، بسبب أن الشمس، مع أنها كانت تبعث الدفء في الجبل كله بوساطة أشعتها، لم تصل هذه الأشعة إلى الوادي، ووصلنا على الفور إلى المكان الأكثر انحداراً من الجبل، الذي لم نستطع صعوده ونحن على ظهور بغالنا، ولذلك ربطنا دوابنا إلى أشجار هناك، وتسلقنا على أقدامنا مع جهد كبير وتعرق عظيم، لأن الجبل كان مرتفعاً، وشديد الانحدار، ويقال إنه يشبه في كل شيء جبل الطور في الأرض المقدسة، الذي عليه تغيرت هيئة ربنا، وقد سمعت هذا من رجل تسلق الجبلين معا.

وعندما وصلنا إلى القمة، جثونا على ركبنا مصلين أمام الكنيسة، وجلسنا في الهواء الطلق قبل أن ندخل إلى الكنيسة، وذلك بقصد أن نسترد أنفاسنا، وأن نمسح العرق الذي كنا متجللين به، وأن نتخلص من الحر الذي كنا فيه ونبرد قليلاً، وبعدما فعلنا هذا، أعددت نفسي أولاً، كما هو لائق، ودخلت إلى الكنيسة، وقرعت الناقوس حتى يسمع الحافظ لغرفة المقدسات ويأتي، وقدم على الفور كاهن، جاهل باللغة اللاتينية، وقد أحضر كتبا لاتينية قديمة جداً من أجل القداسات، كما أحضر أشياء أخرى لها حاجة في القداس، وبعد قرع الناقوس قرأت

قـداساً من أجل الصليب المقـدس، مع مجمـوعات من أجل الشهيـدين المقـدسين، يوحنا وبولص ومـن أجل الرحـالة، وبعـد القـداس، أدرت نفسي نحـو إخـواني ورفـاقي، وألقيت فيهـم خطاباً، أخبرتهم فيـه كيف ينبغـي عليهم تقـــديم الاحترام الجديـر للصليب لـدى رؤيتهم لـه، وأوضحت لهم في أي المجـالات يختلف هذا الصليب الـذي سنراه عن صليب مخلصنا، وفي أي المجالات هو مشابه له، فضلاً عن هذا حذرتهم أن لايكونوا فضولين أكثـر من اللازم عندما يروه، وأن لايـرغبوا برؤية معجـزة هناك، لأننا عندما سـوف نأتي للضريح الأكثـر قداسـة لربنا في القدس سـوف لن نرى معجزة، فكم سيكـون الأمر أقل، الذي نتـوقعه من هذا الصليب هنا؟ وقد قلت هذا بسبب أننا سمعنا حكايـات غريبة وشـاذة حول الصليب الذي كنا سنراه هناك، وأخـذت بعد هذا شمعـة مشتعلة بيــدي، وذهبت إلى المكـان الذي كـان فيــه الصليب، وتبعني حجاجي إلى هناك، وجاء الحافظ لغرفة المقدسات معهم، وعندما وصلنا إلى المكان فتحـه الحافظ لغـرفة المقـدسـات، وعلى هذا وجـدنا الصليب المقدس واضحـاً من الممكن لنا رؤيته بأعيننا، ثـم إنني صعدت أولاً إلى الصليب، وقبلتـه، ونظرت إليه بدقـة وحرص من الأمـام ومن الخلف، وجـاء بعـدي رفاقي الـذين قدمـوا له الاحترام، ونظروا إليـه بحـرص، واحداً بعد الآخر، وكان صليباً كبيراً إلى حدما، مغطى من الأمام بألواح من الفضة، وكان مذهبا، ولكن من الجهة التي تطل على الجدار كان غير مغطى، وكان مصنوعـاً من خشب سليم، من نوع خشب الصنوبر، وقد قالوا بأن هذا الصليب هو صليب دسمه Dysma ، اللص الذي كان على الجانب الأيمن من ربنا، وهـو الذي وعـده بالجنة عندمـا كـان على الصليب، ذلك أن حنة المبـاركـة، وجـدت الصلبـان الثـلاثة تحت جبل الجمجمـة، حيث أطاحت بـالصليب الذي عـاد إلى جسمـه Gesma، اللص الذي كـان على يسـاره، واحتفظـت بالصليب الثـاني، أي صليب دسمه، أما الصليب الثالث، الذي كان صليب المسيح، فقد عرضته ليراه

العالم كله، حتى يمكن أن يبجل بها جدير به، وقد جلبت صليبها، أي الصليب الذي كان صليب دسمه، جلبته كاملاً من القدس إلى هذا الجبل، وبنت هنا ديراً كبيراً للرهبان، وكنيسة وضعت فيها هذا الصليب، الذي هو أثر فائق القداسة، وقد أمرت ببناء حجرة، أو غرفة مغلقة في الجدار المواجه للمذبح، ووضعت الصليب، وبقي الصليب هناك دونما تحريك حتى هذا اليوم، وعلى كل حال بالنسبة للدير نفسه جرى اجتثاثه حتى الأرض من قبل الأتراك، والمسلمين، وقد تشتت الرهبان البندكتيون الذين سكنوا فيه، ووضع الصليب وترتيبه في مكانه مدهش، فالصليب واقف في نافذة مظلمة، ويديه موضوعتين في فتحات معمولة في الجدار، أما قدمه فموضوع في فتحه معمولة في الأرضية، غير أن الحفر التي تحتوي على الذراعين وعلى القدم واسعة جداً، وأوسع من أي معيار، ولايلامس الصليب الجدار في أي مكان، بل هو محرراً، وبعيداً عن ملامسة الجدار في أي مكان وجانب، والمعجزة المحكية في الخارج حول الصليب، هي أنه معلق بالهواء دون أي رباط، ومع ذلك هو واقف بشكل ثابت، وكأنه مثبت بأقوى المسامير، أو أنه مبني في داخل الجدار، وهو طبعاً غير مبني بالجدار أبداً، لأن الفتحات الثلاث واسعة جداً، إلى حد أن انساناً يمكنه أن يضع يده فيهن، ومن ثم يدرك بالملامسة أنه لايوجد هناك أية عملية ربط، وكذلك لايوجد في الخلف أوعند رأس الصليب.

ولقد كان بامكاني بالحقيقة البحث في هذا الأمر عن قرب أكثر مما فعلت، غير أنني خفت الرب، وليس لي الحق في أن أفعل ما منعت الآخرين أن يفعلوه، فلقد تسلقت هذا الجبل لإظهار الاحترام نحو هذا الصليب، وليس للبحث عما إذا كانت هناك معجزة أم لم تكن، أو لامتحان الرب، ولربما كان هذا الصليب جديراً أكثر بالاحترام، لو أنهم ضموا إليه قطعة من الصليب الحقيقي للمسيح، ومعلق في هذه البيعة

ناقـوس، قـرعنـاه قبل القـداس وبعـده، وقلت لرفـاقـي بأننا لن نسمع صـوت ناقـوس ثانيـة حتى نعـود إلى العـالم المسيحي، وكـان هذا أمـراً صحيحاً، ذلك أنني لم أسمع هنا صوت ناقوس خلال مدة أربعة أشهر، وذلك باستثناء هذا النـاقـوس، الذي نعتقـد أنه قـد وضع هنا من قبل القديسة حنة، التي وضعت الصليب هنا.

وعندمـا انتهينا من الكنيسـة، خـرجنا منهـا، ودخلنا إلى بيت الحافظ للآثار المقدسة، على أمل أن نجـد شيئاً ننعش أنفسنا به، لكن البيت كان فـارغـاً وخـاوياً، ولم يكـن فيـه شيئاً مثل البقسماط والماء البـارد، كما أن الرجل لم يكن قـادراً أن يتحدث إلينا، لأنه كان اغـريقياً صرفـاً، وكانت اللاتينية بالنسبة لـه لغة بربرية، وكانت الايطالية عـربية، والألمانية تترية، وبناء عليـه غادرنا دون أن ننعش أنفسنا، وطفنا حـول قلة الجبل، حيث وجدنا بعض الأسـوار القديمة، وهي من بقـايا معبد فينوس، الذي من حيثما نظرت منه، سـواء من عبر الجزيـرة أو طوليـا، كنت ترى البحـر، لكن بسبب الحر الشـديد، كـان الهواء رطبـاً وغـائماً، فلم نستطع رؤية الأرض المقـدسـة، كما لم نستطع رؤية جبـال أرمينيـا، أو كبـدوكيـه، أو سورية المجوفة، أو الجليل، وكل هؤلاء كان ينبغي أن نكون قادرين على رؤيتهم، لو أن الهواء كان صـافياً، ودخلنا بعـد هذا إلى الكنيسة وسلمنا على الصليب المقـــدس وقبلناه، وأسرعنا نـازلين من الجبـل إلى حيث وقفت دوابنا، وتوجهنا على ظهـورهم إلى قرية الصليب المقـدس، حيث وجدنا غـداءنا —الذي تشوقنا إليه طويـلاً —جاهزاً، وهو الذي أكلناه مع تقـديم الشكر، ولم يكـن بامكاننا مغـادرة المكان على الفـور، لأن الحرارة كـانت عـاليـة جـداً، وكـانت الشمس محرقـة مثل النار، ولذلك دخلنا إلى الكنيسـة الاغـريقية التي قـامت على مقـربة من حـانتنا، حتى نتمكن من الصـلاة فيهـا، ولكي نستريح في الظل قليـلاً، وبينما نحن جلوس جـاء رجل دين وقـال لنا باللاتينية:«مـاالذي تفعلونه في كنيسـة

اغـريقية؟ يوجـد هنا على مقربة منكـم كنيسة لاتينيـة تابعة لطقـوسكم، فهناك ينبغي أن تصلوا وأن تريحوا أنفسكـم»، وبناء عليـه نهضنا، وذهبنا معه إلى الكنيسة اللاتينية، وهنا جلب من المحفوظات ذراع القديسة حنة أم العذراء المباركة، الذي صدوراً عن الاحترام له، كان محفوظاً بالفضة، كما أنه قدم إلينا مسماراً، كان أيضاً مغطى بالطريقة نفسها بالفضة، وقال بأن هذا كـان واحـداً من مســامير المسيح، وهي المسـامير التي علق بها عندما كـان على الصليب، وقد قبلنا هذه الآثار، ولمسناهـم بمجوهراتنا، حسب الوصف الذي سلف وقدمناه.

وقـد وجـدت أن رجل الدين هذا، كـان راهبـاً، الأمـر الذي لم أكن قادراً على اكتشـافه من ملابسـه لأنه كان مرتـديا لعباءة من وبر الجمل، وكان رجـلاً مسؤولاً عن الكنيستين، أي الاغريقيـة واللاتينية، وفي هذا المجـال كـان يقوم بالطقـوس للكنيستين، ففي أيام الأحـد، كـان يؤدي القداس في الكنيسـة اللاتينية، وينهيه وفـق الطريقة الغربيـة بخبز فطير، وعندمـا كـان ينتهي من هذا العمل، كـان يعبر إلى الكنيسة الاغـريقيـة، ويكمل القداس وفق الطريقة الشرقيـة بخبز مخمر، ولم يحظ هذا برضاي وأزعجني كثيراً، واعتقـدت أن هذا الكاهـن هرطيـا من أسـوأ الأنواع، ذلك أنه يقـــود الناس مضللاً لهم هنا وهناك، ذلـك أن هذين الطقسين لايمكن ممارستهما من قبل انسان واحـد، هو الشخص نفسه، كما لايجوز فعل ذلك في المدينة نفسهـا، لعـــدم توافقهما في عـدد كبير من العقـائـد الهامة، وصحيح أنه في العصـور القديمـة أن الكنيسة الرومانيـة اعتادت أن تتسـاهل تجاه الطقوس الاغـريقية، إنما حتى آنذاك لم يسمح لانسـان واحد أن يكون في الوقت ذاته اغريقيـاً ولاتينيا، وتعاظم هذا الأمر الآن عندما تدين كنيستنا الاغريق وتعدهم منشقين وهراطقة، ويقوم الاغريق في قـداسـاتهم بالنيل منا والحط ن شـأننا، ويعلنون في كل يوم أحـد إلى شعبهم بأن الكنيسة الرومـانية محرومة كنسيـا، وهم يكرهوننا ويكرهون

طقوسنا وعلى هذا الأساس تبلغ بهم الكراهية إلى حد الرغبة بموتنا جميعا، فكيف يمكن لأي رجل مستقيم، وكاثوليكي جيد أن يكون في وقت واحد لاتينيا واغريقيا؟.

ومامن واحد يتصرف هكذا، إلا لإرضاء شرهه أوحبه للسرور، ذلك أن مثل هؤلاء الناس يتقبلون كل ماهو فيه الرضا لأي من الطقسين والعقيدتين، وأن يرفض الأشياء التي هي صعبة ومزعجة لحملها سواء أكانت تابعة لهذا الجانب أو الطرف الآخر، وقام عدد كبير من الكهنة اللاتين بتحويل أنفسهم إلى العقيدة الاغريقية، حتى يمكنهم المغامرة في ميدان الزواج، ومع هذا تراهم في الوقت نفسه يرغبون بالتمتع بحرية الكهنة الموجودة في العقيدة اللاتينية، التي هي ليست عقيدتهم.

وهكذا قمنا بعد الظهيرة، عندما بدأ الحر يضعف، بامتطاء ظهور دوابنا، ومضينا نازلين نحو البحر حتى كنيسة القديس اللعازر، التي قامت على الشاطىء، في مواجهة غليوننا، وعلى بعد مسافة طويلة عن البحر، وهنا قمنا بإعادة دوابنا إلى أصحابهم، وكان هناك على الشاطىء سوق كبير، وقد اجتمع فيه حشد كبير من الناس من أجل غليوننا، الذي جلب منه ملاحونا سلعهم، وكانوا يتولون بيعهم إلى القبارصة، وكان ذلك موجوداً في كل مكان نزلوا به، وبعدما شاهدنا السوق، عدنا إلى غليوننا، إلى سادتنا ورفاقنا، الذين وجدناهم آسفين، وغاضبين بسبب أن القبطان لم يكن قد عاد بعد، وكانوا قد أمضوا نهاراً منهكاً جداً، وتحلق جميع الحجاج من حولنا ليسمعوا حول مارأيناه، وعندما سمعوا قصتنا، قالوا بأننا كنا محظوظين، وأنهم آسفين لأنهم لم يذهبوا معنا.

وفي اليوم السابع والعشرين، عندما وجدنا بأن القبطان تأخر بالعودة، قام بعض الحجاج، وكنت واحداً منهم، بالنزول بأنفسهم إلى الشاطىء لامضاء النهار هناك، وبقي الشطر الأعظم من الحجاج على ظهر

الغليون، خوفاً من هواء قبرص، الذي هو مضر بشكل عام للألمان، مالم يكونوا أقـوياء، وأصحـاء في أجسـادهم، وبناء عليـه فإن النبـلاء الذين خافوا على أنفسهم ولم يغـامروا بها لم ينزلوا إلى قبرص، وعندما كنا على الشـاطىء ذهبنا إلى المكان الذي يعمـل فيـه الملح، حيث أمكننا أن نرى من خـلال الخرائب، أنه قـد كـانـت هناك مـدينـة ذات حجم لم يكن صغيراً، وكان خلف المدينة مكان محاط بتلال، حيث يتكون هناك عندما يفيض البحر، بحيرة صغيرة، وعنـدما تتراجع مياه البحـر بسبب الجزر، تتعرض المياه التي تبقى هناك إلى الجفاف بسبب حرارة الشمس، والذي يبقى عبارة عن أفضـل أنواع الملح، وأعظمها بياضـاً وثمناً، ويحمل هذا الملح إلى كثير من البـلاد للبيـع، وتتلقى ملكة قبرص كثيراً من المال من الذين يتجارون بالملح.

ورأيت في أثناء حجي الأول عدداً كبيراً من الرجال يعملون في فصل الملح عن الماء، وهو الملح الذي لم يكن قـد جف بعـد، وقد كـان هناك كثيراً من الأكـوام الطـويلة من الملح قـائمـة هناك وكأنها تلال صغيرة، لكن الآن لم يكن هناك ولا انسـان واحـد، وكـان حيث قـامت من قبل أكوام الملح، ميـاه عميقة إلى حـدما، وعند حلول وقت العشـاء عدنا إلى ظهر غليوننا، وكنا غـاضبين جداً من القبطان، ووصلت في ذلك المساء، في قارب، المرأة التي خلفناها في رودس، وقد أشفقت على هذه المخلوقة المسكينة، بسبب المصاعب التي تعرضت لها، بسبب إبحار الغليون.

وفي اليـوم الثامن والعشريـن، جاء القبطان من نيقـوسيـا، قبل طلوع الشمس، مع بعض القبـارصة الذين رغبـوا برؤية الأمـاكن المقدسـة في القدس، وكان بينهم امرأة تقية، من بلاط الملكة، أرادت أن تنهي حياتها في القدس في جوار الأماكن المقـدسة، ورفعنا المرساتين، وأبحرنا ببطىء شـديد ونحن خارجين من الميناء، لأن الريح كانت ضعيفـة، وازدادت عند الظهيرة قوة، لابل صـارت قذرة، ودفعنا بسرعـة وبقوة إلى الخلف

إلى الساحل الصخري لجزيرة قبرص، وعندما صرنا هناك ألقينا بالدليل، فوجـدنا أن المجس كان قريبـاً من القعر، ولهذا خشيـة منا من أن نواجه أية صخرة أو Bitholassumأنزلنا الأشرعة، وأبعـدنا السفينة من بين أيدي الريح، وألقينا بمـرسـاتينا وانتظرنا ريحاً طيبـة، وكـان هذا التأخير مزعجاً جـداً لنا، لأننا كنا نتحرق شوقاً لرؤية الأرض المقـدسة، عارفين أن علينا عدم رؤية بلاد أخرى قبل أن نصل إلى تلك البلاد التي تشوقنا لها.

وكـان تأخرنا مـزعجـاً جداً، فـوق كل شيء إلى القبطان مع أعـوانه، الذين خشيوا من أن يكون أوغسطين الذي ذهب قبلنا مع حجـاجه، قد حصل على الاذن بدخول الأرض المقدسة قبل وصولنا إلى هناك، بسبب لوأن ذلك حدث، لكنا مرغمين على المكوث في الميناء حتى ينهي أولئك حجهم، ويعودوا إلى ظهر البحر ثانية، فذلك سوف يعني الموت بالنسبة لنا، وفـوق تحملنا، لأننا لو وجـدنـاهم في ميناء الأرض المقـدسـة، لكنا مرغمين على العودة إلى قبرص مباشرة، وأن ننتظر هناك عودتهم، وهبت بعـد غياب الشمس ريح خفيفـة، عهـد إليها بالسفينة، وزحفنا قـاطعين مسافة قصيرة في تلك الليلة.

وفي اليوم التاسع والعشرين، الذي كان يوم عيد الرسولين المقدسين: القـديس بطرس، والقـديس بولص، والذي كـان أيضاً الأحـد الخامس بعد التثليث، دفعت بنـا ريح قذرة نحو الخلف من جـديد، حتى وصلنا إلى ميناء ليماسـول، الذي كنا قد اجتـزناه يوم الأربعاء الماضي، ورسـونا هناك، وهنا حمل البحارة الفؤوس، وذهبوا بالقارب إلى الشاطىء، حيث دغلة من الأشجـار، منها قطعـوا بعض الأخشـاب من أجل نار المطبخ، من دون أن يتذكروا، أن ذلك اليوم كـان يوم عيد الرسولين، ويوم أحد أيضـاً، وعندما أصبح الوقت متأخـراً، رفعنا المرساة، وأبحـرنا مسرعين حيث ابتعـدنـا عن قبرص ودخلنا إلى البحـر المفتـوح، حيث لم يكن

بامكاننا رؤية يابسة، لامن الأرض ولامن الجزيرة، لأننا كنا بعيدين كثيراً.

وفي يوم الثلاثين، الذين هو يوم ذكرى القديس بولص، واليوم الأخير من حزيران، أبحرنا مسرعين، وتطلعنا بشوق عظيم لنرى المشهد البهيج للبلاد المجيدة التي كنا متشوقين كثيراً لها، حتى موسى، بعدما اجتاز خلال قفار الصحراء، واقترب من أرض الميعاد، قام لشدة تشوقه بالصعود إلى قمة جبل فسجه، حيث رأى من هناك الأرض المقدسة، وذلك حسبما جاء الخبر في سفر التثنية: ٣٤/ ١، وهكذا كنا نحن الذين قدمنا من بلادنا عبر البحر الكبير، حيث تسلقنا باستمرار إلى أعلى أجزاء السفينة، لنتمكن بأعيننا من ألقاء نظرة على البلاد التي كنا قاصدين إليها، وكل من يرى هذه البلاد من البحر، يعد نفسه رجلاً سعيداً، ولهذا رجونا ورشونا صغار البحارة الذين كانوا يتولون المراقبة من القمة الأساسية، أن يديموا النظر بكل عناية من حولهم، من جميع جهات البحر، وأن ينذروننا بالصراخ، في اللحظة التي يرون فيها الأرض المقدسة، وقد نوينا أن نعطي هدية جيدة للذي سوف نسمع صوته أولاً يحمل إلينا البشائر السارة، وماكان مصدر هذا أي نوع من التفاخر، بل مجرد وصف صحيح لما حدث، وأعترف أنا شخصيا، أنني من جهتي في رحلتي حجي، كنت خلال الأيام، التي كنت متوقعاً فيها اقتراب رؤية الأرض المقدسة، لم أهتم لابالأكل ولا بالشرب، أو النوم، وكانت ساعات الظلام المعدة لاستراحة الناس مزعجة جداً بالنسبة إليّ، وكان فراشي شوكة بالنسبة إليّ، وكان مخدعي جهنما، ولم أعد قادراً لاعلى القراءة ولا على الكتابة، ولا على الحديث مع الناس مثلما كنت من قبل، بل اقتصر سروري على الجلوس فوق قيدوم الغليون، على القرنين هناك، وأن أنظر من هناك بدون توقف عبر البحر الواسع، علني أتمكن بتعب عيني من اطفاء الحمى في عقلي، وكنت حتى ألعن الليل،

لانتزاعه مني وسائط الرؤية، أعني الضوء، وكنت خلال هذه الأيام كلها أجلس فوق القيدوم قبل الفجر، الذي كنت أرحب بأشعته ببهجة، ومن ثم كنت أنتظر أشعة الشمس، حيث كنت ألقي بتيقظ بناظري عبر وجه البحر، وأثبتهما نحو الشرق، الذي لم أفترض أنه تحت الماء، بسبب ارتفاع البحر، ولذلك أكن أنظر نحو الأعلى، بل أثبت نظري دونما تحريك على ذلك الجزء من السماء الذي بدا لي أنه متصل بالبحر، أوهو جزء من الأفق، وعندما كانت تشرق الشمس، اعتدت على أن أنظر بتشوق فيما إذا كنت أستطيع أن أرى أي عائق أو جسم غير شفاف بين الجسد المضيء للشمس وبين الجسد الصافي والواضح للماء.

وعلى هذا فإن أي قداس يعترض، لايمكن أن يكون سوى الأرض المقدسة، التي أعرف أنها واقعة إلى الشرق منا، لأنه عندما كان الغليون يسبح فوق أعالي البحار، وكانت الشمس تشرق، لقد بدت لي وكأنها أشرقت من خلال الماء، وأن مامن شيء يمكن رؤيته بين الشمس وبين الماء، وكان الشيء نفسه يحدث عند غياب الشمس أيضاً، حيث كان يبدو لي أن الشمس قد غطست في الماء، ولكن عندما بات الغليون على بعد حوالي عشرين أو ثلاثين ميلاً ألمانيا من البلاد، بدت الشمس لي وكأنها قادمة من جبال تلك البلاد، ولذلك كان من الممكن رؤية الجبال في ضوء الفجر قبل الشمس، لأنهم قاموا فيما بين الشمس والبحر، ولكن ماأن ترتفع الشمس فوق الجبال، ويمضي على ذلك ساعتين أوثلاث ساعات، حتى تصبح هذه الجبال غير مرئية، ولهذا اعتدت على الوقوف قرب القيدوم في أوقات الغسق المبكر، آملاً برؤية الأرض المقدسة قبل اشراق الشمس، واعتدت أيضاً على تحية الشمس المشرقة بسرور، لأنه من دون مساعدة الشمس لايمكنني رؤية تلك البلاد، لكن عندما كنت أرى أن الشمس قد ارتفعت عالية فوق البحر، دون رؤية للبلاد أثناء ارتفاعها، كنت أنصرف حزينا، ومن ثم كنت أشغل نفسي

لبعض الوقت بمسائل أخرى، وكان هذا هو الحال أيضاً مع الحجاج الآخرين، لكن ليس الجميع، بل فقط الذين أحبوا الأرض المقدسة وتشوقوا إليها، Ach, mein Gott، كم هو عذب يمكن أن يكون حب الأرض السماوية للتقي، وباعث على الاستغراق بالتأمل، عندما يقوم بعض الحجاج المتجولين، من غير الأتقياء، والتعساء والمذنبين، بالشعور بالسرور العميق، وبالتشوق الحار إلى الأرض الدنيوية، ومثلما فعلت مريم المجدلية، وقامت وهي تتحرق بنار الحب، فانحنت بنفسها مراراً، ونظرت في الضريح، حيث كان محبوبها قد تمدد، مثل هذا يفعل الحاج المحب. حيث غالبا ماكان يقوم وهو في سفينة، ويحدق بثبات نحو الشرق، عله يرى البلاد التي فيها ضريح محبوبه، وهكذا اعتدنا أن نجلس اليوم بطوله، ننظر عبر البحر، محاولين فيها إذا كنا قادرين على رؤية شيء غير الماء، وكان بعضهم أحياناً، يتصور من خلال قوة التخيل، أنهم قد رأوا البلاد، وكانوا على ذلك يدعون الآخرين إليهم، ويطلبون منهم التطلع، وكانوا ينشغلون معهم بنقاش تقوي، حيث يعلن طرف بأنه قد رأى البلاد، وينكر الطرف الآخر ذلك، وكانوا في بعض الأحيان أثناء النقاش يقوم أحدهم بالتراهن مع آخر بأنه كان مصيباً، وكانا يحيلان القضية إلى نظر انسان آخر، كان جالساً على القمة الأساسية، وعندما كان يعطي قراره، كان أحدهما يعطي الآخر زجاجة من الخمرة المالفوسية، أوشيئاً ما آخر تراهنا عليه، وكنا بالوقت نفسه نبحر بتقدم، وكانت هناك ريح طيبة جداً، ولطيفة، ولقد بدا لنا بأن البحر المالح نفسه قد بدأ يتحول إلى عذب، وقد منحنا إبحار طيب، وأن هذا كان بسبب قربه من عذوبة تلك البلاد التي كانت تفيض بالعسل والحليب، وهكذا عبر ذلك اليوم مع الليل، ونتيجة لذلك وصل شهر حزيران إلى نهايته.

هنا انتهى الفصل الثالث

طريقة تقديم وصف الحج في الأرض المقدسة والقدس

أما والآن وقد جلبتني جولاتي، بفضل نعمة الرب، عبر البحر، إلى الأرض المقدسة، سوف أشرع في المستقبل بالحديث عن مسيرة حجنا يوما فيوماً، وأن أبدأ —كما هو معتاد— كل يوم بالمساء المتقدم، وهكذا بعدما يزور الانسان بعض الأماكن المقدسة، يأتي وصفها بعد ذلك، ومنذ الآن سوف أقوم بوصف جميع الأماكن التي امتد إليها حجنا، والتي زرناها، ولن أمزج أوصافي وأدخل فيها وصف الأماكن التي لم يذهب إليها حجاجنا، ولن أصف جميع الأرض المقدسة، أو الأوضاع القديمة لمدينة القدس، وذلك باستثناء ماأجبر على ذكره من أماكن أنا لم أرها شخصيا، وعلى كل من أراد الاطلاع على أجمل الأوصاف القديمة للبلاد المقدسة، ليقم بقراءة كتاب الراهب بوتشارد — الذي كان من طائفة الرهبان المبشرين، والذي توجد نسخة منه في مكتبة الرهبان الدومنيكان — أو الرهبان المبشرين، في أولم، ومن هذا الكتاب، قام رفيقي الحاج، اللورد ذي المولد النبيل، برنارد فون بريتنباخBraitenbach ، الذي كان عميد الكنيسة الكاتدرائية في مينز، بنسخ وصف الأرض المقدسة، حيث أقحم ذلك في كتاب يوميات رحلة حجه.



الفصل الرابع

ويحتوي على أعمال الحجاج في الأرض المقدسة خلال شهر تموز مع وصف للأماكن المقدسة في القدس وفيما حولها

كان شهر تموز شهر بهجة الحج، فهو الشهر الذي ظهرت في يومه الأول الأرض الأكثر تبجيلاً، ظهرت إلى الحجاج المذكورة أعمالهم في هذا الكتاب، فقد أبحرنا بسرعة وتقدم من بحر بامفيليا Pamphylia، إلى بحر سورية وفينيقيا، وبعدما دفعنا من هناك نحو الجنوب، وصلنا في تلك الليلة نفسها إلى بحر فلسطين المرغوب به، وما أن بدأ الفجر بالاضاءة، حتى أضاءت هناك أيضاً البلاد، التي هي أكثر نوراً من الشمس، وأعني بذلك الأرض المقدسة، التي هي بلاد كنعان، البلاد التي اسمها أعلى من كل اسم، فما أن رآها رجل المراقبة الذي كان جالساً فوق القمة الأساسية، حتى انفجر يبكي ويصرخ قائلاً:«سادتي الحجاج، انهضوا، وتعالوا إلى السطح، وانظروا إلى البلاد التي تشوقتم إلى رؤيتها بأعينكم، ولدى سماع هذا الصراخ، اندفع الجميع من كل زاوية من زوايا الغليون، رجالاً ونساء، وشيوخاً وأطفالاً، ومرضى وأصحاء، وتسلقوا نحو الأعلى، علهم يرون البلاد، التي من أجلها تركوا بلادهم، وعرضوا أنفسهم إلى كثير من المصاعب وإلى خطر الموت، وعلى كل حال بما أننا كنا مانزال على مسافة بعيدة، لم نكن قادرين على رؤية أي شيء باستثناء البحر، غير أن البحارة قد أعلنوا أنهم يستطيعون رؤية البلاد، لأنهم كانوا معتادين على البحر، ويمكنهم التمييز بين السفن واليابسة، حتى وإن كانوا مايزالون على مسافة بعيدة، وبدأنا نحن أنفسنا نرى القمم ورؤوس الجبال، منبعثة وكأنها خارجة من البحر.

وكـان ملاحـونا مايـزالون يتشككون حول أي البـلاد من الممكن أن تكون هي، فقد قـال بعضهم بأنها كانت كبدوكية، وقـال بعضهم الآخر بأنها كانت كليكيـة، وبعضهم قال بأنها سـورية الفينيقية، وصرح الشطر الأكبر منهم بأن كبـدوكيـة كانت على جهـة اليسـار منا، وأننا قـد صرنا بعيدين عنها بعدمـا اجتزناها، وعلى هذا كنا في اتجاه أنطاكية، وأن البلاد التي ظهرت على جهـة يسارنا كانت سورية الفينيقيـة، وأن الذي أمامنا، على بعـد مسـافـة كبيرة، كـانت فلسطيـا، أو فلسطين، المتصلة بالأرض المقدسـة، وقد كـانت بالفعل كذلك، وعندما لم يعـد هناك من شك بأن الذي رأيناه كـان الأرض المقـدسـة، وأن جبـالها هي التي كـانت أمـام أعيننا، عندها أمر القبطان بأن على الناس جميعاً الهدوء، وأكد عن طريق صـوت المنادي بأن هذه كـانت هي الأرض المبـاركة، التي فيهـا جـرى الحمل بيسوع المسيـح ابن الرب، وفيها ولد، وعـاش، وصلب، ومات، ودفن، وقـام ثانية من ضريحه في اليـوم الثـالث، وذلك مانعلنه ونعتقـده بثبات، وبناء عليـه أخبرنا أنها تواجهنا، وأنه ينبغي علينا أن نقدم الشكر مباشرة لمخلصنا، وأن نغني ترنيمة نعبر بها عن سعادتنا بصوت مرتفع.

وبناء عليـه قـام الحاجـان، اللـذان كـانا كـاهنين، وراهبين، واللذان امتلكا صـوتاً جيدا، فسـارا على مجاراة مقـاعد التجـذيف حتى مـوضع السارية، أي إلى المكان الذي جرت العادة على قراءة القداس فيه، وهناك شرعـا معــا يغنيـان بصــوت مـرتفع تـرنيمـة أمبروز وأوغسطين (Te Deum laudamus) التي شـارك فيهـا جميع رجـال الدين الآخـرين الذين كانوا بين الحضـور، وغنوها كما تغنى في الكنائس، حيث غنى كل انسـان وفقاً للحن الـذي يغنى في جوقـة مـوطنه، وأنا لم أسمع قط مثل هذه الأغنية من حيث العذوبة والمتعـة، لأنه كانت هناك أصوات كثيرة، وقـد جعلهـا تعـدد الأصـوات المتنافـرة كما لـو كـانت مـوسيقى عـذبة ومتناسقـة، لأن الجميع مثل بعضهم غنوا الكلمات نفسهـا، لكن الألحان

كانت مختلفة، ومع ذلك تآلفت مع بعضها بشكل عذب، وكان شيئاً ممتعاً سماع مثل هذا العدد الكبير من الكهنة يغنون الأغنية نفسها مع بعضهم صدوراً عن السعادة في قلوبهم، وقد كان هناك عدد كبير من الرهبان اللاتين، والسكلافونيين، والايطاليين، واللومبارديين، والغاليين، والفرنجة، والألمان، والانكليز، والايرلنديين، والهنغار، والسكوت، والداشيين، والبوهيميين، والاسبان، وكانت هناك أعداد كبيرة ممن تكلم اللغة نفسها، لكنهم جاءوا من أسقفيات مختلفة، وانتموا إلى طوائف دينية مختلفة.

ولقد غنى هؤلاء جميعاً أغنية Te Deum، التي شارك فيها حتى العلمانيون من الحجاج وطاقم الغليون مع بعضهم، وصرخوا عاليا لسرورهم بحظنا السعيد، ونفخ البواقون بصوت مرتفع، وصوتوا بآلات الـ Shawms وواحد منهم بآلات الـ Bogadellus والـ Jon-gleur، وقرعوا على الطبل وعلى الـ Sack but، في حين نفخ آخرون بالمزامير وموسيقى القرب، وفي الوقت نفسه طأطأ بعضهم وجوههم نحو سطح السفينة وصلوا وهم متوجهون نحو الأرض المقدسة، وبكى آخرون سروراً وهم يغنون، وهكذا غنى الجميع أغنية جديدة أمام عرش الرب، وغنت الأرض والبحر مع أصواتهم، وبدا لنا ونحن نغني أن غليوننا قد انحنى تحت أقدامنا وأبحر بسرعة أكبر، شاقاً الأمواج بحرية أعظم، وقد ملأت الريح الشراع تماماً، وتحركت المياه بوساطة الريح، فأرسلتنا بسرعة أعظم، وعندما فرغنا من أغاني شكرنا، صوت البواقون بالدعوة للغداء، وجعل كل انسان، وهو مسرور، نفسه مستعداً ليجلس إلى المائدة.

وحدث أن واحداً من الكهنة، وكان رجلاً ثقيلاً ومحترماً، ومتقدما بالسنين، وكان ينام في مخدعه على يميني، كان مسرعاً نحو مخدعه، بعد الغناء، وعندما لمست قدمه الدرجة الأولى من السلم، التي كانت ناعمة

جـداً بوسـاطة العمل الدائم عليهـا، انـزلق، وسقط بشكل عنيف نحـو الأسفل في داخل القمـرة، وتمدد هناك وكأنـه ميت، وبناء عليـه أسرعنا جميعـا لمساعـدة أخينا، وكان مهشم الرأس، مـرتجف الأطراف، فحملناه إلى فراشه على أنه كان ميتاً، لكن بعـد مضي عدة ساعات عاد إلى وعيه، وقد ربطت جـراحه وعـولج طبياً، وبعـد مضي عدة أيام فيها بعـد صار أحسن .

وبعـد الغداء وقفنا على جـوانب السفينة، وكان بامكاننا رؤية الجبـال فقط، التي بدت لنا جرداء وبيضاء، ورأينا بعد الظهيرة جبالا عالية نحو الشمال، كان بينها وبين أنفسنا، وعلى مقـربة من البحر جبل الكرمل، في مقـاطعـة فينيقيا، وعندمـا حـدقت به، تذكـرت كيف أن النبي المقـدس اليشع قد صلى على ذلك الجبل من أجل المطر، وذلك عندما لم تمطر لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر، وكيف أنه وهو يصلي، ارتفعت غيمة صغيرة من هذا البحـر، تشبه طبعـة قـدم انسان، هطل منهـا مطر عظيم، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الثالث — الاصحاح ١٨.

وفكرت أيضاً، كيف أن الملك شاؤول بنى فوق بناء مقبب على ذلك الجبل قـوس نصر وفق طرائق الشعـوب نقش عليـه أخبـار انتصـاراته، ورفعه عالياً إلى حد يمكن رؤيته من قبل الذين يرتحلون بكل من البحر والبر، وبذلك أغضب الرب كثيراً، وذلـك حسبما يمكن قـراءة ذلك في الاصحـاح الخامس عشر من سفـر الملوك الأول، وتسـاءلت أيضـاً لماذا شبه العـريس في الاصحاح السـابع من أغنية سليمان رأس عـروسه بهذا الجبل قائلاً:« رأسك عليك مثـل الكرمل» (نشيد الانشاد٧٠/ ٥)، ومن هذا الجبل وبسبب كثـرة خيراته، أطلق على البـلاد المقـدسـة كلهـا اسم الكرمل، كما جاء عند إرميـا الاصحاح الثـاني:٧، قوله:«وأتيت بكم إلى أرض الكرمل» (في النص العربي: إلى أرض بساتين لتأكلوا ثمرها).

ومن هذا الجبل حصل الرهبان الكرمليون على أصلهم، وفي العصور

القديمة امتلكوا ديراً كبيراً هناك، وتأسست هذه الطائفة من قبل واحد اسمه ألبرت، كان بطريرك القدس، في العصر الذي استولى فيه المسيحيون اللاتين على القدس، وأمرهم ألبرت المتقدم الذكر بارتداء رداء كهنوتي ليكون ثوباً خارجياً، وأن يكون من الحرير مع عدة خطوط أفقية عريضة لونها رمادي، وقالوا بأنهم فعلوا هذا لأن النبي الياس قد لبس ذلك، وهذا أمر، لايمكن —على كل حال— البرهنة عليه لا من النصوص الشرعية المقدسة، ولامن أي مصدر موثوق، وقام بعد أمد قصير البابا هو نيروس الثالث، فغير هذا الرداء الكهنوتي المخطط إلى رداء أبيض وأكد وجود الطائفة ووافق عليها تحت اسم «طائفة العذراء المباركة مريم الكرملية»، وهم يقولون بأن سلطان مصر قد اعتنى بهذه الطائفة وأولاها اهتمامه بمنحها احتراماً زائداً، ورعاية، مع مساعدات مالية، ومنافع أخرى، من أجل ذكرى النبي إلياس، الذي يقدره المسلمون كثيراً، غير أنه فعل ذلك طالما كانوا يرتدون ثوبهم المتقدم ذكره، لكن عندما غيروه طردهم من بلاده، ومن جميع ممالكه، وبناء عليه أرغموا على مغادرة جبل الكرمل، وعندما حدث ذلك انتشروا الآن في الخارج في جميع الأراضي المسيحية، ولولا أن الكرمليين لم يتخذوا الرداء الأبيض لكان بإمكانهم الإقامة في جبلهم حتى هذا اليوم بدون معيقات من قبل المسلمين، لأن الأردية البيضاء لها مكانة سامية بين المسلمين، حيث لايجوز لأي مسيحي استخدامهم، ولهذا السبب عندما كان الرهبان المبشرين يرتدون الأزياء البيضاء، جرى طردهم من حقل الدم، الذي شروه من السلطان مقابل كثير من الذهب، وفي هذه الأيام، إذا ماأقدم الرهبان الفرنسيسكان على لبس الأردية البيضاء، لن يدعهم المسلمون يبقون في القدس.

ويوجد عند سفح جبل الكرمل، جدول قيشون، فهناك قتل النبي إلياس أنبياء بعل، وذلك حسبما ورد في الاصحاح الثامن عشر من سفر

الملوك الثالث (الأول)، وعند سفحه أيضاً هناك مدن صور، وصيدا، وعكا أو بطولميس، وهي مدن عظيمة نقرأ عنها كثيراً في الكتابات المقدسة، وأخيراً تحولنا بأعيننا عن الشمال، ووجهناهن نحو الشرق، فكان أن رأينا اليهودية مع جبالها، وفوق كل شيء جبل مودين، الذين دفن المكابيون عليه، وقد بنى سمعان فوق قبورهم بناء كان عالياً لكي يشاهد عن بعد، وكان من حجارة مصقولة من الأمام ومن الخلف، وأقام هناك سبعة أهرامات، ووضع من حولهم أعمدة كبيرة، وكان منقوشاً على الأعمدة صور أسلحة لتكون ذكرى دائمة، وإلى جانب الأسلحة جرى نقش صور سفن حتى يمكن مشاهدتها من قبل الذين يبحرون في البحر، وذلك حسبما جاء مكتوباً في سفر المكابيين الأول — الاصحاح الثالث.

وأشرت لهذا الجبل وإلى الأماكن الأخرى التي أعرفها إلى موالي، عندما كنا مانزال في البحر، وكنا في الوقت نفسه نقترب من الأرض المقدسة، والدخول إلى ميناء يافا، والرسوفيه، حيث وجدنا أن غليون المعلم أوغسطين مع حجاجه لم يصل بعد، وقد سررنا لذلك سروراً عظيماً، حيث لو أن حجاجه نزلوا إلى اليابسة لجرى اهمالنا، وعندما كنا غير بعيدين كثيراً عن غليون المعلم أوغسطين، تحرينا ووجدنا القعر، وتركنا مرساتينا وأنزلناهما، ووضعنا سفينتنا بعيداً عن صخور أندروميدا، التي تحرس ذلك الميناء، ولم نتجرأ على الاقتراب كثيراً من الشاطىء، خشية أن نثير غضب المسلمين، لأننا لم نكن قد تسلمنا جواز عبور وأمان منهم، ولكي يعرف المسلمون الذين كانوا يحرسون ميناء يافا وهم من فوق الأبراج، أننا قدمنا مسالمين، أنزلنا عارضة الشراع الرئيسية، وطوينا شراعنا الرئيسي، ولم نظهر أية زينة، كما اعتدنا أن نفعل عندما كنا نحل في موانىء أخرى، ولم نرفع أية أعلام، كما لم نطلق أي مدفع، ولم ننزل أي قارب، ولم نزين غليوننا بأي شكل من الأشكال،

كما لم ننفخ بأبواقنا، أو نفرنـا، أو بمزاميرنا القرنيـه، بل تصرفنا مثل قوم أدباء متواضعين ودافعين للجزية إلى السيد السلطان، حيث كنا بحـاجة إلى جـواز وأمان منه، وكنا مثـل أسرى وعبيد لدى المغـاربة والمسلمين، ورسونا على بعد من أبراج يافا ننتظر تكرمهم علينا.

وكـان المعلم أوغسطين، قبطان الغليون الآخـر، قد بعث رسـولاً إلى رجال الأبراج في يافـا، حتى يتفقوا معهم من أجل الحصـول على جواز وأمان لغليونه فقط، لكن عندما فهم المسملون وأدركوا أن هناك غليون آخر كـان قادماً إلى هناكٍ مع حجـاج، كانوا على غير استعـداد للاصغاء للمعلم أوغسطين وطردوه من عندهم، وأرغمـوه على العـودة إلى ظهـر غليونه حتى يدخل الغليون الآخر، الأمر الذي كان معاكساً تماما لما كان في تفكير القبطانين، لأن كل واحـد منهما نوى أن يقـود حجاجـه حـول الأمـاكن المقدسـة لوحـدهم، بسبب الشكاوى والمشـاعـر العدائيـة التي حملهـا كل واحـد منهما تجاه الآخــر، وعلى كل حـال رغب المسلمـون، وأعدوا أنفسهم للاصغاء إلى رغبات حجاجنا، أكثر من اهتمامهم بهذين الرجلين المتخـاصمين، ذلك أن الحجـاج في الغليـونين كـانوا أصحـاب موقف واحد، ورغبوا في أن يؤخذوا جميعـاً معاً لرؤية الأماكن المقدسة، وهكذا انتهـى اليـوم الأول من تموز، ونمنـا في تلك الليلة على ظهــر الغليون لأننا أرغمنا على فعل ذلك.

وفي اليوم الثاني من تموز الذي كان عيد زيـاره مريم العذراء المباركة، أنزل ربابنة غليوننا قارباً إلى البحر، قبل اشراق الشمس، وبعث القبطان بعضـاً مـن خـدمـه، ممن كـان قـادراً على القيـام ببعض الأعمال، مثل التجذيف بالقـارب إلى الشاطىء، والحصول على جـواز المرور والأمان، وجرى فعل الشيء نفسـه من قبل المعلم أوغسطين، أي القبطان الآخر، وكـان لدى أوغسطين هذا عبـد غليون من أهـالي القدس، وكـان مسلماً معمداً، وقد بعث به حتى يتـدبر أعماله له، وهكذا ذهب خدم القبطانين

إلى الرملة، وأبلغوا عن وصول الحجاج إلى حاكم الرملة، وذهبوا بعد ذلك إلى القدس، وأوصلوا الأخبار إلى الأب المتولي لدير جبل صهيون، ورجوه أن يقوم من دون تأخير بالحصول مباشرة على جواز السفر والأمان من حكام القدس، والرملة وغزة، وأن يجلب الترجمان كالينوس Calenus مع بعض المماليك المسلمين، وأن يرسل حميراً، وسائقي حمير، وكل شيء محتاج لجلب الحجاج إلى هناك، بأقصى مايستطيع من سرعة، وأن يقدم هو شخصيا ويجلبهم إلى الشاطىء، وفي الوقت نفسه، وفيما هذه الأشياء تصنع، بقي الحجاج على ظهري سفينتيهما ينتظرون الوقت الذي سيتمكنون فيه من مغادرتهما.

وفي ذلك اليوم نفسه، وفي الساعة التي كان من المعتاد إقامة القداس فيها، دعوت الحجاج الألمان للاجتماع معا، وألقيت فيهم موعظة حول حج مريم العذراء المباركة، الذي قامت به بعد زيارتها وذلك عندما ذهبت إلى المنطقة التلية من اليهودية (لوقا:١/٣٩) واستخرجت من حجها التقوي جداً، أحكاماً لحجنا، ولقد أوصيتهم بها، وأطريت الحج إلى القدس، لكنني مدحت فوق كل شيء الزيارة إلى جبل سيناء،، وقد رغبت باثارة بعضهم للقيام بذلك، خشية أن يكونوا خائفين، لأنني قد عزمت على الذهاب حاجاً إلى سيناء، لكنني لم أكن قد أخبرت أحداً بذلك، وكنت أخشى كثيراً أن لايكون بين هذه المجموعة الكبيرة من الحجاج أحداً، يرغب بالذهاب إلى سيناء، مثلما حدث لي في حجي المتقدم، وهكذا انتهى هذا اليوم، ومجدداً أمضينا الليل على ظهر الغليون.

وفكرت في اليوم الثالث، بأن الوقت قد حان وبات مناسبا لي، حتى أخبر موالي عن نيتي بالقيام بالحج إلى جبل سيناء، وبناء عليه، دعوت موالي الأربعة على انفراد، بعيداً عن جميع العاملين، وقلت والدموع تنهمر من عيني، وبقلب حزين، وبهدوء:«انتبهوا واصغوا إليّ سادتي الكرماء، وأبنائي الأكثر محبة، وإخواني، ورفاقي، بأنني أعترف أنه

بلطفكم قد جلبت إلى هاهنا، وأنه بفضلكم قد حصلت على الإذن بالقدوم، ولقد جرى من قبلكم دفع جميع نفقاتي طوال هذا الوقت كله، وأنا شاكر جداً وبلا حدود مساعداتكم لي، ومع ذلك هناك أمر واحد أقلقني كثيراً، وجعلني منشغلاً وغير مستقر، ذلك أنني أملت عندما غادرنا بلادنا، أن يقوم واحد منكم على الأقل، إن لم تكونوا جميعاً، بالارتحال أبعد، حتى جبل سيناء إلى القديسة كاترين، وذلك بعدما تكونوا قد فرغتم من زيارة الأرض المقدسة، وأن أستطيع مع الذي سيرافقني بامتلاك الفرصة بالذهاب إلى زيارة هذه الأماكن المقدسة كثيراً، لكن ويا للأسف لقد خاب ظني فيما يتعلق بهذه القضية، علاوة على ماتقدم، أنا لم أتجرأ على سؤالكم منحي الإذن بترك جماعتكم، ذلك أنه ليس من واجبي فعل ذلك، لأنكم سوف تواجهون في طريق عودتكم مخاطر أعظم مما واجهتموه في قدومكم إلى هنا، وإذا ما تفضلتم عن طواعية منكم منحي الإذن، سوف أتلقى هذا الاحسان منكم وعدّه أعظم هدية مقبولة، وإذا رفضتم منحي ذلك، سوف أعود معكم عن طواعية حتى البندقية، وفي البندقية سوف أسقط على أقداكم يا أصحاب السعادة، وأرجوكم منحي الوسائل للعودة إلى هنا، هذا ولسوف لن أعبر جبال الألب ثانية قبل أن أتسلق جبل الرب، وحورب، وسيناء، وأن أزور قبر العذراء القديسة كاترين، لأنني منذ زمن طويل مضى ربطت نفسي بعهد في أن أفعل هذا.

وعندما سمع موالي ما أنويه، ورأوا أنني كنت جاداً، أخذوا بعض الوقت لتقدير ذلك، وبعد مضي مدة ساعة استدعوني للعودة إليهم، ومنحوني إذناً، وقالوا: «وخشية أن تظن أنك لم تكن محبوباً من قبلنا كشماس لنا، سوف نقدم لك برهانا عن حبنا لك عندما نفترق ولسوف نقدم لك، ونغطي نفقاتك، وعلى كل حال، إذا ما أخفق هذا الحج، أو تراجعت عما عزمت عليه، سوف تبقى في جماعتنا، كما كنت من قبل،

ولسوف نعيدك إلى الوطن ثانية»، وعندما سمعت هذا شكرت موالي بكل الاحترام الصحيح والذي يستحقونه، وأعلنت أنني اعترافاً بجميلهم سوف أبقى إلى الأبد خادمهم، ووعدتهم أيضاً أنني سوف أقوم بهذا الحج، وكأنني حرضت من قبلهم لأن أفعل ذلك، وأنني أرسلت من قبلهم، وفي الواقع كنت مسروراً لدى تسلمي الإذن منهم في أن أقوم بها أنويه، مثلما سررت لدى وجودي في أولم، وتسلمي الإذن بالذهاب إلى القدس.

وهكذا بعدما حصلت بالنسبة لهذه القضية على الذي طلبته، أخذت أتجول في الغليون على جميع الفرسان الذين أعرفهم، لأرى فيما إذا كان أياً منهم كان ذاهباً للحج إلى القديسة كاترين، وقد وجدت خمسة فرسان نبلاء منتخبين، كانوا مخفين لهذه النية داخل صدورهم، وبعد تناول طعام الغداء غادرت الغليون، وذهبت في القارب الصغير إلى غليون المعلم أوغسطين، وكأنني راغب بزيارة بعض معارفي هناك، وعندما صرت بينهم، عملت استقصاء سرياً، من خلال الرجل الذي كنت أعرفه بشكل جيد، حول الحج إلى جبل سيناء، ولقد أخبرني بوجود إثني عشر حاجاً على ظهر ذلك الغليون قد تعهدوا وأقسموا على انجاز ذلك الحج، وكان واحداً منهم، الذي هو الرئيس هو اللورد جون أوف سولمس Solms، لكنهم كانوا لايودون أن ينتشر هذا في الخارج، بل أن يبقى ذلك سراً، لأن الحجاج الذين ينوون زيارة جبل سيناء، يحافظون دوما على سرية نيتهم، وذلك بقدرما يستطيعون، حتى لايضحك أحد عليهم، إذا لم يتمكنوا من إنجاز رحلتهم إلى هناك.

وبذلت الآن جهداً عظيماً لأعرف مباشرة، فيما إذا كان هناك أي انسان ذاهب إلى زيارة جبل سيناء، لأنني أعرف بالتجربة، أنني مالم أفعل ذلك، طالما نحن مانزال على ظهر السفينة، سوف يكون من الصعب كثيراً أن أتوصل إلى معرفة الصدق حول ذلك، عندما نكون في

الأرض المقدسة، أوفي القدس، لأن الحجاج يكونون في الأرض المقدسة مشغولين كثيراً، ونادراً —إن لم يكن مطلقاً— مايلتقون مع بعضهم في الوقت نفسه، كما يكونوا منشغلين بعقولهم، ولهذا لولا أنني تدبرت هذه القضية مع موالي عندما كنا مانزال على ظهر السفينة، لكنت أنا كلياً بحاجة إلى نفسي، وعندما عرفت كيف هي الأوضاع على ظهر غليون المعلم أوغسطين، عدت مسروراً إلى غليوننا، وكنت مبتهجاً لأنني وجدت مرافقين، لكن سروري سرعان ماتحول إلى أسف، لأنني ماأن غادرت القارب، وصرت على ظهر غليوننا، وفيما أنا واقف أتحدث إلى بعض الناس أمام القيدوم، سألني القبطان الدخول إلى قمرته الخاصة، حيث وجدت جالساً فيها معه مملوكاً مسلحاً، جاء في قارب من يافا، جالباً معه أخباراً، أخبر بها القبطان، وقد رغب القبطان في أن أسمعها، وقد قال المملوك بأن البدو العرب قد دمروا دير القديسة كاترين القائم عند سفح جبل سيناء، وأنهم قتلوا جميع الرهبان هناك، وبناء عليه، من غير الممكن القيام بالحج إلى جبل سيناء في هذا العام.

فضلاً عن هذا، جاء في ذلك اليوم بعض المسلمين من المنطقة، جالبين لنا أرغفة من الخبز الجديد، وماء جديداً، وعنباً، باعوه لنا، وهم أيضاً أخبرونا بالاشاعات نفسها عن العربية، وعندما سمعت هذه الأخبار الشريرة، انزعجت كثيراً لهذه الانتكاسة، لكن بعدما فكرت بالقضية واستعرضتها تشجعت، لأنني شككت مباشرة، من خلال خبرتي، بأنها كانت مصنوعة من قبل القبطانين وأنها كانت كذباً نشراه وعمماه بين الناس، من أجل أن يخاف الحجاج، ومن ثم يتخلون عن نياتهم بالقيام بالحج إلى جبل سيناء، لأن القبطانين يفقدان اثنتي عشرة دوقية مقابل كل حاج يذهب إلى جبل سيناء، وهذا بالطبع عظيم الأذى لشرههما، ولهذا اخترعا هذه الكذبة البارعة، واستعانا بالمسلمين الكذبة، وبالمرتدين المماليك لدعمهما في زيفهما.

ولذلك أوليت كلامهما قليلاً من الاهتمام، وطمأنت رفاقي، لأنني عرفت زيف ماتحدث به القبطانين حول هذه القضية، ولهذا قررت بشكل حاسم، أنه حتى ولوكان ماقالاه صدقاً، أنا ذاهب على كل حال إلى جبل سيناء، لأنه حتى لوكان البدو العرب قادرين على هدم دير القديسة كاترين ونهب ضريحها وتشعيثه، إنهم لن يتمكنوا مطلقاً من هدم جبل الرب أو إزاحته من مكانه، وكذلك جبلي حورب وسيناء، الذين كنت شخصياً متشوقاً إلى رؤيتهم، أكثر من رؤية ضريح القديسة كاترين، ولهذا شغلت طوال ذلك اليوم نفسي في محاولة لإنهاء هذه القضية، وكنت خلال هذا الوقت هادئاً، لأنني عرفت أننا ماأن ننزل من الغليون، لن نجد الوقت للبحث فيها.

وبدأت في ذلك اليوم للمرة الأولى في تذوق فواكه الأرض المقدسة، وشرب مائها، وكان ذلك المملوك الكذاب المتقدم الذكر، أي الذي تولى نشر الأخبار في غليوننا، قد جلس في القلعة مع القبطان وآخرين، يشربون الخمر، على الرغم من تحريم شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) لذلك، وغدا سكرانا إلى حد أنه لم يعد قادراً على الخروج من الغليون والنزول إلى القارب الصغير، لفقدانه لوعيه، وهكذا بقي هذا الوحش اللعين على ظهر الغليون، وأمضى الليل معنا.

وفي اليوم الرابع، حدث عندما أشرقت الشمس، أن قامت الأسماك بالسباحة على وجه البحر، وأظهروا أنفسهم على الوجه أكثر من عادتهم، ولست أدري ماهي الأحوال التي دفعتهم إلى هذا من خلال الهواء أو الماء، أو من خلال عناصر أخرى، ولقد رأينا هناك أسماكاً رائعة، حيث كان بعضها كبيراً، ومستديراً مثل مروحة الغربلة، وكان لبعضها رؤوس مثل رؤوس الكلاب مع أذنين طويلتين نحو الأسفل، ورأينا دلافين كثيرة في ذلك الصباح، وقد رأيناهم بوضوح أعظم من أي وقت مضى.

ورأينا بعــد الغـداء حشــداً من المسلمين المسلحين جــاءوا يمتطون الخيول والبغـال، ونصبوا خياما وأكـواخاً أمامنا على الشـاطىء، وحول أبراج يافـا، وفـوق الجبل، وعندمـا رأى القبطانان هذا، ذهبـا نحـوهم، مفترضين بأن سادة المدن وحكامهـا قد جـاءوا، لكن هؤلاء كانوا الخدم فقط، قـد أرسلوا سلفـاً لإعداد المكان، ذلـك أن السادة المغـاربة كـانوا سيصلون في الغـد، وركض هؤلاء الرجـال نحـو الأمـام ونحـو الخلف طوال النهـار، على الشاطـىء، مقابل المكان الذي رسـونا فيـه، واشتبك أحدهم مع الآخر عن طريق التدريب، وركبوا بغالهم، وساقوها وكأنهم كانوا يتحاربون، ورأينا أيضاً الكهوف التي هي فوق شاطىء البحر على طرف الجبـال، والتـي كنا سنسـاق إليهـا، ورأينـا المسلحين طوال اليـوم يذهبون إليهـا باستمرار ويخرجـون منها، وتساءلنـا عما كانوا يفعلون في مســاكننا المظلمـة، ولم نستطع أن نخمّـن الذي كـانـوا يعملونه في هذه الكهـوف، حتى اكتشفنا، مراغمـة لأنوفنا، أنهم قد لوثوا تلك الأمـاكن بالغائط، كما سيتضح فيمابعد.

واجتمع هناك في اليـوم الخامس حشد عظيم من الرجـال المسلحين، حتى أن وجه الأرض تغطى بهم، وتساءل قبطانانا وجميع البحارة وعبيد الغليـون، عن معنى جمع هذا الحشـد الكبير مـن الناس، وقـد انزعجـوا لأنهم لم يروهم من قبل يأتون بمثل هـذه القوة، وخشيـوا من أن يكون هناك شرّ مـا قيـد الإعـداد لنا، لوجـود الحكـام الثـلاثة الأقـوياء هناك بأشخاصهم مع أتباعهم المسلحين، وهؤلاء هـم: حاكم القدس، وحـاكم غزة، وحـاكم الرملة، وإليهم توجه القبطانان آخـذين معهما هدايا أملوا بوساطتها أن يكسبوا احسانهم، وقد حيوهم، وعرضا هداياهما، وتوسلا من أجل نزولنا، حيث طلب ذلك كل قبطان إلى حجاجـه، وقد تسلموا هدايا القبطانين، ووعدوهما بالتعامل معنا باخلاص.

وسأل القبطانان سـادة المغاربة، عن السبب الذي دفعهم للقـدوم مع

مثل هذه القــوة، وعن الحاجـة التي توفـرت هنـاك لجلب حجـاج غير مسلحين إلى البـلاد مع هذا العــدد الكبير من الرجـال المسلحين، وعلى هذا أجـابـوا بأن البـدو العـرب قــد جـاءوا إلى البــلاد، خـارجين من الصحراء بأعداد كبيرة، وقد نهبـوا كل من واجهوه، ولم يوفروا أحداً إلاّ الذين كـانـوا أقـوى منهم أنفسهم، وأنهم قـادوا في هذا الـوقت بالذات حشداً كبيراً إلى الجبـال، ويعتقد كثيرون بأنهم قـد حشدوا هـذه الجموع مع بعضها بسبـب الحجاج المسيحيين الذين كانـوا قادمين، ولهذا السبب قدموا بالقوات التي استطاعوا جلبها، لكي يأخذوننا إلى القدس بسلام.

وقـال بعضهم الآخـر بأن هناك سبـب آخـر إلى جـانب هذا السبب، يعلل اجتماعهم مع بعضهم، وقد أخبرونا بأنه في ربيع هذا العـام، كانت هناك عاصفة عنيفة في منطقة مـدينة مكة، حيث يقوم معبد ضريح محمد (صلى الله عليـه وسلم)، وفي أثناء تلك العـاصفة، سقطت صـاعقـة من السماء أحرقت وطحنت ضريح محمد (صلى الله عليه وسلم) وحولته إلى طحين مع جسـده (صلى الله عليـه وسلم) (كـذا)، وقد رأى أتبـاعـه بها حدث شـارة بأن شريعته غير المقدسـة كثيراً قد انتهت، وخـافوا من أن يتمكن المسيحيـون من السيطرة عليهم والتحكم بهم، ولهذا قـدمـوا مع قوات قـوية خوفـاً من أية محاولة يقـوم بها الحجاج، وكـلا السببين كان صحيحـاً، لكن السبب الثـاني حـول تدمير جسد محمـد (صلى الله عليـه وسلم) لم يحدثونا به بشكل مكشـوف، بل أخبرنا به بشكل سري واحداً من المماليك.

وعلى كل حال خشيـة من أن يفقد الذين يتبعون شريعـة محمد (صلى الله عليه وسلم) إيمانهم، وييأسون ويتخلون عـن الحج الذي يقومون به كل سنة إلى مكة، اخترع رجال الدين لديهم الزيف التالي: فقد قالوا بأن الله كـان شـديد الغضب عليهم هذا العـام، وكـان على وشك تدميرهـم تدميراً كـامـلاً، لكن محمـداً (صلى الله عليـه وسلم) تدخل من أجلهم،

والتمس من الله تحويل غضبه عنهم، وأن تنزل الشرور به شخصياً، وأصغى الله إلى دعائه واستجاب وبعث صاعقة من السماء أحرقت جسد محمد (صلى الله عليه وسلم)، ونشروا هذا الزيف بين الناس، والحج الآن إلى مكة أكثر عدداً، والاقبال عليه أعظم مما كان من قبل.(*)

وفي الوقت نفسه، عندما كان قبطانينا يتحدثان مع السادة، رأينا حشداً جديداً قادماً إلى شاطىء البحر، ولم يكن في هذا الحشد خيول، بل حمير فقط، جمعت من قرى مختلفة من أجل استخداماتنا، وجاء مع هذا الحشد من الحمير عدة رجال معروفين من القدس، مثل الاثنين الكاليني Calini اللذان هما مترجمانا الأكبر والأصغر، والأب المحترم المسؤول عن دير جبل صهيون مع اثنين من رهبانه، وكان معهم بعض التجار المسيحيين De cinctura (الشرقيين الذين يرتدون مايميزهم عن اليعاقبة وعن الطوائف الأخرى).

نزول الحجاج من الغليون ودخولهم إلى الأرض المقدسة

كانت رحلتنا التي تشوق إليها عقلنا وتطلع إليها، الآن على وشك الابتداء، فبعدما تحدث القبطانان مع الحكام، ونالا موافقتهم على وجوب احضارنا إلى الشاطىء من غليوننا، ومضى إلينا في القارب، الأب المبجل بولص، رئيس الكنيسة اللاتينية في الشرق، والمسؤول عن دير جبل صهيون مع راهبيه، وكذلك مع كالينوس الأكبر، ومسلم كان رئيس مشفى للحجاج في القدس، وقد جلسوا مع قبطاننا على القيدوم، وبعدما اجتمعنا كلنا، قام الأب المسؤول عن الدير، الذي كان رجلاً محترماً ومتعلماً، وله لحية طويلة، قام بتوجيه التحية إلينا بلطف وبشكل

*— استخدم الرحالة أثناء حكيه لهذه الأقصوصة بعض العبارات النابية، فحذفتها، وتبرهن هذه الأقصوصة أن عقلية رجال الدين الكاثوليك بقيت كماهي مغرقة بالتعصب والجهل، حيث انعدم التمييز بين مكة والمدنية، وتغيب الحد الأدنى من الفهم للاسلام.

منمق باللغــة اللاتينيــة، ورحب بنا، وحثنا على أن نكون أتقيــاء، وأن نتحلى بالصبر، وأن نكون نمــوذجيين في سلوكنا، ووعــدنا أنه ســوف يعطينا بالرملة الأحكام التي ينبغي أن نقيـد أنفسنا بها، أثناء إقـامتنا بين المسلمين في الأرض المقدسة.

وحيـانا بالطريقـة نفسهـا كـالينـوس، ترجماننا، وكـان ذلك باحترام، وحرم علينا حمل أي نوع من الأسلحة — سواء أكان سيفاً أم قوساً — خارج السفينة، بل أن نذهب غير مسلحين كما قـدمنا حجاجاً، وبعـدما قـال هذا، ذهـب الأب المسـؤول عن الدير مع راهبيــه وكـالينوس إلى القـارب، وطلبـوا منا الاسراع والاستعـداد للحـاق بهم، وكـان الوقت سـاعـة الغـداء، ولدى دعـوة الحجــاج إلى الغـداء، أكلنا جميعـاً وشربنا بسرعة، حتى نتمكن من النزول بشكل أسرع إلى الأرض المقـدسة، وفي أثناء الغداء، قـدم جميع موظفي الغليون واحداً بعـد الآخر، وانتقلوا من حاج إلى آخر، بكؤوس من الفضة، وطلبوا عطية العرفان بالجميل، وهو مـاندعوه مـال الشراب، وطالبـوا بذلك بوقـاحـة، وإذا مارفض انسـان منحهم، قالوا بأنهم لن يدعوه ينزل بالقارب إلى الشاطىء،

وثار اضطراب كبير على ظهر الغليون بسبب تسولهم الوقح والذي لم يعـرف الحياء، وعندمـا انتهى هذا الاضطراب، ودفعنا عطيتنا بالعرفـان بالجميل، أعددنا أنفسنا لمغادرة المركب، وأخذنا معنا قارورتين صغيرتين من الخمـرة، وأخفيناهما في حقيبــة، خشيـة أن يراهما المسلمـون، لأنهم لايسمحون بحمـل الخمرة بشكل مكشـوف، وإذا مارأوا خمرة يقـومون بكسر القـوارير إذا كانوا قـادرين، وأخـذنا بحقائبنا جبناً ولحماً مـدخناً، وجرارنا وملابس حجنا وأدواته، وخرجنا من القمرة إلى القيدوم، ومن هناك نزلنا في القـارب، ومضينا فيه نحـو الأرض المقدسـة، ونحن نغني ببهجـة عظيمـة، وبصـوت مـرتفع In Gottes Nahmen fah ren wir الخ، حسبما ورد في ص٩٧.

ولم يكـن مـن الممكـن سماع أغنيتنـا هـذه مـن قبـل المسلمين على الشاطىء، لأنه قام بيننا وبين الشـاطىء صخور أندروميدا، التي يضربها البحـر بصـوت مـرتفع وحـاد، كما أن أغنيتنـا لم يكن بالامكان سماعهـا بسبب الضجيج والصخب الصادر عنها.

وعندما وصلنا إلى قرب هذه الصخور، وبينما نحن نمر من بينهم من خلال الأمـواج التي تضربهم، أصبنا برذاذ الماء وتبللنا، ونجونا على كل حـال من الاصطدام بالنتوءات الحادة، الأمـر الذي كنا نخافـه، ووصلنا إلى الشـاطىء ونزلنا، وعندمـا وطئت أقـدامنا الأرض المقـدسـة، ألقينا بأنفسنا أرضاً على وجوهنا وقبلنا الأرض المقـدسة مع كثير من التقوى، وبمجـرد مـلامستنا للأرض المقـدسة تلقينا غفـرانا مطلقـاً وتحليـلاً من الذنوب، الأمر الذي قررت وضع علامة له في المحصلة مثل هذه (++) حيث جـاء وضع الصليب الأول ليعني غفـراناً لمدة سبع سنوات، لكن بوجـود صليبين فهـذا يعني غفـراناً مطلقـاً، يزيل كـلا من الاستغفـار والذنب، ويقال أيضاً الصليب الأول قائم من أجل الغفران من الذنب، والثاني للغفران بعد التوبة.

وعندما فرغنا من صـلاة شكرنا، صعدنا من قلب البحر، إلى الأرض المرتفعـة، وذلك فـوق صخـور منزلقـة، البحـر مطوق بها هناك، وهي تشكل شـاطئه، ووقف فوقنا الأب المسـؤول عن دير جبل صهيـون مع راهبيـه ومع حكـام البـلاد، وشيـوخ المسلمين والمغـاربة، وكـذلك مع كاتب، وقـد اصطفوا على الجانبين، بحيث يحتـاج الحجاج إلى المرور من وسطهم، ولم يكن بامكان حـاجين المرور معاً من بينهم، بل واحـداً تلو الآخـر، كما أنهم لم يسمحوا لنا بالمرور بشكل متـواصل، بل ألقـوا نظرة على كل انسـان، ونظروا إليه عن قـرب، وطلبوا اسمـه وأم أبيه، وكـان الكاتب يدون الاسمين معـاً في وثائقـه، وكنت أعلـم كم يسبب اسمي «فيلكس» من مصاعب بالنسبة إلى لغتهم، فقد أرغمت في حجي الأول

وفي حجي هـذا على تكرار اسمي عـــدة مـــرات، حتى آنـذاك لم يكن بامكانهم لفظه أو كتابته من دون وضع بعض علامات الادغام الأجنبية أمامه، وترداد مقـاطعه وحروفه، بحيث أن لاأقـول «فيلكس»، بل كلمة أخـرى في مكانها أنا لا أستطيع لفظهـا، وقمت فيما بعـد بالبحث بدقـة أكبر حـول الصعـوبة هذه المتعلقـة بـاسمي، ذلك أنني صرت صـديقـاً لواحد من المسلمين هـو كالينوس الأصغر، الذي كـان يسألني في بعض الأحيان باللغة الايطاليـة أن أخبره باسمي، لكن عندما أخبرته لم يستطع بأي حـال من الأحـــوال لفظه، بل قـال كلمـة قبيحـــة بدلاً عنه، وقـد اندهشت تجاه ذلك، لأنني رأيت مدى براعته باللغة الايطالية.

والآن بعـد ماجـرى تدوين اسم كل حـاج مع اسم أبيه، كـان هناك بعض المسلحين مـــرتبين للامســـاك به وجـرّه إلى مـــدخل مقـــر مظلم ومنخفض تحت قـوس متهدم، وقد رمـوه مثلما اعتاد الرجـال على رمي الشـاة في داخل اصطبل من أجل الحليب، ويوجـد في هذا الكهف سبع سنوات مغفـرة (+)، يحصل عليهـا الحاج إذا مـادخل إلى الكهف بروح تقوية، وتعرف هذه الكهوف باسم زنزانات القديس بطرس، ومن أجل الحصول على هـذا الغفران، وغفرانـات أخرى كثيرة، قام عـدد كبير من الحجـاج بالاعتراف أمـامي، على ظهـر الغليـون، واعترف بعضهـم هنا، ونحن وقـوف على شـاطىء البحـر، وعندمـا دخلنا إلى هذه الكهـوف، وجـــدنا كل مـــوضع سنقيم فيـــه ملوث بشكل قبيـح، وقـــذر بسبب القـــاذورات، ولم يكن هناك مكان يمكـن الجلوس عليـــه، إلاّ فـــوق القاذورات، ولهذا وجـدُ كل واحد منا نفســه مرغماً على تنظيف مـوضع يتمـدد عليه بجسـده، وأن يزيح القـاذورات إلى وسط الغـرفـة بقدمـه، ونتيجـة لهذا قـام في وسـط مكان إقـامتنا كـومـــة كبيرة من القـاذورات والنجاسات.

ورتبنا أنفسنا على محاذاة الجدران حـول الغـرفـة كلهـا، مثلما فعلنا في

الغليون، ولقد تمددنا فوق أرض عـارية ورطبة، ويا للهول، كم هو نزل تعيس، وكم هي ضيافة ضئيلة، وكم هو مقـر قذر! ولولا أن الحاج كان تقيـاً، اعتـاد على عقد حـديث مع الرب، وكـان يشكو بصبر تقـوي، أو بالحري كان مندهشاً مستغرباً وهو يقـول:«أيها الرب يسوع، بأي ضيافة غريبة استقبلت حجـاجك، وضيوفك في أرضك المقدسة، الـذين قدموا من وراء البحـار، ومن خلف جبـال الألـب، ومن الأجـزاء النائيـة من الأرض، حتى يمثلوا بأشخاصهم في بلاطك، لكي يبدو احترامهم لك، وليقـدموا الـولاء لك مثلما يفعل الفرسـان مع ملكهم، يايسـوع البـالغ القـداسـة، أولم يكن من المتـوجب عليك أن تمنح الذين تعبـوا كثيراً من جـراء الرحلة الطويلة جـداً، وأدميت أقـدامهم بعـد الجولات البعيـدة، فراشـاً أفضل من الذي وجـدوه بين القاذورات المقيتة للكفـار؟ أوليس لديك فراش لنا سوى كومة النجاسات؟»‏.

وعلى هذا كـان الرب سيجيب :«من المؤكد أن العبـد ليس أعظم من مـولاه، ولا التلميـذ أسمى من معلمـه، ولا الرسـول أعظم من الذي أرسله، وأنتم دعـوتموني معلماً ورباً، وماقلتمـوه صحيحـاً، لأنني بالفعل كـذلك، وإذا كنت أنا قـد عـانيت بصبر من هذه الأشيـاء، ومن أشيـاء أسـوأ من هذه، أولا تسلحـون أنفسكم أيضـاً بصبر مماثل، فلقـد كنت غريباً وحاجاً في هذه البلاد، وفي اليوم الذي نزلت فيه أولاً على الأرض من بحر المجـالس العميقة للرب، ومن سفينة رحـم العذراء، لم أنزل في غـرفة، بل في معلف قـذر، وفي نزل صـاخب، وفي حانة تعيسـة، فهناك استقبلت، ولم تمددني أمي العذبة على فراش ناعم، بل مددتني في معلف قاس بين الدواب، لأنه لم تتوفر لي غرفة في أي مكان من النزل، وخلال حياتي كلها لم يكن لدي بيت خـاص بي في هذه البلاد، لأنني قدمت إلى الذين هم ملكي، والذين هم ملكي لم يستقبلوني، ذلك أن الذين سكنوا في بيتي وخادماتي عدّوني غريباً، ولقد كنت غريباً بأعينهم (أيوب:١٩)،

وفي هذه البلاد للثعالب حفرهم، ولطيور الجو أعشاشهم، لكن ابن الانسان ليس لديه مكان يسند رأسه عليه، وغالباً ماأمضيت الليل في الصلاة، لكن ليس تحت مكان مسقوف بالحجارة، بل فوق الجبال وتحت السماء، لابل حتى في مدينة القدس الغنية والملكية لم يكن لدي فراش إلاّ مشنقة الصليب المخزية، وكذلك بعد الموت لم أمتلك ضريحاً خاصاً بي، بل ضريح انسان آخر، ولهذا السبب أرغم ابن الانسان على المعاناة، حتى يدخل في مجد ملكوته، وبناء عليه، حبيبي الحاج لاتحزن إذا لم يكن لديك في هذه البلاد فراشاً ناعماً، وإذا ماتمددت فوق كومة قاذورات، وإذا كان نزلك بالوعة عامة، تذكر ياهذا أن ربك أقام الفقير من بين الرغام، ونهض بالمعدم من بين القاذورات، ليجلس مع الأمراء، وليشغل عرش المجد، فعلى هذا الاساس تقبل داوود وجعله ملك اسرائيل، ولقد جلس أيوب النبيل على القاذورات مريضاً ومصاباً بقروح مخيفة، وبصبره امتلك ضعف ماكان يمتلكه من قبل، لأن غريغوري أخبرنا في تعليقاته على سفر أيوب، أنه كان مدفونا في القاذورات، لؤلؤة الرب، أي المعرفة بتفاهته، والرفض للفقر، وعلى هذا، ألاتبحث أيها الحاج عن هذه اللؤلؤة، في أثناء جلوسك فوق القاذورات»، ولدى سماع هذه الكلمات، قدم الحاج التقي الشكر، لأنه عدّ جديراً بالمعاناة مثلما فعل ربه.

وعندما كنا في هذا المكان القذر، قدم إلينا بعض المسلمين، وكانوا أناساً فقراء، قد جمعوا بعض الأعشاب وبعض أغصان الأشجار، باعوهم لنا، وقد غطينا الأرض المبللة بهم وجعلناهم فرشاً لنا، فضلاً عن هذا قدم تجار من الرملة ومن القدس، ودخلوا إلى أماكن إقامتنا، ومعهم سلع طيبة الرائحة، وعملوا سوقاً هناك، وقد جلبوا ماء ورد من دمشق في أوعية زجاجية، وكان ثميناً جداً، حيث باعوه إلى البنادقة كل قطعة ببنس، وكان مع بعضهم بلسماً، ومع بعضهم الآخر مسكاً،

وجلب بعضهم صابونا، وبعضهم أحجاراً كريمة، وبعضهم شققاً من الموصلين الناصع البياض، وقلانس، وأشياء أخرى ثمينة، وأشياء رائحتها طيبة، فلقد جلبوا هذا كله إلينا، وفي الوقت نفسه كان كل من التجار ومن المسلمين قد دهنوا أنفسهم بالمراهم العطرية، وبالعطور الخالصة، ولذلك انتشرت الروائح الطيبة من حولهم، فضلاً عن هذا قام التجار الذين لم يكن بامكانهم تحمل روائح النتن والقذارة في مسكننا، باحراق البخور والاصباغ العربية، وكانت نتيجة ذلك أن هذا المكان ذي الرائحة المقرفة، أصبح مخزناً للروائح الطيبة، كما قام الذين لوثوه، طواعية من قبل أنفسهم بتنظيف المكان، ونقلوا قاذوراته ورموها بأقدامهم أثناء مشيهم، وفي وقت قصير من الزمن وبوساطة سيرهم المستمر تحول المكان الذي كان قبل قليل قذراً إلى مكان مريح تماماً ومبهجاً ومناسباً لبني البشر، وللانسان الضعيف والمريض، فلو أنهم دخلوه لاستردوا قوتهم ثانية بشمهم للروائح الطيبة للمكان، الذي حتى الدواب سوف ترتعد لدى دخولها له.

وقد دخلنا إلى هذا المكان بضيق شديد وألم، لكن في غضون ساعة واحدة وجدنا الراحة والسرور فيه، وجاء في الوقت نفسه بعض المسلمين، كانوا قد طبخوا بيضاً في المقلاة بالزيت، وجلب بعضهم أرغفة من الخبز، وبعضهم ماء بارداً، وبعضهم فواكه، وبعضهم سلطة، وبعضهم معجنات ساخنة صنعت من البيض، وباعوا ذلك لنا، وقد اشترينا من هذه الأشياء وأكلنا، وأعددنا أنفسنا للراحة، لأن النهار انقضى تقريباً، وماأن تمدد كل انسان منا، واضطجع في المكان الذي نوى أن ينام فيه تلك الليلة، حتى جاء إلينا مسلم شرس حامل للسلاح، وبيديه عكاز، واستخرج من كل واحد من الحجاج بنساً بندقياً، وقمنا على كل حال من أجل أن نوفر على أنفسنا المشاكل، بدفع بنس واحد من أجل إقامتنا، وعندما حل الظلام استأجرنا اثنين من

المسلمين، ليتوليا حراستنا أثناء الليل عند فم كهفنا، لكي لايدخل أحد إليه ويزعجنا، لأنه كان هناك حشد عظيم من الناس من كل نوع هناك، وهكذا أمضينا تلك الليلة، لكن ليس بدون خوف، وأعتقد أن الرجل المتقدم الذكر الذي استخرج المال منا، قد صار الآن مالك ذلك الكهف وصاحبه، وأن هذا قد شجعه لفرض ضريبة علينا بموجب حقه القانوني.

وفي اليوم السادس، الذي كان الأحد السادس بعد التثليث، وقبل أن تصبح الدنيا مضيئة تماما جاء ذلك المبتز الشرس، الذي أغضبنا في المساء الماضي، وعاد وجلس بنفسه ومعه عكازه، عند باب الكهف، وماكان ليسمح لأي انسان بالمغادرة والخروج من الكهف للأغراض الضرورية من دون أن يدفع له بنساً، وقد دفعنا له جميعاً من دون رضى كبير، لكننا لم نكن غاضبين من الرجل المبتز وحده، بل من القبطانين، ومن الأب المسؤول عن دير جبل صهيون ومن الترجمان، الذين كانوا نائمين جميعاً في سرادق منصوب فوق الرابية، وتركونا نعاني من ابتزاز لم يسمع به من قبل في سجننا هنا، ذلك أنه كان من واجبهم مساعدتنا والدفاع عنا ضد أي شيء من هذا النوع.

وبعد مادفعنا البنس الذي فرض علينا، سمح لنا بمغادرة الكهف، ومع ذلك لم نجرؤ على الابتعاد عنه، لأننا كنا محاطين بمسلمين مسلحين من كل جانب، وقدم في الوقت نفسه التجار مع سلعهم، وطبخوا بأدواتهم، وعرضوا مصنوعاتهم للبيع، دون أن يعرفوا بأن ذلك اليوم كان يوم الرب، وكنت عازماً على قراءة الانجيل من أجل ذلك اليوم للحجاج في الكهف، وأن أضيف إليه قداساً، لكن كان هناك صراخاً عظيماً وصخباً صدر عن الطباخين وعن التجار، وعن حشد كبير اجتمع من المسلمين، ومن الشباب الذين كانوا يركضون إلى هنا وإلى هناك، ولذلك لم أستطع قراءة الكثير في ساعاتي من دون الكثير من العوائق،

ذلك أنهم عندما رأوني أقرأ من الكتاب، وقفوا من حولي يضحكون ويصرخون، وينظرون نحو الأحرف ويعجبون منهم، وبعد الغداء جاء إلينا في الكهف كالينوس الأصغر، أي الرجل الذي كان نائب مدير المشفى (الفندق)، وكان رجلاً مسلماً اسمه الفحل Elphahallo، وكان رجلاً أميناً، كما ستعلم مما سيلي، وقد عرفني بشكل جيد من حجي الأول، وكان بامكانه التحدث بالايطالية، وبألمانية مشوهة، تعلمها من الحجاج الذين غالبا ماارتحل معهم إلى دير القديسة كاترين، وقد سألت هذا الرجل عن حقيقة الأمر بالنسبة لجبل سيناء، وأخبرته بالذي سمعته على ظهر الغليون، فأجابني بأن كل شيء قاله ذلك المملوك كان كذباً، وأن الحج إلى القديسة كاترين سليم الآن بقدر ماهو ممكن، وصحيح أن البدو العرب قد أزعجوا في العام الفائت رهبان القديسةكاترين، لكن السلطان قد تمكن من تسوية القضية كلها.

ولدى سماعي لهذا سررت كثيراً، واقتدت الرجل إلى موالي، وقدمتهم له، وعلى الفور طلب الرجل منا القدوم معه، واقتادنا خارجين من الكهف، ومررنا جميعاً بوسط المخيم ومن خلال خيم المسلمين، وأرانا جميع أدواتهم، والخرائب العظيمة لمدينة يافا، ومررنا ببرجين قائمين في البحر ومهدمين، وبعدما رأينا كل شيء أعادنا إلى سجننا ثانية، فوجدنا الكهف في صخب عظيم بسبب الشباب من المسلمين، الذي كانوا يقومون بازعاج الحجاج بمختلف الطرق، وكانوا يسببون لهم إهانات كثيرة، تأخذ وقتا طويلاً للحديث عنها، وكانوا ينشدون بكل دقة الفرصة المواتية لاغضاب الحاج، إذا كان ذلك ممكنا، دون اعطائه مسوغاً عظيماً لأن يكون غاضباً، وعندما يصبح غاضباً، يقومون هم أنفسهم باتخاذ غضبه سبباً للشكوى وطلب المال، وكانوا يتجولون حول الحجاج، وكل ماوجدوه سرقوه، أو نشلوه بشكل مكشوف وهربوا به.

وكان هناك رجلاً نبيلاً من كريت قد جلب معه قارورة كبيرة مليئة (بالخمرة) المالفوسية الثمينة، وعلق القارورة على الجدار إلى جانبه، ولدى رؤية ذلك، ركض رجل مسلح مسلم بين وسط الحجاج، وانتشل القارورة، ومضى يركض بها، وبعد بعض الوقت عاد وأطاح بالقارورة الفارغة في مقر إقامتنا، وتعرض شاب حاج حليق الذقن من بيكاردي لمضايقاتهم العظيمة، ومن حركاتهم القذرة، ولم يتمكن من إخفاء نفسه عنهم، مع أنه حاول كثيراً التخفي بين الحجاج الآخرين، ومع ذلك لم يحصل على السلامة، فقدم شكوى حول المسألة إلى الترجمان، الذي استخف بالأمر، وقال له بأنه إذا ما آذاه أي انسان، أو ضربه، أو جرحه، هو سيقوم بحمايته والانتقام له، لكن تجاه ذلك لايمكنه فعل شيء لأن الشاب عمل مزحة، ولايمكنه منعه من المزاح، ولدى سماع ذلك الحاج هذا، وخشية منه أن يوصم بالعار ويدنس شرفه، وبما أنه كان غير قادر على تحمل أن يكون أضحوكة يومياً من قبل المسلمين، ألغى حجه، وعاد إلى ظهر الغليون، وعاش مع البحارة حتى عاد الحجاج من الأماكن المقدسة، ولأن ذلك الشاب كان جميلاً جداً ان تنظر إليه، لهذا السبب ركز المسلمون عليه، ربما من أجل اغضابه، ذلك أنهم لم يقصدوا إلحاق أي أذى به.

واخترع هؤلاء الشباب من المسلمين آلاف الطرق، أثاروا بوساطتها بكل براعة الحجاج وأغضبوهم، من أجل ان أحدهم إذا ما نسي نفسه، ووجه ضربة، يمكنهم ابتزاز غرامة مالية منه، واستشهد أنا هنا بما ورد في الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى قوله:« أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر» (متى:٥/ ٣٨)، وبناء عليه كل من لايمكنه اتباع هذه النصيحة، لايمكنه الجواز بالأرض المقدسة بسلام، وهناك نص آخر مماثل في الاصحاح السادس في انجيل القديس لوقا قوله:« ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه» (لوقا:٦/ ٣٠)، وعلاوة على هذا على الانسان أن

يداوم تكرار قــوله في الاصحــاح الخامس من انجيل القـــديس متى والتمسك به حـرفيـا:«من لطمـك على خـدك الأيمن فحـول له الآخـر أيضا» (متى:٥/ ٣٩).

وعندما صار الوقت متأخراً، وأخذت الدنيـا تشتد ظلاما، جاء واحد ووقف عند فم الكهـف واستـدعـاني بصــوت مـرتفع، قـائــلاً:«المعلـم فيلكس، تعـال»، ولقـد خفت من هذا الاستـدعـاء وأجبت بأنني كنت أقوم براحتي، ولن أقدم، وبناء عليه شرع في التوسل إليّ، قائلاً بأن هناك حاجة كبيرة إليّ، وبناء عليه توجهت نحـو الرجل، الذي كان واحداً من رجال القارب العائد لغليوننا، بعـث به إليّ واحد كان متمدداً فوق ظهر الغليون، وهو في آلام الموت، وقد استـدعاني لسماع اعترافه، وكنت على كل حال أكره العودة إلى ظهـر الغليون، ومع ذلك ماكان لي اهمال روح واحـد من الإخـوان، وسرت نازلاً نحــو البحـر في الظلام، وركبت في القـارب، وقمت برحلة عظيمـة المخـاطر، بين الصخـور، إلى الغليـون، الذي كان يبعـد عن الشاطىء مثل المسافة التي تبعـد فيها سفلنجن se-flingen عن أولم، وأخـــذت على الفـــور اعتراف الرجـل المريض، ثم حملت فراشي من القمرة إلى السطح، ومددته فـوق مقعد متصالـب، كان منه بإمكاني رؤية الشـاطىء، من أجل أنه إذا مـا جـرى اخراج الحجـاج من الكهف، للشروع برحلتهـم، يمكنني رؤية حـركـة الحشـــد، وكـان بامكاني رؤية أن الحجاج أخـذوا يتحركون، ويغـادرون المكان، بوساطة نقل المصابيح التي كـانت مضاءة قرب خيام السادة المغـاربة، لأنه جرى تعليق ستـة مصابيـح مشتعلة على عمود طويل أمـام كل خيمـة، وذلك تشريفـاً لمحمـد (صلى الله عليـه وسلم) وصـدوراً عن الاحترام للسـادة الذين نامـوا فيهـا، ومن أجل راحة الناس، وقـد رأيت هذا من البحـر، وشعرت بشفقـة على موالي، وأتبـاعي الحجاج الذين كـانوا متمددين في الكهف القذر والمظلم، من دون أية تسهيلات بالضوء من أي نوع، بينما

كان هؤلاء المسلمون الكلاب يتمتعون بكثير غير محدود من الضياء.

وقمت في اليوم السابع، قبل اشراق الشمس بالدخول إلى القارب، وأسرعت التجذيف نحو الشاطىء، ومررت خلال المياه الهائجة، واجتزت الصخور، لأنني افترضت أننا سوف ننطلق على الفور، غير أننا تأخرنا لأن القبطانين كانا مختلفين، وكان هذا الخلاف قد بدأ في البندقية، كما رأينا في ص١٧٨، واستمر حتى وصولنا إلى هنا، ولهذا حاول كل واحد منهما إدخال حجاجه إلى الأرض المقدسة من دون الحجاج الذين كانوا مع القبطان الآخر، وقد أرادا تشكيل جماعتين، وفريقين منفصلين، ينبغي عدم التقائهما في وقت واحد، وفي المكان نفسه، غير أننا نحن الحجاج جميعاً رجونا في أن نؤخذ كلنا جميعاً، وأن يجري علينا العقد نفسه، وكانت هذه الخطة مقبولة كثيراً من قبل المسلمين، فقد كانوا لايرغبون في اختيار افتراقنا عن بعضنا بعضاً، مع أن القبطانين حثا باستمرار على وجوب القيام بعملية الفصل، وعندما رأى الأب المسؤول عن دير جبل صهيون أن هذا النزاع بين القبطانين معيقاً لانجاز الحج، وأنه جعلنا موضع ريبة لدى المسلمين، وجعلهم عديمي الصبر، دعا إلى اجتماع أعيان الناس بين الحجاج مع بعض الرجال المحترمين والمحبين للسلام بين المسلمين، وبذل جهده لوضع حد للنزاع، والذي حدث هو أنه بعد عدد كبير من الخطابات والتشجيع لم يتوصلا إلى اتفاق، وبدا القبطانين بعد كثير من النقاش أنهما معا أشد تصلباً في غضبهما وكراهية احدهما للآخر، وطوال ذلك اليوم جرى البحث في إقامة سلام بين القبطانين.

وفي الوقت نفسه، قام الحجاج الآخرون الذين لم يشاركوا في هذا النقاش، بالشد من عزائمهم، وكانوا جريئين بمافيه الكفاية للخروج من كهفهم والنزول نحوشاطىء البحر، وإلى المكان الذي وقفت فيه الحمير مع سائقيهم، وتجولوا بين حشد المسلمين بدون خوف، واشتروا ماكانوا

يحتاجون إليه من المسلمين، وصنعوا صداقات معهم، وقمت أنا شخصياً مع بعض الرفاق بالسير على طول ساحل البحر إلى نبع ماء عذب، كان يتدفق من بين شعاب الهضاب، وشربنا هناك من ذلك الماء من دون أن ندفع، مع أننا لكثير من الأيام لم نشرب ماء إلاّ ماشريناه ودفعنا ثمنه.

وقامت تحت هذا النبع صخرة في البحر، كانت مرتفعة فوق الماء، وهي التي قيل بأن القديس بطرس الرسول قد اصطاد السمك من عليها، وأضاف البسطاء من الناس الذين لايعرفون الكتابات المقدسة ولا الانجيل، بأن هذا كان هو المكان الذي دعا منه ربنا يسوع بطرس نفسه مع أخيه من البحر قائلاً:« هلم ورائي فأجعلكما صيادي الناس»، فهذا مانقرأه في الفقرة التاسعة عشرة من الاصحاح الرابع، ولقد كتب فرسان علمانيون في كتبهم حول حجهم، بأن هذا حدث هنا، لكن هذا ليس صحيحاً، لأن هذه الدعوة إلى الرسولين وقعت عند بحر الجليل، علماً بأننا لم نقرأ أبداً بأن ربنا يسوع قد جاء قط إلى يافا بالجسد، هذا ونقرأ في الاصحاح التاسع من أعمال الرسل، بأن القديس بطرس كان مرة هنا، ولذلك لاأنكر إمكانية قيامه بالصيد هنا، ووجدنا على شاطىء البحر أعداداً لاتحصى من أكوام أصداف المحار، من مختلف الأشكال، وقد التقطنا بعض الذي اعتقدنا أنه الأكثر جمالاً وغرابة.

وحدث في ذلك اليوم نفسه أن قام أحد الفرسان بشراء بعض الحجارة من واحد من المسلمين باعه إياهم في الكهف بخمسة دوقيات، ولقد اعتقد أنهم أحجار كريمة، لكن في أثناء عرضهم على رفاقه، اكتشف بأنهم لم يكونوا حجارة كريمة صحيحة، بل تقليد صنع من زجاج ملون، وبناء عليه حمل قطع الزجاج إلى التاجر لإعادتهم، راغباً باسترداد ذهبه، لكن ذلك التاجر الوضيع رفض ردّ الذهب، وكذلك استرداد قطع الزجاج، ولذلك أخبر الفارس القبطان عن عملية الغش

U‡ bM Ë ¨WK d « ‡‡U 6 rK *« + ÊUD I « vJ ‡U ¨Ác Ÿ«b)«Ë

سمع الحاكم هذه الشكوى، أرسل على الفور مساعداً له مع عصا، إلى سجننا، حيث كان ذلك التاجر جالساً مع سلعه، فأخذ منه بالقوة الخمس دوقيات، اللائي ردهن إلى الحاج، ووجه إليه كثيراً من الضربات بعصاه، ورد إليه قطع زجاجه ثانية.

وهكذا مضى هذا اليوم مع ملل أقل من الأيام التي تقدمت عليه، وحدث أنه عندما كان الوقت ليلاً، قدم بعض السودان الشباب، من حملة الترسة للسادة المغاربة، وكانوا من ذوي السلوك السيء، وأشراراً، وقد أرادوا الدخول إلى الكهف لاختلاسنا وابتزازنا، لكن الحارسين اللذين استأجرناهما لم يسمحا لهم بالدخول، وقد تنازعوا وتشاجروا معهما لبعض الوقت أمام باب الكهف، وعندما رأوا أنهم لن يستطيعوا الدخول إلى الكهف، جلسوا أمام الباب، وأخذوا يغنون طوال الليل، وينهقون وينبحون، ويصرخون مثل الحيوانات، والكلاب، والخنازير، لأن جميع المشارقة امتلكوا أصواتاً خشنة جداً، ولايمكنهم صنع أي لحن شجي، بل إن غناءهم مثل أصوات التيسة والعجول، وهكذا أمضينا تلك الليلة مع هذه المنغصات.

وفي اليوم الثامن سعى الأب المسؤول عن دير جبل صهيون جاهداً ومعه الحجاج والمسلمين من خيرةالأنواع لإقامة وئام بين قبطانينا، لكن من دون نجاح، وعندما رأى السادة المغاربة والحكام هذا، أعلنوا أنهما مالم يصبحا على الفور صديقين، سوف يضعانهما في الأغلال، ويرسلان بهما إلى غزة للسجن هناك حتى يتخذ سيدهم السلطان قراراً حول الذي ينبغي عمله معهما، وقالوا بأن الحجاج سوف يساقون عائدين إلى غليونيهما، من دون السماح لهم بزيارة الأماكن المقدسة، وسيزودوهم بقبطانيين آخرين، ويرسلون بهم عائدين إلى بلادهم، وأرغم القبطانين بهذا التهديد على إنهاء خصامهما، وتصافحا وعملا سلاماً بينهما،وبعد

هذا الاتفـاق الذي عقـداه مع السـادة والحكام، من أجلنا جميعـاً، جـاء الفحل، أي كـالينوس الأصغـر، إلينا، وأخبرنا بوجـوب جعل أنفسنا جـاهزين للانطلاق، وهكذا تجهـزنا بسرعـة ووقفنا مثقلين بحقـائبنا وقـواريرنا ننتظر الاشـارة، واصطف السادة المسلمـون أمـام كهفنا حتى يمكنهم تعدادنا للمرة الثانية، مثلما فعلوا عندما نزلنا من البحر، وبعدما جرى إرسال عدد كبير من الحجـاج إلى الحمير، فجأة أصبحوا غاضبين، حـول مالم أعـرفـه، ودفعوا بنـاعائـدين إلى كهفنا، مهـددين لنا بالعصي، وفصلونا عنهم وقـذفوا بنا إلى الكهـف وكأننا حيوانات، وانقضـوا على الحجـاج الـذين جـرى تعـدادهم، ونزلوا من التل وكـانوا على وشك ركوب حميرهم، وضربوهم بالعصي، وأرغمـوهم على الركض والدخول إلى الكهف، وهكذا أمضينا ذلك النهـار، ولم نكتشف السبب الذي دفع إلى اعادتنا هكذا.

وصف ميناء يافا وقدم هذه المدينة وقداستها

وقبل أن نغادر الميناء، من المناسب أن نـرى متى أقيم، وفي أية أماكن من الكتابات المقدسة ورد ذكره، خـاصة وأننا نحن الحجاج لن نعود إلى هنا ثانية، لأننا في طريق عـودتنا أخذنا سفينة من ميناء الاسكندرية، ولم نر هذا الميناء ثانية.

ويافـا هي أقدم ميناء، والمدينة الأقـدم في مقـاطعة فلسطين، وكـانت المدينة الثامنة في العـالم، التي بنيت قبل طوفان نـوح، الأمر الذي تبرهن على صحته بالعثـور هناك بعد الطوفـان على مذابح للأرباب التـي كانوا يعبدونها قبل الطوفـان، ولهذه المدينة اسمين، حيث يقال لها يافا اشتقـاقاً من اسم يافث بن نوح، الذي يقال بـأنه سكن فيها لبعض الوقت، وأنه أعاد عمارتها بعد الطوفان، وسميت يوبا Joppa اشتقاقاً من اسم أيوب Jop الذي كان رجـلاً بسيطاً ومقدسـاً، والذي من المفترض أنه سكن هناك، وعندمـا جرى تقسيم البلاد بين الأسبـاط الاثني عشر لاسرائيل،

وقع هذا المكان في حصـة سبط دان، وورد ذكـر هذا المكان في سفـر القديس إرميا، لدى ذكر «مسافـات الأماكن»، حيث قال بأن يافا مدينة للفلسطينيين في ديار سبط دان، ذلـك انه حتى هذا اليـوم يمكن رؤية الصخور على الشاطىء، التي ربطت إليها العذراء الجنية أندروميدا، ابنة سيفيوس Cepheus ، بسبب جريمة أمهـا، فقد حكم عليها من قبل آمون، وبعـد ربطها إلى الصخـرة، قدمت إلى وحش البحـر، وذلك بينما وقف والديها يبكيـان على الشـاطىء، لكـن فيرسـوس Perseus، أبو النبلاء الاغريق، وابن يوف Jov، ودانس Danis (Danae) كان لديه حصانا مجنحـاً وترس بالاس Pallas ، ونعل وسيف ميركري -Mer cury، وقـد طار محلقـاً من فـوق جبل يدوليـوم Ydolium، وبينما هو طائر محلقـاً في الهواء فوق فرسـه المجنح رأى الفتاة مـربوطة إلى صخرة، في ميناء يافـا، ووحش البحر العظيم على وشك التهـامها، وعندمـا رأى هذا طار على الفور إلى هناك، وعقد ميثاقـاً مع والديها، أنه إذا ما أنقذها من الوحش، سوف تكون زوجته، وعندما وافق الوالدان على هذا، قتل الوحش الشنيع، وأطلق سراح الفتـاة، واتخذها زوجـة له، والآن عندمـا رأى فينوس Phyneus أخو سيفيوس ملك يافـا هذا، ولأن أندروميدا كـانت من قبل مخطوبة له، خطط ليأخـذها منه بالقـوة، لكن فيرسـوس غلبـه، وذهب إلى فـارس، حيث تغلب على تلك البـلاد، وأطلق عليهـا اسمه.

وقد تبرهن على أن سيفيـوس كان ملك يافـا من خلال بعض المذابح الغاية بالقـدم، التي عثر عليها القدمـاء، ووجدوا اسمه منقوشـاً عليها، وكـانت عظام ذلك الوحـش البحـري الذي قتله فيرسـوس ذات حجم كبير، وكانت معروضة على الشـاطىء أمام المدينة، وقد رآها جميع الذين زاروا يافا، غير أنهم نقلوا من هناك إلى روما من قبل تيتوس وفسبسيان، وجـرى تعليقهم في مكان عـام للتعجب منهـم، لأنهم كـانوا بالفعل

جديرين بالتعجب، لأن طول كل ضلع من أضلاعه كان احدى وأربعين قدماً، ثم قام القديس سلفستر والقديسين الآخرين الذين كرسوا روما للمسيح فدمروا هذه العظام وجميع العجائب الأخرى، وذلك خشية أن يأتي الحجاج إلى هناك لرؤيتهم، وأيضاً خشية أن ينفق الحجاج الذين قدموا إلى روما من أجل تمجيد الرب ورسله، وقتهم ويضيعوه، ويبددوا الساعات التي يمكنهم تمضيتها في الصلاة، على رؤية مثل هذه الأشياء الغريبة.

وأعلن بعضهم أن تلك العظام كانت عظام الجنية العذراء أندروميدا، الأمر الذي يبدو مستحيلاً، لأن فيرسوس أخذ أندروميدا معه إلى فارس، وأمضى أيامه هناك، ولم نقرأ في أي مكان عن عودته إلى يافا، وقال يوسفيوس بأنه قد رأى السلاسل، والأطواق البرونزية التي ربطت بهم أندروميدا، وأنهم كانوا مايزالون معلقين فوق الصخور، وغالبا ما أشار جيروم إلى أندروميدا هذه، وخاصة في المكان المتقدم الذكر، وفي حج باولا المقدسة، وذكرها بوكاتيوس Boccatius أيضاً في الكتاب الثاني عشر من مصنفه «أنساب الآلهة»، وذكرها بالفصل الخامس والعشرين، مثلما فعل يوسفيوس أيضاً، علاوة على ذلك مراراً جرى الحديث عن هذا الميناء في الكتابات المقدسة الشرعية، ذلك أنه إلى هناك بعث حيرام ملك صور، خشب الأرز من لبنان عبر البحر، ومن هناك أخذ سليمان هذه الأخشاب وجلبها إلى القدس، من أجل بناء الهيكل، حسبما يمكن رؤية ذلك في سفر أخبار الأيام الثاني — الاصحاح الثاني ١٦، وفي عزرا: ٣/ ٧، فضلاً عن هذا بنى شعفاط أسطولاً في هذا الميناء، قاصداً الإبحار إلى جزيرة أوفير ophir، لإحضار الذهب من هناك، لكن السفن غرقت بقضاء من الرب، وذلك حسبما قرأنا في سفر الملوك الثالث، وإلى هذا الميناء هرب النبي يونان، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من سفر يونان، فهنا ذهب على ظهر

سفينة علّه يهرب إلى ترشيش، أي إلى أفريقيا إلى مدينة قرطاج، التي أخبرنا جيروم بأن اسمها كان ترشيش، وعندما صار خارج الصخور تحرك البحر وصار هائجاً، وبناء عليه صار الملاحون راغبين بالعودة إلى الميناء، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء حتى ألقوا بيونان في البحر، فابتعلته سمكة، وبعد مضي ثلاثة أيام تقيأت بيونان ولفظته على الشاطىء.

وأحرق يهوذا المكابي هذا الميناء مع جميع سفنه، بسبب إغراق اليهود، الذي فعله أهل يافا وتدبروه خيانة، وذلك حسبما قرأنا في الإصحاح الثاني عشر من سفر المكابيين الثاني، وجاء القديس بطرس الرسول إلى يافا عندما جرى طرده من اليهودية، وبشر هناك، وفيها أقام تابيثا من الموت، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاحين التاسع والعاشر من أعمال الرسل، علاوة على هذا لقد أمضى أياماً كثيرة في يافا مع سمعان الصباغ الذي كان بيته على شاطىء البحر، ويرى بعضهم — ومايرونه يبدو معقولاً— بأن هذه القناطر والكهوف المقنطرة، التي حبسنا فيها، كانت فيما مضى مكان إقامة سمعان الذي كان القديس بطرس ضيفه، وكان هذا الميناء قد جرى تحصينه من قبل يوناثان وسمعان المكابيين، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الرابع عشر من سفر المكابيين الأول، لكن الرومان دمروه مرتين، وقتلوا هناك كثيراً من اليهود حتى أن دمهم جرى إلى البحر، وغطى جميع أجزاء البحر القائمة بين الصخور، وأعاد الصليبيون فيما بعد بناء الميناء، وخاضوا معارك كثيرة عنده هناك، لكن أخيراً قام المسلمون بهدم كل من الميناء ومن المدينة، ولم يتركوا شيئاً دونما هدم إلاّ برجين لحراسة الجانب المتجه نحو البحر، وكل شيء ماعدا ذلك هدموه بحفر الأساسات تحت الأسوار والجدران.

ولم أر في أي مكان مثل هذه الخرائب العظيمة هناك، وتساءلت عجباً كيف أمكنهم هدم مثل هذه الأسوار السميكة، وتركوا فقط عند المدخل الذي يجده الانسان عندما يأتي من البحر بناءين مقنطرين، واقفين هناك،

وقـد قطعا من الرابيـة نفسها، وهما مغطيـان بالتراب والخرائب، ولذلك هناك دومـــاً رطوبة في هذه الأقنيـــة وهي تدلف بالميـــاه من الأعلى، والجدران مبللة، والأساسات مـوحلة، ويستخدم هذا المكان طوال العام من قبل المسلمين مكانـاً للتغـوط العـام، وفي محل التغــوط هذا يلقـون بالحجـاج المسيحيين، كما تقـدم بنا القـول، والذي يقلق الحجـاج بشكل خاص، أي الذين يحبسـون هناك، هو أنك عندما تدخل إلى الكهف تجد القوس محطماً، وهناك أحجار كبيرة معلقة تهدد بالسقوط على رؤوسهم، ذلك أنه بدفعة من اصبع سـوف تتساقط كومـة كبيرة من الحجارة، وانه تحت هذه الخرائب الخطرة أجبر الحجـاج على الدخـول والخروج بشكل متواصل، وبالاضـافة إلى هذا، من الصعب جـداً، ومن الخطورة بمكان أن يتخذ الانسان طريقاً في هذا الميناء مـن البحر، ولاأعتقد بوجود ميناء آخر بهذا السـوء في جميع اطار البحر، لأنه مـامن سفينة كبيرة قدمت من أية جهة كانت، يمكنها دخـول الميناء، بل عليها التوقف في الخارج، وأن تجد مكانا ترسـو به بعـد قيـاس الأعماق، لأنه على بعـد رميـة سهم من البحـر العميق هناك صخـور ناتئة ومنزلقـة، وأمـاكن ضحلة وصخـور منبعثة من الماء ومرتفعة فوقه، يهدر البحر بينها بشكل دائم، حتى عندما يكون هادئاً في الأماكن الأخـرى، وتندفع المياه وتضرب الصخور بشدة عظيمة، يتطاير الرذاذ أثرها عاليـاً في الهواء، ويصنع ضجة عظيمة يمكن سماعها من مسافة بعيدة سواء أكان ذلك في البر أو في البحر.

والميناء محاط بهذه الصخور، وكأنه جرى صفهم بفن انساني من أجل حمايته، بحيث لاتستطيع حتى القـوارب من المرور بينهم، إلاّ من خلال مكان واحد، وذلك بين صخرتين عـاليتين، تجذف القوارب بينهما بعناية عظيمة، لأن المياه تتحرك هناك جيئة وذهاباً بسرعة مدهشة، وهي تندفع وتضرب نفسها ضد جانبي الصخور، ومـالم يكن الربان أو قائد القارب حـذراً، من الممكن أن تتغلب المياه على القـارب وتدفعه على الصخـور،

وتحطمـــــه إلى آلاف القطع، ولهذا على الـذين يـدخلون إلى هـذا الميناء التجـذيف خـلال الأمواج المرتفعـة بأقصى سرعـة ممكنة لمجـاذيفهم أن تعمل بها، وذلك خشيـة أن ينجرف القـارب ويخرج من وسط القناة إلى هذا الجانب أو ذاك ويصطدم بالصخور، وعلى كل حال من غير الممكن لأي قائـد قارب مهما كـان بارعاً، أن ينجـو من التبلل بالمياه المتسـاقطة، والتي تضرب الصخور بكل عنف مـن على الجانبين، وهذه هي صخور أندروميدا، كما رأيناهم.

وفي اليـوم التـاسع، جاء قبل الفجـر، إلى كهفنا مسلم معـه مصبـاح، وأيقظنا لننطلق برحلتنا، ولذلك نهضنا مسرورين، وخـرجنا من سجننا، مثلما يفعل الأسرى لدى خـروجهم مـن مكان أسرهم، ووجـد فيما بين الكهـوف والبحـر، باتجاه الشمال، طريـق يمـر نزولاً عبر الصخـور، إلى المكان الذي وقفت فيـه الحمير مع سـائقيهـا، وكـان هذا الطريق ضيقـاً جداً، بحيث لايستطيع الانسان الذهاب نحو اليمين أو نحو اليسار، بل عليه السير في وسط هذا الممـر فقط، ووقف قبطانانا مع بعض المسلمين عند هذا الطريق الضيق، يحملون مصابيح، من المشاعل والفوانيس، وقد سألوا كل حـاج، واحداً بعـد الآخر عن اسمـه وعن اسم أبيه، وبحثـوا عنه في الجدول الذي كتبـوه عنـدمـا نزلوا من السفينة، وعندمـا كـانوا يعثـرون على اسم الحاج، كـانوا يسمحـون له بالنزول إلى الحمير، الذين وقفوا في حشد تحت، هناك قرب البحر، ولـو أن عدد الحجاج كان أكثر أو أقل مماهو بالجدول، ولم يستطع القبطـانان تقـديم تفسير لذلك، كـان لابد من رمينا ثانية في سجننا.

وهكذا ذهبنا ونزلنا إلى المكان الذي وقفت فيـه الحمير، وهناك وقف السـائقون بانتظارنا، ومـاأن كان الحاج ينزل إلى الأرض المستـوية، حتى كان أقـرب السائقين يمسكه، ويقـوده إلى حميره، ولذلك كثيراً مـاحدث أن كان هناك سائقين أوثلاثة يتجاذبون حـاجاً واحداً، يجره أحدهـم بهذا

الاتجاه، وذاك بالاتجاه الآخر، لأنه عندما سمع أهل الريف في القرى المجاورة بأن حجاجاً قد جاءوا، جلبوا كثيراً من الحمير، وكان عددهم أكبر من عدد الحجاج الذين كانوا هناك، ولذلك حاول كل انسان أن يجلب حاجاً إلى حميره، لأن كل واحد من المسلمين جلب سبعة حمير أو ثمانية من نوع واحد، وكان لهذا يحدث أن لايوجد أكثر من مائتي حاج، ويكون هناك مايزيد على أربعمائة حمار، ولذلك تقاتل السائقون من أجل الحجاج، وتجاذبوهم إلى هنا وهناك، لأن الذي لم يأته حاج، جاءت رحلته مقابل لاشيء، ولم أفهم هذا عندما قمت بحجي الأول، ففي اللحظة التي كنت قد نزلت بها، ركض نحوي وقتها مغربي أسود، وجذبني بعنف محاولاً جري نحو حشد من الحمير، كان من حوله هناك صخب مدهش، ولقد خشيت من أن يكون قد نوى سرقتي، فوقفت ثابتاً في مكاني، وبقوة كبيرة خلصت نفسي منه، وعاودت بكل سرعة الصعود إلى المكان الذي وقف الحكام فيه مع مصابيحهم، وأخبرت الأب المسؤول عن دير جبل صهيون بما وقع لي، وعندما سمع هذا الأب ذلك مني قال:«انزل بسرعة، بسرعة، واذهب بارادتك مع الذي يقودك ويذهب بك، وعندما نزلت، قابلني مسلم، وصدف أنه أمسكني بيمينه من يميني، وبدأ يسعى مسرعاً، لأنه في ذلك الوقت كان الجميع قد ركبوا حميرهم، وعندما ركض أرغمت على الركض جانبيا وبشكل مربك، لأنه —كما قلت— كان ممسكاً ليميني بيمينه بشدة، ولقد ركض وهو ممسك بي فوق الصخور حيث ارتطمت بها عدة مرات، وأنا أركض جانبياً، ووقعت، وأخيراً وصل بي إلى حميره، وأعطاني حماراً صغيراً جيداً، كان كله أسود اللون، وأبدى نحوي كثيراً من اللطف والصداقة، خلال حجي الأول كله، ومع أن منظر وجهه كان قبيحا، لقد كان كله لطف، واستجاب لجميع مطالبي مثل أحسن الخدم، وفعل ذلك قبل أن يعرف مكانتي، وكان عبداً لسيد مسلم أنا لم أعرفه، كان اسمه جلاله Galela ، وكان اسم عبده قصه Cassa ، وكان كل

من أراد أن يدعو هذا العبد، قـد اعتاد على دعوته بهذين الاسمين معا:« جـلاله قصــه»، وكـان سـائق الحمار قصــه قـد أخبرني أنني كلما أردت دعـوته، عليّ أن أنـادي جـلاله قصـه، لأن الحاج يحتفظ بالســائق الذي يحصل عليه في يافـا، خلال الرحلة كلها في الأرض المقـدسة، ولايحصل على حمار من أي واحـد آخر، وكلما أراد الحاج أن يترك أي مكان، عليـه أن يسعى بين حشـد الحمير بحثاً عن سائقـه، داعياً إياه بالاســم بصوت مرتفع.

وبناء عليـه، عندما نزلت في حجي الثـاني هذا من المكان الذي وقف فيـه الحكام، رغبت بالحصـول على سـائق حماري الأول، وقبل أن أصل إلى قطيع الحمير، صرخت إلى جلاله قصـه سائق حماري الأول، وعندما سمع الســائقون الآخـرون هذا، مـامن واحـد منهم حـاول جذبي نحـو حميره، لرؤيتهم أن لدي سـائق أنا أعـرفه، وفيما أنـا أصرخ جلاله، قـام سيد سائقي، الذي لم أكن أعـرفه، والذي كان مسلما مثل الملك بالمكانة، وكان جـالساً على ظهر فـرس، فقدم نحـوي ولمسني بلطف بعصاه التي أمسكهــا بيــده، مشيراً إليّ أن أحتفظ بهدوئي، وأن أقـف على الجانب بلاحـراك، وكان الجميع الآن يركضـون إلى هنا وهناك، وكان كل حـاج وسـائق حمار في وضع فـوضـوي جـداً، وكـان كل واحـد يسرع ليعمل صفقة جيـدة لنفسه، ولهذا عندما وقفت بلا حراك، والحجـاج الآخرون كل واحـد منهم يسعى أو يجري جره نحـو الحمير، صرت قلقاً، خشيـة أن يكون المسلم قـد نسيني، وحاولت أن أبتعد عنه، وعنـدما رأى هذا، قال لي شيئاً باللغة الكلدانية (كذا) لم أفهمه، لكنني قدرت وقتها أنه قال لي:«قف حيث أنت إلى جـانبي، أنـا جـلاله، وعبـدي قصـه سـوف يأتي بالحال إليّ، وسـوف يزودك بدابة»، وبعـد انتظار قـدم قصـه إلى سيـده، وماأن رآني حتى تذكـرني وعرفني، وتذكرته أنا وعـرفته وركض ليقبلني حسب طرائق المسلمين، وحيـاني بسرور عارم وببهجـة، واندهش كثيراً

لعودتي، وضحك وقال أشياء كثيرة لي، أنا لم أفهمها، وكنت قد جلبت معي من أولم ركابين معدنيين، قدمتها له، وقد تقبلها بشكر عظيم، واقتادني إلى حيث وقفت حميره بين القطيع، وأعطاني أحسن دابة لديه، ودهش موالي مع الحجاج الآخرين لرؤيتهم المسلم وهو يعاملني بكثير من الصداقة، لأنهم كانوا يعانون من كثير من الازعاج من سائقي حميرهم، وذلك بالضرب من قبلهم، والإلقاء عن ظهور حميرهم والاستيلاء على مقتنياتهم، وقد تحررت من جميع هذه الاضطرابات، لأنه كما حدث في حجي الأول، خدمني هذا الرجل بأمانة، وأطاع أوامري، وكأنني كنت أميراً، وغالباً مابدل لي حميري حتى أحصل على حمار أفضل يرضيني، وعندما كان الحمار يصعد إحدى التلال، كان يدعمني، وكان يمسكني عندما كنا ننزل طريقاً منحدراً، أو طريقاً وعراً، حتى لاأسقط، وكان يعطيني شراباً من قربته، ويشاركني في الكعك الذي كان معه، وكان يتسلق فوق الجدران الحجرية للحدائق، ويجلب لي التين والعنب وفواكه أخرى منهم، وقد أعطاني المهماز الذي استخدمه لحماره، هذا ولم يعط أي من سائقي الحمير الآخرين إلى أي من الحجاج مهاميز لحميرهم، وبسبب هذه الخدمات التي قدمها لي اعتاد النبلاء ورفاقي على الظن أنني أعطيته كثيراً من المال بالسر، لكن هذا لم يحدث، لأنني لم أعطه شيئاً مطلقاً زيادة على ماكان مفروضاً عليّ، وغالباً ماتصورت أنه افترض أنني كنت لورداً كبيراً، وكان هذا المعلل لخدمته لي بمثل هذه العناية، وفي الحقيقة كنت في خلال حجيّ محظوظاً إلى حد كبير، حيث لم أعامل بسوء من قبل أحد من المسلمين، أو البدو العرب، أو المدينيين، أو المماليك، والذين كانت لي علاقة بهم، ولايمكنني إخباركم أنني تلقيت أية ضربات أو اهانات، مع أنني غالبا مارأيت الحجاج الآخرين يتعرضون للضرب وللإهانة، وكان لديّ دوماً في حجيّ دواب جيدة، وبقيت على الدوام قوياً وصحيحاً، وللرب الحمد.

انطلاق الحجاج من شاطىء البحر وهم على ظهور حميرهم

أما وقد فرغت من حكاية جولاتي عبر البحر، ينبغي أن أنتقل إلى مايتعلق بجولاتي على اليابسة، وهكذا —كما قلت من قبل— عندما جئنا إلى قطيع الحمير، وأخذ كل انسان، بعد طول انتظار دابة وتجهز بها، امتطينا هذه الحمير عند شاطىء البحر، ووقفنا ننتظر لبعض الوقت، حتى أصبح السادة المغاربة جاهزين، وكان هناك بعض الحجاج، الذين رفضوا صدوراً عن تقواهم، أن تكون لديهم حمير، وأرادوا السعي وراء جماعتنا، وسمح لهم المسلمون بفعل ذلك، وكانوا راضين شريطة أن يركضوا بقدر ما تستطيع حميرنا أن تقطع في يوم واحد، وأن يسيروا مع الجماعة، وأن لايتأخروا خلفها، لكن عندما سرنا أسرع لم يستطيعوا مسايرتنا، بسبب المسافة التي قطعناها، ولأن الطريق الذي سرنا عليه كان طريقاً رمليا، وهكذا كانوا مرغمين بالقوة على ركب الحمير.

هذا وليست صحيحة الحكاية التي غالباً ماسمعناها في بلادنا، من أن المسلمين أرغمونا على ركب الحمير إلى القدس، وأن نمر من خلال الأرض المقدسة، لأنهم كانوا يرون أننا غير جديرين بلمس الأرض بأقدامنا، فهم لم يعبأوا أمشى الحاج على قدميه، أو ركب حماراً، مادام العقد المبرم مع القباطنة محافظ عليه وعلى الذي يمشي على قدميه عدم التأخر، ومن ثم إرغامهم على انتظاره، والسبب الذي جعلونا نأخذ به حميراً، هو أن نبقى دوماً مع بعضنا، وأن نصل إلى القدس دون أن نصاب بالمرض، لأن الحجاج لو توجب عليهم السير على أقدامهم طوال الطريق من البحر إلى القدس، وأن يعبروا خلال الأرض المقدسة في مثل هذه الأنواء الحارة، وأن يمشوا فوق الطرقات التي هي رملية في السهول، ووعرة في الجبال، لو توجب عليهم هذا، فقلة منهم هي التي سوف تبقى حية، بسبب الحرارة، والعطش، والعمل في ظل مناخ غريب، وإذا ما أرغمنا على السير على أقدامنا، خلال الأرض المقدسة،

كيف لنا أن نهرب من البدو العـرب، والفلاحين في القـرى، أو الصمود في وجههم عندمـا يهاجموننا؟ وبناء عليـه إنـه لصـالحنا جـرى تزويدنا بالدواب، وليس لضررنا كما قيل من قبل الجهلة.

وعندمـا بات الجميع جاهزين، ومضى القبطانان والحكام على ظهـور خيـولهم، وابتعـدوا عن شـاطىء البحـر، تبعناهـم، ونحن على ظهـور حميرنا، وسـار خـدم السادة المغـاربة، وهم على ظهـور مطاياهم خلف الحجـاج، ورافقنا سـائقـوا حميرنا، وسرنا نحن جميعـاً وفق هذا النظام مسرعين جداً بعيداً عن البحر، وكـان هناك حشد عظيم اجتمع معا من المسيحيين ومن المسلمين، وأدرنا ظهـورنا إلى شاطيء البحـر، الممتد من الشمال إلى الجنوب، وكـان ميناء يافـا، بوضعه قـائماً في وسطه، لأنه قـام باتجاه الجنوب منـه يبنى وغـزة، وقـام على الجانب الشمالي قيسـارية فلسطين، وعكا، وصـور، وبيروت، وطرابلس، وقد خلفنا هؤلاء جميعـاً وراءنا على شـاطـىء البحـر، وسرنا على طريقنا نحـو الشرق، خـلال أرض فلسطيـا، التي لم تكن كلهـا منبسطة، بل تشكلت من هضـاب منخفضة من مختلف الأشكال، وهذه أرض كـانت من الممكن أن تكون خصبة وجيدة، لو توفـر شعب يزرعها ويسكن بها، لأنه في الواقع الجزء الأكبر من الأرض المقدسة هو صحراء.

وعندمـا صرنا على مسـافة نصف ميل عن البحـر، وصلنا إلى مـدينة غاث، التي كـانت فيما مضى مدينة المقـاتلين الأشداء جـداً من العمالقة، وفيهـا ولد جـالوت الغـاثي، وتقـول الأسـاطير أيضـاً بـأن القـديس كريستوفر قد ولد هناك أيضـاً، وإلى ملك غاث كان داوود قد هرب من وجـه شاؤول، وحـدثنا الإخبـاريون عن هذه المدينة، أنه بفضل طبيعـة المكان، ولد فيها رجال قساة وشجعـان، ولهذا حتى في العصور المتأخرة استولى الصليبيـون عليها بعـد سفك كثير من الدمـاء، وخاضـوا معارك شديدة مع المسلمين المدافعين عنها، حتى أخيراً، بعـد مذبحة عظيمة بين

المسلمين والصليبيين فقدوها للمرة الثانية، وعندما استولى عليها المسلمون هدموها وسووها بالأرض، ولهذا هي الآن قائمة حالها حال يافا.

وكانت الشمس في الوقت نفسه قد أخذت بالاشراق، وقد اجتزنا خلال أرض جميلة، مليئة بالأسوار والجدران المهدمة، ولقد دهشنا تجاه الخرائب التي رأيناها، عندما اجتزنا إلى جانب مدينة اسمها أرسوف، التي كانت قد بنيت من قبل سليمان، وذلك تبعاً لما قاله جيروم في كتابه «عن مسافات الأماكن»، وكان البدو العرب في ذلك الحين منتشرين فوق وخلال كثير من أجزاء الأرض المقدسة، ولقد قدموا ثلاث مرات لمواجهتنا، لكنهم عندما رأوا أننا كنا محميين بشكل جيد بمدافعين مسلحين، لم يتعرضوا لنا بأي عنف لا بالحجارة ولا بالفولاذ، بل التحقوا بشكل سري بحشدنا إلى طرف الحجاج، وحاولوا سرقة كتابات، وملابس وما شابه ذلك، لأنهم عرفوا أننا كنا غير مسلحين، ولهذا ركضوا من حولنا وانتشلوا كل ماسقط من الحجاج، أومالم يحرسوه بشكل دقيق، ولولا أننا سافرنا مع هذه القوة العظيمة، لكانوا انقضوا علينا، وضربونا بالحجارة، والعصي، والهراوات، كما حدث مراراً للحجاج بين يافا والرملة، وعندما لايكون بداة عرب في المنطقة، كان الفلاحون يحتشدون مع بعضهم، ويهاجمون الحجاج وهم على طريقهم، ويلحقون بهم أضراراً كثيرة، ولهذا كانت الرحلة من يافا إلى الرملة خطرة كثيراً، بسبب هذه الكمائن والإهانات الصادرة عن المسلمين.

وفيما نحن على طريقنا رأينا مدينة الرملة، فوق رابية منخفضة في منطقة فائقة الجمال، وعندما بتنا على مسافة فرلنغ (ثمن ميل) منها، أرغمنا على الترجل من على ظهور حميرنا والسير على الأقدام، وأن يحمل كل واحد منا حقائبه على كتفيه، وبناء على ذلك أعطينا حميرنا إلى السائقين، وأسرعنا نحو البلدة ونحن في ضيق عظيم، لأن الحرارة كانت

عالية جداً، وثار الغبار هناك، وكان هناك حشد كبير من الناس مع كثير من أعمال الازعاج، وكان المسلمون لايقبلون بدخول المسيحيين إلى مدنهم وبلداتهم، وهم راكبين للدواب، مالم يكن قدومهم في الظلام، لكن في وضح النهار كان هذا مرفوضاً، ولقد عدّوا مدينة الرملة ذات مكانة عالية فوق جميع المدن الأخرى، لأن القاضي Thadi ، أي أسقفهم، يسكن فيها، لذلك تراهم متمسكين في أن لايدخلها مسيحي إلاّ على قدميه، وعندما دخلنا إلى المدينة، وجدنا على مسافة قصيرة من بابها بيتاً له باب منخفض وضيق، وقف أمامه الحاكم، وتولى تعدادنا واحداً واحداً، وذلك مثلما فعلوا عندما غادرنا البحر، وطلب منا الدخول من خلال الباب الصغير، هذا ولقد كان في داخله ساحة واسعة وجميلة، مع كثير من القاعات، والغرف المقببة من مختلف الأنواع، وبركة مليئة بماء جيد وصحي.

وكان هذا البيت قد شري منذ وقت طويل مضى من قبل فيليب صاحب بيرغندي، ذي الذكرى المباركة من أجل الاستخدام من قبل الحجاج، وعهد به من قبله، إلى رهبان دير جبل صهيون، ولهذا أطلق عليه اسم مضافة الحجاج، وقد تركه رهبان دير جبل صهيون إلى واحد من المسيحيين الشرقيين سكن فيه، ولقد سمعت أنه قبل شراء هذا البيت من أجل إيواء الحجاج، كانوا قد اعتادوا على الإقامة مجبرين في نزل عام في المدينة قرب السوق، في وضع تعيس وكريه، حيث أسيئت معاملتهم كثيراً، لأن مسلمي الرملة ومغاربتها يحملون كراهية خاصة نحو المسيحيين ويسيئون معاملتهم كثيراً، كما سأخبركم، وقمنا هنا بتوزيع أنفسنا على مختلف القاعات، وجلست كل جماعة لحالها، وامتلك موالي وجميع أتباعهم مأوى واسعاً، اشترينا له حصراً لتغطية الأرض، حتى لانكون مرغمين، على الجلوس، أو الاستلقاء، أو النوم، أو الأكل، فوق أرض عارية، لأنه لم يكن هناك سوى قاعة مقببة مع جدران

وأرض مبلطة، من دون أي أثاث مهما كـان نـوعـه، باستثناء مـا جلبناه وأدخلناه إلى هناك بأنفسنا.

هذا وكـانت السـاعـة عندمـا دخلنا إلى المدينة هي حـوالي التـاسعـة صبـاحاً، وبناء عليـه أعدّ الأب المسـؤول عن دير جبل صهيون، وأقـام مذبحاً في الحديقة الداخلية للبيت، حيث كان بيتا القبطانين، وكان ذلك مقابل جذع نخلة عظيمة، كانت قـائمة هناك، محملة بالتمور، وبعد هذا دعا جميع الحجاج إلى الدخول إلى تلك الحديقة، وفعل ذلك بعدما أغلق الأبواب، حتى لايتمكن المسلمون من مقاطعتنا، وقام واحد من الرهبان بعمل قداس، وبعد القداس قدّم الأب المسـؤول موعظة طقوسية جميلة، باللاتينيـة، لأنه كـان ايطاليـا، ولايعـرف الألمانيـة، وبما أنه لم يكن لديه، أومعه أحد فصيح مجيد للغـة الألمانية، يمكنه أن يترجم موعظته لنا نحن الألمان، طلب مني أن أقف إلى جانبـه، وأن أترجم موعظتـه إلى الحجاج الألمان، وفعلت هذا راضياً، ووقفت إلى جـانبه، وعندما كـان يتفوه جملة باللاتينية كنت آخـذها من فمه وأعيـدها باللغة الألمانية الرائجـة، فضلاً عن هذا قـدم إلى الحجـاج بعض الـوصـايا في مـوعظتـه تتضمن أحكام وطرائق رؤية الأمـاكن المقدسـة التي عليهم مـراعاتها أثناء إقـامتهم بين المسلمين والكفار في الأرض المقدسة، خشيـة أن يتعرضوا للمخاطر من خلال الجهل.

وكانت أول الأحكام والنصـائح: أنه إذا كان هناك حاج قـد قدم من دون الحصول على إذن واضح من البابا، وبذلك صار عرضة لقرار البابا بالحرمـان الكنسي وتحت طـائلتـه، على مثل هؤلاء الأشخـاص تقـديم أنفسهم له بعد القداس، وهو سيقوم بتحليلهم من ذنبهم بفضل السلطة الرسوليـة الممنوحة له، فـالبابا كـان يتخذ قراراً اجـرائياً ضـد كل واحد يذهب لأداء الحج في الأراضي المقدسـة من دون الحصول على إذن منه، كما مـرّ معنا في ص٩٥، المتقدمـة، وسبب هذا الحرمـان الكنسي، هو أنه

بعدما جرى طرد الصليبيين من الأرض المقدسة، بقي بعض المسيحيين، حتى من أتباع الكنيسة اللاتينية هناك، وتخلفوا فيها، وتعايشوا بأنفسهم مع المسلمين، وأدوا ايمان الولاء لهم، وحدث أيضاً أن بعض الذين تركوا تلك البلاد، عادوا إلى هنا ثانية إلى الذين بقيوا هناك وصاروا رعايا لهم، وأبحروا بعد ذلك إلى البلاد المسيحية، وجلبوا منها مصنوعات حديدية، وأسلحة، كان المسلمون بحاجة إليها، وعندما رأى البابا هذا، قام بإصدار قرار حرمان كنسي بحق جميع الذين بقيوا في الأرض المقدسة مع المسلمين، أو الذين تعاونوا معهم واتفقوا، كما قام أيضاً بحرمان الذين حملوا الأسلحة والأشياء الأخرى المحتاجة إليهم، علاوة على ذلك حرم الأرض نفسها، وبناء عليه صار كل من يدخل إليها من دون إذن آثماً مرتداً، على أساس أنه لايمكنه العيش هناك من دون التعاون مع المسلمين والهراطقة، هذا وجرى استثناء أعضاء من الطوائف الدينية من الذين زاروا الأرض المقدسة من الحرمان، وكذلك كل واحد له صديق واقع بالأسر بين المسلمين، فهذا يمكنه دخول البلاد من دون الحصول على إذن من البابا، وأن يعقد صفقة مع المسلمين من أجل الحصول على حرية صديقة، وقد قرأت هذه الشروط والقرارات في كتاب قديم كتب من قبل أحد الحجاج الذين زاروا الأرض المقدسة منذ مائة وخمسين سنة مضت، ولم يمنح الرئيس الأعلى للدومنيكان إذنا لأي راهب لم يحصل أولاً على إذن من البابا.

وكانت النصيحة الثانية: وجوب عدم تجول أي حاج لوحده حول الأماكن المقدسة من دون دليل مسلم، لأن ذلك يعدّ خطراً وغير آمن، ولم أقم أنا الراهب فيلكس فابري بالتقيد تقيدا مطلقاً بهذه النصيحة كما سيتضح فيما بعد.

وكانت النصيحة الثالثة: على الحاج أن يكون حذرا ولايخطو فوق قبور المسلمين، لأنهم يغضبون غضباً عظيماً عندما يرون هذا يفعل،

ويرجمون بالحجارة كل واحد يدوس فوقهم، لأنهم يعتقدون أن الخطو فوقهم يعذب الميت ويزعجه.

وكانت النصيحة الرابعة: أنه إذا ماتعرض حاج لضربة من مسلم، عليه عدم الرد بضربه، حتى وإن كان مظلوماً، بل عليه أن يشكو الذي ضربه إلى المسؤول عن الدير أو إلى الترجمان كالينوس اللذان سيقتصان له إذا استطاعا، وإذا لم يستطيعا، وكان الفاعل شاب وقح أحياناً، وعنيد، وقتها على الحاج أن يتحملها صابراً من أجل مجد الرب، ومن أجل الحصول على ثواب أعظم.

وكانت النصيحة الخامسة: على الحجاج أن يحذروا من قطع شظايا من الضريح المقدس، ومن الأبنية في الأماكن الأخرى، ومن تشويه الحجارة المنحوتة هناك، لأن هذا محرم تحت طائلة الحرمان الكنسي، ولسوف يقال المزيد حول هذه المسألة في الورقة ٢١٧ظ.

والنصيحة السادسة،:يتوجب على الحجاج من أصل نبيل عدم تشويه الجدران برسم رنوكهم وشعاراتهم عليها، أو بكتابة أسمائهم، أو بتثبيت أوراق على الجدران عليها مرسومة رنوكهم، أو بالخربشة على الأعمدة أو الألواح الرخامية، أو حفر حفرٍ فيهم بأدوات معدنية لعمل علامات تدل على زيارتهم لهم، لأن مثل هذا التصرف يغضب المسلمين كثيراً، ويعتقدون أن الذين يفعلون مثل هذه الأفعال حمقى.

والنصيحة السابعة: هي على الحجاج السير إلى زيارة الأماكن المقدسة بطريقة نظامية، من دون فوضى أو عدم اتفاق، وينبغي أن لايقوم انسان بإبعاد آخر وأخذ مكانه، لأن هذا يولّد كثيراً من الفوضى التي تقع عند تلك الأماكن، وبذلك تتعطل التقوى ويعاق التعبد المخلص.

أما الشرط الثامن والنصيحة: هي أنه يتوجب على الحجاج عدم الضحك وهم يسيرون مع بعضهم في أرجاء القدس لرؤية الأماكن

المقـدسـة، بل عليهم أن يكـونوا جـديّين وأتقيـاء، من أجل الأمـاكن المقـدسة، وليقـدموا مثـلاً للمسلمين، وأيضاً حتى لايعتقـدون ويشكّون أننا نضحك عليهم، الأمـر الذي يغضبهم إلى أبعـد الحدود، ذلك أنهم دوماً يتشككون حول الضحك والرهج بين الحجاج.

والوصية التاسعة: هي على الحجاج أن يكونوا متيقظين فوق كل شيء تجاه المزاح أو الضحك على الأطفـال المسلمين أو الرجـال الـذين يقابلونهم، لأنه مهما كان القصد من ذلك، فإن كثيراً من السوء ينشأ من ذلك، وعلى هذا مهما صـدر عـن الصبي وكـان مضحكاً، على الحاج أن يبعد نفسه وينأى بها، وأن يبقى جاداً، وبذلك يبقى بأمان.

وأمـا الوصية العـاشرة: فعلى الحجاج عـدم التحديق بأي من النسـاء اللائي يواجهن، لأن جميـع المسلمين غيـورين إلى أبعـد الحدود، وهكذا يمكن للحـاج أن يجلـب المخـاطر على نفسـه من خـلال الجهل، حيث يغضب عليه واحداً من الأزواج الغيورين.

والوصية الحادية عشرة: إنه إذا ماحاولت أية امرأة الإيماء إلى حاج أو دعـوته بالشارات لدخـول بيت ما، عليـه عدم فعل ذلك بأي حـال من الأحوال، لأن المرأة تفعل ذلك من باب التآمر، بإثارة من بعض الرجال وتحريض، من أجل أنه عندمـا يـدخل المسيحي تتم سرقتـه، وربما قتله، فالذين لايكونون حذرين جداً في هذه الأمور قد يجنون مخاطر عظيمة.

والوصية الثانيـة عشرة: على الحاج أن يكون متيقظا فلا يعطي إلى أي مسلم خمرة عندما يسأله ويطلب منه شراباً، سـواء أكان ذلك على طرف الطريق، أو في أي مكان آخـر، لأنه بعـد شربه لجرعـة واحـدة يصبح مجنوناً، وأول رجل يقاتله هو الحاج الذي أعطاه الشراب.

والوصيـة الثـالثة عشرة: على الحاج الحفـاظ على الحمار الذي تسلمـه أولاً من سائقـه، وعليه عـدم تغييره أو مبادلتـه بحمار آخر، إلا بمـوافقة

السائق، وإلا فسينجم عن ذلك اضطراب.

والوصية الرابعة عشرة: على الحجاج من أصل نبيل عدم الافصاح عن نبالتهم أمام المسلمين، لأن هذا عملاً غير حكيم، ولايجوز فعل ذلك لأسباب كثيرة.

والوصية الخامسة عشرة: ينبغي أن لايضع أي حاج على رأسه عمامة بيضاء، أو يلف قطعة قماش أبيض أو منديل حول رأسه في حضور المسلمين، لأنهم يعدون أنفسهم وحدهم يمتلكون امتياز فعل ذلك، وهي علامة يتميزون بها عن الأمم الأخرى، كما أنهم لايتحملون رؤية مسيحيين يرتدون أردية بيضاء، مع أن ذلك معاكسا لعقيدتهم الواردة في القرآن، حيث غالباً ماأطلق على المسيحيين اسم «ذوي الأردية البيضاء» (كذا) وكلما جاء ذكرهم فيه قيل هم «اللابسين للبياض»، وذلك حسبما قرأنا في ترجمة القرآن التي عملها نيقولاكوسا Cusa ، ذلك أن المسلمين يتصرفون على عكس تعاليم محمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد تبنوا ثانية كثيراً من العادات التي اعتادوا على استخدامها في أيام الوثنية، مثل مايتعلق بقضية الألبسة، ذلك أن يرتدون ملابس خنثوية لايتميز الرجال فيها عن النساء، مثلما نقرأ أن الملكة سميراميس قد لبست في الماضي القديم، عندما زحفت ضد البكتريين Bactrians ، وهي في الوسط بين رجالها المسلحين، وقد لبست ذلك حتى لايعرفها أحد فيما إذا كانت امرأة أو رجل، وهذه العادة ماتزال متبناه في الشرق، ومثل هذا كان من طرائق الكفار أن يلفوا رؤوسهم بالأقمشة، مثلما نقرأ بأن ذلك قد فعله دايونيسوس Dionysus ابن سملي Semele ، الذي كان مدمنا على الشراب والرفاهية، حيث كان كلما أصيب بصداع بعد السكر، اعتاد على ربط رأسه ولفه بعمامة، ومن ذلك نال اسم Mitrophoros ، وقلد محمد (ﷺ) دوما شارب الخمرة ذاك، بأن لف رأسه بعمامة، لكن بعدما حرم

الخمـرة ...(١) تبنـى عمامـة للرأس لها شكل الكرة، وترك ذلـك عـادة لأتباعه، ذلك أنهم يسيرون في هذه الأيام وهم يلبسون هذه الكرات من القماش على رؤوسهم، وكأنها تيجـان، ولايسمحـون لنـا بأردية رأس بيضاء.

والوصية السادسـة عشرة: لايجوز لأي حاج حمل خناجر أو أي شيء آخر معلقـاً من حوله، خشيـة أن تسلب منه، كما لايجوز له حمل أي نوع من أنواع السلاح.

والوصية السابعة عشرة: إذا ما أقام حاج صداقة مع أي مسلم، عليه أن يكون حذراً في عدم الوثـوق به كثيراً، لأن المسلمين خونة، وعليه أن يكون متنبها بشكل خاص فلايضع يده على لحيته مزاحاً، أولمس عمامته، لأن هذا الشيء يعـدّ إهانة بينهم، ويتم تناسي جميع المزاح، ويعـدّ ذلك تهديداً، ويتحـول إلى غضب، وبشأن هـذه الحقيقـة، كـان لي أنا الراهب فيلكس فابري تجربة.

والوصيـة الثـامنة عشرة: يتـوجب على كل حـاج أن يحرس بعناية مقتنيـاته، وأن لايدعهم ملقى بهم من حـوله في أي مكان فيـه مسلمين، وإذا حدث هذا فإن هذه المقتنيات سوف تختفي، مهما كانت.

والوصية التاسعة عشرة: إذا كـان لدى أي حاج قارورة من الخمرة، ورغب أن يشرب منها، عليه إخفاء القارورة والشرب منها بشكل سري إذا كان المسلمون حضوراً، وعليه أن يسأل رفيقه بالوقوف أمامه، أو أن يغطيــه بردائــه، وبذلك يمكنـه أن يشرب دون أن يرى، ولأن شرب الخمـرة محرم عليهم، فإنهم يحسـدوننا عندمـا يروننا نشرب منهـا، ولهذا يقومون —إن استطاعوا— بإزعاج الذين يشربون.

---

(١) أورد الرحالة هنا بعض العبـارات النابية فأسقطتها، وواضح عـدم استناد روايته إلى أي توثيق.

والوصية العشرين: يتوجب على كل مسيحي عدم التعامل مالياً مع المسلمين، إلا في الشؤون التي يعرف أنه لن يخدع بها، لأنهم يبذلون جهدهم لغشنا، ويعتقدون أنهم يخدمون الرب بخداعنا وغشنا (كذا) وفوق كل شيء، على الحاج أن يكون حذراً من اليهود الألمان، وأن يحترس منهم، ذلك أن هدفهم الوحيد في الحياة هو خداعنا وسرقة أموالنا، وعليه أيضاً أن يكون حذراً من المسيحيين الشرقيين لدى تعامله معهم، لأنهم ليس لديهم ضمائر، وأدنى من اليهود ومن المسلمين، ويقومون بخداع الحجاج إذا استطاعوا.

والوصية الحادية والعشرين: عندما يعقد الحجاج مواثيق مع مسلمين، عليهم عدم الاختلاف معهم، ولا الإقسام لديهم، وأن لايكونوا غاضبين معهم، لأنهم يعرفون هذه الأشياء مضادة للديانة المسيحية، وعندما يرون أي شيء من هذا النوع يصرخون على الفور:«أنت مسيحي سيء»، ذلك أنهم جميعا يمكنهم قول هذا بسهولة بالايطالية أو بالألمانية، وكلما أظهر أي حاج أي سوء، يلقون باسم «مسيحي» بين أسنانهم، وكأنهم مقبلون على الاستشهاد بالنص الذي قاله القديس أوغسطين حول العقيدة المسيحية، حيث تساءل: «كيف لايمكنه أن يقول عنك مسيحي، الذي لايتصرف مثل مسيحي؟ فالمسيحية اسم يعني تطبيق العدالة، والجودة، والأمانة، وطول المعاناة، والفضيلة، والحكمة، والتفرد، واللطف، والبراءة، والتقوى»، ولذلك على الحاج أن ينتبه لنفسه حتى لايجلب العار على مثل هذا الاسم النبيل مضافاً إلى اسمه الشخصي.

والنصيحة الثانية والعشرين: على الحاج الانتباه إلى عدم الدخول إلى المساجد، أي أماكن العبادة لدى المسلمين والاعتكاف، ذلك أنه لو وجد هناك، لن ينجو مطلقاً من دون أن يتعرض للأذى، هذا إذا نجا بحياته، ولقد جرى بحث هذا الموضوع بشكل مطول في الورقة ٢٦١ وفي

الصفحات التالية.

والنصيحة الثالثة والعشرين: على الحاج أن يكون حذراً بشكل خاص من الضحك للاستهزاء من مسلم يصلي ويقوم بالسجود المطلوب في عقيدته، لأن المسلمين لايمكنهم تحمل هذا مطلقاً، لأنهم هم أنفسهم يتمنعون من الاستهزاء بنا والضحك علينا عندما نكون في صلاتنا.

والنصيحة الرابعة والعشرين: إذا ما أبقي حاج مدة أطول مما رغب في الرملة، أو في أي مكان آخر، عليه تحمل ذلك صابراً، وأن لايظن أن ذلك غلطة الأب المسؤول، بل غلطة المسلمين، الذين يفعلون مايرضيهم في هذه المسائل، وليس ماهو موائم لنا.

والنصيحة الخامسة والعشرين: ينبغي على الحجاج أن لايتذمروا من دفع المال لانقاذ أنفسهم من المنغصات الكثيرة التي تلحق بهم، إنما عندما يتوجب دفع المال، عليهم أن يدفعوا دون مناقشة وعلى الفور، هذا ولايحتاج أي واحد لدفع مال إلى سائق حماره، لأن هذا كله قد دفع من قبل القبطان، مالم يقدم أي واحد، صدوراً عن كرم منه بإعطاء سائقه بنساً لشراء علف لحماره، مع أن ذلك ليس متوجباً عليه فعله.

والنصيحة السادسة والعشرين: على الحاج دفع شيء ماإلى الحافظ لدار الضيافة التي نقف بها، من أجل ترميم البيت، والحيلولة دون خرابه.

والنصيحة السابعة والعشرين، وهي النصيحة الأخيرة: على الحجاج إظهار الاحترام نحو الدير الفقير العائد لرهبان جبل صهيون في القدس، فبمساعدة هذا الدير يجري توجيه الحجاج وإرشادهم في داخل الأرض المقدسة وخارجها، وينبغي بمساعداتهم رعاية هذا الدير ومساعدة الرهبان الذين فيه، والذين يسكنون بين المسلمين، لتقديم الراحة للحجاج، وهم على استعداد لخدمة الحجاج، وفقا لقدراتهم،

وسائلهم، إلى حد الارتماء بأنفسهم تحت أقدامهم، إذا كان ذلك ضروريا، وإذا لم تتم معاملة أي حاج وفقاً لرغباته وحاجاته، عليه عدم لوم الرهبان بسبب ذلك، لأنهم إذا ماأرغموا على اشباع كل حاج بالخبز والخمرة، سيكون الوضع أنه بعد مغادرة الحجاج سوف يجدون أنفسهم بلا مايمكّنهم من العيش، وهم —على كل حال— على استعداد لرعاية مرضى الحجاج بكل مايمكن والسهر عليهم وإنعاشهم، ومعاملتهم بالاحسان أثناء مرضهم.

وتمت قراءة هذه النصائح للحجاج بصوت مرتفع، في كل من اللاتينية والألمانية، والآن بما أن القداس قد طال أكثر من اللازم، صار المسلمون الذين أبقيوا معزولين في الساحة الخارجية بلا صبر، وضربوا على الباب بالحجارة، وكأنهم يريدون تحطيمه، وصعد آخرون فوق سطح البيت وتطلعوا على الساحة، حيث كنا، وهم يضحكون ويصرخون، وقمنا نحن الذين أزعجنا هذا، بالنظر بدورنا إلى هؤلاء الشباب بملامح جادة غاضبة، وأشرنا إليهم بالنزول، وعندما رأوا أننا كنا جادين، أوقفوا صخبهم، وابتعدوا واحداً تلو الآخر، وأكملنا القداس كله بسلام، وكان الوقت وقتها حوالي الظهيرة، ولذلك فتحنا الباب، وخرجنا إلى ساحتنا، التي وجدناها مليئة بالمسلمين، واليهود، والهراطقة، والمسيحيين الشرقيين، مع أشياء متنوعة للبيع، وبشكل خاص الأطعمة، فهناك وجدنا فراريج مطبوخة وطيوراً، وحليباً مطهواً، ومعجنات مصنوعة من الدقيق، ورزاً مطبوخاً بالحليب، وأرغفة رائعة من الخبز، وبيضاً، وعناقيد من أحلى العنب، ورماناً، وتفاحاً، وبرتقالاً، وبطيخاً، وليموناً، وتينا من كل مُن الحجم الصغير والكبير، وحلويات من اللوز والعسل، وتين جاف، وبعض المربيات بالسكر، واللوز، والتمر، والماء البارد، وجلب أحد الناس قوارير مصنوعة من الجلد مليئة بشراب مصنوع يستخدمه السادة العظام من المسلمين عوضاً عن

النبيذ، وبناء عليه شربنا الأطعمة التي راقت لنا وأكلناها في المكان الذي نمنا فيه.

وبعد الغداء في ذلك اليوم، قام كالينوس الأصغر، الذي اسمه الفحل، بقيادتنا للقيام بجولة في أرجاء مدينة الرملة، وأخذنا إلى شوارع التجار، وهناك رأينا كثيراً من المصنوعات الثمينة، ومسجداً عظيماً، وذهبنا إلى حمام ساخن، استحم فيه كثير من الحجاج برفقة المسلمين، وهذا الحمام الساخن، مثله مثل جميع حمامات المسلمين، قد بني بشكل رائع، وبطريقة بارعة، وهو قائم بين أربعة أبراج، وتأتيه الحرارة من الأسفل، وتمر عابرة على طول البلاط المعمول من رخام مصقول جميل من ألوان متعددة، ولسوف نجد كثيراً حول الحمامات الساخنة العائدة للمسلمين، وفيما إذا كان أمراً قانونيا بالنسبة للمسيحيين الاستحمام برفقة المسلمين، ومسائل أخرى، متعلقة بهذا الموضوع في القسم الثاني، وهكذا بعدما رأينا المدينة رجعنا إلى موضعنا، وعندما صار الوقت متأخراً، أخرجنا جميع التجار، وأغلقنا باب البيت، وأعددنا أنفسنا للنوم.

وفي اليوم العاشر، الذي كان يوم عيد «الأخوة السبعة»، استيقظنا باكراً جداً في الصباح من أجل القداس، وكان ذلك قبل شروق الشمس، وقبل استيقاظ المسلمين والتجار، وأقمنا مذبحاً في ساحتنا، وأقام واحد من الرهبان القداس، وبعد القداس أخبرنا بأن علينا إعداد أنفسنا لزيارة كنيسة القديس جرجس في اللد، وهذه الكنيسة قائمة فوق المكان الذي استشهد فيه ذلك القديس.

ولم يستطيعوا في حجي المتقدم أخذنا إلى هناك، لأن البدو العرب كانوا قد نصبوا كميناً في الوادي، وكانوا ينتظروننا حتى نقدم، فيسلبوننا، وعندما بتنا جاهزين، غادرنا المدينة، مثلما دخلناها، ووجدنا خارج المدينة حميرنا مع سائقيهم، وهنا ركض كل انسان بين قطيع

الحمير يصرخ بصوت مرتفع لسائقه، وكنت أصيح «جلاله قصه، جلاله قصه»، وصاح آخرون بأسماء أخرى تبعاً لتعدد أسماء سائقيهم، وهكذا امتطينا حميرنا، وانطلقنا مسرعين نحو اللد، التي تبعد نحو ميلين ايطاليين عن الرملة، ووصلنا إلى ديوسبولس، التي تعرف أيضاً باسم اللد، أو الليدا، والتي كانت فيما مضى من أيام مدينة كبيرة، لكنها تعرضت للدمار على أيدي المسلمين، وهي الآن مجرد قرية صغيرة، وذهبنا إلى المكان الذي فيه استشهد القديس جرجس مع انفعالات مختلفة، وقبلنا المكان بتقوى عظيمة، ولمسناه بمجوهراتنا، وتلقينا هنا سبع سنوات غفران (+)، ورأينا هنا بحزن عميق خرائب كنيسة جميلة جداً، كانت عالية وواسعة، وهناك جانب من السدة مايزال باقياً، لكن الأقواس والسقف كانوا قد سقطوا هناك، وفي السدة موضع استشهاد القديس جرجس، وهناك مصباحان مشتعلان بشكل دائم، حيث يجري تزويدهما بالوقود من قبل المسيحيين الأرثوذكس الذين يقيمون في القرية، وكان الجزء المتبقي من الكنيسة قد فصل من عند السدة بجدار، وأقاموا في ذلك المكان مسجداً جميلاً تشريفاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد زينوه ببرج مرتفع، وقام الباب في مواجهتنا، ولذلك كان بامكاننا أن نرى مافي صحن المسجد، ومافي المسجد نفسه، وكان يشبه الجنة لنظافته ولجماله.

وكان القديس بطرس قد شفى في هذه المدينة عيناس، وقام بالوعظ والتبشير هنا أيضاً، حسبما نقرأ في الاصحاح التاسع من أعمال الرسل، وفي الأيام التي كانت فيها البلاد بأيدي الصليبيين، كانت هذه مقر كرسي أسقف، وهنا كانت تقام صلوات ربانية كثيرة، وإلى جانب هذه المدينة رأينا جبل مودين، الذي كانت عليه مدينة عائدة للرجال الشجعان من المكابيين، وهناك أيضاً جرى دفن متاتياس (كذا) وأولاده، وكنت قد أتيت على ذكر قبورهم في ص ٣٢٢، ويبدو أن هذه المدينة،

كانت هي اللد، التابعة لسبط نفتالي.

وعندما فـرغنا من اللد، رجعنا إلى الرملة من أجل الغداء، وأكلنا هناك، وبعـد الغـداء وقفنا مستعـدين من أجل الانطلاق، لكن لا القبطانين، ولا الترجمان، ولا الحكام ظهروا بيننا، ذلك أنهم كانوا طوال ذلك اليوم قد جلسوا في قاعة مغلقة عليهم، يتداولون مع بعضهم في اجتماع سري، ويتجادل أحدهم مع الآخر، ذلك أنهم كانوا خائفين، فضلاً عن هذا لقد سمعنا بأن البدو العرب، كانوا قد نشروا أنفسهم حول الطرقات التي تؤدي إلى القدس، ومعنى هذا أنه لم يكن بامكاننا الوصول إلى القدس من دون ابعادهم، فالرب قد قضى بوقوع هذا الوباء وبنزوله على هذه الأرض وعلى جميع البلدان التي من حولها، لأن الأعراب قوم عراة، وتعساء وأشقياء وأناس جوالون، وهم وحدهم لديهم القدرة على العيش في الصحراء، التي هي غير قابلة للسكن من قبل الآخرين جميعاً، وهم يهاجمون، ويستبيحون، ويغلبون جميع الناس سواء، حتى الملك نفسه، الذي هو السلطان الأعظم لمصر، وعن هؤلاء الأعراب سوف أتحدث بشكل مطول كثيراً، فيما يلي في مكان آخر.

وهكذا حدث أنه في الوقت الذي كان فيه قبطانينا والسادة المغاربة يتشارون فيما بينهم، وقفنا هناك في الساحة المكشوفة في صخب شديد، لأن الساحة كانت مليئة بالتجار، وكانت هناك فوضى كبيرة واضطراب عظيم، لأن المسيئين من المسلمين من الشباب والشيوخ، قد اجتمعوا هناك مع بعضهم، لمضايقتنا، وقد وقفوا أمامنا، وكانوا ينظرون إلينا ويصغون إلى كلامنا.

وفعلوا هذا بشكل خاص إلى الذين لاحظوا أنهم كانوا انفعاليين، أو إلى الذين ضحكوا استهزاء نحو ألاعيبهم، ولسوف يكون من الصعب بالنسبة لي اخباركم عن جميع الألاعيب المزعجة التي مارسها هؤلاء الشباب من المسلمين، فمن بين أشياء وقعت قيام واحد من الشباب

المزعجين باجلاس نفسه عند قدمي حاج نبيل، الذي كان رجلاً جاداً ومحترماً، ونظر من حوله ليرى فيما إذا كان يمكنه إيجاد أي انسان يساعده في لعبته، والتفت أخيراً نحو الرجل الذي جلس عند قدميه، وأمسك قدمه وشدها، وفكر الفارس أولاً أنها كانت نوعاً من المزاح المزعج، فسحب قدمه وأرجعها وكأنه لم يهتم به، لكن الفتى وقد وجد نفسه قد عومل بازدراء، أمسك بالقدم الأخرى وشدها، محاولاً قلبه على قفاه، إنما في أثناء شده لرجل الفارس بقوة، أصبح هذا الأخير غاضباً، وقام بالقدم التي كان قد شدها أولاً، فرفس المسلم بعنف كبير في معدته، جعل بها الفتى يترك قدمه التي كان يشدها، ويسقط على الأرض، رأسه على عقبيه، ويتدحرج مثل كرة في وسط الساحة المبلطة، ثم إنه نهض وهو عظيم الاضطراب، وغادر المكان، وكنا خائفين كثيراً تجاه ماحدث، وخشينا من أن يثير الناس لمهاجمتنا، لكن مامن أذى نتج عن ذلك.

وقدم إلى الساحة فتى آخر من العابثين، ووقف أمام وجه واحد من الحجاج، وكان يقوم ببعض حركات لوي أصابعه بمقاصد سيئه، الأمر الذي لم يستطع الحاج تحمله، فضرب يدي العابث بشدة بيديه، وكسر اصبع الداعر التي لعب أثناء لويه لأصابعه، وعندما رأى واحد من المسلمين المسلحين هذا، صار شديد الغضب، واندفع لمهاجمة الحاج، ولولا أنه أخفى نفسه لألقي به في السجن، لأن ذلك الرجل المسلح وقف مع أتباعه لوقت طويل هناك ينتظر، آملاً بإمساك ذلك الحاج في بقعة مناسبة، لكن ذلك الحاج لم يتحرك من مكان اختفائه.

وينبغي أن أحدثكم عن أمر آخر وقع لنا، فقد قام حاج نبيل بالتصرف كما كان يجري منذ زمن طويل، فرسم رنكه ورنوك أتباعه على جدار، كان بديعاً جداً وجميلاً، وماأن أنهى عمله هذا، الذي استغرق منه عدة ساعات طوال، حتى ركض واحد من المسلمين ويده مليئة

بالقــاذورات، فلـوث الصــورة بشكل مهين، ومضى في طـريقــه وهو يضحك، ولدى فعله هذا أصبح النبلاء على درجة عظيمة من الغضب، ولعنوا ذلك الشاب، لكن مامن واحد منهم تجرأ على أن يضع يده عليه، مع أنه لو فعـل مثل هذا في بلادنا لجرى تمزيقـه إلى قطـع، ولقـد تحملنا كثيراً من المنغصــات المماثلة بطبيعتهــا في تلك المدينـة، ومع ذلك لقــد عـوملنا بشكل أفضل ممـاحـدث وعـوملنا به في حجي الأول، لأنهم في ذلك الحين، اعتقلوا قبطاننا، بعـدما أحضروه مـن يافا، وألقـوه بالسجن أمـام أعيننا، وتركوه مغلولاً هناك، قـائلين بأنه لايمتلك السلطة لجلب حجاج إلى البلاد، وأننا قـدمنا إلى هناك من دون جواز، ولذلك يتوجب علينا دفع جزية مضاعفة، وإذا لم نفعل ذلك، فسوف لن نشاهد القدس، بل تتـوجب عــودتنا إلى غليـوننا، وعلينا أيضـاً لتسرعنـا بالدخـول إلى البلاد، دفع مال سيكون قدره وفقـاً لقرار السادة المغاربة، وبقينا بالرملة لمدة أربعـة أيام في هذا التأخير، الذي لم يكن بامكاننا تفسيره بسـوى أننا على وشك الإعادة إلى غليـوننا، وأننا لن نشاهد الضريح المقـدس لربنا، ولكم كان الأسف والاضطراب الذي شعرنا به في قلوبنا عظيماً، وأخيراً جرى اقتيادنا إلى البقاع المنشـودة، وهكذا انتهى الموضوع، ودعوني أعود الآن إلى سياق روايتي.

وعند حلول المسـاء، جاء واحـد من خدم القبطانين، وقـال ينبغي أن نغـادر مبـاشرة، ولهذا حملنا حقـائبنا، وخـرجنا من غـرفنا، وجلسنا على مقربـة من باب دار ضيافتنا، ننتظر حلول الوقت لانطلاقنا، وبعـد مضي سـاعة من الوقت، جـاء إلى هناك واحـد أخبرنا بأن بعض المسلحين من المماليك قد وصلوا للتو إلى هنا من القـاهرة، ونظراً لقدومهم لن يتمكن قادتنا من مغادرة المكان هـذه الليلة، ولهذا علينا العودة بهدوء إلى غرفنا، وعندما سمعنا هذا عـدنا إلى غرفنا بمشاعـر سيئة، وهنا عندما أردنا أن نجلس كما فعلنا من قبل، وجدنـا أن جميع الحصر التي اعتدنا أن نجلس

عليها ونتمدد قد ذهبت ذلك أن المسلم الذي شريناهم منه مقابل مبلغ كبير من المال قد أخذهم، لذلك أرسلنا خلفه وطلبنا منه إعادة حصرنا، لكنه رفض ذلك رفضاً مطلقاً، مالم ندفع له من جديد، قائلاً بأنه باعنا إياهم فقط للاستخدام حتى نغادر دار الضيافة، وبما أننا غادرنا غرفتنا فارغة، انتهى شرط تأجيرنا لهم، لأنه لم يكن متوقعاً عودتنا إلى الدار، وجرى نقاش عنيف مع هذا المسلم، الذي كان غاضباً جداً، وغالباً مابصق علينا أثناء خصامنا معه، وبناء عليه أقمنا في غرفتنا من دون حصرنا، لأننا لم نرغب في تشجيع جشعه باعطائه بنساً واحداً، فهو كان على استعداد لإعطائنا إياهم مقابل بنسات قليلة، غير أننا طلبنا منه المغادرة، وعندما جاء الليل، بقي بعضنا في الغرفة، ونام هناك على الأرض العارية، وذهب بعضهم وصعد إلى السقف المقبب للبيت، حيث نام المقدم كالينوس وبعض المسلمين، وهناك أعددنا أنفسنا للنوم فوق البلاط في الهواء الطلق، وقد بنيت البيوت في الشرق مع شرفات على سطح البيوت، لذلك عندما تغيب الشمس يصعد الناس إلى هناك للتمتع بالبرودة، وهناك يعملون، ويأكلون، ويضعون فرشهم وينامون، لكن عندما تكون الشمس مشرقة يعيشون في الأسفل تحت القناطر، وفي الظل.

وهكذا تمددنا على سطح البيت، لكن من المؤكد أننا لم نحصل على الراحة التي طلبناها، بسبب صراخ المسلمين الذين اسمهم السقائين Soquis الذين صرخوا وغنوا وفق طرائقهم حتى حدود منتصف الليل، ومثل هذا الذين وقفوا على الأبراج (المآذن) وصرخوا هناك، وبأيديهم مصابيح مضاءة، وأبراجهم هذه طويلة ومستديرة، يقف عليها رجال الدين المسلمين، ويقومون بالعمل الذي يؤديه الناقوس، وعملهم عمل ديني تماماً، وسوف أتناول هذا الموضوع المتعلق بواجباتهم وشعائرهم بتوسع كبير في الورقة ٩٤ من القسم الثاني، وكانت هذه

الليلة احدى ليـالي أعيادهم، ولذلك صرخوا أكثـر مما هو معتاد، وهكذا أمضينا تلك الليلة.

وفي اليـوم الحادي عشر، الذي كـان يوم عيد بروكـوبيـوس المعترف، استيقظت قبل اشراق الشمـس، وأديت صلواتي فــوق قنطرة أعلى من التي نمت فـوقهـا، حيث جلست على السطح المحـدب لأعلى الغـرف، الذي منه كان يمكنني رؤية النائمين من حولي، وعندمـا أضاءت الدنيا، استيقظ المسلمـون وطووا فرشهم، وأعـدوا مـلابسهم، ثم حنوا ركبهم تعبـداً، وصلوا بشكل جـاد تمامـاً، وقـرأوا صلواتهم بنغمـة مثل الزئير، وأيديهم متشـابكة، ثم كانوا يقفـون، وقد سجـدوا مراراً حيث لامسـوا الأرض برؤوسهم وكـانوا يمكثون وقتـاً قليـلاً في سجودهم، ثم كـانوا يقـومـون ثانيـة، وينظرون نحـو الأعلى إلى السماء، وقـد صلوا جميعـاً في وقت واحـد، وبطريقة واحـدة، وكأنهم رهبـان طائفـة واحدة، وعندمـا كانوا يفرغون من صلواتهم، كانوا يذهبون —كما اعتادوا— إلى أعمالهم، وأقيمت هذه الصـلاة ذلك الصبــاح في الرملة، ومثـل ذلك أقيمت في أماكن أخرى، واستيقظ الآن حجـاجنا بعد اشراق الشمس، وبدأوا على الفور بـالحديث والضحك أحدهم مع الآخـر، دون أن يقدمـوا الصلاة على ذلك.

ولذلك جلست هناك وقارنت بين ماقـام به الفريق الأول وبين ماقام به الفـريق الثاني، وأصبحت حـزيناً، ومنزعجـاً في قلبي، برؤيتي أولئك الضالين والأناس الضائعين تماماً يقـومون بأداء صلواتهم بجدية ومهابة، مع أنهم يثيرون غضب الـرب ضــد أنفسهم، لـدى عــدم تقــديرهم القـديسين والملائكة وجميع الحشـد السماوي، وهذا مـايفعلونه بأدعيتهم التجـديفية، بينما نحن المسيحيين أكثـر الناس تعاسـة، وأعظمهم نكراناً، الذين أنقــذنا بدم المسيح الثمين جـداً، نقــدم صلواتنا ونؤديها بخفــة وبهجــة، وبفتـور لايمكـن وصفـه في جميع الأوقـات، وبتفكير تائــه،

وبإرهاق، ونفعل ذلك إلى الرب الحقيقي والحي، الذي منه نأمل بإيمان ثابت بأننا سوف نتلقى النعمة والمجد، أيها السيد الرب، أية نعمة سوف تمنحنا إياها مقابل صلواتنا القصيرة والخالية من التقوى؟ وهل ياترى جرى تأدية صلواتنا الفاترة جداً مع أية درجة من الإيمان الصحيح، ثم ماذا يمكنني أن أقول؟ إنني أخشى أن عدداً كبيراً من المسيحيين يمضون اليوم كله دون أدنى عبادة للرب، أو دون أية صلاة له، الأمر الذي لايمكن حدوثه بين المسلمين، أو الأتراك، أو البرابرة، أو اليهود، أو البداة العرب، لأن جميع هؤلاء الكفار لديهم توجه ثابت وطريقة معلومة للصلاة، لايفارقونها في أي حال من الأحوال مالم يرغموا بالقوة على فعل ذلك، ومن أجل رواية كاملة عن صلواتهم وصيامهم انظر الورقة ٩٤ من القسم الثاني، مع أن مقارنتي المتقدمة بينهم وبيننا أنفسنا، أعطتني الفرصة للحديث عنهم في هذا المكان.

وعندما أشرقت الشمس، ولم نر اعدادات لانطلاقنا، عدنا إلى غرفنا، واشترينا طعاماً وأكلنا هناك، وبينما نحن جلوس هناك جاء إلينا مسلم فقير وتعيس، يحمل برتقالاً وعنباً في سلة ليبيع لنا، وجلس على الأرض ومعه سلته إلى جانبي، وأخذنا بعضاً من فواكهه، وأعطيناه خبزاً مع الذي بقي من لحمنا، فأكل ذلك مثل انسان جائع، وقد وضع على رأسه قبعة حمراء مع اللفة العائدة للمسلمين، والآن وقد بدا لي انساناً بسيطاً جيداً، أخذت قبعته من على رأسه، وبينما أنا أنظر إليها تظاهرت بأنني مصاب بالاقياء، وأنني أعاني من الدوار، وقمت بصرف رأسي وإبعاده عن القبعة التي أمسكتها بيدي، وكأنني أريد أن أتقيأ لكراهيتي لديانة المسلمين، وبصقت على قطعة القماش التي كانت ملفوفة حول القبعة، راغباً في أن أرى ما الذي سيقوله أو يفعله تجاه ذلك، وقام هذا المسلم —على كل حال— بالنظر من حوله في جميع زوايا الغرفة، وعندما لم ير من يخاف منه، انتزع قبعته، وجمع بصاقه في فمه، وبصق على اللفة

الاسلامية الموجودة عليها، ولعن العمامة، وعمل شارة الصليب بوضع سبابته اليمنى فوق اليسرى، وقبل علامة الصليب هذه التي عملها فوق يده مع كثير من الدموع، وقال أشياء كثيرة لنا لم نستطع فهمها، والذي فهمناه تماماً بأنه كان مسيحياً، وأنه أرغم على التخلي عن عقيدته، وأنه لم يكن مسلماً عربياً، بل كان مملوكاً مسكيناً، وبعد ماتغدينا بقينا في غرفتنا بهدوء، وفي الظل، وسمعنا الآن بأن أحدهم كان يعمل على الجدار الأول من جدران غرفتنا بأداة معدنية، من الخارج، وكأنه يريد أن يخرق الجدار ويمر منه، ولم نهتم بذلك، ولم نتوجس منه أي خطر، وأخيراً فتحت ثغرة بالجدار بانتزاع حجرة واحدة منه، وكان على الطرف الآخر من الجدار نساء مسلمات فتحن الثغرة حتى يتمكن من رؤية الحجاج من خلالها.

وعندما نظرن إلينا، ابتسم لهن بعض الفرسان، وقالوا بالاشارات والايماءات مالم يستطيعوا قوله بالكلمات، لكن واحداً من رهبا ن الفرنسيسكان رأى هذه الثغرة، وكان الأب المسؤول قد بعث به ليقوم بجولة على غرف الحجج، فعندما رأى ذلك قام على الفور فجلب ملاطاً وقام ببناء الثغرة، وأقسم بالرب، بأن المسلمين لو شاهدوا ذلك لتولوا تعذيب الحجاج جميعاً تعذيباً مرعباً للغاية، لأنهم غيورين بشكل مخيف، ويجتمعون كلهم مع بعضهم من دون مناقشة للانتقام من أي اعتداء على شرفهم، وفي الحقيقة بدت النساء المسلمات أنهن شهوانيات كثيراً، لأنه عندما كان بعض الفرسان الشباب يمشون وينظرون من حولهم وهم على سطوح البيت، رأوا ثلاث نساء واقفات في بيت آخر، وقد عملن اشارات لهم للنزول إليهن، ولست أدري أفعلن ذلك صدوراً عن شهوة، أو — وهو ماأعتقده— صدوراً عن نية تآمرية وشريرة، وعلى كل حال كان الخطر هو نفسه، ذلك أن القانون هو: إذا ماعثر على مسيحي يتسامر مع امرأة مسلمة، كان يعطى الخيار، إما بالتخلي عن

إيهانه، أو مواجهة الموت، وليس هناك خيار وسط بين هذين الخيارين.

وفي الوقت نفسه مرت ساعة تلو ساعة، ونحن وقوف بدون حركة هناك ننتظر بتشوق إلى الانطلاق، لأن المزاح والاهانات الصادرة عن الشباب ازدادت سوءاً كل ساعة، ورأينا أن المزيد من التأخير سيكون خطيراً علينا، لأن حاجاً بعد حاج خرجوا عن طورهم وفقدوا صبرهم بسبب الاهانات التي تلقوها، وضرب أحدهم طفلاً سيئاً، ضربة خفيفة، لأنه كان يرمي حجارة عليه، ولذلك بكى هذا الصبي، ولدى سماع صوت بكائه ركض المسلمون مع بعضهم مثلما يركض الخنازير مع بعضهم للدفاع عن رفيق نخر إليهم، ولم يستطع الحاج الذي ضرب الصبي الحصول على السلام، حتى أسكت الصبي الباكي بالمال، وفي الحقيقة كان الأطفال الأشرار في الرملة أسوأ من أطفال أي مكان آخر أقام فيه الحجاج، فهناك لم يكن مسموحاً أن يرد الانسان الضربة بالضربة، ولهذا خشية منا أن نقع في المخاطر خفنا، فذهبنا إلى القبطانين، ورجوناهما بحرارة أن يقودانا إلى خارج ذلك الأتون المحرق، وقد وعدانا بالانطلاق في غضون ساعة من الزمان.

فيمايلي:
وصف موجز لمدينة الرملة

راما أو الرملة مدينة واقعة بين فلسطين واليهودية، على حدود منطقة فلسطين، ومنطقة اليهودية، وذلك في حصة سبط يهوذا، وهي قائمة فوق رابية، ولهذا السبب حملت اسم راما الذي معناه المرتفع، ولهذا ليس هذا الموقع فقط بل كثيراً من المدن الأخرى في الأرض المقدسة، ممن بني فوق أماكن مرتفعة، أطلق عليه اسم راما، وهناك ، على كل حال، في كثير منها فوارق في نهاية الكلمة، وهكذا لدينا من راما: راماثا، وراماثيم، وراماسي، وراموث،وراموث، وأرماثا، والرملة هذه التي أنا

بصدد الحديث عنها، غالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة، وفيها هنا ولد صموئيل المقدس، وهي حتى الآن مدينة مكتظة السكان، وأكبر من القدس، وفيها سبل العيش ميسرة لكثير من التجار، لكنها ليست جيدة الدفاعات بأسوار من حولها، مثل مدن اسلامية كثيرة أخرى، ذلك أنها بلا أسوار، وهناك كثير من المساجد فيها ومن حولها، وهي قائمة في وسط مكان بديع جداً، وخصب، وكل شيء هناك رخيص تماما، وحلو، وفائق الجودة، إلا الناس، الذين هم أكثر الناس شروراً في تفكيرهم، ويحملون كراهية خاصة نحو المسيحيين، ويسكن هناك عدد كبير من السودان الأشرار، والمغاربة، مع أناس آخرين من دون فهم، ولقد ورد ذكر هذه المدينة في سفر الملوك الثالث (الأول) — الاصحاح ١٥، وفي الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى.

مغادرة الحجاج للرملة إلى المنطقة التلية لليهودية

عندما جاء المساء في يوم عيد القديس بروكوبيوس، أعددنا أنفسنا لرحلتنا، وخرجنا من دار الضيافة وفق النظام نفسه الذي دخلنا به، ونحن نحمل أطواقاً مكتوبة حول أعناقنا، ولدى مرورنا من خلال البلد، ركض الناس مع بعضهم من جميع الأطراف، وكانت الشوارع مليئة بالناس من الجنسين معا، الذين وقفوا هناك راغبين برؤيتنا، وكان هناك حشد كبير، وقد ثار هناك غبار كثيف من الأرض، إلى حد أنه بات من الصعب على الانسان أن يرى رفيقه الذي على جانبه، وإذا مارآه من المؤكد أنه كان من الصعب التعرف عليه وتمييزه، فلقد كان الغبار كثيفاً إلى أبعد الحدود، وتغطت قبعتي السوداء بالغبار، حتى أنها لم تعد بادية سوداء، بل رمادية، ومامن انسان كان بامكانه فتح عينيه أوفمه إذا مااحتاج، ولقد تحملنا هذا خلال المنطقة كلها، إلاّ في الأجزاء الصخرية، وعندما ارتحلنا في الليل.

وتوفر في الأزقة الضيقة خطر الاختناق بسبب كثافة الغبار، وفي أثناء

هذا الضيق الشـديد حـدث أن دفعـت على جـدار مسكن هناك، وكـان ذلك قـرب النوافـذ، ولأن الحشد تحرك ببطء شـديد وتركني محصـوراً هناك، نظرت مـن خـلال النافـذة إلى المسكن، ويـا للعجب، وقفت في الداخل امـرأة مع أطفـال صغـار، عملوا عـلامـة الصليب بأصـابعهم، وقبلوهـم، وبذلك جعلوني أعرف أنهم أتباع الذي صلب، ولقد اعتقدت أنهم بكوا، وإنه بالحقيقة مزعج جـداً، أن يكون شعب تلك البلاد، التي فيهـا صلب ربنا، إذا أرادوا أن يكونوا أتباع الصليب، لا يتجـرأون على لبس شـارة الصليب بشكل مكشـوف، لأن الصليب المجيـد مكروه في تلك البلاد، وملفـوظ، والشيء نفسه الذي وقع للصليـب المقدس، وقع للأنبياء: ذلك.أنهم بلا احترام، حتى في وطنهم (لوقا٤/ ٢٩)، ومثل هذا فإن الصليب المقـدس لايتمتع بـالاحترام، ولابالقبـول حتى في وطنه، لكن الحجاج من الأجزاء النائية مـن العالم يحملون بشكل معلن، علامة الصليب، لأن نقد الصليب قد انتزع من بينهم وأبعد.

وعندمـا تحرك الحشـد نحـو الأمـام، أرغمت على الابتعـاد عن ذلك المكان، ووصلنا إلى خـارج المدينة، وهناك وجدنا حميرنا مع سـائقيهم في الحقل، وعلى مقـربة منهم عسـاكـر المسلمين، الذين كـانوا سيتـولون مـرافقتنـا وحمايتنا على طريقنا، وامتطينا دوابنا، وانطلقنـا مسرعين جـداً نحـو الجبـال، ووصلنا إلى حقل يوشع قـرب مـدينة بيت شمش، حيث جرى فيهـا قتل خمسين ألف انسان، لأنهم نظروا إلى تابوه الـرب، عندما وقف هناك، وذلك حسبما نقـرأ في سفر صموئيـل الأول — الاصحاح الرابع، الخ.

ونصب الأعـراب في هذا الحقل نفسـه خيامهم، وكـان هناك حـوالي الثلاثمائة منهن، ولدى رؤيتنا للخيام ارتعبنا نحن ومرافقينا كثيراً، ولدى اقترابنا من الخيـام، لم نشاهد أحـداً فيهن إلاّ نساء على درجـة عاليـة من التعاسة، وأطفال صغار سـود عراة، وقلة من الشيوخ، لأن بقية الرجال

جميعاً كانوا يتجولون في المنطقة ينهبون ويسلبون، وهكذا مررنا من خلال معسكرهم، ولم يكن هناك من انسان رفع يده ضدنا، وحدث أننا عندما كنا على وشك دخول المنطقة التلية من خلال أحد الوديان، رأينا عند مدخل الوادي جمهوراً من الناس مع جمال وحمير وخيول، كانوا قد استعدوا للانقضاض علينا، وبالمقابل قام مرافقونا بالانتظام والاصطفاف لمقاومتهم، وكانوا مضطربين وقد امتلأوا رعباً، ذلك أنهم رأوا أن أولئك الناس كانوا لصوصاً من الأعراب، وأننا لايمكننا تجاوزهم من دون ضراب، ثم إنه لم يكن بإمكاننا الانحراف لا إلى اليمين ولا إلى اليسار، لأن طريقنا كان يمر مباشرة من وسطهم، من خلال واد ضيق.

وعندما اقتربنا منهم، وجدناهم قد وقفوا يحرسون المدخل إلى الوادي من الجانب الأول إلى الجانب الآخر، وكانوا ممسكين لهذا المدخل ضدنا، وكانوا مشهرين لخناجرهم، ورافعين لسيوفهم، وكانت رماحهم مركونة جاهزة وقسيهم مفوقة، ولا أذكر أنني رأيت أناساً قط مثلهم: لقد كانوا عراة، ولونهم أسود، أحرقتهم حرارة الشمس، وكانوا يرتدون قطع قماش لاتساوي شيئاً حول أوساطهم، وترستهم معلقة من رقابهم، وكانوا حادين، ومتوحشين، ومن المرعب النظر إليهم، وعندما نظرنا إليهم وقارناهم بمغاربتنا ومسلمينا، الذين عددناهم حتى الآن أنهم ليسوا بشراً، عددنا هؤلاء الأخيرين أناساً متحضرين وأتقياء، مثلهم مثلنا أنفسنا، وعندما رأى مرافقونا ما الذي أراد الأعراب أن يفعلوه انقضوا عليهم بعنف، وطردوهم بقوة السلاح، وفتحوا الطريق لنا، ودعونا للاندفاع بسرعة والمتابعة دون توقف، وهكذا أسرعنا مارين من خلال الفراغ الذي ترك لنا مفتوحاً، وكان أي حاج وقع بين هؤلاء الأعراب، كانوا إما يمسكونه إما من ردائه، أو من مخلاته، وكانوا يشدون ذلك حتى يتخلى عن أي منهما، ويدع الشيء يذهب، أو كان

يشد من فوق ظهر حماره، أو كـان ينقذ من قبل واحد من جماعتنا، ولهذا سقط كثير منهم مـن على ظهـور حميرهم، ولولا أنهم أنقـذوا لتـولى الأعراب سلبهم، وكـان هناك صراخ وعويل من على الطرفين، واندفع الناس أحـدهـم ضـد الآخـر بشكل مـدهش، وكأنهم أرادوا أن ينقض أحدهم على الآخر، ويسدد الضربات له.

وفي أثناء هذا الاضطراب، وبينما هومستمر، مررنا من خلال الوادي، ووصلنا إلى التـلال، وعنـدمـا رأى أعـداؤنا هذا، تناولـوا الحجـارة من وسط الطريق، وشرعوا يرمون بها خلف مرافقينا، لكن عندما رأوا أنهم لن يستطيعـوا تحصيل شيء منا بـالقـوة، ركضـوا خلفنا، وبذل ومسكنه توسلوا إلينـا حتى نعطيهم شيئاً مـا، لكنهم لم يحصلوا على شيء كثير، وهكذا ابتعـدنا عنهم، وليس هناك مـن شك، أنهم لو كـانوا أقـوى منا، لسلبونا جميعاً، دون تنفيذ لأمـاننا الذي حصلنا عليه من السلطان، ولقد نجـونا دون أن يصـاب أي حـاج بأذى، باستثناء، بعض الذين أصيبـوا بالحجارة، وقد فقـد بعضهم جعبهم في أثناء الصراع، وبعضهم قبعاتهم، ولم يجرح أحـد، لأن الشرقيين فيهم الفضيلة التـالية وهي أنهم لايحبـون سفك الدماء.

وهكذا تـابعنا سيرنـا في هذا الـوادي الظليل، ومشينـا عبر طريـق في منتهى الوعـورة، مع جبـال صخـرية عاليـة على طرفينا، وبعـد صعـود وتسلق طويل، وصلنا إلى بـرج، كـانت هناك ميـاه قـربه قـد جمعت في بركـة، ونوينا الانتظار هنـاك حتى الفجـر لليـوم المقبل، لأن الليل كـان مظلماً، وذلك إلى جانب أن الوادي كان ملقياً بظلاله، وهكذا ترجلنا من على ظهـور حميرنا، لكن مـالبـث فجأة أن حل خـوف بين صفـوف مرافقينا، وباتوا يخشون أن يقـوم هؤلاء الأعراب بالانقضاض علينا، في أثناء نومنا، فـوقتها لن يكون بـإمكانهم الدفاع عنا في ذلك الممـر الضيق والوعـر، وبناء عليـه دعـونا لمعـاودة ركـوب حميرنـا، وأن نتـابع سيرنا

صعوداً في الجبال، وهكذا غادرنا البرج الذي قام عند سفح الجبال، وتسلقنا فوق ممر منحدر وخطير حتى وصلنا إلى حقل، فكروا ثانية بالاستراحة فيه، لكن كنا نحن ودوابنا عطاش، ولم يكن هناك ماء، لذلك تابعنا سيرنا في الغسق، حيث لم يكن هناك لاشمس ولاقمر لعوننا، وسرنا ودليلنا فقط ضوء قبة السماء، وأشعة النجوم الضعيفة، ولم يكن بإمكاننا رؤية الممر، لكن كل انسان تبع سائقه، وعندما وصلنا إلى القمة، نزلنا إلى الطرف الآخر من الجبل، وسرنا إلى أن وصلنا إلى قرية صغيرة، حيث كان هناك نبع ماء جيد وبارد، وهناك في حقل مليء بالحجارة تخلينا عن حميرنا وأعطيناهم إلى سائقيهم، وأجلسنا أنفسنا على الأرض، وتحلق حراسنا مع خيولهم، وسائقونا مع حميرهم، جميعاً من حول الحجاج، وبذلك أحاطوا بنا من كل جانب، وأشعلنا مصابيحاً، وأحضرنا جعبنا الخاصة بالطعام الذي شريناه في الرملة، وجلب السائقون ماء لنا، قمنا بشرائه منهم، وأحضر القرويون أرغفة من الخبز، وفواكه وماء، فاشترينا منهم مارغبنا به، وهكذا تعشينا.

وكان هذا المكان الذي عسكرنا فيه، وعراً مليئاً بالحجارة مثل الأماكن الموجودة في الألب، والقائمة فيما بين أولم وويزنستيغ Weis-sensteig، واختفى تحت الحجارة عقارب، الأمر الذي لم نعرفه، حتى أرانا الضوء إياهم، وعندما رآنا المسملون خائفين، أخبرونا أن بإمكاننا النوم من دون خوف، لأن العقارب بالحقل لاتلدغ مثل العقارب في البيوت، ولهذا شعرنا بالراحة، ولم يتحرك واحد منا من مكانه، وفيما نحن جالسين هكذا نريح أنفسنا، أشرق القمر أمام وجوهنا، وشعرنا لدى اشراقه بسرور عظيم، لأن الذين لايمكنهم النوم يبتهجون أمام أي شيء يطرد الظلام، ويبعد الظلال، ولم يزر النوم أعيننا، كما لم يتمكن النعاس من اغلاق جفوننا، كما أن جباهنا لم ترغب بالراحة، مع أنه كان من الطبيعي لإرهاقنا بعد متاعبنا أن يجلب إلينا النوم، ولقد كنا مرهقين

ومتعبين، لكن النوم تخلى عنا، لأن كيـاننا كله قـد حلّ في قوى مـداركنا ومشـاعــرنا، وابتغت نفـوسنـا شيئاً واحـداً فقط هو التحــديق والنظر بإخـلاص من حـولنا، وعلى هذا بدت روحنا وقـد استقـرت في عينينا، واهتمت بشيء واحد فقـط هو الشعور بالمشهد، وتغلبـت انفعالاتنا على النوم، وكان ذلك لدى قراءتنا للاصحـاح الثاني والأربعين من الالهيات قـوله:«طرد التفكير النوم منهم»، لأننا كنا نتطلع إلى الغـد برغبـة حـارة جداً، عـارفين بأننا وقتها ينبغي أن نرى مدينة القـدس الجليلة، التي قال عنها طوبيـا المقدس وهو واقف على مسافـة عظيمة عنها:«سـوف أكون سعيـداً لوأن أيا من سلالتـي بقي لينظر إلى الضريح في القدس»، وقـال كـاتب آخر:«من أجل صهيـون لن أهدأ، ومن أجل القـدس لن أرتاح» (إشعيـا:٦٢/ ١)، فمن هو الذي لايرغب في رؤية المدينة المختـارة، التي نقرأ عنها في الاصحاح السادس من السفر الثاني لأخبار الأيام:«اخترت القـدس ليكون اسمي فيهـا» (أخبـار الأيام الثـاني:٦/ ٦)، لأن هذه هي المدينة التي يكون فيها الحمد وقطع العهـد للرب، حسبما جاء في المزمور الخامس والستين:«لـك ينبغي التسبيح يـارب في صهيـــون ولـك يوفى النذر»، وردد الحجاج المتشـوقين القول:«من سيمنحني أن تمر هذه الليلة وتنقضي وأن تأتي الشمس مسرعة حتى يمكننـي رؤية القدس، التي هي بهجة الأرض كلها، ومـدينة الملك العظيم، والرب الأكثر علواً»؟ آه، لو أن أحــداً أصغى في تلك الليلة إلى صلواتنـا وحنيننا إلى اشراق الشمس ولقدوم النهار، لاحترق في داخله، كما تحرقنا شوقـاً لرؤية القدس، فلقد تمددنا على صخـور قــاسيـة، مثلما فعل يعقـوب في الاصحـــاح الثـامن والعشرين من سفـر التكوين، وكـانت العقـارب رفـاقنا في تلك الليلة، مثلما كـانت فراخ النعـام رفاق أيوب (أيوب:٣/ ٢٩)، وفي الحقيقـة، إنه بسبب كثـرة حشود العقـارب، من اللائق أن يطلق على هذا المكان اسم تلة العقارب، مثلما ورد ذكـر ذلك في الاصحاح الخامس عشر مـن سفر يشـوع، لكن قسـاوة الصخور ولدغ العقـارب كـانت لطيفـة، وجعلت

حلوة، بالحلاوة الفائقة للقدس نفسها، المتربعة على قمم تلك الجبال، والناشرة لحلاوتها، جاعلة إياهم يقطرون حلاوة، ويفيضون بالعسل والحليب، علاوة على ذلك، طردت ذكريات ماجرى صنيعه فوق هذه الجبال المقدسة، جميع السموم منا، وجعلت قساوتهم نعومة بالنسبة لنا.

فعلى هذه الجبال سكن المكابيون بعد تدنيس الهيكل يأكلون الأعشاب بدلاً عن الطعام، بين الحيوانات المتوحشة (مكابيون:٢/ ٥/ ٢٧)، وابنة يافث، عندما كانت على وشك أن تموت بسبب نذر أبيها، طلبت منه ليس أكثر ممايلي، هو أن تترك لوحدها لمدة شهرين قبل موتها، لكي تصعد إلى جبال بني اسرائيل وتنزل منها مع رفقتها، وأن تندب عذريتها، ذلك أنها اعتقدت أنها سوف تتحمل آلام الموت بسهولة أعظم، لو أنه سمح لها بتسلق هذه الجبال المقدسة قبل أن تموت (القضاة:١١/ ٣٧)، وموسى أيضاً، الذي كان صديقاً للرب، طلب أن تكون جائزته، هو أن يسمح له برؤية هذه الجبال من حيث وقف في مناطق ماوراء الأردن (العدد:٣٤) والعذراء مريم المباركة، جعلت هذه الجبال بحجها، جبالاً مقدسة بشكل خاص، وقد تقدسوا بذلك، وعن ذلك نقرأ نحن الحجاج في الاصحاح الأول من انجيل القديس لوقا:«مريم...ذهبت بسرعة إلى الجبال» (لوقا:١/ ٣٩)، وعلى هذه الجبال اعتاد مولانا المسيح على إمضاء الليل في الصلاة، وبذلك منحهم القداسة، وخدمت هذه الجبال في القديم البطارقة. فكانت بالنسبة لهم بمثابة سور ضد الكفار، ولهذا جاء مكتوباً في الاصحاح السابع من سفر يودث:«لايعتمد بنو اسرائيل في الدفاع عن أنفسهم على قسيهم، ولاعلى الرماح، بل على الجبال التي تحميهم، وعلى التلال التي تقف أمامهم، فهذه تتولى الدفاع عنهم»، ولهذا لم يرغب الكفار بالقتال معهم على الجبال، بل قالوا:«دعونا ننهزم من اسرائيل، لأن أربابهم أرباب التلال»، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الأول:٢٠/ ٢٣، وكان

عذباً أن نقيم مؤقتا فوق هذه الجبال، وأعتقد أنه حولنا وحول حجاج المسيح الآخرين، صنعت نبوءة حزقيال منذ زمن طويل مضى حيث فيها وعد هذه الجبال بقوله:«ياجبال اسرائيل اسمعي كلمة السيد الرب... أنا جالب عليكم سيفاً وأبيد مرتفعاتكم» (حزقيال:٦/ ٢-٤)، وفي الاصحاح الخامس والستين من إشعيا قوله:«بل أخرج من يعقوب نسلاً، ومن يهوذا وارثا لجبالي» (اشعيا:٦٥/ ٩)، هذا وتتألف هذه الجبال مع بعضها من صخور عظيمة، وشعاب عالية، ذات صخور قاسية جداً، ومع ذلك بدوا ناعمين بالنسبة لنا، فقد جاء بالمزمور قوله:« صخورك مرضية لعبيدك»، ومثل ذلك صنع أيوب (أيوب:٥/ ٢٣) عهداً مع صخور ذلك المكان، وسكن في مكان الصخور (أيوب:٨)، وكان ذلك بسبب أن الرب عمل حدود الأرض المقدسة من حجارة مرضية.(اشعيا:٣٦/ ١٢).

ولقد احتضنا الصخرة نفسها، كما فعل أيوب (٢٤/ ٨)، لابل أكثر من هذا، لقد عرفت بعض الحجاج الذين أحبوا الأرض المقدسة، كانوا يداومون ليلاً ونهاراً على الانحناء بأنفسهم نحو الأرض، ويقبلونها أجمل القبل، وكانوا على استعداد لعبادة الحجارة نفسها، على أنها آثار مقدسة، وهذه الحجارة قد اختارها المسيح لمساعدته في عمل خلاصنا، ذلك أن الحمل به جرى في كهف حجري، وولد تحت الصخرة والحجر، ومدد فوق حجر عندما ولد، ووعظ وهو واقف على حجر، وصلى ثلاث مرات في كهف في صخرة حجرية، وكان قد جلد إلى جانب عمود من حجارة، ووقف على حجرة لتسلم تاجه، ووقف على حجرة أمام بيلا يطس قاضيه، وجرى صلبه فوق حجر، ومسح بالدهون فوق حجر، ودفن في حجر، وصعد إلى السماء من على حجر، وباختصار، لقد أكمل بوساطة حجارة جميع أسرار خلاصنا، ولهذا كان أن تصدعت الصخور الحجرية أثناء آلامه، فلماذا بعد هذا لايستريح المسيحيون بسرور فوق

هذه الصخور المقدسة، أكثر من استراحتهم فوق أنعم فراش؟ ومن الذي لن يجد الصخور والحجارة حلوة، التي لمست بقدمي الرب يسوع، والعذراء مريم، والبطارقة، والأنبياء، والرسل، والقديسين الذين يفوقون العدد؟.

وأوقظنا في اليوم الثاني عشر قبل شروق الشمس، وامتطينا حميرنا، ومضينا مسافرين عبر الجبال المقدسة، وبعدما تسلقنا عدة تلال، ونزلنا إلى عدد من الوديان، هاهو النهار المنتظر قد بدأ بالظهور، وصارت قبة السماء أكثر بياضاً في الشرق، ولمع القمر من هناك، وبدت الشمس تظهر فوق قمم الجبال، ونشرت أشعتها فوق الأرض، ومع ذلك كنا مانزال بعيدين عن القدس، وارتحلنا عبر ممرات وعرة، ورأينا فقط أرضاً قاسية وصخرية، ولهذا شرع بعض الفرسان الذين صدموا لدى رؤيتهم وعورة الأرض يقولون لي:«ماالذي أخبرنا به كهنتنا؟ وما الذي وعظ به وعاظنا؟ فلقد قالوا بأن هذه البلاد أفضل البلدان جميعاً، لكن انظروا كم هو وعر الطريق، وكم هي جرداء الجبال، فلماذا اختار الرب يسوع السكن في هذه البلاد، التي هي غير مفلوحة، ومحترقة بأشعة الشمس»؟.

وفي الوقت الذي كانوا يتكلمون هكذا، بدأ حاجان بالخصام بشكل حاد، حتى بات من الصعب فصلهما عن بعضهما، ولو طال هذا الخصام أكثر، لوصلا إلى الضرب، فقد تشاجرا بشكل حاد جداً، وكانا معاً علمانيين خالصين، أولهما بليد جداً، والآخر بارع، فالبليد تشكى بمرارة ضد الأرض المقدسة، ووقف البارع ضده، وقال بأنها أفضل البلدان، وعلى كل حال، قلت لنفسي بشكل سري في قلبي:«هل ياترى هذه هي الأرض التي قيل بأنها تتدفق بالعسل والحليب، وأنا لاأرى أمامي حقلاً ينتج خبزاً، ولاكرما لينتج خمراً، ولامروجاً خضراء، ولاحدائق، عجباً إنها كلها وعرة، أحرقتها الشمس، وجرداء»، وبينما كنت أردد في قرارة

نفسي هذا الكلام بشكل سري، لم يمض طويل وقت حتى جاء الجواب إليها، وهو: إن أسباب هذاالجدب، والجفاف، والوعورة، نتيجة للعنة التي أنزلها الله عليها، بسبب خرق وصاياه، وهكذا نقرأ في سفر التثنية:٢٨/ ٢٣ «وتكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً والأرض التي تحتك حديداً»، فضلاً عن هذا إن تذمرنا وخيبتنا مع الأرض المقدسة، قد جرى الحديث عنها منذ عدة آلاف سنين مضت وذلك حسبما نقرأ في سفر التثنية: الاصحاح ٢٩: «فيقول الجيل الأخير بنوكم الذين يقومون بعدكم، والأجنبي الذي يأتي من أرض بعيدة، حين يرون ضربات تلك الأرض وأمراضها الذي يمرضها بها الرب كبريت وملح، كل أرضها حريق لاتزرع ولاتنبت ولايطلع فيها عشب ما، كإنقلاب سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم التي قلبها الرب بغضبه وسخطه، ويقول جميع الأمم لماذا فعل الرب هكذا بهذه الأرض. لماذا حمو هذا الغضب العظيم. فيقولون لأنهم تركوا عهد الرب إله آبائهم الذي قطعه معهم»(٢٢—٢٥).

وواضح من هذا أن الأرض في الوضع الذي هددت فيه في الكتابات المقدسة، لم تكن دوماً هكذا، كما يمكننا رؤية ذلك بأعيننا، لأننا رأينا خلال هذه الجبال المهجورة، أسواراً غاية بالقدم، بنيت من حجارة عظيمة، حيث من المعتقد أنها قد بنيت من قبل بني اسرائيل، وقد حصلوا على الزيت، والقمح، وكل حاجيات الحياة من أعلى هذه الجبال وأكثرها حجارة، حتى في هذه الأيام، وعلى الرغم من كفر وشرور السكان في هذه البلاد، جميع حاجيات الحياة تنمو هناك بكميات وافرة، لأننا رأينا على منحدرات الجبال بين الأسوار القديمة، كروماً، وزيتوناً، وقمحاً، وشعيراً، ونباتاتاً أخرى نامية هناك، علاوة على ذلك، حتى وان كانت البلاد محررة من اللعنة المتقدم ذكرها، لابد أنها ستبقى قاسية وجرداء، لأنه لايوجد من يفلحها، سوى عدد ضئيل، وهم رجال سوء،

وكفار، وكل من ينظر عن قرب ويدقق في الكتابات المقدسة، سوف يحاجج بأن هذه البلاد فائقة الخصوبة، وليست قاحلة، وقرر —على كل حال— القديس جيروم بأي منطق ينبغي أن نفهم بأن هذه البلاد تفيض بالحليب والعسل، فقد جاء ذلك في رسالته إلى داردانوس -Dar danus حيث بين أننا ينبغي أن نقدر أن هذه الأماديح الفائقة يتوجب فهمها على أنها تشير إلى مملكة السماء.

ودخلنا في الوقت نفسه إلى واد واسع نسبياً، فيه حقول مزروعة، وكان مطوقاً من كل جانب بهضاب مرتفعة، ومزينة بأشجار الزيتون، وكان على جانبنا الأيسر جبال أفرايم، التي يشكل جبل شيلوه الجزء الأمامي منها، ويبدو أن قمة هذا الجبل هي الأعلى بين قمم جبال تلك البلاد، وقام فيما مضى على جبل شيلوه هذا مدينة جليلة، حيث أقام تابوه الرب هناك لمدة طويلة، ذلك أنه جلب إلى هناك من قبل يشوع من الجلجال، وهنا حملت حنه بصموئيل، استجابة لصلاتها، وهنا أيضاً فرض الكاهنان الشريران حفني وفينحاس مكوساً ثقيلة على الشعب، وذلك حسبما ورد مكتوباً في الاصحاح الثاني من سفر صموئيل الأول، وهنا سمع النبي صموئيل للمرة الأولى الرب يتكلم إليه، وسقط عالي، الكاهن الأعلى من على كرسيه، وذلك كما ورد مدوناً في الاصحاحين الثالث والرابع من سفر صموئيل الأول، وهنا اعتاد بنو اسرائيل جميعاً على القدوم لعبادة الرب، وكان ذلك قبل بناء هيكل القدس، وحدث أنه بسبب ذنوب الكهنة، جرى الاستيلاء على تابوه الرب، وقتل الكهنة، وتهديم شيلوه، وإزالتها تماماً، ولذلك عندما تنبأ إرميا بخراب القدس قال:«سوف أجعل هذا البيت كشيلوه» (إرميا:٢٦/ ٦)، ومن أجل هذه الكلمات جرى اعتقال إرميا، وإلقائه بالسجن، بسبب أن شيلوه جرى تدميرها، وفي شيلوه دفن النبي صموئيل، ولذلك أطلق عليها اسم «مكان صموئيل المقدس»، حتى هذا اليوم، ولربما قد جلب جسده إلى

هنا من الرامة حيث كان دفن (صموئيل الأول: ٢٥/ ١) هذا وجاءنا خبر من عند جيروم في كتابه «Confutation of vigilantius» أنه في أيام الامبراطور أركاديوس Arcadius، جرى نقل عظام صموئيل المبارك من اليهودية إلى تراقيا، في وعاء ذهبي وهو ملفوف بالحرير، واجتمع حشد كبير من الناس لمشاهدة عملية النقل، فقد تقاطر الناس من فلسطين إلى العراق، وجرى استقبال هذه الآثار بسرور عظيم، وكأن الاستقبال لصموئيل نفسه حياً، وغنى الناس بصوت واحد الشكر للمسيح.

وكان فيما مضى عند سفح هذا الجبل مدينة جبعه، حيث جرى قتل زوجة اللاوي التي هي من بيت لحم، من خلال زنى أهل جبعه، وانتقاماً لذلك تمّ قتل آلافاً كثيرة بالسيف، ودُمّر سبط بنيامين كله تقريباً (القضاة:١٩)، وصعدنا فوق طريق وعر خارج الوادي، وكان ذلك فوق الرابية نحو شيلوه لأن الوادي كان ضيقاً جداً، لم يستوعبنا، ولم نكن بعيدين من شيلوه، بل فوق الأرض المرتفعة إلى جانبها، ومع هذا لم يرغب أدلاؤنا بأخذنا إلى هناك، لأنهم كانوا مسرعين يريدون الوصول إلى القدس، بأقصى مايمكن من سرعة، خشية أن يعانوا، فيما بعد، أثناء النهار من حرارة الشمس، وفيما مضى من أيام، كان الحجاج يقادون دوماً إلى شيلوه، وبعد صعودهم إلى هناك، كانوا من ذلك المكان يرون مدينة القدس ويبتهجون، ولذلك كان اسم هذا المكان «بهجة الحجاج» (جبل البهجة)، وعندما كنا أثناء سيرنا على جانب شيلوه، رأينا خرائب كثيرة لأسوار قديمة وكنائس، مابرحت قائمة على حافة الرابية حتى هذا اليوم، وتطلعنا بأعيننا نحو الشرق، فرأينا الجبل المقدس، والجبل المجيد، الذي هو جبل الزيتون، وكنيسة الصعود على قمته، ومع ذلك لم نستطع رؤية المدينة المقدسة، مع أنها كانت إلينا أقرب من جبل الزيتون، وعندما رأينا ذلك الجبل الأكثر قداسة قفزنا من على

ظهــور حميرنا، وصلينا نحـو الجبـل بتقـوى وسرور، لأن مشهــد هذه الأماكن المقدسة عن بعد يبهج النفوس بشكل رائع للناس الأتقياء.

وخلفنا بعـــد هذا شيلـوه وراءنا، وفيما نحن على طريقنـا وصلنا إلى قلعة، هـي قلعة عمواس المقـدسة، وهي التـي تبعد عن القـدس حوالي ستين غلوة، وذلك حسبما ذكـر القديـس لوقا في الاصحـاح الأخير من انجيله، وتساوي هذه المسـافة سبعة أميـال ايطالية، وميلاً ألمانيـا واحداً ونصف الميل، ذلـك أن ثلاث غلوات تســاوي سبعـة آلاف وخمسمائـة خطوة، وترجلنا قـرب هذه القلعـــة من على ظهـور حميرنا، ومضينا من خـلال سور حجـري جاف إلى المكان الذي كـان يقوم فيـه النزل الذي استقبل الرب يسـوع، وحوارييـه: لوقـا وكليوباس، وكـان ذلك في يوم قيـامة ربنا، عندمـا ذهب على شكل حـاج، فألزمـاه بالبقاء معهما، وقـد عرفاه عندما كسر الخبز.

وقبلنا هذا المكان بتقـوى عـارمـة، وتلقينا مغفـرة(+)، واعلمـوا أيها الحجاج، أنه هنـا توجد أول خطوات الرب يسوع، وأمـاكن سيره، التي ستجـدونها جديرة بالتقبيل، ومن أجـل التهدئـة والسكينة جرى إعـداد هذا المكان بشكـل مناسب من قبل القـــدرة الـربانيـــة، حيث أن الحاج التعيس، الذي هدّه التعب وهو مسرع نحـو القـدس سـوف يتقـابل مع ذلك الحاج الـرائع، أي ربنا، وهو قـــادم من هنـاك، وهو الذي إليـــه قيل:«أأنتت وحدك غريب وحاج في القدس»؟، ومن أجل انعاشه ينبغي أن يرى أولاً وقبل كل شيء الخطوات الأكثر قداسة وسعادة التي عملها جســد الرب بعـد تمجيـده، فبعـد أن ينتعش برؤيتهم ويطمئن يمكن أن يكون قـادراً في القدس على اتبـاع خطواته المقـدسـة في آلامه البغيضـة، وذلك حسبما طلب بطرس منا أن نفعل، في الاصحاح الثاني من رسالته الأولى، حيث قـال:«المسيح أيضاً تألم لأجلنا تاركـاً لنا مثالاً لكي تتبعـوا خطواته»، وفي هذا المكان جعل قلبي حوارييه يتحرقان في داخلهما، وقام

بكسر الخبـز وأعطاه لهما، الأمـر الذي قـال عنه بعض الحكماء، بأن ذلك كـان القـــربان الذي احتفل به هناك للمـرة الأخيرة، وعــاد سريعـاً إلى القدس، وفي الحقيقـة يقول بعضهم بأن هـذين الحواريين كانا قـد غادرا القـدس وافترقا عن الحواريين الآخـرين، ونويا على عـدم العودة ثانيـة، غير أنه جعلهما هناك يعـودان ثانية، وهكذا عـادا في السـاعة نفسهـا إلى القدس.

وكـانت عمـواس في أيام المسيح بلـدة جميلة وغنيـة، وقـد تعـرضت للدمار، عندما جرى تدمير القـدس نفسها، وقد أعيدت عمارتها فيما بعد من قبل ماركـوس كورنيليوس، وأطلق عليها اسم نيقوبـولس، وقد قام يوليوس أفريكانوس بسفـارة من أجل إعادة عمارتها، وذلك حسبما قرأنا في «كتاب الرجال المشهورين» لجيروم، وقـد دمرها المسلمون الآن دماراً كليـاً، ولاسيما كنيسة نزل المسيح، التي من الممكن التعـرف إلى خرائبهـا من خلال أساساتها، ومايزال قائماً فيها حتى الآن خرائب بيوت مقنطرة عالية، وقليل من الناس هم الذين يسكنون هناك.

وبعـدمـــا رأينا هذا المكان المقـدس، تابعنـا السير على طريقنا، ورأينا خرائب العديد من البيع والكنـائس على التلال، وذلك أثناء سيرنا فوق المنطقـة الجبليـة، ثم نزلنا مـن المنطقـة المرتفعـة إلى واد وقع عبر طريقنا، وهو ممتد من الشمال إلى الجنوب، وكان علينـا نحن القادمين من الغرب والمتجهين نحـــو الشرق، عبـوره، وكـــان هذا وادي Elah ،أو وادي البطم، حيث غلب داوود هنـاك جـالوت وقتلـه بحجـرة اختـــارها من أرض الجدول، وقطع رأسـه وجلبه إلى القدس (صمـوئيل الأول: ١٧) ووقفنـا في وسـط هـذا الـــوادي، وتفحصنـا وضـع الأرض، وهـو واد خصب، ويوجد فيه في هذه الأيام كثيراً من أشجار البطم، وهذه أشجار جميلة، تنمو بشكل رئيسي في سورية، ومنها يخرج صمغ، وأشجار البطم على نوعين، أي ذكـر وانثى، وعلى هـذا يحملون نوعين من الثمار، حيث

تحمل الأشجـار المذكـرة ثماراً حمراء بحجم حبـات العـدس الصغيرة، وغـالبـاً مـارأيت كثيراً من هـذا النوع من الأشجـار، وتحمل الأشجـار المؤنثـة ثماراً ألوانها باهتـة بحجم الفول، ويستخـرج من هذه الثمار زيتـاً جيداً، وطيب الطعم.

كيف رأى الحجاج القدس المدينة المقدسة وكيف دخلوا إلى القدس تلك المدينة الأعظم حلاوة

كان السبب الرئيسي وراء رحـلاتنا هو مدينة القدس الأكثـر حلاوة، التي انتشر شذاها فعم آفاق العـالم، فجعل المؤمنين يسعون إلى هناك من كل جـانب، وهكذا تسلقنا وادي البطم، وقطعناه، وتوقفنا عن الذهاب نحو الشرق، وصعـدنا حواف رابية بـاتجاه الجنوب، ووصلنا إلى حدائق أشجار مثمـرة، وخضراوات، وتين، وكان ذلك أثناء سيرنـا بين جدران من الحجـارة الجافـة، وألقينا بأعيننا نحـو اليمين، وياللهـول، لمعت مثل ضـوء البرق، المدينة المذكـورة دومـا، والتي ستـذكـر دومـاً، إنها مـدينة القدس المقـدسة، قد أشرقت أنوارها، وكـان الجزء الذي رأيناه منها هو المتصل بجبل صهيـون، ورأينا جبـل صهيـون المقـدس نفسـه، مع جميع أبنيته وخـرائبه، وقبل كل شيء رأينا قلعة صهيـون، وهي محصنة بأسوار على درجـة عاليـة من القـوة، وبأبراج، وبدت الأسـوار العـالية القـوية والأبراج العائـدة للقلعة بوضـوح وكأنها تحيط بالمدينة كلهـا، والحجاج، أو الغـرباء، الذين لم يروا القـدس من قبل لم يكن بإمكانهم إلاّ أن يظنوا أن أسوار قلعـة صهيون تلك كـانت هي أسوار القـدس، الأمر الذي لم يكن كـذلك، وعندمـا رأينا بـأعيننا المدينة المقـدسـة التي تشـوقنا إليهـا طويلاً، ترجلنا على الفور من على ظهور حميرنـا، وتوجهنا بوجوهنا نحو الأرض، ووجهنا التحيـة أولاً إلى ملكهـا، الذي هو المولى الرب، وكـان ذلك برسم علامة الصليب، ثم خاطبناها بهذه الكلمات، أو بكلمات مثل هذه:

«مـرحباً ياقـدس، وحييت يا مدينة الملك العظيم، مجد الأرض كلهـا وتاجهـا، بهجـة نفـوس المؤمنين وسرورهم، ياقـدس، ياقـدس، انهضي، ارفعي عينيك، وانظـري من حـولك، وأبصري جميع هؤلاء الحجـاج، أولادك الذين قـدمـوا معـا من أقصى أجـزاء الدنيـا، والذين مـابرحـوا يقدمون في حشـود، علهم يرون سناء بريقك، ومجد الرب قائم فوقك»، وذلك كما قال النبي إشعيا—الاصحـاح:٤٠، ومثلما مدحك طوبيا بهذه الكلمات:«سـوف تشعين مجداً مع ضيـاء، وكل طرف من أطراف الدنيـا سوف يتعبـدك، وكل الأمم سوف تأتي من بعيد، جالبـة الهدايا، وسوف تعبد ربك»(طوبيا:١٣).

ومثل هذا فعل القـديس برنارد في الاصحـاح الخامس من قـداسـه لفـرسـان الداوية حيث قـدم التحيـة لمدينـة القـدس الأعظم مجداً بهذه الكلمات فقال:«حييت أيتها المدينة المقـدسة، التي قدسك الأعظم علواً، وجعلك مثل خيمة عهـد له، حتى يمكن فيك ومن خـلالك انقاذ جيل عظيم، حييت يامـدينة الملك العظيم، الذي منذ البداية المغـرقة بالقـدم، وهو يطلب أن يجعل العـالم مسروراً، حييت ياسيدة الأمم، أيتهـا الأولى بين البلدان، ياموطن البطارقة، ويـاأم الأنبياء والرسل، ويا ينبوع الايمان، ويامجد شعب المسيح، الرب الذي عـانى دوماً وتعـرض لأن يهاجم منذ البداية، من أجل أن تكوني للرجال الشجعان وسيلة لاظهار شجاعتهم، ولربح خـلاصهم كاملاً، حييـت أيتها المدينة الرئيسيـة في أرض الميعاد، والتي فـاضت في الـزمن القـديم بالحليب والعسل، فقـط للذين سكنوا فيهـا، والتي تعطي الآن إلى العـالم كله وسائـل الخلاص، وخبز الحيـاة، أيتهـا الجيـدة، أنت الأفضل في البـلاد، فأنت التي تلقيت في صـدرك الخصب جداً، الحبـة المقدسة من التـابوه، قلب الأب، وأنجبت وقدمت حصاداً لامثيل له من الشهداء من تلك البذرة السماوية، وثمرة صحيحة من تربتك الخصبة، في جميع أنواع الشعوب المؤمنة الأخرى، ستين ومائة

ضعف، في جميع أنحاء الأرض، ولهذا فإن جميع الذين شاهدوك، امتلأوا بوافـر من حـلاوتك، وشبعـوا بثـراء عظيم بذكـرى فيضك العظيم، وتدفقوا ببهجتك، تراهم يتحـدثون عن عظمة مجدك إلى الذين لم يروك، وينشرون ذلك حتى أقصى أجزاء الأرض، ويصفون الروائع التي فيك، وكثيراً من الأشيـاء الرائعـة قد قيلت عنك يامـدينة الرب، وعلى الفـور سـوف نتـذوق نحن الذين قـدمنا من الغـرب، البهجـة الموجـودة فيك والتي تتـدفـق منك، وعندمـا رأيناك ذابت أرواحنـا وتبـددت في فيض بهجتك وإشراقك».

وعندما فرغنا من صلواتنا، امتطينا ظهور حميرنا، وعيوننا قد امتلأت بالدمـوع، ووجـوهنا بالبشر والسرور، وشرع الكهنة والرهبـان الذين كـانوا بيننا يغنون te deum Laudamus لكن بصـوت منخفض وخافت، حتى لانغضب حرسنا، الـذين قد يثير غناء نشوتنا غضبهم إذا مـا غنينا بصـوت مرتفع وواضح، وعليـه غنينا بصـوت مـرتفع فقط في قرارة نفوسنا، لأن النشوة التي شعرنا بها بداخلنا كانت عميقة وعظيمة، وقـد تجاوزت كل الكلمات التي يمكن التعبير بها، ولم تنبع هذه النشـوة من الآلام بل من العقـل، وليس من حضـور هدف مـرغـوب، بل من شيء يستحق الحب لأنـه ثمين: ولم يكن السرور هـو الذي يقـود إلى الجواز بل إلى الجدّية، التي لاتحرك الانسـان للضحك بل للتنهـد، والتي لاتهز الجسـد، بل تحنـي الأطراف، ولاتوسع فتحـة الفـم للضحك بل بالحري تجعل الوجه مربداً، يبكـي كله، وكله دموع، ولاتقود إلى الكلام بل إلى الصمت، ولاتدفع الانسان نحو الأمام بين الناس، بل بالحري إلى الانزواء هادئـاً، ولاتجعل الانسـان يصرخ بصـوت مـرتفع، بل بالحري تجعله يصلي بداخله بأغاني المزامير.

وبهذا الوضع الصـامت والسرور الـداخلي وصلنا إلى آخـر الحقـول، حيث وقف ربشـاقي وشتم الرب، وهو حـامل ضـد الذين وقفـوا على

أسوار القـدس (الملوك الثاني:١٨/ ١٧.إشعيـا:٣٦) وفي هذا الحقل وإلى جـانـب القلعـة التي بناهـا السلطان، ترجلنا من على ظهـــور حميرنا، وأعطيناهم إلى سـائقيهم، وأخذنا جعبنا، ومشينا إثنين، إثنين نحـو باب التجـار، أو باب السمك ونحن نصلي بصمت، وأيدينا موضـوعة فـوق صـدورنا، وقـام بعض الحجاج، صـدوراً عن التقـوى، بخلع أحـذيتهم ورميهـا جانبـاً، ومشى بعضهم بأقـدام عـارية، ذلك أننا كنا في الأرض المقـدسـة، وكنا بذلك نمجـد الخطوات الرائعـة لربنا، وللعـذراء مـريم المباركة ولقديسي العهد القديم والعهد الجديد.

وعندما وصلنـا إلى الباب الذي اسمه بـاب داوود، وباب التجار، أو باب السمك عبرنا خـلاله برؤوس مطأطأة، لأننا بهذا العبـور وعلى هذا الشكل حصلنا على غفران دائم (++)، ومضينا من البـاب وسرنا خلال الشـارع الطويل، ووصلنا إلى كنيسـة مغلقـة عظيمـة،وعندمـا كنا جميعـا واقفين في الساحة، اعتلى واحد من رهبان دير جبل صهيون مكاناً عالياً، وخاطبنا قـائلاً بأن هذه كـانت أكثر الكنائـس قداسة، وهي متعبـدة من قبل العـــالم أجمع، ففيهـــا راقـــد أعظم الكنوز قيمـــة بالنسبـــة إلى جميع المسيحيين، وهو ضريح ربنـا، وعندمـا سمعنـا هذا ألقينا بأنفسنا نحـــو الأسفل في السـاحـة، أمام باب الكنيسـة، وصلينا وقبلنا الأرض نفسهـا مـــراراً كثيرة، ومن المؤكـــد أنه بدا إلى الحجـــاج، وهم متمـــددون على الأرض أن الفضيلة كـانت تصـدر من الأرض نفسهـا، وبذلك ازدادت مشاعرهم أكثر واندفعوا للمزيد من الصلوات.

أيها المولى الرب، كم هـو عـــذب يمكن أن يكون تقبيـل فمك، ذلك أننا، ولم نستطع تقبيل قـدميك، وفقط قـدرنـا أن نقبل مكان خطواتك، فشعـرنا بعذوبة ألانت قلوبنا، آه يـاأخي لوكنت معي في تلك السـاحـة، أثناء تلك الساعة، لرأيت دموعـاً كثيرة منهمرة، ولسمعت تنهدات قلبية مريرة، ونحيبـاً شجياً، وانفعالات عميقة، وحزنا حقيقيـاً، وبكاء صادراً

من داخل الصدر، وصمتاً كله سلام وسرور، فلوملكت قلباً من حجر لذاب، ولانفجرت بفيض من الدموع مع الحجاج الذين كانوا ينتحبون، فلقد رأيت هناك بعض الحجاج وقد تمددوا على الأرض بلاحراك ولاقدرة، تخلت عنهم قواهم، وكأنهم قد نسوا أنفسهم بسبب انفعالاتهم التقوية الفائقة، ورأيت آخرين يتنقلون من زاوية إلى زاوية، ومن هنا إلى هناك، وهم يضربون صدورهم، وكأنهم قد دفعوا بروح شريرة، وجثا بعضهم على الأرض بركب عارية، وصلوا بدموع، ورفعوا أذرعتهم وشبكوها على شكل صليب، وكان بعضهم يرتجف ويهتز بتنهدات عنيفة إلى حد أنه لم يكن بإمكانهم تمالك أنفسهم والوقوف على أرجلهم، ولذلك أرغموا على الجلوس، وقد أمسكوا رؤوسهم بأيديهم، حتى يمكنهم تحمل تنهداتهم الكثيفة، وتمدد بعضهم على طولهم على الأرض لمدة طويلة بلاحراك، حتى بدوا كأنهم أموات، وكان أكثر من الجميع وفوقهم كلهم مرافقونا، وأخواتنا النساء من الحجاج حيث صرخن وكأنهن في آلام المخاض، ورفعن أصواتهن عالياً وبكين، وفقد بعض الحجاج، لشدة وجدهم وانفعالات تقواهم، السيطرة على أنفسهم، ونسوا كيف عليهم أن يتصرفوا، وصدوراً عن شدة حرصهم لإرضاء الرب قاموا بحركات صبيانية وغريبة.

وكان بالحقيقة ممتعاً أن تنظر إلى التصرفات المخلصة جداً، وفي الوقت نفسه، المتنوعة للحجاج، وهم يصلون في الأماكن المقدسة، وهي الأماكن التي تمتلك قوة مدهشة في جعل الانسان يبكي، والناس يتنهدون، مع أنهم في مكان آخر من غير الممكن إثارتهم بأي كلام، أو نصيحة، أو نص من الكتابات المقدسة، أو بأي صورة، أو نقش، أومثل، أو وعد، أو تهديد أو ازدهار، أو انتكاسة، ومع هذا، إنه كقاعدة، لانجد جميع الذين يزورون الأماكن المقدسة، لاينفعلون إلى هذا الحد، بل يتحركون فقط نحو اظهار للتعبد والتقوى بشكل غير اعتيادي، فلقد

رأيت بعضهم — وبودي أنني لم أرهم— كانت مشاعرهم قد تحركت هنا باتجاه معاكس لتصرفات التقاة والمؤمنين الجيدين، فلقد رأيت خلال أعمال التعبد والتقوى المتقدمة الوصف التي صدرت عن الحجاج، بعض الحجاج البليدين، والذين لانفع بهم، لابل هم بالحري بهائم متوحشة، ليست فيهم روح الرب، فهؤلاء وقفوا يبتسمون بسخرية نحو الصلوات، والدموع، والتمدد على الأرض، وضرب الصدور، وما شابه ذلك، ممافعله البقية، والذي هو حتى أكثر إدانة وخبثاً هو أن هؤلاء الرجال المتوحشين، والمحرومين من رؤية كل أنواع التقوى، والفارغين من أية مشاعر دينية، والممتلئين بكل النجاسات، أنهم كانوا ينظرون إلى الأناس الأتقياء على أنهم حمقى، ومرائين، ومنافقين، وغشاشين، ومرضى بعقولهم، ولهذا كانوا يعاملونهم بازدراء، ويتأبون من التحادث معهم، ويستخفون بهم، ويسمونهم مجانين، ومرائين، ومنافقين.

آه كم هو غير نافع وملعون الحج بالنسبة لمثل هؤلاء الناس، الذين يضحكون في مثل هذه الأماكن المقدسة، ويستخفون بالرجال المقدسين ويسيئون النظرة إلى تصرفاتهم، فمثل هؤلاء الناس أسوأ من المسلمين، أو من اليهود، مع أن هؤلاء لم يستخفوا قط بأي مسيحي أخذ نفسه بالتقوى، ذلك أننا عندما قدمنا إلى هذه الساحة المقدسة، ركض عدد كبير من الصبيان المسلمين هناك، ليضحكوا علينا، لكنهم عندما رأوا عمق اخلاص الحجاج وتقواهم، ذهبوا بعيداً، وبقي بعضهم وبكوا معنا، وتلقينا في هذه الساحة غفرانات مطلقة (++).

ونهضنا — بعدما أكملنا صلواتنا وأنهيناها — من على الأرض، وصعدنا نحو باب الكنيسة، حيث نظرنا من خلال الفتحات، التي يمر الطعام من خلالها بالعادة إلى الأوصياء على الضريح المقدس، المقفول عليهم هناك، ورأينا قائماً في وسط الكنيسة، بيعة الضريح الأعظم قداسة العائد لربنا، والطريق الصاعد نحو جبل أكرا (الجمجمة)، وانتشينا من

جديد بالمشاعر التقوية، وهناك علامة مرسومة على الأرضية الرخامية، تشير إلى المكان المقدس، الذي وقع فيه الرب يسوع، عندما كان حاملاً للصليب، حيث كان على مقربة من صخرة الجمجمة، ووقتها سقط على الأرض تحت الصليب لأنه كان منهكاً، ولقد قبلنا تلك البقعة الفائقة القداسة عدة مرات، وبللنا لطاخة الدم التي كانت عليها بدموع كثيرة، وكانت هذه ثاني آثار أقدام للرب يسوع رأيناها، ويجب ألا يخطر على بالنا، أو أن نظن أن هذه ليست بدون معاني خفية، أي أن نلتقي أولاً مع خطوات المسيح في المجد، وثانياً مع جسده عندما جلد، وعندما كان يحمل الصليب، فهنا يمكننا أن نتعلم بهذا، أن علينا ألاننشد شيئاً ما سوى المجد السماوي، الذي لايمكن لانسان الحصول عليه إلاّ بحمل صليبه.

وعندما فرغنا من صلواتنا هذه، اقتادنا الكاليني خارج الساحة أو الباحة، العائدة للضريح المقدس، وعبرنا الطريق المواجه الساحة، ومن هناك صعدنا إلى مشفى القديس يوحنا، الذي هو بناء مقنطر واسع، مهمل ومهدم، والموجود هو جزء فقط من المشفى القديم، ومكان يشبه قاعات طعام كبيرة لديرة واسعة، حيث عاش عدد كبير من الرهبان، وهنا رتب الحجاج أنفسهم وفقاً لجماعاتهم، واتخذ السادة السوابيون، أي موالي مكاناً في آخر البيت، حيث كان هناك مايشبه القاعة منفصلة عن البقية، وذلك في مكان مغلق جميل ومحترم، وذهب مولاي جون، كونت أوف سولم وجماعته، مع كالينوس الأصغر، إلى بيته، وأقاموا هناك، ولم نؤخذ في حجي الأول إلى المشفى، بل إلى بيت ميلو الكبير، عند سفح جبل صهيون، وهناك أقمنا، كما أننا لم نشاهد المشفى مطلقاً أثناء ذلك الوقت، ولم نعرف بوجود أية آثار باقية من مشفى القديس يوحنا، وعندما تدبر الحجاج إقامتهم هناك، تولى خدمتنا مسلمون، ويهود، ومسيحيون شرقيون، حيث جلبوا لنا خبزاً، وماء، وطعاماً مطبوخاً،

وفـواكـه، وذلك حسبما أخبرتكم من قبـل، ولقـد اشترينا منهم طعـامـاً وأكلناه.

وأرسل الآن الأب المسـؤول عن دير جبل صهيون اثنين من الرهبـان إلى المشفى، وأمـرهما بجلب جميع الأشخاص مـن الطوائف المقدسـة إلى جبل صهيـون، لأن العـادة جرت بأن يسكن جميـع الأشخاص التـابعين للطوائف الدينية، مع الرهبـان الفرنسيسكان على جبل صهيون، وذهبت أنا بين هؤلاء القـوم مـع اثنين من رهبـان طائفتي، أي طائفــة الرهبـان المبشرين، كان أولهما قد جـاء من منطقة جزيرة فرنسـا، وجاء الآخر من نابل في منطقـة صقليـة، وخـرجنا مـن المشفى، وجـرى اقتيـادنا إلى دير الفــرنسيسكان فـوق جبل صهيــون، وجـرت تحيتنـا من قبلهم بلطف واستقبلنا استقبالاً حسناً، وقـد أعطونا ثلاث قلايات لنا أنفسنا، وهكذا أكلنا، وشربنا، ونمنا،وعبــدنا الرب بمصـاحبتهم، وقــد بقيت في تلك القلايـة لأيام كثيرة، بعدما ذهـب الحجاج جميعاً، وتمتعت بهدوء كـامل، وبمعـاملة رائعة صـدرت عن لطف الآباء الفـرنسيسكان ورهبـان جبل صهيون.

زيارتنا للأماكن المقدسة على جبل صهيون ووصفهم

وفي اليوم الثالث عشر، الذي كان الأحد السابع بعد التثليث، وعيد العذراء القـديسة مرغـريت، أرسل الأب المسؤول بعضـا من رهبانه إلى مشفى القـديس يوحنا، ودعـا الحجاج إلى الاحتفـال بقـداس على جبل صهيون، وجـاءوا جميعاً مع هؤلاء الرهبان إلى كنيسـة صهيون، للانتظار هناك حلـول وقت القيــام بقـــداس رفيع، لأن الشمـس أشرقت الآن مبكراً، ومع ذلك لم يكن هو قد استيقظ عندمـا صعد الحجاج إلى هناك، ولكي يظهروا احترامهم للوردات الحجـاج، قام الرهبان بتـزيين السدة، والكنيســة، والمذابح بشكـل جميل، وغطوهم بمعلقــات ثمينة، وأنا لم أشاهد في أي مكان آخـر معلقات ثمينة أكثـر من هذه المعلقات في هذا

المكان، ذلك أنها كانت مطرزة من قبل النساء، عليها رسوم تعرض حياة المسيح وموته، وفي الحقيقة جاء عدد كبير من سادة المسلمين، والأتراك والمماليك من جهات بعيدة، وطلبوا مشاهدة هذه المعلقات، أو الزرابي، وبعدما احتفى الأعيان، والحكام، والقادة في القدس بضيوف الشرف هؤلاء، اقتادوهم إلى جبل صهيون وتوجهوا بالرجاء إلى الرهبان هناك بأن يعرضوا عليهم هذه المصنوعات ويعلقوها لهم.

وصنعت هذه المعلقات لصالح الكنيسة بناء على أوامر فيليب، دوق بيرغندي، الذي قدم منحاً كثيره أضفاها على ذلك الدير، ووقف المذبح العالي وهو مكتظ بأوعية قرابين مذهبة، وبمذاخر، وكان فوق المذبح صورة، حوت رسم القديس فرانسيس، وإلى جانبه قد وقف شفيعنا المقدس، القديس دومينيك، وقد رسمت بشكل جليل تماماً، والكنيسة ليست واسعة، لأنها كانت شطراً فقط من كنيسة جبل صهيون، وفي العصور القديمة، عندما كان الصليبيون يتولون الحكم في البلاد، كانت هناك كنيسة عظيمة في تلك البقعة، قام المسلمون بتدميرها حتى النتوء أو البيعة الملاصقة لسدة الكنيسة على جهة اليمين، وهذا الجزء هو الآن الكنيسة والسدة للرهبان، وماتزال خرائب السدة القديمة والكنيسة مرئية بوضوح حتى الآن، كما سنوضح ذلك فيمايلي:

وعندما أشرقت الشمس، وحل وقت الاحتفال بالقداس، ضرب الحافظ لغرفة المقدسات على لوح خشبي، لأنه لم تكن لديهم نواقيس من أي نوع، كما أنهم لم يفكروا بالحصول عليهم من خلال المسلمين، بل عبرّوا عن حلول موعد العبادات الدينية بالضرب على ألواح خشبية، كما نحن نفعل في يوم الجمعة الحزينة، وبعدما اجتمعنا كلنا في الكنيسة رتلوا تراتيل الأول والثلثي، وبعد الثلثي صعد الأب المسؤول مع مرافقيه إلى دكة القداس العالي، وكانوا يرتدون ثياباً ثمينة، وبدأ قائد جوقة المرتلين يغني بصوت مرتفع احدى أغنيات صهيون:«Spintus

domini replevitâ وساعده جميع الكهنة والقارئين للكتاب من الحجاج، وهكذا غنينا قداس الروح القدس بمهابة بهيجة، وكان هذا القداس موائما للمكان، لأن الروح القدس أرسلت إلى هناك، ونزلت على الرسل، وكانت بشكل مرئي، كما أن التوقيت كان موائماً، لأن اليوم كان هو يوم الأحد السابع بعد التثليث، الذي فيه ورد ذكر الأرغفة السبعة، التي تعني العطايا السبع للروح القدس.

وبعد القداس احتفلنا نحن الكهنة بطقوس القربان على أربعة مذابح، جرى إعدادها لنا، وأعطيت مكاناً في الاحتفال تحت في الأسفل في الرواق المغلق في بيعة القديس توما الرسول، القائمة في المكان الذي فيه قال الرب لتوما:«هات اصبعك إلى هنا» (يوحنا:٢٠/ ٢٧)، وذلك حسبما ورد في الاصحاح العشرين من انجيل القديس يوحنا، وبعد الفراغ من الانجيل في طقوس القداس العالي، استدار الأب المسؤول بنفسه نحو الناس، ووعظهم بموعظة جميلة باللاتينية، مدح فيها الأماكن المقدسة وأثنى على زيارتها التعبدية، وتمت ترجمة هذه الموعظة إلى الألمانية من قبل الأب المبجل بولص غوغلنغر Guglinger، وذلك لصالح الرجال العلمانيين، وكانت الأبواب مغلقة في أثناء القداس، وقد وقف في الخارج عدد كبير من المسلمين والتجار، وصدف في أثناء القداس أن جرى فتح الباب للسماح لأحدهم بالخروج، وعندما رأى المسلمون ذلك اندفعوا بشدة نحو المدخل، ودخلوا إلى الكنيسة، ووقفوا إلى جانب المذبح، وهم ينظرون باستغراب نحو طقوسنا، ومع ذلك لم يظهروا سوء أدب أوسلوكاً، ولم يتعد الأمر الوقوف هناك والاندهاش، وعلى كل حال أوقف الكهنة القداس حتى أخرجوا بوساطة الرهبان، الذين لم يستخدموا القوة أو قاموُا بجرهم، أو تخاصموا معهم، بل أخرجوهم بهدوء، ورجوهم بالذهاب، واثر ذلك تمّ إكمال قداسنا.

فيمايلي:
المسيرة إلى الأماكن المقدسة في جبل صهيون
وأولاها مكان العشاء الأخير

بعد القداس، أعدّ الرهبان الفرنسيسكان العدة من أجل مسيرة مهيبة، فقد ارتدوا ملابسهم المقدسة، ومضوا وهم يحملون معهم صليباً، وأعلاماً، وحاملات شموع، ومذاخر، ومباخر، وماء مقدساً، ولدى سيرنا معهم جميعاً في المسيرة، كان قائد الجوقة رجلاً صاحب صوت قوي، وقد بدأ يغني بشيء من النشوة ترتيلة من أغاني صهيون:

pange lingua gloriosi corporis mysterium ومع هذا الغناء سرنا، وكنا نحن الكهنة في الطليعة، وتبعنا بقية الحجاج، وبقينا هكذا حتى وصلنا إلى السدة ومنها إلى المذبح العالي، الذي من المعتقد أنه قد بني فوق المكان المقدس الذي أكل فيه الرب يسوع العشاء الأخير مع حوارييه، حيث حول الخبز والنبيذ إلى جسده ودمه، وأعطاهما إلى حوارييه للأكل والشرب، وحيث رسمهم كهنة حتى يتولوا أعمال القداسات، ومضينا إلى هذا المكان الفائق القداسة واحداً تلو الآخر، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الموضع تحت المذبح المفرغ من الأسفل، وتلقينا غفرانات مطلقة (++)، وانتبهوا يا خيرة الأحبة، أيها الإخوة الحجاج، هنا البيت، وهنا العلية العليا، وهنا المنضدة حيث أعطيت لكم الأعطية الفائقة القداسة بالخبز من السماء، وخبز الملائكة، الذي وحده لديه القدرة لاشعال الرغبة فينا، وأن يزرع فينا التواضع، وأن يجلب الندم، وأن يعطي الايمان، وأن يبعث الأمل، وأن يمنحنا الدفء حتى نحب، وأن ينهض بنا إلى التبجيل، وأن نذيب التفكير، وأن يسبب أحلى المشاعر، فهذا المكان جدير بأعلى تقدير —تقدير فوق جميع الأماكن المقدسة الأخرى— ذلك أن جميع الأماكن التي أخذنا

إليها، وكـانت على اتصال بالرب، وجـدناها كلها جـديرة بالاحترام، من ذلك الناصرة مثـلاً، التي تلقت حلول الـرب في جسـد مثل أجسـادنا، وبيت لحم التي شهـدت ولادته، والجمجمـة التي أعطتـه الصلب. هذه الأماكن حقاً تستحق الاحترام، لكن هذا المكان يستحق احتراماً أكثر منها جميعاً، وهو فـوقها كلهـا، ففي هذا الموضع جرى العشـاء الرباني الأعظم انقاذاً، فهنا أعطى نفسه ليكون طعـاماً، وجسده ليكون لحماً، ودمه ليكون شراباً، حتى يمكن أن يصبـح طعـامـاً سماوياً وأرضيـا مع بعضهما، لأنه قال:«إن الذي يأكل جسدي ويشرب دمي يحل بي وأنا أحل به».

وإلى جـانب هذه الأسرار التـي تستعصي على الوصـف، أدرج هنا أضحيات وقـرابين نموذجيـة، وختم الشريعة، وشرع قـداساتاً جـديدة، وهنا جعل يوحنا يتمـدد فوق صـدره، كما أكد هنا بأنه عـرف بأن يهوذا الذي سيخـونه، وأخبر هنا مقـدمـا بطرس بسقـوطه، وتنبأ هنا كيف أن حوارييه سـوف يتخلون عنه ويفرون، وهنا وعظ بقداس طويل وعظيم الحلاوة، وودع حوارييه الوداع الأخير، تاركاً السلام معهم.

وهكذا بعـدمـا فعلنا كل مـاعلينا أن نفعله في ذلـك المكان المقـدس بشكل صحيح، حيث غنينـا تراتيل، وقـرأنا مـاهـو معـد للقـراءة «في مسيرات الحجاج في الأرض المقـدسة» رجعنا إلى حيث كنا ونحـن نقدم الحمـد والشكر، وهذه المسيرات هـي كتيبـات صغيرة، فيهـا محدد جميع القصـائـد، والمجـاميع، وعبـارات الترانيم، والتراتيل، والمزامير، أي كل ماينبغي ان يقال أو يغنى في جميع الأماكن المقدسة، وخلال مسيرة أعمال الحج كلهـا فيما وراء البحـار، وحصلت على واحـد من هذه الكتيبـات لنفسي، واستخدمته في الأماكن المقدسة.

غسل الأقدام الذي عمل هناك

وسرنا من ذلك المكان على شكـل رتل قليـلاً نحـو الجزء الأيمن من

السدة، ونحن نغني تراتيل محددة من أجل يوم العشاء الأخير، ووصلنا إلى المكان المقدس، حيث غسل الرب يسوع أقدام حوارييه بعد العشاء، ويوجد هنا مذبح جميل، حيث حنينا أنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات (++)، وأرجوكم أيها الأحبة الحجاج، ألا تتركوا هذا المكان، من دون تأملات متقدمة، ليست أقل من تأملات أي مكان آخر، وانظروا وتفكروا بأهمية الذي صنع هنا وبمعانيه وآثاره، فابن الرب القدير بسبب ربوبيته الدائمة، والقدير بجمال عقل الأب، ابن الرب الذي أرسى قواعد العالم، وجعله جميلاً لينظر إليه، والذي إليه تقدم السموات والنجوم في مساراتها، الولاء، والذي هو كما قال أيوب هزّ الأرض وأخرجها من مكانها، وجعل بذلك الأعمدة ترتجف، هو انحنى نحو الأسفل، وحط من مكانة جلالته السماوية، ففي هذا المكان غسل بيديه أقدام حوارييه القذرة، والملوثة، والموحلة، مع أن هؤلاء كانوا من سوية متدنية: صيادين للسمك، ومذنبين، وخونة، وفعل ذلك حتى يقدم لنا أفضل مثال وأصحه في التواضع.

المكان الذي أنزلت فيه الروح القدس على الحواريين في يوم عيد الحصاد

بدأ بعد هذا قائد الجوقة المقدسة يغني أمتع أغنية بين أغاني صهيون وهي: Veni,creater,pinitus الخ، ولدى غنائه لهذه الأغنية خرجنا من الكنيسة ودخلنا إلى الدير الموجود فوق الرواق المغلق، لأن السدة والكنيسة قد بنيتا فوق سطح غرف أخرى، ولذلك حتى يصل الانسان إلى الكنيسة، عليه أن يصعد على الدرج من كل جانب، وعندما يخرج الانسان من الكنيسة، يمكنه أن يسير على سطح قوس الرواق أو المعبر المسقوف، حول جهات ثلاث للساحة، لأن للرواق ثلاثة أطراف فقط، فالطرف الرابع هو جدار الكنيسة، وهكذا مررنا خلال الكنيسة، ونزلنا من جهة الشرق إلى جهة الغرب، ففي النهاية الغربية للكنيسة

خرجنا منها من باب موجود على الجهة الجنوبية، ومشيناعلى الجانب الأول للرواق، ثم عطفنا أنفسنا نحو الشمال، فوصلنا إلى رأس السدة، حيث صعدنا فوق بعض الأدراج إلى علية أبوابها مغلقة بالحجارة، لأسباب سوف أذكرها على ورقة٢٩٠ظ.

وهذه العلية موجودة عند رأس السدة، ولأن السدة ليس لها نوافذ تطل نحو الشرق، لوجود هذه العلية بالطريق، هي مضاءة من جهة الجنوب فقط، وذهبنا برتل صاعدين فوق الأدراج المتقدمة الذكر، وانحنينا بأنفسنا نصلي أمام الباب الموصد، فهناك تلقينا غفرانات مطلقة(++)، وغنينا ترتيلة كنا قد بدأنا بها بلحن عذب، تردد صداها فوق جبل صهيون كله ومدينة القدس، لأن المكان لم يكن مغلقاً، وقد وقفنا فوق مكان مرتفع ، في الهواء الطلق، وغنينا بسرور فائض، متذكرين أنه في هذا المكان أمطرت السماء بحضور رب سيناء، وبحضور رب اسرائيل وجرى ارسال مطر النعمة ذاك وإنزاله على ميراث المسيح، لأن الروح القدس نزلت على الحواريين بصوت مندفع، وغيرت عقولهم الشهوانية إلى محبة له، وهكذا، في الوقت الذي ظهرت فيه ألسنة اللهب دنيوية ظاهرة، اشتعلت قلوبهم في الداخل باللهب، بسبب أنهم عندما تلقوا الرب بالشكل المرئي للنار، كانت قلوبهم تشتعل بعذوبة بالحب، لأن المسيح، عندما كان على وشك الصعود نحو الأعلى، طلب من حوارييه عدم مغادرة القدس، وأن عليهم الانتظار هناك وعد الأب، ولهذا قدموا إلى هذه العلية وأقاموا فيها وهي مغلقة عليهم، وذلك بسبب الهياج بين اليهود، وجلسوا هناك معزولين، وميتمين، وجاهلين وغير عارفين، ومرعوبين، وممتلئين خوفاً، لكن عندما نزلت الروح القدس عليهم، جلبت إليهم أعظم المواساة عذوبة، وانصبت في عقولهم الحكمة الأوضح، فأعطتهم الشجاعة الأمتن، وهكذا بالمثابرة بالنفس، وبالثبات في النعمة، تسلموا الحكم على العالم.

ولسوف أصف هذا المكان بشكل أوفى، عندما أصل إلى الحديث عن ضريح داوود.

المكان الذي قام فيه القديس توما
وهو مرتاب بلمس جروح الرب

ثم إننا غادرنا هذا المكان، ونزلنا على الأدراج التي كانت قريبة إلى الرواق، وأتينا إلى بيعة القديس توما، حيث نال هذا الرسول نفسه من خلال شكوكه الفائقة المنافع، شرف لمس الندوب المتألقة لجسد المسيح، وعندما سرنا في رتل إلى ذلك المكان غنينا الترنيمة المبهجة:

((Exultet coelum laudibus resaltet terra gaudiis,)) ومجدداً انحنينا بأنفسنا نحو الأرض في هذا المكان، وتلقينا غفرانات مطلقة(++)، وتركز في هذا المكان تأملنا على النعمة الخاصة، التي وصلت إلى القديس توما الرسول، لأن جميع الذين قرأنا عنهم، أنهم كان لهم علاقة بجنب المسيح — ومنهم القديس توما، الذي وضع يده في جنبه، بناء على طلبه — تلقوا علامة خاصة على النعمة، فلوجينيوس العسكري غير المؤمن والمتوحش، الذي — بناء على أوامر بيلايطوس — وقف إلى جانب الصليب، وقام بإدخال رمحه في جنب المخلص، وطعن القلب الأعظم قداسة للمسيح، كان ضعيف النظر، وصدف أن عينيه لامسها الدم الذي جرى على الرمح، وبذلك صار يرى بوضوح، وتلقى النور في كل من جسده وعقله، وتحمل استشهادا مشهوداً، ورأى القديس يوحنا الانجيلي جانبه وشاهد الماء والدم يخرج منه، فآمن وصار شاهداً لأعظم الأسرار سمواً، ورأى القديس توما جانبه ولمسه، وبذلك صار أكثر المؤمنين ثباتاً وذلك بشكل مكشوف، وسمع قولاً هو فائق الطمأنة لنا، حيث قال له ربنا:«لأنك رأيتني ياتوما آمنت، طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يوحنا: ٢٠/ ٢٩).

والحواريون الآخرون، الذين أراهم الرب يديه، ورأوا جنبه، تفتحت أعينهم، وبذلك أمكنهم فهم الكتابات المقدسة، وقد امتلأوا ببهجة عصية على الوصف، وعندما كان القديس برنارد يصلي أمام تمثال المصلوب، بدا له أنه رأى المصلوب وقد فك نفسه من الصليب، وانحنى عليه وهو يصلي، وتلقاه وهو مستغرق بصلاته بين ذراعيه، ووضع فمه على جنب المصلوب، ورضع من هناك صحة العقيدة حلواً كالعسل، وانفعل القديس فرانسيس أيضاً بعمق لدى تفكيره حول جراح المسيح، فكان أن أجيز بشكل إعجازي، ورأى على جسده أنه يحمل علامات الرب يسوع، وشربت القديسة كاترين السيناوية من جنبه الأعظم قداسة، فغدت ثملة بأحلى جرعة للقداسة، ذلك أن تلك العذراء التي كانت قرينة للمسيح، كانت مرة ترعى امرأة مريضة، تعاني من قرحة مخيفة وقذرة جداً في صدرها، التي صدر عنها رائحة لاتحتمل، لذلك لم يبق أحد معها، وفي أحد الأيام عندما نزعت الفتاة المقدسة الضماد من على القرحة من أجل تنظيفها وغسلها، صدرت رائحة مخيفة لاتحتمل، حركت معدتها وجعلتها تشعر أنها مريضة تريد أن تتقيأ، وعندما شعرت الفتاة المقدسة بهذا، باتت غاضبة مع جسدها، وحلفت يميناً قائلة:« بحق حياة الأكثر علواً، القرين الأكثر حلاوة لروحي، سوف تضع في معدتك ذلك الشيء الذي تقززت منه»، وقامت على الفور بجمع غسالة القرحة والدم الخارج من ذلك الجرح القذر بوعاء، وذهبت إلى مكان منعزل وابتعلت الجميع، وعندما فعلت ذلك توقف تقززها، وليس فقط أنها لم تعد تشعر بالغثيان، بل تمتعت بسرور لايوصف.

وفي الليلة التالية ظهر لها الرب يسوع، وأراها جروحه الخمسة، التي أصيب بها وهو على الصليب وقال:«لأنك البارحة تغلبت على المشاعر الطبيعية لجسدك، بسبب حرارة حبك لي، وابتلعت الشراب المقرف،

أقـول لك: بما أنك بهذا العمل ذهبت أبعـد من طبيعتك، لذلك سـوف أعطيك شراباً فـوق الطبيعـة البشرية التي اعتـدت على تلقيهـا، ثم إنه وضع يده اليمنى فـوق رقبـة الفتـاة، وسحبهـا نحـو جـراح جنبـه وقال:«اشربي جرعتي، اشربي جرعة من جانبي، بها سوف تمتلىء روحك بحـلاوة سوف تتـدفق بشكل مـدهش حتى إلى جسدك»، وقـامت هي، وقـد رأت نفسها قـد وضعت إلى جانب فم نبع الحيـاة، فوضعت فمهـا الطبيعي، لابل أكثـر: فمها الروحـي، على ذلك الجرح الأعظم قداسـة، وشربت، ليس لمدة قصيرة، لقــد شربت بتشـوق، وبكميـات كبيرة من ذلك الشراب الاعجـازي والعصي على الوصف، وأخيراً أبعدت نفسهـا عن النبع، وهي ممتلئة، ومع ذلك عطشى، وبدأت منذ ذلك الحين حيـاة جـديدة، وكبرت بالنعمة، وذلـك حسبما سنقرأ في حكايتهـا، في الفصل الرابع من القسم الثاني.

وانظر كم هي عظيمــة فضـائل جـرح المسبح، وسنـان الرمح، الذي طعن به جنب المسيح محفــوظ في نورمبـورغ Nuremburg حيث أنني رأيته وحملتـه بيدي، وله فضـائل عظيمة إلى حـد أن آلافاً كثيرة من الناس تتـدفق على هناك، في كل سنة، في يوم الجمعـة الأول، بعد اليـوم الثـامن من عيـد الفصح، لرؤية قطعـة الحديد، وعبـادتها، وهي القطعـة التي شقت جنبه المقدس، وعلى هذا اقتربوا أيها الأحبة الحجاج، والمسوا بقلوبكم جـراحـه، مثل القديس تـوما، وصلوا للرسـول المقـدس حتى يقبلكم للتعايش معـه، ويقوم في هذه البيعة مـذبح جميل، غالباً مـاقرأت فيه ساعاتي الشرعية، عندما كنت أعيش في القدس.

المكان الذي اقتاد إليه ربنا حوارييه حتى يتمكن من التحادث معهم على انفراد وقال: قوموا دعونا نذهب من هنا

بعدمـا أنهينا قداس المسيرة في هذه البيعـة، تحلقنا حول الممـر الأسفل للرواق،وذلك حول ثلاثة جوانب منه، وانتقلنا إلى بيعـة أخرى، مقدسة

كثيراً، ومظلمة جداً، وهي مخفية تحت الكنيسة نفسها، ومن المعتقد أن هذه البيعة هي المكان المنعزل، الذي إليه اقتاد الرب يسوع حوارييه، عندما قال:«قوموا، دعونا نذهب من هنا»، وذلك حسبما نقرأ في الاصحاح الرابع عشر من انجيل يوحنا، ولقد حدثنا الحكماء المتعلمين من أمثال القديس توماس (الأكوني Aqainas)، وألبرتوس ماغنوس، وهوغو، ودي ليرا، أنه بعد العشاء، وبعدما اغتسل الحواريون، وبعدما تلقوا القربان، أخذ الرب يتحدث إليهم، وهم جلوس في المكان الذي تعشوا فيه، وأخبرهم بشكل مكشوف أنه سيتعرض للخيانة، وأنه بعد وقت قصير لن يرونه بعد ذلك، وعندها أصبح الرسل مرعوبين، واضطربوا لدى سماعهم لكلماته، وتوجهوا بأبصارهم بشكل مستمر نحو باب علية العشاء الأخير، خشية وتوجساً من أن الناس سوف يأتون ويأخذون معلمهم من بينهم، ولذلك أولوا قليلاً من الاهتمام لكلماته، ولأنه رغب في أن يتابع الحديث إليهم بشدة أكبر، من أجل أن يصغوا إليه بعناية أكبر، وأن يكونوا أقل خوفاً، قال لهم:«قوموا، دعونا نذهب من هنا»، وبناء عليه نزلوا من غرفة العلية، إلى الغرفة القائمة تحتها، حيث أنهى قداسه، وصلاته الأكثر تقوى، التي هي موجودة في الاصحاح السابع عشر، وفي الاصحاحين اللذين يليانه من انجيل القديس يوحنا، ونحن نعتقد أن هذه الصلاة هي التي قدمها المسيح في هذا المكان، ولذلك صعدنا إلى المذبح، وتوسلنا إلى ربنا يسوع أن يجعلنا نلتحق به في صلاته هذه الفائقة التقوى، التي قدمها هناك، ولقد تلقينا غفراناً(+).

ويوجد في هذه القاعة المقدسة جزء من العمود الذي جلد المسيح عنده، حيث هو مربوط إلى الجدار بقضبان حديدية، ومع ذلك من الممكن لمسه بالأصابع، ويوجد إلى جانبه فرش للضيوف، نمت عليها أثناء حجي الأول، وهناك أيضاً قلاية لراهب من طائفة السسترشيان،

وللراهب جون الذي يمنح النـاس شارة الفروسيـة في الضريح المقدس، والذي يشغل أيضـاً وظيفـة متعهـد المؤن للـرهبـان، وصعـدنا من ذلك المكان على درج حجـري إلى الكنيسة، وبذلك أنهينا مسيرتنا، فهـذه هي الأماكن المقدسة التي موجودة في أفنية الدير، وفي الخارج هناك كثيراً من المزيد من الأماكن المقدسة، كما سنرى فيمايلي.

الغداء الذي قدمه رهبان جبل صهيون إلى الحجاج

بعـدمـا أنهينا مسيرتنا التي استغـرقت حتى حـوالي منتصف النهـار، وعندما كان الحجـاج على وشك النزول إلى المشفى، قدم الأب المسؤول والراهب يوحنا الخازن، ووجهـا الدعـوة إلى جميع الحجـاج إلى الغـداء، وقـد نصبـوا مناضـد، وألواحـاً طويلة من أجلنا في حـديقـة الدير، لأن عددنا كـان كبيراً، وكان المكان ضيقـاً، ومدوا فـوق السطح قطعة قماش غطت طول السطح كله، لتكون بمثابة مظلة من حـرارة الشمس، وكان الموضوع الذي طرزت به هذه القطعـة هو نزول الروح القدس، وهكذا جلسنا إلى المائـدة باسثناء بعض النبـلاء الذين، قـرروا القيـام بخـدمـة الموائـد، وذلك صـدوراً عن التواضع، وحينما كنا جميعـاً جـالسين، وكنا نأكل بطريقـة نظامية، جاء رجـل كان مرتديا لملابـس وضيعة، أنا لم أره من قبل بين صفــوف الحجــاج، وقــد وقف في وسطنـا ونحن نتناول الطعـام، ووعظنا بلغة لاتينيـة كـانت غنية وفصيحـة وجميلة الأداء، إلى حـد أننا تـوجهنا جميعـاً بأبصـارنـا إليـه، حتى الذين لم يفهمــوه كـانوا مندهشين تجاه تدفقـه ولغته الممتعـة، وكـان موضـوع قـداسة في ميـدان تمجيـد الأماكـن المقدسـة، وفي اطراء الحج ومـدحه، وبعـدمـا أنهى هذا الواعظ كـلامـه، أخذ مكانه اللورد جـون، بارون سيجيرن، الذي كـان رجلاً حكيماً وفصيحاً، وكـان واحداً ممن تولوا خدمة المائـدة، وقد ألقى —بناء على إلحاح الأب المسـؤول— كلمة بالألمانيـة، شكر بها، باسمـه، السـادة الحجـاج من اللوردات لجلوسهـم إلى مـائـدة الرهبـان الفقـراء،

ورجاهم أن يكـونوا راضيين بطعامهم وشرابهم، وإذا مـا أراد أي واحد منهم أن يسـدد للرهبـان ويعوضهم على لطفهـم، وأن يظهر شفقـة على فقـرهم، يمكنه التحـادث حـول هذا الموضـوع مع الراهـب يوحنا البروسي، خازن الدير، الذي سوف يجدونه واقفاً في الرواق، لأن الأب المسـؤول لن يسمح مطلقاً بجمـع أية تبرعـات على المائـدة، كما أنه لم يرغب باعلامهم أن الراهب يوحنا سوف يتسلم مالاً باسم الرهبان، بل ان النبـلاء فعلوا ذلك صـدوراً عن رغبتهم، وعندمـا انتهى الغـداء، وتغدينا جميعـاً بشكل جيد، ذهبنا إلى الراهب يوحنا، وقدمنا مسـاعدات لها قيمتهـا إلى الدير، فبعضهم دفـع ست دوقيـات، وبعضهم خمس، وبعضهم أربع، وبعضهم ثلاث، وبعضهم دوقيتـان، وأصغـر مبلغ دفع من قبل أي انسان كان هو دوقية واحدة.

زيارة إلى الأماكن المقدسة على جبل صهيون من دون أحواز الدير

وعندمـا فرغنا من جميع الذي وصفناه، ذهبنا نحن الحجـاج إلى الأب المسؤول ورجوناه أن يتفضل فيعين واحـداً من الرهبان لأن يكون دليلنا إلى الأمـاكن المقدسـة المتبقيـة فوق جبل صهيـون، وذلك خـارج الدير، ولبى طلبنا الأب المسـؤول، ودهش تجاه غيرة الحجـاج الكبيرة، فبعـد المتاعب التي عـانوا منها، مـابرحوا يرغبون في تحمـل المزيد من الجهود، وفي الحقيقة مـامن أحد عليـه أن يفكر أن زيارة الأمـاكن المقدسـة مهمة سهلة، فقـد كانت هناك حـرارة هائلة صـادرة عن الشمس، والسير من مكان إلى مكان، والجثو على الركب، والتمدد على الأرض، وفـوق كل شيء، كانت هناك، الضغوط التي يضعهـا كل انسان على نفسه في نضاله بكل طاقاته بأن يرقى بنفسه إلى التقـوى السليمة، وتفهم واستيعاب كل مـارآه في الأماكن المقـدسـة،ولأن يحقق صلاة خـاشعـة، وتأملاً عميقـاً، وهذا كله لايمكن القيـام به مـن دون بذل جهـود كبيرة، ذلك أنه حتى

يقوم بهم الانسان بشكل لائق، عليه أن يكون مرتاحاً، وليس هائماً على وجهه، ذلك أنه تناضل خلف العوائق العقلية، وأنت تتنقل جسدياً من مكان إلى مكان، عمل مرهق إلى أبعد الحدود، فبعض حجاجنا لم يستطيعوا القيام بذلك، ونزلوا إلى المشفى للراحة، ولذلك أقل من نصفهم هم الذين تابعوا واستمروا في عمل الحجاج.

وكان الأب المسؤول قد أعطانا عدداً من الرهبان بمثابة أدلاء لنا، معهم انطلقنا في طريقنا من حديقة الرهبان الداخلية، حيث كنا قد تناولنا طعام الغداء، وعندما خرجنا من الحديقة إلى الرواق، وصلنا أمام قاعة الطعام والمطبخ، إلى بركة ماء عميقة، كانت أبرد من أي ماء آخر في القدس، ويحكى بأن الماء قد نضح من هذه البركة من قبل حواريي المسيح، من أجل العشاء الرباني، أي من أجل مزج الخمرة أثناء أداء القداس، ومن أجل غسل أيديهم وأقدامهم، ومن أجل الاستخدامات الأخرى أثناء العشاء، وصدوراً عن الاحترام للحقائق المتقدم ذكرها نضحنا بعضاً من هذا الماء وشربناه بتقوى، وصرت من ذلك الوقت غالباً ماأشرب منه كميات كبيرة، أثناء شدة الحرارة وقسوتها، ولم يلحقني ضرر من ذلك، وأعتقد أن هذا واحداً من آبار الخلاص الذين ورد الحديث عنهم في الاصحاح الثاني عشر من سفر اشعيا، وهو قوله:« فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص»، وقال في فقرة تالية:«صوتي واهتفي ياساكنة صهيون».

ومضينا من هذا النبع من خلال الممر المسقوف إلى باب الدير، الذي أخذ بنا إلى طريق عام، وهذا الباب صغير ومنخفض، ومدخل ضيق منحدر، لايمكن لانسان أن يعبره من دون أن يطأطىء رأسه، ويحني ظهره، والباب حديدي قوي، وهو عندما يغلق يشد بسلاسل وبمزاليج حديدية، لأنه يخشى أثناء غضب المسلمين خلال الاضطرابات المفاجئة من اقتحام الدير ونهبه، وهو ما فعلوه في احدى المرات، ومن الممكن

رؤية آثار ذلك في المهجع قرب الحديقة والمكتبة، حيث كان هناك فيما مضى قلايات جميلة بنيت بسقوف مقنطرة، فقد قاموا بتدميرها وبتهبيط قناطرها، ولم يسمحوا لهم حتى هذا اليوم بإعادة عمارتها كما كانت من قبل، ذلك أنه من السهل جداً إثارتهم وتحريكهم لمهاجمة المسيحيين، وأن يثوروا بغضب ضدهم، ولهذا يغلق الرهبان على أنفسهم بشدة، خشية من أن يثور المسلمون ويكون هناك هياج فيتمكنوا من إلحاق بعض الأضرار بهم، ومثل هذا قام المسيحيون الشرقيون بحماية بيوتهم وإغلاقها بأبواب حديدية، وذلك للأسباب نفسها.

موضع اعتكاف العذراء مريم المباركة

وخرجنا من الدير من خلال ذلك الباب، برفقة الرهبان، إنما من دون أبهة، مسيرة مهيبة، وبدون غناء، وكان أول مكان قدمنا إليه درج حجري، صعدنا عليه إلى الكنيسة في الأعلى، وتمددنا على هذا الدرج بأنفسنا، في دعاء وتعبد للقربان المقدس والأماكن المقدسة في الداخل هناك، ثم نهضنا ومضنا إلى الزاوية الخارجية للكنيسة، حيث يوجد الموضع الذي كان فيه معتكف العذراء، مريم، ولذلك انحنينا بأنفسنا في ذلك المكان نحو الأرض، وصلينا، وتلقينا غفرانات(+)، وهناك خطر ببالنا وفكرنا كيف أن مريم العذراء المباركة، قد اعتادت في هذا المكان وفي أماكن أخرى على تقديم صلواتها المتواصلة والمتقبلة كثيراً للتشفع لدى الرب من أجلنا، وفي الحقيقة سوف تظل تقدمهم حتى نهاية الزمان، الأمر الذي هناك حاجة مستمرة لأن تفعله، لأنه مثلما هناك حاجة لأشعة الشمس على الأرض حتى تجعلها خصبة، هناك مثل ذلك حاجة لصلوات مريم من أجلنا نحن الأشقياء المذنبين، وحول هذا قال القديس برنارد:«إذا ما أبعدت الشمس التي تضيء الدنيا، أين يمكن أن يكون هناك نهار؟ وأبعد مريم —نجم البحر— مالذي سوف يبقى في المسكونة، غير احتضان الجميع للاكتئاب، والظلام الدامس، وظلال

الموت»؟.

موضع دفن داوود وسلميان والملوك الآخرين ليهوذا والقدس

وغادرنا الآن موضع اعتكاف العذراء المباركة، الذي هو موجود —كماقلت— عند زاوية تلك الكنيسة، وذلك حيث يتصل جدار الكنيسة القادم من الشرق بالجدار القادم من الجنوب، وصعدنا من تلك الزاوية وسرنا على طول الجدار الذي يقود نحو الشرق، وصرنا فوق جدار آخر منخفض، يقود من جدار الكنيسة إلى فناء مربع الشكل هو ساحة صغيرة، وتسلقنا في هذه الساحة فوق الجدار، وعندما صرنا فوق، وجدنا باباً صغيراً في جدار الكينسة، وهو محاط بالحديد، ومغلق بعناية فائقة، وعلى هذا لم يكن بإمكاننا المرور من خلاله، لابل حتى وإن استطعنا أن نمر من خلاله، من المؤكد أننا لن نتجرأ على فعل ذلك، لأن الموضع مسجد اسلامي، وهذا مكان عظيم القداسة مبجل من قبل جميع المسيحيين واليهود، والمسلمين كذلك، لأن فيه موضع دفن الأنبياء، والأنبياء القديسين، مثل داوود، وسليمان، ورحبعام، وأبيا Abia، وآسا Asa، ويورام Joram ، والبقية، الذين وردت أسماؤهم في سفر أنساب يسوع المسيح، في الاصحاح الأول من انجيل القديس متى، وغالباً ما ورد ذكر هذا الموضع في أسفار الملوك وأخبار الأيام، كلما جرى استخدام عبارة:«وقد دفن في ضريح آبائه في مدينة داوود»، ودفن هؤلاء الملوك في هذا المكان وسط احتفال عظيم جداً، وحدثنا يوسفيوس، في الكتاب السابع من التاريخ القديم— الفصل السادس عشر— وكذلك مصنف كتاب «Scholastica Historia»، عن وفاة داوود، أنه عندما مات، وضع ابنه سليمان جسد والده في تابوت ثمين جداً، لم يصنع من الحجر أو من الخشب، بل عمله صاغة الذهب، من الذهب المحلى بالأحجار الكريمة، ودفن إلى جانبه كنز لايمكن تقدير قيمته من الذهب والفضة، وعندما توفي سليمان، دفنه ابنه رحبعام، ومعه كنز

عظيم إلى جانب تابوت داوود، وكان سليمان قد بنى مكان الضريح وفق فن حسابي بحيث لايستطيع انسان الوصول إلى هذين التابوتين.

وبعد مضي ألف وثلاثمائة سنة على وفاة سليمان، وفي أثناء وقوع القدس تحت حصار أنطيخوس ابن ديمتريوس، كان هيركانوس الكاهن الأعلى للمدينة المقدسة، وقد وجد نفسه غير قادر على تحمل استمرار الحصار مدة أطول، أو دفع العدو، وصده، وعد أنطيخوس بالمال إذا ما انصرف، ولم يجد وقتها مايكفي من مال في خزانة الهيكل، ولم يكن لدى سكان القدس الفقراء المال، فمضى —لذلك— هذا الكاهن الأعلى، وصعد إلى جبل صهيون، وفتح هذا المكان الذي تحدثت عنه، وأخذ من هناك ثلاثة آلاف قنطار من الذهب، وبهذا المبلغ أقام السلام مع أنطيخوس.

وثانية بعد مرور سنوات كثيرة، وجد هيرود نفسه بحاجة إلى المال، وسمع بأن هيركانوس قد وجد مالاً هناك، فجاء بشكل سري إلى ذلك المكان، وفعل ذلك أثناء الليل ومعه أصدقائه المعتمدين، فلم يجد هناك نقوداً مضروبة، بل استخرج بعض الكؤوس الذهبية والفضية، ودفعه هذا إلى الحفر أعمق، حتى وصل إلى جرتي حفظ جسدي داوود وسليمان وإلى تابوتيهما، وفي أثناء الحفر احترق اثنان من خدمه وتحولا إلى رماد، وكان ذلك بوساطة اللهب الذي اندفع من الأجزاء الداخلية للمكان، وعندما رأى الملك هذا، هرب مع الآخرين، ولكي يصلح ماعمله ويكفر عما اقترفه، بنى ضريحا عظيماً جدا من الحجر الأبيض.

وفيما مضى،، عدّ رهبان دير جبل صهيون هذا المكان بين ممتلكات ديرهم، وهو في الحقيقة جزء من كنيسة جبل صهيون، لأنه موجود بين الجدران نفسها، عند رأس السدة، وقد انتزع السلطان هذا المكان من الرهبان للسبب التالي: فقد توسل اليهود مراراً إلى السلطان لكي يعطيهم هذا المكان، حتى يتخذوا منه مكاناً للزيارة وللاعتكاف،

ومابرحوا يترجونه حتى هذا اليوم، ورفض المسيحيون باستمرار الاستجابة لهم، وأخيراً سأل السلطان عن أسباب قداسة ذلك المكان، وعندما أخبروه بأن داوود وملوك القدس الآخرين من سلالته مدفونين هناك قال:«نحن المسلمون أيضاً نعدّ داوود مقدساً، مثلما يفعل المسيحيون واليهود ونحن نؤمن بالتوراة كما يفعلون، ولذلك لن يمتلك لا اليهود ولا النصارى هذا المكان، بل ستتخذه نحن لأنفسنا»، وبناء عليه قدم إلى القدس، وأغلق الباب الذي كان الانسان يدخل عبره إلى تلك البيعة من داخل الدير، وألغى البيعة، وأزال مذابح المسيح، وحطم التماثيل المنحوتة، وطمس الصور، وجعل المكان مناسباً لعبادة(١) (إله) محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعمل بابا في الخارج، يمكن للمسلمين الدخول منه عندما يرغبون.

ولأن المكان الذي كان فوق البيعة، أي فوق سقفها المقنطر، كان ملكاً للمسيحيين والرهبان، وكان يوجد فيه بيعة باهظة النفقات، كان قد أسسها هناك ملك فرنسا، أسسها في المكان الذي تحدثنا عنه وقلنا بأن الروح القدس نزلت هناك على الحواريين في يوم عيد الحصاد، لذلك أمر السلطان أيضاً بهدم هذه البيعة أيضاً، وبإزالة القناطر، وباغلاق بابها، حتى لايتمكن المسيحيون من السير فوق السقف المقنطر العائد للمسجد، وهكذا فقد الرهبان هذين المكانين المقدسين الثمينين، وجاء ذلك من خلال تشوق اليهود لامتلاك المكان المنخفض، الذي توسلوا من أجله إلى السلطان، ومازالوا يتوسلون له حتى هذا اليوم، ووعدوه يعطوه آلاف قناطير كثيرة من الفضة مقابل ذلك، هذا وهم لايفعلون هذا لمجرد احترامهم لقبور الملوك القديسين، ولالقداسة المكان، بل انهم يأملون بشق طريقهم إلى توابيت الملوك، والعثور على الكنوز، لأنهم يعتقدون بأن هذه الكنوز مخزونة هناك، وأنه من المقدر أن تكون لهم،

١ـــ استخدم الرحالة عبارة نابية جداً، أبدلتها بما بين الحاصرتين.

ولذلك غالباً ماتجدهم ذاهبين إلى هناك، ويقومون بالصلاة في أثناء الليل، ويمارسون أحياناً هناك أعمال السحر وفنونه.

وتشوقت كثيراً لرؤية القسم الداخلي من ذلك المكان، ولم يخب أملي، حيث كان المسلم الحافظ للمسجد يحاول في أحد الأيام فتح الباب، وقد أغلقه بسرعة، وعطل القفل بالمفتاح، ولذلك لم يحرك المفتاح المزلاج الحديدي، ولذلك غادر تاركاً المسجد مفتوحاً، وقد بقي مفتوحاً طوال المدة التي بقيت فيها بالقدس، ودخلت إلى المسجد أكثر من عشر مرات ونظرت إلى مافيه، مع أنني كنت دوماً أدخل وأخرج وأنا خائف أرتجف، لأنه لو رآني أي مسلم هناك، لسبب ذلك لي أذى عظيماً، هذا إذا نجوت من خطر الموت، وهذه البيعة بيعة طويلة، ولها سقف مقنطر، ولها نافذتين على جهتها اليسرى، وفيها ضريح من الرخام في جانبها الشمالي، والأرضية المبلطة مغطاة بحصر، ومعلق فيه مصباحين، ولايوجد فيه مذبح، ولارسوم، ولاأعمال محفورة ومنحوته، بل جدران عارية مطلية باللون الأبيض، فهكذا جميع مساجد المسلمين فارغة وخاوية.

وأثارت الحكاية المتقدمة شكاً في عقلي، حول لماذا سمح هؤلاء الملوك القديسين بدفن كنوز معهم، لأن هذه ممارسات كافرة ولاعقلانية، ثم كيف كان سليمان قادراً على اخفاء هذه التوابيت بفن لايستطيع انسان حياله العثور عليهم؟ وجواباً للسؤال الأول أقول، بأننا ينبغي أن نؤمن بشكل يقيني بأن هؤلاء الرجال لم يفعلوا شيئاً صدوراً عن أوهام عبثية، أو حباً بالثروات الدنيوية، أو اقترافاً لآثام التفاخر، بل إنهم دفعوا من قبل الروح القدس، من أجل أنه عندما يحين الوقت، يمكن أن تكون الكنوز نافعة لاستخدام الناس بشكل عام، ولاأن تدار وتستخدم من قبل الشراهة المقيتة لليهود، أما بالنسبة للسؤال الثاني، لابد من أن أقرّ بأن يوسفيوس أخبرنا بأن سليمان أخفى هذه القبور بفنون سحرية، لكن

مؤلف كتاب « Historia scholastica » قد دفع هذه التهمة عنه، وأعلن أنه أخفاهم ببراعة أصيلة.

وبشأن قبر داوود، انظر ماقاله القديس بطرس الرسول، في الاصحاح الثاني من أعماله:«أيها الرجال الإخوة يسوغ أن يقال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داوود إنه مات ودفن وقبره عندنا حتى هذا اليوم»، (أعمال:٢/ ٢٩)، ويبرهن هذا، أن هذا المكان كان معروفاً تماماً في أيام الرسل، واعتقد جيروم بأن داوود قد قام مع ربنا، وأسس حجته على ماقاله القديس بطرس، بأن قبر داوود كان مرئياً بوضوح، مع أنه لم يتجرأ على القول بأن داوود كان مايزال موجوداً فيه. ولقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن هذه القضايا ومايماثلها في هذا المكان، ثم قرأنا صلواتنا بتعبد ذلك أن جميع علامات صلوات مسيرة الأرض المقدسة جديرة بالقراءة هناك، وتلقينا غفرانات(+).

خيمة عهد داوود حيث المكان الذي وعظ فيه الرب يسوع وحيث أصغت العذراء المباركة

وبسرعة تركنا تلك الساحة الصغيرة، ودخلنا إلى السدة القديمة لكنيسة جبل صهيون، التي كانت مهدمة بشكل كلي، باستثناء الجزء الشرقي منها، حيث مايزال قسم من الجدار قائماً مع قنطرة مهدمة معلقة فوقه، والمكان الذي بنيت فوقه هذه السدة، هو واحد من الأماكن الجديرة بالنظر إليها باحترام من قبل كل من يؤمن بالكتاب المقدس، ويقدم اليهود احتراماً خاصاً لهذا المكان، لأنهم يعتقدون —كما نحن نعتقد— بأنه قام هنا مكان اعتكاف داوود أو خيمة عهده، التي إليها جلب مع جميع بني اسرائيل تابوه الرب بصحبة الأغاني والآلات الموسيقية، والسرور العظيم، حسبما قرأنا في الاصحاح السادس من السفر الثاني لصموئيل، وفي هذا المكان كذلك تسلم الوعد بأن المسيح ينبغي أن يلد من سلالته، حسبما ورد مكتوباً في الاصحاح السابع من

السفر الثاني لصموئيل، وظل هذا المكان حتى بعد بناء الهيكل، يتردد الناس عليه بكثرة ويحبونه، ولذلك غالباً ماااعتاد الرب يسوع على الوعظ فيه هناك.

وتخليداً لذكرى ذلك أقيمت حجرتان مقابل بعضهما في وسط الأرضية المبلطة، والحجرة الأولى قائمة في المكان الذي وقف فيه ربنا ووعظ، ووضعت الثانية فوق المكان الذي اعتادت العذراء المباركة أن تصغي فيه لوعظ ابنها، ولقد قبلنا هذه الأماكن مع الحجرتين، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وتلقينا غفرانات(+)، ووقفنا في هذا المكان لبعض الوقت، وبكينا على الخرائب، ونظرنا بأسف من حولنا نحو الحجارة المبعثرة العائدة للمعبد، فقد قام هنا فيما مضى كنيسة عظيمة جداً، لم يبق منها شيئاً سوى الجزء الذي اتصل فيما مضى بتلك الكنيسة العظيمة على جهة الطرف اليمين، وهذا الجزء هو في هذه الأيام سدة وكنيسة الرهبان، حسبما قلت من قبل، ومايزال رأس السدة موجوداً أيضاً، مع النافذة الشرقية، ومعها نصف قنطرتها المهدمة والتي هي مهددة بالسقوط، ويوجد فوق داخل هذه الكنيسة طريق للصعود فوق بعض الدرجات، وذلك من المكان الذي أنزلت إليه الروح القدس، إلى قمة قطعة تلك القنطرة المهدمة، وصعدت فوق تلك الدرجات ووجدت فوق القنطرة المهدمة، أرضية معمولة من الرخام المصقول من مختلف الألوان، وبناء عليه إنني أفترض أنه كان هنا فيما مضى كنيسة أخرى فوق بالأعلى، على ظهر الكنيسة والسدة، وبناء عليه لابد أن كنيسة جبل صهيون قد امتلكت ثلاثة طوابق مكرسة، أي ان تقول: قبو تحت الأرض، ثم الكنيسة التي بنيت فوق الأرض، وقاعة علية أخرى كانت مزينة، فوق الكنيسة، وفي السدة القديمة مايزال المذبح العالي موجوداً، لكنه مهدم.

وذهبنا بعد ذلك نحو الطرف اليساري من السدة القديمة، حتى

نتمكن من الذهاب لزيارة أماكن مقدسة أخرى، ووجدنا هناك بعض المسيحيين الشرقيين جالسين إلى جانب حجرة مربعة، جزء منها مرتفع فوق أساس السدة القديمة، وجزء مايزال متصلاً بالجدار القديم، وعلى تلك الحجرة كان هؤلاء الشرقيين يمارسون أعمال الكهانة بوساطة أربعة أحجار صغار، وكأنهن حبات النرد، وفي الحقيقية افترضت بالبداية أنهم كانوا يلعبون بالنرد، وتعجبت من جلوسهم هناك في مكان عام، حيث لايوجد بيت للسكن، ذلك أنني لم أعرف بأن هذه الحجرة وحدها قد استخدمت من أجل كهاناتهم الواهمة، وكانوا يلتقطون أربعة أحجار صغار من الأرض، ويقوم الذي يريد رميهن بهزهن في داخل يده، مثلما يهز لاعب النرد، أحجار النرد في يده قبل أن يلقي بهن، ثم يقوم بإلقائهن فوق الحجرة المربعة، وبوساطة الشكل الذي ترسمه هذه الأحجار إثر سقوطها، يتنبؤون بالذي يودون معرفته، من ذلك على سبيل المثال، إذا شكل سقوط الأحجار خطاً مستقيماً، فهم يعتقدون بأن المسألة سوف تسير وفق الطريق الأول، لكن إذا سقطوا وفق خط متعرج، ستسير المسألة وفق طريق آخر، وإذا ماشكلت مربعاً، أوصليباً، ستسير وفق طريق آخر، وإذا كان دائرة، أيضاً وفق طريق آخر، وهكذا دواليك بالنسبة للأشكال الأخرى.

وشكل الصليب هو الشكل الرئيسي في هذه اللعبة، والأقرب إليه هو الشكل الذي يؤدي إليه ويقدر الحظ الأعظم به، وتقدر بقية الأشكال بمدى مشابهتها له، ووقفنا وضحكنا على حماقات هؤلاء الناس، لكنهم كانوا جادين تماماً،، ركزوا انتباههم على كهانتهم، وكذلك تطلعاتهم نحو المستقبل.

ورأيت في بعض الأحيان أساقفة وكهنة من الكنيسة الشرقية، من ذوي الجدية والاحترام، رأيتهم جالسين هناك يلعبون ويتكهنون، وهم لايلعبون من أجل الربح، بل لمجرد أوهام الكهانة، الأمر الذي امتلأ به

الشرقيون، والحجرة كانت في ذاتها خشنة وغير مصقولة، غير أنها غدت مصقولة جداً من جهة وجهها بسبب ممارسة الكهانة المستمرة عليها، لذلك بدت وكأنها تتعرض للصقل والتلميع بشكل متواصل.

مكان المطبخ الذي فيه جرى شواء خروف الفصح مع تسخين الماء من أجل العشاء الرباني

وبعدما رأينا هذه الأشياء، انصرفنا من المكان الذي فيه الحجرة، وجئنا إلى المكان الذي افترض الناس أنه فيه قام المطبخ، حيث أعدّ الحواريون في داخله شؤون احتفال عيد الفصح، بشواء خروف الفصح، وبتقطيع الخس البري، وبتسخين الماء من أجل غسل الأقدام، وتنظيف الأوعية والصحون واشعال نار من أجل احراق بقايا خروف الفصح، من جلد وعظام، وأجزاء أخرى، لايمكن أكلها، وهذا المكان ليس خلواً من القداسة، أو تغذية، لأن الطباخين في ذلك المطبخ كانوا رجالاً مقدسين، والطعام الذي طهي هناك كان طعاماً مقدساً، ولقد علمنا من خلال الاصحاح الثاني والعشرين من انجيل القديس لوقا بأن بطرس ويوحنا، أكثر حواريي المسيح محبة وقداسة، كانا الطباخين اللذان جهزا عشاء الفصح في هذا المطبخ.

علاوة على ذلك، كان خروف الفصح الذي شوي هناك مقدساً، ذلك أنه نموذج ذلك الحمل الحقيقي الذي تألم على الصليب، وكذلك كان الماء مقدساً، أي الذي جرى تسخينه هناك، واستخدامه من قبل الرب يسوع لغسل أقدام حوارييه، ومع أن الانجيليين لم يقولوا شيئاً حول تسخين الماء، من المرجح —كما هو لائق— أن الغسل لم يكن إلا بماء ساخن، لأن الماء الساخن يزيل الأوساخ أكثر من الماء البارد، وينعش الأقدام والأرجل ويقويها، ويري استخدام الماء الساخن ويعبر عن التقوى والمحبة التي توفرت عند الذي استخدمه، لأنه ليس برهاناً

كبيراً على الصداقة استخدام الماء البارد، في غسل قدمي الانسان، مثلما ليس دليلاً على وجود العاطفة الكبيرة تقديم ماء ساخن أو دافىء للشرب، فالانسان الذي يقدم كأساً من الماء البارد لن يخسر أجره أبداً، وذلك حسبما جاء في الاصحاح العاشر من إنجيل القديس متى، هذا ومثلما الماء البارد مرغوب به من قبل الانسان العطشان ليشربه، مثلما هذا، الماء الساخن مبهج بالنسبة للانسان المتعب لغسل قدميه به معا.

ولايمكننا أن نفترض أن المسيح قد ترك أية علامات عن الحب الكامل، حيث أنه في أثناء العشاء لم يعط حوارييه كأساً من الماء البارد، مع أن هذه علامة على الحب، ولها ثوابها، وذلك حسبما قلنا للتو، بل أعطاهم ماعبر عن حب أكثر وفرة، وهو كأس امتلأ بخمرة مزجت باعتدال بماء بارد، وكذلك عندما غسل أقدامهم، لم يفعل ذلك بماء بارد، مع أن ذلك كان يعبر عن حبه، لكنه غسلهم بماء ساخن، وهو علامة على حب أكثر وفرة، وبالمناسبة لم يكن الماء ماء ساخنا صرفاً، بل ماء كان يحتوي على حشائش عطرية مع جذور قوية الرائحة، مزجت بعطور منعشة، مع مياه مقطرة، لاظهار عاطفته الكاملة.

ونحن نعرف بأن المسيح وجه اللوم إلى الفريسيين، لعدم إعطائه ماء لغسل قدميه، ومدح المجدلية لأنها غسلت قدميه بالعطور والدموع الدافئة، هذا ولقد أحب المسيح حوارييه، أكثر مما أحبت المجدلية المسيح، لذلك كان لابدّ له من غسل أقدامهم بماء جيد، دافىء بشكل مرغوب، وممزوج بعطور ثمينة منعشة.

وهكذا وقفنا فوق المكان الذي كان فيه المطبخ المقدس، والذي مايزال قائماً فيه حتى الآن جدار قديم ومرتفع، توجد فيه قناة متجهة نحو الأعلى، وكأنه قصد منها رفع الدخان من النار، وجثونا هنا على ركبنا، وقرأنا الصلوات المناسبة، وتلقينا غفرانات(+).

مكان دفن القديس اسطفان بعد العثور على جسده

وغادرنا المطبخ المتقدم الذكر، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى المكان الذي دفن فيه القديس اسطفان للمرة الثانية، وذلك مع الآخرين الذين عثر عليهم في حقل جالبار Galabar(كذا) الذي لاأفترض أنه كان بعيداً عن عناتا، التي هي قرية قائمة فوق المكان الذي رجم فيه القديس اسطفان، وذلك على جهة اليسار، وكان هذا حقل جماعليل، الذي سحب جسد القديس اسطفان من تحت الحجارة، وأخذه إلى حقله، حيث دفن فيه هو نفسه، وابنه أبيبوس Abybos ، ونيقوديموس فيما بعد، ومع مرور الأيام نسي أمرهم، وحدث فيما بعد، أنه كانت هناك مجاعة قاسية، بسبب الجفاف، لأنها لم تمطر على الأرض لأشهر كثيرة، ولقد كشف إلى رجل مقدس اسمه لوكيوس Lucius بأن الرب لن يكون محسنا إلى البلاد، مادامت هذه الآثار متروكة من دون تشريف، وعندما كشف له الحقل الذي رقدوا فيه بشكل اعجازي، وبعدما رآه، أخبر بذلك القديس يوحنا، أسقف القدس، الذي جاء إلى ذلك الحقل في مسيرة مهيبة، وعندما حفروا هناك، وجدوا جسد القديس أسطفان وأجساد الرجال الآخرين الذين دفنوا معه، فحملوهم إلى كنيسة جبل صهيون المقدسة، ودفنوهم هناك للمرة الثانية مع كل التشريف، وسقط في الساعة نفسها كثير من المطر، وأعطت الأرض ثمارها كما كان الوضع من قبل، وحدثت بعد ذلك معجزات كثيرة في تلك البقعة.

وحدث فيما بعد أن واحداً من نبلاء القسطنطينية، وكان رجلاً تقيا يعتقد بالقديس اسطفان، قدم إلى هاهنا عبر البحر مع زوجته جوليانا Joliana، واتخذ لنفسه بيتاً على جبل صهيون، مات فيه بعد مضي سبع سنوات، وعملت زوجته تابوتاً له على غرار تابوت القديس اسطفان، ووضعته إلى جانب جسد القديس اسطفان، وبعد مضي بعض الوقت بعد ذلك رغبت جوليانا بالعودة إلى القسطنطينية، فسألت

أسقف القـدس أن يعيد إليها جسـد زوجها، ودخل الأسقـف إلى مزار القديس أسطفان وأخـرج لها تابوتين، وطلب منها أن تأخذ منهما تابوت زوجهـا، غير أنها أخـذت تابـوت القـديس اسطفـان ظانة أنـه تابوت زوجها، واكتشفت وهي على طريق سفـرها عبر البحر، من خـلال عدد من المعجـزات، أن التـابوت الذي كـان معهـا كـان تابوت القـديس اسطفـان، وهكذا جـرى نقل هذا التابوت إلى مـدينة القسطنطينيـة، وفي آخـر الأمر تمّ نقله من القسطنطينيـة إلى روما، حيث هو راقـد الآن مع القديس لورانس.

ويقـوم الآن في المكان المتقـدم الذكـر مـذبح في الهواء الطلق، أقـامـه الرهبان هناك، وفي يوم عيده يقيمون قداساً هناك، وقرأنا في هذا المكان، ماوجهتنا كتب المسيرة أن نقرأه، وتلقينا غفرانات(+).

ثم إننا غـادرنا ذلك المكان، وتابعنا سيرنا، وعبرنـا الشـارع إلى بيت مرثا، الذي كان بيتـا لابأس باتساعه، وهو قائم في مـواجهة كنيسة جبل صهيـون، ويقطن في ذلك البيت بعض النسـوة الايطاليـات من طائفـة السسترشيان، اللائي يتبعن طقـوسنا، ويعرفن باسم مـرثاوات الرهبان، بسبب أنهن يخدمن الرهبـان محبـة في الرب، وذلك بالغسـل، والخيـاطة والغزل لصالحهم، وهن يتعبدن في كنيسة الرهبان، وهن نساء متقدمات بالسن، وعظيمات الجدية، ومحترمـات، يعشن في ظل قـاعـدة الحكم الثالث للقديس فرانسيس بصبر كبير، وتحمل عظيم، وقبل أقل من سنة من وجـودي في القـدس، اقتحم بعـض الأعـراب البـاب في الليل، واندفعـوا بهياج إلى داخل بيت هؤلاء السيـدات، ثم هربوا بعدمـا حملوا معهم كل ماوصلت إليه أيديهم، ونهبوا البيت كله، وعندما كنت أعيش هناك غسلوا لي قميصي ووشـاح الكتف، وعملوا أعمال إحسـان أخـرى لي، وتعيش السيدة التي جاءت من بلاط ملكة قبرص، والتي أتيت على ذكرها من قبل، هناك معهن.

وذهبنا من هذا البيت باتجاه الشرق، ثـم انحرفنا جـانبـاً نحـو الجهـة اليمنى، إلى خـارج الطريق الـذي يقـود إلى وادي شعفـاط، ووصلنا إلى بيت محمي بشكل جيـد، ومغلق باحكـام مثله في ذلك مثل جميع بيـوت المسيحيين، وعندما قرعنا على الباب، قدم إلينا رجال سود، قد أحرقتهم الشمس، وكـانوا طوال القـامـة، وكـان على وجـوههم ندوب مع آثار احتراق، وهؤلاء فتحـوا البـاب لنا، وكـان هـذا دير الهنود، فيـه عـاش الرهبـان والنســاء مع بعضهم، وهم يعيشـون في ظـل نظام دقيق، وإنه لغريب أن ترى انحطاط ملابسهم، وعندما دخلنا إلى هناك، اقتادونا من خـلال ممر إلى قـاعة سيئة الإضـاءة، يوجـد فيهـا طريق مظلم نازل من خـلال صدع في صخـرة، ونزلنا نحـو الأسفل، حاملين مصـابيح معنا، ووصلنا إلى كهف قذر موجـود تحت الأرض، مغطى من قبل الصخرة، وفي الحقيقـة الكهف كله هو تجويف في الصخـرة، ووجـدنا هناك مكاناً للصـلاة، ووفقـاً لخبر قـديم جـداً، كـان هذا المكان هو الذي تاب فيـه داوود من ذنبه المتعلق بوفـاة أوريا، وقرأنا لذلك هناك الاصحـاح الثاني عشر من سفـر صموئيل الثـاني، الذي جاءنا فيـه الخبر بأن داوود ذهب إلى مكان منعـزل، حيث صـام، وصلى، وبكى، وجلد نفسـه بالأسـواط وبالعصي، ونظم هناك سبعـة مزامير توبة، غـالبـاً ماقـرأهم، وغناهم مع نحيب محزن، هذا ولم يكن هـذا الكهف العـائــد لداوود في ذلك الحين خـارج القصر الملكي، بل في داخله، لأن القصر كان واسعـاً وعريضـاً، وسقطنا في هذا الكهف على وجـوهنا، ورجـونا الرب أن يرحمنا، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي فيه حاول اليهود اختطاف جسد العذراء المباركة من الحواريين عندما كانوا حاملين له إلى الضريح

وعندمـا تلقينا غفرانـاتنا، صعدنا ثانيـة، وغـادرنا ذلك البيت، ونزلنا نحـو الـوادي، وأبقينا وجـوهنا متجهــةنحـو جبل الزيتــون، أي باتجاه

الشرق، حيث كانت مـدينة القدس موجودة على يسـارنا، وكنيسة جبل صهيون على يميننا، وهكـذا وصلنا إلى المكان الذي تآمر فيـه اليهود على اقتراف الجريمة التالية: فبعد وفاة العـذراء مريم الأعظم قداسة، وعندما كان جسدها محمـولاً من قبل الحواريين وهـم نازلين به من جبل صهيون من أجل دفنه في وادي شعفـاظ، وبعـدمـا سـاروا مسـافـة مع الغناء والسرور، فجأة، اليهـود الذين عـرفوا سبب هذه المسيرة، خـرجـوا من المدينة مع قوة مسلحة، وقد امتلأوا غضبـاً صدوراً عن الكراهية العمياء القـديمة التي حملوها نحـو العذراء المجيـدة، وانقضوا على الذين كـانوا مرافقين للجنازة، وسائـرين إلى جانب النعش، وأجبروهـم على التوقف، وكـان مقصـدهـم الاستيـلاء على الجثمان المقـدس، ورميـه وكأنه جسـد مـدنس، وارغـام الحواريين على الفـرار، وهكـذا وقفـوا على مقـربة منه وصرخـوا بصـوت مـرتفع themea Kesesa، وكـان معنى ذلك «عاهرة مدنسـة»، وتقدم أحدهم، وصعد بجـرأة وأمسك التابوت بكلتا يديه، محاولاً رميـه إلى الأرض مع الجسد المقـدس الذي فيه، لكن مـاأن لمس النعش بيديه، حتى ذبلت يداه مع الذراعين، وجفتا، وباتتا معلقتان من دون حراك مثل عصاتين، ومع حـدوث هذه المعجزة أصيب الرجل التعيس بندم عظيم، بينما وقف بقيـة الحشـد المهـاجم مـرعـوبين، وقـد امتلأوا خـوفاً واضطراباً، ورجـاهم الرجل المعطل أن يرفعـوا له ذراعيه اللتـان تعلقتـا بدون حراك، ووضعهما فـوق الجسـد المقـدس، فكان أن شفي على الفـور، وأصبح مسيحيـاً، وعـاد البقيـة مخذولين إلى المدينة، وتركوا الحواريين يحملون الجسد المقدس، إلى موضع الدفن في جيسماني، وهكذا قـرأنـا في هذا المكان الـ Salve Regina، وبعـدمـا تلقينا غفرانات، مضينا في طريقنا نتابع سيرنا.

المكان الذي أخفى بطرس فيه نفسه بعد انكاره الثالث

ونزلنا بعـد هذا من المكان المتقـدم الذكـر نحـو الوادي، ووصلنا إلى

صخرة واقفة عاليـة، فتحت هذه الصخرة، جلس القديس بطرس يبكي وينتحب، ويستغفر، وكان ذلك بعد مغـادرته لبيت كيفاس، بعد إنكاره الثـالث لربه، ونال هناك غفـراناً لذنبـه واعفـاء من العقـوبة، وتلونا هنا الصلوات المعينة، وتلقينا هناك غفـرانات مطلقـة(++)، وهنا حـدث في يوم قيامـة الرب يسوع، أنه ظهر إلى القديس بطرس وواسـاه، وقام فيما مضى على هذه البقعة كنيسة عظيمة وجميلة، لكنها مهدمة الآن تماماً، إلى حد أنه لم تبق منهـا أية آثار، حتى الصخرة التي جلـس القديس بطرس تحتها يبكي، والتي كـانت مجوفة على شكل كهف واسع، أخـذت تصغر يوميا، وهي الآن مجرد حجـرة صغيرة، لأن الحجاج كسروا قطعـاً منها، وحملوها معهـم، وإلى جـانب هذه الحجـرة تتدفق ميـاه مجلوبة إلى مـدينة القـدس من جبال حبرون في مجرى مـائي، وفق طريقة مـدهشة، سـوف أتكلم عنها مطولاً في الورقـة ٢٤٩، وقائم هناك أيضاً بركـة عميقة، من الممكن سحب الماء منها، وأعتقد أنه عندما كانت هنا كنيسة، كانت هذه البركة العميقة قبو تلك الكنيسة.

المكان الذي قام فيه بيت عناس القاضي الأول للرب يسوع

وبعدمـا رأينا هذا المكان، مضينا نسير على دربنا، حيث أدرنا ظهورنا إلى الوادي، وتسلقنا ثانيـة الرابيـة التي كنا قـد نزلنا منهـا، إنما ليس عبر الطريق نفسه، لكن انحـرفنا جانباً باتجاه المدينة المقدسـة، وكان ذلك بين بيـوت مهدمـة، ووصلنا إلى بيت كـان بابه محكم الاغـلاق وبقوة، وقـد قـرعنا عليـه، وسمح لنا بالدخـول، وعنـدمـا أصبحنا بالداخل أتينا إلى كنيسة جميلة، مكرسة على شرف الملائكة المقدسين، ولذلك عرفت باسم كنيسة الملائكة المقدسين، وكان من حول هذه الكنيسة قلايات وقاعات، فيها سكـن رهبان أرمن، مع مسيحيين شرقيين، ورجـال سود محترمين، وكـان هذا المكان في أيام آلام ربنا بيـت عناس(حنان) الذي إليـه جلب الرب يسوع أولاً من الحديقـة التي اعتقل فيها، وجـرى ذكر هذا البيت

وجلب الرب يسـوع إليـه بشكل متميـز وواضح في الاصحـاح الثـامن عشر من انجيل القديس يوحنا، حيث نقـرأ فيه كيف قام عناس (حنان) الكاهن الأعلى فـاستجـوبه بازدراء، وسأله عن عقيـدته وعن تلاميـذه، وكيف قام واحد من الخدم بلطم يسوع لطمـة بالغة القسوة على وجهه، ولهذا —تبعا لبعضهم— سقطت أسنانه من فمـه، وتغطى وجهه بالدم، ولدى تلقي الرب يسوع هذه اللطمة لم يقـل شيئاً، ولم يفعل شيئاً قاسياً، كما أنه لم يقم بمعاقبـة الذي لطمه بأي شكل من الأشكـال، وحول هذا قال القديس أوغسطين:«إننا إذا مـاتفكرنا حول الذي تلقى الضربة منه، ألا يتـوجب علينا أن نفترض أن النار كـانت ينبغي أن تنزل من السماء وتحرقه، هذا الـذي وجه الضربة إليه، أو أن تنفتـح الأرض وتبتلعه، أو أن يجرى انتـزاعـه وأخـذه ليتعـذب من قبل الشيـاطين، أو أن يتعـرض لعقوبة من هـذا القبيل، إن لم يكن أكثر؟ ولم يأمر الـذي صنع العالم من قبله بأي من هذه الأشيـاء مع أنه امتلك القـدرة على تنفيـذها، ذلك أنه آثر أن يعلمنا الصبر، فبالصبر يمكن قهر العالم».

وبهذا يمكن أن ندرك فسـاد وزيف الذيـن قـالوا بأن الرب يسـوع ، عاقبه على الفـور، وضرب فوق البقعة نفسها قـائلاً له:«هنا سوف تظل واقفـا، وتكون شـاهداً على بـراءتي حتى يوم الحسـاب الأخير، ووقتهـا سـوف يتم انقاذك»، وقـالوا بأنه منذ تلك الساعـة فصاعـداً، هو واقف —لهذا السبب— هناك، وهو حي، لكنه لايأكل ولايشرب، ولاينام، بل يتطلع نحـو الأمـام بتشـوق عظيم إلى نهاية الحيـاة، حتى يمكن تحريره، وكـان دوماً يسأل القـادمين من الحجـاج، الذين يأتون إلى هناك، عما إذا مـاكانـت النساء مـازلن يحملن بالأولاد الذكـور، لأنهم يقـولون أنه مع اقتراب نهاية الدنيـا تتوقف النسـاء عن الحمل بالأولاد الذكـور، وهكذا هو واقف هناك، يتلقى أسئلـة ويجاوب عليهـا، وهذه الحكايات عـابثـة وآثمة، لأنها ضـد الكتابات المقدسـة، وضد الانجيل، ومعـاكسة للإيمان

وللصـــدق، وقـد اخترعت مـن قبل حمقى، ومشردين تستروا تحت رداء التقوى وهم يتجولون في أرجاء البـلاد، ويخترعون مثل هذه الأكاذيب، ويجذبون بذلك القــوم التــافهين ويضللوهم، لابل في بعض الأحيـــان يضللون حتى الناس الذين يبدون أنهم عقـلاء، وأكثر تنبها من أن يتبنوا كلامهم ويصدقوه ويعطوهم المال مقابل كذبهم.

والصـدق يرغمني على الاعتراف بأن هذا قد وقع لي شخصيـا، ففي السنة التي كنت أستعد فيها من أجل حجي الأول إلى الأرض المقدسة، قدم إلى أولم إثنان من المشردين من فلاندرز، حيث أعلنا أنهما قـدما للتو من القدس، ومن جبل سيناء، ورويا عـدداً من الحكايا ت العجيبة، وهما جالسين بين الناس البسطاء في دار الضيافـة، وقد تحلق عدد كبير حولهما من الرجـال والنساء لسماع حكاياتهما، وكـان هناك أرملة محترمة اسمهـا السيـدة آنا فـون كنغسك Kingseik ،سحـرها حديثهما إلى حـــد أنها أخـذتهما إلى بيتها، وعـاملتهما بكرم زائد، حتى تمتلك مـايكفي من وقت للتحادث معهما، ووجهت إليّ في أحـد الأيام الدعوة إلى بيتهـا لمقابلتهما، حتى أستمع لما كـانا يقولانه، لأنها كـانت تعـرف أنني كنت على وشك الشروع برحلتي إلى الأماكن المقـدسة، وشرعـا بحكايتهما الكاذبة، وكان من الواضح وبطبيعة الحال أنني لم أصـدق شيئا مما أخبراني به، ولا أريد أن أكرر الكذب الذي أخبراني به، وقـد نصحاني بعدم السفـر بحراً، بل أن أذهب على قـدمي من خـلال هنغـاريا، ودالماشيـا إلى القسطنطينيـة، حيث سيعطيني امبراطور القسطنطينيـة خمسين دوقية، لأنه كـان متعهداً بأن يدفع ذلك المبلغ إلى كل حـاج ذاهب إلى الأرض المقـدسة، وعندمـا قلت في جـــواب لهذا الاقتراح بأن هذا الامبراطور لم يكن مسيحيـــا بل كان تركيا، قام أحـدهما على الفور فتصدى لحجتي بكذبة جديدة، حيث أعلن بأن ملك القدس (كـذا) صار مسيحيـا، وأن المدينة قد تحولت إلى المسيحيـة، وأن هذا الملك لن يسمح لأي إنســان بأن يرسم فـارسـاً في

الضريح المقدس، مالم يتصارع معه ويبرهن على قوته.

وقد أعلنا أن بيعة الضريح المقدس لربنا قد سترت كلها بالذهب الأصفر، وأن مصابيحها معلقة بحوامل ذهبية، وأنه يوجد فوق البيعة الصغيرة العائدة لضريح المسيح هناك مصباح واحد يحترق باستمرار من دون اشعال حيث يتلقى النار والزيت من السماء، وأن القدس كلها قد بنيت بحجارة ثمينة، وأخرج أحدهما قطعة حجر غير مصقولة، قال بأنه وجدها في الطريق في القدس، وقال بأنه على غير استعداد لبيعها مقابل عشرين دوقية، وقال لوأن انسانا عرف الحجارة الكريمة وميزها لكان بإمكانه أن يجدها بأعداد كبيرة هناك بين الأحجار العادية لذلك المكان.

علاوة على ذلك، قام واحد منهما فكشف عن كتفه الأيمن بحضوري، وأراني ندبة حمراء مستديرة عليه، وهي لها شكل مايعرض على هامش (الكتاب)، وأخبرنا أن راعي دير القديسة كاترين على جبل سيناء لديه دولاب ذهبي، كان يضعه فوق فحم يحترق، وعندما يصبح حامياً، يرفعه بملقط ويدمغ به الحاج الذي يكون متعريا لتلقيه على كتفه الأيمن، كما أنهما لم يخافا من تكرار الحكاية الزائفة المتقدم ذكرها حول الذي لطم يسوع، بل زادا بأنهما تحادثا معه، وأنه لم يكن مسموحاً لجميع الحجاج برؤيته، وقد أخبراني بهذا وبأكاذيب أخرى كثيرة مع أنهما لم يريا القدس.

وعندما كنت —الآن— في بيت عناس (حنان)، سألت مازحاً دليلنا، وكان واحداً من الرهبان الفرنسيسكان أين وقف الرجل الذي لطم الرب يسوع؟ فاقتادني الراهب إلى خارج الكنيسة، وأشار إلى شجرة زيتون كانت نامية إلى جانبها، قائلاً:«انتبه، هذا هو الرجل، ذلك أنهم يقولون بأن أظافره قد نمت في داخل الأرض، وتعلقت لحيته على الطرف، مشيراً إلى جذور الشجرة وأغصانها، ويحترم سكان الدير، لابل في الحقيقة جميع المسيحيين الشرقيين هذه الشجرة، ويذكرون أنه كتب في

كتبهم القديمة جداً، بأن الرب يسوع وقف مربوطاً إلى تلك الشجرة، بينما أكل الموظفون وشربوا، لأن عناس كان مسروراً إلى أبعد الحدود، بسبب إلقاء القبض على الرب يسوع، وأعطى لذلك طعاماً وشراباً إلى الذين اعتقلوه، وبناء عليه قبلنا جذع الشجرة التي كانت قديمة جداً، وهكذا، ثم إننا عدنا إلى الكنيسة، وتلونا صلواتنا المذكورة في المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

بيت كيفاس الكاهن الأعلى الذي سخر فيه من الرب يسوع المسيح

عندما غادرنا بيت عناس —الكاهن الأعلى، بادرنا مسرعين نحو بيت كيفاس، وكنا نشعر بالحزن والخشوع، ونحن نسير حيث سار الرب يسوع، وعندما وصلنا إلى البيت وجدناه مغلقاً، وعندما قرعنا على الباب فتح لنا، فدخلنا إلى الكنيسة، وتلونا صلواتنا المحددة في المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقة،(++)، واسم هذه الكنيسة، كنيسة القديس المخلص، وهي قائمة فوق المكان الذي قام عليه بيت كيفاس، حيث يعرف كل مسيحي ماالذي عاناه يسوع في داخله وتحمله، وهناك بحثوا عن شاهد زور يشهد ضده، فلم يجدوا أحداً، وهناك أنكر بطرس ثلاث مرات أنه يعرف الرجل، وهناك ربط الرب يسوع، وغطيت عيناه، وبصق عليه، ولطم، وضرب بكفوف اليد طوال الليل كله تقريباً، وبقي هناك مسجونا لمدة ثلاث ساعات، وبناء عليه بقينا هناك مدة طويلة نتفكر حول هذه الأشياء، ونحن نصلي، وامتلأ المكان بدموعنا، وآهاتنا وتنهداتنا.

ثم إننا بعدما قمنا من صلواتنا ونهضنا، اقتادنا كهنة هذه الكنيسة حول الأماكن المقدسة في الداخل، وجئنا أولاً إلى المذبح العالي في السدة، الذي جردوه من أغطيته المعلقة حتى نتمكن من رؤية الحجرة

التي شكلت لوح المذبح، وكانت هذه حجرة كبيرة، وسميكة، وواسعة، وهي قطعة من الحجرة التي دحرجوها من على فم ضريح الرب، ولذلك قرأنا الاصحاح السادس عشر من انجيل القديس مرقص، وقد كانت فيما مضى حجرة كبيرة جداً، لأنه بعد مضي سنوات كثيرة، قطع المؤمنون هذه الحجرة إلى قسمين، وتركوا القسم الأول قرب الضريح المقدس، في حين جلبوا القسم الآخر إلى هاهنا، إلى هذه الكنيسة، وقرروا جعلها لوحاً، أو منضدة، للمذبح، ولقد قبلنا هذه الحجرة المقدسة، ونظرنا إليها عن قرب، وفي الوقت نفسه راقبنا كهنة الكنيسة بدقة، حتى لايقوم واحد معاً باقتطاع شظية من الحجرة، بآلة حديدية، لأنهم يبجلون هذه الحجرة تبجيلاً عظيماً، وفي الحقيقة لولا وجود هذه الحجرة لباعوا المكان منذ السنة الماضية، لأنهم كانوا رهباناً أرمن في غاية الفقر، ولشدة عوزهم كانوا سيبيعون المكان إلى الرهبان الفرنسيسكان، لأنهم كانوا غير قادرين على إبقاء الكنيسة والدير وترميمهما، وقد أرادوا بيع المكان شريطة أن يأخذوا هذه الحجرة معهم، لأنهم كانوا يأبون ولايوافقون مطلقاً على بيع الحجرة معه.

وحدث في هذه السنة، أن جاء إلى القدس رجل أرمني غني جداً، تولى إعادة بناء الكنيسة المهدمة والدير، وقدم يد المساعدة إلى هؤلاء الرجال الفقراء، وفي اثناء حجي الأول، وصل إلى يدي قطعة كبيرة الحجم من هذه الحجرة، فقد اشتراها فارس بدوقيتين من كاهن أرمني، كان قد دخل إلى الكنيسة مع الفارس خلسة، خشية أن يراه الأرمن الآخرون، واقتطع شظية من الحجرة، وقد مات هذا الفارس نفسه في البحر، وقد ورثت هذه الشظية منه، وأحضرتها معي إلى أولم.

وتركنا بعد هذا المذبح، وفي مقابل المذبح، على الجهة اليمنى من الكنيسة، هناك مررنا من خلال باب صغير إلى قلاية ضيقة ومظلمة، وهي مقامة بوساطة جدران سميكة، وقادرة على استيعاب رجل واحد

وهو واقف، ولذلك دخلنا اليها واحداً تلو الآخر، وكانت هذه القلاية هي الزنزانة التي كان يودع فيها الرجال الذين حوكموا، أو الذين يتوجب جلبهم إلى أمام القاضي، أو احضارهم للاعدام، فهناك يسجنون حتى يحين الوقت لاحضارهم إلى المحكمة، وبناء عليه سجن الرب يسوع هناك، بعد محاكمته، ووقف هناك لمدة ثلاث ساعات، ويداه مربوطتان خلف ظهره، وعيناه أيضاً مربوطتان، وكان وجهه مبصوقاً عليه، وقد غطته الاهانات، وكان يعاني من البرد، وهنا انحينا بأنفسنا نحو الأرض، وصلينا بخشوع، وقدمنا الشكر إلى مخلصنا، وخرجنا بعد هذا من الكنيسة إلى الساحة، أو الباحة في الخارج، حيث كانت هناك نار، وقف حولها بطرس مع الخدم عندما أنكر الرب، وعندما استدار الرب، وألقى نظرة عليه، فضلاً عن هذا، لقد رأينا المكان الذي وقف عليه الديك، الذي لدى صياحه عاد بطرس إلى نفسه، وقد نظرنا بخشوع نحو هذه الأماكن جميعها.

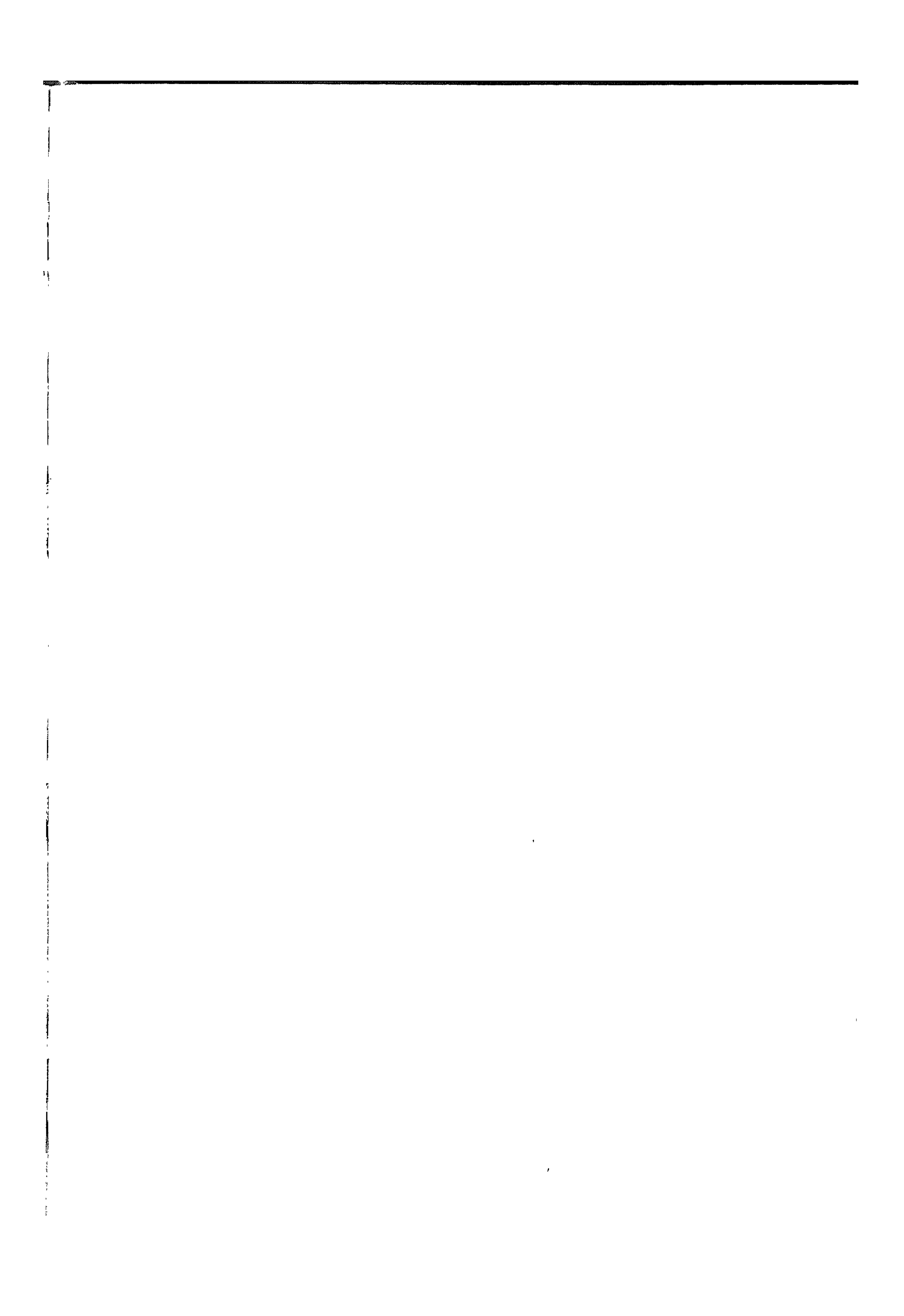
الزاوية التي وقفت عندها العذراء المباركة وهي تنظر نحو بيت كيفاس عندما كان ربنا يحاكم هناك

وخرجنا بعد هذا من ذلك البيت، وأخذنا طريقنا إلى زاوية البيت، التي منها يمكن للانسان أن ينظر بشكل مباشر نحو باب بيت كيفاس، وعليه إذا ماوقف إنسان على الجانب الأقصى من الزاوية، إنه إذا مامدّ رأسه، أو احدى عينيه، إذا ما اختار ذلك، يمكنه أن يرى باب بيت كيفاس، وهو نفسه لايمكن رؤيته من قبل أحد من الناس، لايعرف بوقوفه خلف الجدار، وينظر باحثاً متقصياً حول الزاوية، ففي هذا المكان —حسبما يقولون— وقفت العذراء المباركة، متخفية طوال ذلك الوقت، وهي تراقب الباب الذي من خلاله اقتيد المسيح مغلولاً، راغبة في أن ترى إلى أين سيأخذونه في النهاية.

آه، مع أي أية آلام ودموع، لابد أن العذراء المباركة قد وقفت تنتظر هناك! وماذا تظنون، كانت العذراء ستجيب، لوأن أحداً سألها لماذا هي واقفة هناك، أو من الذي كانت تنتظره هناك؟ لقد كانت العذراء ستجيبه: اطلاق سراح ابنها من أيدي اليهود، وهل كان لديها جواب آخر؟ وكانت ستضيف:«إنني أعرف أن ابني بارع وفصيح، وأنه لو أحضر أمام قاضي عام لربح البراءة، ولأطلق سراحه، ومع ذلك هو على العموم، لطيف، ولايؤذي، وصامت، مثل حمل أمام الذي يجز صوفه، وهو لن يفتح فمه بالدفاع عن نفسه، فضلاً عن ذلك، هو عذب، ومحبوب، ولدي أمل كبير، أنهم سوف يرحمونه، وأنه سوف يعاد إلي، ولهذا وقفت هنا، وأنا مليئة بالقلق، حتى أرى النهاية، وإلى أين سيقاد، فإن كان إلى الحياة، فأنا سأعيش معه، وإن كان إلى الموت، فلسوف أتقدم وأموت معه».

ويقول الناس الأتقياء، بأن بطرس، بعدما أنكر ربه، وخرج من ذلك البيت وهو يتأوه ويتنهد، جاء إلى هذه الزاوية، ومن خلال الخجل والحزن لم يستطع ان يتكلم مع العذراء، كما لم تستطع العذراء أن تكلمه، ولهذا ركض إلى الكهف الذي تحدثت عنه من قبل، ولقد قبلنا هذه الزاوية، وتلقينا غفرانات(+).

المحتوى



الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته

حوالي

(١٤٨٠ — ١٤٨٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن والثلاثون (٢)

دمشق ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته
حوالي
(١٤٨٠—١٤٨٣)

القسم الثاني

المكان الذي قتل فيه الرسول جيمس الأكبر صبراً من قبل هيرود أغريبا

أدرنا عند الزاوية المتقدم ذكرها، ظهورنا إلى كنيسة جبل صهيون، ونزلنا عبر طريق طويل يقود نحو الغرب، وكان ذلك خلال خرائب كثيرة لأسوار عظيمة، ووصلنا أخيراً إلى بيت يشبه البيت الأخير، وهو أيضاً دير، وقرعنا على الباب، وسمح لنا بالدخول، ولدى دخولنا الكنيسة انحنينا بأنفسنا نحو الأرض ونحن نصلي، ثم جاء كهنة الكنيسة إلينا، واقتادونا إلى بيعة قائمة على الجهة اليسارية للكنيسة، فهنا يوجد المكان الذي قتل فيه هيرود أغريبا الرسول جيمس الأكبر صبراً، وهو أخو يوحنا، حسبما قرأنا في الاصحاح الثاني عشر من الأعمال، وكان جيمس الأكبر هذا، أخو يوحنا، قريباً للمسيح، والثالث في الترتيب بين الحواريين، وكان أمين سر ربنا، كما كان الأول بين الحواريين، ممن نال الشهادة، وقد حمل جسده من قبل تلاميذه إلى بحر يافا، ومن هناك عبر البحر بشكل إعجازي إلى كومبوستيلا (في اسبانيا) حيث يزار في هذه الأيام من قبل جميع الناس الذين يؤمنون بالمسيح.

وتلونا في هذا المكان ترنيمة تجاوبية مع بقية القداس المحدد، وتلقينا غفرانات(+)، وهذه الكنيسة عظيمة وعالية، إلى حد أنها أعلى من الكنائس، وليس لها نوافذ، بل يأتيها الضياء من خلال فتحه موجودة في الأعلى، ويملأ الكنيسة، وهناك عدد كبير من البيع من حولها، هي الآن مهدمة ومدنسة، ومعلق في الكنيسة نفسها كثيراً من المصابيح، ومعلق في الوسط مائة وعشرين مصباحاً في ثريا واحدة، ولدى جميع الشرقيين كثير من المصابيح في كنائسهم، وعلى ذلك قناطر السقوف ممتلئة بالحبال والسلاسل، ويوجد في جدار الكنيسة، في الجهة الخارجية، فتحة، أو

نافـذة عمياء، أو مغلقـة، فيها مـوضـوع صخرتين كبيرتين مستـديرتين، جلبتا من جبل سيناء، ويقولون بأن الملائكة قـد جلبوهما إلى العذراء من أجل مواساتها الروحيـة، لأنه لم يكن مناسباً أن تقوم برحلة حج طويلة، أو أن تغـادر القدس، في حين يمكنهـا بوسـاطة هاتين الصخرتين تعبّـد جبل سيناء المقدس، وهذه هي الكنيسة الكاتدرائيـة، ولها رئيس أساقفة، وكهنة تابعين للطقوس الأرمنية، وهم —على كـل حال— يدعون باسم اليعاقبة، ويدينـون بالطاعة لكنيسة روما، ورئيس الأسـاقفة، رجل جاد، ولائق جسدياً، ومحترم أن تنظر إليه، وكـان يسرنا أن نتحدث معه، لكن مـاكان أحـد منا بإمكانه فهم لغـة الآخر، وهؤلاء اليعـاقبة ليسـوا ذوي بشرة سوداء، مثل المسيحيين الشرقيين الآخرين.

المكان الذي التقى المسيح فيه بالنساء بعد قيامه من الموت وقال: سلام لكن

وبعـدمـا فرغنا من رؤيـة الأشياء المتقـدم ذكـرها، خـرجنا من ذلك الدير، وتـابعنا سيرنا على طول الطـريق، ووصلنا على طريقنـا إلى مكان أقيمت فيه صخـرة عظيمة في الطريق العـام، وأقيمت هذه الصخرة على هذا الشكل من قبل المسيحيين القـدمـاء فوق تلك البقعـة، لأنه في هذه البقعة ظهر الرب إلى المريمات الثلاث، عندمـا كن عائدات من الضريح، وقال لهن:«سلام لكن»، وتقدمن نحـوه، وأمسكن بقدميه، وسجدن له، فهـذا مـانقرأ عنه في الاصحـاح الثـامن عشر من انجيل القـديس متى، وبناء عليـه انحنينا بأنفسنا نحـو الأرض، وقبلنا المكان الذي سار عليـه المسيح، وخطا عليه بقدميه، وقبلنا الصخرة أيضاً، وتلقينا غفرانات(+).

ولقـد قام هنا فيما مضى كنيسـة كبيرة، هدمها المسلمـون، مثلما فعلوا بكنائس أخـرى كثيرة، وبعـد هذه الصخـرة، ينزل الطريـق من جبل صهيون إلى ضريح الرب، ولهذا اعتدنـا نحن الحجاج أن نمرّ بهذا المكان

كل يوم، وحدث في بعض الأحيان، أننا كنا نمرّ ست مرات في اليوم الواحد، ومن عادة الحجاج أنهم كلما مروا بأي مكان مقدس —مع أنه لم يكن في برنامجهم أومقاصدهم زيارة أماكن مقدسة— أن يقوموا بتقبيله ومن ثم يمضون في طريقهم، وبناء عليه، كنا كلما مررنا بالصخرة المتقدم ذكرها، نقوم بتقبيلها، غير أن المسلمين الذين كانوا يعيشون في البيت المقابل للصخرة، عندما شاهدوا هذا، ضاقوا به، وغاروا من خشوع الحجاج، فجاءوا بالليل، ولوثوا الصخرة بالغائط، فجعلوها قذرة تماماً، ومقززة لنفوسنا حتى نقبلها، ومع هذا قام واحد من الحجاج الذين لم يتحملوا هذا، فمسح الصخرة بثيابه، ونظف مكانا منها، أمكننا الوصول إليه وتقبيل الصخرة، وعلى هذا أمكننا أن نقدم احتراماً لها ليس أقل من ذي قبل، لابل أكثر، مما سيضايق المسلمين ويزعجهم، وهذا التلويث وإبداء قلة الاحرام فعله المسلمون، في كثير من الأماكن المقدسة في القدس، وفي أماكن أخرى.

برج داوود الذي ينهي جبل صهيون باتجاه الغرب

وعلى مسافة ليست بعيدة، لدى سيرنا باتجاه الغرب، وصلنا إلى زاويةجبل صهيون، وذلك حيث ينتهي باتجاه الغرب، فهناك كان يقوم برج داوود، وهو قائم هناك في هذه الأيام، حيث الموجود هو قلعة حصينة جداً وجميلة، مع موقع حصين، فوق شرف صخري منحدر، ومن حول القلعة هناك دوماً خندق عميق بشكل طبيعي، عنده يتصل جبل صهيون بالمدينة، ففي ذلك المكان كانت ميلو، وهي (القلعة) محصنة من جهة الجنوب، في هذه الأيام، بواد عميق، وتمتلك القلعة أيضاً أسواراً عالية، وعدداً كبيراً من الأبراج، وأبواباً لها حواجز حديدية، وأمكنني في يوم آخر أن أرى القلعة من الداخل، ووقفنا وقتها بدون حراك نحدق ببرج داوود الذي غالباً ماورد ذكره في الكتابات المقدسة، وننظر أيضاً إلى ميلو، وتفكرنا هناك كيف كان شكل القدس

ومنظرها في الأيام الغابرة، لأنها قد تشوهت الآن بما تعرضت له من أعمال حصار كثيرة، وامتلأت وديانها العميقة بأكوام ركام الخرائب التي وقعت فيها.

وعلى مقربة من برج داوود هناك طريق نازل إلى المدينة، وإلى الضريح المقدس، وذلك من خلال شارع طويل.

المكان الذي افترق فيه الرسل أحدهم عن الآخر في أرجاء العالم

وعندما فرغنا من النظر إلى برج داوود، انعطفنا، وأدرنا ظهورنا إلى الغرب، وعدنا عبر الطريق الذي كنا قد أتينا عليه، وذلك حتى الزاوية التي وقفت فيها العذراء المباركة تنتظر، كما تحدثنا من قبل في صفحة ٤٣٢، وسرنا من هذه الزاوية مسافة قصيرة باتجاه الجنوب، ووصلنا إلى مكان يتقاطع فيه طريقان، على شكل صليب، وعلى هذا يستطيع الانسان الذي يقف في وسط الصليب الذي نجم عن تقاطع الطريقين، يستطيع أن يذهب إلى الشرق، أو إلى الغرب، أو إلى الشمال، أو إلى الجنوب، وهذا هو المكان الذي افترق فيه الرسل، ذلك أنهم تحدثوا مع العذراء المباركة في العلية، حول تفرقهم وانتشارهم في أرجاء المسكونة كلها، وذلك وفقاً للأمر الذي تلقوه، حسبما ورد في الاصحاح الأخير من انجيل القديس مرقص، وكان ذلك بعد تلقيهم للروح القدس، فقد بشروا أولاً بالانجيل في أرجاء اليهودية، إنما بعد مضي بعض السنوات أرغموا بوساطة العذاب الذي تلقوه من اليهود، فكان في اليوم الخامس عشر من تموز أن استعدوا —بناء على طلب من العذراء المباركة— للانطلاق نحو الخارج، حاملين معهم لاشيء سوى مبادىء إيمانهم، التي وضعها الرسل الاثني عشر مع بعضهم خلال المجمع الأول الذي عقدوه فيما بينهم على جبل صهيون.

وعندما دنت ساعة رحيلهم، انحنوا بأنفسهم باحترام كبير، أمام

قدمي العذراء مريم الأعظم قداسة، وسألوها المباركة والإذن بالمغادرة، وأنهضتهم العذراء، وعانقت كل واحد منهم، وأعطتهم مباركتها وهي نفسها غارقة بالدموع، وبعثت بهم إلى طريقهم وهي تنتحب، ونزلوا جميعاً من العلية، وساروا، حتى جاء هؤلاء الرجال الذين كانوا على وشك الانطلاق للتبشير بالصليب، ووقفوا في مصلبة ذلك الطريق، وهناك اندفعوا نحو بعضهم بعضا، يتعانقون ويقبل أحدهم الآخر، وافترقوا أحدهم عن الآخر مع كثير من الدموع، وتفرقوا في جميع أرجاء المسكونة، حيث مضى ثلاثة منهم إلى الشرق، وثلاثة إلى الغرب، وثلاثة إلى الجنوب، وثلاثة إلى الشمال، أي إلى أركان الدنيا الأربعة، فقد ذهب متى، وتوما وبارثلميو مع تلاميذهم وأتباعهم باتجاه الشرق، وبطرس، وأندرو، وجيمس الأكبر إلى الغرب مع أتباعهم، وذهب نحو الجنوب جيمس ويوحنا ومتياس مع تلاميذهم، وإلى الشمال ذهب سمعان وثاديوس وفيليب مع أتباعهم، وأخذ كل واحد منهم يبشر في كل مكان، حتى يمكنهم تمجيد أجزاء الدنيا الأربعة بعقيدة التثليث.

وبناء عليه وقفنا في هذا المكان وقدمنا الحمد للرب، الذي بعث من هذا المكان الرسل المقدسين إلى جميع المسكونة، وبتمجيدنا لإيمانه عدنا إلى هاهنا، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات(+)، وتداعى إلى خاطري في هذا المكان الفراق الحزين، وانشقاق إخواني من دير أولم، الذي كنت شخصيا شاهداً له، فقد حدث في سنة ١٤٧٦ لتجسيد ربنا، في اليوم نفسه الذي افترق فيه الرسل، وكان ذلك بسبب تمسكنا بمولانا البابا، وبالكنيسة الرومانية، ولأننا عددنا ماقمنا به صحيحاً، ومقدساً، وهو بالحقيقة ضروري أن نقوم به، أرغمنا على ترك ديرنا ومدينة أولم، وتفرقنا وتوزعنا على أديرة المنطقة، لأننا لم نكن لنأثم ونتصرف على عكس الأوامر الرسولية، وتمسكنا بالحرمان الذي أنزل على المنطقة، واعترفنا بالأسقف الذي قدمه

البابا وثبته، ولم نعترف بالذي جرى انتخابه من قبل القساوسه ودعمه الامبراطور، وبقينا في المنفى لمدة ثلاثة أشهر، ثم إنه بعدما أعيد عقد السلام ثانية، عدنا مع مجد عظيم واحترام كبير، ولذلك رسمنا، أنه مادام الدير موجوداً، ينبغي الاحتفال بعيد افتراق الرسل احتفالاً مزدوجاً، ليبقى ذلك ذكرى دائمة لهذا الأمر، ولكي يتعلم الذين سيأتون من بعدنا، ولكي يعرفوا أن عليهم عدم رفض إطاعة الأوامر التي صدرت عن الرسل خوفاً من أية محنة، وأن نؤثر الذهاب إلى المنفى، لابل أن نؤثر حتى لقاء الموت، ولقد تحملنا أشياء كثيرة في أيام المحنة، التي استمرت حوالي السنتين. لكن في هذا كفاية.

مزار القديس يوحنا الانجيلي حيث أقام قداساً وعمل قرابين لمريم العذراء

وإثر مغادرتنا للمكان المتقدم الذكر، وصلنا بعد ذلك إلى مكان مقدس جداً، حيث قام فيما مضى مزار، فيه أقام القديس يوحنا الانجيلي قداساً يومياً، وكان ذلك طوال الوقت الذي بقيه في القدس، بعد صعود ربنا، وعمل قرابين لمريم العذراء المباركة جداً، التي عُهد بالعناية بها إليه من قبل ربنا، وهو على الصليب، وقد تلقت القربان يومياً بأعظم خشوع، لأنه مع أن القرابين العائدة للشريعة الجديدة جرى تحديدها، ورسم بأن يتلقاها جميع الناس، آثرت المليئة بالنعمة أن تتلقاهم على يدي يوحنا كاهنها، في أثناء أسقفيته، التي كانت هناك، وأخذت العذراء القربان: (١) بسبب تواضعها، و(٢) لتجنب إثارة المضايقات، و(٣) لتنفذ الأوامر، و(٤) بسبب عقيدة النوافل، و(٥) لمضايقة الهراطقة الذين أعلنوا أنها ملاك، وليست من بني البشر و(٦) لتقدم مثلاً عن الذين صنعوا كاملين.

ومع ذلك شاركت يوميا، وفق طريقة خاصة، في قربان التوبة،

وتسلمت يوميا —وفقاً لبعض المرويات— قداس القربان المقدس في هذا المكان من يدي القديس يوحنا، ومع أنها كانت بريئة من كل ذنب، غالباً ماعملت قداس الاعتراف، دون أن تتهم نفسها بأي ذنب، وليس لاعلان نفسها أنها غير ممتنة للمنافع التي أضفيت عليها، وهو الاعتراف المتداول الذي يقوم به الرجال المقدسون الذين أمضوا حياتهم من دون جريمة، بل جاء اعترافها بأن فضائلها غير كافية حتى تكون جديرة بمثل هذا القدر من النعمة التي أضفاها عليها الرب، وللمكافأة التي لم تستحقها أبداً de condigno، ولايمكن أن يستحقها أي مخلوق، مع أنها تستحقها De congruo .

** ** **

وهكذا وقفنا في هذا المكان المقدس، وصلينا بخشوع، وانحنينا بأنفسنا نحوالأرض، وقبلنا مكان الخطوات، وتلقينا غفرانات، ولايوجد الآن أي بناء قائم فوق تلك البقعة، باستثناء أن هناك جدار جاف حولها، ويقوم في وسطها حجرة كبيرة، فيها مكان مجوف بآلة معدنية، فيها اعتاد القديس يوحنا على حفظ كأس القربان.

المكان الذي كان فيه بيت مريم العذراء المباركة والذي فيه فارقت هذه الدنيا

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، وصلنا بعد مسافة قصيرة إلى مكان آخر، محاط بجدار أعلى، من الحجارة الجافة، وتقول المرويات، بأنه هاهنا كان يقوم بيت العذراء المباركة، حيث عاشت فيه حياة عادية لمدة أربعة عشر عاماً، وعلمنا من قرآن محمد (صلى الله عليه وسلم) بأنها عاشت هناك خمس سنوات فقط وأنها عمرت ثلاثاً وخمسين سنة، وهذا ماقاله أيضاً نيقولا دي كوسا في السفر الثاني — الاصحاح ١٥، ويقول بعضهم بأنها عاشت مدة أطول، ويقول آخرون بأنها عاشت مدة أقصر، بعد

صعود ربنا، وعندما دنت نهاية حياتها واقتربت، رجت يوحنا الذي قدم لزيارتها مع بقيــة الرسل، أن يعمل لها قــداس حماس عظيم، مع أنها لم تكن ضعيفـة، أو مـريضـة، أو فـاقدة لقـوتها، أو مـرهقـة بتقـدم السن، وكذلك لم تكن ملزمة بتلقي مثل هذا القداس، لأنه كان يعمل للمرضى فقط، ومع ذلـك تركت نفسهـــا لهذا الامتيـــاز، بالبراءة مـن الضعف، وأخفت ذلك حتـى وصلت إلى نهاية حيــاتها، مثلما اختـــارت أن تخفي امتياز عذريتها عندما عملت طقوس الطهارة التي فرضتها الشريعة.

ولهذا قـامت وهي متمـددة هناك مع أكثـر الحب إلهاباً، ومع أعـذب مشـاعـر الضنـى، فتلقت بتـواضع هذا القـربـان المحـدد كما هو معلوم للمذنبين، ولاحظ هناك التعبير عـن إنجاز نصرها في الماضي، وعن كمال مجدها في المستقبل، فقـد تسلمت في مكان الإعفـاء من الذنب العـرضي الوقـــاية من جميـع الآلام، وفي مكان التخفيف من آلام المرض، المجــد لجسدها كله، ومآأن تسلمت القربان حتى عهدت بروحها وأسلمتها إلى يدي الرب، وغـادرت هذه الحياة، بينما وقف مـن حول فـراشها جماعـة الرسل المجيدة، وعصبة المائـة والعشرين عذراء اللائي كن بلادنس، مع كثير من الأرامل، لهن تركت جسدها من أجل الدفن، وبناء عليه انحنينا في هذا المكان المقـــدس بـأنفسنا نحـــو الأسفل، وصلينا، ورتلنـا تراتيل الحمد المعينة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

وهذا المكان متميـــز، لأنـه مـــوضع تقـــديس من قبل كـل من جميع المسيحيين، ومن قبل كثير من المسلمين، ومع ذلـك لايوجـد هناك بناء، باستثناء جـــدار من الحجـارة الجافـــة، ويبـــذل الرهبـان الفـــرنسيسكان جهودهــم مع السلطان، للحصول على إذن لبناء بيعـة، وإقامة مـذبح في هذا المكان، لأنهم لايتجـرأون على وضع أية حجارة مع مـلاط من دون إذن من الملك والسلطـان، وهـم يأملون بـالحصـــول على الإذن، ولقـــد سمعت أنه بعـدمـا حصل هـؤلاء الرهبـان على إذن كـامل وإجـازة من

السلطان، لتنفيذ مارغبوا به، وبعدما أنفقوا كثيراً على بناء مزار، اقتحم المسلمون الهائجون هياجاً عظيماً المزار، وسووه على الفور مع الأرض، وكذلك فعلوا بالبناء كله، ولهذا إن المكان الآن في هذه الأيام كماهو عندما رأيته.

المكان الذي اختير فيه القديس متياس من قبل الجميع ليكون رسولاً بدلا من يهودا

وليس بعيداً عن هذا المكان، وصلنا، ونحن ذاهبون إلى كنيسة جبل صهيون إلى صخرة حمراء، في المحل الذي جرى فيه اختيار القديس متياس رسولاً، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من الأعمال، وجاء اختياره ليحل محل يهوذا الخائن، فقد جرى اختياره في هذه البقعة ليكون خليفة له، وانحنينا بأنفسنا في هذا المكان للصلاة، وتلقينا غفرانات، وغنينا التراتيل المحددة، وبدا هذا المكان بالنسبة لنا أكثر قداسة، وقريباً منا، لأن جسده المبارك محفوظ بيننا في ألمانيا في مدينة ترفس Trèves.

المكان الذي رسم فيه جيمس الأصغر أسقفاً للقدس

ولدى مغادرتنا لهذا المكان تابعنا سيرنا، ووصلنا إلى سور مقبرة الرهبان، ويوجد في السور حجرة بيضاء معلمة بصليب، فهناك يوجد المكان الذي انتخب فيه جيمس الأصغر، ومن ثم رسم أسقفاً للقدس، وحيث أيضاً جرى إقامة قداس من قبله، فلأن هذا الرسول كان رجلاً فائق القداسة، أضفى عليه الرسل، بعد صعود ربنا، شرف أن يكون الأول فيما بينهم في إقامة القداس، وذلك بحضور الرسل، وقد رسموه أسقفاً للقدس، معتقدين أنه سوف يكون أكثر قبولاً لدى شعب القدس، من أي واحد آخر، فبسبب قداسة حياته الفائقة العظمة، سمح له بالدخول إلى قدس الأقداس، الأمر الذي لم يسمح القيام به لأي

واحد آخر من الرسل، ولقد كان ناصرياً من رحم أمه، لم يشرب خمرة أو شراباً قوياً، ولم يأكل لحما، ولم يمر الحديد على رأسه، ولم يدهن قط بالزيت، ولم يستخدم الحمام، وارتدى دوما الكتان، وركع للصلاة بشكل متواصل، حتى أصبح الجلد على ركبتيه قاسيا مثل الجلد على كعبي قدمي الانسان، وكان محترما كثيراً من قبل الناس، بسبب قداسته الفائقة، حتى أنهم اعتادوا على التصارع أحدهم مع الآخر للمسه من ثوبه، وكانت خاصية القديس جيمس أنه كان لوحده يشبه ربنا، في جميع مظاهر جسده، وفي طريقة حديثه، وفي وجهه وفي حياته، فلقد كان مثل يسوع، وكأنه أخوه التوأم، ولذلك حدث بعد صعود ربنا أن جاءت أعداد كبيرة من الناس إلى القدس من مختلف أجزاء العالم حتى يتمكنوا من رؤية الرب يسوع في شخص جيمس، وكان بين هؤلاء اغناطيوس الشهيد، والقديس بولص الرسول، وذلك كما قرأنا في الرسالة إلى الغلاطين:١٠/ ١٩، ولهذا السبب عرف باسم «أخي الرب».

وهكذا تلونا في هذا المكان صلواتنا، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي جرى فيه تعيين الشمامسة السبعة للقيام بمهامهم

ومباشرة قدمنا بعد هذا إلى المكان الذي يبجل بالعادة، بسبب اختيار الشمامسة السبعة، الذين قرأنا عن اختيارهم في الاصحاح السادس من أعمال الرسل، لأنه مع تزايد أعداد المؤمنين بعد ارسال الروح القدس، قامت شكاوى حول القداسات اليومية، فبعضهم أثقل بالأعباء، وبعضهم أهمل، ولهذا اختاروا سبعة رجال ذوي سمعة مرضية، وعادات ونعمة، وقد عينوهم للقيام بأعباء الأعمال والقداسات وكان من بينهم القديس اسطفان هو المقدم، لأنه كان مليئاً بالنعمة والشجاعة.

وفي هذا كفاية، فقد قدمنا هنا الحمد للرب، وتلونا الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي صنف فيه الرسل قانون العقيدة المسيحية في اثني عشر بنداً

ومن المعتقد أنه يوجد إلى جانب مكان الاختيار، المكان الذي اجتمع فيه الرسل في مجمع مقدس، وذلك بعد قدوم الروح القدس، حيث أعطوا الكنيسة اثني عشر بنداً حول عقيدتها، وقد قاموا بنظمهم من أجل أن تبشر الكنيسة بهم، وبالإيمان بهذه البنود أنقذنا جميعاً، وصرنا أبناء الرب بالتبني، ولهذا يستحق هنا المكان أن يبجل كثيراً، وقدمنا فيه اعترافنا بالعقيدة الصحيحة، ومن ثم بادرنا مسرعين نحو أماكن مقدسة أخرى. (انظر ورقة ١٥٢ظ)(+).

المكان الذي يبجل فيه المسلمون ربنا يسوع المسيح بشكل واهم

وهناك على مقربة من جدار الحجارة الجافة الذي يحيط بقاعدة كنيسة جبل صهيون القديمة، أماكن معينة فيها يمارس المسلمون والمسيحيون الشرقيون اهتمامات واهمة، خاصة في مكان قرب موضع تفرق الرسل، وذلك تحت شجرة تين حيث هناك كومة كبيرة من الحجارة، إليها تأتي النساء المسلمات في كل يوم، فيحرقن البخور فوق الحجارة، ويدفن أرغفة من الخبز، ذلك أن المسلمين يؤمنون أنه هنا— وليس في الجلجلة، حيث تقوم كنيسة الضريح المقدس — يوجد ضريح يسوع، وأكثر من هذا، إنهم ينظرون نظرة استخفاف نحو تلك الكنيسة، ونحو الضريح الموجود فيها، ولايرون هناك، بل هنا، موجود ضريح يسوع، ويقولون بأن الذي عانى على الصليب الصلب، والذي عدّه اليهود على أنه يسوع، قد دفن بالفعل هناك بالأسفل، لكن مع ذلك هو لم يكن يسوع، بل كان رجلاً آخر، اعتقل وأعدم عوضاً عنه، وأنه هو قد نجا لأنه كان ابن الرب والعذراء، ولذلك كان قادراً على النجاة، وأنه قد مات بسلام هناك، وقد دفن في هذا الموضع، وهنا يتشفعون به من أجل مساعدتهم،

لأنهم عندمـــا يكونون في ضيـق يحملون أنفسهم إلى الرب يســـوع وإلى مريم العذراء المبـاركة، لكنهم لايفعلون ذلك كمؤمنين، بل مع كثير من التصـــورات الواهمة، وذلك مثلما يفعلـون في بعض الأحيـــان فيرسلون أولادهم الـرضع إلى المسيحيين من أجل تعميـــدهم عنـدمـــا يكـونون مرضى، مفترضين أنهم سـوف يشفون، أو يتحسنون بصحتهم الجسـدية بوساطة التعميـد، غير فاهمين أو مـؤمنين بأي شيء حول التأثير الخاص للتعميـد، وقد ذهبت مـراراً إلى تلك الكومـة من الحجارة عندمـا كنت لاأخشى من وجود أي مسلم سوف يـأتي إلى هناك، وكنت أقوم بتفريق الحجـارة التي صفت هناك مع بعضهـا من أجل تلقي النار، وأنبش عن الأشيـاء التي أخفـوها تحت الحجـارة، وبذلك أترك عـلامـات انتقـامي هناك.

حديقة دير رهبان جبل سيناء

وخلف هذه البقعـة، وعلى مقـربة مـن دير جبل صهيـون، إنما خلف ساحتها، وعلى جـوانبها الجنوبية، والشرقية، والشماليـة، وعند نتوء جبل صهيـون، يمتلك الرهبان حـديقـة واسعة اشتروها في العـام الماضي من المسلمين — بناء على إذن من السلطان— مقابل كثير من الذهب، ولقد دخلنا إلى هذه الحديقـة، ووصلنا أولاً إلى مقبرة الرهبـان، حيث يدفنون الموتى من رهبـــانهم، وهناك صلينا لصـــالح أرواحهم، ثـم أننا لاحظنا وجـود عدد من البرك العميقـة هناك، وهذه قد أقـامها الرهبـان بعدمـا اشتروا الحديقـة، وشرعوا في حفـرها، وكـانت هذه البرك مليئة بالتراب والحجـارة، ولكنهم نظفوهن هـذه وأعدوا مجاري لجر الميـاه إليهن، ففي الأنواء الممطرة يجمعـون فيهن أفضـل أنواع الميـاه، لأن الميـاه في البركـة الموجودة أمام مطعمهم، التي أتيت على ذكرها في ص٤١١ لم تكن كافية لاحتيـاجـاتهم أثناء الصيف، وفي الحقيقـة لم تكفهم عندمـا كنت أعيش هناك، ولهذا كـانت هذه البرك في الحديقة ضروريـة جداً بالنسبـة إليهم،

لأنهم قبل أن يشتروا الحديقة اعتادوا على المعاناة كثيراً من الحاجة إلى الماء في السنوات الحارة والجافة، لكنهم الآن وقد امتلكوا هذه الحديقة، لايمكنهم أن يحتاجوا إلى الماء، الذي يعد شيئاً عظيماً في القدس، ويوجد في هذه الحديقة، إلى جانب البرك كثيراً من الأشجار من مختلف الأنواع من أمثال التين والرمان، وماشابهها، وكذلك حشائش الطبخ لاستخدامات الدير، وهذه الحديقة مربعة، وقائمة على نتوء جبل صهيون، حيث يوجد على جانبها الغربي، الدير والكنيسة، وشرف جبل صهيون الذي هو على سويتها نفسها، ويوجد على أطرافها الثلاثة وديان، وهي محاطة بجدار من الحجارة الجافة، ويوجد على طرفها الجنوبي وادي حق الدم، وجبل جيحون، وعلى طرفها الشرقي وادي سلوان، وجبل العدوان، وخلفها وادي شعفاط مع جبل الزيتون، وكان على جانبها الجنوبي ميلو والمدينة المقدسة.

ولقد مشينا من حول الحديقة المسورة، ونظرنا من فوق جدارها نحو الأسفل إلى الوديان وعبرهم إلى الجبال من خلفهم، والمنظر منظر مبهج إلى الانسان الذي يعرف الكتابات المقدسة، فالجدار الذي يحيط بالحديقة قائم فوق حافة جروف حجرية منحدرة، ومن الممكن أن يرى في هذا سور صهيون القديم جداً، مع أساسات أبراجه، وأشياء كثيرة ممتدة هناك أمام أعين الناس، ورد ذكرها في الكتابات المقدسة، والتي من الصعب فهمها من قبل الانسان الذي يتولى قراءتها، من ذلك على سبيل المثال ماورد حول ميلو، وحول جيحون، وحول الوديان، وهكذا، وفي أثناء وقوفنا ونحن نتطلع من حولنا من ذلك الارتفاع، قام حديث بين فرسان من الحجاج العلمانيين، وهو جدير بالتسجيل، فعندما كنا منحنيين فوق الجدار، ننظر نحو القدس، ووادي شعفاط، أهمل هؤلاء العلمانيون كل شيء كان أمام أعينهم، ووجهوا أنظارهم وركزوها على المعبد، الذي اسمه معبد سليمان، فقد أعجبوا به وكانت لديهم رغبة

بالدخول إليه، والنظر إليه، وتناقشوا طويلاً واحدهم مع الآخر حول كيف أمكن لهذا الهيكل البقاء من أيام سليمان حتى الوقت الحالي، وعندما كانوا يتكلمون هكذا أصغيت بصمت، ولكن بعدما تكلموا طويلاً وبشكل غير مفيد، قلت لهم: «سادتي، وأصدقائي الحجاج، ماهو السبب في أنكم لم تسألوا أسئلة، ولم تعلقوا حول المناظر المقدسة والرائعة الماثلة حول أعينكم، وفقط تحدثتم حول أشياء لاقيمة لها»؟ وعلى هذا أجاب واحد منهم: «نحن نعرف هيكل سليمان هذا من خلال تقرير عام، وبالنسبة لنا لاشيء هو أكثر قداسة، ولاشيء أكثر روعة، ولاشيء أكثر جمالا أمام أعيننا، وبالنسبة للجبال والوديان الموجودة من حولنا نحن لانهتم بها، كما أننا لانعرفها»، وكان ماقاله صدقاً، لأن الحجاج لم يعرفوا شيئاً بعد عن جبل الزيتون، وعلى ماقاله أجبت: «هيكل سليمان ليس مرئيا، لأنه زال من الوجود منذ زمن بعيد، وهذا الهيكل الذي ترونه الآن هو الهيكل الرابع —الذي بني فوق تلك البقعة منذ بناء هيكل سليمان، وأنتم ماهو شأنكم بهذا الهيكل؟ ففيه لايعبد المسيح، بل يجدف ضده فيه يوميا، ومحمد (ﷺ) هو الذي يحمد، فهل أنتم قد جئتم إلى القدس من أجل تلك الكنيسة المدنسة والمنحطة؟ وبناء عليه لماذا لاتنظرون عبر الوادي القائم أمامكم، ونحو الجبل القائم هناك مقابيلكم»؟ وعندما قالوا بأنهم لايعرفون تلك الأماكن، قلت: «عجباً هذا الوادي هو وادي شعفاط، الذي ستجتمع فيه الدنيا كلها مع بعضها في يوم الحساب، وذلك الجبل القائم هناك مقابيلكم هو جبل الزيتون، الذي منه صعد المسيح إلى السماء.

دعونا نتحدث عن هذين، فهذين هما الشيئين اللذان لنا علاقة بهما، ولاعلاقة لنا البته بذلك الهيكل المشؤوم»، ثم بدأنا حواراً نافعاً حول صغر حجم وادي شعفاط، وحول مواضيع كثيرة مماثلة، وعندما أنهينا هذا الحديث، وصلنا إلى نهاية حجنا إلى الأماكن المقدسة على جبل

صهيون، الموجودة على قمته، أما الأماكن الأخرى المقدسة على جبل صهيون، والتي سوف نزورها في يوم اخر، فسوف نتحدث عنها فيما بعد، وهكذا عدنا إلى أماكن إقامتنا، وكل واحد إلى مكانه الخاص، فقد ذهب الحجاج العلمانيون إلى مشفى القديس يوحنا، ورجال الدين إلى دير الرهبان.

مدح جبل صهيون ووصفه

لقد ورد ذكر جبل صهيون مراراً في الكتابات المقدسة، ويقوم جبل صهيون على الطرف الجنوبي للمدينة المقدسة، وهو قائم أعلى من بقية المدينة، لكن ليس أعلى بكثير منها، وقد كان فيما مضى من أيام محاطاً بالوديان من جميع الجهات، حتى من الجانب الذي يطل نحو مدينة القدس، وعلى هذا كان بينه وبين المدينة هوة عميقة، بها انفصلت المدينة عن الجبل، وقد اعتاد الناس على العبور من المدينة إلى الجبل بوساطة جسر خشبي، وحاول ملوك يهوذا طمّ هذه الهوة حتى يكون صهيون والقدس مدينة واحدة، وقد بذلوا جهوداً عظيمة بجلب الأتربة إلى هناك، وبما أن الجبل قائم متوضع فوق صخور منحدرة من كل جانب، كانوا يصبون التربة نحو الهوة من جهة المدينة، ونحو الشرق أيضاً، من أجل أن ترتفع التربة إلى مستوى ارتفاع أسوار الصخرة، وأن تقام حدائق حول جبل صهيون، كما هو الحال في هذه الأيام، وبناء عليه أطلقوا على المكان الذي بذلوا جهودهم لطمه بالتراب، ولرفعه إلى مستوى المدينة، اسم ميلو، أي «الطم»، وقد وردت الاشارة إلى ذلك في سفر صموئيل الثاني: ٥/ ٩، والملوك الأول: ٩/ ٢٤، وأخبار الأيام الثاني: ٣٢/ ٥.

وعلى كل حال لم يكتمل هذا العمل، لأن بعض الأماكن العميقة بقيت دوما بين المدينتين، ويمكن في هذه الأيام للانسان أن يراهم، إذا ماحدق بتمعن وبحث عنهم في حديقة الرهبان، وقرب برج داوود،

ويبدأ هذا الجبل عند باب المياه، أو نبع سلوان في الشرق، ويعمل نصف دائـرة نحو الجنـوب امتداداً حتى الغـرب، حيث كـان برج داوود، وفي هذه الأيام المكان الذي توجـد فيـه القلعة، وخـلال نصف الدائـرة هذه كلهـا هناك صخـور منحدرة، وحـول وتر نصف الدائـرة تلك، يوجـد مايعرف باسم ميلو، وفوق هذا كان جبل صهيون، وفي هذه الأيام هناك متسع كبير يكفي لمدينة بيبريخ Bieberich أن تقوم عليه، وقام على هذا الجبل في العصور القديمة جـداً، قلعة استولى عليها داوود بعد بذل جهود كبيرة، ومنح اسمه إلى مدينة جبل صهيون، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الحادي عشر، من السفر الأول لأخبار الأيام.

وكـان هذا الجبل فيما غبر من أيام، كله لايرام، فكل انسـان قـد قـرأ سفري المكابيين، سـوف يعرف مدى الجهـود والمتاعب التي توجب على هؤلاء الرجال الشجعان تحملهـا، قبل أن يتمكنوا من اقتلاع غير اليهود من قلعة صهيون، وانه بسبب مناعة صهيون أطلق على القدس اسم ابنة صهيون، كما ورد في الكتـابات المقدسـة، لأن الابنة تنال الحماية من قبل امهـا، وتقف عند قـدميهـا، وكـذلك القـدس هي محميـة من قبل جبل صهيـون، وقـائمة تحتـه، وعلى سبيل المثـال عندمـا نواجـه في الكتـابات المقـدسـة: «أخبرك ياابنة صهيـون، انظري الملك قـادم» فإن معنى هذا «أخبرك يامدينة القدس».

وكلما واجهنا عبارة «جبل صهيون» في الكتـابات المقدسة، ينبغي أن نحملهـا محملاً حسناً، وليس محمـلاً سيئاً، فهي تعني في بعض الأحيـان حـالة الجمال المتفوق، ورؤيا الخلاصـة السماوية، وأحيانا حشـد الملائكة، وأحيـانا انتصار الكنيسـة، وأحيانا الكنيسـة العسكرية، وأحيانا الوحيـد المنتخب من قبل الرب في الكنيسـة، وأحيانا الذين يعيشـون حياة تأمل، وأحيانا بعض الأشخاص في الطوائف الدينية، وأحيـانا أساقفة، وأحيانا وعاظاً.

إن هذا هو الجبل الذي عنه قيل: «جميل الارتفاع فرح كل الأرض جبل صهيون. فرح أقاصي الشمال تقع مدينة القدس» (مزامير:٤٨/ ٢)، وفعلا القدس قائمة على جانبه الشمالي، وقوله أيضاً: «طوفوا بصهيون ودوروا حولها» (مزامير:٤٨/ ١٢) وأيضاً قوله: «لأن الرب قد اختار صهيون» (مزامير:١٣٢/ ١٣) وقوله أيضاً: «الرب أحب أبواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب»(مزامير:٨٧/ ٢)، وأيضاً قوله: «الرب يخلص صهيون» (مزامير:٦٩/ ٣٥)، وكذلك قوله: «ليت من صهيون خلاص إسرائيل» (مزامير: ٥٣/ ٦)، ومجدداً قال داوود عن شخصه وعن المسيح: «أما أنا فقد مسحت ملكي على صهيون جبل قدسي، ولسوف أبشر بالشريعة» (مزامير:٢/ ٦)، وقوله أيضاً: «سمعت صهيون ففرحت»، (مزامير:١٧/ ٨)، علاوة على ذلك قال اشعيا: «صهيون مدينة قوتنا» و«ولسوف يمنح السكينة للذين يبكون صهيون» و«من أجل صهيون لن أهدأ» و«صهيون ملكك هو الذي يحكم».

ولقد طلب منا في أجزاء كثيرة من الكتابات المقدسة أن نصعد إلى جبل صهيون، كما ورد في الاصحاح الثاني من اشعيا قوله: «هلم نصعد إلى جبل الرب» (اشعيا:٢/ ٣)، وقد أخبرنا هو بالذي ينبغي أن نصعد إليه بقوله: «غنيّ للرب الذي يسكن في صهيون» وقوله «سوف يأتون إلى صهيون مع الحمد»، فضلاً عن هذا رغب اشعيا أحيانا أن نقول أشياء عظيمة عن الجبل من ذلك قوله: «ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال، ويرتفع فوق التلال وتجري إليه كل الأمم» (اشعيا:٢/ ٢)، وتحقق هذا القول بإقامة القداسات الأكثر عمقاً على هذا الجبل، وبتدفق شعوب من جميع أمم الأرض إلى هناك.

ويظهر اليهود حماقة كبيرة فيما يتعلق بهذا النص، ويغطونه بالسواد، بسبب خطيئتهم، لأنهم يبرهنون منه أن يسوع لم يكن المسيح الحقيقي، لأنه لدى قدومه لم يرتفع صهيون إلى القمة فوق جميع التلال، ويقولون

بأنه في أيام المسيح سوف ينقل الرب جبل الطور، وجبل سيناء، وجبل الكرمل، ويضعهم حيث القدس الآن، ولسوف يضع القدس وهذه الجبال الثلاثة واحدها فوق الآخر، ولسوف يضع جبل صهيون على قمة القمة العليا للجبال الأعلى، ولأن المسيح لم يفعل ذلك، يقولون بأنه ليس هو المسيح.

وعلينا أن نرد على هؤلاء الأناس العميان التعساء، أن رفع جبل صهيون، يتوجب عدم فهمه برفع المكان، بل بمجده الفائق، وفي هذا المجال سوف يضع المسيح عليه أعمالاً عظيمة ورائعة، مثل تأسيس القرابين، وارسال الروح القدس، وأعمالاً أخرى، كما هو واضح، ومن هذا بيّن أن جبل صهيون جبل مرتفع كثيراً، وسامياً، وعظيم القوة والقدرة، ووفرة كبيرة وامتلاء، وجمال عظيم، وراحة، وثقة عظيمة، وأمان، وثروة كبيرة، وثراء، وبهجة كبيرة وسرور، واستقامة عظيمة، وعدالة، وطهارة كبيرة وقداسة، وعقيدة عظيمة وصدق، ونبوءة عظيمة وإخبار بالأشياء التي ستأتي.

وهو جبل إكمال العهد القديم وإتمامه، وابتداء العهد الجديد، وهو جبل قرابين المسيح، وجبل أعطيات الروح القدس، وهو جبل العذراء مريم، حيث عليه سكنت، وفوقه علمت الرسل، وألهمت الانجيليين، وبعثت بالرسل إلى العالم، ومن عليه فارقت هي نفسها هذه الحياة، والجبل في هذه الأيام هو في أيدي المسيحيين، فهو ميراث رجال الدين، ودار ضيافة للحجاج، ولهذا يسكن المسيحيون فقط عليه، ولايوجد في هذه الآونة مكان إقامة على الجبل لمسلم أو ليهودي، بل يوجد عليه ديرة لرجال مسيحيين، وبناء عليه سألت في أحد الأيام مسلماً أعرفه معرفة جيدة، لماذا لم يبن لنفسه بيتاً على جبل صهيون، بدلاً من القدس، فأجابني على سؤالي: «لأن جبل صهيون صحراء لخلوه من الماء، ولأن الماء يمكن الحصول عليه بسهولة أكبر وبكميات أوفى في القدس، وهذا

ليس متيسراً في جبل صهيون»، ولعل الرب قد قضى بوجوب عوز المسلمين للماء على هذا الجبل المقدس، في حين يمتلك المسيحيون الذين يسكنون هناك كميات وافية.

وهذا الجبل مرتفع جداً، ليس فقط بالنسبة للجبال التي من حوله، بل بالنسبة للجبال التي هي بعيدة عنه، لأن جبال العربية عندما تشاهد من جبل صهيون، تبدو منخفضة، ومع أن هذه الجبال مرتفعة جداً، فإن جبل صهيون أعظم ارتفاعاً من جبال العربية، ويقوم دير الرهبان الفرنسيسكان في بقعة لطيفة جداً، وجميلة، وفي مكان مرتفع، وقبل أن يقدموا إلى القدس كان هناك دير للكهنة النظاميين، لكن بعد فقدان الأرض المقدسة، اشترى ملك صقلية هذا المكان الموجود على جبل صهيون من السلطان، واشترى أيضاً بيعة العذراء المباركة في وادي شعفاط، والكنيسة في بيت لحم مع الدير هناك، وسدد ثمنهم ذهباً، فقد دفع مباشرة اثنتان وثلاثين ألف دوقية من العيار المعتمد، وجلب هو أيضاً الرهبان الفرنسيسكان إلى جبل صهيون، وعهد إليهم بملكية الأماكن المتقدم ذكرها وبإدارتها، ولذلك اعتاد البابا نفسه على تعيين الوصي على دير جبل صهيون مقدماً على الكنيسة الشرقية كلها في هذ المناطق.

ويتمتع الرهبان بامتيازات عظيمة منحت إليهم من البابوات، وهي لاعلاقة لها بموضوعي حتى أتحدث عنها، وغرفة حفظ الذخائر في دير جبل صهيون مهلهلة كثيراً، والكنيسة صغيرة، والرواق ضيق، والقلايات صغار، والبيت على كل حال صغير، يعيش فيه أربعة وعشرون من الرهبان مع بعضهم، يعبدون الرب في الحياة في ظل نظام موضوع، وبسبب تجاوزات المسلمين واعتداءاتهم، اتخذوا لديرهم باباً من حديد، وذلك إلى جانب كلاب حادة، وشرسة جداً نحو الغرباء، وهم يديمون الحراسة، وبعوائهم يكشفون الذين يقدمون إلى هناك

لاقتراف أي إساءة، سواء أكان ذلك بالليل أو بالنهار. وفي هذا كفاية.

هنا بداية الزيارة إلى الأماكن المقدسة في كنيسة الجلجلة، أي كنيسة الضريح المقدس وإلى الضريح المقدس نفسه

في اليوم الرابع عشر، وبداية اليوم من مساء اليوم المتقدم،لأن المسيرة إلى الأماكن المقدسة جرى تعيينها وفق هذه الطريقة: عندما كانت الشمس بالمغيب، أعطي إنذار إلى جميع الحجاج بأن عليهم الحضور بأشخاصهم مباشرة، وأن يكونوا في الساحة أو الباحة القائمة أمام (باب) كنيسة الضريح المقدس، وأن عليهم لهذا التعجل بتناول طعام عشائهم، لأن السادة المغاربة الذين يحتفظون بمفاتيح الكنيسة المقدسة، كانوا ينتظرون الحجاج هناك، وبناء عليه بادرنا مسرعين، آخذين معنا الأشياء التي نوينا أن نستخدمها، ونزلنا إلى ساحة الكنيسة المتقدم ذكرها، حيث وجدنا حشداً غير منظم من المسيحيين الشرقيين، والمسلمين من رجال ونساء وأطفال، وكان هناك باعة السلع الثمينة، قد جلسوا لبيع ما معهم، وكان بعضهم معه أرغفة من الخبز، وبيض وعنب للبيع، وشرينا بعض ذلك ووضعناه في جعبنا ليكون الوجبة التي ينبغي أن نتناولها في الكنيسة، وفي الحال أخذ السادة المسلمون الذين لهم علاقة بفتح الكنيسة، أماكنهم عند باب المعبد المقدس بشكل جاد وحازم، ويوجد هناك أمام الباب على كلا الجانبين حجارة كبيرة من الرخام المصقول، قد وضعت على شكل مقاعد، عليها جلس هؤلاء الرجال، ووجوههم مدارة نحو الخارج، وكانوا رجالاً ذوي حضور جيد، وقد تقدموا بالسنين، يتسمون بالوسامة، لهم لحى طويلة، وأخلاق جادة، ويرتدون ملابس من الكتان، ورؤوسهم ملفوفة بعدد لايحصى من اللفات بقماش كتاني رفيع.

وعندما اجتمعنا كلنا أمام هذه الأبواب، فتحوا أبواب الكنيسة، بمفاتيحهم، ووقفوا إلى جانبهم، وتركونا ندخل اثنين تلو اثنين، وقاموا

بتعدادنا مثلما فعلوا عندمـا خرجنا من السفينة إلى اليابسـة، حسبما تقدم بنا القول، وأغلقوا علينا باحكـام كبير، ولقد قيل عنهم بأنهم على درجة عـاليـة من البراعـة في فن الفـراسـة، وأنهم مـا أن يلقـون نظرة على أي انسان، حتى تراهـم قـد أدركوا وضعه في الحياة، وأحوالـه ورغباته، وقد ذهبنا معهم ونحن نشعـر بالخجل والضيـق، لأنه مـربـك كثيراً أنه يأتي الإذن للمؤمن بالمسيـح والمتعبد له، بالدخول إلى كنيسـة المسيح من قبل واحد كـافر بالمسيح، وأن يسمح هؤلاء بالـدخول لمن هـم أرادوا، لأنهم طردوا من على أبواب الكنيسـة كثيراً من المسيحيين ومن أتبـاع العقائـد الأخـرى الذين أرادوا الدخـول معنـا، وقـد طردوهم بضربهم بعصيهم وبأيديهم، وأعترف أنني وأنا مـار فيما بينهم لدى الدخول إلى الكنيسـة، امتلأت بالاضطراب وشعـرت بخجل عظيم، ولم أستطع أن أحدق بهم بسبب شعـوري بـالخجل والارباك، وليس بسبب ربطـة الصليب التي حملتهـا فـوق ثيـابي، بل بسبـب سلطانهم غير الشرعي وغير الديني على الذين يحملون الصليـب، وهناك جلس أولئك الكلاب (كـذا)، وكأنهم قضـاتنا، ولاشك أنهم حكمـوا علينا بأننا حمقى، بسبب صليب المسيح: بسبب أن اسم الصليب وشارته هما حماقة بالنسبة لهم، مقدر لهما الزوال، وهكذا —على كل حـال— قضت الحكمة الـربانية، بجلب أتبـاع الذي صلب إلى المكـان الذي وقـف فيـه الصليـب، من قبـل الذيـن نظروا باستخفـاف نحـو الصليب، حتى يمكـن لهؤلاء أن يؤمنوا بحماقـة الصليب، وأنهم بذلك يمكن أن يجري خلاصهم.

ومأأن أصبحنا جميعاً بالداخل حتـى قام المسملون برد أبواب الكنيسة خلف ظهورنا بسرعـة وأغلقوها بالمزاليج والأقفال، مثلما اعتـاد الرجال أن يفعلوا بعدمـا يدفعوا باللصوص بعنـف في الزنزانة، وغادروا ومعهم المفاتيح، وبذلـك تركونا لصوصـاً في أروع السجون وأوسعهـا وأكثرها نوراً، وفي حديقـة الضريح الأعظم تقديراً، ألا وهو ضريح المسيح، عند

سفح جبل الجمجمـــة في وسط الدنيـا، آه كم هو سجـن ممتع! وكم هو اعتقـال مـرغــوب به! وكم هو حبس بهيج، وكم هـو عـذب أن يغلق علينا، وأن يبقى المسيحي في الداخل، ومسجوناً في ضريح ربه.

كيف تصرف الحجاج عندما دخلوا أولاً إلى الكنيسة وماالذي حدث مع الراهب فيلكس فابري في حجه الأول

انتبهوا يا إخواني، الصدق يرغمني أن أبدأ باخباركم عن غباء إهمالي، وإثمـي العظيـم، الـذي مـن أجله ألتمـس منكـم أن تصلـوا إلى الـرب لصـالحي حتى لايضع إثمي مـن أجل العقـاب في اليـوم الأخير، وهذا ماحدث لي، أنا الشقي، أثناء حجي الأول، فعندما أودعنا مغلق علينا في داخل الكنيسـة، ولم نعد نخـاف من أي انسان، لأن المسلمين لم يعـودوا بيننا، عندهـا بدأنا ونحن نشعـر بالبهجــة بالركـض إلى هنا وهناك، في أرجـاء الكنيسـة، طالبين الأمـاكن المقـدسـة، من دون اتبـاع أي نظام، وذهب كل انسـان إلى المكان الـذي أراده بناء على طلب روحـه، وأنا لم أسرع، بل مضيت بخطوات بطيئة نحـو وسط الكنيسة، سـائراً من دون أي هدف معين، وبعـدمـا سرت نحو الأمـام مقـدار سبع عشرة خطوة وقفت ورفعت وجهي، أنظر نحو القنطرة التـي فوقي، وألقيت بناظري على النوافـذ العليـا بفضـول، مثل انسـان منحط يحدق بأمـاكن غـريبـة وبيــوت من دون احترام لأي انسـان، وهكـذا وقفت مع نفسي بأعين جوالة.

وبينما أنا واقف هكذا من دون تفكير أو انتباه، جاء إليّ سيدتان، كانتا من الحجــاج، وكـــانت أولاهن ألمانيــة اسمهـــا هيلدغـــارد Hilde-garde وانكبتـا نحـو الأرض أمـام قـدمي، وتمددتا هناك تنتحبــان وتتنهدان، وتقبلان الحجرة التي كنت واقفاً عليها، ودهشت، وارتبكت، وقلت بالألمانية لها: «ما القضية ياسيدة هيلد غارد، حتى تفعلين هكذا»؟

فأجـابتني، وهي تكاد لاتستطيع الكلام، بسبب نحيبها: «عجبـاً ياأخي، إن الحجرة التي أنت واقف عليها، هي حيث مدد يوسف ونيقوديموس الجسد الثمين جداً، العائد لربنا، عندما أنزل من على الصليب، وحنطاه، ولفاه بكفنه فوق هذه المنضدة الحجرية».

وعندما سمعت هذا ارتجفت، وسحبت قدمي برعب، وسقطت فوق الأرض أمـام الحجـرة، وكنت الآن مـرعـوباً مـن لمس الحجـرة بفمي، الحجـرة التـي لم أخف من السير عليهـا، من دون احترام ،بقـــدمي، وصليت ودعوت قائلاً: «يارب لاتتـذكر ذنوب شبابي، والذنوب الحالية الصادرة عن جهلي، مولاي وربي، عبدك المختار موسى، جاءه الأمر من قبلك، عندمـا كان في صحـراء مـدين، بأن يخلع نعليـه من قدميـه، لأن الأرض التي وقف عليها كـانت مقدسـة، ولم يتجرأ يشـوع المقدس على الوقـوف متنعـلاً في حقل أريحا، ومع هذا، أنا الفـارغ من كل قـداسـة، والمليء بالآثـام، تجرأت على الدوس بقـــدمـي المتنعلتين، وبدون احترام مطلق على المكان الذي قـدسته بشخصك، وبجسـدك الثمين جداً، وهو عريان ومجروح، هذا ولايمكنني أن أجد عذراً، لأننا قرأنا أن عزّه سقط ميتـاً لأنه وضع يده على العـربة التي حملت تابوت عهـدك، عندما كـان على وشك الوقــوع، وانظر إننا نمتلك هنا تحت أقـدامنـا مكانا لايمكن مقـارنته، فهـو أعظم من أرض/مدين، ومن حقل أريحا، والحجـرة التي هنا جديرة بالاحترام أكثر من عربة تابوه العهد.

وبناء عليه، مـولاي الرب، اغفر لي، ولسـوف أقدم لك كل الاحترام والتقدير في أماكنك المقدسـة، ولسوف أقدم لك كل شيء آخر مستحق، مع جميع الخشوع الذي أنا قـادر على تقديمـه، والذي أنت بذاتك سوف تضفيه عليّ».

وبعدما صليت على هذه الصورة، نهضت، وبحثت عن موالي ورفاقي في الكنيسة، فوجدتهم جالسين مع بعضهم في بيعة العذراء المباركة حتى

تتشكل المسيرة، وقـام الآن الأب المسـؤول باستـدعـاء جميع الحجـاج، وأطلعهم على أحكام الكنيسـة وعـاداتها، حيث اختصرها لهم إلى ثلاثة عشر عنواناً:

أولاً: أنه أخبرنا، أنه ينبغي على كل حـاج أن يشتري حـامل شمعـة، حيث يتوجب عليه حملهـا مشتعلة أثناء المسيرة، ذلك أن عدداً كبيراً من التجـار قـد دخلوا معنا، وهم يحملون حـوامل شمـوع وأشيـاء أخـرى للبيع.

وثانيهـا: طلب من الحجاج الانتباه والسير بشكل نظامي في المسيرة، وأن لايقف أحـدهم في طريـق الآخـر، أو أن يتـدافعـوا ضـد بعضهم، وذلك مثلما طلب منا في البند السـادس الذي أعطي لنا في الرملة، ولأن المسيرة هنا التي سوف نبدأ بها والمشكلة هنا، هي أكثر قوة، وفيها تدافع أكثر، لذلك قـام هنا بتكرار هذا الأمر مع عدة أوامـر أخرى أعطيت لنا هناك في الرملة.

وثالثها: ينبغي أن نكرس هذه الليلة للرب، وأن نشارك في القداسات الليلية والقداسات الربانية الأخرى من دون تقاعس أو كسل.

ورابعهـا: هو أن لانجعـل بيت الصـلاة بيتـاً للتجـارة، وألا نجلس ونبدد وقتنا بالنقاش مع التجار المسيحيين الشرقيين.

وخامسهـا: هو أنه توجه بالرجاء إلى الذيـن هم رجال دين بالذهاب وإقامـة قداسـات دون أن يختلف أحدهم مع الآخـر، لأنهم اعتادوا على التنازع حول الأمـاكن، فكل واحد منهـم يريد إقامـة قداس في الضريح المقدس لربنا، الأمر الذي كان مستحيلاً في يوم واحد.

وسـادسهـا: هو أنه قـام بتعيين أربعـة مـذابـح من أجل المقيمين للقـداسات، وهـذه المذابح هي: أولها في الضريح المقـدس، وآخر فـوق جبل الجمجمة، والثالث في موضع وضع الحنوط للمسيح الذي تحدثت

عنه، والرابع في بيعة العذراء مريم، وبالإضافة إلى هذه المذابح كان هناك مذابح أخرى كثيرة في أجزاء مختلفة من الكنيسة، لكنها مملوكة من قبل المنشقين والهراطقة، ولذلك لم نقم قداسات عندها.

وسابعها: طلب من جميع الحجاج إعداد أنفسهم للاعتراف، وأن يتناول كل منهم القربان بعد القداس.

وثامنها: هو أنه أعطى الصلاحيات إلى جميع الكهنة من الحجاج، وإلى رهبانه الذين دخلوا إلى الكنيسة معنا، بسماع الاعترافات السرية والعلنية، والتحليل من جميع الذنوب، حتى من الذنوب المحفوظة للكرسي المقدس، لأن الأب المسؤول عن دير جبل صهيون لديه هذه السلطة، مفوضة إليه من البابا.

وتاسعها: منع كل كاهن من القيام بقداس القربان لأي حاج، وهو قائم في المكان الذي يعمل به القداس العام، وأمر أن يتلقى الجميع قداسات القربان، بعد قداس عال، على جبل الجمجمة، وذلك من كاهن معين هناك ومكلف، كل هذا مالم يرغب في منح امتياز خاص لواحد ما.

وعاشرها: حذر الحجاج من الارتكاء والجلوس على الأرض، أو أن يتركوا حاجياتهم، أثناء طوافهم حول الأماكن المقدسة في الكنيسة، وذلك خشية أن يفقدوها، بسبب أن أعمال اللصوصية غالباً ماتقع هناك، مما يثير كثيراً من الريبة والاضطراب.

وحادي عشرها: في حال أن أي انسان يرغب بتقديم صدقات في الأماكن المقدسة، يتوجب عليه في أثناء تقديمهم أن يؤثر بهم الكاثوليك، ولايعطيهم إلى المنشقين، وبين لهم أيها أماكن الكاثوليك وأيها كانت أماكن المنشقين.

وثاني عشرها: حذرنا، كما فعل في البند الأول مما قدمه لنا بالرملة،

بوجوب عـدم كسرنا لأي شيء من الأمـاكن المقـدسـة، كما ينبغي أن لايرسم أي انســان رنكه، خشيــة أنهم بعملهم هـذا يلوثون الأمــاكن المقدسة.

وثالث عشرها: رغـب إلينا في أن يرتفع كل منا في قــرارة نفسـه إلى روح الخشوع الحي، وأننا إذا مارغبنا بالإفادة مـن هذه الأماكن المقدسة، ينبغي أن نبدي نحوها التشريف والاحترام الذي تستحقه.

فيمايلي:

المسيرة حول الأماكن المقدسة في كنيسة الضريح المقدس، وأولها المسيرة إلى بيعة العذراء المباركة، ووصف هذه البيعة نفسها والأماكن المقدسة فيها

وبعـدمـا تلقينا هذه الأحكام، التـي كنا سنلتـزم بها أثناء وجـودنا في المعبد المقـدس، ذهب كل واحد منا إلى التجـار، واشترى كل انسان منا شموعاً من الشمع الأكثر بياضاً، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، مزينة أم ساذجة، كل واحد حسب رغبتـه، ولم يكن هناك نقص بالتفاخر العبثي، ذلك أنه حتى في هذا المجـال، كان لـدى بعضهم شموعـاً برمت بشكل غـريب وزينت بالذهـب، والرسـوم، حيـث حملوها بمبـاهاة، ونظروا باستخفاف إلى الذين حملوا شموعاً ساذجة، موجهين اللوم لهم من أجل تقتيرهم، وجلب بعضهـم كثيراً من الشمـوع، التي أشعلـوها في بيعـة الضريح المقدس، ثم أطفـأوها، وبعد ذلك أخـذوها معهم إلى الوطن في بلادهم، حيث جعلوا زوجـاتهم يحملنهـا عندمـا كن في فـراش الولادة، علهن يلدن من دون مخاطـر، ذلك أنهم يقـولون بأن هذه الشمـوع قـد استخدمت من أجل هذه الغاية.

وفي الوقت الذي كنا مشغـولين فيه بشراء شمـوعنا، قام الرهبـان مع الأب المسؤول بإعداد أنفسهم، فارتدوا الملابس المقـدسة، التي كانوا قد

جلبوها معهم من جبل صهيون، للقيام بمسيرة مهيبة، حول جميع الأماكن المقدسة، وفق النظام نفسه الذي توفر على جبل صهيون، حسبما تحدثنا في ص٤٠١.

وهكذا عندما وقفنا جميعاً مع شموعنا وهي تحترق، بدأ قائد الجوقة الذي وقف على رأس المسيرة، بصوته المرتفع يغني salve Regina، التي غنيناها معه، ووصلنا ونحن نرتل هذه الترنيمة في المسيرة إلى بيعة مريم العذراء المجيدة، وإلى المذبح القائم أمام البيعة، ففي هذا المكان —تبعاً لبعض المرويات القديمة— بقيت مريم العذراء المباركة، من الساعة التي أنزل بها ابنها من على الصليب، حتى ساعة قيامته من الموت، ثم إنها لم تدخل إلى مدينة القدس ثانية.

ذلك أنه كان على مقربة من صخرة الجمجمة حديقة، فيها سكن عدد من الناس الفقراء، حتى في هذه الأيام هناك حدائق خارج المدينة، يوجد فيها بيوت، يسكن فيها أصحاب الحدائق عندما يرغبون، إنما في بقية الأيام يسكن الناس الفقراء فيهم، وهكذا بعدما جرى تعليق الرب يسوع على الصليب، عهد بالعناية بأمه ورعايتها إلى يوحنا، ولذلك أبعدت عن الصليب، غير أنها لم تدع نفسها، بأية وسيلة من الوسائل أن تقتاد بعيداً عن صليب ابنها، أو أن تدخل إلى المدينة، لأنها كانت تعلم أنه لايوجد في القدس كلها مكاناً لإقامتها، بسبب عار ابنها الذي كان عظيماً إلى حد دفع الناس إلى الابتعاد عن استقبال أمه في بيوتهم، ولذلك سمحت لنفسها بأن تقاد إلى مكان إقامة ليس بعيداً عن الصليب، حتى لاتبتعد عن ابنها عندما كان يموت ويسلم الروح، بل أرادت أن تشارك في آلامه كلها، علاوة على ذلك لقد رغبت في أن تعرف وأن ترى ما الذي سوف يصنع بجسد ابنها بعد الموت، من أجل أنه إذا ما رمي في العراء —كما كانوا يفعلون بالأشخاص المدانين الآخرين— أن تحمله إلى نفسها، أو أنه إذا ما دفن أن تكون حاضرة لدى الدفن، وأن تقوم

بطقـوس الجنازة والدفن، وهو —في الحقيقـة— مـافعلتـه، لأنها عندمـا رأت يوسف ونيقـوديموس يعـدّان العـدة لدفن ابنها، ركضت نحـوهما بذاتها وهي مليئة بالحزن، وحضرت عمليـة الدفن، وأحضرت بعد ذلك إلى هذا المسكن، ولم تتحرك من هناك ولم تغادر تلك البقعة.

وفي الحقيقـة اعتـادت أمهـات أُخـر مغـرمـات، على فعل مثل هذا لأولادهن المحبـوبين، وكن إذا مـا أصبـن يبقين دومـا يبكين عند قبـور أولادهن الأعزاء عليهـن،حتى مريم المجـدلية كان من الصعـب ابعادها عن قبر أخيهـا لعـازر كما قـرأنا في الاصحـاح الحادي عشر من انجيل القـديس يوحنـا، فكيف أكثـر من ذلك، كـانت وقتهـا مـريم العـذراء الأعظم مبـاركة، التي أحبت ابنهـا بمالايقارن به حب أي أم أو صـديق لمن هم أعـزاء عليهم! وعلى هذا، كـان إلى هذا المكان، أن قـدم المسيح أولاً بعد قيـامته، ويحدثنـا فنسنتوس Vincentius الذي كان من طائفة الرهبان المبشرين، أنه عنـدما قام الرب من الموت، بعث بجبرائيل أمامه ليبشر أمه، أن قدوم ابنها الأعظم مجداً سيكون بالحال، وبعد ذلك ظهـر ابنهـا نفسه، مـرتديا ثيـاباً ناصعـة البيـاض، وبمـلامح مستبشرة، وبجمال، وببهـاء، وببهجـة، وكانـت ندوبه تشع بشكل متألق، وقـد بدا مسروراً، وحيا أمه، بولهٍ عظيم، وكان قد اقتاد من خلفه جميع القديسين الذين أحضرهم من العـالم السفلي، وهنا من الذي هو قـادر أن يخبر بأية بهجة شعرت العـذراء المجيدة؟ ولهذا غنينا في هذاالمكان المقدس تراتيلنا بسرور، وعندما فرغنا من أغـانينا، وانتهينا من القداس المذكور في كتب المسيرة، دنونا من المكان، وجثونا هناك، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

المكان المحفوظ فيه قطعة من العمود الذي عنده جلد يسوع

ومـا أن فرغنا من غنـاء الترنيمة المحـددة، حتى تقـدمنا نحو الأمـام باتجاه اليمين، وكـان يوجـد هناك نوع من الكوى، أو نافـذة مغلقـة، في الجدار، ووقف في هذه الكوة جـزء كبير من ذلك العمـود الثمين جـداً،

الذي إليـه كان الرب يسـوع قـد ربط، وهو عريان، في بيت بيـلايطس، وجلد بشكل وحشي بالأسـواط وبالعصي، وصعدنا واحـداً تلو الآخر، ولمسنا العمـود المقـدس بأيدينا، حيث أمـررنـاهم من خـلال شبكة حديدية، وهنا أيضاً تلقينا غفرانات مطلقة،(++).

وجلب هذا العمـود في غـابر الأيام، بكامله من بيـت بيـلايطس إلى جبل صهيون، ولهذا قـال القديس جيروم عن باولا: «لقـد أريت (يعني باولا المقـدسـة) على جبل صهيـون العمـود الذي دعم رواق الكنيسـة، وكـان لون هذا العمود أحمر مع دم الـرب، وهو الذي إليه ربط يسـوع، عندمـا أحضر ليجلد»، لكن بعـد دمـار كنيسة جبـل صهيون القـديمـة —كما قلت من قبل— جلب شطر منه إلى هاهنا، وهناك جزء ثالث منه في كنيسة القديس براكسيد Praxede في روما، وقطعة رابعة منه في ليـون في كنيسة القـديس هيرَكـانوس Hyrcanus العدل، كما أن هناك قطعـاً أخـرى منه في كنائس في أجـزاء أخرى مـن العـالم أيضـاً، والقطعـة القـائمة في هذا المكان هـي حوالي الشبر، وسماكتهـا بالعـرض ثلاثة أصـابع، وأربعـة أشبـار بالارتفـاع ولونها أرجـواني، محلى بنقـاط حمراء، ومـرد هذا إمـا طبيعـة الحجـر، أو كما ارتأى جيروم وبيـد، إلى معجزة.

المكان الذي حفظ فيه الصليب بعد اكتشافه وقبل فقدانه

واستـدرنا في هذا المكان إلى الجزء المقـابـل من البيعـة، وهناك يوجـد أيضـاً فجوة في الجدار، حفظت فيـه قطعـة من الصليب الأعظم قداسـة لمدة مائتي سنة، وكانت مرصعة بكثافة بالذهب، والفضة وبالمجوهرات، وقد تولت ذلك حنة (هيلانه) الواسعة الشهرة، فهي التي عثرت عليها، فهي كانت قـد وجدته كاملاً، فأمرت بقطعـه إلى نصفين، وتركت نصفاً هنا، بينما نقلت النصف الآخـر إلى القسطنطينيـة، وطـوال الوقت الذي وقف فيـه الصليب المقـدس في هذا المكان، ازدهرت الكنيسـة الشرقيـة،

وازدادت، وحوت أكثر الناس قداسة، وانتصرت دوماً على أعداء صليب المسيح، لكن حالما انتزع وأخذ بعيداً، ترنحت الكنيسة، وغدت أكثر غرقاً.

وقد قدمنا الاحترام إلى هذا المكان، مع أنه كان خاوياً، وغنينا هناك ترنيمة الصليب المقدس الموجودة في كتب المسيرة، لأنه وإن كان غائباً، نحن رأينا الأمر وكأنه موجود، لأنه ونحن نفكر هكذا، صدرت روائح جميلة وانتشرت من ذلك المكان الأثري، وكأن هذه الروائح قد تخلفت هناك من قبل الصليب المقدس، وليس في هذا من عجب، لأنه بعد ما يجري صب الخمرة من الوعاء، يبقى الوعاء محتفظاً برائحة الخمرة، ومثل هذا مكان حفظ الذخائر هذا، الذي كان حاوياً الخشبة، التي لديها القدرة الدائمة على انقاذ الحياة، بقي هذا المكان محتفظاً برائحة الخشبة فيه، وفي الحقيقة حتى يكون من الممكن لهذا المكان أن يصبح أكثر جدارة بالاحترام، أقاموا صليبا هناك، ومع هذا الصليب، قطعة صغيرة من الصليب الحقيقي للمسيح، أقحموها فيه، وقد قبلنا هذه القطعة، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي تبرهن فيه أن الصليب المقدس هو الصليب الحقيقي بإقامة رجل ميت وردّه إلى الحياة

وعندما فرغنا من أعمال تعبدنا في ذلك المكان، انطلقنا، ونحن نغني ترنيمة أخرى، وأتينا إلى وسط البيعة، حيث الموضع الذي إليه جلبت الصلبان الثلاثة بعد اكتشافها، من أجل المعرفة بالبرهان أيها كان صليب المسيح، وجلب لهذا الغرض رجل ميت، ولدى لمسة لصليب المسيح قام حياً، وهنا توجد بيعة للاتين، ومامن أمة لها أي حق هناك فيها، باستثناء اللاتين فقط، وحراس الضريح المقدس، الذين يمثلون اللاتين، ويقومون بوظائف القداسات هناك، ويمتلكون خلف هذه البيعة غرفاً، فيها يطبخون ويأكلون وينامون، ويفعلون مايحتاجون إليه، وجرت

العادة أن يكون للرهبان الفرنسيسكان ثلاثة رهبان يسكنون في ذلك المكان، وقد نمت لساعات طوال في أوقات متفرقة في مهجع الرهبان.

المكان الذي ظهر فيه ربنا إلى مريم المجدلية على شكل بستاني

وبعد زيارتنا لهذه البيعة خرجنا منها على شكل رتل لننزل إلى الكنيسة، بوساطة أربع درجات، وعند نهاية الدرجات وصلنا مباشرة إلى مكان فيه دائرتين في البلاط، وتبعد كل دائرة خمس خطوات عن الأخرى، وهما مصنوعتان من رخام مصقول ومتعدد الألوان، ووقفنا حول هاتين الدائرتين، ونحن ننشد التراتيل الموائمة لهذا المكان، وذلك حسبما جاء في كتب المسيرة، ويقال بأن هذا هو المكان الذي ظهر فيه الرب يسوع إلى مريم المجدلية على شكل بستاني، وقد وقف الرب في مكان الدائرة الأولى، ووقفت مريم في مكان الدائرة الثانية، وهنا ارتمت مريم على قدميه، ولم يسمح لها أن تلمسه، بسبب أنه لم يكن قد صعد إلى ربه بعد، حيث نقرأ عن هذا مطولاً في الاصحاح العشرين من انجيل القديس يوحنا.

ويمكن للحادثة التي وقعت هنا أن تلهم الحجاج بخشوع عظيم، الذين استوعبوا بقلوبهم المثل الذي ضربته مريم، فهي عندما لم تجد الذي بحثت عنه في الضريح، ركضت حول زوايا الحديقة كلها، إلى هنا وإلى هناك، وهي تتحرق بنار الحب، إلى حد نست فيه ضعفها النسائي، ولم تخف لامن الظلام الدامس، ولا من الرعب الصادر عن المعذبين، ولم تعبأ بحراس المكان، بل ركضت نحو الأمام ونحو الخلف، وهي تبكي، وتلهث، وتتأوه، ولاشك أنها لو أخبرت وقيل لها:«عجبا، إن الذي عنه تبحثين، قد عبر البحر الكبير، واجتاز جبال الألب، وأخذ نفسه من الشرق إلى الغرب، وهو الآن في أقصى منطقة باتجاه الغرب»، لقامت على الفور، على الرغم من آلاف المخاطر، فعبرت البحر، واجتازت جبال الألب، وطافت في بلاد الغرب، ولذهبت حتى إيرلندا،

التي هي أقصى جميع البلدان نحو الغرب، لكن الرب الكريم ظهر لها هنا، في هذا المكان، وهولذا لن يخفي نفسه عن الذين قدموا إلى هاهنا من الغرب، من خلال كثير من البلدان المخيفة، ومن البحار الخطيرة، قدموا يبحثون عن الذي يحبونه، وذلك دون أن أنسى ذكر الوعد الذي قطع في الاصحاح الثامن من زكريا في قوله:«هكذا قال ربّ الجنود، ها أنذا أخلص شعبي من أرض المشرق، ومن أرض مغرب الشمس، وآتي بهم فيسكنون في وسط القدس، ويكونون لي شعباً، وأنا أكون لهم ربا» (زكريا:٨/ ٧—٨).

وبناء عليه انحنينا بأنفسنا نحو الأرض عند قدمي الرب يسوع، وقبلنا مكان طبعات قدميه، وتلقينا غفرانات(+).

مكان السجن الذي كان على مقربة من صخرة الجمجمة، حيث سجن فيه المسيح بعدما غادر قاعة المحكمة

وغادرنا هذا المكان، وتابعنا سيرنا ونحن نغني في المسيرة، ودخلنا إلى بيعة مظلمة منحوتة من الصخر، كانت بلانوافذ، وفيها مذبح واحد، ولها بابين صغيرين، وكانت هذه البيعة في أيام المسيح سجناً، أو حبساً قرب جبل أكرا، بنيت بقصد أن يسجن فيها الذين حكم عليهم بالاعدام، وتقرر تنفيذ الاعدام بهم، وذلك ريثما يتم تجهيز أدوات تعذيبهم، مثل الصلبان، والمشانق، والدواليب، والحطب للنار، وما ماثل ذلك، وكذلك من أجل أن يتمكنوا من شرب الخمرة ليجعلوا أنفسهم سكارى هناك، لأن العادة جرت بجعل الذين سوف يعاقبون بالموت سكارى بأقوى أنواع الخمرة، من أجل أن لايخافوا من الموت كثيراً، وأن يتحملوا عذابهم بشجاعة أكبر، وبناء عليه حتى يمكنهم الشرب بعمق أكبر، كانوا يحبسون هناك مع خمرة، حتى يمكنهم أن يسكروا دون أن يشعروا بالخجل.

وبناء عليه عندما جلب الرب يسوع إلى هنا مع صليبه، حبسوه في هذه الزنزانة، وكان ذلك أثناء إعداد فجوات ثلاث في صخرة الجمجمة، من أجل ثلاثة صلبان، وفي الوقت نفسه حتى يسكر، أعطوا الرب «خمرة ممزوجة بمرّ» (مرقص:١٥/ ٢٣)، وقد كانت مرّة جداً، ولهذا رفض الخمرة المعروضة عليه، حسبما جاءنا الخبر في النص نفسه.

وشعرنا في هذه الزنزانة بالحزن، وتفكرنا كيف ان الرب يسوع قد بكى هنا فيها، وانتظر عذاب الصليب برعب يساويه رغبة، ولذلك دخلنا إليها واحداً واحداً، بالآهات وبالتنهدات، وقام كل واحد منا بدوره بالإنحناء نحو الأرض، وقبل أماكن طبعات قدمي مخلصنا، وتلقينا هناك غفرانات(+).

المكان الذي اقترع فيه الجنود على ثياب المسيح واقتسموها فيما بينهم

وتابعنا سيرنا، فعبرنا من سجن المسيح إلى بيعة أخرى، لها ثلاث نوافذ مغلقة، فهناك بعدما جرى ربط الرب يسوع إلى الصليب، وقف صالبوه ورموا القرعة من أجل معرفة الذي يمكن لكل واحد منهم أن يأخذه من ثياب يسوع، ووزعوا بقاياه إلى أربعة أجزاء، آل كل جزء منها إلى جندي، واقترعوا على قميصه الذي لانظير له، لأنه يمكن أن يكون بلا فائدة إذا ماقطعوه، ولهذا جلسوا في هذا المكان ورموا القرعة، مظهرين ازدراء عظيما نحو المسيح، وثارت هنا شفقتنا بسبب تعرية المسيح، وعندما فرغنا من غناء قداسنا، قبلنا المكان، وتلقينا غفرانات(+).

المقعد الذي جلس عليه الرب يسوع أثناء تتويجه الوحشي

وبعدما غادرنا تلك البيعة، تابعنا تقدمنا إلى أماكن بعدها، ونحن ننشد ترنيمة حزينة حول تتويج الرب، وكيف جرى تتويجه بتاج من

شوك، ووصلنا إلى بيعة أخرى مظلمة، كانت نافذتها الوحيدة مغلقة بالحجارة، وقد كان فيها مذبح جميل، غير مكسور، إنما من دون تعليق، الخ، ووقفت تحت هذا المذبح حجرة مستديرة، بدت وكأنها قطعة اجتثت من عمود، وكانت هذه الحجرة قائمة في أيام آلام المسيح في بيت بيلايطس، أمام اسطبل للبغال، وكانت بمثابة مقعد، ذلك أنها أعدت لتكون موائمة للجلوس عليها، وبناء عليه عندما أرادوا تتويج الرب بتاج من شوك، دحرجوا هذه الحجرة من مكانها، وأخذوها إلى دار الولاية، وأجلسوا الرب عليها، وتوجوه بالشوك، وهو جالس على الحجر.

وبعد آلام المسيح، جلب المؤمنون تلك الحجرة إلى هنا، لتكون ذكرى دائمة على ذلك التتويج الساخر والوحشي، ولهذا سجدنا بأنفسنا على الأرض، وبعباده منا للرب لمسنا هذه الحجرة بأيدينا، وقبلناها بأفواهنا، وتلقينا غفرانات(+).

واستحضرنا إلى ذاكرتنا كل ماعاناه الرب، وهو جالس على تلك الحجرة، وكيف جرى إلباس الرب يسوع ثوباً أرجوانيا للسخرية منه، وجعلوه يحمل في يده قصبة عوضاً عن الصولجان، وهو متوج بتاج من شوك، وربطوا عينيه، وبصقوا عليه، وضربوه، ولطموه بأيدي الرجال، وجرحوه بالقصبة، وخاطبوه قائلين:« سلام ياملك اليهود»، وسموه نبيا، وجرحوه بآلاف إبر الشوك، وعرضوه للسخرية العامة، وهكذا أجلسوه على هذه الحجرة، وهو مثقل بالازدراء، أجلسوه مثلما يجلس ملك على العرش، ولاشك أن هذا يظهر بوضوح، أن مملكته لم [illegible] في هذا العالم، ولهذا لم يعترف القديسون بالمسيح ملكاً، إلاّ عندما [illegible] متوجا على هذه الحجرة.

وقرأنا عن القديس مارتن، أن روحاً شريرة ظهرت إليه، وهي لابسة لتاج ذهبي ولثوب أرجواني، ودارت هناك بأبهة، قائلة بأنها كانت هي

المسيح، وأجاب مارتن هذه الروح بقوله:«أنا لاأعرف مسيحاً إلاّ وهو لابس لتاج من شوك، وعليه علامات الصليب»، ولدى سماع الشيطان لهذا ذهل وهرب، وقرأنا مثل هذا عن القديسة كاترين السيناوية، عندما أفتري عليها بشكل معيب من قبل امرأة شريرة، انزعجت واضطربت، فحملت نفسها إلى الرب، وطلبت منه الدفاع عن براءتها، فظهر المسيح لها، وقد حمل بيده اليمنى تاجاً من ذهب يتلألأ بالجواهر. وفي يده اليسرى تاجاً من شوك يخز بإبره، وقال لها:«اختاري ماتريدين، إما أن تتوجي في مسار هذه الحياة بتاج من شوك، وأنا سوف أدخر لك تاجاً آخر ثميناً من أجل حياة أبدية، أو أن تأخذي هذا التاج الآن، وهذا التاج الشوكي سوف يدخر لك لما بعد الموت»، وأجابته العذراء قائلة:«مولاي، لقد اخترت دوماً في هذه الحياة أن أتأسى وأتمثل بآلامك المباركة جداً، ولقد عملت الآن اختياري»، وعندما كانت تقول هذا، انتزعت بيديها معا تاج الشوك من يد المخلص، ووضعته على رأسها بقوة بلغت حداً، أنه بعد إنتهاء الرؤيا، شعرت بألم واضح في رأسها من خلال وخز الشوك.

ومثل هذا فعل الملك المجيد، بلدوين ملك القدس، الذي كان أول ملك لاتيني مسيحي قد حكم هناك، فقد اتخذ شعاراً لملكه تاجاً ليس مصنوعاً من الذهب، بل من الشوك، وذهب وتجول دوماً متوجاً بهذا التاج في أيام الدولة المهيبة، لابل حتى عندما كان ملوك آخرون في حضرته، وكان يقول: إنه من غير اللائق لانسان مذنب أن يسير أمام الناس، كملك للقدس، وهو مزين بتاج من ذهب، في حين جرى تتويج ملك السماء في القدس بتاج من شوك.

وينمو في أحواز القدس شوك حاد جداً، صنعت منه تاجاً، وحملته معي إلى أولم، وينبغي أن لانعتقد أن الشوك الذي استخدم لتتويج المسيح، كان شوكاً بحرياً، بل كان شوكاً عاديا، مما ينمو في أحواز

القـدس، وعلى جبـل صهيـون، وعلى جبل الزيتــون، وفي الوديان، لأن تتويج المسيح لم يكن عملاً مدبراً لامن قبل اليهود أومن غير اليهود، بل كـان عندما أحضر أمـام القاضي، واتهم بـأنه قال بأنه المسيح، وأنه كـان ملكاً، ووقتها جاء إلى أذهانهم فجأة أنه ينبغي تتويجه سخرية منه وتعذيباً له، فكان أن أحضروا شوكـاً من أقرب الحقول، أو ربما وجـدوا الشوك في مطبخ بيت (بيـــلايطس) بين حـــزم الحطب من أجل النـار، لأنني شـاهدت بناظري، أنهم حتى في هذه الأيام ليس لديهم حطبـاً للنار غير الشوك، وأن مطابخهم كانت مليئة بأشواك حادة جداً من أجل احراقها بالنار.

بيعة القديسة هيلانة المكتشفة للصليب المقدس

وعندمـا غادرنا تلك البيعـة، مضينا في طريقنا، وطفنا حول الكنيسـة من الداخل، وَنحن نغني ترنيمـة القديسة هيـلانة، كما جرى تحديدها في كتـاب المسيرة، ووصلنا إلى باب كبير في جدار الكنيسـة، وبما أنه يوجـد خـلال هذا البـاب ممر إلى خـارج الكنيسـة، سرنا من خـلال البـاب في ظلام، انقشع بمصابيحنا، وشعرنا على الفـور بوجود درج حجري تحت أقـدامنـا، وهكذا نزلنا ثلاثين خطوة أو درجـــة، إلى بيعـة اسمهـــا بيعـة القديسـة هيلانة، وهي مـوجودة تحت الأرض، وعندما فـرغنا هناك من ترتيل صلواتنا، جثونا ودعونا، وتلقينا غفرانات(+).

وهذه البيعـة ذات حجم جيـد، وجـدرانها من صخـر، حيث نحتت نحتـاً، ومثل ذلـك الدرج من الكنيسـة في الأعلى، والذي يقــود نحـو الأسفل بين جـدارين من الصخـر، وفي الأعلى هي مقنطرة، وهي تتلقى الضـوء من خلال سقف مقنطـر، وهذه القناطر مدعـومـة بستة أعمـدة رخـامية، ويقـال بأن هذه الأعمـدة كـانت في أيام آلام المسيح —تدعم قـاعـة المحكمـة، التي حكم فيهـا على الرب، وأنها جلبت إلى هاهنا من قبل القـديسـة هيـلانة، وهذه الأعمـدة سـوداء، وهي مصقـولة تتعـرق

بشكل دائم وتنقط المياه منها نقطة نقطة، وعندما يمسح إنسان هذه النقاط بيده أو بثيابه، تتدفق على الفور نقاط جديدة، ويقول عامة الناس بأنها بدأت هذا التعرق الإعجازي، عندما جرى الحكم على المسيح وعوقب في قاعة المحكمة، وماهذا التعرق إلاّ دموعها على يسوع المسيح البريء، وينبغي أن لانرفض كلياً رأي عامة الناس هذا، لأنه من المؤكد ليس جميعه واهم، لأنه إذا أمكن القول بأن الحجارة يمكنها أن تغني أماديحاً إلى المخلص، عندما يكون الناس ساكتين، كما قرأنا في الاصحاح التاسع عشر من انجيل القديس لوقا، فماهو وجه العجب هنا إذا ما بكت الحجارة من أجل موت المخلص، في حين ضحك الناس من ذلك وسخروا؟ فكما حدث في يوم أحد السعف حين صرخ أطفال اليهود مع حواريي المسيح «المجد» وكانت الحجارة صامته، الآن صمت هؤلاء، فصرخت الحجارة بصوت مرتفع، ومثل هذا عندما بكى الناس لبراءته ولموته الوحشي، لم تقم هذه الحجارة بذرف الدموع، إنما عندما لم يبك الناس، ذرفت الصخور الدموع، لابل أكثر حيث أننا قرأنا أنهم تصدعوا وتفتتوا عندما مات المسيح، ولذلك لايوجد عدم امكانية في الاعتقاد التقوي للناس من العوام، الذي يعلن أن هذه الأعمدة قد بكت لدى موته، سوى أن ذلك غير مذكور في الكتابات المقدسة، وفي الحقيقة إنه أسهل على الصخرة أن تبكي من أن تغني للحمد، علاوة على ذلك إنهم يقولون بأن هذه الأعمدة تبكي هكذا باستمرار، بسبب أن الناس يبتهجون ويضحكون، في الوقت الذي يتوجب عليهم فيه الاستمرار بالبكاء والنحيب لآلام المسيح، ولذنوبهم ولشقاء هذا العالم الشرير، ويقولون إذا ماتوقف الناس عن المبالغة بالسرور، ستتوقف هذه الأعمدة عن ذرف الدموع.

ويقول آخرون من بسطاء الناس، ويروون جميعا بايمان عن هذه الأعمدة، في أنه أثناء آلام المسيح خاطبت العذراء مريم هذه الأعمدة،

وهي تبكي وتنتحب لوحدها وقالت لهم:«لايوجد أحد يشاركني أحزاني، فكيف يمكنني أن أصبر على تحمل هذا الثقل من الآلام لوحدي؟ إبك معي، أيتها الأحجار»، ولدى تلفظها بهذه الكلمات بدأت الأعمدة تقطر ماء، ولعل هذه الأعمدة هي التي أشير إليها في الحكمة:١١ في قوله:« لقد منحوا ماء من أعماق الصخر، وأعطيوا الخلاص من العطش من الصخر الأصم»، وفي حبقوق٢/ ١١ قوله:« لأن الحجر يصرخ من الحائط»، وفي أيوب:٩/ ٦ قوله:«المزعزع الأرض من مقرها فتتزلزل أعمدتها».

وهذا الذي قلته أعلاه حول الأعمدة قد سمعته من كاثوليكي تقي بسيط، ومن امرأة تقية لايجوز لي الاستخفاف بتقواها، أو التقليل من شأن غيرتها، ومع هذا إنني أعلم بشكل تام، أن مايحدث لأسباب طبيعية، ينبغي عدم عزوه إلى المعجزات، لأن هناك بعضاً من الحجارة، ونوعاً من الرخام اسمه endroson ترشح منه المياه، في أي مكان من المبنى وضع فيه، فبسبب طبيعته الفائقة البرودة يقوم بتكثيف الهواء من حوله، ويحوله إلى ماء، ومن الطبيعي أن الهواء الذي تحول إلى ماء على وجه الحجر، أن يرشح ويتقاطر على شكل نقط من الحجر، ويحكى أن شيئاً من هذا القبيل قد وقع في القصر القديم في القسطنطينية، في احدى الغرف، التي كانت فيها قشور صخرية رخامية من هذا النوع نفسه، وكانت هذه القشور تملأ نفسها ذاتيا بالماء، ثم إنها بعدما كانت تفرغ، وتصبح خاوية تمتلىء ثانية، دون أن تملأ من قبل أي انسان، ونظر عامة الناس نحو هذا الأمر باندهاش كامل، وعدوه معجزة، مع أن ذلك كان يحدث بتفاعل الطبيعة، وبالصورة ذاتها أنا أعتقد أن هذه الأعمدة من رخام الـ endroson ، أي أنها من حجارة هي رطبة بصورة طبيعية، والماء ينقط منها.

ويوجد في هذا الكهف نفسه قشرة حجرية، عُمّرت في الجدار، قرب

المذبح، قصد منها أن تستوعب ماء مقدساً، وكانت دوما تفرّغ وتصبح بلاماء مقدس، وعندما يضع انسان رأسه في هذه القشرة، ويصغي، تراه يسمع صوتاً مثل الهدير، وانبعاث لهيب النار، أو مثل اندفاع مياه كثيرة، وبشكل خاص عندما يكون انسان لوحده في البيعة، ويرغب في سماع هذا الصوت، تراه يسمع صوتاً مخيفاً مزعجاً، مثلما سمعت ذلك مراراً، وعندما يستمع الناس البسطاء لهذا الصوت، يخافون كثيراً، ويقولون بأنه يوجد تحتها مكان للتعذيب، أو جحيم، وأن هذه الأصوات سببها انزال العقوبات، وهي هدير العذاب وزئيره، غير أنني أعتقد بأن هذه الأصوات سببها هنا، سير الناس ومشيهم حول الكنيسة بالأعلى.

ويوجد على جانبي الدرج كهوف واسعة وعالية، منحوتة من الصخر، وكانت فيها مضى قد كرست بيعاً مع مذابح، وهم جميعاً بلاضوء، وإنه لأمر رائع أن ترى خشوع الأقدمين من الناس في هذه الأماكن وفيها شابهها من القضايا والحالات، وتحتوي هذه البيعة على مذبحين، ويوجد قرب الأكبر بينهما، على جهته اليمنى، كرسي من الحجر، وعلى مقربة من الكرسي هناك نافذة منجورة من خلال الصخر، من خلالها يمكن للانسان أن يتطلع إلى الحفرة التي عثر فيها على الصليب المقدس، ويقولون إنه عندما وجدت هيلانه الصليب المقدس، قامت أولاً ببناء هذه البيعة، وأنها طوال الوقت الذي جلست فيه على هذا الكرسي، كانت ترمي بانظارها بشكل مستمر من خلال هذه النافذة إلى الكهف حيث وجدت الصليب.

وقد جلست هناك باستمرار، حيث كانت تشير إلى البنائين وتدلهم على الشكل الذي عليهم أن يبنوا فيه الكنيسة، وهناك كانت تدفع النفقات، وكان في واحد من هذه الكهوف المظلمة فراشها، وهناك أقامت مع وصيفاتها ليلاً ونهاراً، حتى انتهت عمارة الكنيسة كلها، ويطلق بعضهم على هذه البيعة اسم بيعة القديس جيمس، أي القديس

جيمس الذي كـان أول أسقف للقـدس، فقـد كـان عرشـه فيهـا، ولهذا يطلقون على الكرسي اسم عرش القديس جيمس، لكن هذاغير معقول، لأنه في أيام القديس جيمس لم تكن هناك كنيسـة، بل مجرد مكان خارج أسـوار المدينـة، وكـان مكاناً سيء السمعـة، لأنه على مقـربة من جبل الجمجمة.

الكهف الذي عثر فيه على الصليب المقدس من قبل القديسة هيلانة

ومن هذه البيعـة، نزلنا ثانية ست عشرة درجـة، كانت مـوجودة على جهـة اليمين، وكنا نغني ترنيمـة الصليب المقـدس، ووصلنا إلى بيعـة أخـرى، كانت مظلمـة تماماً ومحرومـة من ضـوء النهار، غير أنها كـانت مضاءة بكثير من المصـابيح، وعند قاعدة هذه البيعة، هناك حفـرة مقدار طولها اثنتان وعشرون قدماً، مغطاة بالصخرة، ففي هذه الحفرة، وجدت الامبراطورة المقـدسة هيـلانة، ذلك الكنز الثمين جـداً، الذي أقام مخفيـاً لمدة تزيد على ثلاثمائـة سنة، فقـد وجدت هناك الصلبـان الثـلاثة، وتاج الشوك، والمسامير، واللوحة الصغيرة التي كتب عليها العنوان ووضعت فـوق الصليـب، والسنان الحديدي للرمح الذي خـرق به قلب المسيح، والقصبـة مع الاسفنجيـة، والأدوات التـي استخـدمت في صنع صليب المسيح مـع صليبي اللصين، فجميع هـذه الأشيـــاء قـــد ألقـي بها مع الصليبان في هذا المكان، بسبب عدّهم مدنسين.

ووقفنا من حول هذا الكهف المقـدس نغني ترنيمة في مدح الصليب وتمجيده، وهو الذي عثر عليـه هناك، وأنحنينا بأنفسنا واحداً تلو الآخر نحو الأسفل، وقبلنا الموضع، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

وفي المكان الذي طبعنا فيـه قبلاتنا شعـرنا برائحة حلوة صـدرت من الكهف، وقـد انتعشنا بهذه الروائح كثيراً وسررنا، وشعـرنا بالراحـة،

حيث رأينا أننا وجدنا أهلاً لتلقي آخر آثار تلك الرائحة الطيبة، وهي الرائحة التي انبعثت من ذلك الكهف عندما اكتشف يوداس قورينوس Jodos Quirinus الصليب أثناء حفره هناك، فهذا ماقرأناه في رواية اكتشاف الصليب المقدس.

وهذا المكان مخيف، وهو غارق بعمق بين الصخور، لكن كيف حدث أن الصلبان قد دفنت تحت مثل هذا العمق في قلب الأرض؟ هذا أمر من الممكن فهمه بسهولة من قبل أي انسان فهم وقرأ أوضاع المدينة المقدسة، فقد كانت مدينة القدس القديمة محاطة بهوة عميقة من الجهة الغربية، وذلك حيث جرى صلب الرب، وقد امتدت تلك الهوة من الجنوب إلى الشمال على امتداد طول المدينة، وكانت هذه الهوة مصنوعة بشكل طبيعي، ولم تكن خندقاً معمولاً للمدينة، وقد تشكلت من صخور على شكل جروف متحدرة مقابل بعضها بعضاً على طرفي الهوة، ويقوم فوق الحافة الداخلية للجروف والصخور، سور المدينة، وتقف حواف الصخور من الخارج بمثابة دفاعات المدينة، وبين الكتل الصخرية للحافة الخارجية كتلة كان اسمها أكرا (الجمجمة)، وكان تحتها مكان اسمه الجلجلة، وفوق أكرا جرى صلب الرب مع اثنين آخرين، وعندما أنزلوا من فوق الصلبان، قام الذين نفذوا فيهم الأعدام، برمي الصلبان في الهوة، مع جميع الأدوات التي عادت إلى المصلوبين، لأن أكرا قامت على حافة الهوة، ولم يكن عليهم سوى سحب الصلبان من الفجوات في الصخرة، ورميهم في الهوة، وذلك مثلما اعتادوا على رمي الفضلات الأخرى فيها، ولهذا مالبثت الصلبان أن تغطت، لأنهم كانوا يوميا يرمون بالفضلات من فوق سور المدينة.

وأخيراً عندما هدم تيتوس القدس في السنة الثالثة والأربعين بعد آلام المسيح، أمر برمي الأسوار والأبراج التي كانت قائمة هناك، في تلك الهوة، وبذلك صارت الصلبان يوماً فيوماً مغطاة بشكل أعمق أكثر،

وبعـد مضي سبعة وسبعين عـاماً جـاء الامبراطور اليـوس هادريانوس، الذي قام —صدوراً عن كراهيته للمسيحيين— ببناء معبد مدنس جداً، فوق الجلجلة، وضع فيه تمثـالاً من الرخام لفينوس، وذلك حسبما روى لنا القـديس جيروم، في رسـالتـه إلى بولينا Paullina،وقـــام بالوقت نفســه، صدوراً عـن كراهيتـه لليهـود فنصب تمثـالاً يشبهه شخصيـاً في المكان الذي قـام فيه فيما مضى هيكل الرب، وذلك حيث عمل اليهـود مزاراً لأنفسهـم، ومالأن أدار الامبراطور ظهره للمـدينة حتى أقدم اليهود على تدمير التمثال الامبراطوري.

وعندما سمع هادريان بهذا، عاد، وأخرج اليهود من المدنية وطردهم، وهدمهـا، وسـواها بالأرض ثـم مضى في سبيله، وهكذا جـرى للمـرة الثانيـة رمي الأسوار في الهوة فوق الصلبـان، ولم يمض وقت طويل بعد هذا حتى عاد قيصر، وأعاد بناء المدينة من جـديد، وأصدر أوامره برمي السور الغربي القديم كله في الهوة، وذلك بقصد طمر الهوة وتسويتها مع بقية الأرض، وبذلـك يمكن ادخال معبد فينوس في اطـار سور المدينة، وبذلك صـارت المدينة أوسع، ومرّ بعـد ذلك حـوالي مائـة وثمانون سنة والهوة تحتـوي على الصليب المقـدس، وذلك حتى جـاءت هيـلانة كما حـدثنا... جيروم، وعندمـا جاءت لم تستطع إلاّ بصعـوبة بالغـة أن تجد البقعــة، لأنها دخلت في دائـرة النسيــان، ولذلك قـامت بتنظيف هذا الكهف، وأمـرت بتكريسـه، وبنت بيعتها ومقـر إقـامتها فـوقـه، كما هو الحال في هذه الأيام.

وبناء عليـه وقفنا في ذلك المكان، ونحن سـابحين في عالم الإعجـاب بالصخـور والحجارة التي تحتهـا تمّ العثـور على الصليب، لأن الجروف الصخـرية المتعلقـة فـوق رؤوسنا كـانت تهدد بالسقـوط فـوقنا، وشعـر الحجـاج في هذه الهوة المقـدسـة بخشـــوع عظيم، هذا والمسيحيـــون الشرقيـون، لابل حتى المسلمـون غـارقـون في أوهام عـابثـة حـول هذا

المكان، حيث يقومون بقطع شظايـا من هذه الصخور من أجل التداوي ذلك أنهم يعلنون أنه إذا كـان هناك انسان مصـاب بالحمى، من الممكن شفائه على الفـور، إذا ماشرب بعض الخمرة والماء، فيها مـوضوع قطعة من هذه الصخور، فضـلاً عن هذا، إذا ما عانى انسـان من وجع رأسه، كان يقوم بتـدبر قص شعر رأسه، ومن ثم ارسـال الشعر الذي قصه إلى حـراس المعبـد، حتى يضعـوه فـوق البقعـة التي وجـد فيهـا الصليب، وعندما كان هذا يعمل، كان المريض يشفى.

ومثل هذا أيضـاً كـانوا يفعلون، عنـدمـا يعـاني أحـدهم من وجع في الأسنان، فـوقتها يحلقـون له ذقنه، ومن ثم يرسلون بالشعـر إلى الكهف حتى يمكـن أن يشفى.... ومن هذا البـــاب كـان السبـب في أن جميع الشقوق في الصخور، وبين الأحجار محشوة ومليئة بالشعر، وليس هناك من شك أن هذه ممارسة طقوسية دنسة، وصلت إليهم من كفار العصور القديمـة، وقد أخبرنا ديودروس في الفصل الرابع من كتابه الثـاني حول التاريخ القديم، أن المصريين القدماء، عندما كانوا ينذرون إلى آلهتهم من أجل سـلامـة أوشفـاء الناس المرضى، اعتادوا على حـلاقـة شعـورهم، ووضعهم في أوعية ذهبيـة أو فضية، وكانوا يـرسلونـهم إلى الذين يتولون سدانة الأوثان في معابدهم، وبذلـك كانوا يشفون، وهكذا يعمل هؤلاء الناس الأشرار، حتى هذا اليوم.

ويوجـد خلـف مكان اكتشـاف الصليب المقـدس حفــرة عميقـة في الصخرة هي مليئة بشعور رؤوس الناس وشعور لحاهم، هذا ويستخدم المسلمـون والأتراك، وإن كـانوا غير مـؤمنين، هذا المكان مـع مـوضع الجمجمة من أجل أوهامهم، وفي هذا الكهف صدى عجيب، أنا مثله لم أسمع في أية جـوقة أو كنيسـة، ولذلك عندما كنت وحيـداً هناك، كنت غـالبـاً ماأغني بصـوت مـرتفع تمامـاً، الترنيمات التجـاوبية العـائـدة إلى اكتشاف الصليب المقدس، وترانيم أخرى.

جبل أكرا العظيم القداسة الذي عليه جرى تعليق الرب يسوع على الصليب

بعد مافرغنا من عمل كل ماينبغي فعله في هذا الكهف المقدس، صعدنا على الفور ثانية، وعاودنا الدخول إلى الكنيسة من بابها، ولدى استئنافنا لمسيرتنا بدأ قائد الجوقة يغني بصوت مرتفع ترنيمة Vexilla regis prodeunt الخ، ووصلنا ونحن نغني هكذا إلى الطريق الصاعد إلى جبل أكرا الأعظم قداسة، ولقد صعدنا إليه بوساطة ثمان عشرة درجة من الكنيسة الموجودة تحته، ودخلنا في الأعلى إلى بيعة مضاءة، وجميلة ومزينة برخام مصقول من مختلف الأنواع، وفيها معلق عدد كبير من المصابيح المضاءة، وقائم فيها ثلاثة مذابح، مزينة برسوم صنعت بأعمال الفسيفساء، وبنيت هذه البيعة بناء مقنطراً، مدعوماً بعمود رخامي في وسط البناء، ويوجد في الجانب الأسفل من القنطرة رسوم لداوود وسليمان، وجاء رسم داوود مع نص: «أيضاً رجل سلامتي الذي وثقت به» (المزامير: ٤١/ ٩) الخ، ورسم سليمان مع نص: «الحكمة بَنَت بيتها» (الأمثال: ٩/ ١)، وهناك أيضاً صورة للتضحية باسحق، وبنيت هذه البيعة فوق جبل أكرا، وعندما أصبحنا جميعاً في داخلها، ومشاهد أمام أعيننا ومعروض تلك الصخرة الرائعة، تلك الصخرة المرغوبة، مع ثقوبها التي هي موضع الاعجاب، وهي التي أقحم فيها الصليب الأعظم قداسة، وهو يحمل المصلوب، وعندما رأينا هذه الأشياء المقدسة والرهيبة بسبب قداستها الفائقة، سقطنا على وجوهنا فوق الأرض، ولم يعد أحد من الناس يسمع غناء، بل نحيباً، ولم يعد هناك غناء للترانيم، بل عويل وتنهدات، ولم يكن هناك أحد تمكن من حبس نفسه عن البكاء والصراخ، لأن من الذي يمتلك قلباً قاسياً جداً، لم يكن قابلاً للتصدع في ذلك المكان، وذلك لدى رؤيته أمام عينية أقسى الصخور، وقد تصدعت؟ ومن هو الذي لن يبكي بصوت

مرتفع في المكان الذي صرخ فيه ربنا المسيح بصوت مرتفع، وهو معلق فوق الصليب، وأيضاً حيث صلى للذين صلبوه، ووعد اللص بالجنة، وعهد بأمه الحزينة بعمق، إلى عناية يوحنا، وشرب الخل ممزوجاً بالمرّ، وعندما قال بأن كل شيء قد انتهى، أسلم روحه وتركها بيدي الأب، ومات، وأيضاً حيث طعن العسكري جنبه بالرمح، فتدفق منه دم وماء.

اعلموا أيها الحجاج الأتقياء، أنه هنا جرى قتل هابيل من قبل أخيه، كما جرى ربط اسحق ممن أجل التضحية به من قبل أبيه، وأقيم الثعبان البرونزي من قبل موسى، وذبح خروف الفصح وفقاً للشريعة، وقتل الرب من قبل انسان، فيسوع قد صلب في الجسد، ملككم جرى تعليقه على الصليب، وربكم حكم عليه بالاعدام، والحليم، والمتواضع، والبريء، صبغ بالدم، وقدم نفسه ككاهن وكأضحية، ووردت هذه الأفكار، وأخرى تماثلها بطبيعتها إلى أذهاننا في هذا المكان الفائق المهابة، وبقيا لمدة طويلة منحنيين نحو الأرض ونحن نصلي، وعندما أنهينا صلاتنا ذهبنا واحداً تلو الآخر إلى الصخرة المقدسة، المعروضة فوق الأرض، وزحف كل واحد منا بقدر ما يستطيع نحو الحفرة التي أقحم فيها الصليب، وقبّل المكان بخشوع فائق جداً، ووضع وجهه، وعينيه، وفمه فوق الحفرة، التي عنها —وماأقول هو الحق والصدق تماما— صدرت رائحة طيبة جداً، انتعش بها الناس بشكل مرئي، ووضعنا أيدينا وأذرعتنا في الحفرة حتى أسفلها تماما، وبما فعلناه وبهذه الأعمال تلقينا غفرانات مطلقة(++).

ويوجد على جهة يسار الحفرة صدع كبير في الصخرة، ممتد من الأعلى حتى الأسفل، من المعتقد أنه حدث بسبب موت المسيح، وصعدنا إلى هذا الصدع واحداً تلو الآخر، وقبلناه، ووضعنا رؤوسنا فيه، وكثيراً من أجسادنا بقدرما استطعنا، فضلاً عن هذا يوجد على جانبي الحفرة حفرتين مماثلتين، فيهما جرى تثبيت صليبي اللصين: دسمه وجسمه،

اللذان صلبا مع يسوع، غير أن هاتين الحفرتين لايمكن مشاهدتهما، لأنه يقوم فوقهما عمودين منخفضين، يوجد فوق رأسيهما مسمارين كبيرين، فوقهما شمعتين، ومصباحين مثبتين، وبذلك صار هذين العمودين بمثابة شمعدانيين، وقبلنا على كل حال العمود الذي وقف على الجهة اليمنى للصليب، وحول هذين الصليبين انظر ماتقدم في ص٣٠٠.

ويوجد على الجدار خلف الصخرة المقدسة، صورة جديدة ثمينة جداً، فيها شكل المصلوب والعذراء المباركة، والقديس يوحنا الانجيلي، ومكثنا على جبل أكرا مع مسيرتنا لمدة تزيد على الساعة، أسلمنا فيها أنفسنا للصلاة وللخشوع، وأقبل الليل، فقد كانت الساعة حوالي التاسعة قبل منتصف الليل، وحدثنا نيقولا دي كوسا حول تصدع الصخرة نفسها في Persuasio ad soldanum، في السفر الثالث — الاصحاح ١٧ من نشرته للقرآن.

وصف جبل أكرا وتراتيبه

لم يرد اسم موقع أكرا في الكتابات المقدسة على أنه جبل، بل جاء ذكره في الحديث العام فقط على أنه جبل، لأنه في الحقيقة ليس جبلاً، بل صخرة أو جرف مرتفع بعض الشيء فوق الأرض، ومع ذلك جبل أكرا لايمتلك هذا التميز، حسبما يمكن رؤية ذلك بوضوح في الشكل، والصخرة والجبل والموقع، كان من البداية جديراً جداً بالاحترام بسبب أن:

آدم، أبونا الأول، مات هنا.

ابراهيم، تمت مباركته هنا من قبل ملكيصادق.

اسحق، جلب إلى هنا من قبل أبيه، من أجل التضحية به.

الثعبان البرونزي تمّ نصبه هنا.

الرب يسوع صلب هنا، وهنا مات.

ولايشغل جبل أكـرا شطراً كبيراً من المدينة، والذي يعنيه مكان أكـرا هو مـوقع الكنيسـة كلها، أمـا صخـرة أكـرا فهي التي دعمت الصليب فقط، وقبل تـوسيع المدينة وقف هذا الجرف مقـابل سـور المدينة، على حافة منحـدر عميق أحاط بالمدينة من الجهة الغربيـة، وهذا ما سلف لي أن قلتـه من قبل في ص٤٨٨، وأكـرا ليس بعيـداً عن سـور المدينة، لأن المنحدر نفسه وإن كـان عميقاً، لم يكن عريضاً، إلى حـد أنه كان بامكان انســان أن يرمي حجرة من سـور المدينة حتى جـرف أكرا، إنما كم كـان هذا الجرف واسعـاً، هذا مالم يمكن تأكيـده، لكنه واضح إلى حد بعيـد، فمن شكل الكنيسة نفسها، واضح أنها كـانت أوسع مما عليه الآن، لأنها عندما أدخلت في داخل السور الجديـد، كان من الضروري اقتطاع جزء منها.

إنما وإن كان صحيحـاً أن هذه الصخرة كـانت قريبـة من السور، كما قلت، هي كـــانت بعيـــدة جـــداً عن الرصيف، مـن حيث حمل الرب الصليب، ومن هناك حمله إلى بـاب القضـاء، ومن هذا البـاب عبر الهوة بوساطة الجسر إلى الصخرة، ولم تكن هذه قائمة في مواجهة الجسر تماماً، بل كانت على مسافة لابأس بها عنه، حيث كان يتوجب على الانسان أن يستدير ويسير صعـوداً على طول حافة الهوة، وتوضع الجرف على حـافة الهوة بشكل، أنه عندمـا جرى صلب الرب فـوقه، كـان ظهره مستـديراً نحـو الشرق، ونحـو المدنيـة، لكنه أدار وجهـه نحـو الغـرب، لكن هل جـرى صلب الـرب على قمـة الجرف أم أدنى من ذلك، فأمـر مـوضع شك، لأنه بسبب الأبنية القائمة فوق الموقع لايستطيع أحد أن يقول كم كـان اتساع الصخـرة في القمة، والـذي أعتقده أن الرب علق بالمسـامير على الصليب عند سفح الجرف، وأنهم بعدما ربطوه إلى الصليب سحبوه مع الصليب إلى القمة، وهناك ثبتوا الصليب بالصخرة.

وكـان مـوضع أكـرا جـديراً بالتقـدير من الأيام الغـابرة، وذلك قبل صلب المسيح، ففيه تمّ العثور على جمجمـة آدم من دون شعر، ومن هذه الجمجمـة صـار يطلق على المكان اسم أكـرا، أو الجمجمـة أو الجلجلة، التي تعني الشيء نفسـه، ويبجل اليهود هذا المكان، منذ أزمـان قديمـة، لأنهم يعتقدون بأن ابراهيم عمل فيه استعـداداته للتضحية بابنه اسحق، كما وصلتنا الأخبار في الكتابات المقدسة، ولهذا من المعتقد أن هذا المكان كان واحداً من الأمـاكن العالية التي اعتاد الناس على تقـديم الأضاحي فيها، لابـل حتى على بناء هيكل العبادة، وغـالباً ما يستشهـدون للبرهنة على هذا بما جـاء في سفري الملوك، حيث جـاء الحديث حتى عن الملوك الأتقياء قـوله:«فعل ماكان صحيحـا بنظر الرب، ذلك أنه لم يستول على الأماكن المرتفعة، لأن الناس مـابرحوا يقدمون الأضـاحي فوق الأماكن العالية».

هذا وهناك بعض الأمـاكن في الأرض المقـدسـة، فيهـا جـرت بعض الأعمال الخالدة من قبل الرب، وفيها جرت العادة على عبادة الرب، قبل بناء الهيكل، لكن بعـد بناء الهيكل جـرى تحريمهـا، وكـان من بين هذه الأمـاكن شيلوه، والجلجـال، وجبل الزيتون، ومـوضع أكـرا، وعلى هذا المكان المرتفع اعتـــاد الناس بشكل خـــاص على تقـــديم الأضــــاحي بلاحدود، لأنه فـوقها جرى نصب الثعبـان البرونزي، الذي نقرأ عنه في الاصحـاح الحادي والعشرين من سفر العـدد، وتمت عبادة هذا الثعبـان بشكل هائل من قبل الناس حتى أيام الملك حزقيا، الذي دمره إلى قطع، وذلك كما ورد الخبر في الاصحاح الثامن عشر من سفر الملوك الثاني.

ومـــرد الاحترام القـــديم لهذا المكان إلى أنه هنا التقـى ملكيصـــادق بإبراهيم، ومنحه خبزاً ونبيذا، وهنا أيضاً مركز العالم، وهذه أمور سوف أتولى شرحها الآن فيمايلي:

ولقـد حدث أنـه عندما فقـد اليهـود مملكتهم، وآل الحكم عليهم إلى

ملوك غرباء من الشعوب غير اليهود الذين كرهوهم، قام هؤلاء الملوك، على الرغم من اليهـود بتحـويل موضع أكـرا (الجمجمـة) والجلجلة إلى مكان لتنفيذ العقوبات بمرتكبي الآثام، الذين كان من بينهم اللصوص، وقطاع الطرق، والقتلة، والمرتديـن، فهـؤلاء جـرى اعـدامهم هناك، في سبيل جعل المكان دنسـاً بالنسبـة لليهود، وذلك صـدوراً عن ازدرائهم، وبقي المكان محل ازدراء حتى أيام المسيح، لكن بعد قيامته وصعوده، بدأ المكان يحظى بالاحترام والتقـديـس من قبل المسيحيين، لكن الامبراطور الوثني اليـوس هدريانوس لم يكن ليقبل بهذا، فبنى معبـد فينوس هناك، ونصب تمثـال عـاهرة على صخـرة أكـرا، وبذلك ألقـى بالتـدنيس على المكان، حيث جعله دنساً بالنسبة للمسيحيين، فهـذا ماأخبرنا به القديس جيروم برسالتـه إلى بولينا، وهكذا بقي المكان دنسـاً بالنسبة للمسيحيين، لمدة مائة وثمانين سنة، أي حتى قدمت القـديسة هيلانه، ونظفت الموضع من جميع الفضـلات والأوسـاخ التي تدنس بها، وجمّلتـه بشكل رائع، وذلك حسبما سيرد الحديث لدى وصفنا للكنيسـة، وبالنسبـة لهذا الموضـوع، انظر مـايلي في صفحتـي ٥٤٠، و٢٥٥، وانظر أيضـاً قـداس القديس برنارد لفرسان الهيكل في الفصل العاشر.

المكان الذي جرى فيه تسمير المسيح على الصليب، والمكان الذي عثر فيه على جمجمة آدم وتصدع الصخرة

وبعدمـا قبلنا الصخرة المقدسة، نزلنا ثانيـة في رتل إلى طابق الكنيسة، ودخلنا إلى بيعـة مـوجـودة تحت بيعـة جبـل أكـرا،والتي منهـا انتصبت صخـرة صليب المسيح، وهي الصخـرة المنتصبة حتى البيعـة في الأعلى، وسقطنا في هذا المكان بوجـوهنا على الأرض، وقبلناها بخشـوع عظيـم، وتعبدنا يسوع على الصليب، الذي ضرب فيـه بالمسامير في ذلك المكان، لأنه لو كانت الصخرة هنا، كماهي الآن في هذه الأيام، لما كان المسيح قد جـرى تسميره على الصليب فـوقهـا، فقـد جـرى تسميره في أسفل

الصخرة، ولابد أن أسفل الصخرة قد كان موضع التسمير إلى الصليب، هذا ولايوجد —على كل حال— نص في الكتابات المقدسة حول هذه المسألة، كما أنه ليس هناك برهان مؤكد حولها، فيما عدا أن شكل الأرض كماهو يبرهن على ذلك.

وأعدنا في هذا المكان إلى ذاكرتنا، عملية تعرية المسيح المهينة، وكيف أنهم عروه هنا من جميع ملابسه وسرقوها كلها، وكيف أنهم بنزع ثيابه عن جسده، تسببوا بفتح جراحاته ثانية، وهي الجراحات التي كان سببها جلدة وكيف أنه عندما صار عريانا تماما جلس على الأرض، وأنحنى نحو الأسفل لشعوره بالحياء، لأنه كان عريانا بالمرة، ولأنه كان ضعيفا، لأنه كان مغطى بالجراحات.

وعندما صار الصليب جاهزا، وكان صالبوه قد باتوا مستعدين لسحبه ووضعه عليه، هنا جمع قوته كلها حتى يتمكن من القيام، وجثا بركبتيه أمام الصليب يصلي قائلاً:« أيها الأب الأبدي، تلقني، أنا ابنك المحبوب، أنا الذي أقدم لك أضحية من دون مكان، من أجل خلاص بني البشر، ومن أجل الاعفاء من الذنوب»، وعندما أكمل كلامه هذا، كان جاهزا لتسليم نفسه إلى أيدي صالبيه، الذين ألقوه أرضاً فوق الصليب، ومددوه بقسوة ووحشية فوقه، ولدى رؤية أمه الحزينة جداً لهذا، ركضت وجلبت منديلاً لتغطية وسط ابنها، الذي بوساطته بقي مغطى، والمكان الذي وقفت فيه العذراء المباركة مع يوحنا، قد كان عند أسفل الصليب على مقربة من هذا المكان، مع أن المدخل إليه هو خارج الكنيسة، وذلك حسبما سنوضح ذلك ونبينه في موضعه، وهذا في ذهني أيضاً برهان على أن تسمير المسيح على الصليب كان في الأسفل، وأنه رفع فوق الصخرة مع الصليب، وسط السخرية الصاخبة لليهود.

وبعدما قبلنا المكان الذي أعتقد أن المسيح قد ضرب بالمسامير فوق الصليب، عليه، مضينا في طريقنا نحو مذبح قد بني في مواجه صخرة

أكرا، حيث رأينا على جهته اليمنى الصدع في الصخرة، الذي امتدّ من قمتها حتى الأرض تماماً، وتبعاً لعدد كبير من المصادر الموثوقة، توفي آدم، أبونا الأول، في هذا المكان، وفيه دفن، ولايوجد بهذا تناقض مع ماقيل في الاصحاح الرابع عشر من سفر يشوع، من أن آدم قد دفن في حبرون مع أبناء عناق، أي مع العماليق، لأنه قد قيل في ذيل أخبار الأيام، بأن آدم قد مات ودفن على جبل أكرا، وأنه فيما بعد جرى نقل جسده — باستثناء رأسه— إلى حبرون، إلى الكهف المزدوج هناك، فقد تمّ العثور على رأس آدم، بعد ذلك بمدة طويلة، على جبل أكرا، ولهذا السبب اعتاد الرسامون على رسم جمجمة بشرية عند أسفل الصليب، ولهذا أعلن أمبروز، وأثناسيوس وخريسوتوم Chry-sostom، وجيروم في رسالته إلى مرسيلا، وفي أماكن أخرى كثيرة، والحاخامات اليهود، أعلنوا أن آدم قد أذنب هنا، وقد دفن هنا، من أجل أن يتمكن المسيح من عرض جسده في المكان الذي فسد فيه الجنس البشري، ولكي يمكن للصلاح أن يقوم من المكان الذي فيه بذر الفساد، وهذا ماقاله في الغالب أنطونيوس والقديس جيروم أيضاً، علماً بأنه قال في مكان آخر بأن القول بأن آدم قد دفن هنا هو قول ناعم، وقصد بذلك، قول قيل لإرضاء الأذن.

وهكذا قبلنا مكان تصدع الصخرة، ومكان دفن أبينا آدم.

علاوة على هذا، يقول المسيحيون الشرقيون بأنه في هذا المكان جرى دفن ملكيصادق، الكاهن الأول للقدس، الذي قرأنا عنه في الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين، وفي المزمور المائة وعشرة، غير أن هذا لم يتم تلقيه من قبل الكنيسة اللاتينية والغربية، وذلك بسبب كلمات الرسول في الاصحاح السابع من الرسالة إلى العبرانيين، حيث قيل هناك بأنه لم يكن لملكيصادق أب، ولاأم، ولانسب، ولابداية لأيامه، أو نهاية لحياته، ولابد أن المقصد من هذا هو القول بأن ملكيصادق لم يلد ولم

يمت، وأنه وجد من دون أبوين، وذلك حسبما يُعلن هراطقة ملكيصادق، الذين يقولون بأنه لم يكن انسانا مثل... بل ينبغي أن يؤخذ ذلك ليعني في الحقيقة أنه كان له والدين، وبداية لحياته ونهاية لها، ولكن ما انسان يمكنه أن يكتشف ذلك، لأنه كان نموذجاً للكهنوتية الدائمة للمسيح.

ولهذا ندد جيروم بعنف وبشكل رائع حمل في رسالته إلى ايفاجروس Evagrius ضد الذين قالوا بأن ملكيصادق لم يكن انسانا، بل ابنا للرب أو ملاكاً، والذين يرون هذا هم بنظر الكنيسة هراطقة ملكيصادقيين.

ودفن في هذه البيعة الملوك اللاتين، الذين تمكنوا بشجاعة كبيرة، وبجهود هائلة، من استرداد الأرض المقدسة وإعادتها إلى أيدي المسيحيين واستولوا عليها، وهددوا المسلمين وضايقوهم إلى أقصى الحدود، لذلك إنه لأمر مدهش أن المسلمين لم يهدموا الكنيسة بسبب وجود أجسادهم، والملوك الذين دفنوا هناك هم التالية أسماؤهم: أولاً: غودفري أوف بولليون، دوق اللورين، الذي انتخب في سنة ١٠٩٦ لتجسيد ربنا ملكاً على القدس، وكان ذلك بعد الاستيلاء عليها، وجرى انتخابه من قبل جميع أمراء الغرب، وقد دفن بعد موته في كنيسة الضريح المقدس، والثاني: الملك بلدوين الأول، والثالث: الملك بلدوين الثاني، والرابع: فولك، والخامس بلدوين الثالث، والسادس: عموري، والسابع: بلدوين الرابع، والثامن: بلدوين الخامس، والتاسع: غي، والملك الأخير هذا كان جبانا، وقد أهمل المدينة المقدسة، ومملكة القدس، وضده ثار اللورد برتراند (ريموند الثالث) كونت طرابلس، مع أنه كان أيضاً كاثوليكي.

وكان الملك غي ملكاً قويا، ولم يكن بامكان برتراند غلبته اعتماداً على الوسائل والامكانات الخاصة لشعبه، ولذلك استنجد بالسلطان ملك

مصر، واستدعاه لمساعدته ضـد ملك القدس، وأقام تحالفاً مع المسلمين، وبذلك تغلبـوا على غي، ولكن المسلمين والشعـوب الكـافـرة، رأوا الشقاق في المملكة، وأن الصليبيين كانوا منقسمين بين أنفسهم، فجمعوا أنفسهم، واتحدوا مع بعضهم، فـاستـولوا على المدينة المقـدسـة، ومنهـا طردوا الصليبيين، وبالنتيجة فقد الصليبيون الأرض المقـدسة كلها، وقد حكم الملوك الذين تقـدم ذكـرهم في القدس ثمانيـة وثمانين سنة وتسعـة عشر يوماً، وزالت مملكتهم من الوجود، وألحقت بمملكة مصر، كما هو حالها في هذه الأيام.

وانظر إلى أي مدى استطردت وتجولت بعيداً عـن موضوعي، لكنني سـوف أعود الآن إليـه: إن البيعة المتقـدم ذكـرها، والتي هي تحت جبل أكـرا، هـي ملك للمسيحيين النوبة، الذين يمارسـون طقـوسهـم فيهـا، ويقـولون بأن الملك ملكيـور، الذي كان واحـداً من المجـوس (الحكماء) الثلاثة، الذين قـرأنا عنهم في الاصحاح الثـاني من انجيل القديس متى، كان ملك النوبة، وأنه عندما قدم مـن النوبة، وبات قريباً من القدس، لم يدخل إلى المدينة، بل استقبل وأنزل على مقربة من جبل أكرا، وعلى هذا فإن هذا الموضع قـد جـرى تعيينه لهم منذ العصـور القـديمـة. وعندمـا فرغنا من قداس المسيرة، وتلقينا غفرانات، غادرنا هذه البيعة.

المكان الذي جرى تحنيط جسد المسيح فيه ولفه بأقمشة كتانية

وبعدما خرجنا من تلك البيعـة، ومشينا نحو الأمام تسع خطوات في مسيرتنا، ونحن نغني تـرنيمـة آلام المسيح Pange lingua gloriosi proelian certaminis ،وصلنا إلى مكـان ممدد فيـه على أرض الكنيسة حجـرة سوداء محلاة ببعض النقط الحمراء، وهي حجـرة كانت مصقـولة بشكل جيـد، ويقال بأنها كـانت مـوجـودة هناك منذ أيام آلام المسيح، وكـانت ملاصقـة لضريح يوسف الرامي، لأن اليهـود يغسلون مـوتاهم، ويمددون الجسـد على منضـدة إما من الخشب أو من الحجـر،

وهناك كانوا يقـومون بأعمال طقوس الغسيل المعتـادة، والتحنيط، وكان هذا الضريح قد نحته يوسف لنفسـه من الصخرة في ذلك المكان، ومثل ذلك تدبر أمر صقل منضدة رخامية من أجله، حتى يمكن غسل جسده عليها وتحنيطه.

لكن بما أنه تخلى عـن ضريحه للمسيح، فعل الشيء نفســه وتخلى عن حجرة غسله وتحنيطه، ولذلك عندما قام يوسف ونيقوديموس، والذين ساعدوهما بفك جسـد المسيح من على الصليب، حملوه إلى هنا، ومددوه عارياً على هذه الحجـرة المقدسة، حيث حنطاه، ودهنا جـروحه بالمراهم، ولفاه بأقمشة كتانية، وفي أثناء طقـوس الجنازة كانت مريم المجيدة جداً، والفـائقـة الحزن، حـاضرة، وجـالســة ممسكة الرأس المجـروح لابنهـا، ومحتضنة له، ورابطة له بمنـديل، في حين كـانت مـريم المجـدليـة تتـولى بعناية فـائقـة دهن القــدمين المقـدسين، اللذين دهنتهما مـرة في الحيـاة، وبمقتضيات العمل، قلبـوا جسده الثمين جداً فـوق الحجرة، وعلى هذه الحجرة الفائقة القداسة، وقفت —للأسف— وأنا جاهل، وذلك حسبما تحدثت من قبـل في ص٤٦٤، وتحلقنا بأنفسنا من حــول هذه الحجــرة ونحن على شكل رتل، وعندما فرغنـا من الغناء، قمنا واحداً تلو الآخر بالجثـو على ركبنـا، وقبلناها، وتلقينا غفـرانات مطلقــة(++)، فمن هذا المكان حملوا جسـد الرب إلى الضريح، الذي كـان يبعد حـوالي الخمسين خطوة عنهــا، وفـوق هذا المكان هناك حبل ممتــد من الجدار الأول إلى الجدار الآخر، وعليه جرى تعليق عدد كبير من المصابيح المشتعلة، وبعد المسيرة مدّوا لوحاً فوق هذه الحجرة، وأقام هناك كل من رغب قداساً.

المكان الذي قيل بأن فيه نقطة مركز العالم كله

وعندما فرغنا من زيارة جميع الأماكن المقدسة، وذلك قبل دخولنا إلى ضريح الرب، مشينا في المسيرة، منحـرفين جــانبـاً ومبتعـدين عن الممـر الذي حمل عبره جســد الرب يســـوع إلى الضريح، ودخلنا إلى كنيســة

الجلجة، التي هي سـدة المبنى كله، ووصلنا هنا إلى وسط السـدة، فوقفنا وتحلقنا من حول حجرة مستديرة، ومرتفعـة قليلاً فوق حجارة الأرضية الأخـرى، ويوجـد في الوسط هناك حفـرة مستـديرة يمكن لإنسـان أن يضع فيهـا قبضتـه، أي مجمع كف يده، ولقـد قـالـوا بأن هذه الحجـرة موجـودة في النقطة المركزية للعالم كله، ويقول المسيحيـون الشرقيون بأن الرب يسوع وقـف هنا مع حوارييـه، قبل آلامه، وأشار إلى هـذه البقعة باصبعه وقال:«انتبهوا، هنا وسط العالم»، وأيضاً تحدثنا التواريخ القديمة وتخبرنا أنه قبل بناء هذا الهيكل، كان مقاماً في هذا الموضع عمود طويل، من الرخـام، وقد أقيم من قبل الفـلاسفة، فهذا العمـود لايلقي ظلاً في منتصف النهار أثناء الاعتدال الصيفي، لأن الشمس تقف فوقه مباشرة، ورغب أحـد الفـرسان من الحجـاج، وكـان من جمـاعتي في البرهنة على هذا بالتجـربة، وبعدمـا حصـل على إذن من السيـد سـاباثيتـانكو SabaThyTanco ،الذي كـان مـدير المشفـى، والذي يعـرف باسم كالينوس الأكبر، صعد مع بعض من رفاقه فوق السقف المقنطر للسدة، وكان عالياً جداً، ويمتلك درجاً يمكن للانسان أن يصعد عليه، ويوجد على أعلى نقطة من السقف مكان مرتفـع، بني من الحجارة بشكل بارع، يمكن للانسان أن يقف عليه من دون خوف، وأن ينظر من حوله، وإلى هذا المكان صعـد ذلك الفـارس في منتصف النهـار، ليرى هل سيلقي جسده أياً من الظلال، وقد أعلن إلينا أنـه بالحقيقة لم ير ظلاً صادراً عن جسده، لأنه وقف مباشرة فـوق ذلك المكان الذي وقفنا من حوله، لأن القبة قد بنيت لتقف فوق ذلك المكان، من أجل أن تتم التجارب هناك.

غير أنني لا أرى الأمـر صحيحـا، في أن الشمس وهـي تشع في منتصف النهـار بشكل مباشر فـوق رؤوس الناس، وأجسـادهم لاتلقي أي ظل، أن في ذلك أي صدق وبرهان مؤكد على أن البقعة التي يحدث هذا فيها هي مركز العالم، لأنني قرأت في عدد من الكتب حول كثير من

الأمـاكن التـي لاتلقي فيهـا أجسـاد ظلالاً في أوقـات محددة، من ذلك مـاأخبرنا به ديونيسيـوس Dionysius في كتابه الثالث من «العصور القـديمة» عـن أمور من هذا القبيـل، في جزيرة قـائمـة في المحيط باتجاه الجنوب، حيث مـامن شيء مهما كـان يلقي أي ظل، لأن الشمس تقف فـوق رأسـه مبـاشرة، علماً بأن هذه الجزيرة بعيـدة كثيراً عن القـدس، وكـذلك فعل بطـرس ألبـانو التـوفيقي (كـاتب معـروف من العصـور الوسطى) في كتـابه حـول التعلم الخ، ص٦٧، حيث قـال بأن الشيء نفسه كان يحدث في مدينة أثينا، حيث برهن عليه شخصيا بالتجربة.

وفي مدينة سين Syene (أسوان) أيضاً على النيل، قيل بأن الشيء نفسـه يحدث عندمـا تكون الشمـس في المدار الاستـوائي في الصيف، وحدد بطليموس أيضاً في خريطتيه الثـالثة والرابعة عن أفريقيا عدداً من المناطق تقف فيها شمس منتصف النهار مبـاشرة فوق الرأس، وأكثر من هذا، وضعت عـلامـات فـوق الخريطـة نفسهـا على أمـاكن، تقف فيهـا الشمس مـرتين في السنة فـوق الرأس، دون إلقـاء أي ظل، وعلى سبيل المثـال، هناك أمـاكن كثيرة في آسيـا، حسبما يمكن رؤية ذلك في الخرائط السـادسة، وفي التـاسعـة، وفي العـاشرة، وفي الحادية عشرة، وفي الثانيـة عشرة، ومعـروف بشكل جيد أن هذه الأمـاكن ليست في وسط العـالم، ويرى بعضهم بأن إحـدى الجزر هي منتصف العـالم، وفي هذه الجزيرة لاتلقي شمس الظهيرة دوما ظلالاً.

والذي —على كل حـال— يراه العامـة هو أن أي مكان هو منتصف العالم، لأنهم يعتقدون بأن بني البشر منتشرين حول العالم أجمع، ويقفون بأقـدامهم على الاتجاه المعـاكس لاتجاهنا، وعلى هذا لكل انسـان ذروته، وكل انسان يسير بقـدميه فوق ماهو بالنسبـة له وسط الكرة الأرضية أو العـالم، لكن أوغسطين في مـؤلفـه «مـدينة الرب» —الكتـاب السـادس عشر، الفصل التـاسع، أنكر كليـا وجـود أي أمـاكن مقـابلة، لأنه لا

الكتـابات المقدسـة، ولا التـاريخ، ولا التجارب، علمتنا الاعتقـاد بهم، وأنه من المستحيـل الوصـول إلى الطرف الآخـر من الكرة الأرضيـة، بسبب اتساع امتداد المحيط، الذي من غير الممكن بالنسبة لأي سفينة أن تقطعه، وانظر حول هذه المسائل الفصـل العاشر من الكتاب السابع من «Speculum Naturae» .

لكن الحقيقة المنزهة للكتابات المقدسـة، تبرهن بشواهدها بأن القدس هي في وسط العـالم، وعلى كل حـال يقـول عـدد كبير من الناس بأن القدس هي في الحقيقـة في وسط العالم المسكون، لكنهـا ليست في وسط المساحة الكلية للعالم، ولكن بشأن أي من هذه الآراء هوالصحيح، علينا أن نصـدق الكتـابات المقدسـة التي تعلن بـأن القدس قـائمـة في وسط الأرض، وأن مخلصنا قـام بتخليصنا في وسط الأرض، وبناء عليه نجـد في المقـام الأول حزقيـال يقول في اصحـاحه الخامس:«هذه القـدس، في وسط الشعـوب قـد أقمتهـا وحواليهـا الأراضي»، وثانيـا نحن نقـرأ في المزمور الرابع والسبعين:« قد صنع خـلاصه في وسط الأرض»، ولذلك قال هيلاريوس Hilarius«كان المكان الذي وقـف فيه الصليب هو نقطة مـركـز العـالم، من أجـل أن يتمكن جميع الناس من الحصـول على فرص متساوية في الحصول على معرفة الرب»، لأن المكان الذي أقيم فيه الصليب، والصخرة، قـائمان إلى يمين هذه النقطة المركزية، ومنهـا يوجد باب إلى السدة، يقود صعـوداً إلى جبل أكرا، ومثلما المسيح هو الشخص المركزي في التثليث، والوسيط بين الرب والانسان، وبما أنه يشغل المركز الوسط في مشروع خـلاص العـالم، على هذا الأسـاس اختـار النقطة المركـزية من العـالم لإقامـة صليبه فيها، وهنـاك كما يبدو إشـارة لهذا في الاصحاح الثاني من سفر التكوين قوله:«وشجرة الحياة في وسط الجنة»، الذي يعني أن «صليب المسيح في وسط العالم»، عـلاوة على هذا جاء في سفر التثنية:٧/ ٢١ قوله:«الرب إلهك في وسطك»، وعن كنيسة الضريح

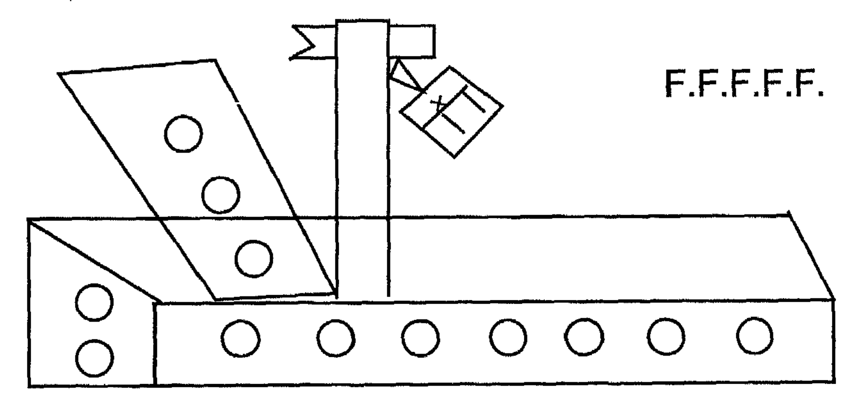
المقدس قـال في سفر اللاويين: ٢٦/ ١١ :«سوف أقيم خيمـة عهدي في وسطكم»، الذي يعني:« سوف أقيم هيكل ضريحي في وسط العالم».

ولهذا شعرنا في هذا المكان بسرور، وببهجة فائقة جداً، لأننا جئنا من أقصى أجزاء الأرض إلى وسطها سليمين وأصحاء، وبعدما قدمنا الحمد والشكر للرب تلقينا غفرانات(+).

المكان الذي رأت فيه النساء المقدسات الحجر وقد دحرج من على الضريح

وعندمـا غـادرنا هذا المكان، وتـركنا كنيسـة الجلجلة، مـررنا مجدداً خارجين من خـلال الباب الذي دخلنا منه إلى كنيسـة الضريح المقدس، ووصلنا إلى المكان الذي، عندما قدمت المريمات الثلاث، لتحنيط يسوع، رأوا الحجـرة قـد دحـرت من على فم الضريح، وهي الحجـرة التي كن قلقـات حـولها، عندمـا كن على طريقهن، حيث قلن:«من الذي سـوف يدحرج الحجـرة من على فم الضريح لنا»؟ وعندما نظرن شـاهدنها وقد تدحـــرجت، ودخلنـا إلى هذا المكان وانحنينـا بأنفسنا نحـــو الأرض، وقبلناها، وتلقينا غفرانات(+).

ليكن مـلاحظاً، أنه حيثما وجـدت هذه الصورة، أو نمـوذج الضريح المقـدس، ومهما كان عـدد المرات التي ستجـدها فيه كثيراً، لتعلم بقـدر



هذه المرات، بأنني راقبت من خلال الليل كنيسة الضريح المقدس، أثناء حجي الثاني، وأنني أمضيت أثناء حجي الأول ثلاث ليال فيها.

كيف جاء الحجاج إلى الضريح الأعظم قداسة للرب يسوع

انهضوا الآن، وقوموا موالي وإخواني الحجاج، وتقدموا مسرعين، وأسرعوا الخطوات لكن لاتقدموا إلاّ وأنتم مستبشرين، ضعوا جانبا كل الأحزان، وامسحوا الدموع من عيونكم، وغنوا جميعاً مع بعضكم أغنية الفصح الجميلة «المجد»، لأنه بعد سبوت اليهود المظلمة، أشع ضوء لطيف على العالم من الضريح القذر والمظلم، الذي نحن على وشك الدخول إليه، ذلك أن العالم تلقى ضوءاً أكثر اشعاعاً من الضوء الصادر عن الأجرام المشعة لقبة السماء، أقبلوا على هذا ببهجة وحمد، وألقوا نظرة على المكان الذي مدّد فيه الرب، وانظروا إلى نهاية حجكم.

وبناء عليه شرع هنا قائد الجوقة يغني بصوت طيب مسرور، ترنيمة الفصح Ad coenam agni providi، الخ، وسرنا نحن في رتل ونحن نغنيها، ووصلنا إلى الضريح الأعلى مكانة العائد للرب يسوع وغنينا قبل ذلك ترانيم فصحنا مع ترداد كبير لعبارة «المجد»، مع سرور عظيم، أو بالحري مع بهجة أعظم مما شعرنا به قط في أي عيد فصح بعد صيام كبير مرهق.

ذلك أننا شعرنا بالألم من أجل ربنا يسوع، ونحن على جبل أكرا، وذرفنا الدموع، لكننا هنا نشعر بالغبطة مع مخلصنا، ونقدم له دموع الفرح الجميلة، وأغاني حية، وهكذا دواليك، لأن مخلصنا يسوع بعد دموعه، وحزنه، وبعد السخرية منه، وجلده، وبعد كؤوسه من الخل والمرّ، وبعد عذابه، وجراحه فوق الصليب، وبعد موته المرعب نفسه، وبعد دفنه المحزن والمؤلم، وبعدما نزل إلى الظلال الدائمة للجحيم، وبعدما حطم الحواجز الحديدية، وبعدما ربط أمير الظلام، وأطلق

سراح جميع البطارقة النخبة، قام مجيداً، ومنتصراً من قبره هذا الذي ننظر إليــه الآن، ومن هذا الكهف المظلم أشع ضــوء لامع، اندفع باشعــاع براق، براق كأنه الثلـج ببيـاضـه، وهناك حل ســلام مبـارك لانظير له، وهناك قـدّم سروراً عظيماً، وهناك انتشر خــلاص عظيم جعل الأرض، والبحــر، والسماء تبتهج مع بعضهــا بعضـاً، ففي هـذا الضريح، وهذا الكوخ الصغير، جدد النسر شبـابه، وأقام الأسد أشباله، وجـدد العنقاء حياته، وخرج يونان دون أن يصـاب بالأذى من جوف الحوت، وتغطى الشمعـدان بالذهب، وأقيمت مجدداً خيمـة عهد داوود التي كـانت قـد سقطت، وأشرقت الشمس بعـدمـا كـانت خلف الغيـوم، وأصبح قمح الطحين، الذي سقط إلى الأرض، ومــات، رشيقــاً، وقـويـت سـوقــه وأعطت سنابلهــا، وحمل شمشوم الأبواب بعيـداً، واقتحم وشق طريقـه بين الحراس، وعاد يوسف من السجن، وهو حليق، مرتدياً بأبهة، وصار سيــداً لمصر، وجـرى تمزيق أثمال يســوع المسيح، وارتدى بسرور، وإلى جانب هذا كله، هنا انتهى حجنـا المرهق، وانتهت جولاتنا، ووصلنا إلى الراحة.(١١٩ـــو).

وهنا على هذا أرجوكم، دعونا نضع جانبـاً مشاعر تفجعنا وخشوعنا الحزين، وسحب أحــزاننا، ودعـونا نتنفس بسرور، وعلى الـذين تبعـوا مخلصنا إلى قبره مع الأسى المشاركة الآن في بهجة قيامته المجيدة، هلموا، بعـد هذا كله، واجمعوا أنفسكم، فـرساناً وحجـاجاً لطفـاء، وادخلوا إلى الضريح الأعظم قـداسة، وانظروا بأعينكـم،واشعروا بأيديكم، والمســوا بأفواهكم المكان الذي تمدد فيه الرب.

وهكذا دخلنا ونحن نشعر بالسرور، واحـداً بعد الآخر، إلى الضريح الثمين جداً، والعـائد للرب يسوع، وقبلنا النعش الأكثر قـداسة، وتلقينا غفـراناً كـامـلاً ومطلقـاً(++) من كـل الذنوب، وشعـرنا هنا ـــوالحق يقالـــ بسرور خاص، أعظم مما شعرنا به في الأماكن المقدسة الأخرى.

وعلى هذا قال القديس برنارد في الاصحاح الثاني من قداسه لفرسان الداوية، بأن الضريح المقـدس هو المكان الأسمى بين الأمـاكن المقدسـة والمرغـوب بها، ويتكون هناك شعـور أعظم بالخشـوع، لأن هناك المكان الذي تمدد فيه ليستريح، ومشاعـر الخشوع التي تحرك الانسان هناك هي الأعظم تحريكاً في حيـاته، وهكذا فإن تذكرنا لموته يثير شفقتنا أكثـر من تذكـر حيـاته، وافترض أن سبب ذلك هو أن مـوته كـان وحشيـا، بينما كانت حيـاته بالمقارنـة أكثر لطفاً، ولأن ضعفنا البشري يجذبـه الميل نحو النوم أكثـر مما يجذبه تعـب الحيـاة بين الناس، والانسـان ينجـذب نحـو الخلاص من الموت أكثر من انجـذابه نحو الحياة المستقيمـة، وبالنسبة لي إن حياة المسيح قـانون لحياتي، وخـلاص من الموت، وتلقينا هنا انتعاش روحي، وغفرانات، وخرجنا مع الحبور والحمد، وبذلك انتهت مسيرتنا ساعـة واحدة قبل منتصف الليل. (سـوف يأتي وصف الضريح المقدس في ص٥٠٣ ظ).

وبعد انتهـاء المسيرة، تجمع الحجاج إلى فئات حسب تعـدد جماعاتهم، وكان ذلك في مختلف زوايا الكنيسة، وكانت كل جماعة جالسة في مكانها الخاص بها، ذلك أننا كنا متعبين، ومصـابين بالانهاك، وقد تناولنا وجبـة طعـام سريعــة، وبعـدمــا أكلنا. سندنا رؤوسنا إلى الجدار لننـال راحـة قصيرة، وتمددنا نائمين فوق الأرض، ونمت أنا شخصياً مع رهبان جبل صهيون في بيعة العـذراء المباركة، الذين منحوني مكاناً هـادئاً للنوم فيه، غير أنني لم أستطع أن أغمض عيني لأنـام، ولذلك نهضت على الفـور، والتحقت بالمستيقظين في الأمـاكن المقـدسة، لأنـه —في الحقيقة— كـان القسم الأعظم من الحجـاج يتجـولون حـول جميع الأمـاكـن المقـدسـة المتقدمـة الذكر، وذلك حسبما رغب كل واحـد منهم، ومضى كل واحد منهم إلى هنا أو إلى هناك حسبما حركته روح الصـلاة، ذلك أنه كان من الممكن للحـاج أن يدخل إلى الضريـح المقـدس، أو أن يصعـد إلى جبل

أكـرا، أو أن ينزل إلى بيعـة اكتشـاف الصليب، أو أن يذهب إلى أمـاكن أخرى، وذلك حسب رغبته كل وقت.

وفي هذه الزيارات الفردية إلى الأماكن المقدسة، يشعر الناس بخشوع أعظم، وتحرر من قيـود الدنيـا، وذلك أكثر مـايكونون فيـه في المسيرات العـامـة، التي يكون فيهـا كثير مـن التـدافع، والفـوضـى، والازعـاج، والغناء، والبكـاء، في حين في هذه الحالة الأخـــرى يكون هنـاك هدوء وسلام.

وفي أثناء تجوالي حول الأماكن المقدسـة للمرة الثانية، نزلت إلى مكان اكتشاف الصليب، وقـرأت هناك صلاتي الليلية، وشعـرت بسرور عارم في ذلك المكان القائم تحت الأرض، لأنه كـان هناك هدوء، وقد ناسبني ذلك لأن جبل أكـــرا، وضريح الرب، والأمـــاكن الأخـــرى في الأعلى، كانت مليئة بحشد متواصل من الحجاج، وكانت هنالك ضجة وصخب عظيم، وفي الوقت نفسه كـان موالي وخـدمهم يركضـون هنا وهناك في الكنيســة فـوقي، ويفتشـــون في كل زاوية، بحثــا عني، كي أستمع إلى اعترافـاتهم، ولم يخمنـوا أنني مـوجـود في ذلـك المكان، ونزلوا أخيراً إلى حيث كنت، واستمعت إليهم هنـاك وأنا جـالس على كـرسي القـديسـة هيلانه، الذي تقدم ذكري له في ص ٤٨١.

حول الخدمات الطقوسية الربانية في الضريح المقدس والطريقة التي كانت تتم بها والنظام هناك

وعندمـا صـار الوقت منتصـف الليل ركض المؤقت حـول الكنيسـة وبيـده لوح خشبي، وأعطى بصـــوت مـرتفع جـداً الاشـارة للصلوات الصباحية، وعندمـا سمعت هذا، صعدت على الفور إلى الأعلى، وعينت للذين لم أستمع بعـد إلى اعترافـاتهم، وقتا آخـر سـوف أستمع إليهم به، ودخلت إلى مكان القـداس، الذي كان متصـلاً ببيعة العـذراء المباركـة،

وارتديت هناك ملابسي من أجل القيام بالقداس (لأن هذه الكنيسة مثلها مثل كنيسة بيت لحم، لها امتياز إقامة القداسات فيها، حتى في منتصف الليل)، وعندما بت جاهزاً، تقدمت، ودخلت إلى الضريح الأعظم قداسة والعائد لربنا، حيث توجب عليّ أولاً، تأمين محل لأتلو فيه القداس، دونما مقاطعة، وتمكنت هناك، بكل راحة، من إقامة قداس من أجل قيامة الرب، وبعد القداس، عملت قداسات قرابين، لعدد من النبلاء، في الضريح المقدس نفسه، بإذن من الأب المسؤول، وجاء من بعدي كهنة آخرون، من أجل إقامة قداس، في كل من الضريح المقدس، وفي أماكن أخرى ثلاثة، وذلك حسبما تحدثت في ص٤٦٦، تحت البند السادس.

وكان الصراع الأعظم بين الكهنة حول تلاوة القداس في الضريح المقدس، لاسيما أثناء حضور عدد كبير من الكهنة، ذلك أنهم كانوا يقفون خارج الضريح، وينتظرون الذي يقيم القداس حتى ينتهي، وكان ما أن يغادر المذبح، حتى يندفع نحوه واحد آخر، ويعلوه، ولدى قيام الذي أنهى القداس، بخلع ملابسه الكهنوتية، يتحلق من حوله خمسة أو ستة من الكهنة، أو أكثر، حتى يأخذوا هذه الملابس وتراهم يتجاذبونها، ويستخدمون كلمات عدوانية أحدهم ضد الآخر، ويصلون إلى حد الضراب، ولقد رأيت كهنة يتنازعون على هذه الشاكلة، أحدهم مع الآخر، حتى أن أحدهم غضب من آخر غضباً عظيماً فقال له:«أعطني الرداء الكهنوتي الأبيض»، فرد عليه الآخر من الجانب الآخر قائلاً:«سوف أحتفظ به وأتمسك، لأنك غير جدير بأن تذهب قبلي»، فأجابه الآخر:«إنك غير جدير بإقامة قداس على الاطلاق، وأنا ذاهب قبلك لأنني أفضل منك»، وقد مضيا هكذا وتابعا إلى حد استخدام لغة قاسية وعبارات نابية، ولعنات، وذلك أثناء تجاذب الرداء الكهنوتي، حتى باتا على وشك تمزيقه.

أية حماقة هذه، وأي سوء اندفاع، وانعدام للنظر! والذي آراه أن أناساً يتخاصمون هكذا، لابد أنهم عميان، وخشوعهم خشوع أحمق، وهو مرفوض من قبل الرب والبشر، وكان الأفضل كثيراً بالنسبة لهؤلاء القوم التحلي بالصبر، وضبط النفس، لابل كان الأفضل بالنسبة لهم عدم رؤيتهم مدينة القدس مطلقاً، فذلك أفضل من تورطهم هكذا وخصامهم بشكل أعمى حول الأشياء المقدسة، ولقد عبرت عن أسفي هذا بنشاط بالتعاون مع الرجال العلمانيين الذين كانوا بين الحضور، والذين كانوا ينظرون بدهشة وشماتة كبيرة تجاه هذا المشهد، ولعله صدوراً عن رغبتي بالتقوى لم أشعر بالاهتمام بتلاوة قداس مثلما فعلوا، وكنت بالحري أوثر مغادرة القدس من دون إقامة قداس، مفضلاً ذلك على القتال من أجل مكان.

ومع ذلك حصلت دوماً —في أثناء حجي الأول، وحجي الثاني— على مكان من دون أية خلافات، حتى في البقعة التي كانت مطلوبة أكثر من سواها، ولقد رأيت بعض الآخرين الذين —في الحقيقة— لم يتصارعوا أو يختلفوا، بل اندفعوا مسرعين، ووضعوا أيديهم على الرداء الكهنوتي، وأخذوه لأنفسهم، بوساطة قوة ذاتية صارمة، وتفوق ورهبة إلى حد أن مامن أحد تجرأ على معارضتهم، وأعتقد أن مثل هؤلاء الرجال كانوا أسوأ الكهنة، لابل أكثر سوءاً حتى من الذين نشبت بينهم خلافات، ونشأ هذا كله من الحاجة إلى نظام، بسبب أن القضية غير خاضعة لأي تنظيم، ففي أثناء حجي الأول كان هناك عدد كبير من الكهنة، وقليل من العلمانيين، ولم تكن القضية خاضعة لأية أحكام، لذلك وقعت خلافات كثيرة من هذا القبيل، وفي أثناء حجي الثاني كان هناك عدد قليل من الكهنة، وكثير من العلمانيين، والأب المسؤول الذي كان رجلاً عاقلاً، قد أعدّ كل شيء اعداداً جيداً، ولذلك تم إجراء القداسات بسلام.

وأسباب كون الكهنة متسرعون هكذا، ويتصارع واحدهم مع الآخر من أجل المكان، هي متنوعة، من ذلك أنك تجد أحدهم مصاب بنوبة من الاستغراق بالخشوع، التي يشعر الناس بها في الأماكن المقدسة، والتي تتعاظم إلى حد تتحول فيه إلى غيرة غير ملجومة، لاسيما بين الذين ليس لديهم تعقل أو تقوى، ذلك أن أمثال هؤلاء الناس تجدهم دوماً خائفين بأنهم لن يمنحوا وقتاً من أجل غفران كامل لخشوعهم، وأمر آخر، أن عدداً كبيراً من الكهنة قد نذروا القيام بقداس أو قداسين في الضريح المقدس، وتجدهم يبذلون جهودهم ويصطرعون من أجل وفاء نذورهم، وهناك سبب آخر، هو أن عدداً كبيراً ممن جاء إلى هنا، قد أرسلوا من قبل آخرين، ليس بإمكانهم شخصيا الوفاء بنذور حجهم إلى هنا، وكانوا عندما يرسلون بهؤلاء الناس محلهم، كانوا يعهدون إليهم بقولهم اعملوا ما استطعتم من قداسات في الضريح المقدس، ويفرضون عليهم أداء ايمان كثيرة بفعل ذلك، ويدفعون لهم النفقات، ولهذا نجد هؤلاء الناس خائفين من أن يخفقوا في الوفاء بما تعهدوا به، ولذلك يتعجلون ويتخاصمون، وهناك سبب آخر، هو أنهم يرغبون أن يكونوا قادرين، لدى عودتهم إلى بلادهم، على أن يقول أحدهم صادقاً: «لقد أقمت قداساً في الضريح المقدس»، ويبدو الأمر بالنسبة لأحدهم إذا لم يستطع تحصيل مكان، سيكون ذلك عاراً بالنسبة إليه، وإهانة عليه من أجلها أن يغادر القدس، وهناك سبب آخر أيضاً هو أن بعض الفرسان الذين يكونون حضوراً أحياناً، يعطون كاهناً دوقية لإقامة قداس لهم في الضريح المقدس، ويقوم هؤلاء الكهنة بالتدافع بكل فعالية.

وعلاوة على هذا كله، هناك بعض الكهنة قد جرى تكليفهم من قبل الأساقفة من رؤسائهم بالقيام بعدد كبير من القداسات في الضريح المقدس، وبعضهم كانوا عندما يفارقون الأعزاء عليهم يعدونهم بأنهم سوف يتلون قداساً من أجلهم في ضريح الرب، وتصطرع هذه الفئات

من الناس كلها باندفاع من أجل مكان، وهناك سبب آخر يمكن أن نضيفه، ولعله سبب خرافي، هو أنه قد قيل بأن كل قداس يتلى في ضريح الرب، يتولى بالحقيقة تحرير النفس من العذاب بعد الموت.

والشيء نفسه قد قيل عن قداسات تليت في catacombe في روما، وخاصة حول نفوس الذين تحرروا بسبب القداسات التي أقامها الكهنة من أجلهم، فالذين يؤمنون بهذا كنت تراهم يتحركون بسرعة مذهلة، ويجرحون أنفسهم، ويعادون إخوانهم، ويسببون الاهانة للرجال العلمانيين في تلهفهم لمساعدة هذه النفوس.

وهناك سبب آخر، هو أن بعضهم يعتقد أن القداسات التي تتلى في الضريح المقدس، هي ذات فائدة أعظم وتأثير لكل من مقيم القداس، وللشخص الآخر، سواء أكان حياً أو ميتاً، مع إمكانية أعظم بالحصول على النعمة.

وسبب آخر نضيفه هو الشره وانعدام الاحترام لدى بعض الناس، الذين يرفضون إعطاء فرصة لأي انسان، بل يتدافعون للحصول على المكان الأول، ذلك أنهم لايعرفون كيف ينتظرون، وهم صابرين.

وهناك سبب آخر، لعله هو السبب الأول، وكذلك الأخير، وهذا السبب هو أن الحجاج يعلمون تماماً أنه غير مسموح لهم بإمضاء أكثر من ثلاث ليال في كنيسة الضريح المقدس، وأنه ليس لديهم وقت لأكثر من ثلاثة قداسات، ولهذا يبذل كل انسان غاية جهده لأن يكون الأول في التمكن من تلاوة قداسه في الضريح المقدس، وتراه لن يعرف الراحة حتى يتلوه، لأنه يخشى من أن لايساعده الوقت مثلما حدث وخان كثيراً من الناس الذين غادروا وهم آسفين لأنهم لم يقيموا قداساً في الضريح المقدس.

وهكذا —كما قلنا من قبل— أقمنا قداساتنا، وعند اشراق الشمس،

ركض الموقت حول أرجاء الكنيسة مع لوحه الخشبي، وأعطى الشارة من أجل إقامة قداس رفيع في الأول والثالث على جبل أكرا، وبناء عليه صعدنا جميعاً إلى الجبل المقدس، وصعد الأب المسؤول مع مرافقيه بثيابهم المقدسة، إلى المذبح، وبدأ قائد الجوقة يرتل قداس الصليب المقدس، مع صلاة Nos autem gloriari، وشاركنا جميعاً في القداس بصوت مرتفع، وبعد القداس تلقى موالي الفرسان وجميع الحجاج العلمانيين القربان بخشوع كبير، واستمرت أعمال القداس حتى الساعة الثامنة في الصباح، وفي اللحظة التي انتهت فيها هذه الأعمال جاء المسلمون لإخراجنا من الكنيسة.

اخراج الحجاج من الضريح المقدس وزيارتهم إلى الأماكن التي هي حول الكنيسة مما ارتبط به نيل الغفران

وبعدما أنهينا طقوسنا وقداساتنا، قدم السادة المسلمون المغاربة، ففتحوا أبواب الكنيسة محدثين بها جلبة عظيمة، من أجل أن نخرج بسرعة أكبر، ولدى سماعنا هذا ارتعبنا، وانزعجنا لافتراقنا، ولابتعادنا عن هذه الأماكن المقدسة الرائعة، وركضنا من مكان مقدس إلى مكان آخر لتقبيلهم، لكن بما أن الحجاج تأخر خروجهم بعملهم هذا، أصبح السادة المغاربة غضابى، ولذلك قرعوا على أبواب الكنيسة بعنف بلغ حداً أن مفاصلها كادت تنكسر، وركضوا هناك، وهم يصرخون بأصوات مرعبة بين الأماكن المقدسة، وساقوا الحجاج وأخرجوهم بالقوة، وقذفوا بكل واحد منا إلى خارج الكنيسة، وذلك باستثناء الحراس المعروفين هناك، وبعدما فرغوا من اخراجنا، أغلقوا أبواب الكنيسة وذهبوا في حال سبيلهم، حيث تركونا في الساحة في الخارج، وهناك هيأنا أنفسنا لزيارة بعض الأماكن المقدسة، على مقربة من الكنيسة.

المكان الذي وقفت فيه العذراء مريم ومعها يوحنا الانجيلي عند أسفل صليب يسوع عندما عهد لكل واحد منهما العناية بالآخر

وأول ماعملناه لدى مغادرتنا لباب الكنيسة، هو أننا انعطفنا نحو اليمين، حيث يوجد في مقابل جدار الكنيسة سلم درجاته من الحجر، وهي تقود صعوداً إلى جبل أكرا، وكان عند قمة هذا السلم فيما مضى جدار من خلاله يمكن للانسان أن يمرّ إلى صخرة أكرا، لكن هذا الباب مغلق الآن عمارة، وذلك من قبل المسلمين، ويوجد تحت هذه الدرجات باب، يدخل منه الانسان إلى بيعة هي في داخل جدران كنيسة الضريح المقدس، لكنها الآن محاطة من داخلها بجدار، وبذلك لايستطيع الانسان الدخول إلى الكنيسة من خلالها، لأن المسلمين عمّروا بابها الداخلي أيضاً، وفي هذه البيعة يوجد الموضع الذي وقفت فيه مريم العذراء المباركة جداً، وكذلك القديس يوحنا الانجيلي، فقد وقفا تحت الصليب، عند سفح صخرة أكرا، وعندما رآهما الرب يسوع معاً، عهد إلى يوحنا العناية بأمه كما عهد لأمه العناية بحوارييه، وانحنينا في هذا المكان المقدس بأنفسنا نحو الأرض، وسجدنا هناك، فتلقينا غفرانات(+).

وهذا المكان ملك للهنود، وهم الذين يتولون قيادة القداسات فيه.

واستدعينا في هذا المكان إلى ذاكرتنا الحزن اللامحدود للعذراء المباركة، لأنها قد عانت هناك من جميع الآلام والأحزان التي من الممكن أن يعاني جسد بشري منها، وكل الوحشيات التي مورست ضد أجساد الشهداء كان هناك بالنسبة إليها ثلاثة أضعافها، أو بالحري لم تكن آلام الشهداء شيئاً محسوباً إذا قورنت بآلامها، والتي خرقت جسدها بلاحدود ووصلت إلى شغاف قلبها الرحيم، وأخبرنا الانجيلي بأنه قد وقف هناك إلى جانب صليب يسوع، مريم أمه، ليس بدون حركة أو انشغال بأمور عابثة، بل كانت مضطربة بعقلها، وكانت تقول بصوت

متألم: «يابني، يامن كنت سعادتي وبهجتي، أنت الآن حزن بالنسبة لي أمضى من حد السيف، آه، كم هو يوم تعيس هذا اليوم بالنسبة لي ذلك، فمن الذي يمكنه أن يشفي جراح أحزاني، أو يقدم العزاء لشقاء أمك التعيسة، وذلك عندما أرى ابني وكأنه مجذوم، فلقد كنت الأحلى بين أبناء الناس، ومع ذلك عوملت كشقي، وعدّوك مع المعتدين، مع أنك الأقدس بين القديسين؟ وفوق آلامي وأحزاني التي لاتحتمل، هو أنني أراك، كما يبدو لي، قد نسيتني، قد نسيت أمك الأرملة، والآن، مع أنك تموت، لم تقل ولاكلمة لي، فإلى أين سوف آخذ نفسي؟ وإلى من سأطير لـلالتجاء؟ ذلك أنك أنت أبي، وأنت أخي، وأنت مجدي وفخاري، أيها الهاجرلي، إنني أرى ولدي العظيم يتلاشى على الصليب، ولدي الحبيب والغالي، تحدث إليّ، تحدث إلى أمك،، علني أسمع صوتك، فبسماعي لمجرد كلماتك، يمكن أن أكون أكثر صبراً، حتى أتحمل عقوبتي، التي نزلت بي والتي تعذبني من خلال حبي لك، وذلك خشية أن يغشى علي في وسط هذه الآلام التي لاتحتمل، إنني أتوسل إليك، إلى من سوف تعهد بي وتتركني، أنا يتيمتك»؟ فبمثل هذه الكلمات، وكلمات مناحة مماثلة، ناحت العذراء مريم في هذا المكان، وبكت تعاستها وتعاسة ابنها سواء، وهنا عندما شاهد ابنها هذا قال: «يامرأة هو ذا ابنك»، وأشفقنا على الأم في هذا المكان، مثلما أشفقنا على الابن في جبل أكرا، ولقد كان حبها العميق الذي شعرت به نحو الانجيلي نفسه، أعظم مما شعرت به نحو الآخرين، ذلك أنه وقف إلى جانبها وهو متأثر كثيراً وبعمق، ولم تقف العذراء المباركة ويوحنا مع الآخرين فوق الصخرة، تحت ذراعي الصليب، بل عند سفح الصخرة، مقابل وجه المسيح.

بيعة الملائكة المقدسين ولماذا توجب أن تكون هناك

وبعدما فرغنا من صلواتنا في المكان المتقدم الذكر، عبرنا إلى بيعة

أخرى، مكرسة للملائكة المقدسين، ويتولى اليعاقبة القداسات في هذه البيعة، وجثونا فيها، وتلقينا غفرانات(+).

وتداول أحدنا مع الآخر، إثر ذلك، حول لماذا جرى بناء بيعة للملائكة المقدسين بجوار هذه الكنيسة الأعظم قداسة، وكان الجواب الذي تلقيناه، بأن هذه البيعة قد بنيت بسبب الحماية الفعالة التي مدّها الملائكة إلى هذه الكنيسة، لأنه لولا أن الملائكة يتولون حراسة هذه الكنيسة بشكل دائم، والضريح المقدس بعناية خاصة، لكانت قد دمرت دماراً كلياً من قبل الكفار، علاوة على هذا ينجو الحجاج الذين يقدمون من مناطق واقعة فيها البحار، إلى الضريح المقدس لربنا، ينجون من كثير من المخاطر، ومن المخاوف المميتة، وذلك من خلال حراسة الملائكة، الذين إليهم يعيدون الشكر في هذه البيعة، ويتوسلون بأن يعودوا سعداء ثانية إلى وطنهم، في ظل الرعاية الملائكية السليمة نفسها.

بيعة القديس يوحنا المعمدان

وعبرنا من هذه البيعة إلى بيعة أخرى، مكرسة ليوحنا المعمدان، وهي ملك للجورجيين (الكرج)، وعندما دخلنا إليها انحنينا بأنفسنا للصلاة، وتلقينا غفرانات(+).

وكان عملاً منطقياً تماماً، أن يكون للذي كان هو الأعظم بين الذين ولدتهم النساء، مكاناً ومزاراً إلى جانب الكنيسة الأعظم بين الكنائس كلها، وأيضاً بسبب أن المعمدان الأعظم قداسة قد أشار إلى المسيح باصبعه وقال:«هو ذا حمل الرب الذي يرفع خطية العالم» (يوحنا: ١/ ٣٩)، ونحن نعلم بأن هذا القول قد تمّ الوفاء به في هذه البقعة، حيث عليها قدم نفسه كأضحية ليزيل ذنوب العالم كله، فضلاً عن هذا امتلك المعمدان بيعة هنا، من أجل أن يكون المسلمون ميالون أكثر نحو إبقاء الكنيسة، لأنهم ينظرون إلى معمدان المسيح نظرة احترام عظيمة.

بيعة القديسة مريم المجدلية في ساحة الكنيسة

وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى بيعة أخرى، كانت مكرسة للقديسة مريم المجدلية، وذلك على جهة اليسار (من الساحة) بجوار برج الناقوس، وكانت هذه فيما مضى كنيسة واسعة مع دير للراهبات مرتبط بها، لكن في هذه الأيام الجزء الأعظم منها مهدم، وتقام الطقوس في هذه البيعة من قبل الإغريق، وكان عملاً صحيحا جداً قيام الآباء الأقدمين للكنيسة ببناء كنيسة للقديسة مريم المجدلية متصلة بكنيسة الضريح المقدس، وهي الكنيسة الأعظم قداسة، لأنه عندما غادر الحواريون هذا المكان، وتركوا الضريح، بقيت مريم المجدلية لوحدها في الحديقة، تمشي نحو الأمام ونحو الخلف وهي (تبحث عن الرب) ولم يكن بإمكانها تحمل مغادرة المكان، والابتعاد عنه، ولعظيم تقواها استحقت أن يكون لديها بيتاً للصلاة هنا، ولكي تبقى مشرفة فوق هذه البقعة بشكل دائم، وتلونا في هذا المكان الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات، وتابعنا سيرنا إلى أماكن مقدسة أخرى.

المكان الذي كان ابراهيم فيه على وشك تقديم ابنه اسحق أضحية

وتقوم البيع الأربع المتقدم ذكرها حول ساحة أو فناء كنيسة الضريح المقدس، ويمكن للانسان الدخول إليهن من الساحة من دون أي صعود أو نزول، وبعدما زرناهن، كما قلنا من قبل، عدنا إلى الجانب الأيمن من الساحة، ومررنا هناك من خلال باب إلى ممر مظلم، وذلك من بين بعض الأبنية القديمة، ولم يكن بامكاننا أن نرى شيئاً هناك مهما كان نوعه، لأن المكان كان مظلماً، ثم إننا كنا قد دخلنا للتو من مكان مضيء بأشعة الشمس إلى ذلك المكان المظلم، وتقدمنا بضع خطوات نحو الأمام، خلال هذا الظلام، ووصلنا إلى درجات حجرية، حيث

صعدنا عليها، فوجدنا زنزانة صغيرة، وعليّة، سكن فيها بعض التعساء من المسيحيين الشرقيين، وقرعنا على الأبواب هناك، ووجدنا شخصاً واحداً هناك، كانت عبدة سوداء صغيرة الحجم متقدمة بالسن، وعندما رأتنا فتحت البيعة لترى من الذي قدم صاعداً إلى هناك، وكانت في الحقيقة بيعة جميلة، مبلطة برخام مصقول ومنوع، وهي قائمة فوق جبل أكرا، على ذلك الجانب الذي وقف الصليب عليه، إنما خارج جدران الكنيسة، وبنيت هذه البيعة حسب آراء العلماء الكاثوليك من أمثال: أوغسطين، وجيروم مع أحبار اليهود، فوق البقعة التي كان ابراهيم على وشك أن يضحى فيها بابنه اسحق، وذلك تنفيذا لأوامر الرب، ويقول بعضهم بأن هذا قد حدث على جبل سعير، أو صيدنايا، ومرة أخرى يقول آخرون بأن هذا قد حدث فوق جبل موريا، وذلك حيث بنى سليمان الهيكل فيما بعد.

لكن روايتنا كاثوليكية أكثر، وأقرب إلى المنطق، والسبب متوفر في النموذج وفي الحقيقة، فهذا مرجح أكثر بالنسبة للمكان بشكل خاص، فحيث لم يوفر ابراهيم ابنه، حسبما قرأنا في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين، مثل هذا لم يوفر الرب ابنه الحقيقي، بل قدمه من أجلنا جميعاً، كما جاء في الاصحاح الثامن من الرسالة إلى الرومانيين.

وعلى مقربة من هذه البيعة، في خارجها، هناك شجرة زيتون قديمة، قيل بأنها زرعت في المكان الذي أمسك فيه الكبش من قرنيه في الغابة، وهو الكبش الذي نقرأ عنه في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين، بأن ابراهيم قد ضحى به بدلاً عن ابنه، وبناء عليه انحنينا في تلك البيعة المقدسة، بأنفسنا نحو الأرض، وبعدما قرأنا الصلوات المحددة، تلقينا غفرانات(+).

وعندما تلقينا الغفرانات، تفكرنا بأنفسنا، وتفاعلنا معجبين بطاعة ابراهيم، التي جعلته يقوم من دون أدنى تردد، بطاعة أوامر الرب،

وأبعد عـن نفسه، ماشعـر به نحو ابنـه العزيز جـداً عليه، وكان جـاهزاً للتضحية بابنه الحبيب بيديه، مع أنـه كان ابنه الوحيد، الذي ولد بشكل اعجازي من زوجتـه الشرعية، التي إليهـا أعطي الوعد بانجـاب صبي، ونضيف إلى هذا كله بأنه كان ولداً جيداً، وتقيـاً، ومطيعاً أكثر من سواه وجميلاً، وبصحة جيدة، ونشيطاً.

وعجباً، كم هو مثـل رائع بالفضائل، في أن نتصور في عقـولنا هذين الاثنين، وهما يجهـدان للصعود فـوق هذه البقعـة بالذات، لتنفيذ المهمـة الأصعب، وكـان ابراهيم رجـلاً عجـوزاً، وكـان اسحـق في الخامسـة والعشرين من عمـره، وكانا معـا على استعـداد لإطاعة الرب وحـده في كل شيء، فقـد قـال اسحق:«أنا بين يديك يـا أبي، افعل بي مـاتريده، واربط يدي وقدمي بالحبـال، وإذبحني طالما في ذلك رضى للرب»، أيها الحجاج، إن الذي عليكم تصوره هو ذلك الرجل العجوز المحترم، وقد قـام بتقوى رائعـة، بربط يدي ابنه وقـدميه، ورفع عـاليـا سيفه المجـرد، ليـذبحه به، مـاهذه الطاعة التي لم يسمع بمثلهـا من قبل الأب والابن، وأية تقـوى عميقـة شعـرا بها، لإطاعـة الـرب، آه، لعل أرواح طاعتنا الفـاترة كثيراً، أن ترتفع فـوق هذه البقعـة، وتعـاود البرهنة والتصحيح، والتقـويم، فقـد أنذرنا الرب، وحثنا الأسـاقفـة، وصرخت الكتـابات المقـدسـة لنا، وقـدمـت التجـربة البرهان لنا، والنـذر تربطنا، والأمثلة تعلمنا، ومع ذلك مازلنا نأبى الطاعة! وعلى هذا دعـونا، واتركونا ندعو فوق هذه البقعة البطارقة المقدسين بأسمائهم، لعل النعمة تعطى إلينا من الرب.

المكان الذي لقي فيه ملكيصادق ابراهيم مع الخبز والنبيذ

وعندما خرجنا من هناك، اقتـادونا إلى بيعة أخرى، مماثلة بجمالها، قد بنيت فوق المكان الذي التقى فيه ملكيصـادق بابراهيم، وباركه، ووعده من خلال التنبؤ له بأن المسيح سوف يلد من ذريته، ومنحه خبزاً ونبيذاً،

وكـــان ملكيصـــادق كـــاهن الرب العلي الأعلى، وأول ملك للقـــدس، وأعطاه ابراهيم باكورة الفـواكه لديه، وعشر كل مـاكان عنده، وقبلنا في هذا المكان الأرض، وتلقينا غفرانات(+).

وفعلنا أيضـاً ماطلب الرسـول منا أن نفعل في الإصحاح السـابع من الرسالـة إلى الرومانيين (العبرانيين:٧/ ٤) في قوله:« ثم انظـروا ما أعظم هذا الرجل (ملكيصـادق) الذي أعطاه ابراهيم رئيس الآباء عشراً أيضـاً من رأس الغنائم»، ومن أجل ملكيصادق يمكنك قراءة ماتقدم حوله في ص٤٩٣، وعبرنا من تلك الكنيســة، إلى جـدار سـدة الكنيســة، الذي يستدير نحو اليمين، ونحو الأعلى، وعلى هذا كان بامكاننا أن نلقي نظرة على المدينة بالطول وبالعـرض، وكان أيضـاً باستطاعتنا أن نقـدر بشكل جيد المسافة من الباب الذي اقتيد منه الرب يسوع، وهو حامل لصليبه، حتى جبل أكرا.

الساحة القائمة أمام كنيسة الضريح المقدس التي فيها الأماكن المتقدم ذكرها وفيها أيضاً الأماكن التالية

وبعدما شاهدنا ذلك، نزلنا بوساطة الدرجات أنفسهن اللائي صعدنا عليهن، وأصبحنا في ساحة الكنيسة، ورأينـا على مقربة من الباب حجرة في البلاط، قـد انطبعت عليها علامـات قدمي انسـانين، تماماً مثلما يقف انســان فـوق مصباح من الشمـع الطري، ويضغط بقـدميه فـوقـه، ومن الواضح أن هذه الآثـار لطبعـات الأقـدام لم تصنع فنيـا في الحجـر، بل صنعت بوساطة معجـزة، مع أنه مامن شيء مؤكد معـروف حول ذلك، ولقـد قالوا بأن هذه كـانت طبعات خطوات الرب يسـوع، الذي وقف هناك عند سفح صخـرة أكرا، وهو ينتظـر صلبه، وانحنينا بأنفسنا نحـو الأرض أمام هذه الحجرة، وقبلنا طبعات الأقدام المقدسة.

وذهبنا من هناك في رتل إلى مكان قـريب إلى الطريق خارج السـاحة،

حيث —قد قيل— بأن ربنا، قد وقع وهو يحمل صليبه الثقيل، وقع تحته بسبب إرهاقه، ولارتعابه لدى رؤيته لصخرة أكرا أمامه، وذلك حسبما تحدثنا من قبل في ص٩٢، وهذا المكان المقدس معلم بحجرة، عليها جرى قطع أعداد كبيرة من الصلبان من قبل الحجاج، وبناء عليه قبلنا هذا المكان، وتلقينا غفرانات مطلقة (++).

قصر ملك القدس المجاور للكنيسة

وخرجنا بعد ذلك من الساحة، ومررنا خلال باب موجود على الجهة اليسارية منها، وذلك وأنت تتطلع نحو الكنيسة، في حديقة مزروعة بالبرتقال والرمان، ومضينا من هذه الحديقة صاعدين إلى بيت كبير فيه الكثير من الغرف، وكان يسكن في ذلك البيت — على كل حال— عدد ضئيل من الفقراء الإغريق فقط، مع أن مائة من الناس يمكنهم السكن فيه براحة، لأنه كما قلت من قبل، هو بيت كبير وعظيم، يحتوي على عدد كبير جداً من القاعات المقنطرة، وهو ملاصق للجهة الغربية من كنيسة الضريح المقدس، وملاصقته بلغت حداً أن في القاعة الرئيسية منه نافذة موجودة في جدار كنيسة الضريح المقدس، من خلالها يمكن للانسان أن ينظر إلى ضريح الرب.

وكان هذا البيت فيما مضى مكان سكنى وإقامة ملوك القدس، الذين عاشوا هناك، من أجل أن يكونوا دوماً على مقربة من الضريح الأعظم قداسة، العائد لربنا، وجرت العادة في أيام الملوك اللاتين أن يعطى كل يوم ثلاثة أرغفة من الخبز إلى الحجاج، وعندما استولى السلطان على المدينة المقدسة، وتملكها، حافظ على هذه الصدقة لسنين كثيرة، لكن هذا قد تلاشى الآن كليا، وبطل استخدامه، والإغريق الذين يعيشون في هذا القصر الملكي، يجدون صعوبة بالغة في التمكن من البقاء في حالة فقرهم، والبيت نفسه مهدد بالسقوط والخراب من كل جانب، لابل إن أجزاء كثيرة منه قد تحولت إلى خرائب، هذا ولايوجد أحد يمكنه أن

يتولى ترميمه، أو أن يقوم بإعادة تعمير الأجزاء المهدمة منه، ويسكنه حجاج إغريق عندما يكون أياً منهم في القدس، وهم يطلقون عليه اسم قصر بطريرك الإغريق.

مشفى القديس يوحنا والأماكن المتصلة به والتي تشكل شطراً من المباني

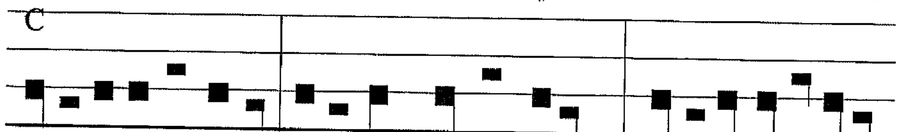
وعندما خرجنا من ذلك البيت، صعدنا إلى مشفى القديس يوحنا، القائم في مقابيله، وهو الذي فيه ينام الحجاج ويأكلون، وبجوار هذا المبنى الذي يقيم فيه الحجاج مؤقتاً، هناك كان فيما مضى قصر كبير، كان مسكناً فخماً للنبلاء من فرسان القديس يوحنا، الذين كانوا أكثر الناس تقوى، وأعظمهم كرماً نحو الحجاج، وجرت العادة أن يدخل إلى المشفى كل واحد من الحجاج، وأن يعطي مديره ماركين بندقيين، وبذلك يصبح بإمكانه شغل حيز فيه من دون جدال مطلقاً، حتى لو بقي في القدس لمدة سنة، وكان ذلك البيت والمشفى واسعاً جداً، وفخماً، إلى حد أنه لو وصل إلى هناك ألف من الحجاج، كل واحد منهم كان سيجد غرفة له من دون ازدحام، فهذا يمكن رؤيته من خلال خرائبه، ومن خلال الجزء الذي مايزال قائماً ومهدماً جزئياً فقط، وهذا الجزء المتبقي متسع بما فيه كفاية لاستيعاب أربعمائة حاج، للعيش فيه.

وفي مقابل المشفى هناك خرائب لجدران واسعة، قد بقيت من بيت فرسان التيوتون، الذي كان الحجاج من النبلاء الألمان يقيمون فيه فيما مضى من أيام، وإلى جانب هذا البيت نفسه كان هناك قاعة أخرى كبيرة، اعتادت النساء الحاجات على الإقامة فيها بشكل مؤقت، ذلك أنه لم يكن مسموحاً لهن بأي حال من الأحوال، أن يعشن مع أزواجهن في البيت الكبير.

هذا وبنى المسلمون إلى جانب المشفى الكبير برجاً عالياً، عظيم

النفقـات، مـزيناً بالرخـام الأبيض المصقـول، وبنوا إلى جـانب البرج (المئذنة) مسجـداً يواجـه كنيسة الضريح المقـدس، ويصرخـون من هذا البرج ويرفعـون أصـواتهم في الليل والنهـار، وذلك وفقـاً لما تقضي به عقيدتهم، والذي أعتقده تماما أن هذا المسجد وهذا البرج قد بنيا صدوراً عن عدم الاحترام للـذي صلب، وبمثابة عمل عـدواني نحو المسيحيين، وإلى جـانب المسجـد، وعند أسفل البرج هناك مـدرسة للأطفـال، فيهـا يتعلم أولاد المسلمين شريعـة محمد (صلى الله عليه وسلـم)، ويصرخون هناك طوال النهار، ويثيرون ضجة عالية جداً.

وفي مناسبـة أخرى عندمـا كنت نازلاً من جبل صهيون وحيـداً، من أجل تلاوة صلواتي في سـاحـة الكنيسـة، سمعت الأطفـال يصرخـون فصعدت نحـو باب المدرسة، ونظرت نحـو داخلها، فوجـدت الأطفال جـالسين على الأرض في صفوف، وكـانوا جميعـاً يرددون بشكل جماعي الكلمات نفسهـا بصـوت مرتفع، وكـانوا حـانين لرؤوسهم ولظهـورهم نحو الأسفل، مثلما اعتـاد اليهود أن يفعلوا لدى أدائهـم لصلواتهم، وقد رددوا الكلمات نفسها عـدداً كبيراً من المرات، إلى حد أنني تذكـرت كل من الكلمات واللحن الموسيقي الذي جاء على هذه الشاكلة:



وهذه في الحقيقـة هي المبـادىء الحقيقيـة وقـاعـدة ايمانهم، وهذه هي الأشياء الأولى التي يعطونها إلى أولادهم لتعلمها، ويغرسونها في عقولهم بوسـاطـة التكرار المستمـر، ويعلنون على مـآذنهم (أبـراجهم) بشكل متـواصل عن عقيـدتهم، ذلـك حسبما سـوف نرى في ص٩٥ من القسم الثاني، ولديهم مثل ذلك عبارات أخرى يعلمونها إلى أولادهم، لها ألحان مختلفة، وذلك كما سمعت بالغالب.

وإلى جانب المدرسة في داخل المسجد والساحة هناك سجنين عائدين إلى البلدة، فيهما يحبس المجرمون، وهما يشبهان ذريبتان صغيرتان، أو مثل فرنين، ويشكلان بوضعهما عائقاً عظيماً ورعباً للحجاج، وفي الحقيقة غالباً ماحدث لي أنني وأنا ذاهب إلى كنيسة الضريح المقدس لأداء صلواتي أمام باب الكنيسة، كنت إذا مارأيت رجالاً مسلحين واقفين حول هذين السجنين، أقوم بالعودة إلى البيت ثانية، خشية أن يلحقوا بي بعض الأذى، وأنا أعتقد بأن هذين السجنين قد بنيا بالفعل هناك للاساءة إلى الكنيسة والمشفى،. وليكونا مصدر رعب للحجاج.

وهناك من المشفى إلى ساحة الكنيسة طريق قصير جداً، وليس ممنوعاً على الحجاج النزول إلى هناك كم من المرات رغبوا بذلك، مالم يجري منعهم باجتماع الرعاع عند السجنين المتقدمي الذكر، ولم نؤخذ في حجي الأول إلى مشفى القديس يوحنا، بل أخذنا إلى بناء كبير في ميلو، تحت مدينة داوود، ولم يكن بامكاننا النزول إلى كنيسة الضريح المقدس إلاّ تحت حماية بعض المسلمين، والسبب في اسكاننا في مكان آخر غير المشفى، لم أعرفه، والذي أعرفه أنه لسنوات طوال مضت قبلنا، كان يجري انزال الحجاج في ذلك البيت نفسه، لأن جدران القاعات كانت مغطاة برسوم تحتوي على رنوك بعض النبلاء من بلادنا، ومن ذلك عرفت أنهم أقاموا هناك، وليس في مشفى القديس يوحنا، وهذا البيت نفسه كان واسعاً، ويحتوي على كثير من القاعات، وله حديقة جميلة، وهو قائم في ميلو، فيما بين جبل صهيون والقدس.

والآن بعدما فرغنا من زيارة جميع الأماكن المتقدم ذكرها، كما حدثتكم، عدنا جميعاً، كل واحد منا إلى موضعه، فقد ذهب الحجاج العلمانيون من الفرسان إلى مشفى القديس يوحنا، لكن رجال الدين صعدوا برفقة الرهبان الفرنسيسكان إلى جبل صهيون، حيث أكلنا وشربنا، وأرحنا أنفسنا، وهنا انتهى هذا الحج.

وصف ضريح الرب يسوع: كيف كان بالأصل، وماهو شكله في هذه الأيام، الخ

في عمل أي شيء، طبيعيا واصطناعيا، يبدأون —مع أن لديهم تصور كامل للعمل— بالأجزاء، وأول كل شيء بالأجزاء النبيلة، ثم يتابعون في صنع جزء بعد الآخر، حتى تكون النتيجة، جميع ماعزموا على صنعه، وأعتقد أنه من الأفضل لي أن أسير وفق هذا الترتيب، في عرضي الوصفي لكنيسة الضريح المقدس، التي نويت أن أكتب عنها، وقبل وصفها (ككل) سوف أتولى أولاً وصف أقسامها الرئيسية: أي وصف الضريح المقدس، الذي هو الرأس، والقسم الرئيس في الكنيسة كلها، فمنه نالت الكنيسة كلها اسمها، وسوف أصف بعد ذلك جبل أكرا، الخ.

ومادمت أنا الآن مقبل على تقديم وصف للضريح المقدس، ومع أنها ليست مسألة هامة جداً، مع ذلك لم أجد مصاعب قليلة في أداء هذه المهمة، ومرد ذلك إلى وجود أوصاف كثيرة في الكتب التي صنفت من قبل مختلف الحجاج، ولهذا السبب سوف أكون مسروراً بالقيام بوصف ترتيباته وأوضاعه إلى أخواني الرهبان، وأن أكتب ذلك بوضوح بقدر ما رأيته بعيني، ومع ذلك إن هذا من غير الممكن لأنني لابد سأجد نفسي مضطراً للكتابة عنه أكثر أو أقل مما قد رأيته، وسوف تكون النقاط الرئيسية التي سوف أتحدث عنها هي النقاط الثلاث التالية:

١— ماهو الشكل الذي كان ضريح الرب عليه عندما جرى تمديد جسد الرب فيه؟

٢— ماهو شكل الضريح الذي زرناه وتعبدناه؟

٣— هل هذا الضريح هو نفسه، الذي جرى تمديد جسد المسيح فيه وفي هذا السؤال الثالث تكمن الصعوبة كلها.

وفي معالجة السؤال الأول، لابد من أن تعرف أنه من السهل اعطاء فكرة عما كان عليه شكل الضريح في يوم وفاة المسيح، فكل من رأى الأضرحة القديمة في هذه البلدان، لن يجد صعوبة في هذا المقام، مع أنه من غير الممكن استخراج وصفه بوضوح من كلمات الانجيليين المقدسين، لأن أحاديثهم مختصرة، وموجزة حول هذه المسألة، فقد قال القديس متى في (الاصحاح٢٧):«فأخذ يوسف الجسد ولفه بكتان نقي، ووضعه في قبره الجديد الذي كان قد نحته في الصخرة، ثم دحرج حجراً كبيراً على باب القبر ومضى»، وقال مرقص في (الاصحاح١٥):«فاشترى يوسف كتاناً جيداً، فأنزله وكفنه بالكتان، ووضعه في قبر كان منحوتاً في صخرة، ودحرج حجراً على باب القبر»، وقال في (الاصحاح١٦) عن الحجر الذي دحرجه على باب القبر بأنه:«كان عظيماً جداً، ولما دخلن القبر رأين شاباً جالساً» الخ، وقال لوقا في (الاصحاح٢٣):«وطلب يوسف — جسد يسوع، وأنزله ولفه بكتان ووضعه في قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط»، وقال أيضاً في (الاصحاح٢٤):«فوجدن— النساء — الحجر مدحرجاً عن القبر، فدخلن ولم يجدن جسد الرب يسوع» وفي الاصحاح نفسه قوله:«فقام بطرس وركض إلى القبر فانحنى ونظر الأكفان موضوعة وحدها على الأرض»، وذكر يوحنا أكثر من الآخرين، في الاصحاح١٩ وقال:«وكان في الموضع الذي صلب فيه بستان، وفي البستان قبر جديد لم يوضع فيه أحد قط. فهناك وضعا يسوع لسبب استعداد اليهود لأن القبر كان قريباً»، وقال في (الاصحاح٢٠):«فنظرت مريم المجدلية الحجر مرفوعاً عن القبر»، وأخبرت بذلك بطرس ويوحنا الذي «جاء أولاً إلى القبر، وانحنى فنظر الأكفان موضوعة، ولكنه لم يدخل».

وبعد قراءة هذه الروايات، من السهل على الانسان الذي رأى القبور في الأرض المقدسة، أن يفهم كيف كان شكل ضريح الرب، لكنه من

غير الممكن أن يكون الآن كما كـان عليه آنـذاك، لأن الكنيسة قـد بنيت فوقـه، وبسبب التزيينات التي سوف نتحدث عنهـا تحت العنوان الثاني، وكـــذلك بسبب التغييرات التي لحقـت بالأرض، لأنه فيما مضى كـــان هناك مبنى جنائـزي خـارج أسـوار القـدس، لكن السـور بني فيما بعـد ليحيط به، وبنيت عمائـر هناك اتصلت بـه، ولذلك لم يبق شكل الأرض في أي جزء، كما جاء وصفه لدى الانجيليين.

وإذا مـا أردت أن تعـرف كيف كـان شكله بالأصل، تصـور وجـود حديقة خارج سور المدينة وخـارج خندقها، وأنه كان يوجد بين الخندق والحديقـة طريق عـام، له على طرفـه الأول جدار الحديقـة المعمـول من حجارة جافة، ومن الجهة الثـانية السور الخارجي للخندق، أو الصخرة، إذا كـان الخندق كان محيطاً بالصخـرة، كما هو في القـدس، وعلامـة على ذلك تصـور في ذاتك أنه كـان في الحديقـة نفسهـا صخور واقفـة فـوق الأرض في كل مكان، وهـي صخـــور كبيرة وصغيرة، وكـــان بين هذه الصخور واحـدة واسعة وعـريضة، وكـانت صماء، غير مقعـرة، منتصبة نحـو الأعلى مثل بيـت صغير، فعلى هذه الصـورة كـانـت الحديقـة التي حـدثنا يوحنا عنهـا، حين ذكـر أنه كانت هنـاك حديقـة على مقـربة من المكان الذي صلب فيه يسوع، لأن يسوع كان قد صلب خارج الحديقة، فوق صخرة الجرف، وعلى هذا كان الطريق العام يفصل فيما بين صخرة الصليب، وجـدار الحجارة الجافـة للحـديقة، وفي الحقيقـة جميع الحدائق القـائمة في أحـواز القدس مليئة بالصخـور، ووجها غير مستـو، بسبب الصخـور المنتصبـة فيهـــا، وبناء عليـه كـان الناس الذيـن كـانت لديهم صخـوراً كبيرة في حـدائقهم، قد اعتـادوا على تجويفهن ونحت أضرحـة فيهن وغرفاً للمـوتى، هذا وإذا كانت الصخرة كبيرة جداً، كـانوا بعدما يفـرغون من نحت غـرفة، كـانوا يقـومون ثانيـة بقطع باب على الطرف الأقصى منها، ويصنعون تجويفـاً آخر، ليدفن فيه بعضـاً من أصدقائهم،

ثم إنهم كانوا بعد ذلك ينحتون غرفة أخرى في الصخرة.

وإذا احتوت الصخـرة على كهف واحد، كانوا يسمـونه كهفاً بسيطاً، وإذا احتوت على اثنين، يسمـونه كهفاً مـزدوجاً، كما قـرأنا في الاصحاح الثـالث والعشرين من سفـر التكوين، من أن ابراهيم قـد اشترى كهفـاً مزدوجاً، وإذا مـا احتوت على ثلاث غرف، كانوا يسمـونه كهفاً ثلاثياً، وإذا أربعـة، كهفاً رباعيـاً، وهكذا، ولقد رأيت في احـدى الحدائق، على مقـربة من الحقل الذي اسمـه حقل الدم كثيراً من الكهوف لها جـدران من الصخـر، كان أحـدها يقـود إلى الآخـر، وكلها منحـوتة واحـد تلو الآخـــر من الصخـر الحي، حتـى أنني لم أتجرأ على الذهاب حتى آخـــر كهف منهـا، لأنني بعـدما دخلت إلى الكهف الثـالث، ولم يعـد بإمكاني رؤية الضـــوء الذي جـاء مـن خـلال باب الكهـف الأول، توقفت وأنا خـائف من الظلام، لأنه بالحقيقة، إذا مـا دخل انسان إلى هذه الكهـوف من الممكن أن يضيع نفسـه، ولايعـود قادراً على العثـور على طريقـه إلى الخارج، لأن الأقدمين قـد نجروا أقبية عميقة في الصخـر، لدفن موتاهم فيها.

وبناء عليـه، كـان يوسف الرامي، الذي كـان رجلاً جيـداً، وعـادلاً، ومن منبت طيب، وغنيـــاً، ومقتـدراً، وحكيماً، قـد اشترى لنفســه هذه الحديقة على مقـربة من المدينة، وعلى طرف صخرة أكرا، وأمـر بتجويف الصخـرة الصماء التي كانت هناك، إنما عنـدما مـات الرب، تخلى يوسف عن حقــه بهذا المكان، وأعطى كل من الحديقـة والصخـــرة إلى المسيح، الذي كـان أول شخص يدفن هناك في الغرفـة الداخلية، فعندمـا أنزلوه من على الصليب، حملوه من صخرة أكرا، عبر جـدار الحجارة الجافة إلى هذه الحديقـة، حيث حنطوا جسـده فـوق حجرة أعـدت لهذا الغـرض، وحملوه إلى الكهف الثاني، لأن الكهف كان مزدوجاً، وكان الباب الأول في الكهف الأول واسعـــاً وطويلاً، يقـــود إلى وسـط الكهف، ولم يكن

الباب الذي يقود إلى الكهف الثاني مواجهاً للباب الأول، لأنه كان على يسار الانسان الداخل، وكان باباً منخفضاً وصغيراً، وكان على الجانب الأيمن المكان الذي جرى تمديد الرب فيه، وذلك على الطرف الشمالي، لأن النحت هناك مهملاً عن قصد، وبناء عليه كان المنحوت من الصخرة هو مايكفي جسد انسان ممدداً على ظهره، حيث يمكن أن يشغله بالطول وبالعرض، وكان ارتفاع ذلك ثلاثة أشبار ونصف الشبر فوق الأرض.

ولاحظ هنا أن الذين كتبوا عن ضريح الرب، قد ميزوا فيما بين الآبدة والضريح، لأن الآبدة قصد بها الصخرة المجوفة كلها والغرفة كلها، ولكن المقصود بالضريح هو التابوت الحجري أو القبر الذي احتوى على الجسد، هذا ولم تمتلك آبدة الرب على ضريح أو نعش متحرك، بل على ضريح منحوت في الصخرة نفسها، وكان هناك —على كل حال— في الجزء الخارجي مكان مجوف، عمل لتمديد جسد فيه، وهو الجسد الذي وضع في وسط الضريح، وفق طريقة أنه كان مغطى من فوقه بلوح خشبي، ومن تحته قاعدة تركت مرتفعة فوق الأرض، عليها جرى تمديد الجسد، ويبدو أن هذا ما قصده المقدسون من الرجال القدماء، عندما وصفوا ضريح الرب.

وقد نقل مصنف كتاب «التاريخ المقدس» عن بيد المبجل قوله: «كانت آبدة ربنا زنزانة مستديرة، منحوتة من الصخرة، وتحتها، وكان ارتفاعها إلى حد أن انسانا طويلاً قد يلامس قمتها بيده الممدودة، ولها مدخلها على الجانب الشرقي، ووضع في مواجهتها صخرة عظيمة عوضا عن الباب، وفي جانبها الشمالي مكان جسد الرب، وقد نحت من الصخرة نفسها، وطوله سبعة أشبار، وارتفاعه ثلاثة أشبار فوق الأرض، وهو يشبه تابوت حجري وضع فوق قاعدة، والتجويف كان قد نحت في الجدار نفسه مثل التجاويف التي عملت في جدران بيوت

السكن، لتحتوي على أدوات المنزل، والتابوت ليس فوق هذا، بل على الجانب الجنوبي منه، وبناء عليه كانت —حسبما كان وضعها— تجويفاً أو قبراً، موضوعاً على الجانب، وفتحه ليست من الأعلى، بل من الجانب، وقد قيل بأن لون الآبدة والتجويف مزيجاً من الأبيض والأحمر»، وهذا الذي قاله «التاريخ المقدس» المتقدم الذكر، هو الشكل الأصيل لآبدة الرب وضريحه.

وتبدلت هذه الترتيبات من قبل الامبراطور اليوس هدريانوس، الذي أمر ببناء معبد لفينوس على هذه البقعة، وذلك حسبما ذكرنا من قبل في ص٤٨٤، وهو لم يقم بتدمير آبدة الرب، أو صخرة أكرا، بل جرى توجيهه من قبل الرب، فأدخلهما في هيكله، كما هما في هذه الأيام، وقد أظهر احتراماً نحو الموضع من أجل إقامة تمثال لجوبتير في دير ضريح الرب، كما أنه أقام فوق صخرة أكرا تمثالاً لفينوس، فهذا ماقرأناه في رسالة جيروم إلى بولينوس، وفي ظل هذه الوضعية الكافرة والدنسة، بقي المكان المقدس لحوالي مائة وثمانين سنة، لكن في داخل سور المدينة، لأن هادريان المتقدم الذكر قد ملأ الهوة التي كانت بمثابة خندق للمدينة، وبنى سوراً حولها، أدخل بموجبه الهيكل داخل المدينة، كما تحدثنا في ص٤٨٣، وصار المكان منذ ذلك الحين منسيا، وتحول ضريح المسيح إلى معبد ومزار لجوبتير، بينما كانت صخرة أكرا قد تحولت إلى رابية فينوس، وعلى هذا جرى تكريس المكان كله إلى عبادة الشياطين، وامتلأ بآثام الكفار حتى أيام هيلانة المباركة، التي نظفته من معابد الأوثان، وأعادت تكريسة للمسيح الرب.

أوضاع الضريح المقدس في هذه الأيام وماهو شكله

ثانياً: علينا أن نعرف أوضاع الضريح المقدس الآن، من حيث المظهر والشكل، وبالنسبة لهذا الوصف اعتمدت شخصياً فيما يختص بضريح الرب، على الرواية التي كتبها رجل محترم اسمه يوهانس توخر -Jo

hanes Tucher، وكان من أهالي نورمبورغ Nuremburg، وكان قد كتب باللغة الألمانية، وقد أمضى أياماً كثيرة في القدس في سنة ١٤٧٩، أي سنة واحدة قبل زيارتي الأولى، وقد تفحص ضريح الرب بدقة متناهية وأخذ قياساته بيديه، وقدميه، وذراعيه وهما ممدودتين، وكانت روايته معي في القدس، وقد وجدت جميع ماكتبه فيما يتعلق بالضريح المقدس صحيحاً، وقد ترجمتها من اللغة الألمانية إلى اللاتينية وأقحمتها في كتابي عن رحلاتي وجولاتي، لأنها وصف هو حقاً صحيح، وقد كتب من قبل رجل محترم وصادق، وخشية أن يصعب على أي واحد فهم استخدامي للاصطلاحات المساوية، ينبغي أن نعرف مقدماً أنه في أي مكان استخدم السيد يوهانس توخر كلمه Klaftern في كتابه الألماني، وضعت مكانها كلمة «باع Cubit »، ومقياس الباع كماهو مفهوم هو المسافة مابين ذراعي الانسان وهما ممدودين شروعاً من نهاية الاصبع الأوسط في اليد الأولى إلى نهاية الإصبع الأوسط في اليد الثانية، وحيثما كتب كلمة spanne ، وضعت مكانها كلمة «شبر»، ومفهوم هذا القياس هو المسافة عبر الكف الممدود من الابهام حتى البنصر.

وقد وصف الرجل المتقدم الذكر، أي يوهانس توخر آبدة الرب والضريح كمايلي:« بدت آبدة الرب من الخارج تشبه برجاً منخفضاً، وليس عالياً، ولهذا البرج اثنتي عشرة زاوية على أطرافه الخارجية، ويقف عند كل زاوية عمود حجري سداسي، سماكته شبر واحد، وتدعم هذه الأعمدة قنطرة صغيرة فوق الآبدة، ويبرز من هذه القنطرة نوع من أنواع الأفاريز، كله مستدير، وهو بارز مقدار نصف قدم أمام الأعمدة، وقياس البناء المستدير كله، مع أعمدته حوالي الاثني عشر باعاً كبيراً، وهذا القياس يشمل إطار الآبدة كلها من الخارج، لكن المقياس من الداخل هو أقل بتسعة أشبار بالطول، والشيء نفسه بالعرض، والارتفاع من الأرض حتى ذروة القبو المجوف هو قامة انسان ونصف

القامة.

والضريح أو القبر في داخل الآبدة، موجـود على الجهـة اليمنى من الغرفة الصغيرة، وهو مغطى بألواح مصقـولة من الرخام الأبيض، ومن الممكن إقامة قداس عليه، وعرضـه أربعة أشبار وثلاثة أصباع، ومقياس ارتفاعه من الأرض باليد هو ثلاثـة أشبار وأربعة أصابع، وباب الكهف الذي يدخل الانسان منه، هو أربعـة أشبار ونصف الشبر وثلاثة أصابع من حيث الارتفاع، والجدار — أو الفجوة خـلال الصخرة— هو ثلاثة أشبار من حيث السماكة، وارتفاع الآبدة كلها، أو القاعة، فوق الأرض، مع القنطرة، هو باعين كبيريـن ونصف البـاع، وفـوق السطح المحـدب للقبـو، مبني هيكـل سـداسي الشكل مثل برج، مـع سـتـة أزواج من الأعمدة ارتفاع كل منها باعين، فـوقها يستند سقف الهيكل، بارتفاع باع واحد، والمسافة من سقف هذا الهيكل نحـو الأعلى، مقياسها مباشرة من خلال الهواء حتى الفتحة في سقف الكنيسة، المنفتحة فوق الآبدة، والتي من خـلالها تضـاء الكنيسـة، هو حـوالي ستـة باعـات، وهذه الفتحـة مستديرة، واتسـاعها هو بقدر البنـاء كله أو الآبدة، إلى حد لو أن الآبدة متحـركـة، ويمكن رفعهـا نحـو الأعلى، لكان مـن الممكن مـرورها من خلال تلك الفتحة.

وعلى هذا من الواضـح تماماً أن آبدة الـرب قـائمـة في الهواء، وتتلقى الأمطار والثلوج من خـلال الفتحـة المتقدمـة الذكـر، والهيكل نفسـه مبني بشكل فني من رخـام مصقـول، وكان فيما مضى مـذهبـاً من الداخل ومن الخارج، وكذلك الأعمدة والسقف سواء، حسبما هو مشاهد في هذه الأيام.

والارتفـاع من أسـاس هذه البيعـة حتى ذروة سقـف الهيكل، فـوق المبنى الأسـاسي هو خمسة باعـات ونصف الباع، في حين إن المسافـة من الأسـاس حتى الفتحة في سقف الكنيسـة هي اثني عشر باعاً، أو أكثـر قليـلاً، وعلاوة على ذلك، وأنت داخل إلى الآبـدة هناك ردهة اتساعهـا

ستة باعات إلاّ شبراً واحداً، والباب الأول إلى البيعة الصغرى (للضريح المقدس) موجود في وسط هذه الردهة، ويبلغ من حيث الارتفاع باعاً واحداً كبيراً وثلاثة أشبار ونصف الشبر، وطول البيعة القائمة قبل كهف القبر —أي الكهف الخارجي— باع واحد ونصف باع، ولها العرض نفسه، وفيها من كل جانب نافذة مربعة صغيرة، ويوجد في هذا الكهف الخارجي نفسه، على بعد ثلاثة أشبار من باب الكهف الداخلي، حجرة مربعة، مرفوعة فوق قاعدة، ومقياسها شبرين ونصف مربع، وقد قيل بأنه فوق هذه الحجرة جلس الملاك بعد قيامة الرب»، وهذه الحجرة هي جزء من الحجرة الكبيرة، التي جرت دحرجتها إلى باب الآبدة، وهي التي ورد ذكرها في ص٥٠٠.

وإليكم الآن هنا وصف آبدة الرب، كما هي قائمة في هذه الأيام، ومن الممكن رؤية صورة الأشياء الموصوفة بالأعين في كتاب الحج الذي كتبه اللورد برنارد فون بريتنباخ Braitenbach، الذي كان رجلاً نبيلاً وبارعاً، وعميداً للكنيسة المطرانية في مينز mainz ، وقد رافقني في حجي الثاني، وقد تدبر أثناء ذلك رسم آبدة الرب بشكل فني، وهذا مافعله مع الأشياء الأخرى، التي سوف يأتي ذكرها في أماكنها، فقد جلب معه رساماً ماهراً، وجيد التعليم، وقد استأجره ليرسم طباع وعادات ومظاهر المدن الرئيسية والأماكن من ميناء البندقية فصاعداً، وقد فعل ذلك ببراعة وبشكل صحيح، وبناء عليه، يمكن لكل من يرغب أن ينظر إلى هذه الصور، ولسوف يفهم بوضوح الوصف المتقدم الذكر.

وآبدة ضريح الرب، قائمة في وسط كنيسة قيامة الرب، مثل الضريح الذي يوضع في الكنيسة، في أولم، في يوم الجمعة الحزينة، غير أن كنيسة الضريح المقدس مستديرة، ومفتوحة من الأعلى، كما سيفهم القارىء.

ويمكن القول بأن الضريح المقدس له ثلاثة مداخل الأول موجود في

الساحة الصغيرة، التي سميتها أنا الكهف الأول، فلهذه الساحة الصغيرة جدار منخفض إلى حد أن انسانا واقفاً فيها، يمكنه أن يستند عليه بمعدته، وينظر إلى الكنيسة من حوله، ولذلك غالباً ماجلست فوق ذلك الجدار، وألقيت نظرة على بضائع التجار التي كانت موضوعة على البلاط في الأسفل، وفي الحقيقة إن المدخل إلى هذه الساحة الصغيرة لايشبه الباب، لأنه لايوجد شيء فوق رأس الذي يدخل إليه، يضاف إلى ذلك هو ليس له أسكفه، بل هو مدخل قائم بين جدارين يواجه أحدهما الآخر، ولوكان هذين الجدارين أعلى، ووضعت أسكفه عبرهما، لكان من الممكن أن يكون هناك بابا.

والباب الثاني هو الذي يقود من الساحة الصغيرة، إلى الكهف الأول في الآبدة نفسها، وهذا الباب مغلق ببوابة، ومقفل بمغاليق، ومفاتيح هذا الباب هي الآن بأيدي الرهبان اللاتين الفرنسيسكان، لكنه كان قبل بضع سنوات مضت في أيدي الجورجيين، والباب الثالث هو الذي يقود من تلك البيعة، أو الكهف الأول، إلى الكهف الثاني، الذي فيه ضريح الرب، وليس في هذا الكهف نافذة، وليس فيه ضوء سوى مايصدر عن تسعة عشر مصباحاً مشتعلين فيه، وهذه المصابيح معلقة فوق ضريح الرب، وبما أن الكهف صغيراً، تعمل نيران المصابيح دخاناً ورائحة قذرة، وهذا يزعج كثيراً الذين يدخلون إلى المكان، ويبقون فيه، وبالإضافة إلى المصابيح، هناك كثير من الشموع المحترقة فوق المذبح، وضعت هناك من قبل الحجاج صدوراً عن مشاعر التقوى، ونتيجة لهذا، وبسبب دخان المصابيح والشموع مع بعضها صار وجه السطح الداخلي أسود بالكامل، مع أن المكان مغلف برخام أبيض مصقول شمل الأرض والجدران والسقف، وفي هذا كفاية.

ما الذي ينبغي أن نفكره حول ضريح الرب، هل هو ضريحه أم ضريح آخر بني بدلاً عنه؟

وينبغي في المقـام الثـالـث أن نرى فيها إذا كـانـت هذه الآبدة، وهذا الضريح المتقدم الذكر هو نفسه، الذي فيه جرى تمديد الرب، والذي منه —كما نعتقد— قد قام، وهناك مصاعب كبيرة حول هذه النقطة أكثر مما هو مـوجود حول النقطتين المتقـدمتين، ومن أجل أن نقرر ذلـك سوف أقتبس ماقرأته في كتب الحج القـديمة والحديثة، لأنني لا أرغب، اعتماداً على مسؤوليتي الشخصيـة اتخاذ أي قرار متسرع، يمكنه أن يوقف —أو يضعف— الاحترام الـذي هو منتشر بين النـاس المؤمنين بالمسيـح، تجاه ضريح الرب، عـلاوة على هذا تنبعث هنا مصاعب في هذه القضيـة من الأوصـاف المختلفة والمتناقضـة للضريح المقـدس، والتي كتبت من قبل الأقـدمين والمعـاصرين، وكذلك مـن الأوضاع المتنوعـة لمدينة القـدس، كونها تعرضت مـراراً للدمار، وكذلك نتيجة للتقـوى الكبيرة التي شعر بها الذين زاروا الضريح المقـدس، وبذلوا جهـودهم لأن يحملوا معهم بعض الأجزاء بمثابة آثار مقدسة عظيمة.

وهناك أيضـاً الشكوك التي نجمت عن تغليـف الضريح، لأنه ليس من الـداخل ولا من الخارج، وكـذلك ليس في الآبـدة، ولا في المكان الذي جـرى تمديد الجسـد فيه، ولاأي من الصخـور أو الحجـارة يمكن رؤيته، بل الجميـع كما تحدثنا من قبل، قد جـرى تغليفه وتغطيته بـرخام أبيض مصقول، الأمر الذي لم يكن أصيـلاً، ودعونا على هذا نرى الذي اعتقده الآخـرون حول هذا الموضوع، ومن ثـم دعونا نتبع الرأي الذي يبدو لنا أكثر احتمالاً.

فقـد قال رجل مقـدس اسمه آركـولف Arculfus، كان قـد زار الضريح المقـدس، وكان —كما يبـدو لي— في القـدس، منذ زمن طويل مضى قبل أيام الملوك اللاتين، لابل قبل أن يستولي المسلمون على المدينة المقدسة، بعد أيام الامبراطور هرقل، فلقد قال في كتابه:«في وسط القسم الداخلي من الكنيسة المستديرة، هناك قاعة مستديرة، جرى اقتطاعها من

قطعـة صخرة واحـدة، وفيها يستطيـع الناس الوقوف والصـلاة، وعلو السقف المقنطر هو حـوالي قـدم ونصف قـدم، فـوق رأس انسـان ليس صغير القـامـة، ومدخل هذه القـاعـة الصغيرة هو نحـو الشرق، وجميع الوجـه الخارجي فيهـا مغطى برخـام منتخب، والأجـزاء العلوية من سقفهـا، مـزينة بالذهب، وتـدعم صليبـاً ذهبيـاً ليـس حجمـه صغيراً، وضريح الرب موجود على الجانب الشمالي مـن هذه القاعة، وهو مقتطع أيضاً من الصخرة نفسها، لكن بلاط القـاعة منخفض عن بلاط موضع الضريح.

وهذه القاعة ليسـت مغطاة من الداخل بأية تزيينات، لكن مرئي على التجويف كلـه علامات الآلات الحديدية التـي صنعها العمال بها، ولون صخـرة الآبدة والضريح مزدوج أبيض وأحمر امتـزجـا معا، وبناء عليـه فإن الحجـرة نفسها تعطي هذين اللونين، فضـلاً عن هذا شكل الضريح المقـدس أشبـه بمضجع قـادر على استيعاب انسـان واحـد متمـدد على ظهره، وهو أشبه بكهف، له فتحة تتطلع نحو الجانب الشمالي من الآبدة من الجانب المقابل، وقد عمل فوقه سقف منخفض معلق فوقه، ويوجد في هذا الضريح اثني عشر مصبـاحـاً، مشتعلاً ليـلاً ونهاراً، وهي حسب عدد الحواريين»، ولقـد كتب أركولف المتقدم الذكـر، بأنه قد رأى هذا ورأى أشياء أخرى كثيرة، ويرينا هذا بأنه قـد رأى الأرض المقدسة قبل ألف سنة مضت، وأنا عظيم السرور بهذا الوصف، لأنه يتوافق كثيراً مع الوصف الذي قدمه بيد المبجل، والموجود في ص٥٢٥.

وهناك حاج آخر، كـان قد رأى ضريح الرب في سنة ١٢٠٠ لتجسيد ربنا، وقد قـال مايلي:«الكهف الذي فيه ضريـح الرب مغطى بالرخام في كل مكان من الخارج، لكنه من الداخل صخرة مجردة مثلما كانت في أيام آلام المسيح»، والآن نحن لانعـرف عندمـا قـال بأن جميع الجانب الخارجي من الكهف مغطى بالرخـام، هل قصد جميع الوجـه في كل من

الداخل والخارج، فإذا كان هذا ما عناه، فوقتها كانت أحواله هي نفسها كماهي اليـوم، لكنه إذا قصـد أن يقـول بأن الوجـه الخارجي للقسم الخارجي كـان مغلفاً بالرخـام، وأنه لم يكن هناك شيئا من هذا القبيل في الداخل فـوقتهـا يتـوافق وصفـه مـع الوصف المتقـدم، وهذا الذي، كما أعتقد، أنه قصده.

وقـال حـاج آخر مـايلي:« بيعـة الضريح المقـدس مقنطرة، على شكل نصف دائـرة، من دون أية نافـذة، وفيها الضريح، المنحـوت من صخـر أصم، إنما خشيـة من أن يتشظى من قبل الحجـاج، جرى تغليفـه بألواح من رخــام، وهذه الألواح التـي تغطي جــزء الواجهــة منه، لها ثلاث فتحات، من خـلالها من الممكن لمس الصخرة الحقيقيـة للضريح المقدس وتقبيلهـا، وهذه الألواح ملصـوقـة إلى الصخـرة ببراعـة بلغت حـداً أن الانسـان قـد يعتقـد بأن الجميع حجـرة واحـدة»، وقــال هذا الكاتب نفسه:«أعتقد أن مامن كنيسة تحتـوي على أي جزء من الصخرة الحقيقية لضريح الرب»، واستطرد يقـول:« لأنه لوكان من الممكن حملهـا ونقلها مع الأيام على شكل قطـع وحجـارة مطحـونة، لكانـت نقلت منذ زمن طويل مضى، حتـى ولو كـانـت كبيرة بحجم جبل عظيم»، وقــال هذا الرجل نفسه» بأن مامن مصباح مشتعل في الضريح، باستثناء عندما يقيم بعض الحجاج هناك إقامة مؤقتة، فوقتها يدفعون ثمن الزيت».

وهناك حـاج آخـر، كان مـوجـوداً عند ضريح الرب في سنة ١٤٣٠، وقـد ذهب إلى هناك بناء على مبـادرة مـن قبل أحـد الكرادلة، ليتفحص هذه المسألة، وقد وصف الضريح المقدس وفق الطريقة نفسها مثلما فعل متقـدموه، غير أنه أضـاف مايلي حيث قـال:«ينبغي أن يوضع في الذهن بأن الآبدة التي بنيت فوق هذه البقعة الأعظم قداسة، هي ليست البقعة التي مُدد فيهـا بالأصل الجسد الميت للمسيح، لأن الكتـاب القدمـاء قد حدثونا بأن ضريح المسيح قـد جرى اقتطاعه من صخرة قـاسية واحدة،

وذلك مثل القبور القديمة في هذه البلدان، هذا والضريح الحالي مصنوع من عدد من الحجارة، ليست مـلاطة بشكل بارع، مع بعضها بعضاً، ولم يبق هناك أي جزء من الضريح الحقيقي، بـاستثناء أنه يوجد على الطرف منه، هناك نتوء من جدار البيعـة، هي حجرة بحجم رأس انسان، ولونها أبيض، وارتفـاعها سبعـة أشبـار فوق الأرض، وهي التي يجري تقبيلهـا من قبل الحجـاج، على أنها أثر من الضريح الحقيقي للمسيح». لقد كـان هذا ماقاله.

وقـدم آخــر الحجـاج الذين زاروه روايات متناقضــة عنه في كتبهم، وهكذا حـاول كل واحـد منهم وصف الذي اعتقـد أنه رآه، لأن مـامن أحد تجرأ على مناقضتـه، وقال بعضهم إنه يوجد تحت الألواح الرخـامية صخرة الآبدة، والضريح المقدس مايزال موجوداً بالكامل، وقال آخرون بأن مامن أحـد يعرف بصورة حـاسمة، أو يمكنه أن يؤكـد بأن الموجود تحت الألواح هو الصخرة الحقيقية أو غيرها، وأكد آخرون بوضوح بأنه لم يبق من الصخرة الحقيقيـة ولاحتى قطعة بحجم حبـة دخن، ويقولون بأن مردّ هذا إلى عـدة أسباب، أولها الكراهية التي شعر بها الكفـار نحو المسيحيين، الذين بلغت كراهيتهم للمسيحيين من الحدة إلى درجة تدمير كل شيء يحبه المسيحيون ويحترمونه، وبما أنهم يعرفون بأن ضريح المسيح هو أعظـم أثر محل للتبجيل لدى المسيحيين، فقــد جعلهـم يستشيطون غضباً ضده، ومن ثم دمروه إلى أجزاء.

فضلاً عن هذا، لقـد عرفوا أنه طالما الضريح مـوجود، فإن المسيحيين هم متلهفـون دومــاً لاسترداد مـدينة القـدس، لكن إذا مــا أزالوه من الوجود، سيصبحون أقل اهتماماً بها، ولذلك لم يتركوا أي جزء منه قائماً، لأن المسلمين غالباً ماتعـرضوا لهجمات المسيحيين، وقد قهروا من قبلهم وهزمــوا، وعندمــا انتصر هؤلاء المسلمــون، وطردوا الصليبيين من القـدس، انتقموا (كـذا) من الضريح المقدس للأخطاء والمصـاعب التي

عـانوا منهـا في الأيام الخاليـة على أيدي الصليبيين، فـدمـروه، وخـربوا كنيسة الضريح المقدس، وجاء ذلك بمثابة إهانة إلى المسيحيين.

وثانيـاً هناك سبب آخـر قـدم تعليـلاً حـول لماذا لم يبق ولاجـزء من الضريح المقـدس في مكانه هو أنه عندما قهـر الصليبيون للمـرة الأخيرة وغلبـــوا من قبـل المسلمين وأرغمـــوا على التخلي عن القـــدس لهم، وغـادروها، جـاء استسـلامهم على شرط أن يسمح لهم بمغـادرة المدينة بأنفسهـم أحيـاء فقط، وذلـك مع كل شيء أمكنهم أن يحملـوه معهم، ووافق المسلمـون على هذا، أي على وجـــوب مغـادرتهم للقـدس، وهم يحملون معهم كل مـاراق لهم، ثم قام بطريرك القدس مـع رجال الدين لديه، وملك القـدس مع جميع فرسـان المدينة المقدسـة، بمغادرتها، ومن المعتقـد أنهم في أثناء مغادرتهم حملوا معهم كل شيء كـان يعـدّ مقدسـاً، وذلك حتى أسـاسـاتها، وكـان الضريـح المقـدس بين هذه الأشيـاء هو المقدم، وفعلوا ذلك لكي لايخلفوا شيئـا وراءهم يمكن أن تدوسه أقدام المسلمين، لابل حتى في الأيـام الحاليـة مـابرح المؤمنون الـذين يزورون هذه البلدان ينقلون معهـم، كثيراً من قطع الحجـــارة والأرض، وبذلك بقدر ما يقدرون، ولو استطاعوا لنقلوا البلاد كلها حتى لا تداس بأقدام هذه المخلوقـات، وينبغي أن لايشك أحد في أنهم لو كانـوا قادرين على حمل جميع مكان الضريـح المقـــدس، لحملوه، ولـذهبـــوا به، فكيـف بنا بالنسبة لصخرة، فقـد كان بإمكانهم حملها على شكل قطع، وهناك سبب آخـر حول أنهم لم يتركـوا شيئاً من الضريح المقـدس هو الغيرة الحمقـاء المتسرعة وطيش المؤمنين، الذين كان من غير الممكن حبسهم بأي قانون أو نظام ومنعهم من حمل قطـع من الأمـاكن المقـــدسـة، إذا كـــان ذلك بإمكانهم، وتبرهن هذه الحجة على أن صخرة الضريح المقدس قد جرى نقلها منذ زمن طويل مضى.

وينقض آخرون هذه الحجج، ويجيبون على السؤال الأول، قائلين بأن

عـداء الكفار لم يكـن معلناً قط وحاداً إلى درجـة الاعتـداء على الضريح المقـدس، المحـروس مـن قبل الرب ومن قبل مـلائكتـه، كما مـرّ بنا في ص٥١٢، فنحن نقرأ بـأنه عندما قـام كسرى الطاغية المتوحـش بإحراق القدس، مضى إلى كنيسة الضريح المقدس، ليقوم بتدميرها، ولكن تلبسه رعب شديد عندمـا اقترب من الكنيسة، ولذلك ابتعد مسرعـاً عنها، ولم يستطع الوصول إلى ضريح الرب.

وهم يعلمون أيضاً، أنه طالما الضريح موجود، لن يوفر المسيحيون أية نفقـات، بل سيقـدمون دومـاً لرؤيتـه، وإنهم لذلك يمكنهم جمع أمـوال كثيرة من بينهم بالجبايات المفروضة، وأن يربحـوا ذهباً وفضة من خلال السماح لهم بالدخـول إلى ضريح الرب، ولهذا هم يحافظون على الضريح المقـدس كـوسيلة للربح والتقــدم، وقـد زاد الرب محبتهم للمال، حيث يمكن بذلك المال الحفاظ على ضريحه.

كما أنه مستبعــد كثيراً، قيـام المسلمين، إثر العــدوان عليهم من قبل الصليبيين، بطلب الانتقـام لأنفسهم من الضريح المقـدس، لأن في ذلك خسارة عظيمـة لهم، وأنا بالحري أعتقد أنهم سمحوا ببقـائه حتى ينظر إليهم المسيحيون بتقدير أكبر، لأنهم يخافـون منهم كثيراً، علاوة على هذا ليس من المنطقي تصـديق أن المؤمنين، قـامـوا وهم يغـادرون القـدس، بحمل الضريح المقـدس من هناك، لأنه كـان من صخـر أصم، نبت من جوف الأرض، ولنفترض أنهم قطعـوا الصخرة حتى سـووها بالأرض، فإلى أين —أرجـوكم— حملوا الصخور التي قطعـوها؟ فأنا لم أر قط في كنيستي في أولم قطعة حجر من الضريـح المقدس بحجم اصبع الانسان، يضــاف إلى هذا أنني كنت ووجــدت في كثير مـن الكنائس الرئيسيـة للشرق وللغرب.

ولايجوز أن نتصــور بأن المسيحيين جميعــاً قــد جـرى طـردهم من القـدس، فالـذين جرى طردهـم هم اللاتين فقط، الذين شنت الحرب

ضدهم، وليس المسيحيين الشرقيين الآخرين، وبعدما جرى طرد اللاتين، عمل الشرقيون معاهدة مع السلطان، وأدوا يمين الولاء له، وحصلوا على ملكية الضريح، كما سأبين فيما يلي، لابل أكثر من هذا، لم يذهب اللاتين جميعاً، ولم يغادروا، بل بقيت أعداد كبيرة منهم هناك، حيث تعايشوا بأنفسهم مع المسلمين، وقد جرى حرمان هؤلاء الناس من قبل البابا، وقرأنا أيضاً، أنه عندما جرى قهر الصليبيين من قبل المسلمين، وقبل أن يغادروا القدس، عقدوا معاهدة معهم، بوجوب استقبالهم لجميع الحجاج القادمين من البلدان اللاتينية، وقد وافقوا على ذلك ورحبوا به، ولهذا استمر السلطان يدفع إلى الحجاج الصدقة اليومية التي اعتاد ملوك القدس على تقديمها إلى الحجاج المقيمين إقامة مؤقتة في مشفى القديس يوحنا، وبذلك فعل السلطان ماكان ملوك القدس يفعلونه.

ولهذا لايوجد تساؤل حول نقل الضريح المقدس، ومع ذلك إن ماقرأناه في التاريخ هو صحيح، أي أن كنيسة الضريح المقدس قد جرى تهديمها من قبل، ومعها الضريح المقدس، لكن ليس تهديماً كاملاً، وفيما يتعلق بهذه المسألة عملت التجربة التالية: في أثناء بقائي مستيقظاً في كنيسة الضريح المقدس، أخذت بيدي شمعة مضاءة، وذهبت إلى آبدة الرب، التي تفحصتها بدقة متناهية، علني أجد أي مكان غير مغطى بالرخام، وقد وجدت أن الجهة الخارجية كانت كلها مغطاة بالرخام من جميع الجوانب، وعندما دخلت الباب الأول العائد للبيعة الخارجية، وجدت الجدار على الجانبين مغطى بالرخام، لكنني وجدت الجدار الذي أمام وجهي، أي الذي يفصل الكهف الخراجي عن الكهف الداخلي، والذي فيه الباب الذي يقود إلى ضريح الرب، وجدته عارياً، وعندما قربت مصباحي منه، وجدت الجدار مقطوعاً من الصخر، وليس معمولاً من حجارة منحوتة، بل كله قطعة واحدة، مع علامات

الأدوات المعدنية، التي من الممكن رؤيتها بوضوح عليه، وكان يوجد في القسم العلوي، مابدا كأنه صدع، وقد جرى ترميمه بالحجارة والملاط.

وبدا لي من هذا أن ضريح الرب قد جرى تخريبه في احدى المرات، لكن لم يجر اجتثاثه تماماً، وأن الموجود الآن هو إعادة عمارة، وأنه مابرح قائماً منذ أكثر من مائتي سنة كما هو الآن، سوى أنه الآن مغلف بالرخام بعناية أكبر، خشية أن يقوم الحجاج بالتقاط قطع من الجدران، لاتخاذها آثاراً مقدسة، ولهذا السبب وضعت الألواح المتقدمة الذكر مع الفتحات الثلاث في واجهة الضريح المقدس، لأن الحجاج اعتادوا على الحفر بأدوات حديدية للحصول على قطع منه، وصحيح أن الحجاج بذلوا دوماً جهودهم للحصول على قطع من الضريح المقدس، لم يسمح لهم بفعل ذلك مطلقاً، بل منحوا حجارة أخرى مكان الصخرة الحقيقية، لأن الحراس موجودون دوماً في الضريح المقدس، وهم يوقفون كل من يحاول اقتطاع قطع، وبناء عليه تسقط حجة غيرة وطيش المؤمنين إلى الأرض، لابل حتى إذا افترضنا أنهم امتلكوا هذه الغيرة وهذا الطيش، لم يسمح لهم بالعمل بطيش.

وواضح أيضاً، مما قيل، بأن ضريح الرب، كان الجزء العلوي منه بالأصل مدبباً، وبذلك شابه أعلاه سقفاً له، وكان القبر مغطى بظهر خشن، مثلما اعتيد على صنع أغطية القبور، لكن قام المؤمنون بتسوية هذا الجزء الناتيء، وجعلوا الغطاء مسطحاً، مثل منضدة، حتى يكون من الممكن إقامة القداسات في الضريح المقدس فوق القبر.

ومن جميع ماقيل حول الضريح المقدس، يتوجب على الحاج الهادىء والتقي التمسك بهذه الحقيقة، وهي سواء أكان الكهف كما هو قائم في الأيام الحالية هو صحيحاً وكذلك الآبدة كلها آبدة المسيح، أو فيما إذا كان جزء منه موجود هناك فقط، أو ولا جزء منه هناك مطلقاً، القضية صغيرة سواء من الجهة الأولى أو من الجهة الأخرى، لأن الحقيقة

الأساسية مرتبطة بالمكان المقيم هناك، وهذه الحقيقة لايمكن نقلها من هناك بأية وسيلة من الوسائل ولايمكن إزالتها، والحقيقة المقررة هي أنه هنا مكان الدفن الأكثر قداسة للمسيح، وهو مكان قيامته أيضاً، وعلى كل حال قد يكون غير موجود هناك الضريح نفسه الذي جرى تمديد جسد المسيح فيه، يوجد هنا مع ذلك الضريح الذي تمت عمارته للمسيح، والذي غالباً ماجرى فيه الاحتفال بقداس قربان جسده مراراً.

وهو كهف مزدوج، مثل القبر الأصيل تماماً، وهو مماثل بالقداسة، وبالاحترام، والتبجيل، مثله في ذلك مثل الألواح التي صنعها موسى شبهاً للألواح الأولى التي كسرها، والتي كانت تحتوي على الوصايا نفسها، وكانت مساوية لها بقداستها واحترامها، ولذلك أودعت في تابوه العهد، على أنها الأعظم أهمية، والآثار الأعظم قداسة وليكن في هذا كفاية حول الضريح المقدس.

ووجدت في بعض كتب الحجاج القديمة، الأشعار التالية التي وجدت محفورة على أحجار الضريح المقدس، وهذه النقوش أنا لم أرها.

وقد كتب على اللوح المسطح للضريح:

«هنا رقد ميتاً، عندما بموته غلب الموت،

هنا نام الأسد الذي أيقظ العالم وجعله مدجنا.»

وكتب فوق باب الآبدة:

«أنت أيها المار بضريحي هذا اليوم،

انظر إلى العلامات حيث تمدد جسدي،

طوال ثلاثة أيام، عندما مات من أجلك.

وغللت بقوة الشيطان، الذي كان حتى حينه حراً.

ومزقت إلى الأبد عصابات الجحيم الجريئة،

وبعثت أولادي، ليعيشوا في الجنة معي.»

وكتب حول قبة الضريح المقدس:

«ماتت الحياة مرة، ودفنت في هذا القبر،

ذلك الموت كان حياة، ومن الموت خلصنا.

لأنه هو الذي حطم قوة الجحيم تحت قدميه،

وبشجاعة قاد عساكره للقاء العدو،

ذلك الأسد جرىء في النصر منذ أن قام،

الجحيم يئن، والموت ينوح، ذلك أنه فقد جائزته».

وضع جبل أكرا ووصف مختصر له

يحتل جبل أكـرا المقـام الثـاني بعـد الضريح المقـدس، في السمـو، والقداسة، ومع أن وصفه قـد تقدم في ص ٤٨٨، مع ذلك جرى تكرار هذا الوصف هنا، لأن هنا هو المكان المنـاسب، وهناك بعض النقاط قـد جرى نسيانها من قبل، وجاء ذكرها هنا، وينبغي أن نلاحظ هنا أن جبل أكرا، أو الجلجلة هو مكان موجود على الجهة الشمالية من جبل صهيون، وأن هناك خلافاً، عندما يتحـدث الانسان عن جبل أكرا، وعن صخرة، أو جـرف أكرا، فجبل أكـرا يضم شطرا كبيراً من المدينة، وموضع أكـرا هو جميع المنطقـة التي تحتوي على جميع الكنيسـة، وصخـرة أكرا تحتـوي فقط على صليب المسيح وصليبي اللصين، وجبـل أكـرا هو الاسم الذي أطلق على جميع المنطقـة المرتفعة، الممتـدة من البـاب القديم، وجـزء منه مايزال قائماً، وممتداً حتى كنيسة الضريح المقدس.

وفي الحقيقة هناك طريق جيـد فوق الرابية مـن تقاطع الطريق، حيث

قال المسيح للنساء الباكيات:«يابنات القدس لاتبكين علي»، وهكذا صعوداً إلى مكان الصلب، وهناك في الأعلى، ساحة واسعة، عليها تقوم كنيسة الضريح المقدس كلها، وهذه المنطقة كلها هي جبل أكرا، أو الجلجلة، وعلى هذا الأساس، إن كنيسة الضريح المقدس قائمة فوق جبل أكرا، لكن صخرة أكرا هي المكان أو القمة، التي عليها وقف الصليب المقدس مع ربنا مع صليبي اللصين، كما أوضحنا من قبل، وهناك طرق ثلاثة تقود صعوداً إلى هذه الصخرة الأعظم قداسة، والطريق الأول هو من كنيسة الجلجلة، من المكان الذي فيه مركز العالم، والطريق الثاني، هو من كنيسة الضريح المقدس، القائمة تحتها، والثالث من الساحة الخارجية للكنيسة، وجرى اغلاق هذا الطريق الصاعد من قبل المسلمين، مثلما جرى اغلاق الأبواب الأخرى التي تقود إلى الكنيسة، حتى لايكون أحد من الناس قادراً على الدخول إلى الكنيسة من دون معرفتهم، وعلى هذا إن صخرة أكرا هي صخرة الصليب، وجبل أكرا هو جميع المرتفع من بيت الرجل الغني، أو من الطريق المتقاطع المتقدم الذكر، ومع ذلك ينبغي عدم افتراض أن جبل أكرا هو مكان مرتفع، يشرف على جميع الأماكن من حوله، لأنه يوجد على كل من الجانب الغربي، والجانب الجنوبي، أماكن أكثر ارتفاعاً منه، وهي تسمى جبلاً بالمقارنة مع الأماكن التي يصعد الانسان منها إليها، كما قيل.

وفي هذا كفاية، ومن أجل روايات أكثر حول هذا الجبل، انظر ص ٤٨٨ المتقدمة، وكذلك ص٢٥٥ المقبلة .

وصف كنيسة الضريح المقدس وترتيباتها

في وصفنا هيكل أو كنيسة الضريح المقدس، سوف نتفحص أربع نقاط: أولها: من الذي بناها؟ وثانيها: أي مجد وتشريف تلقت في الأيام الغابرة؟، وثالثها: ماهي أحوالها في الأيام الحالية، ورابعها: من الذي

يتولى ادارتها، والفوارق بين مختلف الطوائف التي تعبد المسيح فيها، ولسوف نقدم وصفاً كاملاً نتيجة لفحص هذه النقاط الأربع، وبالتالي تقديم فهم كامل لها جميعاً.

من الذي أسس كنيسة الضريح المقدس وكم من المرات هدمت وأعيدت عمارتها

من الذي بنى كنيسة ضريح الرب؟ إن هذه مسألة مختلف حولها، بسبب اختلاف الروايات التي قدمها الذين كتبوا حول هذا الموضوع، فبعضهم يرى بأن هذه الكنيسة قد كانت هيكل فينوس الذي بناه اليوس هدريانوس فوق مكان الصليب والقيامة، وأن القديسة هيلانة عندما جاءت ألقت بالأوثان، وكرست البناء للمسيح.

ويقول بعضهم بأنها دمرت دماراً كليا الهيكل المتقدم الذكر، وبنت هذه الكنيسة، ونقرأ أيضاً في كتب الحروب بين الصليبيين والمسلمين، بأن كنيسة الضريح المقدس غالباً ماجرى تهديمها (كذا) من قبل المسلمين، وأعيدت عمارتها من قبل الصليبيين، وكان كسرى قد سعى إلى تخريب هذه الكنيسة، لكنه ارتعب بقوتها الربانية، وهرب منها، ويقال أيضاً أنه عندما احتل التتار الأرض المقدسة والقدس (لم يحتلوها) قاموا بتهديم كنيسة الضريح المقدس في الوقت الذي استولوا فيه على المدينة، لكن ليس بعد مضي وقت طويل على هذا جاء امبراطور القسطنطينية إلى القدس، وأعاد بناء الكنيسة وفق الشكل الذي كانت عليه من قبل، وبعد هذا شفى المسلمون غليل غضبهم من المسيحيين بانزاله على هذه الكنيسة، ودمروها كليا، لكن واحداً من أباطرة القسطنطينية أعاد عمارتها.

ومن أجل رواية صحيحة وموثوقة حول هذا الموضوع، انظر ص٢٦٤ظ، وكذلك حول وصف موضع الصليب،

والضريح.

كيف كان الضريح المقدس رائعاً في الأيام الخوالي: آثاره وتزييناته

كـان هذا الهيكل رائعاً جـداً في الأيام الخوالي في بنائـه وخدمـاته، ولم يكن مقـدساً بسبب الأمـاكن المقدسـة التي يحتويها، ولكن أيضـاً بسبب الآثار المقـدسة الثمينة التي كـانت محفـوظة فيه، فقـد كـان محفوظاً فيـه الصليب المقدس، كما أوضحنا في ص٤٧١، مع بقية أدوات آلام المسيح التي عثرت عليها القديسة هيلانة، وكان هناك أيضاً، فيما تقدم من أيام، معروض في الكنيسة سلسلة عظيمة كـانت قد وضعت حول عنق الرب يسوع، عندما جرى اعتقـاله في الكنيسة، وكانت هذه السلسلة هي التي كان الحجاج يضعونها حـول رقابهم عند زيارتهم للكنيسة، وقد تمّ صنع عدد كبير من المعجزات بوساطتها.

وكان فيها كأس كبير من الفضـة، وهو الكأس الذي تشارك به الرب يسوع مع حوارييـه في العشاء الأخير، وهو الذي قال عنه:«هذه الكأس هي العهـد الجديد بدمي» (لوقـا:٢٢/ ٢٠)، وكـان هناك أيضـاً الطشت الذي غسل فيه الـرب يسوع أقدام حـوارييه أثناء العشـاء الأخير، وكان في هذه الكنيسة المنديل الثمين جـداً، الذي ربطته مـريم العذراء الأعظم مباركة حول رأس الرب يسوع عندما أنزل من على الصليب، كما تحدثنا في ص٤٩٦، وقـرأنا عن هذا المنديل في الاصحـاح العشرين من انجيل يوحنا، أن بطـرس عندمـا دخل إلى الضريح رأى الملابـس الكتـانيـة موضوعة هناك، والمنديل الذي كان حـول رأس يسوع لم يكن موضوعاً مع الملابس الكتانية، بل ملفوفاً في مـوضع وحده، وقد بقي موضوعاً في الضريح لبضعة أيام بعد قيامة المسيح.

وحـدث أنه عندمـا انتشرت اشـاعة قيـامـة المسيح، دخل واحـد من اليهود بشكل سري إلى ضريح الرب، فوجـد هذا المنديل ملفوفاً بعناية،

فأخذه وحمله إلى بيته، ذلك أنه كان يهودياً فقيراً وتعيساً، ومن الساعة التي جلب فيها ذلك المنديل إلى بيته، بارك الرب بيت ذلك اليهودي، وصار غنياً ومشهوراً، وعندما أدرك اليهودي هذا، أغلق على المنديل بعناية عظيمة، على أساس أنه كنز ثمين جداً، ومع ذلك لم يتحول إلى المسيحية، وبقي مصراً على كفره حتى النهاية، ووقتها دعا إليه ولديه وقسم بينهما مقتنياته، حيث أعطى المنديل إلى الأكبر، وبقية ممتلكاته إلى الأصغر، وعامل الابن الأكبر المنديل باستخفاف مع أن أبيه قال له بأنه أكثر قيمة من ثرواته الأخرى، وقام بمبادلته وأخيه الأصغر، وهكذا صار المنديل إلى يدي الأخ الأصغر، الذي ازدهر أكثر فأكثر كل يوم، في حين من جهة أخرى تراجعت أوضاع الأكبر وتدهورت يومياً، وعندما تقدم وارث المنديل بالسن كثيراً منحه إلى أكثر أولاده محبة لديه، وحدثه عن فضائله وعن المكان الذي وجد فيه، وقد تسلم المنديل فصار فجأة رجلاً غنياً، وهكذا باستمرار صار يهود هذه الأسرة أكثر غنى واحتراماً، وآل المنديل بحق الوراثة من أب إلى ابن حتى الجيل الخامس، حيث وقتها نشب خلاف بين أخوين حول المنديل، وأصبحت المسألة معروفة، ولدى سماع المسيحيين بذلك حركوا مطلبهم بالمنديل على أساس أنه ملكهم، لكن اليهود كانوا غير راضين باعطائهم إياه بأية وسيلة من الوسائل، وهنا تفجر هياج عظيم في القدس، وقاتل المسيحيون اليهود من أجل المنديل، ولإنهاء هذا الخلاف قرر عقلاء الناس دعوة قاضي وحكم حول هذه المسألة، على أن لايكون مسيحيا ولايهوديا، بشرط التزام الفريقين بقراره، وعندما جرى الاتفاق على هذا، تمّ استدعاء مابيوس Mabius ملك المسلمين لإعطاء قرار حول المنديل، وجرى اخباره بجميع الملابسات من قبل الطرفين، وفي اليوم المحدد جرى استدعاء جميع الناس من مسيحيين ويهود وسواهم، وجلس على كرسي القضاء في مكان عام، وأمر باحضار المنديل إليه، فجلب إليه في صندوق، فأمر بعد ذلك باحضار خشب وبايقاد نار عظيمة بين الناس،

ووقف اليهـود على الطرف الأول للنار، ووقف المسيحيـون على الطرف الآخـر، ووقف المسلمون فيما بينهما، وعندمـا تناول الملك المنديل بيـده، صرخ بصوت مـرتفع: «ياعيسى الناصري، هاهنا منديلك، فقرر أنت إلى أي الفريقين هو»، وما أن أكمل قوله هذا حتى رمى بالمنديل في اللهب، وبعـدمـا رمـاه بقي في النار لـوقت قصير، وظن الجميع أنه قـد احترق، لكن عجباً ارتفع فجأة من النار من دون أن يلحقـه ضرر، وحلق عاليا، وبدأ بالطيران، مثلما يطير الطير بجناحين ممدودين، وبعدما طار واستدار حـول المكان في الهواء لبعـض الوقت، بدأ ينزل بالتـدريج، وهنا وقف الجميع بوجوه متشوقة وأيد مـرفوعة تراقب إلى أي الفئات سوف يطير، وكان هناك مـلاك يوجهه، ولذلك استقر فـوق أذرعة المسيحيين، الذين تسلمـوه وهم جاثين على ركبهم، وحملوه وسط سرور عظيم إلى كنيسـة الضريح المقـدس، وقـد بقي هنـاك لسنين طويلة وكثيرة، وكـان مبجـلاً كثيراً، ولم يكن الأقل مكانة بين آثار الضريح المقدس.

عـلاوة على ذلك، ميز الرب في الأيام الخوالي هذه الكنيسـة بكثير من المعجـزات، من بينها المعجـزة الظاهرة، والتي كـانت تحدث كل أمسيـة عيـد فصح، فعندما كـان يجتمع الناس مع بعضهـم، ويجري اطفـاء جميع الأضـواء، حتى لايبقى في الكنيسـة كلهـا ولاشرارة واحـدة، هنا كـان يحدث فجأة أثناء ترتيل رجال الدين للقداس، والناس يصلون، في لحظة ينزل ضـوء من السماء، وفي لحظة نزوله يعم الكنيسـة كلها، إلى حـد أن مـامن أحـد من الحضور كـان يمكنه أن يحدق بذلك الضـوء السماوي، وبهذا الضوء تشتعل شموع الفصح، وبقية المصـابيح والشموع، وعندما يحدث هذا كان هذا الضوء يغادر، وحدثت هذه المعجزة لسنوات كثيرة، وعندمـا توقفت سقط ضريح الرب على الفـور بأيدي غير المسيحيين، ويقولون أيضاً إنه عندما جرى مـؤخراً استرداد الأرض المقدسة، عادت تلك النار المقدسة، وأضاءت الشموع، لكنها عندما توقفت عن النزول،

جـرى طرد الصليبيين، لأنها إشـارة واضحـة إلى المسيحيين، أنه عندمـا تظهر نار الفصح، يكونون سكاناً جـديرين بالأرض المقدسة، ومتملكين لضريح الرب، وعندمـا لاتظهـر، وإن كـانـوا بالفعل متملكين للأرض المقـدسـة، فـإن مملكتهم سـوف تزول بالحال، وفي هـذه الأيام يجتمع المسيحيـون الذين هم بالقـدس، جميعاً، في الكنيسـة، في أمسية الفصح، ويحبس الأرثوذكس كـاهنهم في آبدة الرب مع شمعة غير مضـاءة، وهو يعيـدها مضـاءة، مصحـوبة بصـوت مـرتفع، ومنهـا تتم إضـاءة جميع المصـابيح، لكنهـا لاتضـاء بمعجزة بل بشكـل مصطنع، ومع ذلك يرفع الرعـاع أصـواتهم إلى السماء، وهم يحمـدون الرب، وكأن معجـزة قـد عملت، ولذلـك تصل أصـواتهم إلى بين الناس، لابل حتى إلى مـابين المسلمين، هذا ولقـد سمعت بصدق، المسلمـون يقولون:«إذا مـااستطاع المسيحيـون أن يبرهنوا حقاً، بأن النار قـد نزلت من السماء، كما يقـولون ويفعلون، ويمكنهم بـرهنة ذلك لنا، لكنا راغبين بالتحـول إلى عقيـدة المسيح»، لكن ويا للأسف:«آياتنا لانرى. لانبي بعـد. ولابيننا من يعرف حتى متى» (مـزامير:٧٤/ ٩)، وبشأن هذا الضـوء الاعجـازي والنار، وشمعة الفصح، لم يقل جيروم شيئاً في كتبه التي قرأتها، مع أنه قد كتب رسالة بليغة، ومكتـوباً جميلاً إلى الشماس بريسيدوس Presidius حول موضوع ضوء شمعة الفصح، ومثل هذا لم يشر غريغوري أوف تور — وهو كـاتب كتب حول مـوضوع المعجـزات القديمـة — ولا إشارة إلى تلك النار.

وفيما يتعلق بهذه النار، هنـاك حكاية جميلة مـوجـودة في ص٢٦٤، ويضاف إلى ماأخبرتكم به، جرت العادة على عقد اجتماعات ومناظرات في هذه الكنيسـة ضـد الهراطقـة، وكـان الذين يحضرون إمـا أن يقنعـوا بأخطائهـم عن طريق المناظـرات حـول الايمان الصحيـح، أو بوسـاطة المعجزات، من ذلك على سبيل المثال، نجد سيرل Cyril قد أشار في

رسالته إلى أوغسطين إلى بعض قادة فرق الهراطقة الذين أفحموا هناك.

ونقدم هنا وصف كنيسة الضريح المقدس في هذه الأيام وأوضاعها الحالية

والذي بقي لنا هو أن ننظر إلى أوضاع كنيسة الضريح المقدس في هذه الأيام، وهنا علينا أن نلاحظ بأن هذه الكنيسة لها ثلاثة أسماء لأنها كنيسة مزدوجة، وكل جزء منها له اسمه الخاص، ولها كلها مجتمعة اسمها الخاص.

فالكنيسة التي تقوم فيها آبدة الرب، اسمها كنيسة الضريح المقدس، والكنيسة التي فيها مركز العالم، والواقعة على مقربة من أكرا، اسمها كنيسة الجلجلة، وهاتين الكنيستين مع بعضهما اسمهما كنيسة البعث، أو كنيسة قيامة الرب، وهي في الحقيقة كنيسة واحدة، لكن صحنها الذي يحتوى على الضريح المقدس، يطلق عليه اسم كنيسة الضريح المقدس، وتدعى سدة هذه الكنيسة نفسها باسم كنيسة الجلجلة، لأنها قائمة فوق مكان اسمه الجلجلة، وهذه الكنيسة كبيرة وفخمة، ولايوجد هناك أكثر من الصحن، الذي يقوم فيه ضريح الرب، دون أن نحسب السدة، ذلك أن هذه بنفسها تكوّن كنيسة كبيرة، وهذه الكنيسة —دون أن نحسب السدة— مستديرة، مدعومة خلال الدائرة كلها بأعمدة رخامية، وقطرها بين الأعمدة هو ثلاثة وسبعين قدماً، ومن مؤخرة الأعمدة حتى جدار الكنيسة هو ثلاثين قدماً، وتمتد هذه المساحة من حول الدائرة كلها، وتشكل ممراً بين الأعمدة والجدار الخارجي للكنيسة، وهذا الممر ممر مقنطر، ويستند السقف المقنطر من الجانب الأول على الأعمدة المتقدم ذكرها، ومن الجانب الآخر فوق الجدار الخارجي، وكان فوق هذا السقف المعقود فيما مضى ممر عام مستدير، ومذابح، وبجوار باب الكنيسة هناك درج حجري يقود صعوداً إلى هذه الشرفات، وهناك في الوقت الحالي غرف متعددة، وشرف مفصولة احداهن عن الأخرى

بجدران، فيها يمارس المسيحيون من الطوائف الأخرى عباداتهم، وهناك أقواس تمتد من عمـود إلى آخر، فوقها جـدار صاعد حتى السقف، وفي هذا الجدار نوافـذ من خلالها يستطيـع الانسان أن ينظر إلى الكنيسـة من الشرفة المستديرة فوق العقد، ويمكنه أن يلقي نظرة على ضريح الرب.

وليس للجزء العلوي من هذه الكنيسـة المستديرة سقف حجري، بل سقف خشبي معمـــول من عــوارض من الأرز، مــرتبـــه بشكل هو أنهاعـوضاً من أن تلتقي في القبـة، تلتقي العوارض الصـادرة من الجدار احداها مقابل الأخرى في دائرة كبيرة، وتشكل بذلك فتحه مستديرة من خلالها ينتشر الضوء خلال الكنيسـة كلها، وتحتها مباشرة، أي تحت هذه الدائـرة، تقف آبدة الرب، وهي معـرضة للأنواء، وقـد تم شرح هذا في ص٥٢٨.

والعوارض والألواح الخشبية مغطاة بالرصاص من جهتها الخارجية، وأعني بذلـك الجهـة التي تتطلـع نحـو السماء، إنما مـن الجانب الداخلي مطليين بمختلف الألـوان، والجدران تحت السقف، وتحت الأقـــواس، مزينة بصور من العهد الجديد، بأعمال من الفسيفساء، لكن الشخصيات الثمينة تســاقطت إلى قطع، وليس هنـاك من يمكنه إعـــادة الأجــزاء السـاقطة، ومن حـول هذه الكنيسـة المسـتديرة هناك كثير من البيع، كما أوضحنا في الروايـة حــول المسيرة، وفي وسطهــا يقــوم ضريح الرب، وهناك في الجهة الشرقية سـدة واسعة وجميلة، وفيها يتطلع باب الضريح المقدس بشكل مباشر، وكأنهما يقفان باب إلى باب.

ويوجد في وسط السدة قبة واسعة وعـالية، معقودة فوق المكان الذي يوجـد فيـه مـركز العـالم، وهناك طريق للصعـود إلى قمـة هذه القبـة في الخارج، حيث يمكن للانسان أن يرى بالتجربة أن هذا هو مـركز العالم، كما قلت من قبل في ص٤٩٧، وهذه السدة هي ملك للأرثوذكس، وإلى جــانب المذبح هناك العــرش الرخــامي للبطريرك، الذي كتب عليــه

بأحرف لاتينية قديمة جداً.

"Cracifxum in carne laudote, et sepultum propter nos gloricate, resurgertemque amortuis adorate"

وقـال مؤلف كتـاب "Specalum Historiale" بأنه كـان مكتـوباً فوق المكان الذي أقيم عليـه الصليب النقش التالي: خـلاصاً Sophias عمل ergase قبل العصـور proaenon، ملكنا Basileus Imon، Otheos الرب، en meso في وسط Tisgis، الأرض.

ويوجـد في هذه الكنيسـة كثيراً مـن البيع، فـوق وتحت، وفي الداخل والخارج، هن الآن مهمـلات، لكـن فيما مضى كـانت تشتعـل فيهن المصـابيح، وكانت مـذابحهن تلمع بالذهب، ونوافـذهن مزججـة، لكن الآن ليس فيهن مصـابيح، والمذابح مخربة، والنوافـذ مغلقـة، ومسكرة بالحجـارة، فـالجزء الأكبر من النوافـذ مسكرة بالحجـارة، وكـذلك جميع الأبواب مسكرة، باستثناء باب واحـد، مفاتيحه محفـوظة لدى المسلمين، ومن هذا البـاب يدخل الانسان إلى الكنيسة، وعلى الجانـب الغربي هناك درجات تقود إلى باب مغلق بثبات، وهذا الباب هو الذي حاولت مريم المصرية، فيما مضى، الـدخـول منه، لكنهـا أبعـدت، ولم تتمكـن من الدخول، حتى تعهدت بتقويـم حياتها، وذلك كما جاء الخبر بوضوح في كتاب «حياة الآباء».

ونتيجة لهذا الاغلاق للنوافـذ والأبواب، الكنيسة مظلمة، لكن بلاط الكنيسـة كلها مستـو، وهو من رخام مصقـول، وهكذا حتى وإن مشى الانسان في الظلام، إنه لايعثـر، وفي أحد أجزاء الكنيسـة، خارج الجدار هناك صهـريج واسـع، يحتـوي على مـاء رائع لاستخـدامـات حـراس الكنيسـة، وفي مكان آخر هناك طريق خـارج الكنيسة، يقـود إلى ساحـة غير مغطاة، محاطة بجدران عـالية، وفي هذه الساحة أمـاكن لائقة للناس

لقضاء حاجاتهم.

وملتصق بهذه الكنيسة برج مرتفع، قد بني من حجارة الرخام الأبيض، فيه كان يعلق فيها مضى نواقيس، والعوارض الخشبية، وأعمال الخشب الذي كانت تدعمهم، من الممكن رؤيتها في الجزء العلوي حيث كانت تعلق، لكن عندما فقدت القدس، ألقيت أرضاً جميع النواقيس، لأن عقيدة محمد (صلى الله عليه وسلم) لايمكنها تحمل النواقيس، لأن لديهم أوامر في قرآنهم بعدم استخدام النواقيس من أجل عبادة الله، كما أنهم لايسمحون باستخدامهم، ومع ذلك قد قيل بأنهم يحبون دقاتهم، والسبب الذي يمنعهم عن استخدامهم هو خشيتهم من تقليدنا، الأمر الذي احتاط محمد (صلى الله عليه وسلم) ضد استخدامه، ومنعه، وهذا البرج هو أول جزء يراه الانسان، عندما يقدم من بيت عنيا إلى القدس، فهذا ما لاحظته دوماً.

والاسكفة فوق باب الكنيسة هي من أنصع الرخام بياضاً، وقد نحت عليها في الجهة الخارجية صوراً تمثل دخول ربنا إلى القدس، راكباً على أتان، وطرده للباعة والشارين من الهيكل، وإقامته للعازر من الموت، لكن هذه التماثيل محطمة بعنف، وأطرافها مشوهة، ويوجد فوق أبواب الكنيسة هذه الأشعار، حيث قيلت لتنقش فوق الحجر، مع أنني لم أستطع رؤيتها:

"Anno millno centeno quoninus uno,

Quindecies nilojan phoebilumino Tacto,

Vitae plus sacrae studio mitigare acre,

Jerusalem Franci capiunt virtute potenti"

ويقف في ساحة الكنيسة أعمدة من الرخام الغالي جداً، وتدعم هذه

الأعمدة سطحاً معمداً، وتزين الرواق، وإذا مارغب أي واحد أن يرى شكل هذه الكنيسة، عليه أن ينظر في كتاب «الحج» الذي كتب من قبل اللورد المشهور، والرجل البارع، اللورد برنارد أوف بريتنباخ، عميد الكنيسة المطرانية في مينز، حيث سيكون بإمكانه رؤية صورة الكنيسة وقد رسمت بوضوح، يراها وكأنه واقف في الساحة وينظر إليها بعينيه.

كيف أن الشفاء عام لجميع المسيحيين، وكيف أنه لايسمح للحجاج بالدخول مالم يدفعوا رسم الكنيسة، والطريقة التي يدخل بها الانسان إلى الكنيسة وأنواع الطوائف في الكنيسة

رابعاً وأخيراً علينا أن نتفحص الذين يسكنون في الكنيسة المتقدمة الذكر، وهم الناس الذين يتولون إقامة القداسات هناك، وبالترابط مع هذا الموضوع سوف نرى مسائل مخيفة ولامثيل لها، فقد عملت هذه الكنيسة على مثال سفينة نوح، التي كان فيها جميع أنواع البهائم، من نظيف وغير نظيف سواء، وذلك باستثناء السمك، وهنا أيضاً لايوجد سمك، أي ليس هناك من هو غارق في مياه عدم الإيمان، ولاوثنيين، ولاواحد ينكر بشكل حاسم المسيح، فمامن واحد من هؤلاء يمكنه أن يجد مكاناً فيها، ولايمكنه الحصول على موطىء قدم فيها، تماماً مثلما لاتستطيع الأسماك العيش خارج الماء، وفقط هم أتباع المسيح الذين يعيشون هناك، وذلك سواء أكانوا نظيفين في الإيمان الصحيح أو غير نظيفين، ملوثين بالهرطقة، وسواء أكانوا متحضرين من أتباع الإيمان الكاثوليكي، أو أناساً متوحشين من غابات الردة والانشقاق، فهنا جميع الأجناس التي تعبد المسيح كرب، مهما كان نوع اعتقادها وإيمانها، سواء أرأت فيه خالداً مع الآب ومساو يا له، أ لم تر ذلك، وسواء أعدّته خالقاً أو مجرد مخلوق، أو انساناً حقيقياً أم شبحاً، وسواء اعتقدوا بأنه تألم، أم لم يتألم، وسواءأمات أم لم يمت، وسواء أكان للقربان أية قوة، أو لم يكن، وسواء أكان البابا هو نائب المسيح أم لا، فكل واحد من هذه

الطوائف يمكنه أن يجد شخصاً من طائفته ومعتقده في هذه الكنيسة، ومسموح له بالدخول إليها.

وفي هذه الأيام إذا ما جاءت أية طائفة مدنسة بأية هرطقة فظيعة، ومامن أحد من الذين موجودين في الكنيسة المقدسة يمكن أن يرضى بالسماح لها للدخول وممارسة طقوسها، يقوم السلطان بتعيين سدة لهذه الطائفة نفسها، ومكاناً للاقامة خاص بها في تلك الكنيسة، حتى لو أنها اعتقدت بأن المسيح كان وحشاً ولم يكن بشراً، فالذي يكفي قولها بأن المسيح كان رباً، فليس هناك من هو ممنوع، وليس هناك أحد مطرود ومبعد، فكل من يدفع إلى المسلمين رسم الكنيسة، وهو خمس دوقيات للدخول، يدخل إليها، مهما كان غير نظيف، وهم لايفتحون الكنيسة لأي مسيحي دون دفع للخمس دوقيات، وفي هذا هم لايوفرون حتى رهبان جبل صهيون، حيث لايسمحون لهم بالدخول من دون دفع هذا الرسم، باستثناء الدخول في موسم زيارة الحجاج إلى القدس، فوقتها يمرون مجاناً، وفي الوقت الذي يكون فيه الحجاج بعيدين عن القدس، لايكون بامكان الرهبان تغيير الحرس في الكنيسة، بل إن الذين أرسلوا إلى هناك ليكونوا مسؤولين عن الحجاج ويفوض إليهم أن يكونوا حراساً للضريح المقدس، يبقون هناك دونما تبديل، حتى قدوم الموسم التالي من الحجاج، والرهبان الذين وضعوا في الكنيسة حراساً لايمكنهم الخروج من الكنيسة، كما لايمكن للرهبان الآخرين الدخول إليها مالم يدفعون الرسم، وعليهم أيضاً دفع الرسم إذا ما رغبوا في تغيير الحراس.

وعلى كل حال هم يفتحون أبواب الكنيسة مرتين في السنة، ويسمحون بدخول جميع المسيحين مجاناً، ومواعيد الفتح هذه، هي من الجمعة الحزينة حتى اثنين الفصح، ومن ليلة اكتشاف الصليب حتى العشاء في اليوم التالي، وتكون الكنيسة في هذه الأيام مزدحمة بالرجال

والنساء، من جميع بلدان العالم، ويكون هناك كثيراً من التدافع والفوضى بسبب الحشد الهائل من الناس، ووقتها يسمع الانسان هناك الناس يتحدثون بجميع لغات العالم، وفي تلك الأوقات يعقد سوق في الكنيسة للأشياء الثمينة النادرة، وباستثناء هاتين المناسبتين لاتفتح الكنيسة أبداً، إلاّ مقابل مال حاضر، وقبل ذلك ليس بوقت طويل كانت الأحوال والأزمان مختلفة، فوقتها كان المسيحيون الكاثوليك قادرون على الدخول إليها من دون مقابل، وفي أي وقت أرادوا، ولم يكن مسموحاً بأية حجة من الحجج لأي هرطقي أو منشق، بالدخول إلى الكنيسة، برسم أو بدون رسم، لكن منذ أن جرى الاستيلاء على ضريح الرب من قبل الأعداء، صار الحجاج سجناء، ولم يعد بإمكانهم فعل أي شيء في القدس، باستثناء مارضي به المسلمون.

وقبل عدة سنوات مضت كانت عادة المسلمين قد جرت على فتح الكنيسة عند شروق الشمس وابقاء الحجاج مغلق عليهم بها حتى العشية، ومن ثم اخراجهم عند غياب الشمس،وكان هذا محمولاً، غير أنهم يديرونها الآن بطريقة معاكسة، ذلك أنهم يفتحون لنا الأبواب في وقت متأخر، ويخرجوننا منها في الصباح، وهو أمر مزعج جداً، ومربك، لأننا نحصل على قليل من النوم، أولا ننام في الليالي التي نمضيها في الكنيسة، بسبب الزيارات المتوالية التي تتم إلى الأماكن المقدسة في مسيرات، وبسبب القداسات السماوية المتوالية، وأيضاً بسبب الصرخات والأصوات الغريبة العالية التي تصدر عن المسيحيين الشرقيين الذين يملأون الكنيسة طوال الليل بسبب أصواتهم النشاز، مع صفقات التجارات، وأخيراً بسبب الأعداد الهائلة للذباب، الذين يقفزون فوق البلاط وفي كل مكان، وعندما يحاول أي انسان أن يتمدد للنوم أو للصلاة، يتغطى على الفور بالذباب، ولايمكنه الحصول على الراحة.

ومن أين يأتون، أنا لا أعـرف، إلاّ إذا كانوا يتـوالدون بشكل طبيعي من الرخام، ومن المحتمل أن حرس الكنيسة يتولون تغذيتهم، لذلك أنا لم أقتلهم، وبعد ليلة من التعب هكذا والسهـر، يتوجب علينا في اللحظة التي نخرج بها بالقـوة، أن نكون وقتها مـرغمين على الذهاب إلى أماكن مقـدسة أخـرى، ويجعلنا هذا عـرضة للمعـاناة من مـزيد من الارهاق، وعلى هذا كـان الحجـاج دومـا منهكين تمامـاً، من السهـر، والصـوم، والتعب، ونادراً ما كان يسمح لهم بوقت لتناول وجبات سريعة، وذلك أن هذا النظام يضغط عليهم بشدة في هذا المجال، علماً بأنه من كثير من الجوانب أفضـل من النظام الآخـر، حيـث أنه من الأفضـل الحبس في الكنيسة أثناء الليل منه في النهار.

أجناس الناس المتنوعة التي تسكن في كنيسة الضريح المقدس

بما أن المخلوقات المتنوعـة تزين العالم، وتظهـر الكمال الرائع للخالق، كذلك الأمـم المختلفة، والطبائع واللغـات، والطقوس، التي تتعبد بكثرة الكنيسة الكاثوليكية، يمكنها أن تظهر روعة كمال مخلصنا، لو أن العناد، والاصرار على الآثام المقيتـة من قبـل الكفـار، والهراطقـة، والمنشقين، لم توجـد بينهم، مع أن حتى وجــود هذه الأمـور يبرهـن بأن الرب رائع وكـامل، وهكذا فـإن كنيسـة الضريـح المقـدس أكثـر جمالاً من جميع الكنائس الأخرى في العالم، ومنشأ ذلك من تنوع الأمم التي تحمد الرب فيهـا، مع أن الذين يدخلـون إليهـا يثيرون التقـزز والانزعـاج الكبير بآثامهم المقيتـة، واعتاد المسيحيون من جميـع أجزاء العالم، والذيـن كانوا يتحدثون بمختلف اللغات، على الدخـول إليها، في الأيام الطيبة الخالية، وكـانوا يدخلونها رغبة في عبـادة الرب من دون أية ذنب، أو خيـانة، أو أوهام، بينما كـان الأنـاس المحـرومين كنسيـا، والمنشقين، والهراطقـة المنبوذين، الذين مع الأسـف، الكنيسة الآن مليئة بهم، وأبنيتها المقـدسة قد تلوثت بهم، كانوا غير مسموح لهم بالدخول.

ويوجد —على كل حال— هناك سبعة أنواع مختلفة من المسيحيين في هذه الكنيسـة، لكل منها طائفتهـا، وطقوسهـا الخاصة بها، وسـدتها، مع أخطاء مميتة ومتنوعة، لابل يتناول بعضهـا حتى أسس العقيدة، وسوف نحتاج إلى وقت طويل للحديث عن هذه الأخطاء، لكن إذا مارغب أي انسـان أن يحصل على فكـرة في داخل هذه المسألة، عليـه قـراءة كتـاب الحج، تأليف مولاي عميـد مينز، الذي كتب إليه من قبـل العالم المبجل المختص بـاللاهوت، الأب مـــارتن روثRoth، الذي هو مــــن دير الدومينيكان في فـورزهيم forzhaim ، والذي بحكم اختصاصه، قد أضـاف إلى كتـاب الحج ذاك، رسـالة مطولة وصحيحـة حـول الأخطاء العقائدية للساكنين في القدس، ولهذا لن أقارب هذا الموضوع مطلقاً، أو سألامسه فقط، بشكل خفيف، والذي سـوف أتناوله فقط هو باختصار موضوع الأماكن التي تشغلها في الكنيسة المقدسة هذه الأقوام.

اللاتين الكاثوليك

إن المسيحيين اللاتين هم في المقـام الأول، وهـم كـاثوليك حقيقيـون، ويطلق عليهم اسم الفـرنجـة من قبـل المسلمين، وهم يسكنون في هذه الكنيسة، وهـم محافظون بإيمانهم، ورهبان أتقياء محترفون، ورجال الدين، من طائفة الفرنسيسكان هم الذين يمتلكون —كما قلنا من قبل— ديراً على جبل صهيـون، فيـه عـدد كبير من الرهبـان، يبلغ تعـدادهم أربعـة وعشرين راهبـاً، وهـم يعيشـون تحت أحكام نظام طائفتهم، ويتلقـون الدعم والصدقـات من الحجاج الأتقيـاء الذين يأتون إلى هناك من جميع بلدان المسيحية، وكـذلك من قبل بعض الأمراء المؤمنين، الذين تدفعهم تقواهم نحو الأمـاكن المقدسة ونحو التقوى المسيحيـة، إلى عدم التوقف عن إرسـال عطايا صـدقاتهم السنوية إلى هنـاك، وفي الحقيقة قـام فيليب دوق بيرغندي، صـاحب الذكـرى المباركـة برسم دفع مبلغ ألف دوقيـة سنويا للأمـاكن المقـدسـة، مادام حيـاً، وذلك في سبيل خـلاص نفسـه،

ودعماً للرهبــان الذين يتعبــدون الرب هناك، ومثلـه كـذلـك فعل ابنه شارل، طوال وجوده في هذا العـالم، وكذلك يفعل مثله خليفته في الأيام الحالية، اللورد الواسـع الشهرة وصاحب المكانة السـامية مـاكسيميليان، دوق النمســا وبيرغندي، الذي هو الآن الملـك الأعظم مجداً، والمنتخب ملكاً للرومان حيث يأخذ بمثل أسلافه في دوقية بيرغندي، ويقلدهم في ارســال المعـونة المقـــررة للرهبـــان سنوياً، ومن أجل بيــان عن هؤلاء الرهبـان، ووصف لـديرهم، انظر زيارتنا للأمـاكـن المقـدسـة على جبل صهيـون، وفي إطار ذلك الدير، في اليـوم الثالث عشر من هذا الشهـر، خاصة على صفحتي٣٩٨— ٤١٠.

ونيــابـة عن المسيحيين اللاتين يبقي الـرهبـــان على الأقل ثـلاثة من عـددهم، في كنيســة الضريح المقـدس وذلك كحــرس للآبدة الأعظم قداسـة، ويبقى هؤلاء الرهبان هناك ليـلاً ونهاراً، ويمثلون كتلة الكنيسة الرومـانيـة اللاتينية كلهـا، وتسلم أغـذيتهم ومـؤنهم إليهم من خـلال فتحـات في باب الكنيسـة، من قبل رهبـــان جبل صهيـون، وهم لديهم أفضل الأمـاكن وأعظمهـا قداسـة في الكنيسـة، لأنهم يمتلكون مفـاتيح الضريح الثمين جـداً، وكهف الرب يسوع، وهـم يفتحـونه في كل وقت يرغبون، ويعملون قـداسات فيه عندما يختـارون ذلك، ولايتجرأ الكهنة الآخـرون على إقامـة قداس هنـاك، إلاّ بعد الحصـول على سماح مؤكـد وإذن من اللاتين.

ويحتـاج الأمر إلى وقت طويل للحـديث كيف حـدث ووصلت هذه السلطة المدهشـــة على الضريح المقـــدس للرب إلى أيدي اللاتين، فقـــد حـدث هذا ليس بعـد مـدة طويلة من الأيام التي كـان الكرج يمتلكون فيها السلطة على ضريح الرب، وفي الحقيقة إنه لأمر مدهش كيف سمح المسيحيــون الآخـرون مـن الطوائف الأخـــرى للاتين باستحـــواذ هذا الامتياز، آخـذين بعين التقدير أنه لا يوجـد بين الطوائف المسيحية التي

تقطن بالقدس أقل عدداً من اللاتين، ثم إن طريقتهم بالحياة، وعاداتهم، وملابسهم، تختلف عن طرائق المسلمين وعاداتهم وملابسهم، أكثر من اختلاف طرائق وعادات وملابس الطوائف المسيحية الأخرى.

علاوة على ذلك إن ثلاثة من المصابيح المشتعلة دوماً في الضريح المقدس، هي ملك للاتين، وهم الذين يزودونها بالزيت والنار، وتعود المصابيح الستة عشر الأخرى إلى بقية الطوائف، ويمتلك اللاتين أيضاً بيعة العذراء المباركة، التي تقدم وصفها في ص٤٦٩، ويتلون هناك القداس وساعاتها، ولديهم خلف هذه البيعة مكان واسع من أجل نومهم، وطبخهم، وأكلهم، وصنع حاجياتهم، وفي تلك البيعة ثلاثة مصابيح مشتعلة بشكل دائم.

ويمتلك اللاتين على جبل أكرا مذبحاً خاصاً بهم، وثلاثة مصابيح مشتعلة فوق صخرة المسيح، وفي مكان اكتشاف صليب المسيح، لديهم مذبح واحد، ومصباح واحد مشتعل في الكهف الذي وجد فيه صليب المسيح، ولديهم أيضاً مصباح مشتعل واحد في المكان الذي جرى فيه تحنيط جسد المسيح، بعد انزاله من على الصليب.

ومازال البوهيميون متحدون مع اللاتين في القدس، وعندما جاءوا إلى القدس، سكنوا مع اللاتين، وشاركوا في طقوسهم، مع أنهم تخلوا عن كنيسة روما، وتزداد هرطقتهم شدة كل يوم، ومثلهم الغلاغولي Glogolar الذين يسكنون بيننا، وهم على كل حال لايتلون القداس باللاتينية، بل بلغتهم الأم، لأنهم يتلقون مهامهم المقدسة في روما، وهم ليسوا هراطقة.

أي جزء من كنيسة الضريح المقدس ملك للاغريق

ويمتلك الاغريق المكان الرئيسي في الكنيسة المقدسة، أي السدة، ورأس القيامة كلها، وكان هؤلاء الاغريق في الكنيسة الأولى مشهورين

وممجدين في العقيدة، وكان لديهم كثيراً من المدن الجميلة، وأربع كنائس كاتدرائية فخمة، هي التي كانت ملكاً لبطارقة: أنطاكية، والقدس، والاسكندرية والقسطنطينية الذين كانوا منذ زمن بعيد في طاعة الكنيسة، غير أنهم فيما بعد تخلوا عنها وتركوها، وسقطوا في أعظم الأخطاء، وبلغ بهم الأمر إلى حد التجديف ضد الروح القدس، وضد نظام القرابين، وسلطات كنيسة روما، واقتنعوا مراراً بالمنطق، فعادوا إلى صدر الكنيسة، غير أنهم بدلوا اثنتي عشرة مرة، وهم مصرون الآن على أخطائهم، وهم يعيشون مع الأتراك والمسلمين، وهم يعذبون اللاتين بدون شفقة في كل طريقة ممكنة، وماكان ممكنا للأتراك وللمسلمين أن يزدادوا قوة، لولا أن الاغريق كانوا خونة، وكان من الممكن للمسيحيين الشرقيين الآخرين أن يعودوا إلى الاتحاد مع الكنيسة، وكان من الممكن بسهولة أن يعودوا في هذه الأيام، لولا أن هؤلاء الاغريق المتكبرين قد منعوهم، وضللوهم مرة ثانية حتى لو أنهم قد عادوا، ومع ذلك على الرغم من هذه الآثام، لديهم الوقاحة بالتجرؤ على دخول كنيسة ضريح الرب الأعظم قداسة، وقام هؤلاء المعتدون بشكل ظالم بجعل أنفسهم رأساً للكنيسة، ويمتلكون في هذه الأيام السدة والمذبح العالي، ويحتفظون بعدد كبير من المصابيح مشتعلة أمامها، كما أنهم يمتلكون سجن الرب، الذي تقدم ذكره في الصفحة ٤٧٤، ولديهم هناك مذبحاً، ومصباحاً مضاء، ولديهم على جبل أكرا مذبحين، لأن الكرج الذين يمتلكون الجبل من طائفتهم، ولديهم تحت الأرض في بيعة القديسة هيلانة، مصباح مضاء واحد، ومثل هذا يمتلكون مكان توزيع ثياب المسيح، وهناك يوجد مذبح واحد، ومصباح واحد مضاء، ويكفي ماقلناه عنهم.

الكرج: أي نوع من المسيحيين هم، وأية أماكن في كنيسة الضريح المقدس عائدة إليهم

الكرج (الجورجيون) ويعرفون أيضاً باسم النوبيين، ويشتهرون بشكل عام أكثر باسم سنكتشر Cincture، وقد جاءوا من مناطق بعيدة جداً عن الأرض المقدسة، وهم محاربون، حتى أنهم يدربون نساءهم على القتال، وهم مسيحيون، لكنهم موصومون بشكل عام بأخطاء الاغريق نفسها، وهم يمتلكون في الأرض المقدسة جبل أكرا، ولديهم دوما حديقة الصخرة المقدسة، ملحقة بالكنيسة، ولم يكونوا يمتلكون هذا المكان المقدس منذ زمن طويل، بل امتلكوه منذ خمس عشرة سنة خلت، لأنهم قدموا هدايا إلى ملك مصر وسلطانها، الذي طرد الأرمن منه، ووضع الكرج في مكانهم، وهم أيضاً يمتلكون مكان وكهف اكتشاف الصليب المقدس، وثلاثة مصابيح فيهما، مع أنهم نادراً ما يشعلونهم، وهم أيضاً يمتلكون البيعة تحت جبل أكرا، المدفون فيها ملوك القدس اللاتين، وذلك حسبما ذكرت في ص٤٩٤.

اليعاقبة الهراطقة

ويوجد هناك في الكنيسة يعاقبة، هم الذين يمتلكون في بلدانهم في المشرق ممالك كثيرة، وهم هراطقة بشكل شاذ، ويخطئون بشكل مقيت بشأن نقاط كثيرة، وهم يحافظون على عقيدة الختان، ويمارسون طقوس القرابين لكلا النوعين من الأطفال، وهم على صدور أمهاتهم، ويعملون في ظل أخطاء مضاعفة حول رجولة المسيح، ويمتلك هؤلاء القوم بيعة صغيرة ملاصقة لآبدة الرب، حيث لديهم فيها مذبحاً ومصباحاً، ومثل هذا هم يمتلكون المكان الذي جرى فيه تحنيط الرب، ولديهم هناك سبعة مصابيح مضاءة.

الهنود المسيحيون أو الحبشان

ويمتلك الحبشان (كذا) أو الهنود المسيحيون —الذين يعيشون في ظل حكم راعي دير— شطراً من كنيستنا كنيسة الضريح المقدس، وهم

رجال ذوي حياة صارمة جداً، وكذلك فقراء للغاية، وممتلئين بالأخطاء، وفي اجتماعـاتهم يتقـاطرون جميعـاً بحماس من أجل القـداس في أيام الأعيـاد، وهناك تجدهـم كلهم، من الجنسين، حيـث يبـدأون بغناء الأهازيج، وهم يقفزون بأرجلهم ويصفقون بأيديهم معا ويتجمعون مع بعضهم بعضـاً في دوائر ستـة أو سبعة، أو ربما تسعـة أو عشرة، ويغنون أحياناً وفق طرائقهم طوال الليل كله، لاسيما في ليلة قيـامة المسيح، ففي تلك الليلة لايتـوقفـون عن الغناء، والركض نحـو الأمام ونحـو الخلف حتى فجـر النهار، وينفـذون هذا بحماس منقطع النظير، حتى أن عـدداً كبيراً منهم يقع مريضـاً من خلال جهـودهم التي بذلوها، لكن مع أنهم يمارسون هذه الأعمال، ويرعون هذه الأيام المقدسة، تراهم ملوثين بأكثر الأخطاء خبثاً، وهم هراطقة ممقوتين من قبل الكنيسة المقدسة.

وهـم يتبعون اليهود والمسلمين واليعاقبة في تطبيق ماليس مفيداً، لابل هو من الطقـوس الملعونة، وأعني بذلك الختـان، ويسمون أولادهـم على الوجـه بقلم من الحديد المحمى، ولايعبأون بشأن تلقي المعمـودية بالماء، ويمتلك هؤلاء القـوم بيعة، يوجـد فيها تحت المذبح ويقوم الحجـر التي جلس عليـه ربنا، عندما جـرى تتويجه بتـاج من شوك، ولديهم مصبـاح ومـذبح، وبيعتهم ومـذابحهـا وذلك حيث يقيمـون يوميـا طقـوس عبـاداتهم، مـوجـودة على جهتك اليسرى وأنـت داخل إلى الضريح المقـدس، بين أعمـدة الكنيسة، وهي مغلقـة —عـوضـاً عن الجدران— بأقمشة وحصر، ومعلقات أخرى مربوطة بحبال.

المسيحيون السريان

يعيش المسيحيـون السريان في وضع عبـودي تعيس تحت حكم عـدد متنوع من الأمـراء غير المسيحيين، وهم مـوصومـون بأخطاء الاغـريق، الذين يتـولون تقليـدهم، وهم هراطقة وبـلا ايمان، وخونه، ولصـوص، وغيورين على نسائهم وزوجاتهم مثل المسلمين، وهؤلاء الناس هم معنا

أيضاً في كنيسة الضريح المقدس، ويمتلكون بيعة القديسة هيلانة، حيث يمارسون طقوسهم، وهم يعيشون إلى جانب الهنود في خيمة محاطة بأقمشة وماشابه ذلك.

المسيحيون الأرمن: من أي نوع هم

ويشاركنا الأرمن في هذه الكنيسة أيضاً، وقد جاءوا من أرمينية، وهم أعداء بلاهوادة للإغريق، ومع ذلك تراهم غير مهتمين بتجنب آثامهم، كما أنهم ليسوا متحررين من هذه الآثام، فهم عندما يقيمون قداساً لايمزجون الماء مع الخمرة، مثلما يفعل الاغريق، ويأكلون اللحم في يوم الجمعة، ولايرعون يوم ميلاد الرب كيوم عيد، بل إنهم يصومون في ذلك اليوم، ويقدمون تعليلاً لتصرفهم على هذه الصورة، بأن الرب قد ولد في وسط تعاسة حياتنا، لكنهم يحافظون على عيد الغطاس ويحتفلون به بشكل مهيب، وذلك بسبب عمدانية المسيح، ويطلقون على هذا العيد اسم «ميلاد المسيح الروحي»، وفي هذا هم يخطئون أيضاً.

وكنت لدى حديثي عن الكرج، قد ذكرت بأن هؤلاء الأرمن كانوا يمتلكون جبل أكرا، لكن عندما فقدوه، اشتروا من السلطان مكاناً في الشرفة العليا من الكنيسة، وهناك كرسوا لأنفسهم سدة، وعملوا غرفاً للاقامة بها، ولايختلف الأرمن عنا كثيراً، مثلما تختلف الطوائف المتقدمة الذكر، وفي الحقيقة لقد سمعت بأن الأرمن غالباً مايلتقون مع الذين ليس لديهم كهنة إلاّ من الرهبان الدومينيكان الذين يعدون بالنسبة إليهم أساقفة، ورعاة أبرشيات، وكهنة، وهؤلاء هم أفضل الكاثوليك، ذلك أنهم تحولوا إلى الايمان الصحيح على يدي راهب من طائفتنا، كان قد ترجم إلى لغتهم كتاب Summa theologia لتوماس الأكويني، وكتب أخرى من تأليف علماء كاثوليك، واعتاد هؤلاء الأرمن على أن يزوروا من وقت إلى آخر المقدم العام لطائفة القديس دومينيك، حيث كانوا يظهرون أنفسهم أنهم أبناء له في الطاعة، وهم يزورون بخشوع

عظيم ضريح أبينا القديس دومينيك، وقد أخبرني بهذا عدد من إخواني الرهبان الذين رأوهم، وسمعوهم يتحدثون مع المقدم بأفضل طريقة ممكنة، لأنه لايوجد لاتين لديهم، وهم لايعرفون اللغة اللاتينية.

وبقي المسيحيون الذين تقدم ذكرهم، في القدس، عندما استولى المسلمون على المدينة، ووقتها جرى طرد اللاتين، والبطريرك، والملك من القدس، مع جميع أتباعهم، وجرى تسليم كنيسة الضريح المقدس إلى هؤلاء المسيحيين المتبقين على شرط واحد، هو شراء الأماكن التي يرغبون فيها في داخل هذه الكنيسة وهذا مافعلوه حقاً، وهكذا بدأت فوضى هذه الحشود المزيجة في الكنيسة في سنة ١١٨٧ لتجسيد ربنا، وكان ذلك في الحادي عشر من تشرين الأول، ومنذ ذلك الحين، عاشت جميع الأمم المتقدم ذكرها في القدس كرعايا ودافعين للجزية للمسلمين وبقيت المدينة المقدسة لسنين طوال من دون مسيحيين لاتين، حتى اشترى روبرت ملك صقلية بعض الأماكن المقدسة من السلطان، مقابل الكثير من الذهب، وسلم هذه الأماكن إلى الرهبان الفرنسيسكان، الذين مابرحوا يتملكونهم حتى هذا اليوم، وبشأن هذه الأماكن، انظر ما تقدم في ص٤٦١.

وإلى جانب الأمم التي تقدم ذكرها من قبل، هناك شعوب أخرى كثيرة في القدس، لاتؤمن بالديانة المسيحية، نذكر من هؤلاء: المسلمين، واليهود، والأتراك، والسامرة، والمماليك، الذين عنهم جميعاً هناك عرض واضح قدمه اللورد برنارد بريتنباخ العظيم، المتقدم الذكر، الذي لم يبخل بنفقة على تصنيف كتاب رحلته بشكل صحيح، أو لنقل كتاب حجه، حيث حصل على ذلك الاستاذ المحترم، واللاهوتي المتنور، والملهم المنعم عليه، وأعني به الأب مارتن روث (كذا)، المنتمي إلى طائفة القديس دومينيك، فهو الذي كتب كتاب الرحلات للورد المتقدم الذكر، بشكل مزين، وبأسلوب علمي، وقد وصف بوضوح مختلف

الشعـوب التي سكنت في القـدس، مـع جميع أخطائهـا، ومشـاكسـاتها، وعاداتها، موجهـا اللوم إلى هذه الشعوب بسبب أخطائها، وقـدم عرضاً لاهوتياً ثميناً جداً واختصاصيا، مع حلول لكثير من النقاط الصعبة، كما أنه استأجر رجلاً فناناً، رسم له الموانىء البحرية، والمدن، والأماكن على اليابسة، وبشكل خاص في الأرض المقدسة، وملابس الشعوب المذكورة للحيـاة، وجعل صـورة مـوائمـة لكلمات النص، وعلى هذا إن الذي سيختار قـراءة هذا الكتاب، يمكنه أن يجد فيـه كل ماتجاوزتـه، ولسوف أتابع الآن السير قدما مع جولاتي.

زيارة إلى الأماكن المقدسة في مدينة القدس وكذلك إلى الأماكن من حولها

وفي اليـوم الخامس عشر، الذي هو عيـد تفـرق الـرسل، وفي بداية النهار، أي في الأمسيـة المتقدمـة، أرسلت رسالة إلى جميـع الحجاج، أنهم ينبغي أن يتسلقـوا عند غياب الشمـس قمة جبل صهيـون، لأن معلمينا أي دليلينا، يرغبان في أخـذنا في ذلك المساء نفسـه إلى بيت لحم، وعندما وصلنا جميعاً إلى المكان المكشوف على جبل صهيون، وجدنا حميرنا واقفة هناك مع سائقيها، ولذلك ركض كل واحد منا هناك وهو يصرخ ناشداً سائقه وباحثاً عنه، حسبما تقدم لي وصف ذلك في ص٣٥٠ المتقدمة.

وبعـدمـا حصلنا على حميرنا، وقفنـا هناك، وانتظرنا بعـض الوقت وصول دليلينا، ووقفنا هناك، وانتظرنا لوقت طويل قدوم دليلينا، اللذان قدمـا أخيراً عند غياب الشمس، قـدما وهما آسفين، وأخبرانا بـأن البدو المدينيين، والأعـراب قـد جـاءوا إلى بيت لحم من سـدوم، ومن القفـار حول الأردن، وهـم كـامنون هناك بانتظارنا، من أجل الانقضاض علينا، وأسلحتهم في أيديهم، وذلك بغيـة سلبنا، ولذلك يتـوجب علينا في هذا الوقت الاقـامة في القدس، حتى يغـادر هذا الحشد من اللصـوص بيت

لحم، ولذلك أخـذت الدواب منا إلى أمـاكنهـا، وقمنا نحن بجـولة على الأماكن المقدسة في جبل صهيون، وصلينا لوقت طويل في مكان افتراق الرسل، الذين كان عيدهم قريباً في متناول اليد، وحول هذا المكان انظر ما تقدم في ص ٤٤٦.

وعندماغابت الشمس نزل الحجاج عـائدين إلى مشفاهم للاستراحة، لكن عدداً كبيراً منهم بقي معنا فوق جبل صهيـون، ومكثوا ساهرين في الأماكن المقدسـة، وفي منتصف الليل استيقظنا معا مع الرهبان من أجل صلوات البلاد الصبـاحية، وبعدما شرعنـا بتلاوة قداسات خـاصة، كل واحد منا في المكان الذي اختاره، تابعنا ذلك حتى بداية الضوء، وعندما بدأ فجر اليوم الخامس عشر من تموز، وقبل شروق الشمس، نزلنا نحن الذين كنا في فـوق جبل صهيون إلى المشفى، وأيقظنا إخواننـا من السادة الحجاج، لنقوم بزيارة حج، وعندما صاروا جاهزين، خرجنا من المشفى مع بعض رهبان جبل صهيون، وكالينوس الفحل، الذي أمّن لنا بعصاه ممراً آمناً، ومنع الأطفـال من رمي الحجارة علينا، وذهبنا أولاً إلى سـاحة كنيسة الضريح المقدس،ومـددنا هناك أنفسنا فوق المكان الذي سقط فيه المسيح تحت الصليب، كما تقدم بنا وصف ذلـك، وتلقينا هناك غفرانات مطلقة(++).

الباب الذي اقتيد الرب يسوع إلى خارجه من أجل الصلب

وخرجنا بعـد هذا من الساحـة إلى شارع يقـود من جبل صهيون إلى جبل أكـرا، ويقود من هناك نـزولاً إلى المدينة، من خلالها جميعـاً، وطول المدينة الأعظم هـو من الشمال إلى الجنوب، وعـرضهـا الأدنـى هو من الشرق إلى الغرب،وبعـدما قطعنا بعض المسافـة نازلين نحو البلدة، على الطريق الذي صعـد عليـه الرب يسـوع إلى جبل أكـرا حامـلاً صليبـه، وصلنا إلى باب قـديم مهدم على الجهـة اليمنى، لم يبق منه سوى جـانب واحـد، ممتـداً من الأرض إلى منحنى يدعم القـوس، ذلك أن بقيـة كل

شيء قد ذهب، لابل حتى الجزء المتبقي قد بني الآن على شكل عدة بيوت، ولذلك تعذر علينا الوصول إليه، ولذلك وقفنا على بعد مقابيله، ونظرنا إليه.

وتبين لنا بشكل جلي من خرائبه، بأنه كان بابا عاليا، بني بشكل جيد من حجارة مربعة منحوتة، وكان هذا الباب، يعرف باسم الباب القديم، قبل توسعة المدينة من قبل إليوس هدريانوس، لأنه كان موجوداً هناك في أيام اليبوسيين، وأطلق عليه فيما بعد اسم باب القضاء، لأن المحاكمات كانت تتم هناك وفق الطرائق القديمة، والذين كانوا يحاكمون هناك ويحكم عليهم، كانوا يرسلون إلى خارجها لاعدامهم، وهذين الاسمين معا هما واحد، وبالاسمين معا، أي: الباب القديم، وباب القضاء، قد ورد ذكرهما في الاصحاح الثالث من سفر نحميا.

وإلى خارج هذا الباب، جرى اقتياد الرب، من أجل صلبه، اقتيد وهو يحمل صليبه، ولذلك قيل عن هذا الباب في الرسالة إلى العبرانيين الاصحاح الثالث عشر: «لذلك يسوع أيضاً لكي يقدس الشعب بدم نفسه تألم خارج الباب»، فلنخرج إذا نحن الحجاج البشر إليه إلى خارج الباب، حاملين عاره، فمن يمكنه —أرجوكم— يستطيع الخروج إلى هذا الباب إلاّ بخشوع وتقوى؟، فمن هنا ذهب هابيل إلى حقل عفرون (عفريم) حتى يقتل، ومن خلال هذا الباب نفسه حمل اسحق الحطب، حتى يمكن التضحية به فوق الجبل، وهنا شوهد عنقود العنب الذي حمل على العصا، ورددنا عند هذا الباب الصلوات المحددة في كتب المسيرة، وجثونا على ركبنا، وتلقينا غفرانات.

السقائف على الطريق إلى جبل أكرا حيث كان جري انعاش الذاهبين إلى موتهم

وتابعنا سيرنا من هناك، ووصلنا إلى المكان، الذي كان فيه، عندما

أخرج المسيح، إلى خارج الباب، خياماً منصوبة، حيث عندما كان يؤتى بالمحكوم عليهم بالموت إلى خارج الباب، كان هناك بعض الناس اللطفاء قد دفعوا ثمن خمرة من أجل أن يشربها المحكوم عليهم بالإعدام، وكان هؤلاء يعطون هناك خمرة قوية يشربوها في ذلك الموضع، على أمل أنهم بشربهم للخمرة يزول عنهم الكدر ويصبحوا مسرورين، فقد وصلنا خبر في الاصحاح السادس (كذا) من اسدراس يقول:« تقلب الخمرة فكر كل انسان إلى السرور والمرح، وبذلك يغدو الانسان غير قادر على أن يتذكر لا الأسى ولا الدين، وتجعل الخمرة كل قلب غنياً» (أسدراس: ١/ ٣/ ٢٠—٢١)، وكانوا يحملون من هذا المكان الخمرة أيضاً في كؤوس ودنان إلى مكان التعذيب، من أجل أن يجعلوا الناس هناك سكارى أيضاً، وذلك حسبما تقدم بنا القول في ص٤٧٤.

ومثل هذا أمر التلمود الناس أن يفعلوا، فقد فرض اسكار الناس الذين على وشك الاعدام، وذلك يجري تنفيذا لما أوصت به الكتابات المقدسة في قولها:«أعطوا مسكراً لهالك، وخمراً لمري النفس، يشرب وينسى فقره، ولايذكر تعبه بعد» (الأمثال:٣١/ ٦).

وحدث أنه عندما وصل الرب يسوع إلى هذه الخيام مع صليبه، واللصين اللذان كانا سيصلبان معه، أسرعوا نحو الأمام مع الرب يسوع، لكنهم توقفوا مع الاثنين الآخرين، وجلبوا إليهما خمرة، وجلبوا إلى الرب يسوع خمرة ممزوجة بالمرّ، وجلبوا ذلك من الحانة التي قامت عند مكان الصلب، وقدموا ذلك إليه، لكنه رفض قبول ذلك، وذلك حسبما قرأنا في متى:٢٧، ولم نقرأ بأن الاثنين الآخرين قد حملا صليبيهما، بل حملها لهما رفاقهما، وقد حمل ربنا يسوع صليبه، بسبب أن جميع رفاقه قد تخلوا عنه، ووقف الذين يعرفونه بعيداً عنه، وكانوا مستعجلين كثيراً مع الرب يسوع، أكثر من تسرعهم مع الآخرين، لأن بيلايطس أعطى

قــراراً بدون ارادة، ودفع بالحاحهم نحــو التنازل والقبــول بمطلبهم، وكـانوا يخشـون من إمكانيــة نقض القـرار غير العـادل الذي كـان قـد أصدره، ولهذا كله كانوا متسرعين.

ووقفنا حـــول هـذا المكان، وصلينا، ذلـك أننا كنـا ممتلئين بالحب والتعاطف.

بيت القديسة فيرونيكا

ووصلنا ونحن نازلين من ذلك المكان إلى مــوضع فيرونيكا -Veron ica، التي يقال بأنها كانت هــي المرأة التي استمر الدم يخرج منها لاثنتي عشرة سنة، وقـد لمست بلمسـة خـاصـة طرف ثيـاب الرب، وهي التي دعـاها «ابنة»، وأوصى بها كثيراً من أجل إيمانها، وذلك حسبها قـرأنا في الاصحـاح التـاسع من انجيل متى وقـال بعضهم بأن تلك المرأة كـانت مـرثا، لكن يوسيبيـوس قـال في الكتـاب السـابع من مصنفـه «التـاريخ اللاهوتي» بأن التي شفيت من قبـل الرب، وغدت مـن أتباعـه، كـانت فيرونيكا، وكانت سيده ذات تقوى خاصة وتواضع.

وكانت قد سمعت أصوات الناس الذين كانوا مارين من قرب بيتها، مع الذين كـانوا سيصلبـون، فهـرعـت خـارجـة من البيت وهي تبكي، وقابلت الرب يسوع، وهو مجهد تحت حمله للصليب، ورأت وجهه وقد تغطى بالبصـــاق وبالدم، فتناولت منديلهـا، ومسحـت وجـه المخلص، وبقيت صورة وجهـه مطبوعة على منديلهـا، وكأنه قد رسم هناك رسماً، واحتفظت تلك المرأة بالمنديـل، واستمـدت منه عـزاء عظيماً، وصـارت صـورة الوجه تلك مشهـورة جداً، بسبب آيات ومعجـزات صنعت من قبلها، وتعاظمت شهرتها، وقـد استدعيت هذه المرأة مع منديلها وحملت إلى رومـــــا، بنـاء على أوامــــر القيصر تاييروس، مـن قبل الجنـدي فـوليوسيـانوس Volusianus لأن القيصر كـان مصاباً بمـــرض ثقيل،

وقد شفي من هذا المرض في اللحظة التي رأى فيها تلك المرأة القديسة، ولمس الصورة، وبعدما قامت بعملية الشفاء هذه، تابعت السكنى في روما حتى موتها، وهي موضع احترام عظيم من أجل قداستها، وصلاحها، حيث كانت واحدة من مؤسسي كنيسة الرب، مع الرسل بطرس، وبولص، وكليمنت، وبارادتها تركت الصورة نفسها المطبوعة على قطعة القماش الكتاني، إلى البابا كليمنت وخلفائه، والمنديل في هذه الأيام محفوظ في كنيسة القديس بطرس، وهناك يزار من قبل الناس الذي يؤمنون بالمسيح، مع التبجيل الأعظم، وحافظ هذا المنديل على اسم المرأة حتى اليوم الحالي، حيث اسمه المعروف به هو فيرونيكا، ولقد رأيت هذا «الفيرونيكا» في روما في يوم الصعود لعام ١٤٧٦.

ومن وقت إلى آخر نظم كثيرون، وكتبوا أغاني جميلة للمدح، والأغنية الرئيسية بين هذه الأغاني والمنتشرة بشكل واسع على أفواه الناس، هي التي تسير كمايلي:

«مرحباً أيتها الطبعة المقدسة لوجه مخلصنا،

التي تشع منها نعمة الرب الرائعة.

مطبوعة على منديل أبيض كالثلج

وأعطى فيرونيكا، حبه ليرى».

وعلى هذا رأينا هذا البيت، بيت القديسة فيرونيكا، وتطلعنا إليه بروح مشرقة، عاكسة كيف أنه بوساطة تلك التي سكنت في هذا البيت، تلقت كنيسة روما كلها المجد والشرف، بحصولها منها على تلك الصورة للمخلص، وكيف أن جميع الناس المؤمنون في كل العالم يسعون إلى روما لرؤية هذا الوجه الثمين، الذي مامن مسيحي يمكنه أن ينظر إليه، ويستطيع منع نفسه من البكاء، ووقفنا أمام البيت، وقبلنا الباب، وتلقينا غفرانات(+)، وحدث على كل حال أنه بعد سفر الحجاج

ومغادرتهم للقدس، أن سمح لنا نحن الذين بقينا خلفهم، بالدخول إلى ذلك البيت، من قبل المسلمين الذين يسكنون فيه.

بيت دودروكس الغني الغلوتوني الذي لبس الأرجوان، الخ

وتابعنا من هناك سيرنا نازلين خلال المدينة، ووصلنا إلى بيت قديم، لكنه كان جميلاً، وهو الذي يقال بأنه كان بيت الغني الغلوتوني glut-ton، الذي كان اسمه دودروكس Dodrux، ولم يتلفظ الرب باسمه في الانجيل، عندما ذكر اسم الرجل الفقير، وسبب ذلك أعطاه غريغوري في قداسة حول ذلك المثل (لوقا:١٦/ ١٩—٣١)، فقد كان دودروكس هذا غنيا ومترفاً، ولم يرض بإعطاء الفقير المتسول لعازر حتى الفتات الذي سقط من مائدته، ونظرنا إلى هذا البيت وتطلعنا إليه باحترام، بسبب فضائل ذلك الرجل الفقير، وتلقينا غفرانات(+).

علاوة على هذا، تلقينا نحن الحجاج جميعاً من غني وفقير، هذه الأمثلة، من أجل أن نقوّم حياتنا، حيث تعلم الغني انكار الذات، وأن الرحمة واجبة من الرجل الغني المتنعم، وأن الرجل الفقير الذي قد مات قد دفن، في حين تعلم الفقير دروس الأمل والصبر من الفقير لعازر، الذي كان مليئاً بالقروح، فقد حمل إلى حضن ابراهيم، وجاء تعليمنا حول هذين الرجلين: الرجل الغني والمتسول في انجيل لوقا — الاصحاح السادس عشر.

مفترق الطرق حيث أرغموا سمعان على حمل الصليب خلف يسوع الأمر الذي فعله

وتابعنا من هناك سيرنا متقدمين، ووصلنا إلى مكان تتداخل فيه الطرق أحدها بالآخر، وتشكل بذلك تقاطع يستطيع الذي يقف في وسطه السير في أي اتجاه يريد، وعندما وصل المسيح إلى تقاطع الطرقات هذا كان منهكاً بحمله لصليبه، ووضعه أرضاً حتى ينال راحة

قصيرة، وليسترد أنفاسه، لكن اليهود الأشرار كانوا على عجلة كبيرة من أمرهم، الأمر الذي شرحته تحت عنوان «السقائف، وعندما كان واقفاً هناك قدم رجل اسمه سمعان القيرواني، الذي كان واحداً من تلاميذ المسيح بالسر، وضغط على هذا الرجل وأرغم على حمل الصليب خلف المسيح، وذلك حسبما قرأنا في لوقا — الاصحاح الثالث والعشرين، وحمل صليب معلمه وهو كاره لذلك كثيراً، لأنه كان مايزال جاهلاً بأسرار ذلك، وبالخلاص، ولهذا ركضنا إلى هذا المكان، وأشفقنا على المسيح، وابتهجنا معه: أشفقنا عليه بسبب أنه لم يكن هناك من يساعده، إلاّ سمعان هذا، الذي ساعده وهو كاره على حمل الصليب، وابتهجنا معه، لأنه الآن لايوجد فقط مجرد رجل فلاح وحيد، جاء من أقرب القرى، ليحمل صليب يسوع، بل هناك الآن عدداً كبيراً من البارونات، والنبلاء، والرجال الأعيان، هم الآن موجودين، قد جاءوا من مدن نائية، وقلاع بعيدة، قد جاء كل واحد منهم إلى هنا برغبته من بلاد واقعة فيما وراء البحار، وكل واحد منهم على استعداد لحمل صليب ربهم، وانحنيا في هذا المكان بأنفسنا نحو الأرض، وبعدما تلونا الصلوات المعينة، تلقينا غفرانات مطلقة(++).

وقام فيما مضى على هذه البقعة كنيسة، هي الآن مهدمة بشكل كامل.

المكان الذي قال المسيح فيه للنساء الباكيات «يابنات القدس» الخ

ولدى متابعتنا السير قدماً على ذلك الطريق المتعب جداً والمرهق، أي على طريق الرب، الذي عبر عليه أثناء آلام الصليب، وصلنا إلى البقعة التي عندما كان حاملاً لصليبه، سمع ورأى صرخات النحيب التي صدرت عن النساء اللائي كن يتبعنه، فصرف ناظريه وأشاح بوجهه عن الرعاع الغاضبين، وتوجه نحو النساء اللائي أحببنه، وكن ينتحبن من

أجله قـائـلاً:«لاتبكين يابنات القــدس علي» الخ، وألقينا في هذا المكان المقــدس بـأنفسنا على الأرض، وقبلنا طبعــات قــدم مخلصنا، وتلقينا غفــرانات(+)، وهنا أيضــاً قــام فيها مضى كنيســة، لم يبق —على كل حال— منها أثر يمكن رؤيته.

المكان الذي سقطت فيه العذراء المباركة شبه ميته رعباً

وتابعنا السير قدما على هذا الطريق المقدس، والمحزن، لكن ليس من دون كثير من الدمـوع من الحجـاج الأتقياء، ووصلنا إلى مكان فيـه على الجهة اليمنى من الطريق رابية صغيرة، وقفت عليهـا العذراء مريم وهي في الحزن الأعمق، واستمر ذلك منذ الصباح الذي كان فيه ابنها في قاعة القضـاء، أمـام القاضي، وذلك بغيـة أن تعـرف إلى أين سيقـودونه حتى تتبعـه، لكنهـا عنـدمـا شـاهدت ولدها يسير بين اللصين، وهـو حـامل لصليبه الفائق الثقل، ولابس التاج من شوك فوق رأسه، ووجهه مغطى بالدماء وملوث بالبصـاق، ومحاط بعساكر من الرجـال المسلحين، عندما شاهدته بهذه الحال سقطت أرضاً وهي مرعوبة، وأغمي عليها.

وتوقفنا هنا وعقـولنا مليئة بحـزن متجـدد، وبعـدمـا تلونا الصلوات المعينة، انحنينـا بأنفسنـا نحــــو الأرض، وقبلنا الأرض في هـذا المكان المقدس، وهنا تلقينا غفـرانات مطلقة، وقـد قام فيها مضى في هذا المكان كنيسة فخمة، كان اسمها كنيسة القديسة مريم المغمى عليها، لأنه أغمي عليها وتلاشـى وعيها هناك، وقد دمـر المسملون هذه الكنيسة، وتـركوا جدرانها قـائمة، ذلك أنها بنيـت بقوة من حجارة مـربعة، وهي مـاتزال قائمـة حتى يتمكن واحد من المسلمين من بناء بيت لنفسه فـوقها، ذلك أنها قائمة في وضع جيد ومـرتفع، لأنه من موضع أكرا، وطوال الطريق حتى بيت الرجل الغني، هو طـريق نازل من الرابيـة، ومن المكان الذي أرغم فيه سمعـان على حمل الصليب خلف يسوع، ترتفع الأرض طوال الطريق حتى هـذه البقعـة، حيث تقف جـدران الكنيســة من دون بيت

قائم فوقهم.

وهناك القصة الغريبة التالية قد حكيت حول هذا المكان، وفيها أن عدداً كبيراً من المسلمين قد حاولوا أن يبنوا لأنفسهم بيوتاً فوق هذه الجدران القديمة، لكن مامن واحد منهم قد تمكن قط من إكمال عمارته، إنما بعد تعبه كله، وبعد الذي أنفقه، كان يسقط كل ما أقامه بشكل مفاجيء، وقد حدث هذا مراراً، إلى حد أن مامن أحد يحاول الآن بناء أي شيء فوق هذه البقعة، بل تركوا خرائب الجدران قائمة من دون استخدام، وفي هذا دليل على قداسة هذا المكان، وأن كنيسة سوف تبنى هناك، ولقد قيل بأنه حتى الحجارة لايمكن أخذها ونقلها من هناك.

المكان الذي حكم فيه على ربنا بالموت، والذي اسمه جباثا أو البلاط

وتابعنا السير من هناك قدما، على طول الطريق، حتى وصلنا إلى المكان الذي كان في أيام آلام بالمسيح، مقعد القضاء، وكان اسم هذا المكان في العبرية جباثا، وفي الاغريقية Lychostratus، وفي اللاتينية «تلة الأحزان»، لأنها كانت تلة أحزان عظيمة على من صدر عليهم الحكم، وقد ورد ذكر هذا المكان في الاصحاح التاسع عشر من انجيل القديس يوحنا، ويقوم في هذا المكان قوس مرتفع، بني من حجارة مربعة، ويمتد من الطرف الأول للطريق إلى الطرف الآخر، وبذلك يغطي الطريق كله وكأنه قوس باب، وقد بني فوق القوس جدار بارتفاع جسم الانسان، وبني في هذا الجدار حجرتان بيضاويتان مربعتان، وهن من الرخام المصقول، مفصولتان احداهن عن الأخرى، تريان من خلال التطلع في الطريق وكأنهن وضعتا في الجدار من أجل التزيين، فقد كان مكان الـ Lychostratus، هذا في أيام آلام المسيح، مبلطاً بألواح من الرخام، وفي ذلك البلاط حجرتان بيضاوتان مربعتان

مصقولتان، مرتفعتان عن البقية، كانت أولاهن تحت مقعد القضاء، ولذلك عندما كان القاضي يجلس على ذلك المقعد كان يريح قدميه على الحجرة، في حين كانت الأخرى في وسط البلاط، وعليها كان يوضع الرجل الذي سوف يحاكم، ومن حول هاتين الحجرتين كانت هناك مقاعد للقناصل والقضاة.

وعلى هذا قدم بيلايطس إلى هذا المكان، مكان جباثا، ليصدر الحكم بالموت على يسوع، حيث جلس على كرسي الحكم، وأراح قدميه على الحجر، ووقف الرب يسوع الذي سوف يعدم فوراً، وقف فوق حجرة الاتهام والمتهمين، وأخذ المؤمنون هاتين الحجرتين، وبنوهن في الجدار، فوق هذا القوس، لتكونا ذكرى دائمة لهذه الأعمال، وبناء عليه جثونا في هذا المكان فوق ركبنا، وبعدما عبدنا الرب، تلقينا غفرانات، وأعدنا هنا إلى ذاكرتنا التهم الظالمة التي قدمت ضد المسيح من قبل اليهود، والحكم المعلن غير العادل، ورعب وظلم القاضي، وصمت المسيح، وأشياء أخرى كثيرة كانت قد حدثت في هذا المكان.

قاعة المحاكمة، وبيت بيلايطس حيث جرى جلد الرب، وتتويجه واهانته بطرق مختلفة

وعندما أنهينا صلواتنا في المكان المتقدم ذكره، نهضنا، وعبرنا من خلال القوس المتقدم الذكر، ووصلنا إلى بيت بيلايطس، الذي فيه، يعرف كل مسيحي، أي عذاب تحمله الرب، وفي هذا البيت كانت هناك قاعة القضاء، التي إليها اقتيد الرب يسوع، وهو مربوط بأغلال قوية، مع وجود سلسلة حديدية حول رقبته، وتواجه مع قاضيه، وسمع التهمة، وفحص، وبعث إلى هيرود، وأعيد ثانية إلى هذا البيت، فاستجوب، وجلد، وتوج بالشوك، وسخر منه بطرق مختلفة، وعندما غطي بالاهانات، عرض على الناس حيث شاهدوه.

ولهذا انحنينا بأنفسنا نحو الأرض أمام مدخل هذا الباب، مع كثير من النحيب، وتلونا الصلوات المحددة في كتب المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++)، وعندما نهضنا قبلنا حجارة الجدران، وكنا راغبين في الدخول إلى البيت، لكن الساكنين فيه لم يفتحوه لنا، وبناء عليه وقفنا في الخارج، مثلما وقف اليهود عندما سلموا المسيح إلى القاضي، فهم قد فعلوا ذلك، لأنهم لم يرغبوا في الدخول، خشية منعهم أن يتدنسوا وأن يكونوا غير قادرين على أكل طعام الفصح، بينما تشوقنا نحن بقلوبنا إلى الدخول، حتى يمكن أن نتطهر من دنسنا، وقذاراتنا، ونصبح مقدسين، وعلى كل حال لم يسح لنا في هذه المرة بالدخول، وبعدما غادر الفرسان القدس، تدبرت أمر دخولي إليه ببراعة، حسبما سأتحدث عن ذلك فيما بعد في ص ٢٣١ظ، مع أن هذا البيت، مع البيوت الأخرى، تعرض للهدم من قبل تيتوس، لكن مع ذلك بقيت بعض الجدران، وعلى هذه الجدران، أعيد بناء بيت جديد، وبذلك ذهب مظهر البيت الأصيل وزال من الوجود.

وعلى كل حال، الباب المقنطر، الذي دخل منه الرب وخرج، مايزال قائماً، مع أن المدخل إلى البيت الآن ليس تحت ذلك القوس، لكن في مكان آخر، والباب القديم مع أنه مايزال قائماً، لكنه مغلق عمارة، وعلى تيجان الأعمدة والقوس الحجري للباب القديم، محفور دواليب، ومربعات، ومثلثات، وكأن ذلك علامات فلكية، والذي أعتقده أن القدماء حفروا هذه العلامات لأسباب خرافية واهمة، وكان هذا البيت في أيام آلام المسيح واسعاً، واحتوى على عدد كبير من الغرف، غير أنه صغير من الداخل بما فيه الكفاية، علماً أن مكان الجلد مغطى بقبو، وأنه دائماً كان كذلك.

وفي هذه الأيام، رمى سكان البيت بجميع الفضلات والأوساخ، وبقايا البيت في هذا المكان المقدس، ووقف في هذا البيت فيما مضى،

الأعمـدة السبعـة المتعرقـة، التي تقـدم ذكـرها على ص ٤٧٩، وجـرت العادة بالدخول إليه بالصعود على ثمان وعشرين درجة رخامية، وعندما كان الرب مسحوباً مجروراً وألقي به هناك سجينا بغضب وعنف، سقط على الدرجة الحادية عشرة على وجهه المقدس، وجـاء سقوطه شديداً إلى حـد أن الدم تدفق من أنفـه ووجهه، وجـرى على الدرج، وتبعـاً للآثار الإخبارية جرى نقل هذه الدرجـات من القدس إلى روما، ووضعت في كنيسـة القديس يـوحنا في اللاتيران، وصار هذا الـدرج يقود إلى قـدس الأقداس، وكل من صعد على درجاته، سوف يتلقى غفرانات مطلقة.

وقـدمنا أعظم احترام يمكن إظهاره إلى هذه الدرجـات، مع أنه ليس سليما للحجاج السير عليهن إلاّ على ركبهم العـارية، وعندما وصلوا إلى الدرجة الحادية عشرة، تمددوا هناك على الأرض بأنفسهم، وصلوا هناك لوقت طويل، حيث علامـات الدماء المسفوحة كـانت مشاهدة، ومكانها محمي بحـواجـز حـديدية، وليـس فقط الناس غير المتعلمين والبسطاء الذين يفعلون هذا، لابل كـرادله عظام، وأناس متعلمون يتسلقـون على هذه الدرجـات، بـالطريقـة المتقـدمـة الـوصف ليحصلوا على الغفـران، وليقولوا بأنهم وقفوا مرة في بيت بيلايطس.

بيت الملك هيرود حيث فيه جرت السخرية من المسيح واهانته

وغـادرنا البيت المتقـدم الذكـر، وتابعنا سيرنا على طـول الطريق، فـوصلنا إلى طريق يذهب منه صعـوداً، وهنـا تركنا الطريق الذي قـدمنا عليه لدى نزولنـا من جبل أكرا، وصعدنا على هذا الطـريق، فوصلنا إلى بيت كبير، هو الـذي كـان بيت الملك هيرود، الذي إليـه جلب الرب يسوع من بيت بيلايطس، وذلك عبر هذا المرتقى، فهنا جرى الاستهزاء منه بوسـاطة جيش هيرود، وسخر منـه بوساطة ثوب أبيض، وتعـرض لمختلف أنواع العذاب، وذلك حسبما أخبرنـا من قبل الانجيليين، ويقال بأن الثوب الأبيض للمسيح، الذي سخر به منه في بيت هيرود كان على

شكل الثـــوب الفضفـــاض الـذي يرتديـه الرهبـــان الـدومينيكان والكارثوسيان Carthusians.

وانحنينا بأنفسنا نحـو الأرض، وصلينا أمـام هذا البيت، وبعـدمـا تلقينا غفـرانات(+) نهضنا، وفي أثنـاء حجي الأول، لم أكن قـادراً على الحصـول على إذن بالدخـول إلى هذا البيت، لوجـود مدرسـة لأطفـال المسلمين فيه، فيهـا كان الأولاد يتعلمون، وفي حجي الثـاني أبعدنا فجأة عن البيت، لأن حـاكم القـدس حفظ محظيـاته فيـه، ولهذا السبب، فإنه حتى بعد مغادرة الحجاج، لم نستطع الحصول على إذن بالدخول إليه.

بيت سمعان الفريسي الذي فيه تابت المرأة المذنبة

ومسرعين تركنا بيت هيرود، حتى لانغضب الحاكم، ونزلنا ثانيـة إلى طريقنا السـالف، حيث فيـه توقفنـا أمـام باب بيت، ويقـال بأنه في هذا البيت عاش الفـريسي الذي رغب في أن يأكل يسوع معه، وعندمـا كان هناك، قـدمت امرأة من المدينة كـانت مذنبـة، وقدمت له خـدمة رائعـة صـدوراً عن توبة وعن خشـوع، وذلك حسبها قـرأنا في انجيل لوقـا — الاصحـاح السـابع، وهكذا فإن دمـوع تلك المرأة المذنبـة —كما قـال غريغـوري — كانت ستلين حتى القلب الحجري، نحو التـوبة، فهي قد جعلت من جمالها كله كثيراً من الأضـاحي، وحـولت ذنوبها الكثيرة إلى كثير من الفضـائل، حتى إذا كـان أي جـزء منهـا قـد أغضب الرب في ذنب، فإن طاقاتها كلها توجهت نحـو استغفار للرب، وتمددنا بأجسادنا أمام باب هذا البيت، وتلقينا غفرانات(+).

ويبـدو أن هناك تعـارض بين الانجيليين بشـأن هذا البيت، فلوقـا في روايتـه، كما يبـدو، قـال بأن ذلك قـد وقع في القـدس، ولكن مـرقص —الاصحـاح١٤، ويوحنا— الاصحـاح١٢، ومتى— الاصحـاح٢٦، قالوا بـأن ذلك قد حدث في بيـت عنيا، في بيت سمعان المجـذوم، ومن

هذا المنطلق فإن بعض العلماء اللاهوتيين، من ذلك مثـلاً جيروم (الفصل٤٦ من Contra Jovinianum) قد قال بأن لوقا الانجيلي قد تحدث عن امرأة أخرى، وليس عن مريم المجدلية، التي ورد ذكرها عند الثلاثة الآخرين، والتي قدمت خدماتها في بيت عنيا، في حين كانت امرأة أخرى هي التي قدمت خدماتها في هذا البيت، والمكانين اللذين شوهدا كمكانين مقدسين، يتوافقان مع هذا، بسبب أننا رأينا هنا بيت سمعان الفريسي، ورأينا في بيت عنيا بيت سمعان المجذوم، مالم —وأنا شخصياً أميل إلى الاعتقاد بأنه الصحيح — يفضل الانسان أن يقول، بأن مريم المجدلية قد جاءت إلى هذا البيت عند مستهل تحولها، وغسلت قدمي الرب بدموعها، ثم كان فيما بعد، عند اقتراب موعد آلامه، صبت العطور على رأسه، وهو جالس إلى الطعام، وأن الذي فعل ذلك جميعاً كان امرأة واحدة، هي المرأة نفسها.

مدرسة العذراء المباركة حيث تعلمت الكتابة، مع مناقشة لمسألة هل تعلمت الكتابة أم ما

ونهضنا من صلاتنا في البيت المتقدم الذكر، وبادرنا مسرعين بالتقدم على طريقنا، ووصلنا إلى بيت آخر واسع، قد بني من حجارة مربعة منحوتة، ومن حجارة منحنية، وهذا البيت ملاصق لساحة هيكل الرب، وقد قيل بأن هذا البيت قد كان بيت العذراء المباركة، حيث تعلمت الكتابة، عندما قدمت من قبل والديها للخدمة في الهيكل، حتى تكون موقوفة على خدمة الرب، ونظرنا إلى هذا البيت بإعجاب، وقام الشك في نفوسنا، حول هل تعلمت العذراء المباركة القراءة والكتابة من أي انسان، وأي يهودي كان استاذها، حيث أننا قرأنا في الاصحاح السابع من كتاب الحكمة:«الخالق للأشياء جميعاً قد علمني الحكمة»، وبما أن رب الأشياء كلها قد أحبها، لذلك كانت هي نفسها «معلم لطرقه» (الحكمة:٨).

ويبدو من هذا أنها لم تتعلم من انسان، فضلاً عن هذا أخبرنا دام Damm بأن العذراء المباركة كانت متفوقة في علمها على أي واحد عظيم في الكنيسة، وفي الحقيقة كان هناك بعض الناس المقدسين، الذين لم يتعلموا من قبل أي انسان، بل من خلال كشف يسوع المسيح، مثلما أخبرنا القديس بولص كيف أنه تعلم، كما ورد في الاصحاح الأول من الرسالة إلى الغلاطين، وتعلم سليمان أيضاً الحكمة مامن انسان، بل بوساطة وحي رباني، وجميع الرسل الآخرين صاروا معلمين للعالم من خلال الالهام الرباني، زد على هذا قال توماس الاكويني بأنه تعلم بالصلاة أكثر مما تعلمه بالقراءة، ومثل ذلك أيضاً تعلمت القديسة كاترين السيناوية من قبل الرب يسوع، وصار بقدرتها قراءة أسفار الكتابات المقدسة، مع أنها لم تعرف اسم أو قدرة أي واحد من الأحرف، ولا كان يمكنها أن تميز «أ» عن «ب» أو «ب» عن «ت» مما يبرهن على أن تعلمها قد جاء بشكل إعجازي، ومثل هذا تعلمت مريم المصرية الكتابات المقدسة، عندما كانت في الصحراء، بوساطة وحي رباني، «ولهذا، وعليه أيها الأخ المحبوب المتساءل، هلا أريتني المدرسة التي تقول حضرتك تعلمت فيها مريم العذراء المباركة القراءة والكتابة؟ فلطالما أنها كانت متفوقة في العلم على أعظم اللاهوتيين، كيف أمكن تعليمها من قبل أي انسان، وأما وقد رأينا آخرين قد نالوا معرفة الكتابات المقدسة بالالهام، فما الذي يمكن ليهودي أن يعلمها إياه، وهي قد امتلكت منذ بداياتها حكمة خالدة»؟ «توقف أخي المحبوب، ولاتحاول بأية طريقة من الطرق أن تستخف بهذا البيت، بل آمن أنه كان مدرسة العذراء المباركة، مع أنها كانت جديرة في أن تكون معلمة للرجال، ومع ذلك، تفضلت، في سبيل التواضع أن تكون تلميذة، وذلك مثلما تعرضت للتطهير وفقاً للشريعة، على أن ذلك لم يكن ضروريا، بل فعلته صدوراً عن التواضع، ومثل هذا، نجد الرب يسوع مع حكمته الأبدية، قد جلس مع اللاهوتيين يستمع إليهم، ويسألهم

أسئلة، هذا ومعلوم أنه لا بالإصغاء إليهم، ولابتوجيه الأسئلة إليهم، كان من الممكن أن يضيف شيئاً إلى معلوماته»، ولذلك صعدنا نحو جدار ذلك البيت، وقبلناه، وتلقينا غفرانات(+)، وتلونا الصلوات المحددة.

هيكل الرب الذي اسمه هيكل سليمان

وانطلقنا متقدمين من هناك، فوصلنا إلى مكان، يوجد فيه على الجهة اليمنى ممر مقنطر، وكان هذا الممر مطليا باللون الأبيض، ومعلق فيه مصابيح مضاءة، ووقفنا خارج هذا الممر، ونظرنا من خلاله نحو ساحة الهيكل، ورأينا الهيكل نفسه أيضاً، الذي اسمه هيكل سليمان، وهكذا جثونا على أقدامنا، وتعبدنا الرب الحقيقي لذلك الهيكل، وتلقينا هناك غفرانات مطلقة(++).

ومع أن الهيكل يستخدم في هذه الأيام مسجداً، ويعبد فيه (إله)(١) محمد (صلى الله عليه وسلم)، كان فيما مضى كنيسة مقدسة جداً، وذلك حسبما ستكون كذلك مرة ثانية في يوم من الأيام، ولسوف تتقدس بكثير من المعجزات سيعملها هناك مخلصنا، ولذلك السبب حصلنا على الغفرانات على الرغم من محمد (صلى الله عليه وسلم)، لأن الكنيسة قائمة فوق موضع مقدس جداً، وقد بنيت وكرست للمسيح منذ زمن طويل مضى، وبشأن هذا الهيكل، ووصفه، ومن الذي بناه، وطرازه، سوف أخبركم به في ص ٢٥٧و، وفي الصفحات التالية، أما بالنسبة لجامع المسلمين، الذي يسميه رجال الدين «المسجد» انظر الكتاب الرابع والعشرين من «Speculun Historiale »، الفصل ١٣٢، وأيضاً الصفحة ١٠٤ من الجزء الثاني من هذا المصنف.

١— استخدم المؤلف عبارة نابية جداً، أبدلتها هكذا كي يستقيم المعنى، علما أن الأبحاث الأثرية لم تكشف وجود هيكل في القدس لا أول ولا ثاني ولا ثالث، ولاغير ذلك، ذلك أن حكاية الهياكل ومملكة الملك سليمان هي مجرد حكاية اسطورية منحت غلافاً دينياً

موضع ولادة مريم العذراء المباركة فوق بركة الضأن

ومـالبث أن أبعـدنا عن متـابعـة مشـاهدة الهيكل، لأن المسلمين لايمكنهم أن يتحملوا بصبر أن نقوم بالنظر إلى هذا الهيكل، أو حتى أن نقترب منه تحت أي حجـة من الحجج، ولذلك ابتعـدنا عنه، وسرنا على طول الطريق، فدخلنا شـارعاً آخر على اليسـار، حيث وصلنا إلى كنيسة كبيرة ملتصق بها دير جيـد، مع جميع مكـاتب الموظفين، التي هي أيضـاً مـرتبطة ضمن مكان مغلق، وقد عـاش هنا فيما مضى راهبات تابعـات لطائفـة القـديس بندكـت، وقـد كـن ثريات وتقيـات، وإلى جـانب هذه الكنيسـة هناك موضع ولادة مـريم العذراء المبـاركة، لأن هناك قـام قبر واكيم وحنه، وحـوّل المسلمـون هذه الكنيسـة إلى مسجـد، ولذلك لم يسمحـوا لنـا بالدخـول إليـه، ولهذا وقفنا أمـام باب الكنيسـة، وتلونا الصلوات المعينة، وتلقينا غفرانـات مطلقة(++)، وعلى كل حال، بعـدما عاد الحجاج إلى الوطن، تمكنا نحن الـذين بقينا في القدس، من الدخول إلى تلك الكنيسـة، ولكن بشكل سري، ومع صعـوبة كبيرة، كما سيكون ذلك موصوفاً في ص ٢٣٠ظ، حيث هناك وصف للمكان وللدير.

وينبغي أن نلاحظ أن المسلمين بـذلوا جهـوداً خـاصـة، لإزالة هذه الكنيسة حتى مـن ذاكرة المسيحيين لأن في ذلك برهان على عـدم صحة القـرآن، لأن القرآن قـد قال بأن العـذراء مـريم كانت ابنة مـريم أخت هرون وموسى، وهذا تصور خاطىء تماماً، وهذا مايمكن رؤيته في نص القـرآن،الكتـاب الأول —الفصل الأول، والكتـاب الثـالث — الفصل ١٧ (كذا).

بركة ضأن بيت صيدا حيث شفي الرجل المقعد

وجرى اقتيادنا على طول زقاق ضيق، قريب إلى جانب الكنيسة تلك، وقـرعنا على باب بيت كـان يسكـن فيـه بعض المسلمين الفقـراء، الذين

فتحوا الباب، لكن ماكانوا ليسمحون لنا بالدخول مالم ندفع بعض الفلوس، وبعدما فعلنا ذلك، ودخلنا، صعدنا فوق بعض الدرجات الحجرية إلى داخل ساحة صغيرة، أو صحن مكشوف،كان فيها مضى مغلقاً بجدران، ومازال بعضه كذلك، ومن حول الصحن هناك أبواب مقنطرة فقط،وكان في هذه البقعة، في أيام المسيح بركة الضأن، التي اسمها بالعبرية بيت صيدا، حيث شفي الرب يسوع الرجل المريض، الذي كان مقعداً، حسبما ورد الخبر عند يوحنا:٥، وكانت هذه البركة تحتوي المياه، التي كانت تجري في أيام الأمطار من أسقف الهيكل، وفيها كانت تتم أعمال غسل الأغنام والحيوانات الأخرى، التي كانت تقدم أثناء التضحية في الهيكل، علاوة على ذلك تسبب سليمان في اغراق جذع شجرة في أعماق هذه البركة، وهي الشجرة التي تنبأت له العرافة وأرته أن المسيح سوف يتألم عليها، وقد بقيت ممددة، مخبأة هناك حتى أيام آلام المسيح، فوقتها انبعثت إلى وجه الماء، فأخذت من هناك واستخدمت في صنع صليب المسيح.

ويفترض أنه بسبب الاحترام الذي تستحقه هذه الشجرة، والجديرة به، أن ملاكاً نزل من السماء وحرك الماء، وبعد هياج الماء شفي الرجل الأول الذي دخل إلى البركة، وشفى الرب واحداً، كان قد انتظر تحرك الماء لمدة ثمان وثلاثين سنة، وذلك حسبما جاء الخبر في يوحنا:٥.

ولاتحتوي هذه البركة في هذه الأيام ماء، بل الموجود في وسطها هو نوع من أنواع الخزانات، صنع لحفظ مياه المطر، وبناء عليه تلونا هنا صلواتنا، حسبما هو محدد في كتب المسيرة، وتلقينا غفرانات(+)، وقبلنا الأرض،وصعدنا السلالم ثانية، وعدنا من جديد إلى طريقنا المتقدم، ودخلنا طريقاً آخر، في الجهةالمقابلة له، فوصلنا إلى بركة كبيرة مليئة بالماء، قد كانت موجودة في الأيام الخالية، وكان اسمها في الكتابات المقدسة «البركة الداخلية»، وقد عملت من قبل حزقيا، ملك يهوذا،

وكان قد جلب إليها الماء من المجرى الأعلى لجيحون، وذلك بالاضافة إلى مياه الأمطار، حيث حفر قناة بالحديد خلال الصخر، وذلك حسبما قرأنا في الالهيات: ٤٨/ ١٧، وفي الملوك الثاني: ٢٠/ ٢٠ (أخبار الأيام الثاني: ٣٢/ ٣٠).

وفي الحقيقة عملت البرك منذ قديم الزمان في القدس حتى هذه الأيام، بعناية كبيرة، لحفظ المياه التي تجري إليها من الأسقف في الشتاء وفي أيام سقوط الأمطار، وذلك بهدف سقاية المدينة في أيام الصيف، لأن المدينة المقدسة لاتمتلك مياها خاصة بها، وتشرب فقط من مياه الأمطار، أو من مياه جلبت من بعيد، وأتصور أنه في هذه الأيام، تبذل الجهود أكثر من ذي قبل بشكل مطلق، من أجل تزويد المدينة المقدسة بالماء، لأن المسلمين معتادين على الاغتسال اليومي، وعلى تبليل أنفسهم بالماء، أكثر مما اعتاده اليهود، ولهذا لديهم كثيراً من أماكن الاغتسال، وهم يجلبون الماء إلى القدس ببراعة مدهشة، وهذا ما سأوضحه في الصفحة ٢٤٩و.

فيما يلي:
الحج في وادي شعفاط

وبعـدما رأينا تلك البركـة، تابعنا السير على طريقنا، ووصلنا إلى نهاية المدينة على الجهة الشماليـة، عند الباب الذي كـان يدعى فيما مضى باسم باب افرايم، لأن الطريق إلى جبل إفـرايم يمضي من خلاله، لكنه يعرف الآن باسم باب اسطفـان، لأنه اقتيـد من خلالـه إلى خارجـه، ورجم في الوادي عبره، ومن خـلال هذا البـاب يمــر طريق شكيم، والسـامـرة، ومنطقـة الجليـل، ولذلك خـرجنـا من هذا البـاب ومـا أن أصبحنا في الخارج حتى تركنا الطـريق الشمالي، الذي يتطلع البــاب عبره، وانعطفنا جانباً باتجاه الشرق، نحو جبل الزيتـون، حيث كانت المدينة المقدسة على يميننا ونحن نسير، وعندما وصلنا إلى زاوية السـور، حيث اتصل السور الشمالي بالسور الشرقي، صرفنا وجـوهنا عن الشرق، وتطلعنا على طول السـور بـاتجاه الجنوب، حيث رأينا بابا كبيرا آخــر للمـدنيــة في الجهـة الشرقية، وحيث كان هناك برج مرتفع قد أنزل أرضاً وهدم، واسم هذا الباب هو البـاب الذهبي، ومن خلاله دخل الـرب يسوع المدينة في يوم أحد السعف، وهو على ظهر أتان، وتحتـه التقى واكيم وحنه معا، إطاعة لأمـر متقـدم، لأنهما كـانا قـد أخبرا بهاتف رباني، أنه منهما سـوف تلد العذراء مريم.

عـلاوة على ذلك، هنا وقعت المعجزات الرائعـة التـالية: بعـدما قهـر الامبراطور هرقـل أعـداءه، واسترد الصليب الـذي كـان الفــرس قــد استولـوا عليه، أراد أن يركب على ظهـر الحصان، ويمر من خـلال هذا البـاب في الوضع الامبراطوري، وحــدث أنه مـا أن وصل إلى البـاب، حتى جمعت الأحجـار أنفسهـا مع بعضهـا، وغـدت جـداراً قـوياً، فلم

يستطع الدخـول حتى وضع جانبـا جميع الأبهة الدنيـوية، وعندما صـار أخيراً، حافيا متواضعا، متذللاً سمح له بالدخول مع جيشه كله، حاملاً صليب الرب.

ومن هذا البـاب اقتيـد الرب في مـوكب نصر، وكـان ذلك من جبل (الزيتـون) حتى الهيكل، مع سعف النخيل والأغصان الخضراء، وقـرأنا كذلك في الاصحاح الثـالث عشر، من سفر المكابيين الأول بأن سمعان قـد دخل من خلال هذا البـاب، وفي السفر الثـاني والاصحاح العـاشر، قـــرأنا عن أغصـــان خضراء وعن سعـف، ولم يسمح لنا المسلمـــون بالاقتراب من ذلك الباب، ولم نتمكن بأية طريقـة من الحصول على إذن بالذهاب إليه، لأن في خارجه مقبرة المسلمين، التي لايسمحون لمسيحي بالسير فوقها.

وعلى كل حال جثونا على ركبنا، ونحن نتطلع نحوه عن بعد، وبعدما عبدنا الرب، تلقينا غفرانات مطلقة(+)، وتمنح هذه الغفرانات إلى كل واحد يقف في مـواجه هذا الباب عـن بعد، ويتعبده، بقـدر مايمكنه من مـرات، ومن المعتقد بأن تلك الأسـوار المهدمـة، القائمـة هناك، هي في الحقيقـة خرائب البـاب الذهبي الحقيقي، الذي من خـلاله دخل الرب، وهو جالس على ظهر أتان، لأن تيتـوس عندما هدم القدس، ترك بعض الأبراج قـائمة للدفـاع مع أبراج للمـراقبة، وكـان من بينها برج البـاب الذهبي، وقد ترك قائماً مـع أعماله الخشبية، وهذه الأعمال الخشبية مغطاه في هذه الأيام بـألواح من النحـــاس المذهبـة، ويقطـع المسلمـون قطعـــاً وشظايا من هـذه الألواح وكـذلك بعض المســامير، ويبيعـون ذلك إلى المسيحيين، لأن عـــدداً كبيراً من المسيحيين يبـــذلـون جهـــوداً عظيمـــة للحصول على قطع من البـاب، وغالباً مايغامـرون بحياتهم بالذهاب إلى هناك في الليل وانتزاع قطعة صغيرة منه، ويبذل بعضهم المال عوضاً عن ذلك، ويرشـــون بعض المسلمين لاجتثـاث قطعـة صغيرة مـن البـاب،

ويعطونهم نحاساً أو خشباً في مقابل ذهب أوفضة، والسبب في أن الآثار المقدسة من هذا الباب غالية جداً هو أنهم قالوا (لا أدري إن كان ذلك وهماً عابثة أم لا) بأن كل من يحمل قطعة صغيرة من ذلك الباب معه، سيكون في ذلك حماية له من السكتة الدماغية، أو الوقوع في المرض والوباء، وفي الأيام الخالية عندما كان المسيحيون يمتلكون القدس، كان يحتفل عند هذا الباب بعيد عظيم في يوم أحد السعف، وفي السبت المتقدم، أو ليلة إحياء أحد السعف، كان جميع رجال الدين يذهبون إلى بيت عنيا، ويبقون مستيقظين طوال الليل في كنيسة القديس لعازر، ويذهبون في الفجر المبكر في مسيرة من بيت عنيا إلى بيت فاجي، حيث يضعون واحداً من الأساقفة الكبار، وهو يرتدي الألبسة الكهنوتية، على ظهر أتان، ويذهبون في مسيرة إلى المدينة المقدسة.

ولدى نزولهم من جبل الزيتون، يخرج المتبقي من رجال الدين وأعضاء الطوائف الدينية، مع جميع سكان المدينة، يخرجون في مسيرة لمقابلتهم، وهم يحملون سعف النخيل، ووفق الطراز الذي جرى الحديث عنه في الانجيل، وكانوا يقطعون أغصاناً من أشجار الزيتون، ويوزعونهم في الطرقات، وينشرون ملابسهم الكهنوتية في الطريق وهم يصرخون «المجد» الخ، وعندما كانوا يصلون من الوادي نحو الباب، يكون الباب في العادة مغلقاً، وهناك شباب قد وقفوا على البرج وهم يغنون «المجد» الخ، وبعدما يكملون غناء هذه الترنيمة، كانوا يجلبون الأسقف إلى داخل الهيكل وسط سرور عظيم.

وبعد فقدان المدينة المقدسة، وطرد اللاتين منها، تابع الأرمن الاحتفال بهذا العيد مع أسقفهم لسنوات طوال، وذلك حتى أثار الشيطان (المسلمين) للشروع بدفن موتاهم هنا، حيث أغلقوا الباب بعد ذلك، ولهذا يسرعون في هذه الأيام خلال أحد السعف وفق الطريقة التالية: ففي اليوم نفسه، وبعد القداسات الربانية، وبعد تناول

الطعام، يذهب رهبان جبل صهيون إلى بيت عنيا، ويسيرون من هناك وهم يغنون إلى بيت فاجي، حيث يضعون واحداً من الرهبان، وهو في ملابسه الكهنوتية فوق ظهر أتان، ويرافقونه نحو المدينة، وهم يغنون أغاني المديح، وعندما ينزلون من جبل الزيتون، يسعى المسيحيون الشرقيون إلى مقابلتهم مع سعف النخيل، ومع نشر للملابس في الطريق، ويقودونه حتى بركة قدرون، حيث منتهى المسيرة، فهم لايتجرأون على الصعود نحو المدينة وهم يغنون أناشيد المديح وفق هذه الطريقة، خشية من أن يقوم المسلمون بتفريق مسيرتهم برميهم بالحجارة، ومن العجيب أنهم يسمحون لهم بهذا القدر، لأنه قبل مضي مائة أو خمسين سنة، لم يكونوا يسمحون بهذه المسيرة، وقبل عشرين سنة لم يكن المسيحيون يمتلكون من الحرية كما يمتلكون الآن، جعلها الرب أعظم، في سبيل مدحه، كي لاتغلق هذه الأفواه التي تغنى حوله في هذه الأماكن العالية القداسة.

المكان الذي حفظ فيه شاؤول ملابس الذين رجموا القديس اسطفان

ومررنا مسرعين بالقرب من الباب الذهبي، ووصلنا نازلين عبر طريق وعر وحجري إلى مكان تقوم فيه حجرة، رأسها مسطح، وعلى هذه الحجرة وضع السفاحون ثيابهم، وهم الذين كانوا قد استعدوا لرجم الرائد الشهيد المقدس اسطفان، وبذلك عبروا عن استعدادهم لرمي الحجارة وقتل القديس برميات أشد، وكان شاؤول شاباً، وقد شهد هذه الواقعة، ولأنه كان ممتلئاً بالحماسة الشديدة لليهودية، وقف يحرس الملابس، من أجل أن يتمكنوا من رمي الحجارة بدون معيقات، وبذلك كان أكثر فائدة لهم من أي انسان آخر، وعلى هذا جلس شاؤول فوق الملابس على هذه الحجرة، وهو يتحرق كراهية ضد اسطفان، وكان يجدف ضد المسيح، ولهذا قبلنا هذا المكان، وتلقينا

غفرانات(+).

المكان الذي رجم فيه القديس اسطفان

ونزلنا من هناك قليلاً، نحو بركة قدرون، ووصلنا إلى المكان الذي رجم فيه اسطفان، وهو المكان الذي صلى فيه، وهو راكع من أجل راجميه، وتلقى حجارتهم بسرور، ولهذا قالت الترنيمة عنه: Lapides torrentis illi dulces Fuerunt، وقد أخبرنا القديس أوغسطين كم كانت غالية صلاة القديس اسطفان، وقال:«لو أن اسطفان لم يقم بصلاته، لفقدت الكنيسة بولص»، ولهذا قبلنا في هذا المكان الحجارة نفسها، وتلقينا غفرانات(+)، وفي الحقيقة المكان مليء بكثير من الحصا النقي من البركة، وهنا قام فيما مضى كنيسة مبجلة، لايمكن تتبع آثارها في هذه الأيام إلاّ بصعوبة بالغة، مع أنه على جهة اليسار ماتزال بعض الجدران قائمة، وهذا المكان فائق القداسة، لأنه في هذا المكان كان اسطفان الشهيد الأول في التسديد لموت المخلص، وهو الموت الذي تفضل المخلص أن يعانيه في سبيل جميع الناس.

وادي شعفاط وجدول قدرون

وتابعنا سيرنا من هناك، فنزلنا إلى وادي شعفاط، وذلك حتى جدول قدرون، ولهذا الوادي اسم آخر هو Cela ، وذلك تبعاً لجيروم، وكان أيضاً اسم قدرون هو كريناروس Chrinarus ، وهو يعرف الآن باسم وادي شعفاط، لأن الملك شعفاط أمر بنحت ضريح ملوكي هناك لنفسه، أنا مقبل على وصفه في ص٦٤٠، ويعرف قعر هذا الوادي باسم جدول قدرون، وهو جدول يجف في فصل الصيف ويختفي، لكنه يسيل في الشتاء بالماء من الثلج الذائب، ويحكى أنه في الأيام الخالية زرعت أشجار الأرز Cedars على طول ضفتي هذا الجدول، وبسبب هذه الأشجار أطلق عليه اسم Cedron أو جدول الأرز،

ويأتي هذا الوادي وهذا الجدول من جهة الشمال، ويمتد سائراً نحو الجنوب، وهما يفصلان جبل المدينة، والهيكل وتلال صهيون، وجيحون، عن جبل الزيتون وجبل العدوان، وهما يستمران بوادي سلوان، ووادي حرمون، اللذان ينعطفان نحو الشرق، ويمتدان حتى سدوم، وبناء عليه كلما احتوى جدول قدرون أية مياه، يقوم بارسالها نزولاً إلى البحر الميت، بواسطة مجرى متعرج طويل، وذلك خلال واد وعر ومتشعب، وذكر بعضهم أن جدول قدرون كانت مياهه في الماضي تتدفق باستمرار، وأنه يمتلك في هذه الأيام قناة تحت الأرض، لأن بطن الوادي فيه صدوع وشقوق بسبب تهديم المدينة المقدسة مراراً، ويقولون إنه تحت هذه الخرائب يستمر الجدول بالجريان، ولا أعتقد أن هذا صحيحاً، لأنني سرت على طول هذا الوادي، كأن تقول نزولاً حتى سدوم، وذلك بعيداً عن القدس، من خلال قعر عميق جداً، وجرفي، حيث ليست هنالك خرائب مرمية مطلقاً، ومع ذلك لم أستطع رؤية نقطة ماء واحدة من ذلك الماء المتدفق بشكل مستمر، بل رأيت مجرد قعر جرفي جاف، تسيل فيه المياه بشكل متواصل في موسمها، ومامن أحد يمكنه أن يشك لو أن هذه القناة كانت فيها مياه جارية باستمرار، في العصور الخالية، من نبعها، لما سكتت الكتابات المقدسة حولها، ولو أنه كان هناك جريان دائم تحت الأرض، لقام أهالي القدس بطلب عون جميع المشارقة، ولحفروا عميقاً حتى ضفتيه، مقدرين كيف أن الماء ثمين جداً في القدس، والناس دوما في حاجة إليه، وفي الماضي البعيد كان لابد من اختراع أسلوب ما، بوساطته يمكن حمل هذه المياه مباشرة إلى المدينة، مثلما حدث بالنسبة لمياه سلوان، التي قال عنها نيقولادي ليرا بأنها تدفقت مرة في المدينة فوقهم، الأمر الذي بدا بالنسبة لي غريباً جداً، لأن ذلك النبع واقع عميقاً عند سفح جبل صهيون.

وهذه الوديان المتقدمة الذكر، وهذا المجرى الجرفي، وكذلك نبع

سلوان، والجبال الذين جرى الحديث قليلاً حولهم فيها مضى، سوف يأتي ذكرهم فيمايلي، ولقد رأيت من المناسب عمل هذه التوطئة المختصرة هنا، من أجل فهم أفضل لما سيأتي، والآن عندما وصلنا إلى قعر الوادي، عبرنا فوق الجدول بوساطة جسر حجري، قد بني فوق قناطر، ووصلنا إلى سفح جبل الزيتون، وعندما صعدنا عليه، وابتعدنا قليلاً عن الجدول، وصلنا إلى بئر التنين، الذي عنه نقرأ في الاصحاح الثاني من نحميا، وتحدثت في هذه المكان لموالي الفرسان حول غيرة نحميا وحماسه، وكيف جاء إلى القدس من بلاد بعيدة كان مأسوراً بها، وركب حول المدينة في الليل ليرى خرائبها، ووقف إلى جانب ذلك البئر،مقدراً كيف يمكنه إعادة بناء أسوار القدس بعد رحيل الملك ارترا اكسرس، Artaxerxes ، أي الأسوار التي هدمت، وكذلك الأبراج، والأبواب التي سويت بالأرض، وأيضاً البيوت المشعثة، والهيكل المحروق.

وعمله هذا فيه ملامة لأمرائنا، الذين لايولون أمر استرداد المدينة المقدسة مايستحقه من اهتمام، وكأننا لسنا بحاجة إليها، وأنا لاأتذكر أنني قرأت في أي مكان، لماذا أطلق على هذا البئر اسم بئر التنين، وأفترض أن سبب ذلك بأنه كان فيه فيما مضى مياه جرت إليه من أحد الينابيع، وأن المياه قد جلبت إلى هذا الصهريج من خلال تنينات أو أنابيب ملتوية تشبه الثعبان، فمن مثل هذا منطقة التنينات (الطرخونية) قد نالت تسميتها، لأنه لم يكن فيها ماء، إلا ماجلب من خلال التنينات، أي من خلال الممرات الملتوية مثل الأفاعي، والموجودة تحت الأرض.

كنيسة مريم العذراء الأعظم قداسة في وادي شعفاط

ثم إننا تابعنا سيرنا من هناك، غير أننا استدرنا نازلين نحو جهة اليسار، إلى كنيسة العذراء الأعظم قداسة، التي هي منجورة من خلال صخور حجرية، وذلك عميقاً في بطن الأرض، ويقول بعضهم أنه

عندمـا شرع ببنائهـا، لم تكـن تحت الأرض، بل فـوقهـا، وأنها تغطت فيمابعد بالأتربة التي جلبتها مياه الأمطار من جبل الزيتون، وكذلك من امتـلاء الوادي، وفـوق المدخل هناك بناء عمل على شكل بيعـة، وأمـام الباب هناك ساحة مبلطة بألواح مربعة من الرخام.

ونزلنا إلى هذا الكهف، وبادرنا مسرعين نحو مدخل الكنيسة، ولكن عندما وصلنا إلى الكنيسـة وجدنا البـاب مغلقاً، وليس هناك من يحرس الكنيسة، وأخبرنا —على كل حال— أحـد المسلمين، وكان جالساً هناك عند الباب، بأن الحارس سـوف يحضر بالحال، وفي الحقيقة كـان حارس باب هذه الكنيسـة مسلماً، كان قـد ورث هذا العمل من أبيـه، الذي أنا ذاهب للحديث عنـه، فقد كان هذا المسلم، وأعني بـذلك والد حارس البـاب الآن، قـد تلقى من السلطان هديـة هذه الكنيسـة، وذلك مقـابل خـدمـة كان قـد عملهـا، وجـاءت هذه الهدية له، حتى يتمكن من جمع بعض المال من الحجـاج الذين يزورونها، وعلى هذاعندمـا صـار متملكاً للكنيســة، ورأى أن المسيحيين متحمسين بشكـل فـائق لـزيارتها، رفع مقدار المبلغ الذي اعتاد الداخلون إليهـا على دفعه، فجعله ليس أقل من ثلاث دوقيـات، ونتيجة لهذا العبء الثقيل تخلى الحجـاج عن زيارة هذه الكنيسة، ولم يعـد أحد يدخلها بعـد ذلك، وأصبح المكان تقريبـاً منسياً، لكن العذراء المبـاركة، ظهرت في المنام في احـدى الليالي إلى ذلك المسلم الجشع، ووجهت اللوم إليه بكل شدة قائلة:«يا عدو الرب، خسرت كل من العقل والجسـد، وخـرقت الشريعــة وعطلتهـا، بأن أزلت التشريف المستحق لي، كيف تجرأت أنـت وأقـدمت على اغــلاق أبوابي في وجــه عبيــدي الحجــاج؟ انهض على الفـور، وافتـح أبواب ضريحي إلى جميع الحجاج من دون مـال، ومن دون سعر، وإلا فإن جسـدك سوف يمتلىء تماماً بالحشرات، ولسـوف يصبح بيتك مشعثا مهجوراً»، ومـا أن فرغت من مقالتهـا هذه حتى اختفت، وقام المسلم، وهو مرعـوب تماماً، وأخبر

أسرته وهو يرتجف بكل ما سمعه من كلمات، وحرم عليهم منذ ذلك الحين منع أي مسيحي من الدخول إلى الكنيسة، وطلب منهم فتحها للجميع من دون أخذ أي رسم دخول، ورسم باستمرار ذلك بين ذريته من بعده، ولذلك مازال هذا معمولاً حتى هذه الأيام.

وفيما نحن وقوف أمام باب الكنيسة، قدم إلينا رجل مسلم، متقدم بالسن، وكان هو ابن الرجل المتقدم الذكر، الذي إليه ظهرت العذراء المباركة، وفتح لنا الباب، وسمح لنا بالدخول قائلاً بلغته لكل واحد «اذهب واعبد الرب، وامدح العذراء مريم»، وبعدما دخلنا من الباب، نزلنا على درج رخامي مؤلف من اثنتين وخمسين درجة، ووصلنا إلى كهف عميق، وعندما كنا نازلين شرع قائد الجوقة بصوت مرتفع يغني ترنيمة «O gloriosa domina» الخ.

وتبعناه ونحن نغني بسرور عظيم، ووصلنا إلى ضريح العذراء المباركة كثيراً في وسط الكنيسة ودخلنا إليه واحداً تلو الآخر، وقبلنا القبر المقدس بخشوع عظيم، ومع تقديم الشكر تلقينا غفرانات مطلقة(++).

وبعد ترنيمة «O gloriosa domina» الخ، غنينا «Salve regina» وترانيم أخرى، وكنا مسرورين جداً في هذا المكان المقدس، وغنينا بنشوة، وأنا لم أسمع قط غناء بمثل هذه العذوبة مع الموسيقي والصدى، وكذلك في كهف اكتشاف الصليب، الذي تقدم لي ذكره، ولقد حضرت مراراً إلى هذه الكنيسة وكنت فيها لوحدي لمدة ساعة أو ساعتين، حيث صليت وغنيت كما رغبت، ذلك أن صوت رجل واحد يغني هناك، لايمكن سماعه في الأعلى، ولقد لاحظت مراراً، والذي لاحظته حدث مراراً في تلك الكنيسة، أن الحجاج يكونون فيها أكثر نشوة وبهجة، منهم في الأماكن المقدسة الأخرى، وحقاً يفعلون ذلك، لأنه من هذا المكان صعدت العذراء المجيدة إلى السماء، حيث هي

ممجدة بلاحدود، وتحكم مع المسيح عالماً بدون نهاية، وعن هذه البقعة قال جيروم: «من على هذا المكان انتشلت ملكة العالم وأبعدت عن هذا العالم الشرير، ولذلك ابتهج، لأنك متأكد من مجدها الذي لايزول، ذلك أنها ذهبت من هنا إلى قصر الجنة، ونقلت مجدها من هذا العالم الحالي من أجل أن تتمكن باطمئنان من التوسط من أجل ذنوبنا، ومامن شك أنه في لحظة صعود العذراء المباركة جداً، ابتهجت القدس السماوية كلها وشعرت بسعادة لاحدود لها، وقدمت آيات الشكر وهي في غاية السرور، وأعتقد بأن المخلص نفسه قد جاء إلى هنا مسرعاً ومعه جميع جنود مملكة السماء، وأعادها إلى الحياة، بإعادة توحيد جسدها مع روحها، وبسرور أجلسها إلى جانبه على عرشه».

هذا وينبغي أن لانعتقد بأن مريم العذراء المباركة جداً قد اختارت بالصدفة موضع ضريحها في وادي شعفاط، بل عن قصد، حتى يتمكن المذنب الذي يخاف، من الوقوف في هذا الوادي في يوم الحساب المخيف، الذي سوف يأتي، فالآن يمكنه أن يتخذ سلفاً مكاناً في هذا الوادي، ويصلي إلى الأم، ويظهر طاعته لها، وبذلك يتوقف عن الخوف من استدعائه ثانية إلى هذا الوادي، مادام قد حصل على رضى أم الذي سيتولى الحساب، وخلفت العذراء المباركة من أجل مواساتنا منديلها وثوبها، اللذان جرى نقلهما إلى القسطنطينية بناء على أوامر من الامبراطورة هيلانة، والذي تولى عملية النقل هو جوفيناليس Juven-alis، بطريرك القسطنطينية.

وصف كنيسة العذراء المباركة وضريحها في وادي شعفاط

ويطلق على كنيسة العذراء المباركة في وادي شعفاط اسم كنيسة صعود مريم، وكان إلى جانبها فيما مضى دير للرهبان من طائفة القديس بنت، مع راعي دير متوج، وفي هذه الأيام من غير الممكن رؤية حتى خرائب هذا الدير، حيث هناك بساتين زيتون وأشجار تين حول

الكنيســة، والكنيسة نفسهــا —كما قلت— موجـودة تحت الأرض الآن، مع أنها في الأيام الخاليــة لم تكن كــذلك، كما هو واضح عندمــا يلقي الانســان نظرة على الجدران، حيث ماتزال النـوافذ باقيـة، لكن من دون ضــوء، لأن فيضـــان مياه الأمطار الذي جلب التراب من الجبــال قـد غطاها، وهي لذلك لاتتلقى ضـوءاً إلاّ من الطرف الشرقي، حيث هناك فتحة معمولة نحو السماء، ومن خـلال هذه الفتحة يدخل الضوء إليها، ويضيء زاوية واحــدة من الكنيســة، وهذه الفتحـة محاطة في قسمهــا العلوي بجدار مستدير، وكأنها بركة.

وبنيت هذه الكنيسة وفقـا لجيروم، في قداسـه حول صعـود العذراء، بشكل رائع، من ألواح الرخـام، لكـن من الجانب الواقع إلى الشمال من الضريح، هذا الجانب غير مغلف بالرخـام، بل من الممكن أن يرى هناك الصخر الأجرد الذي نجر الضريح منه، وهذه الكنيسة عالية، ومقنطرة، وتحتوي على كثير من المذابح، ويقف ضريح العـذراء في وسط الكنيسة، وهو غــرفـة صغيرة، مثل ضريح الـرب، مـزين بشكل فخـم، ومضـاء بمصابيح شـاعلة، عددها أكثر حتـى من مصابيح الرب نفسه، وللغـرفة مـدخلين، أولهما مفتوح من الغـرب مـواجـه للقبر المقدس، القـائم على الجانب الأيسر منه، ذلك أن الرأس متجه نحـو الجنوب، والقدمين نحو الشمال، وهناك باب آخـر على جهة الشمال،ويـدخل الانسان من خـلال البـاب الأول، ويخرج من خـلال البــاب الآخـر، وتتلى القـداسـات في الضريح نفسه، مثل تلاوتها في ضريح الرب، وعملت أنا شخصيـا عدداً كبيراً من القداسات هناك، ويمكن لجميع المسيحيين من أي الفرق كانوا أن يفعلوا ذلك، ذلك أنه مسموح لهم إقامة قداسات هناك، فهذا المكان ليس ملكاً لأيـة طائفــة، ذلك أن المذابح الأخــرى المنتشرة في أرجــاء الكنيسة هي ملك لمختلف الطوائـف، حيث أن المذبح الذي هو الأقرب إلى القبر هو ملك للأرمـن، والثـاني الموجـود تحت القــوس المظلم، هو

ملك للجورجيين، والثالث الذي هو تحت النافذة في النهاية الشرقية للسدة، هو ملك للاغريق، والرابع الموجود في الزاوية عند الجهة الشمالية هو ملك للاتين، والخامس الموجود قرب الدرجة الأولى من السلم هو ملك للهنود.

وهناك قبر باهظ التكاليف معمول من رخام أبيض مصقول، مدفون فيه الملكة المحترمة ميليساند، التي بنت هذه الكنيسة، ويوجد على كل جانب من جانبي السلم قبر مزين، ويقول بعضهم أنه مدفون في الأول حنه، أم العذراء المباركة، ومدفون في الآخر واكيم والدها، ويوجد في الكنيسة نفسها صهريج عميق يحتوي على ماء بارد نقي، والذين يقولون بأن جدول قدرون له مجري تحت الأرض، يقولون أيضاً بأن هذا الماء يأتي من هذا الجدول الموجود تحت الأرض، وعندما يكون الانسان وحيداً في تلك الكنيسة ويصغي بأذنه فوق فم ذلك الصهريج، يخيل إليه سماع صوت خرير ماء تحت الأرض، ويقول آخرون بأن هذا النبع يحتوي على ماء يجري من الجنة، تشريفاً للعذراء المباركة، ومن أجل راحتنا، وفي جميع الأحوال، من غير الممكن أن تكون المياه مياه أمطار، لأن الصهريج عميق جداً في باطن الأرض، ويكفي ماقيل هنا حول هذا الموضوع، وإذا مارغبت بالمزيد، انظر رواية أوفى حول هذه المسائل تحت عنوان يوم صعود العذراء.

المكان الذي تسلم فيه القديس توما الرسول زنار العذراء المباركة

وعندما فرغنا من تقديم صلاة شكرنا في تلك الكنيسة المقدسة، صعدنا فوق الدرجات ثانية، وأعطينا بمبادرة منا بعض الفلوس للمسلم المتولي حراسة باب الكنيسة لتشجيعه، حتى يترك الحجاج المسيحيين يدخلون إليها، وبعدما غادرنا ساحة الكنيسة، صرفنا وجوهنا

نحو جبل الزيتون، وصعدنا إلى جانبه، وبعدما صعدنا قليلاً، وصلنا إلى المكان الذي يقال وقف فيه القديس توما ساعة صعود العذراء المباركة فلدى سماعه لتراتيل الحشد السماوي، نظر نحو الأعلى، فشاهد أم الرب صاعدة نحو السماء، وكان ذلك بجسدها وروحها، وقد طوحت بزنارها له حتى تقوي إيمانه، وقد تلقاه ببهجة صامتة، وأراه لرفاقه الرسل، وبذلك أقنعهم بحقيقة صعودها في الجسد والروح أيضاً.

فهو بلمسه لجراح المسيح في المجد ثبت إيماننا بقيامته، وبعمله هذا أيضاً ثبت خشوعنا نحو صعود مريم، وبناء عليه قرأنا في هذا المكان الصلوات المعينة، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات(+).

مكان صلاة المسيح وتألمه على جبل الزيتون وكيف صلى الحجاج هناك

وتابعنا سيرنا من هناك قليلاً، بين جدران حجرية جافة عائدة للبساتين على جانب الجبل المقدس، ووصلنا إلى فم كهف في الصخور، ودخلنا إليه فوجدنا قبواً جميلاً وواسعاً، لم يصنع فنياً، أو نجر من الصخر بأيدي البشر، بل تشكل وأعدّ من قبل الخالق منذ البداية، لكي يكون مكاناً للاجتماع للصلاة، والتأمل، والتفكر، وموائماً لانسان واحد يرغب بالعزلة، وغالباً ماترك الرب يسوع المدينة في الليل ودخل إلى هذا الكهف حيث أمضى الليل في احياء مقدس مع الصلوات.

وإلى هذا الكهف قدم نيقوديموس في الليل لزيارة الرب يسوع، وعقد معه جولة حوار حول أعمق المسائل اللاهوتية، حفظها لنا يوحنا الانجيلي في الاصحاح الثالث من انجيله، وهذا المكان عرفه يهوذا، لأن الرب غالباً ما جاء إلى هنا مع حوارييه، وذلك حسبما جاء في الاصحاح الثامن عشرمن انجيل يوحنا، وهكذا جاء يسوع في الليلة التي تلت ليلة العشاء الأخير، من المدينة عبر جدول قدرون، حيث كانت هنالك

حديقة، وفيها كهف، إليه دخل، وجثا على ركبتيه، وانحنى نحو الأسفل وهو يصلي، وقد تمدد وسجد بنفسه، وأخذ يقول بصوت متهدج:«يا أبا الآب كل شيء مستطاع لك، فأجز عني هذه الكأس، ولكن ليكن لاما أريد أنا بل ما تريد أنت»، وبعدما قدم هذه الصلاة ثلاث مرات، وكان متألما، صلى بحرارة أعظم، وتعرق دماً من خلال حزنه، وأساه، ورعبه، وظهر له هناك ملاك من السماء وقواه.

سادتي وإخواني الحجاج، ماالذي سوف نفعله هنا؟ كيف سنري أنفسنا لمخلصنا في هذا المكان المقدس والمخيف؟ وبأية مبادرات، وبأية حركات، وبأية أوضاع سوف نصلي؟ مؤكد ليس بغير ما أظهره مقدس هذا المكان نحووالده السماوي، ومن الواضح لكل واحد يقرأ الأناجيل بعناية، أن المسيح اتخذ بصلواته الثلاث، ثلاثة أوضاع مختلفة: أولاً ارتمى على وجهه ومدد جسده كله، كما روى متى، وفي الثانية ارتمى على الأرض، واستند على مرفقيه، كما ذكر مرقص، وصلى في المرة الثالثة لمدة أطول، واعتمد على ركبتيه كما قال لوقا، وفي المرة الرابعة، نهض واقفاً على قدميه، وردد أجمل الصلوات، وعندما رفع عينيه نحو السماء قال:«أيها الأب قد أتت الساعة مجد ابنك» —يوحنا:١٧، هذا ويقول بعضهم بأنه فعل ذلك في الحديقة عند الانتهاء من صلواته بحضور جميع حوارييه.

وبناء عليه اتخذ الحجاج هذه الأوضاع، وصلوا لوهلة طويلة في هذا المكان الفائق القداسة، وبكوا بحرية أكثر مماكانت عادتهم، لأن هذا المكان موائم بشكل رائع لإثارة دموع الذين يصلون، لأنه بدا أن هناك هبوب روائح غريبة في حلاوتها، التي عندما تستنشق تلين كيان الانسان مهما كان، وتجعل قلبه لطيفاً، ولاحاجة للتعجب من هذا، لأننا نعرف يقينا أن هناك ذرفت أطيب العطور حلاوة من خلال عرق جسده الثمين جداً، الذي بوساطته ينبعث الأموات ويعودون إلى الحياة، ذلك

أن ألبيرتوس قد أخبرنا بأن الدم الذي سـال من خلال ثيابه، سقط على الأرض، من أجل أن يجري نحـو رمـاد الأمـوات ويلقي عليهم القـدرة على القيامة.

وبعدما قرأنا الصلوات المحـددة، وقبلنا المكان الذي جثا عليه يسوع، نظرنا باحترام إلى صخرة ناتئة في الكهف، من المعتقد أن الملاك قد وقف عليها، وهو الملاك الذي قوى الرب، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

وهذا الكهف شكله مستـدير في الداخل، وحجمه كبير، ويوجـد على جهتـه اليسرى كهـوف أخـرى عمقهـا لابأس به، فيهـا غـالبـاً مـانام الحواريون، أثناء قيام المسيح بالصلاة، لكن ليس في الليلة الأخيرة فقط، فقد كـانوا في الكهف معه، لكنه ابتعـد عنهم مسافة رميـة حجر تقـريباً، ويوجد عند رأس الكهف نتـوءات خارجة من الجدار من صخـر شديد القسـاوة، عليهـم وقف الملاك الذي ظهـر للمسيح، ويوجـد تحت هذه الصخرة مذبح، عليـه يقرأ القداس أحياناً، وكـانت جدران هذا الكهف في الأيام الخالية مطليـة، فهذا مايمكن اكتشافـه في هذه الأيام من خلال الفحص الـدقيق، وكـان فيما مضى من الممكـن هناك رؤية آثـار ركب الرب يســوع على الأرض، حيث أنها انطبعت بشكل اعجــازي على الصخــر الأصم، لكن هـذه الآثار لم تعـد الآن مـرئيــة بسبب أعمال التخـريـب التي تسبب بها الحجـاج، الذيـن كـانوا اقتطعــوا شظايا من الأمـاكن المقدسـة، ومندفع من الأرض صخـرة واقفة مسـاحتهـا قامـة ونصف القـامة، وهذا الكهـف مضاء بما فيـه الكفـاية من خلال البـاب الذي يدخل منه الانسان، ومن شق واسع مـوجود على الجانب الأيسر، وذلك في الصخرة التي تغطيه.

المكان الذي بدأ به الرب يصبح حزيناً ومهموماً، وقال:«نفسي حزينة جداً» وحيث وقع الحواريون الثلاثة نياماً

واقتيد الحجاج إلى مواضع آلام المسيح، وفق نظام يمكنهم فيه لقاء ربهم، والذهاب للقائه وهو قادم نحوهم، ولو أن الأدلاء اقتادونا على طول ممرات المسيح وفق النظام نفسه الذي اقتيد به الرب فوقهم، لكان من السهل وصفهم، وتقديم وصف مفيد لهذه الأماكن المقدسة، لكن المسيرة مشت باتجاه معاكس، من الصعب وصفه، ودعونا على هذا نسير نحو الأمام للقاء المخلص.

وخرجنا من الكهف المتقدم الذكر، وابتعدنا عنه حوالي رمية حجر، على طول طرف جبل الزيتون، لأن مقدار هذه المسافة ابتعد المسيح وانفصل عن تلاميذه، عندما ذهب إلى المكان المتقدم الذكر، حسبما ورد الخبر في انجيل لوقا:٢٢، ففي هذا المكان وقف الرب يسوع مع تلاميذه الثلاثة، وبدأ يصبح حزيناً، وخائفاً، ومهموماً، ولجوجاً، وقال:«نفسي حزينة جداً حتى الموت، امكثوا هنا واسهروا معي، بينما اذهب وأصلي»، ثم سار قليلاً ودخل إلى الكهف، لكن التلاميذ الثلاثة ناموا وقتها.

وانحنيا في المكان بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا مواضع الخطوات الأعظم قداسة للرب يسوع، وصدوراً عن الخشوع، جلسنا أيضاً في المكان الذي نام فيه التلاميذ، لأنه يوجد في ذلك المكان بعض الصخور المرتفعة قليلاً فوق الأرض، حيث يمكن لانسان جالس على الأرض أن يسند ظهره وذراعه عليهم ويريح نفسه، وبناء عليه تلونا هنا الصلوات المعينة، وتلقينا غفرانات مطلقة (++)، وتعلمنا من الأمثلة كلها، لأنه بالحقيقة تفيد الصلوات قليلاً فقط وللغفرانات قيمة قليلة، لابل أكثر من هذا تعب الحجاج كله بلا فائدة، إذا لم يتأمل الانسان في هذه الأماكن العظيمة القداسة ويتفكر بهذه الأمثلة التي واجهها، ولم يدخلها إلى قلبه حتى يقوّم حياته ويصلحها.

ويعلمنا حزن المسيح العظيم هذا أن نتخلى عن مسار هذه الدنيا، لأن سرور العالم في كلمات غريغوري (الكبير) هي شروره غير المعاقبة، وكل

الذين يبتهجـون مع الدنيـا في الشرور غير المعـاقبـة يبرهنون على أنهم أنفسهم شركـاء في ذلك، ونوم التـلاميـذ هو برهان على ضعفنا، وعلى التعـاسـة في طبيعتنا، وقـد قطعنا على أنفسنا عهـوداً كثيرة، لكن صرنا متراخين عندما حلّ الوقت بالنسبة لنا لتنفيذهم.

المكان الذي ذهب الرب إليه للقاء الذين جاءوا لاعتقاله، واعتقاله

وتابعنا سيرنا، ووصلنا إلى البستـان الذي إليـه جـاء الرب يسـوع إلى مقابلة الذين أرادوا اعتقاله، فسجد ثلاث مرات، وسلم أخيراً نفسه عن طواعيـة، ووضعهـا بين أيديهم، وترك يهوذا يقبلـه، وهذا المكان محاط بجدار من الحجـارة الجافة، وله قـداسة خـاصة، وهو قـائم على منحدر الجبل، لكن ليس منحـدراً كثيراً، حيث هنالك حقـل واسع يدعى باسم «بستـــان الـورود»، ويزار هـذا المكـان من قبـل المسيحيين الشرقيين والغربيين سـواء مع خشوع عظيم، لكن المسلمين يقومـون، صدوراً عن غيرتهم لنا بتلويث المكـان، بالروث، ويلوثون الصخـور بالنجـاسـات، وهي الصخور التي اعتاد الحجاج على تقبيلها.

والذي حـدث في هذا اليـوم، هو أننـا عندمـا وصلنا إلى هذا المكان، وجـدنـاه قـد لوث حـديثـاً، بشكل مخجل، ولم نكن هنا غـاضبين من المسلمين بقدر مـاكنا غاضبين من أنفسنـا، عارفين من جهة أخـرى، أنه نتيجـة لذنوبنا سمح الرب بفعل هذا، وأنه حـرك بشـدة المسلمين لفعل هذه الأشيـاء، من أجل تلويث الأمـاكن المقـدسـة أمام أعين الفـرسـان الحجاج والنبلاء، الذين بهذا يمكن أن يقوموا ويتحركوا لتحرير الأرض المقـدسـة، ولينتقمـوا للشرور التي سببت مثل هذه الاهانات العظيمـة، ولاشعـال غيرتهم نحـو الأمـاكن التي صنع فيهـا خـلاصنا، وأن يكون الرب قـد أثار بقوة المسلمين للعمل هكذا، مبرهن عليـه بأن هذا المكان

بعيد عن موضع تردد الناس، وأن هذه القـاذورات المجمعة لابد أنها قد نقلت بأوعيـة من المدينة، أو من الأجـزاء المنخفضـة من جبل الزيتـون، حيث يوجد هناك بيـوت، والأماكن التي نتعبدهـا ملوثة بكل دقة، وهو عمل وحشي لايمكن لانسـان القيام به مـالم يكن متأثراً بشيء أعظم من الارادة الانسانية المجردة، وكان هذا مفيداً، وجاء موضحاً أنه حتى بهذا العمل القـذر، أنهم قـد أدركـوا مـدى اهتمامنا بهذه الأمـاكن، وأننا مسيحيين متشـددين، ولاسيما عندمـا يرون أنهم على الرغم من تلويثهم نحن نحترم هذه الأمـاكن المقدسة ونقبلهـا، وكأنها غير ملوثة، ولاشك أن هذا مربك لهم.

وبناء عليه قصدنا هذا المكان، ومسحنا القذارات بأرديتنا، وحيث أننا أثرنا بالشعـور بالشفقـة، فقـدبتنـا نشعـر بخشـوع أعظم وبمـزيد من الاحترام، فقـد ركعنا وسط هـذه القـذارات وتعبـدنـا تلك الأمـاكن المقـدسة، وتلقينا غفـرانات(+)، وزيادة على هذا فإن الذي رأى الحشـد متمـدداً في الوحل، لابد من أن يرمـي نفسـه مبـاشرة في الوحل، دون اهتمام بتلوث ذاته، فالمهم لديه كان انقاذ المقدسات من المهانات.

المكان الذي قطع فيه بطرس أذن مَلْخُس الشرير

وتابعنا من هناك سيرنـا قليـلاً، نزولاً على طول سـور تلك الحديقـة، فهناك توجـد صخرة، هي عـلامـة على المكان الذي وقف فيه القـديس بطرس، عندما رأى خادمـاً اسمه ملخس، لطم الرب على وجهه بعنف، فاشتعل غضباً، ووجه ضربة بسيفه نحو ملخس الذي كان مقبلاً نحوه، عـازمـا على شطر رأسـه إلى نصفين، لكنـه تجنب الضربة، فقطع بطرس أذنه، وقـام الرب على الفـور بتـوجيـه اللوم له، وحظر عليـه القتـال بالسيف، واقتيـد الرجل الجريح إليـه، فشفاه بحضـورهم جميعـاً. وقبلنا هذا المكان، وتلقينا غفرانات(+).

مزرعة جيسماني التي إليها جاء يسوع

ونزلنا الآن من الرابية على مقربة من الجدول، وقدمنا إلى مكان اسمه جيسماني، فهناك كان ثمانية من الحواريين قد بقيوا نائمين، في حين ذهاب الرب مع ثلاثة إلى المكان الذي صلى فيه، وتلونا هنا الصلوات المعينة، وتلقينا غفرانات(+).

وكان في هذا المكان، في أيام المسيح مزرعة، ومسكن ملك للاويين، حيث جرى حفظ المواشي المقرر التضحية بها في الهيكل، وبعد انتصار المسيح، بنى المسيحيون هنا كنيسة كبيرة مع دير لعدد كبير من الرهبان، وجرى اجتثاث جميع هذه الأبنية وتسويتها بالأرض، لكن هناك بعض الآثار من الجدران من الممكن رؤيتها.

الصخرة المشاهد عليها علامات رعب الرب يسوع

وتقوم هذه الأماكن الأربعة المتقدمة الذكر داخل إطار صغير، واحدها قريب من الآخر، وهي في قطعة الأرض نفسها، وفي قطعة الأرض هذه كانوا قد أخذونا أيضاً إلى صخرة كبيرة، قائمة فوق الأرض، وتشكل بوضعها الحالي، جداراً عريضاً، لكن ليس عالياً جداً، وليس قائماً تماماً بل مائلاً، وعند أسفل هذا الجدار الصخري قطعة من الأرض المنبسطة، كان الرب يسوع واقفاً عليها، عندما أقبل اليهود لاعتقاله واتخاذه سجينا، ولم يتمكن الرعاع من الاحاطة به تماما، لأن الصخرة وقفت على الجانب الشرقي منه، وعندما كانوا على وشك الانقضاض عليه، صار خائفاً، فاستدار بنفسه نحو الجدار الصخري، وهو راغب بالنجاة من هجومهم الشديد، وقد مدّ ذراعيه، وسقط فوق الجدار الصخري ليس رغبة منه بالفرار، بل الانزياح فقط من أمام عنفهم الوحشي، وهكذا سقط مقابل الجدار، وانزاحت الصخرة أمام جسده الفائق القداسة، وجعلت نفسها لينه، وصار الجدار وكأنه مشكل

من شمع لين، وهكذا تلقى في نفسه طبعات جسده مع جميع أطرافه، وفق الشكل ذاته عندما وقع عليه، وهذه العلامات التي انطبعت بالصخرة على هذا الشكل، تري بشكل كامل شكل يديه وذراعيه، والرأس والقبعة، والصدر والثياب، ومن المستحيل أن يتشكك الانسان أن تكون هذه العلامات قد نحتت بشكل اصطناعي، بوساطة أية أدوات، بل كان ذلك في اللحظة التي انزعج فيها الرب واضطرب في عقله، وركض نحو الجدار، فتلقى هذا الجدار ضغطاً فاق أي شيء اصطناعي أو فني يمكن ان يعمله، وكأن الطبيعة قد أضفت هذا الشكل على الصخرة منذ البداية.

وعلاوة على هذا، فإن هذه الصخرة كانت قاسية إلى حد بدت فيه، أنه لايمكن نجرها، وأن مامن قطعة منها يمكن فصمها بوساطة أية أداة حديدية، وهكذا انحنينا وقتها بأنفسنا أرضاً حول هذا الجدار الصخري، وبعدما تلونا صلواتنا، ذهبنا واحداً تلو الآخر نحو المكان، ومددنا أجسادنا بقدر ما نستطيع في المكان المقدس للطبعات، ووضعنا أذرعتنا، وأيدينا، ووجوهنا في التجويف، وقسناه بأصابعنا.

والرب شاهد عليّ أنني رأيت هذا الذي كتبت عنه خلال حجي الأول، وأنني مددت نفسي في هذه العلامات، التي أشارت إلى رجل أطول مني بكثير، وقد أشير إليها من قبل الراهب بوركاردوس، الذي كان من طائفة الدومينيكان، والذي أمضى مدة طويلة في الأرض المقدسة، قبل مائتي سنة مضت، وكان وقد وصف بوضوح وتمييز جميع الأرض المقدسة، وقد رأى هذه الصورة معلمة على الصخرة، التي أنا أتكلم الآن عنها، وقدم الوصف نفسه.

لكن الآن، أنا لا أعرف ما الذي سأقوله، وأنا مرتبك، ومتعجب، ومندهش، ولا أستطيع أن أتصور ما الذي حدث لتلك الصخرة، لأننا في أثناء حجي الثاني هذا، أخذنا إلى جميع الأماكن المتقدمة الذكر، فلم نر

الصخرة، ولم نسمع أي ذكر لها، وعاد موالي الفرسان إلى الوطن مع الحجاج الآخرين، ولم يسمعوا شيئاً حول تلك الصخرة، وبعدما عادوا، وعندما صار بامكان الانسان القيام بزيارة أكمل وأهدأ إلى الأماكن المقدسة، ذهبت وحيداً عدة مرات إلى جبل الزيتون، وبحثت بتيقظ عن تلك الصخرة في موقع جيسماني، وذلك صعوداً ونزولاً، وقريباً وبعيداً، لكنني لم أستطع بأية وسيلة العثور عليها.

وأخذت في أحد الأيام اللورد هنري أوف سخومبيرغ Schum-berg وهو فارس ورجل نشيط، وكان راغباً تماماً في معاونتي في أبحاثي مهما كانت، لأنني كنت متشوقاً كثيراً لرؤية تلك الطبعات، وقمنا معا بالبحث عنها صعوداً ونزولاً، غير أننا لم نستطع العثور على أي أثر منها، وقام فرسان آخرون بناء على تحريضي فبحثوا حول الرابية، وفتشوا عنها، لكن تعبهم تبدد بدون فائدة، وأخذت أيضاً معي راهبين من جبل صهيون، وقد بحثا معي باخلاص، لكننا لم نستطع انجاز شيء، وفي الحقيقة أعلنا أنهما لم يسمعا عنها من قبل، وذهبت أيضاً إلى الأب المسؤول، وإلى الأب بول غرنغلنغر Gringlinger، والأب بيرغرين بولانوس Peregrine polanus، والراهب جون أوف بروسيا، وإلى رجال ذوي سن وتجربة، وإلى رهبان مسنين، وإلى رجال دين اتقياء، ورهبان علمانيين، لكن مامن واحد منهم استطاع أن يخبرني شيئاً، وبدوت بالنسبة لهم أنني أهرف، حتى أريتهم وصف الراهب بوركارد، الذي كان معي، وذلك مع كتاب جولاتي السالفة.

وبذلت جهداً كبيراً وأنا أبحث فوق الجبل سعياً وراء هذه الطبعات، لأنني متأكد تماماً أنه من غير الممكن بالنسبة لتلك الصخرة، أن تنقل من مكانها إلاّ بمعجزة، ذلك أن مامن بناء جديد قد أقيم هناك، والذي انقضى فقط عامان على رؤيتي لها أولاً، وإلى هذا اليوم مازلت منزعجاً لاضاعتي ذلك المكان المقدس، ولو كنت أعرف مكان وجود الراهب

أنطوني أوف فلاندرز، الذي هو من طائفة الفرنسيسكان، والذي كان في ذلك الوقت الدليل إلى الأماكن المقدسة، لو عرفت أين يسكن الآن، لذهبت إليه — إذا ماحصلت على إذن — حتى ولو كان في انكلترا، ذلك أنه وإن لم يقل الانجيليون شيئاً عن تلك الصخرة، ولم تأت الكتابات المقدسة القانونية على ذكرها، مع هذا سأكون مسروراً لرؤيتها، مثلما رأينا، وتعبدنا أماكن أخرى كثيرة، لم ترد إشارة واضحة إليها لدى الانجيليين.

وبالاهمال، أخذت أم النسيان هذا المكان المقدس منا، لكنني لا أستطيع أن أمحو المشهد الذي رأيته في ذلك المكان، أو أمنع ظهوره باقياً متجدداً في عقلي، وتولى بيد المبجل وصف معجزة مشابهة قد وقعت في الناصرة، قرب المكان الذي كان الرب سيرمى منه، الموضوع الذي قرأنا عنه في الاصحاح الرابع من انجيل القديس لوقا، فقد قال بأن الرب بعدما نجا من أيدي اليهود، وكان نازلاً من قمة الجبل، رغب بالالتجاء تحت إحدى الصخور، وفجأة لدى لمس ثيابه الصخرة تقلصت، وذابت وصارت مثل الشمعة، وتجوفت في داخلها حتى نستطيع استقبال جسد الرب، حيث من الممكن في هذه الأيام رؤية جميع أشكاله، وطيات ثيابه، وطبعات قدميه في الصخرة، وذلك استناداً إلى شهادات الذين رأوا ذلك، ومثل ذلك فعل دي ليرا في تعليقه على قوله: «أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم» —يوحنا:٨/ ٥٩، ومن الممكن القراءة عن معجزات مشابهة صنعت من قبل عدد كبير من القديسين، إليهم منحت قدرات ربانية، حيث انزاحت صخور من طريقهم، أو أصبحت لينة، كما حدث في مسألة القديسة بربارة.

المكان الذي رأى منه يسوع المدينة وبكى عليها

وغادرنا المكان الذي اعتقل فيه الرب وجعل سجينا، وأخذنا طريقنا نحو قمة الجبل، حيث تسلقنا طريقاً منحدراً ووعراً، كان يقود إلى بيت

عنيـا، لأن هذا هو الطريق الذي يسير عليـه الذاهبـون من القـدس عبر باب اسطفان إلى بيت عنيا، لكن هناك طريق آخر يقود إلى بيت عنيا من جبل صهيـون، وهو ينقسم إلى قسمين: طريق عـالي، وطريق منخفض، كما سيظهرا في مكانهما، وصعدنا عبر هذا الطـريق الذي سار عليه الرب على ظهر أتان في يوم أحد السعف، وفي طريق صعودنا وصلنا إلى مكان على الطريق، حيث هناك صخـرة واسعة، تمتد عبر الطريق كلـه، جاعلة الطريق مخيفاً بالنسبة للحيوانات التي تعبره، لأن الصخرة ناعمة إلى حد كبير، وكأنها مصقـولة، وتسير الدواب فـوقهـا وهي خـائفة، ومـرعـوبة خشية السقوط، خاصة لدى نزولها من الرابية.

ووقـف الرب في هـذا المكـان مع الأتـان، وألقـى نظرة على المدينـة، وتطلع إليهـا، وبكى عليهـا، وبكثير من الحزن ناح على سـلامهـا الحالي آنذاك، وتنبأ بمستقبلها المضطرب، وذلك حسبما قرأنا في لوقا:١٩، وبناء عليــه انحنينا هناك بأنفسنا نحــو الأرض، وصلينا، وتلقينا غفــرانات مطلقـة(++)، ووقفنا لوهلة طويلة في مكان دموع المسيح هذا، وحـدقنا بالمدينة المقـدسـة، لأنه من هـذا المكان يستطيع الانسـان أن ينظر بشكل جيد إلى القدس ويتعرف إليها، ذلك أن منظر الهيكل وجبل صهيون من هناك هو منظر قوي يحرك الأرواح التقية نحو البكاء، ولهذا ذلك المكان متميـز، فيـه —كما قـرأنا— بكى الرب، هذا وتمثل القـدس، على الرغم من وضعها التعيس في هذه الأيام، منظراً جميلاً وبهياً من هذه البقعة.

المكان الذي أخبر الملاك فيه العذراء المباركة بموتها قبل حدوثه

ومن هناك صعدنا إلى رابية، فوق جبل الزيتون، وبعدما قطعنا مسافة جيدة ونحن صاعدين، انعطفنا جانباً من الطريق العالي إلى جهة اليسار، ومضينا صاعدين من خلال أشجار زيتون كثيفة من الشمال إلى الجنوب، وذلك عبر جرف، فوقه استدرنا نحو الشمال، وفي أثناء سيرنا على القمة وصلنا إلى صخـرة، تصـورنا أنها مكان فـائق القـداسـة، ذلك أن جميع

الأماكن المقدسة، لها ممرات مطروقة تقود إليها، وذلك نتيجة الزيارات المتوالية إليها من قبل المسيحيين، وهذه الأماكن معلمة بصخور، وهذه الصخور قذرة من كثرة تقبيلها، ولأنها تلمس دوما بشفاه وأفواه الحجاج، بقي من شفاههم على الصخور التي قبلوها نوعاً من أنواع الدهن.

وفي أحد الأيام، بعد مازارت العذراء المباركة الأماكن المقدسة، استراحت هناك، وجاء الملاك جبرائيل إليها، وسلم عليها للمرة الثانية وقال: «حييت» —وبشرها فأعلمها بموتها الوشيك، والانتقال من هذا العالم، إلى الأب وقال: «أقبلي أيتها السيدة المجيدة، إلى الذي ولد منك، وتسلمي ثانية عهد رحمك، والتعويض عن طبيعتك، وسداد ثمن حليبك وطعامك، ونفقات تعبك، وجائزة أحزانك، فأنت سوف تكوني مجد القديسين، والسفينة الذين تقرر خلاصهم، وجسراً للذين تتقاذفهم الأمواج، والعصا التي يمكن للرجل الضعيف أن يتكىء عليها، وسلماً للذين يودون الصعود إلى السماء، وتوبة للمذنبين، ومعيناً لكل من يتوجه بالدعاء إليها».

وعندما أكمل الملاك مقالته هذه أعطى العذراء سعفة نخيل جميلة جداً، أرسلت من الجنة، لتكون برهاناً على انتصارها الكامل على عدو الجنس البشري، وعلى الآلام، وعلى رعب الموت، وأمر بحمل سعفة النخيل هذه أمام نعشها، علاوة على هذا خلع عليها ثياباً جنائزية، إعجازية رائعة، فيها كانت ستموت، وستدفن، وستصعد إلى السماء، وبعدما عملت هذا كله صعدت إلى السماء، وتلونا في هذا المكان الصلوات المحددة، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات.

جبل الجليل الذي هو جزء من جبل الزيتون، حيث ظهر الرب لتلاميذه بعد قيامته

ثم كـان أن غادرنا مكان تقـديم سعفة النخيل، وسرنا متقـدمين على جرف الجبل نحو الشمال، وعند زاوية جبل الزيتـون، عندما يتوقف عن الامتداد نحـو الشمال، وصلنا إلى حافـة الجبل، حيث وجدنا أكـواماً من الحجـارة ومكاناً للصـلاة، وقـد قيل إنـه في أيام المسيح كـان هناك بيتـاً ريفياً، اسمه الجليل، فيه وعد الرب أثناء آلامه، أنه سوف يظهر لتلاميذه في يوم قيامته، ذلك أنه قال في الاصحاح السادس والعشرين من انجيل القديس متى: «ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل»، وقال بعضهم بأن الرب قد وعد بأنه سوف يظهر نفسـه إلى حوارييه في الجليل بعد قيامته، وقال بعضهم الآخـر بأنه قصد أحياناً قرية الجليل هذه، وأحيـاناً أخرى المنطقـة المعـروفة باسم الجليل، لأنـه ظهر في المكانين، وورد ذكـر قـرية الجليل هذه في متى: ٢٦، وفي الاصحاح الثـامن والعشرين من الانجيل نفسه، وقد أمر الملاك المرأة أن تخبر تلاميذه بوجوب الذهاب إلى الجليل، حيث سيرونه، وتغني الكنيسة أيضاً كلمات المسيح.

"In die resurrectionis mede, Praecedom vos in Galilacam" ...الخ

ونحن نعـرف الآن أنه ليس قبـل مضي عـدة أيام على قيـامـة الرب، ذهب التـلاميـذ ونزلوا إلى الجليل، ولم يكن ذلك في يوم القيـامـة، وقـد تحدث القـديس متى الانجيلي عن منطقـة الجليل، في الاصحـاح الثـامن والعشرين، حيث قـال بأن أحـد عشر مـن تلاميـذه ذهبـوا إلى الجليل (المنطقة) حيث ظهر لهم على كل من الجبل، وبجوار بحيرة طبريا، وعلى هذاإذا ما فهم الانسان الكتـابات المقدسة بأنها تنطبق على الجليلين فما في ذلك صعـوبة، لكن إذا مـا طبق ذلك على منطقـة الجليل وحـدها، ففي ذلك صعـوبة كبيرة، عـلاوة على ذلك فإن المعلقين والشراح وأوغسطين في موائمته بين الانجيليين، قـد بذلوا جهوداً كبيرة لشرح النصوص التي تحدثت عن الظهـور الموعـود بأن يتم في الجليل، لأنهم فهمـوا مقـاطعـة

الجليل وحدهـا، وليس القرية التي سنتحـدث عنها، وأنا لم أجـد واحداً من علماء اللاهوت القـدامى، قد فهم هذه النصـوص إلاّ بأنها أشارت إلى منطقـة الجليل، لأن الظهور الذي حـدث هناك، كان ظهـوراً عامـاً، وقـد كان على الجبل، وأقصـد بذلك جبل الطور أمام، أكثـر من خمسين من الإخـوان، حسبما جـاء الخبر في الرسالة الأولى إلى أهـل كورنثـوس: ١٥، ولذلك يتحـدث الناس عن الظهـور الذي وقـع هناك، في منطقـة الجليل، دون سواها.

وقد قيل بأن يوسبيوس، قـد تحدث عن قرية الجليل، في كتابه «تاريخ الكنيسة»، مع أنني لا أتذكـر أنني قرأته، والذي فهمـه لودولفوس Lu-dolhus أيضـاً في كتـابه «حيـاة المسيح» بأن بعض الظهـور قـد وقع في قـرية الجليل، الموجودة في اليهـودية، وبعضهـا الآخر في منطقـة الجليل، وبناء عليـه تعبـدنا في ذلك المكان، الذي قيل بأنه ظهـر فيـه إلى الأحـد عشر، وتلقينا غفـرانـات(++). لأن أعظم الغفـرانات مـرتبطة مع هذه البقعـة، ولأن جميع هذه الغفـرانات مـرتبطة بهذه الأمـاكـن المقـدسـة، والمسلمـون لن يسمحـوا للحجـاج بزيـارتها، فقـد جمعت كلهـا في هذه البقعة، ثم لأن هناك أماكن كثيرة فائقـة القداسة في القدس، من الممكن الحصـول فيها على غفـرانات مطلقة، إليهـا لم يسمح لنا بالدخـول، مثل هيكل الرب، ورواق سليمان، والباب الذهبـي، وقاعة قضـاء بيلايطس، وبيت هيرود، وبيت القـديسـة حنة، الـذي هو مكان ولادة العـذراء المبـاركـة، وقـد حصلنا في هذه البقعـة على الغفـرانـات الممنوحـة لهذه الأماكن.

وبناء عليـه بعـدما حصلنا على هـذه الغفرانات، تسلقنا فـوق أكـوام الحجـارة، وتطلعنا بالطول والعـرض فوق البـلاد، فبـاتجاه الشرق، عبر الأردن والبحر الميت، رأينا جبال العربية، وأرض مآب وعمون، وجبال جلعـاد، وهكذا دواليك، وبـاتجاه الشمال رأينا جبـال منطقـة الجليل،

وجبال جلبوع ولبنان، وباتجاه الغرب، كان لدينا في المقابل المدينة المقدسة، ورأينا عبرها جبل شيلوه، وجبل إفرايم، وبلاد الفلسطينيين، وذلك امتداداً حتى البحر الكبير، وباتجاه الجنوب رأينا روابي بيت أوليا قرب بيت لحم، وجبال حبرون، واليهودية وأدوم.

وبعد هذا حملنا أنفسنا وشغلناها في أعمال تفحص المكان نفسه، وهذا المكان، كما سلف وأخبرتكم هو نهاية جبل الزيتون، وهو مكان مناسب لبناء قلعة، وفي الحقيقة انه قد كانت هنالك بعض الأبنية فيما مضى، فضلاً عن هذا يوجد في قمته صهريج، والمكان كله مكان رائع، وتقول تواريخ ملوك الشرق، أنه عندما اقترب الملوك الثلاثة من القدس، غطى الظلام الأرض، ولذلك لم يستطع سكان المنطقة أن يدخلوا القدس، وأمضى الملك بلتزار Baltzar وجنوده الليل على هذا الجبل، في حين أقام الملك ملكيور Melchior فوق جبل أكرا، حسبما سلف لي وحدثتكم في ص٤٩٥، وأقام الملك كسبر Caspar على جبل جيحون، وعند الصباح دخلوا جميعاً إلى القدس مع بعضهم بعضاً.

مكان صعود ربنا، والكنيسة التي بنيت هناك وطبعات قدمي مخلصنا

وبعدما أرحنا أنفسنا على جبل الجليل، عدنا على طول الطريق على قمة جرف جبل الزيتون، وسرنا باتجاه الجنوب فوق أرض مرتفعة نحو كنيسة عظيمة نصف مهدمة، وعندما وصلنا إليها صعدنا فوق بعض الدرجات الحجرية إلى رواق مقنطر، كان قائماً أمام باب الكنيسة، وأجلس مسلم نفسه هناك أمام باب الكنيسة، وبيده عكاز، وماكان يسمح لأي واحد بالدخول مالم يعطه مدنوس Madinus، كل خمسة وعشرين منه تساوي دوقية، ولدى دفع المدنوس تركنا ندخل، هذا ويقوم في وسط هذه الكنيسة هناك بيعة كبيرة، جميلة ومستديرة،

ومقنطرة، يوجد في داخلها المكان العظيم القداسة، وهو مكان طبعة قدمي الرب يسوع المسيح، وهي الطبعات التي تركها على الصخرة، عندما صعد من ذلك المكان إلى السماء.

ووقفنا أمام هذه البيعة، وبصوت مرتفع بهيج غنينا الترانيم والصلوات المحددة في كتب المسيرة، من أجل موضع صعود الرب، ودخلنا إلى قلبها، وكان فيها العدد الذي يمكن أن تستوعبه في مرة واحدة، وارتمينا على وجوهنا، وقبلنا طبعات قدمي مخلصنا، الفائقة القداسة وتلقينا غفرانات مطلقة (++).

وبعد هذا، حملنا أنفسنا لمشاهدة المكان، فالكنيسة قائمة فوق قمة عالية من قمم جبل الزيتون، عند النهاية الجنوبية منه، مثلها في ذلك مثل موضع الجليل المتقدم الذكر، عند النهاية الجنوبية للجبل، ومكان الاعلان عن وفاة العذراء مريم، هو تحت الجرف، في منتصف الطريق بين الجليل، وموضع الصعود، ويقوم في هذا المكان المقدس، كنيسة مستديرة عظيمة، بنيت على شكل أن أعلاها ليس مغطى بقبة بل يوجد في السقف المقبب فتحة كبيرة، صنعت عن قصد، وتحت هذه الفتحة تقوم بيعة صعود الرب، مثلما فعل بالنسبة لبيعة ضريح الرب.

وحدثنا المؤرخون، أنه عندما كان المؤمنون يبنون الكنيسة، فوق مكان صعود الرب، وأرادوا تغطيتها بقبة معقودة، لم يتمكنوا بأية وسيلة من الوسائل وضع الحجارة مع بعضها لبناء القناطر، وكانوا ما أن يضعوا مثل هذه الحجارة، حتى كانت تسقط مباشرة، وعندما رأى المؤمنون هذا فهموا أن إرادة الرب قضت بعدم اغلاق مكان صعود الرب من الأرض إلى السماء بجدران أو بقناطر، بل بالبقاء مفتوحاً، ولذلك عندما قاموا بأعمال البناء، جعلوا القبة المعقودة مستديرة، مستندة فوق جدار مستدير، لكنهم لم يكملوها، بل كما قلت من قبل، تركوا فتحة كبيرة فيها، غلفوا حوافها على طول الدائرة بقطع من الحجارة المصقولة.

وعندما كان المعماريون على وشك للشروع بتبليط الكنيسة بألواح رخامية، وأرادوا تغطية مكان وقوف قدمي المسيح، عند صعوده طارت الحجارة التي وضعوها على ذلك المكان مباشرة عائدة نحو وجوه المعماريين، وتكرر حدوث هذا كلما حاولوا تغطية ذلك المكان، وكان فيما مضى ملاصقاً لهذه الكنيسة ديراً كبيراً لرهبان (بندكتيين) سود، تحت قيادة راعي دير متوج، ومنذ أوقات مبكرة جداً، سكن في هذا المكان، رجال مقدسون وأتقياء، بناء على سلوكهم وتصرفاتهم كتب جيروم كتاب «حياة الآباء»، وذلك حسبما يمكننا أن نقرأ في توطئة ذلك الكتاب، وفي تلك الأيام الذهبية جرى اشعال أعداد كبيرة من المصابيح في هذه الكنيسة، بقيت مضاءة من قبل المؤمنين، من أجل إضاءة جميع جبل الزيتون وكان اشعاعهم يصل حتى أقصى طرف من وادي شعفاط، ويضيء باب مدينة القدس الموجود هناك.

وكان في مواجهة هذه الكنيسة، مايزال معبد سليمان، الذي مثل هذا مشتعل فيه كثير من المصابيح والمشاعل، تنير جانب جبل الزيتون هناك، وبوساطة اشعاع الأضواء الصادرة من هاتين الكنيستين، فإن جميع وادي شعفاط كان مضاء، وكان جبل الهيكل مضاء بوساطة الكنيسة الموجودة على جبل الزيتون، وكان جبل الزيتون مضاء بوساطة الكنيسة المقامة على جبل الهيكل، علاوة على ذلك كانت هذه الكنيسة القديمة منعم عليها بالمعجزات التالية، التي تعرضت إليها وعلمت بها، من خلال كتاب حج لرجل مقدس كان حاضراً وشاهداً لها.

كان من عادة المسيحيين الأقدمين، قدوم جميع سكان القدس إلى جبل الزيتون، في يوم صعود الرب، وذلك بعد القيام بالقداس، وكانوا يبقون هناك بصلوات مستمرة، ينتظرون ساعة الظهيرة، التي حمل فيها الرب يسوع إلى السماء، وفي تلك الساعة، كانت تهب ريح عنيفة جداً، وتقبل مندفعة من السماء، وتصب قوتها كلها من خلال الفتحة الموجودة في

سقف الكنيسة، إلى حد أن الجبل كله كان يهتز من وقع الصدمة، ويسقط جميع الذين يكونون هناك على وجوههم نحو الأرض، حتى تعبر هذه العاصفة البهيجة، لكن المرعبة أيضاً، وجرت العادة بوقوع هذا في يوم الصعود من كل سنة، ولكن عندما استولى المسملون على الأرض المقدسة، خرقوا حرمة هذه الكنيسة المقدسة، واتخذوا مسجداً منها، وعلى الرغم من جميع أوامر الحظر، يقوم الحجاج المسيحيون بزيارة هذه الكنيسة، وقد اعتادوا على الدخول إليها، في الليل خلسة، حتى يتمكنوا من تقبيل طبعات قدمي المخلص، وبناء عليه لم يسمح المسلمون لنا بالاحتفاظ بهذا المكان، كما أنهم لم يحفظوه لأنفسهم، بل قاموا بتهديم الجانب الشرقي منه، ونزعوا عن الجدران، ومن الأرض جميع ألواح التغليف الرخامية، كما نقلوا الأعمدة الثمينة، وتركوا على كل حال دون لمس، بيعة مكان طبعات قدمي المسيح، والصخرة التي تحتويهم، لأنهم هم أيضاً يحترمون الطبعات المقدسة للقدمين.

ومن الممكن رؤية طبعتين لقدمي الرب يسوع على هذه الصخرة، علماً بأن طبعة القدم اليمنى هي الأوضح بين الاثنتين، ويجري تقبيل هاتين الطبعتين من قبل المسيحيين والمسلمين سواء، واستثير الآن واحد من الحجاج وتحمس بروح الخشوع اللطيفة، وكان معه قارورة من الخمرة العظيمة الحلاوة، فصب بعضها في الفراغات المشكلة بطبعتي القدمين، وقام الآخرون بلحسها كلها أثناء تقبليهم للطبعات، وبسرعة عندما فرغ المكان صب المزيد.

ويوجد على الجهة الشمالية من هذه الكنيسة فتحه في الجدار عالية، يكاد بصعوبة ان يصل الانسان إليها وهو ماد ذراعه، ورفع الحجاج أنفسهم إلى هذه الفتحة، ووضعوا أيديهم عليها، حيث أعلنوا أنه يوجد في الجدار بعضاً من الصخرة ذاتها التي وقف عليها المسيح، عندما صعد إلى السماء، لكن من أين جاءتهم هذه الفكرة، لست أدري.

وكـان بالعادة يوجـد في النهاية الشرقيـة صخرة كبيرة، عليهـا جلس الرب، عندمـا وجـه الملامـة إليهـم لنقص الايهان وقسـوة القلب،وذلك حسبها قـرأنا في الاصحـاح الأخير من انجيـل القـديس متى، غير أن النهاية الشرقيـة مهدمة تقـريباً، وفيها هنـاك مكان إقامة لفـلاحين وباعة ماعز، لوجود بيت ريفي ملاصق للكنيسة في الجهة الشرقية، واسم هذا البيت بلغتهم:..

وهناك على كل حـال، جدار مبني عبر وسط الكنيسة، يفصـل النهاية الشرقيـة —حيـث يعيش هؤلاء الريفيـون— عن الجزء الغـربي، حيث هناك بيعـة صعود الرب، وكما أخبرتكم من قبل، تقف هذه الكنيسـة في مقابل هيكل الرب، لكنهـا أعلى من الهيكل، مع أنه مثلها هو قـائم فوق جبل، ومن الممكن رؤيتـه عن بعـد كما ورد الحديث في ص٣٩٨، وهي مباشرة إلى الشرق من هيكل الرب، الـذي يسمونه هيكل سليمان، وبنا عليـه نجـد أثنـاء الاعتـدالان أن الشمس مقبلـة على الاشراق من هذه الكنيسـة، ولسوف تصعـد منها، كما راقبتهـا مراراً تفعل ذلك، وعندمـا رأيت هذا لم أعد أعجب من قيام الكنيسة بالغناء في ويوم صعود الرب، «بالغناء إلى الرب، الذي صعـد فـوق سماء السمـوات في الشرق»، وعن هذا الموضـــوع ســوف أتحدث بشكل أطـول في ص ٦٢١، وهناك من مـدينة القـدس إلى موضـع الصعود ثلاثة أميـال ايطاليـة جيـدة، وذلك بوساطة الطريق الذي ذهبنا به إلى هناك.

مدح مكان صعود الرب ومعه سوف نقدم أيضاً وصفاً له، وكذلك لوادي شعفاط، ولجدول قدرون ولوادي توفت، ولوادي هنوم الذين موقعهم جميعاً عند سفح جبل الزيتون

إن مكان صعود الرب هو مكان له قـداسة خاصـة بين جميع الأماكن المقدسة للأرض المقدسة، ويتحرك الحجاج هناك بوساطة حماسة عجيبة، لأن المكان مشرف بسبع فضائل خاصة، ولأنه:

١— كـان مبجلا غـاية التبجيل، لأنه في العصـور الخالية كـان هناك موضع مشهـور مرتفع، إليـه صعد داوود للصـلاة، وذلك حسبما جاءنا الخبر في الاصحاح السادس عشر من سفر الملوك الثاني، وما سنذكره في الصفحـة ٦٢١ من هذا الكتـاب، ولأنه هناك عليـه، تم جعل الحواريين سادة جميع البلدان، لأنهم أمروا بقـوله: «اذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها» (مرقص: ١٦/ ١٥).

٢— لأنه مكان ينبغي أن يحب، لأنه من هنا صعـد إلى السماء، وأرانا الطريق إلى مملكة السماء.

٣— لأن المكان رائع، وبسبـب الدمـار الفـائق الوحشيـة للمسيح الدجـال، لأن اللاهوتيين — ومنهم على سبيل المثـال ريكاردوس، في نهاية كتابه الرابع — حدثونا بأنه في هذا المكان سوف يجري قتل المسيح الدجال على يدي الرب يسـوع،حيث إنه تبعاً لرؤيا دانيـال: ١١، سوف يأتي المسيح الدجال إلى قمة جبل الزيتون، الذي قال النبي عنه بأنه جبل رائع ومقدس، فهو سينصب عرشـه فوق المكان الذي صعد منه المسيح، وسوف يتخيل نفسه أيضاً، أنه سوف يصعد إلى السماء، وله سوف يقتل الرب يسـوع بالنفخ من فمـه، مصـدراً صوتاً مـرعبـاً، ولدى سماع هذا الصـوت سـوف ينهض ميكائيل ضـد المسيح الدجـال، حيث سيضربه بصاعقة، وسيغرقه في قعر هوة عميقة.

٤— وهذا المكان مـرعب بسبب مقعـد وعـرش الحسـاب الأخير، حيث إنه في هذا المكان سـوف يقيم الرب يسـوع ويضع مقعـد حسـابه الأخير، ولهذا قـال الملائكة في الاصحـاح الأول من أعمال الرسل: «إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتمـوه منطلقاً إلى السماء، وسوف يعود بقوة عظيمة ليحكم الأحياء والأموات».

٥— وهذا المكان مخيف، بسبب رمي المذنبين في الجحيم، لأن المذنبين

المدانين سوف يقفون في وادي شعفاط، الوادي الذي قلت من قبل في ص ٥٨٧، بأنه متصل بوادي هنوم الملعون أو جهنم، الذي يمتد من هناك خلال ممرات مهجورة مخيفة إلى بحر الشياطين، الذي يعرف أيضاً باسم البحر الميت، وفي اللحظة التي سوف تسمع فيها الكلمات المرعبة التالية، التي سوف يتفوه بها القاضي قائلاً: «اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية» (متى:٢٥/ ٤١)، وهناك سوف يكون تصدع من الجانب الشمالي لهذا الوادي، وسيكون هناك نهر من نار يجري بسرعة فائقة، سوف يطوق جميع الأشرار، وسوف يلفهم بعنف، وذلك على طول وادي شعفاط ومنه إلى وادي توفت المرعب، ووادي هنوم، وحول هذا الموضوع عد إلى النص المتميز في إشعيا: ٣٠، ومن هناك سوف ينقلون بوساطة النهر، من خلال الوادي إلى البحر الميت، الذي اسمه أيضاً بحر الشياطين، ففيه سوف يتلقى اليهود محمولين بالنهر الناري، وما أن يصب هذا النهر في هذا البحر، حتى يشتعل البحر كله بنار ذلك النهر، وتحت البحر سوف تكون جهنم فاغره فاها، الذي لاحدود لعرضه، ولسوف تبتلع الجميع.

وفي الحقيقة والواقع، إن وضع المكان هو كمايلي: يمتد جبل الزيتون مسافة طويلة باتجاه الشرق، فهو يمتد من الشمال باتجاه الجنوب، وذلك حتى يتصل على الجانب نفسه بجبل العدوان، الذي مثل ذلك يمتد مسافة طويلة، وعلى الجانب الغربي هناك جبل المدينة المقدسة، الذي يلتقي بجبل صهيو ن وفوقه الذي خلفه يقع جبل جيحون، وذلك في مقابل جبل الزيتون وجبل العدوان، ويدعى الفراغ فيما بينهم باسم وادي شعفاط، الذي في قعره جدول قدرون، ويبدأ وادي شعفاط وجدول قدرون من موضع رجم اسطفان، وينتهي عند سفح جبل صهيون، في المكان الذي تلتقي فيه مياه سلوان بالجدول، وهناك يطلق على المكان اسم وادي سلوان، الذي يمتد حتى بئر روجل.

ويبـدأ من هذا المكان الوادي الذي اسمـه «الوادي الظليل»، ويدعى وراء هذا باسم وادي هنوم، أو توف، أو تـوفت، ومن هناك أخـذ اسم جهنم، ويحتفظ بهذا الاسـم طوال مجراه بين جبـال وعـرة، ومـروراً بجروف منحدرة، وذلك وصـولاً حتى البحر الميت، وهو البحر المضل، وذي الرائحة المقيتـة الملعونة الذي تحته —كمايقال— مفتـوح على وسعه فم هوة الجحيم.

وهكذا بعدما يكون الأشرار قـد حكم عليهم ، سوف يمتلىء جدول قدرون حتى الفيضان بنهر من نار، ينفتح متدفقاً من طرفه الشمالي، فمن هناك يبـدأ بالانفتـاح والتـدفق، لأنـه «من الشمال ينفتح الشر على كل سكان الأرض» (ارميـا:١/ ١٤)، ولسـوف تطوقهم النيران، وتقـودهم على طول الوديان المتقدمـة الذكر، التي يتصل أحـدها بالآخر، من دون وجود جبـال تغلق سبلها، وذلك وصـولاً حتى البحر الميت، وعلى هذا سـوف يكون وادي شعفـاط هو المكـان بالنسبـة للأنـاس الذين يحكم عليهم بالادانة، والذين سوف يقفون في جدول قدرون، بمثابة مدنسين، لأن هذا المكان كـان دومـا مصب جميع القذارات، أو بالحري البـالوعـة التي تجري من خلالها جميع القاذورات إلى المصب، أي إلى البحر الميت.

فقد قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٥، بـأن الملك آسا قد دمّر المأبونين وأزالهم، ودمـر التمثـال القذر جـداً العـائـد لأمـه، وأحرقـه في جـدول قدرون، مع جميع نجاسات الأوثان، ومثل هذا جاء في سفر أخبار الأيام الثـاني: ٢٩/ ١٦ قـوله: «ودخل الكهنـة إلى داخل بيت الرب ليطهـروه، وأخرجوا كل النجاسة التي وجدوها في هيكل الرب.... ليخرجوها إلى الخارج إلى وادي قـدرون»، فضـلاً عن هـذا جـاء خبر في أخبـار الأيام الثـاني بأن بني اسرائيل اجتمعوا في القـدس، وحطموا المذابح، ودمـروا كل شيء أحـرق عليـه البخـور للأوثان، ورمـوهـم في جـدول قـدرون، عـلاوة على هذا حطمـوا الأوثان والمذابح إلى قطع، ورمـوا بطحينهـا في

جـدول قدرون، فضـلاً عن هذا، جرت العـادة على جر جميع قـاذورات المدينة إلى جـدول قدرون، وعندمـا كان الجدول يفيض، كـان يحمل كل شيء ويجرفه ليلقيه في البحر الميت.

وهناك سبب آخر لنجاسة الوادي ولكونه ملعـوناً، هو أن الشياطين كـانت تعبد فيـه، والأعمال الشيطانية كـانت تمارس فيه، حسبما قـرأنا في أخبار الأيام الثـاني: ٢٨، ففيه جاء بأن الملك آحاز، قـد أوقد البخور في وادي هنوم، وطهر أولاده بالنار هناك، وفق طريقة الأمم، ووادي هنوم هذا هو وادي شعفـاط نفسه، وكـذلك يعـرف هذا الوادي نفسه أيضـاً باسم Cela، في حين يدعى جـدول قـدرون باسم Chrinarus، ومن الرائج والمتـداول تعليمـه الآن والاعتقـاد به، أن جميع أصـول الأرض سـوف تجتمع مع بعضها في هـذا الوادي، ولهذا اعتاد الناس على سـؤال الذين ذهبوا إلى الأرض المقدسة، عن سعة هذا الوادي، وهل هو واسع بما فيه الكفاية حتى يتمكن جميع الناس من الوقوف فيه في يوم الحساب.

ولايهتم الناس البسطاء بشيء آخـر، وتراهم منشغلين حـول حجم وادي شعفاط، وكان يحدث أحياناً، ومازال يحدث، أن الحجاج يقومون بتكويم بعض الحجـارة من أجل أنفسهم في هذا الوادي، رغبـة منهم في تأمين مكان لأنفسم قبل يوم الحسـاب، ليجلسوا عليـه في يوم الحساب، ويعطي في بعض الأحيـان بعض الأناس البسطاء مـالاً إلى حجـاج على وشك الانطلاق نحـو القـدس، ليعملوا لهم مكاناً بوسـاطة الحجـارة في وادي شعفـاط، فـإلى ذلك المكان، يعتقـدون أنهم سـوف يأتون في يوم الحساب، وعندمـا يسأل أحدهم الآخـر عن حجم الوادي، كـان الآخر يجد نفسـه مرغماً على الاجـابة بكل لطف وتهدئـة بأن الوادي ليس كبير الحجم، وأنه في وضعـه الحالي، يستطيع بصعوبة استيعـاب أمة واحـدة، ذلك أن جميع السـوابيين الأحيـاء الآن بالفعل، سيجـدون من الصعـوبة إيجاد مكان لكل واحد منهـم فيه، وذلك دون أن نذكر الذيـن كانوا فيما

مضى والذين سوف يكونون في المستقبل.

لكن في يوم الحساب سيكون شكل ذلك الوادي مختلفاً، مثلما سيكون شكل الأرض أيضاً، لأنه قبل يوم الحساب، سوف يحترق العالم كله، وسوف يتحرر من النجاسات، وكذلك من جميع كل ما ليس مستوياً، ذلك أن الأماكن الضيقة سوف تكون عريضة، وسوف تتحول الأماكن الوعرة والمتصدعة إلى أماكن منبسطة تماماً، وكون هذا الوادي سوف يتوسع هذا واضح من زكريا: ١٤ حيث جاء الخبر في سفر زكريا: ١٤، بأن جبل الزيتون سوف ينشطر من الشرق إلى الغرب، وأن الشطر الأول من الجبل سوف ينقل ليكون فوق الجهة الجنوبية، وأن الشطر الآخر سوف ينقل ليكون فوق الجهة الشمالية، وأن هذا الصدع في الجبل سوف يكون عميقاً إلى حد أن يكون فيه استمراراً لوادي شعفاط من الغرب.

ولسوف ينشطر جبل الزيتون انشطاراً آخر، من الشمال إلى الجنوب، وبذلك يتلاقى الانشطاران مع بعضهما بعضاً على شكل صليب، ولسوف ينقسم جبل الزيتون على شكل صليب، والذين سوف يحاسبون سيقفون في الواديين اللذان تشكلا بهذا الصليب، وعندما تحدث هذه التقسيمات، ينبغي أن لايكون أحد قلقاً حول السعة، حيث ستكون هناك سعة كافية للعالم كله حتى لو بقي على شكله الحالي، لأن الشق في جبل الزيتون، يمتلك عبره باتجاه الشرق، سهلاً واسعاً جداً في منطقة أريحا، وكذلك فيافي الأردن الشاسعة، التي يمكنها استيعاب جميع شعوب الدنيا.

ومثل هذا ينبغي على الانسان أن يرد عليهم — وفي الحقيقة هذا هو الجواب الأفضل— بأن الذين أمضوا حياتهم بشكل جيد، ومستقيم وأخلاقي هنا على الأرض، سوف يجدرون جميعاً أماكن جيدة ليقفوا عليها، قد أعدت لهم من قبل ملائكتهم، لكن الأشرار والمذنبين سوف

يجدون أماكن سيئة ووضيعة، وسوف يقفون وسط شقاء عظيم، ولذلك سوف يبدو العالم كله بالنسبة إليهم صغيراً جداً، ولسوف يقولون للجبل «اسقط علينا»، وللروابي «غطينا»، وبناء عليه أنت لست بحاجة لتأمين محلك سلفاً، على أساس إذا ما كنت رجلاً جيداً، فسوف يعد لك ملاكك مكاناً جيداً لك، ولن يجعلك في أي مكان آخر، إلاّ في مكان تشريف، وإذا ما كنت شريراً، وأقمت حجارة من أجل ذاتك، فإن تلك الحجارة سوف تصرخ ضدك، كما أن فاعلي الشرور لن يجدوا مكاناً ليرتاحوا عليه لأن المستقيمين سوف يقفون بشكل اعجازي ومجيد في الهواء، لكن غير المستقيمين سوف يقفون على الأرض في النار،والشنار، والشقاء، وهم يصرخون ويولولون، ومن أجل رواية حول هذا الوادي وأسمائه انظر ما سيأتي في الجزء التالي.

ولنعلم مما قد قيل، أنه من الواضح، كم هذا المكان لابد أن يكون مرعباً بالنسبة للآثمين.

٦— وهذا المكان مرغوب به، بسبب مواساة النخبة، لأنه من هذا الجبل سوف ينزل الرب الموت، وسوف يحطم وجه الغطاء الملقى على جميع الناس، والحجاب المنشور فوق جميع الشعوب، وفي هذا الجبل سوف يعمل رب الجنود حفلة إلى جميع الناس، فيها يجري تقديم جميع الأشياء السمينة، مليئة بالنقي، الخ (اشعيا:٢٥)، ذلك أن جميع الأشياء التي جرى الحديث عنها في ذلك الاصحاح هي عائدة بشكل صحيح إلى جبل الزيتون، مع أن بعضهم يوضح أنهم يعودون إلى جبل صهيون، وكل من يرغب ليقرأ هذا الاصحاح والاصحاح الذي يليه، ولسوف يرى براهين كثيرة حول ماقيل أعلاه، وهذا المكان مرغوب به، لأنه من هناك — بعد انتهاء الحساب — سوق يصعد الرب إلى السماء مع جميع النخبة الذين كانوا كذلك منذ بداية الدنيا.

٧— ويمكن اتخاذ هذا المكان درساً، بسبب أمثلة التقوى السامية،

التي ضربت هنا، فهنا وقفت مريم العذراء الفائقة القداسة، وهي منتشية ببهجة لايمكن وصفها، وهي ترى صعود ابنها إلى السماء، وهنا وقف الرسل، وأكثر من خمسمائة من الإخوان، بوجوه مرفوعة نحو الأعلى، تحدق بشغف في الغيوم، ومع خشوع وتأمل، كانت راغبة في اللحاق بالرب، ومثلهم كانت الملائكة حضوراً، وقالوا معهم: «أيها الرجل الجليلي، لماذا أنت واقف تتطلع نحو الأعلى...»؟، ولهذا قرأنا في الاصحاح الأخير من انجيل القديس لوقا بأنهم عادوا إلى القدس مع سرور عظيم، ولقد أخبرنا أيضاً — وهذا أثر تقوي — أن العذراء مريم، كانت بعد صعود ابنها، تزور هذا المكان المقدس، في كل يوم، وتسلم نفسها إلى تأمل خشوع خاص، وكانت تحاول بكل قواها العقلية التحليق بنفسها نحو تصور الأشياء السماوية.

وقد روي أيضاً أن فارساً حاجاً، بعدما زار الأماكن المقدسة التي عمل فيها المسيح خلاصنا، قام بالأخير فتسلق إلى هذا المكان، وخرّ على الأرض وهو يصلي، وصاح بأعلى صوته: «يا يسوع الرب لقد بحثت عنك وطلبتك بدقة وتقوى بقدر ما أستطيع، في جميع أرجاء الأرض، ولا أعرف أين أطلبك بعد هذا المكان، لأنك من هنا تركت العالم، وعدت إلى الأب، إنني أتوسل إليك أيها الرب أن تأمرني بالقدوم إليك، حتى أطلبك، فأجدك على يمين الأب»، وعندما أنهى هذه الصلاة، لفظ أنفاسه بوجه مشرق على مرأى من رفاقه الحجاج، وبموته وجد في الجنة الذي طلبه في حجه خلال الأماكن المقدسة.

جبل الزيتون، أسماؤه، وقداسته

لقد كونا من الذي تقدم قوله فكرة عن شكل جبل الزيتون، وبات ذلك مفهوماً، لكنني رأيت من الأفضل إضافة مايلي، حتى يكون معروفاً بشكل أوضح أكثر، وفي الاصحاح الحادي عشر من سفر دانيال أطلق عليه اسم «جبل بهاء القدس»، وأكثر من هذا هو معروف باسم

جبل الزيتون، ومع هذا ان اسمه الحقيقي هو جبل الضياء، لأن هذا الجبل هو الذي يضاء أولاً بالشمس، ففي الفجر يضاء مباشرة بأشعة الشمس قبل الجبال الأخرى، ومنه تعبر الاشعاعات إلى المدينة المقدسة وإلى الهيكل، لأن هيكل سليمان قد بني وبابه يتطلع نحو الشرق، ووقف المذبح وتابوه العهد في الجزء الغربي من الهيكل في مقابل الباب، وعندما تشرق الشمس، وتمر عبر قمة جبل الزيتون، تدخل أول اشعاعاتها التي ترسلها من حافة الجبل نحو المدينة، إلى باب الهيكل الخارجي، من خلال باب الهيكل الداخلي، ومن خلال الباب الداخلي للهيكل تأخذ طريقها حتى تابوه العهد، الذي يضاء بأول حزمة من أشعة الشمس.

أما بالنسبة لكنيسة صعود الرب، فإنها تتلقى دوما أول الاشعاعات، كما تحدثنا عن ذلك أعلاه في ص٦١٢ ، وتعبر من هناك إلى هيكل الرب، وإذا كان لها بابين، أحدهما مقابل الآخر، أي واحد في الجدار الشرقي، والآخر في الجدار الغربي، فوقتها في أثناء الاعتدالين، سوف ترسل الشمس المشرقة أشعتها من خلال هذين البابين، حتى إلى بابي هيكل الرب، وإلى تابوه العهد، وإلى كرسي الرحمة، وإلى الكروبيين، ولهذا أطلق عليه اسم جبل الضياء.

وثانياً، أطلقت عليه هذه التسمية، لأنه في الليل يكون الجبل مضاء من الجهة الغربية بأضواء هيكل الرب، لأنه كانت هناك مصابيح كثيرة مشتعلة في هيكل سليمان، وهذه المصابيح تضيء الجبل المقابل لهم، حسبما تقدم بنا الحديث في ص ٦١١، وإلى هذه الأيام ينتشر الضوء من الهيكل فوق هذا الجبل، لأنه قد قيل بأن لدى المسلمين سبعمائة مصباح مضاءة دوماً فيه، وثمانمائة في الكنيسة إلى جانب الهيكل، وكنت مرة على جبل الزيتون ليلاً، ورأيت من خلال نوافذ الهيكل، وكأن ناراً مضيئة مشتعلة فيه، أو كأن هناك مصباحاً مليئاً بلهب واضح.

وثالثاً، كان يعرف باسم جبل الضياء، لأن كهنة الشريعة القديمة

(العهد القديم) كانوا قد اعتادوا على اشعال نار عظيمة كل سنة في مكان صعود الرب، وكانوا يجلبون معهم عجلة حمراء، مع جميع شعب اسرائيل وراءهم، وكانوا يحرقونها هناك مثلما كانوا يحرقون القربان إلى الرب، وكانوا يجمعون رماد العجلة، ويصنعون ماء التطهير بمزج هذا الرماد معه، وبرش هذه المياه كانوا يطهرون الناس من كثير من الذنوب ضد الشريعة، وكان هذا يعمل مع اجراءات مهيبة كثيراً، وذلك حسبما قرأنا في سفر العدد:١٩، وقد عملوها على الجبل، كما حدثنا جيروم في «حياة وموت القديسة باولا»، ولم يجتمع شعب اسرائيل قط خلال السنة على نار في خارج الأسوار، إلاّ في احتفال احراق قربان البقرة الحمراء، ولهذا أطلقوا الاسم على الجبل من خلال تلك النار وذلك الضوء، أو من خلال الرماد وماء الطهارة الذي حفظ هناك.

هذا وإنه بالإضافة إلى أسرار المسيح وآلامه، هناك سببين من أجل التضحية بالعجلة الحمراء: الأول من أجل غفران الذنب الذي اقترفوه بعبادتهم العجل في القفار، وكان ذلك العجل أحمر اللون، لأنه كان قد صنع للتو من أفضل أنواع الذهب، الذي كان أحمر اللون قبل تنعيمه وصقله، والسبب الثاني هو أن بني اسرائيل قد تعلموا هذا الاحتفال من الوثنيين في مصر، وبما أن الرب كان رحيماً تجاه ضعفهم، لم يقم بتغيير هذا الاحتفال، علماً بأن معناه ومقصده بالنسبة للمصريين هو قديم جداً، ويتطلع على ملكهم أوزريس وينظر إليه بمثابة رب — لابل إنهم اعتقدوا أنه رب — وكان هذا الرجل قد قتل من قبل أخيه تيفون Ty-phon، وكان تيفون هذا صاحب شعر أحمر، غير تقي، ورجلاً شريراً، حيث قام بتقطيعه إلى ست قطع، وبعث بهم إلى أتباعه في أماكن متنوعة، وحدث أن ايزيس زوجة الذي قتل، كانت عملاقة وامرأة لها قدرات فائقة، فضبطت مملكة زوجها، وجمعت أعضاءه مع بعضها، ووضعتهم في صندوق ذهبي، وبنت هيكلاً، وضعت فيه كهنة، وقضت

بتقديم ضحايا لأوزيريس، وأمرت بسبب كراهيتها المقيتة لجريمة تيفون صاحب الشعر الأحمر باحراق الناس والحيوانات ذوي الشعر الأحمر عند قبر أوزيريس، وذلك بمثابة قرابين حرق.

وبناء عليه عندما صارت عبادة أوزيريس معروفة في جميع أرجاء بلدان العالم، فإن الناس رغبوا بالتضحية له، وفق الطريقة نفسها، وكانوا يجلبون إما رجلاً له شعر أحمر، أو ثوراً أحمر، أو بقرة حمراء من أجل الذبح، ولهذا حدث أنه لم يبق في الوجود بين الأحياء رجل له شعر أحمر، وذلك في جميع بلاد مصر، وفي الوقت نفسه نظر في البلدان الأخرى إلى الرجال ذوي الشعر الأحمر نظرة كراهية من قبل الذين عبدو أوزيريس وايزيس، وبسبب تيفون قاتل أخيه، ولشروره، نظر إلى كل رجل ذي شعر أحمر نظرة ريبة بأنه شرير، ولهذا السبب، ولمثل ذلك يرسم المسيحيون يهوذا الخائن على شكل تيفون، ويسيئون معاملة الرجال ذوي الشعر الأحمر، ويهينونهم، حتى وإن كانوا أتقياء جداً، وهكذا يدفع الناس الأبرياء من ذوي الشعر الأحمر عقوبة جريمة هم لم يقترفوها، وقد كتبت اسطورة أوزيريس وايزيس وتيفون في الفصل الرابع من الكتاب الأول، وفي الفصل الرابع من الكتاب الثاني، من «التاريخ القديم» لديودور الصقلي.

ورابعاً إنه عرف باسم جبل الضياء، لأنه كان يضاء بمصابيح وأضواء الكنائس التي قامت عليه، فقد كانت هناك كنيسة صعود الرب، مليئةبالمصابيح، وذلك حسبما تحدثنا في ص٦١١، والكنيسة في الجليل، وكنيسة القديس مرقص، وبيعة بلجيا، وكنيسة المسيح في الآلام، وكنيسة ضريح العذراء المباركة، وكنيسة دموع المسيح، والكنيسة في جيسماني، والكنيسة في بيت فاجي، وكنيسة القديس جيمس، وكنائس أخرى كثيرة، فيها جميعاً استخدمت مصابيح للاشعال، وبناء عليه، ليس جبل الزيتون، ولكن أيضاً جبل الهيكل، والمدينة المقدسة في مقابلته،

كانوا جميعاً مضائين.

وخـامساً،إنه عـرف باسم جبل الضيـاء، بسبب أن الزيت، الذي هو غذاء المصـابيح، تنمو أشجاره هناك بكثافـة، ولهذا أطلق عليه اسم جبل بساتين الزيتون، أو الزيتون، الذي تنمـو أشجاره هناك بأعداد كبيرة من قبل ذاتها، ومن دون أن يزرعهـا أحد، والزيت الذي ينتج، يستخـدم في هذه الأيام لتغذية المصابيح في هيكل الرب، وهنا أشجـار زيتون ضخمة جداً، وقـديمة كثيراً، إلى حـد أنني أعتقد أن بعضهم مـوجود هناك منذ أيام المسيح، ومستمر حتى أيامنا هذه.

وقال القـديس أوغسطين في تعليقاته على انجيل القـديس يوحنا، بأن جبل الزيتـون هو جبـل المسح بالزيت والدهـن به، وهو جبل الغـذاء السمين، والشبع، والنقـاء والشفاء، وقد قـال هذا بسبب أعـداد أشجار الزيتـون التي تنمـو هناك، والتي ثمارها دهنية، وأرضيـة، وطيبـة لذيذة، ذلك أن ايزودورس قـال بأن زيت الزيتـون يصبح من خـلال مـرارة جذوره غذاء للمصابيح، ودواء للجرح، وإنعاشاً للجائع.

وسادسـاً، عرف باسم جبـل الضياء، لأنه أعلى من الجبـال الأخرى، ومنه يمكن للانسـان أن يرى بنور عينيـه المنطقـة من حـوله بالطول وبالعرض.

وسـابعـاً، إنه عـرف باسـم جبل الضيـاء، لأنه بهيج أن تنظـر إليـه، وباعث على سرور الذي يتطلع إليه من الرابية المقـابلة، لأن عليه بساتين الزيتون، وأشجار التين، والرمان، وفواكـه أخرى، وفي العصور القديمة نمت أشجـار الأرز والصنوبر، والكروم، وكل مايحتـاجه الانسـان، على سفـوحـه. ويكفي مـا قلناه عنه، وورد ذكـر جبل الزيتـون هذا، ووادي شعفـاط لدى القـديس برنارد في قـداسـه لفـرسـان الهيكل، الاصحـاح الثامن.

كهف القديسة بلجيا المذنبة والتائبة

وعندما فرغنا من عمل كل ما ذهبنا إليه ومن أجله، في كنيسة صعود الرب، خرجنا منها، ونزلنا بضع درجات إلى طريق يقود نزولاً من خلال مكان منحدر إلى الوادي، وبعدما نزلنا قليلاً خلف الدرجات، وصلنا إلى بيعة مظلمة بعض الشيء هي بيعة القديسة بلجيا، حيث فيها أنجزت أعمال توبتها، وفيها أيضاً أنهت حياتها، ووقف أمام باب الكهف مسلم، منعنا من الدخول، حتى دفعنا له بعض المال وبعد حصوله على المال سمح لنا بالدخول، وعندما دخلنا إليها، قرأنا الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات(+)، فضلاً عن ذلك، تأثرنا كثيراً واستفدنا من درس توبة القديسة بلجيا، فقد كانت —حسبما ورد الخبر في حياة الآباء — امرأة طموحة وعابثة في المجتمع القيادي لأنطاكية، وكانت فضلاً عن هذا شهوانية وغير خلقية، وبعد كثير من الجرائم وأعمال القتل التي اقترفت من أجلها، تحولت وقالت: «أنا بلجيا، بحر من الذنوب، يتدفق بأمواج من الشرور، وأنا بؤرة من الفساد، وأنا شرك، ورسن للأرواح، وخادعة لنفسي، وغاشة للآخرين، لكنني الآن أرتعد أمام هذه الأشياء كلها»، واعلم أن هذه الحكاية قد جرى عرضها بشكل جميل جداً في تاريخ أنطونينوس Antoninus، القسم الأول، المجلد السابع، الفصل التاسع والفقرة السادسة.

وهكذا بعدما اعترفت بذنوبها، حملت نفسها إلى الكنيسة، وبعدما تلقت التعليمات من قبل أسقف أنطاكية، باعت كل ممتلكاتها، وأعطت المال إلى الفقراء، ولم ترغب بإعطاء ممتلكاتها إلى الكنيسة والكهنة، بل إلى المحتاجين فقط، عادة نفسها أنها غير جديرة بممتلكاتها، لأن هذه الممتلكات ينبغي أن تتحول إلى استخدامات مقدسة.

وبعدما فعلت هذا، غيرت ملابسها، وغادرت أنطاكية بشكل سري، وأخذت طريقها إلى جبل الزيتون المقدس، ثم حملت نفسها إلى هذا

الكهف، حيث عـاشـت حيـاة دينيـة كـاملة، تعجـب منهـا جميع سكان المنطقة، ولم يعـرف أحد من الناس بأنها كانت امرأة، حتى مـاتت، وكان ذلك أثناء غسيلهـا بحضور الكهنة المقـدسين والأساقفـة، الذين تولتهم الدهشـــة تجاه مـا رأوه، فـــدفنوها في زنزانتهـا، حيـث من الممكن رؤية ضريحها حتى هذه الأيام.

وهناك ممر ضيق بين ضريحها والجدار القريب منه، وعليه كل من يود المرور من خلال هذا الممر يمكنه فعل ذلك بصعوبة بالغة، وعليه أن يجر نفسه من خلال عمل حجري، وهناك حكاية رائجة بين الناس أن مامن انســان حي مـذنب، يمكنه المرور مـن خـلال هذا الممـر، وأعـدّ أنا هذا أسطورة، لأننا مـــررنا جميعـاً من خـلالـه، هذا ولست أدري فيما إذا كنا جميعا في حال النعمة، الرب وحده يعلم.

المكان الذي صيغت فيه أحكام العقيدة الاثني عشر من قبل الرسل

وبعد مغـادرتنا لكهف القديسة بلجيـا، نزلنا على محاذاة طرف الجبل، ومـررنا بالطريق الذي يقـود إلى بيت فـاجي، وبيت عنيـا، وتسلقنا على جدار من الحجـارة الجافة إلى بستان، ووصلنا إلى خـرائب كنيسة كبيرة، كـانت تعـرف باسم كنيسـة القـــديس مـرقص الانجيلي، وكـان في هذه الكنيسة فيما مضى غفـرانات، مثلما هو موجـود في هذه الأيام، وحصلنا على هذه الغفرانات بتلاوتنا للصلوات(+).

ويقـال بأن هذه الكنيسـة قـائمـة في المكـان الذي صـاغ فيـه الرسل المقـدسـون أحكام العقيـدة، فهنا اجتمعـوا مع بعضهم لوحـدهم، حتى يكونوا بعيـدين عن ضجيج النـاس، وبوحي من الرب صـاغـوا أحكام العقيدة، وبعد صيـاغتهم لهذه الأحكام انتقلوا إلى جبل صهيون، ودعوا إلى عقـد أول مجمع مقدس للكنيسـة المسكونية، وعـرضوا أمـام المجمع

الأحكام، والعقيدة، التي تناقشوا حولها، ثم أعطوا كل ذلك إلى الكنيسة لنشرهم في الخارج في جميع أرجاء العالم، وذلك حسبما تحدثنا من قبل في ص ٤٤٦، واعترفنا في هـذا المكان مجدداً بالعقيـــدة نفسهـــا، وتلـونا الأحكام.

المكان الذي علم الرب فيه تلاميذه التفوه بالصلاة الإلهية

ولدى مغـادرتنا للبستـان الذي فيـه الكنيسـة المتقـدمـة الذكـر، نريد الطريق الذي يمضي نزولاً على الطـرف المنحـدر للرابيـة، وصلنا ونحن نازلين إلى الوادي، ثم نزلنا وسرنا مسـافة قليلة إلى مكان نحن فهمنا أنه قد قام فيـه فيها مضى كنيسة أو مزار، وكانت هذه الكنيسـة تعرف باسم «بيت الخبـز»، وقد تلونا هنـا الصلوات المحددة، وتلقينا غفـرانات(+)، ويقـال بأن هذه الكنيسـة قـد بنيت فـوق المكان الذي نقـرأ عنه في الاصحاح الحادي عشر من انجيل القـديس لوقا، أنه عندما كـان يسوع يصلي في أحـد الأمـاكن، قـال واحـد من تلاميـذه له: «يارب علمنا أن نصلي»، فهنا علمهم الصـلاة الربـانيـة، التـي هي الأعظم قبـولاً لدى الرب، لأنها قصيرة وعظيمة الفائدة، هذا وكان قد تفوه بهذه الصلاة من قبل فوق أحد الجبال في منطقـة الجليل، في قداس طويل، حسبما قرأنا في الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى.

وعندمـا صلى الرب لوقت طويل في هذا المكان، تعجب تلاميـذه من صلاته، وسألوه ان يتعلموا هذه الصـلاة، فأعطاهم وقتها الصيغة نفسها للصلاة التي تقدم له التفوه بها في قداس عام، وهذه الصلاة متفوقة على الصلوات الأخـرى، لأن التفـوه بها جـاء من فم المخلص نفسـه، حيث كثف فيهـا وجمع كل صلواتنـا البشرية في جملة صحيحيـة واحـدة، وبناء عليه قلنا هنا الصـلاة الربانية بخشوع أعظم من الخشـوع المعتاد، وقبلنا هذا المكان مـراراً، والذي أعتقـده بأن هـذه الكنيسـة قـد عـرفت باسم كنيسة خبـز الرب، لأنه مطلوب منا ان نسأل هناك من أجل الخبز، وأن

نسأل أيضاً من أجل الجسد وكذلك من أجل الروح، ويوجد في هذا المكان في اليوم الحالي، بركة عميقة، لكن من دون ماء.

المكان الذي وعظ المسيح فيه حول المباركات الثمانية

وتركنا بيت الخبز، وتابعنا طريقنا نازلين من الرابية، حتى وصلنا إلى مكان كان فيه طريق واسع مغطى بحجارة ملساء، أي كأنه قد رصف بالرخام، ويقولون بأن المسيح قد جلس في هذا المكان، وردد المواعظ لتلاميذه ثم تناول القداس الوعظي ثانية حول المباركات الثمانية، وهو ما كان قد وعظ به من قبل على جبل بالجليل، وكذلك في منطقة منبسطة، كما اتضح لدينا من قضية الصلاة الربانية، وهذه المسألة — على كل حال— لايمكن تجميعها من الانجيليين، ففي الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى بأنه وعظ حول المباركات الثمانية (أي كرر قوله طوبى، ثماني مرات حول ثمانية مواضيع) على جبل، وجاء في الاصحاح السادس من انجيل القديس لوقا، بأنه كرر القداس نفسه على منبسط من الأرض عند سفح جبل في منطقة الجليل.

وعندما جاء فيما بعد إلى اليهودية، من المعتقد أنه وعظ بها مرة أخرى في هذا المكان، وهذا ليس موجوداً في الانجيل، ولكنه أثر قديم روي عن القديسين، فيه أن هذا القداس الوعظي الثمين جرى التفوه به في هذا المكان أيضاً، ذلك أن كل واعظ لديه موضوع جيد ومفيد، غالبا سيتولى الوعظ حوله مرات عديدة، في المكان نفسه، وفي أماكن مختلفة. وقمنا في هذا المكان بالانحناء بأنفسنا مصلين، وتلقينا الغفرانات المحددة(+).

المكان الذي تنبأ الرب فيه إلى الحواريين حول الحساب الأخير

وتحت المكان المتقدم الذكر، وصلنا إلى المكان الذي جرى الحديث عنه في الاصحاح الثالث عشر من انجيل القديس مرقص، وذلك حيث

جلس يسوع مع تلاميذه، وحيث أخذوا يسألونه حول تدمير المدينة والهيكل، الذي رأوه بأعينهم، وأخبرهم بأشياء كثيرة حول العذاب الذي سينزل بهم، وحول المسيح الدجال، والحساب الأخير، والعلامات في الشمس، والقمر، والنجوم، التي نقرأ حولها في الاصحاح الحادي والعشرين من انجيل القديس لوقا. وقبلنا في هذا المكان طبعات القدم المقدسة وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي اعتادت العذراء المباركة على استرداد أنفاسها فيه والاستراحة أثناء قيامها بحجها

وعندما نزلنا أكثر قليلاً من المكان الذي جلس فيه المسيح، وصلنا إلى المكان الذي اعتادت مريم العذراء المباركة أن تجلس فيه وترتاح أثناء حجها اليومي، ونعلم من كتابات الآباء، ومنهم جيروم في رسائله، وكتابات أوغسطين، وأنسلم، وبرنارد، وكتابات القديس يوحنا الدمشقي في قداسه حول صعود العذراء، حيث ذكروا بأن مريم العذراء المباركة، كانت تقوم يومياً بعد صعود ابنها بزيارة خاشعة تماماً إلى جميع الأماكن التي جرى فيها صنع خلاصنا، ومع أنها كانت بالروح، إنما طوال بقائها بالجسد حية، تحركت بوساطة المشاعر الجسدية، ولذلك كانت تنتعش بزيارة هذه الأماكن، وكانت يوميا تلتهب بمشاعر قوية جديدة، هي مشاعر الحب، وبذلك كانت تشرق بقوة أكثر بوساطة زياراتها المقدسة.

ودعونا على هذا ننظر إلى هذا الحج الذي هو في غاية الخشوع، أي حج مريم العذراء المجيدة، على أنه عمل للممارسة التقوية، فقد عاشت العذراء المجيدة، تبعاً للاعتقاد الرائج، أربع عشرة سنة بعد صعود ولدها، وقد أمضت هذه السنوات كحاجة، تنتقل بالفعل بالجسد من مكان إلى آخر، وكانت قد نذرت القيام بثلاث حجات، ما دامت حية

في هذا العالم، والحجة الأولى كانت سنوية، وكانت الثانية شهرية، والثالثة حجة يومية، ففي الحجة السنوية، من المعتقد، أنها نزلت كل سنة من القدس إلى الناصرة، وزارت هناك بخشوع عظيم، المكان الذي جرى فيه تحيتها من قبل الملاك، متذكرة، ومستعيدة في عقلها جميع البهجة التي شعرت بها لدى حملها بابن الرب، وعادت شاكرة للرب، من أجل المنافع الهائلة التي أضفيت من قبله، على العالم أجمع من خلالها، في ذلك المكان المقدس.

وكانت بعد انجازها لهذا تعود بوساطة الطريق نفسه، الذي سارت عليه بعد حملها بابن الرب، حين بادرت مسرعة إلى جبال اليهودية، وحيث اليزابت، وبتواضع تولت خدمتها عندما ولدت يوحنا، وذلك حسبما ورد الخبر في الاصحاح الأول من انجيل القديس لوقا، وعندما كانت عائدة عبر هذه الطريق، تجدد في قلبها أحلى أنواع البهجة، خاصة عندما وصلت إلى المكان الذي أشرقت فيه روحها، عندما غنت تلك الترنيمة الحلوة، وهي ترنيمة Magnificat ، التي بسببها انتشى الطفل ببهجة في رحم أمه، وقفز، وابتهج ابتهاجاً عظيماً، وبعدما زارت هذا المكان عادت إلى القدس.

وثانيا، من المعتقد أنها ارتحلت من القدس إلى بيت لحم، مرة كل شهر، وأنها كانت تدخل هناك إلى الكهف الذي انتشر منه النور الأبدي فغطى عالمنا، وهو نور ربنا يسوع المسيح، فمن هو الذي يمكنه أن يصف النشوة التي شعرت بها في هذا المكان، فعوضاً عن الغفرانات المطلقة من أجل مسح الذنوب، الأمر الذي يناله المذنبون في هذا المكان، هي حملت معها بالإضافة إلى زيادة عزلتها، إشراقاً مطلقاً وراحة في عقلها، وعليه كم هو نافع وجميل هذا التبادل.

وثالثا، كانت حريصة في كل يوم على زيارة الأماكن الأعظم قداسة في القدس وأحوازها، ففي الصباح الباكر، ومع اقتراب الفجر، وبعد

تلقيها القربان من القديس يوحنا على جبل الرب، جبل صهيون، كانت تمضي مع وصيفاتها، وتدخل إلى تلك القاعة الكبيرة، التي جرى تجهيزها من أجل العشاء الأخير، حيث تأملت حول الهبة الهائلة التي أضفيت هناك على الجنس البشري، كما كانت قد نظرت في أعمق الأسرار، وقبلت المكان الذي جلس عليه ابنها، ومن هناك كانت تذهب إلى بيت حنان (عناس) الذي كان الكاهن الأعلى، وبعد صلاتها هناك كانت تدخل إلى قاعة قيافا (كيفاس)، وتتأمل ملياً، لكن ليس من دون أسى، وتفكرت بالعذاب الذي تعرض له ابنها في ذلك المبنى. وكانت تنزل من هناك، من جبل صهيون في خارج المدينة، وتتقدم إلى صخرة الصليب، التي كانت تعانقها، وتقبلها بحنان، مشفقة على ذلك الذي جرى صلبه هناك، ومع ذلك كانت تبتهج تجاه تقواه الثمينة وتعلقه بالذين تولى خلاصهم.

وكانت من هناك تدخل إلى بستان قبر الرب، ومن ثم تتوجه إلى المكان الذي جرى فيه تحنيط جسد ابنها الذي هو الرب، ودهنه وحفظه بالعطور، فهناك كانت تركع وتقبل الحجرة، وبعد هذا كانت تقوم بسرعة وتنهض من هناك، وتأخذ طريقها إلى ضريح الرب، فتدخل إلى كهفه، وتحتضن ضريحه، وهي ممتلئة في تلك البقعة ببهجة لايمكن وصفها، واثر مغادرتها لهذه الأماكن كانت تنزل من رابية أكرا، باتجاه باب المدينة، وتسير على طريقها، إنما وهي متفكرة بابنها، ومتذكرة كيف أنه اقتيد خارج المدينة، وسار على طول الطريق وهو مثقل بحمله للصليب الثقيل، وكانت تجثوفي الأماكن التي رأت ابنها فيها، عندما سقط تحت ثقل الصليب، أو عندما تعرض لحملة قاسية من الإهانات والأذى.

وبهذه الوسيلة كانت تدخل إلى المدينة من خلال باب القضاء، فتصعد إلى قاعة قضاء بيلايطس، وتقبل الأماكن التي جلد ابنها فيها

وتوّج، مع تقـديم الشكر، ولدى مغـادرتها لذلك المكان، كـانت تذهب إلى بيت هيرود، وتقبل أماكن طبعات قدم ابنها هناك، ومن هناك كانت تمضي إلى هيكل الرب، وبعـد الصـلاة هناك، كـانت تغـادر الهيكل من الطرف الآخـر، وتأتي إلى البـاب الذهبي، حيث كـانت تستعيـد مشهـد دخول ابنها في يوم أحد السعف.

وبعـد مرورها من هناك، أي مـن ذلك الباب، كـانت تنزل إلى وادي شعفاط، حيث هناك كانت تصلي لصالح جميع الجنس البشري، من أجل أن يكون جديراً بالوقوف هناك غير مقيد في يوم الحساب الرهيب، لأنها عرفـت أن مامن صلاة كـان لها وزنها في ذلك اليوم، حتى صـلاتها هي ذاتها، ولذلك توجهت مقـدماً وسلفـاً بالخطـاب إلى القاضي، فـوق تلك البقعـة، وكانت بعـد هذا تعبر الجدول، وتبين لمرافقاتها مكان ضريحهـا، وكانت تدخل إلى الكهف، ولدى دخولها له كانت تمتلىء ببهجة لايمكن التعبير عنهـا، لأنها كـانت تعـرف أنها سـوف تتسلم في هذاالمكان أولا بهجة كمال ثمار عملها، أي أنها سـوف ترتدي ثوب مجد لكل من الجسد والروح، ومن ثم سـوف تنتشل من هذا العـالم الشرير، ولسـوف تمجـد فوق جـوقة الملائكة، وبعد هذا، كانت تغـادر مكان ضريحها، وتمضي إلى الأعلى قليـلاً، وتـدخل إلى الكهف الذي صلى فيـه الرب يســوع ثلاث مرات عندما كان في آلامه العظمى، وهنا أيضاً كانت تقوم وهي متفكرة بآلامه بالجثـو بركبتيها على طبعات قدم ابنهـا، وتبقى مثابرة في صلواتها أطول من المعتـاد، وبخشوع أعظم مـن أي مكان آخر، وتقبل الأمـاكن التي اعتقل فيهاابنها.

ولدى مغـادرتها لهذا المكان، كـانت تبتعـد عن الوادي، وتذهب إلى الكنيسة على جبل الزيتون، وذلك حيث وقف يسـوع ونظر نحو المدنية، وبكى، فهنا أيضاً كـانت تلتفت بوجهها نحو المدينة وتبكي سـوء حظها بتنهدات كلهـا عاطفـة وشفقة، وصعدت من هنـاك فوصلت إلى الجليل

والبيت الريفي، حيث تأملت حـول مجد قيـامـة ابنها، وبهجـة تلاميـذه، واثر اكمالها لصلاتها هناك جاءت تسير على حافة الجبل نحو المكان الذي قابلهـا فيه الملاك في اليوم الأخير من حجهـا، وأخبرها وأعلن بأن وقت مغادرتها (لهذه الحياة) بات وشيكاً.

وصعدت من هناك وتابعت سيرها، ووصلت إلى مكان صعود ابنها، حيث قبلت بخشوع مطلق طبعات القدمين المقـدسة، والظاهرة بوضوح على الصخرة، وبما أن هذا المكـان موائم بشكل خـاص للصلاة، أرادت أن تغادره متعجلة، حتى تمتلك وقتـاً أطول فيما بعد لتمضيـه هناك فقد رغبت بالنزول وهي مشرقة النفس إلى الطرف الآخر من جبل الزيتون، وأن تمضي خلال بيت فاجي، وبيت عنيا، من أجل زيارة معارفها هناك، والأمـاكن التي انوجـد فيها ابنهـا، مثل بيت مـرثا، وقبر لعـازر، وبيت سمعان المجذوم.

وبعدما أكملت زيارتها هناك، طلبت ثانيـة المنطقة المرتفعة، وتوجهت صعوداً، وهي نحيفة وضعيفة، كأنها اكليل من دخان، ذلك أنها صارت متلاشيـة بسبب أعمال توبتها المتنـوعة، وكانت تحترق في داخلهـا بلهيب الحب التقـوي، وهكذا نشدت بمظهـر مشرق، وبشوق لايمكن وصفـه القمـة المقدسـة لجبل الزيتـون، ومن هناك نزلت، بغية العـودة إلى مكان صعـــود الرب، حيـث ذهبت وكأنها هي شخصيـا كـــانت على وشك الصعـود مبـاشرة ولقاء ولدهـا، وعندما كـانت هناك عـانقت طبعـات الأقـدام المتقدمـة الذكـر مع قبـلات كثيرة، وكانت ترفـع أحياناً عينيهـا وأحياناً أخرى ذراعيها إلى السماء وكانت فوق هذا المكان يتولاها شعور بالبهجـــة العظيمـــة، لـدى تفكيرها بأنه هناك أضفـي على ابنهـــا أعظم تشريف ممكن وعليهـا نفسها، عندما أخـذ ذلك الجسد الذي ولـد منها، ورفع من هناك، ومجد فوق جميع السموات.

ولدى مغـادرتها لهذا المكان، كانت تأخـذ طريقهـا عائـدة إلى البيت،

وتسير وهي نازلة من الجبل، حيث كانت ستمر بالمكان الذي وضع فيه الرسل مع بعضهم العقيدة، التي علمتهم إياها شخصياً، فهناك كانت تقف بعض الوقت، وتصلي من أجل الذين اعتنقوا العقيدة، ومن هناك كانت تمضي إلى المكان الذي علمهم الرب فيه أن يقولوا: «أبانا»، حيث كانت تقف، وتتلو تلك الصلاة، وكانت تقدم الشكر، وهي سائرة في المكان الذي جرى الوعظ فيه بالمباركات الثمان.

ومن هناك كانت تنزل إلى المكان الذي جلس فيه المسيح مع تلاميذه، وأخبرهم بالحكاية المتعلقة بيوم الحساب الأخير، حيث كانت تقدم هناك صلاة من أجل أن يكون رحيماً في قدومه الثاني، ومن ثم كانت تتابع سيرها حتى تصل إلى المسكن، ذلك أنني قد قلت بأن نهاية حج مريم العذراء المباركة، قد كان مكان استراحتها واستردادها لأنفاسها.

وفي الأيام التي كانت فيها العذراء مريم حية، قامت هناك أماكن للسكنى شغلها فلاحون جيدون، كانوا يراقبون بدون توقف مرور العذراء، فكانوا يدعونها للجلوس وانعاش نفهسا في الظل، وغالباً ما كانت بدورها تخرج عن الطريق، وتجلس وتريح أطراف جسدها، وعلى كل حال هي لم تكن تشعر بالاجهاد والتعب من خلال العمل، لكنها كانت تخفي هذا الامتياز صدوراً عن التواضع، وذلك مثلما أخفت امتياز كونها عذراء في طقوس طهارتها، وامتياز التحرر من الألم، عندما كانت على حافة الموت، فقد أخفت هذا الامتياز، برقودها في فراشها، وكأنها ضعيفة تعاني من المرض، وذلك حسبما تقدم الوصف في ص٤٤٨.

وبعدما استردت قواها، التي لم تفقدها، بل كانت معطلة في المكان المتقدم الذكر، نزلت من سفح الجبل إلى الوادي، حيث بعدما زارت أضرحة بعض الأنبياء، وصلت إلى قبر قرينها الطاهر جداً، أي يوسف الذي دفن هناك على حافة الصخرة، فقد كانت تقف أمام هذا الضريح

وتتـــذكـــره بسرور، ومن هناك كـــانت تعبر على الجسر فـــوق الجدول، وتصعد ثانيـة إلى جبل صهيون، وعندما تصبـح هناك، كانت تذهب إلى المكان الذي تلقت فيـه هي نفسها مـع التلاميـذ، الروح القدس، وكـان ذلك في يوم عيد الحصاد، وهناك ثانية كانت تمتلىء ببهجة جديدة.

ومن هناك كـــانت تنزل، وتقصـــد ضريح النبي داوود، الذي كـــان جـدها، وبعد هذا كـانت تذهب إلى مكان اعتكافها، الذي كـان قريبـاً، ومن المعتقـد تقويـا، أنه كان لديها هناك أثريـن مقدسين، هما عبـارة عن حجرتين كبيرتين، جلبتا لها من جبل سيناء بوساطة الملائكة، فقد جلبت أولاهن من المكان الـذي فيـه رأى مـوسى العليقـــة تحترق من دون نار مستهلكة، فأمـام هذه الحجرة كانت تقـدم صلاة شكر مناسبـة من أجل الحفاظ المجيد على عذريتها، أمـا الثانية فقد جلبت من قمة جبل سيناء، حيث أعطيت الوصايا العشر إلى موسى، وأمـامها كانت تدخل في تأمل حول روعة هذه الوصايا، وتقدم الشكر للرب، أنه من خلالها أعطى إلى العـالم، الذي من خـلاله، ســوف تكتمل الشريعـة في كل نقطة وفي كل عنوان، وذلك حسبما قـرأنا في الاصحـاح الخامـس من انجيل القـديس متى، وبوجود هاتين الحجرتين لديها كـان بامكانها زيارة صحراء سيناء، لأنها كانت في الحقيقة حاجة، ومن أجل رواية عن هاتين الحجرتين انظر مـاتقـدم في ص٤١٢، وبعـد فـراغهـا من صلواتها في هذا المكان كـانت تنهض لتعود إلى بيتهـا، وبذلك كانت تصل بحجهـا إلى النهاية في ذلك اليوم.

ومن أجل رواية عن بيت العذراء مريم الأعظم قداسة، وذلك حيث سكنت انظر مـاسيأتي فيما بعد، وحول مـوضوع هذا الحج الذي قـامت فيه العـذراء مريم الأعظم قـداسة، قـال أوديليو Odilio ، الذي كان لاهوتيـا قديماً للكنيسة: «إذا مـا أردنا أن نعـرف ما الذي فعلتـه العذراء المبـاركة بعـد صعـود الرب، فبـدون شك، زارت مراراً أمـاكن الميـلاد،

والآلام، والقيـامـة، والصعـود، وبكت هناك وطبعت عليهم قبـلاتها بفمها الأعظم قـداسة»، وتحدث القـديس جيروم في قداسـه عن صعود العـذراء وعن هذا الحج، كما يلي: «ربما قـد نفترض من خـلال عظمـة حبها، كانت ستسكن في المكان الـذي ولد فيه ابنها، وتوفي، ودفن، فبين هذه المواضع كان حبها سيتغذى بانعكاسات تقوية، حيث من المعتقد أن في ممتلكات الحب، من الممكن دوماً العثور على ما هو متشوق إليه».

وتحدث عن هذا الحج أيضـاً أنطونيـوس في الـ Summa، الجزء الرابع، المجلد ١٥، والفصل ٢٣، والفقـرة الثـانية، وعلى كل حـال رأى هذان الكاتبان أننا ينبغي أن نؤمن بأن حج مريم العـذراء المباركة، هذا، كان بالحري بالروح أكثر من أن نقدره بالشعور الفعلي، مع أنهما لم ينكرا هنا أنها قـامت بالفعل بهذا الحج، وبـذلك حصلت على فضيلة عظيمـة، ولقد حصلت على الفضيلة في كل عمل عملته عن طواعية، وبالتالي عن كل عمل عملتـه في حيـاتها، والسبب في هـذا هو أن الذكـاء دومـاً على صواب، مالم يمزج نفسـه مع تخيلات عبثية، ومن ثم يضل بهم، ولنعلم أن ذكـاء العذراء المبـاركة كـان واضحاً إلى حـد عدم فـائدة التخيـلات والفرضيات، وبناء عليه حصلت على الفضيلة بوساطة حجها.

والسبب الثـاني هو هذا: أينما كان العقل غير معـرض للخطأ في اتخاذ قـراره، لايمكنه وقتهـا اختيـار أشيـاء كثيرة، بل اختيـار الشيء الأخير والأفضل بينهم، وهذه الشروط جميعاً حاضرة في قضية العذراء المباركة، ولهذا كتب في الاصحـاح العـاشر من انجيل القـديس لوقـا: «اختـارت مريم النصيب الصالح».

وثالثا قال (بولص) الرسـول في الاصحاح العاشر من الرسالة الأولى إلى أهل كـورنثـوس: «فـإذا كنتم تأكلون أو تشربـون أو تفعلون شيئاً فـافعلوا كل شيء لمجد الرب»، ولم يستطـع أي قديس الحفـاظ على هذا المبدأ كاملاً إلا مريم العـذراء الأعظم مباركة، التي وجهت دوماً بشكل

فضيل حـركــات إرادتها الحرة، وحصلت على المثوبة بفعلهـا كـذلك، ولذلك قال أوديليـو: «شيء واحد نعرفه بشكل مـؤكد هو أن كل عمل من أعمال مريم، قد صنع دوماً، وتفكير الرب مـاثل أمام عينيها»، وقال جيروم في قداسـه حول صعـود العذراء: «أنا أفترض أنه إذا مـا أخذت قلوب البشر كلها، مع جميع القوى العقلية مجتمعـة لما كانت كافية لتفهم فهماً كليـاً كيف أنها استطـاعت أن تستـوعب الحب المقـدس في قلبهـا، وكيـف أنها تحركـت بـواسطـة الأسرار السماويـة حتـى تمتلىء بـالـروح القدس، أثناء تقليبها في عقلها لكل ماسمعته، ومارأته، وما عرفته».

وواضح من هذا، أنها عندمـا كـانت كحـاجـة من مكان إلى مكان، كانت العـذراء مريم الأعظم مباركة، مع أنها كـانت تقوم بعمل فضيل، كـان مع ذلك من الممكن، لا بل من المتـوجب، فعل ذلك واستخدامـه بشكل أحسن، حيث قال الرسول في الاصحـاح الثاني عشر من الرسالة الأولى إلى أهل كـورنثوس: «لكل واحـد يعطى اظهار الروح للمنفعـة» وقال في الاصحـاح الرابع من الرسالة الأولى إلى تيمـوثاوس: «الرياضة الجسدية نافعة لقليل، ولكن التقوى نافعة لكل شيء».

وعلى هذا من الممكن أنها أهملت هـذه الرياضـة الجسـدية، وكـرست نفسهـا كليـاً إلى الممارسـات التقـوية في التأمـل النقي والسكون، ومن المعــروف بشكل جيـد أن الـذين يتجـولـون بالجسـد يضلـون بالروح، وجواباً لهذا يمكن أن نقـول بأن مريم العذراء الأعظم مباركـة لها امتياز خـاص، هو أنها على انفـراد، وفي الوقت نفسه يمكنهـا أن تعيش حيـاة عمل، وحيـاة تأمل، الامتياز الـذي لم يمنح لأي انسان آخـر، فلبعضهم منحت حياة عمليـة، وللآخرين حيـاة تأملية، وبعضهـم — الرسل على سبيل المثال — عاشوا الحيـاتين، لكن في أوقات مختلفة، لكن الذي منح إلى مريم العـذراء الأعظم مباركة هو أن تعيش الحيـاتين معاً في اللحظة نفسهـا، وعلى هذا كـان بامكان الطفل أن يتغـذى بوسـاطة عملهـا

الظاهري، وتأملها الربـاني كان يتغذى بوضعهـا الداخلي، وكان بإمكانها التحـرك من مكان إلى مكان، لكـن —مع ذلك — لم تبق عقلهـا مثبتـاً دونها حركة على هدفه المحدد، وتخبرنا التقوى الممدوحة للعذراء المباركة أنها بقيت دومـاً في تقـوى جـزلة، الحالة التي عـدد قليل من القـديسين وصل إليها، للحظات خـاطفة، على سبيل المثـال خلال مـراحل متقطعة وطويلة جداً.

وإلى جـانب هذا أخبرنا ألبيرتوس، أنها أسهمت يـوميـاً في قـداس القربان، حسبما تقـدم الوصف في ص٤٤٨، وبذلك امتلكت عقـلاً مثبتاً بحيث مامن شيء رأته أو سمعته كـان يمكن أن يشغلها ويضللها، ففي كل يوم، كـانت قبل انطلاقهـا وخروجهـا لحجها، تستمع إلى القـداس، وتتصل بالتقوى الأعظم التهـاباً، وبذلك كانت تتحرك بحمى روحـانية عائدة للرب، وليست عائدة لها نفسها.

ويبـدو أن هناك سبباً آخـر حـول لماذا تـوجب عـدم خـروج مـريم العـذراء الأعظم مبـاركة وظهـورها يوميـاً، هو خشيـة امكانيـة تسبيب الدمـار لأي انسـان، لأننا ينبغي أن نعتقد أنها كـانت الأجمل في الجسـد وكذلك بالروح، ذلك أن الروح القدس قد قال لها: «أنت جميلة من كل جانب، ليس فيك مايمكن أن يـلام»، كما أن السن ومتاعب الحياة التي انقضت تحت الأحكام الديرية لم تؤثر عليهـا، والجواب على هذا هو، إن رؤية العذراء لايمكن أن يقود أي انسـان نحو الذنب، وأخبرنا القديس بونافنشر Bonaventur ، أنه أخبر صـدقـاً من قبـل يهود، أنه لدى رؤية العذراء مريـم المباركة، ومع أنها كانت جميلة جـداً، مامن أحد أثير بشهوانيـة شريرة ملحة، بل إن جميع المشاعر من هذا القبيل كـانت تخمد لدى الناظر إليهـا، بمظهرها الرباني، وكأن ندى عـذريا لطيفاً صـدر من عينيها، أو أشرق من عقلهـا اللطيف جداً، وذلك على عكـس ما يحدث لدى الاثارة برؤية امرأة شهوانية خاطئة.

علاوة على ذلك، يبدو أن الظهور اليومي للعذراء مريم العظيمة المباركة أمام الناس، كان من الممكن أن يعطي فرصة لمزيد من الغيرة بين اليهود الشاعرين سلفاً بالغيرة، لأنهم بسبب الابن كانوا يشعرون بكراهية عظيمة تجاه أمه، وعندما كانوا يرونها تمرّ خلال المدينة كان الممكن استثارتهم إلى حد الاعتداء عليها ثورة وغضباً، وأجيب أنا شخصياً على هذا بكلمات جوابي المتقدم، وهو إنه طالما أن منظرها كان يطفيء النيران الشهوانية، كذلك كان يخمد ألهبة الغيرة، والغضب والكراهية، وهكذا كان من ينظر إليها يفقد الحمية الوحشية والغضب، ويصبح تقياً ومحترماً تجاهها، ولهذا كانت محترمة من قبل الجميع، وينظر إليها على أنها قوية، وأخلاقية، وأمينة، وسيدة فاضلة، وهكذا نقرأ في الاصحاح الرابع والعشرين من الحكمة «تعبدت في الهيكل المقدس أمامه، وبذلك تأسست في صهيون، ومثل هذا أعطاني في المدينة المحبوبة راحة، وفي القدس كانت قوتي، وتجذرت بين شعب شريف، لابل حتى بين حصة ميراث الرب».

وبناء عليه، حتى وإن كان اليهود قد امتلأوا حقداً ضد ولدها الفائق العذوبة، مامن واحد أساء التصرف مع العذراء، وعلينا عدم تصديق الرسامين الذين مثلوا يسوع، وهو مقاد يحمل الصليب وأناس يضربون رأس العذراء، ويركلونها بأقدامهم، وينبغي أن نضع في عقولنا حكمة هوراس:

«العالم كله يعرف، أن مامن شيء مطلقاً

لم يتجرأ الرسامون على رسمه، أو الشعراء على غنائه»

ويكفي ما قلناه عن حج العذراء المباركة جداً، الذي هو بشكل خاص رأيت أنه موائم لاقحامه في كتاب حجي وجولاتي، وذلك حتى تكسب جولاتي تسويغاً أفضل، وبناء عليه جلسنا في المكان الذي

اعتادت مـريم العذراء المبـاركة جـداً على انعاش نفسهـا فيه، واستردنا أنفـاسنـا وأرحنا أنفسنا، وكـان ذلـك بعـد تلاوتنا لصلـواتنا وتلقينا غفرانات(+).

اهرام شعفاط الذي منه نال الوادي اسم وادي شعفاط

ولدى مغادرتنا الموضع الذي اعتادت مريم العذراء المباركة جداً على الاستراحـة فيه، نزلنا إلى سفح جبل (الـزيتون)، وعندمـا بتنا عند سفح الجبل نزلنا إلى (الـوادي) وذلك باتجاه الجنوب، جـاعلين جبل الـزيتـون على يسـارنا، وجـدول قـدرون على يميننا، وفـوقـه، على الطرف الثـاني للجـدول، توجـد المدينة المقـدسـة، ومتـابعين لنزولنا وصلنا إلى الجسر القـائم فـوق الجدول، الذي اجتـزناه، وخلفناه وراءنا، وفيما نحن نسير كـذلك، وصلنا إلى ضريح عظيم النفقـات، منجـور على شكل برج من الصخـر الأصم، الذي تشكل منه الجبـل، وقـد اقتطع البناءون له الجبل بشكل هادف، حيث تركـوا واقفاً منه مـاهو كاف وكأنه كـان محتوى في الهرم، وقطعوا الصخر من حوله، بشكل بدا فيه الهرم واقفاً بذاته، وكأنه بني هناك بشكل بارع من قبل عمال، والبناء قـد قام من الأسـاسات، في حين هو بالحقيقة جزء من الجبل، وهو قائم هناك منذ بداية الدنيا.

ومقاييس هذا الهرم هي ستـة عشر باعاً كبيراً من حيث الإطار، وربما هو ثلاثة باعات من حيث الارتفاع، وله في قمتـه قمة حادة الشكل، مع سقف وكأنه كـان أبراجـاً، والذي تحت السقف مفـرغ، وهنـاك نوافـذ مقطوعة فيه، وعلى هذا يستطيع انسان أن يجر نفسه خلف الهرم ومن ثم يدخل إلى داخل الهرم من خلال النافذة، كما فعلت أنا نفسي ذلك عندما كنت هناك لوحدي، حيث رغبت في أن أرى الذي كان بالداخل.

وقـد أقيم هذا الهرم من أجل قبر واحد من الملوك العظماء، والرجـال الأقويـاء، هذا وهناك حكايات متنوعة حـول من هو الرجل الذي عمل

له، فبعضهم يقــول: أمــر الملك سليمان بـأن ينحت من أجل زوجتــه الأثيوبية، التي كانت ابنة فرعون، وقد دفنت فيه، وتشريفاً لها، قام أيضاً بنظم نشيـد الانشـاد، ولها بنى هيـاكل أوثانها العـائـدة لمولوك وشمس، وكذلك فعل أشياء أخرى كثيرة، تعامل فيها مع الرب دون احترام، من أجل حبه لها، وآخر شيء فعله هو نجره لهذا الضريح الفخم من أجلها.

ويقول آخـرون — وهذا هو الرأي المقبول بين المسلمين، والمسيحيين الشرقيين — بأن أبسالوم بن داود، هو الذي تسبب بنجر هذه الصخرة، حتى يدفن فيها، وهذه الحكـاية مؤسسة على الاصحـاح الثامن عشر من سفر صمـوئيل الثاني، ولكن نظراً لإثارته الحرب ضد أبيه وخـوضه لها، فقد مـات بشكل تعيس، في مكان آخر، عبر الأردن، ولهذا السبب هناك عادة قضـت بقيام جميع الأطفال الـذين يمرون بهذا الهرم، سواء أكـانوا من يهود، أو مسلمين، أو مسيحيين، بـالتقــاط حجــارة من الأرض، ورميهم على الهرم، ولدى رمـايتهم لهم يلعنون أبســالوم، ويشمتـون منه لموته الشرير، ويأتي ذلك بمثـابة تعبير عن كراهيتهم لعدم طاعتـه لأبيه، فضلاً عن هذا، إذا كـان لدى أي واحد في القـدس ولد غير مطيع، كان يقـوده إلى هناك، ويرغمـه بالتهـديد، ويعـريه ليرمي حجـارة على القبر، وليقوم بلعن أبسالوم، وكان يحكي لولده حكاية شرور وموت أبسالوم، وهذه طريقـة فعـالة جداً في تقـويم الأطفـال في القـدس، ونتيجة لقيـام أعداد كبيرة من الأطفـال برمي الحجارة عليه، فقـد تجمعت الحجارة في أكـوام كبيرة إلى جــانبـه، ولولا أنها تنظف من وقـت إلى آخـر، لتغطى بالحجارة منذ زمن طويل.

ويقـول آخـرون بأن شعفـاط، ملـك القـدس، تسبب ببناء هذا الهرم حتى يمكن دفنه فيه، وأنا لا أعتقد ذلك، لأنه كـان رجلاً صالحاً، متبعاً لأوامر الرب، مثل جده داوود، وبما أنه لم يكن منفصلاً عنه في حياته، لم يقصد الانفصـال عنه في دفنه، وبناء عليه ورد في الاصحـاح الأخير من

سفر الملوك الأول أن شعفاط عندما مـات، دفن في ضريح أبيه في مدينة داوود، وبناء عليـه ينبغي رواية الحكاية بشكل آخـر، بأن شعفـاط كـان صـاحب أفكار فخمـة، وقـد عمل أعمالاً رائعة، كـان من بينهـا تسببـه بنحت هذا الاهرام ليري عظمتـه، وليكون موضع إعجـاب بين الناس، وبذلك حصل على شهرة عظيمة بلغـت حداً، أن الوادي كله الذي كان يعرف من قبل باسم وادي Cela، صار فيما بعد يعرف بسبب هذا الهرم باسم وادي شعفـاط من قبل جميع الناس حتى في هذا اليوم، ولاتوجـد غفرانات مـرتبطة بهذا الهرم، وعلى هذا، كان بعدمـا نظرنا إليه، أن ذهبنا إلى بقية (الأماكن المقدسة).

قبر يوسف زوج مريم العذراء وقبر الشيخ سمعان المقدس

ويوجد على الجانب الأيمن للهرم حفرتان في جدار الصخرة، يقولون بأنهما ضريحين، مـدفـون في الأول منهما يوسـف، زوج مـريم العـذراء المباركة جـداً، ومربي يسوع المسيح، ومدفـون في الآخر سمعان، الرجل العجوز الذي أخذ الرب بين ذراعيه، وغنى ترنيمة: «الآن تطلق عبدك، حسب قولك بسلام»، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الثاني من انجيل القـديـس لوقـا، وقـد انحنينـا بأنفسنا نحـو الأرض أمـــام قبري هذين الرجلين المقدسين، وتلونا صلواتنا، وتلقينا غفرانات(+).

وعن مـدى قداسـة هذين الرجلين وعظمتهما وتميزهما، نحن نتعـرف إلى ذلك من روايـات الانجيل الصحيحـــة، وبشكل خـــاص مـــايتعلق بالقديس يوسف، ذلك أنه مامن شك أنه قـد تمتع بامتيازات من النعمة خاصـة، واحتل مكانة علية مع الرب، حتى عهـد إليه بالعناية بمثل هذا الكنز العظيم، ومن أجل الثناء عليـه، انظر كتابات ألبيرتوس، هذا وقـد ورد ذكـره في نص (لوقا:١/ ٢٧) قـوله: «إلى عذراء مخطوبة لرجل كـان اسمه يوسف»، وانظر كتـابات جيرسون Gerson أيضاً، في قـــداسه حول الميلاد، وحول العذراء مريم، وحول تجسيد يوسف، وهنا علينا أن

لانؤمن ولانصدق الرسامين، الذين رسموا يوسف على شكل انسان مقعد صغير الحجم، انحنى ظهره طاقين، وهو يستند على عصا، ورأسه رمادي، وهو كله غير قادر على إفادة العذراء أو ابنها، فقد كان رجلاً نشيطاً وقوياً، وعاملاً قديراً، وكان انساناً ناضجاً في وسط العمر، ثم إنه قبل خطبته للعذراء وبعد ذلك بقي غير ملوثاً فيما يتعلق بهذه المسائل، وبالنسبة لهذه المسائل، انظر القداس المتقدم الذكر، الذي عمله جيرسون.

ضريح النبي زكريا، وأضرحة أخرى، وأماكن إقامة القديسين

وإثر مغادرتنا لهذين القبرين، وصلنا إلى قبر آخر قد نحت في الصخر، وهم يقولون بأن هذا القبر هو قبر النبي المقدس زكريا بن براخيا، الذي ذبحه اليهود فيما بين الهيكل والمذبح، كما ألقى المسيح بين أسنانهم ولقنهم، (متى: ٢٣/ ٣٥)، وبناء عليه انحنينا هنا على ركبنا، والتمسنا شفاعة النبي، وتلقينا غفرانات(+).

وبعد نهوضنا من هناك، تابعنا سيرنا نازلين على طرفي الجدول، ومررنا بعدد من أماكن الإقامة والزنزانات المقتطعة من جدران الصخر على طرف جبل الزيتون، حيث عاش هناك فيما مضى رجال مسيحيون أتقياء، ومتدينون، لأن جبل الزيتون وعر عند سفحه، وملىء بكهوف عميقة في الصخر، وقد استخدمت الكهوف لتكون أضرحة، وصاروا فيما بعد أماكن إقامة للرهبان والقديسين، لكنهم الآن مهجورين من قبل الأحياء والأموات سواء، باستثناء أنه يسكن في بعضهم بعض الناس التعساء جداً من الكفار، الذين بسبب كفرهم لايستطيعون الاقامة في مكان آخر بين الناس.

ونظرنا إلى هذه الزنزانات بدهشة، وعجبنا من الحياة البسيطة للقديسين القدماء، الذين صدوراً عن حبهم للرب، ورغبتهم بالأرض

المقدسة حبسوا أنفسهم بين قبور الموتى، وتحملوا العيش في كهوف صغيرة، وشعرنا بالغضب نحو أنفسنا، نحن الذين بتنا متعبين من السكنى في قصور عظيمة، وفي أديرة واسعة وجميلة، لأننا صرنا فاترين في محبتنا نحو الرب، وأهملنا واجبات الحياة الديرية.

كهف القديس جيمس الرسول
الذي تخفى فيه أثناء اعتقال الرب

ولدى متابعة نزولنا وصلنا إلى كهف كبير، مع أعمال نجر كثيرة في الصخر، وهو مليء بأماكن اختباء مظلمة، مع طبقتين من الأقبية، وحفر منجورة في الغرف العلوية مثل النوافذ، وعندما كنا نسير هناك في هذا الكهف، ورد إلى ذهني بأنني قد رأيت مكانا يشبهه من جميع الجوانب في سوابيا، قرب غموند Gmund ، وكان اسم ذلك المكان ابرستين Eberstein، فالذي رأى الأول كأنه شاهد الثاني، سوى أن الفلسطيني هو أوسع ويمتلك كهفا أعمق، وإلى هذا الكهف هرب القديس جيمس الأصغر للالتجاء، عندما اعتقل الرب وأخذ أسيراً، وقد رقد هنا متخفيا.

وأخبرنا كل من يوسيفيوس وجيروم فيما كتباه عن حياة الرجال المشهورين، أنه عندما مات الرب على الصليب، قطع جيمس على نفسه عهداً أن لايأكل طعاماً، حتى يرى الرب قد قام من الموت، ولذلك جاء الرب في يوم القيامة إليه في هذا الكهف وأعطاه طعاماً، وحول هذا الرسول انظر ص ٤٥٢، وبعد وفاة هذا الرسول جلب جسده إلى هذا الكهف ودفن، ونتيجة لذلك ومنذ ذلك الوقت فصاعدا بدأ المكان ينال الاحترام، ويرمم من قبل المؤمنين المسيحيين حتى هذا اليوم، ولهذا ربط البابا سكتوس غفرانات مطلقة بهذا المكان، وجرى الاعلان عن هذه الغفرانات أثناء حجي الأول، وقرئت فوق البقعة إلى الحجاج التائبين،

وكانت مختومة بختم رصاصي، وبناء عليه انحنينا بأنفسنا في هذا المكان نحو الأرض وتلونا الصلوات المعينة في كتب مسيرة الأرض المقدسة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++) مع روح خاشعة.

وكنت قد قرأت في بعض كتب الحجاج بأن هذا المكان قد أعطي مرة إلى رهبان طائفة المبشرين، الذين بنوا كنيسة وديراً هناك، بحفرهم بشكل أعمق لكهوف في الصخر، وأنهم سكنوا هناك لبعض الوقت، لكنهم اضطروا أخيراً، بسبب مضايقات المسلمين، وسرقاتهم المستمرة وهجماتهم، مرغمين إلى مغادرة المكان وهجرانه، وبذلك آلت الكنيسة مع أبنيتها الخارجية إلى العدم، وبعد سفر الحجاج، غالباً مازرت هذا المكان، وقرأت صلواتي هناك، وقمت باستكشاف هذا الكهف بكل دقة، وكنت في بعض الأوقات أتخيل نفسي أنني في وسط دير للرهبان، وبذلك كنت أمتلىء ببهجة قلبية، ولكن عندما أدركت العزلة المؤلمة للمكان، اعتدت أن أجلس آسفا، وكان هذا المكان كثير الموائمة لرهبان تابعين لطائفة المبشرين، وفي هذه الأيام سوف يكون مكاناً موائماً جداً لهم للسكنى فيه، لو أن جميع الظروف الأخرى كانت موائمة أيضاً، وذلك لأسباب كثيرة هي كمايلي:

١— بسبب الاعجاب بالمبشر الذي عمل الكهف له، أي القديس جيمس الرسول، الذي أثناء عمله في التبشير وعرضه للحقيقة قد ألقي به من على حاجز المذبح، وصار أعرجاً، حتى عندئذ لم يتوقف عن التبشير حتى ألقى به من قمة الهيكل ومات، وعندها نقل إلى هنا من القدس ودفن، والآن من هو أجدر بأن يتملك ضريح مثل هذا المبشر المخلص للرب غير هؤلاء الرهبان، الذين بدايتهم، ووسطهم، ونهايتهم، واسمهم المبشرين؟ ولهذا السبب عندما تأسست طائفتنا أولاً، منحت كنيسة القديس جيمس في باريس، التي نمتلك فيها حتى الآن ديراً فيه ثلاثمائة من الرهبان ذوي التقوى العظيمة، ولهذا يطلق في تلك

المناطق على رهبان طائفة المبشرين اسم رهبان القديس جيمس.

٢- وسبب آخر هو أن هذا المكان موائم للرهبان المبشرين، لأنه بسبب فضائل ومثابرة هذا الرسول، كان طاهرا خلال حياته، وكان معا رسولاً وتقيا طوال أيامه، وهذه أمور تتوافق كلها مع عادات المبشرين.

٣- وبسبب أن جبل الزيتون، هذا الجبل، الذي كما تقدم وقلنا مضاء بمصابيح هيكل الرب، وبالشمس، وبالزيت، وبمصابيح الكنائس، وربما يمكن أن نسمي طائفة الرهبان المبشرين باسم جبل الضياء، لأن هذه الطائفة مضاءة بعلم اللاهوت، الذي جاء من هيكل الرب، وبعلم الأخلاق الذي أشع من الشمس، وبالضوء الطبيعي الذي جاء من صناعتهم، المرموز إليها بالزيت الذي ينمو هناك، والذي هو غذاء المصابيح، وبعلم التجربة المرموز إليه بمصابيح الكنائس.

٤- وبسبب الجدول الذي فيه يجري إلقاء جميع الفضلات المجلوبة من المدينة، فهنا تختفي، وتجرف بعيداً وتزال، كما تقدم بنا القول، ومثل هذا فإن جميع قذارات العالم تتم إزالتها بوساطة حكمة الوعاظ، ففي الأمثال: ١٨، يقول: «كلمات فم الانسان مياه عميقة. نبع الحكمة نهر مندفق»، والكتابات المقدسة هي نهر فائض، ولذلك يتوجب على المبشر أن يشرب، كما يقول المزمور: «هو سوف يشرب من النهر أثناء مروره» وفي مزمور آخر: «هو سوف يشرب البهجة كما يشرب من النهر».

٥- وبسبب الأرز الذي اعتاد أن ينمو إلى جانب الجدول، لأن الأرز دائم الخضرة، ومرتفع، وخشبه لايفسد، ومثل هذا الراهب المبشر له بعهوده الثلاثة: خضرة الطهارة، وسمو الفقر، وطاعة غير قابلة للفساد.

٦- وبسبب أن وضع المكان موائم للرهبان المبشرين، لأن الموضع قائم في وادي، خارج أسوار المدينة، وبالوقت نفسه ملاصق للمدينة،

فمثل ذلك على الرهبان المبشرين أن يسكنوا دوماً في الوادي بسبب التواضع، بعيداً عن ضجيج العالم، إنما في الوقت ذاته على مقربة من بني البشر، حتى يمكن تغذيتهم بكلماتهم وبالمثل.

٧— وبسبب قسوته، لأن المكان موجود بين الصخور، وهو صعب، ووعر، ومثل هذا ينبغي أن تكون حياة الراهب المبشر، حيث يتوجب تمضيتها في المصاعب مع طهارة الجسد، حتى يصبح الراهب مطواعاً، خشية أنه بعد وعظه للآخرين أن يصبح مرفوضاً، وذلك حسب تعبير الرسول (كورنثوس:١/ ٩).

٨— والمكان منعزل يتجاوب مع الحاجة للدراسة والتأمل، التي توائم المبشر الجيد والفعال، ولأن ذلك لايمكن ممارسته بين الحشد.

٩— ولأن المكان رفيع بعض الشيء وضيق، وهو نموذجي للفكر حتى يجمع ذاته، ويبتعد عن الجولات التي بلاهدف.

١٠— ولأن المكان قريب من جبل الزيتون، ومن جبل العدوان. ومن جبل صهيون، ومن وادي هنوم، ومن حقل حق الدم، ولنلاحظ هنا تنوع الموضوعات بالنسبة للواعظ، الذي يمكنه أن يعظ إما حول جبل الزيتون، أو حول الفضائل، أو حول جبل العدوان، أو حول الشرور، أو حول حق الدم، أو حول الموت، أو حول وادي هنوم، أي حول جهنم والادانة الأبدية، أو يمكنه الوعظ حول الجبال والوديان، أي أن يكون مديوناً لكل من الحكماء والجهلاء، كما قال الرسول (روما: ١/ ١٤)، أو للتأمل والعمل، أو للمتدينين وللعلمانيين، أو للرجال المستقيمين وللمذنبين، أو للجيدين والمسيئين.

الجسر فوق جدول قدرون ووصف ضفتيه شروعاً من المكان الذي يعبره الجسر

وعندما أقبلنا من الكهف بعد فحصنا له، لم ننزل مسافة أبعد في الوادي، بل عدنا عبر الطريق الذي قدمنا عليه، وذلك حتى هرم شعفاط، الذي يوجد على مقربة منه جسر مقنطر من الحجارة يعبر الجدول، وهكذا ذهبنا إلى ذلك الجسر، وجثونا أمامه مصلين، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وحدثتنا التواريخ الاغريقية، وكاتب مصنف الـ Speculum Historiale ، ورووا لنا الحكاية التالية: عندما كان سليمان يبني بيته من خشب لبنان، وقع في أيدي العمال جذع شجرة، وجدوا أ نه غير مفيد لهم، وقام أحد الناس بجر هذا الجذع وأنزله نحو الجدول، وعمل منه جسراً لعبور الأفراد الجدول عليه في هذه البقعة، وحدث أنه عندما جاءت ملكة سبأ — التي قيل بأنها كانت إحدى العرافات — وكانت على وشك عبور الجدول، مع الملك، غدت مندهشة لدى مشاهدتها لذلك الجذع، وألقت نفسها في الجدول وتعبدته، فكشفت بذلك عن أسرار الصليب، وقالت إن هذا الجذع سوف يشكل في أحد الأيام صليب المخلص، ونتيجة لذلك حمل سليمان الجذع من هناك، وطمره في باطن الأرض قرب الهيكل، حسبما جاء ذكرنا من قبل، وفي مكان الجذع الذي أخذه، أمر ببناء جسر حجري، وفوق هذا الجسر غالباً ما عبر الرب مع تلاميذه، وذلك كلما رغب بالذهاب إلى جبل الزيتون، أو إلى بيت عنيا، وعبر هذا الجسر اقتيد إلى بيت حنان.

ومثل هذا عبر داوود جدول قدرون عند هذا المكان، عاري القدمين مع جميع الناس، عندما هرب من القدس من أمام وجه ابنه أبسالوم، وهنا أيضاً وقف الكهنة مع تابوه الرب، حتى عبر الناس جميعاً، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الخامس عشر من سفر صموئيل الثاني، وبناء عليه عبرنا بتقوى الجسر، وصعدنا فوق الجرف المنحدر لجبل صهيون المقدس، الذي إليه اقتيد الرب يسوع مغلولاً من البستان إلى بيت حنان،

الراهب الأعلى.

وحدث أننا عندما وصلنا إلى قمة الجبل،وجدنا أنفسنا غير قادرين على تحمل حرارة النهار الكبيرة، فاتفقنا أن نقوم بعد الغداء بزيارة بقية الأماكن المقدسة، من حول جبل الزيتون، التي لم نكن قد ذهبنا إليها بعد، وبناء على ذلك نزل الفرسان مسرعين إلى مشفى القديس يوحنا، لتناول طعامهم، بينما دخلنا نحن رجال الدين إلى دير الرهبان، وتغدينا معهم.

زيارة الأماكن عند سفح جبل صهيون وأولها نبع مريم العذراء المباركة

وبعد الغداء اجتمع الحجاج الذين كانوا أقوياء مع بعضهم، من أجل المزيد من الحج والتعب، وفي الحقيقة إنه ليس عملاً بسيطاً وجهداً خفيفاً الذهاب حاجاً هكذا من مكان إلى مكان، كما لاحظنا في ص٤٠١ المتقدمة، وبناء عليه عندما اكتمل جمعنا، نزلنا من جبل صهيون، من على الجانب الشمالي من الجبل، وذلك عبر طريق طويل، حيث تركنا الطريق الذي صعدنا عليه من قبل على يميننا، ووصلنا الآن ، ونحن على منحدرات جبل صهيون إلى نوع من أنواع الكهوف، وهي مغارة مفتوحة في الأرض، ودخلنا من فمها، ونزلنا إلى باطن الأرض، وسرنا فوق رمال من دون أية درجات، وبما أننا دخلنا إلى مكان كان محجوباً عن أشعة الشمس، لم يكن بإمكاننا رؤية أية شيء أو قليلاً جداً ما رأيناه، لأنه من طبيعة العين أنه عندما ينتقل الانسان إلى الظلال خارج أشعة الشمس كل شيء يبدو بالنسبة له مظلماً، وعندما كنا نازلين في هذه المغارة، قدم لمواجهتنا مسلم حاد، كان قادماً من الأعماق وهو يركض بسرعة، وكان يصرخ بشكل عجيب صرخات غاضبة، مظهراً غضبه في صوته وفي ملامحه وفي حركاته، وقد أراد اخراجنا وطردنا من

الكهف، وذلك حتى لانصل إلى الماء، ولكن بما أنه كان وحيداً، وكنا نحن كثرة، لم نهتم به، بل تابعنا نزولنا، وتجاه ذلك ضاعف من صراخه، وتعاظم غضبه، ولو كان لديه عصا، لأرغمنا جميعاً على الفرار.

وعندما رأى هذا المسلم أننا لم نهتم به، استدار بنفسه بسرعة، وتجاوزنا جميعاً نحن الذين كنا نازلين، وغرس نفسه على حافة النبع، حيث تقاتل بكل وسيلة ممكنة مع الذين رغبوا بشرب الماء، وصدهم، ودفعهم، وضربهم عندما وصلوا إلى الماء، لكن أحد الفرسان اللومبارد وكان من ميلان، صعد بشجاعة، وأمسكه بذراعه، وجره بقوة وأبعده عن النبع، وهنا صار المسلم غاضباً من الفارس وانقض عليه، وشرع يضربه بمقبض يده، ودافع الفارس من الجانب الآخر عن نفسه بقبضة يده، لأن مامن واحد منهما كان لديه سلاح، وغدوا غاضبين جداً أحدهما من الآخر، ولو لم يقم الحجاج بفصلهما لمزق أحدهما الآخر إلى قطع.

وعندما رأى المسلم أنه لن يتمكن من انزال انتقامه على الفارس، شرع يركض بسرعة صعوداً، قاصداً لجلب آخرين لمساعدته للقتال معنا، غير أننا أمسكناه، وقبضنا عليه بشدة، مع أنه صرخ وناضل بشكل عظيم، وفي الحقيقة كنا سنتعرض إلى خطر عظيم لو أنه أفلت من بين أيدينا، وكنا غير مسرورين من الفارس، وبعد كثير من الصراع، وحدّ بعض الفرسان بين حافظات نقودهم وعرضوا على المسلم بعض المال، ومنحوه له إذا بقي هناك، وتخلى عن الصراخ، ووعد بالمحافظة على السلم مع الحاج الذي ضربه، ولست بحاجة لقول المزيد، ذلك أنه ما أن رأى المال حتى تغير إلى انسان آخر، حيث أصبحت ملامحه هادئة، وصار صوته أكثر لطفاً، وزال غضبه، وقدم نفسه، مستبشراً وبدون قيود لخدمتنا حسب الطريقة التي نختارها، وهذا الرجل الذي كان من غير الممكن من قبل تهدئته بالكلمات أو بالضربات، أو بعدد الحجاج، عندما

رأى هذه النقـــود صـــار جـــاهزاً لإطاعتنا، لأنـه كما قـــال سليمان في الجامعة:١٠ «أما الفضة فتحصل الكل».

وهكذا عندمـــا استلم المال نزل إلى الخليج،ونضـح الماء لنا جميعـاً، وأعطانا ذلك بكرم، وبعـدما شربنا جميعاً من ذلك الماء النقي، صعـدنا ثانية، وتلونا صلواتنا أمـام فم الكهف، وحصلنا على غفرانات(+)، لأن هذا نبع العذراء مريم المباركـة، حيث يقال أنه في اليوم الأربعين، عندما جـاءت مع يوسف والطفل يســوع من بيت لحم، وذلك بهدف تقـديم الطفل يسوع في الهيكل، وقد نزلت إلى هذا الخليج، وأقامت هناك، لأنه لم يكن لديهم مكان للإقامة به في المدينـة، وذلك باستثناء ماكان لديها في بيت لحم، وهي لم تختر الإقـامة مع الناس الفقـراء الآخـرين، في ساحـة الهيكل، لأنها كـانت تخاف من هيرود، لأن الاشـاعة حـول الملك الذي ولد منهـا كـانت قد انتشرت في أرجـاء البـلاد، وبسبب ذلك اضطرب هيرود ومعه القدس كلها.

وكـان بإمكانها — على كل حـال — الـذهاب من هذا الجسر بشكل سري، إلى الباب الذهبي، جالبـة معها الطفل يسوع، دون أن يلاحظ إلى داخل الهيكل، وممارسة جميع الطقـوس المتعلقة بقانون الطهـارة، وهو ما فعلته، لأنه لم هناك أحد سوى الذين أنذروا من قبل الروح القدس، بأن يكونوا هناك في تلك السـاعة، عـلاوة على ذلك، كانت كلما جـاءت إلى القـدس، سنة تلو سنة، كـانت تقيم في هذه الهوة، وعندمـا كانت تقـوم بحجها، اعتادت على المرور عبر هذا الطريق، وانعـاش نفسها إلى جانب هذا النبع.

الصخرة الاعجازية مع الصدع الذي حدث فيها أثناء آلام الرب

بعدمـا قمنا بواجباتنا كحجـاج عند نبع مريم العـذراء المجيدة، تابعنا سيرنا، والتففنا حول جبل صهيـون، وذلك باتجاه طرفه الجنوبي، ودخلنا

في جانبه الغـربي إلى وادي سلوان، ووصلنا إلى مياه غدير تجري بصمت نحـو وادي شعفـاط،وذلك حسبما قـال اشعيـا (الاصحـاح:٨): «ميـاه شيلوه الجاريـة بسكوت»، وسرنـا على مجاراة هذا الجدول، الـذي يجري نزولاً إلى جـانب جبل صهيون، ويصل إلى صخـرة عالية، ولأنها كـانت عند سفـح جبل صهيـــون، ارتفعت خـــارج مجرى الجدول، وفي هذه الصخرة صـدع كبير ممتد من القمة حتى القعـر، ويمكن للانسان، دون أن يعصر نفسه، الدخول إلى الشق في الصخرة، ويقال بأن هذا الشق قد صنع أثنـاء آلام الرب، فقـــد قـــرأنا في انجيل متـى:٢٧/ ٥١ قـــوله: «والصخور تشققت»، وبناء عليه قفزنا فوق الجدول، ودخلنا إلى الشق، ومضينا فيه حتى لم نعد نجرؤ على المتابعة والتوغل أكثر، بسبب الظلام.

بركة استحمام سلوان حيث استحم الرجل الأعمى واسترد بصره

وعندمـا خـــرجنا من الشق في الصخـر، قفـزنـا فـوق مجرى جـدول سلوان، وذهبنا صعـوداً نحـو بركـة استحمام سلوان، التي إليهـا أرسل يسوع سيليدونيوس Celidonius (كذا)، الذي كان أعمى منذ ولادته، من أجـل أن يغتسل، وقـــد اغتسل واسترد بصره، وحسبما قـــرأنا في يوحنا:٩، لم تكن بـركـة الاستحمام هذه اكثـــر من مجرد بركـــة صغيرة، تجمعت وتشكلت تحت نبع سلوان، فيهـا كـــان يتجمع الماء الذي تدفق من النبع، حيث أقـاموا له أطراف بالحجـارة والطين، مثلما يعملون برك الأسماك في بلادنا، ولايوجد في بركة الاستحمام هذه ماء، لأن مجرى الماء لايصب بها، بل يجري نحـو الأسفل إلى جـانبهـا، وقـد قـام واحـد من المسلمين في هذه الأيام بزراعة بستان خضراوات، في داخل جدران بركة الاستحمام، وقـد نمت بعض الأشجـار فيهـا، ولم نعبأ بهذا كله، ودخلنا إلى المكان على أســـاس المعجـــزة التي صنعت هناك مـن قبل المسيح في الأيام الغابرة، وتلونا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وقد قرأت في واحد من كتب الحج أن بتشبع زوجة أوريا كانت تستحم فيها عندما رآها داوود أثناء وقوفه فوق بيته، وجامعها، وأخذها لنفسه، وهذا لايمكن فهمه، لأنه ليس هناك مجال للنظر إلى نبع سلوان من جبل صهيون، وقد جاء في النص (صموئيل الثاني: ١١/ ٢) بأن المرأة كانت تستحم وتغسل نفسها في غرفتها العليا مقابل بيت الملك.

المكان الذي ينبع منه نبع سلوان وتتدفق منه المياه تحت جبل صهيون

لدى مغادرتنا لبركة استحمام سلوان، سرنا على طول مجرى الجدول حتى وصلنا إلى نبع سلوان الذي يتدفق من جبل صهيون، وعندما سرنا إلى هناك صاعدين على طرف الجدول تولتنا الدهشة تجاه قذارة المياه ولونها الذي تعافه النفس، ولكن عندما وصلنا إلى النبع اكتشفنا سبب قذارة لون المياه، فقد كان هناك مسلم يعمل بالدباغة قد وقف عند فم الصخرة التي يتدفق منها نبع الماء، وكان ينقع الجلود ويغسلها ويتعامل معها بقدميه، وهي الجلود التي سلخت مؤخراً من الحيوانات، ولذلك صار الماء قذراً ودموياً، ولهذا لم يعد بامكان أي واحد أن يشرب من الماء أو أن يغسل وجهه، أي في الماء الذي يجري من بعد مكان الدباغ.

وبعدما وصلنا إلى المكان الذي كان فيه الدباغ، دخلنا إلى شق الصخرة الذي يخرج منه النبع، وكان هذا الشق عميقاً وعالياً، لكنه لم يكن عريضاً، وهناك ينبع الماء، أي من الأجزاء العميقة من الأرض، وعندما كنا هناك، فوق المكان الذي كان فيه الدباغ، شربنا وغسلنا أعيننا، بمثابة ذكرى للمعجزة التي صنعت بهذه المياه، بالنسبة للرجل الذي ولد أعمى (يوحنا:٢٠)، ويقول عوام الناس بأن كل من يغسل عينيه بماء هذا النبع، سوف لن يعاني بعد ذلك من أي ألم في عينيه، ولقد وضعت ثقة كبيرة في هذه الحكاية وصدقتها مثلما أصدق القول بأن كل

من يستحـم في الأردن سـوف لن يصبـح عجـوزاً، وهكذا وقفنـا هنا متلاصقين ومحتشـدين إلى جانب بعضنا في هذا الصـدع في الصخر، وفي هذه الفتحــة في الأرض، وكـان هناك كثيراً من الضجـة بين الحجـاج، فالذين كـانوا في الأمام صرخوا ضد انعـدام الصبر لدى الذين وقفوا في الخلف، وهؤلاء الذين في الخلف قـد صرخـوا شـاكين من بطىء الذين كانوا في الأمام، أما الذين وقفـوا في الوسط فقد صرخوا بسبب الضغط الذي تلقـوه من الطرفين، وكــان هناك كثيراً من انعـدام الصبر، لأنه لم يكن بامكاننا الدخـول إلى الشق إلاّ بالمبـاعـدة بين قدمينا، والسير بقـدم واحـد على كل جـانب من جـانبـي الماء، ذلك أننا كنا جميعـاً مـرتدين لأحذية ثمينة، كانت ستتلف لو أنها تبللت بالماء، والذي حدث على كل حال، أن كثيرين دفعوا فسقطوا بأجسـادهم في مجرى الماء نفسه، ولذلك أخذنا طريقنـا بالصعود مسرعين للخروج من ذلك الموضـع، وأيضاً من فم الكهف، حـاملين معنا الماء المقـدس في آنيـة وقـوارير إلى الذين لم يتمكنوا من الدخـول إلى الشق في الصخـر، وجـاء عـدم تمكنهم بسبب حالة الحشد المتقدم ذكره والتدافـع، وكان بين رفاقنا سيدات حاجات لم ينزلن بل جلسن بهدوء وسلام، وكن يقمن بتلاوة صلواتهن في الخارج، ولقـد جلبنـا الماء إلى هؤلاء(++)، وعندمـا بتنا جميعـاً في الخارج، تلونا الصلوات المحددة، وحصلنا على غفرانات مطلقة.

وصف نبع سلوان ومياهه

ومما تقدم قوله من قبل، يمكن إلى حد ما فهم وصف المكان،وعلاوة على ذلك، ينبغي أن نلاحظ أن هذا الماء المتـدفق يلبي عـلامات معجـزة قائمـة ومستمرة، أي بمعنى أنه لايتدفق بشكل مستمـر، بل يتوقف لمدة ثلاثة أيام، ولربما لمدة أربعـة أيـام في الأسبـوع، ثم إنه يتـدفق، لكن ربما بمياه أقل، وأحياناً لايتدفق مطلقاً، وأحياناً أخرى بكميات فائضة، ولقد رأيت بنفسي الشق جـافـاً أحيـاناً، وأحيـاناً أخـرى يجري بميـاه قليلة

وشحيحة، وأحياناً أخرى مليئاً بالماء إلى حد أن مامن أحد يمكنه الدخول إليه،واسترعت انتباهي هذه المياه بشكل غريب، حيث كنت غالباً ما أنزل إلى هناك قبل شروق الشمس وحيداً، لأرى ما الذي يحدث، لأن هذا التدفق غير المنتظم ليس مرتبطاً بالطبيعة، وليس مرده لها، بل كان ذلك يحدث بوساطة معجزة في أيام النبي اشعيا.

وكان الملك حزقيا، ملك القدس، عندما سمع بأن جيش الآشوريين كان مقبلاً للعسكرة أمام المدينة المقدسة أوقف الينابيع، وملأ البرك القائمة حول القدس بالطين والحجارة، بهدف أنه عندما يصل العدو لن يجد ماء، وبذلك يرغم على المغادرة بسبب العطش، فهذا ماورد في الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر أخبار الأيام الثاني، وعمل أمام نبع سلوان بركة، كانت المياه تتجمع فيها من أجل استعمالات شعب المدينة، الذين كان يمكنهم النزول إلى هناك من المدينة، وحمل الماء معهم عائدين، وكان بامكان العدو أيضاً القدوم إلى المكان، وحمل الماء من هناك، ولهذا صلى اشعيا المقدس من أجل أنه كلما جاء الناس ونزلوا من المدينة يجدون الكفاية من الماء، لكن عندما يأتي العدو، سيجد النبع جافاً، وبذلك لم يكن بإمكان الأعداء العثور على أية مياه، ولذلك كذكرى لهذه المعجزة العظيمة لاتتدفق المياه بشكل متواصل، بل تتدفق في بعض الأحيان، وورد ذكر هذه المعجزة لدى يوسفيوس، ولدى كاتب SpeculumHis Toriale.

وبجوار هذا النبع جرى دفن النبي إشعيا من قبل الناس، بعد ذبحه من قبل الملك ماناسيس Manasses، وحدث أنه عندما بنيت القدس من قبل نحميا، بعد تدميرها من قبل الملك نبوخذ نصر بنى حاكم البلاد ميزبا MiZpah باب النبع عالياً في المدينة، ومن خلال هذا الباب صعد الناس ونزلوا لنضح الماء، وبنى جدار بركة سلوان، الذي كان قد سقط، وذلك حسبما جاء الخبر في الاصحاح الثالث من سفر نحميا،

ودمرت جدران بركة سلوان من قبل الرومان أثناء حصارهم للقدس، وذلك مثلما جرى تدمير كل شيء، غير أن المسيحيين الذين جاءوا من بعدهم بنوهم ثانية، وبنى أناس أتقياء أماكن لسكناهم حول هذه الجدران، وبنوا نوعاً من أنواع الديرة فوق النبع، فهذا مايمكن رؤيته حتى هذا اليوم، لأنه يوجد أمام النبع بركة تشبه حماماً، وهناك قد بني حول الجدران قناطر معقودة تشبه الممرات التي تكون حول رواق، أما أقواس الأسقف فهي مستندة فوق أعمدة رخامية، وهذا البناء مهدوم جزئيا، والباقي مهدد بالسقوط والخراب أيضاً.

ويبدو أنها مهمة سهلة هي القيام بترميم خرائب هذا النبع المقدس، لكن مامن أحد يلمسهم أو يضع يده عليهم، ولهذا يزداد المكان خراباً يوما إثر يوم، مثلما يحدث بالنسبة للأبنية في الأماكن المقدسة الأخرى، وكان هذا المكان في الأيام الخوالي محل تشريف، لأنه كان ضمن حديقة الملك، وكان هناك درج يقود صعوداً من النبع إلى مدينة داوود على جبل صهيون (نحميا:٣).

وأنا لا أستطيع أن أتصور كيف عمل حزقيا ملك القدس، وتمكن من حمل مياه سلوان نحو الأعلى إلى المدينة، وعبر مثل تلك المسافة الكبيرة، وذلك كما حدثنا نيقولا دي ليرا في تعليقاته على الاصحاح الثامن والأربعين من سفر الالهيات، مشاهدين أنه من نبع سلوان صعودا حتى المدينة هناك أكثر من أربعين خطوة مباشرة، يضاف إلى ذلك أنه ليس هناك ماء كثير في النبع، ثم إنه لايتدفق بقوة قادرة على إدارة دواليب ماء كان ربما من الممكن بوساطتها رفع الماء نحو الأعلى.

المكان الذي قطع فيه النبي إشعيا إلى قطع وسبب موته

وغادرنا الآن النبع المقدس، وصعدنا إلى جبل صهيون، وعلى المنحدر هناك وصلنا إلى مكان منبسط، فيه تقوم شجرة لها أغصان غليظة

وأوراق، ولا أعرف من أي نوع من الأشجار هي، لكنها تشبه شجرة زيزفون، فهنا يوجد المكان الذي تسبب فيه الملك ماناسيس الشرير — والذي كان قد ملأ القدس بالأصنام، وسفك كثيراً من الدماء البريئة — بذبح النبي اشعيا، لأنه انتقده من أجل شروره، ففي ذلك الحين قامت هناك شجرة أرز عظيمة وعالية، وذلك فوق المكان الذي قامت عليه الشجرة المتقدمة الذكر، وعندما جلب السفاحون النبي اشعيا لذبحه هناك، انفتح جذع شجرة الأرز، ودخل النبي اشعيا في شق الشجرة، وانغلقت ثانية، وأخفت النبي فيها.

وعلى كل حال لم يهتد الملك حتى بهذه المعجزة ولم يؤمن، بل أمر بشق الشجرة، وسحب منها النبي وذبحه وأمر بتقطيعه إلى قطع بمنشار الخشب، وتلونا في هذا المكان صلواتنا المحددة، وحصلنا على غفرانات(+)، وجلسنا بعد ذلك تحت ظل تلك الشجرة، وأرحنا أنفسنا، وتحدثنا حول قداسة النبي الذي ذبح هنا، والذي عنه قال جيروم، بأنه كان في نبوءآته ينسج انجيلا، ولم يكن بالحري يتنبأ، ولذلك يستحق أن يسمى بالانجيلي أكثر من تسميته بالنبي، ولهذا السبب تقرأ نبوءاته خلال موسم قدوم الرب، وفي ليلة ميلاد المسيح، وذلك في وقت الصلاة الصباحية، وفي القداس، وكأنهم كانوا جزءاً من الأناجيل الأولى، وبسبب روعة كتابات هذا النبي طلب القديس أمبروز من أوغسطين قراءتهم بعد تحوله إلى المسيحية مباشرة.

المكان الذي فيه شنق يهوذا نفسه على شجرة

وبعدما فرغنا من الاستراحة تحت الشجرة المتقدمة الذكر، انطلقنا على طريقنا، وأثناء سيرنا أشار أحد الناس وبين لنا المكان الذي قامت عليه فيما مضى الشجرة التي عليها شنق الخائن يهوذا نفسه، وعرض علينا اقتيادنا إلى ذلك المكان، لكننا رفضنا الذهاب لزيارته، ولم نحرك أنفسنا ولا خطوة واحدة نحوه، فقد كنا نكره أن نرفع أبصارنا ونلقي

نظرة عليه، لأنه ليس هناك لا نعمة، أو غفران، بل عقوبة، ويأس، وعار، ووقفنا على كل حال لوهلة قصيرة ننظر نحو المكان، وقرأنا بيت الشعر التالي الذي هو هجاء له: «سوف تظهر السماء شرور يهوذا، وسوف تثور الأرض ضده».

الكهوف التي إليها هرب الرسل أثناء اعتقال الرب، وفيها أقاموا متخفين

ولدى فراغنا من انشاد لعناتنا ليهوذا، نزلنا من على منحدر جبل صهيون إلى الوادي الذي يفصل جبل صهيون نفسه عن جبل جيحون، وهذا الوادي ضيق، ومتصل بوادي سلوان في وسطه، وقد عبرنا هذا الوادي الضيق، ووصلنا إلى سفح جبل حق الدم في الجهة المقابلة، وهذا الجبل قائم عند منعطف جبل جيحون باتجاه الشمال، وذلك مثلما جبل أكرا موجود عند منعطف جبل صهيون باتجاه الشمال، ومع هذا، إن الذي أراه هو أن ذلك الجزء صار اسمه الآن جبل حق الدم، بسبب حقل حق الدم، مع أن اسمه كله في الماضي جبل جيحون، والمقصود بذلك كل من منعطف الجبل والجبل نفسه، مثلما حدث بالنسبة لجبل صهيون وجبل أكرا، كما تقدم بنا القول حولهما، وكذلك بالنسبة لجبل سيناء وجبل حوريب، فهناك اسم الجزء المنخفض جبل سيناء، واسم الجزء العلوي هو جبل حوريب، والحال هو نفسه مع جبل الزيتون، حيث أن الجزء المنخفض منه باتجاه الجنوب اسمه جبل العدوان، واسم الجزء الأعلى هو جبل الزيتون، وهذا هو الحال نفسه مع هذا الجبل، فهو من الوادي صعوداً حتى الحقل، اسمه جبل حق الدم، ومن الحقل فصاعداً اسمه جبل جيحون.

وهكذا صعدنا نحو جبل حق الدم، عبر رابية منحدرة، وسحبنا أنفسنا صعوداً عبر جروف وصخور حتى وصلنا أخيراً إلى بساتين تين

ورمان، وأشجار فاكهة أخرى، وكان في هذه البساتين عدداً كبيراً من الصخور منتصبة شاهقة في الهواء، وكذلك جدران من الصخور، فيها محفور كهوف مفردة، ومزدوجة، وثلاثية ورباعية، عن أمثالها تحدثت في ص ٤٨٣، فقد حفر القدماء هذه الصخور القاسية وأفرغوها لتكون أماكن للدفن، حسبما قلت في ص ٦٤٣، وفيما بعد، في أيام المسيحيين، قام أناس، صدوراً عن حبهم للأرض المقدسة، باختيار هذه الكهوف لتكون أماكن سكنى لهم، لأنهم لم يرغبوا بالسكنى والاقامة في أي مكان غير أماكن الأضرحة، حيث فيها يمكنهم بسرور انتظار الموت، وكان لدى تمكن واحد من القديسين القدماء من تحصيل واحداً من هذه المساكن لنفسه، كان يعتقد أنه قد وجد كنزاً.

وإلى هذه الكهوف هرب الرسل، عندما تخلوا عن الرب في البستان، وذلك عندما أخذوه مغلولاً ليمثل أمام الكاهن الأعلى، ووقتها لم يكن بامكانهم هجر مثل هذا المعلم الرائع، ومع ذلك لم يكن بامكانهم اتباعه، كما أنه لم تتوفر بالنسبة إليهم أية أماكن أفضل للإقامة خيراً من الكهوف المظلمة، لابل أكثر من هذا، لقد بذلوا جهودهم في هذه الكهوف نفسها لشق طريقهم إلى الأجزاء الأعمق منها، وصولاً —إذا كان ذلك ممكنا — حتى أعماق جوف الأرض، فهناك كان بامكانهم، أن يجدوا، على الأقل أماكن فيها يبكون وينتحبون ويصرخون، ويرفعون أصواتهم بالعويل، لأنهم أثناء وقوفهم عند أفواه هذه الكهوف لم يتجرأوا على التفوه بتنهداتهم بصوت مرتفع، ولا أن يعجوا بالبكاء، خشية أن يسمعوا، لكن الذي فعلوه هو أنهم حبسوا صرخاتهم مع حزنهم في صدورهم بقدر ما استطاعوا، وفي الحقيقة امتلأت صدورهم كثيراً بالحزن، وتورمت حلوقهم ووجوههم بالترح، ولذلك حشوا أفواههم بملابسهم، خشية انفجار أحزانهم، وسماع الأصوات من مسافة.

ولذلك سرنا في هذا المكان المقدس بحالة حزينة من كهف إلى آخر،

ووزعنا أنفسنا بين هـذه الكهـوف ومن حـولها، مبـدين احترامنا تجاه الأماكن وحـزننا من أجل الرسل، وأثناء وقوفنا في داخل الكهـوف كان الحجاج يخاطب أحـدهم الآخر قائلاً: «تذكـر يا أخي أن الرسول أندرو المحبوب صدف وجلس هنا، وهو يبكي سـوء حظ معلمه»، وكان حاج آخر يجلس مقـابل حاج آخر ويقول له: «وهنا جلس الرسـول بارثلميو، يبكي لتخليه عن معلمـه المحبوب»، وفي كهف آخـر كان أحـدهم يقول للآخـر: «هنا جلس —كما هو محتمـل— تومـا وهو مـرتاب وحـزين»، ومن كهف آخـر كـان حـاج آخـر سيصرخ: «هنا في هذا الكهف المظلم يوجـد مكانين، أعتقد أن الرسـولين سمعـان ويهوذا، جلسا فيهما معـا»، وهكذا بذل كل واحـد جهوده مع آخـر، بحركـات خاشعة، ليقـوم كل واحد منهما بتحـديد مكان للرسـول الذي أحبه أكثر، وفي هـذا البستان دخلنا إلى كهف غريب، يشبـه إلى حد بعيـد ضريح الرب حسبما كان في وضعـه الأصيل، ولقـد تلونا صلواتنـا قـرب هذه الأمـاكن، وتلقينا غفرانات(+).

حقل حق الدم المقدس الذي شري بثمن دم الرب يسوع المسيح

وبعـدما فـرغنا من معـاينة أماكن اختبـاء الرسل، تابعنا صعـودنا إلى جبل حق الدم، وذلك عبر جـروف صخـرية شديـدة الانحدار، وكـان الممر صعباً ووعراً، وفي الوقت الذي كنا فيـه صاعدين نحو الأعلى أخذ بعض الفرسـان من ذوي النشأة المرفهة والناعمة يتمتمـون ضيقاً بسبب فقدانهم لصبرهـم نتيجـة لمتاعب الرحلة، وكنا في الحقيقـة نعاني كثيراً من أشعة الشمس المحرقة، ومع ذلك تابعنا صعودنا، ووصلنا إلى حقل حق الدم المقـدس، وجـاء الخبر في انجيل متـى:٢٦، أن اسم هذا الحقل قـد كان قبل الآلام «حقل الفاخوري» بسبب أنه كان ملكاً لرجل فاخوري، واشترى اليهود هذا الحقل مقابل الثلاثين قطعـة (من الفضة) التي كانوا قـد أعطوهـا إلى يهوذا ثمناً للرب يسـوع، وجـرى شراء هذا الحقل من

أجل دفن الغـرباء فيه، الذين كـانت أجسادهم ترمى من قبـل في العراء من دون دفن، ولذلك ارتمينا على وجوهنا في هذا الحقل المقدس، وتلونا الصلوات المعينة وحصلنا على غفـرانـات مطلقـة(++)، وعندمـا أكملنا هذا، جلسنا للاستراحـة وللنظر إلى المكـان، وفي وقت جلوسنا على هذه الصـورة، جاء شـاب مسلم صـاعداً نحـونا، ومعـه سلة مليئة بالعنب، الذي شرينا بعضه، وهكذا جلسنا، وأكلنا العنب هناك في الحقل، ومتعنا أنفسنا تماماً.

وضع حقل حق الدم

حقل حق الدم قـائم على منحـدر جبل جيحـون، في مقـابل جبل صهيـون، على الطرف الجنوبي منه، وقائم فـوق الحقل نفسه بناء بأربعـة جـدران، يشبـه بـرج مـربـع منخفض، وهو مغطى بقبـة، مستندة على أطراف الجدران، ولهذه القبـة في أعـلاها تسع فتحـات مستـديرة، منهـا يجري رمي أجسـاد الموتى، وبما أن هذا المبنـى قـائم على منحـدر الجبل، فإن الجزء العلوي منه، بالنسبة للقـادم من أعلى الجبل نحو المبنى، يمكن للانسان أن يسير على سقفة المعقود مـن دون تسلق أو صعود، ومساحة السقف المعقـود لهذا البناء هي خمسين قـدمـاً من حيث العـرض، واثنين وسبعين من حيـث الطول، وهناك من الفتحـات العلوية نـزولاً حتى الأرض في الأسفل ستة وعشرين قدماً.

وليس هناك مـدخل إلى هذه الغـرفـة إلاّ من خـلال هذه الفتحـات، ومامن أحد يمكنه الدخول من خـلالهم مالم يتأتى انزاله بوساطة حبال، وهذا المسكن هو للأموات وحدهم، والذي أعتقده أنه منذ اللحظة التي انتهى فيهـا عمارة مامن انسـان دخل إلى هذا المبنى، بل إن كل من دخله مـرة لن يخرج منـه مطلقـاً حتى يوم الحسـاب، واستندت على معـدتي، ومددت رأسي نحو الداخل، فـرأيت هناك خمس جثث بين عظام جافة، ولايوجـد فوق السقـف المعقود الآن أي بناء، بل أعشـاب ناميـة هناك،

وقـد غطت الأعشاب في بعض الأمـاكن الفتحـات، ولذلك فإن الذين يسيرون هناك بدون انتبـاه قـد تنزلق قدم أحـدهم فيهن، وكـانت المرأة المقدسـة هيلانة قد بنت كنيسة فـوق هذه البقعة، وقد أمـرت بتكريسها لجميع القـديسين، وإليهـا كـان الرهبـان الـذين سكنوا في أمكنة اختبـاء الرسل، قد اعتادوا على الذهاب، والقيام بالقداسات هناك.

وفيما بعـد، بعـد ذهاب هؤلاء الرهبـان، سكن رهبـان من طـائفـة المبشرين هناك، وامتلكـوا ديراً هناك، لأنه عندمـا قـام روبرت، ملك صقلية، المتقـدم الذكر، بشراء جبل صهيـون والأماكن الأخـرى لصالح الفـرنسيسكان، وذلـك من السلطان، مقـابل أمـوال كثيرة، وقتهـا قـام الرهبـان المبشرون وطلبوا عـون الناس الأتقياء،. وبعـدما جمعـوا بعض المال، اشتروا حقل حق الدم، بهدف التمكـن من بناء دير هناك، وكـان ذلك في سنة ١٣٥٠ لتجسيد الرب، ففي هذه السنة كان لودلفوس Lu-dolphus، الذي كـان كـاهن أبرشيـة سـوخم، مـوجـوداً في الأرض المقدسة، وكتب هذا في كتابه عن حجه.

وبعـد تسلمهم للمكـان، احتفظوا به لبعـض الوقـت، لكن أخيراً أرغموا على التخلي عن المكان، بسبب هجمات المغـاربة، والسرقات التي عـانوا منهـا على أيدي المسلمين، وفيما يتعلق بهذا الأمـر إن أوضـاع الرهبان الفـرنسيسكان جيدة في جبل صهيـون، ولديهم مكان هادىء في داخل المدينة، محصن بشكل جيـد بأسـوار عاليـة وبأبواب حـديدية، كما تقـدم وقلنا في ص٤٦١، لكن هذه أوضـاع ليست مستمـرة، ذلك أنهم غـالباً مـايكونون في مخاطر عظيمـة، من الهجمات المتـواصلة للمسلمين، حتى في أوقـات الليل، ولولا أنهم رجـال شجعـان، لتخلـوا منذ زمن طويل عن جبل صهيون، بسبب المخاطر التي هم عرضة لها من هجمات هؤلاء الناس، ولهذا كان من غير الممكن بالنسبة للرهبان المبشرين البقاء في مكان غير محصن، في خـارج المدينة، وذلك على الرغـم من شرائهم

للمكان من السلطان، وأنهم بموافقته قد أقاموا به، ذلك أن المسلمين لايعبأون مطلقاً بذلك، ولذلك عندما تمّ اخراج الرهبان من ذلك المكان، هدم المسلمون الكنيسة والأبنية الأخرى، واجتثوا كل شيء حتى الأساسات نفسها، وذلك باستثناء مبنى الدفن الذي مايزال قائماً حتى يومنا هذا.

وبعد الرهبان المبشرين، سكن بعض الرهبان الاغريق الذين اسمهم Coloyers هناك، لكنهم أرغموا بالضرورات نفسها على التخلي عن المكان، وكان هذا ليس قبل وقت طويل مضى، لأنني وجدت في الكهوف، وفي أماكن الاختباء علامات تبرهن أن قوما سكنوا هناك قبل وقت قصير، وغالباً ما اعتدت على النزول إلى هذا المكان من جبل صهيون، وكنت أقرأ صلواتي الساعية فوق الحقل المقدس، وكنت أرغب كثيراً، أنه إذا كان ممكنا أن أنهي أيامي هناك بين الرهبان، وأن أدفن هناك، وبناء عليه اخترت هذا المكان ليكون قبراً لي، وتوسلت إلى رهبان جبل صهيون، أنه إذا حدث ومت في القدس، أن لا يقوموا بدفني في أي مكان غير هذا الحقل المقدس، وأن يلقوا بجسدي من خلال هذه الفتحات.

ويمكنني أن أقول صادقاً، إنه لو كانت الأوضاع الأخرى موائمة متوازنة، كنت أفضل اتخاذ دير هناك على اتخاذه فوق جبل صهيون، ذلك أنه هنا يمكن للرهبان زراعة بساتين، وكروم، وحدائق تين، ثم إن المكان جميل ولطيف، يتطلع نحو جبل صهيون، ونحو وادي سلوان، ويمكنه الحصول على مائه من نبع سلوان، القريب جداً، وهناك أيضاً منظر يشاهد منه وادي شعفاط، وجبل الزيتون، الخ.

وهم يروون صادقين أن أجساد الموتى، عندما يوضعون هناك، يتحولون مباشرة إلى رماد في خلال ثلاثة أيام، وتترك العظام الجافة فقط، ومثل هذا يقولونه عن الحقل المقدس الموجود في روما، إلى جانب

كنيسة القديس بطرس، الذي حملت الأتربة إليه من هنا عبر البحر، ومدت فوق ذلك الحقل، ويفعل مثل هذا أهالي بيزا، فعندما تتوفر لديم سلطة في سورية، يأخذون التربة من هذا الحقل، ويحملون ذلك في سفنهم إلى بيزا، وقد عملوا هناك مدفناً باهظ التكاليف، لدفن عظماء الرجال في بلادهم فيه، وتذوب الأجساد في هذه المدافن الثلاثة خلال ثلاثة أيام، بينما تحتاج في مقابر أخرى إلى مالا يقل عن ثمانية عشر عاماً.

وفيما يتعلق بالثلاثين قطعة من النقود، فقد قرأت حولهم حكاية طويلة متهافته، قالت بأن تارح والد ابراهيم قد ضربهم، بناء على أوامر من الملك نينوس مع نقود أخرى من السكة نفسها، وأن ابراهيم قد تسلمهم، وجلبهم إلى هذه البلاد، وأنهم منه قد آلوا إلى اسماعيل بحق الميراث، جميعا ولم يتوزعوا قط، ولم يتفرقوا عن بعضهم بعضاً، وقد أعطاهم الاسماعيليه إلى أبناء يعقوب ثمناً لأخيهم يوسف، الذين باعوهم إياه، وقد حمل أبناء يعقوب هذه النقود معهم إلى مصر لشراء قمح بهم، ومن مصر جرى حملهم إلى سبأ، ثمناً لبضائع تجارية، وقد أعطتهم ملكة سبأ إلى سليمان ضمن هدايا أخرى، وقام هو برميهم في خزانة هيكل الرب، وقد حملهم نبوخذ نصر مع كنوز الهيكل الأخرى، وعمل منهم هدية إلى غودوليا Godolia (كذا)، الذي تولى ارسالهم إلى مملكة النوبة، وعندما ولد الرب في بيت لحم قدّمهم ملكيور ملك النوبة إلى الرب، وفقدهم يوسف والعذراء المباركة في الصحراء عندما كانا فارين مع الطفل، وعثر راعي عليهم واحتفظ بهم لمدة ثلاثين سنة، وكان هذا الراعي قد سمع بشهرة معجزات الرب يسوع، فقدم إلى القدس مريضاً، ولدى استرداده لصحته على يديه، منح الثلاثين قطعة إلى يسوع، ولأنه رفض استلامهم أعطاهم إلى كهنة الهيكل، الذين وضعوهم جانباً بمثابة «قربان».

وعندما جرت خيانة الرب، ناولوهم إلى يهوذا، الذي حركته الندامة،

فطوّح بهم في الهيكل، والتقطهم الكهنة، واشتروا بهم هذا الحقل، وبذلك تفرقوا وتوزعوا في أرجاء العالم، ولقد رأيت واحداً منهم في رودس، وقام يوهانس توخر أوف نورمبيرغ، بأخذ طبعة له، وصنع قالباً على شكله، وصنع نقوداً فضية على شاكلته، قام بتوزيعها بين رفاقه، وفي الحقيقة عندما اجتمعنا مع بعضنا في نورمبيرغ في سنة ١٤٨٥، للاحتفال باجتماع رجال الدين العائدين للمنطقة، قام الرجل المتقدم الذكر، باعطاء قطعة من قطعه الفضية إلى واحد من رهبان طائفتنا، وهذه القطعة بسعة النقود التي تعرف باسم Blaffardi والتي عليها علامة الصليب، ويوجد على الوجه الأول صورة وجه انساني، وعلى الوجه الثاني زنبقة، وكان عليها فيما مض نقشاً، لكن لايمكن رؤيته الآن، وفي الذي قلناه عن جبل حق الدم كفاية.

وصف جبل جيحون وكذلك بيت الاجتماع التشاوري الشرير

وإثر مغادرتنا لحقل حق الدم، تسلقنا جبل جيحون بعد بذل جهد كبير، ويوجد على قمته خرائب أسوار عظيمة، ويوجد بين هذه الخرائب بعض بيوت الإقامة للمسلمين، وكان يوجد في أيام الملك داوود هناك قلعة حصينة على هذه الرابية، وكانت ملكاً للملك، وتقع في مقابلة بيت داوود مباشرة، الذي كان على أعلى نقطة من جبل صهيون، وذلك حيث يقوم الآن دير الرهبان، ولكل منهما — كما في كل مكان آخر— هناك ساحتين لهذا البيت تتطلع كل واحدة نحو الأخرى، وفي كل ساحة بعضاً من أجزاء البيت، ومتعلقاته، وحسبما قرأنا في سفر الملوك الأول:١، أمر داوود ابنه سليمان أن يركب بغلة الملك، وأن يتوجه إلى جيحون، وذلك إلى حيث لحق به جميع قوات الجيش، وهناك مسحوه ملكاً على اسرائيل، وضربوا بالأبواق، وصرخوا عالياً: «عاش الملك».

وأخبرنا يوسفيوس، أنه عندما سمع داوود هذا، جلس على أريكته، وغاص فيها، وتقدم بالشكر إلى الرب، لأن أصوات البوق والصراخ

فوق جيحون، يمكن بالحقيقة سماعه من فوق صهيون، وفي ذلك الحين كان أدونيا ويوآب مع البقية يحتفلون، حيث جلسوا إلى جانب نبع عين روجل، بجوار صخرة زوحلت (الزاحفة)، وبنيتهم أن يكون أدونيا هو الملك، وسمع هؤلاء القوم أصوات الأبواق فوق جيحون، وباتوا خائفين عندما علموا بحقيقة ما حصل، فقاموا وذهب كل رجل في حال سبيله، لأنهم كانوا عند سفح جبل جيحون، في واد ظليل تحت وادي شعفاط ووادي سلوان، حيث كانت هناك بساتين، مثلما هو موجود في هذه الأيام، وكانت هناك مياه، ومثل ذلك هناك نبع ماء في هذه الأيام، كما هناك حجرة كبيرة، اعتاد الشباب على رفعها للبرهنة على قوتهم، وكان اسم هذه الحجرة الزاحفة، والمكان هناك جميل فيه عمل أدونيا احتفاله، ولكنهم عندما سمعوا الأصوات من فوقهم من الجبل تنادي «عاش الملك»، ارفض اجتماعهم، كما قلنا من قبل.

وكان بيت جيحون في أيام المسيح هو بيت الكاهن الأعلى والكهنة الآخرين، وعندما كانوا يودون معالجة أية قضية، لاسيما إذا كانت سرية، كانوا فيه يتخذون قرارهم حولها، وعلى هذا كان هذا البيت بيت اجتماعاتهم التشاورية السرية، وهنا اجتمع رؤساء الكهنة مع الفريسيين للتشاور قائلين: «ماذا نصنع؟ فإن هذا الانسان....» فهذا ما رواه القديس يوحنا في انجيله، وبناء عليه، على هذه البقعة جرى الاتفاق على قرار موت المسيح، ومن المعتقد أنه في هذا البيت قرر اليهود القتال ضد الرومان، وضد تيتوس وفاسبسيان، ونتيجة لذلك جرى تدمير القدس.

ومن المحتمل أن الرسل جرى جلدهم في هذا البيت، حسبما قرأنا في أعمال الرسل:٥، وحدث هذا الجلد بحضور أعضاء المجلس التشاوري فقط، لأنهم كانوا يخافون من الشعب، كما جاءنا الخبر في الموضع نفسه، وكان كلما توفرت قضية احتاجت إلى المناقشة، وكانوا يخشون الشعب من أجلها، كانوا قد اعتادوا على اقرارها في هذا البيت، فهم كانوا

يستهـدفـون أن يكونوا منعـزلين عن بنـي البشر، وأن يكونوا في الوقت نفســـه في مكـان حصين، ولذلـك حصل هـذا البيت على اسـم «بيت الاجتماع التشاوري الشرير»، ومازال محتفظاً بهذا الاسم حتى هذا اليوم.

وعندمـا فرغنا من مشـاهدة هذا البيت، لم ننزل إلى الوادي، بل سرنا على حـافـة جبل جيحـون إلى الطريق الذي يقـود إلى بيت لحم، الذي عبرناه بـاتجاه الشرق، وسرنا من حـول الوادي القـائم فيها بين جبلي صهيـون وجيحـون، ووصلنا إلى حقل القصـار، حيث وقـف ربشـاقى يجدف ضد الرب إله اسرائيل، وذلك حسبما قـرأنا في سفر اشعيا: ٥٣٦ وقـد أطلق على هذا الحقل اسم حقل القصـار، لأن القصـارين اعتـادوا على تجفيف أقمشتهم فيـه، وهكذا عـدنا إلى القـدس عبر طريق حقل القصـار، وعبر الحجاج الـذين أقامـوا في المشفى، إلى المدينة، من خـلال باب السمك، أمـا نحن فدخلنا على مقـربة من برج داوود، ووصلنا إلى مكاننا، حيث مررنا على طول حافة جبل صهيون.

هنا نهاية الحج خلال مدينة القدس.

كيف أخذ الحجاج طريقهم إلى بيت لحم، التي هي مدينة داوود

في عشية اليوم الذي تقدم على السادس عشر من تموز، قدم دليلانا على ظهر فرس إلى جبل صهيون، وقدم أيضاً السائقون مع حميرهم، لأخذنا إلى بيت لحم، وبعدما تجهزنا جميعاً بحمير نزلنا من جبل صهيون، وذلك من الجانب الجنوبي، وعبرنا الوادي بين البرك، وصعدنا جبل جيحون بوساطة الطريق الملكي، الذي عليه سار الملوك الثلاثة، الذين بعث بهم هيرود للبحث عن الطفل الذي ولد في بيت لحم، وهذا طريق مقدس جداً وجميل من القدس، قرأنا بأن عبره سار البطارقة المقدسين، والآباء، والأنبياء، من ذلك على سبيل المثال: ابراهيم عندما جاء من بلاد الكلدان مع زوجته ساره، وكذلك لوط مع زوجته عندما جاء من المناطق الواقعة فيما وراء الجبال، ويعقوب، وجميع الرجال المقدسين، وداوود، واشعيا، والياس، فعنهم جميعاً قرأنا بأنهم ساروا عبر هذا الطريق، وبناء عليه صعدنا جبل جيحون بسرور، وفوق القمة صرنا بين الجدران الحجرية الجافة لبساتين رائعة، فيها ينمو مختلف أنواع أشجار الفواكه الثمينة، والكروم، والتين، لأن أهل القدس يمتلكون بساتينهم هناك.

وعندما مررنا من خلال البساتين، وصلنا إلى بعض الجدران المهدمة القديمة، حيث كان النزل الذي قيل، بأن الملوك الثلاثة أقاموا به، عندما كانوا على طريقهم إلى بيت لحم ومعهم هداياهم، وتابعنا سيرنا من هناك، ووصلنا إلى مكان وعر، حيث قالوا بأن العذراء المباركة قد جلست فيه، لاسترداد أنفاسها، عندما كانت حاملاً، وقد رأينا المكان الذي جلست فيه، ولذلك ترجلنا في هذا المكان من على ظهور حميرنا، وأبدينا احترامنا للمكان مع مشاعر العجب والسرور، وهو بالحقيقة ما شعرنا به خلال الرحلة كلها، ولقد أشفقنا على الفتاة اللطيفة الحامل، بسبب طول الرحلة من الناصرة إلى بيت لحم، التي هي أكثر من عشرة

أميال ألمانية.

** ** **

(جاء هنا حوار بين حاج والقديس يوسف، أكد فيه القديس يوسف له أنه من أجله استراحت العذراء هنا، لأن العذراء كان لايمكنها الشعور بالتعب).

المكان الذي رأى فيه الحكماء النجم الذي كانوا قد رأوه في الشرق

وعندما انتهى هذا الحوار، عاودنا امتطاء ظهور حميرنا، وتابعنا سيرنا، وعندما صرنا في منتصف الطريق وصلنا إلى ثلاث برك، وذلك في المكان الذي ظهر فيه النجم للمرة الثانية، وهو النجم الذي كان الحكماء قد رأوه في الشرق، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى، ويقال بأن هذه البرك قد حفرت في الأماكن التي وقف فيها الملوك الثلاثة، ينظرون إلى النجم، الذي كان قد اختفى عندما دخلوا إلى القدس، وسررنا في هذا المكان مع بعضنا ومع الحكماء الثلاثة، وكنا نقرأ ونغني ماهو محدد في كتب المسيرة.

المكان الذي ولد فيه النبي إيليا

وبعد مغادرتنا لهذا المكان،وصلنا إلى كنيسة تابعة للجورجيين، يقال بأنها قائمة فوق البقعة التي ولد عليها النبي إيليا، وقد دخلنا إليها، وتعبدنا الرب، وحصلنا على غفرانات لمدة سبع سنوات(+)، وشرفنا النبي إيليا، لكن هناك شك حول كيف أمكن للنبي إيليا أن يلد هنا، لأن كنيته تشير إلى أنه قد ولد في طيبة، لأن ذكره قد ورد في سفر الملوك الأول:١٧، باسم الطيبي، هذا وهناك ثلاث مدن اسمها طيبة: أولاهن في سورية، في منطقة الجليل، حيث كان هناك برج مرتفع، منه رمت

امرأة بقطع من حجر طاحون، فحطمت جمجمة أبيمالك الذي كان يسعى إلى لغم البرج، وكان هذاعندما شعر بأنه يموت قد طلب منهم ضربه بالسيف، حتى لايقال بأن امرأة قد قتلته (القضاة:٩).

وأما الثانية فموجودة في مصر، ومنها نالت المنطقة كلها اسمها، وصار اسمها الطيبية، وكانت طيبة هذه فيما مضى مدينة عظيمة وغنية، وذلك حسبما قرأنا في أسطورة القديس موريس حول الفيلق الطيبي، ويقول بعضهم بأن هذا المكان هو القاهرة، أو بابليون، كما سيرد ذكرها فيمابعد.

وأما الثالثة ففي بلاد الاغريق، وقد جاء النبي إيليا من الأولى، وحصل على كنيته منها، وعلى كل حال في سبيل اعطاء مصداقية لحكايتي، أقول إن من الممكن أن ما وقع إلى ايليا مثله وقع للمسيح ربنا، الذي جرى الحمل به في الناصرة، وولد في بيت لحم، ومع ذلك اسمه يسوع الناصري، وليس البيت لحمي، ومثل هذا إيليا، حيث جرى الحمل به في طيبة قد ولد في حلبة الخيل، ومع ذلك اسمه الطيبي وليس الحلبي، هذا وكنت قد قرأت في مكان آخر، أنه قد قام هنا فيما مضى بيت ريفي، كان اسمه أيضاً طيبة، وفي الحقيقة إن مسقط رأس نبي عظيم مثل هذا النبي جدير أن يعدّ بين الأماكن المقدسة، لأنه كان قد ولد منذ ثلاثة آلاف سنة مضت، ومع ذلك هو لم يمت بعد، بل سوف يقف أمام القاضي، ويسترد جميع الأشياء، وذلك حسبما قرأنا في ملاخي:٤ Malachi، وفي متى:١٧.

حقل النبي حبقوق

وإثر مغادرتنا لذلك المكان، تابعنا سيرنا، ووصلنا إلى حقل حبقوق، وقرأنا عن هذا النبي في سفر دانيال:١٤، بأنه قد طبخ كمية من الحبوب، وبعدما طبخها وكان حاملاً لها إلى الحقل للحصادين، أمسكه

ملاك الرب بأعلى رأسه، وحمله من شعر رأسه، وبقوة نفخه حمله إلى بابل،وذلك إلى المكان الذي كان فيه الأسود، وأعطى الطعام الذي كان معه إلى دانيال ليتغدى، ولهذا وقفنا بدون حراك لبعض الوقت في هذا الحقل، ونحن نبدي العجب تجاه فضائل حكمة الرب، التي اعتادت ضمان أحوال عبيد الرب بعقلانية مدهشة، ولذلك قال غريغوري عن هذا الموضوع: «دانيال الذي لم يهتم حول الطعام والشراب، والذي من خلال صدقه الملائكي عاش بالايمان في عرين الأسود، بين الأفواه المفترسة لتلك الحيوانات المتوحشة المرعبة، دانيال هذا لم يهمله الرب، بل جلب له طعامه في لحظة من اليهودية إلى بابل على أيدي نبي، بناء على أوامر الرب».

وتعلمنا بهذا المثل بشكل واضح جداً أن عبيد الرب الذين يعيشون هنا على الأرض وفقاً لمفاهيم الانجيل، لن يكونوا مطلقاً في عوز، كما قال النبي: «لقد كنت صغيراً، وأنا اليوم شيخاً، ومع ذلك لم أشهد قط أنه تم التخلي عن المستقيمين وهجرانهم»، وقال ثانية: «الرب لن يقصم حياة المستقيم بالجوع» ولسوف «يعطي طعاماً للذين يخشوه»، وبناء عليه لم نقرأ في أي مكان بأن الرب قد سمح بإهلاك نخبته بالجوع، لأنه عندما جرى سجن الشهداء بغاية اجاعتهم حتى الموت، أرسل ملائكته ليجلبوا لهم طعاماً من السماء، حسبما قرأنا عن ذلك في عدد كبير من الأماكن، فقد أطعم الأنبياء بوساطة الطيور الجوارح، وبشكل اعجازي انعش هؤلاء الآباء المقدسين من النساك.

علاوة على هذا نقرأ عن أبينا العظيم جداً، القديس دومينيك، أنه حدث لمرتين أن كان الرهبان بحاجة إلى الخبز، فأرسل لهم من قبل الرب بوساطة الملائكة، وهو إذا لم يرسل حتى خبزا حقيقياً ومرئياً، متن نخبته بقوة غير مرئية، حسبما قرأنا في سيرة «حياة القديسة كاترين السيناوية»، وقد أذن لنا برؤية الشيء نفسه في أيامنا الحالية بأعيننا، لأنني

أعـرف ناسكاً اسمـه نيقولا، كـان يسكن في الجبـال وحيداً فـوق بحيرة Lucerne ، وقـد عاش في العشرين سنة الأخيرة من دون طعـام أو شراب، وهو أمـر عجيب أن تسمعـه، وكنت قـد رأيت هذا الرجل في سنة ١٤٧٥.

ويوجد في حقل حبقـوق المتقدم الذكر حصـا مستدير وأبيض اللون، مثل حبـات الفاصـوليـاء البيضـاء، وحول هذه الحبـوب الحصـوية التي رأيناها هناك حكاية من أنواع حكايات الأطفال، مع ذلك أنا عازم على روايتها، مثلما تعـاملت مع أشياء أخرى من النوع نفسـه: فقد حكوا بأن الرب يسـوع كـان ماراً في أحـد الأيام بهذا الطريق، وكـان هناك فـلاح يزرع فـاصوليـاء، فسأله الرب عما كـان يزرع، فأجابه الفـلاح ساخـراً: «إنني أزرع حجـارة» فقـال له الرب جـوابـاً على هذا: «ليكن ذلك كما قلت أنت»، فكان أن تحولت على الفـور جميع حبـات الفـاصـوليـاء إلى حصـا، إنما احتفظت بلونها وشكلها القـديم، وقد جمعنا بعضـا من هذه الحصا بسبب تعجبنا ودهشتنا.

وعندمـا كنـت فـوق تلك البقعـة، تـذكـرت حقـلاً على مقـربة من جيسلنجن Gislingen، فيـه مـوجـود أعـداد لاتحصى من الحصـا من الشكل نفسه، ويتحـدث الأطفال هناك ويحكون الحكاية نفسهـا حولهم، ويوجد على مقربة من هذا الحقل بركة وقد خمّن بعض الحجاج أنها بركة يوسف، التـي وضع فيهـا من قبـل إخـوته (التكويـن:٣٧)، لكن هذا لايتوافـق بشكل جيد مع الكتـابات المقدسة، التـي قالت بأن البركـة قد كـانت في القفـار، ولايوجـد هنا مكان اسمـه شكيم أو دوثيم، ولهذا غـادرنا المكان بسرعـة أكبر مما اعتـدنا أن نفعل وتوجب أن نفعل، ومع ذلك أشفقنا على يوسـف المبـارك، وتذكـرنا كم مـن الشرور تنجم عن الحسد، حيث رأينا أنه لايسمح بمحبة تقدم أي انسان وازدهاره، مع أنه قد يكون أخـاً للحاسد، وعلى هذا أحسن سقـراط القول: «يخضع الحظ

السعيد دوماً للحسد، والشقاء وحده هو الذي لايحسد».

وبعدما تابعنا سيرنا وتجاوزنا الحقل والبركة، كان هناك جدار قديم مرتفع، ممتد نحو الطريق وداخل فيه، ولقد قالوا: كان هناك بيت الأب يعقوب، حيث سكن فيه لبعض الوقت،وقالوا أيضاً بأن هذا الجدار جزء من خرائب بيت هذا الأب، ومهما يكن من أمر، حدث مرة، عندما كنت ماراً بهذا المكان أن تسلقت على هذا الجدار، واكتشفت بدون شك، أنه بني من أجل حمل مجرى مائي، عليه جرت المياه فيما مضى نازلة إلى القدس، فضلاً عن هذا، لو أن هذا كان بيت يعقوب، أية حاجة دفعت زوجته راحيل إلى حمل ولدها على الطريق، المجاور لهذا البيت؟.

قبر راحيل الذي بناه البطريرك يعقوب من أجلها

وتابعنا سيرنا، فوصلنا إلى مكان سماه جيروم في كتابه «حول مسافات الأماكن» قبراتا Chobrata حيث كان هناك قبر راحيل زوجة يعقوب، التي كانت هنا على الطريق العام، راغبة بالذهاب إلى بيت لحم مع يعقوب، وكانت حاملة ببنيامين، فجاءها المخاض، وتوفيت من خلال مصاعب الولادة، ويقوم هنا عمود قبر راحيل حتى هذا اليوم، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين (سفر التكوين: ٣٥/ ١٩—٢٠).

ويقول اليهود بأن سبب عدم حمل يعقوب لزوجته المحبوبة إلى حبرون، لدفنها في ضريح آبائه، والقيام بدفنها في الطريق العام، هو أنه عرفهم عن طريق روح التنبؤ وعرف ما الذي يفترض حدوثه فيمابعد، لأن بعدما دمر نبوخذ نصر المدينة، وأحرق الهيكل، وكان يقتاد شعب الرب أسيراً نحو فارس على هذا الطريق، وأنه لدى مروره بهذا الضريح، رفعت راحيل — بمعجزة ربانية — صوتها من داخل

الضريح، وخاطبت الأعداء، وطلبت الرحمة الربانية، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الحادي والثلاثين من سفر ارميا: «صوت سمع في الرامة» الخ.

هذا، ورأى اللاهوتيون الكاثوليك وبينوا أن بكاء راحيل جاء من أجل قتل الأبرياء (متى:١)، ووفقا لما قاله جيروم قيل لراحيل أم أطفال بيت لحم وأطفال تلك المنطقة، مع أنهم كانوا أبناء ليه، لكنهم عرفوا باسم أبناء راحيل، لأن قبر راحيل هناك، وفوق هذا الضريح قد أقيم بشكل مهيب عمود، وهذا العمود هو هرم مرتفع، قد بني من حجارة بيضاء مربعة ومصقولة، وله مثل شكل البيعة الجديد القائمة في وسط المقبرة الجديدة في أولم، والتي اسمها مقبرة جميع القديسين، والفارق هو أن قبر راحيل قد بني كله من الحجارة، وليس فيه للخشب مكان خاص.

وأمام هذا القبر أقام يعقوب اثنتي عشرة حجرة، وفقاً لعدد أبنائه الاثني عشر، وعمل المسلمون إلى جانب البيعة جرناً لوضع ماء الشرب فيه، وقد قرأنا عن هذا القبر في سفر صموئيل الأول، حيث جاء الحديث إلينا بأن صموئيل وافق على أن يكون شاؤول ملكاً، من خلال علامة هي أنه وجد على مقربة من قبر راحيل رجلين يقفزان فوق خنادق عميقة، وهذا المكان موضع تقدير لدى كل من المسلمين واليهود والمسيحيين، وقد تلونا صلواتنا هناك، وحصلنا على غفرانات(+)، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى مكان هو الآن قاحل، لكنه كان من قبل جميلاً، لأنه هناك كان سليمان قد زرع احدى حدائقه، وسيأتي وصف هذه الحدائق فيما بعد وهنا رأينا بيت لحم وحييناها.

ووقفنا على طرف الحديقة المتقدمة الذكر، ومن هناك رأينا عن بعد، يقدر بنصف ميل ألماني، بيت لحم، التي هي مدينة داوود والمسيح، وكانت كنيسة العذراءالمباركة، التي فيها موضع الميلاد، مرتفعة فوق كل

شيء يمكن رؤيتـه، وعندما رأيناهـذه المدينة المجيدة، ترجلنا على الفـور من على ظهــور حميرنا، وحيينا بكل بهجــة المدينة، مع صلوات قلبيــة، ورددنا مثل هذه الكلمات: «حييت يا افراتا، أيتها المنطقة الأعظم خصباً، والتي ثمرتك هي الرب، حييت يـا بيت لحم، يا بيت الخبز، والتي فيك مخبأ ذلك الخبز الذي نزل من السماء، فيك تنبأ ميخا مرة بأنك لن تكوني الصغـرى بين الامــارات بل الكبرى، ذلك أنه منك ســوف يأتي الذي سوف يحكم العالم، ففيك ولد من أم عذراء الأمير — قبل أيام الشيطان — الذي أنجب بـوســاطة الرب الأب، وفيك سكـن ولد داوود حتى حملت العذراء بطفل، يابيت لحم لا أعرف بأي مديح يمكن أن أطريك، فأنت احتضنـت في داخل زريبـــة فقيرة الذي لم تستطـع السمــوات أن تحتضنه، حييت يا بيت لحم، فأنت قد صرت مـوضع إعجاب في الشرق والغــرب ســواء، ومثلما جــاءت الحكمـة إليـك فيما مضى من الشرق بوساطة الحكماء (المجـوس) مثل ذلك قدم إليك الآن حجـاج أتقياء من الغرب».

ولدى فــراغنا من أعمال الســلام والتحيــة عـاودنا ركــوب حميرنا، وبهجـة عـارمـة وبسرعـة بادرنـا نسير على طريقنا إلى بيت لحم، وبكى بعضنا سروراً وخشوعاً، وغنى بعضنا فـرحاً الترانيم المسيحية المشهورة: وكـــذلك« Puer natis in Bethlehem, unde gaudet Jerusalem» وكـــذلك« Resonet in loudibus, Cum Jucundis plausibus» Indulci Jubilo nu signent und sind« Fro» الخ.

وغنينا جميعــاً وبشكل جماعي الترنيمــة الملائكيــة «المجـد للرب في الأعـالي» الخ، ومـع أن أدلاءنا من الســادة المغــاربة المسلمين لم يتأثروا بسرورنا، غير أنهم أصغوا بصمت، وقد بـدوا بالنسبة لي أكثر سروراً مما اعتـادوا أن يكونوه، وأنا لم أشـاهد حجـاجـاً على هذا الطريق بمثل هذا

السرور، علماً بأنني سافرت عليه شخصياً ست مرات، وكنت دوماً في حالة بهجةغير معبر عنها.

ويوجد الآن بيننا وبين بيت لحم، واد عميق وكبير، وقد فصل بيننا وبينها، ولم نكن —على كل حال— بحاجة للنزول إلى الوادي، بل سرنا بفرح حول رأس الوادي، ومشينا على طول الحافة هناك حتى بيت لحم، وسرنا كذلك على جرف مرتفع للتلال، وعلى شرف تقوم المدينة المباركة عليه، وشاهدنا في وسط الوادي المكان الذي أعلن فيه للرعاة عن ميلاد المخلص، وتحدثنا أقاصيص الملوك الثلاثة، أنه عندما كان الحكماء (المجوس) مع حشودهم يعبرون هذا الوادي، من هذا المكان، بقصد الدخول إلى بيت لحم، رأى وقتها الرعاة النجم غير المعتاد، وشاهدوا الحشد الذي لحق بهم، لذلك بادروا مسرعين إلى تسلق الرابية ليروا ما الذي كان يحدث، وإلى أين كانوا ذاهبين.

وعندما عرفوا أن هدفهم الطفل الحديث الولادة، شرعوا في إخبارهم بما حدث لهم في تلك الليلة، عندما ولد الطفل، وكيف أنهم علموا بوساطة رسول من السموات، أن الطفل لابد من أن يكون مخلص العالم، وعندما سمع الحكماء بهذا تولاهم السرور بلا حدود، لأنهم وجدوا شهوداً آخرين إلى جانب النجم، وفتحوا محافظ نقودهم، وأعطوا أعطيات ثمينة إلى الرعاة الفقراء من أجل أخبارهم الطيبة، ولهذا وقفنا في هذا المكان وقدمنا الشكر للرب من أجل أعماله الرائعة، وتمنينا السرور إلى أولئك الملوك الأتقياء، وهكذا تابعنا سفرنا مع كثير من السرور.

الاضطراب الذي عانى الحجاج منه على أيدي البداة أو المدينيين قبل دخولهم إلى بيت لحم

في هذا العالم ليس هناك سرور — حتى السرور الروحي — لايمكن

إلاّ تعكيره، فهو وإن بدا لبعض الوقت صافياً غير مشوب، تراه مباشرة قد انقلب على الفور بوساطة أحداث مضادة، وقد برهنا على صحة هذا الأمر خلال رحلتنا هذه، ذلك أننا انطلقنا من القدس بسرور عارم، وكنا كلما اقتربنا من بيت لحم كلما ازداد سرورنا، كما بينا أعلاه، لكن الذي حدث بقضاء من الرب أن سرورنا انقطع ولم يكتمل بتعرضنا لخوف شديد، فلدى اقترابنا من المدينة المقدسة، فجأة، قدم نحونا حشد من البداة، وكانوا قد خرجوا من بيت لحم، ولدى رؤيتهم ارتبك أدلاؤنا وارتعبوا، وشعرنا نحن أيضاً بالخطر، ومع ذلك تجمعنا نحن الحجاج مع بعضنا في كتلة واحدة، وبعثنا بأدلائنا المسلمين وبقبطاني غليوننا فساروا أمامنا، وسرنا وفق وضعنا الحالي، وتابعنا على طريقنا، ونحن مليئين بالخوف، لقد سرنا لمواجهة قطاع الطرق الذين تحركوا ضدنا، لأنه لا الزمان ولا المكان سمحا بالفرار والابتعاد، وقد تصرفنا على هذه الصورة حتى لانعطي ظهورنا لهؤلاء اللصوص، وعندما وصلنا إليهم، لم يعد بامكان قادتنا متابعة سيرهم لأنهم أوقفوهم، واستولوا على الطريق، ولذلك لم يعد بامكان أي انسان المرور والعبور، وهناك وقفنا لمدة تجاوزت الساعة، لأن أدلاءنا مع القبطانيين انشغلوا بعمل اتفاق معهم، وتجادلوا معهم طويلاً وبصوت مرتفع، ومع ذلك لم يسبب أيا منهم الأذى إلى الآخر بأي شكل من الأشكال، لأن المشارقة لايتجهون إلى العنف الشخصي مباشرة، مالم يكرهوا على الرد على العنف بالعنف، ولم يكن هؤلاء البداة أعداء لنا، بل كانوا فقط يستخرجون بعض المال منا، الذي قالوا بأنه حقهم الشرعي، حسبما سنرى كثيراً فيما بعد، ولو أننا زحفنا بقوة ضدهم وعلى الرغم من إرادتهم لتركونا في الحقيقة نمر، لأنهم رأوا أننا كنا أكثر عدداً منهم، لكنهم وقتها كانوا سوف يستدعون إليهم جميع رفاقهم، ومن ثم سوف يحاصروننا في بيت لحم، ويسوقوننا إلى مضائق شديدة، ولعلهم كانوا يرغبون وبسرور أن نشق طريقنا من خلالهم بالقوة، فوقتها سيمتلكون

تسويغاً أعظم للشكوى ضدنا، ومن ثم لن يكون وقتها بامكاننا فعل أي شيء ضـدهم، هـذا وإن كنا أكثر عـدداً منهم، لكنهـم كـانوا مسلحين بالرماح، وبالسيوف وبالقسي، وكنا نحن غير مسلحين، باستثناء أدلائنا، الذين كانوا بالفعل مسلحين.

وبعـد حـديث طويل ومنـاقشـات جـرى الاتفـاق على أننا إذا أردنا الدخـول إلى بيت لحم، يتـوجب علينا أن ندفع أربعـاً وعشرين دوقيـة، وإذا لم نرغب بالدفع، يمكننا العودة إلى القدس، وهكذا فتحنا حافظات نقـودنا، ودفعنا المال كله، حيث دفـع كل انسـان حصتـه، وتابعنا سيرنا على طريقنا، بينما بقي اللصوص في المكـان نفسه يتقاسمـون الغنيمة فيما بينهم.

وبعدمـا ابتعدنا مسافة طويلة عنهم، اندفع من المدينة حشـد آخر من البداة، كانوا شركاء لهم، وقد حملوا على رتل الحجاج، ومروا من وسطنا مع كثير من الصراخ والشتـائم، ودفعنا وشدنا، وإلقـاء قبعات الحجـاج من على رؤوسهم، وقـد أزعجـونا كثيراً بمـزاحهـم الخشن، وفي تلك الأجواء المضطربة حدث لي الحادث الخطر التـالي: عندما كنت راكباً على ظهر حماري بين البقية، أقبل نحوي بدوي وساق وهو على فرسه ضدي راغبـاً في شق طريقه بيننـا، مثلما فعل بقية رفـاقـه، ولكي يقوم الحجـاج بفتح طريق له ليمـر من بينهم، شرع رمحه وسدده مبـاشرة نحو وجهي، وبسبب اندفاعه وضغطه لم أكن قـادراً على تجنب الوقوف في طريقه، كما أنني لم أستطع رمي نفسي مـن على ظهـر حماري، وهو مـا كنـت راغبـاً بفعله، ولذلك كنت مرغماً مع كثير من الرعب والحذر على انتظار طعنته لي وهو حـامـل علي، وعندمـا وصل انتـزع قبعتي من على رأسي بطعنة شديدة بسنان رمحه الحاد، ومرّ وتجاوزني وهو يضحك.

ولقـد كنت مسروراً لأنني لم أجـرح، وترجلت من على ظهـر حماري وأنا حزين، وكان هدفي البحث عن قبعتي في الوسط الفوضوي، والذي

حدث على كل حال، أن واحداً من الحجاج التقط قبعتي وأعطاني إياها، وكنت راضياً تماماً أن ذلك البدوي كـان يتقن تماماً فن لمس الأشياء، كما يريد، بسنان رمحه، لأنـه لو أخطأ بتسـديده سماكـة اصبع واحـد نحـو الاسفل، لمرّ سنان رمحه من خلال جمجمتي، وكـان هؤلاء الرجال بعضاً من الخدم الأوغاد للذيـن تولوا تغريمنا، وكانـوا منطلقين بسرور لمقابلة سادتهم، ليشاركوهم بالفرح بالمال الذي تسلموه، وللسخرية منا.

دخول الحجاج إلى بيت لحم ودخولهم إلى كنيسة مهد المسيح

وعندما بتنا على مقربة من بيت لحم، وعلى بعد حوالي رمية سهم عن بابها، وصلنا إلى مكان كـان فيـه جب داوود، وقـد عـرف باسم جب داوود، لأن —كما قـرأنا في سفـر صمـوئيل الثـاني: ٢٣/ ١٤—١٥— داوود قـد رغب بالشرب منه، عندما كـان متحصناً، وكان البئر مطوقاً بالأعداء، فقام ثلاثة من الرجال الأشداء من جيش داوود بشق طريقهم خلال المعسكر الفلسطيني، ونضحوا ماء من جب بيـت لحم الذي كان قـرب البـاب، وحملوا الماء إلى داوود، الذي لم يشرب منه، بـل صبـه في سبيل الرب.

وهذا الجب هو قبو واسع وعميق وعريض، له في أعـلاه وعلى جانبه ثلاث فتحات بعيدة احداهن عن الأخرى، من خلالهن يجري نضح الماء من بركـة الجب، التي تحتـوي على كثير من الماء الصـافي، والصحي والبارد، وقد نضح بعضنا منه وشرب، ونظر — على كل حـال— عامة الناس وسكان بيت لحم بقـرف إلى هذا الماء، لأنـه قبل أيام قليلة مضت قبل زيارتنا، كـانت امرأة مسلمـة تحاول نضح الماء، وكـانت تفعل ذلك بدون انتبـاه، فـوقعـت من خـلال فـم الجب، فغـرقت فيـه ومـاتت، واستخرجت منه.

ووصلنا من ذلك الجب إلى طرف مـدينة بيت لحم المبـاركـة، لكننا لم

ندخل إليها، بل مررنا بجانبها باتجاه الشرق، وذلك من خلال كثير من الجدران المهدمة، ثم دخلنا إلى كنيسة العذراء المباركة، حيث تخلينا عن حميرنا وأعطيانهم إلى سائقيهم، ودخلنا إلى الكنيسة المقدسة، وسقطنا على وجوهنا، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وعندما نهضنا من صلواتنا، كنا مندهشين كثيراً، وامتلأنا بالاعجاب نحو حجم الكنيسة وجمالها، ووجدنا في هذه الكنيسة بعض الباعة ممن كانوا معنا في كنيسة الضريح المقدس، وقد عرضوا علينا شموعاً للبيع، وشرينا شموعاً منهم، لأن الدنيا كانت مظلمة في الداخل وراء الأبواب، حيث كانت الشمس آخذة بالغياب.

الزيارة إلى الأماكن المقدسة وأولاً إلى مكان دراسة القديس جيروم وقصة ضريحه

وأعد الرهبان مسيرتنا وفق الطريقة التي تقدم وصفها في ص ٤٠١، و ص ٤٥٧، ذلك أننا كنا قد جلبنا معنا جميع زينتنا وأثاثنا على ظهور الحمير من دير جبل صهيون إلى بيت لحم، وعندما أخذ كل انسان محله ووقف فيه، حمل الجميع مثل بعضهم شموعاً مشتعلة في أيديهم، وبدأ رئيس الجوقة يغني ترنيمة اعتراف هي: « Iste confessor Domini» الخ، وقمنا ونحن نغني هذه الترنيمة بالخروج من الكنيسة إلى الدير، وذلك على جهة اليسار، وقد عبرنا خلال باب إلى الدير، ونزلنا تسع عشرة درجة، إلى بيعة جميلة ذات سقف معقود، ففي هذه الغرفة كان مقر دراسة القديس جيروم، حيث فيها بذل جهوداً كبيرة، فهنا تولى ترجمة التوراة كلها من العبرية والكلدانية إلى اللاتينية، وجاءت الترجمة إلى كل من اللغة الكلاسيكية، والعامية، فهو قد ذكر ذلك في رسالته إلى صفر ونيوس حول نشرة جديدة، وفي رسالته حول مسائل عبرية، وهنا أيضاً كتب مقدماته، ورسائله، وشروحه، وتعليقاته، وهنا أيضاً قام بالتصحيح، والتوزيع، والتصنيف للمزامير، وذلك حسبما هي مستخدمة

في هذه الأيام من قبل الكنيسة الرومانية، وهو الذي أملى قصيدة: «المجد للأب، وللابن» الخ.

وقد التحق به شخصياً عدد من التلاميذ تولى تعليمهم، وفوق هذا كله حافظ على عذريته بشكل دائم، وقد جعل أسداً متوحشاً مدجناً ولطيفاً، وقد قاد حرباً بدون توقف ضد الهراطقة ورجال الدين الأشرار، والرهبان الفاسدين، وكان دوماً مشغولاً بالعمل، وكان ينهك نفسه في زنزانته حتى أنه لدى نومه كان يجر نفسه على فراشه بالقوة جراً، وذلك بأن يمسك بيديه حبلاً كان قد علقه من السقف فوقه، كما أن مارس واجباته الديرية على أحسن ما يرام، واستمر يجهد نفسه بهذه الأعمال لمدة خمس وخمسين سنة وستة أشهر. وقد صلينا في هذا المكان وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) مع تقديم للشكر.

ضريح القديس جيروم الذي هو فارغ الآن

وهناك بيعة أخرى مجاورة لهذه البيعة، وليست بعيدة عن مزود الرب، حيث اختار موضع دفنه، وذلك كما جاءنا الخبر في رسالة يوسبيوس، فهنا، عندما كان القديس جيروم مايزال حياً، أمر بعمل ضريحه، وفيه بعد وفاة ذلك الأب المجيد للكنيسة، مدد جسده، مبجلاً بسبب آية اعجازية هو عملها، وهذا الضريح هو كامل في هذه الأيام، لكنه فارغ، وهو مزين بألواح من الرخام، فقد جرى نقل جسده من بيت لحم إلى القسطنطينية، ومن هناك إلى روما، حيث يرقد في هذه الأيام في قبر فاخر في كنيسة القديسة مريم العظيمة، وبناء عليه بعد تلاوتنا لصلواتنا في هذا المكان حصلنا على غفرانات(+).

وقد قرأنا في رسالة القديس أوغسطين إلى القديس سيرل Cyril المقدسي، أنه صدوراً عن تبجيله للقديس جيروم، قام بعبور البحر علّه

يرى هذا المكان، ولم يكن ممكناً أخذ الجسد من القبر، وكانوا كلما أخرجوه منه، وجدوه في اليوم التالي فيه، وظل الحال كذلك حتى جرى الاستيلاء على القدس من قبل الكفار، فوقتها سمح لنفسه بالنقل إلى روما، فهذا ما قرأناه في الرسالة الأخيرة للقديس سيرل.

ضريح القديس يوسبيوس تلميذ القديس جيروم

وبجوار هذا الضريح هناك قبو آخر، مدفون فيه القديس يوسبيوس، تلميذ جيروم المبارك، وكان يوسبيوس هذا من أهالي كريمونا Cre-mona ، وقد نصّب تلميذاً للقديس جيروم، وكان رجلاً عظيم الفصاحة، وكان بين ما كتبه، رواية عن حياة، ومعجزات، وموت استاذة، باسلوب قصصي فصيح، وقد وجه ذلك إلى داماسوس Dam-asus أسقف أوبورتو Oporto(البابا فورموسوس فيمابعد) وكذلك ثيودوسيوس الذي كان الشيخ الروماني المسيحي الوحيد، ووضح التواضع العظيم لهذا الرجل من خلال رسالته التي كتبها إلى الأسقف المتقدم الذكر.

ولهذا تمددنا بأنفسنا على الأرض أمام قبر هذا القديس، وتوسلنا إليه من أجل الحماية، وحصلنا على غفرانات(+)، وكان قد تلقى انذاراً باقتراب موته، من قبل القديس جيروم، وكان ذلك عن طريق الرؤيا، وأعطاه أوامر بوجوب أن يكون دفنه على مقربة من القديس جيروم، وفي الوقت الذي مات فيه، مات هناك أيضاً ثلاثة أخر، كانوا قد أقيموا من الموت من قبل القديس جيروم، ومن هنا نستخرج برهاناً حول دمار احدى الهرطقات، وذلك كما قرأنا في رسالة القديس سيرل، أسقف القدس إلى القديس أوغسطين، حيث قيل هناك كثيراً من المدح للقديس يوسبيوس.

مكان ختان الرب حيث قيل بأنه ختن في اليوم الثامن وأعطي اسم يسوع

وبعد هذا صعدنا ثانية، وخرجنا من القبو، ودخلنا مجدداً إلى الكنيسة، وعبرنا من وسطها، وتوجهنا إلى الجانب الأيمن من الجانب المقابل له هناك،وصعدنا إلى بيعة، متصلة بذلك الجانب نفسه من السدة، وغنينا بشكل معلن هناك أمام المذبح ترانيمنا وأغانينا التجاوبية من أجل ختان الرب، وغنينا أيضاً salve Regina وهي ترنيمة للعذراء المباركة، وانحنينا بأنفسنا نحو الأسفل، وقبلنا المكان الموجود تحت المذبح، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، ففي هذا المكان المقدس، كان قد جرى ختان الرب يسوع، في اليوم الثامن لولادته، لأنه كان من غير الممكن ختانه في الكهف الذي كان قد ولد فيه، والذي رقدت فيه العذراء بعد الميلاد، بسبب الظلام، يضاف إلى هذا لعل المطهّر لم يرتض برائحة الاسطبل، ولذلك أخرجوا الطفل يسوع، وختنوه هنا.

وقد تبرهن على قداسة هذا المكان من خلال الرائحة الطيبة التي فاحت منه وانتشرت في كل مكان، لأنه عندما ينحني الانسان نحو الأسفل ليقبل المكان، تصدر نحوه رائحة طيبة غير اعتيادية، تنعشه لدى شمه لها، وتجعله يقبل على تعبد هذا المكان بقداسة غير محدودة، فقد رأينا هناك أولاً ينابيع عميقة جداً قد تفجرت وانفتحت، وعمت الطهارة فوق الأرض كلها، ليس بوساطة مياه تغرقها، بل بوساطة دم يجعلها حيه، لأنه عندما جاء طوفان نوح، مات كل ماغطته المياه وهلك، ومقابل هذا إن كل ماغطاه طوفان دم المسيح، قد منح حياة.

وتباهينا نحن الحجاج في هذا المكان، بأننا أكملنا الآن زيارة جميع الأماكن، وقبلنا جميع الأماكن التي قرأنا بأن الرب يسوع قد سفح فيها دمه الثمين جداً، أي أن تقول(١) إنه هنا بالختان تفجر أول الينابيع

العميقة جداً، والمقصود بهذا أن أوردة المسيح انفجرت وانفتحت، و(٢) ثم تبع ذلك في مكان آلام المسيح على جبل الزيتون، و (٣) تلا ذلك في المكان الذي جلد فيه وتوّج بتـاج من شوك، و (٤) في المكان الذي وقع فيــه أثناء حمله للصليب، و (٥) في المكان الذي صلب فيــه، و (٦) في المكان الذي طعن فيه طرفه.

علاوة على هذا، إن هذا المكان مبجل، بسبب أن اسم يسوع الجميل، قـد أعطي هنا للمرة الأولى من أجل خـلاص العالم، لأنه لايوجـد اسم آخر على الأرض يمكن أن يتم فيه خـلاصنا غير اسم يسوع، فهنا تدفق الطيب وانتشرت روائحه، ولهذا قيل عن العروس في نشيد انشاد سليمان (١/ ٣): «اسمك دهن مهراق».

المكان الذي أعدّ الحكماء فيه أنفسهم بالملابس والهدايا

وعندمـا فرغنا من تقـديم شكرنا في مكان الختان، بدأ رئيس الجوقـة يغني ترنيمـة « Hostis Herodes Impie » وقـد تحلقنا حـوله نغني على جهة اليسـار من الكنيسة، وصعدنا ثانية إلى جـانب السدة، ودخلنا إلى بيعة مجاورة للسدة، وهذه البيعة قـائمة فوق المكان الذي ترجل عليه الحكماء (المجـوس) من على ظهـور جمالهم، ونوقهم الوحيـدة السنام، وكان ذلك أمـام النزل الذي وقف النجم فوقه، وهنا أخـرجوا هداياهم من جعبهم، ونظموها وجعلوها جاهزة لتقديمها، وزينوا أنفسهم بأثمن الملابس، حتى يظهـروا بكل أبهة وفخـامـة أمـام الملك الحديث الولادة، وبناء عليـه جثـونا في هذا المكـان، وحصلنا على غفـرانات، ويوجـد إلى جـانـب هذا المكان بئر، منه نضح خــدم الحكماء الماء من أجل دوابهم، ومثل هذا ذهبنا نحن إليـه، وتطلعنــا نحـو أسفله، وعلى هذا، تجهـزنا برفقـة الملوك المقـدسين، للـدخـول إلى النزل بسرور وبالخشـــوع المناسب.

كهف ميلاد ربنا يسوع المسيح
ومدخل الحجاج إليه وقداسة المكان

افرحوا الآن أيها الحجاج، وابتهجوا اخواني المحبوبين، لأنكم سوف ترون الآن مباشرة أعظم الأماكن قداسة وأحلاها، الذي هو موضع اجلال وتعبد من قبل المؤمنين وغير المؤمنين سواء، وأعلن لكم وأقول بأن عدداً كبيراً من الملوك، والأنبياء، لابل عدداً كبيراً من: البابوات، والأساقفة، والكرادلة، والأباطرة، والدوقات، والأعيان من النبلاء، والكهنة، والعلمانيين، قد رغبوا وتشوقوا لرؤية الذي رأيتموه، ولم يروه.

وعندما كنا الآن واقفين إلى جانب المذبح، والبئر المتقدم الذكر، شرع قائد الجوقة يغني ترنيمة مسيحية فرحة هي: «Christe , redemptor omuium, ex patre patris unice » الخ، وقد غنينا هذه الترنيمة، وفقاً للحن الذي يغنى به في طائفتنا، أي أنه في أي مكان وقعت فيه كلمة «يوم» في الترنيمة، نحن غنيناها «مكان»، ووفقاً لذلك عندما وصلنا إلى كلمات: «هذا اليوم الحالي يحمل شهادة» غنينا نحن: «هذا المكان الحالي يحمل شهادة»، وبدلاً مما جاء في الترنيمة قوله في كلمات: «لأن هذا هو يوم ولادتك»، قلنا نحن «لأن هذا مكان ولادتك»، وهكذا دواليك.

وهكذا بعدما فرغنا من غناء الأغنية، غادرنا المكان المتقدم الذكر، واستدرنا نحو جدار السدة، وعبرنا من خلال ممر مزين برخام مصقول ذي لون أبيض نقي جداً، ونزلنا بوساطة ست عشرة درجة تحت السدة، إلى كهف كان بذاته مظلماً، لكنه كان مضاء بكثير من المصابيح، وفوق الكهف تمددت الحجرة التي تحتها ولد مخلص العالم، يسوع المسيح، ولدى فراغنا من صلوات الشكر المحددة في كتب المسيرة، صعدنا واحداً بعد الآخر، إلى المذبح الموجود عند رأس القبو، فانحنينا بوجوهنا

نحـو الأرض، وقبلنا مـا تحت المذبح، وهـو المكان الأكثـر حـلاوة لأنه مكان ميلاد المسيح، ومدد في ذلك المكان لوح من الرخام الأبيض، وقد حفـر فيـه بشكل بارع صـورة الشمس، لأن من هنـا أشرقت شمس الاستقـامة، ومن هنـا نشرت العذراء الطاهرة ضـوءاً أبدياً، وهنا أيضـاً انتشر الضـوء الجديد لمجدها فعم أعين عقـولنا من خلال أسرار تجسيـد الكلمـة، ولذلك قمنا بكل خشوع ومـع دموع الفـرح بالانحناء بأنفسنا باتجاه الأرض أمـام تلك الحجـرة، وتعبـدناها، وهي تلك الحجـرة التي قيل لنا بأن الطفل الرائع قد رقد عليها بعد خروجه من رحم العذراء.

وفي الحقيقـة لقد تبرهنت صحـة هذا، بعلامـة واضحة، هي الرائحـة الرائعة والمنعشة التي يشعـر بها كل من يطبع قبله على الحجرة، والرائحة الطيبة التي تفـوح من ذلك المكان وتصل إلى مشاعـرنا، هي شيء رباني، وهي فوق أي شيء آخـر،وينظر الانسان إلى المكان فيراه فارغـاً تماماً من أي شيء ينتج الرائحة الطيبة، ومع ذلك نجد رائحة المكان يفوح شذاها وكأنه كان مخزن عطور، وواضح أن كثافـة الرائحة أعظم من أي عملية تخليق له مهما كـانت قـوية، هذا وإنني لا أقـول هذا إشـارة إلى معانيهـا السرية، بل إنني أتكلم عن حقيقة واضحة، إنني أعلن بأنني قد شعرت بها في كل مـرة انحنيت بها بنفسي لتقبيل تلك الحجـرة المقـدسـة، ثم إن هذا الشعور ليس خاصاً بأي انسان محدد، بل إن هذه نعمة أضفيت على كل من يقبل المكان، حتى المسلمون أنفسهم تحققوا من ذلك، وبناء عليه نحن على يقين أن ما جـاء في قرآن محمـد (صلى الله عليه وسلم) من أن الميلاد المقدس قد حـدث في بقعة منعزلة، داخل بستان وتحت نخلة، هو غير صحيح، وذلك حسبما جـاء الخبر لدى المعلم نيقـولادي كوسـا، في ترجمتـه للقرآن: الكتـاب الثـالث — الفصل السابع عشر، والأمـر ليس مقصوراً على هذه الأمـاكن، بل يشمل جميع الأماكن التي نقـرأ فيها بأن الرب يسـوع قـد ظهـر عاريـاً، متمتعاً بـامتيازه باصـدار رائحـة طيبـة،

ولايحتاج أي انسان أن يعجب حول هذا، بعد أن قرأنا بأن الشيء نفسه قد وقع حيث صدرت روائح طيبة من قبور وأضرحة القديسين، وبما أننا انجذبنا بتلك الرائحة الطيبة، بقينا هناك لمدة طويلة نقبل الحجرة المقدسة، وقد حصلنا على غفرانات مطلقة(++).

** ** **

مزود الرب: ماهو، وما الذي كانه

وبعدما فرغنا من ابداء احترامنا نحو مكان ولادة الرب، استدرنا بأنفسنا نحو المزود الذي هو على بعد حوالي سبع خطوات عن المكان المتقدم الذكر، وعندما وصلنا إلى هذا المزود، انحنينا بأنفسنا فيه بخشوع عظيم ، وقبلناه، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وانتعشنا برائحة طيبة، مثل تلك التي أتينا على ذكرها، ولاينبغي أن نعجب نحو هذا، بما أن زهرة البلسم قد وضعت في هذا المعلف، لأن العذراء مريم المباركة جداً، قد لفت الطفل بقماط، ومددته في المعلف، لأنه لم يكن هناك مكان في النزل، وهنا وجد الرعاة الطفل، بعدما قادهم الملاك إلى هناك، وهذا المعلف قائم تحت صخرة ناتئة، حيث قال الحجاج القدماء بأنهم قد رأوا حلقاتاً حديدية، وأوتاداً، إليها كانت الدواب تربط، فعندما تمدد المسيح هناك كان مربوطاً ثوراً وأتانا، قد عرفا ربهما فتعبداه، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من سفر اشعيا، وكان الناس يرون في قديم الأزمان الحجرة التي وضعتها العذراء الأم تحت رأس ابنها الصغير، لأنها لم تجد وسادة أو أي شيء من هذا القبيل، وقد غطت الحجرة بالقش، ولذلك تغني الكنيسة: «لقد تحمل الرقود في القش، ولم يكره المعلف ويتأباه» الخ، وكان معلف الرب من الصخر، وجرى اقتطاعه من الصخرة نفسها التي كانت ناتئة ومعلقة فوقه، وذلك مثل أحوال المعالف وأشكالها في تلك الديار حتى هذا اليوم.

هذا وأنا لم أفهم الكلام المتداول من أن القديسة هيلانة، قد أخذت معلفاً خشبياً من هذا المكان ونقلته إلى القسطنطينية، وأنه نقل من هناك إلى كنيسة اللاتيران في روما، مالم نقل بأن يوسف ربما عمل معلفاً خشبياً، ووضعه فوق المعلف الحجري، وفي هذه الحالة على الانسان أن يقول — كما يفعل كثيرون — بأن يوسف قد جلب الثور والاتان إلى ذلك المكان، معه من الناصرة.

والآن، إن المعلف القائم في هذه الأيام في ذلك المكان، هو من الرخام، ومعمول من ألواح بيضاء مصقولة بشكل رفيع جداً، وتغطي هذه الألواح المكان الحقيقي لمعلف الرب، وهي مزينة بنقوش معقدة الشكل، وهو أمر تأسف من أجله خريسوستوم Chrysos tom، الذي قال: «آه كم أتمنى أن يسمح لي بمشاهدة المعلف الذي فيه تمدد الرب، وفي هذه الأيام، بات الأمر علينا أن نبدي احترامنا ليس إلى الطين الذي أخذ بعيداً، بل إلى فضة أقيمت مكانه، والذي بالنسبة لي كان ما ألقي به وجرى الخلاص منه هو ثميناً أكثر، لأن الفضة والذهب موضع اعجاب الأمم، لكن المؤمنين بالمسيحية والأتقياء، موضع اعجابهم المعلف الطيني، لأن الذي ولد في ذلك المعلف كان يزدري الفضة والذهب، وأنا لا ألوم الذين فعلوا هذا لابداء التكريم له والاحترام، كما أنني لا ألوم الذين صنعوا آنية من الذهب والفضة من أجل الاستخدام في الهيكل، لكنني أنا معجب بالرب، خالق هذا العالم، الذي لم يلد وسط الذهب والفضة، بل في الطين».

هذا بالنسبة لخريسوستوم، لكن في الحقيقة لاتصنع المعالف في تلك الديار إلاّ من الحجارة أو من الطين، وليس من ألواح من الخشب أو من جذوع الأشجار، وطول هذا المعلف الحديث أربعة أشبار، وأقل من ثلاثة أشبار بالعرض، ولوح الرخام المصقول الذي يواجه الذي يركع أمام المعلف، هو مصقول بشكل عجيب جداً، ويشبه المرآة، وكانت

نتيجـة ذلك الملاحظة التـاليـة للوضع، هي أنك إذا مـا نظرت بحـرص وبدقـة نحو اللوح، تظهـر لك صـورة رجل عجوز ملتحي، وهو راقـد على ظهـره فوق حصير، بثيـاب راهب ميت، وإلى جـانبـه صورة أسـد، وهذه الصورة ليست نتاج فن أو عمـل، بل نتاج الصقل البسيط وحده، وذلك مثلما نرى، عندما تصنع المناضد من خشب فيه عقد واضحة ففي بعض الأحيان، بعـدما يقـومون بالتنعيم والصقل تظهـر في هذه المناضد أشكال متنوعـة من دون تصميم من قبـل العـامل، وبناء عليـه مثل هذا وقع هنا.

وعلى كل حـال، هم يقولون، بأن هذه الصـورة قد صنعت بوسـاطة ارادة ربانية، بسبب القداسة الساميـة للقديس جيروم المجيد، ولاتشاهد هذه الصـورة من قبل الجميع، بل فقط من قبل الذين جرى اختيـارهم، والذين يعرفـونها، فالذي لايعـرفها لن يكون قـادراً على مشاهدتها أبداً، وهكذا عندما رأيتهـا للمرة الأولى، ظننت أن الراهب الذي كـان يريني إياها، كـان يمـزح، عندمـا قـال بأنه رأى صـورة القـديس جيروم في الحجرة، ولم أستطع أن أراها بنفسي ، حتى أشار الـراهب إليها باصبعه، ووقتهـا رأيتها بوضـوح، تماماً كما ظهـرت بكل لطف، ونقرأ في رسـالة سيرل إلى أوغسطين حـول المعجـزات التـي صنعت من قبل القـديس جيروم، أنه كان في الأزمـان الخالية صـورة منقوشـة للقديس جيروم في الكنيسة على جبـل صهيون، وكانـت مشهورة بسبب معجـزات واضحة عملتها.

المكان الذي فيه جلست العذراء المباركة مع الطفل عندما جاء الحكماء الثلاثة مع هداياهم

وبعد ما رأينا المعلف المقدس، استدرنا مبتعدين عنه إلى المذبح القائم مقـابيله، على مسـافـة خطوتين أو ثـلاث خطوات، فهناك يوجـد المكان

الذي فيه جلست مريم العذراء المباركة مع الطفل يسوع في حضنها، وذلك عندما جاء الملوك الثلاثة مع هداياهم، وقدموها لها، ومثلما فعل الملوك الثلاثة سقطنا نحن بأنفسنا في هذا المكان، على وجوهنا، وقدمنا أنفسنا للرب يسوع وحصلنا على غفرانات(+)، وكنا نغني ترنيمة الملوك الثلاثة، ونتلو الصلوات المناسبة.

وقرأنا من الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى وصفاً للاحترام العظيم والتقوى التي قدم بها هؤلاء الملوك الثلاثة هداياهم، هذا ولايجوز لنا أن نعتقد أن هذه الهدايا — إلى جانب معانيها الخفية — كانت صغيرة في أنفسها، فقد أخبرنا الكتاب، أن أولهم مليكور، ملك العرب، قد قدم نقوداً من الذهب، وقطعة قماش ذهبية صغيرة، كلها يمكن الاطباق عليها باليد، وكانت هذه القطعة قد عملها الاسكندر الكبير من جميع أنواع الذهب التي حصل عليها من البلدان التي كانت تحت حكمه، وقبض عليها بيده، كإشارة للامبراطورية، وقد وصلت هذه القطعة بعد أيام الاسكندر إلى مملكة العربية، وحدث أنه عندما وضع مليكور قطعة القماش تلك في يد الطفل، تحولت إلى رماد مباشرة، لتبرهن أن مملكة المسيح ليست من هذا العالم الفاني (يوحنا:١٨/ ٣٦)، ويقال أيضاً بأن هذا الملك قد أهدى المسيح الثلاثين قطعة من الفضة، التي جرت خيانته من أجلها فيما بعد، كما أوضحنا من قبل، وجلب الثاني وهو بلتزار، ملك سبأ كثيراً من البخور، وجلب الثالث وهو كسبر، ملك أثيوبيا مرّاً ثميناً، ويقول بعضهم بأن كل واحد منهم قد قدم هذه الأشياء الثلاثة جميعاً.

البئر الذي سقط فيه نجم الحكماء بعد انتهاء مهمته

وبعدما فرغنا من تقديم تقديماتنا في موضع تقديم الهدايا، نزلنا في القبو حتى نهايته، وأتينا في الزاوية في الجانب الأيسر من القبو إلى حفرة صغيرة، يوجد تحتها بئر عميق، هذا ومن غير الممكن نضح الماء من هذا

البئر، بسبب الأبنية فوقه، وقد كان في أيام المسيح بئراً مفتوحاً، وقد قيل فيه سقط النجم، الذي بهدايته جاء الحكماء من الشرق، ويقال بأنه تحلل هناك إلى عناصره الأساسية وهذا هو رأي كثير من اللاهوتيين من أتباع العقيدة الكاثوليكية، وكذكرى له تركت هذه الحفرة.

وقد قال القديس غريغوري، أسقف تور، في كتابه عن المعجزات، الذي كتب في أيام البابا غريغوري المبارك: «يوجد في بيت لحم بركة كبيرة، منها يقال بأن العذراء مريم المجيدة قد نضحت ماء، وقد شهد الذين اعتادوا على النظر إليها بشكل دائم حدوث معجزة، وهي رؤية النجم الذي ظهر إلى الحكماء الثلاثة، لأن الأتقياء قد جاءوا ورقدوا على حافة هذه البركة، وغطوا رؤوسهم بأقمشة كتانية ثم إن الذي لديه فضائل حصل على امتياز رؤية النجم يمر عبر البركة، على وجه الماء من الجانب الأول إلى الجانب الآخر، وذلك وفق الطريقة نفسها التي اعتادت النجوم بها أن تعبر قبة السماء، وصحيح إن كثيرين ينظرون في البركة، فقط الذين لديهم عقل سليم يرون النجم، ولقد سمعت بأن عدداً كبيراً من الأشخاص أكدوا أنهم رأوه، وكان من المتأخرين دياكيموس Dyacimus.... قد أكد بأنه رآه خمس مرات متفرقة، ولكنه قد شوهد من قبل شخصين فقط.

القبو الثاني للعذراء المباركة والذي يعرف باسم حليبها

وليس بعيداً عن فتحة البئر هناك باب، مررنا من خلاله إلى قبو آخر، هو مبجل، من خلال سكنى مريم العذراء فيه، وتحدثنا الحكايات أنه بناء على أخبار الرعاة ووصول الملوك الثلاثة، قدم كثيرون من القدس، ودخلوا إلى القبو (الأكبر) وتعبدوا الطفل ومريم أمه، وعندما تفهمت مريم ما يحدث، خافت من هيرود، وهربت بشكل سري من القبو الخارجي، ودخلت إلى القبو الداخلي، وسكنت هناك، ولسرعتها تركت وراءها في القبو الخارجي، ممدداً في المعلف، قميصاً نسوياً طويلاً، كانت

تبعاً لعادات تلك البلاد قد ولدت فيه، ومثل ذلك تركت خلفها أقمشة القماط التي فيها جرى لف الطفل للمرة الأولى، وكذلك الحجرة التي وضعتها تحت رأسه، والقش الذي رقد فوقه، وبقيت هذه الأشياء جميعاً في المعلف، وبوساطة الحكمة الربانية بقيت محفوظة تماماً ودون أن تفسد حتى أيام القديسة هيلانه، التي عثرت عليهم، كما ستتحدث عن ذلك ونبينه فيما بعد.

وحدث أنه كان في هذا الكهف الثاني، الذي إليه هربت للالتجاء، هناك حجرة كبيرة أو صخرة، عليها اعتادت مريم المباركة أن تجلس لإرضاع الطفل، وصدف في أحد الأيام أن سقطت نقطة من حليب صدر العذراء، على هذه الصخرة، ومنذ ذلك الوقت استمرت تلك النقطة من السائل على الرشح من تلك الصخرة، وهذا السائل له لون الحليب، مزيج بحمرة مثل بعض العقاقير، ومن غير الممكن ضبط تساقطه، وهم يلتقطون النقاط لدى تساقطها، ويحملونها إلى مناطق ماوراء البحر، قائلين بأنها حليب العذراء المباركة، وهذا هو السبب أن كثيراً من الكنائس يعرض فيها حليب العذراء المباركة بين الآثار المقدسة، من ذلك على سبيل المثال في كولون، عند مذبح (كنيسة القديسه مريم) الكبيرة، وفي كيركن Kyrchen، في دير الراهبات، التابع لطائفة الدومينيكان، وفي أماكن أخرى كثيرة في أرجاء ايطاليا، وفرنسا، وألمانيا، وغالباً ماكنت —قبل أن أعلم هذه الحقيقة — أتساءل من أين أتى كل هذا الحليب، أو جرى تجميعه وحفظه، حتى علمت بوساطة التجربة، أنه لم يكن سوى رشح يتساقط نقطاً من صخرة، ولقد رأيت هذه الصخرة في حجي الأول، ولكن في حجي الثاني جرى جلب أغصان أشجار وجذوع إلى داخل القبو، وجرى احداث تغييرات في المكان.

ولايمكن لهذه الكلمات الصادرة عني أن تعني مطلقاً وبأية طريقة من

الطرق، عدم تشريف مريم العذراء المباركة وفق ما تستحق، وكذلك مدحها، واحترامها، لأن من الممكن أن الحليب جرى حفظه في مكان آخر، أو أنه أعطي بشكل اعجازي لانسان ما، أو ان الصخرة التي سقطت عليها نقطة الحليب، كانت هذه النقطة كما قيل قد سقطت من الحليب السماوي، وأنها تلقت القدرة على تنقيط الحليب بشكل دائم، لأنه إذا كان الزيت قد استمر يرشح من قبر القديس نيقولا، ومن قبر القديس وولد بيرجس waldburgis في ستانيا Cistania، وطالما أن الرب أراد أن يظهر الفضيلة الخاصة لقديسيه، فما هو وجه العجب إذا قامت هذه الصخرة بتنقيط الحليب، حتى يبرهن بذلك على سمو وفضيلة الطهارة لدى أمه.

** ** **

الكهف الذي فيه دفنت أجساد الأبرياء

ويوجد إلى جانب الكهف المتقدم الذكر، كهف آخر، لم نستطع الدخول إليه من دون أن نحني ظهورنا، وعندما يغدو الانسان فيه يجد مكاناً واسعاً، وأن هناك كهفاً آخر على الجهة اليسرى، وفي هذا الكهف كان قد جرى القاء عدة آلاف من جثث الأبرياء المقدسين، الذين قتلهم هيرود، لدى بحثه عن المسيح بينهم، وبناء عليه تلونا هنا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وفتش بعض الحجاج عندما كانوا في هذا الكهف بين الغبار على الأرض، معتمدين على أضواء شموعهم، وبحثوا عن بعض آثار الأبرياء المقدسين، لكنهم لم يجدوا شيئاً مطلقاً، ومرد ذلك إلى أن المؤمنين قد قاموا فيما مضى منذ زمن طويل بنقلهم، وآثار هؤلاء الأطفال الأبرياء موزعة في جميع كنائس العالم، ففي البندقية، هناك في جزيرة مورانو حوالي مائة جسد من أجساد الأبرياء في قبر واحد، وكنت

قد رأيت في الدير الدومينيكاني في نورمبيرغ جسداً كاملاً لواحد من الأبرياء، ويمتلكون في دير الدومينيكان في ستراسبورغ أيضاً واحداً من الأجساد الكاملة، ويمتلكون في بازل في دير الدومينيكان هناك يداً واحدة وعدة مفاصل عائدة لهم في وعاء قربان مقدس وثمين، ويوجد في دير الدومينيكان في أولم قميص صغير ملوث بالدم، ومخروق بضربات سيف.

وتوفر لدى النبلاء الذين يذهبون إلى القدس اهتمام خاص في آثار الأبرياء المقدسين، لسبب أنا لا أعرفه، وكان بين جماعتنا رجل نبيل غني جداً، بحث بين رمال الكهف بحثاً حثيثاً عن بعض الآثار، لكنه لم يجد شيئاً، فذهب إلى sobothytaneo الذي هو كالينوس الأكبر، المسلم الذي تولى حماية الحجاج، ووعده من خلال المترجم باعطائه مائة دوقية، إذا استطاع أن يشتري جسداً كاملاً له، وأخبره كالينوس في جوابه بأن أجساد هؤلاء الأطفال قد نقلت إلى القاهرة، حيث أن السيد السلطان محتفظ بهم بشكل خاص، وأنه كان يبيعهم لمن يختار، وأنه لايوجد انسان آخر، في المملكة كلها، غيره، مسموح له ببيع أجساد هؤلاء الأطفال، وعندما سمع هذا الفارس بهذا، فكر بالذهاب إلى القديسة كاترين مع البقية، حتى يمكنه شراء طفل عندما يصل إلى القاهرة.

وصعقتني هذه الصفقة، وجعلتني أشعر بالاهانة، وبالخداع، وبالجور، ولذلك حملت نفسي إلى رجل صاحب معرفة، وبحثت معه حول هذه المسألة، وسألته عن الذي يراه ويعلمه حول أجساد الأطفال هذه التي تباع من قبل السلطان، فتلقيت التأكيد منه بأن الحقيقة هي أن المسلمين والمماليك يتسلمون أجساد الأطفال الذين لم يلدوا بعد، أو الأطفال الذين ماتوا اثر ولادتهم مباشرة، فيطعنونهم بالسكاكين، عاملين جراحة في أجسادهم، ثم يحفظون الأجساد بضغط البلسم والمرّ

والعقـارات الحافظة الأخـرى في الجروح، ومن ثـم كـانوا يبيعـونهم إلى الملوك المسيحيين، وإلى الأمـــراء، والأناس الأغنيـــاء، على أنهم أجســـاد الأبرياء المقدسين، وبهذه الصورة كـانوا يدفعون مبالغ كبيرة من الذهب والفضــة، ويعتقدون بأنهم تسلمـوا أجسـاد الأطفال المقـدسين، في حين أنهم تسلموا بالفعل أجساد أطفال ملعونين.

وبهذه الصـورة تتم السخـرية من الشعـب المؤمن بالمسيح، ويسلبـون أمـوالهم، لأن هؤلاء الناس غير المؤمنين يعـرفـون رغبـاتنا العظيمـة من أجل امتلاك الآثـار المقدسة، ولذلـك يعرضون للبيع قطعـاً من الخشب يقولون بأنها اجـزاء من الصليب المقدس، ومسـامير، وأشواك، وعظام، وأشيـاء أخـرى كثيرة من النوع نفسـه لتضليل غير الحذرين وخـداعهم وانتزاع أموالهم، وأنا لا أمنح قيمة كبيرة للآثار التي جلبت من بلدان ما وراء البحر، ولاسيما الأشيـاء التي شريت من المسلمين أو من المسيحيين الشرقيين، الذين زيفـاً يسمـون بمسيحيين، وليس الأمر كـذلك بالنسبـة للحصـا المقدس، من الأمـاكن المقـدسة، الخ،وهكذا خـرجنا من كهف الأبرياء المقدسين، ولم نتابع سيرنا.

ويوجد من ذلك الكهف ممر ضيق جرى حفره واقتطاعه في الصخر، وقـد عمله الرهبـان الفـرنسيسكان خلسـة، حتى يمكنهم الدخـول إلى، والخروج من مـــوضع مهـد المسيح، إلى بيعـــة القـديس نيقـــولا، حيث يقيمون قداســاتهم، ولذلك يتخذون كافة ا لوسـائل لإخفاء ذلك الممر حتى عن الحجاج، خشية أن يصل الأمر إلى مسامع المسلمين والمسيحيين الشرقيين، الذين سـوف يقـدمـون مبـاشرة على اغـلاق الممـر، ومن ثم سيفقد الرهبـان مكانهم المقدس، وقد سمح لي أحيـاناً بالمرور من خلال الممـر السري، إلى موضع مهـد المسيح الأعظم قداسـة، وجاء ذلك بهبـة من الرب وبلطف من الرهبـان الفـرنسيسكان، وكان ذلك عندمـا كنت أمضي الليل كله وحيـداً هناك، وذلك بعـد اغلاق جميع أبواب الكنيســة

والأقبية.

وهكذا خرجنا من كهف الأبرياء المقدسين، بوساطة المدخل نفسه الذي دخلنا منه إلى كهف أو قبو مهد المسيح، حيث سجدنا بأنفسنا للمرة الثانية، وقبلنا الأماكن المقدسة، التي هي موضع الميلاد، والمعلف، والمكان الذي جلست فيه العذراء عندما تسلمت هدايا الملوك الثلاثة، وعندما كنت واقفاً وسط هذه الأماكن المقدسة ورد إلى ذهني رؤيا النشوة التي رأتها الحاجة باولا الأعظم قداسة، في هذا المكان، حيث أعلنت بحضور القديس جيروم وسماعه بأنها قد رأت الطفل ملفوفاً بأقمشة قماطة، وهو يبكي في المعلف، وكذلك الرعاة وهم قادمين يحمدون الرب، والحكماء يتعبدون، والنجم يشع من فوق، وعلاوة على ذلك رأت العذراء بكلتي عينيها، وهي ترضع بشكل متواصل الطفل، ورأت أيضاً جميع أسرار وخفايا الميلاد الأخرى، وبناء عليه أقنعت فوق هذه البقعة بأن توقف نفسها على الخدمة الدائمة للرب، فهذا ما أخبرنا به القديس جيروم في كتابه «حج القديسة باولا».

وعندما أنهينا صلواتنا خرجنا من الكهف، وبذلك أنهينا مسيرتنا، وذهبنا الآن إلى الدير وتفرقنا إلى المجموعات المتنوعة، وأخرجنا جعبنا التي فيها الأطعمة، التي جلبناها معنا من القدس، وأكلنا وشربنا الماء، ومياه آبار بيت لحم أبرد وأنقى، وأصح، وأعذب من أية مياه رأيتها في بلدان ماوراء البحر، وكانت لدينا كميات عظيمة من هذه المياه مقابل لاشيء، وفي الحقيقة تبدو أية كمية من التعب محمولة بالنسبة للحاج، مادام بإمكانه الحصول على ماء جديد، فالحجاج لايهتمون بطبخ الأطعمة، أو بالخمرة أو بالفرش، بقدر اهتمامهم بالماء النقي، ولهذا بعدما أكلنا وشربنا، طوى بعضنا أطرافه من أجل النوم فوق المكان الذي أكلوا فيه، لكن الشطر الأعظم، رفض الاستراحة، وعاود الدخول

إلى الكنيسة، وقد مكثوا مستيقظين بشكل مقدس إلى جانب معلف الرب، وشغلوا أنفسهم بصلوات متواصلة.

إقامة صلوات ربانية في بيت لحم مع قداس عالي

ركض في منتصف الليل الحافظ لغرفة الآثار المقدسة حول الدير ومعه لوح (نولا nola) وأيقظ النائمين من أجل الصلوات الصباحية، التي يتولى الرهبان تلاوتها في كهف الميلاد، والتي بعدها بدأنا بتلاوة الصلاة المهيبة: « Deminus dixit ad me »الخ، وهي الصلاة التي يتم انشادها في أرجاء العالم في الليلة المتقدمة على يوم الميلاد، وتوجه الأب المناوب مع معاونيه من رجال الدين، وهم جميعاً يرتدون ثيابهم المقدسة، في مسيرة إلى المذبح، الموضوع فوق المكان الذي ولد فيه المسيح، وهكذا تولينا إنشاد الصلاة في القبو، وبعد الصلاة تلقى بعض الأتقياء من العلمانيين القربان المقدس، وأقام الكهنة قداساً عند مذبح الختان، وفي بيعة الملوك الثلاثة، وفي الكنيسة العليا، وتحت عند مذبح ميلاد الرب، وهكذا استمرينا في أداء الصلوات الربانية حتى أشرق الصباح.

المكان الذي ضل فيه يوسف طريقة مع مريم والطفل

وبعدما فرغنا من قداساتنا، امتطينا مباشرة ظهور حميرنا، ونزلنا من بيت لحم إلى الوادي حتى نتمكن من زيارة كنيسة «المجد في الأعالي»، وذلك حيث كان الرعاة سهرانين في ساعة ميلاد الرب، ومررنا في الطريق على بيعة مشعثة وشبه مهدمة، وكانت هذه البيعة قد أقيمت في ذلك الموضع كذكرى لما حدث عليه، حيث يقال بأنه عندما أنذر يوسف في المنام وطلب الملاك منه أن يهرب مع الطفل وأمه إلى مصر، وذلك حسبما روي لنا في انجيل متى:٢، نهض وبادر مسرعاً بالفرار من بيت لحم، ونزل إلى هذا المكان في الوادي، راغباً بالنزول عبر الوادي إلى

سدوم، ليعبر من هناك الأردن ثانية، وبناء عليه انطلق عبر الطريق الذي سار عليه بنو اسرائيل لدى قدومهم إلى البلاد، لأنه لم يكن يعرف أنه كان هناك طريقاً آخر أقصر إلى مصر، بسبب أنه لم يكن قد رأى مصر من قبل، لكنه عندما وصل إلى البقعة التي قامت فوقها البيعة، قابله ملاك، وبين له الطريق إلى حبرون، ومن حبرون إلى غزة، ومن ثم على طول ساحل البحر المتوسط إلى مصر، وبناء عليه، تلونا في هذا المكان صلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وبعدما حصلنا على غفراناتنا، تابعنا سيرنا نازلين، فوصلنا على بعد مسافة ضئيلة من هذا المكان إلى جدران مهدمة فوق رابية، وعلمنا هنا أيضاً بأن بيعة قد قامت فيما مضى، وقد بنيت بمثابة ذكرى للأحداث التالية: عندما فارق الملاك الرعيان، وكانوا على طريقهم صاعدين إلى بيت لحم لرؤية الطفل الذي قد ولد، وفيما هم صاعدين، بدأوا يترددون، لأن رهقة شديدة نزلت على قلوبهم، وتعذبت أرواحهم بشكوك غريبة، وباتوا يخشون من أن الرؤيا التي شهدوها لم تكن سوى مصيدة وتغرير، وأنهم لهذا قد يتعرضون لخطر ما، والآن فيما هم واقفون في هذا المكان يتشاور أحدهم مع الآخر حول هذه القضايا، ويصلون إلى الرب، فجأة، ظهر ملاك الرب بينهم، وأكد لهم صدق القضية، فسقطوا على ركبهم يقدمون الشكر، وتسلقوا الممر بخطوات أوسع، وبناء عليه، مثل هذا نحن قدمنا الشكر هنا، وحصلنا على غفرانات (مطلقة)(++)، ثم تابعنا سيرنا.

كنيسة «المجد للرب في الأعالي»
في المكان الذي كان فيه الرعاة يسهرون

ومضينا من هناك نازلين الرابية، خلال بساتين زيتون، ووصلنا إلى واد عريض ملىء بحقول مفلوحة ومروج، ورأينا في وسط هذا الوادي

جـدراناً مهدمـة عظيمة، وبقـايا أبنيـة قديمـة، نحوها استـدرنا بأنفسنا، ولدى وصـولنا إلى المكان، وجدنا كنيسـة مهدمـة ومتداعيـة، لكن هناك بقايا من جـزئها الأمـامي، وبدأ الآن قائـد الجوقة يغني بصـوت مرتفع ترنيمـة: «المجـد للرب في الأعـالي» الـخ، وتابعنا نغني: «وعلى الأرض السلام»، وذلك بمهابة عظيمة، ودخلنا ونحن نغني هكذا بين الخرائب، وتابعنا السير على طريقنا، ونـزلنا إلى السـدة، حيث مـايزال قـائماً فيهـا مـذبح مـزين، وغنينا هناك بحماس شـديد: «المجـد للرب في الأعـالي»، والأغنية التجاوبية:

الخ«Angelus ad pastores ait» وكـذلك، «Qucm vid-istis, pastores» الخ وبعـد الغناء، صلينـا بهدوء، وحصلنا على غفرانات(+).

وهذه الكنيسة قـائمة فوق البقعـة التي كان فيهـا الرعاة مع بعضهم، ساعـة ميلاد المسيح، وهنا ظهر مـلاك الرب، ووقف إلى جانبهم، وأشع مجد الرب من حـولهم وأضـاء، وقـال كما جاء في الاصحـاح الثـاني من انجيل القديس لـوقا: «أنا أبشركم بفرح عظيم» الـخ، وفي هذه الكنيسة أيضـاً مـوضع دفن هؤلاء الرعـاة، لأنهم عندمـا كانوا يمـوتون رفضـوا الدفن إلاّ في مكان ظهـور فـرح الملاك، وذلك حيث سمعـوا الحشـد الإلهي يغني «المجد للرب في الأعالي»، وقد بنت القديسة هيلانة الكنيسة فـوق هذا الموضع، وإلى جـانبهـا دير للراهبـات، حيث من الممكن حتى الآن رؤية بين الخرائب دولاب ومغـزل، وأشياء ممـا اعتادت الراهبـات على امتـلاكهـا، وكان هذا الدير يعـرف باسم دير «المجـد في الأعـالي»، وكان هذا الدير من حيث الحجم واسعـاً، وذلك حسبما يمكن رؤيته في هذه الأيام، وكـانت جـدرانه المحيطـة به قـد بنيت من حجـارة مـربعـة منحوته، حسبما يمكن مشـاهدة ذلك في أكوام الحجـارة الموجودة هناك، وهي حجارة المسلمون غير قادرين على أخذها بأية وسيلة من الوسائل،

لأنه قيل — وما قيل هو صدق— عندما كانوا يحاولون حمل أية حجرة من هذه الحجارة، كانت تصبح ثقيلة إلى حد أن مامن انسانَ يمكنه تحريكها، لا بوساطة حيوانات الحمل، ولا بمعونة البشر، ويوجد على منحدر الجبل هناك بعض الحجارة، قد جرى حملها لمسافة ما، لكن بالأخير غلبت بثقلها، ولذلك تركت على الطريق، ولذلك لايوجد شك، أنه لو كان من الممكن نقل هذه الحجارة، لنقلت منذ مائة سنة مضت.

وكان هذا المكان قد حفر عميقاً في الأيام الخوالي، من قبل الرجال المقدسين الذين سكنوا هناك، لأنه هنا سكن البطريرك يعقوب، لأنه ورد الخبر في الاصحاح الخامس والثلاثين من سفر التكوين، أنه بعدما دفن زوجته راحيل على الطريق (إلى إفراتا التي هي بيت لحم)، حسبما تقدم الحديث عن ذلك، ارتحل من هناك، ونصب خيمته وراء هذا الممر، فقد أخبرنا جيروم، بأن هذا المكان كان قرب بيت لحم، في الموضع الذي غنى فيه الحشد السماوي «المجد للرب في الأعالي»، وهذا أيضاً ما حدثنا به كاتب Speculum Historiale، وأخبرناه عن هذا الموضع، وولد في هذا المكان رأوبين الابن الأول ليعقوب، وهو الذي ضاجع بلهة زوجة أبيه، وبذلك دنس فراش أبيه، ولذلك حصل على لعنة أبيه.

وهذا الحقل هو حقل بوعز، فيه كانت راعوث المآبية تلتقط الحبوب وراء الحصادين، الذين كانوا يودون طردها، لكن بفضائلها حركت عواطف صاحب الحقل نحوها، وقد تزوجته، وفي هذا الحقل نظر إليها على أنها جديرة أن تصبح أماً في سلسلة نسب المسيح، فهذا مايمكن الاطلاع عليه بالكامل في سفر راعوث، وفي الاصحاح الأول من انجيل القديس متى، وفي حقول هذه المنطقة رعى داوود أغنام أبيه، وهنا مزق إلى قطع أسداً هجم عليه، وقتل دباً، وتفاخر داوود بانتصاراته على

الحيـوانات في حضرة الملك شاؤول، وحصل على الشجـاعة التي دفعتـه حتى إلى قتال العملاق جالوت الفلسطيني، وذلك حسبما قرأنا عن ذلك في سفـر صمـوئيل الأول: ١٧، ويمكننـا أن نفترض أنه قتل كثيراً من الأسود والدببه في هذا المكان، لأن ابن سيراخ قال في الاصحاح السابع والأربعين: «لقد لعب مع الأسود كلعبـه مع الجديان، ومع الدببة كلعبه مع الحملان».

ويمتد هذا الوادي نحو الشرق حتى سدوم والبحر الميت، حيث على مقـربة منـه — بسبب ميـاه الأردن — كثير من الحيــوانات من مختلف الأنواع تتجــول هناك، وتسير عبر الوديان أثناء الليـل، لتصطاد الشريد من القطعان، ولتخطف بعض الحيوانـات الأليفة إذا أمكنها ذلك، وبناء عليه التقى داوود بهذه الحيوانات لدى قدومها وقتلها.

وهكذا كـان الرعـاة في سـاعة الـولادة يتولون حـراسـة قطعـانهم في الليل، وفيما يتعلق بهذا الأمـر طرح التســاؤل التـالي: «كيف كـــان من الممكن للرعاة المحافظة على الحراسة في الليل أيام الشتاء، حيث الأرض كـانت متصلبة بسبـب الجليد، وكـانت أيضـاً مغطاة بالثلج»؟ وعلى هذا يجيب الشرقيون، بأن الرعاة حرسوا قطعانهم مرتين في السنة، أي في أيام الربيع، وفي أيـام الشتــاء، لأن المناطق الشرقيـــة لاتتغير بشكل عـــام، وكامل، مثلما يحدث للمناطق الغربية، ففـي الوديان الباردة جداً، قد يجد الناس هناك في أيام الصيف مـواضع باردة إلى أبعـد الحدود إلى حـد أن الناس قد يجدون هناك في شهر آب ثلجاً وجليداً في المواضع الظليلة من هذه الوديـان، فيضعـونها في أواني فخــارية، يتــولون بيعهــا إلى الناس الأغنياء في المدن، الذين يتولون تبريد خمورهم بها.

وهناك أيضاً بعض الجبال التـي تكون باردة إلى أبعد الحدود، إلى حد أن قممهـا تكون دوماً مغطاة بالثلج، وذلك مثل جبل لبنان، الذي قـال عنه ارميا في الاصحـاح الثامن عشر: «ثلج لبنان يستمـر بدون انقطاع»،

والخندق (كريت) جزيرة حارة جداً، ومع ذلك لاتخلو مطلقاً من الثلج في بعض الوديان وعلى بعض القمم، وهذا مايمكن مشاهدته من قبل الذين يبحرون إلى هناك في أيام الصيف، ومن جانب آخر، هناك بعض الوديان الحارة جداً، ولذلك إذا ما تساقط فيها الثلج، فانه لايبقى لمدة تزيد على الساعة، حتى في منتصف الشتاء، وتجد أيضاً جبالاً جرداء القمم، بسبب الحرارة، وليس عليها أية خضراوات مهما كان نوعها.

ووادي بيت لحم هو واحد من هذه الأودية الدافئة، فهو لهذا لايعرف لاثلجاً ولاجليداً، فيه يبدأ الشعير بالنمو بشكل كثيف، في أيام عيد ميلاد الرب، ولذلك ترسل الحيوانات إلى هناك من الأماكن الأخرى، حتى تتمكن من الرعاية، ولتسمن هناك في الشتاء، ويستأجر الناس قطعاً من الأرض لبعض الوقت، من أجل هذه الغاية، ولذلك يعرف وقت ميلاد الرب بلغتهم بأيام نمو النباتات، والأرض في الصيف جافة، وتراها مشوية بأشعة الشمس الشديدة، وفي شهر أيلول، عندما تغدو أشعة الشمس أبرد من ذي قبل، تبدأ جميع نباتات الأرض الخضراء بالنمو والازدهار مثلما يفعلون في بلادنا في نيسان، وذلك باستثناء أن الأشجار لاتزهر في هذه الاثناء، وهذا الموسم ليس حاراً، بل هو منعش ، وكثير من الناس قد يشعرون بالبرد فيه، غير أن شهر أيار هو شهر ملىء بأعمال الحصاد.

وواضح من هذا كله، أنه في أيام ميلاد المسيح، يمكن للرعاة الاقامة في العراء مع قطعانهم في هذا الوادي، لأنه دافىء وأخضر، ثم إن الأرض ليست قاسية بسبب الجليد، مثلما يصدف ويحدث في المناطق الأكثر ارتفاعاً، حيث كان مولد المسيح، فهناك كان ثلج، وجليد، وصقيع، علاوة على ذلك، إنه لمن الواضح من خلال الكلمات التي استخدمت، أنه لم يكن هناك راعيان أو ثلاثة، بل عدداً كبيراً، كانوا منتشرين في الوادي، لأنه قد كانت هناك قطعان وأسراب ليست من

بيت لحم وحدها، بل من المناطق التي من حولها، ولابد أنه قد كانت هناك أعداد كبيرة منهم، بسبب هجمات الأسود، والدببة، والخنازير البرية، وبسبب اللصوص الذين منذ قديم الزمان حتى هذه الأيام يقيمون في الأماكن المهجورة على جوانب الأردن، ويعيشون على السلب والنهب، ولابد أن الحاجة ضدهم قد فرضت وجود عدد كبير من الرعاة، الذين بامكانهم ليس فقط بأصواتهم، بل بعصيهم، ابقاء الحيوانات المفترسة والرجال الذين يشبهون الحيوانات المفترسة ، بعيداً عن قطعانهم.

وذهب هؤلاء الرعيان جميعاً إلى بيت لحم، وصعدوا إليها في ليلة الميلاد، بناء على طلب من الملاك، ووجدوا الطفل ملفوفا بأقمشة قماطة، وراقداً في المعلف، ومن الممكن أنه كان هناك بينهم ثلاثة كانوا هم المقدمين، وقد امتلكوا السيادة على البقية، وأن قبور هؤلاء الثلاثة، هي الموجودة في الكنيسة المتقدمة الذكر، وجرت معالجة هذا الموضوع من قبل بيد المبجل في عظته الدينية حول نص: « pastores loque bantur » الخ، حيث قال: «ظهرت الملائكة إلى الرعاة في مكان، عرف منذ الزمن القديم باسم «أرض القطعان» وذلك صدوراً عن اجتماع الأغنام هناك، وهذا الموضع على بعد ميل واحد إلى الشرق من بيت لحم، وذلك حيث توجد في هذه الأيام قبور الرعاة الثلاثة التي هي مشاهدة في الكنيسة».

لقد كان هذا ما قاله بيد، وبناء عليه قال جيروم في رسالة بعث بها إلى الرهبان حول قداسة السهر، بأن هؤلاء الرعاة كانوا مقدسين جداً، ولقد كنت مراراً في هذا الوادي، حيث بقيت ساهراً، خلال الأنواء الأعظم حرارة، حيث كانت جميع الأشياء الخضراء قد جفت ، ومع ذلك رأيت دوماً قطعاناً من الأغنام والماعز هناك، وفي جزء آخر من الوادي، مقابل بيت لحم هناك مزرعة قائمة في موقع جميل، حيث رأينا

هناك خرائب جدران عظيمة، ولقد قيل بأنه في ذلك المكان قد قام دير القديسة باولا ووصيفاتها.

وهكذا كان بعد أن رأينا الأماكن المتقدمة الذكر، أن عاودنا امتطاء حميرنا، وسرنا باتجاه بيت لحم، وعندما كنا فوق الجبل شاهدنا الترتيب الأصيل لمكان ميلاد المسيح، بشكل أوضح مما كان بامكاننا فعله عندما كنا في المكان عينه، وذلك مثل امكانية رؤية الضريح المقدس بشكل أفضل من البساتين قرب حق الدم، منه من كنيسة الضريح نفسها، وذلك كما تحدثنا من قبل، ورأينا على رابية بيت لحم جروفاً واسعة وصخوراً ناتئة فوق الأرض، كان تحتها كهوف واسعة، وهي أماكن سكن للناس الفقراء، الذين ليس لديهم بيوتاً موائمة، وعلى هذه الشاكلة كان مكان ميلاد المسيح في البداية، كما سأبرهن على ذلك.

وعندما وصلنا حتى سور بيت لحم، درنا حول السور، وبحثنا في أساسات ومنحدرات ذلك الجرف التي قام عليها السور، عن كهف مجوف، لكننا لم نعثر على ذلك، وكنت قد قرأت في كتاب حج قديم جداً، كتبه واحد من القديسين، أنه عندما ولد الرب، قام يوسف — كما جرت العادة — بصنع وعاء من الفخار لتحميم الطفل، وبعدما غسل يوسف الطفل، أخذ الوعاء وأخرجه من المنزل، وصب الماء المقدس بشكل عشوائي من السور على الصخور الناتئة بين الأساسات، لأن موضع الميلاد كان قائماً في مكان مرتفع، وتحته جروف الرابية وصخورها، التي فوقها قام النزل نفسه، والآن عندما سقط الماء المقدس من الأعلى، سقط في صخرة مجوفة ، فيها جرى تلقي جميع ذلك الماء المقدس، ومن ثم حفظه، وبقي هذا الماء لسنوات طوال هناك دون ضياع أو فساد، وكان الحجاج في الأيام الخالية، يقادون إلى هذه البركة، وكانوا يغسلون وجوههم هناك ويشربون منها، ويملأون قوارير مياههم، ويأخذونها إلى بلدان ماوراء البحر، كدواء للجسد، لأن عدداً

كبيراً من النـاس المرضى تحسنت صحتهـم بتـــذوقهم لذلـك الماء، هذا ومهما كـانت كميات الماء التي حملت بعيـداً، لم تنقص كمية الماء مطلقـاً، وهذه معجزة لأنه لم يكن هناك نبع للتزويد والتعويض.

وبناء عليه بحثنا عن هذا الكهف مع الماء المقدس، لكننا لم نجده بأية وسيلة من الوسائل، وهذا ليس غريباً، مشاهدين — في الوقت ذاته — التغييرات العظيمـة التي جـرت في المكان بسبب الأبنيـة الضخمـة التي بنيت هناك، ففي العصـــور المتأخـرة، عندمـــا تملك الصليبيـون الأرض المقدسة، قام ملوك القـدس بتحصين بيت لحم بأسوار عالية وبأبراج من حـولها، ولذلك زالت ترتيبـات المكان القديمـة من الوجـود، وذهبنا إلى بيت لحم، فوجدنا السادة المغاربة مع أدلائنا جاهزين للمغادرة، لأنهم لم يكونوا قـد نزلوا معنا إلى الوادي، بل جلسوا بدون حـراك ينتظروننا في الكنيسة، وكانوا منزعجين جداً منا بسبب تأخرنا، وكانوا متعجلين كثيراً للعودة إلى القدس، قبل شروق الشمس، خشية من المعاناة من الحرارة.

الوداع وتقدمات الحجاج في موضع ميلاد يسوع

وعندما حلت سـاعة مغادرتنا لبيت لحم، ركضنا جميعاً إلى قبـو ميلاد الرب، حتى نتمكن من وداع الطفل يسوع والعذراء أمه، وبسبب تقوى الحجـاج، قـامت عادة، أنـه عندما يقبـل الحجاج المكان المقـدس لميـلاد المسيح للمـرة الأخيرة، يتبرع كـل حـاج بمبلغ من المال، يضعـــه فـوق الصخرة المقدسة لميـلاد الرب، من أجل محبة الرب والعذراء، وفي سبيل ترميم الكنيسة، ودعم الرهبان الذين يسكنون هناك.

وفي أثناء التبرع بهذه الهبات من قبل الحجاج، حدث حادث ممجوج، أنا في الحقيقـة خـــائف من الحديث عنه احترامـاً للحجـــاج، ومع ذلك سـوف أتحدث عنه، ليعلم الذين لم يكونوا قـادرين على القـدوم إلى هذه الأماكن المقدسة، أن تلك الأماكن المقدسة لاتفعل خيراً، للذين هم غير

مستعـدين في قلـوبهم، وأن المكان غير المقـدس لايشكل عــائقـاً للناس ذوي الارادة الطيبة، والذي أعتقده في الحقيقـة، هو أنه في هذه الأماكن الأعظم قـداسة يقـوم العدو بـإغواء غير الأتقيـاء ويكمن منتظراً إياهم هناك أكثر مـن أي مكان آخر، ذلك ان السماء العليا، والأمـاكن الأعظم طهارة، لم تغلب الشيطان، ثم ألا ترون أن الجنة الأعظم سمواً لم تتمكن من حفظ أبوينا الأولين ومنعهما من الذنب، وكـذلك فإن علّية العشـاء الأخير، التي كـانت المكان الأعظم قداسـة، لم تحل دون القديس تومـا، ودون الشك، ولهذا جاء في المادة الأربعين من القـانون بأنه «لا الأماكن ولا الأحكام تقربنا أكثـر من الخالق، بل هي أعمالنا الجيـدة، التي تقربنا أكثر إليه، مثلما تبعدنا أعمالنا الشريرة عنه».

والآن، وفقـاً للمثل الذي ضربه الملوك الثـلاثة، قـام مـوالي الحجـاج بتقديم هداياهم، في موضع الميلاد، حيث أعطوا، بعض الذهـب، وبعض الفضـة، وبعض الخواتم الذهبية، وبعض الشمع، وتقـدم في ذلك الحين واحد من الفرسان، وألقى بدوقية على الصخرة، مثلما فعل كثيرون قبله، وبعدما قـام الفارس بذلك، أقدم واحد من الحجـاج الشرقيين، فانحنى بنفســه وقبل المكان، وأثنـاء قيـامـه بالتقبيل، مـدّ خلســة يده المدنسـة، وسحب من الكومــة نحـو نفســه أقـرب دوقيتين ونهض، ثـم ابتعـد، واختلط بين فرق الحجاج.

أيها اللص والســارق، أنت جــدير أن تعلق على ألف مشنقــة، أيها الناهب إنك جدير بأن تمزق إلى ألـف قطعة، وأن تكوى بدواليب النار، أيها الانســان الدنس، إنك ينبغي أن تحرق بالنار حتى تكون رمـاداً، أيها المفسـد، أنت جـدير أن تفقـد رأسك، وأن تغـرق في أعماق البحـر، أي عصيان، وأية وحشية دفعت بك إلى هـذا، وأي كافر أعمى أنت، حيث أقـدمت في مثل هذا المكان الفـائق القداسـة، هذا المكان الذي يرى فيـه المسيحيـون بعيون عقـولهم العـذراء المحتاجـة، والطفل الفقير، ويوسف

المتسول، في هذا المكان أقدمت على سرقتهم، علاوة على هذا، إذا كنت لاتؤمن بهذا، ولاتبصره، لماذا انحنيت نحو الأسفل في هذا المكان؟ ولماذا أنت حامل لعلامة الصليب؟ لماذا كنت متسرعا بالقدوم إلى هنا؟ وإذا كنت مؤمناً لماذا لم تخف من سرقة الطفل، لأن الطفولة التي تلبسها كانت من أجلك، وكيف أنت لم تخف من عيني أمه الأعظم حلاوة، التي جلست إلى جانب الطفل، وكانت تراقب بدقة كل ماكان يجري حول ابنها؟ هل علينا أن نفترض أنهما لم تريا، لأنهما كانتا تنظران بصبر أعظم، وبحكمة أكبر، مما يراه الانسان، وإذا كنت لم تهتم بالطفل ولا بالأم بسبب لطفهما الذي لاحدود له، والذي بسببه لم يعاقبا الذنب مباشرة، بل انتظرا بتحمل كبير، مع هذا، من المؤكد كان عليك الخوف من زوجها يوسف الذي كان حازما وقاسيا، فعلى عاتقه رسا أمر العناية بهما معا، ولذلك حدق بهما طوال الوقت ولم يصرف نظره عنهما، وعلاوة على ذلك، إذا كانت هذه الأشياء قد بدت لك لاقيمة لها، وأعلنت أنه لا الطفل، ولا أمه ولا يوسف، كانوا موجودين هنا، لماذا لم تمنعك تلك الرائحة الفائقة الطيبة ، التي فاحت من هذا المكان، والتي تخلفت هناك من أعضاء الطفل يسوع، وجسد أمه الأعظم طهارة، تمنعك من اقتراف الاثم؟

إن الذي قمت به مثل الذي اقترفه أعظم الناس شروراً، أي يهوذا الخائن، الذي ازداد غضباً وتحرك منفعلاً متلهفاً لبيع سيده، ولإقتراف تلك الخيانة الوحشية له، بسبب الرائحة الفائقة الطيبة من العطر الذي جرى صبه على رأس يسوع، ولطيب تلك الرائحة — قيل وكتب — بأن البيت كله قد امتلأ، واعتقد صدقاً أنك لو كنت هنا في أيام الملوك الثلاثة، لتوليت سرقة هداياهم، ولقمت من دون حياء، أو عذر، بسلب الطفل الصغير، وأمه اللطيفة جداً، ويوسف المسكين، ولكن لماذا عليّ البقاء مع هذا الموضوع مدة أطول؟ ذلك أن سرقتك لم تؤذ الطفل، لأنه

في هذه الأيام لم يأت الملوك الثلاثة معاً من الشرق، بل يسعى الناس إلى هنا على شكل حشود من أطراف الأرض الأربعة، ويقومون يوميا بأعمال استغفار، يجري تقبلها من قبل الطفل، كما أن سرقتك لم تحرم من الفضائل الذين قدموا الأعطيات، ومثل ذلك لم تؤذ الذي سرقت منه هذه السرقة، كما أنها لم تحرمه من تقواه، التي ظهرت بين الذين قدموا الأعطيات، والانتقام مخبأ لك مع الناس الأشرار الآخرين، وسيكون ذلك في وقته المناسب، ووفق هذه الطريقة حمل جيروم بعنف على عمل آخر من أعمال خرق الحرمات، جرى اقترافه في هذه الكنيسة نفسها، وجاء ذلك في رسالته القاسية التي لام فيها الشماس سابينيانوس Sab-inianus، المغوي للعذراء سوزانا.

وبعدما فرغ موالي الفرسان من تقديم أعطياتهم، وعندما كانوا يحصون ما كانوا قد دفعوه، وجدوا أنه لابد أنه قد توفر هناك لص بينهم، ونظرنا من حولنا، فرأينا ذلك الشرقي، وشعرنا بدون أدنى شك بأنه هو الذي فعل الشر واقترفه، فألقينا القبض عليه في القبو، ولدى تفتيشنا له وجدنا الذهب معه، فجعلناه يرده إلى المكان الصحيح، وعندما فعلنا ذلك طردناه من بين جماعتنا، وحدثت هذه السرقة أثناء حجي الأول، وأثناء حجي الثاني حدث الشيء نفسه من خلال واحد من المسلمين الذين جاءوا معنا، وأثناء انحنائه في المكان المقدس، وأنه يريد الصلاة قام بشكل سري بسرقة بعض المال من هناك.

وحدث، أن بعض الحجاج الذين كانوا واقفين بجانبه، أن شاهدوا ما أقدم عليه، فلحقوا به وقبضوا عليه، وسحبوه إلى داخل القبو المقدس، وذلك على الرغم من صراخه، ومقاومته، وبقوة عظيمة أرغمناه على فتح يديه، فوجدنا المال الذي أخذه، وبغضب وشدة طردنا هذا المسلم اللص من الكهف؟ وأخيراً قبّلنا المكان، وبإذن من الأم المقدسة خرجنا منه، وإثر خروجنا من الكنيسة امتطينا حميرنا، وعدنا إلى القدس، عبر

الطريق الذي جئنا عليه، وعندما بتنا هناك تناولنا الطعام، وبعد تناولنا للطعام تمددنا بأنفسنا لننال الراحة، وكنا في الليلة التي مضت قد سهرنا إلى جانب معلف الرب، ثم سهرنا في الليلة التالية إلى جانب القبر المقدس للرب.

وصف بيت لحم

أما وقد قمت بعرض أخبار حجنا إلى بيت لحم أولاً، بقي علي الآن العمل على وصف المكان نفسه، ولسوف أصف المدينة أولاً، ثم مكان ميلاد الرب.

ومدينة بيت لحم هي مدينة قديمة، كان لها في العصور الخالية اسم ما، لم تذكره الكتابات المقدسة، ذلك أنني لم أتمكن من معرفة ما الذي كان اسمها قبل ان تعرف باسم إفراتا، وأطلق عليها اسم إفراتا اشتقاقاً من اسم إفراتا زوجه كالب، التي دفنت هناك، وبذلك باتت تعرف بهذا الاسم، حسبما وصلنا الخبر عن طريق مؤلف كتاب Speculum Historale، ولقد قالوا بأن إفراتا هذه، زوجه كالب، كانت هي مريم أخت موسى، التي قبل أن تصاب بالجذام كان اسمها مريم، لكن بعد اصابتها بالجذام وشفائها منه، صار اسمها إفراتا، وهي 'التي ماتت ودفنت في صحراء صين، وذلك حسبما جاء في سفر العدد:٢٠/ ١، ثم قام كالب بعد ذلك باخراجها من قبرها ودفنها في بيت لحم، التي لم تكن آنذاك تعرف بهذا الاسم، وأطلق اسمها على المدينة، وهكذا باتت تعرف باسم افراتا، وكون إفراتا كانت زوجةكالب فأمر متفق عليه بين الجميع، لكن أن تكون أخت موسى، فأمر أنكره كثيرون، كما جاء في تعليقات نيقولا دي ليرا على سفر أخبار الأيام الأول:٢، حيث ورد بشكل واضح بأن إفراتا كانت زوجة كالب.

والذي رآه القديس جيروم هو أن إفراتا كانت أخت موسى، فقد قال

في رسالته إلى العـذراء برنسيبيا Principia: « غنت مريم أخت موسى لنصر الرب، وطبعت بيت لحمنا وإفـراتـا باسمهـا ليكون ذلك عـلامـة للذين يأتون بعـدها»، وهكذا مكثت هذه المدينة المباركـة لسنوات كثيرة واسمهـا افــراتا، حتى في أيام المجــاعـة التـي وقعت في أيام إيليملك، وبعـده، ذلك أنه بعد تلك المجـاعـة كانت هناك مـواسم خير وخصب لذلك أطلق عليهـا اسم بيت لحم، ومعنى هذا الاسم هو «بيت الخبـز»، وبشأن هذه المجـاعـة ثم الخصب الذي تلاها، يمكن للانسـان أن يقـرأ سفر راعوث، وتعني كلمـة «بيت» في العبرية وتشير إلى «دار»، أما كلمة «ليحيم» فمعناها «خبز»، وعلى هذا إن معنى كلمة «بيت لحم» فهو «دار الخبــز»، وعلينا أن نلاحـظ هنا أن أسماء المدن والقـــرى في الأرض المقـدسة، يبـدأ معظمهـا بكلمـة «بيت »، وبعد هذه الكلمـة تأتي كلمـة أخرى فيها إشارة إلى خصـوصية المكان، مثلما جاء هنا معنا: «بيت لحم» أي «بيت الخبز»، لأنه توفرت هناك كميات عظيمة من القمح بعد مجاعة عظيمة وطـويلة وقعت هناك، وبيت عنيا حملت هذا الاسم بمعنى قـرية عظم الفك(١)، لأنها كـانت قرية كهنة، ولأن الأغنام ربيت فيهـا هناك من أجل التضحية بها على المذبح، حيـث يؤول الفك إلى الكهنة كحصة لهم، وعرفت بيت عنيا كذلك باسم بيت الطاعة، لأن واحداً من ملوك القدس بنى قلعة هناك، بقصد أن تكون مطيعة لبلاط الملك، وإلى مدينة القدس، وإلى جبل صهيـون، ومثل هذا بيت شمس عرفت بهذا الاسم، أي بيت شمس، بسبـب الهيكل الذي قــام هناك فيهــا، حيـث كـانت الشمس تعبـد فيــه»، وعـرفت بيت إيل باسم بيـت الرب، لأن يعقـوب هناك رأى أسرار السماء وقـال حسبما جـاء في سفـر التكوين: ٢٨/ ١٧: «مــاهـذا إلاّ بيت الله»، ومثل هذا أطلـق على بيت أجــلا اسـم «بيت النواح»، لأنه هناك بكى أبناء يعقـوب وناحـوا على أبيهم عندما مـات، حسبما جاء في الاصحـاح الأخير من سفر التكوين، الخ..... ومن أجل

١— وهم فابري هنا، لأن بيت فاجي هي قرية الفك، ولعل الخطأ مرده إلى الناسخ.

كثير من أسماء أخـرى تبـدأ بكلمـة «بيت» يمكنك الحصـول على معناهم من خلال كتاب جيروم «حول معاني الأسماء العبرية».

ومثل هذا أسماء القـلاع، والبلدات، والمدن، المنتشرة في ألمانيـا، إنما باستثنـاء أن الكلمـة التي تعنـي «بيت»، تأتي في نهايـة الاسم، في حين وجدناها توضع في العبريـة في البداية، فنحن نقول بالألمانيـة «أوفنهوزن offenhusen » ومعنى ذلك باللاتينيـة «بيت مفتوح open house، وفي العبرية Bethboforon ، ونقول أيضـاً بالألمانية schafhusen، أي بيت الضـأن، الذي هـو بالعبريـة Bethanania وكذلك Och-senhusen أي بيت الثور، وفي العبرية Bethschor، وكذلك Gai-shusen أي بيت الماعـز، وبـالعبرية Bethess ، ومثل هذا هناك قـرية قـرب أولم اسمهـا Dreckshusen، أي بيت الفضـلات، وبـالعبريـة Bethsevell ، ولو أن الألمان، هم في هذه الأيام، ملاّك للأرض المقـدسـة، وقتهـا بحق ينبغي أن تسمى بيت لحم Brothusen وبيت فـاجي Baggchusen، وبيتشمس Sonnohusen ، وبيت أجلا Flanhusen ، وبيت صيدا Fruchthusen و Bethaven=Abgtthusen، Bethhara= Berghusen، Bethaben= Stein-husen، Bethrama= Hochhusen ، ومثـل هـذا في كثير مـن الحالات.

وكانت مـدينة بيت لحم مدينة جليلة، وكانت مسكن القـوم الأجلاء منذ الأيام الخوالي، وبناء عليـه لعل اسمهـا كـان قبل أن تعـرف بإفـراتا وبيت لحم هو Bethtonforon ، أي «بيت النبلاء» علما بأننا لانعرف اسمها الحقيقي من الكتابات المقدسـة، ومع أنها كانت مدينة جليلة، هي لم تكن قط مـدينة كبيرة، لأن شكل الموقع يحول دون ذلك، فهي قائمـة على جـرف جبلي، هو طويل، لكنه ليس بعـريض في القمـة، فضـلاً عن هذا هي قـائمـة على قن الجبل أو حـافتـه، بشكل أن الأرض التي تقف

عليها محاطة بوديان في الشمال، والشرق والجنوب، وتنحني رجوعاً نحو القدسْ في الجهة الغربيـة، وكان هنا فيما مضى خنادق، وأسوار، وأبراج، ذلك أن هذا من الممكن رؤيته بوضوح حتى في هذه الأيام.

ولقد سرت حول المدينة، وتفحصت بدقة متناهية موقعها، فالقرية في هذه الأيام مكتظة بـالسكان ولايهتم سكانها لا بالأسـوار أو بالخنادق، والقسم الأكبر مـن سكانها مـن المسيحيين الشرقيين، المتحـالفين مع المسلمين لابل حتى مع البـداة، وهم يعتمدون في معيشتهم على المنطقـة من حـولهم، لأن التربة من حول بيـت لحم خصبة جـداً، مليئة بالقمح، والكروم والزيتـون، والمراعـي، وفي أثناء تقسيم البـلاد بين الأسبـاط الاثني عشر، صـارت مـن حصـة سبط يهوذا، ومن نصيـب فـاسيس phases، التي كانت أبرز أسر هذا السبط.

وأظهـر جيروم المبارك، كم هي جـديرة بالثناء بيت لحم، وورد ذلك في العديد من كتاباته، وبشكل خاص في رسالته إلى مارسيلا حيث قال: «بأي كـلام يمكنني أن أخبرك عن نزل مـريم، وبأية كلمات يمكنني أن أصف لـك كهف المخلص؟ في الحقيقـة من الأفضل تشريـف المعلف الذي بكى فيـه الطفل، بالصمـت خيراً من الكلام غير الكافي، ويوجـد هنا أروقـة واسعـة، وأسقف مـذهبـة، إنما في خـارج بيت لحم، في هذه الزاوية الصغيرة جداً من الأرض، قد ولد مـوجد السموات، إنه هنا قد جـرى لفه بقماط من قماش، وهنا أيضـاً شـوهد وعبد من قبل الرعيـان والحكماء والذي أعتقـده أن هذه البقعـة هي أعظم قـداسـة من صخـرة تاربين Tarpeian، التي غالباً ما تضرب بالصواعق، الأمر الذي يبرهن على عدم رضى الرب، وهاهنا توجد في الحقيقة، كنيسة مقدسة، وشعب مـؤمن، ومدينة آهلة بالسكان، لكـن طموحـة... وتوجد في قـرية الرب حيـاة ريفيـة مضمـونـة، وهنا هدوء، إلاّ غناء المزامير أينما تـوجهت بوجهك، وأدرت نفسـك، فـالذي يمسك المحـراث يغني «المجـد»،

وينصرف جاني الثمار المتعب نحو انشاد المزامير، ويغني العامل على تقليم الكرمة وهو يعمل بسكينه المثلمة، بعض أغاني داوود، فهذه هي أناشيد هذه المنطقة، وهنا يوجد بشكل عام الذين يسمون في الأماكن الأخرى «محبي الأغاني»، هذا بالنسبة للقديس جيروم.

واحتلت بيت لحم مكانة سامية لدى باولا المقدسة، حتى أنها فضلتها على روما، وذلك حسبما قال القديس جيروم في رسالته عن حياة وموت القديسة باولا، فقد آثرت لمعان القاذورات البشعة على الذهب المطروق، وقد ألف صفرونيوس الكبير — الذي كان عالما متعمقاً — كتابا بليغاً في اطراء بيت لحم، وذلك حسبما روى لنا جيروم في رسالته عن «الرجال اللامعين»، وقد قام أيضاً بالترجمة من اللاتينية إلى الاغريقية جميع الأعمال التي ترجمها جيروم من العبرية إلى اللاتينية، ومدح القديس برنارد في قداسه إلى فرسان الداويه، بيت لحم مدحاً عظيماً، فهي المكان الذي ولد فيه الرب.

مكان ميلاد المسيح وكيف كان، وماهو عليه الآن

لم يكن موضع ميلاد الرب في البلدة، بل بجوار سور المدينة، على المنحدرات، في الجهة الشمالية من البلدة، كما هو مرئي في هذه الأيام، ويسعدني الحديث عن هذا المكان الجميل جداً، وذلك مثلما يسعدني السكنى فيه، والذي أرغب في أن أقوله: كيف كان هذا المكان:

١— قبل قدوم المسيح، وذلك في أيام قضاة، وأنبياء، وملوك يهوذا

٢— أيام ميلاد المسيح، عندما حملت مريم بالمسيح هناك.

٣— بعد ميلاد المسيح، عندما ثارت كراهية اليهود ضد عين المكان نفسه.

٤— في أيام هيلانه، التي حولت المكان، فجعلته مشرقاً بالمجد

والشرف.

٥— في أيام القديس جيروم، الذي صار مشهوراً هناك لقداسته ومعجزاته.

٦— في أيام الفساد والمسيحيين السيئين، الذين دنسوا الأماكن المقدسة.

٧— في أيام المسلمين، الذين خفضوا مكانته إلى لاشيء تقريباً، وحولوه إلى وضعه الحالي التعيس.

وفي التعامل مع السؤال الأول حول كيف كان موضع ميلاد المسيح قبل قدومه، على القارىء أن يعرف أن سليمان بن ناسون قد تزوج من راحاب، عاهرة أريحا، وكان سليمان هذا واحداً من أعظم مقدمي شعب اسرائيل، عند عبوره الأردن، والاستيلاء على البلاد بقوة السلاح، وقد تملك هو وراحاب زوجته، بيت لحم، وكان حصنه وبيته هناك، وبنى لنفسه مسكناً واسعاً في مواجهة السور، بشكل أن بيته لم يكن داخل أسوار البلدة، بل كان حصناً منفرداً، وذلك مثلما يفعل اللوردات في بلادنا، حيث يمتلكون في المدن التابعة لهم، مساكن منفصلة خاصة بهم، مجاورة لسور المدينة.

وكان هذا المسكن قد بني فوق صخرة، وكان في هذه الصخرة فجوة، أخذت شكل قبو، كان مفيداً لاستخدامه مستودعاً، توضع فيه الأشياء التي لاتحتمل الحرارة، وفي الوقت الذي ترتفع فيه الحرارة كثيراً، اعتاد الناس على النوم هناك، وكانت النساء الحوامل يلدن هناك، وبناء عليه هناك حملت راحاب ببوعز، الذي اتخذ بعد وفاة أبيه قاضيا على جميع شعب اسرائيل، وسيداً لبيت لحم، وقد اتخذ لنفسه زوجة هي راعوث المآبيه، وهي التي حملت في هذا الكهف بعوبيد، وفيه حملت زوجة عوبيد بيسي، وحملت زوجة يسي بداوود الملك، في هذا الكهف نفسه.

وبعـدما صـار داوود ملكاً، أخـذ القطعان وأهل بيت أبيـه إلى البيت الذي بناه لنفســه في القـدس فـوق جبل صهيـون، وتـرك بيت ميـلاده فارغـاً، ومع ذلك عـرفت مدينة بيت لحم باسم مـدينة داوود، لأنه ولد فيهـا ومسح فيهـا ملكاً، وحدث هـذا مثلما حدث لجبل صهيـون، فهـو عندما حكم جبل صهيـون، صار يعرف بـاسم مدينة داوود، وغالبـا ما ورد الاسمان في الكتـابات المقدسـة، لكن بعـد نقل بيت داوود من بيت لحم، صار الاحترام الذي يقدم إليها وإلى البيت الذي فيها، أقل من ذي قبل، ولهذا السبب غـدت أبواب وممرات دار بيت لحم مخربة ومهـدمـة، وذلك بسبب توالي العصور، وفي الحقيقة صار هذا البيت مكاناً لاجتماع تجار الخبز، والأقمشة، والفواكه، حيث كانت تباع فيه، وكان أمام البيت ساحـة مفتوحة، كـان الناس يلتقون فيها للتحـادث، والشباب للرقص، وعلى هذا مكث هـذا البيت لكثير من السنين كحـانوت عـام، أو محل حـوانيت قامـت تحت سقوف مقنطرة، وصـار الموضع في الوقت نفسـه نزلاً، أي مأوى للغرباء أثناء الليل.

هكذا كـان الحال الأول لموضع الميلاد، وصـار الوضع الثـاني كمايلي: بسبب عـدم الاعتناء بالمكان، والحفـاظ على البناء هناك، تداعت القناطر أخيراً، وسقطت، كما أن الجدران العـارية صارت مهـدمة، ولم يعـد فيها حــوانيت ولاتجارات، ومـع ذلك بقيت خــرائـب الجدران، حيث أقيم فـوقهـا بناء غير كـامل، وزريبـة، وعند نهاية هذه الزريبـة كـان الكهف المتقـدم الذكـر، وصـارت هذه الزريبـة نزلاً يأوي إليـه الناس الفقـراء، وهناك كانوا يربطون دوابهم ومواشيهم، ويضعون هناك عرباتهم وأشياء أخرى، لايمكنهم إيجاد أمـاكن لها في المدنية، وعلى هذا بقي المكان حتى أيام يوسف زوج العـذراء مريم، وبعـد اعلان أغسطس قيصر وبسببـه، قـدم من الناصرة إلى بيت لحم مع مــريم العـذراء الحامل، وقـد وجـد المدينة مليئة بالناس، وجميع الغـرف في النزل مشغولة، ولذلك عندمـا لم

يجد مكاناً في المدينة يمكنه الإقامة به، ذهب إلى خارج المدينة، وانصرف نحو هذا النزل، الذي وقفت فيه المواشي، مع أدوات الفلاحة، وهناك تدبر مكاناً لنفسه، وعندما دنا وقت مريم العذراء المباركة، أي صار عليها الولادة، دخلت إلى الكهف، الذي ولد فيه داوود الأول وداوود الآخر، وهناك ولدت بداوود الثاني، أي بيسوع المسيح، وذلك حسبما ذكرنا من قبل، وسكنت في هذا الموضع لبعض الوقت، هذا ولسوف نصف أي نوع من النزل كان هناك، ونبين ماهو شكله.

وكان الحال الثالث لهذا المكان الأعظم قداسة كمايلي: بعدما ولد الرب، واثر فراره إلى مصر، تابع هيرود قتل الأطفال الأبرياء، وبحث بحنق عظيم في النزل، وتقصى هناك فيه بحثاً عن الطفل يسوع، لأنه سمع بأن الأم التي قدّم الحكماء لها الهدايا قد أقامت هناك، وحيث أنه لم يعثر على الطفل هناك، تولى تدمير النزل، ورمى الجدران التي كانت باقية أرضاً، وأمر أن لايبقى هناك نزل فوق ذلك الموضع، وبناء عليه بقي المكان مهجوراً حتى إلى مابعد صعود الرب، ثم إن العذراء مريم المباركة شرعت بزيارة المكان مع أصدقائها، حسبما تحدثنا من قبل، ونتيجة لذلك، قدم أناس مؤمنون أخر إلى ذلك الموضع المقدس، وقدموا التشريف له.

وبعد صعود العذراء المباركة، وعندما كان المؤمنون يظهرون احترامهم لذلك الموضع، غضب اليهود تجاه ذلك، وأصدروا حرمانا على المكان وعلى الذين قدموا إليه، وأعلنوا بأن المكان مكانا مدنساً وملعوناً، وكل من يدخل إليه مدنس، وجدير بالمعاقبة، علاوة على ذلك أغلقوا الطرق التي تقود إلى المكان بالحجارة، وبقي المكان هكذا مغلقاً حتى أيام تيتوس وفاسبسيان، اللذان استوليا على القدس عنوه، وفرقا اليهود في أرجاء الدنيا، وبعد تفرقهم بدأ المسيحيون بسكنى الأرض المقدسة، وقاموا بتنظيف موضع ميلاد الرب، وصاروا يحجون إليه حتى

أيام الامبراطور اليوس هدريانوس، الذي جعل الأماكن المقدسة مدنسة بالنسبة للمسيحيين وذلك بوضع أصنام فيها، فهو قد نصب تمثالاً لفينوس على صخرة أكرا، في الموضع الذي مات فيه المسيح، ووضع تمثال جوبتير في الكهف الذي دفن فيه المسيح، وكرس كهف ميلاد الرب ليستخدم موضعاً للبكاء على أدونيس Adonis (تموز)، وهكذا بات أدونيس المحبوب من قبل فينوس العظيمة الدنس، يبكى عليه في الكهف الذي بكى فيه المسيح، فيما مضى، وهو طفل، وحيث تولت العذراء الأعظم طهارة حضانته، وهذا ما أخبرنا به جيروم في رسالته إلى بولينوس حول ترسيم الرهبان، ومن أجل البكاء على أدونيس، انظر حزقيال: ٨/ ١٤، والقسم الثاني من هذا الكتاب، بشكل مختصر أولاً، ثم بشكل مطول بعد ذلك. وهكذا تحول هذا المكان المقدس إلى مكان غريب بالنسبة للمسيحيين، لابل ممجوج لديهم بسبب الأوثان.

وكان الحال الرابع لهذا المكان المقدس كمايلي: بقي المكان لمدة تزيد على ثلاثمائة سنة متروكاً للعبادات الشريرة للأصنام، ففي نهاية ذلك الوقت بعث الرب روح تلك المرأة المقدسة التي اسمها هيلانه، وكانت ألمانية، فبعدما صارت امبراطورة، وغدت مسيحية، ذهبت إلى القدس، وبحثت عن الأماكن المقدسة، فوجدت الصليب، والرموز الأخرى لخلاصنا، ونظفت الأماكن المقدسة وأطاحت بالأوثان، وبادرت مسرعة من القدس إلى بيت لحم، حيث نظفت الموضع العذب جداً لميلاد الرب، وألقت بجميع الأصنام المدنسة من الكهف المقدس، وأطاحت بكل شيء رأته هناك، وقد وجدت تحت الخرائب معلف الرب كاملاً، ووجدت في الكهف الحجرة التي وضعتها العذراء المباركة تحت رأس الطفل، ووجدت أيضاً القش، وأقمشة القماط، وصندل يوسف، والثوب الطويل الذي ولدت فيه، وفقاً لطرائق النساء الشرقيات، اللائي عندما يكن حاملات يرتدين ملابس طويلة عريضة مثل أثواب الكهنة،

ويحمل الغلمان أذيال ملابس سيداتهم، لكن إذا كن فقيرات، وليس لديهن غلمان، يتمنطقن، ويعلقن أذيال أثوابهن من النطاق، وعلى هذه الشاكلة كان ثوب مريم العذراء المباركة، وقد تركته في ذلك المكان، مع أشياء أخرى، بسبب السرعة التي فرت بها، وهذه الأشياء جرى حفظها بأوامر ربانية، ولم تفسد، حتى أيام القديسة هيلانة التي وجدتهم.

وبعدما نظفت الموضع، بنت فوقه كنيسة ذات جمال رائع، فقد استدعت إليها معا أفضل العاملين بالخشب وبالحجارة، وأخبرتهم بتصميمها، الذي قصد بناء كنيسة عالية النفقات كثيراً جداً، هناك، إنما وفق طريقه تبقي الصخرة التي ولد تحتها المخلص من دون لمس، وبناء عليه أعدّ الصناع المكان، من أجل بناء كنيسة عظيمة، ولم يضعوا هناك إلاّ قطعاً منتخبة من الخشب والحجارة، مع ألواح رخامية مصقولة، وأعمدة ثمينة جداً، وألواحاً من خشب الأرز والصنوبر، وإلى جانب هذا أعطت هذه المرأة المقدسة المزيد، وزودت بدون توقف رؤساء الصناع بالذهب والفضة، ومعادن أخرى بدون حدود، وغطت الجدران وجميع الأرضيات برخام أبيض ومنوع، وجعلت الأجزاء العليا من الجدران ترسم بأعمال الفسيفساء.

وهكذا بنت كنيسة عظيمة وجليلة، شكلها مستطيل، ومرتبة ترتيباً فائق الجودة، بشكل بقي فيه كهف ميلاد الرب، دونما لمس، وواقع مباشرة تحت السدة، وتحت المعبد، وبنيت هذه الكنيسة وفق طرائق بناء الكنائس الرومانية، ففي المقام الأول، كانت النهاية الغربية منها عبارة عن ساباط مغطى وذلك أمام أبواب الكنيسة، وعندما يدخل الانسان يدخل إلى صحن كبير، طويل وعريض، ووراء هذا الصحن باتجاه الشرق سدة، يصعد الانسان إليها بوساطة عدة درجات، من الصحن، ويصعد الانسان من هذه السدة إلى المعبد وإلى الجزء المخصص للكهنة الذين يقومون بالخدمات والقداسات، ويصعد الانسان من المعبد إلى

المذبح العالي بوساطة عدة درجات.

ويوجد على جانبي السدة بيع، وعلى كل جانب من جوانب الصحن أجزاء نافرة من البناء، وتحت السدة كهف ميلاد الرب، الذي يبلغ طوله مقدار طول السدة، وتحت المذبح العالي حجرة مجوفة، فيها ولد المسيح، وهناك بابين يقودان إلى الكهف، أولهما موجود على الجهة اليمنى، ويقود إلى بيعة ختان الرب، ويقود الآخر إلى البيعة الموجودة على الجهة اليسرى، والطريق نحو الأسفل، إلى داخل الكهف، هو عبر ست عشرة درجة.

وللكنيسة سقف مصنوع من الرصاص، وهو ليس سقفا مقنطراً، بل — في الحقيقة — مثل الكنائس الرئيسية في روما، ذلك أنها غير مقنطرة، وللكنيسة سدة مستديرة، مليئة بالنوافذ، وهناك في الخارج ممر فوق النوافذ، وللصحن نوافذ كثيرة، على جانبيه، والكنيسة مشرقة ومضيئة.

وكانت هذه الترتيبات العامة للكنيسة، وإليكم فيما يلي التفاصيل، فقياس الكنيسة هو سبع وثلاثين خطوة بالطول، وثمان عشرة بالعرض، وتمتلك أربعة صفوف من الأعمدة الغالية النفقات، وهي أعمدة عظيمة وطويلة، وكل واحد منها مصنوع من حجرة صماء واحدة، وهذه الأعمدة مصقولة بالزيت، لذلك يستطيع الانسان أن يرى وجهه فيهم، كما يراه في المرآة، والحال نفسه بالنسبة لألواح الرخام، التي جرى تغليف الجدران بها، وهذه الألواح نظيفة إلى حد يستطيع فيه الانسان أن يرى كل شيء موجود في الكنيسة، بشكل أوضح مما يمكنه رؤيته في المرآة، وفي كل صف من الأعمدة اثني عشر عموداً، والمسافة مابين كل عمود وآخر هي اثني عشر باعاً، ومجموع هذه الأعمدة سبعين عموداً، ثمينة جداً، وهم مرتبين حسب مقتضيات البناء، ووضع فوق رؤوس الأعمدة عوارض من خشب غير قابل للتلف، حيث يقوم من فوقهم من كل جانب جدار يصل إلى السقف.

وهذا الجدار المرتفع من الأعمدة حتى النوافذ، ليس مطلياً، بل مكسيا، حيث أنه مزين بأعمال الفسيفساء، بشكل رائع على الجانبين، وذلك مثل كنيسة القديس مرقص في البندقية، ومرسوم بالفسيفساء صور من العهد الجديد مع أخرى مماثلة من العهد القديم، والكنيسة كلها بجدرانها جميعاً، إما مكسية بألواح مصقولة من الرخام الأبيض، أو مزينة بأعمال الفسيفساء، وفي هذا المقام، نجد فوق كل شيء كهف الميلاد تحت السدة، فهو مزين برخام للأرض عالي النفقات كثيراً جداً، وبألواح للجدران، وبصور، وفي هذه القضايا جميعاً لم تقصر المرأة القديسة بالنفقات، بل أنفقت بأعظم أنواع الكرم، ولذلك كان اليهود يدعون المرأة القديسة، على سبيل السخرية بـ «امرأة الاسطبل»، لأنها بنت مثل هذا البناء الفخم فوق اسطبل متواضع، وعندما أكملت المرأة القديسة عملها، أخذت المهد الخشبي، الذي قيل بأن يوسف قد صنعه، وأخذت أقمشة القماط، وصندل يوسف، وثوب العذراء الطويل، فقد حملتهم جميعاً إلى القسطنطينية، ولم تقصد سرقة بيت لحم، بل أرادت جعل الأماكن الأخرى مبجلة أيضاً، بسبب الآثار المقدسة من بيت لحم.

وقد أودعت الآثار المتقدمة الذكر في القسطنطينية، في كنيسة آيا صوفيا، ومكثت هذه الآثار هناك حتى أيام شارل الكبير (شارلمان)، فقد حرر شارل هذا مدينة القدس المقدسة، وبطريركها من سيطرة المسلمين، وأعاد السلام إلى المسيحيين الشرقيين، وعندما عاد مع جيشه إلى القسطنطينية سأل أن يمنح مكافأة لجهوده، المهد مع القش، وأقمشة القماط، والصندل، والثوب الطويل للعذراء المباركة، وقد تسلم هذه الأشياء جميعاً، وأخذهم إلى روما، ووضع القش في كنيسة مريم الكبيرة، والمهد في قدس الأقداس في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران، أما الثوب وصندل يوسف، وأقمشة القماط، التي لف فيها يسوع، فقد

١ــ حكاية حملة شارلمان ورحلته إلى الشرق اختراع بلا أساس تاريخي.

أخـذهم إلى ألمانيا الدنيـا، ووضعهم في كنيسـة العـذراء المباركـة التي بناها في آخن(١)، ويجري عـرض هذه الأشيــاء حتى هذه الأيام هناك، كل سبع سنوات، وكنت قد رأيتهم شخصياً هناك في سنة ١٤٨٧.

وكـان الحال الخامس لموضع ميلاد المسيـح كمايلي: فبعد أيام شـارلمان المتقدم الذكر، تحول الشرق كله إلى المسيحية، وصـارت الأماكن المقدسة تزار من قبل جميع أمم العـالم، وقـام بعض الرجـال الأتقياء والقـديسين ببيع كل ما يمتلكونه، وقدموا إلى الأرض المقدسة مع المال، وقد اشتروا أمـاكن للسكنى هناك، راغبين في انهاء حيــاتهم هناك، وكـان من بينهم القـديس جيروم الذي قـدم من رومـا، واختـار أن يعيش في بيت لحم، قرب مزود الرب، وقد لحقت به الأرملة باولا المقدسة جداً، وعدد كبير آخر، وكنا قد تحدثنا عن هذا من قبل.

وبعـــد هـذا العصر الذهبي، ومـع ازدياد ذنـوب المسيحيين ، تمكن المسلمـون مجدداً من الاستيلاء على البـلاد ثانيـة في أيام بندكت الثـامن، الذي ثار في أيامه شقاق عظيم في الكنيسة، وجرى اقتراف أعمال شريرة كثرة، وتحكم المسلمـون بالأماكن المقدسـة لسنين كثيرة، عن طريق أخذ الجزية، ثم للمـرة الثـانيـة تنـادى المسيحيـون في أرجـاء العـالم من أجل الأمـاكن المقـدسـة، وتوحـد الغـرب كله مع بعضـه وذهب إلى الأرض المقـدسة، في حشـد كبير، في كل من البحـر والبر، وسيطروا عليها بعـد جهـد كبير، ونصبــوا ملكاً في القـدس، وأعـادوا بناء الكنـائس والديرة ونصبوا أساقفة وكهنة من أجل زيادة أعمال الصلوات للرب، وتمكنوا في وقت قصير من وضع جميع البلـدان التي من حـولهم تحت طاعتهم، إلى حد أن مامن أحد حرك اصبعاً ضدهم، وقام الصليبيون في الوقت نفسه بتحصين البلدات والقلاع، ومتنوا بشكل خاص مدينة القدس، وكذلك بيت لحم ضد غير الصليبيين بالأسوار والأبراج.

وكــانت بيت لحم في هذه الآونة آهلـة بالسكان، ومشهــورة وثرية،

وجلب المسيحيـــون من كل بلد في الأرض الهدايا إلى هنـاك، وعـــاش التجار الأثرياء جداً فيها، ولذلك يوجد في هذه الأيام رواق مقنطر أمام الكنيسـة، تحتـه قـامت حـوانيت التجـار، وازدهر رجـال الدين والناس سواء كثيراً في المجالات الدنيوية والروحية، وتدفق الحجاج في كل يوم، من جميع أنحـاء الدنيا، عليهـا في جماعـات كبيرة، ليس من أجل التمكن فقط من رؤية الأماكن المقدسـة، والحصول على الغفرانات، بل في سبيل رؤية أمثلة للاستقامة، ولكي يـأخذوا معهم إلى ديارهـم وأوطانهم تقوياً لحيـــاتهم، ولاسيما في الأعيـاد الرئيسيـــة، أي في أعيـاد: ميـــلاد الرب، والقيامة، فوقتها كانت تجتمع هناك حشود هائلة مع جميع أطراف الدنيا، حتى أن البـلاد كانت تجد صعـوبة في استيعابهم، وذلك بسبب التقـوى العظيمة التي أقيمت فيها العبادات المقدسة والصلوات.

وكـانوا قد اعتـادوا على الاحتفـال بعيد ميـلاد الرب، وفق الطريقـة التـاليـة: يقـدم بطريرك القـــدس عشيـة ميـلاد الرب إلى بيت لحم، مع أسـاقفته، ورعـاة الديرة، ورجـال الدين والرهبـان، وكـان يأتي برفقتهم ملك القدس مع أمرائـه، وكونتاته، وفرسانـه، ولوردانه، ونبلائه، الذين كان يلحق بهم حشد لايحصى عدده مـن الحجاج، يقودهم المقدم الأعلى للاسبتـارية مع سـادة فـرسان الاسبتـارية، وعـامـة الناس من الشيـوخ والشباب كنت تراهم جميعاً مسرعين إلى بيت لحم في ذلك اليوم.

وتوجه في منتصف الليل الأجـراس المقروعـة الدعوة إلى جميع الناس للقـــدوم إلى كنيســـة ميـــلاد المسيح، حيث يمضي أسقـف بيت لحم مع أتبـاعـــه، بعـد صـــلاة الصبح، في مسيرة، وهم جميعـاً يرتـدون الثيـاب المقدسة، ويتجهـون إلى كهف الميلاد، وينشدون قداسـاً في موضع الميلاد هو: « Dominus dixitadme » الخ، وبعد الفـراغ من هذا القداس، يخرجـون جميعاً من الكنيسـة، في مسيرة، وهم يحملون المشاعل المضـاءة، والمصـابيح، وأدوات الاضاءة الأخـرى، وينزلون إلى الوادي، ويسيرون

حتى كنيسة «المجد في الأعالي»، حيث يقيمون قداس: «Lux Fu- lojebit cum mango gaudio » ويتولى انشاد هذا القداس واحد من كبار قادة الجوقات، والكهنة، وبعد الفراغ من هذا القداس يصعدون ثانية، وينشدون بقية أناشيد تلك الساعة الشرعية.

وفي هذا الوقت يضع بطريرك القدس عليه ثيابه المقدسة، ويتولى إقامة قداس: «Puerest natus » الخ، ويفعل ذلك في السدة، بشكل مهيب مدهش، وقد اعتادوا أن تكون لديهم نجمة ذهبية كبيرة، كان بعضهم ينزلها من سقف السدة، إلى وسطهم، وفي الوقت نفسه يقف بعض الشبان في الأعلى ويغنون «المجد لله في الأعالي»، ويحركون النجمة بشكل مستمر من الشرق إلى الغرب، ويفعلون مثل هذا في يوم عيد الختان، ففي ذلك اليوم كان يجري احتفال مهيب في بيت لحم، ومثل هذا في يوم الملوك، حيث يجتمع الناس جميعاً مع هدايا، وفي اليوم الثامن لعيد الغطاس، اعتادوا على الاحتفال بعيد التعميد، في كنيسة القديس يوحنا المعمدان على الأردن، ومن أجل هذا كان جميع الناس ورجال الدين ينزلون إلى الأردن، ويجتمعون في يوم عيد البشارة في الناصرة، ويلتقون في يوم الجمعة الحزينة، وفي يوم عيد الفصح في (كنيسة) الضريح المقدس، أما في يوم العشاء الأخير فقد كان اللقاء فوق جبل صهيون، ومثل ذلك في يوم عيد الحصاد، لكن في يوم عيد صعود الرب كان اللقاء فوق جبل الزيتون، وأما في يوم صعود مريم العذراء المباركة، فيكون الاجتماع في وادي شعفاط.

وكانت رغبة الناس الوحيدة هي إقامة قداسات بتقوى مهيبة، فقد حافظوا طوال أيام هذا الاخلاص في القلب، وتحمل التكريس التقوي للأماكن المقدسة، على الاحترام العظيم والجمال، وعاش المسيحيون بسلام وهدوء، ولو أن انسانا رأى كنيسة بيت لحم بجميع تزييناتها، لتولته وقتها الدهشة تجاه عظمتها.

ويصيب الحال السادس لموضع ميلاد الرب كل مؤمن كاثوليكي بالأسف، فياللأسف أخواني اللطفاء، إنه من أجل أن أخبركم بهذا، أنا مرغم على تغيير اسلوبي، وأن أقدم لكم للشرب كأس المرارة، التي تسلمتها أنا بأسى ونحيب، وهي مليئة حتى الحافة بفظاظه الحزن، فعندما كان المسيحيون يتعبدون الرب في الأرض المقدسة، امتلكوا الأماكن المقدسة بسلام، وخدمتهم جميع الأمم، لكن عندما جرى اهمال أعمال عبادة الرب، حدث عكس هذه الأمور، ففي سنة ١١٨٦ لتجسيد الرب، وفي أيام البابا أوربان الثالث، كان هناك ملك في القدس اسمه غي، وقد كان مهملاً، وسيء الحظ، فقد نشب بينه وبين أمرائه صراع، وفتنة، وبناء عليه كان نبلاء البلاد متخاصمين ومتحاسدين، وبات الكهنة، ورجال الدين جشعين ومتشامخين، وكان عامة الناس غير منضبطين وأشراراً، ولهذا نهض المسلمون ضدهم، وأخضعوهم واضطهدوهم إلى حد الافناء.

علاوة على هذا اقترف أحد المسيحيين ذنباً عظيماً في كنيسة بيت لحم، ولذلك تبددت جميع الشجاعة والقدرة على المقاومة وانتزعت من المسيحيين، وصاروا أضعف من النساء، وفي الحقيقة كان عاراً عظيماً ومرعباً، ان يتحدث الانسان، كيف قام المسيحيون، فحولوا دير كنيسة بيت لحم، الذي بني تشريفاً لمريم العذراء الأعظم مجداً، وأم الاحسان، وموضع اللطف، ووعاء النقاء، حولوه إلى بيت سيء السمعة، مراغمة لأم الرب، وإنني أمقت الحديث عن هذه الواقعة، لكن الخراب الذي آل إليه المكان، والوضع المحزن الذي بات فيه، والذي يتوجب البكاء من أجله بسبب هذه الجريمة، لايسمح لي بالمرور به وأنا صامت.

فقد كان هناك مسيحي في تلك الأيام، أحب امرأة مسلمة، حباً لم يكن نظيفاً، وبالحاح شديد طلبها في كل يوم لترضى به، لكنها قاومته باستمرار، وهربت منه، وفي أحد الأيام، عندما كان غاضباً، قامت المرأة

برغبة غير اعتيادية، فألقت بين أسنانه اسم المسيح، وطهارة الديانة المسيحية، الأمر الذي استخف به، وأعلن أن الجريمة ليست كبيرة كما يظن الانسان، وقامت المرأة فبينت فضائل المسيحيين في أشياء كثيرة، وفكرت بأنها ينبغي أن تتحرش به وتغويه، ودفعها حب الفضول، فرغبت أن تجربه لتعرف هل هناك أية فضيلة أو خوف من الرب في ذلك المسيحي، فقالت له في أحد الأيام، ياهذا لقد هزمت أمام إلحاحك، ورضيت بك، لكنني لن أستسلم لك إلاّ في كنيسة القديسة مريم في بيت لحم.

وعن طواعية قبل بهذا الشرط، والتقيا في الساعة المحددة في الكنيسة، وكان معا لوحدهما، وعندما رأت المرأة، أنه لم يعبأ بالكنيسة ولم يهتم بها، وأنه لم يضبط نفسه هناك فيها، قالت له: إنني لن أستسلم لك هنا، دعنا نذهب إلى كهف ميلاد ربك، فهناك ظلام وسرية، فنزل على الفور مع المرأة، التي وضعت نفسها فوق معلف الرب، وجلست هناك، ولدى محاولته الضغط فوقها، نهضت وجلست فوق الحجرة، التي هي موضع الميلاد الأعظم قداسة، وقالت للمسيحي هنا كان ربك قد ولد من العذراء، فإذا كنت على استعداد للاضطجاع معي هنا، فأقدم، وذهب ذلك اليائس والتعيس بلا حدود، إليها دون خوف، ودون إبداء أدنى اهتمام بالمكان.

وعندما رأت هذا، قامت تلك المرأة، وهي رافضة لشروره ومزدرية له، فألقته بغضب واطاحت به وأبعدت ذلك المسيحي عنها، وقالت: اذهب أيها المسيحي الشرير جداً، واعرف ان هذا الشر لن يمر بدون عقاب، وما أن قالت هذا حتى هربت، ودخلت أولاً إلى بيت لحم، وقامت وهي تصرخ وتبكي فأخبرت جميع الناس الذين رأتهم بما وقع لها، ونددت بعنف وحرضت ضد المسيحيين، وحثت المسلمين على القيام بالانتقام لها منهم.

ومنذ ذلك الحين غـــدت تلك المرأة نوعـــاً مـن أنواع المتنبـــآت بين المسلمين، وبشرت بينهم أنه لم يعـــد هناك أية فضـــائل بين المسيحيين، وأنهم يمكنهم بلا خـوف مقـاتلتهم، وطـردهم من البـلاد، ولدى سماع المسلمين بهذا، استثيروا بـالحماس الدينـي، وثـاروا ضـــــد الصليبيين، وشرعوا يكافحون بشدة ضدهم، وقهـروهـم، وقاموا خلال وقت قصير بطرد جميع اللاتين من بلادهم.

وكـان الذي عمل الشر المتقـدم ذكــره، واحـداً من أعظم الصليبيين وأكثرهم قوة، آه، لو أن مثل هذا الشر والاثم اقترف في أيام جيروم، كم من النحيب والبكاء كان سيسبب! لأنه كان في أيام جيروم شماس اسمه سابينيانوس Sabinianus ، وعذراء اسمها سوزانا، وقد شرعا بحب أحدهما الآخـر، واعتادا أن يخفيا رسائلهما إمـا في كهف ميلاد الرب، أو في كنيسة الضريح، وقد عثر القـديس جيروم عليهم، وإذا ما أراد انسان أن يعـرف أي بكاء ونحيب سببوا له عليـه أن يقـرأ رسالة الملامـة التي وجهها إلى سـابينيانوس، ووقتهـا من الصعب عليه أن يحبس نفسـه عن البكاء مع النحيب، وهكذا أصبحت الأرض المقـدسة في أيدي المسلمين وأعداء صليب المسيح، وهي مابرحت بأيديهم حتى هذه الأيام، وكانت بأيديهم من قبل لمدة مائتين وثمان وسبعين سنة، وهكذا صار واضحاً أنه مثلما بدأ خلاصنا من بيت لحم، مثل هذا بدأت عقوبتنا من هناك أيضاً.

الوضع الحالي لكنيسة بيت لحم

والحال السـابع لموضـع ميـلاد المسيح، هو الوضع الـذي أنا الراهب فيلكس فابري قـد شاهدته فيه، فبعدمـا انتصر المسلمون على الصليبيين، وأخرجوهـم من البلاد، اندفعـوا أولاً نحو القدس، وإلى كنيسة الضريح المقـــدس، راغبين بهدمهـــا، لكن السريان، أي المسيحيين الســـوريين، أنقذوها، بإعطاء السلطان مبلغـاً كبيراً من المال، وقدم السلطان بعد هذا إلى بيت لحم، حيث خرق الدفاعات القوية جداً التي كانت مبنية هناك،

وهدم سور المدينة، والتفت بنفسه نحو كنيسة ميلاد الرب، وهدم أولاً الدير الملاصق للكنيسة، الذي كان عظيماً جداً وفخماً، وهدم أسوار المدينة وأبراجها، التي كان الصليبيون قد بنوها مقابل نفقات كبيرة وجهود عظيمة، وتركوا كومة من الخرائب مثيرة الحزن حول الكنيسة، وعندما خرب الدفاعات، قام بمهاجمة الكنيسة، قاصداً خرقها وتهديمها.

وعندما دخلوها، أولاً هدموا المذابح، ثم حطموا التماثيل المنحوتة، ثم إنه عندما رأى السلطان الألواح الرخامية، التي زينت بهم الأرض والجدران، وشاهد الأعمدة الثمينة جداً، أعطى الأوامر بوجوب خلعهم جميعاً ليأخذهم إلى حيث رغب، غير أن معجزة وقعت واعجوبة انتشر خبرها بين المؤمنين، فعندما جاء العمال مع أدواتهم، ولمسوا الجدار الذي هو قرب الباب الذي يقود إلى كهف الرب، وحاولوا العمل به بالعتلات، كان السلطان واقفاً هناك يراقبهم، على مقربة من الجدار الصحيح الأصم، الذي بدا أن الإبرة لايمكنها خرقه، خرج وقتها ثعبان بحجم مدهش، استدار برأسه باتجاه الجدار، وقام بعضّ أول لوح رخامي، فمزقه بلسانه الناري، وزحف من هناك مسرعاً إلى اللوح التالي، وهكذا إلى اللوح الثالث والرابع، وتابع عمله على طول ذلك الجانب محطماً كل لوح.

ثم إنه قفز إلى بيعة الملوك الثلاثة، وركض على الجدار المصقول صقلاً عظيماً، إلى حد أن العنكبوت لايمكنها أن تثبت قدميها عليه، فدمر أربعين لوحاً في صفين واختفى، ولدى رؤية السلطان لهذه المعجزة تملكته الدهشة، وكذلك الذين كانوا من حوله، ولذلك بدل مقاصده، وأقلع عن التخريب وانصرف، وماتزال آثار الثعبان على الألواح باقية حتى هذا اليوم، وكأن انساناً وضع أداة حديدية حامية وضغط بها بشدة على الأحجار، وكذلك كأن الحجارة نفسها كانت قابلة للاحتراق مثل

الخشب، ولقد رأيت آثار هذه المعجزة بسرور عظيم، وغالباً ماكنت أنظر إلى الألواح بدهشة وتعجب عظيم.

وبعد هذا، جاء مسلمون في سنة ١٣٤١، كان السلطان قد أرسلهم، لنقل الأعمدة الثمينة، لكن عندما وضعوا أيديهم عليهم خافوا خوفاً شديداً، بسبب رؤيا مرعبة، حتى أن أطرافهم انشلت ولم يعد بإمكانهم فعل شيء، ولذلك هربوا مذعورين، ولم يحاولوا ثانية وضع أيديهم عليهم، وبعد مرور بضع سنوات، أعطى سلطان آخر الأوامر مجدداً، في الحقيقة ليس بوجوب هدم الكنيسة بل بانتزاع ألواح الأرضية في كهف الرب، وكانت ألواح أرضية مزود الرب باهظة النفقات، وكبيرة وواسعة، وليست جميعها بيضاء، بل ذات ألوان جميلة مزجت مغ الأبيض، كما الحال في جلود العجول، وعندما نزلوا نحو الأسفل مع أدواتهم، لقلع هذه الألواح، تحطم باستمرار كل ما لمسوه بأدواتهم أو بأيديهم وتفتت إلى قطع صغيرة جداً، مثل خشب مهترىء، ووجدوا أنهم فيما لو اقتلعوا الألواح فذلك سيكون بلا فائدة، وعندما رأوا هذا، تركوا الألواح في أماكنها وهربوا، وقمت بقياس هذه الألواح، فوجدت كل واحد منها عرضه سبعة أقدام، وطوله اثني عشر قدماً، وهي مصقولة كأنها مرايا.

وليس قبل سنوات كثيرة مضت، تلقى بعض الشبان المسلمين العقوبة عندما وضعوا أيديهم المدنسة على هذه الأحجار المقدسة، فقد ساد اعتقاد بين المسلمين، أنه يوجد تحت حجرة ميلاد الرب، وتحت المعلف كنوز لايمكن تقديرها، مدفونة هناك، غير أنهم لم يتمكنوا من العثور عليها أو رؤيتها، وتسلق بعض الشباب الفضوليين والجشعين إلى داخل الكنيسة أثناء الليل، وكان ذلك من خلال النافذة الموجودة فوق مذبح ختان الرب،ودخلوا إلى الكهف الأعظم قداسة، واقتلعوا الألواح عند موضع الميلاد، وكذلك الألواح التي هي عند المعلف، وكان كل ما

اقتلعوه يتفتت بين أيديهم، وعندما شرعوا بالحفر استولى عليهم رعب شديد، وأخذوا يرتجفون، ولذلك تركوا أدواتهم، ونزلوا من النافذة التي دخلوا منها، وتركوا منطقتهم، حتى أن مامن أحد يعرف إلى أين ذهب هؤلاء اللصوص.

ولقد قيل صدقاً، وبدون شك، بين الذين يسكنون قرب البقعة، أن مامن مسلم يمكنه أن يحمل أي شيء إلى خارج الكنيسة بنفسه بيديه، وإذا ما وضع مسلم يديه على أي شيء مع النية بأخذه هو لن ينجو دون عقاب، إنما على الرغم من هذا كله، جرى انتزاع الكثير من الألواح المصقولة من على الجدران من قبل لصوص مسيحيين، لأن الأشقياء من المسيحيين الشرقيين يسرقون مثل هذه الأشياء ليبيعوها إلى المسلمين، ولهذا السبب يستأجر المسلمون في بعض الأحيان لصوصاً مسيحيين بثمن، ليسرقوا لهم الألواح التي اشتهوها.

ومامن أحد لديه أدنى شك، أن المسلمين لو استطاعوا أخذ جميع التزيينات الرخامية، لأخذوا كل شيء منذ زمن طويل مضى، لكن الرب يتولى حراسة هذه الأماكن من أجل مواساتنا وفي سبيل مجده الذاتي، ولن يسمح لهم أن يصيروا ضحية المذنبين، ففي خلال حجي الأول، كان سقف الكينسة، الذي كان وزنه ثقيلاً، لأنه معمول من الرصاص، مهدداً بالسقوط فوق السدة وكان ممسوكاً فقط بعضائد خشبية، أقيمت فوق السدة، حيث عليها استند، ووقتها تمنيت أن يحيي الرب الملك يهو آش، الذي قرأنا عنه في سفر الملوك الثاني: ١٢، بأنه أرغم الكهنة على ترميم الفجوات في هيكل الرب، والذي غالباً ما تأسف بعمق من أجله، هو بسبب الخوف من أن تسقط الكنيسة وتصبح في وضع لايمكن ترميمها فيه، لأنها لو تهدمت، لن يكون بالامكان إعادة عمارتها، ومرد هذا إلى أن هناك أوامر صدرت إلى المسلمين في قرآن محمد (صلى الله عليه وسلم) بعدم السماح للمسيحيين

ببناء كنائس جديدة، ولابترميم الكنائس القديمة.

فلسنوات طوال رفض السلطان السماح للمسيحيين باصلاح الفجوات في تلك الكنيسة، لكنه أخيراً وافق بعد الحاح مستمر من رهبان الفرنسيسكان في جبل صهيون، فتراخى بشروطه وسمح باصلاح الفجوات ، ولذلك اتخذ الرهبان اجراءات بتأمين جميع الأخشاب المحتاجة لهذه الاصلاحات وتحضيرها في البندقية، وذلك من قبل صناع أعطيت لهم مقاييس الكنيسة، وجلبوا هذه الأخشاب بغلايين عبر البحر إلى ميناء يافا، ونقلوها من يافا إلى بيت لحم على ظهور الجمال، وهكذا تم ترميم السقف كله من قبل الصناع البنادقة، كما أن جميع التلف والأعطال التي ألمت بالأخشاب وبالرصاص جرى اصلاحها وعادت جيدة، بعد جهد كبير ونفقات عالية، لأنهم انتزعوا الأخشاب القديمة التي هي من الأرز والسرو من جبل لبنان، ووضعوا محلها أخشاب جديدة من الصنوبر من جبالنا.

وفي الحقيقة عندما كان سليمان يبني الهيكل في القدس، تسلم أخشاب أرز من لبنان، أرسلها له ملك صور بالسفن عبر البحر إلى يافا، وقام هو بجلب هذه الأخشاب من يافا إلى القدس، وذلك حسبما قرأنا في سفر أخبار الأيام الثاني:٢، وفي يشوع:٣/ ٢، ومثل هذا تسببت القديسة هيلانة بجلب عوارض خشبية، من خشب الأرز، وحملها بالسفن عبر البحر إلى يافا، وبحملها من هناك براً إلى بيت لحم، وكان هذا وقتها سهلاً، وكان من الممكن تدبره خلال عدة أيام،لكنه صعب جداً في هذه الأيام بالنسبة للمسيحيين، أن يجلبوا الأخشاب من لبنان، لأن المسلمين هم الذين يمتلكون هذه البلاد، وعلى فرض أنهم سمحوا لنا بأخذها كانوا سيثقلونها بضرائب عالية جداً، وبعشور، وبمكوس أخرى، ولذلك كان من الأسهل جلب الأخشاب من جبال الألب لدينا، من أجل ترميم كنائس المسيح، من أن تحمل من الجبال القائمة على حدود

الأرض المقدسة.

وأعتقد أنه لم يعد في لبنان نفسه المزيد من أخشاب الأرز، مثلما لم يعد هناك فوق جبل صهيون المزيد من أخشاب السرو، ولهذا قال سليمان في سفر الحكمة: «لقد مجدت مثل أرزة في لبنان ومثل سروة على جبل صهيون»، وبعد ترميم هذه الكنيسة، أصبحت هذه الكنيسة أنظف، لأن سقفها كان من قبل مليئاً بالحمام والعصافير، وأعشاش لمختلف أنواع الطيور، التي تزرق من الأعلى، وتلوث الأرضية الثمينة، ومنذ ترميمها توفرت ثعالب صغيرة (فنك) كانت تقوم بالسعي هناك ولاتترك طائراً حياً، وتبقي بذلك السقف محفوظاً من جميع الأوساخ، وكنت في بعض الأحيان وحيداً أثناء الليل في تلك الكنيسة، وكنت أسمع كثيراً من الحركة هناك، كانت تقوم بها الثعالب في السقف، ولذلك كنت أخاف، معتقداً بوجود بعض محاولات الإضرار، حتى علمت الحقيقة حول ذلك.

ولم يسمح سيد مصر وملكها السلطان قايتباي فقط بإعادة ترميم هذه الكنيسة، بل إنه سمح بإعادة بناء الخرائب الموجودة في كنيسة الضريح المقدس، وذلك مراغمة لشريعة نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأعتقد أن سلطان أيامنا هذه هو أشبه بملك قورش جديد، الذي وإن كان من الأمم، سمح لليهود بإعادة بناء هيكل الرب في القدس، الذي كان نبوخذ نصر قد خربه، ونقرأ عن قورش ملك فارس، في سفر أسديراس الأول، وفي سفر إشعيا:٤٦، ولم يكن قورش قد فعل ما فعله من قبل نفسه، بل الرب هو الذي ألهم روحه ودفعه، حسبما قرأنا في الاصحاح الأخير من سفر أخبار الأيام الثاني، وفي السفر الأول لاسديراس، ومثله كذلك في الحقيقة هذا السلطان، حيث تحرك بالهام من الرب، فأعطى الإذن بترميم الأماكن المقدسة، ولسوف يعطي الإذن بأكثر بكثير، مالم يقم أعداء المسيحية بحرفه عن مقاصده، مثلما حدث

لعزرا، كما قرأنا في الاصحاح الخامس(؟) من اشعيا، وفي ثنايا جميع سفري نحميا وعزرا كما علينا أن لانصدق ما يشاع — كما يفعل كثيرون— بأن السلطان تحرك بشكل رئيسي بسبب حب المال، والربح الذي جناه من الحجاج، وأنه لهذا سمح بإعادة ترميم الكنائس المسيحية، لأنه في الحقيقة فعل ذلك بدافع أساسي هو الالهام من الرب، مع أنه لم يعلم شيئاً عن ذلك.

ولولا أنه فعل ذلك، ماكان المسلمون ليسمحوا بأي حال من الأحوال للكنائس أن تقف، وما كانوا ليأذنوا بأي شكل من الأشكال للحجاج بالتجول حول المناطق كما يريدون، حتى وإن كان مبلغ المال المعطى إليهم عظيماً، ذلك أن كراهيتهم نحونا فاقت بكثير حبهم للمال الذي يتوقعوه منا، وهو مال قليل بما فيه الكفاية، ثم إن الملك السلطان لايتسلم ولافلساً من ذلك المال، بل يأخذه فقط بعض من الرجال الموظفين لديه، وهؤلاء لايمكنهم العيش حياة رفاهية على هذه الأموال، ولهذا ينبغي علينا أن نقدم الشكر للرب لأنه صرف قلب السلطان نحونا، ويتوجب علينا أن نصلي لإطالة حياة الملك والسلطان، وذلك مثل الذي قرأناه بأن اليهود قد اعتادوا على الصلاة لاطالة عمر ملوك الأمم من أمثال: نبوخذ نصر، وقورش، وأرتراكسرس، وأنطيخوس، وذلك حسبما جاء في الاصحاح الأول من سفر باروخ، وتظهر النتائج بأن السلطان قد مال نحو عقيدتنا،وأنا لا أشك بأن هناك بعض الحكماء، والفصحاء والأقوياء بين المسيحيين، هم سيوجهون نحوه تلك الصلاة التي خاطبه بها المعلم المبجل نيقولا دي كوسا، في الكتاب الثالث — الفصل السابع عشر، من ترجمته للقرآن، حتى يصرف نفسه نحو طريق أحسن، وأنه ينبغي على المسيحيين أن يصلوا له، فهذا ما أوضحته بجلاء في الجزء المقبل.

المسيحيون من مختلف الطوائف المقيمون في الكنيسة في بيت لحم

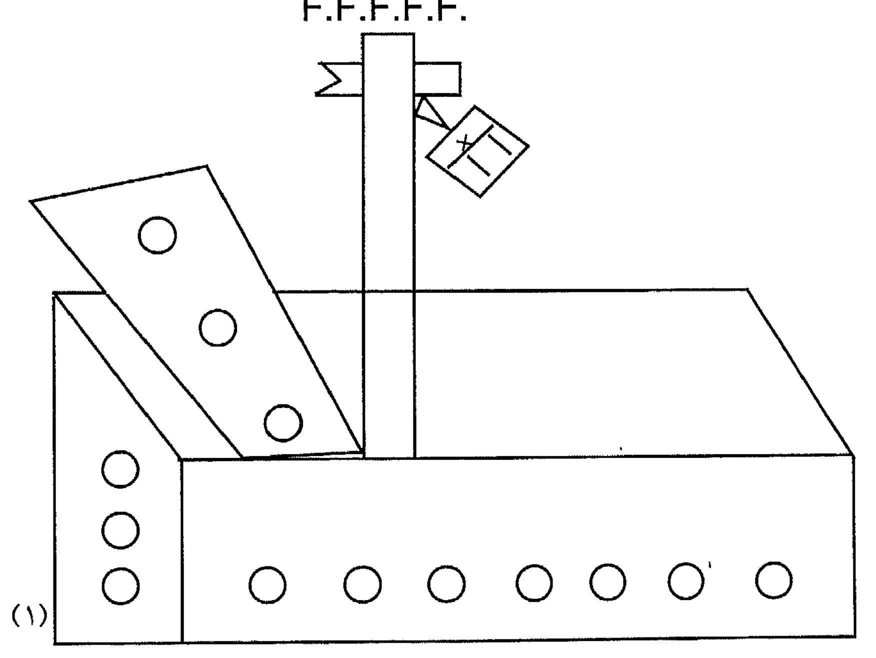
الجزء العلوي من الكنيسة في بيت لحم مدنس وملوث، وليس فيه مصباح واحد في جزئه العلوي، ولا في السدة، ولا في الصحن، ولا في البيع، بل إنه قائم مثل هري بلاقش، أو حانوت صيدلي بدون قوارير العقاقير، أو مكتبة بلاكتب، والصور الثمينة آيلة إلى السقوط من على الجدران، ولا يوجد أحد ليقوم بترميمها، ومع هذا نحن شاكرون لأن جسم الكنيسة مايزال قائماً، والكنيسة الآن موزعة بين المسيحيين تبعاً لاختلاف طقوسهم، وذلك مثلما تقدم وبينا بشأن كنيسة الجلجلة، وكذلك كنيسة العذراء المباركة، فقد امتلك الاغريق السدة، وامتلك اللاتين كهف ميلاد الرب، وامتلك الأرمن المذبح الموجود عند المكان الذي قدّم فيه الملوك الثلاثة هداياهم.

ومامن شيء في تلك الكنيسة مكرس أو مضاء بالمصابيح، إلاّ كهف ميلاد الرب، وكنت كلما وجدت نفسي في بيت لحم، أقيم القداسات في هذا الكهف كمايلي: كنت أولاً أقيم الساعات الشرعية وفقاً لاحكام كتاب صلواتنا المختصر، وبعد هذا، وفي المقام الثاني، كنت أتلو الصلوات الساعية المتعلقة بميلاد الرب، والقداسات الثلاثة التي تتلى في يوم ميلاد الرب، خلال ثلاثة أيام متعاقبة، وكنت أقرأ في الكهف في اليوم الأول عند منتصف الليل قداس: «Dominus dixit ad me» الخ، وفي اليوم الثاني «Lux fulgebit in Aurora » الخ، وفي اليوم التالي الذي هو اليوم الثالث : «In clara luce puer natus est» لأن الرب قد سمح لي بالبقاء وقتاً طويلاً في ذلك المكان، كنت قادراً فيه على القيام بالقداسات المتقدمة الذكر، وأنا شاكر للرب من أجل ذلك.

مغادرة الحجاج لبيت لحم ودخولهم إلى القدس

وعندما فرغنا من زيارتنا لبيت لحم، امتطينا ظهور حميرنا، وغادرنا

من هناك، وعندما وصلنا إلى طرف البلدة كانت هناك امرأة ميته محمولة للدفن، وقد حضر جنازتها جميع المسلمون من نساء ورجال وهم يصرخون ويولولون بأصوات عجيبة ومرعبة، وقد رفعوا أيديهم وكانوا جميعاً يضربون بها فوق رؤوسهم، وعندما رآهم أدلاؤنا، عرفوا الذي كان جاريا لذلك دفعوا بنا إلى الجانب بالصراخ وبالتهديد، وأبعدونا عن الطريق، خشية أن يحدث فنلتقي نحن والمشيعين معا لأننا كنا متميزين بعلامة الصليب، ولو صدف وقابلناهم ونحن نحمل صلباننا، لأثار الشيطان شجاراً مرعباً، ذلك أنهم بلاشك كانوا سيثورون ضدنا، ويطردوننا بعيداً عنهم بالحجارة، وذلك بسبب الاحترام المقدم للمرأة المتوفاة، لأنهم يعتقدون بأن موتاهم غاضبون بشكل خاص منا، وأن تجولنا حول الأرض المقدسة سوف يسبب لهم العذاب في العالم المقبل، وكانوا سيرضون بالسماح لنا بالسكنى بينهم، لولا أنهم يقولون بأن موتاهم لايمكنهم السكنى معنا، وهكذا دخلنا إلى القدس للاستراحة، وذلك حسبما تحدثت من قبل (لأن السفر كان أثناء الليل).



دخول الحجاج الثاني إلى ضريح الرب، رسم الفرسان هناك، واطراء تلك الفروسية

وفي اليوم السابع عشر، الذي كان يوم عيد القديس ألكسيوس المعترف، وفي المساء المتقدم، وذلك عندما قدمنا من بيت لحم، وجهت الدعوة إلينا جميعاً للاجتماع في ساحة كنيسة الضريح المقدس، ولذلك بادرنا مسرعين ونزلنا إلى الكنيسة، حيث وجدنا عدداً كبيراً من المسلمين أيضاً، ومن التجار، غير أننا لم نجد شيئاً للأكل معروضاً للبيع، مثلما حصل معنا من قبل، وانزعجنا من ذلك، لأننا كنا متعبين من رحلتنا، ولدينا وقتاً قليلاً للاستراحة، فقد نزلنا إلى هناك أسرع مما كان ينبغي، وذلك على أمل العثور على طعام في الساحة، يمكننا أن نأكله في الكنيسة، لكن مامن أحد قدم لنا ذلك.

هذا ولست أدري كيف حدث، أو من تدبر، قيام سادة المسلمين، والأوصياء على الكنيسة بالاعلان في المدينة، بوجوب أن لايجلب أحداً أطعمة إلى الحجاج، ولقد خيل إلي أن ذلك كان بمبادرة من الأب المحترم المسؤول، ليوقف التصرفات غير اللائقة التي صدرت عن الحجاج، حيث أن بعضهم قد جلس طوال الليل يأكل ويشرب في الكنيسة، مثل أولئك الكورنثيين الذين أثنى الرسول عليهم (كورنثا الأول:٢) في كل شيء، إلاّ أن كل واحد منهم يعمل على أكل عشائه في الكنيسة، وكان هناك خلاف بينهم، لأن أحدهم كان جائعاً، وكان آخر سكرانا، ومثل هذا حدث بين الحجاج، فبعضهم كان قد أتخم نفسه بالطعام، في حين كان آخرون صياماً، وهكذا كان إجراء أخلاقياً وجوب عدم جلب الأطعمة.

١— كلما أقحمت هذه الصورة في النص، فهذا يعني أن فابري وأصحابه قد أمضوا الليل في كنيسة الضريح المقدس.

وعندما اجتمعنا معا، فتح السادة المغاربة أبواب الكنيسة المقدسة، وتركونا ندخل وفق الطريقة نفسها التي كنا قد دخلنا بها من قبل، ودخل معنا — مثلما حدث من قبل— رهبان جبل صهيون، وكان بين الذين دخلوا معنا منهم، جون أوف بروسيا، ذلك الرجل العظيم الذي كنت قد تحدثت عنه من قبل، والذي كان مدير أعمال رهبان جبل صهيون، والذي وإن كان مدنيا في وضعه، لكنه كان (راهبا) نظاميا في طبعه وحياته، وهو الذي باختياره جرى استخدام رداء الطائفة الثالثة من جماعة القديس فرنسيس،مع أنه لم يقطع على نفسه العهد بإطاعة أحكام هذه الطائفة، وكان هذا الرجل من أصل نبيل، من أسرة مرتبتها مرتبة كونت، وهو ألماني من منطقة بروسيا، وكان طويل القامة، وله لحية طويلة، وله حضور ومهابة، وله شعر رمادي محترم، وكان على درجة عالية من الحكمة، وصاحب خبرة كبيرة، وهادىء الطباع، وصاحب ضمير، وكان يخاف الرب، وقد مَنحت هذا الرجل الجيد، هذا الاطراء ليس بناء على السماع بل اعتماداً على معرفة أكيدة، وكان يمتلك سلطات مولانا البابا، وسيدنا الامبراطور، وتفويض ملوك وأمراء العالم المسيحي، من أجل ايجاد الفرسان ورسمهم من بين جميع نبلاء الحجاج الذين قدموا إلى الضريح المقدس للرب، علاوة على ذلك كان معروفاً من قبل السيد السلطان، الذي عامله باحترام عظيم، وكان أيضاً محترماً لدى جانم Naylon(الأشرفي) الذي كان حاكم مدينة القدس، ولدى sobathylanco، والفحل الكاليني، ولدى التراجمة، الذين جميعاً عرفوه واحترموه، ولهذا منحه سادة البلاد الاذن لإحاطة الأماكن المقدسة بأسوار من الحجارة الجافة، وذلك بعد تحديدها وتنظيمه لها، واكتفى بهذا، ولم يتجرأ على بناء هذه الأسوار (بالملاط).

وحصل هذا الرجل على الاذن بترميم المتهدم في كل من كنيسة الضريح المقدس، وكنيسة بيت لحم، وكانت لديه سلطات عظيمة في

القدس إلى حد أن المسلمين واليهود خـافوا منه، وتخبأ الأطفال بأنفسهم خـوفـاً منه، وأعلن صـادقاً بأن هنـاك رجلين في القدس معمـران وقـد تقـدمـت بهم السنون، وهما على درجـة عظيمـة من الفـائـدة لكل من الأمـاكن المقـدسـة وللحجـاج، ولايمكنني أن أتصـور كيـف سيتـدبر الحجاج أمورهم في القـدس بعد موتهما، ولسوف أكـون آسفاً جداً في أن أكون حاجاً في القدس إذا لم يكونا هناك، والأول بين هذين الرجلين هو الأخ جون المتقـدم الذكر، والثاني هو الفحـل، الذي هو مسلم، ويعرف باسم كالينوس الأصغر، وهو رجل جيد، عنه سوف أتحدث في مكانه.

والآن، عندمـا تشكلت المسيرة واكتملت، ووصلـت إلى النهـاية وفق الطريقة التي كنت قد ذكرتها من قبل، قام الأخ جون المتقدم الذكر، قبل منتصف الليل بسـاعة، بـاستدعـاء جميع النبـلاء من الحجاج إليـه، وهم الذين كـانوا يرغبـون أن يتسلمـوا الفروسيـة في كنيسـة الجلجلة، أي في السـدة حيث وسط الدنيـا، وذلك حسبما تحدثت في ص ٤٩٧، وبعدمـا صف الكونتات، والبارونات، والنبلاء أمامه، بدأ بإخبارهم بقوانين هذه الفروسية، ففي المقام الأول، كان محظوراً على أي واحد التقدم لنيل هذه الفروسيـة، مالم يبرهن أنه نبيل حتى الجد الرابع، وأن يكـون لديه دخلاً كـافيـاً، وأن يكون مستقيماً وجيـد السمعة، وليس مـوسـومـاً بأي عمل سيء، أو له سمعة رديئة، وأعلن أن أي شخـص هو غير مناسب، وقدّم نفسه أمامه، وقام برسمه فارساً، إن هذا الرسم يعدّ لاغياً، وأن مثل هذا الانسان ينبغي أن لايعدّ بأي شكل من الأشكال فارساً، بل أن ينظر إليه كسـاخر، ومهين، ومستخف بالنبـالة، وأخيراً استدعـاهم للاقتراب منه لتلقي فـروسيتهم في ظل الخوف من الرب مع الاحترام، وأن يكونوا في كل شيء مطيعين للبـابا وللامبراطور، الذي بسلطان منه جـرى اضفـاء هذا الشرف عليهم، وأن يتـولوا الدفـاع عن الكنيسـة الكاثوليكيـة، وأن يحافظوا على جميع حقوقها، وأن يتولوا حماية الأساقفة والقتال لصالحهم،

وكذلك الحال بالنسبة للرهبان ولجميع رجال الدين واللاهوتيين، وأن يحافظوا على أراضيهم ومقتنياتهم، وأن يرعوا الصالح العام بسلام أي أن يتعاملوا باستقامة مع الأيتام، والأرامل، والغرباء، والفقراء، وأن يواسوا جميع الناس المؤمنين أثناء مصائبهم بمنحهم المساعدة، عندما يطلبون منهم، فضلاً عن هذا حرّم عليهم عقد أية معاهدات مهما كان نوعها مع الكفار، بل أوصاهم بالقيام بطردهم وبإبعادهم عن العالم المسيحي بقدر الامكان، وفوق كل شيء، عليهم بذل كل مالديهم من طاقة من أجل انتزاع الأرض المقدسة، والضريح الأعظم قداسة من أيدي المسلمين، وأن عليهم حث جميع الملوك والأمراء، والدوقات، والكونتات، والمركيزات، وجميع الرجال الآخرين من أهل السيف، للقدوم بأقصى سرعة ممكنة بالنسبة لهم، من أجل إنقاذ الأرض المقدسة، وأن عليهم إثارة عقول جميع الناس لمساعدتها، وأن يجعلوا ذلك شغلهم الشاغل، وأن يسعوا بكل يقظة ونشاط حتى يبينوا للمؤمنين الوضع المحزن للضريح الموجود بالأسر، وأن عليهم أن يكونوا مستعدين بأنفسهم في جميع الأوقات للانطلاق والقتال من أجل الأرض المقدسة.

وبعدما قال الراهب هذا كله، لابل وأكثر، دخل إلى الغرفة الصغيرة التي فيها ضريح الرب، ولحق به جميع النبلاء، ووقف أمام باب الضريح، وكان لديه أسماء جميع النبلاء الذين رغبوا باستلام الفروسية، مكتوبة وفقاً لمراتبهم، ووفقاً لهذا التنظيم أضفى عليهم الفروسية.

وبناء عليه، دعا إليه أولاً اللورد النبيل جون، كونت سولم Solms، دعاه إلى داخل الكهف الداخلي لآبدة الرب، حيث فيه، القبر الأعظم قداسة، وربط سيف الفروسية حول وسطه، وشدّ مهمازي الفروسية على قدميه، وأمره أن يركع على ركبتيه أمام ضريح الرب، بشكل كانت فيه ركبتاه على الأرض، وصدره وذراعيه موضوعين على غطاء القبر،

وعندما كـان بهذه الوضعية سحب الأخ جـون المتقدم الذكـر من غمده السيف الذي ربطه حـول وسط الكونـت، وقـام بضربه بحـد السيف ثلاث مـرات على كتفيـه باسم الأب والابن وروح القـدس، وبعـد هذا نهض الكونت، وفـك نطاق السيف والمهامزين، وقبلـه، وقـال باحترام: «لعلها تكون جيـدة لك»، وبذلك صـار فارساً، واستـدعى الأخ باروناً نبيلاً، هو مولاي جون ويرنر أوف زيمرن Zimmern، وأعطى السيف والمهامزين للكونت، حتى يرسمـه فارسـاً، الأمر الذي فعله، وبعـد هذا دخل مولاي هينريخ Heinrich ، بارون أوف ستوفـل، الذي رسمه فـارساً البـارون جـون أوف زيمـرن، ومن قبل هذا المتقدم الـذكر كـان مولاي جـون التروخسيس قد رسـم فارساً، وهـو رسم فارسـاً مولاي أورسوس أوف هوهنريخبيرغ Hohenrechberg الذي دخل بعده، وعندما تسلم هؤلاء الفروسية، وغادروا المكان، تلقى بقية النبلاء أيضاً فروسيتهم تباعاً وفقاً لمراتبهم.

وفي حجي الأول، قـام الأخ جون برسم جميع النبـلاء فرسانـاً، بيده، لأنه لم يكن هناك بينهم واحد أعلى من البقيـة في مرتبة النبـلاء، بل كان الجميع سـواء، وقـد فعل ذلك لأن المسـاوي في الرتبـة لايجوز له رسم مسـاويه فـارسـاً، مثلما ليس للمسـاوي في الرتبـة سلطة أو سيـادة على مسـاويه، لكـن عندمـا يجتمع هناك أمـراء، ومـركيـزات، وكـونتـات، وبارونات ونبـلاء، وقتها يتـولى جـون بنفسه رسم الأعلى بينهم، وبعـد رسمه له، يتولى هذا رسم الذي يليه بالرتبة وهكذا وصولا حتى الأدنى مرتبـة بين الأمراء، الذين يلتمسـون أن يرسموا من قبل هـؤلاء السادة، الذين هم بـالنسبـة لهم أتبـاع، أو أنهم ينتمـون لهم بخـدمـاتهم بشكل خاص.

ولو توفـر بعض الأشخـاص الأتقيـاء ممن تلقى الفـروسيـة بسبب التقـوى، ومع ذلـك لايرغبـون بحمل شـاراتها في بـلادهم، فإن هؤلاء

الناس لايجري رسمهم من قبـل الأمـراء، أو من قبل الـذين يلونهم، بل إنهم يمنحـون أنفسهم للأخ جون، وبناء عليـه إنه في تلك الساعـة التي صار فيهـا الجميع فرسـاناً، يقوم كل واحـد منهم إثر تسلمه للفـروسية بتقديم هبة قيّمة إلى الأخ جـون، ويفعل ذلك كل انسان تبعاً لامكاناته، فبعضهم يدفع عشر دوقيـات، وبعضهم ثمان، وبعضهم ست، وبعضهم خمس، وذلك من أجل تـرميم الضريح المقــدس والكنيسـة، واحترامــا للأماكن المقدسـة، وللانفاق على الرهبان الذين يتولـون حراسة الضريح المقـدس، ومن أجل ابقاء المصـابيح مضاءة، ولأغـراض أخرى، يعـرف الأخ جون المتقدم الذكر أنها في حاجة.

إطراء فروسية الضريح المقدس وسموفرسان الضريح المقدس وتقدمهم على جميع الفرسان في العالم

منذ قديم الزمان لم تبق روح الناس النبلاء قانعة بالمناطق التي حصل عليهـا آباؤهـم وأجـدادهم، بل إنهم اعتـادوا بشكل عـام على اشغـال أنفسهم بالحصـول على ألقـاب جـديدة للسمـو بأسمائهم، ولقـد حـدثنا المؤرخـون القدمـاء كيف أن هانيبـال، الذي كان أعلى النبـلاء الأفارقـة شأنا، قـد جـاء من قـرطاج، ودخل إلى بلاد ايطاليــا، وكيف أنه تمكن بتفوق شجـاعته من جعل روما ومناطق كثيرة خـاضعة لسلطانه، ومثل هذا فعل فـرسـوس تاشيوس (كـذا)، والد النبـلاء الإغـريق، فطار عبر البحـر على ظهر حصـان مجنح، ودخل فـارس، واستولى عليهـا، وهكذا كان أيضاً الاسكندر، الذي كان قـوياً بثرواته،وعظيماً بأصله النبيل، فقد عبر خلال بلدان العـالم، وأخضعها جميعـاً لسلطانه الشخصي، ومع ذلك لم يجلس قانعـاً، بل فكر بمدّ حـدود امبراطوريته إلى مـاوراء هذا العالم، ومثل هذا نقرأ عن عدد كبير آخر من الذين لم يقتنعوا ببلدانهم، وتقدموا نحو الأمام للقيام بأعمال عظيمة.

ومثل هؤلاء الناس لم يجلسـوا لـلاستراحـة، ولم يعطوا أنفسهم وقتـاً

للنوم، بل عملوا جادين وصارعوا دونما توقف، وبذلوا جهوداً جبارة، هذا ولنأخذ أمثلة من نبلاء أيامنا هذه، ودعونا ننظر إلى الجيش المجيد لحجاجنا النبلاء، الذين يتنعمون الآن برتبة الفروسية، والذين — في الحقيقة — تجدهم في مدنهم، وبلداتهم، ومزارعهم، وقلاعهم، وقراهم، وممتلكاتهم، وقد امتلكوا ثروات متدفقة، ويعيشون برفاه، ويتمتعون بهدوء في اقطاعياتهم، ويسهمون في أعمال صيد بهيجة، ويشاهدون العروض في المسارح، وينخرطون في مبارزات جريئة، ويثاقفون بالرماح، ويتبارون في الصيد والرقص، أو يقيمون بعبادة هادئة لسيرس Ceres (ربة الزراعة عند الرومان) وباخوس وفينوس.

غير أنهم اعتقدوا أنه من العبث الأخذ بالكسل والتراخي، وأنه عمل شرير تكريس عقولهم لمتابعة الأعمال المتقدمة الذكر، ولذلك أطاعوا عقولهم، ونهضوا بأنفسهم برغبة شديدة وبحماس نحو أعلى المراتب المتعلقة بخدمات الفروسية، وليس أي نوع عام من أنواع الفروسية، بل أعلى وأسمى مايمكن تحصيله في هذا العالم، وهو فروسية الضريح المقدس، التي هي أفضل الفروسيات وأنبلها جميعاً، وهذا يمكن البرهنة عليه بكثير من الحجج، التي سأعرضها هنا.

أولاً: لأن هذه الفروسية أعظم قداسة، لأن تلقيها يجري لدى ممارسة أعظم العبادات، حيث أنها تسلم على ركبتين راكعتين أثناء الصلاة في الضريح المقدس، وليس هناك نبيل واحد سيقول بأنه قدم إلى القدس بشكل أساسي من أجل الفروسية، بل جاء لسبب أساسي هو احترامه للأماكن المقدسة، التي فيها عمل خلاصنا، وهذا عمل يتعلق بعبادة الرب، وعمل له فضائل مقدسة، وفي الحقيقة هم يقولون — وغالبا ما سمعت ذلك يقال من قبل الفرسان — لو أن الأماكن المقدسة لم تكن بالقدس، لما قاموا مطلقاً بعبور البحار، حتى لو كان بامكانهم الحصول على ألف فروسية هناك، بل إن الأماكن المقدسة هي التي تحركهم

وتدفعهم نحو الارتحال إلى هناك، ولهذا إن هذه الفروسية أعظم قداسة من الفروسيات الأخرى،

ثانياً: إن هذه الفروسية هي الأعظم قداسة، لأنها تمنح في أعظم الأماكن قداسة في العالم، أي في هذه البقعة التي قام فيها ربنا يسوع المسيح من الموت.

ثالثاً: إن هذه الفروسية، أعظم روحانية من الجميع، لأنها تضفى فقط على الذين يمتلكون قلوباً نادمة تائبة، من الذين اعترفوا بذنوبهم، وتمتنوا بالقربان المقدس في مكان روحاني، من قبل رجل روحاني وراهب متواضع.

رابعاً: لأنها الأعظم فضيلة بين الجميع، فهذه الفروسية غير مشوبة بأي من الشرور، ذلك أنه في الفروسيات الأخرى: غيرة، وغضب، وحسد، وتشامخ، مع كثير من الشرور الأخرى المتعلقة بها، في حين إن هذه الفروسية في ذاتها كلها فضائل.

خامساً: إن هذه الفروسية هي الأعظم لياقة بين الجميع ، وهي في الحقيقة الأعظم لياقة، لأن المسيحي الذي يرغب في أن يصبح فارساً، يتوجب عليه أن يتسلم الفروسية على أرض الميدان التي هزم عليها ملكه أعظم أعدائه قوة، بيد أنها هنا يجرى تسلمها من قبل ملكنا، وأعني به المسيح، وفي ميدان هو موضع الجلجلة، حيث هزم الشيطان.

سادساً: إن هذه الفروسية العائدة إلى الضريح المقدس هي الأنقى والأنظف، وهي أعظم براءة من أية فروسية أخرى، لأنهاغير ملطخة بأي دم بشري، مثل بقية أنواع طوائف الفرسان، التي هي من حيث المبدأ غير نظيفة، لأنها تعطى، حيث يوجد أعظم سفك للدماء البشرية، والأسوأ من هذا كله أن الناس يحصلون على الفروسية بسبب سفكهم لدماء قوم من المسيحيين، أي دماء إخوانهم، وبذلك هي فروسية ملعونة

وغير مرضية للرب.

فداوود، الملك المقدس، لم يؤذن له ببناء هيكل الرب، لأنه كان رجل حرب، وقام بسفك الدماء البشرية، وذلك حسبما قرأنا في أخبار الأيام الأول: ٢٢/٨، مع أننا ينبغي أن نتذكر أنه سفك فقط دماء الغلف غير المختونين والكفار، وأنه سفك دماءهم بناء على أمر من الرب، فإذا كانت دماء الوثنيين جعلت ذلك الرجل المقدس ملوثاً، وليس بإمكانه بناء الهيكل، ما الذي يمكن فعله بشأن الدماء النبيلة جداً للمؤمنين المسيحيين؟ وكم من الدنس سيلحق الذي تسبب بسفكها! ألا تجعل هذه الدماء الفارس دنساً وملوثاً؟ وليست فروسيتنا البريئة العائدة للقدس ملوثة هكذا بدماء المسيحيين، بل إنها تطهر الفرسان، وتوجب عليهم الدفاع عن الدم المسيحي بسبب أنهم تلقوا الفروسية في المكان الذي سفكت فيه دماء المسيح الطاهرة جداً، من أجل الناس جميعاً، ولذلك يمقتون سفك دم أي انسان، ما لم يرغموا على سفك الدم المجرم دفاعاً عن دم المسيح.

سابعاً: إن هذه الفروسية هي الأكثر عقلانية بين الجميع، لأن المنطق يوجب وجود بعض الناس بين جماعات المسيحيين للدفاع عن الايمان بسيوفهم، ولإيقاف الظلم بسلاحهم، ولإرغام الضالين على العودة إلى الصواب بالقوة، فهذا هو واجب فرسان الضريح المقدس، كما أوضحنا وبيّنا، ولا يؤتى بالعادة على ذكر هذه الواجبات، عندما يتلقى الرجال الفروسية في أماكن أخرى.

ثامناً: وهذه الفروسية هي الأكثر لطفاً بين الجميع، لأن الرجال لم يجعلوا فرسانا في القدس لإيذاء أي انسان، في حين أن الآخرين عملوا فرساناً لمحاربة أعدائهم، ولإيذاء الآخرين بمختلف الطرق.

تاسعاً: إن هذه الفروسية هي الأعظم مشقة بين الجميع، لأن من

الذي يمكنه أن يصف متاعب فارس الضريح المقدس، التي يعاني منها، ليس من أجل الحصول على الفروسية، بل إجلالاً للرب وسعياً في سبيل خلاص روحه؟

عاشراً: إن هذه الفروسية هي الأعظم خطراً بينها جميعاً، لأن التعب من دون خطر، لـه قيمـة ضئيلة، بـل ينظر إلى مشقـة قليلـة مع كثير من التعب، على أنه أمر عظيم، والآن من الممكن العثـور على هذين الأمرين في فـروسيتنا، وذلك بوجـود مشقـة عظيمـة وخطر عظيم، الأمـر الذي يبرهن على صحته رحلاتي وجولاتي كلها.

حـادي عشر: إن فروسيتنا هذه هي الأشـد إيلاماً، لأنه تمّ الحصـول عليهـا من خـلال كثير من الشقـاء وكثير من المحـن، ومع ذلك توجب على الحاج أن تكون حافظة نقوده مليئة بالمال.

ثاني عشر: إن فـروسيــة القـدس هذه أكثـر حكمــة، بسبب مختلف الخبرات التي يمـرّ بها الانسـان، فـالرجل النبيـل الذي ينطلق من دياره يريد القـدس يكسب كثيراً من الخبرة حـول طرق العـالم في البحـر، على طرفي البحـر معـا، وحـول عـادات الناس والفـوارق بينهم، لأنه يتلقى المعـرفــة من المؤمنين وغير المؤمنين، لأنه يشـــاهد المسيحيين، والأتراك، والمسلمين، والمماليك، والتتار، والعـرب، واليهود، والسامـرة، والمغاربة، والاغــريـق، والأرمن، والهنغــار، والدلماش، والبـــانونيين، والآخيين، والطليان، والغـاليين، والانكليز، والتيوتـون، ويسكن بينهم، وباختصار إنه يحصل على المعلومـات حول جميع الناس والبـلاد، في كل من الشرق والغرب، وذلك إذا كان انساناً متفكراً متذكراً.

عــلاوة على هذا، يتعلم الذي يود الحصــول على هذه الفـروسيــة، بالتجربة، من هو صـديق، ومن هو عدو، ويتعلم أيضـاً، كيف يميز بين الكاذب والصادق من الناس، ويتوصل إلى معرفة الفرق بين ما هو جيد

وماهو سيء،ويكتشف ماقصد بالحظ السيء، والحظ الجيد، وماعني بالشر وبالفضيلة، وكم هو الفرق كبير بين الرجل الجيد، وبين الرجل السيء، ومثل هذا يتلقى خبرة أثمن من جميع ماتقدم، فعندما يكون الانسان في حجه هذا، يبدأ بمعرفة نفسه عن قرب، ويتعلم عن قرب حكمته وحماقاته، وعواطفه المتنوعة ورغباته ، وفضائله وشروره، وأقول صادقاً إنه في أربعين اسبوعاً من هذا الحج، يتعلم الانسان ويتعرف على نفسه، أكثر مما فعل ذلك في أربعين سنة في موضع آخر.

وأعترف أنني لم أر مطلقاً نقاط ضعفي وشروري أفضل، أو أوضح مما فعلته ثناء جولاتي هذه، وبشكل خاص عندما كنت في البحر في الغليون، أو في خيمة في الصحراء، لأنه في هذه الأماكن لايبقى جزء من أخلاق الانسان مخفيا، وأنا متأكد بأن رفاقي وموالي النبلاء يعرفونني ويعرفون جميع عاداتي أفضل من اخواني في طائفتي، الذين عشت معهم لمدة ثلاثين سنة، وأنا أعرف هؤلاء الفرسان أفضل من معرفة زوجاتهم لهم، وكذلك أفضل مما فعل آباؤهم، وأولادهم وخدمهم، لأنه في هذه المشاق والمغامرات التي يقدم عليها الحجاج، مامن واحد منهم يمكنه أن يصون نفسه، بل تظهر جميع أفكاره السرية بشكل متتابع، لأن هناك عملاً متواصلاً يستدعيهم إلى الظهور، هذا ويتلقى الفرسان الأخر الذين يرسمون فرساناً في بلاطات الملوك، أو على جسر التيبر، أو في ميادين القتال، قليلاً من الخبرة.

ثالث عشر: إن فروسيتنا أعلى قيمة من الأخريات، لأن فرسان الضريح المقدس يمنحون المقام الأول بين جميع الناس روحيا ومادياً.

رابع عشر: إن فروسيتنا أعظم قوة وأعلى سلطة من الأخر، لأنها منحت بوساطة سلطات البابا الذي هو أبونا الأعظم قداسة، ومن قبل مولانا الأعظم جلالة الذي هو الامبراطور، وإنه عندما يتم أحياناً رسم بعض الفرسان مراغمة للبابا ومراغمة للامبراطور أيضاً، أو بمعزل

عنهما أو من دون موافقتهما وعلمهما، فإن هؤلاء يكونون بلا سلطة.

خامس عشر: إن فروسيتنا أعظم نبلاً من أية فروسية أخرى، وتضفي النبالةعلى الفروسيات الأخرى، في حين أن العكس ليس صحيحاً، ولقد رأيت عدداً كبيراً ممن رسم فرساناً من قبل الامبراطور، وفي ميدان المعركة، ومع ذلك لم يهتموا بحمل شارات فروسيتهم حتى رسموا فرساناً في الضريح المقدس، وأعرف واحداً من النبلاء، قام الامبراطور برسمه فارساً في احدى المعارك، ثم رسمه ملك هنغاريا في معركة ثانية، وبعده رسمه ملك بوهيميا في معركة ثالثة، ومع ذلك تصرف دوما كمجرد نبيل عادي، وذلك حتى رسم فارساً للمرة الرابعة في ضريح الرب، فبعد ذلك قام بعرض شارات فروسيته، وهو في هذه الأيام فارس رائع، يركب مع أتباع كثيرين.

سادس عشر: إن فروسيتنا هي الأكثر إعجاباً بين الجميع، لأن الناس يشعرون بنوع من الاعجاب تجاه فارس الضريح المقدس، بسبب تسلمه لفروسيته بين المسلمين وفي وسطهم، وفي ضريح الرب المقدس.

سابع عشر: إن هذه الفروسية هي الأعظم تبجيلاً، لأن لفارس الضريح المقدس حق الأسبقية على الجميع في السير، والوقوف، والجلوس، والكلام، وغسل اليدين، والأكل، وهكذا دواليك.

ثامن عشر: إن فروسيتنا هي الأعظم تميزا بين الجميع، وعندما يبدأ فارس من الضريح المقدس بالحديث عن فروسيته، وعن المكان الذي نال فيه فروسيته، وعن المغامرات التي واجهها، يحدق جميع الناس بأبصارهم به، ويضغون بأفواه مفتوحة لما يقوله.

تاسع عشر: إن فروسيتنا هي الأكثر قبولاً بين الجميع، لأن فرسان الضريح المقدس مقبولين لدى كل من النبلاء والعامة، ذلك أنهم يولون أهمية ضئيلة للفرسان الآخرين، لابل أكثر من ذلك يسمونهم بالخشونة

والوحشية، وأنهم أناس مرعبين.

عشرون: إن فروسيتنا هي الأكثر رجولة بين الجميع، لأنه أمر ضئيل القيمة أن تتمكن مرة من خرق صف العدو، أو أن تواجه العدووجهاً لوجه، إنما هو شيء عظيم أن تكون مراراً في موقف رعب مميت، كما هو الحال بالنسبة لفرساننا.

حادي وعشرون: إن هذه الفروسية أعظم نشاطاً وفعالية من الآخرين، لأنها تحتاج إلى رجل شجاع في جميع الأحوال.

ثاني وعشرون: إن فروسيتنا أكثر استقامة من الأخرى، ذلك أن جميع الفروسيات الأخرى مشوبة بشيء من الظلم والشرور، ففروسيتنا هذه قائمة على العدالة، الانسانية والسماوية، وهي منظمة بوساطة القوانين التي عملها الامبراطور، والبابا.

ثالث وعشرون: إن فروسيتنا أكثر موافقة وتأسيساً من الفروسيات الأخرى، لأنها تحدث بشكل متواصل أكثر من الفروسيات الأخرى التي تعمل في مكان غير معترف به لمنح الفروسية، من قبل آخرين، لابل يسخر منها ويطلق عليها اسم فروسية السيدة أو فروسية السنور، وفي الحرب مامن أحد من الفريقين يعترف بالفرسان الذين رسموا على الطرف الآخر للقتال ضدهم، ولايوجد أي شيء من هذا النوع في فروسيتنا، بل يعترف الجميع بصاحبها فارساً.

رابع وعشرون: إن فروسيتنا هي الأقدم بين الجميع، لأنه منذ آلام المسيح، جرى رسم الذين عبروا البحر، صدوراً عن التقوى تجاه الاماكن المقدسة، وعدّوا فرساناً.

خامس وعشرون: إن هذه الفروسية مرغوب بها أكثر من الفروسيات الأخرى، ويبرهن على صحة ذلك بحقيقة، أن الذين يرسمون فرساناً في مناطق أخرى، يظلون غير راضين بها، بل يتطلعون

بشوق إلى فروسيتنا وذلك بالاضافة للفروسية التي تلقوها، علاوة على ذلك يتوهج فرسان الضريح المقدس بحرارة الحب، ولذلك يتشوقون للعودة إلى المكان الذي تلقوا فيه فروسيتهم، وفي الحقيقة، يرغب الذين زاروا الأرض المقدسة بالعودة إليها، بحيث لايمكن لأية مخاوف أن تمنعهم، وهذا ليس متوفراً في بقية طوائف الفروسية.

سادس وعشرون: إن فروسيتنا هي الأكثر تقيداً بأحكامها، لأن قانون هذه الفروسية قضى، بوجوب عدم تسلم أي انسان لها، مالم يكن نبيلاً حتى الجد الرابع، وهو مشهور في أسرته، علماً بأن هذا الشرط لايراعى الآن بدقة، حيث يجري رسم بعض الرجال من أصل منحط فرساناً مثلما يجري رسم النبلاء، وذلك مثلما الحال في الفروسيات الأخرى.

سابع وعشرون: إن فروسيتنا هي الأكثر تواضعاً من الجميع، وهي الأعظم طول معاناة، فالفرسان الآخرين لايتنازلون للتسامر مع أناس عاديين، ليسوا من أصل نبيل، ويحسدون أي حظ سعيد أصاب التابعين لهم، وفرسان الضريح المقدس ليسوا هكذا، فهم لايستخفون بأي انسان، وجميع الناس يرتحلون برفقتهم، ولايرفضون أحداً، لأنهم يبحرون عبر البحر إلى القدس برفقة، رهبان، وكهنة، وتجار، ومتسولين فقراء، لابل أكثر من ذلك، إنهم يعبرون حتى برفقة نساء، من الشابات والعجائز، ومع عقيلات وراهبات ولايعيرون اهتماماً محاولات النيل الحمقاء منهم ومن أخلاقهم، التي تقول بأن فروسية الضريح المقدس نسائية، وذلك بسبب النساء العجائز اللائي يحظين برفقتهم، وهم لايخجلون من التعايش مع هؤلاء النساء العجائز، لابل يبتهجون بذلك، ويعدون أنه لصالحهم تلقي فروسيتهم الدنيوية في المكان الذي فيه، راهبات وعقيلات، ونساء عجائز، ورهبان وكهنة، وجميع أنواع الناس الأتقياء الذين يلتمسون عونهم في قضاياهم الروحية، ومن أجل زيادة

نعمة الرب.

ثامن وعشرون: إن فروسيتنا هي الأقسى بين الجميع، لأن الفروسية التي تمنح في بلاطات الملوك والأمراء وفي ميادين المعارك، تمنح مع شيء من النصر والسرور، وتجلب معها منافع متعددة ، في حين إن فروسيتنا قاسية وفيها ندامة وتوبة، ولاتحمل معها لابهجة ولامنافع بل كثيراً من المحن.

تاسع وعشرون: تتطلب هذه الفروسية المزيد من الشجاعة، أكثر من البقية، لأن الذي يعبر البحر بجرأة يخاطر بحياته، أكثر من الذي يذهب إلى الحرب، لأن هذا الذاهب إلى الحرب ، يذهب وهو حام لنفسه بالدروع، ويمكنه أن يحرس نفسه ضد المخاطر، ويمكنه في النهاية الفرار، والبحث عن ملجأ، في حين لايمتلك فارس الضريح المقدس أي نوع من هذه المساعدات لحماية نفسه ضد المخاطر التي تحيق به في كل من البحر والبر، لأنه عندما يكون بين غير المسيحيين، عليه أن يتصرف وأن يتحمل وكأنه بلا مشاعر، وأن لايرد على الذين يضربونه، وبناء عليه يمكنه عن حق أن يردد قائلاً ماكتب في سفر الأمثال: ٢٣/ ٣٥ «يقول ضربوني ولم أتوجع. لقد لكأوني ولم أعرف»، هذا وكان قد مرّ بنا أمثلة حول هذا.

ثلاثون: وهذه الفروسية أبعد مسافة من أي من الفروسيات الأخرى، لأنهامنحت في وسط العالم، وهذا ويلمس الفرسان الذين يذهبون إلى القديسة كاترين، الأجزاء الثلاثة الرئيسية للعالم، وهي أوروبا، التي جاءوا منها، وآسيا التي اجتازوها، وأفريقيا التي يلامسونها في مناطق الاسكندرية، في حين يقيم الفرسان الآخرون قرب مواطنهم لأداء خدماتهم.

احدى وثلاثون: فروسيتنا هي الأكثر توازناً وانضباطاً، لأن الفرسان

الآخرين — حتى وإن رسموا في الحرب نفسها — يتفاخرون بأنفسهم، ويمدح أحدهم نفسه أمام آخر، ويجري تفضيل بعضهم أمام آخرين من قبل أناس على أنهم فرسان أفضل، ويستحقون شرف الفروسية أكثر مما نالوه، وغالبا ما يتخاصمون بشكل مخيف أحدهم مع الآخر في بلاطات الملوك، حول هذه المسائل، هذا وفروسيتنا المقدسية متحررة من جميع هذه الشجارات، وهذه التفاخرات الدنيئة، لأن الجميع يحصلون عليها بالوسائط نفسها، ورجل نبيل جعل فارساً هو ليس أقل من ملك رسم هناك.

ثاني وثلاثون: إن فروسيتنا هذه عالمية، من حيث أن جميع النبلاء يرسمون هناك، وذلك سواء أكانوا من الشرق أو من الغرب، أو شيوخاً أم شباباً.

ثالث وثلاثون: إن فروسيتنا هذه هي الأقل خطراً على النفس، على أساس جميع ما يعمل في القدس هو صحيح ومقدس، الأمر الذي هو غير متوفر في وضع الآخرين.

رابع وثلاثون: إنها مشرفة لدى جميع الناس، لأن هؤلاء الفرسان مشرفين لدى الامبراطور، والملوك والأمراء، والكونتات والبارونات، ومثل ذلك لدى البابا، والكرادلة، والأساقفة، وجميع رجال الدين، والمنظمات الدينية، ومن قبل عامة الناس، ومن الشيوخ والشباب سواء.

خامس وثلاثون: إن فروسيتنا هي الأعلى ثمنا من البقية، على أساس أنه يتم الحصول عليها، مقابل سعر مرتفع، ونفقات كثيرة، خاصة إذا قام الفارس بالحج إلى القديسة كاترين، ومع أنه يجري في فروسيات أخرى صرف المزيد من المال، إن هذه الأموال تنفق بشكل عابث، ووسط أبهة دنيوية وفارغة، أو في مبالغات، ليس لأي منها مكان في فروسيتنا.

سادس وثلاثون: إن فروسيتنا نظامية أكثر من سواها، لأننا نرى بشكل عام فارس الأرض المقدسة أكثر تواضعاً، وانتظاماً، وأكثر جدية، وأفضل نشأة وتربية من الفرسان الذين رسموا في الحروب.

سابع وثلاثون: إن فروسيتنا هي الأكثر ثماراً، في كثير من الجوانب والطرق، لأن الفارس في فروسيتنا، وإن كان بدون كتب، يدرس أشياء كثيرة وقعت في كل من العهد القديم والعهد الجديد، ويكون ذلك أثناء تجواله حول الأماكن المقدسة، ولهذا حدث كقاعدة عامة أن هؤلاء الفرسان غالباً ما يتحدثون بوضوح أكثر، وبمعرفة أعظم حول التواريخ الموجودة في التواره، وحول آلام الرب، وهكذا، من كثير من الكهنة، وكنا قد بينا هذا من قبل، ويصبح الفارس في الأرض المقدسة أكثر حكمة، بوساطة كثير من الخبرات، كما أوضحنا في الأحكام السبعة والعشرين، فضلاً عن هذا هو أكثر ندامة هناك، ويعترف بذنوبه، ويتلقى غفرانات كثيرة، منها تأتي ثمار كثيرة ونتائج في كل شيء.

ثمان وثلاثون: إن فروسيتنا هي الأعظم إيماناً من الجميع، لأنه كقاعدة، فرسان الضريح المقدس هم على درجة عالية من الثبات، وهم كاثوليك جيدين، لأنهم يرون بأعينهم بأن إيماننا هو منطقي أكثر، وأكثر استقامة من أي من الآخرين، في حين ينعدم الاهتمام بالايمان المتقدم الذكر في الفروسيات الأخرى.

تسع وثلاثون: من الواضح من جميع ماقيل بأن فروستينا هي التي تستحق الحياة الأبدية أكثر من سواها، في حين نجد الفارس في الفروسيات الأخرى، لايكسب حياته فقط، بل يجعلون أنفسهم غير أهل لها، لأنه كقاعدة هناك حاجة للأعمال الآثمة للحصول على فروسيتهم.

أربعون: وأخيراً، إن فروسيتنا، فروسية القدس، هي فروسية سعيدة،

لأن فـارس الضريح المقدس هو بالفعل سعيـد، أثناء قيامـه بالحج، لأنه لومات وهو على طريقه، فسوف يطير إلى السماء مباشرة ، ولا يدخل إلى المطهـرة، وحـول هذه المسألـة انظر القـديس تومـا الأكـويني في «Qu.V.quvll,7.qr2 » فضـلاً عن هذا، هو يكون سعيـداً مثل الذي يرى الـرب في القـدس السماويـة، التي هي في الأعلى، ويكون مثـل هذا سعيـداً وهو على طريقـه، لأنه يحاكي الأسرار السماوية في القـدس على الأرض، وسيكون سعيـداً مثل الـذي يرى المسيح في المجـد، ومـريم العـذراء الأعظم مبـاركة، والبطاركـة والأنبيـاء، والرسل، لابل سـوف يكون سعيـداً مثل الـذي يقفـو آثار طبعـات قـدمـي المسيح، والعـذراء المباركة، والأنبياء والرسل ويقبلها، علاوة على ذلك سيكون سعيداً مثل الذي هو متأكد من أمل السعادة، لأن حتى الذي يرى القدس الأرضية هو سعيـد، لأنـه قـد كتب، أن الذين من أجل مجد الـرب زاروا مـدينة القـدس المقـدسـة ورأوها، سـوف يدخلون بشكل مـؤكـد، وبلاشك ، القـدس السماوية، ولسـوف يرون هناك صـاحـب الجلالة الملك، الذي بحثـوا عنه في المعلف، وعلى الصليـب ، وفي الضريح في القـدس على الأرض، ولست أدري مدى مصـداقية هذا القـول، ومع هذا إنني آمل، هذا ولقـد تبرهن بـوسـاطة هذه الحجج علو مكانة فـروسيـة الضريح المقدس، فوق جميع الفروسيات الأخرى، وكان القديس برنارد قد كتب قداسـاً طويلاً، خاطب فيه هؤلاء الفـرسان العائـدين إلى القدس، حيث وصف حيـاتهم الفـروسيـة، وأحـاديثهم، وشجبهم لشرور الفـرسـان الشهوانيين، في الاصحاح الرابع منه.

القداس الذي يعقد في تلك الليلة في الضريح المقدس

جـرى تنصيب الفرسـان أو رسمهم في ضريح الرب، حسبما وصفنا من قبل، وكـان رسمهم جميعـاً يستغـرق وقتـاً طويلاً، ولم يكن بامكاننا الاحتفـال بالقـداسـات قبل انتهـاء الرسم، ووقفنا جميعـاً ننتظر وتجولنا

بمصابيحنا حـول الأماكن المقـدسة، وفي الحقيقـة، لقد رتبت، أن يكون سهـري في تلك الليلة، وصـومـي وصلواتي وجميع أعمال خشـوعي — التي كانت كما هـو مؤسف، فاترة، ومـرهقة، وبلا فـائدة تقـريباً — أن تمنح لصـالح الذين وعدتهم بأن أتذكـرهم، عندمـا سأكون في الأمـاكن المقـدسة، ولصـالح أحبائي من إخـواني، الذين أفـادوني، وقدمـوا لي يد المساعدة باسهامهم بنفقاتي في الرحلة إلى هذه الأماكن المقدسة جداً.

وبناء عليه، صعـدت في الوقت الذي كان فيه الفرسـان يرسمون، إلى رابية أكـرا المقدسـة، وأشعلت شمعة، ووضعت حبراً أمـامي إلى جانب الصخرة الأعظم قـداسة، التي وقف عليهـا الصليب فيما مضى، وهناك كتبت أسماء الذين وعـدتهم بشكل خـاص، والذين من واجبي الصـلاة من أجلهم، وبعـدما كتبت جميع الأسماء في ابتهالات، ذهبت مـع الورقة المكتـوبة إلى الصخـرة المقـدســة، وجثـوث هناك على ركبتي، ووضعت الورقة فوق الصخـرة المقدسة، وقدمت صـلاة إلى كل واحد كتب اسمه في الورقـة، وإلى آخـريـن وردوا إلى خـاطري، وبمعـايير فقيرة، وحسبما يمنح الرب بكرمه مـذنب تعيس جداً مثلي، التمست من الرب بشفـاعة تلك الصـــلاة الفعـــالـة التي قـــدمت هنا فيما مضـى في هذا المكان على الصليب، بأن يتفضـل فيقبل صـــلاتي غير الكاملة، إن لم يكـن من أجل فضائلي، فلتكن مـن أجل فضائل الأحياء والأمـوات الذين وافقت على أن أصلي من أجلهم، ونزلت بعد هـذا إلى الأماكن المقدسـة الأخرى مع الورقة، ونشرتها مفتوحة فوق هذه الأماكن الأعظم قداسة، وقد صليت من أجل الذين كتبت أسماءهـم فيهـا، وذلك بشكل عـام ، وواحداً بعـد الآخر.

وكـان منتصف الليل قـد مضى، وكـانت أعمال رسم الفـرسـان قـد انتهت أيضـاً، فشرعنا نتلو قداسـات في الأمـاكن الأربعة التي تقـدم لي ذكـرها، وفي ذلك الصباح تدبرت تخليـق موضع الرب، وأثناء القـداس

أبقيت الورقة، مع أسماء الأعزاء علي، ممددة أمامي، وعملت القداس نفسه لصالحهم، وعندما أضاء النهار، غنينا قداساً عالياً في ضريح قيامة الرب، كما سنري في المستقبل، وبذلك انتهى هذا القداس.

وعندما انتهى كل شيء، وكنا ننتظر السادة المغاربة لاخراجنا، نشب فجأة صراع وخصام بين الفرسان الذين رسموا حديثاً، وحدث اضطراب عظيم، سببه واحد من الحجاج، أقحم نفسه في الداخل، ورسم فارساً، وقد كان لأسباب عديدة غير أهل، مع أنه في الحقيقة كان رفيقاً جيداً ومرحاً، لكن قامته كانت قصيرة جداً حتى يحمل إباء الفروسية، ووجه الفرسان الحجاج، والكونتات ، والبارونات الملامة لهذا الرجل على وقاحته، في حين قام فرسان آخرون مع رفاقه بالدفاع عنه، وهكذا وقفوا يتجادل واحدهم مع الآخر في الكنيسة المقدسة، وعندما — على كل حال — جرى شرح السبب إلى الأخ جون الذي تقدم ذكره، استدعى جميع الفرسان إلى كنيسة الجلجلة، أمام المذبح العالي، وجعل الرجل الذي قام من أجله النزاع، وكذلك رفاقه ، يقسمون باسم الرب، أن يخبروه بمرتبة وبوضع ذلك الرجل، وبعدما سمع منهم الأخ جون المتقدم الذكر ما قالوه، أعلن أن هذا الرجل ليس فارساً بأي حال من الأحوال، ولايصح أن يكون كذلك، وهكذا وجدت هذه القضية حلاً لها، وانتهت بسلام، وجرى تجريد ذلك الانسان الطيب من فروسيته، وفيما نحن مابرحنا نتحدث حول هذه المسألة، جاء المغاربة، وأخرجونا من الكنيسة، وذهبنا إلى أماكننا للاستراحة، ولم أصعد في هذه المناسبة إلى جبل صهيون مع الرهبان، بل رجاني الفرسان الجدد من موالي بالبقاء معهم في ذلك اليوم في المشفى، وأن أعمل لهم قداساً في مدح الفروسية المقدسة، وقد أقمته كما يلي، وتلوته بلغة ألمانية دارجة، لأنني وجدتهم علمانيين يجهلون اللاتينية.

حث للفرسان على القيام بما تعهدوا به أنفسهم عندما تسلموا الفروسية في الضريح المقدس

خشوع خالص، وحب نحو الرب، الذي أثاركم، يا فرساني الجديرين، حتى جذبتم بقلوبكم العظيمة واللطيفة، نحو قبر مخلصكم، وجعلكم ترون أنه عمل مفيد، أن تخاطروا بفقدان ممتلكاتكم بترككم بلادكم التي ولدتم بها، للقدوم إلى هذه البلاد الأجنبية والمقدسة، وتحركتم هنا بنواياكم التقية بتعبد وتقبيل هذه الأماكن الفائقة القداسة، وبالحصول على الغفرانات، وبأخذكم على أنفسكم عهد الفروسية المقدسة، من أجل العبادات والخدمات المقدسة، وأن تقاتلوا باخلاص حتى الموت ضد أعداء الايمان، والذين يزدرون الصليب، وأعداء كنيسة الرب، وبناء عليه أرجوكم وأتوسل إليكم التمسك بثبات بنواياكم التقوية هذه، وبما أنكم عرضتم نفوسكم لمختلف المخاطر، في سبيل الحصول على هذه الفروسية، كرسوا أنفسكم برجولة، لحمل رسالتكم، وناضلوا بكل قواكم للوفاء بجميع العهود التي أبرمتموها عندما حملتم أنفسكم لتكونوا فرساناً، وجددوا هذه الروح في عقولكم يوما فيوماً، حتى تظلوا دوما الرجال الجدد، الذين انخلقوا وفقاً لإرادة الرب، وأن تكونوا محميين بجميع دروع الرب، حتى تقفوا بثبات ضد الشيطان الشرير.

أتوسل إليكم دعوا قلوبكم تلتهب مثل النار، حماسة لهذه الأشياء، التي هي من الرب، وبشكل خاص لتأمين الضروريات لضريح الرب، وأرضه المقدسة، واتركوا عواطفكم تلتهب بحرارة التفكير التقي، وقاتلوا معركة الرب مع أمل النجاح من عليين، وعلى كل واحد منكم أن يتمنطق بسيفه الجبار، للانتقام للأخطاء التي اقترفت بحق الرب،انتبهوا، وانظروا بأعينكم كيف هو الآن في هذه الأيام وضع الميراث الطيب لمخلصنا، إنه، وياللأسف، قد سقط بين الغرباء، وكيف

هو أيضاً، وضع المكان الأعظم قداسة، حيث ولدت العذراء الأم بملك السماء، واعـرفـوا أن المكان الذي تلطخ بـالدم الثمين جـداً لمخلصنا، والمكان الذي تشرف بتمـدده فيـه، أي مكان أسـاس ضريح الرب، والمكان الذي قـام فيـه المسيح من الموت، وهـو المكان الذي تحول إلى الشهرة أضعافاً مضاعفة بمجد قيامته، هذا المكان صار تحت نير شعوب غـريبة، إن الذي مـالم يكن صـدره من حديد أو قلبـه صلب أصم، هو الذي هنا ولاتتشـوق أحشاؤه إلى هذه الأرض، فمن هو الذي لايستثـار من أعماق قلبـه؟ ومـن الذي لن يلتهب بالغضب، ويلهم بالشجـاعـة، حتى يمكنه انزال الانتقـام المستحق؟ امنع يـا رب أي جندي من جنود الضريح المقـدس أن يترك سـلاحـه يأكله الصـدأ، وامنعـه يارب من أن يضن بحيـاته من أجـل النصر، مشـاهداً أن المنتصر لايمكن أن يخفق في نيل تاج المجـد، لأنكم ترون كيف أنه بمنتهى السلام والمبـاركة، يقـاتل جند المسيح معارك ربهم، وعروسه الكنيسة، عندما يحملون السلاح ضد الكفـار،ناظرين أنهم ليسـوا بحـاجـة لأن يخافـوا في أن يذنبـوا في قتلهم الأعـداء، أو أن يعانوا من الخوف من مـوتهم الذاتي، بما أن الموت ينبغي أن يعطى وأن يؤخذ من أجل المسيح.

وأقـول: إن مثل هذا الفارس، عندمـا يقتل عـدوه يقتله بدون ذنب، وعندمـا يمـوت، يمـوت مع بعض الأمل، لأن ينال قبراً لذاتـه عندمـا يموت، وللمسيح عندما يقتل، ثم إنـه ليس منتحراً، بل يمكنني القول: إنه منتقم، عندمـا يقتل مقترفي الشرور، وجـدير أن يعـدّ مـدافعـاً عن المسيحيـة ومنتقماً لها، فـالمسيحي يمجـد عـن حق في مـوت كـافـر، لأن المسيح قـد تمجـد هناك، وبناء عليـه انهضـوا بأنفسكـم، أيها الفـرسـان الأعظم شجـاعـة، ثوروا للانتقـام للاهانـات التي أنزلت بربنا، وللعـار الذي لحق بشعـوب المسيحية، مثلما فعل المكابيـون البواسل في القـديم، واجعلوا هدفكـم قتل الكفـار، أو الحاق الهزيمـة بهم، واسترداد تراث

الرب وإعادته إلى المسيحية.

فكل انسـان ينتقم لـلأخطاء التي اقترفت بحق أتبـاعـه، أفـلا ينتقم للأخطاء البشعـة التي اقترفت بحق ربه؟ ومـا من انسـان يسمح بوضع أيدي الآثمين على تراث عـائلتـه، فهل ياترى سـوف يصبر على رؤية تراث الرب واقعـاً لمثل هذه المدة الطويلة بأيدي الغرباء؟ ويتـوجب على الذين يعبدون الصليب عـدم تناسي الاهانات التي لحقت بالذي صلب، ذلك أنهم عن حق سـوف يرفضونها لو أنها اقترفت بحق انسـان، خلوا الازدراء الذي ألقي على مخلصكم، يثير عقـولكم ونفـوسكـم، ودعـوا الغيرة على عقيـدته تلهب قلـوبكم، والـرب يحرم أن يعيقكم الخوف ويصـدكم عـن القتـال المجيـد، حيث هناك نصر وتاج مـن المجـد دائم يمكن نيله دوماً.

وهنا انتهى القـداس، وبعدمـا فرغت من القـداس شكرني الفرسـان بشكل حـار جـداً، وأعلنوا أنهم على استعـداد لبـذل كل جهـد ممكن لاسترداد الأرض المقدسة، شريطة أن يسير ملوك وأمراء وقادة المسيحية أمـامهم، وهم يتقـدون بالحماسة نفسهـا، فقـد رأوا أنه مـالم تتم إثارتهم أنفسهم، مـامن أحـد يمكنه القيام بأي تحرك مفيـد في هذا المجـال، لأن شيئاً عظيماً جـداً يمكن انجـازه فقط بـاجتماع جميع شعـوب الغـرب مع بعضهـا، مثلما حدث في سنة ٨٠٢ لتجسيـد الرب، ففي تلك السنة قـام الامبراطور شـارل الكبير (شارلمان) بناء على دعـوة من زكـريا، بطريرك القـدس، ومن امبراطور القسطنطينيـة، فـزحف نحـو الشرق، مع جميع شعب الغرب، وأنقذ جميع الأرض المقـدسة من أيدي المسلمين، وعندما تمّ فقـدان الأرض المقـدسـة للمـرة الثـانيـة، وأعيـد احتـلالها من قبل المسلمين جـرى طرد المسيحيين ونفيهم من الأرض المقـدسـة لمدة تزيد على المائتي سنة.

فبعدها نهض الدوق المجيد جداً للورين، والذي لم يعرف التعب، أي

غـودفـري أوف بولليـون، وكــان ذلك في سنة ١٠٩٩ لتجسيـد الرب، حيث أنه جمع نخبـة المقاتلين من جميع بلدان الغـرب، وعبر البحر والبر بدون خـوف، وبعـدمــا أحـدث مقتلة عظيمـة بين المسلمين وصل إلى القـدس، التي كان فيهـا أربعون ألفاً من المسلمين المسلحين، وذلك إلى جـانب عامـة الشعب، وحـاصرت عساكـرنا المدينة لمدة تسعـة وثلاثين يومـاً، وعندمـا استولوا عليهـا، حـارب الصليبيون المسلمين فيما يعـرف باسم «هيكل سليمان» (الأقصى) وفي سـاحـاته، وأحـدثوا فيه مـذبحـة بلغت حــداً أنهم ســاروا، ودم القتلى واصـل إلى ركبهم، وهكذا عــاد ضريح الرب للمـرة الثانيـة إلى أيدي مـلاكه الشرعيين، وذلك بوسـاطة هؤلاء الفــرســان الأمجاد، وبقي معهم لمدة ثمان وتسعين سنة، عندمــا توقفت المساعدات من البلدان الغربيـة، وكان الرب غاضباً على الشعب الصليبي بسبب ذنوبهم، وحسبما شرحنا من قبل، أخـذت القدس ثانيـة من قبل المسلمين، واستمرت في أيديهم حتى هذا اليوم، أي مدة ثلاثمائة سنة حتى عصرنا هذا غير السعيد، وبحـق يمكنني دعوة أيامنا هذه بغير السعيــدة، لأن مسـاء الايمان قــد اقترب لينتشر فــوق الدنيــا، وباتت الفــوضى وليل الشرور على وشـك الحلول، فنور الاستقــامــة أخــذ بالاضمحلال، والذي بقي منه لايتعدى خيال من ظله، فالشريعة لم تعد مـوجـودة مع الكهنة، والعـدالة انعـدمت لدى الأمـراء، وانعـدم الرأي الصـائب بين الشيـوخ، ولم يعـد هنـاك إيمان لدى الناس، ولامحبـة لدى الآباء، وزال الاحترام من عند الخدم، والإحســان مـن لدن الأسـاقفـة، والتـدين من عند الرهبــان والشرف من عند الشبـاب، والنظام من بين رجال الدين، والتعليم من عند الأسـاتذة، والدراسة من عند العلمانيين، والعـدالة من عند القضاة، والدفـاع من عند الفـرسان، والوئـام من بين الناس، والخوف من عند رجـال الخدمة، والتبعيـة من عند أهل الريف، والصـدق من عند التجـار، والفضيلة مـن بين النبـلاء، والحنان من عند الوصيفــات، والعــزلة من عنـد الأرامل، والحب من بين المتــزوجين،

والاحتشام لدى النساء، والصبر لدى الفقير، وهكذا دواليك.

وهكذا ضللنا وابتعدنا ونحن عميان عن الطريق المستقيم، وسرنا بعناد ومررنا من خلال كهوف الشرور، وميدان العالم في ظلام قذر، آه، كم هي غير مؤكدة الأوضاع الانسانية، وكم هي أيام حياتنا، مليئة بالمصائب، من دونك أيها الرب الجيد، أيتها الأوقات الشريرة، والأخلاق الشريرة، أيتها الأوقات المضطربة غاية الاضطراب، أيام الفواجع، والأخلاق الفاسدة، والأخلاق المهجورة، بين رجال الدين والناس، إنك أوقات تعيسة لذلك قيل عنك: Venit summa dies etin eluctobile tempus وبأنك أوقات فيك، وفقاً للقول القديم للنبي: كل رأس سوف يكون منهكاً، وكل قلب سوف يكون حزيناً، ومن أخمص القدم حتى أعلى الرأس سوف تنعدم الصحة، وإنه على هذا بسبب ذنوبنا، وظلم آبائنا، صارت القدس، والأرض (المباركة) والأماكن المقدسة، خاضعة لشعوب غريبة، ولإلحاق العار بنا، ولاهانتنا ديست بأقدام...، وأعجب من هذا، أنها منذ ثلاثمائة سنة، هي مدنسة بالخونة، ولخزي اسم المسيح الأعظم قداسة بقيت تحت سلطان المسلمين....، وهي ليست موضع اهتمامنا ومهملة من قبلنا، ومليئة بهرطقات كبيرة وبالشرور، ولاشك أن ذلك بسبب تجاوزاتنا واهمالنا، هذا وليس واجب كل مسيحي تقي أن يبكي فقط عندما يفكر بهذه المصائب، بل أن يحمل نفسه إلى الرب بصلوات متواصلة، وليصرخ عالياً إلى الرب، وليلتمس منه بدون توقف أن يكون رحيماً نحو البقية من نخبته، وأن يشرق بنور وجهه علينا وأن يرحمنا، وأن يطرد غير المؤمنين من أرض المؤمنين، حتى نقدم له ببهجة وبأيدينا الحمد الذي يستحقه. آمين.

وعلى كل من سيقرأ قداساً محزناً عن الوضع المؤسف للأرض المقدسة، ومدينة القدس، والنحيب المؤلم حول الكنيسة الشرقية، والبكاء

الحزين على الوضع الشرير والتعيس جداً، للكنيسة الغربية، أو يعمل خطاباً فيه إثارة للملوك، والأمراء، والنبلاء في الغرب، عليه أن ينظر بكتاب حج اللورد بيرهارد فون بريتنباخ، عميد الكنيسة الكاتدرائية في مينز، الذي صنع بأسلوب مزين من قبل الحكيم اللاهوتي الشهير المعلم مارتن روث، وكيل مدرسة هايدبيرغ، والراهب في طائفة الرهبان المبشرين، فهناك سوف يجد معروضاً كل الذي قلته من قبل، وسيجد ماعبرت عنه بكلمات كثيرة إنما بكلمات قليلة،ولسوف يجد نسخة طبق الأصل عن كتاب حجي وجولاتي، إنما مع استثناء واحد، ذلك أنني أرغمت بخطة عملي، وعن قصد، على تغيير الأيام، قائلاً: «تمّ هذا في يوم كذا، في حين قال هو بأنه تمّ في يوم آخر، وليس في هذا عنف أو خلاف، على أساس أننا عندما نقرأ الكتابات المقدسة، نجد الشيء نفسه قد عمل، من قبل الانجيليين.

حول القداس في كنيسة الضريح المقدس واخراج الحجاج من هناك

وفي الوقت الذي كان الفرسان فيه يرسمون، شرعنا بالاحتفال وإقامة قداس، وقد أعطيت مكان الرب المخلق بالطيوب، وأقمت قداس القديس ألكسيوس، الذي كان اليوم يوم عيده، ذلك أنه كان حاجاً حقيقياً، وغنينا في وضح النهار، في ضريح الرب قداساً عظيم البهجة، هو قداس قيامة الرب، وذلك كما كان يغنى في يوم الفصح، وبعد هذا قدم المسلمون وأخرجونا وفق الطريقة نفسها التي مارسوها من قبل، وذهب كل انسان منا إلى مقر إقامته، وقد أمضينا الليلة التالية على جبل الزيتون، وقمنا بشكل سري بالصلاة، وبإراحة أنفسنا في كهف آلام مريم، ولكن قبل انتشار ضوء النهار، صعدنا ثانية إلى جبل صهيون لسماع قداسات.

رحلة الحجاج من القدس إلى المنطقة التلية في اليهودية وإلى بيت زكريا حيث سلمت مريم على قريبتها اليزابث

وفي الصباح الباكر لليوم الثامن عشر، جاء أدلاؤنا إلى الجبل مع حميرنا وسائقيهم، واستدعوا جميع الحجاج، وامتطينا جميعاً حميرنا، وسرنا خارجين من القدس باتجاه الجنوب، بسرعة كبيرة، وسرنا على طرقات منزلقة في المنطقة التلية لليهودية، وهذه المنطقة الجبلية وعرة وكثيرة الحجارة، ومع ذلك هي خصبة، ومليئة بأشجار الفواكه، والتين والزيتون، ووصلنا هنا إلى بيت قائم فوق أرض مرتفعة، وهو عظيم وطويل، لكنه مهدم، وقد قالوا بأنه بيت الشيخ المسن المقدس سمعان، الذي أخذ المسيح بين ذراعيه في هيكل الرب (لوقا:٢)، وفي هذا البيت عدد كبير من الغرف المقنطرة، ومن قمته يوجد مشهد للقدس ولبيت لحم.

وغنينا إلى جانب هذا البيت ترنيمة سمعان: «الآن تطلق عبدك ياسيد» الخ، وحصلنا على غفرانات(+)، ونزلنا من هناك إلى واد على درجة عالية من الخصوبة، ومضينا إلى مكان منحدر، قائم بين جدران من الأحجار الجافة، ففوق هذا الجبل كان المكابيون الشجعان قد عمروا حصناً حصيناً جداً، من أجل صد الغزاة من الأمم، وأطلقوا عليه اسم « بيت سورا» الذي يعني «بيت المرارة» أو «بيت الشجاعة»، وذلك حسبما قرأنا حول ذلك في سفر المكابيين الأول — الاصحاحين الرابع والسادس، وجرى الاستيلاء على هذا الحصن خدعة من قبل أنطيخيوس الأصغر، الذي لذلك أغضب اليهود كثيراً، حسبما ورد الخبر في سفر المكابيين الثاني — الاصحاحين: الحادي عشر والثالث عشر.

وعلى الجانب الآخر من الجبل يوجد البئر، حيث عمّد فيليب الخصي، الأمر الذي سوف نتحدث عنه في مكانه.

ويوجد من بيت سورا مشهـد للقدس، وكان في أيام الحرب، بإمكان المقيمين في بيت سورا عمل اشارات إلى الذيـن كانوا في حصن صهيون، وتلقي مثل ذلـك منهم، وأدرنا الآن ظهـورنا لبيـت سـورا، ونزلنا إلى الوادي.

نبع مريم العذراء الأعظم قداسة

وبعـد نزول طويل إلى حـد مـا، وصلنا إلى مكان قـائم بين تلتين صغيرتين، يوجد بينهما نبع يتـدفق بماء بارد، ونقي، وصحي، كان يجري خـلال الوادي كلـه، يسقيـه ويحوله إلى خصب، وعلى هـذا هو عظيم الفائدة لتلك المنطقة، ويقال إنه من خلال فضائل مريم العذراء المباركة، تدفق هذا النبع أثناء حضـورها، عندمـا قـدمت صـاعـدة من الناصرة، وتولت خـدمة اليـزابث لمدة ثلاثة أشهـر، فقد رغبت العـذراء المباركـة بالحصول على ماء لحمله إلى اليزابث، التي كانت حاملاً وذلك من أجل استخدامـه في البيت الأعلى والأدنى، لأن زكريا كان كـاهنا غنياً، ولديه مزرعـة في ذلك المكان، مع بساتين من أشجار الزيتـون، وأشجار التين، وكـروم العنب، وكان لديه بيت على كل واحـدة من التلتين الصغيرتين، وخدم يتولون خـدمته كما يتولون اطعام مواشيه، وبناء عليـه كان معتاداً على العيش أحيـانـاً في البيت الأول، وأحيـاناً أخـرى في البيت الثـاني، وذلك وفقاً لأوقات السنة. وقد قام النبع في الوسط، وكان يستخدم من كلا البيتين.

وحدث أنه في الوقت الذي قدمت فيه العذراء المباركة لتحية اليزابث وخـدمتهـا، أنهم كـانوا يعيشـون في البيت الذي قـام على الأرض المنخفضـة، لكن عندمـا جـاء الوقـت لتحمل بيـوحنا المعمـدان، ذهبت اليزابـث نفسها وصعدت لتسكـن في البيت الأعلى، آخذة معهـا العذراء المباركـة، وقابلاتها، ووصيفـاتها، غير أن زكريا مكث في البيـت التحتاني مع رجاله وخدمه، لأنه في الأيام الخالية لم يسكن الرجال في بيت النساء

الحوامل في أيام ولادتهن.

المكان الذي حييت فيه إليزابث من قبل العذراء المباركة

وهكذا بعدما شربنا من نبع العذراء المباركة، تابعنا سيرنا بمعد صائمة، واتجهنا نحو اليسار، إلى البيت الأول، أو البيت التحتاني لزكريا، وعندما وصلنا إليه وجدناه مغلقاً، وقرعنا الباب بالحجارة، وبالعصي والعكاكيز، لكن مامن أحد جاوبنا، وشرع شباب المسلمون بالسير حول البيت يبحثون عن مكان، يمكنهم منه تسلق الجدار، ومن ثم فتح الباب لنا، وحدث أنه بعد طول انتظار أن كان هناك مسلم في داخل البيت، وكان بالحري وحشاً اكثر منه انساناً، وقد تظاهر بأنه لم يسمعنا، لكنه عندما رأى الشبان المسلمين الذين رافقونا يبحثون عن طريق آخر للدخول، نزل إلى الباب وفتحه على مصراعيه، ثم إنه وقف عند الباب وبيده عكاز، وزوجته ومعها آلة كي بالنار، وذلك حرصاً على عدم دخول أحد قبل دفع بعض المال لهما، وعندما أعطي المال له تخلى عن غضبه، وسمح لنا بالدخول، وما أن شرعنا بالدخول حتى بدأ قائد الجوقة يغني أغنية مريم العذراء المباركة جداً: « megnificant anima mea » الخ، ودخلنا ونحن نغني هكذا إلى المكان الذي حييت فيه العذراء المباركة اليزابث، حيث قفز يوحنا سروراً في رحمها، وبذلك ردت اليزابث على تحيتها وتنبأت لها، وغنت مريم تلك الأغنيات العذبة، وهي مليئة بأعمق الأسرار، حيث كل كلمة حافلة ببعض المعاني الهائلة، وسقطنا في هذا المكان على ركبنا وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وشعرنا بالحقيقة ببهجة خاصة في هذا المكان مع مريم العذراء المباركة، التي نشرت هنا بتحيتها وبأغنيتها الحلوة، وعمت البهجة التي لايمكن وصفها، والتي من خلال تحية الملاك حملتها حتى الآن مخبأة ومخفية في أعماق قلبها، فضلاً عن هذا قفز الطفلان سروراً في رحمي

أمهيهما، عند التقاء هاتين الأمين، إلى حد وكأن الأمين امتلأتا بسرور غير اعتيادي، وفي قلب مريم العذراء الأعظم مباركة، تجدد في هذا المكان جميع السرور الذي تلقته من تحية الملاك، وكأنه اكتمل، لابل قد نغامر فنقول: يبدو أنها حصلت في هذا المكان على سرور أعظم، لأنه عندما حياها الملاك في الناصرة قال: «سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك، مباركة أنت في النساء»، وصرخت اليزابث بصوت مرتفع «وقالت مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك»، ونعلم الآن من هذا كله بأن مريم العذراء الأعظم مباركة قد أحبت ثمرة رحمها أكثر من محبتها لنفسها بشكل لايقارن، وابتهجت بتشريفه أكثر من ابتهاجها بتشريف نفسها، ودعاها الملاك فقط بالمباركة، لكن اليزابث أعلنت أنها هي وثمرة قلبها مباركين، وبذلك ازدادت بهجة العذراء وتضاعفت، ولهذا السبب نحن لم نقرأ بأن العذراء المباركة قد غنت أغنيتها المعبرة عن سرورها جواباً لتحية الملاك، بل جواباً لتحية اليزابث وقالت وهي مبتهجة: «تعظم نفسي الرب،وتبتهج روحي»،الخ، وبناء عليه في هذا المكان انتهت تحية الملاك وصارت كاملة، وهكذا تلقينا نحن الحجاج فوق هذه البقعة جميع البهجة التي كان من المتوجب أن نكون قد شعرنا بها في الناصرة، حتى وإن لم نكن قادرين على الذهاب إليها، وفي كلمات كل من الملاك واليزابث رددنا مراراً كثيرة Ave ma-ria ، وقدمنا قبلاً إلى العذراء، حتى مثلما حيتها اليزابث وأيضاً قبلتها، لأن بيرنهارد التقي قال: «يامريم، إن سماع قول الملاك Ave maria مثل قبلة لك، وغالباً ماقبلت، عندما حييت بالقول Ave.

وفي الحقيقة، أسقطت السماء، وقت هذه التحية، الحلاوة، وضحكت النجوم، وابتهجت الملائكة، وسعدت الدنيا، وارتعدت الشياطين، وذبلت قوى النار وتلاشت، وصار الأتقياء من الناس مسرورين، وحصل المذنبون على أمل، ومن هنا نمت العادة بين كثير من الناس على

إضافة Ave maria، إلى الصلاة الربانية، وذلك كلما وقعت، حتى في الساعات الشرعية، ومع ذلك يقول بعضهم بأن هذا يتوجب عدم القيام به، لأنه لم ترد في الأحكام، والملاحظات، ولافي العناوين، إشارة إلى Ave maria عندما جرى تعين الصلاة الربانية لتقال.

ولقد سمعت أن خلافا نشب حول هذا الموضوع بين راعي الدير والرهبان النظاميين التابعين لكنيسة باتافيا Batavia (كذا)، فقد رغب الراعي دوما بإضافة Ave maria إلى الصلاة الربانية لكن الرهبان النظاميين ورجال الدين رفضوا أن يفعلوا ذلك، حيث ادعوا بأنها لم تعين إليهم في العناوين الرسمية، وأخيراً من أجل السلام والوئام عرضت القضية على البابا، الذي اتخذ قراراً لصالح الراعي، حول الجانب الايجابي للقضية، وأصدر مرسوماً قضى فيه بوجوب قول Ave maria بعد Pater Noster.

وفي أيامنا فقط وضع حد للعادة القديمة للقديسين، الذين اعتادوا أن يصلوا للرب بخمس صلوات ربانية، وأن يحيوا مريم العذراء الأعظم مباركة بخمسين Ave maria بشكل متتابع أثناء صلوات شكرهم، من أجل أعمال خلاصنا، وهذه العادة السليمة التي صارت شبه مهملة وغير مستخدمة في مناطقنا، جرى تجديدها بفضل الجهود الكبيرة العائدة للحكيم اللاهوتي الممتاز، المعلم جيمس شبرنجر، الذي هو من طائفة الرهبان المبشرين، ومن الدير (الدومينيكاني) في كولون Co-logne ، وقد كنت أنا وهذا المعلم، كأن تقول أخوين بالنشأة، حيث ارتدينا الثوب الرهباني في الدير في بازل، في السنة نفسها، وبعد مضي سنة، عملنا احترافنا في المدارس نفسها، حيث تدربنا تحت المعلمين أنفسهم، ونحن في هذه الأيام صديقين حميمين.

والسبب الوحيد لإخباركم بهذا، هو بسبب أنني أعرف بأن هذا المعلم المبجل، قد كان منذ الصغر مكرس للعذراء مريم، ولم يتوقف منذ

صغره حتى الوقت الحالي، عن تعظيم وتقديم الشكر إلى مريم العذراء المجيدة جداً، وقد شغل نفسه مع الكرسي الرسولي، من أجل استصدار مرسوم غفرانات، وحصل على هذا المرسوم ، حيث منح فيه السيد المقدس، البابا سكتوس الرابع، غفرانات عظيمة إلى الذي يقول العدد المتقدم ذكره من الصلاة الربانية مع Ave maria، ثلاث مرات في الأسبوع.

وأطلقوا على هذه الصلاة اسم «سبحة العذراء المباركة»، ولقد رأيت هذه المرسوم، وقرأته كله، وعملت نسخة عنه، ويردد بعض الناس الصلاة المتقدمة الذكر ثلاث مرات في اليوم الواحد، ويسمونها: «مزامير مريم المباركة»، وبالنسبة إليهم هناك حصول على غفرانات عظيمة، مرة في الحياة، وأخرى في الموت، وقد سموها «مزامير»، لأن فيها مثل مزامير داوود ثلاثة خمسينات، فالخمسين الأولى معينة كصلاة شكر لحلول المسيح وطفولته، والخمسين الثانية من أجل آلامه، والثالثة من أجل تمجيده، ويضيف آخرون خمسين أخرى، ويكررون عشرين «صلاة ربانية» ومائتي Ave maria في كل يوم، لأنهم يعلنون أن كتاب المزامير هو غير كامل ما لم يضف بعد مزمور «Laudate dominum de coelis » تراتيل من العهدين الجديد والقديم وترانيم، ولهذا يضيفون خمسين رابعة إلى التراتيل والترانيم، وأنه بذلك تكون المزامير كاملة.

وهم يقدمون سبباً آخر لتلاوتهم أربعة خمسينات هو أن ذلك ليس الأقل مواءمة لمباركة العذراء المقدسة وثمرة رحمها، ومن أجل حياة الرب الأعظم فضيلة وكمالاً، ولا أقل من أجل تجسيده، وموته، وتمجيده، وبناء عليه إن في تلاوتهم للخمسين الأولى يتأملون حول تجسيد المسيح وطفولته، وفي الثانية حول أعماله وحياته، وفي الثالثة حول آلامه وموته، وفي الرابعة حول قيامته، وتمجيده هو نفسه وأمه ونحن

أنفسنا.

علاوة على ذلك حتى تكون هذه الصلاة أكثر انتظاماً وأقل اضجاراً، جعلوا كل «صلاة ربانية» مع عشر Ave maria بمثابة صلاة شكر من أجل بعض المباركات التي في أذهانهم، من ذلك على سبيل المثال هم يرددون «الصلاة الربانية» الأولى مع عشرتها من «Ave maria » بمثابة صلاة شكر من أجل مباركة التجسيد، وثاني «صلاة ربانية» مع عشرتها من «Ave maria » من أجل مباركة الميلاد، والثالثة من أجل مباركة الختان وتشريفاً لاسم يسوع، والرابعة من أجل تقدمة الملوك، والخامسة من أجل مباكرة التطهير، لأنه جرى تقديمه في الهيكل بمثابة مذنب، وتطهرت أمه وكأنها غير نظيفة، وكذلك من أجل الفرار إلى مصر والعودة من هناك، ولحضوره المتواضع في المدرسة، ولطاعته لوالديه، فهذه هي الخمسين الأولى.

وكانوا يتولون ترتيب الثانية وفق التالي: يقولون «الصلاة الربانية» الأولى مع عشرتها من Ave maria، من أجل تعميده، والثانية من أجل تحمله الإغواء في القفار، والثالثة من أجل اختيار تلاميذه ودعوته لهم، والرابعة من أجل حياته الربانية، وعقيدته الواضحة، ومعجزاته، والخامسة من أجل وضعه القداسات، ولاسيما مباركة القربان، وهكذا دواليك.

أما الثالثة فكانوا يتولون ترتيبها كمايلي: الأولى من أجل المعاناة الداخلية للمسيح، وبكائه وآلامه على جبل الزيتون، والثانية من أجل القبض عليه وتعذيبه خلال الليل كله، والثالثة من أجل اتهامه، ومن ثم ارساله إلى هيرود، وجلده، وتتويجه، والرابعة من أجل السخرية منه، واقتياده لصلبه، وصلبه مع جميع الذي فعله المسيح على الصليب عندما كان مايزال حياً، والخامسة موته، وطعن جانبه، ودفنه.

ورتبـوا الخمسين الرابعة كمايلي: رددوا «الصـلاة الربانيـة» الأولى، مع عشرتها من Ave maria وذلك بمثـابة صـلاة شكر من أجل قيـامتـه، والثانيـة من أجل عظمة صعوده، والثـالثة من أجل نعمـة ارسال الروح القدس، والرابعـة تشريفاً لصعود العـذراء المباركـة، والخامسة من أجل سلطانه كحكم، ولأحكامه العادلة. وهذه الصلاة صلاة تقوية ومواساة، عندما يصبح الانسان معتاداً عليها.

فضلاً عن هذا، ومن أجل أن يحط من مكانة الذين كانوا غيورين من مـريم العــذراء المبـاركـة، والذين أنكروا فضيلـة هذه الصلوات، وضع المعلم جيمس المتقـدم الذكــر، هذه القضيـة كلهـا، أي قضيـة السبحـة والغفرانات، لأن تكـون موضوع مناقشـات عامـة في جامعـة كولون في Quodlibetis، وفي هذه المناقشـات جرت الموافقة على أن هــذه الصلاة كانت بريئة ومفيدة، وهي الأكثر قبـولاً لدى العذراء المباركة. وليكن في هذا كفاية، في جولاتي حول هذا الموضوع.

الموضع الذي قال فيه زكريا ترنيمة «مبارك»

وبعدما أمضينا بعض الوقت في المكان المتقـدم الذكر، ذهبنا صاعدين من الكنيسة التحتـانية، وذلك عبر درجات حجـرية، فوق قنطرة، حيث قـام فيما مضى بيعـة جميلة، وعندمـا كنا صــاعـدين، كنا نغني ترنيمـة: «مبـارك الرب إله اسرائيل لأنه افتقـد وصنع فـداء لشعبـه» الخ، وهذه الترنيمـة قـد نظمت من قبل زكـريا، عندمـا امتـلأ بروح القـدس، أثناء ختان الطفل، وذلك حسبما وصلنـا الخبر في الاصحاح الأول من انجيل القـديس لوقـا، وتابعنا سيرنا ونحن نغني كـذلك حتى وصلنا إلى البناء العلوي، حيث وجدت القـاعة، التي جلس فيهـا زكريا صـامتاً، وحيث طلب لوحاً، وكتـب عليه «اسمه يوحنا»، وهنا انفتـح فمه بالحال، وتنبأ قائلاً وغنـى «مبارك الرب إله اسرائيل لأنه»الخ، ولذلك انحنينا بأنفسنا نحو الأرض، ونحن نصلي، وحصلنا على غفرانات(+).

وأخيراً بعدما نهضنا من صلاتنا،حملنا أنفسنا من أجل مشاهدة المكان، وقد رأينا على الجانب الأيسر كنيسة كبيرة، بلا نوافذ(؟) بنيت من أجل أن تكون هري، ففي هذا الهري أودعت اليزابث طفلها الرضيع، القديس يوحنا المعمدان، وأخفته، عندما جاء خدم هيرود يسعون حول تلك المنطقة، يبحثون عن الأطفال من أجل ذبحهم، لابل من المعتقد أنهم قدموا، ودخلوا إلى ذلك البيت نفسه، بحثاً عن الأطفال، لكنهم عندما رأوا انسانين عجوزين هما زكريا واليزابث، لم يتوقعوا وجود أية أطفال معهما، وغادروا مسرعين، وبقي الطفل يوحنا دونما أذى، وعلى كل حال يقول ألبرتوس في تعليقاته على الاصحاح الأول من انجيل لوقا، بأن زكريا قد قتل من قبل رجال هيرود، لأنه رفض تسليم ابنه، كما سنرى ذلك فيما يأتي بعد.

ويوجد في هذا البيعة مذابح محطمة، وأقواس مهدمة، وعلى الجدران صوراً قديمة، وفي البنائين العلوي والتحتاني نمت الأعشاب والحشائش فوق القناطر، كما هناك بعض الحبيبات ذات اللون الأزرق مثل الفاصولياء، قد نمت هناك، وهي ليست موجودة في أماكن أخرى، وكان هنا فيما مضى كنيسة جميلة وفخمة، وقد سكن الرهبان في قلايات إلى جوارها، ولكنها الآن — وياللأسف — غدت البيت المهدم لواحد من أكثر المسلمين تعاسة.

المكان الذي ولد فيه يوحنا في هذا العالم

وخرجنا من هذا المكان نسير على طريقنا، وعدنا ثانية إلى النبع المتقدم الذكر، وتسلقنا من النبع مكانا منحدراً، إلى تلة، وعندما صرنا فوقها، وصلنا إلى كنيسة كبيرة، حيث غنينا فيها بصوت مرتفع ترنيمة ut queat laxis، وقد بنيت هذه الكنيسة فوق المكان الذي ولد فيه يوحنا المعمدان الذي كان رائد الرب، ويوجد الآن المكان الفعلي لميلاد الرائد على الجهة اليسرى في بيعة السدة، التي بابها مغلق بخرائب

الجدران، وبناء عليه تسلقنا فوق الجدار، ووضع واحد من الحجاج نفسه تحت واحد آخر، حتى يتمكن من التسلق من فوقه إلى قمة الجدار، ولكي ينزل إلى الطرف الآخر على رأس ورقبة حاج آخر، وهكذا تسلقنا جميعاً فوق الجدار، وغدونا في داخل بيعة مظلمة، لم يكن بإمكاننا أن نرى فيها شيئاً من دون مصابيح.

ويوجد هناك عند رأس البيعة قبو تحت الصخر، فيه من المعتقد بأن المعمدان الأعظم قداسة قد ولد، وبناء عليه انحنينا أمام هذا الكهف، وقبلنا المكان، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) وشعرنا بمواساة عظيمة وبسرور كبير، بشكل منحنا بعض القوة في الايمان، لأنه بسبب فضائل الرائد فاحت من ذلك الكهف المهجور رائحة طيبة وسليمة، بوساطتها قدّم الرائد بدوره قبلاته وتحياته إلى أرض ميلاده، التي جرى تقبيلها من قبل الحجاج.

وفي الحقيقة لولا أن الرب واسانا بهذه الوسائل، لكنا في وضع أسفنا به كثيراً في ذلك المكان، بسبب حالة انتهاك الحرمة لمثل هذا المكان المقدس، لأن الكنيسة، مع أنها كانت مرتفعة ومقنطرة، ومازال مدهونة، غير أنها مليئة بالمواشي، والحمير، والجمال، ولايوجد هناك فيها سوى الروث والقاذورات، ورائحة بشعة كثيراً، بقدر بشاعة تحويل كنيسة مقدسة إلى اسطبل للمواشي، ويوجد من حول الكنيسة خرائب كثير من البيوت، سكن فيها فيما مضى رجال دين وعبيد للرب، والذي هو موجود الآن في ذلك المكان هو فقط بيت ريفي تعيس.

صحراء يوحنا المعمدان

يقال يوجد خلف الوادي صحراء يوحنا المعمدان، حيث سكن عندما كان صبياً، حسبما ورد الخبر في الاصحاح الأول من انجيل لوقا قوله: «أما الصبي فكان ينمو ويتقوى بالروح، وكان في البراري إلى يوم

ظهوره لاسرائيل»، ولهذا قال جيزوم في قداسه: علينا أن نفهم من كلمات «انتبهوا لقد أرسلت رسولي» أن ذلك الرسول الذي بعدما ترك المأوى في رحم أمه، نشد التعرف إلى الأجزاء السرية من الصحراء، ولعب مع الأفاعي هناك كطفل، وقد ورد هذا القداس ضد الهراطقة الشيطانيين، لأنه في سنته الخامسة أو السابعة طلب الصحراء، فراراً من فساد العالم، وعاش حياة ناسك لمدة خمس وعشرين سنة، ولهذا يغنى عنه:

عندما كنت ماتزال صبيا

إلى الصحراء القفر

فررت، لتصلي بين كهوفها وتشكر

تاركاً حشد

الناس، خشية من أية خطيئة

يمكن أن تلوث صفحة أيامك البيضاء

وفي الحقيقة إنه تبعاً لبيرنهارد، المنطق يحض الانسان، والعدالة تدفعه ليمنح حياته كلها إلى الذي تسلمها كلها منه، وأيضاً من أجل أن يتمكن من المحافظة على يديه نظيفتين، لأنه بهما سيلمس المسيح، وكذلك عينيه، لأنه بهما سوف يرى الروح القدس، على شكل حمامة، وأذنيه اللتان بهما سوف يسمع صوت الرب الآب، من أجل هذا كله ترك العالم، ودخل إلى الصحراء، وطلب كهوفها.

وتحدث ألبيرتوس مغنوس المبجل في قداسه حول الاصحاح الأول من انجيل القديس لوقا، ولاسيما حول قوله: «أما الصبي.... كان في البراري» الخ، كمايلي: «قال بيد: أمضى يوحنا في الصحراء عشر سنوات، ولقد دخل إلى الصحراء في سن العاشرة، وتركها عندما كان

في الثلاثين من عمــره(١)، كما هو واضح من الاصحـاح الثـالث من انجيل القديس لوقا».

غير أن انجيل النصـارى حــدثنا أنه عندمـا كــان هيرود يبحث عن الأطفال ليقتلهــم، جرى قتل زكـريا والد يوحنا، لأنه رفض تسليم ابنه، وقامت أمه بـأخذه من مكان اخفائه المتقدم ذكـره، وبصعوبة هربت إلى الصحراء، وعندمـا كان مطاردوها يلاحقونها عن قـرب، ولم تعرف أي مكان لتخفي فيـه الطفل، انشقت صخرة في الجبل، وفتحت نفسهـا، ثم انغلقت على الاثنين: هي نفسها، والطفل، وبذلك تبـددت جهود الذين كانوا يطاردونها، وحدث بعـد عدة سنوات أن توفت الأم، وبقي الطفل يعيش في القفـار، ووفـق طرائق الأطفــال تعلـم أكل الجراد، والعسل البري، الذي وجده في الصحراء، مثلما يفعل النمل.

ولقـد قيل بأن دم أبيـه أيضـاً الذي جـرى جمعـه في أوعيـة، من قبل الكهنة، وتمّ حفظه في الهيكل، كـان دوماً يفـور، لدى ظهور أي واحـد من أسرة هيرود، في الهيكل، فهـذا ماذكره ألبيرتوس، وكـان —على كل حال— لدى يـوحنا المعمدان صحرائين، لم تكن الأولى بعيـدة عن بيت أبيه، حيث الكهوف التي عاش فيها عندمـا كان شاباً، وهي المشاهدة في هذه الأيام، والصحـراء الأخرى هي إلى جانـب نهر الأردن، حيث كان يبشر بين الناس، ويعمّـدهم، وورد ذكـر الصحراء الأولى في الاصحـاح الأول من انجيل القـديس لوقا، أمـا الثـانية فـورد ذكرها في الاصحـاح الثالث .

نهاية المجلد الأول

– هذا يعني أنه بقي في الصحراء عشرين سنة.

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب
الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته

حوالي
(١٤٨٠ — ١٤٨٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن والثلاثون

دمشق ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م

-٥٠٠٤-

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته حوالي (١٤٨٠—١٤٨٣)

القسم الثالث

تنويه

أثناء إعداد هذا الجزء فجعت سورية والأمة العربية والعالم الإسلامي والإنسانية بوفاة راعي مشروع هذه الموسوعة الرئيس المؤمن حافظ الأسد، وكان ذلك يوم العاشر من حزيران، تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه، وآلت الرعاية الآن الى ولده الرئيس الدكتور بشار الأسد،أنار الله سبيله، وجعله خير خلف لخير سلف .

سهيل زكار

المكان الذي يقال نمت فيه الشجرة التي من خشبها صنع الصليب

غادرنا الآن مكان ميلاد القديس يوحنا، وبمغادرتنا الوادي الذي جئنا عبره إلى ذلك المكان، تسلقنا الأرض المرتفعة على الجانب باتجاه القدس، ووصلنا إلى واد جميل وخصب، فيه قامت فيما مضى مدينة نوب التي كانت مدينة كهنة، وذلك حيث أكل داوود خبز التقدمة، وتسلم سيف جالوت، وذلك حسبما جاء مكتوباً في سفر صموئيل الأول:٢١، وانجيل متى:١٢، وقد خرب الملك شاؤول هذه المدينة، وقتل كل انسان وجده فيها، وذلك حتى الأطفال الرضع، وقتل هناك بحد السيف خمسة وثمانين كاهناً، لأنها كانت مدينة كهنة وذلك كما قرأنا في سفر صموئيل الأول:٢٢، وقد فعل هذا لأنهم أعطوا داوود خبز التقدمة والسيف.

ووصلنا من هناك إلى كنيسة جميلة، يلاصقها دير صغير، يعيش فيه رهبان جورجيون مع زوجاتهم، وعندما دخلنا إلى الكنيسة، اقتادونا إلى المذبح العالي، وهو المذبح الذي يقال بأنه قائم فوق البقعة ذاتها التي نمت فيها شجرة الصليب المقدس، ولهذا السبب، هذه الكنيسة مكرسة على شرف الصليب المقدس، واسمها كنيسة الصليب المقدس، ويوجد تحت الكنيسة حفرة، فيها حنينا أنفسنا نحو الأسفل،وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وتلقينا انعاشاً من هذه الحفرة، لأنه منها فاحت رائحة طيبة، أغرتنا بالوقوف مدة أطول أثناء تقبيلنا للموضع، ولقد جلبوا لنا ذراع القديسة برباره، التي قبلناها، وهذه هي البقعة الطيبة، التي نمت فيها الشجرة الطيبة، التي تستحق التشريف الإلهي، التي وإن لم يعرفوها، فإن الوثنيين القدماء صنعوا تماثيل وفق نمط، لأنهم عندما قرروا صنع تمثال للرب،

قرروا بدقة أنه ينبغي عدم صنعه من الذهب، أو الفضة، أو الحجر، بل من الخشب، على أساس أن الخشب هو المادة المناسبة جداً، وقد قرأنا عن هذا عند يوسبيوس في: De Evangel praeparat, Book III .CH III

وبعدما صلينا، جلسنا في ساحة الكنيسة لنرتاح، لأننا كنا مانزال صائمين، وبدأ الحر يصبح عظيماً، وذهب بعض الحجاج إلى أكواخ أولئك الرهبان، وسألوهم إن كان لديهم أي شيء مطبوخ، غير أننا لم نر لامطابخ، ولاقدور طبخ في هذه الأكواخ، لأن هؤلاء الناس كانوا فقراء جداً، ووصل في الوقت نفسه، مسلم يحمل سله مليئة بالعنب، اشتريناها، وأكلنا معا بالخبز الذي جلبناه معنا في جعبنا، ونضحنا ماء من صهريج الرهبان، وعلى مقربة من هذا المكان يقوم الكثير من أشجار الزيتون، وهناك غابة صغيرة من أشجار الزيون والتين، وقد قالوا بأن سليمان قد امتلك بستانا في هذا المكان أيضاً، وأنه كان في بعض الأحيان يأتي إلى هنا في عربته الذهبية للتمتع فيها.

وكان بعد أن استردينا أنفاسنا، ركبنا حميرنا، وصعدنا إلى قمة الرابية، وذلك عبر طريق وعر وصخري، وعندما كنا فوق الأجزاء المرتفعة منها، رأينا المدينة المقدسة على مسافة منا، وعبرنا إلى جانب بيت سمعان، عبر طرقات تمر بين جدران البساتين المصنوعة من حجارة، جافة، وعلى طريقنا ولدى اقترابنا من القدس، دخلنا إلى قرية بين هذه الجدران الحجرية، حيث قدمت إلينا طريقاً عريضاً، لكن لسبب لم أعرفه، وقف رجل مسلم أسود، كان نصف عاري، في وسط الطريق، وكان يكوم حجارة إلى أكوام، وكان يمسك بهم عالياً، مهدداً برميهم على جماعة الحجاج، إذا ما سار أحدهم على ذلك الطريق، وبناء على صراخه وتهديداته توقف الحشد كله لمدة حوالي النصف ساعة، وبذل أدلاؤنا غاية جهدهم معه، وصرخوا مجيبين له، لكنه لم يهتم مطلقاً بهم،

وشرع وهو مغضب كثيراً، بكل جـرأة، برمي الحجـارة ضـد كل من حاول التقدم نحو الأمام.

وفكـرت في نفسي، وقلت آه: « لـو أنـك وقفـت هكذا في الطـريـق، بدون سلاح، في منطقتنا من العـالم، وأغلقت طريق رجل واحد من أقل هؤلاء النبلاء مرتبة، كم بسرعـة كنت ستجد سيفاً أو نشابة في طرفك»! لكن الحال في هذه المناطق الشرقية ليس هكذا، لأن الناس الشرقيين هم نوع مختلـف عنا، أو بالحري، أحكـامنا في الحيـاة غير أحكامهـم، فهم لديهم عـواطف مختلفـة، وطـرائق أخـرى للتفكير، وأفكاراً أخـرى، فأجسـادهم لها أشكال بشرة أخـرى مختلفـة، فهم خـاضعـون لتأثيرات نجوم أخرى، ومناخ آخر.

وهكذا تمكن ذلك الرجل المسكين، الأعـزل من السـلاح، والعـاري، من إرغـام الحشد كله على التراجع، وذهبنا عـائـدين عبر طريق طويل، وأدرنا ظهورنا لجبل صهيون حتى وصلنا إلى طريق آخر، حيث استدرنا هناك، ومضينا نحـو القـدس، جاعلين وادياً بيننا وبين المدينـة المقدسـة، والتففنا حـول هذا الوادي، ووصلنا إلى القـدس عبر حقل القصـار، ووافينا جبل صهيون في وقت القيام بالقداس، وكان الرهبان —على كل حال— قـد أخروا صلواتهم من أجلنا، حتى نتمكن من المشـاركة معهم في القداس في ذلك اليوم، وبعد الفـراغ من القداس، أخذ كل رجل منا نفسه إلى موضعه لتناول الطعام.

فصل حول
نزول الحجاج إلى نهر الأردن

سمع الحجـاج بعـد الغـداء بأن قبطاني الغليـونين، خططا في ذهنيهما، أخـذ الحجـاج واعادتهم إلى البحـر في غليـونيهما، وكأن الحج قـد انتهى الآن، وقمت على الفور فكشفت بالحدس هـذا السر، لأن من ممارسات

جون أوف بروسيا، وبتنا مستعدين لرحلتنا.

مغادرة الحجاج القدس في طريقهم إلى نهر الأردن المقدس

في الصباح الباكر، من اليوم التاسع عشر، وقبل أن يعم الضوء وينتشر ، نهضنا، وذهبنا إلى كنيسة العذراء المباركة في وادي شعفاط، وهناك، بما أن اليوم كان يوم سبت، شاركنا في قداس العذراء المباركة، ومضينا بعد ذلك إلى جبل صهيون من أجل الصلوات الديرية،وفي بعض الظهر، وبعد الغداء، تسلمنا جعبنا في ساحة كنيسة جبل صهيون، وانتظرنا أدلاءنا وحميرنا مع سائقيهم، وأخيراً وبعد انتظار متعب، ولدى حلول وقت العشاء، جاءوا مع دوابهم لأخذنا إلى الأردن.

ولدى قدومهم، ركض الحجاج نحو الدواب لتجهيز أنفسهم، ووقتها نشب خلاف بين فارس وكاهن حول أتان، قال كل واحد منهما بأنه كان الأول بالحصول عليها، وضرب الفارس الكاهن ضربات كثيرة بقبضة يده، ولو كان معه سيف لجرحه، وطرده الفارس وأبعده عن أتانه، فحصل على حرمان كنسي، حرره منه الأب المسؤول قبل مغادرتنا.

وعندما انتهى كل شيء، نزلنا من جبل صهيون إلى وادي شعفاط، وعبرنا الجدول، وتسلقنا الجانب الآخر بوساطة الوادي وجوانب من جبل الزيتون من خلال جبل العدوان، ونحن على طريقنا أشاروا لنا إلى بيت قديم، بني بقناطر معقودة، وهو مهدم، وقد قالوا بأنه بيت الخائن يهوذا، ونظرنا نحو هذا البيت وازدريناه، وكأنه كان بيت الذي خلع حذاءه، وكان مكروها في اسرائيل، لأنه جاء في سفر التثنية:٢٥، أنه إذا مات أخ لرجل من دون أولاد، ورفض هذا الأخ أن ينجب أولاداً من الأرملة فلتقم وقتها زوجة أخيه هذه بخلع نعله من رجله، ولتبصق في وجهه، وبناء عليه يدعى بيته باسم بيت مخلوع النعل.

وجرى تنفيذ هذا القانون من قبل الرسل، حيث تولى كل واحد منهم الوظيفة التي لم يعتد عليها، وهي إنجاب أبناء في الكنيسة، لكن ليس بأنفسهم، بل من قبل المسيح، وقد حملوا بعد هذا اسمه، وقد فعل هذا الرسل بعد المسيح، لكن يهوذا قد حرم من كل شيء، لأنه لم ينجب أولاداً لأخيه، والكنيسة التي هي زوجة المسيح بصقت في وجهه، وطردته، واختارت ميتياس لأخذ مكانه، ولذلك لم يخلف شيئاً وراءه، باستثناء بيته الذي خلع فيه نعله، وهو مهدم ومزدرى، ولذلك مبارك ماقيل في الأمثال:١٧، «من يجازي عن خير بشر لن يبرح الشر من بيته» وبغم عبرنا من قرب هذا البيت الملعون «لأنه بيت متمرد» (حزقيال:٢).

المكان الذي لعن الرب فيه شجرة التين ولهذا لاتوجد ثمار عليها

وإثر تركنا للبيت المتقدم ذكره خلفنا في الوادي، سرنا بين جدران من الحجارة الجافة العائدة للبساتين والحدائق، وفي بطن الوادي، حيث إذا سرت أبعد، عليك الصعود، وصلنا إلى حديقة جميلة جداً، قامت فيها حشود من أشجار التين، وأغصان أشجار التين معلقة فوق الجدران الحجرية نحو الطريق، وهذه هي الحديقة التي رأى فيها المسيح من بعيد شجرة تين، عندما كان سائراً على الطريق من بيت عنيا إلى القدس،وكان جائعاً، وقد دخل إلى الحديقة، وجاء إلى الشجرة، طالباً ثماراً، ولكنه حيث وجد أوراقاً فقط، لعن الشجرة، فيبست على الفور، وذلك حسبما قرأنا في انجيل متى — الاصحاح الحادي والعشرين.

ولدى تعجب تلاميذه من ذلك قال لهم: «الحق أقول لكم إن كان لكم إيمان، ولاتشكون، فلاتفعلون أمر التينة فقط، بل إن قلتم لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر، فيكون»، وعندما قال الرب هذا أشار باصبعه إلى جبل الزيتون، الذي عند سفحه حدثت هذه الأشياء، وبناء عليه جئونا في هذا المكان مصلين، وبعدما صلينا للرب، حصلنا على

غفـرانات، وتغذينا بالنظام الروحـاني، متأملين كم هو مـرعب أن تحمل اسم مسيحـي أو ديانة من دون ثمار، مشـــاهـدين كيف أن لعنـة الرب سوف تنزل ثقيلة على مثل هـؤلاء، لأنهم أغصان جافـة أعدت لتحترق بنار أبدية.

وتابعنا سيرنا من هناك نحو الأمام، فوصلنا إلى بيت عنيا، وهي قرية مريم، ومرثا، ولعازر، وقد اجتزناها بخطوات واسعة وسريعة، ولسوف نقـدم وصفـاً لهذا المكان في المستقبل، ونزلنا من هذا المكان إلى صحـراء منستات monstat وجاء نزولنا عبر طرقـات وعرة، وهضاب خطرة، وقـارب حلول المساء، لأن الشمس قـد غابت، ورغبنا بالاستراحـة في مكان ما، حتى بزوغ القمر، وذلك بسبب وعـورة الطريق، وعندما نزلنا قليلاً، كانت الدنيـا مظلمة، وقد وصلنا إلى بيت مقنطر كبير، يمتلك من حـوله، داخل اطار مغلق، مـايشبه ديراً، لكنه مهجـور وفـارغ، وترجلنا قرب هذا البيت من على ظهور حميرنـا، بقصد أن نتمكن من الاستراحة هناك قليـلاً، وقـد دخلنا إلى المكان ونحـن نحمل مصـابيح، نبحث عن مكان يمكننا أن نرتاح فيـه، لكننا لم نجد مانريـده، لأن ذلك البيت كان مهـدمـاً ومليئاً بالقـاذورات والهوام، ولذلك خـرجنا منه ثانيـة، وتمددنا فـوق الأرض في مقـابل البيت، وقـد تفرقنا إلى عـدة جماعـات، في حين فصل أدلاؤنا المسلمـون أنفسهم أيضـاً عنا، واستراحـوا في مكان أعلى قليـلاً، وكـان قـد لحق بهؤلاء الأدلاء بعض الشبـاب ذوي الأوضـاع السيئة، الذين كرهونا، كما سيظهر فيمايلي:

والآن بعـدما أكلنا عشـاءنا معـا، أطفأنا مصـابيحنا،ووضعنا رؤوسنا فـوق جعبنا، وبـدأنا بالنوم، وفي الوقت ذاته، أقبل شـاب مسلم بشكل سري، ونزل بشكل لصـوصي وسار بين حشـد الحجاج، وانتشل جعبـة حاج اعتقـد أنه نائم، وهرب بها إلى جماعته، لكن الحاج ورفاقـه ركضوا خلفه وهم يصرخون، وانتزعـوا منه الجعبة واستردوها ثانية، وبعد مضي

بعض الوقت نزل آخر وسار بشكل سري، وسرق جعبة، كان فيها خبزاً، وجبناً. ولحماً مدخناً، وبيضاً مغلياً، وعندما اكتشف الحاج ذلك، شرع بالصراخ بصوت مرتفع، ودعا بقية الحجاج إلى مساعدته، وبناء عليه نهض الحجاج، وركض عدد كبير منهم مغضبين نحو المسلمين، وحدث صراخ عظيم، واضطراب شديد، أرغم المسلمون بموجبه على الابتعاد عن الحجاج بوساطة العصي والسيوف، والتقط كل جانب الحجارة، لكن مامن أحد بدأ برماية أي منها، لأنه لو رمى أحدهم بحجرة، لاشك كان سينشب قتال خطير جداً، لأنه كانت هناك أعداد لاتحصى من الحجارة، كلها ناعمة ومناسبة للرماية.

وهكذا وقفنا أمام بعضنا بعضاً، وصرخنا، وبذل قبطانا الغليونين والتراجمة جهوداً عظيمة لإعادة الهدوء، وكانوا يقومون بتهدئة مكان ثم ينصرفون نحو المكان الآخر، لأن المسلمين شرعوا بإغضاب كثير من الناس، وعندما هدأ هذا الاضطراب، وصمت الجميع، بدأ مسلم برمي الحجارة على حشد الحجاج من مكان خفي، وبناء عليه استأنفنا ثانية، وركضنا للحصول على حجارة، ودعونا بصوت مرتفع الترجمان والقبطانين للدفاع عنا ضد هؤلاء اللصوص، ورمى بعضنا بحجارة بين المسلمين، مما أثارهم وأغضبهم، فنزلوا بسيوف مجردة، وأرغمونا على رمي الحجارة التي التقطناها، وعلى كل حال، لدى رؤية sa-bothytanco، الترجمان، وكالينوس الكبير، أن كلا الجانبين في حالة من الهياج عظيمة، يريد كل فريق منهما الايقاع بالفريق الآخر، ويصرون بأسنانهم غضباً، وقتها أمر الحشد جميعه بالنهوض والمغادرة، ولدى امتطاء حميرنا تركنا هذا المكان الملعون، وقد أشار الرب يسوع إلى مخاطر هذا المكان في الاصحاح العاشر من انجيل القديس لوقا، عندما تحدث عن الرجل الذي نزل من القدس إلى أريحا بين اللصوص، وعنه سوف يأتي في المستقبل حديث أطول، هذا ولقد كنا من بعض الجوانب

الأخرى حتى في خطر أعظم، لأننا جلبنا لصوصنا معنا، على حسابنا، وكان علينا تحمل وجود لصوص غرباء وبامكاننا ذلك، لأنه قد قيل: «أسوأ الأعداء هم الذين من آل بيت الانسان»، وكان البيت الذي رغبنا بالاستراحة إلى جانبه، فيما مضى نزلاً وفق الطريقة الشرقية، لأنهم بنوا بيوتاً عظيمة إلى جانب الطريق العام، مع كثير من الاسطبلات تحت، وغرفاً فوق، من أجل دواب الانسان للاستراحة فيها، والبيت قاتم مفتوح الباب، من دون أي سكان أو أي أثاث، وعندما كان يمر غرباء من هناك، كان بامكانهم الدخول إليه، والاستراحة في الظل، وأكل أي طعام جلبوه معهم، لأنه لايوجد هناك لارجل ولا امرأة للطبخ، وفي الحقيقة كان للجمال الذين يحملون الأثقال، محطات محددة، كانوا لايتجاوزونها بل يرتاحون في نهاية كل واحدة منها، وكان يقوم في مثل هذه الأماكن بالعادة خانات من أجل الانسان والدواب للراحة فيها، ولايجد الانسان في الشرق نزلاً إلى جانب بيوت الاستراحة الفارغة هذه، حيث لاشيء فيها إلاّ ما يجلبه الانسان معه إليها، ويبدو أن النزل الشرقية كانت دوماً بيوت راحة من هذا النوع، ولهذا قرأنا في سفر التكوين:٤٢، حول أخوة يوسف، أنهم عندما كانوا في نزل، فتح أحدهم عدله ليعطي علفاً إلى حماره، وكذلك في سفر الخروج:٤، بأن الرب طلب أن يقتل موسى في نزل.

فضلاً عن هذا، لقد حدث في نزل من هذا النوع أن ولد الرب (لوقا:٢)، ولهذا انطلقنا من ذلك النزل، وكنا مسرورين بأننا غادرنا المكان، لأنه كان من المتوجب علينا امضاء الليل هناك في حالة خطر، بسبب قتال المسلمين، وكان القمر، في الوقت نفسه، قد بزغ نوره، ونزلنا بخطوات واسعة عبر الطريق الوعر، كما نزلنا مسرورين عبر الصخور المنزلقة، وعلى طرقات من هذا النوع تعرف الحمير كيف تسير بسهولة، بدون وقوع، وهم ينزلون بقوائمهم الأمامية فوق الصخور ببراعة

مدهشة، وذلك في طرقات هي مستحيلة بالنسبة للخيول، والطرقات في هذه الصحراء حجرية وهي بالعادة عالية وضيقة، مع وديان عميقة على كلا الجانبين، وبناء عليه إذا حدث وسقطت دابة من فوق الصخور المنزلقة، كانت هي ستسقط في هوة عميقة، ولسوف يهلك الانسان والدابة معا، ولقد دهشت تجاه النسوة اللائي كن برفقتنا، لأنهن ركبن بجرأة كبيرة، ومصدر عجبي هو أن المرأة ضعيفة بشكل طبيعي.

وكان معنا امرأة مسلمة، ركبت معنا حتى أريحا، وكانت شابة، جيدة الملابس وفق طريقتهم، لكن مامن أحد كان يمكنه أن يرى وجهها، لأن وجهها كان مغطى بقطعة قماش سوداء، كانت شفافة، وبذلك كان بإمكانها رؤيتنا، وأخيراً وفي نهاية النزول، وصلنا إلى المنطقة السهلية العائدة لأريحا، التي تبدأ عند سفح جبال اسرائيل، وعبرنا خلال أريحا ونحن نركض، ونزلنا خلال الجلجال لمدة ثلاث ساعات، وجاء سيرنا خلال منطقة منبسطة، وبقينا هكذا حتى وصلنا إلى قفار الأردن، التي من خلالها نزلنا إلى مجرى نهر الأردن، وهنا أعطينا حميرنا إلى سائقيهم وابتعدنا عن المسلمين، الذين مركزوا أنفسهم بين الأشجار لنيل الراحة، بينما أوينا نحن إلى فراش النهر المقدس وذلك وصولاً إلى الماء، حيث فيه جلبنا البرودة إلى أيدينا، ثم تمددنا للاستراحة فوق الرمال، حيث استرحنا بهدوء لبعض الوقت، لأن النهار لم يكن بعيداً.

قداس النهر المقدس الذي أقمناه على ضفته

وفي اليوم العشرين، الذي كان الأحد الثامن، بعد عيد الثالوث المقدس، وما أن صار ضوء النهار منتشراً، حتى نهضنا نحن الكهنة أولاً، وقرأنا ماتوجب علينا على ضفة النهر المقدس، وبعدما قرأنا صلواتنا الصباحية والأولى، نزلنا نحن الكهنة حتى الماء المقدس، وبدأ قائد الجوقة يغني بصوت مرتفع ترنيمة Lavacra pu- rigurgitiscoelestis agnus attigit، الخ، وغنينا بعد هذا -chris

tum hodie in jordane baptizatum، الخ، لكننا لم نغن كلمة hodie، بل وضعنا في مكانها hoc loco in jordane baptizato Domino الخ، لأن من المعتقد، أنه في هذا المحل جرى تعميد الرب من قبل يوحنا، وعلى صوت غنائنا، أفاق الحجاج الذين كانوا نائمين بين القصب، وجاءوا يسعون نحونا، وأفاق المسلمون أيضاً، ووقفوا فوق أرض مرتفعة ينظرون نحونا، وبعدما غنينا الترنيمات المعينة في كتب المسيرات، ارتمينا على الأرض وقبلنا الأشياء الرطبة والأرض المقدسة، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، ومكثنا بعض الوقت في الصلاة، لأن اليوم كان نهار أحد، ولم نكن ذاهبين لسماع أي قداس، وليس هذا بسبب إهمالنا، ولكن بسبب استحالة ذلك، مما أعفانا من ذنب الانتهاك.

استحمام الحجاج في الأردن والأشياء الثلاثة التي حرمت عليهم

وعندما فرغنا من صلواتنا، نزعنا عنا ملابسنا، حتى نتمكن من الاستحمام في النهر المقدس، وعندما رأى أدلاؤنا هذا، سمحوا لنا بغسل أنفسنا، لكن حظروا علينا أشياء ثلاثة: (١) أن لايسبح انسان حتى الضفة الأخرى، (٢) لايجوز لانسان أن يغوص تحت الماء، (٣) ينبغي أن لايأخذ انسان أية مياه معه في قارورة، ليحملها إلى وطنه معه عبر البحر، ومن ثم إلى منطقته، وكان السبب الأول لهذه المحظورات، أن الذين يسبحون نحو الضفة الأخرى، يحصل كل واحد منهم، في جميع الأحوال، في دائرة الخطر على حياته، ولم يحدث قط أن انسانا من بين الذين سبحوا حتى الضفة الأخرى عاد من دون التعرض لبعض الأذى، والسبب من أجل الحظر الثاني، هو أن قاع الأردن طيني، وكل من يغطس فيه، ربما يلتصق هناك ويهلك، وسبب الحظر الثالث هو أن ابحار السفن التي تحمل على ظهرها ماء من الأردن، هو دوماً غير سعيد، فهذا غالباً ما وجده الملاحون بالتجربة.

وصحة ما قد قلته سوف تظهر فيما بعد، وهكذا بعدما نزعنا ثيابنا ذهبنا إلى الماء المقدس، وباسم الرب عمدنا أنفسنا في أمواجه، ولم يخلع بعض الفرسان ملابسهم، بل غطسوا في الماء بالثياب نفسها التي ارتدوها عندما امتطوا ظهور حميرهم، قائلين بأنهم سوف يكونون دوما سعداء بهذه الثياب من الآن فصاعدا، وبناء عليه، إنهم عندما سيصلون إلى الوطن، سوف يحفظون هذه الملابس ويدخرونها مثل الكنوز، ويلبسونها عندما يذهبون إلى المعارك، معتقدين أن مامن أذى سوف ينزل بهم، واشترى بعضهم قطعاً من الكتان أو الصوف، قاموا بتغطيسها بالماء، بقصد التمكن من أخذها معهم إلى الوطن، ومن ثم صنع ملابس منها حسبما يطيب لهم، معتقدين أنهم عندما سيلبسونها سوف يبتسم الحظ لهم، ويكون أكثر لطفاً معهم من غير ذلك من الأوقات.

وكان بعضهم قد جلبوا معهم أجراساً صغيرة، كانوا قد اشتروها من البندقية، وقد جلبوها معهم إلى الأردن، وعمدوها في الأردن باسم الثالوث، وقد حملوا هذه الأجراس فيما بعد معهم إلى الوطن، ومن ثم إلى المناطق الخاصة بهم، وهم يقولون بأنه في أثناء العواصف، والبرق والرعد، إذا ما قرع جرس معمد في الأردن، لا البرق ولا البرد، يمكن أن يحدث أذى، في إطار المنطقة التي سمع فيها صوت القرع، وعلى كل حال إن مدى الصدق في هذه الحكايات حول الأجراس والملابس المعمدة في الأردن، وفيما إذا كان اعتقاد العوام، الذي يؤكد صحة الحكايات المتقدمة، كله صحيحاً أو وهماً، فهذا على الرجل العاقل تأكيده بالنسبة لنفسه.

وبناء عليه وقفنا في الماء وسط بهجة عارمة، وكان كل واحد منا يقوم مبادراً بتعميد الآخر، ومع أن الوقت كان مايزال باكراً في الصباح، لم تكن المياه باردة، بل دافئة، ومناسبة للاستحمام فيها، كما أننا شربنا بعضاً

منها، ومع أننا كنا صائمين، لكننا فعلنا ذلك صدوراً عن التقوى، وهي على كل حال —لم تكن طيبة الطعمة لأنها لم تكن باردة، وكانت موحلة مثل مياه المستنقعات.

وأول ما حدث أن بعض الحجاج لم يطيعوا أمر الحظر الأول، الذي صدر عن المسلمين، وسبح عدد كبير منهم إلى الضفة الأخرى من النهر، وكنت خلال حجي الأول قد سبحت أيضاً إلى الضفة الأخرى، لكن في الثاني مكثت، وجلست في المياء فوق الرمل، والماء حتى عنقي، وكنت مرتديا قميصي ووشاحي الكتفي، ولم أرغب، في حجي الثاني، بالسباحة عبر النهر، لأنه حدث في حجي الأول أنني ارتعبت بشكل هائل، عندما كنا على الضفة الأخرى من النهر، بسبب فعلنا ذلك، لأننا سبحنا وعبرنا برفقة عدد كبير من الفرسان الآخرين، وكنا نلعب بسرور في الماء على الجانب الآخر، عندما ارتفع فجأة صراخ مرتفع، وبدأت تحدث فوضى مع اضطراب عظيم، والذين كانوا على الضفة الأخرى صرخوا صرخات مخيفة، وعلاوة على ذلك، ركض المسلمون، الذين تألفوا من أدلائنا والآخرين، إلى أعلى الضفة، وصرخوا بأصوات مخيفة غاضبة، وشتمونا وهددونا، وتجاه ذلك وقفنا مندهشين، وبسبب كثرة الناس الذين كانوا يصرخون، لم نستطع أن نعرف ما الذي حدث، حتى سبح حاج نحونا من الضفة الأخرى، وعندما اقترب منا، صرخ: انتبهوا، إن واحداً من إخواننا الحجاج، قد غطس في وسط الماء، ولايمكن رؤيته، وبمجرد سماعنا ذلك، سبحنا إلى المكان الذي غطس فيه، وسبحنا من حوله، منتظرين له كي يظهر.

وأخيراً، وبعد مضي وقت طويل، أمكن رؤيته، وقمنا على الفور بجرّه من شعره، وجلبناه إلى الضفة الأخرى، أي إلى الضفة التي نحوها سبحنا وعبرنا إليها، لأنها كانت الأقرب بين الضفتين، وكان أشبه بالميت، ثقيلاً وغير قادر على التكلم معنا، حتى تقيأ الماء الذي

ابتلعه، وعندما أعـدناه لمناه، وسألناه كيف بلغ به الحمق حداً، أنه ذهب إلى الماء، من دون أن يفهم فن السبـاحـة، فـأجـاب: إنني منذ صغـري، كنت دومـاً عـارفـاً بهذا الفن، ذلك أنني نشأت على أطراف الميـاه، لكن عندمـا دنوت من وسط الأردن، لمسني شيء مـا من تحت الماء، ولقـد ارتعبت كثيراً بتلك اللمسـة، إلى حـد أنني فقـدت كل قـوة أطرافي، ولم يعد بإمكاني مسـاعدة نفسي، لابقدمي، ولا بذراعيّ، وعندما كـان يقول هذا ارتجف، ولم يعد بإمكانه الوقوف.

وكـان المسملون وقـوفـاً على الضفـة الأخـرى من النهـر، فأخـذوا يصرخون للانتهاء من هذا الأمر، ولنسبح ثـانية عائدين، وهكذا شجعنا ذلك الحاج، ونزلنا إلى الماء معـه، ولكن بعـدما سبح مسـافـة ضئيلة بدأ يغـرق، فأمسكناه من شعـره، وواجهنا بعض الصعوبـة في جره، وكـان المسملون في تلك الآونة، وقـوفـاً على الضفة أمـامنا، وكـانوا قد فقـدوا صبرهم، وكانوا يصرخون علينا، وهنا أقـدم اثنان من الحجاج الأقوياء، كانا يتقنـان السباحة، فـوضعاه بينهما بشكل أنه أمسك واحـداً منهما من ذراعة وأمسك بالذراع الأخرى ، وتعلق على رقبتيهما ، حتى يتمكنا من السباحـة معه ومن ثم إعـادته، ولكن ما أن بدأ الثـلاثة بالسباحـة حتى شرعـوا بالغـرق، وبصعـوبة بالغـة تمكن الاثنان من انتـزاع نفسيهما من قبضته، وتمكنا من انتزاع نفسيهما، وخـرجا إلى سطح الماء، لكنه بقي لمدة طويلة تحت الماء، ثـم ظهـر ثانيـة، وكما حـدث مـن قبل، سحبناه إلى الشاطىء وكأنه ميت، وقد فقد جميع قوته.

وبناء عليه أمرنا أدلاؤنا، بالسباحـة والعبور إلى حيث كانت ملابسنا، وأن نترك ذلك الحاج حيث كـان، حيث سيتدبرون أمـره، وهكذا سبح جميع الحجـاج وعبروا، وعندمـا أردت السبـاحة والعبـور، استـولى علي الفـزع، بسبب الخطر الذي رأيته، وبـدأت أرتجف وأتخيل وأتمتم قائـلاً: «إنني بخفتي وطيشي، تخليت عن ثـوب طائفتي، وقـدمت إلى هنا، على

الرغم من أوامر سادتي أدلائي، وإنني إذا ما غرقت هنا، فإنني سوف أغطس من أعماق هذا الماء إلى هوة الجحيم، وذلك بسبب فسقي وخفتي، وعريّ اللاديني، فلأجل هذا السبب أستحق الحرمان الكنسي لأنني عصيت أوامري، ولكم كان جميلاً لو كنت مع أولئك الحجاج، الذين هم على الضفة الأخرى، ذلك أنهم يقفون بأمن وأمان، يارب مولاي، أرجوك لاتدع عاصفة الماء تحملني نحو الأسفل ولا أن تبتلعني الأعماق، ولاتدع أيضاً هوة الجحيم تفتح فاها لإلتقافي».

وما أن فرغت من قول هذا، حتى قوّيت نفسي بشارة الصليب، وقفزت بقوة ورغبة شديدة إلى الماء، وأرغمت نفسي بقدميّ وذراعيّ على عبور وسط النهر، ووصلت إلى الضفة الأخرى من دون عائق، وعلى الفور، بعدما وضعت عليّ وشاح طائفتي، قطعت على نفسي عهداً خاصاً، في أن لا أبتعد ثانية مادمت حيا بين الناس، لمثل هذه المسافة عن ثوبي الرهباني وشعار طائفتي، لأنني في أن أكون بعيداً عنه أمر محزن جداً بالنسبة إلي، ويبدو أنه أمر غير محتمل بالنسبة لي في أن أغرق بالماء من دون ثوبي، لكن في ثوبي، ماكنت لأهتم بالأمر كثيراً.

ولو أنني قدّرت الأمر، وفكرت بالعمل قبل السباحة والعبور، لما قمت بالسباحة والعبور مقابل أي شيء في الدنيا، وإنني أعرف جيداً، أن الحكماء في كل من القانون واللاهوت، يؤكدون بأن على رجل الدين، إذا كان ملزماً بارتداء ثوب طائفته، أن يفعل ذلك سواء أكان مرتاحاً في فراشه، أو في أي حال من الأحوال، مالم تكن هناك حاجة ضاغطة جداً، أو مرض لايسمح له بارتدائه، وبدون ذلك يكون قد اقترف ذنباً مميتاً، علاوة على ذلك إنه إذا ما ظهر رجل دين دون أن يأبه —بدون ثوبه الكهنوتي — أمام رجل علماني، فبهذا العمل بالذات ينال الحرمان الكنسي، ولقد وقعت في خطر عظيم بسبب الإهمال.

وكان الآن، في ذلك الوقت، الحاج المتقدم الذكر، واقفاً وحده ،

عارياً، ومليئاً بالخوف، ومضطرباً مع وجه شاحب، وقام مسلم بامتطاء فرس قوي، وسار مسافة كبيرة عبر مخاضة للأردن، وأعاده إلينا، وأعطاه الحاج ذهباً كثيراً، ثمنا لحياته، وكان هذا الحاج، قبل أن يصاب بما أصيب به، رجلاً وسيماً، وشهوانيا، ومفرطاً، وكثير الخصومات، وكان مكروهاً من قبل كثير من أتباعه، لكن بعد إعادته إلينا، صار انساناً آخر تماماً، شاحب الوجه، وجباناً، ومتواضعاً، صاغراً، وقد بقي دوماً حزيناً، وكأنه كان منبوذاً، ولا أعتقد أنه عاش كثيراً من السنوات، بعد ذلك.

ولسوف أتحدث عن نازلة أخرى، أنا بالحقيقة لم أكن شاهداً لها، بل سمعتها من واحد جدير بالتصديق: ففي السنة التي كانت بين حجي الأول وحجي الثاني، ذهب عدد كبير من النبلاء الألمان بحراً نحو الأرض المقدسة، وجلب واحد من أعظم الرجال بينهم ديكه معه، ومع أنه لم يكن يعرف الأردن، كان لديه شعور مسبق بالخطر، ذلك أنه اعتاد طوال الرحلة على القول بأنه لايخاف من أي شيء خلال ذلك الحج، إلاّ من الأردن فقط، وعندما وصل إلى الأردن، رفض السباحة عبره مع البقية، ومع ذلك خلع ثيابه، ودخل إلى الماء لتبريد نفسه وغسلها، ولكن والماء لم يصل إلى صرته، بدأ يغطس، وقد غرق تحت الماء، ولم ير مرة ثانية.

وكذلك في حجي الثاني هذا، الذي أتولى الآن وصفه، سبح عدد كبير عبر النهر، دون مراعاة لأوامر الحظر التي صدرت عن المسلمين، وكانوا يتوقعون وقوع بعض المخاطر، ولذلك صرخوا يلومون الذين سبحوا عبر النهر، وكان بين هؤلاء كاهن، سبح عبر النهر، مثلما فعلت أنا من قبل، وقد فقد عند الضفة الأخرى قوته الجسدية، ولم يعد قادراً على السباحة، كما أنه لم يعد يعرف كيف، بل وقف يرتعد خوفاً، وقد أعيد من قبل رفاقه مع صعوبة كبيرة، أعيد وهو رجل ضعيف ومحطم، في حين أنه كان قبل هذا مفعما بالحيوية وقوياً، وكان صديقاً عظيماً لي،

وغالباً ما سألته عما حدث له، وقد أجابني بأنه فجأة فقد قوته، ولقد سألت حجاجاً قدموا إلى الأردن قبلي وبعدي، فوجدت نزول بعض المصاعب دوماً بواحد ما.

ومما تقدم قوله ينبعث سؤال هو: كيف حدث أن ذلك الخطر والاضطراب غالباً ما وقع في هذا الاستحمام، مشاهدين أن النهر ليس عريضاً، ولايمتلك تياراً سريعاً، بل تياراً بطيئاً إلى حد ما؟ ولهذا جواب ما، هو أن بعض الحيوانات الشريرة تكمن في تلك المياه، وهي عندما تشاهد حركة انسان وهو يسبح، تخرج من قعر الماء وتحاول الامساك به وهو يسبح، ويقول آخرون، إن السبب هو أن مكان الاستحمام قريب من المصبات التي يفرغ الأردن بها نفسه في البحر الميت، لذلك يحدث هناك بعض التمازج لمياه البحر الميت مع مياه هذا النهر، ونظر لسمية هذه المياه، يفقد الرجال الذين يسبحون عبره قوتهم.

ويقول آخرون بأن مامن شيء يعيش في البحر الميت، باستثناء بعض الحيوانات الجهنمية غير الطبيعية، التي تسبح، وتصعد من البحر الميت، وتسبب موت الذين يسبحون، ويقول آخرون بأن منشأ الخوف هو تصورات مرعبة، لأن الحجاج يسمعون دوماً حكايات حول هذه المخاطر، وكل واحد يرتجف تجاهها، ويقوم الجميع وهم محترزون، خشية من لحاق بعض الشرور بهم، يقومون وهم في حالة من الرعب بالسباحة عبر النهر، ويفقد بعضهم قوته من خلال التخيل والاعتقاد، بأنهم لمسوا، أو جرى جرهم نحو الأسفل للاغراق، ويقول آخرون بوجود سبب آخر، وهو أن السباحة عبر النهر فيها علامة على الشهوة واقتراف الاثم، ممالاينبغي اظهاره في مكان مقدس مثل هذا،فالرب عانى من الاضطراب ليأتي إلى رجل واحد، من أجل ان يعبر الآخرون هناك عن الجدية، والهدوء، والالتزام بالنظام، لأنه بسبب الأمور الاعجازية التي صنعت هناك، صار هذا المكان، مكان وقار، وليس

مكان طرب، مكاناً للبكاء وليس مكاناً للضحك، مكانا للصلاة وليس مكاناً للصراخ، مكاناً للركوع وليس مكاناً للصراع، ومكانا للتوبة وليس مكاناً للشهوة.

لكن الحجاج أخذوا هذا كله من الجانب المعاكس، ولهذا أرخيت الأربطة في مثل هذا المكان المهيب ولذلك تعرض بعضهم للعقوبة ليكونوا مثلاً للبقية، ولكن مامن شيء لحق الذين عمدوا أنفسهم بشكل رصين وخشوع، كما رأينا في أوضاع النساء من الحجاج، اللائي تحممن بين القصب فوقنا، بشكل لطيف وهادىء، وتقي، وأكثر سكونا مما فعلنا، وكنت أرغب، بالنسبة لمسألة هؤلاء النساء العجائز، أن يكون ماقيل صحيحاً ويتبرهن حقاً، لأن الناس يقولون، بأن من يستحم في الأردن، لايصير أكبر، لابل كلما بقي في الماء مدة أطول، صار صغيراً أكثر، فعلى سبيل المثال، إذا استحم لمدة ساعة، صار أصغر لمدة ساعة واحدة، وإذا استحم لمدة ساعتين، صار أصغر لساعتين، وإذا كان لثلاث ساعات، صار أصغر لثلاث ساعات، وإذا استحم لمدة سنة، صار أصغر لمدة سنة وهكذا ، لكن رفيقاتنا من النساء يحتجن للاستحمام لمدة ستين سنة، حتى يستعدن شبابهن، لأنهن كن نساء في الثمانين من العمر، فما فوق.

وإذا كان الذين يستحمون في الأردن لايكبرون، فوقتها إنه حمام شرير، لأن الرب قال على فم اشعيا (٦٥/ ٢٠): «لأن الصبي يموت ابن مائة سنة، والخاطىء يلعن ابن مائة سنة»، وسيكون هذا الحمام مطلوبا فوق كل شيء ومرغوباً، إذا كان يزيل الأمراض، والضعف، والشيخوخة من الجسد، ويعيد الشباب إلى العقل.

علاوة على ذلك، إن كثيراً من الناس العلمانيين تافهين، أوساذجين، إلى حد الاعتقاد أنهم إذا ماتعمدوا في الأردن سوف لن يكونوا أكبر مطلقاً، وهذا سبب بذلهم جهوداً كبيرة للوصول إلى الأردن وتعميد

أحـدهم الآخـر هناك، وهم أيضـاً الذين يغطسـون في الميـاه العميقـة، مخالفين لأوامر المسلمين.

وبعـدما فـرغنا من استحمامنا، أخـذ بعض الحجاج مـاء من الأردن، بجرار، ودوارق، وقـوارير من زجـاج مخالفين بذلك الأمـر الثـالث للمسلمين، الذين منعـوا ذلك، بناء على مبـادرة القبطانين، لأن قـادة السفن لايسمحون بوجود الماء على ظهـر سفنهم، لأنهم يعتقدون بشكل ثابت وأكيـد،. أن السفن التي على ظهـرها ميـاه من الأردن هي سيئة الحظ، ولايمكنهـا القيـام برحـلات سريعـة، بل هي في خطر، مـادامت نقطة صغيرة من الميـاه باقية على سطحهـا، وغالبـاً مارأيت أنا شخصيـاً هذا، فعندما كانت هناك مخاطر في البحر، ناجمة عن رياح معاكسة أو من الحاجـة إلى الريـح (١٩٨) يسعى القبـاطنة حـول أطراف الغليـون ويركضـون، يفتشـون جميع الحجـاج والصناديـق وكل مـاهو مغلق، ويبحثـون في كل شق وزاوية بحثـاً عن مياه الأردن، التـي إليها يعـزون سـوء الحظ وإذا لم يجدوهـا في التفتيش الأول، يبحثـون ثانيـة، وإذا مـا استمرت مصـاعب الملاحة، يعاودون البحث بحدة متناهيـة، ويتهددون كل من يجدون لديه أيا من هذه المياه، حيث يقومون برميه مع حقائبه في البحر.

وتحملنا في حجي الأول كثيراً من هذا القبيل، وجـرى تفتيشنا بشكل مهين من قبل الملاحين، بحثـاً عن هذه المياه، وبناء عليـه، إنه لمن المفيد، معـالجة هذا الأمـر، ورؤية مـدى الصـدق الموجـود في هذه الفكرة، أي فكرة، أن ميـاه الأردن، إذا مـا وضعت في قـارورة، وحملـت على ظهـر سفينة مسـافرة في البحـر، فيهـا أي طاقة تعيـق إبحارها، وتجعل البحـر هائجاً، وتمنع الريـح الطيبة من الهبوب، أو تغير أحـوال الهواء أو البحر في أي حال من الأحـوال،وذلك كما يقول قـادة السفن بأنها تفعل، وهنا علي أن أذكـر أنني سمعـت من رجل مـوثوق ومتعلم بـأنه قـد رأى في

روما مرسوماً بابويا بختم رصاصي، فيه جرى منع أي انسان من جلب ماء من الأردن إلى البلدان الموجودة فيها وراء البحار، وإذا فعل ذلك فسوف ينال لعنة البابا، وقالوا أيضاً، بأن سادة البندقية قد أمروا، بإعادة أي انسان من فوق سطح البحر، إذا كان معه الماء المتقدم الذكر، وأنهم غالباً مايقدمون ويفتشون السفن،ويريقون المياه التي يجدونها فيها.

وبناء عليه، فإن الذي يقول بأن ابحار السفن يعاق بحظر البابا، هو معلن معترف أن ذلك بسبب الماء، بل الذي هو مصدر الإعاقة هو الحظر البابوي، والآن إذا كانت أوامر الحظر البابوية، تعيق إبحار السفن، لابد أن ذلك يتم بوساطة معجزة، وبسبب وجود أشخاص محرومين كنسياً، وليس بسبب الماء، وذلك تماماً كما نقرأ حول أشخاص محرومين كنسيا، في كونهم عرضة لكثير من المآسي، من ذلك على سبيل المثال، أن مثل هؤلاء الأشخاص لايدفنون في أفنية الكنائس، بل يلقى بهم أثناء الليل في العراء ويتركون للافتراس من قبل الحيوانات المتوحشة.

ومثل هذا عندما كان النبي يونان عاصيا هبت عاصفة هوجاء، وعندما ألقي به من السفينة، توقفت العاصفة، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من سفر يونان، وهذا — على كل حال— لايحدث إلى جميع الأشخاص المحرومين كنسياً، بل فقط مع الأشخاص الذين يرغب الرب في إظهار معجزة عليهم وبهم، وواضح أن هذا لايقع للجميع، من قضية هؤلاء الحجاج الذين يقلعون مسافرين من دون الحصول على ترخيص من البابا، ويصلون إلى القدس بسلام، مع أنهم في وضع المحروم كنسيا، ومن هنا ينبعث سؤال جديد، هو بناء عليه: لماذا أقدم البابا على اصدار قرار بمنع جلب مياه الأردن، والجواب كما يبدو، هو أنه فعل هذا، ليزيل الأوهام التي أثارها استخدام ذلك الماء، لأن بعض الكهنة الساذجين، يعتقدون أنهم لن يتملكوا القوة الحقيقية للتعميد، مالم

يمزجوا الماء مع بعض الماء من الأردن، ذلك أنهم اعتقدوا أن التعميد بذلك الماء هو أكثر قداسة، وأعظم تأثيراً منه بدونه، ومثل هذا، فإن بعض النساء اللائي يؤمن بالأوهام، لايقبلن بتعميد أولادهن، مالم يكن في الماء بعض الماء من الأردن، قد مزج به،حتى وإن آمنّ بأن الماء الآخر فيه كفاية، تراهن مع ذلك يقدرن، أنه حيث توفر ماء قد مزج به بعض ماء الأردن فهو أكثر قداسة، وجميع هذه الآراء خاطئة.

وعلاوة على ذلك إذا ما أراد المشعوذون والسحرة، القيام باستخدام خاص لهذا الماء، استخدموه في الحال عندما يتمكنوا من جلبه، وذلك في ممارساتهم الواهمة،من أجل تحليل الحظر الذي أصدره البابا حول جلب المياه، لكن إذا — بناء على ذلك — ماجرى إعاقة ابحار السفن، فوقتها يكون الرب قد عمل معجزة جديدة، ويقول آخرون، بأن الماء من الأردن، مادام جارياً، هو ماء حيّ، لكن عندما يوضع في قارورة يموت، ويصبح آسنا، وبما أن البحر لايمكنه أن يحتمل ماهو ميت وفاسد، لذلك — كما يقولون— تعاق السفن في إبحارها، لكن هذا غير صحيح، لأنني رأيت أوعية كبيرة، صار الماء فيها آسنا، وقد جرى حملها إلى مسافات عظيمة فوق سطح البحر، وذلك من أجل أن تبقى بعض المياه الطازجة في السفينة، مع أنها كانت آسنة، ومثل هذا رأيت جسد رجل ميت، قد مات مؤخراً، وقد حمل على ظهر السفينة من جزر السيكلاد cyclades حتى البندقية، وهذا أمر سوف أتولى شرحه فيما بعد.

ويقدم آخرون سبباً آخر، ويقولون بأن البحر الميت يحتوي على صفات مدهشة، وبما أن مياهه تتمازج هنا مع مياه الأردن في هذا المكان، لذلك لايستطيع البحر الكبير تحمل مياههما ، بسبب العداوة التي يحملها كل واحد من البحرين نحو الآخر، لكنني لا أصدق هذا ولا أومن به، وأتصور انعدام وجود الملوحة فيه، في حين أن مياه البحر

الميت، شـديدة الملوحـة، ولهذا أطلـق عليـه في الكتـابات المقـدسـة اسم «البحـر الأعظم ملوحــة»، وعلى هذا لايوجـد هناك، في ذلك المكان، تمازج بين المائين، ويقـول آخرون بشكل أفضل، وأكثـر صدقـاً، بأنه من الأوهام أن تؤمن بأن ميـاه الأردن لها قـوة إعـاقـة، أو تغيير الرياح، أو التـدخل في حـركـات الهواء والبحـر، ومـع ذلك إنه بسبب عـدم إيمان الأناس المسيحيين، يتم هـذا كله بأمــر من الرب، حتـى وإن تكن هناك على ظهــر السفينـة ميــاه من الأردن، فإن هـذا يحدث ليس بسبب الماء نفســه، ولكن بسبـب الحاجـة إلى الايمان، لابل حتى كما نـرى أنه من خلال الايمان السيء، بعض الأشيـاء تعمل فتشفي من بعض الأمراض، وهي أشياء ليس لديها سبب لشفاء هذه الأمراض، كما أنها غير متبناه في فن الطبابة لفعل ذلك، من ذلك على سبيل المثال إذا ماوقع فرس وصار أعـرجاً بقـدمـه اليمنى، أقـوم مباشرة بربط القـدم اليمنى لبقـرتي، التي ليست عرجـاء، ويشفى بعد ذلك حصـاني، ليس بسبب ضماد بقرتي، بل بسبب سـوء ايماني في اعتقادي بهذا،وهذا فيما يختص بالسـؤال الذي هو أمامنا.

وحـالما ترى قبطان سفينة يعتقـد أن نقـاطاً قليلة من مـاء نهر الأردن يمكن أن تغير المجرى العام للهواء والماء في البحر الكبير، وتغير الرياح، وقتها عليك أن تعـاقبه لذنبه،لأن الرب هـو الذي يأمر بإعاقـة الابحار، لزيادة الايمان السيء، هذا وكون هذا الاعتقـاد هو وهمي، واضح أيضاً، من حقيقـة أن كثيرا مـن الناس يمكن العثـور عليهم، ممـن جلبـوا هذه الميــاه، علماً بأنهم اقترفــوا خطأ بعملهم ذلك، لأن ذلـك محرم من قبل البابا.

وليكن في هذا كفاية، ذلك أنني تجولت بعيداً عن مكان استحمامنا في الأردن، ووصلت بعيـداً حتى البحـر الكبير، وبناء عليـه، عندمـا دعـانا المسلمـون، خرجنا من الأردن المقـدس، وارتدينا ملابسنا، وخـرجنا من

مجرى النهـر، ووقفنـا نتأمل المكان، ثم إننا جلسنا بين الشعـراء، وأكلنا خبـزنا والأشياء الأخـرى التي كنا قد جلبناها معنا من القـدس، وذلك دون أن نعبأ بالمسلمين، الـذين كـانوا واقفين على أقـدامهم، وتابعـوا يستدعوننا لمغادرة ذلك المكان.

وصف الأردن وأولاً ينابيعه

أنا مقبل على تقسيم مـاسأقـوله حـول نهر الأردن، إلى ثلاثة أقسـام، هي:(١) ينابيعه، و(٢) صفاته و(٣)(إطرائه).

وفي وصفي للأردن، لابد أنني بحـاجة لصنع إشارة إلى أمـاكن، أنا لم أرها بعيني، لأنه صحيح أن حجنا قـد وصل إلى الأردن، لكنه بالفعل لم يصل إلى بدايـاته، وفيما يتعلق بينابيـع الأردن، لقـد قيل بشكـل عـام، ومـاقيل هو صحيح، بأنه ينبع مـن أسفل جبل لبنان، وذلك من نبعين، هما «أر» و «دان»، ومن هذين الاسمين مجتمعين نال اسمه وبات يعرف «بالأردن»، وأرجـع بعضهم ينابيعـه إلى الوراء كثيراً،وقـالوا يـرسل الفـرات، الذي هو نهر من أنهار الجنة، فـرعـاً صغيرا من فـروعـه، من خلال قناة سرية، تحت الأرض، وهذه تجمـع مياهها في نبع اسمـه فيالا phyala، وهو نبع عميق، وملىء دوما، لكنه لايتدفق، ويطلق المسلمون على هذا النبـع اسم «ميـــدان»، وورد هذا الاسم في انجيـل متى: ١٥ «مجدل»، وفي انجيل مرقص:٨، باسم دلمانوثة.

وكما قلت من قبل لاتتـدفق ميـاه هذا النبع، بل تمر خـلال منطقـة الطرخونية من خلال قناة تحت الأرض سرية، وبذلك تجعل النبع يجري عند سفح جبل لبنان، وهـو الذي اسمـه «دان»، وكـون نبع دان هو نبع المجدل مبرهن عليه من خلال حقيقة القش الذي يرمونه في نبع المجدل فيجدونه جارياً من خلال نبع دان، ويبعد هذان النبعان عن بعضهما ستة آلاف غلوة.

ويقـولون بـأن نبع «الار» يتلقى ميـاهه من نهر الـدجلة الذي هو نهر الجنة الآخر، وذلك بـوساطة قناة من تحت الأرض، وتتدفـق مياه هذان النبعان: «أر» و «دان» من سفح جبل لبنان، مع وجود مسافة بين الأول منهما والآخـر، ويجريان معـا في نهر واحـد أمـام باب المدينة التي كـان اسمهـا القديم هو لايش،وصـار لهما اسم واحد هو الأردن، ونقـرأ عن مدينة لايش في انجيل يوحنا:١٠، وفي سفـر القضاة:١٨، فهنا ورد الخبر بأن أبناء دان قد وجدوها مدينة غنية وآمنة، فاستولوا عليها، وأحرقوها، ثم أعادوا عمارتها وأعطوها اسم دان، وهو اسم أبيهم.

وكانت هذه المدينة آخـر مدينة في الأرض المقـدسة باتجاه الشمال، وفي هذا المكان جـرى نصب صنم ميخا، الـذي نقرأ عنه في ثنايا الاصحـاح الثـامن عشر من سفـر القضـاة، عـلاوة على ذلـك نصب يربعـام، ملك اسرائيل، هناك واحداً من عجليه الـذهبيين، وأمر الناس بعبادته، وذلك حسبما ورد في الاصحاح الثاني عشر:٣٢، من سفـر الملوك الأول، وبعد زمـن طويـل من أيـام فيليـب، الذي كـــــان الطيطراخ لـلايطوريـة والطرخـونية، صـار اسمهـا قيسارية، صـدوراً عن احترام قيصر، ولهذا السبب ورد اسمهـــا في انجيل متى:١٦، «قيســـارية فيليـب»، وسماها الاغريـق فيما بعد «بانيـاس»، وهي في هذه الأيام، لاتدعى باسم لايش، ولا دان، ولا قيسارية، ولابانياس، بل بلنياس.

وبناء عليــه يلتقي «الأر» مع «دان» أمـام بـاب هذه المدينة، ويشكل اجتماعهما نهر الأردن، الذي يجري من هنـاك في طريق متعـــرج وطويل، وبذلك يفصل منطقة الايطورية عن الطرخونية، ثم إنه يصب في وادي، حيث تتجمع مياهه في بحيرة، وتعرف هذه البحيرة باسم «مياه ميروم»، وحولها نقـرأ في سفر يشوع:١١، وتمتلىء هذه البحيرة في مـواسم الشتاء العظيمة، لكن الميـاه تجف في الصيف، وتتوفـر هناك نباتات كثيفـة، فيها تعيش الأسود، وحيوانات مفترسة أخرى.

وبعد ذلك تسيل المياه بين مدينتين هما كفرناحوم وكورزين، وهناك تشكل بحيرة كبيرة، هي بحر الجليل، أو بحر طبرية، وذلك مثلما يشكل الراين بحيرة كونستانس، وتتدفق المياه من الجزء المنخفض من هذا البحر، وتمر فيما بين جبال اسرائيل، وجبال العربية الصغرى، وتصل ممتدة حتى سهل أريحا، ومن هناك تصب بين فكي البحر الميت، ومن ثم يجري ابتلاعها.

هذا وإن المسافة من حيث يبدأ منطلقاً من بحر الجليل، إلى المكان الذي يدخل فيه إلى البحر الميت سفر اثني عشر يوماً، والبحر الميت في طوله يستغرق سفر خمسة أيام، وهذا البحر مرتبط مع المياه التي اسمها في سفر الخروج:١٥ «مياه ماره»، ومياه ماره مرتبطة بالبحر الأحمر، هذا ويرتبط البحر الأحمر بالبحر الهندي، الذي يتفرع عن المحيط، وعلى هذا إن مجرى الأردن طويل جداً من نبعه حتى نهايته.

صفات نهر الأردن

دعونا نرى الآن، أي نوع من الأنهار هو نهر الأردن، فهذا النهر المقدس ليس نهراً عريضاً جداً، فعرضه لايكاد يتجاوز الستين خطوة، لكن، صحيح أنه صغير بالعرض، هو عميق جداً، وله بشكل خاص في المكان الذي استحمينا فيه، قعر رملي، وضفتين طينيتين، وهو يفيض ويتناقص وفقاً للموسم من السنة وهو يفيض بشكل خاص في أيام حصاد القمح، أي في أيام الربيع، لأن القمح، كما هو معتاد، ينضج في ذلك الوقت، في بلاد فلسطين، وذلك كما قرأنا في سفر يشوع:٣، وفي الحقيقة يفيض بشكل كبير يبلغ به الحد أنه يتدفق خارج مجراه إلى الحقول، لأن أنهاراً كثيرة وجداول تصب فيه، من ذلك —على سبيل المثال — نهر يبوس، الذي عبره تصارع يعقوب مع الملاك، ويمتلك وقتها مجرى عميق إلى حد ما، مع ضفتين عاليتين، ومياهه طيبة، ومناسبة للشرب، ولاسيما في المواسم الباردة، أي في الشتاء، لأن هذه

المياه في الصيف دافئة جداً، ومياهه موحلة، هذا ولست عارفاً فيها إذا كانت دوماً كذلك، وفيها كميات وافرة من الأسماك الجيدة، ومجراه ليس مجرى سريعاً، لكنه يسيل بشكل صامت، ومع ذلك عندما يسبح الانسان عبره، يشعر وهو في وسطه بتيار الماء وهو يتحرك ضده.

ويمتلك نهر الأردن من منبعه عند قيسارية فيليب حتى نهاية البحر الميت، أي لمسافة حوالي المائة ميل، يمتلك على ضفتيه سهولاً واسعة، تنتهي بجبال عالية، وإلى جانب الأردن قفار، هي التي نقرأ عنها أيضاً في سفر اشعيا:١٢، حيث كان يوجد فيها في العصور الماضية عدداً كبيراً من الديرة، وأماكن سكنى لرجال دين، وخرائبها ماتزال مرئية في هذه الأيام، وتتجول في قفار الأردن وسهولها أعداد كبيرة من الحيوانات المتوحشة،وهم يأتون حتى في هذه الآونة وينزلون إلى الماء للشرب مثل قطعان من الأغنام، لكنهم ينامون في الأوقات الحارة من النهار في الكهوف بين الصخور، وهناك بينها أسود، ودببة، وثعالب، ويحامر، وغزلان، وأرانب، وحمر وحشية، وماشابه ذلك، وهم يسيرون هناك ويتجولون مثل الحيوانات الأليفة، ولايفرون من الناس، إلاّ عندما يحاولون الاقتراب منهم.

واعتاد منذ سنوات مضت أسد ضخم على السكنى هناك، ولم يكن هذا الأسد يؤذي أحداً لا من البشر ولا من الحيوانات، بل كان يراقب الناس وهم يمرون، ويظهر إلفته بتحريك ذيله، وحدث أن واحداً من المسيحيين كان معه قوس، فرمى بسهم على الأسد، وركض الأسد نحو السهم وشمه، فأطلق عليه سهماً آخر، وعندما كان السهم طائراً، نهض بنفسه وكان يريد أن يلتقطه، ومن ذلك الحين لم يعد يرى في بقعته المعتادة، بل أخذ يتجول خلال السهول وأماكن غابات الأردن،وكان يسير هناك وهو يزأر باحثاً عمن يمكنه أن يفترسه ، وأحدث منذ ذلك الحين كثيراً من الشرور لحقت بالبشر وبالحيوانات.

فخار وإطراء نهر الأردن المقدس

إن فخار نهر الأردن المقـدس أمر عظيم لايمكن تقـديره، لأنه يفصل أرض المؤمنين عن أرض غير المؤمنين، ذلك أنه كان يوجد وراء الأردن العمونيون، والمآبيون، والأدوميون والعرب، في حين كان يوجد على هذا الجانب ويسكن بنو اسرائيل، وقـد جعـل طريقـاً لبني اسرائيل، وبشكل اعجازي أوقف جـريانه وتجمعت مياهه، حسبما ورد في سفـر يشوع:٣، وقد شفى نعمان المجذوم، الذي كان قائد جيش الآراميين، كما ورد الخبر في سفر الملوك الثاني:٥/ ١٤، وقد أطاع هـذا النهر أوامر إيلياء، واليشع، وفتح طريقـاً لهما في وسطه (الملوك الثـاني:٢/ ٨)، وقـد طفا على وجهـه بشكل اعجازي عمود من الحديد (الملوك الثاني:٦/ ٦).

وقـام يوحنا المعمدان الأعظم قـداسـة، بتعميد الناس في هذا النهـر، حسبما قـــرأنا في انجيل لـوقـــا:٢، وفي انجيل يوحنـا:١، وفي انجيل مرقص:١، ويبقى الأكثـر أهمية من هذا كله، ومن هـؤلاء جميعاً، هو أن يسوع المسيح، ابـن الرب، كان مسروراً بأن يجري تعميـده في هذا النهر، ولقـد أمكن بلمسة من جسـده الأعظم نقاء أن يضفي على الميـاه هناك، قوة تجديد روحانية، وبناء عليه إن هذه المياه هي أم الجميع الذين عملوا تجديداً روحياً في المسيح، ولهذا السبب قال برنارد: «يتلقى الأردن ببهجة المسيحيين في صـدره، الذين يتفاخـرون بأنهم تقـدسوا بتعميـد المسيح»، ومثل هذا قال: «أي نهر أعظم قدراً من هذا النهر، الذي كرسه الثالوث المقـدس نفسه، وقـدسه لنفسـه، بحضوره المرئي؟، فـالآب هناك سمع، والروح القـدس شـوهد، والابن تعمــد، وذلك حسبما قـرأنا في انجيل متى:٣، ويوحنا:١، ولوقـا:٣»، واستطرد بـرنارد يقـول: «نفهـم من هذا كله بأن المجـذوم الآرامي قد كذب حين فضل أي نوع مـن مياه دمشق لا أعرفه، على مياه اسرائيل، وذلك بوجود أردننا، الذي برهن مراراً بأنه يعبد الرب بخشوع».

ونواجـه هنا سـؤالاً: طالما أننا نرى أن نهر الأردن، بهذه الدرجـة من القـداسـة، والسمو، وأنه لذلـك هو مبارك، ونقي، ومقـدس، وعـذب، ومياهه صحية، لماذا عليـه أن يصب في ميـاه هي ملعونة، وغير نظيفـة، وشريرة، ومالحة إلى أقصى الحدود، وسامـة، والمقصود بهذا صب مياهه في البحر الميت أو بحيرة سـدوم؟ وفي إجابة لهذا السـؤال يقول بعضهم بأنه صحيح أن الأردن يتـدفق بالحقيقـة نحو البحـر الميت، لكنه عندمـا يصل إلى شواطئه، يخرق الأرض، ويدخل من هناك، قبل بلوغ البحر.

غير أن هذا غير صحيح، لأنه من الممكن رؤيته، وهو يجري في البحر لمسـافة طـويلة، وهو متميز عن ميـاه البحـر، التي هي كثيفـة، ومنظرها أسود، في حين نجد أن مياه الأردن بيضاء وصافية، ويقول آخر بأن هذا يحدث من أجل أن تتلطـف لعنة الأول ببركـة الثـاني، ويتبنى آخـرون وجهة نظر أرفع حول الموضوع، ويقولون تكمن هنا أسرار عظيمة، لأنه صحيح أن الأردن نهر مقـدس، لكن بما أنه لايمجـد نفسـه، بل يجري نازلاً نحو البحـر الميت، لاتتمكن قداسته من انقاذه ومنعـه من السقوط في البحر الميت، ومـن مشاركته لعنتـه، ومثل هذا الانسان، نجد مع أنه قد تقـدس بعمادة المسيح، لايرفع نفسه عـالياً، بل يتـابع السير نازلاً على طريق الضعف الجسـدي، ولعدم محافظتـه على قداستـه يسقط في اللعنة، ويجعل من نفسـه شريكاً لها، مثلما يفعل الآخـرون الذيـن لم يتعمـدوا، ولأنه مثلما الأنهار الأخرى والجداول غير المباركة تصب في البحر الميت، وتشارك في لعنته، كذلك الانسـان المذنب مع أنه قد يكون معمداً، لكنه لم يكن مقدساً، هو مثل ذلك، وهكذا دواليك.

ومن المعتقد أن المكان الذي استحمينا فيه، قـد قام بنو اسرائيل بعبور النهر عنده، فوق المجـرى الجاف لاحتباس المياه عن الجريان، وأنه هناك جرى تعميد: ايليـا، واليشع، والمسيح، ولهذا قام هنا — حسبما قرأت في كتاب حج قديم جداً — في هذا الجانب من الأردن، حيث تعمد الرب،

صليب طويل، اعتاد الحجاج على نزع ملابسهم إلى جانبه، ومن ثم كانوا يدخلون إلى الماء، وفي المكان الذي خلع فيه الرب ملابسه على هذه الضفة من النهر، كانت قد بنيت كنيسة كبيرة، لها سقف معقود على قناطر، مدعوم بتسعة أعمدة من الرخام، وكانت هذه الأشياء جميعاً قد جرفتها منذ زمن طويل مياه فيضانات الأردن وابتلعتها، ولهذا السبب، لايمكن في هذه الأيام رؤية أثر منها، وقد تحدث القديس برنارد بإطراء عن نهر الأردن، في الفصل التاسع من قداسه لفرسان الداوية.

مغادرة الحجاج للأردن باتجاه بيعة القديس يوحنا — قفار الأردن وصحراء القديس يوحنا المعمدان

وبعدما فرغنا من استحمامنا، عاودنا على الفور امتطاء ظهور حميرنا، وغادرنا النهر المقدس، وسرنا عبر الطريق الذي قدمنا عليه، وعاد الحجاج الذين لم يكونوا عازمين على زيارة جبل سيناء، ببهجة عارمة، بسبب أنهم وصلوا أخيراً إلى نهاية حجهم، لأن الأردن هو خاتمة حج القدس، وبناء عليه مضينا مسرعين خلال قفار الأردن، إلى داخل صحراء القديس يوحنا المعمدان، الذي بدأ بسكنى هذه الأماكن المنعزلة، إلى جانب الأردن، فور تلقيه كلمة الرب، التي وصلته في القفار، قرب بيت أبيه، وبناء عليه، وصلنا الخبر في انجيل القديس لوقا:٣، بأنه تجول في جميع المنطقة التي من حول الأردن يبشر، ويعمد.

ومثل هذا، لقد سكن لبعض الوقت في بيت عبره، عبر الأردن، حسبما ورد في انجيل يوحنا:١، وتنقل بين جميع أماكن منطقة الأردن، من مكان إلى آخر، حتى يتمكن من التبشير، ففي هذه القفار التي نحن صاعدين إليها، جاء الرب يسوع مرة إليه، يطلب منه التعميد، ويوجد على ضفتي الأردن قفاراً وعرة، فيها سكن يوحنا المعمدان، ومن بعده عدد كبير من الآباء المقدسين، الذين احتذوا حذو المعمدان، فتحزموا بأحزمة الجلد وأكلوا الجراد، والعسل البري، وذلك حسبما قرأنا في

انجيل متى:٣، ويوحنا، ودعـونا نرى مـا كانتـه تلك الجرادات والعسل البري.

ويقول بعضهم بأن الجراد عبارة عن حيوانات صغيرة جداً، تطير على طريقـة القفـز، ولها مناشير في أرجلهـا، ولهذا تسمى أيضـاً باسم ser-ratae، ولها أجساد صغيرة جداً وقصيرة، مثل اصبع يد الانسان، وهي من السهل امسـاكهـا في الأعشـاب، وبعـد قطـع رؤوسهـا تقلى بالزيت وتؤكل، وهي طعام القوم الفقراء، والجراد هذا موجود في هذه الأيام في صحـراء اليهـودية، وعلى هذه، عـاش —كما يقـال— القـديس يوحنا المعمدان.

ويقـول آخرون، ممن ينظرون إلى الأمـور نظرة أكثر سمـواً: «من غير المعقول أن يكون يوحنا المعمدان الأعظم مبـاركة أن يكون قد أكل لحم الجراد في الصحراء، لأنه رفض أن يأكل الخبز في بيته المتقدم»، ويقولون هناك نوعـاً من الأعشـاب ، ينمو في القفـار، اسمـه Longusta، وقد صحف العوام اللاتين هذه الكلمة إلى Locusta، ويجمع الناس الفقراء هذه العشبة، ويأكلونها، على أنها طعام القـديس يوحنا، وبناء عليه اعتاد رهبـان الأيام الخاليـة، الذين سكنوا إلى جانـب الأردن، أن يستخدمـوا يومياً هذه العشبة في أطعمتهم.

ويقـول بعضهم بأن العسل البري، هو مايتم العثـور عليه في جـذوع الأشجار، حيث تولى النحل حمله إلى هنا، ويقول آخرون بأن هناك نوعاً من أنواع القصب ينمـو هناك، له عصير حلو، وهذا القصب، هو الذي نسميه قصب السكر، وينمو هذا القصب قرب الأردن، ومنه لايستخرج العسل، بل سائلاً أعلى قيمة، هو سائل السكر، وهكذا إنهم يقولون بأن يوحنا عـاش على قصب السكـر هذا، غير أن آخـرين يتفكرون بكلمات الرب (متى:١١/١٨) التي قـال فيها: «جـاء يوحنا لايأكل ولايشرب»، ويقولون بأن اللاهوتين قـد قالوا لدى تعاملهـم مع هذا النص، بأنه قد

قيل هو لم يأكل ولم يشرب، لأنه لم يستخدم الطعام العام، والشراب المعتاد لبني البشر، ثم ما الذي يأكله ويشربه الذي يعيش في القفار غير أشياء ضئيلة جداً، هذا ولايعد العسل المتقدم الذكر، سواء المستخرج من تجاويف الأشجار أو الذي يستخرج من قصب السكر، بين الأطعمة المتيسرة للعوام من الناس، بل من طعام النبلاء الذين يتغذون بلطف بالأطعمة الفاخرة اللذيذة، ويقوم آخرون بتطييب الطعام بالعسل والسكر، لجعله أكثر لذة وشهية، وبناء عليه ليس صحيحاً القول بأن القديس يوحنا قد أكل مثل هذا الطعام، ذلك أنه رفض أن يأكل في بيت أبيه الطعام المطبوخ، والفواكه، أو الخضار، فكيف من الممكن أن يكون قد أكل، العسل، وأقراص العسل في القفار؟ وبناء عليه هم يقولون بأنه كان هناك نوعاً من جذور الأعشاب، اسمها العسل البري، ويقول آخرون بأن العسل البري، هو أوراق بعض النباتات، التي هي بيضاء، ولطيفة ومستديرة وهي عندما تفرك مع بعضها في اليد، يكون لها شيئاً من طعم العسل.

ويقول آخرون بأن هناك نوعاً من أنواع البراعم، تنمو على نوع محدد من النباتات، فيها بذور خضراء مثل الفاصولياء، فهذه ماكان يأكله القديس يوحنا، والسهل كله مغطى بهذه النباتات عندما كنت في القفار، غير أنني وجدت بذورها قاسية مثل الحجارة، بحيث لم يكن بامكاني فصم أي منها بأسناني، ويقول آخرون بأن هناك أشجاراً في القفار، اسم ثمارها «الخروب»، كنت قد أتيت على ذكرها من قبل، وهي ثمار سوداء مستطيلة، وعندما تنتزعها من أغصانها جيدة للأكل، ويطلق على هذه الثمار في كل مكان اسم «خبز القديس يوحنا»، وهي تباع من قبل الذين يبيعون التوابل في حوانيتهم، وهي في الشرق كثيرة جداً، تكاد أن تكون لاقيمة لها، يتولى الفقراء جمعها، وانتزاع قشورها بأسنانهم، وتجهيزها وأكلها كمنقوع حلو، مع بقاء القطع المنقوعة في العصير، وغالباً ما

أكلت مـن هذا الخروب في الماضي، غير أن نفسي لم تشبع منهـــا، ومن الممكن أن القديس يوحنا كان يشرب عصير هذه الحبوب.

وسرنا خلال هذه القفار، التي هي قفار القديس يوحنا بسرعة، وبعد قطعنا حـوالي الميل، فجأة انبعث صراخ وعـويل بين رفيقاتنا من النسـاء الحاجـات، مما أحـدث الفـوضى بين صفـوفنا، لأنهن اعتـدن على السير بهدوء عظيم جـداً، وبخشوع وصمت، وكـان هناك انزعـاج كبير بينهن واضطراب كبير، مما سبـب الدهشـة لكل واحـــد منا، ولذلـك بادرنا مسرعين نحـوهن، وهن يبكين، وسألنا عـن سبب بكائهن، وقـد أجبننا بأن واحـدة من رفيقاتهن قـد جرى البحث عنهـا بين الحشد، فلم يعثـر عليهـا، وأنهن كن يبكين لفقدانها، وقـد رجـوننا التوقف، وعـدم السير وراء المسلمين، الذين مضـوا أمـامنـا مسرعين جـداً، وذلك حتى يمكن العثـور على رفيقتهن، ولهذا وقفنا مع هؤلاء السيـدات، ولم نتقدم نحـو الأمـام، وفي الوقت نفســه استـدعـانا المسلمـون لمتـابعـة سيرنا، وهم يصرخون ويتهددون.

غير أنهم عندمـا رأوا أننا لم نلحق بهم، عـادوا إلينا، وبعـدما سمعـوا شكاوى كثيرة مضاعفـة، بعثوا على الفور بعدد منهم،على ظهـور خيول سريعـة جداً، وذهب معهم بعضـاً من أقوى الحجـاج للبحث عن المرأة العجوز، وتوجه هؤلاء الرجال مسرعين نازلين نحو الأردن، وذلك عبر طريق القفـار، لأننـا خفنا من امكانيـة غـرقهـا في ميـاه الأردن، أو أنها وقعت فاقـدة لوعيها لحاجتها للطعـام في القفار، أو أنها التصقت بالطين على طرف النهـــر، ولم تكن قـادرة على الخروج، أو لعلهـــا اعتقلت، وسرقت، واغتصبت من قبـل أحـد المسلمين، وقـد تشـوقت أجـواف الحجـــاج لـرؤية أختهن، ومـع ذلك، فـإن بعض قســاة القلـوب من الفـرســان، أبـدوا انزعـــاجهم تجاه تعـــرض الحشـد كلـه للفـوضى والاضطراب من أجل امرأة عجوز واحدة، ولوجرى اتباع ما أشاروا به

لتمّ فقدان المرأة العجوز فقـداناً كاملاً، وبهذا الموقف كانـوا أشد وحشية من المسلمين، الذين لدى قلقهم بشأن ضياع المرأة، خـافوا من أن تكون قد خطفت من قبل بعض البداة أو الرعاة المدينيين، أو أنها افترست من قبل أسد، أو من قبل حيـوان مفترس آخر، ووقفوا بصبر ينتظرون معنا، في ظل حرارة الشمس العالية جداً.

وحدث أن قائد هؤلاء المتـزمرين،الذين رأوا إنها مسألة تافهة، فقدان امـرأة عجوز، والذين ربما رغبـوا بضيـاعها، سقط هذا فيها بعـد بأيدي هؤلاء النساء العجـائز (عندما مرضـوا) ورجاهن بدموع بنيل المسـاعدة ممن ازدراهن من قبل، هذا وكنا قد تعـرضنا لهذا الموضوع من قبل، وفي الحقيقة كان قد انحدر إلى وضع كان أسوأ من وضع المتسولين التعساء.

هذا وتجول الـذين أرسلوا للبحث عـن العقيلة التقيـــة، أي رفيقتنا، وأخـذوا يفتشـون وهم يصرخـون على طول الطريق في أرجـاء القفـار، وذهبوا حتى ضفة الأردن، إلى المكان الذي استحمت فيه النساء، وهناك وجدوها متمددة نائمة في فـراش من القصب، وقد أيقظوها، وأخذوها، وحملوها على ظهـر حصان، وقدمـوا إلينا وسط صرخات فـرح، وكأنهم قد أمسكوا حيواناً مفترساً.

كيف دخل الحجاج إلى كنيسة القديس يوحنا

وهكذا جرى استقبال العقيلة بسرور، وهنأهـا الرجال الجيدون، مثل الذي فقـد شـاة، في انجيل لـوقـا:١٥، وتابعنـا السير على طريقنا حتى وصلنا إلى نباتات وأشواك في أرض جـرداء، لاتنبت النباتات عليها ولا الأشجار، وبذلك صارت غير مستوية، وتـلالاً رملية، ومناطق مرتفعة، وفيها نحن على طريقنا وصلنا إلى كنيسة جميلة وواسعـة، التي هي كنيسة القـديس يوحنا المعمدان، وهناك ترجلنا من على ظهـور حميرنا، ودخلنا إلى الكنيسة، وانحنينا نحو الأرض ونحن نصلي، ثم اننا دخلنا في قداس

مخصص للحجاج وحصلنا على غفـرانات مطلقـة (+‡)، وجلسنا هنا لوقت قصير، في الظل وأرحنا أنفسنا.

وقـد حكيت إلى الحجاج عن الازعاج الذي تعـرضنا إليـه في حجي الأول، في هذه البقعـة، الأمر الذي أنا مضطر لإقحـامه هنا أيضـاً، لأننا عندما خرجنا من القفـار، إنما قبل أن نصل إلى الكنيسة، دفع بنا أدلاؤنا من على ظهور حميرنا، وأرغمـونا على قيادتهم بأيدينا، ومنعـوا كل واحد من الصعود إلى الكنيسة، التي قامت فوق الطريق، بل أمرونا بالمرور إلى جانب الكنيسـة مسرعين صامتين، وكان هذا العبور مـزعجاً لنا، لأننا لم نكن راغبين بعـدم رؤية الكنيسـة، وغير راضين بفقـدان الغفـرانات، عـلاوة على ذلك كـان الطريق رمليـا، وغطسنا في كل خطوة عميقـاً في الرمل، إلى حد أننا كدنا أن نغطس حتى ركبنا، وكـان النهار حاراً جداً، والشمس كـانت متوهجـة جداً، وقـد تعذبنا كثيراً ومـرضنا بسبب تلك الرحلة ولمرورنا المقيت إلى جانب الكنيسة.

وكـان سبب حدوث ذلك، هو أن أحـد البـداة الملعونين، وكـان ابناً شريراً للشيطان، قـد استولى على تلك الكنيسـة، واتخذ منها بيتـاً لنفسه، وهناك عاش كلص، يقوم بهجمات من هناك ويسلب المارين، وقد أعلن عن كراهية خاصة نحو جميع المسيحيين، وكانت هناك عادة بين المسلمين أنه إذا ما التقى رجلان في الحقل، وكـان أحدهما يخاف من الآخر، يقوم الذي لا أمل لديه بالانتصـار، بالترجل من على ظهر دابتـه، ويمشي على قدميـه، حتى يقابل الآخر، وذلك كعـلامة على الاحترام، ومن أجل أن يظهـر بهذه الطريقـة الاحترام نحـوه، ومثـل هذا إذا مـا أراد حشـد من الناس اظهار احترامهم نحـو آخر، يقوم جميـع الرجال بالترجل من على ظهـور دوابهم، وكـذلك أيضـاً، عنـدمـا يركب ويسير على الدرب، أي ملـك، أو أمير، أو نبيل مسلـم، أو مملوك كبير، يقفـــز جميـع الذيـن يواجهـونهم من على ظهـور دوابهم، ويقفـون حتى يمـرون بهم،وإذا لم

يترجلوا من على ظهـور دوابهم في المناسبات المتقـدم ذكرهـا، يقـوم الآخـرون بـاقتـلاعهم من على ظهـورها بالقـوة، مـع كثير من الاهانة والازعـاج، وقد خشي أدلاؤنـا من هذا البدوي، وخـافـوا أن يكون هو وأتباعه كامنين ينتظرون في الكنيسة، وأنه من الممكن الاندفاع من هناك، والانقضـاض علينا، خاصـة إذا مـا مررنا بالبيت دون اظهـار الاحترام، ولهذا أمـروننا بالترجل مـن على ظهـور حميرنـا، وأن نمرّ بـذلك البيت بشكل متـواضع، الأمر الذي فعلناه، وعلى كـل حال كـان الفرسـان في غـاية الانزعـاج، ولعنوا ذلـك البـدوي بأبشع الكلمات وأرهبهـا، ومهما يكن من أمـر لقـد عبرنا من هنـاك، ولم نر أحـداً في ذلك المكان، وكـان ذلك لصالحنا، لأننا خفنا كثيراً نحن مع أدلائنا من ذلك البدوي، وأكثر ماكنا نخشاه أن يقوم باللحاق بنا.

كنيسة القديس يوحنا المتقدمة الذكر وقداسة المكان

وكنيسة القديس يوحنا المتقدمة الذكـر، واسعة إلى حد ما، لكنها الآن مشعثة بسبب سكنى البـداة فيها، الذين يعيشون حيـاة قطاع طرق فيها، ويسكنون فيهـا وكأنها حصن، وقد جـرى تهديم مذابحها، وفقـدت من بعض الجوانب شكلهـا ككنيسـة، وهم يقـولـون بأن القـديـس يوحنا المعمـدان قـد وعظ الناس في هذه البقعـة، وأعطى إلى الجميع أحكامـاً، بمـوجبهـا عليهم أن يعيشـوا، وذلك حسبما قـرأنا في انجيـل القـديس لوقا:٣، وهنا أيضاً قدم شهادة للرب يسوع، كما قرأنا في انجيل متى:١، فضلاً عن هذا كـان يوحنا واقفاً في هذا المكان، عندما جـاء الرب يسوع إليـه، ولدى رؤيته له، أشـار باصبعـه إليـه قائـلاً: «هو ذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يوحنا:١).

ويقول بعضهم بأنه من هذا المكان جرى رفع إيليا إلى السماء في عربة من نار، لكن هذا لايتوافق تماماً مع مـاورد في سفر الملوك الثاني:٢، لأن إيليـا جرى رفعـه من وراء الأردن، وكان هناك فيما مضى دير مـلاصق

لهذه الكنيسة، فيه كان القديس زوزيما Zozima الراعي لكثير من الرهبان، وكان على مقربة من الدير هناك دار ضيافة للحجاج، فيها أمضت القديسة مريم المصرية ليلتها الأولى، عندما نزلت من القدس بغية الذهاب إلى القفار عبر الأردن، وجاءت القديسة مريم المصرية إلى هذه الكنيسة قادمة من القفار، وكان ذلك يوم الجمعة بعد عيد الغطاس، وتسلمت فيها قداس القربان من القديس زوزيما، وقد سارت في ذهابها إلى القفار وإيابها منها فوق نهر الأردن، وعبرته جافة القدمين.

وفي الأيام الخالية كان يحتفل بعيد كبير عند هذه الكنيسة، وذلك في يوم عيد الغطاس، في الأيام التي كان العصر الذهبي مايزال فيها مستمرا، لأن بطريرك القدس، وأسقف بيت لحم، ورعاة الديرة، والرهبان، ورجال الدين، والشعب، هؤلاء جميعا كانوا قد اعتادوا على النزول إلى هنا، وبعد إقامة قداس، كانوا ينزلون معاً، مع الأعلام والصلبان إلى الأردن، وهناك يغنون مزامير إلى جانب النهر المقدس.

واعتاد راعي دير القديس يوحنا، أن يغطس الصليب الذي كان يحمله في الماء، ولدى تغطيس الصليب، اعتاد جميع الأشخاص المرضى على القاء أنفسهم في الماء، وبذلك كانوا يشفون، ويقوم في الوقت نفسه الأصحاء بتعميد أنفسهم بخشوع، وبذلك يصبحون أقوى، ومن المعتقد أن هذه المعجزات التي كانت تتم هناك، كانت تتم لابسبب قداسة النهر، بل بسبب المراعاة الصحيحة للدين، بين المسيحيين بشكل عام، وكذلك بين الرهبان وبين رجال الدين، ولدى الفراغ من الاحتفال كان كل واحد يذهب إلى وطنه وإلى موضعه الخاص، ويلي هذه القفار، صحراء القديس جيروم الواسعة، التي خلفها يقع البحر الميت، وفوق البحر الميت هناك جبال عين الجدي، ولسوف أتولى وصف هذه الأماكن جميعاً، في اليوم الرابع من آب.

موضع الجلجال المقدس ومكانته العلية

وبعدما استرحنا قليلاً وبردنا أنفسنا في كنيسة القديس يوحنا، امتطينا ظهور حميرنا من جديد، وتابعنا سيرنا بتواضع، ووصلنا إلى مكان بين تلال رملية، حيث يسير الطريق السلطاني بين هضبتين صغيرتين، وقد قال لي أحدهم، بأن اسم الهضبة الأولى منهما هو جرزيم، واسم الثانية عيبال، وهما جبلي المباركة واللعنة، اللذين قرأنا عنهما في سفر التثنية:٢٧، لكن الأمر ليس كذلك، ولسوف نتحدث عن هذين الجبلين ونبينهما بعد قليل.

ووصلنا ونحن على طريقنا إلى سهل منطقة أريحا، الذي كان محترقاً بأشعة الشمس، ووصلنا هناك إلى موضع الجلجال، الذي ورد ذكره عدة مرات في الكتابات المقدسة، ففي هذا المكان وضع بنو اسرائيل علامات حددوا بها معسكرهم، وكان ذلك بعد عبورهم للأردن، وهنا كان أول مكان سكنوا فيه فوق تراب الأرض المقدسة، وهنا جرى ختانهم للمرة الثانية، وهنا حافظوا على عيد الفصح، وبدأوا هنا بأكل ثمار الأرض المقدسة، ولم يعد المن ينزل عليهم من السماء، بعدما أكلوا ثمار الأرض المقدسة، وذلك حسبما قرأنا في سفر يشوع:٤—٥.

هذا وإنني أتصور، أنه عندما قدم يوشع إلى الجلجال مع بني اسرائيل، لم يكن هناك بناء، ولاقرية، ولامدينة، بل تمدد الحشد فوق أرض جرداء في سهول أريحا، وبعدما نصب بنو اسرائيل خيامهم هناك، عملوا بعض الأبنية من أجل خيمة عهد الرب، وتابوه العهد، اللذان بقيا هناك لمدة طويلة، وكذلك من أجل الاثنتي عشرة حجرة، التي أمر يوشع بني اسرائيل باخراجها من الأردن، عندما عبروا في وسط الأردن، وساروا فوق مجراه وأقدامهم جافة، وقد نصبت هذه الحجارة في الجلجال، كما قرأنا في سفر يشوع:٤.

وكنت قد قرأت في كتاب حج قديم جداً، بأن المسيحيين قد بنوا في العصور القديمة في الجلجال في المكان الذي وقفت فيه خيمة عهد الرب فيما مضى، وحيث أيضاً نصبت الحجارة الاثنتي عشرة ووضعت، بنوا كنيسة فخمة، فيها وضعت الحجارة المتقدمة الذكر، وكانت حجارة غير مصقولة وكبيرة إلى حد أنه لم يكن بامكان اثنين من الرجال حمل واحدة منهن بسهولة، ورفعها من على وجه الأرض، وكانت احداهن قد انقسمت بالصدفة إلى قسمين، وقد أعيد لصقها فنيا من جديد بوساطة أعمال حديدية.

ولم نكن — على كل حال — قادرين على رؤية خرائب هذه الكنيسة، ومع ذلك كنا مسرورين جداً برؤية المكان، وانكببنا على وجوهنا، وقبلنا الأرض المقدسة، التي هي عن حق مقدسة، لأنه هناك تخبأ يوشع ليحل حذاءه وليخلعه من قدميه، لأنه عندما ذلك الرجل القوي والمقدس، أي يوشع، كان في الميدان، رأى رجلاً واقفاً أمامه، مع سيف مجرد، ونحوه تقدم يوشع دونما خوف وقال له: «هل لنا أنت أو لأعدائنا»؟ فأجابه قائلاً: «كلا أنا ميكائيل رئيس جند الرب، والآن أتيت لمساعدتك» (يشوع:٥)، وقد عدّ هذا المكان مقدساً منذ القديم، وبسبب قداسته سكنت هنا جماعة من الأنبياء، وكانت مثل دير للرهبان، حسبما قرأنا في سفر الملوك الثاني:٤.

وكان هذا المكان الأول، الذي شرع الرجال المقدسون في سكناه مع بعضهم، مثلما يفعل رجال الدين في الدير، وذلك بسبب قداسة المكان، الذي قدسه رئيس الملائكة ميكائيل بشكل خاص بظهوره هناك، وذلك مثلما جرى تقديس جبل جرجانوس Garganus الذي سوف نتحدث عنه فيما بعد، والذي إليه يسعى الناس من أقصى أجزاء الدنيا، هذا وإن تقديس هذا المكان بوساطة الملاك هو مؤكد تماماً، ذلك أنه مؤيد بشهادة الكتابات المقدسة القانونية، وهو أمر صحيح بدون أدنى

شك بظهور القديس ميكائيل، الذي وقع في هذا المكان.

ويسعى الناس إلى الحج في بلدان الغرب، حتى إلى البحر البريطاني، إلى مايعرف باسم جبل القديس ميكائيل ليشاهدوا حقاً بعض الآثار، والأسلحة —ولأتحدث مثل طفل— العائدة للقديس ميكائيل ، حيث قالوا بأنه فوق هذا الجبل وضع القديس ميكائيل الأسلحة التي غلب بها التنين، والتي بها دافع عن يوشع في منطقة أريحا، ولم يقتصر الأمر على الأطفال، الذين ارتحلوا إلى هناك في سنة ١٤٥٧، من جميع أجزاء ألمانيا، بأعداد كبيرة جداً، بل تعداهم الأمر إلى الرجال المسنين، ورجال ذوي مدارك كانوا غير قادرين على القراءة.

وحول هذه القضية، أود أن أ حدثكم عما عانيته شخصيا وجربته، ففي أحد الأيام خرجت من أولم مع مرافق واحد، من أجل أن أتمكن من الوعظ في بلدة جنتسبورغ Guntsburg ، وصدفنا ونحن على الطريق حاجاً، كان مسافراً على الطريق نفسه، والتحقت عن قصد بهذا الرجل، وسألته من أي حج كان عائداً، مضيفاً أنني شخصيا ذهبت حاجاً إلى بلدان أجنبية، ولهذا كنت أشد ميلاً لمعاشرة الحجاج، وكان هذا الحاج رجلاً له شخصيته كما كان محترماً، ومتفوهاً بلسان البنادقة، غير أنه كان رجلاً علمانياً غير متعلم، فأجابني قائلاً: «لقد قدمت من بلاد نائية، من المحيط، من جبل القديس ميكائيل» فسألته: «أرجوك ما الذي التمسته هناك، وما الذي رأيته»؟، فأجابني: «إن الذي التمسته قد وجدته، ورأيته بعينيّ، ذلك أنني رأيت في ذلك المكان ترس وسيف رئيس الملائكة ميكائيل المجيد، الذي بهما أنشب الحرب في السماء مع التنين، الذي هو الشيطان، حيث تمكن من طرد ابليس وجميع أتباعه من السماء، وبهما كان متسلحاً عندما ظهر أمام يوشع بن نون، في حقل أريحا».

وعلى هذا أجبته: «ياأخانا، هذه مسائل هائلة، فمن الذي أراك هذه

الأشياء»؟ فأجابني: «رهبان يرتـدون الثياب الكهنوتية البيضاء الطويلة، ورجال أتقيـاء، وقد عرضـوا هذه الأشياء على جميع الناس، مع كثير من الأبهة، وقد حصلوا على مرابح وافية من وراء ذلك»، فقلت: «من الذي وضع هذه الآثار الهائلة في تلك البقعـة»؟ فأجـاب: «القـديس ميكائيل، بعـدمـا تغلب على الشيطان، وتوقف عن القتـال، نزل شخصيـاً إلى هذا الجبل، وصنع مستــودعــاً هناك مـن أجل ســلاحـــه، وفي أيام المسيح الدجال، سوف ينزل إلى هناك للمرة الثانية، ولسوف يحمل هذا السلاح ثانيـة، وبهذا السـلاح سوف يتغلب على المسيح الدجـال، وسـوف ينزل الهزيمة بشياطينه».

وسألته بعد هذا عن شكل هذا السلاح وحجمه، فأجابني بلغة منتقاه على كل نقطة، وأخبرني أشياء كثيرة، قـام رهبان ذلك المكان بالتبشير بها بشكل علني،وهي تحتـوي مافيـه الكفاية من الأخطاء العقـائدية، ولقـد تعـذبت كثيراً حتى أشرح لهذا الرجل، بـأن القـديس ميكائيل بانتصـاره على التنين لم يكن بحاجة إلى ترس مادي أو سيف، وأن هذه الأشياء قد اخترعت بشكل غير صحيح، بسبب جشع هؤلاء الرهبان، وأن السلاح الذي قـاتل القـديس ميكائيل فيـه، لم يلقـه قط، ولم يتـوقف مطلقـاً عن القتال به.

لأنه كما أنشب الحرب في السماء ضد الملائكة السيئين، كان مثل هذا، في العهـد القديم، قـائـد جيش بني اسرائيل، وقـاتل من أجلهم، كما هو واضح في يشـوع:٥، عــلاوة على ذلك، هو لم يقـاتـل قط —في العهـد الجديد— إلى جانب المسيحيين، كما هو مبرهن عليه في سفر دانيال:١٠، وبناء عليه هو لم يلق سـلاحه، عـارفاً أنه لم يكن سلاحـاً ماديا، وبعـدما فـرغت من توجيه هذا الرجل العلماني نحـو هذه القضايا، قـدم الشكر إليّ.

وغالباً مـااعتاد الراهب ميكائيل سيكز sicz، الذي كان طباخ الدير

في أولم، على الحديث عن هـذا السـلاح، لأنه زار المكـان في السنة التي تقدم ذكرها مع الأطفـال الآخرين بهدف رؤية السلاح، هذا والحكايات هذه حكايات أطفـال، في حين كان الظهـور في الجلجال ظهـوراً حقيقياً تماماً، وحقيقـة مقـدسـة،ولهذا يتـوجب هنا التماس القـديس ميكائيل والبحث عنه، لأنه من المؤكد تماما بأن الملاك المقدس، قد ظهـر ليوشع هنا بسيف مسلول، ولم يكن الذي معه سيفـا غير حقيقي، كما أن الجسد الذي ظهر به لم يكن جسـده الطبيعي، لأن كل من الجسد والسـلاح قد تشكلا من الهواء، وكـانا لايليبـان الاستخـدام الانسـاني، وعـادا بعـد الظهور إلى حـالتهما المتقدمة، وعلى كل مـن يود —بناء عليه — أن يرى الأمـاكن التـي رؤيت فيهـا الملائكة بالفعل، عليـه أن يقـوم بهذا الحج، ولسوف يرى هذه الأشياء، وأشياء أخرى أعظم من هذه.

وادي اللص عكان الذي فيه رجم

وتابعنا سيرنـا من الجلجـال نحـو أريحا، واقتربنـا من وادي عكان، الذي دفن فيـه مع جميع آل بيتـه وكـل الذي امتلكه، تحت كـومـة من الحجـارة، وكـان ذلك بسبب السرقـة التي اقترفهـا، عندمـا جـرى هدم أريحا، وذلك حسبما قرأنا في سفر يشوع:٧، وتعجبنا في هذا الوادي نحو قسـوة العدالة الربانيـة، التي تعـاقب شعباً كـامـلاً بسبب جريمـة رجل واحد، وتضفي ذنـب واحد على الجميع لأن النص يقـول (أخبار الأيام الأول:٢/ ٧) بأن بني اسرائيل نافقـوا، مع أن مامن واحـد منهم أذنب، باستثناء عكان الـذي سرق لسـاناً مـن الذهب، وثوباً وبعض الفضـة، وعكان هذا هو نموذج للراهب السيء، الذي استولى على النظام الذهبي العـائد للقـديس أوغسطين، وقد عـرف هذا النظام بالذهبي لأنه ثمين، وفخم، وثقيل، ومليء بالقيمـة، وحدث هذا الاستيلاء من قبـل مذنب، كـان قـد لبس بشكل غير صحيـح الثـوب الرهبـاني، وأسـاء استخـدام الصدقات التي تسلمها بصرفها على ترف غير ضروري، فضلاً عن هذا،

إنه عندما أفسد المواهب التي منحت له، بالانصراف نحو المدح البشري، كان بذلك يدفن الفضة بالأرض، وبهذا الاثم، لم يعدّ هو وحده مسؤولاً، بل الدير كله معه.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، وصلنا إلى البقعة، التي هي غير بعيدة عن مدينة أريحا، وذلك حيث جلس الرجل الأعمى على طرف الطريق وهو يستجدي، وذلك عندما مرّ الرب، وهو صاعد من الجليل إلى القدس، وهناك منح الرب النور إلى عينيه، وذلك حسبما قرأنا في انجيل لوقا:١٨، وقرأنا فوق هذه البقعة القداس المعين في كتب المسيرات، وانكببنا فوق الأرض، وقبلنا آثار أقدام مخلصنا وحصلنا على غفرانات(+).

بيت العاهرة راحاب وبيت زكاّ والمحنة التي عانى منها الحجاج

ووصلنا بعد هذا إلى مدينة أريحا، وكان يقوم إلى جانب باب المدينة، بيت مقنطر، وهو قديم جداً، وقد قالوا بأنه كان فيما مضى بيت العاهرة راحاب، حيث عنه نقرأ حكاية جليلة في سفر يشوع:٢، ومثل هذا أعطيت هذه العاهرة مكاناً في سلسلة نسب الرب يسوع في انجيل القديس متى (الاصحاح الأول)، لأن سليمان، أمير سبط يهوذا، قد تزوج من راحاب، وأنجب منها بوعز، وهكذا ارتقت هذه المرأة من وضعها كعاهرة دنيئة، ومنحت مكانا في الانجيل المجيد؟ هذا وتعرضت هذه المدينة للتهديم مراراً، ومع ذلك ممتع أن يحكي الانسان أن بيت راحاب العاهرة قد بقي لوحده من دون أذى، وهو مشاهد حتى هذا اليوم.

وبعدما سرنا لمسافة بعيداً عن بيت راحاب، وصلنا إلى بيت كبير في وسط البلدة، ماتزال جدرانه سميكة وعالية، وكأنه كان فيما مضى قلعة، وقد قيل بأن هذا كان بيت زكاّ، وهو الذي تفضل الرب يسوع فباركه

وقدسه، بطريقة خاصة عندما قال: «يقدم الخلاص هذا اليوم إلى هذا البيت»، وهنا في داخله أكل، وهدى كثيراً من المذنبين مع زكا، وكنا راغبين بالدخول إليه، لكن لم يسمح لنا بذلك، وعلى كل حال توقفنا إلى جانب الجدار، وقال واحد من الحجاج بأنه يرغب لو أن زكاً مايزال صاحب ذلك البيت، لكان زودنا وضيفنا، لأننا كنا جائعين وعطشانين، والأشياء التي كنا قد جلبناها معنا من القدس، في جعبنا، كانت قد أكلت كلها تقريباً.

وكنا نأمل أن نجد في أريحا خبزا وماء لإنعاشنا، لأننا من دون ذلك كنا سنكون فارغي الوفاض، وكان هناك نقص آخر بانتظارنا، هو خبز الآلام، وماء المحنة، وبينما كنا وقوفاً هناك ويتحدث أحدنا مع الآخر، بدأ أدلاؤنا بسرعة، وبأصوات مخيفة، يعملون على دفعنا نحو الأمام، والاسراع بمغادرتنا أريحا، لأن أهل أريحا جمعوا بعضهم بعضاً، وكانوا يعملون ويخططون لمنعنا من الانسحاب، بقصد استخراج المال منا، ولدى رؤية أدلائنا لما كان يحدث، ساقونا إلى خارج المدينة بأكبر سرعة ممكنة، وركب الرجال المسلحون المرافقون لجماعتنا خيولهم، وساقوها في وسط الحشد، فقسموه إلى قسمين، وشقوا لنا طريقاً في وسطهم، وهنا ركض الأطفال والنساء، ورموا حشدنا بالحجارة، وأثناء عملهم هذا سحبوا عدداً كبيراً منا من على ظهور حميرهم، وسرقوا قبعاتهم، وجرح بعضهم بالحجارة، وحدث بعض الاضطراب بسبب الركض وتقدم الرجال والدواب، فثار الغبار من الأرض، وبلغ من الكثافة حداً، بدت فيه أريحا وكأنها قد غلفت بسحب مظلمة.

وعندما رأى أهل أريحا أننا سوف ننجو من بين أيديهم، ولن يحصلوا على شيء منا، وأننا أفلتنا من بين أيديهم، لجأوا إلى الحجارة، وبها طردونا مع أدلائنا من مدينتهم، ولشدة خوفنا، هربنا جميعاً، وكأننا كنا مطاردين بالسيوف، وهكذا خرجنا من أريحا ليس فقط خاليي الوفاض،

بل مضروبين وبشكل فوضوي، مما دفع عدداً كبيراً من الفرسان إلى الغضب، وودوا لو أن ناراً تنزل من السماء، وتلتهم أريحا وكل الذين سكنوا فيها، لأنهم أثيروا بالروح نفسها مثلما أثير كل من جيمس ويوحنا، حسبما ورد في انجيل لوقا:٩، عندما جرى رفض استقبال الرب وتلاميذه في قرية من قرى السامرة،فوقتها رغب هذان الاثنان، بنزول نار من السماء والتهامها، لكن لفعلهم ذلك قد ليما حسبما قرأنا في المكان نفسه.

مدينة أريحا: ماالذي كانته وماهي عليه الآن

مدينة أريحا، التي تعرف أيضاً باسم مدينة النخيل (أخبار الأيام الثاني:١٨/ ١٥)، وأنها كانت من ميراث سبط بنيامين، قد كانت في الأيام الخوالي مدينة مزدهرة، وذات مظهر جيد، باستثناء أنها افتقدت الماء العذب، وذلك حتى أيام النبي اليشع الذي حوّل نبعاً مالحاً جداً إلى نبع عذب، كما سوف نرى فيما يأتي، وكانت هذه أول مدينة استولى عليها بنو اسرائيل، بعد عبورهم للأردن، وتمّ فعل عدد كبير من المعجزات أثناء الاستيلاء عليها، وهذا يمكن الاطلاع عليه في سفر يشوع:٦.

وقام يوشع بتدميرها بالكامل، وأنزل اللعنة على كبار أولاده وصغارهم، الذين سوف يعيدون عمارتها، وبناء عليه، عندما شرع بعد مضي سنوات طوال حيئيل البيتئيلي بإعادة عمارتها، ووضع الاساسات لها، توفى ابنه الأول أبيرام، وعندما نصب أبوابها توفي الأصغر سجوب، وذلك وفقاً للعنة يوشع (الملوك الأول:١٦/ ٣٤).

وكانت هذه المدينة قد هدمت أولاً من قبل يشوع، وثانياً من قبل الرومان، وثالثاً من قبل التتار، وآخر شيء من قبل شعب آخر، لذلك هي الآن قرية بلا أسوار أوخنادق، والذين يسكنون فيها عددهم قليل،

وسكان هذه القرية سود البشرة، وأقوياء، والنساء هناك، هن من القوة مثل الرجال العاملين، لذلك يصعب على الانسان تمييز المرأة عن الرجل.

حدائق أريحا الجميلة وورودها

وبعدما خرجنا من أريحا، نظرنا بأعين شريرة نحو أدلائنا، بسبب الانزعاج الذي عانينا منه، ذلك أننا كنا نتوجس أن ماتعرضنا إليه، كان تدبيراً مقصوداً من قبلهم، وكان صبرنا قد انعدم، من خلال الصوم، فاليوم كان يوم أحد، وكنا حتى ذلك الوقت لم نأكل شيئاً، وكان هناك إعياء في حرارة الشمس، وكانوا في الحقيقة قد وعدونا بأننا سوف نجد خبزاً وماء في أريحا، وأنه سيكون بإمكاننا إراحة أنفسنا هناك، وعندما رأوا أن ثائرتنا تكاد تنفجر، جعلونا نهدأ بكلمات ناعمة، قائلين بأننا سوف نصل على الفور إلى نبع جيد، وأن خبازين سوف يلحقون بنا من أريحا، جالبين الخبز معهم، ولذلك خرجنا من أريحا، وتقدمنا باتجاه جبل القرنطل، ولدى مرورنا بين أسوار الحجارة الجافة لبساتين أريحا، رأينا أجمل الحدائق، التي كانت تسقى من مياه الجداول التي تسيل من نبع اليشع، ولذلك سوف أحدثكم عنها في مكانها.

ورأينا في هذه البساتين كثيراً من أشجار الجميز، التي هي أشجار طويلة، وقد ذكرنا مشهدها بشجرة الجميز التي تسلقها زكاً، عله يرى يسوع (لوقا:١٩)، وإلى جانب أشجار الجميز، نمت أشجار أخرى، تألفت من أشجار الفواكه،ودوالي عنب الخمر الطيبة، مع كثير من أشجار التين، الحاملة لثمار حلوة جداً، ومثل هذا، رأينا هناك أنواعاً متعددة من الورود والزهور، من مختلف الأشكال، وشممنا روائح طيبة جداً، لأن النباتات الشوكية والأشجار، تحمل وروداً رائعة بشكل خاص، وفواكه حلوة، وبدا أن الأعشاب الخضراء، وكذلك حشائش الطبخ، قد نمت هناك بشكل كانت أفضل فيه من أي مكان آخر، فكل

النباتات وكل ماكان نامياً هناك في التربة كان مزدهراً إلى أبعد الحدود.

ولهذا شبهت الحكمة الربانية نفسها إلى الوردة، لكن ليس إلى أي وردة، بل إلى وردة أريحا، ذلك أن ورود أريحا هي الأكثر جمالاً، ولقد قرأنا في سفر الإلهيات:٢٤/ ١٤، «لقد أطريت مثل وردة في أريحا»، وكذلك أعلنت العذراء المباركة عن نفسها، كل يوم، على لسان الكنيسة، أنها مثل وردة في أريحا، وفي الحقيقة، هذه الورود هي الأجمل، وهي تشبع النظر بجمالها ورونقها، وتجعله يبتهج بشم شذاها، ويتمتع بملامسة لطافتها، فهذه الورود تشفي المريض بفضائلها، وتبعث السرور في نفس الحزين بألوانها، وتجعل حتى المتزمتين من الناس يعجبون بروائعها ومظهرها، وتمثل الورود بجمالها الشكل المتوقع للفردوس، وكان في واحدة من هذه الأشجار أكثر من مائة وردة.

ولدى ذكر يوسفيوس لهذه البساتين، في كتابه «تاريخ حروب اليهود» الكتاب الخامس، الفصل الثامن، قال بأن هذه المنطقة اعتادت فيما مضى على انتاج البلسم، الذي هو أثمن الثمار جميعها وشجر السرو الذي ينتج صمغ المصطكا، وذلك إلى جانب ثمار النخيل، من مختلف النكهات والأسماء، والذي عندما يعصر يعطي كثيراً من العسل، الذي قليلاً منه تغني عن العسل الحقيقي، وبالنسبة للفواكه الأخرى أيضاً، من الصعب القول بأن بلداً آخر في العالم يمكن أن يساويها، فهي تنتج أضعافاً مضاعفة كل بذر يبذر في أرضها، وقد اعترتنا الدهشة تجاه خصبها العظيم، في الوقت الذي كانت فيه المنطقة التي فوقها والتي تحتها جرداء، وسبب خصب التربة هو نبع اليشع.

جرزيم وعيبال: جبلا المباركة واللعنة

وتابعنا صعودنا مسايرين مجرى الماء الذي يسقي هذه البساتين، وذلك باتجاه المنطقة التلية، التي منها تتدفق، وتلك المنطقة التلية

مرتفعـة،وقد رأينا هناك جبلين يقـابل أحدهما الآخـر، اسم الأول منهما جرزيم، واسم الآخـر جيبال أو عيبـال، هذا ويقول السامـرة بأن هذين الجبلين واقعان قـرب نابلس، التي هي شكيم، وفي الحقيقـة يقول بعض الكاثوليك مثل هذا، وقـد وجـدت الأمـر كـذلك في كثير من أوصـاف الأرض المقـدســة، غير أن جيروم المبـارك، قـد قـال في كتـابه «حـول المسـافات بين الأمـاكن» بأنهم يخطئون كثيراً بجعلهم بعض الجبـال هي جبلي جـرزيم وعيبـال(٢٠٥)، غير الجبلين اللذين هما قـرب أريحا، لأن الكتابات المقدسـة تشهد دوما بأنهما قرب الجلجـال، فضلاً عن هذا، إن الجبلين اللذين قـــرب شكيم، واللذين يقـــولون عنهما بـأنهما جـــرزيم وعيبال، يبعد أحدهما مسـافة طويلة عن الآخر، وكذلك من غير الممكن سماع أصـوات المبـاركـة واللعنة منهما معـا، وقـال بعضهم بأنهما الجبلين الواقعين فوق بيعـة القديس يوحنا، وتحت الجلجـال، ولكنني لا أصدق هذا أيضـاً، لأن هـذين الجبلين مجرد تلتين من الرمل، تجمعتـا بـوسـاطة الريح، ولاتتسعان لعدد كبير من الناس، ولالعـدد الأمراء الكبير، فضلاً عن هذا من غير الممكن إقـامـة مـذابح من حجارة غير مصقـولة فـوق الرمال، وذلك مثل المذابح التي ورد ذكرها في سفر التثنية:٢٧.

ودعونا —على هذا— نقف مع القـديس جيروم، بأن هذين الجبلين، الموجـودين على يميننا هما جبلي جـرزيم وعيبال، بما أن أمـراء الأسبـاط الاثني عشر كـان يمكنهم الـوقـوف، وبنـاء مــذابح والصراخ بلعنات ومباركـات، وارسالها من الجبل الأول إلى الجبل الآخـر، وكذلك يمكن للناس الوقوف في السهل من تحت، وسماعهم.

ولدى مشـــاهدتنـا لهذين الجبلين، أصــابنا الرعـب، بسبب اللعنات المخيفـة التي أنزلت على الذين أهملوا الشريعـة، الأمـر الذي من الممكن العثور عليه في سفـر التثنية:٢٧—٣٨، ولايمكن لأي مسيحي أن يقول بأن تلك اللعنات والمباركات، عائدة إلى اليهود فقط، ذلك أنهم يعودون

إلى المسيحيين أيضـاً، فلنقرأ مـا جـاء في انجيل متى:٥/ ٢٠ قـوله: «فإني أقـول لكم إنكم إن لم يزد بـركم على الكتبـة والفـريسيين لـن تدخلوا ملكوت السمـوات»، ومن هذا إنه واضح بأن هذه اللعنات والمباركـات تتعلق بنا بشكل كامل بالنسبـة للقضايا التي أمرنا بمراعـاتها، بعد قدوم الرب، وهكذا جثـونا على ركبنا أمـام هذيـن الجبلين، ودعـونا إلى رب الجبال.

المكان الذي سخر فيه الأطفال من اليشع النبي الأقرع

وابتعدنا بعـد هذا عن جبلي المباركـة واللعنة، ووصلنا إلى سفح جبل القـرنطل، وسرنا إلى جـانب مجرى الماء، وذلـك على طول الطريق الذي يقـود من أريحا إلى بيت ايل، الذي قرأنـا عنه بأن النبي اليشع قد صعـد عليه (الملوك الثاني: ٢/ ٢٣—٢٤)، وعندما كان صاعداً، جاء عدد قليل من الأطفـال من أريحا، وسـاروا خلف الـرجل المقـدس وسخـروا منه، وقـالوا لـه: «اصعـد أيها الأقـرع»، وعندمـا سمعهم النبي ورآهم صلى ولعن أولئك الأطفـال، وعلى الفـور قدم دبان من الغـابة وافترسـا اثنين وأربعين من هؤلاء الأطفال، ونعـرف من هذا أنه شيء خطير أن نسخر من رجل عجـوز، أو من أناس قرعـان، لابل على العكس علينا بالحري احترام الرجـال المتقـدمين بالسـن من ذوي الرؤوس البيضـاء، أو الصلعان.

** ** **

رحلة الحجاج إلى نبع النبي اليشع

واثر مغـادرتنا للمكان الذي سخـر فيه من الـرأس الأقرع المقـدس، مضينا صاعـدين(٢٠١) مسايرين لمجـرى الماء، حتى وصلنا إلى مستنقع عميق، توجب علينا بذل جهد كبير لعبـوره، والتصق بعض الرجال مع حميرهم في الطين، وبصعـوبة بالغـة أمكنهم الخروج، وثيـابهم كلهـا قـد

توحلت، أما الذين سلكوا ممراً جانبياً فحصلوا في مكان أعمق، في حين واجه الذين بذلوا جهودهم للعبور حيث نمت النباتات، مشاكل مضاعفة، لأنهم غرقوا في وحول عميقة، ووصلوا إلى أشواك حادة جداً، لأن جميع النباتات التي تنمو في تلك البلاد دونها زراعة، لها أشواك حادة، أدنى لمسة لها تسبب جرحاً خطيراً، وكأن رؤوس الأشواك مسممة، وفي محاولة عبوري هذا المستنقع سقطت مع حماري بين هذه الأشواك، ولم أستطع الخروج منهم سالماً، غير أنني بذلت غاية جهدي وكنت خائفاً، وحككت كثيراً من الفتحات التي تمزقت من ثيابي:

إن الشوك والقتاد مؤذ لعقل الراهب

لأن ثيابه تبلى هناك وتتمزق

وبعدما عبرنا المستنقع، صعدنا مسايرين لجانب مجرى الماء، ووصلنا إلى مكان فيه نوع من أنواع الطواحين، حيث تحرك المياه دواليب، وحيث لم يتوفر هناك ممر للصعود مسافة أعلى، إلا من خلال الطاحون نفسها، وعندما وصلنا إلى هناك، وقف صاحب الطاحون وخدمه عند الباب، في مواجهتنا، وبأيديهم عكاكيز ورماح، ومنعونا من المرور خلالها، إنما بعد جدل طويل اقتحم أدلاؤنا ودخلوا إلى البيت، وعملوا لنا ممراً للمرور من خلاله، ومضينا من الجانب الآخر من الطاحون نحو الأعلى أكثر، ووصلنا إلى مكان ظليل مليء بالأشجار والنباتات، من وسطها تتدفق المياه في مساحة كبيرة، وهنا ترجلنا من على حميرنا، وسرنا نازلين تحت أوراق خضراء، كل جماعة لحالها، وجلبنا ما كان قد بقي في جعبنا، وأكلناه وشربنا من الماء، الذي كان ينبع من بين الصخور، وكان نقياً، براقاً، وطازجاً وصحياً، هذا وعندما جلبت جعبتي وأخرجت ماكان فيها من بقايا، وجدت كل شيء قد تكسر وتمازج من البيض المسلوق والخبز والجبن، وقد حدث هذا لي عندما كنت أحاول السير في المستنقع والخروج منه مع حماري، فوقتها تعرضت جعبتي لكثير من

الحركة، حيث كانت تحتي، ذلك أنني جلست فوقها، وهكذا انسحق طعامي إلى قطع صغيرة جداً، وعلى كل حال، بما أنني كنت جائعاً جداً، فقد جلست أرضاً، وأكلت تلك الفتات الممزوجة بكل سرور، لأنه بالنسبة للانسان تبدو حتى الأشياء المرة، حلوة كما قال أيوب (الاصحاح:٦/ ٧): «ماعافت نفسي أن تمسها هذه صارت مثل خبزي الكريه»، وأعترف أنني تناولت هنا بدون كراهية، الأشياء التي كنت في الوطن أكره النظر إليها، أو حتى كنت أرتجف نحوها، وحزنت بسبب ضآلة كمية تلك الفتات، ونحت وبكيت بسبب قلتهم، لكنني أنعشت بوساطة واحد من الرهبان الفرنسيسكان، الذين عرفوا هذا الحج بالممارسة، والذين أعدوا لأنفسهم زاداً كافياً من الخبز وكذلك من الخمر، وفي الوقت نفسه، عندما كنا جالسين هناك، قدم إلينا رجال ونساء من أريحا، جالبين معهم سلالاً كبيرة مليئة بالعنب وأرغفة الخبز، التي اشتريناها وعملنا بذلك وجبة جيدة من دون أي طعام مطبوخ.

وبعدما انتعشنا، إنما وفقاً لطعامنا، وليس وفقاً لمعيار رغبتنا، جلسنا للاستراحة، وأخذ كل واحد منا المكان الذي استقر فيه، وأزحنا الحجارة التي أعاقت تمددنا على الأرض، لأن الأرض كلها كانت مليئة بحجارة حادة جداً، ومع أن هذا الفراش كان قاسياً، لقد لبى حاجتنا للاستراحة، وذلك بالنسبة لنا وللمكان، لأننا كنا منهكين ومصابين بالإعياء، وقد مرت بنا الليلة الفائتة بلا نوم تقريباً، بعد الجهود التي بذلناها وبعد استحمامنا في الأردن، فضلاً عن هذا كانت أيام القمر قد حلت، وهي الأيام التي اعتاد الناس أن يغلبهم النوم فيها.

وكان المكان ظليلاً، ومحمياً من الحرارة، وكانت المياه متوفرة أيضاً، وكانت وهي تجري فوق الصخور تعمل صوتاً يستدعي الرجل المتعب للنوم، علاوة على ذلك كانت أوراق الأشجار والنباتات تتصارع مع بعضها بعضا، أثناء هبوب الريح عليها، وجعلت أصواتها نومنا أكثر

حلاوة، لأنه كان هناك غدير له مياه صافية جداً، وكان يسيل بين النباتات الخضراء بخرير لطيف، ورائحة طيبة صادرة عن النباتات، وكانت الريح تحرك الأغصان بأصوات صفير منخفضة، تحث المتعب على الاستراحة، وفي تلك الأثناء، نهض بعض الحجاج، بعدما استراحوا قليلاً، وصعدوا مجارين لمجرى الماء، قاصدين الوصول إلى المكان الذي تنبع منه المياه من الجبل، لكن المسلمين تصدوا لهم، وأرغموهم على الفرار بوساطة الحجارة، وأجبروهم على العودة إلى أماكنهم.

وصف نبع النبي اليشع: كيف كان وماهو عليه الآن

يطلق على النبع الذي يصدر عنه هذا الجدول، اسم نبع اليشع، ومصدره ليس بعيداً عن المكان الذي استرحنا فيه، وعلى كل حال لم يسمح لنا بالذهاب إلى هناك، وهو بعيد مسافة لابأس بها عن سفح الجبل، يتدفق بكميات كبيرة من المياه، تجري بجدول قوي، وتتدفق نحو فسحة واسعة، وتسقي المنطقة السهلية حول أريحا، وتسيل من هناك نحو البحر الميت، ولهذا افترض بعضهم بأن مياه البحر الميت قد اتخذت طريقها إلى هناك بوساطة قناة تحت الأرض، وأنها تتدفق هنا، ومن ثم تعود ثانية إلى المكان الذي جاءت منه، ومن هذا النبع إلى البحر الميت، مسافة ثلاثة أميال ألمانية.

وكانت هذه المياه قبل اليشع، غير قابلة للاستخدام والشرب، لا للبشر ولا للحيوانات، بل كل من أرغم على الشرب منها، كان يتلوث فمه، وحلقه، ولسانه، وبلعومه، على الفور بطعم المرارة المقيت، وإذا ما ابتلع أيا من هذه المياه، كان يقع مريضاً مباشرة، بداء يشبه مرضاً مميتاً، كان يتبعه الموت، وذلك مثلما تفعل مياه البحر الميت في هذه الأيام، فضلاً عن هذا، كانت كل امرأة تستخدم هذه المياه تتحول على الفور عاقراً، والتي هي حامل بولد في الرحم كانت تهلك لدى تذوق هذه المياه، وحدث مثل هذا مع الدواب، وكانت الأرض التي تسقى بهذه

المياه، تصبح غير قادرة على انتاج أي شيء أخضر، بل تتحول إلى أرض غير صالحة، وهكذا صارت مدينة أريحا، حيث تضررت كثيراً بجريان هذه المياه الملوثة.

وحدث في أحد الأيام أن النبي مرّ بأريحا، وقد استقبل ببهجة واحترام من قبل شعب أريحا، وعندما سألهم عن أوضاع مدينتهم أجابوه: «اعلم، نرجوك، إن وضع المدينة جيد، لكن الماء فيها ليس كذلك، والأرض جرداء»، وعندما سمع النبي هذا، أخذ كأساً مملوءاً بالملح، ومضى نحو نبع الماء، وألقى الملح فيه، وقام وهو رافع يمينه، يمين الصلاح نحو السماء، ووقتها صب سائلاً مهدئاً في النبع، وصلى لأن يوقف هذا السائل مرارة النبع، ويفتح عيون ومجاري الماء العذب، وتوسل إلى الرب أن تهب على النهر ريحاً مثمرة، وأن يمنح سكان المدينة، الوفرة في الثمار الناتجة عن الأرض، وأن يزيد من تعداد الأطفال حتى يرثوهم، وبهذه الصلوات صار الماء صحيا، وعذباً أكثر من أية مياه أخرى، والينابيع والمياه التي كانت حتى الآن سبب القحط والمجاعة، أصبحت الآن مصدر الخير والخصب، وصارت قوة المياه عظيمة جداً، إلى حد لو أنها بللت الأرض فقط كانت تجعلها أكثر خصباً من الأراضي الأخرى التي تقف فيها المياه مدة طويلة، والذين يستخدمونها بكثافة يجنون قليلاً، أما الذين يستخدمونها بقلة فيجنون وفرة عظيمة.

علاوة على ذلك، تسقي هذه المياه مساحة أكبر من غيرها من مياه الينابيع الأخرى، وتروي سهلاً طوله خمساً وسبعين غلوة، وعرضه عشرين غلوة، وتعمل حيث تمرّ بساتين فائقة الجمال، وهذا ماتحدثنا عنه أعلاه، وهذه المياه في الصيف باردة، وفي الشتاء دافئة، وتحمل النساء اللائي بلا أولاد، والحيوانات العقيمة بعد الشرب من هذه المياه والاستحمام فيها، ولخصوبة وصحة مجرى هذا الماء، لن يخطىء الانسان، إذا ماقال بأن تلك القطعة من الأرض بأنها سماوية مقدسة، ويقدر

الناس جميع الثمار هناك تقديراً عاليـا، لأنها تنمو كبيرة، وفـائقة الجودة، فهـذا مـاقالـه يوسفيوس في كتـابه الثـاني من «تاريخ حـروب اليهـود»، الفصل الثامن.

ويبعد هذا النبع مسافة مـائة وخمسين غلوة عن القدس، وستين غلوة عن الأردن، وجميع المنطقـة من القـدس حتى هناك هي قفـار حجـرية ، وتمتـد نزولاً حتـى الأردن، والبحـر الميت هو منخفض ومثـل شـاطىء بحـر، لكنه أجــرد، وغير مفلوح مثل البقيـة، وذلك بـاستثناء الأجـزاء المروية من قبـل ذلك النبع المبــارك، فهي مــزدهـرة خضراء مثل الجنة، وشربنا من هذه الميـاه مثل أبقـار، وبدون حـدود، لأننا عندمـا وصلناها كان الجفـاف قد أعيـانا، وكنا عطشى إلى أبعد الحدود، ومع ذلك مـامن انسان تأذى من اسرافه بالشرب، فهذه الميـاه مع قدرتها الشافية، قد أتت الكنيسة على ذكرها في قداس من أجل تكريس الماء المقدس.

الصعود الخطر إلى الكهف الذي صام فيه المسيح ووضع ذلك الكهف والجبل

وهكذا استرحنا إلى جانب الجدول، الذي كان يسيل من النبع المتقدم الذكـر، لمدة سـاعـة أو أكثـر، منتظرين أن تخف حـرارة الشمس، إنما في الوقت نفسه، وعلى الرغم من الحرارة، عانينا من أعمال شاقة، لكن لسنا جميعـاً، بل فقـط الذين رغبـوا بالعمل، وكـــان يمكنهم ذلك، وعلى كل حال شارك الشطر الأكبر من الحجاج في هذا العمل، وفي المخاوف التي تلته.

فقد نهضنا، وتـركنا الظل البارد والمنعش، وخرجنـا من بين الأشجار الجيدة، إلى حرارة الشمس المحرقة، ومن دون وجود ممر، تجمعنا لنتسلق جبـلاً عاليـا، وزحفنا صاعـدين الصخـور والحجارة، وفي هذا الصعـود تخلف عدد من الأصحـاء والذين قهرهـم الحر، وكـانوا غير قادرين على

المتـابعة، بل استراحـوا حتى استردوا أنفـاسهم، ثم نزلوا إلى الظل مـرة ثانية، وأثناء صعودنا وصلنا إلى حيث كان بعض الحجاج والسيدات من جماعتنا في الحج، كانوا قد وصلوا إلى هناك وقت سـاعة الاستراحة، فقد كـانوا جالسين، دون التجـرؤ على المضي أبعد، وعندمـا سألناهم، لماذا لم يتابعوا سيرهم نحـو الأمام، أجابونا أنهم لن يتابعـوا الصعود مقابل أي شيء في الدنيا، وذلـك بسبب مخاطر الممر، فالذي عليـه أن يرتحل هناك، لابد له من السير على الجهـة اليسرى، على طول حـافة واد عميق جـداً، وأيضـاً على طـول ممر ضيق كثيراً، بحيث مـامن أحــد يمكنه المرور إلاّ بالسير على الجوانب، لأن الممر قائم على وجـه جدار من الصخر، شكله أنك تجد على جهتك الأولى هناك وادياً عميقاً جداً، وعلى الجهة الأخرى جـداراً مرتفعـاً وعاليـاً من الصخـر، يتوجب على الانسـان المتسلق بأن يتوجـه نحوه بوجهـه، وذلك خشية أن يفقـد وعيه من الخوف من الهوة السحيقة التي تحت، وأيضاً من أجل أن يمسك بالجدار بكلتا يديه، وإذا مـاوجـد هناك أمـاكن يمسك بها، يمكنه أن ينظر إلى قـدميـه ليرى أين يمكنه أن يضع قدمه الأولى بعد الثانيـة، ويده الأولى بعد الثانية، لأنه إذا ما انزلقت قـدمه، أو انزاحت جـانباً من المكان الذي وضعهـا فيه، لابد من أن يسقط على رأسه إلى الوادي في الأسفل، لأن الوادي موجود عند ظهره، وأمـام وجهه جـدار من الصخر منتصب عـاليا في الهواء، وتحت قدميـه ممر ضيق وغير مستوي، وهو في بعض الأمـاكن متقطع بفجوات وتشققـات في الصخر، ومـن خلال هذه الفجـوات يمكن للانسـان أن يلمح وجود أعماق سحيقة ومظلمة.

وإذا مانظر المسافر الصاعـد نحو الأسفل إلى الوادي، سوف يبدأ على الفـــور بالارتجاف، لأنـه تطلع نحـــو الأسفـل من مثـل هذا الجرف الشـاهق،وإذا مـانظر نحـو الجدار الـذي تعلق به، يخاف من امكانيـة ان تسقط الصخـور المعلقة فوقـه عليه، وشجعنا أنفسنا، وتسلحنا بـالنعمة،

ودخلنا إلى هذا الممر الضيق، الذي من خلاله اتخذنا طريقنا، لكن ليس من دون خوف، ووصلنا بعد هذا إلى مكان للصعود خطير جداً، وقف عند سفحه عدد كبير من الفرسان بدون حراك، خوفا من تسلقه، لأن معنى الانزلاق أو أن يدوس الانسان فوق مرقاة غير صحيحة أثناء التسلق،كان الموت، ذلك أنه لم يكن هناك من سبيل للصعود، إلاّ أن يضع الانسان يده ثم قدمه حيث يستطيع ذلك.

وعندما وصلنا إلى القمة، قدمنا إلى مدخل كهف، وهناك وقف بدوي مسلم وبيده عكاز،(٢٠٨) وماكان ليسمح لأحد بالدخول مالم يدفع مارك بندقي، ودفعنا هذا المال، ودخلنا إلى الكهف، فهناك —كما هو معتقد — صام الرب يسوع لمدة أربعين يوماً وليلة، وذلك حسبما جاء الخبر عند الانجيليين (متى:٤، مرقص:٢١ ولوقا:٤)، وغنينا هناك «Ductus est jesus» الخ، مع ترانيم أخرى معينة في كتب مسيرة الأرض المقدسة، وانحنينا بعد هذا بأنفسنا ونحن نصلي، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) وبقينا لبعض الوقت في هذا الكهف الأعظم قداسة، في حالة تأمل، وأحاديث خاشعة، فهنا — على هذا— أقام مخلصنا وحيداً، حيث صام وصلى، وسهر، وتمدد، ونام على الأرض العارية، وعاش بتواضع وهدوء مع حيوانات الحقل، وابتهج عندما صلى وتعبد بوساطة الملائكة.

آه، ما أقدس هذا القفر! الذي إليه اقتاد الروح القدس ابن الرب،القفر الذي قدسه الرب يسوع بسكناه فيه، وشرفه بصيامه ذي القيمة العالية، ومجده بالأمثلة الرائعة من الفضائل التي أبداها، وهنا فضح دسائس أعظم أعداء الجنس البشري، وأشدهم، وسلم إلى الذين تعرضوا للإغواء من قبله، الوسائل التي يمكنهم بها التغلب عليه، ولهذا ان هذا الكهف جدير بأن يسمى مدرسة الفضائل، وليس مجرد كهف في القفار.

وبعـدما فـرغنا من تأملنا، سرنا للقيـام بتفحص هذا المكان المقـدس، وأمعنا النظر في هـذا الكهف بفضـول اكثـر من ذي قبـل، وهو كهف واسع نسبيـا في الصخـر، ليس منحـوتاً بعمل بشري، بل هو محفـور من قبل الخالق منذ البـداية، له من جانبـه الأول ضوء ينزل إليـه من الأعلى من خلال فتحة، وكان هذا الكهف قد جرى تكريسه في القديم من قبل المسيحيين، واتخذ بيعة، وكـان فيه مذبحين وصـوراً على الجدران، مازال من الممكن رؤيتهـا، ويوجد من خـلال الفتحة التي يدخل منهـا الضوء إلى الكهف طريق إلى قمـةالجبل، وذلك فـوق صخرة شـديدة الانزلاق، والصعود إلى هـذه القمة خطير جداً لأن يقـوم به أي انسان، وكـان من خـلال هذا الطريق أن أخذ الشيطـان الرب يسوع إلى قمـة الجبل، ومن هناك أراه جميع ممالك الأرض، كما سنوضح ذلك.

وقـد تسلقت من خـلال النافـذة، غير أننـي لم أتجرأ على المغـامـرة بالصعـود إلى فوق، وفي الحقيقـةلقـد ارتعدت تجاه منظر الهوة السحيقـة الموجـودة تحت، ونحـو ارتفـاع الصخـرة فـوق، ووقف عـدد كبير من الحجـاج الآخـرين يراقبوننـي، حتى إذا ما صعـدت، قـام كثيرون منهم باتباعي، وهكذا بعـدما رأينا كل ماكان في الكهف المقـدس، خرجنا منه مع الحذر نفسه والخوف، وتسلقنا فـوق الصخور باتجاه آخـر إلى كهوف أخرى، لأن حول الجبل هناك كهوف في الصخور، وتحت الحجارة، وفي الجدران الحجـرية، وهذه الكهـوف بعـض منهـا طبيعي، وشطر آخـر مصطنع، وفيهم اعتـاد القـديسـون المسيحيـون على الإقـامـة في الأيام الخالية، لأنه وقتها كان الجبل كله مليئاً برجال دين أمضوا أوقاتهم هناك مع الرب في استغفار مميت للجسد، وقمت خلال حجيّ بالتجول حول هذا الجبل المقـدس، فوجدت كثيراً مـن القلايات قد نحتـت في الصخر الأصم، وكهـوف في أشـد الجروف انحـداراً، وأقبيـة على أخطر المنحـدرات، فيهـا كـان بإمكاني رؤية أمـاكن الاقـامـة الخطرة للرهبـان

المقدسين، وكان من الممكن بالنسبة لي أن أتتبع الآثار في هذه الكهوف، فأميز أماكن للصلوات، وأخرى للنوم، وثالثة لتحضير الطعام، وأماكن لحفظ الحاجات الضرورية، وكان في الجدران حفراً مربعة لوضع الكتب فيها، ورأيت في الجهة المقابلة من المنحدرات كهوفاً، لم يكن من الممكن لأحد أن يصل إليها، إلاّ صيادي الماعز والحيوانات البرية، وفيها قد عاش فيما مضى رهبان، كانوا قد اعتادوا على الدخول والخروج، عبر ممرات سرية، بطريقة كانت تخفيهم عن الناس جميعاً، وذلك من أجل أن لاينزعجوا بزيارة الناس لهم.

لكن ويالللأسف، جميع هذه الكهوف والقلايات فارغة الآن، وهي مسكن للحيوانات المتوحشة، وقبل مضي سنوات قليلة انقضت، كان رهبان شرقيون مايزالون يعيشون هناك، لكنهم طردوا من قبل واحد من السادة المسلمين من غزة، حيث دمر الممر إلى الكهف، وبذلك لم يعد أحد قادراً على الوصول إليه، لكن السلطان، عندما تشكى المسيحيون إليه، رمم الممر حتى صار في الحالة القائمة الآن، ولقد حدث أنه إلى هذه المنطقة الجبلية، كان ارسال الجاسوسين من قبل يوشع إلى أريحا، وقد صعدا إليها للالتجاء، ومكثا هناك متخفيين في هذه الكهوف وفقا لمشورة راحاب العاهرة، وذلك حسبما قرأنا في يشوع:٢.

صعود جبل آخر والمشاكل التي واجهناها هناك

وبعدما فرغنا من تفحص أماكن سكنى وكهوف القديسين بدقة، رغبنا في أن نكون على قمة الجبل، التي إليها هناك ممر طويل فوق صخور منزلقة، وقد بدا لنا هذا الطريق جرفي وشديد الانحدار، لذلك من المعتقد أن مامن انسان قادر على تسلقه، وكان معنا رجل، كان قد تسلقه فيما مضى، وقد أخبرنا أنه لن يكون بامكاننا الوصول إلى القمة من ذلك الجانب، لكن إذا ما أردنا الصعود، علينا أولاً أن ننزل ثانية كل الطريق الذي صعدناه، وأن نسير حول سفح الجبل باتجاه الشمال،

فمن ذلك الجانب يمكننا الصعود من دون خوف من الجروف، إنما ليس من دون تعب ومشقة، وبناء عليه نزلنا ثانية حتى وصلنا تقريباً إلى المكان الذي تركنا الحشد فيه، وهناك وقفنا، وتناقشنا حول ما إذا كنا سنسير حول الجبل، ونتسلقه، ذلك أنه لم يكن معنا دليل يرينا المكان الصحيح للصعود منه.

وصدف — على كل حال— أن مسلما طويلاً في سن المراهقة، كان عابراً على المنحدرات التي كانت فوقنا، وقد استدعيناه إلينا، وأعطيناه مدنوس حتى يقودنا إلى القمة، وأخذ الشاب المال، وبدأ يسير نحو مكان الصعود، وقمنا نحن باتباعه، وعندما رأى أدلاؤنا هذا، خرجوا من الظل، وبدأوا يصرخون لمنعنا من الذهاب، قائلين بأنهم على وشك مغادرة المكان واستئناف السفر، علاوة على ذلك، وقف الحجاج الآخرون الذين بقيوا في الظل، وبذلوا جهدهم لدعوتنا للرجوع، وتظاهروا بأنهم يتجهزون للسفر من جديد، وعلى كل حال، تبعنا الفتى، ولم نهتم بصراخهم، وفي الحقيقة كنا قد غضبنا من قيام إخواننا الحجاج بدعوتنا للعودة، وقد سمعت واحداً من الفرسان الذين كانوا معنا يقول: «لولا وجود المسلمين، الذين أخشى من غضبهم، لعدت وقمت بإهانة الحجاج الذين يصرخون خلفي، وإذا ماتابعوا صراخهم، سوف أريهم... العارية»، ولدى قوله ذلك جعلنا جميعاً نضحك من قلوبنا، وكنا في الوقت نفسه قد ابتعدنا مسافة طويلة عنهم، إلى حد أننا لم نعد نسمع صرخاتهم، لكن كنا نراهم وقد امتطوا خيولهم وحميرهم، وكأنهم قد عزموا على الذهاب من دوننا، ورأينا عدداً من الحجاج يركضون خلفنا، لكنهم عندما شاهدوا اصرارنا، أهملوا صراخ المسلمين والتحقوا بنا.

وبناء عليه تابعنا سيرنا، ولدى ابتعادنا عن نظر الحشد، وصلنا إلى المكان الذي فيه مكان بداية مكان الصعود إلى الجبل، حيث انتظرنا

هناك الذين كـانوا يتبعـوننا، حتى نكون جميعـاً مـع بعضنا، ثم شرعنا نتسلق تلة منحدرة، وقام وقتها واحد من الحجاج، فجثا على ركبتيه أمام الجبل، ودعـا إلى الرب، ثم بدأ يصعد الجبل في وضعـه ذلك مع ركبتين جاثيتين، وجسـده منتصب، وقد مـدّ ذراعيه على شكل صليب، وهكذا صعد فـوق ذلك الطريق العظيم الوعورة، والتلـة غير المستوية، دون أن يعين نفسـه بيـديه أو بقدميـه، لكنه عندمـا كـان يرغم، كـان يستند على مـرفقيه، بشكـل أنه لم يستخدم يديـه لجرّ نفسه بهما نحـو الأعلى، إلاّ في الحالات التي لم يكن بامكانه فعل ذلك بدونهما، كما حـدث عدة مـرات في أماكن منحدرة.

كم كـان التعب، وكانت المشقـة، التي عانى منهـا هذا الحاج في ذلك التسلق، والذي تبرهن مـن خـلال تأرجحـه مـن جنب إلى جنب، وهو يخطو صاعداً على ركبتيه، لأنه عندما خطا بركبته اليسرى، مال كلياً على جانبه الأيسر، وحدث الشيء نفسـه عندما خطا بركبته اليمنى، فمال على يمينه، وأثناء قيامه بذلك غالباً ماسقط على جانبه الأول أو جانبه الثاني، أو وقع متمدداً على وجهه، وقـد تمزق نعله، وسال الدم على ركبتيه على جلده، وبذلك صبغت كل خطـوة من خطواته بالدم، وتمزق كميـه عند مرفقيـه، وألمت الجراحة بذراعيه، وتورم وجهـه، وتغير المظهر الخارجي للرجل كلياً.

عجبـاً، كنا بصعـوبـة نزحف نحـو الأعلى، مستخـدمين لأقـدامنا ولأيدينا، في حين تسلق هو على ركبتيه وعلى أربعته، بكل رجولة، دونما اهتمام بعذابه، لأن الاستغفار التقوي يجعل الأشياء المرة حلوة، والأشياء الثقيلة خفيفـة، والأشيـاء القـاسيـة ناعمـة، أتوسـل إليكم، من الذي لايرتقي إلى الخشـوع، لدى رؤيتـه لهذه الشـدة، والصعـوبـة، وممارسـة الفضيلة من قبل ذلك الحاج؟، ومن الذي لايتـوب من ذنبـه لدى رؤية مثل هذه العقوبة المرعبة للمذنبين؟

وهكذا بعدما تسلقنا إلى قمة ذلك التل، رأينا فوقنا قمة أخرى بعيدة عنا، إليها تشوقنا بهمة عالية، وبأنفاس سريعة، ظانين أن تسلقنا لها سوف يكون هو النهاية،إنما بعدما وصلنا إلى تلك الذروة بكل مشقة، ظهرت لنا هناك ذروة أخرى عالية، كانت هي الأعلى في تلك المنطقة الجبلية، ومع أننا كنا أعلى من جميع الجبال من حولنا، صعدنا من ذلك الارتفاع الذي كنا فيه إلى جبل آخر مستدير، عريض من الأسفل، كان كلما صعدته صار مدبباً في الأعلى، وكان كلما غدا أعلى صار أعظم انحداراً ووعورة، وكان مغطى من كل جانب بصخور حادة جداً، مع أن الجبل نفسه كان من حجارة ناعمة جداً، منه اقتطعت هذه الصخور والجروف، وهكذا بادرنا مسرعين واحداً تلو الآخر، وبمشقة تسلقنا ذلك الجبل نفسه، ووصلنا إلى القمة هناك، وكان الذين وصلوا أولاً، يمدون أيديهم إلى الذين تحتهم وينتشلونهم فوق تلك الجروف، وانتظرنا نحن جميعاً وصول الحاج المتقدم الذكر، وسحبناه وهو متلاشي ونصف ميت،ثم سرنا إلى الجزء المتوسط من قمة الجبل، وجلسنا تحت جدار للبيعة هناك، في الظل حتى نسترد أنفاسنا، وذلك قبل أن نتلو صلواتنا، لأننا كنا منهكين جداً، ومصابين بالإعياء بسبب مابذلناه من جهود أثناء الصعود، كما كنا نتوهج من حرارة الشمس، ولذلك فإن بعض الحجاج عندما كانوا يحاولون الجلوس على الأرض لاسترداد أنفاسهم، وقعوا وهم يرتجفون ، وكان بعضهم قادرين بكل صعوبة على التنفس، وأثناء الجلوس للاستراحة، روحوا عن أنفسهم بالتهوية أمام وجوههم بقبعاتهم وبملابسهم.

واضطربنا كثيراً وقلقنا على واحد من الحجاج، الذي لا أريد ذكر وضعه ومرتبته، بسبب مشاعر تقوية،فقد تمدد هذا الحاج على الجبل مثل انسان ميت، بدون مشاعر أو عقل للاستخدام، بل سحبناه بين أيدينا مثل جثة هامدة، وقد استطاع راهب دومينيكاني من فلورانسا انعاشه

وردّه إلى وعيه، لأنه حمل منعشات لهذه الغاية معه، وأعتقد بشكل مؤكد أنه لو لم يكن ذلك الراهب هناك لمات ذلك الحاج فوق الجبل، وفيما يتعلق بإغماء ذلك الحاج أود أن أكشف هذا السر، من أجل تهذيبنا، فقد جاء هذا الحاج من البلدان الواقعة فيما وراء البحر، وكان كاهنا وراهبا متقيداً بدقة بأحكام نظامه، فلدى مغادرته لوطنه، عندما شرع في تنفيذ هذا الحج المقدس، ارتدى على جسده العاري دروعاً حديدية كاملة، هو لم يخلعها خلال الرحلة كلها، بل كانت مخفية تحت ثياب حجه ليلاً ونهاراً، في البحر وفي البر، وفي الحر والقر، وقد اتخذ سبلاً كثيرة لإخفاء هذه الدروع عنا، لكنه لم يستطع.

وعندما عرفت هذه وأشياء أخرى، وانتشرت بين الحجاج، جعلت حجهم أكثر تقوى من أية أماكن مقدسة أخرى، لأن مثل هذه الأمثلة كانت تثير الناس اكثر من الكلمات، وكانت الكلمات تحركهم أكثر من الأماكن،ويعتقد المسيحيون البسطاء والطيبين، أنهم إذا ماكانوا في المواضع التي صنع فيها ربنا يسوع عمل خلاصنا، عليهم استقاء كثيراً من التقوى منهم،غير أنني أقول لهؤلاء الناس، صدقاً إن التأمل والتفكر حول هذه المواضع، والاصغاء إلى وصفهم، فيه تهذيب وتأثير أكثر من رؤيتهم الفعلية وتقبيلهم، فما لم يضع الحاج أمام ناظريه بعض الأمثلة الحية للتقوى، تساعده الأماكن قليلاً في مسألة القداسة الحقيقية.

هذا وإن البكاء والتنهدات التي هي عامة في الأماكن المقدسة، تثور في الغالب من حقيقة أنه عندما يبكي أحد الحجاج، لايستطيع آخر منع نفسه من البكاء، ويحدث أحياناً أنهم جميعاً يبكون وينوحون، أو بسبب أن بعض الناس يمتلكون فن جعل أنفسهم يبكون حتى نحو قضايا لاعلاقة لها بالدين، ويذرف مثل هؤلاء الناس دموعاً لاقيمة لها في الأماكن المقدسة، وينوحون ويولولون كلهم تقريباً، إنما ليس بسبب القوة الذي يمارسها المكان عليهم، مع أن الأماكن قد تدفع على الخشوع

بكل تأكيد، إنما القضية تتعلق بالسهولة التي يكون فيها، ومما لاشك لديّ فيه، أن هناك عشرة مسيحيين جيدين في قلايتي في أولم، يرغبون برؤية الأرض المقدسة، والأماكن التي كانت مقدسة لدى الرب يسوع، وأن هؤلاء يمكنني أن أثير خشوعهم حول هذه الأماكن، أكثر مما لو أنهم كانوا منكبين على الأرض في الأماكن المقدسة نفسها.

وقد حرضت على قول هذا، في هذا المكان، بسبب أننا كنا خاشعين كثيراً على هذا الجبل، لأننا قد أنجزنا عملاً صعباً، ورأينا فضيلة عظمى متمازجة، وهكذا بعدما انتعشنا، واستردينا أنفاسنا نهضنا كلنا معاً، وأنشدنا القداس المحدد في كتب المسيرة مع الاضافات،وانكببنا بخشوع عظيم بأنفسنا نحو الأرض، وصلينا للرب، وقدمنا صلواتنا المتوجبة إلى الرب يسوع، لنظهر رفضنا للشيطان الذي كان يبكي كثيراً، وهو الذي تجرأ في هذا المكان على إغواء الخالق له نفسه ولجميع الأشياء، وأن يستجره إلى وعود كاذبة، لكي يهوي إلى عبادته، حيث أراه في لحظة من الوقت واحدة —كما قرأنا في لوقا:٤ — جميع ممالك الدنيا، ومجدها قائلاً: «لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن، لأنه إليّ قد دفع، وأنا أعطيه لمن أريد. فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع»، وحصلنا في هذا المكان على غفرانات مطلقة(++).

الاماكن التي رأينا من ذلك الجبل

وعندما فرغنا من صلواتنا، فجأة، وصلت مجموعة أخرى من أفراد الحجاج، إلينا، الذين قالوا بأننا لولم نصعد، لغادروا المكان منذ زمن طويل، وقد سررنا بقدومهم، لأنهم لوغادروا من دوننا، لسارت الأمور، بالحقيقة، بشكل سيء، ورفعنا الآن أبصارنا، ونظرنا من حولنا طويلاً وعريضاً، ورأينا بأعيننا كل ما ذكره القديس متى في الاصحاح الرابع، وتبين لنا أنه صحيح، وذلك عندما أطلق على هذا الجبل اسم جبل في غاية الارتفاع، لأن هذا الانجيلي ماكان ليقول «غاية» مالم يكن

الجبل بالفعل في غاية الارتفاع، وقد رأينا على كل جانب أماكن غالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة(٢١٠)، لأننا رأينا من جهة الشرق المنطقة الجبلية للعربية نفسها، الممتدة من خلال ممر طويل من الشمال إلى الجنوب، ويقوم بين هذه الجبال: جبل نوب، وجبل فشخة، أو عبريم، الذي منه رأى موسى الأرض المقدسة، وهو الذي رأيناه واقفاً متميزاً فوق البقية، ورأينا أمام أعيننا منطقة جلعاد الجبلية، التي أعطيت إلى سبط رأوبين، وسبط جاد، ونصف سبط منسا، وأرض وسهول مآب وعمون، حتى القفار الحجرية الواقعة عبر الأردن، هذا وكانت هذه كلها بعيدة عنا، وأيضاً رأينا هشبون وباشان، ورأينا على طرفنا من الأردن سهل أريحا العظيم، ومجرى نهر الأردن مع قفاره، والبحر الميت.

ورأينا باتجاه الجنوب، عبر البحر الميت، قفار القديس جيروم الكبيرة، وجبال عين الجدي، وجبل لوط، وبراري تقوع، ومنطقة أدوم التلية.

وباتجاه الشمال رأينا جبال اسرائيل، الذين كنا فيهم أيضاً، ولم نكن قادرين على أن نلمح الجبال التي قامت من حول القدس، لأنها كانت أعلى مماكناه، لأن جبال القرنطل وقفارها واقعة على كتف جبل الزيتون، وقد رأينا هذه الأماكن المتقدمة الذكر بوضوح أكثر عندما كنا على جبل عين الجدي، ولسوف نتحدث عن هذا الجبل وعن مسائل أخرى في ص٢٨٣ظ.

وأخيراً هناك عند سفح الجبل الذي وقفنا عليه، أريحا، التي تقع عاي (تل الحجر) إلى الجنوب منها، وباتجاه الغرب، هناك المدينة التي اسمها بيت إيل، حيث رأى يعقوب في منامه السلم، وحتى هذا اليوم من الممكن رؤية الحجر التي كان قد وضعها تحت رأسه عندما رأى السلم، والتي عليها صب زيتاً عندما أفاق من نومه، وقال العبرانيون بأن يعقوب قد رغب بالنوم، فكوّم ثلاث حجرات، ووضعهم تحت رأسه. بسبب أن النص يقول بأنه قد أخذ الأحجار من ذلك المكان، وذلك

بعدما أفاق من رؤياه المتعلقة بالسلم، وجعلت الأحجار الثلاثة في حجر واحد، ولهذا قال النص بأنه أقام حجراً واحداً، وفي هذا المكان، نصب يربعام،ملك اسرائيل، واحداً من العجلين الذهبيين، حتى لايذهب الناس إلى القدس، وقد قرأنا حول سلم يعقوب في سفر التكوين:٢٨، وعن العجل الذهبي في سفر الملوك الأول:١٢/ ٣٢.

وحملنا بعد هذا أنفسنا لمشاهدة الجبل نفسه، الذي كان في غاية الارتفاع، ولأنه منتصب قائم من منطقة سهلية، فإن الجبال على الجهة الغربية مستندة عليه، ولهذا هو أعلى منها، والجبل كله صخري، وأجرد، ومنحدر، وتقوم بيعة على قمته، هي الآن مهدمة، غير أن جدرانها وخرائبها مرئية في هذه الأيام، ويبدو وكأنه كان هناك دير،وفي ماقلناه كفاية.

عودة الحجاج نحو مدينة القدس المقدسة

وبعدما أمضينا ساعة على قمة الجبل المقدس، اتخذنا طريقنا نازلين، وقد مضى بعض الفرسان الشباب أمامنا، وهم يركضون ويقفزون نزولاً، لكننا تبعناهم بثبات فوق الصخور والجروف، والمنحدرات والأماكن المنزلقة، وعندما كنا على طريقنا نازلين، وأثناء وصولنا إلى جرف مرتفع، كنا نسمع من الأسفل من عند سفح الجبل صراخاً وأصواتاً عالية صادرة عن رجال كانوا يزمجرون غاضبين بالعربية والألمانية، وبين هذه الأصوات كان بامكاننا سماع واحد يصرخ Rob-bery، وبالألمانية كلمات: mordjo, mordjo، ولدى سماعنا ذلك، أدركنا مباشرة، بأن الفرسان الذين ذهبوا أمامنا كانوا في ورطة، ولذلك انزلقنا مسرعين نازلين، وقد انزلقنا بأنفسنا من فوق الجرف إلى مكان الخصام، فهناك كان قد وقف خمسة من النبلاء الحجاج في كهف عميق عند سفح الجبل، يمسكون حجارة بأيديهم، جاهزين لرميها، وقد وقف أربعة من البداة العرب أمام الكهف، مع حجارة وكانوا يزمجرون مع

بعضهم، فقد طلب البداة منهم مالاً على سبيل الخفارة، الأمر الذي رفضوه، ووضعنا أنفسنا بينهم بمثابة صانعين للسلام، خشية أن يرمي أحدهم الحجارة على الفريق الآخر، وقد رأينا أن هذا لو حدث، لعدّ جميع الحجاج خارقين لمعاهدتهم بالمرور الآمن، وكان سيسبب لنا اضطراباً عظيماً، وكان علينا بذل جهد عظيم حتى تغلبنا على رفاقنا لإلقاء حجارتهم، وطلب البدو أيضاً بعض المال، وأخبرناهم أننا لن ندفع لهم شيئاً في ذلك المكان، بل فقط وسط الحشد، وبحضور أدلائنا، وهكذا أحضرنا إخواننا من ذلك الكهف، وخلصناهم من أيدي البداة العرب، لكنهم لو كانوا أقوى منا، لما أمكننا المغادرة بسلام، علماً بأن أولئك الحجاج الخمسة كانوا سيأكلون البداة الأربعة لو أنهم وصلوا إلى الضراب، وعندما كنا مبتعدين عن هؤلاء البداة، هددوننا بأنهم سوف ينتقمون منا، وبالفعل قاموا بذلك، كما سيتضح فيما بعد.

وهكذا عدنا إلى الحشد في المكان الظليل، قرب الماء، وكان قد جلب إليهم خبز وعنب، ووجبات جاهزة، غير أن البداة المتقدم ذكرهم، دعوا إليهم أتباعهم، ومركزوا أنفسهم أمامنا، متسلحين بالرماح وبالاسلحة الأخرى، ووقفوا في وسط الطريق الذي كان علينا أن نقطعه أثناء ذهابنا، وعند غياب الشمس، وتناقص حرارتها، نهضنا من ذلك الموضع، وركبنا حميرنا وانطلقنا نسير فوق السهول، ولكن البداة العرب تصدوا لنا، رافضين السماح لنا بالمرور، قبل أن ندفع لهم خفارة من أجل ذهابنا إلى الجبل، وللمقاومة المتسرعة للحجاج، ذلك أن البداة يقولون بأنهم سادة القفار، والأماكن المشعثة، ولذلك هم لايعبأون بكتب الأمان، بل يجبون خفارات من جميع الذين يمرون من خلال الصحراء.

وهكذا وبعد جدال طويل، أرغم أدلاؤنا قبطاني الغليونين، على دفع ثماني دوقيات إلى البداة العرب كخفارة لدخول الجبال، ومن أجل

العنف الذي مورس ضدهم، ولأن الحجاج حملوا الحجارة ضدهم، وتخلصوا منهم بالقوة، ودفع القبطانين المال بغضب عظيم، مع عظيم اللعنات الموجهة إلينا، وأرادا أن يعرفا من كان السبب وراء هذه القضية، لكن مامن أحد أخبرهما، لأنهما لو علما من من الحجاج كان وراء ذلك، لاستخرجا المزيد من المال منهم، وبناء عليه عندما انتهت هذه القضية، وتركنا البداة وغادروا، نزلنا نحو أريحا، غير أنا تركناها على يسارنا، وتابعنا سفرنا باتجاه الجنوب،مسايرين لسفح الجبل، حتى يمكننا الوصول إلى الطريق السلطاني، الذي جئنا عبره عندما نزلنا إلى هاهنا من القدس.

وفيمانحن على الطريق العام فوق أريحا، وصلنا إلى بيت مقنطر، قد بني على شكل بيعة، حيث كان الموضع الذي أعطى فيه الرب يسوع النظر إلى رجلين أعميين، وذلك حسبما قرأنا في متى:٢٠، وكان الأول منهما معروفاً من قبل كثيرين، وكان اسمه بارتيماوس بن تيماوس، وهذا وحده ورد ذكره في مرقص:١٠، وترجلنا في هذا المكان من على ظهور حميرنا، وقبلنا طبعات قدمي الرب يسوع، وحصلنا على غفرانات(+).

واثر مغادرتنا لذلك المكان وصلنا إلى الطريق الصاعد إلى المنطقة التلية، التي هي جبل قفار أدوميم،وقام هنا فيما مضى بلدة، رأينا خرائبها وقد كان اسمها أدوميم، أي الصعود إلى الأيدي الحمراء، وذلك بسبب الدماء التي غالباً ما سفكت هناك من قبل قطاع الطرق، ومن هذا الحصن أطلق على جميع القفار الممتدة من أريحا إلى بيت عنيا، اسم أدوميم، ومن أجل حماية الرحالة المسافرين خلال هذا المكان الدموي المتوحش، جرى بناء حصن هناك، وهو حصن أدوميم المتقدم ذكره، وورد ذكر هذا المكان في سفر يشوع:١٨، علاوة على ذلك، نجد في الحكاية المثلية حول الرجل الذي نزل من القدس إلى أريحا، قد أتى الرب على ذكر هذا الطريق الخطير جداً، وذلك حيث جرى سلب

الرجل وجرحه (لوقا:١٠)، ولذلك نجد الألمان في هذه الأيام يدعون الحصن المتقدم الذكر مع القفار باسم Rothbach، ومعنى ذلك «نهردم»، لأن البداه يصعدون إلى هناك، ويكمنون في تلك القفار على جانب الطريق، ويسلبون العابرين، ولايتجرأ المسلمون على المرور صعوداً أو نزولاً، إلاّ في عساكر كبيرة.

وبناء عليه، عندما وصلنا إلى صحراء أدوميم، لم يتوقف أدلاؤنا عن حثنا ودفعنا للسير مسرعين، الأمر الذي لم يسبب لنا أدنى اضطراب في حجي الثاني، إنها من الصعب عليّ اخباركم عن المصاعب التي عانينا منها على ذلك الطريق في حجي الأول، وأتجرأ على القول أنني في حجي الأول، شخصيا ورفاقي تعرضنا لمصاعب وتعاسات على طريق حجنا إلى الأردن وحده، أعظم من كل ما واجهناه على جميع الطرقات التي سافرنا عليها في حجي الثاني، فعندما كانت الدنيا مظلمة وصلنا إلى أماكن منحدرة وتلال، وعندما كنا عاملين على التسلق أكثر نحو الأعلى، أرغمونا على الترجل من على ظهور حميرنا، وأن نسير على أقدامنا، لذلك كان من الصعب علينا التنفس لشدة حاجتنا إلى الطعام، ولقد رأيت عدداً كبيراً من الحجاج جالسين على ظهور حميرهم، وهم غير قادرين حتى على حمل مقاود حميرهم، بسبب ضعفهم، ولذلك سقط بعضهم، وتركوا حميرهم تذهب، وتمددوا على الأرض، ومع ذلك أرغمهم المسلمون بحنق على المتابعة، وكانت مشاق تلك الليلة لايمكن تحملها بسبب الظلام، وخطورة المنحدرات، والاغماء على الحجاج، والطريقة المرهقة التي ساقهم فيها المسلمون نحو الأمام، وكان الحال مثل سائقي عربات كانوا يحملون أوزاناً عظيمة في عرباتهم، فوق طرقات منحدرة وجبلية، وكانوا يهددون دوابهم ويحثونها على الاسراع نحو الأمام بصرخات لم تعرف التوقف وبضربات، إنهم مثل هؤلاء كان قادتنا، لم يتوقفوا عن تعجيلنا نحن ودوابنا فوق طرق خطيرة جداً،

حيث كان معنى انزلاقة واحدة الموت بالنسبة للدابة، وسقوط الانسان فوق واحد من الجروف والمنحدرات، وكان هذا العمل شاقاً إلى حد لو أن أي انسان لمح وجوه الحجاج بوساطة ضوء، لرأى وجنات مبللة بالدموع، وعيون محمرة من شدة البكاء، بين رجال كانوا في بلادنا مزينين بالذهب، والفضة، والحجارة الكريمة.

وسمعت في تلك الليلة بعضهم يئن، وبعضهم يبكي، وبعضهم يصلي، في حين كان بعضهم يلعنون أنفسهم، والطريق، والبلاد، وفروسيتهم، والمسلمين، وسمعت آخرين يتمتمون ويحدثون أنفسهم للحفاظ على ذواتهم، إنما خلال هذه المشاق كلها، تفوقت رفيقاتنا من الحاجات، والنساء العجائز، علينا جميعاً، حيث احتللن المكان الأول واستولين عليه من الفرسان، فلم يصدر عنهن أنين، كما أنهن لم ينحن بسبب متاعبهن، بل مضين في الصف الأول من المسيرة، أقوى من الرجال، وأشجع من الفرسان، ولقد وصمت هذه العجائز الفرسان بعار كبير، من خلال تحملهن، وفي الحقيقة قال فارس لي: «انظر ياأخي، أنا لا أعتقد أن هذه المخلوقات المسنة هي نساء مطلقاً، بل شياطين، لأن النساء خاصة النساء العجائز، ضعيفات، لطيفات، حساسات، في حين هؤلاء النسوة صنعن من حديد، وهن أقوى من جميع الفرسان»، ولكم وددت لو أن سليمان قد كان في حشدنا، فوقتها كان لن يجد امرأة واحدة قوية، بل عدداً كبيراً من النساء قويات، لأنه في أيامه عين جائزة لامرأة قوية واحدة ولو كانت من أقصى أطراف الأرض، حسبما ورد الخبر في الأمثال:٢١، ووقتها لم يجد أية امرأة قوية، ولذلك قال (الالهيات:٧): «رجلاً قوياً واحداً بين ألف، وجدت، لكن امرأة واحدة بين كل هؤلاء لم أجد»، ولو أنه كان في حشدنا، لما وجد رجلاً واحداً قوياً، لأنهم كانوا جميعاً محطمين بالتعب، وضعفاء بسبب الصوم، في حين لم تكن هناك امرأة ضعيفة، أو متذمرة، أو شاكية من الشقاءالذي

تعـرضت إليه وعـانت منه، ومن أين من الممكن قـد جاءت القـدرة إلى الضعفاء، والقـوة إلى النساء، إلاّ منه، الـذي اختار الأشيـاء الضعيفة في العـالم ليخـزي القوي، ومن الذي وضـع هؤلاء النسوة فـوق الرجـال، حتى لايمكن لواحد منهم التفـاخر بجنسه، وبقـوته، وبجماله، وبفتوته، أو بأصـالة مـولده؟ لأن أولئك النسـوة لم يكـن رجـالاً، ولاأقـوياء، ولاجميـلات، ولانبيـلات، ومع ذلك تحملن جميـع المتـاعب من دون الإصابة بإغماء، مثلما حصل للفرسـان، وهنا أخزى الرب شموخ هؤلاء الفرسـان الذين ازدروا اصطحاب هؤلاء السيـدات، وأن يكن برفقتهم، مثل الذي عـدّ مسألة صغيرة ضيـاع واحدة منهن في القفـار إلى جـانب الأردن، حسبما تحدثنا من قبل وهنا ستجد المزيد حول هذه القضية.

وإذا صـــدف وكنت ممن يضحك نحـــوهن، أو تستخف بـأوهامهن النسـوية، قد تجد الجواب في رسـالة جيروم ضـد فيجيلانتيـوس Veg-ilantius حيث قـال: «أنا لا أستحي تجاه إيمان النســاء، مشــاهداً أنها كانت امرأة التي شهـدت قيام الرب أولاً، والتي أرسلت الرسل، والتي أطريت من قبل الرسل المقـدسين، بشخص أم الرب مخلصنا»، لكن لماذا أضيع أنا الوقت على مـديح هؤلاء السيـدات العجـائـز؟ ليكن في ذلك كفاية في الوقت الحالي.

وهكذا وصلنا في حوالي منتصف الليل بعـد كثير من المتاعب وأعمال التسلق الشاقة، إلى نبع كـان ينبع من جانب رابية، وهذا النبع هو الذي أعتقـد أن اسمه نبع الشمس، كما ورد في يشـوع:١٨، ولعل سبب ذلك أنه قائم في مواجهة الشمس المشرقـة، وبأشعتها كان يسخن، أو أنه كان مقـرراً من قبل الروح القـدس، وجـوب تسميـة هذا النبع بهذا الاسم، بسبب شمس صلاح واستقامة ربنا المسيح، الذي من المعتقد أنه غالباً ما شرب منه، ذلك أنه صعد على هذا الطريق ونزل مـراراً عدة، وعند هذا النبع لم يرغب أدلاؤنا بأن نترجل، ولدى سماعنا ذلك نحن لم نترجل بل

رمينا أنفسنا من على ظهـور دوابنا بكل سرور، ويوجد حـول هذا النبع بناء قديم ومهدم ،الذي قـد بقي منه الجدران الأربعة فقط واقفة، ولعله كان فيها مضى محطة قوافل أو نزل، واسمه البيت الأحمر، واسمه هذا قد اشتق أيضـاً من اسم صحـراء أدوميم، وقـد دخلنـا إلى هذا البيت مع شمـوع مضاءة، وجعلنا المكان مناسبـاً لنا بوساطة إزالة فضـلات البشر والحيـوانات، وكان بـذلك مليئاً، وقد وضعنا حجـارة للجلوس عليهـا وللنوم.

وبعدما نظفنا المكان، جلسنا، وجلبنا آخـر ماكان في جعبنا من فتات، وأكلناهم، لكن الجزء الأعظم منا كـان منهكاً، حيث أنهم ما أن ترجلوا من على ظهور حميرهـم، حتى ألقوا بأنفسهم فـوق الارض، وكانوا غير قـادرين على الأكل، أو الشرب، أو الكلام، وكـانوا يأملون بالراحـة، وكـان في الوقت نفسـه حـول الماء تدافـع وفـوضى، فقـد كـان كل من البشروالدواب يبـذلون جهـودهم للوصـول الى الماء، ولهذا السبب كـان المرضى يصرخـون، لأننا جميعـا كنا عطشى، وكـان النبع صغيراً جـداً، ونشبت خـلافـات كثيرة بيننا وبين المسلمين، لانهم أنفسهم وقفـوا في الواجهة متماسكين، وشربوا مثل بقر، لكنهم لم يمنحونا مكاناً.

ولدى فـراغنا من طعامنا وشرابنا، وفق طريقـة خاصـة، أطفأنا جميع الأضـواء، وأخـذنا بالنوم فـوق الارض، وتمددنا فـوق الحجـارة، حيث غرقنا في نـوم عميق جداً، وبما أنه قـد قيل بأن الجوع طباخ جيـد، فهذا صحيح لانه يجعـل جميع الاطعمـة طعمهـا طيب، ومثل هـذا قيل بأن العمل فراش جيد، لانه يجعل جميع الامـاكن مناسبة للنوم والاستراحة، وكـان النـوم في هذا المكان خطيراً: أولاً، بسبب أن الجدران كـانت مهـدمة، والحجـارة التي انتزعت من الملاط، كـانت معلقة فـوق رأسنا، وتهدد بالسقوط، وثانياً، بسبب الأفـاعي، والعقارب المتخفية في الجدران القديمـة، وتحت الحجارة، وهي خطيرة جداً عندما تلدغ، وثالثـاً، كانت

هناك هوام أخرى خطيرة وذلك بسبب الخرائب واهمال المكان ورابعاً، أخص بالذكر نوعاً من الهوام هو المسمى نملة فرعون، ويدب هذا النوع على الارض في القفار كلها، كما عنه سأتحدث في ص ٢٤٧، وكان هذا النمل الاحمر الصغير يسعى هناك حول الأرض، وخامساً بسبب قسوة مضاجعنا، وسادساً، بسبب اللصوص المسلمين الذين بقيوا برفقتنا، غير أننا لم نهتم بهذا كله، وقذفنا بكل شيء كان هناك، ونمنا بعمق كبير.

وأخبرنا ادلاؤنا بأنهم عازمون على ايقاظنا قبل الفجر، لكن الذي حدث كان غير ذلك لانهم انفسهم كانوا منهكين مثلنا نحن- ومع ذلك كانوا أقل تعباً منا- وقد نمنا نحن وهم حتى شروق الشمس، وكان داوود قد أنعش نفسه عند هذا النبع، عندما وصل الى هنا متعبا، قادماً من القدس مع رجاله، حسبما جاء الخبر في سفر صموئيل الثاني: ١٧.

مسيرة الحجاج ورحلتهم صعوداً إلى القدس

في اليوم الحادي والعشرين، الذي كان يوم القديسة براكسيدس، Praxedes العذراء، وبعدما أشرقت الشمس، وغطت بأشعتها الذهبية الرائعة قمم الجبال، ورؤوس الصخور الوعرة، بدأ المسلمون بإلحاح في ايقاظنا بصرخات عالية، وصرخ بعضهم بلغتهم «روق، روق» وبعضهم Trica, trica وبعضهم Cabalca, Cabalca ، وصرخ بعضهم بلساننا، ذلك أنهم كانوا قد تعملوا بعض كلماتنا، فصرخوا: Rita, rita, uff, uff ، وهذه الكلمات معناها في الحقيقة الحث على الانطلاق، وقد نهضنا، ورفعنا أعيننا، فرأينا أشعة الشمس على قمم الجبال، لأننا كنا في وادي، محاط من كل جانب بجبال وعرة، وكنا قد ارتحنا بشكل جيد، وانتعشنا باستراحتنا فملأنا قواريرنا بالماء من بئر المخلص، وغادرنا، ونحن نقود حميرنا بأيدينا، لانه كانت هناك منحدرات منزلقة، ممتدة حتى مسافة بعيدة، وما كان بإمكاننا الابقاء على أنفسنا على ظهور دوابنا، وبناء عليه بدأنا بالتعرق في الصباح الباكر،

وذلك قبل انتشار حرارة الشمس.

ونحن على طريقنا، وصلنا إلى حجرة قائمة مثل مرجل، على طرف الطريق، ولهذا أطلقوا عليها اسم Thaben Boen، أي حجرة بوهن ابن رأوبين، وهذه الحجرة هي علامة حدود أرض بني يهوذا، وذلك وفقاً لجيروم، في كتابه «حول مسافات الأماكن»، وقد ورد ذكر هذه الحجرة في سفريشوع: ١٨/ ١٧، ومن هذا النص، يبدو أن تلك الحجرة كانت أبعد نزولاً، وراء حصن أدوميم، إنما هل هي الحجرة نفسها أم غيرها، فتلك مسألة قليلة القيمة، وفكرنا في ذلك المكان بعجب حول أفاعيل الأيام الخالية، التي الحجرة مثل عليها.

المكان الذي أعلن فيه عن ميلاد العذراء المباركة إلى واكيم

ولدى مرورنا بحجرة بوهن، رأينا ونحن صاعدين الرابية، بيتاً قديماً، على جهة اليمين، وهو قائم بين جروف ونباتات، وهذا البيت قائم فوق الموضع الذي كان فيه رعيان واكيم يطعمون قطعانهم، وواكيم هو والد مريم العذراء الاعظم مباركة، واليهم هرب عندما سمع بنفسه الملامة بأنه بلا أولاد، وبشكل علني، ورميت تقديماته من على المذبح في الهيكل، وهنا سكن وهو حزين، يتوسل الى الرب بصلوات خاشعة، حتى يرحمه ويعطف عليه، ويمنحه الصبر.

وفي أحد الأيام، عندما كان يصلي بخشوع أعظم، وبحرارة أكثر من المعتاد، فجأة ظهر الملاك جبرائيل أمامه، على شكل ضوء مشع، وكان وقتها يصلي، ولدى رؤيته له دهش واضطرب وقال الملاك له: «لاتخف ياواكيم، لأن دعاءك قد استجيب له، وكانت دموعك أمام الرب، وهاهي حنة زوجتك سوف تحمل لك ابنة، وستسميها أنت مريم،وهي سوف تمتلىء بروح القدس، حتى وهي في رحم امها، ولسوف تمجد فوق جميع النساء، وستظل عذراء بشكل أبدي، وستحبل من العلي

الأعلى، وستحمل ولداً ذكراً ولسوف تدعى باسم «أم ابن الرب» وإليك فيمايلي شارة ممنوحة لك: عندما ستذهب إلى القدس، وعندما تقترب من الدخول من الباب الذهبي، هناك سوف تلتقي بحنة زوجتك وهي سوف تفرح من قلبها برؤيتك».

وبهذه الكلمات اختفى الملاك، وبناء عليه انكببنا على وجوهنا في هذا المكان ونحن نصلي، وحصلنا على غفرانات، وعندما كنا نتحادث أحدنا مع الآخر في هذا المكان، طرح واحد من الحجاج السؤال التالي حيث قال: «عجباً، إننا نقيم عيد القديسة حنة، لكن القديس واكيم لاعيد له، مع ان واكيم مثله- على الاقل- في القداسة مثل حنة، حسبما رأينا من الحكاية ذاتها»، وحاول بعضهم حل هذه المعضلة، فوقع بأخطاء غريبة حول الحمل بالعذراء المباركة، وأعلن أنها لم يحمل بها في ذنب أصيل، لانها كانت موجودة مع الطفل بوساطة الروح القدس قبل ان يحصل اللقاء بين واكيم وحنة تحت الباب الذهبي، وقال آخرون بأن حنة قد حملت من واكيم بقبلة فقط، وكانت هناك تفاهات كثيرة، تفوه بها الذين حاولوا ايجاد سبب لوجوب الحفاظ على عيد القديسة حنة، وليس عيد واكيم.

بحوريم حيث شتم شمعي الملك داوود

ولدى متابعتنا سيرنا، صعدنا إلى جانب تل بحوريم، الذي قام عليه فيمامضى حصن، اسمه بوريم، عنه نقرأ في سفر صموئيل الثاني: ١٦/ ٥، واسم هذا الحصن في بعض الاسفاربحوريم، ويمر الطريق السلطاني تحت هذا الحصن، ولذلك وقفنا هناك، واسترجعنا إلى ذاكرتنا العمل الجليل جداً، التالي: فعندما جرى طرد الملك داوود وجميع اتباعه من القدس، بوساطة ابنه أبسالوم، وقدم إلى هذا المكان، تقدم واحد اسمه شمعي وشتم الملك داوود وجميع خدمه، ورمى حجارة عليهم، وألقى بالرمل عليهم من الأعلى، وعندما أراد واحد من رجال داوود

قتله، منعه داوود، ورغب في أن لايتعرض للأذى من أجل الخطأ الذي اقترفه، ولقد أعجبنا بصبر وشقاء الملك المقدس، وكنا غاضبين من أنفسنا نحن الذين نثور بكلمة مزعجة واحدة، ونرغب بالانتقام من جيراننا، ياللهول، على هذا الطريق كان الملك داوود عابراً، حافياً، ورأسه مغطى، وهو يبكي، وجميع خدمه معه وهم في ثياب الحزن، حيث كانوا قد طردوا من بيوتهم.

وقتها خرج واحد من خدمه، وكان من أهل الحرب، وصعد هذا الرجل وأخذ يشتم الملك، ويرمي الحجارة نحو الملك، ويلقي بالرمل عليه، ويكرر شتائمه، وبذلك اقترف جريمة خيانة عظمى، ومثل هذه الخيانة تعاقب في جميع البلدان، ومع هذا فإن هذا لم يثر الملك المهذب، ولم يغضبه، بل مر بكل تواضع، وأطفأ غضب أتباعه، قائلاً لهم: «دعوه يسب، لأن الرب قال له. لعل الرب ينظر إلى مذلتي ويكافيني الرب خيراً عوض مسبته بهذا اليوم».

لايوجد في طول الكتابات المقدسة نص محزن مثل هذا النص عن فرار داوود من القدس، وصبره عندما تعرض للشتم، وعندما يكون انسان عارفاً بهذا النص ويمر عابراً لهذا الطريق، من الصعب عليه أن يمنع نفسه من البكاء، وذلك عندما يتفكر حول مثل هذه المحاسن،آه، كم كان القديس غريغوري سيبكي بحرقة في هذا المكان، بعدما رأينا -كما قرأنا- الذي أظهره ذلك الامبراطور إلى أرملة تضرعت إليه، لأنه أكثر رحمة، أن يظهر الانسان الرحمة نحو انسان تولى شتمه والاساءة إليه، ولايمكن مقارنة ذلك بالرحمة التي يبديها نحو الذي تضرع إليه وباركه، ومن هذا المكان مضى داوود نازلاً إلى نبع الشمس واستراح هناك لأنه كان مرهقاً.

وذهبنا الآن من هذا المكان صاعدين، وقد رأينا جبل الزيتون عن بعيد، وذلك مع كنيسة صعود الرب، القائمة على القمة هناك، ولدى

رؤيتنا ذلك ابتهجنا، بسبب أننا بتنا على مقربة من القدس.

السهل القائم أمام قلعة بيت عنيا

وهكذا مضينا نريد القدس، ووصلنا ونحن على طريقنا إلى سهل، من طرفه الأول يقوم جبل الزيتون، ومن الطرف الآخر جبل العدوان، وفي هذا السهل تنتهي قفار أدوميم، لأنه من هناك نزولاً حتى الأردن قفار جرداء، باستثناء المنطقة المسقية من نبع اليشع، لكن من هذا السهل حتى جبل الزيتون، الذي يقوم عند سفوحه، توجد أجمل البساتين والحدائق، والكروم، وفوق هذا السهل تقوم قلعة بيت عنيا، التي بنيت على طرف جبل الزيتون، وتمتد من هناك نزولاً إلى السهل، وهذا السهل مغطى بحجارة واسعة جداً ومستوية، وكأنه قد جرى تبليطه بشكل فني، لكن في الأماكن حيث الأرض غير مغطاة بالحجارة، تنتصب هناك أشجار الزيتون وأشجار فواكه أخرى، علاوة على ذلك، يوجد في هذا السهل عدداً كبيراً من الصهاريج، حفرت عميقاً في صخور قاسية جداً.

وتابعنا سيرنا عبر هذا السهل، نحو بيت عنيا، ووصلنا إلى أمام القلعة حيث حجرة واقفة قد وضعت بشكل يمكن للانسان أن يجلس عليها، ولايمكن نقل هذه الحجرة، لأنها منبعثة من أعماق الأرض، وهي قاسية جداً، وقد قيل بأن الرب يسوع قد جلس على هذه الحجرة، وذلك عندما جاء صاعداً من المنطقة التي حول الاردن، بعد وفاة لعازر، وجلس أمام باب القلعة، حيث إليه جاءت مرثا، وتحدثت بصدق مطلق مع الرب يسوع حول الايمان، والقيامة، والحياة الأبدية، وبالطريقة نفسها قابلت مريم المجدلية المسيح وهي تبكي، لأنها كانت غائبة عندما مات أخوها لعازر، كما قرأنا في انجيل يوحنا: ١١/ ٢١.

وبناء عليه توقفنا في ذلك المكان المقدس، وعملنا الصلوات المعينة في

كتب المسيرة، وانكببنا بعـد ذلك على الأرض، وقبلنـا المكان، وحصلنا على غفرانات مطلقة (++)، وبكى الرب في هذا المكان، وقد انزعج تجاه بكاء الأختين، ولذلك تغني الكنيسة لهما:

ofelicis soror utraque meriti, qucrum laerimis est motus fons ip fse pietatis

وأعتقد أنه قام في هذا المكان، في الأيام الخالية، بيعةما، أو كنيسة.

بيت القديسة مريم المجدلية ومخزنها

وسرنا من هـذا المكان نحـواً من رميـة سهـم باتجاه جهـة اليمين، ووصلنا إلى كنيسـة قـديمـة مهـدمة، قـائمـة فـوق المكان الذي سكنتـه القـديسة مـريم المجـدلية بشكـل خاص، لأن لعـازر ومـريم المجدليـة، ومـرثا، كانوا أغنيـاء، وامتلكوا كثيراً من المسـاكن في داخل الحصن وفي خـارجـه، وفي القـدس، وفي حصن المجـدل في الخليل، وكـان هذا بيت مريم المجدليـة، وبعد تحولها إلى المسيحية أقامت فيـه مخزناً للرب، يحتوي على توابل متنوعـة، منهـا عملت هناك منعشات ومـراهم تمنع التعـرق، والسخـونة، والبرودة، والقشعـريرة، والانهاك، وقـد تبعت الرب في كل مكان حـاملة معهـا هذه الدهون المصنوعـة من التـوابـل، وكـانت قـد اعتادت على دهن أطرافه بها، وهكذا فإن هذه التي اعتادت قبل هدايتها ان تستخدم هذه الأشياء لترفها الجسـدي، استخدمتهم بعد ذلك لتقوية جسـد الرب، وبنـاء عليـه، قمنا في هذه الكنيسـة بـالصلوات المحـددة، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

بيت القديسة مرثا الذي كان الرب فيه ضيفاً

ومضينا من هناك إلى الجهـة اليسـارية من الحجـرة المتقـدمـة الذكـر، فـوصلنا إلى خرائب جـدران بيت منعزل قـديم، قد قيل بأنه بيت مـرثا المبـاركة، الذي إليـه غـالبا مـادعت الرب، وذلك حسبما ورد في انجيل

لوقا:١٠، حيث جاء قوله: «فقبلتـه امرأة اسمها مرثا في بيتها»، وفي هذا البيت لامت مـرثا أختها مريم أمـام الرب، وأعطى الرب قـراراً لصالح مـريم قـائـلاً: «ولكن الحاجـة إلى واحـد، فـاختـارت مـريم النصيب الصـالح»، وهكذا دواليـك، وقبلنا الأرض في هذا المكان، وحصلنا على غفرانات، ذلك أننا تلونا وغنينا الصلوات المعينة في كتب المسيرة.

كنيسة ضريح القديس لعازر الذي تمدد فيه لمدة ثلاثة أيام

وانعطفنا بعـد هذا بأنفسنا نحـو بيت عنيا، وبعـدمـا دخلناه، أتينا إلى كنيسة كبيرة وجميلة، لكنها كانت مغلقـة، إنما قام أهالي بيت عنيا بفتحها لنا، بعـد إعطائهم دريهمات قليلـة من قبطاني الغليـونين، ودخلنا إليهـا، وقد وجـدنا في جهة اليمين ضريح لعازر، الذي تمدد فيـه ميتاً لمدة ثلاثة أيام، حيث أقامـه الرب ثانية بعـدها، حسبما ورد الخبر في انجيل يوحنا: ١١، وبناء عليـه توقفنا أمـام ضريـح لعـازر، وقمنا بالصلوات المحـددة لذلك المكان، وقبلنا الضريح نفسه، وحصلنا على غفرانات مطلقة.

ومثل هذا، ذهبنا صـاعـدين من القبر الى المذبح العـالي، القائم فـوق المكان الذي وقف فيـه الرب يسـوع وصرخ: «لعـازر هلم خـارجـاً»، وكـانت هذه الكنيسـة فيما مضى كنيسة جليلة، بنيت مـن قبل القديسـة حنة (هيلانة)، فوق ضريح لعازر، وفي الأيام الأخيرة للصليبيين كان إلى جـانبها دير للراهبـات من طائفة القـديس لعازر، في ظل نظام القـديس بينت، وكـان لبـاسهم الرسمي ازاراً أبيض ورداء أسـود، مثل راهبـات القديس يـوحنا، مع صليب أخضر، وفي بيت عنيا(١) الأخـرى الواقعة عبر الأردن، حيث كان يـوحنا يعمد، كما قرأنا في انجيل يـوحنا ١، فقد كان هناك ديراً آخر مثل هذا، ملكاً للطائفة نفسها، وهؤلاء الراهبات قد كن ثريات جداً وتقيات، وكـان هذا الدير محاطاً بأشجار الزيتـــون، إلى

١ – وهم فابري، فالذي في انجيل يوحنا : ٢٨/١ «بيت عبرة».

حـد كان من غير الممكن رؤيتـه من قبل الذين قـدمـوا نازلين من جبل الزيتـون، عـلاوة على ذلك، راهبـات هـذا الدير، اعتـدن أن يرسلن إلى البلدان الأخـرى من العالم لبنـاء أديرة مماثلة، وعلى هذا هناك في الوقت الحالي واحد من هذه الديرة في دولة أصحـاب كيفخبورغ Kyvchburg قرب ثورغو Thurgau، واسمه دير سيدات القديس لعازر.

وبعد فقدان الأرض المقدسـة، تفرقت الراهبات، وهدم الدير والبلدة جميعـاً، باستثناء الكنيسة مع الضريـح، حيث مازالا قـائمين، وهناك قبر مرتفع من الرخـام، يوجد تحتـه كهف، هو الآن مغلق، ويحترم المسلمون هذا القبر، مثلما نفعل نحن، ذلك انهم يحترمون جميع الأماكن التي عمل فيها الرب أعمالاً رائعة، لكنهم يزدرون الأمـاكن التي عانى فيها من أي من سوء المعـاملة، وهذه الكنيسة مهملة ومـذابحها محطمـة، وعندما كنا فيها كانت مليئة بحزم القمح، مثل مخزن رجل فلاح.

بيت سمعان المجذوم الذي حل الرب به ضيفاً

ومضينا من هذا البيت، فصعـدنا إلى كنيسة أخـرى مهـدمة، بقـاياها العظيمـة ملقاة مـوزعـة هناك، وقد بقـي أحد الجدران قـائماً، منه يمكن للانسان أن يرى أنها كـانت كنيسة كبيرة النفقات، فقد كـانت لها أرضية معمولة من مختلف أنواع الرخـام، حيث وجدنا بعض البقـايا وقد بنيت هذه الكنيسة فوق المكان الذي قام فيـه بيت سمعان المجذوم، الذي أتى على ذكـره متى الانجـيلي (الاصحـاح:٢٦) ومـرقص (الاصحـاح: ١٤).

وإلى هذا البيت جـاء يسـوع بمثـابة ضيف في يوم السبت، قبل أحـد السعف، وهنا صبت مـريم المجدليـة العطور فـوق رأسه، وهو جـالس يتناول الطعـام، وهنا أبدى تلاميذه حـزنهم تجاه الاسراف، حسبما تحدثنا في صفحات تقدمت، وفي انجيل يوحنا:١٢.

وهناك بيت آخر لسمعان، لكن ليس سمعان هذا، وهو موجود في القدس، وإلى هذا البيت جاءت مريم المجدلية، عندما اهتدت للمرة الأولى، كما قرأنا في انجيل لوقا: ٧، وعن هذا البيت كنت قد تحدثت من قبل، وهذا البيت- على كل حال- يعرف باسم بيت سمعان المجذوم، وهو لم يكن مجذوماً، عندما عمل العشاء، لكنه كان قبل هذا مجذوماً، وقد شفي من قبل الرب، إنما حافظ على اسمه «المجذوم»، وبناء عليه، بعدما تلونا هنا الصلوات المعينة، حصلنا على غفرانات (+).

حصن بيت عنيا ووصفه

أنا لم أجد متى بني حصن بيت عنيا، ولا من قبل من قد بني، لأنه لم يرد ذكره في جميع العهد القديم، إلاّ إذا كان قد جاء ذكره تحت اسم آخر، أنا لم أجده، أو مالم يكن اسم بيت أوريم، الذي ورد ذكره من قبل، وجميع أصحاب الأناجيل قد أتوا على ذكر بيت عنيا، ليس بيت عنيا هذا، وإنما أيضا الموجود عبر الأردن، وأعتقد أن الحصن قد بني حديثاً في أيام المسيح، وتظهر خرائبه أنه كان بناء قوياً وجليلاً، لكن ليس بناء واسعاً، وهو في هذه الأيام قرية مكتظة بالسكان، فيها مسلمون غدارون، وهي مجاورة لجبل الزيتون، على الجهة الشرقية منه، ومنه لايمكن رؤية مدينة القدس، بسبب جبل الزيتون، الذي يقف في الطريق، ويوجد -على كل حال- على طرف جبل الزيتون، بينه وبين جبل الصعود، مكان لمشاهدة وادي جهنم وجبل جيحون، وكانت قرية بيت عنيا قلعة: مريم، ومرثا، ولعازر، حسبما أخبرنا في انجيل يوحنا:١١، وتبعد عن القدس خمسة فرلنغ، مما يعادل أربعة أميال ايطالية، وميلاً ألمانيا قصيراً، وقد تحدث القديس برنارد بشكل طيب عن هذه القلعة، في قداسه لفرسان الداوية، كل من يرغب يمكنه أن يجد هذا النص فيه.

رحيل الحجاج من بيت عنيا نحو جبل الزيتون

وبعدما رأينا الأماكن المقدسة في بيت عنيا، استدرنا نريد القدس، وقد أعطينا سائقي حميرنا الإذن بالمغادرة للعودة إلى القدس بأقرب الطرق، أي على الطريق السلطاني، الذي عليه كنا قد غادرنا، كما تحدثنا عن ذلك من قبل، وقد نوينا على العودة مشياً بخشوع على الأقدام، على طول ذلك الطريق الذي قدم الرب يسوع عليه وسار من بيت عنيا إلى القدس، في يوم أحد السعف، وهو جالس على ظهر أتان.

وهكذا عاد سائقو الحمير إلى القدس نازلين عبر الطريق المنخفض، ومعهم ذهب عدد كبير من الحجاج، الذين كانوا مستعجلين لنيل بعض الطعام المطبوخ، مع مكان للاستراحة فيه، لأننا لم نتذوق منذ مغادرتنا القدس حتى عودتنا إلى هناك طعاماً ساخناً، ومع هذا بقي الشطر الأكبر في بيت عنيا، ومنهم ما كان -في الحقيقة- أحداً سيبقى لولا أنني حثثتهم على فعل ذلك، وبناء عليه عندما غادر الآخرون، خرجنا نحن أيضاً من بيت عنيا، ووصلنا في خارج القرية، دون أن نعرف، إلى أرض مقبرة اسلامية، توجب علينا عبورها أوالسير من حولها، ولقد قمنا بعبورها، لكن الذي حدث أن امرأة مسلمة كانت واقفة عن بعد كبير، رأتنا، فركضت مسرعة نحونا، وصرخت عالياً، وشتمتنا ورمت حجارة علينا، وطردتنا من أرض الدفن، وبناء عليه فررنا مسرعين، خشية قدوم مسلمين آخرين وقيامهم بازعاجنا، لأنهم لايتحملون سيرنا فوق قبور موتاتهم، وهذا ما كنت قد تحدثت عنه من قبل.

وهكذا وصلنا إلى الطريق الذي يسير عبر جبل الزيتون، والذي عليه سار الرب يسوع في يوم أحد السعف، وسرنا بخشوع، وصمت، وصلاة، خلال بساتين التين، ووصلنا إلى واحدة من هذه البساتين، رأينا فيها تيناً ناضجاً شكله أرجواني داكن، وذهب اثنان من جماعتنا إلى هذا البستان، لكن عندما تسلقا الشجرة، قدمت امرأة عجوز، رمت حجارة

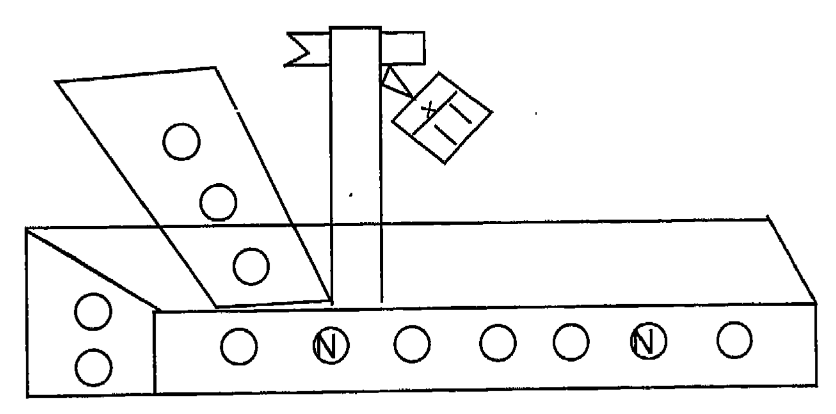
عليهما، وطردتهما خـــارج البستـــان، ومع ذلك جلبـــا لنا بعض الثمار، أكلناها، وتابعنا سيرنا صاعدين للرابية.

ووجدنا على هذا الطريق كثيراً من القطع المربعـة الصغيرة من الرخام المصقـول من مختلف الألوان، وقـادنا راهب خـارج الطريق الحديث إلى مكان حيث وجدنا ميدانا كله مبلطاً برخام مصقول من مختلف الألوان، فلقد كـانت القديسة هيلانة هي التي زينت ببـلاط رخامي جميع الطرق التي عـرفت بأن الرب يسوع قـد عبرها أثناء اسبـوع الآلام، وذلك من بيت عنيـا صعـوداً إلى جبل الزيتـون، ونزولاً من الجانـب الآخـر هناك صعوداً إلى الباب الذهبي، ومراراً وجدت آثاراً من هذا البلاط، وبشكل خاص عندما يسير الانسان على جانب الطريق وهو صاعد، لأن الطريق الحديث قـد حفر عميقـاً وتلف بسبب أعداد الذين يعبرون عليـه، وكل انســان يذهب صعـوداً، إذا مـا استـدار جـانبـاً، وكشط الأرض بيـديه، وعمل حفـرة، سـوف يجد الطريق القديـم المبلط برخام مصقـول، وقـد علمت شخصيا صحة ذلك عن طريق الخبرة.

عودة الحجاج إلى القدس عبر بيت فاجي، قرية الكهنة

وتابعنا من هناك تقدمنا، ووصلنا إلى مكان، قامت فيه فيما مضى قرية

F.F.F.F.F.



الكهنة، التي هي بيت فـاجي، التي نقـرأ عنهـا في انجيل القـديس متى(الاصحـــاح:٢١)، وحـدث أن الرب أرسـل من هذه القـرية اثنين من التـلاميذ إلى القـدس ليجلبا له أتانا، وقـد انتظرهما هناك، وغنينا في هذا المكان ترنيمة:« Cum appropinquaret dominus » ، الخ، وقبلنا طبعات أقدام مخلصنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وورد ذكر بيت فاجي في الاطراء الذي ورد في قداس القديس برنارد إلى فـرسان الداويـة(الاصحاح:١٢)، ومن بيت فـاجي مـابرحت المدينة المقـدسـة لايمكن رؤيتها، ولدى متـابعتنا تقـدمنا، تسلقنا مصعـد جبل الزيتـون، ووصلنا إلى منطقة يوجـد أعلاها مصعـد منحدر، فـوق تسع درجـات، وحيـث قـائم فيهـا حجـرة طولها طول الطريـق صعـوداً إلى الرابية، وعرضها بعـرض الطريق نفسه، ونحتت هذه الحجرة وفق عمل فني إلى درجات يمكن للبشر وللدواب عليها الصعود إلى الرابية، وهذه الحجرة مقسـومة طوليـاً إلى قسمين، وكأنها قطعت بسكين، وهم يحكون أثراً قديماً يروونـه عن القديسين، بأن هذه الحجرة قـد انشقت أثناء آلام الرب، لتكون شهـادة إلى جميع الذين يمرون من هناك، ولتكون ذكـرى دائمة(عن موته).

وقبلنا هذه الدرجـات، بسبب المعجـزة، وبسبب طبعات قـدم الرب، لأننا لايمكن أن نرتاب بأنه غـالباً ماجتـاز هذا الطريق، وعندما مضينا نحـو الأعلى من هذا المكان، بدأت أبراج المدينة المقدسـة تبدي أنفسهـا، وكـان أول برج رأينا أعـلاه هو بـرج الناقـوس، وبرج كنيسـة الضريح المقـدس، الـذي كنا قـد تحدثنا عنه من قبـل، وهذا البرج في هذه الأيام أعلى من غيره من الأبنية، ورأينا بعد ذلك مباشرة، المدينة المقدسة كلها، وهي متألقة سروراً تحت أشعة الشمس، لأن هذه المدينة الأعظم حلاوة لها منظر بهيج، برؤيتـه يشرق عقل مشـاهده، وأعـرف أنا حقيقـة هذا، لأنني لم أكن قط قـادراً على اشبـاع نفسي من النظر إلى المدينة، لأنه كلما

زاد الإنسان من النظر إليها، كلما بدت له أكثر حلاوة، وزادت من انفعال الانسان وعطفه نحوها، وفي الحقيقة عندما كان الرب يسوع ماشياً على طول هذا الطريق، وشاهد المدينة بكى عليها، وأثير بالشفقة عليها بوساطة المنظر الفعلي، ذلك أنه ليس من دون سبب دعيت القدس باسم« رؤيا السلام».

ومضيا الآن نازلين من الجانب الآخر لجبل الزيتون، عبر الطريق الذي تقدم لنا وصفه من قبل، وعبرنا جدول قدرون، حيث صعدنا إلى جبل صهيون، وهناك جرى الترحاب بنا بسرور من قبل اخواننا هناك، وبعدما تناولنا الطعام تمددنا أرضاً للاستراحة، لأننا كنا مقبلين على أعمال جديدة.

الدخول الثالث للحجاج إلى ضريح الرب والازعاجات التي تحدث بالعادة هناك

وفي اليوم نفسه(أي يوم الحادي والعشرين) وبعد الظهر بوقت طويل، وعندما كان المساءيقترب، جرى استدعاء الحجاج إلى كنيسة الضريح المقدس، وعندما كنا في الساحة في الخارج، قدم السادة المغاربة، ووضعونا في الكنيسة، وفق الطريقة نفسها التي وصفناها من قبل، وعندما كنا في الداخل فعلنا مثل ماكنا قد فعلنا من قبل، وقام الحجاج، الذين عرفوا أنهم لن يروا الأماكن المقدسة بعد الآن، بزيارتهم مع كثير من الخشوع، ولمسوهم بمجوهراتهم، مثلما كانوا قد فعلوا من قبل مراراً، وذلك وفق الطريقة التي كنت قد ذكرتها في ص١٩٨.

ولقد أمضى الفرسان تلك الليلة، بشكل أقل رصانة، وكانت أفكارهم مشتتة أكثر مما كانت في الليالي الماضية، التي بقيوا فيها مستيقظين عند الضريح المقدس، وانشغلوا في الليلة الأولى في اعداد أنفسهم لتناول قربان العشاء المقدس مع الاعتراف، وقد تجدد الأثر

الذي عملته الأماكن المقدسة على عقولهم، مثلما ذكرنا ذلك من قبل، وكانوا في الليلة التالية قلقين بشأن فروسيتهم، وأمضوا الليل في طلبها، كما سلف لي الحديث عن هذا الموضوع ، ولأنه في تلك الليلة لم يكن لديهم مايشغلهم، فقد أودعوا أنفسهم للراحة ولأعمال التسلية، لكن هذا لم يشمل الجميع، بل فقط الذين كانوا أقل غيرة من البقية، ومع الأسف، شكلوا العدد الأكبر، وبناء عليه دعونا نرى كيف أمضى وقتهم هؤلاء الحجاج، الذين كانوا بلا خشوع،وبدون عرفان، وبدون غيرة أو انضباط، فقد قام بعضهم بجولة اعتيادية حول الأماكن المقدسة، ثم جلسوا بعد ذلك، وشربوا ماكان في جعبهم، التي جلبوها معهم محشوة بالطعام، وعملوا مناقشات طويلة، ثم مالبث أن غلبهم النوم فبحثوا عن أماكن منعزلة، أو زوايا هادئة، حيث ناموا طوال الليل، وذلك لمدة ست ساعات أو سبع، وكأنهم كانوا متمددين في مضاجعهم وغرف نومهم.

وقام آخرون كانوا مدمنين، وبالحري كسالى، بتزويد أنفسهم بخمرة قوية جيدة، وبأطعمة تشجع على العطش، وبعدما ركضوا مسرعين حول الأماكن المقدسة، جلسوا مع بعضهم، يأكلون ويشربون، وكأن الكنيسة الأعظم قداسة من جميع الكنائس كانت حانة، وتابعوا على هذه الشاكلة حتى باتت قوارير رفاقهم فارغة.

وقام آخرون، أقل بعد نظر، بعدما أفرغوا قواريرهم، بالحديث حول المسائل الدنيوية غير المفيدة، وحول الأمراء، وتخاصموا حول الحملات التي خدموا فيها، ومقارنة المقاتلين أحدهم بالآخر، وخلال ذلك كانت هناك أقوال شريرة، وخلافات، وكذب، وتمجيد ذاتي من مختلف الأنواع، وقد استمر ذلك، دون اعطاء أدنى اهتمام لقداسة المكان.

وعندما اكتفى آخرون وشبعوا من المناقشات الطويلة، وانفجروا ضاحكين، ساروا حول داخل الكنيسة، ودخلوا إلى بيع الأماكن

المقدسـة، وبعد تظاهر قصير بالصلاة، وقفـوا هناك يتحدثون دون ابداء أي احترام للمكان المقدس، ولاالجميع ماحل بهم، وهكذا زاروا الأماكن المقدسة من دون أية فائدة لأنفسهم، وقبل سنوات خلت، تصرف واحد من الفـرسـان الألمان هكذا، وقـد عاقبـه الرب ليكون مثـلاً للآخـرين، فلبعض الوقت كان يختـال برعونة حول الكنيسة مع أتبـاعه الذين دخل معهم إلى ضريح الرب، وعندما كـان واقفاً هناك، قال بطيش سخيف:« انظروا يارفـاقي، وليكن مـا أنا مقـدم عليـه، علامـة على صـدق أنني لم أتردد في إعلان أنني كنت في الضريح المقـدس للرب، وأنتم شهوداً على ذلك» وما أن فرغ من كلامـه هذا حتى صعد فوق القبر المقدس، وتمدد بنفسـه كلياً فـوقـه، وذلك على ظهـره، وعندما كـان متمـدداً هناك وهو يضحك، فجأة امتـدت يد الرب إليه، وأصـابته بالشلل، وبناء عليـه بدأ جسده يزداد قسوة، حتى لم يعد قادراً على النهوض بنفسه، وعندما شعر بيد الرب ثقيلة عليه، توسل بتواضع وبكثير من الدموع أن يرفعها عنه، لكنه لم يسترد أبداً بعـد ذلك الاستخدام الحر والطبيعي لأطرافـه، وعاد إلى وطنه أعـرجـاً ومـريضـاً، ومـات مشلولاً، والعجيب أنه لم يهلك في البقعة ذاتها.

وأمضى آخرون الليل كله وهم يقامرون مع تجار وباعة، لأنه إلى كل مكان ذهب إليـــه الحجـاج وهم في الأرض المقــدســـة، رافقهم تجار مسيحيـون، مـن أصل شرقي، كـانوا على درجـة عـاليـة مـن البراعـة، وهراطقـة جشعين، لاينامون خـلال الوقت الذي يكون فيه الحجـاج في الأرض المقدسـة، وكان كلما دخل الحجاج إلى كنيسـة الضريح المقدس، جاء هؤلاء التجار مع بعضهم، ودخلوا معهم، وكانوا يحصلون على اذن بالدخـول بوسـاطة دفع مبلغ كبير من المال، وكـانوا يمركـزون أنفسهم على الفور أمـام باب الكنيسة، ويمدون أقمشة فـوق الأرض، ويضعون سلعهم فوقهـا من أجل البيع، وكان بعض الحجـاج، وقد رأوا أن وقت

مغادرتهم بات قريباً، يجلسون مستيقظين طوال تلك الليلة، يتساومون ويشترون جميع أنواع الأشياء، وكان مع التجار للبيع هناك ليس فقط حبوب الصلاة الربانية، والأحجار الكريمة، بل أقمشة الدمستق، ووبر الجمل، والحرير، وكان من حول هؤلاء التجار كثيراً من الاضطراب والضجة، وكان الوضع مثل وضع سوق للبيع والشراء.

وقد رأيت هناك بعض الحجاج اللامعين من ذوي الأصل النبيل، الذين يرون بأن المقامرة والمساومة مع الباعة، حتى ولو كان ذلك في سوق عام، شيئاً غير مقبول بالنسبة إليهم، ودون مستواهم في الحياة، ومع ذلك، هنا في هذا المكان الأعظم قداسة لم يتوقفوا عن المقامرة وعقد الصفقات، وشراء السلع الثمينة والمجوهرات، وهكذا فإن الذين قد تركوا بلادهم منفردين من أجل حب الرب، وفي سبيل الفروسية، أغراهم الجشع وحب الربح، لأن يصبحوا تجاراً، وعملوا في سبيل تحقيق مصالحهم واعتمدوا على الكذب، والغش والخداع، والأيمان المرعبة، وذلك مثل أولئك المنشقين والهراقطة الذين كانوا معهم يتعاملون، والذي كان المتوجب عليهم الابتعاد عنهم وعدم استخدامهم، لأن أولئك الحجاج كانوا يبذلون غاية جهدهم لشراء الأشياء بسعر رخيص، من أجل أن يتمكنوا من بيعهم بمبالغ أكبر لأناس آخرين في بلادهم، وذلك مثلما يفعل التجار الحقيقيون، الذين يجنون نفقات حياتهم بمثل هذه المبايعات، أو أن يتمكنوا بالمجوهرات وبالأحجار الكريمة من شراء الصداقات الدنيوية، ومحبة كثيرين، أو استخدام ماشروه في سبيل فخارهم، والمجد الفارغ.

وفي هذه المبايعات لم يعيروا اهتماماً، لاللمكان المقدس، ولااليوم المقدس، لأن عيد القديسة مريم المجدلية كان قد بات الآن قريباً جداً، ولم يقتصر عمل هذا على العلمانيين فقط، بل شارك في هذه الأعمال بعض الرهبان غير المحترمين ورجال الدين، ولكم كان عملاً مؤذياً

وبلا تقوى أن يرى المسلمون ويشهدوا هؤلاء الباعة يجلسون ويبيعون سلعهم في الكنيسة، ويتجادلون حول الأرباح، وهذا واضح من نقاء مساجدهم، حيث لن يسمحوا مقابل أي شيء في الدنيا بالبيع والشراء فيها، أو بالكلام حول الشيء نفسه، بل نحن جعلنا بيت الصلاة وحولناه إلى بيت تجارة، والكنيسة جعلناها وكراً للصوص، وعندما يرى المسلمون هذا، يعدون إيماننا حماقة وشيئاً لاقيمة له.

ولم يكن بعض المتجاوزين الآخرين أقل من هؤلاء المتقدمي الذكر، لأنهم كانوا يأثمون بحق المسيحيين والمسلمين سواء، لأن بعض النبلاء، اقتيدوا بعبث نحو كتابة أسمائهم مع شعار نبالتهم ومكانتهم الاقطاعية، على جدران الكنيسة، أو نحو رسم رنوكهم عليها، أو القيام بلصق أوراق، عليها كتبت هذه الأشياء كلها، ولقد ألصقوها على جدران هذه الكنيسة وكنائس أخرى، وحفر بعضهم أسماءهم بأزاميل حديدية، ومطارق على الأعمدة، وعلى الألواح الرخامية، وأغضب هذا وأزعج جميع الناس هناك، ولقد رأيت بعض النبلاء ذوي الفخار الفارغ، ممن دفعهم تشامخهم إلى مثل هذه الأعمال الحمقاء، ذلك أنهم عندما دخلوا إلى بيعة جبل أكرا(الجمجمة)، وانحنوا بأنفسهم فوق الصخرة المقدسة، حيث توجد حفرة الصليب، كانوا يتظاهرون بالصلاة، وفي اطار ذراعي كل واحد منهما، كانوا يحفرون بآلات حادة جداً رنوكهم، مع علامات أصالة ميلادهم الأمرالذي لايمكنني قوله، لأنهم بالحري وضعوا علامات سخافاتهم، لتكون ذكرى دائمة على حماقتهم، وقد فعلوا هذا بشكل سري، لأن حارس الصخرة المقدسة، الذي اسمه جورج، لو رآهم يفعلون ذلك، لجرهم من شعورهم وأبعدهم، ودفعت الحماقة نفسها بعضهم لحفر أسمائهم ورنوكهم وشعاراتهم بآلات حديدية حادة على الألواح التي تغطي قبر الضريح الأعظم قداسة للرب، وهكذا وضعوا جانباً الخوف والاحترام الذي يدينون به للرب، من أجل أن

تبقى ذكـــرى حماقتهم وسخـــافتهم دون دمـار، بـل أن تدوم إلى الأبد، وبذلك يمكن أن يعلنوا في كل يوم، على كل من جبل أكـرا، وفي الآبدة أمام ضريح الرب، لأن كل حـاج تقي وعاقل، عندما يأخذ طريقـه نحو هذه الأماكن بعد كثير من النفقات والأتعـاب، وبعدما يمر خلال آلاف المخاوف، ويصل إلى الأماكن المقدسة المتقـدمة الذكر، ويجثوا على ركبتيه للصلاة، فوقتها سوف يرى أمـامه هذه القطعة من الحماقة، وعندها لابد أن يقـوم بعـد صـلاته بلعـن الأحمق الذي أقـدم على صنع هذه الأعمال الشائنة في هذه الأمـاكن الأعظم قداسة، ويدعـو عليه بالموت، أو بشلل يده ويباسها، أو أن تتقلص يده أو أن تنبتر، أو أن يدعو إلى الرب لينتقم لكرامته من الذي أقـدم على حفر شاراته الشرفية، على الصخـرة القائمة كعلامة على التشريف الذي يستحقه.

والرجال الذي يتولون أعمال الحفـر يظنون أن جميع الناس سيعجبون برنوكهم، وسوف يكونون مسرورين بـرؤيتهم، والذي أقوله أنا، أنه بين عشرة آلاف لايوجد واحـد ممن يقدمون إلى هـاهنا، سوف يكون لديهم أدنى سرور نحوهم، وإذا كان الحجاج أجانب، ولايعرفون هذه الرنوك، سـوف ينظرون إليهم بازدراء، وسيعجبـون نحـو هذا التبجج، ويعلنون عن صـاحبـه بأنه أحمق، مـع أنهم لم يروه قط، ذلك أنهم سيمقتـون هذه الخربشة، وسينظرون إليها برفض، وسيمجـونها، وربما قد يصدف ويأتي ابن المخربش إلى هنا، وقتها سوف ينزعج بسبب وراثته لحماقة أبيه.

والنبلاء الألمان هم وحـدهم الذين يقترفون هذه الحماقـة، وكأن العالم ليس فيـه أي نبيـل، إلا هم أنفسهم، فلكم هم سخفـاء بـابتـلائهم بهذه العـادة، وذلك بين المسيحيين والمسلمين، وأعرف أنا بشكل جيـد، أنني، لأسفي وخجلي، قـد شعرت بالارتبـاك العظيم تجاه ذلك بين المسيحيين والمسلمين، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل لكتـابة كل الذي شهدته، فلقد عرفت واحداً من الحجاج، حمل دوماً معه في حافظته حجرة حمراء، كان

قد اعتاد أن يكتب بها أحرف اسمه على ألواح المذابح، إما بحجرته الحمراء، أو بمدية أو بمخرز، وكان يكتب اسمه في رأس الهامش الفارغ لكتاب الصلوات، أو كتاب الترانيم، أو كتاب القداسات، أو كتاب المزامير، وكأنه كان هو مؤلف الكتاب، في حين لم يكن يفهم ولاجملة لاتينية، لأنه كان مجرد رجل علماني.

وكان يبذل جهداً كبيراً ليحفر اسمه ورنكه في هذه الأماكن، وفوقها جميعاً، الأمر الذي سوف يلاحظ من قبل الناس الذاهبين والآيبين، لكن كيف كانت نهاية هذا الانسان؟ أنا أخجل أن أقول، فقد مللت منه، كما أنني لاأرى أنه أمر لائق بكتاب رحلاتي وجولاتي أن أضع فيه مثل هذه الأشياء، ويكفي— على كل حال— أن أقول، أن رفاق وأقرباء الحاج المتقدم الذكر، هم على استعداد لدفع كثير من الذهب لو تمكنوا من محي اسمه من على وجه الأرض، وأن هؤلاء الناس أنفسهم، رغبوا لو أنهم لم يعرفوا اسمه قط، الذي بذل جهداً كبيراً لرسمه في كل مكان.

ويمكن أن يسمح، أو ربما هو مفيد من بعض الجوانب، أن يقوم بعض النبلاء برسم رنوكهم، أو بكتابة أسمائهم، في نزل، وحانات، وقاعات، وساحات، وأبراج، وقلاع، وأبواب، وأسوار، ومسارح، وأسواق، وساحات المثاقفة والمنازلة، وأماكن علمانية أخرى، إنما أن يفعلوا هذا في الكنائس والأماكن المقدسة، فذلك خطأ، وحماقة، واجرام، وبعضهم يبذل جهوداً عظيمة من أجل ذلك، ففي سبيل ذلك يهملون صلواتهم وزياراتهم إلى الأماكن المقدسة، لابل يهجرون النوم، ويحذو حذوهم بعض العمال البسطاء، فيأخذون قطع فحم، ويكتبون أسماءهم غير المعروفة، وألقابهم التافهة على الجدران، لابل لحق الضلال بعض الكهنة ورجال الدين، واقتيدوا من قبل بعض القرود الحمقى لفعل هذا، ولوثوا الجدران بالحبر الذي جلبوه معهم لكتابة روايات عن الأماكن المقدسة التي رأوها، وأعجب نحو جميع هؤلاء الناس، الذين لم

يتفكروا حول المثل العامي، الذي حتى الأطفال، يقوله أحدهم للآخر، وهو:« تلوث أيدي الحمقى أطراف البيت»، وبناء عليه، إذا — حسب المثل العامي— عدّ حمقى الذين يلوثون جدران بيوت الناس، لابد من أن يعد أعظم حماقة الذي يلوثون بيت الرب، والأماكن المقدسة عند الرب، ويعد فوق الجميع حماقة الذين يرسمون، أو يعلقون ترستهم وسوابغهم ودروعهم، فوق صور الرب، وصور العذراء مريم المباركة، وصور الصليب المقدس، والنخبة من قديسي الرب، لأنه في كثير من الحالات، يوجد على دروع النبلاء صوراً لبعض الحيوانات، أو الوجوه الشنيعة، أو المخلوقات غير الطبيعية، أو مجموعات من الألوان والأشكال لامعنى لها، كلها انحدرت من الوثنية القديمة.

وهكذا نقرأ بأن أنوبيسAnoubis ومسيدوMacedo ولدي أوزوريس، اللذان تجولا في جميع أنحاء العالم، وهما يقترفان الشرور، قد حملا شعارين، فكان شعار الأول كلباً، وشعار الثاني ذئباً، حيث رسما صورتيهما على المعابد التي بنيت في جميع البلدان، ليظهرا استخفافهما ببقية الأرباب، ومثل هذين فعل نبلاؤنا في كنيسة الضريح المقدس، التي جدرانها في حالة فوضوية[٢١٧ظ]، بسبب الترسة التي جرى تعليقها فوق الصور، لأنه حول القاعة المستديرة، كانت الجدران القديمة مغطاة ومزينة بالفسيفساء، لكن الفرسان والنبلاء لم يظهروا رحمة نحو هذه التماثيل والصور الثمينة، وعلقوا ترستهم فوقهم، وبذلك غطوا جميع صور المسيح، والعذراء المباركة، وقد خرقوا هذه الصور بالمسامير، وقد قام الرب منتقماً لانعدام الاحترام هذا، فقد حدث في إحدى المرات أن ملك مصر جاء إلى القدس ليصلي في معبده الذي اسمه هيكل سليمان، وبعد ماأنهى صلواته، صعد ودخل إلى الـ Anastasis أي كنيسة قيامة الرب، حتى يمكنه أن يصلي هناك أيضاً، وعندما كان ينظر من حوله ويتعجب من حجم الكنيسة وجمالها، رأى ترسة نبلاء مربوطة إلى

الجدران، وموضوعة فوق صور الفسيفساء، وعندما علم سبب تعليقهم هناك، غضب غضباً عظيماً، وأراد أن يهدم كنيسة القيامة كلها ويسويها بالأرض، لولا أن الرب جعله يغير نيته، وعلى كل حال، أمر بانزال جميع هذه الترسة وانتزاعهم من على الجدران، وكومهم في كومة واحدة، وأمر بإلقاء النار فيهم، وأحرقهم جميعاً، ولذلك لايوجد الآن هناك أي ترس، كما ليست هناك صور فسيفساء كاملة، بل مشوهة وغير واضحة.

ومضى آخرون حول الكنيسة مع أدوات حديدية، مخفية في ملابسهم، وعندما كانوا يصلون إلى الأماكن المقدسة، كانوا يقومون باقتلاع الأحجار المقدسة، والتقاطها، أو كسرها أو اقتطاع أجزاء منها، لحملها معهم إلى الوطن، لأنه ماهو السبب، إلا أن يكون الإنسان قد ضل، أو أعمته الشرور، حتى يفكر بتعرية الأماكن المقدسة من زينتها، أو أن يقوم بتشظيه، أو تشويه بعض الأعمال الفنية، التي عملت بعد جهد كبير ونفقات عالية؟

واقتادتنا أعمال التشظية السخيفة للحجارة إلى رعب عظيم، ليس مرة واحدة، بل أكثر من مرة، ففي احدى المرات، بعدما ذهب الحجاج إلى منازلهم، بقينا طوال الليل في كنيسة القيامة، وفي الصباح اكتشف بأن شظايا قد اقتطعت من صخرة الجمجمة، ومن لوح الضريح، ومن حجرة تحنيط الرب، وعندما رأى المسيحيون الشرقيون هذا، صرخوا في الكنيسة ضدنا، ودعونا باسم لصوص وسارقين، وثار اضطراب عظيم ضدنا، وهددونا بأنهم سوف يتشكون ضدنا إلى سادة المغاربة وسادة المسلمين.

ولدى سماع الأب المسؤول بهذا، كان خائفاً، وظن أن شراً عظيماً بات يحيق بنا، فدعانا جميعاً إلى بيعة العذراء المباركة، وبسلطاته الرسولية، حرم الذين قاموا بتشظية الحجارة، ولم يدعنا نخرج من الكنيسة، حتى أعطيت الشظايا إليه، وهكذا وقعنا هناك باضطراب

وارتباك وخجل، وثار الناس جميعاً ضدنا، بسبب الاثم الذي اقترفناه.

وبسبب مثل هذا، وقعنا بارتباك في القديسة كاترين في العربية، وقد ارتجفت رعباً وخوفاً، عندما تذكرت ذلك، لأننا سلمنا إلى البداة العرب من قبل الرهبان الشرقيين وقد أرغمنا بالضرورات الحادة على إعادة ماسرقناه، ولايقتطع الناس هذه الشظايا بدافع التقوى، بل بسبب أن بعض الشرهين من الفرسان، هم رعاة لبعض الكنائس أو المذابح، وهم يفعلون هذه الأشياء، بقصد إثارة السواد الأعظم من الناس ودفعهم لزيارة كنائسهم، وبذلك يحصلون على الفائدة، فالجشع هو الذي يدفعهم لمحاولة فعل ذلك، على الرغم من الأوامر التي أعطيت للحجاج بأن لايفعلوا ذلك، الأمر الذي سلف تبيانه في أكثر من موضع.

هذا وإن موضوع الذين يلتقطون الحصا من الأماكن المقدسة، ويسعون إلى التقاط الآثار المقدسة، دون أن يشوهوا الأماكن المقدسة، مختلف، والقيام بذلك عمل مقدس وتقوي، كما سنبرهن على ذلك في ٢٥٣و، وبناء عليه، أمضى بعضنا هذه الليلة في عمل ما قمت بوصفه، بينما شغل آخرون أنفسهم بالأعمال التعبدية، وأقمنا القداسات منذ منتصف الليل حتى أضاء الصباح.

مغادرة الحجاج لضريح الرب واجتماعهم فوق جبل صهيون للتشاور حول مغادرتهم للقدس

وفي اليوم الثاني والعشرين، الذي كان عيد القديسة مريم المجدلية، غنينا قداس قيامة الرب في ضريح الرب، وفي هذا القداس المهيب، أتينا على ذكر القديسة مريم المجدلية، وبعد انتهاء القداس، قام الحجاج الذين كانوا على وشك المغادرة، بالسعي من مكان مقدس إلى آخر وتقبيلهم مع الدموع، مودعين لهم مع الأسف، لاقتراب مفارقتهم لهم،

وفي الحقيقة للأماكن المقدسة قوة جذب خاصة، بها يجد الحجاج أنفسهم في النهاية منجذبين إليهم أكثر من ذي قبل، وقد احتشدوا جميعاً حول ضريح الرب، وتابعوا الدخول والخروج مثل نحلات في خلية للنحل.

وعندما كانوا يعملون هذا، جاء المسلمون، وأخرجونا من الكنيسة، وطلبوا منا جميعاً الصعود إلى جبل صهيون، لأنهم أرادوا التحدث هناك معنا حول بعض الأعمال، وبعدما خرجنا من الكنيسة، دخلنا إلى بيعة القديسة مريم المجدلية، الموجودة في الساحة خارج الكنيسة كما تقدم لنا ذكر ذلك، وتوسلنا هناك من أجل حمايتها، وغنينا ترنيمة« O mundi lapas» ، الخ، وصعدنا بعد هذا إلى جبل صهيون، ووجدنا الرهبان هناك قد بدأوا للتو، بقداس من أجل عيد القديسة مريم المجدلية، وقد مكثنا حضوراً هناك حتى النهاية، لأن الوقت كان مايزال مبكراً، وساعة الغداء لم تحل بعد.

افتراق الحجاج عن بعضهم من أجل جبل سيناء والاجتماع الذي عقدوه

وقدم بعد القداس السيد جانم الذي كان حاكماً للقدس، مع بعض شيوخ المسلمين، والسيدSabathytanco ، أي كالينوس الأكبر، الرئيس الأعلى للمشفى، والترجمان المسلم، والفحل كالينوس الأصغر، الذي كان دليل الحجاج عبر الصحراء، وعدد كبير آخر من الأعيان، وعندما اجتمعوا كلهم، جلسوا في قاعة الرهبان، وفي القاعة الكبرى، التي يطلق الرهبان عليها اسم قاعة البندقية، وجلس معهم الأب المسؤول، والأخ جون أوف بروسيا، مع شيوخ آخرين من الرهبان الفرنسيسكان، ومثل هذا الشخصيات البارزة بين الحجاج مثل اللورد جون ويرنهير Wernher، والبارون فون زيمبيرن Zimbern، واللورد جون التروخسيس، واللورد برناردفون بريتنباخ Braitenbach،

وحـاجب الكنيسة الكاتدرائيـة في مينز، واللورد فيرديناند فـون ويرنوي Wernawe، واللورد ماكس فـون روبولستاين Roppolstein، وكان إلى جـانب هؤلاء بين الحضور القبطانين لأنها كـانا أساسيين، وكـذلك أعوانهما، ووقتها صدر الأمر إلى جميع الحجاج للوقوف أمام هذا الجمع، وعند اكتمال حضورهـم، جرى إخبارهم بصـوت المنادي، بأن الحج إلى القدس قـد انتهى الآن، وأنه لم يبق هناك من شيء لعمله سـوى المغادرة من هناك، والعـــودة إلى الأوطان، الأمـــر الذي يتـوجـب علينا الآن الاستعداد له بأكبر قدر ممكن من السرعـة، وعلى كل حال، إذا وجد بين الحجـاج أي واحد يرغب في التخلف في القـدس، والانطلاق من هناك إلى جبل سيناء، فعليه وعلى أمثالـه الاعلان الآن عن أنفسهم، والبقاء في القاعة مع الســادة، وعلى الآخرين مغادرة القاعـة والاستعداد للمغادرة، لأنه بعد انتهاء الغداء سوف يقودونهم نازلين من القدس نحو البحر.

وبناء عليه غادر جميع الحجاج القـاعة، باستثناء ثمانية عشر، هم الذين بقيـوا مع الســادة، وهم الذين سلف لي أن ذكـرت أسماءهـم، ثم بدأنا نبحث حول الحج إلى سيناء مع السادة، وهي مباحثات، تقتضي الإجراء قبل مغادرة قبطـاني الغليونين، ورفاقنا من الحجـاج، كما ينبغي أن تكون بحضـور قبطاني الغليونين، والأب المسـؤول، وبعض الحجـاج المثقفين، لأنه بعـد فـــراقهم، سـوف يتصرف المسلمـــون مع الحجـاج المتبقين كما يرغبـون، ولسوف يبتـزون الأموال منهم بقسـوة وبدون رحمة، ذلك أنه مع وجود القبطانين قد تصرفوا بشكل معقول أكثر، ثم إنهم إذا ماطلبوا مبلغاً غير معقـول، سوف ينزل الحجاج إلى البحر مع رفـاقهم، ولسوف يتخلون عن الحج إلى جبل سيناء.

وبناء عليه نظمنا نوعاً من العقد من أجل سلامتنا، واعطاء الأمان لنا للسفـر من القدس في اليهـودية، إلى غـزة في فلسطين، ومن غزة خـلال الصحـراء العـــربيـة حتى جبل سيناء، ومن جبـل سيناء حتى مصر من

خـلال بلاد مـدين، ومن مصر إلى المطرية حيث بستـان البلسم، واعطاء أمـان لتراجمة القدس ليصلوا إلى هذا المكان وليس أبعـد من ذلك، وفيما يلي الشروط التي أبرمناها معهم، وأبرموها معنا:

الشرط الأول: على السيد Sabathytanco أي كالينوس الأكبر، أن يتلطف بوعـدنا باتخاذ اجـراءات من أجل اقتيـادنا بسـلام من هنا حتى مصر، وذلك من خـلال الأماكن المتقـدم ذكـرها، وأن يقوم هو نفسـه، بشخصه ذاتيا، بمرافقتنا على نفقته وحسابه من القدس حتى غزة، وعلى هذا الشرط أعطى كلمته بأنه سوف يفعل ذلك.

ثانيا: فيما يتعلق بجميع الخفارات، والضرائب، والعشـور التي سوف يجري دفعهـا فيما بين القـدس وغـزة، هو الذي سـوف يدفعهم عنا من مـاله، وقـد طلبنا هذا منه، على أسـاس معـرفتنا أنه بدون ذلك سـوف نتعرض للنهب بدون حدود من قبل المسلمين على الطريق.

ثالثاً: عليه أن يؤمن لكل حاج حماراً يركب عليه، مع رجال لسوقهم (وهؤلاء السـائقين يعـرفـون أيضـاً باسـم مكارية)، وأن يكون سـائقي حميرنا مسيحيين، وأن يأخـذونا ويخدمـونا من هنا حتى المطرية في مصر، ويقـدمـون الطعام لأنفسهـم ولحميرهم، مالم يصـدف ويقـوم الحجـاج باختيارهم، بإضفاء شيء ما عليهم.

رابعاً: عليه القيام بتأمين نقل جميع حـاجياتنا، مثل الملابس والأوعية، كلهـا على حسـابه الخاص، وذلك من القـدس إلى غزة المتقـدم ذكـرها، باستثناء الخمرة، التي سوف نأخذها معنا على حسابنا.

خامساً: عليه أن يؤمن على حسابه في غـزة مجموعة من الجمال لحمل حـاجيـاتنا إلى جبل سيناء، ومن هناك إلى مصر إلى المطـرية، وعليـه أن يؤمن لنا في غزة نزلاً معقولاً وله حجم مناسب ويضعه تحت تصرفنا.

سـادسـاً: عليـه أن ينيب واحـداً من رفـاقـه، ليتـولى مـرافقتنا مكانه

شخصياً من غزة حتى القاهرة في مصر، علاوة على ذلك رجوناه أن يرسل معنا الفحل، الذي اسمه كاليبنوس الأصغر، الذي —كما سنتحدث فيما بعد— غالباً ماارتحل خلال الصحراء مع الحجاج، ونحن ملزمون بأنفسنا بتزويده بالأطعمة من مخزننا.

سابعاً: عليه أن يزود كل حاج بزق، ليحمل فيه الماء خلال الصحراء، لأنه غالباً لايمكن العثور على ماء، على ذلك الطريق لأيام سفر كثيرة.

ثامناً: عليه أن يعطينا إذناً لشراء خمرة في القدس، من المسيحيين الشرقيين، وأن يتدبر تمكننا من حملها على ظهور الجمال أو الحمير، من دون أن نتعرض للإهانة من قبل المسلمين، لأنه مالم تتخذ احتياطات فائقة جداً أثناء شراء الخمرة وحملها، لكن يكون الحجاج بأمان.

تاسعاً: عليه أن يعيرنا ثلاثة سرادقات أو خيماً صغيرة، حتى نتمكن من نصبها في كل مكان في الصحراء، حيث نرتاح، لنحمي أنفسنا من الحر الصادر عن الشمس.

عاشراً: على كل واحد منا أن يدفع إلى الترجمان، من أجل جواز المرور والخفارة، وكل شيء آخر تقدم ذكره مبلغ ثلاثاً وعشرين دوقية، ندفع له نصفها في القدس والمتبقي في غزة، بعدما نكون قد جهزنا الجمال، والأمور الأخرى المتقدم ذكرها، وفقاً للاتفاقية والشروط الواردة فيها.

حادي عشر: ينبغي وضع الاتفاق كله كتابة، وتوقيعه مع أختام السيد حاكم القدس، وكاليبنوس الأكبر، وحفظه في ديوانه.

ثاني عشر، وأخيراً: طوال بقائنا في القدس، ينبغي أن يسمح لنا بزيارة الأماكن المقدسة، في داخل المدينة وفي خارجها، أي أن يسمحوا لنا بالدخول إلى كنيسة القيامة عندما نطلب منهم ذلك، وأننا عندما ننطلق

برحلتنا إلى جبل سيناء، أن يأخذوننا إلى بيت لحم، وأن يدعوننا نقيم هناك لمدة أيام، وأن يقتادوننا من بيت لحم إلى حبرون، لنرى المكان الذي صنع فيه آدم من طين، والكهف المزدوج.

لقد كانت هذه شروط العقد الذي أبرمناه، وعانينا من خلافات كثيرة مع اضطراب عظيم قبل أن نتفق على رأي واحد، وأخيراً اتفقنا، وجرى ختم العقد في اليوم نفسه، أمام الحجاج، وإخواننا الرهبان، ومضينا، إنما دفعنا دوقيتين رسماً من أجل الختم.

مغادرة الحجاج القدس وعودتهم إلى الوطن

وفي اليوم نفسه، أي يوم عيد القديسة مريم المجدلية، وبعد انتصاف النهار، جاء السادة المغاربة مع السادة المسلمين، مع حشد كبير من الأتباع المسلحين، وجاء جميع سائقو الحمير مع حميرهم إلى جبل صهيون، ليأخذوا الحجاج من هناك وينزلونهم إلى البحر، وقد جاءوا مع جيش شجاع وقوي للدفاع عنهم ضد الكمائن على طريقهم، ذلك أنهم عرفوا بأن هناك كمائن جرى إعدادها للحجاج على الطريق، وذاع الخبر في جميع أنحاء البلاد، بأن هناك كثيراً من الحجاج في القدس، والناس سوف يكونون مسرورين لمهاجمتهم، ولذلك تآمروا واجتمعوا مع بعضهم.

وفي الوقت نفسه عندما كان كل واحد يسعى نحو الأمام ونحو الخلف، ويعد نفسه للرحلة، أرسل خلفي موالي اللوردات الأربعة الذين قدمت معهم، عندما تركت الوطن، وهم الفارس اللورد جون بارون فون زيمبيرن، والفارس اللورد بير فون ريخبيرغ، والفارس اللورد هينريخ بارون فون ستوفل، والفارس اللورد جون التروخسيس، وأضافوا إلى جميع أعطياتهم المتقدمة لي مايلي: فقد أعطوني كمية من الدوقيات، لأدفع نفقات رحلتي إلى جبل سيناء، ورجوني أن أصلي

للرب من أجلهم عندما أكـون في تلك الأماكن المقـدسة، وأن أتفحص بدقـة تلـك الأمـاكن، وأن أكتب وصفـاً عنهـا، وكـررت شكري لهم، وأعطيت واحداً منهم رسالة ليأخـذها إلى المعلم المبجل لودويغ فوخس في أولم، فله كتبت واصفاً أوضاعي وأنها تسير على مايرام.

وساعدت بعد هذا خدم مـوالي لحمل أغراضهم، وحزمها على ظهور حميرهم، وكان بعض الفـرسان يغادرون القـدس وهم مرضى كثيراً، إلى حد أنهم كانوا غير قادرين على الجلوس على ظهور الحمير، ومن أجلهم جـرى جلب جمال، مـع ســلال كبيرة، علقت كل سلـة على طرف من طرفي الجمل، وفي السـلال جرى حمل المرضـى إلى البحـر، وكـان هناك واحداً من الحجاج الشباب مريضاً جداً، إلى حد تعذر فيه حمله على ظهر الحمار أو في سلة، لذلك تـركـوه وراءهم، ولقـد مـات بعــد مغـادرتهم مباشرة، وقد دفن في مقبرة الرهبان على جبل صهيون.

والآن عندمـا باتوا جميعـاً جـاهزين امتطوا حميرهم، وبدأوا يغـادرون القدس، وبكى كثيرون بسبب محبتهم للأماكن المقـدسة، التي كانوا الآن كارهين جـداً لتركها، وبكى آخـرون لانفصالهم عن رفـاقهم وإخوانهم، الذين تركــوهـم خلفهم، الذين كـان بينهم لـوردات، وخـدم لوردات، وهؤلاء عندما نظروا إلي لم يتمكنوا مـن حبس أنفسهم عن البكاء، وقد بكوا معي، وفي الحقيقـة لقـد افترقت مـع مـرارة عظيمـة في القلب عن موالي الأعظم لطفاً، فهم لم يكونوا سادة لي، بل أصدقاء لطفاء وإخوان، وقـد بكيت خشية مـن الاضطرابات التي سوف يـواجهونها في البحـر، أكثـر من بكائي على انفـرادي ووحــدتي، والتعـاسـة التي أنا مقبل على مواجهتهـا في عبور المنطقة التي بلا حدود من الصحـراء، ومن البحر في رحلة شتوية، فهما معاً مليئتين بالرعب الدائم، لأنني تذكـرت التعاسات والشقـاء الذي عانى منه الحجـاج أثناء عودتهم في حجي الأول، الأمـر الذي تحدثت عنه من قبل، وكـذلك حتى الوصـول إلى البندقيـة، ولقـد

كنت خائفاً جداً، خشية من أن يواجهوا مثل ذلك النوع من الشقاء.

وهكذا غـادر الآن باسم الرب قبطانـا الغليـونين القـدس، ومعهما اللوردات والحجاج، وأرسلنا معهما اثنين من جماعتنا، ليجلبا إلى القدس الأشيـاء التي تركناها خلفنا في الغليـونين، وقـد وصلوا إلى الرملة، التي تعرف بشكل عام باسم رامـا، وحجزوا هناك لكثير من الأيام، وتعذبوا بشكل فظيع، لأنـه يسكن في تلك المدينة الأسـوأ بين أهل الشرور، كما وضح معنا ووضعناه في ص ٣٧٦، ويقـوم سكان الرملة دومـاً بإزعـاج الحجاج المغادرين للأرض المقدسة أكثر من القادمين الجدد.

وبعد مضي هذه الأيام، نزلوا إلى يافـا، وعندما كانوا نازلين إلى هناك، عذب المسلمـون اثنين من الحجاج كثيراً، وأرغمـوهـم على التمـدد لعدة أيام في حانة قذرة في يافا، إليها تقدمت الاشارة في ص ٣٢٩، ففي هذه الحانة أصيب كثير الحجاج بالمرض، بسبب القذارات في المكان، وبسبب الحاجة إلى الضروريات، وبشكل خـاص أكثر بسبب العـذاب والإزعاج الذي تعـرضوا له على أيـدي المسلمين، وعلى أيدي أطفال المغـاربة، كما سلف وتحدثنا عن ذلك، ولقـد عـذبـوهم أثناء عـودتهم أكثـر مما فعلوه عندما قدموا، ولذلك وصـل الحجاج إلى حالة من الغضب والمرارة ضد المسلمين على طرف البحـر، أنهم قـرروا وهم صـاعـدون على ظهـر السفينة، قطع أعناق جميع المسلمين الذين سـوف يقابلونهم، من كل من الشيـوخ والشبـاب، غير أنهم أرغمـوا على التخلي عن هذه الخطة، من أجل الذين بقيـوا في القدس، لأنهم لو أقـدمـوا على قتل إنسان واحـد، لجرى رمينا جميعاً بالسجن، ولربما أقدمـوا على قتل بعضنا انتقاماً للدماء التي سفكت.

وغـالباً مـاحدث أنـه عندما يكون الحجـاج على وشك الافتراق عن المسلمين، يعطي بعضهم للآخر أسماءً سيئة، ويشتم أحـدهم الآخر، مع أنهم قد يكونوا أصـدقاء عندمـا يكونوا على الشاطىء، وقـد حدث قبل

بضع سنوات مضت، في ميناء يافا، أن غضب الحجاج من المسلمين، وغضب المسلمون من الحجاج، حتى صفّ الطرفان أنفسهم في صفوف قتال، وتحاربوا مع بعضهم بعضاً.

ومكثنا في حجي الأول لمدة أربعة أيام في ميناء يافا، انزعجنا فيها وتعذبنا إلى أبعد الحدود، ومثل هذا فعلوا اليوم حيث عذبوا الحجاج، وكما قلت من قبل، لولا خوفهم على سلامة الحجاج الذين بقيوا خلفهم في القدس، لما كانوا صعدوا إلى ظهر الغليون من دون سفك للدماء، وعلى كل حال، أقلع الحجاج بسلام— من أجل سلامنا— في قوارب كبيرة، وأبحروا إلى الغليونين، اللذان كانا حتى الآن راسيان بدون حركة، في المكانين اللذين تركناهما فيهما في البداية، ثم فك شعبنا الغليونين من أربطتهما، ورفعوا المراسي، وحركوا علامات الغليونين، وأطلقوا حجارة من أدوات قذفهما على أبراج يافا، وغادروا الميناء بصرخات عالية تحدياً للمسلمين.

وعندما وصلوا إلى قبرص، كان عدد كبير منهم مرضى، وقد مات عدد من الفرسان النبلاء هناك، وأقلعا من هناك، وذهبا إلى رودس، غير أن رحلتهما كانت رحلة بطيئة، ولذلك عانيا كثيراً من الحاجة إلى الماء، ولهذا توجها نحو ناتوليا Natolia ، التي كانت أقرب البلدان، وكانت تحت حكم الأتراك، محاولين الحصول على الماء من هناك، ولكن عندما دخلا إلى الميناء، وعرف الأتراك، أنهما كانا غليونين، جالبين لحجاج القدس، لم يسمحوا لهما بالحصول لاعلى الخبز ولاعلى الماء، كما رفضوا منحهما جوازاً بالنزول إلى الشاطىء، بل أرغماهما على المغادرة بسرعة، والابتعاد عن شواطئهما، ولذلك ذهبا آسفين بسبب حاجتهما إلى الماء، وأرسل الرب — على كل حال— لهما مباشرة ريحاً طيبة، حملتهما إلى جزر السيكلاد، حيث رسوا في جزيرة رودس بينها، وهناك أنعشوا أنفسهم، وأقاموا هناك عدة أيام.

وعندما أقلعا، وابتعدا عن رودس، ووصلا إلى أعالي البحار، قابلا فجأة سفينة قرصان مسلحة، مهيأة لقتال الغلايين، ولولا أن الرب أعانهما بريح جديدة وقوية جداً، من المؤكد أنهما كانا لن ينجيان من أيدي القرصان، ذلك أنه عندما كان القرصان على مقربة منهما، هبت الريح، وبسرعة حملت الغليونين عائدين إلى ميناء رودس، وأبحرا في اليوم التالي على طريقهما، وعملا رحلة طيبة، حيث عبرا المقاطعات الشرقية، أي بلاد الاغريق وآخيا والبقية، حتى وصلا إلى بارنزو Pa-renzo في استريا ودالماشيا، وكانت بارنزو آخر ميناء قبل أن يدخل الإنسان إلى بحر البنادقة، الذي لاتستطيع الغلايين والسفن الكبيرة عبوره من دون ريح خاصة، وعندما لاتهب تلك الريح،لابد لهم من الرسو والانتظار في ذلك الميناء لبعض الوقت، أي حتى تهب تلك الريح، ولهذا السبب هناك دوماً في ذلك الميناء أصحاب قوارب، مع قوراب كبيرة، وعندما يكون هناك بعض الناس يريدون الوصول إلى البندقية بسرعة، يستأجرون قارباً، ويذهبون به إلى البندقية، وبناء عليه عندما رأى الحجاج أن الريح لن تهب بشكل موائم للابحار في خليج البندقية، استأجروا قوارب، لكن فجأة هاج البحر، وأخذت قواربهم تتقاذفها الأمواج الكبيرة، لذلك لم يبق لديهم أمل كبير بالنجاة من الموت، لأنهم عندما كانوا في هذا الاضطراب، انكسرت دفة القارب الذي كان فيه موالي، وباتوا لذلك في فزع عظيم، وتحركت المياه بشدة بوساطة الريح، وانصبت عليهم من كل جانب، وانكسرت السارية في القارب الذي كان بجوارهم، وطار الشراع مع عارضته، وبناء عليه، كان هؤلاء الرجال حتى في خطر أعظم، وقد فقدوا كل أمل، لذلك شرعوا بالاعتراف بذنوبهم أحدهم إلى الآخر، وقطعوا العهود، ونذروا النذور، كما جرت العادة بالنسبة للذين يكونون بمثل هذه المضائق، ومع ذلك تمكنوا على كل حال، بمعونة الرب، الذي حفظهم في ضيقهم، من الرسو جميعاً في ميناء البندقية، وكانوا مبللين، يرتجفون وفي حالة

- ٥١٠٩ -

مزرية.

وقد مكثوا في البندقية لعدة أيام، ثم غادروا المدينة نحو وطنهم، وفي حوالي يوم عيد القديس غول Gall ، كانوا في منطقتهم، وكان قد مات عدد كبير من النبلاء ومن الخدم، لكن مامن واحد من موالي ومن خدمهم قد فقد، باستثنائي أنا وحدي، فقد بقيت بعدهم في القدس، وذلك بموافقة موالي، وكانوا جميعاً مع خدمهم بصحة جيدة، والعدد نفسه الذي سافر، عاد إلى الوطن، وقد جرى الترحيب بهم بسرور لاحدود له، وببهجة، وجاء ذلك من آبائهم، وأزواجهم، وأولادهم، ورفاقهم.

الحمد للرب

هنا نهاية الحج الذي عمل بشكل جماعي إلى القدس.



هنا بداية الحج إلى الأرض المقدسة الذي عمل خلال الأرض المقدسة من قبل الحجاج الذين عزموا على الحج إلى جبل سيناء بعد مغادرة الحجاج الآخرين للقدس وللأرض المقدسة

في اليوم الثالث والعشرين، الذي هو يوم القديس أبو لينارس Apol-linaris الشهيد، اجتمع حجاج جبل سيناء في الصباح الباكر، فوق جبل صهيون، واستدعوا إلى هناك الأب المسؤول، والراهب جون أوف بروسيا، وشيوخ الدير، ورجوهم مع كثير من التوسل، بأن يتكرموا عليهم ويتفضلوا بتعيين غرف لهم، يمكنهم العيش فيها وتلقي الرعاية خلال الوقت الذي سوف يبقون فيه بالقدس، وأثار الأب كثيراً من المصاعب حول هذه المسألة، وعرض أسباباً كثيرة لعدم التمكن من أخذهم في الدير، وعندما سمع الفرسان ذلك، حاولوا الحصول على موافقته بالذهب، وأحضروا عدداً كبيراً من الدوقيات، قدمها أحدهم إلى الراهب جون قائلاً:« خذ ياأخانا هذه القطع من الذهب، وامنحنا مسكناً، أرجوك، واحصل على طعام لنا، وعند صرف هذه النقود، سوف نعطيك بعضاً آخر»، لكنهم حتى بذلك لم يصلوا إلى هدفهم، لأن الأبوين رفضا النقود، وخاطبا الفرسان بهذه الكلمات:« اعلموا ياسادتي الحجاج الفرسان، لقد تعلمنا بطول التجربة أنه أفضل لكم الإقامة في الخارج، وليس معنا في الداخل، ولذلك سوف نساعدكم على اكتراء مكان للاقامة، ووقتها سوف يكون الدير تحت تصرفكم من أجل الأمور الروحية، وإذا ماوقع أحدكم مريضاً، سوف ندعه يرقد في قاعة المعالجة، ولسوف نرعاه ونعتني به، علاوة على هذا، ولكي لانبدو أننا رافضين كلياً لطلبلكم، سوف نستقبل بيننا رفيقكم وزميلكم بالحج، الراهب فيلكس، مثلما استقبلناه لدى أول قدومكم إلى هنا، وهو سوف يقيم بالقلاية التي يشغلها الآن، وسوف يرتاح فيها، وسوف يأكل

ويشرب معنا في قاعة الطعام طوال الوقت الذي ستبقونه في المدينة المقدسة».

ولدى سماع الحجاج لهذا، أقلعوا عن الضغط من أجل مطلبهم الذي كانوا قد بدأوا به، في حين قدمت أنا الشكر للأبوين على لطفهما الذي أبدياه نحوي، وشغلت وأنا ممتن، مكان اقامتي هناك، طوال الوقت الذي بقيته في القدس، وكنت أدخل وأخرج مع الرهبان المبجلين، وكأنني من أفراد طائفتهم، وذلك دونما خوف أو ازعاج من قبل المسلمين، وهكذا أقمت في الدير، وقد جهزت بشكل رائع، وذلك من دون نفقات.

واكترى الآن بقية الحجاج مسكنا في بيت الفحل، أي كالينوس الأصغر، الذي كان مسلماً وكان هذا البيت قائماً في اطار أحواز جبل صهيون والقدس، على الرابية التي تنزل إلى الضريح المقدس، وكان في هذا البيت ثلاث قاعات إلى جانب قاعة صغيرة منفردة، وكان هناك في الوسط قاعة أو ساحة ذات حجم لابأس به، حيث توجد دوالي مع عناقيد عنب، وكان تحت البيت صهريج كبير، من أجل أعمال الاستحمام الاحتفالية للمسلمين، وقد أعطى كالينوس قاعتين من قاعات بيته إلى الحجاج، وقد احتفظ مع أخيه بالقاعة الثالثة مع أثاثها، وفي المدة التي أقام بها الحجاج في البيت، لم يأكل هذين الرجلين ولم يناما في البيت، بل تركا البيت تحت تصرف الحجاج، ولذلك دخلوا وخرجوا، وناموا وأكلوا في البيت، وكانوا يتابعون ماكانوا يحتاجونه، ويطبخونه حسبما يرضيهم، وقسم الحجاج أنفسهم إلى ثلاث مجموعات، حتى يكون بذلك وضعهم أفضل، وأعظم تزويداً بالضروريات أثناء السفر بالصحراء، كما أنه بذلك يكون حفظ السلام بينهم أحسن، لأنه يكون أمراً أسهل بين مثل ذلك العدد، وبقيت— على كل حال— الفئة الأولى والفئة الثانية، دوماً مع بعضهما، ومثل ذلك بقيت الفئة الثالثة

لحالها.

وكـان في الفئة الأولى ستـة حجـاج هـم: اللورد جـون، كـونت أوف سولمسSolms الذي كان الأصغـر سناً بين الجميع، لكن الأكثـر نبالة من حيث الميلاد.

— اللورد برنارد فون بريتنباخ Braitenbach، الذي هو الآن عميد الكنيسة (الكاتدرائية) في مينز.

— اللورد فيليب فون بينخن، الذي كان فارساً، ووصياً على الكونت المتقدم الذكر.

— ايرهارد، وكـان تابعـاً، ووظيفتـه حمل السـلاح، كما كان خـادمـاً للكونت

جون، ويدعى هنجي Hengi، وكان متعهداً للمؤن وطباخاً خبيراً.

جون كنوس Knuss، وكان مترجماً إلى اللغة الايطالية.

وكان في الفئة الثانية، ثمانية حجاج، أسماؤهم كما يلي:

اللورد مـاكس، وكـان يكنى بسيناسينوسSinasinus، وهو بارون فون روبلستاين Roppelstein.

اللورد فرديناند، بارون فون ميرنا وMernawe، وكان فارساً.

المعلم كاسبر فون بولاخ،Caspar von Bulach، وكان فارساً.

المعلم جورج ماكس، وكان فارساً.

المعلم نيقولا(عرف بالميجر انكروت Inkrut)، وكان فارساً.

كونراد، وكان حلاقاً، وعازفاً على المزمار، وطباخاً، ومتعهداً للمؤن

الأب بول جـوجلنغـرGuglinger وكـان كـاهناً من طائفـة

الفرنسيسكان

الراهب توما، وكان راهباً علمانياً من الطائفة نفسها، وكان رجلاً بارعاً بكثير من اللغات.

وكان في الفئة الثالثة، ستة حجاج، هاكم أسماءهم مرتبة:

اللورد هنريخ فون سخونبورغ Schauenburg (كذا)، وكان فارساً.

اللورد كاسبر فون سيكولي Siculi، وكان فارساً.

اللورد بيتر فون مورسباخ Morspach، وكان فارساً.

المعلم بيتر فلسخ Velschوكان فارساً.

المعلم جون لازينوس Lazinus ، رئيس شمامسة، وقانوني كنيسة ترانسيلفانيا في هنغاريا.

والراهب فيلكس، وكان من طائفة الرهبان المبشرين في أولم، وهو كاتب هذه الرحلات والجولات، وهو أيضاً الذي جلب رئيس الشمامسةالمتقدم الذكر إلى فئتنا، وفي الحقيقة هو لم يكن ليقوم بهذا الحج لولا ثقته بي، لأنه كان هنغارياً تماماً، ولم يفهم كلمة ألمانية واحدة، مع أنه كان بارعاً باللغات اللاتينية، والسكلافونية، والايطالية، والهنغارية، وكان رجلاً من أصل نبيل، وفاضلاً، ومثقفاً، وخطيباً عظيماً، وعالماً بالرياضيات، وقد بقي، كما ذكرت من قبل، إلى جانبي، الأمر الذي سنراه فيما بعد أيضاً.

ويتوجب علي في هذا المكان، أن أصف الفحل، الذي هو كالينوس الأصغر، الذي في بيته أقام الحجاج، والذي تقدمت الاشارة إليه من قبل، وسوف تأتي فيما بعد، فقد كان للمشفى وللحجاج في القدس معلمين، هما الأعلى والأدنى، وكان اسم الأعلى Sabathytanco،

وكـاليـنوس الأعلى، أي معلـم المشفى والحجـاج، وكـان كـل من هذين الكالينوسين يعـرف بـاسم الترجمان، أي حـامي الحجـاج المسيحيين، ودليلهم، والوصي عليهم، وفي الحقيقة، كان في كـل مدينة أناساً منحهم السلطان امتيـاز، قيـادة المسيحيين خـلال البـلاد، وحمايتهم من الأذى، وكـان هـؤلاء الناس مـوظفين في الدولة لـديهم سلطات منحت لهم من قبل السيد السلطان، وهم يعرفون باسم التراجمة.

ومثل هذا، وبالطريقة ذاتها، كـان لليهود تراجمتهم، أو كالينوس، وفي الأمـاكن حيـث يتـوفـر عـدد كبير من الحجـاج، يكون هناك بـالعـادة كالينوسين: أعلى وأدنى، وذلك على سبيل المثـال في كل من القدس وفي القـاهرة، وهذين خـاضعين أحـدهما لـلآخـر، ويتلقى الأدنى راتبـه من الأعلى، في حين يستخرج الأعلى راتبه من الحجاج، وعندما يكون هؤلاء التراجمة جيدين ومستقيمين، كل شيء يسير بشكل جيد مع الحجاج، كما سـوف نـرى فيها بعـد، وكـان الترجمان الأعلى في القـدس Sa-bathytanco رجـلاً عجـوزاً وطويـلاً، وثريا، وصـاحب معنويات عاليـة، غير أنه كان قـاسياً على الحجاج، يتعجـل بهم دوماً من مكان إلى آخر، ويستخـرج المال منهم بشكل محزن، علاوة على ذلك، هو لم يحافظ على عقـوده بشكل جيـد، وخـرق كثيراً من وعـوده، ومـع هذا حمانا باخـلاص كبير، وبذل قصـارى جهـده للدفـاع عنا، عنـدمـا طلبنا منه المساعدة.

وكان كالينوس الأدنى في القدس، أي الفحـل، رجلاً متقدماً بالسن، وأعتقد أنه قد تجاوز الثمانين، وكـان رجلاً حكيماً، ومسلماً مستقيماً، مليئاً بالمحـاسن والفضائل، لكنه قليـل المعرفـة بالإيمان الحقيقي، أي أن جميع الناس من الممكن انقـاذهم بالايمان حيث ولدوا، شرط البقـاء ظاهرين، في حين أعلن هو أن الذين يتخلون عن إيمانهم، سـوف يكونون مدانين، ولذلك أدان المماليك الذين كـانوا من أهل إيمانه، وكانوا قـد ارتدوا عن

الإيمان المسيحي، وكـذلك جميع المسيحيين الشرقيين، فقـد قـال بأنهم يستحقون الادانة واللعنة، لأنهم جعلوا أنفسهم مثل المسلمين، وأقسموا يمين الولاء والتبعية لملوكهم، وقد حمل الرأي نفسـه حول اليهود الذين سكنوا معهم، وقد قدر تقديراً عـالياً إيماننا وخلاصنا، لكنه اعتقد أنه لو تخلى عن إيمانه، لايمكنـه نيل الخلاص بإيماننا، كما أنه اعتقـد أن مـامن مسيحي مـرتد، يمكنه نيل الخلاص بإيمانه هو، وغـالبـاً ما تحدثت معـه حول هذا الموضوع، لأنه عرف اللغة الإيطالية، وبعضاً من اللغة الألمانية المكسرة، التي تعلمها من الحجاج، الذين عبر معهم صحراء جبل سيناء ثمان وأربعين مرة.

وقد أبدى حباً عظيماً نحو المسيحيين مـن بلاد ماوراء البحار، إلى حد أنه كـان يخاطر بحيـاته معهم، لابل أكثـر من ذلك، كـان على استعـداد لوضع نفسـه في خطر الموت مـن أجلهم، ولهذا نجـده وإن كـان رجـلاً متقـدماً بالسن، ومشهـوراً بلطفـه، قد قـام على الرغم من ذلك، بعبـور الصحراء مع الحجاج، وليس في ذهنه الحصـول على أية مكافأة، بل كان هدفه فقط رفقتهم، وكان ينزعج كثيراً، لدى تفكيره بالكيفية التي يمكن قيادة الحجاج بها، بعد موته، خلال الصحراء، وخلال هذه المناطق، وفي الحقيقة أنا شخصياً انزعجت حول هذا، وفزعت من موته، مثلما فزعت من موت الراهب جون الذي تحدثت عنه من قبل.

وزار هذا الكالينوس البندقيـة، وكـذلك بلاط الامبراطور فـردريك الثـالث، كمازار روما في أيـام بابوية البابا نيقـولا الخامس، وحـدث هذا وفق الطريقة التـالية: فقد قـاد في إحدى السنوات، بعض الفـرسان عبر الصحراء، كان بينهم فارس ألماني قوي، أحبـه حباً عظيماً، وغالباً ماعتاد على حثـه، ورجـائه، أن يـذهب معه إلى ألمانيـا عبر البحـر، وأنه سـوف يحسن إليه ويعامله معاملة جيـدة، ويبقيه سالماً، لكن المسلم لم يوافق على هذا،وكـان عندمـا ذهبـا إلى القـاهرة حيث اعتـاد كـالينوس على ترك

حجاجـه والعودة ثانيـة إلى القدس، سأل هذا النبيل كـالينوس أن ينزل معـه حتى الاسكندرية ويبقى برفقتـه حتى هناك، وهناك سـوف يدعـه يذهب.

وعندمـا كانا في الاسكندرية، طلب النبيل من قبطان الغليـون، الذي عـزم على العودة على ظهـره، أن يعلمـه لوحـده باليوم وبالسـاعـة التي سـوف يقلع الغليـون بها، وبناء عليـه، بما أن الغليون كـان سيسـافـر في وقت متأخـــر من احـدى الليـالي، جلب ذلك النبيـل في تلك الأمسيـة كالينوس إلى ظهـر الغليون معه، ولم يعرف كـالينوس بأن السفينة سوف تقلع في تلك الليلة، وظن أنه سوف يعود في الصباح إلى المدينة، لكن في ظلام الليل أقلعت السفينة بصمت، ولاقت ريحاً طيبـة، فقطعت مسافـة كبيرة في البحر، وهكذا أرغم المسلم على البقاء معهم، وعبور البحر.

وأخذه الفـارس إلى كل من الامبراطور والبابا، وحـدثهما عن محاسن الرجل وعن تقواه، إنما كان من غيرالممكن تحويله عن دينه، وهكذا أعيد إلى البندقيـة، وسـافـر من هناك مـن جـديد إلى وطنه، ومنذ ذلك الحين أظهر نفسه حارساً أعظم اخـلاصاً لجميع المسيحيين، وأكثر مما كانه من قبل، لأنه أحضر معـــه هدايا ثمينة مـن الامبراطور، ومن البـــابا، ومن النبـــــلاء، واعتـــــاد أن يتحـــــدث لأبناء وطنـه عن الكـرم العظيم للمسيحيين،وعن أمجادهم.

وكما قلت من قبل، سكـن السـادة النبـلاء من الحجـاج في بيت هذا الرجل الأمين، الذي إليه نزلت كل يوم، وكنت أدخل إليه وأخرج منه، كما أشاء، ويكفي ماقيل حول هذا الموضوع.

وفي اليـوم الرابع والعشرين،عقـدنا نحن الحجـاج اجتماعـاً على جبل صهيون، لنبحث معاً بشؤون الحج الذي عزمنا على القيام به في الأرض المقدسـة، وعقدنا هذا الاجتماع،لأننا لم نرغب بأي حـال من الأحوال

أن نستسلم للكسل في تلك الأيام التي كنا سنمضيها في الأرض المقدسة، بل أن نقوم بالحج إلى هذا المكان وإلى ذاك، ووافقنا جميعاً على هذه الرغبة، لكن الشيطان، ماكان ليسمح لنا أن نفعل ذلك، فقد بذر الخلاف وبدا الحجاج مختلفون واحدهم مع الآخر، ويتجادل أحدهم مع الآخر حول الأماكن المقدسة التي يودون قصدها، واختلفوانتيجة لهذا حول مسائل أخرى أيضاً،وفي الحقيقةإنهم امتلكوا مطبخين في اطارالبيت المتقدم الذكر: مطبخان،وطباخان، وشراء منفصل للميرة، مع أن ذلك كله كان من الممكن صنعه بشكل أسهل وأحسن تحت ادارة واحدة، واتحد— على كل حال— سيدا الفئة الأولى والفئة الثانية مع بعضهما، وكان لهما نار واحدة، وإدارة مطبخ واحدة، لكن سادة الفئة الثالثة— التي أنا انتميت إليها— عاشوا منفصلين بأنفسهم، وكان الفارس الذي اسمه بيتر فلسخ هونفسه الطباخ والمسؤول عن تأمين الميرة للفئة، وقد اكترى اثنين من اليهود الألمان الفقراء لمساعدته، حيث كانا يذهبان معه إلى السوق لشراء الذي كنا نطلبه.

وكان بعض الحجاج متشوقين كثيراً لزيارة الأماكن المقدسة في الجليل، أي لزيارة قرية الناصرة، وجبل الطور، ومرج ابن عامر الكبير، وبحر الجليل، وكفرنا حوم، وكوروزين، وهو الجبل الذي فيه بشر المسيح، وفيه أطعم الناس، ودمشق، وغير ذلك، ولكن عندما تشاورنا حول هذه القضية مع الأب المسؤول، وكالينوس الأكبر، الذي كان ترجماننا، أخبرانا بوجود كثير من العوائق تقف في وجه هذا الحج، وأنه يتوجب علينا دفع مبالغ كبيرة لشراء سوء معاملة المسلمين، الذين قيل عنهم بأنهم في تلك المناطق معادين كثيراً للمسيحيين، إلى حد أن الحجاج نادراً مايتجرأون على الذهاب إلى الجليل، وأعلن لنا الأب المسؤول، أنه يوجد في الحقيقة في هذا الحج مخاطر أعظم من عبور الصحراء إلى جبل سيناء، وعندما سمع بعض الحجاج هذا سحبوا

اقتراحهم، وتخلوا عن الحج إلى الجليـل، بيـد أن آخـرين كـانوا راغبين بالذهاب، على الرغم من المخـاطر التي أخبرنا عنهـا، إنما على الرغم من انفصـالنا الشديـد إلى فئتين، تمّ التخلي عن هذا الحج، لأنه لايمكن لفئة واحدة دون الأخرى تحمل النفقات العظيمـة، فضلاً عن هذا قام الذين لم يرغبوا بالذهاب بالشكـوى ضد الذين قالوا إنه سيتـوفر وقت لنا قبل العـودة من الجليل للشروع بحجنا إلى جبل سيناء، وأننـا في هذه الحالة علينا أن ننتظرهم، الأمر الذي ماكانوا ليقوموا به، وفي هذه النقطة كانوا مخطئين، لأنه كان بامكانهم الذهاب إلى هناك ثلاث مرات قبل أن ننطلق من القـدس، وذلك كما سيظهـر فيما بعـد، وهكذا حـدث أنه بسبب الانقسـام بين صفـوف الحجاج، تُركـت أشياء كثيرة دونما إنجـاز، كـان بإمكاننا إنجـازها بسهـولة، لـو أننا كنا على رأي واحـد، لأننا لو اتفقنا، ودفع كل واحـد منا خمس دوقيـات، لكـان من الممكن أخـذنـا خـلال الجليل كله، لابل ليـس خـلال الجليل فقـط، لابل حتى أنطاكيـة، التي كـانت تعـرف في الماضي باسم ربلة، كما ورد في سفـر الملوك الثـاني: ٢٥/ ٢٠—٢١.

ولقـد رغبنا فـوق كـل شيء برؤية الناصرة، التي قيـل بأنها في هذه الأيام قريـة صغيرة، لايعبر فيها عن الاحترام للمسيح أو لعبيـده، لكنها كانت في الماضي، في أيام القـديس جيروم كرسي رئـاسة أساقفـة محترمة، ترأس عليها القديس سيلفانوس Sylvanus ،حسبما جاءنا الخبر عند سيريل، في رسـالتـه إلى أوغسطين،« حول معجـزات القـديس جيروم».

وفي اليـوم الخامس والعشرين، الذي كان يـوم عيد القـديس جيمس الرسول استيقظ رهبان جبل صهيـون قبل شروق الشمس، وأخذوا كل شيء كانوا بحاجـة إليه من غرفة المقدسـات وخرجوا من الدير، وكنت أنا معهم، وقصـدوا كنيسة القديس جيمـس، لأقامة قـداس هناك، وكنا

قـد قـدمنا من قبل وصفاً لهذه الكنيسـة، وعندمـا وصلنا إلى الكنيسـة، تركت الرهبـان يدخلون إليهـا، وركضت أنا مسرعـاً، ونزلت إلى مكان سكنى الحجـاج، وقرعت على البـاب بحجـر، وأيقظتهم من أجل سماع القـداس، وصعدت ثانيـة معهم إلى الكنيسة المتقـدمة الذكـر، ورتلنا في بيعة إعدام القديس جيمس قداساً مهيباً، لابل أقمنا قداساً تلو آخر فوق ذلك المذبح ذاته، ورجعنا إلى أماكننا التي فيها أقمنا من أجل الاستراحة في ذلك اليوم، الذي كـان يوم سبت، وهو اليوم الذي حـافظ المسلمون عليه، وعدوه مقدسـاً مثلما نحافظ نحن على يوم الرب، ولم يسمحوا لنا بالتجـول في أنحـاء المدينة، في مثـل هذا اليـوم، لأنهم يقيمـون صلوات مقدسة وقتها. (١)

وفي اليوم السـادس والعشرين، الذي كان يوم عيد القـديسة حنة، أم العذراء الأعظم مباركة، استيقظنا باكراً، وذهبنا إلى الكنيسة القائمة فوق مكان بيت القـديسـة حنة، الذي فيـه حملت بـأم الرب، ورجـونا الذين سكنوا هناك بالسماح لنـا بالدخـول، لكنهم لم يستجيبـوا بأي شكل من الأشكال، وبناء عليـه صلينا للقـديسة حنـة، وتعبدنا ابنتهـا من خـارج الأبواب، وقد سلف لي الحديث عن هذه الكنيسـة، ولسوف أتحدث عن المكان بعد وقت قـريب، وغادرنا الآن تلك الكنيسـة، وعبرنا من خلال باب اسطفـان، ونزلنا إلى وادي شعفـاط، مـن أجل أن نقيم قـداسـاً في كنيسة صعود العذراء المباركـة، لكن عندما وصلنا إلى الكنيسة وجدناها مغلقة، ولم يكن بإمكاننا الدخول إليها، ولذلك تركناها وصعدنا إلى قبو صلاة المسيح وآلامـه، حيث زيّنا مذبحاً، وأقمنا قـداساً، علماً بأن هذا لم يحدث مثله من قبل، أي أن تقيم الطقـوس اللاتينيـة قـداسـاً هناك، هذا ولقد سلف لي أن قمت بوصف هذا المكان.

ولدى الفراغ من قداساتنا، قمنا بزيارة الأماكن المقدسة الأخرى على

١— وهم فابري، وكان عليه أن يقول بأن اليوم هو يوم الجمعة.

جبل الزيتون، إنما عندما وصلنا إلى كنيسة صعود ربنا، أوقفنا واحد من المسلمين، ولم يسمح لنا بدخول الكنيسة مالم ندفع له مالاً، وهددناه بأننا سوف نشتكي ضده إلى السيد جانم حاكم القدس، غير أنه لم يعبأ بذلك، وهكذا عدنا إلى مسكننا لتناول طعام الغداء على جبل صهيون.

وفي اليوم السابع والعشرين، الذي كان الأحد التاسع بعد التثليث، قدم جميع الحجاج باكراً إلى القداس على جبل صهيون، وهو القداس الذي توليت أنا ترتيله لصالح الراهب سيرافينوس Seraphinus، القانوني الذي كان مسؤولا عن السدة في ذلك الأسبوع، ذلك أنه رجاني بتلاوة القداس عوضاً عنه، وتوليت إدارة القداس إلى جميع الرهبان الذين ليسوا في طوائف الرهبان، ولقد وافقت على هذا بسرور، وعددته فضلاً خاصاً خصصت به حين نظر إليّ على أنني جدير بتلاوة قداس للدير في المكان الذي نعتقد أن هذا القداس الذي هو قداس القربان، قد تأصل بالأساس في هذا المكان، وأنني حين أشارك بذلك القداس مع إخواني أفعل ذلك في المكان نفسه الذي شارك فيه المسيح مع تلاميذه بقداس أكل جسده على هذه البقعة، كما تحدثت من قبل في ص ٤٢٠، وبعد الغداء استرحنا.

ونزلت في اليوم الثامن والعشرين باكراً مع المسؤول عن التموين إلى المدينة، وقصدنا السوق، وشارع الطباخين، حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع، وحشداً عظيماً من الناس، وكثيراً من المطابخ، للناس الذين لايطبخون في بيوتهم، كما يفعلون في ديارنا، بل يبتاعون طعامهم من المطابخ العامة، الذين يعدون اللحوم بنظافة متناهية في مطابخ مفتوحة، ولايمكن رؤية أية امرأة هناك قريباً من النار، لابل ما من امرأة تملك الجرأة حتى على دخول هذه المطابخ لأن المسلمين يكرهون الأطعمة المطبوخة من قبل النساء، كراهيتهم للسم، ولذلك لايوجد في الشرق كله امرأة تعرف كيف تطبخ كعكة، بل الرجال وحدهم هم الطباخون،

وتحتاج المطابخ في هذه المناطق جدراناً عامة، وذلك بسبب جفاف البلاد، والخشب نادر، ولذلك من غير الممكن أن يكون هناك مطبخاً في كل بيت، مثل الحال في بلادنا، وذلك بسبب الحاجة إلى الخشب، وبعد رؤيتنا لهذا كله، عدنا إلى أماكن الإقامة، وتناولنا الغداء بعد القداس.

وفي اليوم التاسع والعشرين، اشترى كل حاج لنفسه فراشاً محشواً بالقطن، وذلك لصالحنا، من أجل استخدامهم في القدس، وفي خيمنا في الصحراء، وقد تدبرت صنع واحداً لي أيضاً عندما كنت في القدس، وقد حملته معي عبر الصحراء، وعبر البحر إلى البندقية، ومن البندقية إلى أولم، إلى قلايتي الخاصة، حيث أنني مددتها بمثابة أثر مقدس من آثار حجي المقدس.

وبعد الغداء ركب الأمير جانم حاكم القدس، والسيد فكاردينوس Vaccardinus، والسيد Sabathytanco ، والأعيان المسلمون،وصعدوا على ظهور الخيول إلى جبل صهيون للترويح عن أنفسهم، لأن الهواء على جبل صهيون دوماً منعش أكثر منه في القدس، ولهذا اعتاد أعيان الناس على الصعود إلى هناك بين آونة وأخرى، لإنعاش أنفسهم، وللتمدد في كنيسة الرهبان، التي هي دائماً باردة، وعندما قدموا، مدّ الرهبان زرابي فوق البلاط، مع فرش ومساند، وجلس السادة هناك، واستندوا بمرافقهم فوق الفرش، لأنه لم تجر العادة في هذا البلاد بالجلوس فوق المقاعد، أو فوق الكراسي بظهر أو بدون ظهر، بل يضطجعون على الأرض، وإذا كانوا أغنياء ومن أعيان الناس، يجري مدّ زرابي من أجلهم.

وعندما استقربهم الحال جلب لهم الرهبان أطعمة في صحون من المعدن، ومعجنات صنعت مع التوابل ،وبعض الأرغفة من خبزهم، وأقراص معمولة بالعسل، وفواكه وأعناب، ولوز وبطيخ، مع ماء بارد للشرب، لأنهم لايشربون الخمرة، وأكل هؤلاء السادة بكل سرور، وفي

الوقت نفسه وقف الرهبان الفرنسيسكان ونحن الحجاج من حولهم وتولينا خدمتهم، في حين وقف خدمهم من المسلمين من حولنا، وقد سألونا أسئلة كثيرة من خلال مترجم، وسمعوا أجوبتنا بإعجاب، وناقشوا بجدية، أحدهم مع الآخر ماسمعوه، لأنهم كانوا قوماً متقدمين بالسن، وعليهم سمات الوقار، مع لحى طويلة، وذوي خبرة واسعة، ذلك أنهم كانوا أعيان حكام المدينة المقدسة، ولهم حضور أصيل.

وحدث في اليوم المتقدم، أن بعث الأب المسؤول باثنين من الرهبان من جبل صهيون، إلى بيت لحم، لكن مسلماً انقض عليهما على الطريق، وضربهما ضربات كثيرة، حتى وصل الأمر إلى سفك الدماء، واشتكى الأب المسؤول من هذا المسلم، إلى هؤلاء السادة، الذين وعدوه بمعاقبته، وأنهم سيتعاملون معه بشكل يمنعه من إلحاق الأذى بأي مسيحي مرة أخرى، وبعد الفراغ من سماع شكوى الأب المسؤول، تقدمنا نحن الحجاج، وعرضنا شكوانا ضد المسلم الذي لم يسمح لنا بالدخول إلى كنيسة صعود الرب، حسبما عرضنا ذلك تحت عنوان اليوم السابع والعشرين، ورجوناهم السماح لنا بزيارة الأماكن المقدسة من دون دفع، وقد أجابوا بأنه ينبغي علينا أن لاندفع أي شيء إلى الذي يتولى حفظ باب كنيسة الصعود، وأنه من الآن فصاعداً لن يطلب منا أي شيء، وفيما يتعلق بزيارة الأماكن المقدسة لقد قالوا:« يمكنكم الذهاب إلى أي مكان تريدون، وحسبما ترغبون، ونحن ننصحكم أنكم كلما سرتم في الخارج، ليكن معكم بعض المسلمين، لكي لايتمكن الأولاد الأشقياء، الذين لايمكننا ضبطهم، من ازعاجكم»، وهكذا مضى ذلك اليوم، وفيه أكلت أثناء كل من الغداء والعشاء بشراهة فائقة من البطيخ، الأمر الذي اقترفته لايذاء نفسي.

وكنت في اليوم الثلاثين مريضاً طوال اليوم، حيث عانيت من حمى حادة جداً، وكنت ملتهباً بحرارة فائقة، وأعتقد أن سبب ذلك، هو

البطيخ، الذي هو في القـدس كبير جـداً، وعظيم الحلاوة، وقـام— على كل حال— الراهب بابتستا Baptista ، المسؤول عن قـاعة المعالجة، بالاعتناء بي بشفقة، وجعلني على الفور أشفى، بجعلي أتعرق، وهكذا لم أغادر في ذلك اليوم قلايتي.

وسمعت في اليوم الحادي والثلاثين بأن اثنين من إخواني الحجاج كانا مـــرضى، وأنهما يسيران وهما متكئين على عصـــا، ونزلت مـن جبل صهيـون، وأنا عظيم الاضطراب والانـزعـاج بسبب ضعفي، وسرت حتى مسكن الحجـاج، مع أن الطريق صعوداً ونزولاً طويل نسبيـاً، وبما أنني كنت مريضـاً، فقد زرت قوماً مـرضى، وبقيت معهم طوال اليوم، وفي المساء تولى اثنان من الفـرسان مرافقتي صعـوداً، وسط رعاية كبيرة، حتى أنني عـدت سليماً من جـديد، إلى مكاني في جبل صهيـون، حيث وجدنا أهل الدير كله مشغولين بطوافهم اليومي حول الأماكن المقدسة، وبناء عليـه ذهبت معهم، مثلما اعتـدت أن أفعل في أوقـات أخـرى، وعدت مع إخواني للهجوع في قلايتي.

وكـان لرهبـان جبل صهيـون عـادة مقـدسـة وجـديرة بالثناء، وهي قيامهم كل ليلة، بعـد غناء القداس، والفراغ منه، القيـام بزيارة الأماكن المقدسة، للحصول على الغفرانات وفق الطريقة التالية: يذهبون أولاً إلى المذبح العـالي، في المكـان الذي تأسس فيـه القـربـان، وهناك يسجـدون بأنفسهم ويقبلون المكان، ويحصلون على غفـرانات، ومن هناك يذهبـون إلى مكان غسل الأقدام، وبعـد هذا يذهبون فيطوفـون حول الرواق، إلى المكان الذي أنـزل إليـه الروح القـدس، ومن هناك ينـزلون إلى بيعـة القـديس تومـا الرسـول، ويعبرون حـول الرواق، ويـدخلون إلى بيعـة القديس فرانسيس Francis الملاصقة لباب الرب وعموده، وقبلوا هنا البـاب، وخرجـوا من الرواق إلى المكان الذي قـام فيه مـوضع اعتكاف مـريم العـذراء المبـاركـة، وتابعـوا مـن هناك إلى المكان الذي وعظ فيـه

المسيح، وهناك استداروا بأنفسهم إلى ضريح داوود والملوك الآخرين، وتابعوا من هناك إلى مطبخ الرب، ومنه إلى ضريح القديس اسطفان، ومن هناك أخذوا يستديرون حول المنطقة، وينزلون إلى كهف توبة داوود.

وشرعوا يتابعون من هذا الكهف سيرهم، إلى زاوية جبل صهيون، ثم ليستديرون بأنفسهم نحو الشرق على ركبهم الجاثية، أي باتجاه جبل الزيتون، فيتعبدون أماكنه المقدسة بصلاة واحدة قصيرة، ثم يلقون نظرة على وادي شعفاط، ويصلون، وهم ينظرون نحو كنيسة صعود العذراء المباركة، من أجل أنه بفضائلها وشفاعتها يمكن أن نحظى هنا بلقاء قاضينا بسرور فوق تلك البقعة.

وكانوا يبقون بعد هذا فوق البقعة نفسها، ويستديرون بأنفسهم نحو الشمال، ومدينة القدس المقدسة، وينظرون نحو هيكل سليمان المقدس، ثم يلقون نظرة واحدة على كل الأماكن المقدسة في المدينة المقدسة، وبعد الفراغ من هذا كانوا يستديرون بأنفسهم من الشمال نحو الغرب، أي نحو كنيسة الضريح المقدس للرب، التي هي كنيسة القيامة، والتي لايمكن رؤية شيء منها باستثناء الأجزاء العالية من برجها، وذلك بسبب وقوف جبل صهيون في الطريق، ولدى تطلعهم إلى هناك كانوا يصلون بتقوى عظيمة، وينهضون بعد هذا، ويصلّون عندما يصبحون أمام بيت عناس، الكاهن الأعلى، ويمضون من هناك نحو بيت كيفاس، ويقدمون صلواتهم هناك، ويديرون وجوههم نحو الدير، ويصلون إلى موضع افتراق الرسل.

ثم كانوا يتابعون سيرهم من هناك إلى بيعة القديس يوحنا، حيث اعتاد أن يقيم قداساً، وأن يقوم يومياً بإقامة قداس قربان إلى مريم العذراء المباركة، وعبروا من تلك البيعة إلى بيت العذراء المباركة، وذلك حيث أنهت أيامها، وكانوا يذهبون من هناك إلى المكان الذي جرى فيه

اختيـار القديس ميتيـاس رسولاً، وحيـث أيضاً جـرى اختيار القـديس جيمس أسقفاً، وحيث أيضاً جرى اختيـار سبعة رجال جيدين شمامسة، وعبروا من هناك إلى مقبرة إخـوانهم الذين دفنوا هنـاك، فخـاطبـوهم وصلوا من أجلهم، وبعد فـراغهم من عملهم هذا، كانوا يعـودون ثانية من خـلال باب الدير، ومن ثم يأخـذ كل واحـد نفسـه إلى قـلايتـه للاستراحة، ووفق هذه الطريقـة طفت كل يوم معهم، عندما كنت مقيماً معهم.

الفصل الخامس

ويحتوي: على أعمال الحجاج خلال شهر آب، مع وصف لمختلف الأماكن في الأرض المقدسة التي إليها ذهبوا، كما ويحتوي على مسائل أخرى كثيرة مفيدة

جلب لنا شهر آب، في يومه الأول عطلتين مزدوجتين: كانت أولاهما، اطلاق سراح القديس بطرس الرسول وفك أغلاله، والثانية كانت عطلة عيد محمد(صلى الله عليه وسلم)..... والعيد الأول معروف لدينا، أما الثاني فغير معروف لدينا، إنما له مهابة عظيمة لدى المسلمين، الذين يحافظون على عيد اعطاء شريعة محمد(صلى الله عليه وسلم)، لأنه في ذلك اليوم أعطيت شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم).... ونشرت بين الناس، وأيضاً في ذلك اليوم تدفق القرآن بحر (الفضائل) فغمر العالم كله تقريباً، ونشر بين الناس....

وكان هذا اليوم الأول من آب، يوم جمعة أيضاً، وقد عدّ هذا اليوم مقدساً لدى المسلمين خلال السنة، ليس فقط لأنه اليوم السادس من الاسبوع، بل بسبب.....(١) ولهذا لم نتجرأ في هذا اليوم على اظهار أنفسنا خارج الأبواب، بل بقينا بعيداً عن الأنظار في أماكننا، وذلك مثلما يفعل اليهود يوم الجمعة الحزينة، فيغلقون أبوابهم على أنفسهم، ولايتجرأون على التجول في الطرقات، وبسبب عيد محمد(صلى الله عليه وسلم) هذا، لم نكن قادرين على الاحتفال بعيد القديس بطرس في الأغلال بشكل لائق، لأن رفاقي الحجاج، لم يتجرأوا على الصعود من مسكنهم إلى جبل صهيون، لسماع القداس، وأرغمنا نحن على تمضية ذلك اليوم بهدوء بدون سماع أي قداس، لأن المسلمين قد قرروا أنهم كلما احتفلوا بيوم عيد أو بيوم صيام، أو امتنعوا عن الطعام، أو حافظوا على أي يوم على أنه مقدس، سواء أكان لفرح أو ترح، كانوا يرغمون

١— قمت باسقاط العبارات النابية.

جميع الغرباء والحجاج على فعل مثل ذلك، ومثل هذا يفعلون أيضاً فيما يتعلق بمسألة الخمرة: فبما أنهم لايستخدمونها هم أنفسهم، فـانهم لايسمحون للحجاج بشربها في بلادهم، إلاّ بالسر، عندما لايراهم أحداً.

وفي اليوم الثاني الذي كان يوم القديس اسطفان، البابا والشهيد، وبعد سماعنا للقداس، أخذنا بعض الطعام، والتقينا عند جبل صهيون، مع نية الذهاب حول مدينة القدس كلها من الخارج، لنرى دفاعاتها، أو بالحري خرائب دفاعاتها، دون أن نأبه بالحرارة العالية جداً، وبأشعة الشمس المحرقة، لأنه لم يكن بإمكاننا فعل ذلك إلاّ وقت حرارة الشمس، ففي ذلك الوقت يبقى المسلمون في الظل، ففي الصباح الباكر، وفي المساء، عندما تكون الشمس أقل حرارة، كانوا يذهبون إلى حدائقهم، ويمشون من حول خارج الأبواب، ووقتها كانوا لايسمحون لنا بالطواف حول المدينة، ولهذا اخترنا ساعة راحتهم، لنعمل ذلك أثناءها.

وبدأنا طوافنا كما يلي: عبرنا أولاً وسرنا حتى برج داوود على الجانب الغربي، وذهبنا من هناك إلى باب السمك، أو باب التجار، القائم عند الزاوية الغربية، وذلك حيث يتصل السور الغربي بالسور الجنوبي، ومضينا من هذه الزاوية إلى حقل القصار، الذي يقوم فيه في الوقت الحالي بستان أشجار، ومسجد، ومقبرة للمسلمين، وهو قائم حيث هو كما كان في أيام القديس جيروم، وذلك حسبما قرأنا في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، واستدرنا في حقل القصار نحو الشمال، حيث أبقينا خندق المدينة المقدسة على يميننا، ومشينا نحو الشمال على طول الحافة هناك، وكان هذا الخندق فيما مضى عميقاً وواسعاً، وقد بني سور المدينة نفسه على صخرة، وقد بنيت البيوت فوق السور نفسه، وهي تطل على الخندق، ورأينا تحت الصخرة نفسها كهوفاً عظيمة، من

خلالها هناك طريق يقود تحت الأرض إلى وسط المدينة تقريباً، ولوكان معنا مصبـــاح مشعل لكان من الممكن لنا الذهاب والسير في هذا الكهف، وكنا آسفين لعدم جلبنا واحـداً معنا، وأطلق يوسفيوس، في الفصل الثامن من كتابه السادس عن «حرب اليهود» على هذه الكهوف اسم« كهوف الملك»، لكن لماذا أسماهم هكذا، أنا لم أقرأ قط حول ذلك، غير أنني أفترض أنه قد توفرت فيهم بعض الطرقات في داخل المدينة، وكانت هذه الطرق معروفة من قبل الملك وحـده، حتى يتمكن من الدخول إلى المدينة، والخروج منها، من دون معرفة أية انسان، أو ربما كان هناك طريقاً فيهم من قصر الملك.

وتابعنا تقدمنا من هناك، وسرنا مسافة طويلة على حافة الخندق، حتى وصلنا إلى الزاوية الشمالية، وذلك حيث يتصل السور الغربي بالسور الشمالي، ويوجد في مواجهة هذه الزاوية هناك تضخم أو ارتفاع بالأرض، حيث عليه خرائب الأسوار، وقام هنا فيما مضى برج عظيم الارتفاع، كان اسمه Phaselus أو Phaselus Hippicus، هناك مشهد منه لكل من البحرين، أي البحر القائم في جهة الشرق، الذي هو البحر الميت، والبحر القائم في جهة الغرب، الذي هو البحر الكبير، أو البحر المتوسط، وقد قرأنا عن هذا في الفصل الثامن، من كتاب يوسفيوس السادس، أي كتاب«حرب اليهود»، ومع ذلك غالباً ماتساءلت كيف يمكن هذا، مشاهداً من جهة الغرب الجبال وهي مطلة فوق المدينة المقدسة.

واستـدرنا من هذه الزاوية نحو الشرق، وسرنا على محاذاة حافة الخندق، ورأينا هناك جزءاً كبيراً من أسوار قديمة، لأن السور كان مزدوجاً، بشكل أنه كانت هناك ممرات داخل السور، وفي الوسط هناك، في كل من الأعلى والأسفل، وجعلت الصخور التي قام عليها السور، مربعة بشكل صناعي في كثير من الأماكن، وقد وقفت فوق هذه

الأمـاكن الأبراج، وفي الحقيقة، كـانت المدينة جيـدة الدفاعـات من هذا الجانب، لأنه من الممكن مهـاجمتهـا مـن هنا بسهـولة أكبر من الأمـاكن الأخــرى، وبناء عليــه من هنا تمكن صــلاح الدين ملـك مصر من الاستيـلاء على المدينة وانتزاعهـا من أيدي الصليبيين في سنة ١١٨٧التي كانت السنة الأخيرة لحكمهم لها.

وتابعنا السير من هناك حتى وصلنا إلى باب إفـرام، أو باب القـديس اسطفـان، وهو الموجـود عند الزاوية الشرقيـة، أي حيث يتصل الســور الشمالي بالسور الشرقي، وهـذا السور الشرقي ليس له خندق أمـامه، بل يمتلك بدلاً عن ذلـك وادي شعفـاط، الذي على طرفــه ينهض الســور مرتفعـاً، وهناك على كل حال، ممر صغير يسير على طـول طرف السور، فـوق الوادي، وذلك من الزاوية الشرقيـة للسور، حتى الزاوية الجنوبيـة منه، ومع ذلك لم نتجرأ في متابعة طـوافنا، بسبب وجود مقبرة اسلامية، قائمـة في مواجهة الباب الذهبـي، ولم يكن بامكاننا عبور هذه المقبرة من دون تعريض أنفسنا إلى خطر عظيم، وذلك كما ذكرنا من قبل.

وهكذا تخلينا عن هـذا الممـر، ونزلنا مـن الزاوية، من فـوق منحـــدر منزلق إلى وادي شعفاط حتـى جدول قدرون، ذلك أننا سـايرناه، فكان جبلي الهيكل والمدينـة من الجانب الأول، وجبـل الزيتـــون مـن الجانب الآخــر، وتابعنـا سيرنا حتى وصلنا إلى سفـح جبل صهيــون في وادي سلوان، واستـدرنا هنا نحـو الغـرب، وذهبنا صـاعـدين خـلال الوادي الذي يفصل جبل صهيون عن جبلي حقل الدم وجيحـون، امتداداً حتى حقل القصــار، حيث كنا قـد بـدأنا طوافنا، وقـد دخلنا إلى المدينة من خــلال باب السمك، وذهبت مع مــوالي الحجــاج إلى مكان سكنهم، وهناك أنعشنا أنفسنـا، حيث كنا نشعــر بالحرارة والتعـب، لابل كنا في غاية الانهاك، وهكذا مرّ ذلك اليوم، وعلى كل من يرغب بالاطلاع على حجم القدس ودفـاعاتها في الأيام الخوالي، أن يقـرأ مصنف يوسفيوس«

حرب اليهـود»، الكتاب السـادس، الفصل الثامن، ومع ذلـك خشية أن يظن بأنني أتجنب قـول أي شيء واضح حـول حجـم المدينة الأعظم قـداسـة، ليكن معلومـاً أنها ليسـت بأي حـال من الأحـوال كبيرة مثلما يعتقد عوام الناس، فهؤلاء يظنون أن حجمها لابد أن يكون عظيماً بقدر شهرة اسمها وفضائلها.

قد قيل أشياء رائعة جداً عنك أنت يامدينة الرب، ويقال الآن عنك، ولسـوف يقال عنك مـادامت الدنيـا قـائمة، وهذه المدينة الآن، ودومـا كـانت، أدنى من المدن الكبيرة، لكنهـا أكبر من المدن المتـوسطة الحجم، ومثل هذا قيل عنها من قبل الأمم، فقـد قال هيكاتيوس Hecataeus الفيلسوف أوف أبدرا Abdera :« القدس مـدينة حصينة جداً، يبلغ محيطها حـوالي الخمسين غلوة، ويسكن فيها أكثر من مائـة وعشرين ألفاً من الناس»، ومضى في حـديثه فقال عنهـا أشياء أخـرى حسبما قرأنا في مصنف يـوسبيــوس « Praeparatio Evangelica » الكتـــاب الثامن— الفصلان الثاني والثالث.

وأخبرنا فيلسـوف آخر هو تيمـوخارس Timochares، الذي كتب تاريخ انطاكية أن «مقياس محيط القدس هو حوالي الأربعين غلوة، وهي محميـة من جميع جوانبهـا بوديان عميقة جـداً، وهي تشرب من كثير من الينابيع التي تنبع في داخلها، علماً بأنه لايوجد ماء صالح للشرب حولها في اطار يبلغ أربعين غلـوة»، وقـد زاد على هذا كثيراً، حسبما قـرأنا في مصنــف يوسيبيـوس المتقـــدم الذكـر— الكتــــاب العـاشر، الفصل الرابع.

هذا وحدثنا يوسفيوس، الذي كان يهودياً، وكـاتباً متميزاً للتاريخ، في الفصل الخامس من كتــاب تاريخه المتقـدم الذكـر بأن« مــدينة القـدس بكامل سعتها، مـوجودة ضمن إطار مقـداره ثلاث وثلاثين غلوة»، وقد حـدثنا في هذا الفصل نفسه، بأشيـاء كثيرة رائعة عنهـا، وأنا ميال أكثـر

لتصديق كلماته، لأنه كان من أهل القدس، وقائداً ليهود المدينة أثناء تدميرها من قبل تيتوس.

وواضح من هذه المصادر المعتمدة، بأن القدس قد كانت قبل التوسعة التي عملها الامبراطور اليوس هدريانوس، أكبر من أولم(التي هي من المدن المتوسطة الحجم) في الوقت الحالي، وفي الحقيقة غالباً ماقمت أنا شخصياً بقياس محيط أولم، فوجدت أن هذا المحيط هو خمساً وعشرين غلوة، وخمساً وسبعين خطوة واسعة، مما يساوي نصف ستاديوم، وبناء عليه كانت القدس أكبر من أولم بثمان غلوات.

وقد حدث أنه بعد مضي سنين كثيرة من أيام يوسفيوس، قام الامبراطور إليوس، بإعادة بناء القدس، التي كانت مهدمة، وأدخل فيها موضع الجمجمة وضريح الرب، وجعلهما داخل الأسوار، وبذلك وسعها توسعة كبيرة جداً، وبذلك صارت حسب خطة التوسعة هذه، بالمقياس والحدود، حسب الذي أورده الفيلسوفان، اللذان تقدم ذكرهما، وإذا كانا قد كتبا قبل التوسعة، فإنهما أدخلا في قياسهما جبل صهيون، الذي لم يدخله يوسفيوس في قياسه، لأننا إذا أخذنا جبل صهيون مع جبل الجمجمة والجلجلة، فإنه يتكون لدينا اطار كبير، مقياسه ليس أقل من اطار مدينة أوغسبورغ Augsburg ، التي هي مدينة في سوابيا، وتعدّ بين المدن الكبيرة في ألمانيا، ومع ذلك عندما ينظر الانسان نحو مدينة القدس من جبل الزيتون، لاتبدو له مدينة كبيرة جداً، لأنها تقوم فوق بقعة غير مستوية، أي ليس فوق أرض منبسطة، وفيها فراغات وأماكن كثيرة لايمكن رؤيتها، لأن جبل صهيون منفرداً بذاته، يمكنه أن يحتوي على مدينة ليست ذات حجم صغير، ولو أنه بني كله، فإن الخرائب تبرهن أنها كانت فيما مضى كذلك، هذا ولسوف نقدم في المستقبل المزيد حول وصف هذه المدينة.

الدخول الرابع للحجاج إلى ضريح الرب

في اليوم الثالث، الذي كان يوم عيد ميلاد القديس اسطفان، والذي وافق الأحد العاشر بعد التثليث، رجونا في مساء السبت المتقدم، أصحاب السيادة الحكام المسلمين للمدينة المقدسة أن يحسنوا إلينا، فيدعونا ندخل إلى كنيسة الضريح القدس، وقد وافقوا على هذا، شريطة أن ندفع الرسم المعتاد، وهو خمس دوقيات عن كل شخص، وهنا رجوناهم أن يرأفوا بنا، وبينا أن هذا المطلب حاد جداً، وأن عددنا صغير الآن، وبسبب أننا ننوي أن ندخلها مراراً قبل مغادرتنا، وأنهم إذا لم يقوموا بتخفيض الرسم المعتاد، لن نتمكن لا الآن ولافي المستقبل من الدخول إليها، وهكذا بعد التماسات طويلة ومناقشات تمكنا من اقناعهم بسبب الحاحنا، واتفقنا أننا كلما اردنا الدخول إلى كنيسة الضريح المقدس أن ندفع رسم انسان واحد، أي أن ندفع خمس دوقيات، وقد أرضانا هذا.

وبناء عليه عندما اجتمعنا جميعاً في ساحة كنيسة الضريح المقدس، جاء السادة المغاربة مع المفاتيح، وفتحوا الأبواب، ودخلنا نحن وأمضينا تلك الليلة سهرانين حول الضريح المقدس وفق الطريقة التي ذكرتها في ص ٥٠٤، ولدى حلول الفجر، غنينا قداساً في بيعة العذراء المباركة التي تقدم وصفها في الصفحة نفسها المتقدمة الذكر، وتلونا قداسات خاصة، حسبما أردنا دونما ازعاج، وعند الفراغ من هذا كله، قدم المسلمون، وفتحوا الأبواب، ورمونا بالخارج، وذهبنا الآن جميعاً إلى جبل صهيون المقدس، وتدبرنا تلاوة قداس في المكان الذي وجد فيه جسد القديس اسطفان مدفوناً، وانظر حول هذا المكان ماتقدم في ص ٤٢٢، ولدى الفراغ من القداسات، اتفقنا أن نقوم بعد الغداء بزيارة بعض الأماكن المقدسة في داخل المدينة، مما لم نزره من قبل.

والتقينا بعد الغداء فوق جبل صهيون، وأخذنا معنا الفحل، أي

كـالينوس الأدنى، ودخلنا إلى القـدس مـن باب القـاذورات، أو من تلة القـاذورات، التي غالبـاً مـاجاء ذكـرها في الكتـابات المقدسـة، وبشكل خـاص في سفرنحميـا— الاصحاح الثـاني، ففيه أطلق على البـاب باب الدمن القـديم، وهو مايـزال يعرف بالاسم نفسـه حتى الآن، بسبب أن الأوساخ والقاذورات تحمل من خلاله، ويرمى بها نحو الوادي، وهكذا تشكل من الأوسـاخ المرميـة هناك كومـة تنامت حتى صـارت مثل تلة، وغدت عاليـة حتى باتت تطل على السور في ذلك المكان، وعندما عبرنا من خـلال هـذا البـاب، وصلنا إلى سـوق الضـأن، وذهبنا من هناك إلى طريق ضيق، سكـن فيـه كثير من المسيحيين النوبيين، وقـد قـرعنا باب كنيستهم.

وعندمـا فتح البـاب، دخلنـا وتلونا صلواتنا هنـاك، وكـانت هذه الكنيسـة واسعـة نسبيـاً لكنهـا مظلمـة، وفي الحقيقـة إن جميع الكنائس الشرقية معتمة ومظلمة، وهذه الكنيسة قائمة فوق المكان الذي قام عليه فيما مضى بيت مـريم، أم يوحنـا، الذي لقبـه مـرقص، وهو الذي قـرع بطرس بابه، عندمـا أخرج من السجن بوسـاطة الملاك، والحكاية الحلوة حـول ذلك من الممكن قـراءتها في الاصحـاح الثـاني عشر من أعمال الرسل، وتـابعنا سيرنا قليـلاً من هذا المكـان، فـوصلنا إلى بيت آخـر لمسيحيين شرقيين، وعندمـا سمحوا لنا بالدخـول إليـه، أرونا في ساحـة ذلك البيت صهريجاً تابعاً للبيت، وقـالوا بأنه هناك ظهر المسيح للقديس توما الـرسول، فعندما كـان ينضح بعض الماء، وواقفاً على أحـد أطراف الصهـريج، وقـف الرب يسـوع على الطرف الآخـر، وأخبره أن عليـه الذهاب إلى الهند، فهـذا مـاقالـه المسيحيون الشرقيـون وأنه حـدث هنا، لكن الاسطورة اللومبـاردية قـد ذكـرت بأن هذا قـد وقع في قيسـارية، ومثل هذا ذكرت كتب أخرى لكنيستنا.

ومضينا من هناك إلى بيت آخـر، حيث كـان فيه كنيسـة أيضاً، يقـول

المسيحيـون الشرقيـون بأن فيهـا قـد ولد الرسـولان المقـدسـان جيمس وجون، لأنهم قالوا بأن أباهما زبدي قد سكن هناك مع زوجته، إنما بعد اصـابتهم بالفقـر سـافـروا مـن هناك إلى الجليل، وحصلوا على نفقـات عيشهم باصطيـاد السمك إلى جـانب بحـر الجليل، ولهذا جـاء الخبر في انجيل يوحنا— الاصحاح؛ ١٩، بأن« ذلـك الرسول كان معـروفاً لدى الكاهن الأعلى».

وقام على مقـربة من هذا البيت مسجد اسلامي، وكان بابه مفتـوحاً، وبما أننا لم نر مسلماً فيـه، دخلنا إليـه، ولم نجد فيـه شيئاً جميـلاً، ولاشيء يبعث على التـديـن، ولاشيئاً مـرغـوباً به، بل مجرد بناء فـارغ، مقبب، ومستدير، وجدران مطلية بالبياض، ومصابيح معلقة من السقف المطلي، وكـانت الأرضيـة مغطـاة بالحصر، عليهـا يـركعـون ويسجـدون أثناء صلواتهم، وبعـد مشاهدتنا لهذا خـرجنا ثانيـة، وهذه الأمـاكن المتقدمـة الذكر، قريبة من هيكل الرب، الذي يسمونه هيكل سليمان.

وذهبنا بعـد هذا باتجاه الهيكـل، ورأينا في السـاحـة هناك كثيراً من المسلمين واقفين ومعهم قوارير وأوعية، وجرار لنضح المياه، التي كانت تتدفق هنـاك بقوة من انبوب مـاء، عجبت منه كثيراً ،لأنني قـرأت دوماً وسمعت بأن المدينة المقدسـة كانت بلامياه شفه، ولكن عـرفت فيما بعد بالخبرة بأن هذه الميـاه تنبع من مكان بعيـد عن المدينة المقـدسـة، وهي تحمل إلى القـدس بوسـاطة أقنيـة من تحت الأرض ومجاري ميـاه، عنهـا سوف أتحدث بتوسع في ص ٩٨٩.

وصعـدنا مـن هذا المكان نحـو الهيكل، ثم إلى شـارع مغطى بسقف مقنطر، من خلاله ذهبنا إلى باب كبير، يقود إلى سـاحة الهيكل، وكان في هذا الشـارع كثيراً من الحوانيت والأبواب للتجـار على كـلا الجانبين، وعندمـا رأونا نسعى مسرعين نحـو باب الهيكل، ركض كثير من الناس لمنعنا من الدخـول إلى هناك، وأخبرناهم بالاشـارات بأننا لن ندخل إلى

هناك بل سنصلي للرب فقط خارج الباب، وبذلك سمحوا لنا بالذهاب إلى البـاب، حيث صلينا على ركبنا المنحنيـة، ناظرين نحـو هيكل الرب، إنما حتى هـذا أغضب المسلمين ولذلك صرخـوا علينـا، وكـان باب الساحة نفسها واسعاً وكبيراً، مصنوعاً من عوارض حديدية ثقيلة، وهم يقولون بأن هذا الباب الحديدي هو الذي ورد ذكره في أعمال الرسل— الاصحاح الثاني عشر:١٠، والذي من خلاله قاد الملاك القديس بطرس إلى الشارع لأن سجن بطرس كان فيه.

ومن هناك عـدنا ثانيـة، على طول الشـارع نفسـه، واستـدرنا قليـلاً، فـوصلنا إلى شارع آخـر مقنطر، فيـه أيضاً، مثل المتقـدم تجار جلوس في حوانيت، ودخلنا إلى هذا السوق وسرنا صاعدين فيه حتى باب الهيكل، دون أن نعبأ بصرخـات المسلمين وبانزعـاجهم، كما أننا لم نعـر اهتمامـاً لأوامـر كـالينوس دليلنا، الذي بذل طـاقـة جهـده لمنعنا من النظر إلى الهيكل، لأن المسلمين كـانوا يخشـونه ليمنعنا مـن الاقتراب من الهيكل، وقالوا بأن هذا البـاب هو «الباب الجميل » العائـد للهيكل، الذي تحته شفى بطرس الـرجل الأعـرج، عندمـا صعـد هو ويـوحنا إلى الهيكل للصلاة في السـاعة التـاسعة، وقـال:« ليس لي فضة ولاذهـب»، كما جاء الخبر في أعمال الرسل:٣.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، تابعنا سيرنا خلال شوارع البيوت، القائمة حول الهيكل، ووصلنا إلى جزء آخر من السـاحة، حيث هناك إلى جانب سـور الساحـة، مسجد جـديد، قيد البناء، بنفقـات عاليـة ليكون مكان اعتكاف لصـاحب السيـادة السلطان، فيـه يمكنه أن يصلي كلما كـان في القدس، وهكذا صعـدنا إلى ذلك المكان، ورغبنا في أن نصعـد أكثر، إلى حيث كان العمال، لننظر إليه، ولكن أخبرونا أن مـامن انسان يتجرأ على الصعـود إلى حيث كـان العمال، من دون إذن مـن القـاضي، الذي كـان أسقف هيكل المسلمين، وهكذا دخلنا إلى بيت القاضي، الذي كان صعباً

حتى نسألـه من أجل الاذن، وبيت هذا القـاضي واسـع ومـرتفع، وله سقف مقنطر، مزيـن برخام مصقول، ومجمل برزابي، وهـو مثل كنيسة، لكن من دون مذابح، وأعتقد الآن أنه كان مسجداً اسلامياً، فيه استقبال لجميع الناس من جميع الملل، بسبب القـاضي، الذي كان سـاكناً بجواره، وذلك مع أهل بيتـه وحاشيتـه، لأنني رأيت نساء وأطفـالاً ينظرون إلينا من خلال فتحة في السقف.

وجاء القاضي لمقابلتنا، وكان مهيباً ومتقدماً بالسن، ومحترماً وله لحية، وعندما فهم الذي نريده، وافق على الفور، وتدبر أمر أخذنا إلى المسجد، وذلك بأن أمر واحداً مـن أصحابه بمـرافقتنا، وصعـدنا نحو المسجـد، فوجدنا كثيراً من الحرفيين والعمال هناك، وكانوا يصنعون زينة رقيقة من مختلف أنواع الرخام المصقـول، ومن مختلف الألوان، وكانوا يزينون كل من الأرض، والجدران بالصور، زيادة على هـذا كان الجزء العلوي يلمع بالذهب وبالألوان الثمينة، وكانت النوافذ مزججة، وتضيء المبني بشكل رائع جداً.

وفي الجدار الذي يرتفع من سـاحة الهيكل، كانت هناك نـوافذ طويلة وعظيمـة، لم تكن قد زججت بعـد، ولكنهـا مفتـوحة، رأينا من خـلالها سـاحة الهيكل، والهيكل نفسـه، وقد رأينا هناك الأعمال الرائعـة العاليـة النفقـات لذلك المكان، والتي سـوف نصفها في حـديثنا عن الهيكل على الصفحة ٢٦٠، وقبلها.

وعندمـا فـرغنا من رؤيه هذه الأشيـاء، أعطينا الحرفيين ثمن شراب، وخـرجنـا ثانيـة، وأنا لاأعتقـد أن أي مسيحي سـوف يتمكن قط من الدخول إلى ذلك المسجـد، لأنهم سوف يقومـون بعد قليل بإيقـافه على عقيـدتهم المرتبطة بمحمـد(صلى الله عليـه وسلم)، وعند القيـام بذلك سوف لن يدعو مسيحياً يدخل إليه، وهكذا ذهبنا عائدين إلى أماكننا.

وفي اليوم الرابع، نزلنا جميعاً، بعد الغداء من جبل صهيون، واقتادنا بشكل شبه سري يهودي، قال بأنه سوف يرينا بعض الأشياء التي كانت مخفية، وعندما كنا نازلين وصلنا إلى الجانب الجنوبي من الكنيسة، القائمة قرب هيكل الرب، حيث كان في أيام الصليبيين هناك طريق يقود صعوداً ببعض الدرجات الحجرية، إلى باب عالي، من خلاله يدخل الانسان إلى تلك الكنيسة، وتسلقنا صاعدين إلى هذا الباب، فوق خرائب جدران، وقبلنا الجدار الذي فيه الباب، وذلك من أجل الغفرانات المطلقة، التي يمكن الحصول عليها هناك(++).

وقد قيل يوجد هناك خمس عشرة درجة، تقود صعوداً إلى ذلك الجدار، وعليه صعدت العذراء مريم مع ابنها— الذي كان في الثالثة من عمره— بشكل اعجازي، إلى الهيكل من دون دليل، وحدث أنه على هذه الدرجات، كتب داوود خمسة عشر مزموراً، واسم هذه المزامير«مزامير الدرجات»، وقد زرنا هذا المكان بخوف وصمت، لأنه لو رآنا المسلمون، لأصبحنا بخطر، ولهذا اخترنا الوقت الذي يرتاحون فيه، ونزلنا من ذلك المكان نحو الأسفل أكثر، فوصلنا إلى سور قديم جداً، وكان فائق القوة، وقد بني من صخور كبيرة مربعة، وهذا السور مرتفع، مع أنه كان من قبل أعلى بكثير، وهذا يمكن مشاهدته من الخرائب، لأن المكان كان مليئاً بصخور مربعة موزعة هناك.

وقد قيل بأنه قام فوق هذا السور بيت غابة لبنان، الذي كان بيت الملك، وهو قد بني من قبل سليمان، فهذا ماقرأنا عنه في سفر الملوك الأول: ٧، حيث قال:« المجد» الخ، وقد أطلق على هذا البيت اسم بيت غابة لبنان، لأن الجزء الأعلى منه قد بني من الخشب الذي قطع من غابة لبنان، وقال مصنف كتاب Speculum Historiale، بأن هذا البيت قد بني من مادة مزدوجة، وكان الجزء الأول من الحجارة، وكان اسمه Nethota، أي موضع العطور، حيث خزنت فيه التوابل والعطور، من

أجل استخدامات الهيكل وبيت الملك، وذلك أنه بسبب(برودة) الأرض (وسماكــة) الجدار، كــان من الممكــن حفظ هذه المواد، والحفــاظ على سلامتهــا، وكان الجزء العلوي من الخشب، أي الخشب الذي جلب من لبنان، ولهذا أطلق على هــذا القسم اسم بيت الغــابــة، أو بيت لبنان، أو بالحري بيت غــابة لبنان، ويعتقــد بعضهــم بأنه عــرف بهذا الاسم، لأنه زرع من حــوله، من كل جــانــب أشجــار، وحــدائق للنزهة، وأنها نمت فصــارت كثيفــة مثل غــابة لبنــان، وجــرى في القسم العلوي خــزن الأسلحــة، وذلك بسبب الخشــب، الذي يحول دون لحاق الصــدأ بها، والذي خــزن بها ليس أسلحة القتال، بــل أيضاً أسلحة النظــر والعرض للأبهة الملكية.

وهناك على كل حــال في سفــر الملوك الأول: ٧/ ١—٢، تمييــز بين «بيت غــابة لبنان» وبين « بيــت الملك»، علما بأن بعض الشراح يقــول بأنهما كــانا بيتاً واحــداً، هو البيت نفســه، وهذا مااعتقــده أنا نفسي، هذا وإن بيت الملك هذا، في هــذا المكان، كما يبــدو يتــوافق بشكــل جيــد مع الكتــابات المقدســة، التي غــالباً مــاقــالت بأن ملوك القدس صعــدوا إلى الهيكل من بيت الملــك، وواضح من إرميــا.... وهذا لايمكن أن يحمل على محمل بأن بيت الملك والقصر على جبل صهيون، حيث سكن داوود وسليمان قبل بناء الهيكل، لأن جبل صهيــون أعلى من الهيكل، والانسان ينزل منه إلى مــوضع الهيكل، وعلى كل حــال يصعد الانســان دومــاً من الساحــة عبر درجات إلى الهيكل نفســه، لكن من البيت الذي نحن الآن فيــه، هناك صعود كبير إلى الهيكل، وبناء عليــه وقفنا هناك بدون حركــة لبعض الوقت، وتعجبنا من الجدار الضخم، وتحدث أحــدنا إلى الآخــر حول هذه القضايا.

ويوجــد على قمة هذا الجدار المدمــر حجرة مربعــة كبيرة، أزيحت من مكانها الاعتيادي ولذلك هي قائمــة بشكل شاذ فوق قرنة الجدار، ولأن

هذه الحجـرة الآن هي أعلى شيء في الجدار، وناتئة بشكل غـريب منه، اخترع حولها حكاية أنها الحجرة التي ورد ذكرها في المزمور: ١١٨/ ٢٢، وفي متى: ٢١/ ٤٢ حيث قـال:« الحجـر الـذي رفضـه البناؤون هو قـد صـار رأس الزاوية»، وقال نيقـولا دي ليرا، إنه عندمـا كان الهيكل قيـد البناء، كـانت هناك حجـرة قـدمت مـراراً إلى أيدي المعماريين، لكنهم لم يجدوا مكاناً مناسباً لها لوضعهـا فيه، ولذلك رفضت، ولكن عندمـا كان أحـد الجدران يتـوجب وصله بجـدار آخـر بـوسـاطة حجـر زاوية عند رأسيهما معاً، لم يمكن العثور على حجر أكثـر مواءمة لذلك الغرض من الحجـرة المرفوضـة تلك، والحكاية نفسهـا، حكيت حـول جذع شجـرة الصليب المقـدس، التي رفضت أيضـاً، أثناء القيـام ببناء واحـد من البيوت.

والذي بدا لي، أن هـذه الحجـرة لم تكن— على كـل حـال— حجـر زاوية، ولارأس الـزاوية، لأنه مـن الواضح، أن هـذا الجدار كـان فيما مضى أعلى بكثير.

ولدى تفحصنا لهذا الجدار من الخارج، بقيادة اليهـودي، تسلقنا فوق الخرائب إلى الجدار نفسـه، فـوجـدنا أن بعض الحجـرات المربعـات الكبيرات، قد انتـزعن بقوة شديـدة من الجدار، وعلى هذا هناك ثغرة في الجدار إلى Nethotam ، وبناء عليه حنينا أنفسنا، وذهبنا واحـداً بعد الآخـر، وفي البداية لم يكن بإمكاننا رؤية أي شيء مطلقـاً، وذلك بسبب طبيعـة العين، فـالـذي يدخل إلى الظل من المكان الـذي تعمـه أشعـة الشمس، لايمكنه أن يرى شيئاً، لكن بعـدمـا وقفنا دونها حركـة لبعض الوقت أمكننـا استرداد نظرنا ببعض الدرجـات، ورأينا أبنيـة مقنطرة عظيمة، وكـان يوجد هناك سبعة صفـوف من الأعمدة، تدعم القناطر، والأبنية العلوية التي بنيت فـوقهم في الأيام الخوالي، مع أنه يقوم في هذه الأيام فوقهم بستـان زيتون، عند جهـة الهيكل، ويقول كل من المسلمين

واليهـود، بأن هذه القــاعـات كـانت اسطبل خيــول سليمان، لكن من الأفضل القول بأنه قـد كان هنا الـ Nethota، أي بيت التوابل ومخزن العطور، كما تقدم لنا قول ذلك أعلاه، ذلك أنه أودع هنا التوابل الثمينة جـداً، التي جلبتها ملكـة سبأ، والتي عنها قـرأنا في سفـر الملوك الأول: ١٠/ ١٠، كما علينا أن لانعتقـد بأن سليمان قـد حفـظ الدواب في هذا البيت الجليل جداً، الذي عجبت منه نبيـة سبأ، خاصة عندما رأته قـريباً من الهيكل، ذلك أن وضع الخيـول هناك كان فيه عـدم احترام، ولذلك أمـر ببناء مـدن في أمـاكن أخـرى، وذلك مـن أجل عـرباته، وخيـوله، وخيالته، كما قرأنا في سفر الملوك الأول:٩/ ١٩.

ويوجـد الآن تحت هذه القناطر كثيراً من أكـوام الحجـارة قـد جمعت هناك، وقــد قـال لنا عنهــا اليهـودي الذي جلبنـا إلى ذلك المكان، بأن اليهود قـاموا بتكويم هذه الحجـارة لشغل هذا المكان، ذلك أنهم يأملون أنهم سرعان ماسـوف يتمكنون من سكنى الأرض المقدسة، وبذلك فإن حجـاجهم الذين يأتـون من بلدان بعيـدة، سـوف يستـولون على بعض الأماكن، ففي هذه الأماكن يأملون أنهم سوف يسكنون بعد عودتهم.

ويوجـد في الأعلى في القنطرة، مكان خـرقت فيـه فتحـة كبيرة، منهـا يرمي المسلمـون كناسـة الهيكل والسـاحـة، وكنا في حـالة خـوف عظيم هناك، لأنه لو عثـر المسلمون علينا هناك، لعـاملونا بالفعل بشكل سيء، ولولا أننا كنا خائفين، لتسلقنا فوق الفضلات إلى ساحة الهيكل، وهكذا بعدمـا رأينا جميع المشاهد المتقدم ذكرها، خـرجنا من الفتحة التي دخلنا منها، وقمنا بجولة حـول جبل موريا، الذي هو جبل الهيكل، وهو يمتد من أعلى الرابيـة حتى سور المدينة المقـدسة، وذلك امتـداداً حتى الزاوية التي يتحد فيها السور الشرقي مع السور الجنوبي.

ورأيت في هذا السـور حجارة هي أطول وأكبر مما رأيتـه قط في سور أي مـــــــدينة، لكـن هـذه الحجـــــــارة لم تكـن جليلـة، كما تحدث

يوسفيوس(الكتاب السادس— الفصل الثامن) وأخبرنا بوجودها في سور القدس، ويطل هذا السور باتجاه وادي شعفاط وجدول قدرون وذلك في مقابل جبل الزيتون، ومبني هناك في السور، على ارتفاع ستة أذرعة من الأرض، حجرة، بدت وكأنها قد كانت جزئاً من عمود رخامي، فبعضها داخل في السور، وبعضها الآخر بارز منه، بشكل أن انساناً واقفاً على ذلك الارتفاع، يمكنه أن يقف على الحجرة، وظهره مواجه للسور، أو يمكنه الجلوس عليها، كما يجلس انسان على ظهر حصان، وساقيه متدليتان نحو اللأسفل.

ولدى المسلمين حكاية حول هذه الحجرة، تقول بأنه في يوم الحساب، عندما يجتمع الناس كلهم في وادي شعفاط، سوف يأتي محمد(ﷺ) ويجلس فوق هذه الحجرة ليحكم بين الناس، ولذلك يحترمون هذه الحجرة، على أساس أنها كرسي الحكم لمحمد(ﷺ)، وقبل سنوات قليلة مضت، قدم نبي مزيف من المسلمين إلى القدس، قدّره الناس جميعاً واحترموه على أنه واحد من أولياء الله الصالحين، ودعا هذا الرجل في أحد الأيام جميع سكان المدينة إلى هذا المكان، قائلاً بأنه سوف يظهر لهم بعض الآيات، وسيتحدث إليهم، ويريهم طريقة الحكم في الدنيا، وذلك وفقاً للطريقة التي سيتعامل بها محمد(ﷺ) مع المسلمين في يوم الحساب الأخير.

وعندما كانوا جميعاً وقوفاً على جانب الرابية، لرؤية وسماع شكل الحساب، صعد ابن الشيطان هذا إلى الحجرة بوساطة سلم، وجلس عليها، جاعلاً ظهره نحو السور، ووجهه نحو الناس الذين وقفوا في الأسفل، وبدأ يتنبأ لهم، وحدث أنه وهو يتحدث إليهم بدأ يتحرك إلى هنا وهناك أكثر فأكثر، وبما أنه لم يلاحظ انحدار الحجرة، فجأة، مال على واحد من جنبيه، وسقط نحو الأسفل، فاندقت عنقه، وتمزق جسده إلى مزق، حيث شعر الناس التافهين بالخزي، وعادوا إلى المدينة، وذهب

كل إنسان إلى بيته، وهكذا أراهم النبي المزيف على الرغم مما نواه، الحقيقة، لكن ليس بكلماته بل بأفعاله، وهنا يتفق المسلمون معنا، بأنه سوف يكون هناك حساب في يوم القيامة، لكن بالنسبة لمكان الحساب، هم على خلاف، ذلك أن المسلمين الذين يسكنون في القدس، وفي اليهودية، وفلسطين، يقولون مثلما نحن نقول، بأن جميع الأمم سوف يجري جمعها في وادي شعفاط، وهم يضعون هناك ثلاثة قضاة هم: الله، والمسيح،، ومحمد(ﷺ)، فالله سوف يجلس فوق أعلى هيكل الرب، ويجلس المسيح على قمة جبل الزيتون، أما محمد(ﷺ) الذي سوف يكون مستشاراً لهما معاً، فسوف يجلس على الحجرة المتقدمة الذكر.

غير أن المسلمين الذين يسكنون في سورية، وفي بلاد الرافدين، وكبدوكية فيقولون بأن الحساب سوف يكون في دمشق، فوق قمم أبراج هناك، ويقول المسلمون العرب بأن ذلك سوف يكون في مكة حيث يوجد ضريح محمد (ﷺ)، أما المسلمون في مصر وليبيا فيقولون بأن ذلك سوف يكون في القاهرة، ويقول آخرون، لابل إن ذلك سوف يكون في القسطنطينية، وهكذا يخترع كل إنسان الذي يرضيه شخصياً، وبذلك يقدمون على حماقات لانهاية لها.

ووقفنا تحت الحجرة المتقدمة الذكر، وضحكنا نحو حماقة.... النبي المزيف، ثم نزلنا من الجدار ووصلنا إلى(مقبرة) اليهود الموجودة على منحدر رابية فوق وادي شعفاط، وسخرنا هنا من اليهودي الذي كان دليلنا، وأخبرناه بأن اليهود كانوا عقلاء بوضعهم مقبرتهم في موضع الحساب، حتى يمكنهم الانبعاث من دون أن يتعبوا من الارتحال إلى هنا، حتى تتم ادانتهم بشكل أبدي.

ونزلنا من هذه المقبرة إلى الطريق العام، الذي عليه صعدنا إلى جبل صهيون حيث أماكننا، وعندما دخلنا إلى موضع إقامة السادة الحجاج، دعاني السادة الحجاج مع اثنين من الآباء الفرنسيسكان، واثنين من

اليهـود، وواحـد مسلم، ومملوك واحـد، لتناول العشـاء معهم، وتناولنا العشـاء بسرور مـع بعضنا مع أننا كنا ذوي عقـائـد مختلفـة وعـادات متنوعـة، وإنه بسبب التحـادث والاجتماع مع غير المسيحيين، الانسـان مرغم على الحصول على إذن من السيد البـابا عندما يرغب بالقيام بالحج إلى القدس.

وفي اليـوم الخامـس، الذي كـان يوم العيـد المجيـد لأبينا القـديس دومينيك، بطريرك الرهبان المبشرين، وبعد القداس، وكذلك بعد الفراغ من الغداء، جاء Sabathytanco أي كالينوس الرئيس، وأخذ من كل حاج خمس دوقيات، كدفعة على الحسـاب بالنسبة للعقد المبرم، قائلاً إنه ليس لديه مـا يكفي من مـال بين يديه ليبدأ بعمل التحضيرات لأخـذنا عبر الصحراء، وبناء عليه، ولكي لايقول فيما بعد بأننا كنا سبب التأخير الطويل، أعطيناه المال، وأخذ من كـل واحد منا خمس دوقيات، وبعـدما حصل على الذهب، بات أكثر بهجة، ووعـدنا بأنه سوف يستجيب لكل طلب يمكن أن نطلبه منه، إذا كان يمكنه القيام به، ولذلك طلبنا منه أن يتدبر أخذنـا إلى مكان ميلاد مريم العذراء المباركـة، الذي لم نذهب إليه من قبل، فـأجـابنا:« يـاسـادتي الحجـاج، هذه مسألة صعبـة، التي سألتمونيها، لأنكم لايمكنكم الدخول إلى غرفة ميلاد العذراء مريم، إلاّ من خـلال مسجد موقـف لاستخدامـات المسلمين، إليه ليس مسمـوحاً لكم بالدخول، ومادام المسلمون يتولون الحفاظ عليه، لايمكنني التجرؤ على أخـذكم إلى هناك بأي شرط مـن الشروط، ولذلك عليكم الانتظار حتى المسـاء، فـوقتهـا سـوف أرسل ابني Abre إليكم، وهو سـوف يقـودكم من خلال ممرات سرية إلى المكـان، وأنا سوف أتدبر دخـولكم إليـه، وفي الوقت نفسـه سوف أبقـى أنا شخصياً مع أصحـاب السيـادة الحكام، أنتظر فـرصـة لتأخيرهم حتى لايمكنهم رؤيتكم تزورون الذي تنوون زيارته».

وما أن قال هذا حتى تركنا، وعندما جاء المساء، انتظرنا حتى غياب الشمس تقريباً، ظانين بأن الرجل قد خدعنا، لكن فجأة جاء ابنه Abre الذي كان في التاسعة عشرة من عمره، جاء إلينا على جبل صهيون مع واحد من الخدم، واقتادنا خلال أزقة سرية في القدس، إلى باب إفرايم، الذي هو باب اسطفان، ووصلنا إلى الكنيسة التي هي الآن Mameria، وبعدما جرى فتحها، دخلنا إلى المسجد، وذهبنا من الكنيسة إلى الرواق، ويوجد إلى جانب الكنيسة نافذة فوق الأرض، مثل النوافذ العائدة إلى الغرف التي فيها عمل منسوج، أو مثل نوافذ السقوف التي خلالها يدخل النور والهواء، والطريق من خلال هذه النافذة إلى موضع ميلاد العذراء المباركة، لأن المسلمين قد أغلقوا باب الكهف الذي استخدم ليكون كنيسة، لأنهم لايعبأون مطلقاً حول هذا المكان، وبناء عليه قام واحد من الحجاج بوضع قدميه خلال هذه النافذة، وترك نفسه يسقط إلى القبو، ووقف بعد ذلك تحت النافذة، وعمل بمثابة سلم لكل واحد من الآخرين، لأنه وضع يديه أمام الجدار، وكان على كل من رغب بالنزول، أن يضع أولاً قدميه فوق يدي الرجل، ثم يضع إحدى قدميه فوق رأسه أو كتفيه، ومن فوق كتفيه كان يقفز إلى الأرض، وهكذا نزلنا جميعاً إلى ذلك المكان، فوق الحاج، الذي كان فارساً من أسرة نبيلة، وأشعلنا شموعاً، لأن المكان كان مظلماً، وشرعنا نطوف فيه، ووصلنا إلى كهف، قيل فيه جرى أولاً دفن واكيم وحنة أبوي العذراء المباركة، وذهبنا من هناك إلى بيعة أخرى تحت الأرض كانت أكبر، وكانت فيها مضى مطلية بشكل جميل، ففيها من المعتقد بأن العذراء المباركة قد ولدت، وهنا بدأنا بأصوات مشرقة نغني الترانيم من أجل ولادة العذراء المباركة، وهي الترانيم المحددة في كتب مسيرة الأرض المقدسة، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وقبلنا الأرض وفق طرائق الحجاج.

وهذا المكان قائم تحت سدة الكنيسة، وكان فيه الفراش الذي حملت عليه حنة بمريم العذراء المباركة، وذلك مثلما موضع ميلاد المسيح موجود تحت سدة الكنيسة في بيت لحم، وفي هذا دحض لما ورد في القرآن، الذي قال بأن العذراء مريم قد ولدت في مصر، وأنها كانت ابنة مريم، أخت هرون[كذا]، وهو ما كنت قد تحدثت عنه من قبل، وهكذا بعدما فرغنا من رؤية المكان، تمكن واحد من الحجاج بمساعدة الآخرين من الصعود من خلال النافذة إلى الرواق، ومد ذراعيه نحو الأسفل، وشد كل واحد ورفعه إليه، واحداً بعد الآخر، وسرنا حول الرواق، ورأينا القلايات في كل من الأعلى والأسفل، التي عملت بشكل ممتاز، لأن هذا المكان كان في أيام الصليبيين ديراً للراهبات، من طائفة القديس بينت.

ودخلنا إلى الكنيسة، التي هي مسجد الآن، وتفحصناها عن قرب، وقد لاحظنا بأن هذه الكنيسة قد كانت فيما مضى جميلة، ومزينة، لأن الجدران كانت مرسومة، غير أن المسلمين أفسدوا الصور بتغطيتهم بطلاء أبيض، وحدث أن الطلاء الأبيض قد وقع في كثير من الأماكن، وبذلك من الممكن رؤية الرسوم المسيحية ثانية، والذي كان مرسوماً حكاية الحمل بمريم العذراء المباركة، وولادتها، وكيف أن واكيم قد طرد من الهيكل بسبب أن زوجته كانت عاقراً، وكيف أنه أقام بالصحراء مع رعاته، وكيف ظهر الملاك له هناك، وكيف أنه اندفع تحت الباب الذهبي إلى مابين ذراعي زوجته، وكيف حملت حنة بمريم.

وكنت قد قرأت في واحد من كتب الحج، كيف أن المسلمين شرحوا ماجاء بهذه الرسوم، على أنها تشير لمحمدهم(ﷺ)، وأنه جرت العادة أن كانت هناك امرأة عجوز سكنت قرب هذا المسجد الاسلامي، وكانت تخبر الناس، وهي تسكب دموعها بغزارة (٢٣٠—ظ) بأن هذه الصور تحكي حكاية محمد(ﷺ) في الجنة، مضفية معاني جسدية عليهم جميعاً،

وعندما رأينا هذه المشاهد كلها خرجنا من المسجد، وكنا منزعجين جداً، أن نرى كنيسة بهذا الجمال، وديراً بهذه الشهرة، فوق بقعة في غاية القداسة، قد صار ملكاً للمسلمين.

وقائم في مواجهة الكنيسة شجرة كبيرة، وقديمة جداً، قد قيل بأنها زرعت من قبل العذراء مريم المباركة، عندما كانت ماتزال طفلة، تحت رعاية والديها، اللذان من المعتقد أنهما سكنا فوق هذه البقعة، لأنه مع أن واكيم وحنة قد عاشا لسنوات طويلة في الناصرة، إنما عندما اقترب وقت الحمل بالعذراء وولادتها، جرى تحريضهما من قبل الروح القدس إلى الانتقال من الجليل إلى اليهودية ومن ثم إلى القدس، حتى يتمكنا من إنهاء أيامهما هناك في عبادة الرب، على مقربة من هيكل الرب، غير عارفين بالسر الرباني العظيم الذي أبقاهما من دون أولاد، وعندما قدما من الناصرة إلى القدس، اشتريا بيتاً على مقربة من الهيكل، فوق بركة الضأن، وفيه جرى الحمل بمريم العذراء المباركة، وفيه ولدت، فهذا ماذكره يوحنا الدمشقي وشهد به بقوله: «ولدت العذراء مريم في بيت واكيم، الذي اسمه بيت الضأن، لأنه كان على مقربة من بركة الضأن»، ومع مرور الأيام، بنى المسيحيون كنيسة فوق موقع ذلك البيت المقدس، وبهذه الكنيسة جرى الحاق دير للراهبات من طائفة القديس بينت، اللائي كن سيدات ثريات جداً، وبقي الحال هكذا حتى نهاية سنة ١١٨٧ لتجسيد الرب، عندما جرى الاستيلاء على المدينة من قبل المسلمين، وبعدما جرى الاستيلاء على المدينة عملوا هناك بالدير أعمالاً جديرة بعدم التذكر مطلقاً، هذا وذكر بعضهم بأن ذلك قد حدث في مكان آخر، أي في دير كليرز Clares



وفي اليوم السادس، الذي كان يوم تغيير الرب لشكله، التقينا على جبل صهيون في الصباح، وذهب معنا نصف رهبان جبل صهيون إلى

جبل الزيتون، وكنيسة صعود الرب مع كؤوس القربان وأشياء أخرى محتاج إليها، وغنينا هناك بشكل مهيب قداس تغيير شكل الرب، وكأننا كنا على جبل الطور، وكان هناك عدد كبير من المسيحيين الشرقيين[٢٣١] حضوراً في قداساتنا، لأنهم يعدون يوم تغيير شكل الرب بين أعيادهم الأكثر مهابة، ولهذا السبب يكرسون جميع كنائسهم تقريباً على شرف القديسة صوفيا، أي على تغيير شكل الرب، ومثلما نقوم نحن فنرسم في كنائسنا الصلب ويوم الحساب الأخير، نجد أن الرسوم الرئيسية في الكنائس الشرقية تتعلق بتغيير شكل الرب مع موسى والياس، وثلاثة رسل متمددين على الأرض.

وبعدما فرغنا من قداساتنا، مشينا حول الكنيسة، وتسلقنا نحو قمتها بقدر مااستطعنا لمشاهدة المنطقة من حولها، لأنه منها يستطيع الانسان أن يرى بعيداً حتى البحر الميت وبالطول والعرض الأرض المقدسة، ويقوم في الكنيسة نفسها أعمدة رخامية مصقولة، بينها واحد يحتضنه المسيحيون الشرقيون بأذرعتهم، وهم يضحكون لبعض الوقت، ويحاول كل واحد منهم أن يلمس باصبع يده الأولى اصبع اليد الثانية، ومالم يمتلك الانسان اصبعين طويلين، لايمكنه أن يلامس بين يديه أثناء احتضانه للعمود، ويعتقد الشرقيون بشكل خرافي أن من يستطيع فعل ذلك سوف يكون أكثر حظاً من الآخرين، وأن ذلك علامة على شيء جيد جداً، ولقد وقفت في ذلك المكان لوقت لطويل أراقب فيه حماقاتهم، ولعبنا بعدهم نحن الغربيون اللعبة نفسها على سبيل المزاح، حيث قسنا إطار العمود، وقد كنت قادراً على وصل رأسي اصبعي الطويلين مع عملية ضم قوية وضغط، هذا وسلف لي أن قدمت وصفاً لهذه الكنيسة في ص٦١٣.

وقمنا بعد هذا بجولة حول الجبل المقدس، وزرنا الأماكن المقدسة، ثم دخلنا إلى المدينة المقدسة من باب القديس اسطفان، وصعدنا لنقبل

بيت بيلايطوس، ولما علمنا بأن صاحب البيت ليس في المدينة، قرعنا على الباب، وسمح لنا بالدخول من قبل ابنتيه، وزرنا مواضع استشهاد المسيح، ولو كان صاحب البيت موجوداً ماكان ليسمح لنا بأي حال من الأحوال بالدخول، وماكان ليقنع بالسماح لنا لابالالتماسات أو بالمال، وعلى كل حال، ظهرت ابنتاه الجيدتان لنا، واقتاداتنا إلى المكان الذي يعتقد بأن الرب قد جلد فيه، وكان هذا المكان بيعة مستديرة مقنطرة، إلى جانبها هناك طريق نحو الجزء الأعلى من البيت، غير أنهم تركوا هذا المكان المقدس غير نظيف،و بدون احترام، لأن من المعتقد أنه المكان الذي تلقى فيه جميع أوساخ البيت، وعلى الرغم من هذه الأحوال نزلنا إلى مابين الأوساخ، وقدمنا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات مطلقة، لكنني لاأعرف فيما إذا كان الرب قد توج في المكان نفسه الذي صلب فيه، ويبدو من انجيلي متى ومرقص أنه جلد في مكان عام في الخارج، غير أنه توّج في القاعة في الداخل، لكن في انجيل يوحنا:٩، كان الجلد والتتويج معاً، ومن الصعب معرفة الحقيقة حول هذا بسبب هدم البيوت واعادة عمارتها، ولذلك من المستحيل التعرف على الأماكن، وحول هذا البيت انظر ماتقدم في ص٥٩٩.

ولقد دخلت إلى هناك مرتين، ومن المعتقد أنه شيء عظيم بالنسبة للحاج أن يكون في المكان المتقدم ذكره، ليس مرة واحدة بل ألف مرة إن استطاع، وعندما كنا خارجين أعطينا الفتاتين بعض القطع الفضية، وقد تسلمتا ذلك مع شكر عظيم، وأخبرتانا —من خلال المترجم— أنه مادام والدهما بعيداً [٢٣٢] سوف تكونان على استعداد للسماح لنا بالدخول إلى البيت، فقد كان أباً قاسياً نحو ابنتيه، وكذلك نحو جميع الشعب المسيحي، الذين كان لايتحمل النظر إليهم طويلاً، ولهذا السبب كان المسيحيون متعاطفين مع ابنتيه، ولأن الرجل كان قاسياً نحو ابنتيه، كانتا متعاطفتين معنا، وسمحتا للمسيحيين بالدخول إلى البيت على

الرغم من عدم موافقة أبيهما، وكانتا ابنتين لهما مظهر حسن، وكانتا طويلتين، وعندما دخلنا، وضعتا جانبا حجابيهما وتحدثتا إلينا بملامح مبتسمة، الأمر الذي لاتتجرآن على فعله مع المسلمين.

الحج الممتاز للراهب فيلكس فابرى في الأماكن التالية (جبل صهيون)

في اليوم السابع، تلوت قبل إشراق الشمس صلواتي الصباحية، وكنت واقفاً فوق الممشى العلوي لدير رهبان جبل صهيون عندما أشرقت الشمس، ولدى تحديقي بوادي جهنم تملكني شوق في أن أذهب في ذلك الصباح وأنزل إلى ذلك الوادي، وأن أتابع السير فيه إلى حد أكون فيه غير قادر على رؤية جبل صهيون، وأن استهدف جب عين روجل، وحجر الزاحفة، وهما قد ورد ذكرهما في سفر الملوك الأول:١/ ٩، وأن أرى مكاني: توف، وتوفل، اللذان ذكرا في سفر إرميا: ٧/ ٣١—٣٢، وخلال جميع الاصحاح:١٩من سفر إرميا نفسه، وهذا المكان هو وادي بني هنوم، وهو أيضاً يعرف باسم وادي هنون، أو وادي يهنون أو جهنم (يشوع: ١٨و٤، واسداراس:١)، وذلك ليكون بامكاني متابعة السير نزولاً من هناك في الوادي، حتى أتمكن من رؤية هل جدول قدرون فيه مياه جارية، في الأرض المنخفضة، كما يعتقد كثيرون أن فيه، والحقيقة حول ذلك سوف أعرضها فيما يلي، وكنت آمل بعد هذا بتسلق جبل العدوان، الذي تصل حوافه حتى جيهنا، وقد قرأنا عن هذا الجبل في سفر الملوك الأول:١١/ ٧، ولقد استهدفت رؤية هذه الأشياء وتفحصها واستخلاص النتائج لنفسي.

ولذلك غادرت المكان الذي كنت واقفاً فيه، لكي أذهب إلى الأب المسؤول، لألتمس منه اعطائي واحداً من الرهبان ليكون مرافقاً لي، حتى أتمكن بصحبته من رؤية الأماكن المتقدمة الذكر، لكنني لم أتجرأ

على إيقاظ ذلك الرجل المحترم، الذي كان مايزال نائماً، ولذلك شجعت نفسي، وبدأت هذه الرحلة الطويلة وحيداً، لأن الوقت كان مايزال باكراً، وكنت أعرف أن المسلمين لاينهضون من فرشهم قبل إشراق الشمس، ونزلت من جبل صهيون، ودخلت إلى حديقة الملك، الملحقة ببلاط الملك، التي منها هرب الملك صدقيا وجميع رجاله المقاتلين، من وجه الآشوريين، كما قرأنا سفر الملوك الثاني: ٢٥/ ٤، ولقد وجدت في هذه الحديقة أروع أنواع التين الناضج، حيث تناولت طعام افطاري، وتابعت الأكل حتى لم يعد بامكاني الأكل أكثر.

وبعد أمد نزلت من حديقة الملك إلى بركة استحمام سلوان، ثم إلى الصدع في الصخر الذي تنبع منه مياه سلوان، ودخلت هنا إلى الداخل وشربت من نبع المياه المقدسة، وغسلت عينيّ ووجهي، وأنا لم أر من قبل مياه هذا النبع تتدفق بمثل تلك الغزارة التي شهدتها تلك الساعة، لأن ذلك النبع لايتدفق دوماً بالمياه، وليس بالحجم نفسه أيضاً، حسبما ذكرت من قبل في ص ٦٥٤، وبعدما أنعشت نفسي، وحصلت على غفرانات مطلقة(++) عند هذا الماء المقدس، تابعت سيري من مياه هذا النبع، ووصلت بنزولي إلى قعر الوادي، ثم إلى جدول قدرون، وهناك لم أر انسانا، وكانت الشمس قد أخذت تشرق، وأشعتها صارت بادية على قمم الجبال، إنما حيث كنت كانت ماتزال الدنيا شبه مظلمة، وندى الصباح مايزال يتساقط، ونزلت إلى وادي جهنم، وسرت مسرعاً على طول قعر الجدول الشديد الوعورة، وذلك إلى المكان الذي يستدير فيه الوادي، حيث لم يعد بإمكاني رؤية جبل صهيون، أو جبل الهيكل، وعندما غدت هذه الأماكن بعيدة عن ناظري، وقفت دونما حراك، وتفحصت أرض مجرى الجدول، فوجدتها جافة مثل الأماكن الأخرى العالية في القدس، كما أنني لم أستطع أن أشهد بأي شكل من الأشكال، كيف يمكن أن يوجد هناك مجرى ماء تحت الأرض، وذلك في واد

عميق جداً، ومليء بالصخور.

والذي حـركني للقيـام بعمليـة الفحص هذه، هو قـراءتي لوصف للأرض المقدسة، فيـه قرأت بأن جدول قدرون كان نهراً متـدفقاً بالمياه، إنما بسبب الكثير مما تعرضت له المدينة المقـدسة من تهديم، حيث رميت خرائبها وأسـوارها في الوادي، فإن مجرى هذا النهر قد أغلق، لكن نظراً لصحة المثل الذي يقـول: مامن انسان يمكنه ايقاف جـدول صغير، فقد قـالوا بأن النهر نفسـه، الذين يسمـونه جـدولاً، مايزال متملكاً لطبيعتـه ومجراه غير المتـوقف عن التـدفق تحت الخرائب، حسبما تقـدم القـول في ص ٥٨٧، وفي صفحـات أخرى كثيرة تلت بعـد ذلك حتى ص ٦٤٧، غير أنني لاأستطيع الآن أن أرى كيـف يمكن أن يكون هذا صحيحـاً، لأنني كنت بعيـداً جـداً تحت خـرائب القـدس، ولم أستطع رؤية نقطة واحدة من الماء الجاري، علاوة على ذلك، سرت في مناسبة أخرى نزولاً في هذا الوادي نفسـه، وصـولاً حتى البحـر الميت، كما سنرى ذلك في صفحة ٩٤٢ المقبلة كلها، ومع ذلك لم أشاهد أية مياه تجرى هناك.

ومن الممكن، على كل حال، أنه كان هناك فيما مضى نهر، وهذا النهر لم يعـد مـوجـوداً الآن، كما وقع لنوميشـوس Numicius، وهو نهر في منطقة اللورين وهو الذي صار مشهوراً من خلال أغنيات مارو Maro وشعـراء لاتين آخـرين، فقد قـالوا في أشعـارهم بأن انيـاس Aeneas التروجاني Trojan قد وقع فيـه، وأنه من مياهه فقط اعتاد القـدماء على صب التقـدمـات أثناء عبـادة الربة فيستـا Vesta، وفي الواقع هذا النهـر غير مـوجـود في هذه الأيام، فقـد تراجع وأخـذ بالجفـاف على مـراحل، فقـد تحول أولاً إلى نبع، وأخيراً النبع نفسه تعـرض للجفـاف وذلك كما جـاء في رسـالة بوكـاشيـوس« حـول الأنهار»، هذا ولايمكن للانسـان أن يستخلص من أقدم الكتـابات المقدسـة، بأن هذا النهر قـد تدفق وجرى فوق مجراه الجاف، بل الذي توفـر هو أنه في أيام الشتاء قد

جـرت بعـض الميـاه فيــه، ونتجت هذه الميـاه عـن الأمطار وعن ذوبان الثلوج، ويكفي ماقلناه عن هذا الموضوع.

ثم استـدرت بعد هذا عـائداً إلى القدس..... ومضيـت أسير مسرعاً فـوق المجـرى الجاف حتى وصلت مكاناً بات بـامكاني منه رؤية المدينة المقـدسة، التي يبعث منظرها الجميل روحـاً جديدة من البهجـة، ويطرد الخوف من نفسي، لأنني قبل قليل عندمـــا كنت في الـوادي المنخفض كنت خـائفاً، لأن وادي جهنم مكان مـرعب، لاسيما في الجزء المنخفض منه، لأنه يفتقر إلى ضياء المدينة المقدسة المشرقة عليه من الأعلى، وعندما كنت على طريقـي في وادي جهنم، وصلت إلى المكان الـذي يلتقي فيــه وادي سلوان مع وادي صهيــون، فهنا قــد قيل انوجـد جب روجل، ويقـوم الآن هناك صهـريج كبير وعميـق، لكن من دون بئر، وكـان فيما مضى إلى جـانـب هذا البئر كهـوف، وكـان هناك مكـان للرعي، حيث اعتـاد فيـه الشبـاب على تجريب قـوتهم وعـرضهـا، وكـان هنا صخـرة زوحلت، أي الصخـــرة الزاحفــة، لأن الذي كـــان بإمكانه جـــرّ تلك الصخـرة، كان رجـلاً قـوياً، وهكذا أنا لم أر هناك لاالبئر ولاالصخـرة، والذي رأيته فقط الصهريج مع كثير من الصخور.

وهنا انشغل أدوناي بإقامة حفلة وتآمر لجعل نفسه ملكاً، وهنا كانت أيضـاً الكهـوف وعبـادة الصنم، وأعمال شريرة كثيرة، كـانت تقترف في هذا الـوادي، وادي عنون أو جهنـم، ويطلق على هـذا الوادي والمكـان اسم «جهنم»، وذلك اشتقـاقاً من عنون، الذي كـان فيما مضى مالكهما، وجـــرت تـرجمة كلمـــة«عنون» بـأن معناها هو« طـريق الموت» أو« بئر الأسى»، ومعنى هذا أن المجرمين سوف يساقون في يوم الحساب الأخير خـــلال ذلك الوادي إلى مكان الموت، حسبما تقـــدم في ص٦٤٧، وفي الحقيقة، تبعث جميع أسماء ذلك الوادي الرعب في العقل، لأن اسمه(١) عنون أي طـريق الموت، و(٢) جهنم، أي وادي الأسـى ، و(٣) هنون،

أي وادي القتل، و(٤)يهنم، أي أعماق الموت، و(٥) توف، أي عقوبة الحمقى، و(٦) توفت، أي عقوبة الحزن البعيدة المدى، و(٧) قدرون، أي الألم بدون فائدة، و(٨) شعله Chela، أي نار الرب، و(٩) كريناروس Chrinarus أي نار الحساب الملتهمة، وبالإضافة إلى هذه الأسماء، أطلق على هذا الوادي اسم وادي القتل(إرميا:١٩)، ووادي الذبح(إرميا:٧).

ومن الممكن من الإصحاحين المتقدم ذكرهما رؤية كم كان هذا الوادي مكروهاً وملعوناً، وكذلك في الاصحاح :٣٢ من سفر إرميا أيضاً، وكذلك ماتقدمت كتابته في ص٦٤٧، ووردت في الكتابات المقدسة اشارات متكررة لأماكن توف المقدسة، في وادي عنون، التي لابد من فهمها أنها عنت أنه في هذا الوادي العميق قامت مذابح عالية للأوثان، وهذا الوادي والجبل قد وصما من قبل يشوع ذلك الملك الأعظم غيرة، الذي ألقى عليه الحرمان، وينال هذا الحرمان الذين يدخلون إليه، وقام بقتل جميع الكهنة في الوادي، كما جاء الخبر في سفر الملوك الثاني:٢٣، لأنه مثلما كان وادي شعفاط مقدساً ومباركاً مع جبله، الذي هو جبل الزيتون، كذلك فإن وادي عنون مدنس وملعون مع جبله، الذي هو جبل العدوان، ولذلك فإنه من هذا الوادي نال اسمه، الذي هو جهنم، ليشير إلى وادي العذاب المستمر في الجحيم.

جبل العدوان للرب والصنم مولوك

بعدما فرغت من مشاهدة الوادي المتقدم الذكر، استدرت بنفسي نحو جانبه الشرقي، عند سفح جبل العدوان، وسرت نحو منحدراته ومن ثم نحو الجبل نفسه، الذي هو أكثر انخفاضاً من جبل الزيتون، الذي يقوم على كتفه، عند منحدراته الجنونيه، ووجدت على القمة هناك بيتاً كبيراً، لكنه كان فارغاً، الأمر الذي كنت نحوه راضياً تماماً، لأنه كان لن يرحب بي كضيف، من قبل مسلمين يسكنون هناك فيه، وكان سليمان

قـد أقـام على هذا الجبل مبنيين مـدنسين هما: هيكل مـولوك والبيت الخاص بمحظيـاتـه، وبذلك أغضب الرب كثيراً، ولذلك عـرف الجبل باسم جبل العدوان، حسبما هو موجود في سفر الملوك الأول:١١/ ٧.

وجـرت عبادة الوثن مـولوك بطقوس قبيحـة جداً، ولذلك حـرمت تحريماً تاماً(اللاويون:٢/ ٢) تقـديم القرابين إليـه والتضحية له، ولم يقتنع سليمان بهذا ولم يرض به، فقـام تحت وطأة تأثير امـرأته، فـأقـام هيكلاً لمولوك على ذلك الجبل، وجلب الناس لعبـادته، ودفع الأمـوال إلى كهنة هذا الوثن ، وتضمنت طقـوس عبـادة هذا الوثن قتل الأطفـال، وكـان مولوك تمثـالاً كبيراً لانسان، معمولاً من النحاس، ومفـرغاً من الداخل، وشمل الافراغ جميع أعضـائه، ووقف هذا الوثن فـوق عمود في وسط الهيكل ماداً يديه وذراعيه، مثل أم حنون، التي تمدّ ذراعيها لأخذ طفلها، لأن ذراعي الوثن كانا معمولين وفق طريقة يمكن لطفل أن يرقد عليهما وكأنه بين ذراعي أمـه، وفي أيام التضحيـة، وعنـدمـا كـان واحـد من الأطفال يقـدم هناك قرباناً، وقتهـا اعتاد الكهنة على وضع فحم يحترق في داخل جسم الوثن، ويجعلونه يتوهج كالنار، ثم كـانوا يأخذون طفلاً ذا صحة جيـدة وبريئاً من أيدي والديه، اللذان كانا قد جلبـاه للتضحية به، ويضعـــونه على ذراعي الـوثن، ولكي لاينـزعج أبوي الطفـل مع الأصدقاء الذين وقفوا هناك، إلى أبعد الحدود بسبب صراخ الطفل، كان الكهنة يقفون متماسكين قرب الوثن، حيث كانوا يصدرون أصواتاً عالية وضجة بالطبول، والكوسات والأبواق، وبذلك لايستطيع أبوي الطفل، الذي كـان يحتضر، سماع صوته، ويتـابعـون العمل بهذه الأدوات، حتى يكون الطفل المحتضن بين ذراعي الوثن قد هلك احتراقاً.

وبعـد احتراق الطفل، يقـوم الكهنة، وجميـع الحضـور أثناء عمليـة التضحية بتقديم التهنئة للوالدين بملامح علاها السرور والبهجة، لأنهما كـانا جديريـن بأخذ ولديهما ليكون بصحبـة الأرباب، ومنذ ذلك اليـوم

كـان الوثنيـون ينظرون نظرة احترام إلى جميع تلك الأسرة، لأنها ارتقت إلى مكانة النبالـة، وكانوا يعتقدون بأن جميع أقـرباء الطفل الذين ضحي به، سوف يكونون سعـداء في جميع الأيام المقبلة، وقد مـورست طقوس مشابهة بين الأمم التي عبدت ساتورن Saturn، ومن المحتمل أن الرب الذي اسمـه عند الاغـريق سـاتورن هو نفسـه الذي كـان اسمـه عند العبريين مـولوك، لأنه كــان هناك تماثيل نحـاسيـة لســاتورن بأحجـام مدهشـة حيث كانت أيديها ممتدة حتى الأرض حـولها بشكل أن انساناً إذا ماأرغم على الصعود إلى هذه الأوثان فإنه يسقط في حفرة كبيرة مليئة بالنار، وقـد قرأنا عـن هذا في مصنف كاسـا Casa De Ev.spir — الكتاب الرابع: الفصلين السابع والثامن.

وكثير من الأوثان، أو بالحري شيـاطين على شكل أوثان، لايمكن أن تهدأ إلاّ بموت الأبرياء، وكـانت عادة ممارسة التضحيـة بالأطفال تجري لكثير من الأسبـاب، وذلك حسبما رأينا في مصنـف كـاسـا— الكتـاب الرابع: الفصلين السابـع والثامن، وتوقفت ممارسـة التضحية البشرية في أيام الامبراطور هدريان، وكـانوا قد اعتـادوا على ممارسة هذه الطقـوس الوحشيـــة جـداً على هذا الجبل، وفي هذا الـوادي، ولاشك أنهم بذلك أغضبـوا الـرب كثيراً، وورد ذكـر وثن مـولـوك في إرميـا: ٢٢/ ٢، وفي عاموس:٥/ ٢٥—٢٦، وفي الأعمال:٧/ ٤٣.

عـلاوة على ذلك، قــد قيل بأن سليمان قـد بنى على هـذا الجبل بيتـاً لمحظيـاته اللائي كـان عـددهن كبيراً جـداً، وحول ذلك نقـرأ في نشيـد الانشـــــاد:« هن ستـــــون ملكـة، وثمانون سريـة، وعـــــذارى بلا عـدد»(الاصحاح السـادس)، وبناء عليـه إذا ماجـرى تطبيق هذا النص على سليمان بشكل حرفي، من دون أي تأويل باطني، لابد أنه قـد احتاج إلى كثير من البيــوت لمثل هذا العــدد الكبير من النســاء، ولذلك بنى قـلاعـاً وقصـوراً للملكات، وبنى هذا البيت للمحظيـات، في حين أمن

اقـامـة العــذراوات في بيـوت والديه، لكن ابنة فــرعـون، التي— من المعتقد— أنه لها أنشد نشيد الانشـاد، والتي عنها قد قال:« حمامتي، غير الأليفـة، جميلة» قـد سكنت معـه فـوق جبل صهيـون، هذا وإن البيت الذي كـان هناك كان عظيـم القداسـة، لأن تابوت عهـد الرب قد أقـام هناك لبعض الوقت، وقـد بنى هنا بيت ميلو، حسبما ورد الخبر في سفـر الملوك الأول: ٩/ ٢٤، وذلك بقصــد أن يكون بإمكانه أن يكـون دومـاً على مقربة منه.

وبعــدمــا فـرغت مــن مشـاهدة هذا المكان، وهـذا الجبل، نزلت إلى الوادي بخطوات سريعة، قـاصداً نحو جبل الزيتـون، ووصلت إلى قعر الوادي إلى جــانب اهرام شعفـاط، وتفحصـت هذا الهرم بعناية كبرى، ودخلت إليه، وتسلقت إلى داخله من خـلال النافذة، وقـد قال بعضهم بأن هذا الهرم، هو العمود الذي بناه أبشـالوم لنفسه، وذلك حسبما قرأنا في سفر صمـوئيل الثاني:١٨/١٨ قـوله:« وكان أبشـالوم قد أخـذ وأقام لنفسـه وهـو حي النصب الذي في وادي الملك[لأنه قــال ليس لي ابن لأجل تذكير اسمي] ودعـا النصب باسمـه، وهو يدعى يد أبشـالوم إلى هذا اليوم»، لكن يبدو أن هذا غير صحيح، لأننا لم نقرأ في أي مكان بأن وادي شعفاط وجدول قدرون قد عرفا باسم وادي الملك، هذا وقد قال مصنف كتـاب Speculum Historiule، بأن هذا الوادي قــائم على بعد غلوتين عن القدس، ثم إن هذا ليس عموداً، قد بني وعمّر، بل هو كما هو مـرئي بناء قـد نحـت من الصخـر الأصم، في حين كـان عمـود أبشـالوم الحجـري من رخـام مصقــول قـد أقيم ونصب نحـو الأعلى، وعندما فـرغت من رؤية هذه الأشياء، عبرت جـدول قدرون، ومضيت صـاعداً إلى جبـل صهيون، ووصلت وقت الغـداء، وأنا مليء بالعـرق، واحترق من شدة الحرارة، وعندما سمع الأب المسؤول والرهبان بأنني قد زرت جميع هذه الأماكن، دون التعرض للأذى اعترتهم الدهشة.

وفي اليوم الثـامن، وقبل انتشار الضوء، نـزلت مع بعض الرهبان إلى كهـف آلام المسيح، الـذي سلـف أن تحدثـت عنه في ص٦٠١، وهنـاك عندما رأيت أنه كان اليوم السادس من الاسبوع، أقمنا هناك قداساً عن آلام الرب، وذهبنا بعـد ذلك صـاعـدين إلى الجليل، هـذا ويوجـد على الجانب الشمالي من جبل الجليل، جبل مـرتفع، كـان بعيداً جـداً، مسافـة أربعة غلوات عـن القدس، وكان سليمان قـد بنى على هذا الجبل هيكلاً لكموش(الملوك الأول:١١/٧)، الذي كـان وثن المآبيين، وفي هذا المكان نفسـه، جرى في أيـام المكابيين، بناء قلعة حصينة، منهـا تضررت مـدينة القدس كثيراً في أيام حكم الاغريق والرومان.

وتـابعنا سيرنـا مـن هنـاك، ونزلنـا مـن ذلـك المكان(الجليـل)— إنما بالحقيقـة، ليس بشكل مبـاشر— نحـو المدينة، بل نحـو الشمال، حيث وصلنا إلى واد جميل وخصب، مزروع بالأشجار، من خلاله يمر الطريق الذي يسير الانسـان عليـه من القـدس إلى النـاصرة، ووصلنا ونحن سائرون إلى القرية التي بحثت فيهـا العذراء المباركة ويوسف عن الطفل يسوع بين أقربائهما ومعارفهما، وعندما وجداه، لم يعودا ثانية إلى القدس، وذلك حسبما جاء عند لوقـا:١١/ ٤٥، ووصلنا في هذا الوادي إلى مكان مليء بالخرائب القـديمة، حيـث قامت فيما مضى قـرية عناتا، التي منهـا جـاء النبي أرميا، الذي تقـدس، عندما كـان في رحم أمه، وقـد ولد من سلالة الكهنة، وبدأ بالتنبؤ وهو مايزال طفلاً، وتنبأ، وشاهد بعينيه دمار القدس، وذلك كما حـدثنا جيروم في توطئته لإرميـا، هذا وأطلق جيروم هذا نفسه في كتـابه «حول المسـافات بين الأماكن» على هـذه القرية اسم عـربات Arabathوقـال بأنها كـانت قـرية كهنة، لأن الكهنة امتلكوا قـرى ومـزارع في محيط القـدس، حيـث بناء على ذلك كـانت جيسماني، وبيت فـاجي، ونوب، وعناتا، كـانت قـرى كهنة، وهنـاك تولوا علف المواشي المقدمة لأول الانتاج، أو من أجل العشـور، وهناك نبوءة خاصة

لكهنة عناتا، يمكن رؤيتها في إرميا:١١/ ٢١, ٢٣، وبناء عليه رأينا عناتا على شكل خرائب، لذلك صعب علينا تمييزها، وبعد هذا عدنا راجعين إلى القدس، ودخلنا إليها من خلال باب اسطفان، وسرنا صاعدين إلى جبل صهيون، وقمنا ونحن على طريقنا بتقبيل الأماكن المقدسة في أرجاء المدينة.

وفي اليوم التاسع، الذي كان يوم سبت، وأمسيته أمسية عيد القديس لورانس، ذهبت في الصباح الباكر، قبل اشراق الشمس، وكان برفقتي بعض الرهبان، ودخلنا إلى وادي شعفاط نؤم كنيسة ضريح مريم العذراء الأعظم مباركة، حيث أقمنا قداساتنا، وفي الحقيقة كان الأب المسؤول يرسل كل سبت بعض الرهبان لإقامة قداس هناك، وغالباً مااعتاد على الذهاب معهم، وبعد الفراغ من القداسات، صعدنا إلى جبل الزيتون، ونزلنا من طرفه الآخر إلى بيت عنيا، حيث شاهدنا الأماكن المقدسة وقبلناها، ومن ثم عدنا إلى جبل صهيون.

وعندما وصلنا إلى هناك، وجدنا جميع اللوردات والحجاج قد اجتمعوا معا في الدير ينتظرونني، من أجل إعطاء جواب لواحد من المماليك، الذي أمر بمثول جميع الحجاج بحضرته، وذلك من أجل مناقشة بعض المسائل معهم، لأنه قد سُمع في بلاط السيد السلطان في القاهرة، بأن بعض المسيحيين الحجاج من الغرب من الأعيان واللوردات النبلاء، هم في القدس، ولهذا أرسل من مصر هذا المملوك، الذي كان ترجمان المسيحيين في القاهرة، ليعرف من نحن، ومن أين قدمنا، وعلاوة على ذلك، إذا ماكنا من فرنسا، كان بين أوامره، حملنا معتقلين إلى القدس، لأي سبب أنا لاأعرفه، لكنه بعدما عرف من Sa-bathytanco ترجماننا، بأننا لم نقدم من فرنسا، قدم معه إلى جبل صهيون، وأمرنا جميعاً بالمثول بحضرته، وحيانا بطريقة صديقة بكل من اللاتينية والايطالية، وقال لنا:« إذا ماتفضلتم، يمكننا أن نسافر غداً،

وتنزلون معي غداً إلى مصر، عبر الطريق السلطاني العام، وفي عشرة أيام سوف تكونون في القاهرة، حيث منها سوف أرسلكم مع حراسة إلى العربية، أي إلى جبل سيناء، وعندما تعودون من هناك، يمكنكم الإقامة في بيتي، بقدر ماترغبون»، وبهذه الكلمات والوعود الجيدة، التي عملها لنا، بات علينا بشكل مؤكد المغادرة معه، مهما كانت أوضاع خططنا وأحوال حقائبنا، وكنا حتى الآن لم نقم بإعداد أي من الأشياء المحتاجة في هذه الرحلة، وقمنا على كل حال بشكره، لعرضه اللطيف، ورجوناه، أننا عندما نصل، بفضل الرب ونعمته إلى المطرية وحديقة البلسم، على طريقنا من جبل سيناء، أن يتلطف ويقودنا بسرعة من هناك إلى القاهرة، وأن يبعث بنا مباشرة عبر النيل من القاهرة إلى الاسكندرية حتى لانضيع السفن الموجودة في الاسكندرية، والذاهبة إلى البندقية.

ووعدنا باخلاص بأنه سوف يفعل هذا كله، الأمر الذي أفرحنا كثيراً، علاوة على ذلك بقي علينا الحديث عن هذا الرجل، وعن مكانته، فلقد كان اسمه Tanquardinus،وقد جاء إلينا بثوب الحمل، لكنه كان في الواقع ذئباً مفترساً، كما سوف نرى فيما بعد، وبناء عليه بعدما عمل هذا الاتفاق معنا، غادر، وذهب عائداً إلى مصر، وبعد الغداء ذهبنا نحن الحجاج مع بعضنا إلى الحمام أو البيت الساخن، حيث استحمينا وغسلنا أنفسنا مع المسلمين، وهذا الحمام الساخن مثل الحمام الموجود في الرملة، الذي سلف الحديث عنه في ص٣٧٦، ودخلنا بعد استحمامنا إلى كنيسة الضريح المقدس.

الدخول الخامس للحجاج إلى كنيسة قيامة ربنا يسوع المسيح وإلى ضريح الرب

في أمسية اليوم العاشر، التي كانت موعد عيد القديس لورانس الشهيد، والأحد الحادي عشر بعد التثليث، سمح لنا مجدداً بالدخول إلى كنيسة ضريح الرب الأعظم قداسة، وفق الطريقة التي تقدم ذكرها،

وسهرنا تلك الليلة إلى جانب الضريح المقدس، وقد طفنا حول الأماكن المقدسة، كما فعلنا من قبل، وأقمنا قداسات مابعد منتصف الليل، وغنينا قداساً في ضريح الرب بعد اشراق الشمس، وبعد ذلك أخرجنا المغاربة من الكنيسة، وكان معنا من الرهبان الفرنسيسكان من دير جبل صهيون، بعض الشباب في كنيسة قيامة الرب، وقد رجوت هؤلاء الشباب بالنزول معي إلى وادي شعفاط، لأن الوقت كان مايزال باكراً في الصباح، وكانوا راغبين تماماً بالقيام بذلك، شريطة تقديم الاعتذار عنهم إلى الأب المسؤول لعدم حصولهم على إذن منه، الأمر الذي وعدتهم بفعله، وقد فعلته.

وهكذا سرنا خلال المدينة، ونزلنا إلى شارع الطباخين، حيث اشتريت من الطباخين للرهبان ولنفسي فطائر معمولة بالبيض، وبعض الكعك، وفطائر باللحم، ولحم مشوي، وعناقيد من العنب، وبعض التين، ومضينا مع هذه المؤن ونزلنا إلى الوادي، وعبرنا الجدول إلى مزرعة في جيسماني، وهناك جلسنا في الظل تحت بعض أشجار الزيتون، وتناولنا معا طعام الافطار بسرور، ولم يكن معنا شراب، لذلك مصصنا حبات العنب عوضاً عن الشراب، وكانت حبات العنب على درجة عالية من الحلاوة، وكانت ألوانها سوداء وبيضاء.

وبعدما فرغنا من طعام الافطار، وقبلنا أقرب الأماكن المقدسة، مضينا صاعدين جبل صهيون، وجلسنا لتناول طعام الغداء مع الرهبان، وبعد الغداء جاء السادة النبلاء من الحجاج إلى جبل صهيون، وسألوا الترجمان ورجوه أن يأخذنا إلى بيت لحم، وكانوا قد جمعوا واستأجروا حميراً وسائقين، وقدموا معهم إلينا، وهكذا امتطينا حميرنا، وانطلقنا من القدس مع Sabathytanco المسلم، وعندما وصلنا إلى الرابية، على الطريق إلى جبل جيون Gion ، مقابل جبل صهيون، قابلنا حشد من البداة العرب، كانوا قد سمعوا برحلتنا، ومع أنني لم أعرف من الذي

وشى بنا إليهم، فلقد قاموا بقطع الطريق أمامنا، مالم نقم بدفع خفارة ومالاً لهم، وكانوا قد طلبوا مبلغاً كبيراً من المال، ورفضنا أن ندفع لهم، وبعدما تجادلنا مع بعضنا لبعض الوقت، أرغمونا بالقوة على العودة إلى القدس.

رسالة حول الحج إلى البحر الميت

وبعدما عدنا إلى المدينة المقدسة سألنا الترجمان وكالينوس تزويدنا بحمير وبجواز مرور، حتى نتمكن من النزول إلى البحر الميت لرؤيته، وعندما سمع المسلمان بهذا، ألقيا بكثير من المصاعب الكبيرة في طريق الحجاج، وقدما كثيراً من الأسباب، من أجل اقناعنا للتخلي عن هذا الحج الذي اقترحناه، وكان السبب لاهوتيا بعض الشيء، ذلك أنهما احتجا بأننا قدمنا إلى هنا من بلاد من وراء البحر، حتى نتمكن من رؤية الأماكن المقدسة، التي باركها الرب، والتي قدسها مسيحنا، وليس من أجل رؤية الأماكن غير المقدسة، التي لعنها الرب مثل البحر الميت، الذي، المسلمون أنفسهم، يسمونه الملعون، والذين قالوا عنه بأنه يتوجب كراهيته ومقته من قبل كل مؤمن بالكتابات المقدسة، وأخبرانا بأنه ينبغي أن نكون قانعين برؤيتنا للأردن المبارك.

وكان السبب الثاني لعدم رغبتهم بأخذنا إلى البحر الميت مرتبطاً بالبداة العرب والمدينيين الذين سكنوا في تلك الصحارى، وكانوا يتجولون حول الطريق السلطاني العام من أجل النهب، ومن غير الممكن الدفاع بشكل جيد ضد هجماتهم، مالم يرغموا على الفرار، ويتعرضوا للجراحات بالسيوف والنشاب، لأنهم كانوا غير مسلحين وعراة، هذا ولم يرغب أدلاؤنا بتعريض هؤلاء القوم للأذى من أجل خاطرنا، وقالوا بأنهم يؤثرون أن نتعرض للنهب على أن يتعرضوا للأذى والجراحة، وفي الحقيقة كان هؤلاء البداة جياعاً إلى أبعد الحدود، وكانوا تعساء، إلى حد أنهم كانوا على استعداد لمهاجمة رجال مسلحين،

مع أنهم كانـوا غير مسلحين، ولتعريض حياتهم للخطر مـن أجل الخبز، وكان السبب الثـالث الذي قالوه، هو أنه كان هناك حـول شاطىء ذلك البحـــر كثيراً مـن الحيــوانات المؤذيـة والســامـــة، من الأنواع الكبيرة والصغيرة، من أمثـال: الأسـود، والدببـة، والخنازير البرية، والأفـاعي، والزواحف، وماشابه ذلك.

وكان السبب الرابع، هو أنهم قالوا، بأن الملك السلطان قد حرّم أخذ أية غـربـاء إلى هذا البحـر، وكـان ذلك بسبب وجــود الأفعى الأعظم سميـة، وفي الوقت نفسه الأعظم قـدراً ونبـالة، وأعني بذلك التر Tyr، وذلك خشية أن يحدث وتمسك من قبل الغرباء، ويجري حملها إلى خارج البـلاد، لأن هذه الأفعى غير مـوجـودة في أي بلد من بلدان العـالم، إلاّ فقط على شـــواطىء البحـــر الميت، ولذلك حظر السلطـان سكان تلك المنطقة ومنعهم مـن امساك هذه الأفاعي، وبيعهـم لأي انسان، وجلبهم فقط إليه في مصر، ومن فعل غير ذلك نال عقوبة الاعدام، وحدث على كل حال، أن خـرق فقراء الناس هذا الحظر أحياناً وباعـوا هذه الأفاعي إلى تجار مسيحيين، في دمشـق وبيروت، وكـــــــذلـك في الاسكندريـة والقاهرة، ومن هذه الأفـاعي يجري صنع أقوى العقـاقير وأغلاها، وهو الترياق، وليس هناك أي ترياق صحيح إلاّ المستخرج من هذه الأفاعي، ومنهـا نال هذا العقـار اسمه، وقـد قيل بأن شكل هذه الأفـاعي هو كما يلي: طولها حوالي الشبر ونصف الشبر، وغلظها يقارب غلظ اصبع ابهام الانسان، ولونها هو أصفـر مع شيء من التمازج بالأحمر، وتولد بالطبيعة عمياء وتبقى كـذلك، وهي دوماً عـدوانية بشكل مخيف، تنقـض بسرعة رهيبة مع فحيح غـاضب، ولايعرف دواء ضد عضتهـا، إلاّ قطع العضو الذي تعــرض للعض وتسمم مبــاشرة، وإلاّ فإن الجســد كله سيصبح بلاشـك ملتهبــاً، ومتـــورمــاً، ومتفجـــراً وتهاجم هذه الأفعـى جميع المخلوقات، ولذلك يكون هناك حيوانات كبيرة ميتة عند شاطىء البحر

الميت بسبب تسممها من قبل التر.

وعندما تكون هذه الأفعى غاضبة، تمدّ نحو الأمام لسانها الملتهب، وتستدير بسرعة هائلة، ويغدو جسدها وهي مغضبة كله ملتهباً مثل حديدة محماة، ورأسها الصغير الذي هو بالعادة صغير، يتورم حتى يصبح أكبر من جسدها، ولها على وجهها هلب مثل هلب الخنزير البري، وهي إذا عضت فرساً، يصل السم إلى راكبها أيضاً ويموت، ولولا أن خالق الطبيعة قد حرم هذه المخلوقة من عينيها، مامن انسان كان يمكنه الاقتراب منها، كما كان من غير الممكن امساكها بأية طريقة من الطرق، لأن الأفعى ماكرة جداً.

ويتعامل الأطباء والصيادلة مع هذه الأفعى كما يلي في صناعة الترياق: يأخذون أفعى أمسكت وهي حية، ويضعونها في وعاء واسع وعميق، يمكنها أن تركض فيه نحو الأمام ونحو الخلف بحثاً عن طريق للخروج، لكن لايمكنها فعل ذلك، وفي تلك الأثناء، وهي تدور حول الوعاء، محاولة الخروج، يأخذون عصياً وإبراً، بها يلتقطونها، وبذلك يثيرون غضبها إلى أبعد الحدود، وعندما تشتعل غضباً وتتورم حنقاً، يتجمع السم، الذي كان منتشراً في الأحوال العادية في كل جسدها، في رأسها وذنبها، وعندها يقومون بضربة واحدة بسكين أو شفرة بقطع هذين الجزئين معاً، وإذا مااقتصر القطع إما على الرأس أو الذنب، فإن الجزء المتوسط يكون بلا فائدة، وتعلمت هذه المخلوقة بوساطة الطبيعة الاحتفاظ بسمها، وفقط يمكن بفن عظيم استخراج ذلك منها والتغلب عليها، وتباع هذه السموم بأسعار عظيمة، أكبر من أسعار الذهب والحجارة الكريمة.

وقد أودع السيد السلطان، ملك مصر، في خزائنه، السلعتين الخاصتين التاليتين، اللتان تنتجان في ممالكه، وأعني بذلك: البلسم، وأفعى التر، ولذلك لايسمح للحجاج بالدخول إلى بستان البلسم إلاّ

بحذر كبير، كما ستتحدث فيما بعد، كذلك لايسمح لهم بالتجول حول شواطىء البحر الميت بسبب التر، وبسبب —حمر اليهود، الذي هو كذلك لايمكن العثور عليه في أي مكان إلا هناك على شواطىء البحر الميت.

وكان السبب الخامس لمنعنا هو الرائحة البشعة والشريرة الصادرة من ذلك البحر، حيث أن الانسان غير المعتاد عليها، يصاب بالعدوى، ومن ثم يمرض ويموت.

وكان السبب السادس الذي قالوه، هو أنه لم يكن هناك شيئاً جميلاً ليروه، وأننا لن نشاهد شيئاً مريحاً، بل سوف نبذل جهداً كبيراً، وننفق أموالاً بدون فائدة، وسنواجه مشاكل مزعجة كثيرة.

ولدى سماع بعض الحجاج بهذه المثبطات ومثبطات أخرى، انسحبوا وتراجعوا قائلين بأنهم لن ينزلوا إلى هناك، حتى ولو دفع لهم، لكن آخرين، على الرغم منهم، كانوا متشوقين للذهاب، وهكذا كنا منقسمين للمرة الثانية إلى فئتين، مثلما حدث لنا من قبل بشأن قضية الحج إلى الجليل والناصرة، الأمر الذي كنا قد أوضحناه من قبل، هذا وقد طالب الشطر الأكبر من الحجاج باقتيادهم ونزولهم إلى هناك، ورفضوا التخلي عن الفكرة، حتى ولو اقتضى الأمر التماس ذلك من السيد جانم الحاكم، والطلب منه الحصول على إذن وجواز مرور، ولدى سماع Sa-bathytanco بهذا، أرسل في اليوم نفسه إلى حامد Ameth ، والي بيت لحم، وكان مغربياً وشجاعاً ومخلصاً، وكان حليفاً للبداة، ولم يكن يخاف منهم، وطلب منه القدوم في تلك الليلة من بيت لحم إلى جبل صهيون في القدس مع أربعة عشر بغلاً أو حماراً، وأن يأخذ الحجاج إلى البحر الميت وأن يعود بهم، مقابل مبلغ من المال يجري الاتفاق حوله معه، وقمنا نحن من جهتنا بإعداد طعام وشراب لمدة يومين وليلة واحدة لنحمله معنا أثناء تلك الرحلة.

الحج إلى البحر الميت

وفي اليـوم الحادي عشر، وقبل انتشار الضـوء، جـاء حامـد إلى جبل صهيـون مع بغال وحمير، وعبيـد، وقرعـوا على باب الدير، وسألوا عن الحجـاج، لكن مـامن أحـد منهم كـان في الدير إلا أنا وحـدي، وهكذا ركضت نازلاً في الظلام مـن صهيـون إلى ميلو، إلى بيـت الفحل، الذي أقام فيه السادة الحجـاج، وهناك قرعت على الباب بحجرة، وأيقظتهم، والذين رغبـوا بالذهاب والمشـاركـة في الحج، قـدموا صـاعـدين معي، وامتطينا دوابنـا، ومضينا نازلين مـن جبل صهيـــون إلى وادي سلوان، وعندمـا وصلنـا إلى بركـــة الاستحمام، نزلنـا إلى أعماق توف، وجهنم، وسرنا خلال وادي جهنم المرعب، وكـان الوقت مايزال مظلماً، علماً بأن الليـالي لم تبد لي مظلمـة في هذه المناطق من بلاد ماوراء البحـر، مثلما في بلادنا، لأنه في هـذه البـلاد لاتوجـد غيـوم، ولاضبـــاب، لحجب أنوار النجوم وأشعتها.

وأشرقت الشمس وفي الوقت نفسـه تابعنا تقـدمنا نحـو الأمـام دون توقف، خـلال واد ضيق، مع صخـور منحـدرة مطلة من على الطرفين، ولم نتوقف حتى كـانت الشمس في كبد السماء، وكـان هذا الوادي وعراً جـداً، لأنه كان مليئاً بالصخـور وبالحجـارة، من عليها انجـرفت التربة بسبب اندفـاع الميـاه، في أيام الفيضان، ففي تلك الأوقـات تندفع الميـاه، نازلة هناك بقوة تبلغ حداً أنها تقتلع الصخـور الكبيرة من أماكنها، ومن ثم تقـذف بها خـلال جـريانها، والنهـاية العلوية لهذا الوادي هي وادي شعفاط، وجدول قـدرون، هذا ولم أستطع رؤية أي أثر هناك لاستمرار جريان المياه، من جدول قدرون، كما قلت من قبل وبينت.

وعندما كنا نسير منحـدرين، ونحن على ظهور دوابنا، وبعـدما قطعنا حوالي الميلين ألمانيين، بدأ الوادي يصبح أكثر انحـداراً ووعورة، وعندما ضاق هناك، وصلنا إلى دير القديس سابـا، الذي كان راعياً للدير، ولقد

جرى استقبالنا باحترام من قبل الرهبان الاغريق، أو الـ Caloyers، ووجدنا في الدير كثيراً من البداة العرب من أهل الصحراء، ومن الفلاحين، ومن قطاع الطرق، ولدى رؤيتنا لهم استولى علينا رعب شديد، وتوجسنا أن نكون قد تعرضنا للخيانة، وشككنا بدليلنا نفسه، المعلم حامد، في أنه قد تآمر ضدنا، وعندما لاحظ هذا جاء مع مقدم هؤلاء اللصوص من البداة العرب، إلى القاعة التي جلبنا إليها، وتعهدا معا إلينا ووعدانا بأن نكون آمنين في أجسادنا وعلى سلعنا وحاجياتنا، إنما إذا قمنا ، وتفضلنا بتقديم ضريبة أو هدية صغيرة لهما، فوقتها سوف يكونا في خدمتنا، وأنهما سوف ينزلان معنا إلى البحر، ومن ثم يتوليان الدفاع عنا.

وبناء عليه أعطيناهما بعض الدراهم، وبتسلم ذلك كانا راضيين، وكنا نحن مطمئنين، وزالت المخاوف من نفوسنا، وأحضرنا نحن الآن جعبنا مع الأشياء التي تزودنا بها في القدس، وقوارير الخمرة، وأكلنا وشربنا، فضلاً عن هذا أعطينا بعض الحلوى إلى دليلنا وإلى البداة العرب، وأحضر الرهبان ماء بارداً لنغسل أقدامنا جميعاً، وللشرب، وبعد تناولنا للطعام وانعاشنا لأنفسنا ذهبنا إلى الكنيسة، حيث صلينا للرب، وحصلنا على غفرانات(+) لمدة سبع سنوات، وعلاوة على ذلك ذهبنا إلى ضريح القديس سابا، وصلينا هناك، والذي اعتقده أن هذا الضريح فارغ، لأن جسد هذا القديس، راقد في البندقية، كما ذكرنا من قبل، وبعدما رأينا هذه المشاهد، تمدد السادة الحجاج على الأرض، وناموا، لكنني شخصياً لم أستطع النوم أو الجلوس بلا حراك بأي شكل من الأشكال، بل قمت بالتجول هناك وفي جميع أجزاء الدير، وفي الأسفل في الوادي وفي الأعلى، وتفحصت بكل دقة الكهوف والأكواخ التي كانت عائدة للرهبان القدماء مع اعجاب عظيم، ومع رعب وخوف من السقوط، عندما تسلقت صعوداً ونزولاً فوق الصخور والجروف،

وخرائب الأبنية القديمة.

علاوة على ذلك تعرضت إلى الخطر التالي أثناء تجولي الافرادي: فقد وصلت إلى ممر ضيق ملاصق لقلاية القديس سابا، حيث يقوم فوق الصخرة جدار على الطرف الأول، لكن لايوجد على الطرف الآخر أي شيء سوى منحدر مفتوح مرعب، أو جرف معلق، وكان هناك خلال هذا الممر مايسمح لانسان واحد بالمرور فقط في وقت واحد، ولاأعني بهذا مرور انسان من هذا الاتجاه وآخر من اتجاه مقابل، بل انسان واحد فقط، عليه أن يكون حذراً خشية السقوط نحو الأسفل، وعندما كنت ماراً خلال هذا المكان، التقيت بمسيحي شرقي، لعله كان خادماً لذلك الدير، ولدى رؤية هذا الرجل لي تقدم نحوي، وبعدما خطا بعض الخطوات نحو الخلف، وعندما رآني خائفاً كثيراً، بدأ بالمزاح معي، وتظاهر بأنه مقبل على اسقاطي بالهوة.

وعندما رجوته بالاشارات بقدر مااستطعت، بأن يتركني أمر بسلام، رفض ذلك، وأشار لي بأنه سوف يلقي بي، ما لم أعطه بعض المال، ولدى سماعي ذلك، فتحت حافظة نقودي وأعطيته مندوساً واحداً، ولدى تسلمه له تركني أمر، ومن تلك الساعة فصاعداً صرت أمقت مرافقة مسيحيين من هذا النوع، أكثر من كراهيتي مرافقة المسلمين أو البداة العرب، وصرت أثق بهم أقل من سواهم، ومع أنه كان ربما لن يرميني من فوق الجرف، حتى لو لم أعطه شيئاً، لقد كان على الرغم من ذلك شريراً ليلعب مع انسان هو لم يره من قبل، في مكان بمثل هذه الخطورة، وأن يأخذ مالي ليتركني بسلام، ولو أن بدوياً قابلني وفعل بي مثل ذلك، لكنت مسروراً تجاه لعبه، ولعددته غير مسيحي جيد، لكنني أعتقد أن هذا التصرف غير لائق بالصدور عن مسيحي نحوي، ولقد حدثت بالقضية حامد، الذي كان المسؤول عنا، فوجه إليه اللوم بمرارة، وكان غاضباً منه كثيراً، وقد أخبرنا بأن هؤلاء المسيحيين الشرقيين، هم

أدنى الناس الذين يمكن الوثوق بهم مـن قبل أي انسان، وقـد مكثنا في ذلك الدير حوالي الخمس ساعات، حتى خفت حدة حرارة الشمس.

ملاحظة حول دير الراعي القديس سابا

كان دير الراعي القديس سابـا واحداً من أعجب الأشياء التي رأيتها في جميع رحـلاتي، لكنني غير متأكـد فيها إذا كـان هذا هو دير القـديس سابا، الذي قرأنا عنه في«حياة الآباء»، حيث قرأنا بأن القديس سابا كان لديه دير في سورية، وأنه كان أبا ورئيسـاً فوق ثلاثة عشر ألف راهباً، في حين هذا الدير مـوجود في اليهوديـة، علماً بأن اليهودية نفسهـا هي جزء من سورية، ويقـول الرهبان الذين يسكنون في هذا الدير هذه الأيام بأن القـديس سابا كـان راعي هذا الدير، ومـؤسسه، والأب المشرف عليـه، وكـان لديه دومـا في ديره أربعـة عشر ألفـاً مـن الرهبـان، وهذا عندمـا يسمعه الانسان يصعب عليه تصـديقه، ولكنه عندما يشاهد المكان، فإنه يوافق على أنه وإن كان العـدد مبالغاً فيه، فإن حشداً هائـلاً من الرهبان لابد أنه كان يسكن هناك.

وكان هؤلاء الرهبـان، ومازالوا الآن يتبعـون أحكام القديس باسيل، أي هم اغريق، وهم بذلك مثلهم مثل الرهبـان في دير القديس كاترين، تحت جبل سيناء، ونعجب نحن الرهبـان الغربيـون كثيراً من أين يمكن لمثل هذا الحشد من الرهبـان الحصول على الطعـام واللباس، لكن الذي يشهد عادات، وطعام، وثياب الرهبـان المشارقة، لايتعجب نحو ذلك، ذلك أن طعامنا أكثر وفرة وتنوعاً، وملابسنا طبقات كثيرة، وأعلى نفقة، وبيـوتنا وديرتنا متعددة الأنواع، ومعمـولة بأناقة أكبر، وبسخـاء أعظم، لكن ليـس هناك شيئـاً من هـذا القبيل في هـذه الأيام بين الـرهبـــان الشرقيين، وصـدقاً أعتقـد أن نفقـات دير واحد فيـه عشرين راهبـاً من الرهبان الغـربيين من الطوائف الكبيرة، هو أعظم من نفقـات واحد من هذه الديرة فيـه أكثر من مائـة من الرهبان الشرقيين، فهم ينفقـون قليلاً

على الأبنية، لأن الـذي لديهم مجرد أكواخ معمولـة من النباتات العـامة، فيهـا لايمكن لانسـان أن يقف دون أن يحنـي ظهـره، وكنائسهم ليست أكثـر سمواً من أكـواخ الرهبـان، فمثل هذه الأكواخ جـدرانهم من هذه النباتات مغطاة بالطين، وهي فقط أعلى من أكـواخ الرهبان، وفيها يتعلق بملابسهم لايـرى الانسان اي شيء عالي النفقـات، حتى في هذه الأيام، علماً بأن الرهبـان الشرقيين الحديثين قد ابتعـدوا كثيراً عن كمال سلفهم، الذين تجولوا وهم يرتـدون جلود الأغنام وجلود الماعـز، وعليهم أردية منسوجة من سعف النخيل، في حين تحمل كثير منهم حرارة النهار وبرد الليل، وهم عراة لسنوات كثيرة، وليس لهم من مسكن سـوى الكهوف في الصخور، كما أنهم لم يقيموا قط في مكان واحـد، بل تجولوا في جوف القفار، ووضعـوا أنفسهم بعيداً عن جميع البشر، غير عـابئين لابطعامهم ولابلبـاسهم، وفي الحقيقـة إن طعـام وشراب جميع الشرقيين، وبشكل خاص الرهبـان قليل جداً، ويجري احتساء الخمـرة كقاعدة، قليـلا جداً من قبل العلمانيين ولاتُشرب قط من قبل الرهبان، وهكذا فإنهم يعيشون بنفقـات صغيرة، في حين على العكس منهم، يعيش الرهبـان الغـربيـون وسط ترف كبير وانفـاق عظيم، ولـذلك حمل عليهم القـديس جيروم وندد بهم بعنف في رسائله، قـائلاً بأنهم يحشـون أنفسهم بالأطعمة حتى يصبحوا مرضى، وبالنسبة لهذا القول، نحـن الرهبان الغربيون نستحقه، وعندمـا سمع واحـد من المقـدسين من بين الرهبـان الغـربيين بقـول القـديس جيروم هذا، رد بأن القـديس جيروم ندد بقـوله هذا ببعض الرهبـان الشرقيين النهمين، وقصـد بأن قـابليـة الطعـام التي امتلكهـا الغـربيـون بشكل طبيعي، أصبحـت نهماً بين الشرقيين، وذلك حسبما يمكننا قـراءة ذلك في Speculum Historiale— الكتـاب الثـامن عشر، الفصـلان العـاشر والثاني عشر، وقـد علمنا أيضـاً بأن بعضـاً من الرهبـان الغـربيين ذهبـوا مـرة إلى قفـار مصر، من أجل أن يتمكنوا من رؤية الرهبـان الشرقيين، وذهب بعضهم إلى قـلاية رجـل مسن، وبعـد

التوسل والتحريض دعيوا إلى الغداء من قبل الرجل المسن، وعندما جلسوا إلى المائدة، وضع أمام خمسة من الرهبان نصف رغيف، وحزمة من الحشائش كانت تشبه النعنع، وهي مليئة بالأوراق وطعمها مثل العسل، وأكل واحد من الرهبان جميع هذه الوجبة، التي أعدت للخمسة جميعاً، ولم يشعر بالشبع أبداً.

وفي الحقيقة إن تكوين أجساد الشرقيين والغربيين مختلف، مشاهدين أنهم يتأثرون بمؤثرات مختلفة من قبل الأجرام السماوية، ولهذا من المؤكد أن أشياء كثيرة هي بالطبيعة ضرورية للغربيين، غير أنها بالنسبة للشرقيين ترف زائد فيه اقتراف للذنب، وينطبق هذا على الذين يمتلكون بيوتاً جيدة، وقصوراً للإقامة، وكذلك ثياباً، وطعاماً، وشراباً، علاوة على هذا اعتاد الرهبان في الأيام الخالية على فلاحة الأرض، وكانت الثمار الناتجة عن ذلك يُعطى شطر منها لكل انسان ليعمل بها حسبما يريد، وكان يتوفر لديهم نتاج كبير في الشرق، فلا يجدون فقراء لإطعامهم به، ولذلك أرغموا على ارسال القمح إلى بلدان فيما وراء البحار، من أجل اطعام الفقراء في الغرب، ومن هذا واضح أن عدداً كبيراً من الرهبان كان يمكنهم الإقامة مع بعضهم بالمئات وبالآلاف في بعض الأوقات، مثلما هو الحال الآن في دير القديس سابا.

وفي عودة إلى موضوعي، إن ترتيب الدير المتقدم الذكر هو كما يلي: هو قد احتل شطراً طويلاً من وادي جهنم، والوادي هناك عميق وضيق، ومحاط على الطرفين بصخور منحدرة، وعلى هذا فإن الوادي يطوقه بجدار يمتد لمسافة طويلة، وكان هذا الفراغ كله فيما مضى ديراً، والصخور على الطرفين هي كهوف، لكن غير منحوتة، بل معمولة ومفرغة بشكل طبيعي لتكون مساكن مناسبة للرهبان الذين يودون تكريس أنفسهم وايقافها على الصلاة وعلى التأمل وهذه الكهوف مسقوفة من الأعلى بوساطة صخور معلقة وبجروف متقدمة، هذا

وتلطف الخالق، فوجه عمل الطبيعة، بأن جعل هذه الكهوف تمتد بشكل طولاني ومنتظم واحدها بعد الآخر، لتكون على شكل قلايات، ويوجد في الأسفل عند سفح الصخور صف من الكهوف، وفي الأعلى هناك صف آخر فوقهم، كما هناك صف ثالث أعلى أيضا فوق هؤلاء، في حين هناك على الحواف مساكن بنيت بالفن الانساني، على شكل أن الطرف الأول من الوادي يعرض أربعة طوابق من القلايات، ويتم الدخول إلى الصف الأول من القلايات أو الكهوف من قعر الوادي لأنه على المستوى نفسه، وهناك طريق يأخذ نحو الطوابق الأعلى، ويوجد في مواجهة القلايات هناك صخرة مطلة وممتدة في واجهة مداخل الكهوف، على شكل أنه هناك قبل مداخل الأبواب، ممر مفتوح، ومثل هذا موجود في الطابق الذي يعلو ذلك، هذا والكهوف في كل طابق مفصوله، مثل القلايات على أحد جوانب دير من الديرة، وهي ليست مصنعة بعمل الانسان وبراعته، بل بنيت هكذا من قبل الطبيعة.

وفي الأماكن التي لم تسمح الطبيعة بها بعمل غرف كاملة، تمت مساعدتها بالعمل الانساني، ولدى توفر كهفين توفرت فتحة جدارية جزئية بينهما، أوقفت هذه الفتحة وأغلقت بجدار، أو إذا توفر كهف كبير، يقوم اثنان أو ثلاثة من السكان بعمل جدران فاصلة فيما بينهم، وفي الوقت نفسه إذا وجد أحيانا كهف ضيق جرى توسيعه بالنجر في الصخر، وكل واحد من الرهبان لم يتمكن من الحصول على كهف خاص به في الوادي نفسه، قام بنجر كهف لنفسه بالجدار هناك، أو في الصخور فوقه في القمة، ولهذا يوجد حتى هذا اليوم في كل من الوادي في الأسفل، وفوقه، كثيراً من الخرائب من الجدران، وكأنما كانت مدينة هناك، وماتزال بعض القلايات المبنية قائمة، وكذلك العديد من الأكواخ التي بنيت بحجارة جافة، فضلاً عن هذا يبدو أنه كان هناك

فيها مضى أبراجاً عالية، وغرفاً بهية، وبيوتاً عظيمة، فوق ظهر الصخرة، وفي الصخرة نفسها، وفوق الأرض بالأسفل، ومابرحت كنيسة المكان قائمة دونما أذى، وهي واسعة إلى حد ما، ومؤسسة فوق صخرة، وهي صخرة منجورة من الجزء الأعلى من جانب الوادي، وهي ليس لها أساسات، بل مفتوحة من جميع الجوانب، باستثناء المكان التي تخرج فيه من جانب الوادي.

ويوجد تحت الصخرة، حيث تقوم الكنيسة، فراغ كبير ومظلم، يقود عميقاً إلى داخل الجبل، حيث يتدفق جدول، غير أنه جدول صغير جداً، ومياهه للشرب، وبه يدعم الرهبان حياتهم، واسمه نبع القديس سابا، ويعجب الانسان لدى رؤيته الكنيسة والأبنية الأخرى قائمة فوق صخرة هي معلقة في الهواء من دون أية أساسات، وعلى مقربة من الكنيسة هناك قلاية القديس سابا المنحوتة من الصخر، إليها يذهب الانسان بوساطة الممر الملتوي، الذي تقدم لي ذكره.

وعلى الجانب الآخر من الكنيسة، يوجد أيضاً، فوق هذه الصخرة، قلايات الرهبان، الذين مايزالون يسكنون هناك، ويصل عددهم إلى الستة، وهم لايستطيعون الاقامة هناك، لولا أنهم متحالفين مع البداة العرب، الذين يضمنونهم، ويحمونهم ضد المسلمين، ولذلك فإن المكان كما هو، هو قلعة مفتوحة للبداة العرب، ومأوى وملاذ لهم، ولذلك هو ليس خلواً، دوماً، من قطاع الطرق من البداة.

وهناك فوق الوادي حقولاً واسعة مزروعة، اعتاد الرهبان في الأيام الخوالي على فلاحتها ليس لأنفسهم فقط، بل كانوا يجمعون من هذه الحقول الزيت والقمح، بوساطة عمل أيديهم، من أجل الفقراء في سورية وفلسطين، وطوال الوقت الذي كان فيه هذا الدير وبقية الأرض المقدسة في أيدي الصليبيين، فقد اتبع الرهبان النظام نفسه بالنسبة للخدمات الدينية، الذي كان مطبقاً في كنيسة الضريح المقدس، في كل

من الليل والنهار، فعندما كانت الأجراس تقرع في كنيسة الضريح المقدس وقيامة الرب، كان السادة من الكهنة النظاميين فوق جبل صهيون، يقومون أيضاً بقرع نواقيسهم، وبعدهم كان رهبان جبل الزيتون يتولون القرع في كنائسهم كلها، وعندما كان هذا يسمع في بيت عنيا، كان القرع يجري أيضاً في جميع كنائس ذلك المكان، وكانت أصوات النواقيس تصل بعيداً حتى دير القديس سابا، فقد كان الرهبان هناك يسمعون أصوات القرع من الأماكن من حولهم، ولهذا حافظوا على قاعدة أن صوت القرعة الأولى كان يصدر من كنيسة الضريح المقدس، فيسمع في الساعة نفسها في جميع أرجاء الأرض المقدسة كلها.

غير أن هذه الأشياء اختفت منذ أن أصبح الضريح المقدس في أيدي المسلمين، حيث أن جميع أدوات حمد الرب هي الآن صامتة، وآل أمر دير القديس سابا إلى لاشيء تقريباً، وقد أخبرنا الرهبان الذين يسكنون الآن هناك، وحدثونا كيف أنه كان ديراً عظيماً، وأصبح الآن منعزلاً.

وبعد فقدان الأرض المقدسة للمرة الأخيرة، دافع هؤلاء الرهبان عن أنفسهم ضد حملات المسلمين، وخاضوا حروباً قاسية مع غير المسيحيين، وأرغموهم مراراً على الفرار، وزحف بعد أمد السلطان الملك ضدهم، قادماً من القدس مع جيشه، وطلب منهم أن يصبحوا مسلمين، فبعثوا له برسالة، أنه إذا ماصار مسيحياً، فهم على استعداد لخدمته، إنما إذا لم يفعل ذلك فسوف يدافعون عن أنفسهم حتى الموت، ولدى سماع السلطان بهذا حرك قواته ضدهم، وبعد حرب طويلة، تغلب على الرهبان، واقتحم ديرهم وبعث بهم إلى الجنة بوسائل تعذيب متنوعة، لكنه لم يلمس الكنيسة، مع أنه دمر جميع القلايات والطرق التي تقود إلى الكهوف، وحولها إلى الوضع الانعزالي المحزن التي هي عليه الآن، ومع ذلك أبقى هناك بعض الرهبان الذي أقسموا يمين الولاء له، وبذلك بقي الدير قائماً حتى هذا اليوم.

السفر من دير القديس سابا

وبناء عليه، عندما بدأ حرّ الشمس بالضعف، أخذنا جعبنا، وحميرنا، وسرنا نازلين عبر الممر الخطر تحت الجروف في الوادي، ونحن نقود حميرنا، ومضينا نازلين ونحن على ظهور دوابنا إلى الأجزاء المنخفضة من وادي جهنم، وارتحلنا في وسط قعر الوادي الوعر، ونحن محاصرون من كل جانب بجدران شديدة الانحدار من الصخور، وكان تحت أقدامنا طريق في غاية الوعورة، كله حجارة، وهو غير مطروق من قبل، وتابعنا على هذا المنوال ببطيء وتعب لعدة ساعات، وقد أردت المضي في وادي جهنم حتى البحر الميت، حتى أتمكن من رؤية جدول قدرون وهو يصب في البحر الميت، لكن دليلنا كان لديه رأي آخر، لأننا بعدما قطعنا مسافة طويلة نزولاً، عبرنا إلى واد آخر، كان أكثر سعة، وواديا جميلاً، وخصباً، لو توفر له من يتولى فلاحته، وهو ممتد من الشمال إلى الجنوب، وذلك مثلما يمتد وادي جهنم من الشرق إلى الغرب، وهذان الواديان متضادان، ويعاكس أحدهما الآخر، في الوضع، وفي الأحوال، وفي الاسم، ففي الوضع، قد وضح بأن هذا الوادي غير متصل أبداً بالبحر الميت، بل هو يفصل الجبال المقدسة، وفي جميع الأحوال، فإننا بقدر ماأن نجد الأول أجرداً، كثير الأحجار، ومظلماً بعض الشيء، وهكذا دواليك، نجد هذا الثاني، غنيا، معشوشبا، وواسعاً، ومشرقاً، علاوة على ذلك، هما مختلفان بالاسم، لأن الأول اسمه وادي جهنم، ووادي اللعنة، في حين اسم هذا الوادي، وادي البركة،، وذلك حسبما قرأنا في سفر أخبار الأيام الثاني: ٢٠/ ٢٦، وأنه نال اسمه هذا من حمد الرب، الذي قدمه يهوشا فاط —ملك القدس— وشعب اليهودية، هناك، بعد إلحاق الهزيمة بأعدائهم.

ورأينا في هذا الوادي خرائب أبنية قديمة، ولدى متابعتنا سيرنا نحو الأمام، وصلنا إلى أحد الأماكن، الذي فيه مالايحصى عدده من الحفر

والجحور للأفاعي والثعابين، من كل من الصغير والكبير، لكننا لم نر فيها ولا حيوان، لأنهم يخرجون فقط في الليل، وأخبرنا دليلنا حامد أنه يوجد في هذا المكان ثعابين غليظة بقدر ذراع الانسان، وطول كل منها بقدر طول الرمح.

وبعدما سرنا باتجاه الشمال خلال وادي البركة لمدة طويلة، تركنا ذلك الوادي، وتوجهنا نؤم جهة الشرق، وانحدرنا عبر جبال بلا ممرات، وإلى جانب هضاب منحدرة، وجروف، وبذلك صار البحر أمام أعيننا، ورأيناه بشكل كامل، مع أنه كان مايزال بعيداً عنا مسافة طويلة، ولهذا أسرعنا بخطانا، ونزلنا بسرعة أعظم، لأن الشمس كانت قد أشرفت على الغياب، وهكذا وصلنا أخيراً إلى أرض سدوم، وإلى شاطىء البحر الميت، وذلك عند الرأس، الذي يأخذ فيه نهر الأردن بين فكيه.

وبقي الآن دليلنا حامد، والمغاربة، وخدمه، بعيداً جداً عن البحر، لأنهم يمجونه، ويمقتون النزول إلى مياهه الملعونة، لكننا سرنا حتى الماء، حيث أوقفنا حميرنا، وترجلنا، ورأينا من الخرائب، أنه لابد قد كان هناك بيت مربع كبير، بني بعضه فوق اليابسة وبعضه الآخر في البحر، وكانت هناك أحجار كبيرة من تلك الخرائب مرمية على الساحل، غير مغطاة بالماء، مع أنها ممددة في الماء، وسرنا على هذه الأحجار حوالي الاثنتي عشرة خطوة في البحر، ورأينا المياه، ولمسناها، وتذوقناها، وهي المياه التي سمعنا عنها أعاجيب كثيرة، وهذه المياه نقية، لكنها مالحة جداً، وكثيفة، ولهذا أطلق عليه أحياناً في الكتابات المقدسة البحر الأكثر ملوحة، ولذلك عندما يأخذ أي انسان بعضاً من هذا الماء ويضعه في فمه، يصبح بسبب ملوحته العالية جداً، داخل فمه محترقاً، وكأنه صب فيه ماء يغلي، وقد جربت أنا هذا شخصياً، علاوة على ذلك، بما أن هذه المياه كثيفة ومالحة جداً، فإن الذي يضعها في يده، يشعر بوخز في يديه، وكأنها امتلئتا بالذباب والقمل، ويرغم بذلك على حكهم وكأن هناك

عرّ بهما، ويستمر معانيا من هذا لساعات كثيرة، ثم إنه لايمكن بسهولة مسح هذه المياه من اليد، بل الحال كأن انسانا غمس يديه في الزيت، كذلك هناك رائحة نتنة تصدر من الماء، تثير النفس وتسبب الغثيان، ولذلك لايمكن للحجاج الإقامة هناك طويلاً، والأحجار الراقدة في المياه مع جزء منها فوق الماء، قد بدت وكأنها كلها مغطاة بالجليد، ولون الشاطىء كله قرب الماء أبيض، وكأنه مغطى بثلج جديد، مع أنه لايوجد جليد ولاثلج، بل الموجود عبارة عن ملح مر، مذاقه حاد جداً، وأعتقد أن ملعقة واحدة من هذا الملح هي أكثر ملوحة من عشر ملاعق من ملحنا.

وبدت بقية الأرض غير المغطاة أو المبللة بالملح، وهي قريبة من الماء، سوداء، وكأنها قد احترقت بوساطة نار ملتهمة، وهي دليل على شرور شعب سدوم، كما سوف نبين بوضوح أكثر فيما بعد.

ويقول العامة من الناس، بأن الجدران المدمرة، التي سرنا عليها إلى داخل البحر، هي بقايا بيت لوط، ابن أخي ابراهيم، الذي سكن في سدوم، حسبما قرأنا في سفر التكوين: ١٣، ولدى وقوفنا لبعض الوقت إلى جانب هذا البحر، قام أدلاؤنا، وحامد ورجاله، الذين وقفوا على أرض مرتفعة فوقنا، بالصراخ لنا بأصوات مرتفعة حتى نبتعد، وفي الحقيقة كنا على عجلة من أمرنا لكي نغادر المكان، لأننا لم نكن مسرورين بالبقاء هناك، بل كنا نشعر بالغثيان والخوف، وكأننا كنا واقفين في بؤرة أجساد ميتة، بسبب الرائحة الكريهة، أو في مكان، فيه محاكمة قاسية لحشد واسع من الناس، قد حكم عليهم بالموت مع أشد العذاب وأكثره فظاعة، وقد خشينا من غضب الرب القدير، وخفنا أن يشملنا مع المذنبين، بالعقاب الذي نزل على شعب سدوم، فضلاً عن هذا، كان النهار قد شارف على الانتهاء، واقترب غياب الشمس، ولذلك صعدنا مبتعدين عن البحر، نحو أدلائنا، ودوابنا، وبتنا

مستعدين للمغادرة، لكن قبل أن نغادر هناك شيء مايتوجب قوله حول هذا البحر.

وادي سدوم المشهور حيث البحر الميت الآن

يحدثنا الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين عن أصل البحر الميت، ذلك أنه لم يكن هنا بحر من بداية الخليقة، كما لم تكن هنا بحيرة أو ماء متجمع بدون حركة، بل جرى نهر الأردن في مجراه، وكان يسقي الوادي وجميع المنطقة حول هذا الوادي كانت مزدهرة وخصبة، مثل حديقة الرب، ومثل أرض مصر، كما قيل في سفر التكوين:١٣، ولهذا أطلق عليه اسم الوادي الشهير(التكوين:١٢)، لأنه كان مليئاً بالأشياء الجيدة، ومثل هذا أطلق عليه اسم وادي الغابة، لأنه امتلأ بالأشجار وبأوراقها بكثافة، لأنه توفرت هناك أشجار فواكه، وبساتين مثل غابة، ومخزن كبير من الفواكه والأخشاب، وعن هذا حُدّثنا في سفر التكوين:١٤.

وأطلق عليه أيضاً اسم وادي السهل، لأنه امتلك على الطرف الأول من الأردن أشجاراً، وكان هناك على الطرف الآخر سهولاً مزروعة، ولذلك دعي بالاسمين معا: وادي الغابة ووادي السهل، وأطلق عليه أيضاً اسم وادي الاسفلت، أو وادي الزفت، وهذين الاسمين هما الشيء نفسه، لأنه يوجد فيه كثيراً من آبار القار، عنها نقرأ في سفر التكوين:١٠، وهم يستخدمون القار عوضاً عن الملاط، ومنه بنيت جدران قوية جداً، وعثر في رمال ذلك الوادي على أحجار كريمة، مثل الزفير ومايشابهه، وكذلك عثر على الذهب في الأراضي هناك، وذلك حسبما جاء في سفر أيوب: ٣٣، فهناك بدا وكأنه يتحدث عن هذا الوادي، وكان في هذا الوادي الشهير والجليل خمس مدن كبيرة هي: سدوم، وعاموره، ودومه، وصبوييم، وبالع التي هي ساعور، وقد وردت هذه الأسماء في سفر التكوين: ١٤/ ٢، ولهذا دعيت هذه المنطقة

من قبل الاغـريق، بـاسم البنتـابولس، لأن معنى«بنتـا» هو«خمسـة»، ومعنى«بولس» «مـدينة»، وجـاءت هذه التسميـة بسبب وجـود المدن الجليلة الخمس، التي كانت سدوم هي الرئيسية بينهن.

وكـان سكان هذه المدن أشراراً جداً، وقـد أذنبوا بشكل مريع أمـام الرب (التكوين:١٨)، ومارسـوا حياة مهينة، خـارج حدود العقل، مثل عميـان، وحيـوانات بلا عقل، ولـذلك جـرت ترجمة اسـم سـدوم إلى «عمى»، هذا وكـان في هذه المدن حشداً كبيراً مـن الناس، وكانوا جميعـاً مـذنبين، إلى درجـة أنه لم يوجـد في أي منهن رجلين صـالحين، لأنه لو وجـد مثل هذين، لما دمر الرب تلك البـلاد، كما جاء في سفـر التكوين: ١٨، وكانت الذنوب الـرئيسية لهؤلاء القوم عـددها ستة، حسبما وردت في حزقيـال: ١٦، وكان الذنب الأول هو الكبرياء، الذي هو أصل جميع الشرور، حيث كـانوا يتكبرون في أنفسهم ويحتقـرون الآخـرين، وكـان الذنب الثاني، هو الشبع من الخبز، لأنهم عاشوا باضطراب، وكانوا دوما سكارى، ومليئين من الخبز، وكان الذنب الثالث هو الوفرة، لأنهم أثروا بثروات حصلوا عليها بشكل سيء، وكان الذنب الرابع هو الكسل، لأن أولادهم وبناتهم، وشيـوخهم وشبـابهم كـانوا جميعـاً كسـالى، وصـاروا أغنياء بلا عمل، وبسبب جـودة الأرض، وكان الذنب الخامس هو أنهم لم يمـدوا أيديهم قط للفقـراء والمحتـاجين، لأن قلوبهم كـانت قـاسيـة، وكـانوا لايقدمـون مأوى لأي غـريب، كما قرأنا في سفـر التكوين: ١٩، وأنه لم يكن هناك مكان للغرباء حتى يقيموا به، إلاّ في الشارع العام.

وفي الحقيقة قضـوا في احدى شرائعهم بعـدم اعطاء اي غريب مأوى في بيت من بيـوتهم، لأن البـلاد كـانـت بلاد وفـرة، وقـد حمل كثير من الفقـراء أنفسهم إلى هذا الوادي قـادمين من مناطق غـريبـة، لأن الحيـاة كـانت سهلة، غير أنهم اعتقـدوا أن الفقـراء حمل ثقيل، ولذلك قضـوا بوجـوب طرد الناس الفقـراء والغـرباء، وعلى هذا الأسـاس قتلوا فتـاة

بطريقة شنيعـة، لأنها أبدت مواسـاتها وأعطت خبزاً لواحـد من الفقراء استجداها.

وجـاء بعد هذه الذنوب الخمسـة الذنب السادس، الذي كـان أعظم الشرور مقتاً لسـدوم، وقد صرخت الذنوب الخمسـة إلى السماء، فوصل واحـــد منهـا، ولـذلك قـال الـرب في (التكوين:١٨و١٩):« إن صراخ سدوم وعمورة قد كثـر»، وهكذا إلى آخره، ولم يوجد هناك رجل واحد صالح لم يكن قد تلوث بالاثم، غير لوط، وعندما اقتيد خارجاً من قبل الملاك، أمطر الرب ناراً وحجـارة محترقة فـوق تلك البلاد، وقـد احترق كل شيء حتـى جـــوف الأرض، وذلك بنـزول تلك النار المرعبـــة من السماء، وتحولت المنطقة إلى مكـان أجرد من الملح والرائحـة المقيتة حتى هذا اليوم.

وعندمـا توقفت النار، قـام الأردن والجداول الأخـرى التي تجري في ذلك المكان المحترق فملأت بالطول وبالعرض تلك الحفرة الكبيرة التي خلفتهـا النار عندمـا احـرقت الأرض، وهكذا عملت بحيرة الملح، هذا ومع أن الأرد ن والجداول الأخـرى تجلب ميـاهاً حلوة إلى ذلك المكان، فإنها تصبح على الفور في غاية الملوحة، وأكثر ملوحة من ملوحة ماء أي بحـار أخـرى، لأنها تمتلك سبباً رباعياً لملـوحتهـا، وهو سبب طبيعي، وسبب منطقي، وسبب كاثوليكي، وسبب رباني.

والسبب الأول لملوحـــة هذا البحـر، هو سبـب طبيعي، وهو السبب نفسه الذي يجعل البحـار الأخرى مالحة، كما سلـف وبينا من قبل، وقد عـالج هذا الموضـوع أرسطو في مصنفة «الفضـائيـات»، الكتاب الثـاني، وقدم كثيراً من الحجج، وهناك قدم بشكل واضح اشارة إلى هذا البحر، وإلى ملوحته الفائقة.

والسبب الثـاني الذي يظهـــر هذا البحـر أعظم ملوحـــة من البحـار

الأخـرى، هو سبب منطقي قـائـم على الايمان، وهو مـاقـد يوافق عليـه الانسان أو لايوافق، فنحن قد رأينا بأن النار من السماء قد أحرقت تلك الأرض حتى الأعماق، وقـد بقي قعـر الهوة يحترق بشكـل دائم، مثل حـديدة محماة في النار، هذا وإن الماء الـذي يصب هناك غير قـادر على إطفـاء تلك النار، بل تحول الحرارة الميـاه إلى حـد الغليـان، وتجعلهـا سميكة، وتغليهـا حتى تصير مالحة، ولهذا السبب نجـد هذه المياه، أكثـر دفئا، وملوحة من أية مياه أخرى، وتتصاعد الأبخرة منها بشكل دائم.

والسبب الثـالـث مستخـرج من الإيمان الكـاثوليكي، الذي نعتقـد بموجبه أن الحسـاب الأخير سوف يكون في وادي شعفاط، وأن المدانين سـوف يسـاقـون عبر نهر النار نزولاً في وادي جهنـم حتى هذا المكان، حيث سيغـرقـون في أعماق الجحيم، وذلك حسبما بينا في ص٥٨٧، لأن من الـواضح أن فم الجحيم مـوجـود هنا، وهذا بـالنسبـة لنـا نحن المسيحيين لأننا نعتقـد بأن الجحيم مـوجـودة في وسط الأرض، والمدينة المقـدسة قـائمة على جبـال فـوقها في وسط الأرض، وذلك مثلما قـالت الأمم وقـال الشعراء بـأن جزيرة كـريت هي وسط العـالم، وأن الجحيم موجود تحتها، وبناء عليـه فإن الدموع النازلة من الوثن المقام فوق جبل إيدا Ida تجري نحو الجحيم، كما سنتحدث في ص١٧ من القسم الثاني.

ويتعلق السبب الرابع بإظهـار الرب عدم رضـاه الخاص، وكراهيتـه، ومقتـه للاثم اللعين وهو ممارسـة السـدوميـة، ولـذلك جعل المكان كله يعيش أبداً وسط المرارة والجدب، ولهذا السبب جـاء ذكـر هذا المكان في كثير من المواضع في الكتـابات المقـدسـة، فقـد أطلق عليـه اسم البحـر الميت(يشـوع:٣) لأن الرب ألقى بالمذنبين هناك ليمـوتوا مـوتاً أبديا، وذلك بابتـلاعهم بسرعة وبمـوت مخيف، أو لعله دعي بالميت، لأن مـا من شيء يعيش هناك فيه، ولايمكن للأسماك أن تكون هناك فيه، حسبما قـرأنا في«فضـائيـات» أرسطو— الكتـاب الثـاني—، وفي Speculum

Historiale ، وليس فقط لاتوجد حيـاة فيه، بل كل شيء حي يلقى فيه لايغرق، بل يقذفه ثانيـة، وبذلك فإن الأشياء الحية لايجري ابتلاعها مباشرة.

وقـد برهن على صحـة هذا الامبراطور تيتوس، عندمـا عسكر أمـام أريحا، وكـان بعض جنود جيشه قـد أودعـوا السجن، وتقرر اعـدامهم، فأمر بـربطهم ومن ثم بإلقائهم وهم أحيـاء في هذا البحر، وقـد سبحوا وأيديهم وأقدامهم مربوطة على وجـه الماء وكان من غير الممكن غرقهم، وقـد ذكـر يوسفيـوس هذا في« حـروب اليهـود» — الكتـاب الخامس، الفصل التـاسع، عـلاوة على ذلك قـال مصنف الـ Speculum His-toriale بأن القوارب الفارغة أو المحملة بأشياء غير حية، تغرق هناك مباشرة، لكن القوارب التي فيهـا أناس أو حيوانات حية لاتغرق، ولكن إذا ألقيت وهي مشتعلة، فإنها تستمر بالسباحة طالما النار مستمرة بالاحتراق، وهناك قصص أخرى كثيرة مشابهة قد رويت فيما يتعلق بهذا البحر، وعن هذه الحكايات قال يوسفيوس بأن الحكايات الزائفة متفوقة على الصحيحة فيما يتعلق بالبحر الميت.

علاوة على ذلك جـرى الحديث عن هذا البحر في الكتابات المقـدسة على أنه مـالح جـداً، في سفـر العـدد:٣٤، وفي سفـر يشـوع:١٢، ولهذا السبب جرى الحديث عنه في الكتابات المقدسة على أنه متفوق بملوحته، لأن مامن بحر في الدنيا أكثر ملوحة منه، ولايمكن لماء عذب أن يتملح بملحنا ويبلغ درجة ملوحته ومرارته.

ومثل هذا أطلق عليه اسم بحر الملح في سفر التكوين:١٤، لأن الملح مـوجود هناك بوفـرة، والميـاه التي تنضح من هذا البحـر، ثم توضع في الشمس، تصبح ملحـاً على الفـور، وقـد دعـي في بعض الأحيـان باسم بحر أحواض الملح، لأنه كـان هناك فيما مضى كثيراً من أحواض الملح، ومن الممكن وجـود بعضها الآن، فضـلاً عن هذا هناك جبـال من الملح

إلى جانب هذا البحر، وحجارتها ملحية إذا ماكسرت، ورأينا في بلاد مآب في مواجهتنا جبلاً صخوره بيضاء، وعناصره كلها من الملح، وحجارته المكسرة هي من أفضل الملح، وكذلك الرمل الناجم عنها، وعلى هذا يؤخذ هذا الملح من الأرض، التي تصح تسميتها بملح الأرض، وبها شبه الرب تلاميذه(متى:٥) بقوله:« أنتم ملح الأرض»، وهو في كل مكان يعدّ أفضل الملح، وأعلى ثمنا من الملح المصنوع من الماء، والذي يأتي نتيجة الغليان، مثل ملحنا، أو الملح الذي يصنع بوساطة حرارة الشمس في أحواض الملح، كما رأيته غالباً يعمل على شاطىء بحرنا، وفي الحقيقة هناك أنواع مختلفة من الملح، يمكن العثور عليها في العالم، ففي صقلية هناك ملح يصبح قاسياً عندما تضعه في الماء، ولكنه يذوب عندما يوضع على مقربة من النار.

ويستخرج من تحت الرمال في سيرينيا Cyrqnia — خاصة عندما يكون القمر بدراً ثم عندما يضعف نوره— ملح عطري، هو ثمين جداً، ويوجد في بعض البلاد جبال من الملح القاسي جداً، منه يجري استخراج الملح بالحك بوساطة أدوات حديدية، وقد بنيت جدران عظيمة وبيوت من حجارة ملحية، كما هو الحال في بانونيا Pannonia، ونجد أيضاً ملحاً أسود، وملحاً فضياً، وأصفر، أو ملحاً أحمر، أو ملحاً مشعاً ببياضه.

وكذلك يعرف هذا البحر باسم بحر الاسفلت، فهو كان يعرف قبل خراب المدن المتقدمة الذكر باسم وادي الاسفلت، أو الحمر، لأنه حتى هذه الأيام هناك آباراً من الحمر على شاطئه، قد حفرت وبيع نتاجها، لأن الحمر ملاط قوي جداً من أجل بناء الجدران، وقد بني إلى جانب هذه الآبار هرم طويل، وهناك يوجد الحمر أيضاً، حيث تقذف به الرياح إلى شاطىء البحر، ويتماسك بقوة مع بعضه، ولايمكن اذابته إلاّ بدماء الطمس، ويطلق عليه اسم حمر اليهود، وهو يستخدم كدواء،

وكعلاج ضد الرمل والحصا في المثانة، ومثل هذا يقذف هذا البحر بعض الكتل من الحمر المغطاة بتربة سوداء، وهي جميعهابرهان على النار التي تحترق بداخلها، وهي بوضعهاهكذا رغوة القدر الذي يغلي بالأسفل .

وإلى جانب هذه الأسماء، لقد دعي أحيانا في الكتابات المقدسة باسم بحر القفار، كما جاء في سفر يشوع:٢، لأن جميع الأراضي من حوله هي صحراء، وهي تمدّ لسانها حتى برية فاران، التي تفصل الأرض المقدسة عن القفار الواسعة التي عبرها بنو اسرائيل، واسمه ايضاً البحر الشرقي، قياساً على البحر الكبير، الذي اسمه البحر الغربي، لأن الأرض المقدسة يحددها هذين البحرين، وهي بعمقها محاطة بهما.

ودعي في بعض الأحيان باسم البحر الجديد، لأنه لم يكن موجوداً في بداية الخليقة، ولكنه عمل في أيام ابراهيم، أخيراً وبعد جميع البحار، لأن البحار الأخرى قد خلقت قبل هذا البحر بـ ٣,٢٧٢ سنة ولذلك هو أحدث البحار وجديدها، ودعي هذا البحر في كثير من الأحيان باسم بحر سدوم، اشتقاقاً من اسم الحاضرة سدوم، التي غمرت بهذا البحر، بعد اقتراف ذنب السدومية، الذي لاقى هنا عقوبته، كما أنه دعي في بعض الأحيان باسم بحر الشياطين بسبب فتن الشياطين وقوتهم في هذا المكان، ولهذا نجد أن المنطقة كلها حول هذا البحر قفار، لأنها مشغولة من قبل الشياطين، ومن مختلف أعمال الخداع السحرية، وفي الحقيقة، هناك— بإذن من الرب— أشياء كثيرة، قد عملت هناك بوسائط الشياطين، من مثل الريش، عندما يرمى في البحر، يغرق مباشرة نحو القعر، في حين يطفو الحديد على الوجه، فهذا ماقالوا بأنه قد وقع هناك.

ودعي أيضاً باسم البحر الملعون، وقد صار كذلك بسبب لعنة المذنبين، ولايوجد مكان في الدنيا قد تفجر غضب الرب فيه بوضوح

ضد المذنبين مثل هذا المكان، وعرف أيضاً باسم بحر جهنم لأن الطريق من القدس إلى هاهنا، يمرّ عبر وادي جهنم، كما أن جدول جهنم يصب فيه، وذلك كما بينا مراراً من قبل، وأخيراً عرف باسم بحر الجحيم، وذلك بسبب أن المدانين، بعد اقتيادهم خلال الجدول الناري لوادي جهنم يلقون في أعماق هذه الهوة، لأن الجحيم سوف يفغر فاه واسعاً، حتى يأخذ جميع الذين سوف يقول لهم:« ابتعدوا عني، أيها الملعونين» الخ، ودليلنا على ذلك أن الدخان يتصاعد دوماً من هذا البحر، وكأنه مدخنة الجحيم، وكل مكان يصله الدخان يتسمم، ويتحول إلى مكان قاحل على طرفي البحر،وكل ماينمو هناك هو بدون فائدة.

وفي الحقيقة رأينا هناك التفاح الذي تحدث عنه يوسفيوس، وكذلك مصنف Speculum Historiale، وينمو هذا التفاح على شجيرات قصيرة، وقد بدت هذه الشجيرات لي بأنها شجيرات عمرها سنة واحدة، لأنها تجف في الشتاء وتنمو ثانية في الصيف وتصير بطول نبات الجريس لدينا، فعن جذعها تتفرع عدة أغصان، تحمل كمية كبيرة من التفاح، ذات الحجم الكبير، مثل حجم مقبض اليد، وهذه التفاحات جميلة جداً أن ننظر إليها، وتثير شهية الذي يتطلع إليها حيث يرغب بأكلها، وبالنسبة للونها، هي خضراء بنفسها، لكن من الجانب الذي تضربه الشمس هي صفراء مشوبة بالحمرة، وهذه التفاحات ناعمة، وكأنها ناضجة للأكل، وعندما يقوم انسان بقطع تفاحة، فإنها تنقسم مفتوحة، وسيجد على الفور في داخلها مادة قذرة لها رائحة مقيتة، تلوث يديه، وتثير المعدة نحو الغثيان، وعندما تصبح هذه التفاحات قاسية، يصبح لونهن رمادياً، وتتحول المادة التي في داخلهن إلى رماد وغبار.

إلى جانب هذا، يقولون بأن هذا البحر يقذف بحصا على درجة عالية من الجمال، وإذا ماالتقطهم انسان، فإن يديه تغدوان قذرتين ولهما رائحة

بشعة لمدة ثلاثة أيـام، ويقال بأنه عميق جداً في الـوسط إلى حد لايمكن الوصـول إلى القعر بـإلقاء دليل بوسـاطة أطول الحبـال، وعـرضة ستـة فراسخ، وهو ممتد من الغرب إلى الشرق، في حين يصل طوله من الشمال إلى الجنوب إلى مسافة تسعة أميال ألمانية، هذا وكنت قد تحدثت عن هذا الموضـوع من قبل، ويتضخم حجـم هذا البحـر أحيـاناً، ويمتلىء بشكل غريب، ومع ذلك لايفيض مطلقاً على أطرافه.

وفي الحقيقة تصب مياه كثيرة، وأنهار وجـداول فيه، مثل نهر الأردن، الذي هو الرئيس بينهم، والذي تتجمع فيه أيام الأمطار والثلوج كميات كبيرة من الميـاه، تتـدفق من جبل لبنان ومـن جبلي جلبـوع وجلعـاد، وبذلك يغدو أكبر بهذه الزيادة، ويصب في البحـر، ووفق الطريقة نفسها تصب الجداول فيـه من كـلا الجانبين، مثل جـداول: قـدرون، ويبـوق، وعـرنون، وكـرت Careth وسيـول أخـرى كثيرة، وفيما يتعلق بالتصريف، فإن جميع فضـلات الأرض المقـدسـة تقـريبـاً تحملهـا هذه الجداول إلى البحـر الميت، وهـذا البحـر حسـبما كـان دومـاً هو المصب لمنطقتين تحدانه على الطرفين، وذلك مثلما سـوف يتلقى الجحيم جميع فضـلات العـالم، وعلى هذا فإن هذا البحـر هو بـالـوعة جميع البلاد.

ولهذا فكر بعضهم بأن هـذا البحـر لابد أنـه يمتلك فتحـة في أحـد الأطراف، منهـا تجري الميـاه نحـو هوة، أو ربما تصـب في الجحيم، لأنه—كما قلنا— مهما كانت كميات المياه التي تصب فيه، فإنها لاتذهب إلى أي مكان آخر، والبحر نفسـه، وإن بدا متضخماً في بعض الأحيان، لم يفض مطلقاً على تخومـه، هذا ويعتقـد بعضهـم بأنه متصل بقناة خفيـة بمياه مـاره، التي جرى الحديث عنها في سفـر الخروج:١٥، حسبما تقدم الكلام حـول ذلك، وهانحن قـد قـدمنا عـرضـاً حـول البحـر الميت، استقيناه وجمعناه من الأسماء المعطاة له.

قفار القديس جيروم وديره فيها

وبعدما فرغنا من مشاهدة البحر الميت، المدة التي رغبنا فيها، مضينا مبتعدين بسرعة عنه، لأنه الشمس كانت الآن على وشك المغيب، وسرنا باتجاه الشمال إلى ماوراء بداية البحر الميت، غير بعيدين عن المكان الذي يصب نهر الأردن فيه، ووصلنا بعد هذا إلى قفار جرداء تماماً من قفار الأردن، لم يكن فيها شيئاً أخضر، ولاحشائش ولاأعشاب بل الأرض رملية، قد شويت بحرارة الشمس، وهي مليئة بأكوام من الرمال تجمعت بوساطة الرياح، وسرنا خلال هذه الأكوام والروابي الصغيرة، مما جلب الانهاك إلينا وإلى دوابنا، وكنا كأننا نشق طريقنا خلال ثلج عميق وكثيف، ووجدنا في الرمال آثار كثير من الحمير، ولهذا استنفرنا وأخذنا حيطتنا، خشية أن نقع بين بعض فئات البداة العرب، أو أن هؤلاء البداة في المكان الذي نوينا أن نرقد فيه تلك الليلة، ولذلك وقفنا بلا حراك، غير عارفين ماذا نفعل، وكرهنا أن نحمل أنفسنا إلى المنطقة التلية الاسرائيلية، بل رغبنا— كما أظهرنا فيما بعد— بزيارة إحدى البقاع في هذه القفار، التي نحوها رأينا قطيعاً من الحمير متجها إليها.

ولدى رؤية دليلنا حامد لهذا، قفز على الفور من على ظهر حصانه، ومثله فعل خادمه، وتناولا سيفيهما وقوسيهما، ثم ركضا مثل وعلين فوق الرمال نحو القطيع، قاصدين الحصول على بعض الأسلاب إذا تمكنا، لأنه في هذه البلاد مامن انسان معصوم من المهاجمة، بل يطارد القوي الضعيف، وينتزع سلاحه منه وثيابه، إذا ماتمكن من الامساك به، ولذلك يستعدان ضد بعضهما، وهما على مسافة كبيرة تفصل بينهما، وإما أن يهرب فريق منهما، أو أن يصطف كلا الفريقين، ويجهزان أنفسهما ضد بعضهما، للقتال ليس في سبيل حياتهما، بل في سبيل أسلابهما وأسلحتهما.

وبعدما قام حامد ورجاله بمطاردة هذا القطيع لمسافة طويلة، وجدوا أنه لم يكن قطيعاً من الحمير الأليفة بل من الحمير الوحشية، لم يستطيعوا

أبداً الإمساك بها، لأنها كانت حيوانات سريعة جداً، نظراً لكونها حمير وحشية، ولهذا عادوا إلينا خاليي الوفاض.

وبناء عليه تابعنا سيرنا وتقدمنا على طريقنا، ووصلنا في القفار إلى المكان الذي استهدفناه وذلك حيث اعتكف القديس جيروم، المعترف المجيد، لمدة أربع سنوات، قبل أن يذهب إلى بيت لحم، وذلك حسبما قرأنا في اسطورته، ويوجد في هذه الأيام هنا كنيسة جميلة جداً، مع دير ملحق بها، ودخلنا إلى الكنيسة، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض أمام المذبح، وحصلنا على غفرانات(++) مطلقة، ثم نهضنا من صلواتنا، وقمنا بمشاهدة الكنيسة والدير، والكنيسة مشعثة من قبل البداة العرب والمسلمين،، ومذابحها محطمة، وأعمالها الخشبية مهددة بالسقوط سريعاً، وكان الدير فارغاً ليس فيه رهبان، والجزء الأعظم منه مهدوم، وفي الغرف التي أقاموا فيها، هناك معالف للدواب، حيث تمتعوا هناك بالظل أثناء حرّ النهار، ولذلك هو نوع من أنواع الخانات الآن.

والذي استطعت استخلاصه من أوصاف الأرض المقدسة، ومن الخرائط التي عليها رسم شكل الأرض المقدسة، أن هذا المكان هو بيت حجلة، حيث بكى بنو اسرائيل على يعقوب أبيهم، الذي جلبوا جسده من مصر، وذلك حسبما قرأنا في الإصحاح الأخير من سفر التكوين، وأطلق جيروم على المكان في كتابه « حول المسافات بين الأماكن»، اسم قريات Areaat ، وهي على بعد فرسخ واحد من الأردن، وأنا لاأعتقد أن قفار اعتكاف جيروم كانت هنا، لأنه سكن في إحدى القفار في سورية، ومع ذلك صدوراً عن الاحترام لهذا القديس، فإن المعاصرين يقدمون الاحترام لهذا المكان، على أنه مكان سكنه، وفي الوقت نفسه لم ترد اشارة إلى هذا المكان في كتب الحج القديمة، إلاّ تحت اسم بيت حجلة، وقد تسلقنا فوق الدير، وجلنا حوله مع خوف وخطر، لأن البناء كان يهتز تحت أقدامنا، وكأنه آيل للسقوط.

ورأينا هنا صوراً جميلة لآلام المسيح مرسومة على جدران الكنيسة، وأن بعض قلايات الرهبان ماتزال سليمة، ولاحظنا أنه قبل بضع سنوات كان هنا دير للرهبان، وقال بعضهم بأن هذا الدير قد بني في أيام القديس جيروم، وأنه ظل مسكونا بشكل دائم حتى أيامنا غير السعيدة، أي أنه قبل أن يذهب إلى بيت لحم، كان لديه دير ديني هنا، وأن معجزة الأسد لم تصنع في بيت لحم بل هنا، وهذا هو المكان الذي تحدث فيه القديس جيروم عن نفسه في رسالته إلى يوستوخيوم، بأنه تعرض لإغواءات كثيرة، حيث قال:« كلما كنت في القفار، والمكان الأجرد المنعزل، محترق بحرارة الشمس، التي تقدم مسكنا لقرود شعثاء، اعتدت أن أتصور نفسي في وسط رفاه روما مع حشد من الفتيات الراقصات»، وفي هذا المكان بكى ذلك الرجل المبارك من دون توقف، وأخضع جسده بالصوم وباللطم على صدره ليلاً ونهاراً، وفي غضبه من نفسه، والتزامه الدقيق بالنظام، دخل إلى القفار وتسامر مع الحيوانات المفترسة والعقارب.

وكنا عندما خرجنا من القدس في الصباح، اتفقنا على تمضية الليل في هذا المكان المقدس، إنما بعد تجولنا حول الأبنية والخرائب، لم نجد مكانا يمكننا أن نستريح به، كما كان لايمكننا الإقامة في الحقول خارج الجدران، بسبب عدم نظافة المكان، لأننا رأينا أعداداً لاتحصى من الخفافيش الكبيرة وهي تطير إلى هنا وهناك، لأن الشمس كانت قد غابت وكان الوقت وقت الشفق، وقد أخبرونا بأن هناك كثيراً من الخفافيش من نوع آخر، وهو من جميع الجوانب مثل الحمام، وهذا النوع لايطير إلاّ في الظلام الدامس، ويكمن منتظراً الرجال بشكل خاص، فهذه الخفافيش تنقض بشكل حاد على وجه الانسان، فتمسك أنفه بفمها المفتوح، وتقطع الأنف بطرفة عين من الزمن، وتطير مبتعدة مع صيدها، وكان الرجال من ذوي الأنوف الطويلة عرضة للخطر، أكثر

من سواهم.

وعندما سمعنا هذا، احترزنا من أجل أنفسنا، وغطينا أنوفنا بأيدينا، كما وسمعنا فحيح عدد كبير من الأفاعي، وهن يخرجن من جحورهن للأكل، فضلاً عن هذا كان المكان خارج الأسوار الذي توقفنا فيه لإنزال أثقالنا مليئاً بالحفر التي عملتها الأفاعي والعقارب، وإلى جانب هذا كله، كانت هناك الرائحة المقيتة المعتادة، الصادرة عن البحر الميت، وكانت قريبة منا، وقد بدت لنا أكبر مما نستطيع شمه طوال الليل، وكذلك خفنا من البداة العرب ومن المدينيين، وخشينا من أن يهاجموننا ليلاً ويزعجوننا.

وعاودنا لهذه الأسباب ركوب حميرنا، وأدرنا ظهورنا إلى البحر الميت، وسرنا خلال الظلام نحو المنطقة التلية لإسرائيل، وذلك فوق منبسطات واسعة وباهتة، لم نرغب في الاقامة بها، بل بادرنا مسرعين نحو التلال، وعندما وصلنا إلى سفح الجبال، دخلنا إلى واد ظليل، وصعدنا إلى القمة، ووصلنا إلى مكان آمن تماماً، هو عين الجدي، وكان ذلك قبل منتصف الليل بقليل، ووجدنا هنا مكاناً مناسباً، فأعطينا دوابنا إلى خدمنا، وجلسنا أرضاً، وجلبنا ماكان قد بقي في جعبنا، وتمددنا بأنفسنا، وذلك حيث جلس كل انسان ليأكل، فهناك رقد لينام، ونمنا هناك حتى الصباح بملابسنا، سوى أننا خلعنا واقيات أرجلنا وأحذيتنا.

صعود الحجاج إلى جبال عين الجدي والحادث المضحك الذي وقع للراهب فيلكس فابري

وعند اشراق الشمس في اليوم الثاني عشر، نهضنا من فوق الأرض حيث كنا راقدين، وذلك بعدما نمنا نوماً حلواً وهادئاً، لأننا كنا مرهقين، وكنا جميعاً في مكان آمن ونظيف، وعندما شاهد دليلنا حامد، بأن النهار كان مشرقاً، صرخ لنا بصوت مرتفع، وحثنا بأن نتسلق إلى

الجبـال بسرعـة، قبل أن تصبح الشمس حـارة، ولذلك أعـددنا أنفسنا بسرعة، وعندما كنا نستعد من أجـل رحلتنا، وقع لي حادث عرضي تافه ولاأهميـة له، ومع ذلك كـان عبثاً مضحكـاً، وقد اخترت أن أضعـه في كتـاب رحـلاتي وجـولاتي، لأنني كما وعـدت في مطلع كتـابي، أثناء الانطلاق برحـلاتي، وقـررت أن أخبركم ليـس فقط عن المسـائل الجادة الوقورة، بل أيضاً عن الأشياء العابثة والتافهة.

فقـد جلست، وبذلت جهداً للبس حـذائي، وقـد كان حـذائي ضيق تماماً، ولذلك كنت أجـد صعوبة لدى خلعـه وكان ذلك لايتم من دون بذل كثير من الجهـد والطاقـة، وكـان حـذائـي مصنوعـا من جلد غـالي الثمن، وأصفـر اللون، وناعماً، ووصل حتى ركبتي، مثل واقيـة، وانتعل الفـرسان الآخـرون أحذية مـن النوع نفسه، واستخـدمنا هذا النوع من الأحذية عـوضاً عن نعل وواقيـة، وهكذا وضعت فردة حـذائي اليمني فوق قـدمي، وأعطيتها شدة قاسيـة مفاجئة، لكن عندما صـارت قدمي فيها شعـرت بوجود شيء تحت النعل رطب ونصف قـاسي، واندهشت تجاه ذلك، وخشيت مـن أن يكون قـد دخل إلى حـذائي عقـرب، أو علجـوم أو أفعى ملتفـة، وازداد هذا خـاصـة عندمـا بدا لي أنني أشعـر بحـركة الحيـوان وهو يلتـوي تحت قـدمي، ومع أنني خشيت أن تكون قـدمي قد تسممت، لم أسحبهـا من الحذاء، لأن البقيـة كانوا قـد امتطوا حميرهم، وكـانوا يصعـدون فـوق الممـر، وقـد خفت من البقـاء خلفهم لوحـدي، وقمت على كل حـال بدفع قـدمي بشدة فـوق حجـرة، حتى أتمكن من قتل المخلوق، وهكذا ركبت بغلي لكن ليس دون الخوف من التسمم، وعندمـا كنا صاعـدين للجبال، وصلنا إلى ممر منحـدر وضيق، توجب علينا أن نصعـد عليـه واحـداً تلو الآخـر بسبب خطر سقـوط الحيوانات، ثم إنه لم يكن بامكاننا السير والتقدم جميعاً واحداً تلو الآخر، بل توجب على الذيـن كـانوا بالأسفل الانتظار حتى يكـون الذي سـار

أولاً قد صعد الطريق كله.

وترجلت في هذا المكان من على بغلي، وجلست أرضـــاً، وخلعت حذائي، الذي خيل إلي أنني سأجد فيه واحداً من الهوام قد سحق، وعندما وضعت يدي فيه، وجدت شيئاً مارطباً، ومن خلال الشم عرفت ماهو، وتبين لي مالم أعرفه لابالنظر ولاباللمس، وأنه لم يكن هناك لاعقرب، ولاعلجوم ، ولاأفعى ، بل غائط بشري، ولدى معرفتي بذلك، لبست حذائي ثانية وأنا شديد الانزعاج، وعاودت امتطاء بغلي، وأنا مرتبك ومتضايق، وسرت خلف الآخرين، وأنا آسف، أتساءل في نفسي، من الذي أبدى نحوي قلة الاحترام هذه ومزح معي هذه المزحة الشنيعة، ومن الذي من بين الفرسان كان قليل الاحترام إلى هذه الدرجة حتى وضع غائطاً في حذاء حاج وكاهن.

وبدأت أتشكك بواحد من أعظم النبلاء، الذي كان لطيفاً وودوداً جداً معي، وظننت أنه بسبب رفعه للكلفة معي أقدم على هذه الفعلة، وأزعجتني هذه المسألة كثيراً، لذلك قررت، وأقسمت في قرارة نفسي، وقطعت على نفسي عهداً بأنني لن أسافر مسافة أخرى مع هذه الجماعة سواء في البرأو في البحر، وتخلت نفسي عن الحج إلى جبل سينا، لكنني لم أخبر أحداً بماوقع لي، بل تمضيت على طريقي صامتاً، وكأنني كنت أصلي، والذي حدث هو أنني أخطأت بحق اللورد الذي شككت فيه، وبجميع رفاقي، ووجدت فاعل هذه الفعلة، وذلك بدون أدنى شك، فعندما قمت بالقدس بخلع حذائي في قلايتي حتى أتمكن من تنظيفه وتنظيف يدي وقدمي، واخراج الغائط الذي كان به، وجدت في داخله خنفسة سوداء كبيرة، ولدى رؤيتها للوهلة الأولى كنت خائفاً، حيث ظننت أنها عقرب، كنت قد سحقته مع الغائط، ولكن عندما رأيتها أنها كانت خنفسة، كنت مسروراً، لأنني عرفت الآن بشكل أكيد، أن مامن أحد وضع الغائط في حذائي غير هذه الخنفسة، وفي الحقيقة الخنافس في

هذه المناطق— بالألمانية Rosskafer— [خنفسة حصان] كبارجداً، ويفقسن من روث الخيول، وهن يطرن ويزحفن حول الطرق، وهن يجمعن مواداً مناسبة، وعندما يفرغن من جمعها يعملن منها كتلة، أو كرة بحجم بيضة، ويدفعن هذه البيضة بأقدامهن الخلفية، ويرحن أقدامهن الأمامية على الأرض، وبذلك يدفعن الكرة خلفهن، ويسرن مثل سرطان إلى أي مكان تقودهن غريزتهن إليه.

وعندما كن يصلن إلى المكان الذي سترقد الكرة فيه، كانت الخنفسة تضع نفسها في الكرة، جاعلة إياها بيتها وطعامها، وعملت هذه الكرات دوما من مواد قذرة، أو من روث بعض الدواب، وغالباً ماوقفت شخصياً دونما حراك على الطريق، حتى أتمكن من مراقبة هذه الخنافس وهن يدفعن على طول الطريق كرات ضعفهن أنفسهن بالحجم، الشيء الذي لم أره قط في بلادنا، مع أن كثيراً منهن نشأن هناك من روث الخيول على الطرقات، وعلى هذا كان الذي حدث في قضيتي أن خنفسة وجدت بعض الروث، فعملته على شكل كرة مستديرة، ودفعتها إلى حذائي، وقصدت أن تكون ضيفي، وغالباً ماقمت بعد ذلك بإخبار السادة اللوردات الحجاج حول ذلك، وكيف أنني انزعجت جداً، وشككت بهم.

وأطلق يوسبيوس في مصنفة Praeparatio Evangelica— الكتاب الثالث، الفصل الثاني، على هذه الخنفسة اسم الجعل، حيث اعتاد المصريون القدماء على القول بأنها مخلوق مقيت بالنسبة لغير المتفقهين باللاهوت، لكن هي بالنسبة للمتفقهين تستحق أعلى احترام على أساس أنها نموذج حي للشمس، وكل فرد منها هو ذكر من حيث الجنس، وهي تضع بيوضها داخل الروث، ثم تعمل هذا الروث على شكل كرة، ثم تحتضن الكرة بين قدميها مثلما تحتضن الشمس السموات، وتنتظر الشهر القمري، ولسوف يجري شرح هذا في القسم

الثاني ص١٣٧ظ.

المناطق التي شاهدناها من جبال عين الجدي

وفي عودة إلى الموضوع الذي ابتعدت عنه، أقول: بعدما أمضينا الليل على سفح جبل عين الجدي— كما قلت من قبل— وعندما أشرقت الشمس، ارتحلنا صعوداً نحو الجزء الأعلى من الجبال، ووصلنا في أعلى القمم إلى مكان، حيث وجدنا أكواماً من الحجارة مكومة، وقد عملت من قبل المسلمين، تكريماً لموسى، لسبب سوف أتولى شرحه بعد قليل، وبناء عليه توقفنا علّنا نستطيع أن نشاهد المنطقة، لأننا كلما كنا في منطقة أعلى، كان يمكننا أن نرى أبعد وأعرض فوق المناطق على كل من هذا الجانب، ومن الجانب الآخر للأردن، وجميع منطقة سدوم كلها تقريباً، وأرغب في هذا المكان بتقديم وصف مختصر لأجناس الناس، وللمناطق والأماكن التي رأيناها، وكنت قد قدمت لها وصفاً جزئياً، أثناء حديثي عن جبل القرنطل.

وألقينا قبلْ كل شيء بأبصارنا نحو الشرق، فرأينا جبال العربية، وكان الجبل الرئيسي بينها هو جبل تريمونيوس Trimonius، الذي يعرف في أجزائه المنخفضة باسم عبريم، وفي وسطه باسم نيبو Nebo، وعلى حوافه باسم فسغه، وكان ذلك هو الجبل الذي أمر الرب موسى بصعوده، حتى يمكنه من هناك رؤية الأرض المقدسة، التي إليها لايمكنه الدخول، كما جاء الخبر في سفر التثنية:٣٤.

ويوجد تحت هذا الجبل واد عميق وكبير، يطلق عليه اسم عربات مآب Galmoab، كما جاء في الاصحاح الأخير من سفر التثنية، ويقول بعضهم بأنه عندما كان موسى على قمة جبل فسغة أمكنه وهو ينظر نحو الأرض المقدسة أن يرى جميع أسرار قداسات المسيح، وتجسده، وولادته، وحياته، وآلامه، وموته، وعندما كان منشغلاً بهذه التأملات

الحلوة جداً مات على الجبل، ودفنه الرب، وأخفاه في الوادي، خشية من الناس، الذين كانوا يميلون إلى الوثنية، أن يقوموا بتقديس جسده إذا أمكنهم العثور عليه، ولذلك حاول الشيطان، الذي رغب في جلب الوثنية، أن يريهم موسى المقدس، لكن ميكائيل أوقفه ومنعه من فعل ذلك، كما قرأنا في رسالة يود Jude العامة:٩.

غير أن جيروم في تعليقاته على عاموس، بدا وكأنه يرى بأن موسى قد رفع بشكل إعجازي إلى السماء مثلما وقع لإينوخ ولإيليا، لأنه قال:« لقد بنى مصعده، وصعد مع إيليا، ومع موسى، الذي لايمكن العثور على قبره، لأنه صعد إلى السماء»، وفي هذا الوادي، الذي قيل فيه دفن الرب موسى، قام النبي بإخفاء النار المقدسة، وتابوه الرب، ومذبح تقديمات الحرق، وخيمة العهد، وذلك حسبما جاء في سفر المكابيين الثاني:٥—٦.

ورأينا وادي عربات مآب المقدس هذا، واقع على مسافة بعيدة، وذلك على الجانب الأقصى للبحر الميت، ورأينا فسغة، والقمة العالية لجبال عبريم، ويوجد من قمة هذا الجبل مشهد يمتد حتى أرض مدين، ومن الممكن من هذه القمة أن يرى الانسان أيضاً سيناء وحوريب، ورأينا أيضاً منطقة مآب السهلية، وفوقها الجبل الذي من عليه حاول النبي بلعام أن يلعن بني اسرائيل، وكان بلعام قد اكتراه ملك مآب، وقد قال جيروم في كتابه«حول المسافات بين الأماكن»، بأن اسم ذلك المكان كان أغريسبكيولا Agrispecula ، وكان بلعام قد تولى مباركة الناس الذين في السهل تحت، عوضاً عن لعنهم، وذلك كما قرأنا في سفر العدد:٢٣.

وقمنا الآن بتحويل أبصارنا عن الشرق إلى الجنوب، إلى ماوراء البحر الميت، حيث رأينا بلاد قفار البتراء، لكن البتراء في القفار نفسها لم نستطع رؤيتها، وكانت هذه البتراء في القفار، في الأيام الخالية، قلعة في

غاية الحصانة في بلاد مآب، التي فيها ولدت راعوث، المآبية الفاضلة، والتي عنها قيل في الاصحاح الثالث من سفر راعوث:« إن جميع أبواب شعبي تعلم أنك امرأة فاضلة»، وكانت راعوث هذه زوجة بوعز، ومنها قُدّر في سلسلة النسب وجوب ولادة المسيح، ولهذا دعا النبي إشعيا في الاصحاح السادس عشر نفسه بأن يرسل المسيح من البتراء في القفار إلى القدس وقال:« أرسلوا الحمل، يارب، ياحاكم الأرض، من بتراء القفار إلى جبل ابنة صهيون، أي إلى القدس»، فهنا سأل النبي من أجل استمرار النسب من خلال السيدة التي ولدت في البتراء في الصحراء، ولهذا ورد في سفر نسب المسيح اسم راعوث بشكل واضح، وقال جيروم في رسالته إلى بولينوس:« حققت راعوث المآبية نبوءة إشعيا، في قوله: أرسلوا الحمل» الخ، وقال نفسه في رسالته إلى باولا:« راعوث الغريبة، التي من نسلها ولد المسيح»، وتحدث أيضاً في رسالته إلى روفوس عن راعوث، بأنها« أخذت من الأمم لتكون حصتهم في المسيح»، هذا ويمكن من دون تقدير لهذا المعنى الخفي، يمكننا أن نقول بأن النبي قد رأى مدينة القدس في مضائق عظيمة، وأنها في قبضة الأمم، فسأل من أجل ارسال حاكم لها من بتراء القفار، لأن البتراء كانت قلعة حصينة جداً، لايمكن الاستيلاء عليها، وكانت أمما كثيرة خاضعة لسيدها، وعلى هذا سأل أن يرسل صاحب البتراء في الفيافي للدفاع عن ابنة صهيون، التي هي القدس، لأنه عندما سيرسل مامن انسان سوف يحاول إلحاق أي أذى بالقدس.

وقام بلدوين الثاني، الملك اللاتيني للقدس بتحصين هذه القلعة(الكرك) بقوة بلغت حداً أن العالم كله لم يكن قادراً على الاستيلاء عليها، فقد بنى ثلاثة أسوار من حولها، ففي إطار السور الأول، كانت هناك صخرة مرتفعة جداً، ذات شكل مستدير، قامت على حافتها أبنية طويلة تشرف بعيداً على البلاد، وكان في الأسفل، عند سفح هذه

الصخرة ثلاثة ينابيع تتدفق بمياه صحية عذبة، تزودت القلعة منها بوفرة، ومنها أيضاً كانت تتم سقاية جميع الأرض الواقعة دون القلعة، وكان يوجد في داخل السور الثاني كروم جميلة، من ثمارها كانت تصنع كميات كبيرة من الخمرة، وكان في إطار السور الثالث حقول وبساتين، استخدمت لانتاج كميات عظيمة من القمح، والزيت، والأشياء الأخرى المحتاجة.

ولم يستطع المسلمون الاستيلاء على هذه القلعة الجليلة، لولا أنه تمت خيانتها وسلمت إليهم من قبل مسيحي مزيف، وعندما جرى الاستيلاء عليها، وضع فيها سلطان ذلك الوقت أسن أولاده، حتى يكون سيد تلك القلعة مع قفار البتراء، فضلاً عن هذا أودع فيها جميع ثرواته، عادّاً إياها أكثر الأماكن أماناً لديه، وهي في هذه الأيام مستودع خزانة السلطان ملك مصر.

وتدعى هذه القلعة من قبل اللاتين باسم بتراء القفار، ومن قبل المسلمين باسم الكرك، ومن قبل الاغريق الشوبك Schabat، وعندما حدقنا بها بشكل كامل ركعنا باتجاه ذلك المكان، وحمدنا الرب الذي بعث إلينا من البتراء في القفار المسيح من خلال راعوث، المسيح الذي هو سيد الدنيا، وصلينا للرب من أجل أن تعود هذه القلعة إلى أيدي المسيحيين، وأن لاتبقى القدس مدة أطول بالأسر.

وهناك في هذه المنطقة نفسها مدينة اسمها أريوبولس، وهي تعرف أيضاً باسم البتراءأو البتريا، وكانت هذه فيما مضى المدينة الرئيسية في جميع العربية.

وليس بعيداً عن هناك توجد أيضاً مدينة أخرى حصينة الدفاعات جداً، اسمها ربه، فأمام هذه المدينة سقط أوريا الحثي بتدبير داوود، وعندما كانت على وشك السقوط، جاء داوود واستولى عليها، وانتزع

التاج من على رأس ملكـون، ملك ربه، وكان فيه جـواهر ثمينة، ورطل من الذهب Talent وقد أذابه داوود، وعمل منه تاجـاً لنفسه، ووضع في وسطه الحجـارة الكريمـة مـن الجزع الذي لامثيل له، ووضعـه على رأسـه، وقـد وردت أخبـار هـذا كله في سفـر صمـوئيل الثاني:١٢/ ٣٠—٣١، وسفر أخبار الأيام الأول:٢٠/ ٢.

وبعد المناطق المتقـدمة الذكـر على شاطىء البحـر الميت، توجد أرض أدوم، التي فيهـا يـوجـد الطريق مـن أرض اسرائيل إلى أرض مـآب وعمون، وتمضي من حـول البحر الميت، وهي قفـار جرداء لامـاء فيها، وفيهـا كاد أن يهلك فيها مضى ثلاثة ملـوك مع جيوشهم بسبب الحاجـة إلى الماء، لكن الرب أعطاهـم الماء بمعجـزة،حسبما جـاء الخبر في سفـر الملوك الثـاني:٣، وعندمـا حصلوا على الماء، ووصلوا إلى بلاد مـآب، دمروها بشكل في غاية الوحشية، وذلك حسبما ورد في الاصحاح نفسه.

وصرفنا أعيننا مجدداً ، وحـولناها عن هذه الأمـاكن، فـرأينا على هذا الجانب من الأردن والبحـر الميت المكان الذي اسمـه بيت حجلة، حيث أقـام بنو اسرائيل مناحـة عظيمـة على جسـد البطريرك يعقـوب، أباهم المتـوفى، الذي كانوا قـد جلبوه من مصر ليـدفنوه في حبرون، في الكهف المزدوج، وذلك حسبما ورد الخبر في الاصحـاح الأخير مـن سفـر التكوين، وعـرفت بيت حجلة بـاسم قـريات لـدى جيروم« حـول المسافـات بين الأماكن»، وهـي تبعد مسافـة فرسخ واحـد عن الأردن، وكان هناك قبل وقتنا بقليل دير للرهبان الاغريق، علاوة على ذلك رأينا في تلك البلاد مدينة أغريبا Agrippa، التي أطلقوا عليها في Historia Ecclesiastica— الكتـاب الثـاني، الفصل الرابع اسم بيـلا(فحل)، وكانت الكنيسـة المقدسـة قد انتقلت إلى هذه المدينة من القدس، حيث تلقت انذاراً من الروح القـدس، لأن تهرب بذاتها قبل حصـار القـدس من قبل تيتوس وفاسبسيان، وذلك خشية أن تشارك في المأساة الكبيرة.

وعلى مقربة من هذا المكان، عبر الأردن ، هناك بيت عنيا أخرى، فيها قام يوحنا بالتعميد أولاً، وفيها أقام الرب يسوع بعض الوقت عندما هرب من اليهودية، وذلك حسبما ورد الخبر في انجيل يوحنا:٤، وذكر بعضهم أن اسم المدينة التي إليها هرب الرب افرايم، وإليها التجأ مع تلاميذه، فهذا ماورد في انجيل يوحنا:١١، وكانت قريبة من القفار، عبر الأردن، وبشكل عام، هرب الذين وقعوا في مشاكل من اليهودية، إلى عبر الأردن، مثلما حدث مع داوود، فعندما حدثت له مشاكل مع شاؤول، أحضر والده وأمه إلى ملك مآب، حسبما ورد الخبر في سفر صموئيل الأول:٢٢، هذا وقال القديس جيروم المبارك في كتابه« حول المسافات بين الأماكن» بأن المدينة التي اسمها إفرايم، والتي إليها هرب الرب يسوع للالتجاء، كانت في ديار سبط يهوذا، ولم يكن لسبط يهوذا حصة عبر الأردن، وقال خريسوستوم بأن إفرايم هي إفراتا، وإفراتا هي بيت لحم، وواضح هنا أن البيرتوس موافق على هذا، في تعليقاته على يوحنا، لأنه قال بأن الرب قد جاء إلى افرايم لأنه امتلك هناك اصدقاء ومعارف، لكن هذا أيضاً لايتوافق مع النص، الذي قال بأن افرايم كانت على مقربة من القفار، في حين ليست بيت لحم قريبة من القفار، مالم يختر الانسان القول بأن المقصود هو الأماكن الصحراوية لسدوم، التي تمتد حتى جبل بيت لحم، وأنها هي التي قصدها الانجيلي(يوحنا:١١)، ورأينا أماكن أخرى كثيرة عبر الأردن، في بلاد جلعاد، وعبر البحر الميت، في أرض عمون ومآب، وبعد رؤيتهم حولنا أنفسنا للتحديق بالأماكن التي كانت أقرب إلينا.

الأماكن حول البحر الميت من جهته الغربية وأكثر من ذلك حوله نفسه

وبعدما فرغنا من رؤية الأماكن الواقعة على الجانب الآخر من البحر الميت، ومن الأردن، ثبتنا أنظارنا على البحر نفسه، وتعجبنا نحو الدخان

هناك، لأنه مثلما حدث مع ابراهيم بعدما صعد على الجبل في الصباح الباكر، ونظر نحو سدوم، وعموره، ونحو جميع أرض السهل، وتطلع وإذا فجأة قد تصاعد دخان المنطقة مثل دخان أتون، حسبما جاء الخبر في سفر التكوين:١٩، حدث مثل هذا معنا نحن، فلدى تطلعنا نحو تلك المنطقة، رأينا غيمة صاعدة، لكن ليس من النار، بل من الماء، مثل الدخان الصاعد من أتون، وجميع الأماكن التي بللها ذلك الضباب وتلك الغيمة قد تسممت، وتحولت إلى قاحلة وبلا فائدة، بالطول وبالعرض حول حدود ذلك البحر، وذلك كعلامة دائمة على الغضب الرباني الدائم، ضد أهل سدوم الذين كانوا أكثر الناس شروراً.

★★ ★★ ★★

وبعدما نظرنا إلى البحر الميت، رأينا على الشاطىء هناك، على الطرف القريب، وذلك باتجاه النهاية الجنوبية، المكان الذي اعتاد أن يقف فيه تمثال الملح الذي تحولت إليه ميلاسيدا، زوجة لوط، لأنها نظرت نحو الخلف، على الرغم من أن الملاك حظر عليها فعل ذلك، وكان هذا وقت احتراق أرض أولئك القوم الأشرار، وكان هذا التمثال يقف فيما بين صوغر والبحر، وكان هذا التمثال حجرياً من الرخام الأبيض، وقد قيل بأنه مايزال قائماً هناك، لكنه الآن مغطى بالبحر، وعندما كان قائماً على الشاطىء اعتادت الحيوانات على أن تحتشد حوله، وتقوم بلحس الملح من عليه.

وإلى جانب هذا التمثال، يوجد في تلك المنطقة كثيراً من الصخور الرملية والحجارة، وقد ورد الحديث عن تمثال ميلاسيدا في سفر التكوين:١٩، وقال يوسفيوس بأنه قد رآه، ونحن في الحقيقة رأينا المكان الذي كان فيه، في منتصف الطريق فيما بين البحر وبين جبل صوغر، لكن التمثال نفسه لم نستطع رؤيته، ثم إننا لم نكن واقفين على مسافة قريبة كافية، حتى نميز بين الصخور حجم إنسان، ومع ذلك رأيناه من

خلال عين الايمان الثابت، لأننا نؤمن بالكتابات المقدسة التي تحدثت عنه، ولقد نظرنا نحو المكان باهتمام كبير، وتعجبنا نحو معجزة هذا التمثال المدهش والمثير للاستغراب.

★★ ★★ ★★

ورأينا فوق مكان هذا التمثال المتقدم ذكره، صخرة كانت بوضعها كما هي مشرفة على البحر، فعلى هذه الصخرة قام فيما مضى مدينة صوغر، التي كانت احدى المدن الخمسة للسدوميين، وقد عرفت هذه المدينة باسم آخر هو بالع، وذلك حسبما ورد في سفر التكوين:١٤، وإلى هذه المدينة كان لوط قد صعد، عندما كانت المنطقة تحت تحترق، ومن أجله استثنيت من الاحتراق، وكان عندما رأى المنطقة كلها تحترق ولحقها الدمار، صار خائفاً، وهرب مباشرة إلى قمم الجبال، وحدث على كل حال أنه عندما ابتعد عن صوغر، تهدمت بوساطة هزة أرضية، وسقطت مع جميع الذين سكنوا فيها، واحترقت مع سدوم.

وفوق صوغر هناك جبل مرتفع، إليه صعد لوط مع ابنتيه، خشية الاحتراق بالنار..... وهنا حملت ابنته الكبرى بولد، كان اسمه مآب، وحملت ابنته الصغرى بولد أطلق عليه اسم عمون، ومن ابنتي لوط هاتين انحدر شعبان عظيمان، عنهما نقرأ في سفر التكوين، وغالبا ماورد الحديث عنهما في أسفار الكتابات المقدسة، وكان هذا الجبل إلى جانبنا، وبسرور حدثت السادة الحجاج بحكاية لوط وابنتيه، وكان على جانبنا الآخر جبال القرنطل وقفار أدوميم، وقد تقدم لنا وصفهما من قبل.

وبعد مشاهدتنا للأماكن المتقدمة الذكر، ألقينا بأبصارنا على المكان الذي وقفنا فيه، حيث رأينا كوماً كثيرة من الحجارة، جمعت من قبل المسلمين، كما سلف لي الحديث من قبل، وقام المسلمون بتكويم هذه الحجارة تشريفاً لموسى، لأنه من هذا المكان يستطيع الانسان أن يرى

بوضوح جبال عبريم، وقمة جبل فسغة، التي منها رأى موسى ميراث الرب، كما سلف لنا وتحدثنا من قبل، ولهذا يقوم المسلمون، عندما يقدمون إلى هذا المكان بعمل كوم من الحجارة، ويصلون وهم يتطلعون نحو الجبل، على ركبهم المنحنية، ومثل هذا يفعل المسيحيون لأنهم عندما يرون من مكان بعيد أي مكان يمكن الحصول عليه على غفرانات، ينصبون أيضاً صلبانا، وكوماً من الحجارة، وليس بعيداً، عن هذه الأكوام رأينا هرما عاليا قد بني حديثاً، تحته يقول المسلمون بشكل زائف بأن موسى قد دفن، وهذا معارض لشريعة الكتاب المقدس حسبما ورد في الاصحاح الأخير من سفر العدد.

وهكذا يفعلون بالنسبة إلى جميع القضايا الأخرى، فهم يتبعون التوراه عندما يرغبون، لكن عندما لايرغبون بذلك، يعارضونها بكل عناد، على الرغم من صدقها.

وكان اسم الجبل الذي وقفنا عليه، جبل عين الجدي، وكذلك نجد أن اسم الجبال المتصلة به في سفر التكوين:١٤، وفي سفر أخبار الأيام الثاني:٢٠، هو «حصون تامار»، كما كانت فيها مضى بلاد العموريين، وقال القديس جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، بأن عين الجدي موجودة في ديار سبط يهوذا، وذلك في القفار الموجودة في الوادي فوق البحر الميت، وقال بأنها كانت في أيامها هناك بلدة كبيرة جداً، وإلى موضع عين الجدي هذا كان داوود قد هرب من وجه شاؤول، لكي يكون هناك آمنا، في حصن منيع، وذلك حسبما قرأنا في سفر صموئيل الأول:٢٤.

وفي الحقيقة هذه الجبال عالية ووعرة، يتخللها عدد كبير من الكهوف، ومليئة بالجروف، وكان بين هذه الكهوف، كهفاً عميقاً، وكبيراً ومظلماً، وكان موجوداً في واد كثير الأشجار، وذلك على جانب صخرة عالية جداً، وكان له مدخل عريض، يشرف على صخور

منحدرة كثيراً، ومن المناسب تسمية هذا الكهف باسم مدرسة رحمات داوود، لأنه في هذا الكهف التجأ داوود ورجاله المسلحون، وأخفوا أنفسهم في أقصى أماكنه الداخلية، وذلك عندما سمعوا بأن الملك شاؤول كان يزحف مع ثلاثة آلاف رجل فوق هذه الصخور المنحدرة جداً، التي يمكن عبورهافقط من قبل الوعول أو تيوس الجبل، وقد دفعته الغيرة إلى هذه الأماكن التي لايمكن الوصول إليها، بسبب أنه لم يكن بامكانه تحمل غناء الناس، الأغاني التي اعتادوا على غنائها بشكل جماعي، وفيها أعطي المدح إلى داوود أثناء الغناء أكثر مما أعطي له في قولهم:« قتل شاؤول آلافه، لكن داوود قتل عشرات الآلاف»، وهكذا جاء شاؤول نازلاً مع رجاله إلى كهف داوود، والذي حدث هناك يمكن القراءة عنه في سفر صموئيل الأول:٢٤.

★★ ★★ ★★

كرم عين الجدي

علاوة على ذلك، قام فوق هذه الجبال هناك فيما مضى كرم عين الجدي الواسع الشهرة، حيث نما هناك البلسم الذي لايقدر بثمن، وقد زرع هذا الكرم في موضع عين الجدي من قبل الملك سليمان، وقال مصنف Speculum Historiale على لسان يوسفيوس بأن ملكة سبأ، التي قدمت إلى القدس من أطراف الأرض من أجل الاستماع إلى حكمة سليمان، حسبما جاء الخبر في سفر الملوك الأول:١٠، جلبت معها هدايا ثمينة كثيرة، كان من بينها جذور البلسم بمثابة هدية لايقدر ثمنها، وقد زرع الملك هذه الجذور على جبل عين الجدي، وقد نمت على شكل كرم هناك[٢٤٧]، وقد ورد ذكر هذا الكرم في نشيد انشاد سليمان حيث قال« محبوبي مثل عنقود كافور في كروم عين الجدي»، وهذا الكرم موجود الآن في مصر، ولسوف أذكر في المستقبل من الذي اقتلعه ونقله، وفضائل البلسم والكافور، وكنت قد قرأت في كتاب حج قديم إلى

الأرض المقدسة، بأن بعض الحجاج قاموا بالتجول فوق هذه الجبال، وهم يبحثون بعناية، وأنهم وجدوا في أحد الأماكن غرسات من البلسم إنما دون أغصان، ونما فيما مضى على هذه الجبال كروم عنب ممتازة، من خمرتها، يعتقد أن ابنتي لوط قد أسكرتا ابيهما، حسبما قرأنا في سفر التكوين:١٩، ولو أن هذه الجبال امتلكت في هذه الأيام أية مزارعين، لأنتجت ثمار ثمينة بوفرة.

عودة إلى القدس

وعندما فرغنا من رؤية المناظر المتقدمة الذكر، تحولنا مبتعدين عن الشرق، وذهبنا صاعدين التلال نحو القدس، وفي واحد من الطرق المقعرة، بدأ البغل الذي امتطيته يعدو مسرعاً— لسبب لم أعرفه— محاولاً سبق الآخرين، وعندما حاولت كبحة كبحه بوساطة المقود، رماني أرضاً، وعانيت من وقعة ثقيلة، وعندما رأى دليلنا حامد هذا قفز من فوق ظهر حصانه، والتقطني ورفعني من حيث كنت متمدداً، وضرب على أطرافي، وحرك مفاصلي، ثم أمر واحداً من خدمه بجلب بغلي، الذي كان يعدو فاراً هناك، وفي الحقيقة أبدى هذا المغربي غير المسيحي نحوي كثيراً من اللطف أثناء اضطرابي، بقدر يعادل أعظم مايستطيع أن يفعله مسيحي رقيق القلب، وبعدما انتعشت كثيراً، رفعوني إلى ظهر البغل، لأنني لم أستطع أن أعين نفسي بذراعي، هذا ولم ينكسر أي من أطرافي الأمر الذي أدهش حامد وأبهجه، لأنني سقطت— والبغل يعدو— بشدة كبيرة على الصخور، ودعوت إلى الرب أن يضفي رحمته على ذلك المسلم، مثلما أضفى رحمته عليّ، وبناء عليه أسرعت أنا وحامد وراء رفاقي، الذين كانوا قد قطعوا مسافة طويلة أمامنا، ومثلهم سرنا صاعدين في وادي جهنم، وعندما كنا مانزال في قلب الوادي، ونظرنا نحو الأعلى، أمكننا أن نرى مدينة القدس المقدسة، وهي تلمع عالياً، وتأثرنا بهذا المشهد مثلما حدث لنا من قبل، وعندما وصلنا إلى

المدينةالمقـدسـة، حـدثنا إخـواننـا، الذين مكثـوا خلفنـا عن كل الذي شاهدناه، وعن كل الذي وقع لنا ونحن على الطريق.

قلق الحجاج من أجل الانطلاق إلى جبل سيناء

وفي اليوم الثالث عشر، الذي كان يـوم عيد القديس هبولايت -Hip polyteورفاقـه، بعد سماعنا قـداساً على جبـل سيناء في الصباح البـاكر، ذهب السـادة الحجاج إلى مكانهم، وأخذنـا نتشاور حول مغـادرتنا التي كنا متشوقين إليها، وبدا لنا أن كالينوس الأكبر، الذي كان ترجماننا، كان يؤخر مغـادرتنا وسفرنا من القـدس، وأن أي تأخير أطول سوف يكون مؤذياً لنا، ولم يكن ذلك— في الحقيقـة— لأننا كنا قد مللنا من الإقـامة في المدينة المقـدسة، التي أقمنا بها ونحن راغبين كثيراً، وكنا سعـداء، بل الذي كنا نخشاه هو أن نضيع مواعيد سفن التجار في الاسكندرية، التي أعددنا أنفسنا للابحار على متـونها إلى إيطاليا، ولكي لانرغم على امضاء الشتـاء في الاسكندرية، الأمر الذي سيكـون مؤذيا لنا إلى أبعـد الحدود، ولذلك ذهبنا كلنا إلى بيت السيـد جـانم، حاكـم القدس، حيث وجـدنا معه السيد فكاردينوس Vacardinus وأدخلنا إلى حضرته، وبعدما سمعـا ماقلناه، أمـرا باستدعـاء ترجماننا Sabbathytanco ، وأمراه بالانطلاق بنا بكل سرعة، وبعـد نقاش فيما بينهم، أخبرونا أنه لابد من إقامتنا في القدس مدة عشرة أيام أخـرى، بعدها سوف نبدأ من دون أي تأخير سفـرنا في القفـار، وقـالـوا لنا:« أعـدوا أنفسكـم في هذه الأيام وجهـزوها بجميع الأشيـاء المحتـاجـة للـرحلة من بقسماط وتين يابس، وخمرة، وهكذا دواليـك»، وبهذه الكلمات سمحـوا لنا بـالمغـادرة إلى أماكننا.

وشرعنا في ذلك اليـوم نفسـه باعـداد أنفسنا، ودفع كـل واحـد منا دوقيتين إلى غـازيلوس حتـى يعطينـا إذنا لشراء خمرة مـن كل مـن المسيحيين واليهـود، وكـان غـازيلوس مسيحيـاً مـن ذوي الزنار، وهو

يشغل وظيفــة تابعــة للسلطان، وكــانـت المسألة التي هـي في إطار سلطتـه:أن لايسمح لمسيحي بشراء خمرة، من دون أن يـدفع ضريبـة له، وإذا ماجـرى خرق هذا القـانون، وعرف هو ذلـك، كان يقوم بـاقتحام الأماكن التي إليهـا جلبت الخمرة التي شريت، ويصـادرها شخصياً، أو يقوم بكسر القوارير، ويترك الخمرة تجري فوق الأرض، ومن هذا اليوم حتى يوم مغادرتنا، عانينا من اضطرابات كثيرة وعملنا جاهدين لتجهيز أنفسنا بكل مـاكنا بحـاجة إليـه للسفر خـلال القفـار، وحملنا معنا جميع الأشيــاء التي جهــزنـاها إلى جبل صهيــون، إلى دير الـرهبــان هناك، ووضعناها في بيعة القديس فرانسيس، تحت الكنيسة، وخلال بضعة أيام ملأنا البيعة كلياً بالبقسماط، وبالحقائب، وبالقوارير الزجاجية، والقدور، وعملنا كومة كبيرة، بين فئاتنا الثلاثة، وفي ذلك اليوم نفسه، ذهبت عند المساء أنا واثنين من الفـرسان إلى وادي شعفـاط، للقيام ببعض الأعمال، وعندما أنهينـاها، زرنا الأماكن المقـدسة على جبل الزيتون، وعنـدما كنا على القمة هناك، في كنيسة صعود الرب، غابت الشمس، وبات من غير الممكن لنا دخول المدينة، إذا أمسكنا الظلام، ولذلك سرنا خلال شوارع المدينة بخـوف عظيم، فضــلاً عن هذا أضعنا طريقنـا، وذهبنا إلى هنا وهناك حتى وصلنا أخيراً إلى شــارع كنا نعــرفـه، ووصلنا إلى أمــاكن سكنانا بسلام.

كيف جرى الاحتفال بعيد صعود العذراء في القدس

وفي اليوم الرابع عشر، الـذي كان عشية عيـد الصعود، صعـود مريم العـذراء الأعظم مبـاركة، وبعـد مضي نصف النهـار، بدأنا بالاستعـداد للاحتفال بعيـد اليوم التـالي كما يلي: فقد دخلنا غرفـة ذخائـر الرهبان، وأخرجنا منها قطعة عريضة من قماش الكتان، وحملناها إلى المكان الذي حملت منه العذراء المباركة، ورفعت، هذا وكنا قد وصفنا هذا المكان من قبل، ومددنا قطعة القماش هذه فوق المكان على شكل خيمة، مع أعمدة

وحبال، وعلقنا زرابي حولها عوضاً عن الجدران، وبذلك عملنا بيعة جميلة، وغطينا المذبح الموجود في ذلك المكان بقطع أقمشة ثمينة، وزيناه بصور وتماثيل، وأوعية قرابين مقدسة، وشمعدانات فيها شمع، علاوة على ذلك جلبنا إلى هناك غصنا من الزيتون فيه أوراق، وسعف نخيل، ونشرنا حول المكان أعشاباً وزهوراً، وبذلك صنعنا كهفاً مقدساً جميلاً.

وعند حلول المساء، ارتدى الأب المسؤول ثوباً ثميناً، ووشاحين، وحامل صليب، وحامل بخور، وكان القندلفتات جميعاً في أرديتهم المقدسة، وقد احتلوا أماكنهم في كنيسة الرهبان، وعندما بات الجميع جاهزين، سرنا بوقار عظيم، ومشينا بمسيرة منتظمة من كنيسة جبل صهيون، إلى موضع انتقال العذراء المقدسة، ونحن نغني ترنيمة«Et ibo mihi ad montem myrrhae» الخ، وبعد الفراغ من هذه الترنيمة، غنينا أغاني العشاء وترانيم العيد بأصوات مرتفعة، في البيعة التي عملناها، ولم نتعرض للازعاج بأي شكل من الأشكال من قبل المسلمين، بل الذي حدث أنهم عندما سمعوا غناءنا، جاءوا إلى المكان، ووقفوا فاغرين أفواههم.

وفي الوقت نفسه تجمع عدد كبير من المسيحيين الشرقيين مع بعضهم، وقاموا بعد الفراغ من قداسنا، فدخلوا إلى البيعة مع كهنتهم، وشرعوا بأعمالهم التعبدية، وأقاموا في تلك الليلة قداسات هناك وفقاً لطقوسهم، هذا وقد دخلنا إلى الدير وعملنا وجبة بسيطة، بشكل تناسب الذين كانوا صياماً، وبعدما تناولنا العشاء نزلنا جميعاً من جبل صهيون إلى وادي شعفاط، ومضينا إلى كنيسة ضريح العذراء المباركة، واقتدنا معنا حماراً محملاً، حمل زينتنا وأشياء أخرى محتاجة من أجل تزيين المكان، ومن أجل إقامة القداسات، وعندما وصلنا إلى الكنيسة وجدناها مليئة بالمسيحيين الشرقيين من كل من الرجال والنساء، ولذلك ابتعدنا عنهم إلى زاويتنا الخاصة، حيث كان المذبح اللاتيني،

وأبعدنا من هناك المسيحيين الشرقيين الآخرين، الذين قدموا إلى هناك قبلنا، وأشعلنا مصابيح، لأن ذلك المكان يفتقر إلى الاضاءة الطبيعية، ويمكن أن يضاء فقط بالمصابيح.

وعلقنا زربية حول موضعنا، وزينا المذبح، وأشعلنا عدداً كبيراً من الشموع، وغنينا قداساً خاصاً بشكل جماعي، ولدى وصولنا إلى «Salve Regina»، مشينا من موضعنا في مسيرة عظيمة، ودرنا خلال ضريح مريم العذراء الأعظم مباركة، ومن ثم عدنا إلى موضعنا، وبعد «Salve» كرسنا أنفسنا للسهر خلال الليل عند ضريح العذراء المجيدة، والذين لم يكن بامكانهم السهر جلسوا ساندين رؤوسهم إلى الجدار، لكننا نلنا راحة قليلة لأن المسيحيين الآخرين كانوا ينبحون في أماكنهم المتعددة أثناء تأديتهم لقداساتهم طوال الليل، ومامن مكان كان مزينا بشكل جميل أكثر من مكاننا، كما لم يكن أي غناء أكثر وقاراً من غنائنا، لأن المسيحيين الشرقيين يحتفلون قليلاً في قداساتهم، ويبدون وكأنهم يولولون ولايغنون، ومن أجل وصف لهذه الكنيسة، وشكلها وترتيبات أماكنها المقدسة، إنظر ماتقدم في ص٥٨٩، وهكذا مضت تلك الليلة.

عيد الصعود المجيد لمريم العذراء المباركة

عند منتصف الليل، في اليوم الخامس عشر، شرعنا بقداس ما بعد منتصف الليل، وبعدما غنينا بوقار هذا القداس، احتفلنا بإقامة عدة قداسات خاصة في ضريح العذراء المباركة، وكان ذلك بقدر المستطاع، عندما تمكنا من الحصول على مكان هناك، لكن الذين لم يجدوا مكاناً هناك، أقاموا القداس عند مذبح اللاتين، وعندما اقترب حلول الفجر، غنينا قداساً في مكاننا بأصوات مرتفعة، ولقد غنينا بأصوات مرتفعة إلى حد أن نباح المسيحيين الشرقيين الآخرين لم يعد مسموعاً، وعند الفراغ من هذه القداسات، رفعنا جميع الزينة وبعثنا بها قبلنا إلى جبل صهيون،

في حين قمنا نحن بزيارة الأمـاكن المقـدسـة على جبل الـزيتـون، حيث حصلنا على غفرانات، وذهبنا بعد هـذا إلى جبل صهيون، وتناولنا طعام الغداء هناك، وبعد الغداء تمددنا للاستراحة بسبب السهر الذي قمنا به.

الحج الانفرادي للراهب فيلكس فابري إلى بيت لحم وإلى بعض الأماكن الأخرى

وسألت في بعد ظهـر يوم صعود العـذراء الأب المسؤول لمنحي إذنا للذهـاب إلى بيت لحم، وأن يبعث معى واحــداً يرافقني على الطـريق، لأنني امتلكت رغبـة لأن أكـون وحيـداً في بيت لحم بعيـداً عن حشـد الحجـاج، وأعطاني الأب المســؤول راهبين جيـدين ليرافقــاني، وتركني أذهب، وبناء عليـه انطلقنا معـاً مـن القـدس بشكل سري، وبدون علم أحـد، وذلـك خشيـة أن يكون معنا المزيـد من المرافقين، وارتحلنا رحلة طيبـة على الطريـق الذي كنت قـد تحدثت عنـه منذ ص٦٦٨، وهكذا وصلنا إلى قبراتا حيث يوجـد قبر راحيل، وإلى جـانبه رأينا قـرية بازق، التي نقـرأ عنها في سفـر القضـاة:١، حيث قتل بنو اسرائيل عشرة آلاف رجل، ووجدوا هناك أدوني بازق، ملك القدس، فقطعـوا يديه وقدميه، مثلما كان هو قد فعل شخصياً بسبعين ملكاً زحفـوا تحت مائدته، وكانوا يلتقطون طعامهم بأفـواههم، وقد رغبت بدخـول هذه القرية، وأن أرى المكان، لأنني وبقـدر مـاستطعت لم أمر بمكان معـروف بالنسبـة لي من خـلال الكتـابات المقـدسـة القــانونيـة، من دون أن أزوره، وبناء عليـه انعطفنا نحو اليمين خـروجاً على الطريق العام، إلى قـرية بازق، ومررنا من خــلالها، وهي كبيرة، وغير مسكونة من قبـل المسلمين، بل من قبل المسيحيين الشرقيين فقط، ولم يتملكهـا المسلمـون قط، وحـدث على كل حال في هذه الأيام أن قام واحد من أهل هذه القرية بالاعلان عن تخلية عن الديانة المسيحيـة، وختـانه واعتناقه للاسـلام، وهو سـاكن هناك في هذه الأيام ذئباً بين شيـاه، ويصنع في هذه القرية خمرة رائعة ومتفـوقة في

قوتها، وهي عندما تشربها صرفة، مع أنها لاتؤذي الرأس، تجدها تمتلك قوة تحرق الجوف والأمعاء، ولذلك يتوجب على الانسان مزجها بكثير من الماء، وأنا لاأتذكر أنني شربت خمرة أفضل منها.

وتابعنا سفرنا من بازق، فوصلنا إلى بيت لحم، حيث جرى الترحيب بنا بلطف من قبل الأب المسؤول والرهبان، وعملنا عشاءً جيداً، وبعد العشاء أخذت إلى قلاية للاستراحة لكن وأنا أقوم بالاستراحة هناك، هرب النوم من عينيّ، وتمددت فوق فراشي لبعض الوقت وأنا مستيقظ تماماً، ثم لمللي من الرقاد، نهضت، ووددت أنني لو كنت في الكهف المقدس لميلاد المسيح، لكنني لم امتلك أملاً بالتمكن من الدخول قبل منتصف الليل، لعلمي بأن جميع الأبواب كانت مغلقة، ومع ذلك خرجت بهدوء من قلايتي، ودخلت إلى بيعة القديس نيقولا، التي كان الرهبان فيها يتلون صلواتهم الساعية، وفي هذه البيعة كان هناك باب سري خاص من خلال ممر ضيق إلى الكهف المقدس، وهو باب يسعى الرهبان غاية جهدهم لإبقائه سرياً، خوفاً منهم من المسلمين والمسيحيين الشرقيين الذين ماكانوا ليسمحون بذلك، كما تقدم لي وتحدثت عن ذلك، ومضيت من خلال هذا الباب دونما أي أمل، لكنني وجدته مفتوحاً، ودخلت بسرور عظيم، وأخذت طريقي خلال ممر منجور في الصخر، ووجدت الباب في النهاية الأخرى أيضاً مفتوحاً، من خلاله عبرت إلى الكهف الأعظم قداسة، الذي وجدته مضاء بعدد كبير من المصابيح، ووجدت البابين اللذين يمر الانسان من خلالهما ويذهب إلى الكنيسة مغلقين بشدة، ولدى ايجادي نفسي وحيداً في الكهف المقدس، قلت وأنا مسرور: «مبارك هو الرب، ومباركة هي جميع المعيقات لنومي واستراحتي، حيث بذلك أمكنني البقاء في هذه العزلة التعبدية الأعظم سروراً إلى جانب مهد المسيح الجميل»، ولذلك أخذت نفسي للقيام بسهر مقدس، وأمضيت الساعات وفق أحسن مااستطعت وماعرفت،

لأن هذا المكان في الحقيقة في غاية العذوبة، ويدفع نحو التقوى، كما قلت من قبل، ومن السهل والممتع البقاء بدون نوم إلى جانبه.

زيارات إلى الأماكن التالية التي كقاعدة لا يؤخذ الحجاج إليها

وفي الصباح الباكر من اليوم السادس عشر، احتفلنا بقداس في الكهف الأعظم قداسة، وبعد القداس صعدنا إلى موضع الرعاة، الذي تقدم لنا وصفه من قبل، وغنينا هناك Gloria In excelsis مع الملائكة، وبعد هذا صعدنا ثانية إلى بلدة بيت لحم، فتفحصناها عن قرب، ثم ذهبنا إلى الدير لتناول الغداء مع الرهبان، وقبل أن نتناول طعامنا ذهبنا إلى مدفن الدير، حيث كانت هناك قبور الرجال الثلاثة الذين قاموا مع يوسبيوس وعادوا من الموت، حسبما جاء في رسالة سيرل أسقف القدس إلى أوغسطين، وبعد الغداء قلنا وداعا إلى الأب المسؤول، وذهبنا إلى بيت في بلدة بيت لحم، عائد لواحد مسيحي إغريقي، كان معروفا إلى واحد من الراهبين اللذين كانا برفقتي، وعندما سمع هذا الرجل عن المكان الذي نود زيارته، أعطانا أربعة حمير، ثلاثة لنا أنفسنا، وواحد لابنه، الذي أرسله معنا ليكون خادمنا، وليعتني بالدواب، وركبنا الآن ومضينا نازلين من جبل بيت لحم، باتجاه الجنوب، على طول مجرى الماء الذي يحمل الماء إلى القدس، ووصلنا إلى قرية اسمها بيت عير Bethyr، التي على مقربة منها ريف جميل، أنا لم أر شبيها له في جميع الأرض المقدسة، لأن الوادي كله القائم تحت القرية كان مليئاً بكثافة بأشجار الفواكه، مع أشجار من مختلف الأنواع مثل غابة، وهم يعتقدون بأن هذه الحدائق قد غرست من قبل سليمان، وأنه هنا كانت حديقة البهجة، التي عنها قال في سفر الجامعة:٢/ ٥—٦:«عملت لنفسي جنات وفراديس، وغرست فيها أشجاراً من كل نوع ثمر»، وإلى هذه الحديقة اعتاد سليمان أن يسوق عربته الذهبية، مرافقاً بشباب مسلحين، وذلك كلما أراد أن يخلد إلى

السرور، وذلك حسبما حدثنا يوسفيوس في مصنفه « التواريخ القديمة لليهود»— الكتاب الثامن— الفصل الثالث، وغالباً ماقام بدعوة طائره مع أغاني حب قائلاً:« قد دخلت جنتي ياأختي وياعروسي»، (نشيد الانشاد:٥/ ١)، فضلاً عن ذلك لقد رغب بريح مناسبة (نشيد الانشاد:٤/ ١٦) بقوله:« استيقظي ياريح الشمال، وتعالي ياريح الجنوب، هبي على جنتي فتقطر أطيابها»، وقد اعتاد سليمان على امضاء كثير من وقته في هذه الحديقة، إلى حد أنهم عندما كانوا لايعرفون أين كان، اعتادوا على أن يبحثوا عنه فيجدونه في الحديقة، وبناء عليه عندما سألت بنات القدس العروس « إلى أين توجه حبيبك» أجابتهن« حبيبي نزل إلى جنته إلى خمائل الطيب ليرعى في الجنات ويجمع السوسن»(نشيد الانشاد:٦)، لأنه زرع في تلك الحديقة حشائش حملت توابل وثماراً جيدة، مثل الكافور، والزعفران، والناردين، والوج، والبلسم، والقرفة، مع جميع أخشاب لبنان، والمرّ، والألوة، وجميع أنواع التوابل الرئيسية حسبما قرأنا في نشيد الانشاد:٤، وكانت هناك الأعناب، وأشجار الجوز، وفي هذه الأيام لم يعد هناك توابل، والذي بقي أشجار تحمل البرتقال، والرمان، والتين، والزيتون، والتوت، والجوز، والتفاح، مثل حديقة البهجة، التي يبدو أنها تتوافق مع بيت الشعر في نشيد الانشاد:٤/ ٣:«أغراسك فردوس رمان مع أثمار نفيسة فاغية وناردين».

برك الملك سليمان

وبعدما فرغنا من رؤية هذه الحدائق البهيجة، صعدنا منهن وسرنا على طول شاطىء جدول صغير، من مياهه تسقى هذه الحدائق، بطريقة أن مجرى الماء الذي به تجري المياه إلى القدس كان على يميننا، وكانت القناة التي تجري بها المياه التي تسقي الحديقة، على يسارنا، وهكذا سرنا فيما بينهما، ووصلنا إلى ثلاث برك كبيرة، قائمات احداهن تحت الأخرى، وهذه البرك، التي—كما قالوا— تحدث عنهن سليمان في الجامعة

بقوله:«عملت لنفسي برك مياه لتسقى بها المغارس المنبتة الشجر»، وهذه المغارس هي التي قد أعطت أشجار الحديقة المتقدمة الذكر، التي إليها تساق المياه خلال قناة من البرك الثلاثة.

وهذه البرك كبيرة جداً، وقد عملت نتيجة جهود عمل عظيمة بوساطة أدوات حديدية حادة، التي بها حفرت أقسى الصخور والحجارة ونجرت بالطريقة الطولانية والعرضانية في وسط الوادي، الذي تطل عليه من على الجانبين جبال عالية ووعرة، وهذه البرك معمولة وفق طريقة أن المياه الجارية العذبة تصب في البركة الأولى التي هي الأعلى، وتملأها، والماء بعد هذا يجري إلى الثانية، القائمة تحتها، وبعد هذا تجري المياه من هذه البركة الثانية إلى البركة الثالثة، ومن هذه البركة تجري المياه خلال مجرى ماء إلى حديقة البهجة، ويوجد من هذه البركة مجرى ماء آخر ينقل الماء حتى القدس، حتى جانب الهيكل، حيث تتدفق كما سلف وتحدثت من قبل، هذا وتجري المياه، التي تسيل وراء الحدائق في الوادي، حيث تقوم المدينة، إلى سدوم، وخلال قفار تقوع، التي يحدها من الجانب الجنوبي قفار مُآن Maon.

وهنا يوجد جبل الكرمل، الذي كان ملكاً لنابالNabal، الذي إليه أرسل داوود— عندما كان فاراً من وجه شاؤول— يطلب منه خبزاً وماء، غير أنه رفض مع اهانة، ولذلك غضب داوود، وزحف ضده وضد جميع أهل بيته، ولولا أن تدخلت أبيجايل، زوجة نابال، وتوسطت من أجله، لقام بتقطيعهم جميعاً، كما قرأنا في سفر صموئيل الأول:٢٥، ورأينا فوق هذه البرك من الجهة المقابلة أكثر من ستمائة مسلم يحفرون ويعملون، لجلب مياه جديدة إلى البرك القديمة ومن ثم إلى القدس، لأنه تمّ العثور على الماء بين الجبال العائدة للقفار، وذلك ليس بعيداً عن حبرون، على مسافة بعيدة عن هذه البرك، ويبذل السلطان جهده لنقل هذه المياه إلى القدس، مقابل نفقات كبيرة وتعب

عظيم، وهذا كله ضمن عمل حكيم واختراعات كثيرة ذكية وبارعة، حيث تجري قيادة مجرى الماء خلال ممرات محفورة في الجبال، بواسطة القطع في الصخر وتنظيف الحجارة، لمسافة ثمانية أميال ألمانية، عبر منحدرات عملت بقياسات وفق تقسيمات صحيحة، فضلاً عن هذا إنه يقوم الآن بتنظيف مجاري المياه القديمة، ويعمل كثيراً من الصهاريج من أجل خزن مياه الأمطار، ولم يترك وسيلة لم يجربها لتأمين الماء لمدينة القدس المقدسة، وهو بذلك لم يوفر نفقة، ولم يدخر جهداً.

وهنا يستحق السلطان الملك مديحاً كثيراً، لأن سليمان عندما كان في الالهيات:٤٨/ ١٧ يمتدح الأعمال الجبارة للرجال المشهورين، امتدح الملك حزقيال، لأنه جلب الماء إلى وسط مدينة القدس، لأنه حفر الصخر الأصم بالحديد، وعمل آباراً للمياه، ولعمله هذا تلقى الملك حزقيال هذا نفسه المديح في سفر الملوك الثاني:٢٠/ ٢٠، وفي سفر أخبار الأيام الثاني:٣٢/ ٣٠.

ومع ذلك لم يكن عمل حزقيال مثل عمل السلطان قايتباي، الذي لم يكتف بالحفر بالصخر حتى يتمكن من جلب المياه من نبع جيحون الأعلى إلى المدينة، بل هو يقوم الآن بشق الجبال من مسافة بعيدة، حتى يتمكن من جرّ المياه إلى هناك، هذا وسلف لنا الحديث عن هذا السلطان من قبل، ويتساءل المسلمون والمسيحيون واليهود، ماالذي يريد السلطان أن يعمله من القدس، حتى أقدم على صرف الكثير، وعمل الكثير ليزودها بالماء، ويعتقد المسلمون أنه ينوي أن ينقل مقر الحكومة من بابليون مصر إلى القدس، ويأمل اليهود أنه عندما يعاد بناء القدس سوف يعطيها لهم، أما موقف المسيحيين، فهو أنه ربما هو مقبل على استئناف الايمان بالمسيحية، الذي كان قد تخلى عنه، وأنه سوف يعيد إليهم مدينة القدس، وكنيسة الضريح المقدس، لعل الرب القدير يضع ذلك في قلبه، وأن يجعله يفعل ذلك، الأمر الذي ينبغي عدم التوقف

عن الدعاء إلى الرب من أجله .

إنها إذا مااختار البقاء على غدره وردته، يتوجب مع ذلك على المسيحيين الصلاة للرب من أجله ولطول حياته، مادام صاحب الضريح المقدس، وملك الأرض المقدسة، ويتعامل بلطف ورحمة مع الحجاج المسيحيين، فمثل هذا عمل بطارقة العصور القديمة عندما كانوا في السبي البابلي، فقد صلوا وقدموا الأضاحي من أجل حياة الملك نبوخذنصر، وذلك على الرغم من أنه جلبهم إلى السبي، وأحرق الهيكل، وهدم القدس، وهذا واضح في سفر باروخ:١.

ومثل هذا أمرنا الرسول(١— ثيمو:٢) بإقامة الصلوات والابتهالات في الكنائس من أجل ملوك الأمم، ومن أجل جميع الذين في السلطة، حتى يتمكن المؤمنون من العيش بحياة هادئة وآمنة في ظلهم، ومثل هذا أمروا في اسدراس الأول:٦/ ٣١ بالقيام بالصلوات وبتقديم القرابين من أجل حياة الملك داريوس وأولاده.

وهذا العمل الذي يقوم به السلطان الآن، كان قد شرع به من قبل بيلايطوس، حاكم اليهودية، وكان قد أنفق جميع أموال القربان، أي أموال الخزينة المقدسة العائدة للهيكل، في سبيل جلب الماء من مسافة ألفي فرلنغ، وعندما ثار اليهود ضد هذا العمل بسبب تبديد أموال الخزانة غضب بيلايطوس، فقتل حشداً كبيراً من اليهود، واستمر في عمله، لكن مع ذلك لم يهدأ اليهود، فتخلى خوفاً من الامبراطور، وحول هذا الموضوع يمكننا أن نعود إلى يوسفيوس« التاريخ القديم»(٨/ ٨ وإلى «حرب اليهود»(٢/ ٣).

وعندما صعدنا حتى البركة الوسطى، رأينا إلى جانبها سرادقات وخيماً، فيها سكن البناءون والمحاسبون المسؤولون عن الأعمال، والمراقبون، والمعلمون الذين يرتبون كيف ينبغي حفر المجاري المائية

خلال الجبال، وكان حول هذه السرادقات أعداد كبيرة من المغاربة والمسلمين كانوا يركضون نحو الأمام ونحو الخلف، يلعب أحدهم مع الآخر، وخفنا من هؤلاء خوفاً شديداً خشية الزحف ضدنا وإزعاجنا، وكان هناك خوف خاص عليّ، لأنني كنت الحاج الوحيد الحامل لعلامة الصليب، ولأحمل جواز سفر، والذي حدث هو أنه مامن أحد قدم للاختلاط بنا، بل صعدنا بسلام على طول حدود البرك الثلاث، وبعد مضي بعض الوقت ودعنا البرك الثلاث، واستدرنا نحو اليمين، وتسلقنا سفح رابية، ووصلنا إلى منطقة منبسطة مليئة بالحقول، حيث كان قمح تلك السنة قد جرى حصاده.

وكان بين تخوم هذا السهل بدوياً يتجول، وهو مسلح بسيف ورمح، وقد واجهنا، ووقف في وجهنا في الممر، مانعاً إيانا من المرور مالم ندفع له الخفارة التي يستحقها، لأن البداة يقولون بأن جميع المسافرين مدانين لهم، ويتوجب أن يدفعوا الخفارات إليهم، وقال له واحد من الراهبين اللذان كانا معي، وخاطبه باللسان العربي بأننا كنا رجالاً فقراء، وليس علينا أن ندفع أي شيء إلى أي انسان، لكن البدوي قال وهو يشير إليّ باصبعه:« أنتما يمكن أن تكونا رجلين فقيرين، لكن هذا الرجل مع الصليب هو حاج، وغريب في البلاد، ويتوجب عليه أن يدفع جزية إلي»، وركض نحوي وهو يقول هذا، وانتزع مقود حماري، قاصداً ارغامي على الدفع، لكن ذلك الراهب تجادل معه بشدة، وهدده أنه إذا لم يدعني أمضي، سوف ينزل إلى الوادي إلى السادة الذين كانوا مسؤولين عن الأعمال، ويشتكي لهم، وعندما سمع البدوي هذا، تركني أذهب، وابتعد عنا هارباً.

ورأينا الآن كنيسة في وسط هذا السهل، نحوها أسرعنا، وكانت هذه كنيسة القديس جرجس الشهيد، ودخلنا إليها، وتلونا صلواتنا فيها، وحصلنا على غفرانات (+) لمدة سبع سنوات، وكان إلى جانب هذه

الكنيسة فيما مضى ديراً جميلاً وكبيراً للرهبان الاغريق، ولكنه الآن مهدم، والذي بقي هناك زريبة صغيرة، قائمة في مواجهة الكنيسة، يسكن فيها اثنان من الرهبان الاغريق، وفي هذا المكان جرى اعتقال القديس جرجس الشهيد، ووضع في الأغلال بسبب الايمان بالمسيح، ذلك أنه قدم من كبدوكيا إلى سورية، حيث قتل التنين قرب بيروت، وارتحل من ذلك المكان إلى اليهودية هنا، حيث جرى اعتقاله، ومن ثم جرى نقله إلى اللد حيث استشهد، كما سلف لنا الحديث عن ذلك في ص٣٦٨.

ويوجد على مقربة من الكنيسة مكان وعر، حيث هناك صخرة قاسية جداً وعريضة، أرانا فيها هذان الراهبان علامات حوافر فرس، وكأن الصخرة كانت قديما ناعمة وقد تلقت علامات فرس عابر فوقها، وقد قالا بأن هذه العلامات قد انطبعت بشكل اعجازي على الصخرة من قبل فرس القديس جرجس، وبعدما رأينا هذه العلامات عدنا ثانية إلى الكنيسة، وجلسنا في الظل، وجلب لنا هذان الراهبان سلسلة، أعلنا أنه بهذه السلسلة جرى غلّ القديس جرجس، وقبلنا هذه السلسلة، ووضعناها حول أعناقنا من أجل التقوى، ويحترم المسلمون أيضاً هذه السلسلة، مثلما يحترمون أيضاً علامات حوافر الفرس على الصخرة، ويسترد أحياناً بعض المسلمين المرضى صحتهم بلمس هذه السلسلة، وفي الحقيقة لدى جميع الشرقيين احترام خاص للقديس جرجس، وهم يحترمونه أكثر من القديسين الآخرين، ويمكن للانسان أن يقول بأن جميع كنائس المنشقين مكرسة له، وجلب لنا الراهبان بقسماطاً، وماء، وملحاً، وصنعنا وجبة معهم، وقد أعطيانا بدون مقابل، كل ماكانا قادرين عليه، مع أنهما كانا منشقين، وبناء عليه أكلنا وشربنا في تلك الكنيسة، وانتعشنا بشكل جيد، وقد مكثنا هناك لمدة تقارب الساعتين وتفحصنا بدقة خرائب الدير.

الماء الذي جرى تعميد الخصي به

وغـادرنا بعد هـذا، هذا المكان، ووصلنا ونحن على طريقنا إلى طرف رابية، منها يتدفق الماء العذب من عدة أماكن، وهذا أمر غير اعتيادي في البلدان الشرقية، ورأينا فوقنا في الأعالي بقايا قلعـة مهدمة، كانت تعرف في الأيام الخوالي باسم بيت سورا، وكانت قلعة حصينة جداً، عنها كنت قـد تحدثت من قبل، وتابعنا مـن هناك سيرنا نحـو واد عظيم الخصـوبة ليس بعيـداً عن بيـت زكـريا، الذي كنا أيضـاً قـد تحدثنا عنه من قبل، ورأينا في هذا الوادي كثيراً من البيوت وبساتين مـزروعة بأشجار التين، وبالكروم، والزيتـون، وأخيراً وصلنا إلى ضفة جـدول ماء عـذب، ينبع من الرابية، ويجري بشـدة نازلاً إلى الوادي على طول الطريق، وبناء عليه صعـدنا على الطريق إلى المكان الذي ينبع منه، حيث وجـدنا بقـايا كثيرة لكنيسة مهدمة، كانت قائمة هناك في أيام المسيحيين، لأن هذا هو المكان الذي عمّد فيه فيليب الخصي الحبشي العـائد للملكة كنداكة، حسبما ورد الخبر في أعمال الرسل:٨، وكـانت كنداكـة ملكة الحبشـة، وهي مملكة حكمت دومـاً مـن قبل نسـاء، وأطلق على جميع ملكاتها اسـم كنداكـة، وذلك مثلما أطلق على جميع ملوك مصر اسم فـرعـون، ومثلما أطلق على جميع أباطرة رومـا اسم قيصر، ويقول بعضهـم بأنها كـانت ملكة كل من مصر والعربية، لأنه عندما سقطت اسرة الفراعنة في مصر، خلفتها أسرة كنداكـة، وذلك حسبما قـرأنا في كتاب بـوكاكـوس Boccacus حول النسـاء الشهيرات»، الفصل:٤١، وكـانت هذه الملكة امـرأة تقيـة، وقـد أرسلت خصيهـا الحبشي، الذي كـان مسـؤولاً عن خـزائنهـا، مع هدايا كثيرة، وتقـديمات إلى الهيكل في القدس وذلك حتى يتمكن من الصـلاة هناك وتقديم الهدايا.

وبعـدما فعل هذا، عـاد فـركب عربتـه، حتى يتمكن من العـودة إلى بلاده، وكـان متشوقاً كثيراً حـول الأشياء اللاهوتيـة، إلى حد أنه عنـدما

كان يجلس في العربة كان يقرأ حول الأنبياء وجاء فيليب إليه بناء على أمر من الروح القدس، وعلمه وعمّده في هذا المكان، وبناء عليه جثونا هنا على ركبنا وتفوهنا بصلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+)، وجلسنا بعد ذلك إلى جانب النبع، وأحضرنا من مزاودنا الطعام الذي كنا قد شريناه من القدس، وأكلنا خبزاً، وشربنا من الماء، الذي كان صافياً، وبارداً، ومنعشاً، وصحياً، وهذا النبع مشهور جداً حتى أن الأغنياء وأعيان الناس يأتون إلى هنا من القدس، من أجل المتعة والترويح عن النفس.

وعندما كنا جالسين على هذه الصورة إلى جانب النبع، مرّ بنا عدد كبير من المسلمين، بسبب الطريق العام الذي يقود إلى غزة، أي إلى أفريقيا، حسبما جاء في الشرح حول الممرات، وأيضاً من قبل كاتب الـ Speculum Historiale، وعلى كل حال لم يلحق بنا أي أذى من قبل أي انسان، وأعطينا الذين وقفوا إلى جانب النبع وشربوا بعضاً من خبزنا، وقد جلس كل مسلم معنا، وجاء أخيرا واحد مع سلة مليئة بأحسن العنب وأكثره حلاوة، وله أرينا مزاودنا وقد امتلأت بالخبز، وقد سره كثيراً التبادل معنا، وهكذا أكلنا وشربنا في ذلك المكان معهم حتى اقتراب موعد غياب الشمس.

وعن هذا المكان قال بيد في تعليقاته على أعمال الرسل:« بيت سارو، أو بيت سورا في ديار يهوذا، على الطريق من إيلياء إلى حبرون— أي من القدس إلى حبرون— وذلك على بعد عشرين ميلاً، حيث على مقربة منها هناك نبع عند سفح الجبل، وهو يتدفق منه نفسه، ثم تبتلعه الأرض نفسها التي ينبع منها، ففي هذه المياه عمّد فيليب الخصي».

وبعدما أنعشنا أنفسنا بشكل جيد في هذا المكان، امتطينا دوابنا، وجرينا مسرعين نحو القدس، ذلك أننا كنا نأمل أن يسمح لنا في تلك الليلة نفسها بالدخول إلى ضريح الرب، ولولا أنه توفر لدينا هذا

الأمل، لبقينا مع الرهبان في بيـت لحم لعدة أيام، أو كنا أمضينا الليل في صحراء القديس يوحنا المعمدان، التي تقدم لنا ذكرها في ص٧٧٠، وهو أمـر كنا نحب كثيراً أن نفعله، لأنـه بدا أمـراً عظيم السرور جـداً، رؤية الكهـوف التي سكـن بها يوحنا وهو طفل صغير، والإقـامـة بها، لكن شوقنا للدخول إلى الضريح المقدس كان أقوى لدينا، وتخلينا أثناء سفرنا عن زيارتنا لقفار القديس يـوحنا، وإلى بيت زكريا، وإلى كنيسة الصليب المقدس، وإلى بيـت سمعان، وهي أماكـن تقدم لنا الحديث عنهـا جميعاً، وأسرعنا باتجاه القدس.

ولدى اقترابنا مـن الكروم الموجـودة على جبل جيحـون، وعندمـا صـارت المدينة المقدسـة أمام أعيننا، فجأة، تجمعت بعض النسـاء اللائي عملن في الكروم، ووقفن مـع بعضهن في الطريق مع حجـارة، ليمنعننا من المرور، مالم ندفع خفـارة لهن، وقمنا بسؤالهن عما إذا كن بدويات أم مسلمات، وعندمـا أجبننا بأنهن مسلمات، شققنا طـريقنا بالقـوة بينهن، وأخبرناهن بـاستخفـاف بأن الخفـارة حـق للبـداة وليس للمسلمين، وبغضب شديد رمين بالحجارة خلفنا، وتولين شتمنا.

وعندما صرنا مـلاصقين للمدينة، التقانا هناك واحد من كبـار سادة المسلمين، كـان معـه عـدد كبير من الأتبـاع، وجماعـة كبيرة من الرجـال المسلحين على الخيـول وعلى البغـال، وأخبرنا الذيـن مشـوا أمـام هذا الحشد، بأن أميراً كان قادمـاً خلفهم، ولدى سماعنا بهذا قفزنا على الفور عن ظهـور حميرنا ووقفنا على جـانب الطريق حتى عبروا جميعـاً، وفي الحقيقـة، لو أننا لم نترجل من على ظهـور دوابنا لألقـونا أرضـاً بغضب وإهانة، لأن عـادة هذه البـلاد تقضي بوجـوب افسـاح الطريق من قبل الفقراء، والفـلاحين، والحجاج، والناس البسطاء، إلى النبـلاء، والرجال الأغنياء، عندما يقابلونهم، لذلـك فور رؤية الانسان البسيط أو الغريب رجـلاً نبيلاً مقبـلاً نحـوه، عليه الترجل مـن على دابته، حتى يمـر ذلك

السيـد، وحـاشيته، وإذا لم يترجـل، يقوم خـدم ذلك السيـد برميـه على وجهه.

وإذا ماتواجـه رجلان غنيان، يقـوم الأقل ثروة، وهو يريد أن يختلف عن الآخرين، ليس بالترجل، بل ينسحـب إلى جانب الطريق مع دوابه، حتى يعبر الآخر، لكن إذا ماتواجه واحد من أعيان أهل المدينة مع نبيل مسلح، أي على سبيل المثال إذا ماتواجـه مسلم مع مملوك، فوقتها يكون التشريف الـذي يريـه الرجل الغنـي للنبيل، أن ينسحـب إلى جـــانب الطريق، ويرفع قـدميـه من الركابـات، ويتركهما متدليتـان، وإذا لم يفعل ذلك، فإن الرجل المسلح يقوم برميه من على ظهر حصانه.

وبناء عليه، قمنا بعد عبور ذلك السيـد، فعاودنا امتطاء ظهور حميرنا، ودخلنا إلى المدينة المقـدسة، إلى جبل صهيـون، وعندمـا وصلنا إلى هناك علمنا بأن الحجـاج لن يسمح لهم بالدخول إلى كنيسـة الضريح المقدس، وأسفنا إننا لم نبق في بيت لحم ليومين أو ثلاثة أيام.

وفي اليوم السابع عشر، الذي كان الأحد الثاني عشر بعد التثليث، في اليوم الثامن بعـد عيد صعود العذراء، توفرت لدي رغبة بإقـامة قداس في الموضع الذي توفيت فيـه مريم العـذراء الأعظم مباركـة، وحملت إلى هناك جميع الأشياء المحتاجة، وزينت مذبحاً مع راهب يقوم بمساعدتي، وحـدث وأنا واقف عند المذبـح في الهواء الطلق، أن تسـاقطت كميـات كبيرة من الندى، بللت الـ Corporale، وقطعة الكتان الممتازة المنشورة فوق المذبح، وبللت أيضـاً الأعمدة، والكتـاب، وعملت عجينة القربان مائعة مثل فطيرة غير مخبـوزة، ولذلك لم يكن بإمكاني بأية وسيلة رفعها، ووقعت بإرباك عظيم في ذلك القـداس، ونادراً مـاتمطر في هذه البـلاد، خـاصـة في أيام الصيف، حيث تبقـى السماء صـافيـة، ولكن دومـاً عند اشراق الشمس تتساقط كميات كبيرة من الندى من السموات، بها تبقى خضروات الأرض حيــة، وبعـد الغــداء اجتمع الحجــاج مع بعضهم

للتشاور حول رحلتنا خلال القفار.

وفي اليـوم الثـامن عشر، نزلت قبـل شروق الشمس إلى نبع سلوان، لكن لدى سماعي بعض الأصـوات العـاليـة فيـه، وقـد صـدرت عن القصارين أو الدباغين من المسلمين الذي كانوا هناك، ابتعدت عن النبع المقـدس، ولم امتلك الجرأة للذهاب إلى هناك، ومع ذلك غسلت وجهي وعيني في الجدول الذي كان يجري منه، ومن هناك نزلت إلى وسط بركة قـدرون، حيث سرت فوق أرضهـا الجافـة والوعرة حتى كنيسـة ضريح وصعود مريم العـذراء المباركة، التي وجدتها مفتـوحة، وقد سررت تجاه ذلك، ونزلت بوساطة الدرجات إلى الكنيسـة، فوجدتها مليئة بمسيحيين روم أرتوذكس، كـانوا يقيمـون قـداسـاً بمناسبـة ذلك اليـوم، وكـانوا ينشـدون مديـح مريم المقـدسـة، ووقفت لبعض الوقت عند قـداسهم، أرقب طقوسهم وعاداتهم.

ثم صعدت من هناك ثانية وغادرت الكنيسة، ودخلت إلى كهف آلام ربنا يسـوع المسيح حيث وجدت فـرقـة من الأرمن، تقيم قداسـا هناك، وتمدح الرب بغنائهـا الفـوضـوي، ومكثت مع الأرمـن لبعض الوقت، وعجبت نحو طريقتهم في أداء القداسات الربانيـة، وبعدما خرجت من الكهف، صعـدت إلى الجليل، وسرت من هنـاك على طول حـافـة جبل الزيتون، فوصلت إلى كنيسة صعـود الرب، التي دخلت إليها، فوجدت فيها فـرقة من اليعاقبـة يقومون بمـدح الرب مع موسيقى كانت غـريبة بالنسبة إليّ، عـلاوة على ذلك قدم مثلهم إلى هناك سود أو هنود لإقـامة قداساتهم هناك، وكان هناك نوبيون ينتظرون للغرض نفسه، وفي الحقيقة كـان جبل الزيتون كله مكتظا في ذلك اليـوم بالمسيحيين الشرقيين، لكن ماهو السبب الذي جعل المسيحيين الشرقيين، يجتمعـون في ذلك اليوم؟ أنا لاأعرفـه، وتجولت هناك وكنت المسيحي اللاتيني الوحيد بين هؤلاء الشرقيين، فلم أتعـرض للأذى من أي واحـد منهم، كما لم يبعدني أحـد

عن قـداسـاتهم بل إنهم عجبوا لوجـودي، ونظروا إليّ باستغـراب، وإلى ثيابي، وطرائقي، وهؤلاء المسيحيين الشرقيين المتقدم ذكرهم، بشكل عام سود، ويختلفون عنا باللون، واللباس، واللغة، والطقوس، والعادات.

ونزلت من موضع صعود الرب إلى جيسماني، وبحثت بعناية وفتشت عن الصخـرة التي تحمل عـلامـات جسـد المسيح، وهي الصخـرة التي تلقت هذه العلامات عندمـا اعتقل المسيح هناك، لكن لم أستطع العثور عليهـا بأية وسيلة من الوسـائـل، ومن أجل وصف هذه الصخـرة انظر ماتقدم في ص ٦٠١، ومضيت بعد هذا عـائداً إلى جبل صهيون، لتناول الغداء.

وفي اليـوم التـاسع عشر حصلت على إذن من الأب المسـؤول لزيارة قلعة عمـواس، ورجوته أن يرسل معي من يراه، حتى يكون رفيقي على الطريق، وكــان الأب المسـؤول كـارها لأن يتركنـي أذهب، وأعلن بأن الطريق كـان خطراً، لكن بسبب إلحاحي أعطاني الإذن، وأمـر اثنين من الرهبان ومسلما واحداً بمرافقتي، وخـرجنا من القدس معاً، وسرنا على الطريق الذي سار عليـه الرسولان كليوباس ولوقا في يوم قيـامة الرب، وذلك عندما ظهر الرب يسوع لهما على شكل مسافر، واحترق قلباهما في داخلهما وهو يتحـدث إليهما، حسبما قـرأنا في إنجيل لوقـا:٢٤، ووصلنا على كل حال، بسلام إلى عمواس، وهناك قبلنا البقاع التي إليها اشتقنا، وكنت قـد تحدثت عن ذلك في ص٣٩٠، وشـاهدنا خـرائب هذه البلدة بخوف، لأنه بما أنها على الطـريق الذي يقود من القـدس إلى البحر، إنها نادراً ماخلت من قطاع الطرق، الذين يضربون العـابرين، وقال القديس جيروم في كتـابه« حول المسـافـات بين الأماكن»، بأنها كـانت فيما مضى بلدة جميلة، الأمر الذي تبرهن عليه خرائبها.

ومن هنـاك ذهبنا إلى جبل شيلـوه، الذي كنت قــد تحدثـت عنه في ص٣٨٩، حيث رغبنا في رؤية الأماكن المقدسة وزيارتها، ولكن قبل أن

نصل إلى هناك، قـام المسلمـون الذين يمتلكون بيـوتا فـوق القمـة بمواجهتنا، وطردونا بالحجارة، وعندما نزلنا وأصبحنا في الوادي، ذهبنا إلى سفح جبل آخر، وتسلقنا إلى قمته، واسم هذا الجبل، جبل الشهداء، لأن أسـداً قـد دفن هناك جثث ثـلاثين ألف شهيـد، كـان كسرى ملك الفـرس قـد قتلهم، مـن أجل إيمانهم بالمسيح، وذلك حسبما قـرأنا في« التاريخ اللاهوتي»، وبعـدما فرغنا من رؤية هذه الأشيـاء، عدنا راجعين إلى القدس بسلام من خلال وادي البطم Terebinth ، وهكذا مضى ذلك النهار.

وفي اليوم العشرين، في الصباح الباكر، جاء أربعة من رهبان الدير إلى قلايتـي، وسألوني الذهاب معهم إلى بيت عنيا، وهكذا انطلقنا، وعندمـا كنا في وادي شعفـاط رأينا سادتي اللـوردات والحجاج الآخـرين نازلين من جبل صهيـون، حـاملين معهم كـل مـاهو محتـاج لإقـامـة قـداس، وعندما وصلوا إلينا، قـالوا بأنهم أيضاً يرغبـون بالذهاب إلى بيت عنيا، وهكذا مضينا مع بعضنا صـاعـدين جبل الزيتـون، ونازلين من جـانبـه الآخر إلى بيت عنيا، وأقمنا هناك قداساً في كنيسة القديس لعازر، وذلك فـوق قبر ذلك القـديس، إنما مع خـوف عظيـم، لأن أطفـال المسلمين وقفـوا من حولنا، ولم نخف من هؤلاء، وأبعـدناهم عن القداس، وقـد بقيـوا ينظرون نحو أيدي، وأوجـه، وأعين الكهنة، الذين كانوا يتـولون تكريس العناصر، وقـد خفنا أن يحدث لواحد منهم، ماوقـع لواحد من الرهبان الفرنسيسكان عندما كـان يقوم بقداس في بيت لحم، لأنه عندما كان مشغـولاً بأعمال القداس، وكان قـد فرغ بوساطة صلواته المقـدسة، من تحويل الخبـز إلى جسـد، والخمـرة إلى دم، فجأة ركـض واحـد من الشبـاب المسلمين نحـو المذبح، واختطف كـأس القـربان مع الخمـرة المكرسـة وشربها، وبعـد هذا ركض راجعاً نحـو جماعتـه، وهو يضحك بصوت مرتفع:

أيها الجاهل الملعـــون، أيها الأعمى المظلم، أيها الأحمق بـلاعقل، أيها التـافه الطائش، كم هو مـؤلم ومـزعجاً وعـدوانيـاً الذي أقدمت عليـه! والذي حدث أنه بحماية الرب، لم يحدث أي شيء من هذا القبيل لنا في هذا المكان، لأننا أنهينا قـداسـاتنا كلهـا بسـلام، وبعـدمـا زرنا الأمـاكن المقدسة في بيت عنيا وفوق جبل الزيتون، عدنا إلى القدس.

وفي اليـوم الحادي والعشرين، في الصبـاح البـاكـر، مضيت نازلاً إلى كنيسـة قيامـة الرب، وتفـوهت بقـداسي أمام البـاب، عـلاوة على ذلك نظرت إلى آبدةالرب من خـلال الفتحة بـالباب، وجـاء في تلك السـاعـة نفسهـا مسلحون مغـاربة، بالقسي والرمـاح، وكانوا جـالبين معهم، مع كثير من الضجة رجلين، كـانوا قد اعتقلوهما، وقـد ألقوا بهما في السجن الذي قام أمـام باب كنيسة الضريح المقـدس، وكنت قد تحدثت عن هذا السجن من قبل في ص٤٧٤.

ولذلك وقفت أمـام البـاب مـع خـوف عظيم، فقـد كنت أخشى أن يصرفوا غضبهم ضدي أيضـاً ووقفت منتظراً، وأنا ممسك بالباب، حتى انصرفوا من السجن، ذلك أنه لم يكن بامكاني الخروج من السـاحة، من دون المرور على مقربة منهم، ولقد مكثت هناك لمدة تزيد على الساعتين، ثم صعدت إلى جبل صهيون، من أجل الصلاة.

وبعد الغداء، اجتمعنا نحن الحجاج جميعاً على جبل صهيون، ووزعنا الأشيـاء التي اشتريناها إلى حزم ذوات وزن واحـد، وبعدمـا فعلنا هذا، نزلت معهم، وعندمـا وصلنـا إلى برج داوود، الذي كنت قـد أشرت له من قبل في ص٤٤٥، وقفنا دونها حراك، ونظرنا إلى القلعـة، وعندما رآنا ابن حاكم القلعة واقفين هناك، عمل شارة بيده، بأننا إذا مارغبنا يمكننا اللحـاق به،، ورؤية البرج من الداخل، وبناء عليه لحقنا بذلك الشـاب، وعبرنا فوق الجسر المقام على الخندق، الذي يمكن رفعه وانزاله، واقتادنا من خـلال بابين حديـديين إلى ساحـة القلعة، حيـث كانت هناك نسـاء

يخيطن(٢٥٣) وحالما رأيننا، غطين وجوهن، وأخفين أنفسهن، واقتادنا الشاب إلى أعلى الأسوار والأبراج، وإلى جميع الغرف المنتشرة هناك، ودهشنا تجاه سماكة الأسوار، وعدد الأبراج حول إطار دائرة الأسوار.

وبني هذا المكان وفق طريقة بناء القلاع الألمانية الحصينة، مع أسوار، وشرافات وطلاقات كثيرة من أجل اطلاق الآلات الحربية من خلالها، وهي قائمة فوق صخرة مشرفة على الجهة الغربية من جبل صهيون، ولها على جانبها الجنوبي واد عميق، هو الذي يفصل جبل صهيون عن جبل جيحون، وهو يمتد من جدول قدرون إلى حقل القصار، ولها على جانبها الغربي أيضاً واد، كان فيما مضى هوة عميقة، لكنه الآن قد امتلأ تقريباً، وكان لها فيما مضى خندق عميق كان معمولاً من حولها، لكن بما أن هذا الخندق لم ينظف أبداً، هو الآن ممتلىء، وقد زرع الحاكم الآن بستان مطبخ هناك في الجهة الشرقية، لكن على الرغم من هذا كله لايوجد مكان قوي وجيد التحصين مثل هذه القلعة في القدس.

لكن هل هذه القلعة هي التي ورد اسمها في الكتابات المقدسة باسم حصن صهيون، أو حصن مدينة داوود، الاختصاصيون غير متفقين على هذا، وكل الذي نعرفه هو أن داوود حصن جبل صهيون الذي ورد الحديث عنه أحياناً أيضاً باسم حصن داوود، كما ورد في سفر صموئيل الثاني:٥، هذا وقد قمت بعد تدقيق خاص، فسجلت ثلاثة أماكن قامت فيها فيما مضى أبراج وأسوار قوية فوق جبل صهيون، والأول بينها موجود على الجانب الشرقي، حيث يقوم الآن دير الرهبان، ومما لاشك فيه أنه كان هنا هيكل داوود، حيث وضع فيه تابوه الرب، وهنا كان مسكنه، وذلك حسبما قرأنا في أخبار الأيام الأول:١٧، وكان المكان الثاني على الجانب الغربي من جبل صهيون، حيث قامت هذه القلعة التي عنها نتكلم الآن، والمكان الثالث لم يكن على جبل صهيون، بل في مواجهة هذه القلعة وذلك باتجاه الغرب، فوق مدينة القدس، قرب باب

التجـار في حقل القصار، ويوجـد في هذا المكان خرائب كبيرة، يقـولون بأنها بقـــايا برج داوود، ولو أن هنـاك حصناً في هذه الأيام، لكـان من الممكن حماية المدينة بوسـاطته، والذي اعتقـده أنه لم يكن هناك شيء من هذا القبيل، قبل أيام الامبراطور إليوس هدريانوس، الذي وسع المدينة، وأنه بعد توسيـع المدينة جرى بناء حصن هناك، وقـد جرى تدميره منذ وقت طويل مضى وهكـذا بعـدمـا رأينا هذه القلعـة، عـدنا راجعين إلى موضعنا.

وذهبت عند غـروب الشمس مع بعض الرهبـان، إلى سـدة الكنيسـة على جبل صهيون، وهو مـا كنت قد تحدثت عنه في ص٤١٠، وسجلت بأن ارتفـاع جبل صهيـون، كـان أعلى من جميع الجبـال من حـوله، لأن جبال العربية عبر الأردن، والبحر الميت، والتي هي عالية جداً، قد بدت منخفضـــة بالنسبـة لجبل صهيـــون، فـالشمس تشرق على رأس جبل صهيون قبـل البقية، وتسحب أشعتهـا من عليه بعـد البقية، وهذا غـالباً مـارأيتـه، وفي الحقيقة إن الانحـدار من جبل صهيـون نحـو الشرق هو انحدار مستمـر، وهو يساوي خمســة أميال ألمانيـة إلى البحر الميت، ومثل هذا باتجاه الغـرب، الأرض منحـدرة ونازلة لأميـال كثيرة حتى منطقـة فلسطين، وهكذا فإن جبـل صهيـون له التفـــوق على جميع الجبـــال، كما تحدثنا من قبل في ص٤٥٧.

جمع الحصا والأشواك في الأماكن المقدسة صدوراً عن التقوى

واستيقظت في اليوم الثاني والعشرين قبل اشراق الشمس، وبعدما قلت صلواتي لما بعد منتصف الليل، تسللت من الدير وحيداً، وتجولت حول الأماكن المقدسة على جبل صهيون، وفي وادي شعفاط، وعلى جبل الزيتون، والتقطت في كل واحد من هذه الأماكن بعض الحصا، وعلمتهم، ووضعتهم في حقيبة حملتها معي لأجل هذه الغاية، علاوة على ذلك جمعت بعض الأشواك التي تنمو على التخوم على جانب جبل الزيتون وجبل صهيون، وعملت حزماً منهم، وعلى الطريق نسجت منهم تاجاً، وذلك من الأشواك التي أعتقد بأن الرب يسوع قد توج بها، (انظر ص٤٧٥) وأمضيت ذلك اليوم كله في جمع الحصا، وقطع أغصان الأشواك، واشتريت سلة مستطيلة، وضعت فيها أغصان الشوك هذه، والحصا التي التقطتها من الأماكن المقدسة، وجلبت الجميع معي إلى الوطن، أي إلى أولم.

ولايظن أحد أنه عمل بلا فائدة، أو تصرف طفولي صدر عني، باحضار حصا إلى بلادنا معي من الأماكن المقدسة، لأنني قرأت بأن رجالاً مقدسين من العصور القديمة فعلوا مثل هذا، ففي سفر الملوك الثاني:٥/ ١٧، قرأنا بأن نعمان السوري، سأل النبي اليشع أن يدعه ينقل من الأرض المقدسة، بقدر مايستطيع بغلان حمله، وأن يجلب ذلك إلى أرضه، حتى يتمكن من أن يبني هناك مذبحاً من الحجارة، عليه يقوم بالتضحية لرب السماء، وإذا كان— بناء عليه— عدّ هذه البلاد ثمينة جداً بسبب الهيكل الذي بني هناك، وبسبب الأنبياء الذين سكنوا، وبسبب المعجزات التي عملت هناك، كم أكثر ينبغي أن تكون ثمينة بالنسبة لنا، وذلك بسبب هذه الأشياء التي قيلت من قبل، وأيضاً بسبب طبعات أقدام المسيح، الثمينة جداً، وكذلك طبعات أقدام مريم العذراء المباركة، وكذلك بسبب مايتعلق بالرسل وبالشهداء، وبسبب دم المسيح

الذي لايقــدر بثمن، الذي هدر هناك فيهـا، وبسبـب صليبـه وضريحه، ولأنه قدسها بروعة قيامته المجيدة، وبنار روح قدسه.

وبناء عليـــه لايجوز مطلقـــاً، ولابشكل من الأشكال تستحـق قطع وشظايا من الحجـارة جلبت من تلك الأرض الرائعـة، أن يستخف بها، أو أن ترمى، بل تستحق أن تجمع بتقـوى عظيمة، وأن توضع بين الآثار المقدسة الرئيسية للكنائس، وليست فقط التربة نفسها، والحصا أو شظايا الحجـارة، بل أيضاً الحبـوب، والمسابح، والخواتم، والتماثيل في المسـابح، التي لمست الأمـاكن المقـدسـة، هي مقدسـة من النوع نفسـه، وصـارت لذلك أكثـر تبجيـلا ومكانة، وذلـك حسبما بينت من قبل في ص١٩٨، ولايقتصر فعل هذا علينا نحن المسيحيين الغـربيين بل، يقوم المسيحيـون الشرقيون من أقصى بقاع الشرق، بجمع هذه الحصا في الأرض المقدسة ويحملونها معهم وكـأنهم ذاهبـــون إلى أبواب الجنـة، على أنها من أعظم الآثار المقدسة مكانة .

ولقـد سمعت وقرأت مـاهو أعجب من هذا، من ذلك أن مسيحيين شرقيين يقـومـون بالحج إلى رومـا، لقطع شظـايا من كنيستي القـديس بطرس والقـديس بولص، ويحملونهم معهم— ليكونوا آثاراً مقدسـة— حتى المحيط الشرقي، ويقـوم بعضهم بعبـور الألب، ويبحـرون بالراين حتى كولون لكـي يتمكنوا من رؤية كنيسة وأضرحة الملـوك الثلاثة، من أهل بلادهم، ويتـدبرون إعطائهم شظايا من هذه الكنيسة والأضرحـة، أو يحصلون عليهم بأنفسهم، إن استطاعـوا، وهذه الشظايا، يضعونها في ذهب أو فضـة، بين الأحجار الثمينة، وذلـك بعد عـودتهم إلى بلادهـم، ويلبسـونها خواتم أو معلقـات، على أصـابعهم، أو حـول رقابهم، وأمـا بالنسبـة للخواتم أو المجـوهرات التي لمست الأضرحـة، فإنهم يحتفظون بهم مع عناية كبيرة، بمثابة آثار مقـدسة ثمينة، ويقدمون احتراماً عجيباً إلى الحجـاج الذين تجولوا وطافـوا من الشرق إلى كـولون، وذلك لدى

عودتهم، وينظرون إليهم على أنهم أعظم الفرسان شجاعة.

ولايمكن أن يكون هناك شك في أن الشرقيين لو استطاعوا تحمل برد بلادنا، مثلما يمكننا تحمل حرّ الشرق، فإن كولوننا لن تكون قط خالية من حجاج شرقيين، لأننا نرى حجم الحشود التي يأتي بها الهنغاريون إلى كولون، عندما يجري عرض الآثار المقدسة في كولون وآخن، علاوة على ذلك لقد حدث في بعض الأحيان أن فيه حجاجاً من بلدان الملوك الثلاثة كانوا يقدمون حاشدين إلى القدس في الوقت الذي يزورها حجاجنا من الغرب، وعندها كانوا يسألون من خلال المترجم عما إذا كان يوجد أي رجل من بلاد كولون، وإذا ماوجدوا واحدا،كانوا يشترون منه جميع الأشياء التي يمكنهم الحصول عليها منه، وبشكل خاص الأشياء التي صنعت في مدينة كولون، وذلك مثل: حافظات النقود، والأشرطة والأربطة والقبعات، والأحذية، وأية ملابس حتى القمصان، وكانوا يدفعون لهذه الأشياء ثمناً مضاعفاً، ويحملونهم معهم إلى الشرق بمثابة آثار مقدسة.

وإذا مااختار أي انسان بيعهم أية جواهر أو خواتم لمست أجساد الملوك الثلاثة المقدسين، كان سيتلقى ضعف أسعارهم، وإذا كان لدى أي انسان شظايا من الكنيسة أو من أضرحة الملوك الثلاثة، واختار بيعهم، فإنه كان سيتلقى مقايضة لهم مايتلقاه مقابل أحجار كريمة، وذهب، وفضة، علاوة على ذلك، كانوا يسألون بالحاح حجاجنا من خلال المترجم، عن أوضاع بلاد كولون، وحجم المدينة، والكنيسة الكاتدرائية، وأضرحة الملوك الثلاثة، ويكتبون بتقوى ويدونون ماسمعوه جواباً، كلمة كلمة، في كتب مذكراتهم، وذلك مثلما نفعل نحن في كتابة أحوال الأرض المقدسة، وأوضاع القدس، وكنيسة الضريح المقدس.

وغالبا مايشكل عدد كبير من الشرقيين جماعات وفرق للقيام بالحج

إلى الغرب، إنما ماأن يصلوا إلى بلادنا حتى يغمى عليهم ويموتون، لكن إذا مانجح بعضهم بالحج إلى الغرب وعادوا ثانية إلى بلادهم، فإنهم ينظرون إليهم نظرة احترام عالية، وإذا كان— على هذا— الشرقيون يقدمون مثل هذا الاحترام إلى بلاد الملوك الثلاثة، حيث أوابدهم موجودة، فأي عجب إذا أظهرنا نحن الغربيون الاحترام إلى أرض ضريح الرب ملك جميع الملوك؟

وهكذا أمضيت هذا اليوم مع كثير من التعرق والتعب، ألتقط الحجارة الصغيرة من الأماكن المقدسة، واشتريت في ذلك اليوم نفسه ثلاث قطع أقمشة ثمينة لغرفة المقدسات، من أجل تغطية كأس القربان، أثناء حملها من قبل الشماس الأدنى، وعندما يحمل القاعدة عالياً، وكانت القطعة الأولى من هذه الأقمشة بيضاء، والثانية زرقاء، والثالثة صفراء، وقد حملت هذه الأقمشة إلى جميع الأماكن المقدسة، وغالباً مانشرتهم فوق ضريح الرب، وفوق صخرة الصليب، وفوق ضريح العذراء المباركة، وفوق مزود الرب، وفي الأماكن الأخرى، من أجل أنهم بلمس هذه الأماكن المقدسة، يمكن أنفسهم أن يصبحوا مقدسين، وبالتالي أعلى ثمناً.

الحج العام والأخير حول الأماكن المقدسة

في الصباح الباكر من اليوم الثالث والعشرين، وقبل اشراق الشمس، التقى جميع الحجاج، بناء على اتفاق، في ساحة كنيسة الضريح المقدس للقيام بحج واحد وأخير حول جميع الأماكن المقدسة في القدس وأحوازها، وبناء عليه، زرنا بعد بذل جهد كبير، المدينة المقدسة، والأماكن المقدسة في وادي شعفاط، وعلى جبل الزيتون، وكان ذلك قبل الغداء، وقمنا بعد الغداء بالطواف حول الأماكن المقدسة في وادي سلوان، وجبل جيحون، وجبل صهيون، في الأعلى وفي الأسفل، وعندما كانت الدنيا مظلمة، أخذنا إلى كنيسة الضريح المقدس، حيث

عملنا المسيرة المعتادة إلى الأماكن المقدسة، وسهرنا تلك الليلة إلى جانب آبدة الرب.

الدخول السادس والأخير والسهر في الضريح المقدس في Anastasis أي كنيسة قيامه الرب

في مساء اليوم الرابع والعشرين، سمح لنا مجدداً بالدخول إلى كنيسة قيامة الرب، وجاء ذلك بناء على طلب من الحجاج، وزرنا خلال تلك الليلة الأماكن المقدسة، بخشوع أكبر، ومرات أكثر مما عملناه قط من قبل، لاقتراب موعد مغادرتنا، وفراقنا لهم، وعند اقتراب حلول الفجر، كان اليوم هو الأحد الثالث عشر بعد التثليث، وعيد القديس بارثلميوالرسول، وقد غنينا قداساً في ضريح الرب، وقد عينت لغناء القداس، ولذلك وقفت مرتديا ثيابي المقدسة في الكهف الداخلي للضريح المقدس، إلى جانب القبر الأعظم قداسة، الذي عمل وجهز ليكون بمثابة مذبح، وقد غنيت بصوت مرتفع وبهيج، في حين وقف أعضاء الدير والحجاج في الخارج ورددوا معي، وكان بهيجاً وممتعاً جداً أنني غنيت هذا القداس، وبدا لي أن صوتي كان أوضح وأعلى مما كانه قط من قبل، وقد تجليت كثيراً، وأقول جاداً ،إنه بالنسبة لهذا القداس، وبقدر ماأعتقد، إنه منذ سنوات طوال، وربما لم يحدث، أي أنه لم يتمكن قط واحد من الرهبان المبشرين من غناء قداس في ضريح الرب، باستثنائي أنا وحدي، ولقد ابتهجت في هذا اليوم لحصولي على مثل هذه النعمة العظيمة التي حفظت بشكل خاص لي، وإنني أصلي أن تجعلني مقبولاً لديه، وهو الذي قام من الموت في هذا المكان.

ولدى الفراغ من القداس، سعينا إلى هنا وإلى هناك وطفنا حول الأماكن المقدسة في هيكل الرب، وقلنا لهم وداعاً مع الدموع، لأنه كان من الصعب بالنسبة لنا مغادرة هذه الأماكن الحلوة والمحبوبة جداً لدينا،

بسبب المسرات الكثيرة التي تلقيناها في هذه الأماكن المقدسة، من خلال تقبيلها، ولدى فراغنا من تقبيل الأماكن المقدسة، أخذنا ننتظر قدوم السادة المغاربة، ومن ثم اخراجنا من الكنيسة، مثلما فعلوا دوماً من قبل، لكنهم تأخروا لبعض الوقت، وقد تعجبنا تجاه ذلك، وتساءلنا لماذا لم يتم اخراجنا، وخشينا أن يكونوا قد قصدوا الاحتفاظ بنا سجناء هناك، وأنهم قد تدبروا تهمة ملفقه ماضدنا، وقدم في الوقت نفسه عبيد الرئيس كالينوس ووصلوا إلى باب الكنيسة، وأخبرونا من خلال فتحة الباب هناك بأن المعلم كالينوس، أي ترجماننا كان جاهزا، وأنه كان منتظراً مع الحمير والجمال لإخراجنا بسبب سجننا الطويل الأمد، وفي حوالي منتصف النهار، جاء السادة المغاربة الذين احتفظوا بمفاتيح ضريح الرب، وتركونا نخرج، وذهبنا مباشرة إلى أماكننا، وتغدينا بسرعة، واستعدينا للمغادرة، وفق الطريقة المشروحة بعد تاريخ الهيكلين وتاريخ مدينة القدس.

هنا نهاية الحج كله إلى القدس.

مع أنه مما تقدم وقيل، من الممكن جمع رواية متفرقة عن مدينة القدس، مع ذلك سوف أقوم في هذا المكان بشكل خاص بوصفها، ووصف أوضاعها الحالية، دون أن اتحدث عما كانته في الأيام الخالية، بل سأتحدث عن وضعها الحالي، وكثير من الأوصاف لهذه المدينة يمكن الوقوف عليها،وهي تتحدث عن أوضاعها القديمة، من ذلك مصنف يوسفيوس «حرب اليهود »—الكتاب السادس، الفصل الثامن، يضاف إلى ذلك لدى مصنف Speculum Historiale— الكتاب: ٢٦، الفصل:١٠٣، وأيضاً لدى المعلم أنطونيوس، في تواريخه— القسم الثاني— المجلد:١٦، الفصلان:١٣و٦، وكذلك في ذيل التواريخ— الكتاب الثامن، ص١٥، ولدى الراهب بوركارد، الذي كان من طائفة القديس دومينيك، في كتابه الصغير الذي وصف فيه الأرض المقدسة،

وقدم به رواية صحيحة.

وقام بعض من كل من القدماء ومن المعاصرين برسمها على الورق، وهكذا صار من الممكن رؤية مظهر هذه المدينة المرغوبة كتابة ورسماً، وبناء عليه، سوف أبذل أنا شخصياً جهدي لتقديم رواية عنها، فإذا نسيتك ياقدس، لتنس يدي اليمنى براعتها، وليلتصق لساني في سقف حلقي، إذا لم أتذكرك، ومن أجل أن أكون قادراً على فعل هذا بوضوح أكثر أضفت إلى روايتي عن المدينة المقدسة، رواية عن هيكل الرب، الذي يدعونه باسم هيكل سليمان ، وكذلك عن هيكل كنيسة الضريح المقدس، الذي يسمونه القيامة، لأنه من دون وصف هذين الهيكلين، من غير الممكن عرض أوضاع المدينة المقدسة، مشاهداً أن جميع أبنيتها القائمة، وجميع أبنيتها المهدمة، وكل قداستها وكل شرورها، تعتمد عليهما، علاوة على ذلك يحتل هذان الهيكلان مع ساحتيهما شطراً كبيراً من المدينة، ولذلك لابد من أن يكون لهما نصيبهما في أعمال الوصف.

وصف مدينة القدس المقدسة في وضعها المعاصر، وهذا هو الفصل السادس والأخير من الشطر الأول

من كتاب الجولات والرحلات

[٢٥٥] بدأ وجود مدينة القدس الحاضرة الأعظم جلالاً وقدما في سنة ٢٢٤٢، من خلق العالم، أي٢,٩٥٧ سنة قبل تجسيد الكلمة، وقد بنيت إثر طوفان نوح مباشرة، من قبل ابنه الكبير سام، وعاش سام هذا تبعاً لروايات الحكماء حتى أيام ابراهيم، وكان هو مليكصادق ملك سالم، وذلك حسبما جاء الخبر في رسالة جيروم إلى ايفاجيروس -Eva grius، وكذلك حسب رواية مصنف الـ Speculum Historiale، ورواية يوسفيوس في الكتاب الأول ص١٧٨.

فبعد الطوفان، جاء بتوجيه من الرب إلى هذا المكان، وبنى الهيكل هناك، الذي أطلق عليه اسم «سالم» ومعنى هذه التسمية وترجمتها «عدل» أو« سلام» أو «استنفاد الكمال»، أو« ذاك الذي يبعد الموت»، لأن ملكيصادق كان أول كاهن، وكاهن أعلى للرب العلي الأعلى، وكان يقدم الخبز والخمرة في الهيكل الذي بناه على جبل أكرا(الجمجمة)، ومنه رأى إبراهيم، البطريرك العظيم القداسة، أنه جدير أن يتلقى مباركة منه، حسبما قرأنا في سفر التكوين:١٤، وكنت قد تحدثت عن هذا الكاهن من قبل في ص٥١٥، ولتعرف كم كان عظيماً، اقرأ الرسالة إلى العبرانيين:٧.

وقام هذا الرجل بتكريس وتقديس هذا للرب، ولذلك كانت هذه المدينة مقدسة منذ أيامه حتى هذا اليوم، ولم يسمح الرب قط للمذنبين بالإقامة فيها طويلاً بسلام، كما هو واضح للانسان الذي يقرأ التاريخ التوراتي كله، والتواريخ، والأخبار.

غير أن العقل يحاجج أنه حتى في أيام أبونا الأول آدم، كان هناك

نوعاً من أنواع الخلوات فوق موضع الجمجمة على جبل المدينة المقدسة، بسبب أن آدم قد كشف له عن مخلص الجنس البشري، وطريقة الخلاص ووقته، وإليه كُشف أيضاً عن مكان الخلاص، وبما أنه— وقتذاك— لم يكن بإمكانه رؤية المخلص في أيام حياته، كما لم يكن باستطاعته البقاء حياً حتى أيام المسيح، قام بتشريف مكان الخلاص بشكل رائع، وغالباً مازاره وصلى فيه، هو وأولاده، وأخيراً عندما رأى أن موعد موته بات وشيكاً، انتقل من الخليل، حيث كان يسكن، وصعد إلى موضع الجمجمة، وسدد دين الموت، لأنه عرف بأن المسيح، الذي هو آدم الثاني، سوف يذهب في هذا المكان بالموت الذي جلبه إلى العالم، وحمل أولاده جسده إلى حبرون، إلى الكهف المزدوج، وذلك باستثناء رأسه، الذي بقي في موضع الجمجمة، ولذلك عامل أولاده ذلك المكان باحترام.

ويمكننا أن نعتقد أيضاً أن سام بن نوح، امتلك هيكلاً هنا بعد الطوفان، ومع ذلك كان هنا خلوة أو مصلى قبل الطوفان، وهنا أيضاً قدم ابراهيم كبشاً ضحية عوضاً عن ابنه، وقد حدثتنا عن هذا ، الأخبار العبرية، وكذلك أمبروز وخريسوستوم، وجيروم، والاخباريون ومع ان التعليقات على متى:٢٧، قد قالت بأن الذين يؤكدون بأن آدم قد دفن في الجمجمة لم يقولوا الصدق، إن هذا لايتعارض مع ماقلناه، لأننا نقرّ بأن جسده قد دفن في الخليل، حسبما جاء الخبر في يشوع:١٤، لكن رأسه بقي على جبل الجمجمة، فقد قرر الرب هذا، وعندما كان آدم يموت، رجا أولاده أن يفعلوا ذلك، وأستخلص من هذا كله أنه حتى الطوفان قد كان هناك على الأقل خلوة أو مصلى، وهيكل فوق موقع مدينة القدس، من دون وجود سكان بشريين، ولم ينظر إلى موضع الجمجمة على أنه مقدس بشكل خاص حتى أيام الرومان، الذين لكراهيتهم لليهود جعلوا منه موضعاً لتعذيب المجرمين ولإعدامهم، إنما

بصلب المسيح ردت جميع القداسة إلى المكان، ولسوف يبقى هكذا إلى الأبد، ومن أجل هذا المكان نفسه انظر ص٤٨٨ , ٥٤٠.

★★ ★★ ★★

وتبعاً لاختلاف الأشخاص والأزمان، تلقت هذه المدينة أسماء مختلفة، فقد دعيت باسم «سالم» في سفر التكوين:١٤/ ١٨، ودعيت أحيانا من قبل الشعراء باسم«سوليما»، وجاء اسمها« يبوس» في يشوع:١٥/ ٨، وأورشليم، في سفر القضاة:١٩/ ١٠، وباسم «هيروسوليما»في متى:٢، وفي لوقا، وباسم« بيدر أرنان» في سفر أخبار الأيام الأول:٢١/ ١٨، وكذلك ورد اسمها لدى جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، وباسم« أريئيل» في سفر إشعيا:٢٩،و« ابنة صهيون»، في سفر زكريا:١١/ ٩، و« المدينة الدموية» في سفر حزقيال:٢٢/ ٢، و« المطلوبة المدينة غير المهجورة» في اشعيا:٦٢/ ١٢، و« مدينة قوية» في سفر إشعيا:٢٦/ ١، و« مدينة الرب» في المزمور:٧٦،و« كرسي الرب» في إرميا:٣/ ١٧، و« السيدة في البلدان» في مراثي ارميا:١/ ١، و« العظيمة بين الأمم» في مراثي ارميا:١/ ١، و«وادي الرؤيا» في اشعيا:٢٢/ ١، وحول هذا النص انظر شروح دي ليرا، و« سدوم» في رؤيا يوحنا:٢، و« البرج» في متى:٢١/ ٣٣، و« إيلياء» نسبة إلى الامبراطور إيليوس هدريانوس، علاوة على ذلك غالباً مادعاها جيروم— ومن الممكن للانسان أن يقول دوماً— باسم هاليا Halia، وفي هذه الأيام يدعوها الاغريق باسم هاليا، وكابيتوليا، وذلك مثلما فعل بطليموس، ومثل هذا دعيت من قبل يوسبيوس باسم« الجريزا» Algariza أي« الجبل العالي جداً» ويطلق عليها المسلمون اسم الأقصى، لكن اللاتين يسمونها إما أورشليم أو يروسوليما Jer-usolyma أو المدينة المقدسة، أو يطلقون على المدينة كلها اسم جزء منها، وبذلك يسمونها « الضريح المقدس».

وكـانت هذه المدينة دومـا أدنـى من أكبر المدن، وأكبر من أصغـرها، وهي في هذه الأيام بمثل هذا الحجم حيث لم تتـوسع إلى الحجم الكبير، ولم تتقلص فتصبح صغيرة، ذلك أنها ليست أصغـر من مـدينتنا أوغـزبورغ Augsburg في سـوابيـا، وكنت قـد تحدثـت عن هذا الموضـوع من قبل، وطول أسـوارهـا التي تحيط بها الآن هي نفسهـا كما تركهـا الامبراطور ايليوس هدريانوس، وهذا مـاسوف نبرهن عليـه فيما بعد، علما بأننا كنا قد تحدثنا عن حجمها من قبل.

وكـان هناك في العصـور القـديمـة أبواباً كثيرة تقـود إلى هذه المدينة، والذي يمكننا استخلاصـه من الكتابات المقدسة أنه قـد كان هناك ثمانية أبواب رئيسيـة، وإذا قرأنا أنه هناك أكثـر من ذلك، فمرد ذلك إمـا لأن البـاب الواحـد له أكثـر من اسم، أو لوجـود أبواب فـرعيـة صغيرة إلى جانب الأبواب الرئيسية، التي إليهـا انتمت أسماء هذه الأبواب الفرعية، ولم أستطع في العصر الحديث الوقوف على أكثر من خمسة أبواب، فباتجاه الشرق هناك البـاب الذهبي، وهو مغلق الآن، وكنا قـد تحدثنا عنه من قبل، ويوجـد بين الشرق والجنوب باب الدمن(القاذورات)، وهو أيضـاً تقـدم وصفه من قبـل، ويوجد في الجهـة الجنوبيـة باب النبع، الذي من خـلاله يذهب الانسـان إلى نبع سلوان، ويوجـد في الجهة الغـربيـة باب نتجـار، أو باب السمك، وكنا أيضـاً قـد تحدثنا عنه من قبل، وهناك في الشمال باب إفـرايم، الذي يسمى أيضـاً باب القـديس اسطفـان، وهناك مسـافـة كبيرة بين باب السمك، وباب القـديس اسطفـان، لأن باب السمك قـائم قرب الزاوية حيث يتصل السـور الجنوبي بالسور الغـربي، وليس هناك على طول السـور الغربي بـاب آخر حتى يصل الانسـان إلى باب القديس اسطفان القائم في السور الشمالي، قرب الزاوية التي يتصل بها بالسـور الشرقي، وكـان القـديس يوحنا قـد رأى في سفـر الرؤيا— الاصحـاح:٢١، اثنـي عشر بابا في القـدس السماويـة وهو رقـم لم تمتلكه

هذه المدينة قط.

وكـان فيما مضـى على طول إطار الأسـوار والشرافـات، أبراج، من الممكن لنا تعقب خرائبها، وكان المسلمـون قد رموا هذه الأبراج أرضاً، وبنوا أبراجاً أخرى داخل المدينة، على مقـربة من المساجد، لاستخدامهم في شعـائرهم، ذلك أنهم لايهتمـون كثيراً، ولايتعبـون أنفسهم بشأن تحصين المدن، لكنهم يراقبون بدقـة الدخول إلى البـلاد، وكان فيما مضى قيـاس السـور والشرافـات ثـلاثة وثلاثين غلوة، وذلك يشمل كـامل الاستـدارة، فهـذا ماحـدثنا به يوسفيـوس في الكتـاب الخامس، الفصل الثامن، وكانت الأسوار في الماضي القديم قوية، ومزدوجة، كما سلف لنا وبينا ذلك، وللمـدينة خنادق مـن جـانبي الغـرب والشمال، وهناك من الجهة الشرقية وادي شعفاط، ومن جهة الجنوب وادي صهيون.

وفي الداخل، هذه المدينة تلية، وغير مستـوية، لأنها بنيت فوق أماكن عالية، وجبل صهيون هو الأعلى من البقية، ويقوم على السفوح الشمالية لجبل صهيون جزء كبير من المدينة، ويقوم على كتف جبل صهيون جبل الجمجمـة، وهو الذي يدعم كنيسـة الضريح المقدس مع جـزء كبير من المدينة، وهناك أيضـاً جبل مـوريا، الـذي فـوقـه يقف هيكل الرب، مع الجزء الأساسي من المدينة، وعلى هذا يصعد الانسان وينزل في كل مكان خـلال المدينة، وهذه الجبال لاتمتـد إلى قمم عـالية، بل هي نفسهـا قمم عريضة وواسعـة للرابية الرئيسية التي تقوم عليهـا المدينة، وهذا ماجعل المدينة غير مستوية، وهذه الرابيـة كلها قد ورد ذكرها في المزمـور الثامن والعشرين قـوله:« وأدخلهم في تخوم قـدسـه هذا الجبل الذي اقتنتـه يمينه»، ومثلما مـدينة بازل تليـة، كـذلك هذه المدينـة، ففي بازل تماثل هضبـة القـديس ليـونارد، جبل صهيون في القـدس، وهضبـة القـديس بطرس تماثل جبل الجمجمة، وهضبة القديس مارتن جبل موريا، وهناك على كل حال فوارق كبيرة بالشكل والتركيب بين هضبة وأخرى.

وكما قلنا من قبل، ان شطراً كبيرا من المدينة مشغول من قبل هذين المعبدين المشهورين اللذان غالبا مايرد ذكرهما، وهما هيكل الرب، الذي يسمونه هيكل سليمان، وهيكل الضريح المقدس، وذلك مع ساحتيهما الواسعتين، والأبنية المتصلة بهما، وبالاضافة إلى هذين، هناك موزع في المدينة كثير من البيع للهراقطة، وعدد كبير من مساجد المسلمين، وكنس اليهود، ومعابد السامرة، والشوارع الرئيسية مغطاة بسقوف معقودة، ويقف تحت هذه السقوف المعقودة حوانيت التجار من على الجانبين، ومطابخ الطباخين، ويقطن في الشوارع الأخرى الأناس العاملين.

وكقاعدة بيوت المدينة مبنية بجدران حجرية، مع أن أكواخ الناس الفقراء معمولة من الطين، ولقد رأيت هناك في المدينة بعض البيوت الكبيرة الجيدة، لكن الجزء الأكبر من المدينة مشعث، والبيوت قائمة مخربة من دون أي سكان، ولهذا السبب لاتحمل جثث الجمال الميتة والخيول، والحمير، والكلاب وماشابه ذلك إلى خارج الأسوار، بل تلقى في الأماكن المهملة في داخل الأسوار، بين البيوت المهدمة، ومع ذلك يوجد في الأماكن والأجزاء المسكونة أعداد كبيرة من الناس اجتمعت من كل أمة تحت قبة السماء، كما جاء في أعمال الرسل:٢/ ٥، وفي الحقيقة هناك أكثر من خمسمائة يهودي، وأكثر من ألف مسيحي من كل طائفة وبلد، إنما أقلهم جميعا هم من أتباع الطقوس اللاتينية.

وليس فيها ماء، إلاّ مايسقط من السماء، أو مايجلبونه إليها بشكل فني، خلال مجاري مائية، كما سلف لي وتحدثت، ويوجد في المدينة أماكن كثيرة لخزن الماء، في برك، وخزانات وصهاريج، وأعداد كبيرة، من الصهاريج والأقنية، ولذلك هناك في المدينة مايكفيها من مياه، وملك مصر، الذي هو السلطان، هو السيد هناك، وقد عين ولاة لحكم شعب البلاد، وتراجمة لحكم الغرباء والحجاج من كل من المسيحيين واليهود، وعين مماليك لحكم رجال الحرب، وهكذا نجده يحكم الناس بقوة مدنية

هي سلطة مطلقة.

والذي يقرأ الكتابات المقدسة، وكتب التاريخ يعرف أن هذه المدينة قد تعرضت منذ بدايتها حتى الآن لكثير من المصائب، وغالباً ماأحرقت، واستولت أمة عليها وطردت منها أمة أخرى، وكثيراً ماتعرضت للدمار، وشملها الدمار حتى أساساتها، فقد تعرضت للتشعيث من قبل نبوخذ نصر، ملك البابليين، وبعد ذلك من قبل أسوبيوس Asobeus ملك المصريين، ثم من قبل أنطيخوس، وبعده من قبل بومبي، وبعد هؤلاء استولى على البلدة هيرود الكبير، وسوسيوس Sosius، إنما من دون أن يؤذياها.

وبعد ذلك، أي بعد آلام الرب، دمرها تيتوس دماراً تاماً، وسواها بالأرض، وحطم أساساتها، ومع ذلك ترك بعض الأبراج القوية قائمة وكذلك السور الغربي، حتى ترى الأجيال التالية، كم كانت المدينة حصينة، ومع ذلك استولى عليها الرومان الشجعان، وقد ترك هذه الأماكن الحصينة لتستخدم كقلعة للذين قرر تركهم هناك، كحامية للبلاد.

وبهذا التهديم كان شقاء المدينة مع أبنائها هائلاً إلى درجة أن مامن انسان يقرأ الرواية التي قدمها يوسفيوس، دون أن يبكي ويحزن، وكان سبب هذه الفاجعة العظيمة هو وحشية المراقب العام فلورس Florus، الذي أنزلِ باليهود في القدس مصائب وعذبهم بلا حدود، حتى وصل بهم الغضب إلى التجمع للعصيان ضد الرومان، وخرجوا بثورة وقتلوا كثيراً من الرومان، وطردوا كستيوس Cestius، حاكم سورية، خارج البلاد، وكان اليهود أنفسهم في داخل المدينة عدة أحزاب، فقد كانوا منقسمين إلى ثلاث فئات، وقبل أن يقدم الرومان قتل أحدهم الآخر في المدينة بشكل وحشي، وافتعلوا الحرائق، وتصارع أحدهم مع الآخر نهاراً وليلاً، صراعاً لايمكن ايقافه، وكان السبب الحاسم لهذه

المشـاكل كلهـا هو اعـدام يوحنا المعمـدان، وصلب المسيح الناصري، ومقتل جيمس الرسـول، وهذه أمـور عـرضهـا مطولاً وبشكل مـؤلم في كتابه حول« حرب اليهود».

وبعـد تهديم المدينـة الذي وقع في السنةالثـانيــة والأربعين بعـد آلام الرب، أصبح المكان وكراً للصـوص وللقتلة لسنين طويلة، وذلك حتى أيام الامبراطور اليـوس هدريانوس، الـذي سمع عن الفـوضى في ذلك المكان، فقـدم إليه في سنة ١٢٤م فهـدم الجزء الذي أعيـدت عمارته من المدينة، وطرد وقتل مقترفي الآثام، ثم كـان أن استقـر رأيه على وجـوب قيـام مدينـة هناك، فعاد مجددا سنة ١٣٩م، وأعـاد بناء المدينة ووسعهـا، وجعل في داخل الأسوار أماكن آلام الرب وقيـامته، الأمر الذي سوف نتولى شرحـه فيما بعد بوضوح أكبر، وعمل مدينة جـديدة، سماها ايلياء، اشتقاقاً من اسمه.

وبعد اعـادة البناء هذه، لم نقرأ بأنها دمـرت دماراً كليـا، بل تعرضت لدمـار جزئي، واقتيـد سكانها إلى السبي، كما أنها لم تنقل قط من مكانها، فهذا واضح مما أعلنه غريغوري في عظتـه حول نص« بكى يسوع عندما رأى المدينة»، لكن المدينة توسعـت، كما سنتحـدث عن ذلك الآن، وكما سلف وتحدثنا عن ذلك من قبل.

والآن مع أن هذه المدينة قـد تأثـرت بكثير من الفـواجع التي لامثيل لها، لم يجر نسيان بدايتها ولا أوضاعها، مطلقاً بل هي باقية بشكل دائم، بمثـابة شاهـد أبدي بين أمم الأرض، وهي بذلك تختلف اختـلافاً كليـاً عن أحوال أعظم المدن شهرة في العالم، من أمثال: روما وطروادة، ذلك أنه مـامن انسان يمكنه أن يعـرف بشكل مـؤكد من الذي كـان المؤسس لرومـا، بسبب عـدم الوفـاق بين الذين عـالجوا موضـوع أصلهـا، وكما حدثنا كاتب«عجائب الدنيـا» فقد قال سالوست Sallustبأنها قد بنيت من قبل تروجـان Trojans وقـال يوسبيـوس بـأنها قــد بنيت من قبل

رومولوس، وقال كتّاب آخـرون بأنها قد بنيت من قبل آخرين ، في حين يمكننا البرهنة على مـؤسس القـدس المقـدسـة وتاريخ تأسيسهـا من الكتابـات المقدسة، كما تقـدم القول، ومع الاقـرار بأن روموليوس قـاتل أبيه قد أسس روما بالسلب والنهب، كما تحدث أوسيوس عنه، فقد جاء تأسيسهـا بعـد زمن طويل مـن تأسيس القـدس، في أيام حـزقيـا، ملك اليهودية، أي بعد ألفين ومـائتين وثلاثين سنة من تأسيس مدينةالقدس، وسبعمائـة واحدى خمسين سنة قبل ميـلاد المسيح، وذلك في سنة ٤٤٨٤ من خلق الدنيا، وإنه لأمر مثير للدهشة أن يكون أصل مدينة بمثل هذه الشهـرة غير واضح، وألمح جيروم في رسـالتـه إلى بـولينوس إلى هذا بقوله:« جلـب هذا العصر أمراً عجيباً، و لم يسمـع انسـان فيها مضى من أيام، أن يبحث أناس قـد دخلوا إلى مثـل هذه المدينة العظيمـة عن شيء ماهو ليس موجود فيها»، وكـانت طروادة، تبعا لهومر(الالياذة: ٤/ ٤٤) أعظم المدن تحت الشمس، وتحت قبـة السماء المليئة بالنجـوم، ومع ذلك دمـرت بشكل جعلت أوفيـد Ovid   يقول:« حقول قمح تتماوج الآن حيث قـامت طروادة فيها مضى»، وأكثـر مـن هذا هو أن مـامن انسـان يمكنه أن يقول أين قامت طروادة، فطروادة العظيمة التي كانت حاضرة آسيـا كلهـا، قد تهدمت كليـا، وأصبحت نسيـاً منسياً حتى أنه من غير الممكن رؤية جسدها أو أثرها، فضلاً عن هذا، فإنهم يقولون بأن المكان الموجـود إلى جـانب البـوسفـور، حيـث من المفترض لدى بعضهم أن طروادة قد قامت فيه، هو من جميع الجوانب ضيق جداً لاستيعاب مدينة مشهـورة، لكن هذا ليس هو الحال بالنسبـة لقـدسنا، التي تأسست قبل طروادة بأربعمائـة وثلاث وثمانين سنة، وهي مـدينة مشهـورة حتى هذه الأيام، وكـانت طروادة قـد تأسست في أيام أجـوث Ajoth(إهود Ehud؟) القـاضي في بني اسرائيل(الملوك:٣)، ويقـول بعضهم بأنها قـد بنيت إلى جانب البـوسفور، ويقول بعضهـم في الدردنيل من قبل واحد اسمه تروس Tros وقد دمـرت في سنة مائتين وخمس عشرة سنـة بعد

تأسيسها، وذلك في الأيام التي كان فيها عبدون قاضي اسرائيل، وبشأن هذا القاضي، انظر سفر القضاة:١٢، وأيضاً من أجل الاطلاع على بيان عن طروادة انظر القسم الثاني ص١٧٤.

ووضح لدينا الآن مما قيل بأن القدس هي واحدة من أعظم المدن قدماً في العالم، ذلك أنها أقدم من تريفس Treves بألف سنة وثماني سنوات، ومن طروادة بألف سنة وأربعمائة وثلاث وثمانين سنة، وهي قائمة مستمرة حتى هذا اليوم، لأن الرب قد اختارها، ولهذا قيل في المزمور:« لأن الرب قد اختار صهيون اشتهاها مسكنا له، هذه هي راحتي إلى الأبد ههنا أسكن لأني اشتهيتها»(المزامير:١٣٢/ ١٣—١٤)، وكذلك في سفر أخبار الأيام الثاني:٦/ ٥قوله:« منذ يوم أخرجت شعبي من أرض مصر لم أختر مدينة من جميع أسباط اسرائيل لبناء بيت ليكون اسمي هناك ولااخترت رجلاً ليس رئيسا لشعبي اسرائيل. بل اخترت أورشليم ليكون اسمي فيها».

ولكن قد يقول انسان ما:« إنني أقر بأن القدس قد جرى اختيارها، وكانت مدينة مقدسة قبل موت الرب، لكن بعد اقتراف مثل هذه الجريمة العظمى فيها، لم تعد تستحق تسميتها مقدسة، بل بالحري مدنسة، وغير نظيفة»، وقد أجاب على هذا جيروم في رسالته إلى هاديبيوس Haedibius حول موضوع صراخ الرب على الصليب، حيث قال:« ينبغي أن لايظنن انسان أنه أمر غريب بعد موت المخلص، دعوة القدس باسم المدينةالمقدسة، لأنه حتى وقت خرابها، اعتاد الرسل دوما على دخول الهيكل وإقامة القداسات الشرعية من أجل اليهود المؤمنين، فقد أحب القدس كثيراً، وبكى عليها وناح، وعندما كان معلقاً على الصليب قال:اغفر لي ياأبي»، هذا وعلاوة على ذلك تناول جيروم هذه المسألة في رسالته إلى باولا، ويوستوخيوم في رسالته إلى مرسيلا، ولقد بحث جيروم في هذه المسألة مطولاً، وقال الشيء الكثير في إطراء

الأرض المقدسة ومدينة القدس.

★★ ★★ ★★

هيكل الرب الذي يدعى باسم هيكل سليمان، والأقصى وبيت إيل

صارت مدينة القدس مدينة مجيدة ومقدسة بهيكليها، حيث إليهما، تدين إلى حد بعيد، بحجمها، لأنه لو جرى نقل الهيكلين والبيع المتصلة بها والمساجد، لكان المتبقي منها قرية بائسة، ومن الممكن مشاهدة هذا الشيء في مدننا أيضاً، فلو أنه جرى نقل الكنائس، والديرة، والبيع، مع جميع الأبنية المتعلقة بها، من كولون، لبقي منها بلدة صغيرة فقط، ومثل هذا يتعلق بالبندقية، فلو جرى نقل الديرة، والكنائس، لكان المتبقي ليس أكثر من بلدة.

وبما أنني سأحدثكم الآن عن هيكل القدس، لابد من أن أحدثكم أولاً عن الهيكل الأقدم، فنحن نعرف من الكتابات المقدسة، أنه عندما وعد الرب باعطاء أرض كنعان إلى آبائنا، ألمح إليهم أنه هناك في تلك البلاد مكان هو سوف يختاره ليكون هيكلا، وليكون من أجل الأضاحي، وهو سوف يبنيه لهم في الوقت الذي سوف يختاره، وعلى هذا نقرأ في(سفر التثنية:١٢)قوله:« عندما ستصلون إلى الأرض التي أعطاك الرب إله آبائك لتمتلكها كل الأيام التي تحيون على الأرض. تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء، وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم، وتحرقون سواريهم بالنار وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان، لاتفعلوا هكذا للرب إلهكم. بل المكان الذي يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سكناه تطلبون وإلى هناك تأتون، وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم

وعشــوركـم، ورفــائع أيـديكم ونذوركم ونـوافلكم وأبكار بقـــركم وغنمكم، وتأكلون هنـاك أمـام الرب إلهكم» ولم يعلـن الرب عن مكان هذا الموضع حتى أيام الملـك داوود، الذي أراه الملاك أرض بيـدر أرونا اليبوسي على جبل مـوريا وكان أرونا هذا من الأمم، وكان يبـوسيا، كما أنه كـــان غنيـا امتلك شطراً كبيراً مـن المدينة، وهكذا اشترى داوود منه أرض البيدر، التي أريت له، وهناك أقـام مذبحا، بناء على أمـر من أحد الملائكة، وكلف ابنه سليمان ببناء هيكل في ذلك المكان نفسه، ومن أجل هذا الموضـوع، انظر سفــر صمـوئيل الثـاني:٢٤، وسفــر أخبـار الأيام الأول:٢١، وبشكل خاص سفر أخبار الأيام الثاني:٣.

★★ ★★ ★★

وبناء عليـه بدأ سليمان في السنة الرابعـة مـن ملكه ببناء ذلك الهيكل، الذي كـان مشهوراً في جميـع أنحاء الدنيـا، وانتهى في السنة الثـامنة، كما جـاء في أخبار الأيام الثـاني:٢، فقد بني هذا الهيكل في سنة ٤١٦٩ بعـد خلق الدنيـا، و١٠٣٣ قبل ميـــلاد المسيح، و١٤٨٠ سنة بعـد مجيء بني اسرائيل من مصر، وكـان طول الهيكل ستين ذراعـاً هندسيـا، وعرضـه عشرين، وارتفاعـه ستمائة وعشرين، وأمـر بتذهيب داخله كله بصفـائح الذهب، وبتبليطه برخام ثمين، فضلاً عن هذا، كان هناك مذبحاً نحاسيا طوله عشرين ذراعاً، وانظر حول وصـف جميل لهذا الهيكل لدى كوسا، حول ★ ★ ★(١) الكتاب التاسع— الاصحاح الرابع.

١— كذا بالأصل، وقيمة المعلومات المقدمة أنها تعبر عن العقلية الأوربية الدينية التي آمنت آنذاك بالاسطورة، ذلك أن الحفريات الأثرية والدراسـات الموثقة نفت بناء— أووجود— هيكل أول أو غير ذلك من الهياكل، وأن تكون القدس قـد عرفت ملكاً اسمه سليمان، وعلينا أن نميز بين النبي سليمان الذي لانعــرف متى ولا أين عـاش، وبين الملك الـوهمي المخترع الذي اسمـه سليمان ووردت أخباره في أسفار العهد القديم.

وصنعت الأواني التي احتيجت من أجل الطقوس في الهيكل، كلها من أفضل أنواع الذهب، علاوة على ذلك، جلب سليمان ووضع في الهيكل كثيراً من الذهب والفضة، كان داوود قد كرسها له، وبعد الانتهاء من كل شيء كما ينبغي كرس الهيكل إلى الرب بطقوس فخمة، وجلب إليه تابوه عهد الرب، الذي كان فيه لوحي العهد فقط، ووعاء المن، وعصا هرون، ولم يسمح منذ ذلك الحين بتقديم قرابين في أي مكان إلاّ في هذا الهيكل، ومع ذلك بقي الناس بعد ذلك لوقت طويل معتادين على تقديم قرابينهم فوق الأماكن العالية، وهو ذنب غالبا ماأقدم ملوك القدس على لومهم عليه، أي أنه طالما الهيكل موجود هم لم يقلعوا عن استخدام الأماكن العالية.

وحدث أنه بعد مرور أربعمائة واثنتين وأربعين سنة على بناء الهيكل، رأى النبي إرميا أن النهاية قد اقتربت، وباتت وشيكة، فأخرج من الهيكل تابوه العهد، وحمله عبر الأردن إلى الوادي الموجود تحت جبل عبريم، الذي عرف باسم عربات مآب، كما سلف وذكرنا ذلك، وبدعائه هناك تسبب باخفائه في الصخر، حيث كتب باصبعه على الصخر، وطبع هناك اسم الرب بأربعة حروف، وعمل ختماً مثل الختم الذي يطبع بالحديد، واسم الرب هذا مخفي بشكل محكم بغيمة، بحيث لايستطيع انسان من الخارج العثور على المكان، كما لن يتمكن أي انسان من قراءة ذلك الاسم حتى هذا اليوم، ولن يتمكن أحد من فعل ذلك حتى نهاية الحياة، ولن يستطيع أي انسان اخراج التابوه من هناك، باستثناء موسى فقط وهرون، وورد خبر هذا في سفر المكابيين الثاني:٢، وفي الـ Speculum Historiale، قبل نهاية حكاية توبت، وبعد أخذ التابوه الذي كان مجد الهيكل، وابعاده، جاء نبوخذ نصر واستولى على القدس، وأحرقها مع صدقيا الملك، وأحرق أيضاً هيكل ربنا، حسبما قرأنا في سفر الملوك الثاني:٤، واقتاد السكان أسرى وأخذهم إلى بابل،

وبقي بعد ذلك موضع المدينة والهيكل مهجوراً لمدة سبعين سنة، أي حتى أيام داريوس، ملك الفرس، الذي سمح لليهود بإعادة بناء هيكلهم، وهو عمل انتهى في أيام حكم قورش، أي بعد ست وأربعين سنة، كما قرأنا في يوحنا:٢/ ٢٠، لكن هذا الهيكل لم يكن مثل الهيكل الأول في العظمة والفخامة، ولذلك بكى اليهود الذين رأو الهيكل الأول، حسبما قرأنا في عزرا:٣/ ١٢، والآن، إن هذه القواعد قد أرسيت في أيام الأميرين: زربابل وشالتئيل، خمسمائة سنة وخمس وعشرين سنة قبل ميلاد المسيح.

وتعرض الهيكل— على كل حال— مراراً للنهب وانتهاك الحرمة من قبل الأمم، وتعرض شطر من أخشابه للحريق، ومع ذلك بقي متماسكاً حتى هذا العصر الذهبي لربنا يسوع المسيح الذي وعظ فيه بشكل رائع، وعمل فيه معجزات، حسبما حدثنا التاريخ المقدس للانجيل، وواضح من انجيل مرقص:١٣/ ١—٢، الخ، بأن هذا الهيكل كان بناء فخماً منتصباً فوق صخور ضخمة، وقد بقي قائماً لمدة اثنتين وأربعين سنة بعد آلام المسيح.

وحسبت السنوات، منذ السنة الثانية لحكم قورش— ملك فارس— حينما أرسيت أساسات الهيكل حتى تخريبه من قبل تيتوس بخمسمائة وتسعين سنة، وحسبت السنوات منذ تأسيس الهيكل أيام سليمان حتى تهديمه من قبل تيتوس بألف ومائة سنة وسنتين.

وبالنسبة لتفاصيل حساب هذه السنوات، كان هناك أولا: من آدم إلى الطوفان ألفي سنة ومئتين واثنتين وأربعين سنة، ومن الطوفان إلى ابراهيم كان تسعمائة سنة واثنتين وأربعين سنة، وكان من ابراهيم إلى موسى، الذي أخرج بني اسرائيل من مصر، خمسمائة سنة، ومن موسى، والبناء الأول للهيكل خمسمائة سنة واثنتي عشرة سنة، ومن داريوس إلى أيام وعظ المسيح في الهيكل في السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر

تابيروس، خمسمائـة سنة وثمان وأربعين، ومجمـوع هذه السنوات حتى تاريخ وعظ المسيح خمسة آلاف سنة ومائتين وثماني عشرة سنة.

وقـال اسـدوروس Isidorus : عندما انتهت المملكة والكهانة اليهودية، ولد المسيح في بيت لحم، في السنة الثانيـة والأربعين من حكم القيصر أغسطس، الذي على هذا كـان قـد بقي من حكمـه خمس عشرة سنة إذا كـان قد حكم سبعـاً وخمسين سنة، وحكم من بعـده تايبيروس لمدة اثنتين وعشرين سنة، وفي سنة حكمـه الخامسـة عشرة جرى تعميـد المسيح حيث كان في الثلاثين من عمـره، وجرى صلب المسيح في السنة التـاسعـة عشرة من حكـم تابيروس، وقـال أمبروزيسـوس Am-brosius :«كان من خلق العالم إلى تأسيس القدس أربعة آلاف سنة وأربعمائـة وثماني وأربعين سنة، ومن تأسيس رومـا إلى ميـلاد المسيح سبعمائة وخمس عشرة سنة».

وعندما حاصر تيتوس القدس، أحرق أولاً الهيكل، وبعد ذلك المدينة كلهـا، وهدم جدران الهيكـل حتى أساسـاتهم، وأمـر بقطع الجبل الذي وقف عليـه، وأمر بـالركام فـرمي في وادي قـدرون، وطم الخنادق التي كـانت هناك، وسـواها مع الأرض، وذلك حسبما قـرأنا في «حـرب اليهود»— الكتاب السابع، الفصل:١٦، وفي أماكن أخرى كثيرة منه.

وقـال يوسفيوس بأنه بعمليـة الدمـار الكلي هذه للمـدينة هلك مائـة ألف وعشرة آلاف يهودي بالجوع وبالسيف، وأن مـائة ألف أخـرى من الأسرى قد بيعت بشكل علني واسترقت لأن المدينة كانت مليئة باليهود الذين تجمعـوا هنـاك للاحتفـال بعيـد الفصح، ومـا من مسيحي كـان حـاضراً أثناء هـذه الفـواجع، كما قـرأنا في مصنـف يوسيبيـوس القيسـاري«التـاريخ اللاهوتي»— الكتـاب الثـالث، الفصل الرابع حتى نهايته، وكـانت الكنيسة التي اجتمعت مع بعضها في القـدس قد تخبأت بفعل صوت الـرب الذي طلب منها مغادرة تلـك المدينة، والانتقال إلى

بلدة اسمها فحل، التي تقدم ذكرها معنا، والواقعة خلف الأردن، وكانت الغاية من ذلك، أن يكون الرجال المستقيمين والمقدسين الذين انتقلوا من القدس إلى هناك، قادرين على مشاهدة الانتقام الرباني كاملاً، وهو الذي أنزل على كل من الذين دنسوا حرمة المدينة وعلى غير الأتقياء من الناس، وذلك بطردهم من بلادهم وبتدميرها.

وعندما غادر الرومان مدينة القدس، بعدما سووها مع الأرض، عاد اليهود الذين كانوا متخفين في المخابىء إليها، وبنوا أكواخاً، وأقاموا مصلى منخفض في المكان الذي قام عليه الهيكل فيما مضى، وعادت الكنيسة إلى هناك أيضاً من فحل، لتقوم بعبادة الرب هناك، لكن اليهود الذين روحهم لم تكن حتى ذلك الحين تحطمت بما فيه الكفاية، أثاروا الاضطرابات، وآذوا بشكل يومي الأناس المؤمنين وأفراد الأمم، الذين كانوا يسكنون هناك، لأنهم كانوا متوحشين إلى أقصى الدرجات، وقتلة، سفكوا دماء جديدة فوق القدس، التي كانت الآن مسواة بالأرض، وملطخة بالدماء.

وبقي المكان بهذه الحالة البائسة لحوالي ست وسبعين سنة، أي إلى أن صار ايليوس هادريانوس امبراطوراً في سنة ١١٩، لتجسيد ربنا، حيث سمع بأن القدس التي كانت ميتة أخذت تتحرك ثانية، فعبر البحار بسرعة، وقدم إلى هناك، فوجد هناك كثيراً من الناس من كل من المسيحيين واليهود، كانوا على خلاف بين أحدهم والآخر، بسبب الخلاف بين دياناتيهم،وكان هناك بالوقت نفسه أناس من الأمم ووثنيين يكرهون الديانتين معاً وبناء عليه وضع في المكان الذي بنى فيه اليهود مصلاهم، وذلك حيث أقام تابوه الرب فيما مضى تمثالاً لشخصه، حتى يجعل المكان ممقوتاً من قبل اليهود، ونصب في الوقت نفسه في موضع صخرة الجمجمة، حيث وقعت حادثة الصليب، تمثالاً لفينوس، وفي كهف ضريح الرب تمثال جوبيتر، حتى يجعل هذين المكانين مكروهين

من قبل المسيحيين.

أما بالنسبة للقتلة واللصوص الذين وجدهم، فقد عرضهم جميعاً على السيف، وطردهم وباع كثيراً منهم رقيقاً، واقتحم الحصون والأسوار التي تركت واقفة منذ أيام تهديم المدينة، وهدم كل شيء، ثم غادر، مخلفاً وراءه هناك والياً للمقاطعة، وعندما أدار هؤلاء القوم ظهورهم يتجولون في المنطقة، حتى يتمكنوا من العودة إلى القدس مع جيشهم، وقتها جمع اليهود أنفسهم واحتشدوا في المكان الذي قامت فيه القدس، وتشاوروا فيما بينهم، فدمروا عمود القيصر الذي حمل تمثاله، وهدموا الهيكل، وعندما علم الامبراطور بهذا كان مغضباً، فوضع جانباً جميع أعماله الأخرى، وعاد إلى القدس مسرعاً، فقتل اليهود الذين وجدهم هناك، وباع كثيراً منهم عبيداً، وطردهم جميعاً إلى خارج حدود الأرض المقدسة، ومنع بموجب قرار حظر دخول أي يهودي إلى تلك البلاد، وعندما رأى أن المكان مناسباً لإقامة مدينة، صار أكثر لطفاً في عواطفه، وعطوفاً نحو المسيحيين، لكنه ظل أكثر قسوة وحدة ضد اليهود، وقام بتنظيف الموقع، وأمر بالأسوار المخربة في الجهة الغربية فرميت بالخندق، وسوى الأرض، وأدخل موضع الصلب وصخرة الضريح المقدس داخل الأسوار التي بناها حول المدينة، وأمر بإعادة بناء هيكل فينوس وجوبيتر هناك، وأقام فوق باب السمك، أو باب التجار خنزيراً منحوتاً من الرخام، من أجل ازعاج اليهود، حتى لايحاول أحد منهم الدخول من هناك.

وبقيت المدينة على هذا الوضع لحوالي مائة وثمانين سنة، وبما أن موضع هيكل الرب تحول إلى موضع مكروه وغريب، بالنسبة للذين لايعبدون الأوثان، بسبب وجود تمثال قيصر، وكذلك كان الوضع بالنسبة لمكان صلب الرب، وقيامته، وقد نسيت هذه الأماكن إلى أبعد الحدود، إنما في سنة ٣٨(كذا) عندما عمل قسطنطين الكبير نفسه

امبراطوراً، وأصبح مسيحيا، وجدت أمه هيلانه الصليب، وهدمت الأصنام، وبنت هيكلاً فوق الأماكن المقدسة.

وتحسنت الآن أوضاع المسيحيين، في حين ازدادت أوضاع اليهود سوءاً كل يوم، وبناء عليه عبد المسيحيون الرب في القدس بسلام كبير لمدة ستين سنة، ففي سنة ٣٦٣، اضطربت أوضاع المؤمنين، حيث كان يوليان قد وصل إلى العرش، فقد كان مرتداً عن الايمان الصحيح، وعن الإيمان بالديانة، وعندما سمع أنه يوجد في القدس كنيسة فخمة وتجمع كبير للمسيحيين، ذهب إلى هناك، وانتهز فرصة مناسبة لاظهار كراهيته للمسيحيين، فقد ألقى القبض على القديس سيراك Cyriack، أسقف مدينة القدس المقدسة، وهو الذي كان قد عثر على الصليب المقدس، وقام بصلبه لأنه عمل موعظة حول مجد الصليب، وعندما سمع اليهود بهذا، قدموا محتشدين فرحين مسرورين، فحصلوا على حظوة القيصر، بوساطة كثير من الهدايا، وجعلوا المسيحيين موضع كراهية أكبر في بلاطه، وبعدما فكر كيف يمكنه ايذاء المسيحيين، قرر الرفع من شأن اليهود، فاستدعى إلى حضرته القياديين والأعيان بين اليهود، وسألهم لماذا لايقدمون قرابين لربهم، لمعرفته أن شريعتهم تأمرهم أن يفعلوا ذلك، فخيل إليهم أنهم قد وجدوا الوقت المناسب فأجابوه قائلين:«نحن لانستطيع تقديم أضحية وفقاً لشريعتنا إلاّ في هيكل القدس، وليس هنا وهناك، ولذلك نرجو منكم ومن مراحمكم منحنا إذنا ببناء هيكل في المكان الصحيح، وهناك سوف نقدم أضحية من أجل سلامتك وسلامة الامبراطورية».

وعندما حصل اليهود على الاذن ببناء الهيكل، هاجوا إلى حد الجنون، ونشروا في كل مكان بأن جوليان— ذلك المرتد الشرير— كان النبي الذي وعدوا به في شريعتهم، ولذلك تقاطر اليهود من جميع الأماكن والبلدان، وشرعوا بالعمل فوق المكان الذي أحرق عليه الهيكل،

ومنحهم الامبراطور موظفاً من بلاطه ليتولى مراقبة انجاز البناء، وقد منح مالاً خاصاً وعاماً من أجل البناء، وجرت متابعة العمل بكل نشاط، وبدأ اليهود في الوقت نفسه بإهانة قومنا وكأن أيام مملكتهم قد عادت مجدداً، وقد هددوا المسيحيين بقسوة، وتعاملوا بوحشية معهم، وكانوا جميعاً قد امتلأوا بالعجرفة والتكبر.

وكانت الكنيسة تدار في ذلك الوقت من قبل الأسقف سيرل، وكان رجلاً مقدساً، وحدث أنهم عندما كشفوا عن الأساسات، أن أحضروا إلى هناك، حجارة كبيرة، وكلساً، وملاطاً، وخشباً، وباتوا لايحتاجون شيئاً لكي يقوموا في اليوم التالي برمي الأساسات القديمة، وارساء أساسات جديدة، غير أن الأسقف سيرل، قد أعلن، بعد تقدير دقيق للأمور، من خلال ماقرأه في نبوءات دانيال، حول هذه الأيام، أو من خلال ماتنبأ الرب به في الانجيل، أعلن بكل تأكيد، أنه من غير الممكن أن يتمكن اليهود من إرساء حجر فوق أخرى في ذلك المكان، وبات الجميع قلقاً حول التوقعات، وكان الضعفاء من المسيحيين مرعوبين، وكان الأقوياء منهم ليس لديهم من شك بأن اليهود سوف ينفذون خططهم، وفجأة حدثت معجزة، ففي الليلة التي بقيت على الشروع بالعمل، وقعت زلزلة عظيمة، ولم يقتصر أثرها على بعثرة حجارة الأساسات بالقرب والبعد، بل سويت جميع الأبنية التي كانت مقامة هناك، مع الأرض، ولحق الخراب بالبيوت التي سكنها اليهود مع العمال، وسحق الذين كانوا فيها وماتوا.

وعند حلول الفجر كان من المعتقد أنهم نجوا من هذه الكارثة لكن الذي حدث كان غير ذلك، لذلك جاء بقية الناس يركضون للبحث عن الذين سحقوا، وكانت البيوت قد غرقت في الأجزاء السفلى من الهيكل، كما كانت هناك أروقة معمدة، وكلها سقطت، وهناك كانوا قد احتفظوا بالأدوات الحديدية، والأشياء الأخرى المحتاجة للعمل، كما أنه

فجأة انبعثت من هذا المكان كرة من النار، وشرعت تسعى نزولاً في الشارع، وهي تحرق وتقتل اليهود الذين التقت بهم، وكانت تتحرك نحو الأمام ونحو الخلف، وكررت فعل هذا، مرة ثم مرة أخرى في جميع أرجاء المدينة، خلال ذلك اليوم كله، وأوقفت بلهيبها الانتقامي المحاولات الطائشة التي قام بها العنيدون من الناس، ثم إنه بسبب الخوف الهائل ولإرتجاف جميع الذين كانوا حضوراً ،فقد أرغموا بوساطة رعبهم على الاعتراف بأن المسيح هو الرب الحقيقي الوحيد، ولكي لايظهروا أنهم غير صادقين، ظهر في الليلة التالية على ملابس جميع اليهود، وبوضوح تام، علامة الصليب، حتى أن غير المؤمنين حاولوا غسل هذه العلامة وإزالتها، لكنهم لم ينجحوا بأية طريقة من الطرق، وبهذا صار اليهود وغير اليهود خائفين، ولذلك غادروا المكان، وتخلوا عن العمل الذي شرعوا به، وذهبوا عائدين إلى أوطانهم وهم مربكين تماما، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً لم يتجرأ اليهود على محاولة إقامة أي بناء ،فوق موقع الهيكل، ولهذا بقي الموقع من دون هيكل لوقت طويل.

أما بالنسبة لمسألة متى بني هذا الهيكل ومن قبل من فإن كثيراً من الناس يتساءلون، والمقصود هو الهيكل المقام الآن فوق أرض بيدر أرونا المقدسة، وقال كاتب Speculum Historiale لدى حديثه عن إعادة بناء الهيكل بعد احتراقه:«مامن انسان يعرف من الذي بنى هيكل الرب، الذي اسمه الآن بيت إيل»، ويقول بعضهم بأنه بني من قبل هيلانه، بعد العثور على الصليب، بنته مع كنيسة الضريح المقدس، ويقول بعضهم الآخر بأنه بني من قبل هرقل عندما أعاد الصليب وهو منتصر من بلاد فارس، ويقول آخرون بأنه بني من قبل جستنيان، ويقول بعضهم بأنه بني من قبل ملك مصر تشريفاً للأقصى Halachibis، أي الرب العلي الأعلى(كذا) وهذا هو الصحيح، ودليلي على ذلك أنني

وجـدت في «تاريخ أنطونيـوس»(الفلورنسي ١٣٨٩—١٤٥٩) القسم الثـاني— العنوان:١٣، الفصل ٤، الفقـرة:٤، أنه في سنة ٦١٩ لتجسيـد الرب، وبعد مائتين وثلاث وأربعين سنة بعـد يوليان، جلب الامبراطور هرقل حكمـه إلى نهاية سيئة، وذلك بعـدمـا حكم الامبراطورية وأدارها بشكل مـزدهر لسنوات طـوال، فقـد انغمس بهرطقـة الإرادة الواحـدة، وبعـد وفاة زوجتـه دنس نفسه بالزواج من ذوي القـربى، ولذلك دخل عمـر خليفــة محمـد ﷺ إلى سـورية وفلسطين مع قــوات لاتحصى من العرب، وانتـزع كل شيء من أيدي المسيحيين، وفي سنين الفوضى هذه، استولى المسلمـون على مدينة القدس المقـدسة، وجعل السكان المسيحيين فيهـا رعية له، وفي أثناء إقـامة عمـر في القدس صـار صفرونيـوس على معرفة به، وتطورت العلاقـات إلى حد أن عمر دخل إلى كنيسة الضريح المقدس معه لرؤية زينتها، وعندما كان عمر يتحدث مع الأسقف، سأله عمر عن المكان الذي قام فيه فيما مضى الهيكل، الذي دمّر مع المدينة من قبل تيتوس أمير الـرومان، واقتاده الأسقف إلى أرض بيـدر أرونا، الذي كان مغطى وقتهـا ببيوت عـادية، وحدد له مكان هيكل الرب بـوساطة بعض آثار البناء القديم التي كانت باقية.

وأعطى عمـر أوامر بوجـوب تنظيف مـوضع أرض البيدر، ورصـد مبلغـاً مـن المال لنفقـات ذلك، ووضع عمالاً لإعــادة بناء الهيكل، لكن عندمـا أرسيت الأسـاسـات غطست على الفـور واختفت عن النظر، ولم يكن بالإمكان رفع الجدران، وعندمـا كان عمـر يتعجب من هذا ويفكر به، أخبره أحد المتنبئين، أنه مادام أحـد الصلبان قد بقي مرفوعـاً وعاليا فـوق جبل الزيتون في مـواجهـة الهيكل، فإن البناء لن يتماسك، لكن إذا ماأزيح ذلك الصليب وأزيل، يمكن للهيكل أن يقـوم، وكان المسيحيون قد نصبوا صليباً عالياً على جبل الزيتـون فوق في مواجهة المدينة، وغالباً ماكـانوا يصلون تحته، وكـانت صلواتهم بقوة فضائـل الصليب فعالة إلى

حد أن المسلمين لم يكونوا قادرين على بناء الهيكل بقوة غدرهم، إلاّ عندما أزيل الصليب وتوقفت الصلوات.

ولو كان المسيحيون شجعاناً بما فيه الكفاية لحفظ ذلك الصليب، لما استطاع المسلمون قط بناء الهيكل، لأنني أعتقد أن الصليب قد أقيم من قبل القديسين كعلامة على حماية مدينة القدس، وخشية إقامة هيكل لعبادة غريبة فيها، ويمكنني أن أعلن بجرأة، لوأن هذا الهيكل لم يعمر، لما فقد المسيحيون قط القدس وكنيستهم، والمسلمون مغرمون جداً بهذا الهيكل الذي هو ملكهم، ولذلك طالما هو قائم لن يتملك المسيحيون أي سلام في القدس، ولذلك يبدو أن من الأفضل تدميره، وإزالته من أساساته. بدلاً من تكريسه لاسم المسيح، كما حدث مراراً، وورد وصف الصليب المتقدم الذكر....والرواية عن الهيكل تتبع.

وهكذا أنهى عمر بناء هذا الهيكل في مدة ليست طويلة، وأضفى عليه ممتلكات كثيرة، ومازال واقفاً منذ أكثر من ثمانمائة سنة، ولم يخرب من قبل أحد، وكان أولاً مصلى للمسلمين، وفيما بعد عندما استولى الصليبيون على البلاد، كرسوا الهيكل للمسيح، وكان الأفضل هو أن يقوموا بطحنه إلى مسحوق ناعم وإزالته كليا، مشاهدين أنه المعبد الذي سبب فقدان مدينة القدس وخسارتها، ومجدداً عندما استرد المسلمون المدينة، أعادوا الهيكل لاستخدامات عباداتهم، وعلى هذا تنقلت ملكية الهيكل من وقت لآخر من أيدي فئة إلى أيدي فئة أخرى، وهو في هذه الأيام يحتل لدى المسلمين مكانة عالية من الاحترام، كما سوف نرى، وعلى هذا بني هذا الهيكل من قبل المسلمين، ومع ذلك غالباً ماقرأت في كتب حجاج صغيرة بأنه قد بني من قبل هيلانة المباركة، إنما عندما أنظر عن قرب إلى الهيكل[٢٦٠] أرى ان هذا غير صحيح، لأنه قد بني كليا وفق طرائق المسلمين، وليس له شكل كنيسة مسيحية، لأن بابه الرئيسي يفتح من الشرق، وهو شيء لم أره قط في كنائس المسيح.

فيما يلي الوصف المعاصر لهيكل الرب

إن هيكل الرب الذي بني من قبل عمر ملك مصر، على أرض بيدر أرونا اليبوسي، وذلك حيث كان سليمان قد بنى بيت الرب، هو بناء ليس مساوياً لأشهر منشئات سليمان القديمة، ويطلق المسلمون عليه اسم الأقصى، في حين يسميه المسيحيون المتعلمون بيت ايل، بينما اسمه لدى المسيحيين غير المتعلمين هيكل سليمان، وهو بناء فخم، نفقات انشائه عالية، وكبير ومستدير، على شكل برج عظيم وواسع، ويوجد في داخل الجزء الدائري جدار آخر بني فوق الأرض، وهو جدار يحيط بالهيكل كله، ويوجد بينه وبين الهيكل ساحة واسعة، ويدعم هذا الجدار من الجانب الأول سقف مقنطر معقود، يغطي الدائرة كلها، ومن الجانب الآخر يستند السقف المقنطر على جدار الهيكل نفسه، أو بالحري على رواق من الأعمدة، الذي منه ينتصب الجزء الأعلى من الهيكل، لأن في داخله هناك دائرة من الأعمدة الرخامية، تمتد القناطر فوق رؤوسها حول الدائرة كلها، وقد بني فوق القناطر جدار مرتفع حول الدائرة كلها، ويوجد في داخل الجدار الخارجي الذي يحيط بالأعمدة، بمثل ارتفاع الأعمدة نفسها وانطلاقا منها— كما قلت— قناطر معقودة فوق الأعمدة، ويوجد حول اطار الجدار الخارجي نوافذ مستطيلة كبيرة مزججة، مثل النوافذ التي في الكنائس، والمسافة مابين نافذة وأخرى هي كبيرة بقدر النافذة نفسها.

والفراغ في الخارج مزين بأعمال الفسيفساء، بطريقة باهظة النفقات، ولهذا يشع حقل كل صورة من الصور بالذهب، في حين تتألف الصورة نفسها من رسوم أشجار النخيل، وأشجار الزيتون، أو صور الكروبيين، ذلك أنهم لايسمحون بصور أخرى أو منحوتات في مساجدهم، والجزء الأعلى من الهيكل، الصاعد من الأعمدة، الواقفة في الداخل، قد بني عالياً حتى انه مشرع في الهواء، وهو منبثق من الممشى المتقدم الذكر،

الذي هو عريض ومحيط، ويوجد في القسم الأعلى نوافذ متوالية كلها مستديرة، وكل واحدة منها تلامس الأخرى، لكن هذه النوافذ أقصر وأصغر من النوافذ الموجودة في الصف الأدنى، وله فوق أعلاه سقف(جملون) مقنطر معقود مغطى بالرصاص، وهو الذي كان مذهباً فيما مضى، وهو مايمكن مشاهدته بوضوح في الوقت الحالي.

ويقوم منتصباً فوق أعلى السقف هلال كبير بقرنين عاليين جداً، وذلك حسبما يضع المسلمون فوق جميع مساجدهم، ذلك أنهم يضعون على أعلى مكان في مساجدهم أهلة على ظهورها مثل قوارب، وأحد التفسيرات، هو أن المسلمين حاولوا أن يسيروا في طريق وسط، وأن لايظهروا مثل المسيحيين أو اليهود، ومع ذلك أن يكون لهم بعض الارتباط بهما ما، ولايضع اليهود شيئاً خاصاً فوق كنسهم، ولم نقرأ بأن هيكل سليمان قد كان له أي شيء في أعلاه، ولكن المسيحيين نصبوا من البداية صلباً مع ديكة منتصبة فوق كنائسهم، وقام المسلمون حتى يتميزوا عن كل من المسيحيين واليهود برمي الصلبان جانبا واحتفظوا بالديكة في أعلى أبنيتهم من دون صلبان، غير أنهم مع ذلك، مع الاحتفاظ بالديكة ظهروا أنهم يقلدون المسيحيين، ولذلك استبدلوا الديك بهلال مستند على ظهره، وهو تغيير سهل، لأن الديك برأسه وذيله المنتصب له شكل هلال مستند على ظهره، ولذلك حيثما وجدت ديكة فوق المساجد، يقولون بأنها أهلة.

وفعلوا مثل هذا في جميع شعائرهم، حيث عملوا بعض التغييرات ، حتى لايكونوا مشابهين لنا، وهناك سبب آخر متعلق بمحمدﷺ....... على أساس أن القمر يؤثر بالناس أكثر من جميع النجوم الأخرى، وبما أن طبيعته رطبة، ولذلك فإن المد والجزر في البحر يتحركان وفقاً لتحركات القمر، هذا وهناك أسباب أخرى، من الممكن استخراجها من شرائع محمدﷺ، من ذلك على سبيل المثال، لقد أعطاهم الله القمر على

ظهره كعلامة، لأن شريعتهم فارغة في أجزائها العلوية، مثلما القمر وهو على ظهره، فارغ في الأجزاء العلوية وبـدون فائدة، وهكذا دواليك، فهو يبتعـد عن الشمس، ودائماً فـارغ، ومظلـم، وخـاوي، وهو يبعـد أشعـة الشمس عنـا، لأنه يقف بيننـا وبين الشمس، وهو الأكثـــر تجوالاً بين الكواكب، ففـي وئـام أوضـــاع السماء هو مشهـــور بأنـه الأعمق، وهو يتجول ويتخذ طريقاً غير مؤكداً بين النجوم الجوالة، وفلكه هو الأصغر بين الجميع، وهو يحب الحيـوانات الليليـة المفترسـة، وجميع هذه النقـاط تتـوافق مع شريعة محمـدﷺ التي لاعقل في أجزائهـا العلوية، بل تبقى مظلمة لأنها أبعـدت عن ضوء المسيح، ومع ذلـك لها ضوء على الجانب الآخر، ففي كثير مـن الجوانب هناك في شريعة القرآن كثيراً مـن جوانب الصدق الرائعة، وخاصة فيما يتعلق بمـريم العذراء المباركة، فهم يدعون المسيح باسم« روح الله»، الـذي معناه« كلمـة الله»، و« نفس الله» أو« روح الله»، وهي كلمات عندمـا تترجم بتقـوى، نجـدها مليئة بقـداسـة رهيبة.

★★ ★★ ★★

ويوجد فوق السقف المعقود(الجلمون) الذي يمتد حول الهيكل كله، وتحت الصف الأعلى من النوافذ، هناك ممشـى حول الدائرة كلهـا، عليه يقف خـدمهم العـاملون في المسجـد،. وهـم الذين يتـولون الدعـوة إلى الصـلاة طوال سـاعـات النهـار والليل، ويعلقـون مصـابيح مضـاءة في ساعات محددة، ولقد رأيت هذه الأشياء كلهـا بوضوح وتمييز من خارج الهيكل، عندما نظرت إليه من خلال مسجد السلطان الجديد.

وصحن الهيكل، وجميع المنطقـة المفتـوحـة مـن حـوله، مبلطة برخـام أبيض مصقـول، وهو نظيف إلى حـد أنه عندما يقـف إنسان فـوق جبل الزيتـون وينظر نحو الهيكل، يبـدو له وكأنه قائم في بركـة من الماء النقي جداً، وفي النهـاية الجنوبية من السـاحـة، عند نهاية البلاط، هناك حـديقة

بديعة من أشجار الزيتون، قد زرعت لتزويد مصابيح الهيكل بالزيت، حيث هناك أكثر من سبعمائة مصباح معلقة في الهيكل، ورأيت جميع هذه الأشياء بعيني من الخارج، لكنني لم أر شكله من الداخل، علماً بأنني كنت قادراً على أن أخمن مع شيء كبير من الصحة، من الشكل الخارجي للهيكل، ومن المساجد الأخرى التي دخلت إليها، فهو لايوجد في داخله قدس أقداس لحفظ آثارهم المقدسة، أو من الممكن أن يوضع فيها القربان أو الآثار المقدسة، لأنه ليس لديهم لاقربان ولاآثار مقدسة، هذا وكنت قد قرأت في أحد التواريخ أن قدمي وذراعي محمدﷺ محفوظين هناك ..... ولايوجد مذبح في هذا الهيكل المدنس، ولاتماثيل سواء مرسومة أو محفورة منحوتة، ولاكراسي خشب، ولامقاعد، أو مساند، بل الأرض كلها مغطاة برخام مصقول منوع، فهذا الذي يمكن رؤيته في كل مكان، والجدران مزينة من الداخل بأعمال الفسيفساء مثلما هم من الخارج، وعلى هذا ليس هناك شيئاً قائماً في مواجهة جدران هذا الهيكل في محيطه كله، ولايوجد شيء في داخله، سوى المصابيح المضاءة، المعلقة من القناطر في الأعلى، هذا ويقول بعضهم أنه يوجد في وسط الهيكل هناك صخرة منبعثة من الأرض، وهذه الصخرة مطوقة من جميع جوانبها بشباك حديدية، وأن مامن مسلم أو غير مسلم يتجرأ على الاقتراب منها، هذا ويقدم المسلمون من بلدان نائية للزيارة، وهم يرغبون بخشوع برؤية تلك الصخرة، وبسبب هذه الصخرة تراهم في كلامهم العام يطلقون على هذا الهيكل اسم« الصخرة المقدسة».

وهم يقولون بأن أشياء كثيرة عظيمة قد عملت فوق هذه الصخرة، ففي المقام الأول فوقها قدم ملكيصادق خبزاً وخمرة(التكوين:١٤)، وهناك نام البطريرك يعقوب، وهذه الصخرة تحت رأسه، ومن عليها رأى في منامه السلم الذي يصل رأسه إلى السماء، والملائكة يصعدون وينزلون عليه، وفي الصباح دهنها بالزيت(التكوين:٢٨)، علاوة على

ذلك، على هذه الصخرة رأى داوود الملاك واقفاً مع سيفه المشهور، كما قرأنا في أخبار الأيام الأول: ٢١، هذا وعندما كان الكهنة قد اعتادوا على وضع تقديمات الحرق فوق تلك الصخرة، كانت النار المقدسة تنزل على الفور وتلتهم ماكان قد وضع هناك، ويقولون أيضاً أنه عندما رأى النبي إرميا بأن دمار المدينة والهيكل بات وشيكاً، أخفى تابوه الرب في هذه الصخرة، فهي قد انفتحت بشكل اعجازي، وأخذت التابوه، وبناء عليه هم يعتقدون بأن التابوه مخبأ داخل الصخرة، وعلى هذه الصخرة جرى تقديم المسيح في اليوم الأربعين، عندما أخذه سمعان بين ذراعيه(لوقا:٢)، وعندما كان يسوع في الثانية عشرة من عمره جلس على هذه الصخرة في وسط اللاهوتيين(لوقا:٢)، وعندما كان في الثلاثين من عمره غالباً ماتولى الوعظ وهو جالس فوق تلك الصخرة، فهذا مايقوله المسلمون حول تلك الصخرة، هذا وإن بعض الأشياء التي تقدم لي قولها من قبل لاتتوافق تماما مع أقوالهم هذه، من ذلك على سبيل المثال مايتعلق بملكيصادق، وحول يعقوب، وبشأن حادثة إرميا.

وقداسة هذا المكان— ولاأقول: هذا الهيكل— قد تبرهن عليها في كثير من نصوص الكتابات المقدسة، فهذا هو المكان الذي اختاره الرب وآثره على جميع الأماكن الأخرى، الأمر الذي كنا قد بيناه من قبل، وهنا ظهر مجد الرب في دخان كثيف، وملأت السحابة البيت إلى حد أن الكهنة لم يكونوا قادرين على الإقامة في الهيكل(الملوك الأول:٨/ ١٠—١١)، وعندما أراد عزيا أن يقدم بخوراً هناك، ولأنه لم يكن كاهناً أصيب بالجذام(أخبار الأيام الثاني:٢٦/ ١٩)، وعندما بُعث هيلودوروس لسلب الهيكل جرى ضربه بشكل فظيع(المكابيون الثاني:٣/ ٢٦)، وعندما مدّ نيكانور بطيش يده نحو الهيكل، فقد يديه ورأسه(المكابيون الأول:٧، المكابيون الثاني:١٤)، وعندما بادر الملك

أنطيخـــوس مسرعـــاً لنهـب هذا الهيكل مـــات ميتـــة شنيعـــة في الجبـال(المكابيـون الثـاني:٩)، والأمبراطور بومبي الذي كـان حتى ذلك الحين منتصراً، بعـد أن دنس هذا المكان، ووضع خيـوله فيـه، لم يمتلك حظاً جيـداً ثانية، وفي هذا المكان أطعمـت العذراء المبـاركة، وهنا ظهـر جبرائيل— ملاك الرب— إلى زكريا، وهنا أورقت عصا يوسف.

ومن الهيكل الذي بني فوق هذا المكان، قام الرب يسـوع عدة مرات بطـرد الـذين بـاعـــــوا والذيـن اشتروا، وهنـا كتـب على الأرض باصبعه(يوحنا:٨)، ووعظ في هذا المكان كثيراً وعمل معجزات عظيمة، وبعـد ماجـرى تدمير الهيكل، لم يكن اليهـود قـادرين على بناء أي شيء هناك وهذا مــاكنـا قــد تحدثنا عنه من قبـل، كما أن المسلمين لم يكونوا قـادرين على بناء مسجد على هذه البقعـة حتى دمـروا الصليب، كما قلنا من قبل، وعندمـا بني المسجـد أخيراً وضح أن الرب كـان غـاضبـاً أن تجري العبادات المحمـدية فوق هذا المكان العظيم القـداسة، ولهذا جلب شعب الغرب إلى هذا المكان، وكان غاضباً على المسلمين.

وكـرس المسيحيون مسجـد محمـدﷺ وحولوه إلى كنيسـة، وعن هذا الهيكل تحدث برنارد في قـداسـه إلى فـرسـان الـداوية(الفصل الخامس) قائـلاً:« يوجد هيكل في القدس، فيه يسكن الفـرسان مع بعضهـم، وهو ليس مساوياً للهيكل القديم ولابفخامة هيكل سليمان، ولكنه ليس أدنى أبهة، لأن جميع فخامة الهيكل الأول كانت تعتمدعلى الأشياء الفانية مثل الذهب والفضـة، والحجـارة المنحـوتة، ومختلف أنواع الأخشـاب، لكن جميع جمال ومجد هذا الهيكل، وجميع زينتـه مـوجودة في الحماسـة التقـوية والغيرة على الدين، والمحـادثات الخاشعـة بين الذين يسكنون فيـه، فقـد كـان الأول متميـزا لألوانه المتنوعـة، وأمـا الثـاني فـلأنه محترم لفضـائل متنوعـة ولأفعال مقـدسـة. وفي الحقيقة القـداسـة هي التي جعلت بيت الرب، الذي لايسر كثيراً بالرخـام المصقـول كما يسر بثقـافـة الأخـلاق

السامية، ويحب العقول النقية أكثر من الجدران المذهبة، ومظهر هذا الهيكل مشرق مسرور بالأسلحة، وليس بمجوهرات تيجان الذهب القديمة، والجدران مغطاة هناك بترسة معلقة عليها عوضا عن حاملات الشموع، والمباخر، والأباريق، والبيت كله مطوق بالأعنة والرماح، ذلك أن فرسان المسيح يتحرقون بالحماسة نفسها، تجاه بيت الرب، التي تحرق بها الرب عندما طرد مع الضرب الذين باعوا فيه واشتروا، وقد رأى أنه أمر غير تقي ولايمكن احتماله أن تتلوث الأماكن المقدسة من قبل الكفار، ومثله بالسوء تلويثه من قبل التجار.

وهم يسكنون في البيت المقدس مع خيولهم وأسلحتهم، من أجل أن يبعدوا عنه وعن الأماكن الأخرى المقدسة جميع الدنس وكل طغيان الكفار، ولكي يشغلوا أنفسهم في الليل والنهار في أعمال مفيدة، أثناء تنافس أحدهم مع الآخر، من أجل تشريف هيكل الرب مع أعمال تعبدية قلبية دائمة، ودوما يقدمون النذور والتعهدات هناك، وليس أجساد الحيوات كما كان في القديم، بل قرابين صحيحة، وسلام، ومحبة أخوية، وخضوع تقوي، وفقر تطوعي».

هذا مافعله الرجال في القدس في أيام القديس برنارد، وقد تحرك العالم أجمع نحو التقوى يحذون حذوهم، لكن عندما شاخ حماس فرسان هذا الهيكل، لم يمض وقت طويل قبل أن يتمكن الناس الحمقى، الذين كانوا قد طردوا، من العودة ثانية، فتمكنوا من طرد فاتري العزيمة والشهوانيين من أتباع الصليب، وهم مجللين بالعار، وللمرة الثانية خرقوا حرمة هيكل المسيح المقدس باتخاذهم مسجداً منه.

وهكذا،يالأسف آل الهيكل إلى المسلمين الذين يعرفون قداسة المكان، والأعمال العظيمة التي عملت هناك، فهم يعاملون الهيكل باحترام عظيم، وبسرور عظيم يقومون بحفظه نظيفاً، ومنظماً بكل وسائل العناية، حيث يغسلونه يومياً من الداخل ومن الخارج، وهو كله

مصقــول بشكــل فخم، ولذلك إنـه لمدهش أن تنظر إليـــه، ولايدخل المسلمــون إلى هذا الهيكل إلاّ بعــد أن يكـونوا قــد طهــروا أنفسهم، بالوضوء، ثم يقتربون منه بوقـار ولياقة، ليس بشكل حـاشد، بل يمشي كل انسـان لوحـده، وكأنه سيــد عظيم، ولايتكلم أحـدهم مع الآخـر، ولايجلبـون الأطفــال أو الكلاب معهم، وبذلك لاينزعـج إنســان أثناء صلاته.

وللنساء باب خاص بهن، منه يدخلـن إلى الهيكل وإلى الساحة هناك، ولهن جناحهن الخاص في الهيكل، فيـه يصلين منعــزلات عن الرجـال، ومعهن النساء الـلائي حسب عادة النساء يمكثـن في بيوتهن، ولايسمح لهن مطلقاً بالاقتراب من الهيكـل، ويخلع الرجال أحذيتهم قبـل الدخول إلى الساحة، ويركعون مراراً ويبدون الاحترام والتقوى قبل الساحة أمام الهيكل، وبذلك يدخلون إليه بوقار.

وعندمـا يكون الملك السلطان في القـدس، ويرغب بدخـول الهيكل، يقومون بغسل البلاط والجدران العائدة للهيكل بماء الورد قبل وصوله، لاظهار التشريف لعظمة الهيكل والملك.

ومكانه هـذا الهيكل عــاليـة جـــداً بين المسلمين، وطالما هـو بأيديهم لايهتمون كثيراً فيما إذا امتلك المسيحيـون بقية المدينة، ولهذا عندمـا كان شعبنا يحاصر دميـاط في سنة ١٢١٩، لتجسيـد ربنا، ودميـاط مـدينة في مصر، وعندمـا رأى السلطان أن الموقـع سـوف يجري الاستيـلاء عليـه، أرسل سفارة مهيبة إلى معسكرنا، يلتمس السـلام، ويرجو رفع الحصار، وأخـذ القدس وتملكهـا كلهـا بشكل دائم، باستثـاء هيكل الرب، الذي قصد الاحتفاظ به لنفسه، وبالاضافة إلى هذا عرض بأن يتولى إعادة بناء أسوار القدس على نفقته الخاصـة، وهي الأسوار التي كان المعظم عيسى ملك دمشق قـد دمرها، وذلك بـاستثناء هيكل الرب في القدس، وكـان الفـرنسيون والألمان على استعـداد ورضـا بالقبول بهذا العـرض، لكن لم

يوافق عليه بيلاغوس، الذي كان الكاردينال والنائب البابوي، ولاالايطاليون، ولاالمسيحيون الشرقيون، ولذلك لم يستقبلوا رسل السلطان، والذي حدث أنهم وإن استولوا على دمياط بعد عدة أيام، لقد فقدوها مجدداً، وفقدوا جميع الأماكن في الشرق وفي الأرض المقدسة، إلى حد أنهم لم يعودوا يمتلكون حجراً واحداً في القدس، ونزل هذا بهم، بالقضاء العادل للرب، كعقوبة على شرور الايطاليين، وشرهم، لأن دمياط كانت موائمة لأعمالهم التجارية، ويفضلونها على القدس وعلى الأرض المقدسة، وخيل إليهم أنهم سوف يستولون عليهم جميعاً، وفي الحقيقة كان المسلمون راضين بالتخلي عن اليهودية كلها، وعن فلسطين، وعن الجليل، للمسيحيين، لو أنهم سمحوا لهم بالاحتفاظ بالهيكل في القدس، لكن برفضهم الموافقة على ذلك، خسرنا كل شيء، وهم حتى هذا اليوم يمتلكون الأرض المقدسة، والمدينة المقدسة، والهيكل، وهم لايسمحون لأي انسان، ليس من أتباع شريعة محمدﷺ بالدخول إلى الهيكل، وكل يهودي أو مسيحي يدخل إلى هناك، ويكتشف، إما يرغمونه على التخلي عن إيمانه، أو يقتلونه مع التعذيب، ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا الحظر، غامر عدد من المسيحيين، وتمكنوا بمختلف السبل والطرق من الدخول إلى هناك، لأن أوفيد قال:

«لأننا نتشوق إلى المحظور علينا

نتوق إلى الذي ليس لدى الكثيرين»

ويتخيل المسيحيون، أن الهيكل لابد أن يكون شيئاً رائعاً أن تنظر إليه من الداخل، مشاهدين أنه معمول بشكل رفيع، وجميل جداً من الخارج، وإنه لأمر مفاجىء أنه لايمتلك زينة من الداخل، وليس فيه مذابح، ولاصور، ولاتماثيل، بل هو صالة كبيرة مشرقة مبلطة ومكسوة برخام من مختلف الألوان، ومضاءة في الليل بعدد كبير من المصابيح المعلقة من السقف المقنطر، لأنهم يقولون بأن هناك سبعمائة مصباح مشتعلة بشكل

دائم فيه، ولايوجد في هذا الهيكل كله لاشيء سوى على الجانب الشمالي هناك مايشبه ضريح محمدﷺ، وهو ضريح مرتفع معمول من الرخام يمثل ضريح محمدﷺ في مكة (المدينة) الذي يحترمونه إلى أعلى الدرجات، حتى أنهم يتعبدون به مثلما يتعبدون في جميع الكنائس، وحول ضريح محمدﷺ هذا، انظر ص٤٠ من القسم الثاني، ولسوف تجد كثيراً حول مكة في ص٦٢.

وعلى هذا لايوجد في هذا الهيكل زينة فخمة، للنظر إليها ومشاهدتها، كما لايوجد فيه قداسات أو قرابين يقوم بتنظيمها الكهنة أو رجال الدين، وحول هذا الموضوع، إنظر القسم الثاني ص٩٤ وص١٠٠، ولايوجد لدى المسلمين خلاص ولااعفاء من الذنوب، ولاطهارة أو تحقق بالنسبة للذنوب، ومثل هذا ليس في الهيكل قداسات، ولارسامة كهنة، ولازينة، ولاكهانة، ولاقداسات أو قرابين، ومع ذلك فإنه على الرغم من فراغ الهيكل فإن الحجاج المسيحيين— كما تقدم وأخبرتكم — يتحرقون رغبة لرؤية داخل هذا الهيكل، وبعضهم يخاطر أحيانا بمواجهة الموت ليقوم بذلك.

وهنا بات كما يبدو المكان المناسب لمعالجة السؤال الذي أثير من قبل أنطونيوس في الجزء الثالث من تاريخه— العنوان:٢٤، الفصل:٩، الفقرة:١٧:« هل يعدّ المسيحي مقترفاً للذنب بالدخول إلى مساجد المسلمين»؟ ويبدو أنه لايعدّ مذنباً،لأن معابدهم قد أمر بأن تكون مغلقة(في وجه المسيحيين) وممنوعة، يعاقب فاعل ذلك بفقدان حياته وممتلكاته(انظر كوسا:« حول الكفار والمسلمين ومعابدهم»— الكتاب الأول والثاني)، وبسبب أنه بالنسبة لمنع الدخول، هم تماماً مثل اليهود....، وعلى هذا أجاب بأنه يمكن للمسيحي أن يدخل معبداً أو مسجداً للمسلمين لأربعة أسباب، هي: إما لحمد الرب أو للتبشيربانجيل المسيح، ولرؤية الهيكل، ولتقديم بعض الاهانة للهيكل،

أو ليرى ويقـــدّر كيف يمكـن صيـــانة الهيكل، هـذا ولايجوز لمسيحي الدخول إلى كنيسـة مدنسة، أو مسجد ليصلي للرب، أو ليحمـده، خشية أن يظهـر أنه يشـارك في آثـام هؤلاء الناس، مشـاهدين أن المسلمين لم يقـوموا قط بمـدح الرب من دون تجديف خـؤون بحق المخلص، وثناء عظيم على النبي محمدﷺ، وعن مثل هذه الأماديح ينبغي على المسيحي، بكل وسيلة من الوسائل أن يقف نائيـاً، وعلى هذا، وخشية أن يظهر أنه من تلاميذ محمدﷺ عليـه أن يتجنب الأماكن التي خصصت لمدحه، مع أن هذه الأمـاكن أمـاكن مقـدسـة، كما لايمكنه هنـاك أن يمـدح الرب بالطريقة المناسبـة، لأن أعمال الناس تعتمد كثيراً على ظروف المكان التي فيها تنفذ، ومنع الرسول(كورنثا الأولى:٨/ ١٠) المؤمنين من الجلوس إلى مائـدة في مكان يقدم فيه لحم للأكل مما قـدم للأوثان، خشية من أنه إذا مـا رآه أخـوه، أن يضل، معتقـداً أنـه يعمل ذلك صـدوراً عن الاحترام للوثن، ومثل هـذا من المحظور على المسيحيين الجثـو للصـلاة في مكان تجري فيه عبادة الأوثان، وإذا فعل ذلك، يكون قد اقترف إثماً عظيماً، مع أنه لم يقصد عبادة الوثن.

وبناء عليه، عندما أقام الامبراطور ايليوس هدريانوس هيكل فينوس وتمثـال جـوبيتر، هجر المسيحيـون ذلك المكان الأعظم قـداسـة، بسبب ذلك الهيكل المدنس، وعـدّوا أي انسـان دخل إليه وثنيـا، حتى لو كـان ذلك مـن أجل عبـــادة المكـان المقـــدس، ومثـل هذا كنائـس الهراقطة والمنشقين، هي ممنوعــة على المسيحيين، الـذين لايجوز لهم الصـلاة بها، خشيـة اسهـامهم في الانشقاق، وأكثـر من هذا— بناء عليـه— هيـاكل الأوثان، وكنس اليهـود، ومسـاجـد المسلمين، ينبغي عـدم زيارتها بأي شكل من الأشكال، ولالسبب من الأسباب.

وعلى هذا سـوف يأثم الناس إثما عظيماً ضـد العقيـدة، إذا مـاقـامـوا بعبادة الرب الحقيقي في هيكل الأوثان، وسيكون أي انسان مثل هذا آثما

إثماً عظيماً— إن لم يكن أكثـر— إذا مـادخل إلى حـرم للمسلمين أو مسجـد، ليتفـوه بصلواته، لأنه، وإن كـان المسلمون المحمـديون ليسـوا وثنيين، إنهم أسـوأ مـن الوثنيين الحقيقيين، كما بـرهنا على ذلـك في الصفحـة:٩٨ من القسم الثاني، وإذا كـان الرب(متى:٦) قد منع شعبـه من الصـلاة عند زوايا الطـرقـات، حتى لايشـاهدوا مـن قبل الناس، ويعـدّوا مقـدسين، إنه أكثـر من هـذا محرم الوقـوف في هيكل اسـلامي والصـلاة فيـه، خشية أن يـروا من قبل الناس، ويظن أنهم أناس أشرار، أو مشركين، وبنـاء على ذلـك، إنـه لمن الـواضـح أنـه لايجوز لمسيحـي الدخـول إلى مسجـد لعبـادة المسيح فيـه، لأن ذلـك لن يكون من دون ذنب.

ثانيـا: هل يمكنه الدخـول إلى المسجد للتبشير بالايمان الحقيقي فيـه؟ يبـدو أن هـذا لايجوز، لأن الذي يدخل هكذا يعـرض نفسـه إلى خطر الموت، على أسـاس أنه تماشيـاً مع شريعـة القـرآن، ينبغي قتل مثل هذا الانسان مبـاشرة، وبذلك يقتل نفسه بدون ثمار، ومن الممكـن، من جهة أخرى، لكثير من الناس، ممتلئين بالحماس لـلإيمان، أن يدخلوا إلى معابد المسلمين ويبشروا فيهـا مـع ثمار، دون أن يقتلوا، من ذلـك على سبيل المثـال فنسنتـوس Vincentius المقـدس، الذي كـان من طائفـة الدومينيكان، الذي تمكن من تحويل آلاف كثيرة من المسلمين إلى الايمان الحقيقي، وبناء عليه إنه لايمكن اعتماد، أنـك إذا ماقلت أو فعلت الذي يسبب لك القتل من قبل الآخـرين، تكون بذلك مجرمـاً بقتلك نفسك، لأن القـديسين أنفسهم، اعتنقوا الايمان الكاثوليكـي، حتى عندما كـانوا عـارفين بدون شك، أنهم بهذا الاعتناق، سوف يجري اعـدامهم من قبل الطغاة، ونحن الآن نتعبدهم كشهداء للرب.

ونقـرأ فعل مثل هذا عن الـراهب ليفينوس Levinus الذي كان من طائفة القديس دومينيك، ذلك أنه عندمـا رأى المسلمين قد اجتمعوا

مع بعضهم في واحد من مساجدهم، دخل إليه، وبما أنه كان ممتلئا بالحماس من أجل إنقاذ أرواحهم، صرخ بجرأة واستمرار بأن صلواتهم كانت عابثة، وأنهم مالم يؤمنوا بالمسيح، لسوف يذهبون إلى عذاب أبدي، وأن شرائع محمدﷺ كانت غير صحيحة، ومخادعة، وخيالية وزائفة، وعندما كان يعظ على هذه الصورة، وقع المسلمون عليه، وقتلوه.

وعدّ هذا الراهب بين القديسين، من قبل أنطونيوس في الصفحة المتقدمة نفسها، لأنه بدا بأنه قد ذهب إلى هناك، ليس بدوافع أوهامه الذاتية، بل توجه تحت قيادة الروح القدس، وإذا ماوجدوا أي انسان أثير بحماس طائش أو بغضب، للدخول والصراخ ضدهم، ومن ثم قتل، وقتها يحكم عليه بأنه فضولي، وليس شهيداً، وهذا ما عمل لبعض المسيحيين الإغريق، فقد دخل اثنان منهم— كانا في القدس قبل بضع سنوات إلى الهيكل وهما في حالة غضب شديد، وهناك اختطفا كتبهم، ومزقوها إلى قطع، وداسا عليها بأقدامهما، وهما يقولان بأنها جميعا مخترعة وزائفة، وأمسك المسلمون على الفور هذين الرجلين، وأعدموهما بعد تعريضهما إلى عذاب شديد، بتمزيقهما إلى مزق.

ثالثاً: هل يمكن لمسيحي أن يدخل مسجداً، ويكون غير مذنب، بعد اقدامه فيه على توجيه الإهانات وقيامه بحركات ساخرة منه، أو بتدمير الكتب، أو النوافذ، أو المصابيح، أو بعد إدخاله إليه الطين أو القاذورات؟ يبدو لي— مع كل الاحترام للذين هم أقدر مني على الحكم— إنه لايمكن أن يكون إلا مذنباً بسبب أن مثل هذه الإهانات وأعمال السخرية، لاتبدو بأنها ناتجة عن الاحسان، بل بالحري عن الغضب، والكراهية، أو الضغينة، أو عن الكبرياء، وبمثل هذه الأعمال لايجري تمجيد الرب، بل التجديف ضد المسيح، وإثارة الغضب بين المسلمين، من دون أي ضمان لحياتهم، وهكذا فإن الذين يفعلون مثل

هذه الأعمال يغامرون بحياتهم من دون ثمار.

وفي الحقيقة يعتقد الناس البسطاء أنهم يتعبدون الرب عند قيامهم ببعض أعمال السخرية في مساجد المسلمين، أو في كنس اليهود، لكن ليس في ذلك عبادة للرب، لأن أمنا الكنيسة تتساهل تجاه الكنس اليهودية، ولاتقوم بتدميرها مع أنها يمكنها ذلك، وبناء عليه ينبغي على أبناء الكنيسة عدم تدنيس الذي تتحمله أمهم، وتنطبق الحجج نفسها على المساجد، وبناء عليه، اقترف احد الفرسان وكان رفيقاً لي اثناء حجي، خطأ، وكان ذلك عندما كنا في منطقة فلسطين نمضي ليلة في نزل، كان بجواره مسجد، وكان الوضع أنه بإمكاننا النزول من السقف المقبب للبيت الذي كنا مقيمين فيه، إلى السقف المقبب المجاور والعائد للمسجد، وكان في قمة سقف هذا المسجد فتحه، كان بإمكاننا من خلالها النظر إلى المسجد، الأمر الذي فعلناه، وقام الفارس المتقدم الذكر أثناء الليل، وتسلق إلى السقف المقبب للمسجد، ولوثه من خلال الفتحة، الأمر الذي جعلنا نضحك كثيراً، لأننا جميعا دهشنا لدى رؤيتنا له، لكنني لم أر أية فضيلة بالذي فعله، كما أنه مامن فائدة كانت ستنجم عن ذلك، بل الكثير من الشرور، لأنه لو عرف المسلمون بذلك، لما كنا غادرنا البلاد أحياء.

ومع أن الرب لايعبد بشكل صحيح بالمساجد، هي بالأصل بنيت تشريفاً للرب الحقيقي، من الممكن تكريسها، وتحويلها إلى كنائس مسيحية، كما حدث كثيراً لدى استيلاء المسيحيين على أية بلدة، وانتزاعها من أيدي المسلمين أو الأتراك، وهم مثل ذلك يعملون بالطريقة نفسها، مساجد من كنائسنا، وبناء عليه، إنه بسبب هذا التملك، وليس بسبب اي احترام لشؤونهم التعبدية، على الانسان الاحتفاظ ببعض الاحترام لهياكل الأمم، عارفين بأن الرسل أنفسهم لم يدمروا الهياكل، بل أزاحوا الأوثان منهم، وحولوهم إلى كنائس

مسيحية، وغـالباً ماقـرأنا أنه حتى الذين لوثوا هياكل الأوثان، تعـرضوا للعقـــوبـة، كما هو واضح مـن حكايـة ميـــدوســـا Medusa ابنة فـوركــوس Phorcus ، التي كانت امرأة فائقة الجمال، وكان من بين محاسنها شعرها الذي لم يكن مجرد أصفر، بل ذهبياً.

وانجــذب بلمعـانه نبتــون Neptune ، فاضطجع معها في هيكل مينيرفـا، ومن ذلك ولد الحصـان بيغـاســوس Pegasus ، وباتت مينيرفـا مغضبة تجاه هذا، وقـررت أن لاتمر الإهانة التي تعـرضت لها في هيكلها من دون انتقام، فحـولت شعر ميدوسا إلى ثعبـان، وهكذا بعدما كانت جميلة، غدت مخلوقاً مرعباً Monster.

وصار الذي نزل ببومبي، وماأصابه من سوء طالع بعد ماربط خيوله في الهيكل في القـدس يعـرفـه كل انسـان، إلاّ الذين لم يقـرأوا قط شيئاً، وكنت قـــد مـــررت بـذكـــر المآسي التـي جلبهـــا على نفسيهما نيكانوروأنطيخـوس، بسلبهما الهيـــاكل وبجلدهما هيلودوروس Helio-dorus.

رابعـاً: ويبقى إن علينا وجوب أن نرى هل يمكن لمسيحي الدخـول إلى مسجـد دونما ذنب، وذلك ليس للصـلاة، وليس لتخريب أي جـزء منه، وليس لتقـديم أي إهانة إليه، ولااللعـب أية خداعـات به، بل فقط لرؤية المسجـد، والشعائـر به، وأعتقد أنه إذا أمكنه الدخـول دونما خطر ودون أن يلاحظ، هـو بذلك لايكون مقترفـاً لذنب عظيـم، ومع ذلك سـوف يبدو محباً للبحث إن لم نقل فضـولياً فقط، وليست التقـوى هي التي أحضرته إلى هناك، وإذا كـان المسجد قـائماً في أي موضع مقـدس، ويمكن لمسيحي أن يدخل إليـــه بشكل سري ودون أن يلاحظ، وبدون أي خطر، يمكنه وقت ذاك الدخـول بجـدارة، وتقبيل الأرض، وتلاوة صلواته، مثلما فعلنا في المسجـد القـائم فـوق ضريح داوود، الذي من أجله انظـر ص٤١٣، وكنا راغبين بفعل الشيء نفســه في المسجـــد في

حبرون، الذي هو قائم فوق الكهف المزدوج، كما سوف نتحدث عن ذلك في القسم الثاني— الصفحة الثامنة.

لكن إذا كان الدخول لايمكن الحصول عليه دون مخاطرة، أو مقابل أجر كبير، فإن الذي يدخل مثل هذا المكان يعمل بشكل غير حكيم، وإنني أعرف فارساً مازال حياً، كانت قد اقتادته رغبته لرؤية الهيكل، ولذلك تحدثت مع أحد المماليك، وعملت معه صفقة في أن يضع عليه ملابس مسلم وأن يأخذه إلى داخله، وهكذا أخذ هذا المملوك العجوز رفيقنا وهو لابس لثياب انسان شرقي، حتى ساحة الهيكل، لكن عندما باتا هناك، وأراد الدخول إلى الهيكل، استبدّ رعب شديد بالفارس، إلى حد أنه لم يعد بامكانه الوقوف لأنه كان يرتجف، ولم يتجرأ على الدخول، بل أدار ظهره وعاد إلينا، وهو مسرور لأنه تخلى عن فكرته، وفي الحقيقة ليس عجباً أنه ارتعب وخاف على حياته، لأنه لم يكن متأكداً بأن دليله كان صادقاً.

ومع أنني شخصياً مغرم برؤية الأشياء الغريبة والمناظر غير الاعتيادية، لم أحاول قط الدخول إلى الهيكل، بل كنت قانعاً بالنظر إليه عن بعد، وهنا اعترف بأنني غالباً ماكنت منزعجاً وشعرت بالأسى عندما قارنت نظافة الهيكل، وجماله، وترتيبه الممتاز مع كنائسنا، التي هي— وياللعار— مثل اسطبلات دواب الرهبان، وكنائسنا هي دائماً قذرة مع الناس يمشون خلالها، وكأنهم يمشون في داخل خان، وهي ملوثة بالقاذورات الأمر الذي يربكنا كثيراً، ويزعجنا وهو يسبب كراهية القداسات ونقدها، وإنه لمزعج جداً ومهين أن ترى في القدس كنيسة قيامة المسيح، وهي قائمة بدون زينة تقريباً مثل خان طلي بالدخان، وأن ترى مسجد محمدﷺ مرتباً ونظيفاً، مثل قصر الملك(تلاهذا مقارنة مقذعة بين النبي محمدﷺ والسيد المسيح، وشملت بضعة أسطر، قمت بحذفها، وانتهت هذه المقارنة بقوله:) ومع ذلك فإن هيكل المسيح

ملعون، ومرزول، وممقوت، بينما هيكل محمدﷺ مبجل، وجميل، وممجد.

لكن ماهو وجه الغرابة أن يحدث هذا في القدس، بين المغاربة والمسلمين، وهو يحدث بين المسيحيين والكاثوليك؟ انظروا أرجوكم إلى أعظم الكنائس في العالم أجمع — أي كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران— التي هي رأس جميع الكنائس في داخل مدينة روما وفي جميع أرجاء العالم، كما تبرهن من قبل الفارز Alvarez في مصنفة« بكاء على الكنيسة» الكتاب الثاني، الفصل الثاني، الخ، والذي يظهر في أية حال هي فيما يتعلق بكل من الزينة والنظافة، وإنني أصلي إلى الرب أن تنجو من الخراب، وهناك تقوم كنيسة المخلص، وقدس أقداسنا مع كنزها الذي لامثيل له، من الآثار المقدسة، ومع ذلك يبدو المكان وكأنه مهجور، ومنعزل، ومن الصعب أن يجد الانسان فيه الاشياء المحتاجة من أجل قداس قربان، فساحتها قذرة، والبيع المتصلة بها مدنسة، ومذابحها ملوثة، وأماكنها مدمرة، والرهبان الذين عبدوا فيما مضى الرب هناك، قد جرى طردهم، ووضع آخرون في محلهم، وكل شيء في ظل حكم هؤلاء آيل إلى الدمار، وهناك أجزاء كثيرة قد لحقها الدمار، ليس بسبب وجود الترك والمسلمين، بل بسبب غياب المسيحيين.

ومثل هذا أيضاً كنيسة القديس بطرس، هي تحتاج كثيراً إلى كل شيء مناسب لمثلها ككنيسة كبيرة، وإذا كانت مثل هذه الأشياء قد حدثت في الكنيستين الرئيسيتين في العالم، وفي المدينة التي هي عاصمة الكاثوليكية، ومركز الإيمان، فكيف لاتحدث في كنائس أخرى في أرجاء ذلك الكون؟ حيث الكنائس قذرة، يساء استخدامها، وهي مهملة في المباني، والأواني، والكتب، وبالملابس، وبأغطية المذابح، وبالساحات، وبأراضي الدفن، وبالأبنية الخارجية، وإنه لأمر مخز أن تفكر حولها، ومهين أن تقول ذلك، وليست القضية قضية كنيسة واحدة بل جميع الكنائس، حيث

المذابح، وأغطية المذابح، وأغطية الآثار المقدسة، وأغطية القربان، وغطاء كأس القربان، والثياب الكهنوتية، والأكتافيات، كلها قذرة إلى درجة أن كاهن الكنيسة لقرفه، لايسمح بوضعهم فوق منضدته، لابل أكثر من ذلك، أنه لايمكنه أن يتحمل أن تكون سراويله بهذه الدرجة من القذارة والاهمال، فالثياب الكهنوتية ملوثة مثل السخام، والأكتافيات قذرات من التعرق، وكل شيء محتاج إليه من أجل القداس متعفن بالقذارة المتناهية، إلى حد أن مامن انسان يمكنه تحمل وجودهم في موضع سكنه.

أيها الأخ الانسان، حبذا لو رأيت في القدس مدى الاحترام المقدم لهيكل محمدﷺ، وكم ممتع الاقتراب منه، وكنت قد حدثتك من قبل وشرحت لك كم هي نظيفة وهادئة ساحته، وكم هو مشرق ومنظم كل شيء فيه، وبينت لك مدى الخشوع الذي يظهره المتعبدون لدى الدخول إليه، وكذلك عن الوقار العظيم الذي يلزمون به أنفسهم أثناء الصلاة، وأيضاً عن تواضع النساء هناك، حيث وجوههن مغطاة بشكل دائم، وكيف أن الرجال يصلون بصمت بعزلة عنهن، ولو أنك رأيت ذلك لصدمت بشكل عميق، ولغضبت غضباً عظيماً من الاهمال ومن عدم الاحترام الذي يبديه المؤمنون في كنائسنا.

ومع ذلك، لربما يمكن تأويل عدم الاحترام هذا، بشعور طيب، على أساس أننا نمتلك القداسات الحقيقية، التي تكمن قوتها الحقيقية في نيل الرحمة للميت، وفي شفاء النفوس، ولذلك نولي قليلاً من الاهتمام للزينة الخارجية لمعابدنا بينما لايسعى غيرنا وراء النقاء الداخلي للقلب، بل يسعون أكثر خلف النظافة الخارجية، لكن إذا سمح المسيحيون ببقاء هذه القذارة من خلال عدم الاحترام والاهمال، فهذه إهانة هائلة، حسبما برهن هوغو Hugo، الذي وضع ابداء عدم الاحترام نحو المذبح بين« ذنوب الدير» الاثني عشر.

هيكل مريم العذراء المباركة فوق أرض بيدر أومان

وعلى الجهـة الجنوبيـة من بيت إيل، والهيكل الذي يسمـونه هيكل سليمان، وفي أرض بيدر أرونا اليبوسي نفسها، هناك هيكل كبير، وكنيسة جميلة جداً، بنيت من جيمع الجوانب وفق طريقة كنائسنا، وهي أكبر من هيكل سليمان بسبب طول صحنهـا، وهي مسقـوفـة بالرصـاص، وهي تضـاء بالنهار بعـدد كبير من النوافذ المنتشرة حـولها، لكن في الليل فإنها تضاء بثمانمائـة مصباح مشتعل بها، بسبب أنها مسجد فائق القـداسة عند المسلمين، وأنا غير قادر تماماً على العثور على أية رواية، كتبها أي انسان، حـول من الذي بنى هـذا الهيكل، ومتى بني، هذا وليـس لدي شك في ذهني بأن المسيحيين قد بنوه بعد استرداد المدينـة المقدسة، في أيام الملوك اللاتين، لأن نمـوذج البنـاء وسماته تظهـر أنه بنـي من قبل مسيحيين، ومثلما يبرهن شكل مـايسمى هيكل سليمان أنه قد بني من المسلمين، مـا من مسيحي عاقل يمكنه أن يصدق الذي اعتادوا على اخبار الحجاج به، من أن ذلك الهيكل نفسـه قد بني من قبل هيـلانه كما أوضحنا من قبل، كـذلك هذا.الهيكل الذي أنا أتحدث عنه، لم يعمّـر من قبل أي قـوم غير المسيحيين، لأنهم عندمـا استولوا على الأرض المقـدسـة، رغبوا بوجـود كنيسـة باسم العـذراء المبـاركـة، قـرب هيكـل الرب، وهكذا بنوا هذه الكنيسـة تشريفـاً لها، وكـرسّـوها لها، صـدوراً عن احترام تطهيرها في الهيكل، ولذلك يدعـو بعضهم هذه الكنيسـة باسم كنيسة تطهير مـريم، ويدعـوها آخـرون باسم هيكل سمعـان، ويميـز آخـرون فيما بين هيكل سليمان وهيكل الرب، ويقـولون بأن هذا هو هيكل الرب، والآخـر هو هيكل سليمان، ويدعـوه آخـرون باسم رواق سليمان، في حين يدعـوه آخـرون باسـم هيكل زكـريا، وهذه التسميـة أقـرب إلى الصحـة، لأن العذراء المبـاركة عندما كانت طفلة قـدمت هناك إلى زكريا، والد يوحنا المعمدان.

واعتـــاد الداوية على اقــامــة قـداســاتهم في هذه الكنيســة، لكن جعل المسلمون منها مسجداً، وأبعدت عن استخدامات الديانة المسيحية، مثلما حدث لهيكل سليمان، ويوجد تحت هذه الكنيسة بناء تحت الأرض سقفه مقنطر وهو متميز وواسع، يمكن فيه ربط ستمائة فرس بدون مصاعب، وكنت قـد حـدثتكم من قبل بأنني دخلت شخصيـاً إلى هذا البناء، وأن هناك مسجـد آخر قيـد البناء قــرب هذين الهيكلين، وذلك بأمــر من السلطان وهو مسجد كبير، وعالي النفقات، قائم خارج الساحة، وأرض بيدر أرونا، ويوجد فيه ثمانية وثمانين مصباحاً مشتعلاً، وكنت قد تحدثت عنه من قبل.

أول كنيسة مسيحية في القدس، المعتقد أنها كانت على جبل صهيون قبل بناء هيكل ضريح الرب، وهي التي فيها بدأت معجزة نار الفصح

الوصف الكلي لمدينة القدس المقدسة مرتبط جميعه تقريباً بهذين الهيكلين، أي هيكل بيت إيل، الذي يدعونه باسم هيكل سليمان، والقيامة، التي هي كنيسة قيامة الرب، وإلى هذين الهيكلين يعود الفضل بكل شيء جيد يعزى إلى المدينة، كما شهد على ذلك خريسوستوم عندما قال بأن كل شيء جيد، وكل شيء شرير انصب على الناس من هيكل الرب، وذلك حسبما جاء في مصنفه « بكاء على الكنيسة»— الكتاب الأول، المادة ٦١٦، لأن دمار مدينة القدس حدث كثيراً من المرات، وكذلك إعادة عمارتها حدثت مرات كثيرة، ومجدها وتمجيدها، وعارها وانحدارها، جاء من هياكلها في أيام كل من العهدين القديم والجديد.

ولن يعبأ المسيحيون إلاّ قليلاً في هذه الأيام، حول مباشرة المسلمين الحكم في القدس، شريطة أن نمنح حرية الدخول والخروج من هيكلنا، هيكل ضريح الرب،وذلك بدون خوف، وبدون ازعاج، ومغالاة بالمدفوعات، وكذلك لن يهتم المسلمون لو أننا كنا سادة المدينة المقدسة، إذا ماابتعدنا عن هيكلهم وتخلينا لهم عنه، ولكن بما أن المسيحيين والمسلمين لايمكنهم الاتفاق حول هذه المسألة، عانت القدس غير السعيدة، وهي تعاني الآن، ولسوف تعاني فيما بعد من الحصارات ومن التدمير، ومن الرعب أكثر من سواها من مدن العالم الأخرى، وعلى هذا يمكن القول:« الغيرة على بيتك قد أكلتني»، وفي الحقيقة الغيرة على هذين الهيكلين، قد أكلت القدس وقد التهمتها، وقد سحقتها.

ولنعد إلى الخلف بعيداً مع المسألة هذه، فالرومان ماكانوا ليحولوا المدينة إلى أشلاء بشكل وحشي هائل ودموي، لولا أن اليهود قد قاتلوا

بالدفاع عن هيكلهم بغيرة وعناد منقطع النظير، ولذلك أغضبوا الجيش الروماني، وحرضوه وأوصلوه إلى كراهية مدمرة ضد المدينة المقدسة والهيكل، وعندما جرى تدمير المدينة والهيكل من قبل الرومان، من المعتقد أنه جرى الاحتفاظ بمدينة داوود على جبل صهيون لتكون قلعة وحصناً.

وفي مدينة داوود هذه نفسها، امتلك المؤمنون كنيسة، كانت قد بنيت في أيام الرسل في موضع عليّة عشاء الرب، حيث أقاموا قداساً هناك، وعملوا اجتماعاً وانتخاباً، ونشروا أحكاما تتعلق بقضايا الايمان، وكان هذا قبل افتراقهم عن بعضهم، وهنا من المعتقد أن مريم العذراء الأعظم مباركة كان مسكنها، وفي هذه الكنيسة شغل القديس اسطفان منصب الشماس، وفيها دفن بعد استشهاده، وهذه الكنيسة فوق جبل صهيون لم تهدم تماماً في أيام تيتوس أو ايليوس هدريانوس، ولا في أيام المسلمين، بل بقيت من أيام الرسل حتى هذه الأيام، إنما باستثناء سنوات قليلة فقط، عندما كان غضب الرومان حامياً ضد اليهود، وذلك لدى استيلائهم على القدس، ففي ذلك الوقت جرى انذار المؤمنين مقدماً من قبل الروح القدس، فغادروا القدس، خشية المشاركة في فناء اليهود، إنما ماأن غادر الرومان حتى عادوا وصعدوا إلى الرابيةوإلى كنيسة صهيون، هذا ومن المعتقد أن النار المعجزة المتميزة لعيد الفصح، التي كنت قد تحدثت عنها من قبل، قد بدأت في هذه الكنيسة، كنيسة جبل صهيون، لكن في أي وقت، هذا مالم أقرأ عنه في أي مكان، سوى أنه في سنة ١٩٢ لتجسيد الرب، وقبل قسطنطين وهيلانه، وقبل اكتشاف الصليب المقدس، عندما كان نرسيس أسقف القدس، ذاهباً لإقامة قداس في أمسية الفصح، أخبر من قبل خدمه أنه لايوجد زيت لافي الجرة، ولا في المصابيح، وعندما سمع الرجل المقدس والمؤمن بهذا، ولأنه كان ممتلئاً بالايمان أمر خدمه أن ينضحوا ماء

ويجلبوه إليه.

وعندمـا جلب الماء إليه، صلى وبارك الماء، وأمـر تلاميـذه بصبه بالمصابيـح، ثم حدث أنه بقـوة مدهشة لم يسمع بمثلهـا في أي جيل من الأجيـال، تحول الماء إلى زيت، وصارت له دسـامـة الزيت، واشتعل من السماء، وجعلت شعلة السماء المصـابيح أكثـر اضـاءة واشعـاعـاً مما هو معتـاد، وعملت هذه المعجـزة في أيام الكفـار، في ظل حكم الامبراطور فكتـــور، والامبراطور سيفيروس، اللـذان حكما قبل قسطنطين بمائتين واحـدى عشرة سنـة، ووجـد في القـدس بعـد نرسيس عـدد كبير من الاساقفـة القديسين، ولم تكن حشـود المسيحيين بلا كنيسة قط، هذا ولم تكن كنيسـة الضريح المقـدس قـد بنيت بعـد، وبناء عليـه جـرت جميع القداسـات ونفذت بمهابة على جبل صهيـون، حتى بناء كنيسة الضريح المقدس، التي عن بداياتها سوف أحدثكم الآن[٢٦٤ظ].

بداية هيكل ضريح الرب

كـان مكان صلب يسوع ودفنه خـارج باب مدينةالقـدس، كما برهن على ذلك انجيل يـوحنا:١٨، والرسـالـة إلى العبرانيين:١٣، وعـدّ هذا المكان مشهـوراً منذ بداية خلـق الجنس البشري، ولقـد قـالوا أيضـاً بأن آدم، أبونا الأول، قد دفن فيه، وأن جسـد هذا البطريرك قد نقل كله من هناك، وذلك باستثناء رأسه، وكان نقله إلى الكهف المزدوج، الموجود في حبرون، وهناك دفن، ولهذا السبب تطورت عـادة بين الرسـامين، برسم رأس آدم تحت قـدمي المصلوب، ولهذا السبب أيضاً اعتـاد أبناء آدم لمدة طويلة على معاملة هذا المكان بـاحترام، ومن المحتمل أن يكونوا قد بنوا مصلى هناك تشريفـاً لأبويهم، وأن هذا المصلى قـد عـاش حتى طوفـان نوح، فبعـد الطوفان، سكن سـام بن نوح، الذي هو ملكيصادق، فـوق جبل أكرا(الجمجمة) والتقى بابراهيم وهو يحمل خبزاً وخمرة، وباركه.

وفيما بعــد، كـان ابراهيـم على وشك التضحيـة بـابنه اسحق في هذا المكان نفســه، وذلك بناء على أمــر من اللـه، وهنا نُصب أفعــوان من البرونز، كان الناس يقدمون له الأضـاحي، وفي الحقيقة كان الرئيس بين الأماكن المرتفعـة التي أزالها فيما بعد حزقيـا(الملوك الثاني:١٨/ ٤)، ولهذا يبـدي اليهـود احترامـاً خـاصـاً لهذا المكان، عـلاوة على ذلك، اعتـادت الأمم، وكـذلك الفـلاسفـة على زيارة هذا المكان، بسبب وسط الدنيـا، الذي برهنوا أنه هنـا، كما تحدثت عن ذلك في ص٤٩٧، وجـرى وصف هذا المكان وشكله في ص٤٩٧ نفسهـا وكـذلك في ص٤٨٨، واستمـر هذا المكان يحظى بالتشريف حتى أيام أمم الاغريق، الذين قـاموا بسبب كـراهيتهم لليهـود بتهـديم ذلـك المصلى وتشتيت بقـاياه، وعينوا المكان ليكون الموضع الـذي يجري فيــه اعــدام مقترفي الشرور، وبذلك تحول المكان المقدس لدى اليهـود، إلى موضع ممقـوت لديهم، هذا ومن المعتقد أن الرب يسوع، غالباً مـاقام، اثناء حياته بزيارة هذا الموضع على الجبل، مع مكان دفنه، مــوضحـاً بذلك قــداسـة ذلك المكـان، الذي تكرست قداستــه بموته، وبدفنه، وبقيـامته المجيـدة جداً، فلقد كـرس هذا المكان وجعله مقدساً لجميع الدنيا.

وبعد صعـود الرب اعتادت مريم العذراء الأعظم قـداسة، والرسل، وبقيــة المؤمنين على زيارة المكان يوميــا، وتقبيل طبعـات اقــدام الرب يســوع، كما سلف وذكـرنا في ص٦٤٣، ويـذكـر بعضهـم أن القــديس جيمس الأصغـر، الذي رسمـه الـرسل، أول أسقف للقـدس، قـد اتخذ كرسيه، ومقـر اقامته في مكان قيامة ربه، وأقـام هناك القداسات وأعمال التعبـد الدينية، فضـلاً عن هذا، كـان هو مصنف بنود العقيـدة، أي أنه أعلن بأن الرب«قد تألم أيام بنتوس بيلايطوس، وصلب، ومات، ودفن»

وبعـد استشهاد القـديس جيمس، وفي السنةالثانيـة والأربعين، أو— كما يقول بعضهم— في السنة الخامسة والأربعين بعد آلام الرب، سببت

ذنوب اليهود تعرض القدس إلى دمار كلي، وذلك باستثناء مدينة داوود، والسور الغربي المواجه لصخرة الجمجمة، وحديقة ضريح الرب، حيث سمحوا ببقاء هذه الأماكن من أجل امتلاك حراس تلك البلاد مكاناً حصيناً، وبعد ذهاب الرومان، رجع المسيحيون— كما قلنا من قبل— إلى القدس، واعتادوا على زيارة موضع الجلجة مع جميع الخشوع الذي اعتادوا عليه، ومع ذلك لم يعمروا هناك أية كنيسة أو هيكل، بسبب خوفهم من الحرس الروماني، ولعدم رغبتهم في تغيير شكل المكان عما كان عليه في أيام صلب المسيح، وقيامته، وهو شكل كره القديس جيمس أيضاً تغييره، لأن تذكر ماكان قد حدث يمكن أن يكون أكثر تأثيراً، وأنا كان بودي عدم بناء أية كنيسة هناك، فوقتها كان بالامكان فهم معاني الأناجيل بشكل أوضح، وذلك لدى حديثهم عن آلام الرب وقيامته، وأعتقد بشكل مؤكد أن المسيحيين ماكانوا ليقدموا على تغيير شكل المكان، لولا أن الامبراطور هدريان فعل ذلك.

وقدم هذا القيصر إلى القدس في سنة ١١٩، وفي ذلك الوقت كانت قد أعيدت عمارتها بشكل ما من قبل المسيحيين واليهود، وقام للمرة الثانية بقتل اليهود، وباعهم رقيقاً، وأخرجهم مطرودين من البلاد، وبنى مدينة القدس الجديدة، حيث هدم المدينة القديمة ووسعها، وطمّ الخنادق بين المدينة وبين مكان آلام المسيح وحديقة الضريح، ورفع هذه الخنادق إلى مستوى بقية الأرض، وبنى سوراً حول المدينة، أدخل في إطاره هذا المكان، لأنه سمع بأن المكان كان مقدساً، وكان مبجلاً من قبل المسيحيين.

ونظرا لكونه كافراً ووثنياً، فقد رغب بتشريف آلهته هناك، وقد بنى هيكلاً عظيماً ضم كل من صخرة الجمجمة، وكهف ضريح الرب، ونصب على صخرة الجمجمة— حيث أقيم فيما مضى الصليب المقدس— نصب فينوس العاهرة بلاحياء، ووضع في كهف ضريح

الرب تمثال جوبيتر الشرير جداً، وهكذا صار المكان الذي كان المسيحيون يزورونه من قبل بشكل متواصل مكروها جداً من قبلهم، وبقي المكان في هذه الحالة الشريرة لمدة مائة وثمانين سنة، أي حتى أيام قسطنطين الكبير، والقديسة هيلانة، وقد عرفنا هذا من رسالة القديس جيروم إلى بولينوس، وهي التي افتتحها بكلمتي Bonus home، وهذه الرسالة موجودة في الكتاب الثالث، في صفحة:٢١٠.

وفي سنة ٣١٣ لتجسيد الرب، تحول قسطنطين وهيلانة إلى عقيدتنا، وبعدما صارت هيلانة عابدة للصليب، جاءت إلى القدس، وهنا وجدت موضع موت الرب وقيامته في هيكل مدنس وغير نظيف إلى أبعد الحدود، وبما أنها كانت ممتلئة بالحماس للرب، ألقت أرضاً بالأوثان، ودمرت الهيكل، ولحق الدمار حتى أساساته نفسها، ونظفت صخرة الجمجمة وحجرة ضريح الرب، وأمرت رجالاً بالحفر عميقاً بالأرض، وقد بذلوا كثيراً من الجهد في تعزيل الأرض ورمي التربة، وذلك في المكان الذي وجدت فيه الخشبة الثمينة للصليب المقدس، مع الرموز الأخرى لآلام المسيح، كما سلف وتحدثت في ص٤٨٢و٤٨٨، وعندما أعلمت بذلك ابنها قسطنطين، أرسل لها على الفور مبلغاً من المال لتغطي به نفقاتها، وأصدر أوامر إلى مكسيموس Maximius، الذي كان آنذاك أسقف القدس، بأن يبني كنيسة فخمة في ذلك المكان المقدس، تبعاً لأوامر أمه هيلانة، وهكذا بدأ العمل في هذا المشروع العظيم، وبعد ذلك انتهى بسرعة، وبني هيكلاً عظيماً مع تزيينات باهظة النفقات، إلى حد أن العالم أجمع لم يكن به مثله، واعتقد كثيرون بأن هذا الهيكل كان أعلى بنفقاته من الهيكل السالف الذي دمره تيتوس والذي قام فوق أرض بيدر أرونا.

وفي ذلك الوقت لم يكن فوق ارض البيدر هذه هيكلاً، ولاحتى مصلى، بل بعض المساكن لعوام الناس، وكان الموضع كله من دون أي

تشريف، ونقل الآن مقر الأسقف من صهيون إلى الهيكل الجديد، وقطن رجال الدين والبلاط كله هناك، علاوة على ذلك، جرى هناك تجديد المعجزة التي تحدثت عنها في الورقة المتقدمة، والمتعلقة بالنار المقدسة للفصح، فعندما يجري اطفاء الأنوار جميعا، في الأمسية المقدسة لعيد الفصح، في جميع أرجاء الكنيسة، أثناء انشغال رجال الدين والناس بالصلاة، يحدث فجأة، نزول شعلة من السماء تقوم باشعال شموع الفصح، وجميع الشموع والمصابيح، وتحدث هذه المعجزة كل سنة في هذه الكنيسة عشية عيد الفصح، وطوال ظهور هذه المعجزة لاتتلقى الكنيسة أي أذى على أيدي غير المسيحيين.

وكانت العادة آنذاك، أنه عندما يحل السبت المقدس، يجري اطفاء كل نار في جميع أرجاء القدس، ولايتجرأ انسان على اشعال أية نار بأية واسطة من الوسائط، إلاّ من النار التي تقدمها الكنيسة، وبناء عليه يبقى الناس جميعاً، في كل من الكنيسة وفي بيوتهم بصلوات مستمرة من أجل النار السماوية، التي ينظرون إليها على أنها العلامة الأكثر تأكيداً على رضى الرب عليهم، وعندما تنزل النار من السماء، كانوا يقومون جميعاً باشعال مصابيحهم، وبحمل النار إلى الكنائس الأخرى قريباً وبعيداً، وإلى هذه الأيام يجري حمل الزيت المكرس هناك، وجلبه أيضاً إلى البيوت الخاصة للناس، حيث اعتادوا على ابقائه مشتعلاً طوال السنة.



وحدث في سنة ٣٢٣ لتجسيد ربنا، بعد وفاة مكسيموس، أسقف القدس، أن بدأ الآريوسيون بالحملة على كنيسة الضريح المقدس تحت سلطتهم، وقد عزلوا كونراد أسقف القدس الكاثوليكي والمعين بشكل شرعي، وعينوا رئيس شمامسة فيها، وبدلوا النظام المحدد من قبل كنيسة روما، وتحكموا لسنوات كثيرة بالكنيسة المقدسة في الجلجلة، التي دنسوها بهرطقتهم، وفي تلك الآونة، أثناء استيلاء الهراطقة الآريوسيين

على كنيسة الضريح المقدس، جرى عقد مجمع نيقيا، وقدم بعد هذا قسطنطين إلى القدس، واستمع إلى الآريوسيين إلى حد أنه اقتنع من قبلهم بالنزول إلى الأردن، وتلقي تعميد ثاني على أيدي الآريوسيين، وكأن تعميد القديس سلفستر له كان بلا تأثير، وقد وجدت هذا مدوناً في كتاب تاريخ حول قسطنطين، والذي اعتقده ان الحكاية كلها قد اخترعت من قبل الآريوسيين، من أجل أن يمتنوا حزبهم باهانة مثل هذا الامبراطور العظيم.

هذا ومن الممكن، انه نزل مع رجال الدين والشعب إلى الاردن، واغتسل فيه صدوراً عن التقوى، مثلما يفعل الحجاج دوماً، وبذلك أعطى إلى الآريوسيين فرصة للقول بأن الامبراطور قد تعمد للمرة الثانية، وطوال المدة التي سيطر فيها الآريوسيين على الكنيسة، توقفت النار من السماء عن النزول في عشية عيد الفصح، مثلما اعتادت على النزول في ظل سيطرة الكاثوليك، وفي الحقيقة لقد تبرهن بتجارب صحيحة، أنه في كل مرة يكون هناك انشقاق وانقسام في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، في ذلك الوقت بالذات يجري دوماً انتزاع الضريح المقدس من الكاثوليك، ويعطى إلى الهراطقة، والمنشقين، أو المسلمين، وأنا اعتقد بشكل أكيد، أن الكنيسة الغربية لوكانت متحدة مع نفسها، لأمكننا من دون سيف ومن دون حرب تملك ضريح الرب.

وفي الوقت الذي كان فيه الآريوسيون يتحكمون بالكنيسة، طردوا الكاثوليك منها، ومن كل جهة، ولم يسمحوا للحجاج بالدخول إلى ضريح الرب، ولذلك وقعت أعمال القتل يوميا، وكانت هناك مشاجرات مرعبة بين الآريوسيين والكاثوليك، وأقول إنه في ذلك الحين اتحد المسلمون، وانقضوا على نوعي المسيحيين وطردوهم من الكنيسة، وشتتوا جميع هؤلاء المتخاصمين، سواء أكانوا هراطقة أم كاثوليك،وأبعدوهم عن القدس،و..... دمروا كنيسة الضريح القدس،

غير أنها لم تبق معزولة لمدة طويلة، لأن جميع أساقفة الكنيسة الكاثوليكية الشرقية، مع جميع المؤمنين الآخرين، تجمعوا في سنة ٣٧١ لتجسيد الرب، وذهبوا إلى القدس، وطردوا المسلمين والآريوسيين، وأعادوا عمارة مبنى كنيسة الضريح المقدس، وأرجعوها إلى الإيمان الحقيقي للكنيسة الكاثوليكية، وتصاحب هذا مع كثير من التعب، لأن الآريوسيين كانوا قد أصبحوا قوة هائلة في جميع أرجاء العالم، وكانوا يتمتعون بالحظوة لدى الأساقفة، ورجال الدين، والملوك والأمراء، وقامت هذه الهرطقة اللعينة وصدرت عن آريوس، الذي كان قس الاسكندرية، وكان بالاسكندرية، احمقاً إلى حد محاولة زرع الخلاف في الايمان القويم، كما حاول أيضاً أن يفصل الابن عن الجوهر الدائم، والذي لايتغير للأب، وذلك حسبما حدثنا غراشيان Gratian في لاهوتيته الرابعة والعشرين— الفصل الأول.

وبعد تنظيف الكنيسة في القدس من تلك الهرطقة، سيطرت القداسة بشكل رائع بين كل من رجال الدين والعلمانيين، في جميع أنحاء العالم، حتى أيام الامبراطور هرقل.

وفي الحقيقة ازدهر بين ايام الامبراطور قسطنطين، الذي حكم في سنة ٣١٣، وهرقل الذي حكم في سنة ٦١١، رجال نالوا شهرة عظيمة وكانوا متنورين، ومعهم تراجعت الهرطقة الآريوسية كثيراً، وهي الهرطقة الخطيرة التي كان آريوس رئيسها، وكان هذا العصر مقدساً وخطيراً، فلقد كان مقدساً، بسبب القديسين الذين عاشوا في تلك الآونة، ودون الحديث عن الجميع، لقد كان هناك بين هذين الامبراطورين، قد ازدهر، أربعة حكماء مشهورين في الكنيسة، هم: أمبرويز، وأوغسطين، وجيروم، وغريغوري، وفي الوقت نفسه كان من بين القديسين، نيقولا، وأنطوني الكبير، وزينو أسقف فيرونا، وبولص، أول النساك، وبولنيوس أوف تريفس Treves ، ويوسيبيوس،

وهيــلاري، وأثناسيــوس، ومكاريوس، ومــريم المصرية، وكــان هناك وقتذاك كثيراً من النساك في قفـار مصر، والعربية، وفلسطين وليبيا، وفي كل سنة تـدفقت حشـود مـن الأتقيـاء المسيحيين مع بعضهـم من جميع أجزاء العالم إلى فلسطين، لإقامة عيد الفصح الكبير، وجاء كثيرون ليس فقط من أجل يسوع، بل لكي يتمكنوا من رؤية معجزة النار السماوية في أمسيـة الفصح، والمعجزة على جبل الزيتـون في يوم عيد الصعـود، التي كنت قد تحدثت عنها من قبل في ص٤٩٠، و٥٩٥.

ولم تتـوقف القــدرة الالهيـة، في ذلك الوقت أيضـاً عـن تمجيـد هذا المكان، بوسـاطة كثير من العلامات، وهكذا رأى في سنة ٦٢٠ لتجسيد الرب، راهب اسمـــه برنارد، هو ليـس برنارد أوف كليرفــو، بل رجل مقدس آخر، رأى النار المتقـدمة الذكر نازلة من السماء إلى هيكل ضريح الرب، وقـد كتب كثيراً حـولها في كتـاب حجـه، وفي ذلك الوقت قُـدر المسيحيين كثيراً بسبب نار الفصح، وفي ذلك الوقت أيضاً، جرى عرض الصليب المقدس والآثار المقدسة الأخـرى، التي وضعتها هناك القديسة هيلانة، وهكـذا نقرأ، بأن القديسـة مريم المصرية، عنـدما كانت مـاتزال مذنبـة، قدمت إلى القـدس مع آخرين كثر لـرؤية الصليب المقدس، غير أنه لم يسمح لها بالدخول لـرؤيته قبل أن تعهدت بتقـويم حياتها، حسبما ورد في اسطورتها.

وبين الامبراطورين المتقــدمي الـذكـر، أي قسطنطين وهـرقل، تسلم يوليان المرتد زمام السلطة في سنة ٣٦٣، وكـان هذا الرجل يغار من مجد المسيح والمسيحيين، ولذلك حشـد جميع اليهـود مع بعضهم، وبعث بهم إلى القـدس على نفقتـه، من أجل أن يتمكنوا من بناء هيكل فـوق أرض بيـدر أرونـا، لخفض وايذاء مجد هيكل ضريح الرب، الذي كــان آنذاك ممجـداً في جميع أنحـاء العـالم، وكنا قـد تحدثنـا من قبل عن الاضطراب الذي أرغمهم على التخلي عن العمل.

وبعدما طردت الهرطقة الآريوسية من كنيسة القدس، وعندما كانت كتلة الناس المؤمنين تتقاطر كلها على شكل حشود إلى ضريح الرب، وعندما كان السلام مع القداسة مزدهران، وفي الوقت الذي كان فيه جيروم المبارك ساكناً في بيت لحم، انبعث شر آخر في الكنيسة في القدس، وهو الانشقاق حول السلطان القضائي، لأنه عندما جاء ايبيفانوس Epiphanius أسقف سالاميس Salamis في قبرص، إلى القدس، وكان يناظر في هيكل الضريح المقدس ضد هرطقة أورجين Orgen ، منعه يوحنا أسقف القدس ومعه اكليروسه كلهم، فلقد منع بغضب الرجل المقدس، وأمره أن يلزم الصمت حول هذا الموضوع، وفيما بعد عندما رجع إلى مكانه، أمر يوحنا بعدم عدّ الذين رسمهم ايبيفانوس كهنة، وحرم كنسياً جميع الرجال المقدسين للفئة الأخرى، وعلى هذا كان الذي حدث الآن هو أن الهراطقة سمح لهم بالدخول إلى ضريح الرب وبتقبيل الصليب المقدس، ونقرأ عن هذه المسألة في كتاب جيروم الذي وجه إلى بمّاخوس Pammachus ضد يوحنا، أسقف القدس المنشق، وبعد مضي سنوات طوال، عندما جلس القديس غريغوري على عرش بطرس، في سنة ٥٨٤ لتجسيد ربنا، تم العثور على رداء ربنا الذي لامثيل له، في صندوق رخامي في مصفت Masphat قرب القدس، وقد جلب مع البكاء والصوم إلى القدس من قبل القديس غريغوري، أسقف أنطاكية، وهونوريوس أسقف القدس، ويوحنا أسقف القسطنطينية ووضع في كنيسة الجلجلة، من أجل بهجة الناس وتقواهم.

وفي سنة ٦٠٩، قام في الشرق، كسرى ذلك المتوحش المتميز، والذي كان ملك فارس، فقد حشد جيشاً من الكفار، وشعث واستباح مصر، وسورية، وفلسطين، وناهض الحكم الروماني في كل مكان وبكل السبل، وبعدما استولى على كثير من المدن، دخل إلى اليهودية وحاصر

مـدينة القـدس المقـدسة، التي كـانت مليئة بمسيحيين أتقيـاء، واستـولى عليها، وقتل فيهـا ثلاثين ألفاً من الناس، الذين أمر بأجسـادهم فرميت خـارج المدينة، في جـدول قـدرون، لكن الرب بعث أسـداً كبيراً، جـاء وحمل أجساد المسيحيين، ودفنهم فوق جبل الشهـداء، قرب القدس، كما قرأنا في«التاريخ اللاهوتي» وكما كنا قد تحدثنا عن ذلك من قبل.

وقـد اعتقل بعضـاً من الأعيـان، وجعلهـم أسرى لديه، وكـان بينهم زكريا، أسقف القـدس، الذي أودعه السجن، وبعد تهديمـه سور المدينة المقدسـة، دخل إلى هيكل الضريح المقدس، عازمـاً على نهبه، ثم تدميره، لكنه بعـدما استولى على الصليب المقـدس، الذي وضعته هيـلانه هناك، وكــان مغلفــاً بأغلفــة من ذهب، وأراد أن يمــدّ يده مـن أجل تدمير الهيكل،أشعت القــدرة الربانيــة من ضريح الرب، بشكل أنه ورجــاله ارتجفوا رعبـاً، وتوقفوا عـن أعمال التدمير التي كـانوا قد شرعـوا فيها، وعاد مع أسلابه، ومع الصليـب المقدس، ومع الأسرى إلى بلاد فارس، ونهب بعـد هـذا كنائس الشرق، وأرسل ابنه إلى الأجـزاء الشماليــة من سورية، بقصد قهـر الشعوب في تلك المناطق، ونهب كنائسهم، وقد عبر كثيراً من البلدان، ووقف أخيراً عنـد الدانوب، حيث كــان الامبراطور هرقل قد زحف ضده وهزمه، حسبما أُخبرنا في عظة يوم تمجيد الصليب المقدس(١٤ — ايلول).

وعندمـا هزم، قُتل أبـوه، وجـرى استرداد الممالك الضـائعـة، وأرجع هرقل إلى القـدس الصليب المقـدس، والأسقف زكـريا، وجميع الأسرى والأسلاب، وقام بترميم الأجزاء المهـدمة من الهيكل والمدينة، وأعاد إلى المسيحيين رسوم كنـائسهم وفقاً للاستخـدامات اللاهوتيـة، وفي الحقيقة كانـت المدينة المقدسة قـد بقيت مقفرة وتعيسـة لمدة عشر سنوات، لكن هرقل استردهـا، وعــاد إلى القسطنطينـية، حيث أخــذ يمارس حيـــاة شريرة.

وفي هذا الوقت انضم إلى محمدﷺ.....(١) عـدد كبير من المناطق والممالك المسيحية ولدى رؤية هرقل لهذا الوضع، خـاف من دخوله ﷺ إلى القدس، وتدميره لهيكـل ضريح الرب، واظهاره عـدم الاحترام نحو الصليب المقدس، ولـذلك حال بين محمدﷺ وبين ذلك فـأخذ الصليب المقـدس وكل شيء آخـر غـالي وثمين، وأخـرجـه من الهيكل ونقله إلى القسطنطينية، لأنه يئس من قـدرته على مواجهة محمـدﷺ، وحدث نقل الصليب المقدس في سنة ٦٢٣ لتجسيد الرب.

وبعد وفـاة محمدﷺ استـولى عمر بن الخطـاب، الخليفة الثالـث(اقرأ: الثـاني) على مـدينة القـدس في سنة ٦٣٤، وبنى هناك مسجـداً كبيراً للمسلمين ولأتباع محمدﷺ فوق المكان الذي قام عليه فيما مضى هيكل سليمان، وهو أمر كنت قد تحدثت عنه من قبل، وكان عندما استولى على المدينة، قد نوى أن يعمل مسجداً مـن هيكل الضريح المقدس وأن يعدّه من أجل الشعـائـر الاسلاميـة، لكنه عندمـا دخل إلى الهيكل ارتعب بالقـدرة الإلهية إلى حـد أنه تراجع عن نيتـه، وتعـامل بشكل لطيف مع المسيحيين، بسبب تقـوى صفرونيـوس الأسقف المسيحي، الذي اعتمـد بكياسة على رأيه بشأن بنا الهيكل الجديد.

وواضح مما قيل بـأن هيكل ضريح الرب، كـان قـائماً قبل ثلاثمائـة وأربع سنوات قبـل الهيكل الذي يسمـونـه هيكل سليمان، وأذن عمـر للمسيحيين بعبادة الرب في هيكلهم، وأجبر المسلمين على مدح محمدﷺ في هيكل آخر، لأن غير المسيحيين لم يكونوا قـد اعتادوا بعد على شعـائر محمدﷺ، ولذلك كـانوا يساقون بالقوة، ومع مـرور الأيام تفجر خصام في القـدس بين المسلمين والمسيحيين، وفـرض المسلمـون على المسيحيين كثيراً من المكوس، وغالباً ماجرى تحريرهم منها والتفريج عنهم من قبل

١ــ جـرى حذف عـدد من الأسطر لما تضمنته من شتـائم مقـذعة بحق النبي ﷺ، يضـاف إلى ذلك أن التواريخ التي قدمها فابري غير دقيقة.

الأباطرة، من ذلك على سبيل المثال أنه في سنة ٦٧٠، قام قسطنطين الثالث— على الرغم من أنه كان رجلاً سيئاً— بتحرير المدينة المقدسة والضريح المقدس، سبع مرات من ظلم المسلمين، وبعده عمل قسطنطين الرابع شروراً كثيرة للمسلمين في كل من القدس وأماكن أخرى، وحيثما كانوا يقاتلون ضد المسيحيين، ومع ذلك استمر المسلمون يحكمون القدس، ولم يتمكن أباطرتنا من تحرير المدينة وتخليصها من تحت نير الاغريق(الروم الأرتوذكس). وفي سنة ٨٠٣ لتجسيد ربنا، في أيام حكم شارلمان، الامبراطور العظيم، كان المسيحيون في القدس وفي جميع الشرق في وضع مرهق تحت سلطة المسلمين، وقاموا وهم في أوضاعهم التعيسة بالتوسل من أجل المساعدة من قسطنطين— السادس بهذا الاسم— امبراطور القسطنطينية، ومن أمه إيرين، لكن بما أن قدرة الإغريق وقوتهم كانت قد تراجعت كثيراً، لم يكن باستطاعته هذا الامبراطور تقديم المساعدة لهؤلاء اليائسين، بوساطة قواته الخاصة.

وقام في ذلك الحين ليو، الذي كان البابا الثالث بهذا الاسم، صدوراً على الفضائل العظيمة لشارل الكبير، ملك الفرنجة، فمجده بترقيته إلى مرتبة امبراطور الرومان، وهو لقب كان قبل حوالي خمسمائة سنة مضت قد زال من قبل قسطنطين الكبير، وفي أيام شارلمان كان تقريباً قد أصبح منسيا من خلال الأيام، وقد أعاد الآن امبراطورية الغرب إليه.

وتبنى شارل، الذي لقبه أغسطس، الاسم الامبراطوري، وفخاره، وحكم لمدة أربع عشرة سنة، وقد عمل أعمالاً مجيدة في جميع أنحاء العالم، وجلب المجد والفخار لشعبه الألماني، ولهذا كان شارل تيوتونيا، حسبما مبرهن بشكل واضح بالاعلان في......المراسيم، حيث جاء سياق النص كما يلي:« نقل الكرسي الرسولي الامبراطورية الرومانية من الاغريق إلى الألمان، في شخص شارل المجيد»، وجاء في أبّا Appa:٢ الشيء نفسه، فضلاً عن هذا نقرأ في كتب التاريخ أنه عندما تعرضت

الكنيسة **الرومانية** للتسلط الهنغاري، طلب البابا المساعدة من امبراطوري **القسطنطينية**:قسطنطين، وابنه ليو، ولأنهما لم يتوليا الدفاع عن الكنيسة الرومانية، نقل حكم الامبراطورية الرومانية إلى شارل الكبير، ابن بيبن، الذي هو نفسه وضعه في مكان لويس ملك فرنسا، الذي خلعه.

وحدث نقل الامبراطورية من الاغريق إلى الالمان في سنة ٧٧٦، وفي أيام حكم شارل سمعت شهرته في القدس، ولذلك بعث إليه بطريرك القدس بمفاتيح الضريح المقدس وموضع الجمجمة، ومفاتيح أبواب المدينة، وجبل صهيون، وأعلاماً للمباركة، وكعلامة على الخضوع كما يمكن الاطلاع على ذلك في تاريخ أنطونيوس— القسم الثاني، العنوان:١٤،الفصل:٤،الفقرة:٢.

وليس بعد مدة طويلة من هذا قام غير المسيحيون بثورة ضد يوحنا بطريرك القدس، وطردوه مع جميع اكليروسه إلى خارج المدينة، وذهب إلى القسطنطينية، وطلب المساعدة من الامبراطور قسطنطين، وعندما كان الامبراطور مشغولاً حول هذه المسألة، رأى في منامه رؤيا، تعلم خلالها، بأنه ليس هو، بل شارل الكبير، هو الذي سوف يحرر القدس، ويعيد ضريح الرب إلى المسيحيين.

وبناء عليه ارسل امبراطور القسطنطينية، على أيدي رجال دين الضريح المقدس، إلى شارل الكبير المفاتيح، ورسالة أوضح فيها الشدائد والمصاعب التي آل إليها وضع الضريح المقدس والمسيحيين، وعندما قرأ شارل هذه الرسالة، بكى وعلى الفور حشد حشداً كبيراً من الألمان والفرنجة، وجلبهم عبر البحر، وأنقذ المدينة المقدسة من أيدي المسلمين، وأعاد الضريح المقدس، إلى المسيحيين، وبذلك أقام سلاماً كاملاً بين المسيحيين والمسلمين، وهو أمر لم نسمع به من قبل.

وهو لم يقـم بقتل المسلمين، ولابطردهـم من القـــدس، بـل جعلهم يتفقون مع المسيحيين على شروط محددة، ولقد قيل بأنـه توفر هناك وئام عظيم فيما بينهم لسنوات طوال، إلى حـد لو أن دابة أي مسـافـر هلكت على الطريق، كـانوا يضعـون الحمل على جـانب الطريق، ويذهبـون إلى القرية الأقرب للحصـول على دابة أخرى، وذلك من دون البضائع التي خلفـوها ورائهم، دون المعـاناة من أية خسـائـر، أو سرقـة، أو سلب، وهكذا بعـدمـا أعيـد السلام، واسترد النظام إلى الكنيسـة، عـاد شـارل المشهـور جـداً إلى بلاده، وعلى طريقـه زار القسطنطينيـة، حيث استقبل استقبالاً فخماً.

وتعـويضاً على جهـوده منحوه أعطيـات ثمينة جـداً، وذهباً، وفضـة، وأحجـاراً كريمـة، وأشياء أخـرى غاليـة، وقد رفض أخـذها قائـلاً إنه سيكون أمراً مؤذياً بالنسبة له أن يأخذ ايجاراً على عمله الذي عمله لمحبة الرب فقط، وعندمـا ترجـوه بأن يـأخـذ هدية مـا، طلب أن يعطى آثاراً مقـدسـة، ولهذا فتحـوا كنوزهم، وأعطوه بعض الشـوك من تاج الرب، وواحداً من مسامير الصليب المقـدس، وقطعة كبيرة من الصليب نفسه، ومنديل الرب، وقميص العـذراء المبـاركـة وأقمشـة القماط التي لف بها الطفل يسـوع، وقطعـة من مـزود الرب، وسنان الرمـح الذي طعن به جنب الرب، وذراع القـديس سمعـان، وأشيـاء أخـرى كثيرة، تسلمهـا ذلك الرجل اللامع مع خشـوع عظيم، وقـد وقعت معجـزات كثيرة في هذه المنـاسبـــة، كما جـــاء الخبر في Speculum Historiale— الكتـاب:٢٥، الفصل:٥، وقـد جلبهم معه إلى بلاده ألمانيـا، وإلى مـدينة إكس لاشـابيل، حيث وضعهم في كنيســة العـذراء التـي بناها، وهذه الأشيـاء محفـوظة باجـلال حتى هـذا اليـوم، ويجري عـرضهـا كل سبع سنوات، حيـث تجتمع في تلك الآونـة حشـــود لاتحصـى من المؤمنين، ولاسيما الهنغار الذين يأتون من بلادهم في جماعـات كبيرة ويجتمعون في

إكس، وأنا شخصيا رأيت هذه الآثار في سنة ١٤٦٨.

واحتفظ شارلمان ببعض الآثار في بلاطه، وجعلهم ملكاً لبلاط الامبراطور، ولذلك وضعهم مع الذخائر الثمينة جداً العائدة للامبراطورية في محل خاص في البلاط، وهم محفوظون في هذه الأيام في سيغودنوم Segodunum، أي نوريمبيرغ nuremberg، حيث يجري عرضهم في يوم الجمعة بعد Quasimodo، ووقتها يجتمع حشد كبير من الناس لرؤيتهم.

وإذا مازار أي أمير نوريمبيرغ في وقت غير الوقت المحدد، فإنهم يجلبونهم ويعرضونهم عليه، وبناء عليه، في سنة ١٤٦٨، في يوم الأحد الذي اسمه Cantate ، عندما اجتمع رهبان منطقتنا هناك في مؤتمر ديني، عرضوا هذه الآثار علينا، وسمحوا لنا بحملهم وبتقبيلهم، وكان بينهم سنان رمح الرب، الأعظم قداسة، وقد سمح أهل نوريمبيرغ لكل واحد من الرهبان بلمسه بيديه، وكان ذلك صدوراً عن احترام خاص شعروا به نحو الطائفة، ورأينا هناك، ووضعنا على رؤوسنا التاج الذهبي لشارل الكبير، الثمين جداً، وكان كله مرصعاً بالجواهر، ورأينا الصولجان الذهبي، والتفاحة الذهبية، والركابين الذهبيين، وبقية الشعارات الامبراطورية، وكلها كانت قد جلبت إلى نوريمبيرغ من فرانكفورت في ذلك الأسبوع نفسه، وذلك حيث جرى انتخاب مكسميليان، المجيد والمنتصر، دوق النمسا، وابن فردريك الثالث الكبير، فقد انتخب ملكاً للرومان، وقد لبس هذه العلامات المقدسة.

وعلى هذا كانت جولاتي ورحلاتي واسعة، جعلتني أتجول في جميع أرجاء الدنيا، ولسوف أعود الآن إلى القدس، التي بقيت بعد مغادرة شارل الكبير لها بسلام لبعض السنين، وكان الغربيون مسموح لهم بزيارة الأماكن المقدسة من دون أي معيقات، ولم يزعج المسلمون الذي امتلكوا مملكة القدس، الحجاج الذين ارتحلوا إلى هناك، لأن شارل لم

يعـد المملكة إلى المسيحيين، ولم يجعلها خـاضعـة له، بل قام فقط بإعـادة السلام بين المسيحيين والمسلمين، وهو سلام— على كل حال— لم يعش طويلاً، إنما طوال المدة التي عـاشهـا السـلام، زار الغـربيـون الأمـاكن المقـدسـة يوميـاً، في حشـود كبيرة، ونـامـوا في الليل في كنيسـة الضريح المقـــدس، لأنه لم يكن هنـاك مكان لسكنى اللاتين في المدينـة، ولم يكن هناك بعد دور ضيـافة، ولم تكن هناك أية كنيسـة لاتينية، بل تولى الروم الأرثوذكس ممارسة القداسـات في كنيسة الضريح المقدس، وفي الكنائس الأخرى.

وحدث في هذه الأيام أن جلب التجار من أبوليا سلعاً جديدة غريبة، لم تكن حتى ذلك الوقت معروفـة في الشرق، وقد جلبوا هذه السلع إلى الاسكندرية، للحصـول على الربـح ببيعهـا هناك، ومن المعتقـد أن هذه السلع، كـانت البندق، كما سـوف نوضـح ذلك في ص١٢٧ من القسم الثاني، وجلبت هذه السلع بمثابة أشياء ثمينة جداً إلى ملك مصر، الذي امتلك السلطة أيضاً على العربيـة، وفلسطين، واليهودية، وانجذب الملك بهذه السلع الجديدة، ووعـد التجـار مقـابلهم بأنـه سـوف يمنحهم أي طلب يسألونه إياه، وهكذا سألـوه وحصلوا على إذن ببناء مكان لإقامـة الحجاج اللاتين، في أي مكان من القدس، يمكنهم اختياره.

وبناء عليـه بنو ديراً تشريفاً للعـذراء مـريم أمام باب كنيسـة الضريح المقدس، وأقـاموا هناك راعي الدير، ورهبـان لاتين، وبما أن اللاتين هم الذين فعلوا هذا، أطلقـوا على المكان نفسه اسم القـديسه مـريم للاتين، وبقيت هذه الكنيسـة مقدسـة، على بعـد رمية حجـر من ضريح الرب، وكـان راعي الدير والرهبان رجـالاً ذوي تقـوى عظيمة، وقـد استقبلوا الحجـاج من وراء البحـر بكـل اللطف الممكن، وعـاملوهم بكثير من التـواضع، ومع استمـرار تدفـق حشـود الحجـاج إلى هناك من الرجـال والنساء، جـرى استقبال الرجـال في بيت الضيافة في الـدير، لكن النساء

أقمن خارج أسواره، بأفضل مااستطاعوه، وقد تعرضن في بعض الأحيان للمضايقات من قبل المسلمين، وعانين من خسائر بسبب ذلك، ولذلك قام الرهبان بعد الدعاء لمريم معينة الحجاج أن تساعدهم، فبنوا إلى جانب ديرهم، في مواجهة جدار كنيسة الضريح المقدس، ديراً آخر للنساء، على جهة اليسار للانسان الداخل إلى الكنيسة، وأطلقوا عليه اسم دير مريم المجدلية، حيث جرى استقبال النساء الحاجات وجرت معاملتهن بشكل جيد، وهكذا تحسنت أوضاع الحجاج الغربيين في القدس، في أيام المسلمين، الذين بالاضافة لإثقالهم بكثير من الأعباء، ماكانوا ليسمحوا لهم بزيارة الأماكن المقدسة من دون أن يدفعوا لهم، ومن ثم الدخول بسلام، مثلما يفعلون هذه الأيام.

وهكذا فعل المسيحيون، وتدبروا أمورهم، لمدة تزيد على مائة سنة، أي من أيام شارل حتى أيام هنري الأول، الذي في أيامه، في سنة ١٠١٥، قام رجل مذنب، وأداة للشيطان، ومعذب لشعب المسيح، ومدمر للضريح المقدس اسمه الخليفة(الحاكم)ملك مصر الذي قام في نوبة جنون، فأزال من على وجه الأرض السلام والوئام الذي عمله شارل الكبير بين المسيحيين والمسلمين، وكان هذا الرجل قد ولد من أم مسيحية، وعندما صار ملك المسلمين، وخشية أن يعتقد أنه مقاد من قبل أمه، بدأ بممارسة أعمال وحشية ضد المسيحيين، فقد أرغم المسيحيين على التخلي عن عقيدتهم، وفرض ضرائب ثقيلة جداً عليهم، وضايقهم بكثير من الطرق الأخرى، وما من شيء أثاره ليكون متوحشاً ضد المسيحيين، وبحدة متناهية، مثل نقده بأنه شخصياً كان من دم مسيحي، الأمر الذي كان يشعر بالخجل الكبير منه، ولذلك ثار ضدهم بوحشية منفردة، من أجل أنه بفعله ذلك، يمكن أن يبرهن أنه ليس فيه نقطة دم مسيحي، ولايمكن أن يتأثر بالحب نحو المسيحيين والميل إليهم.

وكـان بين أعماله الشريرة الأخـرى التي اقترفهـا مـايلي: دخل المدينة المقـدسة مع حشـد كبير، ورمى أيضـاً تاج المسيحيين إلى الأرض، حيث أمـر بهدم كنيســة الضريح المقــدس، التي بنيت بشكل فخـم من قبل قسطنطين الأول والكبير، وتدميرها دماراً كليـاً، وفي الوقت نفسه شعث الكنائس واستباحها على جبل صهيـون وبيت لحم، وحولهن إلى عبادات ديانة محمـدﷺ وعندما عملت هذه الأفاعيـل، أصبحت أوضاع المؤمنين في القـدس أكثـر سـوءاً، من الحزن العظيـم الذي شعـروه بسبب تدمير الكنيسـة، عــلاوة على ذلك منع المسيحيين من إقـامـة قـــداســاتهم، أو الاجتماع مع بعضهم من أجل العبــادات الربانيـة، وبذلك عــاشـوا في أوضاع ضيق شديد جـداً، بسبب ازعاجاتهم اليوميـة، وكانوا غارقين في أعماق الأسى بسبب دمار الضريح المقدس والكنيسة هناك.

وواضح من هـذا أن كنيســة الضريح المقـــدس التي بنيت مـن قبل هيـلانة، بقيت قائمـة لمدة سبعمائـة سنة، حيث في نهايتهـا دمرت دمـاراً كـامـلاً، وحـدث أنه في سنة ١٠٤٩، لتجسيـد الرب أن جـاءت الرحمة الربانيـة، فجلبت قليـلاً من الطمـأنينة للمسيحيين المدمـرين، ففي ذلك الوقت أزيل الطاغية المتقدم ذكره من هذا العالم، مخلفاً وريثاً كان أحسن منه شخصيـاً، وانتهت هذه الاضطرابات كلهـا، فما أن أصبح الظاهر، الذي كان أكبر أولاده، ملكاً، حتى عمل معاهدة واتفاق مع الامبراطور قسطنطين، وقـد تصرف بلطف نحو المسيحيين، وكـانت عـواطفه طيبـة نحوهـم.

وفي هذه الآونة رأى البابا المقدس ليو التاسع— وكان ألماني المولد— رؤيا أثناء نومـه، قام بعـدها بتحريض الامبراطور قسطنطين على اعـادة بناء ضريح الرب في القدس، الذي جـرى تدميره قبل سبع وثلاثين سنة من قبـل البرابرة، وبناء عليــــه، أعطى الظـاهر المسلم، بنـاء على طلب الامبراطور قسطنطين، الإذن للمسيحيين بإعادة بناء هيكل ضريح الرب

المقدس.

وبناء عليه ذهب المسيحيون إلى هناك بسرور عظيم، وشرعوا ببناء كنيسة جديدة فوق ضريح الرب، وفق نموذج الكنيسة القديمة، وبالنسبة لنفقات إعادة البناء، تحمل الامبراطور قسطنطين معظمها، وهكذا فإن كنيسة الضريح المقدس القائمة الآن، قد بنيت في السنة المتقدمة الذكر، أي قبل خمس وعشرين سنة، من استرداد الأرض المقدسة، وهو الاسترداد الذي تولى تنفيذه غودفري، كما سوف نبين فيما بعد.

وبالنسبة لليهود ولبني اسرائيل، لقد كان لديهم هيكلين، واحد جاء بعد الآخر، هما هيكل سليمان، وهيكل عذرا أو زيرو بابل، ومثلهم امتلك المسيحيون هيكلين هما: هيكل هيلانة، والهيكل القائم في هذه الأيام، فقد عاش الأول سبعمائة سنة، وعاش الثاني أربعمائة وخمسين سنة، على أساس أننا الآن في سنة ١٤٨٨، وبعدما أعيد بناء الكنيسة، صار المسيحيون عندما يريدون زيارتها حسب طريقة ديانتهم، لايسمح المسلمون لهم بالسير حول الأماكن المقدسة بسلام، بل كانوا يفرضون عليهم ضرائب مالية، أويزعجونهم بالكلمات، وقد توفرت كراهية كبيرة وحقد شديد فيما بين الفئتين، لأن المسلمين الذي امتلكوا وقتها السلطة على تلك البلاد حملوا حقداً كبيراً ضد المسيحيين الغرباء، ولذلك استثير العالم المسيحي كله بسبب شكاوى الحجاج، وأصبح حانقاً ضد المسلمين، وبإخلاص رغب في إزالة تسلطهم، لأنهم عانوا طويلاً من آلام ظلمهم.

فمنذ أيام عمر الأمير المسلم الذي اعتلى العرش في مصر(كذا) في أيام الامبراطور هرقل حتى أيام غودفري، الملك اللاتيني الأول للقدس، والذي عاش في أيام(الامبراطور) هنري الثالث، ظلت المدينة المقدسة خاضعة إلى سلطة المسلمين، أي لمدة تقارب الأربعمائة والتسعين سنة،

وصحيح أن الأباطرة هرقل، وقسطنطين الثالث، وشارل الكبير قد حرروا المدينة المقدسة، بعض الشيء ومعها الضريح المقدس، لكنهم لم يحرروها كلها، وظل المسلمون يمتلكون السلطة على المسيحيين، وهي سلطة حولها الأباطرة المتقدمي الذكر أقل إرهاقاً، لكنهم لم يتمكنوا من ازالتها مطلقاً، لأنهم تدبروا إقامة سلام بين الشعبين بمواثيق، ولذلك كان تحريرهم للأرض المقدسة ناقصاً، ومثل هذا الوضع كان من غير الممكن ديمومته، وخاصة بين أناس لايمكن حملهم على الاتفاق في الدين، كما هو الحال بين المسيحيين والمسلمين، الذين توجد بينهما عداوة طبيعية، مع الكراهية التي نمت بين عرقين مختلفين من حيث الجنس، ومن حيث طريقة الحياة، والعادات، والديانة.

فصل يعالج التحرير الكامل للقدس وللضريح المقدس من قبل الأمم الغربية

حدث الانقاذ والتحرير الكامل لضريح الرب، ولمدينة القدس، ولكل الأرض المقدسة، في الوقت الذي كان فيه الامبراطور هنري، الثالث الذي حمل هذا الاسم، والذي كان بافارياً والبابا أوربان، الذي كان الثاني بهذا الاسم، وفي الحقيقة غالباً ماقام سلف هؤلاء الأمراء بالتشاور حول هذه القضية، في اجتماعاتهم المهيبة، وفي مجالسهم التشريعية، واجتماعات الأمراء الأخرى والأساقفة، وقد بدأوا حتى بالعمل، غير أنهم لم يتوصلوا إلى أية نتائج طيبة.

وبناء عليه، حدث في أيام الامبراطور هنري الثاني، والبابا فكتور الثاني، وجرى عقد مؤتمر ألماني في تور، التي هي مدينة مشهورة في فرنسا، وكان ذلك في سنة ١٠٥٥ لتجسيد ربنا.

وتقرر وقتها وجوب تحرير الأرض المقدسة، وفي ذلك الوقت كان أوتو Othus، كونت أنجليرا Angleria، وأمير ميلان، متميزاً بحكمته الكبيرة، ومعلوماته الواسعة في ادارة القضايا العامة، إلى درجة أنه كان رجلاً له قيمة عظيمة من أجل السلم والحرب، وهذا الرجل الذي كانت شجاعته معروفة لدى جميع الذين التقوا في هذا المجمع في تور، جرى اختياره ليكون قائد الحشد، الذي كان سيقاتل ضد الأتراك والمسلمين، من أجل تحرير الضريح المقدس للرب في القدس، وقد وافق على طلب البابا والملوك الآخرين، بدون تردد، وسار منطلقاً يريد القدس مع البقية.

وقد أمضى الشتاء مع المسيحيين الآخرين في حصار المدينة، وأنزل بالمسلمين كثيراً من الجراحات والأذى، وضيق الخناق على المدينة المقدسة كثيراً، ومع ذلك لم يستطع الاستيلاء عليها، وعندما كان محاصراً

لها، كان هناك أمير عربي مسلم من وراء الأردن اسمه Volucer، وكان يتصور نفسه رجلاً جريئاً، وقد تحدى أوتو— من خلال الترجمان— لمبارزته شخصياً، وقد تقبل أوتو هذا الاقتراح بكل سرور، وبناء عليه جاء الرجلان بعد ستة أيام، وهما مسلحان على ظهري فرسيهما، من أجل القتال، وحمل أوتو على ترسه سبعة أكاليل، لأنه كان قد هزم سبعة مقاتلين شجعان جداً، وذلك بضربة واحدة بسيفه.

وحمل Volux (كذا) سلاحاً مختلفاً، فقد كان في خوذته أفعى برونزية ملتفة بشكل رائع حولها، وفي فم الأفعى طفل من قماش، مبتلع حتى أضلاعه، لكن رأسه وكتفيه كانا في الخارج، وقد بدا فمه المفتوح كأنه يدعو إلى المساعدة، وأخذ الرجلان مكانهما، وهما يحملان هذه الشارات، في حقل القصار، أمام مدينة القدس المقدسة، وفي أول حملة ألقى أوتو Volux من على ظهر حصانه، وعلى الفور تناول عموده ورفعه، وبضربة حطم جمجمته، ونثر دماغه فوق الأرض، وبعدما مات أخذ أوتو خوذته، وحملها معه مع أسلابه الأخرى، وهكذا رفع الحصار، ومن ثم عاد إلى أور با لأن جيشه كان صغيراً.

وعندما وصل إلى ميلان، منح شعار سلاحه إلى المسيح والكنيسة، وأخذ الأفعى كدليل أبدي على نجاحه، وكرمز شخصي، ولهذا نجد في هذه الأيام أن دوقات ميلان وبقية أسرة الفيزكونت وهم يحملون هذا الرمز، يختمون نقودهم بصورة الأفعى، وهذه النقود قيد التداول الآن، ولها قيمتها وسمعتها في جميع ألمانيا، وتجلب أرباحاً كثيرة لدولة ميلان، واسم قطع نقودها الكبيرة Blaffardi، والأدنى Spagurlines، والنقود الوسط Trigeras.

وبناء عليه عاد القائد أوتو المتقدم الذكر إلى الوطن ثانية، وأخبر البابا وجميع أمراء الغرب، أن القدس والأرض المقدسة لايمكن الاستيلاء عليها، إلاّ بوساطة جيش كبير جداً، وفي غاية القوة، وأن يجري ارساله

عبر البحر.

وأعقب هـذا، أنه في سنة ١٠٦٣، اجتمـع حشـــد كبير من الألمان، للحج إلى ضريح الـرب في الأرض المقـدسـة، وانطلق عبر البر نحـو القدس: سيفرد Siphred(سيغفرد Siegfred ؟) رئيس أساقفة مينز، ووليم أسقف تريفس، وغونثر Gunther أسقف بامبيرغ وأوتو أسقف راتسبـــون Ratisbon مع كثير من النبلاء والأتباع، وكان بنيتهم عبور بحر يوكسين Euxine، وعندما وصلوا إلى بلغاريا تعرضوا لأذى كبيراً من قبل الشعوب الشمالية، ومع ذلك وصلوا وسط بلايا كبيرة إلى آسيا، ثم وصلوا إلى تخوم سورية، وعنـدمـا سمع حـاكم تلك المنطقـة بوصـــول المسيحيين، جمع جيشـاً من الأتراك، وزحف ضـد أسـاقفنا وشعبنا، ونظراً للتغلب عليهم بالتفـوق العـددي، فقد التجأوا إلى قلعـة قـديمة، حيث سـدوا الثغـرات في السور القـديم، وجعلوا منهـا حصناً أقاموا به.

وحاول الاتراك الاستيـلاء على ذلك الحصن بالقوة، فلم يتمكنوا من فعل ذلك، ومع ذلك تابعوا مهـاجمة المكان لمدة يومين ليلاً ونهارا بشكل متواصل، وفي اليوم الثـالث، عندما جرى الاعلان عن هـدنة لمدة ساعة حتى يستردوا قـواهم، سأل رجـالنا الأتراك أن يبعثـوا ولاتهم وقـادتهم للتناقش حـول شروط سلام، وهكذا قـدم ستة من كبار أعيـان الأتراك إلى شعبنا، وفتح شعبنا لهم الباب، وتناقشـوا معهم لمدة طويلة، فوجدوا الأتراك ذوي آراء معاكسـة تماماً، لأن أساقفتنا عـرضوا عليهم إعطائهم كل مـاكان لـديهم، ووعدوهم كثيراً من الزيادات، إذا مـاكـان بامكانهم العـودة إلى بلادهم بحياتهم فقط، ومع ذلـك لم يبد الأتراك نحـوهـم أية رحمة، وماكان يرضيهم إلاّ الموت أو استرقاق السادة الأساقفة.

وعندما رأى قومنا حالة الضيق والشدة التي هم فيها، أرسلوا بشكل سري بعض الخدم الذين عـرفوا المنطقـة، ليركضوا بكل سرعـة إلى عند

أمير الرملة وحاكمها، ولوعده بمبلغ كبير من المال، يدفع على الفور ليعطى له لقلع الأتراك، وبعدما أرسل جماعتنا هؤلاء الرسل، التمسوا من البرابرة منحهم شروط استسلام، ومنحوهم مالاً، لكن هؤلاء اهتموا فقط بالقبض على أشخاصهم، ومن ثم اعدامهم أو جعلهم أدنى الرقيق، ولم يحصلوا منهم على جواب غير هذا، وعندما صار رجالنا في حالة من اليأس، انقضوا على المسلمين الذين دخلوا إلى قلعتهم، ووضعوهم في الحديد.

وعندما علم جيشهم بهذا، حاول خرق الأسوار، وهاجمها بالمقذوفات، وبالنشاب وبالآلات الحربية، لكن رجالنا وضعوا أعيان رجالهم وقادتهم وهم بالأغلال فوق الأجزاء الأعظم خطورة من السور، وبذلك أخمدوا هجومهم وكبحوه، ودعوا إلى الرب بصلوات متوالية، وفجأة جاءهم العون ووصل إليهم، حيث كان أمير الرملة المسلم، قد حشد جيشاً من المسلمين ووصل إلى المكان، وطرد الأتراك، وأرغمهم على رفع الحصار، وحمل رجالنا من حصنهم، وطاردوا العدو المنهزم، وسلبوا رجاله، وأسروا كثيرين، قاموا بتعليقهم على المشانق، وبعد ذلك أعدموا القادة المأسورين مع عذاب مخيف.

وجاءت عملية الانقاذ للأساقفة في عشية يوم الفصح، أي في ليلة أحد الفصح، وكانوا عندما انطلقوا من ألمانيا، قد قرروا إمضاء أيام آلام الرب، والصعود، إلى الأماكن المقدسة في القدس، لكن هذا الحصار أعاقهم، هذا وقد حمل ذلك المسلم هؤلاء الحجاج سالمين إلى القدس، وبعدما أجازوه عاد ثانية إلى موطنه، وعندما عاد الأساقفة الحجاج الألمان إلى ألمانيا، عادوا عبر البحر، وتخلوا عن الارتحال عبر البر، خشية أن يقعوا ثانية فريسة للأتراك، لأن الأتراك كانوا قد استولوا على آسيا الصغرى وجميع تلك المنطقة، وصولاً حتى سورية، وغالباً ماكان الأتراك والعرب المسلمين على خلاف، وأتصور أنهم كذلك في هذه

الأيام أيضاً.

وفي سنة ١٠٧٠ قرر ثيودورك، رئيس أساقفة تريفس القيام برحلة إلى القدس عبر البحر، غير أن سفينته غرقت في البحر في العاصفة، وهلك هو وجميع أتباعه.

ولم يعد العرب المسلمون والأتراك بعد هذا يكتفون بمهاجمة القدس والأرض المقدسة بحدة أكثر من ذي قبل، بل شرعوا يندفعون في كل مكان في العالم المسيحي، وغدت امبراطورية القسطنطينية ضعيفة جداً بسبب الأتراك، وبصعوبة بالغة كان بامكانها الاحتفاظ بتراقيا، وغلاطيا، وبنطش، وسيسالي Thessaly ، ومقدونية وآخيا، ومن هذه المناطق اعتاد الأتراك والعرب على اقتطاع بعض الأجزاء، ونغصوا حياة المسيحيين الذين سكنوا فيهم، وأسيئت بشكل خاص معاملة المسيحيين في القدس والأرض المقدسة، لأنه في سنة ١٠٨٢، انقض الـ Bo-reades أو الأتراك على فلسطين بجيش مسلح، ودمروا البلاد بالسيف والنار، ونهبوا في الوقت نفسه مدينة القدس، وقتلوا بشكل تعيس المسيحيين الذين وجدوهم هناك، ودنسوا الضريح المقدس بكثير من التجاوزات والانتهاكات.

وأرسل في الوقت نفسه امبراطور القسطنطينية، رسلاً إلى الامبراطور الروماني هنري الثالث، وإلى أمراء الغرب، شارحاً لهم ماحدث، وملتمساً منهم القدوم لانقاذ الأرض المقدسة، وفي أيام ولاية البابا أوربان الثاني والامبراطور هنري الثالث، كان هناك ناسك في فرنسا اسمه بطرس، وكان رجلاً عظيم الحكمة، ولامثيل له بالقداسة، ومما لاشك فيه تحرك هذا الرجل بوساطة الروح القدس، حيث تخلى عن خلوته الهادئة، وحمل نفسه إلى القيام بجولات مقدسة، وقد انطلق مع كثير من الحجاج الآخرين، وعبر البحر، ووصل إلى ضريح الرب، في الأرض المقدسة، حيث قبل الأماكن المقدسة، فشعر بقوة، وبتقوى

متوهجة، وعندمـا رأى هذه الأماكن الأعظم قداسة تعـامل بقدر عظيم من الســـوء مـن قبل المسلمين، وسمعـــان المبجـل، بطريـرك المكان واكليروسـه يرفض ويقــاوم، والمسيحيين الآخـرين مظلومين، وأسيئت معاملة الحجاج كثيراً، وقد أحزنه وآلمه، وشعر قلبه بالمرارة تجاه مثل هذا الظلم، وكـان قد حـدث له أنه في مسـاء عيد الفصح، عندمـا دخل إلى كنيسة الضريح المقدس، ليبقى ساهراً في تلك الليلة الأعظم قداسة، وقد سحب نفسه إلى زاوية داخلية في الكنيسة، حتى يتمكن من صرف نفسه بهدوء أكثـر وانتبـاه أعظم نحـو حمد الـرب وشكره، وهناك صلى بعقل واعي، وروح مضطربة، ومع دموع كثيرة قـائلاً:« إلى متى يارب ستبقى أماكنك المقـدسة مـداسة تحت الأقدام، وحجـاجك مضحكة ويستخف بهم وتســاء معــاملتهـم؟ استمع يارب، وافعل هـذا الشيء وهو تحرير الأرض التي أعطيتهـــا إلى آبائي، وهـذه المدينة التي مجدتها بعقيـــدتك ومعجـزات، والتي قـدستهـا بدمك الثمين وصليبك، والتي جعلتهـا بقيامتك المجيـدة وحولتها الأعظـم شهرة في جميع أرجاء العـالم»، وكان هذا الرجل المقـدس يقول هذا وأمثـاله من الصلوات، وقصـد أن يريح أطرافـه المتعبـة لبعض الـوقت، فجلس على البـلاط، وأمـال رأسـه على الجدار، وبذلك بدأ ينام بجسده، مع أن عقله بقي مستيقظاً بصـلاة مؤلمة إلى الرب، وفجأة رأى الرب يســوع خـارجــاً بشكل رائع من ضريحه، وقــال له، وهو ينظـر إليـه:« انهض يـابطرس، وأسرع إلى رومـــا، وقل لأوربان، باباروما، يقـول لك الرب مـايلي: مثلما جلبت في الماضي نوراً إلى الغــرب من الشرق، مثل هذا، من الغــرب ســوف أجلب نوراً إلى الشرق، وإلى مـدينة القـــدس، وذلك بسبب اسمي العظيم، ولســوف أعطي ضريحي المقـدس إلى القادمين من الغـرب، حتى يقومـوا بعبادتي، واظهـاري إلى غير المؤمنين، ولكي يقـوموا بـاحترام الأماكن المقـدسـة، وهي أماكن انقاذ بني البشر»، وبعـدما قال هذه الكلمات، انتهت الرؤيا، وقام بطرس الذي لم يكن لديـه شك حول صدق الذي سمعـه، بالعودة

إلى رومـا، وبجـرأة ذهب إلى البـابـا أوربان الثـاني(١)، وأخبره ببسـاطة بالرسالة التي كلف بحملها.

وفتح الرب عقل البـابا، فأدرك بـأن هذا الشيء كـان من عند الرب، فقـام على الفور بتـوجيـه الدعـوة إلى عقد مجمع عـام في كليرمـونت في أوفـرين Auvergne ، وكـان ذلك في سنـة ١٠٩٤ لتجسيـــد الرب، وقـد أقنع المجمـع بارسـال جيش لمحـاربة المسلمين، من أجل استرداد القـدس، وعين ثلاثمائـة ألف رجل مـع الصليب، وتولى تكريس حشـد حملة الصليب إلى مـريم العذراء الأعظم مبـاركـة، وأمر بوجـوب تلاوة صلوات مـريم العذراء المبـاركة، السـاعية، يوميـا، من قبل الكهنة، من أجل أن تصبح حـاميـة لجيشهـا، وإلى بطرك الناسك أعطى مـراسيم بابويـة، وبعث به إلى ملوك وأمـراء الغـرب، حتـى يسرعـوا إلى انقـاذ الأرض المقدسة، وفقاً لأوامر الرب، التي كشفها إلى بطرس.

وبناء عليــه انطلق بطرس إلى الملوك والأمــراء، والأعيــان، وحكام المناطق، وقـد استقبل من قبلهم جميعاً مثل مـلاك الرب، وأصغوا إليه بعناية كبيرة جداً وعلى الفـور أخذ جميع الناس بالاستعـداد، طاعة منهم لأوامر الرب وأوامر البابا، وفي الحقيقة، كانت تلك مهمة عظيمة ألقاها على عواتقهم، بوجوب اصغائهم إلى رجل فقير، من أصل وضيع، وكان أيضاً رجلاً ليس معروفـاً ومجهولاً، وذلك من دون رؤية، أو اظهار، أية معجـزة، أوسماع أي خطاب وعظ فصيح، وكـان أن صـدقـوا كلماته الواضحـة، وقـد لبى البـابا، والكرادلة المثقفين، والاكليروس، ورجـال الطوائف الدينية، مادعاهم إليـه وأطاعوه، وصدقه ووثق به، الامبراطور سيـد الدنيا، مع الملوك، والحكام، والكونتـات، وجاء ذلك دون تقـديم

١— الحكايات حـول بطرس الناسـك مخترعـة، وهنا يقـدم لنا فـابري احـدى هذه المخترعـات ولنتـذكر هنـا أن أوربان الثاني لم يكن وقتهـا مقيماً في رومـا بل في فـرنسا، وكـان يشغل عـرش البابوية في روما، بابا آخر عينه الامبراطور.

أي برهان، أو شاهد يشهد على صحة ماأتى به.

وفي الحقيقة كان الناس ذوي عقول أفضل، واستيعاباً أحسن، من بني اسرائيل، الذين بعد رؤيتهم لمعجزات رائعة ولم يُسمع بمثلها، لم يكن إلاّ بصعوبة بالغة جعلهم يصدقون موسى، ولدى انتشار هذه الحكاية في أرجاء أوربا، تدفق جميع الناس مع بعضهم، مدفوعين برغبة جامحة، وجاءوا من اسبانيا، ومن بروفنس، وأكوتين، وبريتاني، وسكوتلندا، وألمانيا، ومن ألمانيا، أو بلاد التيوتون من الشمال والغرب، ومن شواطىء البحر الشمالي، والبحر المتوسط، ومن أكثر الممالك قوة، ومن لومباردي، وايطاليا، وأبوليا، ودالماشيا، وهنغاريا، وايلّيريا، ومن جميع جزر المحيط، والبحر المتوسط، وبحر بنطش، ومن بلاد اليونان الأوربية، القائمة على جانبنا من البوسفور، والمتضمنة،: تراقيا، ومقدونية، وايبيروس، وآخيا، والبلونيز، وهي بلاد كانت في ذلك الوقت كلها مسيحية، لأنها الآن خاضعة للأتراك، وذلك حتى حدود ايلّيريا، وهنغاريا، وبانونيا، ودالماشيا، فلقد تدفق الناس من جميع هذه البلدان، وتجمعوا مع بعضهم مثل أسود منقضة على فريستها، ولم يكن هناك في جميع المناطق التي يضمها الغرب، بيت واحد وقف دونما نشاط، بل جاء من ذلك البيت الأول أب، ومن البيت الثاني ابن، ومن البيت الثالث الأسرة كلها، وكان الجميع شارعين بالاستعداد من أجل رحلتهم، وكانوا يقومسون بالوداع مع الآهات والتنهدات، حيث كانوا يقولون«وداعاً» للمرة الأخيرة.

وفي الحقيقة صار الدواء أعظم من الداء، لأن بعضهم قد اقتنع برغبة الذهاب إلى القدس حتى ينسوا واجبهم في الوطن، وقطع كثير من النساك، ورهبان الديرة، والفتيات، والأزواج المرتبطين بروابط الزواج، وكثير من الراهبات، قطعوا عهود طاعتهم من دون إذن أو إجازة، وانطلقوا من ديرتهم، واختلطوا بصفوف الناس المسلحين، وعندما

طلبـوا وضع علامـة الصليب عليهم، وأخبروا من قبل الأساقفـة الذين منحوا هذه العلامة، أنها بلا فـائدة لهم، وأشير عليهم بالعودة إلى الوطن ثانيـة، أظهـر بعضهم عـلامـات مسـامير الصليب وقـد انطبعت بشكل اعجـازي على أجسـادهم، وقـام آخــرون، حتى من الفتيـات والنسـاء العجـائـز، بالتفـاخر بأنهن يحملـن هذه العلامـات، وقـام آخـرون بكّي أنفسهم بشكل متوحش بحديد محمى، حتى يرسموا على أنفسهم علامة الصليب، وكانت حمى الحماس بين جميع طبقات المسيحيين مدهشة.

وجــرى تعيين قـادة ومقــدمين على الجميع، وعلى الفئات المسلحــة المنفــردة، من قبل أمـرائهـم وأسـاقفتهم، كما جــرى بوســاطة السلطة الرســوليــة تعيين ذلك النبيل والمقــاتل الذي لانظير له، الذي اسمــه غودفري، كـونت غالآشيا Gallacia (كذا) ودوق اللورين، وتسميته مقـدماً، وقـائـداً عـاماً للجيش كله، وحـاكما لجميع الفئات فيـه، وتولى هو— مثل يهوذا مكابي ثاني— مع اخوانه، والرفـاق النبلاء إثارة الحرب وشنها في سبيل الرب، وكـان في جيشه عدداً كبيراً من المقـاتلين الفائقي الشجاعة، والبارونات، والكونتات، والفرسان، وكان قد تولى المسؤولية الروحية همر(أدهمر) الذي كان مثـلاً أعلى، وكان أسقفا لبادوا Padua، وركض بطرس المتقـدم الذكــر إلى الأمـام وإلى الخلف في جميع البلدان، وجمع جيشـاً عظيما وقــوياً، حـوى حــوالي الأربعين ألفـاً من الـرجـال المسلحين، تولى هو قيادتهم، ومثله فعل الرجال العظماء الآخرون، الذين نظر إليهم الناس نظرة احترام، فحشـدوا رجالاً حـولهم، وجرى اعـداد هذه الحملة خـلال سنوات ثلاث، وذلك قبل أن تقلع الحشـود وتأخـذ طريقها.

وفي الحقيقــة اجتمع واحتشــد: ملوك، و ودوقــات، وكــونتــات، وبارونات، وفرسـان، وعساكر، ورجـال أقوياء، وحكام، وولاة مناطق، ونبلاء، وعـوام، وأغنياء وفقراء، وأهل مـدن وسكان أرياف، ومواطنين

وأقنان، وأحرار وعبيد، وعلمانيون ولاهوتيون، وكهنة ورهبان، وأساقفة ورعاة ديرة، وكرادلة، ورجال ونساء من الطوائف الدينية، وشباب وشيوخ، ونساء وفتيات، وأرامل وزوجات، وعظم حجم حشد الرب إلى حد عظيم العدد حتى أن وليم(الصوري) قال:« لم يُر قط مثل هذه الأمم مجتمعة ومتفقة على هدف واحد، وكان عدد الناس فوق ماهو متصور، ذلك أن بعض الذين قاموا باحصاء الأعداد، قالوا بوجود ستة ملايين من الرجال قد حملوا شارة الصليب، فهؤلاء أعدوا أنفسهم من أجل الرب».

وكان بين هؤلاء— كما قلت— القائد الذي لانظير له، الذي هو غودفري، فهو كان الأعظم مكانة، حيث كان قائد جميع الحشود، وتحت قيادته جرى تعيين عدة قادة لكل فئة من الفئات، وعندما بات كل شيء معدّاً على هذه الصورة، في سنة ١٠٩٧، لتجسيد الرب، بدأ الحشد بالزحف من أماكن تجمعاته، وبما أنه لاالأرض ولا البحر كان من الممكن لهما استيعاب هذه الأعداد دفعة واحدة، فقد إنقسم الجميع إلى حشود، والحشود إلى فيالق، والفيالق إلى جيوش، والجيوش إلى ألوية اقتيد كل منها من قبل قائد، وتحت هؤلاء القادة كان هناك قادة مئات وقادة عشرات، وهكذا توجهوا نحو البحر في مجموعات منفصلة إلى موانىء متعددة، وفي الوقت نفسه ذهب آخرون كثر على الخيول وعلى الأقدام من خلال هنغاريا إلى دالماشيا، ومن ثم دخلوا إلى بلاد الاغريق، ومضى بعضهم حول بحر يوكسين وبحر آزوف(Maeotic Marsh)، ووصلوا من خلال بلاد خلقيدونيا إلى كبدوكية، وعلى هذا أرغم هذا الحشد الكبير على البحث عن أطول الطرق هناك.

أما بالنسبة للمخاطر التي ألمت بشعب الرب خلال الحاجة إلى الضروريات، ومن الشتات وعدم الاستقرار، ومن الصراعات بينهم أنفسهم، ومن الطاعون، ومن هجمات الأعداء، فهذا كله يحتاج إلى

وقت طويل للحـديث عنه، والذي يريد أن يقـرأ حـول ذلك، عليـه أن يعود إلى فنسنتوس أوف بوفيا Vincentius of beauvais في مصنفه Speculum Historiale— الكتـاب:٣١، الفصل:٤٢، ولدى عـدد كبير آخر من الكتّاب.

والذي عـانى منه المسيحيون على أيـدي الأعداء والكفـار من الممكن تحمله، لكن الشرور التي أنزلوها بأنفسهم، والمعيقات التي واجهوها من الهنغـار والاغريق، والمذابح التـي اقترفها هؤلاء بين رجـالهم المسلحين، أعظم ايذاء من أن تحتمل، ولسوف أكتفـي بذكر قضية واحـدة بين عدد كبير من القضـايا، فقـد كـان هناك كـاهن ألماني اسمـه غـونديكالكوس Gondecalcus، وكان شجاعـاً ورجلاً جريئاً، وكانت ميـوله الطبيعية نحو القتـال، أعظم منها نحو تلاوة القداس، وحشـد هذا الرجل جيشاً مؤلفـاً من خمسين ألفاً من الرجـال المسلحين وذلك من عامـة الناس في ألمانيـا، وعندما وصلوا إلى هنغـاريا، ونهبـوا بعض القرى هناك، لتـزويد أنفسهم بالذي كـانوا محتاجين إليه، انقض ملك هنغـاريا عليهم، وأوقع فيهم مـذبحـة غير انسـانيـة تمامـاً، حيث لم يميـز بين البريء والمجـرم، وبذلك مـزق ذلك الجيش حتى مـامن أحد فيـه شارك في الصليبيـة كما كان ناوياً، بل الذين نجوا من سيف الهنغار عادوا آسفين إلى وطنهم في ألمانيا.

أمـا بـالنسبـة للأذى والمضــار التي أنزلها بشعـب الرب امبراطور القسطنطينية، فكتـاب كبير من الصعب أن يكفي للحديث عنهـا جميعاً، والشيء نفســه الذي نـزل بالمسيحيين في هذه الحملة، يشـابهه مـانزل بالرومان عندما انطلقوا للقتال ضـد قرطاج، فبعدما حشدوا جيشاً كبيراً جداً، وصلوا إلى أفـريقيا، وبنيتهم القتـال ضد قـرطاج، ولدى وصولهم إلى أحـد الأنهار انقض على فرقهم حيـوان هائل، وكان ثعبـاناً متوحشـاً جداً، حيث تمكن مـن قتل أعداد كبيرة من الرجال، وبعنـف أعيقوا من

قبل هذا الحيوان الوحيد، إلى حد أرغموا فيه على جلب جميع آلات الحرب لديهم للحملة عليه، وبعد مقتل عدد كبير، أمكن أخيراً غلبة ذلك الحيوان، وسحق بالحجارة، ولقد كان مقياس جلده سبعين قدماً، وعندما حمل إلى روما، صعق كل من رآه عجباً ورعباً.

ومثل هذا الآن عندما وصل غودفري، ذلك الرجل المجيد مع قواته إلى القسطنطينية، قرر الانتظار هناك حتى تلحق به بقية قواته، لأنه كان عليه الاستعداد على حدود المسلمين الأتراك، حيث كان ما أن يعبر البوسفور، لايمكنه المرور خلال الأراضي التركية من دون قتال، وإثر اجتماع جميع الفرق مع بعضها، تشكل هناك جيش واحد للرب الحي، ولدى استعراض جميع الفرق وجدوا هناك سبعمائة ألف من المقاتلين الرجّالة، ومائة ألف من الفرسان الدارعين، فضلاً عن استمرار تدفق الرجال والتحاقهم بالفرق، وغادر هؤلاء جميعاً القسطنطينية، وعبروا بالسفن البوسفور، أي ذراع القديس جورج، وبذلك عبروا من تراقيا إلى بيسينيا، والبوسفور هذا هو ذراع ضيق من القناة التي يصب فيها البحر المتوسط في بحر يوكسين، وهو ضيق إلى حد أن الذي تتطلب أعماله، يمكنه أن يعبر ثلاث مرات أو أربع مرات من تراقيا إلى بيسينيا، ومن القسطنطينية إلى خلقيدونية، والعودة ثانية.

وعندما وصلوا إلى بيسينيا، وهي منطقة في آسية الصغرى، مروا بجميع القرى الأخرى والبلدات وقصدوا مباشرة مدينة نيقية، وهي مدينة مكتظة جداً بالسكان، شرعوا بمحاصرتها في ٢٠ حزيران ١٠٩٧، وهرب مقدم الأعداء(قلج أرسلان بن) سليمان التركي، الذي كان صاحب نيقية، مع كثيرين سواه، ونجامنهم، وطاف الأتراك في المنطقة، حيث تمكنوا من حشد جيش لقتالنا، وبعد ترتيب الأمور في نيقية انطلق الجيش، وزحف نازلاً من بيسينيا إلى بامفيليا Pamphylia مع عناء كبير، وهنا التقوا مع(قلج أرسلان بن) سليمان الذي كان معه جيشاً

كبيراً من المسلمين، واشتبكوا في القتـــال، وبفضـل الرب هـزم شعبنا الأعداء، وأرغموهم على الفـرار، وقتلوا ثلاثة آلاف من نخبة مقاتليهم، في حين سقط من جانبنا من الناس غير المسلحين حوالي الستة آلاف.

ونزلوا من مقاطعـة بامفيليا إلى أراضي كليكيا، وهناك هزمـوا العدو، واستولوا على مدينة طرسوس القديمة جدا، والجليلة، مع المدن الأخرى لتلك المنطقـــة، ومن أجـل وصف لتلك الأراضي انظـر ص١٣٨ من القسم الثـاني، وتابعـوا زحفهم مـن هناك، فـوصل جيشهم عبر محطات كثيرة إلى سـوريـة المجـوفـة، ومن ثـم إلى مـدينة أنطاكيـة الجليلة، التي احتلت فيها مضى المقام الثالث بعد روما نفسها، وكانت المقدمة والسيدة لجميع المناطق في الشرق، وكـان اسـم هذه المدينة في العصـور القـديمـة ربلة(١) (الملوك الثـاني: ٢٥/ ٢٠—٢١. ارميا:٣٩/ ٥—٦) وهنا جـرى اعدام أولاد صـدقيا، ملـك القدس أمام عينيـه، كما جرى اقتـلاع عيني صدقيـا نفسه، وبعـد موت الاسكندر المقـدوني الكبير، قام انطـوخيوس بتحصين هذا المكان بـالأسـوار والأبراج، واتخذ من المدينة عـاصمــة لامبراطوريتـه، سماها انطاكيـة، صـدوراً عن اسمـه، وهنا جلس بطرس المقــدم بين الرسل، أسقفـاً لمدة سبع سنـوات، مشهــوراً بسبب أعماله اللاهوتية والمعجزات التي عملها، وهنا جرى عقد أول مجمع للمؤمنين، خـلاله منحوا اسم مسيحيين، لأنه حتـى ذلك الحين، كان الذين اتبعـوا تعاليم المسيح، قد عرفوا باسم النصارى، أو الرسل، لكن فيما بعد حملوا اسم مسيحيين، حسبما ورد الخبر في أعمال الرسل(١١/ ٢٦)، ويقال بأن بطريرك هذه المدينة، يوجد تحت سلطته عشرين منطقة.

وهذه المدينة قـائمة في منطقـة سورية المجـوفة، وتشغل مكاناً مـوائماً جداً، وموقعاً جميلاً، وهي كلها مروية تقريباً بينابيع وجداول، ويوجد في داخل اطار الأسوار هناك رابيتـان عاليتان كثيراً، وقـد بدت الأولى بينها

١— هذا وهم، وربلة بلدة واقعة على العاصي إلى الغرب من حمص.

هي الأعلى، وهي تحمل على حـافتهـا قلعـة جيـدة التحصين، وهاتان الرابيتان منفصلتـان عن بعضهما بواد عميق جداً، وضيـق، خلاله يجري جدول إلى وسط المدينة، ويقول بعضهم بأن طول المدينة ميلين ايطاليين، ويقول آخـرون ثلاثة أميال، وهي تبعـد عن البحر عشرة، أو اثني عشر ميـلاً، ويتـولى السلطة بشكل آثم فيهـا، منذ زمن طويل الأتراك، مع أن محمدﷺ لم يتجرأ عندما كان حيـاً على الاقتراب منها، وقد ذكر في قرآنه أربع مدن، اثنتـان مباركتان، هما: القـدس ومكة، واثنتان ملعـونتان هما: أنطاكية وروما.

وفي أثناء حصـارها كـان يحكمهـا رجل كبير بين الأتراك اسمـه يغي سيان الفارسي، وعندما وصل رجال شعبنا إلى هذه المدينة الحصينة جداً، حاصروها لمدة ثمانيـة أشهر، وفي أثناء ذلك الحصـار عانى جيشنا كثيراً، وتعـرض بشكل دائـم إلى حملات مفـاجئة من قبل أهـل المدينة، ومن كوارث كثيرة نزلت بهم أمام أسوارها، ولهذا صرخ الناس جميعاً بصوت مـرتفع بأن الحصـار ينبغي رفعـه، ولولا أن أحـد القـادة عـارض رفع الحصار، لرفعوا الحصار خاسرين ملومين، وكان هذا القائد يتآمر بشكل سري من أجل تسليم المدينة إليه بشكل خياني، الأمر الذي تمّ فعله.

وجـرى الاستيـلاء على هذه المدينة في سنة ١٠٩٨ لتجسيـد الرب، وقتل المحـاصرون عندمـا خـرقـوا المدينة ودخلوها، كل من صـدفـوه، واقترفـوا كثيراً من الفظائع هنـاك فيهـا، ولم يكن في المدينة أطعمـة، لأن أهل المدينة كـانوا قـد أكلوا مـاكان فيهـا أثناء الحصـار، لكنهم وجـدوا مخزوناً كبيراً من الذهب والفضة والأشياء الثمينة، وفي اليوم الثالث بعد الاستيلاء على المدينة، وصل كربوغا، الذي كـان أميراً فارسياً قوياً جداً، إلى مساعـدة أهل أنطاكية، مع قوات كبيرة جداً، وجـاء وصوله بناء على التماسات أهل أنطاكية بتقـديم العون لهم، وقد أقام حواجـز دفاعية من حـول المدينة، وهكذا حـدث أن المسيحيين الذين كـانوا قبـل أيام

يحاصرون المدينة،ثم جعلوها مـدينتهم، انقلب حالهم تمامـاً، مثلما يحدث غـالبـاً في الشـؤون البشرية، وأصبحـوا الآن تحت الحصـار، وعـانوا إلى أقصى الحدود من الحاجة إلى الطعام.

وتشدد الحصـار عليهم إلى حد أن مـامن انسان كـان بامكانه الخروج من المدينة أو الدخول إليهـا، وتغير وضع شعبنا إلى الأسوأ بشكل كبير، وكـانت هناك ندرة عظيمة في الأطعمـة داخل المدينة، إلى حـد أن شعبنا كان مسروراً بإرضاء نفوسـه بالأطعمة الملوثة وغير الطبيعية، ولم يمتلك ذوي النشأة الناعمـة والطعـام اللين، شيئاً ليأكلوه أفضل من البقيـة، ولم يكن هناك تمييز بين لحم نظيف ولحم نجس، ولماذا عليّ أن أقول أكثر؟

ونظر إلى الجمال، والحمير، والخيول، والبغال، وجميع أنواع الحيوانات النجسة، على أن لحومها طيبـة جداً، من قبل الذين امتلكوا الحظ للأكل منها، وللحصول على مثل هذه الأنواع من الأطعمة، التي من المؤلم مجرد النظر إليهـا، تجول بعـض الناس هنا وهناك بنفـوس مكسـورة وهم يتسـولون في الشوارع والأزقـة في المدينة، وامتـزج الرجال الأقـوياء مع النبلاء بالرعـاع، ومامن تاريخ يمكنه أن يخبرنا عـن مثل أولئك الأمراء العظام، وعن جيش بمثل تلـك العظمـة، استطاع بصبر تحمل مثل تلك الندرة بالأطعمة وتلك التعاسة وذلك الشقاء.

وفي الوقت الذي كـان فيه شعب المسيح يعيش في ظل تلك المعـاناة، نظر الرب إلى آلامهم، وبعث مـواسـاة طيبـة لهم، فقـد كـان في الجيش رجل سـاذج، منصرف كثيراً إلى تقـديس الرسول القـديس أندرو، وقـد تجلى القـديس أندرو إليـه، عندما كـان نائماً، وأخبره بأن العـدو لايمكن هزيمته إلاّ بسنان الـرمح الذي طعن به جنب الرب يسوع، عندمـا كان على الصليب، علاوة على ذلك أظهر الرسول بوضوح إلى متعبده المكان الموجـود فيـه سنان الرمـح المقـدس تحت الأرض في كنيسـة القـديس بطرس.

وفي الصباح استيقظ هذا الرجل، وأخبر بما رآه الأساقفة والأمراء، فذهبوا بمسيرة إلى المكان الذي حدد له، وبعدما حفروا عميقاً في الأرض، وجدوا سنان الرمح وحملوه مع سرور عظيم، مع أن كثيرين استخفوا به وتشككوا، لكن جندياً عمل ناراً طولها ثلاثة عشر قدماً في وسط الشارع، وأخذ سنان الرمح بيده، ومشى خلال النار دون أن يصاب بأذى، وبذلك تشجع رجال جيش الرب كثيراً، لأنه بسبب معاناتهم نشبت الخلافات في المدينة، وشرع عدد كبير من الأمراء يفكرون بشكل سري، ويتآمرون لإيجاد السبل، ليتمكنوا من النجاة بأنفسهم، لكن بعد العثور على سنان الرمح المقدس، ربطوا أنفسهم بقسم جديد، وأقسموا بالرب بأنهم سوف لن يترك أحدهم الآخر ويتخلى عنه قبل إعادة المدينة المقدسة إلى حريتها الماضية.

وفي اجتماع عقد فيما بين الشيوخ والمقدمين، جرى تحديد يوم يقومون فيه بمواجهة العدو، ومقاتلته، وبناء عليه في الليلة التي تقدمت على اليوم الخامس والعشرين لحصارهم، لم يكن هناك راحة، بل أعدّ الرجال جميعاً أنفسهم من أجل القتال في الصباح، وتحزموا بأسلحتهم، واستمعوا إلى قداسات في الكنائس في المساء، واعترفوا بذنوبهم، وتناولوا القربان، وبوساطة هذا القربان، نال الناس كثيراً من النعمة، وبذلك غدا الناس الذين كانوا في البارحة بلاطاقة، وبلافائدة، وغير قادرين على السير متجاوزين عتبات بيوتهم، الآن قادرين على التقدم، وقد تعهد كل واحد منهم وأقسم بأنه سوف يتفوق على البقية في المعركة، ولدى الفراغ من تنظيم الصفوف، فتحت الأبواب وقام الأساقفة مع رجال الدين الآخرين، وهم في ملابسهم المقدسة بمباركة الناس لدى توجههم إلى القتال، وعندما كان الحشد يزحف خارجاً من المدينة، تساقط عليه ندى في غاية الحلاوة، وقد بلل جميع الحشد، مما أنعش كل من الناس والدواب سواء.

وزحف شعبنا ببطيء نحو الأعداء، وقد حملوا معهم رمح الرب، وبمعونة الرب، وبعد قتال مرير، جرى تحطيم جناحي العدو، وتمزقت صفوفه، وبدأت عساكره بالفرار، ورجالنا يتولون مطاردتهم، وقد استمروا يضربون ويقتلون في صفوفهم حتى غياب الشمس، وعندما انتهت المعركة رجع شعبنا إلى معسكر العدو، حيث وجدوا كميات كبيرة وافرة من جميع الأشياء الضرورية، مع مخزون هائل من ثروات الشرق، والذهب، والفضة، والمجوهرات، والسلع الثمينة، مما لايمكن حصره ولاعدّه، علاوة على ذلك تمّ العثور هناك على قطعان كثيرة، وعلى أطعمة وافرة، إلى حد أن الذين كانوا من قبل بحاجة ماسة لكل شيء، قد باتوا الآن لايعرفون ماذا يختارون من الأشياء الجيدة الموجودة أمامهم، ولقد نالوا هذا النصر في سنة ١٠٩٨م.

واستعدوا بعد هذا للزحف نحو القدس، وانطلقوا في اليوم الأول من ايلول، وبعد مرورهم بكثير من المناطق، والاستيلاء على كثير من المدن بالقوة، وذلك على طول ساحل البحر، دخلوا إلى سورية، وعسكروا أمام طرابلس، التي كانت مدينة بحرية فائقة القوة وعظيمة، عازمين على الاستيلاء عليها، وتقدم أهل طرابلس لقتال شعبنا، غير أنهم أصيبوا بالرعب مباشرة بوساطة معجزة، فأداروا ظهورهم، وركضوا راجعين إلى المدينة، وبعدما حاصر شعبنا المدينة المقدسة لبعض الوقت، بدأوا يتذمرون بسبب تعبهم ولأن صبرهم تلاشى لرغبتهم بالوصول إلى القدس، وقد كانت هناك خلافات فيما بينهم، لأن النبلاء، والأمراء والأعيان بينهم أرادوا الإستيلاء على كل مكان حتى القدس، في حين أراد الرعاع والعامة من الناس، واعتقدوا وجوب الاستيلاء على القدس أولاً، وأنه بعد ذلك، يمكن منها الاستيلاء على المناطق التي من حولها ومهاجمتها، ولذلك قام الأمراء ارضاء للشعب برفع الحصار عن طرابلس، وزحفوا على طول الساحل، ووصلوا في اليوم الثالث إلى

بيروت، وكانت بيروت مدينة عظيمة على شاطىء البحر، كما وكانت من قبل مستعمرة رومانية، وذلك حسبما حدثنا جيروم في روايته عن حياة وموت باولا، لكنهما الآن ملك السلطان، ويوجد فيهما ميناء لاستخدامات كل من التجار المسلمين والتجار المسيحيين.

ومن هناك وصلوا إلى صيدا، ومروا بصور، وقد وجدوا أن هاتين المدينتين، مدينتين عظيمتين على شاطىء البحر، محصنتان بشكل جيد، وعلى استعداد لصد الغزاة، وتابعوا السير على طريقهم فوصلوا إلى سهل عكا، وهي مدينة حصينة جداً على ساحل البحر، وأصيب ساحل فلسطين كله بالرعب لدى وصول جيشنا، وعاش في حالة خوف عظيم، وتابعوا مسيرهم فوصلوا إلى جبل الكرمل، وتركوا الجليل على يسارهم، ومروا بقيسارية فلسطين، التي على شاطىء البحر، ونصبوا معسكراً في الحقل ليس بعيداً عن قيسارية، وعندما كانوا معسكرين هناك جرح صقر طائراً من الحمام كان يطير فوق المعسكر، جرحاً بليغاً، لذلك سقط فوق الجيش، فوجدوه يحمل رسالة جاء نصها كما يلي:« يتمنى ملك عكا الصحة إلى والي قيسارية، هناك جيل من الكلاب، من شعب مشاغب زاحف ضدكم، دافعوا عن شريعتكم ضدهم بأنفسكم وبالآخرين، واطلب من المدن الأخرى فعل الشيء نفسه»، ووقعت هذه الرسالة بأيدي أمرائنا، وفي الحقيقة استخدم الحمام في المراسلات الملكية في البلدان الشرقية، وهذا سوف نشرحه في ص٨٥ من القسم الثاني.

وقد قوضوا معسكرهم، وزحفوا من هناك، ووصلوا في اليوم الثالث إلى قرب يافا، فنصبوا معسكرهم في الحقل أمامها، وقد علموا آنذاك، أنه ليس بعيداً عنهم توجد مدينة الرملة الغنية، فبعثوا بكونت فلاندرز أمامهم مع خمسمائة من الخيالة، حيث وجد المدينة فارغة، وقد دخلوها جميعاً من دون مقاومة، لأن سكان المدينة عندما سمعوا بوصول جيشنا أصيبوا بالرعب وهربوا إلى جبال اليهودية، لانقاذ حيواتهم، تاركين كل

ماامتلكوه وراءهم في المدينة، وعندما سمع شعبنا بذلك جلبوا قواتهم إلى المدينة وأقاموا فيها لمدة ثلاثة أيام، وقد وجدوا مايكفيهم من أطعمة لهذه الأيام.

كيف جرى الاستيلاء على القدس من قبل شعبنا

جرى الاستيلاء على مدينة القدس المقدسة من قبل شعبنا وفق الطريقة التالية: عندما سمع الذين سكنوا بالقدس عن قدوم الصليبيين، وبعدما عرفوا صدقاً بأن تلك الحشود القادمة لها اهتمام خاص محدد هو الاستيلاء على تلك المدينة، لذلك حصنوها بكل عناية ممكنة، وجمعوا الطعام والسلاح من جميع الأنواع، وأعادوا بناء الأسوار والأبراج، وجددوا الأجزاء التي تهدمت بحكم الزمان، ووضعوا حامية من نخبة مقاتليهم في القدس، وتوفر لديهم أربعين ألفاً من الرجال لرد الصليبيين وطردهم، وحفروا أيضاً خندقاً، وأقاموا سواتر دفاعية، من حول المدينة، وأفرغوا جميع الصهاريج التي في الوادي من الماء، وبنوا حصناً حول نبع سلوان، حتى لايجد الفرنجة ماء، علاوة على ذلك اتفقوا بالاجماع على قتل جميع المسيحيين الذين سكنوا معهم في القدس، وعلى تهديم كنيسة قيامة الرب، وعلى إزالة ضريح الرب إزالة كلية، وعلى مسح صخرة الجمجمة وازالتها من على وجه الأرض، حتى لايأتي الصليبيون إلى هناك لعبادة هذه الأماكن إذا ماأزيلت من الوجود، إنما فيما بعد، رأوا بعد مناقشات عقلانية، أنهم بفعلهم ذلك سوف يثيرون حقداً عظيماً بيننا ضدهم أنفسهم، ولذلك سمحوا لهم جميعاً بالبقاء من دون أذى.

أما بالنسبة للمسيحيين من الجنسين، من الشباب والشيوخ، من الذين سكنوا معهم في القدس، فقد جردوهم من جميع ممتلكاتهم، ومن ملابسهم، وعاملوهم بدون رحمة، وطردوهم من المدينة مع بطريركهم، وعندما جرى طرد هؤلاء الناس، جاءوا إلى معسكرنا، وجلبوا معهم

معلومـات عن جميع دفاعـات المدينة المقدسـة وأوضاعهـا، ولدى سماع رجـالنا بذلك سارعـوا إلى تقويض معسكرهـم، وزحفـوا من الرملة إلى جبـال اليهـودية، وعندمـا رأوا أخيراً المدينـة المقـدسـة، التي من أجلهـا تحملوا كثيراً من المشـاق والمخـاطر، بكوا من البهجـة، ومجدوا الرب، واقتربوا من المدينة مع الأغاني ومظاهر السرور.

وعندمـا وصلوا إلى حقل القصـار، الذي هو حقل كبير، على الجانب الغـربي من المدينة، قسمـوا حشدهـم وطوقـوا المدينة من جميع الجهـات، ونصبوا خيـامهم فوق جبل الـزيتون، وجبل العدوان، وجبـل جيحون، وأقـاموا سـاتراً دفاعيـاً حول المدينـة المقدسـة والمحبوبة، مع أنها كـانت عـدوة لهم، وبنى المسلمــون منشآت كثيرة للدفـاع عـن المدينة خـارج الأسوار، وقد جرى تهديمها جميعاً في ساعة واحدة من قبل شعبنا، وبدأ الحصار في سنة ١٠٩٩ لتجسيـد الرب، وذلك في اليوم السـابع من شهر حـزيران، وقد قـاومت خمسـة وثلاثين يومـاً، أي حتى يوم الحادي عشر من تموز.

هذا ولاأعـرف مـاالذي فعله المسلمـون مع اليهـود الذي سكنوا في المدينة، حيث أنني لم أقف على أي ذكر لذلك، والذي اعتقده أنهم عدّوا بين المسلمين، وبقيـوا حتى النهـايـة، لأنه مع أن هذين الشعبين لايحبان بعضهما، هما يتفقـان دومـاً ضـد المسيحيين، وهـذا واضح من التـاريخ، ذلك أنه في أيام الامبراطور جستنيـــان اتفق اليهـود والمسلمين(كـذا) في الأرض المقدسـة، وتكتلوا مع بعضهم ضد المسيحيين، واقترفوا مـذبحة قـاسيـة بينهم، وحـاولوا إزالتهم من الوجـود، لكن الامبراطور المتقـدم ذكره جاء إلى انقاذهم، وهزم المسلمين واليهود، ودمرهم تدميراً مريعاً.

وفي اليوم الخامس، بعـد وصول جيشنا إلى المدينة، حمل جميـع الرجال بلا استثناء أسلحتهم، وعانى رجالنـا من كثير من الجراحات من أسوار المدينة، لأن المدينة— كماقلت— كـانت حسنة الدفاعـات، ومجهزة بكل

شيء كان محتـاجاً إليـه للدفاع، ولذلك جـرى صد حملات رجـالنا، وتمّ حمل عـدد كبير من الجرحى إلى المعسكر، وبالطريقـة نفسها بذل رجـالنا غـاية جهـدهم لخرق الأسوار، غير أنهم رجعـوا من الأسـوار فقط على شكل أجساد مـوتى، وأجساد جـرحى بين اخوانهم في السـلاح، علاوة على ذلك بدأت الحاجة إلى الضروريات، وللماء والخبـز، وبشكل خاص الماء، لايمكن تحملها، فقد رأى رجالنا أن الشطر الأكبر من العوام كانوا مرضى بسبب الجفاف والعطش، وكـان رجالنا كلما حاولوا الهجوم على المدينة، تمت مواجهتهم بمقـاومة عنيفة، حتـى أنه لم يعد لدى شعبنا أي أمل بالربح، والانتصار بقوتهم، وأدركوا بشكل واضح أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على المدينـة من دون مساعدة سماوية، أو معجـزة من نوع من الأنواع، ولهذا أقيمت القـداسـات وأعمال الوعظ لكل فئة من فئات الجيش في المعسكر كله، ولذلك حثوا كل انسان بأن ينصرف نحو الرب بقلبـه كله، وسـاروا حفـاة حـول المدينة يصلون يوميـاً، وهذا مـافعلوه جميعاً، أي ليس من قبل الكهنة والعامة فقط، بل من قبل الأمراء والقادة أيضاً، الذين كـان الأول بينهم دوما، غودفـري المجيد، والقائـد للحشد كله.

وفي اليـوم الثـامـن لهذا الإذلال، أي في اليـوم الحادي عشر من تموز، هاجموا المدينة بإرادة واحـدة، وقـاتلوا من الصبـاح الباكـر حتى الظهـر، وجـرى قتل عـدد كبير من رجالنا، وأنهكوا جميعـاً من دون محصـلات، وبعد مـابذلوا هذا الجهد الجبار، بدأوا يتراخـون، وأنهك الناس إلى أبعد الدرجـات نتيجـة للتعب والجوع، وبدأوا يتـوقفـون عن القتـال، ولدى رؤية الأعداء هذا، شرعوا من فوق الأسوار والأبراج يصرخون بصوت مـــرتفع، ويهينون شعبنا ويستخفـــون به، ولعنوا شعـب الرب الحي، ورقصـوا وغنوا بسرور فـوق الأسـوار، ولم يتـوقفـوا عن الاستخفـاف برجـالنا، وطلبوا منهم العـودة، لكن هذا السرور العـابث لم يطل كثيراً،

بل كـان علامـة على دمـارهم المقبل، على أســاس أن التفاخـر يسير قبل الدمار كما قيل بالأمثال:١٦/ ١٨.

وبعملهم هذا أظهروا أنفسهم حمقى، ولذلك أغضبوا الحشد ضدهم، وأثاروا حقدهم ضدهم لأنه كتب في الالهيات:٧/ ١٢:« على الانسان أن لايضحك ليثير حقد الآخرين في أنفسهم، لأن هناك من قد يتواضع ثم يمجد» وفي الأمثال:٢٧« الغضب قساوة، والسخط جراف، ومن يقف قدام الحسد»؟ كما أنهم لم يقرأوا ماقاله ذلك الفيلسوف الكبير، الذي عدّ الحكيم الأول بين حكماء العــالم السبعــة هو الذي قــال ينبغي أن لانستخف بأي شكل من الأشكال و لانهزأ بالرجل السيء الحظ.

ولدى سماع رجــالنا السخــرية منهم بـآذانهم، وتلقيهم الشتــائم واللعنات والتجـديف، وقفوا بين شرين أو لنقل خيـارين صعبين، ففي الوقت الذي لم يكن بإمكـانهم فيه تحمـل الإهانات التي انصبت فـوقهم من دون الانتقـام من فاعليهـا، كـانوا في الوقت نفسـه لايدركون تماماً كيف يمكنهم الاستيــلاء على مـدينة الذين أهانـوهم، وفيما هم في هذه الحيرة، فجأة ظهـرت القـدرة الالهيـة بينهم، وجلبت العـون إلى المؤمنين وهم في وضعهم اليائس، فقد نزل من جبل الزيتـون نحو حشدنا فارس كان مرتدياً لسـابغة مشعة، وهو على ظهر مهر شجـاع، وكان بيده رمح يتوهج ضياء، وأشار إلى عساكرنا بالعودة وتجديد الحملة، وبعدما أعطى هذه الاشـارة لم يعـد بالامكان رؤيتـه في أي مكان، كما أنه لم يكن هناك شك أنه ميكائيـل، الذي كـان مقـدم الحشـود المسيحيــة، أو كما تقـول الأسطورة، اللومباردية بأن ذلـك الفارس كان القـديس جرجس، حيث قـام من بين الأمـوات لمسـاعـدة المسيحيين، وذلك مثلما قـام ميركـوري Mercury القـديم للقتـال ضد يوليـان المرتد وجيشــه، وهو الذي ورد خبره في التاريخ اللاهوتي.

ولدى رؤية جيشنا لهذه الاشـارة، بات مسروراً، وعاد إلى الحملة على

المدينة بشجاعة أعظم من ذي قبل، وقد توهج بالحماسة هؤلاء الرجال، الذين كانوا قبل هذا مرهقين ومنهكين لما عانوه من متاعب وشقاء، وكانوا ضعفاء بسبب الجراحات، ومعاقين، غير أنهم الآن جددوا نفوسهم، وبها ضغطوا وتقدموا بشجاعة أعظم من ذي قبل، وحملوا على العدو حملة رجل واحد، وعم سرور عظيم في معسكرنا، وبدوا وكأنهم واثقين من النصر، ففي إطار ساعة واحدة طموا الخندق، وخرقوا السواتر الدفاعية، والموانع والحواجز، وأوصلوا الآلات الحربية إلى سور المدينة، وقد ستروا أنفسهم تحت هذه الآلات، وبذلك لم يعودوا يصابون بالحجارة التي رميت من الأسوار، وكانوا وهم تحت الآلات بإمكانهم شق طريقهم إلى السور واعتلائه، لأنه في ذلك الوقت لم يكن قد جرى اختراع المدافع، تلك الأسلحة المخيفة— حيث يقال بأنها اكتشفت من قبل ألماني في حوالي سنة ١٣٦٠— والذي توفر لديهم فقط آلات لرمي الحجارة الثقيلة.

وكان مقاتلونا قد عملوا برجاً عظيماً وعاليا، على شكل سلة، ومثل قلعة، وملأوه بالتراب والحجارة، بصورة أن الذين يقفون خلفه، يكونون آمنين من الرمايات من الأسوار، ووقف هذا البرج، أو الحصن على عجلات، وكان قابلاً للتحريك، وكان العدو قد علق أشجاراً ضخمة وطويلة أمام الأسوار، لتحطيم قوة كبش التدمير، وقام رجالنا الذين كانوا في الحصن المتقدم ذكره بقطع الحبال التي ربط بها اثنتان من هذه الأشجار ورموهما إلى الأرض، وعندما علم بهذا الدوق غودفري الذي كان يهاجم المدينة من ذلك الجانب، أمر بحمل الشجرتين المتقدمتي الذكر إلى الحصن، وباسناد نهاية أولاهما على الآلة، ونهاية الأخرى على سور المدينة، وبذلك جعلهما تعملان بمثابة جسر، وفوق الجسر المعمول على هذه الشاكلة، كان غودفري ذلك الرجل المتميز، مع أخيه يوستاس، أول رجلين دخلا المدينة، وبعدهما جاء عدد كبير آخر،

واتخذوا لأنفسهم مكاناً فـوق الأسـوار وأعـلامهم التي حملت شـارة الصليب تخفق، وزعقـوا بأبواقهم إلى الحشـد ليقدم لمسـاعـدتهم، ولدى رؤية العدو لهذا تخلى عن الأسـوار والأبراج، وهرب جميع مقاتلوهـم من أجل الالتجاء في ساحة الهيكل، الذي اسمه هيكل سليمان.

وهنا نزل رجـالنا الـذين وقفـوا على السـور، وذهبـوا إلى أقـرب الطرقـات، ثم ركضوا نحـو الباب الشمالي، فكسروا أقفـاله وحواجـزه، وتركـوا رجـال حشـودنا التي كـانت تنتظـر في الخارج تدخل، ومن ثم تركض إلى هنا وهناك في الطرقات وسيوفهم مجردة، حيث قتلوا كل من صدفـوه، ولم يوفروا أحـداً لالسنة أو لجنسه، وتجمعت في الوقـت نفسه القوات المقاتلة لدى العدو في الهيكل وفي ساحتـه، وقد استعدوا لمقاومة شعبنا، الذي اقتيدوا بصفـوف قتاليـة للهجوم على الهيكل بقـوة عظيمة، وجـرى صد رجـالنا خمس مـرات من قبل المسلمين، لكن في الاشتبـاك الخامس(؟) كـانوا قـادرين على تحطيم ميمنـة العـدو، وعندمـا منح هذا طريقاً لشعبنا، انخـرط في مذبحة، إلى درجة أنه في بعض أجـزاء الساحة وصلت دمـاء المقتـولين إلى ركب الذين كـانوا على ظهـور خيـولهم، ولم يرقط مثل هذه الكثرة من الدمـاء البشرية في مكان واحد ووقت واحد، لأنه بالاضافة إلى الذين ذبحهم شعبنا في البيوت، والأزقة، والشوارع في المدينة، قتلوا في الهيكل وحـده مع سـاحتـه عشرة آلاف من المسلمين، حيث ألقي بهم أرضـاً وذبحـوا، وكـان بين الذين طعنـوا بألف سيف الخليفـة(الوالي)، أي ملـك البرابرة في القـدس، الذي عثـر عليـه شعبنا متـوارياً تحت جدار مهـدم، وبذلك جرى الاستيـلاء على المدينة في سنة ١٠٩٩، وكـان ذلك في الخامس عشر من تموز، وكـان اليوم يوم جمعـة، والساعـة هي الساعـة التاسعـة، والسنة هي السنة الثـالثة بعدمـا امتلك شعبنا الشجاعة للقيام بمثل هذا الحج الهائل.

وبعـدما جـرى الاستيـلاء على المدينة، ألقى المؤمنون أسلحتهم، ومع

الدموع، وبروح متـواضعة، وبدون اهتمام بالدمـاء التي لطخت الهيكل، بادروا مسرعين في مسيرة إلى الهيكل الذي امتلأ بدم المسيح، وإلى كنيسة ضريح الرب، وكـان يتقدمهم أسـاقفتهم وكهنتهم بمـلابسهم المقدسـة، وعندمـا دخلوا إلى هيكل قيامـة الرب، غنوا بسرور لاحـدود له، ترانيم الفصح غنوها كل جماعـة منهم بلغتهـا، وبموسيقـاها، وساروا بخشـوع عظيم وطافوا حول الأماكن المقدسة كلها في الكنيسة.

ولكم هو رائع أن تتحـدث، ومقـدس وممتع أن تسمع بأن جميع هذه الأماكن المقـدسة، جرت بها مشاهدة فرسـان مسلحين، وحجاج بشكل واضح ومكشـوف، وهم رجال كـانوا قبل وقت طويل يقـابلون بالموت من قبل سيـوف المسلمين، هذا وذكر الشطر الأكبر من الجيش، وأكـدوا بالايمان مـاكـانوا ذكـروه، بأنهم عندمـا كـانوا يتسلقـون سـور المدينة شاهدوا، الفرسان أنفسهم، الذين ماتوا في انطاكية وأماكن أخرى، وهم يرتدون دروعهم، ويمـدون بسرور أذرعتهـم إلى الذين كـانوا يتسلقـون على السـلالم، ويشجعـونهم على القتـال، ولم يكن هنـاك من شك لدى الذين شاهدوهـم، أنه كـان من غير الممكن نيل النصر من دون الحصول على مساعدة ورضا الذين سقطوا في المعارك السالفة، وذلك مثلما حدث أنه لدى صـلاة القـديس باسيل، أقـامت العـذراء المبـاركـة من الموت ميركوريوس Mercurius، الذي كان عسكرياً في غـاية الشجاعـة، كان قـد استشهد على يدي يوليـان المرتد، وقد أقـامته لكي يقتل يوليـان هذا نفسه، وقد فعل ذلك حقيقة، ومثل هذا فإن أشجع المقاتلين الذين ماتوا على أيدي المسلمين، قـد رجعـوا إلى الحيـاة ثانيـة حتـى ينتقمـوا منهم، ولذلك شوهدوا بشكل واضح يقاتلون بين الرجـال الذين كانوا رفاقهم في الحيـاة، ولقـد تبرهن بهذا بوضوح أن أولئـك القوم، وإن كـانوا قـد فـارقوا الحيـاة الأرضية، وأخـذوا إلى السعـادة الأبدية، مع ذلك لم تخب آمـالهم في تحقيق رغبـاتهم، لابل في الحقيقـة حصلوا على تحقيـق كـامل

للذي تشوقوا إليه بخشـوع كبير، وغسلوا دمهم الشرير، وأقاموا مطابخ في كل مكان من أرجاء المدينة، وعينوا أناسا للقيام بتقديم الأطعمة، وأمضوا على هذه الصورة ثمانية أيام.

وهناك كثير من المؤرخين الذين أرخوا لهذا النصر المجيد جداً، وقد كتبوا باسلوب ملحمي، وجاءت الكتابات من قبل كتاب متعلمين كثيراً، ومن قبل خطباء بلغاء، بكل من الايطالية، والاغريقية، والفرنسية، وقد نسب كل واحد منهم الفضل إلى أمته، ولأنهم لم يذكروا الألمان، مع أن غودفري كان قد فعل كل شيء وتفوق على الجميع قام الشاعر العظيم أنياس سيلفيوس Aeneas sylvus بالقاء خطاب في فرانكفورت، وجهة إلى أمراء ألمانياونبلاء سوابيا، بمناسبة الغزو التركي، وقد تحدث إليهم قائلا:« وإنني أعرف بأن غودفري، الذي كان دوق اللورين، قد سار خلال كثير من الممالك، براً وبحراً، وحرر ضريح الرب من أيدي المسلمين، وكان معه الألمان فقط، الذين قطنوا فيما وراء الراين، والسوابيين، وبعض الفرنسيين، وقلة من الايطاليين».

قائمة بملوك القدس اللاتين وبأمراء المملكة الصليبية في القدس

وهكذا حدث أنه في الخامس عشر من حزيران(اقرأ: تموز) من سنة ١٠٩٩ لتجسيد ربنا، استولى المسيحيون الغربيون على القدس، المدينةالمقدسة، واستخلصوها من أيدي، ومن سلطان الأمم، وعينوها إلى ورثتها الحقيقيين، الذين هم أبناء المملكة، الذين ولدوا مجدداً أمام جرن المعمودية والذين هم أتباع المسيح، وأعادوها بعدما بقيت غريبة في أيدي الأمم لحوالي أربعمائة وستين سنة، أو أربعمائة وتسعين سنة.

وفي اليوم الثامن بعد تحرير القدس، اجتمع الأمراء المنتصرون في مؤتمر من أجل اختيار واحد من أفرادهم ليتسلم السلطة على البلاد،

ويتولى كملك العناية بالمنطقة المستولى عليها حديثاً، وبعدما صلوا من أجل أن تكون نعمة الروح القدس معهم في أعمال الاختيار، قاموا بصوت واحد، وبروح واحدة، باختيار غودفري، دوق اللورين، الذي تقدم ذكره مراراً، اختاروه ملكاً، وقد حمله الفرسان على أكتافهم إلى القصر وأعلنوه ملكاً للقدس. وقد حكم لمدة سنة واحدة

وكان غودفري هذا من مملكة فرانسا، من مدينة بولليون في مقاطعة الراين، وكان كونت غالاريا Gallaria (كذا)، وكان أبوه اللورد يوستاس، وأمه اسمها ايدا Ida ، وكانت أختاً لدوق اللورين، وبما أن هذا الدوق كان بلا أولاد، فقد تبنى ابن اخته غودفري هذا، واتخذه بمثابة ابن له، وعندما مات خلفه غودفري في دوقية اللورين، وكان هذا الدوق رجلاً رائعاً جداً، وكان متديناً، ورحيما، ومقدسا، ومستقيما، ومتحدثاً وقوراً، وصاحب أخلاق صلبة، يكره العبث الدنيوي، وهذا كان أمراً نادراً بالنسبة للجندي، لاسيما في ذلك الوقت، وكان علاوة على ذلك كله متدفقاً في حديثه، لايمل ولايتعب في الأعمال الدينية، ومع أنه كان نبيلاً، لم يكن متشامخاً، بهي الطلعة، وجميلاً أن تنظر إليه، ومن حيث الجسم، كان طويلاً، ورشيقاً، وفي غاية القوة، مع وجه جميل، وشعر أصفر، ولحية، وبالنسبة لاستخدام السلاح، والممارسة للأعمال العسكرية، قرر كل واحد بأنه كان متفوقاً، وكانت أعماله دوما رائعة، وجديرة بالاعجاب، وقام في احدى المرات، مثل شمشوم آخر، أوداوود، بمهاجمة أسد هائج وقتله، كما جاء في Frasciculus tem-porum(وهو تاريخ صنفه الراهب ويرنر رولونك وطبع سنة ١٤٧٧).

وعندما رفع إلى عرش مملكة القدس، لم يرفض اللقب، لكنه رفض أن يلبس تاجاً ذهبياً، قائلاً بأنه لايجوز لرجل مسيحي ارتداء تاج ملكي من الذهب، في المكان، الذي لبس فيه المسيح، ملك الملوك، تاجاً من

شـوك مـن أجل انقـاذ الجنس البشري، ولهذا فإن بعـض الذين لم يكن تواضعهم كما ينبغي، لم يضعوه في قائمة الملوك اللاتين للقدس، وبالنسبة لما أفكر به، هو لم يكن ملكاً فقط، بل الأفضـل بين الملوك، وكان ضـوءاً ومـرآة للبقية، وعلينا عـدم الافتراض بأنه رفض عرض تكريسـه ملكاً، لكنه تواضعاً منه رفض الأبهة الدنيـوية، والتاج الفاني، من أجل أن ينال تاجاً لايفنى في العالم الآخر.

وعندمـا حصل هذا الأمير التقي على العـرش، شرع مبـاشرة كـرجل دين بتقديم أول الثمار في مملكتـه إلى الرب، كما أنه أسس أنظمة قـانونية لكنيسـة ضريح الرب، ولهيكـل الرب، وعين لهما مـوارد وافـرة، وفي الحقيقة قـام هذا الرجل، الذي أحبه الرب، فجلب معـه رهباناً نظاميين من ديرتهم، وقد أقـام هؤلاء له، طوال الرحلة، القـداسات في الليل وفي النهـار، ومثل هذا بعث إلى كل من ايطاليـا وفـرنسـا، فجلب اكليروس ديني، وزع فيما بينهم الأبرشيات، ولهم بنى الكنائس والديرة.

وفي هذه الأيام، تمّ العثـور على قطعـة من صليب الرب، في كنيسـة القيامة، وهي قطعة كـانت قد أخفيت من قبل المؤمنين خوفاً من الأمم، ومنح هـذا راحـة عظيمـة إلى جميـع المؤمنين، وجلب مجداً عظيماً إلى الكنيسة، وكانت الكنيسة قد بقيت حتى ذلك الحين، فارغة، لكن الآن، وضعـوا في الكرسي البطريركي بمـوافقة جميع الناس، السيـد ديبيرتوس Daybertus، الذي كان رئيس الأساقفة المبجل لبيزا، وكان قد جاء إلى الأرض المقدسة من ايطاليا مع آخرين كثر بالبحر، بعد الاستيلاء عليها.

وبعدما حل مشـاكل الكنيسة وأرسى قواعدها، سـار الملك غودفري التقي جداً من أجل توسيع حدود المملكة المقـدسة للقدس، واصطحب معه اخوانه، وجميع حشـد مقاتليه، وكلهم مجهز للقتـال، وزحف خارجاً من المدينـة المقـدسـة، ونـزل إلى فلسطين لمحـاربـة كليمنت -Clem ent(الأفضل) ملك القـاهرة، الذي كان معسكراً في عسقـلان مع حشد

كبير من المحاربين المسلمين، وكانوا قد هاجموا الصليبيين من هناك بشكل غادر، وهاجم غودفري بلدة عسقلان، واستولى عليها، وقتل كليمنت [كذا] مع ثلاثين الفاً من عساكره ووجدوا هناك المخزون الأعظم من الذهب والفضة، مما كان قد تمّ العثور عليه في أي ناحية من أنحاء العالم، وزحف من هناك هو وإخوانه، مستثمرين نصرهم وحظهم السعيد، فحاصروا واستولوا على مدينتي يافا والرملة، وبعض المناطق الأخرى الهامة مثلها.

وأخيراً عندما عاد الملك إلى القدس، سقط مريضاً، وأصيب بحمى حادة جداً، وتمدد على الفراش بحالة مرضية شديدة جداً، ولدى شعوره باقتراب منيته، قام مثله مثل معترف حقيقي بالمسيح، فتناول القربان الأخير، وغادرت روحه الجسد، وبذلك انتهت حياته سريعاً، ومع ذلك حقق أعمال أجيال كثيرة في وقت قصير، ودفنه إخوانه في كنيسة الضريح المقدس، عند سفح صخرة الجمجمة، وكان ذلك وسط بكاء وأسف جميع الشعب الصليبي، وجرى فهم بعض النصوص المقدسة(رؤيا يوحنا:١٧—١٨)حرفياً، وشرحت على أنها تشير إلى غودفري، وذلك وفقاً إلى نيقولادي ليرا، وإلى تاريخ أنطونيوس، القسم الأول، العنوان:٦، الفصل:١، الفقرتين:١٤—١٥، وقد عُزي إليه كثيراً من المعجزات، قمت باسقاطها.

الملك الثاني

بعد وفاة غودفري، الملك الأول للقدس، في سنة ١١٠٠ لتجسيد الرب، خلفه أخوه اللورد بلدوين على العرش، وقد كان كونت الرها، ورجلاً قوياً، ولديه كفاية من المعرفة الأدبية العامة، وكان له أنف معكوف، وسلوك مهيب، وأحاديث جدية، وكان دوماً يرتدي عباءة على كتفيه، ولذلك بدا للغرباء أنه أكثر شبهاً بأسقف، منه بأمير علماني، وقدم إلى القدس، عدد كبير من الأمراء لحضور تتويجه، واقتادهم هو إلى

بيت لحم، حيث تسلم التاج مع فرح عظيم في موضع ولادة الرب.

وأحتـاج إلى وقت طـويل للحـديث عن عظمـة هـذا الملك، وعن شجاعته، وعن قوته، وعن معـاركه الكثيرة وانتصاراته على الكفار، فقد هزم الأتراك مـرات عـديـدة، وسحق المسلمين، وأذل المصريين ثلاث مـرات، وقتل ملكهم الخليفـة(كذا) على ظهـر أحـد الغلايين، وكـان في أيامـه زلزال عظيم هدد المدينة المقدسـة كلها بالدمـار، ومع ذلك تبرهن أنها لم تكن شارة سوء طالع، لأنه استـولى بعد الزلزلة على كثير من مدن المسلمين، وقتل آلافـاً كثيرة، وزاد كثيراً من حجـم مملكة القـدس، وقـد استـولى على مـدينة عكا الحصينة جـداً، ومثل ذلك بنى حصناً عظيماً في البتراء في القفـار فيما وراء الأردن، وهي القلعـة التـي أطلق عليهـا اسم جبل الملك(مونتريال=الشوبك)، وكنا قد تحدثنا عن هذا المكان من قبل.

ونزل في أيامـه طاعون بسـورية، وقـد هلك به جميع الشعب اللاتيني تقريبـاً، وعندما رأى الملك أن مدينة القدس المقـدسة قد غدت شـاغرة، ليس فيها أحد يسكنها، وأنه لم يعـد في المدينة مايكفي من سكان للدفاع عنها ضد الأعداء، احتار كيف يمكنه اسكانها من قبل مسيحيين، وعلم أخيراً أنه يوجد عبر نهر الأردن وفي العربية عدد من القرى مسكونة من قبل المؤمنين، وهـم يخدمـون المسلمين، أعـداء ايمانهم، في ظل شروط قـاسية، ويدفعـون الجزية إليهم، وجمع الملك هؤلاء جميعـاً مع زوجـاتهم وأطفـالهم وجميع آلهم، وأسكنهم في القـدس، ورفع النير الثقيل من على أكتافهم، علاوة على ذلك اشترى أطفالاً من المسلمين، وأمر بتعميدهم، وعينهم للسكنى في القدس.

وفي سنة ١١١٨ لتجسيـد ربنا، قـام هذا الملـك الفـاضل بالنزول إلى مصر مع قـوة كبيرة، وكـان قصـده الانتقـام من المصريين للأعمال التي غالباً مااقترفـوها في مملكته، وقد هاجم بحدة متناهية مـدينة قديمة جداً اسمهـا الفـرما، وقـد استـولى عليهـا، وأباحهـا للنهب من قبل جنوده،

وكـانت هذه المدينة قـائمة على شـاطىء البحـر، ليس بعيـداً عن مصب النيل، وكـان اسمها في القـديم تنيس، وعندمـا كـان الملك مقيماً في هذه المدينة يستعـد ليندفع نحـو المناطـق الداخليـة من مصر، سقط مـريضـاً مرضاً عظيماً، ولذلك أمر جيشه بالتراجع، وقد حمل على محفه حتى غلبه مـرضـه، ومن ثم انتقل إلى الرب، وجـرى حمل جسـده عـائـدين به إلى القـدس، وفي يوم أحـد السعف جـرى دفنـه بأبهة ملكيـة، تحت مـوقع الجمجمة بقـرب أخيه غـودفري، وقـد حكم في القدس لمدة ثمان عشرة سنة، ولم يخلف وريثاً من بعده.

الملك الثالث للقدس

وبعد وفـاة بلدوين الذي كان الأول في حمل هـذا الاسم، والثاني بين ملوك القدس، خلفـه هناك على العرش بلدوين الشـاني، الذي كان ثالث ملوكنا اللاتين في القدس، وكان ذلك سنة ١١١٨م، وقد حكم لمدة ثمان عشرة سنة، وكـان ابن عم الملكين المتقـدمين، وكـان اسمـه بلدوين دي بورغ، وكـان فرنسيـا من حيث الأصل، من مقـاطعة الرايم، وكـان ابن هوغو، كونت ريثيل Rethel ، وله لحية رقيقة، وصلت حتى صدره، وكـان خبيراً في استخـدام الســلاح، وصـاحب تجربة كبيرة في الحرب، علاوة على ذلك، كـان رحيماً، متديناً، ويخاف الرب، مخلصـاً في صلواته، حتى أنه امتلك جلداً قـاسيـاً فـوق يديه وركبتيـه من مـداومـة الركـوع والسجود.

ومع ذلك، إنه على الرغم من هـذا كله، ومن صفات أخـرى جيـدة، كـان انتخابه للملك قـد أغضب عـدداً كبيراً من الأمراء، ولذلك بعثـوا بسفـارة مهيبة لدعـوة يوستـاس كـونت أوف بولليـون، الذي كان أخـاً للملك بلدويـن الأول، للقـدوم إلى المملكـة، التي هي حقــه الموروث، وعلى الرغم من عدم رغبته، وكراهيته، جلبوا يوستاس هذا حتى أبوليا، حيث سمعــوا وقتــذاك بـأن بلدوين دي بورغ قــد تـمّ تعيينه ملكاً في

القـدس، وهنا استعـد للعودة إلى الوطن، وعنـدما أعلمـوه بأن هذا قـد عمل ضد القـانون، ولايمكنه بأي حال من الأحوال الثبـات، يقال بأنه أجابهم:« ليكن بعيداً عني القيام بأي عمل تآمري في مملكة الرب، الذي من خـلال دمـه حصل العالم على السـلام، ومن أجل الهدوء فيهـا بعث أولئك الرجـال العظام، أي أخوي صـاحبي الذكـرى الخالدة، بروحيهما المجيدتين إلى السماء»، وبنـاء عليه حزم حقـائبه، وعـاد إلى موطنه ثـانية، وفي الوقت نفســه ترسخ وضع بلدوين في مملكتـه، وقــد هزم في السنة الثانيـة من حكمِـه ايلغازي، قائـد الأتراك في آسيـة الصغرى، وكـان قد زحف على رأس قوات كبيرة لمهاجمة القـدس، وألقاه في السجن، وأنزل في السنة التـاليــة الهزيمـة بملك دمشق، الذي كـان قـد زحف بشكل مفاجىء على رأس جيشه ضد القدس مع نوايا عدوانية، وقد قتل ألفين من الأعداء، وأخذ ألفاً أسرى، وقد فقد ثلاثين فقط من رجاله.

وفي السنة الخامسة من حكمه، زحف هـذا الملك، ضد ملك الفرثين، الذي كـان يهدد كونتيه الرهـا، وعندما كـان في أحد الأيام، خارجاً من مدينة تك باشر، وكان يسير بلا انتباه مع آل بيته، في صف متخلف وراء الجيش، لحقـه بلك المتقدم ذكـره، ونصب كمينا له، فأسر ملك القـدس مع نبـلائـه، وحملهم إلى قلعـة وراء الفــرات، حيث وضعهم بالأغـلال واحتفظ بهم لمدة سنتين، وفي الوقـت نفســه عندمــا سمع ملك مصر بوقــوع ملك القــدس بالأسر، جــاء عبر الطريق الســاحلي مع جيش لايحصى عـدده من شعبـه، ووصـل إلى عسقـلان، قـاصـداً الزحف إلى القدس، وعندمـا سمع يوستاس غـريمر، الذي إليه عهـد بادارة شؤون المملكة، أثناء غيـاب الملك بهذا، قـام هـو وأعيـان المملكة بحشـد جميع القوات المتـوفرة، واستعدوا للحملة وكانوا قلة ضـد كثرة، وليس لديهم أمل بالبقـاء إلاّ بـالرب، وقـام أهل القـدس، مثل أهـل نينوى، فأعلنوا الصيـام بالنسبة إلى الرجـال والنســاء سواء، لابـل أكثر من هذا، منعـوا

الطعام حتى عن الأطفال الرضع، وعن الدواب والسائمة، وعندما زحف جيش الرب خارجاً من المدينة المقدسة، زحف بطريرك القدس على رأس الرتل، وهو يحمل صليب الرب عوضاً عن الراية، وحمل الذي كان فيما مضى راعي دير كلوني، سنان رمح الرب، الذي جرى اكتشافه مؤخراً، كما تحدثنا من قبل، وحمل أسقف بيت لحم حليب العذراء المباركة في حُق.

وهكذا ساروا وهم متسلحين بالايمان، وقصدوا قتال أعدائهم، وقد وجدوهم في مكان اسمه يبنا(ابلين)، ودون الاهتمام بأعدادهم الكبيرة، حملوا عليهم بجرأة، وضربوهم بسيوفهم، وتمكنوا بعون الرب من الحاق الهزيمة بهم، وطاردهم شعبنا، ولدى قيامهم بذلك عملوا مذبحة مرعبة بينهم، ومع الأعداد التي لاتحصى من الأسرى، يقال بأن سبعة آلاف منهم قد قتلوا في ذلك اليوم، علاوة على ذلك عمل شعبنا مذبحة أخرى كبيرة بين صفوف المسلمين في البحر، لأنهم طاردوا اسطول المسلمين الذي هرب لدى سماعه بالهزيمة، فوجدوه، وقتلوا أعداد كبيرة في المعركة التي وقعت إثر ذلك، وكانت مذبحة خارج اطار التصديق، حيث قيل بأن البحر قد تحول إلى أحمر لمسافة ميلين حول المكان، بسبب أعداد الجثث الكبيرة التي ألقيت فيه.

وبعد هذا، والملك مايزال بالأسر، استولى شعبنا على مدينة صور التي كانت لاترام، حيث ترافق ذلك مع مذبحة هائلة جداً بين صفوف المسلمين هناك، وصور مدينة قديمة جداً، ولها منحها الامبراطور سيفيروس، جائزة بسبب اخلاصها للدولة الرومانية، وكانت هذه الجائزة هي: Jus Italicum، وكان هذا امتيازاً اعتاد الأمراء الرومان على اضفائه فقط على عدد قليل جداً من المدن ذات الأهلية العالية.

ولم يشهد فقط الكتاب من الأمم على عظمة مجد هذه المدينة في العصور القديمة، بل أيضاً شهد وحي الأنبياء المقدسين، حسبما جاء في

إشعيا:٢٣، وفي حزقيال:٢٦و٢٧.

وإلى هذه المدينة ينتمي سيخايوس وزوجته ديدو، التي بنت مدينة قرطاج العجيبة، وحكم هنا حيرام الذي كان العامل المتعاون والتابع لسليمان في بناء الهيكل، وعندما جرى الاستيلاء على صور، أطلق سراح ملك القدس وعاد إلى القدس، وقد تمكن من إعادة المملكة المتداعية للمسيحيين وأضاف أنطاكية إلى مملكة القدس، وهزم ملك عسقلان الذي كان يزعج شعب القدس، وكان ذلك في معركة واحدة، وهزم طغتكين، أمير دمشق، الذي كان مثل ذلك يحاول مضايقة أهل القدس، وقد هزمه في ثلاث معارك، حيث جرى ذبح أعداد كبيرة من الأعداء مثل الأغنام.

ومنح الرب بعد ذلك، هذا الملك، حكماً هادئاً، وما من انسان تجرأ على الوقوف في وجهه، ولذلك قام وهو يعيش بسلام، فوجه نفسه نحو تحسين الخدمات الدينية، فجلب عدداً كبيراً من الرهبان، ومن رجال الدين، من العالم المسيحي، وشيد كثيراً من الديرة لكل من الرجال والنساء، وأسس في صور جامعة أو مدرسة عامة، إليها قدم كثير من العلماء من بلاد ماوراء البحر، وفي أيامه تأسست ثلاث طوائف دينية في القدس، وكانت الطائفة الأولى بينها الاسبتارية، ومع أنه كان يوجد قبل استرداد الأرض المقدسة، في القدس اسبتارية، لكن لم تكن هناك طائفة منظمة، فلقد قرأت، كما ذكرت من قبل، أن المسيحيين اللاتين شيدوا بموافقة من السلطان، قبل أيام غودفري، ديراً للرجال، قرب كنيسة ضريح الرب، من أجل استخدامات الحجاج، فيه أقام الذكور من الحجاج كضيوف، وبعد ذلك، وبسبب تزايد أعداد النساء من الحجاج اللائي قدمن إلى هناك، جرى بناء دير آخر، أقامت فيه النساء من الحجاج، وبعد ذلك، وبسبب تدفق حشود الحجاج إلى هناك، لم يعد هذين الديرين قادرين على استيعاب مثل هذه الأعداد الكبيرة، ولذلك

قام راعي الدير والرهبـان ببناء مشفى على مقربة من البيعـة المكرسة إلى القديس يوحنـا المعطاء، الذي كان بطريرك الاسكندرية وصـار الحجاج يقيمون في هذا المشفى، ويتلقون جميع المؤن المحتـاجة من هذين الديرين على أيدي الرهبان والراهبـات هناك، الذين كما أتصور كـانوا من طائفة القـديس بندكـت، لأنهم كـانوا لاتين في الديرين معـا، ولم تكن طائفـة الاسبتـارية قـد تأسست نظاميـاً بعد، ومع مـرور الأيام، وبعـد استرداد الأرض المقـدسـة، وبعـدمـا نال الملك بلدوين السـلام في البـلاد، تدفق الحجاح على القدس، بأعـداد كبيرة، ولذلك عين راعي الدير واحداً من النبـلاء اسمه جيراد، كـان قد تطوع بارادتـه للقيام بخـدمة الذكـور من الحجـاج ورعـايتهم، وقـامت راعيـة الدير بالوقت نفسـه بتعيين سيـدة رومانية نبيلة لخدمـة النساء من الحجاج، وقام هذان الشخصـان بالتعهد بتقديم الـولاء إلى راعي الدير المتقدم ذكـره، تبعاً للنظام الذي عـاشا في ظله، وكـان نظاماً مـوائماً للناس المقيمين في المشفى، وهو نظام عمل لهم من قبل راعي الدير مع موافقة بطريرك القدس.

وكـان الثوب الذي ارتدوه أثناء الخدمـات الدينيـة عباءة سـوداء مع صليب أبيض عليهـا، وقـد تزايـدت أعـدادهم بشكل كبير، مما دفع إلى تأسيس أديرة كبيرة لهم في جميع أرجـاء العـالم، وذلك بسبب أنهم كـانوا رجالاً متدينين كثيراً، ولايسمحون باقتراف أي عمل شرير، وباتوا الآن يعـرفون باسم مـزدوج: فبعضهم يدعـوهم باسم اسبتارية، لأنهم كـانوا يمتلكون السيطرة على المشفى، في حين دعـاهـم آخـرون باسم فـرسـان القـديس يوحنا، اشتقـاقـا من اسم القـديـس يوحنا المعطاء، الذي إليـه كرست المستشفى في القدس، وقد احتفظوا بهذا الاسم حتى هذا اليوم، ولكي يمنحوا أنفسهم شرفاً أعظم، اتخذوا القـديس يوحنا المعمدان ولياً راعياً لهم، وكان ذلك بعد استيـلائهم على جزيرة رودس، كما أنهم كانوا قد أخذوا بنظام القديس أوستين، وذلك بعد طردهم من القدس، لأنهم

أثناء إقـامتهم في القدس لم يتخذوا يـوحنا المعمدان وليـاً راعياً لهم، كما أنهم لم يعرفـوا وجوب تطبيق نظام القديس أوستين، بل عـاشوا في ظل أوامر الراعي والبطريرك، وعلى هذا بدأت طائفة فـرسان القديس يوحنا في سنة ١١١٨ في القدس، في أيام حكم البـابا غيلاسيوس Gelasius، لكن الطائفـة ترسخت فوق نظام قـانوني في سنة ١٣٠٨م في أيام حكم البابا كليمنت الخامس، في جزيرة رودس.

وهناك أيضـاً رجالاً آخـرون، بعد هؤلاء بوقت، عـرفوا أيضـاً باسم الاسبتارية، لكن هؤلاء القوم لم ينالوا هذا الاسم من المشفى في القدس، لكن حصلوا على اسمهم ونظامهـم من مشـافي أخـرى كبيرة، خـدمـوا فيها، تحت أنظمة متنوعة.

وكانت الطائفـة الثانية، التي جاءت بدايتهـا في القدس، في أيام حكم الملك بلدوين، قد تطورت من الطائفة الأولى، لأنه بعد تأسيس المشفى، والمنح العظيمة التي نالتهـا، استمر تدفق الحجاج بأعـداد كبيرة جداً من جميع أرجاء العـالم، ووصلوا يومياً إلى هناك، وهنا بـدأ بعض اللصوص ينصبـون لهم الكمائن على طول الطريق السـاحلي، وشرعـوا يسلبـون الحجاج، ويقتلونهم أحيـاناً، وأحدثوا فـوضى عظيمة بينهم، ولدى رؤية ذلك، قام بعض الفرسان الغيورين، فتعهدوا إلى البطريرك، بأنهم سوف يتـولون حماية الطرق العامـة، علاوة على هذا تعهـدوا بأن يعيشوا حيـاة طهارة، وطاعة وفقر.

ولدى انطلاقهم، كان هناك عشرة فقـط منهم، وقد أسكنهم الملك في قصره، على مقـربة من الهيكل، وبعـد مضي تسع سنـوات على تأسيس طائفتهم ثابـروا على ارتداء مـلابس علمانيـة، وظل هذا مستمـراً حتى أخيراً، عندمـا عقد المجمع التـاسع في تروي Troyes في فرنسـا في ١١٢٨م، جرى تعيين نظام لهم، وعين لهم البابا هونوريوس رداءً أبيض مع صليب أحمر، ولأنهم سكنوا على مقربة من الهيكل، فقد عرفوا باسم

فـرسان الهيكل، أو الداوية، ولهم عمل القـديس بندكت نظامـاً، وغالبـاً ماكتب رسائل لهم، هذا وكانت بـدايتهم مقدسة، ومليئة بالفضائل، غير أنهم انحطوا وابتعـدوا عن سلفهم، وكـان ذلك بعـدما صـاروا أغنيـاء، وبعدما انتشروا في الخارج في جميع أرجاء الأرض.

ولهذا حـدث في أيام البابا كليمنت الخامس، وبعـدمـا صار واضحـاً لدى شعبنا بأنهم تحولـوا وصـاروا مثل المسلمين، واقترفـوا آثـامـاً كثيرة بسبب ثروتهم العظيمـة، فإن كل واحـد منهم أمكن إلقاء القبض عليـه من قبل المسيحيين جرى قتله، ولم يقتصر هذا على آسيـا بل حدث أيضاً في فـرنسـا، حيث جـرى تدميرهم من قبل فيليب ملك فـرنسـا، وذلك بموافقة البابا الحاكم في روما، لأنهم كـانوا يمارسون حياة شائنة، وجرى منح جزء من ثرواتهم الهائلة إلى فـرسان القديس يوحنا، وجـزء آخر إلى طوائف دينيـة تأسست حديثـاً، في حين استـولى الأمراء العلمانيـون على جـزء من هذه الثـروات، ومعـروف بشكل جيـد، أنه في تلك الأيام، استـولى الرهبان الدومينيكان على كثير من الديرة المشهـورة للداوية، من ذلك على سبيل المثال الديرة في: فينا، وستراسبورغ، وايسلنغ، وورمز، وأمـاكن أخـرى، هذا ودافع بعضهم عن مـوقف الداوية، ووأعلنوا بأن الملك كـان متشوقـاً لتدميرهم، حتى يتمكن من الحصـول على ثرواتهم، حسبما قـرأنا في تاريخ أنطونيوس- الجزء الثـالث، العنوان: ٢١،الفصل: ١، الفقرة ٣.

وكانت الطائفـة الثالثة التي تأسست في القدس، لكن ليس بعـد مدة طويلة من تأسيس الطائفتين الأخـريتين، هي الطائفة التي عـرفت باسم فـرسان التيـوتون للقـديسـة مريم، وقـد قيل بأنها قـامت كما يلي: بما أن الألمان قـد تفوقـوا على جميع الأمم المسيحيـة بتعلقهم التقوي بالأمـاكن المقـدسـة، ولأنهم اعتـادوا على القـدوم بأعـداد كبيرة كـل يوم، صـار الاسبتارية، الذين كانوا فـرنسيين متعبين منهم، وصاروا يتعاملون بسوء

مع الألمان، وانتقل الآن واحـــد من الألمان وزوجتــه من مـــوطنه إلى القدس، وسكن هناك، ولدى رؤيتـه للأوضاع التعيسـة للمحاربين من أبناء وطنه، حصل على إذن وموافقة السيـد بطريرك القدس، فحول بيته الكبير مع بيعة العذراء المباركة إلى مشفى صغير.

وتعهـد في هذا المكان بعض الرجـال بأنهم سـوف يتـولون خـدمـة الفقـراء وتدبير شـؤون الحجاج، ومع الأيام ازداد عـددهم كثيراً جـداً، وصاروا أغنيـاء إلى أبعد الحدود، ولذلك عين لهم البـابا سيلستاين Ce-lestine الثـالث نظامـاً، ولبـاساً أبيض مـع صليب أسود، وقـد وقفـوا بالفعل في وضع وسط بين الطائفتين السـالفتين، ذلك أنهم اعتـادوا على خـدمـة الحجاج والفقـراء مع الاسبتـارية، أو فـرسـان القـديس يوحنا، وقاتلوا في الوقت نفسه ضد المسلمين وغير المسيحيين مع الداوية، وبعد فقـدان الأرض المقـدسـة، وبناء على أمـر من البـابا، قـدمـوا إلى سيـزيا Scythia الأوربيـــة حيـث حــولوا الشعـب في الـ Ruthenians إلى المسيحية، وكـان هذا الشعب حتى ذلك الوقت وثنيا، وبعـد بذل جهود كبيرة حولوا: بروسيـا، وليفونيا، والمناطق الحدودية الأخـرى لألمانيا على المحيط.

وبعدمـاتأسست هذه الطوائف، وتم إنجـاز أعمال أخرى كثيرة، وقع بلدوين الملك التقي للقـدس، مريضـاً مرضـاً شديداً، ولدى رؤيتـه بأن مـوته بات قريبـاً، خـرج من قصره على شكل متسول، وبتـواضع وضع جانبا ثيابه الملكية على مشهد من الرب، وأمر بحمله إلى قصر البطريرك، لأن ذلك المكان كان قـريباً جداً من موضع قيامـة الرب، وهنا استدعى ابنتـه وزوجهـا ختنه، وابنهما بلدوين، الذي كـان آنذاك في الثـانيـة من عمره، وبحضور مجمع أمـراء المملكة عهد بالعناية بالمملكة لهم، في حين قـام هوكمعترف حقيقي، فارتدى لبـاساً دينيـاً، وتعهد بالعيش كـراهب نظامي إذا مـابقي حيـاً، وأسلم روحـه إلى الذي هو أبو الأرواح كلهـا،

وكان ذلك في السنة الثالثة عشرة من حكمه، وقد دفن عند سفح جبل الجمجمة.

الملك الرابع للقدس

وكان الملك الرابع للقدس، اسمه فولك، وكان ختن بلدوين المتقدم ذكره، وكان كونت أنجو، ومين، وتورين، وكان قد حصل على العرش في سنة ١١٣١م، في الستين من عمره، وقد حكم احدى عشرة سنة في القدس، وخاض هو وولديه كثيراً من الحروب، ليس فقط ضد المسلمين، بل ضد امبراطور القسطنطينية، وأمراء مسيحيين آخرين، تآمروا ضد مملكته، وفي أيامه أزعج المصريون -تحت قادة متعددين -الصليبيين الذين كانت القدس بأيديهم، وخرقوا بلادهم في عدة أماكن وتوغلوا في مدنهم، ولذلك تجددت الحروب، واستولى أثناء ذلك شعبنا على بعض المدن، وجعلوا مدنا أخرى تدفع لهم الجزية، وهكذا دواليك، وكان من بين أعمال هذا الملك المجيدة، إلحاقه الهزيمة مراراً بالترك الذين سكنوا في بلاد فارس، ولم يكتف بإلحاق الهزيمة بهم، بل تمكن في إحدى الحملات من قتل عدد كبير منهم بلغ ثلاثة آلاف، وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى، ووسع مملكته كثيراً.

وغزا الأتراك في أيامه مدينة الرها، التي كان الصليبيون قد استولوا عليها بوساطة جهود حربية كبيرة، واحتشدوا لطرد الصليبيين من هناك، وأمر كونت الرها، الذي كان ضعيفاً ومتقدما بالسنين، ابنه بأن يأخذ قوة من الجند معه، وأن يهاجم الأعداء برجولة، لكن هذا الابن شرع بجبن يفتعل الأعذار، معلنا أنه سوف يكون خطيراً مهاجمة مثل ذلك الحشد الكبير بعدد صغير من الرجال، وقد غضب أبوه منه، وأمر باعداد محفة فرس -من النوع الذي يدعوه الألمان Rossbar- وامتطى فرسه، وانطلق مع القوات التي تمكن من جمعها، لطرد الأتراك من منطقته، وعندما علم الأتراك بأنه قادم، خافوا من دنوه، وهربوا إلى

بلادهم.

وفي الساعة نفسها، وفي المكان عينه حيث هزم الأعداء، أمرهم الكونت بوضع محفته على الأرض، ورفع عينيه نحو السماء، وقدم الشكر مع الآهات والتنهدات، لأن الرب منحه في أيامه الأخيرة مثل هذه النعمة، أثناء وقوفه على أبواب الموت ذاتها، فأبقاه رعباً لأعداء الايمان المسيحي، وعندما فرغ من كلامه هذا، في الميدان المفتوح، وفي وسط رجاله، أسلم الروح.

وفي سنة ١١٤٢، نزلت بالصليبيين فاجعة كبيرة، فعندما كان اللورد فولك، ملك القدس، يتجول قرب عكا، وكان قد خرج من المدينة لتمضية الوقت، صدف أن أثارت كلابه أرنبا برياً، فركضت وبذلك ركضت الجماعة كلها خلفها وهي تصرخ، والملك الذي كان على ظهر فرسه لحق بها بسرعة مفرطة، وكبا حصانه، وانقلب على الأرض، وألقى بالملك بطريقة أن رأسه انسحق كله بالسرج، وخرج دماغه من أنفه وأذنيه، ووسط أسف عام حمل إلى المدينة، حيث تمدد لمدة ثلاثة أيام وهو فاقد للوعي، لكنه كان حياً ويتنفس، ثم إنه أسلم الروح في اليوم الرابع، وقد حملوا جسده إلى القدس، ودفنوه في موضع الجمجمة، حيث جرى دفن الملوك اللاتين المتقدمين، والذين ماتزال قبورهم مرئية حتى هذا اليوم، وهي تلمع برخام مصقول.

الملك الخامس للقدس

إثر وفاة فولك، الملك الرابع للقدس، خلفه في المملكة ابنه بلدوين الثالث، فكان الملك الخامس في سلسلة الملوك، وكان شاباً، صاحب أخلاق نبيلة، متحرراً من شرور الشباب، وقد حكم الدولة المقدسة بشكل في غاية الجودة، وعندما كبر،صار شاباً طويلاً، ووسيماً جداً، حتى أن الغرباء اندهشوا لسمو أخلاقه، مما أعطى برهانا واضحاً عن

سماته وجلالتـه الملكية، وقد كان دمثـا، وصاحب قلب حنون، ولم يكن شرها تجاه أملاك الآخرين، كما انه لم يقم كانسان مبذر، بالتجول لسلب رعاياه من ثرواتهم، وكـان متعلما بشكل جيد، وقـد أحب قراءة تواريخ الملوك ومعارك التـاريخ القديم، وتعـامل بقدرة حـربية فائقـة مع مخاطر الحرب غير المؤكدة، وكـان قد بدأ بممارسـة سلطاته في ١١٤٢م، وحكم في القدس لمدة أربع وعشرين سنة.

وفي أيام حكم هـذا الملك نهض الأتراك، والمصريون، والمسلمـــون، والبـداة العرب ضـد المؤمنين، وكان من بينهـم زنكي، وكـان رجل آثام، كما كان أكثر الأتراك قدرة، وقد حاصر الرها واستولى عليها، وهي التي كـــانت تعـرف مـن قبل باسم Rages Medorum ، وكـــانت مليئة بالسكان اللاتين، الذين قتلهم جميعا بضربة قاسيـة واحدة، وحشد الملك بلدوين جيشاً، وبادر مسرعاً لإنقاذ الرها، لكنه صد، واتخذ طريقه عائداً إلى القدس، بعدما خسر كثيراً من رجاله.

وجرى إعـلام يوجينيوس الثـالث، بابا روما، بالذي حـدث، فأرسل رجال دين إلى مختلف أصقاع الغرب، لإيضـاح صورة الأوضاع القاسية التي يعيشهـا الصليبيـون في الشرق، وكـان بينهم ذلك الرجل صـاحب الذكرى الخالدة، الراعي القـديس برنارد، الذي اختير لمتابعـة تنفيذ هذه المقـاصـد والخطط، وقـد بشر بحماس ملتهـب، حتى أن كل من النبـلاء والناس عـامة وافقـوا عن طواعيـة على فصاحتـه غير الأنانية، ووعـدوا بأنهم ســوف يرتحلون إلى القـــدس، فضـــلاً عن هذا أخـــذ الرجـــلان اللامعـان: كـونراد الثـالث السوابي امبراطـور الرومان (كـذا)، والسيـد لويس ملك فـــرنسـا، طريقيهـــا نحـو الشرق مع كثير من الأمـــراء من الأمتين، وقد كـان جيشيهما كبيراً جداً، حيث كـان في جيش الامبراطور وحـده سبعين ألفـــاً من الفـرسـان الـدارعين، وذلك بصرف النظر عن الجنود الرجـالة، ولم يكن أتباع ملك فـرنسا أقل من حيث العـدد، ولو

أنهما حظيا بنعمة الرب لأمكنهما بسهولة ليس فقط قهر سلطان قونية وآسيا الصغرى القوي، لابل لإستوليا على جميع بلدان المشرق لصالح المسيحية، والذي حدث أنه بقدر من الرب، ليس بمقدور الانسان فهمه، رفض الرب قبول خدمتيهما، مثلما لايقبل أعطية، قد قدمت بأيدي غير جديرة، ولذلك تخلى الرب عنهما وسلمهما إلى أيدي الأتراك والمسلمين، الذين ضايقوهما، وهزموهما، وأنقصوا أعدادهما، وهما على طريقيهما، وقد وصلا إلى القدس بعد متاعب جمة، وتوفر الآن في القدس، ثلاثة ملوك عظام هم: كونراد امبراطور الرومان، ولويس ملك الفرنسيين، وبلدوين الثالث، ملك القدس، وقد اجتمعوا في مكان واحد مع جميع أمرائهم، وكونتاتهم، وباروناتهم، وبدأوا يتناقشون حول ما هو الأفضل والأكثر نفعاً أن يعملوه لمجد اسم المسيحية، ولتطور مملكة القدس وتقدمها.

كما أن هذا المؤتمر لم يحظ كذلك بالغناية الربانية، ولهذا تراجعوا مجللين بالعار من مدينة دمشق، التي كانوا قد حاصروها للإستيلاء عليها، وتباحثوا بعد عودتهم إلى القدس حول حصار عسقلان، وبعد كثير من الأحاديث والخطابات، وصلت هذه الخطة أيضاً إلى لاشيء، وبناء عليه، عندما رأى الامبراطور، وملك فرنسا، بوضوح بأن الرب ليس معهما، ركبا السفن، وذهبا إلى بلديهما، ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، تزايدت أوضاع اللاتين في الشرق سوءاً كل يوم، لأن المسلمين تصدوا الآن بلاخسائر لهذين الأميرين العظيمين، اللذين كان مجرد ذكر اسميهما من قبل يبعث الرعب في قلوبهم، ولهذا باتوا مسرورين جداً وواثقين من أنفسهم، ولم يعودوا من الآن فصاعدا يشكون مطلقاً بقوتهم، أو يخشون أن يضغط عليهم بشدة من قبل شعبنا.

وبعد تراجع جيوش المسيحيين الغربيين، أعان الرب بلدوين ملك القدس، حيث استولى عنوة على مدينة عسقلان، التي كانت مطوقة منذ

زمن طويل من قبل الصليبيين، وأعاد بناء غزة، وكانت مدينة قديمة جداً، ومهجورة تماماً، وأعطاها إلى رهبان الداوية للسكن فيها، وكان ملكاً عظيماً جداً وشجاعاً إلى حد أنه هزم وطارد جيشاً من المقدمين الترك، مع ايقاع مذبحة كبيرة بينهم، بلغت خمسة آلاف رجل كلهم ماتوا، وهزم بعد هذا نور الدين قائد عساكر دمشق، في معركة دموية، وطارده حتى أحواز دمشق، كما أنه خاض عدداً آخر من المعارك المرعبة، وبصعوبة بالغة نجا أحيانا من الوقوع بالأسر.

وثار في أيامه نزاع، وخلاف خطير بين السيد البطريرك، وريموند مقدم استبارية القديس يوحنا، الذي شرع مع رهبانه بتسبيب اضطراب عظيم للسيد البطريرك، وللأساقفة الآخرين في مختلف الكنائس، بشأن ما يتعلق بمدى سلطات البطريرك، ذلك أنهم اعتادوا على أن يخضعوا عن طواعية لطقوس رجال قداسات كانوا لذنوبهم محرومين كنسيا، ومبعدين عن الكنيسة من قبل السيد البطريرك، أو من أساقفة مختلف الكنائس، وتولوا القيام بقيادة القداسات والمسح الأقصى بالزيت للمرضى، ودفن المحرومين كنسيا، وفعلوا أشياء كثيرة خرقوا بها امتيازات الكنيسة، وعندما عمل السيد البطريرك شكاوى كثيرة ضد هذه الأعمال المخالفة، ودعا إليه رعاياه كما اعتاد أن يفعل وعليه أن يفعل، غضبوا لذلك غضباً عظيماً، وحملوا أسلحتهم واندفعوا إلى داخل كنيسة الضريح المقدس لمقاتلة البطريرك.

وكان هذا بداية جميع الشرور، والخسارة التالية للمدينة المقدسة والبلاد، وتسببت كنيسة روما بنشوب هذه الشرور، بابقائها الاستبارية معفيين دوما من سلطان البطريرك، وذلك مثلما أعفت الداوية من حق السلطان القضائي للبطريرك، وأضفت امتيازات على فرسان التيوتون، وعندما جرى إعفاء هذه الطوائف، صارت امتيازات الإشراف القضائي للبطريرك والأساقفة قليلةجداً، لابل انعدمت تقريباً، وبذلك تقسمت

المملكة، وبالتالي تدمرت، وذلك وفقاً لما جاء في انجيل لوقا: ١١/١٧ قوله: «كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب».

وذهب الملك بلدوين من القدس إلى أنطاكية، لأن بعض المشاكل الصعبة استدعت منه فعل ذلك، وأثناء وجوده في أنطاكية وقع مريضاً، وكان مرضه شديداً، ولشعوره أنه على حافة الموت، وأنه في خطر عظيم، أمر بأن ينقل إلى بيروت،وهناك أمر باجتماع جميع الأساقفة وأمراء مملكته، والمثول بحضرته، حيث قام بتقوى وتدين بالاعلان عن إيمانه، واعترف بذنوبه مع كثير من الندم إلى الكهنة الأعلين، وقد تحرر من معاناته، ومن سجن الجسد، وحمل روحه إلى السماء في سنة ١١٦٣ لتجسيد الرب، وكان ذلك في الحادي والعشرين من شهر شباط، وجرى حمل جسده إلى القدس، ودفن بين سلفه في كنيسة الضريح المقدس.

وقد قيل بأن سماً قد أعطي له في دواء، وأن بقية ما أعطي إلى الملك ليشربه صب فوق بعض الخبز، وأعطي إلى كلب ليأكله، فمات ذلك الكلب على الفور، ولم يذكر التاريخ في أي مكان حزناً شهدته أية دولة مثل الحزن الذي شهدته مملكة القدس على هذا الملك، حتى قيل بأن أعداء الايمان قد حزنوا لموته، إلى حد أنه عندما اقترح بعضهم على نور الدين ملك دمشق -عندما رأى قادة الصليبيين في اضطراب كامل -وجوب مهاجمة مملكتنا، قيل بأنه أجابه قائلاً: «علينا أن نظهر نحوهم مواساتنا، وأن نتعامل معهم بلطف، ماداموا يبكون بشكل صحيح أميراً، لم يبق الآن نظيراً له في العالم».

الملك السادس للقدس

إثر وفاة الملك بلدونين، ملك القدس، خلفه في المدينة المقدسة عموري الملك السادس للاتين، وهو أخو الملك المتوفى، وكان ذلك في

سنة ١١٦٣م، وقد حكم في القدس لاثنتي عشرة سنة، وكان عموري هذا رجلاً مليئاً بالحكمة الدنيوية، وكان حكيماً جداً، ومتيقظاً في الأعمال، ولم يكن كبير التعليم، لكنه تمتع بعبقرية حية وبذاكرة قوية، ولايمكن أن ننكر أنه كان شرها نحو المال، خارج حدود كرامته الملكية، ومع ذلك كان بالنسبة للقضايا الأساسية المتعلقة بصالح مملكته، هو لم يوفر لامالاً ولا جهداً من جهته الشخصية، وكان مقتدراً في الحرب، لأنه بالفعل، هزم في السنة التي كانت قبل استلامه الحكم، بعون الرب شاور قائد المصريين، بمعركة، مع مذبحة كبيرة، وبعد قتله له، ألقى الحصار على الاسكندرية، وهي مكان كان شيركوه القائد التركي قد اغتصبه بشكل غير قانوني من السلطان.

ولم يكن أهل الاسكندرية، راغبين بأي حال من الأحوال بأن يصبحوا خاضعين للصليبيين، ومع ذلك استسلموا لعموري، على شرط أن يقوم بطرد طاغيتهم، ومن ثم يعادوا إلى مملكة السلطان على يديه، وبناء عليه استلم عموري من السلطان المتقدم ذكره أربعين ألف قطعة من الذهب وأعاد الاسكندرية إلى السلطان، بعدما طرد شيركوه من مصر، وجرى الآن عقد معاهدة سلام بين ملك مصر، وملك القدس، ولو أنه تمت المحافظة على هذه المعاهدة، لما تمكن أحد من ازعاج مملكة القدس، لكن الثعبان القديم الذي يزرع الخلاف بين الإخوة، جعل عموري والسلطان على خلاف، وتصور الملك عموري بأن السلطان أبرم اتفاقاً سرياً بينه وبين شيركوه، الطاغية التركي، الذي طرد مؤخراً من مصر، ولذلك حشد جيشاً، وذهب إلى مصر من خلال الصحراء، واستولى على بلدات مصرية عدة، وألقى الحصار على القاهرة، التي كانت المدينة الملكية، وكانت قوية جداً، والذي حدث هو أنه، بما أن الملك كان دوماً متشوقاً إلى المال، أزاحه السلطان عن أهدافه بإعطائه مبلغاً لايحصى من المال، ذلك أن بعضهم قال بأنه قد وعده بمبلغ

مليوني قطعة ذهبية، وهو مبلغ كان من الصعب على مملكة مصر كلها أن تدفعه، وسلمه بيده مائة ألف قطعة من الذهب شريطة ان يسحب قواته، وعندما تسلم هذا المبلغ رفع الحصار عن القاهرة، ونصب معسكره على مقربة من حديقة البلسم، وبعد استعراضه لقواته، زحف عائداً إلى موطنه من جديد، وقد جعل كل من ملك مصر وملك دمشق أعداء له.

وبعد هذا عزم الامبراطور الاغريقي في القسطنطينية على ضم مصر إلى امبراطوريته، فأرسل أسطولاً كبيراً إلى سورية، حيث كان فيه مائة وخمسين سفينة منقارية، واثنتين وستين سفينة نقل، ودعا اللورد عموري، ملك القدس، لمساعدته، وهكذا ذهبا معا إلى مصر، في البحر وفي البر، وحاصرا دمياط، لكن دون أن يحدثا تأثيراً، ومن ثم توجب عليهما العودة إلى الوطن مجدداً مع خسائر لم تكن صغيرة.

علاوة على ذلك، قام في مصر ملك جديد، وكان رجلاً سعيداً جداً، اسمه صلاح الدين، سوف يأتي ذكر اسمه من الآن فصاعداً كثيراً، وهو الذي جعل جميع أسرة الخلافة والملوك طعمة للسيف، وصار سيداً لممالك مصر وسورية، ولم يعرف الراحة قط حتى نشر دولته على جميع الشرق تقريباً، وفي الحقيقة، كان رجلاً سريع الحركة، شجاعاً في الحرب، عميق التفكير، كريماً جداً، لاسيما نحو العسكريين، الذين كان على استعداد لمنحهم كل ما كان لديه، وبالاضافة إلى هذا، كان رحيماً تجاه المغلوبين، ملتزما بصدق بوعودة وكان من جميع الجوانب رجلاً له شهرة عظيمة، وصيت كبير، ولم يكن يعوزه شيء لمدحه إلاّ الاسم المسيحي، وبما أنه لم يتميز بهذا، فقد أقام نفسه ضد المسيح والشعب المسيحي، وصار سوط عذاب للصليبيين في الشرق، علاوة على ذلك، لقد هزم الصليبيين هزيمة ساحقة، وطرد اللاتين، وفتح الأرض المقدسة، واستولى على القدس، وجعل ضريح الرب خاضعاً له، وأزال فخار

الكنيسة الشرقية، وحول تاج ومجد المؤمنين بالمسيح إلى عار لهم، كما سنوضح فيمايلي.

وقد قرأت عن صلاح الدين الحكاية المتميزة التالية، في واحد من التواريخ، فهو عندما كان يموت أوصى أن يحمل أمام موكب دفن جسده، قطعة قماش سوداء معلقة على رمح، أمامها ينبغي أن يسير مناديا ينادي: «عندما مات صلاح الدين فاتح آسيا لم يحمل معه من بين جميع مملكته وثروته سوى قطعة القماش السوداء هذه».

وعندما رأى عموري، ملك القدس، بأن صلاح الدين ملك سورية ومصر كان حكيماً وحذراً، وينوي أيضاً نيل الممالك الأخرى، أرسل سفراء إلى أمراء الغرب لإخبارهم عن جميع الشدائد التي لايمكن تحملها، والتي وقعت فيها مملكة القدس، وعن مشاكل جميع الصليبيين هناك، وعن الدمار الوشيك المهددين بوقوعه، وقام هؤلاء السفراء برحلات موفقة في بلدان الغرب، وشرحوا هناك المخاطر التي تتهدد مملكة القدس، لكنهم حصلوا على لاشيء، ولم يصغ إليهم، لا من قبل الأمراء، ولامن قبل أساقفة الكنيسة.

وفي الوقت نفسه قام صلاح الدين بغارات يومية على مملكة القدس، واضطربت المملكة بشكل متواصل بتهديدات العدو، وعاشت في اضطراب خطير خانق، ولذلك قام الملك عموري في سنة ١١٧١م، وقد شعر بخوف مؤلم، فأرسل سفراء وقورين جدد إلى الغرب، وأبحر هو شخصياً مع أسطول مؤلف من عشرة غلايين إلى القسطنطينية، حيث خدم الامبراطور، وشرح له وبيّن حاجات مملكة القدس، وبعدما فرغ من عمله عاد إلى القدس، وأخيراً بعدما تمدد الملك عموري مريضاً بالحمى لعدة أشهر، مات في سنة ١١٧٥ لتجسيد ربنا، وكان ذلك في السنة الثانية عشرة من حكمه، والثالثة والثلاثين من عمره، وقد دفن مع أسلافه، وكان التالي لأخيه، في الخط نفسه أمام الجمجمة.

الملك السابع للقدس

وإثر وفاة عموري، الملك السادس للقدس، خلفه ابنه بلدوين الرابع، وقد كان في الثالثة عشرة من عمره، أثناء وفاة والده، وقد حكم في القدس لمدة ست سنوات، وفي أيام حياة أبيه، عندما كان في التاسعة من عمره، تبين أنه مصاب بمرض دار الفيل، وقال بعض الكتاب بأنه أصيب منذ طفولته بالجذام، لكن على الرغم من ضعفه الذي عانى منه، حكم مملكته بشجاعة عظيمة، وبحكمة بالغة، ذلك أنه تمكن من إلحاق الهزيمة مرتين في معركتين، بصلاح الدين ذلك الرجل البالغ الشجاعة والنشاط، وكانت المعركة الأولى عند عسقلان والثانية عند طبريا، وعن هاتين المعركتين تحدثت كتب التاريخ كثيراً.

وحدث في سنة ١١٨٧م، أن قام صلاح الدين ومعه جيشه بغزو مملكة القدس مرة ثانية، وعندما سمع الملك بهذا وعلم، دعا رجاله وحشدهم، وانطلق لقتال أعداء الايمان، وسقط في المعركة كثير من رجالنا طعمة للسيف، ووقع بالأسر اللورد أوتو، المقدم الأعلى للداوية، وقد مات بالأسر، كما جرى أسر آخرين كثر أيضاً، ونجا الملك نفسه بصعوبة، (حقيقة وقع بالأسر) وتشجع صلاح الدين بنصره هذا، فأحدث أضراراً بلا حدود في مملكة القدس، لكن أمكن أخيراً، بناء على وساطة بعض الأشخاص، الوصول إلى إقامة هدنة سنتين بين صلاح الدين والصليبيين.

ونظراً لتزايد مرض الملك بلدوين، الذي لم يتزوج، ولم يكن له لا أبناء ولا بنات، لكن كان لديه أختين، الكبرى بينهن كان اسمها سيبيلا، وقد عزم بشكل سري على توريثها المملكة، فكان أن زوجها إلى وليم، الملقب بصاحب السيف الطويل، وكان ابن مركيز أوف مونتفرّات،

وقاتل وليم هذا كثيراً وبشجاعة ضد المسلمين، وكان رجلاً عالي النسب كثيراً، إلى درجة أنه لم يكن له نظير في النبالة، لأن أخته كانت أم فيليب ملك فرنسا، وكانت أمه أخت صاحب السيادة الامبراطور كونراد، وحدث أنه بعد مضي ثلاثة أشهر على زواج وليم المتقدم ذكره، قد توفي مخلفاً زوجته وهي حامل.

وولدت في وقتها المناسب، ولداً ذكراً، أسمته بلدوين، ثم كان بعد ذلك أن زوج الملك أخته سيبيلا إلى شاب نبيل، اسمه غي لوزغنان، ولأنه كان راغباً في رعاية مصلحة ابن أخته عهد بذلك إلى غي نفسه، وإلى ريموند كونت طرابلس، وكلفهما أن يكونا حارسين له، شريطة، أنه طوال بقاء الطفل بلدوين تحت وصايتهما، عليهما معا حكم المملكة، كما عليهما تسليمها إلى ابن أخته عندما يصل إلى السن القانوني، ومن أجل أن لايقف شيئاً في وجه تنفيذ هذا، أمر برسم الطفل ملكاً على مملكة القدس، بحضور جميع فرسان المملكة، وكان هذا هو الملك التاسع (كذا) لمملكة القدس، جرى رسمه وتعميده قبل وفاة الملك الثامن (كذا)، الذي كان خاله.

وقبل مضي أيام كثيرة، توفي هذا الطفل بلدوين، الذي كان الملك التاسع (كذا) للقدس، وأخفت أمه خبر موته عن قصد لأيام كثيرة، لأنه بدا لها أن الملك بلدوين القديم المصاب بالجذام، قد اقتربت منيته،وأنه عندما يكون هو قد مات مع الطفل، سوف يتمكن زوجها غي من خلافتهما على العرش، وهذا ما حدث بالفعل، ذلك أنه ليس بعد ذلك بكثير، مات بلدوين الثامن (السابع)، ملك القدس، ودفن في المدفن الملكي في موضع الجمجمة، وكان ابن أخته، الملك الطفل بلدوين التاسع (كذا) قد دفن في كنيسة ضريح الرب،إنما خارج البيعة في الجمجمة، حيث اعتيد على دفن الملوك الآخرين، لأنه عدّ ليس ملكاً، بل مجرد طفل.

الملك الثامن للقدس

بعد ما مات بلدوين الرابع، الملك السابع للقدس، ومات أيضاً ابن أخته بلدوين الخامس، ملك المدينة المقدسة، خلفهما غي لوزغنان، الذي كان زوج سيبيلا، أخت بلدوين المجذوم، كما كان أخاً بالزواج لبلدوين الرابع، وقد حكم لمدة عامين في القدس، وقد وصل هذا الملك إلى العرش وسط مصاعب، وحكم دوما في شدائد كبيرة، وأنهى حكمه مع مأساة مرعبة، وأوصل مملكة القدس إلى نهاية محزنة.

وعندما مات الملكان بلدوين الرابع وبلدوين الخامس، تطلع ريموند، كونت طرابلس، والوصي على بلدوين الطفل المتوفى إلى العرش، وقد وقف إلى جانبه كثير من الأمراء والكونتات، وتآمروا ضد غي زوج سيبيلا، التي كانت وريثة المملكة، وتمكنت السيدة سيبيلا بوساطة رشاوى كبيرة وأعمال استعطاف من السيطرة على بطريرك القدس، وعلى المقدم الأعلى للداوية، وعلى النبلاء واقناعهم برسم زوجها وتتويجه ملكاً للقدس، وغضب ريموند، صاحب طرابلس، تجاه هذا غضباً عظيماً، ونشبت خصومة مريرة جداً بينهما، ولما كان ريموند صديقاً سرياً لصلاح الدين التركي،وكان متحالفاً معه، فقد تسبب بإلحاق أذى عظيماً بغي وبالصليبيين الآخرين، وفي الحقيقة دفعت الغيرة بريموند إلى حد من الشر أنه تخلى عن الايمان المسيحي، واختتن، واعتنق الدين الاسلامي، لكن ذلك لم يكن بشكل مكشوف، بل بشكل سري.

وفي سنة ١١٨٧م، قام صلاح الدين، الذي صار قويا، من خلال التمزق بين شعبنا فحشد عساكر لاتحصى، وهاجم المملكة المقدسة، وكسب أراضي كثيرة من الصليبيين، وعندما شعر الملك غي أنه محاصر الآن من كل جانب من قبل المسلمين، قام بناء على نصيحة أمرائه فأرسل السيد بطريرك القدس، والمقدم الأعلى للداوية، ورئيس الاسبتارية، إلى أمراء الغرب، ليشرحوا لهم الوضع المأساوي للشعب

الصليبي في الشرق، ووصلوا أول كـل شيء إلى فيليب ملك فــرنسـا، فمنحوه مفـاتيح ضريح الرب، والهيكل والمدينة المقدسـة،، وتوسلوا إليه أن يتلطف بالقيـام بانقـاذ الأرض المقـدسة، المشرفـة الآن على الضيـاع، وبناء عليه دعا إليه هذا الملك التقي جداً جميع الأساقفة، وعقد مجمعاً في باريس، وأرسل بعض الجنود الشجعـان جـداً إلى الأرض المقـدسـة على حسابه.

وفي الوقت نفسه كان صلاح الديـن قد حشد عدداً كبيراً من الأتراك ومن المسلمين من جميع أرجاء الشرق، وغـزا أرض الصليبيين، واستولى على منطقـة الجليل، وحـاصر طبريا، وحشـد غي ملك القـدس جيشـاً كبيراً، وزحف للقتـال ضده، لكن، ويااللأسف، هزم شعبنا، من خـلال خيانة ذلك الرجل الشرير، أي كونت طرابلس، لأنه عندما كان الجيشان مصطفان وعلى وشك الأشتبـاك، قام الكونت، وعلمـه مرفـوع، بالفرار من صف القتــال، مما جعل جيشنا يتخبط بـاضطراب، وقــد لحق به بعض أعـداء ملك القـدس، والمتـآمرين ضـده، وحـدث هذا قبل فـرار جيشنا، وأثناء فـراره، وقعت مـذبحـة مروعـة بين شعبنا، وخـلال هذه الشدة، أصيب أسقف عكا، الذي كان يحمل صليب الرب أمام الجيش، بجـراحة بليغـة، ولشعوره بنفسـه أنه على حافـة الموت، وعندما لم يعـد بإمكانه الركـوب على حصـانه، أعطى الصليب إلى رجل آخـر، حمله إلى الملك غي.

وأخيراً بعدمـا قاتل الملك بشجاعـة حتى نهاية المعركة ومعـه صليبه، هاجمه العدو من جميع الجهـات، وكان معظم رجاله قـد قتلوا، وحوصر هو من قبل الأعداء، حتى أنه لم يعد بإمكانه الفرار، وهنا أخذ أسيراً مع خشبة الصليب المانح للحياة، ولم تكن هناك معركة في جميع زمان وجود المملكة اللاتينية في الشرق، قد سفكت فيهـا دماء صليبية مثلما سفك في ذلك اليـوم، فقد تهاوت في ذلك اليـوم قوى الصليبيين كلهـا في الشرق

وانهارت، وكان أكثر الذين تميزوا بالشجاعة هم الاسبتارية والداوية، وهلك في هذه المعركة المحزنة جداً جميع النبلاء ورجال الحرب، باستثناء قلة أخذوا أسرى، كان من بينهم الملك، ومقدم الداوية.

وقال فنسنتوس في مصنفه Speculcem historiale - الكتاب الثلاثين، الفصل: ٤٣، بأن الأولاد الذين ولدوا بعد ذلك اليوم، الذي وقع فيه الصليب المقدس، بالأسر، ولدوا بعشرين سنا، أو بواحد وعشرين سنا فقط، في حين اعتادوا من قبل على الولادة بثلاثين، أو بثلاثة وثلاثين.

وبعد هذا النصر استغل صلاح الدين حسن طالعه، فقاد جيشه للاستيلاء على مدن وقلاع الصليبيين عنوة، واحتل الأماكن القائمة على ساحل البحر، وكان أول كل شيء احتله عكا، ثم بيروت والمدن الأخرى المسورة، كلها استسلمت له دون ابداء مقاومة تذكر ضده، ذلك أنه لم يعنف ضد أي مدينة من هذه المدن، شريطة أن تبقى المدينة تحت سلطانه، وتدفع الجزية له، ولم تكن هناك مدينة واحدة من عكا حتى عسقلان تجرأت على مقاومته، لأن هذه المدن جميعا قد فقدت الذين توجب عليهم الدفاع عنهن، وقام أهالي عسقلان، الذين اعتقدوا أن مدينتهم لاترام،، فأعاقوا مهمة صلاح الدين لبعض الوقت، ورفضوا تسليم مدينتهم، وأعلنوا أنهم لن يستسلموا بأي حال من الأحوال، قبل أن يتأكدوا يقيناً، بأن سكان مدينة القدس قد سلموا مدينتهم، وعندما سمع صلاح الدين بهذا، أقام ساتراً من الركام أمام المدينة، وثابر على مهاجمتها لمدة عشرة أيام، غير أن جهوده لم تثمر شيئاً، لأن عسقلان كانت مدينة حصينة جداً، وهي التي استولى عليها غودفري، أول ملوك القدس، كما تحدثنا من قبل، وقد ورد الحديث عنها في أقدم أسفار الكتابات المقدسة، وهذا يمكن لأي انسان أن يراه.

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب
الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته

حوالي
(١٤٨٠ — ١٤٨٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن والثلاثون
(٤٠)

دمشق ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م

- ٥٣٦١ -

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته
حوالي
(١٤٨٠—١٤٨٣)

القسم الرابع

كيف جرى الاستيلاء على القدس من قبل المسلمين وكيف أنها استحقت الاستيلاء

عندما رأى صلاح الدين أنـه لن يتمكن من الاستيلاء على عسقلان، من دون الاستيـلاء على مـدينة القـدس المقـدسـة، رفع الحصـار عن عسقـلان، وزحف خلال المنطقـة التلية لليهودية مع جميع آلات حـربه وحشد كبير جداً من الرجـال، عازما على حصار القـدس القائمة هناك، والاستيلاء عليها، وفي الوقت نفسـه عندما سمع سكان القدس والذين تدفقوا عليها وهربوا إليها من المنطقـة المجاورة ومن كل جهة من خلال الخوف من العـدو، سمعـوا بمقتل جيشهـم، وفقـدان الصليب المانح للحيـاة، وأسر الملك، واقتراب صـلاح الدين، تـواضعـوا بأنفسهم بكل نوع من أنواع الصلاة والتضرعات، وعقد جميع المسيحيون الذين سكنوا فيها مجلس ابتهالات مهيبة، واعترافات، وصيـام، حتى الأطفال شاركوا في هذه الممارسات الروحية.

لكن غضب الرب أحرق كل شيء بشكل مكشوف وحاد، ولاعجب في ذلك لأن رجـال الدين والشعب كـانوا قـد انغمسـوا كثيراً في حيـاة الترف من كل نوع، وكـانت البـلاد كلهـا ملـوثة بالشرور والآثام، وفي الوقت نفسه كان الذين ارتدوا الملابس الدينية، قد تجاوزوا بشكل خياني حدود الأنظمة المفروضـة عليهم من قبل قوانينهم، وكان هناك قلة فقط ممن لم يتلوثوا بوباء الشره أو الترف، وكـان بين الذين تولوا الأعمال عند المذبح كثيراً من الصراعات والخلافـات حول الأشياء المقـدسة، ونشبت الخصـومـات من المطامح، لأن فـرسـان الداوية والاسبتـارية عـارضـوا البطريرك والأسـاقفـة، وكـانوا يسعون دائماً للحصـول على الامتيـازات لأنفسهم، ووضعوا منجلهم في حصاد الناس الآخـرين، مع أنهم عندما

تأسست طائفتيهما أولاً وانطلقتا، تمجدتا بطاعتيهما، وعدّوا اقتراف السيمونية أمراً عاديا، ولهذا ملأوا يومياً موضع قيامة الرب وضريحه بأناس غير جديرين، ولهذا السبب فإن الهبة التي كان يرحب بها كثيراً، والتي تمثلت بالنار السماوية، والتي كانت تضفى عليهم من قبل الرحمة الربانية في عشية عيد الفصح، في أيام غودفري، وبلدوين الأول، وبلدوين الثاني، تباطأت الآن بالقدوم ومن ثم تأخر اشعال المصابيح في أيام هؤلاء الملوك المتأخرين، وحول هذه النار، انظر ماتقدم أعلاه، وإذا كان الاكليروس قد تلوثوا بهذه الآثام، كيف يمكن أن تكون الروح مقدسة؟

وأصبحت القدس حتى مثل مصر وسدوم، وتلوثت مثلهما بالموبقات، لأن المدينة كانت مليئة بمواخير خاصة، أديرت وملكت من قبل أشخاص من كل أمة تحت قبة السماء، وكان هؤلاء الأشخاص إما مطرودين من بلادهم بسبب الجرائم التي اقترفوها، أو ممن لايمكنهم إبداء وجوههم واظهارها في بلدانهم بسبب النساء اللائي أخرجوهن، أو بسبب الديون التي لم يكن بامكانهم دفعها، وقد عاشوا كمنفيين في القدس وتولوا ادارة وتشغيل مواخير، دون الاهتمام بأي شيء سوى الربح، وكان بعضهم ليس بامكانهم الاقامة في بلدانهم الأساسية، لأنهم كانوا محرومين كنسيا، ولذلك عاشوا في القدس، ونقل بعضهم بيوتهم ومايملكون من الغرب إلى الشرق سعيا وراء الربح، وكانت هناك أعداد كبيرة من فرسان الضريح المقدس والهيكل، ومن هذا العدد العظيم كان هناك قلة لم يكونوا رجالاً أشراراً، غير أتقياء، لصوصاً، وآثمين وقتلة لآبائهم، وكذابين، وزناة، حسبما أخبرنا برنارد في قداسه إلى فرسان الهيكل— الفصل الخامس— وعلى هذا صارت المدينة المقدسة وكراً لمقترفي الآثام، وكانت مليئة بمواخير سيئة السمعة، إليها أخذ الحجاج أنفسهم للشهوة الجسدية، والشرب، والقمار، وذلك بعدما يكونوا قد

زاروا الأماكن المقدسة.

وتنامى هذا الشر، وتعالى إلى حد أنه لم يبق أحد في مشفى القديس يوحنا، لأن الحجاج لم يعودوا يتلقون أية عناية على أيدي الاسبتارية، مع أن المشفى كان غنياً جداً، كما أنه لم يتوفر أي حب للقديسة مريم في مشفى الفرسان التيوتون، وعلى ذلك أرغم الحجاج الجيدين والمحترمين على الذهاب إلى المواخير، التي كان أصحابها: لصوصاً، وقطاع طرق، ومحتالين مخادعين، وقوماً منفيين، وأكثر الناس اقترافاً للآثام.

فضلاً عن هذا، تعرض أمن وسلام المدينة المقدسة إلى الاضطراب بسبب شرور المسيحيين وشرههم، لأنها كانت مليئة بالتجار من كل لسان، ومعروف أنه حيث هناك تجارة كثيرة هناك كثير من الظلم، وما كان الرب يمكن أن يستجيب حرفيا للذين كانوا يصلون من أجل سلامة المدينة المقدسة، بكلمات إرميا:٥/ ١ قوله:« طوفوا في شوارع القدس وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون انساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها»، وبسبب هذه الأشياء أثير غضب الرب، فسمح للبلاد التي انتزعها من أيدي غير المسيحيين، لتقع ثانية تحت سلطانهم، فقد جاء صلاح الدين إلى القدس مع جيش كبير، وعسكر أمامها، وأقام ساتراً من الركام أمام جانبها الغربي، وضيق على المحاصرين بحملات متوالية، وقام سكان المدينة بابداء المقاومة التي استطاعوها، وتولى هو قذف المدينة من على الجانب الشمالي ليلاً ونهاراً، وعندما أحدث ثغرة في السور بوساطة آلاته، أصاب الرعب سكان المدينة الذين لم يتوقعوا وصول أية مساعدة إليهم من أية جهة من الجهات، وقد خافوا أن يدخل العدو، ويشق طريقه عنوة، إلى داخل المدينة، وأن يستولي عليها بالقوة، وقتذاك خضعوا إلى الرعب العظيم الذي استولى عليهم، وسلموا أنفسهم إلى صلاح الدين على شروط محددة هي: بعد تسلمه الفدية عن أنفسهم، عليه أن يسمح لهم بالمغادرة

بسلام.

وبما أن صلاح الدين كان بشكل طبيعي صاحب قلب شفوق، وكان رحيماً على الشعب، لذلك منح هذه الشروط إليهم، وقد أعطاهم جميعاً ضمان البقاء جميعاً أحياء بدون استثناء، وشرط أن الذي يود المكوث هناك، ويوافق على دفع الجزية له، يمكنه أن يبقى ساكناً بسلام، وكل من يود أن يغادر، وكان ذكراً، وتجاوز أكثر من عشر سنوات من عمره، فعليه أن يدفع عشر دوقيات من الذهب الخالص، وإذا كان عمره دون العشر سنوات، فعليه أن يدفع دوقيتين، وعلى النساء أن يدفعن دوقيتين، وتمت الموافقة على هذه الشروط من الجهتين، وبما أنه كانت هناك آلاف كثيرة من فقراء الناس في المدينة، ممن لايمتلكون عشر قطع، فقد أعفاهم صلاح الدين جميعاً من ديونهم.

وحدث استسلام المدينة المقدسة في اليوم الثاني من تشرين الأول، وهو كان اليوم الرابع عشر للحصار، في سنة ١١٨٧ لتجسيد الرب، وكان النهار، نهار جمعة، في السنة التاسعة والثمانين، منذ أن صارت ملكاً للصليبيين.

وجرى الآن الاعلان في جميع أرجاء المدينة، بأن على الصليبيين جميعاً الموجودين فيها، وجوب مغادرتها خلال ثلاثة أيام، وإلاّ فإنهم سوف يصبحون خاضعين لصلاح الدين المسلم، ورعية له، وهو أمر كان محرماً من قبل البابا، مع أقسى العقوبات، فقد كان قد أمر أنه في مثل هذه الحالة، يتوجب عدم بقاء أي مسيحي هناك، وكان من يبقى ينبغي حرمانه كنسياً، ولعنه وطرده كلياً من الكنيسةومع صوت المنادي، الذي أعلن هذا الأمر الكئيب، انفجر نحيب كبير جداً في القدس، وصار بكاء الصليبيين يمكن سماعه من مسافة أميال، ويحكى بأن صلاح الدين نفسه مع امرائه القساة قد تأثروا في قرارة نفوسهم بهذا البكاء، لابل بلغ بهم التأثر إلى حد البكاء من تعاطفهم الانساني مع حزن الصليبيين وأساهم،

ولشدة تأثرهم أعفوا من دينه كل واحد رجاهم فعل ذلك.

علاوة على ذلك، أعطى صلاح الدين أوامره إلى عساكره، بعدم دخول أي منهم المدينة قبل اليوم المحدد لمغادرة الصليبيين، وخرج الصليبيون في اليوم المحدد مع أثاث بيوتهم، وقد ملأوا السموات وهزوا الأرض بصراخهم المرعب ونحيبهم، وخرج أمامهم جميعاً هيروديوس Herodius، بطريرك القدس، مع الصليب، ورجال الدين، والرهبان، والأشخاص الدينين من كلا الجنسين، والراهبات اللائي كن محبوسات في الديرة، فقد تبع هؤلاء جميعاً البطريرك في رتل طويل، وهم يحملون التماثيل والصلبان، والآثار المقدسة، وأوعية القرابين، التي كانت من الممكن أن تداس بأقدام المسلمين، وجاء بعد هؤلاء النبلاء، والعساكر، ورؤوسهم منكسة، ممتلئين بالخجل والأسى، وقدم بعدهم العامة من الجنيسن مكرهين وهم يحملون صغارهم، الذين كانوا يصرخون ويبكون، مع سائمتهم.

وتوزع الصليبيون أمام المدينة، فقد ذهب شطر أول منهم إلى الاسكندرية، وشطر آخر إلى صور، وشطر ثالث إلى أنطاكية، في حين ذهب بعضهم إلى هذا الميناء البحري، وآخرون إلى ذلك الميناء، ولأن بعضهم كانوا صقليين، فقد ذهب هؤلاء إلى الاسكندرية، وأما الآخرون الذين كانوا ايطاليين أو ألمان، فقد ذهب هؤلاء إلى صور وطرابلس، وكان الشطر الأكبر منهم هو الذي توجه إلى ميناء طرابلس، والذي حدث معهم وهم على الطريق إلى هناك، من الصعب الحديث عنه وروايته من دون بكاء، ومن المؤكد لايمكن حكايته ليس من دون ألم، لأنه عندما اقترب هؤلاء المنفيين الحزينين من القدس، من مدينة طرابلس، وعندما رأوها شعروا بشيء من الانتعاش بأرواحهم لأن الذين كانوا فيها أناس مؤمنين بالمسيح، وقد أملوا أن يتلقوا منهم الاستقبال، والأمان والشفقة التي استحقوها، وقد اعتقدوا أنهم نجوا

الآن من أيدي المسلمين، لكنهم تقابلوا مع قوم آثمين، أكثر سوءاً من المسلمين أنفسهم، ذلك أن ريموند كونت طرابلس، الذي كان مرتداً عن المسيحية بشكل سري كما ذكرت من قبل، قد قام أتباعه، أبناء الظلم، فتلقى هؤلاء الضائعين مثل عدو متوحش وهاجم هؤلاء الذين توجب عليه الاشفاق عليهم كإخوة.

وقد انتزع منهم بالقوة الذي سمح لهم المسلمون به، وتركوه لهم شفقة منهم عليهم، وأهانهم كذلك، وفي هذا الوضع المأساوي، وحيث أنه لم يعد بامكانهم الآن أخذ سفينة، أو العودة إلى بلادهم، بقي كثير منهم حيث كانوا بين المسلمين، متحدين بذلك،. ورافضين إطاعة الأمر البابوي المتقدم ذكره، وتخلى كثيرون عن ايمانهم، كما وهلك كثيرون بالجوع، وكذلك قتل بعض أنفسهم صدوراً عن أساهم، ولقد قرأنا بأن سيدة كانت غنية ونبيلة في القدس، وقد حملت الآن ولدها الصغير على كتفيها طوال الطريق إلى شاطىء البحر قرب طرابلس، على أمل أن تعبر البحر، لكنها عندما وصلت إلى هناك سلبت كلياً من مقتنياتها، ولم يبق معها شيئاً لإطعام طفلها، لذلك قامت بحالة غضب نسائي، فأطاحت بابنها في البحر.

وعندما غادر الصليبيون جميعاً القدس، دخل المسلمون إلى المدينة المقدسة، حيث أهانوا الاسم المسيحي بربطهم دوابهم في الكنائس نفسها، وبقيامهم بأعمال تدنيس، فقد لوثوا هذه الهياكل المقدسة، وألقوا بالخارج ودمروا جميع تماثيل الرب والقديسين، وقد وجدوا تمثال لربنا على الصليب، فحملوه بالشارع العام، وسخروا منه، وبصقوا عليه، ورموا الحجارة عليه، ولوثوه بجميع أشكال القذارات، علاوة على ذلك جلبوا العقيلات والعذارى اللائي كن يتوقعن مجيء معجزة من السماء لاسعافهم، فبقين في المدينة، وجلبوهم لاهانتهن، ويقال بأنه وقتها حدث ذلك العمل المشهور(قطع أنوف الراهبات) الذي تقدمت

الاشارة إليه من قبل، علما بأن بعضهم قد ذكر بأن هذا قد حدث عندما سقطت عكا للمرة الأخيرة(سنة ١٢٩١).

وأثناء غضبهم اندفعوا، فازاحوا الحواجز وفتحوا أبواب كنيسة قيامة الرب، وشقوا طريقهم إلى الداخل، ولوثوا المذابح، وحطموا زجاج النوافذ، واقتلعوا التماثيل المحفورة من الجدران، وصعدوا أخيراً إلى برج الناقوس، وحطموا النواقيس بالمطارق، وأبقوهم هناك مكسرين لمدة طويلة كعمل فيه ملامة للصليبيين، وقد شوهدوا من قبل السيد أنطونيوس كما حدثنا في تاريخه— القسم الثاني، العنوان:١٧، الفصل:٩، الفقرة:١٨، وأنا شخصياً لم أشاهد قطع النواقيس، بل شاهدت فقط العوارض الخشبية، التي تعلقوا عليها فيما مضى، ولم يرغب صلاح الدين بتدمير ضريح الرب تدميراً كاملاً، بسبب أعمدة الرخام الثمين والكسوة من الرخام المصقول، فقد رغب بالاستيلاء عليها وانتزاعها بعمل منظم ودون أن يلحق بها أذى، وكان بذلك يدمر الكنيسة بشكل تدريجي

ثم انهم بعدما خرقوا حرمة الكنائس المسيحية، ذهبوا إلى مايعرف باسم هيكل سليمان، حيث أزالوا جميع المذابح المسيحية، وحطموا التماثيل إلى قطع، وهكذا بعدما طهروه، أو بالحري بعدما لوثوه، غسلوا البلاط والجدران بماء الورد، وصبوا فوقهما كثيراً من العطور، وقد أظهروا احتراماً مدهشاً نحو ذلك المكان، ونحو الهيكل، وبعد أعمال الغسل هذه، التي هي شكل التقديس لديهم، دخل صلاح الدين مع امرائه إليه، وقدم أضحية وفقاً للشعائر الاسلامية.

وذهب الآن السريان والطوائف الأخرى من الموارنة، واليعاقبة، والكرج، والأرمن، والنساطرة، والأحباش أو الهنود، مع المسيحيين الشرقيين الآخرين، والمنشقين والهراطقة، إلى صلاح الدين، ومثلوا في حضرته، وأقسموا يمين الولاء له، وقدموا الجزية إليه، ورجوه بأن

يوضعوا محل المسيحيين اللاتين، وبسرور منحهم صلاح الدين ذلك، لرغبته بتوفر بعض الناس لسكنى المدينة، علاوة على ذلك لقد أنقذوا كنيسة الضريح المقدس، التي سمعوا بأنها سوف تهدم، فقد دفعوا مبلغاً كبيراً جداً من الذهب والفضة إلى صلاح الدين، لإبقائها وحفظها من التهديم، وقد أخذ الذهب، وأعطى الكنيسة إلى المسيحيين الشرقيين، بعدما شرط عليهم الشرطين التاليين: أولاً أن لايسمح لأي مسيحي غربي بالدخول من دون أن يدفع الرسم المقرر، وثانيا أن لايعلقوا بعد الآن أية نواقيس في برج النواقيس، بل يعلنون عن مواعيد القداسات بالقرع فوق ألواح خشبية، ولذلك لم يسمع منذ ذلك اليوم حتى الآن صوت أي ناقوس في القدس، أي منذ ثلاثمائة سنة.

وبعدما فرغ صلاح الدين على هذه الصورة من الاستيلاء على القدس، وضع حامية فيها، وزحف من هناك مع جيشه كله ليجدد الحصار على عسقلان، وبعدما هاجمها لعدة أيام عرض السكان تسليمها، شرط تسليم كل من غي ملك القدس، والمقدم الأعلى للداوية، اللذان وقعا بالأسر في المعركة، إلى المسيحيين، وبسرور قبل صلاح الدين هذه الشروط، فاستولى على المدينة، ووفى بوعده، وترك ملك القدس ومقدم الداوية يذهبان مع جميع آلهما وحاشيتهما، ومنحهما الحرية.

وبعدما نال صلاح الدين تلك المدينة حمل نفسه إلى مدن أخرى، وقلاع من قلاع الصليبيين، واستولى عليهم جميعاً خلال مدة قصيرة، باستثناء بعض البلدات على ساحل البحر، وبشكل خاص صور وطرابلس، لأن ذلك الخائن الشرير جداً، أي ريموند كونت طرابلس، قد وجد ميتاً على فراشه، في الليلة التي تقدمت على اليوم الذي كان مقرراً تسليم المدينة فيه إلى صلاح الدين، وقد عرضت البراهين على ردته وكشفت أخبار خيانته بشكل عام على الناس جميعاً، وهي ختانه،

ورسائل منه، ولذلك السبب، حمل غي ملك القدس، الفاقد لمملكته ولعاصمة ملكه، نفسه وذهب إلى طرابلس، وأقام هناك مع أمرائه، وطرابلس مدينة ساحلية، في منطقة فينيقية، وهي مدينة قوية وقديمة جداً وموائمة كثيراً من أجل التجارة.

أوضاع المدينة المقدسة بعد الاستيلاء عليها، وملوكها الاسميين، ومختلف أوضاع تناقل ألقاب ملك القدس وهكذا دواليك، وأيضاً إثارة جميع الغرب ومساعدة الأرض المقدسة

عندما سمع للمرة الأولى، البابا أوربان الثالث، بأن المدينة المقدسة، قد صارت بإذن من الرب، بأيدي المسلمين، وأن جميع مملكة القدس، قد ضاعت كلها تقريباً، وأن الشعب الصليبي، قد تضرر بطرائق عدة، وأنه قد طرد باضطراب وفوضى من المدينة، وقتها أصيب بأسى عظيم، وبحزن كبير، وحمل على الفور إلى الفراش، ومات في فيرارا Ferrara، حيث صدف وجوده هناك.

وبناء عليه هزت هذه الأنباء السيئة، والمأساة المؤلمة، جميع ممالك الغرب، فشدّ جميع الملوك والأمراء أحزمتهم للانتقام للدماء المسيحية التي سفكت، وفي سنة ١١٨٨ لتجسيد الرب، عقد مجمع عام، جرت الدعوة إليه في باريس، فيه حمل جمهور رائع ولايمكن تعداده من الفرسان والجنود الرجّالة، الصليب، وتعهدوا باسعاف الأرض المقدسة ونجدتها.

وحمل في تلك السنة نفسها، امبراطور الرومان اللامع جداً، فريدريك الأول، الصليب مع أمرائه ونبلاء ألمانيا، وفعل الشيء نفسه كذلك فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، وجميع الملوك الآخرين، ورؤساء الأساقفة والأساقفة، ورجال دين كنيسة الرب، فهؤلاء جميعا حملوا علامة الصليب، وكانت هذه النهضة عالمية، إلى حد بدا العالم فيه

كله قد اتفق في مقاصده، وجرى حشد جمع هائل من الخيول مع بعضها، واندفعوا جميعاً براً وبحراً بحماس ملتهب من أجل الحرب ضد المسلمين.

وكان في ذلك الوقت في كالبريا Calabria، راعي دير اسمه يواكيم، وكان رجلاً صاحب تعليم عميق جداً، ومتفوقاً بعبقريته، فبعث خلفه الملوك والأمراء الذين كانوا على طريقهم إلى الأرض المقدسة، وسألوه عن محصلة حملتهم وكيف ستكون خاتمتها، فأجابهم بأنهم بالفعل سوف يعبرون البحر، غير أنهم سوف يعملون قليلاً نحو الأرض المقدسة، لأن الوقت لم يأت بعد حتى يتمكن المسيحيون من احتلال القدس، وكان الذي حدث هو كما قال هذا الرجل، لأنهم عندما وصلوا إلى سورية لم يتمكنوا من الاستيلاء على شيء غير عكا، وذلك خلال عامين من الزمن.

وجرى الاستيلاء على عكا سنة ١١٩٤ لتجسيد الرب، ليس بوساطة خرق أسوارها، لكنها استسلمت وفق الشروط التالية: أن يخرج المسلمون منها دونما أذى، وقد وعدوا بإعادة خشبة الصليب المقدس إلى الصليبيين، وهي الخشبة التي استولى عليها صلاح الدين بالحرب، كما كنا قد تحدثنا من قبل، وأن يدفعوا ٢٠٠,٠٠٠ دوقية، لكن صلاح الدين لم يحافظ على وعوده التي قطعها على نفسه للملوك حول خشبة الصليب، وحول إعادة الاسرى الصليبيين فما كان من الملك رتشارد إلاّ أن أمر في أحد الأيام بجعل خمسة آلاف(من الاسرى المسلمين) طعمة للسيف.

ومات في تلك الأثناء ابنتا الملك غي، من زوجته سيبيلا، البنت الكبرى للملك عموري، وغادرت بعدهما بوقت قصير أمهما السيدة سيبيلا، هذه الحياة، ولم يبق أحد من أسرة ملوك القدس الحقيقية حياً إلاّ السيدة اليزابث(ايسابل) الذي كانت زوجة همفري أوف

تيرون،[تبنين] لأن عموري، الملك السادس للقدس، كان له ولد ذكر واحد، هو بلدوين، الذي كان مجذوماً منذ طفولته، وابنتين هما سيبيلا، واليزابث، وإثر وفاة عموري، وصل المجذوم إلى العرش، لكنه بسبب مرضه لم يتمكن من الزواج، ولم يكن له وريث، فجعل من أخته الكبرى سيبيلا وريثة لمملكته، وقد حكم زوجها غي عوضاً عنها، في حين تزوجت اختها اليزابث من اللورد همفري، وبعد خسارة الأرض المقدسة والقدس، ماتت سيبيلا الملكة الوارثة لمملكة القدس، ولم يكن لها وريث سوى زوجها غي، وعندما سمعت اليزابث أخت سيبيلا، بوفاتها، أعلنت عن نفسها ملكة ووريثة لمملكة القدس، وأعلنت في كل مكان بأن زوجها هو الملك عوضاً عنها، مثلما كان غي ملكاً عوضاً عن أختها.

ورأى اللورد هنري، كونت شامبين مع آخرين كثر، بأن المملكة قد انتقلت إلى اليزابث بعد وفاة اختها، ولذلك عملوا لصالح الكونت المتقدم الذكر، وأن جميع الضرائب المجبية في الموانيء، والغرامات المفروضة على المقصرين، ومدفوعات أخرى هي من حق ملك القدس، ينبغي أن يتسلمها همفري، وعلى هذا بقي غي ملكاً بالاسم فقط، حيث جرد من جميع صلاحياته، ولذلك اشتكى وهو محق، أنه كان خرقاً للعدالة تجريده من جميع حقوقه في مملكته، وهكذا دعا إليه المخلصين من أتباعه، وشكل جيشاً، وقرر أن يعهد بنفسه إلى الحظ، وسوف يحارب معهم المسلمين.

ولدى سماع كبار الأمراء بهذا أصبحوا خائفين، من أنه إذا ذهب إلى قتال المسلمين بمثل هذه القوة الصغيرة، وهزم، فلسوف تتفرق جميع الحشود التي جمعوها لخدمة الرب، ولذلك عملوا في سبيل إعادة جميع الحقوق إلى الملك غي كما كانت من قبل، لكن كونراد مركيز أوف مونتفرات وقد رأى بأن المملكة قد آلت لصالح السيدة اليزابث،

بوساطة حق الوراثة، تطلعت نفسه شرهاً إلى المملكة، فقام بعمل مهين، وذلك بموافقة أمها كالوماريا Calomeria ، أرملة عموري المتقدم ذكره، وكانت ماتزال حية، فانتزع اليزابث المتقدمة الذكر من زوجها همفري، وبالقوة اتخذها زوجة له، وأغضب هذا العمل المهين والممجوج جميع الحجاج، لكنهم أخفوا غضبهم، لأنه مالم يكن كونراد راضياً، لم يكن بإمكانهم الحصول على الأقوات من صور.

علاوة على ذلك، كان هو رجلاً بارعاً، وقد ربح إلى جانبه عدداً من كبار الأمراء عن طريق الهدايا والخدمات، ولذلك ساعدوه في أعماله، واستولى هذا المركيز فيما بعد على صور، وصار رجلاً قوياً ومشهوراً، لأنه صد صلاح الدين مع جيشه عندما جاء لحصار صور، ولذلك مامن أحد تجرأ على معارضته وتجاوزه.

وعندما صار جيش اللوردات جاهزاً لمحاصرة القدس، قام الملكان الأعظم قدرة، وهما فيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا بتوحيد قواتهما ودمجها(٢٨٣)، ولدى سماع صلاح الدين باقتراب هذا الجيش العظيم، فكر بتسليم القدس إلى الصليبيين، وأرسل رسلاً إلى الملكين للتفاوض حول ذلك، وعندما سمع الملكان بهذا— ولنقل هنا الصدق— دخل الشيطان فيما بينهما، وبذل كل واحد منهما غاية جهده ليسلب الآخر، ولينال أكثر منه، وأن يصبح هو ملك القدس، ولذلك ثار خلاف بين الجيشين، وتخاصم الأمراء فيما بينهم حول الامارة المقدسة للقدس.

وأثناء تخاصمهم على هذه الصورة، تخلى فيليب وهو مغضب عن مشروع العمل كله، وذهب عائداً إلى أوروبا مع جيشه كله، ولأن ملك فرنسا ساند دوما ملوك القدس ووقف إلى جانبهم، ودافع عنهم، وحافظ عليهم في مملكتهم، رأى أنه من الجانب القانوني، أنه عندما ماتت الأسرة الملكية، فإن لقب المملكة ينبغي أن يناله شخصياً، لكنه

عندمـا رأى الآن أن هذا لايمكن حـدوثه من دون إزالة السـلام بين الصليبيين، لذلك انسحب وهـو مغضب، وعندمـا سمع صـلاح الدين بأن جيش الصليبيين قدتناقص بسبب مغادرة ملك فـرنسا، تخلى عن نيته بتسليم القدس إلى الصليبيين، وحصن المدينة المقدسة، ووضع حامية من الجند فيها، وفي الوقت نفسه بقي الملك رتشارد في سورية، وأثار الحرب بنشاط وفاعلية ضد المسلمين.

وفي سنة ١١٩٧، عندمـا كـان رتشارد مـا يزال في سـورية، قـام غي لوزغنان ملك القدس، التي تعرض في السنوات الماضية إلى الهزيمة على يدي صلاح الدين، قام وقـد شاهد شجاعة رتشـارد في سورية، وعظمة نفسـه، فتخلى لـه عن لقب وعن حقـوق مملكـة القـدس، على شرط أن يعطيه رتشارد جـزيرة قبرص، والتي كان رتشارد قد انتـزعها لنفسه من الاغريق، ووافـق رتشارد ونفذ ذلك برغبـة كبيرة، وجعل غي ملكاً على القدس، في حين أصبـح هو نفسه ملكاً على القـدس وعلى انكلترا، وقد وضع تاجين على رأسـه، ولهذا السبب مابرح ملوك انكلترا يستخـدمون هذا اللقب، لكن بعـد مغـادرة الملك رتشـارد، استـأنف غي حمل هذا اللقب، قائلاً بأن عاصمة مملكته قد انتقلت من القدس إلى قبرص.

والذي حدث على كـل حال أن الأمراء الذين احتلوا أمـاكن حصينة في سـورية رفضوا الاعتراف به ملكاً، لأنهم عـرفـوا بأنه في الحقيقة قـد خسر مملكته، وخسر لقبه المتعلق بها أيضاً.

وبعـدما تشجع الملك رتشـارد وتحمس بوسـاطة اللقب الملكي الذي تطلع إليـه طويلاً، بدأ يستعـد للزحف نحـو القـدس، وإلقـاء الحصـار عليها، لكن الشتاء حل، وتفـرق اسطوله بكل اتجاه، فغير خطته، وعمل هدنة مع صـلاح الدين، وشرع يستعـد للعودة إلى الوطن، وسلم قيـادة الجيش الصليبي، وجميـع حقـوق المملكـة إلى ابن أختـه هنري كـونت شامبين، وهكذا غادر تاركاً العمل وقـد اكتمل نصفه، ومضى في طريقه

مضيفاً أسى إلى أسى شعب البلاد المعزول، لأنه عدّ ملك فرنسا خصماً له، وخشي من قيامه بغزو بلاده أثناء غيابه، وكان رتشارد ذاهباً إلى وطنه بالبحر كملك، وقد عانى بقدر من الرب من جنوح سفينته أثناء عاصفة شديدة، غير أنه تمكن من الوصول إلى الساحل سالما مع عدد قليل من الأتباع، وعندما كان يشق طريقه بشكل سري للغاية خلال النمسا، اعتقل من قبل ليوبولد، دوق تلك البلاد، وسلب من جميع مقتنياته، ثم جرى تسليمه إلى الامبراطور هنري، ابن فردريك الذي كان قد هلك في الحملة السالفة إلى القدس، وقد أبقاه في السجن لمدة سنة ونصف السنة، ثم أطلق سراحه بعد دفعه مائتي ألف مارك فضي، وعاد إلى انكلترا، وأعتقد أن هذا جزاء جلبه على نفسه، لأنه ذهب ليحصل على مملكة القدس لنفسه، وعندما حصل عليها، تركها في أسى وحزن، وهرب بعيداً .

هذا وكان كونت شامبين المتقدم الذكر، الذي إليه عهد الملك الانكليزي بشؤون العناية بالجيش الصليبي، رجلاً تقياً، وقد رأى بأن البلاد قد تركت في وضع بائس، بعد مغادرة كل من ملكي فرنسا وانكلترا، ولذلك قرر هو شخصياً البقاء في الأرض المقدسة، وامضاء حياته في خدمة الرب، ولدى رؤية تقواه وأوضاعه، قام مقدم الداوية مع الحجاج الآخرين باختياره ملكاً، وأعطوه السيدة اليزابث، ابنة الملك عموري، لتكون زوجة له، لأن زوجها، مركيز صور كان قد توفي، وكذلك همفري، زوجها الأول.

وبعدما حكم لمدة عامين، وعندما كان مستنداً على نافذة في الطابق العلوي من قصره، سقط نحو الأسفل، ومات بشكل بائس، وهكذا باتت مملكة القدس من جديد من دون ملك، وقد حدث هذا في سنة ١١٩٧، ووصلت في السنة التالية حشود لاتحصى من المؤمنين إلى عكا، بوساطة البحر، وكانوا جاهزين من أجل استرداد القدس، لكن بما أنه

لم يكن هناك من يقودهم، ولايوجد ملك للأرض المقدسة، تبددت هذه الحشود من دون عمل، وعاد الناس إلى بلادهم، بعدما أنفقوا كثيراً من المال، من دون محصلة.

وبعد هذا، كان في سنة ١٢٠٢م زلزال كبير في سورية، وقد لحق الدمار مدينة عكا مع جميع قصورها وأبنيتها الأخرى، وحل المصير نفسه بكثير من المدن الأخرى.

وفي سنة ١٢١٥، دعا البابا انوسنت الثالث، إلى عقد مجمع ديني كبير جداً، في اللاتيران في روما، وقد قيل بأنه حضر هذا المجمع ألف وثلاثمائة من الأساقفة، وكان بين هؤلاء اللورد فولك، أسقف طولوز، وكان رجلاً متميزاً، وجاء إلى حضرة البابا انوسنت ومعه القديس دومينيك، والتمس من البابا تثبيت الطائفة، التي عرفت باسم طائفة القديس دومينيك، وكان في البداية من الصعب اقناع البابا بفعل هذا، غير أنه رأى فيما بعد مناماً في كنيسة اللاتيران، بأن جميع أطرافه قد تفككت، وكانت على وشك السقوط، لكن دومينيك، رجل الرب، ركض وأمسك الجسد المتداعي، وحال دون سقوطه، ولذلك قام في اليوم التالي، فبعث وراء القديس دومينيك، ووافق على الاقتراح، وعمل بسرور الذي طلب منه، وتسلم القديس دومينيك في السنة التالية تثبيتاً لطائفتة من هونوريوس الثالث.

وكان في المجمع الذي تقدم ذكره، بالاضافة إلى الأساقفة بطريرك القدس وكذلك بطريرك القسطنطينية، مع عدد كبير من الأساقفة الاغريق ومن الامبراطورية الرومانيةوكذلك مبعوثين من قبل ملوك: القدس ، وفرنسا، واسبانيا، وانكلترا، وقبرص، ومع أن كثيراً من التنظيمات الرائعة قد عملت من قبل هذا المجمع، غير أن النقاش الرئيسي كان فيه حول استرداد الأرض المقدسة، واسترداد القدس، وحول كيفية جمع المال لهذا العمل، وكيف ستكون الدعوة إلى الصليبية،

وكيف ينبغي أن يلبس الناس شارة الصليب، ومن هم الذين ينبغي توليهم قيادة المجموعات وقيادة الجيوش.

وبناء عليه ترك القديس دومينيك منذ أيام ذلك المجمع لحيته تنمو، عازما على الذهاب مع الجنود للقتال ضد المسلمين، وذلك مثلما كان قد قاتل لوقت طويل ضد الالبينيين الهراطقة، وتوفر بعد هذا المجمع حشد رائع من الناس من أهل الغرب للانطلاق من أجل تحرير القدس، والأرض المقدسة.

وحمل في الوقت نفسه الأطفال من مملكتي فرنسا وألمانيا شارة الصليب، وقد بلغ تعدادهم عشرين ألفاً، وأعلنوا أنهم عازمون على الذهاب لمساعدة الأرض المقدسة، وقد توجهوا على شكل حشود إلى مختلف موانىء البحر، ثم عادوا من هناك إلى أوطانهم جائعين ومفلسين، وراجت حكاية بأن شيخ الجبل، الذي اعتاد على تربية الحشيشية منذ طفولتهم، كان لديه في السجن اثنين من الكهنة المنشقين، وكان هذين الكاهنين متعلمين بشكل عميق، وأنهما كانا بارعين بالسحر وتحضير الأرواح، فأعلن أنه لن يطلق سراحهما مالم يعدوه بجلب أطفال من فرنسا وألمانيا إليه، وبناء عليه، قالوا بأن الأطفال المتقدم ذكرهم قد اقتيدوا من قبل هذين الرجلين، بوساطة قوة جذب شيطانية، ورؤى زائفة، حتى يحملوا الصليب، على أساس بأن الرب قد رسم بأن الأرض المقدسة، والقدس، يمكن تحريرهما فقط بوساطة أطفال أبرياء.

وعندما وصل هؤلاء إلى موانىء البحر، جرى اغراق الكثير منهم من قبل القرصان، كما جرى بيع أعداد كبيرة منهم رقيقاً إلى المسلمين وإلى أجانب آخرين، ومات كثير منهم من الجوع، وعاد بعضهم إلى أوطانهم إلى آبائهم، وقد ساد ضلال بين الأطفال في أيامنا، فقد أرادوا في سنة ١٤٥٤، القيام بالحج إلى جبل القديس ميكائيل، وقد تبرهن أن هذا الحج كان مفيداً أم لا من خلال المحصلة المخفقة له.

وفي سنة ١٢١٧، قـامـت أعـداد لاتحصى من النـاس، بعـد مجمع اللاتيران بحمل شـارة الصليب حتى يتمكنوا من القتال ضـد الألبينيين الهراطقة، وكـان من هؤلاء على سبيل المثال سيمون كونت مـونتفورت، وقد كـان بين اتباعـه دومينيك أبونا المقدس، وغي ابن الكـونت المتقدم ذكـره، ولويس ابن ملك فـرنسـا، ومع ذلك كـان بعضهم، وهـم الذين شكلوا الجزء الأكبر، قد حملوا شـارة الصليب حتى يتمكنوا من اسعاف الأرض المقـدسـة، واسترداد القـدس، لأنه في تلك السنـة انتهى وقت الهدنة بين الصليبيين والمسلمين، ولذلك عبر الجيش الصليبي، الذي حمل شارة الصليب بعد مجمع اللاتيران، البحر، ووصل إلى عكا، وكان جيشاً لايعـدّ ولايحصى، معه ثلاثة ملوك هـم: ملك القدس، وملك هنغـاريا، وملك قبرص، وكان أيضـاً حاضراً بينهم، دوق النمسا وبانونيـا، وعدد كبير من الجنود من ألمانيا.

وكان ملك القـدس في ذلك الحين، اسمه جـون، وكان من قبل دوق بريين في فرنسا، وكان قـد انتخب قبل بضع سنوات ملكاً للقدس، وقد كـان تقياً ومـاهراً شجـاعاً بـاستخدام السـلاح، وقـد انحدر بنسبـه من غـودفري ذلك الانسـان الرائع جـداً، الذي كان الملك الأول للقـدس، وقد تزوج من ابنة كونراد، الذي كان مركيز صور، وقد توجا في صور، وبعـدما حمل الصليبيـون أسلحتهم قامـوا باستعدادات جبـارة من أجل القتـال ضـد أعداء الصليب، وعندمـا كـانوا جـاهزين للانطلاق، جـاء بطريرك القـدس وسط أناس محترمين جـداً من رجـال الدين والشعب، وحمل بشكل جليل في يديـه خشبـة الصليب المانـح للحيـاة، وسـار في معسكر الرب، وكانت هذه القطعة النصف الأول من الصليب المقدس، وهي التي تمّ العثور عليهـا في الكنيسة في أيام غودفـري المشهور، الذي كـان الملك الأول للقـدس، فقـد كـان هذا النصف يحتفـظ به دومـاً في الكنيسـة، في حين كـان القسم الآخـر يحمل دومـاً إلى الحروب وإلى

المعسكرات، وهذا النصف الأخير هو الذي استولى عليه صلاح الدين وانتزعه من غي، آخر ملوك القدس، كما ذكرت من قبل، وبعد فقدان ذلك القسم، حمل الصليبيون النصف المتبقي من الصليب المقدس وقاتلوا تحته.

ورتبوا الآن صفوفهم ، وزحفوا مع هذه العلامة نحو المكان الذي قيل بأن المسلمين موجودين فيه، عازمين على انشاب القتال معهم، ولكن ماأن سمعوا باقتراب جيشنا عن طريق عناصر الاستطلاع لديهم، حتى هربوا وهم مرعوبين، وزحفت قواتنا من دون معيقات في منطقة الجليل، ملحقة كثيراً من الأذى بالأعداء، ومقررة الاستيلاء على جبل الطور، لكن بعد كثير من المتاعب، وبناء على نصيحة بعض أفراد جيشنا، رفع شعبنا الحصار، وعاد جيشنا إلى عكا، لأن الوقت صار شتاء وكان موسم الحملات قد انقضى.

ولدى انتهاء الشتاء، أراد الجيش الصليبي حمل السلاح ثانية والزحف ضد المسلمين، إنها نتيجة لذنوبنا، انقسم جيشنا إلى أربعة أقسام، فقد قام ملك هنغاريا بالحاق أذى عظيماً بالصليبيين، حيث جهز سفنا لسفره، وعاد إلى الوطن، آخذاً معه الشطر الأكبر، من الجيش الصليبي، مع غلايينه، وعتاده الحربي، ولم يصغ إلى البطريرك، الذي طلب منه البقاء، ولذلك أصدر البطريرك ضده قراراً بالحرمان الكنسي، وضد كل من يعمل مثله، وأصبح بعض الحجاج إما من خلال الترف أو الخوف جبناء جداً إلى حد عدم الرغبة بالخروج خارج أبواب عكا.

ومع ذلك تمكن ملك القدس، ودوق النمسا مع باروناته، وشطر كبير من الجيش الألماني، وفرسان القديس يوحنا، من بناء قلعة قوية في قيسارية فلسطين، وكان من غير الممكن طردهم من هناك، مع أنهم غالبا ماأعلموا بأن الأعداء كانوا قريبين منهم، وكذلك أعاد الداوية مع بيت الاسبتارية وفرسان التيوتون، بناء قلعة الحجاج(عثليت) التي كانت

مدمرة منذ وقت طويل، وعندما كانوا يرسون الأساسات هناك، كشفوا عن جدار سميك وعاري، فيه حفروا بالأدوات الحديدية، فوجدوا كميات وافرة جداً من النقود الذهبية، كانت الكتابة عليها والصور غير معروفة بالنسبة للمعاصرين، وقد أذابوا هذه النقود ودفعوا بها أجور عساكرهم، وكان شكل موقع هذه القلعة كما يلي: كان هناك ذراع صخري مرتفع وضخم وواسع ممتد في البحر، وكان هذا الذراع أو النتوء محصن بشكل طبيعي بجروف من جوانب: الشمال، والغرب، والجنوب، في حين قام على الجانب الشرقي برج قوي، بني بالأصل من قبل الداوية لحماية الحجاج، وكان بناء هذه القلعة مفيداً، لأن دير الداوية قد جرى نقله إلى هناك من عكا، التي كانت مليئة بجميع ألوان الذنوب والشرور، وقد تأسس هناك كحامية لهذه القلعة حتى يحين الوقت الذي يعاد فيه بناء أسوار القدس.

واستمر في سنة ١٢١٨م التبشير بصليبية ضد الشرقيين، في جميع أرجاء الغرب، وشوهدت صلبان رائعة في سماء منطقة كولون، وتريفس Treves، وذلك مع معجزات أخرى أثارت ألمانيا كلها لعبور البحار، وتجمع الألمان بأعداد كبيرة، وأبحروا إلى عكا في شهر آذار، وبعد عيد صعود الرب غادروا غلايينهم الحربية المنقارية وأماكن نزولهم، واجتمع جون ملك القدس، مع البطريرك، والحجاج، ودوق النمسا، والطوائف الثلاث، وحشد واسع من الصليبيين، وتشاوروا حول كيف يمكنهم تنفيذ قرار مجمع اللاتيران، الذي توصل إلى محصلة قضت بوجوب ارسال الجيش الصليبي إلى مصر، لأنه تبرهن في ذلك المجمع من قبل الخبراء أنه لن يكون من الممكن للصليبيين الحكم بسلام في سورية والأرض المقدسة، مالم تكن مصر قد ألحقت بمملكتهم.

وقد تبرهن على هذا من حقائق، أنه ماأن تحالفت الأجزاء السورية التي حول دمشق مع مصر في أيام عموري، ملك القدس، حتى

أصبحت مملكة القدس على الفور في خطر عظيم، في حين أنه قبل ذلك التحالف مامن انسان كان بامكانه ايذاء المملكة المقدسة، ولذلك قرر الآباء المقدسون الذين جلسوا في المجمع المتقدم الذكر، وجوب الاستيلاء على مصر أولا، وبعد ذلك ينبغي أن يزحف الجيش للاستيلاء على الأرض المقدسة، والمناطق الأخرى في الشرق.

وبناء عليه صار الاسطول في شهر أيار جاهزاً، وأبحر جون، ملك القدس المتقدم ذكره مع دوق النمسا وحشد كبير من الصليبيين نحو دمياط تحملهم إليها ريح طيبة، ومدينة دمياط قائمة على شاطىء البحر، وتعرف أيضاً باسم آخر هو Pachneumurus (كذا)، وكانت مدينة دمياط هي الأكثر تحصينا بمصر، كما كانت غنية ومكتظة السكان، ومليئة بالتجارات.

ووصل رجال شعبنا إلى ميناء دمياط، وانتظروا في البحر لمدة ثلاثة أيام، وصول بعض القادة، لكن قبل وصول هؤلاء نزلوا إلى اليابسة، وشرعوا بحصار المدينة من الجانب المواجه للبحر، وذلك على الرغم من المسلمين، ويوماً تلو آخر صار جيشنا أكبر، ولذلك فإن السلطان الذي كان معسكراً في الجانب الآخر من المدينة، هرب مبتعداً مع جيشه، وعبر رجال شعبنا النهر، وحاصروا المدينة كلها، وضغطوا عليها بشدة متناهية، ونصبوا في الوقت نفسه معسكرهم بين شاطىء البحر، ونهر النيل، وصنع الرب المعجزة التالية، وهي أنهم ماأن وصلوا إلى هناك حتى أصبحت مياه النهر عذبة، وذلك حيث يتصل النهر بالبحر، ولم تتدفق المياه وتفض أكثر من المعتاد، وكأنها فعلت ذلك حتى تبقي مكاناً من أجل شعب الرب، لكن بعد أمد وصلت المياه الفائضة إلى المعسكر ودخلته، ومعها انتشر الطاعون بين صفوف جيشنا.

وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحاصرون دمياط بعناد، قام المعظم عيسى ابن السلطان الكبير، فحشد جيشاً من أهل منطقته،

وزحف في داخل سورية إلى القدس، ودمّر المدينة المقدسة دماراً كلياً من الداخل والخارج، باستثناء هيكل الرب، وبرج داوود، وقد فعل هذا بغرض، أن الصليبيين، بعد استيلائهم على دمياط، لن يجدوا أي مكان حصين على الأرض، يمكنهم أن يتأسسوا فيه في مملكة القدس، ولأنه لو سقطت دمياط، لن يكون لديهم أمل بالقدرة على الدفاع عن القدس، وأثناء قيام المسلمين، بتدمير القدس تناقشوا هل عليهم تدمير كنيسة ضريح الرب، لكن مامن انسان تجرأ على أن يمدّ يديه عليها، ومع ذلك انزعج شعبنا من الرسائل التي بعثها المسلمون الى معسكرنا أمام دمياط، حيث أعلنوا فيها، أننا مالم نرفع الحصار مباشرة، فإنهم سوف يدمرون دماراً كلياً، كنيسة القيامة، وبعد فراغ المعظم عيسى من تهديم القدس، حاصر ثم استولى على بعض القلاع الصليبية، التي بنيت حديثا.

وفي الوقت نفسه بما أن مدينة دمياط كانت تعاني من السيف، والجوع، والطاعون، أثناء الحصار الطويل، هنا بدأ عامة الشعب يتذمرون ضد السلطان، وضد الأعيان الذين حكموا المدينة، وأعلنوا أنهم لايستطيعون الاستمرار بتحمل مآسي الحصار، وعندما علم السلطان بهذا، منعهم من تسليم المدينة، وأعطى أوامر إلى رجاله في الداخل بإغلاق أبواب المدينة عمارة من الداخل، خشية أن يقوم سكان المدينة، الذين كانوا يعانون من الجوع والمجاعة، بهجرها إلى المعسكر الصليبي، وإخبارهم بحالة التعاسة التي كانت تعيشها المدينة، ولم تقتصر معاناة الناس من المجاعة في داخل المدينة، بل عانوا من ذلك في معسكر المسلمين، الذي قام ليس بعيداً عن معسكرنا، فقد كانت هناك مجاعة حادة، لأن نهر النيل الذي اعتاد على الفيضان على ضفتيه بعد عيد القديس يوحنا المعمدان(٢٤—حزيران)، ويستمر بالفيضان حتى عيد تمجيد الصليب(١٤ تشرين أول)، ومن ثم سقاية سهل مصر، لم ترتفع مياهه في تلك السنة إلى العلامات التي وضعها المصريون، بل ترك شطراً

كبيراً من الأرضيين دون غمـر، وجـافـة، ولذلك كـان ليس مجدياً لاالفلاحة ولا البذار في تلك السنة، وخشية من السلطان حدوث مجاعة في المستقبل، قام مـع أخيه المعظم عيسى بعـرض السلام على الصليبين، وفقـاً للشروط التاليـة: هو سـوف يسلمهم الصليب الذي استولى عليـه صلاح الدين في نصره، مع مدينة القدس المقدسة، وجميع الأسرى الذين يمكن العثور عليهم أحياء في أرجـاء مصر وفي مملكة دمشق، كما عرض مـالاً لإعادة بناء أسـوار القدس، وأنه سـوف يعيد إليهم مملكة القـدس كلهـا، حسبما كـانـت بأيدي الصليبيين، وذلـك مع قلعتـي الكرك والشـوبك،. وهما قلعتـان قـريبتـان من القـدس، من بينهما اعتـاد تجار المسلمـون والحجـاج على المرور وهم على طريقهـم إلى مكة، وهذا كله كان السلطان على استعداد لتقديمـه وفعله، شريطة أن يقوم الصليبيون، بالتوقف عن حصار دمياط، ورفع الحصار، وسحب قواتهم إلى سورية.

ورأى جون ملك القدس مع جميع نبلائه، ودوق النمسا وجميع القادة الألمان، بأن هذه الشروط ينبغي قبـولها بكل وسيلـة من الوسـائل، وأنها نافعـة جداً للصليبيين، لكـن بيلاغيـوس، النائب البـابوي، والبطريرك، والأسـاقفـة، ورؤسـاء الأسـاقفـة، والداوية، والاسبتـارية، والبنادقـة والجنويين مع الايطاليين الآخـريـن رفضـوا هذا العـرض، وكـان هناك انقسـامـاً كبيراً في جيشنا، لأن الأمـراء العلمانيين والعـامـة كـانوا على استعـداد لقبول السـلام مع المدينة المقـدسة وجميع مملكة القـدس، ورفع الحصـار الذي هو أمـر جيـد ومفيـد عمله، لكن من جـانب آخـر نادى بصوت مرتفع النائب البابوي، وأسـاقفة الكنيسة، والتجار الطليان، من أجل الاستيلاء على دمياط، لأنهم أدركوا أنهم في اللحظة التي ينالون بها دميـاط، فإن القـدس والبقيـة سـوف تسقط في أيديهم، لكن الذي يحك بشدة متناهية يفجـر الدم، وهذا ماحدث معهم، لأن عملهم هذا انقلب في النهاية سيئاً ضدهم، وفي الحقيقة مـاكان بإمكان شره رجال الكنيسة،

والنهم الذي لاحـــدود له للتجــار، الــذين تولوا تــدبير الحملة، جلب الأمور إلى نهاية سعيدة.

وفي الحقيقة منذ أن حدث الاستيلاء على دمياط، تلك السيدة المتكبرة للبحـر، ومعذبة الصليبيين، حـدث كل مايلي بإرادة الرب، فعندمـا بات صلاح الـدين(كذا) يائسـاً من الحصول على السـلام ،قام بارسـال عدد كبير من الجنود الرجـالة إلى البلدة في الليل، لكن جـرى اعتقـال كثير منهم وقتلهم، من قبل شعبنا، ثم انه بناء على أوامر من النائب البابوي، جـرى ارسال بعض الفـرسـان، أثناء الليل إلى باب المدينة، لرؤية كيفيـة حراسته، وقد تمكنوا وهم مغطون بترستهم من الصعود إلى أعلى الباب، فلم يجدوا أحداً فوق الباب أو قربه، فنصبوا سلالم على الأسوار، ودعوا رفاقهم وتسلقـوا إلى أعلى الأسوار، ثم نزلوا إلى المدينة، وفتحـوا الباب، وتركـوا رفـاقهم يدخلون، وقـد قتلوا المسلمين الذين صـدفـوهم، وبالضجة التي انبعثت من هذا القتـال، نهض باقي الجيش، وحمل رجاله السـلاح، وبذلك استـولوا على المدينـة، أمـام عيني السلطان، ومن دون معركة أو ضرر للصليبيين، وجاء الاستيلاء على المدينة في اليوم الخامس من تشرين الثاني لعام ١٢١٩م.

وعندمـــا رأى السلطان المدينة بأيـدي الصليبيين، استبـد بـه الرعب، فأحـرق معسكره وتراجع، ولدى دخـول الصليبيين إلى دمياط واجهـوا رائحة نتن لاتحتمل صدرت عن جثث النـاس الأموات، التي كانت من الكثـرة بمكان أن الأحيـاء كـانوا غير قـادرين على دفنهم، وكـان منظراً مؤلماً مشـاهدة رجال ونسـاء وأطفال قـد جاعوا حتـى الموت، وقد قتل الأموات الأحياء بروائح نتن جيفهم.

ففي خـلال العشرين شهـراً، الذيـن حـوصرت المدينة أثنائهم، هلك سبعة آلاف من المسلمين من الجوع والطاعون، ووجدنا في المدينة حوالي ثلاثة آلاف من المقاتلين، كان منهـم أربعمائة من أعلى النبلاء، وذلك مع

أغنى سكان المدينة من الجنسين، وجرى الاحتفاظ بهم جميعاً رهائن من أجل تخليص أسرانا من عند المسلمين، وجرى بيع البقية رقيقاً إلى الصليبيين، كما تمّ تعميد الأطفال، ولم يكن في المدينة أية أطعمة، لكن الذهب والفضة، والأحجار الثمينة، والأقمشة الذهبية والحريرية والأشياء الغالية الأخرى، كانت بلاحدود، وقد حملت كلها — تحت تهديد عقوبة اللعنة الرهيبة — إلى المستودع العام، وجرى توزيعها بين الجيش، من قبل أناس أمناء، بشكل عادل، إلى حد أن النساء الفقيرات والأطفال تسلموا حصة من ذلك.

وبعد الاستيلاء على دمياط، واعادة تنظيم الأمور فيها، استولوا على مدينة أخرى حصينة جداً اسمها تنيس، لأنهم وجدوها كلها مهجورة.

وفي سنة ١٢٢١ لتجسيد ربنا، ثار — بتحريض من الشيطان — نزاع بين بيلاغيوس، النائب البابوي، وبين جون ملك القدس، لأن النائب البابوي انتفخ عجرفة، ونسي أحكام أنظمته الكهنوتية، فأراد أن يجعل من نفسه الحاكم الأعلى لجميع الجيش، فقام بتعبئة صفوف القوات للقتال، ورغب في أن ينال وحده فخار الاستيلاء على مدينة دمياط، وأن يعزى كل فضل إليه وحده، ورأى الملك أنه من المعيب أن يقوم رجال الدين في مملكته بإدارة الأمور العسكرية، ونظراً لأنه كان رجلاً حكيماً آثر الانسحاب على الخلاف، ولذلك تعلل ببعض المعاذير من أجل المغادرة، وحمل نفسه مع عدد قليل من خدمه، وترك الجيش، وذهب إلى سورية.

وفي الوقت نفسه ازداد حجم الجيش يوميا أكثر فأكثر، ووصل عدد كبير من السفن من الغرب إلى دمياط، واستدعى بيلاغيوس الآن القادة جميعاً، وعرض رأيه بأن عليهم الزحف ضد السلطان، المقيم معسكره على ضفة نهر النيل، على مسافة سفر يوم واحد من دمياط، وعارض قائد القوات ذلك، وبين أنه لايحق للنائب البابوي تحريك الجيش في

غياب الملك، وبناء عليه عندما رأى النائب البابوي أنه مالم يكن حاضراً، من غير الممكن تنفيذ الحملة الصليبية، بعث بسفارة رسمية إليه، ورجاه بالظهور، والبرهنة إلى الجيش بأنه ابنا حقيقياً لكنيسة روما، وأنه سوف يعود إلى الجيش الذي ينتظره بشوق.

وقام الملك العاقل فحشد جيشاً، وزحف من سورية، وعندما سمع باقتراح النائب البابوي بالهجوم، نصح بقوة ضد القتال، وقال إذا ماتحرك الجيش الصليبي من دمياط وغادرها في ذلك الوقت، فلن تصله النجدات من دمياط لابراً ولابوساطة الماء، ولاسيما وأن موسم فيضان النيل بات وشيكاً، وقد انزعج النائب البابوي كثيراً من نصيحة الملك العاقلة، ومن رأيه الصائب، وأعلن عن حرمان كنسي عام ضد كل من يعيق تنفيذ خطته، وعندما رأى الملك أنه من المستحيل صرف النائب البابوي عن مقاصده، استجاب وهو مكره جداً، واذعانا منه الى الكنيسة، وعرض أن يزحف ضد السلطان والقتال بصحبة النائب ضده، لكن الذي حدث كان ماتوقعه الملك، فقد وقع الصليبيون في ضيق شديد بسبب الجوع، وبسبب ارتفاع النيل، وبسبب حملات السلطان، ولذلك أرغموا على صنع سلام مع السلطان، وتخلوا عن دمياط، وتراجعوا في فوضى من مصر إلى سورية.

وبعد هذا عقدت هدنة لمدة ثمانية أعوام بين الصليبيين والمسلمين، وسلّم قومنا دمياط وغادروا وهم مجللون بالعار، وتوجه كل واحد إلى مكانه، ولكم كان مفيداً لو أنهم قبلوا الشروط التي عرضت عليهم، وهي التي كان ملك القدس مع الفرنسيين والألمان على استعداد للقبول بها، لكن عجرفة ذلك النائب البابوي الملعون، سببت فقدان مملكة القدس، واعادة دمياط إلى المسلمين، وتمزيق وتدمير قومنا، وإنه لأمر عجيب أن بيلاغيوس أو بالحري« بحر بيلاغوس للدناءات»، لم يمزق إلى ألف قطعة، لأننا لوكنا تسلمنا القدس في ذلك الوقت، وفق الشروط

التي كـان السلطان على استعـداد لمنحنا إياها، لكانـت الآن في أيدينا، وكان الضريح المقدس حراً.

وفي سنة ١٢٢٣م، حـزن جـون ملك القدس كثيراً لخسـارة دميـاط، وأكثر من هذا لخسارة مملكة القدس كلها، وهي المملكة التي صارت في أيدي الصليبيين، لكنهم رفضوا استلامها وبعدمـا قام بتقرير أمور دولته في سـورية بقـدر مـااستطاع، أخـذ سفينتـه وتوجـه إلى الغـرب، حتى يستجدي العـون من كنيسة رومـا ومن أمراء المسيحيين، وعندمـا وصل إلى عند البـابا غـريغـوري التـاسع وجـده غـاضبـاً جـداً ومنزعجـاً من الامبراطور فـريدريك الثـاني، وبناء عليـه قـام ملك القـدس بمصـالحة الاثنين، أي البــابا والامبراطـور، ولكي يمتن هـذه المصــالحة أعطى غـريغوري إلى فـريدريك الابنة الوحيـدة لجون المتقدم الذكـر، أي ملك القـدس، لتكون زوجة له، ووعـد الامبراطور شخصياً بأنه سـوف يعبر البحر إلى سورية بشخصه حتى يسترد الأرض المقدسة، وبعد احتفالات العـرس، بشكل مهيب جـداً في رومـــا، سأل ملك القـدس الامبراطور القيـام بإعـداد جيشه، أثناء وجـوده شخصيـاً في الغرب وبقـائـه هناك، وارتحل الملك الآن إلى اسبانيا، حيث زار مزار القديس جيمس الرسول، وهناك تزوج ابنة ملك غاليشيـا، وأبحر من هناك إلى انكلترا، حيث نال كثيراً من الأعطيات من الملك ومن باروناته للمسـاعدة على نيل الأرض المقدسـة، وفي هذا الوقت نفسه أنهى الملـك فيليب، ملك فرنسـا حياته، تاركاً في وصيتـه بين منحه، مائـة ألف دولار باريسي لإعطائها إلى ملك القدس، لمسـاعدته على استرداد الأرض المقدسـة، والمبلغ نفسه لفـرسان الداوية، ونفسه أيضاً إلى فرسان الاسبتارية.

وخلف فيليب على العرش ابنه لويس، الذي جـرى تتويجه في ريمس Rheims، وكان جـون ملك القدس حـاضراً أثناء تتـويجه، وبعد مضي بضع سنوات، أمكن بوسائل البابا غـريغوري جمع أسطول جرى شحنه

برجـال من مختلف الشعوب، من أجل ارسـاله إلى سـورية، ضد أعـداء الصليب، ووقتهـا دعا الامبراطور للوفـاء بوعده، بعبـور البحر لانجـاد الأرض المقدسة، والتحق الامبراطور مع حشد كبير بجيش البابا، وأقلع الامبراطور مع نائب البابا من برنديزي في أبوليا.

لكن بعدمـا أبحروا لمسافة صغيرة، أمـر الامبراطور اسطوله بالابحار عـائداً إلى أبوليـا، وعاد الامبراطور نفسـه معه، مما سبب إحبـاطاً عظيماً لرحلة الصليبيين، ولذلك قـام البـابا وهو مغضب منه، فحـرمـه كنسيـاً للمرة الثـانية، عادّا إيّاه خائناً حـانثاً بيمينه، وقالوا بأن فردريك قـد عاد لأنه سمع بأن البـابا عزم في غيـابه على إعطاء صقليـة وأبوليا إلى جـون ملك القـدس، لكي تكون تحت حكمه، وقـال آخرون بأن فردريـك قد تخلى عن الحملة الصليبية، لأن السلطان بعث برسل له، وقـد جلبوا له رسائل ورشـوات كبيرة، ووعدوه بأنه سـوف يحصل على مملكة القدس من دون حرب أو سفك للدماء، شريطة قيامه بإعاقة رحلة الصليبيين.

وبعـد هذا حشـد فـردريك المتقدم ذكـره جيشـاً كبيراً، ومضى نحـو الأرض المقدسـة، من دون أوامر من البابا، وأكثـر من هذا، من المعتقد، أنه ذهب لاستـلام مملكة القـدس، التـي منحت له، وليس صـدوراً عن غيرة على العقيدة، أو رغبة في خدمة المسيحية، ولذلك بعث الامبراطور إلى السلطان، وطلب منه القـدس، وقد أعطاها له، وبناء عليـه ذهـب إلى القدس مع فـرسانه الألمان، وباروناته وبقيـة أتباعه، وتدبر تتـويج نفسه ملكاً على القـدس في وسط أيام الصوم الكبير. في سنة ١٢٢٥ لتجسيـد ربنا.

وهكذا أصبح من دون أدنى معارضة متملكاً للمملكة كلها وللمدينة المقـدسـة، علماً بأنه سمح للمسلمين بـالبقـاء بمسـاكنهم، وأعطى إليهم هيكل الرب، الذي يعرف باسم هيكل سليمان، لينشدوا مدائح محمدﷺ فيــه، ولم يوافق الكاردينال، نائـب البـابا على تـرتيبـات السـلام هذه،

ورفضها أيضاً بطريرك القدس، وكذلك فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية وبقية بارونات الامبراطورية، باستثناء الألمان والصقليين، كما عارضها قادة الصليبيين، لأنهم نظروا إلى هذا السلام على أنه سلام قائم على الغش، وقد جرى اعداده من أجل ايذاء الصليبيين وإحداث البلبلة بين صفوفهم، ولكي يعيق الاستيلاء على الأرض المقدسة، وتحرك الداوية بشكل خاص، وأثاروا المؤمنين ضد الامبراطور، وحذروهم من تصديقه، ومن الاعتقاد بأن اعماله صحيحة أو صادقة، وفي الحقيقة كان الامبراطور معادياً بشكل كبير إلى الداوية، وصدوراً عن كراهيته لهم، أعطى هيكل الرب إلى المسلمين، خشية أن يقع في أيديهم.

وبعدما جرى الاستيلاء على القدس على هذه الصورة، أرسل الامبراطور رسلاً إلى البابا غريغوري يرجو تحليله من الحرمان الكنسي، لأنه قام، بعون من الرب، بالوفاء بتعهداته في سورية، لكن البابا رفض تحليله، لأنه كان يعرف بأنه كان متحالفاً مع السلطان، وأن تملكه لمملكة القدس كان صورياً فقط، وأرسل الامبراطور أيضاً رسلاً إلى ملكي فرنسا وانكلترا، وإلى أمراء الغرب الآخرين ليخبرهم عن استرداد ضريح الرب، وعن تتويجه، وأخيراً أمر البابا، بالاضافة إلى قرار الحرمان الكنسي الأعظم، الذي كان قد أصدره ضده، بوجوب دخول جون، ملك القدس، الذي كان موجوداً في ذلك الحين في لومباردي، إلى أبوليا، على رأس قوات مسلحة من قبل الكنيسة، لدعوة الناس للالتحاق به في ثورة ضد الامبراطور، وبناء على ذلك استولى على عدة مدن ومناطق في أبوليا، وعندما سمع الامبراطور بهذا ترك وكيله حاكماً في القدس وفي المملكة وعاد إلى أبوليا، واسترد مناطقه المفقودة.

وأثناء وجود وكيله حاكماً في الأرض المقدسة، جلب كثيراً من الشرور للصليبيين، واستولى على قلاعهم عنوة، وبما أنه لم يكن قادراً على تدبر أمور هذه القلاع فقد أعطاها إلى المسلمين، ثم نشب خلاف،

وحدث تمزق، وجرى طرد الوكيل وقد هلك بعد هزيمته، وبذلك سقطت مملكة القدس كلها ثانية في أيدي المسلمين.

وعندما رأى البابا بأن أوضاع الأرض المقدسة، وقد أخذت تتردى من سيء إلى أسوأ بسبب التحالفات الصديقة الزائفة للامبراطور، استدعى الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان إليه وأمرهم بالتبشير بصليبية في أرجاء بلدان الغرب، من أجل اسعاف الأرض المقدسة.

وجرى في سنة ١٢٣٠م حشد جيش عظيم، وقد ركب رجاله البحر، ووصلوا إلى عكا، وكان في هذا الجيش عدد كبير من النبلاء والرجال المشهورين ذوي المكانة، وبعدما استراحوا لعدة أيام في عكا، قرروا مهاجمة بعض الأماكن الحصينة العائدة للمسلمين، وقام كونت أوف نوربريكانيا Norbricania بطيش بالحملة مع أتباعه، فاستولى عنوة على عدد من البلدات، وأحضر معه وهو عائد كميات كبيرة من الغنائم، والأسرى والحيوانات.

وعندما رأى الآخرون هذا، حرضتهم الغيرة والمنافسة لمحاولة القيام بمثل هذا الانجاز، فنظموا قواتهم وعبأوها، وغادروا المدينة في الصباح الباكر، وزحفوا فوق الرمال خلال فلسطين النهار كله، والليلة التالية جميعها، ووجدوا أنفسهم في اليوم التالي أنهم باتوا على مقربة من مدينة غزة، التي كان فيها قد احتشد آنذاك جمع كبير من المسلمين، وعلم هؤلاء المسلمين سلفاً باقتراب رجالنا، فنصبوا كمائن، ومع اقتراب رجالنا من دون حذر، انقضوا عليهم، وأحدثوا مذبحة هائلة بينهم، إلى حد أنهم جميعاً تقريباً أسروا أو ذبحوا، وعدد ضئيل جداً منهم هم الذين عادوا إلى عكا، ووصل في الوقت نفسه رتشارد، أخو ملك انكلترا إلى عكا، مع قوة هائلة من الأتباع، لكنه وجد الجيش مصاباً بالرعب، وعندها رأى أنه لايستطيع فعل شيء ضد المسلمين، عمل هدنة معهم لمدة ثمانية أعوام.

مجمع

في سنة ١٢٤٢ صار إنوسنت الرابع بابـا، فعقد مجمعاً عامـاً في ليون، حيث جـرت منـاقشـة استرداد الأرض المقـدسـة، وأعلن عن تمرد الامبراطور، وطلب منه الحضور بشخصـه، وبعث الامبراطور بمعاذيره وطلب المسـامحة، ووعد أنه في خـلال سنة سـوف ينتصر على السلطان، لاسترداد الأرض المقدسـة إلى الصليبيين، ولكن بما أنه لم يحافظ على هذا الوعـد بأي شكل من الأشكـال ولاوعـوده الأخـرى، جـرى حـرمـانه كنسياً، وادانتـه وتجريمه وخلعـه من منصبه، بأمـر من البابا، وقـد مات محروماً كنسياً، لأنه خنق من قبل ابنه.

وحدث فيما بعد في سنـة ١٢٤٤، في أيام بابوية البابا انوسنت الرابع، أن نشب خـلاف شيطاني بين صفـوف الصليبيين في مـدينة عكا في سـورية، وكـان ذلك فيما بين الجنويين والبنادقـة، لأن كـل واحـدة من هـاتين الدولتين رغبـت في أن تكون أعظـم مـن الأخـرى، وبلغـت الخصومة بين هاتين الفئتين إلى حد أن اسطوليهما حارب أحدهما الآخر، على مرأى من المسلمين أنفسهم، وصار البحر خطيراً جداً، إلى درجة أن مامن حاج تجرأ على زيارة الأماكن المقـدسة، لأن الفئتين كانتا قويتين في البحر والبر، وكانتا أداتا رعب لكل من الصليبيين والمسلمين سواء.

وعندمـا رأى السلطان بأن بلاده باتت عـرضـه للخطر بهذه الحروب القـائمـة بين الصليبيين فئة ضـد أخـرى استـدعـى الخراسـانيين التتار(الخوارزمية) وبداة عرب، وقـدم هؤلاء إلى مملكة القدس، وتغلبوا على الصليبيين هناك، وقتلوا عـدداً كبيراً منهم أمـام مدينة غـزة، وأخيراً شقوا طـريقهم إلى القدس، حيث تحاربوا مع الداوية والاسبتـارية الذين كـانوا قد سكنوا هناك بإذن السلطـان، وقتلوا كثيراً من بقاياهم، فضـلاً عن هذا دمـروا الضريح المجيد للـرب، ودنسوا كنيسـة المسيح بكل نوع من أنواع الدناسات.

وفي سنة ١٢٤٨م، كان القديس لويس، ملك فرنسا مريضاً بشكل خطير، فصلى إلى الرب حتى يسترد صحته، وتعهد إذا حدث ذلك، فإنه سوف يقوم بالحج عبر البحر، وعندما استرد صحته، حمل الصليب مع كثير من بارونات مملكته، وأبحر إلى سورية مع جيش كبير جداً، وقد نصحه كثير من الملوك بأن يرتحل براً خلال آسيا الصغرى، والاستيلاء على تركيا نفسها، لأن التتار كانوا قد دمروا بلاد تركيا وأضعفوها في السنة الماضية، ولو أن الملك مضى خلالها، لاستسلمت البلاد بدون شك إليه، لكن نصائح أخرى هي التي انتصرت، وأقلع الملك بحراً، ووصل إلى قبرص، وعندما سمع السلطان بهذا بات خائفاً ولذلك بعث إلى الملك عدداً كبيراً من الأطفال المسيحيين كان قد حصل عليهم، بعثهم بعد أن رشاهم حتى يقوموا بدس السم إلى الملك، وإلى امرائه، لكن بارادة من الرب، جرى اعتقالهم شخصياً جميعاً وأعدموا، ثم قام لويس بعد هذا بإقامة صلح بين البنادقة، والجنويين، والبيازنة، وانطلق إلى القتال ضد المسلمين.

وفي سنة ١٢٤٩ لتجسيد ربنا، وعندما كان اسطول الملك يستعد للابحار، وصل إلى هناك لمساعدته دوق بيرغندي، وأمير آخيا مع حشد من السفن، وجرى جمع أفراد الجيوش وأعلن لهم، بأنه بعون من الرب، سوف يتوجهون إلى مصر لحصار دمياط، ثم انهم أبحروا، ونظراً لامتلاكهم ريحاً طيبة في الأيام التالية، تمكنوا من رؤية أراضي مصر، ومن ثم بعد ذلك مباشرة رؤية مدينة دمياط، وعندما ألقوا مراسيهم رأوا الساحل مليئاً بالمسلمين على الخيول وعلى الأقدام، وكان مصب النيل في الوقت نفسه مغطى بالسفن، العازمة على اعاقة هجوم شعبنا.

ونزل شعبنا في اليوم التالي إلى اليابسة بوساطة القوارب، واستولى على مناطق حراسة النيل، حيث قتل أعداداً كبيرة من المسلمين، وعندما رأى المسلمون الذين كانوا في المدينة هذا ارتعبوا، وتخلوا عن كل أمل

بقـدرتهم على الدفـاع عن المدينة، ولذلك تسللوا من المدينة خلسـة أثناء الليل، بعد القاء النار في عدة أمـاكن، لكي لاتكون لها فائدة للصليبيين، وهكذا جـرى الاستيلاء على دميـاط للمرة الثانيـة، وأقام الملـك وجيشه فيهـا طوال الصيف كله، ذلك أنهم كـانوا غير قادريـن على القتال ضـد المسلمين، بسبب فيضان النيل.

وإثر انتهاء الصيف، عبأ الملك جيشه، وزحف خـارجاً للقتال، وهزم جميع القـوات المعـادية التي التقى بها، واستـولى على معسكرها، ونظرا لشعور قومنا واعتقادهم أنهم قد نالوا نصراً كاملاً، اندفعوا محدثين خللاً في صفوف قـواتنا وتعبئتها ونشروا أنفسهم فـوق المنطقة كلهـا، وعندما رأى العدو هذا استرد شجـاعته، وهاجم رجالنا بشـدة متناهية أرغمهم فيهـا على الفـرار، ولأن المسلمين حملوا عليهـم من جميع الجوانب، فقـد وقعت مـذبحـة بينهم، وبشكل خـاص بين النبـلاء الذين تبعـوا العلم الملكي، واستمـرت الحرب مؤلمة ضد قـومنا، إلى درجة أنه من عـددهم الكبير نجـا عدد صغير، ذلك أنهم كـانوا إمـا طعمة للسيف، أو وقعـوا أسرى بأيدي المسلمين، عـلاوة على ذلك فـإن لويس، ملك الفـرنسيين، التقي والمشهـور وقع أسيراً في أيدي الأعـداء مع اثنين من اخـوانه هما ألفونسو، وشـارل، وعندما أخذ السلطان الصليبيين وملكهم أسرى، تمّ الاتفـاق على أن يسلم الملـك دميـاط إلى السلطان، مع كل مـاوجـدوه هناك، وثمانية آلاف قطعة نقد اسـلامية ذهبية، وجميع الأسرى، وبالمقابل كان على السلطان أن يسلم الملك جميع الأسرى الصليبيين، الذين أسروا آنذاك، أو أسروا من قبل في مصر وسـورية مع جميع مقتنيـاتهم، وبعـد ابرام شروط السـلام هذه، عـاد الملك إلى سـورية، حيث بقي هناك لمدة خمس سنوات لحماية المؤمنين، لكنه عندما سمع بوفاة السيدة بلانشي، أي أمـه السيدة الأعظـم تقوى، قـرر الأمـور في سوريـة ورتبها، وعـاد إلى مملكته.

وبعد مضي بعض سنوات، استبد الأسى بالملك تجاه الوضع المؤلم للقدس المدينة المقدسة، وامتلأ بحماسة جديدة نحو الأماكن المقدسة، ونسي جميع مآسيه وتعاساته التي عانى منها في تلك المناطق، وانطلق للمرة الثانية لاسترداد الأرض المقدسة، مصحوباً بابنيه ويملك نافار، والنائب البابوي وعدد كبير من الأساقفة، والكهنة، وأشخاص روحيين، وبناء على نصيحة من رفاقه ومستشاريه أبحر نحو إفريقية، عازما على الاستيلاء على تونس، ذلك أنه بعد الاستيلاء عليها، سوف يكون من السهل عليه التمكن من الاستيلاء على مصر والأرض المقدسة، ولكن حل طاعون كبير بالجيش الصليبي، ومات الملك لويس مع اثنين من أولاده، كما مات القائد العام للجيش، وعندما كان الطاعون مستعراً بينهم، التحق بالجيش شارل أخو الملك مع أسطول كبير، وألقى الحصار على تونس، لكن بسبب الطاعون الذي أصاب الجيش أقام سلماً مع ملك تونس، وعاد إلى الوطن.

وبعد وفاة الملك لويس، جرى التغرير بجميع رعاة القطعان بكتابات مزيفة، وقد اجتمعوا مع بعضهم في كل من فرنسا وألمانيا تحت اسم واحد منهم دعوه رئيسهم، وقالوا بأنه أوحي اليهم من قبل ملاك بأن الرب كان غير قابل بتحرير الأرض المقدسة بوسائط الملوك والأمراء، أو الأغنياء، والناس النبلاء، ولابوساطة العسكريين، بل عن طريق الرعاة المستخف بهم، فهؤلاء هم الذين سيحررون الأرض المقدسة بعصيهم، وبها سوف ينتقمون للاهانات التي تعرض لها الملك القديس لويس ولموته.

وكان قائد هذا العمل الفوضوي، راهب اسمه جيمس، وكان راهباً مرتداً من طائفة رهبان السسترشيان، فهو قد ادعى بأن نجماً نزل من السماء، وقال له بأنه بهذه الطريقة لابد من تحرير الأرض المقدسة، ولذلك احتشد عدد كبير منهم، بحيث توفر منهم أكثر من عشرين ألفاً

من الرجال البسطاء، ورفضوا السماح لأي واحد من الطوائف المقدسة، أولأي رجل دين، أو كاهن، أو رجل متعلم، بالدخول إلى صفوفهم، وصاروا جريئين إلى حد، عمل فيه مقدموهم كأساقفة، حيث باركوا الماء المقدس، وعقدوا القرانات وزوجوا الناس، ووعظوهم، لكن عندما بات عليهم الذهاب إلى موانىء البحر، انتهت مغامرتهم إلى لاشيء. وعادوا إلى موطنهم فارغي الوفاض، وصار عدد كبير منهم، ممن كانوا من قبل رعاة بسطاء، قطاع طرق، ولصوص، وحرامية، وقتل كثير منهم وأعدموا في مناطق متعددة بسبب السرقات التي عملوها، وعلى هذه الصورة وصلت هذه الطائفة إلى نهايتها.

صراعات أمراء الصليبيين حول لقب ملك القدس

منذ ذلك الوقت فصاعداً لم تعد هناك رحلات عبر البحر، لأنه بات من الصعب جداً جمع شعب الغرب للحرب ضد المشارقة بشكل عام كما كان الحال من قبل، ومع ذلك بقي هناك صراع بين الأمراء حول لقب ملك القدس، ولذلك فإن هذا اللقب محمول من قبل عدة ملوك، من ذلك على سبيل المثال، من قبل ملوك انكلترا، كما قلنا من قبل، كما أن ملوك فرنسا يتفاخرون أحيانا بأنهم ملوك القدس، ويفعل هذا ملك قبرص، وملك صقلية، ومثلهما ملك اسبانيا، وعلاوة على ذلك اعتاد دوقات سوابيا، محقين كثيراً، على إدعاء هذا اللقب لأنفسهم، حتى ماتوا، لأنه، كما قلنا من قبل، تزوج فردريك، الامبراطور الثاني بهذا الاسم، ودوق سوابيا، من يولاند، ابنة جون، ملك القدس، ومعها عبر البحر، وفي القدس أعلن عنه ملكاً، وجرى تتويجه ملكاً على القدس، ولهذا السبب، قام ابنه مانفرد، فنصب نفسه ملكاً على صقلية، وعلى القدس، ومثله فعل بقية دوقات سوابيا من تلك الاسرة.

وفي سنة ١٢٦٤، عندما قام مانفرد المتقدم الذكر، وكونرادين، لأنهما

كانا سوابيين، بمضايقة دول الكنيسة وتهديدها، استدعى البابا كليمنت الرابع شارل، أخو القديس لويس، وطلب منه المساعدة ضد مانفرد، وكونرادين، والغبلينيين، وبعدما هزمهما شارل، وقتلهما معا في بعض المعارك، دخل إلى روما منتصراً، ونودي به ملكاً على صقلية والقدس من قبل البابا كليمنت، في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران، وإلى هذا اليوم يحتفظ ملوك صقلية، بلقب ملوك القدس.

وفي سنة ١٢٧٣م، عقد البابا غريغوري العاشر مجمعاً في ليون، فيه تحاور آباء الكنيسة مطولاً حول استرداد الأرض المقدسة، وحثوا الامبراطور رودولف، وفيليب ملك فرنسا على حمل السلاح ضد المغاربة لاسترداد القدس، ولتأمين نفقات هذه الحملة، فرض البابا ضريبة عشر على جميع المسيحيين لمدة ست سنوات، وأمر بالتبشير بحملة صليبية، وأعطى غفرانات واسعة للذين حملوا الصليب، وذهبوا إلى ماوراء البحار، من أجل الحرب، أو إلى الذين استأجروا جندياً أو أكثر، من أجل الحرب.

ووجه البابا في المجمع اللوم أيضاً إلى جميع طوائف الرهبان المتسولين، وحظرها باستثناء طائفتي الدومينيكان والفرنسيسكان فقط، لأنهن آخر الطوائف تأسيساً من قبل الكنيسة، ولديهن القدرة على الاستمرار، وفيما يتعلق بالرهبان النساك في الأرض المقدسة، والكرمليين، فقد مدد لهما، حتى تصدر قرارات جديدة حولهما، وقد فعل هذا حتى لايتمكن الرهبان المتسولون من التدخل في جمع الأموال من أجل الذين كانوا ذاهبين للقتال فيما وراء البحر، لكنني لم أعرف فيما إذا كانت أية حملة قد عملت إلى الأرض المقدسة، وكذلك لست عارفاً كيف أخفقت هذه الحملة، والذي أعرفه هو أن ايطاليا كانت في حالة اضطراب بسبب الغولف والغبلينيين، وكذلك اضطربت أوضاع المانيا، وفرنسا، وانكلترا بحروب داخلية، ولذلك كانوا غير مؤهلين لإسعاف

الأرض المقدسة.

هذا وامتلك شارل، ملك صقلية والقدس، وأخو ملك فرنسا، الحق مضاعفاً ثلاث مرات في أن يدعى بملك القدس، فذلك أولا بسبب أن البابا توّجه، وثانيا بسبب أنه كان صاحب صقلية، التي كانت من قبل ملكاً إلى ملك القدس السالف، وثالثا بسبب أن هذا اللقب قد أضفي عليه من قبل مريم، ابنة أمير انطاكية، التي كانت الوريثة الشرعية لملكة القدس، والتي اغتصب ذلك منها ابن اخيها(أختها)هيو.

ورفض شارل هذا بإباء أن يعين ملكاً على القدس من دون امتلاك المملكة هناك نفسها، فقد كره أن يكون ملكاً بالاسم وليس بالفعل، ولذلك فكر كيف يمكنه وبأية وسائط نيل القدس، وكان له ختن اسمه بلدوين، وقد عمل سنة ١٢٤٠م امبراطوراً للقسطنطينية، ولكن بما ان الاغريق معادين دوماً للاتين، فقد طردوه مهاناً، ووضعوا ميخائيل باليولوغوس، وهو اغريقي، مكانه، وقد اشار بلدوين الآن على شارل ملك القدس بمهاجمة امبراطورية القسطنطينية، لأنه إذا ما نال بلدوين القسطنطينية، يمكنه بسهولة أن يجعل من نفسه سيداً للقدس، وكان شارل ملكاً قوياً، ولم يبد له أنه عملاً عظيماً مهاجمة القسطنطينية، ولذلك جهز عدداً كبيراً من سفن الحرب واسطولاً عظيماً، وبمساعدة من الكنيسة، ومن ملك فرنسا، ومن البنادقة، أعدّ لطرد باليولوغوس من القسطنطينية، لكنه أعيق بشكل غريب في مغامرته بسبب بعض اللاتين الذي كرهوه، ولذلك لم يحصل على مملكة القسطنطينية ولاعلى مملكة القدس.

وحدث بعد هذا أن عقد في سنة ١٢٨٢ ملك الأرمن، الذي كان مسيحيا، معاهدة مع ملك التتار ضد السلطان، وقد غزوا سورية وانتزعا كثيراً من المقاطعات من سلطان مصر، وكانت القدس بين ماتم

الاستيلاء عليه، وقد أعطيت للمرة الثانية إلى المسيحيين الشرقيين، لكن بخيانتها أعيدت مباشرة إلى المسلمين.

[وكان لملك التتار هذا أخ اسمه تنجر Tandager(أحمد؟)، وكان مسيحياً، وولداً معمداً اسمه أرغون، لكن تودغار Todagar(كذا) تخلى عن العقيدة المسيحية، وأصبح مسلماً وعذب المسيحيين بقسوة بالغة، فقام ابن أخوه أرغون فقتله، ووسع انتشار الديانة المسيحية، وفي كل مكان حارب المسلمين، وسعى جاهداً لتحرير القدس.

وفي سنة ١٢٨٨م صار واحد اسمه كاسانوس Casanus (غازان) امبراطوراً على التتار، وقد كان صغيراً في جسده عظيماً في نفسه، وكان صاحب ملامح قبيحة، لكنه امتلك عقلاً رائعاً، لأنه كان محلى بالفضائل، وعاقلاً، وحكيماً في الحرب، وصديقاً جداً نحو المسيحيين، ومليئاً بتبجيل المدينة المقدسة، وضريح الرب، كما برهنت الأحداث.

وكان هذا الرجل عندما عُمل امبراطوراً، وثنياً، لكنه صار مسيحياً بطريقة مرضية، لأنه عندما صار امبراطوراً، عمل مثل آحازوروس AHASUERUS آخر، فأمر بالبحث له في جميع أرجاء مناطق الشرق عن أجمل فتاة يمكن العثور عليها، وذلك دون الاهتمام بأصالة النسب أو الثروة، بل التركيز على الجمال فقط، وقصد من ذلك أنها إذا ماأعجبته اتخذها زوجة له، ووجد ابنة ملك أرمينيا، وعندما طلبها للزواج، وافقت الفتاة مع أبيها على شرط أن يسمح لها بعبادة ربها، والرب يسوع المسيح، وأن لاترغم على اعتناق الديانة التتارية، وتمت الموافقة على هذا الشرط، وعندما حملت إلى الامبراطور أرضته إلى أقصى الحدود، فتزوج منها على الفور، وحملت، وولدت ولداً ذكراً، ولكنه كان ولداً مشوهاً، حتى أنه بدا بصعوبة أنه بشراً، وانزعج كاسانوس(غازان) من ذلك كثيراً، وتشاور مع أعيان بلاطه حول ماينبغي فعله بهذا الطفل المقيت

جداً، وقد أجابوه إنه من غير الممكن أن يكون هذا الطفل قد جرى الحمل به من انسان، ولذلك ينبغي احراق كل من الطفل والأم.

وعندما وضعت النار، وباتت جاهزة لهذا الغرض، وجرى إبلاغ المرأة الشابة بقرار الاعدام، طلبت وقتها منهم منحها فرصة تلقي القربان وفق الطريقة المسيحية، وأن يجري تعميد ابنها، وعندما عمل هذا، وجرى تعميد ابنها، ولدى اخراجه من الماء، فجأة تغير شكل الطفل، وبدا طفلاً جميلاً ونبيلاً حسب أفضل مايكون موجوداً في العالم، وكان غازان مسروراً إلى أقصى الدرجات لظهور هذه المعجزة، ولم يكتف بانقاذ زوجته وابنها من الموت، بل رسم بأن تكون امبراطورة، وأن يجري تعميده مع شعبه بشكل مهيب.

وعندما جرى تعليمه الايمان، وعرف بأن المسلمين يمتلكون الأماكن التي فيها صنع خلاصنا، قضى بأن ذلك تدنيس شنيع، وعجب كثيراً من تحمل المسيحيين لذلك، وأعلن الحرب مباشرة ضد سلطان مصر، واستعد للقيام بالاستيلاء على الأرض المقدسة، والقدس، وجاء إلى سورية ودخلها للقتال ضد سلطان مصر، وجلب معه مائتي ألف من التتر، وكان معهم جيشي ملكي أرمينيا وجورجيا، اللذين كانا عدوين للسلطان، والتقى السلطان به مع حشد كبير، وجرى قتال معركة رهيبة، وكان النصر من نصيب غازان، وأرغم السلطان على الفرار، وترك سورية، وذهب إلى مصر، واستولى غازان الآن على مدن سورية، التي كانت بينهن مدينة القدس المقدسة، فقد استولى عليها المسيحيون في سنة ١٢٩٩ لتجسيد ربنا، أي بعد ثمانية أعوام من طرد اللاتين من عكا، ودخل غازان إلى المدينة المقدسة، وبتقوى فائقة زار المدينة المقدسة، وأقام هناك لبعض الوقت.

لكنه عندما سمع بأن الاضطراب ثار في مملكته، بعث بسفراء إلى

الغــرب الأوروبي: إلى البــابـا بونيفيس الثــامـن، وإلى رودولف ملك الرومـان، وإلى ملوك الغـرب الآخـريـن، ملتمسـا منهم ارسـال قـوات صليبيــة إلى سـورية تسترد وتحتفظ بـالبلدان التي طرد منهــا قبل وقت قصير، وللاستيلاء على مـدينة القدس المقدسة، وبعدمـا أوصل السفراء المتقدم ذكرهم رسائلهم، ونالوا الموافقـة من جميع الناس، بعثوا عائدين، على أساس تفاهم قوامه أن الأمـراء الغربيين سوف يلحقون بهم مباشرة مع قوات كبيرة، لكن مامن أوامـر صدرت لفعل ذلك، بسبب الحروب الداخلية بين الأمـراء الغربيين، وكانت مصـالحهم أقرب إلى قلوبهم من حــرب الرب، وذلـك كما سنوضح في القسم الثـــاني، وعلى هذا إنه في الوقت الذي كانت نفقة متـواضعة وقوة صغيرة، يمكن بها الحفاظ على سـورية والقدس، التي استـولى عليهما غازان، لصـالح المسيحية، مـامن محاولة جرت، ولعـار المؤمنين، ولعدم اهتمامهم الاجرامي لاتتـوفر الآن أية امكانات لاستردادهما.

وعندما انسحب غازان من سورية مع قواته، استرد المسلمون سورية بسهولة لأنـه مامن أحد اعترض سبيلهم، وقـد قتلوا وطردوا المسيحيين الشرقيين الذين وضعهم غازان في المدن التـي احتلها، وذلك مثلما فعلوا من قبل مـع المسيحيين اللاتين من الغــرب، وبناء عليــه، حــدث سنة ١٢٩١ لتجسيـد الرب، وذلك بعـدمــا كـان السلطان قـد استـولى على أنطاكية، وصور وطرابلس، ومدن اللاتين الأخرى، أنه صرف نواياه إلى طرد الصليبيين طرداً كـامـلاً من الأرض المقدسـة، وكـان الذي يمتلكه اللاتين في سـورية كلهـا، مدينة واحـدة، هي مـدينة عكا، وكـانت هذه المدينة ثرية جـداً، ومكتظة بالسكـان، لأنه سكن فيهـا ملك القـدس مع بلاطـه، ومقـــدم الداوية، ورئيـس الاسبتـــارية، والسيـــد البطـريرك واكليروسـه، وكـــان جميع الذين يسكنون في المدن التي استــولى عليهـا السلطان، ونجوا منها، قد هربوا إلى هاهنا مع مقتنياتهم، وكان في المدينة

عســاكــر يدفع لهم ملك انكلترا، وملك فــرنســا، والملوك الآخــرين والأمـراء، وحوالي ثمانيـة عشر ألف حـاج يحملون شـارة الصليب، من مختلف الشعوب والبلدان.

ولهذا السبب كــان في عكا سبع عشرة هيئة قضـائيــة منفصلة للنظر بالجرائم وبسفك الدماء، وغالبا ماقامت فوضى بالنسبة لقرارات الحكم على مقترفي الآثام، وامتلك الـدومينيكان مع الفــرنسيسكــان هناك ديرة جيــدة، لكل من الـرهبــان والراهبــات، وعندمــا أقلـع المعلم المبجل جوردان، خليفة القديس دومينيك، بوساطة البحر لزيارة الدير في عكا، غرقت سفينته ومات ميتة مباركة أضاءت بصليب إعجازي.

وهذه المدينة قائمة على واجهة بحرنا، وذلك في وسط ساحل سورية، وهي لاتبعد أكثر من أربعين ميلاً ايطاليـا عن القدس، وقد بنيت بشكل رائع ومكان مـوائم جداً، ولذلك كـانت مليئة بالتجـار من الشرق ومن الغرب، لأنها كانت نبعـاً لجميع التجارات المحمولة بالبحـر، وقد غدت مدينة فخمـة جداً، إلى حد أنه لم يكن في العـالم كله مدينة قيل هي أغنى منها.

كما أنه لم يكن هناك مدينة توازيها بالشرور والآثام، وعندمـا كانت في ذروة ازدهارها، حـدث أن بعضـا من عسـاكـرنا اعتقلوا بعض التجـار المسلمين، وذلك في أيام الهدنة، وعندمـا سمع السلطان بهذا، حشـدقـوة هائلة، وحاصر المدينة، وفي تلك الأثناء فوّق واحـد من المسلمين قوسه وأقـدم على رمي قائـد المدينة، فقتله، وهو القـائـد الذي بأوامره كـانت الأشياء كلها تعمل هناك، وعندما مات، انعدم النظام هناك، وبدأ الناس يفـرون بالسفن عبر البحـر،وعندمـا مـا لم يعـد هناك من يعترض سبيل المسلمين، دخلوا إلى المدينة، وقتلوا جميع الصليبيين، ونهبوا كل ماوجدوه هناك، وفي أثناء عمليـة السلب هـذه، قيل بأن ستين ألفـاً من الصليبيين قـدباتوا طعمـة لسيــوف المسلمين في عـام ١٢٩١م، وهكذا هلك جميع

اللاتين وطردوا من الأرض المقدسة، باستثناء الذين صاروا رعية للمسلمين، وهم الذين جرى حرمانهم من قبل الكنيسة.

وعندما وصلت أخبار ماحدث إلى الغرب، كان هناك حزن عميق في بلاط روما، ومنح البابا نيقولا الرابع غفرانات كبيرة، لأي انسان سوف يحمل شارة الصليب، أو يرسل آخرين لمساعدة الأرض المقدسة، وقام بمسيرات مهيبة، وأصدر قرارات حرمان كنسي ضد جميع التجار المسيحيين، أو آخرين يجلبون إلى الاسكندرية وأي بلد آخر خاضع إلى السلطان، ليس فقط الأسلحة والخشب، وهو ماكان محرماً منذ زمن بعيد، بل يجلبون أية تجارات مهما كان نوعها، ويعد هذا صدر حرمان ضد الأماكن المقدسة نفسها، وصار ممنوعاً، مع عقوبة الحرمان الكنسي، على أي انسان، عبور البحر لزيارة الأماكن المقدسة، حتى لو كان ذلك صادراً عن التقوى، وذلك دون الحصول على إذن من البابا، وقد وجدت هذا في واحد من كتب الحج].

وبعد ثمانية أعوام من خروج الصليبيين من الأرض المقدسة، جاء امبراطور التتار، المسيحي الجيد الذي تقدم ذكره، واستولى على مدينة القدس، التي قدمها منحة إلى أساقفتنا وأمرائنا، لكن لم يكن هناك واحداً منهم، قد رفع يده للعبور إلى هناك، كما قلت، وهكذا من خلال هذا العقوق تمت خسارة الأرض المقدسة خسارة كاملة بالنسبة لنا، حتى لم يعد هناك من يفكر باستردادها، ولم يعد هناك من سبيل إلى استردادها، مالم يتفضل الرب فيعمل معجزة ما في سبيل ذلك، وفي هذا الخروج الأخير للصليبيين من الأرض المقدسة، لم يبق أي لاتيني في سورية، إلا الرهبان الدومينيكان، علاوة على ذلك تسلم الرهبان الفرنسيسكان والكرمليون بعض الأماكن في سورية، وبقيوا فيها، بناء على أوامر من البابا، وقد مكثوا فيها حتى جرى قهرهم، وقتلهم وإبادتهم من قبل المسلمين.[٢٩٠].

كيف كانت حال المدينة المقدسة بعد طرد الصليبيين اللاتين، وكيف أمكن للرهبان الفرنسيسكان الاستقرار هناك، وأيضاً ما هي المبالغ التي قدمها الصليبيون من أجل استرداد الأرض المقدسة.

بعد طرد اللاتين بقيت مدينة القدس المقدسة لسنين كثيرة من دون أي لاتيني أو مسيحي روماني، لأنه كما قيل من قبل، عندما غادر اللاتين القدس، دخل المسيحيون الشرقيون، الذين كانوا هراتقة رهيبين، ومنشقين، دخلوا إلى هناك، وحلوا محل اللاتين، وصاروا متملكين للكنائس التي بناها اللاتين، ولم يسمح للاتين بامتلاك أية أماكن في المدينة المقدسة، لابل لم يسمح لهم حتى بدخول الأرض المقدسة ومدينة القدس من دون حراستهم من قبل المسلمين مع احتياطات عظيمة، ومع جواز سفر (أمان)، وأيضا مع دفع ضرائب ثقيلة جداً، وعندما وصلوا إلى القدس، لم يجدوا خدمات أو طقوس ربانية، إلاّ طقوس المنشقين والهراطقة، كما لم يجدوا أية مواساة مهما كان نوعها.

ولم يكن هذا محمولاً من قبل الكنيسة اللاتينية وشعب الغرب، الذي كان يشعر بحماسة ملتهبة جداً نحو الأماكن المقدسة، وعندما جرى طرد الصليبيين من الأرض المقدسة، وصلت هذه المسألة إلى مسامع البابا نيقولا الرابع، الذي كان من طائفة الفرنسيسكان، وهو الذي اختير بابا في سنة ١٢٨٧ لتجسيد الرب، قبل سقوط عكا، وبعد خسارة عكا، وطرد الصليبيين، أرسل سفراء إلى السلطان مع هدايا. ورجاه السماح لبعض رجال الدين اللاتين للسكنى في القدس من أجل حماية ضريح المسيح، وقال له بأنه ربما لن يهتم بمنحه ذلك من أجل حبَ المسيح، أو بسبب صلوات البابا الصادقة والأمينة، إنه عليه أن يفعل ذلك من أجل انتشار مجد اسمه في الخارج، على أساس أنه إذا ماترك بعض اللاتين يدخلون إلى المدينة، فإن عظمته ستصبح معروفة في جميع أرجاء الغرب،

وكذلك في الشرق.

ومنح السلطان موافقته على مطلب البابا هذا، وطلب منه ارسال بعض رجال الدين والرهبان ورجال سلام إلى القدس، علاوة على هذا عين صدقات يومية تعطى للمشفى المسيحي في القدس، ولذلك اختار البابا بعض الرهبان من طائفته، ممن كانوا مستقيمين، ومتعلمين، وأمناء، وكانت طائفته هي طائفة الفرنسيسكان، وبعث بالذين انتقاهم إلى القدس، ليقيموا قداسات ربانية في كنيسة قيامة الرب، لصالح جميع أعضاء كنيسة روما، وذلك خشية منه بقاء تلك الكنيسة المقدسة جداً مهجورة من قبل اللاتين، وعندما قدم أولئك الآباء المقدسون إلى القدس، لم يكونوا يمتلكون أية بيت فيها، ولذلك ذهبوا إلى المشفى العام العائد للحجاج، وأقاموا فيه، في حالة عوز عظيم، وتعاسة، لبضع سنوات، وظلوا بدون بيت خاص بهم، يعيشون على بعض الصدقات التي كانوا يتلقونها من الحجاج.

وفي سنة ١٣٠٠م، صار القديس لويس، الذي كان من طائفة الفرنسيسكان أسقفاً لطولوز بأمر من البابا بونيفيس الثامن، وكان القديس لويس هذا حفيداً للقديس لويس ملك فرنسا، وكان ابنا لشارل، وأخاً لروبرت، ملك أبوليا، وكالبيرا، وصقلية، والقدس، وعندما سمع هذا الأسقف بسوء أوضاع الرهبان الفرنسيسكان، والشقاء الذي كانوا فيه يعيشون في القدس، ذهب إلى صقلية إلى أخيه روبرت، ملك القدس، لكي يساعد إخوانه الرهبان، وجذب قلب الملك نحو محبة الطائفة، بإخباره كيف أنهم كانوا يعيشون في عوز وفاقة في مدينة القدس، حيث يرعون مصالح الكنيسة اللاتينية كلها، وليس لديهم حتى بيت هناك، بل يسكنون في المشفى.

وعندما سمع الملك بهذا، رتب شؤون مملكته، ثم أخذ عدداً من الرهبان الفرنسيسكان، معه، وأقلع بحراً نحو سورية كحاج عادي

بسيط، وذهب إلى القدس بموجب جواز أمان من السلطان، وشاهد الأماكن المقدسة وقبّلها، ثم إنه ذهب إلى مصر إلى السلطان ورجاه أن يعطيه كنيسة جبل صهيون مع الأبنية المجاورة، وبيعة مريم العذراء المباركة في كنيسة ضريح الرب، مع القاعات المجاورة، وقاعة ضريح الرب، وكنيسة مريم العذاراء المباركة في وادي شعفاط، وكهف ميلاد الرب في كنيسة مريم العذارء المباركة في بيت لحم مع الأبنية المجاورة، وذلك لإعطاء ذلك كله إلى الرهبان الفرنسيسكان، الذين وافق من قبل على سكناهم حيثما أرادوا في القدس، وذلك من أجل إقامتهم فيهم.

وعقد الملك روبرت اتفاقاً مهيباً مع السلطان حول هذه الأماكن، وتسلمهم منه ودفع إلى السلطان مقابيلهم اثنتين وثلاثين ألف دوقية من العين المدفوع، وبعدما دفع الملك هذا المبلغ، ذهب إلى القدس، ومنح الأماكن المتقدم ذكرها إلى الرهبان الفرنسيسكان ليتملكوها تملكاً أبدياً هم ومن يخلفهم بشكل أبدي عوضاً عنه، وعندما تسلم الرهبان الفرنسيسكان تلك الأماكن، بنوا عليها ثلاثة أديرة، كان الأول منها على جبل صهيون، وذلك حيث كان هناك من قبلهم دير للرهبان القانونيين النظاميين، وكان الثاني في كنيسة قيامة الرب، إلى جانب بيعة العذراء المباركة، من أجل أن يستخدم من قبل الأوصياء على ضريح الرب المقدس، والثالث في بيت لحم، وجميع هذه الديرة كأنها دير واحد.

وعندما رأى رهبان الدومينيكان بأن السلطان قد أخذ مالاً، وباع أماكن مقدسة، جمعوا مبلغاً صغيراً من المال من خلال الصدقات واشتروا حقل حق الدم، الذي يطل من الأعلى على وادي صهيون، على طرف جبل جيحون، واشتروا كذلك كهف القديس جيمس عند سفح جبل الزيتون، فوق بركة قدرون في وادي شعفاط، وأقام الرهبان هناك لبعض الوقت، لكن بما أن تلك الأماكن كانت مكشوفة تماماً، وليست مغلقة بأية جدار، كان عليهم التحمل باستمرار الاهانات من المسلمين

ومن البداة العرب، ولذلك كان من غير الممكن بالنسبة لهم البقاء هناك، ولهذا هجر الدومينيكان هذه الأماكن وارتحلوا عائدين إلى العالم المسيحي.

هذا وتوفر لدى الفرنسيسكان أديرة محمية بأسوار قوية، أعطاهم السلطان إياها عن نفسه وعن خلفائه على أساس مبلغ المال المتقدم ذكره، ومع ذلك عانوا من كثير من الأذى، وغالباً ماتعرضوا لاضطرابات قاسية من قبل المسلمين، وكانوا - كما يمكن القول- عرضة للازعاج يومياً، وجاء المسلمون في سنة ١٣٦٨ إلى دير جبل صهيون، وقتلوا اثني عشر راهباً، ودخلوا بعد هذا للمرة الثانية، وهدموا البناء المقبب لمهجع النوم، وخربوا قلايات الرهبان، وفي وقت آخر فيما بعد، أخذ السلطان منهم، بتدبير من اليهود، وانتزع موضع ضريح داوود وملوك اليهودية الآخرين، وهدموا الـ Coenaculum في المكان الذي أنزلت إليه الروح القدس على الرسل في يوم عيد الحصاد، وهو مكان بني بنفقات كبيرة من قبل ملك فرنسا، وذلك بناء على موافقة من السلطان، ولم يسمحوا بإعادة بنائه، ودمروا أيضاً أماكن أخرى حول كنيستهم، دون مبالاة بأن هذه الأماكن قد شريت من قبلهم، علاوة على ذلك، جرى قتل عدد كبير منهم على أيدي غير المسيحيين، وجرى تعذيبهم، ولم يشعروا بالأمان لاحول الأماكن المقدسة التي بأيديهم، ولاحول حياتهم.

وفي سنة ١٣٠٠ لتجسيد الرب، وقبل إعادة تنظيمهم، ازداد هؤلاء الرهبان وتناموا حتى أصبحوا لايمكن تحملهم، وصاروا عدوانيين تجاه المسلمين والمسيحيين سواء، لكن الطائفة قدمت إلى عون الدير، فوضعت رجالاً مستقيمين وحكماء فيه، ولذلك يحافظون حتى هذا اليوم على ممارسات قلبية للخدمات الربانية، ويخدمون الحجاج باخلاص، أي الزوار الذين يقدمون إلى هناك، ويزودونهم بكل ما

يحتاجون إليه، ويأخذون المرضى من دار الضيافة إلى المعالجة لديهم، ويحيطونهم بالعناية والرعاية المثلى، وهذا أمر جربته أنا شخصياً عندما كنت مقيماً بينهم، ولهذا السبب نالوا لأنفسهم محبة جميع الأمراء المسيحيين، والبارونات، والنبلاء، ولذلك يضفون الصدقات عليهم، ويدعمون هؤلاء الرهبان بمساعدات كبيرة، ويرسل جميع الملوك صدقاتهم إليهم سنة فسنة، حيث يرسل بعضهم إليهم خمسمائة دوقية، وبعضهم أربعمائة، وبعضهم أكثر أو أقل تبعاً لعاداتهم، أو وفقاً لمدى عمق مشاعرهم واخلاصهم تجاه الأرض المقدسة، ومثل هذا هناك كثير من الصدقات تمنح إليهم يومياً من قبل الحجاج، ومن قبل الذين يتلقون شارات الفروسية في ضريح الرب، وهم يحتاجون إلى هذا كله، لأنهم لايجمعون أية صدقات من المسلمين ولا من الشرقيين، ولا من المسيحيين، بل يحصلون على جميع وسائط عيشهم من الغربيين، ولذلك على الناس النظر إلى هذا الموضوع بعناية وأن يتدبروا عدم وقوع هؤلاء الرهبان في حالة فاقة قاسية، وذلك من أجل أن تبقى أبنية الكنائس مصانة ومرممة على حساب صدقات المؤمنين ولكي يمكن إعادة المشفى للغرباء وللحجاج، ومن أجل شراء الإذن بزيارة الأماكن المقدسة من المسلمين بالدفع من قبل الكنيسة.

وفي الحقيقة حدث منذ انطلاق الايمان وبدايته، وفي أيام العهد القديم، أن اعتاد الملوك من الأمم والأمراء على إرسال المال والأعطيات إلى القدس من أجل استخدامات الذين كانوا يمارسون القيام بالطقوس الدينية هناك، وهذا واضح مرئي من اسدراس:١/١/٦—٧. ومن نحميا: ٢و٣، ومن اسدراس:٤، ومن المكابيين:٢/٣، وفي العهد الجديد اهتم الرسل المباركون اهتماماً خاصاً بجميع الصدقات من الأمم الأخرى، من أجل استخدامات الذين كانوا في القدس، ونقرأ في رسالة الكورنثيين:١/١٦، بأن القديسين بولص وبرنابا انشغلا بشكل خاص

بهذا العمل، وانظر ايضاً شروح القديس توما الأكويني، وبطرس أوف ثارنتاسيا Tharentasia ، ونيقولادي ليرا، وكذلك غلاطية:٢/٨، وروما:١٥، حيث قال الرسول:« ولكن الآن أنا ذاهب إلى أورشليم لأخدم القديسين، لأن أهل مكدونية وأخائية استحسنوا أن يصنعوا توزيعاً لفقراء القديسين الذين في أورشليم»، لأنه وجد في جميع الأوقات في القدس، رجال ونساء يعيشون في فقر انجيلي، ومن أجلهم سعى الرسول للحصول على صدقات.

هذا وعندما قدم الأعمدة الأولى للكنيسة: بطرس، وجيمس، ويوحنا أيمانهم بالتبعية لبولص وبرنابا، ورسموهما رسولين إلى الأمم، وبعثوا بهما للتبشير، على شرط أن يتذكروا الفقراء الذين كانوا في القدس، ويجمعون المال من أجلهم، ويرسلونه إليهم كما قرأنا في غلاطية:٢، ففي هذه الرسالة كلها تقريباً، نصح بولص بجمع المال وأن يكون ذلك في أيام السبت، من أجل جميع الذين كانوا في القدس، والحرص تماماً على ارسال المال إلى هناك بأمان، ولهذا ذهب هو حتى بنفسه إلى القدس، لإعطاء المال الذي جمعه وتوزيعه على الناس، كما رأينا في روما:١٥، وفي أعمال الرسل:٢٤، حيث أشار إلى هذا إلى الحاكم فيلكس.

وبقيت هذه العادة في جمع المال وارساله إلى القدس، لمدة طويلة في الكنيسة، وقام في احدى المرات ناسك اسمه فيجيلانتوس Vig-ilantius، كان من بين أخطائه إعلانه أن هذا الجمع للمال وارساله إلى القدس عمل عابث، وبلا فائدة، لكن جيروم بطل الكنيسة تصدى له، وهزمه بشكل كامل، وسحقه فيما يتعلق بمسألة هذه الخطيئة، فهذا مانقرأ عنه في الرسالة ضد فيجيلانتوس، ومثل هذا أطرى واحداً اسمه ليسينوس Licinius ، وكان رومانياً غنياً جداً، قد بعث كثيراً من الصدقات إلى القدس، وأعطاه كثيراً من الذهب، حتى كان قادراً على

تدبر حاجيات أناس كثيرين، وذلك حسبما نقرأ في الرسالة إلى الأرملة ثيودورا.

فضلاً عن هذا نقرأ بأنه توفر لدى القديس غريغوري عناية خاصة برجال الدين في القدس، الذين إليهم بنى ديراً، وبعث إليهم بالمال، وعلاوة على ذلك، إنه من أجل هذه الغاية جرى تأسيس الطوائف الثلاث، أي: فرسان الداوية، وفرسان الاسبتارية وفرسان التيوتون للقديسة مريم، وقد تمكنت هذه الطوائف من بناء بيوت لها في جميع البلدان، ومن تكويم الممتلكات وجمع الثروات الأخرى، من أجل ارسالها إلى القدس، وقد أثرت الطائفة الأولى(الداوية) وازدهرت كثيراً في الأمور الدنيوية، إلى درجة أن الكنيسة الغربية لم يعد بامكانها استيعابها، وقد زالت هذه الطائفة وتلاشت، مع أن شطراً من ممتلكات الداوية قد أعطيت إلى الاسبتارية، الذين اسمهم الآن فرسان القديس يوحنا، الذين جميع ممتلكاتهم عائدة إلى القدس، لكن عندما انتهى سبب ارسال المال إلى هناك، فمن المتوجب كذلك انتهاء جميع الثروات التي جمعت لهذه الغاية، لكن الاهتمام بهذا الأمر كان ضئيلاً، ولهذا تتحمل الكنيسة طوائف بلا فائدة، وفي الوقت نفسه مامن انسان هو مهتم بارسال المساعدات إلى الأوصياء على الضريح في القدس، من أجل امتلاك مايكفي من مال للدفع من أجل نفقاتهم، ومن أجل إبقاء الأماكن المقدسة وكنائس المسيح في حالة منتظمة، وهذه مسألة ينبغي على المؤمنين منحها اهتمام خاص، لأن إيماننا قد تأصل هناك، وقداساتنا هناك اكتملت.

الشعوب التالية هي التي تسكن القدس في هذه الأيام

مدينة القدس المقدسة في هذه الأيام موضع الاستقرار والسكنى لمختلف شعوب الدنيا، وهي لهذا، كما كانت، مجمعاً لجميع أنواع الآثام:

١ — المسلمون

السكان الرئيسيون هناك هم المسلمون، الذين هم محمديون، وهم ملوثون بحثالة جميع الهراطقة، وهم أسوأ من الوثنيين، وممقوتين أكثر من اليهود، وهم ينكرون التثليث، ويؤمنون بعقيدة الطبيعة المزدوجة، وهي عقيدة لاهوتية شائنة، غير أنهم يعترفون بطبيعة الجوهر الرباني، ويعلنون أن الله لايمكن أن يكون له ولد، لأنه ليس له زوجة، علاوة على ذلك هم يرون بأن الله ليس مركباً، لأنه لم يكن عرضة للتغيرات والحوادث، وهو لايعيش مثل الناس لأنه لايأكل، ويقولون أيضاً بأن الله وملائكته يصلون على محمد ﷺ وعلى بقية المسلمين، وهم ينكرون تجسيد الكلمة، ويعلنون بأن المسيح ليس رباً، كما أنه ليس من طبيعة وتركيب الأب، بل يقولون بأنه كان مجرد روح الله، وهم يعلنون أيضاً بأنه كان مقدساً جداً، ورجلاً فضيلاً، وهو دون سواه من الناس ولد من العذراء من دون أي أب، ويقولون بأنه لم يتألم مطلقاً، ولم يصلب أو يمت، بل نقل من قبل الله، وأنه في نهاية الدنيا سوف يموت، بعد قتله المسيح الدجال.

وهم يعلنون بأنه ليست هناك قدّاسات، ولاعجب في هذا، فهم ينكرون الصليب نفسه، وهم يقولون بأن المسيح سوف يحكم العالم، لكن مع الله ومع محمدﷺ وفيما يتعلق بما كتب حوله، هم يعترفون بجميع أمجاده، ويعظمونه، ولايقرون بما قيل حول اذلاله وعاره.

وفيما يتعلق بمريم العذراء، هم يعتقدون باخلاص بأنها كانت أخت هرون، وهم يقولون بأن للملائكة أجسام، وأنه من هؤلاء الملائكة تم صنع أولئك الشياطين الذين رفضوا السجود لآدم، وهم يقولون بأن البطاركة(الآباء) المقدسين والأنبياء كانوا مسلمين، وأن الناس هلكوا بالطوفان لأنهم رفضوا أن يكونوا مسلمين، وأن الحواريين أيضاً آمنوا بالاسلام وسموا أنفسهم مسلمين، وهم يلومون المسيحيين لأن لديهم

أساقفة وكهنة وقد جعلوا منهم أربابا، علاوة على ذلك هم يضحكون منا، ويستخفون بنا لأننا عملنا مريم العذراء رباً، ويقولون بأن المسيح اعتذر في حضرة الله، وأنكر أن تكون أمه ربة، وفيها يتعلق بقرآنهم هم يقولون أنه لاالانسان ولاالشيطان يمكنه أن يصنف مثل هذا الكتاب الفصيح والعذب، والعجيب المدهش، وهم يقولون بأن أعلى درجات السعادة موجودة بالمسارّ الجسدية، والشرب، وماشابه ذلك مثل الثياب، الخ، وقالوا بأن السموات قد صنعت من بخار، وهذا البخار قد تصاعد من البحار، وهم يسمون البحر Mote capff وأنه هو الذي يحيط بالعالم، ويمسك السموات، وقالوا بأن الشمس والقمر كانا في البداية متساويين بالإضاءة، ولم يكن وقتها هناك تمييز بين الليل والنهار، لكن عندما كان الملاك جبرائيل يطير عبر السماء، أصاب بجناحه فلك القمر، وبذلك جعله مظلماً، وفيها يتعلق بالموت، يقولون هناك ملاك اسمه عزرائيل، هو الذي سوف يتولى في نهاية الحياة إماتة جميع المخلوقات، حتى الملائكة، وفي الأخير سوف يميت نفسه أيضاً، وعندما يحدث هذا كله الله سوف يقيم جميع المخلوقات ويبعثهم من الموت، وذلك باستثناء الموت نفسه علاوة على هذا هم يقولون بعض الأشياء حول فضائل النفس، ونهاية جميع الأشياء، وهم يتزوجون بأكثر من زوجة، ولايقبلون الاعتراف بممارسة السدومية، وهم يخطئون بلا حدود في كثير من المجالات، قد كتب حولها في «حصن الايمان» وفي ترجمة القرآن.

٢ـــ *الروم الأرثوذكس*

هناك كثير من الروم الأرثوذكس يسكنون في القدس، وكانت الكنيسة الأرثوذكسية تمتلك في الأيام الخالية رجالاً متعلمين عظماء جداً، لكنها الآن مظلمة بذنوب لاتحصى، وبشكل خاص بأربع نقاط رئيسية هي:(١) هم لايعتقدون بأن الروح القدس قد صدرت من الابن، أو أن ذلك له أي وجود،(٢) هم يعلنون بأن أرواح الموتى هي ليست في الجنة

ولافي النار، وذلك قبل أن يصدر عليها الحكم في يوم الحساب، وبذلك هم ينكرون عقيدة التطهير،(٣) هم يقولون بأن جسد المسيح لايمكن تدميره أو ايذائه،(٤) هم لايعترفون بأن كنيسة روما هي رأس جميع الكنائس، كما أنه لاتنبغي اطاعتها، وهم يفسخون الزواج على أسس تثليثية، ولايقيمون وزناً للسيمونية، وهم يحتفظون بجسد المسيح المصنوع في يوم خميس العهد طوال السنة، ويرون أن له تأثيراً عظيماً وغالباً مايقومون بحرمان البابا كنسيا من أساقفتنا، وجميع رجال الدين الرومان، وهم يولون قليلاً من الاهتمام لقداس المسح الأقصى، ويقولون بأن حلق اللحية ذنب من الذنوب، وهم يرون بأن أساقفتهم أعلى من السادة الدنيويين، وهم يمتلكون كراهية حادة تجاه كنيسة روما، ولذلك سلموا جميع بلاد الاغريق إلى الأتراك، وبذلك ضيعوا أنفسهم وبلادهم بسبب كراهيتهم للكنيسة اللاتينية.

٣— *السريان*

ويوجد في القدس سريان، هم في الحقيقة ليسوا مسيحيين، بل أبناء الشيطان، لأنهم كذابين، وغير جديرين بالثقة، ويرون أن سرقة اللاتين ليست أمراً محرماً ولاخيانتهم، وهم مثل الروم الأرثوذكس يتبعون عقيدتهم، وبعدوى أخطائهم قد أصيبوا، علاوة على هذا إنهم فيما يتعلق بيوم السبت، هم يتبعون اليهود باتخاذه عيداً، ويستخدمون بأحاديثهم العامة اللسان العربي، وفي القداسات الدينية السريانية، ولهم لحى طويلة ويكرهون الذين بلا لحى، وهم ضعفاء، ولافائدة منهم البتة في الحروب.

٤— *اليعاقبة*

ويوجد في القدس مسيحيون اسمهم اليعاقبة، كان قد جرى طردهم منذ زمن طويل من الكنيسة الإغريقية بقرارات من بطريرك

القسطنطينية، ويقوم هؤلاء القـوم بختان أولادهـم وفق طريقة المسلمين، وهم يخفون اعترافاتهم الشخصية، ويعترفون بطبيعة واحدة للمسيح وفي قداساتهم يستخدمون اللغة السريانية.

٥— الأحباش

ويوجد في المدينة المقدسة أحباش أو هنود، وهؤلاء لهم ملك مسيحي منه حتى المسلمين يخافـون خوفـاً عظيماً، ولذلك فإن الذي يحمل جـواز سفره يمكنه أن يسافر خلال الشرق من دون اعاقة، وهؤلاء القوم أيضاً يختنون أطفالهم ويكوون على وجوههم بقطعـة حديد محماة، ويعمدونهم باسم المسيح، ويكرسـون القـربان بخبـز مخمـر، ويعملون القـربان بكلا النوعين لأطفالهم، وهم يهلكون أجسـادهم بصيام شـديد يصل إلى حد الهلاك من الجوع.

٦— النساطرة

ويوجد في القـدس مسيحيون اسمهم النساطرة، اقتيـدوا إلى الضلال بأخطاء مـن أسـوأ الأنواع، ويتمسكون بآراء كثيرة خـاطئـة تتعلق بأم الرب، وبابنهـا، وهم يعتقدون أنه كـان في المسيح طبيعتان وشخصـان، ويقولون بأن مريم العذراء المباركة كانت أم المسيح الانسان، لكن ليس ابن الرب، وهم يستخدمـون اللغة الكلدانية في صلواتهم، ويستخـدمون الخبز المخمر في قداس العناصر.

٧— الأرمن

ويوجـد في القـدس مسيحيـون اسمهم الأرمـن، قـد غـرقـوا في آثام متنوعة، وبين هؤلاء وبين الاغريق دوماً اعظم الخلافات،. وذلك بسبب الخلافات الدينية، وهم يمتلكون لغة وأبجدية خاصة بهم، ويعدون يوم الميلاد يوم صيام، ولايحتفلون بقداس فيه، لكنهم يمنحون تشريفاً عظيماً ليـوم عيـد الغطاس، بسبب تعميـد المسيح، وهم يحافظون على الصـوم

الكبير بصرامة عظيمة جداً، إلى درجة يمتنعون فيها عن أكل السمك، والزيت وشرب النبيذ، ومع ذلك إنهم يأكلون الخضار والفواكه كما يريدون وبشكل دائم، لأنهم لايرون بأن هذه الأشياء تفسد صيامهم، وهم لايمزجون الماء مع خمرة القربان، ويأكلون اللحوم في أيام الجمعة، وهم لايسهرون كصوم، ولا في أيام Ember(الجمرة)، ولالأثناء الصوم الكبير، الذي يصومون أيامه بصرامة متناهية، ويشمل ذلك حتى يوم الرب، وهم لايأخذون بعقيدة التطهير، ويشاركون اليعاقبة في أخطائهم فيما يختص بالمسيح.

٨— *الجورجيون*

ويوجد في القدس جورجيون(كرج)، يُدعون بمسيحيين، وهؤلاء رجال حرب منذ ولادتهم، إلى حد أنهم يُخشون في جميع أرجاء الشرق، ويعبرون إلى حيثما أرادوا دونما إعاقة، ودون دفع أية جزية، والنساء لديهم يستخدمون السلاح مثلهن في ذلك مثل الرجال، وبينهم وبين الأرمن هناك حروب إلى درجة الفناء، وهم ملوثون تقريبا بجميع آثام الاغريق، ويطلقون لحاهم ويجعلونها طويلة مثل بقية الشرقيين.

٩— *الموارنة*

ويسكن في القدس مسيحيون اسمهم الموارنة، وهم هراطقة، ويعتقدون أن للمسيح ارادة واحدة، وطاقة واحدة، وهم يقرعون النواقيس كما نفعل، في حين يدعوا المسيحيون الآخرون الناس إلى الكنيسة بالقرع على لوح من الخشب، ويستخدمون بأحاديثهم العامة اللسان العربي، لكن في طقوسهم الكلدانية، وعادوا مرة فيما مضى إلى الكنيسة الواحدة، لكنهم انفصلوا عنها منذ زمن طويل.

١٠— *التركمان*

ويوجد في المدينة المقدسة أناس يعرفون باسم التركمان، وهم

متوحشـون متنقلون، وقد استولوا على جميع آسيـا الصغرى، وعلى شطر كبير من آسيا الكبرى، وهـم أتراك.

١١ — *البدو*

وهناك بداة من الشعب العربي، منهم جاء.... محمـدﷺ، ويعتقـد هؤلاء أن يوم موت كل انسـان، والطريقة التي سوف يمـوت بها، أمور مقضي بها من اللـه، ولايمكن لـذلك أن يتقـدم أو يتجنب، ولـذلك يزجـون أنفسهم في أعظـم المخـاطر من دون خـوف، ويمضـون إلى الحروب دون حماية بـالـدروع، وهـم مكـروهـون مـن قبـل المسلمين والمسيحيين سواء، ويعبد بعضهم الشمس.

١٢ - *الحشيشية*

وهناك يوجد الحشيشة، الذين هم مسلمون، ويطيعون مقدمهم طاعة عمياء، لأنهم يؤمنـون أنهم بطاعتهم له وحده سوف ينـالون السعادة في الآخـرة، ويتـدبر مقـدمهم تعليـم فتيـانهم مختلف اللغـات، ويرسله إلى الممالك الأخـرى، ليخـدمـون الملوك هناك، مـن أجل أنه عندمـا يتطلب الوقت، يقـوم خـادم كل ملك بقتله بالسم أو بطريقـة أخـرى، وإذا مـا تمكن الخادم القـاتل للملك من النجـاة والعـودة إلى بلاده، فـإنه يكافأ بتشريفـات، وثروات، ومراتب عليـا، وإذا مـا اعتقل وأعدم، عـدّوه في بلاده شهيداً.

١٣ - *المحمديون*

وفي القـدس نوع من المحمـديين يعبأون قليـلاً بشرائع المسلمين، ويقـولون بأن لديهم شريعـة سرية خـاصـة بهم، مـامن أحـد يبـوح بها، باستثناء الأب، وهو على فراش موته، إلى ابنه، وإذا ما أفشى الابن ذلك إلى أمه، وتبرهن بأنه عمل ذلك، يجري اعدام الأم على الفور.

١٤- المماليك

ويوجد في القدس مماليك، هم مسيحيون مرتدون، وهم هناك بأعداد كبيرة، وهم مكروهون من المسلمين ومن المسيحيين سواء، وهم يمتلكون الشرق كله بقوة سلاحهم، وملك مصر، الذي هو السلطان، من بينهم، ومثل ذلك جميع رجال بلاطه، ولايعبأ هؤلاء الناس لا بشريعة محمد(ﷺ) ولابانجيل المسيح، بل سلموا أنفسهم إلى المتعة فقط.

١٥- اليهود

يعد اليهود بين هؤلاء جميعاً ملعونون إلى حد أن الشقاء والرفض الذي عانوا منه قد أظلم عقولهم وعطل فهومهم، لأنهم ممقوتون في جميع أنحاء الدنيا، ويعدون لاشيء يستحق الاهتمام، وفيهم عدة طوائف، مثل السامرة والاسينيين، وتنشأ بينهم باستمرار هرطقات جديدة، حولهم لا أستطيع القول أكثر.

١٦- المسيحيون اللاتين

يسكن في القدس مسيحيون لاتين، ورهبان فرنسيسكان في الكنيسة والدير على جبل صهيون، وهم يعيشون حياة انجيلية في ظل نظام دقيق، وقد تحدثت عن هؤلاء مطولاً، ويتطلع هؤلاء وحدهم من قلوبهم كلها إلى الأمراء المسيحيين للقدوم واخضاع البلاد كلها، إلى سلطة كنيسة روما، التي يمكن أن تمنح السلطة إلى أبد الآبدين.

وفيما يتعلق بالطوائف والشعوب المتقدمة الذكر، انظر ص ٢٣٩ -٢٤٨ من رحلة بورتشارد (ج ٣٧ من موسوعتنا هذه)، وذلك في نهاية وصفه للأرض المقدسة، وفي رحلة حج صاحب النيافة، عميد مينز، وفي Speculum Hisotoriale، وفي تاريخ أنطونيوس، وكثير ممن كتبوا حول هؤلاء المسيحيين الشرقيين، قالوا بأنهم بريئين من الهرطقات، ومدحوا بساطة حياتهم، وهذا بالفعل كان حقيقياً في الأيام الخالية، أي

منذ مــائتي سنة خلت، لكن منذ ذلـك الحين صـاروا جميعــاً -باستثناء اللاتين - ملوثين بأسـوأ الآثـام، وصـاروا كل يوم ملوثين أكثر، لأنهم ليس لديهم لاهـوتيين أو مبشرين بالايمان الكاثـوليكي، كما أنهم ليســوا على استعــداد لاستقبـــال مثل هؤلاء، ذلك أنهم راضين بأن يمـــوتوا بآثامهم.

القسم الثاني

من

كتاب رحلات وجولات فيلكس فابري من أولم ومن طائفة الرهبان المبشرين

الحج من مدينة القدس المقدسة إلى حوريب، وإلى جبل الرب، وإلى جبل سيناء إلى الضريح الملائكي لكاترين العذراء المباركة

مرة أخرى سوف أتجول وأرتحل خلف خطوات شعب موسى في الجزء الداخلي من القفار،باتجاه حوريب، وجبل الرب (الخروج: ٣/ ١)، لأنني الآن أنهيت وختمت وصفي لجولاتي ورحلاتي في حجي إلى القدس، والذي بقي هو أن أقوم بوصف جولاتي ورحلاتي في حجي إلى سيناء، وهو الموضوع الذي سوف أركز عليه فيمايلي:

ويحتوي القسم الثاني من كتاب جولاتي ورحلاتي، وصف حجي إلى الصحراء الكبرى في العربية، وإلى مدين، وإلى جبل سيناء، وإلى قمته التي هي أقصى نقطة عملت في سبيلها في حجي كله.

ثم يحتوي بعد ذلك حجي في أرض بلاد مصر، ورحلتي عبر النيل مع وصف ماهناك، والعودة من حجي بالبحر وبالبر حتى أولم، التي هي مدينة نقطة الانطلاق، وهي التي سوف أصفها بعد الجميع.

ويحتوي هذا القسم على ستة فصول، وذلك مثلما حوى القسم الأول.

ويبدأ هنا الفصل الأول، الذي هو الفصل السابع في ترتيب كل كتاب الرحلات والجولات، وهويحتوي على وصف للحج خلال القفار مع وصف لجبلي: حوريب وسيناء.

ويحتوي الفصل الثاني، الذي هو الفصل الثامن، على وصف الحج في مصر في شهر تشرين الأول.

ويحتوي الفصل الثالث، الذي هو الفصل التاسع، وصف الحج فوق البحر،ووصف الجزر فيه في شهر تشرين الثاني.

ويحتــوي الفصل الرابع، الذي هـو الفصل العـاشر، وصـف الرحلة البحـرية في شهــر كـانون الأول. ويحتـوي الفصـل الخامس، الذي هو الفصل الحادي عشر، وصف الحج في البندقية، ووصف البندقيـة وعودة الحجاج إلى أوطانهم في شهر كانون الثاني.

ويحتــوي الفصل الســادس، الذي هو الفصل الثــاني عشر، وصف فـائض جـداً لألمانيـا ولمدينة أولم، لكن بما أن هـذا الفصل فصل طويل، وقد ملأ كتـاباً قائماً بذاته، لم ألحقه بكتاب جـولاتي ورحلاتي، بل عملت منه مجلداً منفصلاً.

هنا يبدأ

الفصل السابع من كتاب الرحلات والجولات ، وبه نبدأ رحلتنا الثانية من القدس إلى جبل سيناء

هناك ثلاثة أشياء ينبغي الفراغ منها، قبل الانطلاق برحلة الحج إلى جبل سيناء، وهي: الأول: هو أن الحج يحتاج إلى ترتيب مع الحكام المسلمين للقدس، لعقد اتفاق مع الترجمان، عليه بموجبه أن يؤمن لنا مرافقة، وجواز سفر (أمان) خلال القفار حتى مصر، وكنا قد عقدنا هذا الاتفاق كما أوضحنا من قبل، والثاني: يحتاج الحجاج إلى اعداد المؤن وتزويد أنفسهم وشراء الطعام اللازم للبقاء أحياء أثناء رحلتهم عبر القفار، (وهذا أمر قد تحدثنا عنه من قبل)، والثالث: هو أن على الترجمان الرئيس -وفقاً لشروط الاتفاق -تقديم الجمال وسائقي الجمال، وحمير وسائقيهم، وتعيين يوماً محدداً وساعة لمغادرة الحجاج، وهذه الأشياء كلها عملت، وعين لنا اليوم الرابع والعشرين من آب -وهو يوم عيد القديس بارثلميو الرسول -من أجل مغادرتنا، والسفر من القدس، عند ساعة العشاء.

وبناء عليه خرجنا في الصباح الباكر من كنيسة ضريح الرب، في ذلك اليوم نفسه، وبعد تناولنا لطعام الافطار، ذهبنا جميعاً إلى جبل صهيون، حيث وجدنا الكالينيين هناك بانتظارنا مع الجمال وسائقي الجمال والحمير وسائقي الحمير، ولذلك بادرنا مسرعين، وأخرجنا جميع حقائبنا من دير الرهبان، وكومناها في مكان واحد، بناء على طلب سائقي الجمال، حتى يروا حجمها ولكي يوزعوها بين الجمال بالتساوي، ذلك أن الجمال ينبغي تحميلها بدقة، ومتوازن بشكل جيد، أي أن تكون الأوزان متساوية، وعندما حملنا كل شيء ووضعناه في مكان واحد وفي

كـومـة واحدة، كـونوا حملاً ثقيـلاً، لأنه كـانت هناك أكيـاس كثيرة من البقسماط، وجرار كثيرة مليئة بالخمر، كانت موضوعة داخل أكياس من الشعـر، حتى لايـراهم المسلمـون مكشـوفين، ويزعجـونـنا من أجلهم، وكانت هنـاك أوعية كثيرة مليئة بالماء، وسلال مليئة بـالبيض، وأقفاص فيهـا ديكة ودجـاج أحيـاء، وكـانت هناك فـرشنا ومـلابسنا ومـزاودنا، وصناديق وسـلال فيها أواني المطبـخ والأباريق، والصحون والأطبـاق، وقـد تكون من هؤلاء والأنواع الشبيهـة كـومـة كبيرة، ولذلك اندهش سـائقونـا تجاهها، لأن من الصعب على الانسـان أن يصـدق أن عشرين رجـلاً سـوف يحتاجـون إلى مثل هذه الكميـة من الحقـائب لدى عبـور الصحراء، هذا ويتوجب على الانسـان أن يحمل كميات وافرة من الزاد، حتى لايعـاني من العوز أثناء اثنين وستين يومـاً، وليكون بإمكانه اعطاء خبز وبقسماط، ولحم مـدخن وجبن إلى البداة العـرب، والمدينيين الذين يقابلهم، لأن هذا يطفىء غضبهم، وبذلك يستطيع شراء السلام منهم.

وعندمـا جلبت جميع الأشياء إلى الخارج، اقتـاد سائقـوا الجمال جمالهم نحو كومة الأشياء، وأناخـوها واحداً تلو الآخر، وحملوها، وأثناء القيام بهذا العمل، وقفنا إلى جـانبهم، وراقبنا بعناية أيديهم، خشية أن يسرقـوا أي شيء منا، وأيضاً لكي نتعلم كيف يحملون الجمال، وكيف يتدبرونهم، وبعدمـا جرى تحميل اثنين وعشرين جملاً مع كثير من التعـب استدعينا من قبل سـائقي الحمير إلى قطيع الحمير، حتى يقـوم كل واحد باختيـار حمار لنفسـه، على ظهره سـوف يركب خـلال الصحـراء كلها ووصـولاً حتى مصر، وكان السـائقون قد اتفقـوا فيما بينهم، من أجل الحفاظ على السلام، أن لايشير أحد على أحـد من الحجاج بأخذ هذا أو ذاك، أو أن يقول شيئاً حول الدابة، سيئاً كان أم جيـداً، بل تركوا الأمر إلى اختيارنا، وهكذا فإن كل من قام باختيار سيء، لن تكون لديه حجة للتخاصم مع أي واحـد أو توجيـه اللوم إليه، كما أنه لـن يكون بامكانه - لسبب من

الأسبـاب- دفع أقل ممن جـرى تزويـده بدابة جيـدة، وعندمـا قمنا بالاختيـار، توجب على الذي اختار أفضـل دابة أن يدفع الأجور ومـال الشرب لجميع رفاقه.

وكـان سائقـوا الحمير أنفسهم يعرفـون أي الدواب كان جيـداً، وأيها كـان سيئاً، ذلك أن السرج على ظهـورهـا كـانت متشـابهة، وبناء عليـه ركض مـوالي الفـرسان إلى هنا وهنـاك بين الحمير، وجربواأحـدها بعـد الآخـر، وسعى أحيـانا اثنان مـن الحجـاج أو ثلاثة وراء حمار واحـد، وعندمـا رأيت هـذا، وكنت راغبـاً في عـدم ازعـاج أي انسـان بالقيـام باختيـاري، تركت القطيع، وتسلقت الدرج الحجـري حتى باب كنيسـة صهيون، وجلست فـوق عتبةالبـاب، وتطلعت نحو قطيع الحمير، حيث راقبت الآخرين وهم يختارون دوابهم، وكـذلك قدرت في نفسي أية دابة سـوف أختـارها، ورأيت وقتهـا بين الحمير واحـداً كبيراً أبيض، أذناه متـدليتان نحـو الأسفل، وقد بـدا لي أنه يمتلك رأساً ثقيـلاً، وبدا وكأنه دابة باهته، وأن مـا من واحد من الحجـاج سوف يلمسها، وقـد ركزت على تلك الدابة، ليس لأنني رأيت أية جودة فيها، بل لمجرد أنني رغبت بعمل مباراة ما مع موالي في اختيار دابة نظر الجميع إليها بامتهان.

وهكذا بعدمـا اختار النبـلاء جميعاً دوابهم بعناية كبيرة وتفكير عظيم، وتوقفـت الضجـة، نـزلت وقمت بـدون أي فحص باختيـار الحمار المستخف به، واقتـدته إلى الجانب، وأعددته لامتطاء ظهـره، فما كان من سـائقـي الحمير إلاّ أن ركضـوا نحـوي، وهـم يضحكـون ويصرخـون، وطلبوا مني إعطائهم مالاً، وفي البداية أنا لم أفهـم ماالذي كانوا يقولونه لي، وقد انزعجـت لطلبهم المال مني، في حين لم يطلبوا فلسـاً واحداً من أي انسـان آخـر، لكن المترجم أخبرني بأنني قـد اخترت أفضل الحمير جميعـاً، ولهذا السبـب كـانوا يطلبـون أجـورهم، وعندمـا سمعت هذا اخـرجت أربعـة مندوسـات وأعطيتهم لهم، وعلى هـذا تزودت خـلال

الرحلة كلها بأكثر الدواب أمانا بينها جمعاً، وهذه الدابة لم تعرف التعب، وكانت بلامساويء، ولم تقع قط معي، ولم تجعلني أتخلف وراء الركب، وهي لم تخف قط، ولم أحثها، ولم تعضني، لكنها كانت تمضي أمام الجميع من دون أي ضرب، وعندما سألت سائقها عن المبلغ الذي يمكن أن يبيعها به، قال بأنه لن يبيعها بأقل من عشر دوقيات، هذا ولقد كنت دوما محظوظاً في حجي في اختيار الدواب، وهذا ماكنت قد ذكرته وأوضحته من قبل، ولا يمكن للانسان أن يكتب عن المتاعب وعن المصاعب، والمخاطر التي يتعرض لها الحجاج الذين يختارون دواب غير أمينة، وبطيئة وسيئة.

وعندما جرى تحميل الجمال، وجرى اختيار الحمير، ووضعت السرج على ظهورها، ذهبنا إلى كنيسة صهيون، وتلقينا مباركة الحجاج من الأب المبجل المسؤول في جبل صهيون، وعانق كل واحد منا، وباركه، وودعه بقبلة، هذا وقد توجب عليّ لدى المغادرة، أن أقدم أكثر من غيري الشكر للأب الجيد، وللدير كله، حيث أنني تلقيت منهم لطفاً زائداً، وكانوا جميعاً جيدين جداً نحوي، وذلك كما أوضحت من قبل.

ولدى مغادرتنا لكنيسة صهيون، نزلنا إلى حيث كانت حميرنا، وعندما امتطينا ظهورهم، تولت الجمال القيادة على الطريق ونحن تبعناهم خارجين من المدينة، لكن ليس من دون حزن في قلوبنا، وليس من دون دموع، غادرنا من مدينة القدس المرغوبة، فلقد غادرناها بآهات وبكاء، ومن جانبي لم أكن قط أكثر سعادة في أي مكان في العالم مما كنته في القدس، فلقد أمضيت فيها ساعات ممتعة جداً وأيام هناك، وعندما كنا نازلين من جبل صهيون حاول بعض الشبان المسلمين والفتيان والأطفال اعتراض سبيلنا وازعاجنا، وسعوا إلى سحب بعض الحمولات من على ظهور الجمال والاستيلاء عليها، وبصعوبة بالغة تمكن أدلاؤنا من ابعادهم عنا.

وفي تلك الأثناء، وقبل أن نصل إلى قعـر هضبـة صهيـون، انكسرت احـدى جـرار الخمـرة، وسـالت من خـلال كيس الشعـر الذي كـانت ملفوفة به إلى الأرض، وقد انزعجنا كثيراً لهذا الحادث، لأنها كانت خمرة جيدة، شريت بسعر مـرتفع، وأخفيت بعناية كبيرة، خوفاً من المسلمين، ومع ذلك لم يكن الذي أزعجنا خسارة الخمرة، بل كنا نخشى كثيراً من غضب المسلمين، حيث أنهم ماأن يشموا رائحة الخمرة كانوا سيهاجموننا ويكسرون الجرار الأخرى، ولو أننا حرمنا من خمرتنا ماكنا لنحاول الحج إلى جبل سيناء، كما أنه ماكان بامكاننا العيش في الصحراء من دون خمرة نشربها.

وهكذا تركنا الخمرة تسيل على الأرض، لأنه لم يكن لدينا وعاء آخر، والذي قمنا بـه أننا اتخذنا حيطة خـاصـة لنحـول بين سـائقي الجمال وسائقي الحمير القدوم إلى ذلك المكان وشرب الخمرة وهي تنصب نحو الأسفل، بسبب أنهم لو تذوقـوها، لصاروا سكارى على الفـور ولسببوا بذلك كثيراً من المتـاعب لأنفسهم ولنا، ولأهملوا حقائبنا، وقـد أعطيت حماري إلى واحد من الفـرسان وركضت إلى جانـب الجمل، حيث كانت الخمـرة تنصـب نحـو الأسفل، ولم أدع أحـداً من المسلمين يقترب، وملأت قارورتين كبيرتين كانتا معي، بالخمرة التي كانت تنصب وهكذا تابعنا سيرنا ببطىء، هذا ومن الصعب عليّ أن أكتب عن جميع المصاعب التي عـانينا منهـا فوق تلك المسـافـة القصيرة، بسبب هجمات المسلمين، وبسبب متاعبنا.

ولقد أعقنا كثيراً أثناء سفرنا وتعرضنا لمضايقات كبيرة، إلى درجة أننا احتجنا إلى سبع سـاعـات لنعبر فـوق ذلك الطريـق، مع أنه من الممكن عبوره خـلال أربع ساعات، ولذلك كان الليل ظلامـاً عندما وصلنا إلى بيت لحم، وبمشقـة كبيرة أنزلنا الأحمال من على ظهـور الجمال والحمير، في رواق كنيسة بيت لحم، وسحبنا كل أشياءنا إلى قاعة مجاورة للكنيسة،

وجلسنا نتولى حراسة القاعة.

ودخلنا الآن إلى الكنيسة ونحن نحمل مصابيحاً، ونزلنا إلى مكان ميلاد ربنا، وهو المكان الأعظم عذوبة، وعندما كنا نصلي هناك جاء الأب المسؤول مع رهبانه، واستقبلونا بترحاب، وأخذونا إلى المكان الذي يمكننا أن نأكل فيه، وأن ننام، لأنهم كانوا على معرفة بقدومنا، ولذلك كانوا قد أعدوا كل شيء، وجهزوه من أجل عشائنا ونومنا، وبمتعة تناولنا عشاءً جيداً، جرى إعداده على حسابنا، وبعد ذلك تمددنا بأنفسنا للاستراحة، والمجد للرب في الأعالي.

ونهضنا في الخامس والعشرين من آب بعد منتصف الليل، أي أن تقول، قبل انبلاج الفجر، وذهبنا إلى كهف ميلاد الرب، وقرأنا صلواتنا هناك في كل من الساعات القانونية وعلى شكل قداسات، وعندما أشرقت الشمس نزلنا إلى وادي الرعاة إلى «المجد في الأعالي»، وغنينا هناك مع الملائكة تلك الترنيمة السماوية، وتفحصنا المكان بدقة، هذا وكنا قد تحدثنا عن هذا الوادي ووصفناه من قبل، وبعدما فرغنا من صلوات الشكر في الوادي، ذهبنا صاعدين إلى بيت لحم من أجل تناول طعام الافطار، وبعد أكلنا لافطارنا، تجولنا في أرجاء دير القديس جيروم، وتعجبنا من خرائبه، كما وسرنا حول بلدة بيت لحم، وذهبنا إلى بركة داوود، وأثناء قيامنا بهذا أعدنا إلى الذاكرة جميع نصوص الكتابات المقدسة التي أشارت إلى هذه الأماكن، وهكذا أمضينا ذلك اليوم بسرور في ذلك المكان الممتع والأعظم قداسة.

وكانت إقامة ممتعة قرب مزود الرب، بسبب قداسة المكان والغفرانات، وكذلك بسبب جمال الكنيسة، وضخامة خرائب ذلك الدير الفخم جداً، الذي لم يكن ديراً للرهبان فقط بل قصراً وقلعة للأباطرة، ويعتقد بسطاء الناس بأنه كان دير القديس جيروم، مع أن جيروم كان قد أقام في كوخ، في دير بسيط، تأسس في أيامه، وعلى هذا الأساس قال

في رسالته إلى فابيولا Fabiola : «أنا محب لنزل بيت لحم، وللمزود الذي وضعت فيه الأم العذراء الطفل»، وقال كذلك في «نظامه القانوني»: الفصل ٣٦: « ما من مهابة يمكن أن تكون أعظم هيبة من بيت لحم هذه، ففي هذا الصدع ولد باني السموات»، لأنه قبل أيام القديس جيروم كان مكان ميلاد المسيح، مجرد كهف، ولم يكن هناك دير، ولهذا نقرأ في «نظامه القانوني» الفصل: ٢٠ «نحن حريصون على بناء دير ونزل إلى جانبه، خشية أن تقدم مريم ويوسف إلى بيت لحم، ولايجدان غرفة في النزل»، وجاء الخبر في «حكاية القديس جيروم»، بأن سيرل، رئيس أساقفة القدس، قد أعطاه أبرشية بيت لحم، التي فيها بنى بمساعدة الجيران ديراً، لكنه احتاج إلى المال، فبعث بأخيه بولينيانوس Paulinianus إلى بلاده ليبيع ممتلكاته القليلة هناك، قاصداً انفاق مال البيع في بناء الدير في بيت لحم، وهذا ما قرأنا عنه في «نظامه القانوني»،الفصل: ٢٠.

وبقدر ما أستطيع تخمينه، لا أعتقد أن الكنيسة الجميلة القائمة هناك في هذه الأيام يمكن، أن تكون قد بنيت في أيام القديس جيروم، ويتحدث الناس الجهلاء على أنها بنيت من قبل القديسة هيلانه، غير أن ترتيب البناء الحديث تجعل هذا ليس ممكنا، لأنه روي لنا بأن القديس جيروم قد نحت لنفسه ضريحاً عند فم كهف الميلاد، وأن فم الكهف كان ضيقاً، لكن في هذه الأيام ضريح القديس جيروم موجود خارج الكنيسة، والمدخل إلى الكهف ليس في الكنيسة نفسها، والكهف فخم جداً، وله مداخل واسعة، منها يتم الدخول إليه، والذي أعتقده أن هذه الكنيسة قد بنيت في أيام آخر الملوك اللاتين في القدس، ومثل ذلك هذا الدير الكبير، وهذا يفيد بأن كوخ جيروم الصغير، قد أزيل، وأعيد ترتيب المكان من جديد، وتبان مصداقية ذلك، بالنقوش، والرسوم، والتماثيل في ذلك المكان.

جبل راما وبلدته الحصينة جداً

وفي اليوم السادس والعشرين، وبعد قداس عند مزود الرب، طلب الفرسان من كالينوس الرئيس، أن يقتادهم إلى برك سليمان، وإلى بساتينه وحدائقه، وإلى كنيسة القديس جرجس، وعلى هذا اعتلوا ظهور حميرهم، واقتيدوا إلى هناك، لكن بما أنني قد كنت في هذه الأماكن من قبل، كما سلف لي وتحدثت، قمت بحج آخر في ذلك اليوم، وخرجنا خمسة من بيت لحم، حيث كان هناك أربعة رهبان فرنسيسكان قد قدموا معنا من القدس، وأنا شخصياً، ومضينا باتجاه الجنوب إلى سفح جبل مرتفع، واقف هناك في السهل بشكل مستدير ورأسه مرتفع مشرع في الهواء بسطح مستو وواسع منه يستطيع الانسان أن يشاهد الأرض المقدسة بالطول وبالعرض، وتسلقنا ذلك الجبل بصعوبة وتعب، ووصلنا إلى قمته، حيث شاهدناالمنطقة من حولنا، وحدقنا هنا وهناك عبر الأرض المقدسة، وقام فيما مضى فوق هذا الجيل هناك قلعة حصينة، وكانت مليئة بالناس، وكان اسمها راما، وإليها أشار القديس جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، هذا وبشكل عام أطلق على جميع القرى التي قامت فوق مكان مرتفع اسم راما، وهذا أمر كنت قد تحدثت عنه من قبل، وكان هذا الجبل مرتفعاً إلى درجة أن الانسان يمكن من عليه أن يشاهد البحر الميت، وجبال العربية، وجبلي سعير وجلعاد، ويمكن للانسان أن يشاهد جبال عين الجدي، والأماكن التي أخفى داوود فيها نفسه، وقفار تقوع، وشيلوه، وجبل الزيتون، مع جزء من جبل صهيون خلفه، وهكذا دواليك حتى البحر المتوسط.

وهذا مايمكن للانسان أن يراه من قمة الجبل العارية، إنما في العصور الخالية، حيث كانت هناك أبنية عالية مشادة في ذلك المكان، كان بإمكان الانسان أن ينظر بشكل أوسع، وذلك حتى الجليل، وفلسطين، وحدود مصر، وقد كان هنا قلعة كبيرة مع أبراج عالية، اسمها راما، وحول هذا

المكان ورد النص الموجود في إرميا —الاصحاح: ٣١، وفي متى —الاصحاح:٢، قوله: «صوت سمع في الرامه نوح وبكاء»، وحول هذا المكان كتب هذا النص، لأنه عندما قتل هيرود الأطفال في بيت لحم، وفي المنطقة من حولها، سمع بكاء الأطفال، ونواح أمهاتهم في راما هذه، ولذلك قال القديس جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»: «راما مكان قرب بيت لحم، وعنها كتب: صوت سمع في الرامه».

وكان يوجد في اطارها مسافة كافية خارج أسوارها، لزراعة وانتاج ما يكفي من قمح، ليقدم خبزاً لسكان القلعة طوال السنة،وقد بنيت هذه القلعة من قبل واحد من الملوك اللاتين في القدس، وعندما استولى صلاح الدين، ملك مصر، على القدس والأرض المقدسة بقوة السلاح، وطرد الصليبيين اللاتين من هناك، استولى على جميع القلاع الأخرى والبلدات والقرى، لكنه لم يستطع -بأية وسيلة من الوسائل -نيل قلعة الرامة هذه، التي جرى الدفاع عنها برجولة من قبل الصليبيين، ولذلك رفع الحصار، واستمر المسيحيون اللاتين يسكنون في القلعة لمدة ثلاثين سنة بعد الاستيلاء على القدس، وبيت لحم، ولم يستطع المسلمون طردهم، ولكانوا مايزالون هناك حتى هذا اليوم لولا أن الرب قاتل ضدهم، لأنه مع نهاية الثلاثين سنة، أرسل الرب وباء إلى داخل القلعة، وفي وقت قصير ماتت النساء جميعاً من الطفلة الصغيرة إلى المرأة العجوز، كما مات الجزء الأكبر من الرجال، ولدى رؤية البقية ماحدث، هجروا القلعة، وهربوا، وعندما عرف المسلمون بذلك، تسلقوا الجبل، وهدموا القلعة، وسووها بالأرض، ولذلك لايوجد في هذه الأيام، أو بالحري لايمكن العثور على أية أثر للجدران، ونظرا لحصانة هذه القلعة، ولأنها كانت لاترام، سماها الصليبيون بيت أوليا، على اسم قلعة يهودت، بيت أوليا، الموجودة في الجليل.

وأثناء النظر من هذا الجبل إلى جبل آخر يواجهه، رأينا هناك بناء

قديماً، إلى جانبه ضريح الأنبياء الاثني عشر الصغار.

وقام فيما مضى عند سفح هذا الجبل دير راعي الدير القديس أغاثون Agathon ، الذي كان رجلاً صاحب سلطة واسعة، وأبا لكثير من الرهبان، ولحبه للصمت حمل حجرة في فمه لمدة ثلاث سنوات، فهذا ماورد خبره في «حياة الآباء».

علاوة على ذلك، في هذه المنطقة كان دير القديس خاريتون -Khari ton، الذي كان أباً لكثير من الرهبان، حيث أنه عندمافارق الحياة، فارق جميع رهبانه معه الحياة، ودفنوا جميعاً في قبر واحد، وهو قبر مشاهد هناك حتى هذا اليوم.

وليس بعيدا عن هذا المكان، رأينا الجزء العلوي من بناء دير القديس سابا، الذي كان راعي دير، والذي تحدثت عنه مطولاً من قبل.

وبعدما فرغنا من رؤية هذه الأشياء، نزلنا من الجبل، وعدنا إلى بيت لحم من أجل تناول طعام العشاء، ووجدنا هناك السيد فكردنيوس Vaccardinus (فخر الدين) وكان مسلماً صاحب سلطة كبيرة، من القدس، وكانت معه حاشيته، وقد بعث وراء الترجمان، ولامه لوماً شديداً لسماحه لنا بإمضاء ذلك اليوم هناك، وأمره باقتيادنا نحو الأمام على طريقنا في الصباح التالي بالتحديد.

مغادرة بيت لحم

في السابع والعشرين، جاء كالينوس الرئيس، بعد منتصف الليل، إلى مكان إقامة الحجاج وأيقظهم من أجل رحلتنا، وبناء عليه استيقظنا مسرعين، وذهبنا إلى كهف ميلاد المسيح، حيث قرأنا صلوات مع قداسات في ذلك المكان المقدس للغاية، الذي كنا نكره مغادرته، وأثناء انشغالنا بالاحتفال بالقداس جاء كالينوس المسلم إلينا وحثنا على الاسراع، وصرخ لنا للخروج، وأخرجنا الآن جميع أثقالنا التي كانت

الجمال ستحملهـا، وشرعنا بتحميلهم، ولم نكن حتى ذلك الحين نعـرف طرائق التحميـل، كما أننا لم نكن نعـرف عـادات، واشـارات، وكلمات سـائقي الجمال، كما أنهم لم يفهمـوا عـاداتنا، واشـاراتنا وكلماتنا، ولذلك قمنا لعـــدة أيـام بتحميل دوابنا مع كثير مـن الخصـــام والاضطراب، وصدرت المشـاكل من سائقي الجمال، حيث أخـذوا أولاً غرضـاً واحداً من كومة الأثقال، ثم غرضاً آخر، من أجل جعل الحمولات على الجمال متوازنة، وكان هذا غير مـوائم لنا،، لأننا انقسمنا إلى ثلاث مجموعات، وكان لكل مجموعة أغراضهـا، ولم نمتلك أثقالاً واحدة لنا جميعاً، مع أن الجمال كـانت لنا جميعـاً بشكل عـام، وهذا أمر لم يفهمـه المسلمـون، بل اعتقدوا أن جميـع الأشياء لنا جميعاً بشكـل عام، وقامـوا بالتحميل دونما اهتمام بمن عاد الشيء إليه، وعلى هذا كان جمل واحد يحمل أحيانا أشياء عـائدة إلى الجماعـات الثـلاث كلها، أو إلى سـت أو ثمانية من الحجـاج، ولهذا كـان يحدث أثناء إنزال الأثقـال فـوضى واضطراب، وركض إلى الأمام وإلى الخلف، حيث توجب على كل انسان جمع أثقاله من ثلاثة أو أربعة أماكن، وكنا على هذا سعداء جداً بتعيين بعض الجمال لحمل أثقال الفئة الأولى، وبعضهم لحمل أثقـال الفئة الثانية، وبعضهـم الآخر لحمل أثقـال الفئة الثـالثـة، لكن هذا مـالم يفهمـه سائقـوا الجمال، ومـا كـانوا ليفلعـــوه، ومن هنا -كما قلت- ثارت خـــلافـــات كثيرة حـــول تحميل الجمال، لاسيما وقت الانطلاق.

وبعدمـا حملنا جمالنا، وأسرجنا على حميرنا، امتطينا ظهورهم، وانطلقنا من الدير باسم الـرب، وقد عبرنـا من وسط البلدة، وتابعنا سفـرنا على حافتهـا القصوى باتجاه الجنوب، نحـو جانب جبل بيت أوليـا، أو راما، الذي ودعناه على جـــانبنا الأيسر، ووصلنا أثناء سيرنـا إلى قمـــة وادي رفايم Raphaim، وسرنا مجتازين لتخومـه خلال ساعة تقـريباً، وكان من الممكن لهذا الوادي أن يكون خصبـاً، لو توفـر من يقـوم بفلاحتـه،

ومن ثم كـان سيمتلىء بالقمح كما جاء في (سفـر اشعيا: ١٧/ ٥) قـوله: «ويكون كجمع الحصـادين الزرع وزراعه تحصـد السنابل، ويكون كمن يلقط سنابل في وادي رفايم».

وفي هذا الوادي هـزم داوود الفلسطينيين، الذين كـانـوا قـد نشروا أنفسهم هناك مثل الجراد، كما جاء في سفـر صموئيل الثاني: ٥، ويفصل هذا الوادي منطقـة اليهـودية التليـة عـن سهل الفلسطينيين، أو عن فلسطين، وذلك حتى نهايتـه هناك، ولذلك كـانوا قادرين على الصعـود من خلاله إلى أرض اليهودية.

وأثناء متـابعتنا لسفـرنا، خلفنا بيت لحم بعيـدة جـداً عنا، إنما كـان بامكاننـا رؤيتهـا خلفنا حتـى الظهـر، وعند الظهـر وصلنا إلى منطقـة خصبة، حيث كـانت هنالك حقول مليئـة بأشجار الفواكـه،مع كثير من أشجـار الـزيتـون والتين، وهنا انسحبنا جـانبـاً، وخـرجنـا عن الطريق ودخلنا إلى غـابة كثيفـة من أشجـار الزيتـون، حيث جلسنا في الظل، وأكلنـا الذي جلبنـاه في جعبنـا مـن بيت لحم، لكـن لم يكـن بـامكاننـا الشرب، لأن الجمال التي كـانت تحمل روايـا الماء سـارت أمـامنا، وبناء عليه بعدما تناولنا وجبة سريعة، امتطينا ظهور حميرنا من جديد، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى مفرق للطرقـات، حيث يمضي الطريق القائم على يمين الانسـان إلى غـزة عبر السهل في فلسطين، وهو يمـر خـلال البلدة التي اسمهـا ثيرين thyrin ، والقلعـة التـي اسمهـا قلعـة القـديس صموئيل(الجيب الأعلى).

وهناك طريق آخـر، قائم على يسار الانسـان، يقود من خـلال المنطقة التليـة نحـو حبرون، ومن حبرون يستدير، ويمضي إلى المنطقـة السهليـة لفلسطين ومن ثم إلى غزة، والطريق إلى غزة بوساطة الطريق القائم على جهـة اليسـار، هو أقصر بميلين ألمانيين، من الطريق القـائم على جهـة اليمين، وبناء عليه أمرهـم كـالينوس الرئيس أن يقتادوا الجمال على طول

الطريـق المنخفض والأقصر، وهو طـريق لانمـــر عبره بحبرون، لكن عندمـا سمعنا بهذا صرخنا بأصـوات عاليـة جـداً وكثيرة، وأصررنا على اقتيـــاد الجمال على طـول الطريق الآخـــر، الذي يـذهب إلى حبرون، وتخاصمنا بعنف مع أدلائنا حول هـذه المسألة، لأنهم أرادو أخذ الطريق الأقصر، ذلك أننا أردنا رؤية مـدينة حبرون، والأمـاكن المقـدسـة حيث مـدفـن البطارقـة، والحقل الـذي من ترابه جـرى صنع أبوينا الأولين، ولولا أننا ذكـرنا بشكل واضح في عقــدنا معهم وجــوب أخــذنا إلى حبرون، لما كان بإمكاننا تحقيق هذه الرغبة.

وفي الحقيقـة إنني أنا وحـدي كنت السبب في ادخـال هذا الشرط في العقـد، لأن الأب المبجل لـودويغ فـوشي، رئيس دير أولم، قــد رجـاني عندمـا كنت على وشك السفـر أن لا أغـادر الأرض المقـدسـة من دون رؤية مدينة حبرون، التي كـان يشعر نحوها بعـاطفة تقوية خـاصة، وأنا شخصياً كنـت متشوقاً كثيراً لرؤيتهـا، وتصديت إلى جميع الأعـذار التي قدمت لاعتراض ذهابنا إلى هناك، لأن كالينوس الرئيس تحدث عن كثير المخاوف التي يمكن أن نصدفها ونقع بها، بالاضافة إلى إطالة الطريق.

وتقع حبرون على بعـد ستة فـراسخ فقط عن بيت لحم، وهكذا بعـد نقـاش طويل ربحنا نحن وأقنعنـا أدلاءنا، وأعـــادوا الجمال إلى الطريق الأعلى خـلال المنطقـة التليـة،وعندمـا مضينا على الطريق، رأينا مـاكـان بالحقيقة أرضاً جيدة، لكن قليل منهـا كان مفلوحاً، كما لم تكن هناك أية قرية ورأينا فـوق الجبل وفي الوادي جدران قـديمة من الحجـارة الجافة، بهم كانت الجبـال محاطة من أجزائها الدنيـا حتى قممها، وفي داخل هذه الجدران من الحجارة الجافة كان فيما مضى بساتين كروم عنب، وزيتون، وبرتقال، ورمـان، وأشجار فواكه أخرى جيـدة، قد نبت في مكانها الآن أشـواك، وقُراص، وشـوك سناني، وعـوسج، وعليق، وأعشاب أخـرى بلافائدة، تنمو ذاتيا.

دخول الحجاج إلى مدينة حبرون

وأثناء متابعتنا سيرنا وصلنا إلى واد فائق الجمال، اسمه وادي حبرون، وعلى طرفيه، كانت الأطراف مغطاة بأسيجة معمولة من جدران أحجار جافة، من أجل كروم العنب والبساتين، غير أن كل شيء كان ناميا هناك كان برياً، وبينهم كان هناك كثيراً من أشجار البطم، تعطي كميات كبيرة من زيت البطم، ولو أنه كان في هذا الوادي أي أناس يتولون زراعته، لكان مليئاً بجميع أنواع الأشياء الجيدة، وتابعنا سيرنا، فوصلنا إلى مكان مليء بأشجار الزيتون، إلى حد بدا المكان وكأنه غابة منهم، وفي المكان الكثيف من هذه الأشجار، أمرنا قائدنا كالينوس بالترجل من على ظهور دوابنا، وانزال الأثقال عن ظهور الجمال، وقد فعلنا ذلك، وأفادتنا الأشجار وكانت بالنسبة لنا بمثابة خيم وسُتر ضد الحرارة الهائلة للشمس، التي بدت لي أنها أكثر حرارة في هذه المنطقة منها في القدس، وجلسنا في الظل وأكلنا بقسماطنا من دون أي شراب منعش، لأن الخمرة في الجرار، والماء في الروايا، كانت ساخنة، وبلا فائدة في اطفاء العطش.

ولم نكن بعيدين عن مدينة حبرون المقدسة، لكن لم يكن بإمكاننا رؤيتها، لأنه كانت هناك رابية بيننا وبين المدينة، على الذي يود الدخول إلى المدينة الالتفاف قليلاً حولها، هذا ويقال بأن مدينة حبرون القديمة جداً، التي عنها تتحدث الكتابات المقدسة، كانت قائمة فوق البقعة ذاتها حيث كنا، ذلك أن شطراً من المدينة كان قائماً على منحدرات الرابية، والشطر الآخر فوق أرض منبسطة تحت، وحدث بعد ذلك أنه بسبب الكهف المزدوج، وضريح ابراهيم، الذي هو موجود على الجهة الأخرى من الرابية، انتقلت المدينة إلى حيث كان الكهف، وهذا ماسوف أتولى شرحه.

وعندما كنا جالسين هناك، ركب Sabathytanco أي

كـالينوس الرئيـس حصـانه مع واحـد من المرافقين، وذهـب إلى مـدينة حبرون، لإخبـار حـاكم المدينة، وسكـانها بأن هناك حجـاجـا مسيحيين لاتين، من بلدان ماوراء البحـر، قد جـاءوا، ويرغبون— بعـد الحصول على إذنه— برؤية المدينة، والمكان الذي جرى دفن البطارقة فيه، وعندما سمع الحاكم هذا، وبخ كـالينوس بحدة لأنه تركنا، وقت ارتفـاع حرارة الشمس، في السهل المفتوح، حيث لايوجد مـاء ولاخبز يمكننا الحصول عليه، وأمره بالعودة سريعاً، وجلبنا مع جميع أثقالنا إلى النزل العام التابع للمـدينة، وأخبره كـالينوسينا، بأن الجمال قـد أنزلت أثقـالها للتـو، وقـد تركت تـرعى، ولايمكن إعـادة تحميلهـا من دون كثير مـن المتـاعب والاضطراب، ولذلك اقترحا إرسال خدمه إلى المسلمين ولجلب الحجاج لزيارة الأماكن المقـدسة، وبعد القيام بذلك، أن يعيـدهم ثانية إلى حيث أثقالهم مـوضوعة، وامضاء الليل هناك، والانطلاق في الصبـاح، وعندما سمع الحاكم هذا، انفجـر غاضبـاً من كـالينوس، وقـال بأنه كان خـائن الحجـاج وليس دليلهم، لأن المنطقـة كـانـت مليئة بلصـوص من البـداة العرب، وقـال:« لايمكن للحجاج امضـاء الليل في الحقل في ظل خطر النهـب، لذلـك أحضرهـــم إلى هنـــا، وإذا لم تحـضرهم، أنـا سأفعـل ذلك».

ولذلك عـاد كـالينوس وهـو مغضب جـداً، وأمـر بتحميل الدواب، وعندما أنجز هذا، امتطينا نحن ظهـور حميرنا، وعندما دخلنا إلى المدينة، كان هناك تدافع كبير للناس لرؤيتنا، لأنه لم يكن هناك حجاج لاتين منذ كثير من السنين، وكـان أمراً عجيباً رؤية مسيحيين غـربيين لاتين هناك، وقد أخـذونا إلى النزل العام للمدينة مع جميع دوابنا، وقـد وجدنا مكاناً رحباً لإيواء دوابنا، وغّـرفـاً للـرجـال في الأعلى وفي الأسفل، وكـذلك ساحة كبيرة كانت مغلقـة بإحكام بباب، وكان هذا المبنى عظيماً وواسعا مثل دير من الديرة، والنزل الشرقية، لايسكن فيهـا أحد، وهي مخصصة

فقط لاستخدام الغرباء، ومن أجل وصف وترتيب النزل ودور الضيافة في الشرق، انظر ماسلف وقدمناه في القسم الأول.

وعندما وصلنا إلى النزل، أنزلنا الأثقال من على ظهور دوابنا، ووضعناهم في القسم الأسفل من المبنى، في حين اخترنا لأنفسنا غرفاً وقاعات في القسم العلوي، ووضعنا في هذه الغرف فرشنا وأعددنا مكانا لطبخ أطعمتنا، وحصلنا على حطب للنار، ووضعنا جميع أغراضنا، وكأننا على نية الإقامة هناك لأيام عدة، وفيما نحن منشغلون هكذا، جاء كالينوس الرئيس مع بعض مسلمي المدينة، وقالوا بها أنه لايزال هناك شطر كبير من ضوء النهار، سوف يكون مفيداً القيام بزيارة الأماكن المقدسة، في ذلك المساء، حتى نتمكن في الغد من الانطلاق باكراً في الصباح، قبل أن تصبح حرارة الشمس كبيرة، وقد وافقنا على هذا بسرور، لأننا كنا نخاف من الإقامة الطويلة في ذلك المكان.

الحقل الذي صُنع آدم منه والذي اسمه حقل دمشق

وهكذا خرجنا من النزل، وعبرنا من خلال الشارع الطويل للمدينة، الذي فيه يسكن عمال حرفيون من مختلف الصناعات، وبشكل خاص الحرفيون الذين يعملون بالزجاج، والزجاج الذي يصنع في هذا المكان، ليس زجاجاً نقياً، بل أسود، مع ألوان أخرى بين الأسود والأبيض الشفاف، وقد سار خلفنا حشد كبير من الناس، وقد ركضوا وراءنا، لأنه كان منظراً عجيباً رؤية غربيين هناك، وهكذا وصلنا إلى باب المدينة، الذي عبرنا من خلاله، وسرنا على طول الطريق العام، فوصلنا إلى حقل مطوق بسور من الحجارة الجافة، وهناك توقفنا، وشرعنا ننظر من خلال السور إلى داخل الحقل، الذي هو جميل ومتميز، لأن هذا، كان يعرف باسم حقل دمشق، فيه جرت صناعة آدم، أبونا الأول، وعندما سمعنا بأن هذا كان بالفعل الحقل المقدس، تسلقنا السور

ودخلنا إليـه، حتى يمكننا تقبيـل الأرض، وتلاوة الصلوات المناسبـة، واخبار أحدنا الآخر عن المعجزات التي عملت هناك.

لكن فجأة حدث بينما كنا نقفز من فـوق السور المصنوع من الحجارة الجافة إلى داخل الحقل، واجهنا مسلم حاد، صرخ بصوت مرتفع علينا، والتقط كثيراً من الحجـارة ورمـاها نحـونا، وطردنا بـالقـوة من الحقل وبصعوبة، أمكننا تسلق الجدار دون أن نصـاب بأذى، وعند وقوع ذلك رغب كـالينوس مع أدلائنا في اطلاق العنان لغضبهم، وشرعوا بالعـودة إلى البلدة، لكننا لم نكن بأي حال من الأحوال راضين بمغادرة مثل هذا المكان الهام بمثل هذه السرعـة، بل رغبنا بإطفـاء غضـب ذلك الرجل، حتى نتمكن من امضـاء بعض الوقت بالصـلاة في ذلك المكان، ولذلك دعـونا كـالينوس إلى الرجعـه، وأخبرناه بعمل اتفـاقيـة مع الرجل، بأن ندفع مـايستحقه قانونيـا مقابل دخـولنا إلى حقله، لأنه كان مـالك ذلك الحقل، وقد طالب بأربعة مندوسـات، وعندما جرى تنفيذ هذا الطلب، هدأ الرجل، وتسلق على السـور، ومـدّ يده إلى الحجاج الذين وقفـوا في الخارج، وسحبهم واحـداً تلو الآخـر، وسمح لهم بالدخـول إلى الحقل، واقتادنا إلى المكـان الذي من المعتقد أن الطين أخذ منـه لصنع آدم، وفقاً للحقيقة الكاثـوليكية، فهناك جرى صنع الانسـان الأول، ونحن لانولي أدنى اعتبـار، إلى ترهات شعـراء الأمم، الـذين يغنون وينشـدون بأن واحـداً اسمـه فـورونيـوس Phoroneus كـان الأب الأول لجميع الأحيـاء، وذلـك كما حـدثنا يـوسبيـوس في De Evangel prae-parat — الكتـاب العـاشر، ويقـول الأثيـوبيـون بأن البشر الأوائل قـد نشأوا من طهـارة التربة، ولدى الشكوكيين المصريين أثر بـأن الانسـان الأول قد خلق في بلادهم، أولاً بسبب جودة التربة، وثانيا بسبب النيل، الذي يولد كثيراً من المخلوقات التي ليست مـوجودة في أي مكان آخر، لكننا نرى أن هذا كله لاقيمة له، ونتجه للأخذ بالإيمان الأصح والأكثر

ثبــاتاً، ولقــد انكببنـا بأنفسنا، وبوجــوهنـا على الأرض في هذا المكان المقــدس، بخشـوع كبير وبدمــوع، وقبلنا الأرض، وتفــوهنا بصلواتنا المحددة في هذا المكـان المقدس، بخشوع كبير وبدمـوع، وقبلنا الأرض، وتفـوهنا بصلواتنا المحـددة في مسيرات الأرض المقدسـة، وحصلنا على غفرانات (+)، وبعد هذا انتقلنا نحو التأمل حول هذا المكان.



وعند الفـراغ من تأملنا، تفحصنا المكان والأرض بكل دقة، فـالقشرة العليـا للأرض خشنة ولونها بني، إنما عندمـا تحفـرها تعطيك طيناً أحمر، وقاسيا، من الممكن صناعة فخـار رائع منه، وقد أخذنا بعض الصلصال وبعض الحصا من هذه الأرض لتكون آثاراً مقـدسة، ويقال بأن كل من يضع حـولـه بعضـاً من هذه الأرض لن يشعــر بالتعب أثناء سيره على طريقه، أو اذا كان راكبـاً على دابة فإنها لن تكبو أبداً، إنما إذا وقع انسان أو دابة فلن يصـابا بـأذى، بل سينهضـان من دون ضرر، وفيما إذا كـان هذا صحيحـا، يمكـن لكل انسـان أن يبرهن على الذي يرضيــه، فأنا لم أشعر بأية آلام، كما أنني لم أتعرض لالتعب ولالسقوط.

موضع الشوك أو الأعشاب الكثيفة حيث قُتل هابيل من قبل أخيه قابيل

وسرنا من هنـاك بعض الشيء في الحقل نفســه، وذلك وراء الأرض المفلوحة فوصلنا إلى منطقة كثيفة الأعشـاب، وفيها نباتات شوكية، بينها شـاهدنا المكان الذي انبعث فيـه قـابيل ضـد أخيـه هابيل وقتله، وذلك حسبما قــرأنا في سفـر التكـوين:٤، وانحنينا هنا بأنفسنا نحــو الأرض المقــدسـة وقبلناها وهـي الأرض التي فتحت فمهــا وتلقت ذلك الدم المقدس من يدي قاتل أخيه[٨].



الكهف الذي سكن فيه آدم مع حواء لسنوات طوال وحيث عرف آدم للمرة الأولى زوجته

في الجزء الجنوبي من هذا الحقل هناك رابية، ليست كبيرة الارتفاع، على قمتها يوجد في هذه الأيام مسجد، قائم في المكان الذي يعتقد أن آدم وحواء وأولادهما قدموا فيه أضاحي وصلوات إلى الله، لأن آدم علّم أولاده تقديم الأضاحي لله، وعلمهم عبادته، وفي هذا المكان نفسه، حدث أنه عندما كان قابيل وهابيل يتعبدان، ويقدمان قرابينهما معا، نزلت نار من السماء وأكلت قربان هابيل، لكنها لم تلمس قربان قابيل، لأن تقدمته لم تكن مقبولة لدى الرب مثل تقدمة أخيه، ولذلك أصبح حسوداً لأخيه، وقتله فيما بعد، وفي هذا المكان عمل ابراهيم مدفنه(كذا) وهنا بنى مذبحا، فهذا ماورد الحديث عنه في سفر التكوين:١٣، وذلك في نهاية الاصحاح.

وهنا أيضاً رأى ثلاثة وعبد واحداً، وذلك كما جاء الخبر في سفر التكوين:١٨، وفي جزء آخر من الرابية هناك وادي ممرا، المتصل بوادي حبرون، وقامت عملية الاتصال هذه قرب مدينة حبرون، ففي هذا الوادي كان ابراهيم ساكناً، عندما رأى ثلاثة رجال عند باب خيمته وتلقى الوعود من الرب، التي جرى الحديث عنها في سفر التكوين:١٥و١٧، غير أنه عندما كان يقدم قرباناً كان يصعد الجبل، وكذلك عاش البطريركان يعقوب واسحق هناك، وعدنا أخيراً إلى موضع موت هابيل في حقل دمشق، وخرجنا من هناك من الجانب الغربي، عبر سور من الحجارة الجافة، ووصلنا من هناك إلى جزء آخر من وادي حبرون، على طرف جبل، حيث وجدنا كهفاً صغيراً ومظلماً، ودخلنا إلى هذا الكهف واحداً تلو الآخر، ونظرنا إلى المكان بمتعة عجيبة، فهذا كان هو الكهف الذي عرف فيه آدم حواء بعد طردهما من الجنة.

★★ ★★ ★★

وبعدما رأينا الكهف المتقدم ذكره، خرجنا من هناك، وسرنا مسافة أخرى على طرف الجبل، وسرنا بالوقت نفسه صاعدين، فوصلنا إلى كهف آخر، لم يكن كهفا صغيراً، بل كان كهفاً واسعاً، ففي هذا الكهف بكى آدم وحواء وناحا على ابنهما هابيل لمدة مائة سنة، وهابيل هو الذي قُتل من قبل قابيل، ومن الممكن في هذه الأيام رؤية آثار، حيث جلس كل واحد منهما، ويوجد في هذا الكهف نفسه نبع كانا منه يشربان، ولهذا يعرف هذا الكهف باسم كهف البكاء، وبعدما فرغنا من رؤية هذا الكهف، نزلنا من الجبل إلى واد ضيق، وهو الذي يسمونه وادي الدموع، وهم يقولون بأن آدم وحواء قد سكنا معا في هذا الوادي لمدة تسعمائة وثلاثين سنة، وكان كل واحد منهما يقوم يومياً بممارسة أعمال توبة قاسية، بسبب عدم الطاعة التي أُدينا بها، ولطردهما من الجنة، ولفقدانهما طهارتهما الأصيلة، وللعنة ذريتهما، وبعد ذلك لم يحصلا فقط على رحمة الرب، بل اعتقد أنهما جديران بتلقي هبة النبوة، ولذلك أخبرا أولادهما بكثير من الأمور المقبلة، مما يتعلق بموضوع اتحاد المسيح مع كنيسته، وبخصوص الطوفان الذي سوف يأتي، ونيران يوم الحساب، وقد ماتا هنا، ومن هنا حملا إلى الكهف المزدوج، كما سنوضح فيما بعد، وفي هذا الوادي يقوم قبر لوط[ابن] أخي ابراهيم.

الكهف المزدوج الذي اشتراه ابراهيم ليكون قبراً له ولأسرته

ومن وادي الدموع هذا وصلنا ثانية إلى مدينة حبرون، ووقفنا أمام بيت حاكم المدينة، الذي على مقربة منه جلس عدد كبير من المستشارين من الشيوخ المسلمين، فلقد رغبنا بزيارة ورؤية الكهف المزدوج المجيد، وهو الذي فيه مدفون آدم وحواء، وابراهيم، وساره، واسحق، ورفقه، ويعقوب وليه، أي البطارقة الأربعة الأعظم قداسة مع زوجاتهم المباركات، وذلك حسبما قرأنا في سفر التكوين:٢٣، وكنا نعرف بشكل

جيـــد أننا لن نستطيع الوصـــول إلى الكهف المقـــدس، إلاّ إذا وافق المسلمـون على ذلك، وهم لايعطون موافقتهم بسهـولة لهذه الزيارة، إلاّ إذا أمكن نيل رضـاهم بالتـوسـلات والوسـاطات، أو بالهدايا، لأن هذا الكهف موجود داخل مسجد، لايسمحـون لنا بالدخول إليه، وقد بعثنا ترجماننا، الرئيس كـالينـوس، مع بعض الحجـاج من النبـلاء، إلى الحاكم وإلى الســادة المسلمين الذين كــانـوا بحضرته، وسألوهـم السماح لنا بالدخـول إلى الكهف المقـدس، وأعلنوا أننـا بالمقـابل على استعـداد عن طواعيـة القيــام بأي عمل يرضيهم ويـأمـروننا بعمله، وعندمــا تقـدم كالينوسنا بهذ الالتماس، سـألوه هل سمحوا لنا في القدس بـالدخول إلى هيكل الرب، الذي يسمـونه هيكل سليمان، وعندما أجـابهم«لا» قالوا:« ونحن أيضـاً لن نغـامـر بالسماح لهم بالدخـول إلى مسجـدنا، الذي هو برأي المسلمين، ليس أدنى قـداسة مـن مسجد القـدس، لابل أعلى منه، وعلى كل حـال إذا مارغبـوا بإبداء احترامهم نحـو البطارقـة في الكهف المزدوج، نحن نسمح لهم بالوصول حتى درجات سلم المسجد، والتعبد من هناك، إنما لايجوز لهم بأي حال من الأحـوال الصعود عليهم» وبناء عليـه عـاد كـالينوس إلينا، وجلب لنا هذا الجواب السلبي، واقتـادنا إلى درجات سلم المسجد الذي فيه الكهف المزدوج، وتعبدنا باتجاه الكهف، وقبلنا آثار البطارقة المقدسين، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وعندمـا فرغنا من عملنا هـذا، حملنا أنفسنا حتى نتأمل المكان، الذي كـان معروفـاً في أيام ابراهيم بـأن مدينة حبرون كـانت فيـه، لأن المدينة وقتـذاك لم تكن في مكانها الحالي، بل على مقـربـة منه، فقـد كـان المكان الحالي حديقـة، منها جرى اقتطاع صخـرة حمراء حوت الكهف المزدوج، وكـــان ابراهيم قــد اشترى هذا المكان مع الصخــرة، ليكون ضريحاً له شخصياً ولأولاده، وإذا رغبت في معرفـة المعني بكهف منفرد، وبكهف مـزدوج وبكهف ثلاثي، يمكنك رؤية ذلك فيما تقـدم في القسم الأول،

ولاسيما لدى وصف ضريح الرب في القدس.

وحدث أنه بعدما جرى دفن البطارقة الأربعة مع زوجاتهم في هذا الكهف، بدأ الناس يترددون على المكان، وشرعوا يبنون لأنفسهم بيوتاً من حوله، بدافع التبجيل للمكان نفسه، ولاحترامهم للبطارقة المقدسين، وهكذا تشكلت مع الأيام مدينة هناك، وهجرت حبرون القديمة، وكان ذلك قبل أيام الملك داوود، وقد حكم داوود لمدة سبع سنوات في حبرون الحديثة، علاوة على ذلك بنى اليهود مصلى فوق صخرة الكهف، وقد دمر المسيحيون فيما بعد مصلى اليهود هذا، وبنوا كنيسة كبيرة فوقه، وقد عينوا فيها أسقفاً وكهنة، وبعد ضياع الأرض المقدسة، عمل المسلمون من الكنيسة مسجداً، وأحاطوه بأسوار عالية وبأبراج، وهو قائم في هذه الأيام في وسط المدينة، مثل قلعة حصينة، وهو بالحقيقة لايبدو شكله شكل كنيسة، بل شكل قلعة أو قصر عظيم، وأخبرنا المسلمون بأن ذلك المسجد مليء بالمصابيح المضاءة، وكذلك هناك مصابيح في الكهف المزدوج، موضوعة داخل آنية ذهبية، وهي معلقة بحبال من حرير، أو بسلاسل من فضة، ويوجد كثير من رجال الدين في هذا المسجد من كل من ا لـ Saquis (الصوفية؟) والـ Al-hages(الفقهاء؟) وبذلك مامن ساعة تمر في النهار أو في الليل من دون قراءة وإنشاد بجانب الكهف المزدوج، ذلك أنهم يتناوبون أحدهم مع الآخر، وعندما كنا واقفين على هذه الصورة على درجات سلم المسجد، تجمع كثير من الناس من شباب وشيوخ للنظر إلينا.

مشفى حبرون، وبركة حبرون، والأماكن الأخرى

وبعدما فرغنا من مشاهدة المسجد، والكهف المزدوج، سرنا نازلين مسافة قصيرة، فوصلنا إلى باب المشفى المخصص للناس الفقراء، وهو موجود تحت المسجد، ودخلنا إليه، فشاهدنا مكاتبه الجميلة، وفي مطبخه وفرنه كانت هناك استعدادات عظيمة معمولة لصالح الحجاج المسلمين،

الذين يزورون بأعداد كبيرة كل يوم الكهف المزدوج، وقبور البطارقة، ولهذا المشفى ميزانيات سنوية تصل إلى مايزيد على أربعة وعشرين ألفاً من الدوقيات، ففي كل يوم يخبز فيه ألف ومائتي رغيف من الخبز، ويعطى هذا الخبز إلى كل طالب، ولاترفض الرعاية والضيافة إلى أي حاج، من أي دولة كان، أو شعب، أو عقيدة، أو طائفة، وكل من يسأل طعاماً يتسلم رغيفاً من الخبز، وبعض الزيت، وبعض الـ Me-nestrum، الذي نسميه معجنات.

وتدفع قلعة النبي صموئيل [الجيب الأعلى] لوحدها ألفي دوقية في السنة إلى هذا المشفى، ويرسل أغنياء المسلمون والأتراك يوميا الصدقات إليه لدعم الحجاج، ولابداء الاحترام نحو البطارقة، كذلك عندما يكون أغنياء الناس على وشك الموت، يوصون بأشياء تذكارية دائمة عن أنفسهم لهذا المكان، ويتركون أعطيات إلى المشفى، وعند حلول ساعة صرف الصدقات، يصدرون صوتاً مخيفاً بالطبل، حيث خفنا منه لدى سماع صوته، وخشينا أن ذلك الصراخ معناه شيء ما ضد أنفسنا، وأثناء توزيعهم لأرغفة الخبز، أرسلوا لنا سلة مليئة إلى نزلنا، مع أننا لم نطلب منهم شيئاً مطلقاً.

وبعدما فرغنا من رؤية المشفى، نزلنا وسرنا على طول الشارع الطويل، إلى أول أبواب المدينة، وتحت هذا الباب يوجد المكان، الذي قتل فيه يوآب— قائد جيش داوود— أبنير قائد جيش شاؤول، ولهذا السبب تولى داوود لعن يوآب(صموئيل الثاني:٣/ ٢٩) وسرنا متجاوزين الباب، ووصلنا إلى البركة، المحاطة بسور جميل، وهي التي تتلقى الماء الذي يجري في وادي ممرا، وسرنا حول هذه البركة، وشاهدناها بعناية، لأن ذكرها قد ورد في الكتابات المقدسة القانونية(صموئيل الثاني:٤/ ١٢)، فعندما قام القاتلان: بعنه وركاب ابنا رمون البئيروتي، بقتل إيشبوشث، ملك إسرائيل، وجلبا رأسه إلى داوود

في حبرون، وفي ظنهما، أنهما كانا يحملان إليه بشائر طيبة، أمر داوود باعدامهما، وبتعليق أيديهما وأقدامهما فوق البركة، أي فوق بركة حبرون، ويوجد بين البركة وسور المدينة ضريح أبنير، الذي احتفل داوود بجنازته بشكل مهيب، حسبما قرأنا في سفر صموئيل الثاني:٣، وفي هذا الضريح جرى دفن رأس إيشبوشث بن شاؤول، ملك اسرائيل، كما وصلنا الخبر في سفر صموئيل الثاني:٣.

وبعد ماشاهدنا هذه الأماكن، عاودنا الدخول إلى المدينة، وتوجهنا إلى نزلنا، وقد شرينا بعض الحطب للنار، وأوقدنا ناراً، وطبخنا بعض المعجنات والبيض وأكلناهم، وبعد العشاء جاء المشرف العام على النزل، وأطفأ نارنا، وطلب منا بالاشارة أن نكون هادئين وصامتين خلال الليل، وذلك خشية أن يسمع بنا اللصوص من البداة العرب، لأن النزل قائم إلى جانب سور المدينة، وفي بعض الأحيان، عندما يعرفون بوجود ضيوف هناك فيه، يتسلق اللصوص فوق السور إليهم، وأضاء مصباحاً معلقاً إلى جانبه، وجلس أرضاً ليتولى السهر والحراسة إلى جانب الباب، وكنا نحو هذا كله ممتنين كثيراً، واندهشنا من لطف المسلمين نحونا، ومع ذلك خشينا أننا قبل أن نغادر المدينة سوف يجعلوننا ندفع مبلغاً كبيراً، مقابل اللطف الذي أبدوه نحونا، وهكذا بما أن الدنيا كانت قد أظلمت تمددنا للنوم، كل واحد في قلايته مثل الرهبان.

وصف مدينة حبرون وكيف أنها كانت مسكونة منذ أقدم العصور

حبرون أو Erius مدينة قديمة جداً، وقد تأسست مباشرة بعد الفيضان، وسبع سنوات قبل مدينة تنيس(صوعن) (العدد:١٣/ ٢٢)، وكانت مدينة تنيس هذه قد تأسست من قبل تيتانس Titans—وهم

عمالقة— نزلوا من حبرون إلى مصر، وكانوا أبناء تيتان، وكان تيتان هذا هو ابن كولوم Coelumوفستا Vesta، أخو ساتورن، وقد قاتل أولاده ضد جوبيتر، وحاولوا طرد الآلهة من السماء، لكنهم ضربوا بصاعقة، وذلك حسبما قرأنا في سفر التكوين(؟)، وسببوا الاضطراب في جميع أنحاء العالم تقريباً، وذلك حسبما ورد في أغاني الشعراء، وعلى هذا كانت تنيس مدينة قديمة للعمالقة في مصر، وقد بنيت من قبل عمالقة قدموا من حبرون، ولحبرون أربعة أسماء: أولها جميعا؛ أنها دعيت أربعة (التكوين:١٣) اشتقاقاً من اسم الأربعة المؤسسين الأوائل لها، وثانيا عرفت باسم « قرية أربعه»[يشوع:١٤/ ١٥]، وهو الاسم نفسه« مدينة أربعة» أو« مدينة الأربعة»، لأن معنى كلمة« قرية» هو« مدينة» و Arba هو « أربعة»، وكان اسم حبرون معروفاً في العصور القديمة من قبل جميع الناس سواء من المؤمنين أو غير المؤمنين، وعرفت باسم« قرية أربعة» أي« مدينة الأربعة» لأسباب مختلفة، فقد كان الكفار سموها هكذا، بسبب العماليق الأربعة الذين دفنوا هناك وهم: عناق، وأخيمان، وشيشاي، وتلماي(العدد:١٣)، لكن المؤمنون دعوها بهذا الإسم بسبب البطارقة الأربعة: آدم، وابراهيم، واسحق، ويعقوب، الذين دفنوا هناك مع زوجاتهم الأربع، وثالثاً عرفت باسم حبرون، نسبة إلى ابن كالب، ورابعاً: إنها تعرف باسم أربعة [اقرأ الخليل] في هذه الأيام من قبل المسلمين، بسبب ابراهيم الذي دفن هناك، وسماها أيضاً مصنف Speculum Historiale «الابراهيمية» وكذلك«سرّه»، كما أنها غالبا ماعرفت باسم Ericus.

وذكر هذه المدينة جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، حيث قال بأنها كانت فيما مضى المدينة الرئيسية لدى الفلسطينيين، ومكان اقامة للعمالقة، وملوك سبط يهوذا، ومدينة كهنة، ومدينة إلتجاء، وهي تبعد عن القدس حوالي أربعة وعشرين ميلاً، باتجاه الجنوب، هذا

بالنسبة للقديس جيروم، وكانت هذه المدينة— أي المدينة التحتا— قد استولى عليها يشوع، الذي شنق ملكها هوهام(يشوع:١٠)، لكن الجزء الأعلى من المدينة جرى الاستيلاء عليه فيما بعد من قبل كالب، الذي قتل أشجع عماليقها، كما قرأنا في يشوع: ١٢، وفي القضاة:١/ ١٠.

وكان بسبب كالب أن استمر تذمر الناس، في القفار، ضد الرب، ولأنه اتبع الرب، وقدم برهانا على جودة الأرض المقدسة، انه بسبب ذلك قدم الآخرون تقريراً شريراً، بأن الرب قد وعده بجبل حبرون كحصة رئيسية في جميع البلاد(العدد:١٣—١٤، يشوع:١٤)، فضلاً عن هذا، قال نيقولادي ليرا بأنه عندما جرى ارسال الجواسيس من قبل موسى، ووصلوا إلى البلاد، كالب وحده صعد الى حبرون، الى الكهف المزدوج، وأدى بعض الصلوت أمام البطارقة المقدسين، وبذلك بات جديراً، لأن يكون متملكاً لهذا المكان المقدس.

وموقع هذه المدينة قائم جزئياً على سفح رابية، وجزئياً في وادي، وهي ليست كبيرة جداً، لكنها مكتظة بالسكان وحصينة، وقد عملت مدينة بعد الطوفان مباشرة، مع أنه قبل الفيضان كان هناك سكان من البشر، انما من دون مدينة، فقد سكن هناك أبناء آدم، ومن هناك توزعوا وتفرقوا في جميع أرجاء الدنيا، وعلى ذلك ارتحل قابيل، بعد قتله لأخيه، إلى الهند، مع زوجاته وأولاده، فراراً من وجه الرب.

علاوة على ذلك، ينبغي أن نعرف بأن هذه المدينة قد ورد الحديث عنها، والاشارة اليها بأسماء أخرى اضافية للأسماء التي تقدم ذكرها، فهي في بعض الأحيان عرفت باسم Arba أي أربعة، بسبب العماليق الأربعة الذين دفنوا فيها، وجاء اسمها مصحفا Arbeth ، كما قال جيروم في رسالته إلى بماخوس De optimo genere Interpertandi ، وورد ذكرها أحيانا باسم« قرية أربعة» أي« مدينة أربعة»، وذلك بسبب البطارقة الأربعة الذين دفنوا هناك، كما عرفت

أحيــانا باسم«ممــرا» بسبب« وادي ممرا» المتصل بالمدينة، وبسبب بلوطة ابراهيم في ممرا، التي كـانت مـوجودة ومـرئيـة حتى أيام طفولة المبـارك جيروم، وذلك كما أخبرنا جيروم نفسـه في كتـابه« حول المسـافـات بين الأماكن»، وإلى أيام الامبراطور قسطنطين كان يشـاهد هناك شجرة بطم معمّـرة جداً، حيث أن حجمهـا يبرهن على سنينهـا الطويلة، وهي التي سكن ابراهيم تحتهـا، وتحتهـا احتفى بكرم بـالملائكة، وأبدتها من الممكن رؤيتهـا في هذه الأيام، وقـال القــديس جيروم:« ان المكان الذي تقـوم الشجـرة فيـه متعبـد بشكل مـدهش وهائل من قبل جميع الأسبـاط من حوله، وينظر إليه— كما هو بالفعل— بأنه قد تقدس باسم مجيد.

وبالمناسبـة ، ان اسم ممرا، كـان الاسم الاصيل للمكان، وقـد اطلقـه عليه آدم، لأن معنى كلمـة ممرا بالعبرية«وضوح»، فلقـد ذكرنا من قبل، أنه في هذا المكان تلقى آدم المعــرفـة بكل الأشيـاء ورأى الأشيـاء كلهـا بوضــوح، وعرف هذا المكان أحيـانا باسم Chebronالذي يعني«عبر»، بسبب أنه من هذا المكـان عبر آدم إلى الجنة، وفي بعض الأحيـان عـرف أحيانا باسم«عبرون» الذي معناه«معبر»أو« تراجع» لأنهما تراجعا إلى هنا وعادا بعد الذنب الأول، كما أنه عرف أحيانا باسم حبرون، أي«الوادي الفقير»، بسبب المآسي التي تحملهـا آدم في هذا المكان، وخسارته للحيـاة الأبدية.

وفي اليـــوم الثـــامن والعشرين، الذي كـــان يوم عيــد أبانا المبـــارك أوغسطين، نهضت مستيقظاً بعـد منتصف الليـل، وذلك حسب عـادتي، أي قبل البقيـة لأداء صلواتي، ونزلت نحـو الباب لاشعـال شمعتي من المصبـــاح المعلق هناك، غير أن المسلـم الحارس عند البـــاب، أوقفني، وطردني من قـــرب المصبــاح مع صرخـــات عـــاليـة، ومـن جهتي أنا، لقـداقتربت من المصبـاح لأشعل الشمعــة، كما كنت غـالبـاً أفعل، لكنه أطفأها، وصدر عنا معاً كثيراً من الصراخ، جعل الترجمان يستيقظ ويأتي

إلينا، وقد تولى لومي بالايطالية لأنني لم أحافظ على الهدوء والسكينة، وسألني ماالذي أريده بالشمعة في مثل هذا الوقت المبكر، فقلت له:« انني أرغب في حمد الرب، وأنوي قراءة شكره من كتاب»، وعندما سمع المسلم بهذا، طلب من الحارس اشعال شمعتي، وقد فعل ذلك، هذا وأنا متأكد من أنني لو سألته اشعالها لمقصد آخر، مهما كان نوعه، لما كنت قادراً على الحصول على ذلك بأي شكل من الأشكال.

وهكذا بعدما حصلت على الاضاءة لشمعتي، صعدت إلى مكاني، وقرأت صلواتي، وماكدت أفرغ من صلواتي لما بعد منتصف الليل، حتى جاء الترجمان كالينوس، وصعد وتولى ايقاظ الحجاج الآخرين، حتى يقوموا بالاستعداد للمغادرة وبناء عليه حزمنا حقائبنا، وحملنا جمالنا، وأسرجنا على حميرنا، ومضينا خارجين من المدينة مع ضوء الفجر، ونزلنا إلى حقل هو الذي كان اسحق يسير فيه وهو مستغرق بالتفكير، فوصل وقتها دمشق، خادم ابراهيم، وجلب له زوجته رفقه الشابة(التكوين:٢٤).

وأثناء متابعة سيرنا، وصلنا إلى قرب دبير، وهي«مدينة أحرف كتابة»، وهي على كل حال لم نستطع رؤيتها، لوجود جبل بيننا وبينها، وحول هذا الجبل انظر يشوع:١٥، والقضاة:١.

وعرفت باسم«مدينة أحرف كتابة»، لأن فيها جرى اختراع الكنعانية للمرة الأولى، أو لأن العماليق القدماء كان لديهم نوعاً من أنواع مدارس الكتابة هناك، أو لأن سكانها كانوا كتّاباً كما قال صاحب Speculum Historiale ، أو كما يقول العبرانيون— عندما استولى عثنئيل عليها، اثناء البكاء على موسى، قام هناك بإعادة كتابة بعض الاصحاحات من كتاب الشريعة، التي كانت قد غدت باهتة وممسوحة، وعن هذه المدينة قال جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»: دبير موجودة في ديار سبط يهوذا، وتعرف باسم«مدينة أحرف كتابة»، وكان قد استولى

عليها عثنئيل، أخـو كالب، وهو الذي قتل العماليق الذين سكنوا هناك، وتلقى عكسة ابنة كالب، لتكون زوجة لـه وذلك بمثابة جائزة له، ومن الممكن حتى الآن أن نرى هنـاك أرض الينابيع العليـا والينابيع السفلى، التي أعطاها كـالب إلى ابنتـه عكسـة، عندمـا اشتكـت اليـه بأنه أعطاها أرضاً جافة وعطشى، كما قرأنا في سفر القضاة:١.

وتابعنا سيرنا، فتجـاوزنا«قـرية سفـر» أودبير، ومضينا على طريقنا في وادي حبرون، الذي من الممكـن أن يكون وادياً خصبـاً لو أنه جـرت زراعتـه، والذي هو محتفظ حتـى الآن على جـانبيـه بجـدران الأحجـار الجافـة للبسـاتين القديمـة، وقـد رأينا بين الأعشـاب بعض المخلوقـات البرية القـابلة للأكل، والحجل والدراج، وبعـدما قطعنـا مسافـة طويلة، وصلنا إلى مكان فيه وادي آخـر يقود من الشمال إلى الغـرب، وهذا كان وادي اشكول نيل، أي وادي عنقـود العنب، وكـان وادياً خصبـاً جـداً، منه أرسل مـوسى جواسيسـاً لاستطلاع البـلاد، وقد حملوا في عـودتهم عنقـوداً كبيراً من العنب، قـام بحمله رجـلان على عصـا، ومن الوادي جمعوا بعض الرمـان وفواكه أخرى، وأخـذوهم إلى بني اسرائيل في قفار ماوراء الأردن، وذلك كما قرأنا في سفر العدد ١٣.

وغــادرنا هـذا الوداي، وتابعنا سيرنـا في وادي حبرون، عبر الطريق الذي عبر عليـه يوسف عندما أرسـل من قبل أبيه، يعقـوب من وادي حبرون، ليطلب أخـوته في شكيم(التكوين:٣٧)وعلى هذا الطريق نفسـه نزل أخوه يوسف إلى مصر لشراء قمح(التكوين:٤٢)، ومن المفترض أن عيسو اصطاد في الشعراء في هذا الوادي، لكثـرة الحيوانات البرية هناك، وكان ذلك عندمـا بعث به أبوه اسحق حتى يجلب إلى البيت بعض لحم الطرائــد، ويصنع منهـم لحومــاً محفــوظـة،وبذلك ينال مبــاركــة أبيه(التكوين:٢٧). وسرنا لسـاعات كثيرة على طول الجانب الأيمن من الوادي، الذي كـان عميقـاً وضيقـاً، ووعـراً في قعـره، وكثير الحجـارة،

ومليئا بالأشجار البرية، وكان رطباً وفيه مياه، وهو أمرغير طبيعي في تلك البلاد.

وفي منتصف النهار خرجنا من المنطقة التلية، إلى السهول، واستدرنا هنا بأنفسنا باتجاه الجنوب، عند سفوح بعض الهضاب، ووصلنا إلى حقول خصبة جداً، وهي مليئة بأشجار الزيتون وأشجار التين، وقد رجونا الترجمان منحنا بعض الوقت حتى نجلس ونتناول وجبة تحت ظل هذه الأشجار، لكنه رفض، قائلاً بأن الجمال المحملة لايجوز إفراغ حمولتها لأجل هذا الغرض، كما لايمكنها الوقوف وأحمالها على ظهورها، كما لايمكنها الذهاب من دوننا، ولقد كان هذا صحيحاً، ولذلك مضينا متابعين السير على طريقنا، وأثناء ركوبنا لظهور حميرنا أكلنا وشربنا، مما وضعنا أيدينا عليه، وكل الذين يسافرون مع جمال محملة لابد أن يفعلوا هذا، لأن الجمال لايمكنها الوقوف تحت أحمالها، الأمر الذي سوف نشرحه بشكل أفضل، لدى حديثنا عن عبورنا للصحراء.

ومع وقت العشاء شرعنا نغادر بشكل تدريجي المنطقة التلية، ووصلنا إلى سهول فلسطينية واسعة جداً مقابل أشدود، وتمتد هذه السهول بشكل اعتراضي من المنطقة التلية حتى البحر المتوسط، وهي مسافة ثلاثة أميال ألمانية، كما أنها بعيدة عن يافا وجبل عفريم نزولاً حتى منطقة جيرار Gerar في بئر السبع، ويوجد في هذا السهل كثيراً من المدن، إنما بشكل خاص خمسة منها، التي هي مدن ملكية ورئيسية لدى الفلسطينيين وهي: جت، وعقرون، وأشدود، وعسقلان ،وغزة، وكان قد سكن في هذه المدن خمسة من أقطاب الفلسطينيين(صموئيل الأول:٦/ ١٨)، وهذه المدن كلها قائمة على شاطىء البحر، وليست بعيدة عن البحر.

وكانت جت مدينة قديمة وحصينة من مدن العماليق، لم يستطع

يشـوع ذلك المقـاتـل العظيم الاستيـلاء عليهــا كما هو وارد في سفــر يشـوع:١١، وكــان جـالوت الذي قتله داوود مـن جت(صمـوئيل الأول:١٧) وفي صموئيل الثاني:٢١ هناك خبر عن رجل من جت، كان قوي البنيـة، كان له أربع وعشرون اصبعاً وأظافر، وهناك أشيـاء أخرى كثيرة عن جت وردت أخبارها في الكتابات المقدسة.

وذكـرت أسـاطير القديس كـريستـوفـر بأنه كـان من جت، وفي هذه الأيام يقـال بأن الرجال الذيـن يلدون هناك أقوى ومقـاتلين أفضل من الآخرين، وهي مدمرة منذ زمن طـويل، وباقية الآن بمثابة قرية صغيرة، واسمهـا في هذه الأيام جبرين، وهي قـائمة ليس بعيـداً عن يافـا، وعن الطريق إلى ذلك الميـنـاء، وإذا مـاسـار الانسـان نازلاً على طـول سـاحل البحر الكبير، من جت، مسافة ميلين ألمانيين، يصل إلى مدينة أخرى من مدن الفلسطينيين، اسمها عقرون وقد كانت فيها مضى مدينة عظيمة من مدن الفلسطينيين، وقـد كان فيها هيكـل كبير لبعل أو بعل زبوب، وقد عرف باسم رب عقـرون، ولهذا فإن احزيا ملك اسرائيل، عنـدما سقط من كوة عليته، أرسل يسأل بعل زبوب وقـد عرف باسم رب عقرون[الملوك الثاني:١]، ولام أيضاً اليهود الرب يسوع بأنه عمل اتفاقا مع هذا الشيطان نفســــه، وقـــالوا:« ببعلـز بوب رئيـس الشيـــاطين يُخرج الشيـاطين»[لـوقـا:١١/ ١٥]، وقـد أعطيـت هذه المدينة إلى سبط يهوذا، لكن أفـراد السبط لم يتمكنوا قط من السيطرة عليها، لأنهم لم يستطيعـوا غلبة العماليق الذين سكنوا فيها.

وإذا مـاتابع الانسـان نازلا على طول سـاحل البحـر، فـانه يصل إلى أشـدود،التي كانت المدينة الثـالثـة للفلسطينيين، وكان يشـوع قد عينهـا لسبط يهوذا، لكن رجال هذا السبط لم يتمكنوا قط من الاستيلاء عليها، لأنهم لم يستطيعـوا طـرد سكانها الأصليين منهـا، وكــان في هذه المدينة هيكلاً كبيراً لداجون، إليه جلب الفلسطينيـون تابوه رب اسرائيل عندما

استولوا عليه، ولذلك سقط صنم داجون، وأصيب الناس بطاعون عظيم(صموئيل الأول:٥).

ويتابع الانسان سيره فيصل إلى المدينة الرابعة للفلسطينيين، التي هي عسقلان، والتي عنها قال جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»:« عسقلان مدينة جليلة للفلسطينيين، وهي كانت في القديم واحدة من المدن الرئيسية لدى الفلسطينيين، وعينت حصة لسبط يهوذا، لكن رجال هذا السبط لم يستطيعوا السيطرة عليها، لأنهم عجزوا عن غلبة سكانها»، وكانت هذه المدينة حصينة جداً في العصور الحديثة، لأن صلاح الدين، سوط العذاب المسلط على الصليبيين، والمحارب العظيم جداً، قدم إلى عسقلان لحصارها مع جيش عظيم، لكنه لم يستطع فعل شيء ضدها، مع أنه كان قد هزم الصليبيين في كل مكان، وطردهم من الأماكن التي كانت بأيديهم، وأسرغي ملك القدس، مع مقدم الداوية، وجميع النبلاء، ولذلك رفع الحصار عنها، وذهب إلى مدينة القدس المقدسة، واستولى عليها، كما كنا قد تحدثنا من قبل، وبعدما استولى على القدس، عاد ثانية، وحاصر عسقلان ومع ذلك لم يستطع الاستيلاء عليها، إلاّ على شرط إخلاء سبيل ملك القدس، ومقدم الداوية وجميع النبلاء، وكانوا على هذه الشروط مستعدين لتسليم المدينة، ووعد صلاح الدين بالقبول بهذه الشروط، ونفذ وعده، وحصل على عسقلان.

ولدى متابعة الانسان سيره نازلاً على طول شاطىء البحر، يصل إلى المدينة الخامسة للفلسطينيين، التي اسمها غزة أو غزرة، ولقد كنا نحو هذه المدينة مسرعين عبر هذا الطريق، مخلفين المدن الأربع المتقدم ذكرها على يميننا، وغزة هي المدينة التي سوف أتولى وصفها فيما يلي، ويوجد تحت سلطة هذه الحواضر الخمسة في بلاد الفلسطينيين هذه، مدن كثيرة، وهكذا تابعنا سفرنا عبر المنطقة السهلية لفلسطين، ونحن متجهون نحو الجنوب، وجبال اليهودية على يسارنا، والبحر المتوسط على طرفنا

اليمين، وتابعنا السفر طوال اليوم في حرارة الشمس حتى غيابها، وعند الغياب وصلنا إلى قرية اسمها زخاريا، وقد دخلنا إلى نزل قام خارج القرية، وقمنا هنا بانزال الأثقال عن ظهور دوابنا وعملنا مايلزم من اعدادات لإمضاء الليل هناك فيه، وكان نزلاً واسعاً، يشبه قلعة،فيه اسطبلات كثيرة، وقاعات، وهو مسور من جميع الجهات، ولم نجد أي انسان فيه، وبعدما وضعنا دوابنا في الاسطبلات، ورتبنا اغراضنا، شرعنا بالإعداد لعشائنا، ولكي نجمع حطباً للنار سعينا نبحث في الحقول واقتلعنا عصياً من أسيجة الحقول والبساتين، ولذلك قام أهل المنطقة من المسلمين بالركض نحونا ورمونا بالحجارة، وطاردونا حتى النزل، هذا وقدم إلى هناك بعض من أهل المنطقة، وجلبوا معهم دجاجاً وطيوراً، وخبزاً وماء، وقد اشترينا ذلك، وذبحنا الطيور، وتوفر لدينا عشاءً جيداً وبهيجاً، وبعد العشاء أغلقنا أبواب النزل بدحرجة حجارة كبيرة إلى هناك، ووضعنا حارساً على السور، خشية من حدوث طارىء في الليل، ذلك أننا خفنا من وصول فئة أخرى إلى هناك، تكون أقوى منا، وتقوم بإخراجنا من الخان، لأن العادة في تلك البلاد: تقوم الفئة الأقوى بطرد الفئة الأضعف من الخان، ولذلك أعددنا أنفسنا للدفاع، وحملنا كثيراً من الحجارة إلى السور لنقاوم كل من يحاول التدخل بشؤوننا.

وكان هناك مسجد جميل ملاصق لخاننا، وكان بامكاننا رؤية مافيه من خلال الفتحات في السقف، وفي الحقيقة قام واحد من الحجاج أثناء الليل بتلويثه من خلال إحدى هذه الفتحات، فعرضنا بذلك إلى خطر عظيم، غير أننا غادرنا قبل أن يأتي أي انسان الى المسجد، وإلى جواره كان هناك بركة عميقة جداً، نضحنا منها بعد صعوبات جمة ماءً جيداً، والبرك ثمينة جداً في هذه المناطق، والماء قليل جداً، وعلى هذا قرأنا بأن البطاركة: ابراهيم، واسحق، ويعقوب، حفروا كثيراً من الآبار، وقد

نشبت نزاعــات بين الملوك حــول الآبار(التكويـن:٢٦)، وعند حلول ا لظلام مددنا أنفسنا، وأخذنا بالنوم فـوق ذروة السور المحيط، تحت قبة الـ سماء، لأن الغرف كانت قذرة.

صقلغ بلدة داوود وأماكن أخرى

وا ستيقظنا عند الفجـر في اليـوم التـاسع والعشريـن، وحمّلنا جمالنا، وأسرجنا على حميرنا، وانطلقنا عبر منطقة مستـوية وجرداء، حيث رأينا كثيراً من القرى مع خرائب مدن قديمة، وعند الظهيرة وصلنا إلى منطقة متـلأت بالجبـال وبالروابي الصغيرة، بينهـا انتصب جبل كـان عـاليـاً، مرتفعـاً أكثر من البقيـة، وهو جبل مناسب جـداً لإقامة قلعـة وحصن به، وعلى هذا قـال تبلاؤنا: لو أن هناك رجال حـرب في هذه المنطقة، انوا ليتركوا هذا الجبل من دون إقـامة قلعة، وعندما وصلنا إلى سفح الجبل، ونظرنا إليـه نحو الأعلى، بدا لنا وجـود أحجار على السفح أحجـار أسـوار مخربة، وبناء عليـه قمـت أنا وبعض من الآخـرين حميرنا بالأسفـل، وبادرنا مسرعين فتسلقنا حتى قمـــة هذا الجبل، جدنا بقايـا وخرائب أسوار قوية، ليست أسوار قلعـة، بل مدينة ذلك أنه بالحقيقـة قـامت مـدينة صقلغ فيما مضى هناك، وهي لسطينيين أعطاها أخيش ملك جت إلى داوود، عندما كان فاراً ـاؤول(صموئيل الأول:٢٧)، هذا وهناك المزيـد من الأخبار في(صمـــوئيل الأول:٣٠) ولدى جيروم في كتـابـه«حــول بين الأمــاكـن» حيث قــال عن هذا المكـان بأن صقلغ في إلى الجنوب من حصـة يهوذا وشمعون، التي هي مـوجودة

فــوق ذلك الجبل، ونظـرنا بالطول وبـالعـرض، عبر ابحـر الكبير، وباتجاه جبال حبرون، وأيضـاً باتجاه جبل لك باتجاه الصحـــراء المصرية، والجهـــات الأربع من

السموات، ولدى فراغنا من رؤية هذه المشاهد، غادرنا صقلغ، وتوجهنا نازلين نؤم غزة، وقد رأينا عن بعد كبير، جماعة من الجمال والحمير قادمة نحـونا، وقـد ارتعبنا كثيراً ظانين بأنهم بداة عـرب أو مـدينيين، ولذلك أحضر أدلاؤنا قسيهم، وأعـدّ الحجـاج النبـلاء سيـوفهم، لكن عندمـا واجهـونا تجاوزونا مسرعين وبسـلام كامـل، ولم يحركوا اصبعـاً ضـدنا، فلقـد كـانوا مصريين راغبين بالذهـاب إلى القـدس للصـلاة بالأقصى حسب عادة المسلمين.

وحوالي المسـاء اقتربنا من غزة أو غزرة، لكـن لم نفكر بدخول المدينة بشكل مكشوف، خشيـة أن نتعرض للمضايقات وقيـام أطفال المسلمين برمي الحجـارة علينا، وتكسير جرار خمرتنا، ولذلك سرنا بشكل جـانبي بعيـداً عن الشارع العـام، في حقل مليء بأشجار التين، وتحت الأشجـار هذه أنزلنا أثقـالنا من على ظهـور دوابنا عـازمين على البقـاء هناك حتى انتهـاء النهـار، وجلسنا في هذا الحقل وأكلنا وشربنـا الأشيـاء الحاضرة لدينا، ذلك أننا لم نتجـرأ على اشعـال نار لطبخ أي شيء سـاخن، فلقـد أكلنا خبزاً وجبنا، وقطفنـا تينا من الأشجار، حيث كانـت هناك كميات وافـرة، ولقـد أكلت من ذلك التين كثيراً جـداً، ولم أهتم مطلقـاً بالذي كنت أفعله، لأنني بعـدما أكلت التين، تورمت شفتاي بشكـل مفاجىء، وصـار حـول فمي حبوب مقيتـة مثل المصـاب بالجذام، ولذلك لم يعـد بامكاني فتح فمي لتناول مـااحتاجه من الطعـام والشراب وبقيت هكذا لأيام عديدة أعاني من ذلك كثيراً، وأخبرني بعض الناس المتعلمين، أنني من خلال أكلي كثيراً من التين، أدخلت إلى جوفي مواد وعصارة الحمى، وهذه ظهـرت على شفتي، ولولا أنها فعلـت ذلك، لعـانيت من هجـوم حمى حادة، والذي أعتقده أنني أكلت تينة مسممة من قبل إحدى الهوام أوالزواحف.

وعندمـا غـابت الشمس أعـدنا تحميل جمالنـا وحميرنا، وانطلقنا نريد

غزة، ودخلنا المدينة والظلام قد انتشر، وسرنا عبر طريق طويل إلى خان الحجاج، وعندما وصلنا إليه، لم نستطع أن نتحرك بسبب ضيق المكان، وكان من غير الممكن لهذا المكان استيعابنا شخصيا من دون اثقالنا، ولذلك خرجنا منه مغضبين، وأخبرنا الترجمان أننا لايمكننا الإقامة في هذا المكان ولانريد ذلك بأي حال من الأحوال، وأنه إذا لم يوفر لنا مكانا أوسع للاقامة فيه، سوف نرفع شكوى ضده في بلاط حاكم غزة، لخرقه العهد ولعدم وفائه بما التزم به في البند الخامس من الاتفاق المعقود بيننا وبينه، والذين كنا قد ذكرناه من قبل.

وعندما سمع هذا، تناقش معنا لبعض الوقت، ثم طلب منا انتظاره، وركب يبحث في المدينة هنا وهناك عن مكان لنا، وهكذا وقفنا لوقت طويل على هذه الحالة في الظلام، ونحن محشورين في طريق ضيق بين الحمير والجمال، وقد فقدنا صبرنا وكنا متخوفين من حدوث هجوم مفاجىء ضدنا، وجاء الترجمان أخيراً، واقتادنا عبر طريق طويل من ذلك البيت إلى مكان آخر، حيث لم يكن هناك في الحقيقة بيت، بل ساحة محاطة بجدار، ومن الممكن اغلاق الساحة بباب، لكنها كانت بلاسقف لننام تحته، وكان هناك على الطرف الأول غرفتان قذرتان جداً، ومليئتان بالغائط البشري، أما الساحة فكانت مبلطة ببلاط طيني، كان معداً من أجل شوي القرميد، وأشعلنا شموعنا هنا، وأنخنا جمالنا في الطريق، وأنزلنا الأثقال عن ظهورهم وعن ظهو الحمير، وأعطينا الدواب إلى أصحابها، وجلبنا في الوقت نفسه جميع أغراضنا إلى الساحة، وأخرجنا منها جميع سائقي الجمال مع سائقي الحمير، وأبقينا معنا الفحل فقط، أي كالينوس الأصغر، وأغلقنا الآن الباب بالمزاليج والأحجار، خشية التعرض لهجوم من قبل المسلمين، وبعدما قمنا بهذا، أوقدنا النار، وطبخنا بعض الفطائر حتى نتمكن من أكل أي شيء، أو بالحري أن نتملك طعاماً ساخنا مطهيا لأجوافنا، لأننا لم نتذوق شيئاً ساخنا طوال

ذلك اليوم، وفرغنا من تناول طعامنا بسرعة، ومددنا أنفسنا كي نرتاح داخل معلف طويل، بني من الحجارة والملاط على طول جدار الساحة، لكن الذين لم يجدوا متسعاً في المعلف، تمددوا في مكان آخر من الساحة، وهكذا نمنا تلك الليلة في الهواء الطلق، متعرضين لندى السماء.

كيف حصلنا على إذن من الحاكم للإقامة بغزة

واستيقظنا في اليوم الثلاثين عند شروق الشمس، وقبل أن نفتح باب الساحة، نقلنا أغراضنا كلها إلى قاعة صغيرة بائسة، وقسمنا الساحة إلى ثلاثة أقسام، كل قسم إلى إحدى جماعاتنا الثلاث، وهي الجماعات التي تحدثت عن توزعها من قبل، وعلى هذا امتلكت كل فئة مكانها الخاص، وعملنا ستائر من ملابسنا وأقمشتنا لندفع عنا حرارة الشمس والندى في الليل، وذلك إلى أن أعطانا الترجمان الخيم التي كنا سوف نستخدمها أثناء عبور الصحراء، وقد نصبناها في الساحة وعشنا فيها، علاوة على ذلك اشترينا من المدينة الأشياء الأخرى التي كنا بحاجة إليها من أجل الأيام التي كنا سنقيمها هناك، لأننا عرفنا أنه متوجب علينا الاقامة هناك عدة أيام.

وبعدما أكلنا ذهبنا مع الترجمان إلى حاكم المدينة ورجوناه السماح لنا بالاقامة في غزة لبضعة أيام، ولأن نسير حول المدينة وفي داخلها لشراء ماسنحتاجه من أجل رحلتنا في القفار، ولكي نشاهد المدينة، ولندخل حماماتها الساخنة، وقد سمح لنا بالقيام بهذه الأشياء وبعملها، وتعامل بلطف زائد معنا، مع أنه لم يكن مسيحيا، وبعدما أنجزنا هذه الأعمال عدنا إلى ساحتنا مع الترجمان، ورجوناه أن لايدعنا نقيم طويلاً في تلك المدينة، وقد وعد أنه لن يدعنا نقيم وقتاً طويلاً.

خساسة الروم الأرثوذكس

وفي اليوم الحادي والثلاثين، الذي كان اليوم الأخير من شهر آب،

والذي كان أيضاً الأحـد الرابع عشر بعد التثليث، استيقظنا عند شروق الشمس، وأدينا صلواتنا المتأخـرة، وفكرنا في أي مكان يمكننا أن نسمع فيه قداس يوم الأحد، لأنه لم يكن هناك كنيسة لاتينية في تلك المدينة بل الذي توفر فقـط كنيسة للروم الأرثوذكس، قامت على مقـربة منا، وبناء عليه أخـذنا كأس قرباننا، وكتبنـا، وملابسنا الكهنوتيـة، وأغطية المذبح، وهذه الأشيـاء كنا قد جلبناها معنـا من القدس، وحملنا هذه الأغـراض جميعـاً معنا، وذهبنا إلى كنيسـة الـروم الأرثوذكس، عـازمين على إقـامـة قداس هناك، وبعثنا خلـف كهنة الكنيسة، ورجوناهم بتـواضع بالسماح لنا بالدخـول، وتعيين مذبح لنا، عليـه يمكن أن نقيم قداسـاً دينيا، لكن الروم الأرثوذكس الذيـن أثيرت الآن كـراهيتهم المتجـذرة، التي حملوها دومـا نحـو أبنـاء الكنيسـة اللاتينيـة، رفضـوا السماح لنـا بالدخـول إلى كنيستهم، ولم يهتمـوا بطلبنا أكثر مما لو أنه مقـدم من يهود، وأعلنوا أنهم لايرغبون بتدنيس كنيستهم، وتلويثها بقداساتنا.

وتحمل الحجـاج جميعـاً هذه الإهانات القـذرة بصبر رجل واحـد وبدهشة، ولـذلك عدنا ثانيـة إلى ساحتنا مع شيء من الإرباك، وبعـدما قلّبنا القضية وتفحصناها، عزونا هذا الصد الذي تلقيناه من الاغريق إلى فضل رباني، لم يأذن لنا بإقـامة قـداس في كنيسة منشقة وهـرطقية، حتى لانبدو أمـامهم وكأننا نشارك في القداس بشكل مضـاد لشرائع الكنيسة الكاثوليكيـة، حسبما هي موجـودة في الفتاوى البـابوية:٢٩/ ٩/ ٢، تحت عنوان«انشقاق» Siquidem، الخ، ذلك أن الروم الأرثوذكس هراطقة، لأنهم مصرين على انشقـاقهـم، ومن الممكن رؤية عقـائـدهم في القسم الثاني— الفصل:٣.

وبعدما عوملنا هكذا باستخفاف من قبل الروم الأرثوذكس، اخترعنا طريقة أخـرى من أجل إقامة قـداس ديني، حتى لانخسر أحدنا، حيث حملنا كومـة من الأحجار العادية، ووضعناها في زاوية سـاحتنا، وعمرنا

مذبحاً من دون ملاط، ووضعنا فوقه مذبحاً متحركاً، وغطيناه بمتدليات، وربطنا حبلاً من حوله، علقنا عليه زرابي وأقمشة، وبذلك عملنا نوعاً من أنواع البيع، وهنا بعد ذلك أشعلنا شموعاً، وأغلقنا باب الساحة، وأقمنا قداس أحدنا، بسلام، وهدوء، وخشوع، وخشية من أن يقوم أحد الناس بقرع الباب أثناء الوقت المهيب للقداس، مركزنا الفحل المسلم، أمام الباب، ليمنع الناس من القرع على الباب حتى انتهاء القداس، وهكذا أقمنا قداساً بدون معيقات في كل يوم، وكان المعيق الوحيد هو الزنابير، لأنه كانت هناك حفرة على شكل فتحة في الجدار قرب المذبح منها دخلت وخرجت أعداد كبيرة جداً من الزنابير من الحجم الكبير، وكانت تطن حول الكاهن المقيم للقداس، ولدى محاولتنا اغلاق الفتحة، هاجوا، وعملوا فتحات لأن الجدار كان معمولا من الطين، وكانوا يندفعون بقوة مرعبة أكثر، وبأعداد أعظم من ذي قبل، وجربنا طرائق عديدة لتدمير هذه المخلوقات، لكن تعذر علينا ذلك من دون هدم الجدار كله، هذا، ومع أنهم كانوا يطيرون حولنا باستمرار، مامن انسان قرص من قبلهم.

ولقد كان هناك ثلاثة كهنة هم: الأب باولوس من طائفة الفرنسيسكان، والمعلم جون، وكان رئيس شمامسه من ترانسيلفانيا، والراهب فيلكس، من طائفة الدومينيكان، وهكذا نظمنا الأمور فيما بيننا، بشكل أقمنا فيه قداساً في كل يوم، وبعد سماعنا للقداس، تناولنا طعام الافطار، وبعد طعام الافطار، زارنا حشد كبير من الشبان ومن الأطفال، وألصق واحد من الشباب المسلمين نفسه بواحد من الفرسان، أي من رفاقنا، ورجاه اعطاءه قارورته الفارغة، ووعده أنه سوف يعيدها إليه مليئة بالخمر، وأعطاه الفارس قارورته، وذهب الشاب وغادر وهي معه، وانتظرنا عودة الشاب بفارغ الصبر، لأننا نعرف أن المسلمين ليس لديهم خمرة، وذهب الشاب، وطلب الحصول على خمرة

من بعض الأماكن باسمنا، وحصل عليها، لكنه قام على الفور، بعد تسلمه للخمرة بتذوقها، فأغري بحلاوتها، فشرب القارورة كلها، وكانت تحتوي على سعة قدرين من قدور أولم، ولذلك بات مخموراً، وفقد عقله وصار مجنوناً، يركض في الطرقات وهو يصرخ ويرمي بالحجارة، وجرى ارسال عبيد الحاكم خلفه، ولحقوه وهو في حالة هياجه وثورته، ولدى رؤيته ذلك تصرف بعقل وهرب إلى ساحتنا، للحصول على مكان للالتجاء والحرية، لأنه كان هناك مرسوم من السلطان، أنه حيثما كان هناك حجاج من بلاد ماوراء البحر، مقيمين، هناك حيث أقاموا ملجأ أمين، أي أن تقول موضع للالتجاء، وكل من التجأ هناك لايمكن لأحد أخذه من هناك، وهكذا بقي ذلك الشاب معنا حتى تعافى من سكره، لكن حاكم المدينة أرسل إلينا وحظر علينا إعطاء أية خمرة لأي مسلم آخر، وأعلن، أنه إذا ماحدث مثل هذا الأمر ثانية، فلسوف يلقي بنا في السجن، وينتزع منا خمرتنا، لأن هذا الحاكم اعتقد بأننا عن عمد جعلنا ذلك الشاب يصبح مخموراً، مع أن ذلك لم يكن صحيحاً، ولقد عدّت جريمة عظمى بينهم إذا ماظهر أي انسان بينهم علنا بين الناس وهو سكران من شرب الخمر، مثلما هي جريمة عظمى بيننا لدى اعتقال أي انسان والتشهير به، لأنه اعتقل وهو يزني، ولقد كانوا لدى تناول أحدهم لجرعة من الخمرة يصير سكراناً وهائجاً، فيصبون جام غضبهم أولاً على الذي أعطاه الشراب.

هنا نهاية الفصل الخامس.

هنا بداية الفصل السادس

وهو يغطي شهر أيلول، ويحتوي على أعمال الحجاج في ذلك الشهر، ووصف للأماكن المقدسة التي زارها الحجاج في أيام ذلك الشهر.

وعندما حلّ اليوم الأول من إيلول، سمعنا قداساً في مكاننا، وتناولنا طعامنا بعد ذلك مباشرة، وبعد تناولنا لطعامنا، استدعينا واحداً من المسلمين إلينا، ورجوناه أن يأخذنا إلى المكان الذي عمل فيه شمشوم الأعمال التي برهن فيها على قوته، وهي التي حدثنا عنها سفر القضاة، وأنه عملها في هذه المدينة، وهكذا سرنا عبر طريق طويل، ووصلنا في داخل المدينة إلى ميدان واسع، رأينا على جانبه خرائب بيت كبير أو قصر، وأكوام هائلة من جدران مهدمة، وهذه الخرائب من المعتقد أنها بقايا هيكل قديم جداً، هو هيكل داجون، وهو الذي هدمه شمشوم، بتحطيمه الأعمدة المتوسطة التي عليها اعتمد، وبذلك قتل نفسه مع سادة الفلسطينيين وكثير من الناس، وهذا مايمكن أن نقرأ عنه بشكل مسهب في سفر القضاة:١٦، ورأينا بين خرائب الجدران عمودين من الرخام، عظيمين جداً، ولونهما رمادي، وهما من المفترض كانا يحملان البناء كله، وبتحطيم هذين العمودين تمكن شمشوم من تدمير البناء كله، وبذلك قتل أعداءه.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، سرنا مسافة طويلة حتى وصلنا إلى بوابة المدينة، التي حمل مصراعي بابها شمشوم مع المزاليج والعوارض والأقفال، في منتصف الليل، ونقلهما إلى الرابية القائمة أمام المدينة، وبذلك نجا من أيدي أعدائه، الذين سجنوه في المدينة، وخرجنا من المدينة من خلال تلك البوابة، وتسلقنا الرابية المتقدمة الذكر، وذلك إلى المكان الذي حمل إليه شمشوم مصراعي باب غزة، وشاهدنا المكان، وجميع المنطقة من حوله، ورأينا هناك تمنة، التي كانت بلدة للفلسطينيين

منهـا اتخذ شمشـــوم زوجــة فلسطينيـــة، وهناك فعـل أشيــاء كثيرة(القضـاة:١٤)، وشـاهدنا أيضـاً وادي ســـورق، الذي فيـه زرعت تلك الكرمـة المختارة، التي عنهـا نقرأ في إشعيـا:١١، وفي هذا المكان سكنت دليلة الخائنة، وهـي التي غلبتـه، مـع أن مـامن إنســان كـــان يمكنه غلبته(القضاة:١٦)، ورأينا أيضاً سهولاً واسعة، وحقولاً وسفوحاً جميلة جداً، فيها ينمو القمح، والكرمة، وفي حقول القمح هذه أرسل شمشوم ثلاثمائة ثعلب، مربوط إلى أذنابهم حزماً مشتعلة، وأحرق القمح، وكروم العنب، وأشجـار التين، ورأينا أيضاً خلفنا جبـال بني اسرائيل، وأمـامنا البحر المتوسط، وبعدما فرغنا من مشاهدة هذه الأشياء كلها، نزلنا ثانية، وعاودنا الدخول إلى المدينة من خلال البوابة المتقدمة الذكر.

وليس بعيداً عن تلك البوابة هناك مسجد اسلامي، فوق البقعة، التي كان عليهـا في أيام شمشوم خـاناً للغرباء، كانت صـاحبته عـاهرة، وقد ذهب شمشوم إليها ونام هناك، وقـام الفلسطينيون في تلك الليلة نفسها بإغلاق أبواب المدينـة، قاصدين اعتقـال شمشوم في اليـوم التالي وقتله، لكنه استيقظ في منتصف الليل، وحمل مصــاريع الأبـواب، كما قلنا من قبل، وبعدمـا زرنا هذه الأماكن ورأينا هذه الأشياء، عـدنا إلى موضعنا، حيث جلسنا مع بعضنا، وبحـزن تحدثنا حول المأسـاة المحزنة لشمشـوم بعد نجاحاته المدهشة.

★★ ★★ ★★

حمام ساخن جيد فيه استحم الحجاج بسرور مع المسلمين

وفي اليـوم الثاني، أرسلنا بعـد القداس، خلف ترجماننا، ورجـوناه أن يقتـادنا إلى القفار، إلى نقطة حـددناها له، ووعـدنا بأنه سـوف ننطلق في اليـوم التـالي، وقـد سررنا تجاه هذا الـوعـد سروراً عظيماً، وبعـد تناولنا للطعـام ذهبنا جميعـاً إلى الحمام الإسـلامي السـاخـن، مثل الذي كنا قـد

تحدثنا عنه من قبل، وهذا الحمام الموجود في غزة هو أجمل الحمامات التي شاهدتها قط، ويوجد أمام الغرفة الساخنة بناء مقبب محيط بها مثل رواق للسير والانتقال، وفي هذا البناء عدد من الغرف الصغيرة، من دون فرش، لكن الأرض كانت مفروشة بالحصر، وبسعف نخيل مضفورة، وكانت كل غرفة مغلقة بستارة فقط، وفي هذه الغرف يمكن للانسان لمن يرغب أن يستحم وهو بدون ملابس، أو وهو لابس، وفي الغرفة نفسها قد جرى تعليق ثياب نظيفة، يتغطى بها الذين يودون التجول في الحمام، والتغطية هي من السرة حتى الركب، عوضاً عن السراويل والأحزمة، وبذلك يتغطى الانسان من الأمام ومن الخلف، ويوجد في وسط هذا الرواق هناك فوارة ماء، يسيل خلال عدة أنابيب صدوراً عن أعمدة رخامية، وجميع الأرضيات والجدران مكسوة من الداخل ومن الخارج في قلب الغرف الحارة، بمختلف أنواع الرخام الأبيض المصقول، لذلك يتوجب على الذي يسير فوقهم أن يكون حذراً، وأن يسير بانتباه، خشية الانزلاق، وذلك مثل الانسان الذي يسير فوق جليد.

والغرفة الساخنة نفسها تشبه برج مربع،والقبة، أو القنطرة التي تغطيها ليس لها سقف فوقها، بل لها فتحات كثيرة، كل واحدة بحجم رأس الانسان، وهي مغلقة بزجاج النوافذ من مختلف الألوان، يدخل من خلالها ضوء باهت، ولكن فيه كفاية، ولايوجد في الغرفة الساخنة أتون نار، ولايشعر الانسان بحرارة النار أو الدخان، بل يوجد في واحد من الأماكن موقد نار تحت البلاط، وبه يسخن رخام البلاط الأرضي، ويملأ الماء الذي يجري خلال أقنية محفورة في الصخر، الغرفة كلها بالسخونة، ومن جانب آخر تجري مياه باردة، وكما قلت الغرفة مربعة، وليس فيها اضاءة، إلاّ التي تأتي من الفتحات في القبة، ويوجد على الطرف الأول سخونة فائقة وماء ساخن، ويوجد على الطرف الآخر

برودة وماء بارد، أما الطرف الثـالـث ففارغ وهادىء، وفي الطرف الرابع الباب، وفي الوسط حرارة مقبولة.

وصـاحب الحمام نفسـه لطيف جداً، ويقـوم بتـواضع وكـرم بخدمـة المستحمين، وغـالبـاً مـايتـولى دلكهم، وتغسيلهـم ودهنهم بـ Se-megma، أو بدهون أخرى مناسبة، لأنهم يعـالجون الضعفاء بأطرافهم في الحمام، وإذا كـان أي انسـان يشعـر بألم من أي سبب، يقـوم الحمامي بتدليكه، ودهنه، وبالضغط وبشد المكان الذي يشعر فيه بالوجع، وذلك حتى يتعافى مـن وجعه أو يسكن بعض الشيء، وبطريقة مماثلة، إذا كان هناك أي انسـان يعـاني من آلام في أي من أطـرافـه من ذلك على سبيل المثال في ذراعه، أوسـاقه، أويده، أوقدمه، أورقبتـه، فإنهم يتولون معالجة مثل هذه الأشيـاء، بطرائق رائعـة مـدهشـة، وبذلـك تزيل التقلص عن الأعضـاء المتشنجـة، وكـذلك تزيل النقـرش في الأقـدام وفي الأيدي، والحصا من المثانة والرمل، فهذا كله يعالج في الحمام بفن عظيم.

ومثل هذا اذا كـان أي انسـان يشكـو أو يعـاني من ضيق في صـدره، وقصر في تنفسـه، تراهم يعملـون بجـد ونشـاط لعـلاجـه وبراءته، ولايفعلون هذا فقط بمجـرد الجلوس إلى جـانبـه، بل إنهم يأخـذون المريض ويجلسـونـه ثم يمـددونه على البـلاط في وسط الحمام، إمـا على ظهـره، أو على وجهـه، أو على جـانبـه، وذلك حسبما يتطلب الألم، ثم يجلس الحمامي فوقـه، ويتولى معـالجة موضع الألم، وبلطف يحرك الذراع المصاب نحو الأمام ونحو الخلف، ويضغطون على الرقبة اما بهذا الاتجاه أو ذاك.

ورأيت مـرة حبشيـا طلب معالجتـه في الحمام، قـائـلاً بأن لديه ضغط بالصدر، فمـدده الحمامي على ظهره فـوق البلاط، وجلس فـوق معدته، وضغط على رقبتـه بيديه معـا، بقسوة بلغت حـداً أن وجهه بدأ يتـورم، لأن نفسه كله توقف، وقـد أبقاه هكذا لوقت طويل، حتى أنني خشيت

من أن يلفظ أنفـاسه، كما أنه أغلق أذنيـه بحـرير، وأخيراً أطلقه وتركـه يذهب، وقد استرد الرجل أنفاسه، وأظهـر سروره وفرحه الكبير، وقال بأنه من الآن فصاعداً سوف يكون بحالة جيدة.

وإنه لأمر يبعث على السرور، أن تجد أمراضاً كثيرة تجري معالجتها في الحمام، وهي أمـراض كنـا نقـدر أنها غير قـابلة للمعـالجة، أو التي من أجلهـا كنا نزور الينابيـع الحارة، وهناك نبـذل جهـوداً لكثير من الأيام، وندفع نفقات عظيمة، في حين أن هؤلاء الرجـال يتولون معالجة الأمور كلها في نصف ساعة، ومع ذلك يبـدو لي أنهم يستخدمون تعاويذ أيضاً، أثناء عملهم في معـالجة أي انسـان وفق الطريقـة المتقدمـة الذكـر، وهم يقومـون باستمرار بالتمتمة في أنفسهم، ويتفوهون بكلمات لاأعـرفها في آذان المرضى، ويتصرفـون في جميع المجالات مثل الذين يمارسـون أعمال التعاويذ.

ولايلتقي الرجال والنساء في الحمام مطلقاً، فللنساء حماماتهم الخاصة، وكذلك للـرجال حماماتهم، كما أن الرجـال ليس لديهم نساء لتـدليكهم، ومثل ذلك ليس لدى النساء رجال لتدليكهن، بل يخدم الرجال الرجال، والنســاء النســاء، وهم لايسمحــون بأي شكل من الأشكال لليهــود بدخــول حمامـاتهم، والتحمم معهم، لكنهم يقبلـون بأن نستحم معهم، وغالباً مـاتساءلت عن السبب الذي سمحوا به لنا بالاستحمام معهم من دون اعتراض، في حين إنهم لايقابلوننا في أماكن أخرى بطريقة صديقة، ويخيل لي أن هناك ثلاثة أسبـاب لذلك: أولها، إنهم وإن قـابلونا بالعـادة بطريقـة غير صديقـة، هم عندما يعـرفون بأن هناك مكاسب ومـال منا، لايقومـون فقط بمقابلتنا فقط بطريقـة صديقـة، بل يذلون أنفسهم حتى العبـودية أمامنا، وعلى هذا الأسـاس عندمـا يعرفـون بأننا سـوف ندفع للحمامية بشكل جيد، تراهم على استعداد لتحمل رفقتنا، والسبب الثاني هو أنه قد قيل بأن المسلمين يصدرون رائحة كريهة، وبسببها يستخدمون

باستمرار محاليل من مختلف الأنواع، وبما أننا ليس لدينا روائح كريهة، لايبالون إذا قمنا بالاستحمام معهم، لكنهم لايشملون بهذا السماح اليهود، الذين تصدر عنهم روائح أكثر نتانة، وهم بالعادة يكونون مسرورين جداً برؤيتنا في حماماتهم، وذلك مثلما يفرح رجل مجذوم باستحمام رجل معافى معه، لأنه غير مزدرى، ولأنه يأمل أنه بوجود الرجل الصحيح معه ، سوف هو نفسه يغدو أحسن صحة، وهكذا فإن المسلمين ذوي الرائحة الكريهة يفرحون أن يكونوا برفقة انسان ليست له رائحة كريهة، والسبب الثالث لسماحهم لنا أن نكون بينهم هو أن محمداً(ﷺ) لم يحرم عليهم اللقاء بنا في الحمام، بل فقط في المساجد، لأنه قال في قرآنه بأن المسيحيين أصدقاء أفضل بالنسبة له من اليهود، كما قرأنا عند نيقولا دي كوسا الكتاب الثالث، الفصل الثامن، ولهذا السبب هم يسمحون لنا بالدخول إلى حماماتهم، ولايسمحون لليهود، غير أن هذا لم يُعمل من أجل مدح المسيحيين، بل لإرباكهم كثيراً، ولذلك إنهم لايسمحون لنا بأي شكل من الأشكال بالدخول إلى مساجدهم.

وهناك سبب آخر، هو سبب لاهوتي، ذلك أنه غير لائق بالمسيحيين الاستحمام مع غير المسيحيين، فهم بإثارة من الشيطان على استعداد للقبول بأمور غير معقولة من هذا النوع، وفي الحقيقة إنه عمل غير لائق بالنسبة للمسيحي، الاستحمام مع غير مسيحي، بمجرد، القاء نظرة على مايلي: ان اليهودي لايجوز له الحديث مع السامري، ومثل هذا لايجوز للمسيحي الحديث مع اليهود ومع غير المسيحيين، وهذا أيضاً واضح مما يلي: حرم الرب في متى:١٨ على المسيحيي أن تكون له أي اتصالات مع انسان فاسد لاسبيل إلى تقويمه بقوله:« فليكن عندك كالوثني»، أووثنيا كما تقول:« فرّ من المسيحي المحروم كنسيا، كما تفر من الوثني»، وهذا أيضاً مأخوذ من مثل القديس يوحنا الانجيلي، الذي عنه قرأنا في« التاريخ اللاهوتي»، أنه عندما ذهب مرة إلى الحمام في إفسوس ليغسل

نفسه، رأى في الحمام سيرينثيوس Cerinthus ، الهرطقي، فقام على الفور بالفرار والخروج قائلاً:« دعونا نفر من هذا المكان، خشية أن يقع الحمام علينا، لوجود عدو الحقيقة هذا به»

ومحرم على المسيحيين التعايش مع اليهود في كثير من القضايا، من جملتها ورد ذكر مشاركة الحمام مع اليهود، وأي واحد يخرق هذا الأمر، إذا كان رجل دين يجرد من ثوبه الكهنوتي، وإذا كان رجلاً علمانيا، فانه يحرم كنسيا، ويجعل من نفسه مساوياً للذين هم أدنى منه شخصيا بالتعايش معهم، هذا وإن رجلاً محروماً كنسياً مثله مثل أي انسان مطرود أو مسلم.

وينطبق القرار نفسه على غير اليهود مثلما ينطبق على اليهود، وعلى هذا يبدو أنه قد تبرهن بهذه الأمثلة أنه غير لائق بمسيحي دخول حمامات يهود أومسلمين، وانظر حول هذه القضية ماورد في .Sum Anca. Sarracenus

وأملي بأننا نحن الحجاج سوف لن ننال عقوبات القانون هذه، بسبب حاجتنا الماسة، التي فيها غير محرم علينا أكل خبز اليهود غير المخمر، واللحم المقدم إلى أوثان الكفار، وأيضاً بسبب سماح البابا، لأنه منحنا إذنا بالارتحال داخل بلاد المسلمين، وبسماحه لنا نحن الحجاج بالسفر إلى بلاد غير المسيحيين، سمح لنا بالجلوس مع غير المسيحيين إلى مائدة واحدة، وأن نستحم معهم، وكذلك بتناول الدواء منهم، وعلاوة على ذلك، أنه لن ينجم أي خطر عن مثل هذا الاستحمام، كما أنه ليس هناك أي اقتراف لأي ذنب من أي نوع، على أساس أن التعايش معهم ليس مستمراً، وليس عاديا، بل إنه يمر بسرعة، ثم إننا لايمكننا الحديث معهم على أساس أننا لانفهم لغتهم، ذلك أن اللغة هي أكبر روابط الوحدة، وهكذا انقضى ذلك اليوم.

قدوم المماليك وحديثنا معهم

وعملنا استعداداتنا في اليوم الثالث من أجل المغادرة، لكن عائقاً كبيراً اعترض سبيلنا، لأن جيشاً من الاف كثيرة من المماليك قدم من مصر إلى تلك البلاد، ولذلك غدت المدينة كلها والمنطقة التي من حولها، مليئة برجال مسلحين، ونصبت خيامهم من حول غزة، وكان عددهم ثمانية الاف، وقد جرى ارسال هؤلاء الرجال من قبل السلطان للقتال ضد التركمان في سورية، ولكسر شوكتهم، وقد أقاموا حول المدينة، وعدد كبير منهم دخلوا إلى المدينة لمشاهدتنا، وجاء بينهم هنغار، سألوا عما إذا كان هناك أي حاج من هنغاريا بيننا، وعندما وجدوا المعلم جون، فرحوا كثيراً وجلسوا في خيمنا معنا، وأكلوا وشربوا معنا، لابل حتى شربوا خمرة، لكن بشكل سري، وكان بعضهم مماليك من صقلية، وبعضهم من كاتالونيا، أي أنهم مرتدون عن المسيحية، وقد قدموا إلينا وطلبوا أن يُسمح لهم بالحديث معنا، وطلبنا منهم جميعاً الدخول، وتحدثنا معهم بشكل اعتيادي، الأمر الذي أزعج ترجماننا كثيراً، وكالينوس المسلم، لأنه يكره المماليك بشكل سري كثيراً، لأن المماليك يمتلكون السلطة عليه وعلى الترجمان، ولذلك نادراً ماملكا الجرأة على رفع رأسيهما بحضورهم، ولهذا صار المسلمان: الـ Sa-bathytanco والفحل، أي دليلينا، غاضبين منا، لأنهما خافا من أن نسبب لهما مزيداً من الكراهية من قبل المماليك، لأننا كنا في ذلك الوقت على خلاف معهما، لأنهما أخّرانا في ذلك المكان، وحاول هذان الرجلان، بحكم براعتهما وخبرتهما أن يبعدانا عن معاشرة المماليك ووجها اللوم إلينا، فقد خاطبنا Sabathytanco متسائلاً:« هل أنتم حقاً مسيحيين»؟« فكيف يمكن أن تكونوا مسيحيين، ولاتستحون من الأكل والشرب مع أناس تخلوا عن الايمان المسيحي بأيمان رهيبة»؟ وقال الفحل وهو المسلم الآخر:« أنتم بلا شك من المسيحيين، الذين سوف

ينقـذهم إيمانهم، وهؤلاء المماليك، بـدون شك، سـوف يدانون، لأنهم تخلوا عن ايمانهم بعقيدتكم، وبناء عليه، أي شأن لكم بالتعامل معهم»؟ وكـان هذا الـرجل يعتقـد— كما تحدثت من قبل— أن كـل انسـان من الممكن انقاذه بالايمان الذي ولد عليه، وليس بايمان آخر، وقدمنا في هذه المناقشات ماأمكننا من أجوبة، إنما بعد تناولنا للطعام جاء المماليك ثانية، وتحدثوا معنا، وعندما أخبرناهم بـأننا نود أن نرى جيشهم، وخيولهم ، وخيمهم، وعتادهم الحربي، أخذونا إلى المدينة إلى اسطبلاتهم التي وقفت فيهـا أجمل الخيـول، وأخـذونا إلى خـارج المدينـة، حيث كـانت خيمهم منصوبة وشاهدنـا هذا كله باعجاب، وما من أحد تسـاءل حولنا عندما كانوا يقـودوننا، لأنهم بدوا بالنسبة لنا رجـالاً لهم مكانتهم وسلطتهم في الجيش، وبعـدمـا فـرغنا من مشـاهدة جميـع هذه المناظر، عـدنا إلى مقـر اقـامتنا في مكاننا حيث وجـدنا أدلاءنا غير مسرورين كثيراً منا، الأمـر الذي لم نهتم به إلاّ قليلاً.

واجتمعنا في الصباح الباكر لليـوم الرابع، واتفقنا على تمضية النهار في العمل من أجـل تحضير أنفسنا في سبيل رحلتنا عبر القفـــار، وفي شراء الأشيـاء التي كنا مانزال بحـاجـة إليها، وذلك بالاضـافـة إلى ماكنا قـد اشتريناه في القـدس، وعليّ وقعت مسؤولية أعمال الشراء لجماعتنـا كلها، وبناء عليــه أخـذت مـــالاً من رفـاقي، وانطلقت مع رئيسي الجماعتين التاليتين، إلى السوق لشراء المؤن، لكن للمفاجأة لم نجد شيئاً في السوق، ووجـدنا جميع أكشـاك وبيـوت التجار، وحـوانيت الطبـاخين، ومحلات اللحـامين، كلها مغلقـة، وعندمـا سألنا عن سبب ذلك، أخبرونا أنه لن يكون هناك سـوق طوال الوقت الذي يبقى فيـه المماليك في المدينة، لأنه بسبب جشعهم مامن أحد يتجرأ على عرض بضائعه للبيع، لأن المماليك يقدمون ويتناولون كل مايعجبهم، ويـأخذونه دونما دفع، ومامن انسان يتجـرأ أن يقــول لهم لا، وأبقى شعب غـزة دوابهم أيضــاً في بيـوتهم،

وكـذلك حميرهم وأبقـارهم، وأغنامهم، ومـاعـزهم، تحت اشرافهم، ولم يتركـوهم للذهاب إلى المرعى، لأنه كان سيتم الاستيـلاء عليهم من قبل العسـاكـر، وبناء عليـه[١٧] لم نستطع في ذلك اليـوم الحصـول على شيء.

وقـدم في ذلك اليوم بالـذات إلى ساحتنا بعض العقيـلات المسلمات، مع خادماتهن، ووجـوههن مغطاة كما هي عادتهن،وقد رغبن في رؤيتنا، وهكذا خـرجنا من خيمنا وأكواخنا ووقفنا في حضرتهن، وقـد ضحكن وتكلمن بلســان المسلمين، وبما أننا لم نستطع رؤية وجــوههن بسبب حجبهن، رجوناهن— من خـلال المترجم— إزاحة حجبهن، حتى نرى وجـوههن، وعندما سمعن هذا ضحكن كثيراً، وأمـرن خادمـاتهن برفع حجبهن، وعندما فعلن ذلك، ظهرت وجـوههن سوداء كالفحم، لأنهن كن حبشيات، وعندما رأيناهن، تظاهرنا بالخوف من سوادهن، وابتعدنا عنهن مع القـرف، وسألنا سيداتهن رفع حجبهن، وقـد فعلن ذلك، فإذا بهن شقراوات وسيدات جميـلات، ولطيفات ومحترمات، وغالبـا مارأينا هذه الأشيـاء في غـزة، وفي الحقيقـة غـالبـاً، مـاقـدمت بعض الفتيـات الحبشيـات إلى سـاحتنا، وتصرفن بشكل غير لائق، وحـولهن لن أقـول أكثـر مما يكفي الآن، ذلك أن عــدداً كبيراً من الأحبـاش يسكنون في الأرض المقدسة، من الجنسين، أرقاء وأحرار.

شراء الأشياء المحتاجة

وفي اليـــوم الخامس، وقبل بزوغ الشمـس، زحف المماليك وغــادروا غزة، ومع ذلك لم تفتح الحوانيت أبوابها قبل الظهر، كما أنه لم يكن هناك أي سـوق للبضائع، لأن اليـوم كـان يوم جمعة، وهو يوم نظر المسلمـون إليـه بقـداسـة وقد حـافظوا عليـه كـذلك، وتسلمت بعـد تناول طعـام الافطار ثمان عشرة دوقية من رفاقي، وذهبت أنا والفارس بطرس، وهو ولزي، وقد ارتديت رداء طائفتي الأبيض، الذي عليـه علامة الصليب،

وذهبنا معا خلال الشوارع والأزقة، والسوق، والحوانيت، واشترينا أشياء كثيرة، كنا بحاجة إليها، وفي الحقيقة تحتاج الرحلة خلال القفار إلى عناية عظيمة، وإلى استعدادات أعظم من الاستعدادات للسفر في البحر، لأن الأشياء التي لايجدها الانسان في البندقية، يمكنه أن يجهز نفسه بها في أي ميناء وجزيرة، يقف بها، لكن لايوجد في القفار موانىء ولاخانات، بل فقط مناطق شاسعة معزولة، فيها لايمكن حتى لحيوانات الحمل العثور على طعام، حسبما سنرى فيما بعد.

كما أننا لن نتسلم أي من، من السماء، مثل بطارقة الأيام الخالية، كما أنه لن تكون هناك مياه من الصخرة، كما أننا لن نتلقى زيتاً من الصخر الأصم، ولاالحجل من مصر، وأحذيتنا وثيابنا لن يكون بالامكان الحفاظ عليها من أن تكون بالية، كما أننا لن نمتلك عموداً من نار، ليضيء لنا في الليل، لذلك توجب علينا تجهيز أنفسنا لمواجهة هذه الحاجيات جميعاً لأيام كثيرة، لاتقل عن خمسة وأربعين يوماً، وذلك حتى نصل إلى الاسكندرية، حاسبين هنا الأيام التي سوف نمضيها في مصر، بسبب أننا لن نبقى في القفار أكثر من خمسة وعشرين يوماً، وبناء عليه شرينا كثيراً من أرغفة الخبز، والسلال، وقد شرينا لكل حاج كمية من الخبز تكفي ثلاثة، وذلك من أجل أن نعطي البداة العرب، الذين سوف نلتقي بهم في الصحراء، ونشتري بذلك مضايقاتهم، وشرينا أيضاً المزيد من جرار الخمرة، والروايا لحمل الماء، وسلالاً كبيرة لنضع فيها قدور الطبخ، وأدوات القلي، وكل شيء يحتاجه المطبخ، واشترينا أيضاً مناصب، وأدوات شوي، وسفود، وثلاثة أقفاص كبيرة مليئة بالطيور والدجاج، مع ديك كبير أبيض وقف فوق القن، ووظيفته إخبارنا بساعات الليل في القفار، وشرينا أيضاً سلالاً مستطيلة، لنضع فيها الزجاج والصحون والأطباق، من أجل الاستخدام على المائدة، وشرينا أيضا جبنا، وأشياء أخرى، كما شرينا سلالاً صغيرة مع كلاليب، فيها

يمكننا أن نحمل خبزاً، وأشياء قاسية أخرى، قابلة للأكل، ونعلقها على سرج حميرنا، وجرار ماء، ودوارق مع كلاليبها، واشترينا أيضاً جوالق مليئة باللحم الجاف، وجبنة، وزبدة، وزيت، وخل، وقمح مجروش من أجل الحلوى، وبصل، ولوز، ولحم مملح، وأطعمة محفوظة منوعة، من كل من الحلو والمالح، وأدوية للقوم المرضى، وشموع وأحذية، وسلتين مليئتين بالبيض، وأشياء أخرى من أنواع مشابهة، مما يحتاجه الانسان بشكل عام، واشترى سائقو الجمال جوالق من الشعير لإطعام الجمال، وكذلك لإطعام الحمير، وهكذا زودنا أنفسنا في ذلك اليوم من غزة بجميع الأشياء التي نسينا أن نحصل عليها من القدس، ووقع في هذا اليوم بعضاً من الحجاج مرضى بشكل خطير، إلى حد أنه لم يعد هناك أمل كبير بحياتهم.

مرض جميع الحجاج

وفي أمسية اليوم السادس، عندما حان وقت مغادرتنا، وكان أدلاؤنا جاهزين للانطلاق، وضع الرب يده على الحجاج، ولمسهم، وقهرهم جميعاً تقريباً، لأننا فجأة بتنا جميعاً مرضى بشكل كبير، ووقفت خيامنا مليئة بالمرضى، وكان عدد الذين كانوا مرضى أكبر من الذين كانوا أصحاء، وكان بين هؤلاء المعلم بطرس الولزي، فقد بلغ به المرض إلى حد الهذيان، واللورد فرديناند بارون فون وورنو، الذي كان حتى الآن يشجع كل انسان انبطح مريضاً وبلا حراك، وفي الوقت نفسه عانيت أنا من صداع مخيف، ومن عدم قدرة على التوازن، ومن حرارة عالية في جسدي كله، ومع ذلك لم ألجأ إلى الفراش، بل توليت— بقدر ماأستطيع— خدمة المرضى، وكذلك صار اللورد برنارد فون بريتنباخ— الذي هو الآن عميد مينز— مريضاً جداً إلى حد فقد فيه مظهره الخارجي وعقله، ولم يكن لدينا أمل بشفائه قط، وهكذا أمضينا ذلك اليوم في كثير من الاضطراب والتعاسة.

خصومات الحجاج وتمزقهم

وفي اليـوم السـابع، الذي كـان الأحـد الخامس عشر، بعـد التثليث، سمعنا قـداساً قـرأه المعلم جون، رئيس الشمامسـة، الذي كان أقـوى مما كناه، لأنني كنت أنا والأب بولوس الفـرنسيسكاني، ضعفاء ومـرهقين، إلى حـد تعـذر علينا فيـه قـراءة صلواتنـا السـاعيـة الرسميـة، وتوجس الحجـاج أشيـاء كثيرة أن تكون سبـب هذه الأمـراض، وبعضهم وضع المسؤوليـة على الماء، وبعضهم على الطعام، وبعضهم على القمـر الجديد، لكن الشطر الأكبر شك في أن يكون Sabathytanco ترجماننا قـد وضع بعض السم في طعامنا، حتى إذا مـامتنا يمكنه الاستيلاء على جميع مقتنيـاتنا وبضائعنا، لكنني رأيت وقتهـا، ومازلت أرى حتى هذا اليـوم بأن المرض أرسل من السماء، لمعاقبة فضولنا.

وعندما كـان الحجاج في هذه التعـاسات، بدأ كل واحـد منهم يعمل خططاً متنوعـة، وتراجعـوا جميعـاً عن نيتهم بالحج، فقـد رغب بعضهم بالعودة إلى القدس ثانية، وهنـاك إما أن يشفوا أو يموتوا، وأراد بعضهم الذهاب من خـلال فلسطين إلى فينيقيـة السـورية، ومن ثم إلى بيروت، الميناء البحـري، والعـودة من هناك إلى بلدانهم في أوروبـا بالغـلايين التجـارية التـاليـة، في حين تخلى بعضهم عن جميع هذه المشـاريع وأرادوا الذهاب على طول السـاحل إلى الاسكندرية والانتظار هناك لـلابحـار، وطلب بعضهم الذهـاب إلى القـاهرة، والسفـر من القـاهرة على طول ساحل البحر الأحمر إلى سيناء من خلال أرض مدين، وبعد زيارة سيناء العودة إلى مصر، ومن ثـم إلى البحر، وأراد بعضهم البقاء في غـزة حتى تتحسن أحـوالهم، ومن بعد ذلك يتـابعون السير على طريقهم، وحـافظ البقية على النيـة الأولى، وهي الانطلاق مباشرة في الغـد، على الرغم من كونهم مرضى.

وبحدوث هذا كلـه حدث انقسام كبير بين الحجـاج، وتمزقت فئاتهم،

لأن أحدهم رغب في تأييد آخر، كان قد اخترع خطة أرضته، وبذلك انعزلا عن البقية، وفي الوقت الذي كان فيه هذين يفكران بهذا، كان آخران يخططان لشيء آخر، والبقية لأمر آخر أيضاً، وكل الوئام الذي كان متوفراً بين رفاقنا تبدد تماماً، وعلى هذه الصورة مضى ذلك اليوم التعيس في تلك المخاصمات المؤلمة، وطوال ذلك اليوم لم نشاهد ترجماننا مما زاد في شكوكنا التي توجسناها حوله.

الميثاق الجديد الذي عمل بين الحجاج بعد تخاصمهم ثم تصالحهم

أطل فجر اليوم الثامن بسرور، وجلب لنا يوماً سعيداً، ولذلك قرأنا في سفر المكابيين الثاني:١/٢٢:« وأشرقت الشمس التي كانت من قبل مخفية بالنجوم»، فقد قامت مريم العذراء الأعظم مباركة، في يوم عيد ميلادها، بطرد جميع الظلام، والاضطراب، والمرض، منا جميعاً، ولاأقول بأن هذا على سبيل الإثارة والحكايات، لكن هذا ماحدث بالحقيقة، فعند الفجر استيقظنا نحن الكهنة وأدينا صلواتنا الليلية، والأولى، وجهزنا مذبحنا لإقامة قداس، وقمنا نحن الثلاثة واحداً تلو الآخر بقراءة صلوات القداس من أجل يوم العيد، وصلينا من أجل شفاء قومنا المرضى، ومن أجل توفيق رحلتنا.

وبعد هذه القداسات كان جميع الحجاج حاضرين، حتى كان بينهم الذين كانوا في اليوم الماضي وفي اليوم الذي تقدمه وكأنهم على أبواب الموت، فقد غادروا فرشهم بخشوع كبير، مع الشكر والحمد، وبقيوا حاضرين خلال الصلاة كلها، ورقابهم منحنية، حتى النهاية، ولدى فراغنا من القداسات، قمنا بالاستعدادات من أجل طعام الافطار، الذي طبخناه وأكلنا كالعادة، ولم يكن هناك أدنى ذكر لخلافاتنا الماضية، بل أقسم كل واحد منا للآخر من جديد بأننا سوف نقوم جميعاً بالسفر مع

بعضنا خلال القفار إلى جبل سيناء في العربية، وأن نعيش معا، وأن نموت معاً، وأننا لن نترك رجلاً مريضاً خلفنا، بل سوف نحمل في سلال فوق الجمال الذين لايمكنهم الجلوس على ظهور الحمير، وأبرمنا في ذلك اليوم ميثاق سلام أحدنا مع الآخر، وبتنا أصدقاء لايمكن تفريقهم، وإخواناً، بقلب واحد، وروح واحدة في الرب

وبعد منتصف النهار جاء ترجماننا، الذي لم نره عندما كنا مضطربين، ولدى رؤيته لنا أننا كنا مسرورين، وشفينا تقريباً، جلب سائقي الجمال مع الجمال، وكذلك سائقي الحمير مع الحمير، راغباً في اقتيادنا على طريقنا، غير أننا لم نوافق على هذا بأي شكل من الأشكال، وبوقاحة وقسوة رددنا عليه، بأننا في ذلك اليوم كنا نحافظ فيه على عيد مهيب وهو عطلة بالنسبة لنا، ولايجوز لنا مغادرة المكان، حيث كنا يومذاك في يوم مقدس، وعلاوة على ذلك أخبرناه بأننا مكثنا في ذلك المكان لأيام عديدة ضد إرادتنا، وأننا لن نغادر في ذلك اليوم، ولالسبب من الأسباب، صدوراً عن الاحترام للعذراء المباركة، وتجاه هذا كان الرجل مزعوجا، وغادر سائقو الجمال والحمير وهم يتمتمون ويزمجرون، وأعلنوا أنهم سوف لن ينتظرونا بعد الغد مهما كانت الأوضاع.

وبشأن ماحدث في اليوم التالي، وهو اليوم التاسع، انظر الرواية حوله في ص٢٦ظ.

وصف منطقة فلسطين وفي كم من الطرق جرى استخدام كلمة «فلسطين»

وقبل أن نغادر الأرض المقدسة، ونذهب إلى القفار، سوف أتولى وصف غزة مع منطقة فلسطين، فقد ورد لفلسطين ثلاثة معاني في الكتابات المقدسة، فهي في بعض الأحيان تعني جميع الأرض المقدسة، وبناء عليه فإن القدس وجبالها اسمها فلسطين، وهذا غالباً مانجده

مستخـدماً في« حيـاة الآباء»، وكـذلك نجـد أن الأرض المقـدسة كلهـا تدعى باسم سـورية، لأن كل من اليهودية وفلسطين ها جـزئين كبيرين من أجزاء سورية.

وثانيا: يطلق على جـزء محدد من منطقة الجليل، قرب جبـال جلبوع، اسم فلسطين.

وثالثا: يقال بالعادة للمنطقة القائمة على شاطىء البحر فلسطين، أكثر من سواها، وهي المنطقـة القائمة مابين سفـوح جبال بني اسرائيل، التي تحدها من جهـة الشرق، كما يحدها البحر الكبير من جهـة الغرب، ومن الشمال بجبال افرايم وبغـزة من الجنوب، وأطلق على هذه المنطقة بشكل صحيح اسم فلسطين، وقد قال ايـزودورس حول فلسطين:« هي منطقة واسعـة، فيهـا يجري البحر الأحمر من الشرق، وهي المحـدودة من جهـة الجنوب باليهـودية، ويحدها من الشمال بلاد صـور، ومن جهـة غـروب الشمس بالبحر وبمصر»، وفي العصور القديمة عرفت بفلسطين صدوراً عن اسم مدينة عسقلان، التي عرفت باسم فلسطين، واشتقاقاً من ذلك أطلق على سكان تلك المنطقة اسم الفلسطينيين.

وكانت عسقلان في الأيام الخوالي حاضرة فلسطين كلها، وبعد ذلك، صـارت قيسـارية القـائمةعلى سـاحل البحـر الحاضرة، والآن غـزة هي المدينة الرئيسية.

وفي العصور القـديمة، كـانت هذه البلاد كلها مليئـة بالعماليق، وكان شعبهـا قـوياً في كل من البحـر والبر، لأنه امتلك مـوانىء بحـرية، ففي القـديم امتلكت البلاد خمس مـدن رئيسية وحـواضر، وهذا ماكنت قـد ذكـرته من قبل، وبسبب قـوة العماليـق وشجـاعتهم لم يكن بنو اسرائيل قـــادريـن على تدمير الفلسطينيين، ومن ثـم تملك هـذه المدن الخمس، وكانت فلسطين فيما مضى تمتلـك كثيراً من الديرة والرهبان، وقـد قرأنا

عن معجزات عملت من قبل الرهبان الذين سكنوا في فلسطين

غزة أو غزرة مدينة الفلسطينيين أو شعب فلسطين

لمدينة غزة اسمين، فباسم غزة معروفة بشكل عام في الكتابات المقدسة، وجاء الحديث عنها باسم غزرة في سفر المكابيين الأول:٧، وبالغالب بعد ذلك، وهي بهذا الاسم تدعى الآن من قبل جميع الناس، وغزرة، هي الحصن، والقلعة التي اقتحمها يهوذا المكابي(سفر المكابيين الثاني:١٠/ ٣٢....)، ومعنى كلمة غزة هو الكنز، لأن الملك قمبيز، عندما كان ذاهباً للإستيلاء على مصر، أبقى جميع كنوزه في غزة، ومن هنا نالت المدينة اسم غزة أو غزرة، لكن مالذي كانه اسمها قبل قمبيز، هذا مالم أكتشفه، ولربما كانت تعرف بهذا الاسم حتى قبل قمبيز، لأن أقدم الكتابات المقدسة تدعوها باسم غزة، من ذلك على سبيل المثال ماورد في يشوع:١، والقضاة:١.

وكانت المدينة في القديم ملكاً للعناقيين، فهذا ماذكره جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، وقد سكن فيها الكفتوريون(التثنية:٢/ ٢٣)بعدما قتلوا سكانها الأصليين، وقد كانت غزة من حصة سبط يهوذا، لكن ذلك السبط لم يستطع السيطرة عليها، بسبب أن العمالقة قد قاوموا بشجاعة عظيمة، وقد قال الأنبياء كثيراً حول هذه المدينة، كما قرأنا في:إرميا:٤٧/ ١ وفي زكريا:٩/ ٥، وفي صفنيا:٢/ ٤، وقد وردت أخباراً كثيرة حول تدميرها، وتدمير المدن الفلسطينية الأخرى، وهكذا نجد إرميا في السفر المذكور أعلاه، قد تساءل في احدى النبوءات، وقال بأن غزة سوف تكون كومة إلى الأبد، لكن هذا القول تعلق بغزة القديمة، الذي تعرضت في الـقديم إلى دمار كامل، وصار اسمها«صحراء»، كما جاء في أعمال الرسل:٨/ ٢٦.

وغزة في هذه الأيام مدينة متميزة في فلسطين، وهي كبيرة بقدر حجم القدس مرتين، ومكتظة بالسكان، ومزدهرة، وإذا ماأردنا وصفها بالعامية هي خندق مليء بالزبدة، وكل الأشياء التي يحتاجها الانسان من أجل الحياة البشرية وافرة، ورخيصة هناك، وهناك كثيراً من أشجار النخيل، إلى حد بدت فيه المدينة وهي قائمة في غابة، وبيوتها بائسة ومبنية من الطين، لكن مساجدها وحماماتها فخمة جداً، وهي محاطة بسور، وفي السور كثيراً من الأبراج العالية، وهي مدينة ساحلية وإن كانت ليست قائمة على شاطىء البحر، بل تبعد عنه مسافة ميل واحد، وفي الليل عندما يكون كل شيء ساكناً، اعتدنا ان نسمع في ساحتنا أصوات هدير البحر الهائج.

ويسكن في غزة أعداد كبيرة من التجار، وهناك كثيراً جداً من الطباخين، كما أن هناك مزيجاً مدهشاً من الشعوب، ويوجد فيها أعداد كبيرة من الأحباش، مع كثير من البداة العرب والمصريين، والسوريين، والهنود، والمسيحيين الشرقيين، لكن لايوجد فيها لاتين، وفي أواخر أيام الصليبيين، كان هناك كرسياً جيداً ومحترماً لأسقف، ولقد لاحظت وجود أمرين في مدح هذه المدينة: أنا لاأعتقد أنني رأيت أي مكان أو مدينة يرغب الانسان بها— لأنها رخيصة— مثل غزة، والأمر الثاني هو أن الناس هناك مسالمين جداً، فما من أحد سبب لنا أي ازعاج أو عذبنا مثلما فعلوا بنا في الرملة ويافا، ذلك أننا تجولنا يوميا في شوارعهم ونحن نرتدي صلباننا، وقمنا بأعمال معهم دون التعرض لأدنى درجة من المضايقة، وسرت في بعض الأحيان مسافة طويلة من ساحتنا، وحيداً، مرتديا ردائي الأبيض، ومع ذلك لم أسمع أية كلمة عدوانية، لكن هذا لم يحدث لجميع الحجاج الذين أقاموا هناك قبلنا، ذلك أنني قرأت في كتب حجاج بأن بعضهم قد تعرضوا لمضايقات كبيرة هناك. ويكفي ماقلناه عن هذه المدينة.

مقال حول ثلاثة موضوعات هي: الحمير، والجمال، والقفار نفسها، وضعته هنا قبل الدخول إلى القفار

قبل أن أدخل إلى القفـــار، ولكي يكون حجـاجنا في القفـــار فـاهمين بوضـوح أكثـر، يتوجب وصف ثـلاثة أشياء، وهي أشيـاء ترد الاشـارة إليها الآن وفيما بعـد: وأولماينبغي وصفـه هو الحمير وسائقي الحمير، وثاني مايتـوجب وصفه هو الجمال وسـائقي الجمال، والأمر الثـالث، هو وصف القفار، أي الصحراء وسكانها.

الحمير حيوانـات لها طبيعة خاصـة موائمـة من أجل عبـور الصحراء أكثـر من الخيـــول، فـالحمار دابة يمكنهـا حمل الأثقـــال، وتحمل التعب، والاكتفـاء بـالطعـام العـام وبالقليـل منه، وهو يلتقط طعـامـــه من بين الأشـواك، والقتـاد، والعـــوسج، ويشق طريقـه بين النبـــاتات الشـائكة والكثيفـــة، ولهذا السبب تكره الطيـــور الصغيرة الحمار، ويمقتـــونه مثل مقتهم للبوم، لأنه يعبث بأعشاشهم، وببيوضهم وبصغارهـم في النباتات الشـــائكة، لأنه يلتقط كل شيء ويأكـل ويبحث بين النبـاتات الكثيفـــة، ويرمي بالأعشـاش، وعندما ينهق يخيف صغـار الطير، وشرابه هو الماء، وهـو يفضل الماء العكـر، والكثيف، والمليء بـالعلق، والـذي يشربه هـو قليل، وإذا لم يكن قـــد شرب مـن مـــاء خــاص من قبل، فإنـه يرفض الشرب، مع أنه قد يكون في غاية العطش، ويمكنه أن يعيش وأن يعمل لمدة ثلاثـة أيام وثـلاث ليـــــال من دون شرب، ولايمكنـه تحمل البرد الشديد، ولذلك هو لاينجـب في البلدان الباردة مثل بلاد بنطش Pon-tus، لكنه يتكاثر كثيراً في البلدان الحارة، ويخاف من عبور المياه وتلويث حوافره بالماء، ولايقوم بعبـور الجسور التي منها يستطيع رؤية المياه دون أن يرتجف، وإذا مـارأى الميـاه من خـلال العـوارض يحرن ويقف دونما حراك، ولايمكنه السير بشكل جيد في الأراضي الموحلة، لكنه يسير على الأراضي الجافة بشكل جيد وأمين، حتى وإن كانت الأرض وعرة جداً،

ويمكن أن تكون خطرة جداً للخيول، وهو في المناخ الماطر باهت وبلا اندفاع، ولذلك يوجد في الشرق وفي مصر كثيراً من الحمير الجيدة، لأنه لايوجد هناك لابرد، ولامطر، ولاوحل، ولايمكن أن يتوفر في بلادنا حمير جيدة، لأن جميع هذه الشروط معاكسة، ويعرف الحمار صاحبه، وراكبه، وطريقه، وأماكن توقفه، وصوت صاحبه، ومعيار وحدود رحلته اليومية، وعمله، والساعة من أجل العمل، والساعة من أجل الراحة، وذلك بشكل أفضل من أي حيوان آخر، ويحافظ على ذلك كله بشكل دقيق جداً، وهو حيوان لطيف جداً، وهو موائم لمرافقة الانسان أكثر من الحصان والبغل، والمظهر الخارجي للحمار يغش كثيراً من الناس أثناء اختيارهم لحميرهم، لأنه في الغالب الحمير القبيحة أكثر في مظهرها هي الأفضل، وقد يكون العكس صحيح، ومن أجل مثال على هذا، انظر ماتقدم حول اختياري لحماري.

أي نوع من الناس هم سائقي الحمير

ويطلق على الذين يمتلكون حميراً للإيجار اسم سائقي الحمير، وكان سائقوا الحمير الذين ذهبوا معنا خلال القفار من المسيحيين ذوي الزنار، ويعرفون باسم آخر هو الكرج(جورجيون)، وهم هراطقة مثل الاغريق، ومنهم هناك حشوداً كبيرة في البلدان الشرقية، ذلك أن جميع الناس يخشونهم، وأثناء تجولهم من منطقة إلى أخرى، يفعلون ذلك بلا خوف، ولايدفعون خفارة أو مكوس، وبلادهم الأصيلة وأراضيهم واقعة قرب جبال القوقاز، على مسافة بعيدة من الأرض المقدسة، وهم أناس ذوي لياقة، ومظهرهم حضاري، وهم باردون بطباعهم ليسوا سريعي الغضب وفقدان الصبر، ويتم إكتراء هؤلاء لتوجيه الحجاج وقيادتهم من القدس إلى مصر، على حميرهم، لأنهم مسيحيين، ويعرفون لغات وعادات الشعوب، وهم يرتحلون بحرية في بلادهم، وهكذا فإن كل من الحمير وسائقي الحمير، كلّ في مجاله، موائم بشكل خاص من

أجل عبور القفار، فهذا مايعلمك الحج إياه أثناء قيامك بالسفر.

طبيعة الجمال وخصائصهم

الجمال حيوانات حسنة المواءمة بشكل جيد ومناسبة بشكل خاص لعبور الصحراء، وهذه الدواب غريب وجودها وشاذ في بلادنا، ولكنها عامة كثيراً في بلدان ماوراء البحر، وترعى بقطعان كبيرة جداً مع بعضها، ويطلق على الجمل هذه التسمية اشتقاقاً من كلمة Camyn التي معناها« قصير»أو« منخفض»، لأنه ينوخ أثناء تحميله، وبذلك يجعل نفسه منخفضاً، أو أن الاسم مشتق من Camyn، الذي معناه« محدودب» لأنه يتحدب عندما يكون محملاً، أو لأن له ظهر محدودب، وهناك نوعان من الجمال، هما البختري والجمل العربي، وللجمل العربي سنامين(كذا) على ظهره وهو أصغر وأبطأ من النوع الآخر، وللجمل البختري سنام واحد على ظهره، عليه يحملون الأثقال، وسنام آخر على صدره، وعليه يرتاح، وهذا الجمل أصغر من الجمل العربي، وهو سريع جداً، وأعتقد أن الجمال البخترية عرفت أيضاً باسم الجمال الوحيدة السنام، بسبب سرعة خطواتها، لأن Dromedus تعني«طريق» أو «منحى»، ويمكن لهذا النوع من الجمال أن يسير مائة ميل في اليوم، وورد ذكر الجمل الوحيد السنام في إشعيا:٦٠، ولكل جمل وحيد السنام سائق واحد، ونقرأ عن معجزة حول جمل بختري كان له حجم هائل، في« حياة القديس هيلاريون»، الفصل:١٩،وقال فنسنتوس في مصنفه Speculum Naturale— الكتاب١٩، الفصل:٢٧، بأن من الممكن أن الذي له سنام واحد على ظهره يسمى جمل، لكن النوع الآخر يدعى باسم الجمل ذي السنام الواحد، ويجري بسرعة مدهشة، وله سنامين على ظهره(كذا)، وعلى هذا من الواضح أن الجمال بسنام واحد تسمى أحياناً الجمال ذات السنام الواحد، وذلك مثلما يسمي النوع الآخر بذي السنامين، وهناك أنواع كثيرة من الجمال، تختلف كثيراً بالحجم وبالخطوة.

والجمل حيوان مشوه، له سنام، وله رقبة طويلة، بسبب طول أرجله، ومع ذلك يمكنه الوصول إلى الأرض، والتقاط طعامه، وهو يسير ببطيء، لكنه يتحرك بسرعة، وهو لايركض مثل الحصان، لكنه يعمل خطوات طويلة بأرجله الطويلة، مادام الانسان قادراً على أن يفرق بين قدميه، وأثناء ترحاله بشكل متواصل، لاتتورم أخفافه قط، وأرجله مغطاة دوماً بلباد جسدي، لذلك لايمكنه تحمل السير فوق الحجارة، وإذا توجب عليه السير لمسافة طويلة فوق أرض صخرية لابد أن يحتاج إلى صنع نعل له، لأنه إذا جرح نعله يفقد الحيوان قدرته كلها وتوازنه، وعلى هذا يسير الجمل بشكل جيد فوق الرمال، وبشكل سيء فوق الحجارة، ذلك أنه يمشي فوقها ببطىء شديد في خطواته مع كثير من الخوف، ومثل هذا تراه يسير بسرعة فوق أرض جافة عطشى، لكنه يسير بشكل سيء فوق أرض مبللة أو منزلقة، وهو يسافر بشكل جيد في المناخ الجاف الدافىء، لكنه يرتحل بشكل سيء في البرد، ولذلك لايمكنه العيش طويلاً في البلدان الباردة والرطبة.

وللجمل رأس صغير، لابل صغير جداً، بالنسبة لجسده، وهو بدون قرنين، غير أنه يمتلك أنيابا في الفك الأعلى مثل الحيوانات القرنية، وللجمل عينان كبيرتان ومخيفتان، ويبدو دوماً حيواناً حزيناً ومنزعجاً، وعيناه مثل منارة ملتهبة، واشعاعات كثيرة تنعكس منهما، وكل شيء ينظر إليه الجمل يبدو له عظيماً وضخما، ولذلك يظهر أنه ينظر إلى كل شيء بدهشة وحذر، على هذا عندما يتوجه انسان نحوه، يبدأ الحيوان بالارتجاف، ولهذا يتصور الانسان بأن الحيوان يرتجف، لأن الانسان المقبل عليه يبدو بالنسبة إليه أكبر بأربعة أضعاف مما هو حقيقة، ولولا أن الرب قد أمر هذا الحيوان لما أمكن تدجينه وجعله منضبطاً كما هو الآن، وله فم قذر وغير نظيف، وواسع جداً، مع أسنان منخفضة طويلة، وعندما يصرخ، لأنه واقع في اضطراب، يفتح فمه، ويهز رأسه،

ويرفع رقبتـه الطويلة، ويحركها نحـو الأمام ونحـو الخلف، ولذلك فإن الانسان غير المعتاد على هذا يضطرب ويخاف.

ووفقـاً لشريعة الرب، الجمل حيـوان غير نظيف، لأنه له حافـر غير مشطور، مثل الحصان، وهـو مجتر مثل الأغنام، وهو يأكل طعامـاً قليلاً، ويعلف على القش، وعلى لحاء الأشجـار وأوراقهـا، ويأكل الشعير أثناء العمل، ويبتلع طعـامه بسرعـة، ويضعـه جانبـا حتى يتمكن من مضغـه ثانية طوال الليل كله، وللجمل أكثـر من معدة، ففي المعدة الأولى يتلقى الطعـام غير المهضوم، ويشرع في الثـانية بهضم الطعـام نفسه، ويقـوم في الثالثـة بهضم الطعام بكمال أكثر، وينهي الهضم في المعـدة الرابعة، وهذه المعـد الأربع ضرورية بسبب خشونة طعـامه، ولأنه يمضغ الطعـام، إنما قليلاً بأسنانه، وتحب الجمال المياه القذرة، وتتجنب المياه الصافية، وعندما تكون الميـاه ليست مـوحلة بمافيـه الكفـاية، يقـوم بإثارة الطين بالضرب بقـدميـــه وبتحـريكهما حتى تصبح الميـاه كثيفـــة، ويمكن للجمل تحمل العطش لأيام كثيرة، وإنه لأمـر مـدهـش أن أقـول إنه يمكنه السير اثني عشر يوماً من دون ماء، لكن عندما يعطى الفـرصة للشرب، يملأ نفسه بما فيـه الكفـاية، لاطفـاء العطش الماضي، وليعـــد نفسـه لبعض الوقت المقبل.

ويعيش الجمل عمراً طويلاً، ويمتـد هذا أحياناً إلى مـائة سنة، وذلك مالم يؤخد إلى مناطق أجنبية، وأن يصاب بمرض من خلال تغيير المناخ، والعيش بمناخ غير معتـاد عليـه، ويقـولـون بأن السبب في عيش الجمل لمدة طويلة هكذا لأنه ليس له مـرارة، فـالمرارة— تبعـاً لأناكساغـوراس Anaxagoras— هي سبب جميع الأمـراض الصعبة، وللجمل ذاكـــرة ثابتة تجاه الأعمال السيئة التي تعمل لـه، وإذا ضرب سوف يحتفظ طويلاً بحقده حتى يجد الفـرصة المناسبة فينتقم للأذى الذي كان قـد تلقاه.... ويقال بأن الجمل له طبيعة عاطفية وحنونة إلى حد أنه لووجد في القطيع

أو بين مجموعة جمل مريض ولايمكنه الأكل، يمتنع الآخرون عن الأكل تعاطفاً معه.

والجمل دابة للحمولة، ومعين لحمل الأثقال، وهو يفرح بفعل ذلك، ولهذا لديه كراهية طبيعية وعدم محبة للخيول، وللبغال، وللحمير، لأنهم يأخذون الأثقال ويحملونها وهي الأثقال التي يعتقد أنها عائدة له وحده، ولذلك إذا ماسار حمار محمل أو فرس أمام جمل، لن يتقدم ذلك الجمل بأي حال من الأحوال، بل يقف دونها حراك، وهو يبدو منزعجاً، ثم انه لن يتحرك حتى تؤخذ الدابة الأخرى وتزاح من أمامه وتوضع خلفه، وبما أن الحمير تسير أسرع من الجمال، وإذا كانت هناك رحلة تحتاج إلى اسراع بالخطى، يمدون مقود كل جمل بحبل إلى رقبة حمار، وبذلك يمكن للجمل أن يُجر من قبل الحمار الذي يسير قبله، وذلك حسبما قرأنا في اسطورة القديس جيروم.

وعندما يراد تحميل الجمل، يربت بلطف على ركبتيه، فيقوم على الفور بحني مفصليه، وينوخ ويتلقى حمله، أو إذا ماوضع انسان يده على رقبة الجمل، وصفر، ينوخ نحو الأرض ليجري تحميله، ويجلس بهدوء لمدة طويلة، ويسمح لأحمال ثقيلة أن توضع عليه، وأثناء ذلك لايحرك جسده، بل يهز رأسه، ويرفع صوته عالياً عندما يشعر بأنه جرى تحميله أكثر مما ينبغي، وهذا ماتفعله الجمال الصغيرة، لكن لاتفعله الجمال الكبيرة.

وعندما يجري تحميل عدد كبير من الجمال في وقت واحد، يصدر عنها هدير مخيف، يمكن سماعه من مسافة بعيدة في الصحراء أثناء الليل، والأثقال التي تحملها الجمال لايجري حزمها على ظهورها بأحزمة من تحت بطونها، كما أن قتبها لاتثبت مثل سرج الخيول والحمير، بل يوضع القتب بكل بساطة فوق السنام، من دون أي رباط، وفوق القتب توضع الأثقال التي تتدلى نحو الأسفل من على الجانبين بوزن متساوي،

وإذا ماشعر الجمل بأن الوزن أثقل على أحد الجانبين، لايتقدم سائراً، بل يمدّ عنقه، ويشير بصراخه إلى الجانب الذي يحمل وزناً أثقل، وإذا لم يتوفر شيء لمعادلة الوزن، يتناولون حجارة، يعيدون التوازن بها.

وإذا ماشعر الجمل بأنه محمّل بوزن أعظم مما اعتاد أن يحمله، وقتها لن يتحرك نحو الأمام مالم يجري تخفيف الحمل، لأنه لايتقبل حملاً فوق طاقته، وعندما توضع الأثقال على ظهور الجمال يقوم سائقوا الجمال بالحداء بأصوات عالية لتهدئة الدواب، ولدى الفراغ من التحميل، ينبعث الجمل قائماً بسرعة، ليأخذ طريقه مسرعاً، وكأنه مسرور، ويسير من دون توقف حتى مكان الاستراحة المعتاد، فهو عندما يصل إلى هذا المكان، يرفض التقدم، ويطالب بانزال الأثقال من على ظهره، ولاتساق الجمال على الطريق لابالعصي ولابالأسواط، بل يسير سائقوا الجمال خلفها وهم يحدون هكذا: Han na yo yo on ho ho oyoo ho وعندما يشرد جمل ويبتعد عن الطريق، يعود إلى طريقه باشارة خفيفة، باليد، لأنه لايتحمل الضرب ولاسوء المعاملة، وعندما يضطرب الجمل يصدر صوتاً غريباً، وفي بعض الأحيان— مع أن ذلك نادراً جداً— يصبح هائجاً فيرمي بأحماله، ومن ثم يركض هارباً بسرعة كبيرة، ونادراً مايسمح لنفسه بالامساك. وواضح أن الجمل يعتني عناية كبيرة بحمله، خشية أن يقع، ذلك أنه يسير بحذر شديد، خوفاً منه أن يجرح قدمه، أو أن يسقط حمله، لأنه يوجد تحت قدم الجمل خف لبادي من الجلد واسع، وهناك عبر قسم الظلف قطعة من الجلد، مثل التي هي موجودة على قدم الأوز، ولذلك تراه يسير باحتراس، وهو دوما يعرف الطريق الذي سار عليه من قبل، من دون أي دليل، حتى وإن كان الطريق مغطى بالغبار أو بالرمل المنقول من قبل الريح، وهذا أمر محتاج في القفار، حين لايكون هناك طريق قد بقي مرئياً، بسبب تحرك الرمال، وهذه الحيوانات ليست فقط مدربة لحمل الأثقال، بل هي معتادة على

الحروب، ولهذا القصد وجدوا أن الناقة أقوى من الفحل، ويكفي ماقلناه عن الجمال.

سائقو الجمال

سائقوا الجمال هم أصحابها، وكان سائقوا الجمال الذين قدموا معنا عبر الصحراء، قد جرى اكترائهم من قبل ترجماننا من قرى فلسطين، الموجودة على حدود العربية، ولقد كانوا قوماً من الريف، وسود مثل البداة العرب، وكانوا عبيداً للمسلمين وللبداة العرب، وقد تحالفوا معهم فيما بعد، وكانوا يدينون بديانة محمدﷺ، وفي الحقيقة لايقبل البداة العرب الذين يسكنون في القفار أن يكون سائقوا الجمال، أو الذين يتولون تربيتها والعناية بها من دم عربي خالص، بل انهم يدعون هؤلاء الناس يعبرون بسلام لأنهم كانوا متحالفين معهم، ومتفقين معهم بالدين، والملبس، والعادات، ولهذا السبب وجدنا أن سائقي حميرنا، الذين كانوا مسيحيين شرقيين، قد ربطوا أنفسهم— أثناء عبور الصحراء— بالملبس وبالمظهر، بسائقي الجمال، حتى يكونوا أقل عرضة للازعاج من قبل البداة العرب، وكان سائقوا الجمال هؤلاء مع سائقي الحمير، دائمي التخاصم أثناء رحلتنا، ومع ذلك لم يضرب أحدهم الآخر، وقد حافظوا على سلام عميق معنا، وذلك بسبب المال الذي يأملون بالحصول عليه منا، وبشأن سائقي الجمال هؤلاء مع سائقي الحمير، سوف أقول المزيد فيما بعد، وسوف أتولى الآن وصف القفار.

وصف للقفار، المكان المنعزل أو الصحراء، وطولها وعرضها، وقحلها وفي سياق وصفها سنتولى شرح الاستخدامات الأربعة للكلمة

من المتوجب وصف القفار الشائعة، التي على الانسان العبور خلالها أثناء سفره من الأرض المقدسة إلى جبل حوريب، وينبغي أن نعلم أن

هذه القفــار هي جـزء من العــربيـة الكبرى، لأن هنـاك ثلاث مناطق، متصلة إحـداها بالأخرى، يطلق عليهـا اسم العربيـة، وأولها جبل لبنان ولبنان الشرقي، مع جميع المنطقة من حولهما، والتي تدعى العربية العالية، لأن تلك البـلاد تنتج البخـور، والأشجــار التي تعطي البخـور، ثم إن العطور الأخـرى وافـرة هناك، ويجد هـذه المنطقـة من الشمال الإيطورية والطرخونيـة، اللتان تشكلان شطرين من الجليل، كما يجدها من الجنوب دمشق، ولهذا السبب يقال أحيـاناً لسورية الدمشقية، العـربية، وعلى هذا الأسـاس قيل للحارث(كـورنثـا الثانيـة:٣٢)ملك العـربية، مع أنه كـان ملك دمشق.

ثانيا: يطلق على بلاد أبناء مآب، وعمون، وحبشون، ومملكة سيحون، ومملكة عوج، وملك باشان، وجميـع جبل جلعاد، وكل المنطقة فيما وراء الأردن، اسم العربية الثانية، وهي تتصل بالأولى إلى الجنوب منها.

ثالثـا: تبـدأ من هذه النقطة العـربيـة الثـالثة، التي يقـال لها العـربيـة الكبرى، وهي تمتد خلال قفار واسعة جداً من نهر الفرات العظيم حتى البحر الأحمر، ونهر النيل في مصر، وفي هذه العربية باتجاه الشرق، توجد مكة مدينة محمدﷺ، وهناك باتجاه الجنوب جبلي سيناء وحوريب، وهذه العـربيـة واسعـة جـدا، وتحوي على أضخم القفـار التي تشكل مناطق متنوعة.

وفي الحديث بشكل عام عن العـربية، فإنه يمكن للانسـان أن يقول، حسب الخرائط التي وضعها بطليموس، بأن المنطقـة جميعها، التي تعرف باسم ســورية الدمشقيـة، وذلك فيما وراء لبنان، هي العــربيـة الأولى، واسمها عربيـة سورية، أوعربية دمشق، ويجد هذه العـربية من الجنوب، العربية الحجـرية، أو العربية الثانية، وتتصل هذه العـربية بذلك الامتداد الواسع جداً، أي العـربية الصحراويـة، الذي هو العربية الثـالثة، ومجدداً يجد هذه العربية، العربية المباركة، وهي منطقة واسعة وجليلة، فيها تقوم

مـدينة محمـدﷺ المتقـدم ذكـرها، وتضم هذه العـربيـات الأربع مناطق واسعـة جـداً، وتحوي بين حـدودها: البحـر الكبير، والخليج العـربي أو البحـر الأحمر، والخليـج العـربي، ويمـر بها أنهار الجنة الأربعــة: النيل، والفرات، والدجلة، وPison ، هذا وكما أن العربيــة الصحراوية هي أرض بلاثمرات، وهي بلاد سيئة جـداً، ومع ذلك فإن العربيـة الأخرى التي اسمها العربيـة المباركة هي مثمرة جداً، وأرض فـائقة الجودة، وقد كان اسمهـا فيما مضى جيـدروسيا Gedrosia، وهي ليست بعيدة عن مصر ، فيهـا الذهب بكميــات وافـرة، وهو يستخـرج بعــد الحفـر من أخـاديد، مصنعـاً من دون أي فن، وعلى هذا لايجري تذويبـه بالنار، بل يوجــــد في الأرض بوضـع نقي طبيعـي، على شكل قطـع على حجم الجوزة، واسم هذه العــربيــة أيضـاً سبأ، ومـن بلادها يتم انتــاج جميع الاشيـاء التي تعـدّ في بلادنا ثمينة جـداً، وهي غنيـة جـداً بجميع أنواع القطعان والأسراب.

فضلاً عن هذا هي متفوقة على جميع الدول بالعطور والروائح الطيبة، التي تنتجهـا تربتها في كل مكان، وينمـو في الأجزاء القـريبة من البحـر البلسم والسنّا، ويوجــد في الغـابات أشجــار كثيرة من المرّ، والبخـور، ومثل ذلك هناك أشجـار النخيل، والقصب، والقـرفة، ومـاشـابه ذلك، وفي الحقيقة مـامن أحد يمكنه القول كـم من مختلف أنواع الأشجار هي التي جمعتها الطبيعة بكرم هناك، وحول هذا الموضوع يمكن للقارىء أن يعود إلى ديودور، الكتـاب الثالث، الفصل:١٢، والكتـاب الرابع، وهذه البـلاد المباركـة والخصبـة تختلف عن العربيـة المجـاورة لها، أي العربيـة الحجرية والقفار، وكأنها تبعد عنها ألف ميل.

وتتطلع عربيـة الصحراء هذه نحـو الغرب، وهي مليئة بالـرمال، إلى حد أن الذين يعبرونها يقودون أنفسهم بنجم القطب، وذلك مثلما يفعل البحـارة في البحـر، وفي هذا المكان سـوف أتحدث فقط عن قفـار سين،

التي تبـدأ عند الأرض المقـدسـة، وسفـوح جبل سينـاء، وتنتهي عند شـاطىء البحـر الأحمر في أرض مـدين، وكـون جبل سيناء مـوجـود في العربيـة واضح من كلمات الرسول في غـلاطية:٤، حيث قـال بأن جبل سيناء في العـربية، وهو يقـابل القـدس الحاضرة وبالطريقـة نفسها قـال هيمو Haymo(ت٨٥٣) في شروحه(على نشيد سليمان وسفر الرؤيا): « سيناء جبل في العـربيـة، وهو بسبب ضخـامتـه يتـاخم مناطق متعـدده، وتتصل حـدوده بجبال أرض الميعاد، التـي فيها القدس»، وهـذه القفار كلهـا اسمها سين، ومـع ذلك هناك كثير من القفار المتميـزة مثل قفـار: إيشـام، ومـارة، وإيليم، ودفقـة، وقفـار فيـديم، وحضيروت، ورثمـه، وقادش، وهكذا دواليك، حسبما ورد في سفر العدد:٣٣.

ولهذه القفـار الآن أسماء عـربيـة أخرى، كما سـوف يظهـر في سيـاق الرحلة لدى الحديث عن الأماكن التي استراح فيها الحجاج، ونصبوا بها خيـامهم، وتحدثنا الكتـابات المقدسـةفي أمـاكن كثيرة عن هذه القفـار، وعن أنواعها وأوضاعها، وعن الأشياء التي تنقصها، ولنلاحظ الآن أن المكان يقـال له قفـار، بطرائق أربعـة— أولاً: يقـال للمكان قفـر أو صحـراء، عندمـا تستطيع القطعـان أن تسكن هناك، إنما ليس كما قـال اشعيـا:٣٥« تفـرح البرية والأرض اليـابسـة، ويبتهج القفـر ويزهر كالنرجس»، فهذا قد يحدث عندمـا يأتي الذين سوف يفلحونها، وكذلك بنى ملوك الأرض ومشيريها فيها أماكن منعزلة لأنفسهم(أيوب:٣/ ١٤) ذلك أنهم حـرثـوا الأمـاكن المهملة، وشقـوا الأراضي المراحـة، وذلك حسبما قال الرب في(إرميا:٤/ ٣):« افلحوا أرضكم المراحة».

وهكذا أمـر يوشع أبنـاء يوسف بتسلـق الجبـال غير المزروعـة والمهجـورة، وقطع الأشجـار، وتنظيـف المكان، واعـداد مكان للسكنى فيه(يسوع:٢١٧/ ١٥, ١٧—١٨)، علاوة على ذلك إن الأماكن والمناطق التي كانت من قبل مسكونة، لكنها الآن غير مسكونة، يطلق عليها اسم

القفار، كما ورد في نحميا:٢، فقد قيل عن المدينة المقدسة، حين لم تكن آنذاك مدينة:«القدس خراب»، وجاء كذلك في اشعيا:١:« بلادكم خربة، مدنكم محرقة بالنار»، وقد حدث هذا بسبب الناس الآثمين، ولذلك جاء في المزمور قوله:«والأرض المثمرة سبخة من شر الساكنين فيها»(المزمور:١٠٧/ ٣٤)، وبناء عليه نقرأ في متى:٢٣:« هوذا بيتكم يترك لكم خراباً» ، وفي المزمور:٦٩/ ٢٥:« لتصر دارهم خراباً».

والطريقة الثانية التي يمكن للمكان أن يسمى بها قفراً، هي فقط لأن الناس لايسكنون هناك، مع أنه قد تكون هناك بساتين، وحقول، ومروج، ومراعي، وحدائق، وماشابه ذلك، كما جاء في لوقا:١٥، قوله:« يترك التسعة والتسعين شاة في البرية»، أي في مكان المرعى، وقد اقتاد موسى شعبه إلى الجانب الخلفي من الصحراء(الخروج:٣/ ١)أو إلى المراعي الخصبة، وعن مثل هذا النوع من القفار قال إشعيا:« سوف أعمل من القفار هناك(أي قفار الأرض المقدسة) مثل أماكن البهجة، ومن أماكنها المقفرة مثل جنات الرب»(اشعيا:٤١؟).

وثالثا: ان المقصود بالقفار، أماكن الغابات أو الحقول، المغطاة إما بالحشائش أو الجرداء، التي لايسكنها الناس، بل التي تسعى فيها الأسود، والدببة، والغزلان، والذئاب، والحيوانات الأخرى، من وحوش البرية، وذلك حسبما قرأنا في انجيل مرقص:٣:« ودفعت الروح يسوع إلى القفر.... فكان مع وحوش البرية»، وبمثل هذه القفار لايمكن للناس العيش، لكن يمكنهم ذلك، إذا نمت هناك أشجار، وتوفرت هناك مياه تمكن الحيوانات من العيش هناك، مثلما كان عليه الحال في قفار يوحنا المعمدان، وفي قفار القديس جيروم، لأن من المؤكد أنه حيث وجد في أي مكان، أسد، ودب، وذئب، ووعل، وأمكنهم العيش فيه، يمكن للانسان أن يعيش هناك، وفي أي مكان يستطيع الانسان أن يطعم نفسه، يمكن لحيوانات البرية أن تفعل مثل ذلك،

والفـارق مـوجـود فيما يلي: ليس من الضروري للحيـوانات استخـدام النيران في أطعمتهـا، في حين لايستطيع الناس العيـش من دون نار، هذا وقـال بليني في الكتـاب السـادس، بـأن النار لم يُعـرف استخـدامهـا في الشرق من قبل عـدة شعوب حتى أيام بطليمـوس، ملك مصر، فوقتهـا حصلوا على النار، لكن المعلم أنطونيوس لايعتقد بأن أولئك كانوا بشراً حقيقيين، لأنـه لم يـؤمـن بـأن الانســـان يمكنـه العيـش مـن دون نار(التـاريخ— الجزء الأول، العنوان الأول، الفصل الخامس، الفقـرة الأولى).

ورابعـا— وهو الأكثـر احتمالاً— أن شطراً من العـالم يـدعى باسم قفـار، لأنه لاينمـو هناك شيء من أجل الانسـان أو الحيـوان ليأكله، كما لاتنمـــو هناك لاأشجـــار ولاأعشـــاب، وبذلـك لايمكن لاللبشر، ولاللحيـوانات، ولاللطيـور أن تعيـش، وذلك بسبب الحاجـة إلى الماء، وبسبب حـرارة الشمس التي لاتحتمـل، من ثم بسبب جفـاف الأرض، وبكلمة مـوجزة بسبب انعدام جميع الأشيـاء المرتبطة بدعم الحياة، ومثل هذه القفـار، هي التي تمتد من غـزة إلى جبل سيناء، ولايوجـد مثل هذه القفار في ألمانيا، أو فرنسـا، أو ايطاليا، مع أنه من الممكن أن يوجد هناك أماكن صحراوية، وفقاً للمعنى الأول للكلمة، أو الثاني، أو الثالث.

وهناك انعدام لكل شيء في هذه القفار الكبرى، وورد ذكر التعاسات التي من الممكن تحملها هناك في أجزاء كثيرة من الكتـابات المقدسة، من ذلك جاء في سفر التثنية:٨/ ١٥، قـوله:«الرب سار بك في القفر العظيم المخوف مكـان حيّات محرقة وعقـارب وعطش حيث ليس مـاء»، وقال أيضــاً في سفــر التثنيـة:٣٢/ ١٠:«وجــده في أرض قفــر»: وقــال في اشعيا:١/٢١ عن القفـر بأنها«أرض مخوفة»، وعندمـا تذمر بنو اسرائيل، نقرأ في سفر العدد: ٢٠، بأنهم قالوا:«ولماذا أصعد تمانا من مصر لتأتيابنا إلى هذا المكان الرديء. ليس هو مكان زرع وتين، وكرم، ورمان، ولافيه

ماء للشرب».

ووردت أخبار شكاويهم في سفر الخروج:١٦، وفي سفر العدد:١١، حيث تبرهن في هذه النصوص عن الحاجة لجميع الأشياء في القفار، وأجمل ارميا(٢/ ٦)وصف العوز في القفار أثناء توجيه الملامة إلى اليهود لنكرانهم للاحسان بقوله:« صار اليهود باطلاً(أي ناكرين للاحسان) ولم يقولوا أين هو الرب الذي أصعدنا من أرض مصر، الذي سار بنا في البرية في أرض قفر وحُفر في أرض يبوسة وظل الموت في أرض لم يعبرها رجل، ولم يسكنها انسان»؟، ودعيت هذه القفار في يشوع:٥(؟) باسم القفار الطويلة جدا، والعريضة للغاية، وعلاوة على هذا نقرأ في سفر التثنية:١/ ١٩«وسلكنا كل ذلك القفر العظيم المخوف»، وفي الإلهيات:٦/ ٣:«أنت سوف.... تترك نفسك جافاًمثل شجرة في الصحراء»، وفي١٣/ ١٩:«الحمار الوحش هو صيد الأسد في القفار»، وأطلقت المزامير أيضاً على الصحراء اسم القفار بقولها:« حطم الرب الصخرة في القفار»، وقال الرب لموسى في الخروج:٣:« الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة»، وغالباً ماذُعي جبل حوريب باسم جبل الرب.

ودعيت القفار أيضاً من قبل الشعراء، باسم أرض الملح، وأرض المن، وأرض فونس Fauns،وأرض ساطيرSatyrs، ومن هذا كله يمكن للانسان أن يستخلص بعض الأفكار عن مزايا وأوضاع هذه الأرض الجيدة والسيئة والقفار.

أوضاع الصحراء أو القفار

أولا: تدعى هذه المنطقة أولا باسم صحراء مهجورة، لأنها— كما يمكن القول— مهجورة من قبل الرب، ومن قبل السموات ومن قبل الدنيا، فهي مهجورة من قبل الرب، لأنها فارغة وخاوية، وكأن الرب

قد استخدمها لتحسين بقية الكون أو تزيينه، وتبدو هذه المنطقة أيضاً وكأنها مهجورة من قبل السموات، لأنها تفتقر إلى التأثير اللطيف للنجوم، وتبدو وكأنها مغاضبة لهم، وكأنها تحولت إلى حديد، في حين السماء من فوق قاسية، وبلاعاطفة، ولاشفقة، ونتيجة لهذا فإن المنطقة مهجورة أيضاً من قبل بني البشر، الذين يتخلون عنها كأنما يتخلون عن شيء بلا فائدة.

وثانيا: تدعى هذه المنطقة باسم المكان المنعزل، من كلمه«يشتاق» الذي يطبق على البلدان، بسبب أنه لايوجد أي انسان يشتاق إلى تلك الأرض، وبسبب أنها أيضاً تفتقر إلى كل ماهو لطيف وجيد، ولأنه ليس فيها مايبعث على السرور، فما من انسان يشتاق إليها، أو ربما جاءت تسميها من«شدة التحمل»، وذلك بسبب قسوة تربتها، المتلاحمة مع بعضها بشدة متناهية، حتى أنه لايمكن تكسيرها لابالمسحاة ولابالفأس، ولابأي أداة حديدية.

وثالثا: يطلق على هذه المنطقة اسم مكان منعزل، لأنها منعزلة، ولايطرقها الناس، وهي أيضاً منعزلة لأنه مامن واحدة من البلدان القائمة من حولها ترغب في أن تكون لها علاقة بها، أو ان تكون مشابهة لتلك المنطقة، وغالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة باسم«القفار الواسعة»، التي هي غير موائمة لأي نوع من أنواع الفلاحة، وعلى هذا الأساس قال بنو اسرائيل عندما كانوا يتذمرون:« ليتنا متنا في أرض مصر وليس في هذا القفر العظيم»(العدد: ١٤)، وورد الحديث عنها أيضاً في الكتابات المقدسة باسم«القفار الكبيرة»، أو هي غاية الوساعة في الطول وفي العرض، لأنها بالفعل، في كثير من الأجزاء عظيمة جداً، وطويلة جداً، وعريضة بلاحدود، إلى حد أنه لايمكن عبورها، ولايمكن العثور على انسان، قد وصل إلى حدودها نحوالشرق، لأنه طالما لايوجد فيها ماء، مامن انسان يمكنه أن يحمل روايا كبيرة من الماء

تكفيه لعدة أشهر.

هذا ويبدأ خلف هذه الصحراء بالقيام جبال مرتفعة جداً، التي إذا ماتمكن انسان من تسلقها، فإنه يصل إلى أرض الجنة، غير أن الرب أقام على الطريق سيفاً ملتهباً بحرارة لايمكن قياسها، لأن حرارة الشمس هناك عالية جداً، وكذلك الجفاف في ذلك المكان، إلى حد أنه من غير الممكن بالنسبة لأي انسان المرور خلاله، حتى لو كان معه جميع ضروريات الحياة، التي هي منعدمة كلياً هناك، ومع ذلك بذل بعض الآباء المقدسين من آباء الكنيسة— من ذلك على سبيل المثال القديس مكاريوس مع بعض الآخرين— جهوداً—كما يقال— فوق طاقة البشر، ووصلوا إلى مناطق جيدة خلف هذه القفار، إنما لم يستطيعوا شق طريقهم إلى الجنة.

وعرفت أيضاً باسم القفار اللامحدودة، لأنها لم تكن، ولن تكون مفيدة للحاجات البشرية، وهي أيضاً تعرف باسم القفار المخيفة والمرعبة، وهي مخيفة بسبب ارتفاع جبالها وشكلهم الغريب، ومرعبة بسبب عمق وديانها الذي لايمكن قياسه، وكذلك جروفها السحيقة.

ورابعا: عرفت هذه المنطقة باسم صورة الموت، لأن كل مايراه الانسان في تلك القفار يهدده بالموت، لأن هذه المنطقة ليس فيها شيء يمكن للحياة البشرية أن تعتمد عليه، بل إن جميع الجبال، والتلال، والوديان، والطرقات بلاقع، تعرض علامات الموت، ولون الأرض هنا ليس مثل لون الأرض المسكونة، بل إن ظل الموت منتشر فوقها كلها، لأنها سوداء، محروقة، ثم انه لايوجد شيء في تلك البلاد إلاّ ماهو خطر على الحياة البشرية، علاوة على ذلك ينمو في تلك الوديان القرع البري السام، فهو ينمو بغزارة، ولذلك قيل عنه في سفر الملوك الثاني: ٤/ ٣٩:«في القدر موت»، لأنه كان فيه يقطينا من أكل منه مات، ولهذا السبب، ولأسباب أخرى أطلق على هذه المنطقة اسم صورة الموت.

وخامساً: وللسبب نفسـه، دعيت تلك المنطقة باسم الأرض القاحلة، لأن مامن شيء ينبت هناك(العدد:٢٠).

وسادسا: انها دعيت باسم الأرض التي بلاماء، بسبب أن الماء منعدم فيها، وإذا تمّ العثور على أي مـاء في مناطقها العميقة، تجده مليئاً بالعلق وآسن، ولذلك عرفت باسم أرض العطش، وإذا مـاتوفر على السهل أية مياه جارية من أي نبع، فإن هذه المياه تكون مليئة بالزواحف، إذا كانت عـذبة أو أنها تكون مـالحة وغير قـابلة للشرب، هـذا وهناك في بعض الأماكن وديان تجلب مياها من نفسها وتحتفظ بهذه بالمياه لنفسها، عاملة سبخـة عميقـة، خطيرة على العابرين لها، وغـالبـا مـاتشكى بنو اسرائيل بسبب الحاجـة إلى ماء، وعـانينا نحن أنفسنا من العطش، كما سنتحـدث فيما يلي.

وســـابعـــاً: عـــرفت هـذه الأرض لدى إرميـــا بـاسم أرض الملح(ارميـا:١٧/ ٦)في قوله«ويكون مثل العـرعر في البـادية ولايرى إذا جـاء الخير بل يسكن الحرة في البرية أرضـاً سبخـة وغير مسكونة»، وفي الحقيقـة نجـد أن الندى الذي يتســاقط على تلك الأرض، يرش عليهـا الملح ويغطيها بـه، ويلوث الأعشاب والحشائش، وذلك لـدى توفر أي شيء من هذا النوع.

عـلاوة على ذلك، إن أي مـاء يتم العثـور عليـه بالحفـر في الأرض، يكون شـديدالملوحة، وتـم العثـور هناك على واد، ينتج الملح الرطب منه نفسـه، ومـاأن تتعـرض هذه الرطوبة إلى حـرارة الشمس حتى تتحـول مباشرة إلى ملح، ويحدث أيضـاً أن الرطوبة تتحـول في الشتاء إلى صقيع أشيب اللون، فتقـوم الشمس بصنـع خـوازيق حـادة من الملح الصرف، وبذلك يصبح المكان كله وعـراً يجرح أقدام الذين يرتحلون فـوقه، حتى وإن كانوا مرتدين لأحذية.

وثامنا: عرفت تلك المنطقة بأنها بلاممرات، حيث جاء في المزمور(٦٣/ ٢)قوله:«في أرض بلاممرات(ناشفة)ويابسة بلاماء»، وقد قيل لها أرض لايمكن عبورها، لأنه لايوجد ممر فيها وخلالها، وهكذا قال جيروم في رسالته«حول الاحتفال بالفصح» بأن الذين يسيرون من دون ممر مطروق في الأجزاء الداخلية من القفار الجنوبية، يوجهون مسيرهم بالنجوم، لأنه لايمكن توفر ممرات ثابتة في القفار، حتى وإن طرقت يومياً من قبل الناس والحيوانات، وسبب ذلك أن في القفار رياحاً شديدة، وزوابع عنيفة، يجري بها حمل الرمال ونقلها بقوة شديدة تجعلها تغطي وجه الأرض كلها، وهكذا تتحرك الرمال مع الريح وتتنقل مثل المياه الجارية، ولهذا السبب أطلق بعضهم على القفار اسم«بحر الرمال»، وعلاوة على ذلك نجد هناك جبالاً عالية من الرمال تتولى الزوابع نقلها من مكان إلى آخر في ليلة واحدة، وبناء عليه فإن الذي هو اليوم سهل منبسط تجده في اليوم التالي جبلاً عالياً قد تكوم هناك، ويحدث تنقل الجبال على هذه الشاكلة يومياً في الأنواء العاصفة، ومع ذلك لايحدث نقل الكتلة المتجمعة كلها دفعة واحدة، بل الذي يحدث هو نسف القمة أولاً بالريح ثم البقية حتى الأساسات على الأرض، ومن ثم تتجمع في مكان آخر، وبذلك يتشكل جبل جديد، على بعد أربعة أميال أو خمسة من المكان الذي وقف فيه الجبل السالف.

ويحدث أحياناً امتلاء وديان عظيمة بالرمال، واذا ماااستمرت العاصفة في مكان من الوادي، يقوم هناك جبل، وهكذا نجد في المكان الذي قام فيه قبل ثلاثة أيام مضت واد عميق، قد انبعث هناك جبل مرتفع، ومثل هذا فإن الجبال الصخرية غير القابلة للتحرك تتغطى بالرمال المتدفقة، وبذلك يصير الجبل الذي رآه الانسان بالأمس جبلاً من الصخور، اليوم لايراه ولايجده بل يرى جبلاً من الرمال، ولذلك لايمكن أن يتوفر في القفار ممر ثابت، لأن هناك عواصف رملية كل يوم

تقريباً، وذلك مثلما هناك عواصف مائية في البحر، والعواصف الرملية خطيرة جداً، لأنه وقتها يكون وجه الأرض كله جيشان، والإنسان لايستطيع رؤية شيء إلاّ رمال مندفعة بسرعة عالية، وذلك مثل المياه، ومع هذا كله الهواء كله مليء بالغبار، وكأن هناك سحباً منه، ولذلك لايتجرأ الانسان على ابقاء عينيه مفتوحتين، بسبب دخول الرمال إليهما، غير أنه من جانب آخر مرغم على فتحهما ليرى أين هو ذاهب، وتطير الرمال بقوة إلى حد أنها لاتؤذي العيون فقط، بل تجرح جسد كل من يعرض جلده لها.

وإذا كانت الريح قذرة، وكان الرحالة يسيرون في مواجهة الريح، فإنهم يصابون بالعمى، ويختنقون أحيانا، وفي الحقيقة تكون العاصفة أحياناً قوية إلى درجة أنهم لايستطيعون السير في مواجهتها، بل يرغمون على مسايرة الريح، وطوال استمرار العاصفة، تجدهم مكرهون على إدارة ظهورهم لأميال كثيرة إلى المكان الذي إليه كانوا ذاهبين، ولولا أن الطبيعة علمت الجمال، استطاعة السير بدون توقف فوق أرض لاممرات واضحة عليها، وذلك دونما خطأ، لما تمكن الناس من العبور خلال القفار، هذا وهناك خطر آخر اضافي، هو أنه عندما يكون هناك أي وادي، أو هوة، أو منحدر، قد امتلأ حديثاً بالرمل، يمكن للدواب والناس عندما يعبرون فوقهم مع حمولاتهم أن يغطسوا في الرمال، ويحدث في بعض الأحيان غرقهم تماما، لأن رمال الصحراء ناعمة جداً، وبناء عليه هي أفضل أنواع الرمل، لوضعه في الساعات الرملية.

وتولى ديودور، العميق المعرفة، الذي تجول حول آسيا لمدة ثلاثين سنة، الحديث عن خطر آخر للصحراء، في الفصل الخامس من الكتاب الأول من«تاريخه القديم»حيث قال يوجد بين سورية ومصر سبخة عميقة جداً، اسمها سبخة السربونيانيه Serbonian، التي هي ضيقة جداً، وتمتد أكثر من مائتي غلوة طولاً، وهي في بعض البقاع غير المعلمة

تستـدرج الناس إلى الخطر، وهـم الذين لاينظرون نحـو الأمـام، لأن السبخة ضيقة، وهي محاطة من جميع الجهات بتلال رملية، وعندما تحرك الرياح هذه التلال تنقل إلى المياه كميات كثيفة من الرمال، وعندما تمتزج هذه الرمـال بالماء، تبـدو وكـأنها أرض قـاسيـة، ويعـود من غير الممكن إخبـار أية بقعـة هي مـاء وأيها أرض يابسـة، ولذلك فإن كثيرين ممن لم يعـرفوا طبيعـة المكان، ولم يتعلمـوا كيف يرتحلون على هذا الطريق، قـد وقعوا في السبخة وغرقـوا هم ومن كان معهم، لأنهم بمجرد ماأن يدخلوا الرمـال— الـرمـال التي تبـدو عـن بعـد كأنها أرض صلبـة وثـابتـة— يغـوصـون فيهـا أعمق فأعمـق، ولايستطيعـون بعـد ذلك التراجع بخطواتهم، أو الثبات فـوق ماهم عليه، بل يغوصـون في رمالها السريعة، وعندمـا يغوص انسـان في الرمال الناعمـة يفقـد الأمل بالسلامـة، لأنه لايستطيع الصراع أواستخـدام قواه، بل إنه يغـرق في الرمـال الممزوجـة بالماء، التي تشبـه الصلصـال، والتـي لايمكن السفـر عليهـا لابالأقـدام ولابالقوارب، ولذلك تعرف باسم المتاهة. فهذا ماذكره ديودور.

وبسبب هذه السبخـة، فإن الذين يعبرون الصحـراء، لابد لهم من أن يجلبوا معهم بوصلة عريضة، خشية الـوقوع في المخاطر، ولسوف نتوسع بهذه القضيـة فيها بعـد، ذلـك أن مـاقيل فيـه كفـاية لتبيـان لماذا قيل للقفار «بلاممرات».

وتاسعـاً: لقـد قيل بـأن هذه هي الأرض التي لايمكـن لانسـان عبـورها(ارميا:٢/ ٦، يهوديت:٥؟) ومن الممكن فهم هذا بطريقتين: إمـا أنه في البـدء، أي قبل بني اسرائيل، مامن انسـان عبر فوق هذه القفـار، على الطريق الذي اقتيدوا عليه، وهذا أمر صحيح، أوعلينا أن نفهمه بأن مامن انسـان سار على قدميه فـوق هذه القفار، وهذا مثل ذلك صحيح، لأن الانسان لايستطيع العبور على هذه القفـار مالم تكن لديه دابة يمكنه أن يركـب عليهـا، ويحمل زاده، وذلك بسبب حـرارة الأرض، وأيضـاً

بسبب انعـدام الطرق، والأشياء التي يحتـاجها لبقـائه حياً، وهـي أشياء لايمكنه أن يحملها هو نفسه.

وهكذا عندمـا يئس النبي إيلياء من انجـاز رحلته، ألقى بنفسـه تحت ظل شجـرة رتمه، وتوسل أن يمـوت هنـاك، ولولا أن مـلاكـاً جلب له طعامـاً وشراباً منعشاً، لم يكن ليحـاول القيام بهذه الرحلة بنفسـه(الملوك الأول:١٩/ ٤—٧)، هذا ومن الممكن أن يقوم كثير من الناس بالارتحال خـلال الصحـراء، وليس شخصـاً بمفـرده، ومع ذلك من الممكن لكثير من الناس أن يضيعوا طريقهم، لأنه غالباً مايحدث أن تثير الرياح العنيفة الغبـار، بشكل كثيف يبلغ حـداً، أن لايستطيع الانسان رؤية رفيقـه، كما لايتمكن من سماعه، وإذا حدث وأخذت الدابة التي يركبها طريقاً آخر، فإن ذلك الانســان يهلك، وإذا—على هذا— كـان هذا يحدث، عنـدمـا يكون كثير من الناس مـرتحلين مع بعضهم، فكيف يمكن لانسـان، مهما كان، أن يرتحل لوحده؟.

وعـاشراً: لقـد قيل بأن مـامن انسـان يستطيع السكنى في الصحـراء، ولهذا عـرفت بالأرض غير المسكونة، وهذا صحيح كقاعـدة، ومع ذلك لقد عـاش بعض الآباء المقدسين للكنيسـة هناك، عاشـوا حياة الملائكة، وليس حيـاة البشر، وفي هذه الأيام يقطـن البـداة العـرب هناك، لكنهم يعيشـون حيـاة البهـائم وليس حيـاة البشر، هذا وعندمـا قيل بأنه حتى البهـائم لايمكنهـا العيش هناك، ومع ذلك يعيش البـداة العـرب هناك، فإن هذا لايعنـي أنهم يعيشـون بـوسـاطـة معجـزة، مثـل بني اسرائيل، ولامثل الملائكة مثلما فعل النسـاك المقـدسـون، كما أنهم لايعيشـون مثل البهـائم من دون عمل بشري، بـل مثل الشيطان، لأن الشيطان يتجـول هنا وهناك وهو يبحث عمـن يمكنه إلتهـامـه، وهكذا تجدهم يتجـولون حـول تخوم القفار، ويقـومون بنهب وسلب الذين يعبرون هذه القفـار، وعلى هذا هم شيـاطين مجسدين، لايعيشون حيـاة بشرية، كما سنرى فيما

بعـد، وفي الحقيقـة هذا المكان غير مـوائم لأن يعيـش به الذين يرغبـون بممارسـة حياة حضـارية، ولهذا قيل:« لايمكن أيضاً لأي ابن انسـان أن يسكن هناك فيهـا»، لأنه كما هو مشـاهد الأرض كلهـا تقـريبـاً رمليـة، وصخـرية، أو مثل كلس محترق، وبذلك هي غير مـوائمة للحـدائق، أو الحقول، أو الكروم، أو للسكنى.

وأحد عشر، عرفت هذه المنطقة باسم بلاد الأفاعي، والعقارب، والـ Dipsades[من أنواع الأفـاعي التي يسبب لدغهـا عطشـاً لايحتمل]، والهوام، والتنينات، وبما أن هذه البـلاد واسعة جـداً، فيها أنواع متنوعـة من المخلوقات السامة في مناطق مختلفـة، ولقد جرى إرسال أفاعي نارية على بني اسرائيـل بسبب تذمـــرهم(العـــدد:٢١/ ٦، أخبـــار الأيام الأول:١٠/ ٩)، وكثير من الأمــاكـن في القفــار مليئة بحفــر جحـــور الأفـاعي، وبعضهـا الآخـر مليء بالعقـارب وفي المناطق التي فيهـا الماء، هناك بعض التنينات والتماسيـح، وأنواع أخـرى كثيرة من الحيـــوانات، وذلك حسبما قـرأنا في «حياة الآباء»، وعـاينينا نحن— على كل حـال— من نوع واحـد فقط، وكـان ذلك ديداناً مـدورة، كل منهـا بحجم حبـة البندق، وكـان لونها أسود، ولها أقـدام كثيرة، ولذلك يطلق عليهـا اسم قملة فـرعون، والأرض في بعض الأمـاكن مليئة بهذه الديدان، وعندمـا يكون الانسـان نائماً يأتون إليـه سراً، ويمتصون دمـه مثل القمل، وبعـد قـرصتهم تبقى هناك ندبة، وتبقـى هناك عـلامـة زرقـاء مشـوبة باللون الأحمر، وحجمها مثل حجم البنس، الـذي عليه علامـة الصليب، ومالم تعالج الندبة على الفـور بالدهن، وبحكها بعصير الليمـون، فإنها تتحول إلى جرح قذر لايمكن علاجه.

وإلى جانب هذه الـديدان تنتج الأرض أنواعاً متعددة مـن الحيوانات الصغيرة جـداً، التي تعيق استراحـة الناس، عـلاوة على ذلك تتجمع في كل لحظة أعـداد لاتحصى من القمل من مختلف الأحجام، على مـلابس

الانسان.

واثني عشر: عـــرف هذا المكان بـاسم« المكان الـردىء»، أو«المكان الشرير»(العدد:٢٠/ ٥)، وقد عرف هكذا بسبب الشرور المتقدمة الذكر، وبسبب سـوء الهواء وكـونه ملوثاً، ذلك أن الهواء في القفـار سيء جـداً، وقـاسيـاً للغـاية، مع أنه قـد يكون في بعض الأحيـان نـاعماً إلى أبعـد الدرجـــات، كما أن الحرارة لاتحتمل، والبرد لايمكن قيـــاســه، ويجد المسافـرون أنفسهم في ساعة من السـاعات في أحد الأماكن وقـد كادوا يحترقون من الحر، أو بالحري كأنهم في أتون، وتجدهم بعد أمد قصير من ذلك وهم يعانون من برد شديد جداً.

وثالث عشر: هذه المنطقة هي موطن فونس وساطير ، اللذان هما إلها القفـار والبساتين، وذلك وفقـاً للديانة الزائفة لعـامة الناس في القـديم، وقد اعتـادا في الأيام الخالية أن يعلنا للناس عن أشيـاء سوف تحدث في المستقبل، لكن ليس بوسـاطة العـلامات، بل بصـوتيهما، كما كـانا يبينان الطريق للذيـن تاهوا في القفـار، وعلى هـذا نقـرأ في«حيـاة الآباء»، بأن القـديس أنطوني، عندما كـان يبحث عن بولص في القفـار رأى أمامـه رجلا ملتصقـاً إلى فرس، من نوع المخلوقات التي أطلق عليهـا الشعراء اسم سنطور Centaur، وعند رؤية ذلك، شجع نفسه بعـلامة الصليب وقـال:« من أنـت، أيها السيـد الشـاب، وفي أي مكان مـن هذه القفـار يسكن عبد الرب»؟ وبعـد مالاك الوحش بعض الكلمات غير المفهـومة بين أسنانه ونهشها بدلاً من أن يتفوه بها، نطق أخيراً بصوت ناعم جداً، وبمدّه ليـده اليمنى، أشار إلى الطريق المطلوب، وبعد ذلك عـدا مبتعداً، كأنه يطير فـوق السهل المفتــوح، واعترت انطوني الدهشـة تجاه مـارآه، ومضى سـائـراً على طريقه، وبعـد قليل رأى في واد صخـري رويجل له أنف معكوف وقـرنين خشنين على جبهتـه، والقسم الأسفل من جسـده انتهـى بظلفـي تيس، ولـدى رؤيـة انطـوني لهذا أمسـك بترس الإيمان،

وأعطاه المخلوق المتقـــدم الذكـــر ثمار التمـــر، ليكون لـه زاداً من أجل رحلتـه، وكأن ذلـك عهـد سـلام، وعندمـــا فهم أنطوني هذا، أسرع في سيره، ولدى ســـؤاله له من هــو، تلقى منه الجواب التـــالي:« أنا مخلوق فـاني، وواحـد من السكان في القفـار، اقتـــاده الكفـار، وأضلوه بذنوب كثيرة، فـدعوت فـونس وسـاطير وبت مسكوناً، وأنا أحمل إليك رسـالة عهد إليّ بحملهـا من قطيعي، حيث أننا نرجـوك أن تصلي إلى ربنا العام وذلك لصـالحنا، لأننا نعرف بأنـه نزل منذ وقت طويل مضى، من أجل خلاص العالم».

وعندمـا فـرغ الوحش من كلامـه هذا، بكى انطوني بـدموع الفـرح، وضرب بعصاه على الأرض وقال:«الويل لك ياإسكندرية، لأنك عبدت هذه الوحـوش كـآلهة، مـالذي يمكنك قـولـه لوحش تحدث هكذا عن المسيح»، ومـاكاد يفـرغ من كلامـه حتى هرب ذلك المخلوق المسلوب، واختفى بسرعة كأن له جناحين، وفي احـدى المرات تمّ جلب واحد من هذه المخلوقـــات إلى الاسكنـدرية، وشكل بذلك منظـراً هائـــلاً للناس الذين كـانوا هناك، وعندمـا مات جـرى تمليح جسـده، خشية التـلاشي والزوال في حـرارة الشمس، وأرسل إلى انطاكيـة حتى يراه الامبراطور، وأنا لاأعتقد بأن هذه المخلوقـات هي أبناء فونس وسـاطير، على أساس أن هؤلاء من البشر، في حين أن هذين كـانا من الحيـوانات المتـوحشـة، هذا ومن الممكن أن الخطيئة قد قـامت حولهم في أيام فـونس أوساطير، وأنه في تلك الأيام شرعت النساء تتقول حولهم.

رابع عشر: ان القفـار أو الصحراء، هي مكان الشيطان، وهكذا نقـرأ في توبت:٨، بـأن رئيس الملائكة رفـائيل قـــد بعث أسمـــوديوس -As modeus إلى القفار في أعالي مصر، وكذلك جُلب الرب إلى القفار، حتى يتمكن الشيطان من أن يجده هناك.

وفي الأيام الخوالي، عندما كان الناس يرغبون في ممارسـة حياة مقدسة

كانوا يذهبون إلى القفار، بسبب توفر الصفات الستة التالية هناك، وبناء عليه قام القديس جيروم في«أحكامه»: الفصل التاسع بمدح القفار قائلاً:«أيتها الصحراء المزدهرة بعشر وردات، ماأجمل مكانك المنعزل حيث نمت الصخور والحجارة التي منها بنيت المدينة المقدسة، ماأروع فضائك العادي المبتهج بالرب» وهكذا إلى أن قال:« بالنسبة لي المدينة سجن، والقفار جنة، ولأن القفار غير مكتظة، فإن الحقيقة غير مشوهة»، فهذا ماقرأناه هناك ولذلك أقنع جيروم كثيراً من الناس بالدخول إلى القفار، وبشكل خاص الشماس بريسيديوس Presidius، الذي إليه كتب في رسالته حول هذا الموضوع:« لقد رأيت مؤخراً الأماكن المهملة في مصر، ورأيت أسرة الملائكة، وشاهدت كم هنا كثيراً من الورود وهناك، وكم من المروج المزينة باللآلىء الروحية، وأكاليل تتوج بها الرب، والنار تلتهب في صدرك، ولذلك فكر يومياً حول هذه الأشياء، وتأمل حولهم، واشتق اليهم».

وتشوق جيروم نفسه شوقاً عظيماً إلى الصحراء، وبناء عليه قال في رسالته إلى ثيودوسيوس وإلى النساك الآخرين:« هل ياترى سوف يمكنني رؤية القفار، التي هي أكثر بهجة من أية مدينة، وهل سأتمكن من رؤية تلك الأماكن الخالية من السكان»الخ، ومثل هذا قال أوغسطين في Epistola ad pastores:« هناك قفار مليئة بآلاف من عبيد الرب».

وخامس عشر: الصحراء مكان للاغواء، حيث تحدث ربنا أنه لم يتعرض للإغواء في أي مكان إلاّ في القفار(مرقص:١،ومتى:٤)، ومثل هذا أغوى الرب البطارقة القدماء، وبني اسرائيل، بطرق متنوعة، حسبما جاء في سفر الخروج:١٦، وفي سفر التثنية:٨، حيث قال:« سار بك الرب إلهك هذه الأربعين سنة في القفر لكي يذلك وليجربك»، كما قال أيضاً في التثنية:٨:« وقد جربك الرب ليعرف مافي قلبك أتحفظ وصاياه

أم لا»، علاوة على ذلك أغوى بطارقة الأيام الخوالي الرب هنك، ولذلك قال المزمور:« في القفار أغواني آباؤكم»(المزمور:٩٥/ ٩) وقال ثانية:« وجربوا الرب في قلوبهم بسؤالهم طعاماً لشهواتهم»(المزمور:٨٧/ ١٨)، وجاء من جهة ثانية مكتوباً في(سفر التثنية:٦/ ١٦):« لاتجربوا الرب إلهكم»، وقام جيروم في رسالته حول الإغواءات، بتعداد عشر إغواءات تعرض لها بني اسرائيل في الصحراء.

وسادس عشر: القفار مكان يمكن الحصول فيه على سرور عظيم، وبناء عليه حصل البطارقة المقدسون بعد توبتهم في القفار، على الأرض المقدسة، واعتاد قديسوا العهد الجديد على الذهاب إلى القفار، من أجل الحصول على السرور الأعظم.

وسابع عشر: إن القفار هي المكان الذي أعطيت فيه الشريعة، وكذلك الوصايا، وذلك حسبما جاء في سفر الخروج:١٩/ ٢٠.

وثامن عشر: القفار هي مكان المن ، والمواساة السماوية، حيث أننا نقرأ في المزمور: ٧٨/ ٢٤ قوله:« وأمطر عليهم منّا للأكل، وبّر السماء أعطاهم»، وقال أيضاً في سفر الخروج:١٦:« وفي هذا اليوم إن الندى الذي يتساقط حول جبل سيناء هو منّ حلو، وبناء عليه رأيته أنا شخصياً، وأكلت كثيراً منه»

وتاسع عشر: القفار مكان للتأمل، وللابتعاد عن الدنيا، ولذلك كان الآباء المقدسون للكنيسة عندما يرغبون بالاستغفار، يذهبون إلى القفار، ويفرون من الدنيا.

وعشرون: هذه القفار مكان للخشوع وللتفكر، وعلى هذا نقرأ في المزمور قوله:«يشتاق إليك جسدي في أرض ناشفة ويابسة بلاماء. لكي أبصر قوتك ومجدك كما قد رأيت في قدسك»[المزمور:٦٣/ ١—٢]، وقال مرة أخرى:« فقلت ليت لي جناحاً كالحمامة فأطير وأستريح.

هاأنذا كنت أبعـد هاربـاً وأبيت في البرية»[المزمـور:٥٥/ ٦]، وليكن فيما قلناه كفاية عن وصـف القفار، والخبرة من الآن فصاعـداً سوف تُحدّث القارىء أكثـر حولها، وانظر رواية أخـرى عن القفار في ص١٣٦—ظ، وماتلاها.

البداة العرب الذين يسكنون في القفار، عاداتهم، ووقاحتهم وتعاستهم

إن سكان القفـار أو الصحـراء هو بـداة عـرب، وهـم أناس تعسـاء، ويشبهــون البهــائـم، وعن هؤلاء يقــول بعضهم بـأنهم أبناء اسماعيل وهاجر، وهـم يسمـون أنفسهم مسلمين، ويمنحهم بعضهم أسماء مشتقة من المنطقــة الأقـرب إليهم، فيطلقــون عليهم اسم المدينيين، ويسميهم آخرون البدو، في حين يدعوهم آخرون باسم الجزيري؟ Zigeri اشتقاقا من اسم الكلدانية Chaldaea ، وهي بلاد متصلة بالصحراء العربية الكبرى من الجهـة الشمالية، ويقول آخـرون بأنهم قـد طردوا من مصر، وبين هؤلاء ديودور، في الكتـاب الثاني من« تاريخه القديـم» حيث يقول بأنه عندمـا حكم أكتيسانس Actisanes، الذي كان ملكاً لمصر، بعدل عظيم، أنهى أعمال السرقة، وفق طريقة جـديدة، فهو لم يعاقب المجرمين بالموت، ولم يتركهم مـن دون عقــوبة، بل إنه جمع المجـــرمين كلهم مع بعضهم، وأنزل بهم عقــوبة خفيفــة، فقـد قطـع آنافهم، وأرغمهم على الذهاب إلى القفـــار، وبذلك باتوا غير قــادريـن على إيذاء الشعــوب المجـاورة بشرورهـم، كما لايمكنهم إخفـاء الأخطاء التي اقترفـوها بحق بقيـة الناس، ثـم إنه بإرسـالهم، أو لنقل بنفيهم إلى القفــار، حيث هناك الحاجة إلى كل شيء، وقتهـا كانوا سيرغمـون بالضرورة على السعي من أجل عيشهم، ويعـرف هؤلاء بشكل عـام بـاسم«العـرب»من قبل جميع شعوب البلاد.

وليس لهؤلاء الناس مكان ثـابت للسكنى، بل يتنقلون نحــو الأمـام

ونحو الخلف في أرجاء هذه القفار، متسلحين بترستهم ورماحهم، ليس في الحقيقة من أجل القتال لأنهم نصف عراة، بل من أجل السرقة، والخوف منهم جعل المسافرين خلال تلك المنطقة يتجمعون على شكل حشود كبيرة، لأنهم بمساعدة أحدهم للآخر يمكنهم تجنب المخاطر المهددة، لأن هؤلاء الناس يسكنون فقط في القفار النائية وليس في القفار الداخلية، أو يسكنون في الأماكن التي لايمكن لاللانسان، ولاللحيوان ولاللطير أن يحصل فيها على عيشه، وهم ينصبون خيمهم في الأماكن التي يعتقدون بأن التجار أو المسافرين الآخرين سيمرون بها، وأيضاً حيث هناك سبخ لتأمين الشراب لهم ولقطيعهم، وهناك يسكنون في الكهوف في الصخور، أو في أكواخ معمولة من أغصان الأشجار.

وعندما يرون أي انسان قادم، يمتطون خيولهم، وحميرهم وجمالهم، ويصفون أنفسهم فوق الطريق، مع ترستهم ورماحهم، وتخرج نساؤهم من كهوفهم، وهن نصف عاريات مثل الرجال، وهن في غاية البؤس والقذارة، ويركضن والحجارة في أيديهن، ويتبعهن أولادهن، وهن جاهزات للحصول على حصتهن في السلب والنهب، وهم جميعاً يزحفون لمقابلة الغرباء بشكل هم متعطشون فيه للدماء، وهم أيضاً يصرخون، ويهزون رماحهم، وفي تلك الأثناء تقوم النساء ويقوم الأطفال، وهم يسيرون على أقدامهم برمي الحجارة، إنما عندما يلتقي الجمعان، يُحيّد البداة العرب حدتهم، ويطالبون بسلام بالخفارة، قائلين بأنهم سادة القفار وأصحاب جميع الأماكن التي ليست موجودة داخل أسوار، أو مغطاة بسقوف، أو محاطة بخنادق، وهكذا دواليك، وإذا رفضت الفئة الأخرى دفع الخفارة، لايسمحون لها بالمتابعة والسير مالم تكن أقوى منهم أنفسهم، وإذا ماشاهدوا ذلك، يتوقفون عن طلب الخفارة، ويتوسلون بتواضع من أجل الحصول على الصدقات، وهم

يقنعـون بدريهمات، وإذا مـامنحوا بعض البقسـاط يتلقـون ذلك بسرور بالغ، ويسمحون للمسافرين بمتابعتهم ترحالهم.

إنما مـامن انسـان يمكنه مـواجهتهم من دون اضطراب، أو يستطيع التخلص منهم من دون أن يدفع لهم، لأنهم يتجـولون حـول الصحـراء على شكل مجموعات كبيرة وكثيرة، وإذا ماانتشر خبر بينهم، بأن رفاقهم قد قتلوا، أو عـوملوا بقسوة، تراهم يحتشـدون، ويتجمعون مع بعضهم ويضغطون بشـدة على الذين تصـدوا لهم، حتـى يتمكنوا من قهـرهم وسلبهم كل شيء كان معهم، ولهذا السبب قـال عنهم جيروم في رسالته إلى دار دانوس Dar danus وسماهم برابرة حيـث قـال:« يوجـد فيما وراء الأرض المقـدسة صحـراء واسعـة، مسكونة ببرابرة أشـداء»، وهم يقـولون بأن هـذا المكان، وكـل مكان في الهواء الطلق هـو ملك لهم، ولذلك يطالبـون على كل طريق بالخفـارة، من العـابرين، وليس فقط في القفار.

هذا وإنهم يمكن أن يقولوا بأن القفار هي بلادهم، وملك لهم، ذلك أنهم يسكنون فيها من دون وجود أي مدينة، أو قرية، أو قلعة، أو بيت، يسكنون في كهـوف بالصخـور، وفي خيـام، وليس لديهم أية وسـائل للعيش غير النهب والسلب، ذلك أنهم يعانون من عوز ومن فقر، حتى الكلب بيننـا لايستطيع تحمل ذلك، وإذا لم يمكنهـم الحصـول على أية منهوبات، يلجأون في سبيل دعم حيـاتهم إلى اعتماد السرقة، ولهذه الغاية يتركـون القفـار، ويتجـولـون ليس فقط في البلدان الشرقيـة، بل إنهم يصلون حتى إلى المناطق الداخلية للغـرب، وبناء عليه أنا لا أعرف لأي سبب عـرفـوا باسم«العـرب»أو«الكلدانيين»، بل اسم« جـزري»، أوكما يقول عامـة الناس جزريين Zigeuner (نور)، لأنهم قوم قـدموا من الكلدانية، وذلـك حسبما وردت الأخبار فيPrimo phys. supp. IV chron. lib ، ومن الكلدانيـة نزلوا إلى المناطق المجـاورة للعـربيـة

الصحراوية، ومن هناك انتشروا في جميع البلدان، انظر الصفحة ٨٠ من القسم الثاني.

ويعيش عرب القفار هؤلاء أعماراً طويلة جداً، وذلك على الرغم من تعاستهم، ويركض رجال ونساء لهم من العمر مائة سنة فوق الصحراء بخفة ورشاقة مثل الكلاب، وتجدهم دوما جائعين، وعطشانين، ونادراً مايطفئون جوعهم بالخبز، لكن عندما يقومون بصومهم المهيب، يخبزون الأرغفة في الرماد، ويأكلون لحومهم والدم يتقاطر منها، وإذا لم يكن بإمكانهم الحصول على نار من الحطب، يأتون بلحومهم النيئة فيضعونها فوق صخرة عريضة(ويضعون صخرة أخرى عليها)، وبذلك تجف اللحوم، وتصبح ساخنة بين الصخرتين، وإثر هذا يزيلون الصخرة العليا، ويحتفظون بالتحتا، لتكون بمثابة مائدة، وهكذا يأكلون لحومهم من دون أي طبخ.

وعلاوة على ذلك يقتاتون ويتعيشون على بعض الحشائش والجذور، ويشربون حليب الجمال والحمير، ويلوكون بأفواههم بعض البقسماط القاسي جداً، وعن هذه القضية تحدث جيروم في رسالته ضد جوفينوس Jovinus:«البداة هم عرب يأكلون الأسماك، وهم اسماعيليون، ويعيش جميع المتوحشون في القفار على حليب الجمال ولحومها، لأن هذا الحيوان من السهل تربيته، وهو يعيش بينهم في أنواء تلك المنطقة القاحلة، ويعدّون أكل لحم الأوز ذنباً من الذنوب»، وفي الحقيقة إن الأوزة التي تعيش على القمح، والجوز، والجذور، والخنشار، والشعير، ليست موجودة بينهم لأنهم لايمتلكون أي طعام من هذاالنوع، فهم يصطادون الأسماك من البحر الأحمر، ويطبخونهم على الصخور الملتهبة من حرارة الشمس، وهم يعيشون على هذا الطعام فقط.

زد على هذا، بما أنهم لايمتلكون مكان سكنى ثابت، يتجولون هنا وهناك خلال الصحراء، ويترحلون وقد نظموا أنفسهم على شكل

فئات، من أجل أن يساعد أحدهم الآخر في سبيل تجنب المخاطر التي تهددهم، ومن هذه الاقتباسات، من الواضح أنه في الأيام الخالية، كان غير مأمون المرور خلال القفار، مثلما هو الحال في هذه الأيام، وذلك بسبب هجمات البداة العرب، التي منها عانى مالوخس Malchus، كما ورد لدى جيروم في« رسالة الراهب الأسير»، حسبما جاء في« حياة الآباء».

ويبدو أن هؤلاء التعساء قد أومىء إليهم في سفر أيوب: ٣٠، حيث قال:« الذين كنت استنكف من أن أجعل آباءهم مع كلاب غنمي»، وفي الحقيقة لقد اعتقد شخصياً أنهم غير جديرين بالحياة نفسها فقال:« في العوز والمحل مهزولون عارقون اليابسة التي هي منذ أمس خراب وخربة. الذين يقطفون الملاح عند الشيح وأصول الرتم خبزهم. من الوسط يطردون، يصيحون عليهم كما على لص، للسكن في أودية مرعبة وثُقب التراب والصخور، بين الشيح ينهقون، تحت العوسج ينكبون»، ويبدو أن هذا النص قد قصد به أن يفهم حرفيا على أنه يعني هؤلاء البداة العرب.

وعندما لاتتوفر لديهم أسلاب، ولايمكنهم الاستمرار بالعيش في القفار، ويرغمهم العوز، يتجمعون على شكل جيوش، ويتركون نساءهم وأولادهم في القفار، ويقومون بالإغارة على بعض المناطق المجاورة، حيث يتمكنون أثناء الليل من اقتحام إحدى المدن أو القرى، فيفتحون أبواب البيوت، ويستولون على كل شيء يجدونه، ويعودون بعد ذلك إلى زوجاتهم وإلى صغارهم، وهم لايقتلون الناس، إلاّ إذا حدث ذلك صدفة، وهم يقترفون هذه الغارات في سورية وفلسطين ومصر، ويدخلون أحياناً إلى المدن الكبيرة، وينهبون عدة بيوت ثم يعودون مع أسلابهم، وأثناء اقامتي بالقدس قاموا بذلك في الظلام، وشقوا طريقهم مرتين إلى داخل المدينة للنهب، وقاموا باحداث شغب

وفوضى هائلة، وما من أحد رد عاديتهم، ذلك أن جميع الناس قد خافوا منهم، وهذا ليس غريباً بالنسبة لإنسان عرف الكتابات المقدسة، لأنه في أيام الملوك الأقوياء جداً، وعندما كانت البلاد تعيش في ظل نظام قوي جداً، قام البداة العرب بالافساد في الأرض، حيث قرأنا في سفر أخبار الأيام الثاني:٢١، كيف أن البداة العرب قد دخلوا إلى القدس، ونهبوا كل شيء، حتى أنهم حملوا زوجات الملك والأولاد من بيته، وأزعج هؤلاء البداة العرب نحميا كثيراً أثناء اعادة بناء القدس مع الهيكل، حيث نقرأ في سفر نحميا(الاصحاح الثاني) بأن جشم العربي كان بين الذين منعوه من إعادة بناء القدس، كما نقرأ عند نحميا نفسه في الاصحاح الرابع بأن البداة العرب حشدوا أنفسهم وتجمعوا ضد العاملين على إعادة بناء المدينة المقدسة.

وأعتقد انه إذا ماحاول أي انسان في هذه الأيام إحاطة القدس إحاطة كاملة بالأسوار، والأبواب، والمغاليق، سوف يبذل البداة العرب كل مايستطيعون لإعاقته، وعن هؤلاء البداة العرب نقرأ في سفر المكابيين الثاني:١٢، بأنهم حشدوا جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف رجل، وخمسمائة فارس، وزحفوا ضد يهوذا المكابي، لكنهم« هزموا من قبل يهوذا، وطلبوا منه السلام، ووعدوه بإعطائه ماشية، وبجعله مسروراً بطرق أخرى، ثم إن يهوذا وجد أنهم سوف يكونون بالفعل نافعين له في أشياء كثيرة، لذلك أعطاهم السلام، وبناء عليه تصافحوا وغادروا ذاهبين إلى خيامهم»، ونجد من هذا النص أنهم اعتادوا على إزعاج البلاد في القديم مثلما يفعلون الآن، هذا وقد ورد ذكرهم في سفر المكابيين الأول:٢.

ومامن ملك أوحاكم كان قط قادراً على قهر هؤلاء البداة العرب، وكما قال ديويور في الكتاب الثالث من« تاريخه القديم»الفصل:١٣:« بين سورية ومصر صحراء العربية، التي هي بلاماء، وفيها ثمار في بعض

المناطق القليلة فقط، ولـذلك يقـوم شعبهـا بسلب الشعـوب المجـاورة، وهم لايمكن غلبتهم بالحرب، وهم يسكنون في منطقة بلاماء، ويحفرون آباراً معـروفـة من قبلهم فقط، هي التي تنقـذهم من جميع المخـاطر من أعدائهم، لأن الذين يطاردونهم إمـا أن يموتوا عطشاً، لأنهم لايعـرفون مـواضع الآبار، أوأن يعـودوا وهم أحيــاء بعـدمـا هدّهم التعب، ولهذا السبب إن البــداة العـرب الـذين يسكنون هذه المنطقــة لايمكن إلحاق الهزيمة بهم في الحرب، وهم يعيشـون أحراراً، ولم يكونوا قـط خاضعين لأي ملك أجنبي، من الآشوريين، أو المدينيين، أو الفرس، ومثل ذلك لم يكن الملوك المقدونيين قـادرين على اخضاعهم، مع انهم امتلكوا جيـوشاً جـرارة»، كما وذكـر بأنهم كانوا يهاجمون القـوافل الملكيـة، أثناء عبـورها لبـلادهم، مثل مهاجمتهم لقـوافل الناس العاديين، ذلك أنهم لايوفـرون أحداً.

وضـد هؤلاء البـداة العـرب وضع الرب ثقله كله(اشعيـا:٢١)، وفي الحقيقة انهم غالبـاً ماأرغموا على مغادرة القفـار بسبب الحاجة إلى المياه، ووقتهـا كـانوا يأتون مع أزواجهم وأولادهم إلى احـدى البلدان، حيث كـانـوا ينصبـون خيمهم إلى جــانب الميـاه في مــراعي خضراء، ويبنون لأنفسهم أكـواخـاً، ويسكنون هناك، مجحفين بحق شعب البـلاد، حيث كانوا يستـولون على القطعان التي يصدفونها في طريقهم، ومـامن انسان يتجـرأ أن يلمسهم، وهـم لن يعـودوا إلى القفـار إلاّ إذا كــانوا محملين بالأسلاب، وذلك بعد استيلائهم على منهوبات كثيرة.

وهم يذهبـون إلى مصر، مثلما يذهبـون داخلين إلى البلدان الأخـرى، وذلك على الـرغم مـن السلطان ملـك مصر والمماليك، الـذين ينظـرون إليهم نظرة كراهية عظيمة، ولقد رأيتهم منتشرين متفرقين في كل مكان، في كل من سورية ومصر، وهم أيضاً يتجولون حول منطقتنا كما سنرى، وهم لايحاولون الاستيــلاء على أية مــدينة، أو على أية قــرية، مع أنهم

بإمكانهم فعل ذلك، لأنهم يقولون بأنهم وحدهم نبلاء حقيقيون، يعيشون على النهب، وليس على العمل، ويمضون أوقاتهم خارج الأبواب في الحقول وفي الغابات، وهذا مايميز النبلاء عن الناس الآخرين، وهكذا دواليك، وهذا أيضاً هو موقف نبلاء سوابيا، الذين يرفضون قبول أي انسان يسكن في مدينة في مبارزاتهم، وبناء عليه، صحيح أن البداة العرب، تعساء كما هم، لكنهم أصحاب شموخ ونظرة عالية إلى أنفسهم، ويتفاخرون جداً بأنفسهم، وترى أزواجهم مزينات بالذهب والفضة والأحجار الثمينة، مع أن ثيابهن مهلهلة، ووجوههن قذرة للغاية، لأنه ليس لديهم ماء للاغتسال به، ويسكنون في خيام وأكواخ مليئة بالدخان، فقد جاء في سفر أيوب:٣٩/٦ قوله:« الذي جعلت البرية بيته، والسباخ مسكنه».

وإلى هؤلاء الناس الأشقياء.... توجه محمدﷺ بدعوته، وجذبهم إلى جانبه، وبذلك تمكن فيما بعد من اخضاع الشعوب الأخرى بالقوة إلى نفسهﷺ بالسيف والرمح، والقوس، وبذلك تمكن من قيادة العالم كله.... بمساعدة هؤلاء الأشقياء، مثلما فعل روملوس وروموس حين جمعا إليهما اللصوص، وقطاع الطرق، ورعيان القطعان، ومزيج مختلط من الناس من الأنواع المتدنية، وبوساطة هؤلاء أوقع روملوس المملكة اللاتينية بالفوضى، ولوث مملكته بالدم البريء.

هنا بداية الحج خلال القفار حيث جرى وصف الطرق الثلاثة عبر القفار، ورحلة العذراء المباركة مع الطفل يسوع إلى مصر

رحلاتنا الآن خلال صحراء ضخمة جداً، سوف يكون من السهل وصفها، على أساس أن القارىء بات عارفاً بكل شيء حول الحمير، وسائقي الحمير، والجمال وسائقي الجمال، والقفار والبداة العرب الذين يسكنون فيها، هذا ومن أجل فهم أفضل، تتوجب الملاحظة أننا نجد في الكتابات المقدسة ثلاثة طرق وجرى الحديث عنها، على أنها موجودة، في القفار، فالطريق الأول، هو الطريق الذي وصل عليه بنو اسرائيل إلى الأرض المقدسة، والطريق الآخر هو الذي سافر عليه ابراهيم، عبر القفار إلى مصر، والذي عبره ذهب يعقوب وأولاده عليه وسافروا بناء على دعوة يوسف، ومن المعتقد أنه بوساطة هذا الطريق ذهب يوسف وزوجته، مريم العذراء الأعظم مباركة مع الطفل يسوع، وذلك لدى الهرب من هيرود(متى:٢)، والطريق الثالث، هو الذي سافر عليه النبيان الياس واليشع في القفار إلى جبل سيناء، انما ليس في وقت واحد بل واحداً بعد الآخر، حسبما ورد الخبر في سفر الملوك الأول:١٩.

ولم يجر اقتياد بني اسرائيل[٢٦—ظ] لدى خروجهم من مصر، مباشرة على طول الطريق الذي يقود إلى الأرض المقدسة، بل ذهبوا إلى جبل سيناء، عبر طريق البحر الأحمر، وذلك بناء على أوامر الرب إليهم، كما أنهم لم يجلبوا إلى جبل سيناء بوساطة أقرب الطرق، بل اقتيدوا عبر طريق طويل في القفار الشاسعة، ثم اقتيدوا ثانية عائدين، وملتفين حتى انتهاء الأربعين سنة، وسبب عدم اقتيادهم عبر الطريق الأقصر إلى فلسطين وهي البلادالتي تتاخم مصر، قد قُدّم في سفر الخروج:١٣، هو أن فلسطين كانت تمتلك مدناً عظيمة، مليئة بالعماليق، ولو أن بني اسرائيل رأوا هؤلاء لدى أول وصولهم، لرجعو ثانية إلى مصر، من

خلال الخوف، كما أن آثام الفلسطينيين لم تكن قد اكتملت وانتهت بعد، كما هو الحال مع العموريين، لذلك لم يكن بالامكان طردهم منها.

وعلى هذا كـان ممر بني اسرائيل طـويلاً جـداً، ووعـراً، وقـد مضـوا خلال القفـار، وعبروا شواطىء البحر الميت القصـوى، من خلال مملكة عـوج، ملك باشان، ومملكة سيحـون ملك العموريين، وتابعـوا سيرهم حتى المكان الذي يصب فيـه الأردن في البحـر الميت، وهناك جف نهر الأردن في مـواجهـة أريحا، وهكذا وصلوا إلى الأرض المقـدسـة، لكن ابراهيم، ويعقـوب ابنه، ويوسـف ومـريم، والبقيـة نزلوا إلى مصر، عبر طريق التجار العام، إلى جانب شـواطىء البحر الكبير، حيث كان البحر على يمينهم، والقفـار على يسـارهـم، وفي هذه الأيام هذا هـو الطريق العـام، والطـريق السلطاني، للذيـن ينزلون من غـزة إلى مصر، مع أن الطريق رملي وطريـق متعب، وعليـه من الممكن رؤيـة بعض آثار رحلة العذراء المبـاركة، ويوسف مع الطفل يسـوع، من ذلك على سبيل المثال، المكان الذي هوجموا فيـه، وأسروا من قبل اللصوص، فقد حـدثنا أنسلم Anselm أنه عندمـا كـان يوسف مع العذراء مـريم والطفل يسـوع، سـائـرين على ذلك الطريق، وعندمـا كانوا يـرتاحون في أحـد الأمـاكن لانعـاش أنفسهم، حـدث فجأة أن البـداة العـرب انقضـوا عليهم من الأجزاء الداخلية للقفار، وحاصروهم، قاصدين اعتقالهم وسلبهم، لكن أحـد الشباب وكـان ابن زعيم اللصوص، عندمـا رأى الطفل في حضن أمه، استـولى عليه بشكل اعجازي حب نحـوه، ولم يشك بوجود بعض القداسـة الربانية فيه، وسـأل الأم أن تعطيه الطفل، وتسلم الطفل وحمله بين ذراعيـه مع أعمق الاحترام والتقـديـر، وقبله قـائـلاً:« أيها الطفل المجيـد، ارحمني في وقت الحاجة»، وبفـراغه من قـوله هذا أعطى الطفل إلى أمـه وأعاده مع الدمـوع، وانتزعهم من أيدي أصحـابه، وبعدمـا بين الطريق الآمن لهم، سمح لهم بالمغـادرة، ويقال بأن هذا الشـاب كان هو

اللص، الذي عندما كان معلقاً على الصليب مع المسيح، قال له:« ياسيد تذكرني عندما تأتي إلى ملكوتك».

ويقود الطريق الثالث من غزة إلى القفار، مباشرة إلى جبل سيناء، وعبره سار الياس والرجال المقدسون الآخرون، عندما ذهبوا إلى جبل سيناء، وهذا كان طريقنا، وقد انطلقنا وفق الطريقة التالية.

سفر الحجاج من غزة نحو الصحراء الكبرى على طريقهم إلى جبل سيناء

في الصباح الباكر من يوم التاسع من أيلول، جاء سائقوا الجمال مع الترجمان، وأخرجوا جميع أثقالنا إلى وسط الساحة، وجعلوها على شكل طرود ذات أحجام متساوية، ووزنوها حتى يعرفوا كم من الجمال سوف نحتاج، وقد وجدوا أثقالاً تفوق حمولة اثنين وعشرين جملاً، وأنه من غير الممكن حمل هذه الأثقال من دون استئجار ثلاثة جمال زيادة، وهنا نشب خلاف شديد بيننا وبين الترجمان، حيث كانت رغبتنا هي أن يقوم بتأمين الجمال الإضافية على حسابه، وفقاً لما جاء في البند الخامس من عقدنا، الذي تقدم لنا ذكره، لكنه رفض ذلك، قائلاً بأن لدينا كثيراً جداً من الأثقال التي هي بلافائدة، وإذا ماقمنا بالتخلص من هذه الأشياء ورميها، هو وقتها مرغم على تقديم الجمال المحتاجة، لكن ليس غير ذلك، وفي الحقيقة نظر هو إلى أشياء كثيرة على أنها فائضة لانحتاج إلى استخدامها، لكنها كانت في الحقيقة ضرورية جداً، وبدلاً —على هذا— من رمي هذه الأشياء والتخلص منها، اكترينا ثلاثة جمال زيادة على حسابنا، وبناء عليه بات الآن لدينا خمسة وعشرين جملاً، وثلاثين حماراً، وسبعة سائقي جمال، وستة سائقي حمير، واثنين من القادة من البداة العرب، وأدلائنا، واثنين من المسلمين هما الفحل، كالينوس الأدنى، وشاب حبشي، وبذلك بلغ تعداد جماعتنا إلى أربعين شخصاً، وعندما فرغنا من هذه الأمور، كان قد حان وقت تناول طعام الغداء، وبناء

عليه أكلنا بسرور، لأن وقت مغادرتنا قد حلّ، وفي الختام شرينا رماناً من كل من النوعين الحلو والحامض،كل واحد بقدر مارغب وأراد، وذلك من أجل امتصاصهم في القفار ونحن على طريقنا، وكانت هذه الفاكهة رخيصة جداً، إلى حد كان يمكن فيه للانسان شراء أربعين أو خمسين رمانة كبيرة، حديثة القطف مقابل مندوس واحد.

وبعد الظهر جاء الترجمان على ظهر فرس، وقدم معه سائقوا الحمير مع حميرهم، ومع أن سائقي الحمير كانوا مسيحيين، فقد ربطوا رؤوسهم وفق الطريقة العربية، حتى يكونوا أقل عرضة للأذى من قبل البداة العرب العابرين للقفار، وجلب سائقوا الجمال أيضاً جمالهم وحملوهم بأثقالنا، لكنهم تركوا سلتين كبيرتين فارغتين، وضعنا فيهما اثنين من الفرسان الحجاج المرضى، بناء على طلب الترجمان تمنطقا بسيفيهما، فضلاً عن هذا جلب بعضهم قسياً، وأسلحة اسلامية، في حين حصل بعضهم على بنادق، وبذلك تسلحنا بأسلحة دفاعية، ومن ثم امتطينا ظهور حميرنا، وزحفت جماعتنا كلها خارجة من غزة، تحت السلاح، وبما أننا كنا ذاهبين إلى العربية، سمح لنا المسلمون بتسليح الحجاج الفرسان، وسائقي الجمال، وسائقي الحمير، فكل واحد منهم كان لديه قوسه، وكذلك سيفه، وخنجره، وكانوا اثناء سفرنا من سورية إلى فلسطين لم يسمحوا لنا بأي شكل من الأشكال، بترك المدينة حاملين للسلاح.

وبعد مغادرتنا للمدينة نزلنا من الرابية، التي عليها تقوم المدينة، إلى أرض منبسطة، وسافرنا باتجاه الجنوب، جاعلين على يميننا مدينة بئر السبع، التي تشكل الحد الجنوبي الأقصى للأرض المقدسة، وبعدما سرنا قليلاً على الطريق العام بين بساتين مسيجة، اقتاد سائقونا جمالنا إلى خارج الطريق، إلى قلب حقل من الحقول، حيث أناخوا الجمال، وأنزلوا الأثقال من على ظهورها، وقرروا إمضاء الليل هناك، وتجاه هذا كنا

منزعجين كثيراً، لأنه كـان مـايزال هناك كثيراً من ضـوء النهـار، لكن كـالينوس الرئيس أخبرنـا بأن الأحمال لم تكن مقسمـة بالتسـاوي بين الجمال، وأن سـائقي الجمال كـانوا يتخـاصمـون حـول ذلك، ولذلك يتوجب في ذلـك المساء تنظيم كل شيء، لأننا كنا نحتـاج إلى سلام أثناء رحلتنا، وكـان اسم الحقل الذي تحولنا إليـه«قسمه»، وبناء عليـه ترجلنا من على ظهـور حميرنا، ونصبنا خيماً حتى نتمكن من الاستراحـة تحتهم، وعمل بعضهم لأنفسهـم وحـدهم أمـاكن منعـزلـة، بتعليق أرديتهـم وجعلهـا ستائـر، ناموا تحتهـا، وبعدمـا نصبنا خيمنا، انتزعنا عصيـاً من الأسيجـة، وطبخنا طعامـاً لعشائنا تلك الليلة، ولغـدائنا في الغد، فهـذا مايحتـاج الانسان القيام به وعمله، لأنـه عندما تكون الجمال محملة تسير بشكل متـواصل من الصبـاح حتى المسـاء، ولايمكنهـا تحمل التمهل أو الوقوف على طريقها، وبناء عليه فإن الذين يصاحبون هذه الجمال عليهم الارتحال دون توقف، ومن ثم تناول غذائهم وهم على ظهور حميرهم.

ولايستطيع الانسـان مطلقـاً خـلال وجـوده في القفـار تناول طعـام ساخن، أو الجلوس لتناول طعام الغداء، بل يتـوجب عليه أكل ماطبخه في الليلة المتقدمة، وأخذنا أيضاً من جرارنا مايكفي من خمر لعشائنا تلك الليلة، ولغدائنا في الغد، وأخذنا أيضاً مايكفي من بقسماط، وقسمنا هذه الأشيـاء ووزعناها بيننا بالتسـاوي، فكل انسـان كان لديـه قارورة فيهـا تسلم حصته من الخمرة، وعندمـا بات طعام العشاء، الذي طبخناه على نار واحدة، جاهزاً، جلسنا تحت خيمنا وأكلناه.

وحُذرنا بعدم وجوب نومنا جميعـاً في آن واحد، بل ينبغي بقاء واحد من الحجاج ساهراً بشكل دائم، وأن يقوم بالحراسة وأعمال الدورية أثناء نوم البقية، وذلك خشية أن يقوم اللصوص مع قاطعي الطرق بالدخول إلى مخيمنا ونحن نائمين، وسرقـة حـاجيـاتنا، وفي الحقيقـة كـانت هذه الحراسـات مطلوبة من قبلنا، ضـد خـدمنا، وسـائقي الجمال، وسـائقي

الحمير، أكثر منها ضد الغرباء، لأن هؤلاء القوم سرقوا بقساطنا، وبيضنا، وسرقوا كل شيء استطاعوه، ولم نكن قط قادرين على مداومة الحراسة بشكل جيد، لأننا وجدنا في الصباح بأن سلالنا سرقت وتركت مفتوحة، وانتزع البقساط منهن، ومثل ذلك سرق بيضنا من سلالنا، وغالباً ماأمسكناهم وهو يقومون بأعمال السرقة، وتجاه ذلك لم يخجلوا، بل بالحري سخروا منا، ولهذا السبب اجتمعنا معا بعد العشاء، ورتبنا نظاماً لحراستنا، وكان نصيبي البقاء ساهراً بعد منتصف الليل، في الليلة الأولى، وعندما غابت الشمس، تمددنا تحت خيمنا، واستعدينا للنوم، وجرى تنظيم جماعتنا أثناء الليل وفق مايلي: نصبنا أولاً خيمنا، وأكواخنا، ووضعنا أثقالنا في الوسط، ومن حولنا جلس سائقوا الجمال والحمير مع أثقالهم ودوابهم، وترجماننا، الذي كان لايسمح لأي انسان بالتمدد بنفسه خارج المعسكر، أو السير بعيدا عنه، إلاّ لمسافة قصيرة، لمقاصد ضرورية، ووفق الطريقة هذه نظمنا الأمور كل ليلة، فقمنا بحراسة الأطعمة والأشربة، وأيضاً استرحنا.

وعند منتصف الليل، قام الفارس الذي كان يتولى الحراسة قبلي بإيقاظي، لأتولى تنفيذ حراستي، وهكذا سرت حول حشد الرب، وأنا أغني المزامير، وممسكاً عصا في يدي، وفجأة انفجر على مقربة منا صراخ وأصوات مرتفعة، وولاويل صادرة عن عدد كبير من الناس يصرخون ويولولون مع بعضهم، ولم أعتقد أن الأمر كان سوى أصوات أناس قد ارتفعت بالبكاء، ولذلك وقفت حيث أنا وأصغيت، وأنا ممتلىء بالخوف والدهشة، وظننت أن المسألة هي أن المسلمين كانوا يقيمون احتفالاً مامع ألعاب مأساوية أو ساخرة، أو أن مصيبة مرعبة أووباء قد نزل بهم فجأة، أو أن ساطير أو بعض المخلوقات المخيفة، الموجودة في القفار، تولول بقصد منعنا من دخول الصحراء، وإلى هذا اليوم لست أدري ماالذي كانه الأمر، غير أن بعضهم قال لي، بأن ذلك قد صدر عن

مجموعة من الذئاب كانت تعـوي، وهذا كان من الصعب عليّ تصديقه، لأن الصراخ بدأ فجأة، وبعد وهلة توقف فجأة، ثم بعد مرور وقت من السكون انفجـر ثانيـة، وبدت الأصوات وكـأنها صراخ ناس يتألمون، ولدى انتهاء الصراخ، سرت متـابعاً حراستي، فـوجدت ترجماننا المسلم، كـالينوس الأكبر، يقـوم بالصـلاة وبالركـوع والسجـود، وفقـاً لطريقـة المسلمين، وعندما سمعني توقف عـن الصلاة، وسألني لماذا أنا لست في خيمتي، وعندمـا أخبرته أنني مستيقظ للقيام بالحراسـة رضي بذلك، ثم استدار نحو الجهة الجنوبية من القفـار، وأراني نجماً كان لامعاً جداً، كان قد أشرق للتـو، وقال لي: ان هذا نجم القـديسة كاتـرين، وهكذا يعرف بهذا الاسم من قبـل جميع الناس، ثم استطرد فجـأة يقـول:« تحت هذا النجم يوجد جبل سيناء، الذي نحـوه نحن مرتحلون، وعندما نسير أثناء الليل، لن نأخذ طريقاً سـوى الطريق المباشر نحو هذا النجم حتى نصل ونحن تحتـه إلى ظهـر جبل سيناء»، وبعـد مغـادرتنا لجبل سيناء غـالبـاً مـاكنت أقوم بالنظر نحـو الخلف، نحـو هذا النجم، ولقـد رأيته عندمـا كنت في مصر، وفي الاسكندرية، وعبر مسافة طويلة، عندما كنا مبحرين على ظهـر البحر، لكن بعـد جوازنا لقبرص، ووصـولنا إلى مابين جـزر السيكلاد، لم يعـد بإمكـاني رؤيتـه، بسبب بعـده الكبير، وبسبب تغيّر الأنواء، وهكذا انقضت تلك الليلة.

الاستمرار بالسفر في القفار

في اليـوم العاشر، استيقظنا مجدداً عند بزوغ الفجـر، فقوضنا خيـامنا، وأزلنا أكواخنا، وجمعنا جميع أثقالنـا مع بعضها، وهيأنا أنفسنا للمغادرة، وكـان سـائقـو جمالنا بطيئين، وحمّلوا الجمال وكأنهم متعبـون من العمل، ويعملون ضـد رغبتهم، وعـلاوة على ذلك تركـوا أشيـاء كثيرة على الأرض، حـولها كـان هناك صراخ كثير، ونشبت خصـومـات فيما بيننا، ولعناهم بـالألمانيـة، ولعنـونا بالعـربيـة، مـن دون أن يفهم أي الطرف الآخر، وفي الحقيقة أنا متعب من الكتـابة عن الاحراجات التي آلمونا بها كل صبـاح، أثناء تحميل الدواب، لأنهم اعتـادوا عن قصد ترك فـراش، أوسلة، أوحقيبـة على الأرض، عـارفين بأننا سـوف نتفقـد مثل هذه الأشيـاء ونراقبهـا، وقـد فعلوا هذا مـع غـاية أن يقـوم الحاج الذي هو صـاحب الحاجة المتروكـة والذي هو صـاحبها، بـرجائهم لحملهـا، لأنه مرغم على ذلك، وعند ذلك يقـومون من جهتهم، فيطلبـون منه مالاً أو خبزاً، أوأن يتظاهروا أنهم عن عمد سوف يتركونها مالم يدفع لهم، وبناء عليه، قمنا في البـداية، قبل أن نختبرهم، وقبل أن يعرف أحـدنا الآخر، فأعطيناهم كثيراً من المال ومن البقسماط، لكن بعدمـا عرفناهم، وعلمنا أي نوع كـانوا، كنا نأمـرهـم حـول هذه الأمـور، ونرغمهم على تنفيـذ رغباتنا.

وبناء عليـه استيقظنا قبل طلوع الشمس، وتخاصم أحـدنا مع الآخـر حتى اشراق الشمس، ذلك أنهم تظاهـروا بأنهم ينوون العـودة إلى غـزة مع جمالهم، وكان هذا أمراً مـزعجاً جدا بالنسبة لنا، وقـد ضايقونا كثيراً بهذا الادعـاء، لكن أخيراً تحدث ترجماننا مغضبـاً إليهم، وأرغمهم على أخذ جميع أثقالنا، وهكذا غادرنا ذلك المكان، وحقل قسمه، وسرنا فوق أرض منبسطة، كـانت في الغالب رملية وجرداء، وبعـدما سرنا حـوالي الميل ألماني، قـام ترجماننا، المعلم Sabathytanco الذي هو كـالينوس

الرئيس، والذي هو رئيس مشفى القديس يوحنا في القـدس، وهو أيضاً المسلم الذي قـادنا وحكمنا خـلال جميع رحـلاتنا من يافـا حتى هذا المكان، قـام بتـوديعنا مع ابنه، وسلـم قيـادتنا إلى كـالينوس الأدنى، أي الفحل المسلم، وإليه أوكل أمور سـائقي الجمال مع سائقي الحمير، وعاد إلى القـدس، لأنه لم يكن ملزمـاً بالسفر عبر القفـار، حسبما ورد في البند السادس من عقدنا الذي ذكرناه من قبل، يضاف إلى هذا، كنا تحدثنا من قبل عن هـذا الرجل، الذي هـو كـالينوس الـرئيس، وعن كـالينوس الأدنى، الذي بقـي بصحبتنا، وقـد سمعت فيما بعـد، بـأن كـالينوس الرئيس قـد مـات، وأن ابنه، الذي اسمـه إبراهيم قد خلفـه في منصبـه، ويبدو لي بأنه شاب جيد ولطيف، مع أنه متكبر بعض الشيء، وصاحب أخلاق متشامخة.

وبعد مغـادرة كالينوس، الذي كـان حتى الآن حامينا، واسى أحـدنا الآخر، وشجع كل منا صاحبه من أجل تحمل اضطراباتنا بصبر، وهكذا مضينا سـائـرين على طريقنا، وقـد رأينا على جهـة يميننا البحـر الكبير، الذي لم نكن قـد رأيناه منذ اليـوم الذي غادرنا فيـه يافـا، ورأينا في هذا اليـوم مـدينة بئر السبع، التي هي نهاية الأرض المقـدسـة، وعـلاوة على ذلك رأينا القفـار وجبالاً ضخمـة جداً، نحـوها كنا نسير مع شيء من الخوف، لأنه بدا لنا بأن الأرض كانت مظلمـة، والجبال مغطاة بالغيوم، وليس بالندى أو بـالأبخـرة كما هو معتـاد، وأن سبـب ذلك ومـرده إلى عزلة البـلاد، وأثناء متابعتنا لسيرنا وصلنا إلى حقل مليء بمختلف أنواع الأشجار الضخمة، وفي هذا الحقل من المعتقـد أن الياس قد جلس تحت شجرة عرعر، وأُنعش من قبل مـلاك، وذلك حسبما قرأنا في سفر الملوك الأول:١٩/ ٥—٦، وانتصب هنا كثير من أشجـار الصنوبر، إحـداهن كـانت ذات أوراق سميكـة، وقـد وقفت إلى جـانب الطريـق، وكـانت مزهرة، وصدر عن أزهارها رائحـة طيبة جداً، لكن لن تكون هناك ثمار

بعد هذه الزهور الرائعـة، بل الذي سيكون بعض الأشواك الحادة، التي هي بيضـاء حتى الرأس، الـذي لونه أحمر، وكأنه مغمس بـالدم، وهذه الشوكة حادة جداً إلى حـد أن أخف وألطف لمسة بها تجرح اليد، ويعتقد بعضهم أن رأس الشوكـة بطبيعتها مسممة، وهـذا هو سبب أن الاصابة بالجراحة بها سهل جداً وأعلن بعضهم أن تاج الرب يسوع المصنوع من الشوك، كان قد حيك من هذه الأشواك، لأنها تنمو حول القدس أيضاً.

ورأينا كثيراً من أشجـار الأشـواك هـذه في أرجـاء القفـار، غير أنني أرغب في أن أقوم بذكـر خاص لهذه الشجرة بسبب الممارسـات الخرافية الغيبية للمسلمين وللبـداة العرب المتعلقة بها، ذلك أنه مـامن أحد منهم يمر بها من دون أن يمزق قطعة من ثيـابه ويعلقها على الشجرة، ولذلك الشجرة مليئة بقطع الأقمشة، إلى حد لو أن انسانا رآها عن بعد لظن أن لها أوراقاً بيضـاء، وحول هذه الممارسات انظر ص١٣١٦، وجـرى تبيان أسباب هذه العادة في ص٦٣، وإلى جانب هـذه الأشجار قامت أشجار تين كثيرة، مثل البلوط، محملة بأنواع مختلفـة من التين وذلك بالاضـافـة إلى التين العادي، ولذلك جمعنا بعضاً من هذا التين وأكلناه، ويطلق على هذه الأشجار اسم أشجار تين فرعون، وهن يحملن الثمار سبع مرات في السنة، وثمارهن ليست ثماراً بائسة، بل ثماراً في غاية الجودة.

ومع حلول المسـاء وصلنا إلى قـرية اسمهـا لبهم Lebhem، حيث أنزلنا الأحمال عن ظهـور دوابنا، ونصبنا خيـامنـا، وأمضينا الليلة، وكنا نحن الحجاج لدينا الرغبة في السير مسـافة أطول، لكن أدلاؤنا لم يرغبوا بذلك، وطلب منا كـالينـوس أن نكون هادئين، على أسـاس أننا سـوف نصل على الفـور إلى أمـاكن وأيام، سـوف — نحن ودوابنا — سنعـاني خلالها من التعب والشقـاء، لذلك يتوجب علينا عـدم التسرع في البداية بل أن ندخل إلى المتـاعب والشقاء بالتـدريج، ونصبنا خيامنا إلى جـانب بركـة، وبئر عتيق، كان عظيماً وعميقـاً، وكان يحتـوي فقط على قليل من

الماء القذر، واسم هذا البئر لدى المسلمين، بئر القديسة مريم، ويقولون أنه عندما كان يوسف آخذاً العذراء إلى مصر مع الطفل يسوع، أرغم بسبب الحاجة إلى الماء على التحول عن الطريق السلطاني العام، وحصل هنا على الماء لأجل ابنه المسيح، ومن أجل أمه، ومن أجله شخصيا، وحيث أننا لم نجد ماء فيه، أرسلنا سائقي حميرنا مع الحمير وروايا الماء إلى بركة أخرى على مسافة بعيدة، وقد جلبوا لنا ماء، وعلى مقربة منا قام مسجد، كان هو المسجد الجامع للقرية، وإليه دخلنا، ونظرنا إليه، وضحكنا وسخرنا من خرافات وحماقة دين المسلمين.

وتخلف واحد من الفرسان الحجاج وراءنا في المسجد، فبعدما هرب بقيتنا منه لخوفهم من المسلمين، بقي هو، ذلك أن النوم قد غلبه، فقد تمدد هناك وراح نائماً، ولدى حلول وقت العشاء لم يظهر بيننا، وشرعنا بالتفتيش عنه بالسهل، لكننا لم نستطع العثور عليه بأية طريقة من الطرق، ولم نكن نتصور أنه كان نائماً في المسجد، بسبب خطورة فعله ذلك، لأنه لو رآه أي مسلم في المسجد، لأقدم إما على قتله، أوأخذه أسيراً، ولقد انزعجنا كثيراً بسبب ضياع رفيقنا، لكن أخيراً بعدما اكتمل نومه، خرج من المسجد، وقدم إلينا، وقد سررنا بشكل مضاعف من أجله، أي أن تقول، بسبب عدم ضياعه، ثم بسبب أن مامن مسلم عثر عليه، وانتشرنا جميعاً فوق السهل لجمع حطب للنار، لنطبخ عشاءنا، وغداءنا من أجل الغد، كما تقدم بنا القول، وبعد تناول العشاء حملنا أنفسنا إلى الاستراحة، إنما عيّنا من يتولى الحراسة، كما فعلنا من قبل.

السفر إلى قفار قادش برنيع

وفي اليوم الحادي عشر، الذي كان عيد الشهيدين: بروثوس Pro-thus وهيسينثوس Hyacinthus، والشهيدين فيلكس وريغولا Reg-ula المدفون في ثورغو Thurgau، استيقظنا قبل ضوء النهار، واستعدينا للانطلاق، وقد حملنا دوابنا مع قسط كبير من الخصام

والصراخ، وكنا غـاضبين جـداً من سـائقي جمالنا، وهم أيضـاً كـانوا غاضبين منا، لأنهم تعاملوا معنا من دون اخـلاص وصدق، مثلما حدث في البـارحة، ولدى مغـادرتنا لذلك المكان وصلنا إلى سهل واسع جـداً، وأجـرداً، كـان مـن غير الممكن بالنسبـة لنا تحديد نهايتـه إلاّ من الجهـة الغـربية، حيث كـان يحده البحر الكبير، والـذي كان على مسـافة بعيـدة عنه.

ولم نر في هذه السهـول لابشر ولاحيـوانات، ولاقـرى، ولابيـوت، ولاأشجـار، ولاأعشاب، ولاشعـراء، بل شاهدنا فقط الأرض الرمليـة، قد شويت بحرارة الشمس، وسرنا فوق هذه المساحات الشاسعة متعبين لساعات طوال، ونحن نعاني من حرارة الشمس، ووصلنا بعد الظهر إلى بقعـة فيها عـدد من التلال، وكـانت غير مستوية، وقـاحلة، ونصبنا هنا خيمنا بين رابيتين، وكان ذلك في المساء، وكان اسم هذا المكان بالعربية: الحواطة Chawatha، ووجدنا هنا أدلة كثيرة، على وجود سكنى بشرية قديمة، لأننا وجدنا فوقنا اثنتي عشرة بركة مسورة، كان من حولها كثيراً من القرميد المكسر، وآنية محطمة، ورماد مع مواقد حدادين، وقد بدا لنا بأن هـذه البرك لم تعمل من أجل احتـواء مـاء للشرب، بل لتحضير صلصـال من أجل صنع قـرميـد وفخـار، ورأينا في هذه البرك أجسـاد أفاعي ميتة كبيرة ومخيفة، وحيـوانات غير معروفة بالنسبة لنا، ومثل هذا وجـدنا مقبرة لغير المسيحيين، ووجـدنا في أمـاكـن تجاويف وخنادق محفورة من قبل قوم بحثاً عن رخام أبيض، الذي من الممكن استخراجه من جوف تلك الأرض، ومن المشهد العـام لذلك المكان أعتقد أن تلك المنطقة لابد أنها قادش برنيع، ونصبنا هنا خيمنا بسرعة حتى نتمكن من أن نطبخ لأنفسنا بعض الطعـام، لأننا لم نكن قـد تغدينا في ذلك اليـوم، وكنا في اليـوم المتقـدم قـد أعـددنا لحماً لغـداء هذا اليـوم، لكن عندمـا أخـرجناه من جعبنا، وجـدناه قـد فسـد، ولـذلك رميناه، وتغـدينا جبناً

وبقساطاً، ذلك أن الحر الشـديد الذي شعـرنـا به عندمـا كنا نعبر ذلك السهل الشاسع قد حول لحمنا وأفسده، وأرسلنا سائقي حميرنا مع جرار وروايا ليحضرو لنا مـاء من صهـريج مـوجـود على مسافـة بعيـدة، وفي الوقت نفسـه نشرنا أنفسنا فـوق المنطقـة بحثـاً عن عصي وحطب للنار، والذي وجدناه فقط بعض الحشائـش الجافة، التي نمت مع مطر الشتاء، وجفت الآن تماماً، واقتلعنا هذه الحشـائش من جذورها، وعملنا كـومة كبيرة من أجل النار، ولم يكن هناك واحد بيننا كان معفياً من القيام بهذا العمل، بل سعـي رجـال الـدين، والكهنة، والكونتـات، والبـارونات والفرسـان جميعاً بكل اتجاه لجمع الحطب أو العصي لـلاحتراق، وعندما جمعنا جميـع مـــااحتطبنـاه، انتظرنا طـويلاً، ونحن نتطلـع إلى الماء، لكن ســائقي الحمير تأخــروا كثيراً حتى رجعــوا، لأن رعـــاة ذلك الموضع أبعدوهم عن البئر، فضـلاً عن هذا، كان البئر بعيـداً جداً عنا، وحصلوا أخيراً على الماء بعد صعوبات، وعادوا إلينا مع غياب الشمس مع الروايا وهي مليئة.

وفي البداية كـان الماء الذي في الروايا الجلدية مقرف بـالنسبة لنا، لأن الماء داخل الأوعيـة الجلـدية يأخـذ لوناً مثل لـون الدم، ويكتسب طعم الملوحة من الجلد، ويفقد كل خواص عذوبته، ولذلك كان الطعام الذي يطبخ بذلك الماء يحصل على لون وطعم جلد مدبوغ حـديثاً، علاوة على ذلك، غـدت جـرارنا، ودوارقنا، وقـواريرنا، التي وضعنا فيهـا مـاء من الروايا الجلـدية ملوثة بالرائحــة نفسهــا، ومع ذلك إنه على الـرغم من ذلك، غالباً ماأصبحنا عطاشى إلى أبعد الحدود، ذلك أن الماء الذي كان في قواريـرنا قد ذهب كله، لذلك كنا نضع أفـواهنا على الروايا الجلدية، ونعدّ من الرفاهية امتصـاص الماء القذر من القرب الملوثة، وكنا في غاية الامتنان لسـائقي الجمال ولسائقي الحمير لمنحنـا تلك الشربة لابل غالبـاً مادفعنالهم نقوداً فضيـة مقابل السماح لنا بامتصاص الماء من الجلود غير

المدبوغة ذات الروائح المقيتة.

وبعد العشـاء استلقينا في خيمنا ونمنا، إنما ليس من دون خوف، لأن الأرض كـانت مليئة بحفـر جحـور الأفاعـي، وكنا نخشى من لدغهم، لكن بحماية الرب، لم نتعرض لأي أذى في ذلك المكان.

الاستمرار بالسفر نحو الجزء الداخلي من القفار

وفي اليـوم الثاني عشر حملنـا جمالنا باكراً قبل ضـوء النهـار، وأسرجنا على حميرنا، وغـادرنا الحواطة في الظلام، لكننا أرغمنا على السير ببطء شديد مع الجمال والحمير، لأن الأرض كانت مثـل خلية نحل، مع حفر جحـور الأفـاعي والثعـابين، ففي كل مكـان كـان الموضع مليئاً بالحفـر الصغيرة، لذلك كـان من الصعب على الدابة أن تقـوم بخطوة، أو تضع حافرها دون أن تغطس عميقاً في الأرض، وفي ذلك الصباح لم يكن بين الحجاج واحداً لم يسقط ثلاث مـرات أوأربع مع دابته، ورأى واحد من سـائقي جمالنا ثعباناً كبيراً وطـويلاً ، فرمـاه بنشـابه جرحـه بها، ونصب الثعبـان المجروح نفسـه وأعـدّ نفسـه للانتقام من عـدوه، لكن السـائق امتشق سيفــه، وقطع الثعبــان إلى قسمين، ثم إنـه رمى هاتين القطعتين بعيداً عن بعضهما، وطلب منا أن نسير فيما بينهما، خشية أن تتحدا ثانية، لأنه اعتقد أن القسمين سـوف يتحدان ثانيـة مالم يعبر الناس فيما بينهما، ولست أدري فيما إذا كـان هذا وهم فقـط، غير أنني رأيت الشيء نفسـه يفعل في بلادنا عندما جرى قطـع ثعبان إلى شطرين، وسرنا لمدة ساعتين أو ثلاث ساعـات فوق هذه الأرض الملغومـة، التي لايمكن عبورها في أيام الربيع لأن الأفاعي والثعابين تكون خارجة من جحورها.

ووصلنا من هناك إلى منطقة مهجورة وصحـراوية، لأن البقعة غدت قـاحلة أكثر فأكثـر وغير مسكونة، ووصلنا إلى مـوضع، بدا وكأن ينابيع كثيرة قـد تدفقت فيه، أوأنه كـانت هناك بحيرة، فقد كـانت هناك كثيراً

من الأقنية العميقة، عملت من قبل المياه أثناء جريانها، ومع أن الأرض كانت منبسطة، لكنها كانت غير مستوية أبداً، ولذلك أرغمنا بشكل مستمر على الصعود إلى تله والنزول منها مع كثير من التعب، وعند الظهر وصلنا إلى القفار الحقيقية، وإلى مكان مهجور، حيث لايمكن لإنسان أن يعيش، وحيث أيضاً ليس هناك من سكان، ذلك أننا خرجنا من السهل إلى منطقة تلية كانت مشوية بحرارة الشمس، وكلها كانت قاحلة، مليئة بجبال صخرية، وروابي رملية، وأودية صخرية ومرعبة.

وعندما صرنا في القفار، واجهنا قافلة، أي جماعة من الناس، مع جمال وحمير، وكنا خائفين جداً، من أن يكونوا من لصوص الصحراء، لكن عندما تقابلت الفئتان مرت كل واحدة بالأخرى بصمت، وكنا دوما نرتعب كثيراً لدى مقابلة أية أناس مهما كانوا، لأننا أخبرنا من قبل بأننا لابد من أن نعاني من كثير من الشرور على أيدي البداة العرب في القفار.

ووصلنا بعد هذا إلى منطقة، رأينا فيها عن بعد خياما وأكواخاً واقفة على طريقنا، ولدى رؤيتنا لها شعرنا بإحباط كبير، وقررنا بأنفسنا تحمل الاضطرابات، لأن القفار ليست مكانا يستطيع الانسان الدفاع فيه عن نفسه، أوأن يقوم بصدّ عدو واحد، بل هي مكان على الانسان أن يتحمل فيه بصبر ماينزلوه به، وأن يتنازل لهم، وعندما وصلنا إلى هذه الخيم، رأينا أنه قد وقف أمامها رجال شرقيون سود، يحملون رماحاً، وجاهزين للدفاع عن أنفسهم، لكن ليس للهجوم علينا، ولقد نظروا إلينا، غير أنهم لم يتفوهوا بكلمة واحدة لنا، فتجاوزناهم بصمت وبسرعة، وكنا مسرورين نحو تصرفهم الهادىء، ولعلهم كانوا كذلك مثلنا، على افتراض أنهم كانوا أيضاً خائفين منا.

وبمتابعتنا السير وصلنا إلى سهول عريضة، قد أحرقتها الشمس، عبرها لاقينا تقدماً جيداً عبر القفار، ورأينا في أماكن كثيرة، قريبة منا

وبعيـدة، دخاناً صـاعداً من نيران، وقـد ارتعبنا تجاه ذلك رعباً شـديداً، لأننا ظنناهم نيران معسكر حشـود مـن البـداة العـرب، لكن كـالينوس أخبرنا، وكـذلك التجـربة والخبرة علمتنـا، أنه لم يكن هناك لاانسـان ولانار في تلك الأمـاكن، لكن الرياح أثناء هبـوبها تشكل زوابع، يرتفع بها الغبار والرمال الناعمة، وبذلك تبدو وكأنها دخان صادر عن نار.

وعند المسـاء وصلنا إلى منطقـة، حيث الجبـال، والتـلال، والأرض المنخفضة، وجميع الأمـاكن التي أمكن رؤيتهـا بيضاء، ووصلنا أخيراً إلى قعر وهدة وعرة، أسموها غين Gayan حيث نصبنا خيمنا فوق أرض شديدة البيـاض، وهنا تمكنا بعد صعوبة بـالغة وسعي إلى هنا وهناك من جمع مايكفي من حطب لاشعال النار، ولم يتجاوز ذلك حجم عصاتين، لأنه لم يكن هناك سوى بعض النباتـات الجافة القليلة، التي خرجت من الأرض في أيام الرطوبة، وعندمـا كان الحر ليس شـديداً، ثم إنها جفت عندما تعرضت لحرارة الشمس، وكان مـاجمعناه أشبه بالأعشاب، وكان جميع ماوجدناه شوكياً، وله رائحـة طيبة، لذلك صدر عن النار دخان له رائحـة عطرة، وطبخنا وتناولنا عشاءنا، وفي الـوقت نفسه كـان سائقـو جمالنا وسائقـو حميرنا قد جمعـوا كومـة من الحطب، لعمل معجنات على الموقد، وكـانوا يتصرفون كمايلي: كانوا يـوقدون ناراً عظيمة، إلى جـانبها يمدون جلداً فوق الأرض، ويضعون فـوق الجلد طحينا كانوا قد حملوه معهم، ويصبـون الماء فوق الطحين، ويعملون من ذلك عجينة، وعندمـا تصبح العجينة جاهزة، وبعدما يعملونها على شكل خبزة واسعة ورقيقة، وتكون الأرض قد احترقت بالنار، يكشطـون الرماد المحترق عن المكان الذي كـانت فيـه النار، ويمـدون العجينـة فـوق ذلك المكان الحامي ثم يغطونها ثانيـة بالرماد والفحم، وبذلك يتم خبـزها، وتصبح خبزة طيبـة مطبوخـة في الموقد بشكل جيـد، وبعد حصولهم على الـرغيف الساخن، كـانوا يفتتونه إلى قطع، يضعـونها في قدر، ويصبـون عليه زيت الزيتـون

حتى تندهن كل قطعة، وهكذا يأكلونها، كما نأكل معجناتنا.

وعندما يأكلون هذا الطعام، يشعرون بالسرور العظيم، ويرون أنفسهم أنهم تمتعوا بطعام لائق بالملك، لكن عندما لايتمكنون من الحصول على نار، يضعون طعامهم على الأرض حتى تنطبخ في الشمس، التي حرارتها في وسط النهار تشابه حرارة أتون، وفي الحقيقة حرارة الشمس عالية جداً، إلى حد يجد كل طباخ أنها كافية لطبخ بعض المعجنات، وقد رأى في القفار القديس بوستيموس Postumius قدراً مليئاً بالحشائش، وهو يغلي من دون نار، وذلك حسب ما جاء في Speculum Historiale — الكتاب التاسع عشر، الفصل:١٤، فهم يشوون اللحوم بين حجرتين، ساخنتين بحرارة الشمس، كما تحدثنا من قبل، وشرعنا في تلك الأمسية نأخذ طعاماً من مخزوناتنا، لأننا استخدمنا جميع الأطعمة الطازجة التي جلبناها معنا من غزة، وعند غروب الشمس أمرنا كالينوس بإطفاء النيران تماماً، حتى لايمكن رؤية شرارة أو جمرة منها خلال الظلام، وأمرنا بالاحتفاظ بحراسة يقظة أكثر من ذي قبل، موضحاً بأن هذا المكان لم يكن أميناً بل كان خطيراً، بسبب الغارات المتوالية للبداة العرب، وهكذا أقمنا حراسة يقظة، وذهبنا إلى النوم، ولم نتعرض لأي ازعاج، مع أننا كنا في بقعة مرعبة جداً.

خطر العواصف في الرمال

واستيقظنا في الثالث عشر بعد مضي منتصف الليل، فقوضنا خيامنا وطويناها، وحملنا دوابنا أثقالنا، وغادرنا قفار غين، ووصلنا مباشرة إلى جبل رملي، تسلقناه بصعوبة، لأنه جلب إلى هنا مؤخراً، بوساطة ريح رملية، ولم يكن الرمل بعد راسخاً، ولذلك غطست الدواب في الرمال، وكأنها كانت تسير خلال ثلج عميق، علاوة على ذلك بدأت الريح تهب تحت أقدامنا، وتحمل الرمال وتنقلها، وبدأت للمرة الثانية بنقل الجبل

من مكانه إلى مكان آخر، وشرعت هذه الهضبة التي كنا نسافر بجوارها بالتلاشي ساعة تلو أخرى، مثلما يحدث للماء عندما تهب الرياح عليه، ولم يكن بإمكاننا النزول إلى الجانب الآخر هناك، إلى الوادي، بسبب الرمال المتحركةوخشية الوقوع في العاصفة، لأن الذين يقعون في عاصفة رملية في هذه المناطق، يصبحون عرضة للهلاك أكثر من الذين تغرق سفينتهم في البحر، وأرغمنا أخيراً على فعل ذلك، ونزلنا إلى الوادي، لكن ليس من دون اضطراب من الرمال التي انصبت فوقنا، وكان انصباب الرمال هذا أكثر إزعاجاً بمائة مرة من نزول أية كمية مهما كانت من الأمطار، وعندما دخلنا إلى الوادي سرنا فيه فوق رمال قد انتشرت حديثاً، وكان هذا واديا ضيقاً، محاطاً من كل جانب بتلال رملية، ولولا أن الرياح كانت معاكسة— وهذا بفضل حماية الرب قد وقانا— لانصبت الرمال من كلا الجانبين في الوادي، ولكانت عاصفة هوجاء قد وضعتنا في خطر الاختناق، كما حدث بالغالب للذين يرتحلون خلال الصحراء في هذه الأماكن، وفجأة انحرفنا إلى الجانب، وخرجنا من الوادي، ووصلنا إلى قعر مجرى سيل كبير، أسماه البداة العرب وادي Wadalar ، وهناك فوق قعر هذا المجرى آثار واضحة، تبرهن أنه كان مليئاً بالماء في أيامه، وكانت هذه المياه تحمل بوساطة قناة لتصب في البحر الكبير، لأنها جرت مباشرة نحو البحر.

ولم تكن الجبال حول قعر هذا المجرى رملية، بل كانت حجرية، لذلك توفر في القعر بعض النباتات، والأعشاب والحشائش، وكان بين أنواع النباتات، نبتة لها أغصان صغيرة كثيرة، نابعة من جذرها، وهذه الأغصان لاتنمو عالية في الهواء، بل تمتد طويلاً فوق الأرض وتبتعد كثيراً عن الجذر، وعلى هذه الأغصان قد تعلق كثير من التفاح الجميل، ذي اللون الأخضر المشوب بالرمادي، وهي ذات شكل مستدير، وبحجم قبضة الانسان، وعندما رأينا هذه التفاحات، أغرانا جمالهن حتى

ترجلنا من على ظهـور حميرنا وقطفناهن، وفي تلك الأثنـاء تابع أدلاؤنا سيرهم وهم يضحكون، لأنهم عـرفـوا طعم هذه التفاحـات، وهو مـالم نعـرفه نحن، لأننا لم نكن قـد سمعنا بهن، ولم نشاهدهن من قبل، وقـام الذين قطفـوا هذه التفـاحـات بوضعهن مبـاشرة في أفـواههم، ناوين أكلهـن، غير أنهن كن مـن المرارة بمكـان، أنهن قبـل أن تصل أسنـانهم إليهن، تقلصت شفـاههم، لأنه مهما كانت مـرارة أي حيوان مـائة مـرة ليست بدرجة هذه التفاحات، فلقـد كانوا يقطينا برياً، كان يطلق عليهن اسم القثـاء البري، وعنهن قيـل في(سفـر الملوك الثـاني:٤/ ٤٠):« في القـدرمـوت» وأخـذنا معنا بعضـاً من هذه التفـاحـات، وكنا نرغب في حملهن معنا إلى موطننا في بلادنا، لكـن بسبب مرارتهن الهائلة، لوثوا كل شيء لمسـوه، وتلوثت أيدينا بالمرارة لأيام عديدة، وكـان من غير الممكن إزالة ذلك لا بـالغسيل ولابالحك، وحـدث مثل ذلك لسكاكيننـا التي قطعناهن بها، وفي البـداية وضعت تفاحتين في سلتنا، التي حفظت فيهـا اللحم، والبقسماط، والجبن، وقـد تلوثـوا جميعـاً بالمرارة، ولذلك لم يعـد بالامكان أكلهـن بأي حـال من الأحـوال، ولذلـك أرغمت على رمي اللحم، والخبـز والجبن، واليقطين كلـه مع بعضـه، وفي الوقت نفسـه تلوثت السلة نفسهـا بطعم المرارة، وهكذا كـان كل مـاوضعته فيهـا فيما بعد، قد التقط طعم المرارة.

وارتحلنا على طـول قعـر مجرى السيل هذا، بين هـذه المزروعـات الخضراء، باتجاه الغـرب، حيث سـايرنا طريق القناة، وبعـدمـا سرنا بمحـاذاتها لمسـافـة طويلة، انتهت الجبـال الصخـرية، ووصلنا ثانيـة إلى منطقة رمـالها ناعمة جـداً وعميقة، وقـد كانت الرمـال تنصب في ذلك الوادي من الجبال، ولم يكـن في ذلك الجزء لاأعشاب ولاأوراق، ولاأي شيء أخضر، كـان من الممكن رؤيته، لأنه مـامن نبات يزرع هناك كـان يمكنه النمـو، على أسـاس أن البـذر كـان في أرض متعـرجـة متماوجـة

متبدلة، رملها الجاف يتحرك مع كل هبة للريح، والمحصول الوحيد الذي كان ينمو هناك هو تلك المزروعات التي كانت تنمو بسرعة فائقة، وبفضل التربة والمناخ، يمكنهن منع هجمات الرياح، وفي الحقيقة قد قيل أنه في هذه الأماكن تصل البذور إلى أقصى نموها في أقصى الأيام حرارة وعطشاً بعد زراعتها.

وعندما وصلنا إلى حيث بدأت حافة الوادي تصبح منخفضة، انحرفنا جانبا عن قعر مجرى ذلك السيل، وتسلقنا فوق الطرف الرملي للوادي، على الجانب الجنوبي، ونزلنا على الجانب الآخر إلى قعر مجرى سيل آخر، يجري من الجنوب نحو الشرق، ومن خلاله تصب المياه في البحر الميت، وذلك عندما يكون فيه أية مياه، ولوأن أي انسانساير هذا المجرى، لمسافة عشرة أميال، لأمكنه أن يصل إلى البحر الميت، الذي يمتد على شكل لسان طويل من سدوم حتى هذه القفار، وكان قعر هذا المجرى وعراً، وكانت الحجارة والصخور في الجبال على الجانبين هناك بيضاء جداً، وكأنها مغطاة بالثلج.

وسرنا مباشرة عبر مجرى السيل هذا، ولم نسر إلى أعلاه أو نحو أسفله، بل نزلنا من الضفة الأولى، ثم تسلقنا الضفة الأخرى، وعندما صرنا في الأعلى، مضينا مسايرين لجرف لبعض الوقت، لأن الأرض كانت منحدرة كثيراً، ومن غير الممكن الصعود مباشرة، لأن الصخور في الأسفل كانت واقفة حادة مثل الأسنان، وعندما امتلكنا الفرصة للنزول، نزلنا عبر منحدر منزلق، ووصلنا إلى قعر مجرى سيل عميق آخر، كان اسمه مجدبا Magdabee ، وكان حجرياً وفي غاية الوعورة، وكان كله قاحلاً من دون أي شيء أخضر فيه مهما كان نوعه، وجعلنا جمالنا تنوخ في مكان وعر إلى أبعد الحدود، في قعر مجرى السيل هذا، ونصبنا خيمنا، واستعدينا للاقامة هناك تلك الليلة، وبعثنا بسائقي حميرنا ليحضروا لنا ماء من سبخة، قد قيل بأنها ليست بعيدة، لأننا لم

نتجرأ على نصب خيمنا مع جميع جماعتنا إلى جانب برك أو صهاريج في القفار، لأن البداة العرب ينصبون، بشكل عام، خيامهم هناك، ومن الصعب العيش معهم.

ووزعنا أنفسنا حول مجرى السيل، بحثاً عن عصي لنعمل ناراً لأنفسنا، وذلك حتى تحين عودة سائقي الحمير، وتطلعنا بشوق إلى عودتهم، لأننا كنا متشوقين إلى ماء طازج، لأننا أمضينا نهاراً مضنياً، وكنا ظمآنين بسبب الحر، ونتوق إلى الماء كثيراً، إنما عندما عاد سائقوا الحمير مع الماء، وصببنا ذلك الماء من الروايا في قدور الطبخ، بدا لنا أشبه بالحليب منه بالماء، لأنه كان أبيضاً وكثيفاً، ومقرف أكثر من الماء الذي مضى عليه وقت طويل في الجلود، وقد صار لونه أحمر ومالحاً بسبب الجلد، وبناء عليه أخذنا ذلك الماء الأبيض، وطبخنا طعامنا به، إنما استخدمنا الماء الأحمر للشرب، وأخذت كأساً من الماء الأبيض، وكأساً من الماء الأحمر إلى كالينوس، وسألته أيهما كان صحياً لشربه من الاثنين، فأجابني بأن الماء الأبيض كان سيئاً، وليس صحياً، وأن الماء الذي صار لونه أحمر، وصار حاد المذاق بسبب الجلد، ليس فقط هو غير سيء، بل هو طبي، وجيد جداً للصحة، وعند هذا تشجعنا وأقدمنا على الشرب من الروايا الجلدية من دون خوف.

وعندما عملنا ناراً من أجل عشائنا، فجأة هبت ريح شديدة، وقد جاءت من جهة البحر نحو مجرى سيلنا، ففرقت العصي المحترقة، وأخمدت النار، ولذلك لم نستطع طبخ شيء في تلك الليلة، فضلاً عن ذلك أثارت الغبار من الأرض، وملأت خيمنا وفرشنا، وبذلك انتشر الغبار والرمل فوق كل شيء كان لدينا، ووقفنا نحن بصعوبة في الغبار، وكأننا في سحابة كثيفة تتحرك بوساطة الريح التي لم تعرف الهدوء، وصار مجرى السيل كله مظلماً، وبدا الهواء غائماً، والسماء سوداء بسبب كثافة الغبار، وكنا جميعاً مثل أناس عميان، ننظر بأعين شبه مغلقة،

ومــامن انسان أمكنه الاستقـرار للنوم في ثياب فـراشه بشكل جيـد، من دون أن تكون الريح والغبار قد اتخذا سبيلهما بينهم.

وهبت هذه الريح من جهة البحـر الكبير، حيث لابد أنه كانت هناك عـاصفة عظيمـة في البحر، لأننا رأينا لمعـان وضوء البرق باتجاه البحـر، الذي كـان دومــاً يسبب اضطراباً كبيراً، وعندمــا تمددنا أخيراً لإراحـة أنفسنا، جـاء الحاج الذي كـان دوره بـالحراسـة تلك الليلة، إلى خيمتنا، وأخبرنا بأن اثنين من المتشرديـن البـداة العـرب قـد وصـلا إلى مخيمنا، وجلسـا إلى جـانب خيمتنا وسط الحقـائب والسـلال، فنهضت، لأنني كنت في ذلك الوقت رئيس جماعتنا، فـوجدت هذين المتشردين، ففتحت كيساً، وأعطيتهما خبزاً لعشائهما، ومـلأت جرتهما من ماء الروايا الجلدية، وعملت لهما شـارات للابتعاد عن خيمتنا وحقـائبنا، الأمر الذي عمـلاه وهما شـاكريـن جداً للأعطيـة، ولو أنني لم أعطهما شيئاً لما كـانا تركـانا، ولسرقا منا ضعف ماأعطيتهما إياه، وبقـي هذان الرجلان بصحبتنا لعدة أيام، لأنهما كانـا يعرفان بعض سـائقي الجمال، ولولا ذلك لما سمحنا لهما بالبقاء معنا.

وينتظر لصوص بداة العرب في البادية هبـوب عاصفة، وعندما يظلم الهواء، والناس قـد صـاروا شبـه عميــان، يشقـون طريقهم إلى احـدى القوافل، ويستـولون على كل ماتصل أيديهم إليـه، ويرتحلون أحياناً معنا لمدة ثلاثة أيام، وهم أناس مـامن أحد يعـرفهم، كما ما من انسـان يفهم كيف عثروا علينا، وطلبنا من كالينوس طرد هؤلاء الناس غير المعروفين وابعادهم عنا، غير أنه أجابنا بأنه لايستطيع ابعاد أي انسان أثناء النهار، لكنه ســوف يطلب منهـم أثناء الليل الابتعــاد عن أثقــالنا، وقــد نصحنا—لابل رجـانا— أن لانمنع الخبــز والماء عن مثل هؤلاء الناس الذين قد نقـابلهم، وقال بأننا سوف نكون أكثر أمـانا، إذا مافعلنا ذلك، ولذلك كنا عند المســاء ندعو جميع الغرباء ونعطيهــم بعض الخبز وبعض

الماء بالمعيـار، ونأمرهم بعـدم إمضاء الليل قـرب خيمنا، بل عليهم الابتعـاد، وإذا لم يفعلوا ذلك، سـوف نبعـدهم عنا بوسـاطة العصي والهراوات، لأننا لم نسمح حتى لخدمنا بالنوم قربنا.

مغامرة الراهب فيلكس فابري المرعبة الغريبة

وفي اليوم الرابع عشر، الذي هو يوم تمجيد الرب، والذي كان أيضاً الأحد الخامس عشر بعد التثليث، استيقظنا باكراً، قبل ضوء النهار، وعملنا الاستعدادات للمغادرة، ومن جديد ثار خصام كبير بين الحجاج وبين سائقي الحمير، حسبما كانت القضية كل يوم، وعانينا خلال هذا الجزء من حجنا من سوء سلوك وحماقة خادمينا، الذين دفعنا لهما مالاً كثيراً، واكتريناهما مقابل أجر كبير للقيام بخدمتنا، فكانا غير مخلصين لنا، وسرقا منا كل شيء استطاعاه، حيث كانا أثناء الليل يأخذان طريقهما إلى أكياس بقسماطنا، ويمزقان فتحات فيهم، ويحصلون على كل مايستطيعان، وكانا يعملان الفتحات بأسنانهما مثل الفئران، ولم نستطع قط القيام بحراسة جيدة، ولذلك سلبانا في كل ليلة، لأنهما كانا لصين بارعين جداً، وبإمكانهما سرقة حاجيات الانسان أمام عينيه، وبالاضافة إلى هذا كانا كسالى في أعمال جمع أثقالنا، ذلك أننا استأجرناهما مع جمليهما لهذه الغاية، وكانا طوال وقت تحميل الجمال يتابعان رمي حاجياتنا والتخاصم معنا، ولم يكونا يتوليان رفع مارمياه مالم ندفع لهما المزيد من المال، الذي لم يكن متوجباً علينا، وقاما هذان الشقيان بازعاجنا إلى أبعد الحدود، ولولا خوفنا من التعرض لخطر عظيم، لقمنا بضربهما مراراً ضرباً مؤلماً، لأنه كان بإمكاننا أكلهما، حسب تعابير العامة.

وقمنا بالوقت ذاته بترك كثير مما اقترف بحقنا لانتقام الرب، وتحملنا آثاماً فظيعة، وهكذا حملنا دوابنا، وغادرنا قفر مجدبا، ودخلنا إلى بقعة أكثر إرعاباً وأشد قحطاً من الصحراء التي سرنا خلالها بالأمس، أو في

اليوم الذي تقدمه، حيث لم يعد بامكاننا تمييز أي اثر لانسان أو لحيوان، ولذلك وجهنا خطانا نحو نجم القديسة كاترين، وسرنا نحو الجنوب، دون أي طريق آخر، وذلك فوق مجاري مياه، ووديان، وجبال، وروابي، ودخلنا الآن إلى المنطقة والقفر اللذان اسمهما بالعربية جبل هلال Helell ، ويوجد في هذا القفرجبال عالية جداً، مكونة من صخور منزلقة، وقد سافرنا النهار كله بين هذه الجبال، ومع غروب الشمس وصلنا إلى مكان رملي، اسمه في القفار مغارثMagareth، وكان ذلك عند سفح الجبل، وهناك نصبنا خيمنا، وجمعنا حطباً لنطبخ به.

وكان على مقربة منا، كما هو واضح، جبل واحد مستدير، وقد كان عاليا، إنما من السهل تسلقه، وعلى قمته كان هناك نوعاً من أنواع البناء، ولقد أردت الصعود إلى هذا الجبل من أجل أن أشاهد ماكان على قمته، ولأحصل على فرصة مشاهدة القفار من جميع الجهات، ولم أرغب بالذهاب لوحدي، ومع ذلك لم يكن لدي أمل في إيجاد رفيق بين الحجاج، وهكذا شجعت نفسي، وتركت الجماعة وكأنني قصدت القيام بصلواتي، وذهبت وحيداً في داخل السهل، ووصلت إلى أكوام من الرمال، سرت بينها مسرعاً نحو الجبل، دون أن يعرف أحد ماالذي كنت أفعله، وبعد مسير ساعة وصلت إلى سفح الجبل، لكن مظهره خدعني كثيراً، لأنه انتصب بعيداً عن خيمنا أكثر مما قدرته، وكان أكبر وأعلى ممابدا عن بعد، وعلى الرغم من هذا كله، عزمت على إنهاء المهمة التي كنت قد بدأتها، وتسلقت فوق الجانب المنحدر من الجبل بين جروف وصخور صماء، ومع كثير من التعب والتعرق وصلت إلى القمة، التي لم أجد شيئاً عليها سوى كومة من الحجارة، وضعت احداها فوق الأخرى.

ووقفت حيث أنا هناك، ونظرت من حولي، غير أنني لم أستطع رؤية أي شيء في أي مكان، إلاّ قفاراً بلاحدود، تقطعتها، جبال، وروابي،

ومجاري سيول، حيث هي غير مسكونة لابشر، أو طيور، أوحيوانات، ولم أستطع رؤية خيمنا، لأنهم كانوا على مسافة بعيدة، لكنني رأيت جبالاً بيضاء وسوداء، ووجه الأرض كله قد شوي بحرارة الشمس، ولم أشاهد أي شيء أخضر، لاكبيراً ولاصغيراً، بل القحط الملعون ممتد فوق الأرض، وكانت كومة الحجارة على قمة الجبل علامة لتبيان الطريق، لأنه في كل مكان في أرجاء القفار، هناك أكواماً من الحجارة قد وضعت على قمم الجبال، لتري المسافرين أين ينبغي أن يسيروا في الوديان، وحيث لاتوجد هذه العلامات، مامن انسان يمكنه الارتحال خلال القفار، لأن القاعدة: هناك بعض الوديان التي لايمكن عبورها، بل هي مغلقة في النهاية القصوى، لذلك بعدما ينفق الانسان ثلاثة أيام أوأربعة في مسايرة طريق ذلك الوادي، عليه في النهاية العودة ثانية، والشيء نفسه يحدث في البحار الصخرية، حيث كانت هناك أكوام من الحجارة، مقامة فوق التلال كعلامات لتبيان الطريق عبر البحر، وإذا لم تكن هذه العلامات موجودة، تتورط كثير من السفن في ممرات بين الجبال، وتصل إلى صخور خطيرة، وإلى مآزق مهلكة، ومثل هذا هنا يمكن لكثير من الناس أن يهلكوا، إذا لم تتوفر مثل هذه العلامات فوق الجبال، هذا ويستخدم العرب هذه العلامات استخدامات غيبية واهمة، ذلك أنهم يصعدون في بعض الأوقات إلى الجبال، ويدعون إلى محمدﷺ، لأن هذه الكومة كانت مليئة بأسمال بالية، وبقطع من الأقمشة، وبقمصان، وهم اعتادوا على هذا لإظهار التشريف لأي مكان يعتقدون أنه مقدس، مثلما سلف وتحدثت عن الشجرة، ذلك أنه عندما ينهي أحدهم صلاته، يمزق قطعة من ثيابه، ويعلقها هناك، ثم يمضي مغادراً، وأسباب هذه الممارسات الحمقاء، معطاة في ص١٣٩٥ من القسم الثاني، ولذلك انتزعت جمع هذه الأسمال وقطع الأقمشة من على الحجارة، ورميتهم فوق الأرض، ووضعت صلباناً في مكانهم، ونصبت على القمة صليباً مصنوعاً من القصب، ورسمت صلبانا على أكبر الحجارة، وعلى حجارة

أخرى حـادة، لأنني كنت متذكراً تمجيد الصليب، الذي كـان يوم عيده ذلك اليـوم، وفعلت ذلك من أجل أن المسلمين عندمـا يأتون إلى هنا، يمكنهم أن يجدوا رمز المسيح، ويمكنهم أن يعـرفوا أن مسيحياً قـد كان هنا.

ورغبت بعد هذا بالنزول، وحـدقت بعناية عبر السهل، حتى يمكنني تحديد مكان خيمنا، لتوجيـه خطواتي نحوهـم، لكن لم يكن بإمكاني رؤية أي شيء، ولاأي دخـان من نارنا، لذلك بدأت أرتعد في خـوف رهيب، خشيـة أن لاأتمكن من العثور على طريقـي للعودة إلى رفـاقي، عبر تلك المنطقـة التي هي بلاممـرات ولاطرقـات، ولو أنني أخـذت ذات اليمين وذات اليسـار، لحل بي الظلام وأنا أبحث، ولو أن شيئاً من هذا القبيل وقع لي، لكنت بـالتأكيـد رجـلاً ميتـاً، والشيء الوحيـد الذي منحني الشجـاعة، هو أنني عندمـا عبرت فوق الـرمال تركت عـلامات قـدمي هناك، وأملت بأنني سـوف أتمكن من اتباع طبعات قـدمي هذه، وهكذا نزلت نحـو الأسفل وعنـد سفح الجبل، وجـدت بالفعل عـلامـات خطواتي، غير أنها كانـت تقريباً مغطاة، لأن الـريح ألقى الرمال فـوقها، ولو أنني تأخـرت قليلاً فوق ذلك الجبـل، لكانت علامـات خطواتي قد سترت تماماً، وكان من المؤكد وقتهـا فقداني لحياتي، لأني بت في وضع لم أعـد أدري فيـه أي اتجاه عليّ أن أذهب، لأنه كـان هناك سهل كبير عند سفح الجبل، فيه أكوام كثيرة من الرمـال، لأن تلك المنطقة صارت كلها تلالاً منخفضة، ولقد تبعت علامات خطـواتي مسافة جيدة، لكن عندما وصلت إلى أعلى جـزء من الأرض كـانوا قـد اختفـوا تمامـا، ولم أستطع إيجاد أثرهم بأية وسيلـة، وقمت هنا بالاستـدارة وسرت عـائـداً فـوق العـلامـات الجديدة التي عملتها، إلى المكـان الذي رأيت فيه عـلامـات خطواتي القـديمـة، حتى أستطيع تفحصهم بدقـة أكبر، لكنني لم أستطع العثـور عليهم، فبت مغضبـاً من نفسي، ولمت نفسي بحـدة متناهيـة من

أجل فضولي وافتراضاتي، وكدت أن أمزق لحيتي، ولطمت وجهي، وضربت على صدري أسفاً وقلت مخاطباً نفسي:« بالأسف، كم أنا رجل تعيس، لماذا تركت رفاقي؟ وأية حماقة مني حتى ابتعدت عن إخواني في هذه الأرض التي لاطريق فيها والمرعبة، أين تعتقد أنك سوف تجدهم؟ هاهي الشمس قد مالت نحو المغيب، وحل الليل، ولم أعد فيلكس أنا بين الناس سوى الأكثر تعاسة، فالى أين سأذهب، وإلى أين سأسعى؟يارب ساعدني»، وماأن فرغت من هذا حتى انفجرت أقرأ مزامير الغفران السبعة الأخيرة، و Domine exaudi التي وجدتها صلاة جميلة ومؤثرة.

ومضيت متابعاً أغني هذا المزمور، وأنا غير متأكد حول اتجاهي، وتوليت تكراره أكثر من مرة حتى وصلت إلى كومة عالية من الرمال، فرأيت علامات طبعات قدمي الماضية على طرفها، وكان بامكاني تقبيلهم لشدة فرحي، ولم أشعر قط بالسرور مثل شعوري برؤية طبعات الأقدام تلك، وعندما كنت بسرور أراقبهم وأتبعهم، وقع إليّ أنهم ربما طبعات قدمي واحد من البداة العرب، وبدأت أشك فيما إذا كنت على طريقي إلى المكان الذي منه قدمت وأثناء هذا الشك، نظرت عن قرب أكثر نحو طبعات القدمين، فوجدتهم طبعات قدمي رجل متنعل في حين يسير البداة العرب فوق القفار عراة الأقدام، ومضيت ثانية متابعاً السير على طريقي وأنا مطمئن، وبعد قليل رأيت شيئاً أبيض، وخمنت أنهم ثلاثة من المسلمين، أو البداة العرب، الذين يرتدون ثياباً بيضاء، لكن عندما اقتربت أكثر، كانوا خيمنا، ونظرت نحوهم فشكرت الرب وأنا راكع على ركبتي، وقررت أن لاأفارق أصحابي ثانية، وقد وجدت اثنين من الحجاج وهما يتعشيان في الخيم، وعندما ذهبت إليهما وبخاني لقدومي للعشاء متأخراً هذا القدر، وقالا بأنهما انتظراني لوقت طويل، فقلت لهما بأنني كنت مشغولاً بشؤوني الشخصية، وبعد العشاء أخذتهما

إلى خارج الخيمة، وأشرت إلى الجبل، وأخبرتهما بالذى وقع إليّ، وقد اندهشا لعودتي بمثل هذه السرعة، وكانت الشمس قد غابت الآن، ووضعنا أنفسنا للاستراحة، وأوى كل انسان إلى فراشه.

متاعب في بحر الرمال

وفي اليوم الخامس عشر، بدأ سائقو الحمير، قبل منتصف الليل بالصراخ، وهم يشكون بأن اثنين من حميرهم، قد فكا من رباطهما وسرقا من قبل اللصوص، وبصراخهم استيقظنا من نومنا، وجلسنا على فرشنا نتحدث حول المسألة، وفي الوقت ذاته بحث سائقو الحمير في المنطقة فوجدوا الحمارين معا، ذلك أنهما فكا نفسيهما وشردا، وعند إعادة الحمارين أمرنا كالينوس بتحميل جمالنا، وأن ننطلق قبل الوقت المعتاد، لأن الوقت كان مايزال مبكراً جداً، أي حوالي منتصف الليل، وهكذا نهضنا، وعندما بتنا مستعدين، تركنا قفر مغارث ووصلنا إلى صحراء قاحلة جداً، وقد دخلنا إلى قسم منها كان بارداً برداً شديداً، وكان هذا على عكس القاعدة العامة في الشرق، وقد عانينا كثيراً من البرد الشديد، حتى أن أيدينا، وأقدامنا، وأنوفنا تيبست بسبب البرد، وأسناننا اصطكت، وعانينا كثيراً من هذا البرد، لأننا حتى الآن كنا نعيش في حر عظيم جداً، والآن دخلنا إلى برد شديد من دون أن نلبس مانحمي به أنفسنا ضده، وبين جميع الأشياء التي تجدد نشاط الحاج خلال القفار، والذي يحدث بشكل رئيسي كل يوم، لابل كل ساعة تقريباً، هو أنه يدخل إلى مناطق جديدة، وإلى تربة حديثة، وأنواء، ويدخل أيضاً إلى مابين جبال ذات أشكال جديدة وألوان، ممايجعل الانسان يعجب بماهو حاضر، وأن يتطلع بتشوق لرؤية ماهو مقبل، وهناك دوماً شيء مايحدث، ويملأ الانسان بالدهشة والاعجاب، إما نحو المنظر الغريب للجبال، وألوان الأرض والصخور، والأنواع التي لاتحصى من الحصا، أو من الأراضي الشديدة الوعورة، والقحط، والطبيعة القاحلة للبلاد،

وهذه أشياء تبهج العقل السؤول، وأعترف أنا من جهتي بأنني شعرت ببهجة في القفار القاحلة أكثر مما شعرته في الأرض الغنية والخصبة في مصر، مع جميع جمالها الجذاب.

ومع حوالي اشراق الشمس، خرجنا من المنطقة الباردة، ودخلنا إلى منطقة من نوع مختلف، ذلك أننا وصلنا إلى مجرى سيل رملي، وتسلقنا مع كثير من التعب فوق جبال قد تكومت حديثاً بوساطة العاصفة، وكان من غير الممكن عبور ذلك الطريق في الوقت الذي كانت فيه تلك الأكوام الرملية تجلب إلى هنا، لأن الرمل يتطاير هناك فوق الأرض مثل تطاير الرذاذ أثناء العاصفة في البحر، ويملأ الهواء كله، بحيث لايمكن لانسان أن يقاتل ضده، وكما قلت من قبل يهلك الناس والحيونات يومياً في القفار، بعد قهرهم من قبل العواصف الرملية، مثلما يحدث في البحر، حين يُقهرون من قبل الأمواج العاصفة، وهكذا هلك جيش قمبيز في الرمال التي أثيرت بوساطة ريح جنونية، كما قرأنا في Speculum Historiale— الفصل:٥٨.

وكنا الآن في خطر عظيم، لأن الرمال تطايرت نزولاً نحونا، ومامن انسان كان بامكانه أن يرى أو يسمع انسانا آخراً، وكان بامكانه بصعوبة بالغة أن يرى بعينيه شبه المغمضتين رأس الدابة التي كان يمتطيها، لأن الهواء كان مليئاً بالرمال، التي تطايرت فوق الأرض مثل نهر سريع جداً، وكان كل واحد خائف خوفاً شديداً، من أن تفقد دابته طريقها، وتشرد في أرض أخرى، عن الجماعة الأساسية، لأنني غالباً ماقلت أنه مامن انسان كان يمكنه أن ينظر من حوله، لأن أفواهنا وأعيننا كانت مليئة بالغبار، وكان ردائي الأسود مليئاً بالغبار، إلى درجة يصعب عليك فيها أن تقول بأنه كان أسود، وأخيراً في حوالي الظهيرة توقفت العاصفة، وتسلقنا فوق روابي رملية، وانتقلنا من مجرى السيل ذاك إلى مجرى آخر، كان كبيراً وواسعاً، وتمتعنا بسفرنا على طول هذا المجرى،

ووقتها دعانا كالينوس جميعاً، وقال لنا:«انتبهوا ياسادتي الحجاج، لديكم الآن حق الاختيار:إذا أردتـم اختصار رحلتكم، وأن تسافـروا ثلاثة أيام بسـلام ودونها انزعـاج من العـواصف، علينـا أن نسير عبر قعـر مجرى السيل هذا، لكننا لن نجد لابرك ماء ولاآبار، طوال الطريق يمكننا نحن أو دوابنا أن نشرب منها، واعلموا ان الماء في روايانا بدأ يتناقص، إنها إذا أردتم الحصـول على الماء، علينا أن نعبر هـذا المجـرى، لننزل في مجرى آخر، ربها سنجد عليه آباراً مليئة بالماء، وأنا أعلم بوجود بئر هناك، لكن هل فيه أية ميـاه أنالاأعرف، وإذا كان فيه مـاء، أخشى أن يكون مطوقاً بالبـداة العـرب، الذين سـوف يرفضـون تمكيننا من الحصـول على الماء، مماسوف يسبب لنا اضطراباً، وإذا لم تكن فيه مياه، نكون قد قمنا برحلة طويلة خارج الطريق المباشر من دون فائدة، تشاوروا، وقرروا أي طريق تفضلون، ولسوف أخاطر بالمضي على أيهما معكم».

وأجبناه على هذا باختصـار بأننا بـالحري نؤثر الأذى والنهب من قبل البـداة العرب على أن نعـاني من الجفـاف ونموت عطشـاً، وقلنا:« دعنا نأمل بأن البـداة العرب سـوف يتلقـون منا خبزاً ومـالاً، ونحصل منهم على مـاء»، ولذلك خـرجنا من قعـر ذلك المجـرى، وصرنا فـوق سهل كبير، كـان كلـه نقيـاً من الرمل، لأن الـرياح قـد أطارت جميع الـرمـال وأبعـدتها، مع أنه كـان بامكاننا أن نرى بوضـوح بأنه كـان هناك جبـال رمليــة، ولدى متــابعتنا سيرنا وصلنا إلى نهاية هذا السهـل، ونظرنا إلى منطقـة رمليـة أخرى، وكـان دوننا سهل واسع،وهو القفـر الذي اسمـه الحسا Hachseve، ورأينا كثيراً من الخيم والأكـواخ قائمة مـع بعضها فوق هذا السهل الواسع مثل بلـدة، مع نيران مشتعلة وأناس وحيوانات جيئة وذهاباً، وقد اعترتنا الـدهشة تجاه هذا المنظر، فقد كـانوا من البداة العرب، يسكنون في القفار، وقد نصبـوا خيامهم حول البئر، وقد مضينا نحوهم ونحن نـرتجف، ولدى مشاهدتهم لنا وقفوا على أبـواب خيامهم

ينتظروننا والرمـــاح في أيديهم، وعندمــا وصلنا إلى السهل، وصرنا على مسافة رمية حجر عن خيـامهم، نصبنا خيامنا وأنزلنا أثقالنا إلى جانبهم، وهنا ركض أولادهم نحـونا بسرور وكـانوا عـراة وسوداً، قـد شـوتهم حـرارة الشمس، وأعطيناهم على الفـور خبزاً، وقـد تلقـوا ذلك بسرور عظيم، وعـادوا إلى خيامهم، وبعـدهم جـاء أطفال آخـرون، لهم أعطينا الهدية نفسها، وزيادة على هذا جاءت بعض النسوة، وكان بعضهن كباراً مع طفل، وأخــريات مع أطفـال على أذرعتهـن، ولهن مثل ذلك أعطينا خبـزاً، وبفعلنا ذلك كسبنا قلوب هـؤلاء البـداة العـرب نحـونا، الذين طلبـوا منا الإقبـال والحصـول على الماء لأنفسنا ولـدوابنا، ولقـد مـلأنا روايانا الجلدية وجــرارنا من دون أدنى معيق، وهو أمــر لم نكن نأمل بحـدوثه مطلقـاً، وكـان الماء مـوحـلاً، ومـالحاً قليـلاً، لكنه كـان قـابلاً للشرب، وكنا ممتنين للحصــول عليــه، وليـس لدي شك أننا لـوطردنا الصغـار الذين ركضـوا نحونا، ولم نعطهم خبـزاً، لما حصلنا مطلقـاً على مائنا بسلام، لابل كنا أرغمنا على إعطـاء الخبز والمال بسنان الرمح، وقد أقمنا هناك لمدة ثلاث سـاعـات، وعملنا صـداقـات مـع هؤلاء البـداة العرب بقـدر مانستطيع، ذلـك أن فرساننـا الشباب رقصوا مـع شبابهم فوق السهل، وتراكضوا متسابقين معهم، وبعـد هذا، وبعدما حملنا جمالنا بسرعة، وكنـا على وشك المغادرة، استدعينـا مقدم هؤلاء البـداة العرب إلينا، وصدوراً عن كرمنا أعطيناه دوقية، لأنه تعامل معنا بسلام، وتسلم البــدوي قطعــة الذهب باحترام كبير، وأخبرنـا أننا إذا رغبنا، ســوف يصـاحبنا ويدافـع عنا ضـد كل هجـوم، غير أننا استـأذنا منه وودعناه، وتركنا البئر، وارتحلنا مسرعين.

وعند غيــاب الشمس دخلنـا إلى قفــر مخيف اسمــه منشين Mins-chene حيث كـــان هناك مجرى سيل كبير محاطاً بالصخــور، وبجبــال حجرية، كلها كانت شديدة البياض، وكانت الأرض مثل كلس محروق،

ونصبنا خيامنا في قعر هذا المجرى لإمضاء الليل، ومع كثير من السعي إلى هنا وهناك تمكنا بصعوبة من جمع مايكفي من أجل النار، ولابد أنه كان قبلنا قافلة من الجمال مرتاحة هناك، لأنه كان هناك كثيراً من الروث في ذلك المكان، وكان الروث آنذاك جافاً، وقد جمعناه واستخدمناه من أجل النار، لأنه لم يكن في ذلك المكان أية نباتات نامية.

وفي اليوم السادس عشر، أيقظنا كالينوس بعد منتصف الليل، حتى نشرع بسفرنا، ونهضنا ونحن نتذمر بضيق، لأن تعب رحلتنا بدأ ينهكنا ويعيينا، ولاسيما بالنسبة للمرضى منا، فهؤلاء اشتكوا فيما بعد بصوت مرتفع بسبب قسوة السفر، لأن الارتحال طوال النهار في الحرارة المحرقة للشمس، مع شطر من الليل في البرد والندى، ومن دون أي طعام مطبوخ، مع مثل هذا العطش الكبير، كان مؤلما حتى بالنسبة للانسان السليم، فكيف للانسان المريض، وغالبا ماتساءلت وأنا في القفار، لماذا تولت الكتابات المقدسة نقد ولوم بني اسرائيل بمثل هذه القسوة، لتذمرهم، وأنه ينبغي عقوبتهم بشدة متناهية لتذمرهم، كما قرأنا في أخبار الأيام الأول:١٠، حيث جاء بأن الذين تذمروا قد جرى تدميرهم بالأفاعي، مع أنهم تذمروا بسبب متاعبهم(العدد:١١)، أو بسبب جوعهم وعطشهم(الخروج:١٦)، أو بسبب مطالبهم البشرية، وقد تعرضوا دوماً لعقوبات شديدة ومؤلمة كثيراً.

وأصبحت مضطرباً في تفكيري، وغالباً ماخشيت من الغضب الرباني، بسبب تذمرنا، وتساءلت عماإذا كان تعبنا قد عدّ بالنسبة لنا صالحاً ومفيداً، عندما نتذمر هكذا كثيراً، ولذلك حملنا الجمال، وأسرجنا الحمير، وغادرنا قفر منشين، وعند شروق الشمس كنا نسير في قفر وعر، ومنطقة هي الأكثر قحطاً، وهي التي أسماها بنو اسرائيل —اذا جاز لنا القول— المكان الشرير(العدد:٢٠)، واسم هذه المنطقة قفر La-rich، وكان هناك على يميننا، ومثل ذلك خلفنا، جبالاً عظيمة البياض،

كما كان باتجاه الشرق سهولاً واسعة جداً، فيها كانت الحجارة والرمال سوداء، ومشوية وكأنه كانت هناك نيران قد أحرقت كل شيء كان هناك قابلاً للاحتراق، علاوة على ذلك صدرت رائحة النار من الأرض، ولم يكن باستطاعتنا رؤية نهاية هذا السهل الشاسع، الذي لم يكن محاطاً بجبال أو تلال، ودهشنا نحو هذا القفر المرعب، وسألنا كالينوس المسلم عن نهاية هذا السهل، فأجاب بأنه لايوجد انسان حي قد وصل قط إلى نهاية هذا السهل بوساطة هذا الطريق، وقال:« لو أن انساناً قُدّر له أن يسافر بشكل خاص، وأن يقطع عشرة أميال ألمانية كل يوم، فانه لن يتمكن بعد مضي شهرين من الوصول إلى ماء أو إلى انسان حي، علاوة على ذلك إن الحرارة هناك عظيمة إلى حد أنها شوت هذه السهول، ولهذا فإن أي انسان وان امتلك ماء لايمكنه الوصول إلى نهايتهم وهو حي».

ولقد قيل بأن حدود هذه السهول قريبة من جبال الفردوس الأرضي، ولذلك فإن بريق السيف الناري، الذي وضعه الرب أمام مدخل هذا الفردوس، قد أحرق هذه السهول ليمنع الجميع من الاقتراب، وفي الحقيقة يمكن للانسان أن يفترض بأن هذه الحقول هي« حقول البهجة» التي هي سهول كبيرة جداً وواسعة، وهي خالية من السكان البشر، حيث لايمكن لإنسان حي السكن فيها، وإلى هذه الحقول— وفقاً للشعراء— أحضر ميركوري الأرواح وأعادها من المناطق السرمدية، لأنهم اعتقدوا بأن أرواح الناس قد خلقت مع بعضها في البداية، وبعد ذلك وضعت هذه الأرواح في البشر أثناء الحمل بهم، وأننا عندما نموت تذهب الأرواح إلى المناطق التي في الأسفل، وهناك تتعذب، حتى تكون الذنوب التي اقترفتها في الحياة قد تطهرت منها وزالت، وبعد هذا يخرجهم ميركوري من«حقول البهجة»، ثم انه بعض مضي ألف سنة يأخذهم ميركوري إلى نهر النسيان حتى يمكنهم أن

يشربوا منه، وينسـون متاعب هذه الحيـاة، وبذلك يمكن أن ترغب هذه الأرواح بالعودة ثانية إلى الأجساد، التي إليها أرسلها ميركوري.

ويقـول الذين قامـوا بأعمال استكشاف أوسع في هذه السهـول بأنهم وجـدوا ضريحاً أو قبراً بني من الحجـارة في ذكـرى واحـد من العماليق الهائلين، ويعتقـد بعضهم أن عـوج ملك باشـان، المذكـور في سفـر التثنية:٣، قد دفن هناك، لأن سريره أو مهده، الذي تمدد فيه وهو طفل، والذي كـان مصنوعاً من الحديد، جـرت العـادة على عرضـه في ربّات، وكان طوله تسعـة أذرعة، وعـرضه أربعة أذرعـة، ونما هذا العملاق إلى انسـان ضخم، إلى حد أن حقـلاً شـاسعاً، احتيج إليـه لضريحه، وهكذا كـانت سعـة هذا الحقل، إذا تـوجب علينا قبـول الشرح العبري، للنص المتقدم الذكـر، الذي حدثنا بمثل هذه الحكايات العجيبة حول ضخـامة هذا الانسان، وأقصـد هنا سفر التثنيـة:٣، وواضح مع ذلك أن المؤمنين المسيحيين يحكون حكايـة أولى حـول هذا الحقل، وأن اليهـود يحكون حكاية ثانيـة، والشعـراء حكاية ثالثـة، والسكان المحليـون هناك يحكون حكاية رابعـة، فنحن المسيحيين نقـول بأن هذا الحقل قـد شوي بأشعـة السيف النـاري، وإذا كـان هذا صحيحـا، فإنها تصـل حتى أرض الفـردوس، ويقول اليهـود بأن هذا الحقل هو من بعض الجوانب يشكل حـدود«حقـول البهجـة»، غير أن السكان المحليين يعتقـدون بأن هذا السهل يمتـد من هنا حتى المنطقـة الحارة، وأن بإمكان الانسـان العبـور خلاله حتى المنطقة الحارة، والبقاء حياً.

وسـافرنا طوال ذلك النهـار كله خـلال أرض العجائب هذه، وكـان على يميننا جبال احترقت فصـارت جرداء وبيضاء بسبب الحرارة، وعلى يسـارنا«حقـول البهجة»، وهي مشوية سـوداء، حيث لاعشب أخضر، أوورقـة نبات يمكن العثـور عليهـا، وعندما كـانت الشمس على وشك الغياب، وصلنا إلى مجرى سيل وعر، وهـذا السيل يجري في موسمه على

شكـل سيل عنيـف، ونصبنا في مجرى السيـل هذا خيــــامنا، وعملنـا الاستعـدادات لإمضـاء الليل فيـه، وبعــد نصب خيـامنا، ذهبت— كما اعتدت— إلى كالينوس، لأسأله عن اسم المكان، وفي هذا المساء، عندما ذهبت إليـه كما أنا معتـاد، وسألته عن اسم هـذا القفر والمجـرى، ففكر لبعض الوقت، ثم قـال، وهو يضحك، إن اسم هذا المكان هو«البراق»، وكان هناك بعـض البداة العرب والمسلمين واقفين هناك، وقـد ضحكوا مثله عندمـا سمعـوه، وعملوا شـارات لي لأن أكتب كلمـة«براق»، لأنه كـان وقتهـا بيـدي قلم وحبر، وورقـة للكتـابة، وهكذا عندمـا أخبروني كتبت« البراق»، أمام أعينهـم، وعندما كتبت الاسم وقـرأت الذي كتبه، ضحكوا كثيراً، ولم أعـــرف في ذلك الوقـت سبب ضحكهـم، لكنني عـرفت ذلك فيما بعد، فقـد مزح كـالينوس والمسلمون الآخـرون معي، وقد أخبروني باسم دابة محمدﷺ عوضاً عن اسم هذا المكان، وكان هذا سبب ضحكهم، فقد قـرأنا في القرآن، أن محمـداًﷺ كان واقفاً في أحد الأيام عند باب بيتــه في مكة، فجـاء الملاك جبرائيل إليـه، وإليــه اقتـاد بعنانها أعظم الدواب جمالاً وسرعة، وكـان اسمها«البراق»، وكان شكل هذه الدابة هو كما يلي: كـانت أكبر من الحمار، وأصغر من البغل، وكـان لها وجه جميل كأنه وجه انسان، وكـان شعرها من اللآلىء، وصدرها من الزمرد، وذنبهـا من الياقوت، وكانت عيناها مشعتـان أكثر من الشمس، وكانت قدماها وحوافرها مثل قدمي وخفي الجمل، وكان سرجها أثمن مما يستطيع عقـل انسـان أن يتصــوره، ولم تكن هذه الـدابة تسمح لأي انسان بركـوبها مالم يشهـد جبرائيل على صلاحـه، وأقسم جبرائيل بالله الحي أنها لم تقابل انسـاناً قط خيراً من محمدﷺ، ولذلك يتـوجب عليها حمله على ظهـرها، وعندمـا سمعت الدابة بهذا، قـالت بأنها لم تحمل قط أي انســـان بمثل الـرغبـة التي ستحمل بها محمـــداًﷺ، وهكذا ركب محمـدﷺ وجبرائيل ممسك بالركاب، وعندمـا صار على السرج، قـدمت مجمــوعـة كبيرة من الملائكة، ووقفـت حـول الدابة، ثـم شرعت الدابة

بالذهاب سائرة بشكل لطيف وهادىء لايمكن لأي لسان أي يصفه، وكانت سرعتها مثل سرعة الريح، ووصلت حتى القدس إلى المسجد حيث وجد جميع البطارقة والأنبياء، الذين أرسلوا إلى هناك من قبل الله، حتى يقوموا باستقباله وتشريفه، وقد شاهد كثيراً من الأشياء العجيبة هناك(١).

وبهذه الحكاية خدع محمدﷺ كثيراً من الناس البسطاء، لكنه في أحد الأيام عندما كان يروي ماحدث لحشد كبير من الناس، فارقه ستون ألفاً(كذا) من الناس لأنهم تصوروا أن الواقعة كانت غير صحيحة، ومن الممكن الوقوف على هذه الحكاية في« حصن الايمان»، وهو كتاب يعالج حروب المسلمين، في الفصل الموقف على الشرائع التي أعطاها محمدﷺ، ومن الممكن أن يكون كالينوسنا، قد اعتقد بأن اسم البراق يمتلك في نفسه بعض القدرة الربانية، يمكن أن تؤثر على عقلي، ضد إرادتي، أو بدون معرفتي، لكن هذه الحكاية القرآنية هي حمقاء أكثر من أي حماقة بشرية(كذا).

منطقة مدهشة حقاً

وفي اليوم السابع استيقظنا في المجرى المتقدم الذكر، باكراً قبل ضوء النهار، وبعدما حملنا دوابنا، تسلقنا مباشرة الطرف المنحدر لهذا المجرى، القائم على جهة اليمين، ونزلنا عبر طرف آخر إلى مجرى سيل آخر، وكان هذا المجرى وعراً جداً ومليئاً بالحجارة، وكانت حجارته، وصخوره، والحصى فيه سوداء، وكأنها أحرقت بالنار، لكن قمم التلال على الطرفين كانت شديدة البياض، وكأن ثلجاً جديداً قد انتشر فوقهم، مع أنه لم يكن هناك ثلج، ومن المرجح أن الثلج لم يسقط هناك قط أو سوف يسقط قط، مثلما أنه ليس هناك في الأسفل نار تقوم بتسويد

١-- واضح أن فابري اعتمد هنا على ترجمة لواحد من نصوص كتب الاسراء والمعراج، وليس على ترجمة للقرآن الكريم كما ذكر أعلاه.

الحجارة، لكنها الشمس بقوتها العجيبة قد سودت الجهة الأولى، وبيضت الجهة الأخرى، ومثل هذا تحوّل هي بقوتها بعض الأشياء فتجعلها ناعمة، وأشياء أخرى قاسية، وهي تعمل بعض الأشياء حلوة وأشياء أخرى مرة، وتصنع السمات المتعاكسة بعملية القدرة نفسها، وذلك وفقاً لطبيعة المادة التي تعمل عليها وتؤثر.

ولدى متابعتنا رحلتنا وصلنا إلى حيث صار مجرى السيل عريضاً، وواجهنا هناك ريحاً باردة كثيراً، حيث أخذنا نرتجف منها بشدة، وتمنينا لو أننا كنا نرتدي ثياباً شتوية، وتسلقنا بعد هذا حافة مجرى السيل، ووصلنا من الجهة الأخرى إلى واد عظيم، لم يكن لاحجرياً ولارملياً، ولكن موحلاً، مكوناً من صلصال أبيض دبق، مناسب للاستخدام من قبل الفاخوري، ووجدنا أنه من الصعب جداً السير خلال هذا الوادي، لأن الماء عمل الأرض وعرة، كما أنه كان مليئاً بأقنية كبيرة ومنزلقة، ولذلك توجب علينا دوما إما الصعود إلى رابية أو النزول من رابية، وهو أمر لم يكن مناسباً لطريقة الجمال بالسير، وكان متعباً جداً لحميرنا، ومزعجاً لنا أنفسنا، ولو كانت هذه الأقنية مليئة بالماء— كما كانت من قبل— لما كان بامكاننا شق طريقنا خلال ذلك الوادي، وجاهدنا لساعات كثيرة على طول هذا الطريق السيء، وكان علينا أن نؤثر عليه طريقاً كله صعوداً إلى التلال أو هبوطاً منها، وأن تكون المنطقة حجرية أو رملية، وأن لانستخدم هذا الطريق الذي عنه أتحدث.

ووصلنا أخيراً عند نهاية هذا الوادي إلى أرض مستوية، كان الطريق فوقها جيداً، وعلى بعد كانت هناك بعض التلال المنبعثة من هذه الأرض المستوية، وكانت كلها طويلة، ولم تكن عريضة أوواسعة، وسرنا نحوهم لعدة ساعات، وذلك قبل أن نصل إليهم، وعندما وصلنا إلى قرب هذه التلال دهشنا نحوهم دهشة لم تكن قليلة، لأنهم انتصبوا—كما قلت— من الأرض المستوية، وكان لونهم أبيض، وكانوا

مستـديرين، وكأنهم عملوا على دولاب، ولم يكن من السهل القـول فيما إذا كـانوا قد عملـوا بالصنعة أم من قبل الطبيعـة، ويعتقـد بعضهم أنهم أضرحة لملوك مصر القدماء، الذين كـانوا قد اعتادوا على الاهتمام بإقامة مثل هذه المنشـآت فـوق أضرحتهـم، كما رأينا بأعيننا في مصر فيما وراء النيل، قـــرب طيبـــة، كما ســـوف نتحـــدث عن ذلك فيما بعـــد في الصفحة:٧٩ظ.

ولدى اقترابنـا منهم، رأينـا أنهم من عمل الخالـق النافـع، ولم يعملوا بصنعـة انسان فـاني، وذلك مالم يقـع اختيارنا على الرواية التي تتحـدث بشكل اسطوري عنهم، ويتناقلها العامة الجهلاء، الذين يقولون بأن هذه التـلال قد وضعهـا هرقل على ظهر تيتـان، الذي حملهم إلى هذا السهل، من أجل أن يضع احداهن فوق الأخرى، حتى يتسلق إلى السماء، وهذه حكايـة من السهل أن يتمكن انســـان من أن يقنـع بها رجل أحمق وأن يصدقها في هذا المكان، أو أنهن بنات أطلـس، اللائي حوّلهن فيرسيوس Perseus إلى تلال، وبين هذه التـــلال واحـدة أعلى من البقيـــة، وهي بالفعل مدهشـة جداً، ذلك أنها جـادة، وكأنها صيغت ببراعة بيـد عامل ماهر، ولهذا السبب نالت لنفسها اسما دون سـواها، واسمها لدى البداة العرب Calpis ، والذي أعتقده أن هذا الاسم لم يمنح لها بالصدفة، أو حسب عـادات العوام، بـل إنه أخذ من واحـد من عمـودي هرقل، الذي اسمه الاسـم نفسه أي Calpis،لأنه هناك جبلين هما: أبيلا -Abi la، وCalpis، وهما مرتفعان كثيراً حيث يصلان إلى السماء، وهما يقفان أحـدهما مقـابل الآخـر، ويقف الأول من هذين الجبلين في مـوريتـانيـا، (للغرب) والثـاني في اسبانيا، ومن بينهما يتدفق البحـر المتوسط إلى وسط الأرض.

ويؤكـــد بعـض الناس أن هذين الجبلين هما أعمـــدة هـرقل، ويخبرنا بعض القدماء بأن هذيـن الجبلين كانا فيما مضى متصلين في جبل واحد،

وأن البحر المتوسط لم يكن بعد قد أرسل من قبل المحيط، لكنه كان مغلقاً بكتلة جبلية لايمكن تحطيمها، لكن قوة هرقل خرقت فيما بينهما، وتدفق البحر إلى البلاد صدوراً عن المحيط، وذلك إلى أماكن لم يكن فيها بحر من قبل، وصار هذا البحر يعرف باسم البحر المتوسط، كما هو الحال في هذه الأيام، وبذلك فصل هرقل أوربا عن أفريقيا بمضيق ضيق، والآن إنه بسبب أن هذا الجبل في العربية يشبه ذلك الذي هو في اسبانيا، أطلق عليهما معا الاسم نفسه، هذا وهناك جبل آخر في صقلية، يدعى بهذا الاسم نفسه، للسبب نفسه.

وغادرنا جبل Calpis، وتركناه خلفنا، وبعدما عملنا رحلة طويلة في ذلك اليوم، وصلنا إلى القفار التي يدعوها البداة العرب باسم مسمار Meschmar، ودخلنا هنا إلى مجرى سيل جاف جداً حيث أنزلنا حموله دوابنا، ونصبنا خيمنا، وبعد صعوبة بالغة تمكنا من جمع مايكفي من حطب لعمل نار نستطيع أن نطبخ عليها أي شيء، وكان على يسارنا جبل مرتفع ممتد لمسافة طويلة، لكن لم يكن بعيداً عنا، وذهبت إلى هذا الجبل وحيداً راغباً في رؤية مايمكن أن يوجد عند سفحه، وقد رأيت هناك كهوفاً كثيرة وممرات تحت سطح الأرض، تؤدي إلى قاعدة الجبل، وتصورت بأن هذه الأماكن كانت حيث حفرت المناجم في العصور القديمة، وعندما نظرت إليهم، تذكرت على الفور، كيف قرأنا بأن كثيراً من الآباء المقدسين للكنيسة قد اختاروا السكنى في بيوت مثل هذه مهجورة، كانت لعمال التعدين، ومن هؤلاء الآباء على سبيل المثال القديس هيلاريون Hilarion ، والقديس بولص، الذي كان الناسك الأول، الذي أثناء قيام جيروم في رسالته بامتداح القفار قال عنه، بأنه سار مسافة طويلة في القفار إلى جبل مفرغ حيث وجد كهفاً كبيراً مغلقاً بحجارة، وعندما أزال الحجارة، رأى في داخله قاعة كبيرة ومبنية بقوة، وهي مضاءة بوساطة فتحة في الصخر، ولقد كانت هذه مكان ضرب

العملة غير القـانونيـة التي ضربت في الأيام التي كـان فيهـا أنطونيـوس مُفتناً من قبل كليوبترا، وعلى مقربة من هذه القاعة كان هناك عدداً كبيراً من القاعات، كان فيهـا مقاعد(؟) لابل حتى سندانات ومطارق، وذلك حيث كانوا يضربون النقود، ومثل هذا وجدت كهوف العمال القدماء في المعادن، ونظرت في هذه الكهوف بقـدر مااستطعت، لكنني لم أتجرأ على الدخـول إليهـم، خشية أن يكون هناك مأوى لحيـوانات شريرة، ولم تكن الكهوف معمـولة من قبل الطبيعة في الجبل، بل محفورة بصنعة انسـانية، وعندمـا نظرت من حولي وأنا مندهش وجـدت كومـة قديمة جـداً من الفضلات، التي كانت عبارة عن الخبث الذي استخرج من المعادن لدى تصفيتهـا في النار، ولم يكـن هذا الخبث فضـلات حـديد أو أي معـدن عادي آخـر، بل أفضل أنواع ذهب العـربية، الذي استخرج بـالحفر من هنا، ولهذا أطلق القـديس جيروم في مصنفـه« حـول المسـافـات بين الأماكن» على هـذه الجبال اسم Catachrysia، وقال بأن بني اسرائيل قـد أقامـوا قربهم لبعض الوقت، عندمـا كانوا يسكنون في القفـار، وأن موسى كتب سفـر التثنية هناك، ومامن شك لدي بأن الرهبـان المقدسين القدماء قد بنوا لأنفسهم قلايات في هذه الكهوف، لأننا غالباً مانقرأ في« حيـاة الآباء» بأن القـديسين سكنوا في الصحـراء في كهـوف رجـال التعـدين، وقـد أخـذت بعض القطع من الخبث، وجلبتهم إلى مـوالي الفرسان، الذين طلبـوا مني منحهم هذه القطع بمثابة هدايا، لأنه كانت لهم أشكال غريبة.

يوم سفر شديد

وفي اليـوم الثامن عشر، وبعـد منتصف الليل ارتحلنا من قفـار مسمار ومن جبـال Catachrysia ، ووصلنا إلى منطقة كان فيها على يميننا جبال بيضاء كأنها غطيت بالثلج، وعلى يسارنا جبال حمراء كأنها صبغت بالدم، وكـان وجـه الأرض مغطى بألـواح ناعمـة من الحجـارة، وكأنها

رصفت بشكل طبيعي بـألواح مصقـولـة من الصخـر الأصـم، ولذلك سارت دوابنا عليهم بخوف، وذلك خشيـة الانزلاق، وبعد هذا صعدنا إلى رابية منحـدرة ثم وصلنا إلى مجرى سيل آخر، حيث توفـر سير ناعم وجيد، ويبـدو أن هذا المجرى كان في بعض الأوقات مليئاً حتى حـافته بمياه وافـرة، ومن هناك نزلنا إلى سهل، وجـدنا عليه نبـاتات وأعشاب، وعليق أخضر، ولدى رؤيتنا لذلك سررنا كثيراً حتى أملنـا أن نجد مـاء هناك، على أساس أن هذه النبـاتات لايمكنها النمو إلاّ في أمـاكن رطبة، وسرنا بين هذه النباتات، ووجدنا أنه بالفعل قـد كانت هناك مياه، لكن لايوجـد شيء منهـا الآن، وعلى كل حـال وجــدنا هذا الموضع المنعش هناك، حيث كــانت أغصـان وأوراق النبـاتات مبللة بندى الصبــاح، وبالنقاط التي تجمعت هناك أثناء الليل، وقام واحـد من الحجاج، وكان عطشـانا، فقطع غصنا ووضعــه في فمـه، على أمل انعـاش نفسـه بلعق الندى، لكن وهو يعتقـد أنه يلعـق ندى منعشـاً، وجـد فمـه مليئا بملح مذاقه حـاد جداً، فأصيب بالرعب، ظاناً أن مصيبة أوكـارثة قد نزلت به من عند الرب، ولذلك طلـب من رفـاقـه الحذر من الندى، لكنه لم يقل شيئاً حـول مـرارته، وفي الحقيقـة وجـدنا نحن جميعـاً بأن الندى لم يكن سـوى ملح ذائب، لـه طعم حـاد جـداً، وبذلك علمنـا بالخبرة بأن هذه كانت« الأرض الملحة» التي تحدث عنها إرميا(١٧/ ٦) حيث قال الرب للمذنب بأنه سوف يكون مثل العرعر في الصحراء، الذي له أوراق مرة مغطاة بندى ملحي.

وهكذا تابعنا سيرنا خلال هذه النباتات العـرعرية، ولم نجد ماء، وفي الحقيقـة كنا في ضـائقـة كبيرة بسبب الحاجـة إلى الماء، ولهذا قمنا في هذا اليوم بفتح الجرار التي جلبناها وهي مليئة بالماء من غزة، لأنهم أخبرونا في غـزة بأن الماء لن يأسن إذا مــابقي في جـرار محكمـة الاغـلاق، وأننا يمكننا استخــدام ذلك الماء وقت الحاجــة، ولكن عندمــا فتحنا الجرار

صدرت رائحة مقيتة من الماء الآسن، إلى درجة أن مامن انسان كان يمكنه أن يلمس ذلك الماء، فكيف بشربه، لابل أكثر من هذا، لم تستطع حميرنا على الرغم من عطشها الشديد، الشرب من ذلك الماء، وهكذا أرغمنا على رمي المياه التي جلبناها معنا لمسافات طويلة، عبر القفار، والتي حول حملها تخاصمنا كثيراً مع سائقي جمالنا البداة العرب، والتي من أجلها دفعنا مبلغاً كبيراً، لأننا أملنا أننا في وقت الضيق الشديد سوف نستفيد منها، والآن وقد خاب أملنا، ولم يعد بامكاننا تحمل العطش وقتاً أطول، دعونا كالينوس لإعطائنا ماء، ورجوناه ورجونا أدلاءنا، بأن لايجعلوا رحلتنا أطول، بل أن يقودونا خلال أي طريق جانبي في القفار، إلى أي ماء أو سباخ حيث يمكننا الحصول على ماء، ووافقوا على هذا، وانحرفوا جانباً نحو اليمين، بعيداً كثيراً عن الطريق الحقيقي، فوصلنا إلى سهل قاحل تماماً، وقابلنا فوق هذا السهل قافلة، أي مجموعة من التجار المدنيين، كانوا يحملون سلعاً من البحر الأحمر، وكان هؤلاء الناس لأيام كثيرة من دون ماء ورجونا بالحاح أن نعطي كل واحد منهم شربة ماء، لأنهم كانوا على حافة الاغماء، ولذلك أعطيناهم ماكان قد بقي معنا من مائنا، لأننا كنا سنصل إلى بعض السبخ قبل المساء، وبعد ساعة من الزمن قابلنا قافلة أخرى قادمة من أطراف الشرق، ومرّ هؤلاء الناس بنا بصمت وحدقوا بنا بملامح مقطبة مكفهرة، حسبما يفعل الشرقيون والغربيون، عندما يقابل أحدهم الآخر، ولولا أن العقل يضبطهم لإنقض أحدهم على الآخر مباشرة، مثلما تفعل الكلاب المسعورة عندما تلتقي، أو الخيول الشريرة التي يحيّيّ أحدها الآخر بالعض.

ووصلنا ونحن نتابع سيرنا فوق هذا السهل، أخيراً إلى موضع سفوحه منحدرة نحو الأسفل، ونزلنا هنا عبر هضبة طويلة متعبة، ونحن نعاني من حرارة الشمس، التي لاتحتمل ومن العطش ووصلنا

بعـد لأي إلى حافـة مجرى سيل عميق جداً ومخيف يسمـونه Hallicub، وكان مغلقـاً من على جانبيه بجـدارين عاليين من الصخر، وكـان عميقاً وهاوية ضيقـة، أن تنظر إليـه تصـاب بالـرعب، ولم نكن نستطيع لأن نشاهد أو نسمع صـوت أي ماء فيه، مع أن الوادي كله كـان موائماً لأن يجري فيه نهر عظيم، وتذمرنا ضـد كالينوس لأنه اقتادنا عبر مجرى سيل جاف، بعـدما كـان قد وعدنا بالماء، حيث لايوجـد شيء من هذا هناك، وكان كالينوس رجلاً يتكلم بشكل ناعم، فقد طمأننا، قائلاً صحيح بأن مجرى السيل ليس فيـه ميـاه متـدفقـة، لكن هناك ميـاه راكـدة في بعض الكهوف، والحفر في الصخور، والبؤر في الأرض،

وطلب منا الترجـل من على ظهـور حميرنا، وإعطائهـم إلى سـائقي الحمير، في حين نزلنا نحن في تلك الهاوية إلى مكان مامن انسان يستطيع أن يتسلق نزولاً جـانبيهـا الصخـريين، وهكذا اقتـاد سـائقـو الحمير مع سـائقي الجمال الدواب بعيـداً عنا إلى بقعـة مستـوية على ضفتي الهاوية، وهناك أنزلوا الأثقال عنهم، وسعينا نحن نحو الحافة، نبحث عن طريق فوق الصخور، وعندما عثرنا على طريـق نزلنا إلى القعر، فوجدنا ماء في كهوف وجـروف الصخور، كان قـد بقي هناك منذ أن كان مجرى السيل مليئاً بالماء قبل بضعة أشهر، وكان هـذا الماء دافئاً، وله رائحة كئيبة جداً، وكثيفاً، مثل القار، وكان لونه أخضر، وكـان موحلاً، وكان مليئاً بالعلق الذي يتكاثر في الماء الآسن، لكـن طعمـه لم يكن مكروهاً، ولم نعبأ بهذه السمات المنفرة للماء، وانبطحنا فـوراً على صدورنا، ونضحنا الماء بأيدينا، وشربنا منـه بشره كبير، دونما أدنى اهتمام أو تـأبي للماء، لأن الانسـان العطشان لايهتم ولايرى مايشربه، بل يبـادر مسرعاً إلى الشرب، وأعتقد بشكل أكيد لو ان انساناً شرب مـن هذا الماء لإطفاء مجرد عطش عادي، مـاكان لينجـو مطلقاً من التعـرض لأذى شديد، لكن العطش المحـرق، والعمل الشاق قبل الشرب وبعده كان يدمر كثيراً ذلك الأذى.

وبعدما ملأنا أجوافنا بالماء، وأطفأنا عطشنا، تفتحت أعيننا، فرأينا أن الماء كان قذراً مليئاً بالعلق المتحرك، لكننا كنا قد ابتلعنا كل شيء، وأوساخ وعلق، وأقدر أنني شربت مع الماء مايزيد على مائة علقة حية، ومثلي فعل الآخرون، وهكذا صفينا الماء من خلال قطع أقمشة وملأنا جرارنا الفارغة والروايا الجلدية، ورمينا بالعلق والفضلات الآسنة، التي من قبل شربناها بسبب اهمالنا، ولذلك صرنا خائفين على حياتنا، وانتظرنا فعل وتأثير الشراب المضر بخوف وأسف إنما بحماية الرب لم نعان من أي أذى كان، ولم نشعر بأدنى ضيق، ولو أننا وصلنا بعطشنا اللامحدود إلى ماء طازج بارد، وصافي، لسبب ذلك موتنا بدون أدنى شك، من خلال قابليتنا للشرب غير المحدودة، وأخيراً عثر أدلاؤنا هناك على طريق نحو الأسفل، فأنزلوا الجمال والحمير وسقوهم، ولم تشرب هذه الحيوانات من دون انتباه كما فعلنا، بل امتصت الماء من الأعلى، حتى لاتبتلع العلق مع الماء، وصعد بعض الحجاج نحو الأعلى وأنزلوا الأناس المرضى إلى الوادي لانعاشهم، لأن الوادي كان عميقاً وظليلاً، وبسبب الصخور الخطيرة والحجارة المفصولة المعلقة فوقه، وكان في الوادي شعراء وصفصاف، وكهوف فيها جلسنا وغسلنا رؤوسنا وأجسادنا وثيابنا ومناديلنا، ونظفنا أنفسنا من حشرة اسمها القمل، التي لم يكن واحد منا، مهما كان أصله نبيلاً، متحرراً منها وهذا القمل يشكل واحداً من المزعجات الرئيسية للمسافر في البحر أو في الصحراء، لأن القمل يتكاثر في كل لحظة بأعداد هائلة.

وغالباً مانعجب من تكاثر القمل السريع، لأنه ماأن يقوم انسان بتنظيف نفسه في احدى الأمسيات، حتى يجد على نفسه مباشرة في المساء التالي المزيد الكثير من القمل، ومن ذوات الحجم الكبير، وكأنه لم يتفقد قميصه منذ شهر، والويل للذين شعورهم طويلة، لأنهم يحملون معهم مأوى ومكاناً لحفظ القمل، والويل أكثر للذين هم كسالى جداً حيث

لايقومون بتنظيف أنفسهم كل ليلة، وكان هناك فارس شجاع في جماعتنا لم يلمس قملة قط باصابعه لإمساكها أو لقتلها، بل كان يأخذ دوماً حجرين، وعندما كان يرى قملة على قميصه، اعتاد أن يضع القميص على الحجرة الأولى، ويضرب القملة بالحجرة الأخرى حتى يقتلها، وكنا نضحك من هذا الفارس، ومن طريقته في قتلهم.

وبعدما فرغنا من تنظيف أنفسنا، أشعلنا ناراً في الوادي، وطبخنا طعاماً لعشائنا مع سرور عظيم، ولم نمتّع أنفسنا خلال الرحلة كلها أفضل مما عملناه هناك، وكتبت في هذا الوادي عرضاً عن الرحلة كلها من غزة إلى هذا المكان، لأنني عندما كنت أجلس على ظهر حماري كنت أكتب حول طبيعة المنطقة واتجاهات الطرق على لوح شمعي، حملته معي في جعبتي، وكتبت هنا كل ماكنت قد كتبته في كتاب، ومسحت الشمع حتى أتمكن من كتابة المزيد عليه فيما بعد، وغالباً ماكنت أترجل من على ظهر حماري،وأكتب وصف الطرقات، والجبال، والوديان، لأن مامن انسان يمكنه أن يحتفظ بهذه الأشياء جميعاً في عقله، مالم يقم بتدوينهم كل ساعة تقريباً، وبعد العشاء نوينا امضاء الليل في الوادي، وبدأنا في اعداد الأماكن لننام تحت الصخور، لكن عندما سمع كالينوس بهذا نزل إلينا، ومنعنا من النوم هناك، مهما كان الأمر، بل جعلنا نصعد إلى أثقالنا، وبناء عليه صعدنا إلى المكان الذي كانت فيه الأثقال والدواب، ونصبنا خيمنا، وأعددنا أنفسنا للنوم، وكان اسم هذا القفر، أي السهل والوادي بالعربية الفوجيا Elphogaya.

متابعة سفرنا الأكثر انهاكاً

في اليوم التاسع عشر استيقظنا عند منتصف الليل، وارتحلنا من قفر الفوجيا، ووصلنا الآن إلى واد في غاية الوعورة، وسرنا بتعثر متابعين سفرنا في الظلام فوق الصخور والحجارة، ومع أن القمر كان مشرقاً، لم تستطع أشعته الوصول إلينا، لأن بعض الجبال كانت بينه وبيننا، وأخيراً

خرجنا من هذا الوادي، وشرعنا بصعود جبل مرتفع، وتسلقنا سائرين فوق سفح شديد الانحدار، ووعراً للغاية، وتابعنا السير على هذا الطريق المتعب حتى اشراق الشمس، وعندما أشرقت الشمس كنا قد أنهينا تسلقنا، ووصلنا إلى قطاع قاحل كان فيه سهول قاسية وواسعة، وكان اسم هذه المنطقة Rachhaym، وكانت أرض، وحجارة، وصخور هذه المنطقة حمراء، وظهروا وكأنهم فوق نار، وتابعنا السير باتجاه الجنوب، وتواجهنا مع ريح باردة، وقوية، وقارسة، ومعاكسة، لأننا كنا في منطقة مرتفعة، وليس لدينا جبال تحمينا من قوة الريح، ولذلك عانينا بألم من البرد في ذلك الصباح.

وبعدما تابعنا سفرنا لمدة ساعة أو أكثر فوق هذه الأرض المرتفعة، وصلنا إلى نهاية تلك السهول، وتلك المنطقة، التي منها يقود الطريق نزولاً عبر منحدر في غاية الوعورة والانزلاق إلى القفار في الأسفل، وعندما كنا واقفين على حافة هذه الرابية، ونرتجف ونحن ننظر نحو الأرض المنخفضة البعيدة تحتنا، شرع سائقو الجمال يلقون نظرات فرحة نحونا، وأشاروا بأصابعهم إلى شيء ما في الجنوب، غير أننا لم نفهم لاكلماتهم ولااشاراتهم، وعلى كل حال جاء كالينوس وأرانا منطقة بعيدة، جبلية مكتظة، وكانت هذه الجبال عالية جداً، وبدت بالنسبة لنا ضبابية ومظلمة بعض الشيء، لأنهم كانوا بعيدين جداً، وأشار بين هذه الجبال إلى واحد كبير جداً، ومرتفع كثيراً، كانت له قمتان، كأنهما رأسان، كان الأول بينهما أعلى بكثير من الآخر، وعندما كنا جميعاً ننظر نحو هذا الجبل قال:« انتبهوا ياسادتي الحجاج، هذا هو جبل حوريب المقدس؛ وجبل سيناء، الذي عنده سوف ينتهي حجكم المتعب».

وعندما سمعنا هذا، ترجلنا على الفور عن ظهور حميرنا، ومددنا أيدينا نحو الجبل المقدس، وصلينا إلى الرب على ركبنا، ولدى فراغنا من صلاتنا، نهضنا فرأينا شطراً كبيراً من البحر الأحمر على جهة يميننا، وبدا

لنا أن البحر الأحمر كان قريباً تماماً منا، وكأن الانسان يستطيع الوصول إليه على ظهر فرس في ست ساعات، غير أن كالينوس أخبرنا أنه يبعد مسافة سفر ثلاثة أيام طوال، وعند لحف الجبل الذي وقفنا عليه، كان هناك سهل شاسع، كان خلفه جبال ارتفعت باستمرار حتى وصلت إلى المنطقة الجبلية الأكثر ارتفاعاً في قفار سيناء، ولدى رؤيتنا هذا كله، أحضرنا أطعمتنا من جعبنا، وتناولنا طعام الافطار، ونحن جلوس مع بعضنا، وبعد هذا أنزلنا مرضانا من السلال من على ظهور الجمال، حتى يمشون معنا على الأقدام، وينزلون المنحدر الكبير، ولم يكونوا راضين بالقيام بذلك، ومع ذلك كان من الضروري أن يسيروا بأنفسهم، نزولاً عبر ذلك المنحدر الخطير جداً.

ونزلت الجمال أولاً مع خوف وارتجاف، وكان أحدهم يقوم بالخطوة الأولى بعد الثانية بحذر عظيم جداً، وكانوا يخشون على أنفسهم، وعلى أحمالهم، وقد ساروا ببطيء شديد، فبعدما كان أحدهم يقوم بالخطوة الأولى ، كان ينتظر طويلاً قبل القيام بالخطوة الثانية، لأن المنحدر كان منزلقاً وخطيراً، وعندما وصلنا إلى منتصف الطريق نزولاً من هذا الممر، حدث لجمل كان يحمل على جانبه واحدا من الحجاج المرضى، وكان واحداً من خيرة جماعتنا وأكثرهم نبلاً، وكان هذا الجمل قد حمله طوال الطريق عبر الصحراء، والذي حدث هو أن هذا الجمل حاول النزول من فوق احدى الصخور، لكنه عندما مدّ قدميه الأماميتين، بقي واقفاً على الصخرة أعلاه، وفجأة انزلق القتب من على ظهره مع جميع حمله، وصار فوق رقبة الدابة ورأسها، ثم سقط يتدحرج طوال الطريق نحو الأسفل، وقد تحطم كل شيء كان في السلتين قابلاً للتكسير، وتعرض للتلف، وكان في السلة الأولى من هاتين السلتين قوارير الأدوية، والمنعشات، والماء المقطر، فهذا كله تلف، لأن هذا الجمل قد حمل صندوق أدوية الحجاج، ولو أن اللورد المريض بقي في سلته— وهذا

ماكان يفضل فعله— لكان قد صار مائة قطعة، ولو كان له ألف رقبة، لكانوا قد تحطموا جميعاً.

وإنه لمفيد للرجل المريض أن لايسمح له بفعل مايرغب بفعله، ذلك أن هذا الرجل قد رجانا كثيراً حتى نتركه ينزل وهو في سلته، غير أننا لم نصغ لتوسلاته بأي شكل من الأشكال، لأننا كنا نستطيع رؤية الخطر الذي منعه مرضه من رؤيته، وبعد بذل جهد كثير تمكنا من جمع الذي استطعنا العثور عليه من الأشياء التي وقعت، وأعدنا تحميل الجمل، ومن ثم تابعنا سيرنا مع حذر أكبر من ذي قبل، ومكثنا مدة خمس ساعات ونحن نبذل جهودنا نازلين وذلك قبل أن نصل إلى أرض مستوية، وعندما وصلنا أخيراً السهل الموجود عند لحف الجبل، استدرنا ونظرنا إلى الخلف إلى طرف الرابية الذي نزلنا منه، لكننا لم نستطع رؤية الطريق الذي نزلنا عليه، بسبب الصخور المتقطعة، والجروف المنحدرة، والممرات المنزلقة والمتعرجة، لذلك عجبنا كيف استطعنا النزول نحو الأسفل، لأنه بدا لنا تعذر النزول واستخدام مثل ذلك اللحف المنحدر بحيوانات محملة، فضلاً عن هذا تعجنا كيف استطعنا النزول سالمين من قمة الجبل، لأن القمة بدت لنا معلقة فوق الجزء الأدنى من طرف الجبل، ولذلك لابد أننا قفزنا من قمة الجبل نحو الأسفل، أو تدلينا فنزلنا بوساطة حبال، ولقد اعترف موالي الفرسان الذين رأوا كثيراً من أجزاء العالم، أنهم لم يشاهدوا قط طريقاً بمثل هذه الخطورة.

وعندما كنا على السهل في الأسفل، بدا لنا الأمر حقيقة، أننا كنا في عالم آخر، لأن القفار هنا بدأت تظهر أنها أكثر حضارة، حيث توفرت بعض الشجيرات والنباتات، كما أنه في أماكن هناك كان يمكن للرعيان وقطعانهم، أن يعيشوا، وهنا لم يعد الندى مالحاً كما كان من قبل، بل مذاقه مذاق العسل والمن، كما سوف أتحدث من بعد، فهنا بداية أرض مدين التي تحتوي بعض القبائل، بعضها مستقر وبعضها الآخر رحل،

وسافرنا عبر السهل وكان بامكاننا السفر في ذلك اليوم حتى الجبال، لكن إخواننا المرضى صرخوا وتذمروا بسبب التعب، ولذلك من أجلهم نصبنا خيمنا في ذلك السهل، في مكان يدعوه العرب باسم رمتاييم Ramathaim وكان يوجد في هذا المكان كهوف في الصخر، ليست كثيراً تحت الأرض، وأجلسنا أنفسنا في هذه الكهوف للاستراحة أثناء حرارة الشمس، التي خرقت خلال أقمشة الخيام وجعلت داخلها مثل أفران، ولهذا السبب امتلك المدينيون والأحباش خياماً معمولة من الجلد لرد حرارة الشمس(حبقوق:٣/ ٧).

وهكذا استرحنا في كهوف الصخر هناك حتى المساء، وعندما جاء المساء، جمعنا عصياً، وطبخنا طعامنا، وبعد تناول طعام العشاء، وعند غياب الشمس رغبنا بالنوم في الكهوف، لكن كالينوس أرغمنا على النزول إلى الأرض المنبسطة إلى خيامنا، وكان هذا السهل مليئاً بأجمل الحصا، الذين كانوا براقين، وشفافين ولهم ألوان متنوعة: أسود، وأبيض، وأحمر، ورمادي، وأزرق، وأخضر بحري، وقد أعجبنا بهم، وجمعنا بعضا منهم، ووجدنا أيضاً هناك طبعات أقدام نعامات، وهو طائر كبير يركض بين القفار، ولسوف نتحدث عن هذه الطيور وعن مظهرهم في ص٨٣، وقد وجدنا آثارهم في أماكن أخرى من القفار.

متابعة الترحال

واستيقظنا قبل ساعتين من ضوء نهار صباح اليوم الثاني والعشرين، وغادرنا المكان المتقدم الذكر، وعندما وصلنا إلى نهاية السهل الصحراوي، دخلنا بين جبال وعرة جداً، عن طريق واد جميل وواسع، وكانت الأرض في هذا الوادي مغطاة بالأزاهير والأعشاب، وانتصبت هناك أشجار شوكية عالية، كانت مزهرة آنذاك، وقد ملأت الوادي كله بأجمل الروائح وأطيبها، ولاأعتقد أنني شممت قط مثل هذه الروائح الطيبة التي صدرت عن هذه الأشجار الشوكية، لأن هذه الأشجار

لاتحمل ثماراً غير الأشواك، وكنت قد توليت في ص ١٣٠٢ وصف هذه الأشجار من قبل، عندما حدثتكم عن الممارسات الخرافية التي يقوم بها المسلمون بالنسبة لهذه الأشجار، ذلك أنهم يقلدون في كثير من القضايا أخطاء الكفار القدماء، الذين اعتادوا على تكريس أشجاراً مزهرة ونباتات أخرى من الأنواع ذوات الروائح الطيبة إلى Ham-adryads مع Dryads ربي الحدائق، والورد، والأشجار، ووفقاً لهذا أعتقد أن هذا الوادي مع أشجاره ووروده، كان مكرساً بشكل خاص إلى هذين الربين، لأن اسم هذا الوادي الذي هو Hinischenam يقترح ذلك.

والجبال التي تحيط بالجبل من الجانبين هي عالية جداً، وصخرية ولونها أحمر، وفي الأماكن التي تسقط فيها أشعة الشمس عليهم يلمعون مثل لمعان الصخور التي دهنت بالزيت، وقد عجبت من ذلك كثيراً إلى درجة أنني سرت نحو الجدار الأول من الصخر، ونظرت إليه عن بعد فرأيته وكأنه مرطب مبلل بالزيت، ومع ذلك برهنت باللمس بيدي أنه لم يكن رطباً، وأن لمعان تلك الصخور كان مرده إلى نعومتها العظيمة مثلما يكون الحال مع الأحجار المصقولة.

وعند الظهيرة رأينا على قمة الجبل حيواناً ينظر نحونا، وعندما رأيناه خيّل إلينا أنه كان جملاً، غير أننا تساءلنا كيف يمكن لجمل أن يعيش وحده هناك، وتحول السؤال بيننا إلى هل هناك جمال وحشية، لكن كالينوس جاء وقال بأن ذلك الحيوان هو وحيد القرن، فضلاً عن هذا أشار إلى قرن واحد نابت على جبينه، وحدقنا برغبة صادقة نحو هذا الحيوان الفخم جداً، وغضبنا لأنه لم يكن قريباً منا حتى نراه عن قرب، وهذا الحيوان متفرد في كثير من الجوانب، فهو في المقام الأول— كما يقولون— حيوان حاد جداً، وله قرن قائم في وسط جبينه، وأربعة أرجل طويلة، وهو حاد وقوي إلى حد أن كل شيء ينطحه إما أن يطوح

به في الهواء، أو يتـولى خـرقه من وسطه(كـذا) ويلقي به على الصخـور، وقرنـه يلمع بشكل عجيب، ويعدّ عظم ذلك القـرن باهظ الثمن وثميناً مثل الحجارة الكـريمة، ويوضع في الذهب والفضـة[٤٠] وهو قوي إلى حـد أنه لايمكن انتزاعـه بأية وسيلة من وسـائل القـوة، وذلك من قبل الذين يصطادونه، وقـد قيل من قبل كتّـاب حول التـاريخ الطبيعي أنهم يضعون عذراء شابة على طريقـه، وهي تقوم بالكشف عن صدرها وهو يركض نحـوها، وأن ذلك يفقده كل حـدته، ويضع رأسه(في حضنهـا) وبذلك يمسك، وبعد تجريده مـن قواه وقوائمـه، يؤخذ للذبح بسكاكين الصيـادين، وإذا ماأمسك حيـاً، لايمكن الاحتفاظ به ضـد إرادته، وإذا ماربـط بشدة يموت فـوراً لشدة غضبـه، لأنه حيوان لايمكن تـرويضه، وهو قوي إلى حـد أن قوة الرب في الكتـابات المقدسـة(العدد:٢٣/ ٢٢) شبهت بقـواه، وكـذلك ورد الأمـر نفسـه في أيوب: ٣٩/ ٩ على صيغـة سـؤال نصـه:«أيرضى الوحيـد القـرن أن تربطه بـرباطه في التلم؟»الخ، وذكر داوود أيضـاً في مزاميره الوحيد القرن اطراء وهجـاء، وهو حيوان ضخم، له جسد حصـان، وأقدام فيل، وذنب خنزير، ولونه لون خشب البقس، وخـواره مـرعب، وهو يشن الحرب ضـد الفيل، ويتغلب عليـه بنطحه بقرنه في الأجزاء الناعمـة من جسده، وكما قيل هو يظهر احتراماً غريباً للعذارى.

وقد أحضر بومبي الكبير وحيد قرن إلى روما للعرض، فهذا ماأورده ألبيرتوس في كتابه عن الحيوانات، ولذلك توقفنا طويلاً عند سفح الجبل الذي وقف الحيوان عليـه، وبدا لنا أن النظر إليه أمر مفـرح بالنسبة لنا، وكذلك مشهـدنا بالنسبة له، لأن الحيـوان وقف دونما حراك، ولم يهرب حتى بعد مغادرتنا له.

وبعـدما مضينا على طريقنا رأينا راعيـاً يقود قطيعـه عند لحف الجبل، وكان هذا أمراً رائعاً بأعيننا، لأننا منذ مـدة طويلة لم نر انسانا ولاحيوانا

مـدجناً، ووصلنا بعـد هذا إلى مكان أدركنا أن البـداة العـرب لابد قـد أقاموا فيه مؤخراً، لأن بعض الأكواخ من الأغصان كانت ماتزال قائمة، وكـان بعضها مـايزال يحترق، وكانت النيران مشتعلة تماما هناك، لذلك خفنا من أنهم سـوف يلقوننا في مكان مـا، وهذا مـاوقع لنا بالفعل، كما سوف نتحـدث عن ذلك في مكانه، ومع حلول المساء دخلنا إلى القفر الذي اسمه Schoyle، ونصبنا خيامنا في واد كبير، وبقينا نحرس طوال الليل بعناية أكبر مما هو معتـاد، خشيـة أن ينقض البـداة العـرب علينا بشكل مفاجىء.

ترحال يوم شاق خلال القفار

وفي اليـوم الحادي والعشرين، الذي كـان يوم عيـد القـديس متى الرسـول والانجيلي، والذي كـان الأحـد السـادس عشر بعـد التثليث، غادرنا Schoyle في الصباح الباكـر، وسرنا عبر واد جيد، كان على جـانبينا صخـور وجبـال عـالية، وكـانت هـذه الجبال غـريبـة ورائعـة بأشكالها، وكأنها كـانت مكللة بشجر البرقـوق، بينما الأرض في الأسفل كانت طينيـة ومعشوشبـة ومن الممكن بسهولة فهم أشكـال هذه الجبال من الحكاية الشعـرية التـاليـة، التي تفترض بأن الجبـال الـداخليـة قـد وجدت قبل صنع الجبـال الخارجية، وتمضي الحكاية لتقـول بأن ديانا ربة الجبـال، وصائـدة وحيد القـرن، وحاميـة الطرق، قدمت من شـواطىء البحـر الأحمر في أرض مـدين، وكانت راكبـة لعـربة ثمينة جـداً، يجرها وعـول بيضاء، ومضت نحـو أعلى الجبال، التـي كان القـدماء يسمـونها الحدائق، والتي بعـد منح الشريعـة إلى مـوسى صـار اسمهـا حـوريب وسيناء، وقـد أرادت أن تصطاد هناك، وعندما وصلت إلى مـوضع هذا الوادي الذي لم يكن آنذاك وادياً، توقفت الوعول التي كانت تجرّ عربتها عن سيرها، لأنهم غطسوا بالأرض، لأن الأرض كانت موحلة، مشكلة من صلصـال سميك دبق، فيـه توقفت الوعول والعـربة عن التحـرك،

ولدى رؤية ديانا لذلك دعت هرقل للقـدوم إلى مساعـدتها، فجمع على الفور تيتـانه Titans ، وأمـرهم باطاعة أوامـر ديانا، وبما أنها كـــانت حـــامي الطرق والجبـال أمــرت الطين الذي غطى وجــه الأرض، بأن يتجمع على شكل أكوام، وأن تقف كل كومـة من هذه الأكوام على قمة واحدة أخـرى على الجانبين من الطريق، وذلك قبل الوقت الذي شوتهم فيه حرارة الشمس وحولتهم إلى صخـور، وعلى هذا اعتاد هؤلاء التيتان على حمل جبال تجمعت على شكل أكـوام، ثم كدست الأكـوام كلها على الطرفين قبل أن يقســو هؤلاء ويتحجــروا بـوسـاطـة الشمس، والذي حـدث هو أن الأكـوام السفلى ضُغط عليها بـالأكوام التي هي فـوقهـا، فتسطحت بسبب وزنها، وبناء عليـه فإن الطبقـة الدنيا منهم هي الأكثـر انتشاراً بينهم، والطبقة الثانية هي الأقل تسطحاً، ثم ان الثالثة أقل منها، وهكذا حتى نصل إلى القمـة، حيث واضـح أن الكتل والقطع باقيـة كما هي لم تتغير، وعلى هذه الشــاكلة بدا الطريـق وكتل الجبـال إلى جــانب الطريق قد تشكلوا، لأن هذه الجبـال ليست معمولة من تجمع لكتل من الصخـور، مثل الجبال الصخـرية الأخـرى، بل من كتل من الصلصـال الأرضي الترابي، التي لم تكن في البـداية جافـة أو مشوية، لكن من بعـد ذلك صارت قاسية، وهكذا نستطيع من خلال هذه الحكاية تتبع أصول شكل هذه الجبال.

وفيما نحن ســائـرون على طول هذا الوادي، رأينا حشـــداً كبيراً من الناس من رجال ونساء وأطفال، مـع جمال، وحمير، وخيول، كانوا جميعاً وقـوفاً عند سفح الجبل على استعـداد لاستقبالنا، وعندمـا اقتربنا منهم، ركض رجـالهم نحو الأمـام لملاقـاتنا مع صرخات غـاضبـة وحركـات، وانقضـوا أولاً على الجمال، وأنزلوا من عليهم الأثقـال، وخـلال ثورتهم وعنفهم مـزقـوا واحـــداً من أكيـاس البقسماط، ونثـروا البقسماط على الأرض، في حين بدأت نساؤهم وأطفالهم بـالتقاطهم، علاوة على ذلك،

عاملنا سائقو جمالنا بسوء وغش، فقد ساعد بعضهم البداة العرب على سلب أشياء من الجمال، وبما أن أدلاءنا لم يهتموا بصراخنا، وكانت حاجياتنا تتناثر فوق الأرض، ركضنا نحو الأمام وانتزعنا بقوة أكياس البقسماط من أيديهم، واتخذنا موقفاً صارماً منهم وأظهرنا غضبنا نحوهم، وعندما شاهدوا ذلك أوقفوا عنفهم، واستداروا نحو كالينوس الذي أزعجوه بقسوة متناهية، وأفترض أنهم انقضوا عليه لأنه سمح لنا بمقاومتهم، وجمعنا الأشياء التي انتزعت من الجمال، ووقفنا حولها مع أسلحتنا بأيدينا لحراستها، ومع ذلك لم نتوقف عن منح البقسماط إلى النساء والأطفال الذين قدموا إلينا وحذرنا كالينوس من أن نكون متعنتين، بل ينبغي جمع مبلغ مامن بيننا، بحيث يسهم فيه كل حاج بدفع مبلغ مندوس أو مندوسين، وعندما نجمع هذا المبلغ نعطيهم إياه كخفارة، وقد تصرفنا هكذا وعملنا اتفاقاً مع مقدمهم مقابل عدد من المندوسات، وبعدما دفعنا هذا المبلغ، سمحوا لنا بمتابعة سيرنا على طريقنا، لكن بعض الشباب بقيوا معنا حتى جبل سيناء.

وبعد رحلة طويلة خلال ذلك الوادي، وصلنا إلى نهاية الوادي، وعبرنا ثانية إلى سهل فسيح، يوجد على جانبه الآخر جذور الجبال، التي كان بينها جبل سيناء المقدس، وسرنا عبر هذا السهل نحو الجبال التي كانت قائمة في مواجهتنا، ودخلنا إلى واد، عملنا فيه استدارات إلى هنا وإلى هناك، فقد كنا ساعة على هذا الجانب وساعة أخرى على الجانب الآخر، وذلك تبعاً لتعرجات الوادي ومنحنياته، وجرى اقتيادنا جانباً بعيداً عن الممر المستقيم نحو الجبل المقدس، وعبرنا ودياناً بدت وكأنها تقود إليه مباشرة، لأن جبل سيناء وقف مباشرة إلى الجنوب منا، ولكن بما أن الوادي اعترض طريقنا، ارتحلنا مسايرين الوديان المتعرجة، الآن نحو الشرق، وبعد قليل نحو الشمال، وأحياناً نحو الغرب، مما أزعجنا كثيراً، بسبب أننا رأينا أحياناً جبل سيناء يقف تماما خلفنا.

ووصلنا حـــوالي الظهيرة إلى مكان حيث انحـــرف الـوادي وعمل استدارة أخـرى نحو الجنوب، وخلفنا هنا الجبـال المرتفعة خلفنا، ورأينا قمة جبل سيناء أكثـر وضوحـاً، فوق قمم الجبال الأخـرى، وفي الحقيقة يوجد في قفار سيناء مناطق مدهشـة، هي في غاية الارتفاع وجبال حادة القمم، وبعـدمـا سرنا مسافـة قصيرة، ونحـن مسرورين، باتجاه الجبل المقـدس، تركنا الوادي الذي يقـود نحـو الجنوب، والذي بدا بأنه يقـود نحو سفحه مباشرة، وقمنا ونحن نتبع أدلاءنا، فانعطفنا إلى جانب وادي يقود نحـو الشمال، وبذلك أدرنا ظهورنا لجبل سيناء للمرة الثانيـة، وقد تابعنا سيرنا على طريقنا ونحن نتذمر، وكنا غير راضين تماما، ولقد تردد بين الحجاج بأن البداة العرب الذين كـانوا يتولون سوق جمالنا، اقتادونا عن عمد عبر هـذه الممرات الملتوية في القفـار، في محاولة منهم لإنهاكنا ، حتى ندفع لهم مالاً، من أجل الذهاب عبر الطريق الأقصر.

وفي الحقيقـة ابتعـدوا عـن الوادي الذي بدا بأنه يقـود نحـــو البقعـة المرغوب بها، ونزلوا إلى وديان قادت نحـو الاتجاه المعاكس، ولذلك فإن الحجـاج الذين شعروا بأنهم خـدعوا وتوجسـوا بأنهم اقتيدوا عن عمـد بعيداً عن طريقهم ثاروا، ولعنوا كالينوس، ولعنوا الأدلاء، هذا من جهة ومن جهة أخـرى قال بعض الحجاج، بأن هذا لم يكن تصرفـاً صحيحاً، وأنه ليس هناك خدعة حول القضية، ووجه هؤلاء اللوم إلى الذين ثاروا من أجل الشتـائم، وبناء عليـه تخاصـم اثنان من الفـرسـان أحـدهما مع الآخر، وشرعـا يتبادلان الشتائم ولغـة قذرة، وقد لعن أحـدهما الآخر، وأصبح هذان الفـــارسـان غـاضبين إلى حـد أنهما تـرجـلا عن حماريهما، وامتشقـا سيفيهما وخطا أحدهما نحـو الآخر خطوات مع تسـديد رأسي السيفين كل واحـد نحو الآخر، وكـان كل واحد من الفـارسين بارع في المدافعـة، ومنع بذلك كل واحـد منهما الآخر من طعنـه بسيفه، وعندمـا رأى بقية الحجـاج هذا ركضوا وسعوا للفصل بينهما، لكن مـامن واحد

تجرأ على الاقتراب منهما خوفاً على جلده، لأن كل واحد منهما كان غاضباً جداً، ولوحا بسيفيهما من دون حذر، وركض البداة العرب الذين كانوا معنا نحوهما، ومع أنهم كانوا عراة، وضعوا— دونما خوف— أنفسهم بينهما، ووقفوا تحت سيفيهما، وبهذه الوسيلة انتهت المشاجرة، لأن مامن واحد منهما كان بإمكانه طعن الآخر، من دون أن يجرح الأبرياء العرب، ولولا أنه تمّ الفصل بينهما بهذه الطريقة، لكان أحدهما، أوكلاهما، قد هلكا، ومركز البداة العرب على هذه الصورة أنفسهم ووضعوها في هذا الخطر العظيم، ليس بسبب شجاعتهم، بل بسبب مبادىء ايمانهم..... لأنهم يعتقدون أن ساعة موت كل انسان وشكل ذلك محددة من قبل الله، وأن هذه الساعة لايمكن تقديمها أو تأخيرها، حتى وان ضرب انسان نفسه بالسيف ليموت، أو رمى نفسه من شاهق إلى مكان منحدر لتدمير ذاته، وهم يعتقدون أنهم لايمكن أن يموتوا، ولايمكن أن يقتلوا إذا لم تحن ساعتهم المقررة، ولذلك يمضون إلى القتال من دون دروع واقية للجسد.

وبعد الفصل بين هذين، استطعنا بعد صعوبة أن نقنعهما بأن يقسما بالمحافظة على السلام في الوقت الحالي، وقد أقسما بالحفاظ على السلام حتى الوصول إلى القاهرة، لأن الملك السلطان موجود هناك مع قضاته، وأنهما يرغبان بالمثول أمامهم، والخضوع لحكمهم، وعانينا أثناء ذلك القتال من خوف رهيب، لأنه لوجرح أحدهما الآخر لهبّ رفاقه إلى مساعدته، ولانقضوا على الآخرين، وكان رفاق الآخر سيقفون إلى جانبه مساندين له، لأننا كنا مقسمين إلى ثلاث مجموعات، كما تحدثت عن ذلك من قبل، علاوة على ذلك، كان سيلقى بنا في السجن، ومن ثم المثول أمام السلطان بسبب خرقنا جواز الأمان المعطى إلينا، وهكذا مضى كالينوس إلى المتنازعين، وأمرهما بالحفاظ على السلام باسم السلطان، لكنهما لم يباليا، لأن القضية كانت معلومة أمام النالس جميعاً.

وعندما انتهى هذا الشجار، سرنا مسافة طويلة، ونحن مديرين لظهورنا إلى الجبل المقدس، لأن كالينوسس مع البداة العرب أخبرونا بأننا لن نتمكن من الوصول إلى سفح جبل سيناء، من خلال أي وادي، باستثناء واحد، علينا أن نشق طريقنا نحوه، وهو الوادي، الذي ذهب من خلاله آباؤنا من بني اسرائيل، إلى الجبل المقدس، وبعدما سرنا مسافة طويلة، انعطف الوادي نحو الجنوب، أي الى الجبل المقدس، وسرنا على طريقنا ونحن مسرورين، لأن جبل سيناء بات أمام أعيننا، وعند غياب الشمس وصلنا إلى سهل شاسع، محاط من كل جانب بجبال عالية، وكان شكل هذا السهل مستديراً في وسط الجبال، وكانت التربة معشوشبة وجميلة جداً، وكان في وسط السهل كثيراً من الصخور والحجارة المنبعثة من الأرض في مكان واحد، مشكلة بذلك جبلاً صغيراً، ونصبنا عند سفح هذه الجروف والشعاب خيمنا، وقررنا إمضاء الليل هناك، وكان اسم هذه المنطقة والسهل بالعربية Machasea، وكان السهل محاطاً بالجبال إلى حد أننا لم نستطع أن نرى أي طريق للخروج منه، كما أننا لم نتمكن من رؤية الطريق الذي جئنا عبره، وفي هذا الطريق أطعم موسى قطعان يثرو (شعيب) الذي كان ختنه، والذي عنه قرأنا في سفر الخروج:٤، ومن هناك قاد قطيعه إلى الجانب الخلفي من الصحراء، وإلى سفح جبل سيناء، الأمر الذي لم يتجرأ أي راع قبله على فعله، بل كانوا يقيمون جميعاً في الخارج، في هذا المكان، أو في مكان آخر بين الوديان، كما سوف أحدثكم.

وعلى الجبل المجاور لنا، أشار أدلاؤنا ودلونا على مكان بين الصخور، موائم للانسان ليقف عليه، حيث من هناك مشهد عبر السهل كله، ويقال بأنه هنا قد اعتاد موسى على الجلوس عندما كان يطعم قطعان يثرو، كاهن مدين، ولكي نفهم هذا بشكل أوضح، علينا أن نعرف بأن مدين كانت مدينة على شاطىء البحر حتى الأحمر، ومن اسمها عرفت

المنطقة كلها الممتدة من شاطىء البحر القفار باسم مدين، وفي هذه المدينة عاش رئيس المنطقة، وكان يعرف باسم كاهن مدين، وكان الكاهن في أيام موسى هو يثرو، وكان أيضاً يعرف باسم رعوئيل، وسيفوس Civeus و أوباب Obab ، وإلى هذا الرئيس إلتجأ موسى عندما هرب من مصر (الخروج:٢)، وبما أن موسى خدمه بشكل جيد، أعطاه احدى بناته زوجة له، وجعله راعيا لقطعانه من الأغنام، التي كانت شيئاً عظيماً، لأن ثروة الناس كلها في القديم تمثلت بقطعانهم وأسرابهم.

وأقام موسى مع قطعان الأغنام في الأماكن المعشوشبة من القفار، مثل التي توفرت في وديان قفار سيناء، وكان هو وبقية الرعيان يترددون على هذا الوادي أكثر من سواه، لأنه كان واسعاً، وجيداً لإطعام الأغنام، وقد رعى أغنامه هناك لسنوات كثيرة، وكان من وقت لآخر يذهب إلى المدينة، التي كانت بعيدة، وذلك لرؤية زوجته، لكن في القسط الأكبر من السنة كان في القفار مع الأغنام، مثلما يفعل رعاة البقر(في بلادنا) الذين يسكنون في الألب، فيبقون معهم قسطاً كبيراً من السنة، وكان هذا السهل يشكل التخم بالنسبة للمراعي، ومامن راعي تجرأ على أن يقود قطيعه خلفه نحو جبل سيناء، لأن الذي كان رائجاً بشكل عام بأن هذا كان جبل الرب، وأن الرب قد سكن فيه، ولذلك مامن انسان كان يتجرأ على الاقتراب منه، خاصة وأن بعض الذين دخلوا إلى هناك، لم يشاهدوا بعد ذلك وماتوا فيه.

ومن هذا واضح أنه من قبل أيام موسى كان هذا الموضع مع الجبل محل تقدير، إنما مع كثير من أوهام الكفار واعتاد بعضهم بأن يقول بأن أرباب الجبال قد اتخذوا هناك حدائق جعلوها مكاناً للالتقاء فيه، ولم يكونوا يسمحون لأي انسان حي بالحضور معهم، ولهذا أطلق الأرباب على هذه الجبال اسم الحدائق، وقال آخرون بأن هذا الجبل كان مقدساً

لدى أبولو الذي كان راعي قطيع أدميتوس Admetus ملك ثيسالي Thessaly، وعمل رباً للحكمة، واعتـاد آخرون على عبادة مـوبسوس Mopsus هناك، الذي كانـت له السلطة في سهول Grynean، والذي اعتاد بعد موته على إعطاء الهواتف في الهيكل الذي بني هناك.

إنما مـوسى، لكونه مـؤمناً حقـاً، كـانت لديه آراء أخـرى حـول هذا الجبل، وفي الحقيقة كـان رجلاً عظيم الحكمـة، وكان الأول الذي أعطى اليهـود أبجديـة، التي منها اشتق الفينيقيـون أبجـديتهم، ومن الفينيقيين تلقى الاغريق أبجديتهم، كما تعلمنا من الفيلسوف يوبوليوس upolius الذي أعلن أنه هو الـذي اخترع أسلحـة الحرب، وأعطى الأبجـدية إلى الكهنة المصريين، وكـان رجــلاً عظيم القــدر بين المصريين، حتى أنهم اتخذوه مثل الاله ميركـوري، علاوة على ذلك لقـد وصف مظهره قـائلاً بأنه كـان رجـلاً طويلاً، له بشرة شقـراء، وشعـر شائب، وكـان شعـره طويلاً وكــذلك لحيتــه، وعبرّ في وجهــه وشكله عن جــلالة لايمكن وصفها.

وكــان هـذا الرجل العظيم، بعــدمــا طـرد من مصر— كما سلف وقلنا—، يقـوم برعـي القطعـان في هذا المكان، وهنا غـالبـاً مـاجـرى تحريضـه— بدون شك من قبل الروح القـدس— ودفعـه للدخـول إلى الجزء الأقصى الداخلي من القفار، وهكذا قـام في وقت كان محدوداً من قبل الرب بقيادة قطيعه إلى قلب المكان هناك، حتى سفح الجبل المقدس، كما سنوضح ذلـك في مكانه، وهكذا نمنا في الخارج تلك الليلـة، ناوين أن ندخل في الغد مثلما دخل موسى.

مقال لاهوتي حول المنّ الذي وجدناه

وفي اليـوم الثـاني والعشرين، الذي كـان يوم عيـد القـديس مـوريس ورفـاقـه، استيقظنا مبكراً جـداً، وحمّلنـا دوابنا، وتبعنا نجمـة القـديسـة

كاترين، العـذراء المباركة، التي بـدت قائمة على مقـربة منا، وسرنا نحو جدار الجبل، الذي كنا مطوقين مـن قبله، وعندما وصلنا إلى هذا الجدار الصخري، وجـدنا فجاً ضيقـاً في الصخر، أعطانـا مدخلاً، ومـن خلال هذا الفج عبر مـوسى مع قطيعــه إلى الأجـزاء الداخليـة القصـوى من القفـار، وكـان من الصعب على جمل محمل المرور من خـلال هذا الممـر الضيق، وعندمـا أصبحنا في الداخل، دخلنا إلى سهل آخـر، جميل جـداً، يوجـد فيـه عشب، ونبـاتات وشجيرات، وهنا أنعشنا أنفسنـا بالندى المتساقط، الذي كـان أحلى من العسل، ويختلف اختلافـاً كلياً عن الندى الذي تذوقناه في اليـوم الثامن عشر، كما ذكـرنا من قبل، ذلك أن الندى الذي يتسـاقط هناك حـول تلك الأمـاكن المقـدسـة يرينا كم كـان حلواً مذاق المن الذي أعطي هناك إلى البطارقـة، وفي هذه الأيام يتساقط المن، أو ندى المن، حـول جبل سيناء لمدة شهـرين هما:آب، وايلـول، ويقـوم البـداة العرب بجمع هذا المن، ويبيعـونه للحجاج، ورأيت أنا شخصياً هذا المن وأكلت منه، وقـال فنستـوس في مصنفـه Speculum Nat-urale— الكتاب الخامس، الفصل:٨٥، بأن المن هو ندى يتساقط فوق الأوراق أو الحجارة، وهو كثيف مثل العسل، ويغدو جافاً مثل الصمغ، ثم يصبح قـاسياً وبعـد ذلك يجري جمعه، وفي الشرق يتسـاقط في الليل، لكن بما أنه يعثـر عليه بكميـات قليلة، يغش كثيراً، وعندما يكون نقيـاً، وليس ممزوجاً مع أشياء أخرى، تكـون رائحته طيبة جداً، ويكون ثميناً، ولونه أقرب إلى البياض، وأحلى من أي شيء آخر في العالم، وهو حلوى طيبـة جـداً، ويقال بأنه مـن النوع نفسه الذي عـاش عليـه العبرانيين في القفـار لمدة أربعين سنة، وتشكل ذلك المن بمعجزة ربانيـة، ولذلك فإن شكله وطعمه قـد تغير وصار مالحاً، أما بالنسبـة لهذا المن الطبيعي فانه يتساقط أدنى من المن الاعجـازي، على أساس أن المن الطبيعي لايتـوفر كل ليلة، أو كل مـوسم من مـواسم السنة، بينما كـان يتم العثـور على الآخر كل صبـاح، حيثما كان شعب الرب مقيماً، ومثل هذا هو مـوجود

في بعض مناطق بلاد الاغريق.

وفيما يتعلق بالمن الذي أعطي إلى بني اسرائيل، نقرأ في سفر الخروج: ١٦—١٤:« وفي الصباح كــان سقيط الندى حــول المحلة. ولما ارتفع سقيط الندى إذ على وجـه البرية شيء دقيق مثل قشـور، دقيق كـالجليـد على الأرض»، ومعنى هذا النص أن الجليد سقـط فوق الأرض، ثم تبع ذلك سقوط المن عليـه، وبعد ذلك تجمـد بعض الندى عليه، وعلى هذا الأساس كان المن بالفعل موجوداً بين طبقتين، مخزوناً بذلك بشكل نقي بين غلافين، الغلاف الأول هو الجليـد، والغلاف الثاني هو الندى، لكن الندى الذي يتم العثـور عليـه في هذه الأيام لايغطي وجـه الأرض، إنما يتعلق فوق أوراق النبـاتات، وعلى رؤوس الأحجار، مثل النـدى المعتاد وليس له طعم حــلاوة الحلوى نفسهـا، بـل إنه يحصل على الحلاوة من طبيعة النباتات، أو الأعشاب، أو الحجارة التي عليها يتساقط.

واعتـاد القــدمـاء على أن يقـولوا بأن الندى هـو ابن القمـر والهواء، ويتسـاقط الندى بشكل غير مـرئي، فينعش الأرض، ويجعلهـا خصبـة، وهو حلو وشفــاف، وقليل من الحرّ يجففــه، ويسبب الندى المتســاقط الخصـوبة، وعندما تحمله النحـلات إلى خلاياها يتحـول إلى عسل حلو، وعندمـا يتساقط في الأصـداف البحرية يتحـول إلى لآلىء ثمينة، وهكذا مصصنا في ذلك الصبـاح، الندى الحلـو للقفـار مع الشعـور بالسرور، وعندمـا صرنا في دير القـديسـة كـاترين اشترينا منّا، لكن وجـدناه قـد تعرض لكثير من الغـش والتزييف، وذلك حسب تصوري ممـا قد قيل، وفي الحقيقة لاقينا النصيب نفسه الذي لاقيناه مع المن هنا مع البلسم فيما بعد.

وبعدما عبرنا خلال الفج الضيق المتقدم ذكره، وصلنا إلى واد فسيح، مليء بنبـاتات طيبة الرائحـة، وكان هـذا الوادي مطوقاً بصخـور عاليـة جداً، ذات لون أحمر، ففي هذا الوادي وفي أحوازه المحيطة بجبل سيناء،

سكن بنو اسرائيل، في خيم وأكـواخ وفقاً لأسبـاطهـم ولأسرهـم، وذلك في الوقت الذي كان فيه مـوسى مع الرب في الجبل، وهذه مسألة سوف أتوسع حولها كثيراً في ص ٨٣ظ.

وسرنا لبضع ساعـات نحو الشرق، وتخلينا أخيراً عن السير في ذلك الاتجاه، وانعطفنا نحو الجنوب، ودخلنا إلى واد آخر كبير وجميل، وبعيداً عنا وأمامنا، رأينـا جداراً جبلياً عـالياً جـداً ومرعباً مكونـاً من الصخر، وبإتجاهه تسلقنا، وتسـاءلنا في أي مكان سوف نخـرج من ذلك الوادي، لأنه لم يوجد أمامنا، كما أننا لم نشاهد على أي من الجانبين من حولنا أي ممر يقـودنا إلى خـــارجـه، والذي رأيناه أنفسنا فقط محصـــورين من قبل جـدران جبلية صخـرية وعاليـة جداً، وعندمـا وصلنا تقريبـاً إلى الجدار الجبلي الكبير الذي وقف أمـــامنا، فجأة ظهــر أمـــامنا فج في الجبل على يميننا، ممتـد من القمـة إلى القعـر، من خـلاله، وليس من خـلال طريق آخـر، هناك طريق يقود إلى سفح الجبل المقـدس، ولذلك سرنا عبر هذا الطريق الضيق، ووجـــدناه وعـراً جـداً للسير عليـه، ومـــرعبـاً للحمير وللجمال، وبعدما سرنا قليلاً خلال هذا الممر وعندما أخذ الوادي يتسع قليـلاً، رأينا أبنيـة، ومسـاكن بشريـة، وكنيسـة لها شكل مستطيل، وقـد كانت دير القديسة كاترين، العذراء المباركة جداً، وما عرف باسم كنيسة ومصلى العذراء مريم المباركة، عند العليقة، وذلك عند سفح جبل سيناء العظيم القـداسـة، وعندمـا رأينا هذا كله ترجلنا من على ظهـور حميرنا، وجثونا بسرور عظيم على ركبنا، وتعبدنـا نحو المكان، ففي المكان نفسه الذي يقـوم عليـه الدير، رأى مـوسى المعجـزة المشهـورة، وهي الأجمة(العليقة) التي كـانت تحترق من دون أن تتأذى أوراقها الخضراء وثمارها، ولم تتعـرض أغصانها التي كـانت تحمل ثماراً مطلقاً للخـدش بالنار، مع أن لهيب النار كان حاداً وسريعاً.

ووقفت العليقة المدهشة في المكان الذي يقوم فيـه الآن مزار القديسة

مريم عند العليقـة، عند رأس الكنيسة، وكـان موسى عندمـا شاهد هذا عجب وقـــال:« أميـل الآن لأنظر هـذا المنظر العظيـم، لماذا لاتحترق العليقة، فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه»، وهكذا إلى آخـر مانقرأه في سفر الخروج:٣/ ٣—٤.

وسرنا مسرعين مـن هذا المكـان خلف الجمال والحمير، وذلـك باتجاه الدير، وعندمـا وصلنا إلى الدكة الواسعـة أمام باب الدير، وجـدنا كثيراً من البداة العـرب يجلسون هناك مسلحين وفق طرائقهـم، وخرج هؤلاء الناس مرغمين من القفار بسبب الجوع، وأجبروا على الذهاب إلى الدير من أجل لقيمات من الخبـز، وعندما رأينـاهم بتنا خائفين جـداً، وخشينا من أن نبتلى بهم أمام باب الدير، كما أن كثيراً من البداة العرب قد ذهبوا معنا، وكانوا قد لحقوا بجماعتنا في القفار.

وبناء عليه أنزلنا الأثقال من على ظهور دوابنا، وجمعنا أثقالنا في مكان واحـد، ووقفنـا من حـول حقـائبنـا، خشيـة من اللصـــوص الذين كنا بحضرتهم، فقـد خفنا من أن يستـولـوا على أي شيء منا، وعندمـا سمع الرهبان بحضورنا، وبوجودنا هناك، قدم بعضهم ورحبوا بنا بلطف، كما أنهم ساعـدونا في حمل جميع حقائبنا إلى الداخـل، أي إلى بيت الضيوف، وكان في بيت الضيوف كثيراً من القلايات الفارغة، عليها وزعنا أنفسنا، وذلك تبعاً لتـوزع جماعاتنا، فضلاً عن ذلك كانت هناك بيعـة للطقوس اللاتينية وفيهـا مذبح، وهنا، بما أن الظهيرة لم تكن قد مضت قـام واحد من الحجـاج بقـــراءة قـداس لنا، أصغينا إليـه بخشـــوع، واشترينا بعـد القداس حطباً للنار من الرهبان، لنطبخ به، وطبخنا وأكلنا بعض الطعام الذي جلبناه معنا من الأرض المقـدسـة، وتمددنا بعـد هذا للاستراحـة، وعندما انتهت استراحتنا، ذهبنا إلى كنيسـة القديسـة كاترين، وإلى مصلى القديسـة مريم عند العليقـة، وزرنا أماكن مقـدسة أخـرى، سوف أتولى وصفهـا في أماكنهـا، وبعـدمـا قمنا بهذا كله، أقمنا في داخل الدير وعلى

أرضه ولم نذهب إلى خارج الأسوار في ذلك اليوم.

الاضطراب الذي ألمّ بالحجاج

وكنا في اليوم الثالث والعشرين مستعـدين للصعود إلى جبال: سيناء، وحوريـب، والقديسـة كاترين، ولكن إخـواننا المرضى سألونا انتظارهم حتى الغـد، حتى يكونوا قـد استردوا قـواهم، وأن يكونوا قـادرين على الصعود معنا، وأصغينا إلى توسلهم، وبصبر بقينا مـرتاحين، وحدث أنه بعد تناول طعـام الغداء، أن زرنا ثانيـة الأماكن المقدسـة في الدير، حتى نتمكن الحصول على غفـرانات(+) وتجولنا في جميع جهات الدير، ورأينا كل طرف من أطرافه.

ومع حلول المسـاء، وصل واحد من المقـدمين العـرب، وكان رئيسـا للصوص الصحـراء، وقد قدم ومعـه كثير من الأتباع المسلحين، ودخل إلى الدير، وعسكر مع رجاله قـرب أماكن إقامتنا، حيث راقبـوا دخولنا وخـروجنا، ذلك أنهم قـدموا بسببنا، علّهم يستخـرجـون مكوسهم غير العـــادلـة منا، وقـــد أزعجنـا هذا كثيراً، وأغضبنا، وألقـى ظلالاً على سرورنا، لأنه لم يعد بامكاننا العبور من أماكن إقامتنا إلى كنيسة القديسة كاترين، لأن البـداة العرب جلسوا في الساحة ليـلاً ونهاراً، وراقبونا عن قـرب لدى صعودنا ونزولنا من على السـلالم، كما أننا لم نستطع الذهاب إلى البئر للحصول على الماء إلاّ بالمرور من وسطهم، ولم يفعلوا شيئاً لنا، إن كـــان خيراً أو شراً، كما أنهم لم يصرخـــوا علينـا، ومع ذلك كـــان جلوسهم هناك مزعجاً لنا.

وعندمـا اقترب ميقـات العشـاء، طبخنا طعـامـاً مـن أجل عشـائنا، وكـذلـك من أجل غـدائنـا في اليـوم المقبل، حسبما اعتــدنا أن نفعل في القفار، لأنه في الغد لن يتوفر لدينا وقت نقوم به بطبخ طعام الغداء، كما سوف نرى.

كيف صعد الحجاج إلى جبل حوريب وسيناء المقدس، وكيف وقعت لهم حوادث متفرقة وهم على طريقهم أثناء صعودهم، مع وصف للجبل وللطريق

استيقظنا في اليـــوم الرابع والعشرين قبل شروق الشمس، وأقمنا قداسـات في البيعة اللاتينية، وبعـد انتهاء هذه القداسـات، جاء راهب، هو الحافظ لمقـدسـات الدير، واسمـه نيقوديمـوس، جـاء ليقـودنا لدى الصعود إلى الجبـال المقدسـة، وقام باستعـراض جميع الحجاج، ونظر إلى كل واحـد منهم عن قرب، ولم يسمح مطلقـاً للذين نظر إليهم على أنهم مـرضى بالانطلاق معنا، لأنه قـال بأن الممـر شـديد الانحـدار وشـديد الانهاك، ولذلك بقي بعـض الحجـاج المرضى خلفنـا، لكن بعضهم،— وإن كانوا مرضى— رفضوا جميعاً البقاء والتخلف، وحملنا مزاود طعامنا مع طعامنا، وقوارير مليئة بـالخمرة، وجراراً من الماء، تكفينا لمدة يومين، وأعطيناهم إلى سائقي حميرنا لحملهم، لأنهم كانوا على استعداد للذهاب معنا، والقيام بخدمتنا.

ولدى فراغنا من هذه الاستعدادات، اقتـادنا الراهب نيقوديموس إلى خـارج الدير من خـلال البـاب الذي دخلنـا منه، وسرنا باتجاه الجنوب عند لحف الجبل المقـدس لسيناء وحـوريب، والذي على جــانبـه هناك جرى بناء الدير، وفي الحقيقـة لهذا الجبل المقدس اسمين هما: لقـد عرف من الدير حتى بيعة القديس إليـاس باسم سيناء، ومن هناك حتى القمة عرف باسم حوريب، وجـرى منح هذين الاسمين له، وفقاً لما تمّ عمله هناك، فـلأن الوصـايا والشريعـة قـد أعطيت هناك، أطلق عليـه اسم« سيناء»، أي «العقيـدة»، وكـذلك لأن الرب ظهـر هناك في نار ودخـان، وكـــان الجبل كلـه فـوق نار ودخـــان مثل أتون، كما قـــرأنا في سفـــر الخروج:١٩، فقد أطلق عليه اسم حوريب، أو خوريب، أي«حرارة».

ولدى شروعنا بتسلق الجبل المقـدس، وعندمـا كنا سائـرين بصمت،

ووقار وخشوع، تفجـر نزاع وصراخ، وخصام، بين سائقي حميرنا الذين حملوا أثقالنا، والبداة العرب الذي رافقونا، حيث لم يسمح البداة العرب لسائقـي حميرنا بخدمتنا بل قـالوا بأن هذا اختصاصهم، وعليهم تقـديم هذه الخدمات، وذلك مثلما قالوا بأن جـواز الأمان والخفارات من أجل عبور الصحراء، واقعة في منطقتهم، وهكذا بذل البداة العرب جهودهم من أجل الحصـــول على حقــائبنا، ورفض الآخـــرون اعطاءهـم إياها والتخلي عنهــا، ونظرا لقيــام هذا الاضطراب ووصـــوله إلى هذا الحد، أخذنــا بأنفسنا حقائبنا، ورفضنا اعطاءها لأي فـريق منهما، بل وضعناها على أكتــافنا، واستـدرنـا، وعـدنا على خطـانا نحـو الـدير، لإنهاء ذلك الخلاف بمساعدة كالينوس، وراعي الدير، ومقدم البداة العرب، وذلك حتى نتمكن من صعـود الجبل بسلام، وعندمـا شاهد البـداة العرب مع سـائقي الحمير ذلك، صـاروا أصدقـاء مع بعضهم بعضـاً، ووعـدوا أن سيكونوا هادئين، وسيحـافظوا على السـلام، ورجـونا بعـدم العـودة إلى الدير فقط، وأخذوا الأثقال ثانية منا، ومضوا من دون أي ازعاج.

وعندمـا صعدنا إلى الأمـاكن المنحـدرة، ووصلنا إلى الجزء الأعلى من الجبَل، فإن الحجــاج المرضى أغمي عليهم، ولم يعـد بامكانهم متــابعـة الصعود، لذلك أعيـدوا مباشرة إلى الدير، وتابعنا التسلـق، وصعدنا على الدرجـات الحجــرية، التي عملهـا الرهبــان هناك، ومن دونها لايمكن لانسان الصعود إلى الأعلى، بسبب شـدة انحدار طرف الجبل، والجدران الصخرية العاليـة، وكان هناك في هذا المكان فج مظلم ومخيف في الجبل، في وسطه هناك درجـات للصعـود عليهـا مع وجـود جـروف على كـلا الجانبين، لذلك مامن انسان كـان يستطيع السير على تلك الدرجات على قدميه، بل توجب عليه التسلق بوساطة قدميه ويديه، وذلك مثلما تسلق يوناثان على يديه وقـدميـه كما جـاء في سفـر صمـوئيل الأول:١٤/ ١٣، وأثناء صعـودنا نحو الأعلى، وصلنا هناك إلى نبع مـاء عذب، تفجـر في

البداية هناك بوساطة معجزة، سببها سوف أحدثكم عنه بعد قليل، ومع أننا كنا مانـزال صائمين، شربنا من النبع، لأننا كنا لتعبنا نتصبب عـرقاً، وكنا عطاشى.

وفي أثناء متـابعتنا للسير في الفج صعـوداً في الجبل، وذلك عبر طريق وعـر للغاية وكثير الحجـارة، وصلنا إلى بيعـة شرفت بحمل اسم مـريم المبـاركة، والتي بنيت عقب مـاسـوف نتحدث عنه فيما يلي، وكـان هناك واحـد من رهبـان الدير يسكن إلى جـانبهـا في كوخ مـائل في مـواجهـة البيعة، وقـد فتح الباب لنا، وعندما كنا داخلين إلى البيعـة، حدثنا دليلنا الراهب نيقوديمـوس بالحكاية التاليـة، حول أصل النبع والبيعـة، وكان يتحـدث باللغــة الايطاليـة: حـدث فيما مضى من زمـــان أن الأفـاعي والثعابين، والعـلاجيم، ومخلوقات سامة أخـرى، ازدادت وتضاعفت في داخل الدير، ومن حـوله إلى درجـة أن الرهبان لم يعـد بامكانهم العيش هناك، بل قـرروا هجر المكان، وترك الدير، ونقل أنفسهم إلى بقعـة آمنة ونظيفة، وبناء عليـه، دعا راعي الديـر في اليوم المحدد جميع الـرهبان إلى الاجتماع، وأمـرهـم بالقيـام بمسيرة وقــورة وخـاشعـــة إلى جبل سيناء المقدس، وبعـد انتهاء المسيرة إلى الجبل المقدس، أومـى بأنه سوف يرتحل من ذلك المكان، ولذلك حملوا صلبـانهم، وآثارهـم المقـدسـة، وصعـدوا وهـم يغنون الترانيم إلى الجبل المقـدس، حتى القمة، حيث تسلم مـوسى الشريعة والألواح من يد الرب.

وبعـدمـا قبّلوا الأمـاكن المقـدسـة وهم يبكون، نزلوا بوضع حـزين، لأنهم كـانوا كارهين ترك المكان ومغـادرة الجبل المقـدس، وهو ماكـانوا عـازمين على فعله والمضي من هناك في اليوم التـالي، وهـم يحملون معهم جميع أثاث الدير، لأنهم طـردوا من هناك بسبب الضرورات التي تقـدم ذكرها، وعندما كـانوا على طريقهم نازلين، وصلوا إلى المكان الذي تقوم فيه البيعة الآن، وفجأة تفجر ضوء عظيم، وظهرت لهـم العذراء المجيدة،

الأم العذبة للرب، بجلال، وأمرتهم بعدم مغادرة المكان الذي هو عظيم القداسة، ووعدتهم بأنهم سوف يكونوا بأمان، واختفت، واطمأن الرهبان بهذه الرؤيا، وتابعوا النزول، لكنهم تعرضوا إلى اغواء مؤلم، وأن مارأوه كان مجرد وهم، ولذلك عندما وصلوا إلى هذا المكان، حيث مكان النبع، حيث لم تكن هناك مياه، توقفوا، وصلوا للرب بخشوع عظيم، وسألوه إذا كانت الرؤيا صحيحة ليتلطف ويمنحهم علامة على ذلك، وحدثت معجزة، ففي أثناء صلاتهم، تفجر نبع ماء عذب من الصخر الأصم إلى جانبهم، حيث لم يكن هناك أثر يمكن أن يرى لماء هناك، وقد سبب ذلك لهم سروراً عظيماً أثناء صلاتهم، وهذا النبع لم يتوقف من ذلك الحين حتى هذا اليوم عن الجريان، وأثناء تدفق المياه من بين الصخور نراها تمنح الراحة للذين يصعدون الجبل أو ينزلون منه، وبعدما تلقى الرهبان هذه العلامة، نزلوا فرحين، فوجدوا الدير كله والمنطقة كلها من حوله قد تنظفت من الهوام، التي لم تكتف فقط بالفرار بعيداً في ذلك الحين، بل إنها لم تقارب المكان حتى هذا الوقت، وفي الحقيقة إذا ماظهر ثعبان في الخارج، فإنه يموت بمجرد اقترابه من الأسوار.

وبعدما حدثنا الراهب نيقوديموس بهذه الحكاية، حمدنا الرب، ودخلنا إلى البيعة، حيث سلمنا على مريم العذراء الطاهرة، وحصلنا على غفرانات(+) لمدة سبع سنوات، حيث تلونا الأغنيات التجاوبية، والترانيم الجماعية، وجمعنا ماهو معيناً في كتب مسيرات الأرض المقدسة.

وغادرنا هذا المكان أخيراً، وتسلقنا نحو الأعلى مع كثير من التعب، حتى وصلنا إلى قنطرة حجرية، ممتدة من طرف الهوة الأول إلى الطرف الآخر، وهي منحنية تشبه بوابة، ومعمولة من حجارة مربعة قديمة جداً من حيث البناء والعمل، ولايوجد أي طريق نحو الأعلى، إلاّ من خلال هذه البوابة، التي ينقصها أبواب، وعلمنا هنا بشكل مؤكد وصحيح أن

مـامن يهودي يمكنه المرور من خلال هذه البـوابة، وهو أمر، قـالوا بأنه غـالباً مـاتبرهنت صحتـه، لأن الذي يحدث إمـا بسبب رعب أو بسبب معجـزة، عندمـا يصلون إلى هنا يصـدون ويطردون حتى وإن حـاولوا التمويه يجري كشفهـم، وهـم يتشوقون برغبـة عارمـة لرؤية المكان الذي جـرى فيـه منح شريعتهم، وذلك مثلما نتشـوق نحن لرؤية مكان صلب معطي شريعتنا، لكنهم يقفون تحت هذه البوابة مقصرين، ومتيبسين، ثم يغمى عليهم، ويرتجفون، ويجري طردهم بوساطة معجزة سماوية.

وقـــد حـــدث قبل بضـع سنوات مضت أن يهودياً غير مـن شكل ملابسـه، وأخفى يهوديته، والتحق بجماعة من الحجـاج المسيحيين، وقد ارتحل معهم عبر القفـار حتى هذا المكـان، وعندمـا عبر الحجـاج الذين مضـوا قبله خـلال البـوابة، لحق بهم حتى المكان نفسـه، لكنه لم يستطع المتابعة ووقف دونها حراك، وعندمـا سألوه عن الذي حدث معه، ولماذا لم يدخل، أجـابهم بدموع وبتنهـدات عميقـة:« أيها الحجاج، وياإخـوتي، إنني أراه مصلوباً فوق القـوس، ولايسمح لي بالدخول، وهو محق بهذا، فأنا لأسفـي، أعترف بأنني يهودي، وأنا حتـى هذا الوقت كنـت دومـاً عدواً للمسيح المصلوب، وقد موهت نفسي على أنني حاج مسيحي، من أجل أن أقـوم هنا بتقـديس مـوسى، معطـي شريعتنا، غير أنني أرى بوضوح أنني لاأستطيع الوصول إلى موسى إلاّ من خلال الذي صلب، وبناء عليه إنني من الآن فصاعـداً، أؤمن بالمسيح المصلوب، وأعد بأنني سوف أتعمـد، ذلك أنني أرغب في أن أموت مسيحياً» ومـا أن فرغ من التفـوه بهذه الكلمات حتى اختفى الصليب، ودخـل مع الآخـرين دونما معيق، وهو يمجـد الرب، وتلقى بعـد هـذا العماد وقص على كل من قابله مـاحدث معـه، وكان ذلك بمثـابة شهادة ضد عمـى اليهود، ومنذ ذلك الحين مامن يهودي قـد غامـر بالصعود، وفي الحقيقـة لو أنهم كانوا قـادريـن على الجواز بدون عـوائق، لتـوفـر دومـاً حجـاج يهود هناك.

وسرنا من هذه البوابة مسافة لابأس بها، فوصلنا إلى بوابة أخرى، إلى جانب البوابة المتقدم ذكرها، وعبرنا خلال هذه البوابة، فوصلنا إلى سهل رائع، الذي يشكل نهاية امتداد جبل سيناء، ومن هذا السهل، ينبعث منتصباً هناك جبلاً مستديراً وعالياً، صخرياً كله، هو الذي اسمه جبل حوريب، ويطلق في بعض الأحيان اسم حوريب، على الجبل كله، أي الجزء الأسفل وكذلك الجزء الأعلى، ويقال في بعض الأحيان للجزء الأعلى، صخرة حوريب، بسبب وعورة هذا الجزء وكثرة صخوره.

وهكذا بعدما عبرنا من خلال البوابة، مضينا عبر السهل المعشوشب، القائم هناك بيننا وبين حوريب، لأن السهل ينحدر انحداراً كبيراً، ويصل إلى كنيسة كبيرة وجميلة، فهناك ثلاث بيع كلها متصلة ببعضها، وهي محاطة بسور واحد، والبيعة الأولى هي بيعة القديسة مارينا، والبيعة الثانية هي بيعة النبي المقدس اليشع، والثالثة هي بيعة النبي المقدس إيليا، والمدخل هو من خلال باب صغير ومنخفض، ومن خلال البوابة المنخفضة، دخلنا إلى بيعة العذراء القديسة مارينا، حيث انكببنا بأنفسنا نحو الأرض، وقرأنا الصلوات المحددة، من كتاب المسيرات، وحصلنا على غفرانات(+).

وهناك حكاية بديعة حول هذه العذراء المقدسة في« حياة الآباء». تحدثت كيف أنها عاشت لسنوات طويلة في دير الرهبان، دون أن تكتشف بأنها كانت امرأة، وكيف أنها بصبر تحملت الملامة لأنها أغويت وهي فتاة، وكيف أنها تابت توبة قاسية جداً بسبب هذه الخطيئة، وكأنها كانت مذنبة، وهناك أنهت أيامها، وقد أصبحت فيما بعد مشهورة، وعملت معجزات رائعة، ولقد اعتقد أنها جديرة ببيعة هنا في هذا المكان الأعظم قداسة.

ثم إننا دخلنا إلى بيعة النبي المقدس اليشع، وغنينا الصلوات المحددة، وحصلنا على غفرانات(+)، وعندما كان اليشع هذا حياً عمل معجزات

عظيمة جداً، وعندما كان ميتاً أقام رجلاً ميتاً وبعثه إلى الحياة، كما قرأنا في سفر الملوك الثاني:١٣/ ٢١، ومن المعتقد أنه غالباً مازار هذا الجبل المقدس، تقليداً لإيليا معلمه، ذلك أنه كان تلميذه، وأُخبرنا أيضاً بأن إيليا قد حمل ورفع في عربة نارية، وكما قرأنا أيضاً في سفر الملوك الثاني:٢/ ١١، بأن اليشع ذهب إلى هذا المكان، وبحث عنه، ظاناً بأنه قد حمل إلى هنا، أو أنه طلب من أناس البحث عنه هنا، كما قرأنا في سفر الملوك الثاني:٢/ ١٧.

ودخلنا بعد هذا إلى البيعة الثالثة، وهي بيعة إيليا، حيث قرأنا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات مزدوجه(++)، ففي البيعة، وأعنى في كهفه، الموجود خلف المذبح، وهو الكهف الذي سكن فيه إيليا، أكثر أنبياء الرب حماسة وغيرة، وقد جاء سكناه بعدما أنجز ذلك العمل المتميز جداً في اقناع أنبياء بعل، وقتل أربعمائة وسبعين رجلاً، الذين ذبحهم إلى جانب جدول قيشون، كما قرأنا في سفر الملوك الأول:١٨،وكان عندما علمت ايزابل، تلك المرأة الشريرة جداً بهذا، أقسمت بأنها سوف تقطع رأس إيليا، ولذلك خاف وهرب عبر القفار، واختبأ في هذا الكهف، ووردت حكاية النبي إيليا هذه بالتفاصيل في سفر الملوك الأول:١٩، وكهف إيليا عبارة عن مغارة ضيقة في الصخر، فيها لايمكن لانسان أن يقف قائماً منتصباً، بل يمكنه الوقوف مستنداً أو الجثو، أو الجلوس.

وبعد فراغنا من رؤية هذه الأشياء، خرجنا من الكنيسة، ونظرنا فوقها، فوجدنا معلق فوقها صخرة عظيمة مستديرة، حيث تحدثت الحكاية بأن الغراب الذي جلب الطعام إلى إيليا اعتاد على الوقوف فوق هذه الحجرة، واعتاد ايليا على الخروج من الكهف، والتسلق إلى هاهنا وأخذ الطعام، لأن الرب اعتاد أن يتدبر تأمين حاجيات نبيه المقدس بوساطة الغربان، حسبما قرأنا في سفر الملوك الأول:١٧/ ٦ قوله:«

وكانت الغربان تأتي إليه بخبز ولحم صباحاً، وبخبز ولحم مساء».

وغـادرنا هذا المكان، وتابعنا سيرنـا، فتسلقنا إلى حـوريب، الذي هو جبل الرب، ويوجد على مقربة من الممر صخرة كبيرة، مكسرة إلى قطع، وهي مقطوعـة من صخرة كبيرة مـوجودة في الأعلى، كانت قـد سقطت نحـو الأسفل، وهي تشكل عقبة على الطـريق الذي يقود نحـو الأعلى، حيث بات على الانسـان بسبب هذه الكتلة الصخـرية أن يستـدير من حـولها، وهم يقولون بأن هـذه الصخرة قـد تحطمت وانفصمت في أيام النبي ايليا، عنـدما أمره الرب بـالخروج من الكهف، وعندما كـان واقفاً بحضرة الرب:« رأى الرب عـابراً، وريح عظيمـة وشـديـدة قـد شقت الجبال وكسرت الصخور»[الملوك الأول:١٩/ ١١]، وفي الحقيقـة يوجد إلى جـانب هـذا الشطر من الجبل تصـدع كبير في الصخـور، وصخـور مقلوبة عاليهـا سافلها، ومن الواضح أن هذا قد حـدث، على مشهد من ايليا، ليس فقط أمام عقله، بل أمام ناظريه الجسديين أيضاً، ولذلك قال مصنف Speculum Naturale بأن هذه العلامات الثلاث التالية هي التي لم يكن الرب فيهـا حـاضراً، ومع ذلك كـانوا جميعا حقيقـة مـادية، أولاهن: الريح القوية جـداً، التي شقت الصخور، وثانيهما: الزلزلة التي قلبت الجبال، وثالثهما: النار العظيمـة التي أحرقت الصخـور والتهمتها، والآثار المرعبة لهذه العاصفة، من الممكن مشاهدتها حتى هذا اليوم.

وتسلقنا خـلال هذه الحجارة المكسـورة، وأزحنا بعض الصخـور مع كثير من التعب والتعـرق، ووصلنا تقريباً إلى قمـة الجبل، عندما وجـدنا تحت القمة، على رقبة الجبل، صخرة فيها نقرة وهذه النقرة هي التي ورد الحديث عنهـا في سفـر الخروج:٣٣، فعندما كـان مـوسى يتحـادث مع الرب، رغـب في أن يرى وجـه الـرب، ومجد الرب، لكن الرب قـال له:«لاتقدر أن ترى وجهي، لأن الانسـان لايراني ويعيش»، وقال الرب له:« هوذا عندي مكان، فتقف على الصخـرة، ويكون متى إجتـاز مجدي

أني أضعك في نقـرة من الصخـرة وأسترك بيـدي حتى أجتـاز»، ولذلك صـدوراً عن التقـوى وضعنا جميعـاً أنفسنا في النقـرة، حيث مـدد الرب مـوسى على معـدته، وفي تقليـد منا للنبي لـوينا أنفسنا بصعـوبة في هذه النقرة، والنقـرة عالية قليـلاً فوق الأرض، ومنخفضة وليست مـرتفعة، ولذلك يمكن لانسان واقف فـوق الأرض أن يمد ذراعيه ورأسـه نحو داخلهـا، وإذا مـاأراد أن يدخل صدره إلى النقـرة، عليـه أن يرفع نفسـه قليلاً فـوق الأرض، وبذلك يمكنه أن يضع ذراعيه، وصـدره ورأسه في الحقيقة فيها، لكن ساقيه مع الأجـزاء الخلفية من جسده، تبقى معلقة في الخارج حتى سرته، وهكذا يجلس الانسـان وكأنه بين حجري طاحـون، لأنه يجلس وهو مستند حتـى معـدته على الصخـرة في الأسفل، وتلمس الصخرة الموجـودة في الأعلى ظهره، وإذا مااختـار انسان يمكنه أن يضع نفسه جميعاً في النقرة، لأنها عميقة، لكنني لاأستطيع أن أرى كيف يمكنه أن يخرج ثانية من دون مساعدة، ووجود انسان آخر يشده ويخرجه، لأنه لايمكنه أن يحرك نفسه نحو الخلف مثل السرطان، لأنه يكون معاقاً عن التحرك بوجود الصخرة التي فـوق والأخرى التي هي تحت، يضاف إلى ذلك لايوجـد متسع لاأمامـه ولاخلفه، لأنه لايوجـد مكاناً يستطيع أن يتحرك فيـه ومن ثم اخراج رأسه أولاً، وتبعاً للأخبـار الدينية، هذه هي النقرة في الصخـرة التي وضع الرب فيهـا موسى ليرى الأجـزاء الخلفية من الرب، وإذا مـاأراد أي واحد أن يعـرف مـاهو وجه الرب ومـا هي الأجـزاء الخلفية للرب، يمكنه العـودة إلى ماكتبـه نيقولا دي ليرا حـول هذا النص.

وعندما أردنا فحص هذه النقرة، صعدنا حتى القمة العليا لهذا الجبل الأعظم قـداسـة، وذلك فـوق الصخرة حيث تـوجد الصخـرة المتقـدم ذكـرها، فهـذه هي الصخـرة التي أمـر الرب مـوسـى أن يقف عليهـا(الخروج:٣٣) قائـلاً:« هوذا عندي مكان، فتقف على الصخـرة»،

فعلى هذه الصخرة قد بنيت بيعة في هـذه الأيام، واسمها كنيسة القديس المخلص، وهي مغلقـة بثبـات بوسـاطة باب معـدني، وهي قائمـة فـوق المكان الذي تسلم فيه النبي المقـدس موسى الوصـايا وقد كتبت باصبع الرب فوق لوحين حجريين، وعندما وقف موسى وحده مع الرب فوق قمة الجبل، حسبما جاء في سفـر الخروج:٣٤، أعطيت الشريعة له، وكان ذلك في السنة ١٤١٥ قبل ميلاد الرب.

وعندمـا قام الراهب نيقـوديمـوس، الذي رافقنا من الدير بفتح باب البيعة، خلعنا أحذيتنا، ودخلنا حفاة احتراماً منا لقداسة المكان، وكما هو متوجب انكببنا بأنفسنا نحو الأرض بخشوع خاص، وقبلنا المكان الذي عليـه تلقى مـوسى الشريعـة وتسلمها مـن يد الرب، وهذا المكان معلم بحجرتين، وبعدما قرأنا الصلوات المحددة في مسيرات الأرض المقدسة، حصلنا على غفرانات مطلقـة، وبعدمـا تفوهنا بصـلاتنا ذهبنا إلى السدة، وسرنا من حـــول المذبح، ونظـرنا متفحصين إلى المكان بخشـــوع عظيم وبسرور كبير، وغالبا مـاقبلنا أماكن خطوات الملائكة الذي ظهروا هناك إلى مـوسى، ورآهم بأشكال جسـدية مشـاهدة، ومثل ذلك قبلنا أمـاكن خطوات النبي المقـدس مـوسى، وكما قلت هناك حجـرتين عند مـدخل السـدة، وهما تغطيـان مـوضعي الخطـوات المقـدسـة، ففي المكان الأول وقف الملاك، وفي المكان الثـاني جثـا مـــوسـى وطوى ركبتيــه، فهناك حجرتين من الرخام الأبيض موضـوعتين في البلاط، وقد قيل بأنه تحت هاتين الحجرتين من الممكن حتى الآن رؤية عـلامات ركبتي موسى على الصخرة.

وبعد رؤيتنا لهذه الأشياء، خرجنا من الكنيسة، ولبسنا أحذيتنا مجدداً، وسرنا نازلين قليـلاً، مـايقـارب خمس عشرة خطوة، إلى جـانب البيعـة، ودخلنا إلى كهف تشكل بوساطة الصخـرة المعلقة من فوق، وهنا انكببنا بأنفسنا نحـــو الأرض، وتفــوهنا بالصلـوات المحــددة، وحصلنا على

غفـرانات(+)، ففي هذا الكهف أقـام مـوسى عندمـا لم يرغب الرب في عقـد مؤتمر معـه، وصام هنا لمدة أربعين يومـاً وأربعين ليلة، حتى يكون جـديراً باستـلام شريعـة الـرب، وهذا الكهف واسع وكبير، وليس فيـه ضوء إلاّ مايأتي من المدخل، وهو موائم للسكنى لراهب متأمل، ومقابل الكهف مـوضع مـرتفع بني عليـه مسجـد، وإلى جـانبـه جلس كثير من المسلمين، كـانوا مثلنا أنفسنا قـد تسلقـوا الجبـل في سبيل زيارة المكان المقـدس، وفي الحقيقة يقـوم بداة عرب، ومصريون، ومسلمـون، وأتراك بالحج إلى هنا من أمـاكن نائيـة في العـالم، صـدوراً عن الاحترام لموسى، فباستثناء اليهود يتدفق الناس من جميع الديانات والطوائف، مع بعضهم إلى هذا المكان، ولايستطيع اليهـود الصعـود، حتى وإن استطاعـوا، فإن الشعـوب لن يسمحـوا لهم، بأي حـال مـن الأحـوال، بالدخـول، هذا ولايتحمل المسيحيون وجودهم معهم، والصلاة هناك بجوارهم.

عـلاوة على ذلك، يوجـد على هـذا الجبل بئر كبير، يحتـوي على مـاء جيد، وبارد، وصحي، لكن لم نتمكن من الحصول على أي من هذا الماء، لأن البئر كـان عميقـاً جـداً، ولم يكن معنا شيئاً ننضـح به الماء، وهـم يطلقـون عى هذا البئـر اسم جب مـوسى، لأنه منـه شرب، لكن هذا لايتوافق مع الكتابات المقدسة، التي تقول بأنه صام هناك.

وتجولنا حـول قمـة الجبل، وتفحصنا كـل شيء هناك، وقـد شـاهدنا خـرائب كبيرة لأسوار قـديمـة كـانت من حولها، ومـن المعتقد أنه كـان هناك دير، كله قد خرب باستثناء كنيسـة، إلى جانبها يقيم دوما اثنان من رهبان دير القديسة كاترين بشكل مستمر.

وهذا الجبل متميـز في أن الجزء الأعلى منه مستـدير، وليـس متصـلاً بالجبال الأخـرى، وهو ليس أعلى من الجبال الأخـرى، لكنه قائم بذاته، وأكبر صعوبة في التسلق، ويوجـد من الدير إلى قمة الجبل حـوالي سبعة آلاف خطوة، ليس فيهـا الأمـاكن التي يصعـد الانسـان إليهـا، ليس

بالخطوات بل بوساطة درجات سلالم، ويوجد من هذا الجبل مشهد للمناطق النائية، لكن هذه المناطق من الممكن رؤيتها بوضوح أكبر، من جبل القديسة كاترين، ولسوف أتحدث عن هذه المناطق أثناء وصفي لهذا المكان، ووصف الجبل المقدس واضح مما قد قيل، أما مايتعلق بإطرائه وقداسته فمن الممكن جمعها من كثير من المواضع من الكتابات المقدسة القانونية، من ذلك على سبيل المثال من سفر الخروج: ٣،و١٩،و٢٠، ومن سفر التثنية:٥، حيث ورد الخبر بأن الجبل احترق بنار وصلت حتى السموات، وكذلك من خلال التوراه، والمزامير والأنبياء، فمن هذه الأماكن كلها علمنا بأن جبل حوريب من سيناء هو جبل رائع جداً ومرتفع، وأنه جبل مسكون من قبل الرب، وتتردد الملائكة عليه، وهو جبل الضياء، والنار، والاحتراق، وهو جبل غيوم مخيفة وظلام، وكذلك جبل حكمة وتعلم، وأيضاً جبل رحمة ووعد، وصلاح ولعنة، وجبل أبواق وصراخ وضجة، وجبل لطف وتحالف، وجبل شفقة وعدالة ومساواة، وقبل قربان وصلاة، وجبل خصب، وجبل رؤيا وتأمل.

وعندما فرغنا من رؤية جميع الأماكن المقدسة على هذا الجبل، جلسنا وتناولنا الطعام، حيث أكلنا وشربنا ماكنا قد جلبناه معنا، وبقينا لمدة تزيد على الساعة فوق الجبل المقدس، لأننا احتجنا إلى ثلاث ساعات للوصول من الدير إلى قمة الجبل، وبعدما عملنا هناك كل ماتوجب علينا عمله على الجبل المقدس، أعددنا أنفسنا للأعمال المتبقية، وانطلقنا على طريقنا كما يلي.

متابعة الحج

نزول الحجاج من جبل حوريب، وصعود بعض الحجاج إلى جبل القديسة كاترين

وبعدما تناولنا طعامنا، وأرحنا أنفسنا لوقت قصير، نزلنا من الجانب الغربي من الجبل، عبر طريق منحدر وخطير، ومخيف وكثير الشعاب، إلى حد أننا أُرغمنا في بعض الأحيان بأن ندع أنفسنا ننزلق نحو الأسفل عبر صخور منحدرة، وذلك بالانبطاح على أمعائنا، وغالبا مااصطدمنا أثناء نزولنا برؤوس صخور، كانت معلقة فوق ممر ضيق، حيث اذا ماانزلقت، كان معنى ذلك الموت، لأنه كان في الأسفل جدراناً عالية من الصخر، أية خطوة خاطئة عندها كانت ستسبب سقوط الانسان في وديان مرعبة، وأخيراً وصلنا إلى دير عرف باسم دير« الأربعين قديساً»، حيث دخلنا إلى الكنيسة وصلينا، وحصلنا على غفرانات(+)، وفي ذلك الوقت جلب لنا اثنان من رهبان دير القديسة كاترين، كانا مقيمان هناك، تيناً، وتمراً جافاً، وماء، بهم أنعشنا أنفسنا.

وبعد هذا، لم يكن الوقت قد وصل إلى الظهيرة، لذلك جلسنا وتناقشنا: هل سنصعد جبل القديسة كاترين أيضاً في ذلك اليوم نفسه، أونستريح حتى الغد، وقد توصلنا إلى قرار هو أن الشباب والرجال الأقوياء منا، وكل من يرغب، يقومون بالصعود إليها وقتها، وأن يعودوا بعد زيارة المكان، قبل غياب الشمس، في حين يستفيد الحجاج الأسن والأضعف من برد الصباح من أجل القيام بصعودهم، وقام عشرة من الحجاج الأقوياء، واستعدوا للقيام بالصعود في الحر الشديد، وأسماؤهم كما يلي: اللورد جون، كونت سولمس، وهو فارس، واللورد هري أوف سكومبيرغ وهو فارس، واللورد سغسموند أوف مارسباخ، وهو فارس، واللورد كاسبر أوف سيكولي، وهو فارس، والمعلم

لازينوس، وهو رئيس شمامسة وقانوني كنيسة ترانسلفانيا في هنغاريا، والراهب فيلكس من أولم، من طائفة القديس دومينيك، والأب باولوس غوغلنغر من طائفة الفرنسيسكان، والراهب توماس، وهو راهب علماني من الطائفة نفسها، وخادمين للكونت، اسميهما: جون، وكونراد، وقد رافق هؤلاء بعض البداة العرب، وقد شرعوا بتسلق الممر الشديد الانحدار، صعوداً إلى جبل القديسة كاترين.

وصعدنا إلى الجبل عبر ممر طويل، ووعر، وخلال وديان بلاممرات، وفوق جروف منحدرة، وفوق حجارة معلقة، وصخور مخيفة، وطرق منحدرة مرعبة وشعاب صخرية، تحت شمس محرقة جداً، ووجدنا على كل حال ماواسانا، وتمثل ذلك بنبعين لمياه باردة، على طريقنا صعوداً، وعندهما أنعشنا أنفسنا، وغلب واحد من الفرسان بالعمل الشاق، ووقع كلياً، وجلس في واحد من الأماكن الشديدة الانحدار، عاجزاً عن متابعة صعوده، وكنا قد تجاوزنا أكثر من منتصف الطريق، وكان بامكاننا رؤية قمة الجبل، ومع ذلك قد بقي طريق طويل أمامنا، وبناء عليه عندما رأى الفارس الضعيف أنه لن يكون بامكانه الوصول الى القمة، رجانا بمتابعة الصعود، وأن ندعه ينتظرنا لوحده، وكانت إجابتنا لذلك تشجيعه وإرغامه أن يمشي قليلاً بعد نحو الأعلى، ولكن عندما رأيناه قد سقط مراراً من أيدينا على الأرض وكأنه بدون وعي، ربطنا منشفة طويلة حول حقويه، بها جرّه بعضنا، في حين أمسك آخرون بيديه، وشدوه بذراعيه، ووقف آخرون خلفه ودفعوه صعوداً، وبناء عليه عملنا عملاً رائعاً، وبذلنا جهوداً كبيرة مع ذلك الحاج، وأخيراً وصلنا بعون الرب إلى قمة جبل سيناء، إلى الضريح الملائكي للقديسة كاترين، العذراء الأعظم مباركة، وانكببنا هنا أرضاً، وبخشوع قبّلنا المكان الذي إليه جلبت الملائكة جسدها المقدس، وحصلنا على غفرانات(+)، وغنينا أولاً القداسات المعينة في مسيرات الأرض

المقدسة، وجلسنا بعد الصلاة، وبدأنا نتحرق رغبة إلى خبز وماء، وقد رغب كل رجل منا لو أن معه سلته وقارورته.

ولست أدري لأي سبب، أنني وحدي كان معي سلة مليئة بالبقسماط، وبيض مسلوق، ولحم مدخن، وجبنة، وكنت قد جلبت ذلك لي وحدي، في حين ترك الآخرون جميع زادهم مع الحجاج الذين بقيوا في الأسفل، وبدأ واحد منهم يرجوني منحه قطعة من اللحم، وآخر قطعة من الخبز، وثالث لقمة من الخبز والجبن، وطلب مني آخرون جرعة من الخمرة، وعندما رأيت هذا دهشت، ولم أعط شيئاً لأي واحد منهم، بل أخذت سلتي وصببت ماكان فيها على صخرة مقعرة كانت ملاصقة لنا، وذلك في المكان الذي وضع فيه رأس القديسة كاترين فيما مضى، وهكذا قمت بأريحية بدعوة النبلاء والحجاج قائلاً:« اعلموا ياسادتي إنه قضي بالحكمة الإلهية، بأن تكونوا هنا جميعاً ضيوفي، وأن أكون وحدي مسؤولاً عن تكريمكم، الأمر الذي أنا على استعداد للقيام به، حيثما أنا قادر على تقديم ضيافة جيدة لكم، لأنه في هذا البيت، وفي هذه القاعة، وفي هذا الفراش، أقامت ونامت لمدة تزيد على الثلاثين سنة، بعد آلامها، القديسة كاترين، أحب الطاهرات إليّ، التي خطبت إليّ، من بين جميع الفتيات الثمينات جدا لمملكة السماء، وقد كان هذا في يوم عيد هذه العذراء من عام ١٤٥٢، فصدوراً عن حبها تخليت عن الدنيا، ولبست رداء الرهبان المبشرين، وبعد مضي سنوات، قمت في اليوم نفسه بالاعتراف بشكل علني مهيب بالطاعة(إلى هذه الطائفة)، وبذلك ربطت نفسي بشكل أبدي بخدمة الرب وبخدمة هذه العذراء وبناء عليه، أقبلوا أنتم جميعا الذين هنا، وكلوا بسرور»، وعند هذه الدعوة أقبلوا جميعاً، وأكلوا بسرور كل ماكان لدينا، وفي وليمتي هذه، كان هنالك كونتات، وفرسان، وكهنة، ورهبان، فضلاً عن ذلك كان هناك رجال علمانيون: مسيحي هرطقي، وبداة عرب، ومسلمون،

أكلوا جميعاً مما كان في السلة، وكانت هناك كميات وافرة من الخمرة، بسبب أن الحجاج الآخرين قد جلبوا قواريرهم، إنما كانت هناك حاجة إلى الماء.

وعندما رأى ذلك واحداً من البداة العرب من ضيوفنا، أخذ جره، ولم يركض، بل انزلق نحو الأسفل من طرف الجبل، وبعد وقت قصير عاد، وهو يحمل جرة مليئة بالماء الطازج، جلبه من واحد من الينابيع لم يكن معروفاً بالنسبة لنا، وبناء عليه مزجنا خمرتنا بالماء، وعندما أكملنا تماماً أكل جميع طعامنا حتى أصغر لقمة، وفرغنا من شرابنا، أنهينا وجبتنا، ولم يحدث قط خلال حجنا كله أن فرغت حقيبتي تماماً، وصارت نظيفة مثلما حدث في هذا المكان، وفي الوقت نفسه بدأت الشمس تميل نحو الغروب، وأنذرنا البداة العرب للقيام بالنزول قبل غيابها، ولذلك نهضنا وركضنا مسرعين نحو الأسفل، والتحقنا برفاقنا بعد الغياب مباشرة عند دير الأربعين قديساً، وفيما يتعلق بوصف الجبل، وبطبيعة الأرض، فسوف تظهر فيما يلي:

صعود جبل القديسة كاترين

وفي الخامس والعشرين، استيقظنا قبل ضوء النهار، ونهضنا من فوق الأرض التي تمددنا عليها في الهواء الطلق، في ساحة الدير، عازمين على تسلق الجبل للمرة الثانية، مع جميع اخواننا الذين بقيوا خلفنا في اليوم المتقدم، وعلى كل حال بقي الجزء الأكبر من الذين صعدوا في اليوم المتقدم دونما حراك، وأخذنا معنا خدماً من البداة العرب، وسائقي حمير، أعطيناهم حقائب أطعمة وجرار ماء لحملها، وتبعنا دليلنا الراهب نيقوديموس، بخطوات لطيفة تقديراً منا لمرضانا والضعفاء منا، ويقود الطريق من الدير ويسير لمسافة كبيرة خلال حدائق وآجام امتداداً حتى سفح الجبل، وامتلك طريقنا هذا ضوء القمر، ولكن عندما وصلنا إلى حيث نبدأ بصعود الجبل، دخلنا إلى واد كان مغلقاً بجدران عالية من

الصخور، ومضينا صاعدين من هذه الأعماق، فوق طريق وعر للغاية، ومن دون أي ضوء، لأننا كنا مطوقين بجروف من الصخر، ولذلك لم يكن بامكان نور الشمس الوصول إلينا، وشعرنا في هذا الوادي بالبرد، إلى حد أن أسناننا أخذت تصطك، وتمنينا أنه لو كانت لدينا نار، لكن لم يكن معنا مانعمل به ناراً، وعلى كل حال قام البداة العرب شفقة منهم علينا لما كنا نعانيه، فجمعوا بعض الخشب الجاف، وحكوهم ببعضهم بالأيدي، حتى صاروا جاهزين لالتقاط النار، ثم أخذوا حجرتين من قعر المجرى، وضربوهما ببعضهما بشدة حتى أعطيا شرارة أشعلت الأعشاب، وجمعنا عصياً وعملنا ناراً كبيرة، وقفنا من حولها وأدفئنا أنفسنا.

وأعتقد أن البداة العرب لابد أنهم تعلموا استخراج النار من الحجر الصوان من بروميثيوس بن يابيتوس Prometheus son of ia-petus الأسيوي، ومن حورية، كان في أيامها— كما أخبرنا الشعراء— هناك رجل صاحب حكمة عظيمة، فهو بعدما عمل شكل انسان من الصلصال، وضع فيه حياه بسرقة نار من السماء، وكان الانسان الأول الذي علم بني البشر، أن النار من الممكن استخراجها من حجارة الصوان، ويقال بأن النار قد اكتشفت أولاً من قبل فولكان Vulcan، لأنه عندما احترقت شجرة بسبب البرق، لقطت بقية الأشجار النار منها، واحترقت الغابة كلها، وفرح فولكان بسبب الحرارة، ووضع وقوداً جديداً عندما بدأت النار تخمد، وبذلك أبقى النار مشتعلة، وأظهر للناس أنه هو الذي اخترعها، وبذلك حصل على جائزته بتعيينه ملكاً على مصر كلها.

وبعدما شعرنا بالدفء وبالراحة، أخذنا بعض الجمرات المحترقة، وتابعنا سيرنا عبر الوادي ونحن نحملهم معنا، ووصلنا في الوادي إلى أماكن حيث هناك جروف، وجدران من الصخر، عليهم تسلق البداة

العرب، ثم قاموا بسحب الحجاج واحداً تلو الآخر، وغالباً ماتفكرت في ذلك الصباح كم هي مدهشة طرق الرب، ففي الأمس كنا بصعوبة بالغة نستطيع التنفس بسبب الحر، واليوم بصعوبة بالغة يمكننا العيش بسبب البرد، لأننا كنا كلما صعدنا أكثر، شعرنا بشدة البرد أكثر، ووصلنا في الوقت نفسه إلى نبع، إلى جانبه مجدداً أشعلنا ناراً، وعلى الفور بدأنا نتمتع بحرارة النار، مثلما متعنا أنفسنا في اليوم المتقدم ببرودة الماء في تلك البقعة، وبعدما أدفئنا أنفسنا للمرة الثانية، مضينا نسير على طريقنا، فتسلقنا منحدراً طويلاً منزلقاً، وعند رأس هذا المنحدر وصلنا إلى جدار كبير من الصخر، من حافته كانت تتساقط مياه نقية جيدة، مع أننا لم نهتم بالشرب منها، لأن الوقت كان مايزال الصباح الباكر، وكنا نعاني من البرد كثيراً، وتساقطت هذه المياه في مكان مقعر من الصخرة، وعملت هناك نوعاً من أنواع الصهاريج، وأشعلنا مجدداً ناراً إلى جانب هذا الصهريج وأنعشنا أنفسنا بحرارتها، ذلك أن البرد كان عظيماً إلى درجة أننا لو لم يكن لدينا نار، لأغمي علينا ونحن نرتجف.

ولدى متابعتنا سيرنا، تسلقنا الأماكن الصخرية، ووصلنا إلى منحدر كان منزلقاً جداً، وكان ناعماً— أي بدون صخور أو نباتات— وكان هذا المنحدر مليئاً بالأعشاب مثل مرج من المروج، وعندما كنا ندفع أنفسنا صعوداً، فجأة أشرقت الشمس، وازدادت الظلال، ورأينا بعيداً فوق هذه الشقة الضيقة رأس الجبل، وهو مشهد وقفنا نحوه مندهشين، مندهشين تجاه الارتفاع المتبقي، وذلك بعد صعودنا لمثل هذه المسافة الطويلة، ورأس هذا الجبل أو قمته، من غير الممكن رؤيته من الأسفل من قرب سفحه، لأن شكله هو كما يلي: أولاً، له قاعدة واسعة جداً، حيث ينبت فيها كثيراً من العليق والنباتات والشجيرات، ووصلنا بعد هذا إلى صخور طويلة يتخذ الانسان طريقة فيها صعوداً خلال فجاج تقوده إلى جوف الجبل، الذي يتنامى ويتسع كثيراً من كتلة الجبل، وكأن

الأرض نسفت نسفاً، وبسبب هذا الاتساع لم يكن بإمكان الانسان أن يرى من الأسفل لارأس الجبل ولارقبته، وعلى هذا المكان المتسع طريق واسع، يحتوي على كثير من الأماكن المعشوشبة، هي ممتازة لحمل عشب جيد، وجوف الجبل هذا يحتوي أيضاً على ممر طويل يقود إلى قمم الجبال المجاورة، بطريقة أن الانسان يمكنه العبور على طول الجرف إلى قمم الجبال الأخرى، وعند نهاية هذا الجوف تقف تلة جبل سيناء، لأن كثيراً من الصخور الملتوية والوعرة تنبعث مرتفعة في ذلك المكان، مندفعة من الأرض المنتفخة، وذلك مثلما تنمو رقبة الانسان من جسده.

وهذه الرقبة عالية إلى حد أن الانسان يرتجف لدى التحديق بها، وفوق الرقبة هناك رأس الجبل، وتنصب الصخرة المشكلة للرقبة مباشرة نحو السماء، وهي مشكلة بوساطة جروف عالية وحادة، حتى أن الانسان الذي يقف في الأسفل، لايمكنه أن يتصور أنه ممكن لأي انسان الصعود إلى القمة، وفي الحقيقة إنه قبل ظهور القديسة كاترين هناك، مامن انسان غامر بتسلقه، ولذلك نقرأ في Speculum Historiale— الكتاب: ١٩، الفصل: ١٧، عن بعض الرجال المسنين الذين عندما كانوا يزورون آباء الكنيسة يقولون لهم:« انظروا إلى قمم جبل سيناء، التي رأسها يمتد حتى السماء، ولايمكن بأي حال من الأحوال الاقتراب منه».

ولم نعبأ بجميع هذه المعيقات، بل أعددنا أنفسنا برجولة للمهمة التي بدأناها، وقد وصلنا حتى الرقبة، على طول حافة الجبال الأخرى، وبدأنا الآن بالصعود إلى الرقبة نفسها، التي كانت منحدرة جداً، وتسلقنا فوق الصخور والجروف مثل انسان يتسلق شجرة، حيث كنا نشد أنفسنا من صخرة إلى أخرى، ومضى الأقوى منا في الأمام، ومدوا أيديهم إلى الذين تبعوهم، وبذلك سحبوهم نحو الأعلى، ولم يكن هناك مكان لرجل ضعيف القلب، أو لأناس يفقدون توازنهم لدى نظرهم

من الأسفل إلى الأعلى، ولم نتسلق بشكل نظامي واحداً تلو الآخر، بل كل واحد صعد إلى المكان القريب منه شخصياً، وإلى حيث فكر أنه الأفضل، لأنه كانت هناك كثيراً من الأشياء ليمسكها الانسان بيده، وليرتاح عليها بقدمه، وهكذا صعدنا نحو الأعلى، ونحن نزحف حول كتلة الصخور الممتدة من وجه الجروف، وكنا مثل نملات تتسلق شجرة، وأخيراً بما أن« التعب الذكي يتغلب على كل شيء»، وصلنا إلى رأس أو قمة الجبل المقدس، وعندما كنا هناك، كانت هناك ريح قاسية جداً، وباردة، وقوية، ثائرة، لذلك لم يكن بامكاننا تلاوة صلواتنا أو فعل أي شيء جيد من دون نار.

وجمع البداة العرب على الفور حزماً من الأخشاب، وعملوا كومة منهم، وأشعلوا ناراً كبيرة، وقفنا إلى جانبها، حتى علت الشمس— التي كانت قد أشرقت منذ بعض الوقت— أكثر، وصارت حدة الريح أقل قسوة، وعندما شعرنا بالدفء، وانتعشنا بعض الشيء، مضينا إلى الضريح الذي إليه حمل الملائكة القديسة كاترين، العذراء المجيدة، وبسرور رتلنا القداسات المحددة في كتب مسيرات الأرض المقدسة، وصلينا بخشوع عظيم، وتأملنا لوقت طويل بصمت، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وشعرنا بسرور خاص فوق هذه البقعة المتميزة، لأنه حتى الآن حملتنا أسفارنا بشكل دائم بعيداً عن وطننا وديارنا، والآن شرعنا من هذا المكان المرغوب فيه بالاستدارة بأنفسنا نحو العودة، وصرفنا وجوهنا بثبات نحو اتجاه مواطننا، وبلداننا، وكم هو ممتع وسار شيء لايمكن أن يفهمه انسان، إلاّ الذي أقام مدة طويلة في أجواء بعيدة، والذي عاش منفياً في أرض غريبة بين قوم لايعرفهم، ولايعرف طباعهم، ولايفهم لغاتهم، والذي سكن لبعض الوقت مع شعب له طائفة غريبة، ودين غريب، ويعبد مايبدو رباً غريباً، وإنني أقول هو وحده قادر على أن

يفهم قول الشاعر:« هذا لي، وهذه أرضي الخاصة»، وهذا مايشهد عليه هوغو رغيولير Hugo Regularis عندما قال:

« عزيز على كل فاني وطنه

فنحن لانستطيع نسيانه أينما تجولنا»

وبناء عليه شعرنا في هذا المكان المقدس بسرور مزدوج، وكان السرور الأول صادر عن تذكرنا، الحديث لبلادنا الخاصة، التي نحوها كنا الآن ندير وجوهنا، وسرور آخر من وجود قبر العذراء الذي رأيناه بأعيننا، وتعاملنا معه كما نحب، ويقوم هذا القبر كما يلي: يتشكل رأس أو قمة جبل سيناء كله من قطعة واحدة من الصخر، هي في القمة مسطحة، مشكلة مايشبه موضعاً مستديراً ليس واسعاً جداً، قياسه حوالي ست خطوات عبره كله، وأرض هذا الموضع هي قشرة الصخرة ويدور من حوله عند الطرف جدار من الحجارة الجافة، يشبه سياجاً، وقد بني خشية أن يسير أي انسان بلا انتباه فيسقط منتكسا نحو الأسفل، وأيضاً خشية أن يصاب الذين ينظرون نحو الأسفل بالدوار، من أي جزء نظروا، بسبب الارتفاع العظيم، وكذلك من أجل أن يسير الانسان هناك ويتجول مع حرية أعظم وخوف أقل، وفي وسط هذه الأرضية الحجرية هناك مكان مجوف لتلقي جسم انسان مسطح ومتمدد على طوله تماما، وهذا التجويف ليس عميقاً جداً في الصخر، بل إنه عميق بما فيه الكفاية لاستيعاب جسم انسان متمدد حيث أنه يملأ التجويف، وبذلك يصير مستوياً مع بقية الأرضية، وهذا التجويف ليس مصنوعاً بأية أدوات معدنية، أي بعمل انساني، بل إنه مضغوط في الصخر بوساطة معجزة، لأنه عندما حمل الملائكة جسد العذراء إلى هنا من الاسكندرية ووضعوه فوق هذه الصخرة القاسية جداً، والناعمة، قامت الصخرة على الفور فانفرجت بقوة عمل ملائكي لاستيعاب جسد القديسة، وصارت الصخرة لينة مثل الشمع تنفرج وتنضغط تحت

أي شيء قاس وثقيل يمدد فوقها، وهكذا ضغط جسد القديسة موضع لحد له يتوافق مع شكله، فهناك تمددت مرتاحة لمدة ثلاثين سنة، غير معروفة من قبل البشر، ومحروسة من قبل الملائكة.

والبرهان المقدم على هذه الحراسة هي الأماكن المجوفة على الجانبين بشكل موائم للجلوس فيها، وكأن انسان ما قد جلس هناك، وفي الحقيقة يقال بأن الملائكة الذين تولوا حراسة جسدها قد سكنوا هناك، ربما بأجساد مادية، مثلما ورد في الكتابات المقدسةوقيل بأنهم جلسوا، وساروا، وطاروا، فالملائكة الذين أعلنوا عن قيام الرب، قيل بأنهم جلسوا على حجرة الضريح(متى:٣٨، مرقص:١٦/ ٥)، وعلى كل حال، إذا ما أراد ملاك استعارة جسد مادي، عندما يرغب بالجلوس، هو لايحتاج إلى مقعد أو كرسي، وكذلك هو ليس بحاجة لإراحة نفسه بالجلوس، ومع ذلك صنع الملائكة أماكن مناسبة للجلوس إلى جانب الجسد المقدس للعذراء، حتى يظهروا أنهم يحرسون الجسد المقدس، وباقين دوما إلى جانبه، أما كيف تم العثور على جسد العذراء هنا، وكيف جرى نقله من هنا إلى الدير فقد تقدم تبيانه من قبل.

وانكببنا بأنفسنا نحو الأرض أمام المكان الذي تمددت فيه العذراء، ووضعنا أنفسنا فيه، ليس من باب الرياء، أو الفضول، بل من باب التقوى، ولقد استخلصنا أنها لابد قد كانت طويلة القامة، وأخيراً بعدما قدمنا جميع التشريف المستحق، أو في جميع الأحوال جميع التشريف الذي كنا قادرين على تقديمه إلى هذا المكان المقدس، غادرنا لمشاهدة الأشياء الأخرى.

بلدان العالم التي رأيناها في أطراف الدنيا الأربعة من قمة هذا الجبل المقدس، ووصف للأراضي، والمياه وهكذا دواليك.

ووقفنا على حافة جبل القديسة كاترين، وألقينا نظرة على الأراضي،

والمناطق، والمقاطعات القائمة في تلك الأحواز، واستطعنا أن نرى بعض المناطق البعيدة من العالم، لأننا كنا واقفين في أماكن عالية جداً، ولم تكن مشاهدنا محجوبة بأية غيوم أو بأية معيقات، وألقينا أولاً بأبصارنا باتجاه الشرق، نحو مساحة كبيرة من الماء، أي نحو الخليج العربي، الذي يعرف أيضاً بالبحر الأحمر، الناشيء عن المحيط الهندي، وباتجاه الشرق لم يكن باستطاعة أعيننا رؤية شيء سوى المياه، التي امتدت حتى جبال مدين، وكذلك رأينا البحر الأحمر وهو يحيط بجبل سيناء.

والملاحة في البحر الأحمر صعبة جداً وخطيرة، ولذلك فإن القديس جيروم في رسالته عن الحياة الديرية التي وجهها إلى الراهب روستيكوس Rusticusقد قال عن هذا المكان كما يلي:« يصل الذين يبحرون فوق البحر الأحمر إلى مدينة كبيرة، وبعد كثير من المصاعب والمخاطر، لأن الشواطيء مسكونة من قبل قبائل أناس متنقلون، أو بالحري من قبل أكثر الناس وحشية، وعلى الملاحين أن يكونوا دوماً محترزين، والأسلحة دوماً في أيديهم، وأن يحملوا معهم أطعمة لمدة سنة كاملة، فالبحر مليء بصخور غاطسة، وضحله قاسية جداً، لذلك يتوجب على القبطان أن يجلس على رأس السارية، ويصرخ معطياً أوامره من هناك لعمل السفينة، وسوف تكون رحلة سعيدة، إذا ماوصلت السفينة إلى ميناء البلدة المتقدم ذكرها خلال ستة أشهر، وهي التي يبدأ بعدها المحيط بالانفتاح بنفسه، وبصعوبة يمكن أن تصل عبر هذا المحيط إلى الهند خلال سنة ابحار متواصل، حيث تصل إلى نهر الغانج، وهو الذي تدعوه الكتابات المقدسة باسم فيشون Phison، حيث ينمو هناك كل شيء مرتفع الثمن كثيراً جداً، وحيث هناك جبال من الذهب، مامن انسان يستطيع الاقتراب منها بسبب الغريفونات(الأسود الخرافية المجنحة) والتنينات، والمخلوقات الرهيبة الأخرى ذوات الأحجام الهائلة، هذا ماذكره القديس جيروم.

ويمتد من بحر الهند هذا نفسه خليج كبير آخر، باتجاه الشرق، هو الخليج العربي، فهو يمتد داخل البلدان العربية، ومنها قد نال اسمه، وعلى مقربة منه البلاد التي اسمها في الكتابات المقدسة فارس، وهكذا اسماها الإغريق اشتقاقاً من اسم فرسوس Perseus، ملك الأرغريفيين Argives، الذي استولى عليها بعد كثير من المعارك، وأجبر الناس الذين كانوا حتى ذلك الحين بدائيين، على الاستقرار والعيش وفق طريقة حضارية، كما أنه منح تلك البلاد اسمه، وحول فرسوس هذا يروي الشعراء كثيراً من الأساطير، هذا وتقدم لنا الحديث عن حصانه المجنح من قبل، وكان في هذه البلاد فيما مضى مدينة قوية جداً، اسمها فيرسيبولس Persepolis وهي التي قد تأسست من قبل فرسوس، وحدثنا بليني في كتابه الخامس، بأن التفاح الفارسي الذي نسميه نحن في ألمانيا الدراق، كان يحمل من تلك البلاد إلى بلادنا، ولذلك أطلق عليه اسم التفاح الفارسي، وهذا التفاح سام في بلاد فارس، لكنه هنا حلو، وطيب المذاق، وذلك وفقاً لما ورد في«الكاثوليكونCatholicon » [رسالة حول فلسفة الزهد]، وهذه البلاد متصلة بميديا، وفقط مفصولة عنها ببعض الجبال العالية، القائمة بينهما، وذلك مثلما ايطاليا هي منفصلة عن ألمانيا، وكانتا في القديم مملكتان عظيمتان، وحدهما قورش في مملكة واحدة.

وبلاد ميديا واقعة إلى الشرق من جبال القوقاز، وإلى الجنوب من فارس، وإلى الشرق من بلاد الفرس بلاد الهنود، وإلى الجنوب البحر الأحمر(الخليج العربي)، وكان في بلاد ميديا فيما مضى Egbathanis، وكانت مدينة قوية جداً بناها أرفخشد، حسبما جاء في سفر يهوديت:١، ومدينة سوسة التي قرأنا عنها في سفر أستير.

وألقينا بعد ذلك بأبصارنا نحو الجنوب، في خليج البحر الأحمر، وقد رأينا خلف مجراه جبالاً عالية جداً، وفي هذا المكان أكثر القفار عزلة،

وهي قفـار طيبة Thebaid ، التي عاش فيها فيما مضى أكثر الرهبان قبولاً، ويتـاخم هذه القفار من الجنوب المحيط، ومـن الغرب النيل، نهر مصر، ففي هذه القفـار، اعتـاد أن يعيـش القـديس أنطوني الكبير، وهو صاحب اسم مشهور في العـالم كله، ومثله فعل القديس أرسينيوس Ar-senius ، وكـذلك القـديسون الثـلاثة، الذين كـان اسم كل واحـد منهم مكاريوس، مع قديسين آخرين ذوي قداسة عظيمة جداً.

والأشياء الأولى التي رأيناها في البحـر الأحمر كانت جـزراً مهجورة، كانت صخورها تلمع بملح أبيـض، هذا ويوجد في هذا البحر كثيراً من الجزر الثمينة جـداً، التـي لم يكن بامكاننا رؤيتهـا، ورأينـا على شـاطىء البحر الأحمر، الذي كـان على طرفنا ميناءً بحرياً متميزاً جـداً، الذي كان اسمه فيما مضى Berenice أو Arolech واسمه الآن الطور، وتلقي السفن التي تأتي من الهند حاملة العطور والتوابل مراسيها في هذا الميناء، ومن هناك يجري حمل التـوابل إلى مصر، ومن مصر عبر البحر المتـوسط حتى بلادنا، وهـذا أقصى ميناء في الشرق معـروف بالنسبــة لنا، وهناك يوجـد دوماً سفنـاً هندية كبيرة كثيرة، وهي معمولـة ومبنية مع بعضهـا بحيث ليس فيهــا حــديد، كما أنهم لايتجــرأون على امتـلاك مــراسي حديدية، أو سـلاسل، أو صحون، أو مسـامير، ولاأية أسلحة معـدنية، ولافؤوس، ولاحراب، ولاأية أدوات حـديدية مهما كان نوعها، وسبب هذا هو أنه هناك على شواطىء البحر الهندي فجـاج وجبال معمولة من حجر المغنطيس، ومن قـرب هذه الأماكن السفن المتوجهة نحـو العربية تحتاج إلى المرور، وبناء عليه إذا وجدت أية سفينة تحتوي على أي حديد، وعليها المرور بتلك الأمـاكن التي فيها حجـارة مغنطيس، فإن المغنطيس ســوف يجذب السفينة فــوراً بسبب الحديد، وبذلـك ســوف تصطدم بالصخور وتغـرق، لأن المغنطيس يجذب الحديد إلى نفسه بشكل عجيب جـداً، والذي يهمـه أن يقرأ أكثـر حـول هذا، عليـه أن ينظر في -Spec

ulum Historiale— الكتاب:٢٠، الفصل:٢٠.

علاوة على هذا، في عدة مناطق من الشرق هناك صخور، لها مثل هذه الطبيعة، أي أنهم يجذبون إليهم أناس يرغبون بعبورهم، وذلك مثلما يجذب المغنطيس الحديد، وعندما يُجذب مثل هؤلاء المسافرين، يضحكون، ويصبحون مسرورين، ثم يصطدمون بالصخور، ويهلكون، وقد تحدث كونسيلياتور Conciliator عن هذه الصخور في كتابه Doctrina— الفصل:٦٧، حيث قال بأنه بسبب العوائق مامن انسان يمكنه أن يبحر إلى أجزائنا من الأرض، حتى وإن لم يمنعهم الاتساع الهائل للمحيط.

وأخبرنا الراهب نيقوديموس، أن رهبان القديسة كاترين يتقاسمون مع سلطان مصر المكوس التي تدفعها السفن المحملة المستخدمة لهذا الميناء، وأنهم يمتلكون إلى جانب شاطىء البحر بستان أشجار نخيل كبيرة، منها يجنون تموراً كثيرة كافية لهم طوال السنة، ومع ذلك فإنهم يبيعون الجزء الأكبر من هذه الثمار.

ورأينا عندما نظرنا نحو الغرب، خلف هذا الخيج البحري باتجاه الجنوب، جبلاً عالياً اسمه أولمبوس السودان، لتمييزه عن أولمبوس مقدونية، ويتدفق هذا الجبل عند شروق الشمس بلهب على شكل مخيف لمدة خمس ساعات، ومن هذا الجبل تبدأ بلاد السودان، وهي بلاد كان اسمها في القديم أطلنطا، ويحدها نهر النيل، وهي بلاد واسعة جداً، وتنتج رجالاً غريبين مع حيوانات رائعة في قفارها، وينظر بعض هؤلاء الرجال نحو الشمس عندما تشرق، وعندما تغيب مع لعنات مرعبة، وهم دوما يشتمون الشمس بغضب، بسبب معاناتهم من الحرارة، وهناك يسعى ساطير ويتجول، وهوالذي يشبه الانسان إلى حد أنه يعد انسانا حقيقياً، ويحد هذه البلاد ليبيا، وهي منطقة واسعة من مناطق أفريقيا، وكذلك تحدها مصر.

وسحبنا أعيننا من هناك، وعن التطلع إلى تلك المناطق النائيـــة، وثبتناها على السهل الصحراوي الواقع بين جبل سيناء، والبحر الأحمر، ودهشنا تجاه حجمه وعزلته، وأخبرنا الراهب نيقوديموس أنه كان يوجد في تلك القفار دير لرجال مقدسين، وهذا الدير لم يستطع انسان في العصر الحديث أن يعثر عليه، مع أن أصوات النواقيس تسمع كل يوم، وهو تقرع في الساعات القانونية، ولقد حاول بعض رهبان دير القديسة كاترين العثور عليه، وقد أعلنوا أنهم سمعوا صوت النواقيس، لكنهم لم يتمكنوا بأية وسيلة من الوسائل العثور على الدير نفسه، وهم يعتقدون بأن هذا المدير مخفي بنعمة الرب، بسبب ذنوب البداة العرب، ولكي لاينزعج الذين يسكنون فيه، بسبب وقاحتهم، مثلما يحدث للديرة الأخرى في الصحراء، وفي هذا الطريق نفسه اختبأ لوط من شعب سدوم(التكوين:١٩)، وأخفيت مدينة دوثان عن السوريين، حتى لايتمكنوا من اعتقال النبي اليشع(الملوك الثاني:٦)، وكان على كل حال هناك بعض البداة العرب مع الراهب، وقد أعلنوا— وربطوا اعلانهم بالقسم— أنهم قد كانوا في ذلك الدير، ولكن بعدما خرجوا منه أضاعوا مباشرة الدير والطريق إليه.

ويختفي في بعض الأحيان بعض رهبان القديسة كاترين، ولايعرف انسان إلى أين ذهبوا، ومن المعتقد أنهم نقلوا إلى ذلك الدير ليشغلوا أماكن الذين يموتون من وقت إلى آخر، وينبغي أن لايستخف أي انسان بهذا وينظر إليه على أنه صبياني أو خيالي، فقد قرأنا مثل هذه الحكاية في« حياة الآباء»، وكان ذلك حول الصحراء نفسها، وتقول الحكاية بأنه سكن هناك رجل مقدس، لم يستطع أي انسان العثور عليه، وكان راعي الدير بوستوميوس Postumius في زيارة للآباء والقديسين الذين كانوا يسكنون في القفار، وقد بحث عنه لوقت طويل، لكنه لم يستطع العثور عليه، لأنه كان كلما حاول رجل أن يقابله، كان يهرب

بعيداً في داخل القفار إلى بقعة غير معروفة، ويتجنب الحديث مع أي واحد من بني البشر، ومع ذلك لقد قيل بأنه التقى براعي الدير، الذي كما افترض، حصل على هذه الفضيلة بسبب قوة ايمانه، وعندما تحادثا، سأله راعي الدير، لماذا يتشدد في تجنب بني البشر، أجابه« إذا كان الرجال سوف يتحدثون معي، فإن الملائكة الذين أتحدث الآن معهم، سوف يهربون مني»، وقرأنا الشيء نفسه عن القديس هيلاريون، الذي عرفه اللصوص الذين يتصيدون في القفار، وغالباً مابحثوا عنه، لكنهم لم يستطيعوا بأي سبيل من السبل العثور على قلاية الرجل العجوز، انظر Speculum Historiale— الكتاب:١٧، الفصل:١٩، والكتاب:١٩، الفصل:١٧، وجيروم في كتابه« حياة القديس هيلاريون»، الفصل:٩، الذي هو النص الأصيل.

وتحولنا من هناك واتجهنا نحو الشمال، حيث يتصل بالشرق، وألقينا بأبصارنا باتجاه بلاد العربية التي تحتوي على صحارى شاسعة جداً، وهي مليئة في كثير من أجزائها بعطور ثمينة متنوعة، ولهذا السبب عرفت باسم« العربية المباركة»، وهي تمتد فيما بين الخليج العربي والبحر الأحمر، وتدعى باسم «المباركة» بسبب الجودة الخاصة للتربة، لأنه عندما يجري حفر الأرض في بعض الأماكن تخرج بعض الكتل الترابية ذات الرائحة الطيبة، ويتم العثور عليها، ويستخرج الذهب من تلك البلاد بعد الحفر عليه، ولايتم تذويبه بالنار كما يجري عادة العمل في المناطق الأخرى، بل يستخرج من الأرض على شكل قطع بحجم اللوز، والكستنا، ولونه لامع إلى حد أنه يغري بجلب الأحجار الكريمة ووضعها في ذلك الذهب، وفي العربية هذه بلدة مكة، وهي مدينة النبي محمدﷺ، وفيها معبد ضريحه(كذا)، الذي يقال بأنه معلق ببراعة متناهية، بوساطة أعمال آلية، يعتقد الذين لم يعرفوا كيف عملت، أن الضريح معلق بالهواء بوساطة بعض القوى الربانية، والحقيقة هي أنه

هناك أحجار مغناطيس تحمل أجزاء متساوية بين قسم وآخر، فقد جرى وضع قسم من الأحجار في الأرض من تحت، ثم قسم آخر في سقف مقبب من الأعلى، وتابوت محمدﷺ، الذي هو من حديد، معلق في الهواء بين هذين القسمين من الأحجار، وكأنه مثبت هناك بوساطة إرادة ربانية، وهناك شيء مشابه قد صنع من الحجارة وفق الطريقة نفسها في مشكاة فينوس، التي يندهش الكفار نحوها، علاوة على ذلك كان هناك في واحد من الهياكل صنم حديدي معلق في الهواء وفق الطريقة نفسها، كما ورد إلينا الخبر في Speculum Historiale — الكتاب:٩، الفصل:٢٠، وفيما هو مقبل في ص٧٢ظ.

واستدرنا الآن أكثر نحو الشمال، ونظرنا باتجاه بلاد الكلدان، التي تحدها العربية، ففي هذه البلاد بنيت مدينة بابل العظيمة من قبل نبوخذ نصر، حسبما قرأنا في سفر دانيال.

وكان في بابل هذه مسلة عظيمة، كانت احدى عجائب الدنيا السبع، فقد أمرت الملكة سميراميس بقطع حجرة من جبال أرمينيا، طولها مئة وخمسين قدماً، وسماكتها أربعة وعشرين قدماً، وبجلبها إلى بابل، حيث نصبتها، مما أدهش جميع الناظرين إليها، ويوجد على مقربة من هذه المدينة حقل دورا Dura ، حيث التقى العفاريت مع بعضهم بعد الطوفان، من أجل بناء برج بابل، وهناك أيضاً حدثت بلبلة الألسن، وأقام في هذا الحقل نبوخذنصر تمثالاً ذهبياً للرب، وهو الصنم الذي رفض أنانياس Ananias، وآزارياس Azarias وميسائل Misael، رفضوا عبادته، لذلك ألقى بهم في أتون نار مضطرم، وهنا كان صنم بعل، وعرين الأسود، وكانت هذه المدينة قد تزينت بنعمه سوزانا، زوجة يواكيم، وغالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة، وجاء من هذه البلاد، كما قلت من قبل، الغجر، الذين ندعوهم الـ Zigeuner(النور) وانتشر هؤلاء الناس مع أزواجهم وأولادهم، في أيامنا، فوق أوروبا

كلها، ولم يسمح لهم بالدخول إلى المدن، لأنهم الأبرع بين اللصوص.

وطردهم البنادقة كلياً من مملكتهم، بسبب لصوصيتهم ولأنهم اتهموهم بكونهم، جواسيس، ووفق الطريقة نفسها لم يسمح لهم اللورد ايبرهارد Eberhard، دوق وورتمبورغ Wurtemburg بالدخول إلى دوقيته، لأنه عانى منهم شخصياً ومن خيانتهم عندما كان في أزمة في الأرض المقدسة، فقد خانوه لصالح المسلمين، ولكي تجري معاملتهم بشكل أفضل من قبل الأناس المسيحيين، أعلنوا بشكل زائف، بأنهم قدموا من مصر العليا، وقد نفيوا من هناك، حتى يتمكنوا من التوبة، لأنهم لم يظهروا حسن استقبال للعذراء المباركة، وللطفل يسوع، وليوسف، عندما هربوا إلى مصر، وهذه حكاية زائفة، ومثل هذا يتظاهرون بأنهم مسيحيين، وأنهم تعمدوا وقتاً بعد آخر، ويهزأون من المسلمين، وسألت مرة واحداً منهم، من أي بلاد هو قد جاء، فأجابني بأنه هو والبقية قد جاءوا من بلاد الكلدان، وأنه اعتاد دوماً على استخدام اللغة الكلدانية.

وجاء بعد بلاد الكلدان بلاد الآشوريين، التي هي بلاد واسعة، فيها بنى نينوس NINUS مدينة نينوى العظيمة جداً، وهاتان المدينتان: نينوى، وبابل، قائمتان على ضفة نهر الفرات(كذا)، وقد بنيت الأولى منهما من قبل نينوس، وبنيت الأخرى من قبل الملكة سميراميس، وهما تبعدان عن بعضهما مسافة طويلة، وخلفهما بلاد الجزيرة، فيما بين الفرات والدجلة، نهر الجنة، وبعدها تأتي بلاد أرمينيا وبلدان أخرى كثيرة.

ثم استدرنا بعد ذلك نحو الغرب، ورأينا على يميننا جبال العربية، الذين يسمونهم« سلسلة العالم»، وتقوم هذه الجبال في مقابل الأرض المقدسة، على الجانب الأقصى من الأردن والبحر الميت، وبين هذه الجبال، الجبال الرئيسية هي جبال: نبو، وجبل فسغة، وجبل عبريم،

التي إليها صعـد موسى بناء على أمر من الرب لرؤية الأرض المقـدسة، وذلك حسبما قـرأنـا في سفـر التثنيـة: ٣٤/ ١، وكـان بامكـاننا من جبل سيناء أن نرى هذا الجبل بوضوح، هذا وتقدم الحديث عن هذه الجبال.

ورأينا أيضـاً في القفـار هور، حيث مـات هرون(العـدد:٢٠/ ٢٦)، لكن بسبب جبال القفـار وجبال العربية المتقدم ذكـرها، كنا غير قادرين على رؤية اليهـودية، ولافلسطين، ولاالبحر الكبير، وكـذلك بسبب أنهم كـانوا بعيـدين كثيراً، ومع ذلك فإننا نعـرف بشكل ممتـاز، أوضـاعهم والمكان الموجـودين فيـه في الأرض المقـدسـة، ولذلـك انحنينا بأنفسنا وبرؤوسنا نحو الأرض المقدسة، ومدينة القدس المجيدة، وتعبدنا ضريح الرب، والأماكن المقدسة، ونعتقد واثقين بأن صلواتنا هذه كانت مؤثرة، لأنه قد كتب:« إذا ماصلى شعبك إليـك باتجاه الأرض المقدسة والمدينة التي أنت قـد اخترتها، ونحـو البيت الذي بني لاسمـك، أنت يارب سوف تصغي إليه»،(الملوك الأول:٨).

ورأينا أيضاً القفار والأمـاكن الصحراوية التي تجول فيها بنو اسرائيل لمدة أربعين سنة، والجبال التي مررنا بها، من ذلك على سبيل المثال جبل كـالب، الذي تحدثنا عنه من قبل، وكذلك منحـدر رحوئيم الذي أيضـاً تحدثنا عنه، ورأينا أيضاً جبل حوريب المقدس في سيناء بعيداً عنا ودوننا على مسافـة بعيدة، مع الجبـال الأخرى المنبعثـة منه والمنتشرة هناك، هذا ومع أنه لم يكن هناك أي جبل بيننا وبينه، كـان بعيـداً جداً، إلى حـد أننا صحيح رأينـا الجبل ورأينا قمتـه، مع ذلـك لم نستطع بأية وسيلـة من الوسـائل رؤية البيعـة التي كانـت قائمـة على القمـة هناك، وبدت جميع الجبال هناك مجرد تلال، مقارنة مع جبل القديسة كاترين وبعدما شاهدنا جميع البلدان القائمـة من حولنا، قـريباً وبعيـداً، جلسنا أرضاً، وأحضرنا طعـاسنا من مزادنا، وتناولنا وجبـة رائعـة إلى جانب الضريح الذي إليـه حملت الملائكة القديسة كاترين.

نزول الحجاج من جبل العذراء القديسة كاترين في سيناء

وعندما فرغنا من عمل كل ماينبغي هناك على الجبل المقدس، قبّلنا المكان المقدس، ومضينا عائدين مع كثير من البهجة، ولم نكن نسير سيراً، بل نركض ونقفز نزولاً، لأننا كنا الآن بادئين لعودتنا إلى الوطن، ومع أنه كانت هناك مسافة شاسعة بيننا وبين بلادنا، لكن لم يكن ثابتاً بلاحراك أن الذين يريدون العبور من هنا إلى هناك لايمكنهم فعل ذلك، وعند جوف الجبل، وصلنا إلى النبع الذي يسمونه نبع القديسة كاترين، وشربنا هناك واسترحنا لبعض الوقت، ومن هناك سرنا أو انزلقنا مسافة طويلة، ووصلنا إلى نبع آخر، حيث قطعنا أغصاناً، قيل بأنها من النوع نفسه من العليقة التي ظهر فيها الرب لموسى، والتي قالوا أيضاً بأنها تمتلك قوة عظيمة، في مساعدة الذين لديهم أمراض مقعدة إذا حملوها معهم، وفيما إذا كان هذا صحيحاً، على القارىء الحكيم أن يقرر ذلك، وتابعنا النزول من هذا النبع، فوصلنا إلى حقل قصب، وقطعنا من هناك عصياً طويلة، قالوا إنها من النوع نفسه الذي كانته عصا موسى، التي عمل بها كثيراً جداً من المعجزات والتي وضعها فوق، في تابوه العهد، وهي التي قرأنا عنها في سفر الخروج:٤ ,١١ ,١٤، وفي أماكن كثيرة من الكتابات المقدسة، ويقول بعضهم إذا كانت هنالك امرأة تعاني من آلام المخاض، وأمسكت واحدة من هذه العصي بيدها، سوف تضع دونما مخاطر، هذا وهذه القصص رائجة بين العلمانيين وأنا لاأهتم بها كثيراً.

وبعد كثير من الجهد والتعب وصلنا نازلين إلى دير الأربعين قديساً، حفاة تقريباً، لأن الصعود إلى هذين الجبلين والنزول منهما دمرّ لنا أحذيتنا، ولذلك توجب على بعض الفرسان البقاء حفاة من هنا حتى القاهرة، وامتلك آخرون أحذية مقطعة من دون نعال، ومن الصعب أن يكون زوجاً من الأحذية جديداً كافياً للصعود إلى هذين الجبلين

والنزول منهما، وفيما يتعلق بقضية الأحذية لم نجهز أنفسنا منها بما فيه الكفاية، وعندما كنا على وشك مغادرة دير القديسة كاترين للصعود إلى هذين الجبلين، حدثت لي الحادثة السعيدة التالية، فقد جلب لي واحد من الفرسان المرضى الذين تخلفوا عنا، زوجاً جديداً من الأحذية، كان قد ابتاعه من القدس، وهو مصنوع من جلد جيد، رمادي أو بالحري أصفر اللون، وقال:« إليك ياأخ فيلكس، لقد اشتريت هذا الزوج من الأحذية وبنيتي تسلق هذين الجبلين المقدسين بهما، لكن وأنت ترى الآن أنني لاأستطيع التسلق إلى هناك، لذلك أرجوك أخذهما، ودعني أشارك في الخطوات التي سوف تعملها بهما، لذلك قمت على الفور بتجربة الحذاء الجديد لأرى فيما إذا كان يناسب قدمي، وتركت القديم المهترىء في غرفتي، لأنه كان من المؤكد عدم صموده أثناء صعودي حتى للجبل الأول، وبعدما وصلنا إلى دير الأربعين قديساً، طبخنا معجنات لغدائنا، وبعثنا بسائقي حميرنا إلى دير القديسة كاترين لإحضار الحمير لنا، لأنه لم يعد بامكاننا السير أكثر، بسبب تعبنا وحاجتنا إلى الأحذية، وبسبب حرارة الشمس.

زيارة إلى الأماكن في داخل الدير وفي الحدائق خارجه

وبعدما تناولنا طعام الغداء، قمنا بمسيرة إلى الأماكن المقدسة في الدير، ودخلنا أولاً إلى الكنيسة حيث انكببنا بأنفسنا نحو الأرض، وحصلنا على غفرانات(+)، وفي هذه الكنيسة جرى دفن الأربعين راهبا، الذين قتلوا في سبيل الايمان بالمسيح، في الدير، من قبل البداة العرب، بطرائق تعذيب متنوعة، ولهذا السبب أطلق على هذا المكان اسم« دير الأربعين قديساً»، ويسكن هناك اثنان من رهبان دير القديسة كاترين لوحدهما، بمثابة حارسين للمكان، ويعاني هذين الراهبين من كثير من الاهانات من البداة العرب، الذين يتجولون في تلك القفار، وتجولنا بعد ذلك بين قلايات الدير، التي هي تعيسة وفقيرة، وهي معمولة من

القصب المنسوج الذي جرى التطيين فوقه، لكن هناك من حول الدير يوجد سور جيد وقوى، مثل سور يحمي قلعة، وليس له دائرة كبيرة.

وبعدما فرغنا من مشاهدة الدير، خرجنا من بابه إلى حديقة الدير، التي هي بشكل رائع لاتشبه القفر المجاور لها، فهي مليئة بأوراق خضراء، وفاكهة، لأنه ينمو فيها هناك أشجار طويلة، وحشائش «للصلطة»، وأعشاب، وقمح، وشاهدنا فيها أكثر من ثلاثة آلاف شجرة زيتون، وكثيراً من أشجار التين، والرمان، وكميات من اللوز وهكذا دواليك، ويحصل دير القديسة كاترين على مايكفيه من الزيت من هذه الحديقة لتغذية المصابيح في الكنيسة، ولاستخدامات الطعام في المطبخ، ويرسل الرهبان في كل سنة جراراً مليئة بفواكه هذه الحديقة إلى القاهرة، إلى ملك مصر، السلطان، كهدية له، وكتعويض لرعايته وحمايته، كما سوف أتحدث عن ذلك لكم فيما يأتي، ولديهم« صلطة» ومنكهات لخبزهم، طوال السنة من الحشائش التي تنمو هناك، وقش من الأعشاب لإطعام دوابهم، وإنه لأمر مدهش وجود مثل هذه الجنة في القفار، حيث أن كل شيء جاف ومحترق من قبل حرارة الشمس، وفي الرمال القاحلة مامن بذور أو جذور يمكن أن تنمو، ومع ذلك ماالذي لايمكن للعمل الانساني أن لاينجزه؟ وفوق هذه الحديقة، عند سفح الجبلين حفر الرهبان ثلاثة آبار عظيمة، بعيدة عن بعضها مسافة قصيرة، وفيهم يمكن تلقي جميع المياه التي تجري نزولاً من الجبلين في أيام الشتاء، وتتدفق المياه بوساطة أنابيب من بئر إلى آخر، وأخيراً تجري في الحديقة مثل مياه حياة، وهي تجر خلال الحديقة بوساطة سواقي، وقد جعلت هذه السقاية المتواصلة، الرمل خصباً وجعلت الصحراء تحمل ثماراً مثل الثمار التي تنتجها الأرض الزراعية، وقد اعتاد الآباء القدماء، الذين عبدوا الرب في القفار، على عمل هذا، وذلك كما قرأنا في Speculum Historiale — الكتاب ١٩، الفصل ١٤.

ويوجد في هذه الحديقة كثيراً من الصخور والحجارة، المندفعة من الأرض، ويوجد تحتهم كهوف، هي التي كانت فيها مضى قلايات الرجال المقدسين القدماء، وتمتد هذه الحدائق البديعة مسافة طويلة في قلب الوادي، وطولها ميل ايطالي، وعرضها رميتي حجر، واشتكى الرهبان لنا بأنهم تأذوا من شح المطر في هذه السنة، وبذلك أرغموا على التقتير كثيراً في سقاية حديقتهم مع أنها إذا لم تسق يوميا، فانها سوف تجف على الفور، ومثل هذا اشتكوا أنهم في بعض السنوات تسقط أعداد لاتحصى من الجراد على حديقتهم، وعلى الأشجار المثمرة، عندما تكون مزهرة، وتغطي وجه الأرض كله، وتأكل كل شيء أخضر، من عقد الأزهار، إلى الأوراق والأغصان ولحاء الأشجار وتحدث دماراً وأذى، وبعدما فرغنا من رؤية الحديقة، عدنا إلى الدير وانتظرنا حميرنا هناك.

إطراء ومديح جبل حوريب المقدس
في سيناء وجبل القديسة كاترين المقدس في سيناء

من الممكن فهم الجبلين نوعا مامن خلال الوصف المتقدم، والصورة المرسومة هنا، ومن الممكن النظر إلى هذين الجبلين على أنهما جبل واحد، ذلك أنه مع أن قمتيهما منفصلتان، فإن سفحهما واحد، لأن كل واحد منهما يرتفع من سفح واحد هو نفسه، ويرتكز على الأساس نفسه، وذلك مثلما نتحدث عن يد واحدة، مع أن في اليد خمس أصابع مفصولة احداهن عن الأخرى، لكنهم متحدين معاً في قاعدة واحدة، وعلى هذا الأساس ينبغي أن نفهم وضع جبل القديسة كاترين، الذي يقال بأن جسد كاترين المباركة قد مدد فيه من قبل الملائكة، وذلك في المكان نفسه الذي أعطى فيه الرب الشريعة لموسى، أي أن تقول في الجبل نفسه فيما يتعلق بالقاعدة، ولكن ليس الجبل نفسه فيما يتعلق بالقمة لكل منهما، وبناء عليه سوف يظهران هنا تحت وصف واحد، وذلك مثلما يدعيان بالاسم نفسه، وهوسيناء.

وسيناء هو جبل في منطقة مدين فوق أرض العربية، وهو متفوق على الجبال الأخرى بالارتفاع، ويبدو رأسه وكأنه واصل إلى السماء، وهو جدير بالاحترام الأعظم بسبب الظهور المتتابع للرب الحقيقي في العصور الخالية، على أولى قممه، والدفن الرائع للقديسة كاترين الأعظم مباركة على القمة الأخرى، وهاتان القمتان للجبل المقدس لم تطأهما قدم انسان قبل أيام موسى وكاترين، لأنه مامن انسان تجرأ على التسلق إلى قمة حوريب، لأن المعتقد الرائج بين الناس قبل موسى كان أن الرب المخيف يسكن فوق قمة الجبل، وأن مامن انسان يستطيع النظر إليه أو الاقتراب منه والبقاء حياً، كما أنه لم يغامر أي انسان بالتسلق حتى قمة جبل سيناء، لأنها بدت وكأنها ملاصقة للسماء، ثم إن الجروف المنحدرة والعالية بدت وكأنه ليس فيها مكان لانسان يمكنه أن يتسلق منه، علاوة على ذلك، غالباً ماشوهدت النار مشتعلة على قمة الجبل الأول قبل أن يذهب موسى إلى هناك، بينما كانت القمة الثانية دوماً مغطاة بثلج متحول إلى جليد قاسي قبل أن يجري دفن القديسة كاترين هناك.

وهناك كثير من الجبال في العالم تندفع منها النيران، من ذلك على سبيل المثال بركان أيتنا Aetna وبركان بوبيوس Bobius(؟)، لكن لهبهما لم يتسبب بالطريقة نفسها، لأن هذا الجبل تدفق باللهب الناري، لأن النار قد اشتعلت بشكل اعجازي من قبل الرب ذاته شخصيا، وذلك حسبما قرأنا في سفر التثنية:٥، وسفر الخروج:١٩، فهنا ورد الخبر بأن الجبل قد اشتعل بالنار مع نزول الرب وقد زعق صوت البوق، وكان عدد الحشد كله آنذاك ليس أقل من مائة ألف، ولمدة خمسة أيام كانت النار المشتعلة في كل مكان، وقد شوهدت من قبل الجميع، ومع ذلك لم يحترق شيء هناك، لابل بقي العشب أخضر، انظر يوسبيوس De Evang praepar — الكتاب الثامن، الفصل الثالث.

وهناك جبال كثيره مغطاة بالثلج، الذي تجلد فصار قاسياً، لكن هذا

الجبل مغطى كشهادة على عذرية القديسة كاترين، علاوة على ذلك هناك جبال كثيرة، فيها كهوف، اعتاد الكفار على أن يمارسوا فيها أوهامهم وعبادة الأصنام، لكن هذاالجبل يحتوي على كهوف فيها انتظر الأنبياء وحي الرب، وعاش فيها الرهبان للتأمل حول الأشياء الربانية وكثيرة هي الجبال المكرسة للأرباب، مثل جبل أرسينثوس Aracinthus لمينيرفا، وماليا Malea لأبولو، وأولمبوس ليوف Jove وميسينوس(كذا) Misenus لاينياس Aeneas وأطلس لساطير Satyrs... وجبل العدوان لمولوك، وجبل بافوس في قبرص لفينوس، وهكذا دواليك، لكن جبل سيناء هذا مكرس للرب الحقيقي الواحد، وهو الجبل الذي يسره أن يسكن فيه، ذلك أن الرب سوف يسكن هنا حتى النهاية، وهم يقولون بأن جبل أطلس هو بعلوه أعلى من الغيوم، وهو يحتوي على مخلوقات غير معروفة هي في حرب ضد حياة الانسان، وفي وضح النهار جعله صمته الرهيب المتواصل من غير الممكن لأحد الاقتراب منه من دون أن يرتجف، مع الشعور بوجود شيء ما رباني مختفي فيه، ويبدو في النهار غائماً وقذراً، لكنه في الليل يلمع بكثير من الأضواء مثل النجوم في السماء، وتتردد في أرجائه أصوات الغناء وضرب الكوسات، وأصوات المزامير للرجال الخلعاء وساطير، لكن جبلنا له ارتفاع موائم لبني البشر، وليس فيه أية حيوانات مرعبة، وفيه ظلام وضوء مثل أي جزء من الطبيعة، وليس فيه رؤى مرعبة، بل كل مافيه مقدس ورباني.

ولقد قيل بأنه على مقربة من البحر الأحمر هناك جبل اسمه كليماكس Climax، حيث يقال هناك نساء متميزات بلحاهم الطويلة، وهؤلاء النساء يمضين أوقاتهن في صيد متوحش جداً، ويستخدمن النمور عوضاً عن الكلاب، ويربين الفهود والأسود، لذلك مامن انسان يتجرأ على الاقتراب من ذلك الجبل، خوفاً من أولئك النساء المتوحشات،

اللائي يحملن وهن عاريات على الرجال المسلحين، ويتغلبن عليهم بمساعدة الحيوانات اللائي دجننهن، ولايسكن مثل هذه الكائنات فوق الجبل المقدس، بل فقط قلة من الجائعين التعساء، وكل هؤلاء يمكن اطفاء غضبهم بمنحه من فتات الخبز، ويمكنني أن أروي كثيراً من الحكايات عن رعب الجبال(الأخرى)، التي تسبب للناس الخوف والرعب منهم، في حين نجد فيه، جبل سيناء براء كله من مثل هذه الأنواع، وعلى العكس هذا الجبل مرغوب به من جميع الجوانب، وذلك لبهائه لجميع بني البشر، إلى حد أن رجالاً من أعلى المراتب يتدفقون إليه من أقصى أجزاء الدنيا، وليكن في هذا كفاية عن جبل سيناء.

عودة الحجاج إلى دير القديسة كاترين والأماكن المقدسة الكثيرة على الطريق

وجلبت الآن حميرنا إلينا من دير القديسة كاترين، إلى دير الأربعين شهيداً، وامتطيناهم وسرنا إلى طرف الحديقة في الوادي القائم بين الجبلين، وعندما وصلنا تقريباً إلى نهاية الحديقة دخلنا إلى الحديقة من خلال سور الحجارة الجافة، وتركنا حميرنا في الخارج بعهدة أدلائنا، ووصلنا هنا إلى صخرة عظيمة، حيث هناك كنيسة مكرسة، وقد دخلناها وتلونا فيها صلواتنا علّنا نحصل على غفرانات(+)، ويقال قد سكن في هذا الكهف القديس أونوفريوس Onofrius ، الذي كان واحداً من كبار النساك، وهناك حكاية جميلة قد حكيت عنه في كتاب« حياة الآباء»، وكيف أنه وهو ساكن هنا في كوخ عند فم الكهف في ذلك المكان قد وقع أرضاً، فوقعت الأشجار القائمة حول الصخرة، ويبست، وذهبنا من هذا المكان نازلين في الوادي، ووصلنا إلى صخرة منعزلة قائمة إلى جانب الطريق، وليست متصلة بالجبل، بل واقفة بذاتها منبعثة من الأرض، إلى مقدار ارتفاع قامة الانسان مرتين، وهي عريضة في القاعدة، لكنها حادة في الأعلى، وتبدو وكأنها ليست متجذرة في

الأرض، بل قـائمـة مثل اهرام مصنوع، وليس كقطعـة طبيعيـة من الصخـر، ومن المعتقـد أن هذه هي صخـرة حوريب، التي أخـرج منهـا مـوسى الماء بضربها بعصـاه(الخروج:١٧—٦)، عـلاوة على ذلك يرى بعض الناس أن خروج الماء الثاني المذكـور في سفر العدد: ٢٠، كان من هذه الصخـرة نفسهـا، وهي الميـاه التي عـرفت باسم ميـاه الضرب، ولم تعط الصخـرة ماء أكثـر مما طلب لسقـاية الناس مع مـواشيهم، وبذلك تظهر بوضوح أكبر على أنها معجزة، ولهذا السبب، كانت الصخرة أيضاً صخـرة منعـزلة، ليسـت متصلة بالجبل، ولامثبتـة على الأرض، حتى يتمكن بنو اسرائيل من مشـاهدة أن الرب عمل مـاءً طازجـاً جـديداً في الصخرة ليشربوا، ولم يجلب لهم جدولاً من الأسفل، ولو أن الماء استمر بالتدفق منذ ذلك الحين، فإن المعجـزة وقتها لن تكون معجزة كبيرة، بل معجـزة عـادية، لأننا رأينا أن القـديس كليمنت مع كثير من القـديسين الآخـرين حصلوا على الماء بوسـاطة صلـواتهم، وقـد تدفق من الأسفل على شكل ينابيع في أمـاكن لم يكن ماء فيها من قبـل، ولم يكن ذلك ماء جـديداً قـد خلق، بل كـانت ميـاها مـوجـودة في عـروق الأرض تحت التراب، وقـد جـرى توجيههـا إلى هناك واستمـرت من ذلك الحين تنبع وتتـدفق، وذلك مثل ما يمكنك أن تقـرأ حول قضيـة النبع الذي أعطي إلى الرهبـان كعـلامـة وهو أمـر أتينا على ذكـره مـن قبل، لكن نبع هذه الصخرة، لم يتدفق من المياه الموجودة تحت الأرض، بل من كنوز الرب، ولذلك قـال مـوسى في(سفـر العـدد؛٢٠):« افتح لهم يارب كنوزك، وامنحهم نبع ماء».

★★ ★★ ★★

وعن نبعنا قـال المزمـور:« شق صخـوراً في البرية وسقـاهم كأنه من لجج عظيمـة»«(المزامير٧٨/ ١٥)، وتحمل هذه الصخـرة في اليـوم الحالي عـلامـات الفتحـات في أمـاكـن متعـددة، لأن الماء لم يصـدر من أسفل

الصخرة، بل من جميع أطراف الصخرة نفسها، حسبما يمكن مشاهدة ذلك في هذا اليوم، وهذه الصخرة جديرة بالاحترام العظيم، بسبب تدفق الماء منها، وبسبب معناها النموذجي، لأنه تبعاً للرسول(كورنثا الأولى:١٠/ ٤) هي تشير إلى المسيح نفسه بقوله:« والصخرة كانت المسيح»، ولذلك سرنا حول هذه الصخرة، التي كانت بذاتها المسيح، وقبلناها.

وتابعنا سيرنا من هناك، ووصلنا إلى واد اسمه تولاس Tholas حيث رأينا خرائب دير قديم، فيه سكن في القديم رجال مقدسون كثرة، وإلى جانب الدير هناك كهف عظيم وعميق يقود إلى جوف الجبل، الذي إليه انكفأ الآباء القدماء، وأخفوا أنفسهم عن ضوء النهار المخلوق، حتى يمكنهم في الظلام رؤية الضوء غير المخلوق، فقد قرأنا في انجيل يوحنا:١« والنور يضيء في الظلمة»، وقال داوود في المزمور:١٣٩/ ١٢:« الظلمة أيضاً لاتُظلم لديك والليل مثل النهار يضيء، كالظلمة هكذا النور»، وكان هذا الكهف بالفعل مدرسة للتأملات الربانية، حيث اقتيد الناس خلال الظلام المادي إلى رؤيا النور السماوي، وليس مثل كهف آخرون Acheronقرب مدينة هرقلية، والذي يقود إلى المناطق الداخلية، أو مثل كهف الهبرنيان Hibernian الذي اسمه خلوة القديس باتريك Patrick، ففيه يرى الذين يدخلون إليه مشاهد مرعبة، ويخافون رؤى مخيفة، وكأنهم غطسوا في الجحيم، ولايحدث هذا بوساطة قوى ربانية، أو بوساطة معجزات، بل بوساطة قوى طبيعية، واضطراب في العقل، لأن المعلم هنري دي هاسيا Has-sia....(استاذ في جامعة فينا، مات سنة ١٣٩٧) نقل عن نيقولا أور Ore، وكان حكيماً على درجة عالية من المعرفة في العلوم الطبيعية، بأن ذلك الكهف كان موجوداً في ايرلندا، فيه في أماكن متفرقة هواء زفيري كثيف، نتيجته أن الذين يدخلون إلى هناك يقعون نياماً، ويحلمون

بأحـلام رائعة، ويـرون أشياء مخيفـة بوضـوح وكأنهم في اليقظة مع أنهم نيام، وبالطبيعـة الشريرة والهواء السيء في المكان يبتهجون ويسلبـون من عقـولهم، ولذلك(عندمـا يستيقظون)يكتبـون مـاشـاهدوه، وكأنه كـان معجزات، ويصفون مشاهداتهم، وكأنها حوادث وقعت بالفعل، مع أنها حـدثت لهم في حالة غير صحيـة في حالات تخيلهم، مثل أوضـاع المنام، التي غالبـاً ماتبرهن انها تحدث مع بعض الناس عندمـا يكونون في حالة اليقظة.

وبعد مغـادرة تولاس ، نزلنا إلى الوادي، ووصلنا إلى دير آخر، الذي هو الآن دير صغير، لكنـه كـان فيما مضى واسعـاً، ويدعى بـاسم دير القـديسين كوزمـا ودامين، وكانـا كما قيل لنا في حكايتيهما من العربيـة، وهي بلاد جـاء منهـا أطبـاء مـاهريـن جـداً، وأعتقـد أن هذا هو سبب تكريس دير إليهما في العـربيـة هنا، تفضيلاً لهما على غيرهمامن القـديسين الآخرين، وقد بني هذا الدير فـوق المكان الذي طعن فيه أكثر من ثلاثة عشر ألفـاً وسبعمائـة رجل من قبل الـرب، فهـؤلاء هم الذين هلكوا في تمرد قـــورح، وداثان، وأبيرام(العــــدد:١٦)، ففي هذا المكـان انشقت الارض تحت أقــدام هؤلاء القـوم الأشرار، وفغـــرت فـــاها وابتلعتهم وبيوتهم، ومضوا سريعاً إلى جهنم، وبعدمـا حدثت هذه الاشياء، عادت الأرض ثانيـة ناعمـة مجدداً، وكأن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث، وذلك حسبما حدثنا مؤلف Speculum Historiale، ولذلك لم نستطع رؤية أية أثر مهما كان لإنشقاق الأرض هذا.

ووقفنا في هذا المكان ونحن نـرتجف، ولخوفنا من قسـوة حكم الرب وسرعـة تنفيـذه، لأن أولئـك المتـذمـرين وقفـوا مستعـــدين لإثارة تمرد وشقاق، ولم يخافـوا عندمـا انشقت الأرض تحت أقـدامهم، مع أنه من الذي لايخاف عندما يسمع بهذا؟، ولقد قرأنا بأن الشيء نفسه قد حدث في أيام القـديس أمبروز في قـرية في تـوسكانيـا، عندمـا انشقت الأرض

وابتلعت بيت رجل غني مع كل مايتعلق به، لكن بقيت هوة كبيرة فوق البقعة، لتكون شهادة ودليلاً، وقرأنا أيضاً في حكاية القديس بندكت، كيف أن شرفة قد سقطت فجأة على رجل عارض ذلك الرجل المقدس، وقتلته، وكذلك قرأنا أيضاً في«حياة» القديس جيروم، كيف أنه أصلح بعض الراهبات لعلاقاتهن الجنسية مع بعض المترهبنين، لكن بما أنهن لم يقومن سبلهن، انشقت الأرض، وابتعلت الدير، والراهبات وكل شيء.

★★ ★★ ★★

وانصرفنا من ذلك المكان المتقدم ذكره، ونزلنا في ذلك الوادي العريض والشاسع، الذي سافرنا خلاله قبل ثلاثة أيام، ونحن ماضون إلى دير القديسة كاترين، وذلك حسبما تحدثنا من قبل، وهذا وادي جميل وواسع، يمتد بين الجبال على شكل صليب، هذا والجبال التي من حوله عالية، ومع ذلك فإن الوادي مضيء ومشرق، بسبب مسافة الجبال بين واحد وآخر، ولو أنه كانت هناك مياه فقط في تلك المنطقة، لكانت قطعة ممتازة من الأرض للبشر للعيش فيها، ولإقامة مدن وقرى، فهناك في هذه الوديان نصب بنو اسرائيل معسكراتهم بعدما عبروا البحر الأحمر(الخروج:٢١)، ويطلق على هذه المنطقة اسم قفار سيناء، لأنها تقع في مقابل جبل سيناء، حيث فيها أقام بنو اسرائيل الجزء الأعظم من الأربعين سنة التي أبقاهم الرب خلالها في القفار.

ووصلنا الآن ونحن نازلين إلى مكان تتصل فيه الوديان مع بعضها، وتشكل سهلاً عظيماً، ورأينا هناك حجرة طويلة كانت تشبه منبر واعظ، وعلى هذه الحجرة، يقال بأن موسى وقف وأخبر الناس بكلمات الرب، وأنه من هناك أعطاهم الشريعة وبينها لهم، وهي الشريعة التي أعطيت له، وتلقى أجوبة الناس هناك، وحملها عائداً إلى الرب على الجبل، وهنا أيضاً كان غالباً مايخبر الشعب بأوامر الرب.

وفي الحقيقـة كان المكـان موائماً كثيراً لأعمال الوعظ، وهنـاك مساحـة كبيرة جداً تحت من أجل النـاس، وهذه المساحة الشـاسعة كـانت محتاج إليها، لأن تعـداد الناس كان كبيراً، فقـد بلغ عددهم ستمائـة ألف رجل حاملين السلاح، وذلك إلى جانب النساء، والأطفال، وعلاوة على ذلك حشـداً لايحصى عـدده من أخـلاط الناس الذين قـدمـوا معهم، وأغنام وسائمة من كل نوع بأعداد عظيمة جداً. (الخروج:١٢).

وفي هذا المكان كـان بنو اسرائيل يضحـون للعجـل الذهبي، وذلك بسبب أنه كـان شـاسعـاً واسعـاً، والوديـان من حـوله لها مناظر عليـه، والعجل الذهبي هو الذي صنعـه هرون لهم أثناء غياب مـوسى، عندما كان مع الرب في الجبل، وقد رقصـوا عراة حول العجل، وجمعوا الناس وحشـدوهم كلهم مـن جميع أمـاكن سكناهم وخيمهـم، حيث أعلنوا بشكل عـام عن عيـد العجل قـائلين:« هذه آلهتك يـا إسرائيل التي أصعـدتك من أرض مصر»، وحـدث أنه حتى بعض الشيـوخ والحكام ذهبـوا إلى المكان الذي اعتـاد موسـى على الوقوف عليـه والتحـدث إلى الناس، وعرضوا على الناس العجل، ونصبوه لهم لعبادته.

وجرى اقتراف هذا العمل المرعب والمخيـف على هذه البقعة، ليكون عاراً أبديا لليهود، لأنه في هذه الأيام إذا ماتحدث انسان عن هذا العجل إلى يهودي، يحمر وجهه خجلاً، ولقد برهنت أنا شخصياً على صحة هذا الأمـر مراراً عندمـا كنت أتحدث إلى يهود، فعلى هذه البقعة نسي اليهـود الرب، كما قـال صـاحـب المزامير، نسيـوا الرب مخلصهـم الذي عمل أعمالاً مدهشـة في أرض حام، وأشيـاء مخيفة في البحـر الأحمر، فكان أن صنعـوا العجل في حـوريب، وعبـدوا وثنا مصنوعـاً، وبذلك استبـدلوا مجدهم بصورة عجل يأكل قش الأرض.



ولدى متـابعتنا لسيرنا وصلنا إلى مكان، حيـث كـانت هناك أكـوام عظيمـة من الـرمل وتضخم في الأرض، ويقـال بأنه في هـذا المكان قـد جـرى دفن الذيـن قتلوا من أجل وثنيتهم بناء على أوامـر مـن مـوسى، وكـان عـددهم ثلاثة وعشرين ألف رجـل(الخروج:٣٢ وأخبـار الأيام الأول:٢٠)، وتابعنا من هناك سيرنا في ذلك الوادي العـريض، ووصلنا إلى واد ضيق يقود إلى دير القـديسة كاترين، وقـد دخلناه، وسرنا خلال حـديقـة الدير، وتمتـد هذه الحديقـة مسـافـة طويلة، كما تحدثنا عن ذلك الدير، وتجري سقايتها وفق الطريقة نفسهـا مثل حديقة الأربعين شهيداً، كما تحدثنا عن ذلك في مكانه، وهذه الحديقـة مـزروعـة بشجر الزيتـون، وبأشجار مـن أنواع أخرى، وهي واسعة وجميلـة، وبها أماكن كثيرة ورد ذكرها في الكتابات المقدسة.

وعندمـا كنّا سـائـرين من خـلال هذه الحديقـة، طلب منا أدلاؤنا أن ننظر إلى الأعلى نحـو قمم الجبال، وقـد رأينا فوق رأس صخـور عاليـة جداً، واقفـة أمام جبل حـوريب، عجلاً واقفاً هناك وهـو يتطلع نحونا، وكأنه على وشك القفز نحو الأسفل، ولقد رأيناه بوضوح تام، مع جميع أطرافـه، وهو مـوزع بشكل متوازن، وكأنه حقيقـة حيـوان حي، أو أنه شبيـه بعجل مصنوع بشكل فني، مـع أنه بالحقيقـة لم يكن هناك عجـلاً لاطبيعيـاً أو اصطناعيـا، بل كـان هناك قشرة صخرة، رأسهـا مكسـور، ومن دون أن يصنعه انسان، يبدو من الأسفل حين تنظر إليه وكأنه يشبه عجـلاً، ولذلك غـالبا مـاقـام رهبان الديـر، يحركهم الفضول، فتسلقـوا الجبل، ولكنهم لم يعثـروا على أي تمثـال لعجل على قمتـه، بـل وجـدوا صخوراً مكسورة، وجروفاً حادة، عندما ينظر الانسان إليها من الأسفل تبـدو له وكأنها عجل، وذلك مثلما هناك صخرة في بحـر ايجه، لها شكل ماعزة، عندمـا ينظر الانسان إليها من مسافـة، ولهذا السبب عرف البحر باسم بحر ايجه، لأن« ايجه» بالاغريقية تعني ماعزه.

وفي مكان آخر من البحر نرى صخرة عندما ننظر إليها عن بعد، نجد أن لها شكل صل، لكن عندما نقترب منها، نجدها حجرة كبيرة، ومثل هذا، عندما يذهب انسان من بلدة ويزازتيغ Wisastaig (كذا) قرب أولم، يرى فوق التلال حجرة طويلة محفورة وكأن لها شكل انسان، ولكن عندما يقترب الانسان منها، لايمكنه أن يرى سوى صخرة وعرة، وعلى الرغم من ذلك فإنه مع العجل المتقدم ذكره، نجد أن خداع المنظر قد قاد إلى خطأ بين كل من الطوائف الشرقية، والمسيحيين والمسلمين، إلى حد أنهم يعتقدون أن الشيطان قد أخذ العجل الذهبي ، الذي صنعه اليهود، كما تقدم ذكره، وحمله إلى ذلك المكان، ليكون ملامة دائمة وعاراً ثابتاً لليهود، وخشية من أن يجري نقله من قبل أي انسان، جعل الرب من غير الممكن العثور على العجل نفسه، لكن هذه الحكاية كلها مخترعة وتتعارض مع نص التوراه(الخروج:٣٢) الذي يقول بأن موسى قد أخذ العجل الذهبي وطحنه ناعماً، كما سوف يظهر معنا بعد قليل.

وابتعدنا اخيراً عن ذلك الشبه المتخيل للعجل، ووصلنا ونحن سائرين إلى هوة كبيرة وعميقة، تشبه صهريجاً، كان فيها كثيراً من الماء، من الممكن جره لسقاية الحديقة، وقد قالوا بأن هذه الهوة كانت دوماً هنا، ولم تعمل من قبل عمل بشري اصطناعي، أو بأي جهد، بل من قبل الطبيعة، ففي أيام الشتاء تجري المياه إليها، وكان موسى عندما طحن العجل الذهبي، رش المطحون على هذا الماء، وأحضر الناس، وجعلهم يشربون منه، وحدث أن الذين كانوا مجرمين قد احتفظوا بلون الذهب في وجوههم، ولذلك بدت لحاهم ذهبية، وتورمت أجوافهم بشكل سيء بوساطة الماء الذي شربوه، إنما الذين لم يشاركوا في هذا الإثم، فقد شربوا الماء من دون أذى، ولم يظهر أي لون ذهبي على وجوههم. انظر الخروج:٣٢، و Postilla لدي ليرا، وقرأنا عن نبع

مماثل في تايانا Tyana، مكرس لجوبتير، وهو في الحقيقة نبع رائع جداً، وقد قيل بأن مياهه تأتي إلى هذا النبع باردة جداً من خلال ممرات تحت الأرض، حيث تغلي على الفور، وهذه المياه عذبة وصحية بالنسبة للذين يسكنون على مقربة منها إذا ماكانوا شهوداً صادقين على أي مسألة، ولكن إذا لوثوا أنفسهم بشهادة زور، فإن الماء يطير خارجاً من النبع ضدهم، ويضرب أعينهم، وأقدامهم، وأيديهم، ويسبب لهم أمراض الاستسقاء، وفقدان الشعر، ولايمكنهم المغادرة من دون أذى مالم يعترفوا بشهادة الزور إلى الأشخاص الذين حلفوا لهم حانثين مزورين.

ومثل هذا أيضاً حدث لميداس، ملك الفريجيين الجشع، الذي عبد الذهب على أنه ربه، فقد تلقى من باخوس منحة، أي أن شيء يلمسه يتحول إلى ذهب، ولذلك مات من الجوع، وبعد موته ألقي به في نهر باكتولوس Pactolus ، الذي امتلك رمالاًذهبية، من أجل أن الذي لايمكنه العيش من دون ذهب، يمكن أن يفسد في الذهب، لأنه مهما أذنب الانسان، فإنه به سوف يعذب، ولذلك فقد اليهود كأس الحياة الذهبي، لأنه قدموا القرابين إلى عجل ذهبي.

وغادرنا ذلك الصهريج، ومضينا على طريقنا صعوداً، فوصلنا إلى مكان شاسع مفتوح في الحديقة الذي لاأعرف سبب قحطه، حيث مامن عشب ينبت فيه، مثلما يحدث في بقية أجزاء الحديقة، ومن المعتقد أن هذا الفراغ هو المكان الذي أذيب فيه العجل الذي عمل من قبل هرون، وذلك حسبما قرأنا في سفر الخروج:٣٢، ذلك أنه أخذ من النساء ومن الناس أقراطهم الذهبية والخواتم والكؤوس الذهبية، وألقى الجميع في النار، ومن هناك جاء من خلال عملية للشيطان عجل ذهبي، الذي اعتقدوا أنه صل، وذلك مثلما يفعل المصريون، لأن المصريين يأخذون الصل من الماء على شكل ثور، ومثل ذلك فعل بنو اسرائيل فأخذوه نفسه من النار على شكل عجل.

وفي الحقيقة اعتاد الكفار على عبادة رجال عملوا أرباباً، ليس في أشكالهم البشرية الحقيقية ولكن بأشكال هذه الحيوانات، التي تتحدث الحكايات أنهم تحولوا إلى أشكالها، من ذلك أن جوبتير قد تحول إلى غزال وعبد تحت شكل غزال، والصل تحت شكل عجل، وفينوس كسمكة وساتورن كحصان، ونيوب Niobe كحجرة، وهيرمون Her-mione، كثعبان، ويونو Juno كبقرة، وأكتيون Acteon كوعل، وأنتيغون كلقلق، وألدونا Aldonaكطائر مغرد، ودفني كغار، وعُبد أطلس الذي غيّره فيرسوس إلى جبل، على شكل جبل، والرعاة الأركاديون Arcaodian على أشكال ذئاب، ويمكنني أن أقدم المزيد من الأمثال، وهكذا اختار الشيطان تشكيل عجل في النار وآثره على عمل شكل انسان.

ومضينا في طريقنا، فوصلنا إلى صخرة منعزلة قائمة عند سفح جبل حوريب، مثل قدر كبير، وهذه هي الصخرة التي رمى عليها موسى لوحي الوصايا العشر، وكان ذلك عندما شاهد العجل والناس يقدمون القرابين إليه، هذا ومعروف أن هذين اللوحين قد نحتهما الرب، وكتب عليهما باصبعه، وكانا من أثمن الحجارة وأكثرها صقلاً، وعندما جرى تحطيمهما اختفيا كليا، وقال اليهود بأن الكتابه كان من الممكن قراءتها من على أي جانب من الحجرة، وهو أمر اعجازي، لأن رؤية الحروف ممكنة من على الطرفين من ورق رق رقيق وشفاف، ولكن القراءة ممثلة من على جانب واحد فقط، لأن الصفحة عندما تُقلب، تنقلب الحروف وتصبح معكوسة.

ولهذا السبب، من المعتقد أن الحجرة لابد وأنها كانت نقية، ولامعة، وشفافة، حيث اقتضى الحال أن تكون هكذا، لأنها حتى في الظلام، وفي أوقات الليل أشعت، ودائماً جعلت الكتابة ممكنة القراءة، مثلما توجب الحفاظ على الوصايا التي كتبت عليها في جميع الأوقات، لكن موسى

حطم هذين اللوحين، ولم يعد من الممكن بعد ذلك القراءة، ولم يكن هناك حظر على الناس ومنع لهم من الابتهاج بسبب تحطيمهما، ومن الممكن المحاججة بأنه عندما ألقى موسى باللوحين على الصخرة تحولا مباشرة إلى غبار لافائدة منه، وكان اللوحان الآخران، اللذان نقرأ عنهما في سفر الخروج:٣٤، قد نحتا من قبل موسى نفسه، وتمت الكتابة عليهما باصبع الرب، ويقول اليهود بأن الرب جعل موسى يرى كتلة من الزفير، نحت منها لوحين، وأن موسى صار غنيا كثيراً من خلال البقايا والقطع التي تشظت من تلك الكتلة، وأدع الأمر إلى أي رجل عاقل ليحكم كم من الصدق يمكن توفره في هذه الحكايات، لكنهم لايستطيعون اقتياد أي انسان إلى ضلالهم وإلى أي من أخطائهم، مثلما لايمكن لحكايات الشعراء، التي نقلتها والتي أتعرض لها، عندما تصدفني على طريقي.

ومضينا من هناك نتابع سيرنا نحو الدير، وهنا أشار الراهب نيقوديموس وبيّن لنا جبلاً متصلاً بجبل حوريب، قال بأنه كان جبل موسى، فإلى هذا الجبل:« صعد موسى وهرون.... وسبعون من شيوخ اسرائيل، ورأو إإله إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة»[الخروج:٢٤/ ١ , ١٠]، ومن هذا الجبل أُمر موسى بالصعود إلى جبل حوريب، لأن هذا الجبل واقع فوق كتف جبل حوريب، باتجاه الشمال، وكان موسى قد أُمر بالصعود إلى هذا الجبل من أجل صلوات خاصة، وليتلقى الأجوبة من الرب حول قضايا خاصة، ومن المعتقد أن الرب ظهر مراراً هناك إليه.

وقد صلينا ونحن ننظر نحو هذا الجبل، وتابعنا سيرنا إلى أن وصلنا إلى مكان مغلق ملاصق لأسوار الدير، فهنا أرض مقبرة الرهبان، وبناء عليه قرأنا هنا الصلوات من أجل الأموات، وقمنا بتقديم الاحترام إلى الرجال المقدسين الذين دفنوا هناك، لأن هناك مايزيد على تسعة آلاف

راهب قد دفنوا هناك، أسماؤهم مدونة واحد تلو الآخر في كتاب الدير، ومما لاشك فيه أنه كان بينهم عدداً كبيراً من القديسين، وبعدما خرجنا من المقبرة دخلنا إلى الدير، فوجدنا أن عدد البداة العرب، قرب مكان إقامتنا قد ازداد، ومع ذلك طبخنا طعام عشائنا، ودعونا الراهب نيقوديموس ليتناول العشاء معنا، ورجوناه أن يقوم بعمل الترتيبات مع السيد راعي الدير، حتى يرينا آثار القديسة كاترين والأماكن المقدسة الأخرى في الدير في الغد، الأمر الذي فعله، كما سوف نبين ذلك في مكانه، وأمضينا الوقت ونحن حزينين، لأننا رأينا أعداد البداة العرب المقيمين في مواجهتنا بازدياد مستمر.

ضريح القديسة كاترين العذراء الأعظم مباركة وآثارها المقدسة، والتراتيب التي أبدوها هناك نحو السادة الحجاج المسيحيين، والوضع الحالي للزيت الاعجازي الذي يقال بأنه يتدفق من قبرها، وعليقة موسى، والأماكن الأخرى التي يجري فيها منح الغفرانات، وسيشغل وصف هذا كله هذا الفصل بأكمله

في اليوم السادس والعشرين، مباشرة بعد منتصف الليل، قمنا بعد قراءتنا لصلواتنا، بإعداد أنفسنا لإقامة قداسات، وأعدّ الفرسان العلمانيون أنفسهم لتلقي القربان المقدس، وكان هذا اليوم هو يوم جمعة، وكنا نأمل بأن يكون اليوم المقبل يوم مغادرتنا، وبناء عليه بعد تلاوة صلوات مابعد منتصف الليل، والصلاة الأولى، سمعنا اعترافات فرساننا، وأقام كل واحد منا بدوره قداساً في بيعتنا، وتلقى جميع الحجاج العلمانيين القربان، وخلال ذلك الوقت صار النهار مشرقاً، فنزلنا إلى كنيسة القديسة كاترين لرؤية آثارها، وعندما كنا في الكنيسة، قدم راعي الدير مع جميع رهبانه، وكل واحد منهم يحمل بيده شمعة مضاءة، ووفق الطريقة نفسها، أشعل كل واحد منا نحن الحجاج حوامل الشموع التي كانت بأيدينا، ومن ثم تحلقنا واقفين حول ضريح العذراء المقدس، من كلا الجانبين هناك، وجاء الآن حافظ مقدسات الدير مع مفاتيحه، وحاول أن يفتح أقفال الضريح، لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك، لأن كل من الأقفال والمفاتيح كانوا جميعاً قد غطاهم الصدأ، وتعطلوا، وأمكن أخيراً بمساعدة الرهبان الآخرين، وبعد بذل كثير من القوة والجهد، فتح الأقفال، وعرض قبر الجسد المقدس، وعندما جرى إزاحة الغطاء الرخامي الذي يغطي القبر، شرع الرهبان بغناء ترنيمة تجاوبية، كانت الكلمات والموسيقى اغريقية، التي منها لم يكن بإمكاني فهم ولاكلمة واحدة، باستثناء كلمتي«رسل» و«شهداء» ، لأنهم غنوا بهاتين الكلمتين، ورددوهما بين الكلمات الأخرى، ذلك أن

هاتين الكلمتين هما نفسيهما في كل من الاغريقيـة واللاتينية، وقـد أخذنا بالأصل من اللغة الاغريقية إلى اللغة اللاتينية.

وأثناء قيـامهـم بالغناء، وصل راعي الدير إلى مكـان الضريح، وبعـد قيـامـه بانحناءة كبيرة، صعـد نحو التـابوت، الذي كـان قـائماً في مكان مـرتفع، وهنا غطس برأســه في داخل التـابوت، وقبل مستـودع ذخيرة الحكمـة السماوية، وأعني بذلك رأس العـذراء المقـدس، ثم رفع نفســه وانتصب قائماً ثـانية، وبقي واقفاً إلى جـانب رأس التابوت، وبعـد ذلك اقترب الرهبان منه، مبتـدئين بالأسن منهم، وقبلوا الآثار المقـدسة، وفق الطريقة نفسها التي عملها راعي الدير، وجئنا نحن الحجاج بعد الرهبان وتعبدنا الآثار بالطريقة المعتادة، وبعـدما فعل قائدو حميرنا الشيء نفسه، وبعدما فعلنـا ذلك، أعطاني جميع النبلاء منا جميع مجوهراتهم من الذهب ومن جواهر الفضـة، حتى ألمس الآثار المقدسـة بهم، وهكذا أخذت كل من المجـوهرات التي عهـد بها إليّ في أولم، من قبل الناس الأعـزاء علي، ومجوهرات رفـاقي من مـوالي الفــرسـان، ووضعت كل قطعـة منهم في التابوت، حيث لمست بهم الرأس المقدس للعذراء النبيلة.

ومن أجل توضيح للمس الآثار بالجواهر، إنظر إذا رغبت مـاتقدم في ص١٩٨، وعندمـــا كنت أفعل هذا لم يرفع راعي الـدير الذي وقف إلى جـانبي ناظريه عني، وراقب يدي بعناية كبيرة، وذلك خشيـة سرقـة أي من الآثار المقدسة، لأنه بالفعل جـرت سرقة كثيراً من الآثار المقدسة في مـاضي الأيام من قبل الحجاج، أو أخـذت بناء على التماسـات الأباطرة، والأسـاقفـة والملوك، وجـرى اعطاء الكثير وفق هذه الطريقـة، حتى أن المتبقي الآن من الجسـد المقدس أقل من النصف، ولأنهم يعـرفون هذا، فإنهم يتولون حراستـه بكل عناية من اللصوص، ولايمكن الآن لأعمال التـوسل أو الرشـوة أن تقنعهم بـالتخلي عن أية قطعـة، ومـايزال الجزء الأكبر موجود هناك، أي مازال موجـوداً: رأس العذراء المقدسة، مغطى

بتاج ذهبي مرصع بكثير من الجوهر، مع رمز القداسة، والذراع الأيسر الذي أصابعه مغطاة بخواتم ثمينة جداً فيها أحجار كريمة، وكانت اليد الأخرى— كما أخبرنا الرهبان في جورجيا، لكن الذين في رودوس يتبجحون بأنهم يمتلكونها، وهم يعرضونها على الحجاج، وقد رأينا بعض الأضلاع، وقطع من العظام، وكثيراً من أطراف العذراء المقدسة موضوعين في التابوت.

ويبدو أن العظام المقدسة قد وضعت في زيت، لأن لونهم ليس أبيض، لكن لونهم لون عظام أو قطع من الخشب قد وضعت في الزيت، ومن المعتقد في الكنيسة المقدسة أن أطراف العذراء تعرقت فيما مضى زيتاً، لكن هذه المعجزة قد توقفت منذ زمن طويل مضى، والأطراف المقدسة ملفوفة الآن بالحرير، وقد جرى اعطاء قطع منه إلى الحجاج عوضاً عن الزيت، وهم ينقعون هذه القطع من الحرير في المصابيح المعلقة في بيعة القديسة مريم في العليقة، ويحملونهم معهم إلى مواطنهم بمثابة زيت القديسة كاترين.

وكان معي قارورة صغيرة ملأتها بالزيت نفسه، وغطست فيها كثيراً من الصوف، هذا وإنني أعلم أن الزيت الذي من المكان المتقدم ذكره، مؤثر جداً على الحرير، وعندما أخيراً أراد راعي الدير اغلاق تابوت العذراء، أشرنا له بإبقائه مفتوحاً قليلاً من الوقت بعد، وذهبنا ثانية واحداً تلو الآخر، بالنظام والترتيب نفسه كما كان من قبل، وقبلنا الآثار المقدسة ووضعنا تقديماتنا من الذهب والفضة في التابوت، فقد وضع بعضنا أربع دوقيات، وبعض آخر ثلاثة، وبعض دوقيتين، ووضع الشطر الأكبر مالايقل عن دوقية واحدة، وعندما كنا نفعل ذلك غنينا ترنيمات تجاوبية جماعية إلى جانب التابوت، وتلونا المجموعات المحددة في كتب المسيرات، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، ثم قام حافظ المقدسات بجمع تقديماتنا، وأغلق التابوت.

وهذا التابوت قائم فوق مكان مرتفع على الجانب الأيمن من السدة، وهو مصنوع من رخام أبيض مصقول، ومحفور على وجهه كله صور، ونباتات، وأوراق، والتابوت ليس مصنوعاً بطول جسم انساني، بل أقصر من ذلك بكثير، لأنه صنع لحفظ العظام فقط، ومعلق إلى جانبه كثيراً من المصابيح المضاءة، كانت تغذى فيها مضى من الزيت الذي رشح من أطراف العذراء، ولكن عندما توقفت هذه المعجزة، ظلت أطرافها مليئة بالزيت، لكنها توقفت عن الرشح، إلاّ إذا حكت بشدة وبناء عليه قرأت في كتب حج قديمة، أن الرهبان اعتادوا، بناء على طلب من الحجاج على حك واحدة من عظام العذراء، وكان الحجاج يأخذون الزيت الذي يرشح من العظم، لكن هذه المعجزة، قد توقفت، إنها قد تبعتها معجزة أخرى، ففي كل سنة، في يوم عيد العذراء يطير إلى هنا بعض الطيور الجميلة جداً، من أنواع غير معروفة، يحمل كل منها في منقاره أغصاناً خضراء من شجر الزيتون، مغطاة بالثمار، وتقف هذه الطيور على سقف الكنيسة، وترمي بالأغصان نحو الأسفل، حيث كان الرهبان يلتقطونهم، ويستخرجون منهم زيتاً طيب الطعم، بكميات وافرة تكفيهم طوال السنة لمائدتهم ولمصابيحهم.

وأخيراً توقفت هذه المعجزة، إما بسبب أن عصر المعجزات قد انقضى، أو لأن المعجزات أسيء استخدامها، أو بسبب عدم جدارة الانسان، وأن الذنوب أعاقت المعجزات عن الحدوث، أولأن الرب جهز وسائل أخرى، لأن القاعدة لدى اللاهوتيين، أن الرب لايعمل معجزات مالم تكن هناك حاجة خاصة إليها، ففي الأيام الخوالي، عندما عاش الرهبان الذين سكنوا هنا بفقر وشقاء، أمدهم الرب بشكل إعجازي، لأنهم وضعوا جميع آمالهم فيه واعتمدوا عليه، كما قال المزمور:« ألقوا أثقالهم على الرب، وهو سوف يطعمهم» وقال أيضاً: «المسكين صرخ والرب استمعه»(المزمور:٣٤/ ٦)، غير أنهم مع مرور

الوقت أخـذوا يخافـون من الفقـر، فصـاروا يعملون زاداً لأنفسهم، ويطلبـون الصـدقـات، ويشترون الموارد، ويحصلون على خفـارات، ويزرعون بساتين من حول الديـرة مع بذل جهود كبيرة، ويرعون زراعة أشجار الزيتـون في الأماكن الصحـراوية، وعندما غـدت هذه الأشجار قائمة، لم تعد هناك حاجة مطلقة لأية معجزات.

ومثل هذا كان قد حدث مع بني اسرائيـل، فهم عندما كانوا يعيشون في الصحراء عاشوا على المن اللذيذ، إنما عندما حصلوا على ثمار الأرض المقدسـة للأكل، توقفت معجزة المن(يشـوع:٥/ ١٢) كما أنه لم تعد هناك حـاجة لعصر المعجـزات، حيث لم تعد هناك حـاجة للزيت ليتـدفق من أجل معـالجة المرضى، أو للبرهنة على قـداسـة العـذراء، ولذلك فإن المعجـزات قد توقفت هنا وعند أضرحـة القـديسين الآخرين، ولم تعـد تصنع، هذا وإن عظام العذراء المقـدسة كما يبدو مليئـة بالزيت، وعندما يُضغط عليهـا ترشـح زيتـاً، كما هو واضح، ولذلـك ينبغي أن لايظنن انسان بأن معجزات القديسة كاترين قد توقفت كليا، مع أنهم لم يعودوا يُصنعـون إلى جـانب ضريح العـذراء المبـاركـة، لأننا غـالبـاً مـانشـاهد معجزات كبيرة تُعمل من قبل القديسين في أماكن ليست فيها أجسادهم ولاقبورهم، فمعجـزات عظيمة صنعت في هذه الأيام من قبل القـديسة كـاترين في أمـاكن كثيرة، من ذلـك على سبيل المثـال، في دير للراهبـات القـانونيـات النظاميـات في روانورث Reuenorth ، في أبرشيـه كـولون، وهو مكان تحدث فيه معجـزات لم يسمع بمثلها، فقـد قيل بأن الزيت، والحليب، والبلسـم، والمن، يتـدفق من قطعـة صغيرة من عظام القـديسة كـاترين، وأشيـاء أخرى مـدهشة قـد قيل بأنها حـدثت هناك، وذلك استناداً لشهادات شهود موثوقين، وجاء في حكاية« حياة القديس هيلاريون» بأنه مـامن معجزة قد صنعت في ذلك المكان الذي يرقـد فيه جسـده في سـورية، بل صنعت معجـزات جبـارة في احـدى الحدائق

الصغيرة في قبرص، حيث سكن في أيام حياته، وكذلك الأمر مع القديسة كاترين.

والذي بقي علينا الآن أن نرى كيف تم العثور على جسد القديسة كاترين وكيف أنه أحضر إلى هنا، فعندما صدر الحكم الجائر للامبراطور مكسينتوس Maxentius في الاسكندرية، جرى قطع رأس العذراء الفضيلة بعد كثير من العذاب، ووقتها اختفى جسدها بشكل مفاجيء، وعندما اجتمع المؤمنون مع بعضهم، حتى يقوموا بنقل الجسد ودفنه، لم يتمكنوا من العثور على شيء، ولم يعرفوا إلى أين ذهب، ذلك أن الكائنات غير المرئية التي ترعى القديسين، وهم الملائكة المباركون، قد حملوها في اللحظة التي قد فارقت فيها الحياة، ونقلوها خلال الهواء إلى قمة جبل سيناء، إلى المكان الذي تقدم وتحدثنا عنه، وافترض أهل الاسكندرية بأن جسدها وروحها قد حملا معاً إلى السماء، وبقي جسدها المقدس ممدداً هناك لمدة ثلاثمائة سنة، وفي أثناء تلك المدة تلقت العربية كلها ومصر عقيدة المسيح، وعندما حدث وامتلأت القفار كلها برهبان مقدسين، جرى بناء دير في سفح جبل سيناء تشريفاً للعذراء مريم المجيدة جداً، وذلك في عليقة موسى(المشتعلة)، وقد كان هناك نوعان من الرهبان الذين سكنوا في القفار، فقد كان هناك رهبان مقيمين، سكنوا مع بعضهم في ديرة، وعبدوا الرب في ظل نظام، وكان النظام الذي أعطي لحياتهم قد قدمه إلى القديس باخوميوس Pachomius ملاك، وهو مكتوب على ألواح من النحاس، وذلك كما ورد في Spec-ulum Historiale — الكتاب الثامن عشر، الفصل السابع.

وكان النوع الآخر منهم من النساك ، الذين عاشوا حياة عزلة، ورفضوا الحديث مع بني البشر، وتجولوا حول قلب القفار وسكنوا في كهوف في الأرض، وكان هناك بشكل خاص في قفار سيناء كثيراً من الرهبان الأتقياء من النوعين، وكان في الدير القائم تحت جبل حوريب،

راعياً للدير رجلا جيداً، كان غالباً مافكر بالذهاب مع رهبانه للبحث عن القديسين في القفار، لكن دوما منع من القيام بذلك، لكنه تلقى في احدى الليالي أمراً في المنام للانطلاق في الغد مع رهبانه، حيث سيكتشف كنزاً سوف يشتهيه الشرقيون والغربيون سواء، وفي الغد استدعى جميع رهبانه، وأخبرهم بما تعهد به، وجعل قلوبهم تتحرق برغبة عارمة للعثور على ذلك الكنز، وانطلقوا جميعا من الدير بحثاً عن الكنز وتحولوا في القفار، غير عارفين إلى أين يذهبون، لكنهم كانوا متشوقين وكلهم رغبة، وفتشوا بفضول وبحثوا بين شعاب الصخور، وكهوف التلال، وتجولوا فوق الصخور الوعرة، وفتشوا بكل دقة الجبال، والوديان، ومجاري السيول، وفيما هم يفعلون ذلك اقتادهم الرب إلى كهف تحت صخرة عالية، حيث وجدوا راهباً قديماً، لم يكونوا قد رأوا وجهه من قبل، وقد سأل الرهبان عما يريدون، وعن الذي عنه يبحثون، وقد أجابوه:« لقد قدمنا بناء على أوامر من الرب بحثاً عن كنز يشتهيه الشرقيون والغربيون»، ورد عليهم الرجل العجوز قائلاً:« وأنا أيضاً غالباً ماأمرت بفعل الشيء نفسه، لكنني كنت أخشى من غواية العدو، وقد أجلت فعل ذلك حتى الآن، إنما الآن سوف أذهب معكم من دون خوف للبحث عنه»، وسأله الرهبان:« وأين تعتقد علينا أن نبحث»؟ فأجابهم« فوق، على قمة هذا الجبل المرتفع، حيث غالباً مارأيت ضوءاً مشعاً واضحاً، وأنا لاأشك أن شيئاً مقدساً مامخفياً هناك، لكن كما ترون ذلك المكان مرتفع، ومن الصعب الوصول إليه بسبب علوه، ثم إنني لم أمتلك الشجاعة قط للتسلق إلى هناك، كما أنني لم أتجرأ في البحث وحدي في مجد الرب الذي أشع من هذا الجبل، لكن دعونا الآن، نصعد معاً ونبحث هناك»، وكان ذلك جبل القديسة كاترين، الذي لم يصعد إليه انسان قبل هذا الوقت، وهكذا ذهبوا مع بعضهم وبعد بذل كثير من الجهد، والتعرض لكثير من المخاطر وصلوا إلى القمة، وعندما وصلوا إلى هناك، وجدوا الجسد الكامل للعذراء،

موضوع بشكل اعجازي في لحد من الصخر، وكان هذا اللحد مليئاً بالزيت، ولم يشكوا بأن هذا كان هو الكنز، الذي وعدوا به، غير أنهم جميعاً لم يعرفوا إلى من عاد الجسد، ولاإلى أية قداسة، ولذلك انكبوا بأنفسهم نحو الأرض حول الجسد، والتمسوا من الرب أن يمن عليهم بفضله فيبين لهم اسم تلك القديسة وفضائلها، وأثناء صلاتهم، فجأة ظهر أمامهم ناسك مسن آخر، ووقف فوق الصخور، وقال:« اعلموا أيها الإخوة، بأن الرب قد أرسلني إليكم لأبين لكم: اسم، وحياة، وفضائل، ومجد هذه العذراء العظيمة القداسة»، وشرع بعد هذا يخبرهم عن أصلها، واسمها، وأسرتها، وعن تحولها إلى المسيحية، وعن آلامها، ومكان آلامها، وعن اسم قاضيها، وعن الزمان الذي وقعت فيه هذه الأحداث، وعن موتها، وعن النقل الاعجازي لجسدها إلى هذا المكان، وعن الحراسة المتواصلة والحفظ لها من قبل الملائكة حتى ذلك اليوم، ثم أمرهم ذلك الراهب بأخذ جسدها من هناك، وبحمله إلى دير القديسة مريم عند العليقة، لأنه ينبغي أن يقدم الناس من أقصى أطراف الأرض لزيارة هذه الآثار المقدسة، وعندما فرغ الراهب من كلامه هذا، قبّل العظام المقدسة، ثم انزلق فجأة مغادراً فوق الصخور، وركض نازلاً من الجبل، وعاد إلى كهفه، وهو مكان مامن انسان عرفه، ولم يشاهد ثانية من قبل أي مخلوق.

وتولى الرهبان نقل جسد القديسة كاترين مع احترام عظيم، وحملوه إلى كنيسة القديسة مريم عند العليقة، حيث وضعوه في تابوت رخامي، كما هو مشاهد حتى هذا اليوم، وصار مطلوباً من جميع المسيحيين المؤمنين الموزعين في طول الأرض وعرضها، مقابل المخاطرة بحياتهم، ومع أعظم الجهود المبذولة والمتاعب والنفقات، ولذلك أمر واحد من البابوات بشكل خاص بتحريم القيام بهذا الحج، مع فرض عقوبة الطرد من الكنيسة، وذلك بسبب مصاعب الرحلة، والمخاطر المحيطة بها،

وجـرى تحريم الحج إلى القـدس بسبب المسلمين، وفي الحقيقـة إن هذا الحج هو عطلة، ورحلة ممتعة مقارنة بهذه الرحلة.

وعندما فرغنا من أعمالنا عند ضريح القديسة كاترين، سرنا في مسيرة خارجين من السـدة إلى بيعة القديس يـوحنا المعمدان، حيث هناك كثيراً من الآثار، وغفرانات عظيمـة، وهنا صلينا إلى القديس يوحنا، وحصلنا على غفرانات(+)، وعنـدما انتهت صلواتنا في تلك البيعـة، جلسنا جميعاً بناء على أمر حافظ الذخائر، ودخلنا حفاة إلى بيعة أخرى ملاصقة لتلك البيعـة، ولقـد مـررنا من خـلال باب صغير، قـائم عند رأس الكنيسـة الكبيرة، وكانت أرض هذه البيعة مغطاة بسجاد ثمين جداً، أما الجدران فكانت مغطاة بألواح من الرخـام المصقول الثمين، وكـانت البيعة منارة بكثير من المصابيـح، وكان كل شيء في هذه البيعة جميل، مـزين، وتقي، فهنا هو المكان الذي قامت فيه معجـزة عليقة موسى، التي رآها تحترق، واللهب يتصاعد عالياً منها، ومع ذلك لم تتضرر بأي نار، ذلك كما قرأنا في سفر الخروج:٣، وأكثـر إعجازية من هذا كـان تحقق هذه الرؤيا، أي عندمـا اشتعلت مـريم، التي هي العليقـة الدائمـة الاخضرار، والدائمـة الازدهار، والرائحـة الطيبـة، وحملت بوسـاطة النار الربانيـة، في حين لم تتعرض عذريتهـا لأي أذى، وحول هذه العليقة المقدسـة تغني الكنيسة Rubum quem viderat moses incombustum، الخ، وقـــد غنينا هذه الترنيمـــة هناك، وانكببنا بأنفسنا نحـــو الأرض حيث وقفت العليقـة، وقبلناها بخشـوع فائق، وحصلنا على غفـرانات مطلقـة(++)، وتحت المذبح الموضع الذي من المعتقـد أن العليقة وقفت عليـه، ويوجد في الأرض لوح نحاسي، حفـرت عليه صورة العليقـة المشتعلة، وموسى جالس، وهو يخلع نعليه.

وكثير من المصـابيـح هي معلقـة فـوق الموضع، لأنـه مـوضع احترام عظيم من قبل جميع الناس، ويتـوسل مسلمـون، وبداة عـرب، وأتراك،

باخلاص حتى يسمح لهم بالدخول إلى هذا المكان، وعندما يُسمح لهم لايدخلون إليه إلاّ وهم حفاة، ويكون اليهود في غاية السرور للدخول إليه، لكن لايُسمح لهم بذلك، ويعدّ هذا المكان مقدساً بشكل خاص من قبل جميع المسيحيين، من كل من الشرقيين والغربيين، لكن الشرقيين قد قاموا بحرماننا نحن الغربيين من ممارسة الصلوات وعمل القداسات فيه، وهم لايسمحون لنا بالدخول إلى ذلك المكان لتلاوة قداس، على أساس أن المذبح في البيعة هو ملك للاغريق، الذين لايسمحون لنا، بأي حال من الأحوال، بإقامة قداسات على مذبحهم، وذكرت هذه العليقة من قبل الرب(مرقص:١٢)، وقد ظهر الرب إلى موسى في العليقة، خشية أن يعمل اليهود لأنفسهم وثناً، حسبما ورد إلينا الخبر في التعليقات على الخروج:٣، وكانت هذه العليقة من أكثف أنواع العليق، أو شجرة شوكية مع ثمار توت حمراء اسمها Hagdorn.

وعندما فرغنا من بيعة العليقة، عبرنا إلى بيعة أخرى، مكرسة إلى القديس جيمس، فيها تلونا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+)، وذهبنا من تلك البيعة إلى بيعة القديس أنتفيتوس Antiphitus، حيث تعبدنا الرب، وحصلنا على غفرانات(+)، ودخلنا بعد هذا بيعة القديسة هيرينا Hyrina العذراء، حيث صلينا، وحصلنا على غفرانات(+)، وغادرنا تلك البيعة، ودخلنا إلى بيعة العذراء مريم المجيدة، التي دعونا إليها بخشوع، وحصلنا على غفرانات(+)، وعبرنا من هذه البيعة إلى صحن الكنيسة، وفي هذه الكنيسة اثني عشر عموداً عليهم رست المنشأة كلها، حيث هناك ستة من الجانب الأول، وستة من الجانب الآخر، وطولانيا قد بنيت وفق نموذج كنائسنا، ويوجد في هذه الأعمدة كثيراً من الآثار المقدسة محفوظة، ومعلق على كل عامود صورة رسم عليها القديس الذي تعود إليه الآثار التي يحتوي عليها العامود، ويجري الاحتفال بأيام أعياد هؤلاء القديسين في مواسمهم، لأن الاغريق لديهم ترتيب

للتقـويم، فيـه في كل شهـر من أشهر السنة يـوم واحد للاحتفـال بعيـد القـديسين الذين آثارهم مـوجودة في الأعمـدة في وقت واحـد، أي على سبيل المثال، يأخـذون في شهر كانون الثـاني العمود الأول، مع كثير من القـديسين، يجري الاحتفــال بأعيـادهم جميعـاً في يوم واحـد من ذلك الشهـر، ولايقتصر الاحتفـال على القديسين الـذين صورهـم مرسـومـة ومعلقـة على ذلك العمــود، أو الذين آثارهـم محفـوظة فيــه، بل يشمل الاحتفـال جميع القديسين الذين وقعت أيام وفيـاتهم أوولادتهم في ذلك اليــوم، وعلى هذا المنوال فإن العمــود الثـاني مخصـص لشهـر شبــاط، والعمود الثالث لشهر آذار، وهكذا دواليك، هذا ولكل عمود غفرانات خاصة متعلقة به، أسرعنا للحصول عليها.

وذهبنا إلى عمود كـانون الثاني، وجثونا من حـوله، وتوجهنا بالدعاء إلى القديسين الموجـودة آثارهم فيه، وقـدمنا أيضاً التشريف إلى قـديسينا الذين دونت أسماؤهم في التقويـم الثاني(لشهر كـانون الثاني)، وحصلنا على غفـرانـات لمدة سبع سنوات(+)، ثم إننا نهضنا، وذهبنـا إلى عمـود شهـــر شبـــاط حيـث تلونا صلـواتنا، حسبما تقـــدم، وحصلنا على غفــرانات(+)، وذهبنا بعــد ذلك إلى عمــود شهــر آذار، حيث صلينا بخشوع، وحصلنا على غفرانات(+)، وجثونا بعد هذا حول عمود شهر نيسان، ودعونا إلى أسماء القديسين، وحصلنا على غفرانات(+)، ومضينا من ذلك العمـود إلى عمـود شهر أيار، حيث جثـونا للصـلاة، وحصلنا على غفـرانات(+) ونهضنا من هناك، وذهبنا إلى عمـود شهـر حـزيران، حيث صلينا، وحصلنا على غفرانات(+)، وكـان هذا العمود هو الأخير على الجانب الأيمـن، وبعــد هذا سرنـا عبر وسط الكنيســة إلى آخـــر الأعمدة، وهو عمـود شهر تموز، الذي صلينا إلى جـانبه لبعض الوقت، وحصلنا على غفرانات(+)، ومن هناك ذهبنا إلى عمـود شهر آب، الذي من حوله تـوسلنا إلى القديسين للحصول على غفـرانات(+)، وكنا نأمل

بأننا قـد أصغي إلينا، ومن هناك ذهبنا إلى عمـود شهـر تشرين الأول، حيث جثونا ودعـونا جميع القـديسين حتى يصلوا من أجلنا، وحصلنا على غفرانات(+)، ثم نهضنا، ومن هناك توجهنا إلى عمـود شهر تشرين الثـاني، حيث تولينا الصـلاة للحصـول على غفـرانات(+)، ومن هناك ذهبنا إلى رأس الأعمـدة وآخرها، الذي هو عمـود شهر كـانون الأول، وتعبـدنا قديسي شهـر كـانون الأول، وتابعنا سيرنا من هناك، فخـرجنا من(صحن) الكنيسة، إلى سدة الرهبـان، حيث تمددنا بأنفسنا أمام المذبح العـالي، وتوسلنا للحصول على الرحمة الـربانية، ولتلقي الغفـرانات(+)، ومذبح السـدة مكرس للامبراطور قسطنطين الكبير، ولأمه الامبراطورة هيلانة التي يتعبدها الاغريق مع الاحترام الأعظم.

وقـد منحت الغفرانات المتقـدمـة الذكر إلى هذه الكنيسـة، والبيع من قبل البابا، بناء على طلب من الاغـريق أو من قبل بطريرق الاسكندرية، الذي يسكن بالعادة في روما.

وأخيراً عدنا إلى ضريح القديسة كاترين، العذراء المجيدة، حيث قبلنا التـابوت المقـدس، وقمنا بإنهاء مسيرتنا، وينبغي أن يُلاحـظ، أننا زرنا الأماكن المتقدمة الذكـر للغفرانات، ليس فقط في ذلك اليوم، بل في كل يوم، والذي كان في ذلك اليوم هو مسيرتنا المهيبة.

وبعدمـا أنهينا مسيرتنا، مضينا إلى أماكن إقـامتنا، وطبخنا طعامنا من أجل الغداء، وجلسنا باكراً للغداء، لأننا جميعاً كنا قد تناولنا قربان عشاء الرب، وفي أثناء جلوسنا إلى المائـدة، جاء اثنان من رهبان الـدير،، جرى ارسـالهما من قبل راعي الدير، مع هدية لنـا، فقد حملا طبقـاً مغطى فيـه أرغفة من الخبز المبروم المصنع بالتوابل، مثل الحلويات بالعسل، أو الخبز بالزنجبيل، وذلك مع تمور وتين، وعنب، وزبيب، ولست أدري من أين حصلوا عليهم، إنما قـدمـوهم لنا بلطـف، وتسلمناهم باحترام، وأعطينا بعض المندوسـات إلى الحاملين، وأرسلنا بعـد الغـداء خلف كـالينوس

ورجوناه عدم التأخر أكثر، وأن يتولى قيادتنا على طريقنا إلى مصر، وذلك تطبيقاً لشروط عقدنا، وعلى هذا أجاب كالينوس، أنه على استعداد للانطلاق في أية لحظة نريد، غير أنه قال بشكل خاص:« إنني أخشى أننا لن نكون قادرين على مغادرة هذا المكان بسلام، لأن الدير مليء بالبداة العرب، الذين جاءوا من أجلنا».

وصف دير القديسة كاترين، وتأسيسه، والكنائس الثلاث القائمة هناك، وأشياء كثيرة أخرى

يفضل الآباء المقدسون الذين سكنوا في القفار قفر جبل سيناء هذا على جميع الأماكن الأخرى. وموضع العليقة حيث ظهر الرب إلى موسى، وقد ترددوا على زيارة هذا المكان، وتعبدوه على أنه بقعة ذات قداسة عظيمة جداً، وموقع موائم لأعلى التأملات، وامتلك بعض الرجال القدماء أيضاً قلايات هناك، وفي أيام حكم الامبراطور جستنيان في سنة ٥٢٨ لتجسيد ربنا، تحرك هذا الامبراطور نفسه بتوسلات رجال مقدسين من أجل تأسيس كنيسة ودير، فوق مكان العليقة، تشريفاً للعذراء مريم المباركة، وقد أطلق على هذه الكنيسة اسم كنيسة القديسة مريم في العليقة، وهي تعرف بالشرق حتى هذا اليوم بهذا الاسم، لكننا، سميناها منذ نقل القديسة كاترين إلى هناك باسم كنيسة ودير القديسة كاترين.

والسور المحيط بالدير ضخم، لأنه سميك ومرتفع، مع شرافات، وأبراج ناتئة، وله ممر حوله كله بالأعلى، وقد بني من حجارة منحوتة مربعة، وهو محصن بشكل ممتاز في الجزء القريب من المدخل ومن البوابة، حيث يمكنه أن يصمد لوقت طويل ضد أي واحد يحاول اقتحامه، وإخداث عيث، كما ربما قد يفعل بعضهم، لأنني لاحظت أن السور قد تحطم في بعض الأماكن بشكل واسع وأعيدت عمارته.

ويوجد في داخل اطار السور ثلاث كنائس، الكنيسة الأولى منهن اغريقية، والثانية لاتينية، والثالثة(مسجد) اسلامي، والكنيسة الأولى والرئيسية بين هذه الكنائس هي كنيسة القديسة مريم في العليقة، حيث يستريح جسد القديسة كاترين، وهي في حفظ رهبان يتبعون الطقوس الاغريقية، وهذه كنيسة مستطيلة واسعة مسقوفة بالرصاص، من دون قبة أو برج، وأيضاً من دون نواقيس أو ألواح قرع خشبية، وعوضاً عن ذلك لديهم أداة أخرى بوساطتها يدعون المؤمنين للاجتماع من أجل الصلوات الدينية، فهناك عصا من الحديد معلقة من مكان مرتفع، وقد تعلق عليها أجراس برونزية لها أصوات عميقة، ويقرع حافظ الذخائر على هذه الأجراس بمطارق، بترتيب خاص ومعيار، فيصدر عن ذلك موسيقى جميلة جداً، إلى حد أنه يمكن للانسان أن يرقص على الصوت الصادر عن الأجراس، لأن التلحين جيد جداً، وهو لحن بهيج، هذا ولقد أطلق عليهم بشكل موائم جداً اسم الأجراس الصغيرة، لأنه في القديم قبل استخدام الأجراس الكبيرة، كان يجري دعوة الناس إلى الصلوات بوساطة الأجراس الصغيرة، وداخل الكنيسة جيد التزيين، وهي مقسمة إلى كثير من البيع، وفيها معلق الكثير من المصابيح، وذلك إلى جانب مصابيح القديسة كاترين، والمذابح، والأعمدة الاثني عشر، وكان أمام مقعد كل راهب مصباح مضاء، وتتصل هذه الكنيسة عند رأسها بكنيسة العليقة، التي تقدم ذكرها.

والكنيسة الثانية هي الكنيسة اللاتينية، إلى جانب قلايات الحجاج، وهي ضيقة، عبارة عن قاعة مستطيلة، مع مذبح جيد التزيين، مكرس للقديسة كاترين، وجدران هذه الكنيسة من الطين، غير أنهم مستورين بحصر من ألوان متنوعة، وقد جرى تصنيعهم وتزيينهم بسعف النخيل، وجرى تعليق كثيراً من الأوراق على هذه الحصر، كتب عليها صلوات جميلة موجهة إلى القديسة كاترين، وجرت كتابتها من قبل حجاج، لأنه

قـد جرت العـادة أن تقوم كل جماعـة من الحجاج بكتـابة أشعار حـول القديسة كاترين، وتعليقهـا على الجدار، وفي هذه الأشعار لابد من مدح كاترين المبـاركة، وذكـر اسم كل واحد من جماعـة الحجاج، ويكون هذا إذا توفر واحـد بين الجماعة يمكنه أن ينظم الشعر، وكان في الفئة الثـالثة من جماعتنـا من الحجـاج المعلم المبجـل جـون لاسينوس Lacinus (كـذا) وكـان رئيس شمامسـة سيبين كـريشين Sieben kirchen (في ترانسلفانيـا)، كما أنه كان خطيباً متعلماً، وقـد كتب مباشرة من دون تحضير، الأبيات الشعرية التالية من أجل رفاقه:

تسلمي تاجك، الذي هو جائزة حياتك العذرية،

أتوسل إليك ياكاترين الشهيدة المجيدة،

تقبلي التعب الذي من أجلك تحملناه،

باركينا، مع أننا قد نكون اليوم، غير جديرين.

من مدينة جوليا القائمة قرب الدانوب،

كان جون اللاوي أول من انحنى أمام عرشك،

ثم تلاه فيلكس، المجيد من أرض أولم،

المتعلم بشكل مزدوج، وللرب أعطى كل تراثه،

وهنري أوف سكومبيرغ، وكاسبر أيضاً، اثنان،

مثل نيسوس ويوريالوس في التقوى.

ولورد أوف مارسباخ من فرانكونيا العادل،

وبطرس فلسخ أوف أرجنتاين القوي،

جميع هؤلاء إلى معبدك قد جاءوا،

وهم جميعاً عائدون إلى وطنهم،

وهم يرجونك أنهم فوق الأرض والبحر الذي بلاحدود،

علهم جميعا يرتحلون عائدين بسلام.

وقد بدأ يكتب أشعاراً للفئتين المتبقيتين، لكنه لم يجد الوقت لانهاء ذلك بسبب مغادرتنا المباشرة.

وباخلاص رجوت الرجل المتعلم المتقدم ذكره لابدال كلمة «مجيد» من أبيات شعره، لأنها بدت لي أنها لاتوائمني، وأن يقول ماهو صحيح، غير أنني لم أستطع اقناعه لأن يفعل ذلك، وقال: « إذا كانت غير صحيحة من جانب أول، إنها سوف تكون صحيحة من جانب آخر، والذي قد كتبته قد كتبته».

والكنيسة الثالثة، التي لاتستحق أن تدعى كنيسة، هي مسجد للمسلمين، وهي بناء واسع مربع، مع منارة طويلة ملتصقة به، من عليها ينادون بمديح محمدﷺ وفق طريقتهم، وهذا المسجد قائم بين الكنيستين الاغريقية واللاتينية، وذلك في الوسط وكأنه المكان الرئيس بين الثلاثة، ودخلنا إلى هذا البيت أيضاً، عندما لم يكن البداة العرب هناك، فلم نجد هناك لامتعة ولاتدين، ولاغفرانات، بل بيت فارغ مع جدران مطلية بالبياض، ولم نجد هناك مذبحاً، لأنهم يدخلون إليه فقط للقيام بشعائر لامعنى لها، ومكاتب الدير الأخرى صغيرة وتعيسة، والقلايات صغيرة جداً، وهي مصنوعة من قصب منسوج بالطين، وتستند واحدة على أخرى من دون نظام متبع، وهي مجرد غرف صغيرة، مثل أكواخ الرعيان، أو بيوت الأدوات في الحدائق.

والدير مبني جزئياً على سفح جبل حوريب، وتستند القلايات العليا على القلايات الدنيا، وهي ملتصقة احداها على الأخرى مثل عش الدبابير، وعندما شاهدتهم تذكرت تاكسوس Taxeus ابن كولوس

Colus، الذي عنه حدثنا بليني في كتابه حول« التاريخ الطبيعي»، بأنه كان أول من اخترع البيوت الطينية، حيث أخذ أعشاش الدبابير نموذجاً له، لأن المهندسين في تلك الأيام لم يكونوا قد بنوا القصور بعد، وقد مارس هذه الطريقة المتواضعة في البناء الآباء المسيحيون المشهورون والعظيمون للأيام الخوالي، لأنه بالفعل سكن روملوس، مؤسس مدينة روما، في بيت ريفي صغير، وسكن ابراهيم، الذي كان رجلاً غنيا جداً، في خيمة في أرض الميعاد، كما ورد الخبر في حبقوق:١١/ ٩، وهناك زاره الملائكة(التكوين:١٨/ ١).

ودوما تمدد الفيلسوف ديوجينيس Diogenes في إنبوب، واعتاد التنقل هناك حسبما كان يرضيه، وفقاً لاتجاه هبوب الريح، وحكى أوفيد أن الشخصين القديمين فايلمون Philemon وبوسيس Baucis كان لديهما بيت ريفي مصنوع من الخوص، وقد زاره الربانان جوبتير وميركوري عندما كانا يتجولان فوق الأرض معاً، وبعد ذلك كان الربان ممتنان لحسن الضيافة التي لقياها، وأمرا ببناء هيكل كبير على تلك البقعة، وجعلا منهما كاهناً وكاهنة للطقوسس المقدسة هناك، وبعد موتهما جعلا معا ربين، علاوة على ذلك قضى ربنا يسوع بأن يولد في اسطبل نزل، ولم يمتلك قط بيتاً خاصاً به، وكان أيضاً القديس بولص، وهو أول النساك، قد سأل القديس أنطوني، عما إذا كان المسيحيون قد شرعوا ببناء بيوت عالية مثل الكفار، وعندما سمع بأنهم فعلوا ذلك، وقع يبكي بمرارة بسبب حماقتهم، ومثل هذا فعل القديس برنارد عندما شاهد أكواخ الرعيان المصنوعة من القصب، فبكى لدى تذكره أن الرهبان السسترشيان قد سكنوا فيما مضى بمثل هذه الأكواخ، وهم الذين كانوا قد شرعوا آنذاك في الاقامة في أبنية عظيمة.

وعندما عاد القديس دومنيك من بولونا Bologna، بعدما كان غائباً لوقت طويل، وجد مهجعاً وقلايات قد ارتفعت فوق الأرض، التي

ارتاحـوا عليهـا من قبل، وعنـدمـا شـاهد هذا حـزن حـزناً عظيماً وقال:«ياإخوتي إذا كنتم قد بنيتم أماكن وأنا ماأزال حيـاً، مالذي سوف تعملونه بعدما أكـون ميتاً»؟ وأمرهم بهدم كل مارفعـوه، وباعادة الأبنية إلى ماكـانت عليه من قبل، وكان لدى الأسقف العظيم القـديس مارتن قلاية خشبية قرب كنيسته، وقد قرأنا عن واحد من النساك الذي امتلك قـلاية عملت على شكل قبر، ولـذلك عندمـا سأله الامبراطـور عن المساحة التي استخـدمها في بناء قلايته، أجـابه:« جسدي شخصياً، ذلك أن هذا المكان كـافياً لي كبيـت مادمت حيـاً، وكقبر عندمـا أكون ميتـاً»، وأضـاف بأنـه من الأفضل القفـز إلى السماء من كـوخ من أن نقفـز إلى جهنم من قصر، ومثل هـذا قـال القـديس برنـارد: «إخـواني، في حجنا خـلال هـذا العـالم، وفي منافعنا هنـا، دعـونا لانبني بيـوتاً على الأرض للسكنى فيها، بل خيماً لنزحف منهـا، مثل أناس سوف يستدعـون حالاً لمغـادرتهم للشروع برحلتنا إلى الوطن»، ولقـد حكي بأن فولكان حـداد جوبتير كان أول من أبدع الأبنية الفخمة.

رهبان دير القديسة كاترين وعاداتهم الشريرة وآثامهم الشديدة

إنهامسألة جـادة بالنسبـة للانسـان الحريص على تحرير نفسـه من كل ذنب أن يقوم بلوم شرور الآخـرين، وطالما أنني الآن مقبل على الحديث عن رهبان دير القـديسة كاترين، أنا مجبر بالصـدق على توجيه اللوم لهم بدلاً من مدحهم، لكن ليس بتوجيه النقد إلى حياتهم الخاصة، واحتوى هذا الدير فيما مضى كثيراً من الرهبـان مع الذيـن كانوا مقـدسين جـداً، والذين فيـه الآن مجرد قلة، وهـؤلاء عميـان نحـو الحقيقـة، وقبل مضي سنوات قليلة كان هناك حوالي المائة، والذين وجدوا مؤخراً كانوا ثمانين، لكن الآن ليس هناك فيه ثلاثين راهبـاً، ولهؤلاء الرهبان عادات تستحق الثناء، ولكن بعضها ممقوت، وأنا أثني عليهم لأنهم يأخذون بنظام محدد هو نظام القـديس باسيل، ففي ظل قيادته يمارسـون حياة قـاسية بما فيـه

الكفاية تجاه الاقلال من الأطعمة والملابس الخشنة، وطعامهم مثل طعام جميع الشرقيين، هو قليل وشرابهم اليومي هو الماء، باستثناء في بعض أيام أعيادهم العالية جداً، فوقتها يعطى لكل راهب شربة من خمرة، وثيابهم خشنة ووضيعة، وهذه الثياب هي قمصان لها ألوان متنوعة، فراهب يرتدي قميصاً من نوع، وراهب آخر قميصه من نوع مختلف، ومع ذلك مامن واحد من القمصان لونه براق أو من قماش جيد، وهذه القمصان طويلة، تشبه غفارة كاهن، وهم يتمنطقون بحزام عريض، وهم ليس لديهم أوشحة كتفية، بل طواقي رأسية هي ليست مغلقه حول أعناقهم ورقابهم، بل تتدلى نازلة من رؤوسهم حتى ظهورهم، ويوجد أمام الصدغين قطعتين تتلديان من القبعة، وهما تغطيان الجزء الأمامي من الكتفين، وتنزل حتى الحقوين، وهم جميعاً يدعون شعورهم ولحاهم تطول كثيراً، ويلتزمون بطرائق النصارى، حيث لايأكلون اللحوم مطلقاً، ولايستخدمون الخمرة كما تقدم القول.

وكثير منهم شيوخ تقدمت بهم السنون، وقورين، ورجال جدّ، وهم يستقبلون أي واحد يأتي إليهم، مهما كانت طائفته، وذلك باستثناء اليعاقبة والأرمن، شريطة أن يخضع نفسه عن طواعية لأحكامهم، سواء أكان لاتينياً، أو اغريقياً، أو ألمانياً، أو مصرياً، وكان من المعتاد قبل أيامنا عمل معجزات فيما بينهم، بسبب قداستهم، ومامن واحد كان يجري اختياره راعياً، بعد موت الذي كان قبله، مالم يأتي تعيينه بوساطة معجزة ما، مثل اضاءة مصباحه الذي في قلايته بشعلة من السماء، أو بوساطة رؤيا ما، أو هاتف صوتي.

وأبنيتهم، كما أخبرتكم ليست محط اعجاب، ولاعالية النفقات، وقد تمددت في قلاية واحد من الآباء المتقدمين بالسن، فلم أجد فيها شيئاً سوى علائم الفقر الشديد، ومامن امرأة تدخل إليهم، ولاحتى النساء الحاجات من مناطق ماوراء البحر، لأنهن إذا ماقدمن إلى هناك، يعرف

الرهبان الملاحظة الساخرة المرة:

« إلى المكان الذي تقطن فيه النساء،

يقول السلام والهدوء وداعاً،

لايمكنهما معاً قط استنباط،

طريقة للازدهار تحت سقف واحد،

والذي يعيش حياة منفردة،

هو وحده الذي يعيش من دون صراع»

هذا من دون الحديث عن المخاوف الأخرى التي لاتحصى والتي يواجهها الرهبان بالسكنى مع النساء، ولهذه المصاعب عليهم جميعا إعطاءها ماتستحقه من ثقل، وأن لايسمحوا لأية امرأة بالاقتراب منهم.

واعتاد هؤلاء الرهبان في الأيام الخوالي، عندما كانوا مايزالون مطيعين للكرسي الرسولي، على الترحيب بالحجاج بلطف عظيم جداً، وببشاشة، ويؤمنون لهم مايحتاجون إليه ويعطونهم أحذية، ولهذا السبب أرسل القديس البابا غريغوري— كما قرأنا في حكايته— مبلغاً كبيراً من المساعدات من روما إلى جبل سيناء إلى هؤلاء الرهبان، لأنه في تلك الأيام عملت أعمال كثيرة جيدة في الشرق لصالح كنيسة روما، لكن في هذه الأيام، ماالذي يمكنني قوله؟، لو أنني رأيت هؤلاء الإخوة والرهبان، قد أقاموا الموتى، وقرأوا القداسات، واعترفوا بالذنوب، وشغلوا أنفسهم بالأشياء السماوية، وتعاملوا بسلام أحدهم مع الآخر، والتزموا بأحكام نظامهم، وبددوا أجسادهم بالصيام والسهر، وبالغيرة على الفضيلة، ومارسوا الأعمال التقوية الأخرى، مع هذا كله سأقول بجرأة بأنهم ليس لديهم قداسة، وعلينا أن لانشك أنه لايوجد بينهم استقامة حقيقية، ولاأعمال مقبولة من الرب، ولاتدين يرضي الرب،

لأنهم ليسوا في الكنيسة الكاثوليكية، بل خارجها، فهم كما هو واضح منشقين بالدرجة الأولى، ولاصرارهم على انشقاقهم أصبحوا هراطقة، ولذلك ليسوا في موضع الرعاية ، لأن أعطية الروح القدس، التي بها تنصب الرعاية في قلوب الناس، لاتمنح للذين خارج حظيرة الكنيسة، وذلك كما تعلمنا من الشريعة القانونية، والذين هم خارج حظيرة الكنيسة لايمكنهم الحصول على المعرفة الحقيقية أو الفهم الصحيح للرب، كما تبرهن في الشريعة القانونية، ويتبع هذا أنهم لايستطيعون الاستفادة من قداس القربان، كما أنهم لايمكنهم التحرر من الذنب بالاعتراف، لأن لعازر لم يقم من الموت إلا في بيت عنيا، الذي هو بيت الطاعة للكنيسة الرومانية، كما أنه لم يكن بإمكان مرثا العيش حياة فعالة، ولامريم حياة تأمل إلاّ في ذلك البيت نفسه، كما أنه لايمكن أن يكون هناك أي سلام أو فضيلة خارج الكنيسة.

ومن الواضح الآن أن هؤلاء الرهبان محرومون كنسياً، ومنشقون، وهراطقة، لأنهم اغريق، والكنيسة الاغريقية بدون رأس، وبالتالي هي ليست شيئاً، علاوة على ذلك انهم شرقيون، بالنسبة لهم الشمس الحقيقية قد غابت، ويمكنني أن أبرهن على هذا الشيء نفسه بالتجربة، فنحن عندما نكون مقيمين في مكانهم نظرنا إليهم على أنهم محرومين كنسيا، ولم نشارك في أي من صلواتهم أو طقوسهم التعبدية عندما كنا هناك، لأنهم نظروا إلينا نحن أتباع الكنيسة الرومانية، على أننا محرومين.

وتبرهن هذا الأمر بحقيقة أخرى، هي أنهم لم يمنحونا مذبحاً في كنائسهم لإقامة قداس، وقالوا بأن القانون في كنيستهم هو أنه إذا ماأقام أي لاتيني قداساً على مذبح عائد للاغريق، فإن ذلك المذبح يكون محروماً كنسياً، مدنساً، ويتوجب تكريسه مجدداً من قبل أساقفتهم، وكنا قد أشرنا إلى هذا الموضوع فيما تقدم، ومن هذا كله تظهر بينهم بعض المعايير لعدم حبهم لنا، ولذلك عندما نسير في بلدهم ونسافر في عبادة

الرب يتعاملون بقسوة معنا، ولايفعلون شيئاً لنا من باب الاحسان، بل كل مايفعلونه لنا يفعلونه من أجل المال، وذلك مثلما يفعل المسلمون، وفي الحقيقة يتعامل المسلمون معنا في كثير من الجوانب بإخلاص أكبر مما يفعل هؤلاء المتقدم ذكرهم، وأنا أعرف من الخبرة أنهم لايرضون بفتح باب كنيستهم لأي حاج مالم يروا ماله في يده ليعطى لهم مقابل فتح الباب، وهم لايعطون انسانا شربة ماء من دون أخذ للمال مقابلها، كما أننا لم نستطع بأية وسيلة من الوسائل اقناعهم بتزويدنا بأحذية لفرساننا الحفاة، بل إنهم رفضوا كل شيء، وأما الأشياء التي لم يكن بامكانهم رفض اعطائنا إياها، فقد أعطونا إياها بنظرات كلها شذر وتأفف، لكن بقضاء الرب الصحيح تبرهن صحيحاً في هذه القضية المثل الذي يقول:« الذي ضُن به على الشريف منح إلى المنحطين»، لأنهم بالفعل يضنون على الحجاج باستقبال مشرق، حيث أنهم لايلتزمون بوصية القديس بطرس في قوله:« كونوا مضيفين بعضكم بعضاً بلا دمدمة»(بطرس الأولى٤/ ٩)، ولم يتصرفوا حسبما قال جيروم:« نحن نرحب بجميع الضيوف بملامح مشرقة ونغسل أقدامهم، مالم يكونوا هراطقة»، ولذلك تراهم بموجب الحكمة الربانية يقومون بدون تذمر بخدمة المسلمين ورعايتهم مع البداة العرب، وقطاع الطرق واللصوص، ويعملون أقل الخدمات إلى الذين هم من آل بيت الإيمان، مع أن الرسول يقول:« فلنعمل الخير للجميع ولاسيما لأهل الإيمان»[غلاطيه:٦/ ١٠]،كماأنهم لايقيمون وزناً في عقولهم ولايتذكرون الوصية التاسعة لكاتو Cato في قوله:« انظر جيداً نحو أخلاق الرجل الذين أنت معطيه»، فلطالما هم لايعطون لمن ينبغي الإعطاء، إلى الذي يكون شاكراً للأشياء الصغيرة، هم مرغمون على الاعطاء بكميات وافرة إلى الذين لايستحقون، أي إلى هؤلاء الناكرين من البداة العرب، الذي لايبالون لابالرب ولابالانسان، فهم يعطون في كل يوم خبزاً وشيئاً ما ليؤكل مع الخبز لما لايقل عن ثمانين من عرب الصحراء، أي إلى أولئك

اللصوص، الذين غالباً ماياًتي مائة منهم، وأحياناً أكثر، وإذا لم يعطهم الرهبان مباشرة ماطلبوه، ينقضون عليهم وينشرون الفوضى في الدير، علاوة على ذلك هم أغنياء، ولديهم ممتلكات كثيرة، ذلك أن واحداً من رؤساء أساقفة كريت— وكان من محبي القديسة كاترين العذراء— قد منح الدير العشر الأعظم لكل جزيرة كريت، وشطراً من المكوس في تور Tor، إلى جانب منافع أخرى أنالاأعرفها، وبالإضافة إلى هذا، يجري إرسال صدقات كثيرة إليهم من جميع بلدان العالم المسيحي، وذلك من قبل كثيرين من الذين يعتقدون أنهم ينفقون أموالهم على أعمال جيدة، في حين أنها في الواقع تصرف على شؤون سيئة جداً، لأن الرهبان أنفسهم ينبغي عدم رعايتهم من قبل المؤمنين، على أساس أنهم هراطقة، إليهم لايجوز بموجب أحكام القانون إعطاء مساعدات أوصدقات، ثم إنهم مما يعطى إليهم يتولون بالفعل رعاية اللصوص من البداة العرب، الذين يتوجب اعدامهم، كما أنهم لايبنون شيئاً تشريفاً للرب، حتى وإن بنوا كنائس، يتوجب على المؤمنين عدم الاسهام في بناء كنيسة للمنشقين، وهنا من المناسب أن أحدثكم بما وقع لي في السنة الأخيرة:

عندما كنت على المنبر في أولم أعظ الناس في يوم عيد القديس ميكائيل، جاء بعد القداس رجل، وقدم إليّ مرسوماً، ورجاني بقراءته للناس بصوت مرتفع في الكنيسة الأبرشية بعد القداس، وكان رسالة طويلة، عليها ختم كبير هو ختم السيد بطريرك الاسكندرية، المقيم في روما، وكان فحواها هو أن كنيسة القديسة كاترين في جبل سيناء بحاجة إلى الترميم، وزادت أن ذلك العمل ينبغي أن يقدم له الناس أيدي المساعدة، وجرى منح الذين يفعلون ذلك غفرانات طيبة، وكان الرجل الذي جلب الرسالة، راهباً اغريقيا مسناً، وقد وقف إلى جانب مذبح الصليب المقدس، وذلك على مقربة من المنبر، أمام وجهي، وقد وضع آثاره المقدسة مع تزيينات، وشموع مضاءة، ووقف إلى جانب

المنبر مستعدا لاستلام المال، وفي ذلك الوقت كان الناس ينظرون إليّ وإليه، وعندما قرأت الرسالة قلت للناس بصريح العبارة:« اعلموا أن الذي يقف هنا هو واحد من رهبان جبل سيناء، وقد جاء من أعظم الأماكن قداسة، حيث كنت أنا هناك، وهو يطلب مالاً من أجل إعادة ترميم كنيسة القديسة كاترين، وهناك وعد بالغفرانات مقدم من قبل بطريرك الاسكندرية، إلى الذين سوف يتبرعون، وإنني أستحلفكم بالرب أن لاتعطوا شيئاً إلى هذا الراهب، لأنه كما ترون منشق، وهرطقي، وغير مؤمن، وهو لايجوز السماح له بالدخول إلى كنيستنا، وأن لايكون حاضراً أثناء صلواتنا، لأنه مرتد.

وثانيا: لاتعطوا مالاً من أجل ترميم كنيسة القديسة كاترين، حتى وإن كانت مهددة بالسقوط، مع أنها غير مهددة بالسقوط، بل هي سليمة تماماً، وسبب هذا وياللأسف تلك الكنيسة ليست كاثوليكية، بل هرطقية، وليس فيها مكان للاتين التابعين للكنيسة اللاتينية الرومانية، الموجودين في ذلك المكان، كما لايوجد فيها مكان لإقامة قداس، أو لإقامة الصلوات، لابل حتى عندما نرجوهم، لايسمحون لابقراءة ولابغناء الصلوات في تلك الكنيسة، لأنهم يعدون الكنيسة الرومانية محرومة. ولذلك دعونا نسمح لها بالانهيار.

وثالثا: إن السيد البطريرك، عندما يقدم الغفرانات من أجل ترميم هذه الكنيسة، هو إما قد أسيء تزويده بالمعلومات، أو أمراً آخر أنا أميل للأخذ به، وهو أن الرسالة مزيفة لأن رهبان ذلك الدير لديهم راعي أو بطريرك في الشرق، هم له مطيعون، وهم لايعبأون بالمقيم في روما، الذي لقبه فقط« بطريرك الاسكندرية»، علما بأنه لم ير الاسكندرية قط، كما أنه ربما ليست لديه أية نية،برؤيتها، وليس لديه هناك من يطيع أوامره، ويعرف هؤلاء الرهبان بأن الكنيسة الرومانية تقدم أساقفة حتى إلى الأماكن التي ليس فيها أتباع، ولذلك يفرون من أماكنهم، ويأتون

إلى رومـا، ويعترفـون برجـل كأسقـف لهم، ويطلبـون عـونه من أجل منفعتهم، مع أنهم لايظهرون له أي تشريف، أو يطيعونه من أجل خاطر المسيح، ويعطونه رسائل مزيفـة، أو كتبت من دون عناية، من أجل أخذ أموالنا لاستخدامها من قبل الهراطقة.

ورابعـا: إن هذا الراهب الواقف هنـا، ويطلب منكم ذهبـاً وفضـة لالشيء، لأنني أعرف بالتجـربة بأنه هو نفسه في مكانـه لن يفتح واحداً من أبواب كنيستـه لنا مقـابل لاشيء، ولـن يعطينا شربة مـاء بارد، ولن يعيرنا Celindrium(؟)، ولن يمنحنا قطعة من الجلد لتصليح أحذيتنا، وأيضاً ولاقطعة من قماش قديم، لابل أكثر من ذلك توجب علينا شراء عصينا منهم، أو أن ندفع لاستئجـار عصـا، يأخـذها كل انسـان عندمـا يتسلق الجبل المقــدس، وأنا لم أذكـر هذا فيها دونتـه مـن قبل، لكن هذا مـاوقـع بالفعل، فعندمـا كـان الحجـاج على وشك الصعـود إلى الجبل المقـدس، جـاء الرهبـان مع عصي، إمـا باعـوهم لنا، أو أعـارونا إياهم تأجيراً، إنما لم يقـدمـوهم لنا مقـابل لاشيء ولابشكـل من الأشكال، وهكذا وقفـوا بالاتجاه المعـاكـس، ودمـروا روح كلمات:« بكرم أنت تلقيت، وبكرم أنت أعطيت».

وعندما فرغت من حديثـي على هذه الصورة، وانتهى القداس، تفرق الناس، ولم يعطوا ذلك الراهب شيئاً، لابل أكثـر من هذا، لقـد أنذر بأن من الأفضل لـه مغـادرة المدينة بـأسرع وقت يستطيعــه، وذلك قبل أن يجري تفتيشـه واستجوابه، وفي الحقيقـة إنني أعتقـد أنه إذا لم يجمع شيئاً من المال، لن يستطيع قـط الوصـول إلى جبل سيناء، ولقــد سمعت فيما بعد أن ماكسيميليان امبراطور وملك الرومان التقي جداً، وكذلك ملك هنغاريـا، اللذان تولى الرسول المتقـدم الذكر خـدمتهما قد أعطيـاه مبلغاً كبيراً من المال، لكن ذلك كلـه كـان عبثـا، لأنهما لم يلتــزمـا بالحكمــة القائلة:« انظـر جيداً واعرف مـاهي أخلاق الرجل الـذي أنت معطيه»،

وفي الحقيقة هذا المكان مقدس، وثمين لدى المسيحيين، وهذا مايعتقدونه حوله، ولذلك لايطرحون أسئلة حول أخلاق الناس الذين يسكنون هناك، والذين لايعدون شيئاً بين الناس، هذا(٦٢) وإنه بالنسبة للغفرانات الممنوحة من قبل الآباء الرسوليين باسم الرب إلى تلك الكنيسة هي ذات تاريخ قديم، وقد منحت عندما كانت الكنيسة ماتزال تحت سلطة البابا، وهم مايزالون يتمتعون بسلطانهم حتى هذا اليوم لصالح الحجاج الذين يحصلون عليهم، حتى وإن زاروا المكان من دون اعطاء أي منح وتقديمات هناك، ثم إن الحجاج لايفعلون فعلاً صالحاً عندما يودون الحصول على الغفرانات فيقدمون أعطيات إلى استخدامات الهراطقة.

مغادرة الحجاج وسفرهم من جبل سيناء، والاضطرابات والابتزازات والازعاجات التي عانوا منها قبل أن يتمكنوا من مغادرة الدير إلى الصحراء ثانية.

وفي اليوم السابع والعشرين استيقظنا قبل ضوء النهار، وأقمنا قداسات في بيعتنا، بعدها نزلنا إلى كنيسة القديسة كاترين، وحصلنا على غفرانات(++) في بيعة العذراء المباركة في العليقة، وعند ضريح القديسة كاترين، وبعدما قبلنا الأماكن المقدسة حصلنا على إذن من القديسة كاترين للعودة إلى أوطاننا، وصعدنا إلى موضعنا وقمنا بالإعدادات لمغادرتنا، وبصعوبة استطعنا اقناع الرهبان بالسماح لنا بتعبئة روايانا من بئر الدير، لأنه كان في الساحة بئر كبير وعميق جداً، مع مياه تجري فيه من القعر، ولم تكن مياه مطر، وهو شيء لم أره في أي جزء من الشرق، إلاّ هناك، وهم يقولون بأن موسى قد حفر هذا البئر، وأنه بفضل صلواته تدفق الماء فيه لانعاش بني اسرائيل، وكان موسى قد تعلم فن حفر الآبار هذا في مصر، لأن بليني حدثنا في كتابه الأول من« تاريخه الطبيعي» بأن دانوس Danaus ابن بلوس Belus كان أول من قام

بحفر آبار بمصر، وأنه عندما أبحـر إلى بلاد الاغريق، عمل هناك الشيء نفسه، ومن هناك انتشرت معرفة هذا الشيء في المناطق الأخرى.

وعندما رأى البـداة بأننا نقوم بـالاستعداد للمغادرة، أرسل مقـدمهم خادمـاً إلينا، حذرنا بوجوب عدم التفكير بمغـادرة المكان الذي كنا فيه، من دون أن ندفع له حقوقه أولاً، وهكذا حدث بعد كثير من المناقشات أن أعطيناه بعض الدوقيات، وأملنا لذلـك أننا أصبحنا أحراراً، وانتظرنا الآن قـدوم سائقي جمالنا، الذي تـأخروا كثيراً عن القـدوم إلينا، وأخيراً جاء واحد وقال بأن الجمال كانت في أيدي رجال مسلحين، لن يتركوهم من دون دفع خفارة لهم، وبناء عليـه عقدنا اتفاقـاً معهم، وحررنا جمالنا منهم مقـابل مـال، وجـاء سـائقـو الحمير أيضـاً وأخبرونا بأن حميرهم محبــوســة من قبل المسلمين، وأن علينا أن ندفـع إليهم مــالاً من أجل تخليصهم، ولذلك ظلت حـوافظ نقـودنا مفتـوحـة باستمـرار، لأننا كنا مرغمين على الدفع حتى ننجـو من هذه الاضطرابات، وفي الوقت نفسه بعث إلينا راعي الدير رسالة يشتكي فيهـا بأن واحداً منا قطع شظية من تابوت القديسـة كاترين، بأداة معـدنية، وإذا لم نقم على الفور بإرجـاعها عن طواعية، سـوف نرغم بالحال على فعل ذلك من قبل البـداة العرب، الذي سوف يضع القضية بين أيديهم.

وعندما سمعنا هذا بتنا خائفين خوفاً شديداً، علاوة على ذلك وجدنا التـابوت مشوهاً بـالحقيقة، لكن مـامن واحـد منا اعترف بأنه فعل هذا الشيء، ونظر كل واحـد منا إلى جـاره، ولعـن الذي فعل ذلك، ومع أن كل واحــد منا رجـا الآخــر وقـال بأن المجــرم ينبغي أن لايخجل من الاعتراف، وينبغي أن يعيـد القطعـة المكسورة ثانيـة، وأعلنا جميعـاً بأننا سوف نقف إلى جانبه، وسوف ندفع كل ماتوجب عليه دفعه، ومع ذلك مـامن أحـد اعترف بذلـك، وقـال كـالينوس أخيراً، إن على المجـرم أن يعطيـه القطعة المكسـورة من الحجـارة بشكل سري، وهو سـوف ينهي

القضية بهدوء ودونما إعلان، وهذا ماكان، وأنا حتى هذا اليوم لم أعرف من الذي كان المجرم من بيننا.

ولقد تحملنا كثيراً الاضطرابات والخزي خلال حجنا هذا كله، بسبب الرغبة الحمقاء لبعض من جماعتنا بالحصول على قطع مقطوعة من الأماكن المقدسة، وهذا ماكنت قد تحدثت عنه من قبل، وعندما جرت تسوية هذه المشكلة، جاء رهبان الدير والموظفين وسألوا من دون حياء مالاً كوداع، أو هدية مغادرة، وهو أيضاً ماأعطيناهم إياه، مع أنهم لم يستحقوا ذلك، ثم جاء راعي الدير بشخصه ذاتيا، وكان رجلاً قد تقدم قليلاً بالسن، وقوياً وعاقلاً، وقد طلب منا اصطحاب أربعة جمال محملة بالفواكه، لترتحل معنا إلى مصر، لأنه في كل سنة ، وفي مثل هذا الموسم، يرسل راعي الدير فواكه إلى السلطان، ملك مصر، وتوضع هذه الفواكه في صناديق خشبية، وهي تجمع من قفار سيناء وحوريب، ويقدر السلطان هذه الهدية تقديراً عظيماً، لأن الفواكه قد نمت في تلك البقعة المقدسة، ويقوم بتوزيعها بين أعظم أعيان مصر، الذين يتسلمون تلك الفاكهة على أنها شيء مقدس أرسل إليهم من السماء، ولذلك أخذنا تلك الجمال الأربعة بصحبتنا، ومن أجل وصف للحدائق في القفار، حيث تنمو هذه الفواكه انظر ماذكرناه من قبل ص١٤١٠.

وأخيراً عندما جرى اعداد كل شيء بسلام، وجرى الدفع إلى جميع الرجال، خشينا من أن يقوم البداة العرب بعد مغادرتنا للدير باللحاق بنا وإنزال الأذى بنا في القفار، لذلك توجهنا مع كالينوس إلى المسجد، حيث كان مقدم البداة العرب، واستدعيناه إلينا، ورجوناه أن لانتعرض للاضطراب من قبل رجاله عندما نصير خارج الدير، وقد وعدنا بأننا لن نعاني من أي أذى على أيدي قومه، وقال بأننا إذا مارغبنا بأن نكون سالمين تماماً، فلسوف يرسل بعضاً من عبيده معنا لسفر ثلاثة أيام أو أربعة خلال القفار لحمايتنا، ولقد كنا راضين بهذا الجواب، وتركناه

ونحن متحـررين من الخوف، وقد أعـاقت كل المشاكل المتقـدمة الذكـر مغـادرتنا حتى منتصف النهـار، وقمنا الآن تحت الحر الكامل للشمس بتحميل جمالنا مع كثير من التعب، ووسط مخاصمات كبيرة، لأن سـائقي الجمال ألقوا روايا الماء التي ملأناها ماء، وقمنا نحن من جانبنا بوضعهم مجدداً، لكنهم رمـوهم، ووصـل بنا الحال إلى الضراب، وأزعجنا بعضنا بعضاً بحركات غاضبـة، وجاء أخيراً بعض البداة العرب وصالحونا على شرط أن ندفع كـراءً جـديداً إلى سـائقي الجمال مقـابل حمل روايا الماء وفعلنا ذلك، ولوفعلناه من البداية لماكان ثار أدنى خلاف.

وتمّ أخيراً تحميل جمالنا، وغادرنا الدير، لكن مالبث البداة العرب أن جاءوا يسعـون خلفنا، وهم يحملون حصيراً وحقيبة، كان سـائقو جمالنا قد تركوها عن قصد، ولذلك أرغم الحاج الذي عادت الحصير إليه على شرائهـا من البـداة العـرب، وعندمـا حصل على الحصير رفض سـائق الجمل وضعهـا على جمله مالم يتم دفع بعض الفلوس له، وبهذا تعـرضنا للمضـايقة والأذى تمامـاً، وغـادرنا الدير الآن، وسـافرنا خـلال الوادي نفســه الذي جئنا عبره، وذلك حيث عبـد بنـو اسرائيل العجل الذهبي، وسرنا بخطوات بطيئة لمدة أربع ســاعـات، ونصبنا في المسـاء خيمنا في مكان دعاه البداة العرب باسم Wachya ، ووجدنا هنا مصاعب في الحصـول على مايكفي من العصي للنار من أجل طهي طعـامنا، ونصب البـداة العـرب الذين كـانوا مـع الجمال التي حملت الفـواكـه خيمهم في وسطنا، وهكذا أمضينا تلك الليلة.

الرحلة

وفي اليـوم الثـامن والعشرين، الـذي كـان الأحـد الثـامن عشر بعـد التثليث، استيقظنا ثـلاث سـاعــات قبل ضـــوء النهــار، وحملنا جمالنا، وغادرنا مكان Wachya، وعبرنا خلال ذلك الممر الضيق، الذي كنت قـد تحدثت عنه من قبل، وأدرنا ظهـورنا إلى أعلى جبـال سيناء، وعـدنا

ثانيـة إلى Machera ، حيث اعتـاد مـوسى على رعي قطعـان يثـرو، وعلى هذا السهـل المنبسط ابتعـدنـا عن الطريـق الذي كنا قـد جئنا عليه[٦٣] أثناء قدومنا، ولقد غـادرناه وتركناه على الجهة اليمنى، عندما استدرنا نحـو اليسار، ونزلنا مجرى سيل بلا ممرات، وهـو مع ذلك كان مكانا جميـلاً، لأنه كـان مليئاً بأشجار التمـر الهندي وشجيرات أخـرى، وعندمـا كانت الجمال والحمير عـابرة قطفـوا الأوراق مع الندى عليهم، من الأغصـان الصغيرة، وفي الـوقت نفسـه مصصنا النـدى من على الأوراق، ذلك أنه كـان حلواً مثل السكر أو العسل، ومنه جرى إعـداد المن اللذيذ والحلو الطعمـة، وفي حـوالي الظهيرة وصلنا من نهاية مجرى السيل ذاك إلى الوادي حيث كنا قـد اصطـدمنا مع البـداة العـرب، قبل ثمانيـة أيام مضـت، وأثناء عبـورنا لمجـرى السيل هـذا، فجأة قـدم حمار وحشي مسرعـاً من الأعـالي، وكـان يجري نحـونا بسرعـة كبيرة، وكأنه سوف يندفـع في وسط جماعتنا، ونحن الذين لم نر قط من قبل حماراً من هذا النوع، لم نظن أنـه أي شيء سـوى حمار أهلي، وكنا مشـدوهين تجاه سرعتـه وجماله، وقـد ركض وهو ينظـر نحـو حميرنا، وأتصـور أنه كـان يريدهم، متصوراً أنهم سوف يتجنبون مرافقة الانسان، ولحقه واحد من البـداة العـرب بحـذر، وسـار على محاذاته، مع قـوس وسهـام ناوياً الاطلاق عليه، وهربت الدابة قبل أن تكون في مـدى الرماية، ومع ذلك سارت ببطيء مبتعدة عن مطاردها، وكأنها كـانت تريد استدراج الرجل ليدخل في سباق معها، وأخيراً عندما صـار العربي قريباً من الحمار، فوّق قـوسه ورمى سهماً جـرح به الدابة، فـرمت على الفـور السهم، وذهبت ماضية عبر المكان المنحدر، وجلب لنا الشاب السهم وكان هناك دم على رأسـه، وبعـد مضي وقت قصير رأينا خمسـة حمير وحشيـة مع بعضهم يركضون بين الصخور.

ولدى الذين كتبـوا عن التاريخ الطبيعي الكثير ليقولـونه حول الحمار

الوحشي، والأخـدر أو حمار الوحش، هو دابة جميلة رشيقـة، لها رأس أصغـر من الحمير العـامـة، وهو حـر، وغير مـدجـن، وحيـوان مفعم بالحيوية يسكن في المناطـق الجبلية، والأماكن القـاحلة، وهو سريع جداً، حيث يمكنه أن يسبق الدب، والـذئب، والأسـد، ولهذا السبب عـدّ من قبل القـدمـاء بين الأرباب الرئيسيـة، وليس بين الـ Diomedes كما أخبرنا يوسيبيوس في مصنفه De Evangelica Praeparatione— الكتـاب الخامـس، الفصل الثـالث عشر، ويمكنـه أن يتحمل العطش لوقت طويل، أطول من المخلوقـات الأخـرى، وعندما يكون غير قـادر على الوصـول إلى الماء، يعيش على الريح، حيث يقف فـوق الصخـور ويستنشق الهواء، وهذا مـاورد في سفـر إرميـا في قـوله:« ووقف حمار الوحش على الهضـاب يستنشق الريح مثل التنين» [ارميا:١٤/ ٦] وجـاء في المزامير قـولـه:« ويطفـيء الحمار الـوحـش عطشه»(المزمـور:١٠٤/ ١١)..... وينهق الحمار الوحش اثنتي عشرة مرة في النهار واثنتي عشرة مـرة في الليل، وبناء عليه يستطيع الذين يسكنون في القفار تمييز ساعـات الليل.... والبغال السريعة هي التي تلد من حمار وحش وفـرس، ولكن الأسرع من البغـال هـذه هو الحمار الذي يلد من حمار وحش وأتان مدجنة، والبغـال المولودة لها أثمان مرتفعـة جداً، لأنها تركب من قبل الأمـراء والرجال العظماء، ووصلنا عند غـروب الشمس إلى مجرى سيل منعزل وجـاف، يطلق عليه البـداة العرب اسم Elphat، وهنا أنزلنا الأثقـال من على دوابنا، ونصبنـا خيـامنا، وتمددنا هناك أثناء الليل، وكان المكان جافاً وقـاحلاً إلى حد أننا لم يكن لدينا أمل في العثور على مايكفي من خشب لاشعـال نار، لكن وجدنا مـايكفي لتسخين ماء لصنع فطيرة.

وفي اليـوم التـاسع والعشرين، الذي هو يوم عيـد القـديس ميكائيل، استيقظنا قبل ضوء النهـار، وارتحلنا خلال مجرى السيل نفسـه المهجور،

وهو الذي جئنا عبره من قبل، وعانينا من يوم صعب ومرهق، لأننا عملنا رحلة طويلة فوق أرض سيئة، وليس فوق رمال، كان من الممكن لنا تحملها بصبر، فلقد سرنا فوق غبار، لابل فوق رماد، وعجبنا كثيراً واستغربنا من أين جاءت الكميات الهائلة من الغبار والرماد، التي انتشرت فوق تلك المنطقة، لأنه لم يكن هناك سكان من البشر، ولانار، ولاشيء سوف يحترق، ولقد أجبنا على هذا السؤال كما يلي، وذلك وفقاً للإيمان الكاثوليكي:« مادام الرب قد أرسل اللعنات الموجهة إلى جميع البلدان، إلى هذه الصحراء الحجرية، قد أرسل أيضاً هذه الواحدة أيضاً، أي مامن مطر، أوثلج، أوندى ينبغي أن يسقط هنا، بل أمطار من الغبار والرماد، وهو قد هدد بوجوب سقوط مثل ذلك على الأرض المقدسة، بالشكل نفسه، إذا لم يحافظ الذين يسكنون هناك على وصاياه»، « فالرب سوف يجعل مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل عليك من السماء حتى تهلك»[التثنية:٢٨/ ٢٤]، فهذا ماعمله الرب لأرض مصر، عندما أخذ موسى وهارون— بناء على أوامره— حفناً من الرماد من الموقد وذراه نحو السماء، فأصبح يغلي وانتشر على شكل بثور على الناس وعلى الحيوانات، وذلك حسبما قرأنا في سفر الخروج:٩/ ١٠، وهكذا تصورنا بأن ذلك الجزء من القفار قد أصيب أيضاً بالوباء نفسه مثل مصر، وخشينا أن يتحول إلى بثور مثلما حدث للمصريين، وعلى كل حال حفظنا الرب أصحاء لدى عبورنا خلال تلك الأرض من الرماد.

ووصلنا إلى واد، حيث وجدنا صنماً على شكل طفل سوداني، واقفاً في كهف في الصخر، ويقدم البداة العرب من وقت إلى آخر تقديمات إلى هذا الصنم، وكانوا سيبدون امتنانهم لوأننا قدمنا بعض الفضة، لكننا لم نفعل ذلك، وقطع بعضهم قطعاً من قمصانهم وعلقوها أمام الصنم، وذلك حسبما اعتادوا أن يفعلوا في أماكن اعتقدوا بوجود أية قداسة فيها، وكنا قد رأينا شيئاً من هذا القبيل من قبل، وبالنسبة لهذه العادة

السخيفة بالتعبد بوساطة أثمال من القماش، يمكن للانسان أن يقول بما أن بعض الناس يعتقد أن مامن شيء في الدنيا هو أكثر قيمة ومكانة وقبولاً لدى الرب من جلد المخلوقات الميتة، التي عليها كتب الرب أسراره الأكثر عمقاً، مع نظام العالم كله، إنه مثل هذا، بالمساواة المنطقية الأثمال التي لاقيمة لها من الكتان وقطع القمصان، جديرة بالاحترام، على أساس أن مامن أشياء أدنى قد كتبت عليهم مما كتب على جلود المخلوقات الميتة، لأن جميع الأشياء مقدسة، وانسانية، وسماوية، وارضية، وخالدة، ومتحولة، وحاضرة، ومستقبلية، ومرئية وغير مرئية، وطبيعية، واعجازية، وأشياء ينبغي أن تعتقد، وأشياء يمكن البرهنة عليها، وأشياء منطقية، وأشياء وهمية، وجميع الأشياء الأخرى، من كل من الجيد والسيء، وأشياء مرغوب بها، وأشياء مرفوضة، كلها قد كتبت إما على رق أو ورق، ولعله لهذا السبب يعتقد الكفار بأن هذه الأثمال مقبولة بالنسبة لأربابهم، ولهذا يقدموها لهم.

وسرنا من هذا المكان على طريقنا حتى المساء، وقد نصبنا خيمنا في مكان موحش، يدعوه البداة العرب باسم Effkayl، وعندما استقر بنا الحال بدأنا مجدداً نشعر بالحاجة إلى الماء ونعاني من نقصها، وكان هذا مزعجاً لنا بلا حدود، وقاسياً لايمكن تحمله، ففي ذلك المساء بالكاد امتلكنا من الماء مايكفي لطهي حساء أو المرق لنأكله مع بقسماطنا أو خبزنا، وتفكرنا حول الكميات الوافرة من لحوم الأوز والبط، التي نجدها تقريباً في كل بيت في بلادنا عشية عيد القديس ميكائيل، وبدأنا نتحرق رغبة إلى قدور اللحم، وإلى السفود المليئة باللحم المشوي، وإلى سلال السمك، والمعجنات الساخنة، والذي حدث معنا، كان مثل الذي حدث مع بني اسرائيل في القفار، وذلك عندما تذكروا وفرة الأشياء في مصر، وتشوقوا إلى اللحم، وإلى السمك، وإلى البصل، والثوم والبطيخ(الخروج:١٦/ ٣) وبتفاصيل أكثر في سفر العدد:١١/ ٥، لكن

رغباتنا كانت بلافـائدة، لأن موسى لم يكن معنا ليجلب لنا السلوى من بلدان مـاوراء البحـر، كما جلب لهم، وعلى كل حـال نزل غضب الرب عليهم لأن المزمـور يقـول:« وطعـامهم بعـد في أفـواههم صعـد عليهم غضب الرب وقتلهـم» [المزمــور:٧٨/ ٣١]، وعلى هذا أمضينـا عيـــداً ميكائيليا تعيسـاً، وليلة غير هادئة بسبب الرمـاد، والرياح التي نشرته في الجو.

كيف عانينا بسبب نقص المياه

وفي الثـلاثين، أي اليوم الأخير مـن ايلول، وكان يوم عيـد القـديس جيروم، غادرنا المكان المتقدم ذكره، بعد منتصف الليل مباشرة، أي أربع ساعـات قبل ضوء النهـار، وتابعنا سيرنا خلال القفـار التي بلا ممرات، مخلفين وراءنا أعلى السـلاسل الجبليـة والداخليـة منهـا، وعندمـا أضـاء النهـار وصلنا إلى قفـر رامـاثيم، أي إلى المكـان الذي خيمنا به في اليـوم التاسع عشر، عند سفح منطقة Rachkaym ، حيث نزلنا إلى جانب الهضبـة المنحدرة، كما سلف وتحدثنا من قبل، ولم نسر فـوق ذلك المكان المنحـدر ثانيـة إلى الجبـال، بل تـركنا المنطقـة التليـة على يميننا، ومضينا نازلين نحـو البحـر الأحمر، فهنا ابتعـدنا عن الطريق الذي قـدمنا عبره، وانعطفنا مبتعديـن عنه نحو مصر، وكنا في ذلك الحين نعـاني من الحاجة إلى الماء، وتذمـرنا من أجل الماء وقلنا لكالينوس، الذي كـان مـوسـانا:« أعطنـا مـــــاء حتى نشرب» وذلـك مثلما قـــــال اليهـــــود لموسى(الخروج:١٧/ ٢)، وأجـابنا كالينوس بأننا إذا أردنا الماء، يتـوجب علينا الانحـراف قليـلاً عن الطريق الصحيح، بعيـدين عن الجمال الذين لايمكن اقتيـادهم فـوق تلـك المنطقـة التي بـلاممرات، فقلنا: ينبغي أن نمتلك ماء، لأننا خـلال الطريق كله من سيناء إلى هذا المكان لم نر الماء، وقـد أفرغنا تقـريباً روايانـا، وبناء عليه أخبر واحـد من البداة العـرب، الذين التحقـوا بنا في القفـار، كالينوس بأنه يعـرف مكانا فيـه كثيراً من الآبار، وأنه سيقــودنا إلى هنـاك، وبناء عليـــه تركنا الجمال وكـالينوس يذهبـون مباشرة نحـو البحر الأحمر، وتبعنا العـربي في المنطقة الأخـرى، ووصلنا معه إلى منطقـة قفر أي إلى مجرى سيل صخـري، مغلق من على الجانبين بجـدران عـاليـة من الصخــور، والذي خـلاله تجري الميـاه في موسمها بشدة عاليـة إلى درجة أنها تنقل الصخور الكبيرة، وسرنا مسافة طويلة خـلال مجرى السيل، هذا، وبدأنا نصبح خائفين، لأن المكان كـان

صحـراء موحشـة، وتحدث أحدنا مع الآخـر، وعجبنا من أنفسنا، كيف أننا حتى نحصل على الماء تركنا كل أغراضنا على الجمال، وتركنا أدلاءنا، وسائقي حميرنا، وسائقي جمالنا، والتحقنـا برجل فرد— هو الأغرب بين الغـرباء— وكنا نلحق به فـوق ذلك القفـر الذي بلا ممرات، ومع ذلك اعتقدنا جميعـاً بأن ذلك العربي كان انسانا جيـداً، لأنه بذل جهده في كل سبيل حتى يشجعنا، وركض بنشـاط أمامنا، مشيراً إلى الصخور العـالية وإلى مجرى السيل الجاف الذي أمامنا، وكأنه هو شخصياً يبحث هناك.

وبعدمـا سرنا مسافة طويلة، تسلقنا على الصخـور وخرجنا من مجرى السيل، ووصلنا إلى مكان كـان مليئاً بالنبـاتات والحشـائش الخضراء، وبعـدمـا اجتزنا هـذا المكان وصلنا إلى سهل رملي، حيث رأينا كثيراً من علامـات سير الناس والجمال والحمير مرسـومة على الرمـال، وكان هذا السهل، مملیئاً بالشجيرات وبأشجار الفاكهـة، وكان فيه كثيراً من الآبار والحفر المليئة بالماء، وعندما رأيناهم قفزنا من على ظهور حميرنا، وسررنا لدى عثورنا على الماء، وركضنا نحو الحفـرة الأقرب، وأنزلنا فيها الدلاء المصنوع من الجلد، الـذي حمله عـربينا معـه، ونضحنـا منهـا بعض الماء الكثيف الموحل، وعندمـا أردنا أن نشرب منه، تذوقناه فـوجـدناه مـالحاً جـداً، وكأنه قد نضح من البحـر، ولذلك حتى حميرنا لم تستطع الشرب منه، إنما عندمـا نظرنا ناقدين نحـو دليلنا العـربي وكأننا نقول بأنه مـزح معنا، وجلبنا إلى هنـا لالشيء، أشـار إلينـا بوجـوب تذوق مـاء الآبار الأخرى أيضـاً، والبحث عن ماء عذب، وهكذا ذهبنا إلى حفـرة أخرى ونضحنا بعض الماء، وقد وجدناه بلا طعـم، ومع ذلك كان أقل ملوحة من الأول، وهكذا طفنا حول جميع الحفر، وقد وجدنا ماء لدوابنا، لكننا لم نجـد ماء لأنفسنا في تلك الآبار، وبنـاء عليه بدأ يحفـر ويرمي التراب بيديه، وكـان ذلك في حفرة جافـة كان قد وجـدها، وهي لم تكن عميقة جـداً، وبعـدمـا حفـرنا لبعض الوقت، بدأ الماء يتـدفـق، ومع أنه كـان

موحلاً، لكنه كان عذباً.

وملأنا بهذا الماء روايانا وأجوافنا، دون أن نعبأ بوحولته، فكل انسان يعرف هذا السهل يفعل هذا، ويحفر بئراً لنفسه، لأن الماء في الأسفل عذباً، لكن عندما تشرق الشمس في الآبار، تجعل الماء مالحاً، ولذلك وجدنا ماء مالحاً في الآبار المحفورة فقط، ولو أن هذه الآبار حفرت عميقاً، وطويت، وغطيت من حرارة الشمس، أعتقد سيكون هناك ماء جيداً للشرب في ذلك المكان، وفي الحقيقة إنه لأمر عجيب كيف توفر الماء في تلك التربة الرملية، وعجبنا من نبتون، رب البحر، الذي بعدما أطلق سراح ابنة دانوس Danaus من ساطير في القفار، واغتصبها هناك غرس رمحه الثلاثي الشعب فوق الأرض في المكان الذي تعاشر فيه مع الفتاة، فتفجر نبع، لكننا هنا لم يكن معنا لارمح ثلاثي الشعب أو مسحاة، بل عملنا نبعاً بأيدينا، ووجد في هذا المكان ينابيع مالحة جداً، مثل مياه نبع اسمه Exampeus الذي هو موجود في بلاد Ca-liopades (؟)، ويرسل هذا النبع مياهاً مالحة إلى حد أنها حولت النهر التي تجري فيه إلى نهر مالح تماماً، ومن جهة أخرى هناك أيضاً نبع اسمه أليس Alis ، حلو جداً لتشرب منه حتى أن الشارب منه لايعبأ بمشروب آخر، ومثل هذا، وجدنا على هذه البقعة مياهاً حلوه ومالحه معا، هذا ورأيت في بعض الأماكن من بلادنا صفاتاً أكثر عجباً في ماء واحد هو نفسه، ففوق كوبلنز Coblenz قرب بلدة ناسو Nassau هناك يتدفق من بين الصخر ماء حار مالح، ومن الجروف وشعاب الصخرة نفسها تجري مياه أشد حرارة وأكثر ملوحة، ومع ذلك أمكن العثور على مياه عذبه في المكان نفسه، وكذلك على مياه مالحة بارده، وهذه المياه كلها تنبع من صخرة واحدة، واسم هذا المكان«مياه إمس Ems » وهناك أماكن إقامة للذين يرغبون بالاستحمام هناك، لأن المياه طبية.

وبعـدمـا سقينا أنفسنا، وسقينـا دوابنا، غـادرنا مسرعين، ووصلنا إلى مجرى سيل آخر شـاسع، وبعدمـا سرنا على طوله مسافـة طويلة، تسلقنا واحداً من طرفيـه، فرأينا جمالنا تسير بعيـداً عنا، ولذلك أسرعنا بخطانا ولحقنا بهم، وفي الوقت الذي وصلنا فيـه إليهم سخن الماء الذي كان في جرارنا، وبات غير قـابل للاستخدام، لأن ذلك الماء ماأن يشعـر بحرارة الشمس حتى يميل لأن يصبح مـالحاً، وسـافـرنا في ذلك اليـوم في ظل شمس حارة جـداً، فوق مجاري سيول مـدهشة بقحطها وبصحـراويتها، ووصلنا عنـد المسـاء إلى مجرى سيـل اسمـه لديهم Laurara ونصبنا خيـامنا على جـانب، وعلى مقـربة من هضبـة حجـرية، يشرف عليهـا نتوءات صخـرية، وهنا حملت جماعتنا فرشنا ووضعـوهم في كهف كبير، حيث أقررنا فيه أنفسنا، لأننا كـرهنا خيامنا، وبتنا غير راغبين بالجلوس فيها مـالم نكن مرغمين على ذلك، لأننا كنا عندما نرقد فيهـا نبدو وكأننا مسجـونين واحـدنا إلى جـانب الآخر، وأصبح كـل منا مغطى بقمل الآخـر، وكـانت جميع الصخـور، والحجـارة، والأرض في هذا المكان مشكلة من تربة في غـايـة البيـاض، ولذلك انتشر علينا الغبـار الأبيض، وبتنا وكأننا في طـاحـون قمح حيث يتطاير الطحين هناك، وعنـدمـا كنا نجمع عصياً ونطبخ، قدم أدلاؤنا والبداة العـرب، وتحلقوا حول خيامنا يلتمسـون الحصول على البقسماط، والبيض، وأشيـاء مماثلة للأكل، ومع ذلك أكلوا قليلاً في تلك الأمسية، وسبب ذلك سوف أوضحه فيما يلي.

الفصل الثامن
ويحتوي على أعمال الحجاج خلال شهر أيلول
وأشياء أخرى كثيرة

قبل ساعتين من انبلاج فجر اليوم الأول من شهر تشرين أول، استيقظ المسلمون والبداة العرب— وكانوا جميعاً من أتباع ديانة محمدﷺ— الذين كانوا معنا وأشعلوا ناراً وشموعاً، وبدأوا يأكلون، وكانوا مسرورين، يضحكون ويغنون، وصاروا مرحين أكثر مما اعتادوه، وأيقظونا بصراخهم، ودعونا لنشاركهم في مرحهم، وعندما سألناهم عن سبب هذا الاحتفال الكبير، أخبرونا أنه من الصباح المقبل يبدأ صومهم، ولذلك أكلوا وكانوا مسرورين قبل الفجر، ذلك أنهم هكذا يلتزمون بالصوم الذي فرضه عليهم محمدﷺ في قرآنه، ذلك أنهم لايصومون خلال السنة كلها، إلاّ في شهر تشرين أول(كذا) ففيه يصومون كل يوم من قبيل الفجر، وذلك عندما يكون هناك مايكفي من ضوء لتبيان الخيط الأسود من الخيط الأبيض، وهم يصومون حتى غياب الشمس، وخلال النهار هم لايأكلون ولايشربون، ولايتحدثون مع زوجاتهم، بل يرتاحون، وينامون، ويمضون النهار من دون عمل، لكن ماأن تغيب الشمس، حتى ينهضون، ويمدون الموائد، ويأكلون ويشربون، لكن ليس دفعة واحدة، بل في الأوقات التي يرغبون بها، ويصرخون طوال الليل ويغنون، ويسعون إلى هنا وهناك، وفي كل ليلة من ليالي الصيام يصبحون مجانين هكذا، ويسلون أنفسهم مع زوجاتهم، والذين لايستطيعون السهر طوال الليل، يتمددون للنوم، لكنهم يستيقظون قبل الفجر بساعتين للأكل، ويتوقفون عن الأكل عندما يرون الفجر.

وفي المدن، يسعى— بناء عليه— رجال دينهم في الشوارع قبل

ســـاعتين من الفجـــر ويضربون بقطع مـن الخشب بعضهـــا ببعض، ويوقظون الناس حتى يأكلون ويمتعون أنفسهم، ولكم هو صيام غريب وغير طبيعي، مناسب فقط للناس الجسـديين والشهـوانيين، وهو بعيـد، بعيد عنا الـذي يدعو إلى صيام مـن هذا النوع، فبعد انتهـاء الصوم أثناء النهـار، يمضـون الليل في أعمال الغـريزه، والأكل والشرب، والتسليـة، وكأن هذا الصيام— كما يبـدو— قد عمل لغـرض واحد، هو أن الناس بعـد انتهـائـه ينغمسـون بتلبيـة رغبـاتهم المنحطة مع كثير من السرور والأكل، ولقد انزعجنا كثيراً أثنـاء الليل بصراخهم طوال الشهر، حسبما سنصف فيما يلي.

وعندمـا اقترب النهار، وأشبعوا أنفسهم، وكـانوا سيقومـون بتحميل الجمال، وجدوا أن واحداً من جمالهم قـد سرق، لأن اللصوص يتجولون خلال القفـار، ويقفون في النهار فـوق رؤوس صخور عاليـة، ويراقبون جماعات الناس العابرة، ليروا أين سيقفون لإمضاء الليل، وعندما يكون الجميع نياماً، يندس اللصوص بينهم بكل هدوء، ويفكون جمالاً أو حميراً من مقاودهم، ويأخذون حقائب ومزاود إذا استطاعوا.

وغضب سـائقو الجمال تجاه هذا، وحمل اثنان منهم رمـاحـاً، وخرجـا يركضـــان في المنطقـــة للبحث عن الجمل، وفي تلك الأثناء قمنـا بوضع حمولة الجمل المفقود على ظهـر جمل آخر، وانطلقنا من Laurara وسرنا فـوق طريق رملي، وبعـد مضي ثلاث سـاعـات رجع سـائقـا جمالنا مع الجمل المفقود، وكانت ثيابهما ملطخة بالدمـاء، وكانت الدماء تتقاطر من رمحيهما، فقد وجـدا اللصين مع الجمل في كهف، وقد قـادهما إليه تعقب آثار سير الجمل واللصين، وقـد قتـلا واحـداً منهما بالرمح، وقـد هرب الآخـر ونجا من الموت، وهذا هو الشيء نفسـه الذي حدثنا به فـرجيل بأنه حـدث إلى هرقل، فبينما كـان هرقل يحتفل مع ايفـاندر Evander، وضع ثيرانه بين قطيع ايفاندر، وكان يسكن ليس بعيداً عن ذلك المكان،

في كهف عفريت له حجم كبير، اسمه كاكوس Cacus ابن فولكان، كان ينفث النار من فمه، وكان قد أزعج المنطقة كلها بسرقاته ولصوصيته، وخرج هذا العفريت من كهفه أثناء الليل، وجر ثيران هرقل إلى كهفه من ذيولهم، وعندما رأى هرقل بأن بعض ثيرانه قد سرقت، ولم يستطع أن يخمن إلى أين ذهبوا، رأى وقتها آثار طبعات أقدام اللص من موضع القطيع إلى الكهف، وبناء عليه ركض هرقل، وأخرجه من الكهف، وقتله بعكازه، وساق ثيرانه عائداً بهم.

وفي الوقت نفسه— أثناء متابعتنا سيرنا على طريقنا تجاوزنا الجبال ووصلنا إلى أرض مدين، على شاطىء البحر الأحمر، ومع ذلك كنا مانزال بعيدين عن مياهها، وعرفت هذه المنطقة باسم مدين صدوراً عن اسم مدينة مدين، التي بنيت من قبل واحد من أبناء ابراهيم من قطورة، وكان اسمه مدين،(التكوين:٢٥/ ٢)، وقد سماها باسمه، والتجار الأوائل الذين قرأنا عنهم، أي الذين اشتروا يوسف(التكوين:٣٧/ ٢٨) كانوا من هذه المدينة، ومن هذه المدينة كان يثرو، الكاهن الرئيس لمدين وملكها، الذي كنت قد أشرت إليه من قبل، وهو الذي إليه هرب موسى من مصر والتجأ، وقد تزوج من ابنته(الخروج:٢).

ولدى متابعتنا سيرنا، وصلنا إلى نهاية القفار التي بلاممرات، ومنها إلى الطريق السلطاني العام الذي يقود من مصر إلى فلسطين وغزة، وهو الذي كنا قد غادرناه على مقربة من غزة، كما تحدثنا عن ذلك من قبل، وذلك عندما دخلنا إلى القفار، فمن ذلك المكان إلى هنا لم يكن لدينا طريقاً نتبعه بل سرنا في النهار وفي الليل نوجه مسارنا بوساطة الشمس، والقمر، والنجوم، وذلك مثلما يفعل الناس في البحر، وكنا مسرورين إلى أبعد الحدود لدى عثورنا على الطريق، وبدا الأمر لنا وكأننا عدنا إلى الدنيا، وفي هذا المكان ينشطر الطريق الذي يقود من مصر إلى طريقين:

الأول منهما يساير شاطىء البحر الكبير إلى فلسطين، ومن هناك إلى

اليهـودية والقدس، وعبر هذا الطريق النـاس باستمرار يأتون ويذهبـون من الأرض المقدسة إلى مصر وبالعكس، ويقود الطريق الآخر من مصر إلى شاطىء البحر الأحمر، فمدين، فالطور، وهو ميناء على البحر الأحمر، تقـدم ذكـره من قبل، وهكذا سرنا عبر هذا الطريق العـام نحـو مصر ونحن مسرورين، وكنا فـرحين لأننا بـذلك عثـرنا ثانيـة على عـلامـات خطوات الرب يســوع، لأنـه عبر هذا الطريق جلـب يوسف العــذراء مريم، والطفل يسوع إلى مصر، بناء على طلب من الملاك،(متى:٢).

ومع حلول المسـاء وصلنا إلى قفـار إيليـم، حيث عسكر بنو اسرائيل بعـد عبـور البحـر الأحمر، وحيث كـان هنـاك اثني عشر بئراً من الماء وسبعين شجـرة نخيل(الخروج:١٥/ ٢٧) لكن سرنا بعيـداً عن المكان الذي كـانت فيه الآبار، وانعطفنا جـانباً بعيداً عـن الطريق العام لمسـافة ميل ايطالي واحـد، ونصبنا خيمنا في مكان قـذر يدعـونه Derondon، وكـانت الأرض هنا مليئة بـالهوام والحشرات وبقملة فـرعـون، بأعـداد لاتحصى، وكنـت قــد تحدثت عن هـذا من قبل، وكنـا غــاضبين من كالينوس لأنه لم يأمر بنصب الخيـام في المكان الذي فيه الآبار، لكنه قدم تسويغـاً منطقياً لهذا، قـائلاً بأننا كنا ساخنين وعطاشـى إلى درجة أننا لو توقفنا إلى جــانب الماء، فلن نتــوقف عن الشرب حتى نقتل أنفسنا، والسبب الآخر، أنه كان هناك إلى جانب هذه المياه مستنقعات، وفي هذه المستنقعـات أعـداد لاتحصى من الأفـاعـي من مختلف الأنواع، وديدان، وثعابين، ولذلك لم يكن موائماً السير إلى جانب المياه، وسبب آخر هو أن البداة العـرب من لصوص الصحراء قد اعتـادوا على نصب خيامهم إلى جانب الميـاه، وفي بعض الأحيان يأتون ليلاً إلى الأماكن التي فيهـا المياه، وإذا مـاوجـدونا هناك، فلسوف يلحقـون بنا البـلاء ويسرقـوننا، وهناك سبب آخر، هو أنه إلى جـانب هذه المياه هناك قـرية مليئة بأكثر المدينيين سـوءاً، وكان هؤلاء سيـزعجـوننا بطرق كثيرة، حتى أثناء الليل، وذلك

إذا ماعلموا بأننا نصبنا خيامنا هناك، كما أن هناك سبباً آخر، هو أن الطريق العام الذي يمر قرب الآبار، هو الطريق الذي يسلكه كل من التجار واللصوص من البداة العرب، والمدينيين، وهم يعبرونه أثناء الليل، ويتوجب علينا عدم الانزعاج من قبلهم.

وهكذا قمنا بعدما نصبنا خيامنا، فنزلنا جميعاً مع سائقي حميرنا إلى موضع الآبار، وأشجار النخيل، وملأنا روايانا وجرارنا، وقد عاد بهم سائقو حميرنا إلى الخيام، ذلك أننا مكثنا في تلك البقعة الرائعة، وخلعنا ثيابنا، وتحممنا، لأننا وجدنا كميات هائلة من الماء النقي، والدافىء لنغسل أنفسنا به، وقد كان إلى جانب تلك المياه شجيرات ونباتات، وليس بعيداً عن ذلك القرية، التي كان فيها حشد كبير من أشجار النخيل، وفي الأيام التي عسكر بها بنو اسرائيل في هذا المكان، كان هناك اثني عشر بئراً، وسبعين شجرة نخيل، لكن في هذه الأيام ليس هناك تماما اثني عشر بئراً، لكن هناك كثيراً من ينابيع الماء على جانب الرابية، تتدفق بالمياه بكل اتجاه، كما أنه ليس هناك سبعون شجرة نخيل، بل أكثر بكثير، ومع ذلك فالمكان هو نفسه.

وبسبب تدفق هذه الينابيع بالمياه، إن الذي أعتقده أنه لابد أن احدى الحوريات قد صنعت هذا المكان مشهوراً في تصورات الشعراء، وتتأكد هذه الفكرة بالاسم العربي للمكان الذي هو دورندون Dorindon، ذلك أن دروس Doris كانت ابنة كيولوس Coelus وفستا Vesta التي كانت زوجة أوقيانوس، وأم جميع الحوريات، هذا وأنا لاأعرف نسبة إلى أي من الحوريات تقدس هذا المكان، كما أنني لست متأكداً فيما إذا كان قد تقدس لأنه كان المحطة السادسة لبني اسرائيل أثناء فرارهم من مصر، حسبما جاء في سفر الخروج:١٥/ ٢٧، وسفر العدد:٣٣/ ٩،

وقد مكثنا عند هذه المياه لمدة تزيد على الساعتين، وأنعشنا أنفسنا هناك بشكل كبير، وشربنا واستحمينا، ونظفنا أنفسنا من الهوام، وفي

الوقت نفسه قدمت بعض الفتيات الجميلات مع قطعانهن إلى المياه، وقد وقفن عند واحد من جوانب المياه، وعجبن من وجودنا، ونظرن بتمعن نحـــونا وضحكن، وبـدين كـأنهن يصلين، وأنا لم أنس في هـذا المكان شهـوانية تلـك المرأة المدينية غير المحـدودة التي رافقت واحـداً من بني اسرائيل، على مشهد من موسى ومن جميع الناس، ولاغيرة فيناس الذي ضربها معا بسكين، ولذلك السبب مات أربعة وعشرون ألفاً من الناس في قفار شطيم(العدد:٢٥)، ولذلك بدا ضحك الفتيـات وحركاتهن أمراً مريباً بالنسبـة لنا، وتظاهرنا وكأننا لم نر ابتساماتهن، ومع ذلك لم نستطع منع بعض الشبـان من الفـرسـان، من ابداء بعض اشـارات الاعجـاب نحوهن، وبما أننا مكثنا وقتـاً طويلاً في هذا المكان، بعث كالينوس بدوياً عربياً، إلينا مع رسالة بوجوب عودتنا إلى خيمنا بكل سرعه، وذهب إلى حد ابداء انزعاجه منا، وبناء عليه عـدنا إلى هناك، ووجدنا طعام عشائنا جـاهزاً، الذي أكلناه بمتعــة غير كبيرة، لأن شربنا للماء قـد أثر علينا، وكأننا قـد شربنا من النبع الأحمر الموجـود في السـودان، والذي يقـولون بأن من يشرب منه يغـدو مجنوناً، وبينما كنـا فـرحين، جلس مسلمـونا وبداتنا، آسفين، وشاحبين، وصامتين، بسبب صومهم اللعين، لكن ماأن غابت الشمـس، عندما طلبنا الراحـة، حتى شرعوا بدورهم، يمـرحون ويغنون ويصرخون، ويقصفون، ويأكلون، ويشربون، ولم يمنحونا راحة طوال الليل تقريباً، وبهذه الضجة كانوا ينفذون أحكام صومهم، ونهضنا في بعض الأحيـان، وخرجنا من خيـامنا، وركضنا نحـوهم، وأجبرناهم بالتهـديد على أن يكونوا صـــامتين، وفي بعض الأحيـان، عندمـا كـانوا يخبزون معجناتهم في الرماد، بقينا معهم، ونظرنا إلى حماقاتهم.

رحلة خلال القفار ورعب الحجاج

استيقظنا مبكرين في اليوم الثاني من شهر تشرين الأول، لكننا غادرنا متأخرين، بسبـب فقدان ثلاثة جمال، خيل إلينا أنهم سرقـوا، لكن باتباع

آثارهم، تمّ العثور عليهم وهم يرعون في البرية، وقد أعيدوا بعد شروق الشمس، وهكذا حملنا دوابنا، وغادرنا ايليم، وسرنا عبر الطريق العام، فوق حقول واسعة نزولاً باتجاه البحر الأحمر، وخلفنا جاء بعض الرجال الآخرين مع جمال، وكانوا يسيرون على الطريق القادم من الطور، وخشينا من أن يكونوا لصوصاً، لأنهم كانوا مسرعين كثيراً، وسبقونا، وعندما صاروا بقربنا، رأينا بأن جمالهم كانت محملة ببضائع من التوابل، وتوجسنا أن يكون أولئك الناس عائدين إلى البلاط(السلطاني)، وكان قائد القافلة رجلاً مليئاً ووسيماً، وقد ساق جماله في وسطنا، ونظر نحو كل واحد منا بملامح غاضبة، وقال وهو غاضب لكالينوس:« كيف تتجرأ، وأنت مسلم، على قيادة فرنجة خلال بلاد مولانا السلطان، وبذلك هم يزحفون مثل رجال عسكريين على طول الطريق السلطاني العام»؟ وقد أجابه كالينوس باحترام عميق:« هؤلاء الرجال هم حجاج، وجاءوا إلى هنا لزيارة الأماكن المقدسة في بلادنا، وهم لايرغبون بايذاء، أو مهاجمة، أو الاعتداء على أي انسان، لكن بما أنهم سمعوا في غزة— أو بالحري في القدس— بأن بعض الأفراد الأشرار يتجولون في القفار، وهم في كل مكان يغامرون دونما اقامة تقدير لأمان مولانا السلطان، وهم يسيئون معاملةالذين يسافرون خلال الصحراء، حتى وإن كانوا من أعيان القاهرة، وبما أن حجاجنا لديهم روح الرجولة، فقد التمسوا إذنا من ترجماننا بحمل السلاح، من أجل أن يتمكنوا هم أنفسهم من صد وطرد أي واحد يهاجمهم، ويخرق الأمان الذي منحهم اياه لطف مولانا السلطان، وهذا هو السبب في سيرهم وهم يتمنطقون بالسيوف، ويحملون القسي»، وعندما سمع هذا الجواب التفت إلى خدمه، وقال بسرور:« انظروا إن هؤلاء الفرنجة أشجع من المصريين، ولو أن مغاربتنا ومسلمينا، أو المماليك، كانوا هكذا شجعاناً، لكانت القفار قد تنظفت منذ وقت طويل من اللصوص ومن قطاع الطرق»، وهكذا كان هذا الرجل راضياً تماماً، وقدم لنا تحيات من

خلال كالينوس، وسأله عن رحلتنا، وعن مواطننا، وعن مسائل أخرى، وفي الوقت نفسه سألناه من خلال كالينوس، عما إذا كانت سفن التجار من الهند قد جاءت مع بضائعها من التوابل والبخور، وعما إذا كانت هذه التوابل سوف يجري حملها إلى الاسكندرية، وكان سبب سؤالنا هذا السؤال، هو أننا أملنا بعبور البحر إلى ايطاليا مع هذه التوابل في السفن من الاسكندرية، وفهم الرجل مباشرة ماكنا نفكر حوله، وأعطانا جواباً كاملاً وكافيا، وقال بأن السفن الايطالية قد وصلت إلى الطور منذ أيام كثيرة مضت، وفي هذه المرة، إن التوابل والبخور المحمولين على ظهور الجمال إلى مصر وجهتهم القاهرة، ولسوف يجري حملهم من القاهرة عبر النيل إلى الاسكندرية، ومن ثم إلى البحر الكبير، لأنه يوجد الآن في الاسكندرية اسطول تجاري من البندقية، وهو الآن جاهز، ولسوف يبحر حالما يجري تحميل السفن، وعندما سمعنا هذا أصبحنا قلقين، وخفنا خوفا شديداً من أن تغادر هذه السفن الاسكندرية قبل وصولنا إلى هناك، لأنه إذا ماحدث هذا فلسوف نرغم على قضاء الشتاء في الاسكندرية، الأمر الذي سوف يكون ممقوتاً كثيراً إلينا، وبعد انتهاء هذا الحديث، ساق الرجل وسبقنا بسرعة، في حين تبعناه نحن وجمالنا على مسافة مناسبة، وبدأنا من تلك الساعة نصبح قلقين، وأقلقنا كالينوس أيضاً وكذلك سائقي جمالنا، وحثثناهم في الوقت المناسب وغير المناسب للسير بشكل أسرع، وللتسرع برحلتهم.

الضياع المرعب جداً، والانحراف جانباً في القفار بالابتعاد عن الطريق الصحيح، الذي قام به حجاج الفئة الثالثة.

وتابعنا سفرنا فوق سهول رملية واسعة، عبرها جاء موسى المقدس من البحر الأحمر وذلك عندما جاء من أرض مصر مع بني اسرائيل كلهم، وفي ساعة مبكرة، وكان مايزال هناك وقتاً كبيرا متبقياً من النهار، أنزلوا الأثقال عن الجمال في مكان اسمه وردكي Wardachii ، وقد

أزعجنا هذا لأننا كنا متعجلين للوصول إلى الاسكندرية، لكن أدلاؤنا لم يعبأ وا بهذا، لأنهم أرادوا أن ينامـوا وأن يرتاحوا قبل غـروب الشمس، حتى يمكنهم البقــاء يقظين وهم يصخبـون طوال الليل، وذلـك وفقـاً لصيـامهم غير المفيد، وعندمـا أردنا أن ننصب خيـامنا في هذا المكان، لم يكن بالامكان تثبيت الأوتاد الخشبية التي تربط بها الحبال، بسبب نعومة الرمـال، ولم يكن قـد بقي معنـا كثيراً من العصي لأن البقيـة كـانوا قـد ضـاعـوا في القفار، ولذلك جلسنا ونحـن منزعجين جدا فـوق الرمـال الجافـة أثناء الحرارة الكاملة للشمس، وأخذنا نتـذمر ضـد أدلاءنا، ومن ذلك المكان كـان هناك مشهد ضم أكـوامـاً من الرمال بيننا وبين البحـر الأحمر، وكـان بامكاننا رؤية البحـر الأحمر بكل وضوح من بينهم، وقـد بدا لنا أنه بالكاد يبعد عنا ميلاً ايطالياً واحـداً، وقال واحد من الفرسان من الفئة الثـالثـة التي كنت أنا منهـا:« لماذا نجلـس هنا من دون عمل، ونحن نهلك مع حـرارة الشمس،؟ انظروا هناك البحـر الأحمر، ومـازلنا نمتلك كثيراً من النهـار قد بقي لدينـا، أرجوكم، دعـونا ننزل إلى هناك، لإنعاش أنفسنا، ولتمضيـة الوقت»، وعندما قال هذا مامن أحـد أجابه، ولذلك استطرد يقـول:« ألايوجد بينكـم أتباع مـوثقوين يتجـرأون على الذهاب عبر هذا الطريق القصير، معي، لسرورهم ولسروري؟ وأنا على استعداد للقتال من أجلكم، فهلاهناك من يأتي معي ويستحم معي؟ هل أنتم خـائفـون؟»، وعندمـا قلنا له بأن كـالينوس لن يدعنا نذهب، مـالم تذهب الفئتان الأخـريتان أيضاً، ضحـك منا واستخف بنا، وتفوه بكثير من الكلمات رمى بها بالحاجـة إلى صداقتنا الطيبة، ورمـانا بالجبن، وبناء عليـه، نهضنا نحن جميعـاً، الذين كنا في الفئـة الثـالثـة، ونحن الذين كنا وحدنا مسؤولين عن هذه القضيـة، لقد نهضنا مغضبين، وعاودنا ركوب حميرنا، وانطلقنا جميعاً نحـو البحر الأحمر، وعندما شـاهد كالينوس هذا، دعـانا للعـودة بصـوت مرتفع، وبـالطريقة نفسهـا فعل البـداة العـرب، وكـذلك فعل سائقـو الجمال، وسـائقو الحمير، وكـذلك استـدعانا بقيـة

الحجـــاج، ورجــونا حتــى ننتظرهم، لكننا تظـاهرنا بأننـا لم نسمعهم، وغـادرنا مبتعـدين عنهم، وكنا سبعـة، هـم: المعلم بطرس فيلسخ، وهو فـارس وهو أيضـاً كـان قـائـد الفئة الـدوري، واللورد هنري أوف سكومبيرغ، وكـان فـارسـاً، واللورد كـاسبر أوف سيكولي، وهو رئيس مطارنة، والـراهب فيلكس، الخادم للبقيـة، وجـون طبـاخ السـادة في المجمـوعة الأولى، وخـادم كونت سـولمس، وكان قـد أشعل ناراً لعمل فطيرة، وعندما رآنا نـازلين نحو البحر، أخبر سـادته أن يتوقعـوا عودته حـالاً، فالذي قصـده هو انعـاش نفسـه، والعودة ليطبخ لسـادته طعـام العشاء، لأنه مثل الآخرين، اعتقد بأن البحر يبعد عنا غلوتين أو ثلاثة.

وعندمـا رأى كالينوس أننا كنا مصرين، ولأنه كـان يعرف المخـاطرة التي كنا مقبلين عليهـا، دعـا جميع الحجـاج، وسـائقي الجمال، وسـائقي الحمير، وقال لهم:« اعلموا أن هؤلاء الحجاج نازلون نحو البحر ، وهم سـوف يعـرضـون أنفسهم إلى خطر عظيم، لأن مـن المحتمل فقـدانهم لطريقهم، والانفصال عنا، وإذا ماحدث هذا، فإنهم سوف يكونون أبناء الموت، وبناء عليـه إنني أعلن لكم وأشتكي إليكم بأنني لم أرسلهم، كما أنني لم آمرهم بالذهاب، بل دعوتهم للعودة، وحرمت عليهم النزول إلى هناك، لكنهم استخفوا بي ولم يصغوا إليّ، وإذا لم يعـودو إلينا قبل الغد، يتـوجـب عليكم إعطائي تقـريراً مكتـوباً عن الذي عملتــه أنا في هذه القضيـة، حتـى يعـرف الناس جميعــاً بأنني بريء بالنسبــة لموت هؤلاء الحجـاج، وعليّ أن أجيب حولهم عـدداً من الناس، وإذا حـدث وانتشر خبر القضيـة في القـاهرة، فلسـوف أمثـل أمـام السلطان لأجيب حـول أمـرهـم، ولسـوف يبحث الترجمان عنهم ثم إن جـانم، حـاكم القـدس، وكالينوس الرئيس، سوف يتهماني بالاهمال، وبناء عليـه إنهم مالم يعودوا هذه الليلة، فلسـوف أطلب شهادة مكتـوبة منكم، لأنه حدث أيضـاً في رحلة أخرى أنني فقـدت اثنين من الحجاج، بالطريقـة نفسها، مما تسبب

لي من أجلهما مصيبة كبيرة، كما عانيت من اضطراب كبير جداً، دون أن تكون الغلطة غلطتي»، ولدى سماع هذا، وعده الجميع بأنهم سوف يكتبون له ماطلبه منهم.

وفي الوقت نفسه، تابعنا سيرنا على طريقنا ونحن مسرورين، ووصلنا إلى مابين أكوام من الرمل، ولذلك لم يعد بإمكاننا رؤيتهم بعد ذلك، وبعدما سرنا لمسافة طويلة، كان بإمكاننا رؤية البحر، لكن بقي أمامنا مسافة لابأس بها حتى نصل إليه، وبعدما سرنا بخطوات سريعة لمدة ثلاث ساعات، رأينا أنه بقي لدينا الكثير من ضوء النهار، وفقط عندما قررنا أننا بتنا على شاطىء البحر، ظهر أمامنا قطاع عريض بيننا وبينه، وعندما عبرناه توفر قطاع آخر توجب علينا اجتيازه، ولهذا قال واحد من الفرسان لي:« من الواضح ياأخانا، أننا قد جرى تضليلنا من قبل الشيطان، لأن البحر لايمكن أن يهرب منا، لكن هذا رأيناه يهرب منا، ولهذا لايمكن أن يكون هو البحر، بل لابد أن يكون هو الشيطان، تحول إلى شكل البحر»، وعندما غابت الشمس، اقتربنا من البحر، وعندما شرعنا بالنزول من الشاطىء إلى المياه، وصلنا إلى مكان موحل غرقت فيه الحمير حتى بطونها، ولذلك ترجلنا مع ضيق شديد، لأننا أيضاً غطسنا في الوحل، واقتدنا الحمير إلى خارج الوحل، ثم ربطناهم إلى بعض النباتات الشوكية.

وسرنا بعد ذلك في الوحل، وبصعوبة وصلنا إلى الماء، حيث نلنا راحة قليلة وفقيرة، لأننا لم نخلع ثيابنا، بل غسلنا أيدينا باختصار، وشعرنا بالغضب من أنفسنا لقيامنا بمثل هذه المخاطرة الكبيرة من دون فائدة، وبعدما فرغنا من غسل أيدينا التقطنا بعض أصداف سرطان المحار الغريبة، من على الشاطىء، كبرهان على أننا وصلنا إلى البحر الأحمر، ثم شققنا طريقنا ثانية خلال الوحل، ليس مغسولين بل قذرين، وليس منتعشين بل منزعجين، وليس مسرورين، بل آسفين، وبهذه الحالة

تركنا البحر، وفي ذلك الوقت من الليل، كانت الدنيا مظلمة، إلى حد أننا كنا غير قادرين على رؤية آثار حوافر حميرنا ولابطريقة من الطرق، ولذلك بما أنه مامن واحد منا قد عرف أين هو الطريق، أونحو أي جانب ينبغي أن نسير، نشب خلاف بيننا حول هذا، وترجل بعض الحجاج، وأخذ يتلمس طبعات حوافر الحمير في الرمال، لكنهم لم يعثروا على أي شيء مؤكد، وذلك بسبب الظلام، ولذلك وقفنا بلاحراك، والشك يساورنا حول أي اتجاه يتوجب علينا التوجه بوجوهنا.

وقد توقفنا، وشرعنا بالتشاور بشكل جدي فيما بيننا، لأننا شعرنا أننا نواجه عدة أنواع من الموت، وأن ذلك قريب منا، وأشار بعضنا بعدم السير، وأن نبقى ثابتين حيث كنا، لأننا إذا سرنا في الظلام ربما نقع في مخاطر غير معروفة، وسيكون من غير الممكن بالنسبة لنا الالتحاق برفاقنا فوق هذا السهل الشاسع والمخيف، في حين أننا في الصباح يمكن لنا اللحاق بهم، فور توفر ضوء النهار ليقودنا، وعلى العكس من هذا قال آخرون بأن هذا السهل سوف يكون موضع موتنا، لأنه من المؤكد أنه ماأن يمر منتصف الليل، حتى يكون كالينوس وحشده قد غادروا المكان، وإذا ماانتظرنا حتى الصباح، لن نكون قادرين على اللحاق بهم خلال ذلك النهار كله، ولابدّ وقتها من أن تهلك دوابنا، لأننا لا نمتلك طعاماً كافياً حتى لمدة يومين وليلتين، لأننا لم نحمل معنا أيا من الضروريات للحياة، أي لاخبز ولاماء، ثم إننا في اليوم الذي تقدم لم نأكل سوى القليل جداً، وكذلك لم نشرب، وبناء عليه أعطى الشطر الأكبر منا صوتهم للرحيل، لكن في أي اتجاه، كانوا جميعاً غير قادرين تماما على القول، لأن الظلام كان شديداً إلى حد جعل من غير الممكن رؤية الجبال التي كانت أمامنا، كما أنه لم يكن بإمكاننا رؤية أي طريق، وبصعوبة بالغة كان بامكاننا رؤية البحر من خلفنا، مع أن البحر

يشع بشكل طبيعي بعـض الشيء في الظلام، ولذلك تجولنا فـوق طريق غير مـؤكـد، الآن إلى اليمين، ثم الآن إلى اليســار، وفي بعض الأحيـان بشكل مستقيم، وكنا في وقت نستمع إلى نصيحـة انسـان، ثم بعـد قليل إلى نصيحة انسان آخر، ووقفنا في بعض الأحيان دونما حراك، وأصغينا، آملين بسماع صوت أناس يتكلمـون أو يصرخون، لكن بما أننا لم نستمع شيئاً، صرخنا نحن أنفسنا بصوت مرتفع، وبفعلنا هذا، لم نخف من أي لص، لأننا رغبنا بقدوم انسان إلينا، حتى نتمكن من معرفة شيء مامنه، وإثر هذا، رأينا على الفـور ناراً تلتهب أمـامنا، وترسل أشعتهـا المضيئة، وتجاه ذلك كنا مسرورين، لأننا اعتقـدنـا أن رفـاقنا قـد أشعلوا ناراً من أجلنا، لكن عندما شرعنا بسرور بتتبع هذا الضوء، عرفنا على الفور، أننا قد خـدعنا، لأن الذي كان عبـارة عن نجم ساطع، عنـدما أشرق، نشر اشعاعاته من فوق رؤوس الجبال.

وقـام الآن اللورد هنـري أوف سكومبيرغ— وكـان رجـلاً عــاقـلاً ومفكراً— فـوجــه خطاه باتجاه أحـد النجـوم، وطلب منـا اللحـاق به واتباعـه، قائـلاً بأنه وجد في السماء، طريقـاً محدداً يقود إلى جماعتنا، لكن كيف وجد ذلك، أنا لست عـارفاً، والذي أعرفـه، أننا لوتبعناه، لوصلنا مباشرة إلى معسكرنا، والذي حـدث أننا بعدما تبعناه لمسافـة جيدة، قال أحـدهم بأننـا كنا نميل كثيراً نحـو اليمين، ولذلك تركنـا الطريق الذي نصحنا به اللـورد هنري أوف سكومبيرغ، وسرنا على طـريق آخــر على يســاره، وأثناء قيامنا بهذا، تخاصمنـا في بعض الأحيان، لأن واحـداً أراد الذهاب في هذا الطريق، وآخـر في ذلـك الطريق، وفي أثناء هذه الشـدة، كان هناك أمران خفت منهما كثيراً بقدر ماخفت من الشدة نفسها: وكان الأمـر الأول، هو أن يشرع الفـارســان الـرئيســان بيننا بالقتـال، ويجردا سيفيهما أحدهما ضـد الآخر، لأنني عرفت أن أحدهما كـان يكره الآخر بمرارة، ولذلك عندما كان يتجادلان حول الطريق، حرصت على وضع

نفسي وحماري بينهما، حتى لايحركهما الغضب بسرعة باقتراب أحدهما من الآخر، والأمر الآخر، هو أننا اختلفنا حول الطريق الصحيح، وهنا خفت أن يتبع أحدهم رغباته، وينفصل عنا، ويهلك، ولذلك بذلت جهداً كبيراً في تهدئة الذين كانوا يتجادلون، ولإرجاع الذين كانوا سيبتعدون، وقلت من وقت إلى آخر لرفاقي المحيطين بي:« لاتكونوا خائفين كثيراً، ولاأن يغضب أحدكم من الآخر، ولاينفصلن أحدكم عن الآخر، لأننا إذا راعينا هذين الأمرين فلن نهلك»، وبناء عليه تابعنا سيرنا في شك، وأخذنا نخشى أننا ربما قد تجاوزناهم، لأنه بدالنا أننا الآن في العودة قطعنا مسافة أطول من المسافة التي قطعناها أثناء توجهنا نحو البحر.

وكان الوقت الآن منتصف الليل، وقد اتفقنا جميعا على وجوب أخذ راحة قصيرة، فوق منطقة مرتفعة، وكنا على مقربة من رابيتين رمليتين وعرتين، لم نتذكر أننا رأيناهما ونحن على طريقنا نازلين نحو البحر، مع أنهما لم تكونا عاليتين بما فيه الكفاية، وبناء عليه صعدنا إلى إحدى هاتين الرابيتين، ونظرنا إلى ماحولنا،وأصغينا، وصرخنا، وولولنا، لكن لم يكن هناك من صوت، ولافهم، ولذلك ربطنا الحمير مع بعضها، ومددنا أنفسنا فوق الأرض، للاستراحة ولاسترداد أنفاسنا وليس للنوم، لأنه لم يكن هناك نوم لدى أناس كانوا في مثل هذا القلق، ذلك أننا كنا أبناء الموت، وكان لدينا فقط قليلاً من الأمل الموجع في أن نقع، قبل أن نهلك في أيدي البداة العرب، أو المدينيين، أو المصريين، فلهؤلاء كنا على استعداد أن نستسلم بإرادتنا، ونقدم أنفسنا أسرى، بسبب« أن قتلى السيف كانت خيراً من قتلى الجوع»[مراثي ارميا:٩/٤]، ومع هذا وضعنا ثقتنا أخيراً بالرب، وفي العذراء مريم المجيدة، وفي القديسة كاترين، في أن لايسمحوا بهلاكنا بهذا الشكل التعيس في القفار، ودعونا بعضنا بعضاً في أن لانستسلم للنوم، بل أن نرتاح بشكل نبقي فيه آذاننا

مفتوحة، لأننا إذا ماكنا على مقـربة من جماعتنا، يمكننا سماع الصراخ المعمـول من قبل الناس والحيـوانـات، أثناء تحميل الجمال، لأن الجمال اعتادت أثناء تحميلها على الصراخ، واعتاد الناس على الصراخ أو الغناء، وقد أملنا أن نسمع مثل هذه الأصوات.

وعندما كان الجميع قـد تمددوا على الأرض صامتين، لم أستطع البقاء متمـدداً فـوق ذلـك الفـراش الذي كـان في غـاية الخشـونة، بل قمت بالتجول من حـولهم، أقرأ الصلوات السـاعية للعذراء المباركة، وفعلت ذلك بصمت بتحـريك شفتي فقط، وكنت أنشـد مزاميرها الصحيحـة، وأثناء سيري وتجوالي رأيـت ظلاً في الوادي، عند أسفـل جبل أجـــرد، فـاعتقــدت أن ذلك لابد أنه أيكة نوع من الحشـائش الخضراء، لذلك نزلت إلى هناك للحصـول على بعضهـا لتقديمهـا إلى حماري الذي كـان صـائماً مثلي، إنما عنـدمـا وصلت إلى المكان، لم تكـن أيكة خضراء، بل أشـواك جـافـة كثيفـة، ولذلك ذهبت مـن ذلك المكان إلى قمـة الرابيـة الواقعــة مقـابل رابيتنا، لربما يحدث فـأرى أوأسمع أي شيء من هناك، وعلى تلك الـرابيـــة تجولـت هناك في هـذا الاتجاه وفي ذاك، لأن الناس القلقين والغارقين بالتفكير، يسيرون من مكان إلى مكان من دون اختيار من قبل أنفسهم، ودون معرفة إلى أين يسيرون، وبعد وقت قليل رغبت بالعـودة إلى رفـاقي، فتسلقت الرابيـة المقابلة معتقـداً أن جماعتي كـانت معسكرة هناك، ولكنني لم أجـدهم هنـاك، ولذلك ركضت نحـو رابيـة أخـرى، لكنني لم أتمكن من العثور عليهم، ولذلك وقفت في حـالة قلق شديد، ولعنـت الليلة قائلاً:« أيتهـا الليلة المقلقة، التي أنـت جديرة بهذا الاسم، أنت بـالحقيقـة ابنة الارض، من أب غير معـــروف، جئت إلى الوجود مـن خلال صراع الأرض مع نفسها، ومن زواجهـا من اربوس Erebus المخيف، وعـــدو الـراعي المفيـــد جـــداً، فـــانتيس Pha-netes(الكوكب Planetes ؟)، وتبعـــاً لذلك، وكما يقـــول المثل

الشائع، صديقة لاأحد، إلاّ مقترفي الشرور، لأن فاعلي الشرور يمتلكون الضوء، ويفرون للالتجاء إليك، لأنك عدوة الشمس، ولذلك:

يغادر اللصوص وكرهم عند منتصف الليل

ليقطعوا أعناق الناس الأبرياء

وفي الحقيقة إنه بسبب الشكوى التي أبداها الليل وقدمها إلى جوبيتر، عندما أراد أن يتحدث إلى محبوبته ألكمينا Alcmena ، أجيز بعربة وأربعة، وفي هذه العربة يدور باستمرار حول الأرض، وتلقى أيضاً القدرة على القمع، قمع حتى الآلهة، وهكذا نراه مع عربته يلوم، ويضغط، ويخفض شجاعة حتى الرجال الأشداء، المليئين بالأفكار العالية، وذلك حتى قدوم الفجر».

وعندما فرغت من ملامتي لليل، اشتد غضبي من نفسي، لأنني عهدت بنفسي إلى تلك الليلة الأعظم خيانة، والمليئة بالفخاخ إلى جميع الذين يسافرون بالبر أو بالماء، ولذلك لجأت بنفسي إلى المصدر الطبيعي للنفس في الآلام، وللروح المضطربة، الذي هو الصراخ بصوت مرتفع(باروخ:٣)، ورفعت صوتي بالنداء إلى الفارس الأقوى والأنبل، والأكثر اخلاصاً، والأعظم معرفة بالنسبة لي، ودعوته بلقبه فقط، وصرخت« سكومبيرغ»، وفي الحال سمعني، فانتصب قائماً، ومع الآخرين جاء الرد من على بعد:« فيلكس، فيلكس»، وصرخت للمرة الثانية قائلاً« هو، هو»و « أين يمكن أن أجدكم؟ تحدثوا إليّ، إنني أتوسل إليكم، حتى أصل إليكم، لأن الظلام والصمت قد أضلاني»، وهكذا صرخ أحدنا إلى الآخر، حتى وصلت إليهم، وعندها لاموني بحدة لقيامي بجولتي الخطيرة والمنعدمة التقدير، لأنني كنت بعيداً عنهم أكثر مما قدرت وفكرت، وعندما عدت إلى هؤلاء الذين كانوا مايزالون واقفين، تمددوا على الأرض ثانية.

وكان منتصف الليل قد انقضى الآن، وصار الوقت هو الوقت الذي اعتاد فيه سائقو الجمال على الشروع بتحميل دوابهم، وهكذا جلسنا بسكون، وصمت، آملين بسماع أصوات الجمال، وبعدما مكثنا هكذا بعض الوقت، فجأة، بدأ صوت الجمال الذي تشوقنا إليه يصل إلى مسامعنا، وبدأ هدير أصواتهم مسموعاً بالنسبة إلينا، ويستطيع الحديث عن المتعة التي شعرنا بها عندما سمعنا هذا، فقط الذي كان واقفاً في رعب على حياته، وفجأة سمع مخلصه وهو قادم، وبالنسبة لنا كان ذلك الصراخ المرعب للجمال، أحلى من أية موسيقى عذبة، ومساوياً تماماً للأغنية القوية التي غناها أورفيوس Orpheus على قيثارته، وقد حدثنا الشعراء أنه بقيثارته جعل الجبال تقفز مرحاً مثل كباش، وجعل أشجار الغابة ترقص، وأوقف مجاري الأنهار، ودجن الحيوانات المتوحشة، فضلاً على هذا ربح بغنائه على قيثارته السيدة النبيلة يوريدايس Eu- rydice، التي كانت الأكثر جمالاً، وكانت غنية وحكيمة، وعندما بعد الموت أخذت إلى الظلال تحت، لحق بها إلى قعر جهنم، حيث غنى ولعب على قيثارته، حتى تمكن بحبه من تحويل قلوب الذي كانوا يتحكمون في ذلك المكان، وجعل المدانين ينسون عذابهم، وأضاء ظلمات تارتاروس Tartarus، وحظي بمحبوبته يوريدايس ثانية، ومثل هذا في تلك الساعة كان هدير أصوات الجمال مثل قيثارة أورفيوس، لأن سرورنا جعلنا نرى التلال تقفز مرحاً، والغابات ترقص، والماء الذي يجري حزيناً قد توقف عن الجريان، وسررنا كثيراً لأننا جرى اقتيادنا بهدير أصوات الجمال، واخراجنا من بين فكي الموت.

ونهضنا على الفور، وامتطينا ظهور حميرنا، ونزلنا من جانب الهضبة، أو بالحري قفزنا، وعندما وصلنا إلى الصخور في الأسفل، طرنا فوقها إلى السهل، وسرنا باتجاه الضجيج الصادر عن الدواب، ونزل بنا الآن رعب جديد، فقد خشينا أن يصدف، فتكون هذه قافلة غريبة للبداة

العـرب، أو المدينيين، وأنـه من الممكن أن نقع في أيدي أعـــداء، لكن عندما اقتربنا، سمعنا أصـواتاً معروفة بشكل جيـد بالنسبة لنا، ومع حمد الاسم الربـاني دخلنا إلى المعسكر ثانيـــة، ووجـــدنا هناك جملين محملين بالخبز والماء، مع بدويين عـربيين من السائقين كان رفاقنا قـد عزموا على إرســالهم للبحث عنا، لكنهم لم يشعلوا ناراً في المعسكـر في تلك الليلة، من أجل معاقبتنا، لأننا رفضنا الطاعة عندما دعانا كل واحد إلى العودة.

واستقبلنا كـالينوس استقبالاً سيئاً، وأظهـر عدم رضـاه عنا بكل من الكلمات والتصرفـات، وأخبرنا بحكاية حــول كيف حـدث فيما مضى، على مقربة مـن هذه البقعة تماماً، أن اثنين من الحجـاج نزلا بشكل سري نحو شـاطيء البحر، وأضاعا طريقهما، كما حـدث معنا، وركضاً في هذا الاتجاه وفي ذاك حـول القفـار، لمدة ثلاثة أيام، وأخيراً تمّ العثـور عليهما من قبل بعض المدينيين، يتجــولان بشكل جنوني، وقــد أحضروهما في تلك الحالة إلى رفـاقهما مـن الحجـاج الآخـرين، الذين كـانوا آنذاك في مصر، حيث مـاتا خـلال بضعـة أيام، ولولا أننا وجـدنا— بفضل رحمة الرب— طريق عـودتنا إلى رفـاقنا، لاشـك لدي أننا كنا سنقع في أقسى الشدائد، ولكان الفارس الذي حـرضنا على الذهاب قد جرى تمزيقه إلى قطع من قبل الآخـرين من الحجـاج، ومهما عشت في هذه الدنيـا، أنا لم أشهد ليلة أشد كآبة من تلـك الليلة، وفي الحقيقة كان الذي حدث معنا مثل الذي حـدث مع رفـاق يوليسيس Ulysses الذين جميعاً جلبوا إلى المخـــاطر مـن قبل رفيقهم الملاح يوريـالوس Euryalus، مع أنهم حذروا بعدم الابحار.

رحلة إلى البحر الأحمر وسرور الحجاج العارم

في اليوم الثالث من الشهر، وقبل اكتمال الفجر، غادرنا حسب عادتنا وردك(كـذا) وسرنا فـوق سهـول رمليـة شـاسعـة، وقبل اشراق شمس النهـار، قــابلنا مجمـــوعتين من(الرجـال الممتطين) للجمال، كــان لابد

لمجموعتنا من الوقـوع في وسـطهم، لولا أننا وصلنا إلى رفـاقنا، وعندما صـار النهار مضيئاً، وصلنا إلى برية سين، وكنا قـريبين تماماً من البحـر، وكـانت هذه أول بـرية وصل إليهـا بنو اسرائيل بعـد عبـورهم البحـر الأحمر(الخروج: ١٦/ ١).

علاوة على ذلك عندما كانت هاجـر مولاة سارة هاربة من أمام وجه سيدتها، وكانت تريد العودة إلى مصر، حيـث كانت قد ولدت، وجدت ملاك الرب يتجـول وحده في هذه القفـار، وقد أمرت مـن قبله بالعودة إلى سيـدتها ساره، وأن تتـواضع أمامهـا، وقـام بالوقت نفسه بالتنبـؤ لها كثيراً حول ولدها الذي حملته برحمها، أي ابنها اسماعيل، الذي كان ولداً لجميع الاسماعيليين، والهجاريين، والمسلمين، وسكان جبل سعير.

والآن بما أن عـدداً كبيراً من مواليّ الحجـاج لم يكونوا قد رأوا البحـر الأحمر، سألوا كـالينوس عما إذا كــان بإمكانهم النزول إلى هناك، لاسيما وأن المكان كان قـريباً من المكان الذي قيل بأن بني اسرائيل قد خـرجوا فيـه من البحر الأحمر إلى بريه سين(الخروج:١٧/ ١)، وبناء عليـه أعطى كالينوس إلى الحجاج خدمه من البداة العرب، ليكونوا أدلاء لهم، ونزلنا جميعـاً معهم نحو البحـر الأحمر، لأنه وإن كـان حجاج الفئة الثـالثة قـد نزلوا إلى البحـر، مع ذلك هم لم يتعلمـوا شيئاً يتعلق به، وقـد تشوشـوا كثيراً ورغبوا في رؤيتـه بوضوح كامل، ولذلـك نزلوا مع الآخرين، غير أن الجمال تابعت سيرها على الطريق العام، وبعد مسير ساعة، وصلنا إلى مياه البحـر، ومع أن الوقت كان مايزال باكـراً، خلعنا ثيابنا، واستحمينا في البحر الأحمر، وهناك عمّـدنا أنفسنا، وإنني أقول، إنـه في ذلك البحر ذاته— حسبما حدثنا الرسول(كورنثا:٩/ ١)— قد تعمد آباؤنا الأولون حتى موسى، لأنه هنا سـار بنو اسرائيل فوق أرض جافـة من الشاطىء الأول للبحـر حتى الشاطـىء الآخر، فبـوسـاطة معجزة انحسرت ميـاه البحر ووقف على شكل كـومة على كلا الجانبين، وفي الحقيقـة إن البحر

ليس عريضاً في هذا المكان، ولربما هناك ميل واحد إلى فم الحيروث على الجانب الآخر، ومع ذلك البحر عميق وهائج، وكان عند فم الحيروث على الشاطىء المقابل لنا، قد ضرب موسى البحر بعصاه، ففتح طريقاً، ومضى بنو اسرائيل في البحر، ولحقهم فرعون بعرباته وفرسانه.

وحدثنا أوروسيوس Orosius ، أنه في هذا المكان، من الممكن مشاهدة براهين مؤكدة عن الذي حدث هناك، لأن آثار العربات والدواليب من الممكن رؤيتها، ليس على الشاطىء فقط، بل أيضاً في المياه العميقة، وبذلك بقدر ماتستطيع العين أن تنفذ وأن ترى، ومن الممكن أن يرى على قعر البحر كذلك حفر عميقة جداً، فيها مضى المصريون نحو الأسفل مثل الرصاص، وبعد وقوع هذه الأشياء، لم يكتف المصريون الأحياء أنهم لم يعرفوا الرب، بل جعلوا ذلك مناسبة للوثنية، لأنه في« حياة الآباء»، أخبرنا أبولونيوس Apollonius، بأن المصريين الذين لم يذهبوا مع فرعون، اعتقد كل واحد منهم بأن الشيء الذي كان مشغولاً به، أثناء غرق البقية، هو ربه، وقد عبده، قائلاً:« هذه الحشائش، أو هذا الخشب، أو هذا الخبز، أو هذه الدابة، وهكذا دواليك، هو اليوم ربي، الذي أنقذني من الغرق في البحر مع فرعون»، وهكذا تضاعفت أعداد الأوثان في أرض مصر، وفاقت بتعددها جميع البلدان الأخرى في العالم.

وهنا على هذا الجانب من البحر، حيث كنا نستحم، قذف البحر بأجساد المصريين، وهنا قام بنو اسرائيل بنهبها وسلبها، ووجدنا على شاطىء البحر أصدافاً غريبة، وأصداف المحار من مختلف الأشكال والألوان، وكميات هائلة من المرجان الأبيض، ولم نر هناك أي مرجان أحمر، مع أنه ينمو ويتكاثر هناك، هذا ويقول بعضهم بأن المرجان أثناء نموه في البحر، هو دائماً أبيض وناعم، وأنه فقط عندما يؤخذ من البحر ويجفف يغدو أحمر اللون، كما هو الحال بالنسبة للمرجان المستخرج من

بحر صقلية.

وأطلق على هذا البحـــر اسم البحـــر الأحمر، بسبب اللـون الزهري لأمـواجـه، لكن لون ميـاهه بالطبيعـة ليس أحمر، كما قـد يوحي الاسم، وتنصبغ هذه الميـاه وتندبغ بوسـاطة شـواطئه التـي تحيط به، لأن جميع الأراضي المحيطة بهذا البحـــر حمراء، أو ذات لون دمـــوي، وبناء على طبيعـة التربة، فإن ميـاه البحـر تضرب بالتـدريج الشـواطىء، ومن ثم تذوب التربة في الميـاه وتلونها، وعلاوة على ذلك يعثـر الناس على هذه الشـواطىء على جواهـر حمراء، وأصداف محار حمراء، وينمـو على الجزر هناك شجر البرازيل الأحمر، وتذوقنا مياهه، وقـارنا ملوحتها مع ملوحة بحرنا المتوسط، فوجدناها أكثـر ملوحة ومرارة من بحرنا، مع أن البحر الأول، والبحر الآخر يصدران عن مصدر المحيط نفسه، الذي هو نفسه مالـح جداً، وعلل فـلاسفة الطبيعة هذه الملـوحة بعدة أسبـاب، ومثلهم فعل اللاهوتيـون والشعـراء القـدمـاء، وكنـت قـد عـرضت من قبل الأسبـاب الطبيعية واللاهوتيـة في ص٢٢٣—٢٢٦، واحتفظت بالسبب الشعري حتى الآن.

فلقد ذكر بعض أقـدم الشعراء بأن واحداً اسمه ديمـوغورغون De-mogorgon وكـان عفريتـاً مـرعباً جـداً، وأعظم أبناء الأرض، وقـد عـاش أولاً بين الأرباب على شكل بشر، ومن المفترض أنه قـد قيل من قبل الرجـال المذنبين القـدمـاء، بأنه كـان المسبـب الأول وخـالق جميع الأشيـاء، وذلك حسبما يمكن قـراءتـه في كثير من الشعـر القـديم، وقـد حكوا حـول ديموغـورغـون أسـاطير كثيرة، عن كيف أنه لم يكن هناك ضياء في قبة السماء، وذلك عندما لم تكن هناك أرض، بل كانت محجوبة في الظلام، ولذلك ضجـر ديموغورغـون من الظلام اللامحدود، فتسلق إلى قمة جبـال أكروسيرونيـان Acroceraunian، واقتطع منهم قطعة كبيرة كانت كتلة ضخمة جداً كـانت ملتهبة، وقد جعل أولاً هذه الكتلة

كروية بألسنته، ثم طرقها حتى صارت قاسية فوق جبل كوكاسوس Caucasus، ثم حملها إلى ماوراء تابروبين Taprobane، وغطسها في مدار مضيء ست مرات في الأمواج، وطوّح بها من حوله في الهواء مرات كثيرة، وقد فعل هذا من أجل أن لايتلاشى مطلقاً، أو يتيبس ويصدأ، ويتساقط إلى قطع خلال العصور، ولكي يستطيع التحرك بنشاط إلى جميع أجزاء العالم، ثم إنه رفع نفسه مباشرة، ودخل إلى كيان السموات، وملأ جميع مملكة أبيه بالضوء.

وحدث أنه بسبب التغطيس بالماء، الذي كان من قبل عذباً، فإن هذا الماء صار مراً مع ملح، وصار الهواء مغلقاً بشكل محكم وذلك بسبب الزوابع، أي حتى تتلقى أشعة من الضياء، ويكفي الآن ماقيل عن هذا.

ومع أن هذه والقصص المشابهة قد تظهر أنها خيالية من الظاهر، لكن زبدتها ملئية بالحقائق الطبيعية واللاهوتية، وذلك كما تعلمنا من كتاب يوبيت Jobait (؟) حول« أنساب أرباب الكفار»، حيث استخرج خلاصات جميلة جداً من كتابات الشعراء.

ويقول الملاحون بأن ملوحة البحر تؤثر فقط على ماء السطح، وأنه على بعد عشر خطوات تحت السطح يمكن العثور على المياه العذبة، ولاأمتلك أنا خبرة تبين هل هذا صحيحاً أم لا، وكان هذا البحر الأحمر يدعى في العصور القديمة جداً باسم بحر الايريتيريين Erythraean اشتقاقا من اسم الملك ايرترايوس Erythraeus ، الذي كان ابن فرسوس وأندروميدا، وحكم هذا في البلاد القريبة من هذا البحر، وفي الجزر الموجودة فيه، وقد كان ملكاً جباراً، ولذلك عندما مات على أعظم الجزر شهرة، بنوا له ضريحاً واسعاً وتعبدوه كرب، وأطلقوا على البحر الأحمر اسم بحر الأيريتيريين، وكان ذلك اشتقاقاً من اسمه، ويدعو الاغريق البحر باسمه هذا حتى هذه الأيام، لكن العبرانيين يسمونه جام سوف Jam suph، وذلك حسبما حدثنا جيروم في

رسالته إلى فابيولا، حول الأبعاد الاثني عشر.

ومكثنا نتمشى على ساحل هذا البحر لمدة تزيد على الساعة، وبعد ذلك امتطينا ظهور حميرنا، وسرنا مسرعين عائدين نحو الطريق العام، وبادرنا مسرعين خلف جمالنا، الذين قطعوا مسافة طويلة أمامنا، ذلك أننا كنا قلقين من التخلف وراءهم، وعندما شاهد البداة العرب رغبتنا بالسير بسرعة، ساعدونا في دفع حميرنا للاسراع بوخزهم من الخلف برماحهم، وعندما شعر الحمير بهذا طاروا مسرعين مثل الخيول، بخطوات سريعة للنجاة من وخزات البداة العرب، لكن البداة العرب تابعوا وخزهم لهم، وأنالم أشهد قوماً مسرعين، مثلما ركضوا هم، فقد امتلكوا أرجلاً طويلة ملتوية، ولم يرتدوا أحذية، أوصنادل، أوأحزمة، وكانوا يأكلون القليل من الخبز، ويشربون القليل من الماء، ولذلك كانوا عندما يركضون لايشعرون بأي ألم في أجوافهم، أو ضغط على صدورهم، أو قصور في التنفس، وهو مانعاني منه كله جميعاً، وأفترض أن ذلك بسبب اطعامنا أنفسنا أكثر مما يلزم في كل يوم، ويركض البداة العرب« خفاف الأقدام كظبي البر»، مثلما فعل عسائيل[صموئيل الثاني: ١٨/٢]، ولايستطيع رجل ممتطياً لفرس سريع أن ينجو منهم، لأنهم يمكنهم متابعة الركض لمسافة طويلة، ويفعلون ذلك مع السرور والمرح، ولم أضحك من قلبي خلال حجي كله مثلما فعلت عندما صعدنا من شاطىء البحر إلى الطريق السلطاني العام، لأن البداة العرب مزحوا معنا، وسبقونا، ورقصوا وتقاتلوا مع بعضهم برماحهم، وكان بينهم بدوي عربي غريب، أنا لم أره من قبل، وقد لعب ألاعيب غريبة مدهشة وتهريجية، وقد جعلني أضحك مراراً إلى حد أنني خفت أن أسقط من على ظهر حماري لإفراطي بالمرح.

وسرنا بهذه السرعة، مع البداة العرب وهم يلعبون من حولنا، لمسافة تقارب ميلين ألمانيين، وعندما وصلنا إلى الطريق السلطاني العام، نزلنا

إلى داخل سهل آخر شاسع حيث رأينا جمالنا وقد أناخوا إلى جانب بعض الآبار، ومعهم سائقي الجمال، ولذلك نزلنا نحو ذلك المكان، ووقفنا عند تلك الينابيع، حيث سقينا جمالنا وحميرنا، غير أننا أنفسنا مججنا الماء الذي كان مالحاً بعض الشيء، وكان علاوة على ذلك ساخناً من قبل الشمس، وله لون أحمر، ويعرف هذا السهل وهذا القفر باسم ماره[الخروج: ١٥/ ٢٣، العدد:٨/٣٣]، فبعدما عبر بنو اسرائيل البحر، وسلبوا المصريين الذين قذفوا على الشاطىء، بحثوا عن الماء، لكنهم لم يجدوا شيئاً، إنما حدث ربما بتوجيه واحد ما أن نزلوا إلى هاهنا، ووصلوا في اليوم الثالث إلى هذا المكان، وطلبوا الماء وبحثوا عنه، ولأنه لم يقع على طريقهم، انحرفوا جانباً عن طريقهم للحصول على الماء للشرب، كما غالباً يفعل الناس في القفار، وعندما وصلوا إلى هنا لم يستطيعوا شرب مياه ماره، لأنها كانت مياه مرّة[الخروج:١٥/ ٢٣]« فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب؟ فصرخ إلى الرب، فأراه الرب شجرة فطرحها في الماء، فصار الماء عذباً»، وورد ذكر هذا أيضاً في سفر يهوديت:٥، وقال اللاهوتيون بأنها كانت شجرة من خشب مالح جداً، ولكي تكون المعجزة مدهشة أكثر، تتحول المياه المرة إلى مياه عذبة وقابلة للشرب برمي خشب مرّ فيها، وهذا التعاكس كما يبدو هو الذي عُني بالإلهيات:٣٨/ ٥ قوله:« ألم يجعل الماء عذباً بخشب»؟ لأن النص المقدس قد تحدث هناك عن السمات الطبيعية للذي ينمو في الأرض، والذي أعتقده أن هذه العذوبة، التي عملت في هذه المياه بوساطة الخشبة لم تستمر، إلاّ فقط حتى مغادرة بني اسرائيل، وبعد ذلك عادت إلى مرارتها الطبيعية.

وملوحة هذه المياه طبيعية، ولذلك من الممكن شربها من قبل الدواب، ومن قبل بعض الناس، لكن ليس من قبلهم جميعاً، والسهل كله مستنقعي ومليء بالماء، التي تنبع وتتدفق من البحر الأحمر، ويعتقد

كثير من الناس بـأن الأردن يجري من البحـر الميت، بعيـــداً حتى هذا المكان مـن خــلال قناة تحت الأرض، وينبـع هنا، وذلك كما تقــدم لي وذكـرت، ويحكـي البـداة العـرب حكايـات خيـاليـة كثيرة حــول هذه الينابيع، من ذلك أن نعجـات كن يشربن هناك قـد حملن بخرفـان حمر، وذلك مثلما قرأنا عن النبع الذي اسمه ميلا Mella ، من أن نعجات شربن من هناك فحملن بخـرفـان سـود، عـلاوة على ذلك إنهم يفترون على هذه الينابيع، ويقولون إن كل من يشرب منهم يصاب بمرض، من نوع أنه لايبقى رجلاً بعد ذلك، وبعدما شربنا حملنا الجمال ثانية وغادرنا ماره إلى شاطىء البحـر الأحمر، وسرنا فوق سهول رملية شـاسعة جداً، ووصلنا عند غيـاب الشمس إلى مكان يدعـوه العـرب باسم Hanada حيث نصبنا خيامنا، لكن المنطقة كـانت جرداء، لذلك واجهنا كثيراً من المصـاعب في العثور على مـايكفي من عصي جافـة لنطبخ لأنفسنا بعض الطعام الساخن.

مسائل يتوجب ذكرها من أجل فهم صحيح للكتابات المقدسة

وفي اليوم الرابع، الذي كـان يوم القديس فـرانسيس المعترف، غادرنا Hanada في الصباح البـاكر، قبل اشراق الشمس، وسرنا فــوق سهول شاسعـة جداً، ومقفرة على جـانب البحر الأحمر، حتى وصلنا إلى بعض الجبـال، عند سفحهـا يرسل البحـر لســاناً نحـو الأمـام ويصل هنا إلى النهاية، وفي المكان الذي ينتهي فيه البحر الأحمر هناك، هناك ميناء تصل إليه السفن، وفي هذا الوقت تحررت مـن شك كبير، ساورني وبقي معي طوال الرحلة كلهـا، لأنني وان كنت أعـرف بشكل أكيـد أننا ينبغي أن نخـرج من القفار إلى أرض مصر لم يكن بإمكاني التخمين كيف سنقـوم بعبـور البحر الأحمر، لأنني كنت أعتقـد أن البحر الأحمر متصل بالبحـر المتـوسط، لأن بني اسرائيل قـدموا إلى القفـار بعـد عبور البحـر الأحمر، وكنت لاأفترض أن مسيحيـاً يمتلك أي طريق مـن الأرض المقـدســة

وجبل سيناء، إلاّ عبر ذراع البحر الأحمر، الذي عبره خرج بنو اسرائيل من مصر، وأننا نحن لايمكننا فعل غير ذلك، وذلك إذا ماكان البحر الأحمر متصلاً بالبحر المتوسط كما افترضت، ومع ذلك اعتدت على التساؤل، إنه إذا لم يكن هناك طريق إلى مصر إلاّ عبر البحر الأحمر، كيف لم تعمل الكتابات المقدسة أية إشارة إلى ذلك، حيث أننا قرأنا عن كثير من الناس كانوا ينزلون إلى مصر من الأرض المقدسة، ويعودون ثانية، ومع ذلك لم ترد الاشارة إلى البحر الأحمر، إلاّ عندما خرج بنو اسرائيل من مصر، وإذا كان بإمكان الانسان أن يخرج من مصر إلى جبل سيناء بطريق آخر، لماذا جرى اقتياد بني اسرائيل عبر طريق غير عادي عبر البحر، وليس عبر الطريق العام فوق اليابسة؟ ووضعت الخبرة اليوم نهاية لشكوكي، لأن البحر الأحمر ليس متصلاً بالبحر المتوسط، بل هناك مكاناً شاسعاً وكثيراً من التلال تفصل أحدهما عن الآخر، ويجري بين الاثنين طريق عام من الأرض المقدسة إلى مصر، من دون عبور لذراع البحر، والذين يرغبون بالذهاب من مصر إلى جبل سيناء يعبرون فوق هذا، ويسيرون صاعدين إلى هناك، على طول شاطىء البحر الأحمر، وذلك من دون عبور للبحر في السفن، ثم يمكنهم الصعود من أرض مصر مباشرة إلى جبل سيناء، كما يمكنهم أخذ طريق أقصر بكثير من ذلك الذي يقود الآن، حول رأس ذلك البحر.

ولذلك اقتاد الرب بني اسرائيل، وأخرجهم عبر الطريق الأقصر عبر ذراع البحر، لأنه يقع في مواجهة جبل سيناء، ووفر على الناس القيام بالاستدارة، وبذلك كان بامكانهم الوصول بشكل أسرع إلى جبل الرب، وأعماله الرائعة، وذلك حتى يمكنه إظهار قدرته، وأغرق أعداء شعب الرب، ولو أن الرب قد رغب باقتياد بني اسرائيل مباشرة إلى الأرض المقدسة، وقتها كان الطريق الآخر عبر الفراغ فيما بين البحرين، طريقاً أقصر بالنسبة للوصول إلى فلسطين، لكن الرب لم يختر هذا، وقد

جـري تبيـان سبب هذا في سفـر الخروج:١٤، وكـذلك من قبل، وانظر أيضـاً تعليقـات دي ليرا على النص، وكـذلك كتـابات مصنف -Spec ulum Historiale.

وشـاهدنا في هذا المكـان، وفي المنطقـة التليـة عند نهاية البحـر الأحمر الأعمال الهائلة لقـدمـاء ملوك المصريين الذين سعـوا إلى جلب البحـر الأحمر إلى النيل، ولذلك شرعـوا بالحفـر خلال جبـال البرزخ عند رأس البحـر، لتقسيم التـلال، وللحفـر خـلال وسط الحجـارة والصخـور، وعملوا قناة ومجرى للميـاه إلى مـدينة Arsinoe التي تعـرف أيضـاً باسم الكليـوبترية، وبدأ العمل في حفـر هذا المجـرى أولاً من قبل سيسوستريس Sesostris ، ملك مصر، قبل حرب طروادة، وذلك مقـابل نفقـات كبيرة، وبعـد ذلك من قبل داريوس ملك فـارس، الذي حـاول عمل ذلـك، لكنه تركـه دون انتهـاء، وأكمل فيها بعـد بفن من الطراز الأول من قبل بطليمـوس الثـاني، وجـاء ذلك وفـق طريقـة أن المجرى كان ينغلق وينفتح من قبل نفسه فقط، وقصد الناس القدماء من هذا العمـل وصل الشرق والغـرب مـع بعضهما، لأن نهر النيل يجري ليصب في البحـر المتـوسط، وإنه إذا مـادخـل إلى البحـر الأحمر، يمكن للناس وقتهـا الإبحـار خـلال ذلك النهـر من البحـر المتـوسط والمحيط الغربي إلى داخل البحر الأحمر، وإلى الخليج العـربي، وإلى البحر الفارسي والبربري، لابل حتـى البحـر الهندي في الشرق، وبذلـك يمكن للسفن القدوم حـرّة من الهند، وفارس، وجزيرة العـرب، وميديا، وجميع ممالك الشرق، إلى اليـونان، وايطاليـا، وفرنسـا، وايرلندا، وانكلترا، وألمانيـا، في حين على العكس من ذلك لايمكن للسفن من بلدان المشرق القدوم إلى مـاوراء نهاية البحـر الأحمر، حيث تتصـل صحـراء العـربيـة بمصر، كما لايمكن للسفن القـادمـة من البلدان الغـربيـة الذهاب أبعـد من الاسكندرية التي تشكل حداً لآسيا وأفريقيا.

وفي أيامنا حاول واحد من ملوك اسبانيا أن يعثر على طريق من المحيط الغربي— أي أن تقول من البحر الخارجي، الواقع خارج أعمدة هرقل— إلى المحيط الشرقي وإلى بحر الهند، لكن هذه المحاولة كانت بلافائدة، مع أنهم قالوا بأنهم اكتشفوا بعض الجزر الثمينة، التي لم تكن معروفة من قبل.

وكان للبطالمة ملوك مصر، من محاولتهم لوصل الشرق بالغرب، وفق هذه الطريقة هدفين اثنين تطلعا إليهما، كان أولهما التمكن من امتلاك السلطة على كلاهما، لأنهم حسبما كانوا، كانوا قائمين فيما بينهما، والهدف الثاني أن يتوفر طريق إلى جميع أجزاء الدنيا، للتجار وللتجارات، ولذلك يمكن للمصريين جباية الخفارات وضرائب العشور من تجارات العالم كله مشاهدين أن الطريق لابد من أن يمر خلال بلادهم، وصدقاً، لو أنهم أكملوا ذلك العمل، لكان عملاً رائعاً، فوقتها كان يمكن للناس الابحار إلى مصر من البندقية، لابل من فلاندرز ومن ايرلندا، ويمكنهم الذهاب عبر النيل إلى الخليج العربي، والوصول إلى أرض القرفة، ومن ثم الوصول إلى بلاد الهند الثرية جداً، التي حُدثنا أنه يوجد بين عجائبها أنها تمتلك شتائين وصيفين في سنة واحدة، وجبالاً من الذهب، جبالاً حقيقية، وليس مجرد كلام، وأن فيها أربعاً وأربعين منطقة مختلفة، ووقتها سيتوفر من خلال البحر الهندي طريق لنا نحن الغربيين إلى بلاد فارس، وفرثيا، وميديا، والعربية المباركة، وسبأ، وكلدانيا، ولسوف تمتلك شعوب الشرق طريقاً تستطيع أن تقدم عبره إلينا، وبناء عليه إنه بهذا العمل يمكن جمع الأجزاء الأساسية من العالم مع بعضها، وأعني بذلك: آسيا، وأفريقيا، وأوربا.

وحاول البطالمة المصريون، وقد جذبتهم هذه الآفاق، مع فن وبراعة عظيمة تقسيم قمم الجبال الصخرية وشقها، وجلب المياه وتركها تجري، وكأنهم تقمصوا بقدرة هرقل وجبروته، الذي ووفقاً لما جاء في حكاية

قديمـة جداً، قام بشق الجبل الذي أوقف جـرفه الأصم المحيط، وعمل جبلي أبيـلا Abila وكـالب Calpe، من الجبل الواحـــد، حيث من بينهما أطلق البحر المتـوسط، الذي لم يكن موجـوداً في الأرض بعد، كما كنا قد تحدثنا عن ذلك من قبل.

ولو أنه كان مع المصريين في هذه المحـاولة هرقل ليساعـدهـم، وتيتان وأولاده، الذي ذهب إلى الحرب، مع يوف Joveوالأرباب الآخـــرين، وللصراع لانتزاع السماء منهم، ولذلك قيل بـأنهم كدسوا الجبـال أحدها فـوق الأخـر، حتى يتخـذوا لأنفسهـم طريقـاً إلى السماء، أقـول لو أنهم امتلكوا مثل هؤلاء، لأمكنهم إزاحة الجبـال فوراً، ولاستطاعـوا بسهولة جلب البحر إلى مصر.

وعندما كـان المصريون يبذلون غاية جهـدهم في سبيل العمل المتقدم ذكـره، اجتمع حكماء مصر مع عقـلائها، وتناقشـوا حـول العمل الذي شرع به، وتناظروا عما إذا سيكون مفيـداً وعمليـاً أم لا، ولدى توصلهم إلى الحقيقة، أشاروا على الملك بطليموس التوقف عن العمل بكل وسيلة من الوسـائل، لابل إنهم استخـدمـوا كل الوسـائل التي توفـرت لديهم وكانت بمقـدورهم لجعل مصر كلها تتحد معهم في مقـاومة ومنع الذي سيطلق البحر عليهم، لأنهم اعتقدوا أن ذلك سوف يكون أشد الأعداء خطراً على بلاد مصر وأراضيها، لأنه بالتقاء هذين البحرين سوف يجري ابتلاع مصر كلهـا، ولسوف تغمـرها أمواج المحيط، وقـد قالوا: « نحن نعرف أن ميـاه البحر الهائجـة لاتستقر في مكان واحـد، بل أينما وجدت طريقـاً للجـريان تندفع بشدة متنـاهية، وتقهـر كل شيء، لابل أكثـر من هذا، فنحن إذاماافترضنا أن مياه البحر سوف تستقر في قناة النيل، فإنها سـوف تلوث مياه النيل الصحيـة والعذبة، وهي الميـاه التي تسقي مصر كلها، ومنها تشرب جميع مصر، لانعـدام الآبار في البلاد، ولسوف تجعل ميـاه النيل مرة، وغير قـابلة للشرب، وبلافائـدة، فكيف على هذا يمكن

لمصر أن تبقى إذا فقـدت خدمـات النيل؟ فبالضرورة سـوف تكون غير مسكونة، لأنها لاتتلقى نعمة مطر السماء، الذي يتسـاقط على بقية أجزاء العـالم، عـلاوة على ذلك، وإلى جـانب هذا كله، نحن نعـرف بشكل صحيح، أن مـانخشـاه على مصر بهذا العمل هو أنها سـوف تتعـرض للدمار مـع الأراضي البعيدة، وذلك عندما نقـدر الحجم الكبيرللمحيط، والهائل الذي لامثيل له، مـع جبـال أمـواجـه العـاتيـة التي تصل حتى السماء، والفتحـات المظلمة فيما بينهـا، ويبـدو لنا أننا ماأن نسمح للميـاه الهائجة غير المدجنة بالعبور فوق حدودها، سوف يعقب ذلك على الفور تدفق كتل هائلة من الميـاه، وأول ماسيحدث هو أن جميع جـزر البحرين سـوف تطغي عليهـا المياه، ولسـوف تجرف الميـاه: الفـرس، والميـديين، والعـرب أيضـاً جميعاً مع المصريين، ولسـوف تغـرق جميع الأراضي على شاطىء البحـر، ثم إن ايطاليا لن تنجو من تلقي نصيبهـا من القوى غير الملجومة، ولسوف يطوف الأرخبيل البندقي وينغمر، ولن يتوقف البحر حيث هو، كما أن أمـواجـه لن تتـوقف مطلقـاً حتى تملأ الوديان الدنيـا للألب، وتصل حتى سفوح أعـالي الألب، وذلك كعلامة تبرهن على أن هذه الجبـال قـد عملت قبل عصرنا»، هذا وتقـدم لي أن تحدثت بعض الشيء عن هذا الموضوع في ص٢١٧ وماتلاها.

وعندما سمـع الملك بطليموس هذا، وتصـور أن ذلك صحيحاً، تخلى عن العمل، ومع ذلك ترك برهانا أبدياً حـول تصاميمـه العظيمة حـول هذه الجبـال والتلال، وفي الحقيقـة لولا أن مستشاريه وضعـوا نهاية لهذه الأفكار، بتقديمهم الذي اعتقدوه حول هذه المسألة، لكان من المؤكد أنه أنهى هذا العمل ونفذه، لكن ليس التنفيـذ والنهاية التي أرادوها، ثم إن ذلك لم يكن مسألة صعبة جـداً، مشاهدين أن المسافـة بين النيل والبحر الأحمر لاتتجاوز ستة أميال ألمانية.

وانظر أيها القـارىء إلى أي مـدى استطـردت وتجولت بعيـداً عن

حجي، وارتحلت تقريباً حول العالم كله، وذلك بسبب قلل الجبال والصخور القائمة هنا أمام أعيننا، وهكذا وقفنا عند نهاية هذا البحر لوقت طويل، ونحن نحدق ونتعجب منها، وأخيراً سرنا على طريقنا، وأدرنا ظهورنا للبحر الأحمر، وارتحلنا فوق سهل رملي شاسع.

حج المسلمين إلى مدينة مكة وشعائرهم السخيفة في معبد محمدﷺ

وقابلنا على هذا السهل في هذا اليوم وفي كل مكان حشوداً من الناس مع جمال محملة، ومع حمير وخيول، وجهاز ثمين، وفي الحقيقة كان هناك في قافلة واحدة مايزيد على خمسمائة جمل، يحملون الضروريات لاستخدام الناس الكثيرين من كلا الجنسين الذين رافقوهم، وكان هناك أناس فاخرين من أغنياء المسلمين، كانوا ذاهبين للحج إلى مكة،[ولزيارة قبر نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم] وفي الحقيقة صدر الأمر إلى أتباع محمدﷺ بالذهاب كل سنة إلى مكة، إلى بيت الله، الموجود هناك، وأمروا أن يقوموا هناك بالعبادة، وبالسير حول بيت الله، وهم يرتدون ثياباً غير مخيطة، وأن يرموا حجارة من بين أطرافهم نحو الخلف لقمع الشيطان.

ويقول المسلمون، بأن آدم بعدما نفي من الجنة، تولى بناء هذا البيت تشريفاً لله، وكان هذا البيت، بيت صلاة لجميع أولاده، حتى أيام إبراهيم، فقد أعاد ابراهيم عمارته وترميمه وقدم أضحية هناك فيه، وبعد موته تركه إلى ابنه اسماعيل وله ولأولاده، وبقي مكاناً للصلاة لسنين طويلة متوالية حتى ولادة محمدﷺ، فعندما ولد أعطاه الله إياه بمثابة ميراث له ولجميع الأجيال التي جاءت من بعده، والآن كم هي هذه حكاية غير أصيلة وقطعة من الزيف، لأن كل ماقيل فيها يتعلق بهذا

البيت ليس له مايؤيده أو يزكيـه في أي جزء من الكتابات المقـدسة(١)، بل هو مدسـوس فيها على شكل تعليقـات، لأن هذا البيت كان قبل أن يبشر محمـدﷺ بشريعته مليء بالأوثان، وقـف هنا قليلاً أخي الانسـاني، فأنا أرجـوك فعل ذلك لأنني سوف أبرهن لك بوضـوح وأبين أي نوع من البيوت كان في البداية، ومالذي كـان مقدساً فيه، ولماذا أمر محمدﷺ شعبـه بالذهاب إلى هناك، والقيـام بالأعمال التـي بيناها من قبل، فلقـد اعتـاد ولدا لوط: عمــون، ومــآب، على تشريف هذا البيت، وعبـادة صنمين كـانا هناك فيه، كـان أحدهما معمـولاً من رخام أبيض، واسمـه ميركـوري، وكان الآخـر من رخـام أسـود، وقد دعـوه باسم خيمـوش CHEMOSH ، وقـد عبدوا ذاك المصنوع من الـرخام الأسـود حتى يقـدمـوا التشريـف إلى سـاتورن(زحل) وعبـدوا المعمــول من الرخـام الأبيض تشريفاً لمارس(المريخ)، وعبدوا هذين الصنمين مرتين في السنة، وقـدموا لهما الطاعـة، أولاً لمارس، عندمـا تدخل الشمس أولاً إلى برج« الكبش»، لأن الكبش مقدس عند مارس، وعندمـا يغادره يجري بالعادة رمي حجارته، وثانيا لساتورن، عندما تدخل الشمس إلى برج« الميزان»، لأن الميـزان مقـدس عند سـاتورن، ووقتها يحرقـون البخـور وهم عـراة ورؤوسهم محلوقة.

واعتاد العرب أيضـاً على عبادة هذين الوثنين مع العمونيين والمآبيين، وبعـد مضي سنين طويلة كثيرة جداً جـاء محمـدﷺ الذي رغب في إزالة العـادات القـديمة السـالفـة الذكـر، للناس، وغير طرائق العبـادة بعض الشيء، وسمح بالسير حول البيت، وهم يرتدون ثياباً غير مخيطة، ثم إنه خشية منهﷺ أن يبـدو وكأنه يعلمهم التضحية للأصنـام، بنى لهم تمثالاً

١— أن يقول راهب هذا هو أمر منطقي بالنسبة له، لكن علميـا تحتاج الكتابات المقدسة إلى من يزكيهـا،، لأنها ركـام متبـدل متنوع من المعلومـات المخترعـة الزائفـة، وكـان هذا مـدركـاً لدى الأوائل، انظر كتاب« الدين والدولة» لعلي بن ربّن الطبري—ط. بيروت ١٩٧٩

لساتورن، وذلك في جدار زاوية البيت، ثم إنه خشية من رؤية وجه هذا التمثال ترك ظهره ظاهراً من الجدار الخارجي، أما بالنسبة للوثن مارس، فقد دفنه تحت الأرض، لأنه كان محفوراً من كل جانب، وبعدما دفنه وضع حجرة فوقه، لكنه علّم قومه الذين قدموا إلى هناك للصلاة، بأن يقوموا بتقبيل هذه الحجارة، بشكل خاشع ورؤوس حليقة، وأن يرموا الحجارة نحو الخلف من بين أرجلهم، علاوة على ذلك عروا ظهورهم، وذلك كعلامة على الشريعة القديمة، وقالوا بأنهم رموا الحجارة وفق هذه الطريقة لإرغام الشيطان على الفرار، وهم الشياطين الذين بالحري يتعبدونهم بشكل سري في صلواتهم، وهذا هو العمل المشهور— أو بالحري العمل السيء— لمحمدﷺ فهو مع أنه حظر عبادة الأصنام الأخرى على قومه، سمح في مدينة مكة بإقامة واحد تشريفاً لفينوس، [٧٢—ظ] لابل إنه لم يسمح لهم بالمغادرة جميعاً من دون تشريف هذه السيدة فينوس، التي بفنونها تفاخر بأنه الرجل الأقوى، وعندما مات أخيراًﷺ قام أبو بكر خليفته فعمل له ضريحاً فخماً وضعه في المعبد المتقدم ذكره، ووضعه داخل تابوت حديدي فيما بين مغناطيسين، حسبما تقدم القول من قبل(١).

وبناء عليه، يسافر المسلمون إلى مكة، ليس فقط تنفيذاً لأوامر محمدﷺ بل يذهب العديد منهم حتى يتمكنوا من رؤية تابوت محمدﷺ معلقاً بالهواء من دون حبل أو سلسلة، وكأن ذلك لأسباب طبيعية، وينخدع الناس بهذه الحيلة، ويعتقدون بأن جسدهﷺ مرفوع هكذا بسبب قداسته، وبذلك فإن الناس غير الواعين يتصلبون في خطيئتهم ويتمسكون.

علاوة على ذلك اعتقد بعض المسيحيين بأن هذا التعليق إعجازي،

١— القيمة الوحيدة لهذه المعلومات أنها تمثل درجة جهل فابري بالاسلام، ومدى حقده عليه.

فتخلوا عن الإيمان بالمسيحية، واقتاد بعضهم الفضول للقيام بالحج مع المسلمين، وذلك بالتظاهر بالرغبة بمشاهدة ضريح محمد ﷺ، وبسرور أخذ المسلمون مثل هؤلاء الناس معهم، حتى من دون تحليهم عن ايمانهم، وسمحوا لهم بالدخول إلى نزلهم القائمة على طول الطريق، من أجل رعاية الذين يذهبون في هذا الحج، وأعترف أنني غالباً ماأغريت بزيارة ذلك الضريح(المبارك) وفق هذه الطريقة، وأن يكون معي مرافق واحد، وبصعوبة منعت نفسي وأوقفتها عن القيام بمثل هذا العمل، وهنا يقوم السؤال التالي: هل الذي يقبل قبر محمدﷺ أو يركع أمامه، أو يفعل أي شيء من هذا القبيل بالتعبد هناك، هو كافر؟ وأجاب الاسكندر أوف هول Hall (كذا) على هذا بقوله:« إنه إذا مافعل ذلك كمجرد كلام، وليس من قلبه كله، فهو على ذلك مقترف لذنب عظيم، ومع ذلك هو ليس مهرطق أو محروم كنسياً، كما أنه ليس بحاجة للذهاب إلى البابا أو إلى الأسقف للحصول على التحليل»، فهذا ماقاله الاسكندر، لكن الذي يدخل وهو متظاهر بالتعبد، ويقدم التشريف للقبر بحركاته الظاهرية، لكن هو في عقله مستخف به، وفي قلبه ينظر نحو أخطائهم وحماقاتهم مع نية تبيان ذلك للناس المسيحيين، إن مثل هذا الانسان، وإن عدّ مقترفاً لذنب صغير بسبب فضوله وطفيليته، هو ينبغي— كما اعتقد— أن يعاقب عقوبة خفيفة، أو حتى يعفى عنه، وقد حكيت عجائب كثيرة حول ضريح محمدﷺ هذا، وفي الحقيقة، حدث في القديم أن جميع العالم، اندهش نحو التمثال الحديدي العائد لبيليروفون Bellerophon في مدينة سميرنا Smyrna، وإنه مثل هذا جميع الناس مندهشون تجاه هذا الضريح، ولقد كان الضريح المتقدم ذكره واحداً من عجائب الدنيا السبعة، بسبب بقاء مثل هذه الكتلة العظيمة من الحديد معلقة في الهواء، وذلك من دون أن تكون مربوطة بسلسلة من الأعلى، أو مدعومة بأية دعامة من الأسفل، لأن حجر المغنطيس وضع من الأعلى على ظهر قوس طويل جداً، كما أنه وضع

أيضاً في البلاط من تحت بالشكل نفسه، وبذلك جرى جذب التمثال نحو الأعلى ونحو الأسفل، وهكذا بقي معلقاً بين الاثنين، وبهذه الطريقة نفسها القبر الحديدي لمحمدﷺ معلق في الهواء بقوة مغناطيس، وذلك باستثناء أن قبر محمدﷺ هذا ليس عظيم الوزن مثلما كان تمثال بيليروفون، الذي احتوى على خمسة آلاف رطل (Pounds) من الحديد، لأنه كان مكونا من فرس عظيم مع رجل على ظهره.

هذا ولقد سمعنا رواية صادقة ومؤكدة، أنه في سنة ١٤٨٠ لتجسيد ربنا هبت فجأة عاصفة مرعبة، أرسلتها الحكمة الربانية، مع برق مضيء، ورعد مخيف تردد سماعه، ووقتها نزلت نار من السماء، ترافقت مع تساقط برد عظيم فوق مكة، وقد جرف ذلك المعبد والقبر لذلك النبيﷺ إلى أعماق الأرض، كما أن شطراً كبيراً من المعبد قد تهدم، وأتلفته النيران، وهكذا جرى حرمان المسلمين من آثار جسد نبيهمﷺ واضطربوا بذلك اضطراباً تاماً، لو أنهم تفكروا بذلك وفهموه، لكن قلبهم الأحمق قد ازداد قسوة، وهم الآن يذهبون حاجين إلى ذلك المكان كما فعلوا من قبل، وسيستمرون ربما بفعل ذلك من بعد، كما سلف لي وأشرت إلى ذلك من قبل، وهكذا قمت الآن من أجل حج وحجاج محمدﷺ بترك حجي الخاص، وعملت حجاً معهم بالخيال، وذلك من أجل أن أرى الفارق فيما بين حجنا وحجهم، لأن حجنا هو إلى ضريح يسوع المسيح ابن الرب، وكذلك سعياً وراء آثار العذراء القديسة كاترين الأكثر فضيلة، في حين إنهم يرتحلون إلى ضريح محمدﷺ، ويبتغون خدمة فينوس تلك العاهرة الأكثر شهوانية(كذا).

ولأستأنف الحديث عن حجنا: لقد مضينا على طريقنا، وقابلنا آخرين كثر من الحجاج المسلمين، الذين كانوا يسيرون على شاطىء البحر الأحمر إلى العربية المباركة، حيث توجد مدينة مكة على شاطىء البحر الأحمر(كذا)، ذلك أنها مدينة جميلة، وميناء بحري هام، إليه يجري جلب

كميات كبيرة، من البخور، والفلفل، وأكباش القرنفل، والقرفة، وماشابه ذلك، وذلك بوساطة البحر، وتحمل هذه السلع من هناك على الجمال من قبل الحجاج، ويجري ارسالها حتى دمشق وأماكن أخرى، وكان سبب مصادفتنا لمثل هذا العدد الكبير من الحجاج، هو أن صيامهم كان قد بدأ، وهم يفضلون في هذا الوقت الذهاب للقيام بالحج، وذلك مثلما يفعل المسيحيون، علاوة على ذلك، إنه في ذلك الفصل من السنة تتراجع حرارة الشمس الهائلة بعض الشيء.

ووصلنا عند الظهيرة إلى ساحة كبيرة مع كثير من القاعات، وقد كانت هذه عبارة عن نزل، وبعد دخولنا إلى ساحة النزل وجدنا بئراً كبيراً وفخماً، مع دواليب وأحواض حجرية ومصبات ماء، وهم يطلقون عليه اسم جب السلطان، وتقوم الثيران بنضح المياه منه باستمرار، وبعدما دخلت جمالنا إلى هذا المكان، ترجلنا من على ظهور حميرنا، وتذوقنا الماء، لكننا لم نستطع الشرب منه لأنه كان ساخنا، وبلاطعمة، لابل كان مالحاً بعض الشيء، لكننا سقينا دوابنا، وأعتقد أنه لابد قد وجد فوق هذه البقعة خان منذ القديم، لأنه هنا تلتقي الطرقات مع بعضها، وهي الطرقات التي تقود من مصر إلى جميع أجزاء الدنيا، ولربما أقام موسى في هذا النزل، وعندما أراد الرب أن يقتله، لأنه لم يختن ابنه Eliezer، وهناك قامت صفوره بختانة(الخروج:٤/ ٢٤—٢٥)، وبعدما شاهدنا هذا المكان، تابعنا سفرنا فوق ذلك السهل الجاف حتى غياب الشمس، وأنزلنا الأثقال من على ظهور دوابنا للاستراحة في مكان فوق السهل اسمه Choas، وهبت هناك ريح قوية وعنيفة جداً، ولذلك لم نستطع بأي سبيل نصب خيامنا، فما أن ثبتناهم بالأوتاد، حتى اقتلعت الريح الأوتاد من الأرض، وألقت الخيام فوقنا، وبعدما ألقتهم الريح عدة مرات، مللنا من هذه المهمة وتعبنا وتركناهم ممدودين فوق الأرض، كما أننا تجولنا حول المنطقة حسب عادتنا لإلتقاط بعض

العصى من على السهل، غير أننا لم نجـد شيئاً يمكن أن يحترق، ولذلك أخذنـا بعض الأوعية الخشبيـة مما فرغ مما كـان فيه خمرة وماء، وكـذلك سـلال بيضنا، وصناديق دجـاجنا وكسرنـاهم جميعـاً، وعملنا ناراً منهم، لكن الريح التي كـانت قوية بعثـرت النار التي عملناها، ولذلك أرغمنا على الوقوف من حـول النار حاملين أقمشتنا وثيـابنا، لصد عنف الريح عن النار، وبناء عليه أكلنا في تلك الليلة، وشربنا ونمنا في الهواء الطلق، وانزعجنا كثيراً بهبـات الريح وبتحـركات الرمـال، وقـدم في تلك الليلة إلينا بعض الفقراء من البداة العرب، ورجونا منحهم بعض الخبز، الذي برغبـة منا ورضـا منحناهم بعضاً منه لأنهم بـدو أنهم متواضعين جـداً، ويتصرفون بشكل لائق.

واستيقظنا في اليوم الخامس عند منتصف الليل، وكان ذلك اليوم هو الأحد التـاسع عشر بعد التثليث، وعندما جـرى تحميل الدواب، غادرنا Choas، وسرنا فـوق ذلـك السهل القـاحل والشـاسع، حيث لم يكن هناك شيء أخضر مهما كان نوعه، وقبل شروق الشمس وقع لنا حادث، لن أتجاوز ذكـره، فقـد كـان في مجمـوعتنا الأولى النبيل العظيم والسيـد الكبير برنارد فـون بريتنبـاخ Braithenbach، الذي كـان وقتهـا حـاجب الكنيسـة المطرانيـة في مينز، والذي هو الآن عميـدها الأعظم جدارة، فبسبب ضعفه وسوء صحتـه عمل الرحلة كلها خلال الصحراء في سلة على ظهر جمل، وقبل فجر اليوم أمر الجمل الذي كان على ظهره أن ينوخ حتى يتمكـن من انعـاش نفسـه بالمشي بضع خطوات فـوق الرمال، وبعـدما أنعش نفسـه، تسلق ثانية إلى سلتـه، وسار جمله خلفنا، لكن بعدما سرنا بعض الشيء، أدرك السيد المذكور أن ماله كله قد وقع منه، من داخل صدره، حيث كـان قد وضعه، وخاط عليـه داخل حزام اعتاد أن يحزم به نفسـه أثناء الليل، وذلك بغية إبقـاء ماله مصـاناً، وكان معـه هناك كميـة كبيرة من الدوقيـات، وقـد وقعـت منه على الرمل في

المكان الذي توقف فيه.

وقد استدعى كالينوس إليه، واشتكى إليه فقدانه لماله، وهنا أمر كالينوس بوقوف القافلة، وأمر جمله بأن ينوخ، حتى يتمكن من الترجل، ويركض مسرعاً عائداً إلى المكان الذي اعتقد المعلم برنارد بأن ماله قد وقع فيه، وذهبنا نحن الحجاج إلى هناك معه، وبحثنا من أجله، لكننا لم نجده، وقد بحثنا فوق جميع المنطقة التي حوت آثار طبعات قدميه، لكننا لم نجد المال، وكان تعبنا بلافائدة، وكان يعرف بشكل أكيد أن ماله قد وقع في ذلك المكان وليس في غيره، ولذلك تجولنا في ذلك الموقع، وبحثنا فوق الرمال بأيدينا، وأخذنا حيطتنا بأن لايقترب منا أحد البداة العرب، ولامن سائقي الجمال أو سائقي الحمير، الذين أمسكناهم مراراً متلبسين بأعمال السرقة، إنما بعدما بحثنا لوقت طويل وتقصينا لم نجد شيئاً، فحكمنا بأن ذلك المال قد تمّ العثور عليه وسرقته من قبل واحد من البداة العرب، أو من سائقي الجمال، وبعد التشاور فيما بيننا حول ماينبغي القيام به وفعله لاسترجاع المال، تمنينا لو أنه كان قانونيا القاء القرعة أو البحث بوساطة التكهن بالقداح، مثلما تبرهن بأن عخان كان لصاً(يشوع:٧)، وكذلك عندما أخذ يوناثان طعاماً[صموئيل الأول:٢٧/١٤]، لكن في قضية مثل هذه ليس قانونيا إلقاء القرعة، على أساس أنها محرمة بالقانون ضد التكهن بالقداح، ولذلك فكرنا ثم اتخذنا قرارنا باحضار جميع البداة العرب مع سائقي الجمال وسائقي الحمير الذين كانوا معنا، وجمعهم في مكان واحد، وأن نطلب منهم إعادة المال إلينا، ووقتها إذا لم يعيدوه إلينا، سوف ننقض عليهم ونربطهم ونجردهم من ثيابهم، ونضربهم، ونسيء معاملتهم، ونعذبهم حتى يعيدوه إلينا، لأننا كنا بالعدد أكثر منهم، ورجالاً أفضل منهم إذا وصل الأمر إلى الضراب، وبعدما أبرمنا هذه الخطة ركبنا حميرنا، ونحن كلنا أسف، وغضب، وحنق، وسرنا خلف الجمال الذين كانوا يسيرون

أمامنا.

وعندمـــا وصلنا إلى أولئك الناس، نظرنـا شـــذراً إليهـم، وأخبرنا كـالينوس بالذي عـزمنا على القيـام به، وعندمـا سمع هذا انزعج كثيراً، واستدعى إليـه جميع الرجال الذين شك بهم، وطلب باخـلاص وجدية منهم إعادة الذهب الذي وجدوه، لكن مامن واحد أجابه صادقاً، وقمنا نحن أنفسنا فرجـوناهم بإعادة المال، وعرضنا منح جـائزة للرجل الذي وجده، لكننا لم نحصل على شيء بعملنا هذا، وهنا غضبنا وازداد حنقنا، فشرعنا نتهـــددهم، وسعينـا إلى إلقـــاء الأحمال من على الجمال، في حين وقف الفــرسـان من حـولنـا، وسيـوفهم مجردة، ولم يسمحـــوا لأحـد، بالابتعاد، وعندما رأى سائقو جمالنا وسائقو حميرنا بأننا كنا جادين، وأننا سـوف نتعـــامل معهم على الفـــور بخشـونة أعظم، اعترتهم الـدهشـة، والتمسـوا من كـالينوس تخفيف غضبنا، خشيـة أن تسـاء معـاملة أناس أبرياء، وشرح لهم كالينوس مانوينا عمله، قائلاً بأننا سوف ننزل الأثقال كلهـا، ونفتش في جميع الحقائـب التي كانت على ظهـور الجمال والحمير، وأننا إذا لم نجـد المال هناك، سوف ننقض عليهـم ونجردهم من ثيـابهم حتى يكونوا عراة، ونستخرج مالنا منهم بالتعذيب.

وكنا في ذلك الوقت قد ألقينا بالأثقال من على ظهور الجمال، وشرعنا بتفكيكهم، ثم أخـذنا بإلقـاء سلـع أولئك التعسـاء من حـولنا، في حين وقفوا هناك يراقبـوننا وهم يرتجفون ويبكون، وفي أثناء القيـام بهذا، جاء واحد من أولئك البداة العرب، وكـان قد التحق بنا في ذلك المساء، جاء سراً إلى كـالينوس، وأخبره بالعثور على المال، وهنا صرخ كـالينوس على الفـور إلينا وطلب منا التعـامل معهم بسـلام، لأن المال قد عثـر عليـه، وبناء عليـه أعدنـا تحميل الجمال، وتابعنا السير على طريقنا، وتسلم ذلك السيد مـاله من كالينوس، وقد منح دوقية إلى ذلك العـربي الذي وجده، وكـان عربيـاً صـاحب مظهر بسيط ووجـه بريء، وقـال البداة العـرب

الآخرون عنه بأنه وجد في وقت آخر كنزاً كبيراً، كان قد وقع في القفار، وأنه أخذه إلى صاحبه وأرجعه إليه.

وسرنا بعـد ذلك فوق ذلك السهـل الأجرد، ومشينا طوال النهـار في شمس محرقـة بحرارتها حتى غيـاب الشمس، وقد قـررنا أن نستريح في مكان اسمــه المفــرق Maffrach وذلك إلى جانب الطريق العام، ولكن عندما عسكرنا لم نستطع نصب خيامنا، لأننا لم نتمكن من تثبيت الأوتاد في تلك الرمال الناعمة جداً، وكنا جميعاً منهكين فاقدين لوعينا، ولذلك لم نطبخ أي شيء في تلك الليلـة، لأننا لم نستطع العثـور على أي من الوقـود، وقـدم إلينا كالينوس تحذيراً بـوجوب التيقظ والحراسـة في تلك الليلة أكثـر مما هو معتاد، لأن المكان خطير بسبب المنبـوذين الذين يطردون من وقت إلى آخر من مصر إلى القفار بسبب جرائمهم، فهؤلاء الناس يكمنون في مثل هذه الأمـاكـن، وغـالبـا مـايؤذون الذين يعبرون ذلك الطريق، ولـذلك نمنا في تلك الليلة بصعـوبة، لخوفنـا من كل من المهـاجمة، وبسبب الرياح القـوية، والبرد الذي عـانينا منه، وتمددنا هناك تحت قبة السماء، وكنا منهكين من شدة التعب، ومن مشاق القفار، وكل ماحصلنا عليه من راحـة هو بأن نهاية متاعبنا باتت وشيكة، وأن حدود القفار لم تعـد بعيدة، ومـاكنا لنبقى في القفار، ونمكث أربعـة عشر يوماً أخريات مقابل جميع كنوز الدنيا كلهـا، لأنه بدا الأمر بالنسبة لنا أننا لن نستطيع تحمل المزيد من مثل هذا العمل.



توقفت عند هذه النقطة حكاية فابري عن أن تكون لها أية علاقة بكل من فلسطين وسيناء، وكـان بالود الحديث كيف أنه شـاهد« حـديقـة البلسم»، والقاهرة التي كانت أعظم مدينة في العالم، مع جميع المخلوقات الغـريبة فيهـا من فهـود، ونعامـات، وببغـاوات، وهكذا دواليك، مما رآه هناك، لكن المكـان لايسمح بذلك، وفيـه تكرارا لما جـاء بالرحـلات

الأخرى، والمهم هو أن الحجاج نزلوا بقارب عبر النيل إلى الاسكندرية، وقد تعذبوا كثيرا وأسيئت معاملتهم، ومن هناك أبحروا إلى وطنهم على ظهر الاسطول البندقي، وقد عملوا رحلة طويلة وواجهوا مصاعب جمة، وأخيرا وصل فابري ورفاقه إلى البندقية في الثامن من كانون الثاني سنة ١٤٨٤، وقابل هنا بعضاً من أهل مدينته أولم، الذين لم يتمكنوا في البداية من التعرف عليه، لأنه كان شاحباً قد أنهكه السفر، وكانت السيدة مرغريت صاحبة نزل القديس جورج، الذي كان البيت الألماني في البندقية، قد تزوجت ثانية، وكان زوجها هو نيقولا فريج الذي كان واحداً من خدم البيت، وقد حدثنا فابري بأنه كان مسروراً بمعرفته بصاحب النزل الجديد، لأنه كان رجلاً جيداً وبشوشاً، ويبدو أنه لاقى استقبالاً جيداً، وأنه تلقى دعوة من المعلم برنارد بريتنباخ لزيارته في مينز، ليصوغا رحلتها معاً، لكن فابري لم يستطع القيام بذلك، لأن واجبه كان الذهاب أولاً إلى ديره في أولم، وعندما وصل إلى هناك بعد كثير من المغامرات كان الرهبان يتعشون، لكن كلب الدير عرف خطواته، فأصدر عواءاً عالياً جداً، وأخذ يخدش الباب الذي جرى فتحه فوراً، وقد رحب به جميع الرهبان وكأنه انسان عاد من الموت، وفي الوقت نفسه جاء خلال الاسبوع التالي جميع أعيان المنطقة إليه للترحيب به، ولتهنئته بالعودة، وهنا لابد لنا من أن نقول له: وداعاً.

المحتوى